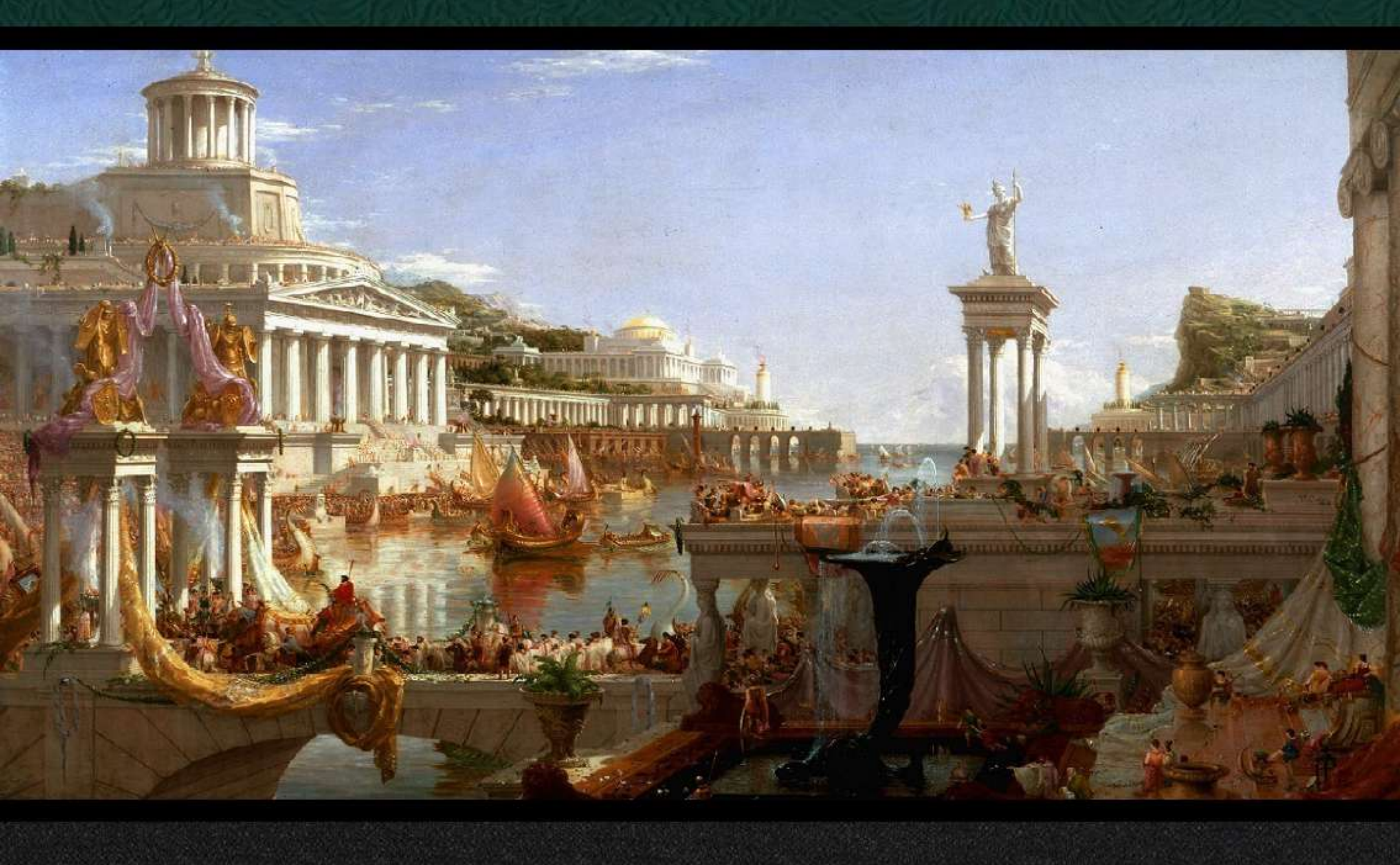
قصة الحضارة



المجلد السادس

ويل ديورانت

قصة الحضارة

22- الإصلاح الديني (الجزء الأول)

23- الإصلاح الديني (الجزء الثاني)

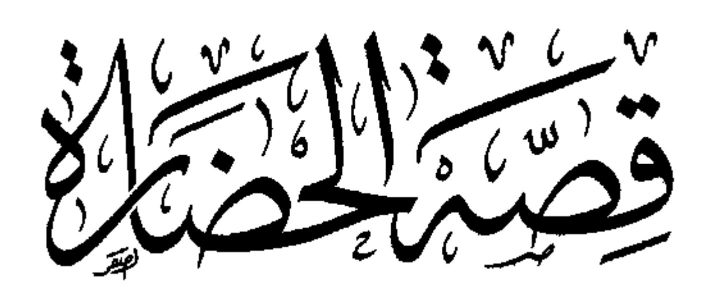
24- الإصلاح الديني (الجزء الثالث)

25- الإصلاح الديني (الجزء الرابع)

26- الإصلاح الديني (الجزء الخامس)

27- الإصلاح الديني (الجزء السادس)

ويل ديورانت



ول وايريل ديورانت

الإصلاح الدّيني

وهو يروي تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا
من وكليف إلى لوثر ١٣٠٠ - ١٥١٧

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الأوّل من المجلّد السّادس



تونس

(٢٢)



بيروت

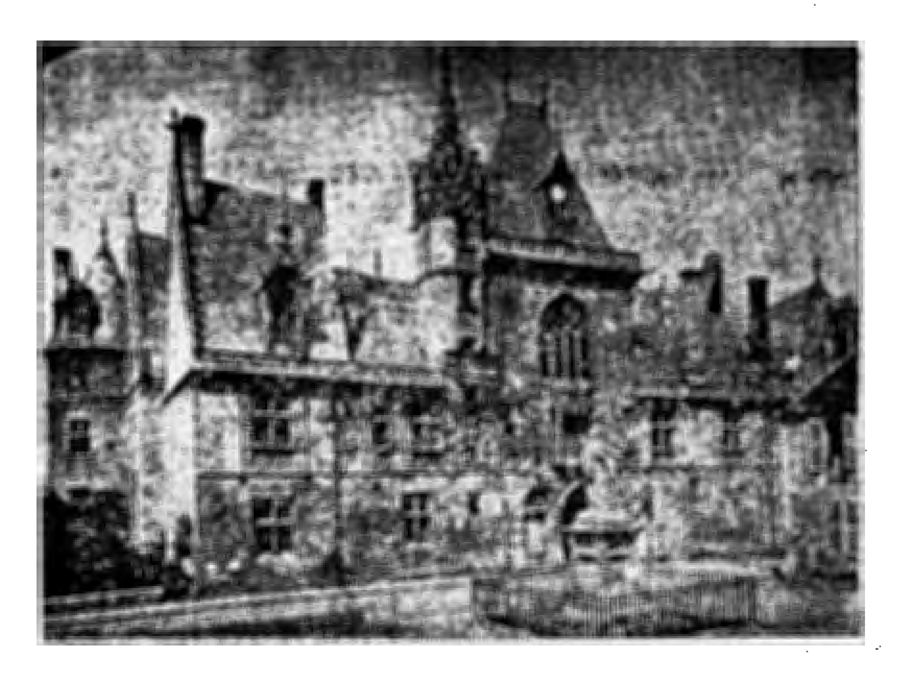


الكتاب الأول

من ويكلف إلى لوثر

١٣٠٠ - ١٥١٧

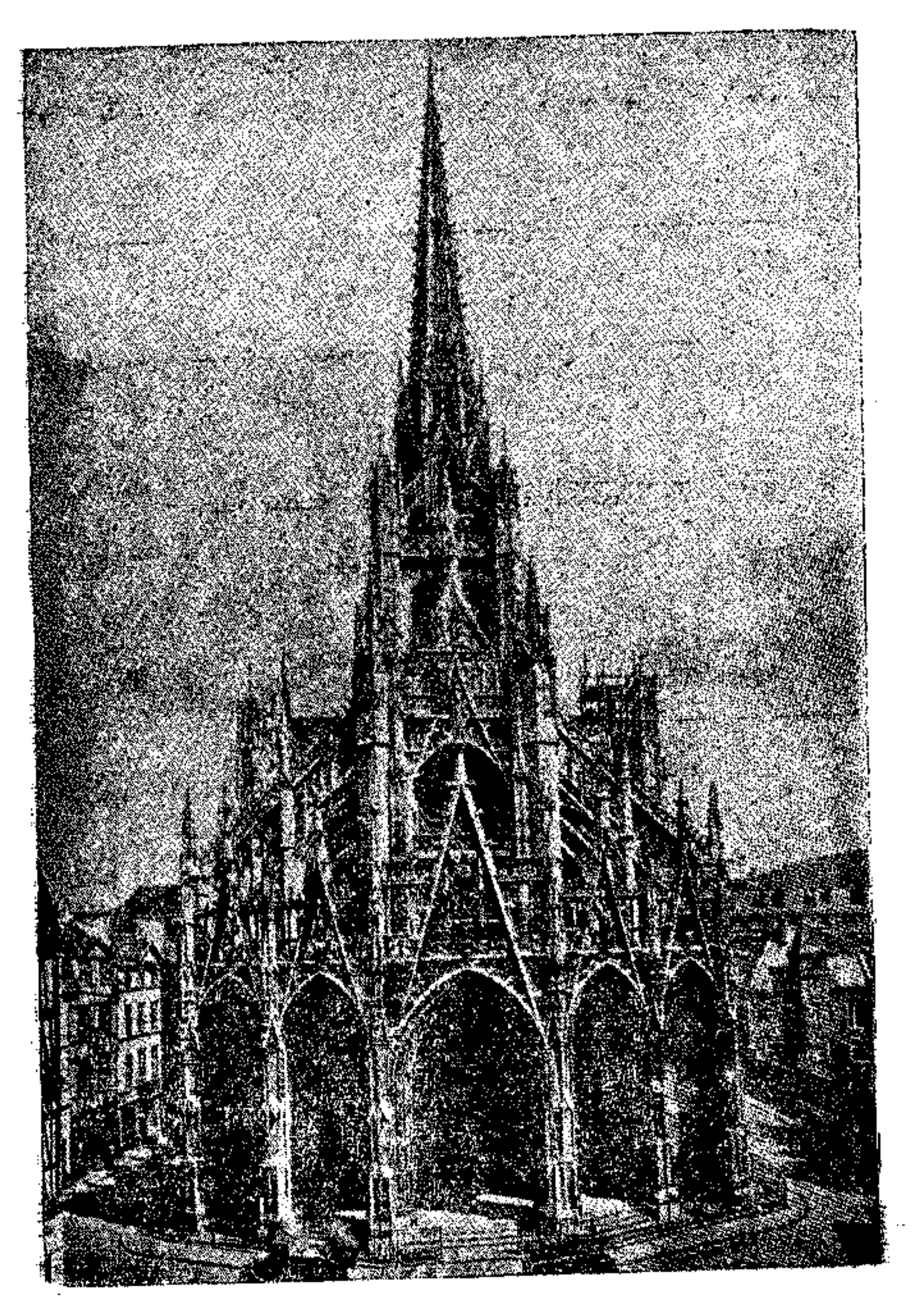




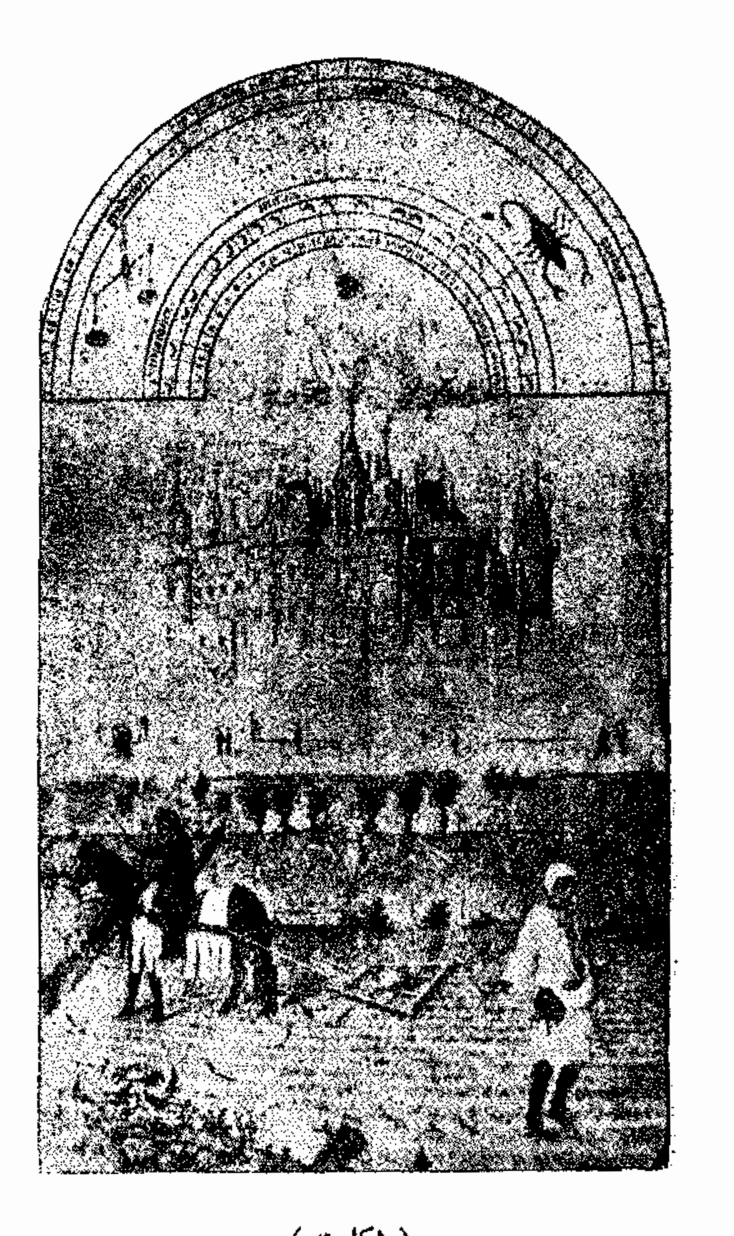
(شكل ١)

بيت جاك كير — بورج

(ص ١٤٦)



(شكل ٢)
كنيسة سانت ماكلو — روين
(ص ١٤٦)



(شكل ٢)

بول دى ليمبورج : شهر أكتوبر – منمنمة من « الساعات الخصيبة لدوق دى برى » – متحف كرنديه . شانتيل

(ص ١٥٠)



(شكل ٤)
ميشل كولومب
سان جورج والتنين
متحف اللوفر – باريس
(ص ١٨٠)



(شكل ٥)
كنيسة كنجز كوليج (من الداخل) كامبريدج
(ص ٢١١)



(شكل ٦)

كلاوس سلوتر (موسى) متحف ديجون

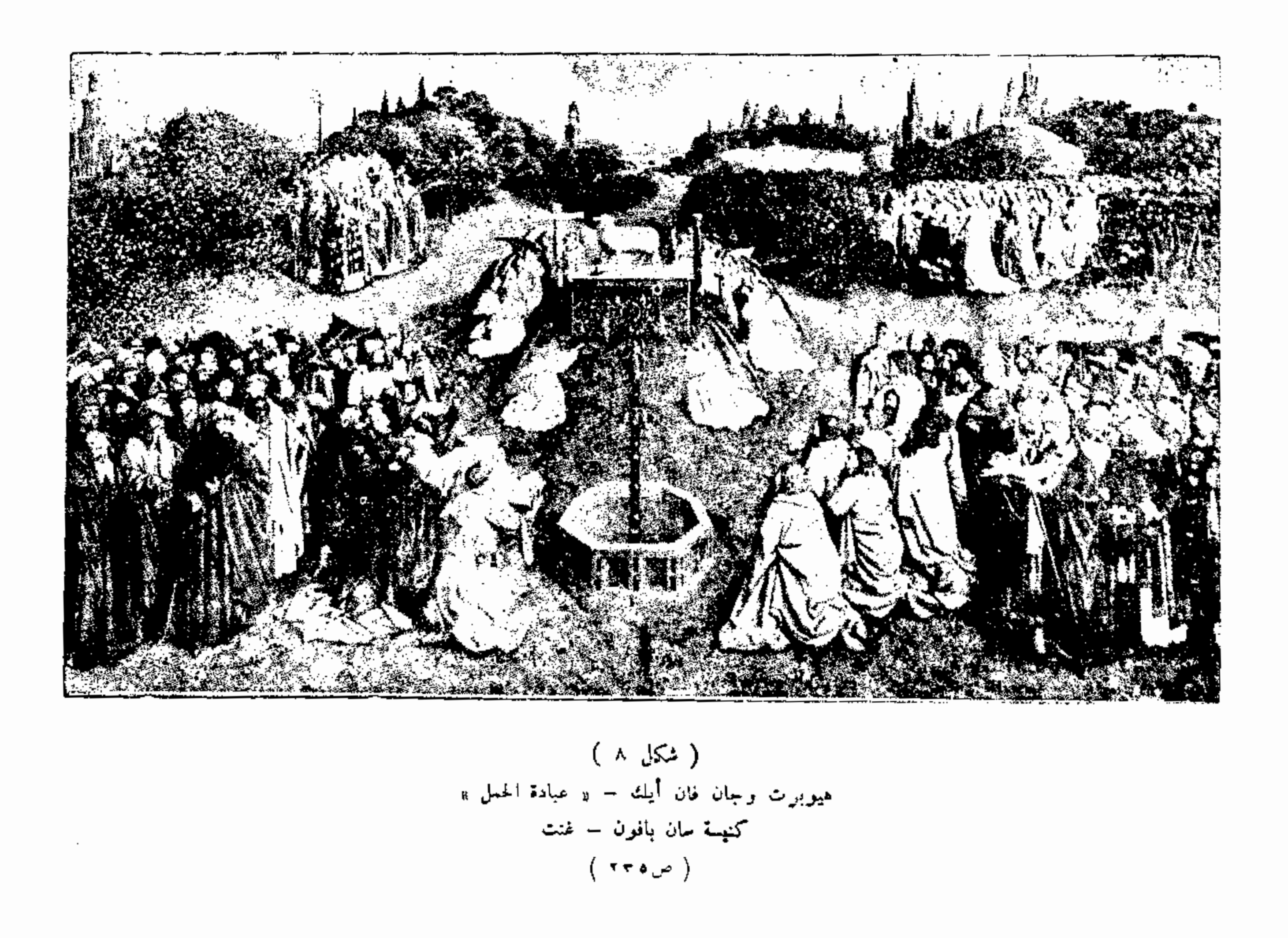


(شكل ٧)

هيوبرت وجان ڤان أيك

العذراء . تفصيل من « عبادة الحمل »

كنيسة سان بافون ـ غنيت



(شكل ٨)

هيوبرت وجان فان أيك – « عبادة الحمل »

كنيسة سان بافون – غنت

(ص ٢٣٥)



(شكل ٩)

روجيه فان در فيدن

صورة شخصية لسيدة

(متحف الفن القومي واشنطون)

- س (مجموعة ميلون)

(ص ٢٣٨)

إلى القارئ

من حق القارئ المرتقب أن ننبهه إلى أن لفظ الإصلاح الديني ليس عنواناً صادقاً كل الصدق لهذا المجلد ولعل العنوان الأدق منه هو « تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٥٦٤ أو حوالها بما فى ذلك تاريخ الدين فى إيطاليا مع نظرة عارضة إلى الحضارتين الإسلامية واليهودية فى أوربا وأفريقية وآسية الغربية » . وقد يسأل القارئ عن سبب هذا التحديد المتعرج لمنهج البحث فنقول : إن المجلد الرابع المسمى عصر الإيمان من مجلدات هذه السلسلة « قصة الحضارة » قد وقف بتاريخ أوربا عند عام ١٣٠٠ ، وإن المجلد الخامس « عصر النهضة » قد اقتصر على البحث فى أحوال إيطاليا بين عامى ١٣٠٤ و١٥٧٦ مرجئاً أضداء الإصلاح الدينى فى بلاد إيطاليا . ومن أجل هذا يجب أن يبدأ هذا المجلد السادس بعام ١٣٠٠ . وهو يفترض أن القارئ سيجد مسلاة فى أن لوثر لا يظهر على مسرح الحوادث إلا بعد أن ننتهى من ثلث هذه القصة . ولكن علينا أن نتفق منذ البداية على أن الإصلاح الدينى قد بدأ فى الواقع بجون ويكلف ولويس البافارى من رجال القرن الرابع عشر ثم واصل سيره إلى جون هوس فى القرن الخامس عشر حتى انتهى فى القرن السادس عشر بالرجة العنيفة التى أحدثها راهب وتنبرج. وفى وسع من لا يهتم من القراء بغير الثورة الدينية أن يغفل قراءة الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس . ثم الفصلين التاسع والعاشر دون أن يخسر بذلك خسارة لا تعوض .

فالإصلاح الدينى إذن هو الموضوع الرئيسى ، وإن لم يكن الموضوع الوحيد فى هذا المجلد . وسنبدأه بالتحدث عن الدين بوجه عام ، وبما له من أثر فى نفس الفرد وفى الجماعة ، ثم نتحدث بعدئذ عن أحوال الكنيسة الكاثوليكية فى القرنين السابقين على أيام لوثر . ثم نلقى نظرة على أحوال

إنجلترا بين عامى ١٣٧٦ و١٣٨٢ وأحوال ألمانيا بين ١٣٢٠ و١٣٤٧ ، وبوهيميا بين ١٤٠٢ و١٤٨٥ ونفصل القول فى مبادئ إصلاحات لوثر الدينية وما قام على أثر ذلك من نزاع . وسنلاحظ ونحن نمضى قدماً فى البحث كيف كانت الثورة الاجتماعية وما تتضمنه من آمال شعبية تسيران مع الثورة الدينية جنباً إلى جنب : وسنردد فى غير قوة صدى الفصل الذى ورد فى كتاب جبن Gippon عن سقوط القسطنطينية ، وندرك كيف مكن زحف الأتراك إلى أبواب فينا رجلا بمفرده من أن يتحدى البابا والإمبراطور فى وقت واحد . وسننظر بروح العطف إلى ما بذله أرزمس من جهود لحمل الكنيسة على أن تصلح نفسها فى سلام وسندرس أحوال ألمانيا قبيل أيام لوثر لعلنا نستطيع بهذا الدرس أن نفهم أن مجيئه حين جاء كان أمراً محتوماً لامندوحة عنه . وسنسلط الأضواء فى الكتاب الثانى على الإصلاح الدينى نفسه وعلى رجاله لوثر وملنكثون فى ألمانيا ، وزفنجلى وكلفن فى سويسرا ، وهنرى الثامن فى انجلترا ، ونكس فى اسكتلندة ، وجستافس فازا فى السويد ، ثم نلقى نظرة عابرة على النزاع الطويل الذى شب بين فرانسس الأول وشارل الخامس ، لكننا سنؤجل غير هذا من أحوال الحياة الأوروبية فى هذا النصف قرن المضطرب الملىء بالأحداث (١٥١٧ — ١٥٦٤) ، وذلك لكى نترك المجال للمسرحية الدينية لتكشف لنا دون أن يحدث فيها شىء من الاضطراب والارتباك بسبب إرجاء الحديث عنها من حين إلى حين . أما الكتاب الثالث من هذا المجلد فسيطل على « الغرباء الواقفين بالباب » . على روسيا وأمراء موسكو والكنيسة الأرثوذكسية ، وعلى الإسلام وما جاء به من عقيدة ، وثقافة ، وقوة يتحدى بها غيره من الأديان ، وكفاح اليهودية للعثور على مسيحيين فى العـــالم المسيحى . وسيذهب الكتاب الرابع إلى ما وراء أحداث المسرحية ليدرس شرائع أوربا وأحوالها الاقتصادية ، وأخلاقها ، وعاداتها ، وفنها ،

وموسيقاها ، وآدابها ، وعلومها ، وفلسفتها فى أيام لوثر . وسنحاول فى الكتاب الخامس أن نضع أنفسنا فى موضع الكنيسة فننظر إلى الإصلاح الدينى كما تنظر إليه – هى – وقدحاق بها الخطر ، فلا نجدمناصاً من الإعجاب بالطريقة التى اجتازت بها العاصفة المحيطة بها فى جرأة وهدوء . ثم نختم الكتاب بخاتمة موجزة نحاول فيها أن ننظر إلى النهضة والإصلاح الدينى ، والمذهب الكاثوليكى ، والاستنارة نظرة شاملة فى ضوء التاريخ الحديث والأفكار الحديثة .

ذلك موضوع ممتع رائع ولكنه موضوع شائك ، لأننا لا نكاد نكتب فيه كلمة لا تثير الجدل أو الامتعاض . ولقد حاولت أن أقف موقف الكاتب غير المتحيز ، وإن كنت لا أنكر أن ماضى الشخص يلون آراءه على الدوام ، وان لا شيء يضايق الإنسان أكثر من عدم تحيزه . ومن واجبى أن أنبه القارئ من بداية الأمر أنى قد نشأت نشأة الكاثوليكى المتحمس لمذهبه ، وأنى لا أزال أحتفظ بذكريات طيبة خليقة بالحمد لرجال الدين المخلصين ولليسوعيين العالمين ، وللراهبات المشفقات اللائى تحملننى كثيراً فى طيش الشباب ، ولكن على القارئ أيضاً أن يذكر أننى حصلت على جزء كبير من تعليمى خلال محاضراتى التى ألقيتها مدى ثلاثة عشر عاماً فى كنيسة مشيخية Presbyterion church تحت رعاية رجال من البروتستنت الخلص المتسامحين مثال يوناتان داى ، وولين ادامزبراون ، وهنرى سلون كفن ، وادمن تشافى ، وان كثيرين من الرجال المخلصين الذين كانوا يستمعون إلى محاضراتى فى تلك الكنيسة المشيخية كانوا يهوداً أوتوا من التعطش للعلم والفهم ما جعلنى أنظر إلى بنى ملتهم نظرة نافذة جديدة . ولهذا فإنه إذا كان بين الناس من يجدون مبرراً للتحيز فى أحكامهم ، فإنى أنا أقلهم عذراً من هذه الناحية ، وانى لأشعر نحو جميع الأديان بذلك العطف الصادق الذى يمتلىء به قلب من عرف أن الإيمان بالعقل نفسه إنما هو إيمان مزعزع ،

وأننا جميعاً كسف من الظلام الحالك نتحسس الطريق لنور الشمس ، وإنى لا أعرف عما وراء هذه الحياة أكثر مما يعرف أقل طفل فى الطرقات .

وانى لأشكر للدكتور أرثر اتهام بوب مؤسس معهد اسية لتصحيحه بعض ما كان فى الفصول الخاصة بالإسلام من أخطاء ، وللدكتور جيرسن كوهين عضو حلقة الدراسات الدينية اليهودية الأمريكية مراجعته الصفحات الخاصة باليهود ، ولصديقى هنرى كوفمان من رجال لوس انجلز قراءته الجزء الخاص بالموسيقى ولزوجتى عظيم مساعدتها الدائمة العظيمة وملاحظاتها القيمة عن كل صفحة طوال كدحنا متعاونين فى تأليف هذا الكتاب .

وإذا ما تجمل القارئ بالصبر فسنخرج له مجلداً آخر نختم به هذه السلسلة وهو المجلد السابع الذى سنسميه عصر العقل ، وسيظهر هذا المجلد بعد نحو خمس سنوات من هذا الوقت ، وسيواصل الحديث عن قصة الحضارة إلى أيام نابليون . فإذا فرغنا من هذا العمل ودعناه وانسحبنا من الميدان شاكرين كل الشكر من حملوا بأيديهم عبء هذه المجلدات وتغاضوا عما لا يحصى من الأغلاط فى هذه المحاولة التى نبغى بها تحليل الحاضر إلى عناصره التى ينطوى عليها الماضى . ذلك ان الحاضر ليس إلا الماضى مطوياً ينتظ من يبسطه للعمل كما أن الماضى هو الحاضر مبسوطاً لمن يريد أن يفهم .

لوس انجلز فى ١٢ مايو سنة ١٩٥٧ ول ديورانت .

كيفية استعمال هذا الكتاب

١ – حذفنا من النص تواريخ مولد الأشخاص ووفاتهم.

٢ – الفقرات التي كتبت للقارئ المتعمق لا للقارئ العادى قد كتبت بالخط الصغير

٣ – قد لخصنا فى الباب الأول من هذا المجلد بعض الفقرات الواردة فى المجلد الخامس الخاص بالنهضة فى إيطاليا والتى تبحث فى تاريخ الكنيسة قبل الإصلاح

٤ – ستقدر فى هذا المجلد قيمة الكرون والليرة والفلورين والدوقية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر بخمسة وعشرين دولارا من نقود الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٤ وستقدر قيمة الفرنك والشلن بخمسة دولارات والأيكو بخمسة عشر دولارا والمارك بـ ٦٦,٦٧ دولاراً والجنيه الاسترلينى بمائة دولار على أن هذه القيم كلها تقريبية تقوم على الحدس والتخمين كما أن ما حدث لهذه النقود من تخفيض مراراً عدة يزيد من جعل هذه القيم معرضة للتفاوت الكبير ونلاحظ هنا أن : الطالب فى عام ١٣٩٠ كان يستطيع أن يعيش فى اكسفورد على : شلنين فى الأسبوع ، وأن جواد جان دارك كان يساوى فى عام ١٤٢٤ ستة عشر فرنكاً ، وأن أجر خادمة عند والد ليوناردو دافنشى فى عام ١٤٦٠ لم يكن يزيد على ثمانية فلورينات فى العام .

مؤلف الكتاب

ولد ول ديورانت مؤلف هذا الكتاب فى تورث ادمز بولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٨٥ وتلقى تعليمه الأول فى مدارس الابروشية الكاثوليكية فى تلك الولاية فى كرنى بولاية النيوجرس ثم انتقل بعدئذ إلى كلية القديس بطرس الجزويتية فى مدينة جرسى ثم إلى جامعة كولومبيا بنيويورك واشتغل أثناء صيف عام ١٩٠٧ مراسلا لجريدة ولكنه وجد العمل مثيراً لأعصابه فقنع بتدريس اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية هى وموضوعات أخرى فى كلية سيتون هول بمقاطعة ثوث أورنج بولاية نيوجرس (١٩٠٧ — ١٩١١) حيث التحق بحلقة الدراسات فى عام ١٩٠٩ ولكنه غادرها فى عام ١٩١١ لأسباب ذكرها فى كتابه : « الانتقال » . ثم انتقل من حلقة الدراسات إلى دوائر الرديكالية فى نيويورك وعمل مدرسا فى مدرسة فرو (١٩١١ — ١٩١٣) وكانت هذه تجربة فى التفكير الحر فى عالم التربية . وفى عام ١٩١٢ طاف بأوربا على نفقة الدن فريمان وهو صديق له أخذ على عاتقه أن يساعده على توسيع أفاق تفكيره . وفى عام ١٩١٣ عاد إلى الدراسة فى جامعة كولومبيا وتخصص فى عالم الأحياء يتلقاه على مرجان وكالكنز . وفى الفلسفة على يد دود بريدج وديوى .

ونال درجة دكتور فى الفلسفة من هذه الجامعة فى عام ١٩١٧ ومكث يعلم الفلسفة فى تلك الجامعة وفى عام ١٩١٤ بدأ يلقى فى إحدى الكنائس المشيخية فى الشارع رقم ١٤ والشارع الثانى فى نيويورك محاضرات فى تاريخ الفلسفة والأدب مهدت له السبيل لكتابة « قصة الفلسفة وقصة الحضارة » . ذلك أن معظم مستمعيه كانوا من العمال والنساء الذين يتطلبون أن تكون المادة التاريخية الخليقة بالدراسة واضحة كل الوضوح ذات أثر فى العصر الذى يعيشون فيه وفى عام ١٩٢١ أنشأ مدرسة ليبر تمبل التى

أصبحت من أكثر التجارب نجاحاً فى تعليم الكبار ولكنه غادرها فى سنة ١٩٢٧ ليتفرغ لكتابة قصة الحضارة فطاف بأوربا مرة أخرى فى عام ١٩٢٧ وسافر حول العالم لدراسة أحوال مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان فى عام ١٩٣٠ طاف حول العالم مرة ثالثة فى عام ١٩٣٢ زار فى خلالها بلاد اليابان ومنشوريا وسيبريا والروسيا . وأثمرت هذه الأسفار المجلد الأول من قصة الحضارة وهو تراث الشرق وقضى ديوارنت قبل أن يبدأ فى تأليف المجلد الثانى من قصة الحضارة وهو حياة اليونان صيفاً طويلا فى بلاد اليونان نفسها زار فى خلاله أشهر مراكز الحضارة الهيلينية ودرس آثارها وكان طوافه ببلاد البحر المتوسط عوناً له على كتابة المجلد الثالث « قيصر والمسيح » فى عام ١٩٤٤ وقضى ستة أشهر من عام ١٩٤٨ فى تركيا والعراق وإيران ومصر وأوربا الغربية ليستعد فيها لكتابة المجلد الرابع . عصر الإيمان (١٩٥٠) ثم عاد إلى إيطاليا فى علم ١٩٥١ ليعد العدة للمجلد الخامس من قصة الحضارة وهو عصر النهضة (١٩٥٣) وسافر بعدئذ إلى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وانجلترا فى عام ١٩٥٤ لكى يدرس الأماكن المتصلة بالإصلاح الدينى وما فيها من آثار استعداداً لكتابة هذا المجلد السادس . ويرجو الدكتور ديورانت أن يفرغ من تاريخ الحضارة فى عام ١٩٦٢ بعد إصدار المجلد السابع من هذه السلسلة وهو عصر العقل الذى يروى قصة الحضارة إلى أيام نابليون وإلى عام ١٨٠٠ وسيبلغ عندئذ السابعة والسبعين من عمره ويكون من حقه بعدئذ أن يستريح .

الباب الاول

الـكنيسة الكاثوليكية الرومانية

١٣٠٠ - ١٥١٧

الفصل الأول

فضل المسيحية

الدين آخر ما تبدأ الأذهان بفهمه . ولربما كنا فى أيام شبابنا قد برمنا فى تعال وكبرياء بما فيه من أمور محببة وان لم تقبلها العقول ، وفى السنين التى نكون فيها أقل ثقة بما نتلقاه من تعاليمها يأخذنا العجب من بقاء هذا الدين مزدهراً فى عصر ينصرف الناس فيه إلى العلم وإلى شئون الدنيا ويدهشنا بعثه من جديد بعد أن تلقى الضربات القاتلة على أيدى أبيقور أو لوكر بشيوس أو لوشيان أو ماكيافلى أوهيوم أو فولتير . ترى ما هو السر الذى من وراء هذه المرونة التى تبعث فيه الحياة من آن إلى آن ؟

ان أعقل الناس ليتطلب أن تمتد حياته مائة مرة لكى يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية . ولربما كان أول ما يفعل هو أن يدرك بأن ثمة ظواهر لا يحصيها عدا حتى فى الأيام التى يبلغ فيها العلم ذروة مجده يخيل إليه أنها تعز على الفهم ولايستطيع تعليلها بالعلل الطبيعية أو يقيسها أويعرف نتائجها المحتومة . فأسرار العقل مثلا لاتزال تخفى على قوانين علم النفس وفى علم الطبيعة نجد أن نظام الكون المدهش العجيب الذى يجعل العلم ميسراً مستطاعاً قد يعمل هو نفسه على توكيد الإيمان الدينى القائل بوجود عقل كونى مدبر لهذا العالم . وان معارفنا لأشبه بسراب بقيعة كلما اقتربنا منه زاد

بعداً عنا . وقل من الناس من إذا سئل عن أمر قال لا أدرى ، فإذا واجهته ظاهرة له لا يعرف من قبل حقيقة أمرها عزاها إلى أسباب طبيعية أو خارقة للطبيعة وتصرف بما يتفق مع تعليله هذا أو ذاك ، ولست تجد إلا قلة ضئيلة من العقول تستطيع أن تتريث فى حكمها إذا وقفت أمام الشواهد المتناقضة ، أما الكثرة الغالبة من بنى الإنسان فتحس بأن لابد لها أن تعزو ما ترى من الموجودات أو الحادثات إلى كائنات علوية لا تتقيد بالقوانين الطبيعية ، ولقد كانت الأديان (الأولى) هى عبادة خوارق الطبيعة من الكائنات – باسترضائها ، والتوسل إليها ، أو تمجيدها . وما أكثر من يضجرون من الحياة ويألمون منها ، فيطلبون العون من الكائنات الخارقة للطبيعة إذا لم يجدوا هذا العون فى القوى الطبيعية ، فتراهم يعتنقون وهم شاكرون مغتبطون أدياناً تبعث فى حياتهم الكرامة والأمل ، وتضفى على العالم نظاماً ومعنى لا وجود لها بغير هذه الأديان ، وإن من الصعب على نفوسهم أن تغض الطرف صابرة عما فى الطبيعة من قسوة ووحشية تصيب الناس خبط عشواء ، وما يحدث فى تاريخ العالم من منازعات ومن إراقة للدماء ، وما يصيبهم هم أنفسهم من محن وبلايا وحرمان إذا لم يؤمنوا بأن هذه كلها جزء من خطة إلهية مرسومة يعز عليهم فهمها وإدراك سرها . ان العالم إذا لم يكن له سبب أو مصير يعرف حقاً أشبه بسجن للعقول ، فنحن نتوق إلى الاعتقاد بأن للمسرحية الكبرى منشئاً عادلا وغاية سامية .

هذا إلى أننا نحرص على البقاء ، ويصعب علينا أن نعتقد أن الطبيعة قد كدت وأجهدت نفسها حتى أوجدت الإنسان ، والعقل ، والحب والإخلاص لا لشىء إلا لتلقى بها ظهرياً متى نضجت وكمل نماؤها . والعلم يهب الإنسان فى كل يوم مزيداً من القدرة ، ولكنه ينقص من شأنه على مر الأيام ، فهو يرقى بآلاته وأدواته ولكنه لا يعنى بأهدافه وأغراضه ، ولا يكشف له عن الأصول والقيم والأهداف النهائية ، ولا يضفى على الحياة

والتاريخ معنى أو قيمة لا يقضى عليها الموت أو الزمن المهلك المبيد لكل شيء . ومن أجل هذا يؤثر الناس العقيدة غير القائمة على العقل والبحث الصحيح على الإحجام والتوكل العقلي، ذلك أنهم يملون التفكير المحير ، والحكم غير القاطع ، فيرحبون بقيادة دين ذي سلطان على نفوسهم ، وبأن يتطهروا من الخطايا بالاعتراف بذنوبهم ، وبالإيمان بدين ثابت قديم . وهم حين يستحون من الاخفاق ، ويثكلون من يحبون ، وتظلم نفوسهم لما اقترفوا من ذنوب ، ويرهبون الموت يحسون بأنهم إذا لقوا العون من الله تطهروا من الذنب والجريمة ، وفارقهم الرعب ، واطمأنوا وامتلأت قلوبهم بالأمل ، وسموا إلى أسمى المنازل وكان مآلهم الخلود .

والدين في أثناء هذا يهب المجتمع والدولة هبات مستورة تسرى في جميع أجزائهما ، فطقوسه تهدئ النفس وتوثق الرابطة بين الأجيال ، فالكنيسة الابرشية تصبح بمثابة بيت عام تؤلف من الأفراد جماعة ، وترفع الكتدرائية رأسها تعلن في فخر وازدهاء أنها من عمل البلدة موحدة ، وتزدان الحياة بالفنون المقدسة وتصب الموسيقى الدينية نغماتها المهدئة في نفس الفرد والجماعة. ويعرض الدين رضاءه وتأييده السماوى للقانون الأخلاقى الذى تنفر منه فطرتنا ولكنه مع ذلك لا غنى عنه للحضارة . ويغرض على عقول البشر ربا سميعاً بصيراً ويهددهم بالعقاب السرمدى ويعدهم بالنعيم الدائم ويصدر إليهم أوامر ليست من سلطة بشرية مزعزعة بل صادرة عن قوة إلهية لا سبيل إلى عصيانها وإذا كانت غرائزنا قد تكونت خلال ألف قرن من الزمان وكان الأمن فيها مزعزعاً مضطرباً يطارد فيها الإنسان الحيوان ويطارده، فإنها قد جعلتنا صائدين أشداء وديدننا العنف وطبيعتنا تعدد الأزواج بدل أن تجعلنا مواطنين مسالمين . وإذا كان ذلك العنف القديم الذى استلزمته حياتنا الأولى يزيد على ما تحتاجه حياتنا الاجتماعية الحاضرة فإن غرائزنا يجب أن تفرض عليها مئات من القيود كل يوم على علم منا أو غير علم

حتى يمكن قيام المجتمع والحضارة . لهذا استعانت الأسر والدول قبل التاريخ بأجيال طوال بقوة الدين لكى تخفف من غرائز الإنسان الهمجية ووجد الآباء فى الدين عوناً لهم على كبح جماح أبنائهم المعاندين وإبعادهم عن الشطط وتعويدهم ضبط النفس ، واستعان المربون بالدين فكان لهم وسيلة ذات أثر عظيم فى تهذيب الشباب وتعويده النظام والرقة واتخذته الحكومات من أقدم الأزمنة عوناً لها على إقامة صرح النظام الاجتماعى وتخليصه من الأنانية المقطعة لأوصال المجتمع مما طبع عليه الناس من فوضى . ولو أن الدين لم يوجد لابتدعه كبار المشترعين أمثال حمورابى وموسى وليقورج ونوما بمبليوس. لكنهم لم يكونوا فى حاجة إلى ابتداعه لأنه ينشأ من تلقاء نفسه ويتجدد للوفاء بحاجات الناس وآمالهم .

وقد ظل الدين المسيحى خلال ألف عام من عهد قسطنطين إلى عهد دانتى يهب الأفراد والدول ما ينطوى عليه من مزايا ويقدمها لهم هبة خالصة ، وكان هو نفسه فى هذه الأعوام ينمو ويتكون ، فجعل من صورة المسيح الفضائل مجسمة يغرى بها الهمجية على اصطناع الحضارة وأوجد عقيدة جعلت حياة كل إنسان جزءاً من مسرحية عالمية سامية وان تكن متواضعة ، وأنشأت علاقة قوية ذات خطة بين الإنسان وبين الإله خالقه الذى تحدث إليه فى كتبه المنزلة ووضع له فيها قانوناً أخلاقياً وجعل الكنيسة مستقرا لتعاليمه وممثلة لسلطانه على هذه الأرض . وأخذت هذه المسرحية الفخمة تنمو عاماً بعد عام ، وأخذ القديسون والشهداء يضحون بحياتهم فى سبيل عقيدتهم ويضربون بذلك الأمثال لمن يأتى بعدهم من المؤمنين ويورثونهم فضائلهم ، وأنشأ الفنانون مئات الصور ومئات الآلاف من التحف الفنية يفسرون بها هذه المسرحية ويظهرونها بوضوح لعقول الناس حتى الساذجة منها غير المتعلمة فأضحت مريم العذراء أم المسيح « أينع زهرة فى الشعر كله » وكانت هى نموذج الرقة النسوية التى تنسج النساء على منوالها وحنان

الأمومة توجه إليها أرق الترانيم وأعظمها خشوعاً وإخلاصاً ، وهى التى أوحت بالصروح الفخمة والتماثيل الرائعة والصور الجميلة والشعر العذب والموسيقى الحلوة وهى التى بعثت المراكب ذات الروعة التى تقوم كل يوم حول ملايين من مذابح الكنائس ومن أجلها يقوم القداس بطقوسه الغامضة الرهيبة التى تسمو بالنفس وترفعها إلى السموات العلى . والاعتراف والتوبة يطهران نفس المذنب التائب الخاشع والصلاة تطمئنه وتقويه والعشاء الربانى تقربه من المسيح قرباناً يبعث فى نفسه الرهبة والقداس الأخير يطهره ويعده لدخول الجنة وقلما أخرج دين فى رسالته للانسانية مثل هذه الروعة الفنيـــة .

ولقد كانت الكنيسة فى أجمل صورها حين حلت بعقائدها المواسية وطقوسها الساحرة ومبادئ اتباعها الخلقية النبيلة وشجاعة أساقفتها وغيرتهم واستقامتهم ، وعدالة محاكم أسقفياتها وطهارتها ، حين حلت بهذه كلها فى المكان الذى تخلت عنه ، حكومة الامبراطورية فكانت هى الحارس الأكبر للعالم المسيحى للنظام والسلم فى العصور المظلمة (حوالى ٥٢٤ — ١٠٧٩ م) . وأوربا مدينة ببعث الحضارة فى الغرب بعد أن أغار البرابرة على إيطاليا وغالة وبريطانيا وأسبانيا إلى الكنيسة أكثر مما هى مدينة بها إلى أية هيئة أخرى مهما كان شأنها . فقد كان رهبانها هم الذين أصلحوا الأرض البور وكانت الأديرة هى التى تقدم الطعام للفقراء والتعليم للصبيان والمأوى للمسافرين ، وكانت مستشفياتها هى التى تعنى بالمرضى والمعوزين . وكانت أديرة النساء هى التى تلجأ إليها الأرامل ومن لا أزواج لهن فتوجه فيهن عواطف الأمومة إلى أغراض اجتماعية سامية ولقد ظلت الراهبات عدة قرون يتعهدن وحدهن بتربية البنات . وإذا كانت الثقافة القديمة لم يطغ عليها ويمح معالمها تيار الجهل والأمية ، فما ذلك إلا لأن الرهبان قد نسخوا آلاف المخطوطات واحتفظوا بها وحافظوا على حياة اللغتين

اليونانية واللاتينية اللتين كتبت بهما وإن كانوا قد تركوا كثيراً من المخطوطات الوثنية تبيد على مر الزمان فقد كانت دور الكتب الكنسية فى سانت جول ، وفولدا ومونتى كسينو وغيرها هى التى وجد فيها الكتاب الانسانيون فى عصر النهضة الآثار القيمة الثمينة للحضارة الرائعة التى لم تسمع قط باسم المسيح . ولقد ظلت الكنيسة ألف عام من أيام امبروز إلى ولزى تدرب فى غرب أوربا المعلمين والعلماء والقضاة ورجال السياسة ووزراء الدولة ، وكانت الكنيسة فى العصور الوسطى هى عماد الدولة وسندها . ولما انقضى عهد العصور المظلمة — ولنفترض أن ذلك كان عند مولد ابلار — كانت الكنيسة هى التى أنشأت الجامعات وشيدت الكتدرائيات القوطية فأوجدت بذلك بيوتاً لعقول الناس وتقواهم ، وبفضل حمايتها ورعايتها جدد الفلاسفة المدرسون ماحاولوه قديماً من تفسير غوامض الحياة البشرية ومآل العقل الإنسانى . ولقد ظل الفن الأوربى كله تقريباً طوال تسعة قرون يتلقى الإلهام والمال من الكنيسة ، وحتى عندما تلون الفن باللون الوثنى ظل بابوات النهضة يناصرونه ويولونه الرعاية فكانت الموسيقى فى أسمى صورها ابنة الكنيسة .

وأكثر من هذا كله أن الكنيسة فى عنفوان مجدها هى التى أمدت دول أوربا بالقانون الأخلاقى العام الذى كان متبعاً فيها كلها كما أمدتها بنظام حكمها . وكما أن اللغة اللاتينية التى تعلمها الكنيسة فى الكنائس كانت هى الأداة التى وحدت أساليب التعليم والأدب والعلم والفلسفة فى الأمم المختلفة ، وكما أن طقوس المذهب الكاثوليكى — أى العالمى — وعقيدته هى التى وهبت أوربا الوحدة الدينية قبل أن تنقسم إلى قوميات مستقلة ذات سيادة ، فإن الكنيسة الرومانية التى تعزو نشأتها وزعامتها الروحية إلى الله سبحانه وتعالى قد طلبت أن تكون هى محكمة دولية تحاسب جميع الحكام والدول من الناحية الأخلاقية . وقد صاغ البابا جريجورى السابع مبدأ الجمهورية المسيحية الأوروبية هذا الصياغة القانونية واعترف به الامبراطور هنرى الرابع حين

خضع لجريجورى فى كانوسا (سنة ١٠٧٧) ، وبعد قرن من ذلك الوقت أذل امبراطور أعظم منه قوة هو فردريك بربروسيا نفسه أمام بابا أضعف من جريجورى هو اسكندر الثالث بعد عناد طويل ومقاومة لم تجده نفعاً ، وفى عام ١٠٩٨ رفع البابا إنوسنت الثالث سلطان البابوية ومقامها إلى درجة بدا معها أن المثل الأعلى الذى كان يطمح فيه جريجورى وهو أن تكون الكنيسة صاحبة السلطان الأعلى على الدول من الناحية الخلقية — بدا أن هذا المثل قد تحقق إلى حين :

لكن هذا الحلم اللذيذ قد تحطم على صخرة الطبيعة البشرية . ذلك أن المشرفين على السلطة القضائية البابوية قد أثبتوا أنهم من طينة البشر وأنهم متحيزون جشعون بل نهمون يبتزون الأموال ، وأن الملوك والشعوب كانوا أيضاً بشراً مثلهم يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أممهم . وبعثت ثورة فرنسا المضطردة النماء فى قلوب بنيها الكبرياء والحرص على السيادة القومية ، فقام فليب الرابع يتحدى سلطان البابا بونى فاس الثامن على أملاك الكنيسة وكلل هذا التحدى بالنجاح ، وزج مندوبو الملك بالبابا الكبير السن فى السجن فى اتبان حيث قضى ثلاثة أيام لم يلبث بعدها أن وافته المنية (١٣٠٣) . وهنا وفى تلك الساعة بدأ الإصلاح الدينى من إحدى نواحيه الأساسية — وهى خروج الحكام المدنيين على سلطان البابوات .

الفصل الثاني

الكنيسة فى الحضيض

١٣٠٧ : ١٤١٧

كانت الكنيسة فى القرن الرابع عشر تعانى الذل السياسى والانهيار الخلقى . لقد بدأت أول عهدها يحدوها الإخلاص العميق والولاء الذى اتصف به بطرس وبولس ثم نمت فأصبحت نظاماً جليلا يعمل على تهذيب الأسرة والمدرسة والمجتمع والعالم بأسره وينشر حسن النظام وكريم الأخلاق . أما الآن فقد أخذت تنحط حتى لم يعد لها هم إلا المحافظة على مصالحها المكتسبة وكل ما تعنى به هو المحافظة على بقائها وأموالها . وقد استطاع فليب الرابع أن يعمل على اختيار رجل فرنسى للبابوية ، وأقنعه بأن ينقل الكرسى البابوى إلى مدينة افنيون على نهر الرون . وظل البابوات بعدئذ ثمانية وستين عاماً بيادق وسجناء فى أيدى فرنسا وسرعان ماأخذ الاحترام الذى كانوا يلقونه من تلك الأمم ينقص تدريجاً ، كما أخذت مواردهم ينضب معينها . وشرع البابوات من ضيقهم يملأون خزائنهم بالمال يحصلون عليه بفرض الضرائب التى لا عداد لها على رجال الدين وعلى الأديرة والأبرشيات . وكانوا يطلبون إلى كل رجل يعينونه فى مناصب الكنيسة الإدارية نصف ما يحصل عليه من منصبه فى العام الأول ثم عشر ما يحصل عليه منه فى الأعوام التالية . وكان على كل كبير أساقفة أن يؤدى إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال نظير الطيلسان وهو شريط من الصوف الأبيض يلبسه كبير الأساقفة ويعد رمزاً لسلطانه وتوكيداً له . وإذا مات كردنال أو كبير أساقفة أو أسقف أورئيس دير عادت أملاكه إلى البابوية ، وفى خلال الفترة الواقعة بين موت أحد رجال الدين وتعيين خلفه كان البابوات يستولون على إيراد منصبه ، وكانوا

يهتمون بإطالة هذه الفترة عامدين حتى ينالوا من المال أكثر ما يستطيعون . وكان كل حكم يصدره مكتب البابوية الإدارى (الكيوريا) أو كل نفع يسديه ينتظر أن يؤدى إليه عطية قيمة اعترافاً من صاحبه بما نال من نفع ، وكان الحكم فى بعض الأحيان يتوقف على قيمة العطية .

على أن كثيراً من هذه الضرائب البابوية لم يكن إلا وسيلة مشروعة تحصل بها على المال ، الإدارة المركزية للكنيسة التى كان لها على المجتمع الأوربى سلطان أدبى أخذ يتناقص على مدى الأيام . غير أن بعض هذا المال كان يذهب ليتخم بطون رجال الدين ، بل إن منه ما كان يذهب إلى جيوب الحظايا اللاتى كانت تزدحم بهن حجرات بيوت البابوات فى افنيون . وليس أدل على ذلك من هذه الرسالة التى قدمها وليام ديوراند أسقف مند إلى مجلس فينا (١٣١١) وقد جاء فيها :

يستطاع إصلاح الكنيسة كلها إذا ما بدأت كنيسة روما بالإقلاع عن المثل السيئة التى تضربها بنفسها لغيرها من الكنائس . وهى التى تسىء إلى سمعة الناس وتكون بمثابة الوباء الذى تسرى عدواه إلى جميع الناس ... ذلك أن كنيسة روما قد ساءت سمعتها فى جميع الأقطار حتى أصبح الناس يعلنون فى خارج روما أن جميع من تضمهم من الرجال من أكبرهم مقاماً إلى أصغرهم شأناً قد امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع . . . وأن رجال الدين يضربون لجميع الشعب المسيحى أسوأ المثل فى النهم ، وهذا واضح لا خفاء فيه معروف فى جميع الأقطار لأن رجال الدين أكثر انغماساً فى الترف ... من الأمراء والملوك .

وقد رفع الأسقف الاسبانى الفارو بلايو عقيرته بقوله : « إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى » . وقد ذكر إدوارد الثالث ملك انجلترا ، وهو الخبير المتفنن فى فرض الضرائب ، كلمنت السادس بأن « خليفة الحواريين قد وكل بأن يقود غنم الرب إلى المرعى لا بأن يجز

صوفها » . وفى ألمانيا كان جباة الضرائب البابوية يطاردون ، ويسجنون ، وتقطع أطرافهم ، ويخنقون . وفى عام ١٣٧٢ أقسم رجال الدين فى كولونى وبون ، واكسانتن ومانز ألا يدفعوا مال الصدقات الذى فرضه عليهم جريجورى الحادى عشر .

على أن البابوات ظلوا رغم هذا التمرد والعصيان يؤكدون سلطانهم الاستبدادى على ملوك الأرض ، وحدث حوالى عام ١٣٢٤ أن كتب اجستينو ترينفو المشمول برعاية يوحنا الثانى بعد العشرين رسالة فى الدفاع عن رجال الدين رداً على المهجات التى وجهها إلى البابوية مرسليوس من أهل بدوا ووليم أوكهام . ويقول اجرستينو فى هذه الرسالة إن سلطان البابا من سلطان الله وهو نائبه فى الأرض ، وإن طاعته واجبة وإن أثم أشد الإثم ، ومن حق مجلس الكنيسة العام أن ينزله عن عرشه إذا ثبت كفره وإلحاده ، فإذا لم يرتكب هذا فمهما يكن ذنبه فإن سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض . ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء وإن عارض فى ذلك رعاياهم أو منتخبوهم ، ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين وأن لا يعبأ بدساتير الدول . وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليها . والبابا أعلى مقاماً من الملائكة وهو خليق بأن يعظم كما تعظم العذراء ويعظم القديسون . وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا لأنه فى رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقده الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله ، وعمل بهذا المبدأ بإصرار لا يتحول عنه أبداً .

على أن فرار البابوات من رومة وخضوعهم لفرنسا قد قوض سلطانهم وحط منزلتهم ، وكأنما أراد بابوات افنيون أن يعلنوا على الملأ خضوعهم لسلطان فرنسا فاختاروا من بين ١٢٤ كردنالا ١١٣ فرنسياً .

واستشاطت الحكومة الإنجليزية غضباً من كثرة القروض التى منحها

البابوات ملوك فرنسا أثناء حرب مائة العام ، ومن أجل ذلك تغاضت عن مطاعن ويكلف على البابوية ؟ ورفض المنتخبون الألمان الذين كانوا يختارون الإمبراطور أى تدخل من جانب البابوات فى المستقبل فى اختيار الملوك والأباطرة . وفى عام ١٣٧٢ اتفق رؤساء الأديرة فى كومونى وأعلنوا على الملأ أن « الكرسى الرسولى قد انحط إلى درجة من الاحتقار تجعل المذهب الكاثوليكى يبدو معرضاً لأشد الأخطار » . وفى إيطاليا استولى على الولايات البابوية — لا يتوم رامبريا ، وولايات الحدود ، وررومانيا — رؤساء جند مغامرون يظهرون الطاعة بالاسم للبابوات ولكنهم يحتفظون لأنفسهم بإيراد هذه الولايات كله . ولما بعث اربان الخامس مندوبين من قبله إلى ميلان ليعلنوا الفيسكنتى العاصى بقرار الحرمان ، اضطرهما برنابو أن يأكلا هذا القرار — بما فيه من ورق وخيوط من الحرير وأختام من الرصاص (١٣٦٢). وعمدت فلورنس فى عام ١٣٧٦ حين قام النزاع بينها وبين البابا جريجورى الحادى عشر إلى مصادرة كل ما للكنيسة من أملاك فى أراضيها ، وأغفلت محاكم الابروشيات وهدمت أبنية محاكم التفتيش وزجت من قاومها من القساوسة فى السجن أوقتلتهم شنقاً ، وأهابت بإيطاليا أن تضع حداً لكل سلطان الكنيسة الزمنى .

واتضح من ذلك الوقت أن بابوات افنيون أخذوا يخسرون أوربا كلها مقابل خضوعهم لفرنسا وإخلاصهم لها . فلما كان عام ١٣٧٧ أعاد جريجورى الحادى عشر البابوية إلى روما .

ولما مات جريجورى فى عام ١٣٧٨ اختار مجمع الكرادلة وكانت أغلبيته الساحقة من الفرنسيين ولكنه كان يخشى غضبة عامة روما — اختار بابا إيطاليا هو اربان السادس وتبين أن اربان اسم على غير مسمى[١] ؟ فقد كان حاد الطبع عنيفاً فى تصرفاته مصراً على الإصلاحات التى لا يرتضيها

(١) معنى كلمة اربان هو المتحضر أو المهذب .

رجال الكنيسة ، وبلغ هذا الإصرار حداً أعلن معه الكرادلة الذين عادوا إلى الاجتماع أن اختياره لكرسى البابوية لم يكن قانونياً لأنه تم تحت الضغط والإرهاب ، ونادوا بربرت من أهل جنيف بابا . وتولى ربرت منصب البابوية وتسمى باسم كلمنت السابع واتخذ افينيون مقراً له ولكن اربان أصر من جهته على أنه هو البابا وجعل مقره مدينة روما . وكان الذى مهد السبيل إلى الانقسام البابوى (من ١٣٧٨ — ١٤١٧) الذى بدأ على هذا النحو ، والذى مهد السبيل لكثير من القوى التى هيأت العقول للإصلاح الدينى هو قيام الدول القومية ، فقد كان هذا الانقسام فى واقع الأمر محاولة تبغى بها فرنسا أن تحتفظ بالمعونة الأدبية والمالية التى تمدها بها البابوية فى حربها ضد انجلترا . وحذا حذو فرنسا فى هذا نابلى وأسبانيا واسكتلندة . ولكن انجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وبولندا ، وبوهيميا ، وبلاد المجر ، وإيطاليا ، والبرتغال اعترفت باربان ، وأضحت الكنيسة المنقسمة على نفسها سلاحاً فى أيدى المعسكرين المتنازعين وضحية لها . ونادى نصف العالم المسيحى بأن النصف الآخر ملحد كافر مجدف فى حق الله ، محروم من حظيرة الدين . وادعى كل جانب أن المراسم الدينية التى يقوم بها قساوسة الجانب الآخر المعارض له لا نفع فيها ولا قيمة لها ، وان الأطفال الذين يعمدهم هذا الجانب أو ذاك ، والتوبة التى تتم على أيديهم ، والموتى الذين يفضون إليهم باعترافاتهم ، كل هؤلاء يبقون مذنبين آثمين ، مآلهم الجحيم — أو المطهر على أقل تقدير . وكان الإسلام الآخذ وقتئذ فى الانتشار يسر من هذا الانحلال الذى يدب فى جسم العالم المسيحى .

ولم يخف هذا العداء بموت اربان (١٣٨٩) . ذلك أن الكرادلة الأربعة عشر الذين يؤلفون معسكره اختاروا بنيفاس التاسع خلفاً له ثم اختاروا من بعده انوسنت السابع ثم جريجورى الثانى عشر ، وأطالت الأمم المنقسمة انقسام البابوية . ولما توفى كلمنت السابع (١٣٩٤)

رشح كرادلة افنيون أحد الأساقفة الأسبان لكرسى البابوية فجلس عليه باسم بندكت الثالث عشر . وعرض هذا البابا أن يستقيل من منصبه إذا حذا جريجورى حذوه ، ولكن أقارب جريجورى الذين حلوا فى مناصبهم الدينية ، أصموا آذانهم عن هذا الطلب . وتخلى بعض كرادلة جريجورى عنه ودعوا إلى انعقاد مجلس عام من رجال الدين . وألح ملك فرنسا على بندكت أن ينسحب ، ولكن بندكت أبى أن يصغى إلى الحاحه ، فما كان من فرنسا إلا أن أعلنت خروجها عن طاعته ووقفت من النزاع موقف الحياد . فلما فر بندكت إلى أسبانيا انضم كرادلته إلى زملائهم الذين تخلوا من قبل عن جريجورى ، وأصدروا مجتمعين دعوة إلى مجلس يجتمع فى بيزا ليختار بابا يرتضيه الجميع .

وكان الفلاسفة المتمردون قبل ذلك الوقت بقرن أو نحوه قد وضعوا الأسس النظرية « لحركة المجالس » . فقد كان وليم أوكهام يعارض الفكرة القائلة أن الكنيسة هى رجال الدين ، ويقول أن الكنيسة هى جماعة المؤمنين ، وأن الكل هو صاحب السلطان الأعلى على كل جزء من أجزائه ، وأن من حق هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس أعلى مؤلف من جميع أساقفة الكنيسة ورؤساء أديرتها ، وأن من حق المجلس المؤلف على هذا النحو أن يختار البابا ويزجره ، ويعاقبه ، ويخلعه . كذلك قال مرسليوس من أهل بدو أن المجلس العام يمثل حكمة العالم المسيحى مجتمعاً فكيف يحق إذن لرجل واحد أياً كان شأنه أن يضع عقله فى منزلة أعلى من عقل العالم المسيحى كله ؟ وكان يرى أن هذا المجلس يجب ألا يؤلف من رجال الدين وحدهم بل يجب أن ينضم إليهم من غير رجال الدين من يختارهم الشعب . وطبق هينريخ فن لانجنشتاين أحد رجال اللاهوت الألمانى جامعة باريس ، (١٣٨١) هذه الأفكار على الانقسام البابوى وقال أنه مهما يكن ما يدعيه البابوات لأنفسهم من سلطان أعلى ، فقد حدثت فى الموقف أزمة لا يجد المنطق

وسيلة إلى الخروج منها سوى سبيل واحد . ولايستطيع إنقاذ الكنيسة من الفوضى التى تقوض دعائمها إلا سلطة خارجة عن البابوية تفوق سلطة الكرادلة ، ولايمكن أن تكون هذه السلطة إلا سلطة مجلس عام .

واجتمع مجلس بيزا فى ٢٥ مارس ١٤٠٩ ، ودعى بندكت وجريجورى إلى المثول أمامه فلما تجاهلا هذه الدعوة أعلن خلعهما واختار بابا جديداً هو إسكندر الخامس وأمره أن يدعو مجلساً آخر إلى الانعقاد قبل أن يحل شهر مايو سنة ١٤١٢ ثم أجل جلساته . وبذلك وجد ثلاثة بابوات بعد أن لم يكن منهما إلا اثنان . ولم يخفف موت الإسكندر (١٤١٠) من حدة النزاع ، لأن كرادلته اختاروا خليفة له يوحنا الثالث والعشرين . لم يكن فى البابوات بعد سميه الثانى والعشرين من هو أكثر منه عناداً وصلابة رأى . وكان هذا الزعيم المغامر وهو يحكم بولونيا نائباً عن البابا باسم بلد سارى كوسا حكم زعماء العصابات المغامرين يفرض الضرائب على كل شيء فى الولاية ويجيز لغيره من رجال الحكم فرضها . كان يفرضها على العاهرات والمغامرين والمرابين ، ويقول أمين سره أنه أغوى مائتى عذراء ، وزوجة ، وأرملة وراهبة .

ولكنه كان ذا مال وكان له جيش ، ولعله كان يستطيع انتزاع الولايات البابوية من يدى جريجورى فيضطره بذلك إلى النزول عن عرشه بعد إفلاسه .

وأرجأ يوحنا الثالث والعشرون دعوة المجلس الذى أمر بانعقاده مجلس بيزا أطول ما يستطيع ، ولما افتتحه فى مدينة كنستانس فى الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ لم يحضره إلا عدد قليل ممن دعوا إليه من البطارقة الثلاثة ، والكرادلة التسع والعشرين ، ورؤساء الأساقفة الثلاث والثلاثين ، والأساقفة الخمسين ، وعلماء اللاهوت الثلثمائة ومندوبى الجامعات الأربعين ، والأمراء الست والعشرين ، والنبلاء المائة والأربعين والقساوسة الأربعة الآلاف . ولو أن هؤلاء جميعاً قد حضروا لكان هذا المجلس أكبر مجلس فى تاريخ

المسيحية وأهم ما عقد من مجالسها منذ مجلس نيقية (٣٢٥) الذى أقر عقيدة التثليث فى الدين المسيحى ، وأصدر المجتمعون فى السادس من أبريل عام ١٤١٥ قراراً ثورياً يدل على الزهو والكبرياء جاء فيه :

إن هذا المجمع المقدس المنعقد فى كنستانس ، بوصفه مجلساً عاماً ، مجتمعاً اجتماعاً قانونياً يرفرف عليه الروح القدس كى يحمد الله ويقضى على الانقسام القائم فى الكنيسة ويعمل على جمع شملها وإصلاح شأنها فى رؤسائها وأعضائها : . يأمر ، ويعلن ، ويقرر ما يأتى : أولا : يعلن أن هذا المجمع المقدس . : يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد سلطانه من المسيح مباشرة ، ومن ثم يجب على كل إنسان مهما كانت مرتبته ومنزلته بما فى ذلك البابا نفسه أن يطيع هذا المجلس فى كلّ ما له مساس بالدين كى يقضى على هذا الانقسام القائم وتصلح الكنيسة إصلاحاً عاماً فى رأسها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن كل إنسان . . . بما فى ذلك البابا أيضاً يأبى أن يطيع أوامر هذا المجلس المقدس وقوانينه وقراراته . . . . التى تهدف إلى القضاء على الانقسام أو إلى إصلاح الكنيسة ، يعرض نفسه لطائلة العقاب الذى يتناسب مع جرمه . . . وسيلجأ المجلس ، إذا لزم الأمر إلى غير ذلك من أساليب العدالة[١١] .

وطالب المجلس بخلع جريجورى الثانى عشر وبندكت الثالث عشر ويوحنا الثالث والعشرين . ولم يتلق من يوحنا جواباً على طلبه فقبل ما عرض عليه من التهم الأربع والخمسين التى تتهم يوحنا هذا بأنه كافر مستبد ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الدينية ، خائن ، شهوانى ، لص ، وامتنع المجلس عن قبول ست عشرة تهمة أخرى رآها أقسى مما يليق[١٢] فلما كان اليوم التاسع بعد العشرين من شهر مايو سنة ١٤١٥ قرر خلعه — أما جريجورى فكان أكثر منه مرونة ودهاء ، فقد وافق على أن يعتزل منصبه لكنه اشترط لذلك أن يسمح له بأن يدعو أولا المجلس إلى الانعقاد

التالى بما له من حق فى هذه الدعوة . فلما عاد المجلس إلى الانعقاد على هذا النحو قبل استقالته (٤ يولية) . وأراد أن يثبت تمسكه بالدين وبسلطانه الشرعى فأمر بإحراق المصلح البوهيمى جون هوس (٦ يولية) . وفى اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر أعلن خلع بندكت الثالث عشر : فذهب هذا البابا المخلوع إلى بلنسية حيث توفى فى سن التسعين وهو لا يزال يدعى أنه هو البابا — وفى السابع عشر من نوفمبر عام ١٤١٧ اختارت لجنة الناخبين الكردنال اتونى كولنا بابا وتسمى باسم مارتن الخامس . واعترفت المسيحية كلها بهذا البابا الجديد وبذلك انتهى الصدع البابوى .

غير أن انتصار المجلس فى هذه الناحية قد أعجزه عن تحقيق غرضه الآخر ونعنى به إصلاح الكنيسة . ذلك أن مارتن الخامس لم يكد يجلس على الكرسى البابوى حتى استحوذ من فوره على جميع ما كان للبابوية من حقوق وسلطات مختلفة ، فأخذ يغرى كل جماعة من المندوبين من كل دولة بغيرها من الجماعات وأقنعها بقبول أقل قدر من الإصلاح الغامض القليل الأذى وخضع المجلس له لأنه كان قد سئم ومل العمل فلما كان اليوم الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٤١٨ أعلن انفضاض جلساته .

البابوية المنتصرة

١٤١٧ — ١٥١٣

نظم مارتن الإدارة البابوية تنظيما يمكنها من أداء عملها خير أداء ، ولكنه لم يجد سبيلا للحصول على حاجتها من المال إلا باتباع أساليب الحكومات الدنيوية القائمة فى ذلك العهد وببيع المناصب والخدمات . وإذا كان فى وسع الكنيسة أن تبقى مائة عام من غير إصلاح ، وإن كان يصعب عليها أن تبقى أسبوعاً واحداً من غير مال ، فقد استقر رأيه على أنها أشد حاجة إلى المال منها إلى الإصلاح . وكانت نتيجة هذا ان بعث مندوب ألمانى فى روما

فى عام ١٤٣٠ أى قبل موت مارتن بعام واحد ، إلى أميره رسالة تكاد تضرب على نغمة الإصلاح الدينى وتندر به قال :

إن الشره يسود دوائر الحكومة فى روما ، وهى تبتدع فى كل يوم أساليب جديدة . . لابتزاز المال من ألمانيا ... وهذا هو منشأ ما نراه من الضجيج والأحقاد الكثيرة . . ومن أجل هذا ستثار أسئلة كثيرة عن أحوال البابوية ، والافسينبذ الناس آخر الأمر طاعتها لكى ينجوا من هذا الابتزاز المرهق الذى يعمد إليه الإيطاليون ، وانا أرى أن هذا المسلك الأخير هو الذى سترتضيه معظم البلدان .

وخلف مارتن على كرسى البابوية راهب فرانشسكانى صالح تقى غير أهل لتصريف الأمور فوجد أمامه المشاكل التى تجمعت حول الكرسى الرسولى . لقد كان على البابوية أن تحكم ولايات دنيوية وان تحكم الكنيسة الدينية ، وكان على البابوات أن يكونوا رجال سياسة ملمين بشئون الدنيا ولم يكونوا قديسين فحسب . ولسنا ننكر أن يوجينوس الرابع كان يستطيع أن يكون قديساً لو أن متاعبه لم تملأ قلبه حقداً . فقد حدث فى السنة الأولى من ولايته أن عاد مجلس بازل فأكد من جديد سيادة المجالس العامة على البابوات واستحوذ على ماكان للبابوية من وظائف تمارسها من عهد طويل فنقلها إليه واحدة بعد واحدة . من ذلك أنه أخذ يصدر صكوك الغفران ويعين من يشغلون المناصب العامة ويطلب أن ترسل بواكير المرتبات الدينية إلى المجلس لا إلى البابا . فما كان من يوجينوس إلا أن أمر المجلس بالانفضاض ، فرد عليه المجلس بأن خلعه وعين أماديوس الثامن دوق سافوى بابا معارضاً باسم فلكس الخامس (١٤٣٩) .وهكذا تجدد الانقسام البابوى .

وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم ما خيل إليه أنه هزيمة للبابوية فدعا إلى الانعقاد جمعية مؤلفة من الأساقفة الفرنسيين والنبلاء والمحامين

أعلنت أن للمجالس العامة السلطة العليا وأصدرت قرار بورج التنظيمى (١٤٣٨) الذى ينص على أن الوظائف الدينية ستشغل من ذلك الوقت بمن يختاره لها رجال الدين المحليون ، على أنه يجوز للملك أن « يوصى » فى ذلك بما يراه ، وأن يحرم رفع الاستئناف إلى المحكمة البابويه إلا إذا استنفذت جميع الطرق القضائية فى فرنسا نفسها ، ولا ترسل بعدئذ بواكير مرتبات الوظائف الدينية إلى البابا . وكان معنى هذا فى الواقع أن القرار التنظيمى قد أنشأ كنيسة فرنسية مستقلة وجعل ملك فرنسا رئيس هذه الكنيسة . وبعد عام من ذلك الوقت اتخذت جميعة منبز قرارات تهدف إلى إقامة كنيسة قومية فى ألمانيا شبيهة بالكنيسة الفرنسية . وكانت بوهيميا قد انفصلت من قبل عن البابوية ولاح أن الكنيسة الرومانية توشك أن تنهار .

وأنقذ الأتراك يوجينيوس من هذا الموقف الحرج . ذلك أنه لما قرب العثمانيون من القسطنطينية قررت الحكومة البيزنطية أن عاصمة الدولة خليقة بقداس رومانى ، وأن عودة المذهبين اليونانى واللاتينى إلى الاتحاد ضرورة لا بد منها للحصول على المعونة العسكرية أو المالية من أوربا الغربية . ولهذا جاء الأساقفة والنبلاء اليونان فى مواكب فخمة إلى فيرارا ثم انتقلوا إلى فلورنس ليلتقوا برجال الكنيسة الرومانية الذين استدعاهم البابا لهذا الغرض (١٤٣٨) . وقضى الطرفان فى الأخذ والرد عاماً كاملا وصلا بعده إلى اتفاق اعترفت فيه بسلطة الرئيس الدينى فى روما على جميع العالم المسيحى ، ولما حل اليوم السادس من شهر يوليو عام ١٤٣٩ ركع جميع أعضاء المؤتمر وعلى رأسهم إمبراطور الروم نفسه أمام يوجينيوس الذى خيل إلى العالم منذ وقت قريب أنه الرجل الذى نبذته المسيحية واحتقرته أشد الاحتقار ، على أن هذا الاتفاق لم يطل عهده لأن رجال الدين اليونان وغير رجال الدين فى تلك البلاد نكثوا عهدهم ، لكنه مع هذا أعاد إلى البابوية مكانتها وساعد على القضاء على الانقسام البابوى الجديد وعلى مجلس بازل .

وتلا ذلك قيام طائفة من البابوات الأقوياء خلف بعضهم بعضاً أغنتهم ورفعت من مقامهم النهضة الإيطالية ، فرفعوا البابوية إلى درجة من الفخامة لم تشهد مثلهامن قبل حتى فى أيام أنوسنت الثالث ذلك البابا الفخور . ونال نقولاس الخامس إعجاب الكتاب الإنسانيين بأن وجه إيراد الكنيسة إلى مناصرة العلم والفن ، وبدأ كلكستس الثالث تلك العادة الظريفة عادة منح الوظائف الدينية للأقارب ، وهى التى كانت مصدراً خصباً للفساد فى الكنيسة . وكافح بيوس الثانى ، الذى كان مؤلفاً نابهاً وبابا عظيما ، لإصلاح الإدارة البابوية والأديرة ، وألف لجنة من كبار رجال الدين المشهود لهم بالاستقامة والتقوى لدراسة معايب الكنيسة واعترف لهذه اللجنة فى صراحة بأن :

أمرين هما أقرب الأمور إلى قلبه ، حرب الترك وإصلاح البلاط الرومانى ، وأن إصلاح الأمور الكنسية كلها ، وهو ما اعتزم المضى فيه ، ليتوقف كله على إصلاح أحوال البلاط البابوى الذى أريد أن يكون مثلا يحتذى . وفى عزمى أن ابدأ بإصلاح أخلاق رجال الدين فى هذا البلد وان أقضى على كل ما فيه من بيع الوظائف الدينية وغير ذلك من المساوئ[١] .

وأصدرت اللجنة توصيات تحمد عليها وصاغ بيوس هذه التوصيات فى مرسوم بابوى . لكن روما لم يكن فيها إلا القليل ممن يريدون الإصلاح لأن نصف من كان فيها من الموظفين والكبراء كان يستفيد من هذا العيب أو ذاك ، ولهذا أحبط الحقد وأحبطت المقاومة السلبية أعمال بيوس بينما كانت الحرب الصليبية العقيم التى شنها على الأتراك ثمة تشغل باله وتستنفد قواه وماله . وقد وجه قبيل آخر ولايته نداء أخيراً إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس أننا نسعى فى حياتنا وراء اللذة ونكدس الثروة ، ونتصف بالكبرياء والغطرسة ، ونمتطى صهوة البغال الثمينة والجياد المطهمة . . ، ونربى الكلاب للصيد ، وننفق المال الكثير على الممثلين والطفيليين ،ولاننفق

شيئاً منه للدفاع عن الدين . وإن فيما يقولون لبعض الحق ، ذلك أن كثيرين من الكرادلة وغيرهم من الموظفين فى بلاطنا يعيشون هذه المعيشة أونحوها . وإذا أردتم الحق فإن ما فى بلاطنا من ترف وتباه ليزيد على الحد الواجب . ومن أجل هذا ترى الناس يبغضوننا ويحقدون علينا فيمنعهم ذلك من الاستماع إلينا وان قلنا ما هو عدل يرتضيه العقل . فماذا ترون أن نفعل فى هذه الأمور التى تجللنا بالعار ؟ . . ان علينا أن نبحث عن الوسائل التى اتبعها أسلافنا فنالوا للكنيسة السلطة — والاحترام وعلينا بعدئذ أن نحتفظ بهذه السلطة بتلك الوسائل نفسها . وما من شك فى أن الذى رفع من شأن الكنيسة الرومانية وجعل لها السيادة على العالم أجمع إنما هو الاعتداد ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين . . واحتقار الدنيا ، والرغبة فى الاستشهاد(١٥) .

وأخذت رذائل البلاط البابوى تزداد كلما قرب القرن الخامس عشر من نهايته على الرغم من الجهود التى بذلها بابوات من أمثال نقولاس الخامس وبيوس الثانى وما بذله الصالحون من رجال الدين أمثال الكردنالين جوليانو سيزاريتى ونقولاس الكوزائى(١٦) فكان بولس الثانى يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصر عظيم ، وجعل سكتس الرابع ابن أخيه من أصحاب الملايين ، وأقحم نفسه فى ميدان السياسة ، وبارك المدفع الذى يحارب به وقائعه ، وحصل على المال اللازم لحروبه ببيع المناصب الدينية إلى من يؤدى فيها أكبر الأثمان ، واحتفل أنوسنت الثامن بزواج أبنائه فى قصر الفاتيكان . وكان اسكندر السادس يرى أن بقاء رجال الدين بلا زواج خطأ يجب الإقلاع عنه كما كان يراه لوثر وكلفن ، وكان له خمسة أبناء أو أكثر قبل أن يلتزم العفة وهو بابا ، ولم ير رجال عصره فيما كان يتصف به من مرح وعدم استعفاف ما يؤخذ عليه كما قد يظن الناس ، ذلك بأن الناس لم يكونوا يرون فيما يلجأ إليه رجال الدين سراً من علاقات غرامية أمراً غير مألوف ، وكان كل ما تأخذه أوربا على إسكندر السادس هو سياسته الخارجية التى

لا يرعى فيها إلا ولا ذمة وما تأخذه على سيزارى بورجيا هو قسوته فى حروبه وأنه استرد للبابوية ولايتها وزاد الكرسى الرسولى قوة وأمده بالكثير من المال الذى يحتاجه . وقد اتبع آل بورجيا فى هذه الخطط السياسية والمعارك الحربية جميع الخطط الحربية وأساليب الغدر وسفك الدماء التى صاغها مكيافلى بعد قليل من ذلك الوقت فى كتاب الأمير (١٥١٣) وقال أنها لا غنى عنها لتأسيس دولة قوية أو لتوحيد إيطاليا . وفاق البابا يوليوس الثانى سيزارى بورجيا فيما شنه من الحروب على البندقية النهمة الجشعة وعلى الفرنسيين الغزاة ، وكان يفر كلما استطاع من سجن الفاتيكان ، ويقود جيشه بنفسه ويحب الحياة الصعبة والحديث الخشن فى المعسكرات الحربية . وهال أوربا أن ترى أن البابوية لا تكتفى بأن تصبح سلطة زمنية فحسب ، بل ان تصبح فوق ذلك قوة عسكرية ، غير أنها مع ذلك لم يكن يسعها إلا أن تعجب بعض الإعجاب بقوة ذلك المحارب الذى أخطأت المقادير فجعلته بابا ، وترامت الأنباء وراء جبال الألب عما كان يقدمه يوليوس من معونة للفن ومناصرة للممتازين من الفنانين أمثال رفائيل وميكل انجلو وكان يوليوس هو الذى بدأ بناء كنيسة القديس بطرس الجديدة ، وأول من منح صكوك الغفران للذين أسهموا فى نفقات بنائها . وفى أيام ولايته قدم لوثر إلى رومة وأبصر بعينيه المظالم . ذلك الاسم الذى أطلقه لورنزو ده ميدتيشى على عاصمة العالم المسيحى . لم يعد فى أوربا حاكم يرى أن البابوية حكومة أخلاقية فوق الحكومات كلها تؤلف من الأمم كلها دولة مسيحية واحدة ، وذلك لأن البابوية نفسها بعد أن صارت دولة دنيوية قد اصطبغت بالصبغة القومية . وتقطعت أوصال أوربا ، كما تتطلب ذلك العقيدة الجديدة إلى أقسام صغيرة قومية لا تعترف بقانون أخلاقى منزل أودولى وتردت فى الحروب بين مختلف أقسام المسيحية ودامت خمسة قرون .

وإذا أردنا أن نصدر حكماً عادلا على بابوات النهضة هؤلاء فإن علينا

أن ننظر إليهم فى ضوء الظروف المحيطة بهم فى أيامهم ، لقد كان فى وسع شمالى أوربا أن تحس بأخطائهم لأنها كانت تمدهم بالمال ولكن الذين عرفوا ماكانت تفيض به إيطاليا بين عهدى نقولاس الخامس (١٤٤٧– ١٤٥٥)— ولو العاشر (١٥١٣) (١٥٢١) هم وحدهم الذين كانوا ينظرون إليها بعين التسامح ذلك أن أكثرهم قد ارتضوا عقيدة النهضة القائلة ان العالم وان كان مسرحاً للدموع والمغويات الشيطانية يمكن أن يكون أيضاً منظراً ذا جمال وحياة قوية عارمة وسعادة سريعة الزوال عابرة وان كان بعضهم صالحين أتقياء . ولم يكونوا يرون عيباً فى أن يستمتعوا بنعيم الحياة والبابوية مجتمعين .

ولم تكن تنقصهم الفضائل . فقد بذلوا جهدهم كى يخلصوا رومة من القبح والأقذار التى تردت إليها أثناء غياب البابوات فى أفنيون . لقد جففوا المستنقعات (لا بأيديهم هم بل بأيدى غيرهم وهم مستريحون) ورصفوا الشوارع ، وأعادوا بناء الجسور ومهدوا الطرق ، وأصلحوا موارد مياه الشرب وأنشأوا مكتبة الفاتيكان ومتحف الكابيتول ، ووسعوا المستشفيات ، ووزعوا الصدقات وبنوا الكنائس أورمموها ، وجملوا المدينة بالقصور والحدائق ، وأعادوا تنظيم جامعة رومة ، وأعانوا الكتاب الإنسانيين على إحياء الآداب والفلسفة والفنون الوثنية القديمة وهيأ وا الأعمال للمصورين والمثالين والمهندسين المعماريين الذين خلفوا وراءهم من الأعمال ما هو تراث خالد ثمين لجميع بنى الإنسان . وإذا كانوا قد بددوا الملايين ، فإنهم قد أنفقوا ملايين مثلها فى أعمال البناء والتعمير . ولسنا ننكر أنهم انفقوا فى بناء كنيسة القديس بطرس الجديدة أكثر مما كانت تطيقه موارد البلاد ولكن ما أنفقوه عليها ليس أكثر نسبياً مما أنفقه ملوك فرنسا فيما بعد على قصور فونتيه بلووفرساى واللوار ، ولعلهم كانوا يظنون وقتئذ أنهم لا يفعلون

أكثر من تحويل فئات الأموال السريعة الزوال إلى مجد خالد للشعوب ولربهم. وكان معظم أولئك البابوات فى حياتهم الخاصة يعيشون عيشة البساطة ومنهم مثل (الإسكندر السادس) من كان يعيش زاهداً متقشفاً ولايظهر بمظهر الترف والضخامة إلا لأن ذلك يتطلبه ذوق الشعب وعاداته وبذلك رفعوا البابوية إلى ذروة الجلال والسلطان بعد أن أضحت معدمة معرضة للسخرية والازدراء؛

الفصل الرابع

البيئة المتغيرة

وبينما كانت الكنيسة يبدو عليها أنها آخذة فى استعادة مجدها وسلطانها ، كان يحدث فى أوربا تغير اقتصادى وسياسى وعقلى يعمل بالتدريج على تقويض صرح المسيحية اللاتينية .

ذلك أن الدين يزدهر عادة فى ظل النظام الزراعى على حين أن العلم يزدهر فى ظل الاقتصاد الصناعي فكل حصاد معجزة من المعجزات فى الأرض ونزوة من نزوات الجو ، والفلاح الحقير الخاضع لسلطان الجو والذى ينهكه الكدح ، يرى من حوله قوات خارقة للعادة فى كل مكان ، ويوجه الدعوات والصلوات إلى السماء يسترضيها ويستميلها إليه ، ويرتضى الخضوع لنظام دينى إقطاعى يتدرج ولاؤه فيه من السيد المالك إلى الملك إلى الله . أما الصانع فى المدينة والتاجر وصاحب المصنع وذو المال فيعيشون فى عالم من الأرقام يحسبون فيه العمليات والكميات والأسباب المادية والنتائج المرتقبة العادية . وتهيىء الآلة ومنضدة العد والحساب عقولهم لأن يروا حكم (القانون الطبيعى) يبسط سلطانه على أرجاء آخذة فى الاتساع . وكان نمو الصناعة والتجارة وتكدس الأموال أثناء القرن الخامس عشر وانتقال العمال من الريف إلى المدن وقيام طبقة التجار واتساع دائرة الاقتصاد من البيئة الصنفية المحلية حتى أصبح اقتصاداً قومياً ثم دولياً — كل هذا كان نذير شؤم للدين الذى كان يوائم أشد المواءمة نظام الاقطاع وما يطرأ على الحقول من تقلبات تبعث فى النفس الكآبة والقنوط . وأخذ رجال الأعمال يحطمون القيود التى يفرضها عليهم رجال الدين كما نبذوا من قبل الضرائب التى يفرضها

سادة الإقطاع ، وكان لابد للكنيسة أن ترضى بشيء من الشعوذة اللاهوتية المكشوفة إلى ما تحتمه ضرورة الأيام من فرض فوائدعلى القروض إذا كان لابد لرؤوس الأموال أن تستخدم فى توسيع دائرة الصناعة والمشروعات المالية ، وما وافى عام ١٥٠٠ حتى أصبح الناس يتجاهلون أوامر الكنيسة القاضية بتحريم «الربا» . ثم حل المحامون ورجال الأعمال شيئاً فشيئاً محل رجال الدين والأعمال فى إدارة أعمال الحكومة ، وأخذ القانون نفسه ، بعد أن ظفر باسترداد تقاليده ومكانته اللتين كانتا له فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، يسبق النظم الأخرى فى الانتقال من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ويعتدى يوماً بعد يوم على نظم الحياة الكنسية التى كانت تخضع من قبل للقوانين الدينية وزادت سلطة المحاكم الزمنية واضمحلت سلطة محاكم الابرشيات .

وأخذت الدول الملكية الناشئة بعد أن بلغت طور الشباب وازداد ثراؤها بفضل ما تجمع لها من المال من التجارة والصناعة ، أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من سيطرة الكنيسة وأخذ الملوك يعارضون فى وجود المندوب البابوى أو القاصد الرسولى فى بلادهم لأنه لم يكن يعترف بسلطان غير سلطان البابا وبذلك جعل كنيسة كل أمة دولة داخل دولة . من أجل ذلك ضيقت القوانين التى صدرت فى انجلترا عام ١٣٥١ و١٣٥٣ أشد التضييق سلطات رجال الدين فى شئون الاقتصاد والقضاء . وفى فرنسا احتفظ الملوك بعد إلغاء قرار بورج التنظيمى من الوجهة النظرية فى عام ١٥١٦ بحقه فى ترشيح كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار رهبانها[١٧] وأصرت دولة البندقية على أن تعين هى من يشغلون المناصب الكنسية العالية فى الأقاليم التابعة لها . وغلب فرديناند وإيزابيلا البابوات على أمرهم فانتزعوا منهم حق تعيين من يشغلون كثيراً من المناصب الدينية الشاغرة فى أسبانيا وفى الإمبراطورية الرومانية المقدسة حيث استمسك جريجورى السابع بحق البابوات فى تعيين رجال الدين رغم معارضة هنرى الرابع ، سلم سكستس

الرابع إلى الأباطرة بحقهم فى تعيين ثلاثمائة ممن يشغلون المناصب الدينية وتعيين سبعة أساقفة وكثيراً ماكان الملوك يسيئون استخدام هذه السلطات.

فكانوا يعينون فى مناصب الكنيسة من يميلون إليهم من رجال السياسة وكان هؤلاء يستحوذون على إيراد الأديرة وأملاك الكنيسة ولكنهم كانوا يتجاهلون ما عليهم من التبعات(١٨) وإن كثيراً من المفاسد الكنسية ليعزى أصلها إلى من كانوا يشغلون هذه المناصب الكنسية من غير رجال الدين.

وكانت البيئة العقلية فى الكنيسة نفسها فى هذه الأثناء آخذة فى التغير تغيراً ينذرها بأشد الأخطار. نعم إنها كانت لاتزال تخرج علماء مجدين ذوى ضمائر حية ، ولكن المدارس والجامعات التى أنشأتها هى من قبل كانت قد أخرجت أقلية من الرجال المتعلمين لم تكن آراؤهم مما يرضى على الدوام القديسين. فها هو ذا القديس برناردينو يقول حوالى عام ١٤٢٠ :

إن كثيراً من الناس إذا ما نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات وغير هؤلاء من رجال الدين لتشمئز نفوسهم ، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم ، فلا يؤمنون بشيء أعلى من أسقف منازلهم ولا يرون أن ما ورد فى الكتب عن الدين صادق صحيح بل يعتقدون أنه من اختراع الآدميين وليس وحياً من عند الله .. فهم يحتقرون القربان المقدس ولا يؤمنون بوجود الروح ولا يخشون عذاب النار ولايرغبون فى نعيم الجنة ، بل إن أهم ما تتعلق به قلوبهم هو الأشياء الزائلة ويعملون على أن يكون هذا العالم الأرضى هو جنتهم(١٩)

وأكبر الظن أن طبقة رجال الأعمال كانت أقل الطبقات صلاحاً واستمساكاً بالدين ، ذلك أن الدين يضمحل على الدوام كلما زاد الثراء . فجوور (١٣٢٥ — ١٤٠٨) يقول ان تجار انجلترا قلما يعنون بالحياة الآخرة ويقولون إن من يستطيع الحصول على نعم هذه الحياة ثم يتركها تفلت من يده فهو إنسان أبله فما من أحد يعرف أين يذهب بعد الموت أومن أى طريق

تذهب[٢٠] ، يضاف إلى هذا أن إخفاق الحروب الصليبية قد خلف فى النفوس دهشة أخذت تتناقص على مهل يقول أصحابها كيف سمح رب المسيحية بأن ينتصر الإسلام وكان استيلاء الأتراك على القسطنطينية مما قوى هذه الشكوك ، وكانت كتابات نقولاس الكوزانى ١٤٣٢ ولورند سوفلا ١٤٣٩ التى قالا فيها إن « هبة قسطنطين » زيف وزور ، مما حط من مكانة الكنيسة وأضعف ما تدعيه لنفسها من سلطان زمنى . وفوق هذا كله فإن اكتشاف الكتب اليونانية والرومانية القديمة ونشرها كان سبباً فى تقوية الشكوك لأنه كشف عن عالم من العلوم والفنون ازدهرت قبل مولد الكنيسة المسيحية وهى التى أنكرت فى مجلس لاتيران الخامس ١٥١٢ — ١٥١٧ إن النجاة غير مستطاعة خارج حظيرتها[٢١] كذلك أزاح كشف أمريكا وارتياد بلاد الشرق ارتياداً آخذاً فى الاتساع ، أزاح هذا وذاك الستار عن مائة أمة كانت ترفض الإيمان بالمسيح أو تتجاهله وكانت لها أديان أخرى لا تقل عن المسيحية إيجابية أو تأثيراً من الناحية الخلقية وجاء الرحالة العائدون من بلاد « الكفرة » ببعض العقائد والطقوس التى أخذت تنازع العبادات والعقائد المسيحية فأخذت هذه العقائد المتنافسة تصطرع فى الأسواق وفى الثغور.

ثم إن الفلسفة نفسها التى كانت فى القرن السادس عشر خاضعة لسلطان الدين وخادمة طيعة له همها كله أن تجد أسباباً يقبلها العقل لمبادئ الدين القويم ، قد حررت نفسها فى القرن الرابع عشر على أيدى وليام الأوكهامى ومرسليوس من أهل بدوا وأصبحت فى القرن السادس عشر فلسفة زمنية جريئة تجهر بتشككها بقيادة بمبونتسى ومكيافلى وجوتشياردين . وقد أذاع مكيافلى قبل أن يكتب لوثر رسالته بأربع سنين نبوءة فزع منها القوم قال :

لو أن الدين المسيحى قد احتفظ به كما صدر عن مؤسسه لكانت دول العالم المسيحى أكثر اتحاداً وأعظم سعادة مما هى الآن وليس أدل على ضعفه

من أن أقرب الناس إلى الكنيسة الرومانية التى هى صاحبة السلطة العليا فى هذا الدين هم أقل الناس تديناً . وان من ينعم النظر فى المبادئ التى يقوم عليها هذا الدين ويرى ما بين هذه المبادئ وبين شعائرها الحاضرة وعباداتها من فرق كبير ليحكم من فوره بأن انهيارها أويوم القصاص منها لآت عن قريب » .

الفصل الخامس

ما يؤخذ على الكنيسة

هل لنا أن نعيد هنا ذكرى التهم التي يوجهها الكاثوليك المخلصون إلى الكنيسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؟ إن أول هذه التهم وأشدها هي أنها كانت تحب المال وأنه كان لها منه أكثر مما يليق بها إذا أرادت لنفسها(*) الخير وقد وجه مجلس نورنبرج في عام ١٥٢٢ مائة تهمة منها أنها تمتلك نصف ثروة ألمانيا(٢٣) وقد قدر مؤرخ كاثوليكي نصيب الكنيسة بثلث أموال ألمانيا وخمس أموال فرنسا(٢٤) ولكن مدعياً عمومياً في برلمان فرنسا قدر ثروة الكنيسة في عام ١٥٠٢ بثلاثة أرباع أموال فرنسا كلها(٢٥) على أننا ليس لدينا من الإحصاءات ما نرجع إليـــه في هذه التقديرات أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة بطبيعة الحال كان ملكاً للكنيسة ونعني به الولايات البابوية ، هذا فضلا عما كان لها من الأملاك القيمة في غير تلك الولايات(**) .

وكان لتجمع الثروة في يد الكنيسة ستة أسباب . أولها أن معظم من كانوا يوصون بأموالهم عند وفاتهم كانوا يتركون لها بعض المال وقاية لهم من نار جهنم ، وإذا كانت الكنيسة هي التي تشرف على عمل الوصايا وإثباتها فإن

(*) يقول باستور في كتابه تاريخ البابوات الجزء السابع ص ٢٩٣ ما يأتي :
ان من أسباب سقوط الكنيسة الألمانية ثراءها الفاحش الذي كانت زيادته غير المشروعة مما أثار حسد غير رجال الدين وبغضهم كما كان له أسوأ الأثر في رجال الكنيسة أنفسهم .

(**) ان معظم الكفايات في أي مجتمع تنحصر في عدد قليل من الرجال ولهذا فإن معظم الطيبات والامتيازات والسلطات تستحوذ عليها ان عاجلا أو آجلا أقلية من الرجال . ولقد تجمعت الثروة في يد الكنيسة في العصور الوسطى لأنها كانت تقوم بأعمال خطيرة وكان يقوم على خدمتها أقدر الرجال . وكان الإصلاح الديني من بعض نواحيه عبارة عن إعادة توزيع هذه الثروة التي تركزت بطبيعة الحال وذلك باستيلاء غير رجال الدين على ثروة الكنيسة وإيراداتها .

رجالها كانوا فى وضع يمكنهم من تشجيع أمثال هذه الوصايا . وثانيها ان أملاك الكنيسة كانت أكثر أماناً من كل ما عداها من انتهاب اللصوص والجنود والحكومات ، ولهذا فإن بعض الناس كانوا ينزلون عن أراضيهم للكنيسة ليأمنوا عليها من ذلك النهب ثم يتملكونها هم منها بوصفهم عمالا للكنيسة عليها على أن يؤول كل ما لهم من حقوق إلى الكنيسة بعد موتهم . ومنهم من كان يوصى ببعض أمواله أوبها كلها للكنيسة مشترطين ان تمدهم بما يلزمهم فى حالتى المرض والشيخوخة فكانت الكنيسة بذلك تضمن لهم أماناً من الفقر فى حالة العجز عن الكسب . وثالث هذه الأسباب أن الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية قد باعوا إلى الهيئات الدينية أرضهم أورهنوها لها أونزلوا لها عنها كى يحصلوا على ما يلزمهم من المال فى مغامرتهم . ورابع هذه الأسباب ان مئات الآلاف من الأفدنة قد آلت إلى الكنيسة لأن طوائف الرهبان هى التى أصلحتها . وخامسها ان ما تمتلكه الكنيسة من الأرض لا يمكن ان ينتقل إلى غيرها — فلا يمكن أن يبيعه أو ينزل عنه أحد من رجالها إلا بوسائل غاية فى التعقيد تجعل هذا فى حكم المستحيل . وآخر هذه الأسباب ان أملاك الكنيسة كانت فى العادة معفاة من الضرائب التى تفرضها الدولة على سائر الأملاك وإن كان بعض الملوك يرغمون رجال الدين على أداء بعض الأتاوات أو يجدون ذرائع قانونية لمصادرة أجزاء من ثروة الكنيسة غير مبالين بما يصبه عليهم رجال الدين من اللعنات ، ولو أن أملاك الكنيسة أو الإيراد الناتج منها أو التبرعات التى لا حصر لها والتى كانت ترد إليها من المؤمنين برسالتها قد بقيت داخل حدود البلاد التى ينتمى إليها المتبرعون أو التى توجد فيها هذه الأملاك لكان تذمر الحكام فى أوربا الشمالية أقل شدة مما شاهدناه ، أما وان هذه الثروة لم تبق داخل تلك الحدود فإن منظر الذهب الذى كان ينساب بآلاف الطرق من أوربا الشمالية إلى رومة كان مما يثير حنق هؤلاء الحكام .

أما الكنيسة فقد كانت تحسب أنها العامل الأكبر فى المحافظة على الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والتربية والأدب ، والعلم ، والفن ، وكانت الدولة تعتمد عليها فى القيام بهذه المهام ، وكان القيام بها يتطلب نظاماً واسعاً كثير النفقة ، وكان لابد لها فى الحصول على هذا المال من أن تفرض الضرائب وتجبى الرسوم ، ذلك أن الكنيسة هى الأخرى لا يمكن أن تحكم بالصلوات والأدعية . وكان كثير من الأساقفة حكاماً مدنيين وكنسيين فى أقاليمهم ، وكانت السلطات غير الدينية هى التى تعين معظم أولئك الأساقفة تختارهم من بين أعيان البلاد الذين اعتادوا معيشة الترف والتحرر من قيود الأخلاق ، فكانوا يفرضون الضرائب وينفقون مواردها كما يفعل الأمراء وكانوا أحياناً يجللون بالعار ذكرى القديسين بارتداء الدروع وقيادة الجند فى الحروب . وقلما كان الكرادلة يختارون لتدينهم وتقواهم بل كانوا يختارون عادة لثروتهم أو لصلاتهم السياسية أو لكفايتهم الإدارية ، ولم يكونوا يرون أنفسهم رهباناً مقيدين بأيمان أقسموها وإنما كانوا يرون أنفسهم شيوخاً ورجال سياسة فى دولة غنية قوية ، ولم يكونوا فى كثير من الأحيان قساوسة ، ولم يكونوا يسمحون لقلانسهم الحمراء أن تحول بينهم وبين الاستمتاع بمباهج الحياة[٢٦] وقصارى القول أن الكنيسة قد أنستها حاجات السلطة وما يلزمها من المال ما كان عليه الرسل الأولون من زهد وفقر.

وإذا كان خدم الكنيسة رجال دنيا لا رجال دين فإنهم لم يكونوا فى كثير من الأحيان يقلون جشعاً عن موظفى الحكومات فى أيامهم . فقد كان الفساد قانون ذلك العصر وطبيعة أهله ، وكانت المحاكم المدنية تشترى بالمال ولسنا نجد فى انتخاب البابوات كلهم ما يضارع فى الرشوة ما حدث فى انتخاب شارل الخامس امبراطوراً . وإذا ما استثنينا هذا الانتخاب وحده فإن أضخم الرشاوى فى أوربا هى التى كانت تقدم إلى محاكم رومة[٢٧] لقد كانت رسوم معقولة محددة تفرض نظير الخدمات التى تقوم بها المحكمة

البابوية العليا ، ولكن جشع موظفيها رفع هذه الرسوم إلى أكثر من قيمتها القانونية عشرين ضعفاً[٢٨] وكان من المستطاع التحلل من الأوامر الدينية كلها تقريباً وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن غفرانها إذا كان الثمن الذى يؤدى لذلك مغرياً . وليس أدل على ذلك من أن اينياس سلفيوس كتب قبل أن يجلس على كرسى البابوية يقول إن كل شىء فى رومة يباع بالمال وان لا شىء فيها يمكن الحصول عليه بغير المال [٢٩] وأشد من هذا ما قاله سفنرولا بعد جيل من ذلك الوقت بشىء من المبالغة التى تصحب الغضب على الدوام ، وهو وصف كنيسة رومة بأنها عاهر تبيع نفسها بالمال [٣٠] ومثل هذا ما قاله ارزمس بعد جيل آخر وهو « ان العار الذى يجلل المحكمة البابوية العليا قد وصل إلى ذروته[٣١] » . ثم انظر إلى ما كتبه بستور ، إن الفساد المتأصل قد استحوذ على جميع موظفى الإدارة البابوية كلهم تقريباً... فالهبات التى لا يحصى عددها واغتصاب الأموال بمختلف الأساليب قد فاق كل ما يتصوره العقل يضاف إلى هذا أن الموظفين أنفسهم كانوا يزورون العقود ويتبادلونها . فلا عجب والحالة هذه إذا علت الشكوى من جميع أجزاء العالم المسيحى مما كان يرتكبه الموظفون البابويون من رشوة وفساد واغتصاب للأموال[٣٢] .

ولم يكن مألوفاً أن يرقى ذوو الكفايات المعدمون فى مناصب الكنيسة فى القرن الخامس عشر ، فقد كان كل منصب تقريباً يتطلب رشوة الموظفين الأعلين فيها رشاوى تختلف بين المبالغ الصغيرة لنيل منصب القساوسة ، والرشاوى الضخمة التى يؤديها كثير من الكرادلة لكى يرقوا إلى هذا المنصب لما يتطلب التملق الخفى للأعلياء . وكان من الأساليب المحببة للبابوات لجمع المال بيعهم مناصب الكنيسة ، وكان هذا فى عرف البابوات هو تعيين أشخاص يرجى أن يسهموا بالكثير من المال فيما تحتاجه الكنيسة من نفقات بمنحهم ألقاب شرف فخرية قد تصل إلى لقب الكردنال نفسه : من ذلك

ان اسكندر السادس أنشأ ثمانين منصباً جديداً وقبض ٧٦٠ دوقة (١٩٠٠٠ دولار) من كل شخص عين فى منصب من هذه المناصب . وأنشأ يوليوس الثانى «مجمعاً» أو مكتباً مؤلفاً من ١٠١ أمين أدوا له مجتمعين ٢٤٠٠٠ دوقة ثمناً لهذه المناصب ، ورشح ليو العاشر ٦٠ من الحجاب و١٤١ من الأتباع فى القصر البابوى واستحوذ منهم على ٢٠٢٠٠٠ [٣٣] دوقة وكان معطى هذا المال وآخذه يرون أن الأموال التى تبتاع بها هذه المناصب ليست إلا أقساطاً ثانوية فى عقود تأمين ، أما لوثر فلم يكن يرى فيها إلا أنها بيع من أدنأ البيوع للمناصب الكنسية .

وكان صاحب المنصب فى آلاف من الأحوال يعيش بعيداً عن مقر منصبه — الابرشية أو الدير أو الأسقفية — التى كان إيرادها ثمناً لكدحه أووسيلة لترفه وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يكون شخص واحد هو القائم بالعمل فى كثير من هذه المناصب. من ذلك مثلا ان الكردنال رودريجو بورجيا النشيط (الذى صارفيما بعد اسكندر السادس) قد وهب عدة مناصب مختلفة كانت تدر عليه ٧٠٠٠٠ دوقة (١,٧٥٠,٠٠٠ دولار) فى العام وأن عدوه الألد الكردنال دلاروفيرى (الذى صار فيما بعد يوليوس الثانى) قد كان فى وقت واحد كبير أساقفة افنيون واسقفا لبولونيا ولوزان وكوتانس ، وقفير ، ومندى واستيا ونيليتورى ورئيساً لديرى نونانتولا وجروتا فراتا[٣٤] . كان فى وسع الكنيسة بالجمع بين هذه المناصب أن تؤدى مرتبات كبار موظفيها التنفيذيين وان تنفح بالهبات السخية فى كثير من الأحيان الشعراء والعلماء وطلاب العلم . وها هو ذا بترارك الناقد الشديد لبابوات افنيون كان يعيش من مرتبات المناصب الهينة المجزية التى منحه إياها أولئك البابوات ، وها هو ذا ارازمس الذى سخر من مئات السخافات الكنسية وهجاها الهجو اللاذع كان يقبض معاشاً منتظما من الكنيسة ، وكوبر نيكاس الذى أصاب كنيسة العصر الوسطى بأعظم الأضرار قد ظل سنين

طوالا يعيش من أموال الكنيسة التى لم تكن تتطلب منه إلا القليل من الأعمال التى تحول بينه وبين أعماله العلمية[٣٥] .

ولم يكن هذا التعدد فى المناصب أخطر التهم التى وجهت للكنيسة بل كان أخطر منه ما اتهم به رجال الدين من فساد فى الأخلاق . وها هو ذا واحد منهم هو أسقف تورشيلو(١٤٥٨) يقول : ان أخلاق رجال الدين فاسدة يشمئز منها العلمانيون[٣٦] . وأصبح المنتمون إلى طوائف الرهبان الأربع التى أسست فى القرن الثالث عشر — وهى طوائف الفرانشيسكان والدمنيك ورهبان الكرمل ، والاوغسطينيين أصبح المنتمون إلى هذه الطوائف كلها ما عدا الأخيرة منها مستهترين فى أخلاقهم شديدى الاستخفاف مما يتطلبه مركزهم من تقى وحسن نظام » . وقد تبين أن قواعد الأديرة التى وضعها منشئوها الأولون المتحمسون أشد مما تطيقه الطبيعة البشرية التى أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من مخاوف ما وراء الطبيعة . وإذ كان آلاف الرهبان والإخوان قد استغنوا عن العمل اليدوى بفضل ما تجمع لهم من المال الكثير ، فقد أهمل هؤلاء الخدمات الدينية وخرجوا من صوامعهم يجوسون خلال الديار ، ويتعاطون الخمور فى الحانات ويتخذون لهم عشيقات. وها هو ذا راهب من الدمنيك يدعى جون بروميارد من رهبان القرن الرابع عشر يقول عن إخوانه الرهبان :

إن أولئك الذين من واجبهم أن يكونوا آباء للفقراء . . . يشتهون ألذ الطعام ، ويستمتعون بنوم الضحى . . . ويمنون على الناس بحضورهم صلاة الصباح أو القداس . . . وتراهم منهمكين فى الطعام والشراب إذا لم نقل فى الدنس والأقذار ، حتى لقد أصبحت مجامع رجال الدين مواخير للفجار ومجتمعات من مهرجين[٣٧] .

وكرر أرازمس تلك التهمة نفسها بعد مائة عام من ذلك الوقت فقال : « ان كثيراً من أديرة الرجال والنساء قلما تختلف عن المواخير العامة[٣٩] » .

ولسنا ننكر أن بترارك قد رسم صورة طيبة لما كان يسود دير الكرثوذيين الذى كان أخوه يعيش فيه من حسن نظام وتقى وأن كثيرا من الأديرة فى هولندا وغربى ألمانيا قد احتفظت بروح الدرس والصلاح التى تألفت على أساسها « طائفة إخوان الحياة العامة » وصدر منها كتاب التشبه بالمسيح ، ولكن نيوهانز تريتميوس ، ينس وايرسنهايم (حوالى ١٤٩٠) قد ندد برهبان هذا الجزء من ألمانيا المحيط بنهر الراين تنديداً عنيفاً أشد العنف فقال :

إن هؤلاء الرجال لا يبالون بالأيمان الدينية التى أقسموها . . فإنهم لم يعدوا قط بأن يبروا بها . . . فهم يقضون النهار كله فى الحديث القذر ويقضون وقتهم كله فى اللعب والتهام الطعام . . وإذا كانوا يمتلكون ثروة خاصة طائلة . . فإن كل واحد منهم يعيش فى مسكن خاص به . . وليس فيهم من يهاب الله قط أو يحبه . ولا يفكرون قط فى الحياة الآخرة ويؤثرون شهواتهم البدنية على مطالب الروح . . ويحتقرون ما أقسموا عليه من التزام الفقر ويجهلون يمين العفة وينقضون يمين الطاعة . . وإن رائحة أقذارهم لتحيط بهم من كل الجوانب(٤١) »

ولما أرسل جاى جوينو من قبل البابا لإصلاح أديرة البندكتيين فى فرنسا كتب بعد عودته تقريراً يبعث الغم والاكتئاب فى النفوس (١٥٠٣) قال فيه إن كثيراً من الرهبان يلعبون الميسر ويكثرون من السباب ، ويترددون على الحانات ، ويتسلحون بالسيوف ، ويجمعون الأموال « ويحيون حياة السكيرين » ، وهم أكثر تعلقاً بالدنيا من رجال الدنيا أنفسهم . . ولو أننى أردت أن أقص كل ما وقعت عليه عيناى لملأت بذلك صحفاً طوالا(٤٢) . وقد كانت نتيجة الفوضى المضطردة النماء فى الأديرة أن أهمل الكثير أعمال الصدقات والخدمة فى المستشفيات والقيام بشئون التعليم وهى الأعمال العظيمة الخليقة بالإعجاب التى استحقوا من أجلها ثقة الناس وتأييدهم(٤٣) . ويقول البابا ليو العاشر (١٥١٦) « لقد وصل اضطراب الأمور فى أديرة

فرنسا وحياة الاستهتار التى يحياها الرهبان إلى حد لم يبق لهم معه أى احترام عند الملوك أوالأمراء أو المتدينين من الناس[٤٤] ، وقد أجمل مؤرخ كاثوليكى وصف هذه المفاسد كلها كما رآها فى عام ١٤٩٠ ، ولعله كان مبالغاً بعض الشىء فى قسوته فقال :

اقرأ ما يفيض به ذلك العهد من أدلة وشواهد — طرائف تاريخية وتعنيف ينطق به رجال الأخلاق ، وهجاء يكتبه العلماء والشعراء ، ومراسيم بابوية ومجامع دينية مقدسة — ماذا تجد فى هذه كلها ؟ انك لتجد فيها نفس الحقائق ونفس الشكاوى . . التحرر من حياة الأديرة ومن النظام والأخلاق الكريمة وما أكثر ما تجد فى الأديرة من لصوص وفسقة ، وإذا شئت أن تدرك ما فى هذه الأديرة من فوضى فعليك أن تقرأ ما كشفت عنه البحوث القضائية من تفاصيل الحالة الداخلية للكثرة الغالبة من الأديرة الكبيرة . . . ولقد بلغت المساوئ المنتشرة فى أديرة الكرثوذيين درجة أصبحت معها هذه الأديرة مضرب المثل فى سوء السمعة فى كل مكان تقريباً . . أما أديرة الراهبات فقد اختفت فيها حياة الرهبنة عن آخرها . . . فاستحالت دور العبادة بسبب هذه المساوئ كلها بؤراً للفساد وسوء النظام[٤٥] .

أما رجال الدين غير المنتمين إلى طوائف الرهبان ، فكانوا خيراً من الرهبان والإخوان ، إذا تساهلنا فى عادة التسرى التى كانت شائعة بينهم ، وكانت أكبر آثام قسيس الابرشية هى جهله[٤٦] ولكنه لم يكن يتقاضى إلا القليل الذى لا غناء فيه من الأجر وكان يرهق بالعمل ومن أجل هذا لم يكن يجد من الوقت أوالمال ما يعينه على الدرس ، وتدل التقوى الشائعة بين عامة الشعب على أنه كثيراً ما كان محبوباً مبجلا . وكثيراً ما كان هؤلاء القساوسة يحنثون بقسمهم الكهنوتى على أن يلتزموا العفة والطهارة . ففى نورفولك بانجلترا مثلا نظرت المحاكم فى ثلاث وسبعين تهمة خاصة بعدم العفة فى عام ١٤٩٩ ، وكان منها [illegible] عشرة تهمة موجهة إلى رجال الدين ،

وفى ريبون كانت أربع وعشرون تهمة من ١٢٦ موجهة إلى رجال الدين ، وفى لامبث كانت تسع تهم من ثمان وخمسين موجهة إلى رجال الدين ، ومعنى هذا ان ثلاثاً وعشرين فى المائة من مجموع هذه التهم موجهة إليهم مع أن رجال الدين كلهم كانوا فى أغلب الظن أقل من اثنين فى المائة من مجموع السكان[٤٧] . ومن رجال الدين من كانت لهم صلات جنسية بالتائبات من النساء[٤٨] . وكان للآلاف من القساوسة حظايا ، وفى ألمانيا كان لهم كلهم تقريباً[٤٩] وفى رومة كان هذا هو الأمر المتبع المألوف ، وتقدر بعض التقارير عدد العاهرات فيها بسبعة آلاف من بين السكان الذين لم يكونوا يزيدون على مائة ألف[٥٠] . وها هو ذا مؤرخ كاثوليكي يقول :

لا غرابة وتلك حال أعلى طبقات رجال الدين أن تنتشر الرذيلة وينتشر الشذوذ باختلاف أنواعه بين طوائف الرهبان المنتظمة وبين القساوسة من غير الرهبان وان يزداد هذا الانتشار يوماً بعد يوم . قصارى القول أن الفضيلة قد فقدت معناها على وجه الأرض . . ولكن من الخطأ أن نظن أن فساد رجال الدين كان أسوأ فى رومة منه فى غيرها من المدن ، ذلك أن لدينا أدلة تثبتها الوثائق على فساد أخلاق القساوسة فى كل بلد تقريباً من بلدان شبه الجزيرة الإيطالية . . فلا عجب ، كما يقول كاتب معاصر والحزن يملأ قلبه إذا كان نفوذ رجال الدين قد أخذ ينقص تدريجاً وإذا كان الناس لا يكادون يظهرون أى احترام مهما قل لرجال الدين فى كثير من الأقطار ذلك ان الفساد قد انتشر بينهم إلى حد أصبحنا نسمع معه اقتراحات يبديها البعض بالسماح للقساوسة بالزواج[١٥] .

ويجدر بنا أن نقول انصافا لهؤلاء القساوسة غير المتعففين أن التسرى الشائع بينهم لم يكن يعد دعارة بل إنه يكاد يكون تمرداً عاماً على قانون العزوبة التى فرضها البابا جريجورى السابع (١٠٧٤) على رجال الدين وأرغمهم عليها إرغاماً . ولقد أخذ كهنة الكنيسة الرومانية يطالبون بأن

يسمح للقساوسة بالزواج شأنهم فى ذلك شأن أمثالهم من كهنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية فقد ظلت هذه الكنيسة تسمح لقساوستها بالزواج بعد الانشقاق الذى حدث فى عام ١٠٥٤ ، وإذ كان قانون الكنيسة الكاثوليكية لم يسمح لهم بهذا فقد لجأوا إلى عادة التسرى . وها هو ذا هاردون أسقف انجير يقول فى تقرير له (١٤٢٨) ان رجال الدين فى ابرشيته لم يكونوا يرون فى اتخاذ الحظايا إثماً . وأنهم لم يحاولوا قط أن يخفوا ذلك عن أعين الناس [٥٢] . وكان فى بومرانزا ١٥٠٠ حالة من هذا النوع يعترف الأهلون بأنها لا غبار عليها ، بل كانوا يشجعونها ، لأنهم يرونها وقاية لبناتهم وزوجاتهم ، وكان المألوف المتواضع عليه فى الاحتفالات العامة أن يعطى مكان الشرف للقساوسة وحظاياهم [٥٣] ، وحدث فى شلزويج ان طرد أسقف من كرسيه لأنه حاول أن يحرم هذه العادة [٥٤] (١٤٩٩) . ولما عقد مجلس كنستانس اقترح الكردنال زيرلا ان تعود الكنيسة فتسمح لرجال الدين بالزواج إذا لم يكن مستطاعاً منعهم من اتخاذ الحظايا ، وقال الإمبراطور سجسمند فى رسالة له إلى مجلس بازل (١٤٣١) ان زواج رجال الدين سيصلح من أخلاق الناس بوجه عام [٥٥] ، ونقل المؤرخ بلاتينا أمين مكتبة الفاتيكان عن اينياس سلفيوس قوله ان هناك أسباباً قوية فى صالح بقاء رجال الدين عزاباً ، ولكن هنا أسباباً أقوى منها فى صالح زواجهم [٥٦] ، وجملة القول ان السجل الأخلاقى لرجال الدين قبل الإصلاح الدينى يبدو خيراً مما هو إذا نظرنا إلى عادة اتخاذ الحظايا على أنها تمرد يغتفر لهم ، على سنة مرهقة لا تطيقها الطبيعة البشرية ، ولم تكن عند الحواريين الأولين ، ولا تجرى عليها الكنيسة الشرقية .

أما الشكوى التى أشعلت نار الإصلاح الدينى فى آخر الأمر فقد كانت هى بيع صكوك الغفران . وتفصيلها ان من حق رجال الدين ، السلطات التى خولها المسيح فيما يبدو لبطرس (انجيل متى ١٦ ، ١٩) والتى انحدرت

من بطرس إلى رجال الدين بمقتضى هذه السلطات أن يغفروا للتائب المعترف بذنوب خطاياه وما يترتب عليها من عقاب فى نار جهنم ، ولكنهم لا يعفون أولئك المذنبين من التكفير عن خطاياهم أثناء حياتهم على ظهر الأرض . على أن الذين يستطيعون أن يثقوا بأنهم يموتون بعد أن يكفروا التكفير الواجب عن ذنوبهم كلها ليسوا إلا قلة صغيرة من الناس مهما اعترفوا بذنوبهم وطهرهم هذا الاعتراف ، إن الذين يستطيعون أن يثقوا بذلك هم قلة صغيرة من الناس ، أما الباقون فلابد أن يكفروا عما بقى من ذنوبهم بأن يقدموا عدداً من السنين فى المطهر ، الذى أوجده الإله الرحيم ليكون جحيما مؤقتاً لهؤلاء المذنبين . لكن ثمة طائفة كبيرة من الأولياء الصالحين قد كسبوا بفضل خشوعهم وتقواهم واستشهادهم فى سبيل الدين من الفضائل ما نرى فى أكبر الظن زيادته على ما كفروا به عن ذنوبهم . وقد خلف المسيح وراءه بموته قدراً لا يحصى من الفضائل ، وهذه الفضائل كما تقول الكنيسة ، يمكن أن تعد بمثابة كنز يستمد منه البابا ما يشاء ليمحو جزءا من الآثام التى ارتكبها الناس فى الدنيا . ولم يكفروا عنها كل التكفير. وكانت الكفارة التى تضعها الكنيسة تتخذ فى العادة صورة تكرار بعض الأدعية أو إخراج الصدقات أو الحج إلى بعض الأضرحة المقدسة ، أو الاشتراك فى حرب صليبية ضد الأتراك أوغيرهم من « الكفرة » . أو التبرع بالمال أو العمل لبعض المشروعات الاجتماعية كتجفيف مستنقع ، أو إنشاء طريق ، أوبناء قنطرة ، أو مستشفى ، أوكنيسة . وكان استبدال غرامة مالية (فدية) بالعقاب البدنى سنة مألوفة من عهد بعيد فى المحاكم المدنية ، ومن ثم فإن تطبيق هذه الفكرة على صكوك الغفران لم يغضب الناس فى بادئ الأمر . وكان التائب المعترف ، إذا أدى هذه الفدية أى إذا خرج عن بعض المال — لنفقات الكنيسة تسلم صك غفران جزئى أوكلى ، ولم يكن هذا الصك ليجيز له أن يرتكب ذنوباً جديدة ، بل يمكنه من أن ينجو ..ما ،

أو شهراً ، أو عاماً من عذاب المطهر ، أو أن يعفى من جميع المدة التى كان لابد له أن يقضيها فى عذاب المطهر عقاباً له على ذنوبه لولا هذا الصك ، ولم يكن الصك ليعفى من جريمة الإثم ، أما هذه الجريمة فقد كانت تعفى حين يغفر القس ذنب التائب النادم أثناء الاعتراف قبل الموت . فصك الغفران ، والحالة هذه ، معناه أن تمحو الكنيسة بعض العقوبات الدنيوية (أى غير الأبدية) التى يتعرض لها صاحب الخطايا التى غفر أثمها أثناء عملية الكفارة .

وسرعان ما تبدل شأن هذه النظرية البارعة المعقدة بفضل سذاجة الناس أو شراهة الغافرين الذين عهد إليهم توزيع صكوك الغفران أو ادعوا لأنفسهم حق توزيعها . وإذ كان يسمح لهؤلاء الموزعين أن يحتفظوا لأنفسهم بجزء مما تدره من المال ، فقد أغفل بعضهم الإصرار على توبة من يبتاعون الصكوك ، أو اعترافهم بذنوبهم ، أو صلواتهم ، وتركوا لهم حريتهم الكاملة فى أن يفسروا الصكوك بأنها تعفيهم من التوبة ، ومن الاعتراف ، ومن الغفران على يد القساوسة ، وبأنهم يستطيعون الاعتماد كل الاعتماد تقريباً على ما يقدمون من المال . وقد وصل الأمر حداً جعل تومس جسكونى مدير جامعة اكسفورد يجأر بالشكوى ويقول :

يقول المذنبون فى هذه الأيام : « لست أبالى كم ارتكب من الذنوب أمام الله لأن من السهل على أن أتخلص من كل ذنوبى ومما يترتب عليها من العقاب بالمغفرة وصكوك الغفران يمنحنى إياها البابا الذى ابتاعها منه مستورة نظير أربع بنسات أو ست كانى اكسبها فى لعبة تنس مع من فى مقدرته أن يمنح هذا الغفران » . ذلك أن بائعى هذه الصكوك يطوفون بالبلاد ويفرقون خطابات بالمغفرة نظير بنسين تارة ونظير جرعة من الخمر أو الجعة تارة أخرى . . . بل إنهم يعطونها نظير استئجار عاهر أو نظير الحب الدنس[٧٥] . لقد ندد البابوات — بونيفاس التاسع فى عام ١٣٩٢ ،

ومارتن الخامس فى عام ١٤٢٠ وسكستس الرابع فى عام ١٤٧٨ — أكثر من مرة بهذه المساوئ وهذا الخطأ فى التفكير ولكن حاجتهم إلى المال كانت أشد من أن يستطيعوا معها السيطرة المجدية على هذه العادات السيئة . وكثيراً ما أصدروا القرارات لأسباب عدة يتحير الفكر فيها مع إيمان رجال العــلم بهذه النظرية واتهموا الكنيسة بأنها تستغل سذاجة الناس وآمالهم استغلالا يجللها بالعار[٥٨] وكانت اللغة الرسمية فى بعض هذه الحالات كالصكوك التى عرضها يوليوس الثانى فى عام ١٥١٠ أوليو العاشر فى عام (١٥١٣) تحمل من المعانى ما يمكن تفسيره تفسيراً مالياً خالصاً[٥٩] . وقد وصف أحد الرهبان الفرنسيس من ذوى المراتب العليا وهو غاضب أشد الغضب كيف كانت الصناديق توضع فى كنائس ألمانيا كلها لتتلقى الأموال من الذين لم تمكنهم ظروفهم من الذهاب إلى رومة ليشهدوا الاحتفال الذى أقيم فيها عام ١٤٥٠ فاستطاعوا الآن أن تغفر لهم جميع ذنوبهم بالمال يلقونه فى الصناديق ثم حذر الألمان قبل أن يحذرهم لوثر بنصف قرن فقال لهم ان صكوك الغفران وغيرها من الوسائل تستنزف مواردهم وتنقلها إلى رومة[٦٠] وحتى رجال الدين أنفسهم كانوا يشكون من أن صكوك الغفران كانت تقتنص الأموال إلى خزائن البابوات وكان خليقاً بهذه الأموال أن تستخدم فى الأغراض الكنسية المحلية[٦١] ويلخص مؤرخ كاثوليكى هذا الموضوع كله بصراحة خليقة بالإعجاب فيقول :

ان المساوئ ذات الصلة بصكوك الغفران تنشأ كلها تقريباً من سبب واحد وهو لأن المؤمنين بعد أن يشهدوا مراسم التكفير وهى الشرط المقرر المعترف به لنيل المغفرة ، يطلب إليهم أن يقدموا من المال ما يتناسب مع ثرائهم وبذلك أصبح المال الذى يؤدى للأعمال الخيرية وهو الذى يجب أن يكون من الأعمال النافلة التى لا يلزم بها إنسان ، أصبح هذا المال فى بعض الحالات هو الشرط الأساسى لغفران الذنوب . . وكثيراً ما أصبح

المال لا العمل الصالح هو الغاية المقصودة من الغفران ولسنا ننكر أن العبارات التي صيغت فيها قرارات البابوية يخيل إلى الإنسان معها أنها لا تحيد مطلقاً عن عقائد الكنيسة وان الاعتراف والندم والأعمال الصالحة المنصوص عليها في هذه العقائد هي الشرط الأساسي لنيل المغفرة ، إلا أن الجانب المالي كان يبدو واضحاً في جميع الأحوال وكان للهبات المالية المقام الأول في هذا الأمر كله مما يسربل الكنيسة بالعار ويجعلها مضغة في الأفواه . اتخذت صكوك الغفران شيئاً فشيئاً صورة الصفقات المالية ، وأدى هذا إلى كثير من النزاع بين السلطات الزمنية التي كانت تتطلب على الدوام حظها من هذه الموارد[٦٢]

ولايقل عن بيع صكوك الغفران دلالة على حب الكنيسة للمال قبولها أو طلبها المال أوالهبات أو الوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التي يقولون إنها تقصر المدة التي تقضيها روح الميت في المطهر لتعاقب عن ذنوبها وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءاً كبيراً لهذا الغرض لتنجو به روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقصروا المدة هم أنفسهم في المطهر بعد موتهم أويلغوها إلغاء تاماً . ولهذا أخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياع صكوك الغفران يجعل الأغنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات ، ولقد كان كوليس حصيفاً حين امتدح المال لأن « من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة » كما قال[٦٣] .

وازدادت الشكاوى من الكنيسة فبلغت ألفاً أو تزيد فقد غضب غير رجال الدين من إعفاء الكهنوت من الخضوع لقوانين الدولة ومن معاملة المحاكم الكنسية للمذنبين من رجال الدين باللين الذي يعرض الدولة لأشد الأخطار . وها هو ذا مجلس نورنبرج يعلن في عام ١٥٢٢ أن المدعي من غير رجال الدين لا يمكن أن ينال العدالة إذا كان المدعى عليه من رجال

الكنيسة وكان التقاضى أمام محكمة كنسية وقال منذراً إنه إذا لم يخضع رجال الدين للمحاكم الزمنية فسيثور الناس على الكنيسة فى ألمانيا ثورة عاصفة[٦٤] ، وجدير بنا أن نقول إن هذه الثورة كانت قد قامت بالفعل قبل ذلك الوقت. وكان من الشكاوى الأخرى ابتعاد الدين عن الأخلاق الكريمة وتوكيد العقيدة والإيمان بدلا من توكيد المسلك الطيب ، (وان كان المصلحون من هذه الناحية أشد إثماً من الكنيسة نفسها) وجعل الدين مقصوراً على المراسم والطقوس ، والتعطل العديم النفع والعقم المظنون بين الرهبان ، واستغلال سذاجة الشعب بعرض المخلفات الزائفة والمعجزات الكاذبة وسوء استخدام الحرمان الدينى واللعنة الدينية والرقابة التى يفرضها الكهنة على المطبوعات والتجاء محكمة التفتيش إلى أشد ضروب القسوة والتجسس على الناس وسوء استخدام الأموال التى جمعت لإعداد الحملات الصليبية على الأتراك وتوجيهها إلى أغراض أخرى ، ومطالبة الكهنة المنحطين إلى هذا الدرك الأسفل بأن يكون لهم وحدهم حق القيام بجميع المراسم الدينية وتقديم القرابين ما عدا عملية التعميد.

وقد تجمعت كل هذه العوامل السالفة الذكر فكانت سبباً فى ابتعاد أوربا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى بداية القرن السادس. ويقول باستور فى ذلك « ان احتقار غير رجال الدين وكراهيتهم للكهنة الفاسدين كان من أقوى العوامل فى مروق الكثيرين من الدين[٦٥] » وشكا أحد أساقفة لندن فى عام ١٥١٥ من أن الناس يميلون إلى الإلحاد ميلا بلغ من سوء العاقبة والانحطاط حداً جعلهم .. يندون بكل رجل من رجال الدين وان لم يكن يقل طهراً وبراءة عن هابيل »[٦٦] وها هو ذا ارازمس نفسه يقول ان لقب قس أو كاهن أو راهب أصبح يعد من أشد الإهانات[٦٧] وفى مدينة فيينا أصبح منصب القس فى العشرين سنة السابقة على الإصلاح لا يجد من يشغله مع أنه كان قبل ذلك الوقت خير ما يرغب فيه الأهلون[٦٨].

ولهذا كله رفع الناس عقيرتهم فى جميع أنحاء العالم المسيحى اللاتينى، مطالبين بإصلاح « الكنيسة إصلاحاً يشمل رأسها وأعضاءها جميعاً » . وكان الإيطاليون المتحمسون الثائرون أمثال ارنلد البريشيانى ويواقيم الفلورى ، وسفنرولا الفلورنسى قد هاجموا مساوئ الكنيسة دون أن يخرجوا على المذهب الكاثوليكى ولكن اثنين منهم مع ذلك قد حرقوا وهم على قيد الحياة ، غير أن الكاثوليك الصالحين ظلوا يأملون أن يتم الإصلاح على يد أبناء الكنيسة المخلصين الموالين لها وكان الكتاب الإنسانيون أمثال أرازمس ، وكوليت ، ومور ، وبوديه يخشون ما يحدثه الهجوم العلنى على الكنيسة من اضطراب أمورها واختلال نظامها ، فقد كفاها ضعفاً أن ظلت الكنيسة اليونانية بعيدة عن الكنيسة الرومانية مصممة على هذا البعد كل التصميم ، وكان كل تمزق فى « ثوب المسيح الذى لا درز فيه يهدد كيان العالم المسيحى نفسه بالفناء وكم من مرة حاولت الكنيسة مخلصة فى معظم الأحوال أن تطهر صفوفها ومحاكمها وأن تسلك فى شئونها المالية مسلكاً يتفق مع الخلق الطيب ويسمو على أخلاق غير رجال الدين فى تلك الأيام . ولطالما حاولت الأديرة أن تعود إلى قواعد نسكها القديم ولكن طبيعة الإنسان كانت تنقض كل ما يوضع من الدساتير وحاولت المجالس إصلاح الكنيسة ولكن البابوات عارضوها فأخفقت فى أغراضها ، وحاول البابوات أنفسهم أن يقوموا بذلك الإصلاح ولكن الكرادلة ورجال الإدارة البابوية هزموا أولئك البابوات ولقد شكا ليو العاشر نفسه فى عام ١٥١٦ والحسرة تملأ قلبه من إخفاق هذه المحاولات ولسنا ننكر أن بعض المستنيرين من رجال الكنيسة أمثال نقولاس الكوزانى قد حققوا بعض الإصلاحات المحلية ، ولكن هذه الإصلاحات نفسها كانت قصيرة الأجل . وأثار التنديد بمعايب الكنيسة والتشنيع عليها من أعدائها ومحبيها على السواء ، ثائرة المدارس واضطربت له المنابروفاضت به كتب

الأدب ، وأخذ يزداد يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ويستقر فى ذاكرة الناس ويستثير غضبهم حتى قضى على ما كان للكنيسة فى قلوب الناس من احترام وما كان باقياً من تقاليد واكتسحت أوربا ثورة دينية عارمة كانت أوسع مدى وأعمل أثراً من جميع الانقلابات السياسية التى حدثت فى أيامنا الحاضرة .

الباب الثانى

انجلترا: ويكلف، وتشوسر، والعصيان الكبير

١٣٠٨ - ١٤٠٠

الفصل الأول

الحكومة

أقسم ادوارد الثانى الملك السادس من آل بلانتجت فى الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٨ أثناء تتويجه الرائع أمام رجال الدين والنبلاء المجتمعين فى دير وست منستر، القسم الذى تطلبه انجلترا فى كبرياء من جميع ملوكها.

كبير أساقفة كنتربرى: سيدى هل تمنح أهل انجلترا وتحتفظ لهم وتؤكد لهم بقسمك القوانين والعادات التى منحها إياهم ملوك انجلترا الأقدمون أسلافك الصالحون المتدينون وخاصة القوانين والعادات والامتيازات التى منحها لرجال الدين وللشعب سلفك الملك العظيم القديس ادوارد؟

الملك: إنى أمنحهم إياها وأعدهم بها.

كبير الأساقفة: سيدى هل تؤيد أمام الله وأمام الكنيسة المقدسة لرجال الدين وللشعب السلم والوئام فى سبيل الله بكل مالك من قوة.

الملك: نعم سأؤيدها.

كبير الأساقفة: سيدى هل تعمل على أن تكون جميع أحكامك متصفة بالعدالة الحقة والمساواة والحزم والرحمة والصدق وتسعى لها بجميع قواك.

الملك: سأفعل ذلك.

كبير الأساقفة: هل تعد بأن تستمسك بالقوانين والعادات الصالحة

التى قد تختارها بلادك وأن تحافظ عليها وهل تدافع عنها وتقويها تكريماً لله وتعظيماً له بأقصى ما لديك من قوة ؟ .

الملك : أوافق على ذلك وأعدبه[1] .

وبعد أن أقسم الملك على ذلك ومسح بالزيت المقدس وكرس حسب الأصول المرعية عهد بالحكم إلى موظفين مرتشين عاجزين وصرف حياته فى اللهو مع بيرزجافستون الغلام الذى كان يعشقه . لهذا ثار عليه أعيان البلاد وقبضوا على جافستون وذبحوه (١٣١٢) وأخضعوا ادوارد وانجلترا لحكم الأقلية الثرية والإقطاعية . ولما عاد ادوارد بجلله الخزى والعار بعد أن هزم على أيدى الاسكتلنديين فى بنوكبرن (١٣١٤) أخذ يواسى نفسه بحب جديد هو حب هيو المبلر الثالث . وتآمرت زوجته ازابلا الأميرة الفرنسية التى أهملها مع عشيقها روجردى مورتمر على خلعه عن العرش (١٣٢٦). ثم اغتاله أحد رجال مورتمر فى قلعه بركلى (١٣٢٧) ، وتوج ابنه ادوارد الثالث ملكاً على انجلترا وهو فى الخامسة عشرة من عمره .

وكانت أهم الحوادث فى تاريخ انجلترا فى ذلك العهد وأعلاها قدراً هو أن تقررت فى عام ١٣٢٢ سابقة تحتم موافقة جمعية وطنية على كل قانون تسنه الحكومة كى يصبح نافذاً مشروعاً . فقد جرت سنة الملوك الإنجليز منذ زمن طويل إذا ألزمتهم الحاجة أن يدعوا للاجتماع « مجلس الملك » المؤلف من كبار الأعيان ورجال الدين . فلما كان عام ١٢٩٥ كان ادوارد الأول يحارب فرنسا واستكلنده وويلز فاشتدت حاجته إلى المال والرجال فأمر « كل مدينة ، وكل بلدة كبيرة أن تبعث باثنين من مواطنيها الأحرار وكل إقليم أومقاطعة بأن ترسل فارسين (أقل درجة من النبلاء) إلى جمعية وطنية يتألف منها هى ومجلس الملك أول برلمان إنجليزى . وكان الباعث على هذه الدعوة أن المدن على اختلاف أنواعها كان لديها المال وقد يكون مستطاعاً أن يوافق مندوبوها على إعطائه للملك ، أما المقاطعات والأقاليم

فكان فيها الملاك المزارعون الذين يصبحون رماة بالسهام والحراب أقوياء ، وكان الوقت قد حان لإنشاء هاتين القوتين وجعلهما جزءاً من هيكل الحكومة البريطانية . ولم يكن يدعى للديمقراطية الكاملة . ذلك أن المدن كانت — أو أنها ستكون قبل عام ١٤٠٠ — قد رفعت عن كاهلها سيادة رجال الاقطاع ، فقد قصر حق الاقتراع فيها على أقلية صغرى من الملاك الذكور . ومعنى هذا أن الأشراف ورجال الدين ظلوا كما كانوا حكام انجلترا ، فقد كانوا يملكون معظم الأرض الزراعية ويستخدمون فيها الكثرة الغالبة من السكان إما مستأجرين لها أو أرقاء أرض فيها ، وكانوا هم الذين ينظمون قوى البلاد المسلحة ويوجهونها .

واجتمع البرلمان (وهو الاسم الذى سمى به أيام ادوارد الثالث) فى القصر الملكى بوست منستر المقابل للدير التاريخى المسمى بهذا الاسم . وجلس فيه عن يمين الملك كبير أساقفة كنتربرى ويورك ، والأساقفة الثمانية عشر ، ورؤساء الأديرة الكبيرة ، وجلس عن يساره مائة ممن يحملون ألقاب دوق ، ومركيز ، وايرل ، وفيكونت ، وبارون ، وتجمع ولى العهد ومجلس الملك قرب العرش ، وجلس قضاة المملكة على أكياس من الصوف يذكرهم بأهمية تجارة الصوف لإنجلترا ، وقد جاءوا ليدلوا برأيهم فى النقط القانونية . ولما افتتحت الجلسة وقف نواب المدن والفرسان — الذين عرفوا فيما بعد بالعموم — عراة الرؤوس أمام حاجز يفصلهم عن رجال الدين والأعيان ، وأصبحت الجمعية الوطنية وقتئذ (١٢٩٥) لأول مرة مكونة من مجلس أعلى ومجلس أسفل . واستمع القسمان مجتمعين إلى الملك أو نائبه وهو يلقى خطاباً (سمى فيما بعد خطبة العرش) يشرح فيه الموضوعات التى سيدور فيها البحث والقرارات التى يراد إصدارها . ثم انسحب رجال « العموم » ليجتمعوا فى قاعة أخرى — كانت هى عادة قاعة اجتماع القساوسة فى ديروست منستر . وهناك تناقشوا فى اقتراحات الملك المعروضة عليهم :

فلما انتهت مناقشاتهم انتدبوا « متكلما » ليبلغ المجلس الأعلى ما وصلوا إليه من نتائج ، وليعرضوا ملتمساتهم على الملك . ولما انتهت دورة الانعقاد اجتمع المجلسان مرة أخرى ليستمعا إلى رد الملك وليعلنا انفضاض الدورة وكان للملك وحده حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع وفض دورة اجتماعاته .

وكان كلا المجلسين يطالب لنفسه بحرية المناقشة ويستمتع بها فى الأحوال العادية . وكانا فى كثير من الأحوال يرفعان إلى الحاكم ما يستقر عليه رأيهما بعبارات قوية منطوقة أومكتوبة ، غير أن الحاكم فى كثير من الأحوال كان يأمر بسجن من يشتط فى نقده . وكانت سلطات البرلمان تشمل من الوجهة النظرية شئون التشريع ، أما من الوجهة العملية فكان وزراء الملك هم الذين يعرضون على البرلمان مشروعات القوانين التى يقرها ، غير أن المجلسين كثيراً ما كانا يقدمان توصيات وشكاوى ويؤخرون الاقتراع على الأموال المطلوبة حتى تستجاب رغباتهم كلها أوبعضها . وكانت « قوة المال » هذه هى كل ما فى أيدى « العموم » من سلاح ، ولكن سلطتهم هذه زاد شأنها حين زادت نفقات الإدارة وثروة المدن . فلم تكن الملكية والحالة هذه ملكية مطلقة أو دستورية فالملك مثلا لم يكن يستطيع تغيير سنة البرلمان أو سن قانون جديد بنفسه علناً وبطريقة مباشرة ، ولكنه كان خلال معظم العام يحكم دون أن يقيده البرلمان ويصدر قرارات تنفيذية لها أثرها فى كل ناحية من نواحى الحياة الإنجليزية . ولم يكن يرقى العرش عن طريق الانتخاب بل عن طريق الوراثة . وكانت ذاته تعد ذاتاً مقدسة ترعاها الحرمات الدينية ، وكانت جميع قوى الدين والعادات والقانون والتربية واليمين التى تتلى عند تتويجه تبث فى النفوس طاعته والولاء له . فإذا لم يكف هذا كان قانون الخيانة العظمى ينص على أن يقبض عليه متهماً بعصيان الدولة يجر فى الشوارع إلى المشنقة وتنتزع أحشاؤه وتحرق أمام عينيه ثم يشنق بعدئذ[٢] .

ولما بلغ ادوارد الثالث الثامنة عشرة من عمره فى عام ١٣٣٠ تولى

شئون الحكم بنفسه وبدأ عهداً من أكثر العهود حادثات فى تاريخ انجلترا .
وقد كتب مؤرخ معاصر له يقول « كان وسيم الخلق ، وكان وجهه كأنه وجه إله[٣] » ، وقد ظل حتى أضعفه الإسراف فى المسائل الجنسية ملكاً فى سمته وفى كل جارحة من جوارحه وكاد يهمل شئون السياسة المحلية لأنه كان محارباً لا حاكماً ، وقد أسلم السلطات إلى البرلمان وهو راض مغتبط مادام البرلمان يمده بما تحتاجه حروبه من المال . وقد ظل طوال حكمه الطويل يستنزف دماء فرنسا فيما كان يبذله من محاولات لضمها إلى تاجه ؛ لكنه كان مع ذلك رجلا ذا مروءة ، وكثيراً ما كان شهماً مقداماً ، وقد عامل الملك جون الفرنسى حين أسر معاملة يشرف بها بلاط الملك ارثر لو أنها كانت فى أيامه . ولما تم بناء البرج المستدير فى وندسور بعد أن سخر فى بنائه ٧٢٢ رجلا عقد فيه اجتماعاً حول مائدة مستديرة مع المقربين إليه من الفرسان وأقام حفل مثاقفة رأسه بنفسه . ويرى فرواسار قصة لا نستطيع تحقيقها يقول فيها أن ادوارد حاول أن يغوى كونتيسة سلزبورى الحسناء ، فلما صدته فى أدب ومجاملة أقام حفل ألعاب فروسية لكى يستمتع خلالها بمشاهدة جمالها[٤] ، وتروى قصة أخرى طريفة ان الكونتيسة ألقت على الأرض بربطة ساق، حين كانت ترقص أثناء حفل فى البلاط ، فاختطفها الملك من فوق الأرض وقال « فليجلل العار من تخامره فيه فكرة سوء » .

وأصبحت هذه العبارة من ذلك الوقت شعار نوط ربطة الساق الذى أنشأه ادوارد فى عام ١٣٤٩ .

وأثبتت اليس برز أنها أيسر منالا من الكونتيسة ذلك أنها وإن كانت متزوجة قد استسلمت للمليك النهم ، ونالت فى نظير ذلك الاستسلام هبات واسعة من الأرض ، وكان لها عليه من النفوذ العظيم ما جعل البرلمان يسجل احتجاجه على هذا النفوذ . وصبرت الملكة فيليبا (كما يقول فروسار تابعها المغرم بها) على هذا كله صبر الكرام ، وسامحته ؛ ولم تطلب إليه وهى

على فراش الموت ألا أن يوفى بما قطعه على نفسه من عهود خاصة بالصدقات وألا تختار لنفسك ، حين يريد الله أن تفارق هذا العالم قبراً غير أن ترقد إلى جوارى» . ووعدها بذلك «والدمع يترقرق فى عينيه» ثم عاد إلى إليس وأعطاها جواهر الملكة .

وخاض غمار حروبه بجد وشجاعة ومهارة ، وكانت الحروب تعد وقتئذ أسمى أعمال الملوك وأنبلها ، وكان من يتقاعدون عن الحروب من الملوك يحقرون ، وقد خلع من ملوك انجلترا ثلاثة يتصفون بهذه الصفة ، وكان الموت الطبيعى عاراً لايستطيع معه إنسان ما ان يبقى حياً ، إذا جاز لنا أن نتجاوز بعض الشيء عما فى هذا القول من مفارقة تاريخية ، وكان كل فرد من أبناء الأسر الأوروبية الشريفة يدرب على الحرب ، ولم يكن يستطيع أن ينال السلطان أو الأملاك إلا بالشجاعة فى الحروب والحذق فى استعمال السلاح . وكان الأهلون يقاسون الأهوال من جراء الحروب ، ولكنهم قلما كانوا هم أنفسهم يخوضون غمارها حتى اعتلى هذا الملك العرش ، ونسى أبناؤهم ذكرى آلامها ، وأخذوا يستمعون إلى قصص الفروسية القديمة التى تروى أمجاد الفرسان ، ويتوجون بأحسن الأكاليل رؤوس ملوكهم الذين يريقون من دماء الأجانب أكثر قدر مستطاع .

ولما عرض ادوارد أن يفتح فرنسا لم يكد يجرؤ أحد من مستشاريه على أن يشير عليه بالتراخى والصلح ، ولم ترتفع صيحة السلام من ضمائر الأمة إلا بعد أن استمرت الحرب جيلا من الزمان ، وأثقلت كاهل الأهلين حتى الأغنياء منهم بالضرائب الفادحة . وكاد استياء الشعب يبلغ حد الثورة حين تبدلت حملات ادوارد من نصر إلى هزيمة وهددت الاقتصاد القومى بالخراب . وكان ادوارد هذا قد ظل حتى عام ١٣٧٠ يفيد فى الحرب والسياسة من حكمة السير جون تشاندوس وولائه وإخلاصه فى خدمته . فلما توفى هذا البطل حل محله فى مجلس الملك دوق لانكستر ابن الملك وهو الذى كان

يطلق عليه اسم جون جونت وهو الاسم المشتق من غانت أوغنت التى ولد فيها . وأسلم جون بإهماله حكم البلاد إلى القراصنة السياسيين الذين أثروا على حساب الشعب ، ورفع البرلمان عقيرته يطلب الإصلاح ، وأخذ الصالحون من الرجال يدعون الله أن يرد على الأمة سعادتها بالتعجيل بموت الملك ، وكان فى مقدور ابن آخر من أبنائه يسمى الامير الأسود — ولعل هذا الاسم مأخوذ من لون درعه — ان يبعث روح القوة والنشاط فى الحكومة ، ولكنه فارق هذا العالم فى عام ١١٧٦ على حين ان حياة الملك قد طالت بعد وفاته .

وأصدر « البرلمان الصالح » فى ذلك العام قرارات ببعض الإصلاحات ، وزج فى السجن باثنين من المجرمين وأمر بطرد أليس بروز من البلاط ، وأخذ على الأساقفة عهداً بأن يحرموها من حظيرة الدين إذا عادت إلى البلاط مرة أخرى . ولما انتهت الدورة البرلمانية أغفل ادوارد قراراته ، وأعاد جون جونت إلى سابق سلطانه وأليس برز إلى فراش الملك ، ولم يجرؤ أحد من الأساقفة على أن يوجه إليها التأنيب أو اللوم . ثم رضى الملك العنيد آخر الأمر أن يموت (١٣٧٧) ، وخلفه على العرش ابن للأمير الأسود وتسمى باسم ريشارد الثانى ، وكان غلاماً فى الحادية عشرة من عمره ؛ وكانت البلاد حين تولى الحكم تضطرب فيها عوامل الفوضى الاقتصادية والسياسية وتختمر فيها أسباب الثورة الدينية .

الفصل الثانى

جون ويكلف

١٣٢٠ – ١٣٨٤

ترى ما هى الظروف التى جعلت انجلترا تستجيب لنداء الإصلاح الدينى فى خلال القرن الرابع عشر ؟

أكبر الظن أن أخلاق رجال الدين لم يكن لها إلا دور ثانوى فى هذه المسرحية . فقد رضى كبارهم وقتئذ بحياة العزوبة ، نعم أننا نسمع أن أسقفاً يدعى بيرنل كان له خمسة أبناء ذكور ، ولكن حالته كانت فى أغلب الظن حالة شاذة . ويتفق ويكلف ولانجلاند ، وجوور ، وتشوسر فيما لاحظوه من ميل بعض الرهبان والإخوان إلى الطعام الشهى والنساء الفاسدات ، ولكن البريطانيين ماكانوا ليستولى عليهم الغيظ وينتشر بين أمتهم بسبب خروج هؤلاء على هذا الصراط الذى كان الزمن قد مهده لهم من قبل ، بسبب الراهبات اللائى كن يأتين إلى الصلاة وفى أيديهن مقاود كلابهن وعلى أذرعهن طيورهن المدللة ، أو بسبب الرهبان الذين كانوا يسرعون فى صلواتهم المتقطعة غير المتماسكة (وقد خص الإنجليز الفكهون الشيطان بمعاون خاص يجمع له جميع المقاطع التى « تتساقط من أفواه القابضين ، والقافزين ، والمسرعين ، والمتمتمين والسابقين فى الوثب والجرى » وهم يقومون بصلواتهم المرخمة ، ثم كان الشيطان يختص هؤلاء الآثمين بعام فى الجحيم جزاء لهم على هذه المقاطع التى يغفلونها أو يطئونها بأقدامهم) .

أما الذى كان يقض مضاجع غير رجال الدين ويفت فى عضدهم هم ورجال الحكم على السواء فهو الزيادة المطردة فى ثروة الكنيسة الإنجليزية وتداولها بين أيدى رجال الدين . نعم ان رجال الدين كانوا يسهمون بأداء

عشر إيرادهم للدولة ، ولكنهم كانوا يصرون على ألا تفرض عليهم ضريبة إلا بموافقة مجامعهم الدينية . ذلك أنهم كانوا يجتمعون بأشخاصهم أو بمن يختارونهم للنيابة عنهم ، فى مجامع يرأسها كبير أساقفة كنتربرى ويورك ، وذلك فضلا عن أنهم كان لهم ممثلون فى مجلس اللوردات هم أساقفتهم ورؤساء الأديرة ، وكان رجال الدين يقررون فى هذه المجالس كل الأمور ذات الصلة بالدين أوبرجاله وقد جرت العادة على أن يختار الملك أكبر موظفى الدولة من بين رجال الدين بوصفهم أعظم الطبقات علما فى انجلترا . وكانت القضايا التى يقيمها العلمانيون على رجال الدين ، والتى تمس أملاك الكنيسة ، ترفع إلى محاكم الملك ، ولكن محاكم الأساقفة كانت هى المختصة بالنظر فى الجرائم التى يرتكبها رجال الدين . وكانت الكنيسة فى كثير من المدن تؤجر أملاكها للأفراد ، وتطالب أن يكون لها السلطة القضائية الكاملة على هؤلاء المستأجرين ، حتى إذا ارتكبوا جرائم عادية . وكانت هذه كلها أمور تضايق الأهلين ، ولكن أكثر ماكان يضايقهم هو انتقال الثروة من الكنيسة الإنجليزية إلى البابوات ، أى انتقالها فى القرن الرابع عشر إلى افنيون أى إلى فرنسا نفسها . وقد قدرت الثروة الإنجليزية التى حصل عليها البابا بأكثر من التى حصلت عليها الدولة أو الملك .

وتألف فى بلاط الملك حزب مناهض لرجال الدين ، وسنت شرائع تجعل القسط الذى تسهم به الكنيسة فى نفقات الدولة أكبر وأعظم ثباتاً مما كان . ولما كان عام ١٣٣٣ أبى ادوارد الثالث أن يستمر فى أداء الجزية التى تعهد جون ملك انجلترا عام ٢١٣ بأدائها للبابوات ، وفى عام ١٣٥١ حاول البرلمان فى « قانون الشروط » أن يضع حداً لسلطان البابوات على موظفى الكنيسة الإنجليزية وايراد ممتلكاتها . ونص « قانون السجن والمصادرة » (١٣٥٣) على أن يحرم من حماية القانون كل إنجليزى يتقاضى فى المحاكم الأجنبية (البابوية) فى جميع المسائل التى يرى الملك أنها فى دائرة اختصاص

السلطة الدنيوية . وفى عام ١٣٧٦ شكا مجلس العموم رسمياً من أن جباة البابوية فى انجلترا يبعثون إلى البابا بمبالغ طائلة من المال ، وأن الكرادلة الفرنسيين غير المقيمين فى انجلترا يحصلون على إيرادات كبيرة من الكراسى الأسقفية الإنجليزية .

وكان زعيم الحزب المناهض لرجال الدين فى بلاط الملك هو جون جونت . وكانت الحماية التى بسطها جون هذا على ويكلف هى التى جعلته يموت ميتة طبيعية .

وكان مولد أول المصلحين البريطانيين فى هبسول القريبة من قرية ويكلف ، من أعمال مقاطعة يوركشير فى حوالى عام ١٣٢٠ ودرس فى جامعة اكسفورد ، وصار فيها أستاذاً للاهوت ، وقضى عاماً (١٣٦٠) بعد ذلك رئيساً لكلية بالبول . ورسم قسيساً ، وتلقى من البابوات عدداً من المناصب أو المرتبات من كنائس الابروشيات ، ولكنه ظل خلال ذلك يدرس فى الجامعة . وكان نشاطه الأدبى كبيراً إلى حد روع معاصريه ، فقد كتب رسائل فى الفلسفة المدرسية عما وراء الطبيعة ، وعن اللاهوت ، والمنطق ، وكتب مجلدين فى فن الجدل ، وأربعة مجلدات فى المواعظ ، ورسائل كثيرة متنوعة قصيرة ولكنها عظيمة التأثير منها رسالة فى السلطة المدنية . وكان معظم ما كتب بلغة لاتينية خالية من الرشاقة عسيرة الفهم من شأنها أن تجعلها قليلة الضرر إلا لعلماء النحو . ولكنه كان يخفى فى ثنايا هذا الغموض أفكاراً جد خطيرة ، كانت تفصل بريطانيا عن الكنيسة الرومانية قبل أن يفصلها هنرى الثامن بمائة وخمسة وخمسين عاماً ، وتقذف ببيوهيميا فى أتون الحرب الأهلية وتسبق جميع أفكار الإصلاح التى نادى بها جون هوس ومارتن لوثر إلا القليل منها .

وبدأ ويكلف عمله بداية سيئة ، فاستسلم لمنطق أوغسطين وفصاحته ،

وبنى عقيدته على مبدأ الجبرية الخطير ، وهو المبدأ الذى قدر له أن يبقى حتى يومنا هذا أشبه بالمغناطيس الذى يجذب إليه المذهب البروتستنتى اللاهوتى وينجى القائلين به من العقاب . وفى ذلك يقول ويكلف إن الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء ، وقد كتب على كل إنسان مصيره المحتوم فى الأزل قبل مولده كتب عليه الخسران أو النجاة إلى الأبد . وليست الأعمال الصالحة هى التى تنجى صاحبها ، بل إنها تدل على أن من يعملها قد تلقى رحمة الله ونعمته وأنه ممن اختارهم وخصهم بهذه النعمة وتلك الرحمة ونحن نصدر فى أعمالنا حسبما قسمه الله لنا ، ومصيرنا هو خلقنا وليس خلقنا هو مصيرنا كما قال هرقليطس . وكان آدم وحواء وحدهما هما اللذين استمتعا بحرية الإرادة ، ثم خسرا وأبناؤهما من بعدهما هذه الحرية بمعصيتهما .

والله سيدنا ذو السلطان الكامل علينا ، وولاؤنا له ولاء مباشر أشبه ما يكون باليمين التى يقسمها كل إنجليزى أمام الملك ، وليس هو ولاء غير مباشر عن طريق ولاء لسيد تابع كما هى الحال فى فرنسا الإقطاعية . ومن ثم كانت العلاقة القائمة بين الإنسان والله علاقة مباشرة لا تحتاج إلى وسيط ، ولذلك يجب أن يرفض كل ما تدعيه الكنيسة أويدعيه أىقس من أن تكون هى أويكون هو واسطة لابد منها . وبهذا المعنى يكون كل مسيحى قسيساً وليس فى حاجة إلى أن يرسم كذلك والله مالك الأرض وما عليها ، وليس فى مقدور الآدمى أن يمتلك شيئاً منه بحق إلا بوصفه تابعاً له طائعاً لأمره . وكل من يحمل وزرا — ويكون بذلك عاصياً للملك القدوس — يفقد بذلك كل حق له فيما يملك لأن الامتلاك الحق يتطلب أن يكون المالك متمتعاً بنعمة الله . وواضح مما جاء فى الكتاب المقدس أن المسيح قد قصد ألا يكون للحواريين ولمن خلفهم ، ولمن رسموا بعدهم مندوبين عنهم ألا يكون لهؤلاء جميعاً أملاك ما وأذن فكل كنيسة ، وكل قس يمتلكان شيئاً يعصيان أوامر الله ، وهما لذلك آثمان ، ومن ثم فهما لا يستطيعان تقديم العشاء الربانى . ومن ثم

فإن أعظم ما تحتاجه الكنيسة ويحتاجه رجال الدين من إصلاح هو أن تتخلص ويتخلص رجالها من الأملاك الدنيوية .

وكأن هذا لم يكن يثير من المتاعب ما فيه الكفاية ، فاستنتج ويكلف من مذهبه الديني مذهباً آخر من مذاهب الشيوعية النظرية والفوضى النظرية ، فقال إن كل شخص تحل عليه نعمة الله وبركته يشارك الله في امتلاك الطيبات ، أي أن كل شيء من الوجهة النظرية يتملكه جميع الصالحين مجتمعين . أما الملك الخاص والحكومة فهما أثر من آثار خطيئة آدم وخطيئة الإنسان التي ورثها عنه أي أنهما متأصلان في الطبيعة البشرية) كما كان ينادي بذلك بعض الفلاسفة المدرسيين . والمجتمع الذي تعمه الفضيلة لا يكون فيه ملك فردي ، ولاقانون يضعه الإنسان وتسنه الكنيسة أو الدولة . وخشي ويكلف أن يفسر ذلك المتطرفون الذين كانوا يفكرون وقتئذ في الخروج على الحكومة في انجلترا تفسيراً حرفياً ، فقام يفسر هو شيوعيته على أنها يجب أن تؤخذ بمعناها المثالي ، وأن السلطات التي تقوم بمقتضاها هي التي نادى بها القديس بولس والتي أمر بها الله ومن ثم كانت واجبة الطاعة . وقد كرر لوثر في عام ١٥٢٥ تكراراً يكاد يكون دقيقاً كل الدقة ما لمح به ويكلف في أقواله عن الثورة .

ورأى الحزب المناهض للكنيسة شيئاً من المعنى في تنديد ويكلف بثروة الكنيسة ، ان لم يره في شيوعية ويكلف . ولما رفض البرلمان مرة أخرى ان يؤدي الخراج الذي تعهد الملك جون ان يؤديه للبابا (١٣٦٦) عين ويكلف قساً في خدمة الملك ليعد دفاعاً عن هذا العمل ، وعينه ادواردالثالث في عام ١٣٧٤ رئيساً لكنيسة ابرشية لوثر وورث ويبدو أنه قصد بذلك أن يكون إيرادها أجراً له يحتفظ به لنفسه . ثم عين ويكلف في عام ١٣٧٦ عضواً في اللجنة المكلفة التي أرسلت إلى بروج لتبحث مع عمال البابا ما تصر عليه انجلترا من رفض أداء الخراج ، ولما ان اقترح جون جونت أن تصادر الحكومة بعض أملاك الكنيسة ، دعا ويكلف إلى الدفاع عن هذا الاقتراح

فى سلسلة من الخطب الدينية يلقيها فى لندن .ولبى ويكلف الدعوة (فى سبتمبر من عام ١٣٧٦) ، وكان جزاؤه ان وسمه الحزب المناصر لرجال الدين بأنه آلة فى يد جونت . وقرر كورتناى أسقف لندن أن يشن هجوماً غير مباشر على جونت ، فاتهم ويكلف بأنه رجل مارق خارج على الدين . واستدعى الواعظ للمثول أمام مجلس من الأحبار فى كنيسة القديس بولس فى شهر فبراير من عام ١٣٧٧ . وأطاع الأمر ، ولكنه جاء ومعه جون جونت تتبعهما حاشية مسلحة . وشجر نزاع بين الجنود وبعض النظارة ، قامت على أثره ضوضاء ، فرأى الأسقف أن من الحكمة تأجيل المحاكمة ، وعاد ويكلف إلى اكسفورد دون أن يمسسه سوء . وبعث كورتناى إلى رومة اتهاماً مفصلا نقل فيه اثنتين وخمسين عبارة من كتب ويكلف ، فلما كان شهر مايو أصدر جريجورى الحادى عشر مراسيم بابوية يطعن فيها على ثمانية عشر من أقوال ويكلف ، معظمها من رسالته « عن الحكم المدنى » ، وأمر سدبرى كبير الأساقفة والأسقف كورتناى أن يبحثا الأمر ليعرفا هل لا يزال ويكلف معتنقاً لهذه الآراء ، فإذا تبينا أنه لا يزال يعتنقها فعليهما أن يلقيا القبض عليه ويحتفظا به فى الأغلال حتى تصدر إليهما تعليمات أخرى .

وكان ويكلف فى هذه الأثناء قد كسب تأييد طائفة كبيرة من الرأى العام فضلا عن تأييد جون جونت ولورد بيرسى لورد نورثمبرلند*. وكان البرلمان الذى اجتمع فى شهر أكتوبر مناهضاً للكنيسة أشد المناهضة .وكانت حجة القائلين بمصادرة أموال الكنيسة تستهوى كثيرين من الأعضاء ، فقد كان هؤلاء يحسبون أنه إذا ما استولى الملك على الثروة التى يستحوذ عليها الأساقفة ، ورؤساء الأديرة والرهبان ، فإن فى وسعه أن يقيم بها خمسة عشر نبيلا يحملون لقب ايرل ، وألفا وخمسمائة فارس ، وستة آلاف ومائتين من أتباع الفرسان ، وأن يتبقى له بعد ذلك عشرون ألف جنيه . وكانت فرنسا

وقتئذ تستعد لغزو انجلترا ، وكانت الخزانة الإنجليزية تكاد تكون خاوية ، ويدا أن من الحمق أن يسمح لوكلاء البابا بأن يجمعوا الأموال من الابرشيات الإنجليزية لبابا فرنسي ولمجلس من الكرادلة كثرته الغالبة من الفرنسيين . وسأل مستشارو الملك ويكلف « هل يحق لمملكة انجلترا شرعاً ، إذا كانت الضرورة تحتم عليها أن تعمل لصد ما يتهددها من الغزو الفرنسى ، ان تمنع أموال الدولة من الوصول إلى البلاد الأجنبية ، وإن طلبها البابا وهدد من يمنعها بالعقاب معتمداً فى ذلك على وجوب طاعة أوامره ؟ » وأجاب ويكلف عن هذا الاستفتاء بمنشور كان فى الواقع دعوة لفصل الكنيسة الإنجليزية عن البابوية وقد جاء فى هذا المنشور : « ان البابا لايستطيع أن يطلب هذا المال إلا على سبيل الصدقة . . ولما كانت أهل البلاد أولى من غيرهم بهذه الصدقات ، فإن توجيه صدقات الدولة إلى البلاد الخارجية إذا كانت البلاد نفسها فى حاجة إليها ، يخرج بها عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة . ورد ويكلف على الدعوة القائلة بأن الكنيسة الإنجليزية جزء من الكنيسة العالمية الكاثوليكية وان من واجب الكنيسة الإنجليزية لهذا السبب ان تطيعها وتخضع لأوامرها ، رد ويكلف على هذه الدعوى بأن أوصى باستقلال انجلترا الكنسى وقال : « ان الدولة الإنجليزية ، بنص الكتاب المقدس يجب أن تكون هيئة واحدة ، وان يكون رجال الدين ، واللوردات ، والسكان العاديون أعضاء فى هذه الهيئة » . وقد بلغت هذه الدعوى ، التى استبق بها هنرى الثامن من الجرأة حداً جعل مستشارى الملك يطلبون إلى ويكلف أن يمتنع عن الإدلاء بآراء جديدة فى هذا الموضوع .

وأجل البرلمان جلساته فى يوم ٨ نوفمبر . وفى الثامن عشر من ديسمبر نشر الأساقفة — وكانوا قد أعدوا العدة للقتال — قرارات التنفيذ التى أصدرها البابا ، وأمروا مدير جامعة اكسفورد أن ينفذ أمر البابا القاضى باعتقال ويكلف . وكانت الجامعة وقتئذ فى ذروة استقلالها العقلى ، وكانت

فى عام ١٣٢٢ قد اتخذت لنفسها حق خلع أى مدير لها لا ترضى عنه دون أن تأخذ فى ذلك رأى أسقف لنكولن رئيسها الرسمى الأعلى ، وكانت فى عام ١٣٦٧ قد نبذت كل ماكان للأساقفة من إشراف عليها . وأيد نصف كليات الجامعة حق ويكلف فى أن يجهر برأيه على الأقل وأبى مدير الجامعة أن يطيع الأساقفة ، وأنكر كل حق حبر من الأحبار على الجامعة فى المسائل الخاصة بالعقائد ، ولكنه أوصى ويكلف فى الوقت نفسه بأن يبقى إلى حين فى عزلة متواضعاً ، غير أنه قلما يوجد بين المصلحين من يستطيع الصمت ، ظهر ويكلف فى شهر مارس من عام ١٣٧٨ أمام مجلس الأساقفة فى لامث ليدافع عن آرائه . ولما أوشك النقاش أن يبدأ تلقى كبير الأساقفة رسالة من والدة الملك ادوارد الثانى تستنكر فيه أى قرار نهائى بإدانة ويكلف ، وبينما كانت إجراءات المحاكمة تجرى فى مجراها شق جمهور من الأهلين طريقه من الشارع إلى قاعة الاجتماع ، وأعلن أن الشعب الإنجليزى لايسمح بقيام أية محكمة للتفتيش فى انجلترا . وخضع الأساقفة لرأى الشعب المتفق مع رأى الحكومة وتأجل اتخاذ قرار وعاد ويكلف مرة أخرى إلى داره دون أن يصيبه أذى ، بل إنه فى الحق عاد ظافراً منتصراً . وتوفى جريجورى الحادى عشر فى السابع والعشرين من شهر مارس وحدث الانشقاق البابوى الذى قسم البابوية وأضعف سلطانها كما أضعف سلطان الكنيسة بوجه عام . وعاد ويكلف إلى الهجوم ، وأخذ يصدر المنشور تلو المنشور ، وكان الكثير منها باللغة الإنجليزية ، وكلها تزيد فى مخالفته للكنيسة وثورته عليها .

والصورة التى يصور لنا بها فى تلك السنين هى صورة الرجل الذى أبهظ الجدل كاهله ، وجعله كبير السن متزمتاً فى آرائه الدينية . ولم يكن بالرجل المتصوف ، بل كان إنساناً محارباً ومنظما ، ولعله قد ذهب بمنطقه إلى أبعد حدود التطرف ، وأخذ وقتئذ يطلق العنان للقدح والطعن بلا حساب ، يطعن على الإخوان الرهبان بسبب دعوتهم إلى التمسك بالتقى ، فى حين أنهم

يجمعون المال ويكدسونه ، وكان يرى أن بعض الأديرة ان هى إلا مأوى للصوص ، وعششاً للأفاعى ، وبيوتاً للأحياء من الشياطين » ، وعارض النظرية القائلة بأن فضائل القديسين يمكن أن يستعان بها على إنقاذ الأرواح من المطهر ، وقال إن المسيح والقديسين لم يأتوا إلى الناس بشىء من صكوك الغفران ، « إن الأحبار يخدعون الناس بصكوك الغفران الزائفة أووثائق المغفرة . وينهبون بذلك أموالهم لعنة الله عليهم . . وما أشد حماقة من يبتاعون هذه الصكوك بهذه الأثمان الغالية ؟ وإذا كان فى مقدور البابا أن ينتزع الأرواح من المطهر ، فلم لم ينتزعها منه على الفور عملا بروح الإحسان المسيحية ؟ وذهب ويكلف إلى أبعد من هذا فى عنفه فقال إن « كثيرين من رجال الدين يدنسون أعراض الزوجات ، والعذارى ، والأرامل ، والراهبات ، بكل ضروب الفسق والفجور » ، وطالب بأن يحاكم رجال الدين على جرائمهم أمام المحاكم المدنية غير الدينية ، وهاجم الكهنة الذين يتملقون الأغنياء ، ويزدرون الفقراء ، والذين لايترددون فى أن يغفروا ذنوب الأثرياء ، ولكنهم يحرمون الفقراء المدقعين من حظيرة الدين لأنهم لايؤدون العشور للكنيسة ، والذين يقضون أوقاتهم فى صيد الحيوان والطير ولعب الميسر ، ويقصون على الناس أنباء المعجزات الكاذبة . أما أحبار انجلترا فقد اتهمهم بأنهم « ينتزعون من الفقراء أرزاقهم ، ولكنهم لا يقاومون الظلم » وبأنهم « يقدرون البنس العطن أكثر مما يقدرون دم المسيح الثمين » . ولا يصلون إلا تظاهراً وادعاء ويأخذون الأجر عن كل صلاة دينية يقومون بها ويحيون حياة الترف ، فيمتطون الجياد الثمينة ، ذات السروج المصنوعة من الفضة والذهب » ، وهم نهابون . . . خبثاء ، ثعالب ماكرة ، . . . وذئاب ناهشة . . نهمون شرهون . . شياطين . . قردة » . وهو بهذه الأقوال يستبق لوثر فى لغته « والاتجار بالمقدسات منتشر فى جميع أقسام الكنيسة . . وأكثر ما ينتجه هذا الاتجار من الضرر اتجار كنيسة رومة لأنه أوسع ضروب الاتجار انتشاراً ، تحت ستار ادعاء من القداسة ، ولأنه يحرم

بلادنا من الرجال والمال أكثر مما يحرمها غيره » . وان ما هو قائم بين البابوات « فى أنقسامهم » من تنازع شائن ، وتبادلهم الحرمان من حظيرة الدين ، واقتتالهم على السلطان اقتتالا يجللهم العار» يجب أن يدفع الناس إلى ألا يؤمنوا بالبابوات إلا بقدر ما يتبع هؤلاء تعاليم المسيح » ، ان مقام البابا والقسيس فى مقام اللورد بل قل فى مقام الملك » ، فى الشئون الروحية ، ولكنه إذا ما جمع لنفسه الأملاك الدنيوية ، أو السلطة السياسية ، أصبح غير خليق بمنصبه ، ان المسيح لم يكن له مكان يريح فيه رأسه أما هذا البابا فيقول عنه الناس إنه يمتلك نصف الإمبراطورية . . . وكان المسيح وديعاً ... أما البابا فيجلس على عرشه ، ويجعل الأعيان يقبلون قدميه » . ثم يشير ويكلف إشارة رقيقة فيقول ان البابا هو عدو المسيح الذى تنبات به الرسالة الأولى من رسائل الرسول يوحنا ، وأنه الوحش الوارد ذكره فى سفر الرؤيا ، والذى ينبىء بعودة المسيح .

ويقول ويكلف ان هذه المشكلة لا تحل إلا بتجريد الكنيسة من كل الأملاك والسلطات المادية ، ويقول ان المسيح وحوارييه قد عاشوا فقراء وان من واجب القسيسين ان يعيشوا هم أيضاً فقراء ، أما الرهبان والإخوان فيجب أن يعودوا إلى ماكانت تحتمه عليهم قوانين طوائفهم ، فيبتعدوا عن كل ملك وترف . والقساوسة « يجب أن يبتهجوا حين تنتزع منهم كل أسباب السيادة الزمنية » ، ويجب أن يقنعوا بالطعام والكساء ، وان يعيشوا على الصدقات التى يقدمها الناس إليهم طائعين مختارين . وإذا لم يتخل رجال الدين عن ثروتهم ويعودوا باختيارهم إلى الفقر الذى أمرتهم به الشريعة المسيحية ، وجب أن تتدخل الدولة فتصادر أملاكهم « ألا ليصلح السادة والملوك من شأن رجال الدين ، ويرغموا القساوسة على الاستمساك بالفقر الذى أمرهم به المسيح » . ومن واجب الملك حين يفعل هذا ألا يخشى ما يصبه عليه البابا من اللعنات ، لأن « اللعنة الصادرة من الآدمى أيا كان

ليست لها قوة ، إلا إذا كانت اللعنة صادرة من الله نفسه» . والملوك مسئولون أمام الله وحده ، وهم يستمدون سلطانهم منه . ويقول ويكلف فى هذا إن الدولة يجب أن تعد نفسها ذات السلطان الأعلى فى جميع الشئون الزمنية ، وأن عليها أن تستحوذ على جميع أملاك الكنيسة . بدل أن تقبل المبدأ الذى يقول به جريجورى السابع وبونيفاس الثامن وهو أن سلطة الحكومات الدنيوية يجب أن تخضع هى نفسها للكنيسة ، وعلى هذا يجب أن يكون الملك هو الذى يرسم القساوسة .

وكانت سلطة القس تعتمد على حقه فى أن يقدم العشاء الربانى ، ولهذا ولى ويكلف وجهه نحو هذا القربان مستبقا فى ذلك ما قام به لوثر وكلفن استباقاً فيه كل معانيه ، وأنكر ضرورة الاعتراف الجهرى أمام القس ، ونادى بالعودة إلى الاعتراف الاختيارى العام الذى كان يفضله المسيحيون الأولون ، ومن أقواله فى هذا المعنى : « لاحاجة إلى الاعتراف السرى أمام القساوسة .. فذلك اعتراف أدخله الشيطان أخيراً فى الدين .. ذلك أن المسيح لم يكن يعمل به ، كما لم يعمل به أحد من الحواريين من بعده . وبه استحال الناس الآن عبيداً لرجال الدين ، وهو يستخدم الآن أسوأ استخدام للأغراض الاقتصادية والسياسية » و« بهذا الاعتراف السرى يستطيع الراهب والراهبة أن يرتكبا الخطيئة معاً » وقد يكون فى وسع الصالحين من غير رجال الدين ان يغفروا ذنوب الإثم خيراً مما يستطيع أن يغفرها له القساوسة الأشرار ، ولكن الحق الذى لاريب فيه ان الله وحده هو الذى يغفر الذنوب . ومن واجبنا أن نرتاب بوجه عام فى صحة العشاء الربانى الذى يقدمه القس الآثم أو الخارج على الدين ، كما ان القس ، صالحاً كان ، أوطالحاً ، لا يستطيع أن يحيل الخبز المقدس إلى جسم المسيح ودمه . ولم يكن شيء يبدو أبشع فى نظر ويكلف من تفكيره فى أن بعض من يعرفهم من القساوسة يستطيعون أن يأتوا بهذه المعجزة التى هى من صنع الله وحده ؛

وكان ويكلف ينكر فكرة التجسد كما ينكرها لوثر ، ولكنه لم يكن ينكر حضور المسيح بحق ويقول ان المسيح كان يحضر حضوراً روحياً ، حقيقياً ، صادقاً ، قوي الأثر ، ولكن حضوره هذا كان مع الخبز والنبيذ اللذين لم ينعدم وجودهما كما تدعى الكنيسة . أما كيف يكون ذلك فهو سر غامض لم يحاول كلا الرجلين أن يفسره .

ولم يكن ويكلف يعترف بأن فى هذه الأفكار خروجاً على الدين ، ولكن فكرة « اتحاد الجوهر » روعت بعض أنصاره ، فأسرع جون جونت إلى اكسفورد ، وألح على صديقه ألا يذكر شيئاً آخر عن العشاء الربانى (١٣٨١) ، ورفض ويكلف نصيحته ، وعاد فأكد آراءه فى اعتراف له أصدره بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٣٨١ . واندلعت نيران ثورة اجتماعية فى انجلترا بعد شهر من ذلك التاريخ ، ارتاع لها كل ذوى الأملاك ، وجعلتهم يقاومون كل مذهب فيه خطر على الملكية أيا كان شكلها ، كنيسة كانت أو علمانية . وخسر ويكلف إذ ذاك معظم ما كانت تنفحه به الحكومة من تأييد ، وكان اغتيال سدبرى كبير الأساقفة سبباً فى ارتقاء الأسقف كورتناى ألد أعدائه إلى منصب كبير أساقفة انجلترا بدلا منه . وظن كورتناى أنه إذا ما سمح لفكرة العشاء الربانى التى يقول بها ويكلف أن تنتشر ، فإن انتشارها سيقضى على منزلة رجال الدين ، أى القضاء على أساس سلطة الكنيسة الأدبية والأخلاقية . ولهذا دعا فى شهر مايو من عام ١٣٨١ مجلساً من رجال الدين ينعقد فى دير بلاكفرايز فى لندن . وأقنع كبير الأساقفة هذه الجمعية بأن تستنكر أربعة وعشرين من آراء ويكلف قرأها هو من مؤلفاته ، ثم بعث بأمر عاجل إلى مدير جامعة اكسفورد ليمنع مؤلف هذه الكتب من الاستمرار فى التعليم أو الوعظ إلا بعد أن يثبت استمساكه بأصول الدين القويم . وأضاف الملك رتشارد الثانى إلى هذا أمراً أصدره إلى مدير الجامعة بأن يطرد منها ويكلف وجميع مؤيديه ، وكان ذلك جزءاً من الخطة

التى انتهجها لمقاومة الفتنة التى كادت تطوح به عن عرشه . فما كان من ويكلف إلا أن انسحب إلى أملاكه فى لتر وورث ، وكان لا يزال وهو فيها تحت حماية جون جونت على ما يبدو .

وارتبك ويكلف وتحير بما أبداه من إعجاب به القس جون بول زعيم الثورة ، فأصدر عنه منشورات يتنحى فيها عن العصاة ، ويتبرأ فيها من كل آراء اشتراكية ، ويحث أتباعه على الخضوع لسادتهم من غير رجال الدين ، وأن يصبروا ويصابروا وهم أقوى ما يكونون إيماناً بأنهم سينالون خير الجزاء بعد الموت . لكنه مع ذلك ظل يصدر المنشور تلو المنشور ضد الكنيسة ، وأنشأ طائفة من « القساوسة الوعاظ الفقراء » لينشروا إصلاحاته بين الشعب . وكان من هؤلاء « الأتباع » من لم يتلقوا من العلم إلا أقله ، كما كان منهم رجال من جامعة اكسفورد ، وكانوا جميعاً يرتدون أثواباً من الصوف الأسود ويمشون حفاة ، كما كان يفعل « الإخوان » الأقدمون ، كما كانوا كلهم تعمر قلوبهم حماسة الرجال الذين تكشفت لهم من جديد حقيقة المسيح . وكانت عقيدتهم المتأصلة فى نفوسهم هى ان الكتاب المقدس لا يأتيه الباطل بخلاف تقاليد الكنيسة وعقائدها المعرضة للخطأ ، وكانوا يصرون على أن يعظوا الناس بلغتهم القومية لا بالطقوس الغامضة التى تتلى عليهم بلغة أجنبية . وكتب ويكلف إلى هؤلاء القساوسة العلمانيين وإلى من يستمعون إليهم من المتعلمين بلغة إنجليزية سهلة قوية خالية من التنميق ثلثمائة موعظة ، وكثيراً من المقالات الدينية . وإذ كان يحث الناس إلى العودة إلى المسيحية كما جاءت فى كتاب العهد الجديد ، فقد شرع هو ومساعدوه يترجمون الكتاب المقدس ليكون هو المرشد الوحيد المنزه عن الخطأ إلى الدين الحق ولم يكن قد ترجم حتى ذلك الوقت (١٣٨١) إلا جزء قليل من الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية ، وان كانت ترجمة فرنسية منه كانت معروفة إلى الطبقات المتعلمة ، وترجمة من اللغة الإنجليسكسونية ، لا تفهمها انجلترا

فى أيام ويكلف ، قد وصلت إليها من عهد الملك الفرد . ووجدت الكنيسة ان الخارجين على الدين أمثال طائفة الولدرسيين يفيدون كثيراً من الكتاب المقدس ، فأخذوا يثبطون من عزيمتهم على قراءة التراجم غير المعترف بها ، وأخذت تندد بما تتوقعه من فوضى فى العقائد الدينية حين تعمد كل شيعة إلى ترجمة الكتاب المقدس لنفسها ، وتلون تلك الترجمة بآرائها ، وحين يكون كل قارئ حراً فى أن يفسر نصوص الكتاب المقدس كما يشاء . لكن ويكلف كان صادق العزيمة فى أن يكون الكتاب المقدس فى متناول كل انجليزى يستطيع القراءة . ويلوح أنه هو نفسه قد ترجم أسفار العهد الجديد ، وترك ترجمة العهد القديم لنقولاس هيرفور وجويرفى وقد تمت هذه التراجم كلها بعد عشر سنين من موت ويكلف . وكان الأصل الذى ترجم الكتابان عنه هو ترجمة جيروم اللاتينية . لا الترجمة العبرية للعهد القديم أو اليونانية للعهد الجديد . ولم تكن الترجمة نموذجاً يحتذى فى النثر الإنجليزى ، لكنها كانت حدثاً خطيراً فى التاريخ الإنجليزى .

ولما كان عام ١٣٨٤ دعا البابا أربان السادس ويكلف للمثول بين يديه فى رومة . لكن دعوة أخرى كانت ذات سلطان أكبر من سلطان دعوة أربان . ذلك أن المصلح المريض أصيب فى الثامن والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٣٨٤ بضربة شلل وقت أن كان يقوم بالقداس ثم وافته المنية بعد ثلاثة أيام من تلك الإصابة . ودفن فى لتروورث ، لكن عظامه قد أخرجت من قبره بناء على قرار من مجلس كنستانس (٤ مايو سنة ١٤١٥) وألقيت فى مجرى ماء قريب من هذا القبر . ودار البحث عن كتاباته وأبيد كل ما عثر عليه منها .

وكانت آراء ويكلف تحوى كل عناصر الإصلاح الكبيرة ، تحوى انهماك رجال الدين فى متاع الدنيا ، والدعوة إلى اتباع قانون أخلاقى شديد صارم ، والعودة من الكنيسة إلى ما جاء فى الكتاب المقدس ، ومن

توما الاكوينى إلى أوغسطين ، ومن حرية الإرادة إلى الجبرية ، ومن النجاة عن طريق العمل الصالح إلى النجاة باختيار الرحمة الالهية . وكانت هذه الآراء تحوى كذلك رفض صكوك الغفران ، والاعتراف السرى للقسيس ، وعقيدة التجسد ، وان القس واسطة بين الله والعبد ، وتحتج على إرسال الثروة القومية إلى رومة ، ودعوة الدولة إلى نبذ طاعة البابوية ، والهجوم على أملاك رجال الدين (وبذلك مهد الطريق لهنرى الثامن) . ولو لم تقض الثورة الكبرى على حمايه الحكومة لجهود ويكلف ، لتأصل الإصلاح الدينى وعلت قواعده فى انجلترا قبل أن تشب ثورة الإصلاح فى ألمانيا بمائة وثلاثين عاماً .

الفصل الثالث

الثورة الكبرى

١٣٨١

كان عدد سكان انجلترا وويلز فى عام ١٣٠٧ يقدر تقديراً غير موثوق به بثلاثة ملايين من الأهلين ، أى أنه قد ارتفع ارتفاعاً بطيئاً من ٢,٥٠٠,٠٠٠ وهو ماكان يظن أنه عدد السكان سنة ١٠٦٦ وهذان الرقمان يوحيان بأنه قد حدث تقدم بطىء أيضاً فى الفنون الزراعية والصناعية — وتحديد قوى لعدد السكان بسبب القحط ، والمرض والحروب — فى جزيرة زراعية ضيقة الرقعة ، لا ينتظر منها بمواردها الخاصة أن تعول عدداً كبيراً من الأهلين. وأكبر الظن أن ثلاثة أرباع السكان كانوا من الزراع ، وأن نصف هؤلاء السكان كانوا من أرقاء الأرض ، وكانت إنجلترا من هذه الناحية متأخرة عن فرنسا بقرن من الزمان .

وكانت الفروق بين الطبقات أشد منها فى أرض القارة الأوربية وبدا ان الحياة كانت ترتكز على نقطتين الأعيان الطيبين الراحمين أو المتغطرسين من جهة ، والخدمات يؤديها الزراع يغلى فى صدورهم الغضب أو يحدوهم الرجاء من جهة أخرى . وكان الأعيان سادة كل ما هو لهم والكثير مما يتجاوزه ، إذا استثنينا من ذلك ما عليهم للملك من واجبات محددة المعالم وكان لأدواق لانكستر ، ونورفوك ، وبكنجهام ضياع تنافى ضياع التاج ، ولم يكن آل نيفيل وبيرسى قد فقدوا من ثروتهم إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وكان السيد الاقطاعى يحتم على الفرسان الذين يدينون له بالولاء وعلى اتباع هؤلاء أن يخدموه ويدافعوا عنه ، ويلبسوا ثياب زينته الخاصة » . غير أنه كان فى وسع الإنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة ، وكان فى مقدور

ابنة تاجر ثرى أن تحظى بزوج نبيل ولقب من ألقاب الشرف ، ولو أن نشوس قد عاد إلى الحياة بعد موته لدهش إذ رأى أن حفيدته قد أصبحت دوقة وتصنعت الطبقات الوسطى ما استطاعت أن تتصنعه من عادات الأشراف ، فبدأ أفرادها يخاطب بعضهم بعضاً فى انجلترا بلفظ سيد وفى فرنسا بلفظ Monsieur ، وسرعان ما أصبح كل رجل فى كلا البلدين سيداً كما أصبحت كل امرأة سيدة(*) .

وكان تقدم الصناعة أسرع من تقدم الزراعة ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كادت جميع مناجم الفحم فى انجلترا تستغل ، وحتى كان الحديد ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير يستخرج من باطن الأرض ، وحتى كان تصدير المعادن من أهم الصادرات إلى البلدان الأجنبية ، وكان من الأقوال التى تجرى على الألسنة ان « قيمة المملكة فى باطن الأرض أعظم منها فى ظاهرها » . وبدأت صناعة الصوف فى ذلك القرن تزيد من ثراء انجلترا فأخذ كبار الملاك ينتزعون الأرض شيئاً فشيئاً من المستأجرين وأرقاء الأرض الذين كانوا يستخدمونها فى الزراعة ويحيلون أجزاء واسعة منها إلى مراع لتربية الضأن إلا إن بيع الصوف كان يدر عليهم من المال أكثر مما يدره حرث الأرض ، وأتى على تجار الصوف حين من الدهر كانوا فيه أغنى التجار فى انجلترا ، وكان فى مقدورهم أن يقدموا للملك ادوارد الثالث أموالا طائلة فى صورة ضرائب وقروض ، ومع ذلك فقد عمل الملك على خرابهم : ذلك أن ادوارد الثالث قد ساءه أن يرى الصوف الغفل يخرج من انجلترا ليغذى صناعة النسيج فى فلاندرز ، فأغرى النساجين بالمجىء إلى بريطانيا

(*) إن هذا اللفظ ترجمة للفظ الإنجليزى . وهو مشتق من اللفظ الإنجليزى الفرنسى « ليفريه » أى التسليم ، أو المنحة من طعام أو ثياب يعطيها السيد لمواليه . واتخذت الثياب على مر الزمن صورة حلة رسمية يلبسها أتباع السيد العظيم تفاخرا وأبهة . واتخذت نقابات الحرف هذه العادة ، فكان أعضاؤها يلبسون الحلل المميزة لهم أثناء اجتماعاتهم واستعراضهم . وكانت هذه العادة من أسباب الزينة والمرح فى « انجلترا الطروب »

(١٣١١ وما بعدها) ، وعمل الإنجليز بناء على إرشادهم على إقامة صناعة النسيج فيها ، ثم حرم تصدير الصوف واستيراد معظم الأقمشة الأجنبية ، ولم ينته القرن الرابع عشر حتى أصبحت صناعة النسيج لا تجارة الصوف أهم مصادر الثروة السائلة فى انجلترا وحتى وصلت إلى مرحلة قريبة من الصناعات الرأسمالية .

وكانت الصناعة الجديدة تتطلب التعاون التام بين عدة حرف — النسيج ، والتقصير ، والتمشيط ، والصباغة ، والصقل ، ولم يكن فى وسع نقابات الحرف القديمة أن تنظم ما يحتاج إليه الإنتاج الاقتصادى من تعاون ، فعمل أصحاب المشروعات الكبرى على جمع الاخصائيين المختلفين من العمال فى منظمة واحدة ، يشرفون عليها ويمدونها بالمال . على أنه لم يقم فى هذه البلاد نظام للمصانع كالذى كان قائماً فى فلورنس وفلاندرز ، بل ظل معظم العمل يتم فى حوانيت صغيرة على يد معلم كبير ، وصبيانه ، وعدد قليل من الباعين المتجولين ، أو يتم فى مصانع ريفية صغيرة تدار بقوة الماء ، أو فى بيوت ريفية حيث كانت الأصابع الدائبة الكادحة تدير الأنوال إذا أتاحت لها أعمالها المنزلية الرتيبة فسحة من الوقت . وقاومت نقابات الحرف النظام الجديد بالإضراب ولكن تفوقه فى الإنتاج تغلب على كل ضروب المقاومة ، وأصبح العمال الذين ينافسون الصناعات الجديدة فى بيع نتائج كدحهم وحذقهم تحت رحمة الذين يمدون هذه الصناعات برءوس الأموال وبالمدربين ، وازدادت سيطرتها عليهم شيئاً فشيئاً وأصبح الكادحون فى المدن « لايدخرون شيئاً لغدهم . . ملابسهم رثة ، وبيوتهم قذرة . . يجدون كفايتهم من العيش فى أوقات الرخاء ، ولكنهم لايجدون ما يقيم أودهم فى أيام الشدة »

وكان جميع الذكور من سكان المدن فى انجلترا معرضين لأن يجندوا للعمل فى الأعمال العامة ، ولكن كان فى وسع الأغنياء منهم أن يشتروا أنفسهم بالمال . وكان الأهلون بوجه عام يعيشون فى فقر مدقع ، وإن لم يبلغ

فقرهم فى أغلب الظن من الشدة ما كان عليه فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان المتسولون فى البلاد كثيرين ، وقد نظموا أنفسهم تنظيما يقصد به حماية مهنتهم وحكمها ، وكانت الكنائس ، والأديرة ، ونقابات الحرف تقدم قليلا من الصدقات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وفاجأ البلاد — وهذه حالها — الوباء المعروف بالموت الأسود، ولم يكن هذا الوباء كارثة حلت بها فحسب ، بل كاد يكون ثورة اقتصادية . ذلك أن سكان انجلترا كانوا يعيشون فى جو يصلح للزراعة والإنبات ولكنه يضر بالصحة فقد كانت الحقول خضراء طوال أيام السنة ، ولكن الأهلين كانوا يقاسون آلام النقرس ، والروماتزم ، والربو ، وعرق النسا ، وذات الرئة ، والاستسقاء ، وأمراض العين والجلد . وكانت الطبقات كلها تتخم معدتها بالطعام (إن وجدته) وتدفئ أجسامها بالمشروبات الكحولية ، وقد وصفهم رتشارد رول فى عام ١٣٤٠ بقوله : « وقلما يصل الآن أحد منهم إلى سن الأربعين ، وأقل من تلك القلة من يصل إلى سن الخمسين » ، وكانت النظم الصحية العامة بدائية ، فكانت روائح المدابغ العامة ، وحظائر الخنازير ، والمراحيض تفسد الهواء ، وكان الأثرياء وحدهم هم الذين يحصلون على الماء الجارى من أنابيب تمتد إلى بيوتهم ، أما كثرة السكان فكانوا ينقلونه من القنوات المغطاة أو من الآبار ، وكان أثمن من أن يضيعوه فى الاستحمام كل أسبوع . ولهذا كله كانت الطبقات الدنيا ضحايا سهلة للأوبئة التى كانت تفتك بالأهلين من حين إلى حين من ذلك أن الطاعون الدملى انتقل فى عام ١٣٤٩ من نورماندى إلى انجلترا وويلز ثم انتقل بعد عام من ذلك الوقت إلى اسكتلندة وايرلندة ، ثم عاد إلى إنجلترا فى أعوام ١٣٦١ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٥ ، ١٣٨٢ ، ١٣٩٠ ، ١٤٣٨ ، ١٤٦٤ ، وقضى فى هذه السنين كلها على ثلث سكان البلاد ، وهلك فيه ما يقرب من نصف رجال الدين ، ولعل بعض المساوئ التى شكت منها الكنيسة

الإنجليزية فيما بعد ترجع إلى اضطرارها إلى حشد رجال فى خدمتها حشداً سريعاً ، وكانت تنقصهم الكفايات التى ينتجها التدريب والخلق القويم ، وكان لهذه الظروف أسوأ الأثر فى الفن ، وتوقف بناء الكنائس أوكاد نحو جيل من الزمان ، وفسدت الأخلاق ، وانحلت روابط الأسر ، وطغت العلاقات الجنسية على القيود التى حاول نظام الزواج أن يقيدها بها مراعاة لمصلحة النظام الاجتماعى ، ولم تجد القوانين مشرفين ينفذونها ، وكثيراً ما يتجاهلونها .

وتعاون الطاعون مع الحرب للتعجيل باضمحلال النظام الإقطاعى ، فقد هجر كثيرون من الزراع الأراضى التى كانوا يستأجرونها ونزحوا إلى المدن بعد أن فقدوا أبناءهم وغيرهم ممن كانوا يساعدونهم فى فلاحتها ، واضطر الملاك إلى أن يستأجروا عمالا أحراراً ، يؤدون لهم ضعفى ما كانوا يؤدونه قبل من الأجور ، وان يغروا بالعمل عندهم مستأجرين بشروط خير من الشروط السابقة ، وان يستبدلوا بالمال الخدمات الإقطاعية . وإذ كان الملاك أنفسهم قد اضطروا إلى ابتياع كل ما يشترونه بأثمان عالية ، فقد اضطروا إلى أن يطلبوا إلى الحكومة أن تتدخل لتثبيت موازنة الأجور. واستجاب المجلس الملكى إلى هذا الطلب بأمر أهم ما جاء فيه :

لما كان قسم كبير من أفراد الشعب وبخاصة طبقة العمال والخدم قد ماتوا أخيراً بسبب الوباء . . . ولما كان الكثيرون يرفضون العمل إلا فى نظير أجور باهظة ، بل إن بعضهم يفضلون التوسل والتعطل على العمل لكسب أقواتهم ، فقد نظرنا نحن فيما قد يحدث فيما بعد من اضطراب محزن من نقص فى الأيدى العاملة وبخاصة بين العمال والفلاحين ، وبعد مناقشة هذه المسائل ، اتفقنا مع كبار رجال الدين وأعيان البلاد ، ورجال العلم واستعنا فى ذلك بهم وتبادلنا وإياهم المشورة أمرنا بما هو آت :

١ — كل شخص صحيح الجسم تقل سنه عن ستين عاماً ، وليست له

(وسيلة) للعيش ، إذا طلب إليه (شخص آخر أن يعمل) يجب عليه أن يقوم بخدمة من يطلب ذلك إليه ، وإلا زج به فى السجن حتى يقدم من يضمن قيامه بالعمل .

٢ — إذا غادر الخدمة عامل أوخادم قبل الوقت المتفق عليه ، حكم عليه بالسجن .

٣ — لا يعطى الخدم إلا الأجور القديمة لا أكثر منها .

٤ — إذا تقاضى صانع أوعامل أجراً يزيد على ماكان يتقاضاه عادة زج به فى السجن .

٥ — يجب أن تباع مواد الطعام بأسعار معقولة .

٦ — ليس لإنسان أن يعطى شيئاً لمتسول يستطيع العمل .

لكن العمال وأصحاب الأعمال أهملوا هذا القرار إهمالا واسعاً اضطر معه البرلمان أن يصدر (فى التاسع من فبراير سنة ١٣٥١ (« قانون العمال » الذى ينص على ألا تزيد الأجور على ماكانت عليه فى عام ١٣٤٦ ، والذى حدد أثمان عدد كبير من السلع والخدمات وقرر وجوب استخدام الآلات . ثم صدر قانون آخر فى عام ١٣٦٠ ينص على جواز ارغام الزراع الذين يتركون الأرض التى تعاقدوا على زراعتها أو استئجارها قبل انتهاء الموعد المحدد للعقود أو الإيجار على العودة إليها ، كما ينص على أن لقضاة الصلح إذا شاءوا أن يسموا هؤلاء المخالفين على جباههم . واتخذت فيما بين عامى ١٣٧٧ ، ١٣٨١ إجراءات أخرى مختلفة فى قسوتها ، ولكن الأجور ارتفعت على الرغم من هذه القوانين والقرارات ، غير أن الأحقاد التى ولدتها هذه الأعمال فى صدور العمال ورجال الحكم أثارت النزاع بين الطبقات وكانت سلاحاً جديداً فى أيدى دعاة الفتنة .

وكان للثورة التى تأجج لهيبها على أثر هذه الحوادث أكثر من عشرة مصادر ، فقد أخذ الزراع الذين كانوا لا يزالون من أرقاء الأرض يطالبون

بحريتهم ، وطالب المستأجرون بأن يحددوا إيجار الأرض بأربعة بنسات (١,٦٧ دولار) للفدان الواحد فى السنة . وكانت بعض البلدان لا تزال خاضعة للسادة الإقطاعيين ، وكانت هذه تتوق إلى أن تتمتع بالحكم الذاتى ، وكان العمال فى البيئات المحررة يكرهون الأقلية الغنية من التجار ، كما كان التجار المتنقلون يتذمرون من فقرهم وعدم اطمئنانهم على مصادر رزقهم . وكان الزراع فى الريف ، والعمال فى المدن ، بل كان قساوسة الابرشيات أنفسهم — كانوا هؤلاء جميعاً يندون بسوء الحكم فى السنين الأخيرة من عهد ادوارد الثالث ، والسنين الأولى من عهد رتشارد الثانى ، ويتساءلون لم توالت الهزائم على الجيوش الإنجليزية بعد عام ١٣٦٩ ، ولم تجن الضرائب الفادحة لتمويل هذه الهزائم نفسها . وكان أشد حقدهم ينصب على سدبرى كبير الأساقفة وعلى زوبرت هالز وهما كبيرا وزراء الملك الشاب وجون جونت ويتهمونهم بأنهم أنصار الفساد والعجز فى دوائر الحكومة وأجدر من يجب أن توجه إليهم التهم .

ولم يكن لوعاظ اللولارد (أتباع ويكلف) إلا أقل صلة بهذه الحركة ، ولكن نصيبهم فيها كان هو تهيئة الأذهان للثورة ، فقد كان جون بول زعيمها الفعلى يكرر أقوال ويكلف ويحبذها ، وكان وات تيلر يطالب كما كان يطالب ويكلف بالاستيلاء على أملاك الكنيسة . وكان بول ، « قس كنت المجنون » (كما كان يلقبه فرواسار) ، يعلم الشيوعية لجماعة المصلين معه ، وقد صدر قرار بحرمانه من حظيرة الدين فى عام ١٣٦٦ . فأصبح بعدئذ واعظاً جائلا يندد بالمال الحرام الذى جمعه الأحبار والأعيان ، ويطالب بعودة رجال الدين إلى الفقر الذى يدعو إليه الإنجيل ويسخر من البابوات المتنافسين الذين كانوا بانشقاقهم يقتسمون ثياب المسيح . وتعزو إليه الرواية المتواترة ذلك البيت المشهور :

حيث كان آدم يحفر وكانت حواء تقيس

من كان وقتئذ السيد العظيم

أى حيث كان آدم يحفر الأرض وحواء تعمل على النول ، هل كان فى الجنة أقوام مقسمون طبقات ، وكان فرواسار ينقل الآراء المعزوة إلى بول فى طول يدل على شدة عطفه عليها ، وان كان فى الوقت نفسه محباً لطبقة الأشراف البريطانيين :

أصدقائى الأعزاء إن الأمور لاتستطيع أن تسير فى انجلترا سيراً حسناً حتى يصبح كل شىء مشاعاً ، وحتى لا يكون فى البلاد سادة ولا أتباع ، وحتى لا يكون الملاك سادة إلا بقدر ما نكون نحن ، ألا ما أسوأ ما يعاملوننا به . ولأى سبب يتحكمون فينا ويسترقوننا هذا الاسترقاق ؟ ألسنا جميعاً أبناء آدم وحواء ؟ وأى شىء يستطيعون أن يظهروه لنا ليسودوا به علينا ؟... إنهم ليسموننا عبيداً ، وإذا لم نقم بخدمتهم ضربونا بالسياط . . فلنذهب إلى الملك ونحتج إليه ، فهو شاب وفى مقدورنا أن نحصل منه على جواب فيه الخير لنا ، فإذا لم نحصل عليه فلنعمل بأنفسنا لإصلاح أمورنا(*) .

وقبض على « بول » ثلاث مرات وكان فى السجن عندما اندلعت الثورة . وبلغ السخط مداه بضريبة الرؤوس التى فرضت عام ١٣٨٠ ؛ وأشرفت الحكومة على الإفلاس ، وكادت تخسر جواهر الملك المرهونة ، وألحت الحرب فى فرنسا مطالبة بأموال جديدة . ففرضت على الشعب ضريبة مقدارها ١٠٠,٠٠٠ جنيه تجبى من كل نفس تناهز الخامسة عشرة من العمر . واتحدت عناصر الثورة المفرقة بهذه الضريبة الجديدة . وتنكب آلاف من الناس طريق الحياة ، وكانت حصيلة الضريبة أقل من المطلوب بكثير . . وأرسلت الحكومة مندوبين آخرين للكشف عن الممتنعين عن دفع الضريبة فجمع العامة قواهم متحدين إياهم ، ورجموا عملاء الملك إلى خارج مدينة برنتود عام (١٣٨١) ، وحدث مثل ذلك فى مدن فوبنج

(*) إلى هنا انتهت ترجمة المرحوم الأستاذ محمد بدران .

دكورنجهام وسنت الينز . وعقدت اجتماعات شعبية للاحتجاج على الضريبة فى لندن ، وأرسل المجتمعون إلى الثائرين فى الريف يشجعونهم ويدعونهم أن ينضموا إلى الثائرين فى العاصمة وبذلك يرغمون الملك على ألا يكون هناك رقيق أرض فى انجلترا .

ولقى فريق من الجباة عند دخولهم مدينة كنت مقاومة عارمة . وفى السادس من يونية سنة ١٣٨١ ، حطم جماعة من الغوغاء غياهب السجون فى دوشستر ، وأطلقوا سراح المسجونين ، ونهبوا القلعة . وانتخب الثوار فى اليوم التالى وات تيلر قائداً لهم . ولا يعرف شىء عن ماضيه قبل ذلك ، ومن الواضح أنه كان جندياً مسرحاً ، لأنه نظم الجمع المشتت للقيام بعمل موحد ، واكتسب طاعته السريعة لأوامره .

وفى الثامن من يونية هاجم الجمع الهائج دور المبغضين إليه من الإقطاعيين والمحامين وموظفى الحكومة ، وقد تسلح بالقسى والسهام والهراوات والفؤوس والسيوف ، وتلقى مدداً من المتطوعين من جميع قرى كنت تقريباً. وفى اليوم العاشر من هذا الشهر دخل هذا الجمع مدينة كانتربرى فرحب به أهلها ونهب قصر سدبرى كبير الأساقفة ، وفتح أبواب السجن ، وانتهب دور الأغنياء . وهكذا انضم سكان الجانب الشرقى من كنت بأسره إلى الثورة ، وأخذت المدن تنضوى تحت لواء الثورة ، واحدة بعد أخرى ، وبادر الموظفون المحليون إلى الفرار من وجه العاصفة . . ولجأ الأغنياء إلى مناطق أخرى من انجلترا ، أو اختبأوا فى أماكن بعيدة عن طريق الثائرين ، أو تجنبوا الأخطار الأخرى بتقديم المساعدة بصورة ما إلى الثورة .

وفى اليوم التالى وجه تيلر جيشه إلى لندن . فلما بلغ مدلستون أفرج عن « جون بول » فانضم إلى فريق الفرسان وأخذ يقدم إليه عظاته كل يوم وقال الآن يبدأ حكم الديمقراطية الذى طالما حلم به ودافع عنه ، وتزول جميع الفوارق الاجتماعية ، ولن يكون هناك بعد الآن أغنياء وفقراء ، إقطاعيون وعبيد ، بل يكون كل إنسان ملكاً فى ذاته[٦١] .

ونشبت فى الوقت نفسه ثورات مماثلة فى نورفولك وسفولك وبيفرلى وبرد جوتر وكمبردج واسكس وبدلسكس وستسكس وهرتفورد وسومرست وجز الشعب فى يورى سانت ادموند رأس كبير الرهبان وهو الذى حافظ بصلابته على حقوق الدير الإقطاعية على المدينة . وقتل المتمردون فى كلشستر عدداً من التجار الفلورنسيين ، ظناً منهم أنهم يقطعون الطريق على التجارة البريطانية . وأتلفوا ما وقع تحت أيديهم من الأضابير والعقود أو الوثائق التى تسجل الملكية الاقطاعية أو العبودية ، وهكذا أحرق الأهالى فى كمبردج وثائق الجامعة ، وألقوا فى مدينة ولدام كل وثيقة فى محفوظات الدير طعمة للنيران .

وفى الحادى عشر من يونية أشرف جيش الثوار الذى نصفه من اسكس وهرتفورد على الضواحى الشمالية لمدينة لندن ، وفى الثانى عشر بلغ ثوار كنت مدينة سوزوارك ، على الشاطئ الثانى من التيمز مباشرة . ولم يبدأ أنصار الملك مقاومة منظمة واختبأ رتشارد الثانى وسدبرى وهيلز فى الحصن . وبعث تيلر إلى الملك يطلب مقابلته ورفض طلبه . وأغلق وليام ولورث عمدة لندن أبواب المدينة ، ولكن الثوار فى داخلها أعادوا فتحها . وفى الثالث عشر رحب الشعب بقوات كنت التى دخلت العاصمة فانضم إليها آلاف العمال . وأمسك تيلر بزمام جموعه فى حزم ، ولكنه هدأ من ثورتها بأن سمح لها أن تحاصر قصر جون اف جونت. فلم يسرق منه شىء ، وقتلت الجماهير شخصاً من المتمردين حاول أن يسرق كأساً من الفضة . بيد ان كل شىء قد دمر ، وألقى بالأثاث الفاخر من النوافذ ، ومزقت الستائر النفيسة خرقاً ، وسحقت الجواهر سحقاً ، وأتت النيران على القصر كله ، وتناست الجموع بعض المتمردين الذين استبد بهم الطرب وسكروا حتى غابوا عن الوعى فى أقبية الخمر فذهبوا طعمة للنيران . ثم تحول الجيش بعد ذلك إلى تمبل ، وهى قلعة رجال القانون فى انجلترا ، وتذكر الفلاحون أن هؤلاء

الفقهاء هم الذين صاغوا صكوك عبوديتهم ، أوصادروا ممتلكاتهم فى مقابل الضرائب ، فوضعوا هنالك أيضاً محرقة تلتهم الوثائق ، وأشعلوا النيران فى المبانى حتى أتت عليها . وقوض السجن فى نيوجيت كما دمر الأسطول . وانضم المسجونون السعداء إلى الغوغاء ، وألح التعب على الجموع من الجهود المضنية التى بذلتها لتجمع انتقام قرن كامل فى يوم واحد فرقدت فى ظاهر المدينة ونامت .

وفى هذا المساء رأى مجلس الملك أن يسمح له بالحديث مع تيلر وهو خير من الرفض على كل حال . وأرسل دعوة إلى تيلر وأتباعه لمقابلة رتشارد فى الصباح التالى فى ضاحية شمالية تعرف بـ « مايل اند » . وبعد بزوغ الفجر من اليوم الرابع عشر من يونية ، ركب الملك ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، إنقاذاً لحياته ، فخرج من القلعة يصحبه جميع مستشاريه ماعدا سدبرى وهيلز اللذين خافا أن تتعرض حياتهما للخطر . وشقت الجماعة الصغيرة طريقها وسط الجماهير المعادية إلى مايل اند ، حيث تجمع الثائرون من اسكس ، وتبعهم فريق من جيش كنت على رأسه تيلر الذى أدهشه استعداد رتشارد للاستجابة لجميع المطالب . وهى أن تلغى العبودية فى كل أنحاء انجلترا ، وتزول جميع الأعباء والخدمات الاقطاعية ، وتحدد قيمة إيجار العقار كما طلب المؤجرون ، ويعلن عفو عن جميع الذين اشتركوا فى الثورة . وبادر ثلاثون من الكتاب صياغة مواثيق الحرية والعفو لجميع المناطق التى ثار أهلوها . بيد أن الملك رفض مطلباً واحداً ، وهو أن يسلم للشعب وزراءه وغيرهم من الخونة . وأجاب رتشارد بأن جميع الأشخاص المتهمين باساءة استعمال السلطة سيحاكمون طبقاً للإجراءات التى ينظمها القانون ، ويعاقبون إذا ثبت أدانتهم .

ولما لم يقنع تيلر بهذه الإجابة ، ركب فى فرقة مختارة من رجاله واتجهوا مسرعين إلى القلعة فوجدوا سدبرى يرتل القداس فى الكنيسة . فسحبوه

إلى الفناء وبسطوه على الأرض ورقبته على كتلة من الخشب . ولم يكن جلاده حاذقاً ، ففصل رأسه عن جسده بثمانى ضربات من الفأس . ثم جز المتمردون رأس هيلز واثنين آخرين . وثبتوا على رأس كبير الأساقفة تاجه بمسمار نفذ من الجمجمة ، ووضعوا الرءوس على أسنة الرماح ، وساروا بها فى أنحاء المدينة ، ثم علقوها على باب جسر لندن وانقضى ما بقى من ذلك النهار فى سفك الدماء . وطالب تجار لندن ، الذين أبو المنافسة الفلمنكية الجماهير أن تقتل كل فلمنكى تجده فى العاصمة . وكان يقدم إلى المشكوك فى جنسيته الخبز والجبن ، ويطلب إليه أن يسميهما ، فإن نطق اسميهما بلهجة فلمنكية دفع حياته ثمناً لذلك . وقتل فى ذلك اليوم نيف ومائة وخمسون من التجار وأصحاب المصارف الغرباء فى مدينة لندن وسقط كثير من رجال القانون الإنجليز ، وجباة الضرائب وأنصار جون أف جونت بضربات الفؤوس فى ثورة انتقامية لا تميز بين مذنب وبرىء . وقتل الصبيان فى مختلف المهن والصناعات معلميهم والمدينون دائنيهم. وحتى إذا جاء منتصف الليل انسحب المنتصرون لينعموا بالراحة مرة أخرى بعد أن أشبعوا نهمهم .

وأبلغ الملك بهذه الأحداث فعاد أدراجه من مايل اند ، ولم يتجه إلى البرج ، بل إلى جناح والدته بالقرب من كنيسة سانت بول وقفل فى الوقت نفسه عدد كبير من فرق اسكس وهرتفورد راجعين إلى ديارهم ، ابتهاجاً بالمواثيق التى سجلت حريتهم . وفى الخامس عشر من يونية بعث الملك رسالة مهذبة ، إلى فلول الثوار ، يطلب إليهم لقاءه فى ظاهر سمثفيلد خارج الدرجيت . ووافق تيلر على ذلك ولما كان رتشارد يخاف على حياته فقد قام بالاعتراف وتناول الأسرار المقدسة قبل الموعد المضروب ، ثم ركب فى حاشية تتألف من مائتى رجل أخفوا سيوفهم تحت أرديتهم غير العسكرية ؛ وتوجه تيلر إلى سمثفيلد ولم يكن معه غير رفيق واحد يحرسه . وتقدم بمطالب جديدة غير معروفة على التحقيق ويبدو أنها كانت تتضمن مصادرة أملاك

الكنيسة وتوزيع دخلها على الشعب . وأعقب ذلك نزاع ، فقد وصف أحد حاشية الملك ، تيلر بأنه لص فأمر تيلر مساعده ، بقتله فوقف العمدة ولورث فى الطريق فما كان من تيلر إلا أن طعن ولورث الذى أنقذه الدرع المستور تحت عباءته وطعن ولورث بخنجره تيلر وأنفذ أحد سراة رتشارد سيفه فى تيلر مرتين فعاد تيلر إلى رجاله صائحاً الخيانة ، وسقط ميتاً عند أقدامهم فذهلوا من هذه الخيانة المفضوحة وأعدوا سهامهم وتأهبوا لإطلاقها . ومع أن عددهم كان قد أخذ فى النقصان إلا أنهم ظلوا قوة لا يستهان بها وقد أحصاهم فروسافرت بعشرين ألف رجل من المحتمل أنهم كانوا يستطيعون الإحداق بحاشية الملك . ولكن رتشارد خرج إليهم فى شجاعة وهو يصيح « أيها السادة ، اتقتلون مليككم ؟ سأكون رئيسكم وقائدكم ، وستنالون منى ما تطلبون . وليس عليكم إلا أن تتبعونى إلى الحقول بعيداً » ومضى غير واثق أوعوا كلامه ؟ أيتركونه حياً ؟ وتردد الثوار . ثم اتبعوه واختلط معظم الحرس الملكى بهم .

أما ولورث فقد ركض بفرسه عائداً إلى المدينة ، وأصدر أوامره إلى شيوخ النواحى الأربع والعشرين أن ينضموا إليه بكل القوات المسلحة التى يستطيعون حشدها . وكان كثيرون من المواطنين الذين عطفوا على الثورة أول الأمر قد أخذوا يحسون القلق من جراء أعمال القتل والتخريب ، وشعر كل امرئ ، يملك عقاراً أن أملاكه وحياته فى خطر ، وهكذا وجد العمدة لفوره جيشاً تحت امرته يتألف من سبعة آلاف رجل كأنما انشقت عنهم الأرض . فعاد بهم إلى شمثفيلد ، وهناك لحق بالملك وأحاط به ، وعرض عليه أن يعمل السيف فى الثائرين . فأبى رتشارد ، فهم الذين وهبوا له الحياة عندما كان تحت رحمتهم ، وهو لايريد أن يبدو أقل منهم كرماً وقد أعلن إليهم أنهم أصبحوا أحراراً يستطيعون أن يرحلوا بسلام . وسرعان ما انقشع الذين بقوا من ثوار اسكس وهرتفورد ، واختفى عصاة لندن

فى ديارهم ، ولم تبق إلا ثلة كنت فاعترض رجال ولورث المسلحون ، طريقهم إلى داخل المدينة ولكن رتشارد أمر أن لا يمسهم أحد بسوء ، فتركوا المدينة آمنين ، ثم اضطرب نظامهم ثانية على طول طريق كنت القديم . وعاد الملك إلى والدته ، التى رحبت به ودموع الفرحة بسلامته فى عينيها . وقالت : « اه ، يا بنى الصحيح ، كم تحملت من الألم والعذاب من أجلك اليوم . » فأجاب الصبى » : حقاً يا سيدتى أننى أحس ذلك جيداً ، ولكن عليك الآن أن تبتهجى وتحمدى الله ، لأننى اليوم استعدت ميراثى وكان مفقوداً ، واستعدت ملك انجلترا أيضاً (٦٣) .

وأصدر رتشارد فى اليوم نفسه وهو الخامس عشر من يونية — وربما كان ذلك بتأثير العمدة الذى أنقذه — قراراً ، ينفى من لندن ، كل امرئ لم يقض فيها السنة الماضية بأسرها وإلا تعرض للموت صبراً . وأخذ ولورث وجنوده يفتشون فى الطرقات والمساكن عن الغرباء ، وقبضوا على كثيرين وقتلوا البعض . . وكان بينهم رجل يدعى جاك ستروا ، اعترف ، تحت وطأة التعذيب من غير شك ، ان رجال كنت رسموا خطتهم لينصبوا تيلر ملكاً . وجاء فى الوقت نفسه وفد من ثواراسكس إلى ولتام وطلبوا من الملك تصديقاً رسمياً للوعود التى قطعها على نفسه فى الرابع عشر من يونية . فأجاب رتشارد بأن هذه الوعود قد صدرت بالإكراه ، وليس فى نيته أن يبقى عليها ، وأخبرهم بنقيض ما توقعوا « لا تزالون أوغادا ، وستظلون أوغاداً » ، وتوعد بالانتقام الرهيب من كل رجل يظل على عصيانه المسلح(٦٤) . ودعا المندوبون الناخبون أتباعهم أن يبعثوا الثورة من جديد ، فاستجاب البعض بيد أن رجال ولورث أبادوهم فى مذبحة هائلة فى الثامن والعشرين من يونية .

وألغى الملك المغيظ الحانق فى الثانى من يولية جميع المواثيق وعهود الأمان التى أصدرها إبان الثورة ، ومهد الطريق إلى تحقيق قضائى عن هوية

زعماء الفتنة وأعمالهم : فقبض على المئات ، وحوكموا ، وقتل مائة وعشرة أو أكثر . واعتقل جون بول فى كفنترى ، فاعترف جريئاً بدوره القيادى فى الثورة ، ورفض أن يطلب العفو من الملك . فشنق ، وسحل ، وقطعت جثته أربعة ، ووضعت رأسه مع رأس تيلر وجاك سترو فى مكان رأسى مديرى وهيلز لتزين جسر لندن . وفى الثالث عشر من نوفمبر عرض رتشارد على البرلمان تقريراً عن أعماله ، وقال ، إذا كان المجتمعون من الأساقفة والأعيان والعامة يرغبون فى تحرير رقيق الأرض ، فإنه يرغب فى ذلك أيضاً . ولكن الأعضاء كان جلهم من أصحاب الأراضى ، الذين لايستطيعون أن يقبلوا حق الملك فى تجريدهم من أملاكهم ، وكانت نتيجة التصويت وجوب الإبقاء على جميع العلاقات الإقطاعية »[٦٥] ؛ وعاد الفلاحون المنهزمون إلى محاريثهم ، والعمال المنحوسون إلى مغازلهم .

٤ - الأدب الجديد

كادت اللغة الإنجليزية تصبح ، بعد أن مرت بمراحل بطيئة ، وسيلة ملائمة للأدب . فقد أوقف الغزو النورمندى عام ١٠٦٦ ، تطور اللغة الانجلوساكسونية إلى الإنجليزية ، وظلت الفرنسية هى اللغة الرسمية للمملكة فترة من الزمان . ونشأت بالتدريج مفردات ولهجة جديدة ، أساسها ألمانى ، يخالطها وتزينها كلمات وصيغ غالية . ولعل الحرب الطويلة مع فرنسا قد حفزت الأمة إلى أن تتمرد على السيطرة اللغوية لعدوها . فأعلن عام ١٣٦١ ان الإنجليزية هى لغة القانون والمحاكم ، واستحدث حامل أختام الملك سابقة دستورية عام ١٣٦٣ بافتتاحه البرلمان بخطبة إنجليزية . وظل العلماء والمؤرخون والفلاسفة (إلى عهد فرنسيس بيكون) يكتبون باللغة اللاتينية لتصل كتاباتهم إلى قراء من دول مختلفة ، بيد أن الشعراء ومؤلفى المسرحيات أنشأوا منذ ذلك بلغة انجلترا :

وأقدم مسرحية باقية بالإنجليزية « من مسرحيات الخوارق » — وهى عرض درامى لقصة دينية — أخرجت فى مدلاندز حوالى عام ١٣٥٠ بعنوان القضاء على الجحيم ، وقد مثلت مفاخرة بين الشيطان والمسيح عند مدخل الجحيم وأصبح مألوفاً فى القرن الرابع عشر بين نقابات كل مدينة أن تعرض حلقة من مسرحيات الخوارق ، بأن تعد النقابة مشهداً ، من الكتاب المقدس عادة ، وتنقل الممثلين والمعدات فى سفينة ، وتؤدى المشاهد على مسارح مؤقتة تشيد فى الساحات الشعبية للمدينة ، وتعرض نقابات أخرى فى الأيام التالية ما يليها من المشاهد من قصص الكتاب المقدس نفسه . وأقدم ما يعرف الآن من هذه الحلقات هى خوارق شستر ، التى مثلت عام ١٣٢٨ ، حتى إذا جاء عام ١٤٠٠ عرضت حلقات مشابهة فى يورك وبيفولى وكمبردج وكفنترى وريكفيلد ولندن ولقد أثمرت الخوارق اللاتينية ، فى فترة مبكرة ترجع إلى عام ١١٨٢ ، نوعاً جديداً أطلق عليه « المعجزة » التى تدور حول كرامات بعض القديسين وآلامهم وظهر حوالى عام ١٣٧٨ نوع آخر — هو المسرحية الأخلاقية — يبرز مغزى أخلاقياً ، بتمثيل إحدى الحكايات ، لا بما بلغ هذا القالب ذاته فى مسرحية « كل إنسان » (١٤٨٠) . ونحن نسمع فى فترة مبكرة من القرن الخامس عشر عن قالب مسرحى آخر ، أقدم عهداً بلا شك وهو « الفاصل » ولم يكن تمثيلية بين تمثيليات ، ولكنه كان عرضاً يقوم به ممثلان أو أكثر ولاينحصر موضوعه فى الدين أو الأخلاق ، وربما كان دنيوياً مرحاً مسفاً مفحشاً . ومثلت فرق من المنشدين الجوالين هذه الفواصل فى أبهاء قصور الأمراء أو دور النقابات ، وساحات المدن والقرى ، أوفناء إحدى الحانات . وأنشأت اكستر عام ١٣٤٨ أول دار إنجليزية معروفة للتمثيل ، وهى أول مبنى أوربى وقف على العرض المسرحى وخصص له منذ المنشآت الرومانية الكلاسية ولعل الكوميديات قد نشأت عن هذه الفواصل ، أما تراجيديات المسرح الاليزابيثى الخصب فلعلها نشأت عن الخوارق والأخلاقيات .

وأول قصيدة عظيمة — وهى من أعجب وأقوى القصائد — فى اللغة الإنجليزية هى الموسومة بعنوان « رؤيا وليام المتعلقة ببترز الحراث » . ولا يعرف عن مؤلفها شيء إلا ما يستشف من قصيدته ، ونحن إذا افترضنا أنها سيرة ذاتية ، فإننا نستطيع أن نسميه وليام لانجلاند ونجعل مولده من عام ١٣٣٢ . ولعله شغل مراتب كنسية دنيا ، ولم يصبح قط قسيساً ، وأخذ يجوب الأنحاء حتى بلغ لندن ، وحصل على الكفاف ، بترتيل المزامير فى القداس من أجل الموتى وعاش ماجناً يتأثم بـ « جشع النظرة وشهوانية الجسد » ، وكانت له ابنة ولعله تزوج أمها ، وعاش معها فى خص متواضع فى كونهيل . ويصف نفسه بأنه طويل ، نحيل ، يرتدى إزارا قاتماً يناسب حطام آماله الغبراء وشغف بقصيدته التى أصدرها ثلاث مرات (١٣٦٢ ، ١٣٧٧ ، ١٣٩٤) ، وكان يطيل فى نسجها كل مرة مثله مثل الشعراء الانجلوسكسونيين ، لا يستعمل القافية ، وإنما يصطنع النظم الذى يجانس أوائل الكلمات مع اضطراب الوزن .

وبدأ بتصوير نفسه وقد غلبه النوم على أحد تلال مالفرن ، فرأى فيما يرى النائم « حقلا يعج بالناس » جماهير من الأغنياء والفقراء ومن الأخيار والأشرار ، ومن الصغار والكبار بينهم سيدة جميلة نبيلة يرمز بها إلى الكنيسة المقدسة . وهو يركع أمامها ويسألها « لا أن تمنحينى كنزاً من الكنوز ، ولكن خبرينى كيف أنقذ روحى » فتجيب :

إذا امتحنت جميع الكنوز ، فالصدق أحسنها . . ومن يصدق بلسانه ، ولايقول غير الصدق ، ولايسيء إلى أحد بعمله ، ولاينوى له الشر بقلبه ، فإنه حرى فى نظر الإنجيل أن يكون إلهاً . وفى منزلة مولانا[٦٧] .

ورأى فى منام آخر ، الكبائر السبع ، واتهم الإنسان فى كل واحدة منها باللؤم فى سخرية لاذعة . وغلب عليه فى فترة من الزمن ، تشاؤم ساخر جعله يتوقع نهاية قريبة للعالم . وإذا ببترز (بطرس) الحراث يظهر فى

القصيدة . وهو فلاح نموذجي أمين ودود كريم يثق به الجميع كادح يخلص لزوجته وأطفاله وهو ابن بار للكنيسة دائماً . ورأى وليام فى أحلام تالية نفس الرجل بيرز ، على أنه المسيح المتجسد فى صورة البشر ، فى صورة بطرس الرسول ، فى صورة بابا ، ثم يختفى بانشقاق الكنيسة ومجئ المسيخ الدجال . ويقول الشاعر ، ان رجال الدين ، لم يعودوا الخلف القادر على إنقاذ الأرواح ، فقد فسد معظمهم ، إذ يخدعون البسطاء ، ويغفرون للأغنياء ويتقاضون ثمن غفرانهم ويتجرون فى المقدسات ، ويبيعون الجنة نفسها فى مقابل فلس واحد . وما الذى يستطيع المسيحى أن يفعله فى هذه المنحة العامة ؟ يقول وليام ، عليه أن يعود مرة أخرى ، ويتسامى على كل الجماعات الحية المتداخلة على ضروب الفساد ، ويبحث عن المسيح نفسه .

وفى قصيدة بترز الحراث نصيب من الهذو ، أما مجازاتها الغامضة ففيها إملال ، لكل قارئ يدرك أن الوضوح ، مسئولية معنوية ، يجب أن ينهض بها المؤلفون . وهى على ذلك قصيدة صادقة تنكل بالأشرار فى غير تعصب ، وتصور المشهد الأنسانى تصويراً حقاً ، وترتفع بلسان العاطفة والجمال إلى ذروة لاتضارعها سوى حكايات كانتربرى فى الأدب الإنجليزى إبان القرن الرابع عشر ، وكان تأثيرها عظيما ، حتى لقد أصبح بترز بالنسبة إلى ثوار انجلترا ، رمزاً للفلاح الجرىء المستقيم ، ولقد امتدحه جون بول لثوار اسكس عام ١٣٨١ ، وبعث اسمه ، بعد ذلك بكثير فى عصر الإصلاح عند نقد النظام الدينى القديم والمطالبة بنظام جديد (٦٩) . وختم الشاعر أحلامه بأن تحول من بترز الذى يمثل البابا ، إلى بترز الفلاح مرة أخرى وهو يقول فى الختام ، إذا كنا جميعاً مثل بترز فلاحين بسطاء ، تتبع المسيحية فذلك أعظم الثورات وآخرها ، ولن يحتاج العالم إلى غيرها أبداً .

أما جون جور ، فشاعر أقل من لانجلند العجيب ، خيالا وأضعف شخصية ، ذلك أنه كان من أصحاب الأراضى الأغنياء فى كنت . فامتلأ

ذهنه بالكثير من عناصر التحذلق والعلم ، وكان بليد القريحة . فيا أنشأ بثلاث لغات . وهاجم أيضاً أخطاء رجال الدين ، ولكنه كان يرتعد فرقاً من هرطقة المصلحين الإنجليز الأوائل اللولارد وتعجب من وقاحة الفلاحين الذين قنعوا يوماً بالقمح والجعة ، وإذا بهم يطالبون اليوم باللحم واللبن والجبن . ويقول جور ثلاثة أشياء لاترحم ، إذا لم يكبح جماحها : الماء ، والنار ، والغوغاء . ألح الضيق بجوير المثالى من هذا العالم فانشغل بالآخرة ، واعتزل فى شيخوخته بصومعة . وانفق السنة الأخيرة من حياته فى الصلاة وكف البصر . ولقد أعجب معاصروه بأخلاقياته ، وأسفوا على سلوكه وأسلوبه ، وتخاصوا منه إلى تشوسر .

٥ - جيوفرى تشوسر

١٣٤٠ - ١٤٠٠

كان رجلا يتدفق فيه دم انجلترا المبتهجة وخمرها ، رجلا قادراً على أن يطوى فى قلبه متاعب الحياة الطبيعية ، وأن يرسم وخزها فى مرح متسامح ، ويصور جميع مراحل المجتمع الإنجليزى ، بريشة جد عريضة كريشة هوميروس ، وروح شهوانية كروح رابليه .

وكان اسمه ، كأكثر مفردات لغته ، فرنسى الأصل ، ومعناه الإسكافى ، وربما كان ينطق شوساير ، وللوراثة مداعباتها لأسمائنا ، وهى إنما تذكرنا بأن نصوغ أنفسنا طبقاً لهواها . . فهو ابن جون تشوسر ، خمار لندنى . لقد نال حظاً طيباً من العلم بفضل الكتب والحياة معاً ، وينضح شعره بمعرفة الرجال والنساء من ناحية والأدب والتاريخ من ناحية أخرى . ولقد سجل اسم « جيوفرى تشوسر » رسمياً عام ١٣٥٧ ، ليكون فى حاشية دوق كلارنس المقبل . وبعد ذلك بعامين رحل ليحارب فى فرنسا ، وأسر ، ثم افتداه ادوارد الثالث : ونحن نجده عام ١٣٦٧ أحد الأعيان فى مجلس

الملك ، بمعاش مقداره عشرون مارك سنوياً . وكان ادوارد كثير الرحلة مع حاشيته وأغلب الظن أن تشوسر كان يصحبه مستمتعا بجمال انجلترا وتزوج عام ١٣٦٦ فيليبا ، إحدى وصيفات الملكة ، وظل على خلاف معها حتى ماتت واستمر ريتشارد الثانى يجرى عليه معاشاً ، أضاف إليه جون أمير جونت ، عشرة جنيهات كل سنة كما حصل على هبات أخرى من الطبقة العليا وهذا يفسر السبب الذى من أجله لم ينتبه تشوسر إلى الثورة الكبرى مع أنه كان خبيراً بالحياة .

وفى التقاليد الحسنة فى تلك الأيام التى كلف الناس فيها بالشعر والفصاحة ، أن يوفد الأدباء فى مهام سياسية فى الخارج . فانتدب تشوسر مع آخرين للمفاوضة على عقد اتفاقية تجارية فى جنوة عام ١٣٧٢ ، كما ذهب عام ١٣٧٨ ، صحبته سير ادوارد بيركلى ، إلى ميلان . ومن يدرى لعله لقى هناك بوكاشيو العليل ، أو بترارك الطاعن فى السن ؟ ومهما يكن من شىء فقد كانت إيطاليا نقطة تحول فى إلهامه . ذلك أنه رأى فيها الثقافة أكثر صقلا وعلما وبراعة من انجلترا ، وتعلم أن يحتفى بالآداب الكلاسية ، وباللاتينية منها على وجه خاص ، وتحول عن التأثير الفرنسى الذى صاغ قصائده الأولى ، إلى الإيطالى فى الأفكار ، وقوالب النظم والموضوعات . حتى إذا عاد إلى موطنه ، وإلى مشاهده وشخصياته ، كان قد أصبح فناناً بارعاً ، ومفكراً ناضجاً .

وما من امرئ فى انجلترا وقت ذاك استطاع أن يكسب عيشه من القريض ، ونحن نعتقد أن معاش تشوسر قد يسر له السكن والغذاء والكساء ، ذلك أن مجموع ما حصل عليه بعد عام ١٣٧٨ ، كان قريباً من عشرة آلاف دولار بالحساب النقدى فى أيامنا ، يضاف إلى ذلك المعاش الذى كانت تحصل عليه زوجته من جون اوف جونت ومن الملك . ومهما يكن من شىء فقد أحس تشوسر الحاجة إلى استكمال دخله بالتعين فى مناصب حكومية

مختلفة . فعمل اثنى عشرة سنه (من عام ١٣٧٤ — ١٣٨٦) « مراقباً للجمارك والمكوس » واتخذ له فى هذه الفترة مسكناً فى قلعة « الدجيت » ودفع فى عام ١٣٨٠ ، مبلغاً لم يذكر مقداره إلى سيسيليا تشومبين لتتنازل عن ادعائها بأنه اغتصبها . وعين بعد ذلك بخمسة أعوام قاضى الصلح لمقاطعة كنت ، وفى عام ١٣٨٦ سعى حتى انتخب فى البرلمان . وكان يقرض شعره فى فترات الراحة من العمل . ووصف نفسه فى قصيدته « دار الشهرة » بأنه يعود متعجلا إلى بيته « بعد أن يسدد ما عليه ، وينسى نفسه فى كتبه ، ويجلس جامداً كالصخر ، ويعيش كالناسك فى كل شىء إلا الفقر والعفة والطاعة ، ويقف ملكاته على تقفية كتبه وأغانيه وأناشيده » . ويخبرنا بأنه نظم فى شبابه «كثيراً من الأغانى وقصائد التشبيب » . ولقد ترجم كتاب فينوس « عزاء الفلسفة » . فى نثر جيد ، وجزءاً من قصيدة جويوم دولوريس « قصة الورد » فى نظم بارع . وبدأ فيما يمكن أن يسمى المقطعات الشعرية الهامة « دار الشهرة » ، «كتاب الدوقة » ، « برلمان الدجاج » ، « اسطورة النساء الطيبات » ، ولقد سبق وأوضح لنا أنه لم يكن قادراً على إتمامها . وهذه القصائد جهود تنبئ عن طموح وان كانت تقليداً صريحاً للأصول الأوربية فى الموضوع والشكل جميعاً .

ودأب تشوسر على التقليد بل الترجمة فى أحسن قصائده المفردة وهى ترويلوس وكريسيد ، فاستعار من « الفلستراتو » لبوكاشيو ٢٧٣٠ بيتاً وأضاف ٥٦٩٦ بيتاً من مصدر آخر أوصاغها بنفسه . ولم يبذل محاولة ما ليخدع القارى عن هذه الحقيقة ، فهو يذكر مصدره مراراً ويعتذر عن عدم ترجمته بأسره . ويعد هذا التحول من أدب إلى آخر مقبولا ومفيداً فإن الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم لم يكونوا يستطيعون وقت ذاك أن يفهموا غير لهجتهم الخاصة . فموضوع القصة حق مشاع كما اعتقد مؤلفو التمثيليات من الإغريق والإنجليز فى عهد إليزابيث ، والفن إنما يتركز فى الشكل .

وتعد ترويلوس التى نظمها تشوسر على الرغم من جميع هذه النقائص ، أول قصيدة قصصية عظيمة فى اللغة الإنجليزية . ولقد وصفها سكوت بأنها « طويلة مملة » وأنها كذلك وقال روزيتى « لعلها أجمل قصيدة قصصية على شيء من الطول فى اللغة الإنجليزية » ، وهذا أيضاً صحيح . ذلك لأن القصائد الطويلة كلها مملة مهما كان جمالها ، فالعاطفة من مقومات الشعر فإذا استغرقت ٨٣٨٦ بيتاً ، فإنها تصبح نثراً بسرعة انطفاء الرغبة . ولن تحتاج أى سيدة إلى مثل هذه الأبيات الكثيرة لكى تنام ، وقلما تردد الحب وتأمل وماطل وأذعن بهذه البلاغة الفاخرة ، والأخيلة المطربة ، والقافية السهلة السلسة . ولايضارع هذا النهر العظيم الفياض من النظم سوى ريتشارد سون فى نثره المتدفق كنهر المسيسبى فى تصوير الحب ، بأناة ، تصويراً نفسياً . ومع ذلك فإن الخطابية المجنحة فى سرف وصياغة الكلمات التى لاتحد وسعة المعرفة المعترضة لم تستطع أن تفسد القصيدة . فهى فوق هذا كله حكاية فلسفية تصور كيف خلقت المرأة للحب ، وسرعان ما تحب شخصاً ثانياً إذا طالت غيبة الأول عنها . وفيها شخصية واحدة رسمت وكأنها حية تسعى : بندارس الذى كان فى الألياذة قائد جيش ليشيا فى طرواده ولكنه يصبح هنا شخصية مفرطة داهية ديوثا جريئاً يقود العاشقين إلى الخطيئة وحسبنا هذه الكلمة تعليقاً عليه . أما ترويلوس فهو محارب مشغول بمدافعة اليونان ويحتقر الرجال الذين يتلكأون على الصدور اللينة ويصبحون عبيد الشهوة ، وهو يجن بكريسيد حباً من أول نظرة . ولم يفكر بعد ذلك إلا فى جمالها ودلالها ورقتها . وبعد أن انتظرت كريسيد فى شوق ، مدى ستة آلاف بيت من الشعر ، من هذا الجندى الحيى أن يصرح بحبه ، تقع بين ذراعيه ، وقد تنفست الصعداء آخر الأمر ، وسرعان ما ينسى ترويلوس عالمين فى وقت واحـــد .

مرت منه جميع الهموم الأخرى .

هموم الحصار وهموم خلاص الروح .

وما ان أجهد تشوسر نفسه فى الحصول على هذا الوجد ، حتى يتخطى مسرعاً نعيم العاشقين إلى المأساة التى تنقذ القصيدة من الإملال . فقد هجر والدكريسيد قومه إلى اليونان ، فأرسل الطرواديون وقد لاح عليهم الغضب كريسيد إلى هناك فى مقابل الأسير انتينور . وافترق العاشقان البائسان بعد أن قطعا على نفسيهما العهود بالوفاء إلى الأبد . ولما وصلت كريسيد إلى اليونان منحت إلى دياميدس ، الذى أوقع أسيرته فى شراكه برجولته ووسامته — فاستسلمت فى صحيفة واحدة من القصيدة وهو ماكان قد حشد قبل ذلك فى كتاب . وفطن تروبلوس إلى ذلك ، فبادر إلى الحرب باحثاً عن دياميدس وإذا به يلقى مصرعه برمح اخيل . وختم تشوسر ملحمته الغرامية بابتهال إلى الثالوث المقدس ، بعث بها وقد أنبه ضميره « إلى جوور الأخلاق لتصححها بسماحتك » .

وربما يكون قد بدأ « حكايات كانتبرى » عام ١٣٨٧ وكان مشروعاً رائعاً ، أن ينضم إلى جمع مختلف من البريطانيين فى حانة تابرد فى سوث وارك ، حيث تعاطى شوسر أقداحاً كثيرة من الجعة — ثم يركب معهم فى عطلة الحج إلى ضريح بكت فى كانتربرى ، ويضع على أفواههم الحكايات والأفكار التى جمعها الشاعر من رحلاته طوال نصف قرن . ولقد استعملت هذه الوسائل لجمع القصص بعضها إلى بعض ، قبل ذلك مراراً ، ولكن هذه الوسيلة أحسنها جميعاً . ولقد حشد بوكاشيو فى مجموعته « ديكاميرون » طبقة واحدة فقط من الرجال والنساء ، ولم يظهرهم شخصيات مختلفة ، أما تشوسر فخلق حانة زاخرة بالشخصيات ، بلغت حداً من الواقعية فى عدم التجانس ، حتى بدت أقرب إلى الحياة الإنجليزية من الأعلام التاريخية الجامدة ، إنهم يعيشون ويتحركون كما يتحرك الأحياء بالضبط ، إنهم يحبون ويكرهون ، ويضحكون ويبكون ، ونحن لا نسمع منهم وهم

يجوسون خلال الطريق الحكايات التى يقصونها فقط ، ولكنا نسمع متاعبهم ومشاجراتهم وفلسفاتهم .

ومن الذى يعترض على ذكر هذه الأبيات المخضلة بنضارة الربيع مرة أخرى ؟

عندما يحل ابريل بشآبيبه
تكون رياح مارس قد نفذت إلى الجذور ،
وغسلت كل كرم برحيق أغصانها ،
وتكون الزهرة هى الفضيلة التى أثمرت ،
وعندما ألهمت الريح القرية بأنفاسها الحلوة
فى كل حقل وفى كل مرج ، أيضاً
النباتات الندية ، تكون الشمس الفتية
قد سارت نصف مدارها فى برج الحمل ،
فترسل بغاث الطير أنغامها ،
وهى التى أنفقت الليل بطوله مفتوحة الأعين ،..
ثم يذهب الناس المشوقون إلى الحج . . .
إلى الأضرحة البعيدة ، المعروفة فى بقاع شتى . .
وفى سوثورك فى تاباد حيث أقطن
أسعد لأقوم بالحج
إلى كانتربرى بعزم خالص كامل ،
وجاء إلى المنزل فى الليل .
تسعة وعشرون صحبة واحدة ،
من أناس مختلفين ، التقوا بالصدفة
وألفوا زمراً ، وهم جميعاً حجاج ،
يتجهون راكبين إلى كانتربرى

ثم يقدمهم تشوسر الواحد بعد الآخر فى رسومه الطريفة من استهلاله الذى لايضارع ،

وكان بينهم فارس ، وهو رجل محترم ،
وهو فى ذلك الزمان أول من بدأ
الخروج راكباً ، فقدكان يحب الفروسية ،
والصدق ، والشرف ، والحرية والتهذيب . .
وقد خاض المعارك الدامية ،
وحارب من أجل عقيدتنا فى ترامسين . . .
ومع أنه كان جديراً بالاحترام ، إلا أنه كان حكيما ، يشبه فى هيئته العذراء .
ولم يصدر عنه الخبث ولم يقله
فى كل حياته ، ولم يعرف عنه خلق فظ ؟
فلقدكان فارساً كاملا دقيقاً .
وابن الفارس :
. . . سيد شاب ،
عاشق ، وأعزب شهوانى . .
وقد توله فى عشقه ، حتى أنه فى كثير من الليالى .
لا ينام أكثر مما ينام العندليب .
وحارس يخدم الفارس والسيد ، وراهبة بارعة الجمال :
وكانت هناك أيضاً راهبة ، رئيسة راهبات ،
وفى بسمتها البساطة والخفر ،
وقسمها الأعظم هو بالقديس لويس ،
وكانت تدعى مدام اجلنتين .
تحسن ترتيل الصلاة ،

مفعمة بالغنى الكامل . . .
وكانت جد محسنة رحيمة
تجهش بالبكاء ، إذا رأت فأراً
وقع فى مصيدة ، فمات أو جرح
ولها جراء صغار ، تطعمها
باللحم المقلى أو اللبن وفتات الخبز ،
وتبكى بحرارة إن مات أحدها . .
وتلف معصمها بسوار من المرجان الصغير
وخرزتين مذهبتين ومزخرفتين باللون الأخضر .
ويتلألأ على صدرها دبوس من الذهب ،
منقوش على أوله حرف « ا » متوجا ،
وبعده عبارة « الحب ينتصر على الجميع » .
يضاف إلى هؤلاء راهبة أخرى ، وثلاثة قسس . وناسك مرح « يحب الصيد » ، وراهب لايضارع فى إخراج الاكتتابات من حوافظ المتقين ،
ومع أنه كان أرملا لا ينتعل حذاءاً ،
إلا أنه كان رضياً فى مبادئه . يستطيع أن يحصل على فلس ، قبل أن يمضى
ويكلف تشوسر بطالب الفلسفة الشاب أكثر من غيره :
وكان بينهم أيضاً كاتب من اكسفورد ،
قطع فى دراسة المنطق مرحلة طويلة .
وجواده ضامر مثل الكلب الأعجف ،
لقد رأيته غير بدين .
يبدو نحيلا ، غاية فى التعقل .
تلفه سترة من الخيط ،

فلم يكن يحصل على صدقة من الكنيسة ،
ولم يكن خبيراً بشئون الدنيا ليحصل على وظيفة :
فوضع لنفسه على رأس السرير.
عشرين كتاباً مجلدة بالأسود أو الأحمر ،
عن أرسطاليس وفلسفته .
وهى عنده أفضل من الثياب النفيسة أو القيثارة الطروب . .
وبذل فى دراسته فائق عنايته وغاية انتباهه . ولا يلفظ بكلمة لغو .
ولم يكن يسمع إلا متحدثاً عن الفضيلة الأخلاقية . وكان يسره أن يتعلم ، وأن يعلم :

وهناك أيضاً « زوجة باث » وسنتحدث عنها بعد قليل ، وراعى كنيسة فقير « وهو غنى بأفكاره وأعماله الدينية » وفلاح ، وطحان ، على أطراف أنفه . . . . . . وتقف دونها خصلة من شعر أحمر كالشعر الخشن على أذنى خنزير ، وأحد زبائن حانة أوزميل ، أو ناظر ضيعة ، أو محضر محكمة :

كان وغدا رقيقاً حنوناً ،
ولا يجد الناس خيراً منه .
وهو يجاهد للحصول على ربع نبيذ ،
وقرينة حسنة تصبح له حظية
اثنى عشر شهراً ، ثم تخليه وهى حامل
. . . ويركب معه بائع غفران طيب . .
وجعبته أمامه على حجره ،

تمتلئ إلى حافتها بصكوك غفران لا تزال كلها دافئة من روما ، وكان هناك تاجر ، ورجل قانون ، وصاحب أعمال ، ونجار ونساج ، وصباغ ، ومنجد وطباخ وبحار ، وكان هناك جيوفرى تشوسر نفسه ، يقف جانباً فى خجل ، بديناً من العسير احتضانه « ويفحص الأرض بنظراته كأنما

يفتش عن أرنب » ولم يكن مضيفنا أقلهم شأناً ، وهو صاحب حانة تابارد ، الذى يقسم أنه لم يرفه عن جماعة كبيرة العدد كهذه ، والواقع أنه عرض عليهم أن يذهب معهم وأن يكون دليلهم ، واقترح لكى يقضوا الرحلة الستة والخمسين ميلا ، أن يروى كل حاج قصتين فى الذهاب وأخريين فى الإياب ، وأن من يروى أحسن قصة ، سيتناول العشاء على حساب الجميع ، عندما يعودون إلى الحانة . اتفق الكل على ذلك ، واكتمل المشهد المتحرك لهذه الملهاة الإنسانية ، وبدأ الحج ، وروى الفارس المهذب الحكاية الأولى — كيف أن صديقين حميمين بلاجون وارسيت ، رأيا فتاة تجمع الأزهار فى بستان فوقع كلاهما فى حبها ، واختصما من أجلها فى مبارزة دامية . . . لتكون المكافأة السنية لمن ينتصر منهما .

ومن ذا يصدق أن قلبا رومانسياً كهذا ، يستطيع أن يتحول فى بيت واحد ، من إطناب الفروسية إلى الإفحاش فى قصة الطحان ؟ ولكن الطحان كان يحتسى الخمر وتوقع أن عقله ولسانه قد ينفلتان فى شراكهم المنصوب . ويعتذر تشوسر عنه وعن نفسه — فيجب عليه أن يسجل كل شىء بإخلاص — ويدعو القارئ المتعفف أن يتجاوزها إلى قصة أخرى « فإن هذا يخدش الحياء . . والأخلاق والدين » . وتبدأ حكاية رئيسة الراهبات بنبرة دينية حلوة ، ثم تردد الأسطورة الفاجعة التى تتحدث عن غلام مسيحى ، يقال أن يهودياً ذبحه ، وكيف أن محافظ المدينة قام بواجبه وقبض على يهودها وعذب عدداً منهم حتى ماتوا . وينتقل تشوسر من هذا الورع الدينى فى الاستهلاك ، إلى حكاية تاجر صكوك الغفران . . إلى سخرية لاذعة بباعة متجولين لصكوك الغفران ، وأصبح عمر هذا الموضوع قرناً من الزمان ، عندما أذاعه لوثر فى العالم ، ثم تحول فى الاستهلاك إلى حكاية زوجة باث ، وبلغ شاعرنا الحضيض فى أخلاقياته والذروة فى قوته . إنه احتجاج معربد على العذرية والعزوبة ، أجرى على لسان فاجر مدرب على شئون الزواج ،

لسان امرأة حصلت على خمسة أزواج ، مذكانت فى الثانية عشرة من عمرها ، ودفنت أربعة منهم ، وتبحث عن السادس ليخفف من سورة شبابها .

لقد دعانا الله إلى أن ننمو ونتكاثر . .

ولم يذكر العدد الذى نبلغه ،

الزواج من اثنين أو ثمانية ،

فلماذا يتحدث المرء عنه بسوء ؟

يا عجبا . . هذا هو الملك الحكيم سيدنا سليمان ،

أحسب أنه اتخذ أكثر من زوجة ،

كما ترك الله الأمر لى

أن أجدد حياتى كالرجل أكثر من مرة . . .

وا أسفا وا أسفا أن يعد الحب خطيئة !

ولن نورد هنا اعترافاتها الفسيولوجية ، ولا ما يناظرها من اعتراف مذكور فى حكاية سمنور ، حيث يعكف تشوسر على دراسة تشريح البطن المنتفخ . ويصبح الجو مهيأ عندما نصل إلى جريزلدا المطيعة أبدا ، فى حكاية اكسفورد الكهنوتية ، ولم يستطع بوكاشيو أو بترارك أن يرويا هذه الخرافة التى حلم بها رجل ألح الضيق عليه بنفس الجودة التى رواها بها تشوسر .

ولم يعطنا تشوسر غير ثلاث وعشرين من الحكايات الثمانية والخمسين التى وعدنا بها فى المقدمة ، ولعله شعر مع القارى أن الخمسمائة صحيفة تكفى ، وأن نبع ابتكاره قد جف . بل إننا نجد فى هذا التيار المتدفق فقرات كدرة . تتجاوزها العين الناقدة . ومهما يكن من شىء فإن التيار البطىء العميق ، يحملنا على صفحته وينشر جواً من النضارة ، كان الشاعر قد عاش على طوال الشواطئ الخضراء ، لا عند بوابة لندن — ومع ذلك فليس نهر التامز بعيداً عن العين . وتعد بعض الأناشيد من ناحية الجمال الخارجى تمرينات أدبية جامدة ، ومع ذلك فإن الصورة المتحركة تأتى حية بشعور وحديث

طبيعين مباشرين ، وقلما توجد مثل هذه الملاحظة الكاشفة السريعة للناس والأخلاق بين دفتى كتاب واحد ، ولن يزودنا غير شكسبير بعد ذلك بمثل هذا الحشد من الصور والتشبيهات والمجازات (ويعتلى بائع صكوك الغفران المنبر ويومئ يميناً وشمالا بين الجمهور كحمامة على سقف مخزن للحبوب) ولقد أصبحت لهجة شرق مدلاند التى استعملها تشوسر ، لغة انجلترا الأدبية ، وكانت مفرداتها قد كثرت إلى الحد الذى يتيح لها التعبير عن جمال الفكر ومناهجه وهكذا صارت لغة الحديث عند الإنجليز للمرة الأولى وسيلة الفن الأدبى العظيم .

وكانت مادة أدبه ، كما هو الحال عند شكسبير ، مطروقة من قبل . ذلك أن تشوسر استعار قصصه من كل مكان . حكاية الليل من تيسيد لبوكاشيو ، وجريزلدا من مجموعة «ديكاميرون» ، وأكثر من عشر حكايات من الخرافات الفرنسية . ويفسر المعنى الأخير ما اتسم به تشوسر من فحش ، ومع ذلك ، فإن أنكر قصصه لا يعرف له مصدر غير شخصه . وليس من شك فى أنه كان يشارك كتاب المسرح فى عهد اليزابث ، فى الاعتقاد بأن الأشخاص الذين تدور القصة عليهم يجب أن يعطوا جرعة فاجرة بين حين وآخر لكى يظلوا أيقاظاً ، ولقد جعل تشوسر رجاله ونساءه يتكلمون كأنما يناظرون طبقتهم الاجتماعية وأسلوبهم فى الحياة ، وهو يكرر ، أنهم أكثروا من احتساء الجعة الرخيصة . ومرحه فى الغالب غير مريض من القلب ، تحفزه الشهوة ، لابد أن تكون ممتلئة حسنة الغذاء لقوم من الإنجليز قبل تزمت الطهريين ، ولقد مزج هذا المرح مزجاً بارعاً بكل مافى البديهة الإنجليزية الحديثة من حيلة ودهاء .

وكان تشوسر على علم بأخطاء البشر وذنوبهم ، وجرائمهم وحماقاتهم وغرورهم ، ولكنه أحب الحياة على الرغم من هذا كله ، وصبر على كل امرئ لا يسرف فى التبجح وقلما يفضح ، وحسبه أن يصف . وأن

يسخر من نساء الطبقة الوسطى الدنيا فى حكاية زوجة باث ، ولكنه أعجب بقوتها الحيوية العارمة . وكان قاسياً غير مهذب مع المرأة ، قد تكشف كلماته وانتقاداته اللاذعة عن الزوج الجريح المنتقم بقلمه عن حياء لسانه عن التعبير بالليل . وهو على الرغم من ذلك يتلطف فى الحديث عن الحب ، ولا يعرف نعمة أعظم منه ، ويملأ معرضاً كاملا بصور النساء الطيبات . ولايعترف بالفضل الذى يرتكز على الوراثة ، ويرى « ان الفاضل إنما هو الذى يقوم بعمل فاضل » بيد أنه لا يثق فى تردد العامة ، والمغفل عنده هو كل من يربط حظه بالشهرة أو يندمج مع الغوغاء .

وكان متحرراً إلى حد كبير من خرافات عصره . فعرض بأدعياء الكيماويين ، ومع أن الذين سردوا حكاياته ذكروا التنجيم ، إلا أن تشوسر نفسه قد استنكره . وكتب إلى ابنه رسالة عن الاسطرلاب ، أظهر فيها دراية حسنة بالمعارف الفلكية الشائعة . ولم يكن عالماً متبحراً ، وان كان شغوفاً بإظهار علمه ، فحشا صفحاته بفقرات من « بيوشيوس » بل إنه جعل زوجة باث تستشهد « بسينكا » . ويورد مشكلات فى الفلسفة وعلوم الدين ، ولكنه يهز كتفيه أمامها عجزاً ولعله شعر ، بما يشعر به الرجل العملى ، بأن الفيلسوف الفطن لايتوسل فى حياته اليومية بمعارفه عما وراء الطبيعة .

أكان مسيحياً مؤمناً ؟ لايوجد شىء يضارع غلظته وفظاظته فى هجائه للرهبان ، فى الاستهلال وفى تضاعيف حكاية « سومنور » . ولكم صوب نفر من المؤمنين المحافظين للإخوان مثل هذه الطعنات . وهو يثير الريب هنا وهناك ، حول بعض العقائد الدينية الجامدة ، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من لوثر فى التوفيق بين العلم الإلهى السابق وبين إرادة الإنسان الحرة ، وهو يجعل ترويلوس يشرح النظرية الجبرية ، ولكنه يرفضها فى الاستهلال له . وهو يؤكد اعتقاده فى الجنة والنار ، ولكنه يعلق على ذلك فى شىء من الطول ، بأنهما غايتان لا يعود منهما مسافر يشهد على صدق وجودهما .

وكانت الشرور تقلق باله وبخاصة تلك التي لا تنسجم مع القدرة المطلقة على الخير . ويجعل « اركسيت » يتساءل عن العدل الإلهي بعبارات جريئة كعبارات عمر الخيام :

اوه أيتها الربة القاسية ، يا من تحكمين
هذه الدنيا برباط من كلمتك الخالدة ،
وكتبت فى لوح قد من صخر
كلامك وعظمتك الخالدة ،
وماذا تكون البشرية فى تقديرك
أكثر من خراف تزدحم فى حقل ؟
لأن الإنسان يحق عليه الذبح كغيره من الأنعام .
وهو يعيش أيضاً بين السجن والاعتقال ،
ويلم به المرض وتنزل عليه المصائب الكبار .
ولم يقترف ذنباً فى كثير من الأحيان ، يؤاخذ عليه .
وأى حكم فى العلم السابق ،
بأن الذنب يعذب البراءة ؟ . .
وعندما يموت الحيوان فإنه لا يحس بألم ،
ولكن الإنسان بعد أن يموت عليه أن يبكى ويشكو . . وأنا أترك الجواب عن هذا كله للآلهة .

وحاول تشوسر فى سنواته الأخيرة ، أن يعوض التقوى التى أفلتت منه فى شبابه . وألحق بحكايات كانتربرى ، التى لم تتم «صلاة تشوسر» ، يطلب فيها العفو من الله والناس عن مجونه وانشغاله بغرور الدنيا ، وأوصى « عندما تحين منيتى انتحبوا على ذنوبى ، واعملوا على انقاذ روحى » .

وتحول فى هذه السنوات الأخيرة من الاستمتاع بالحياة إلى كآبة امرئ ، يسترجع ، وقد اضمحلت صحته وحواسه ، ذكريات شهواته الطائشة

فى صباه . وفى عام ١٣٨١ عينه رتشارد الثانى « مسجلا لأعمالنا فى قصرنا بوستمنستر » وغيره من القصور الملكية . ويبدو أن صحته قد ساءت بعد ذلك بعشرة أعوام ، مع أنه كان قد تجاوز الخمسين بقليل ، ومهما يكن من شىء ، فقد أثبتت الأعباء التى نيطت به أنها فوق طاقته ، فصرف عن منصبه . ولم نجده بعد ذلك يشغل وظيفة ما . ونضبت موارده المالية . وهان قدره حتى طلب إلى الملك ستة شلنات وثمانى بنسات[٧٩] . وفى عام ١٣٩٤ منحه رتشارد الثانى معاشاً مقداره عشرون جنيهاً فى السنة مدى الحياة . ولم يكن هذا المعاش يكفيه ، فطلب إلى الملك أن يمنحه برميلا كبيراً من الخمور كل سنة ، فأجيب إلى سؤاله عام ١٣٨٩ . ولما حكم عليه بأن يسدد ديناً قدره أربعة عشر جنيهاً عجز عن الدفع[٨٠] . ومات فى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٤٠٠ ، ودفن فى وستمنستر أبى ، وهو أول وأعظم الشعراء الكثيرين الذين نهضوا بعد ذلك بنظم الكلام الموزون[*] .

٦ – رتشارد الثانى

« أقسم عليك بالله أن تدعنا نفترش الأرض ونروى القصص الفاجعة عن وفيات الملوك[٨١] .

يقول هولنشد « كان رتشارد الثانى حسن الهيئة والطوية والفطرة ، إذا لم يؤثر فيها لؤم الذين حوله وخبث سيرتهم . . كان متلافاً ، طموحاً ، مستسلما للذات الجسمية . ولقد أحب الكتب ، وأعان تشوسر وفرواسارت . وأبدى شجاعة وحضور بديهة ، وقام بأعمال حكيمة فى الثورة الكبيرة ، ولكنه بعد تلك الأزمة المنهكة ، تورط فى ترف منهك ، وترك دفة الحكم إلى وزراء مبددين ، فقامت فى وجه هؤلاء الرجال معارضة قوية ، يتزعمها توماس دوق جلوستر ، ورتشارد ايرل اروندل وهنرى بولنجبروك ،

(*) قد لا يعود دفنه هناك ، إلى شعره ولكنه كان عند وفاته من مستأجرى عقار أبى .

حفيد ادوارد الثالث . وسيطر هذا الفريق على « برلمان لا يرحم » برلمان عام ١٣٨٨ ، الذى حكم بخيانة عشرة من رجال رتشارد وأعدمهم ، فجمع الملك عام ١٣٩٠ ، وكان لايزال شاباً فى الثالثة والعشرين ، أزمة الأمور فى يديه ، وحكم البلاد حكماً دستورياً مدى سبع سنوات — أو بعبارة أخرى ، حكم متمشياً مع القوانين ، والتقاليد ، ومنسجما مع نواب مختارين من الأمة .

وحرم بموت زوجته الملكة آن البوهيمية الموطن (١٣٩٤) ناصحاً معتدلا رشيداً وتزوج عام ١٣٩٦ إيزابل ، ابنة شارل السادس ، آملا أن يوطد من وراء ذلك السلام مع فرنسا ، وكانت لا تزال صبية فى السابعة من عمرها ، فأنفق الملك موارده على الحظايا والمقربين من الرجال والنساء وأحضرت الملكة الجديدة معها إلى لندن حاشية فرنسية . وجلب هؤلاء معهم أنماطاً فرنسية من الأخلاق وربما جلبوا أيضاً نظريات فرنسية عن الملكية المطلقة . ولما أرسل برلمان عام ١٣٩٧ إلى رتشارد قراراً بالشكوى من تبذير بلاطه ، أجاب متعاظما أن الحكم فى مثل هذه الأمور ليس من اختصاص البرلمان . وطالب اسم العضو الذى اقترح الشكوى ، فأذعن البرلمان وحكم على صاحب الاقتراح بالإعدام ، ولكن رتشارد عفى عنه .

وسرعان ما ترك جلوسستر واروندل لندن وظن الملك أنهما يتآمران على خلعه ، فأمر باعتقالهما وشنق اروندل ، وقتل جلوسستر خنقاً (١٣٩٧) .

ومات جون أوف جونت عام ١٣٩٩ ، فخلف إقطاعاً عامراً ، فصادر رتشارد أملاكه لحاجته إلى تمويل حملة يوفدها إلى ايرلندا ، فذعرت الطبقة الأرستقراطية من هذا الصنيع . وانتهز ابن دوق جنت ، المنفى المجرد من ميراثه ، فرصة انشغال الملك بإعادة الأمن إلى نصابه فى ايرلنده ، ونزل إلى البر فى يورك على رأس جيش صغير ، سرعان ما زاد عدده ، بانضمام النبلاء الأقوياء له . ووجد رتشارد عند عودته إلى انجلترا قواته قد نقصت

إلى أقصى حد ، وأصدقاءه يفرون منه خائفين ، فسلم شخصه وملكه إلى بولنجبروك ، الذى توج على عرش انجلترا باسم هنرى الرابع (١٣٩٩) وهكذا انتهت الأسرة البلانتاجينية التى بدأت بالملك هنرى الثانى عام ١١ ، وبدأت الأسرة اللانكسترية التى تنتهى بالملك هنرى السادس عام ١٤٦١. ومات رتشارد الثانى سجيناً فى بونيتفراكت (١٤٠٠) ، بالغاً من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة ، وربما كان السبب فى موته أنه أصيب ، كما يذهب إلى ذلك هولنشد وشكسبير ، بنزلة برد فى سجنه ، ولعله قتل غيلة على يد أعوان الملك الجديد .

الفصل الرابع

فرنسا تحاضر

١٣٠٠ - ١٤٦١

١ - المشهد الفرنسى

لم تكن فرنسا عام ١٣٠٠ المملكة العظيمة التى تصل حدودها اليوم من القناة الإنجليزية إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن الفوج والألب إلى المحيط الأطلسى . كانت تصل شرقاً إلى نهر الرون فقط . ولقد ضمت فى الجنوب الغربى ، مساحة كبيرة - جوين وجاسكونيا - إلى التاج الإنجليزى بزواج هنرى الثانى من اليانور من أسرة اكويتين (١١٥٢) ، وفى الشمال أخذت انجلترا إقليم بونثيو ، ومعه ايفيل ، ومع أن الملوك الإنجليز استولوا على هذه الأراضى باعتبارها إقطاعات ، تابعة للملوك الفرنسيين إلا أنهم فرضوا عليها سيادتهم الكاملة . أما بروفانس والدوفينية والكونتية الحرة فقد كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أباطرتها من الألمان فى العادة . ولقد حكم الملوك الفرنسيون حكماً غير مباشر ، عن طريق أقربائهم الإمارات ، فالوا وأنجو وبوربون وأنجوليم . وحكموا حكماً مباشراً الربوع الآتية باعتبارها التزاماً ملكياً ، وهى نورمانديا وبيكاردى وشامبانى ، وبواتو وأوفرن ومعظم لانجويدوك ، وجزيرة فرنسا - وهى « الجزيرة » التى على الجانب الشمالى من وسط فرنسا وتتركز حول باريس . وكانت أرتوا وبلوا ونيفير وليموج ، وأرمانياك ووفالنتينوا يحكمها سادة إقطاعيون يخضعون لملوك فرنسا خضوعاً اسمياً حيناً ويحاربونهم حيناً آخر . وكانت بريتانى وبرجنديا وفلاندرز إقطاعات فرنسية ، ولكنها كانت كما أسماها شكسبير « أقرب إلى الدوقيات الملكية » ، تتصرف كأنها دول مستقلة فى الواقع . ولم تكن فرنسا قد أصبحت فرنسا بعد .

وكانت أهم الإقطاعات الفرنسية وأكثرها تقلباً ، فى مستهل القرن الرابع عشر ، كونتية فلاندرز . ولم تنافس إيطاليا فى تقدمها الاقتصادى فى أوربا بأسرها شمالى جبال الألب ، سوى فلاندرز . وكانت حدودها تتذبذب فى غير انتظام فى الزمان وفى المكان ، وحسبنا أن نشير إليها ، بأنها الإقليم الذى يضم بروج وجنت ويبرز وكورتراى . وتوجد شرق شيلد ، دوقية برابانت ، التى كانت تضم وقتذاك انتورب وميشلين (مالين) وبروكسل وتورناى ولوفين . وتقع جنوبى فلاندرز الأسقفيتان المستقلتان : ليبج وكامبراى ، وكونتية هانو حول فالنسين . وتضم فلاندرز ومع التوسع برابانت وليبج وكامبراى وهانو . وتقع إلى الشمال سبع مقاطعات صغيرة ، تؤلف تقريباً هولندا كما نعرفها اليوم . ولم تستطع هذه الأقاليم الهولندية أن تبلغ أوجها حتى القرن السابع عشر ، عندما اتسعت إمبراطوريتها ، إذا صح التعبير ، من رمبرانت إلى بتافيا . وكانت فلاندر وبرابانت عام ١٣٠٠ قد خنقتهما الصناعة والتجارة وحرب الطبقات ووصلت قناة ، طولها اثناعشر ميلا بروجيس ببحر الشمال ، تمخرها مائة سفينة كل يوم ، تأتى بالتجارة من مائة ميناء فى ثلاث قارات ، ويعد اينياس سيلفيوس ، مدينة بروجيس ، واحدة من أجمل المدن الثلاث فى العالم . وألف صاغة بروجيس ، فرقة كاملة من حرس المدينة ، ونساجو جنت ، سبعة وعشرين فرقة من قواتها العسكرية ، التى بلغ مجموعها ١٨٩,٠٠٠ رجل .

وكانت المنظمة النقابية فى القرون الوسطى ، وهى التى منحت الصانع كرامة الحرية ، والاعتزاز بالحذق ، تفسح الطريق فى صناعات النسيج والمعادن فى فلاندرز وبرابانت لنظام رأسمالى(*) يمد فيه الممول رأس المال

(*) نستطيع أن نعرف رأس المال على أنه السلع أو الأموال التى تستخدم فى إنتاج السلع للاستهلاك ونعرف الرأسمالى على أنه الذى يوظف رأس المال أو يقدمه ، والرأسمالية على أنها نظام اقتصادى أو عملية اقتصادية يسيطر عليها الرأسماليون .

والمواد والآلات إلى عمال المصانع الذين يأخذون أجرهم بالقطعة ، ولم تعد النقابة تحميهم وأصبح الالتحاق بالنقابة باهظاً ،وأصبح آلاف العمال رجال تراحيل — عمال اليومية — يتنقلون من بلد إلى آخر ، ومن مصنع إلى مصنع ، ولايجدون إلا عملاموقتاً ويحصلون على أجور تفرض عليهم العيش فى مساكن قذرة . ولاتسمح لهم إلا بالقليل من المتاع لايتجاوز الملابس التى يرتدونها . وظهرت أفكار شيوعية بين العمال والفلاحين ، وتساءل الفقراء ، لماذا فرض عليهم أن يعيشوا جائعين وصوامع النبلاء ورجال الدين تطفح بالغلال ؟ وحكم على جميع الذين لا يعملون بأيديهم بأنهم من الطفيليين . وشكا أصحاب الأعمال بدورهم ، من الخطر الذى يتهدد أموالهم ، ومن عدم الاستقرار فى الحصول على مواد الصناعة وموسميتها ، ومن تعرض شحناتهم للغرق ، وتذبذب الأسعار فى السوق ، ومن الحيل التى يلجأ إليها المتنافسون ، والإضراب المتكرر الذى يرفع الأجور والأسعار ، واضطربت العملة ، فقلت أرباح رجال الأعمال ، إلى حد العجز عن الوفاء بالديون . وناصر لويس دى نيفير أمير فلاندرز ، أصحاب الأعمال . فثار العامة فى بروجز وبيرز يؤيدهم الفلاحون المجاورون ، وخلعوا لويس ، ونهبوا الكنائس ، وذبحوا نفراً من أصحاب الملايين . فما كان من الكنيسة إلا أن أصدرت قراراً بحرمان المناطق الثائرة ، ومع ذلك فقد أرغم الثائرون القساوسة على ترتيل القداس ،وانتحل أحد الزعماء نشيداً يسبق ديدورو بأربعمائة وخمسين سنة ، يقسم بأنه لن يقنع حتى يشنق آخر قسيس . . واستغاث لويس بمولاه ، ملك فرنسا ، فجاء فيليب السادس ، وهزم القوات الثائرة فى كاسل (١٣٢٨) ، وشنق عمدة بروجز ، وأعاد المقاطعة ، وجعل فلاندرز تابعة لفرنسا .

وكانت فرنسا على وجه العموم أقل تصنيعاً بكثير من فلاندرز ، وبقيت أغلب صناعاتها فى مرحلة العمل اليدوى ، ولكن ليل ودوراى وكمبراى وأمين اقتبست صناعة النسيج من المدن الفلمنكية القريبة . وعوقت الطرق

السيئة والمكوث الإقطاعية التجارة الداخلية ، بيد أنها أفادت من القنوات والأنهار التي ألفت شبكة من الطرق الطبيعية الكبيرة عبر فرنسا . وكانت طبقة رجال الأعمال النامية ، المتحالفة مع الملوك ، قد وصلت عام ١٣٠٠ إلى مكانة رفيعة فى الدولة ، وإلى درجة من الثراء أذهلت الإقطاعيين ، والنبلاء الفقراء جميعاً . وحكمت قلة من التجار المدن ،وسيطرت على النقابات ، وأمضت فى تقييد الإنتاج والتجارة . وحدثت هنا ، كما حدث فى فلاندرز ، ثورة كادحين فى المدن .

فقد انتفض عام ١٣٠٠ فلاحون فقراء ، عرفوا فى التاريخ بالرعاة ، واصطخبوا فى المدن ، لما حدث عام ١٢٥١ ، وأخذوا يجمعون فى انتفاضتهم العمال الكادحين المتمردين . وساروا جنوباً ، يتزعمهم راهب ثائر ، وأغلبهم حفاة عزل من السلاح ، معلنين أن القدس غايتهم . ودفعهم الجوع إلى انتهاب الدكاكين والحقول ، ولما تعرضوا للمقاومة ، استطاعوا أن يحصلوا على الأسلحة ، ويؤلفوا جيشاً . حتى إذا بلغوا باريس حطموا أبواب السجن ، وهزموا قوات الملك . فحبس فيليب الرابع نفسه فى اللوفر ، وانسحب النبلاء إلى معاقلهم ، وجبن التجار فى دورهم . وواصل الحشد سيره ، وزاد عدد أفراده بانضمام المعدمين فى العاصمة إليهم ، حتى بلغوا أربعين ألفاً من الرجال والنساء ومن الأوباش والأتقياء . وذبحوا فى فردن وأوخ وتولوز جميع من وقع فى أيديهم من اليهود . ولما تجمعوا فى ايجوز مورت ، على البحر الأبيض المتوسط ، أحدق بهم عمدة كاركاسون بقواته ، وقطع عنهم المؤن ، ولبث كذلك حتى مات جميع الثوار من الجوع أو الوباء ، وشنق القليلين الذين بقوا منهم :

وأى نوع من الحكومة ذلك الذى يترك فرنسا ، تحت رحمة الثروة الجشعة ، والفقر الذى لايعبأ بقانون ؟ ولقد كانت حكومة فرنسا أقدر حكومة فى أوربا من نواح كثيرة ؛ فإن ملوك القرن الثالث عشر الأقوياء ،

أخضعوا أمراء الإقطاع للدولة . وأنشأوا محكمة وإدارة قويتين ، بموظفين مدنيين مدربين ، واستدعوا للاجتماع فى مناسبات مجالس مقاطعات أو مجالس عامة وكانت فى الأصل تجمعاً عاماً لأصحاب المقاطعات ، ثم أصبحت مجلسا استشارياً يتألف من مندوبين عن النبلاء ورجال الدين ، والطبقة الوسطى . وأعجبت أوربا كلها بالبلاط الفرنسى ، حيث اختلط الأمراء والنبلاء والفرسان الأقوياء بالنساء ذوات الأردية الحريرية ، فى الحفلات الطريفة ، والمجون الرشيق ، والمبارزات الصاخبة فى برجاس لامع ، ببريق الفروسية ، ولقد وصف جون ملك بوهيميا باريس بأنها « أعظم مقر للفروسية فى العالم » وجاهر بأنه لا يستطيع أن يعيش خارجها . أما بترارك الذى زارها عام ١٣٣١ فكان وصفه إياها أقل خيالا : قال : « إن باريس مدينة عظيمة من غير شك ولو أنها دائماً أقل من شهرتها ، وتدين كثيراً لأكاذيب أهلها عنها ، والحق أننى لم أشهد مكاناً أقذر منها سوى افينيون . وتضم فى الوقت نفسه أعلم الرجال ، وهى كالسلة العظيمة تجمع فيها ، أندر الثمرات فى العالم . ولقد مر على الفرنسيين حين من الدهر ، وصفوا فيه بأنهم برابرة لشراستهم . أما الآن ، فقد تغير الحال تماماً . فإنهم يمتازون بمزاج مرح ، وحب للمجتمعات ، وسهولة وتلاعب فى الحديث . . وهم ينتهزون كل فرصة لإظهار امتيازهم ، وشن الحرب على جميع الأعباء بالتندر والضحك ، والغناء والأكل والشراب » .

وخلف ، فيليب الرابع ، لابنه عام ١٣١٤ خزانة خاوية أوتكاد على الرغم من مصادرته التى تشبه القرصنة لأموال الداوية واليهود ، ومات لويس العاشر بعد حكم قصير (١٣١٦) ولم يخلف وريثاً للعرش ، وإنما خلف زوجة حاملا . وما هى إلا فترة حتى توج أخوه باسم فيليب الخامس . وظهر فريق منافس يطالب بالعرش لابنته لويس جان ، البالغة من العمر أربع سنوات ، ولكن مجلساً من النبلاء ورجال الدين أصدر عام ١٣١٦

قراره المشهور الخاص بتوارث العرش وهو « أن القوانين والعادات المرعية بين الفرنج تستبعد البنات من وراثة العرش » . ومات فيليب (١٣٢٢) بلا ولد يخلفه ، فطبقت القاعدة مرة أخرى لتحول بين ابنته وبين ولاية الملك ، ونودى بأخيه ملكاً باسم شارل الرابع . والراجح أن القرار استهدف أيضاً أن يستبعد عن وراثة العرش ايزابل شقيقة فيليب الرابع ، وهى التى تزوجت من إدوارد الثانى ملك انجلترا ، وأنجبت إدوارد الثالث عام ٣١٢ ، لأن الفرنسيين صمموا على ألا يحكم فرنسا ملك إنجليزى .

ومات شارل الرابع بلا خلف من الذكور (١٣٢٨) فانتهت بموته دولة الملوك من أسرة كابيتان وعرض إدوارد الثالث ، الذى اعتلى عرش انجلترا قبل ذلك بعام ، على مجلس النبلاء فى فرنسا ، مطالبته بالعرش الفرنسى ، باعتباره حفيداً لفيليب الرابع ، وأقرب الأعقاب الأحياء لهيوكابت ، فرفض المجلس ، على أساس ان أم إدوارد لا تستطيع أن تنقل إليه تاجاً استبعدت هى نفسها عنه بقرار التوريث الذى صدر عامى ١٣١٦ ، ١٣٢٢ . وفضل البارونات عليه ابن أخ لفيليب الرابع ، وهو الكونت فالوا ، وبذلك يكون فيليب الرابع هو الذى بدأ أسرة فالو المالكة ، التى حكمت فرنسا ، إلى أن استهل هنرى الرابع أسرة البربون عام ١٥٨٩ . واعترض على هذا الاختيار ادوارد ، ولكنه جاء إلى « أمين » عام ١٣٢٩ ، وأعلن خضوعه وأقسم يمين الولاء لفيليب الرابع باعتباره مولاه الإقطاعى على جاسكونيا وجويين وبونثيو . ولما أنضجت إدوارد السنون ، وزاد دهاؤه ، ندم على خضوعه وحلم مرة أخرى بالجلوس على عرشين فى وقت واحد . وأكد له مستشاروه ، بأن فيليب الجديد مستضعف ، يدبر وشيكا للخروج فى حملة صليبية إلى الأراضى المقدسة . وظهر أن الوقت مناسب للبدء فى حرب المائة عام .

٢ — الطريق إلى كريسى

١٣٣٧ — ١٣٤٧

وطالب إدوارد عام ١٣٣٧ رسمياً من جديد بالعرش وكان رفض طلبه السبب المباشر للحرب . وأصبحت نورمانديا ، بعد فتحها انجلترا تابعة

للملوك الإنجليز ، مائة وثمانية وثلاثين عاماً ، وأعاد فيليب الثانى فتحها باسم فرنسا (١٢٠٤) ورأى كثير من النبلاء الإنجليز ، الذين انحدروا من أصل نورماندى ، فى الحرب المقبلة محاولة لاستعادة موطنهم الأصلى واقتطع فيليب الرابع وشارل الرابع جزءاً من مقاطعة جوين الإنجليزية التى كانت عامرة بالكروم ، وكانت تجارة النبيذ فى بوردو مورداً ثميناً لانجلترا حتى مات فى الدفاع عنها إلى حين عشرة آلاف إنجليزى . أما اسكتلندا فكانت شوكة فى جنب انجلترا ، وتحالف الفرنسيون مراراً معها فى حروبها مع انجلترا . وكان بحر الشمال عامراً بالسمك ، فادعى الأسطول الإنجليزى السيادة على هذه المياه فى القناة وخليج بسكاى واستولى على السفن الفرنسية التى سولت لنفسها أن تسخر من هذا الادعاء الأول بالسيادة الإنجليزية على البحار . وكانت فلاندرز منفذاً حيوياً للصوف البريطانى ، وأنف النبلاء الإنجليز الذين يجز الصوف من أغنامهم والتجار الذين يصدرون هذا الصوف ، أن تعتمد سوقهم الأساسية على النية الطيبة لملك فرنسا .

وأمر كونت فلاندرز عام ١٣٣٦ بحبس جميع البريطانيين هناك ، ويبدو أن فيليب السادس أيد هذا العمل وقاية من الدسائس الإنجليزية . فرد إدوارد الثالث على ذلك بأن أمر بالقبض على جميع الفلمنكيين فى انجلترا . وتحريم تصدير الصوف إلى فلاندرز وما هو إلا أسبوع حتى توقفت المغازل الفلمنكية لافتقارها إلى المادة الخام ، وتزاحم العمال فى الطرقات مطالبين بالعمل . واتحد العمال اليدويون والآليون فى جنت معلنين خروجهم عن طاعة الكونت ، وانتخبوا متآمرا دعيا هو جاكوب فان ارتفليد حاكماً على المدينة ، وأيدوا سياسته التى تنشد صداقة إنجلترا وصوفها (١٣٣٧) فألغى إدوارد الحظر ، وفر الكونت إلى باريس ، وأقر أهل فلاندرز جميعاً ديكتاتورية أرتفيلد ووافقوا على الانضمام إلى إنجلترا فى حربها مع فرنسا . وفى أول نوفمبر عام ١٣٣٧ سار إدوارد الثالث على تقاليد الفروسية

وأرسل إلى فيليب السادس إعلاناً رسمياً بأن انجلترا ستشرع فى الحرب بعد ثلاثة أيام .

وكان أول لقاء له أهميته فى حرب المائة سنة ، معركة بحرية فى سلويز بعيداً عن الساحل الفلمنكى (١٣٤٠) ، حطم فيها الأسطول الإنجليزى مائة واثنتين وأربعين سفينة من المائة والاثنتين والسبعين التى تؤلف الأسطول الفرنسى ثم تركت فى العام نفسه جان أميرة فالوا أخت فيليب وحماة إدوارد ، ديرها فى فونتنل ، وألحت على الملك الفرنسى أن يوفدها رسول سلام . فتعرضت فى طريقها إلى معسكر القادة الإنجليزى لأخطار كثيرة ، فوافقوها على عقد مؤتمر وأقنع توسطها البطولى الملكين بأن يعقدا هدنة لمدة تسعة أشهر . وساد السلام بفضل الجهود التى بذلها البابا كليمنت السادس إلى عام ١٣٤٦ .

ولكن حرب الطبقات احتلت المسرح فى فترة الصفاء هذه . وكان النساجون المنظمون فى جنت يؤلفون أرستقراطية العمل فى الأراضى الواطئة . ورفضوا الخضوع لأرتفيلد باعتباره طاغية قاسياً ، ومبدداً للأموال العامة ، وأداة طيعة فى يد إنجلترا والبورجوازية . واقترح أرتفيلد أن تنادى فلاندرز بأمير ويلز حاكماً عليها فجاء ادوارد الثالث إلى سلويز تأكيداً للاتفاق . حتى إذا رجع أرتفيلد من سلويز إلى جنت وجد داره محاطة بجمهور ساخط ودافع عن حياته مؤكداً أنه وطنى فلمنكى أصيل ، ولكنه سحل وضرب إلى أن فاضت روحه (١٣٤٥) . وأنشأ النساجون ديكتاتورية عمالية فى جنت ، وبعثوا مندوبين عنهم فى أنحاء فلاندرز يدعون العمال للثورة . فاشتبك القصارون مع النساجين وأجلوهم عن الحكم وقتل كثير منهم ، وضاق الشعب بالحكومة الجديدة وبسط لويس دى ميل ، وكان قد أصبح كونت فلاندرز ، سلطانه على جميع مدنها .

وما أن انتهت الهدنة ، حتى غزا إدوارد الثالث نورمانديا واجتاحها . وفى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٣٤٦ ، التق الجيشان : الإنجليزى

والفرنسى ، وتأهبا للمعركة الفاصلة . واستمع القادة والرجال من الجانبين إلى القداس ، وأكلوا جسم المسيح(*) وشربوا دمه وطلبوا معونة فى إجهاز أحدهما على الآخر . ثم تحاربا فى شجاعة ووحشية بلا هوادة . واكتسب إدوارد ، الأمير الأسود ، فى ذلك اليوم ثناء والده المنتصر ، وصمد فليب السادس فى حومة الوغى ، حتى لم يبق من رجاله إلا ستة جنود . وهلك فى تلك المعركة الواحدة ، ثلاثون ألف رجل ، كما ذهب إلى ذلك فرواسار فى تقديره غير الدقيق . وأشرف الإقطاع على الموت هناك أيضاً : فوقف فرسان فرنسا الراكبون ، المسلحون فى رشاقة بالحراب القصار ، بلا حول ولا قوة ، أمام حائط من الرماح الإنجليزية الطوال المصوبة إلى صدور أفراسهم ، بينما نشر حملة القسى من الإنجليز عند الجناحين ، الموت بين الفرسان الفرنسيين . وكادت شمس الفروسية تأفل فى يوم الحصاد الطويل الذى تنفس فجره قبل ذلك فى ادريانوبل بتسعمائة وثمانى وستين سنة ،وجاءت المشاة إلى المقدمة ، وضعفت سيادة العسكرية الأرستقراطية . واستعملت المدفعية فى كرسى على نطاق ضيق ، وجعلتها صعوبة النقل وحاجتها إلى إعادة التعمير أكثر مشقة وأقل جدوى ،ولذلك قصر فلانى فائدتها على صخبها(**).

وقاد ادوارد جيشه من كريسى إلى حصار كاليه ، واستخدم المدفع فى تحطيم الأسوار (١٣٤٧) . وصمدت المدينة عاماً كاملا ، حتى ألحت المجاعة عليها ، فأذعنت لشرط ادوارد ، وهو أن يخرج الباقون على قيد الحياة بسلام ، إذا توجه ستة من أعيان المدينة إليه ، والحبال حول أعناقهم ، وفى أيديهم مفاتيح المدينة . وتطوع ستة منهم بالفعل ولما مثلوا أمام الملك ، أمر بشنقهم . فجثت ملكة انجلترا أمامه ، تتوسل الإبقاء على حياتهم ، فاستجاب لها ، وأرسلت الرجال مخفورين إلى دورهم بسلام . وللنساء

(*) كناية عن القربان .

(**) كانت المدفعية قد بلغت قرناً من الزمان ، ذلك لأن المدافعين البربر استعملوا المدافع فى سجلماسة عام ١٣٤٧

فى التاريخ فضل أعظم من الملوك وهن يخضن بشجاعة معركة يائسة لتحويل الرجال من جفوة التوحش إلى صقل الحضارة .

وهكذا أصبحت كاليه ، جزءاً من إنجلترا ، ولبثت إلى عام ١٥٥٨ ، منفذاً استراتيجياً لبضائعها وجيوشها على القارة . وثارت عام ١٣٤٨ ، فحاصرها ادوارد مرة أخرى وحارب بنفسه متنكراً فى المعمعة . واستطاع فارس فرنسى ، اسمه أوستاس دى ريبومونت ، أن يطعن إدوارد مرتين ، ولكنه غلب على أمره وأسر ، ولما استعاد إدوارد المدينة دعا أسراه النبلاء إلى الغذاء ، ووقف اللوردات الإنجليز وأمير ويلز على خدمتهم ، وقال ادوارد للفارس الذى طعنه ريبومونت « ياسير أوستاس ، إنك أشجع فارس رأيته فى العالم المسيحى يهاجم عدوه . . ولذلك فأنا أمنحك تقدير الشجاعة وأجعلك فوق جميع رجال بلاطى » . ونزع الملك الإنجليزى عن رأسه إكليلا نفيساً ووضعه على رأس الفارس الفرنسى ، قائلا :

« أيها السيد أوستاس ، إننى أهديك هذا الإكليل . . وأرجوك أن تضعه على رأسك هذا العام فى محبتى . وإنى لأعلم أنك مقبل على الحياة ، نزاع إلى الغزل ، مغرم بصحبة السيدات والآنسات ، ولذلك قل ، أينما ذهبت ، إننى أعطيتك إياه . وأنا أمنحك حريتك أيضاً بلا فدية ، ولك أن تذهب حيث شئت » .

وعاشت الفروسية هنا وهناك ، بين الجشع والقتل ، واقتربت وكادت أساطير أرثر تشبه التاريخ الحى على صفحات فرواسارت .

٣ — الموت الأسود وغيره

١٣٤٨ — ١٣٤٩

لقد كان الطاعون العظيم محايداً حين دهم إنجلترا العامرة بالغنائم الفرنسية وفرنسا التى أصابتها الهزيمة بالخراب . ووباء الطاعون حدث مألوف فى تاريخ العصور الوسطى ، فلقد أزعج أوربا اثنتين وثلاثين سنة من القرن

الرابع عشر ، وإحدى وأربعون سنة من الخامس عشر ، وثلاثين سنة من السادس عشر ، وهكذا تعاونت الطبيعة وجهل الإنسان ، هذان وهما عاملان ثابتان متوسيان من ناحية ، مع الحرب والمجاعة من ناحية أخرى ، على الحد من استغراق الإنسان فى النسل . وكان الموت الأسود شر هذه النوازل ، ولعله أنوح ملمة طبيعية تعرض لها الإنسان فى عصور التاريخ . ولقد وفد على برفانس وفرنسا من إيطاليا ، ولعله جاء مباشرة من الشرق الأدنى بوساطة الجرذان الشرقية التى ترسى على مارسيليا . وذهبت رواية ، غير محققة فى ناربون ، إلى أن ثلاثين ألف شخص ماتوا فى هذا الوباء ، وفى باريس خمسين ألفاً وفى أوربا خمسة وعشرين مليوناً ، وربما كان المجموع « ربع سكان العالم المتحضر » وعجزت مهنة الطب أمامه ، فلم تكن تعلم سبب المرض (ولقد اكتشف كيتا زاتو ، برسن ، باسيليات الطاعون الدملى عام ١٨٩٤) ، وكل ما كانت توصى به هو ، المعضدات ، ومطهرات الجوف ، والمنعشات ، ونظافة المسكن والجسم ، والتبخير ببخار الخل(٧) . ورفض عدد قليل من الأطباء والقساوسة علاج المرضى ، خوفاً من العدوى ، ولكن أكثرهم واجهوا المحنة برجولة ، وضحى آلاف من الأطباء ورجال الدين بحياتهم . وكان على قيد الحياة ثمانية وعشرون كاردينالا عام ١٣٤٨ توفى منهم تسعة بعد ذلك بعام واحد ، ومن الثمانية والأربعين رئيساً للأساقفة ، مات خمسة وعشرون ، ومن الخمسة والسبعين والثلثمائة أسقف مات سبعة ومائتان .

وكان للوباء آثاره على جميع نواحى الحياة وطبيعى أن يموت الفقراء ، بنسبة أكبر من الأغنياء ، فأدى ذلك إلى نقص فى العمال ، وهجرت آلاف الأفدنة بلا فلاحة ، ونفقت ملايين الأنعام . واكتسب العمال قدرة جديدة على المساومة إلى حين ، فرفعوا أجورهم ، ونفضوا عن كواهلهم كثيراً

من الأعباء الإقطاعية ، وقاموا بثورات جعلت النبلاء ، لايستطيعون النيل منهم مدى نصف قرن، بل أضرب القسس أنفسهم ،من أجل زيادة رواتبهم . وهجر عبيد الأرض ، المزارع إلى المدن ، واتسعت الصناعة ، وحصلت طبقة رجال الأعمال على مغانم جديدة من الأرستقراطية التى تملك الأرض . ونالت الصحة العامة قسطاً من الإصلاح المعتدل . وأضعفت شدة الألم والمأساة عقول الكثيرين ، فأدت إلى أمراض عصبية معدية ، ويبدو أن جماعات بأسرها قد جُنّت مثل « الفلاجلان » الذين ساروا عام ١٣٤٩ ، كما فعلوا فى القرن الثالث عشر ، فى طرقات المدينة عراة أو يكادون ، يضربون أنفسهم فى ندم ، ويعظون بيوم الحساب ، والمدن الفاضلة ، ويدعون إلى ذبح اليهود . واستمع الناس بانتباه أكثر من المألوف إلى قراء الأفكار ، ومفسرى الأحلام ، والعرافين ، والدجالين وغيرهم من المشعوذين . وضعفت العقيدة الصحيحة وانتشرت الخرافة . وأرجع حدوث الطاعون إلى أسباب عجيبة . فنسبه بعضهم إلى اتصال فى غير أوانه بين زحل والمشترى والمريخ ، وآخرون إلى تسميم المجذومين أو اليهود للآبار . فقتل اليهود فى حوالى خمسين مدينة ، تمتد من بروكسل إلى برسلو بين عامى ١٣٤٨ — ١٣٤٩ ، وكاد يقضى على النظام الاجتماعى ، بموت آلاف من رجال الشرطة ، والقضاة وموظفى الحكومة ، والأساقفة والقسس . بل إن صناعة الحرب قد تعرضت للاضمحلال ، وتلكأت حرب المائة عام ، بين حصار كاليه ومعركة بواتييه (١٣٥٦) فى هدنة متراخية ، بينما عوض النقص الهائل فى صفوف المشاة ، برجال بلغ منهم الفقر مبلغاً ، جعلهم يرون الحياة تفضل الموت ببضعة شلنات !

وتأسى فيليب السادس ، عن الطاعون والهزيمة ، بالزواج ، وهو فى السادسة والخمسين ، من بلانش أميرة نافار ، البالغة من العمر ثمانى عشرة سنة ، وهى التى كان ينوى خطبتها لابنه . وتوفى بعد ذلك بسبعة

أشهر فقط . وكان هذا الابن ، جون الثانى « الطيب » (١٣٥٠ — ١٣٦٤) ، طيباً حتماً مع النبلاء ، أعفاهم من الضرائب ، ومنحهم الأموال ليصدوا الإنجليز عن أرضهم ، وأبقى على أشكال الفروسية ومزاياها جميعاً وخفض سعر العملة ، كوسيلة قديمة ، للوفاء بديون الحرب ، وزاد الضرائب مراراً ، على الطبقتين الدنيا والوسطى ، وسار فى أبهة ليلتقى بالإنجليز عند بواتييه . وهناك أبيد رجاله الخمسة عشر ألفاً من الفرسان والاسكتلنديين ، والحشم وذبحوا وأسروا ، على يد سبعة آلاف من رجال الأمير الأسود ، بل إن الملك جون نفسه ، الذى حارب بعنف ، وقاد جيشه بحماقة ، كان بين الأسرى هو وابنه فيليب ، وسبعة عشر ايرل ، وعدد لا يحصى من البارونات ، والفرسان ، والأعيان . وسمح لمعظمهم أن يفتدوا أنفسهم على الفور ، وأطلق سراح كثيرين ، بعد أن وعدوا بإحضار الفدية إلى بوردو فى عيد الميلاد وعامل الأمير الأسود الملك بما يليق بمقامه من إجلال ، واصطحبه على أكف الراحة إلى إنجلترا .

٤ — الثورة والتجديد

١٣٥٧ — ١٣٨٠

أصيبت فرنسا كلها بالفوضى بعد محنة بواتييه . وكان من نتائج عدم النزاهة والكفاءة فى الحكومة ، ونقص سعر العملة إلى حد كبير ، والمبالغ الباهظة التى دفعت فدية للملك والفرسان ، والخراب الذى جره الحرب والطاعون ، والضرائب غير المشجعة التى فرضت على الزراعة والصناعة والتجارة ، أن قامت الأمة بثورة يائسة . ودعا ولى العهد دوفان(*) وهو

(*) يبدو أنه كان فى أول الأمر اسم علم ، دلفينوس (دلفان) ، ولما تكرر فى أسماء الأسرة المالكة غالباً فى فينا وأوفرن أصبح (١٢٥٠) من ألقاب التشريف ، وخلع رسمياً عام ١٢٨٥ ، على الابن الأكبر لكونت فينا ، ومن ثم استعمل دلفيناتوس أودوفينيه للدلالة على الكونتيه التى تتخذ جرينوبل الآن مقراً أساسياً وفى عام ١٣٤٩ باع الكونت همبولت الثانى صاحب فينوا ، الدوفينية بلقبها دوفان إلى شارل صاحب فالوا ، ابن الملك جون الثانى . ولما أصبح شارل ملكاً عام ١٣٦٤ ، نقل اللقب إلى ابنه الأكبر ، وعرف منذ ذلك الابن الأكبر للملك الفرنسى بدوفان فينوا .

شارل صاحب فالوا البالغ من العمر تسع عشرة سنة ، مجلس الطبقات للولايات الشمالية إلى الانعقاد فى باريس . وذلك ليفرض ضرائب جديدة ، فأخذ على عاتقه أن ينشئ حكومة برلمانية فى فرنسا . وكان لباريس وغيرها من المدن برلمانات منذ عهد طويل ، ولكنها كانت جماعات صغيرة معينة ، معظمها من رجال القضاء عادة ، ومهمتها محصورة فى الاستشارة القانونية للحاكم المحلى أوالملك ، وتسجيل مراسيمه باعتبارها جزءاً من القانون الفرنسى . واستجوب هذا المجلس ، الذى سيطر عليه تحالف مؤقت بين رجال الدين والبورجوازية ، مجلس البلاط ، لماذا أدت المبالغ الكبيرة التى جمعت للحروب ، إلى وجود فرق غير منظمة وهزيمة منكرة ، وأمر باعتقال اثنين وعشرين من عملاء الحكومة ، كما أمر مديرى الخزانة أن يعيدوا المبالغ التى اتهموا باختلاسها . وفرض قيوداً على امتيازات التاج، بل إنه فكر فى خلع جون الطيب ، وإبعاد أبنائه عن ولاية العهد ،وإسناد عرش فرنسا لى الملك شارل السيئ صاحب نافار ، وهو من أعقاب هيوكابت . بيد أن المجلس تأثر من خضوع ولى العهد وحكمته ، ونادى به نائباً للملك ، وأجمعوا رأيهم على إعطائه نفقات ، ثلاثين ألف رجل مدججين بالسلاح ، ولكن المجلس طالبه فى الوقت نفسه أن يطرد الموظفين الفاسدين أو الجهلاء ، وحذره من العبث بسعر العملة ، وعين لجنة من ستة وثلاثين رجلا للرقابة على أعمال الحكومة ونفقاتها . وأدان القضاة لإسرافهم على حاشيتهم ، وتراخيهم فى العمل ، فقد كان تقويمهم القضائى متأخراً عشرين سنة ، وفرض عليهم أن يفتتحوا جلساتهم عند شروق الشمس ، فى نفس الوقت الذى يبادر فيه المواطنون الأمناء بالذهاب إلى محال أعمالهم ، أو حقولهم . وهذا « القانون العظيم » الذى صدر عام ١٣٥٧ ، حرم على النبلاء أيضاً مغادرة فرنسا ، أوشن حرب خاصة بهم ، ووجه تعلياته إلى السلطات المحلية للمدن ، أن تعتقل كل نبيل ، يخرج على هذا المرسوم . وتصبح

الأرستقراطية بتنفيذه خاضعة للعامة ، والنبلاء لطبقة رجال الأعمال وعلى الملك والأمير والبارون أن يطيعوا المندوبين الذين اختارهم الشعب . وكأنه قد قدر لفرنسا أن تحصل على حكومة دستورية ، قبل الثورة بأربعة قرون .

ووقع ولى العهد هـــذا القانون فى شهر مارس ولكنه بدأ يتملص منه فى أبريل . وطالب الإنجليز بفدية عن أبيه ، يؤدى الوفاء بها إلى الخراب ، وتوعدوا بالتقدم إلى باريس . وتباطأ الناس فى دفع الضرائب ، متذرعين بالقاعدة الجديدة التى تقول أنه لا يفرضها غير مجلس الطبقات . وألحت الحاجة الماسة إلى المبادرة بالدفع ، ودعا شارل هذا المجلس إلى الاجتماع ثانية فى أول فبراير عام ١٣٥٨ ، وأنقص فى الوقت نفسه سعر العملة ليزيد مورده . وكان لاتين مارسل ، التاجر الغنى ، شأن عظيم فى الثانى من فبراير إذ أسهم بنصيب كبير ، باعتباره رئيساً لنقابة التجار فى صياغة « القانون العظيم » وأتيح له أن يحكم باريس لمدة سنة ، فقاد فرقة مسلحة من المواطنين — يرتدون جميعاً قبعات بلونى المدينة الرسميين ، الأزرق والأحمر — إلى القصر الملكى وأنب شارل على عدم طاعته لأوامر « القانون العظيم » ولما لم يعلن الأمير طاعته ، دفع مارسيل رجاله ، فقتلوا اثنين من الحجاب اللذين كانا يحرسان ولى العهد ، حتى انتثرت دماؤهما على الرداء الملكى .

وأخذ مجلس الطبقات يثير الفزع بهذا العنف الجرىء ، ومهما يكن من شىء فقد سبق الثورة الفرنسية بأن سن قانوناً (مايو عام ١٣٥٨) يحصر مهمة التشريع لفرنسا فى هذا المجلس ، ويفرض على الملك ألا يتصرف فى الأمور الهامة إلا بموافقة الولايات ، ففر عدد كبير من النبلاء ورجال الدين من فرنسا ، وترك كثيرون من الموظفين الإداريين مناصبهم خوفاً على حياتهم . فما كان من مارسيل إلا أن عين مكانهم جماعة من الأهالى ؛ وحاول تجار باريس أن يحكموا فرنسا فترة من الزمان . والتجأ ولى العهد مع النبلاء إلى بيكاردى ، وألف جيشاً ، ونادى أهل باريس ، أن يسلموا

إليه زعماء الثورة ، وأعد مارسيل العاصمة للدفاع ، وأحاطها بأسوار جديدة ، واحتل اللوفر ، وكان وقتذاك مقر الملك ورمزه .

وفى الوقت الذى احتلت فيه الثورة مدينة باريس ، رأى الفلاحون فى الريف ، أن الفرصة مواتية ، للثأر من سادتهم . وكان معظمهم عبيد أرض ، تفرض عليهم الضرائب لينعم سادتهم بأسباب الترف ولدفع الفدية عنهم ، وينتهبهم الجند وقطاع الطريق ، ويعذبون ليكشفوا عن مدخراتهم . ولما أهلك الطاعون عدداً عظيما منهم ، وعرضتهم الحروب للمجاعة ، ثاروا فى عنف لا حد له ، وشقوا طريقهم فى قلاع الإقطاع ، ودقوا أعناق النبلاء التى وصلت إليها خناجرهم ، ووجدوا الخلاص من جوعهم وظمئهم فى مخازنهم وأقبيتهم . وكان النبلاء يطلقون على مثال الفلاح الطيب اللقب التقليدى « جاك المغفل » ، ونفذ صبر آلاف من هؤلاء ، فاندفعوا فى أعمال وحشية ، وذبحوا سادتهم ، واغتصبوا السيدات ، وقتلوا الذرارى ، وألبسوا زوجاتهم حلى اللائى توفين .

وأرسل مارسيل ثمانمائة من رجاله لمعاونة الفلاحين أملا أن تصرف هذه الثورة الريفية ولى العهد عن مهاجمة باريس . واشتد ساعدهم ، وساروا إلى ميوكس التى التجأ إليها أميرات أورليان ونورمانديا ، وكثيرات من سيدات الطبقة الراقية ، فشاهدن حشداً من عبيد الأرض والمستأجرين يتدفق على المدينة ، واستسلمن ، معتقدات أنهن فقدن الشرف والحياة . وإذا بفرقة من الفرسان كأنها المعجزة فى بعض أساطير أرثر ، تدخل ميوكس عائدة من الحروب الصليبية وتباغت الفلاحين ، وتحصد آلافاً منهم ، وتلقى بهم أكواماً فى الجداول المجاورة فخرج النبلاء من مخابئهم ، وفرضوا الغرامات على القرى عقاباً لها . وساروا فى أنحاء الريف ، وأعملوا القتل فى عشرين ألف فلاح ، ولم يفرقوا بين ثائر وبرىء (يونيه ١٣٥٨) .

واقتربت قوات ولى العهد من باريس ، وقطعت عنها المؤن ، ويئس

مارسيل من المقاومة بجميع الوسائل ، فأهدى التاج إلى شارل السيئ ، ومهد لرجاله دخول المدينة وأنكر جان ما يلادن ، صديق مارسيل ويده اليمنى ، هذا الصنيع وعده خيانة ، فعقد اتفاقاً سرياً مع ولى العهد ، وفى الواحد والثلاثين من شهر يولية قتل جان وآخرون مارسيل بضربة فأس . فدخل ولى العهد باريس على رأس النبلاء المسلحين . وكان معقولا حذراً فى تصرفه وعكف على افتداء أبيه ، واستعادة الروح المعنوية ، والحياة الاقتصادية لفرنسا ، وانسحب الرجال الذين حاولوا أن يخلقوا سيادة برلمانية ، فى صمت وغموض . والتف النبلاء المعترفون بالجميل حول العرش ، وأصبح مجلس الطبقات أداة طيعة فى يد ملكية زادت شوكتها .

وفى نوفمبر عام ١٣٥٩ نزل إدوارد الثالث إلى البر بجيش جديد فى كاليه . وتنكب باريس ، مقدراً الأسوار الحديدة التى شيدها مارسيل ، ولكنه أخضع الريف المحيط بها من ريمز إلى شارترز بإبادة المحاصيل ، حتى اجتاحت المجاعة باريس مرة أخرى . وطلب شارل الصلح بشروط مهينة . فعلى فرنسا أن تسلم جاسكونيا وجوين إلى انجلترا بريئة من كل التزام إقطاعى عليها لملك فرنسا ، وأن تتنازل أيضاً عن بواتو وبريجور وكويرسى وسانتونج وروورج وكاليه وبونثيو وأونيس وإنجوموا وأجنوا وليموزين وبيجور وأن تدفع ، ثلاثة مليون كراون ، ليعود مليكها . وفى مقابل ذلك يتنازل ادوارد ، وجميع أعقابه ، عن كل ادعاء ، فى عرش فرنسا ، ووقعت معاهدة بريتانى هذه فى الثامن من مايو عام ١٣٦٠ ، وهكذا ابتلى ثلث فرنسا بالحكم البريطانى ، واستشاط منه غضبا . وأرسل اثنان من أبناء الملك جون وهما — دوق انجو و دوق برى — إلى انجلترا ، رهينتين على إخلاص فرنسا للمعاهدة . وعاد جون إلى باريس ، وسط قرع الأجراس ، وابتهاج النبلاء والدهماء ؛ ولما خرج الدوق انجو على كلمة الشرف ، وفر للحاق بزوجته ، عاد الملك جون إلى إنجلترا بنفسه ، ليكون رهينة فى مكان ابنه ، مناشداً الدخول

فى مفاوضات من أجل صلح أخف وطأة . فاستقبله ادوارد على أنه ضيف لا أسير ، وكرمه كل يوم على أنه زهرة من زهرات الفروسية . ومات جون فى لندن عام ١٣٦٤ ، ودفن فى كنيسة سانت بول ، أسيراً فى موته . وأصبح ولى العهد البالغ من العمر ستة وعشرين سنة ملكاً على فرنسا باسم شارل الخامس .

واستحق لقلب « الحكيم » ، الذى أسبغه شعبه عليه ، لهذا السبب وحده ، وهو أنه عرف كيف ينتصر فى المعارك ، دون أن يحرك يداً . فلقد كانت يده اليمنى ، متضخمة دائماً ، وذراعه مترهلة ، ولم يكن يستطيع أن يرفع حربة ، وقيل أن شارل السيئ دس له السم . وإذا كان قد فرض عليه أن يعيش مقيداً ، فقد أحاط نفسه بمستشارين حكماء . فأعاد تنظيم كل إدارة ، وأصلح الجهاز القضائى ، وأعاد تكوين الجيش ، وشجع الصناعة ، وثبت سعر العملة ، وأيد الأدب والفن ، وجمع فى اللوفر المكتبة الملكية ، التى زودت النهضة الفرنسية بالنصوص القديمة والترجمات ، وكانت نواة المكتبة القومية . وسلم للنبلاء الحق فى استعادة المكوس الاقطاعية ، ولكنه تخطاهم وعين — قائداً عاماً للجيوش الفرنسية — رجلا بريتانيا اسمه برتراند دى جويسكلين . وهو رجل أسمر ، أفطس الأنف ، غليظ العنق ، ضخم الرأس . ولقد ساعد الاعتقاد ، فى تفوق هذا « النسر البريتانى » على جميع القادة الإنجليز ، على تصميم الملك ، استرداد فرنسا من الحكم الإنجليزى . فأرسل عام ١٣٦٩ ، إلى ادوارد الثالث إعلاناً رسمياً بالحرب .

وكان رد الأمير الأسود ، أن أخضع ليموج ، وأعمل السيف فى ثلاثة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، وهذا هو مذهبه فى التربية السياسية : وثبت أنه لم يكن موفقاً فقد تحصنت كل مدينة فى طريقه ، وتزودت بالجند ، واختزنت المؤن للمقاومة الناجحة ، واضطر الأمير إلى أن يقنع ، بتخريب الريف ، وإحراق المحاصيل ، واقتلاع منازل الفلاحين الخاوية ،

ولم يشأ دى جويسكلان أن يخوض معركة ، ولكنه ناوش مؤخرة الأمير ، وأسر العلافين ، وانتظر أن تشرف القوات الإنجليزية على الموت جوعاً . وحدث ما توقعه فانسحبت ، وتقدم دى جويسكلان ، وأخذت الولايات تعلن تخلصها الواحدة بعد الأخرى من التبعية ، وبعد عامين من القيادة الممتازة ، والولاء المشترك بين القائد والملك ، طرد الإنجليز من فرنسا بأسرها باستثناء بوردو وبرست وشربر ، وكاليه ، وبلغت فرنسا لأول مرة جبال البرانس . ومات الملك وقائده فى العام نفسه (١٣٨٠) فى ذروة النصر .

٥ – الملك المجنون

١٣٨٠ – ١٤٢٢

الملكية الوراثية تشبه لعبة الميسر ، تضع المغفل المحبوب ، فى مكان الحاكم القدير ، فلقد كان شارل السادس فى الثانية عشرة من عمره عندما توفى أبوه ، فعمل أعمامه أوصياء على الملك حتى بلغ العشرين ، وسمحوا له أن ينغمس فى مجون لا يعرف المسئولية ، فى الوقت الذى سار فيه نصف أوربا ، إلى حافة الثورة . وكان صناع بروجس وعلى رؤوسهم قبعات حمراء ، قد اقتلعوا عام ١٣٥٩ دار البلدية التاريخية فى ثورة جامحة . وفى عام ١٣٦٦ ثارت الطبقات الدنيا فى بيرس ، معلنة الحرب المقدسة على الأغنياء . وفى عام ١٣٧٨ أنشأ الكيومبى فى فلورنسا ، ديكتاتورية الكادحين . وفى عام ١٣٧٩ بدأ الفلاحون الجائعون فى لا نجدوك – جنوبى فرنسا – حرب عصابات ، استمرت ست سنوات ، ضد النبلاء ورجال الدين ، تحت لواء قائد أمرهم قائلا « اقتلوا جميع أصحاب الأيدى الناعمة » وثار العمال فى ستراسبورج عام ١٣٨٠ ، وفى لندن عام ١٣٨١ ، وفى كلونيا عام ١٣٩٦ . وقامت فى جنت ، حكومة ثورية من عام ١٣٧٩ إلى عام ١٣٨٢ . وتوجت ثورة من عمال مدينة روين ، بزازا قوياً وقتل الشعب فى باريس ، جباة الضرائب التابعين للملك بمطارق من الرصاص (١٣٨٢) :

وأمسك شارل السادس بأزمة الحكم فى يديه عام ١٣٨٨ ، وحكم أربع سنوات ، حكماً صالحاً ، فاستحق بذلك لقب « المحبوب» ولكنه جن فى عام ١٣٩٢ . فلم يعد يعرف زوجته ، وطلب إلى المرأة الغريبة عنه . أن تمسك عن توسلاتها . وسرعان ما انفض جميع الناس من حوله ولم يكترث به سوى أحط الخدم . ولبث خمسة أشهر لا يبدل ثيابه ، ولما رؤى أخيراً أن يغتسل احتاج الأمر إلى اثنى عشر رجلا للتغلب على مقاومته ، ولبس تاج فرنسا ثلاثين سنة ، أبله يرثى له ، بينما تأهب ملك إنجليزى شاب شهم لغزو فرنسا من جديد .

ولقد أبحر هنرى الخامس من إنجلترا فى الحادى من أغسطس عام١٤١٥، فى ألف وثلاثمائة سفينة ، وإحدى عشر ألف رجل . فوضعوا مراسيهم فى الرابع عشر بالقرب من هارفلير ، عند مصب نهر السين . وقاومت هارفلير ببسالة ، ولكن بلا جدوى . وسار الإنجليز ، تغمرهم العزة النصر ، ويسرع بهم داء الزرب إلى كاليه.والتقى بهم فرسان فرنسافى اجنكورت ، بجوار كريسى (٢٥ أكتوبر) . وكأنما لم يتعلم الفرنسيون شيئاً من معركتى كريسى ، وبواتييه ، إذ ظلوا يعتمدون على الفرسان . ولم تستطع أكثر أفراسهم الحركة بسبب الأوحال ، أما الذين استطاعوا التقدم ، فقد واجهوا الأوتاد المسننة ، التى غرسها الإنجليز ، على زاوية من الأرض ، حول حملة القسى . فارتدت الخيل المتحيرة ، وحملت على جيشها ، ونزل الإنجليز على هذا الحشد المضطرب ، بالقضبان والفؤوس ، والسيوف ، وقادهم مليكهم هال ، ببسالة ، وتوتر شديد من الخوف ، وكان انتصارهم مذهلا . ويقدر المؤرخون الفرنسيون ، خسائر الإنجليز بألف وستمائة رجل ، وخسائر الفرنسيين بعشرة آلاف رجل .

وعاد هنرى إلى فرنسا عام ١٤١٧ ، وحاصر روين . وأكل المواطنون ما ادخروه من طعام ، ثم التهموا جيادهم ، وكلابهم وقططهم . وألقى بالنساء

والأطفال والطاعنين فى السن ، خارج أسوار المدينة ، توفيراً للطعام ، فبحثوا عن معبر فى خطوط الإنجليز ، فلم يسمح لهم بالمرور ، وظلوا كذلك بلا طعام ولا مأوى بين أقربائهم وأعدائهم ، فهلكوا جوعاً ، ومات خمسون ألف فرنسى من الجوع ، فى هذا الحصار الذى لم يرحم . ولما استسلمت المدينة ، كبح هنرى جماح جيشه من تقتيل الذين بقوا على قيد الحياة ، ولكنه فرض عليهم غرامة مقدارها ثلثمائة ألف كراون ، ووضعهم فى السجن حتى يتسلم حصيلة المبلغ وفى عام ١٤١٩ ، تقدم نحو باريس التى لم يبق فيها سوى ، الفساد ، والانحلال ، والتوحش ، وحرب الطبقات . وتجاوز الإذلال ما حدث عام ١٣٦٠ فقد سلمت فرنسا ، بمقتضى معاهدة ترويس (١٤٢٠) ، كل شىء حتى الشرف . وقدم شارل السادس ابنته كاترين ، زوجة لهنرى الخامس ، وتعهد بأن يورثه العرش الفرنسى ، ونقل إليه قيادة فرنسا ، ولإزالة كل التباس لم يقر ببنوة ولى العهد . ولم تدافع الملكة ايزابيل عن هذا الاتهام بالفسق فى مقابل أربعة وعشرين ألف فرنك كل سنة ، والواقع أنه لم يكن من السهل على المرأة فى البلاط الملكى ، لذلك الزمان ، أن تعرف من هو والد ابنها على التحقيق . وأنكر ولى العهد المعاهدة ، وكان يبسط نفوذه على جنوب فرنسا ، ونظم فرق جاسكونيا وأرمانياك لمواصلة الحرب . بيد أن ملك انجلترا أخذ بحكم من الاوفر .

وبعد سنتين مات هنرى الخامس بداء الزرب (الدوسنطاريا) ، فإن الميكروبات لم توقع المعاهدة ، ولما لحق به شارل السادس (١٤٢٢) توج هنرى السادس ملك انجلترا على فرنسا ، وكان دون السنة الأولى من عمره ، فحكم دوق بدفورد وصياً عليه . وكان قاسياً فى حكمه ، ولكنه عادل مثل كل إنجليزى ، يقدر له أن يحكم فرنسا . فأمن السفر بأن شنق عشرة آلاف رجل من قطاع الطريق فى سنة واحدة ، وأخذ يراقب منذ ذاك أحوال البلاد . وعاث الجنود المسرحون فى الطرق الرئيسية فسادا ، وأفزعوا حتى

المدن الكبيرة مثل باريس ، وديجون . واكتسحت الحرب ، نورماندبا بالخراب ، من الأمام ومن الخلف ، كتيار قاتل خبيث ، بل هلك ثلث سكان لا نجدوك ، وهى تعد أحسن حظاً ، وهرب الفلاحون إلى المدن ، واعتصموا بالكهوف ، أو تحصنوا فى الكنائس ، كلما اقتربت الجيوش أو أحزاب الإقطاع أو عصابات اللصوص . ولم يعد الكثيرون من الفلاحين إلى ممتلكاتهم المضطربة وإنما عاشوا بالتكفف والسرقة ، أو هلكوا من الجوع أو الطاعون . وأقفرت الكنائس ، والمزارع ومدن بأسرها وتركت للبلى . وقد كان فى باريس وحدها عام ١٤٢٢ ، أربعة وعشرون ألف بيت مقفر ، وثمانون ألف متسول من مجموع السكان الذين يبلغ عددهم ثلثمائة ألف نسمة . وأكل الناس لحم الكلاب وامعاءها . وملأت الطرقات صيحات الأطفال المشرفين على الموت جوعاً .

٦ — الحياة بين الأطلال

كانت الأخلاق ، كما يتوقع المرء فى كل إقليم يصاب بالشلل الطويل المحزن فى الاقتصاد والحكومة . ولقد ألف جيوفرى دى لاتور لاندرى ، حوالى عام ١٣٧٢ ، كتابين يرشد بهما أطفاله فى هذه الفوضى ، ولم يبق منهما غير ما وجهه إلى بناته . وهو مجلد رقيق لطيف عامر بالحب الأبوى ، مشوب بالهم على عفة غير آمنة وبخاصة ، فى زمن اقترفت فيه نساء كثيرات الخطايا بلا جزع مما أوقعهن فى فضائح مزرية . ورأى الفارس الطيب أن يقاوم هذه المغريات ، وذهب إلى أن خير وقاية هى الإكثار من الصلاة . ويعرض الكتاب لعصر ، لم يزل متشبثاً بالمشاعر المصقولة ، والحس الأخلاقى . ونحن نلتقى بعد ذلك بسبعين سنة بشخصية منكرة ، هى شخصية المارشال دى ريز أورتز ، وهو رجل غنى عظيم وسيد بريتانى . واعتاد أن يدعو الأطفال إلى قلعته . بحجة تدريبهم على الترتيل الكنسى ، ثم يقتلهم الواحد بعد الآخر ويقدمهم قرباناً للشياطين ، التى كان ينشد عندها القوى السحرية .

ولكنه قتل من أجل المتعة أيضاً و (لقد أثبتنا) أنه كان يضحك على صباح مرتليه المعذبين أو المحتضرين . واتبع هذا النهج أربع عشرة سنة ، حتى اجترأ ، والد أحد ضحاياه ، باتهامه ، فاعترف بهذه التفاصيل كلها ، وشنق عام ١٤٤٠ ولولا أنه أساء إلى دوق بريتانى ، لما اقتص منه ، ذلك لأن الرجال من طبقته قلما كانوا يقدمون إلى ساحة القضاء ، مهما كانت جرائمهم ومع ذلك ، فإن الأرستقراطية التى ينتسب إليها ، كثيراً ما أخرجت الأبطال أمثال الملك جون صاحب بوهيميا ، أوجاستون فيوبس دى فوا ، الذى أحبه فرواسارت وأثنى عليه . وفى هذه الأوحال تفتحت الأزهار الأخيرة للفروسية .

وأسهمت أخلاق الشعب فى هذا الانحلال . فأصبحت القسوة والخيانة والفساد أمراضاً متوطنة . وكان السوقى والحاكم سواء فى قبول الرشوة . وانتشر المجون ، و شكا الوزير جرسون من أن أقدس الأعياد تنفق فى لعب الورق(*) والميسر والتجديف فى الرين . وكان المحتالون والمزيفون واللصوص والصعاليك والشحاذون يسدون الطرقات بالنهار ، ويجتمعون بالليل ليستمتعوا بحصادهم ، فى باريس ، فى ساحة المعجزات ، التى سميت كذلك لأن المتسولين الذين يبدون فى مظهر المقعدين ، يظهرون هناك فجأة وكل عضو من أعضاء جسمهم فى صحة مذهلة .

وفشا اللواط ، وشاعت الدعارة ، وكاد المجون يصبح عاماً . ودعت فرقة « الآدميين » فى القرن الرابع عشر ، إلى مذهب العرى ، وظلت تمارسه علناً إلى أن منعته محاكم التفتيش . وكانت الصور الفاحشة المخلة بالآداب ، رائجة كما هى الآن ، ويروى جرسون ، أنها كانت تباع حتى فى الكنائس وأيام الأعياد الدينية . ونظم شعراء مثل ديشان قصائد غرامية

(*) ربما دخل لعب الورق إلى أوربا فى القرن الرابع عشر ، وأول رواية محققة عنه كانت عام ١٣٧٩ . ويبدو أنها جاءت عن طريق المسلمين عبر أفريقيا وأسبانيا والصليبيين . ويزعم الصينيون أنهم مارسوه مبكراً عام ١١٢٠ .

للسيدات النبيلات . ووصف نيقولا دىكليمانج كبير شماسة بابيه ، دير منطقته بأنه معبد مخصص للقيام بشعائر فينوس . وكان من المألوف أن يتخذ الملوك والأمراء ، خليلات لهم ، وكان الكثير من الزيجات الملكية — وزيجات النبلاء ينطوى على أغراض سياسية ، ولذلك لم تكن هذه الزيجات جديرة بالحب . واستمرت السيدات ، ذوات الحسب والنسب ، فى مناظرات رسمية ، حول جواز العلاقات الجنسية ، وأنشأ فيليب الجسور ، صاحب برجنديا ، فى باريس محكمة حب عام ١٤٠١ . ولقد وجدت وسط هذا الخضم من الاستهتار أو فى كنفه سيدات فضليات ، ورجال شرفاء ، ونحن نجد لمحة عابرة عن هؤلاء ، فى كتاب عجيب ألفه حوالى عام ١٣٩٣ ، رجل مجهول الاسم فى الستين من عمره ، عرف بأنه مدير باريس : « أعتقد أنه عندما يزف اثنان شريفان طيبان ، أحدهما إلى الآخر . فإن كل حب يزول . . إلا حب كل منهما للآخر . وأرى أنهما عندما يصطحبان ، يهتم كل منهما بالآخر ، أكثر من اهتمامه بغيره ، ويربط كل منهما على الآخر ويمسك به ، ولارغبة لهما فى الحديث أو الإشارة إلا لبعضهما . . وكل متعتهما الخاصة ورغبتهما الكبرى وسرورهما الكامل ، إنما هو أن يمتع أحدهما الآخر ويطيعه » .

وأضيف إلى صور هذا العصر اضطهادات اليهود (١٣٠٦ ، ١٣٨٤ ، ١٣٩٦) والمجذومين (١٣٢١) ، ومحاكمة الحيوانات وإعدامها ، لإيذاء الناس وتسافدها معهم ، والشنق علناً ، الذى يدعو إلى حشد متطلع . وكانت تنبش القبور فى جبانة الأبرياء فى باريس ، كلما سقط لحم الميت عن عظمه ، لإفساح المجال لأموات جدد ، وتجمع العظام فى غير نظام ، فى مدافن خاصة بها ، على طول الأروقة ، التى كانت مع ذلك ، أماكن مألوفة ، للقاء العاشقين ، فأنشئت هناك الدكاكين ، ودعت البغايا الزبائن . ورسم أحد الفنانين ، مدة شهور على حائط الدير ، صورة لرقصة الموت

عام ١٤٢٤ ، تبدو الشياطين فيها وهى تدور حول نفسها مع الرجال والنساء والأطفال المسوقين فى خطوات مرحة متعاقبة إلى الجحيم . وأصبحت هذه الصورة مضموناً رمزياً لعصر يائس ، ومثلته إحدى المسرحيات فى بروجس عام ١٤٤٩ ، وصوره ديرر ، وهلبين ، وبوش فى آثارهم الفنية . وغلب التشاؤم على نصف شعر هذا العصر . وهجا ديشان الحياة فى كل جوانبها تقريباً ، وبدت الدنيا له ، كشيخ واهن جشع ، مضطرب منحل ولقد ختم كلامه بقوله « إن كل شىء سيئ السيرة » . ووافقه جرسن قائلا : « إننا نعيش فى شيخوخة الدنيا » ، وإن يوم القيامة لقريب . واعتقدت امرأة عجوز ، أن كل وخزة ألم فى أصابع قدميها ، تعلن ذهاب إحدى الأرواح إلى الجحيم ، وكان تقديرها معتدلا ، فإن الاعتقاد الشائع وقتذاك أنه لم يدخل الجنة أحد من الناس فى الثلاثين سنة الماضية .

وماذا عسى أن يصنع الدين ، فى تصدع أمة مغلوبة على أمرها ؟ لقد كان البابوات الحبيسون فى افنيون يتلقون حماية الملوك الفرنسيين ، وأوامرهم فى السنوات الأربعين الأول من حرب المائة عام ، وكانت معظم الموارد ، التى يجمعها أولئك البابوات من أوربا ، تذهب إلى هؤلاء الملوك ، تمويلا لحرب الحياه أو الموت مع بريطانيا ، واستطاعت الكنيسة أن تجمع للملكية فى إحدى عشرة سنة (١٣٤٥ — ١٣٥٥) مبلغ ٣,٣٩٢,٠٠٠ فلورن (٨٤,٨٠٠,٠٠٠دولار؟) وحاول البابوات مراراً أن يضعوا حداً للحرب ولكنهم فشلوا . وعانت الكنيسة مشقة مضنية ، من جراء الخراب الطويل الذى منيت به فرنسا قرناً من الزمان ، فأقفرت مئات الكنائس والأديرة أو خربت ، وشاركت الطبقة الدنيا من رجال الدين فيما اتسم به العصر من انحلال الأخلاق . وتجاهل الفرسان والمشاة الدين لايذكرونه إلا عند المعركة أو الوفاه ، ولابد أنهم ارتابوا ، فى العقيدة بسبب عدم اكتراث السماء ، الذى يدعو إلى الجنون . واعتصم الناس فى عصيانهم أوامر الدين

بالكنيسة والعقيدة مفزعين ، وحملوا أموالهم وهمومهم إلى مزارات العذراء تسكيناً لروعهم ، وكانوا يصابون فى القداس ، بوجد دينى ، عندما يستمعون إلى العظات المخلصة للراهب رتشارد أو القديس فنسانت فرر . وابتدعت فى بعض البيوت ، تماثيل صغيرة للعذراء تفتح بطونها بلمسة من اليد ، فينكشف الثالوث .

وكان معظم قادة الفكر للكنيسة ، فى هذا العصر ، من الفرنسيين . ولم يكن بيير دايلى واحدا من العلماء ، أصحاب الرأى فحسب ، وإنما كان من أقدر زعماء الكنيسة وأبعدهم عن الفساد ، وأحد السياسيين من رجال ، الاكليروس ، الذين عالجوا فى مجمع كنستانس ، الفرقة فى البابوية . وكان بين تلاميذه ، وهو مدير كلية نافار فى باريس ، شاب ، أصبح فيما بعد ، أعلم علماء الدين فى جيله . وزار جان دى جرسون الأراضى الواطئة ، فأعجب كثيراً من تصوف ريوزبرويك ، والورع الجديد عند « اخوة الحياة العادية » . فلما أصبح مديراً لجامعة باريس (١٣٩٥) ، فكر فى إدخال هذا النوع من التقوى إلى فرنسا على الرغم من نقده أنانية المذهب الصوفى وما فيه من القول بوحدة الوجود واقتنع أخواته الست بقدوته وحججه ، ولقد أنبئنا أنهن ظللن عذارى إلى نهاية حياتهن . وذم جوسين ، خرافات الدهماء ، ودجل التنجيم والسحر والطب ،ولكنه اعترف بأن الرقى ، ربما يكون لها تأثير بالتسلط على المخيلة (٧٤) . ورأى أن معرفتنا بالنجوم ، ممعنة فى النقص ، حتى إننا لا نستطيع ، أن نصور تنبؤات محددة ، بل إننا لا نستطيع أن نعين بالضبط مدى سنة شمسية ، ولا يمكننا أن نخبر عن الموضع الحقيقى للنجوم ، لأن أضواءها تتكسر ، فى سيرها إلينا ، عبر أوساط متعددة . ودعا جوسون إلى ديمقراطية مقيدة ، وإلى سيادة المجامع ، فى الكنيسة ، بيد أنه حبذ ملكية قوية فى فرنسا ، ولعل الأحوال السائدة فى بلاده تبرر تناقضه ، وهى التى كانت أحوج إلى النظام منها إلى الحرية .

وكان رجلا عظيما فى طرازه وجيله ، وكانت فضائله خاصة به ، أما أوهامه فمن عدوى عصره ، كما يجب أن يقول جيته . وتزعم الحركة التى استهدفت التخلص من البابوات المتنازعين ، وقصدت إصلاح الكنيسة ، وأسهم فى إرسال جون هس وجيروم البراغى إلى الموت .

وأخذت الطبقات العليا ، تمدح أشخاصها ، وتزين دورها ، وسط مظاهر الفاقة التى يعانيها شعبها . وارتدى أفراد العامة البسيط من السترات ، والقمصان ، والسراويل ، والأحذية ذوات الرقاب ، وقلدت الطبقات الوسطى الملوك ، على الرغم من القوانين الخاصة بالنفقات ، فارتدى أفرادها ، الأردية الطويلة ، وربما كانت قرمزية اللون أو محفوفة بالفراء ، كما ارتدى السادة النبلاء الصدريات ، والجوارب الطويلة ، والألفعة الأنيقة والقبعات الرائشة التى تمسح الأرض عند الانحناءات المهذبة ووضع بعض الرجال قروناً على أصابع نعالهم ، لتطابق ما على رؤوسهم من رموز غير جلية . وآثرت سيدات من ذوات الحسب ، القبعات المخروطية كأبراج الكنيسة ، وكن يشددن أجسامهن بسترات ضيقة وسراويل زاهية اللون ، وتنورات من الفرو ، تتدلى أطرافها على الأرض فى جلال ويظهرن صدورهن بينما يزدن من جمال وجوههن بإسدال النقاب عليها . وبدأت الأزرار تستعمل لحبك الملابس(٤٠) ، وكانت قبل ذلك مجرد حلى ، ونحن نعكس هذه الحركة الآن . وكن يتلألأن ، حتى البدينات منهن ، بالحرائر والأنسجة المذهبة والمطرزة ، والأشرطة والجواهر على الشعر وعلى الرقبة واليدين والرداء والحذاء ، وتحت هذا البريق الوقائى ، كثرت عند كل نساء الطبقة العليا تقريباً .

وظلت دور الفقراء كما كانت فى القرون السابقة ، إلا أن النوافذ من الزجاج شاعت فيها ، أما القصور الصغيرة وبيوت الأغنياء فى المدن فلم تعد سجوناً مظلمة ، كانت قصوراً مريحة حسنة التأثيث بساحات فسيحة بها

نوافير ماء ، ودرجات محواة عريضة ، وطنف معلقة ، وسقوف شديدة الانحدار تناطح السماء وتغوص فى الثلج . وقد زودت بغرف للخدم ، ومخازن ، وغرفة للحراسة وأخرى للبواب ، وغيرها للبياضات ، ومغسل ، وقبو للخمر ومخبز ، بالإضافة إلى القاعة وغرف النوم لأسرة صاحب البيت . وكانت بعض القصور ، كالتى يملكها بيير فوند (١٣٩٠) وشاتودن (حوالى ١٤٥٠) ارهاصاً بقلاع اللوار الملكية . وتعد دار الرأسمالى الكبير جاك كور فى بورجس ، أصون قصور ذلك العهد ، وهى عمارة كاملة لها برج قوطى من الحجر المنقوش ، وأفاريز وطنف مزخرفة ، ونوافذ على طراز عصر النهضة ، ولقد أخبرنا ، أنه قد تكلف كله حوالى ٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، بحساب النقد فى أيامنا . وأثثت بالفاخر من الطنافس : مدافئ فخمة ، تدفئ على الأقل ، جانباً من الغرفة وسكانها ، ومقاعد ومناضد متينة ، دأب الصانع على نقشها بالحفر ، دون كلل ، وأرائك عليها حشيات على طول الجدران مبطنة بقماش[٥٧] مزركش ، وخزائن تحف وصواوين ضخمة تعرض الصحاف الذهبية والفضية ، تليها أكواب زجاجية أبهى منها ، وسجاجيد سميكة ، وأرضيات من البلوط المصقول أو قرميد مطلى بالميناء ، ومخادع معرشة مرتفعة وعريضة تتسع للسيد وزوجته وطفل أو اثنين . ولقد نام على هذه السرر المريحة رجال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ونساءهما ، عراة ، ولم تكن قمصان النوم قد أصبحت ضرورة لا غنى عنها .

٤ — الآداب

ولقد واصل الرجال والنساء تأليف الكتب بين هذه الأطلال ومنها الرسائل الباقية (١٣٢٢ — ١٣٣١) التى وضعها نيقولا من ليرا ، وقاموا بإضافات محققة لفهم نصوص الكتاب المقدس ، فمهدت الطريق لـ ه العهد

الجديد » لأرازمس ولترجمة لوثر الألمانية . وغلبت على قصص هذا العصر ، الحكايات الغرامية الخفيفة مثل مائة حكاية جديدة التى ألفها انتوان دولاسال أو قصص خيالية عن الفروسية مثل فلور وبلانشفلير . أما الكتاب الذى ألفه جيهان ذو اللحية وهو طبيب من ليبج يسمى السير جون ماندفيل فلايقل عنها خيالا ، ولقد نشر (حوالى ١٣٧٠) وصفاً لرحلاته المزعومة فى مصر وآسيا وبولنده . وادعى جون أنه زار جميع الأماكن التى وردت أسماؤها فى الأناجيل ، « الدار التى ذهبت إليها مريم العذراء للتعلم » ، والموضع الذى سخنت فيه الماء التى غسل بها إلهنا أقدام الرسل » ، والكنيسة التى فرت إليها مريم لتدر اللبن من صدرها الجليل ، وفيها عمود من الرخام ، اتكأت عليه ، ولايزال مرطباً بلبنها ، ولم تزل الأرض لينة بيضاء حيث تساقط لبنها الأمثل ، وبلغ جون ذو اللحية أوجه فى وصفه الصين ، فلم تكن فصاحة مقيدة بالعلم إلا قليلا . ولكنه كان يدنو من العلم ، بين الحين والحين ، كما هو الحال فى قوله كيف ظل أحد الناس يتجه ناحية الشرق إلى أن عاد إلى وطنه من جديد » ، مثل مستر باسبارتو فى رواية جيل فيرن . وشرب مرتين من « نبع الشباب» ، ولكنه عاد إلى أوربا كسيحاً بداء النقرس ، الذى ربما أصيب به لعدم مغادرته ليبج على الإطلاق .

ولقد ترجمت هذه الرحلات إلى مائة لغة وكان لها وقع أدبى عظيم بين الناس أواخر القرون الوسطى .

وأروع ما أنتجه الأدب الفرنسى ، فى القرن الرابع عشر فيما نعلم هو كتاب « التواريخ » الذى نظمه جان فرواسار . هذا المؤلف ولد فى فالنسيين عام ١٣٣٨ ، وعكف على نظم الشعر فى بواكير حياته ، حتى إذا بلغ الرابعة والعشرين ، عبر البحر إلى لندن ، ليضع أشعاره ، عند قدمى فيليبا أميرة هانو ، زوجة الملك ادوارد الثالث . فأصبح كاتم سرها ، ولقى أشراف الإنجليز ، وأعجب بهم إعجاباً صريحاً ، جعله غير محايد

فى تاريخه . وسرعان ما انتزعه غرامه بالرحلة ، فساقه إلى اسكتلندا ، وبردو وسافوى وإيطاليا . ولما عاد إلى هانو أصبح قسيساً وكاهن شيماى . وهناك صمم على أن يعيد تأليف كتابه نثراً ، وأن يتوسع فيه من أوله ومن آخره . ورحل مرة أخرى إلى انجلترا وفرنسا ، يجمع المواد فى مثابرة ودأب . حتى إذا عاد إلى شيماى وقف نفسه على إتمام هذا التاريخ « النبيل الممتع . . الذى ستشتد الحاجة إليه بعد وفاتى . . ليشجع كل القلوب الباسلة ، ويطلعها على مثل شريفة » . وليست هناك قصة خيالية أروع منها ، والقارئ الذى يبدأ هذه الصفحات ، المسهبة ، الألف والمائتين ، وهو ينوى أن يقفز من قمة إلى قمة ، سيجد الأودية مشوقة أيضاً ، وسيسير فى القراءة فى بهجة وأناة إلى النهاية . ولم يشغف هذا القسيس — مثله فى ذلك مثل يوليوس الثانى — بغير الحرب . وفتن بالحركة ، والشهامة والأرستقراطية ، أما العامة فلم يلجوا صفحاته إلا باعتبارهم ضحايا النزاع الذى شجر بين الأشراف . ولم يبحث فى الحوافز ، واعتمد فى ثقة بالغة على الروايات المزوقة والمنحازة ، ولم يزعم أنه يفلسف الأخبار . فقد كان إخبارياً فحسب بل أنه أعظم الإخباريين جميعاً .

وتحدد المسرحية العصر الذى تمثل فيه ، ولقد احتلت المسرحيات الدينية والأخلاقية التى عرفت باسم « المعجزة » ، كما احتلت الفواصل والهزليات المسارح المؤقتة التى تشيد فى المدن . وأخذت الموضوعات غير الدينية تزداد على الأيام واقترن المرح بالفحش فى العادة ، بيد أن الموضوعات الدينية ظلت مسيطرة ، ولم يستشعر الناس الملل قط من المناظر التى تمثل آلام المسيح . ولقد تخصصت أهم فرقة تمثيلية فى هذا العصر وهى فرقة الإخوان الباريسية التى تمثل آلام السيد المسيح فى تمثيل قصة الفترة القصيرة التى قضاها المسيح فى أورشليم : وبلغت إحدى هذه المسرحيات التى ألفها «أرنول جريبان » خمسة وثلاثين ألف سطر،

وكانت للشعر جماعاته أيضاً . فقد أنشأت تولوز عام ١٣٢٣ أكاديمية للعلم البهيج ، وعملت المباريات العامة تحت رعايتها على إحياء فن الشعراء الجوالين « التروبادور » وطابعهم . وتألفت جمعيات أدبية مماثلة فى أمين ودواى وفالنسين ، وهى التى مهدت الطريق للأكاديمية الفرنسية التى أنشأها ريشيليو . واتخذ الملوك والسراة لهم شعراء مثلما اتخذوا منشدين ومهرجين يلحقون بحاشيتهم . وضم « رينيه الطيب » دوق انجوواللورين ، وملك نابلى بالاسم فقط ، رهطاً من الشعراء والفنانين إلى بلاطه فى كل من نانسى وتاراسكون وايكس ان بروفنس ، ونافس أحسن ناظم للقوافى ، حتى لقب « بآخر التروبادور » . وبسط شارل الخامس رعايته على أوستاش ديشان ، الذى شبب بالنساء ، وتزوج ثم شهر بالزواج فى قصيدة عنوانها مرآة الزواج ، تبلغ اثنى عشر ألف بيت ونعى على عصره الشقاء والخسة :

يا عصر الرصاص ، أيها الزمن المفسود ، أيتها السماء من النحاس ،
أيتها الأرض بلا ثمر ، مجدبة لا خير فيها ،
أيها الناس الملعونون ، بكل أسى مفجع ..
أليس من الحق أن أنبئكم جميعاً ؟
لأننى لا أرى شيئاً فى عالم الغد ،
المفعم بالحزن الممعن فى الاضطراب ،
ويشمل فى فعاله كل شر ؛
واليوم يحل زمن البلاء ..

ونشأت كريستين دى بيزان فى باريس ، على أنها ابنة الطبيب الإيطالى لشارل الخامس ، فلما ترملت كان عليها أن تعول ثلاثة أطفال وثلاثة أقارب فوفقت إلى ذلك بأعجوبة بقرض الشعر الرائع وتأليف التاريخ الوطنى ، وهى تستحق منا تحية عابرة بوصفها أول امرأة فى أوربا الغربية استطاعت أن تعيش بقلمها . أما ألين شارتيه فكان أسعد حظاً ، فإن قصائده فى الحب

مثل قصيدته « الفاتنة بلا رحمة » ذات الإيقاع الحسن التي زجر فيها النساء على إخفاء مفاتنهن — قد أسرت الطبقة الأرستقراطية ، حتى قيل أن مارجريت أميرة اسكتلندا ، التي أصبحت ملكة فرنسا بعد ذلك ، قبلت شفتي الشاعر وهو نائم على إحدى الأرائك . وسرد أتين باسكييه ، هذه الأسطورة ، في قصص خلاب ، بعد مرور قرن من الزمان . .

لقد عجب الكثيرون من هذا الصنيع ولكي أقول الحقيقة فإنني أقرر أن الطبيعة ، قد وضعت روحاً جميلة في جسم ممعن في القبح — وهنا قالت السيدة أنهم يجب ألا يعجبوا من هذا الغموض ، فليس الرجل ، هو الذي رغبت في تقبيله ولكنني قبلت الشفتين اللتين نطقتا بهذه الكلمات الذهبية » .

ولم يكن مقدراً على أرق شعراء فرنسا في هذا العصر أن يقول الشعر ، إذ كان ابن أخي شارل السادس ووالد لويس الثاني عشر . ولكن شارل دوق أورليان أسر في أجنكور ، وأمضى خمساً وعشرين سنة (١٤١٥ — ١٤٤٠) معتقلا اعتقالا ليناً بانجلترا . فغمر الهم قلبه وتأسى بنظم الشعر الرقيق في الغزل ومحنة فرنسا . ولبثت فرنسا بأسرها تنشد أغنيتين في الربيع :

لقد بدل العام وشاحه البارد .
وشاح الريح والمطر والهواء المرير ،
وسار مؤتزراً حلة من الذهب .
حلة من الشمس الضاحكة والفصل الجميل ،
وما من طائر أووحش من وحوش الغابة أو الفلاة
إلا ويعلن بصياحه أوغنائه ،
ان العام يطوى وشاحه البارد .

بل ان انجلترا كان فيها فتيات جميلات ، فنسى شارل أحزانه عندما مر به الحب الهادئ :

يا إلهي . . ما أجمل أن أراها ،

يا إلهى الرحيم الودود العادل . .
إن كل فضيلة من الفضائل المختارة التى فيها
لجديرة بالمديح النادر .
ومن ذا الذى يمل جمالها ،
النضر كل يوم نضرة لا تضارع؟
يا إلهى . . ما أجمل أن أراها ،
يا إلهى الرحيم الودود العادل . .

وسمح له آخر الأمر أن يعود إلى فرنسا ، فجعل من قلعته فى بلوا ، موئلا بهيجاً للأدب والفن ، حيث استقبل فيللون على الرغم من فقره وجرائمه ، ولما بلغ شارل من العمر أرذله ، ولم يعد قادراً على المساهمة فى مرح أصدقائه الشبان ، نظم اعتذاره إليهم فى أبيات رقيقة ، تصلح أن تكتب على قبره :

حى بالنيابة عنى جميع الصحاب
الذين تلقاهم الآن فى ألفة ،
وقل كم أكون سعيداً
إذا أصبحت واحداً من ثلتهم لو كان ذلك ممكناً ،
فإن الشيخوخة تقتلنى .
ولقد تحكم الشباب فى حياتى مرحاً فى زمن طال به العهد
ولكنه الآن ولى وذهب .
وكنت عاشقاً ، ولن يقدر لى أكثر من ذلك أبداً ،
ولقد عشت فى باريس حياة ممعنة فى الحرية .
وداعا فلن أشهد بعد ذلك أياماً طيبة . .
حى بالنيابة عنى جميع الصحاب .

٨ — الفن

كان فنانو فرنسا لهذا العهد أكثر تفوقاً من شعرائها ، ولكنهم شقوا أيضاً بإمحالها . ولم تقدر لهم هناك رعاية كريمة يعتمدون عليها فى المدينة أو الكنيسة أوعند الملك . « والولايات التى عبرت عن كرامة طوائفها ، بالمعابد الضخام ، وتسامت بهذا التعبير إلى عقيدة لا يرقى الشك إليها ، أضعفها وقضى عليها ازدياد سلطان الملك إلى جانب التوسع فى الاقتصاد من المجال المحلى إلى المجال القومى ولم تعد الكنيسة الفرنسية تمول أوتلهم ، مثل المبانى الهائلة ، التى ارتفعت على أرض فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. » ولقد انحطت العقيدة ، كما اضمحلت الثروة ، وتبدد الأمل الذى دفع فى هذه القرون إلى الحروب الصليبية ، وتشييد الكتدرائيات فى وقت واحد أى العمل والصلاة التى تحث عليه — فقد نشوته المنتجة وكان الأمر يحتاج فى العمارة إلى طاقة أكبر من طاقة القرن الرابع عشر ، ليتم ما بدأه عصر أشد فتوة . وعلى الرغم من هذا فقد أنجز جان رافى كاتدرائية نوتردام فى باريس (١٣٥١) ، وأضافت « رون » كنيسة صغيرة للعذراء عام (١٣٠٢) إلى كاتدرائية سبق أن أنشئت باسمها ، وشيدت بواتييه لكادرائيتها عام (١٣٧٩) واجهتها الغربية الشامخة .

وأخذ الطراز المشع للتخطيط القومى (١٢٧٥) ، يسلم قياده شيئاً فشيئاً ، إلى طراز قوطى هندسى ، يعتمد على أشكال اقليدية بدلا من الخطوط المشعة . وعلى هذا النحو شيدت بوردو ، كاتدرائيتها (١٣٢٠ — ١٣٢٥) وأقامت كان عام (١٣٠٨) برجاً رشيقاً ، مستدق الطرف ، على كنيسة سانت بيير ، ولقد تحطم هذا البرج فى الحرب العالمية الثانية ، وزودت اكسير كاتدرائيتها بصحن جديد عام (١٣٥٥) ، وأضافت كوتانس عام (١٣٧١ — ١٣٨٦) وأمين عام (١٣٧٥) ، كنائس صغيرة

رائعة إلى مزاريهما التاريخيين ، وأكدت رون مجدها المعمارى باقامة الكنيسة المجيدة لسانت أوين (١٣١٨ — ١٥٤٥) .

ولما تصورت فرنسا أنها منتصرة ، فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، أظهر معماريوها طرازاً قوطياً جديداً ، مرحاً فى ، وحه ، مسرفاً فى تفاصيل النقوش المحفورة ، معقداً مبهرجاً فى تفريقاته الزخرفية ، مسرفاً إلى حد غير معقول فى الزينة . وأصبح العقد القوطى ، أو العقد المدبب لقوس متصل ، وقتذاك عقداً مخروطياً لقوس مقلوب ، كلسان اللهب الذى أعطى هذا الطراز اسمه (المشع) . ولم تعد تستعمل تيجان العمد ، وتلولبت العمد أو خططت ، وأفرط فى حفر أماكن المرتل ، وحجبت بستائر حديدية من شرائط دقيقة ، وأصبحت الزخارف المدلاة كأعمدة الثلج الجامد المتدلى من سقوف المغاور والكهوف ، وصارت القباب تيها من الأضلاع التى تتراوح بين الظهور والخفاء ، وابتعدت فواصل النوافذ ، عن الأشكال الهندسية القديمة الجامدة ، وفاضت فى رشاقة فاتنة وتعمد لا يوصف ، وبدت الأبراج وكأنها شيدت من الزخرف ، واختفى البناء خلف الزينة . وكانت غرة هذا الطراز الجديد فى الكنيسة الصغيرة التى شيدت باسم القديس يوحنا المعمدان عام (١٣٧٥) فى كاتدرائية أمين ، وما إن جاء عام ١٤٢٥ ، حتى كان هذا الطراز قد غلب على فرنسا ، وبدأ عام ١٤٣٦ ، يحقق إحدى معجزاته الرقيقة ، وهى كنيسة سان ماكلو فى رون . وربما ساعد ، على انتصار الطراز المشع فى النصف الأول من من القرن الخامس عشر ، استرداد الثقة وبعث الروح العسكرية على يد جان دارك وشارل السابع ، ونمو الثروة التجارية ، كما يمثلها جان كير ، ونزوع الطبقة البورجوازية ، الصاعدة إلى الزينة المترفة . وظل الطراز القوطى فى هذا الشكل النسوى ، إلى أن أعاد الملوك والنبلاء الفرنسيون من حروبهم فى إيطاليا ، أفكار عصر النهضة المعمارية الكلاسية .

ويحمل نمو العمارة المدنية في أعطافه ، ظهور الطابع الدنيوى لهذا العصر . ورأى الملوك والأمراء ، أن هناك ما يكفى من الكنائس ، فابتنوا لأنفسهم قصوراً ، تكون فتنة للشعب ، ومأوى لخطياتهم ، وأنفق الأغنياء من نواب المقاطعات ، ثروات طائلة على دورهم وأعلنت المجالس البلدية عن غناها بتشييد دور البلدية الفخمة ، وصممت بعض المستشفيات مثل مستشفى بون تصميما جميلا طليقاً لابد أنه قد أسبغ الصحة على المرضى . وجمع البابوات والكرادلة ، حشداً منوعاً من الفنانين ، وعضدوهم ، بيد أن بنائى فرنسا ورسامها ومثاليها ، كانوا يلتفون حول نبيل أو ملك . وشيد شارل الخامس قصر فنسن عام (١٣٦٤ — ١٣٧٣) ، والباستيل عام (١٣٦٩) ، واستقدم الفنان واسع الأفق أندريه بونيفو ليحفر صوراً لفيليب السادس ، وجون الثانى وشارل نفسه للمقابر الملكية ، المصففة ، الرائعة ، التى تزحم تمشى كنيسة سانت دينيس وسردابها عام (١٣٦٤) . وشيد لويس أمير أورليانز قصر بيرفوند ، وكان جون دوق برى ، على الرغم من قسوته على الفلاحين ، واحداً من أعظم رعاة الفنون فى التاريخ .

وهو الذى صور له بونيفيه عام ١٤٠٢ كتاب المزامير . وهو ليس إلا واحداً من سلسلة المخطوطات المزوقة ، الموضوعة بالقرب من القمة ، فيما يمكن أن يسمى غرفة الموسيقى ، فى فنون الرسم . ولهذا السيد الفطن نفسه ، صور جاك دى هسدن « الساعات الصغيرة » و« الساعات الجميلة » و « الساعات الكبيرة » ، وهى تمثل كتب « الساعات » للصلوات اليومية الكنسية . وأخرج الإخوان بل جيهانيكان وهرمان مالويل من لمبورج ، الساعات الغنية (١٤١٦) وهى خمس وستون منمنمة تصور الحياة فى فرنسا ومناظر منها : النبلاء يصيدون ، والفلاحون يعملون ، ومنظر ريفى يضفى عليه الجليد صفاء . وتعد هذه الساعات الغنية المستورة الآن ، حتى عن أعين السائحين ، فى متحف كونديه فى شانتلى ، والمنمنمات التى صورت للملك الطيب ، رينية صاحب انجو آخر انتصارات فن التزويق ، ذلك لأن هذا الفن

قد نافسه فى القرن الخامس عشر الحفر على الخشب وانتشار المدارس الموفقة فى الرسم على الجدران واللوحات فى فونتنبلووأمين وبورجس ، وتورومولان وافنيون وديجون إذا لم تتحدث عن أساتذة الفن الذين كانوا يعملون لدوق برجنديا .. وأدخل بونيفيه وفان ايكس ، طرز التصوير الفلمنكية إلى فرنسا ، وكذلك عن طريق سيمون مارتينى وغيره من الإيطاليين فى افنيون ، وعن طريق الدولة الإنجيفية فى نابولى عام (١٣٦٨ — ١٤٣٥) ؛ ولقد أثر الفن الإيطالى فى الفرنسى ، قبل أن تغزو الجيوش الفرنسية ايطاليا بزمن طويل . حتى إذا جاء عام ١٤٥٠ ، كان الفن الفرنسى ، قد نهض على قدميه ، وسجل انتسابه إلى هذا العصر بصورة الورع لفيلينوف وهى بلا توقيع ، وتوجد الآن فى اللوفر .

ويعد جان فوكيه ، أول شخصية واضحة ، فى فن التصوير الفرنسى ، ولقد ولد فى تورعام (١٤١٦) ، وتعلم سبع سنوات فى إيطاليا (١٤٤٠ — ١٤٤٧) ، وعاد إلى فرنسا ، وهو متحيز للمهاد المعمارية الكلاسية التى أصبحت فى القرن السابع عشر ، هوسا ، على يد نيكولاس بوسان وكلود لورين . ومهما يكن من شيء ، فقد رسم صوراً متعددة لأشخاص وهى تكشف بقوة عن مقومات شخصياتهم : مثل جوفينال كبير أساقفة أورسان وحاكم فرنسا — وهو عبوس حازم ، وليس ممعناً فى التقوى إلى الحد الذى جعله غير صالح للحكم ، وأتين شيفالييه وهو القائم على خزانة المملكة — رجل مهموم ، منزعج من استحالة الحصول على المال بالسرعة ، التى تنفقه بها الحكومة ، وشارل السابع نفسه ، بعد أن جعلت منه أنيية سورل رجلا ، وأنييسه فى اللحم الوردى ، تحول على يد فوكيه إلى عذراء هادئة سنية بعينين خفيفتين وصدر بارز وزوق جان لشفالييه ، كتاب الصلوات ، وبدد ملل إقامة الشعائر بمناظر ، نضرة ، من وادى اللوار . وتحتفظ رصيعة مطلية بالميناء فى اللوفر ، بصورة فوكيه كما رأى نفسه —

صورة ليس لها مثل رفائيل سيماء الأمارة ، يصعد إلى أعلى ، وإنما صانع بالفرشاة ، فى رداء العمل ، حازم حي ، مهموم ومصمم ، وعلى جبينه سمة قرن كامل من الفقر . ومع ذلك ، فقد مضت حياته ، بلا ملمات من حكم ملك إلى آخر ، وارتقى ، إلى أن أصبح آخر الأمر « مصور الملك » لويس الحادى عشر وبعد جهد السنين يأتى النجاح ، وسرعان ما يأتى الموت بعد ذلك .

٩ — جان دارك ١٤١٢ — ١٤٣١

فى عام ١٤٢٢ نادى ابن شارل السادس عشر الذى تبرأ منه أبوه ، بنفسه ملكاً باسم شارل السابع . ونظرت فرنسا فى عزلتها ، إليه لينقذها ، ثم ران عليها يأس عظيم وكان هذا الشاب الجبان ، فاتر الهمة عديم الاكتراث فى العشرين من عمره ، لم يصدق أنه يستحق الملك الذى أعلنه ، وربما شارك الفرنسيين شكوكهم فى شرعية مولده . وتظهر الصورة التى رسمها فوكيه له ، وجهاً حزيناً ساذجاً ، تحت عينيه جيوب ، وأنف ممتد . وكان متديناً إلى درجة الفزع ، يسمع ثلاث صلوات كل يوم ، ولا يترك ساعة من ساعات الكنيسة تمر دون أن يتلو ، ما يناسبها من صلاة ، وكان يخلو بين هذه الأوقات ، إلى رتل طويل من الخطايا ، وأنجب اثنى عشر مولوداً فرضهم على زوجته الفاضلة . ورهن جواهره ، ومعظم الملابس التى على كاهله ، ليمول مقاومة بلاده لإنجلترا ، ولكنه لم يكن مفطوراً على الحرب ، فترك الصراع لوزرائه وقواده . ولم يكن أحد منهم متحمساً أو متيقظاً ، وتشاجر بعضهم مع بعض فى حقد — اللهم إلا جان دينو الأمين ، والابن غير الشرعى للويس ، دوق اورليان . ولما تحرك الإنجليز جنوباً لمحاصرة تلك المدينة عام (١٤٢٨) ، لم يتفقوا على خطة للوقوف فى وجههم ، وكانت الفوضى ، طابع ذلك الزمان ، وتقع اورليان ، على حنية ، فى اللوار ، فإن سقطت ، انضم الجنوب بأسره ، وهو المتردد فى الولاء وقتذاك لشارل السابع

إلى الشمال ، ليجعل من فرنسا مستعمرة إنجليزية . وأخذ الشمال والجنوب معاً يراقبان الحصار ، ويصليان من أجل حدوث معجزة .

وأخذت دمريمى القرية البعيدة ، الهاجعة إلى جوار الموز على حدود فرنسا الشرقية تراقب الصراع بعاطفة دينية وطنية . وكان الفلاحون هناك من أبناء القرون الوسطى فى إيمانهم وشعورهم ، فى العقيدة والشعور ، يعيشون من الطبيعة ، ولكن فيما هو فوق الطبيعي ، وكانوا واثقين من أن الأرواح تعيش فى الهواء المحيط بهم ، وأقسم كثير من النساء ، أنهن رأينها وتحدثن معها — واعتقد الرجال مثلما اعتقد النساء ، وهو ماكان سائداً فى أنحاء الريف الفرنسى ، أن الإنجليز شياطين ، تخفى أذنابها ، فى اذيال معاطفها وراجت نبوءة فى القرية ، وهى أن الله سيرسل فى يوم من الأيام ، فتاة عذراء ، تنقذ فرنسا من هؤلاء الشياطين ، وتضع حداً لحكم الحرب الشيطانية . وهمست زوجة عمدة دمريمى ، بهذه الآمال إلى جان ابنتها فى العماد .

وكان أبو جان واسمه جاك دارك ، فلاحاً ناجحاً ، ولعله لم يلق بالا ، إلى مثل هذه الحكايات . وقد عرفت جان بالتقوى ، بين هؤلاء القوم الأتقياء ، وأغرمت بالذهاب إلى الكنيسة ، وكانت تعترف بانتظام وحرارة وشغلت نفسها بجمع الصدقات للكنيسة وألفت الدواجن والطيور ، فى حديقتها الصغيرة ، أن تأكل من يدها . واتفق لها فى أحد الأيام ، أن تخيلت ، وهى صائمة ، أنها رأت ، نوراً عجيباً فوق رأسها ، وأنها سمعت صوتاً يهتف بها « يا جان كونى طفلة طيبة مطيعة . واذهبي دائماً إلى الكنيسة » . وكانت وقتذاك (١٤٢٤) فى الثالثة عشرة من عمرها ، وربما أسبغت عليها التغيرات فى وظائف أعضائها ، مسحة صوفية فى هذه المرحلة الممعنة فى الانفعال من مراحل حياتها . وتحدثت « هواتفها » — كما نعتت هذه الرؤى — بأحاديث كثيرة طوال السنوات الخمس بعد ذلك ، حتى خيل إليها آخر الأمر ، أن

الملك ميكائيل نفسه يأمرها : « اذهبي لإغاثة ملك فرنسا ، ولسوف تستعيدين ملكه . . اذهبي إلى السيد بودريكورت ، القائد فى فوكولور، وسيقودك إلى الملك » . وقال الهاتف فى مرة أخرى : « يا ابنة الله ، ستقودين الدوفان إلى ريمز ، حتى يستطيع هناك أن يحصل على رسامته وتتويجه » ذلك لأن فرنسا كانت تشك فى حق شارل الإلهى فى الحكم ، فلم يحصل على رسامته من الكنيسة ، ولكن إذا صب الزيت المقدس على رأسه ، فإن فرنسا تقف من ورائه صفاً واحداً وفى ذلك إنقاذها.

وبعد تردد طويل مزعج أطلعت أبويها على رؤياها . فذهل أبوها عندما فكر فى فتاة بريئة تضطلع بمثل هذه الرسالة الخيالية ، قال إنه لن يسمح لها بذلك وتوعدها بأن يغرقها بيديه . وأراد أن يمعن فى تقييدها فأقنع ، شاباً قروياً ، أن يصرح بأنها وعدته بأن تمنحه يدها بالزواج ، فأنكرت قوله ، وفرت بعذرتها التى نذرتها لقديسيها ، ولكى تطيع أوامرهم ، إلى عم لها ، وألحت عليه ، أن يأخذها إلى فوكولير عام (١٤٢٩) . وهناك نصح القائد بودريكور ، عمها ، أن يصفع الفتاة ، البالغة من العمر سبع عشرة سنة ، وأن يعيدها إلى والديها ، ولكن جان لما شقت طريقها ، ومثلت أمامه ، وصرحت بجنان ثابت ، أنها مبعوثة من الله لمساعدة الملك شارل على إنقاذ أورليان ، ذاب القائد المتعاظم ، فأرسل إلى شينون ، وهو يفكر فى أن بالفتاة مساً من الشياطين ، يطلب إذن الملك بلقائها . وجاء الإذن الملكى ، وأعطى بودريكور الفتاة سيفاً ، وابتاع لها أهل فوكولير ، جوادا ، ووافق ستة من الجنود أن يدلوها على الطريق ، فى الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر ، عبر فرنسا إلى شينون . وتسربلت بزى الرجال العسكرى — ، سترة وصدار وجوربين طويلين وطاق ومهمازين —وقصت شعرها كالفتيان— ولعلها فعلت ذلك منعاً لتقحم الرجال ، وتيسيراً لركوب الجواد اكتساباً لموافقة القواد والجند . وعبرت فى رصانة وثقة مدنا ، اختلفت فى النظر إليها بين الخوف منها باعتبارها ساحرة ، أو إجلالها باعتبارها قديسة .

وبعد أن قطعت فى رحلتها أربعمائة وخمسين ميلا ، فى أحد عشر يوماً ، بلغت الملك ومجلسه . ومع أن حلته البسيطة ، لم تكن تنبىء عن أبهة الملك ، فقد عرفته جان (كما أنبئنا — وكيف ترفع الأسطورة يدها من تاريخ هذه الفتاة) لفورها ، وحيته بأدب قائلة .. «أمدك الله بطول العمر ، أيها الدوفان الكريم ... ان إسمى جان لا بوسل ان وإله السموات يتحدث إليك بوساطتى ، وهو يقول انك سترسم وتتوج فى ريمز ، وتكون وكيلا لملك السموات ، الذى هو ملك فرنسا» . وقال أحد القساوسة وهو الذى أصبح راعى كنيسة العذراء ، فيما بعد ، إنها أكدت للملك ، فى مجلس خاص ، شرعية مولده . وظن بعضهم ، أنها قبلت فى أول لقاء لها مع شارل ، أن يكون رجال الدين أصحاب الحق فى تفسير هواتفها ، وأنها اتبعت قيادتهم فى حديثها مع الملك ، وعن طريقها يحل الأساقفة ، محل القادة فى صياغة السياسة الملكية . ولما كان شارل لايزال مرتابا فى أمرها ، فقد أرسلها إلى بواتييه ليمتحنها العلماء هناك . فلم يجدوا فيها شراً وكلفوا بعض النسوة أن يتأكدن من عذرتها ، واطمأنوا من هذه الناحية الحساسة أيضاً . لأنهم اعتقدوا أن للعذارى ، مثلهن فى ذلك مثل مريم العذراء بعض المزايا باعتبارهن وسائل الله ومبعوثاته .

وكان دينوا ، قد أكد للحامية فى أورليان ، ان الله سيغيثهم قريباً بشخص ما . فلما سمع عن جان ، كان بين مصدق ومكذب لآماله ، ورجا البلاط ، ان يرسلوها إليه توا . فوافقوا ، وأعطوها حصانا أسحم وأحاطوها بدرع أبيض ، ووضعوا فى يدها علما أبيض ، مزيناً بزهرة فرنسا ، وأرسلوها إلى دينوا ، مزودة بجمع من الحرس ، يحملون الزاد للمحصورين : ولم يكن من العسير ، أن تجد منفذاً إلى المدينة (٢٩ ابريل عام ١٤٢٩) ، فلم يكن الإنجليز ، يحدقون بها إحداقاً تاماً ، ولكنهم قسموا رجالهم الذين يتراوحون بين ألفين وثلاثة آلاف (أى أقل من حامية أورليان) على اثنى عشر

حصناً ، فى أماكن استراتيجية بالضواحى . وحيا أهل أورليان جان ، باعتبارها مريم العذراء مجسدة ، واتبعوها مؤمنين بها حتى إلى الأماكن المحفوفة بالمخاطر ، وصحبوها إلى الكنيسة ، يصلون إذا صلت ، ويبكون إذا بكت . وترك الجند ، خطياتهم بأمرها ، وجاهدوا ، لكى يثبتوا تطهرهم ، ووجد أحد قادتهم وهو لاهير ، أن ذلك مستحيلا ، وجاءته فتوى من جان ، أن يقسم على عصا قيادته . وهذا المغامر الجاسكونى ، الذى نطق بالدعاء المشهور « إلهى مولاى أتوسل إليك أن تعمل من أجل لاهير ، ما يعمله هو من أجلك لو أنك كنت القائد ، وكان لاهير هو الله . »

وأرسلت جان كتابا إلى تالبوت ، القائد الانجليزى ، تقترح عليه ، أن يتحد الجيشان وأن يكونوا إخوة ، وأن يتقدموا إلى فلسطين ، لتخليص الأرض المقدسة من الترك ، ورأى تالبوت ، أن هذا يخرج عن نطاق مهمته . وبعد ذلك بأيام قلائل ، تجاوز فريق من الحامية الأسوار ، دون أن يعلموا دينوا أوجان وهاجموا حصناً بريطانياً . فأبلى الإنجليز بلاءاً حسناً ، وتقهقر ، الفرنسيون ، ولكن دينوا وجان ، سمعا بهذه الفتنة ، فركبا جواديهما واستحثا رجالها أن يعودوا إلى الهجوم من جديد ، ونجح الهجوم ، وترك الإنجليز مكانهم وفى اليوم التالى هاجم الفرنسيون حصنين آخرين ، واستولوا عليهما ، وكانت العذراء وسط المعمعة . وفى الصدام الثانى ، اخترق سهم كتفها ، فضمد الجرح وعادت إلى المعركة . وأخذ مدفع جويوم ديزى ، القوى يصب فى الوقت نفسه على قلعة الإنجليز فى ليه توريل ، قذائف ، تزن كل منها مائة وعشرين رطلا . وأعفيت جان من رؤية الفرنسيين المنتصرين وهم يذبحون خمسمائة من الإنجليز عندما سقط هذا المعقل الحصين . وانتهى تالبوت إلى أن قواته ، لا تفى بالحصار ، فأمرها بالانسحاب شمالا (٨ مايو). وابتهجت فرنسا بأسرها ، ورأت فى « عذراء أورليان » إرادة الله ولكن الإنجليز ، قالوا إنها ساحرة ، وأقسموا أن يأخذوها حية أو ميتة .

وفى اليوم التالى لانتصارها خرجت جان لتلقى الملك ، المتقدم من شينون ، فحياها بقبلة ، ووافق على خطتها ، فى السير عبر فرنسا إلى ريمز ، وإن كان معنى ذلك المرور بأرض معادية . وقابل جيشه قوات إنجليزية فى مونج وبوجنسى وباتاى ، وأحرز انتصارات حاسمة ، لطخوها بمذابح انتقامية ، أفزعت العذراء . ولما رأت جندياً فرنسياً ، يذبح أسيراً إنجليزياً ، ترجلت عن جوادها ، وأمسكت برأس الرجل المحتضر فى يديها ، وواسته ، وأرسلت تطلب كاهناً ، يعترف له . وفى الخامس عشر من يوليو ، دخل الملك ريمز ، وفى السابع عشر ، رسم وتوج فى احتفالات رائعة فى الكاتدرائية العظيمة . ورأى جاك دارك ، وهو عائد من دومرى ابنته ، فى زى الرجال ، تمتطى صهوة جوادها فى أبهة عبر عاصمة فرنسا الروحية ، فلم يدع الفرصة تفوته ، وضمن بوساطتها ، إعفاء قريته من الضرائب . واعترت جان نوبة عابرة ، اعتقدت فيها أن مهمتها ، قد انتهت ، وفكرت ، « ان رضى الله أن أرحل وأرعى الأغنام مع أختى وأخى » .

ولكن حمى القتال مازجت دماءها . ومع أن نصف فرنسا اعتقد أنها ملهمة ومقدسة ، فقد كادت تنسى الآن أنها قديسة ، وأصبحت محاربة . كانت حازمة مع جنودها ، تؤنبهم فى حب ، وجردتهم من وسائل التسلية التى يعدها جميع الجنود حقاً لهم ، ولما رأت بغيتين فى صحبتهم ، جردت سيفها من غمده ، وضربت إحداهما بقوة ، تحطم معها السيف وماتت المرأة ، وتبعت الملك وجيشه فى غارة على باريس ، وكان الإنجليز لا يزالون يحتلونها ، وكانت فى العربة عند تطهير الخندق الأول ، وما إن اقتربت من الخندق الثانى ، حتى أصيبت بسهم فى فخذها ، ولكنها ظلت تحث الجنود . وفشل هجومهم ، وبلغت إصاباتهم ألفاً وخمسمائة ، فلعنوها لأنها ظنت أن الصلاة قد تسكت مدفعاً ، ولم يكن ذلك من تجاريبهم . واتهمها بعض الفرنسيات اللائى كن يتسقطن أول إخفاق لها بأنها قادت هجوماً يوم ميلاد العذراء

(٨ سبتمبر ١٤٢٩) . فانسحبت بفرقتها إلى كومبين ، ولما حاصرها هناك البرغنديون المتحالفون مع الإنجليز ، قادت هجوماً ببسالة ، ولكنه صد ، وكانت آخر من انسحب ، ووجدت أبواب المدينة قد أوصدت قبل أن تبلغها . فسحبت عن جوادها ، وأخذت أسيرة إلى جون صاحب لكسمبورج (٢٤ مايو ١٤٣٠) وكرمها هذا السيد وأسكنها فى قلاعه فى بوليوو بوريفوار.

وأوقعه حسن حظه فى مأزق خطير . فإن مولاه ، فيليب الطيب صاحب برجنديا ، طالب بالغنيمة الثمينة ، وحث الإنجليز ، سيرجون على أن يسلم الفتاة إليهم ، آملين أن يؤدى إعدامها العلنى إلى تحطيم ذلك السحر الذى طالما قوى من عزائم الفرنسيين ؛ وأرسلوا بيير كوشون ، أسقف بوفيه ، الذى طرد من كنيسته لمناصرته الإنجليز ، إلى فيليب بالسلطة والمال ليتفاوض على نقل العذراء إلى السلطات الإنجليزية ، ووعدوه إن وفق فى مهمته ، أن ينصبوه كبيراً لأساقفة روين . وكان دوق بدفورد ، يدير جامعة باريس ، فناشد علماءها ، أن ينصحوا فيليب بأن يسلم جان . فقد تكون ساحرة خارجة على الدين ، إلى كوشون باعتباره رئيس الكهنوت فى المنطقة التى أسرت فيها . ولما رفضت هذه المطالب ، قدم كوشون إلى فيليب وجون رشوة مقدارها عشرة آلاف كراون من الذهب . ولم تنجح هذه المحاولة أيضاً ، ففرضت الحكومة الإنجليزية حظراً على جميع الصادرات إلى الأراضى الواطئة : فواجهت فلاندرز الإفلاس ، وهى أغنى مصدر لموارد الدوق . ووافق جون على الرغم من توسلات زوجته ، كما وافق فيليب على الرغم من لقب «الطيب» الذى يتسمى به ، على قبول الرشوة آخر الأمر ، فأسلما العذراء إلى كوشون ، الذى أخذها إلى روين . ومع أنها كانت من الناحية الرسمية هناك ، من سجناء محكمة التفتيش ، إلا أنها وضعت تحت الحراسة الإنجليزية فى برج قلعة ، يحتلها ايرل وورويك بصفته حاكم روين . ووضعت الأغلال فى قدميها ، ولفوا وسطها بقيد وربطت إلى جذع من الخشب :

وبدأت محاكمتها فى الواحد والعشرين من فبراير عام ١٤٣١ ، واستمرت إلى اليوم الثلاثين من مايو . ورأس كوشون المحاكمة ، وقام أحد كهانه مدعياً عاماً . ومثل راهب دومينيكى محكمة التفتيش ، وأضيف حوالى أربعين من علماء الدين والشريعة إلى هيئة المحكمة . وكانت التهمة هى الهرطقة . وأفتت الكنيسة بأن ادعاء تلقى الوحى الإلهى هرطقة عقوبتها الإعدام ، وذلك لكى تقمع الفريق المفزع من المتجرين بالسحر ، الذين ابتليت بهم أوربا . فأحرقت الساحرات ، لادعائهن القوى الخارقة ، والرأى الشائع ، بين رجال الكنيسة والمدنيين ، أن الذين يدعون مثل هذا الادعاء ، يكونون قد حصلوا فى الواقع على القوى الخارقة من الشيطان . ويبدو أن بعض قضاة جان ، كانوا يعتقدون هذا فى قضيتها ، وفى رأيهم أن رفضها الاعتراف بأن سلطة الكنيسة باعتبارها ، وكيل الله على الأرض ، تنسخ أوامر هواتفها ، يثبت أنها ساحرة . ثم أخذ أغلبية أعضاء المحكمة بهذا الرأى ، ومع ذلك فقد تأثروا من بساطتها الصريحة فى إجاباتها ، وبتقواها وطهارتها الواضحتين ، فقد كانوا بشراً ، ويبدو أنهم شعروا بقدر عظيم من الشفقة نحو هذه الفتاة التى كانت فى التاسعة عشرة من عمرها ، وكان من الواضح أنها ضحية الخوف من الإنجليز . قال وروك بصراحة الجندى « إن ملك انجلترا قد دفع فيها ثمناً باهظاً ، وهو لن يتركها مهما يكن ، تموت ميتة طبيعية » . واقترح بعض أعضاء المحكمة أن الأمر ينبغى أن يعرض على البابا — وذلك يخلصها ويخلص المحكمة من السلطة الإنجليزية . وأبدت جان رغبة فى أن ترسل إليه ، ولكنها عقدت مفاضلة فاصلة قضت عليها ، فإنها تعترف بسلطته العليا فى شئون العقيدة ، أما فيما يتعلق بما فعلته إطاعة لهواتفها ، فليس لها من قاض غير الله . وأجمع القضاة على أن قولها هذا هرطقة . وقضت فى المحاكمة شهوراً أنهكتها ، وأقنعت بأن توقع على تنازل عما سبق أن قالته ، ثم رأت أنها بهذا ستقضى حياتها سجينة فى نطاق القضاء الإنجليزى ، فسحبت تنازلها ، وأحاط الجنود

الإنجليز بالمحكمة ، وهددوا القضاة بالقتل ، إذا لم تمت العذراء حرقاً . وفى الواحد والثلاثين من مايو ، اجتمع نفر من القضاة وحكموا عليها بالإعدام .

وفى الصباح نفسه ، وضعت أكوام مرتفعة من الحطب فى ساحة السوق بمدينة روين . ونصبت منصتان بالقرب منها — إحداهما لونشستر كاردينال إنجلترا وأساقفته ، والأخرى لكوشون والقضاة ، ووقف للحراسة ثمانمائة من الجنود البريطانيين . وأحضرت العذراء فى عربة ، يصحبها راهب أوغسطينى ، واسمه ، إسامبار ، الذى صادقها إلى النهاية ، معرضاً حياته للخطر . وطلبت صليباً ، فسلمها أحد الجنود الإنجليز إياه ، وقد صنعه من قضيبين من الخشب ، فقبلته ، ولكنها طلبت أيضاً ، صليباً باركته الكنيسة ، وأقنع إسامبار الموظفين ، أن يحضروا إليها صليباً من كنيسة سانت سوفير . فزمجر الجند من التأخير لأن الوقت أصبح ظهراً . وسأل قائدهم « أتريدوننا أن نتناول غذاءنا هنا ؟ » . فانتزعها رجاله من أيدى القساوسة ، وساقوها إلى القائمة التى تشد إليها . ورفع إسامبار ، أمامها صليباً ، وصعد راهب دومينيكى معها إلى المحرقة . وأشعلت أكوام الحطب ، وارتفعت ألسنة اللهب إلى قدميها . فلما رأت الراهب الدومينيكى ، لا يزال إلى جانبها ، ناشدته أن يهبط آمناً . وابتهلت إلى هواتفها ، وقديسيها ، والملك ميكائيل والمسيح ، ودخلت فى سكرات الموت . وتنبأ أحد كتاب سر الملك الإنجليزى بحكم التاريخ باكيا . . « قضى علينا ، لقد أحرقنا قديسة » .

وفى عام ١٤٥٥ أمر البابا كاليكستاس Calixtus الثالث ، بوحى من شارل السابع ، أن يعاد فحص الأدلة التى أدينت بها جان ؛ وفى عام ١٤٥٦ (وكانت فرنسا منتصرة حينذاك) أعلنت المحكمة الدينية التى أعادت النظر فى الموضوع ، ان الحكم الذى صدر عام ١٤٣١ ، ظالم وباطل . وفى عام ١٩٢٠ عد البابا بيندكت الخامس عشر عذراء أورليان ، بين قديسى الكنيسة .

١٠ — فرنسا تبقى ١٤٣١ — ١٤٥٣

يجب علينا ألا نبالغ فى الأهمية الحربية لجان دارك ، وربما كان فى استطاعة دينوا ولاهير ، أن ينقذا أورليان بدونها ، فإن خططهما فى الهجوم المتهور أحرزت النصر فى بعض الوقائع والهزيمة فى الأخرى ، وكانت إنجلترا تحس تكاليف حرب المائة عام . ولقد وقع فيليب صاحب برجنديا وحليف انجلترا ، معاهدة منفصلة مع فرنسا ، بعد أن مل الحرب ، وزعزع تخلفه ، قبضة الإنجليز على المدن التى غزوها فى الجنوب ، فتمكنت الواحدة بعد الأخرى من طرد الحاميات الأجنبية عنها . وأجلت باريس ، البريطانيين عام ١٤٣٦ بعد أن ظلت محتلة سبع عشرة سنة ، وحكم شارل السابع آخر الأمر فى عاصمة ملكه .

ومن عجيب ما يروى ، أن هذا الرجل الذى لبث طويلا كالخيال لا حول له ولا قوة ، قد تعلم فى ذلك الحين أن يحكم ويختار الوزراء الأكفاء ، وأن يعيد تنظيم الجيش ويهدئ من ثورة البارونات وأن يفعل كل ما يحقق الحرية لبلاده . فما الذى أحدث هذا التحول ؟ لقد حفزه إليه وحى جان ، فما كان أضعفه — فيما يبدو — إذ لم يرفع إصبعاً لإنقاذها . . ويروى أن حماته الجديرة بالاحترام ، يولاند أميرة أنجو هى التى أعانته بالرأى السديد ، وشجعته على استقبال العذراء ومناصرتها . ونحن — إذا صدقنا الرواية — قلنا إنها قدمت لزوج ابنتها الخطية ، التى ظلت تتحكم فى قلب الملك عشر سنوات .

وكانت انييه سورل — وهذا اسمها — ابنة سيد فى تورين ، وكانت يتيمة فى طفولتها ، فنشأتها على الأخلاق الحميدة ، إيزابل دوقة لورين . ثم صحبتها ، وهى إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمرها ، لزيارة البلاط الملكى فى شينون عام (١٤٣٢) أى بعد عام واحد من وفاة جان . وفتن شارل بجدائل شعرها الكستنائى ، وأغرم بضحكتها ، فآثرها لنفسه . ووجدتها يولاند سهلة الانقياد ، فرأت أن تصطنعها فى التأثير على الملك ،

وناشدت ابنتها مارى ، أن تقبل هذه الحظية الأخيرة من حظيات زوجها . واستمرت مخلصة للملك ، خائنة لعهود الزواج طوال حياتها ، حتى إن ملكا ممن جاءوا بعد ذلك وهو فرنسيس الأول ، وكان صاحب خبرة طويلة بهذه الأمور امتدح ، « سيدة الجمال كله » بأنها خدمت فرنسا أكثر من أى راهبة حبيسة فى دير . « والتذ شارل طعم الحكمة من هاتين الشفتين » ، ولقد سمح شارل لها أن تخرجه من عادة الخمول والجبن إلى الجد والعزم . فجمع حوله رجالا قادرين مثل الياور ريشمون ، الذى قاد جيوشه ، وجاك كير الذى أعاد الاستقرار إلى مالية الدولة ، وجان بيرو ، الذى جعلت مدفعيته ، النبلاء المعارضين يلوذون بالفرار والإنجليز يسرعون إلى كاليه .

وكان جاك كير مغامراً فى التجارة ، ورجلا لا يعرف نسبه وحظه من التعليم قليل ، ومع ذلك ، كان يجيد العد ، كما كان فرنسياً اجترأ على أن ينافس بنجاح البندقيين والجنوبيين والقطلانيين فى التجارة مع الشرق الإسلامى . وكان يملك سبع سفن تجارية مجهزة ، يعمرها بمجرمين يستأجرهم ، ومشردين يختطفهم من عرض الطريق ، ثم يرسل سفنه تخوض البحار يرفرف عليها علم العذراء . واستطاع أن يجمع أعظم ثروة فى فرنسا لعهده ، حوالى ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، عندما كان الفرنك يساوى ما يقرب من خمسة دولارات بالعملة الهزيلة فى أيامنا . وفى عام ١٤٣٦ عينه شارل مشرفاً على دار سك النقود ، وسرعان ما جعله مشرفاً على موارد الحكومة ، ومصروفاتها . ولقد أيد مجلس الولايات عام ١٤٣٩ ، الملك بحماسة فى تصميمه على طرد الإنجليز من الأرض الفرنسية ، فشد من عزيمته بقوانين متعاقبة (١٤٤٣ — ١٤٤٧) ليستولى على جميع الضرائب فى فرنسا — أو بعبارة أخرى جميع الضرائب ، التى كان يدفعها المستأجرون لسادتهم الإقطاعيين ، فزاد دخل الحكومة سنوياً إذ ذاك إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ كراون ، فأصبحت الملكية الفرنسية ، منذ ذلك الوقت ، تختلف عن الملكية الإنجليزية ، فى استقلالها

عن السلطان المالى للولايات ، وتستطيع أن تقاوم نمو ديمقراطية الطبقة الوسطى . وأمد هذا النظام القومى للضرائب ، الحكومة بالمال من أجل انتصار فرنسا على انجلترا ، ولكن الملك كان قادراً على زيادة معدل الضريبة ، فقد أصبح ذلك وسيلة أساسية من وسائل الضغط الملكى ، وهو من أسباب اندلاع ثورة عام ١٧٨٩ . وكان لجاك كور شأن كبير فى هذا التطور المالى ، فاكتسب إعجاب الكثيرين وعداوة قلة من الأقوياء . فقبض عليه عام ١٤٥١ بتهمة — لم تثبت أبدا — استئجار عملاء ليدسوا السم لأنييه سورل وأدين ونفى من البلاد وصادرت الدولة جميع أمواله — وهى خطة بارعة للاغتصاب بطريق غير مباشر . ففر إلى روما ، حيث نصب ، أمير بحر على أسطول بابوى ، أرسل لتخليص رودس . ومرض فى كيوس ، ومات هناك عام ١٤٥٦ ، بالغاً من العمر إحدى وستين سنة .

وفى الوقت نفسه سار شارل السابع على منوال كبر ، فأنشأ عملة مستقرة ، وجدد بناء القرى المخربة ، وارتقى بالصناعة والتجارة ، وأعاد الحيوية الاقتصادية إلى فرنسا . وأمر بتسريح الفرق الخاصة من الجنود ، وألحق هولاء المسرحين بخدمته ، وهكذا تكوّن أول جيش نظامى فى أوربا ، (١٤٣٦) . وأصدر مرسوما ، نص على أنه يجب أن يوجد فى كل ناحية ، مواطن شديد البأس ، منتخب من زملائه ، يعفى من الضرائب كلها ، وأن يكون مسلحاً ، مدرباً على استعمال الأسلحة ، مستعداً فى كل لحظة ، لينضم إلى أمثاله فى الخدمة العسكرية للملك . وهؤلاء الرجال الأحرار من حملة القسى هم الذين طردوا الإنجليز من فرنسا .

وما أشرف عام ١٤٤٩ حتى كان شارل متأهباً للخروج على الهدنة التى وقعت عام ١٤٤٤ . وتعجب الإنجليز وصدموا وكانت قد أضعفتهم المنازعات الداخلية ، ووجدوا أن إمبراطوريتهم الآفلة فى فرنسا تكلفهم فى القرن الخامس عشر ما لاطاقة لهم به كما تثقل عليهم الهند فى القرن العشرين ،

فلقد تكلفت فرنسا على انجلترا عام ١٤٢٧ ثمانية وستين ألف جنيه فى حين حصلت منها على سبعة وخمسين ألفاً فقط . وحارب الإنجليز بشجاعة ولكن بغير تبصر ، إذ اعتمدوا طويلا على القسى والقضبان ، ولم تعد الخطط التى صدت الفرسان الفرنسيين فى كرسى وبواتييه تجدى فى فورمينى (١٤٥٠) ، فى الصمود أمام مدفع بيرو . وفى عام ١٤٤٩ جلا الإنجليز عن معظم نورمانديا ، وتركوا عاصمتها روين عام ١٤٥١ . وهزم تالبوت العظيم عام ١٤٥٣ وقتل فى كاستلون ، واستسلمت بوردو ، وعادت جوين بأسرها فرنسية مرة أخرى ، واحتفظ الإنجليز بمدينة كاليه فقط . ووقعت الأمتان فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٤٥٣ المعاهدة التى وضعت حدا لحرب المائة عام .

الفصل الرابع

بلاد الغـال الخالدة

١٤٥٣ - ١٥١٥

١ - لويس الحادى عشر : ١٤٦١ - ١٤٨٣

وكان ابن شارل السابع وولى عهده متعباً على غير العادة . ولقد زوج وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، رغم إرادته (١٤٣٦) من مارجريت صاحبة اسكتلندا ، وكان عمرها إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، فانتقم لنفسه بإهمالها واتخاذ الخليلات . وأغرمت مارجريت بالشعر ، ووجدت السلام الأبدى فى الموت المبكر (١٤٤٤) وقالت وهى تلفظ أنفاسها « تبا للحياة . . امسكوا الحديث عنها . . » وانتفض لويس على أبيه مرتين ، وفر إلى فلاندرز بعد المحاولة الثانية ، وانتظر نافذ الصبر أن يؤول السلطان إليه . وأعانه شارل على بلوغ مأربه ، بأن انقطع عن الطعام إلى أن مات (١٤٦١) ، وحكم فرنسا بذلك واحد من أعجب الملوك وأعظمهم طيلة اثنتين وعشرين سنة.

وكان إذ ذاك فى الثامنة والثلاثين ، نحيلا غليظ القلب ، غير منغمس فى الترف ، له عينان مرتابتان وأنف طويل ، أقرب إلى الفلاح فى مظهره ، يتخذ زى الحاج الزاهد الذى يتألف من رداء أغبر خشن وقبعة رثة من اللباد ، وكان يصلى كالقديس ، ويحكم كأنما قرأ كتاب « الأمير » قبل أن يولد مكيافلى . . واحتقر أبهة الإقطاع ، وسخر من التقاليد والمراسيم ، وبحث فى شرعية مولده ، وأذهل جميع العروش ببساطته . وعاش فى قصر دى تورنل الكئيب بباريس ، أو قصر بلسيه ليه تور ، بالقرب من مدينة تور ، كالأعزب ، وان تزوج مرتين ، وكان شحيحاً وإن كان يمتلك فرنسا ،

ولم يحتفظ من الخدم إلا بالنفر الذين كانوا معه فى المنفى ، ولا يأكل من الطعام إلا بمقدار ما يتاح لأحد الفلاحين ، ولم يكن مظهره ينبيء عن شيء ، وإن كان ملكاً فى كل شيء .

فلقد أخضع كل عنصر فى شخصه لإرادته المصممة ، وكان على فرنسا ، أن تتحول بمطرقته ، من التمزق الإقطاعى إلى وحدة ملكية ودولة موحدة ، إذ يجب على هذه الحكومة الملكية المركزية أن ترفع فرنسا من رماد الحرب إلى حياة جديدة وبأس جديد ، ووقف لويس فكره آناء الليل وأطراف النهار ، على هدفه السياسى ، بعقل واضح ماكر ، مبتكر ، لايهدأ ، مثله فى ذلك مثل قيصر ، يرى أنه ما من شيء يتحقق ، مادامت له بقية تحتاج إلى عمل . « أما السلام فلا يكاد يحتمل مجرد التفكير فيه » ، كما قال كومينيس . ومع ذلك فلم يكن موفقاً فى الحرب ، وآثر الدبلوماسية والتجسس ، والرشوة على استعمال القوة ، وجمع الناس حوله لتأييد أهدافه بالإقناع والتملق والتخويف ، واحتفظ بحشد كبير من الجواسيس فى خدمته فى داخل البلاد وخارجها ، وكان يدفع مرتبات سرية بانتظام لوزراء ملك انجلترا ادوارد الرابع . ويستطيع أن يستسلم ويحتمل الإهانة ويتظاهر بالخضوع ، وينتظر فرصة للنصر أو الانتقام . ووقع فى أخطاء جسام ، ولكنه تخلص منها ببراعة مذهلة غير هيابة : ولقد عنى بكل ما يتصل بالحكومة من تفاصيل ، ولم يكن ينسى شيئاً . وادخر مع ذلك فسحة من الوقت للآداب والفن ، فقرأ بنهم ، وجمع المخطوطات ، وفطن إلى الثورة التى ترهص بها المطبعة ، واستمتع بصحبة المثقفين ، وبخاصة إذا كانوا « بوهيميين » بالمفهوم الباريسى . وانضم وهو فى منفاه بفلاندرز إلى كونت شاروليه ، فى تأليف أكاديمية للعلماء ، الذين أساغوا حذلقتهم بحكايات مرحة على منهج بوكاشيو ، ولقد جمع انتوان دى لاسال ، بعضها فى مصنفه « مائة حكاية جديدة » واشتدت وطأة الملك على الأغنياء ، ولم يحفل بالفقراء ، وكان

معادياً لنقابات العمال ، وآثر الطبقة الوسطى باعتبارها أقوى مؤيد له ، ولم يرحم الذين يعارضونه أياكانت طبقتهم وأمر ، بعد ثورة بربينيان ، بأن تجب مذاكير ، كل ثائر منفى ، يجسر على العودة . وفى حروبه مع النبلاء حبس بعض الأعداء أو الخونة السنوات الطوال فى أقفاص من الحديد طولها ثمانية أقدام وعرضها مثل ذلك وارتفاعها سبعة ، وهى وسائل ابتكرها أسقف فردان ، الذى شغل قفصا منها بعد ذلك أربع عشرة سنة . واشتد إقبال لويس فى الوقت نفسه على الكنيسة ، لحاجته إلى معونتها ضد النبلاء والدول ، وكانت معه مسبحة لا تكاد تفارق يده ، يردد عليها الصلاة الربانية وينقطع لصلاة العذراء ، انقطاع راهبة فى سكرات الموت ، ولقد افتتح عام ١٤٧٢ صلاة التبشير — وهى صلاة ظهر للعذراء من أجل سلم المملكة . وزار الأضرحة المقدسة ، وبجل الآثار الدينية ، ورشا القديسين ليقوموا بخدمته ، وأخذ العذراء معه فى حروبه . ولما قضى ، عرض كقديس على حامل فى كنيسة فى مدينة تور .

وخلق بأخطائه هذه فرنسا الجديدة إذ وجدها مجموعة منحلة من الإمارات الإقطاعية والكهنوتية ، فجعل منها أقوى أمة فى العالم المسيحى اللاتينى . واجتلب نساجى الحرير من إيطاليا . وعمال المناجم من ألمانيا ، وعمل على تحسين الموانىء ووسائل المواصلات ، وحماية السفن الفرنسية ، وفتح أسواقاً جديدة للصناعة الفرنسية ، وجعل حكومة فرنسا حليفة للبورجوازية التجارية والمالية الناهضة . ورأى أن التوسع فى التجارة عبر الحدود المحلية والقومية فى حاجة إلى إدارة قوية مركزية . ولم يعد الإقطاع ضرورياً لحماية الزراعة والإشراف عليها ، وكانت طبقة الفلاحين تحرر نفسها ببطء من العبودية الجامدة ، ولقد مضى الزمن الذى كان فيه الأمراء الاقطاعيون يشرعون القوانين الخاصة بهم ، ويضربون سكتهم ، ويمارسون السيادة على ولاياتهم ، وألزمهم شارل بوسائل صالحة وطالحة بالخضوع والنظام واحدا بعد واحد .

وقيد حقهم فى الاعتداء على أملاك الفلاحين فى صيدهم ، وأنشأ إدارة بريد حكومية تخترق ولاياتهم (١٤٦٤) ، وحرم عليهم ، أن يخوضوا حروباً خاصة بهم ، وطالبهم بالمتأخر من الالتزامات التى أخفقوا فى دفعها لسادتهم فى الإقطاع وهم ملوك فرنسا .

ولم يكن الأمراء الإقطاعيون يحبونه . فاجتمع ممثلون لخسمائة أسرة نبيلة فى باريس وألفوا جبهة الصالح العام (١٤٦٤) ليبسطوا أيديهم على امتيازاتهم بشعار الصالح العام . وانضم كونت شاروليه إلى هذه الجبهة ، فقد جعلته وراثته لعرش برجنديا مشوقاً لضم شمال شرق فرنسا إلى دوقيته . ورحل شارل دوق برى وهو شقيق الملك لويس نفسه ، إلى بريتانى وتزعم الثورة . . . فتجمعت الأعداء والجيوش من كل جانب ضد الملك ، ولو استطاعوا أن يتحلوا لقضوا على الملك ، وكان أمله الوحيد أن يهزمهم متفرقين فرادى . فاندفع جنوباً عبر نهر آلييه ، وأكره قوة معادية على التسليم ،وأسرع عائداً إلى الشمال فى الوقت المناسب ليحول بين جيش برجندى وبين دخول عاصمته . وادعى كل فريق أنه انتصر فى معركة مونتلهيرى ، وانسحب البرجنديون ، ودخل لويس باريس وعاد البرجنديون مع حلفائهم وحاصروا المدينة . ولم يشأ لويس أن يخاطر بدفع الباريسيين إلى الثورة عليه ، وهم الذين يأبى عليهم ذكاؤهم أن يموتوا جوعاً فسلم بمقتضى معاهدة كنفلان (١٤٦٥) كل ما كان يطلبه أعداوه تقريباً — الأرض — والمال والمناصب ، وأخذ أخوه شارل نورماندیا . ولم يذكر شيء عن صالح الشعب ، وكان لابد من فرض ضرائب على الناس لجمع الأموال المطلوبة . وانتظر لويس وقته الملائم .

وسرعان ما انزلق شارل إلى محاربة الدوق فرنسيس صاحب بريتانى ، الذى أسره ، وسار لويس إلى نورمانديا واستعادها بلا إراقة دماء . ولكن فرنسيس ، الذى توقع بحق ، أن لويس يطلب بريتانى أيضاً ، تحالف مع كونت شاروليه — وكان قد أصبح وقتذاك الدوق شارل الجسور صاحب

برجنديا — فى معاهدة هجومية ، ضد الملك الذى لا رادع له . وشحذ لويس كل وسيلة من وسائل الدبلوماسية ، فعقد صلحاً منفرداً مع فرنسيس ، واتفق على حضور مؤتمر شارل فى بيرون . وكانت نتيجة ذلك ، أن سجنه شارل ، وأرغمه على التنازل عن بيكاردى والاشتراك فى تطويق لييج . وعاد لويس إلى باريس وقد بلغ الحضيض فى السمعة والسلطان ، بل إن الببغاوات دربت على السخرية منه (١٤٦٨) . وبعد عامين ، من تبادل الخيانة والغدر ، انتهز لويس فرصة انشغال شارل فى جلدرلاند ، وسير جيوشه إلى سانت كونتان وأمين وبوفيه . فألح شارل على ادوارد الرابع أن يتحد معه على فرنسا ، ولكن لويس أبعد إدوارد عن هذا المشروع بالمال . وكان يعرف كلف إدوارد بالنساء ، فدعاه إلى الحضور ، ليلهو مع نساء باريس ، كما أبدى استعداده أن يعين لادوارد ، كاردينال بوربون ، ليكون صاحب كرسى الاعتراف الملكى ، الذى « يسره أن يحله ، إذ اقترف خطيئة ما بوساطة الحب أو الشهامة » . واحتال حتى جعل شارل يقع فى حرب مع سويسرا ، حتى إذا قتل شارل لم يأخذ لويس بيكاردى فحسب وإنما أخذ برجنديا نفسها أيضا (١٤٧٧) . وهدأ من سورة النبلاء البرجنديين بالذهب ، وأرضى الشعب بأن اتخذ له خليلة برجندية .

وأحس عندئذ أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يواجه البارونات الذين طالما حاربوه ، وقلما لبوا نداءه ، أن يخرجوا للحرب من أجل فرنسا . وكان أكثر الأمراء الذين تآمروا عليه عام ١٤٦٥ قد ماتوا ، أو أقعدتهم الشيخوخة . وتعلم خلفاؤهم أن يخشوا ملكا ، يقطع رؤوس الخونة من الأرستقراطية ويصادر ضياعهم ، ملكا أنشأ جيشاً قوياً من المرتزقة ، وأنه مستعد على الدوام لجمع الأموال الطائلة لشراء الضمائر ودفع الرشى . وآثر لويس أن ينفق أموال شعبه لا أرواحه ، فاشترى سردينيا وروسيلون من أسبانيا . وحصل على روشل بموت أخيه ، وأخذ النسون وبلوا عنوة ،

وألح على رينيه أن يتنازل عن بروفنس للتاج الفرنسي (١٤٨١) ، وبعد ذلك بعام عادت أنجومين إلى الملكية ، وفى عام ١٤٨٣ تنازلت فلاندرز ، وكانت تنشد معونة لويس ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عن كونتية ارتوا مع المدينتين المزدهرتين اراس ودواى . وهكذا قهر لويس البارونات وسيطر على مجالس البلديات والولايات فأنجز بذلك لفرنسا تلك الوحدة القومية والإرادة المركزية التى أنجز مثلها بعد عشر سنوات هنرى السابع ، لانجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، واسكندر السادس للولايات البابوية . وهذا الصنيع وإن أحل طغيان فرد محل طغيان أفراد كثيرين ، إلا أنه كان فى ذلك الوقت حركة تقدمية ، توطد النظام فى الداخل والأمن فى الخارج ، وتثبت العملة والمقاييس ، وتذيب اللهجات فى لغة واحدة ، وتعين على نمو أدب وطنى لفرنسا . ولم تكن الملكية مطلقة ، فقد احتفظ النبلاء بسلطات كبيرة ، وكانت موافقة مجلس الولايات ضرورية ، فى العادة لإقرار الضرائب الجديدة . وأعفى النبلاء والموظفون ورجال الدين من الضرائب . أعفى النبلاء على أساس أنهم حاربوا من أجل الشعب ، والموظفون لأنهم كانوا يبخسون فى الأجر والرشوة ، ورجال الدين لأنهم يحمون الملك والوطن بصلواتهم . وكان الرأى العام والعرف السائد يحدان من سلطة الملك ، وكانت المجالس المحلية لاتزال تزعم أن أى مرسوم ملكى بقانون لا يصبح نافذا فى مناطقهم إلا إذا وافق الأعضاء عليه ووثقوه . ومهما يكن من شيء فقد فتح الطريق للملك لويس الرابع عشر ونظام « أنا الدولة » .

وأخذ لويس نفسه بين هذه الانتصارات جميعاً يذوى جسما وعقلا . فسجن نفسه فى بليسيه — ليه — تور ، خوفا من الاغتيال ، وارتاب فى الجميع ، وقلما رأى إنساناً ، وعاقب على الأخطاء والنقائص بقسوة ، وارتدى بين حين وآخر حللا تناقض فخامتها أرديته الخشنة فى مطلع حكمه

وأصبح نحيلا شاحباً حتى إن الذين رأوه تعذر عليهم أن يصدقوا أنه على قيد الحياة . وكابد الآلام سنوات من البواسير . وأصيب بالفالج فى بعض الأحيان . وفى الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٤٨٣ ، أصابته نوبة من الفالج أفقدته النطق ، وما لبث خمسة أيام حتى مات .

فابتهج رعاياه ، لأنه أجبرهم على أن يدفعوا ما لا طاقة لهم به من تكاليف هزائمه وانتصاراته ، مما زاد الشعب فقراً ، وفرنسا عظمة ومجدا ، فى كنف سياسته التى لا ترحم . ومع ذلك فإن العصور التى جاءت بعده ، أفادت من إخضاعه النبلاء ، وإعادته تنظيم المالية والإدارة والدفاع ، ورقيه بالصناعة والتجارة والطباعة ، وتكوينه دولة موحدة حديثة . ولقد كتب كومنيس « إذا أحصيت جميع أيام حياته وعقدت موازنة بين المسرات والمباهج وبين آلامه ومتاعبه ، فستكون النتيجة ، عشرين يوماً محزناً فى مقابل يوم واحد بهيج . ولقد دفع هو وجيله ثمن ازدهار فرنسا وأبهتها فى المستقبل » .

٢ — المغامرة الإيطالية

وكان شارل الثامن فى الثالثة من عمره عندما مات أبوه فلبثت أخته آن دى بوجيه ، ولم تكن تكبره بغير عشر سنين ، تحكم فرنسا بتعقل ثمانى سنوات . فخفضت نفقات الحكومة ، وأعفت الشعب من ربع ضريبة الرؤوس ؛ وأعادت كثيرين من المنفيين ، وأطلقت سراح كثيرين من المسجونين ، ووفقت فى مقاومة محاولات البارونات ، « الحرب الحمقاء » (١٤٨٥) ، لاستعادة سيادتهم المحلية التى انتزعها لويس . ولما اشتركت بريتانى مع أورليان ولورين وانجوليم وأورانج ونافار فى عصيان آخر ، استطاعت بدبلوماسيتها وقيادة لويس دى لاترمويل أن تهزم الجميع ، وكانت مظفرة فى وضع حد لهذه المشكلة بأن أعدت لزواج شارل من آن صاحبة بريتانى ، التى قدمت دوقيتها العظيمة صداقا لتاج فرنسا (١٤٩١) . وعندئذ اعتزلت

نائبة الملك الحكم وعاشت بقية حياتها ، وهى إحدى وثلاثين سنة آمنة فى زوايا النسيان .

أما الملكة الجديدة ، وان اتفقت معها فى الاسم إلا أن شخصيتها كانت مختلفة تمام الاختلاف ، فلقد كانت قصيرة مسحاء نحيفة عرجاء ، غليظة الأنف واسعة الفم على وجه قوطى طويل ، ولها عقلها الخاص بها ، وفيها من الدهاء والبخل ما فى كل بريتانى . ومع أنها كانت بسيطة فى ثيابها ، بحلتها وقلنسوتها السوداوين ، إلا أنها كانت فى المناسبات الرسمية — تتلألأ بالجواهر والثياب الموشاة بالذهب ، وهى لا شارل التى قربت الفنانين والشعراء ، وكلفت جان بورديشون أن يصور « صلوات آن أميرة بريتانى » . ولم تنس قط موطنها الحبيب بريتانى وطرائقها فى الحياة ، فغلفت كبرياءها بالتواضع ، وعكفت على حياكة الثياب ، وكافحت من أجل إصلاح أخلاق الملك وحاشيته .

ويقول برنتوم الثرثار « إن شارل يشغف بالنساء أكثر مما تحتمله بنيته النحيلة » . واقتصر بعد زواجه على خليلة واحدة . ولم يكن يستطيع أن يشكو من منظر زوجته ، فلقد كان هو نفسه طويل الرأس أحدب ، قسماته تنم على السذاجة ، عيناه واسعتان بلا لون ، قصير النظر ، وشفته السفلى غليظة ومتدلية ، متردد فى الحديث ، ويداه ترتعشان فى تشنج . ومع ذلك كان حسن الطبع ، رحيما مثالياً فى بعض الأحيان . ويقرأ قصص الفروسية ، وامتلأ رأسه بفكرة إعادة فتح نابلى لفرنسا وبيت المقدس للعالم المسيحى : وظلت أسرة انجو ، تبسط يدها على مملكة نابلى (١٢٦٨ — ١٤٣٥) إلى أن انتزعها منهم ألفونسو صاحب أراجون ، وانتقلت مطالبة دوقات انجو بملكها إلى لويس الحادى عشر بالوراثة ، ثم جهر شارل بالمطالبة . واعتقد مستشاروه أنه آخر إنسان فى العالم يستطيع أن يقود جيشاً فى حروب كبيرة ، ولكنهم أملوا أن تمهد الدبلوماسية طريقه ، وأن الاستيلاء على نابولى ،

سيسمح للتجارة الفرنسية ، أن تتحكم فى البحر الأبيض المتوسط . وتركوا أرتوا فرانش — كونتيه إلى ماكسمليان صاحب النمسا وسردينيا وروسيلون لفرديناند ملك أسبانيا وذلك لحماية أطراف المملكة ، ورجوا أن يحصلوا على نصف إيطاليا من أجل الأجزاء التى اقتطعت من فرنسا واستطاع لودوفيكو نائب الملك فى ميلان أن يجمع جيشاً قوامه أربعون ألف رجل ، ومائة مدفع حصار وست وثمانون سفينة حربية . وذلك بفضل الضرائب الباهظة والجواهر المرهونة والقروض التى سحبت من رجال المال فى جنوا .

وخرج شارل مبتهجاً (١٤٩٤) ، ولعله لم ير بأساً من أن يخلف وراءه أخته وزوجته . فقوبل فى ميلان بالترحيب (وكان بينها وبين نابلى حزازة تريد أن تحسمها) . ولم يجد عند سيداتها مقاومة ما وخلف بعد مسيره جمعا من الأبناء غير الشرعيين ، ولكنه أبى فى شهامة أن يمس عذراء ناشزة جلبها وصيفه لإمتاعه ، وما كان منه إلا أن أرسل يطلب حبيبها ، ورأس بنفسه حفل خطوبتهما ، ومنحها صداقاً مقداره خمسمائة كراون . ولم تكن عند نابلى قوة عسكرية تقاوم جيشه فانتصر عليها فى يسر ودخلها (١٤٩٥) ، واستمتع بجمال مناظرها ، ومطاعمها ونسائها ، ونسى بيت المقدس .

ومن الواضح أنه كان من الفرنسيين السعداء ، الذين لم يصابوا بذلك المرض التناسلى الذى سمى فيما بعد « بالداء الغالى » لأنه انتشر بسرعة فى فرنسا بعد عودة الجنود إليها . وعقدت « محالفة مقدسة » بين الإسكندر السادس والبندقية ولودوفيكو صاحب ميلان (الذى تحول عن ولائه السابق) فأرغموا شارل على الجلاء عن نابلى والانسحاب عبر إيطاليا التى تناصبه العداء . وحارب جيشه الآخذ فى النقصان معركة غير حاسمة فى فورنوفو (١٤٩٥) ، وعاد مسرعاً إلى فرنسا ، حاملا معه مقومات النهضة فيما حمل من أسباب العدوى .

وفى فورنوفو أبدى بيير تيراى سيد بايار ، لأول مرة وكان إذ ذاك

فى الثانية والعشرين من عمره ، شجاعة أكسبته نصف اللقب المشهور الذى عرف به وهو « الفارس الذى لا يخاف ولايلام » : ولقد ولد فى قصر بايار بإمارة ولى العهد ، وهو من أسرة نبيلة ، لم يمت رئيس من رؤسائها طوال قرنين إلا فى حومة القتال ، ولعل بيير أراد فى هذا اللقاء ، أن يواصل ذلك التقليد . ونفق من تحته جوادان ، وظفر بأحد ألوية العدو ، فجعله مليكه فارساً تقديراً لبسالته . واستطاع أن يحتفظ فى عصر انتشرت فيه الفظاظة والعبث والخيانة بجميع فضائل الفروسية — فقد كان ، فى غير تظاهر شهماً ، مخلصاً فى غير خنوع . شريفاً فى غير تيه ، وخاض اثنى عشر حربا بروح رحيمة مرحة حتى لقبه معاصروه « الفارس الطيب » ، وسنلقاه مرة أخرى .

وعاش شارل بعد رحلته إلى إيطاليا ثلاث سنوات . وذهب لمشاهدة مباراة تنس فى امبواز فصفع رأسه باب غير محكم ، ومات من نزيف فى المخ بالغاً من العمر ثمانية وعشرين سنة . ولما كان أبناؤه قد ماتوا قبله ، فقد تحول العرش إلى ابن أخيه دوق أورليان ، الذى أصبح الملك لويس الثانى عشر (١٤٩٨) والذى ولد لشارل صاحب أورليان ، وهو شاعر عندما كان فى السبعين من عمره ، وكان لويس عند توليه العرش فى السادسة والثلاثين سقيم البنية منذ أمد . وكانت أخلاقه مهذبة على غير عادة ذلك العصر ، وسجاياه صريحة توصى بالمحبة ، حتى لقد تعلمت فرنسا أن تحبه ، رغم حروبه التى لانفع فيها وكان يبدو متهما بعدم اللياقة ، لأنه طلق عام تتويجه جان دى فرانس ، ابنة لويس الحادى عشر ، ولكن ذلك الملك العنيد فى مرونة ولين هو الذى أرغمه على الزواج من تلك الفتاة التى لا جاذبية لها ، عندما بلغ الحادية عشرة من عمره فقط . ولم يكن يستطيع أن يحبها ، فهو الآن يطلب إلى الإسكندر السادس أن يلغى ذلك الزواج على أساس قرابة العصب ، وأن يقر بناءه بالأرملة آن صاحبة بريتانى —

فى مقابل عروس فرنسية وكونتية ومعاش لابن البابا : قيصر بورجيا — وحملت آن معها دوقيتها كجزء من جهاز العروس . واتخذا مسكنهما فى بلوا ، وأعطيا فرنسا نموذجا ملكياً للحب والإخلاص المتبادلين .

ويمثل لويس الثانى عشر سيادة الشخصية على الفكر . ولم يكن فى دهاء لويس الحادى عشر ، بيد أن له النية الطيبة والرزانة الحسنة ، والفطنة ، التى تتيح له أن يجسم الكثير من قوته فى أعوانه الذين أحسن اختيارهم . وترك الإدارة ، ومعظم السياسة ، إلى صديق عمره جورج ، كاردينال امبواز ، فأدار هذا الكاهن الحكيم الطيب ، الأمور بحذق ، حتى إن الشعب المتقلب كان كلما جد أمر ، هز كتفيه ، وهمس « دع جورج ينهض به » . وتعجبت فرنسا عندما وجدت الضرائب المفروضة عليها تخفض ، خفض أولا العشر ثم الثلث . وانفق الملك الذى نشأ فى النعيم أقل ما يمكن على نفسه وعلى بلاطه ، ولم يسمن على حسابه مقربون . وألغى بيع الوظائف ، وحرم على الحكام قبول الهدايا ، وأباح البريد الحكومى للجمهور . وقيد نفسه بأن يختار ، لكل منصب إدارى شاغر ، واحداً من ثلاثة ، تعينهم الهيئة القضائية ، وألا يفصل موظفاً من موظفى الدولة إلا بعد محاكمة علنية وثبوت عدم النزاهة أو الكفاية عليه . وسخر بعض المزليين ورجال البلاط من اقتصادياته ولكنه كان يقابل مزاحهم بروح متسامحة . وقال « قد يقولون لنا بين بذاءاتهم حقائق نافعة ، دعهم يسلون أنفسهم ، وعليهم أن يحترموا شرف النساء . . . وخير لى أن أجعل رجال البلاط يضحكون من تقتيرى ، على أن أجعل شعبى يبكى من تبذيرى » ، وكانت أفضل وسيلة تسرى عنه هى أن تدله على طريقة جديدة تنفع الشعب . ولقد عبر أبناء الشعب ، عن اعترافهم بالجميل له بأن لقبوه « بأبى الشعب » ولاتذكر فرنسا فى تاريخها مثل هذا الازدهار .

ومن المؤسف ، أن هذا الحكم السعيد تلطخ صحيفته بغزوة أخرى

لإيطاليا . وربما نهض لويس وغيره من الملوك بهذه الهجمات ، ليشغلوا النبلاء المشاغبين ويتخلصوا منهم ، وهم بغير ذلك يزعجون فرنسا بالحروب الداخلية ، مهددين بذلك الملكية والوحدة القومية اللتين لم تستقرا بعد . وكان على لويس بعد اثنى عشر عاما من النصر فى إيطاليا ، أن يسحب جنوده من شبه الجزيرة ، ثم خسر معركة مع الإنجليز فى جوينجيت ، (١٥١٣) ، وهى التى أطلق عليها الوصف الساخر « معركة المهاميز » لأن الفرسان الفرنسيين ، فروا من المعركة بسرعة غير عادية . ووقع لويس صلحاً ، وقنع بعد ذلك بأن يكون ملك فرنسا فحسب .

وزاد موت آن (١٥١٤) من أحزانه ، ولم تنجب له وريثا للعرش ، وزوج ، وهو غير راض تمام الرضى ، ابنته كلود إلى فرنسيس ، كونت انجوليم ، ويعد الثانى فى ولاية العرش . وألح عليه مساعدوه ، أن يتخذ زوجة ثالثة ، وكان فى الثانية والخمسين ، وأن يحجب فرنسيس ، الثائر بإنجاب ولد . فقبل مارى تيودور ، أخت هنرى الثامن ، البالغة من العمر ست عشرة سنة ، فجعلت الملك يسير فى حياة مرحة منهكة وتشبثت بكل ما يجب للجمال والشباب . وتوفى لويس فى الشهر الثالث من زواجه (١٥١٥) فخلف لزوج ابنته ، فرنسا المزدهرة ، التى ظلت تذكر بالحب أبا الشعب على الرغم من هزيمتها فى عهده .

٣ ـ نهضة القصور

أحس الفن الفرنسى الآن كله ، اللهم إلا العمارة الدينية ، تأثير الملكية الآخذة بأسباب القوة وفتوحها الإيطالية ذلك لأن الكنيسة تشبثت بالطراز القوطى المشع ، فى العمارة معبرة عن اضمحلالها بالزينة المسرفة والتفاصيل المبالغ فيها ، ولكن هذا الطراز ، كان يحتضر ، مثله فى ذلك ، مثل امرأة خليعة تجمع وهى تجود بأنفاسها كل المظاهر النسوية ، من رقة وزينة ورشاقة . ومع هذا كله بدأ تشييد بعض الكنائس الفخمة فى هذا العصر : سانت ولفرام

فى ابيفيل ، سانت أتين دى مون فى باريس ، والمزار الصغير المتقن الذى شيدته مرجريت أميرة النمسا فى برو ، تخليدا لزوجها فيلبرت الثانى ملك سافوى . وأدخلت على المبانى القديمة ، زخارف جديدة ، ووصفت كاتدرائية روين ، بابها الشمالى باسم « الباب المكتبى » نسبة إلى حوامل الكتب فى صحن الكنيسة ، وأنفقت المبالغ التى جمعت للانغماس فى أكل الزبد فى لنت ، على إقامة البرج الجنوبى الرائع ، وهو البرج الذى أسمته الفكاهة الفرنسية : « برج الزبدة » ، واستطاع كاردينال امبواز أن يحصل على أموال يشيد بها الواجهة الغربية ، على الطراز المشع نفسه . ومنح بوفيه ، جناح الكنيسة الجنوبى ، رائعتها التى لم تتم . ويفوق بابها ونافذتها الوردية معظم الواجهات الرئيسية ، وحسّن سينلس ، وتور وترويس هياكلها ، وشيد جان لوتكسبيه فى شارترز ، برجاً شمالياً غربياً مشرفاً ، وحاجزا ضخما للمرتلين ، وقد ظهرت فيهما أفكار عصر النهضة التى تغلب الخطوط القوطية . أما برج سانت جاك الرائع فى باريس ، فهو البقية المُرَمَّمة من كنيسة ، أقيمت فى هذا العهد لسانت جيمس الأعظم .

وأفصحت مبانى النبلاء المدنية عن الصراع والفوضى فى ذلك العصر . وأنشئت البلديات للمدن فى أراس ودواى وسانت — أومر ونويون وسانت كنتان وكومبين ودرين وايفريه وأورليان وسومور — وشيدت جرينوبل « دار القضاء » عام ١٥٠٥ ، وشيدت روين داراً أكثر بهاء عام ١٤٩٤ ، صممها روبرت انجو ورولان ليرو على الطراز القوطى المزخرف ، وأعاد القرن التاسع عشر زخرفتها . ثم جاءت الحرب الثانية فخربتها.

وهذا هو القرن الأول الذى ظهر فيه القصر ذو الطابع الفرنسى ، ذلك لأن الكنيسة أخضعت للدولة ، فغلب الاستمتاع بالحياة فى الدنيا على الاستعداد للآخرة ، وأصبح الملوك يستطيعون أن يكونوا آلهة ، وأن ينشئوا ، تزجية لفراغهم ، فردوساً على طول نهر اللوار . وتحول « القصر المنيع » أو القلعة

بين عامى ١٤٩٠ ، ١٥٣٠ إلى « قصر الملذات » . وطلب شارل الثامن بعد أن عاد من حملته على نابولى ، إلى معمارييه ، أن يشيدوا له قصراً ، فى فخامة ما شاهده فى إيطاليا . وكان قد أحضر معه المعمارى الإيطالى فراجيوفانى جيوكوندو ، والمثال الرسام جيدوماتزونى ، والنقاش على الخشب دومينيكوبرنابى « بوكادور » ، وتسعة عشر فناناً إيطالياً آخرين ، وكان بينهم معمارى تخصص فى المبانى الحلوية هو دومينيكو باتشيلو . وهو الذى أصلح قبل ذلك قلعة أمبواز القديمة ، وكلف الملك هؤلاء الرجال ، يعاونهم بناؤون وعمال فرنسيون ، أن يحولوها إلى مسكن مترف يليق بالملك « على الطراز الإيطالى » . وكانت النتيجة بالغة الفخامة : فقــد نهضت بجلال ، على منحدر يشرف على النهر الوديع ، مجموعة من الأبراج ، والقباب والطنف ، وزخارف من الرفارف ومخادع وشرفات . وهكذا ولد نوع جديد من العمارة .

فضايق هذا الطراز الوطنيين والمحافظين على القديم ، بالمزاوجة بين الأبراج القوطية وبين قصور عصر النهضة ، وبإحلال الأشكال والتفاصيل الكلاسية ، محل الزخرف المشع . وظلت الجدران ، والأبراج الأسطوانية والأسقف العالية المنحدرة ، والشرفات الخاصة بالدفاع والخنادق العارضة ، تتسم بطابع القرون الوسطى ، تذكر بالوقت ، الذى كانت فيه دار المرء ، يجب أن تكون قلعته وحصنه فى وقت واحد ، ولكن الروح الجديدة أخرجت المسكن من غلافه العسكرى الكثيف ، وعرضت النوافذ وحددتها بخطوط مستقيمة لتسمح بدخول أشعة الشمس ، وجملتها بأطر من الحجر المنقور ، وزينت الداخل بانصاف عمد كلاسية مربعة وأفاريز وزينات مدلاة وتماثيل ونقوش عربية وزخارف بارزة ، وأحاطت البناء بالبساتين والنوافير والازهار وغابة للصيد أو سهل بسام . ولقد أخلى الظلام فى هذه الدور المترفة مكانه للنور ، كما انقشع الخوف والكآبة ، اللذان اتسمت بهما القرون

الوسطى وحل محلهما اطمئنان عصر النهضة وجرأته ومرحه . وأضحى حب الحياة طرازاً معمارياً .

ونحن نبالغ فى الحكم على هذه القصور فى عصرها الأول إذا ألحقنا بها أصلها أو إذا عرضنا لتطورها الكامل . فإن كثيراً منها كان موجوداً قبل ذلك فى صورة القلاع ، ولم يحدث فيها غير مجرد التعديل ، وأكمل القرنان السادس عشر والسابع عشر ، هذا الشكل الفنى حتى بلغا به الانسجام الأرستقراطى ، وغير القرن الثامن عشر هذا الاتجاه وأحل ملحمة فرساى العظيمة ، محل روح القصور الغنائية المرحة . وكان قصر شينون الحصين ، قديماً ، عندما استقبل فيه شارل السابع ، جان (١٤٢٩) ، كما مر لوشى بتاريخ طويل باعتباره مقراً ملكياً وسجناً ، عندما وفد عليه لودوفيكو المورو سجيناً (١٥٠٤) وذلك بعد أن استولى لويس الثانى عشر على ميلان للمرة الثانية . وأصلح جان بوريه ، وهو وزير لويس الحادى عشر حوالى عام ١٤٦٠ ، قلعة لانجيه ، التى أنشئت فى القرن الثالث عشر ، فى شكل يتسم أساساً بطابع القرون الوسطى ، وإن كانت من أحسن القصور الباقية إلى الآن . وشيد شارل دامبواز حوالى عام ١٤٧٣ ، فى شومون ، قصراً آخر على نهج القرون الوسطى ، وأقام أخوه الكاردينال فى جايون ، قصراً حصيناً فخماً (١٤٩٧ — ١٥١٠) أتلفته الثورة الرعناء . ورمم دينوا وهو نبيل « ابن سفاح من أورليان » قصر شاتودن (١٤٦٤) ، وأضاف كاردينال اورليان لونجفيل ، جناحاً جديداً لهذا القصر ، على الطراز الذى يزاوج بين القوطى وعصر النهضة . ولاتزال فى قصر بلوا ، أجزاء على نمط القرن الثالث عشر ، وقد أنشأ له لويس الثانى عشر ، جناحاً شرقياً ، فى وحدة متجانسة من الآجر والحجر ، ومن الأبواب القوطية ونوافذ عصر النهضة ، ولكن ذروة فخامته كانت تنتظر فرنسيس الأول.

وكانت المرحلة الأخيرة للنحت القوطى رائعة إلى أقصى حد بالزخرف

المنقور ببراعة فى المقابر ، وبالمحفة فى كنيسة برو ، حيث تبدو سيبيل أجرّبا ، فى شكل لا يقل جمالا عما هى فى شارترز أو ريمز . ولكن الفنانين الإيطاليين ، كانوا يعيدون فى الوقت نفسه ، صياغة النحت الفرنسى على طراز عصر النهضة ، استقلالا وانسجاماً ورشاقة . وزاد الاتصال بين فرنسا وإيطاليا بفضل زيارة رجال الدين والسفراء والتجار والرحالة ، وقامت الأشياء الفنية الإيطالية المستوردة وبخاصة الأدوات الصغيرة المصنوعة من البرونز ، مقام المبعوثين من عصر النهضة من الذوق والشكل الكلاسيين . وتحولت الحركة ، بمجيء شارل الثامن وجورج وشارل صاحب امبواز ، إلى تيار متدفق والفنانون الإيطاليون هم الذين أنشأوا « مدرسة امبواز » ذات التأثير الإيطالى فى المقر الريفى للملوك . وتعد مقابر الملوك الفرنسيين ، فى كنيسة سانت دينيس ، سجلا أثرياً ، للتحول ، من جلال النحت القوطى الجهم ، إلى الأناقة الرقيقة والزخرف الذى ينم على المرح ، اللذين اتسم بهما تصميم عصر النهضة ، معلنة المجد محتفلة بالجمال حتى فى انتصار الموت .

ويتجسم هذا التحول فى شخص ميكيل كولومب . ولد عام ١٤٣١ ، ووصف عام ١٤٦٧ بأنه « أعظم نحات فى المملكة الفرنسية قبل أن تغزو فرنسا إيطاليا وتبتلعها بزمن طويل . وكان النحت الغالى من الآن فصاعداً ، كله تقريباً من الحجر ، فاستورد كولومب رخام جنوا ، وحفر عليه صوراً لا تزال عابسة جامدة بمسحة قوطية واضحة ، لكنها وضعت فى أطر زاخرة بالزينة الكلاسيكية . لقد نقش لقصر جايون ، نقشاً بارزاً مرتفعاً يمثل « القديس جورج والتنين » — فى صورة فارس لا حياة فيه على صهوة جواد ناشط خفيف الحركة ، وهما محاطان بأعمدة وأفاريز ورفرف فى تصميم عصر النهضة . وبدأ فى « عذراء العمود » المنقوشة على الحجر ، لكنيسة سانت جالميه ، وان كولومب حقق الوداعة الكاملة التى يتسم بها الأساوب الإيطالى فى بساطة الملامح ولطفها ، وفى الخطوط الناعمة للشعر المرجل . وربما

كان كولومب هو الذى نقر ، فى شيخوخته « المدفن الشرقى » (١٤٩٦) فى سراديب كنيسة فى سولزمس (*).

وتأثرت فرنسا فى التصوير بالأراضى الواطئة ، كما تأثرت بإيطاليا فقد بدأ نيكولاس فرومنت بواقعية هولندية فى صورته « بعث لازاروس » ولكنه انتقل عام ١٤٧٦ من أفنيون إلى ايكس آن بروفانس ورسم لرينيه صاحب الجو الصور ثلاثية الطيات « عليّقة موسى » ، وتظهر الصورة الرئيسية فيها ، وهى العذراء على العرش ، سمات إيطالية فى مهادها ، وفى العذراء السمراء ، وموسى المهيب ، والمَلَك الفاتن ، وكلب الصيد المتحفز والأغنام المخلصين ، وهنا أحرزت إيطاليا انتصاراً كاملا . وطبع تطور مماثل فى الأسلوب أعمال « أستاذ مولان » ، ولعله جان بريال . فلقد ذهب إلى إيطاليا مع شارل الثامن ثم مع لويس الثانى عشر ، فرجع ومعه نصف فنون عصر النهضة فى سجل مؤهلاته — فكان رسام منمنمات ونقوش جدارية ومصور أشخاص ومثالا ومعمارياً . وصمم فى نانت — ونقش كولومب على الحجر — المقبرة الرائعة لفرنسيس الثانى دوق بريتانى ، وخلد فى مولان ذكر أوليائه آن وبير البيجومى ، مع الرسوم الجميلة للأشخاص التى توجد الآن فى اللوفر.

ولم تحتفظ الفنون الصغيرة بالامتياز الذى كان لها فى القرون الوسطى المتأخرة . فقد تحول المزخرفون الفلمنكيون ، منذ زمن طويل إلى الموضوعات الدنيوية والمناظر الأرضية . وتمثل منمنمات جان بورديشون فى « صلوات آن أميرة بريتانى » (١٥٠٨) العودة إلى البساطة والتقوى اللتين تتسم بهما القرون الوسطى مثل الأساطير المحببة عن العذراء وطفلها ، ومأساة جلجوثا وانتصار القديسين ، والرسم ردئ والمهاد كلاسية واللون قوى صاف ، كل هذا فى جو هادئ من التأنق والشعور النسوين . واتخذ الزجاج الملون

(*) استخرجت له صورة فى متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك .

فى هذا العصر — وقد يكون ذلك على سبيل المقابلة — واقعية فلمينكية عند عند النظرة الأولى لا تلائم النوافذ التى تدخل الضوء الساطع على أ، ضيبة الكاتدرائيات ، ومع ذلك فإن الزجاج الذى نقش فى هذا العصر لاوخ وروين وبوفيه ، فيه آثار من روعة القرن الثالث عشر . وأعادت ليموج إشعال أفرانها ، التى خمدت طوال قرن كامل ، ونافست إيطاليا والبلاد الإسلامية ، فى طلاء الأوانى بالميناء الصافية . ولم يفقد الحفارون على الخشب حذقهم ، وذهب رسكين إلى أن مواضع الممثلين فى كاتدرائية أمين هى خير ما فى فرنسا بأسرها ، وأثارت السجاجيد الملونة التى يعود تاريخها إلى نهاية القرن الخامس عشر ، انتباه جورج صاند فى قصر بريساك (١٨٤٧) ، وأصبحت ذخيرة متحف كلونى فى باريس ، وفى متحف جوبلنز سجاجيد رائعة (حوالى ١٥٠٠) تصور موسيقيين يعزفون فى حديقة أزهار السوسن .

وكان القرن الخامس عشر مجدبا بصورة عامة فى الفن الفرنسى باستثناء عمارة القصور . فلقد حرثت أقدام الجنود الأراضى وأخصبتها بدماء الحروب ، ولكن ختام هذه المرحلة ، هو الذى شاهد رجالا عندهم الوسائل والفراغ نثروا البذور التى استطاع فرنسيس الأول أن يجنى ثمارها . فإن صورة فوكيه لنفسه إنما تنم على عصر خنوع وبأس ، وتعكس منمنمات تلميذه بورديشون ، السلام العائلى فى الزواج الثانى للويس الثانى عشر ، والطمأنينة المبتسمة للأرض المسترجعة . فقد تجاوزت فرنسا أسوأ عهودها ، ويوشك أحسنها أن يجىء

٤ — فرانسوا فيون : ١٤٣١ — ١٤٨٠

ومهما يكن من شىء ، فإن هذا القرن من الصراع والفوضى قد أفزع ، شاعراً فحلا ومؤرخاً كبيراً . وكانت إحدى النتائج الطبيعية للاقتصاد القومى والحكومة مركزية ، أن استعمل الأدب الفرنسى لغة باريس ، أيا كان

موطن المؤلف : برجنديا أوبريتانى أوبروفانس . وكأنما أثرها فيليب دى كومين على اللاتينية ، ليثبت أن الفرنسيين قد نضجوا ، وسجل بها مذكراته . واستعار لقبه من كومين فى فلاندرز ، حيث ولد . وهو من أسرة ممتازة ، لأن الدوق فيليب الخامس كان اشبينه ، ونشأ فى البلاط البرجندى ، ولما بلغ السابعة عشرة (١٥٦٤) كان بين موظفى كونت شاروليه . حتى إذا أصبح الكونت ، شارل الجسور ، وأسر لويس الحادى عشر فى بيرون ، لم يرض كومين عن سلوك الدوق ، ولعله تنبأ بسقوطه ، فتحول راشدا إلى خدمة الملك . فجعله لويس حاجباً له وأسبغ عليه الإقطاعيات ، وأرسله شارل الثانى فى وفادات دبلوماسية هامة . وأنشأ كومين فى الوقت نفسه أثرين كلاسيين من الأدب التاريخى : أحدهما مذكرات وتاريخ الملك لويس الحادى عشر ، وثانيهما تاريخ الملك شارل الثامن — وهما سرد نثرى بلغة فرنسية واضحة بسيطة كتبهما رجل عرك الدنيا وشارك فى الأحداث التى وصفها .

وهذان الكتابان شاهدان على الثروة غير العادية للأدب الفرنسى فى المذكرات . ولها أخطاؤهما : فالحرب تكاد تستغرقهما وليس فيهما من الطرافة والحياة ما فى فرواسار أو فيلاردوين أو جوانفيل ، وفيهما كثير جداً من عبارات حمد الله والثناء عليه ، ذلك عند الإعجاب بسياسة لويس الحادى عشر الغاشمة . وكثيراً ما ينقطع عن السرد ويتعثر فى سقطات من اللغو . وعلى الرغم من هذا كله فإن كومين هو أول مؤرخ فلسفى : فهو يبحث عن العلاقة بين العلة والمعلول ، ويحلل الشخصيات والحوافز والمزاعم ويحكم على الأخلاق حكماً موضوعياً ويدرس الأحداث والوثائق الأصلية ليوضح طبيعة الإنسان والدولة . ولقد سبق بهذه الملاحظات مكيافلى وجويكشياردينى فى تقديره المتشائم للإنسانية فى قوله : « لا الفعل الفطرى ، ولا معرفتنا ، ولا حبنا لجارنا ولاشىء آخر غير هذا ، يكفى دائماً لأن يمنعنا من استعمال العنف بعضنا مع بعض أو يحول بيننا وبين الاحتفاظ

عما كان معنا . أو يصرفنا عن اغتصاب أملاك الآخرين بكل الوسائل الممكنة .. والأشرار يصبحون أكثر شراً على معرفتهم ، أما الأخيار فيزداد صلاحهم إلى أقصى حد » .

وكان عنده ، مثل مكيافلى ، أمل فى أن كتابه يعلم الأمراء حيلة أو حيلتين قال :

« ولعل السفلة لا يزعجون أنفسهم بقراءة هذه المذكرات ، أما الأمراء . . . فقد يقبلون عليها ، ويجدون بعض المعارف التى تكافئهم على متاعبهم . . . لأنه على الرغم من أن الأعداء والأمراء ليسوا دائماً سواء ، فإن ، أعمالهم واحدة فى العادة ، ومن المفيد دائماً أن تخبر عما مضى ؟ . فإن من أعظم الوسائل التى تجعل الإنسان حكيما ، أن يدرس التواريخ . . وأن يتعلم كيف يحدد ويلائم بين أحاديثنا وأعمالنا وبين النموذج والمثال اللذين كان عليهما أسلافنا . وما حياتنا إلا فترة قصيرة ، غير كافية لتمدنا بالتجربة عن أشياء جد كثيرة » .

واتفق شارل الخامس ، أحكم الحكام المسيحيين فى عصره ، مع ديكومين ووصف « المذكرات » بأنها كتاب صلواته .

وفضل الجمهور القصص الخيالى والمسرحيات الهزلية والهجائيات وفى عام ١٥٠٨ ظهرت النسخة الفرنسية من « أماديس دىجول » واستمرت حوالى عشر فرق تعرض مسرحيات الخوارق والأخلاقيات والهزليات والمساخر وهى حماقات تسخر من كل إنسان حتى القسس والملوك . وكان بيير جرنجور من أساتذة هذا الفن يكتب ويمثل هذه المساخر بحماسة ونجاح طوال جيل كامل . وأقدم مسرحية هزلية فى الأدب الفرنسى هى « السيد بيير باتيلان » ولقد مثلت أول مرة حوالى عام ١٤٦٤ كما مثلت بعد ذلك بأمد طويل عام ١٨٧٢ . وباتيلان محام فقير يتلهف على القضايا . وهو يلح على بائع صوف أن يبيعه ستة أذرع من الثياب ويدعوه إلى الغذاء

معه فى ذلك المساء ليتسلم الثمن . فلما جاء التاجر ، كان باتيلان فى فراشه يئن من حمى مزعومة . ويصرح أنه لا يعرف شيئاً عن أذرع الثياب والغذاء . فينصرف التاجر مشمئزاً ، فيلعن راعى أغنامه ، ويتهمه بالتصرف سراً فى بعض الخراف ، ويجره أمام القاضى . وهنا يبحث الراعى عن محام زهيد الأجر فيعثر على باتيلان ، الذى دربه على أن يمثل دور الأبله وأن يجيب على جميع الأسئلة بثغاء « الشاه » باء ، وتحير القاضى من هذا الثغاء وارتبك من خلط التاجر فى شكواه بين الراعى والمحامى ، فأعطى فرنسا كلمة مأثورة تدعو فيها كل فريق وهى « فلنعد إلى هذه الأغنام » ولما يئس من الحصول على دليل منطقى فى هذه الضجة ، رفض القضية وطالب باتيلان المنتصر بأجره ولكن الراعى أجابه بثغاء الشاه « با » ، ومكر الأبله بالمحتال البارع . وتتكشف القصة بكل ما فى الروح الغالية من مهاترة . ولعل رابيليه قد ذكر باتيلان عندما فكر فى بانورج ، وموليير قد تقمص جرنجور والمؤلف المجهول لهذه المسرحية .

والشخصية التى لا تنسى فى الأدب الفرنسى فى القرن الخامس عشر هى شخصية فرنسوا فيون . فلقد كذب وسرق وغش وارتكب الفاحشة وقتل ، مثله فى ذلك مثل ملوك عصره ونبلائه ، ولكنه كان أكثر تعقلا . وبلغ الفقر منه مبلغاً جعله لا يملك حتى اسمه . ولقد ولد فرنسوا دى مونتكوربييه (١٤٣١) ونشأ فى غمرات الطاعون والبؤس بباريس ، وتبناه قسيس طيب اسمه جويوم دى فيون ، فأخذ فرنسوا لقب هذا « الكفيل » فلطخه بالعار وأسبغ عليه الخلود فى وقت واحد ، وصبر جويوم على فرار الصبى من المدرسة وعبثه ودفع له نفقات تعليمه فى الجامعة ، واستراح فى زهو عندما حصل فرنسوا على درجة ماجستير فى الآداب (١٤٥٢) ، وزوده بالطعام والمسكن فى أروقة كنيسة سانت بنوا ثلاث سنوات بعد ذلك منتظراً أن يبلغ الأستاذ مرحلة النضج .

وليس من شك فى تحول فرنسوا من التقوى إلى الشعر ومن علوم الدين إلى السرقة قد أحزن جويوم وأم فيون وكانت باريس تزخر بالخلعاء والبغايا والدجالين والنشالين والشحاذين وحماة العاهرات والقوادين والسكارى ، فما كان من الشاب المستهتر إلا أن اتخذ له أصدقاء فى كل طائفة ، وعمل ديوثاً فترة من الزمان . ولعله حصل من الدين فوق ما يطيق ، ولم يسغ الحياة فى الدير ، فمن العسير بوجه خاص أن يستجيب ابن رجل الدين للوصايا العشر . وفى الخامس من يونيه عام ١٤٥٥ بدأ « قسيس يدعى فيليب شرموى ، العراك مع فرنسوا (كما يقول بنفسه) ، وقطع شفته بمدية ، فما كان من فيون إلا أن أصابه بجرح عميق فى فخذه ، ولم يمض أسبوع حتى كان فيليب قد أسلم الروح وأصبح بطلا بين رفاقه ، وخارجاً على القانون يطارده الشرطة ، ففر الشاعر من باريس ، وظل حوالى سنة مختفياً فى الريف .

وعاد هزيلا شاحباً ، جامد الملامح وخشن البشرة ، ساهر العين حذر الشرطة ، يحطم الأقفال حينا والجيوب أحيانا ، يستشعر الجوع إلى الطعام والحب . وأصبح عاشقاً لصبية بورجوازية ، احتملته حتى تجد فارساً خيراً منه ، يتغلب عليه ، فزاد حبه لها ، ولكنه سجل ذكراها بعد ذلك بأنها « سيدتى ذات الأنف الأعوج » . وأنشأ حوالى ذلك الوقت (١٤٥٦) « العهد الصغير » ، وهو أقصر وصاياه ، الشعرية فقد كان عليه أن يفى بديون كثيرة وأن يصلح أخطاء كثيرة أيضاً ، ولا يستطيع أن يتنبأ متى يختم حياته على حبل مشنقة . وهو يهجو عشيقته على قلة لحمها ، ويبعث بجوربه الطويل إلى روبرت فاليه ، « لكى يلبس خليلته رداء أكثر احتشاما » ، وأوصى لبرنيه مارشان « بثلاث حزم من القش أو العشب الجاف ، ليضعها فوق الأرض العارية لينام عليها ، ويمارس لعبة الحب » ، ويمنح حلاقه « أطراف شعرى وقصاصاته » ، ويترك قلبه ، محزوناً شاحباً ميتاً لا إحساس فيه ، إلى التى « أبعدت عينها عنى » .

وبعد أن تجرد من كل هذه الثورة ، وجد نفسه مفتقراً إلى الخبز واشترك ليلة عيد الميلاد عام ١٤٦٠ مع ثلاثة آخرين فى السطو على كلية نافار ، وسرقت العصابة حوالى خمسمائة كراون . ولما اطمأن فرنسوا إلى نصيبه الكبير من هذه المغامرة استأنف إقامته فى الريف . واختفى عن نظر التاريخ عاماً واحداً ، ثم نجده فى شتاء عام ١٤٥٧ بين الشعراء الذين أكرم وفادتهم ، شارل صاحب أورليان ، فى بلوا ... وأسهم فيون فى مباراة شعرية هناك ، ولابد أنه قد أمتع ، لأن شارل أبقاه ضيفاً عليه أسابيع ، وأفعم كيس الشاب الخاوى بالمال ، ثم حدثت بينهما مشادة أومشاجرة قضت على صداقتهما ، وعاد فرانسوا إلى عرض الطريق ، ينظم قصيدة اعتذار . وتجول جنوباً إلى بورجس ، واستبدل بقصيدة هدية من الدوق جون الثانى أمير بوربون ، وطوف حتى بلغ روسلون . ونحن نتصوره من شعره ، رجلا يعيش على الهبات والديون ، على الفاكهة والجوز والدجاج يلتقطها من المزارع على طوال الطريق ، يتحدث إلى الفتيات الريفيات وبنات الهوى فى الحانات . مغنياً أومصفراً على الطرق الكبيرة ، يراوغ الشرطة فى المدن . ثم لا نقع له على أثر مرة أخرى ، وإذا به يظهر فجأة بأحد السجون فى أورليان (١٤٦٠) وقد حكم عليه بالإعدام .

ولسنا نعرف ما الذى أوصله إلى هذا المصير ، وكل ما نعرفه أن مارى أميرة أورليان ابنة الدوق الشاعر ، دخلت فى يولية من هذا العام المدينة رسمياً ، وأن شارل احتفل بهذه المناسبة بأن أعلن عفواً عاماً عن المسجونين . فانتقل فيون من الموت إلى الحياة فى نشوة من الفرح . وسرعان ما استبد به الجوع فعاد إلى السرقة ، فقبض عليه وحوسب على فراره المتنكر قبل ذلك — وزج به فى سجن ينفذ منه المطر فى قرية مونج — سير — لوار بالقرب من أورليان . وعاش هناك شهوراً مع الجرذان والضفادع يعض على شفته الممزقة ، ويقسم ليثأرن من عالم يعاقب اللصوص ويترك الشعراء يموتون

جوعاً . ولم يكن العالم كله قاسياً . فقد أصدر لويس الحادى عشر ، وهو يمر فى أورليان ، عفواً عاماً آخر ، وأخبر فيون أنه أصبح حراً ، فرقص على حصير السجن رقصة الفاندانجو(*) . واندفع إلى باريس أو قريباً منها ونظم إذ ذاك وهو عجوز أصلع مفلس فى الثلاثين . أعظم قصائده ، التى أسماها ببساطة « الأناشيد » ، وأطلق أعقابه عليها ، وقد وجدوا الكثير منها يصاغ مرة أخرى فى صورة وصايا تهكمية باسم « العهد الكبير » (١٤٦١ — ١٤٦٢) .

وهو يهب نظارته إلى المستشفى للمكفوفين المعوزين حتى يميزوا « إن استطاعوا » الطيب من الخبيث والعظيم من الوضيع ، بين العظام فى مدافن الأبرياء . وسرعان ما استولت عليه إبان حياته فكرة الموت . فتفجع على زوال الجمال وتغنى بأنشودة جميلات الأمس :

قل لى أين ، وفى أى أرض للظلال ،
تقيم فلورا الجميلة من روما ، وأين
تاييس وارشيبياد ،
بنتا العم بجمالهما النادر
والصدى ، وجماله الخارق
وهو الذى كلما ناداه المرء عند تدفق نهره
أوسار ، أجاب من خارج الأرض ؟
وماذا صار إليه جليد العام الماضى ؟

وهو يرى أن خطيئة الطبيعة التى لا تغتفر ، أن تفتننا بالمحبة ثم تذيبها بين أذرعنا . وأشد قصائد مرارة « مرثية الجميلة صانعة الخوذات » :

أين ذلك الجبين الواضح البلورى ؟
والحاجبان المقوسان والشعر الذهبى ؟

(*) رقصة أسبانية بالصنج .

والعينان البراقتان ، أين هذا الآن ،
وقد فتن أحكم الحكماء ؟
الأنف الصغير المستقيم الجميل ،
والأذن الصغيرة الرقيقة البديعة ،
أين الذقن الذى له طابع الحسن ، وأين
والشفتان المضمومتان الحمراوان الواضحتان ؟

ويستمر الوصف من فتنة إلى فتنة ، ولم يترك شيئاً ، ثم تلوي كل واحدة منها فى صلاة مرددة حزينة . . .

وتغضن النهدان وانقشعا ،
وانسحب الردفان كالنهدين
ولم يعد الفخذان فخذين ،
لقد ذبلت جميعاً كما ذبلت العضلات

ومن العجيب أنها تغنى هنا المنبار المحشو ، وهكذا لم يعد فيون يعشق الحب أوالحياة ، فيوصى بجسمه إلى التراب :

إننى أهب جسمى ، أيضاً
إلى الأرض ، جدتنا
وستجد الديدان فيه مع ذلك غنيمة صغيرة ؟
فقد أنهكه الجوع أعواماً طوالا .

ويترك كتبه إلى أبيه الذى تبناه معترفا بجميله ، وهدية وداعه لأمه العجوز ، أنشودة متواضعة ينظمها للعذراء . وهو يطلب الرحمة للجميع إلا الذين زجوا به فى السجن : الرهبان والراهبات والمهرجين والمغنين والحشم والشجعان ، « أيها الماجنون الذين يبرزون كل مفاتنهم .. أيها المشاغبون والمحتالون والبهلوانات المرحة ، والمهرجون يعرضون قردهم ، وينشرون سجاجيدهم . . . الطيبون البسطاء الأحياء منهم والأموات — إنى أدعو بالرحمة الشاملة ، لكل فرد منكم وللجميع » . وهكذا . .

وهنا ختام عهد فيون (الكبير والصغير معا) .

ختام عهد فيون المسكين . . فعندما يطويه الموت ،
أناشدكم أن تحضروا جنازته ،
عندما يصلصل الجرس فوق الرؤوس . .
أيها الأمير ، الرقيق كصقر محول ،
اسمع ما صنعه مع آخر زفراته ،
لقد احتسى رشفة طويلة من رحيق النبيذ الأحمر ،
عندما شعر باقتراب منيته .

وعلى الرغم من هذه الوصايا وتحيات الوداع ، فإنه لا يستطيع أن يفرغ كأس الحياة متعجلا . وفى عام ١٤٦٢ عاد إلى جويوم دى فيون وأروقة الدين ، وابتهجت به أمه . ولكن القانون لم يغفل عنه . وطلبت كلية نافار أن يقبض عليه ، ووافقت على إخلاء سبيله بشرط أن يدفع نصيبه فى السرقة ، منذ ست سنوات — أى أن يدفع أربعين كراون سنوياً لمدة ثلاث سنوات . وكان سيئ الطالع فى ليلة إخلاء سبيله . لوجوده مع اثنين من رفاقه المجرمين القدامى ، عندما دفعهم السكر إلى شغب طعن فيه أحد القساوسة . ويبدو أن فيون كان لا مؤاخذة عليه فى هذا الأمر ، فانسحب إلى غرفته ، وصلى ينشد الطمأنينة ، ومع ذلك فقد قبض عليه مرة أخرى ، فعذب بصب الماء فى حلقه حتى كاد ينفجر ، ومما أدهشه أن يحكم عليه بالإعدام شنقاً . ولبث فى سجن ضيق ، أسابيع ، بين اليأس والرجاء وتوقع الموت لنفسه ولصاحبيه فأنشأ وداعا مؤثراً للعالم :

أيها الناس ، أيها الإخوة الذين يعيشون بعدنا ،
لا تجعلوا قلوبكم جد قاسية علينا ،
فإنكم إن منحتمونا نحن المساكين بعض حسراتكم ،
فإن الله سرعان ما يأخذ عنكم هذه الحسرات .

نحن هنا خمسة أو ستة معلقون ، كما ترون ،
وهنا اللحم ، الذى كان كله حسن الغذاء ،
مأكولا متعفناً قطعته بعد ، مقطعاً ممزقاً ،
ونحن العظام نصير مع الجميع إلى تراب ورماد ،
لا تدعوا أحداً يضحك علينا نحن الأشقياء ،
بل ادعوا إلى الله أن يغفر لنا جميعاً . .
لقد غمرنا المطر وغسلنا نحن الخمسة جميعاً ،
وجففتنا الشمس وأحرقتنا ، نعم ، هلكنا ،
فالغربان والجوارح بمناقيرها التى تشوه وتمزق ،
قد سملت أعيننا ، وانتزعت لحانا وحواجبنا
أجراً لها ، لن نكون أحراراً أبداً ،
ولا مرة واحدة ، لنستريح ، وإنما تتعجلنا هنا وهناك
وتستاقنا بإرادتها الغشوم الرياح المتقلبة ،
وتنقرنا الطيور أكثر مما تنقر الفاكهة على أسوار البساتين ،
أيها الناس ، أقسم عليكم بحب الله ، ألا تدعوا كلمة سخر تقال هنا ،
ولكن ادعوا الله أن يغفر لنا جميعا .

وكان لا يزال عنده بصيص من الأمل ، فألح فيون على سجانه أن يحمل رسالة إلى أبيه الذى تبناه ، ليحمل إلى محكمة البرلمان استئنافا لحكم واضح الظلم . وتدخل جويوم دىفيون من أجل الشاعر مرة أخرى ، وهو الذى يستطيع أن يغفر للناس مرات ومرات ، فلابد أن تكون للشاعر بعض الفضائل تشجع على حبه . وفى الثالث من يناير عام ١٤٦٣ ، نطقت المحكمة بحكمها وأمرت بالآتى : . . يلغى الحكم السابق ، وبعد أن وضعت

فى الاعتبار سوء خلق فيون المذكور – ينفى عشر سنوات من المدينة . . وكونتية باريس » . فشكر فرانسو المحكمة فى نشيد مرح ، والتمس مهلة ثلاثة أيام « للإعداد لرحلتى ووداع قومى » . فسمح له بذلك ، وأغلب الظن أنه رأى أباه وأمه للمرة الأخيرة . وجمع أمتعته ، وأخذ زجاجة النبيذ وكيس النقود اللذين أعطاهما إياه جويوم الطيب ، وتلقى بركاته وخرج من باريس ومن التاريخ . ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك .

كان لصاً ، ولكنه كان لصاً مطرباً ، والعالم فى حاجة إلى الطرب . وكان يستطيع أن يكون فظاً مريراً كما فى أنشودة « مارجو البدينة » ورمى النساء اللائى لا يستجبن لرغباته بالأوصاف المفحشة ، وكان يتجاوز الحد فى تصريحه بتفاصيل الجسم الإنسانى . ونحن نستطيع أن نغتفر هذا كله من أجل الآثام التى اقترفت فى مقابل آثامه ، والرقة المنبعثة من روحه دائماً ، والموسيقى الشجية فى شعره . ولقد دفع عقوبة ما كان عليه ، وخلف لنا المثوبة فقط .

الفصل الخامس

انجلترا فى القرن الخامس عشر

١٣٩٩ - ١٥٠٩

١ - الملوك

ماكاد يجلس هنرى الرابع على العرش ، حتى تحدته الثورة . فلقد تخلص أوين جلن دُوير من السيطرة الإنجليزية فى ويلز إلى حين (١٤٠١-١٤٠٨) ، ولكن هنرى الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الخامس ، وكان يوم ذاك أمير ويلز ، تغلب عليه بخطة عسكرية مباغتة ، ومات أوين جلندوير ، بعد لحظات من تبليغه العفو الكامل عنه ، من المنتصر الشهم وذلك بعد أن أمضى ثمانى سنوات مطارداً فى حصون ويلز ونجادها . وقاد هنرى برسى ايرل نورثمبرلند ، بعض نبلاء الشمال فى ثورة ، أراد لها أن تساير فى الزمن ثورة أوين جلندوير ، ضد ملك لم يستطع أن يفى بالعهود التى قطعها لهم على نفسه ، فى مقابل معاونتهم إياه على خلع رتشارد الثانى ؛ وقاد هارى ، الابن المستهتر للايرل ، الملقب «بالمهماز الحاد» (وهو الذى صوره شكسبير شخصية محبوبة بلا مبرر) قوة عسكرية مترددة غير غير كافية ضد الملك فى شروزبرى (١٤٠٣) ، وهناك مات الفتى فى بطولة حمقاء ، وأبلى هنرى الرابع فى الصفوف الأولى من القتال بلاء حسناً ؛ وأظهر ابنه «أمير هل» المرح المتلاف شجاعة جديرة بالظفر بأجنكورت وفرنسا . ولم تترك هذه الثورات وغيرها من المتاعب لهنرى إلا فسحة ضئيلة من الوقت أو الحماسة للسياسة ، وكانت موارده أقل من نفقاته ، كما اختلف بلا كياسة مع البرلمان ، وختم ملكه بين الفوضى المالية وأصابته بمرض

الجذام، وهبوط المستقيم والمرض التناسلي . قال هولنشد « انه انتقل إلى جوار ربه في السادسة والأربعين من عمره . . في ارتباك عظيم ومتاع قليل » .

وتذهب الروايات ويذهب شكسبير إلى أن هنري الخامس قد أمضى شبابا طليقاً ماجنا ، وأنه تآمر للاستيلاء على العرش ، حتى على أب ، أقعده المرض وإن تشبث بالسلطان . ويكتفي المؤرخون المعاصرون بمجرد الإشارة إلى ملذاته ، ولكنهم يؤكدون لنا ، أنه بعد توليه العرش « تحول إلى رجل آخر ، ودرس كيف يكون أمينا شجاعاً مهذباً » . وهذا العابث مع السكارى والخليعات ، يقف نفسه الآن ، على قيادة عالم مسيحي موحد ضد الأتراك الزاحفين ، وأضاف إلى ذلك أنه يجب أولا أن يغزو فرنسا ولقد حقق غايته القريبة بسرعة مذهلة ، وهكذا جلس أحد الملوك الإنجليز على عرش فرنسا لحظة مضطربة . وقدم له الأمراء الألمان فروض الولاء وفكروا في تنصيبه إمبراطوراً . وقد نافس قيصر بصورة مجملة في وضع خطط المعارك ، وإمداد جيوشه بالمؤونة ، وحب جنده له . وفي تعريض نفسه لجميع الوقائع والأجواء . ومات فجاءة بالحمى في بوادي فنسن (١٤٢٢) ولما يزل شاباً في الخامسة والثلاثين .

وأنقذ موته فرنسا ، وكاد يقوض أركان انجلترا . وربما كانت شعبيته تغري ، دافعي الضرائب بإنقاذ الحكومة من الإفلاس ، ولكن ابنه هنري السادس كان ، عند توليه العرش ، في الشهر التاسع من عمره فقط ، وكانت النتيجة السيئة أن أغرق نواب الملك الفاسدون والقادة غير الأكفاء ، الخزانه في دين تعجز عن تسديده . كما كان الحاكم الجديد أقصر باعا من الملك ، فهو دارس دقيق عصبي المزاج شغوف بالدين والكتب ، ترتعد فرائصه من فكرة الحرب ، وندب الإنجليز حظهم العاثر الذي أفقدهم ملكاً وأكسبهم قديساً . . وفي عام ١٤٥٢ أصيب هنري السادس بالجنون على منوال شارل السادس ملك فرنسا . ووقع وزراؤه بعد عام واحد ، صلحاً يعترف بهزيمة انجلترا في حرب المائة عام .

وحكم رتشارد ، دوق يورك ، عامين باعتباره حامياً للملك : وصرفه هنرى عن منصبه (١٤٥٤) فى لحظة من لحظات التعقل ، فادعى الدوق الغاضب ، العرش لأنه من نسل إدوارد الثالث ، واتهم الملوك من أسرة لانكستر بأنهم مغتصبون ، وانضم إلى سالسبورى ووروك وغيرهم من البارونات فى حروب الوردتين — الوردة الحمراء تمثل آل لانكستر والبيضاء آل يورك — التى ظلت إحدى وثلاثين سنة (١٤٥٤ — ١٤٨٥) يتحرش فيها النبيل بالنبيل وكأنما تقدم الأرستقراطية الأنجلونو رماندية على انتحار متواصل ، وتركت انجلترا فقيرة ومنعزلة ، وكان لابد أن يسرح الجنود نتيجة لسلام غير مألوف لهم ، فكرهوا أن يعودوا إلى زمر الفلاحين ، وانضموا إلى كل من الفريقين ، ونهبوا القرى والمدن ، وقتلوا بلا وازع من ضمير كل من يقف فى طريقهم . وقتل دوق يورك فى موقعة عند ويكفيلد التى ذكرها جولدسمث فى روايته المشهورة(*) (١٤٦٠) ، ولكن ابنه إدوارد ايرل مارش ، استمر فى الحرب بلا رحمة ، وذبح جميع الأسرى ، المنتسبين وغير المنتسبين ، بينما قادت مرجريت أميرة أنجو ، والزوج العقيم لهنرى الطيب ، آل لانكستر فى دفاعهم عن حوزتهم فى وحشية لا تعترف بالحياء وانتصر مارش فى توتن (١٤٦١) ، فقضى بذلك على أسرة لانكستر المالكة ، وأصبح أول ملك من أسرة يورك ، وتلقب بإدوارد الرابع .

ولكن الرجل الذى حكم انجلترا فى واقع الأمر ، السنوات الست التالية ، هو رتشارد نيفيل ، ايرل وروك . وهو رأس عشيرة غنية كبيرة العد ، وكانت له شخصية أسرة محببة ، كما كان داهية فى السياسة ، بارعاً فى الحرب ، فإن الفضل إنما يرجع إلى « وروك صانع الملك » فى الانتصار فى توتن ، وهو الذى أجلس إدواد على العرش . ووقف الملك التى استراح من الصراع ،

(*) رواية قسيس ويكفيلد

نفسه على النساء ، فى حين أحسن ورويك الحكم حتى إن انجلترا بأسرها جنوبى تاين وشرقى ستون (لأن مارجريت كانت لا تزال تحارب) أسبغت عليه جميع ألقاب التشريف ما عدا لقب الملك . ولما ثار إدوارد على الواقع وناصبه العداء ، انضم ورويك إلى مارجريت وطرد إدوارد من انجلترا وأعاد هنرى السادس إلى السلطة الإسمية (١٤٧٠) وأخذ يحكم مرة أخرى . ولكن إدوارد نظم جيشاً بمعونة برجنديا . وعبر إلى هل ، وهزم ورويك وقتله فى بارنت وهزم مارجريت فى توكسبرى (١٤٧١) وأمر بقتل هنرى السادس فى القلعة ، وعاش سعيداً فى آخر حياته بعد ذلك .

وكان إذ ذاك لا يزال فى الواحدة والثلاثين من عمره . ولقد وصفه كومين بقوله « كان من أجمل رجال عصره ، لا متعة له غير النساء والرقص والتسلية والقنص » . ولقد أفعم خزانته بمصادرة ضياع آل نيفيل ، وبقبول رشوة من الملك لويس الحادى عشر فى مقابل الصلح معه مقدارها مائة وخمسة وعشرون ألف كراون مع وعد بخمسين ألفاً أخرى كل سنة . وبلغ من طمأنينته أن تجاهل البرلمان ، الذى كانت فائدته بالنسبة إليه ؛ الموافقة على ما يريد من المال . وأحس بالاستقرار ، فاستسلم مرة أخرى للترف والخمول ، ولبس الفاخر من الثياب ، وأصبح سميناً مرحاً ، ومات فى الواحدة والأربعين من عمره ، وقد بلغ أوج سلطانه واكتملت جوانب شخصيته (١٤٨٣) :

وخلف ولدين : إدوارد الخامس البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة ، ورتشارد، دوق يورك ، فى التاسعة : وكان عمهما رتشارد ، دوق جلوستر، خدم الدولة فى السنوات الست التى خلت رئيساً للوزارة ، فى جد وورع وبراعة ، حتى إنه لما نصب نفسه نائباً للملك ، وافقت انجلترا عليه بلا معارضة ، على الرغم من أطرافه المشوهة وظهره المقوس وملامحه الجافية وكتفه اليسرى المرتفعة على كتفه اليمنى . وسواء أكان الباعث نشوة السلطان

أو مجرد الشك فى تدبير المؤامرات لخلعه ، فإن رتشارد سجن عدداً من الأعيان ، وأعدم أحدهم . وفى السادس من يوليو عام ١٤٨٣ توج نفسه ملكاً باسم رتشارد الثالث ، وفى الخامس عشر من الشهر نفسه قتل الأميران الصغيران فى القلعة ، ولم يعرف أحد من الذى قتلهما . وثار النبلاء مرة أخرى ، يقودهم فى هذه المرة ، هنرى تيودور ، ايرل رتشمند . ولما التقت قواتهم الصغيرة ، بجيش الملك ، المتفوق فى العدد إلى حد كبير فى بوسورث (١٤٨٥) ، رفض معظم جنود رتشارد القتال ، وما [illegible] ـ ستاردة يائسة ، مفتقراً إلى الملك وإلى جواد . . وانتهت بذلك أسرة يورك المالكة ، وبدأ ايرل رتشمند ، أسرة تيودور وتلقب بالملك هنرى السابع ، وهى الأسرة التى تنتهى بإليزابث .

ومارس هنرى ، تحت وطأة الضرورة ، الفضائل والرذائل التى تصور له أن منصبه يتطلبها . ولقد رسم له هلبين صورة جدارية فى هوايت هول يبدو فيها طويلا ، ممشوقاً لا لحية له ، مفكراً عطوفاً . لا تكاد تنم ملامحه على التدبير الماكر الغامض ، والكبرياء العبوس الثابتة ، والعزيمة المرنة وإن كانت صلبة فى مصابرتها ، وهى الصفات التى نقلت إنجلترا من الانحلال والفقر ، فى عهد الملك هنرى السادس ، إلى الثروة والسلطة المركزة فى عهد هنرى الثامن . ويقول بيكون إنه كان يحب « ما تجلبه الخزائن المفعمة للناس من غبطة » ، لأنه عرف قدرتها على الإقناع فى السياسة . فبرع فى فرض الضرائب على الأمة ، واستنزف دماء الأغنياء بالصدقات والهدايا بالإكراه ، واستغل الغرامات فى شراهة لتكون مورداً لخزانته ورادعاً للجريمة ، وكان يبتهج كلما رأى القضاة يلائمون بين الغرامة وبين جيب المحكوم عليه ، لا بينها وبين المخالفة . وهو أول ملك إنجليزى منذ عام ١٢١٦ جعل نفقاته فى حدود دخله ، وصدقاته وهباته تخفف من وطأة شحه . ووقف نفسه بإخلاص على شئون الإدارة ، وقلل من ملاهيه ليستكمل

عمله : وأظلم الشك الدائم حياته ، ولم يكن ذلك بغير سبب ، فلم يثق فى أحد ، وكان يخفى أغراضه ، ويحقق أهدافه بوسائل مشروعة أو غير مشروعة . وأنشأ محكمة ستارتشمبر لمحاكمة النبلاء المشاغبين ، الذين بلغ سلطانهم حداً يخشى منه على التأثير فى القضاة المحليين والمحلفين . وذلك فى جلسات سرية . واستطاع عاماً بعد عام أن يخضع الأرستقراطية المتخلفة ، وطبقة رجال الدين الخائنة للملكية . وعارض بعض الأفراد الأقوياء ، القضاء على الحرية وتعطيل البرلمان ، ولكن الفلاحين صفحوا ، عن ملك كبح جماح سادتهم ، وأثنى الصناع والتجار عليه ، لعمله الحكيم على النهوض بالصناعة والتجارة : ولقد وجد انجلترا فى فوضى إقطاعية ، وحكومة جد فقيرة ، لا سمعة لها بحيث تحصل على الطاعة أو الولاء ، وخلف لهنرى الثامن دولة محترمة منظمة ، مؤتمنة موحدة وفى حالة سلم » :

٢ — نمو الثروة الإنجليزية

من الواضح أن ثورة عام ١٣٨١ العظيمة لم تسفر عن كسب ما . فلم يزل الكثير من فروض العبودية يؤخذ قسرا ، بل إن مجلس اللوردات قد رفض بعد ذلك بزمان ، فى عام ١٥٣٧ قانوناً يقضى بالتحرير الكامل لعبيد الأرض . وازداد الضيق على « العامة » ، وأصبح آلاف من رقيق الأرض المتحررين عمالا يدويين فى المدن لا يملكون شيئاً ، وقال توماس مور ، إن الأغنام كانت تأكل الفلاحين . وكانت هذه الحركة طيبة من بعض الوجوه : فقد كانت الأغنام الراعية للكلأ ، تسمد الأرض المشرفة على البوار . وما إن جاء عام ١٥٠٠ حتى كان واحد فى المائة من السكان فقط عبيد أرض . فنشأت طبقة من الفلاحين الملاك ، الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم وهى التى منحت تدريجياً للرجل الإنجليزى العادى ، الشخصية المستقلة القوية التى صهرت الكومنولث وكونت دستوراً غير مكتوب لحرية غير مسبوقة .

ولم يعد النظام الإقطاعي مجدياً ، لأن الصناعة والتجارة ارتقتا بحيث اتخذتا الطابع القومى ، وتحولتا إلى اقتصاديات المال المنقول المرتبطة بالتجارة الخارجية . فحينما كان رقيق الأرض ينتج لسيده ، لم يكن عنده إلا حافز ضئيل للتوسع أو الإقدام ، ولكن عندما يستطيع الفلاح المتحرر والتاجر ، أن يبيعا إنتاجهما فى السوق الحر ، فإن الرغبة الملحة فى الربح تبعث الحياة الاقتصادية فى الأمة ، وأخذت القرى ترسل مزيداً من الطعام إلى المدن ، وتنتج المدن مزيداً من السلع للوفاء بثمن هذا الغذاء ، وهكذا تجاوز تبادل الفائض ، حدود البلديات القديمة وقيود النقابات لتغمر إنجلترا ، وتصل إلى ما وراء البحار .

وتحولت بعض النقابات إلى « شركات تجار » صرح الملك لها أن تبيع المنتجات الإنجليزية فى الخارج . وكانت معظم التجارة الإنجليزية تحمل فى القرن الرابع عشر على سفن إيطالية ، أما الآن فإن البريطانيين يبنون سفنهم ، ويسيرونها فى بحر الشمال والساحل الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط . وقاوم تجار جنوه والاتحاد الهنسياتى ، هؤلاء الوافدين الجدد ، وحاربوهم بالقرصنة ومصادرة السفن ، ولكن هنرى السابع ، اقتنع بأن تقدم إنجلترا يتطلب التجارة الخارجية ، فوضع الملاحة الإنجليزية فى حماية الحكومة ، وأعد مع أمم أخرى ، اتفاقيات تجارية ، أقرت النظام والأمن البحريين . حتى إذا وافى عام ١٥٠٠ ، كان « التجار المغامرون » فى إنجلترا ، يسيطرون على بحر الشمال . وكان الملك بعيد النظر فأوفد وهو يستشرف التجارة مع الصين واليابان الملاح الإيطالى جيوفانى كابوتو ، الذى عاش إذ ذاك فى بريستول باسم جون كابوت ، ليبحث عن ممر شمالى عبر الأطلنطى (١٤٩٧) . وقنع كابوت ، باكتشاف نيوفوندلاند ، والساحل من لبرادور إلى ديلاوير فى رحلة ثانية (١٤٩٨) ، ومات فى تلك السنة ، وتحول ابنه سيباستيان إلى خدمة اسبانيا . وربما لم يدرك الملاح والملك أن هذه الرحلات ، استهلت

التوسع الإمبراطورى البريطانى ، وفتحت للتجارة الإنجليزية والمستعمرين البريطانيين ، إقليما يمكن أن يصبح على الأيام — القوة والخلاص لانجلترا .

ودعّمت الرسوم الجمركية الوقائية ، الصناعة القومية ، وخفض النظام الاقتصادى ، سعر الفائدة ، تخفيضا كبيراً بلغ ٥ ٪ أحيانا ، ونظمت القوانين الحكومية تنظيما صارماً الأجور وأحوال العمل . وقضى قانون هنرى السابع (١٤٩٠) بـ :

« على كل رئيس عمل أو عامل أن يكون فى عمله ، بين منتصف شهرى مارس وسبتمبر ، قبل الساعة الخامسة صباحا ، وله نصف ساعة فقط لتناول الإفطار ، وساعة ونصف لغذائه (فى الظهيرة) وهو يستطيع النوم ، إن وجد فسحة له فى تلك الفترة . . وعليه ألا يترك عمله . . إلا بين الساعة السابعة والثامنة مساء . . ، وعلى كل رئيس عمل وعامل أن يكون فى عمله عند انبلاج الصبح وذلك فى منتصف سبتمبر إلى منتصف مارس ، وألا يغادره إلا بمجىء الليل . . ولا يسمح لأحدهم بالنوم نهاراً » .

ومع ذلك فإن العمال كانوا يستريحون ويشربون الخمر أيام الآحاد ، إلى جانب أجازة أربع وعشرين يوماً فى السنة . ووضعت الدولة أسعاراً عادلة « لكثير من السلع ، وقد سمعنا عن اعتقالات حدثت ، لتجاوز هذه الأسعار . وكانت الأجور الحقيقية ، بالنسبة إلى الأسعار ، أعلى بشكل واضح فى أواخر القرن الخامس عشر ، عما كانت عليه أوائل القرن التاسع عشر .

وأدى ضغط ثورات العمال فى انجلترا ، إبان ذلك العصر إلى الحصول على حقوق سياسية والوقوع فى أخطاء اقتصادية واستمرت دعوة شبيهة بالشيوعية فى كل سنة تقريباً ، وذكر العمال مراراً « بأنكم مخلوقون من نفس الطينة والمادة اللتين خلق منهما الأشراف ، فلماذا إذن يتريضون ويلعبون ، وأنتم تعملون وتكدحون ؟ — ولماذا يملكون الكثير جداً مما فى هذا العالم من ثروات وكنوز ، وأنتم تملكون أقل القليل ؟ » وكانت أعمال الشغب

كثيرة ، ضد التضييق على الأرض المشاع ، كما قامت خلافات موسمية بين التجار والعمال ، ولكننا نسمع أيضاً عن قلاقل من أجل الديمقراطية المحلية فى المدن ، وعن تمثيل العمال فى البرلمان وعن تخفيض الضرائب .

وفى شهر يونيه عام ١٤٥٠ ، سارت قوة كبيرة منظمة من الفلاحين وعمال المدن إلى لندن ، وعسكرت فى بلاك هيث . وعرض زعيمهم جاك كيد ظلامتهم ، فى وثيقة منظمة « إن جميع الناس من العامة ، لا يستطيعون أن أن يعيشوا من كد أيديهم وفلاحتهم ، بسبب الضرائب والمغارم وغيرها من المظالم » . ولابد أن يلغى هذا الدستور العالى ، وأن تتألف وزارة جديدة . فاتهمت الحكومة زعيمهم كيد بالدعوة إلى الشيوعية(*) .

والتقى جنود هنرى السادس ، وأتباع بعض النبلاء ، بجيش الثوار فى سفنوكس (١٨ يونيه سنة ١٤٥٠) ومما أثار دهشة الجميع أن الثوار انتصروا وتدفقوا إلى لندن . وأمر مجلس الملك تهدئة لخواطرهم باعتقال لورد ساى ووليم كرومر ، وهما موظفان مكروهان لابتزازهما الأموال وطغيانهما . وفى الرابع من يوليه ، سلما إلى الغوغاء الذين حاصروا القلعة ، فحاكمهما الثوار ، وقد رفضا الدفاع عن نفسيهما وأعدما . ويقول هولنشد : إن الرأسين رفعا على قضيبين ، وحملا عبر الطرقات فى موكب مرح ، وكان فم كل منهما يصفع بقبلة دامية ، بين حين وآخر . وتفاوض كبير أساقفة كانتربرى وأسقف ونشستر للصلح ، الذى منح بعض المطالب ووعد بالعفو العام . ووافق الثوار وتفرقوا . ومع ذلك فقد هاجم جاك كيد قلعة كوينز بورد فى شيبى ، فاعتبرته الحكومة خارجا على القانون ، وأصيب بجرح مميت وهو يقاوم اعتقاله وذلك فى الثانى عشر من يوليه . وحكم على ثمانية من المتواطئين معه بالإعدام وعفا الملك عن الباقين ، فابتهج كافة رعاياه ابتهاجاً عظيما » .

(*) انظر صورة شكسبير الساخرة لجاك كيد : « سيكون هناك فى انجلترا سبعة أرغفة من التى بنصف بنس تباع ببنس كامل ... وسأجعلها من الكبائر احتساء زجاجة الجعة الصغيرة ، إن كل شيء سيكون مشاعا . . .

٣ – الأخلاق والطباع

كتب سفير البندقية حوالى عام ١٥٠٠ ، تقريراً إلى حكومته :

« معظم الإنجليز – سواء أكانوا رجالا أم نساء ، وفى جميع الأعمار – حسان وأجسامهم ممشوقة . . وهم يحبون أنفسهم حباً عظيما ، ويحبون كل شىء يتعلق بهم ويعتقدون ، أنه ليس فى الناس سواهم ، وليس هناك عالم آخر سوى انجلترا ، وكلما رأوا غريباً جميلا قالوا « إنه يشبه الإنجليزى ، ومن الأسف الشديد أنه ليس كذلك » .

وقد يجيب الإنجليز ، بأن معظم هذا الوصف ، بشىء من التعديل الضرورى ينطبق على كل الشعوب . . ومن المؤكد أنهم كانوا شعباً قوياً فى الجسم والأخلاق والحديث . وهم يقسمون بحرارة حتى إن جان دارك أسمتهم دائماً الملاعين .

وكان النساء أيضاً يتكلمن ببساطة ، ويتحدثن عن مسائل فسيولوچية وجنسية بحرية ، قد تذهل السفسطائيين اليوم . ومزاجهم كحديثهم خشن مفحش . وطباعهم جافية ، حتى عند الطبقة الأرستقراطية ، وعليهم أن يدربوا ويستأنسوا ، بقانون سلوكى صارم . ولقد نشأت الروح الشهوانية التى اتسم بها الإنجليز فى عهد أليزابث فى القرن الخامس عشر ، نتيجة لحياة يكتنفها الخطر والعنف والقحة . وكان على كل امرئ أن يكون شرطى نفسه ، مستعداً أن يقابل الصفعة بالصفعة ، وأن يقتل عند الضرورة برباطة جأش . وهؤلاء الحيوانات القوية نفسها يمكن أن تكون كريمة ، شهمة ، ورقيقة فى بعض الأحيان . فلقد بكى محاربون جفاة ، عندما مات سيرجون تشاندوس وهو فارس مغوار . وتظهر رسالة مارجريت باستون إلى زوجها المريض (١٤٤٣) ، كيف يكون الحب ، لا عصر له ولا يضارعه شىء .

ويجب أن نذكر أن هذه السيدة نفسها ، قد هشمت رأس ابنتها ، عندما رفضت أن تتزوج من اختاره أبواها .

ونُشِّئت البنات فى حصانة رصينـــة واحتشام ، لأن الرجال كانوا حيوانات مفترسة ، وكانت العذرة عدة اقتصادية فى سوق الزواج . ويعد الزواج حادثاً من أحداث تنقل المتاع . فالفتيات قد يتزوجن زواجاً شرعياً فى سن الثانية عشرة ، والصبيان فى سن الرابعة عشرة ، حتى بغير موافقة والديهم ، ولكن الخطبة كانت تعد فى الطبقات العليا تعديلا للمعاملات المالية ، بوساطة الآباء والأمهات ، عقب بلوغ الأطفال السنة السابعة من العمر مباشرة . وما دام زواج الحب شاذاً ، والطلاق محرماً ، فقد شاع الزنا ، وبخاصة فى الطبقة الأرستقراطية . ويقول هولنشد : « لقد سادت هناك ، الرذيلتان الوبيئتان السكر والزنى ، مع الفحش البغيض ، وبخاصة عند الملك » واختار إدوارد الرابع ، بعد أن مر بتجارب عديدة فى الحب ، جين شور ، لتكون الحظية الأثيرة لديه . ولقد خدمته بإخلاص نزق ، وأثبتت أنها صديقة رحيمة فى البلاط لكثيرين من ذوى الحاجات . ولما مات إدوارد ، أرغمها رتشارد الثالث أن تجوب شوارع لندن ، فى ثوب الندم الأبيض وربما كان ذلك استعراضاً لآثام أخيه ، وإخفاء لآثامه هو ؛ وعاشت حتى بلغت أرذل العمر ، محتقرة مبغضة من أولئك الذين ساعدتهم .

ولم يحدث فى التاريخ المعروف إطلاقاً أن شعباً كان يماثل الإنجليز (الذين يتشبثون بالقانون اليوم) فى استهتارهم إذ ذاك بالقانون إلى حد بعيد . ولقد جعلت حرب المائة سنة الناس قساة مستهترين ، واستمر النبلاء بعد عودتهم من فرنسا ، يحاربون فى إنجلترا ، واستخدموا جنوداً مسرحين فى منازعاتهم . وشارك أبناء الطبقة العليا ، التجار الجشعين الذين داسوا كل فضيلة للحصول على المال . وكانت السرقات لا تحصى . وباع التجار الرديء من السلع واصطنعوا الزائف من الموازين ، وكاد

التدليس فى نوع الصادرات ومقدارها يقضى على تجارة انجلترا الخارجية ، فى فترة من الفترات . واستغلت التجارة فى البحار القرصنة ، وكانت الرشوة عامة أو تكاد : وقلما يحكم القضاة دون أن يحصلوا على « هدايا » ، وكان جباة الضرائب يرشون ، تيسيراً للتخلص منها ، ويطلب إلى الضباط المجندين مثل فولستاف الذى صوره شكسبير ، أن يتغاضوا عن مدينة من المدن ، فقد استطاع الأعداء ، أن يشتروا جيشاً إنجليزياً ، كان يغزو فرنسا ، واشتد جشع الناس للمال وقتذاك إلى حد الجنون كما هو الآن ، وأنكر شعراء مثل تشوسر الجشع فى شعرهم ، ولكنهم مارسوه فى واقع حياتهم وكان من الممكن أن يتقوض الكيان الأخلاقى للأمة ، لولا أن أسسه قد دعمتها حياة البساطة التى اتسم بها الرجل والمرأة فى الطبقة العامة ، ففى الوقت الذى كان فيه من هم أفضل منهم ، يدبرون الحروب والشرور لذلك العصر ، احتفظ هؤلاء العامة بالحياة المنزلية وحافظوا على الجنس .

وعاشت جميع الطبقات ، ما عدا التجار والعمال ، فى الريف أطول مدة يستطيعونها كل سنة . وتحولت القلاع التى لم تعد حصينة ، بعد انتشار المدفع ، ببطء إلى منازل كبيرة . وحل الآجر محل الحجر ، ولكن البيوت المتواضعة ، كانت لا تزال تقام من الخشب والطين . وفقدت الردهة الوسطى ، مساحتها وفخامتها القديمتين وهى التى كانت تستعمل فى يوم من الأيام لجميع الأغراض ، وتقلصت إلى دهليز يؤدى إلى غرفة معيشة كبيرة ، وغرف صغيرة ، وقاعة استقبال للحديث الخاص . وضعت السجاجيد على جدران بيوت الأغنياء ، وأضاءت النوافذ ، وهى من زجاج ملون فى بعض الأحيان المدخل الذى كان مظلما من قبل . أما دخان الموقد الذى كان يتسرب قبلا من النافذة والباب والسقف ، فقد جمع فى مدخنة ، ومدفأة ضخمة تزين غرفة المعيشة . وقد تعلقت السقوف بالخشب والأرضيات بالبلاط ، فى حين ظلت السجاجيد قليلة نادرة . إذا نحن صدقنا أقوال إراسموس التى يغلب فيها الجانب الأدبى على الدقة فى التصوير .

«كانت جميع الأرضيات تقريباً من صلصال ، مفروشة بحصير من حلفاء المستنقعات ، وقليلا ما تجدد حتى إن الأسس تظل عشرين سنة ، تردد أسافلها بالبصاق والقىء من الناس والكلاب والنبيذ والجعة ، وبقايا السمك وغيرها من القاذورات التى لا تسمى ، ويتصاعد منها ، بتغير الفصول ، بخار غير صحى فى رأيى» .

وكانت المخادع فخمة مزينة بالنقوش المحفورة ، ومزودة بالأغطـية عليها رسوم أزهار وتعلوها كُنَّة . كما كانت مائدة الطعام ، فى المنازل المريحة ، فنية ضخمة رائعة ، بنقوشها البارزة من خشب الجوز أو البلوط ويقوم بالقرب منها ، أو فى القاعة بصفة عامة ، صوان للأوانى أو الفضيات والتحف حيث ترتب للعرض أو الزينة . ونظمت ردهة الجلوس التى أعدت فى الأصل للحديث ، لتناول الطعام .

وكانوا يتناولون وجبات الطعام الرئيسية نهاراً ، وذلك للاقتصاد فى زيت الإضاءة و«الغداء» فى الساعة العاشرة صباحاً ، والعشاء فى الخامسة مساء . وحرص الرجال على ارتداء قبعاتهم عند الجلوس إلى المائدة ، ليمنعوا شعورهم الطويلة ، من مخالطة الطعام . واحتفظ بالشوك لأغراض خاصة مثل تناول الكامخ أو تجمير الجبن ، وظهر استعمال الإنجليز لها على النمط الحديث ، أول مرة عام ١٤٦٣ ، أما السكين ، فقد كان الضيف هو الذى يأتى بها معه ، يحملهما فى جراب ، معلق بمنطقته ، ويتطلب آداب السلوك إذ ذاك أن يصل الطعام إلى الفم ، بوساطة الأصابع . ولم تكن المناديل مستعملة ، حتى منتصف القرن السادس عشر ، فقد كان على الرجال أن يتمخطوا باليد التى تمسك السكين بدلا من تلك التى تنقل الطعام إلى الفم . وكانت الفوط غير معروفة ، ويحذر الطاعمون بألا ينظفوا أسنانهم بغطاء المائدة ، وكانت الوجبات دسمة ، ذلك أن الغذاء العادى لواحد من أصحاب الوجاهة ، كان يتألف من خمسة عشر أو عشرين صحناً . واحتفظ اللوردات

العظام بموائد عظام ، فقد كانوا يطعمون يومياً ، مائة من الندماء والزوار والحشم ، وكان ورولك صانع الملك يذبح ستة ثيران كل يوم لمائدته ، وأطعم أحياناً خمسمائة مدعو . وكانت اللحم هي الطعام القومي والخضرات نادرة أو غير محبوبة . والجعة هي الشراب القومي ، ولم يكن النبيذ موفوراً أو منتشراً ، كما كان الحال في فرنسا أو إيطاليا بيد أن المسموح به من الجعة ، هو جالون للفرد كل يوم حتى الراهبات . وقال السير جون فورتسكيو (توفى عام ١٤٧٠) « لا يشرب الإنجليز الماء ، إلا في أوقات معينة لأغراض دينية . أو للتكفير عن ذنب .

وكان الرداء فاخراً عند الطبقة الأرستقراطية . أما البسطاء فكانوا يرتدون جلباباً فضفاضاً وقلنسوة ، أو معطفاً قصيراً يلائم العمل ، وكان الموسرون بالقبعات المكسوة بالفراء أو الريش ، وأردية مزينة بالزهور ، أو سترات مزركشة تنتفخ عند الأكمام ، وجوارب طويلة ، شكا منها قسيس تشوسر بقوله « تظهر الساقين في صورة مفزعة منتفخة ينفتق إحداها عن الأخرى بالإضافة إلى أرداف . . وكأنها الجانب الخلفي من قردة في ليلة مقمرة » . وارتدى تشوسر نفسه عندما كان تابعاً في حاشية الملك ، سترة مشعة وجوربين أحدهما أحمر والآخر أسود . واختفت في القرن الخامس عشر الأحذية المدببة ، التي شاعت في القرن الرابع عشر ، واستدارت الأحذية واتسعت عند الأصبع الكبير من القدم . أما « زى النساء » فهو يثير السخط ، وعلى الرغم من أن محيا بعضهن ، ينم على العفة والطيبة الكاملتين ، إلا أنهن يبرزن بقلة ردائهن غير المتناسق فتنتهن ودلالهن » . ومع ذلك ، فإن الصور التي وصلت إلينا ، تظهر الجنس المثير ، وقد حبس بإحكام في حشد من الملابس من قمة الرأس إلى أخمص القدم .

وتراوحت ألعاب التسلية في الداما والشطرنج ، إلى النرد ، ومن صيد السمك إلى قنص الوحوش ، ومن رمي السهام إلى المبارزة . ودخلت لعبة

الورق إلى إنجلترا حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، وهم لا يزالون يلبسون ملوكهم وملكاتهم ، على طراز ذلك العصر . وكان الرقص والموسيقى شائعين كالميسر ، وكل إنجليزى تقريباً ، يشارك فى الأغانى الجماعية ، ولقد نافس هنرى الخامس جون دستيبل ، مع أعاظم الملحنين لذلك العهد . واعترفت القارة الأوروبية بالمغنين الإنجليز . ولعب الرجال التنس ، وكرة اليد وكرة القدم وغيرها من ألعاب الكرة القديمة ورمى الأطواق ، وتصارعوا وتلاكموا ، وأعدوا الديكة للعراك ، وتراهنوا وتحرشوا بالدببة والثيران . واحتشد الناس لمشاهدة البهلوان والسائرين على الحبال يعرضون فنونهم التى كانت تسرى عن القدماء ، وتدهش المحدثين . واحتفظ الملوك والنبلاء بالمشموذين والمضحكين والمهرجين ، وكان الملك أو الملكة يعينان من يشرف على ألعاب ومشاهد عيد الميلاد ، ومنحوه لقب لورد . والنساء يخالطن الرجال فى حرية فى كل مكان . يحتسين الخمر فى الحانات ، يركبن وراء كلاب الصيد ، ويصدن بالصقور ، ويصرفن المشاهدين عن المتصارعين فى بعض الدورات ، وهن اللائى قادتهن الملكة للتحكيم فى رمى الأطواق ومنح التاج الذهبى .

وكانت الرحلة لا تزال مجهدة ، ولكن ما من أحد استقر فى داره ، على ما يبدو — وذلك من مساوئ الزواج من واحدة . والطرق موحلة أو متربة ، ولم يميز اللصوص بين عنصر جنس وطبقة أو مهنة . والفنادق مهيجة المنظر على الرغم من قذارتها تزدحم فيها الصراصير والفئران والبراغيث . ويجد كل رجل مهيم بائعة هوى ، وقلما نجد الفضيلة مخدعاً صالحاً لها هناك . يذهب الفقراء راجلين والأوساط على صهوات الخيل ، فى جموع مسلحة عادة ، ويستعمل الأغنياء عربات ، تجرها خيول مطهمة ، ونسب ابتكارها إلى رجل مجرى فى قرية كوكر من أبناء القرن الخامس عشر . وكانت عربات اللوردات مزينة بالنقوش البارزة وموشاة بالرسوم ومذهبة ، لها حشيات

وستائر وبسط ، ومع ذلك فلقد كانت أقل راحة من ظهور الإبل ، وكانت تترنح كمركب صيد بشراع واحد . ولم تكن السفن خيراً مما كانت عليه فى العصر القديم ، ولعلها أسوأ حالا ، وأخذت السفينة التى جاءت بالملك جون من بوردو ، إلى لندن عام ١٣٥٧ اثنى عشر يوماً .

وانتشرت الجرائم وبلغت المدن من الفقر حداً لا تستطيع معه ، إلا أن تستخدم شرطة من المتطوعين غير المأجورين . ولكن الذكور كان يطلب إليهم جميعاً أن يسهموا فى « ملاحقة » مجرم هارب ، وكان يبحث عن الموانع فى الحكومات الصارمة من أجل القلة الذين يقبض عليهم ، وكانت عقوبة السطو والاختلاس والحريق العمد وانتهاك حرمة المعابد المقدسة ، كعقوبة القتل والتآمر ، وهى الشنق على أقرب شجرة ، وتترك الجثة ردعاً للآخرين وطعمة للغربان . وانتشر التعذيب — لكل من المتهم والشهود — إبان حكم إدوارد الرابع ، واستمر مائتى سنة . وكثر المحامون .

وقد يكون حكمنا على هذا العصر ممعناً فى القسوة ، متغافلين عن فظائع قرننا المتحضر . ولقد كان سير جون فورتسكيو القوام على العدالة فى عهد الملك هنرى السادس ، أحسن ظناً بعصره ، وكتب تمجيداً له مصنفين اشتهرا فى وقت من الأوقات . وفى محاورة امتدح قوانين انجلترا . ومجد صحة المحاكمة بوساطة المحلفين ، ونعى التعذيب ، وكان مثاله ، مثل آلاف الفلاسفة ، فى تحذير الأمراء الذين يجدر بهم أن يكونوا خدام الشعب المعتصمين بالقانون . ولقد وازن فى كتابه « الملكية » أو « حكومة انجلترا » بين فرنسا وانجلترا على أساس من العاطفة الوطنية : فالناس من فرنسا قد يحكم عليهم بغير محاكمة علنية : وقلما يدعى مجلس الولايات للاجتماع . والملك يفرض الضرائب على الحاجات الضرورية كالملح والخمر . وبعد أن بالغ فى تمجيد بلاده على هذا النحو ، ختم السير جون كلامه بقوله إن جميع الحكومات ، يجب عليها أن تخضع للبابا ولو أدى ذلك إلى تقبيل قدميه .

٤ – اللولارد

أعاد أرندل كبير الأساقفة عام ١٤٠٧ ، تأكيد سيادة الشريعة أو القانون الكنسى ، على كل تشريع وضعى ، وحكم بالكبيرة أو الهرطقة الكاملة على رفض أى مرسوم بابوى . وأقامت الكنيسة بعد ويكليف ، وازدادت قوتها فى انجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ، وفاضت الثروة المتدفقة عن خزائنها . وشاع الاكتتاب الدينى : فإن الأشخاص الذين يتوقعون الموت ، كانوا يتبرعون لبناء كنيسة ، ولإقامة القداس للتعجيل بدخولهم الجنة . وسيطرت الكنيسة على مجلسى البرلمان ، فقد كان لها فى مجلس الشيوخ حوالى عشرين أسقفاً وستة وعشرين من رؤساء الأديرة ، فى حين لم يكن فى المجلس من غير رجال الدين سوى سبعة وأربعين عضواً . وأصر هنرى السابع — وهنرى الثامن فيما بعد — لموازنة ذلك الوضع على تعيين أساقفة ورؤساء أديرتها من بين رجال الدين ، ويسر اعتماد الرتب الكهنوتية على الملكية ، تسليم رجال الدين ، لجهود هنرى الثامن فى سبيل تحقيق السيادة الملكية على الكنيسة الإنجليزية .

وفى الوقت نفسه استقر وعاظ ويكليف المساكين على نشر أفكارهم المناهضة لرجال الدين . ولقـــد ذكر أحد مؤرخى الأديرة ، فى فترة مبكرة ، ١٣٨٢ فى مبالغة تنم على الفزع « أنهم كانوا يتكاثرون بسرعة فائقة ، كالبراعم ، حتى غمروا المملكة بأسرها . . ومن النادر أن تلقى رجلين فى الطريق دون أن يكون أحدهما من تلاميذ ويكليف . ولقد وجدوا الجمهور المستعد للاستماع إليهم بين صفوف عمال الصناعة ، وبخاصة نساجى نورفولك . وفى عام ١٣٩٥ أحس جمـــاعة الاولارد ، أنهم بلغوا من القوة حداً ، أتاح لهم أن يقدموا إلى البرلمان ، بياناً جريئاً بمبادئهم : فقد عارضوا عزوبة رجال الدين ، واستحالة القربان دم المسيح ولحمه

وعبادة الصور وزيارة القديسين والصلوات على أرواح الموتى ، وثروة الكنيسة وكثرة الموقوف عليها ، واستخدام رجال الكهنوت فى وظائف الحكومة وضرورة الاعتراف للقسس والاحتفال بالتعاويذ ، وعبادة القديسين . وأوصوا فى بيانات أخرى ، بأن الجميع يجب عليهم أن يعكفوا على قراءة الكتاب المقدس ، وأن يتبعوا تعاليمه باعتبارها فوق مراسيم الكنيسة . ورفضوا الحرب باعتبارها مناقضة للمسيحية ، والترف لأنه مناف للأخلاق ، وطالبوا بإصدار قوانين خاصة بالنفقات ، تفرض على الناس العودة إلى البساطة فى الغذاء والكساء ، وكرهوا الإيمان ، ووضعوا فى مقابل صفته القسم ، حيناً آخر مثل « أنا متأكد أن » و « إنها الحقيقة » ، وكان العقل الطهرى ووجهة النظر الطهرية ، يتخذان شكلهما فى إنجلترا قبل ذلك ، ولقد مزج نفر من الوعاظ ، الاشتراكية بعقيدتهم الدينية ، ولكن معظمهم ، كان ينفر من مهاجمة الملكية الخاصة ، وسعوا إلى تأييد الفرسان والنبلاء إلى جانب تأييد الفلاحين والعمال .

ومهما يكن من شىء فإن الطبقات العليا لم تستطع أن تنسى المأزق الشديد الذى نجت منه فى ثورة ١٣٨١ ، ووجدت الكنيسة فيهم ، استعداداً جديداً لحمايتها ، باعتبارهم قوة استقرار فى المجتمع . وهدد رتشارد الثانى ممثلى اللولارد فى البرلمان بالاعتقال وأكرههم على الصمت . وطالب أساقفة إنجلترا عام ١٣٩٧ ، الملك بإعدام الهراطقة المتعمدين « أسوة بجميع الممالك الخاضعة للدين المسيحى » . ولكن رتشارد الثانى ، كره أن يسايرهم إلى هذا المدى ، ومع ذلك فقد أصدر هنرى الرابع وبرلمانه عام ١٤٠١ المرسوم المشهور بحرق جميع الأشخاص الذين تحكم عليهم إحدى المحاكم الدينية بأنهم هراطقة بالإصرار ، وتباد جميع كتب الهرطقة . وفى العام نفسه ، أحرق وليام سوترى ، وهو قسيس على مذهب اللولارد ، بعد أن شد إلى القائمة الخاصة بالإحراق . وقبض على غيره من أنصار المذهب نفسه ، وأجبروا على

تغيير آرائهم وعوملوا برفق . وقدم أميرويلز ، إلى هنرى الرابع عام ١٤٠٦ ، عريضة تقضى بأن دعوة اللولارد ، وهجومهم على أملاك الأديرة يهددان كيان المجتمع بأسره . وأمر الملك بزيادة التشدد فى محاكمة المراطقة . ولكن انغماس الأساقفة فى سياسة البابوية ، جرف نشاطهم ، عن الهرطقة والمراطقة إلى حين . وفى عام١٤١٠ أدانت الكنيسة جون بادبى ، وهو خياط لولاردى ، وأحرق فى سوق سمثفيلد . وقبل أن تشعل المحرقة ، رجا الأمير هال ، بادبى ، أن يرجع عن آرائه ، وأن يمنح فى مقابل ذلك الحياة والمال ، فأبى الرجل ، وارتقى المحرقة حيث لقى الموت

وجلس الأمير على العرش عام ١٤١٣باسم هنرى الخامس ومنح تأييده الكامل لسياسة القمع . وكان أحد أصدقائه هو سيرجون ألد كاسل لورد كوبهام ، وهو الذى رأى نظارة مسرحيات شكسبير ، بعد ذلك ، أنه عين فلستاف . ولقد أبلى الدكاسل البلاء الحسن فى الحرب فى سبيل الأمة ، ولكنه تسامح مع دعاة اللولارد ، وبسط عليهم حمايته فى ضياعه بهيرفوردشاير وكنت . وطالب الأساقفة بمحاكمته ثلاث مرات ، وأبى حضور المحاكمة ثلاثاً ، ولكنه استسلم بناء على دعوة مكتوبة من الملك ، وقتل أمام الأساقفة (١٤١٣) فى نفس الموضع من كنيسة سانت بول ، حيث حوكم ، ويكلف قبل ذلك بست وثلاثين سنة . وأكد اعتقاده الثابت فى المسيحية ، ولكنه لم يقبل التخلى عن آراء اللولارد فى الاعتراف أو القربان . فأدين بالهرطقة ، وسجن فى برج لندن ، وأعطى مهلة أربعين يوماً ، على أن يعود عن هذه الآراء ، ولكنه بدلا من ذلك ، فر هارباً . وما أن بلغ اللولارد الذين كانوا حول لندن ، خبر فراره ، حتى جهروا بالثورة ، وحاولوا أن يقبضوا على الملك (١٤١٤) . وفشلت المحاولة ، وقبض على بعض الزعماء وأعدموا . واختفى الدكاسل ، ثلاث سنوات فى جبال هيرفوردشاير وويلز ، ثم قبض عليه آخر الأمر ، وأعدم بتهمة الخيانة ، ثم أحرق بتهمة الهرطقة (١٤١٧) ، لأن الدولة والكنيسة طالبت كل منهما بحقها .

ونحن إذا قسنا اضطهاد اللولارد إلى غيرهم ، نرى أنه كان معتدلا ، وبلغ عدد الذين أعدموا أحد عشر رجلا بين عامى ١٤٠٠ ، ١٤٨٥ . ولقد سمعنا عن طوائف من اللولارد عاشت إلى عام ١٥٢١ ، وفى سنة متأخرة هى سنة ١٥١٨ ، قتل توماس جان على المحرقة ،وهو الذى زعم أنه حول سبعمائة شخص إلى المذهب اللولاردى ، وأحرق ستة آخرون عام ١٥٢١ .

وأما فصل هنرى الثامن إنجلترا عن روما ، وقابلت الأمة هذا التحويل بلا ثورة ، فإن اللولارد من حقهم ، أن يزعموا ، أنهم مهدوا الطريق إلى هذا التحول إلى حد ما .

ونشر ريجنالد تيلوك ، أسقف تشيشستر عام ١٤٥٠ كتاباً ، اتخذ له عنواناً ، على طريقة العصر المتقلبة ، كبح جماح اللوم الزائد عن الحد لرجال الدين .

كان رداً صريحاً على المذهب اللولاردى ، وقد افترض وجود نزعة قوية ضد رجال الدين بين الناس . واقترح القضاء على هذه الآراء ، لا بالسجن فى المحرقة ، ولكن بالاحتكام إلى العقل فحسب . وأمعن الأسقف المتحمس فى الاحتكام إلى العقل ، حتى أغرم بالعقل فى ذاته ، وأوقعه ذلك فى الهرطقة ، وألفى نفسه ، يفند بالعقل بعض حجج اللولارد ، من الكتاب المقدس . ووضع العقل فوق الكتاب المقدس بصورة قاطعة كميزان للحقيقة ، فى « رسالة عن الاعتقاد » — وهو موقف احتاجت أوربا فيه مائتى سنة لاستعادته . وأضاف مؤلف «كبح جماح اللوم الذى لم يكبح جماحه » أن آباء الكنيسة لا يوثق بهم دائماً ، وأن أرسطو ليس ثقة لا يناقش ، وأن الرسل ، لايد لهم فى العقيدة ، وأن هبة قسطنطين كانت انتحالا . وطالب الأساقفة الإنجليز بيكوك المعجب بنفسه بالمثول أمام محكمتهم (١٤٥٧) ، وخيروه بين الرجوع عن آرائه أو الإعدام حرقاً . وكان يكره الإحراق ، وقرأ

علانية إقراراً بالرجوع عن أقواله ، وشلح عن رتبته الكنسية ، واعتزل الناس في دير كنيسة تورنى إلى آخر حياته (١٤٦٠) .

٥ - الفن الإنجليزى ١٣٠٠ - ١٥٠٦

كانت الكنيسة ، على الرغم من الهرطقة واللاكهنوتية ، من القوة والثراء ، بحيث استطاعت أن ترفع فن العمارة الإنجليزية إلى مستوى من التفوق رفيع إلى حد ما . ولقد مول : نمو التجاوة وغنائم الحرب : الكاتدرائيات والقلاع والقصور ، وأسبغت على اكسفورد وكمبردج جلالا بما شيدت من دور جميلة للعلم لا تضارع . ولقد أخذت مواد البناء في إنجلترا من رخام بربك ومرمر نوتنجهام إلى غابات شرود وآجر أي مقاطعة ، ثم تحولت إلى صروح النبلاء وأبراج اللوردات ذوات الأطراف الدقيقة ، والسقوف الخشبية التي كانت تماثل في متانتها وجمالها القباب القوطية من الحجر . واستبدلت بالدعائم القبيحة التي تربط السقف ، والتي تصل الجدار بالآخر في صورة متكلفة ، الدعائم البارزة المطروقة ، تحمل بأكتاف ضخمة من خشب البلوط ، والعقد المرتفع فوقها ، وبهذه الطريقة ، قوصرت بعض من أجمل كنائس انجلترا صحونها . وهكذا حصلت كاتدرائية سلبي على سقف من خشب البلوط مضلع ومعقد ، تضارع الرسوم التي على شكل عقد ومروحة ، مما يسقف كنيسة « باث » ومنصة الترتيل في « إلى » - والجناح الجنوبي لكنيسة جلوسستر بأحجار متداخلة .

وأعطت نماذج من الزخارف الحجرية المفرغة في النوافذ ، ومن تغليف الجدران وحواجز المرتلين ، أسماءها لطرز معمارية متعاقبة ، تتداخل في الزمان وتختلط عادة في بناء واحد . واصطنع الطراز القوطي ذو الزخارف الهندسية (حوالى عام ١٢٥٠ - ١٣١٥) الأشكال الإقليمية ، كما هو الشأن

فى كاتدرائية اكستر . وانصرف الطراز القوطى الذى توسل بالأقواس فى الزخرف (حوالى ١٣١٥ – ١٣٨٠) ، عن الرسوم المحدودة ، إلى الخطوط التى تماوج بحرية ، التى سبقت فى شىء من التحفظ ، طراز فرنسا المشع ، كما هو الحال فى النافذة المستديرة الجنوبية فى لكولن . وركز الطراز القوطى الرأسى (حوالى عام ١٣٣٠ – ١٥٣٠) ، على الخطوط الأفقية والرأسية فى داخل العقد ، كما فى كنيسة هنرى السابع فى دير وستمنستر . وخففت الألوان الزاهية ، التى اتسم بها الزجاج الملون فى القرن الثالث عشر ، بأصباغ أخف أوبصباغ فضى أو رمادى شاحب ، ونافست صور الفروسية الآفلة ، الأساطير المسيحية ، على هذه النوافذ . وبلغ الفن القوطى بذلك أوجه فاضمحلاله .

وقلما عرفت انجلترا مثل هذا الشغف بالبناء . فلقد جهدت ثلاثة قرون (١٣٧٦ – ١٥١٧) لكى تشيد الصحن الحالى فى دير وستمنستر ، ونحن نستطيع أن نحس إحساسا ضيقاً فى الهوادج الطوال لتلك السنوات ، جهد العقل واليد اللذين اشتركا فى عمل مقام لايضارع العبقريات الإنجليزية ، فى خير أعمالها . وبعد تجديد بناء وندسور أقل روعة ، فلقد ابتنى ادوارد الثالث هناك على مساحة ضخمة ، البرج المدور الكبير (١٣٤٤) ، وبدأ ادوارد الرابع (١٤٧٣) تشييد كنيسة سانت جورج بمنصاتها الجميلة للمرتلين وعقدها الذى على شكل المروحة وزجاجها الملون . وصمم الن دى ولسنجهام ، على الطراز القوطى المتوسل بالأقواس فى الزخرف ، كنيسة رائعة للعذراء وبرج « مصباح » لأيلى . وزودت كاتدرائية جلوسستر ببرج وسيط وعقد للمرتلين ونافذة شرقية ضخمة ، وأروقة متسعة ، وتعد سقوفها التى على شكل المروحة من عجائب انجلترا . ووسعت ونشستر صحنها الكبير وزينت واجهتها الجديدة بالطراز الرأسى . وشيدت كفنترى ، على هذا النحو الكاتدرائية ، التى لم ينفذ منها فى الحرب العالمية الثانية ، سوى برجها المدبب الفخم . وأقامت

بتربره ، عقدها الشاهق على شكل المروحة ، وأكملت يورك منستر صحنها ، أبراجها الغربية ومنصة المرتلين فيها . وكانت الأبراج هى المجد الذى يتوج العصر ، تسبغ النبل على كاتى مرتن والمجدلية فى اكسفورد ودير فاونتين أبى وكنتربرى وجلاستبرى ودربى وتونتن وغيرها من مئات الأضرحة . واستعمل وليام الويكهامى الطراز الرأسى فى تصميم كلية اكسفورد الجديدة ، واتبع هذا النهج وليم وينفليت ، وهو معمر آخر فى التسعين ، فى «المربع الكبير» بكلية ايتون ، وختمت كلية الملك وكمبردج ، العصر بكنيسة قد تغرى بنوافذها وعقدها ومنصات مرتليها كاليبان بالعلم وتيمون الأثينى بالصلاة .

وفى الطراز القوطى الرأسى طابع دنيوى واقعى يناسب تماما عمارة الكليات والقلاع والحصون وأبنية النقابات والبلديات . وشيد أمراء وروك على هذا الطراز فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، قلعتهم المشهورة بالقرب من ليمنجتن . وشيدت الجيلد هول فى لندن وهى مفخرة الطبقة التجارية فى العاصمة ، بين عامى ١٤١١ ، ١٤٣٥ ولكنها أحرقت عام١٦٦٦. فأعاد كريستوفرورن بناءها ، وأضيف إليها الجزء الداخلى الجديد عام ١٨٦٦ وهو الذى انهار تحت وطأة القنابل فى الحرب العالمية الثانية . كما اتخذت دكاكين المدينة ، فى قوائم نوافذها نموذجاً من الطراز الرأسى ، وهى تخلب مع رؤوسها المنقوشة وأفاريزها وطنفها البارزة ، ألبابنا بسحر مجد بائد .

ولقد احتفظ فن النحت الإنجليزى فى هذا العصر بالسمعة التى غلبت عليه ذلك لأن نحت التماثيل لواجهات الكنائس قد تخلف كثيراً عن العمارة التى كان الغرض منه أن يزينها كما هو الحال فى لنكولن واكستر . واستخدمت حواجز المذبح الكبير فى كاتدرائية وستمنستر ودير سانت البان ، قوالب للتماثيل ولكن هذا شىء لا يؤبه له لكى نضيفه إلى قصتنا . وأجود الأمثلة

على هذا الفن إنما توجد فى الآثار الجنائزية . ولقد حفرت صور جميلة لادوارد الثانى على المرمر فى كاتدرائية جلوسستر ، وللسيدة البانوربرس فى بيفرلى منستر ولهنرى الرابع والملكة جان فى كنتربرى ، ولرتشارد بوشان فى وروك . وبلغ المثالون الإنجليز أوج براعتهم فى عرض أزهار أرضهم الخضراء ونباتها . وكان الحفر الجيد يمارس على الخشب : وتبهر منصات المرتلين فى ونشستر وإيلى وجلوسستر ولنكولن ونوروتش الأنفاس بالجمال الذى بذل فى إظهاره غاية الجهد .

وكان الرسم لا يزال فناً ثانوياً فى انجلترا ، تخلف كثيراً عن معاصره فى فلاندرز وفرنسا وظل تزيين الكتب القديمة فناً محبباً ، ولقد دفع ادوارد الثالث مبلغ ستة وستين جنيهاً فى مقابل مجلد مزين للقصص الخيالى : وقدم روبرت من أورمزبى إلى كاتدرائية نوروتش ، نسخة مزينة من المزامير تعدها مكتبة بدليان « أجمل مخطوطة إنجليزية » بين مجموعاتها . واضمحل فن المنمنمات بعد عام ١٤٥٠ بظهور الرسوم الجدراية واللوحات الحائطية ، وأفل نجم هذا الفن فى القرن السادس عشر قبل ظهور معجزة الطباعة الطريفة .

٦ – كاكستون ومالورى

فى تاريخ مجهول من القرن التاسع عشر ، أنشأ مؤلف ، لا يعرف اسمه الآن ، أشهر المسرحيات الأخلاقية الإنجليزية ، فإن تمثيليته « كل إنسان » عبارة عن مجاز وأخلاقه تجريدات منفرة منـــذ البداية ، مثل المعرفة والجمال والمقولات الخمسة والرشد والقوة والفضل والمآثر والصداقة والقرابة والاعتراف والموت وكل إنسان والله . ونحن نجد فى الاستهلال ، أن الله غاضب ، لأن وصاياه يتجاهلها تسعة من عشرة أشخاص فى ستة أيام من كل أسبوع ، فيرسل الموت ، ليذكر سكان الأرض ، بأنهم لابد أن

يبادروا بالعودة إليه ، وأن يقدموا حساباً عن أعمالهم . وهبط الموت من السماء إلى الأرض ، فى مساحة خط واحد ، فوجد كل إنسان قد امتلأ فكره بالنساء والذهب ، فما كان منه إلا أن أمره بالانتقال إلى الأبدية . فاحتج كل إنسان بعدم الاستعداد ، وطالب بفسحة من الوقت ، وقدم ألف جنيه على سبيل الرشوة ، ولكن الموت يمنحه مسكناً واحداً — وهو أن يصطحب معه إلى الأبدية صديقاً يختاره . فأخذ الرجل يطلب المزاملة فى هذه المغامرة العظيمة ، ولكن من طلب مزاملته يعتذر عن نفسه بشجاعة قائلا :

« إن كنت ستتناول الطعام ، وتحتسى الشراب وتبتهج ،
أو تغنم معا صحبة المرأة الشهية ،
فإننى لا أتركك . . . .
فيجيبه كل إنسان : إذاً فتعال معى فى رحلتى الطويلة .
الزميل : قسما بإيمانى ، لن أذهب معك الآن .
إلا إذا قتلت رجلا : وأزهقت روحه ،
عند ذاك أعاونك صادقاً » .

فالتجأ كل إنسان إلى قريبه ، إلى ابن عمه ، الذى رفض الدعوة بحجة « أننى مصاب بتقلص فى أصبع رجلى » . فناشد الرجل ، الفضل لمعاونته ، ولكنه كان حبيساً ليست عنده الحرية لتقديم أى مساعدة . فتوسل الرجل آخر الأمر بالمآثر فابتهجت ، لأنه لم ينسها تمام النسيان ، فقدمته إلى المعرفة ، التى قادته إلى الاعتراف ، الذى طهره . ثم هبطت المآثر معه إلى قبره ، ورحبت أناشيد ملائكية بدخول الآثم المطهر إلى الجنة .

ولقد انتصر المؤلف فى معظم الأحيان — ولا تقول انتصر تماماً — على قالب درامى عصى . فإن تشخيص صفة من الصفات ، لا يمكن أن يكون لها من الوصف ما للشخص ، ذلك لأن كل إنسان عبارة عن تناقض مركب متفاعل ، وهو فريد إلا إذا كان واحداً من جماعته ، والفن العظيم يجب أن

يصور العام عن طريق الخاص كما فى هاملت أو كيخوته ، أو أديب أو بانبرج واحتاجت التجربة والعبقرية قرناً آخر ، لكى تحول المسرحية الأخلاقية الفاترة ، إلى المسرحية الإليزابيثية ، التى تصور ، الإنسان المتغير إلى ما لا نهاية .

والحادث الأدبى العظيم فى انجلترا إبان القرن الخامس عشر ، إنما هو إنشاء أول مطبعة انجليزية . ولقد هاجر وليم كاكستون ، المولود فى كنت إلى بروجس للتجارة . وترجم فى أوقات فراغه عن الفرنسية ، مجموعة من القصص الخيالى الفرنسى . وطلب أصدقاؤه نسخاً من هذه المجموعة ، فكان ينسخها لهم بنفسه ، ولكنه يخبرنا بأن يده «كلت ولم تعد تستطيع الكتابة الكثيرة بسرعة » . وعشيت عيناه من النظر الطويل على الورق الأبيض . ولعله رأى فى زياراته إلى كلونيا ، إنشاء المطبعة هناك (١٤٦٦) على يد أولرتش زل ، الذى تعلم هذا الفن الجديد فى مينز . وأسس فى عام ١٤٧١ كولاردمانسيون ، مطبعة فى بروج ولجأ كاكستون إليها ، باعتبارها وسيلة لإخراج نسخ كثيرة من ترجمته . وفى عام ١٤٧٦ عاد إلى إنجلترا وأنشأ بعد ذلك بسنة فى وستمنستر الحروف — ولعلها المطابع — التى أحضرها معه من بروج . وكان قد بلغ إذ ذاك الخامسة والخمسين من عمره ، ولم يبق له من حياته سوى خمس عشرة سنة ، بيد أنه طبع فى هذه الفترة ثمانية وتسعين كتاباً ، ترجم أكثرها بنفسه عن اللاتينية أو الفرنسية . وكان لاختياره عنوان كتبه ، ولأسلوب مقدماته الطريف الخلاب ، طابع لا يمحى على الأدب الإنجليزى . ولما توفى (١٤٩١) تابع زميله الإلزاسى وينكين دى ورد هذه الثورة .

ولقد حقق كاكستون ونشر عام ١٤٨٥ نصاً من أروع نصوص النثر الإنجليزى وهو — التاريخ الشريف للملك ارثر وعدد معين من فرسانه . وكان مؤلفها العجيب قد مات وربما كان ذلك فى السجن — قبل ذلك بحوالى ست عشرة سنة . فلقد خدم السير توماس مالورى ، فى حرب المائة سنة ،

كواحد من حاشية ريشارد دى بوشان أمير وروك ، ومثل وروك فى برلمان عام ١٤٤٥ ، ولما شعر بالوحدة فى أجازة الحرب ، اقتحم دار هيوسمث ، واغتصب زوجة الرجل ، وسلب بالإكراه مائة شلن من مارجريت كنج ووليم هيلز ، ثم اقتحم دار هيوسمث مرة أخرى واغتصب زوجته ثانية ، وسرق سبع بقرات وعجلين وخمساً وثلاثين وثلاثمائة من الغنم ، وانتهب كنيسة الرهبان البندكتيين فى كومب مرتين ، ووضع فى غياهب السجن مرتين . ويبدو من غير المعقول أن يؤلف مثل هذا الرجل ، تلك الأغنية الرقيقة التى تترنم بالفروسية الإنجليزية وهى التى نسميها الآن « موت الملك آرثر » ، وبعد أن اشتد الخلاف ، حول مؤلفها قرناً من الزمان ، أصبح من المجمع عليه أنها من تأليف السير توماس مالورى إبان سجنه .

وأخذ معظم القصص من الروايات الفرنسية عن الأساطير المتعلقة بالملك أرثر ، فرتبها فى سياق مقبول ، وصاغها بأسلوب محبب خلاب . وأصدرها لطبقة أرستقراطية تفقد ماضى فروسيتها من فظائع الحرب وأهوالها ، ودعا من أجل ذلك إلى العودة إلى القيم العليا التى اتسم بها فرسان الملك أرثر متناسياً مظالمهم ومظالم نفسه . ومل أرثر الفسق والفجور فاستقر مع صاحبته الجميلة الجريئة جينفير ، وحكم انجلترا — بل كل أوروبا فى الحقيقة — من عاصمته فى كاميلون (ونشستر) وطلب إلى فرسان مائدته المستديرة المائة والخمسين أن يقطعوا على أنفسهم عهدا : « ألا ينتهكوا حرمة أو يقتلوا نفساً . . . وألا يكونوا غلاظاً بأى حال من الأحوال ، وأن يرحموا من يطلب الرحمة . . . وأن يغيثوا النساء الضعيفات ، ولو واجهوا الموت دون ذلك .

والحب والحرب هما الموضوعان الممتزجان فى كتاب يردد وقائع فرسان لا ضريب لهم ، من أجل سيدات وفتيات يفقن الوصف جمالا وفتنة وكان تريسترام ولانسيلوت يجعلان من كل من ملوكهما ديوثاً ، ولكنهما يمثلان رغم ذلك الشرف والشجاعة . ولما التقيا وقد تحصن كل منهما

بالدرع والخوذة واللامة ، تبارزا ، وقد اختفت شخصية كل منهما أربع ساعات حتى كل سيفاهما وثلما .

ثم انبرى لانسيلو آخر الأمر قائلا : أيها الفارس ، إنك تبلى فى النزال ، بالبلاء الحسن كأعظم ما رأيت من الفرسان ، لذلك أطلب إليك أن تتفضل فتخبرنى باسمك . فأجاب تريسترام : سيدى لقد أقسمت ألا أبوح باسمى لأحد . فقال سيرلانسيلو ، الحق أنى إذا طلبت فلا يحول قسم بينى وبين البوح باسمى . فقال سير تريسترام ، أحسنت ، ولذلك فأنا أطلب إليك أن تبوح باسمك . فقال : أيها الفارس الوسيم ، إن إسمى سير لانسيلو دى ليك . فقال : سير تريسترام : يا عجبا ، ما الذى فعلت ؟ فأنت أحب رجال العالم إلى . فقال السير لانسيلو أيها الفارس الوسيم ، أخبرنى باسمك . فأجاب حقاً ، إن اسمى سير تريسترام دى ليون . فقال سير لانسيلو ، يا للمسيح ، أى مغامرة مرت بى . . وهنا ركع سير لا نسيلو وسلمه سيفه . وهنا ركع سير تريسترام بدوره وسلمه سيفه . . . . واصطحبا إلى الصخرة ، وجلسا عليها وخلعا خوذتيهما . . . . وقبـــل كل منهما الآخر مائة مرة » .

وأى قفزة هذه ، من تلك المملكة الخيالية ، التى لا يعمل فيها أحد من أجل العيش . . كل النساء فيها « منعمات » إلى مادة الواقع الحقيقى إلى رسائل باستون وهى تلك الرسائل الحية التى جمعت أسرة مفرقة على الحب والمال فى انجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ! ونحن نجد هنا جون باستون ، الذى مارس القانون فى لندن أو ضواحيها ، فى حين أخذت مارجريت تربى أطفالها وتدير أملاكه فى نوروتش ، إن نفسه كلها للعمل وهو جاد ، لاذع نزاع إلى المنافسة ، أما هى فكلها استسلام ، زوجة متواضعة ، نادرة ، شديدة الحياء ، ترتعد لمجرد التفكير فى أنها أساءت إليه . وهكذا كان آل جنيفر فى صميم العالم الواقعى . ومع ذلك فنحن نجد هنا أيضاً العواطف الرقيقة ، والهموم المشتركة بل الخيال ، وتعترف مارجريت

بروز لسير جون باستون الثانى انها تحبه ، وانها تأسف ، لأن الصداق ، الذى تستطيع أن تقدمه له ، أقل بكثير من مكانته ، « ولكن إن كنت تحبنى ، كما أثق أنك حقاً كذلك ، فإنك لن تتركنى لهذا السبب » وهو الذى آلت إليه ثروة آل باستون ، فيتزوجها على الرغم من اعتراض أهله ، ويموت فى غضون سنتين . وهكذا نجد قلوباً رقيقة ، تحت السطح الجافى لهذا العصر المضطرب .

٧ – الإنسانيون الإنجليز

يجدر بنا ألا ندهش من أن وفرة الدراسة للكلاسيات فى إيطاليا لعهد كوزيمو ولورنزو دى مدتشى ، لم تثر إلا صدى ضئيلا فى إنجلترا ، التى كان تجارها لا يعبأون بالأدب إلا قليلا ، والتى كان نبلاؤها لا يخجلون من أميتهم على الرغم من ثرائهم . ورأى السير توماس مور : فى مطلع القرن السادس عشر أن أربعين فى المائة من الشعب الإنجليزى فقط يستطيعون القراءة . وكانت الكنيسة ، والجامعات التى تسيطر عليها ، هى التى ترعى الدارسين وحدها . وإلى إنجلترا يرجع الفضل فى أن رجالا أمثال جروسين وليناكر ولاتيمر وكوليت : استطاعوا ، فى هذه الظروف ، وتحت وطأة الحرب المدمرة الضارية ، أن يقبسوا من الشعلة الإيطالية : وأن يحملوا قدراً كافياً من ضوئها وحرارتها إلى إنجلترا ، فيجعل ذلك رجلا مثل أرازمس الحكم الفيصل فى الأدب يشعر بأنه فى وطنه عندما هبط الجزيرة عام ١٤٩٩ . ووقف الإنسانيون أنفسهم ، على دراسة الثقافتين الوثنية والمسيحية على السواء ، فأنكرتهم قلة غير ناضجة من « الطروادين » الذين خافوا أن يأتى هؤلاء اليونان « بالنفائس من إيطاليا ، ولكنهم وجدوا من يدافع عنهم بشجاعة ومن يصادقهم بين أكابر رجال الكنيسة ، أمثال وليم الوينفليتى ، أسقف ونشستر ووليم ورهام رئيس أساقفة كانتربرى وجون فيشر ، أسقف

روشستر ، وفيما بعد توماس كاردينال وُلْسى ، رئيس قضاة إنجلترا .

واستشعر بعض الدارسين من الإنجليز ، منذ زيارة مانويل شريسو لوراس ، (١٤٠٨) لإنجلترا بحمى لا يطفئها فى نظرهم غير الرحلة إلى إيطاليا للدراسة أو المجون ، ولقد عاد همفرى ، دوق جلوسستر ، من إيطاليا ، مغرماً بالمخطوطات ، وجمع مكتبة ، أثرت فيما بعد ، مكتبة بودليان . ودرس جون تيتوفت ، إيرل ورسستر ، على جوارينو الفيرونى فى فيرارا وجون أرجيرو بولوس فى فلورنسه . ثم عاد إلى إنجلترا وبين يديه من الكتب أكثر مما فى نفسه من الفضائل . ودرس الراهب وليم تيلى من عام ١٤٦٤ — ١٤٦٧ فى بادوا وبولونيا وروما ، وأحضر معه كثيراً من الآثار الكلاسية ، ثم أخذ يدرس اللغة اليونانية فى كانتربرى .

وكان توماس ليناكر أحد تلاميذه المتحمسين هناك . ولما عاد تيلى ، (١٤٨٧) إلى إيطاليا ، اصطحبه ليناكر معه ، وظل اثنى عشرة سنة . ودرس فى فلورنسه على بوليتيان وشالكوندِ يليز وحقق كتباً يونانية لالدس مانوتيوس ، وعاد إلى إنجلترا متبحراً فى فروع مختلفة من المعرفة ، حتى استدعاه الملك هنرى السابع ، ليؤدب آرثر ، أمير ويلز . وأوجد مع جروسين ولاتيمر فى اكسفورد « حركة اكسفورد » لإحياء اللغات والآداب القديمة ، فألهمت محاضراتهم جون كولت وتوماس مور ، واجتذبت أرازمس نفسه . وكان ليناكر أشهر الإنسانيين الإنجليز ، يجيد اللغتين اليونانية واللاتينية ، وترجم جالينوس ، وارتقى بالطب العلمى ، وأسس الكلية الملكية للأطباء وأوقف ثروته على تمويل كراسى أستاذية الطب فى اكسفورد وكمبردج . وقال أرازموس ، إن الفضل يرجع إليه ، فى أن الدراسة الجديدة ، بلغت من الاستقرار فى بريطانيا ، حظاً لا يحتاج معه أى إنجليزى إلى أن يرحل إلى إيطاليا فى سبيل العلم .

وكان وليم جروسين قد بلغ الأربعين عندما انضم إلى ليناكر فى فلورنسه . فلما عاد إلى انجلترا عام ١٤٩٢ ، استأجر غرفاً فى كلية أكستر وفى أكسفورد وكان يحاضر عن اللغة اليونانية ، على الرغم من احتجاج المحافظين الذين كانوا يرتعدون خشية ، أن تقضى النسخة اليونانية الأصلية للعهد الجديد على ترجمة جيروم اللاتينية الشائعة وهى التى ظلت الحجة ألف سنة . ولكن جروسين أكد من جديد ، أنه صحيح المعتقد ، مستقيم إلى حد التزمت . ولم ينشأ فى نفس الإنسانيين الإنجليز أى عداء للمسيحيين حتى العداء المضمر الخفى ، كما حدث لبعض الدارسين فى عصر النهضة الإيطالية ، ولقد حرص هؤلاء الإيطاليون على التراث المسيحى ، وجعلوه مقدماً على جميع عناصر التربية العقلية ، ولم يجد أشهر هؤلاء ، حرجاً من تولى منصب نائب مطران كنيسة سانت بول .

ولقد كان جون كولت أكبر أبناء سير هنرى كولت ، وهو تاجر غنى أنجب اثنين وعشرين طفلا وتولى منصب عمدة لندن مرتين . وفى اكسفورد مست الشاب ، جذوة الإنسانيين من ليناكر وجروسين « فالتهم بشغف » كتب أفلاطون وأفلوطين وشيشيرون ورحل عام ١٤٩٣ إلى فرنسا وإيطاليا ، وقابل ارازمس وبوديه فى باريس ، وتأثر بسافونارولا تأثراً عميقاً فى فلورنس ، وهاله نزق الكرادلة والبابا اسكندر السادس وتحررهم فى روما . ولما عاد إلى انجلترا ، ورث ثروة أبيه ، وأصبح من اليسير عليه أن يحرز مكانة مرموقة فى السياسة ، ولكنه آثر حياة الدرس فى أكسفورد وتجاهل التقليد القديم الذى يجعل تدريس علوم الدين وقفاً على القساوسة وأخذ يحاضر أهل روما عن إنجيل القديس بولس ، فأحل النقد والشرح للنص الشائع ،

محل الحذلقة والجدل ، وانتعشت جماهيره الغفيرة بطرافة منهجه ، وبتركيزه على الحياة الفاضلة باعتبارها أسمى علوم الدين ، ولقد وصفه أرازموس الذى رآه فى أكسفورد عام ١٤٩٩ ، بأنه قديس تغرية الشهوة والترف دائماً ، ولكنه « احتفظ بزهرة عذرته إلى وفاته » واحتقر الحياة اليسيرة التى يعيشها الرهبان فى زمانه ، وأوصى بثروته للأعمال الدينية والخيرية .

وكان يمثل معارضة الكنيسة مع ولائه لها ، فقد أحبها على الرغم من أخطائها . وتساءل عن الصدق الحرفى لسفر التكوين ، ولكنه قبل القول بأن الكتاب المقدس منزل بالوحى . وسبق المصلحين الدينيين بتأكيده صحة الكتب المقدسة على روايات الكهنوت وأشكاله ، ورفضه أن تكون الفلسفة المدرسية للقرون الوسطى ، المزيج العقلى المخفف للمسيحية البسيطة ، وشكه فى قدرة القسس على التطهير بالاعتراف ، ووجود المسيح بالفعل فى القربان ، وفى استنكار الحياة الدنيوية التى يعيشها رجال الدين :

« لو أن الأسقف الأكبر ، الذى نسميه البابا . . . كان أسقفا بحق ، لما فعل شيئاً بنفسه ، ولكن الله فيه هو الذى يفعل . فإن حاول شيئاً بنفسه ، فإنه يكون نافث سم . . . . لقد حدث هذا كثيراً بالفعل منذ سنوات طوال ، وازداد فى هذه الأيام زيادة كبيرة ، حتى سيطر على جميع أعضاء الكنيسة المسيحية ، وإذا لم يقبض المسيح بيده على كنيستنا الممعنة فى الاضطراب فإنها تشرف على الموت . . . . . ، إن أولئك القساوسة اليائسين ، الذين يوجد منهم فى هذا العصر كثرة هائلة ليترددون فى الفجور الشنيع ، فهم لا يخشون الخروج من بطن بغى حقيرة إلى هيكل الكنيسة وإلى مذبح المسيح وإلى الأسرار الإلهية . . ولسوف تحل عليهم نقمة الله فى يوم من الأيام .

وفى عام ١٥٠٤ نصب كولت نائباً لمطران كنيسة سانت بول ، ومن هذا المنبر الرفيع عارض بيع مناصب الأسقفية ، والفساد الناجم عن قوامة رجل واحد على موارد كنائس متعددة . وأثار بآرائه هذه معارضة عنيفة ، ولكن ورهام كبير الأساقفة ، عمل على حمايته . وكان ليناكر وجروسين ومور ، قد استقروا وقتذاك فى لنـــدن وقد برئوا من جمود أكسفورد وتعصبها للقديم ؛ وشحذت عقولهم زيارات أرازموس وسرعان ما حظوا بتأييد الملك هنرى الثامن . وبدا أن كل شيء ممهد لنهضة إنجليزية ، ستتحرك مصطحبة ، إصلاحاً دينياً سلمياً .

الفصل السادس

حادثة في برجنديا

١٣٦٣ — ١٥١٥

١ — الدوقية الملكية

استطاعت برجنديا ، بفضل موقعها على الجناح الشرقى لفرنسا حول ديجون ، وبفضل السياسة الرشيدة لدوقاتها ، أن تخرج من حرب المائة عام دون أن تصاب إلا قليلا ، حتى أصبحت أكثر البقاع ازدهاراً ، فى العالم المسيحى وراء الألب . ولما انقرضت الأسرة الدوقية البرجندية من آل كابيتان ، وعادت الإمارة إلى التاج الفرنسى ، منحها جون الثانى إلى رابع أبنائه فيليب (١٣٦٣) مكافأة له على شجاعته فى مقاطعة بواتييه . ولقد أحسن ، فيليب الجسور ، تدبير الأمور فى برجنديا ، إبان الإحدى والأربعين سنة التى لبثها دوق لبرجنديا ، وكان زواجه سياسياً إلى حد كبير ، حتى دخلت فى حكمه هانو وفلاندرز وأرتوا وفرنش — كونته وأصبحت دوقية برجنديا التى كانت من الناحية الاصطلاحيـة ، ولاية فرنسية ، دولة مستقلة ، غنيت بالتجارة والصناعة الفلمنكيتين ، ونعمت برعاية الآداب .

ومد جون الذى لا يخاف ، سلطانه بوساطة شبكة دقيقة من المحالفات والدسائس ، إلى نقطة الانفجار ، وأحست فرنسا أنها لا بد أن تقاوم التحدى . وكان لويس ، دوق أورليان ، يحكم فرنسا نيابة عن أخيه المجنون شارل السادس ، فعقد محالفة بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فى خطة تقضى بالوقوف فى وجه الدوق الذى لا يخاف إلى حد التهور . استأجر لويس جماعة من المغتالين قتلوا جون ، فأعقب ذلك صراع عنيف

بين الحزب البرجندى والحزب الأرمنياكى — وهم أنصار حمى لويس كونت أرمنياك — من أجل السيطرة على السياسة الفرنسية ، ومات جون بلدوره مقتولا بطعنة خنجر من يد مغتال (١٤١٩) . وأنكر ابنه فيليب الطيب كل سبب من أسباب الولاء لفرنسا ، وعقد محالفة بين برجنديا وانجلترا ، وضم تورناى ونامور وبرابانت وهولنده وزيلند ، ولمبرج واوفان : ولما عقد الصلح مع فرنسا) ١٤٣٥ (فرض الاعتراف بالسيادة العملية لدوقيته ، والتنازل عن لكسمبرج ، وليج وكامبراى واترخت . وبلغت برجنديا إذ ذاك أوجها ، منافسة فى الثروة والسلطان أية مملكة من ممالك الغرب .

وأغلب الظن أن فيليب لم يكتسب لقب « الطيب » من القلوب الطيبة . ذلك لأنه لم يكن يترفع عن الغدر والقسوة وسورة الغضب الأهوج . بيد أنه كان ابناً وفياً ، وإدارياً بارعاً وأبا محباً حتى لأبنائه الستة عشر غير الشرعيين. وكان كغيره من الملوك شغوفاً بالنساء له أربع وعشرون خليلة ، ويصلى ويصوم ويتصدق ، وجعل عواصمه — ديجون وبروجس وجنت —مراكز الإشعاع الفنى للعالم الغربى خارج إيطاليا . وأتاح حكمه الطويل لبرجنديا وولاياتها ، من أسباب الترف ، ما جعل رعاياه يتسامحون معه ولا يذكر أخطاءه إلا القليل منهم وتمردت المدن الفلمنكية على حكمه ، وتحرقوا شوقاً لرؤية تحول ، منظماتهم النقابية القديمة وحرياتهم الإقليمية ، إلى اقتصاد قومى ، فى ظل حكومة مركزية . وسحق فيليب وابنه شارل ثوراتهم ، ولكنهما سمحا لهم بترضية سلمية ، لأنهما أدركا أن أعظم موارد الأمارة إنما تستمد من صناعة هذه المدن وتجارتها وليس من شك أن مناطق الرين السفلى ، قبل فيليب كانت تختلف فى النظم الاجتماعية وشئون السياسة ، باختلافها فى العنصر ولغة الحديث ، فضمها فى دولة موحدة ، وأقر فيها النظام ، وأعان على ازدهارها .

وأصبح المجتمع البرجندى فى بروجس وجنت وليج واوفان وبروكسل ودجون (١٤٢٠ — ١٤٦٠) إذ ذاك أكثر المجتمعات فى أوربا صقلا واجتذاباً للقلوب ، لا نستثنى من ذلك فلورنسا المعاصرة التى كان يحكمها كوزيمو دى مدتشى . فقد احتفظ أمراء الدوقيات بجميع مظاهر الفروسية ، وفيليب الطيب هو الذى أنشأ نظام خبرة الصوف الذهبية (١٤٢٩) ، ويعود بعض الفضل إلى البرجنديين أحلاف إنجلترا ، فى اتخاذها أبهة الفروسية وبريقها وهذه الفروسية هى التى صقلت السطح الخشن للطباع الإنجليزية ، وأسبغت المجد على وقائع هنرى الخامس ، وبرزت فى صفحات فرواسارت وماأورى . ولما تجرد النبلاء البرجنديون من السلطان المستقل ، عاشوا فى الحاشية أفراداً وأظهروا جميع أمارات الشرف وأبرزوا فى الرداء والحلى كل ما يزين التطفل والفجور . وأخذ التجار والصناع يحاكون حاشية الملك فى الزى وكانوا يطعمون ويلبسون زوجاتهم كأنما يهيئون المشهد لروبنز . وغدا الاكتفاء بالزوجة الواحـــدة فى ظل دوق محب مثله خيانة كبرى للملك أو الحكومة . ولقد أنجب جون الهينزبرجى المرح أسقف ليج ، اثنى عشر ابن سفاح . وكان لجون البرجندى أسقف كامبراى ، ستة وثلاثون ابنا وحفيدا خارج نطاق الزواج ؛ وهكذا ولد كثير من علية القوم فى ذلك العصر ، الشىء الذى كان يعمل على تحسين النسل . وكان من اليسير أن توجد البغايا فى كل وقت وبأى ثمن فى الحمامات العامة . وزعمن فى لوفان أنهن صاحبات مساكن ، يؤجرنها للطلبة ، وكانت الحفلات كثيرا ما تتسم بالبذخ ، واستخدم فنانون مشهورون فى تصميم المناظر وإعداد الأنوار ، وكان الناس يعبرون الحدود والبحار ليشاهدوا المناظر الفخمة تمثل فيها النساء العاريات أدوار الربات والجنيات القديمات .

٢ – الروح الدينى

ونجد مقابل هـــذا المجتمع الثائر القديسين والمتصوفة ، الذين أعطوا هولندة ، فى كنف أولئك الدوقات مكانة رفيعة فى التاريخ الدينى . فقـــد اعتزل القسيس جان فان ريسبرويك منصبه فى بروكسل وهوفى الخمسين من عمره (١٣٤٣) وأوى إلى دير أوغسطينى فى جروينندايل ، بالقرب من واترلو ،حيث وقف نفسه على التأملات والتآليف الصوفية . وصرح بأن « روح القدس » هى التى كانت تهدى قلمه ، ومع ذلك فإن مذهبه فى الحلول كاد ينكر خلود الفرد .

« فإن الله ذاته ، يحل مع الأبرار ، فى غيبوبة الكيفيات . . . وهو فناء أبدى للنفس . . وتحصل الدرجة السابعة ، عندما نكشف وراء كل المعرفة أو وراء العارف بكل شىء ، فى أنفسنا لا عارف ليس له قرار . وعند ما نتجاوز جميع الأسماء التى لله أو الكائنات ، فإننا نحتضر ، ونتحول إلى لا إسمية أبدية ، حيث نفقد أنفسنا . . . .

ونتأمل جميع هذه الأرواح المبرورة ، التى فنيت ودخلت وغابت فى جوهرها الإسمى ، فى ظلام غير معروف بلا كيفية » .

ولقد شهدت الأرض الواطئة[1] وولاية الراين الألمانية ، وفرة من جماعات غير دينية – البيجارديين والبيجوينيين وإخوان الروح الحر – أثمرت أحوالها الصوفية غالباً التقوى والخدمة الاجتماعية والسكينة والسلم وأدت أحياناً إلى إنكار الأسرار المقدسة على أساس أنها غير ضرورية ، وإلى الرضى عن الخطيئة أحياناً لأنها ستفنى بالاتحاد فى الله . وتلقى جبريت (أو

---

(١) تستعمل الأرض الواطئة أو المنخفضة فى هذا الكتاب بدلا لوطا الأصل لتدل بالتقريب على ما يشمل بلجيكا وهولندة الحديثتين .

جريت أو جيرار) جروت الدفنترى ، قدراً صالحاً من العلم فى كولونى وباريس وبراغ ، ثم امضى فترة طويلة فى صحبة « ديزبرويك » فى جروبندايل ، وكان أثره فيه عظيما جعله يرى أن حب الله هو الغاية فى حياته . وبعد أن رسم شماساً (١٣٧٩) بدأ يلقى عظاته فى مدن دولنده ، باللهجة العامية ، إلى جماهير ضاقت بهم الكنائس المحلية وكان الناس يتركون أعمالهم وطعامهم ليستمعوا إليه . وكان أرثوذكسى المذهب فى تزمت ، ويعد نفسه « مطرقة على رؤوس الهراطقة » فهاجم على الرغم من ذلك التحالل الأخلاقى الذى غلب على رجال الدين والمدنيين على السواء وطالب بأن يلتزم المسيحيون بدقة أخلاقيات المسيح . . فاتهم بالهرطقة ، وسحب أسقف أترخت ، حق جميع الشمامسة فى الوعظ ، وأصدر أحد أنصار جروت وهو فلورس رد يوجمنزون Radewijnszoon ، قاعدة شبه رهبانية — شبه شيوعية « لإخوان الحياة العامة » الذين عاشوا فى أخوة مدينة ديفنتر وعلى رأسهم جروت ، وهم الذين شغلوا أنفسهم بالوعظ — دون أن يحصلوا على مراسيم الرهبانية — وتقضى هذه القاعدة بأن يقوموا بالعمل اليدوى والتعليم والعبادات ونسخ المخطوطات . . . ومات جروت فى الرابعة والأربعين من عمره (١٣٨٤) بالجدرى ، أصابته عدواه وهو يمرض صديقاً له ، ولكن أنصاره مدوا سلطانهم عن طريق مائتى شعبة لإخوان فى هولنده وألمانيا . وجعلت مدارس هؤلاء الإخوان للآثار الكلاسية الوثنية ، مكاناً بارزا فى مقدراتها ، فمهدت بذلك السبيل لمدارس اليسوعيين الذين واصلوا عمل مدارس الإخوان فى الإصلاح الدينى المعارض . ولقد رحب هؤلاء الإخوان بالطباعة بعد ظهورها مباشرة ، واستعملوها فى نشر « عباداتهم الحديثة » وكان اسكندر هيجويز فى ديفنتر (١٤٧٥ — ١٤٩٨) مثالا لا ينسى للطلاب المجددين فى ذلك العصر فهو « المعلم القديس الذى يقف حياته على إرشاد تلاميذه وهدايتهم أخلاقياً فأصلح المقرر الدراسى ، وركزه حول

الآثار الكلاسية ، واكتسب ثناء إيرازمس على صفاء أسلوبه اللاتيني ولما توفى لم يترك شيئاً غير ملابسه وكتبه ، ذلك أنه وهب كل شيء سواها للفقراء سراً . ونجد بين طلاب العلم الذين نبغوا في ديفنتر نيقولاس أكوساوي ،أرازموس ورودلف أجريكولا وجان دى جرسون ومؤلف كتـاب « محاكاة المسيح » .

ولسنا نعرف على التحقيق من الذى ألف هذا الكتيب الشائق عن التواضع . ولعله توماس هموكن من مدينة كمبن Kampen من أعمال بروسيا . ولقد جمع فى سكينة خلوته بدير سانت اجنس بالقرب من زول ، (١٣٨٠ — ١٤٧١) من الكتاب المقدس ومن أقوال آباء الكنيسة ، ومن عبارات القديس برنارد شارحاً التجرد من الدنيا بالتقوى ، كما تصوره ويسبرويك روجروت وأعاد صياغة هذا كله فى لغة لاتينية وشيقة سهلة .

« ما الذى يجديك فى أن تشغل نفسك بجدل عميق فى الثالوث ؛ إن كنت مجردا من التواضع ، ومكروها من الثالوث ؟ والحق ، أن الكلمات السامية لا تجعل الإنسان مقدما عادلا ، بيد أن الحياة الفاضلة هى تجعله أثيرا عند الله . وإنه لخير لى أن أحس وخز الضمير من أن أحفظ الكتاب المقدس وأقوال الفلاسفة جميعهم فما الذى يفيدك ، إن افتقرت إلى حب الله وإلى فضله ؟ باطل الأباطيل والكل باطل ، سوى أن تحب الله ، وألا تخدم إلا إياه . وأسمى مراتب الحكمة ، أن تحتقر الدنيا وتتجه إلى مملكة السماء — ومع ذلك فلا تثريب على التعلم . . . . لأنه حسن فى ذاته كما أن الله قد أمر به ، ولكن الضمير الصالح والحياة الفاضلة مفضلان على الدوام .

العظيم بحق هو من يحمل فى قلبه حبا عظيما . والعظيم بحق هو الصغير فى نظر نفسه ، الذى لا يأبه برفعة الشرف . والحكيم بحق هو الذى يطرح جانبا جميع الأشياء الأرضية باعتبارها روثا ، حتى يغنم صحبة المسيح .

اهرب عن صخب الناس بأسرع ما تستطيع ، لأن معالجة الأمور

الدنيوية عائق عظيم . والواقع أن من التعاسة أن نعيش على هذه الأرض ... وأنه لأمر عظيم أن نلتزم الطاعة فى الحيـــاة ، وأن يكون فوقنا رئيس ، وألا نكون مخيرين بمشيئتنا . وأمن لنا أن نطيع من أن نحكم . . . وبذلك تبدو الصومعة التى نسكنها جميلة .

وفى « محاكاة المسيح » بلاغة رقيقة ، تعكس البساطة العميقة لعظات المسيح وأمثاله . وهو رادع ضرورى دائم لما فى العقل الرخو والسفسطة الجوفاء من غرور ذهنى . فنحن عندما نكل من مواجهة أعباء حياتنا فإننا نعتصم بالإنجيل الخامس لتوماس اكمبيس . ولكن من ذا يعلمنا ونحن فى خضم العالم وأعاصيره كيف نكون مسيحيين ؟

٣ – برجنديا المشرقة ١٣٦٣ ـ ١٤٦٥

أخذت الولايات الخاضعة للحكم البرغندى على الرغم من أمثال هذه الاستغفارات التوماسية ، تنغمس فى نشاط عقلى ملحوظ . فلقد جمع الدوقات أنفسهم – وفيليب الطيب أكثرهم فى ذلك ـ المكتبات وشجعوا الأدب والفن . وكثرت المدارس ، وسرعان ما أصبحت جامعة لوفان التى أسست عام ١٤٢٦ ، مركزا من مراكز التعليم فى أوربا . ولقد سرد جورج كاستيلان فى « تاريخ دوقات برجنديا » تاريخ الدوقية فى كثير من البلاغة الناصعة وقليل من الفلسفة ، وإن كان قد عرضه بلغة فرنسية قوية ، فأسهم به مع فرواسار وكومين فى إيجاد تلك الوسيلة المحببة من النثر الواضح الرشيق . وأقامت جماعات خاصة ، قاعات للخطابة للتدرب على الخطابة والشعر وتمثيل المسرحيات . وتنافست لغتا المملكة ـ الفرنسية أورومانسية الوالون فى الجنوب واللهجات الألمانية التى كان نتكلم بهـــا الفلمنكيون والألمان فى الشمال ـ فى إظهار الشعراء ، الذين أسدل النسيان عليهم ستاره .

وكان التعبير الأرفع للدوقية يتجسم فى الفن . وبدأت أنتورب عام

١٣٥٣ كاتدرائيتها الكبيرة ذات الممرات الكثيرة وأتمتها عام ١٥١٨ » وشيدت لوفان كنيسة سانت بيير الجميلة فى تناسبها - وهى ضحية أخرى للحرب العالمية الثانية . وكان الناس والمدن من الغنى بحيث أصبح من المستطاع أن يقدموا القصور ومبانى البلديات ، فى البهاء نفسه الذى كان يشيد به الكنائس لله . واتخذ الأساقفة الذين حكموا لييج ، لأنفسهم ورجال إدارتهم ، سكنا فى أعظم قصر وأجمله فى الأرض المنخفضة . وأنشأت جنت دارها النقابية عام ١٣٢٥ . وبروكسل قاعة بلديتها فى عام ١٤١٠ - ١٤٥٥ ولوفان من عام ١٤٤٨ - ١٤٦٣ ، وأضافت بروجي دار بلديتها بين عامى ١٣٧٧ ، ١٤٢١ ، وتوجتها ببرج ناقوس عالمى الشهرة ١٣٩٣ - ١٣٩٦) الذى استخدم كمعلم من المعالم للملاحين الضاربين بعيداً فى البحر . وبينما عبرت هذه المبانى القوطية النبيلة عن كبرياء المدن والتجار ، فقد أنفق الدوقات وأفراد الطبقة الأرستقراطية الأموال على تزويد قصورهم وقبورهم بضروب كثيرة ناصعة من النحت والتصوير والزخرفة الخطبة . ولما كان الفنانون الفلمنكيون ، قد أخافتهم الحرب من فرنسا ، فقد تزاحموا عائدين إلى مدنهم . وحشد فيليب الجسور نجوما ساطعة من العبقريات ، ليزين مقره الصيفى فى شارتريز دى شامبمول - وهو دير أرتوزى فى الحقل الهادى المجاور لريجون .

وأوفد فيليب عام ١٣٨٦ چان دى مارفى ، لكى يصمم له ضريحا فى شارتريز . ولما توفى مارفى (١٣٨٩) أتم عمله كلوز ساوتر الهولندى ، ولما توفى ساوتر بدوره (١٤٠٦) واصل العمل تلميذه كلوز ، وانتهى الضريح آخر الأمر (١٤١١) فاستقبل رفات الدوق ، الذى كان قد مات ، قبل ذلك بسبع سنوات . وفى عام ١٧٩٣ أمر مجلس ثورى فى ريجون بهدم الضريح العظيم ، فنثر حطامه أو أتلف . وفى عام ١٨٢٧ ، جمع رجال الدين فى المقاطعة ، بعد أن تنفسوا نسيم الحـرية ، القطع الباقية منه

وأودعوها متحف ريجون . ورقد الدوق وزوجته الدوقة مارجريت أميرة فلاندرز فى تابوت مرمرى جميل على منصة ضخمة من الرخام ، وتحتهما رسوم أربعين شخصا يبكون — وهى التى بقيت وحدها من النقوش التسعين — موت الدوقين فى حزن صامت رائع . أما باب الكنيسة فى شارتريز فإن سلوتر وتلاميذه (١٣٩١ — ١٣٩٤) نقروا خمسة رسوم فاخرة . العذراء تتلقى ولاء فيليب ومارجريت ، يقدمها إليها يوحنا المعمدان وكاترين القديسة الاسكندرية . وأقام سارتر فى الصحن أروع أعماله وهو بئر موسى — وهى قاعدة تحمل تماثيل لموسى وداود وارميا وزكريا واشعيا ودنيال ، وفوقها مشهد الصلب ، ولم يبق منه إلا رأس نبيل مهموم للمسيح تتوجه الأشواك . ولم تشهد أوربا مثل هذا النحت الذى تبدو فيه القوة الفائقة والجرأة الفريدة ، منذ أزهى عصور الفن الرومانى .

وكانت للمصورين دولة عظيمة كالمثالين . وظل رسامو المنمنمات يحظون برعاية الكبراء . . فلقد دفع كونت وليام أمير هانو ، بسخاء من أجل تزيين « أجمل صلوات العذراء » (حوالى ١٤١٤)(*) . ووضع عبقرى مجهول (لعله هوبير فان ايك) نموذجا ومستوى لألف رسام من الأرض الواطئة للمناظر الطبيعية وذلك بالتقاطه بدقة مجهرية ، ثغرا فيه سفن تلقى مراسيها أو تحجز عباب البحر ، والركاب يصعدون والملاحون ورجال الشاطىء يقومون بأعمالهم المختلفة ، والأمواج تتكسر على شاطىء هلالى ، والسحب البيضاء تسير خفية عبر السماء — كل هذا فى حجم بطاقة الصورة الشمسية . وفى ١٣٩٢ زين ملكيور برويد رلام اليبرسى دير شارتريز دى شامبمول بأقدم لوحة حائطية باقية معبرة خارج إيطاليا . ولكن برويد رلام

(*) وتعرف كذلك باسم صلوات تورين . وذهبت بعض هذه المنمنمات فى حريق المكتبة الأهلية بتورين عام ١٩٠٤ ، ولكن صوراً فوتوغرافية منها قد بقيت ، وبقت أصول متعددة فى متحف مدينة تورين .

والفنانين الذين نقشوا الحوائط وتماثيل الدير ، قد استعملوا أمزجة ألوان تقليدية — خلطوا ألوانهم ببعض المواد الغروية ، وقلما يتحقق بهذه الوسائل التدرج فى الظلال والصفاء فى الألوان الخفيفة ، وقد تقضى الرطوبة على العمل بعد تمامه . وفى فترة مبكرة أى عام ١٣٢٩ قام جاك كومبير من جنت بتجربة خلط الألوان بالزيت . وطور الفلمنكيون بعد قرن من المحاولة والخطأ هذا التطبيق الفنى الجديد ، وأحدث ذلك فى الربع الأول من القرن الخامس عشر ، ثورة فى فن التصوير . فعندما صور هوبرفان أيك وأخوه الأصغر جان « تمجيد الحمل » لكاتدرائية سانت بيفن فى جنت ، لم يؤكدا تفوق الزيت كطلية للون فحسب ، ولكنهما أنشآ ، إحدى روائع الفن فى تاريخ التصوير ومن أجلها أصبحت سانت بيفن مقصدا للزائرين منذ ذلك الوقت .

أما من ناحية الشكل فإن هذا الأثر الذى يعد أعظم آثار الفن التصويرى فى القرن الخامس عشر ، والذى يصفه جيته بأنه « محور تاريخ الفن » ، عبارة عن طية من ست لوحات جدارية ، مصورة على الخشب ، على كلى جانب اثنتا عشرة صورة وعندما تفتح الطية ، يبلغ طولها احدى عشرة قدما ، وعرضها أربع عشرة قدما ، وفى وسط الصف الأسفل ، منظر خيالى لاريف ، مع مدينة ذات أبراج عالية — بيت المقدس — ترتفع فى المساحة التى وراء التلال ، وفى الأرض الأمامية عين « ماء الحياة » وأبعد من هذا إلى الخلف مذبح وعنده حمل يرمز إلى المسيح يتدفق منه دمه القربانى ، بينما يتجمع حوله البطارقة والأنبياء والرسل والشهداء والملائكة والقديسون فى عبادة خاشعة . وفى الوسط العلوى شخص يجلس على عرش ، يشبه شخصية خيّرة لشرلمان له ملامح سامية ، ولقد رسم على أنه الإله الأب — وهو تمثيل غير مطابق للربوبية وإن كان تصورا نبيلا لحاكم رشيد وقاض عادل . ولا يتفوق عليه فى هذه الصورة إلا شخصية واحدة — هى شخصية

العذراء ، لها قسمات لطيفة ، شقراء تيوتونية ، لا تمثل الجمال ، بقدر ما تمثل الطهارة والوداعة ، وبدت العذراء السستينية أقل نبلا . وعلى يسار السيدة مريم جمع من الملائكة ، وفى أقصى اليسار آدم عارى الجسد . نحيل حزين ، يتذكر فى بؤس فترة سعيدة من الزمن . » وإلى يمين الإله الأب ، يوحنا المعمدان ، وهو فى زى أكثر ترفا من راع ، يعظ فى البرية . وفى أقصى اليمين تقف حواء عارية ، مكتئبة غير جميلة ، تندب الفردوس المفقود ، ولقد ظلت صورتها فترة من الزمن ، مثلها فى ذلك مثل آدم فى الطرف الآخر ، تصدم الفلندرى الذى ترتعد فرائصه من البرد ولم يألف العرى فى الحياة أو الفن . وأعلى صورتها قابيل يقتل أخاه كمدخل رمزى للتاريخ .

والجانب الخلفى من هذه المجموعة يهبط عن الطراز المتسامى للوحات الداخلية . فنجد فى الصف الأوسط ملاكا إلى اليسار ومريم إلى اليمين ، تفصلهما مسافة ، يصوران البشارة — الوجهان عاريان ، والأيدى جميلة إلى حد ظاهر ، والأزياء كأروع ما تكون فى التصوير الفلمنكى . وفى الأسفل مقطوعة شعرية لاتينية من أربعة أبيات ، ذهبت القرون ببعض كلماتها ، أما الباقى فهى « بدأ هوبرت فان أيك ، هذه المهمة الصعبة ، وهو العظيم الذى لا يضارعه فى حذقه أحد ، وجوهانس الذى يليه فى الفن . . . شجعتهما وصية « جودوكس فيد . وهذا الشعر فى السادس من مايو ، يدعوكم لمشاهدة العمل وقد تم » ، وفى البيت الأخير حروف معينة ، مجموعها فى حساب الجمل ١٤٣٢ ؛ وهى السنة التى أنجز فيها هذا الأثر الفنى . وكان ڤيد وزوجته هما الواهبان . ونحن نتساءل : ما هو المقدار الذى رسمه هربرت ، والذى رسمه جان ؟ إنها مشكلة تستعصى على الحل لحسن الحظ ، ومن ثم فقد تظل

الدراسات تكتب فى الموضوع حتى يختفى(*) أثر للصورة .

وربما كان فى هذه الصورة التى تعد بداية مرحلة جديدة فى الفن إسرافاً فى الأشخاص والمنمنمات : فقد أظهر كل رجل وامرأة وملاك وزهرة وغصن وفرار وحيوان وحجر ودرة بصبر وإخـــلاص بطوليين — وقد أمتعت « ميشـــيلانجلو » الذى رأى ، فى الواقعية الفلمنكية ، تضحية بالتعبير الأساسى ، فى سبيل التفاصيل العارضة غير المتصلة بالموضوع . ولكنه لا يوجد شىء فى إيطاليا المعاصرة ، يضارع هذه الصورة فى المجال والفكرة والتأثير ، ولم يتفوق عليها فى فترة متأخرة من تاريخ التصوير ، إلا سقف الكنيسة السستينية لميشيلانجيلو وصور روفائيل الجدارية فى الفاتيكان ، وربما صورة « العشاء الأخير » لليوناردو ، قبل إن تدخل فى تحللها الطويل بل أن أوربا المتعلمة كلها كانت تتحدث عن صورة « تمجيد الحمل » إبان الفراغ من إنشائها . ولقد ناشد الفونسو الهام ، الفنان جان فان أيك ، أن يذهب إلى نابلى ، ويصور له ، أمثال أولئك الرجال والنساء ، ذوى الشعر الذهبى الذين كثروا فى هذه الصورة وإن قل وجودهم فى إيطاليـــا الجنوبية .

وخرج هيوبرت فان إيك من محيط علمنا بعد عام ١٤٣٢(**) ، ولكننا

(*) لقد بقيت صورة « عبادة الحمل » برغم كثير من الإصلاحات والأحداث ورممت فى الأعوام ١٥٥٠ ، ١٦٦٣ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٩ ، ١٨٥٩ ، ١٨٣٩ ، ١٩٥٠-١ . ولقد تفككت الأجزاء الرئيسية بوساطة جيش الثورة الفرنسية إلى باريس عام ١٧٩٤ ، ثم أعيدت عام ١٨١٦ . وبيع الجانبان (من غير آدم وحواء) إلى بائع صور فنية (١٨١٦) ، واشتراها متحف برلين (١٨٢١) ، وأعيدا إلى جنت بمعاهدة فرساى (١٩١٩) ، ونقلت المجموعة فى الحرب العالمية الثانية إلى فرنسا حماية لها ، وأخذها الألمان عام ١٩٤٢ ، وأخفيت عام ١٩٤٤ ، فى مناجم الملح النمسوية ، وأعيدت إلى كنيستها عام ١٩٤٦ ، بوساطة جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

(**) وينسب إليه بغير تحقيق خمس صور : (نيويورك) ، ومريمات الثلاثة عند القبر (مجموعة فير هوتن فان بوتنجن) وصورة صغيرة للعذراء فى فرنكفورت ، وجانبان الذح (نيويورك) تمثل الصلب والمحاكمة الأخيرة وفيه برتشيان ؟ .

نســتطيع أن نتتبع جان فى حيــاة عاملة مزدهرة . فقد جعله فيليب الطيب حاجباً له (وكان إذ ذاك منصباً له جلاله وسلطانه) وأرسله إلى الخارج فى سفارات وكأنه جوهرة من تاج برجنديا . وينسب إليه ما يقرب من أربع وعشرين صورة لا تزال باقية إلى الآن ، وتكاد تكون كل واحدة منها عملا فنياً كبيراً . وفى درسدن صورة للعذراء وطفلها ، وهى تلى « عبــادة الحمل » فى إنتاج فان أيك ، وتمتدح بولين « الرجل ذا الزهرة » — وجه دميم غير متناسب إلى حد عجيب مع الزهرة الجميلة ، وفى حيازة مدينة ملبورن صورة العذراء وطفلها فى بلدية إنس » وهى لا تكاد تتجاوز تسع بوصات فى ست ، ومع ذلك نقدر قيمتها بخمس وعشرين ألف دولار ، وتكتنز بروجز صوة العذراء والكاهن بايل — وفيها العذراء رائعة من شعرها المنساب إلى هدبة ردائها المنثنى فى روعة . والكاهن سمين أصلع طيب وهى من أعم صور الأشخاص فى القرن الخامس عشر ، وتعرض لندن الزوجين حديثاً ، جيوفانى أو فلفين ومعه عروسه فى قاعة داخلية يتلألأ بمرآة وشمعدان ، وحصلت مجموعة فريك فى نيويورك ، حديثاً بثمن كبير لم يذكر ، على صورة للعذراء وطفلها زاهية الألوان ومعها القديسة بربارا وإليزابث ، وفى واشنطن صورة بشارة تمتــاز بخداع يوهم بعمق الفراغ وفخامة ثياب جبرائيل ، وهما يحولان البصر على مريم ، وفى حوزة اللوفر صورة العذراء والحاجب رولان . وفيها مشهد أخاذ لنهر تتلوى عليه جسر يزدحم بالناس ومدينة ذات أبراج وحدائق مزدهرة ، وسلسلة تلال ترتفع مرحبة بالشمس . ونجد فى هذه الصور كلها ، إلى جانب الألوان التى تستوعبها إصرار على تصوير الواهبين كما كانوا يبدو للعين ، بحيث يتم الوجه على الحياة التى عاشها صــاحبها ، والأفكار والأحاسيس التى صاغت على مر السنين الملامح ، لتجعل منها ، اعترافاً يفصح عن الشخصية ولقد طرحت جانباً فى رسوم الأشخاص هذه الروح المثالية التى اتسمت بها

القرون القرون الوسطى ، وبدأت تظهر طبيعة حديثة – لعلهـا تعكس الاتجاه الدنيوى للطبقة الوسطى – بكل مقوماتها .

ولقد حصل فنانون كثيرون آخرون على الشهرة فى هذه البيئة وذلك العصر الخصيبين أمثال : بتروس وكريستوس وجاك دارت وروبرت كامبن (أستاذ فلمال) ونحن نحنى رؤوسنا لهم خاشعين ثم نواصل السير إلى تلميذ كامبن وهو روجر دى لا باستير . ولما أن بلغ روجر السابعة والعشرين من عمره ، ذاع صيته ، فى مسقط رأسه تورناى ، فأحرز مرتين الدرجات الثلاث ، أو قنانى النبيذ الثلاث ، التى رصدها لجان فان إيك ، ومهما يكن من شىء ، فقد لبىَ الدعوة ليكون مصوراً رسمياً فى بروكسل ، ومن ثم جعل لاسمه الصيغة الفلمنكية روجيه فان درويدن . وفى عام ١٤٥٠ وكان قد بلغ الواحدة والخمسين ، رحل إلى روما للاحتفال بعيده الخمسينى ، ولقى المصورين الإيطاليين ، واحتفل به بوصفه أحد مشاهير العالم وربما كان تقدم التصوير بالزيت فى إيطاليا بتأثيره . ولما توفى عام ١٤٦٤ فى بروكسل ، كان أشهر فنان فى أوربا بأسرها .

وبقى فنه فى آثار كثيرة . ولقد صور أيضاً فيليب الطيب ، ورولان – وزير فيليب لمدة أربعين سنة – وشارل الجسور وغيرهم من الشخصيات البارزة . وتتسم « صورة سيدة » بجمال يفرق الوصف فى المتحف القومى بواشنطن – وهى تجسم المشاكسة والتقوى والتواضع والكبرياء . وكان روجر فى فن تصوير الأشخاص رومانسيا لا يبلغ شان جان فان ايك ، ولكنه أظهر فى صوره الدينية، دقة وإحساساً مرهفاً ، وعمقاً فى الانفعال وهو ما يفتقر إليه فن جان القوى الواقعى ، وربما كانت الروح الإيطالية أوالفرنسية ، تتوسل فى التعبير بالشكل الفلمنكى ، وتبعث بذلك منهج القرون الوسطى .

ولقد سجل روجيه ، مثله فى ذلك مثل الإيطاليين ، الأحداث الحيوية المثيرة ، فى قصته مريم وابنها : فإن جبريل يعلن فتاة مفزعة أنها ستكون

أم الزب ، والطفل فى المزود ، وعبادة المجوس ، وصورة القديس لوقا وفيها العذراء وهى ترعى طفلها ، وزيارة مريم لاليزابث ، والأم تتأمل طفلها فى سعادة ، والحضور إلى الهيكل ، والصلب ، والنزول عن الصليب ، والقيامة ، ويوم الحشر . وبلغ روجيه فى هذا المشهد الأخير أوجه ، فى مجموعة لوحات لعلها صممت لتضارع « عبادة الحمل » ولكنها غير جديرة بذلك تماماً . ولقد صورت لرولان ، وهى الآن فى المستشفى الفخم ، الذى أسسه الوزير العظيم فى بوين . وفى اللوحة الجدارية الوسطى ، يجلس المسيح للمحاكمة ، وتغلب الرحمة عليه عما فى صورة ميشلانجيلو ، ويقف فى كلا الجانبين الملائكة بملابسهم البيضاء الناصعة : يحملون وسائل عذابه وموته ، ويظهر تحتهم ميكائيل رئيس الملائكة : يضع فى الميزان الحسنات والسيئات : وإلى اليسار تركع مريم فى خشوع وضراعة ، وفى أحد الجانبين يجثو الأبرار فى صلاة شكر ، وفى الجانب الآخر يقع الأشرار فزعين فى الجحيم ، وهناك ثلاثية فى أشورب تكاد تبلغ فى شهرتها هذه الصورة وهى تصور الأسرار المقدسة السبعة فى مشاهد رمزية . وأراد روجيه ألا نتمثله ، مستغرقاً فى وجد دينى ، فصور حسناء تغتسل ، وشابين يسترقان النظر إليها من خلال شق فى الحائط ، بفضول تشريحى نهم لا يشبع أبداً .

٤ – شارل الجسور : ١٤٦٥ – ١٤٧٧

تبخر هذا الفوران كله بفضل حدة مزاج شارل المتهور ، الملقب خطأً بالجسور . وهو الذى صوره روجيه فان درويدن ، فى صورة كونت شاروليه الفتى الجميل الحاد ذى الشعر الأسود ، الذى قاد جيوش أبيه ، فى انتصارات دامية ، وعرك سلطان أبيه منتظراً وفاته . ففى عام ١٤٦٥ أحش فيليب الطيب بنفاذ صبره ، فسلم إليه مقاليد الحكم ، وأشبع بذلك طموح الشاب ونشاطه .

وأبى شارل تقسيم دوقيته إلى ولايات شمالية وأخرى جنوبية تتفرق مكانا

وتتعدد لغة ، وأبى فوق ذلك الولاء الإقطاعى الذى يدين به عن بعض هذه الولايات لملك فرنسا ، وعن بعضها الآخر لإمبراطور ألمانيا . وكان مشوقاً لتحقيق برجنديا العظمى ، مثل لوثارينجيا (لورين) فى القرن التاسع ، لتكون مملكة وسطى بين ألمانيا وفرنسا ، موحدة من الناحية الطبيعية ، ذات سيادة من الناحية السياسية . ولقد فكر أحياناً ، فى أن وفيات بعض أولياء العهود الذين يتداخلون فى نسبه فى الوقت المناسب ، قد تسلمه العروش الفرنسية والإنجليزية والإمبراطورية ، وتسمو به إلى مصاف أرفع الشخصيات فى التاريخ مكانة . ولقد نظم ، تحقيقاً لهذه الأحلام ، أحسن جيش عامل فى أوربا ، وفرض على رعاياه من الضرائب ما لا نظير له فى الماضى ، وكيف نفسه لمكابدة كل عناء وتجربة ، ولم يمنح عقله وجسمه ، ولا أصدقاءه وأعداءه ، فترة من الراحة والسلام .

ومع ذلك : فقد فكر لويس الحادى عشر ، فى برجنديا باعتبارها إقطاعة من ملك فرنسا ، وحارب تابعه الغنى متفوقاً فى الخطط والدسائس . فانضم شارل إلى النبلاء الفرنسيين ضد لويس ، وغنم مدناً أخرى ، والعداوة الدائمة لملك عنيد . وفى هذا الصراع انتقضت دينان ولييج على برجنديا ، وأعلنا ولاءهما لفرنسا ، كتب بعض المتحمسين فى دينان Dinant ، على صورة معلقة لشارل ، إنه ابن سفاح لقسيس مستهتر . فهدم شارل أسوار المدينة بالمدافع ، وأباحها لجنوده ثلاثة أيام ينهبونها ، واسترق جميع رجالها ، وشرد كل نسائها وأطفالها ، وأحرق جميع مبانيها حتى أصبحت أثراً بعد عين ، وألقى بثمانمائة من الثائرين مقيدة أيديهم وأرجلهم من خلاف فى نهر الموز (١٤٦٦) ومات فيليب فى شهر يونيو التالى ، وأصبح كونت شاروليه ، شارل الجسور . فأعاد الحرب مع لويس ، وأجبر لييج التى ثارت مراراً بمحاصرتها ، على أن تؤيده وتعاونه فى هذه الحرب . وقدم سكان المدينة المتضورون جوعاً ، جميع ما يملكون ثمناً لحياتهم . . فرفض العرض ،

وأباح المدينة ، ولم ينج من النهب بيت أو كنيسة ، وانتزعت كؤوس القربان من أيدى القساوسة وهم يقومون بالصلاة ، وأغرق جميع الأسرى الذين عجزوا عن دفع الدية الباهظة (١٤٦٨) .

والعالم ، وإن تردى ، طويلا فى أعمال العنف ، لا يستطيع أن يغتفر لشارل قسوته ، وخروجه على تقاليد الإقطاع فى حبس مليكه وإذلاله . فلما غزا جلدرلاند ، وحصل على الألزاس ، وتقدم بخطى إمبراطور ليتدخل فى كولونيا ومحاصرة نيس Neuss . بادر جميع جيرانه إلى الوقوف فى وجهه . وأسخط بيتر فان هاجنباك ، الذى عينه والياً على الألزاس ، الناس لفظاظته وجوره وقسوته ، فشنقوه ، وأعلن الاتحاد السويسرى محاربة شارل إلى الموت (١٤٧٤) ذلك لأن التجار السويسريين كانوا من ضحايا بيتر ، والذهب الفرنسى كان يوزع من الناحية العسكرية فى سويسرا ، والولايات السويسرية ، كانت تحس بأن اتساع سلطان شارل خطر يهدد حريتها . فترك شارل نيس ، واتجه ناحية الجنوب ، فغزا اللورين — موحداً لأول مرة طرفى وقيته — وسير جيشه عبر جورا ، إلى فود . وكان السويسريون أشجع الجنود فى عصرهم ، فهزموا شارل بالقرب من جرانسن Granson ، ثم دحروه بالقرب من مورات (١٤٧٦) وهكذا اكتسح البرجنديون ، وبلغ الحزن بشارل أن أشرف على الجنون . فاغتنمت اللورين الفرصة وانتفضت عليه ، وأرسل السويسريون الرجال وبعث لويس الذهب لمعاونة الثورة ، وألف شارل جيشاً جديداً ، وحارب الحلفاء بالقرب من نانس ، وهزم فى المعركة ولقى الموت (١٤٧٧) . وفى الغداء التهمت الغيلان قطعاً من لحمه العارى ، ووجد غارقاً إلى النصف فى مستنقع ، ووجهه متجمد ملتصق بالجليد . وكان فى الأربعة والأربعين من عمره . وهكذا اندمجت برجنديا فى فرنسا

٥ - الفن فى الأراضى الواطئة

١٤٦٥ — ١٥١٥

اضمحلت فلاندرز الجنوبية فترة من الزمن بعد فيليب الطيب ، ودفعت الاضطرابات السياسية بكثير من النساجين إلى إنجلترا ، وكانت صناعة النسيج البريطانية النامية تحصل على تجارتها ومواردها الخامة من المدن الفلمنكية ، وما إن جاء عام ١٥٢٠ ، حتى كان النسيج الإنجليزى يزحم أسواق فلاندرز نفسها . وازدهرت بروكسل وميشلن ، وفالنسين بالتفوق فى صناعة الشرائط والسجاجيد والفرش والحلى ، ونامور بفضل صناعة الجلود ، ولوفان بفضل جامعتها وجعتها . وحوالى عام ١٤٨٠ ، بدأت القناة التى تصل بروجس بالبحر ترسب الطمى فى مجراها ، وبذلت جهود جبارة لتطهيرها ، وقضت الرمال والرياح على هذه الجهود ، ولم تعد السفن التى تمخر عباب البحر ، تستطيع الوصول إلى بروجس بعد عام ١٤٦٤ . وسرعان ما هجر تجارها ، ثم صناعها المدينة إلى أنتورب ، التى كانت السفن ذوات الغاطس الكبير ، تدخلها عن طريق مصب نهر شلد . وعقدت أنتورب اتفاقيات مع المصدرين الإنجليز ، وشاركت كاليه فى تجارة إنجلترا مع القارة الأوربية .

ولقد بقيت الحياة فى هولندة بفضل السدود ، التى ينبغى أن يعاد بناؤها مراراً ، وقد تنهار فى أى وقت ، ولقد اختل بعضها عام ١٤٧٠ فأغرق عشرين ألفاً من السكان . وكانت الصناعة الرئيسية الوحيدة هى صيد سمك الرنجة وتجفيفها . وأخرجت هولندة كثيرين من أشهر المصورين فى ذلك العصر ، ولكنها كانت أفقر من أن تحتفظ بهم ، فهاجروا جميعاً إلى فلاندرز ما عدا جيرتجن الذى شرب نخب سنت جانز .

وهناك ، حتى فى المدن الآفلة ، كان الأغنياء من نواب المقاطعات يرتدون الملابس الفاخرة ، ويسكنون بيوتاً من الآجر المتين بها أساس فخم — علقوا

على جدرانها حوراً على النسيج من أراس وبروكسل ، وزودوها بآنية متلألئة من النحاس الأصفر من دينان . وشيدوا كنائس رائعة مثل كنيسة نوتردام دى سالبون فى بروكسل ، وكنيسة سانت جاك فى أنتورب ، وأقاموا برج واجهة كاتدرائية أنتورب حجراً حجراً ، وبدأوا فى تشييد قاعة البلدية العظيمة فى جنت . وأمدوا المصورين بالمال ، وجلسوا أمامهم لتصوير أشخاصهم ، وتقربوا إلى السموات بفن يقوم على النذور ، وسمحوا لنسائهم بقراءة الكتب . وربما كانت نزعتهم الدنيوية ، هى التى حفزت فن التصوير الفلمنكى ، فى الفترة الثانية من ازدهاره ، إلى التركيز على الواقعية والمناظر الطبيعية حتى فى الصور الدينية ، والبحث عن موضوعات جديدة فى الدور والحقول .

واستهل ديرك بوتس الاتجاه الواقعى بمبالغات طبيعية عند أصحاب البدع . ولقد جاء إلى بروكسل من مسقط رأسه هارلم ، ودرس هناك على يد روجيه فان درويدن ، وأقام فى لوفين ، وصور لكنيسة سانت بيير مجموعة لوحات جدارية هى « العشاء الربانى الأخير » ، ومعها لوحة حائطية موضوعها — عيد الفصح فى أسرة يهودية — ويبدو أنها توحى بأن العشاء الربانى الأخير ، كان احتفالا بعشيرة يهودية سنِّيَّة ، يقوم بها يهود لا يزالون مؤمنين باليهودية . وصور للكنيسة ذاتها « استشهاد القديس إيرازس » تصويراً حرفياً مذهلا ؛ جلادان يديران دولاباً ، يخرج ببطء ، أمعاء القديس المتجرد من الثياب . وفى « استشهاد القديس هيبوليتوس ، أربعة جياد تساق فى أربع اتجاهات تنفصل ذراعى الفريسة ورجليها . وفى « قطع رأس الفارس البرىء » نجد فارساً اتهمته إمبراطورة فاشلة فى حبه انتقاماً منه ، بأنه حاول هتك عرضها ، فأمرت بقطع رأسه ، وفيها انبطحت الجثة الدامية على الأرض ، واطمأن الرأس المنفصل فى حجر الأرملة ، وكان بوتس يتفادى عنفه ، فى الغالب ، بإظهار الطمأنينة الراضية عند المحتضر أو الميت — وفى هذه الصور

ألوان حية ، ونجد بين حين وآخر منظراً طبيعياً حسناً أو رسماً منظوراً ، بيد أن رسومها المتقنة وشخوصها الجامدة والوجوه التي لا حياة فيها ، توحي بأن الزمن ليس حكيماً فى انتقائه على الدوام .

وقد يكون هوجوفان درجوز ، أخذ نسبته من جوز فى زيلندة ، وهو شاهد آخر على عبقرية هولندة الخصبة الآفلة . وفى عام ١٤٦٧ سمح له بأن ينضم إلى نقابة المصورين فى جنت . وكان ذلك إرهاصاً بشهرة التصوير الفلمنكى ، حتى إن تاجراً إيطالياً فى فلاندوز ، وقع اختياره عليه ، لكى يصور ثلاثية كبيرة لمستشفى سانتا ماريا نيوفا فى مدينة فلورنسا التى كانت تعج بالفنانين . وانتخب هوجو لموضوعه هذه العبارة « إن من حملته قد عبدته » . وصورة العذراء بالحجم الطبيعى ، يغمرها الخشوع ، وهى من الروعة بمكان ، وإلى اليسار راع يتنبأ بروعة رفائيل وتيتيان ، ويعد المنظر الطبيعى الشتوى ، عملا جديداً ، من ناحية الحب المخلص للطبيعة . وأن ما اتسم به فان دُوجوز من الواقعية العاتية ، والأداء الأصيل ، والرسم الدقيق والتحديد المضبوط للشخصية ، قد وضعه على قمة المدرسة الفلمنكية فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر . ولقد دخل أحـــد الأديرة بالقرب من بروكسل (حوالى ١٤٧٥) ، أما ليجد مزيداً من الهدوء يعينه على العمل ، وأما ليتخلص من المخاوف الدينية التى اعترته . وهناك واصل التصوير وأمعن فى تعاطى الخمر ، (كما يقول راهب زميل له) . واستولت عليه فكرة ، إن الله قد كتب عليه اللعنة الأبدية ، فأظلمت حياته ودفعته إلى الجنون .

ويخبرنا فسباسيانو دا بستيش ، أن الدوق فيدريجو صاحب أوربينو Urbino ، قد أرسل حوالى عام ١٤٦٨ ، إلى فلاندرز يطلب مصوراً ، يزين غرفة مكتبه ، لأنه « لا يعرف أحداً فى إيطاليا ، يفهم كيف يصور بالألوان الزيتية » . فلبى فان فاسنهوف الدعوة ، وهو صديق فان درجوز ،

وأقام فى أربينو ، وعرف منذ ذلك باسم جوستس فان جنت . فصور للدوق العالم ثمانى وعشرين صورة لطائفة من الفلاسفة كما صور لفريق من الإخوان الرهبان فى أربينو مذبحاً « تناول الأسرار المقدسة » . ومع أن هذه الآثار فلمنكية الأسلوب إلا أنها تسجل تأثيراً متبادلا بين فلاندرز وإيطاليا ، فقد تأثر المصورون الإيطاليون بالفن الفلمنكي فى الإقبال المتزايد على استعمال الزيت والنزعة إلى الواقعية ، كما تسربت المثالية والحرفية الإيطالية فى الفن الفلمنكي :

ونحن نجد أن هانز مملنج ، وإن كنا لم نعثر على خبر يفيد زيارته إيطاليا ، قد أدخل فى تصويره رشاقة ورقة ، لعله اكتسبها من مصورى كولونيا ، أو من روجيه فان درويدن ، أو لعل هذا التأثير قد جاءه من البندقية وعلى طول الرين إلى مينز . ولقد ولد بالقرب من مينز ، وربما اكتسب نسبته من مسقط رأسه مزملنجن ، ثم رحل من ألمانيا إلى فلاندرز وبروجس حوالى عام ١٤٦٥ . وهناك ، وبعد ثلاث سنوات ، طلب إليه سير جون دن ، وهو زائر إنجليزى ، أن يصور له « العذراء على العرش » . فكانت صورة تقليدية فى المنهج والآراء . ولكنها تظهر فى الوقت نفسه اقتداره الحرفى ، ورهافة حسه ، وتفرغه للعبادة . ولقد أبرز القديس يوحنا المعمدان ، فى واقعية فلمنكية والقديس يوحنا الإنجيلى فى مثالية ملائكية ، وكشفت الفردية النامية فى الفن ، من نفسها فى صورة « مملنج » وهو يختلس النظر متلفتاً حول عمود .

وكان مملنج يشبه بروجينو ، الذى جاء بعده بقرن من الزمان فى رسمه مئات الصور للعذراء ، فى رقة الأمهات وسكينة الأبرار وهذه الصور معلقة على جدران المتاحف ، تراها العين أينما اتجهت فى برلين وميونخ وفينا وفلورنسة ولشبونة ومدريد ، وباريس ولندن ونيويورك ووشنطن وكليفلند وشيكاغو . وتوجد اثنتان من أحسن هذه الصور بمستشفى سانت جون فى بروجس ، ونجد أن مريم تسيطر على صورة « زواج القديسة كاترين الصوفى » ، حيث تبدو

الفخامة فى كل شخصية ، وهى تتصدر مرة أخرى « صورة عبادة الطفل » ويلفت النظر فيها المجوسى — وهو شخصية تشبه جوته المستشار الخاص — وفى صورة رحبة الأفق فى ميونخ ، رسم مملنج جميع الأحداث الرئيسية فى حياة المسيح الملونة . وسرد فى صورة أخرى بتورينو « قصة » الآلام « وعرض فيها أخلاطاً من الرجال والنساء ، حتى إن « بروجل » وجد عناء فى التفوق عليه فى كثرة العدد . وصور من أجل صندوق أرغن فى دير بمدينة ناجيرة بأسبانيا ، ثلاثية السيد المسيح تحيط به الملائكة ، تضارع صورة « الملاك الموسيقى » للرسام ميلوزد دافورلى التى رسمت قبل ذلك بأعوام ، ولم ير متحف أنتورب أنه مغبون عندما دفع مائتين وأربعين ألف فرنك ثمناً لهذه الصورة عام ١٨٩٦ . برسم صورة متعـــددة الأجزاء للمذبح مرضوعها ، « يوم الحساب » لأياكوبوتانى وهو وكيل لورنزو دى مديتشى فى « بروجس »، ووضعت فى سفينة مبحرة إلى إيطاليا ، ولكن ربانا هانسياتيا استولى على السفينة ، فاحتفظ لنفسه بما كان فيها من أموال وترك الصورة تذهب إلى كنيسة العذراء فى دنزج .

ولقد صور مملنج فى هذه الآثار الرئيسية وفى اللوحات الخاصة بالأفراد ، بعض الرسوم الرائعة للأشخاص : مارتن فان نيو ومنيوف و « امرأة » — فى مظهر فخم تحت قبعتها العالية وفى أصابعها خواتم كثيرة — وكلا الصورتين فى إحدى مستشفيات بروجس ، وصورة « شاب » فى معرض لندن للصور ، و « عجوز » فى نيويورك ، وحامل السهم فى وشنطن . وهى لا تبلغ الإلهام والعمق اللذين اتسم بهما فن تيتيان أو رفائيل أوهولبين ، ولكنها تبلغ السطوح البسيطة بحذق صناع . أما الصور العادية غير الأساسية مثل آدم وحواء ، وأم سليمان فى الحمام فلا تفتن الناظرين .

وزين مملنج فى ختام حياته العملية تقريباً ، ضريحاً قوطياً ، فى مستشفى بروجس ، وقد صمم لكى يستقبل ، آثار القديس أورسولا . فقص فى ثانى

لوحات حائطية ، كيف أن السيدة الورعة ، خطيبة الأمير كونون ، أجلت زواجها حتى تجمع إلى روما ، وكيف أبحرت ، مع أحد عشر ألف عذراء ، فى نهر الرين إلى بازل ، وقادتهن فى رحلة فوق جبال الألب ، واعتصمت ببركات البابا وكيف أن هؤلاء الـ ١١,٠٠١ قد استشهدن على يد الهون فى كلونيا . وبعد ذلك بتسع سنوات (١٤٨٨) ، قص كارياكشيو فى صورة ، هذه القصة الرائعة المستحيلة فى آن واحد ، برسم أدق ، وألوان أزهى ، وذلك لمدرسة القديس أرسولا فى البندقية .

وليس من الإنصاف لمملنج ولا لأى مصور آخر ، أن ننظر إلى صوره ، نظرة كلية ، فكل واحدة منها لزمان ومكان معينين ومنهما تحمل خصيصته الغنائية . ونحن إذا نظرنا إليها نظرة عريضة فسنجد لتونا حدوده — ضيقة فى الأفق والأسلوب ورتابة شخوصه ، حتى رسومه المتواضعة للعذراء بما فيها من شعر ذهبي مرسل ، والسطح محبب أو صادق ، ويضيء بألوان لامعة ، ولكن الريشة قلما تنفذ إلى أعماق النفس تحت هذا السطح ، إلى سر العزلة ، والدهشة ، والطموح والهموم . وصور النساء عند مملنج لا حياة فيهن ، وكلما جردهن عن ثيابهن ، فإننا نصاب بالحزن ، عندما نجد أن كل واحدة منهن عبارة عن معدة كبيرة وصدر رقيق . وربما كان الطابع الغالب فى تلك الشئون مختلفاً عما هو عليه الآن ، بل أن رغباتنا قد تلقنا المبادئ . ومع ذلك فيجب أن نعترف أن مملنج عندما مات (١٤٩٥) ، كان زعيم مصورى شمالى جبال الألب بإجماع أوليائه ومنافسيه . فإن أحس فنانون آخرون بأخطائه أكثر من إحساسهم بأخطائهم . فإنهم لا يستطيعون أن يبلغوا مبلغه فى رقة الأسلوب وصفاء إحساسه وروعة تلوينه . ولقد ظل تأثيره عظيما قرناً كاملا على المدرسة الفلمنكية .

وواصل جيرار ديفيد مذهبه . فلقد جاء إلى بروجس من هولنده حوالى عام ١٤٨٣ ، وفتنته رقة مملنج الغنائية ، وصوره عن العذراء تكاد تماثل

صور مملنج ، ولعلهما اقتسما فيا بينهما نموذجاً يصدران عنه . وهي في بعض الأحيان كما في صورة « الراحة أثناء الفرار إلى مصر » (وشنطن) ، فإنه يتساوى مع مملنج في إظهار وصيانة جمال العذراء ، وتفوق عليه في تحديد رسم الطفل . وتحول في كهولته إلى التجارة ورحل إلى أنتورب ، وبه انتهت مدرسة بروجس ، بينما بدأت مدرســة أنتورب على يد كونتن ماسيس .

وكان ماسيس ، ابن حداد في لوفان واستقبل في نقابة سانت لوك للمصورين بأنتورب عام ١٤٩١ ، بالغاً من العمر خمسة وعشرين عاماً . ومن العسير مع ذلك ، أن يوافق سانت لوقا على صورة « مأدبة هيرود » حيث كان هيرود يأسر بحز بسكين رأس المعمدان المفصول عن جسده ، أم على « دفن المسيح » حيث كان يوسف الأريماش ، يندف لطع الدم عن شعر الجثة التي لا دم فيها . وتزوج ماسيس مرتين ، ودفن سبعة أطفال ، فكانت له صلابة في نسج لوحاته ، وحموضة في زيوته . وبذلك استطاع أن يصور فاجرة أرادت أن تخدع مرابيا عن نقوده ، وأظهر في حالة نفسية أهدأ ، صيرفياً يعد ذهبه ، بينما تنظر زوجته إليه نظرة يختلط فيها التقدير بالغيرة . أما صور ماسيس للعذراء فهي أكثر إنسانية من صور مملنج ، إحداها (في برلين) تقبل وتداعب طفلها كأي أم ، وألوان ملابسها التي تتراوح بين الزرقة الناصعة والأرجوانية والحمرة تبرز جمالها . ولما تحول إلى فن تصوير الأشخاص ، فإننا نجده ينفذ في ملامح الوجه إلى الشخصية وكان بذلك أكثر توفيقاً من مملنج ، كما في الصورة الرائعة « دراسة من أجل صورة شخص » في متحف جاكيمار أندريه في باريس ، ولقد لجأ إليه بيــتر جيلليس Gillis (١٥١٧) عندما أراد أن يرسل إلى توماس مور ، صورة صادقة لشخصه وأخرى لأرازمس . وأحسن ماسيس مع تصوير جيلليس ، ولكن صورته لأرازمس كانت سيئة الطالع ، إذ أعقبتها الصورة التي رسمها هلبين .

ولما ذهب « دورد » (١٥٢٠) وهلبن (١٥٢٦) إلى أنتورب قدما إلى ماسيس أسمى آيات الإجلال باعتباره عميد الفن الفلمنكى .

ومع ذلك فقد ظهر فى الوقت نفسه فى برابانت ، أكثر الفنانين أصالة وعبثاً فى التاريخ الفلمنكى . ونحن نجد فى آثار ماسيس — كما فى الغوغاء بنظراتهم الشذراء فى « إظهار المسيح للناس » (مدريد) أو الوجوه الذميمة فى صورة « عبادة المجوس » (نيويورك) — الوجوه الشوهاء القاسية كالتى صورها ليوناردو فى عبثه الساخر بقلمه . ووفق هيرونيمس بوش فى استغلال هذه الأضاحيك . ولقد ولد ، وأنفق الشطر الأكبر من حياته فى بو — ل — ديك (فى شمالى برابانت ، وهى الآن هولنده الجنوبية) ، وأصبح يعرف بصفتها الفلمنكية « هيرتوجنبوش » واختصر أخيراً إلى بوش . وظل يصور الموضوعات الدينية المألوفة فترة من الزمان ، واقترب فى بعضها كما هو الحال فى « عبادة المجوس فى مدريد » من العادية . ولكن إحساسه بالمضحك أخذ يسيطر على خياله وفنه . ولعله ارتاع فى طفولته من حكايات القرون الوسطى عن العفاريت والأشباح ، وعن الشياطين تخرج من وراء كل صخرة ، أو تبرز من كل شجرة ، وأضحى الآن يستطيع أن يرسم هذه المردة رسماً كاريكاتوريا ، فى هجاء يشفى نفسه منها . ويبعدها عن عقله بالضحك منها . وأنكر بحساسية الفنان وصمات الإنسانية — الشاذ أو الذميم أو المشوه — والتقطهم فى مزيج هستيرى من الغضب والسرور . بل إنه فى المشاهد الرعوية كما فى صورة « المولد » (كلونيا) ، فإنه يجعل الصدارة لأنف بقرة ، وفى « عبادة المجوس » (نيويورك) يختلس الفلاحون النظر من النوافذ ومن الطرقات المسقوفة تحت القناطر ، إلى العذراء وطفلها . ومع ذلك فقد رسم فى هذه الصورة الأخيرة بحذق يبلغ حد الكمال ، صورة جليلة للقديس بطرس ، وملكا زنجيا ، يضع وقاره المهيب سائر الشخوص فتضاءل . ولما كان بوش قد بدأ بقصة المسيح ، فقد أظلم صوره بوجوه

بهيمية وعيون وحشية ، متوحشة، وأنوف ضخام وشفاه ممطوطة سمجة مُهمة .
ولما تحول إلى قصص القديسين ، فقد أظهر القديس يوحنا الإنجيل فى صورة رقيقة إلى حد عجيب ، فى مهاد غير عادى من المشاهد الطبيعية بين جزر وبحر ، بيد أنه وضع فى أحد الأركان شيطانا يتأمل — له قلنسوة قسيس وذنب فار وأرجل حشرة — وينتظر فى صبر أن يرث الأرض — وفى صورة « إغراء القديس أنطونى » أحاط الناسك المتوحد اليائس ، بفاجرات مبتهجات وتخيلات سحرية » — قزم غرست رجلاه فى كتفيه وطائر له ساقا ماعز وقرد له أرجل بقرة وفأر تتخطاه عليه ساحرة ومنشد متجول يضع على رأسه جمجمة حصان . وأخذ « بوش » العجائب من الكاتدرائيات القوطية وجعل منها عالماً قائماً برأسه .

كان أبعد ما يكون عن الواقعية . ولكنه كان ينقل بين حين وحين مشهداً من الحياة ، كما فى « الابن السفيه » ، إلا أنه بالغ هنا فى إظهار الدمامة والفقر والخوف . وليست صورته « ركبة الدريس » نسمة فى أوائل الربيع ، ولكنها تصوير مرير لعبارة « كل الحشائش لحم » وكل شىء مثالى فوق الحمل : شاب يعزف الموسيقى لفتاة تغنى ، وخلفهما عشيقان يتبادلان القبلات وملاك يجثو على ركبتيه ، وفوقهما يرفرف « المسيح » فى السحاب . بيد أنه يصور على الأرض قاتلا ، يطعن عدوه المترنح ، وقوادة تغوى فتاة على الفجور ، ودجالا يبيع الدواء لكل داء وقسيساً بديناً يتسلم النذور من الراهبات ، وعجلات العربة تدهس بعض المحتفلين غير المكترثين . وإلى اليمين ، فريق من الشياطين ، تعاونهم قردة ، يسحبون الأشرار إلى الجحيم . ولقد علق فيليب الثانى ملك أسبانيا الذى غلبت الكآبة عليه هذه القطعة الفنية فى الاسكوريال . ووضع بالقرب منها ، زميلة لها هى « مباهج الدنيا » . وفيها نرى غديراً ، يغتسل فيه العرايا من الرجال والنساء ، وحوله موكب راكب من العرايا على متون حيوانات نصفها طبيعى ونصفها الآخر من

تهاويل الخيال ، ويبرز الشوك والحسك من كل جانب فى الصورة ، وفى مقدمتها ، عريانان يتعانقان فى رقصة فالس ، بينما يحدق إليهما طائر ضخم فى نشوة فلسفية . ويظهر قطاع منها خلق حواء لتكون أصل جميع الشرور ، ويظهر قطاع آخر تعذيب الأشرار . وهى معجزة فى الإبداع والحذق فى الرسم والخيال المريض — وتمثل بوش خير تمثيل .

وقد يتساءل البعض : هل وجد ، حتى فى فجر التجديد الحديث ، ملايين المسيحيين البسطاء الانفعاليين ، المصابين بكابوس مثل هذا ؟ وهل كان بوش واحداً من هؤلاء ؟ من العسير أن نقول ذلك ، فنحن نرى فى صورة له تمثله فى مكتبة أزاس ، وقد بدأ فى الشيخوخة ، تام القوة العقلية والحدة البصرية ، كان رجلا حصيفاً ، تجاوز غضبه الهجاء ، واستطاع أن ينظر إلى الحياة بمرح امرئ سرعان ما يخرج من الحلبة . ولم يكن من الممكن أن يصور هذه الأخيلة الحاذقة ، إذا ظلت مستولية عليه . لقد تغلب عليها ، وهو أدنى إلى الغضب منه إلى السرور ، لأن الإنسانية احتضنتها على الدوام . ومما يؤكد أن معاصريه استمتعوا بآثاره ، على أنها مرح تصويرى ، أكثر منها مفازع دينية ، رواج صوره المنقولة بالحفر والمطبوعة ، وجاء « بيتر بروجل » بعد جيل واحد فاستطاع أن يدرب هذه الشياطين ، ويحول أولئك الغيلان إلى حشد مرح سـليم ، وبعد ذلك بأربعة قرون عكس الفنانون العصابيون ، أمراض عصرهم العصبية ، بتصوير أخيلة ساخرة تعبق ، معبودهم بوشى .

ويختتم هذا الفصل فى تاريخ التصوير الفلمنكى بظهور شخصية ، أدخل فى المنهج التقليدى . ولقد ولد صاحب هذه الشخصية فى « موبيج » ، ومنها أخذ نسبته « مابوس » ، واسمه « جان جوساير » ولقد رحل إلى أنتورب عام ١٥٠٣ ، ومن المحتمل أن يكون ذاك ، بعد أن ثقف الفن على يد دافيد فى بروجس . ودعى عام ١٥٠٧ إلى بلاط الدوق فيليب البرجندى وهو

أحد ثمرات عشق فيليب الطيب ، وصحب جان الدوق إلى إيطاليا ، وعاد بشيء من الصقل أضيف إلى ريشته ، وشوق إلى تصوير العاريات والأساطير الوثنية ، ونحن نجد فى صورته « آدم وحواء » أنه جعل الجسم العارى جذاباً لأول مرة فى الفن الفلمنكى . وفى صورتيه مريم والطفل والملائكة والقديس لوقا يرسم العذراء ، أصداء لما فى إيطاليا من أطفال سمان ومهاد معمارية تتسم بطابع عصر النهضة ، وقد يرجع الفضل إلى إيطاليا ، فيما نراه فى صورة « العذاب فى الحديقة » من العرض الرائق لضوء القمر . ولكن قوة « جوساير » تركزت فى فن تصوير الأشخاص . ولم يصدر عن مصور فلمنكى ، منذ جان فان إيك ، هـذه الدراسة للشخصية التى نجدها فى صورة « جان كاروندليه » فى متحف اللوفر ، ففيها يركز الفنان على الوجه واليدين ، ويكشف عن الغنى الموروث ، ويميط اللثام عن الإدارى الذى لا يتزعزع ، المهموم بأعباء السلطة ، وعلى يد ماسيس انتهى الرعيل الأول فى التصوير الفلمنكى وهو الذى بلغ حد الكمال فى الصور التى أبدعتها مدرسة « فان إيك » . وقبس جوساير من إيطاليا ، تلك التجديدات الحرفية ، والأناقة فى الزخرف ، والرشاقة فى الخطوط ، والحذق فى إظهار الجلى والقاتم على السواء ، وتصوير الأشخاص ، وهى السمات التى نجدها فى القرن السادس عشر (إذا استثنينا بروجل) تحول التصوير الفلمنكى ، عن براعته وعبقريته فى حدود وطنه وتتركه ثابتاً فى تفوقه ، حتى بلغ أوجه على يد روبنز وفان ديك .

ولم ينجب شارل الجسور ابنا ، ولكن ابنته مارى كانت مخطوبة إلى مكسيمليان صاحب النمسا ، أملا أن يحمى آل هبسبرج برجنديا من فرنسا . ومع ذلك عندما ضم لويس الحادى عشر الدوقية فرت مارى إلى جنت حيث دفعت الثمن لتكون المملكة الدستورية بموافقة فلاندرز وبرابانت وهانو وهولنده ، وهو توقيعها على « قرار امتياز جروت » (فبراير ١٤٨٨) ، الذى ناشدها أن لا تتزوج ، وألا تفرض ضريبة أو تعلن حرباً ، إلا بموافقة

(المقاطعات) أو مجالس الأقاليم الموقعة على القرار . وبهذا المرسوم وغيره من المراسيم الصادرة بعد ذلك ، بما فيها المدونة السعيدة كما أطلقت برابانت على تصريحها الخاص بحريتها المحلية ، بدأت الأراضى المنخفضة قرناً طويلا من الصراع فى سبيل الاستقلال . ولكن زواج مارى من مكسميليان (أغسطس ١٤٧٧) جاء بآل هبسبرج الأقوياء إلى الأراضى الواطئة ، حتى إذا توفيت مارى (١٤٨٢) أصبح مكسميليان نائباً عن الملك . ولما انتخب مكسميليان إمبراطوراً (١٤٩٤) أسلم منصب نائب الملك فى الأراضى المنخفضة إلى ابنه فيليب . ولما مات فيليب (١٥٠٦) عينت أخته ، مارجريت أميرة النمسا ، حاكمة عامة بوساطة الإمبراطور . ولما أعلن أن ابن فيليب ، وهو شارل الخامس المقبل ، قد بلغ سن الملك (١٥٢٥) ببلوغه الخامسة عشرة ، أصبحت الأراضى المنخفضة جزءا من الإمبراطورية الهبسبرجية الشاسعة ، فى ظل واحد من أكثر الحكام دهاء وطموحاً فى التاريخ . ولهذا قصة .

الفصل السابع

أوربا الوسطى

١٣٠٠ - ١٤٦٠

١ - الأرض والعمل

ما دام الإنسان يعيش تحت رحمة الجغرافية الطبيعية ، فقد كتب عليه أن ينقسم بوساطة الجبال والأنهار والبحار ، إلى جماعات تتطور فى شبه عزلة ، مختلف لغاتها وشرائعها ، وملامحها التى تتحكم فيها الظروف المناخية وعاداتها وأزياؤها . ودفع الافتقار إلى الأمن الإنسان إلى الشك فى الغريب ، فأصبح يكره ويختصم الملامح الأجنبية المستهجنة ، وطرائق العيش للجماعات الأخرى غير جماعته . وهذا التنوع الأخاذ فى الأرض - من جبال وأودية وأزقة بحرية ومضايق ، وخلجان وغدران - الذى يجعل أوربا منظراً جامعا لمباهج شتى ، قد مزق ، سكان قارة صغيرة إلى عشرات من الأقوام ، يجترون خلافاتهم ، ويحبسون أنفسهم فى تراث أحقادهم . وهناك فتنة فى هذا الخليط من النشأة المختلفة ويستطيع المرء أن يطلب الغوث لعالم من الناس ، محصور فى أساطير بذاتها وأزياء بأعيانها . ومع ذلك ، فإن فوق هذه الخلافات وتحتها . . الخلافات فى الزى والعادة والعقيدة واللغة ، فقد فرضت الطبيعة والحاجة على الإنسان ، وحدة اقتصادية وارتباطا ، يزداد وضوحهما وسلطانهما كلما حطم الاختراع والمعرفة الحدود . وتستطيع العين المنصفة الشاملة أن ترى ، من النرويج إلى صقلية ومن روسيا إلى أسبانيا ، الناس لا يختلفون كثيراً فى الزى واللغة ، وإنما تراهم مشغولين فى مهن متماثلة ومصبوبين فى قوالب أخلاقية متشابهة ، كالفلاحة والتعدين ونسج الملابس

وبناء المنازل والهياكل والمدارس ، وتربية الناشئين والتجارة بالفائض عن حاجتهم ويشكلون النظام الاجتماعى باعتباره أقوى وسيلة للدفاع والبقاء . وسنتأمل لحظة أوربا الوسطى باعتبارها وحدة على هذا الأساس .

فقد كان الشغل الشاغل للإنسان فى اسكنديناوه ، أن يقهر البرد ، وفى هولنده أن يتغلب على البحر ، وفى ألمانيا الغابات وفى النمسا الجبال ، وتوقف مصير الزراعة وهى أساس الحياة على مدى الانتصارات . وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كانت دورات المحاصيل قد أصبحت عامة فى أوربا مضاعفة غلة الأرض . ولكن نصف سكان أوربا الوسطى بين عامى ١٣٤٧ ، ١٣٨١ ، قد هلكوا بالطاعون ، فعطل موت الفلس خصوبة الأرض . ولقد فقدت ستراسبورج فى عام واحـــد ١٤,٠٠٠ نسمة وكراكا و ٢٠,٠٠٠ وبرسلو ٣٠,٠٠٠ . ولبثت مناجم « هارز » بلا عمال قرناً من الزمان . وواصل الناس الأعمال القديمة معتمدين على صبر الحيوان الأعجم ، فى حفر الأرض وحرثها . وتوسعت السويد وألمانيا فى استخراج الحديد والنحاس ، كما كان الفحم يستخرج من آخن ودرتمند والزنك من سكسونياه والقصدير من هارز والفضة من السويد والبترول والذهب من كارنثيا وترانسلفانيا

وعمل هذا الفيض من المعادن على تغذية الصناعة النامية التى غدت بذورها تجارة رائجة . وكانت ألمانيا إماماً فى التعديل فأصبحت بطبيعة الحال ، رائدة فى علم المعادن . وظهرت أفران صهر المعادن هناك فى القرن الرابع عشر ، فغير تشغيل المعدن بمساعدة المطرقة المائية والطاحونة الدوارة وغدت نورمبرج ، عاصمة تجار الحديد واشتهرت بموقعها وأجراسها . وجعلت التجارة والصناعة نورمبرج واجزبرج ومنيز وسبير وكلونيا ، مدناً ذوات حكومة مستقلة تقريباً . وبوأت أنهار الرين ومين ولش والدانوب ، مدن ألمانيا الجنوبية ، مكان الصدارة فى المواصلات البرية ، مع إيطاليا والشرق . ونشأت بيوت تجارية ومالية ، لها أسواق وعملاء إلى مدى بعيد ، على طول

هذه الطرق ، وتفوقت فى القرن الخامس عشر على الحلف الهنسياتى اتساعاً وقوة . وكان هذا الحلف لا يزال قوياً فى القرن الرابع عشر . مسيطراً على التجارة فى مجرى الشمال والبلطيق ، ولكن الأقاليم الاسكنديناوية اتحدت عام ١٣٩٧ لتحطم الاحتكار ، وسرعان ما بدأ الإنجليز والهولنديون بعد ذلك ينقلون سلعهم بأنفسهم . بل إن سمك الرنجة قد تآمر على الهانس ، إذ قرر أن يتكاثر فى بحر الشمال ، بدلا من البلطيق ، ففقدت لوبك وهى من عمد الحلف تجارة الرنجة وأفل نجمها ، وغنمت أمستردام هذه التجارة وازدهرت .

وغليت مراجل حرب الطبقات تحت هذا التطور الاقتصادى — بين الريف والمدينة وبين السلدة لملاك وعبيد الأرض وبين النبلاء ورجال الأعمال وبين الغرف التجارية ونقابات العمال وبين الرأسماليين والصناع وبين الكهنوت والعلمانيين وبين الكنيسة والدولة . وكان رق الأرض فى السويد والنرويج وسويسرا أخذا فى الزوال أو زال بالفعل ، ولكنه اتخذ حياة جديدة فى المناطق الأخرى من أوربا الوسطى ، أما فى الدنمارك وبروسيا وسيليزيا وبوميرنيا وبرندنبرج ، حيث نال الفلاحون حريتهم بتمهيد البرارى للزراعة ، فقد أعيد رق الأرض فى القرن الخامس عشر على يد أرستقراطية عسكرية ، ونحن نستطيع أن ندرك مدى الفظاظة التى اتسم بها هؤلاء الفتيان النبلاء الألمان من مثل سائر ردده فلاحو برندنبرج ، وهو يدعو بطول البقاء لجياد السيد المالك ، حتى لا يحل العبيد محلها فى الركوب . وقنع البارونات والفرسان التيوتون ، فى أراضى البلطيق أول الأمر ، باسترقاق أهل البلاد التى غزوها من الصقالبة ، وحملهم ، نقص الأيدى العاملة بسبب الطاعون والحرب البولندية عام ١٤٠٩ ، على أن يسترقوا جميع « الكسالى الذين يتسكعون فى الطريق أو فى المدن » ، وعقدت المعاهدات مع الحكومات المجاوره بشأن تسليم الهاربين من رقيق الأرض .

وقرب الأباطرة ، الطبقة البرجوازية التجارية ، لتحد من غلواء البارونات ، فحكم هؤلاء التجار البلديات تماماً ، حتى صارت دار البلدية فى كثير من الأحيان ، هى بعينها الغرفة التجارية . وضعف سلطان النقابات المهنية وأخضعت للقواعد التى تضعها المجالس البلدية تحديداً للأجور ، ومنعت من العمل المشترك ، وتحول العمال الحاذقون للمهن ، المعتزون بخبرتهم ، هنا ، كما حدث فى إنجلترا وفرنسا إلى عمال يدويين بلا حول ولا قوة . وحلول العمال الثورة حيناً بعد حين . وفى عام ١٣٤٨ استولى عمال مدينة نورمبرج على المجلس البلدى وحكموا المدينة مدة عام ، ولكن جنود الإمبراطور أعادوا التجار الأشراف إلى السلطة . وصدر فى بروسيا عام ١٣٥٨ مرسوم يقضى بصلم أذن ، كل عامل يضرب عن العمل . واندلعت ثورات الفلاحين فى الدنمرك (١٣٤٠ ، ١٤٤١) ، وسكسونيا وسيلزيا وبرندنبرج وأراضى الرين (١٤٣٢) والنرويج والسويد (١٤٢٤) ، ولكن هذه الثورات كانت منحلة العرى فى التنظيم فلم ينتج عنها غير أعمال عنف عارضة . وانتشرت الأفكار الثورية فى المدن والقرى . ولقد كتب عام ١٤٧٨ متطرف مجهول ، رسالة يعرض فيها « إصلاحاً يقوم به القيصر سيجيسموند » وهو شخصية خيالية ، وذلك على أسس اشتراكية . وهكذا مهد المسرح ببطء لحرب الفلاحين عام ١٥٢٥ .

٢ — إقرار النظام

النظام أبو الحضارة والحرية ، والفوضى هى القابلة التى تولد الدكتاتورية ، ومن ثم فإن التاريخ يمتدح حينا بعد حين الملوك . وكانت وظيفتهم فى القرون الوسطى أن يحرروا الفرد من السيطرة المحلية وأن يركزوا فى يد واحدة ، سلطة التشريع والقضاء والعقاب وإصدار السكة وإعلان الحرب . ونباكى البارون الإقطاعى على فقدان الاستقلال المحلى . بيد أن المواطن

البسيط رأى الخير فى أن يكون هناك سيد واحد وعملة واحدة وقانون واحد ؛ وقلما أمل الناس فى تلك الأيام التى فشت فيها الأمية ، أن الملوك أنفسهم قد يختفون من الوجود ، ولا يخلفون وراءهم سلطاناً غير القوانين والأخطاء التى اقترفها الناس بحرية .

ولقد حكم اسكنديناوه بعض الملوك الأفذاذ فى القرن الرابع عشر فوحد ماجنوس الثانى ملك السويد ، قوانين مملكته المتعارضة فى مجموعة قوانين منسجمة قومية (١٣٤٧) . ونظم أريك الرابع فى الدنمرك البارونات ودعم السلطة المركزية ، وأضعفها كريستوفر الثانى وأعادها ولدمار الرابع ، وجعل بلاده ، إحدى الدول الرئيسية فى السياسة الأوربية . ولكن أعظم شخصية فى الدول الحاكمة الاسكنديناوية فى ذلك العصر ، هى شخصية ، مارجريت ابنة فالديمار ، ولقد زوجت وهى فى العاشرة (١٣٦٣) من هاكون السادس ملك النرويج ، وهو ابن ماجنوس الثانى ملك السويد ، وبدا أنه قد كتب عليها ، بفضل الزواج والدم ، أن توحد العرشين اللذين تربط بينهما القرابة ، ولما قضى أبوها (١٣٧٥) أسرعت إلى كوبنهاجن ومعها ابنها أولاف وعمره خمس سنوات ، وأقنعت الناخبين فى البارونات ورجال الدين أن يقبلوا ابنها ملكاً على أن تكون هى نائبة الملك . وبموت زوجها (١٣٨٠) ورث أولاف تاج النرويج ، ولما كان لا يزال فى العاشرة من عمره فقد أصبحت مرجريت هناك أيضاً نائبة ملك ، وكانت إذ ذاك فى السابعة والعشرين من عمرها . وأذهلت حكمتها وحياتها وشجاعتها معاصريها ، الذين ألفوا عدم الكفاءة . أو العنف فى الحكام من الرجال ، وأيد السادة الإقطاعيون فى الدنمرك والنرويج مفاخرين ، هذه الملكة الرشيدة الخيرة ، وهم الذين تسلطوا على ملوك كثيرين قبل ذلك . حتى إذا بلغ أولاف سن الرشد (١٣٨٥) غنمت له دبلوماسيتها ، حق الجلوس على عرش السويد . ولكنه مات بعد ذلك بسنتين ، فظهر أن خططها التى وضعتها فى فراسة وبعد نظر ، لتوحيد

اسكنديناوه قد حبطت بموته : ولكن المجلس الملكى فى الدنمارك ، لم يجد وريثاً ذكراً يضارع « مارجريت » فى القدرة على إقرار الأمن والسلام ، فتجاوز القوانين الاسكنديناوية ، التى تعارض حكم المرأة ، وانتخبها نائبة ملك (١٣٨٧) . وتقدمت إلى أسلو ، فاختيرت نائبة ملك النرويج مدى الحياة (١٣٨٨) ، وبعد ذلك بعام ، أقصى النبلاء السويديون ملكاً لم يرضوا عنه ، ونصبوها ملكة عليهم . وأقنعت العروش الثلاثة كلها بأن تبايع أريك أكبر أبناء أختها ، ولياً لعهودها . واستدعت عام ١٣٩٧ مجالس الدول الثلاث إلى كالمر فى السويد ، وهناك أعلن أن السويد والنرويج والدنمرك قد اتحدت إلى الأبد ، تحت سلطة حاكم واحد ، على أن تحتفظ كل واحدة منها بعاداتها وقوانينها . وتوج أريك ملكاً ، بيد أنه كان لا يزال فى الخامسة عشرة ، فاستمرت مارجريت نائبة ملك إلى أن ماتت (١٤١٢) . ولم يحظ حاكم أوربى آخر فى ذلك العصر بمملكة متسعة كهذه ، أو بحكم موفق كحكمها .

ولم يرث ابن أختها حكمتها ، فجعل أريك الاتحاد ، يصبح فى الحقيقة إمبراطورية دنمركية ، بمجلس فى كوبنهاجن يحكم الدول الثلاث . واضمحلت النرويج فى هذه الإمبراطورية ، وفقدت زعامتها الأدبية التى احتفظت بها من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر . وفى عام ١٤٣٤ تزعم انجلبركت انجلبركسن ثورة السويد على سيادة الدنمرك ، وجمع فى أربوجا (١٤٣٥) مجلساً قومياً من النبلاء والأساقفة وملاك الأراضى وممثلى المقاطعات ، وأصبح هذا المجلس المتوسع فى تكوينه ، وقد استمر خمسمائة سنة ، ريخستاج السويد الحالى . وانتخب انجليبروكس وكارك كنتسن نائبى ملك . واغتيل بطل الثورة بعد ذلك بعام ، وحكم كنتسن السويد نائب ملك ، ثم ملكا ، إلى أن مات (١٤٧٠) .

وبدأ فى الوقت نفسه كريستيان الأول (١٤٤٨ — ١٤٨١) أسرة

ألدنبرج الحاكمة ، التي حكمت الدنمرك إلى عام ١٨٦٣ والنرويج إلى عام ١٨١٤ . ودخلت أيسلنده فى حكم الدنمرك إبان نيابة مرجريت عن الملك (١٣٨١) . وقد ولى مجد تاريخ الجزيرة وأدبها ، ولكنها استمرت تقدم إلى أوربا التي تمزقها الفوضى ، درسا لم يلتفت إليه عن كفاءة الحكومة ونظامها .

وكانت أقوى ديمقراطية فى العالم وقتذاك مستقرة فى سويسرا . ونجد أن البطولة فى تاريخ هذه البلاد المنيعة كانت مجسمة فى الولايات ، وفى عام ١٢٩١ بدأت الولايات التي تكتنفها الغابات ، ويتحدث أهلوها الألمانية وهي أورى وشوتز وانترفالدن ، تؤلف اتحاداً من أجل الدفاع المشترك . وأحرز الفلاحون السويسريون انتصاراً تاريخياً على جيش آل هبسبرج فى مورجارتن (١٣١٥) ، فاحتفظ الاتحاد باستقلال حقيقي بينما اعترف بالسيادة الإسمية للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأضيفت إلى الاتحاد ولايات جديدة : لوسرن (١٣٣٢) وزيورخ (١٣٥١) وجلاروس وزج (١٣٥٢) وبرن (١٣٥٣) ، وأصبح اسم ولاية شوتز يطلق على الجميع عام ١٣٥٢ . وشجعت الحدود الجغرافية على الاستقلال الذاتى وقبل الاتحاد اللغات الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية وطرائق كل منها تبعا لانحدار أوديتها ومجارى أنهارها ، فاحتفظت كل ولاية بإصدار قوانينها بوساطة مجالس ينتخبها المواطنون . وتراوح تمثيل الحرية بين ولاية وأخرى ومن عصر إلى عصر ، ولكن جميع الولايات خضعت لسياسة خارجية موحدة وحل منازعاتها بوساطة مجلس اتحادى . ومع أن الولايات يحارب بعضها بعضا ، فإن دستور الاتحاد أصبح وظل مثالا موحيا بالاتحاد — اتحاد أقاليم تستمتع بالحكم الذاتى تحت أجهزة وقوانين اختبرت بحرية .

وتطلب دفاع الاتحاد عن حريته تدريبا عسكريا لجميع الذكور وخدمة عسكرية عند الطلب ، يتقدم بها جميع الرجال بين العاشرة والستين وأصبح

المشاة السويسريون ، المسلحون بالحراب والمدربون على النظام الدقيق ، أكبر جيش مخوف باهظ التكاليف فى أوربا . ورأت الولايات أن تقتصد فى دخلها ، فأجرت فرق جيشها للدول الأجنبية ، وجعلت « البسالة السويسرية حينا من الزمن سلعة تجارية . ولبث الأمراء النمسويون ، يدعون لأنفسهم حقوقا إقطاعية فى سويسرا ، وحاولوا الحصول عليها أحيانا ، فقضى على هذا الادعاء فى سمباتش (١٣٨٦) وتافلس (١٣٨٨) ، بمعارك تستحق الذكر فى تاريخ الديمقراطية . وأكدت معاهدة كنستانس عام ١٤٤٦ مرة أخرى ، حرية سويسرا الفعلية وولاءها الأسمى للإمبراطورية الفعلية .

٣ – ألمانيا تتحدى الكنيسة

كانت ألمانيا أيضا اتحاداً ، ولكن الأجزاء التى تألفت منها ، لم تكن تحكم بوساطة مجالس ديمقراطية ، وإنما بوساطة أمراء مدنيين أو دينيين ، يعترفون بولاء محدود ، فقط لرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وحكم بعض هذه الولايات مثـل بفاريا وونتبرج وثورنجيا وهى وناسو وميس وسكومونيا وبرندنبرج وكارنثيا والنمسا والبلتنيان — دوقات أو كونتات ، أومرغريفات(*) أو غيرهم من السادة المدنيين ، بينما خضعت ولايات أخرى — مثل مجديبرج وميتز وهال وبامبرج وكلونيا وبريمن وستراسبورج وسالزبورج وتريبه وبازل وهلديشين — من الناحية السياسية بدرجات متفاوتة ، لأساقفة أو رؤساء أساقفة ، وما وافت سنة ١٤٦٠ ، حتى كانت حوالى مائة مدينة قد حصلت على مواثيق تحررها بالفعل من حكامها المدنيين أو الدينيين . ويوجد فى كل إمارة مندوبون عن الطوائف الثلاث — النبلاء ورجال الدين والعامة — يجتمعون بين حين وآخر فى مجلس إقليمى ، يحدد عن طريق المال سلطة الأمير . وأرسلت الإمارات والمدن الحرة ممثلين لها إلى الريخستاج أو المجلس الإمبراطورى . وكان يدعى مجلس خاص هو كرفير ستنتاج

(*) المرغريفات : لقب ألمانى .

أو مجلس المنتخبين ، لاختيار الملك ، وجرى العرف أن يتألف من ملك بوهيميا ودوق ساكسونين ومارجريف Margrave براندنبرج وكونت بلاتين ورؤساء أساقفة منيز وترير وكلونيا . وكان اختيارهم يسفر عن تنصيب ملك ، ويصبح رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عندما يتوجه البابا ، ومن ثم فلقبه قبل التتويج هو « ملك الرومان » والأصل أن يتخذ عاصمة فى نورمبرج ، وكثيراً ما يتخذها فى مكان آخر ، حتى فى براغ . وارتكز سلطانه على العرف والسمعة ، أكثر من اعتماده ، على الممتلكات أو القوة ، وليست له من الأرض سوى أملاكه الخاصة باعتباره أميراً إقطاعياً مثل كثيرين غيره ، وكان يعول على ريخستاج أو الكوفيرستنتاج للحصول على الأموال لإدارة حكومته أو شن الحرب ، .ولقد فرض هذا التعويل على رجال قادرين من أمثال شارل الرابع أو سيجسمند ، سقوطاً مهيناً فى الشئون الخارجية . وقضى البابوات الأقوياء فى القرن الثالث عشر على أسرة هوهنستوفن ، فأنهك ذلك الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى أنشأها (٨٠٠) البابا ليو الثالث وشارلمان . أما فى عام ١٤٠٠ فقد كانت ارتباطاً واهياً من ألمانيا والنمسا وبوهيميا وهولنده وسويسرا .

وبعث الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ، عندما أختار يوم واحد من عام ١٣١٤ ، فريقان متنازعان من المنتخبين لويس أمير بافاريا وفردريك صاحب النمسا ، ملكين متنافسين واعترف البابا يوحنا الثانى والعشرون ، من مقره البابوى فى الأفنيون بالاثنين كملكين ، ولم يجعل أحدهما إمبراطوراً ، واحتج بأنه ما دام البابا ، لا يملك إلا أن يتوج الملك إمبراطوراً ، فيجب أن يسمح له ، أن يحكم على صحة الانتخاب ، وقال الحبر الطموح أكثر من ذلك ، بأن إدارة شئون الإمبراطورية يجب أن تسند إلى البابوية بين وفاة إمبراطور وتتويج آخر . وآثر لويس وفردريك الاحتكام إلى الحرب . وانتصر لويس على غريمه وأسره فى موهلدورف (١٣٢٢) ومن ثم ادعى

لنفسه السلطة الإمبراطورية الكاملة . فأمره يوحنا أن يجرد نفسه من جميع الألقاب والسلطات ، وأن يمثل أمام المحكمة البابوية ليتلقى الحكم بعصيان الكنيسة . فأبى لويس وأصدر البابا قراراً بحرمانه (١٣٢٤) وطلب إلى جميع المسيحيين فى الإمبراطورية أن يخرجوا عن طاعته ، وحكم بحرمان كل إقليم يعترف به ملكا عليه . فتجاهلت معظم ألمانيا هذه المراسيم ، لأن الألمان كانوا كالإنجليز ، يعدون باباوات أفنيون ، خدامها وحلفاء لفرنسا . ولقد بدأ الناس يرون أنفسهم ، إبان ضعف العقيدة والبابوية المضطرد ، وطنيين أولا ومسيحيين بعد ذلك . واضمحلت الكاثوليكية ، التى تتجاوز لقومية ، ونشأت القومية وهى بروتستانتيلية .

وحصل لويس فى هذا المأزق على المعونة والتأييد من حلفاء متباينين . ووسمت نشرة البابا يوحنا «Pope John's bull Cam inter nonnulla» (١٣٢٣) بالهرطقة ، القول بأن المسيح والرسل أبوا تملك العقار ، وأنه وجه محكمة التفتيش ، لتستدعى أمام جلساتها « الفرنسسكان الروحانيين » الذين أكدوا هذا الرأى . ورد كثير من الإخوان الرهبان ، الاتهام بالهرطقة على البابا ، وعبروا عن فزعهم المقدس من ثروة الكنيسة ، ووصف بعضهم الحبر العجوز بأنه خارج على المسيحية ، وقاد ميـــكل سيزينا ، رئيس الروحانيين ، أقلية كبيرة منهم ، إلى التحالف الصريح مع لويس ملك بافاريا (١٣٢٤) فتشجع لويس بتأييدهم ، وأصدر فى مدينة ساشزينها وزن منشوراً ضد « يوحنا الثانى والعشرين » ، الذى يدعى أنه بابا ، واتهمه بأنه سفاح نصير للظلم ، صمم على أن يقوض أركان الإمبراطورية ، وطالب بأن يعقد مجلس عام ، يحاكم البابا بتهمة الهرطقة .

ومما شجع الملك أكثر من ذلك ، ظهور أستاذين من جامعة باريس ، فى بلاطه بنورمبرج وهما مرسيليوز من بادوا وجون من جانداں — وليس من شك فى أن كتابهما « دفاع عن السلام » قد هاجم بابوية أفنيون ، فى عبارات

أدخلت السرور على الملك : «ما الذى تجده هناك غير حشد من تجار الرتب الدينية من كل صقع ؟ وماذا غير صخب المتلاعبين بالقضايا ، . . . وامتهان الرجال الشرفاء ؟ أما إنصافهم الأبرياء فيسقط فى الحضيض ، إلا إذا اشترى بالمال ، وردد المؤلفان أقوال الوعاظ الألبجنيين والولدنيزيين فى القرن الثالث عشر ، وسبقا لوثر بمائتى سنة ، وكانت حجتهما أن تعتمد المسيحية ، كلية على الكتاب المقدس . ويجب أن يدعى مجلس عام للكنيسة لا بوساطة البابا ولكن بوساطة الإمبراطور ، وينبغى أن يحصل على موافقة الأخير فى انتخاب أى حبر ، والبابا مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر ، عليـــه أن يخضع للإمبراطور .

وابتهج لويس بذلك، وصمم ليذهبن إلى إيطاليا ، وليتوجن إمبراطوراً ، بوساطة أهل روما . وخرج فى أوائل عام ١٣٢٧ على رأس جيش صغير ، وبعض الفرنسيسكان والفيلسوفين ، اللذين استخدمهما فى تأليف تصريحاته العامة . وأصدر البابا فى أبريل نشرات جديدة ، تقضى بالحرمان على جون ومارسيليوز ، وأمر لويس أن يترك إيطاليا . ولكن الفيكونت الحاكم رحب به فى ميلان ، وتسلم التاج الحديدى ، باعتباره الملك الاسمى للمبارديا . وفى السابع من يناير عام ١٣٢٨ ، دخل روما ، وسط تهليل ، جمهور ينكر إقامة البابا فى أفنيون . واستقر فى قصر الفاتيكان ، واستدعى مجلساً شعبياً للاجتماع فى الكابيتول . وظهر أمام الجمع الحاشد مرشحاً لتقلد التاج الإمبراطورى وأبدى الجمع موافقته الصاخبة ، وفى السابع عشر من يناير وضع على رأسه التاج المنشود ، وكان الذى وضعه هو المأمور سكبارا كولونا — عدو البابوية العنيد ، الذى حارب قبل ذلك بربع قرن تقريباً بونيفاس الثامن وتوعده بالموت ، والذى رمز ثانية فى لحظة ، إلى تحدى الدولة الناشئة ، للكنيسة الآخذة فى الضعف .

ولم يدر فى خلد البابا يوحنا قط ، وقد بلغ الثامنة والسبعين — أن يهزم -

فأعلن حرباً صليبية ليجرد لويس من كل سلطة ، وأمر الرومان ، أن يطردوه من مدينتهم ؛ حتى لا يقعوا تحت طائلة قرار الحرمان ، وأن يعودوا إلى طاعة البابوية . فأجاب لويس بعبارات تذكر بسلفه هنرى الرابع المحروم من غفران الكنيسة ، فعقد اجتماعاً شعبياً آخر ، وأصدر أمام المجمع مرسوماً إمبراطورياً ، يتهم البابا بالهرطقة والطغيان ، ويجرده من منصبه الكهنوتى ، وحكم عليه بعقوبة ، تقررها السلطات الزمنية . وتألفت لجنة ، من رجال الدين ومن العلمانيين ، بتوجيه لويس ، فعينت بيتر الكورفارى منافساً على كرسى البابوية . وعكس [لويس] تقاليد ليو الثالث وشارلمان ، فوضع التاج البابوى المثلث على رأس بيتر ، ونادى به بابا نيقولاس الخامس (١٢ مايو ١٣٢٨) . ودهش العالم المسيحى ، وانقسم إلى معسكرين ؛ على نفس الأسس تقريباً التى قسمت أوربا بعد الإصلاح الدينى .

وقلبت الأحداث المحلية الصغيرة الموقف رأساً على عقب . فقد عين لويس مارسيوز من بادوا مديراً روحانياً للعاصمة ، فأمر هذا الرجل ، القساوسة القليلين الذين بقوا فى روما ، أن يحتفلوا بالقداس كالمعتاد ، على الرغم من قرار الحرمان ، ثم عذب بعض الذين رفضوا ، وعرّض راهباً أوغسطينيا لجب الأسود على الكابيتول ؛ فأحس كثير من الرومان بأن هذه الأعمال تحمل الفلسفة فوق طاقتها . ولم يتعلم الإيطاليون قط ، حب التيوتون ، فلما اغتصب بعض الجنود الألمان ، الطعام من الأسواق ، دون أن يدفعوا له ثمناً ، شبت الفتن . واحتاج لويس إلى المال لينفق على جنده وحاشيته ، ففرض جزية مقدارها عشرة آلاف فلورن على المدنيين ، ومبالغ مماثلة على رجال الدين واليهود . وبلغت المعارضة حداً من الخطورة جعل لويس يرى أن الوقت قد حان ، ليعود إلى ألمانيا . فبدأ فى الرابع من أغسطس عام ١٣٢٨ ، انسحابه عبر إيطاليا . وفى اليوم التالى احتلت الكتائب البابوية روما ، وخربت قصور الذين أيدوا لويس من الرومان ، وصودرت

أملاكهم لحساب الكنيسة . ولم يبد الناس مقاومة ، بل عادوا إلى عباداتهم وجرائمهم .

واطمأنت نفس لويس فى بيزا بلقاء نصير جديد ، هو أشهر فيلسوف فى القرن الرابع عشر . فقد فر وليام الأوكهامى من سجن بابوى فى أفنيون ، وعرض على الإمبراطور خدماته قائلا (عن رواية غير محققة) « دافع عنى بسيفك وسأدافع عنك بقلمى » . فأصدر كتابات قوية ، ولكنه لم يستطع أن ينقذ الموقف . فقد أقصى لويس ، جميع العناصر الحاكمة فى إيطاليا ، وكان أنصاره من الجيبلين ، يأملون أن يحكموا شبه الجزيرة لمصلحتهم باسمه ، فأحزنهم أن يجدوه يزعم لنفسه السلطات والمصالح جميعها ، يضاف إلى ذلك أنه جعلهم يفرضون ضرائب باهظة لخزانته . وكانت قواته ضئيلة لا تناسب مزاعمه ، فانصرف عنه كثير من الجيبلين حتى للفيكونت ، وعقدوا مع البابا صلحاً بالشروط التى قدروا عليها . وترك منافس البابا ، لموارده فاستسلم لضباط البابا الذين قبضوا عليه ، وسيق أمام يوحنا الثانى والعشرين ، وحبل المشنقة حول عنقه ، فألقى بنفسه على قدمى البابا مستغفراً (١٣٢٨) . فعفى عنه يوحنا ، وعانقه كضال يعود إلى الكنيسة ، وحبسه مدى الحياة .

وعاد لويس إلى ألمانيا ، وأرسل الوفود مراراً إلى أفنيون ، تعلن سحبه لقراراته السابقة واعتذاراته ، من أجل عفو البابا واعترافه . فرفض يوحنا ، واستمر فى الحرب إلى أن مات (١٣٣٤) . واستعاد لويس بعض نفوذه ، عند ما بدأت إنجلترا حرب المائة عام ، ورغبت فى محالفته ، واعترف إدوارد الثالث بلويس إمبراطوراً ، وحيا لويس بدوره ، إدوارد ، باعتباره ملكاً لفرنسا . فاغتنم مجلس من الأمراء والمطارنة الألمان (فى ١٦ يوليوسنة ١٣٣٨) فرصة محالفته دولتين كبيرتين ضد البابوية ، وقرر ، أن اختيار ملك ألمانى بوساطة الناخبين الألمان ، لا تبطله سلطة أخرى ، وأعلن مجمع فى فرنكفورت الموافقة على المبن (٣ أغسطس ١٣٣٨) أن قرارات البابا ضد لويس

ملغاة وباطلة . وحكم بأن لقب الإمبراطور وسلطته ، متحفاً من الناخبين الإمبراطوريين ، ولا يحتاجان إلى إقرار من البابا . وتجاهلت ألمانيا وإنجلترا احتجاجات البابا بندكت الثـانى عشر ، وبذلك سارا خطوة نحو الإصلاح الدينى .

وثمل لويس بالنجاح ، فقرر أن يطبق إلى أقصى حد نظريات مارسليوز ، وأن يمارس السلطة الدينية والدنيوية معاً ، فصرف من عينهم البابا عن صدقات الكنيسة ، وعين رجاله فى مكانهم ، ووضع يده على الأموال التى جمعها جباة البابا من أجل حرب صليبية ، ونسخ زواج مارجريت أميرة كارينثيا — وهى وارثة معظم التيرول — وزفها إلى ابنه ، على الرغم مما بينه وبينها من قرابة تجعل الزواج منها من ناحية الشريعة الكنسية باطلا . فأقسم الزوج المرفوض وهو أخوه الأكبر شارل كما أقسم أبوهما چون ملك بوهيميا أن ينتقما منه ، ورأى كليمنت السادس ، الذى أصبح بابا عام ١٣٤٢ ، فى هذا فرصة ، ليتخلص من العدو العنيد للسدة البابوية . واستطاعت الدبلوماسية البارعة أن تكتسب ناخباً بعد آخر ، إلى الرأى الذى يقول ، إن السلام والأمن ، لا يعودان إلى الإمبراطورية ، إلا بخلع لويس وتنصيب شارل ملك بوهيميا إمبراطوراً ، وتعهد شارل بطاعة أوامر البابا ، فى مقابل تأييده . وفى يوليو عام ١٣٤٦ اجتمع مجلس ناخبين فى رنز ، وقرر بالإجماع ، أن يكون شارل ملكاً على ألمانيا . وأخفق لويس فى أن يجد ، أذناً صاغية فى أفنيون لإلحاحه بالخضوع للبابا ، فأعد العدة للحرب حتى الموت دون عرشه ، وكان أثناء ذلك مشغوفاً بالصيد وقد بلغ الستين من عمره ، وسقط عن جواده وقتل (١٣٤٧) .

وأحسن شارل الخامس الحكم ، ملكاً وإمبراطوراً . وكرهه الألمان لأنه جعل براغ عاصمة الإمبراطورية ، ولكنه أصلح الإدارة فى ألمانيا ، كما فعل فى موطنه ، وأمن التجارة والمواصلات ، وأنقص الضرائب ، واحتفظ بعملة

مستقرة ، وأمد الإمبراطورية كلها بجيل من الناس ينعم بسلام نسبي . وفى عام ١٣٥٦ ، نال شهرة فيها قدر من المغالطة فى التاريخ ، بإصدار سلسلة من القوانين عرفت « بالنشرة البابوية الذهبية » — وإن كانت قليلا من كثير من الوثائق تحمل الخاتم الإمبراطورى الذهبي . لعله اقتنع بأن غيابه الطويل عن ألمانيا يتطلب مثل هذا الإجراء ، فقد منح الناخبين السبعة سلطات تكاد تمحو سلطة الإمبراطور . وكان على الناخبين أن يجتمعوا سنوياً ليصدروا التشريعات الخاصة بالمملكة ، والملك أو الإمبراطور ، مجرد رئيس لهم ويدهم المنفذة . وكانوا فى ولاياتهم يملكون السلطة القضائية الكاملة ، وملكية المناجم والمعادن الكامنة فى الأرض ، والحق فى ضرب السكة الخاصة بهم ، وزيادة الدخل إلى جانب الحق المقيد فى إعلان الحرب وإبرام معاهدات السلام . وكانت هذه النشرة بمثابة إقرار ثانوى للحقائق الواقعة ، فحاول شارل أن ينشئ بوساطتهم اتحاداً تعاونياً من الإمارات . ومع ذلك فقد شغل الناخبون بشئونهم الإقليمية ، وأهملوا مسئولياتهم باعتبارهم يؤلفون مجلساً إمبراطورياً ، حتى أن ألمانيا ظلت إمبراطورية بالإسم فقط . وقد هيأ الاستقلال المحلى للناخبين على هذا النحو لناخب سكسونيا أن يحمى لوثر ، وما أعقب ذلك من انتشار المذهب البروتستانتى .

وحافظ شارل فى شيخوخته على ولاية العهد الإمبراطورى لابنه بوساطة الرشوة بالجملة (١٣٧٨) وتحلى ونسسلوس الرابع ببعض الفضائل ، ولكنه كان يدمن الشراب ويحب موطنه الأصلى ، فكره الناخبون منه ذلك وخلعوه (١٤٠٤) . مؤثرين عليه روبرت الثالث الذى يخلف أثراً يذكر فى التاريخ . واختير سيجموند أمير لكسمبورج ملكا على المجر (١٣٨٧) وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وانتخب عام ١٤١١ ملكا على الرومان وسرعان ما حصل على لقب الإمبراطور . وكان رجلا ذا ملكات منوعة ، جذابا ،

جميلا مغروراً وكريماً محبوباً وقاسياً فى بعض الأحيان وثقف لغات متعددة وكلف بالأدب لا يفضل عليه سوى النساء والسلطان . وربما مهدت نياته الطيبة له موضعاً صغيراً فى جهنم ، ولكن شجاعته كانت تخونه فى الأزمات . ولقد حاول مخلصا أن يصلح مساوىء الحكومة الألمانية ويقضى على أسباب ضعفها ، وأصدر بعض القوانين الصالحة ، ونفذ القليل منها ، بيد أن الناخبين أحبطوا مساعيه ، باستقلالهم الذاتى ومحافظتهم على ما ألفوه وعدم رغبتهم فى الإسهام بنصيبهم فى نفقات صد هجمات الترك المتقدمين . وأوقف فى أعماله الأخيرة ماله ونشاطه على محاربة الهوسيين فى بوهيميا . ولما توفى (١٤٣٧) بكت أوربا فيه ، رجلا كان يمثل التقدم الأوربى فترة من الزمن وإن أخفق فى كل شىء إلا الكرامة .

ولقد أوصى شارل الناخبين فى بوهيميا والمجر وألمانيا أن يختاروا زوج ابنته ، ألبرت أمير هبسبورج . ونعم ألبرت الثانى بالتيجان الثلاثة ، ولكنه مات بالدوسنطاريا قبل أن تتفتح قدراته ، فى حملة ضد الأتراك (١٤٤٠) . ولم يخلف ابناً ، ولكن الناخبين ، اختاروا للتاجين الملكى والإمبراطورى ، شخصاً آخر من آل هبسبورج هو فريدريك أمير ستيريا ، ومنذ ذاك وقع اختيارهم مراراً على أمير من آل هبسبورج ، حتى أصبح السلطان الإمبراطورى فى واقع أمره ، ملكاً وراثياً ، فى هذه الأسرة الموهوبة الطموح . وجعل فريدريك الثالث ، النمسا ، دوقية كبرى ، واتخذ آل هبسبورج فينا عاصمة لهم ، وأصبح المفروض أن يكون ولى العهد ، هو الدوق الأكبر للنمسا ، ودخلت الصفة الوراثية فى الأخلاق النمساوية والفيناوية كمقوم نسائى رشيق يمتزج بخشونة الشمال المذكرة فى النفس التيوتونية .

٤ — المتصوفة

لقد غرس القرنان الرابع عشر والخامس عشر بذور الإصلاح الديني : وكابد لويس ملك بافاريا وويكليف في انجلترا وهس في بوهيميا ، التجربة قبل لوثر وهنري الثامن وكالفن ونوكس وأصبحت ثورة رجال الدين المتزايدة في اسكندناوة والمعفاة من الضرائب عبئاً ثقيلا على الشعب والحكومة وزعم النقاد أن الكنيسة كانت تملك نصف أراضي الدنمرك ، ولها الحق الإقطاعي على كوبنهاجن نفسها .ونظر النبلاء بحسد مشئوم ، إلى أملاك لا يحميها إلا العقيدة بل إن المسيحيين المحافظين كانوا ضد الكهنوت . أما في سويسرا فقد كان الاستقلال الأشم للولايات تمهيداً لظهور زونجلي وكالفن . وفي عام ١٤٣٣ طردت مجدبرج ، كبير أساقفتها وكهانها ، وانتفضت بمبرج على حكم الأساقفة ، وحاصرت باسو أسقفها في قلعته . وفي عام ١٤٤٩ ، وجه أستاذ في جامعة أرفورت (حيث قدر للوثر أن يدرس) إلى البابا نيقولاس الخامس ، دفاعاً عن مجالس العامة باعتبارها أعلى سلطة من البابوات . وانتشرت أصداء من ثورة الهوسيين في بوهيميا المجاورة ، إلى ألمانيا بأسرها ، وحافظت الجماعات الولدنزية ، هنا وهناك ، سراً على الهرطقة القديمة والأطماع الشبيهة بالشيوعية . واتجه الورع نفسه إلى تصوف يقترب من الهرطقة .

وأجمع التصوف عند جوهانس إيكهارت ، مذهبا من مذاهب وحدة الوجود ، لا يعبأ بالكنيسة ، ويكاد يتجاهل القانون الديني المحدود . وكان هذا الراهب الدومينيكي على حظ من العلم جعل لقب « أستاذ » جزءا من اسمه . وصيغت كتاباته الفلسفية بلغة لاتينية متحذلقة ، ولو أنها كانت كل آثاره ، لما بلغ حظا من الشهرة أو الخطر . ولكنه كان يدعو بلغة ألمانيـة منظومة في ديره في كولونيا ، إلى مذهبه الجرىء في وحدة الوجود مما

عرضه لمحكمة التفتيش . واتبع ديونيس الأريوفاغيط(*) وجوهانز سكوتس ارجينا ، فجهد للتعبير عن حسه الغلاب بإله موجود فى كل مكان . وهذا الإله غير المحدود ، لم يتصوّره إيكهارت ، شخصا أو روحا ، ولكنه وحدة مطلقة خالصة . . . هوة بلا كيفية وبلا شكل ، للإله الصامت الواسع . . . حيث لا يرى قط خلاف ، لا أب ولا ابن ولا روح قدس ، حيث لا يوجد واحد فى داره ، ولكن حيث تكون جذوة النفس فى سلام أكثر مما تكون مع نفسها . ولا يوجد بصفة أساسية سوى هذا الإله الذى لا شكل له . . . " الله كل شىء ، وكل شىء هو الله . إن الأب ينجبنى بلا توقف ، فأكون ابنه . وأنا أقول أكثر من ذلك : إنه يُنْجِبُ فى ذاته ، وفى ذاته ينجبنى . والعين التى أرى بها الله هى العين ذاتها التى يرانى الله بها . . . وعينى وعين الله عين واحدة " .

وفى كل فرد قطعة من الله ، وعن طريقها تستطيع الاتصال به مباشرة وتستطيع أن تكون ذاته . لا عن طريق شعيرة الكنيسة ، ولا حتى عن طريق الكتاب المقدس ، ولكن عن طريق هذا الوعى الكونى وحده تستطيع النفس أن تقترب وأن ترى الله . وكلما تجرد الفرد من أغراضه الذاتية والدنيوية ، كلما أصبحت هذه الجذوة الإلهية أكثر شفافية وأحد بصرا حتى يكون الله والنفس واحد آخر الأمر ، و" نتحول كلية إلى الله " . فليست الجنة والأعراف والجحيم أماكن ، ولكنها أحوال النفس .. فالافتراق عن الله هو الجحيم ، والاتحاد معه هو الفردوس . واشتم كبير أساقفة كلونيا من هذه الأقوال رائحة الهرطقة ، فدعا إيكهارت للمحاكمة (١٣٢٦ فأكد الرجل صحة محافظته على العقيدة واقترح أن يحكم على أقواله باعتبارها مبالغات أدبية ، ومع ذلك فقد أدانه الأسقف . فاستأنف الراهب الحكم إلى

(*) قاضى بمحكمة يونانية عليا قديماً .

البـــابا يوحنا الثانى والعشرين ثم تخلص من المحرقة بالموت فى الوقت المناسب (١٣٢٧) .

وانتشر تأثيره على يد تلميذين دومينكيين عرفا كيف يحتفظان بمذهبه فى وحدة الوجود فى نطاق أمين . فقد عذب هانيريخ سوسو نفسه ، ست عشرة سنة ، فى زهادة صارمة ، وحفر اسم المسيح فى لحمه على قلبه ؛ وزعم أنه تلقى فى فمه دما من جراح المسيح ، « وألف » كتيبه فى الحكمة الخالدة » باللغة الألمانية . لأن الله كما قال ، أوحاه إليه بهذه اللغة . أما جوهانزتولر فقد وصف ديكهارت بأنه « أســتاذه الأقدس » ودعا فى ستراسبورج وبازل إلى مذهب الاتحاد الصوفى بالله . ونسب لوثر إليه كتابا عنوانه علم اللاهوت الألمانى ، وكان تأثير هذا الكتاب ، فيه عميقا ، ببساطة معتقده : الله ، المسيح ، الخلود .

ونظرت الكنيسة بشىء من الاهتمام إلى المتصوفة الذين تجاهلوا أغلب تعاليمها ، وأهملوا شعائرها وزعموا الوصول إلى الله بلا استعانة من القصص أو الأسرار المقدسة . وهنا نجد مبادئ الإصلاح الدينى بحكم الفرد على نفسه ، وكل إنسان فى ذاته قسيس ، وليس التبرير فى الأعمال الطيبة ولكنه فى العقيدة السامية . وفى رأى الكنيسة أن الإيحاءات الخارقة قد تأتى من الشياطين والمجاذيب كما تأتى من الله والقديسين ، وأن الأمر يحتاج إلى إرشاد صارم يحفظ الدين من التحلل إلى فوضى تتألف من ديانات وعلوم دين فردية . ولا يزال هذا الخلاف فى الرأى يقسم المخلصين .

٥ — الفنون

طال مكث الطراز القوطى فى ألمانيا ، بعد أن أخلى مكانه ، فى إيطاليا وفرنسا ، لمؤثرات عصر النهضة الكلاسية بأمد طويل .وهو الآن يتوج المدن المزدهرة فى أوربا الوسطى بكنائس ، لم تبلغ فى جلالها المهيب ما بلغته المزارات العظيمة فى فرنسا ، وهى مع ذلك ترفع الروح بجمالها الهادئ

وروعتها غير المتكلفة . ولقد بدأت إسالا تشيد كاتدرائيتها عام ١٢٨٧ ، وفرايبورج السكسونية عام ١٢٨٣ ، وأولم عام ١٣٧٧ (وبها أعلى برج قوطى فى العالم) وشرعت فينا فى بناء كاتدرائية القديس ستيفن ١٣٠٤ ، وستروتزيند كنيسة السيدة مريم عام ١٣٨٢ ، ودانزج كنيسة أخرى للسيدة مريم عام ١٤٢٥ . وأضافت أخن وكلونيا موضـــع المرتلين فى كاتدرائيتهما ، وأتمت ستراسبورج « الموسيقى المجمدة » الخاصة بكاتدرائيتها عام ١٤٣٩ ، وشيدت أكزانتن كنيسة القديس فيكتور الجامعية الأنيقة ، وقد خربتها الحرب العالمية الثانية . واعتزمت نورمبرج بأربع كنائس مشهورة ، تصقل التقوى بالفن والذوق . وتلبين كنيسة لورنز (١٢٧٨ — ١٤٧٧) إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ببابها الفخم ونافذتها المستديرة المتلألئة . وكانت كاتدرائية القديس (١٣٠٤ — ١٤٧٦) ستيفن معلماً محببا ، فإن سقفها المنحدر يغطى صحن الكنيسة وممشيها بقنطرة واحدة ، وأسقطه إله الحرب عام ١٩٤٥ . وأعيـــد عام ١٣٠٩ بناء مماشى كنيسة سبالدوس وأقيم فيها عام ١٣٦١ مكان جديد للمرتلين ، وتم حوالى عام ١٩٤٨ بناء أبراجها الغربية وركب بين عامى ١٣٦٠ ، ١٥١٠ زجاجها الملون البديع . وزودت كنيسة السيدة مريم (١٣٥٥ — ١٣٦١) ، بدهليزها المزين بكثير من التماثيل ، وأصبحت أثراً بعد عين فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه ، وفى كل يوم عند الظهيرة تنحنى بلا كلل تماثيل الناخبين الأربعة ، فى الساعة المشهورة بالواجهة أمام شارل الرابع ، اعترافا بجميل دستوره المشهور . وكان فن النحت لا يزال ساذجا ، بيد أن الكنائس فى برسلاو وهالجارتن وكنيسة سيبالدوس فى نورمبرج ، كانت تتلقى تماثيل خشبية أو حجرية للعذراء من بعض النبلاء .

ولم تجمل المدن كنائسها فحسب وإنما جملت أيضا مبانيها العامة وحوانيتها ودورها . وقامت وقتذاك تلك الدور ، هرمية السقف المعرش نصفها

بالخشب ، التى تكسب المدن الألمانية ، فتنة مشوقة توحى بجو القرون الوسطى ، للعيون العصرية المثالية . وكانت « دار المجلس مركز الحياة المدنية ، وهى ملتقى النقابات الكبيرة أحياناً ، وقد تحمل حوائطها صوراً جدارية ، وكانت أعمال الخشب فيها تحفر عادة بما عرف عن التيوتون من عزم وقوة . وللبهو الكبير فى دار المجلس بمدينة بريمن (١٤١٠ – ١٤٥٠) سقف من جذوع الخشب المنقوش ، وسلم محوى بأعمدة وحاجز من الخشب المنقوش ، وثريات مزخرفة على شكل سفن . ولقد خربت دور المجالس الآتية فى الحرب العالمية الثانية : مجلس كلونيا (١٣٦٠ – ١٥٧١) عقد فيه الاجتماع العام الأول للاتحاد الهنسياتى ، ومجلس منستر (١٣٣٥) ، حيث أبرمت معاهدة وستفاليا ، ومجلس برنزفيك وهى من دور القرن الرابع عشر من المجالس البلدية التى على الطراز القوطى ، وفرنكفورت – على – المين (١٤٠٥) حيث دعا الناخبون إمبراطوراً جديداً لتناول طعام الغداء . وفى ماريلبورج ، شيد أشياخ الشعب التيوتونى قصرهم الألمانى الضخم (١٣٠٩ – ١٣٨٠) . وقد واجهت دار البلدية كنيسة سيبالدس فى نورمبرج ، وشيدت (١٣٤٠) لكى تسع جميع أعضاء ريشستاج الإمبراطورية ، ثم رمم ست مرات ، فلم يبق منه إلا القليل من طابع القرون الوسطى فى الشكل . وأقام هينرتش بارلو ، وهو مثال من براج ، فى ميدان السوق أمام كنيسة العذراء ، النبع الجميل (١٣٦١) الذى تكثر فيه تماثيل أبطال وثنيين ويهود ومسيحيين وتجسم نورمبرج فى القرون الثلاثة بين عامى ١٢٥٠ ، ١٥٥٠ بتماثيلها وكنائسها وعمارتها المدنية ، الروح الألمانى فى أوجه وكماله . وكانت طرقاتها الملتوية فى أغلبها ضيقة غير مرصوفة ، ومع ذلك فقد كتب بابا المستقبل بيوس الثانى عن نورمبرج .

« عندما يأتى المرء من فرانكونيا السفلى ، ويرى هذه المدينة المجيدة ، فإن فخامتها تبدو عظيمة بحق . فإن دخلها ، تأكدت مشاعره الأولى بجماله

الطرقات وتناسب المنازل ، والكنائس . . جديرة بالعبادة جدارتها بالإعجاب . وتسيطر القلعة الإمبراطورية بشموخها على المدينة ، وكأنما بنيت دور نواب المقاطعة للأمراء . والحق أن ملوك اسكتلندة يسرهم أن يسكنوا بيوتاً مترفة كالتي يسكنها المواطن العادى فى نورمبرج » .

أما الفنون الصناعية الصغرى والصناعية فى المدن الألمانية ، على الخشب والعاج والنحاس والبرونز والحديد والفضة والذهب ، فقد بلغت وقتذاك النضج الكامل لنموها فى القرون الوسطى . وأنتج الفنانون والنساجون أقمشة مزركشة رائعة تعلق على الحوائط ، كما مهد النقاشون على الخشب الطريق لديرر وهولبين ، وزين المنمنمون المخطوطات عشية ظهور الطباعة على يد جوتنبرج ، ونقش العاكفون على زخرفة الخشب ، الأثاث الفخم ، وصاغ سباكو الحديد ، للكنائس ، فى القرن الخامس عشر ، نواقيس لا مثيل لها فى رخاصة حليها . ولم تكن الموسيقى فنا فحسب ، ولكنها كانت نصف حياة الفراغ فى المدن . ومثلت نورمبرج وغيرها من المدن حفلات تنكرية عظيمة تتألف من التمثيليات والأغانى الشعبية . ولقد عبرت الأغنية الشعبية عن أحاسيس الشعب الدينية أو الغرامية . وشنت الطبقات الوسطى هجوماً جماعياً على مشكلات تعدد الأنغام ، ونافست النقابات فى تأليف فرق الغناء الجماعى الضخمة ، وأخذ القصابون والدباغون وسباكو النواقيس وغيرهم من الرجال الأقوياء يتبارون للحصول على جائزة المغنى الأول فى دورات إنشادية صاخبة وأسست أول مدرسة للمغنيين الأوائل فى مينز عام ١٣١١ ، ونشأت غيرها فى ستراسبورج وفرنكفورت على المين وويرزبرج وزيورخ وأوجزبرج ونورمبرج وبراغ . أما الطلاب الذين ينجحون فى فى الحصول على الأجازات الأربع وهى دارس وصديق مدرسة وشاعر ومغن فيمنحون لقب أستاذ . وهبط العنصران الرومانى والمثالى إلى الأرض عند

النسبيين(*) لما حمل نواب المقاطعات الألمان الأغنية ، واقعيتهم الشهوانية .

وإذا سيطرت الطبقة التجارية على المدن ، فإن جميع الفنون ما عدا عمارة الكنائس ، تتخذ اتجاها واقعيا . وكان الجوباردا ورطبا في الغالب لا يشجع على العرى ، ولم تجد عبادة الجسم أو الكبرياء الجسمى موطناً ملائماً هنا كما كان الحال فى إيطاليا إبان عصر النهضة أو فى بلاد الإغريق . ولما رسم كونراد وتز الكنستانسى « سليمان وملكة سبأ » ألبسهما وكأنهما يعيشان على جبال الألب فى فصل الشتاء . ومع ذلك فقد كان فى حوالى عشرة مدن مدارس تصوير فى القرن الخامس عشر : ألم وسالزبرج وفرنكفورت وأوجزبرج وميونخ ودرستاد وبازل وأخن ونورمبرج وهمبورج وكولمبار وكولونيا ، وبقيت إلى الآن نماذج من هذه المدارس جميعاً ونحن نقرأ فى أخبار ١٣٨٠ : «كان فى كولونيا فى هذا الوقت مصور مشهور اسمه ولهلم ، لا يوجد له مثيل فى طول البلاد وعرضها . ولقد رسم رجالا ببراعة يخيل للرائى معها أنهم أحياء » وكان الأستاذ ولهيلم واحدا من كثيرين « على الفطرة » . ولقد أنشأ الأستاذ برترام والأستاذ فرانك وأستاذ سانت فيرونيكا وأستاذ مذبح هسترباكر — تحت التأثير الفلمنكى فى الغالب نظاما للتصوير المشترك فى ألمانيا ، ورسموا موضوعات الإنجيل التقليدية بعاطفة دينية ، يمكن إرجاعها إلى إيكهارت والمتصوفة الألمان الآخرين .

وتنتهى بالمصور ستيفن لوكنر ، الذى مات فى كولونيا عام ١٤٥١ ، هذه المرحلة التمهيدية للتطور ، وبذلك نصل إلى أوج المدرسة الأولى . وتعد صورته « عبادة المجوس » مفخرة كاتدرائية كولونيا ، وهى تضارع معظم الصور التى أنشئت قبل منتصف القرن الخامس عشر ؛ ففيها عذراء جميلة متواضعة معتزة بنفسها فى وقت واحد ، وطفـل مبتهج وحكماء الشرق وهم ألمانيو السحنة ولكنهم حكماء بحق . وتأليفها تقليدى ، وتلوينها ناصع بالأزرق

(*) النسبيون هم الشعراء الألمان الغنائيون الذين شاع مذهبهم من ١١٥٠ — ١٣٥٠ م .

والأخضر والذهبي . وفى « عذراء وردة التكعيبة وعذراء البنفسج » ، صورت الأمهات الشواب المثاليات الألمانيات ، ذوات الجمال الرقيق الرصين. بكل ما فى فن القرون الوسطى من حرْفية ، تتجه بوضوح إلى التجديد . فقد كانت ألمانيا على عتبة أعظم عصورها .

٦ – جوتنبرج

ما الذى وضع نهاية للعصور الوسطى؟ أسباب كثيرة أخذت تعمل خلال ثلاثة قرون : فشل الحروب الصليبية ، وزيادة معرفة أوربا الناهضة بالإسلام ، والاستيلاء المحقق على القسطنطينية ، وبعث الثقافة الكلاسية الوثنية ، وانتشار التجارة بفضل رحلات أسطول هنرى الملاح وكولمبس وفاسكو دا جاما ، ونشأة الطبقة التجارية التى مولت مركزية الحكومة الملكية ، وتقدم الدول القومية ، متحدية سلطة البابوات التى تعلو على القومية ، وثورة لوثر الموفقة فى وجه البابوية ، والطباعة :

ولقد كان التعليم كله تقريبا ، قبل جوتنبرج ، فى يد الكنيسة . . . وكانت الكتب باهظة الثمن ، والنسخ مجهداً وغير معتني به أحياناً . واستطاع قليل من الكتاب الاتصال بجمهور كبير ولكن بعد وفاتهم ، وكان عليهم أن يكسبوا عيشهم من التعليم ، أو الانخراط بفرقة من فرق الرهبان ، أو بمعاش يجريه عليهم الأغنياء أو صدقات يحصلون عليها من الكنيسة . ويدفع ناشرو كتبهم ، النزر اليسير لهم ، أولا يدفعون لهم شيئاً على الإطلاق ، بل إذا وجد ناشر يدفع لهم ، فإن حق الطبع لم يكن مكفولا لهم ، إلا بمنحة بابوية بين حين وآخر . وكانت المكتبات كثيرة ، وإن تكن صغيرة ، وكانت للأديرة والكاتدرائيات والكليات وبعض المدن مجموعات متواضعة قلما تزيد على ثلثمائة مجلد ، وحفظت الكتب عادة داخل الجدران ، وربط بعضها بالسلاسل فى المقارئ أو الأدراج . وكان لشارل الخامس ملك فرنسا

مكتبة مشهورة بحجمها ٩١٠ مجلدات ، ولهمفرى ، دوق جلوستر ٦٠٠ مجلد ، وربما كانت مكتبة الدير بكنيسة السيد المسيح فى كنتربرى ، تضارع فى الكبر أى مكتبة خارج حدود الإسلام ، وضمت ٣٫٠٠٠ مجلد ، عام ١٣٠٠ . وكانت خير مكتبة عامة فى انجلترا هى مكتبة ريتشارد دى بورى سانت ادموندز ، الذى سجل غرامه بكتبه فى رسالة « حب الكتب » (١٣٤٥) ، وجعل هذه الكتب تشكو من سوء المعاملة التى لقيتها من « ذلك الحيوان من ذوات الساقين الإثنين المسمى امرأة » ، الذى أصر على أن تستبدل بها التيل الرقيق أو الحرير .

وزاد الطلب على الكتب بكثرة المدارس وانتشار القراءة ورأت طبقات رجال الأعمال ، القراءة مفيدة فى شئون الصناعة والتجارة ، وفر نساء الطبقتين الوسطى والعليا ، بواسطة القراءة ، إلى عالم من الخيال ، يستعضن به عن دنيا الواقع ، وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كان الوقت الذى لا يستطيع فيه القراءة غير رجال الدين قد ولى أو كاد ، وأدى هذا الإقبال المتزايد إلى ظهور جوتنبرج أكثر من أى شىء آخر ، حتى عن زيادة مقدار الورق وظهور مداد زيتى . ولقد أحضر المسلمون صناعة الورق إلى أسبانيا فى القرن العاشر ، وإلى صقلية فى القرن الثانى عشر ، وانتقلت إلى ايطاليا فى الثالث عشر ، وإلى فرنسا فى الرابع عشر ، وكانت صناعة الورق قد بلغ عمرها قرناً من الزمان عندما جاءت الطباعة . ولما صار ارتداء التيل مألوفاً فى أوربا فى القرن الرابع عشر ، اتخذت صناعة الورق مادتها الرخيصة من خرقه المنبوذة ، فهبط سعر الورق وتهاونت سهولة الحصول عليه مع انتشار القراءة ، على تقديم مادة الكتب المطبوعة وتسويقها .

أما الطباعة نفسها فكانت كالآثار المطبوعة ، أقدم من المسيحية فقد طبع البابليون على الآجر حروفاً أو رموزاً ، وطبع الرومان وشعوب كثيرة أخرى على النقود ، والخزانون على أوانيهم ، والنساجون على الأقمشة ، ومجلدو الكتب على أغلفتها ، واصطنع كل رجل من الأعيان ، فى العصور

القديمة أو الوسطى ، الطباعة ، كلما وقع الوثائق بخاتمه ، واستخدمت وسائل مماثلة فى الخرائط وأوراق اللعب . ويرجع تاريخ الطباعة الحجرية — وهى كتب من الخشب أو المعدن تنقش عليها كلمات أو رموز أو صور — فى الصين واليابان إلى القرن الثامن ، وربما قبل ذلك . ولقد طبع الصينيون بهذه الطريقة ، عملة ورقيـــة ، فى القرن العاشر أو قبله . وظهرت الطباعة الحجرية فى تبريز عام ١٢٩٤ ، وفى مصر حوالى عام ١٣٠٠ ، ولكن المسلمين فضلوا النسخ بالخط على الطباعة ، ولم يعملوا فى هذه الحالة ، كما فى أحوال كثيرة أخرى ، على نقل التقدم الثقافى من الشرق إلى الغرب .

واستعملت طباعة الحروف — وهى الطبع بحرف منفصل متحرك — فى الصين منذ عام ١٠٤١ — ولقد استخدم وانج تشن عام ١٣١٤ حوالى ستين ألف حرف خشبي متحرك ، ليطبع كتاباً واحداً فى الزراعة ، وحاول أول الأمر استخدام حروف طبع معدنى ، ولكنه وجد أنها لا تستوعب المداد فى يسر كالخشب . وكان الحرف المطبعى المتحرك ، مع ذلك ، قليل التيسير أو الفائدة ، للغة لا أبجدية لها ولكنها تضم أربعين ألف حرف منفصل ، ولذلك ، ظلت الطباعة الحجرية هى المألوفة فى الصين إلى القرن التاسع عشر : وفى عام ١٤٠٣ طبع إمبراطور كورى ، عدداً كبيراً من المجلدات ، بوساطة حروف معدنية متحركة ، وكانت الحروف تحفر على خشب صلب ، وصبت قوالب من عجينة الخزف على تلك النماذج ، وفى هـــذه القوالب صيغت الحروف المعدنية .

أما فى أوربا فربما ظهرت الطباعة بالحروف المتحركة فى هولندة أولا ، وهى ليست قبل عام ١٥٦٩ ، طبقاً للروايات الهولندية . وطبع لورنس كستر البارلمى ، كتيباً فى الدين بالحروف المعدنية المتحركة عام ١٤٣٠ ، بيد أن هذا الشاهد غير محقق . ولم يسمع شيء غير ذلك فى هولندة ، عن الحروف المتحركة ، حتى عام ١٤٧٣ ، عندما أقام ألمانى من كولونيا ، مطبعة

فى أترخت . ولكن هؤلاء الرجال كانوا قد تعلموا فن الطباعة فى مينز »

وولد جوهان جوتنبرج هناك لأسرة ثرية حوالى عام ١٤٠٠ واسم أبيه جنز فليش ومعناه لحم الأوزة ، وآثر جوهان لقب أمه . وعاش معظم سنواته الأربعين الأولى فى ستراسبورج ، ويبدو أنه قام هناك بتجارب فى قطع الحروف المعدنية وصبها . وأصبح حوالى عام ١٤٤٨ مواطناً فى مينز . وفى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٤٥٠ تعاقد مع جوهان فست ، وهو صائغ غنى ، رهن له بمقتضى ذلك العقد ، مطبعته فى مقابل دين مقداره ٨٠٠ جلدر ، بلغ بعد ذلك ١٫٦٠٠ جلدر » وربما كان جوتنبرج هو الذى طبع صك غفران ، أصدره نيقولا الخامس عام ١٤٥١ ، ولا تزال باقية منه نسخ متعددة ، تحمل أقدم تاريخ طبع وهو عام ١٤٥٤ . وقاضى فست جوتنبرج مطالباً إياه بسداد الدين عام ١٤٥٥ ، فعجز عن الوفاء وتنازل عن مطبعته . واستمر فست فى إدارة المؤسسة مع بيتر سكوفير ، الذى استخدمه جوتنبرج صفاً للحروف . ويعتقد البعض أن سكوفير هو الذى طور وقت ذاك ، الأدوات الجديدة وفن الطباعة : « ميجْوب » جامد فى الصلب المنقوش لكل حرف ورقم وفاصلة ، وبيت معدنى لتلقى المجاوب ، وقالب معدنى أيضاً لصف البيوت والحروف فى سطر »

وفى عام ١٤٥٦ ، أقام جوتنبرج ، بمال اقترضه مطبعة أخرى ، ومنها أصدر ، فى تلك السنة أو التى تليها ، ما اعتبر بصفة عامة أول كتاب له ، مطبوع بالحروف المعدنية المتحركة ، وهو النسخة المشهورة الجميلة المنسوبة لجوتنبرج من الكتاب المقدس — وهى مجلد ضخم فى ١٫٢٨٢ صحيفة من القطع الكبير على عمودين . وفى عام ١٤٦٢ حاصرت جنود أدولف أمبر ناسو ، مدينة مينز ، ففر الطابعون ، فنشروا بذلك الفن الجديد ، فى أنحاء ألمانيا . ولما جاء عام ١٤٦٣ كان هناك طابعون فى ستراسبورج وكولونيا وبازل وأوجزبرج ونورمبرج وإلم . أما جوتنبرج ، وكان أحد الفارين ، فقد أقام

فى التفيل ، حيث واصل طباعته . وجاهد الأزمات المالية المتلاحقة ، حتى تصدق عليه أدولف (١٤٦٥) بمنحة تضمن له دخلا يحميه غوائل الدين . ومات بعد ذلك بثلاث سنوات .

وليس من شك فى أن حروف الطبع المتحركة ، كان لابد أن تظهر على يد غير جوتنبرج لولم يولد ، إذ دعت إليها ، حاجة العصر الملحة ، وهذا يصدق على معظم المخترعات . ولقد كتب جويوم فيشيه الباريسى ، وهو من أهل باريس عام ١٤٧٠ ، رسالة يعبر فيها عن الترحيب الحماسى الذى قوبل به الاختراع وهو يقول : « لقد اكتشفت فى ألمانيا طريقة جديدة مدهشة لإنتاج الكتب ، ولقد حصل حذاقها فنهم ، فى مينز ومنها نشروه فى العالم . . . ولسوف ينتشر نور هذا الاكتشاف من ألمانيا ، حتى يعم جميع أنحاء الأرض . ولم يرحب به كل الناس . فقد احتج النساخون بأن الطباعة ستقضى على أسباب معاشهم ، وعارضته الطبقة العليا بحجة أنه ابتذال آلى ، وخشوا أن يقلل من قيمة مكتباتهم الخطية ، وارتاب فيه رجال السياسة والدين لاحتمال أن تصبح الطباعة محلية سهلة للآراء الهدامة . ومع هذا كله فقد شقت لنفسها طريق النصر . وفى عام ١٤٦٤ أقام ألمانيان مطبعة فى روما ، وفى عام ١٤٦٩ أو قبله افتتح ألمانيان آخران دار طباعة فى البندقية ، وفى عام ١٤٧٠ أدخل ثلاثة من الألمان أيضاً هذا الفن فى باريس ، وفى عام ١٤٧١ وصلت الطباعة إلى هولندة ، وفى عام ١٤٧٢ إلى سويسرا ، وفى عام ١٤٧٣ إلى المجر ، وفى عام ١٤٧٤ إلى إسبانيا ، وفى عام ١٤٧٦ إلى إنجلترا ، وفى عام ١٤٨٢ إلى الدنمرك وفى عام ١٤٨٢ إلى السويد وفى عام ١٤٩٠ إلى القسطنطينية . وأصبحت نورمبرج على يد أسرة كوبرجر وباريس على يد الاتيينين وليون بفضل دوليه والبندقية بفضل ألدوس مانوتيوس وبازل بوساطة أمرباخ وفروبن وزيورخ بوساطة فروشاور وليدن على يد الزيفير ، خلايا عامرة بالطباعة والنشر . وسرعان ما أصبح نصف سكان أوربا من القارئين كما لم يحدث ذلك قط

من قبل » . وأضحت الرغبة فى اقتناء الكتب ، إحدى عوامل الفوران فى عصر الإصلاح الدينى » وإليك ما كتبه دارس من بازل إلى أحد أصدقائه « فى هذه اللحظة بالذات ، وصل من البندقية ، حمل عربة كاملة من الكتب الكلاسية ، من خير طبعات ألدوس . هل تريد شيئاً منها ؟ إن كنت تريد أخبرنى فى الحال ، وأرسل النقود ، فما نكاد سلعة كهذه تصل ، حتى ينهض إليها ثلاثون شارياً لكل مجلد ، متسائلين عن الثمن ، ويفقأ بعضهم أعين بعض للحصول عليها » واستمرت ثورة الطباعة بالحرف المتحرك .

وإذا أردنا أن نصف نتائجها جميعاً ، كان لزماً علينا أن نسجل نصف تاريخ العقل الإنسانى الحديث . ووصف أرازمس ، فى نشوة رواج مؤلفاته ، الطباعة بأنها أعظم المكتشفات ، ولعله بخس بذلك الكلام والنار والعجلة والزراعة والكتابة والقانون بل لعله قد بخس وصول الإنسان إلى استعمال الألفاظ النكرات الشائعة . وأحلت الطـــباعة محل المخطوطات الخفية ، نصوصا رخيصة الثمن ، تتضاعف بكثرة ، فى عدد نسخها ، التى تمتاز بدقتها وخفة حملها عما كانت عليه من قبل ، وتعمل بذلك على التوحيد بين لمشتغلين بالعلم ، حتى أن الدارسين فى بلاد شتى ، يستطيعون أن يعمل أحدهم مع الآخر بوساطة مراجع إلى صفحات معينة من طبعات معينة . وكثيراً ما كان الكيف ضحية الكم ، بيد أن أقدم الكتب المطبوعة ، كانت فى كثير من الأحوال نماذج فنية للطبع بالحرف المتحرك والتجليد . ولقد أذاعت الطباعة — أو بمعنى آخر يسرت للجمهور — كتيبات رخيصة للإرشاد فى الدين والأدب والتاريخ والعلم ، فأصبحت أعظم وأرخص الجامعات كلها ، تفتح أبوابها للجميع . ولم تثمر الطباعة عصر النهضة ، ولكنها مهدت الطريق للتنوير . . . للثورتين الأمريكية والفرنسية . . للديمقراطية . وجعلت الكتاب المقدس ملكاً شائعاً . وهيأت الناس لدعوة لوثر بالتحول من الاحتكام إلى البابوات إلى الإنجيل ، وسمحت بعد ذلك بدعوة العقليين من

الاحتكام إلى الإنجيل ، إلى الاحتكام إلى العقل . وقضت على الاحتكار الكهنوتى للتعليم ، وسيطرة القساوسة على التربية . وشجعت آداب اللهجات المحلية ، لأن الجمهور الكبير الذى تتطلبه لا يمكن الوصول إليه عن طريق اللغة اللاتينية ويسرت الاتصال والتعاون الدوليين بين العلماء . وأثرت فى نوع الأدب وقوامه بإخضاع المؤلفين لجيوب الطبقات الوسطى وأذواقها ، بدلا من إخضاعهم لمن يرعاهم من الطبقتين العليا والكهنوتية ، وأعدت بعد الحديث الملفوظ ، وسيلة ميسرة لاستيعاب الهذر ، أكثر مما عرف العالم إلى زماننا :



ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

وهو يروي تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا
من وكليف إلى لوثر ١٣٠٠ - ١٥١٧

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الثاني من المجلد السادس

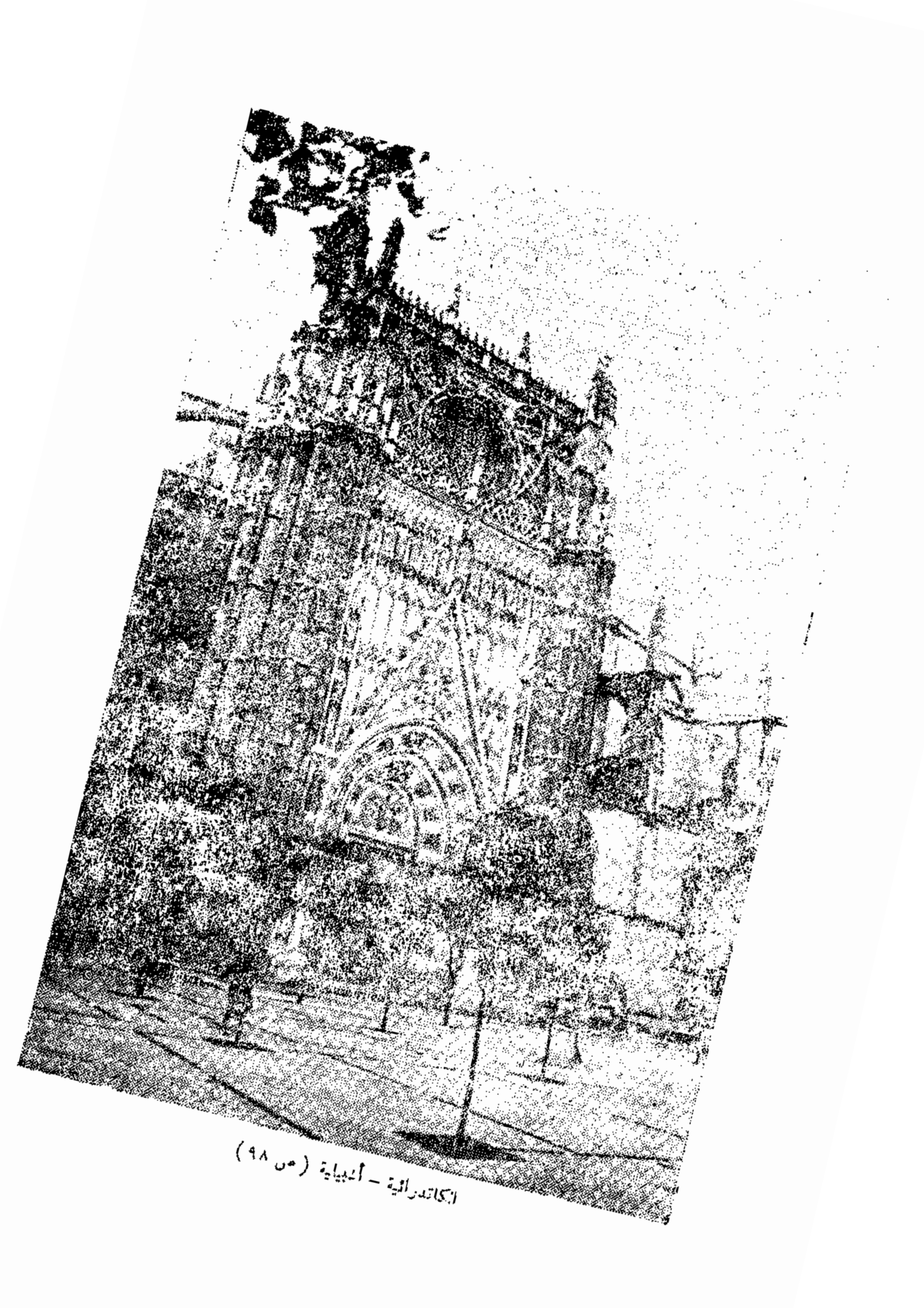


بيروت




تونس

فهرس الجزء الثانى من المجلد السادس



الكاتدرائية – أشبيلية (ص ٩٨)



الكاتدرائية (الكنيسة الأصلية) — أشبيلية

الفصل التاسع

الصقالبة الغربيون

(١٣٠٠ — ١٥٧١)

١ — بوهيميا

لا يزال الصقالبة إلى الآن أشبه بالموجات البشرية تجيش أحياناً ناحية الغرب إلى الألب ، وجنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وشرقاً إلى الأورال ، وشمالا إلى البحر المتجمد ، وقد ردهم إلى الغرب بعد ذلك فى الثالث عشر ، الفرسان الليفونيون والتيوتون ، أما فى الشرق فقد خضعوا لسيطرة المغول والتتار — وقادت بوهيميا فى القرن الرابع عشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة والإصلاح الدينى قبل لوثر ، كما اتحدت بولندة مع ليتوانيا التى كانت متسعة الأرجاء : فأصبحتا دولة كبيرة ، ذات طبقة عليا على حظ رفيع من الثقافة . وتحررت روسيا فى القرن الخامس عشر من نير التتار ووحدت إماراتها المبعثرة فى دولة ضخمة . وهكذا دخل الصقالبة التاريخ كموجة من موجات المد البشرى .

وانتهت أسرة تبرزملد العريقة فى بوهيميا بموت ونسسلوس عام ١٣٠٦ وأعقبتها فترة من الزمان حكم فيها ملوك صغار الشأن ثم جاء الناخبون من البارونات ورجال الدين بجون أمير لكسمبورج ، ليؤسس أسرة حاكمة جديدة (١٣١٠) . وأصبحت بوهيميا بفضل مغامراته الباسلة قلعة منيعة من قلاع الفروسية جيلا من الزمان ، وتعذر عليه أن يعيش بلا صولات وجولات حتى إذا ثبت له أن هذه الفروسية لا ضرر منها على الإطلاق ، اندفع إلى الحرب فى كل مملكة من ممالك أوربا تقريباً . وأصبح من الكلم

المأثور فى تلك الأزمنة أنه لا يتحقق شيء بغير العون من الله وملك بوهيميا . فالتمست برسكيا التى حاصرتها فيرونا ، أن يمد لها يد المعاونة ، فوعد بالقدوم إليها ، وما كادت الأخبار تشيع بوعده هذا حتى رفع الفيرونيون الحصار واعترفت به مختارة برسكيا وبرجامو وكريمونا وبارما ومودينا بل وميلان أيضاً ، سيداً إقطاعياً عليها فى مقابل أن يبسط حمايته عليها جميعاً ، وقد استطاع هذا الملك بسحر اسمه أن يحصل على معظم ما عجز عن تحقيقه بقوة السلاح فردريك الأول ذو اللحية الحمراء ، وفردريك الثانى أعجوبة الزمان وأضافت حروبه الجريئة مساحة من الأرض إلى بوهيميا ولكنها أفقدته عواطف رعاياه ، الذين لم يستطيعوا أن يغتفروا له غيابه الدائم عن بلادهم ، التى أهمل إدارتها ، وحز فى نفوسهم أنه لم يفكر قط حتى فى أن يتعلم لغتهم . وفى عام ١٣٣٦ لازمه مرض عضال كف بصره وهو يخوض معركة صليبية فى ليتوانيا . ومع ذلك فإنه عندما علم أن إدوارد الثالث ملك انجلترا نزل إلى البر فى نورمانديا متجهاً صوب باريس ركب مع ابنه شارلز فى خمسمائة فارس بوهيمى ، وعبروا أوربا ليكونوا مدداً لملك فرنسا . وحارب الأب والإبن فى الطليعة عند كريسى . حتى إذا انسحب الفرنسيون ، ناشد الملك الكفيف اثنين من فرسانه ، أن يربطا جواديهما إلى جانبى جواده وأن يقوداه لمحاربة الإنجليز المنتصرين ، قائلا : « هذه مشيئة الله ، ولن يقال إن ملكاً على بوهيميا قد فر من حومة الوغى » وقتل من حوله خمسون — من فرسانه . وأثخن بجرح مميت ؛ ثم نقل وهو يحتضر إلى خيمة الملك الإنجليزى . . فأرسل إدوارد الجثة إلى شارلز ومعها رسالة مهذبة يقول فيها : لقد سقط اليوم تاج الفروسية » .

وكان شارلز الرابع ملكاً أقل بطولة وأرشد عقلا . فآثر المفاوضة على الحرب ، ولم يكن من الجبن بحيث يقبل الهوان ، ومع ذلك فقد وسع من حدود مملكته ، وجعل الصقالبة والألمان إبان السنوات الاثنتين والثلاثين من

حكمه ، يعيشون فى سلام غير مألوف . وأعاد تنظيم الحكومة ، وأصلح القضاء ، وجعل براغ من أجمل مدن أوربا . وشيد فيها مقراً ملكياً على طراز اللوفر ، والقلعة الشهيرة كارلشتين أى « حجر شارلز » لتكون داراً أمينة لمحفوظات الدولة وجواهر التاج — التى أودعت فيها لا للمباهاة والعرض بل لتكون مالا احتياطياً منقولا حصيناً يصلح غطاء للعملة . واستقدم ماثيو الأراسى لكى يصمم كاتدرائية القديس « فيتوس » وتوماسو الموديناوى ليرسم صوراً جصية على جدران الكنائس والقصور . وعمل على حماية الفلاحين من الاضطهاد ونهض بالتجارة والصناعة . وأنشأ جامعة براغ (١٣٤٧) ، ونقل إلى مواطنيه الولع بالثقافة الذى اكتسبه فى فرنسا وإيطاليا وشحذ الحافز الفكرى الذى فجر الثورة الهوسية ، وأصبح بلاطه مركز الدارسين الإنسانيين البوهيميين ، وعلى رأسهم الأسقف جون الاسترساوى صديق بترارك . ولقد أعجب هذا الشاعر الإيطالى بشارلز فوق إعجابه بأى ملك من ملوك ذلك العصر وزاره فى مدينة براغ ، وناشده أن يغزو إيطاليا ، ولكن شارلز كان أرشد فكرا وكان حكمه ، على الرغم من نشرته الذهبية هو عصر بوهيميا الذهبى . وهو باق يبتسم ، فى تمثاله النصفى من الحجر الجيرى ، فى كاتدرائية براغ .

وكان « ونسيسلوس الرابع » فى الثامنة عشرة من عمره عند ما مات أبوه (١٣٧٨) ، ولقد أكسبته فطرته الطيبة ، وحبه لشعبه ، وترفقه فى فرض الضرائب عليهم وبراعته فى الإدارة ، محبة الجميع ما عدا النبلاء الذين رأوا أن شعبيته تعرض امتيازاتهم للخطر . وانتهت سورات غضبه حيناً وإدمانه الشراب حيناً آخر بهؤلاء النبلاء إلى خلعه ، ففاجأوه فى مقره الريفى وألقوا به فى السجن (١٣٩٤) ، ولم يعيدوه إلا بعد أن أخذوا عليه العهد بأن يمتنع عن الإقدام على أى عمل له أهميته دون موافقة مجلس من النبلاء والأساقفة . ونشأت فتن أخرى ، واستدعى سيجسموند ملك المجر ، فقبض على أخيه

ويسسلوس وأخذه أسيراً إلى فينا (١٤٠٢) . وفر الرجل بعد ذلك بأعوام قلائل ، واتخذ طريقه عائداً إلى بوهيميا فاستقبله الشعب مبتهجاً ، واستعاد العرش والسلطان . واختلطت البقية الباقية من قصته بمأساة هس .

٢ — جون هس

(١٣٦٩ — ١٤١٥)

كان ونسيسلوس محبوباً مكروهاً فى آن واحد ، لأنه تسامح مع الهراطقة وتشدد مع الألمان . وأثمر التسلل السريع فى بوهيميا من عمال المناجم وأصحاب الحرف والتجار وطلاب العلم ، عداوة عنصرية بين التيوتون والتشيك ، وكان هس حرياً بألا يلقى التأييد من الملك والشعب لولا أنه رمز لكراهية قومية للتفرق الألمانى . ولم ينس ونسيسلوس أن رؤساء أساقفة ألمانيا قادوا حركة خلعه عن العرش الإمبراطورى ، وتزوجت أخته آن رتشارد الثانى ملك إنجلترا وفطنت إلى — ولعلها عطفت على — محاولات ويكليف ؛ أن يفصل إنجلترا عن الكنيسة الرومانية . وفى عام ١٣٨٨ خلف أدلبرت رانكونيس مبلغاً من المال يعين الطلاب البوهيميين على الذهاب إلى باريس أو أكسفورد . وحصل بعض هؤلاء أو نسخوا بعض مؤلفات ويكليف وحملوها معهم إلى بوهيميا ، وأقام ميلتش الكرومريزى وكونراد ولد هوزر ، براغ وأقعداها باتهاماتهما لرجال الدين والعلمانيين بالخروج على الأخلاق ، وواصل ماتياس الجنوفى وتوماس الستيتنى هذه الدعوة فأيدها الإمبراطور بل أن أرنست كبير الأساقفة قد وافق عليها ، وفى عام ١٣٩١ ، أقيمت فى براغ كنيسة خاصة سميت كنيسة بيت لحم لتقود حركة الإصلاح . وفى عام ١٤٠٢ عين جون هس واعظاً لهذه الكنيسة .

ولقد بدأ حياته فى قرية هوسينتز ، وعرف باسم جون الهوسينتزى الذى اختصره فيما بعد إلى هس . وجاء حوالى عام ١٣٩٠ إلى براغ وهو

طالب فقير وكسب عيشه بالخدمة فى الكنيسة ، وكان أمله أن ينخرط فى زمرة القساوسة ، ومهما يكن من شيء ؛ فقد انضم إلى طرائق الشباب البوهيمي جرياً على سنة العصر ، وهو ما أسمته باريس بعد ذلك « بالبوهيمية » المرحة للشباب الجامعى ، وحصل عام ١٣٩٦ على أجازة أستاذ فى الآداب ، وبدأ يدرس فى الجامعة ، واختير عام ١٤٠١ عميداً لكلية الآداب — أو بعبارة أخرى عميداً للدراسات الإنسانية ورسم فى ذلك العام قسيساً ، وأصلح حياته حتى اقترب بها إلى زهد الرهبانية ؛ وأصبح باعتباره رأس كنيسة بيت لحم ، أشهر واعظ فى براغ ، وكان بين المستمعين إليه كثيرون من رجال البلاط ، وقد نصبته الملكة صوفيا واعظاً لها . وأخذ يلقى عظاته باللغة التشيكية ، وعلم رجال كنيسته أن يسهموا بنصيب إيجابى فى الصلاة بترتيل الأناشيد الدينية .

ولقد أكد الذين اتهموه فيما بعد أنه ردد فى السنة الأولى من عمله الكهنوتى شكوك ويكليف حول اختفاء الخبز والنبيذ من العناصر المقدسة فى العشاء الربانى . وليس من شك فى أنه قرأ بعض مؤلفات ويكليف ، ودون نسخاً منها لا تزال باقية بتعليقاته عليها ، واعترف فى محاكمته أنه قال « إننى على ثقة من أن ويكليف سينجو ، ولكن لو اعتقدت أنه سيعذب لتمنيت أن تكون روحى مع روحه » ونالت آراء ويكليف عام ١٤٠٢ فى جامعة براغ حظاً من الشهرة جعل القوامين على الإدارة الكهنوتية فى الكاتدرائية يتقدمون إلى أساتذة الجامعة بخمسة وأربعين نصاً مختاراً من كتابات ويكليف متسائلين : هل تمنع الجامعة هذه الأقوال ؟ — فأجاب عدد من الأساتذة بينهم هس بالنفى ، ولكن الأغلبية حكمت أنه لا يجوز منذ ذلك الحين لأى عضو من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، أن يدافع أو ينتصر بصورة علنية أو سرية لقول من هذه الأقوال الخمسة والأربعين .

ولابد أن يكون هس قد تجاهل هذا التحريم ، لأن رجال الدين فى براغ التمسوا عام ١٤٠٨ من زبينك كبير الأساقفة أن يزجره . فاستجاب

لهم كبير الأساقفة بحذر لأنه كان وقتذاك على خلاف مع الملك . ولكن هس استمر فى عطفه على آراء ويكليف فأصدر عليه زبينك وعلى عدد من زملائه قرار الحرمان (١٤٠٩) حتى إذا أصروا أن يمارسوا وظائفهم الكهنوتية ، جعل براغ بأسرها تحت وطأة قرار الحرمان . وأمر بأن تسلم إليه كل ما يوجد من كتابات ويكليف فى بوهيميا وأحضرت إليه مائتا مخطوطة ، فأحرقها فى ساحة قصره . فاستأنف هس القرار إلى البابا المنتخب حديثا يوحنا الثالث والعشرين . فاستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية ، فأبى أن يذهب إليها .

ورغب البابا عام ١٤١١ فى الحصول على أموال للقيام بحملة صليبية على لاديسلاس ملك نابولى ، فأعلن عرضاً آخر لصكوك الغفران . ولما أذيع ذلك فى براغ وبدا للمصلحين أن عملاء البابا يبيعون الغفران بالمال ، دعا هس ومؤيده الأول جيروم البراغى ضد هذه الصكوك ، وناقشا وجود المطهر ، واحتجا على جمع الكنيسة للأموال لإهراق الدم المسيحى . وهبط هس إلى القدح فوصف البابا بأنه « نابش الأموال » وزاد على ذلك بأنه ضد المسيح . وشارك جانب كبير من الشعب ، هس فى آرائه وعرض عمال البابا للسخرية

والانتقاص ، إلى حد جعل الملك يحرم كل دعوة أو عمل بعد ذلك ضد صكوك الغفران . وخرج ثلاثة من الفتيان على هذا المرسوم ، فاستدعوا إلى مجلس المدينة ، ودافع هس عنهم ، واعترف بأن دعوته أثارتهم ، فأدينوا وقطعت رؤوسهم . وعمل البابا فى تلك الفترة على توجيه حرمانه إلى هس . ولما تجاهل الرجل القرار أصدر يوحنا قراراً بحرمان أى مدينة يأوى إليها (١٤١١) . ورحل هس عن براغ مستجيبا لنصيحة الملك وظل معتزلا بالريف عامين .

وكتب فى هذين العامين أهم مؤلفاته ، بعضها باللاتينية ، وبعضها بالتشيكية وتكاد كلها تنطق بوحى ويكليف ، وربما ردد بعضها الهرطقة

واختصام ، الكهنوت مما جلبته شعبة باقية من الولدانيين إلى بوهيميا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولقد أنكر عبادة الصور والاعتراف السمعى وتعدد الشعائر الأنيقة . وأعطى حركته صبغة شعبية وقومية بالانتقاص من قدر الألمان والدفاع عن الصقالبة و" مقالة عن « التجارة فى الأشياء المقدسة هاجم اتجار رجال الدين بالمقدسات » ، وفى « الموضوع فى ستة أخطاء » De sex erroribus نعى على القساوسة أخذ أجر على العماد وتثبيته والقداس والزواج والدفن ، واتهم بعض رجال الدين فى براغ ببيع الزيت المقدس ، وأخذ برأى ويكليف فى أن القسيس الذى اقترف بيع المقدسات لا يجوز له شرعاً أن يناول السر المقدس ، أما رسالته عن « اجتماع مجلس شرفاء المدينة » De ecclesia فقد أصبحت بمثابة دفاعه وسبب هلاكه فى وقت واحد فإن من صفحاتها نقلت الهرطقة التى أحرق من اجلها . فقد اتبع ويكليف فى القول بالجبر ، وأيد ويكليف ومارسيليز وأكهام فى أن الكنيسة يجب ألا يكون لها طيبات دنيوية وعرف الكنيسة مثـــل كالفن بأنها ليست هيئة رجال الدين ولا الجمع المسيحى بأسره ، ولكنها المجموع الكلى فى السماء أو على الأرض للناجين من الخطيئـــة ، وليس البابا رأس الكنيسة ، ويجب أن يكون الإنجيل لا البابا مرشد المسيحى . وليس البابا معصوماً ، حتى فى العقيدة أو الأخلاق ، وقد يكون البابا نفسه خاطئاً معتاداً للخطيئة أو هرطيقا . وسلم هس بأسطورة صدقها جمهور كبير فى ذلك الزمان (بل صدقها جرسون) فاستغل الكثير مما ورد عن البابا المزعوم يوحنا الثامن (الذى تقول الأسطورة) أنه كشف عن جنسه النسوى بأن وضع برغمه طفلا مولودا فى شوارع روما . وختم هس كلامه بأنه لا طاعة للبابا إلا إذا اتفقت أوامره مع شريعة المسيح ، « وعصيان البابا الخاطئ إنما هو طاعة للمسيح »

ولما اجتمع مجلس عام فى كنستانس عام ١٤١٤ لكى يخلع ثلاثة بابوات

متنافسين ويضع برنامجاً لإصلاح الكهنوت ، بدا للعيان أن فرصة قد سنحت لإعادة الوئام بين الهسيين والكنيسة ، وكان الإمبراطور سيجسموند ، الوارث الشرعى لونسلوس الرابع الذى لاعقب له ، تواقاً لإقرار السلم وإعادة الوحدة الدينية فى بوهيميا . فاقترح أن يتوجه هس إلى كنستانس ويبدأ الصلح من ناحيته . ومنح هس من أجل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر جواز الأمان إلى كنستانس وإبداء رأيه على الملأ أمام المجلس وحرية العودة فى أمان إلى بوهيميا إذا رفض هس حكم المجلس . وعلى الرغم من التحذير الملح من معاونيه فقد رحل إلى كنستانس (اكتوبر ١٤١٤) يصحبه ثلاثة من النبلاء التشيكيين وعدد من الأصدقاء . وذهب إلى كنستانس فى الوقت نفسه تقريباً ستيفن البالكزى وغيره من المعارضين البوهيميين لهس لاتهامه أمام المجلس .

ولما وصل ، عومل أول الأمر بحفاوة وترك حراً ، ولكن ما أن عرض بالكز أمام المجلس بياناً بهرطقات هس ، حتى استدعاه أعضاء المجلس واستجوبوه واقتنعوا من إجاباته ، بأنه هرطيق كبير ، فأمروا بزجه فى السجن ، فاعتلت صحته ، وأشرف فى وقت من الأوقات على الموت ، وأرسل البابا يوحنا الثالث والعشرون أطباء من قبله لمعالجته ، وشكا سيجسموند من أن تصرف المجلس قد خالف جواز الأمان الذى أعطاه لهس ، فأجاب المجلس بأنه غير مقيد بصنيعه وبأن سلطته لا تمتد إلى الشئون الروحية ، وبأن للكنيسة الحق فى أن يعلو حكمها على حكم الدولة إذا أرادت أن تحاكم عدواً للكنيسة ، وفى أبريل نقل هس إلى حصن جوتليبن على نهر الراين ووضع هناك فى الأصفاد . وكان الغذاء الذى يقدم إليه قليلا حتى إنه أصيب بمرض خطير . واندفع فى الوقت نفسه زميله فى الهرطقة جيروم البراغى داخلا إلى كنستانس ، وثبت على أبواب المدينة والكنائس وعلى دور الكرادلة ، طلباً بأن الإمبراطور والمجلس يجب أن يمنحاه جواز أمان والاستماع إلى ما يقوله علناً . وألح عليه

أصدقاء هس فترك المدينة وقفل راجعاً إلى بوهيميا ، ولكنه توقف فى الطريق ليخطب عن سوء معاملة المجلس لهس . فقبض عليه وأعيد إلى كنستانس وزج به فى السجن :

وفى الخامس من يولية . سيق هس مكبلا بعد أن قضى فى السجن سبعة أشهر أمام المجلس ، ومثل كذلك فى السابع والثامن من الشهر نفسه . وسئل عن الآراء الخمسة والأربعين التى سبق أن اتهمت من مؤلفات ويكليف فأنكر معظمها وأيد بعضها . ولما ووجه بفقرات من كتابه « عن الكنيسة » عبر عن رغبته فى حذف ما ينكره الكتاب المقدس (وهو بالضبط نفس الموقف الذى اتخذه لوثر فى ورمس) واحتج المجلس بأن الكتاب المقدس يجب أن يفسر بوساطة رؤساء الكنيسة لا بوساطة اجتهاد الأفراد وطالب هس أن يسحب جميع تلك الآراء التى استشهد بها دون تحفظ . وناشده أصدقاؤه ومتهموه أن يوافق ولكنه أبى وفقد النية الطيبة للإمبراطور المتردد ، بتصريحه أن الحاكم يفقد شرعية السلطة الدنيوية أو الروحية فى اللحظة التى يقترف فيها خطيئة مهلكة . وهكذا أبلغ سيجسموند هس بأن المجلس إذا أدانه بطل جواز الأمان من تلقاء نفسه . وبعد ثلاثة أيام من الاستجواب والجهود التى بذلها الامبراطور والكرادلة لكى يسحب هس آراءه ، أعيد إلى محبسه وسمح المجلس له ولأعضائه بأربعة أسابيع لدراسة الأمر الذى كان معقداً بالنسبة للمجلس أكثر منه بالنسبة لهس . كيف يتأتى لهرطيق أن يعيش دون أن يدمغ ذلك بعدم الإنسانية كل جرائم القتل من أجل الهرطقة التى ارتكبت فى الماضى ؟ ولقد عزل هذا المجلس بابوات ، فهل يتحداه قسيس بوهيمى بسيط ؟ أليست الكنيسة وهى إرادة المجتمع الروحية كما أن الدولة إرادته الطبيعية ، مسئولة عن النظام المعنوى الذى يحتاج إلى أساس من السلطة التى لا يرقى إليها الخلاف ؟ وبدا للمجلس واضحاً أن تحدى هذه السلطة كالخيانة العظمى بامتشاق السلاح

ضد الملك . وكان على الرأى أن يتطور إبان قرن آخر من الزمان قبل أن تمكن لوثر من تحد مماثل ويسمح له مع ذلك أن يعيش .

وبذلت محاولات أخرى للحصول على شبهة عدول هس عن آرائه وأوفد الامبراطور رسلا من لدنه للإلحاح عليه . وكانت إجابته واحدة دائماً ، إنه يتنازل عن أى رأى من آرائه لا يؤيده الكتاب المقدس . وفى السادس من يولية عام ١٤١٥ ، اجتمع المجلس فى كاتدرائية كنستانس وأدان كلا من ويكليف وهس ، وأمر بإحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية وجرد لتوه من منصبه الدينى وسيق خارج المدينة إلى موضع أعدت فيه أكداس من الحطب وطلب إليه للمرة الأخيرة أن ينقذ نفسه بكلمة تنبئ عن تنازله عن آرائه ، ولكنه أبى ، وأكلته النار وهو يرتل الأناشيد .

وأنكر جيروم فى لحظة فزع تغتفر له أمام المجلس تعاليم صديقه (١٠ سبتمبر ١٤١٥) ولما أعيد إلى السجن ، استعاد شجاعته رويداً . وطالب بأن تسمع أقواله وبعد فترة طويلة سيق أمام المجلس (٢٣ مايو ١٤١٦) وبدلا من السماح له بعرض قضيته ، طلب إليه أولا أن يرد على التهم العديدة التى وجهت إليه . فاحتج ببلاغة مؤثرة حركت الشكاك الإيطالى الإنسانى برجيو براتشيولى الذى جاء إلى كنستانس ليكون كاتماً لسر البابا يوحنا الثالث والعشرين : « أى جور هذا ، فى أننى أمنح الآن ساعة أدافع فيها عن نفسى ، أنا الذى حبست فى سجن حقير مدة ثلاثمائة وأربعين يوماً ، دون أن تتوافر لى وسائل إعداد دفاعى ، بينما لغرمائى الحق دائماً فى أن تستمعوا إليهم ؟ إن عقولكم تحكم علىّ بلا مبرر بأننى هرطيق ، لقد حكمتم على بأننى شرير قبل أن تكون عندكم وسيلة ما تعرفون بها أى نوع من الناس كنته . ومع ذلك فأنتم ناس ، ولستم آلهة ، مخلوقين ، ولستم خالدين ، أنتم معرضون للخطأ . وكلما ادعيتم بأن ينظر إليكم كمصدر هداية للعالم وجب عليكم الحرص على تأكيد العدالة للناس جميعاً . وأنا ، الذى تحكمون على قضيته ، لا أهمية لى ،

كما أنني لا أتحدث عن نفسي ، لأن الموت يحيق بالجميع ، ولكن لا أريد أن أرى عدداً كبيراً من الحكماء يقترفون ظلماً ، يتخذ سابقة فيكون بذلك أفدح ضرراً من العقاب الذى يفرضه » .

وقرئت التهم عليه ، واحدة بعد أخرى ، وأجاب عن كل منها بلا إنكار حتى إذا سمح له آخر الأمر أن يتحدث بحرية استمال المجلس أو كاد يستميله ، بحرارته وصدقه . وعرض بعض القضايا التاريخية التى قتل فيها الناس من أجل معتقداتهم وذكر كيف حكم القساوسة بالإعدام على ستيفن الرسول ، وأبدى أنه قلما توجد خطيئة أفدح من أن يقتل القساوسة قسيسا . ورجاه المجلس أن ينقذ نفسه بطلب المغفرة ، ولكنه أنكر بدلا من ذلك عدوله السابق عن آرائه ، وأكد اعتقاده فى مبادئ ويكليف وهس ، ودمغ إحراق هس بأنه جرم لابد أن يعاقب الله عليه . ومنحه المجلس أربعة أيام ليرجع عن رأيه . ولما لم يستغفر أدين (٣٠ مايو) وسيق توا إلى الموضع نفسه الذى أحرق فيه هس . وسار الجلاد خلفه ليوقد النار فى أكداس الحطب فناشده جيروم قائلا : « تعال أمامى . . . أوقدها أمام وجهى ، فلو كنت أخاف الموت لما قدر لى قط أن أجيء إلى هنا » . وظل يردد أحد الأناشيد حتى خنقه الدخان .

٣ – الثورة البوهيمية

(١٤١٥ – ٣٦)

أثار موت هس ، الذى تناقله الأخباريون إلى بوهيميا ، ثورة قومية فاجتمع نبلاء بوهيميون ومورافيون وأرسلوا إلى مجلس كنستانس (٢ سبتمبر ١٤١٥) وثيقة وقعها خمسمائة من أعيان التشيك ، وناصرت هس وجعلته كاثوليكيا طيبا مستقيما . وأنكرت إعدامه باعتباره إهانة لوطنه ، وأعلنت أن الموقعين سيحاربون إلى آخر قطرة من دمائهم دفاعا عن مبادئ المسيح ضد

القوانين التي من صنع البشر . وطالب تصريح آخر بألا يطيعوا منذ ذلك من الأوامر البابوية إلا ما يتفق مع الكتاب المقدس ، وأن الذين يحكمون على اتفاقها مع الكتاب المقدس إنما هم هيئة التدريس بجامعة براغ . وحيت الجامعة نفسها ، هس باعتباره شهيداً ، ومدحت جيروم السجين . واستدعى المجلس النبلاء المتمردين للمثول أمامه للرد على اتهامهم بالهرطقة ، ولكن أحداً لم يحضر وأمر بإغلاق الجامعة ، بيد أن أغلبية الأساتذة والطلاب ظلوا يواصلون عملهم .

واقترح أحد أتباع هس حوالى عام ١٤١٢ وهو جاكوبك الاستريزيبوى ، وجوب بعث العرف المسيحى القديم الخاص بمناولة القربان بصورتيه — النبيذ إلى جانب الخبز — فى العالم المسيحى كله . ولما استولت الفكرة على الصفوة والعامة من أنصاره ، منحها هس تأييده ، فحرمها المجلس ، ودافع عن ترك العادة البدائية على أساس أنها مجازفة بسفك دم المسيح .

وبعد موت هس اتخذت جامعة براغ والنبلاء ، بقيادة الملكة صوفيا ، مناولة القربان بالنوعين جميعاً كأمر من أوامر المسيح ، وأصبح كأس العشاء الربانى شعار « ثورة الأتراكوست » Utraquist وصاغ أتباع هس عام ١٤٢٠ مبادئ براغ الأربعة باعتبارها مطالبهم الأساسية وهى : أن القربان يجب أن يتناول خمراً كما يتناول خبزاً ، وأن الاتجار بالدين يجب أن يعاقب عليه بحزم وأن « كلمة الله » يجب أن يدعى إليها بلا تراخ باعتبارها الأساس الأوحد لحقيقة الدين وشعيرته ويجب أن يوضع حد لاقتناء القساوسة أو الرهبان للممتلكات المادية المتسعة ورفضت أقلية متطرفة من الثائرين تقديس المخلفات الأثرية وعقوبة الإعدام والمطهر والقداس من أجل الموتى . ولقد وجدت جميع عناصر الإصلاح الدينى اللوثرى فى هذه الثورة الهسية .

وكان الملك ونسسلوس الذى عطف على الحركة ، وربما فعل ذلك لأنها وعدت بنقل أملاك الكنيسة إلى الدولة ، قد أصبح يخشى أن تهدد السلطة

المدنية تهديدها للسلطة الدينية وفى المدينة الجديدة التى أضافها إلى براغ لم يعين إلا الذين لا يدينون بالهسية فى المجلس ، وأصدر هؤلاء الرجال قواعد عقوبات قصد بها القضاء على الهرطقة . وفى ٣٠ يوليو عام ١٤٩١ قام جمهور هس بموكب فى المدينة الجديدة . وشق له طريقا حتى بلغ قاعة المجلس ، وألقى بأعضائه من النوافذ إلى الطريق ، حيث قضى عليهم جمهور آخر . ونظم اجتماع شعبى انتخب أعضاء المجلس الهسيتى وأقر ونسسلوس المجلس الجديد ، ثم مات بنوبة قلبية (١٤١٩) .

وعرض نبلاء بوهيميا أن يقبلوا سيجسموند ملكا عليهم ، إذا اعترف « بمبادئ براغ الأربعة » . فما كان منه إلا أن طالب جميع التشيك بالطاعة الكاملة للكنيسة وألقى فى المحرقة بوهيميا أبى أن يتبرأ من تناول الكأس الربانى . وأعلن البابا الجديد مارتن الخامس ، حملة صليبية ضد الهراطقة البوهيميين وزحف سيجسموند ومعه قوة كبيرة إلى براغ (١٤٢٠) ونظم الهسيون جيشا حوالى الليلة السابقة وأرسلت كل مدينة فى بوهيميا ومورافيا تقريبا المتطوعين المتحمسين ودربهم جان زيزكا وهو فارس أعور فى الستين من عمره وأحرز بهم انتصارات رائعة . ولقد هزموا فرق سيجسموند مرتين . فجمع سيجسموند جيشاً آخر ولكن ما أن جاء خبر زائف بأن رجال زيزكا يقتربون ، حتى فر الجيش الجديد فى غير نظام دون أن يرى عدوا ما . وأسكر رجال زيزكا الطهريين النصر فأخذوا عن خصومهم فكرة القضاء على الخلاف الدينى بالقوة وساروا فى طول بوهيميا ومورافيا وسيلزيا وعرضها كأنهم عاصفة تقتلع أمامها كل شىء ، ينهبون الأديرة ويذبحون الرهبان ويرغمون السكان على قبول مبادئ براغ الأربعة وأصبح الألمان فى بوهيميا الذين رغبوا فى البقاء على كاثوليكيتهم ، الضحايا المفضلة للقوات الهسية وعاشت بوهيميا فى الوقت نفسه ومدى سبعة عشر عاما (١٤١٩ — ٣٦) بلا ملك .

واتحدت عناصر متعددة ومتصارعة لتكون الثورة البوهيمية . فإن المواطنين البوهيميين أسخطهم ما عند المقيمين الألمان من ثروة وما فيهم من تعاظم وأملوا فى إجلائهم عن الوطن . وطمع النبلاء فى ممتلكات الكنيسة ورأوها تستحق المصادرة . وطمح الكادحون اليدويون أن يحرروا أنفسهم من سادتهم من الطبقة الوسطى . وتاقت الطبقة الوسطى أن تضاعف من قوتها المحدودة ضد النبلاء ، فى مجلس الدايت الذى كان يحكم براغ والذى يسهم فى حكم بوهيميا وحلم عبيد الأرض وبخاصة من كان منهم يعمل فى إقطاعيات الكنيسة ، بتقسيم هذه الأراضى المباركة أو تحرير أنفسهم على الأقل من القيود الوبيلة . وقدم بعض صغار رجال الدين الذين ظلمهم رؤساؤهم تأييدهم الصامت للثورة وزودوها بالقيام على الشعائر الدينية التى حرمتها الكنيسة .

ولما ظفر الجيش الهسى بمعظم بوهيميا ، أدت غاياتهم المتناقضة إلى انقسامهم فرقاً يقتل بعضها بعضا . وبعد أن استولى النبلاء على أكثر أموال الجماعات الدينية الأرثوذكسية ، شعروا بأن الثورة يجب أن تخمد وأن يتيحوا الفرصة لمؤثرات الزمن . بينما صخب عبيد الأرض الذين أفلحوها من أجل الكنيسة مطالبين بتقسيمها فيما بينهم باعتبارهم أحراراً فإن الملاك النبلاء طالبوا عبيد الأرض بأن يخدموا السادة الجدد على أسس العبودية السابقة نفسها . وأيد زيزكا الفلاحين ، وحاصر فترة من الزمن « الكأسيين » أو بعبارة أخرى الهسيين أصحاب الكأس الربانى فى براغ الذين أصبحوا محافظين . ولما تعب من الصراع قبل هدنة وانسحب إلى بوهيميا الشرقية وأسس (أخوه حوديب)[1] هدفها تحقيق المبادئ الأربعة وقتل الألمان . ولما مات (١٤١٤) أوصى أن يصنع من جلده طبل حربى .

---

(١) على اسم جبل بشبه جزيرة سيناء .

وتألفت فى تابور فرقة هسية أخرى ، ذهبت إلى أن المسيحية الحقة تتطلب تنظيما شيوعيا للحياة . ولقد وجدت فى بوهيميا قبل هس جماعات من الوالدينزيين والبجهاردينيين وغيرهم من الهراطقة الذين لا رادع لهم يمزجون المثل الدينية بالمثل الشيوعية . واحتفظوا بهدوء يحمدون عليه إلى أن اقتلعت قوات زيزكا سلطة الكنيسة من معظم بوهيميا ، فظهروا علنا ، واستولوا على القيادة المذهبية فى تابور . وأنكر كثير منهم « الوجود الحقيقى » والمطهر والصلاة للموتى ، وكل الأسرار المقدسة ما عدا العماد والعشاء الربانى ولم يشجعوا تقديس المخلفات الأثرية والصور والقديسين ، واقترحوا إعادة الشعيرة البسيطة لكنيسة الحواريين . وأنكروا جميع الشعائر والأزياء الكهنوتية التى لم يجدوها فى المسيحية الأولى . وعارضوا المذابح وآلات الأرغن الموسيقية وفخامة الزخرف الكنسى وأتلفوا كل ما عثروا عليه من هذه الزينة . وأنقصوا العبادات مثلهم فى ذلك مثل البروتستانت المتأخرين ، إلى القربان والصلاة والقراءة فى الكتاب المقدس والعظة وترتيل الأناشيد ، ويقوم على هذه الشعائر رجال دين لا يختلفون فى الزى عن غيرهم من المدنيين .

ولقد استخلص معظم التابوريين ، الاتجاه الشيوعى من المعتقد بعودة المسيح وحكمه ألف سنة . فإن المسيح سرعان ما يجىء ويوطد مملكته على الأرض ، ولا تكون فى هذه المملكة ملكية ولا كنيسة ولا دولة ولا تفرقة طبقية ولا قوانين وضعية ولا ضرائب ولا زواج ، وفى المؤكد أن المسيح ، سيسره عند مجيئه أن يجد عباده قد أنشأوا مثل هذه المدينة الفاضلة السماوية وطبقت مثل هذه المبادئ فى تابور وبعض المدن الأخرى ، وقال أستاذ معاصر من أساتذة جامعة براغ : كل شىء هناك على المشاع : لا يملك أحد شيئاً لنفسه وحده ، ولذلك عد التملك دائماً يستحق مقترفه

الموت . وهم يرون أن الجميع يجب أن يكونوا أخوة وأخوات متساوين » .

وقد تحول فلاح بوهيمى إلى فيلسوف ، واسمه بيتر تشلجى وذهب فى آرائه إلى أبعد من ذلك ، وكتب بلغة تشيكية قوية مجموعة من المقالات التولستوية يدعو فيها إلى فوضوية مسالمة . وهاجم الأقوياء والأغنياء ، وأنكر الحرب وعقوبة الإعدام وعدهما قتلا ، وطالب بمجتمع لا سادة فيه ولا عبيد ، ولا قوانين من أى نوع . وناشد أتباعه أن يتبعوا المسيحية اتباعا حرفيا ، كما وجدوها فى العهد الجديد وألا يعمدوا إلا البالغين ، وأن يديروا ظهورهم للدنيا ومناهجها وللحلف اليمين والتعلم والامتيازات الطبقية ، وللتجارة وحياة المدينة وأن يعيشوا فى فقر اختيارى وأن يؤثروا فلاحة الأرض ، وأن يتجاهلوا تمام التجاهل الحضارة والدولة . ووجد التابوريون هذه الدعوة السلمية لا تناسب مزاجهم . فانقسموا إلى أحرار معتدلين ومتطرفين « وهؤلاء دعوا إلى مبدأ العرى وشيوعية النساء » ؛ وتحولت الفرقتان فى الجدل إلى الحرب . وفى غضون سنوات قلائل تطورت القدرات غير المتساوية إلى تفاوت فى القوة والامتياز ، ثم إلى تفاوت فى السلع آخر الأمر ، وحل محل رسل السلام والحرية ، مشرعون لا رحمة عندهم يقوم تدبيرهم على الاستبداد الغاشم .

واستمع العالم المسيحى فى فزع إلى هذه المسيحية الشيوعية المزعومة ، وبدأ الهسيون فى البارونات وسكان المدن يتطلعون إلى كنيسة روما باعتبارها المنظمة الوحيدة التى لها من القوة ما يتيح لها أن تقضى على التحلل الوشيك للنظام الاجتماعى القائم وهللوا عند ما رحب مجلس بازل بالتوفيق . وذهب وفد من المجلس إلى بوهيميا دون الحصول على موافقة البابا ، ووقع مجموعة من المواثيق ، صيغت بحيث يفسرها المسالمون من الهسيين والكثالكة بأنها

تقبل وترفض مبادئ براغ الأربعة (١٤٣٣) . ولما أبى التابوريون الاعتراف بهذه العهود انضم الهسيون المحافظون إلى الجماعة الأرثوذكسية الباقية فى بوهيميا وهاجموا التابوريين المنقسمين على أنفسهم وألحقوا بهم الهزيمة ، وقضوا على التجربة الشيوعية (١٤١٤) واصطلح مجلس « الدايت البوهيمى » مع سيجسموند واعترف به ملكاً (١٤٣٦) .

ولكن سجسموند الذى ألف أن يتوج انتصاراته بما لا نفع فيه ، مات فى السنة التالية . وبلغ الحزب الأرثوذكسى ، إبان الفوضى التى أعقبت ذلك ، المكانة العليا فى براغ . وألف قائد محلى قدير هو جورج البوديبرادى جيشا من الهسيين ، واستولى على براغ ، وأعاد جان روكيكانا . إلى كرسى كبير الأساقفة ونصب نفسه حاكما على بوهيميا (١٤٥١) . ولما أبى البابا نيقولاس الخامس الاعتراف بروكيكانا فكر الأتراكوست فى أن يتحولوا بولائهم إلى كنيسة الروم الأرثوذكس ولكن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك وضع حداً للمفاوضات وفى عام ١٤٥٨ اختار مجلس الدايت البوديبرادى ملكا لما رآه من إدارته الفائقة التى وطدت النظام والازدهار فى البلاد .

فتحول بجهوده إلى إقرار السلام الدينى . وأرسل بموافقة مجلس « الدايت » وفداً إلى بيوس الثانى (١٤٦٢) يطلب التصديق البابوى على عهود براغ فأبى البابا وحرم على المدنيين فى كل مكان أن يتناولوا القربان بنوعيه وعمل « البوديبرادى » بنصيحة « جريجور هايمبورج » وهو فقيه ألمانى ودعا عام ١٤٦٤ ملوك أوربا لكى يؤلفوا اتحاداً دائماً للدول الأوربية له سلطة تشريعية وأخرى تنفيذية وجيش ومحكمة لها حق الحكم فى المنازعات الدولية فى الحاضر والمستقبل . فلم يجب الملوك على هذه الدعوة ، وكانت البابوية المنتعشة من القوة إلى الحد الذى لا تأبه فيه « بحلف أممى » وأعلن البابا بول الثانى

أن البوديبرادى هرطيق وحرر رعاياه فى يمين ولائهم له ودعا الدول المسيحية إلى خلعه (١٤٦٦) ، وأخذ مارتكاس كورفينوس الهنغارى على عاتقه القيام بهذه المهمة ، فغزا بوهيميا وتوّجه فريق من النبلاء الكاثوليك (١٤٦٩) ملكاً ؛ وعرض البوديبرادى العرش على لاديلاس بن كازيمير الرابع ملك بولنده . وأنهكته الحرب وداء الاستسقاء فمات وله من العمر إحدى وخمسون سنة (١٤٧١) . وتمجده بوهيميا وهى الآن تشيكوسلوفاكيا ، باعتباره أعظم ملوكها بعد شارل الرابع .

ووافق مجلس الدايت على لاديسلاس الثانى وانسحب ماثياس إلى هنغاريا واستغل النبلاء ضعف الشباب فى الملك لكى يوطدوا سلطانهم الاقتصادى والسياسى ، ولينقصوا من عدد نواب المدن والقرى فى مجلس الدايت وأن يعيدوا إلى هوان العبودية الفلاحين الذين حلموا بالمدينة الفاضلة وفر آلاف من البوهيميين إبان هذه الفترة من الثورة والنكسة إلى بلاد أخرى . وفى عام[1] ١٤٨٥ وقع الحزبان الكاثوليكى والأتراكوست معاهـــدة كتفاهورا وتعهدا بالتزام السلم ثلاثين سنة .

---

(١) خلط الفرنسيون بين البوهيميين المبتدين والغجر (Gypsies) الذين وصلوا إبان القرن الخامس عشر إلى أوربا الغربية ، مفترضين مجيئهم من بوهيميا فجعلوا اسم بوهيمى يرادف الغجرى . واسم جيبسى Gypsy تحريف لاسم إيجبشيان أى مصرى ، ويوحى بما زعمته القبيلة فى أنها جاءت من مصر الصغرى . ويرجع برتن نشأتهم إلى الهند . وسموا فى الأراضى البيزنطية باسم الروم — أى الرومان (الشرقيين) ، وأطلق عليهم فى البلقان وأوربا الوسطى بشتقان من آرزيجان (سزيجانى ، زيجر ، زنجارى) . وهى كلمة يشك فى أصلها . وبدأ ظهورهم فى السجلات الأوربية فى أوائل القرن الرابع عشر بوصفهم جماعات متجولة من أصحاب الحرف والموسيقيين والراقصين والعرافين واللصوص — كما كان الاعتقاد السائد . ووصلوا حوالى عام ١٤١٤ إلى ألمانيا وعام ١٤٢٢ إلى إيطاليا وعام ١٤٢٧ إلى فرنسا وعام ١٥٠٠ إلى إنجلترا .

وكانوا يقبلون العماد فى العادة ؛ ولكنهم تساهلوا فى الدين والتزام الوصايا ومع عان ما وقعوا تحت طائلة محاكم التفتيش . وطردوا من إسبانيا (١٤٩٩) ومن الإمبراطورية —

وألف أتباع الشلجكى فى بوهيميا الشرقية ومورافيا (١٤٥٧) فرقة سيحية جديدة ، اسمها كنيسة الأخوة ، ووقفوا أنفسهم على حياة زراعية بسيطة على مبادىء العهد الجديد وفى عام ١٤٦٧ أنكروا سلطة الكنيسة الكاثوليكية وقدسوا قساوستهم ورفضوا المطهر وعبادة القديسين وأرهصوا بمذهب لوثر فى التزكية بالعقيدة ، وأصبحوا أملى الكنيسة الحديثة التى تدين بالمسيحية ، وما أن جاء عام ١٥٠٠ حتى بلغ أعضاؤها مائة ألف مسيحى . ولقد قضى على هؤلاء « الإخوان المورافيين » تقريباً فى سورة حرب الثلاثين سنة ، وهم إنما عاشوا بفضل جون كومنيوس ، ولا يزالون موجودين فى جماعات مفرقة فى أوربا وأفريقيا وأمريكا ، وهم يدهشون عالما يتسم بالعنف والشك ، بتسامحهم الدينى وتقواهم غير المزعومة وولائهم السلمى للمبادئ التى يعتنقونها .

٤ — بولنده
(١٣٠٠ — ١٥٠٥)

إن المحافظة على السلم عسيرة : حتى فى المناطق التى تستمد وحدتها ومناعتها من الحواجز الجغرافية ، ولنلاحظ كيف تكون المحافظة على هذا السلم أعسر كثيراً فى الدول التى تتعرض على أحد حدودها أو أكثر لجيران متعطشين للغزو أبدا ، ينزعون إلى التغرير حيناً وإلى القوة حيناً آخر ، واختنقت بولنده بعض الاختناق إبان القرن الرابع عشر على يد الفرسان التيوتون واللتوانيين والهنغاريين والمورافيين والبوهيميين والألمان وذلك بالضغط على حدودها . وما كاد لاريسلاس « القصير » يصبح الأمير الأكبر لبولنده الصغرى أى الجنوبية (١٣٠٦) حتى واجه حشداً من الأعداء . ورفض الألمان طاعته فى

= الرومانية المقدسة (١٥٠٠ — ١٥٤٨) ومن فرنسا (١٥٦١) . وتنحصر مساهمتهم فى الحضارة إذا استثنينا لباسهم المشرق المنوع الألوان والحلى الخاصة بنسائهم الموسرات : فى الرقص والموسيق — وقد أوحى تبادلهم فى الألحان بين الحزن والقوة إلى بعض كبار الملحنين والموسيقيين .

بولنده الكبرى أى الغربية واستولى الفرسان على دانزج وبوميرانيا ، وتآمر مارجراف — الحاكم العسكرى — حارس تخوم براندنبرج للقضاء عليه ، وادعى ونسسلوس الثالث صاحب بوهيميا العرش البولندى لنفسه ، وجاهد لاريسلاس فى هذا الخضم من المتاعب بالسلاح والسياسة والزواج ، حتى حد بولنده الصغرى والكبرى فى مملكة متماسكة ، وعمل وتوج نفسه ملكاً فى كراكاو عاصمته الجديدة (١٣٢٠) . ولما مات بالغاً من العمر ثلاثاً وسبعين سنة (١٣٣٣) أوصى بعرشه العصى إلى ابنه الوحيد كازيمير الأكبر .

وقد يستكثر البعض هذا اللقب على كازيمير الثالث ، لأنه كان يؤثر المفاوضة والمصالحة ، على الحرب ، وتنازل عن سيليزيا إلى بوهيميا وعن وميرانيا إلى الفرسان ، وقنع بالحصول على غاليسيا حول لواء ومازوفيا حول وارسو ؛ ووقف حكمه مدى سبع وثلاثين سنة على الإدارة ، فجعل أقاليمه المختلفة تحت ظل قانون واحد ، « يجب ألا تبدو الدولة كوحش كثير الرؤوس » ووحد بتوجيهه ، فريق من الفقهاء القانون والعادات المتفاوتة للولايات فى قوانين كازيمير — وهى المحاولة الأولى فى وضع القوانين البولندية فى مجموعة واحدة . . . وهى مثال على الاعتدال الإنسانى ، إذا قورنت بمجموعات القوانين المعاصرة ، ولقد حمى كازيمير اليهود والروم الأرثوذكس وغيرهم من الأقليات العنصرية والدينية ، وشجع التعليم والفنون وأسس جامعة كراكاو (١٣٦٤) وشيد الكثير من المبانى حتى قال الناس أنه وجد بولنده مبنية من الخشب فأعاد بناءها بالحجر وشجع بحكمته البارعة شئون الأمة الاقتصادية حتى لقبه الفلاحون « بملك المزارعين » ، وأثرى التجار فى ظل السلام وأجمعت الطبقات كلها على تلقيبه « بالكبير » .

ولم يكن له وريث من الذكور ، فترك تاجه لابن أخيه لويس الكبير ملك هنغاريا (١٣٧٠) ، آملا أن يحرز لبلاده حماية ملكية منيعة ونصيباً من الحافز الثقافى الذى جلبته الأسرة الإنجفينية من إيطاليا وفرنسا ، ولكن

لويس حصر اهتمامه فى هنغاريا وأهمل بولنـــده ، وأراد أن يجعل النبلاء المزهوين بأنفسهم على ولاء له فى غيابه بمقتضى « امتياز كاتسا » (١٣٧٤) الذى ينص على الإعفاء من معظم الضرائب واحتكار المناصب العليا . ولما مات نشبت الحرب فى سبيل العرش (١٣٨٢) واعترف مجلس « السيم » أى البرلمان بابنته جادويجا البالغة من العمر إحدى عشر سنة (ملكا) ، ولم يقض على الاضطراب إلا زواج جاجللو أمير أمراء ليتوانيا من جادويجا (١٣٨٦) فوحد بذلك مملكته الشاسعة وبولنده ومنح الحكومة شخصية آمرة .

وكان نمو ليتوانيا ظاهرة كبيرة من ظواهر القرن الرابع عشر فلقد ضم جيديمن وابنه ألجيرد تحت حكمهما الوثنى روسيا الغربية بأسرها : بولتسك وبنسك وسمولنسك وتشرنيجوف وفولهنيا وكيث وبودوليا وأوكرانيا ، وفرح بعض هؤلاء أن وجدوا فى ظل الأمراء الكبار ، عاصما من القبيلة الذهبية التترية التى جعلت روسيا الشرقية التزاما إقطاعيا لها . ولما خلف جاجللو ، ألجيرد (١٣٧٧) كانت الإمبراطورية اللتوانية ، التى تحكم فى ويلنو تمتد من البلطيق إلى البحر الأسود وتكاد تصل إلى موسكو نفسها . وكانت هذه هى الهدية التى نقلها جاجللو إلى جادويجا أو بعبارة أخرى كانت بولندة بأسرها هى الصداق الذى قدمته إليه ، ولم تتجاوز السادسة عشرة عند زواجها ، ولقد نشأت رومانية كاثوليكية فى محيط أرفع ثقافة للاتينية عصر النهضة ، أما هو فكان فى السادسة والثلاثين من عمره ، أميا كافراً ولكنه قبل العماد واتخذ لنفسه الاسم المسيحى لاديسلاس الثانى ، ووعد أن يدخل ليتوانيا بأسرها فى المسيحية .

وكان ذلك اتحاداً مؤقتاً ، لأن تقدم الفرسان الألمان ناحية الشرق كان يهدد بالخطر دولتى الزوجين معاً . وتحولت « جماعة الإخوان فى الصليب » التى وقفت نفسها فى الأصل على تنصير الصقالبة ، إلى فرقة من المحاربين

الغزاة يأخذون بحد السيف كل ما يستطيعون اختطافه من الأرض من أصحابها سواء أكانوا وثنيين أم مسيحيين وأنشأوا عبودية إقطاعية غليظة على الأراضى التى أفلحها يوما من الأيام مزارعون أحرار . وحكم السيد الأكبر عام ١٤١٠ من عاصمته مادينبرج ، استونيا وليفونيا وكورلند وبروسيا وبوميرانيا الشرقية وبهذا فصل بولنده عند البحر والتقى فى « حرب شمالية » ضروس ، جيش السيد الأكبر وجيش نجاجللو ، ولقد أنبئنا أن كلا منهما كان يتألف من عشرة آلاف من الأشداء — فى موقعة بالقرب من جرونيفولد أوتاتنبرج (١٤١٠) وهزم الفرسان ولاذوا بالفرار ، مخلفين وراءهم أربعة عشر ألف أسير وثمانية عشر ألف قتيل ، بينهم السيد الأكبر نفسه . وأفل نجم جماعة الإخوان فى الصليب منذ ذلك اليوم سريعا حتى تنازلت فى صلح ثورن (١٤٦٦) عن بوميرانيا وبروسيا الغربية إلى بولنده بما فى ذلك ميناء دانزج الحر باعتباره منفذا إلى البحر.

وبلغت بولنده فى عهد كازيمير الرابع (١٤٤٧ — ٩٢) أقصى اتساعها وذروة قوتها وأوج فنها . ومع أن كازمير كان أميا ، إلا أنه ختم كراهة الفروسية للقراءة والكتابة ، بأن منح أولاده تعليما كاملا . وخلفت الملكة جادويجا وهى تحتضر ، جواهرها للإنفاق على إعادة افتتاح جامعة كراكاو — وهى التى قدر لها أن تعلم فى القرن التالى كوبرنيكوس . وتوسل الأدب إلى جانب الفلسفة والعلم باللغة اللاتينية ، وكتب جان ولوجوز كتابه الكلاسى « تاريخ بولنده » (١٤٧٨) ودعا عام ١٤٧٧ فيت ستوس النورمبرجى إلى كاراكاو ، فمكث فيها سبع عشرة سنة ، وبلغ بالمدينة مكاناً رفيعاً فى فن ذلك العصر ، ولقد نقش لكنيسة سيدتنا مائة وسبعة وأربعين مقعداً للمرتلين ، ومذبحاً كبيراً ، وهو أربعون قدماً فى ثلاثة وثلاثين مع ضريح مركزى للقيامة ، وهو فى روعة صورة تيتيان ومع ثمانى عشرة صورة جدارية تقص حياة مريم وطفلها — وهى صور

جدارية جديرة — وإن كانت فى الخشب — بأن تضارع الأبواب البرونزية التى حققها غيبرتى لموضع العماد الفلورنسى قبل ذلك بقرن . وحفرستوس لكتدرائية كراكاو مدفنا فخماً من المرمر الأحمر المزرقش لكازيمير الرابع ، وبلغ النحت القوطى بهذه الآثار فى بولنده أوجه ونهايته . أما فى عهد ابن كازيمير ، وهو سيجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) فقد اتخذ الفن البولندى ، لوثرية عصر النهضة الإيطالية الذى تسرب فى ألمانيا ، وهكذا بدأ عصر جديد .

الفصل العاشر

المد العثمانى

(١٣٠٠ – ١٥١٦)

١ – الازدهار الثانى فى بيزنطة ١٢٦١ – ١٣٧٣ .

أعيدت الإمبراطورية البيزنطية بلا إراقة دماء فى ظل أسرة بلايولوجيا جديدة عام ١٢٦١ ، وبقيت برغمها حوالى قرنين من الزمان وانتقص من أطرافها تقدم المسلمين فى آسيا وأوربا ، وتوسع الصقالبة فى مؤخرتها وتناثر الأجزاء المفرقة التى استقلت عنها على يد أعدائها المسيحيين الذين استباحوا القسطنطينية عام ١٢٠٤ – النورمانديين والبندقيين والجنوبيين . وتخلفت الصناعة فى مد الإمبراطورية ، ولكن منتجاتها كانت تحمل على سفن ايطالية لا تدفع إيراداً للخزانة . ولم يبق من الطبقة الوسطى كثيرة العدد الابقية وفوقها نبلاء مترفون ، ومطارنة ذوو ملابس فضفاضة ، لم يتعلموا شيئاً من التاريخ ونسوا كل شيء اللهم إلا امتيازاتهم . وتحتهم طبقات من من رهبان مشاغبين خلطوا التقوى بالسياسة ، وملاك مزارعون هبطوا إلى مستأجرين كما هبط الفلاحون المستأجرون إلى عبيد أرض وحلم العمال اليدويون بمدينة فاضلة تقوم على المساواة . وطردت ثورة فى سالونيك (١٣٤١) الطبقة الأرستقراطية ، ونهبت القصور وأقامت جمهورية شبه شيوعية حكمت ثمانى سنوات قبل أن تقضى عليها قوات الجيش المسيرة في فى العاصمة . وظلت القسطنطينية مركزاً زاخراً بالتجارة بيد أن أحد الرحالة المسلمين لاحظ عام ١٣٣٠ « كثيراً من البيوت المهدمة والحقول المبذورة فى داخل أسوار المدينة » ، وكتب السفير الأسبانى روى جونزاله

ده كلافيجو حوالى عام ١٤٠٩ يقول : « فى كل مكان فى أنحاء العاصمة توجد القصور العظيمة والكنائس والأديرة ولكن معظمها أطلال » . فقد هجر المجد ملكة البوسفور.

وفى وسط هذا الاضمحلال السياسى امتزج التراث اليونانى النفيس أبداً فى الفلسفة بالتقاليد البيزنطية الشرقية فى العمارة والتصوير ليؤلف الأنشودة الثقافية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولبثت المدارس تشرح أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقى ، وإن تحاشوا أبيقور باعتباره ملحداً ، ونقح العلماء النصوص الكلاسية وذيلوها بالحواشى . وصنف ماكسيموس بلانوديس المبعوث البيزنطى إلى البندقية « مجموعة الشعر اليونانى » وترجم الآثار الكلاسية اللاتينية إلى اليونانية وأعاد بناء جسر ثقافى بين بيزنطة وإيطاليا وتوضح سيرة تيودوروس ميتوتشيتيس هذه النهضة الباليولوجية . فلقد كان كبير وزراء أندرونيقوس الثانى وفى الوقت نفسه من أعلم علماء زمانه.وأغزرهم إنتاجا ولقد كتب عنـــه نيقفورس جريجورس وهو عالم ومؤرخ يقول : « لقد كان يقف جهده كله من الصباح إلى المساء على الشئون العامة ، كأنما لا علاقة له بالدراسة ولكنه يصبح بعد مغادرته القصر وفى الجانب الأخير من المساء مستغرقاً فى الدراسات بدرجة عالية كأنه دارس لا علاقة له البتة بمهمة أخرى » . وقد ألف تيودوروس فى التاريخ والشعر والفلك والفلسفة ، بتفوق لا يضارعه فيه يونانى آخر فى هذا القرن الرابع عشر . وخسر فى الثورة التى خلعت مولاه عن العرش منصبه وداره وماله وألقى به فى السجن ، واعتلت صحته فسمح له أن ينفق أيامه الأخيرة فى دير « المخلص » فى كورا (أى فى الحقول) . الذى زين جدرانه بفسيفساء من أجمل ما فى التاريخ البيزنطى .

واستعادت المناظرة القديمة بين الأفلاطونيين والأرسطيين مكانتها . فدافع الإمبراطور جون السادس كانتاكوزين عن أرسطو ، بينما ظل

أفلاطون إله جستوس بليثو . ولقد درس هذا الفيلسوف الذى يعد من أشهر السفسطائيين اليونان فى بروسا بأسيا الصغرى ، عندما أصبحت هذه المدينة عاصمة الزحف العثمانى ودرس على أحد اليهود هناك حكمة الزرادشتيين حتى إذا عاد إلى مسقط رأسه بيلوبونيزس ، وقد عاد إليها اسم موريا — ترك فيما يبدو العقيدة المسيحية . واستقر فى مسترا ، فأصبح قاضياً وأستاذاً فى آن واحد . وكتب عام ١٤٠٠ رسالة تحمل عنوان أفلاطون ، « القوانين » اقترح فيها أن تحل ديانة الإغريق القدماء محل المسيحية والإسلام ، بمجرد تحويل جميع آلهة الأولمب ، ما عدا زيوس إلى مشخصات رمزية لعمليات إبداعية أو أفكار ، ولم يعرف بليثو أن الأديان تولد ولا تصنع . ومع ذلك فقد اجتمع حوله التلاميذ مشغوفين ، وقدر لأحدهم وهو جوهانز بساريون أن يكون الكاردينال الدارس للآثار الكلاسية فى إيطاليا ، ولقد صحب كل من جستوس وبسايرون الإمبراطور جون الثامن إلى فرارا وفلورنسه (١٤٣٨) لحضور المجلس الذى اتفقت فيه الكنيستان اليونانية والرومانية فى علوم الدين وفى السياسة . وفى فلورنسه حاضر جيمستوس عن أفلاطون لصفوة من المستمعين ، وكاد يتأثر عصر النهضة الإيطالية . وهناك أضاف كتبة بليثو (الكامل) إلى اسمه ، وأخذ يلعب باسمه جستوس ومعناه « التام » وأفلاطون وعاد إلى مسترا ولم ينشط فى علوم الدين ، فأصبح كبير أساقفة ومات بالغا من العمر خمسا وتسعين سنة « ١٤٥٠ » .

وكان البعث الفنى ملحوظاً دعودة الفتوة إلى الآداب . وكانت الموضوعات والرسوم لا تزال كهنوتية ، بيد أن لمسة من منظر خلوى أو نسمة من الطبيعة ودفئاً جديداً ينم عنه الخط واللون قد أسبغ الحياة على الفسيفساء بين حين وحين . وفى الفسيفساء التى كشف عنها حديثا ديركورا « مسجد قاهرية الجامع » حيوية دافقة جعلت المؤرخين الغربيين يعترفون

بأنهم يرون فيها تأثيراً إيطالياً جديداً . وتراخت القبضة الكهنوتية عن الصور الجدارية التي حلت محل الفسيفساء ، باهظة النفقة في زخرف الكنائس والقصور وظهرت رسوم من الخيال الرحب والقصص الدنيوى إلى جانب قصص القديسين . ومع ذلك تشبث صناع الأيقونات بالطراز الموروث القديم ، أشكال ضامرة ووجوه يحرقها ورع طهرى غائبة بصورة أخاذة عن أخلاقيات العصر . وتعرض حينذاك تصوير المنمنمات البيزنطى لانحلال كبير ، بيد أن نسج الرسوم التصويرية بالحرير ظل ينتج روائع لا تنافس فى العالم الغربى ويعود تاريخ ما يسمى « زنار شارلمان » إلى القرن الرابع عشر ، أو الخامس عشر ، ولقد نسج صانع بارع على قاعدة من الحرير المصبوغ بالزرقة صممها فنان ، بخيوط من الفضة والذهب ، مشاهد من حياة مريم والمسيح وقديسين مختلفين . وتحققت آثار رائعة مماثلة فى التصوير على النسيج فى ذلك العصر فى سالونيك والصرب وملدافيا وروسيا .

وعادت اليونان مرة أخرى مركزاً للفن العظيم . وما كاد القرن الثالث عشر يشرف على نهايته حتى كان الفرنجة الذين نثروا على الأماكن الكلاسية القلاع البهيجة قد أخلوا السبيل للقوة البيزنطية ، وفى عام ١٣٤٨ أرسل الإمبراطور جون السادس ابنه عمانويل ليكون حاكماً على المورة ، فأقام مقره المحلى على تل مشرف على إسبرطة القديمة . فوفد على العاصمة الجديدة نبلاء وأعيان ورهبان وفنانون وعلماء وفلاسفة وبنيت أديرة فخمة ، واحتفظت ثلاثة منها فى كنائسها ، ببعض صورها الجدارية التى ترجع إلى القرون الوسطى : ديرا متروبوليس وبريليبتوس من القرن الرابع عشر وبانتاتسا من أوائل القرن الخامس عشر ، وهذه هى أحسن الجداريات فى التاريخ البيزنطى الطويل ، وهى تضارع خير ما أنتجته إيطاليا فى العصر نفسه من الصور الجدارية بدقة رسمها ورشاقة صورها الفياضة وعمق وإشراق ألوانها ، والحق ، أنها تدين

ببعض ما تتسم به من الروعة إلى كيما بووجيوتو أودكشيو — وهم جميعاً يدينون بالكثير للفن البيزنطي .

وعلى الشاطئ الشرقي لبلاد اليونان ، على ارتفاع قمة « جبل أثوس » أقيمت الأديرة في القرن العاشر ، وظلت تقام هناك في معظم القرون بعد ذلك في القرن الرابع عشر بانتوكراتور الفخم ، وفي القرن الخامس عشر دير القديس بول . ولقد نسب إبان فترة التقهقر « دليل يوناني للتصوير » يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ، أحسن الجداريات إلى عمانويل بانسيلينوس السالونيكي الذي « أظهر تفوقاً وحذقاً في فنه حتى وضع على رأس جميع المصورين القدماء والمحدثين » ، وليس من المستطاع التحقق من تواريخ عمانويل وآثاره فقد يرجع إلى القرن الحادي عشر أو السادس عشر ، ولا يستطيع أحد أن يجزم بما صدر عن يده من الصور التي فوق جبل أثوس .

وبينما كان الفن البيزنطي يجتاز هذا الوجد الأخير في تاريخه أفل نجم الحكومة البيزنطية . فقد اضطرب نظام الجيش واضمحل الأسطول ، وسيطرت سفن جنوه والبندقية على البحر الأسود ، وأخذ القرصان يتجولون في الأرخبيل اليوناني ، واستولت على غاليبولي (١٣٠٦) فرقة مرتزقة من قطلونية — « وهي الشركة القطلونية الكبرى » — وفرضت الإتاوات على تجارة الدردنيل ، وأنشأت جمهورية من اللصوص في أثينا (١٣١٠) ، ولم توفق حكومة في القضاء عليهم وتركوا تحت رحمة شططهم . وانضم البابا كليمنت الخامس عام ١٣٠٧ إلى فرنسا ونابلي والبندقيـــة في مؤامرة لاستعادة القسطنطينية . وفشلت المؤامرة ، بيد أن الأباطرة البيزنطيين لبثوا سنوات كثيرة يستشعرون الخوف من الغرب المسيحي حتى لم يكن عندهم من النشاط والحمية ما يدفعون به الزحف الإسلامي وما كاد هذا الخوف يتبدد حتى كان العثمانيون على الأبواب .

ولقد اشترى بعض الأباطرة هلاكهم بأنفسهم . ففى عام ١٣٤٢ تورط جون السادس كانتاكوزين فى حرب أهلية وطلب العون من أورخان سلطان آل عثمان فأرسل إليه أورخان السفن وساعده فى الاستيلاء على سالونيك ، فما كان من الإمبراطور المعترف بالجميل إلا أن أرسل إليه ابنته تيودورا لتكون زوجة ثانية له ، وبعث إليه السلطان بفرق جديدة تتألف من ستة آلاف جندى . وأخذ جون باليولوج على عاتقه أن يخلعه — فما كان من جون كانتاكوزين إلا أن نهب الكنائس القسطنطينية ليدفع إلى أورخان ثمن عشرين ألف جندى تركى آخرين ووعد السلطان بحصن فى شيرزونيس بتراقيا ، وفى لحظة انتصاره الظاهرى انقلب الشعب عليه وعده خائناً ، وحولته الثورة فى ليلة واحدة من إمبراطور إلى مؤرخ — (١٣٥٥) فاعتزل فى دير ، وكتب تاريخ عصره كمحاولة أخيرة لإرباك أعدائه .

ولم يجد جون الخامس باليولوجس العرش ذلولا ، فذهب إلى روما مستشفعاً (١٣٦٩) ، ووعد ، فى مقابل ما يقدم له من عون ضد الأتراك أن يدخل شعبه فى طاعة البابوية ، وأنكر الكنيسة اليونانية الأورثوذكسية أمام المذبح الكبير للقديس بطرس . ووعد البابا إربان الخامس بأن يمد له يد العون ضد الكفار ، وأعطاه رسائل إلى أمراء العالم المسيحى ، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا منصرفين إلى شئون أخرى . وبدلا من أن تقدم له البندقية المساعدة المنشودة اعتبرته رهينة فى مقابل الديون اليونانية . وأحضر ابنه عمانويل المال المطلوب ، وعاد جون إلى القسطنطينية أفقر مما رحل عنها ، وأنكره شعبه لأنه حنث بعهده للمذهب الأرثوذكسى . وفشل فى محاولة ثانية للحصول على المدد من الغرب ، فاعترف بالسلطان مراد الأول مولى عليه ، ووافق على أن يمد الجيش العثمانى بالمدد العسكرى ، وقدم ابنه الحبيب عمانويل ليكون رهينة على الولاء بتعهده وهدأت ثائرة مراد فترة ما وتنكب بيزنطة ، وتحول لإخضاع أمارات البلقان .

٢ — أمارات البلقان تلتقى بالترك ١٣٠٠ — ٩٦

لقد كان القرن الرابع عشر إلى ذلك الوقت بالنسبة لأمارات البلقان بمثابة القمة فى تاريخها . . . وعمل الصقالبة الأشداء فى ولاشيا وبلغاريا والصرب والبوسنة وألبانيا على قطع الأخشاب من الغابات والبحث عن المناجم وفلاحة الأرض ورعى قطعان الماشية وكانوا يحرصون على تربية دوابهم . وحمل الصقالبة والإيطاليون والمجريون والبلغار واليونان واليهود تجارة الشرق والغرب من بحر الأدرياتى إلى البحر الأسود ومن البحر الأسود إلى البلطيق ، وكانت المدن تدر عليهم الرزق كلما ساروا .

وكان الرجل العظيم من الصرب فى هذا القرن هو ستيفن دوشان . ولقد أنجبه والده ستيفن أروش الثالث فى انفلاتة قصيرة عن روابط الزوجية وسماه بهذا الاسم المحبوب دوشا — أى الروح — وتوجه ولياً للعهد حتى إذا جاء ابن آخر شرعى وحمل بدوره ألقاباً محببة ، خلع ستيفن أباه ، وشنقه وحكم بلاد الصرب بيد قوية مدى جيل كامل . وكتب أحد معاصريه عنه يقول : « كان أطول رجال زمانه وأبشعهم منظراً » ، واغتفرت له الصرب كل شىء لأنه شن حرباً مظفرة . فقد درب جيشاً جراراً ، وقاده بحنكة ، وفتح البوسنة وألبانيا وأبيروس وأكارنانيا وأيتوليا ومقدونيا وتساليا ونقل عاصمة ملكه من بلجراد إلى سكبلجة حيث جمع برلمانا من النبلاء ، وناشده أن يوحد ويجمع قوانين ولاياته المختلفة ، وكانت ثمرة ذلك هى : « زابونيك تساد دوشانه» أى « مجموعة قوانين القيصر دوشا » (١٣٤٩) وهى تكشف عن مستوى فى التطور القانونى والعرف المتمدين لا يقل كثيراً عما فى أوربا الغربية ، وأفاد الفن الصربى فى القرن الرابع عشر من هذه النهضة السياسية فى التمويل وربما فى الحافز حتى ضارع الازدهار المعاصر فى القسطنطينية والمورة ، فأقيمت الكنائس الفخمة ، وكانت الفسيفساء فيها أكثر

حرية وحياة مما سمح به الاتجاه الكهنوتى المحافظ فى العاصمة اليونانية . وفى عام ١٣٥٥ حشد دوشان جيوشه للمرة الأخيرة . وسألهم هل يؤثرون أن يسيروا ضد بيزنطة أم ضد هنغاريا . فأجابوا أنهم على استعداد لمتابعته إلى أى مكان يختاره لقيادتهم . فصاح « إلى القسطنطينية » ومرض فى الطريق ومات .

وكانت إمبراطوريته من التنافر إلى حد لا يجمعها غير رجل له ذكاء نافذ ونشاط منظم ، فشقت البوسنة عصا الطاعة ، والتمست لحظة مواتية . فى كنف ستفين ترتكو ، لقيادة البلقان . وحصلت بلغاريا على المرحلة الأخيرة من مراحل عظمتها فى عهد جون الإسكندر . وانفصلت ولاشيا ، التى كانت فى يوم من الأيام جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية (١٢٩٠) وحكمت دلتا الدانوب الشاسعة . وخرجت ملدافيا عن ولائها لهنغاريا (١٣٤٩) . وداهم الترك هذه الدويلات المتنافرة حتى قبل أن يجعل جون الخامس باليولوجس من بيزنطة التزاماً إقطاعياً لمراد الأول . وقاد سليمان الابن المقدام للسلطان أورخان الجيوش التركية لمعاونة جون السادس كانتاكوزين ، فتسلم أو أخذ مكافأة له ، حصن زمبه على الجانب الأوربى للدردنيل (١٣٥٣) ولما هدم الزلزال غاليبولى المجاورة دخل سليمان المدينة العزلاء واستجاب الأتراك المستعمرون لدعوته فعبروا من الأناضول وانتشروا على طول الشاطئ الشمالى لبحر مرمرة وكادوا يبلغون القسطنطينية نفسها وزحف سليمان بجيش متزايد صوب تراقيا واستولى على أدرنة (١٣٦١) . وبعد خمس سنوات جعل منها مراد عاصمته الأوربية . وفى هذا المركز صوب الأتراك ضرباتهم مدى قرن من الزمان إلى إمارات البلقان المنقسمة على نفسها .

وأدرك البابا اربان الخامس مغزى هذا التسلل التركى إلى أوربا فاستنفر العالم المسيحى بأسره لحرب صليبية أخرى . فاتجه جيش مؤلف من الصرب والهنغاريين والولاشيين ، ببسالة صوب أدرنة . وأقاموا عند نهر مارتزا احتفالا بزحفهم الذى لم يلق مقاومة ، وفيما هم يشربون الأنخاب

يعربدون إذا بهم يفاجأون بهجوم ليلى من قوة تركية صغيرة بالقياس إليهم. وذبح كثيرون قبل أن يتمكنوا من حمل أسلحتهم ، وغرق كثيرون آخرون وهم يحاولون الانسحاب عبر النهر وفر الباقون (١٣٧١) . وفى عام ١٣٨٥ استسلمت صوفيا وسقط نصف بلغاريا فى أيدى العثمانيين . واستولوا عام ١٣٨٦ على نيس وعلى سالونيك عام ١٣٨٧ . وأصبحت اليونان بأسرها مكشوفة أمام الأتراك .

وأوقفت بوسنه الصغرى الزحف فى غضون سنة بطولية واحدة . وضم ستيفن توتكو جنوده إلى جنود الصرب بقيادة لازار الأول وهزموا الأتراك فى بلوشنيك (١٣٨٨) . وبعد عام سار مراد غرباً على رأس جيش فيه فرق كثيرة من الجند المسيحيين . والتقى فى قوصوه بحلف من الصرب والبوسنين والمجريين والفلاشيين والبلغار والألبان والبولفريين وادعى فارس حربى إسمه ميلوش كوبيلتش ، أنه آبق فى الخدمة العسكرية وجاسوس واستطاع بذلك أن يشق طريقه إلى خيمة مراد وأن يغتال السلطان فضرب حتى مات . واستثار ابن مراد ووريثه بايزيد الأول الحمية الغضوب فى نفوس الأتراك وقادهم إلى النصر . فأسر الملك لازار وقطعت رأسه وأصبحت الصرب إمارة إقطاعية تدفع الجزية للأتراك ، وأرغم ملكها الجديد ستيفن لازار فتش على إرسال السلاح والرجال إلى بايزيد ، وفى عام ١٣٩٢ انضمت ولاشيا فى عهد جون شيشمان ، إلى قائمة الدول البلقانية التى تدفع الجزية للعثمانيين . ولم تقو على الدفاع غير بلغاريا وبيزنطة .

وفى عام ١٣٩٣ غزا بايزيد بلغاريا . وسقطت ترنوفو بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، ودنست الكنائس وأضرمت النيران فى القصور ودعى زعماء النبلاء إلى اجتماع ، ثم أعمل السيف فيهم . فاستصرخ البابا مرة أخرى العالم المسيحى ودعا الملك سيجسمند ملك هنغاريا ، أوربا لحمل السلاح . ومع

أن فرنسا كانت مشغولة بصراع حياة أو موت مع انجلترا إلا أنها أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة كونت نيفير ، وجاء كونت هوهنزلون والسيد الأعظم لفرسان القديس يوحنا مع أتباعهما ، وأحضر أمير بلتين ثلة من الفرسان الباڤاريين ، وأنكرجون شيشمان تبعية الإقطاعية وجاء بجنده ليحارب تحت قيادة الملك الهنغارى .

وسار الجيش المتحد الذى يتألف من ستين ألفاً من الجنود الأشداء عبر الصرب وحاصر الحامية فى نيكوبوليس . وبلغهم التحذير بأن بايزيد فى طريقه ، ومعه جيش من آسيا لرفع الحصار ، فوعد الفرسان الفرنسيون وقد لعبت الخمر والنساء برءوسهم بأن يبيدوا هذا الجيش ، وقالوا مفاخرين لو سقطت السماء على الأرض فسيرفعونها برماحهم ، أما بايزيد فقد أقسم ليربطن جواده بالمذبح الرفيع فى كنيسة القديس بطرس فى روما ووضع ضعف قواته فى المقدمة بخطة حربية بادية الوضوح . فاندفع الفرسان الفرنسيون وسط هذه القوات مستشعرين للنصر ، ثم وسط عشرة آلاف من الانكشارية ثم وسط خمسة آلاف من الفرسان الأتراك ، ثم هجموا مصعدين فى غير تبصر أحد التلال ، وإذا بهم يواجهون وراء القمة مباشرة الجزء الرئيسى من الجيش التركى المؤلف من أربعين ألفا من حملة الرماح . وحارب النبلاء ببسالة وكانوا بين قتيل وأسير ولائذ بالفرار ، وباندحارهم وقع الاضطراب فى صفوف المشاة المتحالفين خلفهم . ومع ذلك فقد كان الهنغاريون والألمان يردون الأتراك على أعقابهم بينما كان ستيفن لازارفتش أمير الصرب يقود خمسة آلاف من . المسيحين ضد الجيش المسيحى وانتصر فى موقعة نيكوبوليس الحاسمة لمصحلة السلطان (١٣٩٦) .

وثارت ثائرة بايزيد عندما رأى الجم الغفير من رجاله صرعى فى حومة القتال ، وعندما سمع ما زعمته الحامية التى أنقذت من أن المحاصرين المسيحيين قتلوا أسراهم من الترك ، فأمر بقتل أسراه البالغين عشرة آلاف

رجل . وسمح لكونت نيفير أن يتخير أربعة وعشرين فارساً فى مقابل الفدية التى يحضرونها . وذبح آلاف من المسيحيين فى مقتلة دموية استمرت من طلوع الشمس إلى فترة متأخرة من المساء ، حتى توسل قواد السلطان أن يخلى سبيل الباقين ، وظلت بلغاريا منذ ذلك اليوم إلى عام ١٨٧٨ ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية وبذلك استولى بايزيد على معظم اليونان ، ثم اتجه صوب القسطنطينية .

٣ — السنوات الأخيرة للقسطنطينية ١٣٧٣ — ١٤٥٣

لم تكن هناك حكومة جديرة تماماً بالسقوط كالحكومة البيزنطية . فلم ترسل فرقاً من الجنود إلى الجيوش المسيحية فى مارتزا وقوصوه أونيكوبوليس لأنها فقدت الرغبة فى الدفاع عن نفسها وعجزت عن إقناع اليونان المعنين فى السفسطة بأن الاستشهاد فى سبيل الوطن عمل مجيد ونبيل ، فقد جهزت اثنى عشر ألف جندى للسلطان عام ١٣٧٩ والفرق البيزنطية هى التى أجبرت بأمر جون السابع باليولوجس مدينة فيلادلفيا البيزنطية بأسيا الصغرى على التسليم للأتراك (١٣٩٠) .

ولما واصل بايزيد حصار القسطنطينيين (١٤٠٢) كانت الإمبراطورية البيزنطية قد انحسرت فى عاصمتها . وسيطر بايزيد على شاطئ بحر مرمرة وتحكم فى الدردنيل وحكم معظم آسيا الصغرى والبلقان تقريباً وتنقل فى أمن بين عواصمه الأسيوية والأوربية . ويبدو أن الساعة الأخيرة للمدينة المحاصرة قد حانت . وكان اليونان المشرفون على الموت جوعاً يلقون بأنفسهم من الأسوار ، ويلجأون إلى الأتراك لكى يطعموا . وفجأة ظهر من الشرق الإسلامى مخلص « كافر » للحدود الأمامية للعالم المسيحى . وهو تيمور الأعرج — أى تيمورلنك الكبير — الذى عزم على أن يضع حداً لنمو القوة العثمانية ووجودها . ولما أخذت حشود التتار تطوى الأرض متجهة إلى الغرب رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية وعاد ليعيد جمع قواته فى الأناضول . والتقى التتار والأتراك فى أنقره (١٤٠٢) فهزم

بايزيد ووقع أسيراً وانحسر المد التركي فترة جيل . وبدا أن الله قد ناصر آخر الأمر المسيحيين .

واستعادت بيزنطة بفضل حكم عمانويل الثانى السديد ، معظم اليونان وأجزاء من تراقية . ولكن محمد الأول أعاد تنظيم الجيش التركي وتحول به مراد الثانى من الهزيمة المنكرة إلى انتصارات باهرة . وكان جنود الإسلام لا يزالون ، يستلهمون من اعتقادهم بأن الشهيد فى سبيل الإسلام له الجنة ، وحتى ولو لم تكن هناك جنة وحور عين ، فإن فيهم من الإنصاف ما يجعلهم يرون الجمال فى بنات يونان[1] . أما المسيحيون فلم يكونوا على هذا القدر من الأنصاف . فإن اليونان الكاثوليك كانوا يمقتون الرومان الكاثوليك ، وكان الفريقان مكروهين بدورهما . ولما أخذ البنادقة يقنصون اليونان الكاثوليك فى جزيرة كريت ويعملون السيف فى رقابهم انضم البابا أربان الخامس إلى بترارك فى تهنئة أمير البندقية على حمايته للكنيسة الواحـــدة الصادقة (١٣٥٠) ولقد نفر الشعب وصغار القساوسة من كل محاولة لإعادة توحيد المسيحية اليونانية واللاتينية — وصرح أمير بيزنطى بأنه يفضل أن يرى العمامة التركية فى القسطنطينية على القبعة الحمراء لكاردينال رومانى . وكرهت معظم الحكومات البلقانية جيرانها أكثر من كراهيتها للأتراك ، وآثر البعض أن يخضع للمسلمين ، الذين لا يفرضون ضرائب أكثر مما يفرضه الحكام المسيحيون واضطهادهم للهرطقة أقل أو هم لا يضطهدونها على الإطلاق ويسمحون بأربع زيجات .

وفى عام ١٤٢٢ أعاد مراد الثانى الهجوم على القسطنطينية . وأرغمته ثورة فى الولايات البلقانية على رفع الحصار . وسمح لجون الثامن باليولوجس أن يحكم فى سلام نسبى بشرط أن يدفع جزية باهظة للأتراك . وأعاد مراد فتح اليونان وسالونيك ومعظم ألبانيا . وقاومت الصرب ببساطة تحت إمرة

---

(١) أثبتت الوقائع قوة إيمان المسلمين وهو الإيمان الذى جعلهم يطوون رقعة الأرض بالفتوح على الرغم من قلة عددهم وعتادهم وأقام دولتى الفرس والروم . (المترجم)

جورج برانكوفتش ، وألحق جيش موحد من الصرب والهنغاريين تحت إمرة هانياد جانوس الهزيمة بمراد عند كونوفتزا (١٤٤٤) وحكم بارنكوفتش الصرب إلى أن مات بالغاً من العمر تسعين سنة (١٤٥٦) ووقع مراد . بعد انتصارين فى فارنا ووقعة قوصوه الثانية (١٤٤٨) ، صلحاً مع الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر باليولوجس وانسحب إلى أدرنه ومات هناك (١٤٥١) .

ولقد جلس محمد الثانى الملقب بالفاتح على العرش العثمانى وهو فى الواحدة والعشرين من عمره . وأيد المعاهدة التى أبرمت مع قسطنطين وأرسل ابن أخيه أورخان ليتعلم (وربما ليكون جاسوساً) فى البلاط البيزنطى ولما تحدت دول إسلامية أخرى سلطانه على آسيا الغربية جعل جنوده يعبرون المضايق وترك ممتلكاته الأوربية تحت إمرة وزيره خليل باشا المعروف بصداقته لبيزنطة . وكان قسطنطين يتحلى بالشجاعة أكثر من الذكاء ، فأبلغ الوزير أنه إذا لم يضاعف المعاش الذى يدفع لرعاية ابن أخى محمد فإن بيزنطة ستجعل أورخان مطالباً بالسلطنة العثمانية . ويبدو أن قسطنطين قد رأى أن الثورة فى آسيا فرصة لإضعاف الأتراك فى أوربا . ولكنه أهمل أن يحافظ على محالفاته فى الغرب ومواصلاته بالجنوب . وعقد محمد الصلح مع أعدائه من المسلمين ومع البندقية وولاشيا والبوسنة وهنغاريا . .وعبر ثانية إلى أوربا وشيد حصناً منيعاً على البوسفور مشرفاً على القسطنطينية ، ومن ثم أمن المعبر المكشوف الذى تجوزه جنوده بين القارتين ، وتحكم فى التجارة كلها التى تدخل البحر الأسود . وظل ثمانية أشهر يجمع المواد والرجال . واستأجر صناع المدافع المسيحيين ، ليصنعوا له أكبر مدفع عرف لذلك العهد ، يرمى بقذائف وزنها ستمائة رطل ، وفى يونيه عام ١٤٥٢ ، أعلن الحرب ، وبدأ الحصار الأخير للقسطنطينية ومعه مائة وأربعون ألف رجل .

ودافع قسطنطين بعزم اليائس وجهز جنوده السبعة آلاف بمدافع صغيرة ورماح وقسى وسهام ومشاعل وبنادق ساذجة ترمى قذائف من الرصاص فى

حجم الجوزة ، وكان لا ينام إلا لحظات خاطفة ، وأشرف كل ليلة ، على إصلاح ما يصيب الأسوار من عطب فى غضون النهار . ومع ذلك فإن الحصون القديمة أخذت تنهار أكثر فأكثر تحت وطأة قذائف المنجنيق ومدفعية الأتراك المتفوقة ، وهكذا انتهى تحصين المدن فى القرون الوسطى بالأسوار . وفى التاسع والعشرين من مايو شق الأتراك طريقهم عبر خندق مكتظ بجثث قتلاهم ، ودخلوا كالموج المتلاطم من فوق الأسوار ومخترقين إياها إلى المدينة التى أخذها الفزع من كل جانب ، وضاعت حشرجة المحتضرين فى طبول الموسيقى العسكرية وأبواقها . وحارب اليونان بشجاعة آخر الأمر ، وكان الإمبراطور الصغير فى كل مكان من حومة الوغى ، واستشهد النبلاء الذين كانوا معه عن بكرة أبيهم دفاعاً عنه . ولما أحاط به الأتراك صاح قائلا : « ألا يوجد مسيحى يضرب عنقى » . وخلع عن نفسه رداءه الإمبراطورى وحارب كجندى عادى واختفى فى طريق جيشه الصغير ، ولم يسمع عنه شىء قط بعد ذلك .

وقتل المنتصرون الألوف ، حتى توقفت كل محاولة للدفاع . ثم بدأوا النهب والسلب الذى يجنح إليه الظافرون والذى طال تحطشهم إليه ، وأخذ كل بالغ ينتفع به فى العمل غنيمة ، واغتصبت الراهبات كغيرهن من النسوة فى ثورة من الشهوة لا تعرف التميز ، ووجد السادة والخدم من المسيحيين بعد أن زال عنهم الكساء الذى يدل على مكانتهم ، أنفسهم متساوين فجأة فى العبودية التى لا تمييز فيها وكبح جماح النهب والسلب هوناً ما ، فعند ما رأى محمد الثانى رجلا مسلحا تدفعه عاطفته الدينية يتلف الممر الرخامى لكنيسة القديسة صوفيا ، ضربه بسيفه الملكى الأحدب ، وأعلن أن كل المبانى يجب أن تصان لتكون غنيمة ينظمها السلطان . وحولت كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد بعد التطهير المناسب فأزيلت عنها كل الأمارات المسيحية ، وطليت فسيفساؤها بالبياض ونسى ما كان عليها خمسمائة سنة ، وصعد مؤذن فى نفس اليوم الذى

سقطت المدينة فيه أو فى يوم الجمعة التالى له إلى أعلى برج من أبراج أيا صوفيا ودعا المسلمين للصلاة فيها جماعة لله الناصر ؛ وأدى محمد الثانى فريضة الصلاة فى أشهر مزار فى العالم المسيحى .

وهز الاستيلاء على القسطنطينية كل عرش فى أوربا . فقد سقط الحصن الذى طالما حمى أوربا من آسيا أكثر من ألف سنة ، فإن القوة والعقيدة الإسلاميتين اللتين أمل الصليبيون فى ردهما إلى داخل آسيا ، قد شقتا الآن طريقهما على جثة بيزنطة ، وعبرتا البلقان إلى أبواب هنغاريا ؛ ورأت البابوية ، التى حلمت بإخضاع جميع المسيحيين اليونان لحكم روما ، بفزع سرعة تحول الملايين من سكان جنوب شرق أوربا إلى الإسلام . وأصبحت طرق التجارة التى كانت مفتوحة فى يوم من الأيام للسفن الغربية فى يد أجنبية ، تفرض عليها المكوس فى وقت السلم أو تسدها المدافع فى وقت الحرب ، وهجر الفن البيزنطى موطنه ولجأ إلى روسيا . بينما اختفى تأثيره فى الغرب بالقضاء على عزمه . وأخذت هجرة العلماء إلى إيطاليا وفرنسا ، التى كانت قد بدأت عام ١٣٩٧ ، تزداد وتثمر فى إيطاليا الدعوة إلى إنقاذ اليونان القديمة . وإذا أخذنا بوجه من الوجوه فإنه لم يضع شىء ، إلا أن الموتى قد ماتوا . فقد أتمت بيزنطة دورها ، وأسلمت مكانها ، فى موكب الإنسانية الذى يتألف من البطولة والقتل ومن النبل والخسة .

٤ – هانيادى جانوس (١٣٨٧ – ١٤٥٦)

وكان سكان هنغاريا البالغ عددهم حوالى سبعمائة ألف فى القرن الرابع عشر مزيجاً من المجر والبانونيين والسلوفاك والبلغار والخزر والباتزيناك والكومان والسلافونيين والكرواتيين والروس والأرمن والولاشيين والبوسنويين والصرب . والخلاصة أن أقلية من المجر كانت تحكم الأغلبية من الصقالبة .. وبدأت تتكون فى المدن الناشئة إبان القرن الرابع عشر طبقة وسطى تجارية وأخرى من عمال

الصناعة — ولما كان هؤلاء . فى الغالب مهاجرين من ألمانيا وفلاندز وإيطاليا فقد أضيفت خلافات عنصرية إلى الكيان الجنسى المعقد .

وانتهت بموت أندرو الثالث أسرة أرباد المالكة (٩٠٧ — ١٣٠١) ، فقسمت الحرب التى اشتجرت فى سبيل العرش الأمة أكثر مما هى عليه ، ولم يعد السلام إلا عندما جعلت الطبقة العليا من النبلاء الملكية بالانتخاب ، ووضعوا تاج القـــديس ستيفن على رأس تشارلز روبرت أمير أنجو (١٣٠٨) : فأحضر معه فكرات فرنسية من إقطاع وفروسية وفكرات إيطالية عن التجارة والصناعة فنهض بمناجم الذهب الهنغارية وشجع المشروعات وضرب السكة ، وطهر القضاء ومنح الأمة إدارة مناسبة . وأصبحت هنغاريا فى عهد تشارلز وابنه لويس دولة غربية وذلك رغبة فى الحصول على معاونة الغرب أمام الشرق المتكاثر .

وكتب فولتير « لقد حكم لويس الأول هنغاريا حكما سعيدا أربعين سنة (١٣٤٢ — ٨٢) » وحكم بولنده اثنتى عشرة سنة (حكما غير موفق كذلك) — ولقبه شعبه بالكبير ، الذى يستحقه عن جدارة ، ومع ذلك فإن هذا الأمير قلما يعرف فى أوربا (الغربية) لأنه لم يحكم قوماً يستطيعون أن ينقلوا شهرته وفضائله إلى أمم أخرى . وما أقل الذين يعلمون أنه كان فى القرن الرابع عشر ، لويس الكبير فى جبال الكربات » . . . ومزجت أخلاقه بين الثقافة المدنية ومشاعر الفروسية بالحمية والقـــدرة العسكريتين : ولقد انغمس فى الحروب بين حين وآخر ليثأر لمقتل أخيه فى نابلى وليستعيد من البندقية الثغور الدلماشية التى اعتبرتها هنغاريا زمناً طويلا منافذها إلى البحر ، وليضع حداً للتوسع العدوانى للصرب وتركيا وذلك بجعل كرواتيا والبوسنه وبلغاريا الشمالية تحت سيطرة هنغاريا ونشر بالقدرة والمبدأ مثل الفروسية الأعلى بين النبلاء ، ورفع مستوى الأخلاق والعادات بين شعبه . وحقق الفن القوطى الهنغارى فى عهده وعهد أبيه أجمل آثاره ،

ونحت نيقولاس كولوزفارى وأبناؤه من التماثيل البارعة مثل تمثال القديس چورچ الذى يوجد الآن فى براغ . وأسس أويس عام ١٣٦٧ جامعة بيس ، ولكنها اختفت مع الكثير من أمجاد هنغاريا فى القرون الوسطى فى الصراع الطويل المضنى مع الأتراك .

واستمتع سيجسموند الأول وهو زوج ابنة لويس بحكم كان من الممكن أن يؤدى طوله (١٣٨٧ — ١٤٣٧) إلى وضع سياسة طويلة بعيدة النظر . ولكن أعماله كانت فوق طاقته . فقاد جيشاً جراراً ضـــد بايزيد فى نيكوبوليس ، ولم ينج من الكارثة إلا بحياته . وأدرك أن الزحف التركى قد أصبح أخطر مشكلات أوربا ، وبذل عناية فائقة وأموالا لا تكفى لتحصين الحدود الجنوبية ، وشيد عند ملتقى الدانوب بالساف حصن بلغراد الكبير . بيد أن انتخابه لإدارة الإمبراطورية جعله يهمل هنغاريا إبان غيبته الطويلة فى ألمانيا ، كما أن حصوله على تاج بوهيميا قد وسع من مسئولياته دون أن يزيد فى قدراته .

وغزا الأتراك المنتشرون هنغاريا بعد سنتين من وفاته . وأثمرت الأمة فى هذه الأزمة أشهر أبطالها . ولقد حصل هانيادى جانوس على لقبه من قلعة هانيادى فى ترانسلفانيا ، وهو معقل منيع منح لأبيه لحسن بلائه فى الحرب ودرب جانوس — أى جون — على الحرب كل يوم تقريباً فى صباه . وبرز بانتصاره على الأتراك فى سيمندريا ، وجعله الملك الجديد ، لاديسلاس الخامس ، كبير القواد على الجيوش التى تقاوم الأتراك . وأصبح رد العثمانيين على أعقابهم هو الشغل الشاغل فى حياته . فلما دخلوا ترانسلفانيا قاد لمحاربتهم فرقاً حديثة التنظيم تلهبها وطنيته وقيادته . وفى هذه الموقعة بذل سيمون كيمينى ، الأثير فى الأدب الهنغارى ، حياته فى سبيل قائده : وكان قد علم أن الأتراك طلب إليهم أن يفتشوا عن هانيادى ويقتلوه ، فناشد سيمون قائده أن يتبادل الأزياء وإياه فسمح له بذلك .

ومات تحت وطأة الهجمات المركزة عليه ، بينما قاد هانيادى الجيش إلى النصر (١٤٤٢) وأرسل مراد الثانى فرقاً جديدة تتألف من ثمانين ألف رجل إلى الجبهة ، فاستدرجهم مخيلا إليهم أنه يتراجع ، إلى ممر ضيق — لا يسمح إلا لجزء يسير منهم بالقتال دفعة واحدة ، وانتصرت خطة هانيادى مرة أخرى . وأزعجت مراد الثورات فى آسيا ، فسعى إلى الصلح ووافق على دفع تعويض مادى . فوقع الملك لاديسلاس وحلفاؤه هدنة مع مندوبين عن مراد ، هدنة تدعو الفريقين إلى الإخلاد إلى السلم . وأقسم لاديسلاس على الكتاب المقدس ، وأقسم سفراء الترك على القرآن (١٤٤٢) .

ولكن الكاردينال جوليانو شيزارينى ، القاصد الرسول فى بودا ، ما لبث أن وجد الوقت مناسباً للهجوم . فإن مراداً أخذ ينقل جيشه إلى آسيا وبذلك يستطيع أسطول إيطالى يتحكم فى الدردنيل أن يحول بينه وبين العودة واحتج الكاردينال الذى عرف باستقامته وقدرته ، بأن القسم لكافر لا يقيد المسيحى . ونصح هانيادى بالإخلاد إلى السلم ، وأبت الفرقة الصربية أن تحنث بالقسم . ووافق مندوبو الأمم الغربية شيزارينى ، ووعدوا بأن يسهموا بالمال والرجال فى حرب صليبية مقدسة . ولم ير لاديسلاس بدا من التسليم ، وقاد بنفسه هجوماً على مواقع الأتراك . ولم يأت المدد الموعود من الغرب ، وراغ الجيش العثمانى المؤلف من ستين ألف رجل من الأشداء ، من أمير البحر الإيطالى وعبروا عائدين إلى أوربا . وفى فارنه بالقرب من البحر الأسود ألحق مراد هزيمة منكرة بجند لاديسلاس البالغ عددهم عشرين ألفاً (١٤٤٤) وكان حامل اللواء فى الجيش التركى يرفع المعاهدة الممتهنة على رمح . فنصح هانيادى الملك بالانسحاب ولكنه أمر بالتقدم . وناشده هانيادى أن يبقى فى المؤخرة ، بيد

أن الملك اندفع إلى المقدمة ، وقتل . ولم يسترد شيزاريني شرفه ببذل حياته .

وحاول هانيادى بعد ذلك بأربع سنوات أن يرفع البلاء . فشق طريقه عبر الصرب المعادية له ، والتقى بالأتراك فى قوصوه فى معركة حامية استمرت ثلاثة أيام . واندحر الهنغاريون ولاذ معهم هانيادى بالفرار ، واختفى أياما فى بطيحة ماء ، وبرز ، بعد أن أشرف على الموت جوعاً . فعرفه الصرب وأسلموه إلى الأتراك . وأطلق سراحه بعد أن وعد بألا يقود جيشاً على أرض الصرب بعد ذلك :

وفى عام ١٤٥٦ حاصر الأتراك بلغراد . وصوب محمد الثانى على القلعة المدفعية الثقيلة التى هدمت أسوار القسطنطينية . ولم يعرف الأوربيين قبل ذلك قصفاً عنيفاً بالقنابل كهذا . وقاد هانيادى الدفاع بحنكة وشجاعة لم يغفلهما الشعر الهنغارى قط . وآثر المحاصرون ، آخر الأمر خوض المعركة على الموت جوعاً ، فاندفعوا من الحصن ، وشقوا طريقهم إلى المدفع التركى ، وهكذا انتصروا على العدو انتصاراً حاسماً فتخلصت هنغاريا ستين سنة بعد ذلك من أى هجمة إسلامية . وبعد أيام قلائل من هذا الدفاع التاريخى مات هانيادى بالحمى فى خيمته . وتمجده هنغاريا باعتباره أعظم رجالها .

٥ — المد فى عنفوانه (١٤٥٣ — ٨١)

تابع الأتراك فتح البلقان واستسلمت الصرب آخر الأمر عام ١٤٥٩ ، وظلت ولاية تركية إلى عام ١٨٠٤ . واستولى محمد الثانى على كورنثة بعد أن حاصرها وأثينا دون أن يرفع رمحاً (١٤٥٨) ومنح الفاتح ، مثله فى ذلك مثل قيصر ، الآثينيين شروطاً سهلة احتراماً لأسلافهم وأبدى اهتماماً ينم عن الثقافة بالآثار الكلاسية وحق له أن يبتهج ، لأنه لم ينتقم من الصليبيين فحسب وإنما ثأر لوقعة مرثون أيضاً . وقبلت البوسنه ، التى

لقيت عاصمتها وثغرها راجوسه بأثينا الصقلية لمظهرها الثقافى ، الحكم التركى عام ١٤٦٣ وقبلت الإسلام فى يسر أذهل الغرب .

وكان أشجع غرماء الترك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر هو اسكندر بك الألبانى . واسمه الحقيقى جورج من كاستريوتا ، ولعله كان من أسرة صقلية متواضعة ، ولكن الأساطير المحببة لشعبه تجعله من أسرة ملكية أبيروسية وتسبغ عليه شباباً مغامراً . ولقد أنبئنا أنه قدم فى صباه رهينة لمراد الثانى ، وأنه نشأ فى بلاط العثمانيين بأدرنة . وأحب السلطان فيه الشجاعة والاحتيال حتى عامله كأحد أبنائه وجعله ضابطاً فى الجيش التركى . ودخل فى الإسلام وسمى بهذا الاسم اسكندر بك — أى الأمير اسكندر — وبعد أن قاد الأتراك فى وقائع كثيرة ضد المسيحيين ندم على ارتداده عن المسيحية واحتال للفرار . وأنكر الإسلام ، واستولى على العاصمة الألبانية كروجا من حاكمها التركى وأعلن العصيان (١٤٤٢) وأرسل محمد الثانى الجيش تلو الجيش لمعاقبته ، فهزمها جميعها اسكندر بك بسرعة تحركاته العسكرية وبراعته فى المراوغة وشغل محمد بحروب أكبر ، فمنحه هدنة عشر سنوات (١٤٦١) . ولكن مجلس شيوخ البندقية والبابا بيوس الثانى أقنعوا اسكندر بك بأن يخرج على الهدنة ويواصل الحرب (١٤٦٣) . وتوعد محمد المسيحيين باعتبارهم كفاراً حانثين بوعودهم وعاد إلى حصار كروجا . وأبلى اسكندر بك بلاءاً حسناً فى الدفاع عنها مما اضطر السلطان إلى رفع الحصار مرة أخرى ، وبين حطام النصر مات اسكندر بك (١٤٦٨) واستسلمت كروجا عام ١٤٧٩ ، فأصبحت ألبانيا ولاية تابعة لتركيا .

وفى الوقت نفسه ابتلع محمد الذى لا يشبع الموره وأطرابزنده ولسبوس ونجروبونت (أثيوبيا القديمة) والقرم . وفى عام ١٤٧٧ عبر جيش من

جيوشه الأيزونزو وخرب الجانب الشمالى الشرقى لإيطاليا على مسيرة اثنين وعشرين ميلا من البندقية وعاد إلى الصرب محملا بالغنائم . وسلمت البندقية التى استولى عليها الفزع والتى حاربت طويلا دفاعاً عن ممتلكاتها فى بحرى ايجه والأدرياتى ، بكل حق لها فى كروجا وسكوتارى ، ودفعت تعويضاً مقداره عشرة آلاف بندقى[١] . أما أوربا الغربية التى فشلت فى معاونة البندقية ، فقد أنكرت عليها أن تبرم وتحافظ على الصلح مع الكافر . ووصل الأتراك بذلك إلى الأدرياتى ، ولم يعد هناك ما يفصلهم عن إيطاليا وروما والفاتيكان ، غير جانب ضيق من البحر ، عبره قيصر بقارب صغير . وفى عام ١٤٨٠ أرسل محمد جيشاً عبر هذا الجانب الصغير لمهاجمة مملكة نابولى . واستولى على تورنتو فى يسر ، وأعمل السيف فى نصف عدد السكان البالغ اثنين وعشرين ألف نسمة ، واسترق الباقين وشطر أحد كبار الأساقفة نصفين . وأصبح مصير المسيحية ووحدانية الزوجة معلقاً فى كفة ميزان . وأنهى فيرانت ملك نابولى حروبه مع فلورنسه ، وأرسل خير فرقة لاستعادة تورنتو . وكان محمد قد ورط نفسه فى حصار رودس ومات أثناء المغامرة ، وظلت رودس مسيحية إلى عهد سليمان ورفع الأتراك قبضتهم عن تورنتو وعادوا إلى البانيا (١١٨١) . وتوقف المد العثمانى عن السير لحظة .

٦ ــ النهضة الهنغارية (١٤٥٦ ــ ٩٠)

فى نصف القرن الذى ظفر فيه هانيادى لهنغاريا بالأمن ، قاد ابنه ماتياس كورفينوس بلاده إلى أوجها التاريخى . وكان فى السادسة عشرة من عمره

---

(١) الدوقات هى البندقى ، عملة أجنبية قديمة تنسب إلى البندقية وتستعمل أيضا عياراً للذهب .

فقط عند جلوسه على العرش ، ولم يكن فيه سمت الملوك ، إذ كانت ساقاه قصيرتين — بالقياس إلى جذعه ، ولا يبدو طويل القامة إلا إذا امتطى صهوة جواد ، ومع ذلك فقد كان له صدر مصارع وذراعه وقوته وإقدامه ، وبعد تتويجه بوقت غير طويل تحدى إلى مبارزة فردية فارساً ألمانيا ضخم الجثة عظيم القوة ، صرع فى جولة واحدة فى مدينة بودا جميع منافسيه ، وتوعد ماتياس غريمه بأن يشنق إذا أخفق فى المبارزة بكل ما أوتى من عزيمة وبراعة . وأكد المؤرخون المنغاريون بأن الملك الشاب وقد حفزه هذا المأزق العصيب قضى على العملاق قضاء مبرماً . وأنضجت الأيام ماتياس حتى أصبح جندياً باسلا وقائداً محنكا ، فهزم الأتراك كلما التقى بهم ، واستولى على مورافيا وسيليزيا ولكنه أخفق فى فتح بوهيميا وخاض أربعة حروب ضد الإمبراطور فريدريك الثالث ، وأخذ ڤينا وألحق بها النمسا (١٤٨٥) ، وكانت الإمبراطورية النمساوية المنغارية فى الواقع هنغارية .

وجعلت انتصاراته الملكية متفوقة على طبقة النبلاء بعض الوقت ، وكانت مركزية الحكم هنا كما كانت فى غرب أوربا طابع العصر . وضارع بلاطه فى بودا وفى القصر الملكى فى فيسجراد أية أبهة ملكية وجدت فى ذلك العهد ، وأصبح كبار النبلاء خدامه ، واشتهر سفراؤه بفخامة أرديتهم وخدمهم وحشمهم ، وكانت دبلوماسية ماتياس ماكرة غير مترددة ، ودودة سخية ، فقد اشترى بالذهب ما يكلف ضعفه بالحرب ، ووجد فى الوقت نفسه الوقت والحماسة لإصلاح كل إدارة فى الحكومة ؛ وليعمل بنفسه كإدارى يقظ وقاض إمبراطورى . وأخذ يتجول متخفيا بين أفراد الشعب والجند والمحاكم ، فاختبر لتوه سلوك موظفيه ، وأصلح من شأنهم بالمنافسة والعدل وبغير محاباة أو خوف وعمل ما يستطيعه لحماية الضعيف من القــوى ، والفلاحين من سادتهم المغتصبين . وبينما استمرت الكنيسة تزعم أن البلاد ملك بابوى ، فإن ماتياس قد بين ونظم تعيين الأساقفة واستمتع بحماسته عندما

عين صبيا إيطاليا فى السابعة من عمره كبير أساقفة هنغاريا فأرسل تجار مدينة فرارا ، رداً على هذه الفكاهة ، إلى كبير الأساقفة الجديد مجموعة من اللعب.

وتزوج ماتياس عام ١٤٧٦ بياتريس أميرة أرجون ، ورحب فى هنغاريا بالروح النابولية المرحة والأذواق الإيطالية المصقولة لحفيدة الفونسو الهمام . وشجع الاتصال بين هنغاريا ونابولى تلك القرابة الأنجوية[1] بين الأسرتين المالكتين ، ولقد تعلم فى إيطاليا كثيرمن رجال الحاشية فى بودا . وتشبه ماتياس نفسه بالحكام المستبدين لعصر النهضة الإيطالية ، فى نزعاته الثقافية إلى جانب اتجاهه المكيافلى فى الحكم ، وأرسل لورنزو ده مدتشى نقشين بارزين من البرونز صنعها فيروكشيه وأوفد لودوفيكو ألمورو ، ليوناردو دافنشى ؛ ليصور العذراء وطفلها للملك الهنغارى مؤكداً للفنان أنه من القلائل الذين يستطيعون تقدير الصورة العظيمة . وقام فيليبينوليبى بعمل صورة أخرى للعذراء وطفلها وذلك لكورفينوس ؛ وزين تلاميذه القصر الملكى فى إذترجوم بالصور الجدارية ؛ ووضع نحات إطالى تمثالا نصفيا لبياتريس ؛ ولعل الصائغ المشهور ، كارادوسو ، وهو من مدينة ميلانو هو الذى صمم صورة المسيح على الصليب البارعة فى أذترجوم ؛ ونقش بينيدتو داميانو زخارف القصر فى بودا ؛ وشيد إيطاليون مختلفون هيكل الكنيسة الصغيرة على طراز عصر النهضة فى القسم الداخلى من العاصمة ؛

واتبع النبلاء والمطارنة الملك ، فى رعاية الفنانين والعلماء ، بل إن المدن المشهورة بالتعدين فى داخل البلاد قد وجد فيها من الأغنياء من يرفعون من قدر الثروة ، بالإنفاق على الفن ، وشيدت دور جميلة مدنية ودينية لا فى بودا وحدها ولكن فى فيزجراد وتاتا وأنترجوم وناجيفا وفاك أيضاً ، وزين مئات

---

(١) نسبة إلى أنجو .

من النحاتين والمصورين هذه المبانى . ووضع جيوفانى دلمانا تماثيل مشهورة لهانيادى جانوس وغيره من الأبطال الهنغاريين وتألفت فى كسا ، مدرسة صحيحة للفنانين ، ولقد نقش هناك « المعلم ستفين» وغيره ، للمذبح الكبير لكنيسة القديسة اليزابث ، حظاراً زخرفياً ، تبدو تماثيله الأساسية إيطالية فى صقلها ورشاقتها وجمالها ، ونحت فريق آخر فى الصخر لكنيسة بزترزبانيا نقشاً بارزاً عظيماً ، وهو « المسيح فى بستان الزيتون » ، يدهش من رآه بتفاصيله الدقيقة وتأثيره الدرامى ، وظهرت قوة مماثلة فى التعبير والفن فى الصور الهنغارية التى بقيت من ذلك العصر ، مثل ما نجده فى « صورة مريم » تزور اليزابث ، رسمها « المعلم م . س » وهى الآن فى متحف بودابست » ولقد تلف أوضاع كل الفن تقريبا الذى أثمرته تلك المرحلة المشرقة من تاريخ هنغاريا إبان الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر ، وبعض التماثيل يوجد الآن فى اسطنبول ، نقلها إليها الأتراك المنتصرون .

وكانت اهتمامات ماتياس أدبية أكثر منها فنية ، كما كان دارسو الكلاسيات الأجانب منهم والوطنيون محل ترحيب فى بلاطه ، ويحصلون على رواتب كبيرة لوظائف اسمية فى الحكومة . وكتب أنطونيو بونفينى تاريخا لهذا العهد بلغة لاتينية على منوال ليفى ، وجمع جانوس فيتيز ، كبير أساقفة حران ، مكتبة عامرة بالكتب الكلاسية القديمة ، وخصص الأموال لإرسال شباب الدارسين لتعلم اليونانية فى إيطاليا . وأنفق أحد هؤلاء وهو جانوس بانونيوس سبعة أعوام فى مدينة فرارا ، وسمح له بأن يكون فى حلقة لورنزو بفلورنسة ، وأدهش البلاط بعد أن عاد إلى هنغاريا ، بأبياته اللاتينية ومحاضراته اليونانية . وكتب بونفين عندما تحدث بانونيوس باليونانية ، « نعتقد أنه لا بد وأن يكون قد ولد فى أثينا » ولعل إيطاليا وحدها هى التى كان يجد فيها المرء ، مثل هذه الكوكبة من الفنانين والعلماء ويحصلون على معاش لهم فى بلاط ماتياس ، وذلك فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر . وتعد الرابطة

الأدبية للدانوب من أقدم الجمعيات الأدبية فى العالم ، وقد أسست فى بودا عام ١٤٩٧ .

وجمع كورفينوس مثل معاصريه من آل المدتشى الآثار الفنية والكتب وأصبح قصره متحفا للتماثيل والقطع الفنية ، وتذهب رواية إلى أنه كان ينفق على الكتب ثلاثين ألف كرون كل عام ، وهى فى أكثر الأحوال مخطوطات أنفق الكثير على تزيينها ولم يكن مع ذلك مثل فيديريجودا مونتيفلترو يرفض الكتب المطبوعة ، فلقد أسست مطبعة فى بودا عام ١٤٧٣ ، أى قبل دخول الطباعة إنجلترا بثلاثة أعوام . وكانت مكتبة كورفينوس التى ضمت عشرة آلاف مجلد عند وفاة ماتياس ، أجمل مكتبات القرن الخامس عشر خارج إيطاليا . ولقد وضعت هذه الكتب فى قصره بمدينة بودا وخصصت لها قاعتان فسيحتان ؛ لهما نوافذ من الزجاج الملون تطل على الدانوب ؛ وكانت الرفوف كثيرة النقوش ؛ والكتب مجلدة فى معظمها برق الغزال وعليها ستائر من المخمل المزركش . ويظهر أن ماتياس قرأ بعض هذه الكتب ، وتوسل بكتاب ليفى على الأقل طلبا للنعاس ، ولقد كتب إلى أحد دارسى الكلاسيات « أيها العلماء ، ما أسعدكم ! إنكم لا تجاهدون فى سبيل المجد المصبوغ بالدم ؛ وفى سبيل تيجان الملوك ؛ وإنما تجاهدون فى سبيل أكاليل الغار التى تتوج الشعر والفضيلة . بل إنكم تستطيعون أن ترغمونا على نسيان ضجيج الحرب » .

ولم تعش السلطة المركزية التى نظمها ماتياس إلا فترة وجيزة بعد وفاته (١٤٩٠) . ولقد بعثت قوة كبار الأمراء وسيطروا على لاديسلاس الثانى ، واختلسوا الموارد التى كان ينبغى أن تنفق على فرق الجيش فانفض الجيش وعاد الجنود إلى دورهم ؛ وبدد النبلاء ، الذين أعفوا من الضرائب ، دخلهم وجهدهم فى حياة معربدة صاخبة ، بينما كان الإسلام يهدد الحدود ، والفلاحون الذين استنزفهم الاستغلال ؛ يتهيأون للثورة . وفى عام ١٥١٤ أعلن مجلس الدايت الهنغارى حربا صليبية على الأتراك ، وعن حاجته لمتطوعين واستجاب

جم غفير من الفلاحين لفداء الصليب إذا لم يجلوا فارقا كبيراً بين الحياة والموت . ولما وجدوا السلاح فى أيديهم ، انتشرت بينهم هذه الفكرة وهى لماذا ننتظرحتى نقاتل الأتراك البعيدين ، فى حين أن النبلاء المغ: ـين قريبون ؟ وقادهم جندى اسمه جيورجى دوزا فى ثورة عارمة فاكتسحوا هنغاريا بأسرها ، يحرقون جميع القلاع ويقتلون جميع النبلاء الذين يقعون فى أيديهم — رجالا ونساء وأطفالا — فطلب النبلاء النجدة من كل ناحية . . . جنداً نظاميين ومرتزقة ، وفاجأوا الفلاحين غير المنظمين وعذبوا زعماءهم تعذيبا مروعا . ومنع دوزا ومعاونوه الطعام أسبوعين . ثم ربط إلى عرش حديدى محمى بالنار ووضع على رأسه تاج محمى بالنار أيضا ، ووضع فى يديه صولجان محمى بالنار . وسمح لرفاقه المشرفين على الموت جوعا أن ينزعوا اللحم المشوى عن جسده وهو لا يزال حيا يعى . وقد تحتاج النقلة من الهمجية إلى الحضارة قرنا من الزمان ، أما التحول من الحضارة إلى الهمجية فإنما يحتاج إلى يوم واحد .

ولم يذبح الفلاحون لأنهم كانوا لا يعوضون بغيرهم ، ولكن القانون الثلاث (١٥١٤) يقرر : « أن التمرد الحديث . . . يضع فى كل وقت وصمة الخيانة على كاهل الفلاحين ، ومن أجل ذلك فقد تنازلوا عن حريتهم وأصبحوا خاضعين لسادتهم الملاك فى عبودية دائمة غير مشروطة . . . . وكل نوع من أنواع الملكية يحوزه المالك الإقطاعى ، وليس من حق الفلاح أن يطالب العدل ويحتكم إلى القانون ضد أحد النبلاء .

وبعد ذلك باثنى عشر عاما سقطت هنغاريا فى يد الأتراك .

الفصل الحادي عشر

البرتغال تستهل الثورة التجارية

١٣٠٠ – ١٥١٧

لقد جعلت البرتغال الصغيرة من نفسها فى هذا العصر ، دولة من أغنى وأقوى دول أوربا ، مع أنه لم يكن لها من المزايا الطبيعية غير ساحل يطل على البحر ولم تبلغ هذه المكانة إلا بالعزيمة الخالصة والمغامرة الجسور . ولقد أنشئت الملكية فيها عام ١١٣٩ ، فبلغت حكومتها ولغتها وثقافتها مكانة وطيدة فى عهد أحب حكامها إليها وهو دينيز « العامل » — الإدارى والمصلح والبناء والمعلم ، وداعى الفنون والمكابد الحاذق للأدب والحب . ولقد نضج ابنه أفونسو الرابع بعد حوادث إعدام وقائية ، فأصبح عهده مثمراً ، ربطت فيه التجارة النامية مع إنجلترا ، فى اتحاد سياسى بين الأمتين لا يزال باقياً إلى اليوم . ووجه فونسو ابنه بدرو إلى الزواج من دونا كنستانزا مانويل ، توكيداً لمحالفة رشيدة مع قشتالة الآخذة فى القوة . فاستجاب الابن وتزوجها ، ولكنه استمر على حبه إينيه ده كاسترو ، وهى من أصل ملكى . ولما ماتت كنستانزا ، كانت إينيه عقبة فى سبيل زواج ديبلوماسى آخر لبدرو ، وأمر أفونسو بها فقتلت (١٣٥٥) على مضض . ولقد أورد كامبونز ، الذى يعد ملتن البرتغالى ، هـــذه القصة الغرامية المشهورة فى ملحمته القومية ، وهى لوزياد :

وهكذا جاءت جماعة القتلة ضد اينيه . . .
وأنفذ الوحوش سيوفهم فى نهديها الأبيضين . . .

وفى سورة غضب صبغوا باللون القرمزى ،
ولن يكون هناك انتقام سماوى بعد ذلك مثله .

واحتفظ بدرو بالرغبة فى الثأر ، حتى إذا ورث العرش بعد عامين من هذا الحادث اقتص من القتلة ، ونبش القبر عن جثمان حبيبته وتوجها ملكة ، ثم أعاد دفنها بما تستحقه من مراسيم ملكية . وحكم بقسوة غذتها هذه المأساة .

وثمة قصة أقل شأناً شوهت حكم خلفه . ذلك أن فرناندو الأول فقد رأسه وقلبه فى سبيل ليونورا ، زوجة أمير بومبيرو ، وفك خطبته لأميرة قشتالية ، وتزوج من ليونورا على الرغم من زوجها الذى على قيد الحياة ومن كنيسة قد أهينت . وبعد أن توفى فرناندو (١٣٨٣) ، ادعت أنها نائبة ملك ، وجعلت ابنتها بياتريز الملكة ، وخطبتها إلى جون الأول ملك قشتالة . وثار الشعب لأنه توقع أن يصبح إقطاعاً تابعاً لقشتالة ، وأعلن مجلس نواب اجتمع فى كوامبرا أن العرش البرتغالى انتخابى واختار دون جوَا — جون — ابن بدرو من أبيه ملكاً على البرتغال . وأخذت قشتالة على نفسها ، أن تعيد ملك بياتريز بالقوة ، فحشد جون جيشاً ، واقترض خمسمائة من حملة السهام من انجلترا ، وهزم القشتاليين فى ألجوباروتا ، وذلك فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٣٨٥ — وهو اليوم الذى يحتفل به سنوياً على أنه عيد استقلال البرتغال .

وهكذا افتتح جون الكبير حكمه الذى استمر ثمانى وأربعين سنة ، كما بدأ أسرة — بين افز — التى جلست على العرش قرنين من الزمان . واعترف بالإدارة وأصلح القانون والقضاء ، وجعلت اللغة البرتغالية هى اللغة الرسمية ، وبدأ أدبها فى الظهور . وكان العلماء هنا ، كما كانوا فى أسبانيا ، يستعملون اللغة اللاتينية ، حتى القرن الثامن عشر ، ولكن فاسكو دا لوبيرا كتب باللغة القومية قصة فروسية ، أما ديس دا

جولا (١٤٠٠) التى أصبحت بعد ترجمتها أشيع كتاب غير دينى فى أوربا . وعبر الفن القومى عن نفسه مزدهيا فى كنيسة سانتا ماريا دا فكتوريا ، التى شيدها فى باطلها جون الأول ، تمجيداً لوقعة ألجوباروتا ، وهى تضارع كاتدرائية ميلان فى الحجم ، وكنيسة نوتردام فى باريس ، فى الفخامة المعقدة للركائز والأبراج . وفى عام ١٤٣٦ أضيفت كنيسة صغيرة جميلة التصميم والزخرف تستقبل رفات الملك ابن السفاح » .

وبجد فى بنيه . فخلفه دوارت — إدوارد — وأحسن الحكم مثله تقريباً ووحد بدرو القوانين ، واستهل — هنريك — « هنرى الملاح » الثورة التجارية التى قدر لها أن تغير خريطة الكرة الأرضية . ولما استولى جون الأول على سبته من المغاربة (١٤١٥) خلف هنرى البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة حاكماً على هذا المعقل المنيع ، وهى عند مضيق جبل طارق تماماً . وفتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال والذهب والعاج والعبيد التى يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، فعزم الشاب الطموح على أن يكتشف تلك الربوع ويضمها إلى البرتغال . فربما قاده نهر السنغال الذى تحدث عنه من أخبروه ، صوب الشرق إلى منابع نهر النيل وإلى بلاد الحبشة المسيحية ، وبذلك يُفتتح طريق مائى عبر إفريقيا من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر — ومن ثم إلى الهند ، ويتحطم الاحتكار التجارى للتجارة مع الشرق ، وتصبح البرتغال دولة كبرى . وقد يدخل سكان الإقليم بعد فتحه فى المسيحية ويحصر الإسلام فى إفريقيا من الشمال ومن الجنوب بدول مسيحية ؛ ويصير البحر الأبيض المتوسط آمناً للملاحة المسيحية . ويبدو أن هنرى لم يفكر فى طريق يدور حول أفريقيا ، ولكن هذا الطريق كان ثمرة جهده .

ولقد أقام حوالى عام ١٤٢٠ فى ساجرس على الطرف الجنوبى الشرقى للبرتغال وأوربا ، داراً لاستخلاص الأخبار المتعلقة بالمعرفة والمغامرة

البحريتين . وجمع ودرس هناك ، هو ومعاونوه ، وفيهم فلكيون ورسامو خرائط من اليهود والمسلمين فى مدى أربعين سنة تقارير الملاحين والرحالة ، وسيروا إلى البحار المحفوفة بالمخاطر ، سفناً خفيفة ، مزودة بالأشرعة والمجاذيف ، ويقوم عليها من ثلاثين إلى ستين رجلا . وكان أحد قباطنة هنرى قد أعاد كشف ماديرة (سنة ١٤١٨) ، التى سبق أن رآها البحارة الجنويون قبل ذلك بسبعين سنة ثم عفّى عليها النسيان ، ولقد طور وقتذاك المستعمرون البرتغاليون مواردها ، وسرعان ما عوضت غلة من السكر وغيره من المنتجات ، نفقات الاستعمار ، وشجعت الحكومة البرتغالية على الاستجابة لمطالب هنرى إلى المال ولاحظ جزر الآزور على خريطة إيطالية رسمت عام ١٣٥١ ، فأرسل جنزالو كابرال للبحث عنها ، وتحقق مراده بين عامى ١٤٣٢ — ٤٤ ، ضم هذه الجواهر البحرية ، الواحدة بعد الأخرى إلى التاج البرتغالى .

بيد أن أفريقيا هى التى استهوته أكثر من غيرها . ولقد أبحر البحارة القطلونيون والبرتغاليون ، ما يقرب من تسعمائة ميل على طول الساحل الغربى إلى بوجا دور (١٣٤١ — ٤٦) . ومع ذلك . فإن النتوء الكبير للقارة العظيمة الممتد غربا فى المحيط الأطلسى ، قد ثبط همم البحارة فى الكشف عن الجنوب ، فانسحبوا إلى أوربا متعللين بحكايات عن المواطنين المفزعين ، وعن بحر تشتد كثافة الملح فيه إلى حد لا تستطيع معه أن تشقه أى سفينة ، وعن دلائل تؤكد أن كل مسيحى يجاوز بوجا دور ينقلب إلى زنجى . ولقد رجع القبطان جيليان إلى سامبرس بأعذار مشابهة عام ١٤٣٣ ، فأمره هنرى أن يعيد الكرة ، وطالبه أن يعود ببيان واضح عن الأراضى والبحار جنوبى الرأس المحرم . وأدى هذا التحريض بجيليان إلى أن يصل إلى مسافة تبعد مائة وخمسين ميلا عن بوجادور (١٤٣٥) وأذهله ما رآه من وفرة النبات فى المناطق الاستوائية ، مناقضاً ما قال به أرسطو وبطليموس ، من أن

الصحارى هي التي توجد فقط تحت الشمس المحرقة ، وبعد ذلك بست سنوات أبحر نونوترستاو ، إلى رأس بلانكو ، وعاد إلى موطنه ومعه بعض الزنوج الأشداء ، الذين سرعان ما عمدوا واستعبدوا ، وشغلهم الأمراء الإقطاعيون في المزارع البرتغالية ، وكانت أول نتيجة هامة لجهود هنرى ، هي افتتاح تجارة الرقيق . وزود الأمير بمعونة مالية جديدة . وأبحرت سفنه لتستكشف وتنصر الأهلين في الظاهر ، ولتحصل على الذهب والعاج والعبيد في الواقع . وعاد القبطان لانزاروت عام ١٤٤٤ ومعه مائة وخمسة وستون زنجياً ، وقد شرعوا في فلاحة أراضي فرقة يسوع المسيح الرهبانية العسكرية . ولقد وصف معاصر برتغالي اقتناص هؤلاء الزنوج بقوله :

كان رجالنا يهتفون ، « القديسة ياجو ، القديس جورج ، البرتغال » . ويسقطون عليهم فيقتلون أو يخطفون كل من تقع عليه أيديهم . وقد تشاهد هناك أمهات يهربن بأطفالهن ، وأزواجاً يفرون بزوجاتهم وكل منهم يبذل قصاراه للنجاة . يقفز بعضهم في البحر ، ويرى بعضهم أن يختبئ في أركان أخصاصهم ، وخبأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات . . . حيث كان رجالنا يعثرون عليهم . والله الذي يمنح كل إنسان ما يستحق من جزاء وهب رجالنا آخر الأمر في ذلك اليوم النصر على أعدائهم : وتعويضا لهم على ما بذلوه من عناء في خدمته أخذوا مائة وخمسة وستين بين رجال ونساء وأطفال ، ولم يحسب القتلى في هذا العدد » .

ولم يأت عام ١٤٤٨ حتى كان قد أحضر إلى البرتغال نيف وتسعمائة عبد ، ويجب أن نضيف أن المسلمين في شمال أفريقيا قد سبقوا المسيحيين في نشر تجارة الرقيق ، وكان زعماء الزنوج أنفسهم يبتاعون الرقيق من البرتغاليين في مقابل الذهب والعاج ، وكان الإنسان سلعة للوحوش الآدمية المفترسة .

ولقد بلغ دينيز دياز عام ١٤٤٥ الجبل الخصب الداخل في البحر المعروف بالرأس الأخضر ، واكتشف لانزاروت عام ١٤٤٦ مصب نهر السنغال ،

وعثر كادا موستو عام ١٤٥٦ على جزر الرأس الأخضر . وفى هذه السنة مات الأمير هنرى ، ولكن المغامرة استمرت بالحافز الذى منحها إياه وبالغنم الاقتصادى الذى يمولها . وعبر جواو ده سانتارم خط الاستواء (١٤٧١) . ووصل دو يوجوكاو إلى نهر الكونغو (١٤٨٤) ، وأخيراً شق بارثلميو دياز ، بعد نصف قرن من حملة هنرى الأولى ، طريقه وسط العواصف وإغراق السفن ، حتى طاف بأقصى الطرف الجنوبى لأفريقيا (١٤٨٦) . وابتهج عند ما وجد أنه يستطيع بذلك الإبحار شرقا ، فالهند مستقيمة أمامه ، وقد بدت فى قبضته تقريبا ، ولكن رجاله المتعبين أرغموه على العودة ، فندب البحار القاسية التى خلعت قلوب رجاله فأطلق على الطرف الجنوبى لأفريقيا اسم رأس النداب ، ولكن الملك جون الثانى ، رأى الهند بعد الانحناءة أطلق على الموضع اسم رأس الرجاء الصالح .

ولم يعش دياز أو الملك ليريا تحقق الحلم الذى أثار البرتغال بأسرها وهو طريق مائى كامل إلى الهند ، واستشعر الملك عمانويل الغيرة للثروة والتشريف اللذين جلبهما كولمبوس إلى إسبانيا فكلف عام ١٤٩٧ فاسكودا جاما ، أن يبحر حول إفريقيا إلى الهند ، ولقد أبحر القبطان البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، وقد أرغمته العواصف أن يتخذ طريقا دائريا ما يقرب من خمسة آلاف ميل فى مائة وسبعة وثلاثين يوما حتى بلغ رأس الرجاء الصالح ، ثم رحل أربعة آلاف وخمسمائة ميل فى مائة وثمانية وسبعين يوما أخرى . تتخللها مئات المخاطر والأهوال حتى بلغ كاليكوت وهى ملتقى رئيسى للتجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فى آسيا ، وألقى مراسيه هناك فى العشرين من مايو عام ١٤٩٨ ، أى بعد عشرة أشهر واثنى عشر يوما من تركه لشبونه ، وما أن هبط إلى البر حتى قبض عليه باعتباره قرصانا ونجا من الإعدام بأعجوبة . وتغلب بشجاعته النادرة ومنطقه الخلاب على ارتياب الهنود فيه وغيرة المسلمين منه وظفر بالترخيص للبرتغاليين

بالتجارة وأخذ معه مقداراً عظيما من الفلفل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والجواهر وترك كاليكوت فى التاسع والعشرين من أغسطس فى رحلة شاقة استغرقت سنة عائداً إلى لشبونة . وهكذا وجد البرتغاليون آخر الأمر طريقا إلى الهند متحرراً من نقل السلع من سفينة إلى أخرى ومن المكوس المفروضـــة على الطرق البحرية والبرية فى إيطاليا عبر مصر وبلاد العرب وفارس . وكانت النتائج الاقتصادية أكثر حيوية لأوربا مدى قرن كامل من تلك التى نجمت عن اكتشاف أمريكا .

ولم يفكر البرتغاليون إلى عام ١٥٠٠ فى محاولة الإبحار غربا لأنهم اعتزلوا بالوصول إلى الهند الحقيقية ، بينما كان الملاحون الإسبان يتخبطون فى جزر الهند المزعومة بالبحر الكاريبى . بيد أن بدرو كبرال وقع على البرازيل فى تلك السنة بعد أن جرفته الرياح عن الطريق الذى سلكه إلى الهند عن طريق إفريقيا ، وفى هذه السنة أيضا أعاد جاسبار كورت ريال اكتشاف لبرادور . وفى عام ١٥٠٣ اكتشف أمريجو فيسبوتشى فى ظل العلم البرتغالى ريوبلاتا وباراجواى ، وعثر ترستاو داكونها على الجزيرة التى تحمل اسمه فى النصف الجنوبى من المحيط الأطلسى . ومع ذلك فقد رأى السياسيون البرتغاليون ، البرازيل قليلة الغناء فى حين أن كل حمولة تأتى من الهند تملأ خزانة الملك وجيوب التجار والملاحين .

واحتفظت الحكومة البرتغالية بالسيطرة الكاملة على التجارة الجديدة ، ما دامت التجارة تحتاج إلى حماية عسكرية صارمة . وكان التجار المسلمون قد وطدوا أقدامهم منذ أمد طويل فى المراكز الهندية ، وانضم إليهم بعض ذوى النفوذ من الهنود فى مقاومة الغزو البرتغالى ، واختلطت إذ ذاك التجارة بالحرب والمال بالدم فى هذه الثورة التجارية العارمة . وأصبح أفونسو ده ألبوكرك أول حاكم على الهند البرتغالية عام ١٥٠٩ وشن هجوما بعد هجوم على المسلمين والهندوس حتى استولى على عدن وهرمز على الساحل العربى

وحصنهما . كما استولى على جوا فى الهند وملقة فى شبه جزيرة الملايو ، ومن ملقة أحضر إلى بلاده غنيمة مقدارها مليون بندقى . وأصبحت البرتغال بفضل تسلحها على هذا النحو سيدة التجارة الأوربية مع الهند وجزر الهند الشرقية مدى مائة وخمسين سنة . ووطد التجار البرتغاليون أقدامهم شرقاً حتى بلغوا مولوكاس (١٥١٢) وابتهجوا إذ وجدوا جوز الطيب والتوابل والقرنفل فى جزر التوابل هذه ألذ طعماً وأرخص ثمناً منها فى الهند . ولم يقنع البوكرك بما حققه فأبحر ومعه عشرون سفينة إلى البحر الأحمر واقترح على ملك الحبشة المسيحى أن يجمعوا قواتهما ليحفرا قناة من النيل الأعلى إلى البحر الأحمر وبذلك يحولان مجرى النهر ويجعلان مصر الإسلامية بأسرها صحراء قاحلة . وأرغمت المتاعب البوكرك أن يقفل راجعاً إلى جوا حيث مات عام ١٥١٥ . وفى العام التالى فتح دوارت جولو ، الصين الكوشينية[١] وسيام للتجارة البرتغالية ، وفى عام ١٥١٧ أنشأ فرناو بيرز ده اندراد علاقات تجارية مع كانتون وبيكين .

وأصبحت الإمبراطورية البرتغالية — وهى أول إمبراطورية استعمارية حديثة — أوسع الإمبراطوريات رقعة فى العالم ، لا تضارعها إلا الامبراطورية التى تتكون لأسبانيا فى الأمريكتين . وأضحت لشبونة سوقا تجارية نافقة ، ترسو فى مياهها سفن آتية من بلاد رومانسية بعيدة . ووجد تجار أوربا الشمالية أن تفشل البندقية وجنوة فى الحصول على السلع الآسيوية بأرخص الأسعار . وحزنت إيطاليا على احتكارها المفقود للتجارة الشرقية . وأصيبت النهضة الإيطالية بضربات قاضية على يد كولمبوس وفاسكو دا جاما ولوثر فى جيل واحد ، فضعف أمرها وذبلت ، بينما سبقت البرتغال وأسبانيا ، اللتان سيطرتا على البحار المفتوحة فى الازدهار الدول التى على المحيط الأطلسى .

---

(١) أقصى دولة نامية الجنوب فى الهند الصينية الفرنسية .

وانتعش الأدب والفن بهذا المجـد الطريف . وأخذ فرنار لوبس يصف مدى عشرين سنة (١٣٣٤ — ٥٤) « تاريخه » الضخم الذى سرد فيه قصة البرتغال تتدفق فى السرد وقدرة على التشخيص يضارعان ما عند فروسار . واستهل جيل فيسانت الدراما البرتغالية بمسرحيات صغيرة للبلاط وفصول تمثل فى الأعياد العامة (١٥٠٠) وظهرت مدرسة برتغالية فى التصوير ، اتخذت قدوتها فى غلاندرز ولكنها حققت مزاجها ومزاياها الخاصة . وبلغ نوتوجونكالفز شأو مونتانيا وكاد يضارع آل فان ايكس ، فى مجموعة صوره القائمة التى رسمها لدير القديس سانت فنسنت . فإن الصور الجدارية بدائية فى المنظور والنسق ، بيد أن صور الأشخاص الخمسة والخمسين — وأحسنها صورة هنرى الملاح — تبرز الشخصية الفردية ببراعة واقعية . وأراد الملك عمانويل المحدود أن يخلد ذكرى رحلة فاسكودا جاما المظفرة ، فكلف المعمارى جواد القشتالى ، أن يشيد بالقرب من لشبونه دير بلم (١٥٠٠) الفخم على الطراز القوطى المشع . وهكذا دخلت البرتغال فى عصرها الذهبى .

الفصل الثاني عشر

أسبانيا

١٣٠٠ – ١٥١٧

١ – الشهيد الأسباني : ١٣٠٠ – ١٤٦٩

لقد وجدت أسبانيا فى جبالها وقايتها ومأساتها فى وقت واحد : فقد منحتها أمناً نسبياً من الغزو الخارجى ، ولكنها عوقت تقدمها الاقتصادى ووحدتها السياسية وإسهامها فى الفكر الأوربى . وقد عاش فى ركن صغير من الشمال الغربى شعب نصف بدوى من الباسك وكانوا ينتقلون بأغنامهم من السهول إلى التلال ثم يهبطون إلى السهول مرة أخرى تبعاً لتقلبات الفصول . ومع أن كثيرين من الباسك كانوا رقيق أرض ، إلا أنهم جميعاً زعموا نبل المحتد ، وحكمت ولايتهم الثلاث نفسها تحت السيادة الواهية لقشتالة أو ناقار . وظلت ناقار مملكة قائمة برأسها ، حتى ضم فرديناند الكاثوليكى قسمها الجنوبى إلى قشتالة (١٥٥٥) بينما أصبحت البقية الباقية منها إقطاعاً ملكياً تابعاً لفرنسا . وتملكت أراجون سردينيا منذ عام ١٣٢٦ وتبعتها جزر البليار عام ١٣٥٤ . وصقلية عام ٤٤١٩ . وزادت ثروة أراجون نفسها بفضل صناعة وتجـارة بانسية وطركونه وسراقسطة وبرشلونة — وهى عاصمة ولاية قطلونية ضمن مملكة أراجون . وكانت قشتالة أقوى الممالك الأسبانية وأوسعها رقعة . وقد حكمت المدن الآهلة أفيدو وليون وبرجس وبلد الوليد وسلامنكا وقرطبة وإشبلية وطليطلة ،

وهى عاصمتها ، ولعب ملوكها أدوارهم أمام أكبر عدد من النظارة وفى سبيل أعظم المخاطر فى أسبانيا .

وأصلح ألفونسو الحادى عشر (١٣١٢ — ٥٠) قوانين قشتالة ومحاكمها وحول منافسات النبلاء إلى حروب تشن على المسلمين ، وشجع الأدب والفن ، وكافأ نفسه بخليلة نجيبة . ولقد حملت له زوجته ابناً شرعياً واحداً ، نشأ فى ظروف غامضة وإهمال وحقد وأصبح فيما بعد بدرو الغشوم ومن الواضح أن اعتلاءه على العرش ولما يناهز الخامسة عشرة (١٣٥٠) جلب اليأس لأبناء الفونسو التسعة غير الشرعيين ، فقد أقصوا جميعاً عن البلاد ، وأعدمت أمهم ليونورا ده جزمان ، ولما جاءت عروسه الملكية بلانش البوربونية من فرنسا من تلقاء نفسها ، تزوجها وأنفق ليلتين معها ثم أمر أن يدس لها السم متهماً إياها بالتآمر (١٣٦١) وتزوج عشيقته ماريا ده باديلا ، التى تؤكد الأسطورة أن جمالها بلغ من الخلابة حداً ، جعل فرسان البلاط يشربون بنشوة ماء اغتسالها . وكان بدرو محبوباً فى الطبقات الدنيا التى أيدته إلى النهاية المريرة ، ولكن المحاولات المتكررة من اخوته غير الأشقاء لإقصائه عن العرش ، قد دفعته إلى مجموعة من الدسائس والقتل وانتهاك الحرمات ، تقف فى وجه كل حكاية وتلطخها بالدم . واستطاع هنرى التراستامارى ، أكبر أبناء ليونورا أن ينظم ثورة موفقة ويقتل بدرو بيديه ويصبح هنرى الثانى ملك قشتالة (١٣٦٩) .

ولكننا نظلم الأمم إذا حكمنا عليها من ملوكها ، لأنهم اتفقوا مع مكيافلى فى أن الأخلاق لم تجعل للملوك . وبينا نجد الحكام يتلهون بالقتل الفردى أو المتخذ صفة القومية ، فإن الشعب الذى بلغ عدده عشرة ملايين عام ١٤٥٠ ، هو الذى أنشأ حضارة اسبانيا ، ومع أنهم كانوا يعتزون بنقاء أرومتهم إلا أنهم كانوا مزيجاً غير ثابت من الكلت والفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والقوط الغربيين والوندال والعرب والبربر واليهود ، وعند سفح الكيان

الاجتماعى قليل من العبيد ، وطبقة من الفلاحين ظلوا رقيق أرض إلى عام ١٤٧١ ، وفوقهم العمال اليدويون والصناع وتجار المدن ، وفوق أولئك وهؤلاء الفرسان (caballeros) فى طبقات رفيعة من الشرف ، والنبلاء الذين يعتمدون على الملك (أبناء الأسر العريقة bidalgos) والنبلاء المستقلون (proceres) وإلى جانب هؤلاء المدنيين طبقات الكهنوت تبدأ من قساوسة الأبروشيات فالأساقفة ورؤساء الأديرة وتنتهى برؤساء الأساقفة والكرادلة . ولكل مدينة مجلسها البلدى (conseijo) وهى ترسل مندوبين عنها ، ينضمون إلى النبلاء والمطارنة فى المجالس الإقليمية والقومية ، والأصل النظرى أن مراسيم الملوك تتطلب موافقة هذه المجالس لتصبح قوانين . ونظمت الأجور وشروط العمل والأسعار ومعدل الفائدة على الأموال ، المجالس البلدية أو النقابات . وتعثرت التجارة بسبب الاحتكارات الملكية وبالمكوس الحكومية التى تفرضها الدولة أو الأقاليم على الواردات والصادرات وتنوع الموازين والمقاييس وبالعملات المتدهورة وقطاع الطرق وقرصان البحر الأبيض المتوسط ورفض رجال الدين للحساب واضطهاد المسلمين - الذين غذوا معظم الصناعة والتجارة بالقوة البشرية - واليهود ، الذين كانوا يدبرون شئون المال . وافتتح مصرف حكومى فى برشلونة (١٤٠١) بضمان حكومى لودائع المصرف ، وصدرت صكوك للتعامل ، وأنشئ تأمين بحرى قرابة عام ١٤٣٥ .

ولما كان الإسبان يجمعون فى أرومتهم بين الأصول السامية والأصول المناهضة للسامية ، لذلك احتفظوا بحرارة إفريقيا فى دمائهم ، وكانوا يميلون مثلهم فى ذلك مثل البربر ، إلى الوداعة والعنف فى القول والعمل فيهم سورة وفى عقولهم تطلع وفضول ، وهم جد أغرار ويؤمنون بالخرافة إلى حد مخيف واحتفظوا باستقلال للروح وكرامة للشجاعة حتى فى النكبات والفقر . كانوا يحبون اقتناء المال ولقد فطروا على ذلك ، ولكنهم لم يحتقروا الفقراء ولم

يلعقوا نعال الأغنياء . واحتقروا العمل وتقاعسوا عنه ، بيد أنهم احتملوا الشدائد برباطة جأش ، كانوا كسالى ومع ذلك غزوا نصف العالم الجديد . وظمئوا إلى المغامرة والعظمة والفروسية ، وكانوا يستمتعون بالمخاطر ولو كانت بالتفويض فحسب ، فإن مصارعة الثيران ، وهي من آثار كريت وروما كانت قد أصبحت لعبة قومية تقليدية رسمية زاخرة بالألوان محكمة ، تعلم الشجاعة والبراعة الفنية وسرعة الخاطر . ولكن الإسبان تناولوا مباهجهم بشيء من الكآبة ، وهم يشبهون الإنجليز المحدثين (وعلى خلاف إنجليز عصر اليزابث) .ولقد أضفى جدب التربة وظلال المنحدرات الجبلية على نفوسهم كآبة جارفة ، وكانت أخلاقهم جادة مستقيمة كاملة وهي أحسن كثيراً من المحافظة على صحة أبدانهم ، وكان كل إسباني مهذباً ، بيد أن التابلين منهم . كانوا مفتولي الأجسام ، وازدهرت صور ألعاب من الفروسية وسط القاذورات التي اكتنفت الجماهير . وأصبحت مسألة الشرف عقيدة ، وكانت النساء في إسبانيا ربات وسجينات أما زى الطبقات العليا فكان بسيطا في أيام الأسبوع ويتحول إلى الأبهة أيام الآحاد والأعياد بالحرير الزاهي والقباء المكشكش والملون المخرم والذهب . وتكلف الرجال بالعطور والكعوب العالية . ولم يقنع النساء بفتنتهن الطبيعية فخلبن ألباب الرجال بالبنيقة والمخرمات والخمار يخفى وجوههن واتخذت المطاردة الجنسية آلاف الأشكال وتنكرت في آلاف الصور ، وجاهدت صنوف الإرهاب الديني والقوانين الصارمة ومسائل الشرف ، في الحد من تلك المطاردة ولكن فينوس انتصرت على الجميع ، وزادت خصوبة النساء على غلة الأرض .

وكانت الكنيسة في إسبانيا حليفا لا ينفصل عن الدولة ، ولم تدخل بابا روما في حسابها إلا قليلا ، وتقدمت بمطالب كثيرة لإصلاح البابوية حتى عنـــد ما أعطتها اسكندر السادس الذي لا يعترف بالإصلاح ، وفي سنة ١٥١٣ حرم الكاردينال اكزيمينس نشر صكوك الغفران التي قدمها

يوليوس الثانى فى إسبانيا لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ونتج عن ذلك أن عد الملك رئيسا للكنيسة الإسبانية ، ولم ينتظر فرديناند فى هذا الشأن ، هنرى الثامن ليعلمه ، ولم تكن إسبانيا فى حاجة إلى إصلاح دينى يجعل الكنيسة والدولة أو الدين والقومية شيئا واحداً ، وحصلت الكنيسة على امتيازات مادية كجزء من هذا الاتفاق غير المكتوب فى ظل دولة تعتمد عليها اعتماداً واعيا فى توطيد النظام الأخلاقى والاستقرار الاجتماعى والعمل على قياد الشعب لها . ولم يكن موظفوها ، حتى الطبقات الدنيا منهم ، يخضعون إلا للمحاكم الكهنوتية . وامتلكت مساحات كبيرة من الأرض ، يفلحها مستأجرون لها ، وكانت تتسلم عشر غلة العقارات الأخرى ، ولكنها كانت تدفع ثلث هذا العشر للخزانة ، ولقد أعفيت من الضرائب علاوة على ذلك . ولعلها كانت أغنى إذا قيست إلى الدولة منها فى أى بلد آخر باستثناء إيطاليا . ومن الواضح أن أخلاق الإكليروس ونظام الأديرة ، كانت فوق مستوى القرون الوسطى ، بيد أن اتخاذ الحظايا قد شاع وسمح به كما حدث فى غير إسبانيا واستمر الزهد فى إسبانيا بينما أخذ ينقرض شمالى جبال البرانس ؛ بل إن العشاق كانوا يجلدون أنفسهم ليذيبوا مقاومة ما فى السيدات من حنان وخفر أو ليحصلوا على شىء من الوجد الماسوشى[1] .

وكان الناس على ولاء شديد للكنيسة والملك ، لأن عليهم أن ينتظموا لمحاربة أعدائهم الألداء المسلمين بشجاعة ونجاح ، ولقد عرض الصراع لتخليص غرناطة على أنه حرب فى سبيل العقيدة المقدسة . فسارت مواكب حاشدة من الرجال والنساء والأطفال ، الأغنياء منهم والفقراء ، أيام الأعياد فى الطرقات صامتين فى حزن أو مرددين الأناشيد ، وأمامهم تماثيل كبيرة تجسم العذراء أو أحد القديسين . واعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأن العالم الروحى هو بيتهم الحقيقية وموطنهم الأبدى . والحياة الدنيا إلى جانبه

---

(١) الماسوشية ضرب من الانحراف الجنسى يقوم على إيلام البدن .

إنما هى شر وحلم مؤقت . وكرهوا المراطقة باعتبارهم خائنين للوحدة والمبدأ القوميين ، ولا اعتراض لهم على إحراقهم ، وهـــذا هو أقل ما يستطيعون أن يبذلوه من أجل إلههم الذى انتهكت حرمته ولم تنعم الطبقات الدنيا بشىء من التعليم المدرسى إلا قليلا وهو دينى فحسب . ولما وجد كورتز القوى بين المكسيكيين الوثنيين ، شعيرة تشبه القربان المسيحى — شك بأن الشيطان هو الذى علمهم إياها لكى يضلل الفاتحين .

وشجع على قوة انتشار الكاثوليكية فى أسبانيا تلك المنافسة الاقتصادية بين الأسبان وبين المسلمين واليهود ، الذين كانوا يؤلفون عشر عـــدد السكان فى أسبانيا المسيحية . ومن الأمور السيئة فى نظرهم أن يحتل المسلمون غرناطه الخصيبة ، وأكثر من هذا مضايقة لهم أولئك المدجنون — أى المسلمين الذين لم يتنصروا ، الذين عاشوا بين الأسبان المسيحيين والذين أدت براعتهم فى التجارة والحرف إلى حسد شعب تستعبده الأرض استعباداً بدائياً . أما الأسبان اليهود فلم يصفح عنهم قط . ولقد اضطهدتهم أسبانيا المسيحية مدى ألف سنة : فقد أخضعوهم لضرائب مهنية وقروض مغتصبة ولمصادرة الأموال والاغتيال والتعميد الإجبارى ، وأرغموهم على الاستماع إلى العظات المسيحية ؛ وحرضوهم حتى فى معابدهم أحياناً على التنصر ، بينما جعل القانون تهود المسيحى جريمة عقوبتها الإعدام . ودعوا أو ألزموا على الاشتراك فى مناظرات مع علماء الدين المسيحى ، وهم فيها بين اثنتين إما أن تحيق بهم هزيمة فاضحة أو يحصلون على انتصار محفوف بالمكاره . وأمروا هم والموديجار عدة مرات أن يرتدوا شارة مميزة ، وكانت فى العادة دائرة حمراء توضع على الكتف فى أرديتهم وحرم على اليهود أن يستأجروا خادماً مسيحياً ، ولم يسمح لأطبائهم أن يعالجوا المرضى المسيحيين ، ورجالهم الذين يعاشرون امرأة مسيحية يقتلون .

ولقد حرض راهب فرنسسكانى عام ١٣٢٨ فى عظاته بمدينة ستلا من

أعمال نافار ، المسيحيين أن يعملوا القتل فى خمسة آلاف يهودى وأن يحرقوا منازلهم ، وفى عام ١٣٩١ أثارت عظات فرنان مارتينيز الجماهير فى كل مركز كبير بأسبانيا ، أن يقتلوا كل من يجدونه من اليهود الذين يرفضون التحول إلى المسيحية . وفى سنة ١٤١٠ تحركت بلد الوليد وغيرها من المدن ببلاغة فيسنت فرر الذى يشبه القديس المتعصب ، فأمرت أن يحصر اليهود و المسلمون أنفسهم فى أحياء معينة — جوديريا أو الباما — تغلق أبوابها من غروب الشمس إلى شروقها وربما كانت هذه العزلة من أجل حمايتهم .

واستغل اليهود كل فرصة للتطور بما اتسموا به من الصبر والعمـــل والذكاء فتكاثروا وازدهرت أحوالهم حتى تحت وطأة هذه العوائق . وأحب بعض ملوك قشتالة ، أمثال الفونسو الحادى عشر وبدرو الغشوم ، اليهود وعينوا النابهين منهم فى المناصب الحكومية الرفيعة . وجعل الفونسو دون يوسف الأسيجى وزيراً لماليته ، واختار يهودياً آخر هو يوسف ابن وقار طبيباً خاصاً له ، فأساءا استعمال منصبيهما ، واتهما بالتآمر فسجنا وماتا فى السجن . وتكررت الحادثة مع صمويل يوسف أبى لافيسه فقد عين قواما على خزانة الدولة فى عهد بدرو ؛ فجمع ثروة طائلة ؛ فحكم الملك بقتله . وكان صمويل قد شيد قبل ذلك بثلاثة أعوام (١٣٥٧) فى مدينة طليطلة معبداً يهودياً جميلا على بساطته ، على الطراز التقليدى ، وهو الذى حوله فرديناند إلى الكنيسة المسيحية « الترنسيتو » وتحافظ الحكومة عليها اليوم باعتبارها أثراً من الآثار العبرية — الإسلامية فى أسبانيا وكانت حماية بدرو لليهود من سوء طالعهم ، ذلك لأن هنرى أمير تراستامارا — عندما عزله عن الملك ، أعمل الجنود المنتصرون السيف فى ألف ومائتى يهودى (طليطلة ١٣٥٣) ، وتبعت ذلك مذابح أسوأ ، عندما أحضر هنرى

إلى اسـبانيا « الصحاب الأحرار » ، الذين جمعهم دى جيكلان من أوشاب فرنسا . .

وآثر آلاف من اليهود الأسبان التعميد على الفزع من النهب والقتل ، فلما أصبحوا مسيحيين من الناحية الشرعية استطاع هؤلاء المتنصرون أن يرقوا سلم الحياة الاقتصادية والسياسية ، وفى المهن بل وفى الكنيسة ذاتها وأصبح بعضهم من كبار رجال الكهنوت وآخرون من مستشارى الملوك . وأكسبتهم مواهبهم المالية نجاحاً يثير الحسد ، فى جمع الدخل القومى وتدبيره . وأحاط بعضهم نفسه بمظاهر الشرف الأرستقراطى ، وجعل بعضهم نجاحه عدوانياً واضحاً ، ووصم الكاثوليك الغضاب ، هؤلاء المتنصرين بهذا الاسم الفظيع « حلوف العرب المورسكو » (marranos) ومع ذلك فإن الأسر المسيحية التى كانت عراقة نسبها أكثر من مالها ، أو التى كانت تحترم القدرة من الناحية العملية ، قبلت الإصهار إليهم . وبهذه الطريقة ساط الشعب الأسبانى وبخاصة طبقاته العليا ، الدم اليهودى بصورة مادية ملموسة . وكان لفرديناند الكاثوليكى وتوركيمادا قاضى محكمة التفتيش أسلاف من اليهود . وأطلق البـابا بول الرابع على خصمه الذى يحاربه فيليب الثانى ، وعلى الأسبان « أنهم بذرة لا قيمة لها من اليهود والمسلمين » .

٢ – غرناطه (١٣٠٠ – ١٤٩٢)

وصف ابن بطوطة موقع غرناطة على أنه لا يضارعه موقع مدينة أخرى فى العالم . . . وحولها من كل جانب بساتين وحدائق ومراعى مزهرة وكروم ، وفيها مبانى جليلة . واسمها العربى غرناطه — ومعناه غير محقق ؟ ونصرها الفاتحون الأسبان وجعلوه (جراناداGranada) ومعناه الممتلىء بالحبوب — ولعله مأخوذ من شجرة الرمان التى تكثر فيما جاورها . ولم يطلق الاسم على المدينة فقط ، وإنما أطلق على إقليم يضم شريش وجيـان

والمرية ومالقا وغيرها من المدن ، ويبلغ عدد سكانه نحوا من أربعة ملايين نسمة . ونهضت العاصمة ، التى كانت تضم عشر هؤلاء السكان مثل « برج المراقبة » إلى قمة تسيطر على واد رائع ، يكافئ العناية بالرى والزراعة على أساس علمى بمحصولين فى السنة . وقام على حراسة المدينة من أعدائها المحيطين بها سور عليه ألف برج . واتخذت الأرستقراطية قصوراً رحبة جميلة التصميم ، ورطبت نوافير المياه فى الميادين العامة سعير الشمس ، وعقد السلطان أو الأمير أو الخليفة بلاطه فى أبهاء الحمراء الرحبة .

وكانت الحكومة تأخذ سبع غلة الأرض كلها ، وربما أخذت الطبقة الحاكمة مقداراً مماثلا كنفقات للإدارة الاقتصادية والقيادةالعسكرية ، ووزع الحكام والنبلاء بعض مواردهم على الفنانين والشعراء والدارسين والعلماء والمؤرخين والفلاسفة ، وتولوا جامعة سمح فيها لعلماء المسيحيين واليهود أن يكونوا أساتذة وعمداء أحياناً . ونقش على أبواب الكلية خمسة أسطر : « دعائم الدنيا أربعة : علم الحكماء ، وعدالة العظماء ، وصلوات الأبرار ، وأقدام الشجعان » . وأسهم النساء فى الحياة الثقافية بحرية ، ونحن نعرف أسماء بعض العالمات فى غرناطة الإسلامية . ولم يمنع التعليم السيدات مع ذلك ، من تحريض رجالهم ، لا على العواطف العارمة بل على حب الفروسية ومبارزاتها . وقال أحد ظرفاء العصر : « يميز النساء بدقة ملامحهن ورشاقة أجسامهن وطول شعورهن وتموجها ، وبياض أسنانهن ، وخفة حركاتهن التى تسر الناظرين . . . وسحر حديثهن ، وعطر أنفاسهن » وكانت النظافة الشخصية ورعاية الصحة العامة أكثر تقدماً منها فى العالم المسيحى المعاصر . وكانت الأزياء والأخلاق رائعة وزينت المباريات الفروسية أو المهرجانات أيام الأعياد . والأخلاقيات سهلة ، ولم تكن أعمال العنف نادرة بيد أن الكرم والشرف الإسلاميين اكتسبا مدح المسيحيين . فقد قال مؤرخ اسبانى : « لقد اشتهر سكان غرناطة بأنهم أهل

للثقة ، إلى حد أن كلمتهم كان يعتمد عليها أكثر من اعتمادنا على عقد مكتوب » . وبين هذه التطورات العظيمة اعتصر الترف النامى قوة الأمة ودعا التفكك الداخلى إلى الغزو الخارجى .

وما أن دعمت اسبانيا المسيحية ببطء ممالكها وزادت فى ثرواتها حتى نظرت بعين العداوة الحسود إلى تلك الإمارة المزدهرة المحاصرة التى تحدت ديانتها المسيحية بأنها شرك كفور والتى قدمت ثغورها ، منافذ خطيرة للدولة من الكفار يضاف إلى ذلك أن تلك الحقول الأندلسية الخصبة قد تعوض كثيراً من فدادين الأرض القاحلة فى الشمال . ولم تحتفظ غرناطة بحريتها ، إلا لأن أسبانيا الكاثوليكية ، قد انقسمت إلى مذاهب وملوك . بل إن الإمارة المعتزة بنفسها وافقت (١٤٥٧) على دفع جزية سنوية إلى قشتالة . ولما أبى أمير مغامر هو على أبو الحسن أن يستمر على دفع رشوة السلام هذه (١٤٦٦) لم يجبره هنرى الرابع على الدخول فى الطاعة لأنه كان منغمساً فى ملذاته . بيد أن فرديناند وإزابيلا سرعان ما أرسلا الوفود بعد اعتلائهما العرش مطالبة بمواصلة دفع الجزية . فأجاب الأمير على بجرأة مهلكة : « قولوا لمليككم إن ملوك غرناطة الذين دفعوا الجزية قد ماتوا وإن سكتنا التى نتعامل بها الآن ليست سوى حداً لسيوف » . ولم يعلم أبو الحسن بأن فرديناند أقوى منه سلاحاً وادعى السخط على غزوات المسيحيين على الحدود فباغت الثغر المسيحى الزهراء واستولى عليها ، وساق أهلها جميعاً إلى غرناطة ليبيعهم بيع العبيـــد (١٤٨١) فثأر مركيز قادس بنهب المعقل الإسلامى المنيع الحامة (١٤٨٢) وهكذا بدأ فتح غرناطة .

وعمل الحب على تعقيد الحرب . فقد فتن أبو الحسن بإحدى جواريه حتى أن زوجته السلطانة عائشة أثارت الشعب لخلعه عن العرش وتتويج ابنها أبى عبد الله ، الذى عرفه الغربيون باسم (Boabdil) (١٤٨٢) ففر

أبو الحسن إلى مالقة وسار جيش اسبانى لمحاصرة هذه المدينة ، وأبيد كله تقريباً فى ممرات سلسلة جبال أجاركيه ، على يد فرق لا تزال موالية للأمير المخلوع ، وثارت غيرة أبى عبد الله على انتصارات أبيه العسكرية فسار على رأس جيش من غرناطة لمهاجمة قوة مسيحية بالقرب من الأشانة وحارب بشجاعة ، ولكنه هزم وأخذ أسيراً . واشترى خلاصه بأن وعد بمساعدة المسيحيين ضد أبيه . وبأن يدفع للحكومة الأسبانية اثنى عشر ألف دوكات كل سنة . وفى الوقت نفسه نصب عمه أبو عبد الله المشهور بلقب عز زغرل « أى الشجاع » نفسه أميرا على غرناطة ، ونشبت حرب أهلية ثلاثية بين الأب والابن والعم على العرش الغرناطى ، ومات الأب واستولى الابن على الحمراء ، وانسحب العم إلى وادى آش **Guadix** حيث حاول مراراً أن يهاجم الأسبان كلما وجدهم وأراد أبو عبد الله أن يقلد عمه فامتنع عن الوفاء بوعده ودفع الجزية وأعد عاصمته لمقاومة الهجوم الذى لا مفر منه .

فوزع فرديناند وايزابلا ثلاثين ألف رجل على الحقول التى تمد غرناطة بالغذاء ليكتسحوها . فأتلفت الطواحين ومخازن الغلال ودور الفلاحين والكروم وغياض الزيتون والبرتقال ، وحوصرت مالقة ليمنعوها من تلقى المؤن إلى غرناطة أو إرسالها وصمدت مالقة للحصار حتى أكل سكانها كل ما تقع عليه أيديهم من الخيل والكلاب والقطط ، وكانوا يموتون بالمئات من الجوع أو المرض . وأرغمها فرديناند على أن تسلم بلا قيد ولا شرط ، واستعبد الاثنى عشر ألف الذين بقوا من سكانها ، ولكنه سمح للأغنياء منهم بأن يفتدوا أنفسهم بتسليم كل ما يملكونه . واستسلم عز زغرل وأصبح إقليم غرناطة بأسره خارج العاصمة فى أيدى المسيحيين .

وشيد الملكان الكاثوليكيان ، فسطاطاً كاملا لجندهم ، حول القلعة المحاصرة وأطلقوا عليها اسم سانتافيه ، وانتظروا أن يموت أهلوها جوعاً ،

ليجعلا مفخرة الأندلس تحت رحمتهما . وخرج الفرسان المسلمون من غرناطة ، يطلبون مبارزة فرسان الإسبان فرداً لفرد ، واستجاب هؤلاء بعزم مماثل ، بيد أن فرديناند لما رأى أن خير المحاربين من رجاله يقتلون واحداً بعد واحد ، على أساس خطة الفروسية هذه ، وضع حداً لتلك المبارزة ، وقاد أبو عبد الله قواته فى هجوم يائس ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنفذت الرسائل تطلب العون من سلطان تركيا ومصر ، ولم يتلقوا شيئا ، فقد كان العالم الإسلامى منقسما على نفسه كالعالم المسيحى .

ولم يجد أبو عبد الله بدأ من توقيع شروط التسليم التى أسبغت شرفا نادراً على الفاتحين . ذلك لأنه سمح لأهل غرناطة أن يحتفظوا بمالهم ولغتهم وزيهم ودينهم وشعائرهم ، ولهم أن يحتكموا إلى شريعتهم وقضاتهم ولا تفرض عليهم ضرائب إلا بعد ثلاث سنوات ، وعند ذلك يؤخذ منهم ما كان يجبيه الحكام المسلمون ، وكان على المدينة أن تفتح أبوابها لاحتلال الإسبان ، وللمسلمين حق الهجرة من المدينة إذا شاءوا ، ويجب أن توفر وسائل المواصلات لمن يرغب فى العبور إلى إفريقية الإسلامية .

ومع ذلك فقد احتج أهل غرناطة على استسلام أبى عبد الله . وتهددته الثورة حتى دفع بمفاتيح المدينة إلى فرديناند (٢ يناير ١٤٩٢) وركب مع أقاربه وفرسانه الخمسين ، وسط صفوف المسيحيين ، إلى إمارته الجبلية الصغيرة التى كان عليه أن يحكمها تابعا لقشتالة ، ومن فوق الصخور الشماء التى عبر عليها ألقى نظرة أخيرة على المدينة الرائعة التى فقدها ، ولا تزال هذه القنة تسمى آخر زفرة للعربى El Ulxtimo Sospiro del Moro وأنبته أمه على بكائه قائلة « ابك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال » .

ودخل فى الوقت نفسه الجيش الإسبانى بالمدينة . ورفع الكاردينال مندوزا صليبا فضيا عظيما فوق الحمراء ، وركع فرديناند وايزابلا فى ساحة

المدينة شكراً لله الذى أخرج الإسلام من إسبانيا بعد إحدى وثمانين وسبعمائة سنة .

٣ – فرديناند وايزابلا

يعد القرن الذى يقع بين موت هنرى أمير ترستمارا (١٣٧٩) ، واعتلاء فرديناند لعرش أراجون ، فترة ركود لإسبانيا . فقد تعاقبت مجموعة من الحكام الضعفاء وسمحوا للنبلاء بأن يعيثوا فى الأرض فساداً بتنازعهم ، وكانت الحكومة مهملة فاسدة ، ولم يكن هناك رادع للثأر الشخصى ، وكثرت الحروب الأهلية إلى حد أن الطرق لم تكن آمنة للتجارة ، وكثيراً ما احتلت الجيوش الحقول ، حتى اضطر الفلاحون إلى تركها جرداء . ولقد حكم جون الثانى القشتالى فترة طويلة (١٤٠٦ – ٥٤) وكان كلفه بالموسيقى والشعر قد جعله لا يعنى بشئون الدولة ، وتبعه تملك هنرى الرابع الوبيل ، وهو الذى اكتسب لقب انريك العقيم بعدم كفايته الإدارية وعبثه بالعملة وبعثرة الموارد على المقربين الطفيليين . وأوصى بعرشه إلى جوانا ، التى ادعى أنها ابنته ، وأنكر النبلاء الغضاب أبوته وقدرته على الإنجاب ، وأجبروه على أن يستخلف أخته إيزابلا ولكنه أعاد تأكيد بنوة جوانا وحقها فى الحكم عند ما جاءته الوفاة (١٤٧٤) ومن هذا الاضطراب المعطل للمرافق ، صاغ فرديناند وإيزابلا النظام والحكم اللذين جعلا اسبانيا أقوى دولة فى أوربا مدى قرن من الزمان .

ومهد السفراء لتحقيق ذلك بإقناع إيزابلا ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها أن تتزوج ابن عمها فرديناند ، البالغ من العمر سبع عشرة سنة فقط (١٤٦٩) وكان العروسان معا من نسل هنرى أمير ترستامارا ، وكان فرديناند قد أصبح بالفعل ملكا على صقلية ، وإذا مات أبوه يصبح ملكا على أراجون أيضا ، فجمع الزواج لذلك ثلاث دول فى مملكة قوية واحدة ،

وامتنع بول الثانى من إعطاء الوثيقة البابوية المطلوبة لتجعل زواج أبناء الأعمام شرعيا ، وزيفت الوثيقة المنشودة على يد فرديناند وأبيه وكبير أساقفة برشلونة ، وبعد أن تم هذا الصنيع صدرت وثيقة أصيلة عن البابا سكتوس الرابع ، وبقيت صعوبة مادية أكبر هى فقر العروس ، الذى أبى أخوها أن يعترف بالزواج ، وفقر العريس الذى أنهمك أبوه فى الحرب ، انهماكا يجعله لا يستطيع إقامة حفل ملكى ، ويسر محام يهودى طريق السياسة الخالصة ، بأن قدم قرضا مقداره عشرون ألف سولدس سددتها إيزابلا عند ما أصبحت ملكة على قشتالة[1] (١٤٧٤) .

وتحدى حقها فى اعتلاء العرش افرنسو الخامس ملك البرتغال الذى تزوج من جوانا . وحددت الحرب فى تورو النتيجة إذ قاد فرديناند القشتاليين إلى النصر (١٤٧٦) وبعد ذلك بثلاث سنوات ورث عرش أراجون وهكذا أصبحت إسبانيا بأسرها ما عدا غرناطة وناڤار فى ظل حكومة واحدة . وظلت ايزابلا ملكة على قشتالة فقط ، وحكم فرديناند أراجون وسردينيا وصقلية وشارك فى حكم قشتالة واحتفظ لإيزابلا بالإدارة الداخلية لقشتالة ، ولكن المواثيق والمراسيم الملكية كانت توقع منهما معا ، وحملت العملة الجديدة رأسيهما معا . وجعلت صفاتهما الحميدة فرديناند وايزابلا أكثر زوجين ملكيين تأثيرا فى التاريخ .

---

(١) كانت وحدة العملة القشتالية فى القرن الخامس عشر هى المارافيدى النحاسية وكل ١٨٠٧ من هذه العملة تساوى سويلد وآراجونى ، وكل ٢٤ تصبح ريالا فضيا و ٣٧٤ تصبح اكسكود وأودوكات ذهبية وأن تغير سعر هذه العملات يجعل من الصعب أن نفترض المكافئة لها من العملة الحديثة . ولكن لما كان أجر العامل فى اسبانيا إبان القرن الخامس عشر نحوا من ستة مارافيدى يوميا ، فلن تكون مبالغين إذا جعلنا المارافيدى يعادل ٧٦ ٪ من الدولار فى عملة الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ والسويلد ويعادل ١٫٢٠ دولار والريال يعادل ٢٫٢٨ دولار والاسكودو يعادل ٢٥ دولار .

وكانت ايزابلا ذات جمال لا يعادله جمال ، هكذا قال رجال حاشيتها أى انها كان لها نصيب من الجمال ، كانت متوسطة القوام ، ذات عينين زرقاوين وشعر كستنائى يميل إلى الحمرة . ونالت من التعليم حظا أكبر من فرديناند ، وكانت أقل منه ذكاء وأرق حاشية . وكانت تستطيع أن ترعى الشعراء وأن تتحدث إلى الفلاسفة الحذرين ، ولكنها آثرت صحبة القساوسة . واختارت أكثر الأخلاقيين تزمتا ليكونوا أصحاب هدايتها واعترافها . ومع أنها زفت إلى زوج غير أمين فيبدو أنها حافظت على العهود الزوجية الكاملة إلى النهاية ، وعاشت فى عصر مائع كعصرنا إلا أنها كانت نموذجا للخفر . وظلت وسط الموظفين الفاسدين والسفراء المنحرفين صريحة مستقيمة لا يتطرق إليها الفساد . ولقد ربتها أمها على الصرامة فى اتباع السنة والتقوى ، وتوسعت ايزابلا فيهما إلى حد التقشف ، وكانت شديدة قاسية فى القضاء على الهرطقة بمقدار ما كانت رحيمة كريمة فى كل أمر آخر . وكانت الرقة نفسها بالنسبة لأطفالها ، وسند الوفاء لأصدقائها . وبذلت وأعطت فى سعة للكنائس والأديرة والمستشفيات . ولم تمنعها أرثوذكسيتها من اتهام بعض بابوات عصر النهضة بالخروج على الأخلاق . وتفوقت فى كل من الشجاعة المادية والمعنوية ، ولقد صمدت للنبلاء الأقوياء وأخضعتهم ونظمتهم واحتملت بهدوء أقصى ضروب الحرمان . وواجهت بشجاعة تنتقل منها إلى غيرها أهوال الحرب وأخطارها . ورأت أن من الحكمة أن تحرص على مظهر الملكة أمام الشعب وغالت فى المظاهر الملكية إلى حد البذخ فى الحلل والحلى ، أما فى حياتها الخاصة فقد كانت بسيطة الثياب ، معتدلة فى طعامها وتزجى فراغها بالتطريز الدقيق للكنائس التى تؤثرها . وعملت بضمير حى فى القيام بشئون الحكومة وأخذت على عاتقها المبادأة فى الإصلاحات الرشيدة ونهضت بالقضاء وربما كانت فى ذلك صارمة أكثر من اللازم ، ولكنها صممت على أن ترفع مملكتها من

الاضطراب الذى لا يعـرف قانونا إلى سلم يعتصم بالقانون ووضعها المعاصرون الأجانب أمثال باولو جيوفيو وجويشياردين والفارس بايار ، بين أقدر ملوك العصر ، وشبهوها بالبطلات العظيات فى التاريخ القديم . وقدمها رعاياها ، بينما احتملوا الملك بصبر نافذ .

ولم يستطع أهل قشتالة أن يغتفروا لفرديناند أنه دخيل عليهم — أى أرجونى ورأوا فيه نقائص كثيرة حتى وهم يمجدون انتصاراته باعتباره رجل دولة وسياسيا ومحاربا ووازانوا بين مزاجه الفاتر المتحفظ وبين حرارة الملكة فى عطفه ، وبين انطوائه الحذر وبين صراحتها المستقيمة ، بين تقتيره وكرمها ، بين كزازته فى معاملة معاونيه وبين انبساط يدها بالمكافأة على ما يقدم لها من خدمات ، بين صبواته وبين قناعتها الهادئة ؛ ولم ينكروا عليه إنشاءه لمحاكم التفتيش ولا استغلاله لعواطفهم الدينية كسلاح من أسلحة الحرب ؛ فقد استحسنوا حملته على الهرطقة وفتحه غرناطة وطرده اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، وكان أكثر ما يحبون فيه أقل ما يعجب به الخلف . فلم نسمع احتجاجاً على صرامة قوانينه — قطع اللسان على السب والإحراق حياً على اللواط ولاحظوا أنه يجنح إلى العدالة بل إلى التساهل ، إذا لم يمنع ذلك امتيازاً شخصياً أو يعطل سياسة قومية وأنه يستطيع أن يقود جيشه بشجاعة وبراعة ، وإن آثر مساجلة العقول بالمفاوضة أكثر من منازلة الإنسان فى الحرب وأن بخله لم يكن للإنفاق على أسباب الترف الشخصى ولا بد أنهم تثبتوا من عاداته التى تؤثر الاعتدال ورباطة جأشه فى الملمات ، واتزانه عند النجاح ، واختياره الرشيد لمعاونيه ، وجهده المبذول بلا كلل على شئون الحكومة وشعبه وراء أهداف بعيدة بكياسة مملة ووسائل حذرة . واغتفروا له الظهور بوجهين باعتباره سياسيا وكثرة حنثه بوعده ، ألم يحاول جميع الحكام غيره بوسائل مماثلة أن يدعوا قرابتهم له ويحتالوا على إسبانيا ؟ ولقد قال متجهما « إن ملك فرنسا يشكو أننى خدعته مرتين . إنه يكذب ، ذلك الغبى لقد

خدعته أكثر من عشر مرات » . ودرس مكيافلي بعناية سيرة فرديناند وأفاد من دهائه ومدح أعماله . . . . بأنها كلها عظيمة وبعضها صادق . ووصفه بأنه أفضل ملك في العالم المسيحي . وكتب جويكشيارديني « ما أعظم الفرق بين أقوال هذا الأمير وأفعاله ، وكيف يضع خططه في عمق وتكتم » . ورأى البعض أنه مجـــدود . ولكن الحق أن حظه الموفق إنما كان في تدابيره للأحداث بعناية وانتهازه للفرص السانحة وإذا أحكم التوازن بين فضائله وجرائمه ، فإنه يبدو أنه دفع إسبانيا بوسائل شريفة وأخرى دنيئة ، من أجزاء متناثرة عقيمة متعددة الألوان ، إلى وحدة وقوة جعلتاها في الجيل التالي المسيطرة وحدها على أوربا .

ولقد تعاون فرديناند مع إيزابلا على إعادة الاستقرار للأنفس والأموال في قشتالة ، وفي بعث السانتا هرماندادأو الأخوة المقدسة لتكون حرسا أهليا محليا لتحافظ على النظام ، وفي إنهاء السطو في الطرق العمومية والدسائس الجنسية في البلاط ، وفي إعادة تنظيم المحاكم وتوحيد القوانين ، وفي استرداد أراضي الحكومة التي سلمها الملوك السابقون بغير اكتراث إلى المقربين ، وفي أخذ النبلاء بالطاعة الكاملة للتاج ، وهنا أيضا ، كما كان الحال في فرنسا وإنجلترا ، أسلمت الحرية والفوضى الإقطاعيان إلى النظام المركزي للملكية المطلقة وتنازلت المجالس البلدية بدورها عن امتيازاتها ، وقلما اجتمعت المجالس الإقليمية وكان اجتماعها في الغالب للموافقة على أموال تمنح للحكومة ، وذبلت ديمقراطية واهية الجذور وماتت في ظل ملك صلب المراس . بل ان الكنيسة الإسبانية التي كانت عزيزة على الملكين الكاثوليكيين[1] los reyes católicas انتزع منها جانب من ثروتها وكل حقها في التشريع المدني ، وأصلحت إيزابلا أخلاق رجال الدين بصراحة ، وأكره البابا سكتوس

---

(١) أي الملكان الكاثوليكيان — لقد أسبغه على فرديناند وإيزابلا البابا اسكندر السادس عام ١٤٩٤ .

الرابع ، على التنازل للحكومة عن حق تعيين كبار رجال الكهنوت فى الكنيسة الإسبانية ورقى الكهنة القادرون أمثال بدروجنزالس ده مندوزا واكسمنس ده نيروس ، لينصبوا كبار أساقفة دفعة واحـــدة لطليطلة ورؤساء وزراء فى الدولة .

وكان الكاردينال اكسمينس شخصية إيجابية قوية كالملك ، ولقد انحدر من أسرة نبيلة وإن كانت رقيقة الحال ، فذهب فى طفولته للكنيسة ، وأحرز فى جامعة سالامنكا وهو فى سن العشرين ، أجازات الدكتوراه فى كل من القانونين المدنى والكنسى . وعمل سنوات قسيسا وناظراً لمندوزا فى أسقفية سيجونزا وكان ناجحا ولكن غير سعيد ، ولم يأبه بالجاه أو المناصب ، فالتحق بأكثر فرق الأديرة صرامة فى أسبانيا — وهى الفرنسيسكان الملتزمون بالأوامر والنواهى «Observantine Franciscans» . ولم يبهجه غير الزهد فكان ينام على التراب أو الأرض الصلبة ويكثر من الصوم ويضرب نفسه بالسياط ، ويلبس قميصا من الشعر على جلده . وفى عام ١٤٩٢ اختارت إيزابلا الورعة هذا المتعبد النحيل راعيا لكنيستها الخاصة ومتلقيا لاعترافاتها . وقبل ولكن بشرط وهو أن يسمح له بالاستمرار فى سكن الدير والتزام قواعد الفرنسسكان الصارمة ، وجعلته الفرقة رئيسها المحلى ، واستجابت لإلحاحه فى الإصلاح العسير . ولما رشحته إيزابلا كبيراً لأساقفة طليطلة (١٤٩٥) رفض قبول المنصب ، ولكنه استسلم بعد إباء ستة أشهر لنشرة بابوية تأمره بالخدمة . وكان قد أشرف على الستين من عمره ، ويبدو أنه كان يرغب صادقا أن يعيش راهبا . واستمر على طباعه الخشنة وهو مطران إسبانيا ورئيس المجلس الملكى ، وكان يلبس تحت الأردية الفخمة التى يتطلبها منصبه ، ذلك الجلباب الفرنسسكانى الخشن ، وتحته قميص الشعر كما اعتاد قبل ذلك . وطالب جميع فرق الرهبان فى الأديرة بأن تجرى نفس الإصلاحات التى أجرتها فرقته

فعارضه كبار رجال الدين ولكن الملكة أيدته وكأنما تجرد القديس فرنسيس من تواضعه وزود فجأة بقوتى برنارد ودومنيك وقدرتيهما .

ولم يكن ليرضى هذا القديس العبوس ، أن يجد يهوديين لم يتنصرا لهما مكانة مرموقة فى البلاط . أحدهما من أكثر مستشارى إيزابلا ثقة وهو إبراهام سنيور . وقد أخذ هو وإسحاق إبرابانيل يجمعان الموارد لفرديناند وينظمان تمويل حرب غرناطة . وكان الملك والملكة وقتذاك معنيين بالمتنصرين بصفة خاصة آملين أن يأتى وقت يصبح فيه هؤلاء مسيحيين مخلصين وأجرت إيزابلا مدرسة لأصول الدين لتعليمهم ، ومع ذلك فقد احتفظ كثير منهم بعقيدته السالفة سراً ولقنوها أبناءهم . وسكنت كراهية الكاثوليك لليهود غير المعمدين إلى حين ، بينما اشتد الحنق على « المسيحيين الجدد » ونشبت الفتن ضدهم فى طليطلة (١٤٦٧) وبلد الوليد (١٤٧٠) وقرطبة (١٤٧٢) وسيجوفيا (١٤٧٤) وأصبحت المسألة الدينية عنصرية أيضا ، ودبر الملك والملكة الفتيان الوسائل التى تحول هذا المزيج المضطرب فى الشعوب واللغات والمذاهب المتصارعة إلى وحدة منسجمة وسلام اجتماعى . ورأيا أن خير وسيلة لبلوغ هـذه الأهداف هى إعادة محاكم التفتيش إلى إسبانيا .

٤ ـ وسائل محكمة التفتيش

نحن اليوم غير متحققين ومختلفون فى آرائنا حول أصل العالم والإنسان ومصيرهما حتى إننا أمسكنا فى معظم البلاد ، عن معاقبة الناس لمجرد أنهم يختلفون عنا فى معتقداتهم الدينية . ونحن إنما نوجه تسامحنا الحاضر إلى أولئك الذين يناقشون مبادئنا السياسية والاقتصادية ، ونحن نفسر مذهبنا الثابت المروع على أساس أن أى شك يثار فى وجه ادعائنا الذى نقيم عليه الدليل ، يهدد تماسكنا وبقاءنا القوميين . ولقد كان المسيحيون واليهود والمسلمون

إلى منتصف القرن السابع عشر ، أكثر تشبثا بالدين مما نحن عليه الآن ، وكانت علوم الكلام هي أثمن وأوثق ما يملكون ، ونظروا إلى أولئك الذين ينكرون هذه المذاهب كأنما يهاجمون أصول النظام الاجتماعي وجوهر الحياة الإنسانية . واعتقاد كل جماعة بصحة مذهبها جعلها متشددة إلى حد التعصب ودمغ الآخرين بأنهم كفار .

وانتشر مبدأ محكمة التفتيش في يسر بين الأشخاص الذين لم تتأثر مذاهبهم الدينية بالتعليم والرحلة ، والذين كانت عقولهم أكثر خضوعا لحكم العادة والخيال . واعتقد جميع مسيحيي القرون الوسطى تقريبا عن طريق تعليمهم في الطفولة والوسط الذي عاشوا فيه بأن الكتاب المقدس من وحي الله بكل لفظ فيه ، وأن ابن الله قد أنشأ الكنيسة المسيحية مباشرة . وبدا أنه ينتج عن هذه المقدمات أن الله يريد أن تكون جميع الأمم مسيحية وأن الإيمان بديانات غير مسيحية — أو ضد المسيحية على التحقيق — يعد كبيرة في حق الله . يضاف إلى ذلك ، أنه ما دامت كل هرطقة مادية تؤدي بالضرورة إلى عقاب أبدي فإن المختصين منها قد يعتقدون (ويظهر أن كثيرين منهم قد اعتقدوا بإخلاص) أنهم بإزهاق روح هرطيق ، إنما ينقذون الهدى الكامن فيه وربما أنقذوه هو نفسه من الجحيم الأبدي .

ومن المحتمل أن إيزابلا ، التي عاشت في جو علماء الدين ، قد شاركت في هذه الآراء . ولعل فردينان ، الذي كان رجلا صلبا من رجال الدنيا قد ارتاب في بعضها ، ولكن يبدو أنه اقتنع بأن توحيد العقيدة الدينية يجعل إسبانيا أيسر حكما ، وأقدر في التغلب على أعدائها . ولقد أصدر البابا سكستوس الرابع ، بناء على رغبة فردينان وايزابلا قرارا (أول نوفمبر ١٤٧٨) يفوض لهما أن يعينا ستة قسس ، من حملة الاجازات العليا في علوم الدين والشريعة ، ليؤلفوا هيئة محكمة التفتيش ليحققوا تهم الهرطقة ويعاقبوا عليها . وأبرز شيء في هذا القرار هو إعطاء السلطة لملوك إسبانيا ،

أن يعينوا هيئة محاكم التفتيش ، التي كانت في صورها السابقة ، تختار بوساطة رؤساء فرق الفرنسسكان والدومنيكان المحلية . وهكذا أصبح الدين هنا خاضعا للدولة مـــدى ثلاثة أجيال ، كما حدث في ألمانيا وإنجلترا البروتستانتيتين بعد ذلك بقرن ، وكان قضاة هذه المحاكم يرشحهم الملوك فقط من الناحية العملية ، ثم يعينهم البابا ، ويستمدون سلطتهم من هذا القرار البابوي ، وظلت المنظمة كهنوتية ، ووسيلة من وسائل الكنيسة وفي الوقت نفسه وسيلة من وسائل الدولة . وكان على الدولة أن تدفع نفقاتها وأن تحصل على دخلها الخالص ويراقب الملوك تفاصيل أعمالها ، وإليهم قد تستأنف أحكامها . وآثر فرديناند بمحبته هذه الوسيلة من بين جميع وسائل حكمه . ولم تكن أهدافه أول أمرها مالية ، فقد غنم من الأموال المصادرة للمحكوم عليهم ولكنه رفض رشـــاوى مغرية من الضحايا الأغنياء للتأثير على القضاة ، وكان همه منصباً على توحيد أسبانيا .

وأعطى القضاة سلطة استخدام المعاونين من رجال الدين ومن المدنيين كمحققين ومنفذين للأحكام . ووضعت المنظمة برمتها بعد عام ١٤٨٣ تحت إمرة وكالة حكومية ، هي هيئة التفتيش العامة وتسمى عادة « مجلس محكمة التفتيش العليا والعامة » Concejo de la Suprema-y General Inquisicior ، وشمل تشريع محكمة التفتيش جميع المسيحيين في أسبانيا ، ولم تمس اليهود الذين لم يتنصروا ، ووجهت أهوالها إلى المتنصرين الذين يشك أنهم ارتدوا إلى اليهودية أو الإسلام وإلى المسيحيين المتهمين بالهرطقة ، وكان اليهودي غير المتنصر إلى عام ١٤٩٢ آمنا على نفسه أكثر من المعمد . وطالب القسس والرهبان والمتعبدون الإعفاء من التفتيش ، ولكن مطالبهم رفضت ، وقاوم اليسوعيون تشريعها نصف قرن ولكنهم غلبوا على أمرهم أيضاً . والحد الوحيد لقوة الهيئة العليا إنما هو سلطة الملوك ، بل

أن هذا الحد قد أهمل فى القرون المتأخرة . وطالبت محكمة التفتيش وتلقت عادة التعاون من جميع الموظفين المدنيين .

وشرعت محكمة التفتيش القوانين والإجراءات الخاصة بها . وكانت قبل أن تقيم قضاتها فى مدينة من المدن تذيع فى الشعب عن طريق منابر الكنائس منشوراً دينياً « يطالب كل من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش . وشجع كل امرئ على أن يكون شاهدا ، ليبلغ عن جيرانه وأصدقائه وأقاربه . (ولم يكن يسمح فى القرن السادس عشر مع ذلك باتهام الأقربين ووعد المبلغون بالسرية الخالصة والحماية التامة ، وأوقع حرم صارم — أى حرمان ولعنة — على هؤلاء الذين يعرفون هرطيقاً ويخفونه . فإن ظل يهودى معمد يأمل فى عودة المسيح ، وإذا حافظ على قواعد الطعام التى فى الشريعة الموسوية وإذا اعتبر السبت يوم عطلة وعبادة أو غير ملابسه لذلك اليوم ، وإذا احتفل بأى وجه من الوجوه بيوم من أعياد اليهود ، وإذا ختن أى واحد من أطفاله أو أسماه باسم عبرى ، أو باركهم دون أن يقوم بعلامة الصليب ، وإذا صلى بحركات رأســه أو ردد مزموراً من مزامير الكتاب المقدس دون أن يضيف تمجيد الله فى الأعالى ، وإذا اتجه بوجهه إلى الحائط وهو يحتضر ، فإذا فعل هــذا وأمثاله ، كانت عند رجال التفتيش من الشواهد على الهرطقة السرية التى لابد من إبلاغها إلى المحكمة فوراً . ولكل من يشعر بأنه اقترف هرطقة فله فى خلال « مهلة صفح » أن يأتى إلى المحكمة ويعترف بها ، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هراطقة آخرين .

ويلوح أن قضاة محكمة التفتيش كانوا يفحصون بعناية القرائن التى جمعها المبلغون والمحققون . حتى إذا اقتنعت المحكمة بالإجماع بإدانة شخص من الأشخاص فإنها تصدر أمراً بالقبض عليه . ويتحفظ على المقبوض عليه

فى سجن انفرادى ، حيث لا يسمح لغير عملاء محكمة التفتيش بالتحدث إليه ، ولا يزوره أحد من أقربائه ؛ وكان يقيد بالسلاسل عادة . ويطلب إليه أن يستحضر معه فراشه وملابسه ، وأن يدفع جميع نفقات محبسه وطعامه . فإذا لم يقدم المال الكافى لهذا الغرض فإنه يباع القدر المناسب من متاعه ليفى بالمبلغ المطلوب . أما باقى أمتعته فيحجز عليه بوساطة مندوبى محكمة التفتيش حتى لا يخبأ أو يتنازل عنه هرباً من المصادرة . وفى معظم الأحوال يباع جانب منه لإعانة من يعجزون عن العمل من أسرة الضحية .

وعندما يدفع المقبوض عليه للحضور أمام المحاكمة فإن المحكمة وقد سبق أن حكمت عليــه بأنه مذنب ، تلقى على كاهله عبء إثبات براءته . وكانت المحكمة سرية خاصة وعلى المدافع عن نفسه أن يقسم على أنه لن يفشى أية واقعة من الوقائع فى حالة إطلاق سراحه . ولا يستدعى شهود إثبات التهمة إليه ، ولا يذكر له اسم أحد ، ويبرر قضاة التفتيش هذا الإجراء بأنه ضرورى لحماية مبلغهم . ولم يكن يخبر المتهم أولا عن التهم الموجهة ضده ، وإنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره كما تقضى بذلك العقيدة والعبادة الصحيحتان وأن يشى بكل الأشخاص الذين يتهمون بالهرطقة . فإن أقنع اعترافه المحكمة فقد يصدر عليه حكم غير الإعدام ، وإذا أبى الاعتراف سمح له باختيار محامين للدفاع عنه ، ويتحفظ عليه فى الوقت نفسه فى سكن انفرادى . وفى كثير من من الأحوال كان يعذب ليكره على الاعتراف وتستمر القضية عادة شهوراً ، ويكفى التقييد بالسلاسل فى السجن الانفرادى غالباً للحصول على أى اعتراف .

ولم يكن يلجأ إلى التعذيب إلا بعد أن يقترع عليه أغلبية قضاة المحكمة على أساس أن الذنب محتمل ، وإن كانت القرائن لا تقطع به . ويؤجل التعذيب الذى يحكم به على هذا النحو غالباً على أمل أن الفزع منه يدفع إلى الاعتراف ويبدو أن قضاة التفتيش اعتقدوا بإخلاص أن التعذيب خدمة

للمدافع عن نفسه وهو الذى سبق أن عد مذنباً ، فقد يكسبه بالاعتراف عقاباً أخف ، بل أنه إذا حكم بإعدامه بعد اعترافه يحصل من قسيس على المغفرة تنجيه من الجحيم ؛ ومع ذلك ، لم يكن الاعتراف بالذنب كافياً ، فقد يلجأ إلى التعذيب مع مدافع عن نفسه لإكراهه على ذكر شركائه فى الهرطقة أو الجريمة . وربما عذب الشهود المتناقضون للكشف عمن يذكر الحقيقة منهم ، وقد يعذب العبيد ليقيموا الدليل على سادتهم . ولم يكن هناك حد فى السن ينقذ الضحايا ، ذلك أن فتيات فى الثالثة عشرة ونسوة فى الثمانين قد ألزمن العذراء[1] ، بيد أن قواعد محكمة التفتيش الأسبانية حرمت التعذيب بالنسبة للمراضع أو ذوى القلوب الضعيفة أو المتهمين بهرطقات صغيرة كالأخذ بالرأى الشائع الذى يقول إن الزنا خطيئة صغيرة يصفح عنها . ويجب أن يحال بين التعذيب وبين إصابة الضحية بعاهة مستديمة ، ولا بد أن يوقف كلما أمر الطبيب المسئول ، ولا ينفذ إلا بحضور قضاة التفتيش المنوط بهم القضية ، وأحد الأعيان وكاتب للتسجيل وممثل للأسقف المحلى . واختلفت الوسائل باختلاف الزمان والمكان . وقد توثق يد الضحية خلف ظهرها ويعلق منهما أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماماً ، ثم يقطر الماء فى حلقه حتى يشرف على الاختناق ؛ وقد تربط يداه ورجلاه بالحبال ربطاً وثيقاً حتى تقطع اللحم إلى العظام . ولقد أنبئنا أن وسائل التعذيب التى استعملتها محكمة التفتيش الأسبانية كانت أخف مما استخدمته محاكم التفتيش البابوية السابقة ، أو مما توسلت به المحاكم المدنية فى ذلك العصر . وكان أهم وسائل التعذيب السجن الطويل الأمد .

ولم تكن محكمة التفتيش تتألف من مدع وقاض ومحلفين فقط ، ولكنها أصدرت أيضاً أوامر خاصة بالعقيدة والأخلاق وأنشأت مراتب للعقوبات ؛ وكانت رحيمة فى معظم الأحوال ، وتتسامح فى جزء من العقوبة بسبب

(١) وهى آلة تعذيب تمط الجسم .

سن المحكوم عليه أو جهله أو فقره أو سكره أو سمعته الحسنة بصفة عامة .
وكانت أخف العقوبات هي التعنيف . وأقسى منها هو الإكراه على المجاهرة بالإقلاع عن الهرطقة أمام الناس — التي تترك حتى البرىء ميسوماً بها إلى إلى آخر حياته ، وكان يطلب عادة إلى المعاقب بالأشغال الشاقة أن يحضر القداس بانتظام ، مرتدياً لباس الإدانة « sanbenito » وهو جلباب رسم عليه صليب برّاق . وربما عرض في الطرقات وقد جرد من ثيابه إلى وسطه وحمل شعار جريرته . وقد يحرم هو وذووه من المناصب العامة إلى الأبد . أو ينفى من مدينته ، وقلما ينفى خارج أسبانيا . وقد يجلد من عشر جلدات إلى مائة جلدة إلى الحد الذى لا تزهق فيها روحه . وكانت هذه العقوبة تطبق على النساء كما تطبق على الرجال . وقد يلقى به في السجن أو يدفع به إلى السفن — وهو ما أوصى فرديناند بأنه أنفع للدولة ، وربما دفع غرامة مادية أو صودرت أمواله . وقد اتهم بعض الموتى بالهرطقة في أحوال متعددة وحوكموا بعد الموت وحكم عليهم بالمصادرة فيفقد الورثة في هذه الحالة ميراثهم . وكان المبلغون عن المراطقة الموتى يمنحون من ٣٠ ٪ إلى ٥٠ ٪ من المتحصل . ودفعت الأسر المفزعة من هذه المحاكمات ذات الأثر الرجعى للمبلغين في بعض الأحيان « مصالحات » تأميناً لهم من مصادرة ميراثهم فأصبحت الثروة خطراً على صاحبها وإغراء للمبلغين والمفتشين والحكومة . حتى إذا انسابت الأموال في خزائن محكمة التفتيش فإن موظفيها أصبحوا أقل اهتماماً بالمحافظة على العقيدة الصحيحة من الحصول على الذهب وانتشر الفساد انتشاراً مروعاً .

وكانت العقوبة القصوى هي الإحراق في المحرقة . وهي للذين حكم عليهم بأنهم اقترفوا هرطقة عظيمة ، ولم يعترفوا قبل بدء المحاكمة ، ولأولئك الذين اعترفوا في الوقت المناسب وخففت عنهم عقوبتهم أو صفح عنهم ولكنهم ارتدوا إلى الهرطقة . وصرحت محكمة التفتيش نفسها بأنها لم تقدم

على القتل قط ، وقصاراها أنها كانت تسلم المحكوم إليه إلى السلطات المدنية ؛ وقد علمت أن القانون الجنائي يجعل الإحراق في المحرقة نافذاً في جميع العقوبات على الهرطقة الكبيرة أو التي لا توبة عليها . وإن حضور رجال الكهنوت عند المحرقة يدل على مسئولية الكنيسة ، ولم يكن المشهد الخاص بالإيمان هو مجرد الإحراق ، ولكنه الاحتفال المؤثر المروع كله بالنطق بالحكم والتنفيذ . ولم يكن غرضه مقصوداً على ترويع المخالفين في السر ؛ وإنما لتهذيب الشعب كأنما يطلعونهم مقدما على يوم الحساب .

وكان الإجراء في أول أمره بسيطاً فإن الذين يحكم بإعدامهم يقادون إلى الساحة العامة ، وكانوا يوثقون بأربطة على كومة حطب ، بينما يجلس قضاة التفتيش في أبهة على منصة تواجهها ، ويطلب للمرة الأخيرة إلى المحكوم عليه أن يدلى باعترافه ، وتقرأ عليه الأحكام ، وتشعل النيران ، ويبلغ الفزع منتهاه . بيد أن كثرة الإحراق وفقد بعض سلطانها النفسي ، جعل الاحتفال أكثر تعقيداً ورهبة وعني بإظهاره بكل أسباب العناية والنفقة ، التي يتطلبها إخراج مسرحي كبير . وكان يحدد ميعاده كلما أمكن ذلك للاحتفال بالاعتلاء على العرش أو الزواج أو الزيارة من ملك أو ملكة أو أمير أسباني . وكان يدعى موظفو البلديات والحكومة وهيئة محكمة التفتيش والقسس والرهبان المحليون ، بل في الواقع كان يطلب حضورهم : وفي أمسية التنفيذ ينضم هؤلاء الأماثل إلى موكب كئيب يسير في طرق المدينة الرئيسية ليضع صليب محكمة التفتيش الأخضر فوق مذبح الكاتدرائية أو الكنيسة الرئيسية . وتبذل محاولة أخيرة للحصول على اعترافات المحكوم عليهم ، فيستسلم كثيرون منهم . وتخفف أحكامهم إلى السجن فترة من الزمن أو مدى الحياة . وفي الصباح التالي يساق المسجونون وسط الجموع الغفيرة إلى إحدى ساحات المدينة . وفيهم الدجالون والمجدفون في الدين والمضارون[1] والهراطقة والمرتدون . وفي

---

(١) المتزوج من امرأتين .

الأيام المتأخرة كان يساق معهم البروتستانت ، وينتظم الموكب أحياناً دمى تمثل المحكوم عليهم غيابياً أو – صناديق تحمل عظام الذين حكم عليهم بعد الموت . وفى الساحة على مدرج مرتفع أو أكثر ، يجلس قضاة محكمة التفتيش ورجال الدين من قساوسة ورهبان وموظفو المدينة والدولة ، يرأسهم الملك بين حين وآخر . وتذاع عظة ، يؤمر بعدها جميع الحضور بترديد يمين الطاعة لحكام محكمة التفتيش المقدس وعهد ينكر ويحارب الهرطقة بجميع أشكالها وفى كل مكان . ثم يساق المسجونون واحدا بعد واحد ، أمام المحكمة ، وتتلى عليهم الأحكام الخاصة بهم . ويجب علينا ألا نتخيل معارضة باسلة لذلك ، وربما كان كل سجين فى هذه المرحلة مشرفا على التلف الروحى والانهيار البدنى . بل إنه قد ينقذ حياته فى هذه اللحظة بالاعتراف . وفى تلك الحالة تقنع محكمة التفتيش بجلده ومصادرة أمواله وسجنه مدى الحياة . وإذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه ، فإنه يغنم الرحمة بشنقه قبل إحراقه ، ولما كانت الاعترافات فى اللحظة الأخيرة كثيرة ، فقد أصبح إحراق الأحياء نادرا نسبيا ، أما الذين يحكم عليهم بالهرطقة الكبيرة ، وينكرون ذلك إلى النهاية ، يحرمون (وظل ذلك مرعيا إلى عام ١٧٢٥) من الكنيسة المقدسة ، ويتركون برغبة محكمة التفتيش للجحيم الأبدى . أما الذين تخفف أحكامهم فيعادون إلى السجن ، والذين لم تقبل توبتهم فيدفع بهم إلى السلطة المدنية ، مع تحفظ وردع بعدم إراقة دم . ويساقون إلى خارج المدينة وسط حشود تجمعت من مسافات بعيدة للفرجة على هذا المشهد من مشاهد العطلة . حتى إذا وصلوا إلى مكان التنفيذ شنق المعترفون ثم أحرقوا بينما يحرق المعاندون أحياء . وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير العظام رمادا ، ينتثر على الحقول والجداول . ثم يعود القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين ، بأن قربانا قدم استعطافا لإله غاضب من الهرطقة . وهكذا أعيد القربان البشرى .

٥ ـ تقدم محكمة التفتيش (١٤٨٠ — ١٥١٦)

عين فرديناند وإيزابلا القضاة الأوائل لمحكمة التفتيش فى سبتمبر من عام ١٤٨٠ ، لمنطقة إشبيلية . ففر كثيرون من الإشبيليين المتنصرين إلى الريف ، وبحثوا عن الملجأ الأمين عند السادة الإقطاعيين ، وكانت عند أولئك رغبة فى حمايتهم ، ولكن قضاة التفتيش هددوا البارونات بالحرمان من غفران الكنيسة ومصادرة الأموال ، فما كان منهم إلا أن سلموا اللاجئين ، أما فى المدينة نفسها فقد دبر بعض المتنصرين المقاومة المسلحة ولكن التدبير أفشى ، وقبض على الضالعين فى هذا التدبير وسرعان ما امتلأت السجون . وتبعت ذلك محاكمات متعجلة غضوب ، واحتفل بأول محرقة أثمرتها محكمة التفتيش الإسبانية فى السادس من فبراير لعام ١٤٨١ بإحراق ستة من الرجال والنساء . وما أن جاء الرابع من نوفمبر للعام نفسه ، حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصاً .

وفى عام ١٤٨٣ عين البابا أسكستوس الرابع بترشيح وطلب من فرديناند وإيزابلا ، راهباً دومينيكيا ، هو توماس ده توركيمادا ، مفتشاً عاماً لإسبانيا بأسرها ، وكان مؤمناً متعصباً لا يتطرق الفساد إليه ، يحتقر الترف ويعمل بحماسة شديدة ويحتفل بفرصته السانحة ليخدم المسيح بتصيد المراطقة وكان يؤنب قضاة التفتيش على التساهل ، ونقض كثيراً من أحكام البراءة وطالب الربانيين فى طليطلة مهدداً إياهم بالموت أن يبلغوا عن الذين ارتدوا إلى اليهودية . وفزع البابا اسكندر السادس من قسوته ، وهو الذى سبق أن مدحه على أخلاقه لعمله ، فأمره (١٤٩٤) أن يشرك فى سلطته مفتشين عامين آخرين . وتجاوز توركيمادا هذين الزميلين ؛ واحتفظ برآسة حازمة عليهما . وجعل محكمة التفتيش حكومة فى داخل الحكومة تضارع سلطة الملوك . وأحرقت محكمة التفتيش فى سوداد ريال بدافع منه فى سنتين (١٤٨٣ — ٨٤) اثنين وخمسين شخصاً وصادرت أموال مائتين وعشرين شريداً

وعاقبت مائة وثلاثة وثمانين تائباً . وفى مدى سنة واحدة من نقل المفتشين لمقرهم الرئيسى إلى طليطلة قبضوا على سبعمائة وخمسين يهودياً متنصراً وصادروا خمس أموالهم ، وحكموا عليهم بأن يسيروا فى مواكب حاشدة فى ستة أيام جمعة ، يضربون أنفسهم بسياط من القنب ، وفى هذه السنة (١٤٨٦) أقيمت محرقتان أخريان وأحرقت رفات ألف وستمائة وخمسين تائباً . وبذلت جهود مماثلة فى بلد الوليد ووادى لوب وغيرهما من مدن قشتالة .

وقاومت أراجون محكمة التفتيش بشجاعة يائسة . فقد أغلق حكام تيرول أبواب المدينة فى وجه المفتشين . فما كان من هؤلاء إلا أن أصدروا قرار الحرمان على سكانها وأوقف فرديناند مرتبات موظفى المجلس البلدى ، وسير جيشاً يكره الأهلين على الطاعة ، أما الفلاحون المجاورون الذين كانوا على عداء دائم للمدينة ، فقد هرعوا يؤيدون محكمة التفتيش ، التى وعدتهم بالإعفاء من جميع الإيجارات والديون التى عليهم لأشخاص المتهمين بالهرطقة . واستسلمت مدينة تيرول وأعطى فرديناند المفتشين سلطة نفى كل شخص يشكون فى أنه اشترك فى المقاومة ، وفى سرقوسة انضم إخوة المسيحيين القدماء إلى الإخوة « المسيحيين الجدد » فى الاحتجاج على دخول محكمة التفتيش مدينتهم ، ومع ذلك فلما أقيمت محكمة التفتيش هناك اغتال بعض المتنصرين أحد رجالها (١٤٨٥) وكان ذلك خطأ مهلكاً ، لأن الأهلين المفزعين احتشدوا فى الطرقات صائحين « احرقوا المتنصرين » وسكن كبير الأساقفة من روع الغوغاء بأن وعد بالمحاكمة السريعة . وقبض على جميع المتآمرين تقريباً وأعدموا ، وقفز أحدهم ليلقى مصرعه من البرج الذى سجن فيه ؛ وحطم آخر مصباحاً من الزجاج وابتلع شظاياه ، ثم وجد ميتاً فى محبسه . ورفض مجلس الكورتيس فى بلنسية ، السماح للمفتشين بمزاولة عملهم ، فأمر فرديناند بالقبض على كل من يحول بينهم وبين أداء مهمتهم ، واستسلمت بلنسية . وخنق الملك تأييداً للتفتيش الحريات التقليدية لأرجون ، الواحدة

بعد الأخرى ؛ وأثبت اتحاد الكنيسة مع الملكية ، بقرارات الحرمان والجيوش الملكية ، بأنه أقوى من أن تقاومه مدينة أو ولاية بمفردها . وحددت فى بلنسية وحدها عام ١٤٨٨ تسعمائة وثلاثة وثمانون حكماً بالهرطقة وأحرق مائة رجل .

فكيف نظر البابوات إلى اصطناع محاكم التفتيش كأداة من أدوات الدولة ليس من شك فى أن عدداً من البابوات قد حاولوا أن يوقفوا مثل هذا الإفراط وأن يبسطوا حمايتهم على ضحايا التفتيش بين حين وآخر ، منكرين هذا التحكم المدنى ؛ ومدفوعين فى الغالب بالعواطف الإنسانية مع إدراكهم للمصاريف الباهظة التى تدفع للتصديق على أحكام محكمة التفتيش . فقد أصدر البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٢ منشوراً بابوياً لو نفذ لوضع حداً لمحكمة التفتيش فى أراجون ؛ وشكا فيه من أن المفتشين يبدون طمعا فى الحصول على الذهب أكبر من الإخلاص للدين ، وأنهم سجنوا وعذبوا وأحرقوا مسيحيين مؤمنين بشهادة مريبة من أعدائهم وعبيدهم وأمر بأن على المفتش فى المستقبل ألا يباشر مهمته إلا بحضور بعض ممثلى الأسقف المحلى والحصول على موافقتهم ؛ وأن يعلن المتهمون بأسماء الذين اتهموهم واتهاماتهم ولا يبيت المسجونون إلا فى سجون الكنيسة ؛ وأن يسمح للشاكين فى الظلم الواقع عليهم أن يقدموا ظلاماتهم إلى السدة الأسقفية المقدسة ، وأن يؤجل كل تصرف فى القضية حتى يحكم فى الاستئناف ، وأن يحصل جميع المتهمين بالهرطقة ، على حكم البراءة إذا اعترفوا وتابوا ؛ وبذلك يصبحون فى حل من المحاكمة والاضطهاد بسبب هذه التهمة . وكل الإجراءات السابقة المناقضة لهذا المرسوم تعد باطلة وملغاة ، وكل من يخرج على هذه القواعد فى المستقبل يكون عرضة للحرمان من غفران الكنيسة . لقد كان مرسوما متنوراً وأحكامه توحى بصدقه ومع ذلك فيجب أن نلاحظ اقتصاره على أراجون التى أنفق المتنصرون فيها بسخاء فى سبيل الحصول عليه . ولما رفضه فردناند

وقبض على مبلغيه وطالب المفتشين بأن يواصلوا عملهم ، لم يتخذ البابا سكستوس إجراء آخــر ؛ اللهم إلا تعطيله لمفعول قراره بعد ستة أشهر من إصداره .

وأخذ المتنصرون اليائسون يصبون الأموال صبا فى مدينة روما ، مناشدين الحصول على فتاوى شرعية وبراءة من استدعاء محكمة التفتيش لهم أو حكمها عليهم . وقبلت هذه الأموال ، وأعطيت الفتاوى ، بيد أن المفتشين الأسبان الذين يبسط عليهم الملك حمايته جملة تجاهلوها ، وكان البابوات فى حاجة إلى حماية فرديناند وإلى المنحة الأسبانية السنوية ، فلم يصروا على تلك الفتاوى ، وكان المال يدفع فى سبيل الحصول على قرار بالعفو فيصار ثم يسحب بعد ذلك . وعمل البابوات بين حين وآخر على تأكيد سلطتهم مستدعين المفتشين إلى روما للرد على اتهامات وجهت إليهم بسوء السلوك وحاول إسكندر السادس أن يخفف من قسوة المحكمة . وأمر يوليوس الثانى بمحاكمة المفتش لوسيرو على سوء استعماله لسلطته ، وأصدر قرار الحرمان على مفتش طليطلة . ومع ذلك فقد عد ليو المهذب العالم ، القول بعدم إحراق الهراطقة ، من الهرطقة التى تستوجب اللوم .

كيف كان موقف الشعب الأسبانى من محكمة التفتيش ؟ لقد عارضتها الطبقات العليا والإقليمية المتعلمة معارضة ضعيفة ، أما عامة المسيحيين فقد أيدوها عادة . وأظهرت الجماهير التى احتشدت عند المحرقة تعاطفا واهنا ، وأبدوا دائما عداوة فعالة للضحايا ، وحاولوا فى بعض الأماكن قتلهم حتى لا ينجيهم اعترافهم من المحرقة . وتجمع المسيحيون لابتياع أمتعة المحكوم عليهم المصادرة بالمزاد .

كم بلغت كثرة الضحايا ؟ قدر ليورنت[١] بأنهم بلغوا بين عامى

---

(١) جوان أنطونيو ليورنت ، قسيس إسبانى ، كان أمينا عاما لمحكمة التفتيش فى سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٠١ وانتدبه يوسف بونابرت عام ١٨٠٩ لفحص محفوظات محكمة التفتيش وكتابة تاريخها . وقد ترك إسبانيا مع الفرنسيين المنسحبين ونشر تاريخه عن محكمة التفتيش فى باريس عام ١٨١٧ .

١٤٨٠ و ١٤٨٨ ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، وستة وتسعين ألفا وأربعمائة وتسعين عوقبوا ، وبين عامى ١٤٨٠ — ١٥٠٨ بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة واثنى عشر أحرقوا ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة ، وكانت هذه الأرقام فى معظمها تخمينية . ويرفضها اليوم بصفة عامة المؤرخون البروتستنت ويعدونها تطرفا فى المبالغة . ويذهب مؤرخ كاثوليكى إلى أنه قد أحرق ألفان بين عامى ١٤٨٠ و١٥٠٤ ، وألفان آخران حتى سنة ١٧٥٨ . وأحصى كاتب سر ايزابلا واسمه هرناندو ده بولجر عدد الذين أحرقوا ، بألفين قبل عام ١٤٩٠ وفاخر ذوريتا أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف فى إشبيلية وحدها وكانت هناك ضحايا فى معظم المدن الأسبانية ، بل فى الإمارات التابعة لأسبانيا مثل البليار وسردينيا وصقلية والأراضى الواطئة وأمريكا .

ونقص معدل الإحراق بعد عام ١٥٠٠ . ولا تصور الإحصائيات أيا كانت الفزع الذى عاش فيه العقل الأسبانى فى تلك الأيام والليالى . فقد كان على الرجال والنساء حتى فى ستر منازلهم ، أن يرقبوا كل كلمة يتلفظون بها حتى لا يؤدى بهم نقد عارض إلى سجن محكمة التفتيش . لقد كان ضغطا عقليا لا نظير له فى التاريخ .

هل نجحت محكمة التفتيش ؟ نعم ، نجحت فى تحقيق غرضها الذى أعلن عنه ، وهو تخليص أسبانيا من الهرطقة الصريحة . فإن الفكرة القائلة بأن اضطهاد المعتقدات لا تأثير له أبداً ، ضلال ، فقــد سحق الألبيجيزيين والهيجونوت فى فرنسا ، والكاثوليك فى انجلترا فى عهد اليزابث والمسيحيين فى اليابان — وانتزعت ، فى القرن السادس عشر ، الجماعات الصغيرة التى عطفت على البروتستانتية فى أسبانيا . ولعلها قوت من ناحية أخرى البروتستانتية فى ألمانيا واسكنديناوه وانجلترا بإثارة خوف قتال فى نفوس شعوبها ، مما قد يحيق بهم ، إذا أعيدت الكاثوليكية .

ومن العسير أن نقدر نصيب محكمة التفتيش فى القضاء على الفترة المزدهرة من تاريخ أسبانيا ، الواقعة بين كولومبس وفيلاسكيه (١٤٩٢ — ١٦٦٠) وبلغت هذه الفترة أوجها بمجيء سرفانتس (١٥٤٧ — ١٦١٦) لوب ده فيجا (١٥٦٢ — ١٦٣٥) وذلك بعد انتشار محاكم التفتيش فى أسبانيا بمائة عام . ولقد كانت محكمة التفتيش نتيجة كما كانت سبباً لقوة المذهب الكاثوليكى ، وسيطرته على الشعب الإسبانى ، وإن هذه الحالة الدينية ، قد نمت خلال قرون فى الصراع ، ضد المسلمين : ولعل انحلال اسبانيا من جراء حروب شارل الخامس وفيليب الثانى وضعف الاقتصاد الاسبانى بفضل انتصارات بريطانيا فى البحر والسياسة التجارية للحكومة الأسرعية ، كان أشد تأثيراً فى اضمحلال اسبانيا من أهوال محكمة التفتيش. ولقد أظهر الحكم بإعدام العرافين فى أوربا الشمالية ونيوانجلند نزوعا فى الشعوب البروتستانتية قريباً لما فى محكمة التفتيش الاسبانية . ومن العجيب أن نقول إن محكمة التفتيش الاسبانية قد عاملت العرافة بتعقل وعدتها وهما يستحق الإشفاق والعلاج لا العقاب . ولم تكن محكمة التفتيش وإحراق العرافين سوى تعابير عن عصر مصاب بالإيمان ، الباعث على القتل . لفرط ثقته بعلوم الدين ، كما تعود بعض أسباب المذابح الوطنية فى عصرنا إلى الإيمان . الباعث على القتل ، بنظرية عنصرية أو سياسية . ويجب علينا أن نحاول نفهم مثل هذه الحركات بمصطلحات زمانها ، ولكنها تبدت لنا الآن أكبر جريمة لا تغتفر من الجرائم التاريخية . ذلك لأن عقيدة سائدة لا تنازع عدو ومهلك للعقل الإنسانى .

٦ — هجرة إسرائيل

كان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع المسيحيين المحدثين والقدامى على السواء ليتمسكوا بالسنة الظاهرة على الأقل ، على أمل أن يقضى على الهرطقة فى مهدها وأن الجيل الثانى أو الثالث من اليهود المعمدين سوف

ينسون يهودية أسـلافهم . ولم تكن هناك نية للسماح لليهود المعمدين أن يرحلوا عن اسبانيا ، فلما حاولوا الهجرة حرمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ولكن ماذا كان مصير اليهود غير المعمدين ؟ لقد ظل حوالى مائتين وخمسة وثلاثين ألفاً منهم فى اسبانيا المسيحية . فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة ، إذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها ؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك ، وأوصى بإكراههم على التنصر أو نفيهم .

فتردد فرديناند . ذلك أنه كان يعرف القيمة الاقتصادية لقدرة العبرانيين فى التجارة والمالية . ولكنه أخبر أن اليهود عنفوا المتنصرين منهم، وحاولوا أن يعيدوهم إلى اليهودية ، بشرط واحد هو أن يكون ذلك سراً . واتهم طبيبه رباس ألتس ، وهو يهـودى معمد ، بأنه علق فى رقبته كرة ذهبية تحتوى على صورة له على هيئة فيها تنجيس الصليب ، ويبدو أن التهمة غير صحيحة ولكن هذا الطبيب أحرق (١٤٨٨) . وزيفت رسائل نصح فيها زعيم يهودى فى القسطنطينية ، رئيس الجماعة اليهودية فى أسبانيا بأن يسرق ويدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقبض على متنصر بتهمة وجود رقاقة مقدسة فى جعبته ، وعذب مراراً فتكراراً حتى وقع على عبارة مفادها أن ستة من المتنصرين ومثلهم من اليهود قتلوا طفلا مسيحياً ، ليستعملوا قلبه فى شعيرة سحرية ، دبرت لتؤدى إلى هلاك جميع المسيحيين والقضاء الكامل على المسيحية . وكانت اعترافات الرجل المعذب يناقض أحدها الآخر ولم يبلغ عن فقد طفل من الأطفال ، ومع ذلك أحرق أربعة من اليهود ، بعد أن انتزع لحم اثنين منهم بوساطة كلابة متوهجة وربما أثرت هذه الاتهامات وأمثالها فى نفس فرديناند، ومهما يكن من شىء فقد مهدت لرأى عام يطلب إجلاء اليهود غير المعمدين عن أسبانيا . ولم تعد المساهمة الاقتصادية لليهود حيوية بعد أن استسلمت غرناطة (٥ نوفمبر ١٤٩١)

وانتقل النشاط التجارى والصناعى من المسلمين إلى أسبانيا المسيحية . وجعل التعصب الشعبى الذى تلهبه المحرقة وعظات الرهبان ، السلام الاجتماعى مستحيلا ، إلا إذا قامت الحكومة بحماية اليهود أو طردهم .

وفى ٣٠ مارس ١٤٩٢ — وهى سنة مزدحمة بالأحداث فى تاريخ أسبانيا وقع فرديناند وايزابلا مرسوم نفى اليهود . ومؤداه أن جميع اليهود غير المعمدين ، أيا كانت أعمارهم أو أحوالهم ، عليهم أن يتركوا أسبانيا فى موعد غايته ٣١ يوليه ، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الإعدام ، ولهم أن يتخلصوا من متاعهم فى هذه الفترة القصيرة بأى ثمن يحصلون عليه ولهم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة . وقدم أبراهام سنيور وإسحاق ابرابانل ، للملكين مبلغاً كبيراً من المال ليسحبا مرسومهما ولكنهما رفضا . ولم يقم اتهام ملكى على اليهود سوى رغبتهم فى إغراء المتنصرين للارتداد إلى اليهودية . وصدر ملحق لذلك المرسوم ، يجعل الضريبة إلى آخر العام يجب أن تجبى على جميع أملاك اليهود ومبيعاتهم . أما الديون المستحقة على المسيحيين والمسلمين فلا تدفع إلا عند بلوغ سن الرشد ، عن طريق العملاء الذين يستطيع المنفيون العثور عليهم ، أو تحل هذه المطالب بخصم لمشترين مسيحيين . وهكذا انتقلت أموال اليهود فى هذه المدة الإجبارية القصيرة إلى أيدى المسيحيين بجزء ضئيل من قيمتها . فكانت الدار تباع فى مقابل حمار والكرمة فى مقابل قطعة من القماش . وأحرق بعض اليهود فى نوبة يأس منازلهم « أليجمعوا قيمة للتأمين عليها ؟ » وتنازل بعضهم الآخر عنها للمجلس البلدى . ووضع المسيحيون أيديهم على المعابد وحولوها إلى كنائس . وتحولت مدافن اليهود إلى مراع . وذاب فى شهور قليلة ، الجانب الأكبر من ثروات اليهود الأسبان ، التى كدسوها خلال قرون . وقبل خمسون ألف يهودى تقريبا التنصر ، وسمح لهم بالبقاء ، وترك أسبانيا أكثر من مائة ألف فى موكب خروج طويل كئيب .

وقبل رحيلهم زوجوا جميع أطفالهم الذين فوق الثانية عشرة . وساعد الصغار الكبار ، وأعان الأغنياء الفقراء . وسار الحجيج على متون الخيل أو الحمير وفى العربات أو على الأقدام . وناشد المسيحيون الطيبون — من رجال دين ودنيا — المنفيين عند كل منعطف أن يذعنوا للتعميد . فقابل الربانيون ذلك بأن أكدوا لأشياعهم بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبرا فى البحر كما فعل لآبائهم فى القديم . وانتظر المهاجرون الذين أجمعوا فى قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى إفريقيا دون أن تبتل أقدامهم . فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن وفرقت العواصف أسطولهم الذى كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، وردت ست عشر منها إلى أسبانيا حيث آثر الكثيرون من اليهود اليائسين التعميد على دوار البحر . وتحطمت السفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية ، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقاً . ولم يجد الآلاف الذين أبحروا من جبل طارق ومالقة وبلنسية أو برشلونة فى العالم المسيحى بأسره إلا إيطاليا الراغبة فى استقبالهم بدافع إنسانى .

وكانت البرتغال أكثر الأهداف ملاءمة للمهاجرين . فقد وجدت فيها من قبل جماعة كبيرة من اليهود ، وبلغ بعضهم مكانة من الثراء والمركز السياسى فى كنف ملوك لا يضمرون لهم عداوة . ولكن جون الثانى أفزعه عدد اليهود الإسبان — ربما بلغوا ثمانين ألفا — الذين تدفقوا عليها . فمنحهم مهلة ثمانية أشهر ، عليهم أن يرحلوا بعدها . وتفشى بينهم الطاعون وانتشر منهم إلى المسيحيين . الذين طالبوا بإجلائهم فوراً . فيسر جون خروج اليهود المهاجرين بأن هيأ لهم سفنا بأجور زهيدة ، بيد أن الذين اعتصموا منهم بهذه السفن ، تعرضوا للسرقة والاغتصاب ، وألقى بكثيرين على شواطئ غير مأهولة وتركوا للموت جوعاً أو ليسبيهم المسلمون ويبيعونهم . وهام مائتان وخمسون يهودياً على ظهر سفينة فى البحر أربعة

أشهر ؛ ترفض ميناء بعد ميناء نزولهم ، لأن الطاعون لما يزل متفشيا بينهم . واعتقل قرصان بسكاى إحدى السفن ونهبوا ركابها ثم استاقوا السفينة إلى مالقة ، حيث خير القسس والحكام اليهود بين التعميدأ و الموت جوعا . وبعد أن مات خمسون منهم زودت الساطات الباقين بالخبز والماء وطالبتهم بالإبحار إلى إفريقيا .

وما أن انتهت مهلة الثمانية أشهر ، حتى باع جون الثانى بيع الرقيق ، أولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا فى البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشأوا تنشئة مسيحية . ولما ذهبت التوسلات إلى منفذى المرسوم عبثا ، فقد آثرت بعض الأمهات إغراق انفسهن وأطفالهن، على تحمل آلام فراقهم، ومنحهمخليفة جون واسمه مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها أنفاسهم ، فقد حرر اولئك الذين استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهماء على اليهود ،وأمر محاكمه أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا أطفال المسيحيين باعتبارها حكايات خبيثة . ولكن مانويل خطب ايزابلا فى الوقت نفسه ، وهى ابنة فرديناند وايزابلا ووريثتهما، حالما أن يوحد العرشين فى فراش واحد ووافق الملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفى من البرتغال جميع اليهود غير المعمّدين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين . وخضع مانويل لهذا الشرط ، مؤثرا الجاه على الشرف وأمر جميع اليهود والمسلمين فى مماكته أن يتنصروا أو يطردوا من البلاد (١٤٩٦) . ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت التنصر، وكره أن تباد المهن والصناعات التى تفوق فيها اليهود أمر جميع الأطفال اليهود دون الخامسة عشرة، أن يفصلوا عن آبائهم وينصرواكرها . وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الإجراء ، ولكنه نفذ . فقد روى أحد الأساقفة « لقد رأيت أطفالا كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد من شعورهم » . واحتج بعض اليهود على ذلك بوأد أطفالهم ثم قتل أنفسهم ،

وأصبح ما نويل شرساً ، فعطل خروج اليهود ، ثم أمرهم بأن ينصروا كرها . فسحلوا إلى الكنائس ، الرجال من لحاهم والنساء من شعورهن ، وقتل كثيرون منهم نفسه فى الطريق وأرسل المتنصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا إسكندر السادس يرجون توسطه ولا يعرف رده ، ولعله كان فى مصلحتهم ، لأن مانويل منح إذ ذاك (مايو ١٤٩١) جميع المتنصرين كرها إذنا رسمياً مدته عشرون سنة لا يقدمون أثناءها إلى أى محكمة بتهمة التشيع لليهودية . ولكن مسيحيي البرتغال رفضوا منافسة اليهود معمدين وغير معمدين ، فإذا جادل يهودى فى معجزة تنسب إلى كنيسة فى لشبونه فإن الغوغاء يمزقونه إربا (١٥٠٦) ، وانتشرت المذابح ثلاثة أيام لا يمنعها أحد ، وقتل فيها ألفا يهودى ودفن مئات منهم أحياء . وأنكر المطارنة الكاثوليك هذه السورة من الغضب ، وقتل راهبان دومينيكان حرصا على الشغب . واستتب السلام ، أو كاد ، باستثناء هذه الأحداث مدى جيل من الزمان .

وتم خروج اليهود الرهيب من اسبانيا . بيد أن الوحدة الدينية لم تكن قد تحققت بعد : فقد بقى المسلمون . ذلك أن غرناطة سقطت ، ولكن سكانها المسلمين منحوا الحرية الدينية . وانتدب كبير الأساقفة هرناندو ده تالافيرا ، حاكما على غرناطة . فنفذ الميثاق فى شىء من السرية وحاول أن يستدرج المسلمين إلى التنصير بالرفق والعدل . ولكن اكسيمينيس لم يوافق على مثل هذا الاعتناق للمسيحية . فألح على الملكة ، بأن العهد لا يحافظ عليه مع الكافرين ، وأقنعها بأن تصدر مرسوماً (١٤٩٩) يخير المسلمين بين الدخول فى المسيحية وبين مغادرة اسبانيا . وذهب بنفسه إلى غرناطة ، وتسلط على طلبيرة وأغلق المساجد ، ونصب المحارق العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية التى وصلت إليها يده ، وأشرف

على التنصير الإجبارى بالجملة . وكان المسلمون يمسحون الماء المقدس عن أطفالهم عندما يبتعدون عن عين القسيس ونشبت الثورات فى المدينة والولاية ، وسحقت . وخير جميع المسلمين فى قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكى صدر فى الثانى عشر من فبراير لعام ١٥٠٢ بين الدخول فى المسيحية ومغادرة البلاد وأعطوا لذلك مهلة غايتها آخر إبريل من العام نفسه . واحتج المسلمون بأن أسلافهم عند ما حكموا معظم اسبانيا ، فإنهم سمحوا بالحرية الدينية ، إلا فى القليل النادر ، للمسيحيين الذين تحت سلطانهم ، ولكن الملكين لم يتأثرا بهذا الاحتجاج وحرم على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا اسبانيا مع آبائهم وسمح للأمراء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بأرقائهم المسلمين على أن يوضعوا فى الأغلال . ورحل الألوف ، أما الباقون فقبلوا أن ينصروا بفلسفة أكبر مما فعل اليهود وتعرضوا باعتبارهم عربا موريسكيين "moriscos" محل اليهود المعمدين لتحمل عقوبات محكمة التفتيش على عودتهم إلى ديانتهم السابقة وترك اسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتظاهرين بالمسيحية ووصف الكاردينال ريشليه مرسوم عام ١٥٠٢ بأنه « أكبر حدث همجى فى التاريخ » ، بيد أن الراهب بليدا رآه « أمجد حادث فى اسبانيا منذ عهد الرسل » . واستطرد قائلا : « الآن أصبحت الوحدة الدينية فى مأمن ، وأوشك عهد من الازدهار أن يبزغ » .

وفقدت اسبانيا كنزاً لا يقدر بخروج التجار وأصحاب المهن والدارسين والأطباء والعلماء من اليهود والمسلمين ، وأفادت الأمم التى تلقتهم من الناحيتين الاقتصادية والفكرية . ولما لم يعد يعرف الشعب الإسبانى منذ ذاك غير ديانة واحدة ، فقد أذعن تماماً لرجال الدين وتنازل عن كل حق له

فى التفكير إلا فى حدود العقيدة التقليدية . وآثرت اسبانيا أن تحتفظ بطابع القرون الوسطى ، وسيان كان ذلك لخيرها أو لشرها ، فى حين اندفعت أوربا نحو التقدم العصرى بفضل الثورات التجارية والطبوغرافية والفكرية والبرتستانتينية .

٧ ـ الفن الإسبانى

لقد عبرت العمارة الإسبانية المتشبثة بالطراز القوطى تعبيراً قوياً عن ذلك الطابع المكين للقرون الوسطى . ولم يسخط الشعب على المرويدات[١] التى أعانت ضمير الملوك والنبلاء على إنفاق المال أو السياسة الدينية ، لبناء الكتدرائيات الضخام كما دفعت إلى الإسراف فى الزينة باهظة النفقة والنحت والتصوير الرائعين على القديسين الأثيرين لديهم وعبادة أم الرب بكل مشاعرهم . وأقيمت كتدرائية برشلونة فى بطء بين عامى ١٢٩٨ ، ١٤٤٨ : وبين فوضى الطرق الضيقة ترتفع أعمدتها الساحقة وبابها الذى لا مزية له وصحنها المنيف بينما لا تزال أروقتها ذوات النوافذ الكثيرة تصلح ملجأ يعتصم الناس فيه من جهاد النهار . ومدت بلنسية وطليطلة وبرجوس وبرغشت ولاردة وطراكونة وسرقسطة وليون أو زينت معابدها التى كانت موجودة من قبل ، بينما أقيمت معابد جديدة فى وشقة وبمبلونة التى تعد أروقتها من الرخام الأبيض ، ذوات النقش الرشيق ، تعد فى جمال أبهاء الحمراء . وفى عام ١٤٠١ قررت هيئة الكتدرائية فى إشبيلية أن تشيد كنيسة تبلغ من العظمة والجمال حداً يجعل الذين يشاهدونها فى الأجيال المقبلة يرون أننا مجانين لإقامتها . » فأزال المعماريون المسجد المتهالك الذى يقوم على المكان المختار لبناء الكنيسة ولكنهم أبقوا على أسسه ، وعلى تخطيطه ومئذنته

---

(١) المرويدات جمع مرويدة ، وهى عملة إسبانية تساوى ربع بنس إنجليزى فإذا كانت ذهبية بلغت قيمتها ١٤ شلنا .

الجيرالدا ، البديعة . وظلوا يضعون حجراً فوق حجر طوال القرن الخامس عشر حتى أكملت إشبيلية تشييد أكبر بناء قوطي في العالم[1] ، وقال عنها تيوفيل جوتييه : « إن كنيسة نوتردام في باريس قد تسير منتصبة القامة في صحنها . » ومع ذلك فإن نوتردام كاملة ، وكتدرائية إشبيلية فسيحة . وعمل سبعة وستون نحاتاً وثمانية وثلاثون مصوراً من موريللو إلى جويا ، على تزيين هذا الكهف العظيم للآلهة .

واقترح المعماري جويللوموبو في حوالي عام ١٤١٠ على هيئة كنيسة جيرونا أن يزيل الأعمدة والعقود ، التي تقسم داخلها إلى صحن ممرات ، وأن يوحد الجدران بعقد واحد عرضه ثلاثة وسبعون قدما . ونفذ ذلك ، وهكذا أصبح لصحن كتدرائية جيرونا أعرض عقد قوطي في العالم المسيحي . وكانت نصراً للهندسة وهزيمة للفن . وشيدت أضرحة لم تبلغ هذه الضخامة إبان القرن الخامس عشر في بربنيان ومانريزه واسترقة وبلد الوليد . وتوجت شقوبية عمارتها بتشييد كتدرائية على شكل حصن عام ١٤٧٢ ، وأتمت سجيونزا أروقتها المشهورة عام ١٥٠٧ ، وبدأت سلمنقة في إقامة مزارها الجديد عام ١٥١٣ وترتفع في كل مدينة كبيرة في أسبانيا ، ما عدا مدريد ، كتدرائية تبدو من الخارج بناية ضخمة في جلال رائع وداخلها يسترحم الشمس بظلامه الدامس ويروع النفس بالتقوى ، ومع ذلك تبدو زاهية بالألوان الناصعة التي يتسم بها فن التصوير الأسباني ، وبتماثيلها الملونة وبريق الجواهر والفضة والذهب . وهذه هي دور الروح الاسباني ، الخاضع في خوف المتكبر في وحشية .

وعلى الرغم من هذا كله وجد الملوك والنبلاء كما وجدت المدن ،

---

(١) على مساحة مقدارها ١٢٥ ألف قدم مربع ، وكتدرائية القديس بطرس على مساحة تبلغ ٢٣٠ ألف ، ومساحة مسجد قرطبة ٦٠٠ ألف .

الأموال لتشييد القصور الباهظة . وكان بطرس الغشوم وفرديناند وايزابلا وشارل الخامس يعيدون تشكيل القصر "Alcazar" الذى صممه معمارى مسلم فى إشبيلية عام ١١٨١ ، وقام بمعظم الترميم مسلمون من غرناطة حتى ليبدو البناء أخا ضعيفا للحمراء . ولقد شيد دون بدرو انرنيكز على طراز إسلامى مشابه ، لأمراء القلعة "Alcala" فى إشبيلية (١٥٠٠) قصراً منيفا ، وهو قصر بيلاطس وكأنما يكرر الدار التى يقال أن بيلاطس ، أسلم من بابه المسيح للصلب ولقد زود ديوان بلنسية (١٥٠٠) للبلاط المحلى بصالون دوراد وينافس فى فخامته سالا دل ماجيور كونسيجليو ، فى قصر الدوج فى البندقية .

وكان فن النحت لا يزال خادما للعمارة والعقيدة ، يزحم الكنائس الاسبانية بتماثيل العذراء من المرمر أو المعدن أو الحجر أو الخشب ، وهنا نجد التقوى تتجسم فى أشكال دينية صارخة ، أو زهدية جافية ، يذكيها اللون ويضاعف من إثارتها للروع كآبة صحونها . ويفاخر الفن الأسبانى خاصة بالحواجز المنقوشة والملونة المقامة خلف منضدة المذبح ، وأنفقت مبالغ طائلة اغتصبت تحت وطأة التهديد بالموت ، لجمع أحذق الصناع — والاحتفاظ بالمصممين والنقاشين والنحاتين والدورادور الذين يذهبون أو يدمشقون[1] السطوح والاستوفادور الذين يصبغون الثياب والحلى والانكارنادور الذين يلونون الأجزاء التى تحكى اللحم ، وعمل الجميع معا أو بالتناوب فى الضريح. وخلف المذبح الرئيسى لكتدرائية إشبيلية حاجز يتألف من خمسة وأربعين قسما (١٤٨٣ — ١٥١٩) — ويصور الأساطير المحببة ، فى تماثيل ملونة أو مذهبة على الطراز القوطى المتأخر ، بينما يعرض حاجز آخر فى كنيسة القديس سانت جيمس فى كتدرائية طليطلة فى خشب شربين مذهب وبواقعية متجهمة سيرة أكبر قديس أسبانيا تمجيداً .

---

(١) يدمشقون يزخرفون بزخارف دمشقية .

وقد يمثل الأمراء والمطارنة فى فن النحت ؛ ولا يكون ذلك إلا على قبورهم التى توضع فى الكنائس أو للأديرة التى تعد المداخل إلى الجنة وعلى هذا النحو دفنت دونا منسيا أريكيز ، دوقة البوكرك فى حدث منقور نقرا جميلا ، وهو الآن موجود فى متحف الجمعية الأسبانية فى نيويورك ، وحفر يابلو أرتيز لكتدرائية طليطلة ، تابوتين فخمين لدون الفاروده لونا وزوجته . وصمم جيل ده سيلوى فى دير ميرا فلورس الكارثوسى بالقرب من برغشت ، مدفنا فخما على الطراز الإيطالى لوالدى الملكة وأخوتها . وبلغ من ابتهاج إيزابلا بهذه المدافن الشهيرة للرفات الملكية إنها عندما علمت بمصرع وصيفها ، جوان ده باديلا (الذى كان شجاعاً فى استهتار حتى أطلقت عليه « معتوهى ») بإصابة فى رأسه إبان حصار غرناطة ، كلفت ده سيلوى ، أن ينقر مدفنا ملكيا لضم رفاته ، ونافس جيل مرة أخرى أحسن ما فى فن النحت الإيطالى فى عصره .

وليس هناك فن أكثر تميزاً من الفن الاسبانى ، ومع ذلك فليس بينها ما أسلم للتأثير الأجنبى بخشوع مثله . وخضع أول أمره ، بطبيعة الحال ، للتأثير الإسلامى ، الذى استقر طويلا فى شبه الجزيرة ، وإن استمد جذوره من العراق وفارس وأدخلت فى الطراز الأيبيرى ، دقة فى الصناعة ، وكلفا بالزينة قلما تضارع فى أى بقعة من بقاع العالم المسيحى . أما فى الفنون الصغرى ، حيث يحتل الزخرف المكان الأكبر ، فإن اسبانيا قلدت فيها أساتذتها العرب ولم تتفوق عليهم فيها قط . فترك الخزف بأكمله للمدجنين ، الذين لم يضارعهم فى لمعان آثارهم سوى الصينيين ، والذين زادت قراميدهم الملونة — وبنوع أخص الزلزلى الأزرق — من أبهة الأرضيات والمذابح والنوافير والجدران والسقوف فى أسبانيا المسيحية . كما أن الحذق الإسلامى نفسه ، قد جعل المنسوجات الاسبانية من المخمل والحرير والمخرم — أدق ما فى العالم المسيحى من نوعه . وهذا الحذق يبدو مرة أخرى فى المصنوعات الجلدية

الاسبانية ، وفى الزخارف العربية « أرابسك » وفى الحواجز المعدنية وفى أوعية السر المقدس الدينية وفى النقش على الخشب الذى تصنع منه الحواجز خلف المذبح ومقاعد الشمامسة والأقبية وتسللت تأثيرات متأخرة من التصوير البيزنطى ثم من فرنسا وبرجنديا والأراضى الواطئة وألمانيا . واستمد النحت والتصوير الاسبانيان واقعيتهما الرائعة من الهولنديين والألمان — وهى الواقعية التى أظهرت رسوم العذراء مخيفة بالقدر الذى يجعل سنها ملائمة لأن تكون أم المصلوب ، على الرغم من رأى ميشيل انجيلو من أن العذرة التى تبتعث الشباب — ولقد انحسرت جميع هذه التأثيرات إبان القرن السادس عشر أمام انتصار الطراز الإيطالى الذى شمل القارة الأوربية .

وسار التصوير الاسبانى فى تطور مماثل ، ولكنه تقدم ببطء ، وربما كان ذلك لأن المسلمين لم يبذلوا فى هذا المجال معاونة أو توجيها . وكانت الصور الجدارية القطلونية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أحط من حيث التصميم ، من الرسوم على جدران كهف التامبرا التى تعود إلى ما قبل التاريخ فى إسبانيا . ومع ذلك فما جاء عام ١٣٠٠ حتى أصبح التصوير الفتنة التى تأخذ بالألباب فى شبه الجزيرة بأسرها ، وصور ألف فنان صوراً جدارية كثيرة ولوحات ضخمة على المذبح ، وقد بقى بعضها مما يرجع إلى عام ١٣٤٥ مدة طويلة أكثر ما يستحق — وفى عام ١٤٢٨ زار جان فان ايك ، إسبانيا وأدخل معه تأثيراً فلمنكيا قويا . وأرسل ملك أرجون بعد ذلك بثلاثة أعوام ، لويس دلو ، ليدرس الفن فى بروجس ، ولما عاد صور لويس صورة مغرقة فى الفلمنكية هى « عذراء مجلس الشورى » . وأخذ المصورون الاسبان منذ ذاك ، وإن ظلوا يفضلون الألوان غير اللامعة ، يغمسون ألوانهم فى الزيت شيئا فشيئا .

وبلغ عصر البدائيين فى التصوير الاسبانى ، ذروته على يد بارتلومة برميجو (المتوفى عام ١٤٩٨) وقد حفر نفسه اسما فى فترة مبكرة عام ١٤٤٧

بصورته سانتو دومنجو المعلقة فى البرادو . أما صورتا : سانتا انجراسيا التى اشتراها متحف جاردنر فى بوسطن ، وسانت ماكايل الموجودة فى مجموعة ليدى ليدلو ، فإنهما جديرتان برفائيل ، الذى جاء بعده بجيل من الزمان . ولكن أحسنها جميعها هى صورة بيتا (١٤٩٠) فى كتدرائية برشلونة : وفيها جيروم أصلع على عينيه نظارات ، ومريم سمراء أسبانية تمسك بابنها الكسيح الهزيل الذى لا حياة فيه ، وفى مهاد الصورة أبراج أورشليم تظللها سماء قريبة ، وإلى اليمين صورة جافية للمنعم الكاهن ديسبلا ، غير مرجل الشعر غير حليق اللحية ، يشبه قاطع طريق تائباً محكوما عليه ، ويوحى تصور برميزو المريض اللإنسانية . وهنا نجد أن الرشاقة الإيطالية تتحول إلى قوة اسبانية ، وتحتفل الواقعية بانتصارها فى الفن الإسبانى .

واستمر التأثير الفلمنكى فى فرناندو جاليجوس ، وأثمر رائعة مذهلة بـ « فارس من جماعة قلعة رباح » ، صورها ميجويل سيبثيوم وهو فلمنكى فى حاشية إيزابلا ، وهى من أجمل صور الأشخاص فى المعرض القومى بواشنطن . ولكن التأثير الإيطالى بدأ مرة أخرى عندما عاد بدرو برجوت إلى اسبانيا بعد تمرس طويل فى إيطاليا . وهناك درس مع بييرو دلافرنشسكا وميلوزودا فورلى ، وتمثل طريقتهما الهادئة فى التظليل . ولما أراد فيديرنجو أمير أربينو ، مصورين يزينون قصره ، اختار جستوس فون جنت وبيرو سبانيولو ، ولما توفى الدوق (١٥٨٢) جلب بدور فن التكليل معه إلى اسبانيا ، ورسم لوحات مذبح مشهورة فى طليطلة وأبلة والصور المنسوبة إليه فى اللوفر والبريرا والرادو ومتحف كليفلند ، فلمَ تؤيد شهرته الحالية ، أباعتباره فيلاسكين الملوك الكاثوليك ؟ ولكنها تبدو فى الرسم والتأليف أعظم من جميع الآثار التى ظهرت فى اسبانيا قبلهم .

وأخذت العوامل الأجنبية تتفاعل ببطء مع العبقرية الوطنية لتمهد الطريق لظهور الآثار الفنيةالناضجة التى قام بها الونزوكواللو والجريكو فى عهد فيليب

الثانى ، وانتصارات فيلاسكيه وزرباران وموريللو فى عصر اسبانيا الذهبى إبان القرن السابع عشر . والعبقرية موهبة فردية من القوة والإرادة . ولكنها فى الوقت نفسه ميراث اجتماعى للنظام والقدرات تشكلت على الأيام وتمثلها النمو والعبقرية تولد وتصنع فى آن واحد .

٨ ـ الأدب الاسبانى

وكان على النفوذ الإيطالى فى الأدب أن يتريث فى الوقت الذى تبادلت فيه أسبانيا التأثير مع فرنسا فى القرون الوسطى . وربما أخذ التروبادور فى برفانس عن أسبانيا الإسلامية والمسيحية ، قوالبهم وأخيلتهم الشعرية ومع ذلك فقد أرسل جون الأول ملك أرجون وفدا إلى شارل الرابع ملك فرنسا (١٣٨٨) يطلب مجىء ـ التروبادور من تولوز إلى برشلونة ، لينشئوا فيها فرعا من فرقتهم ، الحكمة المرحة وتحقق له ذلك وعقدت المطارحات الشعرية فى برشاونة وطرطوشة على النهج البروفانسى ، وشغفت الأقلية المتعلمة فى أرجون وقشتالة بنظم الشعر وإلقائه . وأنشد منشدون جوالون القصائد الغنائية فى الحب أو العقيدة أو ـ الحرب بمصاحبة آلات وترية بسيطة .

وإذا كان الجيل الثانى فقد أيد جون الثانى ملك قشتالة النماذج الشعرية الإيطالية . وانتشرت فى شبه الجزيرة الأيبيرية طرائف النظم الإيطالى وأوزانه عن طريق نابولى وصقلية ، حيث حكم الإسبان ، وعن طريق جامعة بولونيا ، حيث تعلم الشباب الإسبانى مثل آل بورجيا ، ووجد دانتى وبترارك مقلدين لها مشغوفين بهما باللسان القشتالى . وكانت مقطعات الشعراء الإسبان الغنائية تجمع بين وآخر فى دواوين الشعر الغنائى cancioneros ، وهى أناشيد فروسية العاطفة بتراركية الأسلوب . واستورد ماركيز سنتيلانا ـ وهو سياسى وباحث وراعية للأدب وشاعر ـ قالب المقطوعة الغنائية فى إيطاليا ، وسرعان ما صنف تاريخا للأدب . وقلد جوان ده مينا ، دانتى

تقليداً صريحاً فى ملحمة شعرية ، عنوانها « قصر التيه » وقد فعلت الكثير لتجعل اللغة القشتالية لغة أدبية ، مثلما فعلت الكوميديا الإلهية ، للغة الحديثة التسكانية وسبق دون جوان مانويل فى الوقت نفسه بوكاشيو ، فى كتابة حكايات درامية اقتبس شكسبير من إحداها الشخصية التى لا يمكن تصديقها لبتروشيو فى ترويضه النمرة .

وظلت الرومانس تجد لها مدخلا لكل طبقات القراء . وترجمت أماديس داجولا إلى الإسبانية (١٥٠٠) على يد جارسا أردونيه ، الذى أكد لقرائه ، أنه استحدث فى الأصل البرتغالى تنقيحا كبيراً ، وما دامت هذه الترجمة قد ضاعت فنحن لا نستطيع أن نخالفه . أماديس ابن غير شرعى لأميرة بريطانية خيالية ، وقد ألقت به أمها فى البحر . فأنقذه فارس اسكتلندى وصار وصيفا للملكة اسكتلنده . ويترك ليوزيرات ملك إنجلترا ابنته أوريانا التى تبلغ من العمر عشرة أعوام فى البلاط الاسكتلندى ، ليخمد ثورة مغتصب لملكه . وتعين الملكة أماديس الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما وصيفا لاوريانا قائلة « هذا طفل يقوم على خدمتك » . . فأجابت إن هذا يسرها . واحتفظ الطفل بهذه الكلمة فى قلبه ، على نحو لم تفارقه بعد ذلك قط . . . ولم يكل قط ، طوال أيام حياته من خدمتها . وهكذا بقى حبهما مابقيا ، ولكن أماديس الذى لم يعرف مطلقا مدى حبها له ، رأى نفسه جسوراً فى أن يحصر أفكاره فيها وقد أدخل فى اعتباره عظمتها وجمالها ، ولم يجسر قط ، أن يتفوه بكلمة معها وهى أيضا ، وان أحبته من قلبها ، حرصت على ألا تكلمه أكثر مما تكلم غيره ، ولكن عينيها وجدت السلوى العظيمة فى أن تبدى لقلبها أعظم ما تحبه فى الدنيا .

ومن المطمئن أن نعلم أن حبهما قد انتصر بزواجهما ، بعد محن بلغت من الكثرة فى القصة قبل الزواج ، ما بلغته بعد ذلك فى الحياة . وفى هذه الحكاية الطويلة لحظات كثيرة تزخر بالعاطفة وبعضها يتسم بالنبل ، وإذا

كان سرفانتيس ، قد أقسم أن يمحو كل هذا النوع من القصص الخيالى فإنه أبقى هذه باعتبارها أحسنها .

وتعد الرومانس مورداً واحداً من موارد الدراما ، التى انبثقت ببطء من مسرحيات المعجزات والأخلاقيات ، فى صورة الهزليات الشعبية ومسرحيات التنكر الخاصة بالبلاط . وأقدم وقت معلوم فى تاريخ الدراما الاسبانية هو عام ١٩٤٢ ، عندما ظهرت على المسرح المحاورات الدرامية لخوان دل انسينا وسار فرناندو ده روجاس وهو من المتنصرين خطوة أخرى نحو الدراما بتأليفه La Celestina ، « القوادة » (١٤٩٩) وهى قصة تسرد بطولتها فى كل شكل حوار ، وتنقسم إلى اثنين وعشرين فصلا ، وكانت أطول من أن تمثل على المسرح ، بيد أن تشخيصها الحى وحوارها المشرق قد مهدا للكوميديا الإسبانية الإنسانية الكلاسيكية .

وكانت الكنيسة تعمل على تعويق الدراسات وتشجيعها معا . بينما فيينا أخذت محكمة التفتيش تراقب الفكر ، فإن صفوة رجال الدين قد عملوا الكثير من أجل التربية والتعليم . وجلب الإيطاليون من أمثال بيترو مارتيره وانجيرا ، الذى جاء إلى إسبانيا عام ١٤٨٧ ، أخبار الحركة الإنسانية ، كما عاد الأسبان الذين تعلموا فى إيطاليا بعدوى التحمس لها . واستجاب بيتر مارتير لطلب الملكة فافتتح فى بلاطها ، كما فعل الكوبن لشرمان قبل ذلك بسبعة قرون ، مدرسة لتعليم الآداب واللغات الكلاسيكية . ودرست الأميرة جوانا اللاتينية فى جد ومثابرة قبل أن تصاب بالجنون . وكتب بيتر نفسه التواريخ الأولى للكشوف الجغرافية فى أمريكا ، بعنوان « فى أمور المحيطات وفى أمور الكرة الأرضية الجديدة (١٥٠٤)» De rebvs Oceanis et novo orbe والكلمتان الأخيرتان تسايران استعمال فسبوتشى (١٥٠٢ ؟) لهما قبل ذلك لتدل على العالم الجديد .

وأسهم الكاردينال اكسيمنيس ، الذى كان إيمانه صارما حاداً كالصلب فى الحركة الكلاسيكية . وقد أسس عام ١٤٩٩ كلية الدوفنسو ، وفى عام

١٥٠٨ جامعة القلعة . وهناك بدأ ، عام ١٥٠٢ ، تسعة من اللغويين تحت إشرافه بأحد الأعمال الكبيرة للنهضة العلمية ، وهو « الكتاب المقدس[١] بعدة لغات » Biblia polyglotta compluti وهو أول نسخة كاملة للكتب المقدسة المسيحية باللغات الأصلية . ولقد أضاف الناشرون إلى النص العبرى الماسوريتى للعهد القديم والنص اليونانى للعهد الجديد ، على عمود متقابل أو تعليق ، الترجمة اليونانية وترجمة جيروم للاتينية وشرحا سريانيا للتوراة . فتح ليو العاشر ، لمعاونى اكسيمنيس ، خزائن مخطوطات الفاتيكان ، ونشر ثلاثة من اليهود المتنصرين علمهم العبرى ، وتم تحقيق هذه النصوص عام ١٥١٧ ولكن المجلدات الستة لم تطبع إلا عام ١٥٢٢ . وأحس اكسيمنيس بالوفاة ، فاستحث علماءه . قائلا : « لا تضيعوا وقتا فى تنفيـذ عملنا المجيد ، وإلا ، فقدتم فى خضم حوادث الحياة داعيكم أو قدر على أن أندب فقد أولئك الذين خدماتهم أعظم فى نظرى من كنوز الدنيا وأمجادها » ، وقدم إليه المجلد الأخير قبل وفاته بأشهر قليلة مع تحيات أصدقائه . وقال لهم إنه لا يوجد بين جميع أعمال إداراته ما هو أحق من هذا بتهنئتهم . وشرع إصدار نصوص أرسطو بالطريقة نفسها ، مع ترجمة لاتينية جديدة لها . ولكن المنية حالت بينه وبين ذلك .

٩ — موت الملك

سبقت ايزابلا وزيرها الناشط فى المغامرة الكبرى فقد كانت على الرغم من قساوتها ، امرأة عميقة الإحساس ، احتملت ملمات أشد وطأة من الحروب . فقد دفنت أمها عام ١٤٩٦ . ومات من أطفالها العشرة خمسة عند الولادة أو فى سن الطفولة ، ومات اثنان آخران فى الشباب المبكر .

---

(١) نسبة إلى كبلوتم ، ومعناها مثمر ، وهو الاسم اللاتينى القديم لمدينة القلعة .

وفقدت ابنها الوحيد عام ١٤٩٧ ، وهو أملها الوحيد فى وراثة طبيعية للعرش ، كما ماتت أحب بناتها عام ١٤٩٨ ، وهى ملكة البرتغال ، التى ربما وجدت شبه الجزيرة توحيدا سلميا لو قدرت لها الحياة . وكابدت وسط هذه الضربات المأساة اليومية وهى تشاهد ابنتها جوانا ، التى كانت وقتذاك ولية للعهد ، تفقد عقلها ببطء .

وكانت جوانا قد تزوجت فيليب الجميل ، دوق برجندى وابن الإمبراطور مكسيمليان الأول (١٩٤٦) وأنجبت منه إمبراطورين مقبلين هما شارل الخامس وفرديناند الأول . وأهملها زوجها فيليب إما لمزاجها المتقلب ، أو لسفاهتها ، واستمر على اتصال بإحدى سيدات بلاطها فى بروكسل ، وجزت جوانا شعرها الخلاب فأقسم زوجها ألا يضاجعها — وسمعت ايزابلا بهذا كله . فوقعت مريضة وفى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٥٠٤ كتبت وصيتها . بأن يحتفل بجنازتها أبسط احتفال وأن المال المدخر من هذا الصنيع يجب أن يوزع على الفقراء ، وأن تدفن فى دير فرنسسكانى داخل الحمراء ، وأضافت : ولكن إذا رأى مولاى الملك أن يكون جدثه فى مكان آخر نوصيتى أن ينقل جثمانى إلى جواره ، وأن الاتحاد الذى نعمنا به فى هذه الدنيا ، وقد تقتضى رحمة الله أن تتحد معا روحانا مرة أخرى فى الآخرة ، ويمثله اتحاد جسمينا فى الثرى » وماتت فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٥٠٤ ودفنت كما أوصت ، حتى إذا مات فرديناند نقل جثمانها ليدفن إلى جواره فى كتدرائية غرناطة . وكتب بيتر مارتير « لقد فقدت الدنيا أنبل زينتها ، لا أعرف أحداً من جنسها فى العصور القديمة أو الحديثة ، جديرة على الإطلاق بأن يوضع اسمها مع هذه المرأة التى لا تضارع » . (لقد كانت مرجريت ملكة السويد بعيدة عن مجال إدراكه ، كما أن اليزابث ملكة انجلترا كانت كذلك لم تأت بعد) .

وقد عينت وصية إيزابلا ، فرديناند ليكون نائب ملك على قشتالة

من أجل فيليب الذى تمثله الأراضى الواطئة ومن أجل جوانا التى تسرع الخطى نحو الاعتصام بالجنون . وكان أمل فرديناند أن يمنع سقوط العرش الأسبانى فى يد آل هبسبرج ، فى شخص شارل بن فيليب ، فبادر وهو فى الثالثة والخمسين إلى الزواج (١٥٠٥) من جرمين ده فوا ، ابنة أخى لويس الثانى عشر ، والبالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، ولكن الزواج ضاعف من سخط النبلاء القشتاليين على مولاهم الأرجونى . وماتت ثمرة هذا الزواج فى سن الطفولة . فطالب فيليب بعرش قشتالة ، ووصل إلى اسبانيا ورحب به النبلاء (١٥٠٦) بينما انسحب فرديناند إلى مقره باعتباره ملكا على أرجون . وبعد ذلك بثلاثة أشهر مات فيليب ، واستعاد فرديناند ملك قشتالة باسم ابنته المخبولة . وظلت جوانا لا لوكا ، ملكة من الناحية القانونية ، وعاشت إلى عام ١٥٥٥ ، ولم تترك قصرها فى توردیز بلاس إطلاقاً ، بعد عام ١٥٠٧ ، وكانت تأبى الاغتسال أو ارتداء الثياب ولم تكل يوماً بعد يوم عن النظر من خلال إحدى النوافذ إلى المدافن التى تضم رفات الزوج الخائن الذى لم تنقطع عن محبته .

وحكم فرديناند حكماً مطلقاً وهو نائب ملك أكثر مما كان وهو ملك فقد تحرر من تأثير إيزابلا الملطف ، وتحولت عناصر الصلابة والانتقام فى شخصيته إلى التصلب الصارم . وكان قد استعاد قبل ذلك روسيلون وسردينيا (١٤٩٣) كما فتح جونزالو أمير قرطبة باسمه نابولى عام ١٥٠٣ . ونقض ذلك معاهدة وقعها فيليب مع لويس الثانى عشر فى ليون تقسم مملكة نابولى بين أسبانيا وفرنسا : وأكد فرديناند للعالم بأن فيليب تجاوز تعليماته . وأبحر إلى نابولى واستولى بشخصه على عرشها (١٥٠٦) وساوره الشك فى رغبة جونزالو فى العرش لنفسه ! ولما عاد إلى أسبانيا (١٥٠٧) أخذ معه القبطان الكبير وأسلمه إلى عزلة عدها معظم أهالى أسبانيا إذلالا لا يستحقه .

وسيطر فرديناند على كل شىء إلا الزمن . وغاضت ينابيع الإرادة والنشاط فيه شيئاً فشيئاً . وطالت فترات راحته . وأصابه الإنهاك مبكراً ، فأهمل شئون الحكومة ، وأصبح نافذ الصبر قلقاً ، سيئ الظن إلى حد المرض بأوفى خدامه له . وأضناه الاستسقاء والربو ، وتعذر عليه التنفس فى المدن فر فى يناير عام ١٥١٦ جنوبا إلى الأندلس ، آملا أن يقضى الشتاء فى ريفه الطلق . ولكنه مرض فى الطريق ، وأقنع آخر الأمر بأن يتأهب للموت . فعين أكسيمينيس ليكون نائب الملك على قشتالة ، كما عين ابنه غير الشرعى كبير أساقفة سرقسطة ، نائب الملك على أرجون . وبات فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٥١٦ فى السنة الرابعة والستين من عمره ، والثانية والأربعين من حكمه .

ولا غرابة فى أن يمتدحه مكيافلى فيقول : كان هنا ملك قام بدور الأمير قبل أن يفكر مؤلفه فى كتابته . فقد جعل فرديناند من الدين أداة للسياسة القومية والحربية ، وغمر وثائقه بعبارات التقوى ولكنه لم يسمح لاعتبارات الأخلاق قط أن تتغلب على مقاصد الضرورة أو الغنم . ولا يستطيع أحـــد أن يشك فى قدرته وكفاءته فى الإشراف على الحكومة ، واختياره الفطن لوزرائه وقواده ونجاحه المستمر فى الدبلوماسية والاضطهاد والحرب . أما من الناحية الشخصية فلم يكن جشعاً ولا مبذراً ، وكانت شرته تنزع إلى تحقيق السلطة أكثر من تحقيق الترف ، وكان جشعه من أجل بلاده ، يريدها موحدة قوية . ولم يؤمن بالديمقراطية ، وتضاءلت فى كنفه الحريات المحلية وماتت وكان مقتنعاً بأن النظم الإقليمية القديمة لا يمكن التوسع فيها بنجاح أمة تضم ولايات وعقائد ولغات جد كثيرة . وكان عمله وايزابلا معه أن يحل الملكية محل الفرضى والقوة محل الضعف ومهد الطريق لشارل الخامس أن يحتفظ بالسيادة الملكية على الرغم من فترات غيبته الطويلة ، كما مهد الطريق لفيليب الثانى ليركز الحكومة كلها فى رأس واحد

قاصر . وكان آثماً من أجل تحقيق هذه الأغراض بما يعد فى زماننا همجية وتعصباً وقسوة غيرإنسانية ، ولكن يعد عند معاصريه نصراً مجيداً من أجل المسيح .

وحافظ أكسيمنيس باعتباره نائب الملك بحماسة على حكم العرش المطلق ، ولعله كان بديلا من الارتداد إلى الانقسام الإقطاعى . وهو وإن كان فى الثمانين من عمره ، فقد حكم قشتالة بإرادة صلبة ، وقضى على كل محاولة من الإقطاع أو المجالس البلدية لاستعادة سلطاتها السابقة ، فلما سأله بعض النبلاء بأى حق يمنع امتيازاتهم ، لم يشر إلى وثيقة إسناد المنصب إلى شخصه وإنما أشار إلى المدفعية فى فناء قصره . ومع ذلك كانت إرادة السلطة عنده تابعة لإحساسه بالواجب ، لأنه استحث الملك الشاب شارل مراراً على أن يترك فلاندرز وأن يحضر إلى أسبانيا ليتولى ملكها . ولما جاء شارل (١٧ سبتمبر ١٥١٧) سارع اكسيمينيس شمالا لاستقباله . ولكن مستشارى شارل الفلمنكيين أيدوا نبلا قشتالة فى إعطائه تقريراً ضد إدارة الكاردينال وشخصيته ، حتى بعث الملك ، وكان لا يزال فتى غير ناضج فى السابعة عشرة من عمره ، إلى اكسيمينيس ورسالة يشكره فيها على خدماته ، مرجئا مقابلاته مطالبا إياه بأن ينسحب إلى مقره الدينى فى طليطلة لينعم براحة يستحقها . وبعث بعدها برسالة أخرى يعفى المترمت العجوز من جميع المناصب السياسية ، وبلغته الرسالتان متأخرتين حتى لا يضاعفا من إذلاله ، فقد مات فى الثامن من نوفمبر عام ١٥١٧ بالغا من العمر واحداً وثمانين عاما . وعجب الناس من أنه على الرغم من صلاحه فى الظاهر فقد جمع الثروة الشخصية الضخمة التى خلفتها وصيته إلى جامعة القلعة .

وختم لإسبانيا عصراً غنيا بالأمجاد والأهوال والرجال الأقوياء . ويوحى الأعقاب على هذه الأحداث بأن انتصار التاج على المجالس النيابية والولايات قد أزال الوسيلة التى كانت الشخصية الإسبانية تستطيع بوساطتها أن تعبر وتحافظ

على استقلالها وتنوعها وأن توحيداً قد استتب فى مقابل أن يسيطر على اسبانيا جهاز يعمل على قمع الفكر الأصيل فى أوليات الأشياء وأواخرها ، وأن إجلاء اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، قد أنقص من القوة البشرية المعاملة فى التجارة والصناعة فى نفس الوقت الذى تطلب اكتشاف العالم الجديد فيه التوسع والتقدم الاقتصاديين ، وأن تورط أسبانيا المستمر فى سياسات وحروب فرنسا وإيطاليا (ثم فلاندرز وألمانيا وإنجلترا) وضعت أثقالا لا تحتمل على كاهل موارد الأمة فى المال والرجال ، بدلا من تحويل السياسة والمغامرة نحو تطوير الأمريكيتين ومع ذلك فهذه نظرة خلفية وهى تحكم على اسبانيا فى عهد فرديناند وايزابلا باصطلاحات لا يستطيع شعب أوربى فى عصرهما فهمها . فقد اضطهدت جميع الفرق الدينية ، اللهم إلا قليلا من المسلمين ومنكرى تعميد الأطفال ، المخالفة فى الدين ، واستعملت جميع الحكومات ، إيطاليا وفرنسا الكاثولكيتان وألمانيا وإنجلترا البروتستانتيان ، القوة فى توحيد العقيدة الدينية ، واستشعرت جميع الدول الظمأ إلى ذهب جزائر الهند — الشرقية والغربية — وكلها توسلت بالحرب والدهاء الدبلوماسى لتؤكد بقاءها وتوسع حدودها أو تزيد من ثروتها .

ولم تكن المسيحية عند جميع الأمم المسيحية حكما بالوسائل وإنما كانت وسائل إلى الحكم ، وكان المسيح أثيراً عند الشعب وميكافلى أثيراً عند الملوك . وقد حضرت الدولة الإنسان من بعض الوجوه ، ولكن من ذا الذى يحضر الدولة ؟ .

الفصل الثالث عشر

نمو المعرفة (١٣٠٠ - ١٥١٧)

١ - السحرة

لم يزل القرنان اللذان صور تاريخهما الأوربي تصويراً مجملا سريعاً في الفصول السابقة ، يعدان جزءاً مما اصطلح على تسميته بالعصر الوسيط وهو ما نستطيع أن نحدده تحديداً تقريبياً بأنه سيرة أوربا بين قسطنطين وكولمبس، أي من ٣٢٥ إلى ١٤٩٢ . وإذا أردنا أن نلخص الآن العلم والتربية والفلسفة في غرب أوربا إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فيجب أن نتذكر أن الدراسات العقلية كان عليها أن تحارب من أجل الحصول على التربية والهواء في غابة من الخرافة والتعصب والخوف . وبين أحداث القحط والطواعين والحروب ، وفي الفوضى الضاربة على البابوية الشاردة والمنقسمة على نفسها بحث الرجال والنساء في القوى الخفية عن بعض التفاسير لما ينزل بالإنسانية من شقاء خفي وعن قوة سحرية ما تتحكم في الأحداث ، وعن ضرب من الفرار الصوفي من الواقع المرير ، وسارت حياة العقل متعثرة في وسط من العرافة والسحر واستحضار الأرواح وقراءة الكف وفراسة الدماغ والاستنباء بالعدد والعيافة والطيرة والتنبؤ وتفسير الأحلام وطوالع النجوم والتحويل الكيميائي للمواد والعلاج بالخوارق وللقوى الخفية في الحيوان والمعدن والنبات . ولا تزال هذه الأعاجيب حية في أعطافنا اليوم . وتظفر هذه أو تلك منها بالولاء الصريح أو الخفي من كل واحد منا تقريباً ولكن تأثيرها الحالي في أوربا اليوم أقل بكثير من سلطانها في العصور الوسطى . .

ولم تدرس النجوم من أجل هداية السفن أو تحديد المواسم الدينية فحسب وإنما درست من أجل التنبؤ بما يقع على الأرض من أحداث وما يخبأ للأشخاص من مصير . ويبدو أن التأثير النافذ للمناخ والفصول وعلاقة المد والجذر بالقمر والتوقيت القمرى للطمث عند المرأة واعتماد الزراعة على أحوال السماء وكيفياتها ، إنما تبرر مزاعم التنجيم بأن سماء اليوم تكشف عن أحداث الغد . وكانت أمثال هذه التنبؤات تنشر بانتظام (كما هو الحال الآن) وتبلغ جمهوراً كبيراً متعطشاً لها . ولم يكن الأمراء يجسرون على القيام بحملة أو واقعة أو رحلة أو تشييد بناء إلا إذا حصلوا على تأكيد من المنجمين بأن النجوم فى أوضاع ملائمة لهذه الأغراض . ولقد حرص هنرى الخامس ملك انجلترا على الاحتفاظ باصطرلاب ابرسم خريطة السماء ، ولما جاء زوجته المخاض قرأ بنفسه طالع الطفل وكان بلاط متياس كورفينوس الذى يضم صفوة المثقفين يرحب بالمنجمين ترحيبه بعلماء الإنسانيات .

واعتقد الناس أن الملائكة تهدى النجوم ، وأن الهواء يزخر بالأرواح الخفية ، بعضها من الجنة وبعضها من الجحيم . وسكنت العفاريت كل مكان وبخاصة فى مخدع الإنسان ، وينسب إليها بعض الرجال ما يسلب منهم بالليل كما نسب إليها بعض النساء ما يصيبهن من حمل فى غير أوانه ، وأجمع علماء الدين على أن أمثال تلك الخطيات الخبيثات لهن وجود حقيقى ويستطيع كل امرئ ساذج فى كل منعطف وكل لحظة أن يخرج من عالم الحس إلى مملكة من الكائنات والقوى المسحورة . ولكل شىء طبيعى صفات خارقة . وكانت كتب السحر من أروج الكتب فى ذلك العصر . ولقد عُذب أسقف كاهورز وجلد وألقى به فى المحرقة (١٣١٧) بعد أن اعترف بأنه أحرق تمثالا من الشمع للبابا يوحنا الثانى والعشرين آملا أن يلقى الأصل مصير الشمع ، كما وعد بذلك فن السحر . واعتقد الناس أن فطير القربان بتقديس القسيس ينزف دم المسيح إذا خدش .

وخبت شهرة الكيماويين ، ولكنهم استمروا في أبحاثهم الأمينة وخدعهم البراقة على السواء وفي الوقت الذي أنكرتهم فيه المراسيم الملكية والبابوية فقد أقنعوا بعض الملوك بأن الكيمياء قد تفعم الكنوز متى نضبت ، وكان السذج يبتلعون « الذهب المذاب » الذي أكد لهم أنه يشفي كل شيء إلا الغفلة (ولا يزال المرضى والأطباء يتعاطون الذهب في علاج داء المفاصل) . .

ونافس علم الطب في كل خطوة من خطواته ، التنجيم وعلوم الدين والدجل . ونسب جميع الأطباء تقريباً تشخيص مرض من الأمراض إلى البرج الذي ولد أو مرض فيه المريض ، وهكذا كتب الجراح العظيم جي ده شولياك (١٣٦٣) : « إذا جرح امرؤ في عنقه والقمر في برج الثور ، فالإصابة خطيرة » ومن أقدم الوثائق المطبوعة ، تقويم نشر في منز (١٤٦٢) يبين أحسن الأوقات من ناحية طوالع النجوم لفصد الدم . ونسبت الأوبئة بين جمهرة الناس إلى اجتماع سيئ الطالع بين النجوم . وأرجع ملايين المسيحيين ، الشفاء إلى العقيدة وربما كان ذلك لخيبة أملهم في الطب . وذهب آلاف إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يستشفون من الدرن الخنزيري بلمسة ملكية ويبدو أن هذه العادة قد بدأت بلويس التاسع الذي أدت قداسته إلى الاعتقاد بقدرته على عمل المعجزات . وظن الناس أن قوته ، قد انتقلت منه إلى خلفائه ، كما انتقلت عن طريق ايزابلا أميرة فالوا ، وهي أم إدوارد الثالث ، إلى ملوك انجلترا . وحج آلاف أكثر إلى أضرحة تشفي المرض ؛ وحولوا بعض القديسين إلى أطباء متخصصين ، وهكذا اكتظت كنيسة القديس فيتوس بالمصابين بداء الرقص الزنجي ؛ إذ ساد الاعتقاد بأن هذا القديس متخصص في علاج هذا المرض وأصبح قبر بيير ده لكسمبورج ؛ وهو كاردينال مات في الثانية عشرة من عمره بسبب غلوائه في الزهد ، مزاراً محبباً ، ونسب شفاء ألف وتسعمائة وأربعة وستين

شخص إلى قدرة عظامه السحرية ، وذلك فى خلال خمسة عشر شهراً من وفاته . وراجت صناعة الدجالين ، ولكن القانون بدأ يقاومهم . ففى عام ١٣٨٢ حكم على روجر كلبرك ، الذى ادعى علاج المرضى بالرقى ، أن يسير فى شوارع لندن راكباً وقد علقت المباول حول عنقه .

واعتقد معظم الأوربيين فى السحر ، أو بعبارة أخرى ، فى قوة بعض الأشخاص على التحكم فى الأرواح الشريرة والحصول على معاونتها — لقد كانت القرون المظلمة متنورة نسبياً فى هذه الناحية . ولقد أنكر القديسان بونيفاس واجوبارد الاعتقاد فى السحر باعتباره ذنباً وعملا يوجب السخرية ، وجعله شارلمان جريمة يعاقب مقترفها بالإعدام وكان يشنق كل شخص يتهم بصناعة السحر ، وحرم البابا جريجورى السابع هلدبراند ، على محكمة التفتيش ، أن تحاكم السحرة على أنهم السبب فى العواصف والطواعين ولكن تأكيد الوعاظ لحتمية جهنم ومكائد إبليس أذكى الاعتقاد الشعبى فى وجود الشيطان وشره فى كل مكان أو وجود أحد أعوانه ، وكم من عقل مريض أو نفس يائسة اعتصمت بفكرة استحضار أمثال هذه الشياطين لمعاونتها . واتهم بالسحر أنواع شتى من الناس ، يدخل فيهم البابا بونيفاس الثامن . ولقد شنق الرجل الإستقراطى انجراند ده مارينى بتهمة السحر عام ١٣١٥ ، وأمر البابا جون الثانى والعشرون عام ١٣١٧ بتقتيل عدد من الأشخاص غير المعروفين ، لأنهم دبروا اغتياله مستعينين بالشياطين . وأنكر جون مراراً الالتجاء إلى الشياطين وأمر باضطهاد من يقترفه ، وفرض العقوبات عليه ، ولكن الناس فسروا مراسيمه بأنها تؤيد اعتقادهم فى وجود القوى الشيطانية وإمكان الانتفاع بها . وتضاعف الاتهام بالسحر بعد عام ١٣٢٠ ، وشنق كثير من المتهمين أو ألقى بهم فى المحرقة . وساد فى فرنسا الرأى القائل بأن شارل السادس قد أصيب بالجنون بوسائل سحرية ، واستخدم ساحران لإعادة العقل إليه ، فلما أخفقا جز رأساهما (١٣٩٧) .

وفى عام ١٣٩٧ أصدرت كلية أصول الدين بجامعة باريس ، ثمانية وعشرين مقالة تحرم السحر ، وإن اعترفت بقدرته بين حين وآخر . وعد قاضى القضاة جرسون أن من الهرطقة أن يناقش المرء وجــود الشياطين أو نشاطها .

أما الكهانة فهى ممارسة السحر بوساطة أشخاص نسبوا إلى عبادة إبليس باعتباره كبير الشياطين الذين يعملون على استخدامها فى اجتماعات ليلية أو سبتية . ويذهب الاعتقاد الشعبى إلى أن السحرة ، وأغلبيتهم من النساء يزودون بقوى خارقة فى مقابل عبادتهم لإبليس . وانتدابهم على هذا الوجه يجعلهم يسيطرون على النواميس الطبيعية ، ويجلبون النحس أو الموت لمن يريدون . وأيد علماء أمثال ارازمس وتوماس مور وجود الكهانة فى الواقع ، وشك فيها بعض القسس فى كلونيا ، وأيدت وجودها جامعة كلونيا . وزعم معظم رجال الكنيسة — ويوافقهم فى ذلك بعض المؤرخين من غير رجال الدين إلى حد ما — أن الاجتماعات السرية بالليل إنما هى تعلات لعلاقات جنسية مختلطة ولتحريض الشباب على الفسق . واعترف بعض السحرة اعترافا مزعوماً لشخص أو لآخر بالأعمال الشريرة التى أسندت إليهم ، وذلك إما بوساطة وهم مخبول ، وإما للتخلص من التعذيب ، ولعل هؤلاء السحرة الشعبيين قد قاموا بما يشبه التحذير النهائى لمسيحية مثقلة ، وبنزعة ترفيهية من ناحية ومتمردة من ناحية أخرى لعبادة إبليس باعتباره العدو القوى لإله يحكم على كثير من المباهج بالكبت ويلقى بكثير من الأرواح فى الجحيم ، وقد تذكر هذه الشعائر الخفية وتؤكد من جديد العقائد فى الأعياد الوثنية لآلهة الأرض والحقل والغابة الخاصة بالتناسل والإخصاب أمثل باخوس وبريابوس وسيريس دفلورا .

واجتمعت جهود الأوساط المدنية والدينية على قمع ما رأوه أكبر فساد وكفر . وانتدب عدد من البابوات — فى الأعوام ١٣٧٤ و ١٤٠٩

و١٤٣٧ و١٤٥١ وبخاصة البابا انوسنت الثامن عام ١٤٨٤ -عملاء فى محكمة التفتيش للتصرف مع السحرة باعتبارهم هراطقة منبوذين ، تصيب جرائمهم ووسائلهم الثمرات والأرحام بالأذى ، وقد تحول مزاعمهم جماعات بأسرها إلى الشيطنة واعتمد البابوات اعتمادا حرفيا على آية فى سفر الخروج (الأصحاح ٢٢ ; الآية ١٨) « لن تترك ساحرة تعيش » . ومع ذلك فإن المجالس الكنسية قبل سنة ١٤٤٦ كانت تكتفى بالعقوبات المعتدلة إلا إذا كان المذنب السابق العفو عنه قد عاد إلى سابق إجرامه . ولقد أحرقت محكمة التفتيش عام ١٤٤٦ ، عددا من السحرة فى هيلدلبرج ، وأحرقت عام ١٤٦٠ اثنى عشر رجلا وامرأة فى أراس ، وأطلق عليهم الفودوا كما أطلق على الهراطقة (waldenses) وقام السحرة فى فرنسا برحلة عبر الاطلنطى حتى أطلقت كلمة فودوويزم voodooism على سحر الزنوج فى المستعمرات الفرنسية فى أمريكا . وفزع جاكوب سبرنجر قاضى محكمة التفتيش الدومينيكى فزعا شديدا من انتشار السحر فأصدر عام ١٤٨٧ دليلا رسميا لمطاردة السحرة عنوانه : « مطرقة السحرة » . وقدم مكسميليان الأول وكان إذ ذاك ملك الرومان لهذا الدليل برسالة تقريظ قال فيها أعظم أثر هائل ضد الخرافة أنتجه العالم . وقال سبرنجر إن هؤلاء النسوة الشريرات بتقاليب خميرة شيطانية فى قدر أو بوسائل أخرى ، يستطعن إحضار أسراب من الجراد والديدان لتلتهم محصولا كاملا ، وهن يستطعن أن يصبن الرجال بالعقم ويجعلن النساء عقيمات ، ويغضن لبن المرضع أو يجهضن الحامل ، ويستطعن بنظرة واحدة فقط أن يجلبن الحب أو الكراهية ، المرض أو الوفاة . ويخطف بعضهن الأطفال ويشوينهم ويأكلونهم . ويستطعن رؤية الأشياء عن بعد ويتنبأن بالجو ، وفى إمكانهن أن يحولن أنفسهن أو غيرهن إلى حيوانات . وأبدى سبرنجر ، دهشته لماذا يفوق الساحرات عدد السحرة من الرجال ، وختم بحثه بقوله إن ذلك لأن النساء أخف رؤوسا وأكثر

شهوة من الرجال ، وأضاف أنهن ، إلى هذا كله ، وسائل محبوبة دائمة لإبليس . ولقد أحرق ثمانية وأربعين منهن فى مدى خمس سنوات . ومنذ عهده ، زاد هجوم رجال الدين على صناعة السحر حتى بلغ أوجه فى القرن السادس عشر ، فى كنف الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، وبهذا الضرب من العنف الهائل تفوقت الأزمنة الحديثة ، على العصور الوسطى. وفاخر أحد موظفى محكمة التفتيش عام ١٥٥٤ ، بأن محكمة التفتيش ، قد أحرقت ثلاثين ألفا من السحرة على الأقل ، وإذا تركوا بلا عقاب فقد ينزلن الخراب بالعالم كله .

ولقد ألفت كتب كثيرة فى هذا العصر لمحاربة الخرافات وتحتوى كلها على خرافات . ووجه أجوستينو ترينفو إلى البابا كلمنت الخامس ، رسالة ينصحه أن يحرم السحر الخفى ولكن ترينفو رأى أن الطبيب لايغتفر له أن يجرى فصادا فى مراحل معينة من أوجه القمر . ووجه البابا جون الثانى والعشرون ضربات قاسية للكيمياء (١٣١٧) والسحر (١٣٣٧) ، ونعى ما ظنه انتشارا متزايدا لتقديم القرابين إلى الشياطين ، وأخذ العهود على إبليس وصناعة التماثيل والخواتم والأمزجة للأغراض السحرية ، وأصدر قراراً تلقائياً بالحرمان ضد جميع الذين يمارسون هذه القوانين ، ولكنه أضمر اعتقادا فى قدرتها .

وكان نيقولا أرزم هو الخصم العنيد للتنجيم فى ذلك العصر ، وقد توفى وهو أسقف لزيوه عام ١٣٨٢ . وسخر من المنجمين ، الذين لا يستطيعون تحديد جنس الطفل قبل ولادته وإن زعموا أنهم يستطيعون التنبؤ بمصيره على الأرض بعد ولادته ، وقال أرزم إن مثل هذه الطوالع حكايات يسردها الزوجات العجائز وكتب مرددا عنوان شيشرون وجهده قبل ذلك بأربعة عشر قرنا رسالة عن : « قراءة الغيب » فى الرد على مزاعم العرافين ومفسرى الأحلام وأمثالهم . ولقد سلم وسط شكه فى العلوم الخفية بصفة

عامة ، بأن بعض الأحـــداث يمكن أن تفسر بأنها من عمل الشياطين أو الملائكة . وقبل فكرة « عين الحسود » : وظن أن المجرم يعتم المرآة بنظره فيها . وأن نظرة الوشق[1] قد تخترق الحائط . واعترف بالمعجزات التي في الكتاب المقدس ، ولكنه رفض التفسيرات الخارقة إذا كانت العلل الطبيعية تكفي للتفسير وقال نيقولا : إن كثيرين من الناس يصدقون السحر لأنهم يفتقرون إلى معرفة العلل والتطورات الطبيعية . وهم يقبلون بالسماع ما لم يروه ، ولذلك قد تصبح أسطورة — مثل ساحر يتسلق حبلا ألقى به في الهواء — عقيدة شائعة (وهذه هي أول رواية تذكر فيها أسطورة تسلق الحبل) واحتج أرزم تبعاً لذلك بأن انتشار عقيدة ما ليس دليلا على صدقها بل إذا شاهد كثير من الناس حادثة تناقض تجربتنا العادية للطبيعة فيجب أن نتردد في تصديقهم . يضاف إلى ذلك أن الحواس من السهل خداعها فإن ألوان الأجسام وأشكالها وأصواتها تختلف تبعاً لمسافة أعضاء الحواس وأضوائها وحالاتها ، والجسم وهو ساكن قد يبدو متحركا ، والتحرك قد يبدو ساكنا ، وتبدو قطعة النقود الموضوعة في قاع قنينة مملوءة بالماء ، أبعد منها في قنينة فارغة . ويجب أن تفسر الأحاسيس بالفعل ؛ وهذا أيضاً عرضة للخطأ ويقول أرزم ؛ إن خدع الحواس والفعل تفسر كثيراً من الأعاجيب التي تنسب إلى القوى الخارقة أو السحرية .

وعلى الرغم من هذا التقدم الجريء نحو الروح العلمي ؛ فإن الخرافات القديمة بقيت أو عدلت أشكالها فحسب . ولم تكن مقصورة على الدهماء . فقد دفع إدوارد الثالث ملك انجلترا مبلغاً باهظاً من المـــال للحصول على قارورة ، كان على يقين من أنها من مخلفات القديس بطرس وعرضت على شارل الخامس ملك فرنسا في سانت شابل : قارورة ، قيل إنها تحوي بعض

---

(١) الوشق : حيوان أصغر من الفهد قصير الذيل .

دم المسيح وسأل حكماءه وعلماء الدين عنده عن صحتها ، فردوا متحفظين بالإيجاب . وفى هذا الجو جاهدت التربية والعلم والطب والفلسفة لتنمو .

٢ ــ المعلمون

إن نهضة التجارة والصناعة قد أضفت أهمية جديدة على التعليم . وإذا كانت معرفة القراء والكتابة تعد ترفا غالى الثمن فى نظام زراعى فإنها تعتبر ضرورة لا غنى عنها فى عالم المدينة الذى تغلب التجارة عليه . وقد أقر القانون أخيراً هذا التحول ، ذلك أن ملاك الأرض الإقطاعيين فى انجلترا التمسوا عام ١٣٩١ من ريتشارد الثانى تأييد القانون القديم الذى يحرم على رقيق الأرض أن يرسل ابنه إلى مدرسة دون أن يحصل على موافقة سيده ويقضى بتعويض المالك عن العجز فى الأيدى العاملة بالمزرعة . ورفض ريتشارد هذا الالتماس ، أما فى عهد خلفه فقد صدر قانون يسمح لأى رجل بأن يرسل من يشاء من أولاده إلى المدرسة . وفى ظل هذا القانون الذى أطلق حرية التعليم تضاعف عدد المدارس الأولية فى حين بقيت فى الريف المدارس التى يشرف عليها الرهبان . أما فى المدن فإن الكنائس والمستشفيات والبيع والطوائف الحرفية كانت تمول المدارس الكبيرة وكان الالتحاق بها اختياريا بعد أنه شاع حتى فى القرى .

وكان المعلمون فى العادة من القسس ولكن نسبة المعلمين من غير رجال الدين ارتفعت فى القرن الرابع عشر . وكان برنامج الدراسة يركز على الوعظ : والعقيدة الدينية والصلوات الأساسية والقراءة والكتابة والحساب والغناء والجلد بالسياط ، ولقد كان هذا الجلد بالسياط عماد التعليم حتى فى المدارس الثانوية وفسر أحد رجال الدين ذلك بقوله : « يجب قمع أرواح الأولاد » . وسلم معه الآباء بذلك وربما كان الأمر على هذا النحو . ولقد حثت أجنس باستون مربى ابنها الخامل قائلة : « اجلده ، إذا لم ينصلح حاله : فأنا أوثر أن يدفن حيا على أن أراه يضيع بسبب الإهمال » .

تابعت المدارس الثانوية سياسة التربية الدينية وأضافت إليها قواعد اللغة وكانت لا تشمل النحو والصرف والإنشاء فحسب ، بل كانت تشمل اللغة أيضاً كما أنها هذبت أدب روما الكلاسيكى وتعلم الطلبة من أبناء الطبقة المتوسطة قراءة اللاتينية وكتابتها وإن كان هذا قد حدث بلا اكتراث وذلك باعتبارها من الضروريات للاشتغال بالتجارة الخارجية والعمل بالكنيسة . وكانت أحسن المدارس الثانوية إبان ذلك العهد تلك التى أنشأها فى هولندا وألمانيا إخوان « الحياة المشتركة » وكان بمدرسة ديفنتر ألفا طالب . وكان لوبليام الأوكهامى ، أسقف ونشستر الثرى المقدام فضل السبق فى إنشاء أولى المدارس العامة فى انجلترا وهى معاهد تعتمد على الإعانات التى تتلقاها من الأفراد والهيئات العامة لتزود عدداً محدوداً من الأولاد بالمعلومات وتعدهم للالتحاق بالكلية . وحذا هنرى السادس حذوه فأسس عام ١٤٤٠ مدرسة ايتون ومنحت الكثير من المال لإعداد الكبار وللالتحاق بكلية الملك بكمبردج .

وكان تعليم النساء ، اللهم إلا بعض كريمات العقائل ، مقصوراً على البيت بعد المرحلة الابتدائية . وتعلم كثير من نساء الطبقة الوسطى مثل مارجريت باستون كتابة الإنجليزية السليمة وألم بضع نفر من النساء بالأدب والفلسفة . أما أبناء الطبقة الأرستقراطية فقد تلقوا تعليما يختلف عما يلقن فى المدارس إذ كانوا حتى سن السابعة يدرسون على يد نساء البيت ثم يرسلون للعمل كوصفاء عند نبيل من الأقرباء أو الجيران وهناك بعيداً عن التأثر بالإفراط فى المحبة يتعلمون القراءة والكتابة والدين وقواعد السلوك من السيدات والقس المحلى وفى سن الرابعة عشر يصبحون تابعين أى خدما كبارا لسيدهم . وفى ذلك الوقت يكونون قد تعلموا ركوب الخيل والرماية والصيد والمقارعة والقتال . أما سعة الاطلاع فقد تركوها لأتباعهم .

وفى غضون ذلك كانت هذه تطور تراثا من أعظم ما ورثوه من العصور الوسطى وهو — الجامعات — وفى الوقت الذى خمد فيه أوار الحماسة

للعمارة الكنسية اشتدت حدة الحماسة لإنشاء الكليات وفى هذه الفترة شهدت أكسفورد إنشاء كليتى أكستر وأوربيل وكلية الملك والكلية الجديدة وكليات لنكولن وأول سولز وماجدالين وبراسينوز وكليات الجسد الطاهر ومدرسة اللاهوت . ولم تكن عندئذ كليات بالمعنى الحديث للكلمة بل كانت قاعات ، أو أماكن يقيم فيها عدد مختار من الطلبة وكان يعيش فيها أو يكاد عشر الطلبة فى أكسفورد وكان رجال الدين يدرسون معظم المواد بالجامعة فى فصول دراسية أو فى قاعات للمحاضرات متناثرة فى أنحاء المدينة . وتمسك الرهبان البندكتيون والفرنشسكان والدومينيكان وغيرهم من طوائف الرهبان بكلياتهم المعهودة فى أكسفورد وتخرج من هذه الكليات الملحقة بالأديرة نفر من ألمع الرجال فى القرن الرابع عشر ، من بينهم دونزسكوتوس ووليام الأوكهامى وكلاهما ألحق بعض الضرر بدراسة اللاهوت الأرثوذكسى وكان الدارسون للقانون يتلقون تدريبهم فى لندن ، فى خانات المحاكم وفى أكسفورد لم يكن هناك تعاطف بين سكان المدينة وبين الطلبة فى الكليات — أى بين المواطنين وطلاب العلم . فقد حدث فى عام ١٣٥٥ أن اندفع المعسكران المتعاديان إلى حرب مكشوفة وقتل كثير من الأبطال حتى عرف هـذا العام باسم عام « المذبحة الكبرى » .

وعلى الرغم من إدخال عقوبة الجلد بالسياط فى جامعات انجلترا (عام ١٣٥٠) فإن الطلبة كانوا فئة مشاغبة وإذا كان قد حرم عليهم ممارسة الألعاب الرياضية داخل جدران كلياتهم فإنهم عددوا نشاطهم فى المجون واحتساء الخمر والصيد والقنص وكانت الحانات والمواخير تلقى رواجا بفضل رعايتهم . وانخفض عدد الملتحقين باكسفورد من ذروته فى القرن الثالث عشر إلى نحو ألف وبعد طرد ويكليف تقلصت الحرية الأكاديمية بشدة الرقابة الأسقفية .

ولقد أفادت كمبردج من الخلاف مع ويكليف ومن الفزع من اللولارد

فمنع المحافظون المتزمتون أولادهم من الالتحاق باكسفورد وبعثوا بهم إلى الجامعة الصغرى ، وعلى هذا فإنه ما أن أشرف القرن الخامس عشر على الانتهاء حتى كان عدد الطلبة المقيدين بالجامعتين المتنافستين متساويا . وأنشئت قاعات جديدة فى كامبردج : مايكل هاوس ويونيفرسيتى أوكلير وجبرولك وجونفيل وكايوس وترينيتى وكوريس كرستى وكمجز وكوينة وسانت كاترين وجيزوس وكريست وسانت جون . وقد أصبحت هذه كليات بالمعنى المفهوم عندنا — مثل قاعات الإقامة فى أكسفورد إبان القرن الخامس عشر لأن عدداً متزايداً من المعلمين آثروها ورأوا أنها أصلح الأماكن التى تجتذب محاضراتهم فيها أكبر عدد من المستمعين وكانت الفصول تبدأ فى الساعة السادسة صباحاً وتستمر حتى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وفى غضون ذلك أنشأت اسكتلندا وأيرلندة بدافع من فقرها جامعات سانت اندروز وجلاسجو وابردين وكلية ترينتى والمعاهد الأربعة فى دبلن التى شاءت الأقدار أن تصب العبقرية ، جيلا بعد جيل ، فى الحياة الفكرية فى الجزر البريطانية ، أما فى فرنسا فقد عانى التعليم — مثل أى شىء آخر — من حرب المائة عام ومع ذلك فإن الإقبال المتزايد على المحامين والأطباء بالإضافة إلى ما يحبب الناس فى الوظيفة الدينية قد شجع على إنشاء جامعات جديدة فى افنيون Avignon واورليانز وكاهور وجرينوبل وأورانج واكس آن بروفانس وبواتييه وكانوبوردو وفالنس نانت وبورج . وأصبحت جامعة باريس فى القرن الرابع عشر قوة وطنية تتحدى البرلمان وتزجى النصح للملك وتعمل كمحكمة استئناف فى شرح علم اللاهوت الفرنسى واعترف معظم المشتغلين بالتعليم فى القارة الأووربية بأنها جامعـــة «كون الأكوان» Universitas universit atis ، ولعل هذا يرجع إلى أن الملكية كانت توشك على الانهيار . وأدى ارتفاع شأن الجامعات الإقليمية والأجنبية إلى قلة عدد الطلبة المقيدين فى جامعة باريس بل إن كلية الآداب وحدها اشتهرت بأنها

تضم ألف مدرس وعشرة آلاف طالب فى علم ١٤٠٦ ، وكان بالجامعة كلها عام ١٤٩٠ ما يقرب من عشرين ألفاً . عاونت على إيوائهم نحو خمسين كلية . وكان النظام هناك أقل صرامة عما هم عليه فى أكسفورد والأخلاق التى تمتدح فى الطلبة قد آثرت رجولتهم لا دينهم وأضيفت إلى المنهج الدراسى برامج فى اللغات الإغريقية والكلدية والعبرية .

وأنشأت أسبانيا جامعاتها الرائدة فى القرن الثالث عشر فى بالانسيا وسلمنقة ولاردة وارتفع شأن جامعات أخرى فى برايبجنان ووشقةوبلد الوليد وبرشلونة وسرقسطة وبالما وسيجونرا وبلنسية والقلعة وإشبيلية . وخضعت هذه المعاهد لرقابة دينية صارمة وكان لعلم اللاهوت المقام الأول فيها . ومهما يكن من أمر ، فقد خصص فى جامعة القلعة أربعة عشر كرسيا (أستاذية) لعلم النحو والصرف والأدب والبلاغة واثنا عشر كرسيا للاهوت والقانون الكنسى ، وظلت جامعة القلعة فترة ما أعظم مركز تعليمى فى أسبانيا ، وفى عام ١٥٢٥ كان عدد الطلبة المقيدين بها سبعة آلاف . وقدمت المنح للطلبة المعوزين وكان ويتحكم فى مرتب الأستاذ عدد طلابه . وكان يطلب من كل أستاذ أن يستقيل كل أربع سنوات ولا يكون صالحاً للتعيين من جديد إلا إذا كان عمله مرضياً . وفى لشبونة وفى عام ١٣٠٠ أنشأ الملك دينيز جامعة ولكن شغب الطلبة جعله ينقلها إلى كويمبرا ولا تزال هذه الجامعة من مفاخرها حتى اليوم .

وكانت الحركة الفكرية فى هذه الفترة بأوروبا الوسطى أقوى منها فى فرنسا أو أسبانيا ، فقد أنشأ شارل الرابع عام ١٣٤٧ جامعة براغ التى سرعان ما تزعمت الحركة الفكرية لشعب بوهيميا وغدت لسانها الناطق . وظهرت جامعات أخرى فى كراكو وفيينا وبيكس وجنيف وارفورت وهايدلبرج وكولونيا وبودا ، وفورتسبرج وليبتسيج وروستوك ولوفين وترير وفرايبورج — أم — برايسجاو وجريفسفالد وبازيل وانجولشتادت وبرسبورج ومايتز

وتوبنجن وكوبنهاجن وأوبسالا وفرانكفورت – آن – أودر وفيتنبرج .
وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت هذه المعاهد تعج بأفواج
الطلاب والمناظرات . وكان في كراكو وحدها ١٨٣٣٨ تلميذاً في آن واحد
وكانت الكنيسة تقدم معظم المال ومن الطبيعي أن يطلق عليها لحن الفكر ،
ولكن الأمراء والنبلاء والمدن ورجال الأعمال أسهموا في التبرع للكليات
وتقديم المنح الدراسية . فقد زود الأمير فريدريك صاحب ساكسونيا
جامعة فيتنبرج جزئياً بالمال المحصل من بيع صكوك الغفران والذى رفض
أن يرسله إلى روما . وأنشئت لفلسفة الكلام كراسي أستاذية في الفلسفة
بينما ارتقى شأن العلوم الإنسانية خارج أسوار الجامعة ولذلك انضمت معظم
جامعات ألمـانيا إلى الكنيسة إبان عهد الإصلاح الديني باستثناء جامعتين
مهمتين : ارفورت التي درس فيها لوثر وفيتنبرج التي كان يدرس بها .

العلمـــاء

كان المزاج العلمي لا يكاد يشيع بين جهابذة العلماء أكثر مما يشيع
بين عامة الناس . وكانت روح العصر تميل إلى « الإنسانيات » بل إن
حركة إحياء الدراسات الإغريقية تجاهلت علم الإغريق . وفي مجال الرياضيات
وقفت الأرقام الرومانية حجر عثرة في سبيل التقدم ، وبدا أنها لا تنفصل
عن الثقافة اللاتينية ثم إن الأرقام الهندية العربية ظهرت وكأنها بدعة إسلامية
وقوبلت بعدم اكتراث وبخاصة شمال الألب . وقد استخدم ديوان المحاسبة
وإدارة حسابات الحكومة الفرنسية الأرقام الرومانية السمجة حتى القرن
الثامن عشر . ومع ذلك فإن توماس برادواردين الذى مات بوباء الطاعون عام
١٣٤٩ بعد مرور شهر من تكريسه كبيراً لأساقفة كنتربرى — أدخل إلى
انجلترا عـــدة نظريات عربية في حساب المثلثات وكان تلميذه ريتشارد
والنجفورد رئيس دير سانت ألبان عالما رائداً من علماء الرياضيات في القرن
الرابع عشر . وكتابه « الجزء الرابع من شرح الجيب » أول مؤلف كبير في

حساب المثلثات فى أوربا الغربية ، وقد مات بالجذام فى الثالثة والأربعين وهو يأسف على الوقت الذى اختلسه من اللاهوت للعلم .

وكان نيكول أريزم من أنشط رجال الدين ومع ذلك فإنه اقتحم بنجاح مجال اثنى عشر علما ومهد الطريق إلى الهندسة التحليلية بتطوير الاستخدام المنهجى للأحداثيات وباستعمال الخطوط البيانية لإيضاح زيادة الدالة . وقد لعب بفكرة البعد الرابع ولكنه نبذها . وهو مثل الكثيرين من معاصريه أشار إلى قانون جاليليو الذى يقول إن سرعة الجسم الساقط تتزايد بانتظام طوال الفترة التى يستغرقها فى سقوطه ، وفى تعليق على كتاب أرسطو ، كتب يقول : إننا لا نستطيع أن نثبت بأى تجربة أن السماء تتعرض لحركة يومية وأن الأرض لا تتعرض لها فثمة أسباب وجيهة تدل على أن الأرض وليست السماء تتعرض لحركة يومية . وقد لجأ أورزم إلى النظام البطليموسى وإن كان قد أعان على الإعداد لنظرية كوبرنيكوس .

وعندما نذكر أنه فى ذلك الوقت لم يكن يوجد منظار مقرب ولا آلة تصوير ليرصد المرء بهما السماء أو يسجل ما يحدث فيها فإنه من الأمور المشجعة أن نسجل مقدرة وذكاء الفلكيين من المسلمين واليهود والمسيحيين فى العصور الوسطى . وقد وصف جان دى لينيه ، بعد سنوات من مشاهداته الشخصية ، أوضاع ثمان وأربعين نجما بدقة لا يضارعه فيها سوى المسلمين وحسب ميل دائرة البروج فى حدود سبع ثوان عن أحدث تقدير . وعرض جان دى مير وفيرين دى بوفال (١٣٤٤) إصلاح التقويم اليوليانى الذى كان يسبق الشمس — بحذف اليوم التاسع والعشرين من فبراير كل أربعة أعوام خلال الأربعين سنة التالية (التى كان يمكن أن تخطئ بالزيادة) . وقدر لهذا الإصلاح أن ينتظر حتى عام ١٥٨٢ ولا يزال فى انتظار تفاهم دولى وإخلاص متبادل .

ولقد خلص ويليام ميرل علم الرصد الجوى من علم الفلك بتسجيل الطقس خلال ٢٥٥٦ يوما . واكتشف راصدون وملاحون مجهولون خلال القرن الخامس عشر انحراف الإبرة المغناطيسية : فهى لا تشير إلى الشمال تماما بل تميل نحو خط الزوال الفلكى بزاوية صغيرة وإن كانت مهمة وهى كما لاحظ كولمبس تختلف من مكان إلى مكان . وأعظم شخصية بين علماء الرياضيات والفلك فى هذا العهد جوهان مولر المعروف فى التاريخ باسم رجيو مونتانوس منذ مولده عام ١٤٣٩ قرب كنيجزبرج فى فرانكونيا السفلى . وقد التحق فى الرابعة عشر بجامعة فيينا حيث كان جورج فون بورباخ يتقدم الإنسانيات وآخر ما وصل إليه الإيطاليون فى الرياضة والفلك وكلا الرجلين بلغ سن النضوج مبكراً ومات فى سن غضة : فقد مات بورباخ فى الثامنة والثلاثين ومولر فى الأربعين . وصمم مولر على أن يتعلم اليونانية لكى يقرأ كتاب : « المجسطى » فى الفلك لبطليموس بلغته الأصلية فذهب إلى إيطاليا ودرس اليونانية على يد جوارينو دى فيرونا والتهم كل النصوص التى وقعت فى يده سواء كانت باليونانية أو باللاتينية عن الفلك والرياضيات ثم عاد إلى فيينا وهناك قام بتدريس هذه العلوم بنجاح حتى لقد استدعاه ماتياس كورفينوس إلى بودا ثم انطلق إلى نورمبرج حيث بنى له أحد أغنياء الطبقة المتوسطة أول مرصد أوروبى وجهزه مولر بآلات أقامها أو حسنها بنفسه . وإنا لنحس بنسيم العلم النقى فى خطاب كتبه إلى زميل له من علماء الرياضة عام ١٤٦٤ : « لست أدرى متى يتوقف قلمى . إنه سوف يستهلك كل أوراقى إذا لم أتوقف عن الكتابة . إن المسائل تخطر لى واحدة إثر الأخرى وكثير منها جميل بحيث أتردد أيها أضع بين يديك » . وفى سنة ١٤٧٥ استدعاه سكستوس الرابع إلى روما لإصلاح التقويم وهناك مات جيو مونتانوس بعد عام .

وقد حدت حياته القصيرة من منجزاته . ووضع تخطيطا لمؤلفات فى الرياضيات والطبيعة والتنجيم والفلك، وكان يأمل أن يشرف على نشر القديم

من تلك العلوم . ولم تجد طريقها للوجود والبقاء إلا شذرات من هذه الأعمال وقد أكمل خلاصة « المجسطية » لبورباخ وألف مقالا بعنوان « فى المثلثات » De triangulis ، وهو أول كتاب خصص لحساب المثلثات وحده . ويبدو أنه كان أول من رأى استخدام المماسات فى الحسابات الفلكية وسهلت جداوله عن جيوب الزوايا وظلالها الحسابات الفلكية لكوبر نيكوس . ووضع جداول فلكية تمتاز بدقة لا نظير لها فى الجداول التى وضعت من قبل . وأثبتت طريقته فى حساب درجات الطول والعرض أنها نعمة وبركة للملاحين .

وأصدر عام ١٤٧٤ تقويماً بعنوان : « اليوميات » Ephemerides أوضح فيه الوضع اليومى للكواكب السيارة خلال الأعوام الاثنتين والثلاثين القادمة ومن هذا الكتاب تنبأ كولمبس بخسوف القمر الذى سيملأ بطون رجاله الجياع فى اليوم التاسع والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٠٤ .

وقد وضعت الملاحظات التى أبداها رجيومونتانوس ، عن مذنب هالى أسس علم الفلك الحديث الخاص بالمذنبات . ولكن تأثيره الشخصى فى حياته كان أعظم من تأثير كتبه فقد ساعدت محاضراته المشهورة على إحـــداث إشراقة ذهنية فى نورمبرج فى شباب دورر وإليه يرجع الفضل فى شهرة المدينة بآلاتها وخرائطها الملاحية . ولقد رسم أحد تلاميذه ، مارتن بهايم بالألوان على الرق أقدم كرة أرضية معروفة عام ١٤٩٢ وهى لا تزال محفوظة فى المتحف الألمانى لنورمبرج .

ولا تدين الجغرافية الحديثة بوجودها للمتخصصين فى هذا العلم بقدر ما تدين للبحارة والتجار والمبشرين والمبعوثين والجنود والحجاج . وقد استخدم ربابنة السفن الاسبان من قطالونيا خرائط ممتازة وكان دليل الربان لموانى البحر الأبيض المتوسط الذى كانوا يستخدمونه فى القرن الرابع عشر لا يقل دقة عن خرائط الملاحة فى عصرنا . ولما كانت الطرق التجارية للشرق قد

سقطت فى أيدى الترك فقد طور المستوردون الأوربيون طرقاً برية جديدة تخترق أراضى المغول وبعــد أن قضى أودريك أف بوردنون الراهب الفرنشيسكانى ثلاث سنوات فى بكين (١٣٢٣ — ١٣٢٦ م) كتب تقريراً إيضاحياً عن رحلته إلى الصين عبر الهند وسومطره وعن رحلة عودته عبر التبت وإيران . وروى كلافيجو — كما سنرى — قصة خلابة عن بعثته إلى تيمور . وأما جوهان شنيتبرجر البافارى الذى أسره الأتراك فى نيكوبوليس عام ١٣٩٦ فقد قام بجولة اســتغرقت ثلاثين عاماً فى تركيا وأرمينيا وجورجيا وروسيا وسيبيريا وكتب فى مؤلفه « كتاب النهضة » Reisebuch أول وصف لسيبيريا لكاتب من غرب أوربا . وفى سنة ١٥٠٠ نشر جوان دى لا كوزا أحد ربابنة سفن كولمبس خريطة متسعة للعالم توضح لأول مرة بالرسوم الجغرافية استكشافات سيده وفاسكو دى جاما وآخرين . كانت الجغرافية دراما متحركة فى القرن الخامس عشر ومن أعظم الرسائل أثراً فى الجغرافية بصفة خاصة « صــورة العالم » che Imago mundi (١٤١٠) الكاردينال بيردايلى وهى التى شجعت كولمبس على القيام برحلته بوصفها المحيط الأطلسى بأنه يمكن عبوره فى بضعة أيام إذا كانت الريح مواتية . وكان هذا الكتاب واحداً من ست مؤلفات كتبها هــذا القسيس المجتهد فى الفلك والجغرافية والأرصاد الجوية والرياضيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم النفس وإصلاح التقويم والكنيسة : وعند ما وجه إليه اللوم لتخصيصه وقتاً طويلا كهذا للدراسات الدنيوية أجاب بأن على رجل الدين أن يطلع دائماً على العلم بل إنه كان يرى أن فى التنجيم شيئاً من العلم وعلى أسس من التنجيم تنبأ بأن المسيحية سوف تتعرض لتغيير كبير فى خلال مائة عام كما تنبأ بأحداث تهز العالم فى عام ١٧٨٩ .

وخير فكرة علمية فى القرن الرابع عشر كانت فى علم الطبيعة ويرجع الفضل إلى ديتريش أوف فرايبورج فى أنه قدم لنا بالذات تفسيرنا الحديث

لقوس قزح وأنه يتكون نتيجة انكسارين وانعكاس واحد لأشعة الشمس من قطرات الماء . . ولجان بوريدان مؤلف رائع فى الطبيعة النظرية ومما يؤسف له أنه اشتهر بفضل حماره فحسب ولعله لم يكن صاحبه[1] . وقد ولد بوريدان قرب آراس قبل عام ١٣٠٠ وتلقى علومه ثم درس فى جامعة باريس . وهو لم يعلل دوران الأرض اليومى حول الشمس فحسب بل إنه أسقط من علم الفلك المعارف الملائكية التى نسب إليها أرسطو وأكويناس مسار الأجرام السماوية وحركاتها وقال بوريدان : « لا حاجة بنا بعد اليوم إلى تفسير حركاتها أكثر من أنها بدأت تتحرك أصلا بإذن الله وبقانون قوة الدفع — أن أى جسم يتحرك يستمر فى الحركة ما لم تمنعه قوة موجودة » . وهنا كان لبوريدان فضل السبق على جاليليو وديكارت ونيوتون . واستطرد قائلا إن حركة النجوم تحكمها نفس القوانين الآلية التى تتحكم فى الأرض . وهذه الآراء التى تعد الآن رثة بالية كان لها أثر عظيم فى هدم آراء الناس فى العصور الوسطى . وهى تكاد تؤرخ لبداية الطبيعة الفلكية .

ونقل تلاميـــذ بوريدان آراءه إلى ألمانيا وإيطاليا وتأثر بها ليونارد وكوبرنيكوس وبرونو وجاليليو ثم حملها ألبرت أمير ساكـسونيا إلى الجامعة التى أنشأها فى فيينا عام ١٣٦٤ ونقلها مارسيليوس فون انجهن إلى الجامعة التى أسسها فى هيدلبرج عام ١٣٨٦ وكان ألبرت أول من نبـــذ رأى أرسطو القائل أن الفراغ مستحيل ، وطور فكرة وجود مركز الجاذبية فى

---

(١) لا توجد حكاية « حمار بوريدان » فى أعماله الباقية ومع ذلك فهى رواية مأثورة عن عصر خليق بالاحترام : ولعلها وردت فى إحدى محاضراته . وقد أثبت جان أن الإرادة عند ما تواجه الاختيار بين أمرين تجد لزاماً عليها أن تختار ما يرى العقل أنه أكثر نفعاً . وعلى ذلك انتهى أحد الأذكياء إلى القول إنه لو وضع حمار جائع على بعدين متساويين من حزمتين من العلف ، شهيتين ومتساويتين فإنه لن يجد سبباً يدعوه إلى تفضيل إحداهما على الأخرى ، وإذا لم تكن هناك طعام آخر فإنه قد يهلك جوعاً .

كل جسم وسبق مبادئ جاليليو عن التوازن فى حالة السكون والعجلة المنتظمة للأجسام الساقطة وتمسك بأن تعرية الجبال بسبب الماء وارتفاع الأرض التدريجى أو بعوامل بركانية تعد قوى معوضة فى الجيولوجيا — وهى فكرة خلبت لب ليوناردو .

وأحرز علم الميكانيكا العملية بعض التقدم المتواضع واستخدمت الطواحين الهوائية المعقدة لضخ الماء وصرفه من الأرض وطحن الغلال وللقيام بأعمال ومية أخرى . واستخدمت القوة المائية فى الصهر والنشر وفى تشغيل منفاخ الفرن والمطرقة الميكانيكية وآلات غزل الحرير وكان المدفع يسبك ويثقب وكان الصلب يصنع بكميات كبيرة الحجم وأقيمت أفران الصهر العالية فى أوروبا الشمالية إبان القرن الرابع عشر ونذكر الثاقب الجيد فى سنة ١٣٧٣ وكان سحب الأسلاك يمارس فى نورمبيرج فى القرن الخامس عشر ووردت صورة مضخة تتكون من دلاء مركبة على سلسلة لا نهاية لها فى مخطوط عام ١٤٣٨ . وفى رسم للمهندس كونراد كيزر وهو من أتباع هس(١٤٠٥) توجد أقدم صورة معروفة للحركة المترددة التى تتحول إلى حركة دوارة : ذراعان يتحركان على التعاقب ويديران فى دقة اسطوانة بنما تدير المكابس عمود المحور لسيارة .

وكانت الحاجة ماسة إلى ميكانيكية أفضل لقياس الوقت لنمو حجم التجارة والصناعة ؛ وقسم الرهبان والفلاحون النهار إلى عدد بعينه من الفترات فى كل الفصول وجعلوا الفترات فى فصل الصيف أطول منها فى فصل الشتاء . وتطلبت الحياة فى المدينة تقسيمات للوقت أكثر تجانسا فصنعت إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ساعات حائط وساعات معصم يقسم فيها اليوم إلى أجزاء متساوية طوال العام . وفى بعض الأماكن كانت الساعات ترقم من واحد إلى أربع وعشرين كما يجرى عليه العمل لضبط الوقت عند العسكريين فى عصرنا . وفى أواخر عام ١٣٧٠ كانت

بعض الساعات الكبيرة مثل التي صنعت فى سان جوتارد وفى ميلان تدق الرقم بأكمله . وقد ثبت أن هــذا إسراف فى الضجيج . وما أن حل عام ١٣٧٥ حتى كان اليوم مقسما بانتظام إلى نصفين كا منهما به اثنتا عشرة ساعة .

وكانت القاعدة الأساسية فى الساعة الآلية ثقلا يدير عجلة ببطء ويتحكم فى دورانها ترس له أسنان مقاومته كافية بحيث تسمح للعجلة بأن تدور بمقدار سن واحدة فى فترة معينة من الزمن . ولقد وضعت هذه الساعة التى تقيس الوقت حوالى عام ١٢٧١ . وأقيمت أول ساعات آلية كبيرة فى أبراج للكنائس أو قباب يمكن رؤيتها من مساحات بعيدة فى أى مدينة . ومن أوائل هذه الساعات ما ركب فى دير سانت ألبانز على يد ريتشارد والنجفورد وكانت لاتبين الساعات والدقائق فى اليوم فحسب بل كانت تبين أيضا الجزر والمد وحركات الشمس والقمر ، وأما الساعات التى صنعت فيما بعد فقد أضيف إليها مزيج من الأجهزة المبتكرة فى الساعة الكبيرة فى كاتدرائية ستراسبورج (١٣٥٢) وكان يظهر فيها ديك يصيح وثلاثة من المجوس وتمثال شخص موضح عليه الوقت المناسب لحجامة كل عضو من أعضاء الجسم ، وكانت ساعة الكاتدرائية فى ولز تستخدم صورة متحركة للشمس تشير إلى الساعة ونجما صغيرا يتحرك على دائرة داخلية ليبين الدقيقة ودائرة ثالثة تبين أى يوم فى الشهر وعلى منصة فوق المزولة أربعة من الفرسان يبرزون ويهاجمون كلما دقت الساعة وفى إحدى الساعات التى صنعت فى القرن الخامس عشر فى فيينا كانت هناك رأس مهرج يفتح فمه الهائل ليلتهم تفاحة ذهبية من أحد الحجاج ولكنه لا يكاد يطبق عليها فمه حتى تختطف منه وكانت هذه الملهاة تمثل كل ساعة من ساعات اليوم خلال مئات الأعوام ولا تزال هذه الساعة موجودة . وقد أقيمت عام ١٥٠٦

ساعة مماثلة فى نورمبرج وأوقفتها الحرب العالمية الثانية بجفاء عن العمل ثم استأنفت عروضها المسرحية فى سنة ١٩٥٣ .

ولصنع الساعات الصغيرة استبدل بالثقل المعلق زنبرك حلزونى عام ١٤٥٠ شريط من الصلب الرقيق يلف على شكل حلقة صغيرة أو طارة وتحدث بفكها تدريجيا الأثر الذى يحدثه الثقل على العجلة البطيئة . وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى أصبحت الساعات الصغيرة متوفرة بعضها كبير فى حجم الكف والبعض الآخر صغير فى حجم اللوزة وكثير منها كان بيضى الشكل مثل « بيض نورمبرج » التى صنعها بيتر هيل (١٥١٠) وطبقت قاعدة الثقل والترس والعجلة لأغراض أخرى بحيث أصبحت الساعة الآلية سببا فى صنع عشرات الآلاف من الآلات المتعددة .

وبينما كان علم الطبيعة بشيرا بالثورة الصناعة كانت الكيميا القديمة تنمو ببطء فى علم الكيمياء وفى نهاية هذا العصر كان الكيميائيون قد اكتشفوا ووصفوا الزنك والبزموت والكبريت الحى وحجر الأثمد (الأنتيمون) والفورين القلوى الطيار ومواد أخرى كثيرة وقطروا الكحول وبخروا الزئبق وصنعوا حامض الكبريتيك بتسخين الكبريت وأعدوا الأثير والماء الملكى وصبغة قرمزية تفوق الصبغات التى تستعمل الآن وأورثوا علم الكيمياء الطريقة التجريبية التى أثبتت أنها أعظم ما وهبه علم العصور الوسطى للعقل الحديث .

وكان علم النبات لا يزال فى الأغلب مقصورا على كتيبات فى الفلاحة أولا يعدو كتابا يصف أعشابا ونباتات طبية . وكان من رأى هنرى أوف هيس (١٣٢٥ — ١٣٩٧) أن أنواعا جديدة . بخاصة بين النباتات . يمكن أن تتطور طبيعيا عن أنواع قديمة وكان هذا رأيه قبل داروين بخمسمائة عام . وليس من شك فى أن إقامة معارض ملكية أو بابوية للوحوش

وتربية الحيوانات والطب البيطرى وعجالات فى القنص أو صيد السمك أو تربية النحل أو دود القز وحكايات خرافية أبطالها من الحيوانات تروى قصصا منها ما له مغزى أخلاقى وكتبا فى فن رياضة الصقور مثل كتاب مرآة فيبوس (١٣٨٧) من تأليف جاستون الثالث كونت أوف فو ، قد جمعت بلا قصد مادة لعلم الحيوان .

وكان لا بد للتشريح والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) من الاعتماد على تشريح الحشرات وعلى إصابات الجنود والحالات العرضية التى يحتم فيها القانون إجراء تشريح لمعرفة سبب الوفاة . وكان المسيحيون المؤمنون يحسون بأنهم على حق فى الاعتراض على تشريح جثث الآدميين فالمفروض أنهم على الرغم من وفاتهم سيبعثون من القبور وأبدانهم سليمة يوم الحساب ، وكان من الصعب الحصول على جثث لدراسة التشريح خلال القرن الرابع عشر وأتيح لعدد قليل جداً من الأطباء شمال الألب قبل عام ١٤٥٠ رؤية جثة بشرية بعد تشريحها ومع ذلك فإن جى دى شولياك أقنع السلطات فى أفنيون عام ١٣٦٠ بأن تحول لمدارس الطب جثث المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام لإجراء تشريح لها . وكانت عمليات التشريح تتم أمام طلبة الطب فى البندقية عام ١٣٦٨ وفى مونبلييه عام ١٣٧٧ وفى فلورنسا عام ١٣٨٨ و لاردة عام ١٣٩١ وفى فيينا عام ١٤٠٤ . وشيدت جامعة بادوا عام ١٤٤٥ أول مشرحة معروفة وكانت النتائج لا نهاية لها فى عالم الطب .

٤ — المعالجون

كانت أوروبا الشمالية متخلفة بنصف قرن أو أكثر عن إيطاليا فى علم الطب وممارسته شأنها فى ذلك شأن الأدب والفن بل إن إيطاليا لما تصل ثانية عام ١٣٠٠ إلى ما صل إليه جالينوس وسورانوس فى الطب قبل ذلك بألف

عام ، ولكن مدارس الطب فى مونبلييه وباريس وا دسمورد أحرزت تقدماً لا بأس به ، وكان أعظم الجراحين فى هذا العصر من الفرنسيين . وكانت المهنة وقتئذ منظمة تماماً وتدافع بشدة عن امتيازاتها ولكن لما كان الطلب على العلاج يزيد كثيرا عن عدد الأطباء فإن تجار الأعشاب الطبية وبائعى العقاقير والقابلات والأطباء المتجولين والحلاقين والجراحين — ولا ضرورة لذكر أدعياء الطب — نمسوا فى كل مكان الأطباء المتمرسين . وأما الجمهور الذى كان يصاب بالمرض بسبب المعيشة الخاطئة ثم يبحث عن تشخيص لا يخطئ وعلاج رخيص يتم به الشفاء فى ليلة واحدة فقد كان يجأر بالشكاوى المعتادة من الأطباء المرتزقة والسفاحين ورأى فرواسار أن « هدف كل رجال الطب أن يحصلوا على مرتبات كبيرة » وكأن هذا لم يكن مرضاً متوطنا بالنسبة لكل الحضارات .

وكان أهم رجال الطب إبان هذا العصر الجراحين ولم يكونوا قد أقنعوا بعد الأطباء بالاعتراف بهم على قدم المساواة ، والحق أن جامعة باريس كانت لا تقبل طالبا فى مدرسة الطب فى القرن الرابع عشر إلا بعد أن يقسم أنه لن يجرى أية عملية جراحية . بل إن الحجامة التى أصبحت علاجا لكل الأمراض حرمت على الأطباء وكانت تترك لتابعيهم . ولجأ الناس إلى الحلاقين لإجراء عمليات كثيرة إلا أن الحلاقين الجراحين كانوا إبان ذلك الوقت يهجرون ممارسة الحلاقة ويتخصصون فى الجراحة ، وكان هناك أربعون من هؤلاء الحلاقين فى باريس عام ١٣٦٥ ، وفى إنجلترا استمروا يزاولون المهنة حتى عام ١٥٤٠ . وصدر غام ١٣٧٢ قانون قصر عملهم فى فرنسا على علاج « الجروح التى ليس من شأنها أن تسبب الوفاة » ولذلك فإن العمليات الكبيرة لا يمكن أن يجريها قانونا إلا « أساتذة الجراحة » الإخصائيون ، وصدر عام ١٥٠٥ مرسوم بإنشاء كلية ملكية للجراحين فى ادنبرة .

وأعظم المتخصصين فى الجراحة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر هم هنرى دى موند فيل وجى دى شولياك ولعل فرواسار سجل أن موندفيل ظل فقيرا حتى آخر يوم فى حياته على الرغم من أن أعماله كانت دائما فى رواج وأنه قام بعمله على الرغم من إصابته بالربو والسل . وقد استوعب كتابه « الجراحة » Chirurgia (١٣٠٦ — ٢٠) وهو أول مؤلف فى الجراحة لفرنسى ، الميدان كله بإتقان وجدارة تبوأ بهما — الجراحون مكانا مرموقاً وكان أعظم ما أسهم به تطبيق وتطوير طريقة تعلمها من تيودوريك بورجونيونى فى بولونيا لعلاج الجروح بالتطهير الكامل ومنع التقيح وتسرب الهواء وعمل الضمادات بالنبيذ ، وقد دافع عن الطريقة التى ابتدعها بأن حذر من قبـول رأى جالينوس أو غيره من الثقات القدامى بلا مناقشة ، وكتب يقول مستخدما صفة محببة فى العصور الوسطى : « إن المؤلفين المعاصرين بالنسبة للقدامى منهم يشبهون قزما يركب فوق كتف عملاق فهو يرى كل ما يراه العملاق بل ويرى أبعد منه » .

وقد أنجب الجيل الذى جاء بعده أشهر الجراحين فى العصور الوسطى وهو جى دى شولياك وهو من أصل ريفى وولد فى قرية ريفية أخذ منها اسمه ، وقد أثر فى سادة القصر فجعلهم يتكفلون بنفقات تعليمه فى تولوز ومونبلييه وبولونيا وباريس ، وفى عام ١٣٤٢ أصبح طبيبا خاصا للبابا فى أفنيون . واحتفظ بهذا المنصب الصعب ثمانية وعشرين عاماً وعندما اجتاح وباء الطاعون أفنيون لم يغادر موقعه ومد يد العون للضحايا وأصيب بالوباء ولم ينج من الموت إلا بمعجزة ، وقد ارتكب أخطاء جسيمة مثل أى إنسان إذ كان تارة يعزو انتشار الوباء إلى اقتران بين الكواكب فى ساعة نحس وتارة يتهم اليهود بأنهم يهدفون إلى تسميم أبناء العالم المسيحى وأخر التئام الجروح بنبذه طريقة موندفيل فى اللصقات والمراهم ولكنه عاش معظم حياته وفيا لأرفع تقاليد مهنته العظيمة . ويعد مؤلفه Chirurgia magna (١٣٦٣)

الجامع فى فن الجراحة » أكمل بحث فى الجراحة وأكثر تنسيقا وأغزر
ادة من الرسائل التى ألفت قبل القرن السادس عشر .

ووا كبت الصحة الجماعية والفردية بصعوبة تقدم الطب فلم تكن النظافة
الشخصية شيئا مقدسا بل إن ملك إنجلترا كان لا يستحم إلا مرة واحدة
كل أسبوع وكان يغفل الاستحمام أحيانا . . . وكان الألمان يستخدمون
ءامات عامة — أحواضا واسعة يقف فيها المستحمون أو يجلسون عراة
الأجسام وأحيانا يستحم فيها الجنسان معا . وكان فى أولم وحدها ١٦٨ حماما
عاما ١٤٨٩ وفى كل أنحاء أوربا — دون استثناء للطبقة الأرستقراطية دائماً —
كانت نفس القطعة من الملابس ترتدى شهورا أو سنوات أو أجيالا .

وكان فى كثير من المدن ما يكفيها من الماء ولكنه كان لا يصل إلا إلى
بضع منازل وكان على معظم الأسر أن يجلبوا الماء من أقرب نافورة أو بئر
أو ينبوع . وظل هواء لندن ملوثا برائحة الماشية المذبوحة إلى أن حرمت هذه
المذبحة عام ١٣٧١ وكانت المراحيض تنغص حياة الناس السهلة فى الريف .
ولم يكن فى منازل لندن إلا مرحاض واحد لكل السكان وخلا كثير من
أى مرحاض وكانت تفرغ ما فيها من براز فى الأفنية أو الطرقات . وكانت
لاف الفضلات تلقى فى نهر التيمز وقد صدر عام ١٣٥٧ قانون يحرم
ذلك وإن استمر الحال على ما هو عليه وفى سنة ١٣٨٨ أقر البرلمان أول
قانون للصحة العامة يسرى فى جميع أنحاء إنجلترا وقد دفعه إلى هذا انتشار
الوباء أكثر من مرة « نظراً لأن كثيراً من الغائط والنفايات القذرة والأمعاء
والذبائح والمواد المتعفنة الأخرى تلقى وتوضع فى الحفر والأنهار والمياه
الأخرى . . . ونظراً لأن الهواء يتلوث ويفسد إلى حد كبير فتنتشر كل
يوم أمراض كثيرة وأسقام أخرى لا تطاق بين السكان وبين الآخرين
ممن يترددون أو يسافرون إلى هناك فقد تم الاتفاق والرضى على نشر

هذا الاعلان — فى أنحاء مملكة إنجلترا . . . إن جميع من يلقون ويضعون مثل هذه الأشياء المقلقة للراحة سيجبرون على إزالتها تماماً ... وإلا تعرضوا لعقوبة الغرامة من مولانا الملك » .

وقد صدرت قوانين مماثلة فى فرنسا فى مثل هذا الوقت وفى سنة ١٣٨٣ أمرت السلطات فى مارسيليا ، مقتفية أثر سلطات راجوزا (١٣٧٧) بعزل الأشخاص المصابين بالوباء لمدة أربعين يوماً — بالحجر الصحى . واستمرت الأوبئة فى الانتشار — الحمى الدخنية فى إنجلترا (١٤٨٦—١٥٠٨) ومرض الخناق والجدرى فى ألمانيا (١٤٩٢) — إلا أن العدوى بها قد تضاءلت وقلت الوفيات . وعلى الرغم من التهاون فى الرعاية الصحية فإن المستشفيات كانت كثيرة نسبيا فقد كان فى إنجلترا ٤٦٠ مستشفى عام ١٥٠٠ وكان فى يورك وحدها ستة عشر مستشفى .

وتجاوز علاج المجانين شيئاً فشيئاً مرحلة احترام الخرافات والأوهام والقسوة الهمجية إلى مرحلة العلاج العلمى ، فقد حدث عام ١٣٠٠ أن نبشت جثة فتاة ادعت أنها الشبح المقدس وأحرقت بأمر من رجال الدين ، وانتهت فتاتان عبرتا عن إيمانهما بما ادعته ، مصرعهما بالجلوس على الخوازيق وفى سنة ١٣٥٩ فوض كبير أساقفة طليطلة السلطات المدنية فى إحراق إسبانى حياً وكان قد ادعى أنه أخ ميكائيل كبير الملائكة وأنه يتردد على السماء والجحيم كل يوم .

وتحسنت الأمور فى القرن الخامس عشر إذ أن راهبا يدعى جان جوفر ، امتلأ قلبه عطفا على المجانين الذين كانت الغوغاء تتابعهم فى الشوارع بصفير الاستهزاء أنشأ مستشفى للمجانين (١٤٠٩) وحذت السلطات حذوه فى مدن أخرى وتحولت مستشفى سانت مارى أوف بيت لحم التى أسست فى لندن عام ١٢٤٧ ، إلى مستشفى للمجانين عام ١٤٩٢ وأصبحت

كلمة « بيت لحم » التى حرفت إلى كلمة « بدلام » — مرادفة لمستشفى المجانين .

وكان الذين يثبت إصابتهم بالجذام منبوذين من المجتمع وإن كان الجذام قد اختفى أو كاد من أوروبا الغربية فى القرن الخامس عشر وحل محله مرض الزهرى ، ولعله مرحلة متطورة لمرض الزهرى المعروف من قبل فى فرنسا وربما كان مرضا وافدا من أمريكا وظهر أخيرا فى إسبانيا عام ١٤٩٣ وفى إيطاليا عام ١٤٩٥ ثم انتشر انتشارا واسعاً فى فرنسا حتى أطلق عليه اسم الوباء الغالى[١] .

وقد اجتاح بعض المدن فى ألمانيا فالتمست إعفاءها من الضرائب — وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى سمعنا عن استخدام الزئبق فى علاجه . وأخذ تقدم الطب فى ذلك الوقت كما هو الآن يسابق بشجاعة كل مستحدث فى المرض .

٥ — الفلاسفة

على الرغم من أن عصر واضعى النسق قد انقضى فإن الفلسفة كانت لا تزال فى أوج قوتها والحق أنها زعزعت أركان العقيدة المسيحية فى القرن الرابع عشر . وانتهى تذبذب علماء اللاهوت فى الفلسفة بفضل تحول فى الرأى : فقد اهتم قادة الفكر مثل بوريدان بالعلم اهتماما كبيرا وبالاقتصاديات مثل أريزم وبالنظام الكنسى مثل نيكولاس الكوزى وبالسياسية مثل بيير ديبوا ومارسيليوس البادوى . وكان هؤلاء الرجال أندادا فى الفكر لالبرتوس ماجينوس وتوما الأكوينى وسيجيردى باربان ودونس سكوتوس وظلت فلسفة الكلام — كمنهج للجدل والعرض وكمحاولة لاظهار ارتباط العقل بالإيمان — تسود الجامعات فى الشمال واعتبر الأكوينى قديسا عام ١٣٢٣ وبعد ذلك أحس أتباعه من الدومينيكان وبخاصة فى لوفين وكولونيا أن من دواعى الشرف أن يتمسكوا بعقيدة فى مواجهة كل التحديات .

---

(١) نسبة إلى بلاد الغال .

أما معارضوه من الفرنشسكان الثابتين على العهـــد فقد آثروا أن يتبعوا أوجستين ودونس سكوتوس . وصدم ويليام ديراند من سان بورسان ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان المتحررين ، طائفته عندما انخرط بين أتباع سكوتوس وعند ما بلغ الثامنة والثلاثين (عام ١٣٠٨) بدأ فى كتابة حاشية مفصلة وفرغ منها فى سن متقدمة . ولقد نبذ أثناء تقدمه آراء أرسطو والأكوينى ورأى أن يغلب العقل على حجة كل عالم مهما كان حظه من الشهرة أو الخطر » وهنا كان فيلسوفا له نصيب من حاسة الفكاهة . وبينما ظل صراحة وفيا لآراء علماء اللاهوت فإنه مهد السبيل لاسمية أوكهام المتشددة وذلك باستعادة المذهب التصورى لأبيلار : الأشياء الفردية فقط التى تبقى وكل الأفكار المجردة أو العامة ليست إلا أقرب التصورات للعقل . وأطلق أصدقاء وليام عليه اسم دكتور ريزولوتيسيموس أما خصومه فأطلقو عليه اسم دوروس دوراندوس — ديران الصاب — وكانوا يعللون أنفسهم بأن نيران جهنم سوف تلين قناته فى النهاية .

وكان ويليام الاوكهامى أشد صلابة ولكنه لم ينتظر حتى يلقى حتفه حرقا ، وقضى حياته بأسرها فى جدل حاد ولم تخف حدته إلا بالسجن من آن لآخر وتحت ضغط الأيام ليعبر عن حرارته فى صيغة الفلسفة الكلامية ولم يسلم فى الفلسفة إلا بسلطان التجربة والعقل . وكان يتحمس لنظرياته ويمسك بخناق نصف أوربا دفاعا عن آرائه . وهو بحياته ومغامراته وأهدافه يسبق إلى تمثيل فولتير ومغامراته وأهدافه . ولعله كان أعظم منه أثرا .

ولا نستطيع أن نقول أين أو متى ولد على وجه التحديد ، ولعله ولد فى أوكهام بمقاطعة سورى حوالى نهاية القرن الثالث عشر . واندرج فى سلك طائفة الفرنشسكان وهو بعد صبى صغير وعند ما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى جامعة اكسفورد باعتباره صبيا ذكيا سيكون ولا ريب ضوء

مشرقا فى الكنيسة . وفى اكسفورد وربما فى باريس ، أحس بتأثير راهب فرنشسكانى آخر داهية هو دونس سكوتوس لأنه على الرغم من أنه عارض « واقعية » سكوتوس فإنه دفع بنقد سلفه التعقلى للفلسفة واللاهوت بضع خطوات نحو مذهب الشك الذى يذيب الفوارق بين العقائد الدينية والقوانين العلمية . وقام بالتدريس ست سنوات فى اكسفورد وربما يكون قد درس فى باريس . ويبدو أنه كتب تعليقات على فلسفة أرسطو وبيتر لومبارد قبل عام ١٣٢٤ — وهو لا يزال حدثا فى العشرين وأعظم أثر له هو كتاب « الجامع لكل علم المنطق Summa totius logicae » وهو موجز لكل قواعد المنطق .

ويبدو الأمر لأول وهلة صورة من صحراء جرداء فى تقطيع أوصال المنطق والمصطلحات اللغوية التكنولوجية ، موكب لا حياة فيه من التعريفات والتقسيمات والتفريعات والصفات المميزة والتصنيفات والمهارات . وعرف أوكهام كل شىء عن « علم المعانى » وأسف لعدم دقة الاصطلاحات المستعملة فى الفلسفة وقضى نصف الوقت فى محاولة توخى الدقة فيها أكثر من قبل . واستاء من الصرح القوطى للتجريدات يركب أحدها الآخر كالعقود فى الطبقات الموضوعة إحداها فوق الأخرى ، والتى أثارها الفكر فى القرون الوسطى . ولا نستطيع أن نجد فى أعماله الباقية بالدقة الصيغة المشهورة التى سميت فى التراث باسم « مبضع أوكهام » الذاتيات لا تتضاعف بحيث تتجاوز الحاجة . ولكنه عبر عن المبدأ بمصطلحات أخرى مرارا وتكرارا — التعددية (فى الذاتيات أو العلل أو العوامل) لا تثبت (أو تفترض) إلا لضرورة » و « من العبث أن نبحث عن إنجاز أو شرح بافتراض أو علل يمكن تفسيرها بأقل منها » ، ولم يكن المبدأ جديدا فقد قبله الأكوينى واستخدمه سكوتوس ولكنه بين يدى أوكهام أصبح سلاحا قاتلا يقطع به مئات من الأوهام الغامضة والتجريدات المظلمة .

وبتطبيق المبدأ على نظرية المعرفة رأى أوكهام أنه لا داعى لأن يفترض كمصدر ومادة للمعرفة ، أى شيء أكثر من الإحساسات ومن هذه تنشأ الذاكرة (إحساس ينعش) والإدراك (إحساس يفسر من خلال الذاكرة) والخيال (ذاكرات متحدة) والتوقع (ذاكرة تنعكس) والفكرة (ذاكرات تقارن) والتجربة (ذاكرات تفسر من خلال الفكرة) . « لا شيء يمكن أن يكون موضوعاً للحس الداخلى (الفكرة) إلا إذا كان موضوعاً للحس الخارجى (الشعور) » . وها هو المذهب التجريبى للوك قبل ظهوره بثلاثمائة عام .

وكل ما ندركه خارج نفوسنا هو ذاتيات فردية — أشخاص معينين وأشياء وأفعال وأشكال وألوان وأذواق وروائح وضغوط ودرجات حرارة وأصوات ، والكلمات التى تعبر بها عن هذه هى «كلمات أول قصد» أو المراد الأولى وتشير مباشرة إلى ما ننشرها على أنها حقائق خارجية ، وبتدوين وتجريد الملامح العامة للذاتيات المماثلة التى أدركت على هذا النحو يمكنا أن نصل إلى أفكار عامة أو مجردة — رجل ، فضيلة ، ارتفاع ، حلاوة ، حرارة ، فصاحة . والكلمات التى نعبر بها عن مثل هذه التجريدات هى كلمات « القصد الثانى » وتشير إلى المفاهيم المستخلصة من المدركات . وهـــذه « العموميات » لا تختبر فى الإحساس فهى تعبيرات ودلالات وأسماء لتعميمات نافعة للغاية (وخطرة) فى الفكر أو العقل وفى العلم والفلسفة واللاهوت ، وهى ليست أشياء توجد خارج العقل . وأن كل شيء خارج العقل مفرد ويساوى عددياً واحداً .

والعقل شيء رائع ولكن استنتاجاته لا تكون لها معنى إلا إذا كانت تشير إلى التجربة — أى إلى إدراك الذاتيات الفردية ، أو إلى أداء الأفعال الفردية وإلا فإن استنتاجاته تكون من قبيل العبث وقد تكون تجريدات خادعة وما أكثر اللغو قولا وكتابة بإساءة فهم الأفكار على أنها أشياء

والتجريدات على أنها حقائق . إن الفكرة المجردة لا تقوم بوظيفتها إلا عندما تؤدى إلى بيانات معينة عن أشياء معينة .

ومن هذا المذهب الاسمى طرق أوكهام فى تهور لا يبقى ولا يذر كل ميدان فى الفلسفة واللاهوت . وأعلن أن كلا من الميتافيزيقيا والعلم تعميمات متلقة لأن تجربتنا ليست إلا عن ذاتيات متعينة فى مساحة وزمن محصورين فى نطاق ضيق ولذلك فإنه من الغرور أن نفترض على وجه الشمول والدوام صحة القضايا والقوانين الطبيعية التى نستمدها من هذا القطاع الصغير من الحقيقة فتصاغ معرفتنا وتحدد بوسائلنا وطرقنا فى إدراك الأمور (وهذا هو رأى كانت قبل ظهور كانت) وهى تبقى حبيسة فى سجن عقولنا ويجب ألا يدعى أنها الحقيقة الموضوعية أو النهائية عن أى شىء .

أما بالنسبة للروح فإنها تجريد أيضاً وهى لا تظهر أبداً فى إحساساتنا أو مدركاتنا سواء أكانت خارجية أم داخلية وكل ما ندركه هو الإرادة والذات (الأنا) التى تؤكد نفسها فى كل فعل وكل فكرة . والعقل نفسه وكل مجد ينسب للذهن آلات للإرادة ، والذهن ليس الإرادة التفكير تبحث عن غاياتها بالفكر « وهذا هو رأى شوبنهاور » .

ويبدو أن الله نفسه لا يصمد أمام هذه الفلسفة الحادة . ولم يجد أوكهام (مثل كانت) أية قوة باقية فى أى من المناظرات التى دارت لإثبات وجود الله . ورفض الأخذ برأى أرسطو القائل أن سلسلة الحركات أو العلل تجبرنا على أن نفترض الحركة الأولى أو العلة الأولى . ولم يَعِدْ غير مدرك ردة لانهائية للحركات والأسباب أكثر من المحرك الثابت أو العلة التى لا سبب لها فى لاهوت أرسطو ، ونظراً لأنه لا يمكن أن يعرف شىء إلا بطريق الإدراك المباشر فإنه لن يتيسر لنا الحصــول على معرفة واضحة بأن الله موجود .

ولا يمكن للعقل أن يرى أن الله قادر على كل شيء أو لا حد لقدرته، وعالم بكل شيء أو لطيف أو واحد، كما أن العقل لا يستطيع أن يثبت أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله تجسد إنساناً ليكفر عن خطيئة آدم وحواء بعصيانهما أو أن ابن الله حاضر فى القربان المقدس ، ثم إن التوحيد ليس مطابقاً للعقل أكثر من الشرك ، وربما يكون هناك أكثر من عالم يحكمها أكثر من إله .

إذن ماذا يبقى من البناء البهى للعقيدة المسيحية ؟ أساطيرها الجميلة وأناشيدها وفنها ، ما نصت عليه من أخلاق من وحى الله أم أملها الحصين؟ وقد تراجع أوكهام أمام هدم العقل للاهوت وفى محاولة يائسة لإنقاذ نظام اجتماعى قائم على شريعة أخلاقية تقوم على عقيدة دفينة رأى التضحية بالعقل على مذبح الإيمان ، وربما يكون الله موجوداً على الرغم من أنه لا يمكن إثبات هذا وأنه وهب كلا منا روحا خالدة . ويجب أن نميز ، كما أشار ابن رشد ودنس سكوتوس ، بين الحقيقة اللاهوتية وبين الحقيقة الفلسفية ، وأن نقبل متواضعين فى مجال الإيمان ما يرتاب فيه العقل الفخور بنفسه .

وكان من قبيل المبالغة أن تقبل الكنيسة هذه الحاشية الذنبية التى تكرم العقل العملى كفارة لذنب أوكهام لقيامه بنقد العقل المحض . فأمر البابا جون الثانى والعشرين بتكوين مجلس تحقيق من رجال الدين للنظر فى « الهرطقات البغيضة » التى اقترفها الراهب الشاب واستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية فى أفنيون ، وجاء أوكهام ، لأننا نجده عام ١٣٢٨ فى سجن بابوى هناك ، مع راهبين من الفرنشسكان وفر الثلاثة وهربوا إلى إيجسمورتس واستقلوا قاربا صغيرا والتقطتهم سفينة أخذتهم إلى لويس ملك باقاريا فى بيزا . وحرمهم البابا من غفران الكنيسة بينما أسبغ عليهم الإمبراطور حمايته . واصطحب ويليام لويس إلى ميونخ وانضم هناك إلى مارسيليوس من بادوا وعاش فى دير فرنشسكانى مناهض للبابا وأصدر منه سيلا من الكتب والنشرات ضد سلطان وهرطقة البابوات بعامة وجون الثانى والعشرين بخاصة .

وكما فاق أوكهام فى ميتافيزيقياته الشكية عند سكوتس فإنه فى نظريته العملية دفع مهاجمة مارسيليوس البادوى للإكليروس نتائج جريئة . وأعمل مبضعه فى العقائد والشعائر التى أضافتها الكنيسة إلى المسيحية الأولى وطلبه العودة إلى عقيدة أبسط وعبادة « العهد الجديد » .

وفى لجاجة عنيدة نشر كتابه « مائة لسان » Centiloqium theologicum فى علم اللاهوت واحتكم إلى مائة عقيدة للكنيسة ورأى أن كثيراً منها يؤدى منطقياً إلى نتائج سخيفة لا تحتمل ؛ فمثلا إذا كانت مريم أم الله وكان الله والدنا جميعاً فإن مريم تكون أما لوالدها . وناقش أوكهام الخلافة الرســولية للبابوات وعصمتهم من الخطأ ، وعلى النقيض من ذلك أكد أن كثيرا منهم كانوا هراطقة وأن بعضهم كانوا مجرمين وطالب بمعاملة رقيقة للهرطقة ورأى أن التعبير عن الرأى يجب أن يترك حرا إلا بالنسبة لنشر الزيف المتعمد . ورأى أن المسيحية فى حاجة إلى العودة من الكنيسة إلى المسيح ومن الثروة والسلطان إلى البساطة فى الحياة والخضوع لحكم الشريعة ويجب ألا تكون الكنيسة مقصورة على رجال الدين وحدهم بل يجب أن تضم المجتمع المسيحى بأسره . وهذه الزمالة الكاملة بما فيها النساء يجب أن تختار ممثلين لها يكون من بينهم نساء وتدعوهم إلى عقد مجلس عام وهذا المجلس يجب أن يختار البابا ويرأسه ويجب أن يكون على رأس الكنيسة والدولة شخص واحد .

ويجب أن تكون الحكومة نفسها خاضعة لإرادة الشعب لأنه يملك كل السلطة النهائية على وجه الأرض . وهو يفوض حقه فى التشريع والإدارة إلى ملك أو امبراطور على أساس أنه سوف يصدر القوانين لصــالح الجميع . وإذا كان الصالح العام يقتضى هذا فإن الملكية الخاصة يمكن أن تلغى .وإذا ارتكب الحاكم خطأ جسيما فإن حقيقة العقيدة الدينية تقضى عليه

بالصيام . وقد مات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال فى زهرة العمر .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن مصير أوكهام فهو لم يجد فى جمعة ميونيخ عزاءله عن نبيذ باريس الذى افتقده ، وقد قارن نفسه بجون الإنجيلى فى باتموس وإن كانت لم تواته الجرأة على التخلى عن حماية الإمبراطور . وطبقاً لرواية أحد الفرنشسكان المعاصرين وقع الراهب المتمرد فى آخر سنى عمره إقرارا ينكر فيه هرطقاته ، ولعل تصالح لويس مع الكنيسة جعلت هذا أمراً يمليه العقل والرشد ، وربما يكون وليام قد أحس بأن التساؤل عن حقيقة عقيدة دينية أمر سخيف . ومات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال فى مقتبل العمر .

وقبل وفاته بزمن طويل اعترف به كأقوى مفكر فى عصره وارتجت الجامعات بالجدل حول فلسفته . وقبل كثير من علماء اللاهوت وجهة نظره فى أن العقائد الأساسية للدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالعقل وأنه التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية كان واسع الانتشار فى القرن الرابع عشر كما تنتشر اليوم المهادنة المفهومة ضمنا بين التحقيق العلمى والخدمة الكهنوتية الدينية . وفى أكسفورد تكونت مدرسة من أتباع أوكهام أطلقت على نفسها اسم « الحياة العصرية » (كما سمى أبيلارد مذهبه التصورى قبل ذلك بثلاثمائة عام) وسخرت من الواقعية الميتافيزيقية لسكوتوس أكويناس . وكان انتصار العصريين بخاصة ساحقا فى جامعات أوروبا الوسطى فإن هس فى براغ ولوثر فى أرفورت كانا يتلقيان المذهب الاسمى وربما يعزى تمردهما إليه . وفى باريس منعت سلطات الجامعة (١١٣٩ — ٤٠) تدريس آراء أوكهام ولكن كثيراً من تلاميذه وبعض الأساتذة هللوا له باعتباره حاملا للواء الفكر الحر وحدث أكثر من مرة أن تقاتلت الأحزا

المعارضة كما يحدث الآن ، بالكلمات واللطمات فى المقاهى أو فى الشوارع . ولعل توماس أكمبس Thomas a Kemps أدان الفلسفة فى كتاب « محاكاة المسيح » كرد فعل ضد آراء أوكهام وقد لعب أوكهام دوراً ، وإن اقتصر على صوت ، فى تأليب الحكومة الوطنية ضد الكنيسة العالمية وقد أثرت دعوته إلى أن يكون رجال الدين فقراء فى ويكليف كما أن هجاته على البابوية واستنصاره الدائم للإنجيل والمسيحية الأولى بدلا من الكنيسة مهدت لظهور لوثر الذى عده أوكهام من أعظم أساتذة فلسفة الكلام وأكثرهم عبقرية إذ عبر سلفا فى مذهبه فى الاختيار ومذهبه فى الفردية عن الروح القوية لعصر النهضة ثم إن مذهبه فى الشك انتقل إلى راموس ومونتيني وربما إلى أرازموس ، ومذهبه وتحديده الذاتى للمعرفة بالأفكار رمز إلى بركلى كما أنه سبق « كانت » بمحاولته إنقاذ الإيمان عن طريق « العقـــل العملى » وعلى الرغم من أنه مثالى من الناحية الفلسفية فإن تأكيده أن الإحساس هو المصـــدر الوحيد للمعرفة جعله يتبوأ مكاناً مرموقا فى موكب الفلسفة الإنجليزية التجريبية من روجر وفرانسيس بيكون من خلال هوبز ولوك وهيوم وميل ومن سبنسر إلى برتراند راسل . واقتحامه الطارئ لميدان العلم الطبيعى — وإدراكه لقانون القصور الذاتى ورأيه فى العمل على بعد — حث المفكرين من جان بوريدان إلى إسحق نيوتن والنتيجة العامة لعمله شأنه فى هذا شأن دونس سكوتوس ، هو تقويض الغرض الأساسى لفلسفة الكلام — وأن العقيدة المسيحية فى القرون الوسطى يمكن إثباتها بالعقل وقد حافظت فلسفة الكلام حتى القرن السابع عشر ، على وجود باهت بعد الموت ولكنها لم تسترد قوتها بعد هذه الصفحات .

٦ — المصلحون

بينما كان ابن خلدون يضع قواعد علم الاجتماع فى العالم الإسلامى كان

بير ديبوا ونيكول أورزم ومارسيليوس البادوى ونيكولاس الكوزاوى يطورون فى العالم المسيحى الدراسات التى تبحث العلاقة بين الأقارب وإن كانت أقل تنسيقا . وقد خدم ديبوا ملك فرنسا فيليب الرابع كما خدم أوكهام ومارسيليوس الملك لويس البافارى بتوجيه حملات فكرية ضد البابوية . وفى ابتهال لشعب فرنسا للملك ضد البابا بونيفاس (١٣٠٨) وفى رسالة عن استرداد الأرض المقدسة أوصى المدره الغيور على هذا المبدأ بأن تجرد البـــابوية من كل أملاكها الدنيوية وسلطانها الزمنى ، وأن يرفض حكام أوربا الخضوع لسلطات البابا فى محاكمهم وأن تنفصل الكنيسة الفرنسية عن روما وتخضع للسلطة الزمنية والقانون . وفضلا عن هذا فإن ديبوا مضى قدماً يقول إن كل أوروبا يجب أن تتحد تحت لواء ملك فرنسا باعتباره إمبراطورا يتخذ عاصمته فى القسطنطينية وأن تكون هذه قلعة تناهض الإسلام وأنه يجب إنشاء محكمة دولية تفصل فى المنازعات بين الأمم وأن تعلن مقاطعة اقتصادية لكل أمة مسيحية تبدأ الحرب ضد أمة مسيحية أخرى وأن تتاح للنساء الفرص التعليمية نفسها وأن تكون لهن نفس الحقوق السياسية كالرجال .

ويبدو أن أحدا لم يعر هذه الآراء التفاتا ولكنها اقتحمت التيارات الفكرية التى قوضت صرح البابوية . وبعد مرور قرنين على وفاة ديبوا اتبع هنرى الثامن ، الذى لم يسمع عنه ولا ريب ، برنامجه هو ويكليف فى الدين وفى مطلع القرن التاسع عشر أقام نابليون إلى حين أوربا المتحدة تحت الزعامة الفرنسية وجعل من البابا أسيرا للدولة . وليس من شك فى أن ديبرا من زمرة المشتغلين بالشريعة الناهضين الذين كانوا يطمحون إلى ألا يقوم رجال الدين بتوجيه سياسة الحكومة . وقد فاز فى معركته ونحن نجنى اليوم ثمار انتصاره .

وقد كتب أورزم الذى أثار كثيرا من المناقشات الحامية حوالى ســـنة

١٣٥٥ مقالات صريحة واضحة فى الأدب الاقتصادى ، عن الأصل والطبيعة والشريعة وتغيير العملة وقال إن عملة البلد ملك للجماعة لا للملك فهى منفعة اجتماعية وليست عائدا ملكياً وللحاكم أو الحكومة تنظيم إصدارها ولكن يجب أن يحافظ على قيمتها المعدنية ولا يخفضها وأى ملك يخفض قيمة العملة لص . وفضلا عن هذا فإن العملة الرديئة (وفقا لقانون جريشـــام) تطرد العملة الجيدة من التداول والناس يخفون أو يصدرون العملة الجيدة والحكومة غير الأمينة لن تتلقى فى دخولها سوى العملة البخسة . ولم تكن الآراء التى رددها أورزم مثلا عليا فحسب بل إنه درسها بصفته مربيا ، لابن جون الثانى . وعندما أصبح هذا الطالب شارل الخامس استفاد الملك الشاب ، بعد تدهور للعملة ، من تعليمات أستاذه واستعاد شتات أموال فرنسا بعد أن تخلصت من الحرب على أساس سليم شريف .

كان مرسيليوس البادوى ذا مزاج أكثر تقلبا من أورزم : كان فيلسوفاً لا يلين ينادى بالفردية فخورا بفكره وشجاعته وكان يجعل فلسفته السياسية جزءا لا ينفصل من حياته القلقة . وكان ابنا لموثق عقود فى بادوا ودرس الطب فى الجامعة ولعله يدين ببعض تطرفه المناهض للأكليروسية إلى جو من مذهب الشك الذى يرجع إلى ابن رشد الذى وجده بترارك وفضحه فى الجيل نفسه . وعندما انتقل إلى باريس أصبح مديرا للجامعة وشغل هذا المنصب عاما . ثم ألف عام ١٣٢٤ بشىء من التعاون مع جون الجندوانى أعظم رسالة أثرت على السياسة بالعصور الوسطى وهى « المدافع عن السلام » .

ولما كان المؤلفان يعلمان أن الكنيسة سوف تستنكر كتابهما فقد فرا إلى نورمبرج ووضعا نفسيهما تحت جناح الإمبراطور لويس البافارى ثم حاربا البابا . ولم يتوقعا من محارب شديد المراس مثل جون الثانى والعشرين أن يقابل بالهدوء دفاعهما الشديد عن السلام : وقد برهن هذا الكتاب على أن

السلام فى أوروبا يقوضه النزاع بين الدولة وبين الكنيسة وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة بكل ممتلكاتها والعاملين بها تحت نفس السلطة الإمبراطوية أو الملكية مثل باقى الجماعات والأموال ، ومن الخطأ (كما جاء فى البحث) أن تقتنى الكنيسة ممتلكات ، فليس فى الكتاب المقدس ما يبرر هذا الاقتناء .

وعرف المؤلفان الكنيسة كما فعل أوكهام بأنها طائفة المسيحيين بأكملها . وكما كان الشعب الرومانى ، صاحب السيادة الحقيقى فى القانون الرومانى ، وكان هذا الشعب هو الذى يفوض فى سلطته القناصل أو الشيوخ أو الأباطرة فإن على الجماعة المسيحية أن تفوض فى سلطاتها ، ممثليها من رجال الإكليروس وان كان لا يجب أن تسلم لهم قيادها ، ويجب أن يكون هؤلاء مسئولين أمام الشعب الذى يمثلونه وادعاء البابا أنه يستمد سلطته من بطرس الرسول خطأ تاريخى فى نظر مارسيليوس إذ لم يكن بطرس أقوى سلطة من باقى الرسل ولم يكن لأساقفة روما فى أوائل عهدهم فى القرون الثلاثة الأولى سلطة تزيد عن سلطة الأساقفة فى كثير من العواصم القديمة الأخرى وكان يرأس المجالس العامة الأولى الإمبراطور أو نوابه وليس البابا ، وأى مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحى يجب أن يفسر الكتب المقدسة ويعرف العقيدة الكاثوليكية ويختار الكرادلة وهؤلاء يجب عليهم أن يختاروا البابا . ويجب على رجال الإكليروس بما فيهم البابا أن يخضعوا للقضاء المدنى والقانون فى جميع الأمور الدنيوية ، ويجب أن تعين الدولة رجال الاكليروس وتمنحهم مرتبات وتحدد عدد الكنائس والقسس وتستغنى عن القسس كلما رأت أنهم غير جديرين بمناصبهم وتراقب الهبات الكنسية والمدارس التابعة للكنيسة ودخلها وترفه عن الفقراء من فائض دخول الكنيسة .

ها هو صوت الدولة الوطنية الطاغية يرتفع مرة أخرى . وما إن أخضع الملوك البارونات والكومونات بفضل موازرة الطبقات الوسطى الناهضة

حتى أحسوا بأنهم بلغوا من القوة حداً جعلهم يرفضون ادعاء الكنيسة بأن لها السيادة على السلطة المدنية . وانتهز الحكام الزمنيون الفرصة التى أتاحها لهم انحطاط السلطة الدولية والأدبية للكنيسة وأخذوا يحلمون بالسيطرة على كل وجوه الحياة فى ممالكهم بما فيها الدين والكنيسة وكانت هذه النتيجة تستحق الكفاح فى الإصلاح الدينى . ويعد انتصار الدولة على الكنيسة مرحلة نهائية فى العصور الوسطى .

(فى سنة ١٥٣٥ أمر هنرى الثامن ، وهو فى أوج تمرده على الكنيسة ، بترجمة كتاب المدافع عن السلام ونشره على نفقة الحكومة) وبعد أن اقترح مارسيليوس ، مثل أوكهام ولوثر ، أن يستبدل بسلطة الكنيسة سلطة الشعب ، اضطر ، بسبب النظام الاجتماعى ومن أجل سلامته الشخصية أن يستبدل بها سلطة الحكومة . ولكنه لم يرفع من شأن الملوك حتى يصبحوا غيلانا قادرين على كل شيء فقد كان يتطلع من وراء انتصار الدولة إلى اليوم الذى يمارس فيه الشعب فعلا سيادته التى طالما ود فقهاء القانون أن يقلدوها له . ودافع عن الديمقراطية فى مجال الإصلاح بين رجال الكنيسة ، فعلى كل طائفة مسيحية أن تختار ممثلا لها فى مجالس الكنيسة وعلى كل أبرشية أن تختار قساوستها وتراقبهم وتطردهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ويجب ألا يحرم عضو فى الأبرشية دون موافقتها ، وطبق مارسيليوس مبادئ مماثلة على الحكومة المدنية وإن كان قد أدخل عليها بعض التعديل على استحياء :

طبقاً لحقيقة ورأى أرسطو ، نعلن أن المشرع — الدافع الأول والصحيح لسن القانون — يجب أن يكون هو الشعب — طائفة المواطنين بأكملها أو قسمها الأثقل وزنا ، تأمر وتقرر بمحض اختيارها أو إرادتها ، وتعبر عن رأيها شفوياً فى جمعية عمومية للمواطنين . . . وأقول قسمها الأثقل وزنا ، آخذا فى الاعتبار عدد الأشخاص وصفاتهم معا فى الجماعة التى يسن من أجلها القانون . وطائفة المواطنين بأسرها أو قسمها الأثقل وزنا إما أن تسن

القانون مباشرة أو تعهد بهذه المهمة إلى البعض أو إلى فئة قليلة ، ولكن هذه الأخيرة لا تكون، أو لا تستطيع أن تكون، المشرع بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، فهي تعمل فقط فى مجال هذه الأمور – ولهذه الفترات التى تخول لها من المشرع الأول . . . وفى رأيى أن المواطن هو كل من يشارك فى الجماعة المدنية بسلطة مداولة أو سلطة قضائية على حسب رتبته ، وعلى أساس هذه التعريفات يفرق القصر والعبيد والأجانب والنساء عن المواطنين ... وخير قانون يصدر هو الذى يكون نتيجة مداولة وثمرة إرادة الجماعة بأسرها . . . ويمكن لأغلبية منها ، بسرعة أكثر من سرعة أية أقسام منها ، إصدار أى قانون يقترح سنه لأن أى طائفة بأكملها أعظم سلطانا وثروة من أية أقسام منفصلة .

وهذا بيان عظيم بالنسبة لعصره (١٣٢٤) ولا شك أن ظروف العصر تبرر ما صاحبه من تردد . بل إن مارسيليوس لم يكن بوسعه أن يدافع عن المساواة فى التصويت بين جميع البالغين فى أوروبا حيث كان من العسير أن تجد واحداً يستطيع القراءة بين كل عشرة وحيث كانت المواصلات صعبة والانقسامات الطبيعية راسخة لا تتزعزع بمرور الزمن . والحق أنه رفض الديمقراطية الكاملة التى تتحدد فيها السياسة والتشريع بعدد الأنوف (مجموعة من الناس المعوزين) ولتصحيح هذا الفساد فى جمهورية كان يريد من الأفراد أن تكون لهم سلطة سياسية مناسبة لمكانتهم فى المجتمع ، وإن لم يقل كيف ومن يحكم على هذا . وأفسح مكانا للملكية ولكنه أضاف أن « الحاكم الذى ينتخب أفضل بكثير من الحكام الذين يتبوأون مناصبهم بالوراثة » فالملك يجب أن يكون نائباً وخادماً للجمهور وإذا أساء السلوك فإن من حق الجمهور أن يخلعه .

ولهذه الآراء أصل يرجع للقرون الوسطى بل إن لها أصلا قديماً ، فقد منح المحامون الرومان والفلاسفة الكلاميون بانتظام الشعب سيادة نظرية

وكانت البابوية نفسها ملكية انتخابية إذ كان البابا يطلق على نفسه اسم « خادم أجراء الله » وقد وافق توما الأكوينى على رأى جون أف سالسبورى القائل بحق الشعب فى خلع أى ملك يخالف القانون . ولكن قلما بلغت هذه الآراء فى العالم المسيحى درجة تصل إلى صيغة واضحة لحكومة برلمانية ، وها هو رجل فى القرن الرابع عشر جمع بين آراء أنصار الإصلاح الدينى من البروتستانت والمؤيدين للثورة الفرنسية .

وكان مارسيليوس سابقا جدا لعصره فلم يهدأ لحظة واحدة إذ ارتفع شأنه بسرعة بارتفاع شأن لويس البافارى وسقط كذلك بسقوطه . وعندما عادى لويس الباباوات طلب منه أن يطرد مارسيليوس باعتباره هرطيقا ولا ندرى شيئاً عن النتيجة ، ويبدو أن مارسيليوس مات عام ١٣٤٣ وهو منبوذ من الكنيسة التى حاربها ومن الدولة التى عمل على رفع شأنها .

ولعل نجاحه المؤقت ماكان ليتحقق لو لم تخول مهنة القانون الناهضة للدولة سلطة تنافس سلطة الكنيسة . فقد رفع المحامون « القانون الوضعى » للدولة إلى جانب ، وغالباً ضد ، القانون الكنسى ، وعلى أطلال القانون الإقطاعى والشيوعى ، وانتشر هذا القانون الملكى أو الدنيوى على الأيام وتغلغل فى أمور الناس . وأخرجت مدارس القانون فى مونبلييه وأورليانز وباريس قانونيين يتصفون بالجرأة والدهاء ، وقد استخدموا القانون الرومانى لتكوين نظرية الحق الإلهى والسلطة المطلقة لسادتهم من الملوك وذلك مقابل الادعاءات البابوية . وكانت هذه الآراء أقوى فى فرنسا منها فى أى مكان آخر إذ انتشرت هناك فى صورة شعارات مثل « أنا الدولة » و « الملك الشمس » كما سادت فى اسبانيا ومهدت بذلك إلى الحكم المطلق لفرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى بل إن ويكليف فى انجلترا البرلمانية قال بسلطة غير محدودة للملك المقدس . وعارض النظرية أعضاء مجلس اللوردات والعموم وأصر سيرجون

فورتيسكو على أن الملك الإنجليزى لا يستطيع أن يصدر قوانين دون موافقة البرلمان وأن القضاة الإنجليز ملزمون بمقتضى قسمهم أن يحكموا وفقاً لقانون البـــلاد مهما كانت رغبة الملك ولكن انجلترا ركعت بدورها أمام حكام مستبدين فى عهد هنرى السابع وهنرى الثامن واليزابث . وبين استبدادى البابوات وأندادهم من الملوك اعتصمت بعض النفوس المثالية بفكرة « القانون الطبيعى » وهو يقوم على عدالة إلهية متغلغلة فى الضمير الإنسانى ومنصوص عليها فى الأناجيل وهو قانون أعلى من أى قانون من صنع الإنسان . ولم تعبأ الدولة أو الكنيسة بهذا المفهوم وظل فى المهاد معترفاً به ومتجاهلا فى الوقت نفسه وإن ظل هذا المفهوم حياً واهياً . وقد تبنى فى القرن الثامن عشر إعلان الاستقلال الأمريكى والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان ولعب دوراً صغيراً وإن كان بليغاً فى ثورة قوضت لبعض الوقت عروش الحكام المستبدين الذين حكموا العالم وحارب نيكولاس الكوزاوى استبداد البابوية ثم استسلم لها .

وفى خلال حياته المتقلبة أظهر أفضل وجه للمسيحية المنظمة بالنسبة لألمانيا التى لم تكن تطمئن إلى الكنيسة . وقد جمع فى إهاب شخصيته القوية خير عناصر العصور الوسطى التى تلائم حياته وذلك باعتباره فيلسوفاً وإدارياً وعالماً باللاهوت وقانونياً . وقد ولد فى كولس قرب ترير (١٤٠١) وجمع بين التضلع فى القانون والتخصص فى الدين فى مدرسة « إخوان الحياة المشتركة فى ديفنتر » وفى عام قضاه بهيدلبرج تأثر بمذهب أوكهام الاسمى فى بادوا تأثر بمذهب الشـــك عن ابن رشد بعض الوقت وفى كولونيا تشرب التراث الأورثوذكسى لألبرتوس ماجنوس وتوما الأكوينى . لقد كانت فيه كل العناصر التى تجعل منه أكمل مسيحى فى عصره .

ولم يتخل قط عن نزعته الصوفية التى انتقلت إليه من ما يستر اكهارت

فكتب مؤلفا كلاسيا فى التصوف عنوانه : « رؤية الله » وفى دفاع فلسفى عن مثل هذه الرؤى « دفاع عن الجهل العليم» APologia doctae ignorantiae صاغ عبارة مشهورة هى « الجهل العليم » ورفض المذهب العقلى الكلامى الذى يبحث فى إثبات علم اللاهوت بالعقـل وذهب إلى أن كل المعارف الإنسانية نسبية وغير ثابتة فالحقيقة خفية فى الله . وأعرض بوجه عام عن التنجيم وإن كان قد انهمك فى بعض الحسابات الفلكية مستسلماً فى ذلك للأوهام الشائعة فى عهده وظن أن نهاية العالم ستكون عام ١٧٣٤ . وفى وسط حياة تزخر بالنشاط الكنسى حافظ أولا وقبل كل شىء على الفكرة العلمية وحث على القيام بمزيد من التجربة ومزيد من المقاييس الدقيقة وأشار إلى زمن سـقوط الأجسام المختلفة من شتى الارتفاعات ودرس أن الأرض « لا يمكن أن تكون ثابتة ولكنها تتحرك مثل غيرها من النجوم فكل نجم يتحرك مهما بدا لنا ثابتاً ، وكل مدار فلكى دائرى والأرض ليست مركز العالم إلا كما تعد أى نقطة مركزا لعالم لانهائى . وكانت هذه الآراء استعارات حكيمة حينا ولمحات ذكية حيناً آخر .

وذهب نيكولاس عام ١٤٣٣ إلى بازيل ليقدم للمجلس الكنسى هناك مطالب صديق إلى كبير أساقفة كولونيا . وسقطت حجته ولكنه انتهز الفرصة ليقدم للمجلس على خلاف من البابا — عملا هو ثمرة لحظة مشهورة فى تاريخ الفلسفة . وأطلق عليه اسم : De concordontia Catholica « الائتلاف الكاثوليكى » وكان الهدف العام الذى يرمى إليه هو أن يتوصل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات وقد صور الكنيسة وحدة عضوية لا تستطيع أن تؤدى وظيفتها بنجاح إلا من خـلال التعاون الوثيق بين أجزائها وذلك فى قياس محكم وتركيب متقن. وبدلا من أن يستنتج نيكولاس ، كما فعل البابوات ، أن الأجزاء يجب أن تسترشد بالرأى فإنه رأى أن مجلساً عاماً فحسب هو الذى يمكن أن يمثل ويعبر عن ويوحد عناصر الكنيسة التى يعتمد بعضها على البعض

الآخر. وردد آراء الأكوينى ومارسيليوس بل وسبق آراء روسو وجيفرسون فى فقرة مثالية : «كل قانون يعتمد على قانون طبيعى وإذا تناقض معه فإنه لا يمكن أن يكون قانوناً صحيحاً » . . . وبما أن الناس قد خلقوا أحراراً فإن أية حكومة توجد فقط بموافقة رعاياها ورضاهم فحسب . . . والقوة الملزمة لأى قانون يتضمنها هذا الاتفاق وهذا الرضا صراحة أو ضمنا فالشعب صاحب السيادة يفوض فى سلطانه بعض الجماعات الصغيرة المزودة بالتعليم أو الخبرة لسن القوانين أو تطبيقها غير أن هذه الجماعات تستمد سلطاتها العادلة من رضا المحكومين وعنـــدما تفوض الجماعة المسيحية فى سلطاتها مجلساً عاماً للكنيسة فإن هذا المجلس وليس البابا هو الذى يمثل السلطة العليا فى الدين . وفضلا عن هذا فإن البابا لا يستطيع أن يستند فيما يدعيه من حق شرعى مطلق، إلى هبة قسطنطين المفترضة لأن هذه الهبة اختلاق وأسطورة . إن للبابا الحق فى عقد مجلس عام ولكن مثل هذا المجلس يمكنه أن يخلعه إذا رآه غير لائق بمنصبه . ونفس المبادئ يمكن أن تطبق على الأمراء الزمنيين. وربما تكون الملكية الانتخابية خير حكومة تتاح للناس فى حالتها الفاسدة الحالية ولكن يجب على الحاكم الدنيوى ، كما يجب على البابا ، أن يعقد بانتظام مجلساً نيابياً ويجب أن يخضع للقوانين التى يصدرها هذا المجلس .

وكان مثالا يحتذى للبطاركة فى أخريات أيامه فعندما رسم كاردينالا عام ١٤٤٨ أصبح شخصية كاثوليكية مصلحة . وقام بجولة مجهدة فى هولندا وألمانيا وعقد خلالها مجمعات مقدسة إقليمية وأحيا النظام الكنسى وأصلح أديرة الرهبان والراهبـــات وهاجم تسرى القسس وارتقى بتعليم رجال الإكليروس ورفع على الأقل لفترة ما المستوى الخلقى لرجال الدين والشعب. وقد كتب العلامة أبوت تريثيميوس : « ظهر نيكولاس الكوزاوى فى ألمانيا كملاك ينشر النور والسلام وسط الظلام والشك وقد أعاد وحدة الكنيسة ودعم سلطة رأسها الأعلى وزرع بذرة ثمينة فى حياة جديدة .

ويمكن لنيكولاس أن يضيف إلى ألقابه الأخرى لقب عالم بالإنسانيات فقد أغرم بالكلاسيات القديمة وشجع على دراستها وفكر فى طبع المخطوطات اليونانية التى أحضرها بنفسه من القسطنطينية لتوزيعها على نطاق واسع وكان يتسم بتسامح العلامة الحقيقى فقد طالب بتفاهم متبادل بين الأديان كالأشعة المختلفة المنبعثة من حقيقة أزلية واحدة وذلك فى كتاب « حوار حول السلام » الذى ألفه فى نفس العام الذى سقطت فيه القسطنطينية فى أيدى الأتراك . وفى فجر الفكر الحديث عندما كانت حرية الرأى سما ناقعا كتب هذه الكلمات السليمة النبيلة :

« إنها لمتعة أن تعرف وأن تفكر وأن ترى الحقيقة بعين العقل . وكلما تقدم المرء فى السن وجد فى هذا متعة أكبر ولما كان الحب هو حياة القلب فإن حياة العقل فى السعى وراء المعرفة وحقيقة الحياة . ووسط حركات الزمن والعمل اليومى وتناقضات الحياة وارتباطاتها فإننا يجب أن نرفع أبصارنا بلا خوف صوب قبة السماء الصاحية ونحاول الحصول على إدراك أشد رسوخا لأصل كل خير وجمال ومدى قدرة قلوبنا وعقولنا وثمار العقول البشرية كلها خلال القرون وظواهر الطبيعة الرائعة حولنا على أن نذكر دائماً أن العظمة الحقة إنما تكمن فى التواضع وحده ولا يمكن الإفادة من المعرفة والحكمة إلا إذا كانتا تسيطران على حياتنا » .

ولو قد ظهر كثيرون من أمثال نيكولاس لما قدر لمثل لوثر أن يوجد .

الفصل الرابع عشر

غزو البحر

١٤٩٢ — ١٥١٧

١ — كولمبس

لقد كان « قدرا ظاهرا » أن يجرؤ امرؤ فى هذا العصر على اقتحام مخاطر الأطلنطى ليكتشف الهند أو « كاثى » إذ تحدثنا الأسطورة عن وجود « أطلانتس » عبر البحر بل إن الأساطير المتأخرة ذهبت إلى وجود نبع وراء الأطلنطى تمنح مياهه الشباب الدائم . وأدى فشل الحملات الصليبية إلى ضرورة كشف أمريكا وكانت لسيطرة الأتراك على شرق البحر الأبيض المتوسط وما اقترفه العثمانيون فى القسطنطينية والأسر الملكية المناهضة للمسيحية فى فارس وتركستان من إغلاق الطرق البرية ومنع المرور فيها سببا فى جعل الطرق القديمة للتجارة بين الشرق والغرب باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر . وتشبثت إيطاليا وفرنسا ببقايا تلك التجارة على الرغم من كل عوامل التثبيط من ضرائب الطرق والحروب ولكن البرتغال واسبانيا كانتا بعيدتين جدا فى الغرب وكان من الصعب عليهما الاستفادة من مثل هذه الاتفاقات وكانت مشكلتهما لا تحل إلا بالعثور على طريق آخر وقد وجدت البرتغال طريقا حول افريقيا ولم يعد أمام اسبانيا إلا أن تجرب حظها فى المرور غربا .

وقد أدى تقدم المعرفة إلى إثبات كروية الأرض منذ عهد بعيد وشجعت أخطاء العلم ذاتها على الأقدام وذلك بإساءة تقدير عرض المحيط الأطلنطى وبتصوير آسيا على أنها أرض سهلة للغزو والاستثمار فى الطرف الأقصى ؛

ولقد وصل البحارة الاسكنديناويون عامى ٩٨٦ و ١٠٠٠ إلى لبرادور وعادوا يحملون نبأ العثور على قارة جديدة فسيحة، وزار كريستوفر كولمبس أيسلندا عام ١٤٧٧ ، إذا صدقنا القصة التى رواها بلسانه ، ومن المسلم به أنه سمع الروايات المأثورة التى تردد فى فخر رحلة لايف اريكسون إلى ثنلنده Vindland .

كان المال هو كل ما تحتاجه المغامرة الكبرى وقتذاك أما الشجاعة فكانت متوفرة . وقد سجل كولمبس نفسه فى المايورازو mayorazzo أو الوصية التى حررها قبل أن يقوم برحلته الثالثة عبر الأطلنطى أنه من مواليد جنوا . حقا إنه كان فى محرراته الموجودة لدينا يتسمى بالاسم الأسبانى كريستوبال كولون ولم يستخدم قط اسمه الإيطالى كريستوفورو كولومبو ولكن المعتقد أن هذا كان بسبب كتابته بالأسبانية لأنه عاش فى اسبانيا أو لأنه كان يقوم برحلاته البحرية لحساب ملك اسبانيا لا لأنه ولد فى اسبانيا . ومن المحتمل أن يكون أجداده أسبانيين من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وهاجروا إلى إيطاليا ، والدليل قوى على أن الدم العبرى يسرى فى عروق كولمبس وعلى ميله لليهود . وكان والده نساجا ويبدو أن كريستوفورو امتهن هذه المهنة بعض الوقت فى جنوا وسافونا ، وقد ورد فى الترجمة الذاتية التى كتبها ابنه فرديناند أنه درس التنجيم والهندسة وعلم الكون (الكوزموجرافيا) فى جامعة بافيا وإن لم يدرج اسمه فى سجلات الجامعة ، وها هو يقول لنا بنفسه إنه أصبح بحارا فى الرابعة عشرة من عمره لأن كل طريق فى جنوا يؤدى إلى البحر .

وهاجم القراصنة عام ١٤٧٦ سفينة كان كولومبس بها نحو لشبونه وأغرقت هذه السفينة . ويروى كولمبس أنه سبح ستة أميال حتى وصل إلى الشاطىء مستعينا ببعض الحطام ولكن يبدو أن أمير البحر العظيم أطلق

لخياله العنان إذ يقول إنه سافر بعد بضعة شهور إلى إنجلترا بحارا أو قبطانا ثم سافر إلى ايسلنده فلشبونة وهناك تزوج واستقر واشتغل برسم الخرائط الجغرافية ، وكان حموه بحارا خدم الأمير هنرى الملاح ، وليس من شك فى أن كولومبوس سمع منه بعض الحكايات الممتعة عن شاطىء غينيا ، ولعله انضم عام ١٤٨٢ كضابط إلى الأسطول البرتغالى الذى أبحر حذاء هذا الشاطىء إلى المينا ، وقرأ باهتمام كتاب البابا بيوس الثانى Historia rerum gestarum « تاريخ الأجناس » وكثيرا من التعليقات مما أوحى إليه بفكرة الطواف بحرا حول إفريقيا .

ولكن دراساته مالت به شيئاً فشيئاً نحو الغرب وعرف أن سترابون روى فى القرن الأول من عصرنا محاولة للطواف حول الكرة الأرضية وكان يعلم ما كتبه سينيكا : « بعد سنوات سيأتى عصر يطلق فيه المحيط قيود الأشياء وتظهر أرض فسيحة ويكشف فيه النبى تيفيس عوالم جديدة ولن تكون ثولى (أيسلندة ؟) أقصى طرف للأرض » ، وقد قرأ « كتاب سير ماركو بولو الذى امتدح ثروات الصين وحدد وضع اليابان على بعد ١٥٠٠ ميل شرق قارة آسيا . وكتب أكثر من ألف ملاحظة فى نسخته من كتاب بيير دالى (صورة العالم) Imago mundi وقبل التقدير الراجح لمحيط الأرض بأنه يبلغ من ١٨٫٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ ميل وبربط هذا بتحديد بولو لمكان اليابان حسب أن أقرب الجزر الأسيوية على بعد ٥٫٠٠٠ ميل غرب لشبونة وقد سمع عام ١٤٧٤ عن خطاب كتبه الطبيب الفلورنسى باولو توسكانيلى للملك البرتغال ألفونسو الخامس يشير عليه بأنه يمكن اكتشاف طريق أقصر للهند من الطريق حول افريقيا وذلك بالسفر بحرا لمسافة ٥٠٠٠ ميل غربا . وكتب كولومبوس إلى توسكانيلى وتلقى منه ردا مشجعا ونضجت الفكرة فى ذهنه .

وحوالى عام ١٤٨٤ عرض على جون الثانى ملك البرتغال أن يجهز ثلاث سفن للقيام بحركة استكشافية لمدة عام عبر الأطلنطى والعودة منها على أن يعين كولومبس أمير بحر أعظم للمحيط وحاكما دائما لكل الأراضى التى يكتشفها ، وأن يحصل على عشر كل الإيراد والمعدن الثمين الذى تحصل عليه البرتغال من تلك الأراضى (ومن الواضح أن فكرة نشر المسيحية كانت ثانوية بالنسبة للاعتبارات المادية) . وقدم الملك العرض إلى لجنة من العلماء فرفضوه على أساس أن تقدير كولومبوس للمسافة عبر الأطلنطى بأنها لا تعدو ٢٤٠٠ ميل أقل بكثير من الحقيقة (كان هذا التقدير صحيحا تقريبا للمسافة من جزر كانارى إلى جزر الهند الغربية) وعرض ملاحان برتغاليان عام ١٤٨٥ مشروعا مماثلا على الملك جون ولكنهما وافقا على تمويله بنفسيهما فمنحهما جون بركته وهـــذا أضعف الإيمان ، وانطلقا عام ١٤٨٧ متخذين طريقا أقرب للشمال تحف به الرياح الغربية الشديدة ثم عادا بخفى حنين . وجدد كولومبوس طلبه عام ١٤٨٨ فدعاه الملك لمقابلته وأقبل كولومبوس فى الوقت المناسب ليشهد العودة الظافرة لبارثولوميو دياس من رحلة ناجحة طاف فيها حول افريقيا . ولما كانت الحكومة البرتغالية تطمع فى اكتشاف طريق إلى الهند يمر بأفريقيا فإنها تخلت عن فكرة البحث عن طريق عبر الأطلنطى فتحول إلى جنوا والبندقية ولكنهما بدورهما لم يقدما له أى تشجيع لأن اهتمامهما كان موجها لاكتشاف طريق للشرق بالاتجاه شرقا . وفوض كولمبس أخاه فى جس نبض هنرى السابع ملك إنجلترا فدعاه إلى مقابلته ولكن عند ما وصلت الدعوة إلى كولمبس كان قد وضع نفسه فى خدمة أسبانيا . وكان عندئذ (١٤٨٨) فى حوالى الثانية والأربعين من عمره . طويلا نحيلا له وجه مستطيل وبشرة حمراء قانية وأنف معقوف وعينان زرقاوان بوجهه نمش وشعره أحمر فاتح بدأت تتخلله الشعرات البيضاء ويوشك أن يشتعل شيبا ، وقد وصفه ابنه وأصدقاؤه

بأنه رجل متواضع ، رزين ، وديع ، فطن ، معتدل فى طعامه وشرابه ، تقى للغاية . وزعم آخرون أنه كان معجبا بنفسه ، يعرض الألقاب التى منحت له ويبالغ فيها وأنه رفع أجداده إلى طبقة النبلاء فى خياله وكتاباته وأنه ساوم بشدة للحصول على نصيب من ذهب العالم الجديد . ومهما يكن من أمر فإنه كان يستحق أكثر مما طلب : وكان بين الفينة والفينة ينحرف عن العمل بالوصايا العشر فقد حدث فى قرطبة أن أنجبت منه بياتريس انريكيز ولدا غير شرعى عام ١٤٨٨ وذلك بعد وفاة زوجته . ولم يتزوج منها كولمبس وإن كان قد وفر لها كل شيء فى حياته ولم ينسها فى وصيته ولما كان معظم علية القوم فى تلك الأيام النشيطة قد أنجبوا أبناء من علاقات عارضة فإنه يبدو أن أحدا لم يعر هذا الحادث اهتماما .

وفى غضون ذلك كان قد قدم التماسه إلى إيزابيلا صاحبة قشطالة (أول مايو سنة ١٤٨٦) فأحالتهـــا إلى جماعة من المستشارين يرأسهم صاحب القداسة رئيس أساقفة طلبيرة . وبعد أن تشاوروا طويلا قدموا تقريرا ذكروا فيه أن الخطة غير عملية واحتجوا بأن آسيا تقع على مسافة أبعد من ناحية الغرب مما ظن كولومبس ومع ذلك فإن فرديناند وإيزابيلا منحاه راتبا سنويا قدره ١٢٫٠٠٠ مارافيدس (٨٤٠ دولارا ؟) وزوداه عام ١٤٨٩ بخطاب يأمران فيه كل البلديات الأسبانية بأن توفر له الطعام والمأوى ولعلهما كانا يريدان أن يحتفظا بحق الاختيار بالنسبة لمشروعه لئلا يمنح قارة لملك منافس بطريق المصادفة ولما رفضت لجنة طلبيرة المشروع مرة أخرى بعد أن تداولت بشأن الخطة قرر كولومبس أن يقدم المشروع إلى شارل الثامن ملك فرنسا غير أن فراى جوان بيريز رئيس رهبان دير لارابيدا أثناه عن عزمه ورتب له مقابلة مع إيزابيلا فأرسلت إليه ٢٠٫٠٠٠ مارافيدس لمواجهة نفقات رحلته إلى مقر قيادتها فى مدينة سانتافى المحاصرة

وذهب هناك واستمعت فى رقة إلى حجته ولكن مستشاريها عارضوا الفكرة مرة أخرى فاستأنف استعداداته للذهاب إلى فرنسا (يناير سنة ١٤٩٢) .

وعند هذه المرحلة الحرجة حرك يهودى متنصر سير التاريخ فقد لام لويس دى سانتاندر ، وزير مالية فرديناند ، إيزابيلا لافتقارها إلى الخيال والعزيمة ، وأغراها وذلك بأن لوح لها بالأمل فى أن تحول آسيا إلى المسيحية واقترح أن يمول الحملة بنفسه بمعاونة أصدقائه وأيده فى فكرته يهود آخرون — دون إيزاك أبرابانل Abrabanel وخوان كابريرو وأبراهام سنيور ، وتأثرت إيزابيلا بالفكرة وعرضت أن ترهن جواهرها لرفع قيمة المبلغ المطلوب ولكن سانتاندر رأى أن هذا الإجراء غير ضرورى واقترض مبلغ ١٫٤٠٠٫٠٠٠ مارافيدس من جماعة الرهبان التى كان أمينا لصندوقها وأضاف إليه مبلغ ٣٥٠٫٠٠٠ من جيبه الخاص كما حصل كولومبس بطريقة ما على مبلغ ٢٥٠٫٠٠٠ علاوة على ما سبق .

وفى السابع عشر من أبريل عام ١٤٩٢ وقع الملك الأوراق الضرورية ثم أعطى عندئذ أو بعد ذلك لكولومبس خطابا إلى خان كاثاى ، وكان هذا فى الصين وليس فى الهند التى كان يأمل كولمبس أن يصل إليها والتى ظن حتى آخر لحظة فى حياته أنه قد اكتشفها .

وفى الثالث من أغسطس أبحرت سانتاماريا (سفينة أمير البحر) وبنتا ونينيا Nina من بالوس وعلى ظهرها ثمانية وثمانون رجلا ومؤن تكفيهم لمدة عام .

٢ — أمريكا

واتجهوا جنوباً نحو جزر كانارى ينشدون الرياح من الشرق قبل أن يواجهوا الغرب . وبعد إقامة طويلة فى الجزر أقدموا على السير فى خط مواز لخط عرض ثمان وعشرين (٦ سبتمبر) فى مكان لا يبعد جنوبا بدرجة تكفى لينعموا بالرياح التجارية ونحن نعلم أنهم لو اتجهوا جنوبا أكثر من ذلك لقصروا المسافة إلى أمريكا وجنبوا أنفسهم ما لاقوه من عناء فى طريقهم إليها وكان الطقس لطيفا وكتب كولمبس فى سجل سير السفينة « مثل جو أبريل فى الأندلس والشيء الوحيد الذى ينقصنا هو سماع صوت البلابل » . واعتراهم القلق ثلاثة وثلاثين يوماً وكان كولمبس يقلل من المخصصات الغذائية التى تصرف لرجاله بنسبة الأميال التى يقطعونها كل يوم ولكن نظراً لأنه بالغ فى تقدير سرعته فإن بياناته كانت صحيحة برغم أنفه .

وعندما استمر سكون الرياح غير طريقه وإذ ذاك شعر البحارة ، أكثر من أى وقت مضى — بالضياع فى خضم البحر وهم يسيرون فيه على غير هدى . وفى التاسع من أكتوبر صعد ربانا السفينتين بنتا ونينيا على ظهر سفينة القيادة وطالبا بإلحاح بالعودة فوراً إلى إسبانيا فوعدهما كولمبس بأنه سيحقق رغبتهما إذا لم يروا الأرض خلال ثلاثة أيام وفى العاشر من أكتوبر تمرد بحارة سفينته ولكنه هدأ من ثورتهم بأن تعهد لهم بنفس الشيء . وفى الحادى عشر من أكتوبر التقطوا من المحيط غصنا أخضر يحمل أزهاراً فعادوتهم الثقة فى قائدهم . وفى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى والقمر بدر تقريباً صاح رودريجودى تريانا القائم بالحراسة (الأرض ! الأرض !) أخيراً ها هى الأرض . .

وعند ما أقبل الفجر رأوا جماعة من الوطنيين العراة على الشاطئ وكلهم معتدلو القامة . واستقل القباطنة الثلاثة قاربا بصحبة رجال مسلحين جدفوا بهم نحو الشاطئ وركبوا وقبلوا الأرض وحمدوا والله وأطلق كولمبس على الجزيرة اسم سان سلفادور المخلص المقدس — واستولى عليها باسم فرديناند وايزابيلا والمسيح . واستقبل المتوحشون مستعبديهم في المستقبل بدماثة المتحضرين . وكتب أمير البحر : « ما دمت قد عرفت أنهم قوم يمكن تحريرهم وهدايتهم إلى أبينا المقدس عن طريق الحب لا القهر فلكى نكسب صداقتهم أعطيت لبعضهم قلانس حمراء وللبعض الآخر خرزا وأشياء أخرى كثيرة تافهة القيمة سرتهم كثيراً . ولقد ظلوا أصدقاء أوفياء لنا وهذه أعجوبة . واقبلوا فيما بعد سابحين إلى قوارب السفينة وأحضروا معهم ببغاوات وخيوطاً من القطن . . وأشياء أخرى كثيرة فأعطيناهم فى مقابلها خرزات صغيرة . . . وأخيراً تبادلوا معنا كل ما يملكون وهم راضون كل الرضى » .

ولعل خبر « المتوحش المسالم السلس » الذى فتن روسو وشاتوبريان وهويتمان قد بدأ عندئذ وفى ذلك المكان ولكن كان من بين الأمور التى عرفها كولمبس عن الجزيرة أن هؤلاء الوطنيين كانوا عرضة لغارات تقوم بها جماعات أخرى من الوطنيين لاسترقاقهم وأنهم أنفسهم أو أسلافهم تغلبوا على أهالى البلد الأصليين . وبعد رسوهم بيومين كتب فى يومياته ملاحظة مشئومة : « إن هؤلاء الناس غير حاذقين فى استخدام الأسلحة ويمكن إخضاعهم بخمسين رجلا وحملهم على القيام بكل ما يريده المرء » . ولكن لم يكن فى سان سلفادور للأسف أى ذهب . وفى الرابع عشر من أكتوبر أقلع الأسطول الصغير بحثاً عن سيبانجو — اليابان — والذهب . وفى الثامن والعشرين من أكتوبر رسوا على كوبا وهناك أحسن الأهالى بدورهم التصرف وحاولوا أن ينضموا لضيوفهم فى إنشاد (ايف ماريا) وبذلوا جهدهم فى رسم علامة

الصليب . وعندما عرض عليهم كولومبس الذهب أبدوا له ما يدل على أنه سيجد بعضه فى نقطة بالداخل أطلقوا عليها اسم كوبانا كان — أى وسط كوبا — واعتقد أنهم يقصدون بهذا الخان العظيم أو خان الصين العظيم فأرسل أسبانيين معهما أوراق اعتماد دبلوماسية ليجدا هذا الحاكم المراوغ وعادا دون أن يلتقيا بالخان وإن كانا قد جاءا بقصة ممتعة عن الحفاوة التى استقبلا بها فى كل مكان كما أنهما قدما أول تقرير للأوربيين عن التبغ الأمريكى فقد شاهدوا رجلا وامرأة من الأهالى يدخنان أعشاب التبغ وهى ملفوفة فى سيجار أدخلاه فى الأنف وغادر كولمبس كوبا وهو يشعر بخيبة الأمل (٤ ديسمبر) وأخذ معه عنوة خمسة من شباب الوطنين ليقوما بمهمة الترجمة وسبع نساء للترفيه عنهم وقد مات الجميع وهم الطريق إلى أسبانيا .

وفى غضون ذلك كان مارتين ألونزوبينزون الربان الأول فى أسطول كولمبس قد هجره وانطلق بسفينته لينقب عن الذهب لحسابه الخاص . وفى الخامس من ديسمبر وصل كولمبس إلى هايتى وهناك ظل أربعة أسابيع وهو يلاقى من الأهالى كل ترحيب وحفاوة . وعثر على بعض الذهب وشعر أنه غدا قاب قوسين أو أدنى من الخان ولكن سفينته المعقود لها لواء القيادة اصطدمت بسلسلة من الصخور وحطمتها الأمواج والصخور عشية يوم عيد الميلاد الذى كان قد فكر بالاحتفال به كأسعد يوم فى حياته . ومن حسن الحظ أن السفينة نينيا كانت على مقربة منه فأنقذت البحار واقتحم الأهالى الطيبون أمواج البحر فى قواربهم للمعاونة فى إنقاذ معظم الشحنة قبل أن تغرق السفينة وواسى زعيمهم كولمبس فعرض عليه ضيافته وقدم له الذهب وأكد له أن هناك كمية وفيرة من هذا المعدن القاتل فى هايتى . فحمد أمير البحر الله على الذهب وسامحه على تحطيمه لسفينته وكتب فى يومياته أن فرديناند وايزابيلا سيكون عندهما الآن من الأموال ما يكفى لغزو الأرض المقدسة . وتأثر بسلوك الأهالى الحسن فترك قسما من بحارته يتوطنون لارتياد الجزيرة

بينما عاد إلى إسبانيا ليقدم تقريراً عن اكتشافاته . وفى السادس من يناير سنة ١٤٩٣ عاد بنزون وانضم إليه بسفينته بنتا وقبل كولمبس اعتذاره فقد كان عقت العودة وليس معه إلا سفينة واحدة . وفى السادس عشر من يناير بدأ رحلة العودة للوطن .

كانت رحلة طويلة تعسة فطوال شهر يناير كانت الرياح معاكسة وفى الثانى والعشرين من فبراير هبت ريح عاصفة صفعت السفينتين الصغيرتين ولم يكن طول كل منهما يتجاوز سبعين قدما وبينما كان كولومبس ورفيقه يقتربان من شاطىء الأزور تخلى عنه بنزون مرة أخرى مؤملا أن يكون أول من يصل إلى أسبانيا بالأنباء العظيمة عن اكتشاف آسيا وألقت السفينة نينيا مراسيها بعيداً عن سانتا ماريا فى شاطئ الأزور (١٧ فبراير) وانطلق نصف البحارة إلى الشاطئ للقيام بالحج إلى مزار للعذراء فاعتقلتهم السلطات البرتغالية وألقت بهم فى السجن لمدة أربعة أيام بينما كان كولمبس يتميز غيظا على الشاطئ ثم أطلق سراحهم وأقلعت السفينة نينيا مرة أخرى ولكن عاصفة أخرى دفعتها بعيداً عن طريقها المرسوم ومزقت قلوعها فاغتم البحارة ونذروا أن يقضوا أول يوم يطأون فيه الأرض صـــائمين على الخبز والماء وأن يعملوا بالوصايا العشر . وفى الثالث من مارس رأوا شاطئ البرتغال وعلى الرغم من أن كولمبس علم أنه كان يخاطر بالوقوع فى ورطة دبلوماسية فإنه قرر أن يرسو فى لشبونه وفضل هذا على محاولة قطع الأميال المائتين وخمسة وعشرين الباقية للوصول إلى باولوس مستعينا بقلع واحد . واستقبله جون الثانى بحفاوة ورممت السفينة نينيا وفى الخامس عشر من مارس وصلت إلى باولوس بعد « عناء وهول لا حد لهما » (كما قال كولمبس) بعد مرور ١٩٣ يوما من مغادرة ذلك الميناء . وكان مارتن بنزون قد رسا شمالى أسبانيا قبل ذلك ببضعة أيام وبعث برسالة إلى فرديناند وإيزابيلا ولكنهما

رفضا أن يقابلاه هو أو رسوله ودخلت السفينة بنتا باولوس بعد يوم من وصول السفينة نينيا وفر بنزون يغمره الفزع ويجلله العار الذى جلبه على وطنه ولازم فراشه حتى مات .

٣ — مياه المرارة

ورحب الملك والملكة بكولومبس فى برشلونه وعاش فى البلاط ستة شهور وأنعم عليه بلقب «أمير البحر الاوقيانوس ويقصدبه الأطلنطى غرب شواطئ الأزور » . ونصب حاكما على العالم الجديد أو كما وصف نفسه « نائب الملك وحاكم عام الجزر وأراضى آسيا والهند » . وعند ما شاع أن جون الثانى يجهز أسطولا لعبور الأطلنطى استغاث فرديناند بالبابا الكسندر السادس . وطلب منه أن يحدد حقوق أسبانيا فى « البحر الأوقيانوس » فعين البابا الأسبانى ، فى سلسلة من المنشورات (١٤٩٣) لأسبانيا ملكية كل الأراضى التى لا تدين بالمسيحية فى الغرب ،وللبرتغال كل الأراضى فى الشرق ويفصل بينهما خط وهمى مرسوم بحيث يمر من الشمال إلى الجنوب على بعد ٢٧٠ ميلا غرب الأزور وجزر الرأس الخضراء ولكن البرتغاليين رفضوا قبول هذا الخط الفاصل وأوشكت الحرب أن تنشب بين الحكومتين المتنافستين لولا أنهما وافقتا فى معاهدة توردسيلاس (٧ يونيه سنة ١٤٩٤) على أن يمر ذلك الخط موازيا لخط الزوال الطولى على بعد ٢٥٠ فرسخا غرب جزر الرأس الخضراء بالنسبة للاكتشافات التى تمت قبل ذلك التاريخ ، ولكن على بعد ٣٧٠ فرسخا غربا بالنسبة للاكتشافات التى تتم بعد ذلك . (يقع الطرف الشرقى للبرازيل شرق هذا الخط الثانى) وقد أطلقت منشورات البابا على الأرض الجديدة « جزر الهند » وقبل العلماء أمثال بييترو مارتيرى وانجيرا رأى كولومبس بأنه قد وصل إلى آسيا واستمر هذا الوهم حتى طاف ماجلان حول الكرة الأرضية .

وقام فرديناند وإيزابيلا يحدوهما الأمل فى الحصول على الذهب بتزويد كولومبس بأسطول جديد يتكون من سبع عشرة سفينة مجهزة بألف ومائتى بحار وحيوانات للشروع فى تربية قطعان من الماشية والأغنام فى جزر الهند وخمس من رجال الدين لتلقى اعترافات الإسبانيين ولهداية « الهنود » . وقد بدأت الرحلة الثانية من اشبيليه يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٣ وبعد تسعة وثلاثين يوما (مقابل سبعين يوماً فى الرحلة الأولى) شاهد الحارس جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم « دومينيكا » لأنهم كانوا فى يوم الأحد . ولم ينزلوا إلى الأرض هناك لأن أمير البحر اشتم رائحة فريسة أكبر . ومر خلال مجموعة جزر الأنتيل الصغرى فى أقصى الغرب وتأثر كثيرا بعددها فأطلق عليها اسم « إحدى عشر ألفاً من العذارى» . وهى لاتزال جزراً عذراء وتابع رحلته واكتشف بويرتوريكو ، وتمهل هناك قليلا ثم أسرع ليرى ما حدث للمستوطنين الإسبان الذين تركهم فى هايتى منذ عشرة شهور فلم يجد منهم رجلا على قيد الحياة ، إذ أن الأوربيين طافوا بالجزيرة وسطوا على ذهب الأهالى وسبوا نساءهم وأقاموا فردوسا استوائيا عاش فيه كل رجل مع خمس نساء وتنازعوا فيما بينهم وقتل بعضهم بعضا أما الباقون فقد قضى عليهم الهنود الذين انتهكت حرماتهم .

وسارت سفن الأسطول شرقاً بحذاء شاطئ هايتى ، وفى الثانى من يناير عام ١٤٩٤ أنزل أمير البحر رجالا وشحنة لتأسيس مستعمرة جديدة أطلق عليها اسم « إيزابيلا » . وبعد أن أشرف على بناء مدينة وبعد ترميم سفنه سافر ليرتاد كوبا . وعندما عجز عن الطواف حولها استنتج أنها قارة آسيا ولعلها شبه جزيرة الملايو . وفكر فى الالتفاف حولها والدوران بالكرة الأرضية ولكن سفنه لم تكن مجهزة لهذه الرحلة ؛ فعاد إلى هايتى (٢٩ أكتوبر سنة ١٤٩٤) وهو يتساءل ماذا حدث لمستعمرته الجديدة . وصدم عندما وجد أنها تصرفت كالمستعمرة السابقة وأن الإسبانيين اغتصبوا

النساء الوطنيات ونهبوا مخازن طعام الأهالى وخطفوا أولاد الوطنيين ليخدموهم كالعبيد وأن الوطنيين قتلوا كثيراً من الإسبان على سبيل الانتقام . وقامت البعثات التبشيرية بمحاولة صغيرة لتنصير الهنود وانضم راهب إلى جماعة الساخطين الذين عادوا إلى إسبانيا ليقدموا للملك والملكة تقريرا لا يشجع عن موارد هايتى الذائعة الصيت . وقد أصبح كولومبس نفسه الآن تاجرا للعبيد إذ أرسل حملات لأسر ١٫٥٠٠ وطنى وأعطى للمستوطنين أربعمائة من هؤلاء وبعث إلى إسبانيا بخمسمائة مات منهم مائتان أثناء الرحلة وبيع الباقون فى إشبيليه ولكنهم ماتوا بعد بضع سنوات بعد أن عجزوا عن تكييف أنفسهم مع المناخ البارد ، ولعلهم لم يحتملوا همجية المدنية وترك كولومبس لأخيه تعليمات بنقل المستعمرة من إيزابلا إلى موقع أحسن فى سانتو دومينجو (ثيوداد تريخليو الآن) وسافر إلى إسبانيا (١٠ مارس سنة ١٤٩٦) ووصل إلى قادس بعد رحلة تعسة استمرت ثلاثة وتسعين يوما . وأهدى للملك والملكة الهنود وسبائك الذهب ولم تكن بالكثير ، إلا أنها خففت من الشكوك التى ثارت لدى البلاط حول الحكمة من صب مزيد من الأموال فى الأطلنطى ولم يشعر أسير البحر بالارتياح وهو فوق الأرض ، فقد كان ملح البحر يجرى فى عروقه فالتمس تزويده بثمانى سفن على الأقل للقيام بمحاولة أخرى بحثا عن الثروة ، ووافق الملك والملكة وفى مايو عام ١٤٩٨ سافر كولمبس مرة أخرى.

وقد اتجهت الرحلة الثالثة نحو الجنوب الغربى إلى خط عرض عشرة ثم سارت غربا فى هذا الخط المستقيم . وفى الحادى والثلاثين من يوليو شاهد البحارة جزيرة كبيرة أطلق عليها القائد التقى اسم « ترينيداد » . وفى الحادى والثلاثين من أغسطس رأى قارة أسريكا الجنوبية وربما كان ذلك قبل أو بعد فسبوتشى . وبعد استكشاف خليج باريا أبحر — نحو الشمال الغربى ووصل إلى سانتودومينجو يوم ٣١ أغسطس فوجد أن المستعمرة الثالثة قد بقيت ولكن كان ربع الخمسمائة من الإسبان الذين تركهم عام ١٤٩٦

يشكون من مرض الزهرى ، وانقسم المستوطنون إلى فريقين متعاديين وكانا عندئذ على حافة الحرب . ولتهدئة التذمر أقطع كولمبس كل رجل مساحة كبيرة من الأرض وسمح له باسترقاق الوطنيين والإقامة فيها ، وأصبحت هذه قاعدة تتبع فى المستعمرات الأسبانية ، وأنهكت الصعاب وخيبات الأمل وداء النقرس ومرض فى العينين قوى كولومبس فى ذلك الوقت فانهار تحت وطأة هذه المشكلات وكان ذهنه يتكدر بين الفينة والفينة وأصبح يستثار بسهولة ؛ متذمرا مستبدا ، شحيحا ، جائرا فى عقابه أو هذا على الأقل ما زعمه كثير من الأسبان فقد تميزوا من الغيظ تحت حكم رجل إيطالى . وأدرك أن مشكلات إدارة المستعمرة كانت دخيلة عليه بالنسبة لتدريبه ومزاجه . وأرسل فى أكتوبر عام ١٤٩٩ بعثتين إلى أسبانيا مع التماس لفرديناند وإيزابيلا لتعيين نائب للملك يساعده فى حكم الجزيرة .

وأخذه الملكان بكلمته وعينا فرانشسكو دى بوباديلا ولكنهما ذهبا إلى أبعد مما طلب أمير البحر فخولا نائبهما سلطة كاملة بل سلطة تفوق سلطة كولمبس . ووصل بوباديلا إلى سانتو دومينجو بينما كان كولمبس غائبا وسمع كثيرا من الشكايات من الأسلوب الذى كان يحكم به كريستوفورو وأخواه بارتولومى ودييجو ما تسمى الآن باسم هسبانيولا وعندما عاد كولولمبس ألقى به بوباديلا فى غياهب السجن والأغلال فى ذراعيه والسلاسل فى قدميه وبعد إجراء تحقيق أرسل النائب الإخوة الثلاثة إلى أسبانيا (أول أكتوبر عام ١٥٠٠) وعندما وصل كولومبس إلى قادس كتب خطابا مؤثرا إلى أصدقائه فى البلاط « لقد انقضت سبعة عشر عاما منذ حضرت لأخدم هذين الأميرين بمشروع جزر الهند ، ولقد أضاعا من عمرى ثمانية أعوام فى النقاش وفى النهاية رفضاه كأن الأمر دعابة . ومع ذلك لم أيأس . . . وها أنذا قد وضعت هناك تحت إمرتهم أرضا تزيد عما

لديهم فى أفريقيا وأوروبا وأكثر من ١٫٧٠٠ جزيرة ... وفى سبع سنوات قمت أنا بمشيئة الله ، بهذا الغزو ، وفى الوقت الذى كنت أنتظر فيه المكافأة وأتطلع إلى التقاعد قبض على بلا جريرة وأرسلت للوطن مصفدا بالأغلال ... ووجهت إلى تهمة الحقد على أساس الاتهامات التى وجهها إلى مدنيون ثاروا وأرادوا الاستيلاء على الأرض ... إنى أرجو من مراحمكم أن تقرأوا جميع أوراقى بحماسة المسيحيين المخاصين الذين وضع فيهم سموهما ثقتهما وأن تفكروا مليا كيف ألوث شرفى وخلقى فى أواخر أيامى دون سبب ، أنا الذى جاء من أقصى البلاد لخدمة هذين الأميرين دون أن ألقى منهما عدالة ولا رحمة » .

وكان فرديناند مشغولا بتقسيم مملكة نابلى مع لويس الثانى عشر ، ومرت ستة أسابيع قبل أن يأمر بإطلاق سراح كولومبس وأخويه ودعوتهم إلى البلاط واستقبلهم الملك والملكة فى قصر الحمراء وواسياهم وأعادا لهم الاعتبار وإن كانوا لم يصلوا إلى سلطاتهم فى العالم الجديد . وكان الملكان ملزمين بشروط التسليم أو الاتفاقية التى وقعاها عام ١٤٩٢ بتخويل كولومبس سلطانا كاملا على الأراضى التى اكتشفها ، ولكنهما شعرا بأنه لم يعد جديرا بممارسة هذه السلطة فعينا دون نيكولاس دى أوفاندو حاكما جديدا على جزر الهند . ومهما يكن من أمر فإنهما سمحا لأسير البحر أن يحصل على كل حقوقه من أملاكه فى سانتو دومينجو وكل ما يستحق له حتى ذلك الوقت من التنقيب عن الذهب ومن التجارة . وعاش كولومبس ما بقى من عمره فى رغد من العيش . ولكنه لم يكن راضيا . وألح على الملك والملكة أن يمداه بأسطول آخر ومع أنهما لم يتبينا بعد ما إذا كان « مشروع جزر الهند » سيعود عليهما بربح صاف فإنهما شعرا بأنهما يدينان له بمحاولة أخرى . وبدأ كولومبس رحلته الرابعة من قادس بأربع سفن على ظهرها مائة وأربعون رجلا منهم أخوه

بارتولومى وابنه فرناندر ، وذلك فى اليوم التاسع عام ١٥٠٢ . وفى التاسع والعشرين من يونيه أحس بزوبعة فى الجو وفى مفاصله ، فرسا فى بقعة آمنة

من شاطئ هايتى قرب سانتو دومينجو ، وكان فى الميناء الرئيسى ثلاثون سفينة على وشك الإبحار إلى إسبانيا . وبعث كولومبس برسالة إلى الحاكم يبلغه فيها بأن إعصاراً سوف يهب وأشار عليه بأن يؤخر سفر السفن قليلا . ولكن أوفاندو أعرض عن هذا التحذير وأرسل الأسطول وهبت الزوبعة الهوجاء ونجت منها سفن أمير البحر ولم يصبها إلا أقل الضرر ، أما سفن أسطول الحاكم فقد تحطمت جميعا إلا واحدة وغرق خمسمائة رجل ومنهم بوباديلا وغاصت فى أعماق البحر شحنة من الذهب .

وليس من شك فى أن كولمبس بدأ عندئذ أصعب الشهور الحافلة بالأسى فى حياته المضطربة — فقد استأنف سيره غربا ووصل إلى هندوراس وارتاد شاطئ نيكاراجوا وكوستاريكا مؤملا أن يجد مضيقاً يتيح له أن يطوف بالأرض : وفى الخامس من ديسمبر عام ١٥٠٢ هبت ريح عاصفة مصحوبة بالمطر ووصف كولومبس فى يومياته قوتها العاتية : « ظللت تائها لمدة تسعة أيام وضاعت كل بارقة أمل لى فى الحياة . لم تر عيناى قط بحراً كهذا هائجاً عالى الأمواج ، يغطيه الزبد . إن الرياح لم تمنع تقدمنا فحسب بل إنها لم تتح لنا أية فرصة للسير وراء لسان من الأرض يعتصم به من العاصفة ومن ثم اضطررنا إلى مواصلة السير فى هذا المحيط الملعون ونحن نتقلب فيه كالقدر حين يغلى على النار ، ولم تبد السماء قط مخوفة كما بدت فى هذا اليوم فقد ظلت يوماً وليلة ترسل شواظا من نار يلسعنا كألسنة اللهب . وتفجر البرق بشدة حتى أننى كنت فى كل مرة أتساءل عما إذا كانت الرياح قد حطمت صوارى وانتزعت قلوعى . وكانت ومضات البرق تتوالى بعنف وبصورة مروعة حتى اعتقدنا جميعاً أن السفن توشك أن تنفجر .

ولم تتوقف الأمطار عن الهطل طوال ذلك الوقت . وأنا لا أقول إنها كانت تمطر فقد كانت المياه تتدفق حتى خيل إلى أنه طوفان آخر . وكان الرجال منهوكى القوى وتمنوا الموت ليضع حداً لآلامهم المروعة » .

وإلى جانب ما كانت تحدثه الريح والمطر والبرق وسلسلة الصخور القريبة من فزع فقد هب إعصار عاقص ينشر الرذاذ البحر وكان قريبا جداً إلى درجة الخطورة من السفن وبدأ يقذف المساء إلى أعلى بحيث يطاول السحب فتناول كولمبس كتابه المقدس وقرأ فيه كيف هدا المسيح العاصفة فى كابيرناوم ثم تعوذ من الإعصار ورسم صليبا فى السماء بسيفه وإذ ذاك يقال لنا إن قمة الماء انهارت وانتهى هياج البحر بعد مرور اثنى عشر يوماً مروعة ، ورسا الأسطول فى ميناء قرب الطرف الشرقى الحالى لقناة بناما، وهناك احتفل كولومبس ورجاله بعيد الميلاد عام ١٥٠٢ وبرأس السنة الجديدة عام ١٥٠٣ وقلوبهم مثقلة بالحزن دون أن يدور بخلدهم أن المحيط الهادى لا يبعد عنهم إلا أربعين ميلا .

وتوالت المصائب . فبينما كان ثلاثة عشر بحاراً يجدفون فى قارب من قوارب سفينة القيادة نحو النهر للحصول على ماء عذب هاجمهم الهنود ولقى جميع الأسبان مصرعهم ما عدا رجل واحد وضاع القارب . واضطرو إلى التخلى عن سفينتين أتى السوس عليهما ولم تعودا صالحتين للملاحة أما السفينتان الباقيتان فقد كان بهما كثير من الخروق وكان لا بد من تشغيل المضخات ليل نهار وأخيراً أثبت السوس أنه أقوى من الرجال ولم يكن هناك بد من إرساء السفينتين الباقيتين على شاطئ جامايكا (٢٥ يونيه سنة ١٥٠٣) ٥ وهناك أقام البحارة البائسون سنة وخمسة شهور وكانون يعتمدون فى طعامهم على صداقة الأهالى المتقلبة واللذين لم يكن لديهم أنفسهم ما يستغنون عنه إلا النذر القليل . وتطوع ديجو منديز ، الذى كان لرباطة جأشه فى مواجهة كل هذا الضيق الفضل فى عدم تردى كولمبس فى هوة اليأس ، أن يرأس

جماعة من ستة من المسيحيين وعشرة من الهنود ويستقلوا قاربا منحوتاً من من جذع شجرة لقطع ٤٥٥ ميلا — منها ثمانون ميلا لا ترى بالبصر من فوق الأرض — إلى سانتو دومينجو لطلب النجدة . ونفد زادهم من الماء فى تلك المغامرة ومات بضعة هنود . ووصل منديز إلى هدفه ولكن أوفاندو لم يقدم أو يستغنى عن سفينته حتى مايو عام ١٥٠٤ لنجدة أمير البحر . وما أن حل شهر فبراير حتى خفض هنود جامايكا هداياهم من الطعام للملاحين الذين جنحت سفنهم إلى الحد الذى بدأ فيه الأسبان يتضورون جوعاً ، وكان مع كولمبس تقويم رجيومونتانوس الفلكى الذى جاء بحسباناته خسوف للقمر يوم ٢٩ فبراير ، فاستدعى زعماء الوطنين وأنذرهم بأن الله غاضب بسبب سماحهم بتجويع رجاله وأنه سيحجب عنهم ضوء القمر فسخروا منه ولكن عندما بدأ الخسوف سارعوا بإحضار الطعام إلى السفن . وعندئذ طمأنهم كولمبس وقال إنه دعا الله أن يعيد للقمر ضياءه وأنه وعده سبحانه وتعالى أن الهنود سيطعمون المسيحيين جيداً بعد هذا . وعاد القمر للظهور .

ومرت أربعة شهور أخرى قبل أن يصلهم العون وحتى ذلك الوقت كانت السفينة التى أرسلها أوفاندو قد اتسعت خروقها فلم يكن أمامها إلا أن تعود إلى سانتو دومينجو وسافر كولولمبس مع أخيه وابنه فى سفينة أشد متانة إلى إسبانيا فوصلوا فى اليوم السابع من نوفمبر بعد رحلة طويلة واجهوا فيها العواصف ، واغتم الملك لأنه لم يعثر على مزيد من الذهب ولم يكتشف مضيقا يوصل إلى المحيط الهندى ، ولم يجد فرديناند وايزابلا التى كانت تحتضر ، وقتا لمقابلة البحار الذى اشتعل رأسه شيبا بعد عودته أخيراً من البحر . وكانت عشوره « من هايتى لا تزال تدفع له . . . وكان يشكو من داء النقرس لا من الفاقة . وعندما وافق فرديناند أخيراً على مقابلة كولمبس لم يستطع أمير البحر وقد بدا أكبر عمراً من سنواته الثمانية والخمسين . أن يتحمل مشاق الرحلة إلى بلاط الملك فى سيجوفيا إلا بصعوبة بالغة وطالب بالألقاب والحقوق

والدخول التي وعد بها عام ١٤٩٢ ، فاعترض الملك وعرض عليه ضيعة كبيرة في قشتالة فرفض كولمبس . ولاحق البلاط إلى سلمنقة وبلد الوليد ، وهناك مات يوم ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ محطم الجسد كسير الفؤاد ولم يتيسر قط لأحد أن يعيد رسم خريطة الأرض على هذا النحو .

٤ — المنظور الجديد

والآن بعد أن أضاء كولمبس الطريق اندفع مائة ملاح آخر إلى العالم الجديد ، ويبدو أن هذا الاسم قد استخدمه لأول مرة تاجر فلورنسي يطلق اسمه الآن على الأمريكيتين فقد أرسل آل مديتشي إلى اسبانيا أمريجو فسبوتشي ليقوم على شئون مصرف فلورنسي وفاز عام ١٤٩٥ بعقد ينص على إعداد اثنتي عشرة سفينة لفرديناند وأصيب بحمى الكشف وزعم في خطابات أرسلها فيما بعد (١٥٠٣ — ١٥٠٤) لأصدقاء في فلورنسا أنه قام بأربع رحلات إلى ما أسماه بالعالم الجديد وأنه في إحدى هذه الرحلات في اليوم السادس عشر من يونيه عام ١٤٩٧ ، وصل إلى قارة أمريكا الجنوبية . ولما كان جون كابوت قد وصل إلى جزيرة كيب بريتون في خليج سانت لورانس في اليوم الرابع والعشرين من يونيه عام ١٤٩٧ وشاهد كولمبس فنزويلا عام ١٤٩٨ فإن قصة فسبوتشي تنسب له أنه كان أول أوروبي وصل إلى قارة في نصف الكرة الغربي منذ عهد لايف اريكسون (سنة ١٠٠٠) ولكن ما اتسمت به روايات فسبوتشي من عدم الدقة وما خالطها من اضطراب ألقى ظلالا من الشك على مزاعمه ومما يجدر ذكره أن كولمبس ، والذى كان في وسعه عندئذ أن يحكم على مدى وثوق أخبار فسبوتشي عهد إليه عام ١٥٠٥ بخطاب لتسليمه إلى دييجو ابن أمير البحر . وفي سنة ١٥٠٨ نصب فسبوتشي كبيراً لجميع الربابنة في أسبانيا واحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته .

وقد نشرت نسخة لاتينية من إحدى رسائله في سيان دييه (اللورين)

فى أبريل عام ١٥٠٧ . واستشهد مارتن فالدسيمولر ، أستاذ (الكوزموجرافيا) علم الكون بجامعة سان دييه ، بهذا الخطاب فى « مقدمة لعلم الكون » الذى نشره هناك فى تلك السنة وقبل رواية فسبوتشى واعتبرها جديرة بالثقة واقترح أن يطلق اسم أمريجى على ما نسميها الآن أمريكا الجنوبية .

وفى سنة ١٥٣٨ استخدم جير هاردوس ميركاتور اسم « أمريكا » فى إحدى خرائطه الشهيرة وأطلقه على كل نصف الكرة الغربى . ومن المتفق عليه أن فسبوتشى قام عام ١٤٩٩ إن لم يكن عام ١٤٩٧ ، مع ألونزو دى أوخيد بارتياد شاطئ فنزويلا وفى سنة ١٥٠٠ عقب اكتشاف كابرال مصادفة للبرازيل ارتاد فيسنت Vicente بنزون ، وكان ربانا للسفينة نينيا فى رحلة كولمبس الأولى ، الشاطئ البرازيلى واكتشف الأمازون . وفى سنة ١٥١٣ شاهد فاسكونونيزدى بالبوا المحيط الهادى واكتشف بونس دى ليون ، فولريدا ، وهو يحلم بالعثور على ينبوع الشباب . وكان للاكتشافات التى بدأها هنرى الملاح وتبعه فيها فاسكودا جاما وبلغت أوجها فى عهد كولمبس وانتهت بماجلان ، أثر فى قيام أعظم ثورة تجارية فى التاريخ قبل اختراع الطائرة . فتحت البحار الغربية والجنوبية للملاحة والتجارة وأنهت عهد البحر الأبيض المتوسط فى الحضارة وبدأت عهد الأطلنطى . وكلما ازداد تدفق الذهب من أمريكا إلى أسبانيا ازداد التدهور الاقتصادى فى ولايات البحر الأبيض المتوسط بل وفى تلك المدن الواقعة فى جنوب ألمـــانيا مثل أوجسبرج ولومبرج ، التى كانت ترتبط تجارياً بإيطاليا . ووجدت دول الأطلنطى فى العالم الجديد مخرجا لفائضها من السكان ولطاقاتها الاحتياطية ولمجرميها ووجدت هناك أسواقاً رائجة لبضائعها الأوروبية . وازدهرت الصناعة فى أوروبا الغربية وطالبت بالاختراعات الآلية وبأشكال أحسن من الطاقة مما أدى إلى الثورة الصناعية . واستوردت نباتات جديدة من أمريكا لإثراء الزراعة الأوروبية — البطاطس والطماطم والخرشوف والقرع العسلى

والذرة . وأدى تدفق الذهب والفضة إلى رفع الأسعار وتشجيع أصحاب المصانع وإنهاك قوى العمال وزيادة الدائنين والإقطاعيين وأثارت فى أسبانيا حلم السيطرة على العالم وقضت عليه .

ولم تكن الآثار الأدبية والذهنية لهذه الاكتشافات بأقل من النتائج الاقتصادية والسياسية فقد انتشرت المسيحية فوق رقعة واسعة من نصف الكرة الأرضية وكسبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الأنصار فى العالم الجديد أكثر مما سلبهم منها الإصلاح الدينى فى العالم القديم . وتلقفت أمريكا اللاتينية اللغتين الإسبانية والبرتغالية اللتين أثمرتا أدبا قويا مستقلا . ولم تتمسك أخلاق الأوروبيين بهذه الاكتشافات إذ تدفقت وحشية الأوربيين ، التى لا تخضع لقانون ، إلى أوربا مع البحارة والمستوطنين العائدين وجاءت بالإفراط فى العنف والشذوذ الجنسى . وتأثر الفكر الأوروبى كثيراً بالكشف عن هذه الشعوب والعادات والمعتقدات الدينية الكثيرة وعانت المذاهب الدينية من الاحتكاك المتبادل بل إنه فى الوقت الذى كان البروتستانت والكاثوليك يشتبكون فى حروب مدمرة من أجل مذاهبهم المتخاصمة فإن هذه المذاهب كانت تذوب فى الشكوك التى يثيرها التثقيف وما يستتبع ذلك من تسامح .

يضاف إلى كل هذا أن الاعتزاز بالعمل الفذ ألهم العقل البشرى فى اللحظة التى كان فيها كوبرنيكوس على وشك أن يقلل من الأهمية الكونية للأرض وسكانها إذ شعر الناس أن شجاعة العقل البشرى قد تغلبت على دنيا المادة . وأنكر الاختصار والشعار السائد فى القرون الوسطى لجبل طارق — لاشىء خلفه — وأصبح هذا الشعار الآن — خلفه الكثير — وزالت كل الحدود وأصبح العالم مفتوحا وبدا كل شىء ممكنا . والآن بدأ التاريخ الحديث بموجة طاغية تتسم بالإقدام والتفاؤل .

الفصل الخامس عشر

أرازموس الرائد

١٤٦٩ - ١٥١٧

١ - تربية عالم بالإنسانيات

ولد أعظم عالم بالإنسانيات عام ١٤٦٦ أو عام ١٤٦٩ فى روتردام أو بالقرب منها وهو الابن الثانى غير الشرعى لجيرارد وهو كاتب فى أدنى الدرجات. وأمه مرجريت ابنة طبيب وأرملة. ويبدو أن الأب رسم قسيسا عقب هذه الكارثة ولا ندرى كيف سمى الصبى بالاسم السخيف ديزيديريوس ارازموس ومعناه الحبيب المرغوب فيه. ولقد علمه مدرسوه الأوائل القراءة والكتابة باللغة الهولندية ولكنه عند ما ذهب ليدرس مع إخوة الحياة المشتركة فى ديفنترغرم لأنه كان يتحدث بلغته الوطنية فقد كانت اللغة اللاتينية هناك «الزاد الرئيسى للتعليم» وكانت التقوى تراعى بحزم كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب — ومع ذلك فإن الإخوة كانوا يشجعون على دراسة كلاسيات وثنية مختارة وبدأ أرازموس فى ديفنتر يمسك بزمام اللغة اللاتينية والأدب بصورة مذهلة.

ومات والده حوالى عام ١٤٨٤ وخلف الوالد ضيعة متواضعة لولديه ولكن الأوصياء عليهما بددوا معظمها ووجهوا الشابين اليافعين للانخراط فى سلك الرهبنة لأنها لا تحتاج إلى امتلاك شيء على الإطلاق فاحتجا إذ كانا يرغبان فى الالتحاق بالجامعة، وأخيراً أمكن اغراؤهما — بوعد أرازموس بالحصول على كثير من الكتب كما قيل لنا. أما الابن الأكبر فقد رضى بمصيره وارتفع شأنه فأصبح «سكيراً مدمنا وأن لم يكن فاجراً سافلا». وأخذ ديزيديريوس على نفسه العهود كأى راهب أوغسطينى فى ديراماوس فى

ستين . وحاول أن يحب حياة الدير جهد استطاعته بل إنه كتب مقالا بعنوان : De contemptu mundi « تأملات فى الوجود » ، ليقنع نفسه بأن الدير هو المكان المناسب لصبى له روح متعطشة ومعدة منهوكة ولكن معدته أرهقها الصيام وأصابها الغثيان حينما كانت تُشَم رائحة السمك . ومع ذلك فإن العهد الذى قطعه على نفسه بالخضوع أثبت أنه أشد قساوة من نذره العفة ، ومن يدرى ؟ لعل مكتبة الدير كانت تعوزها الكلاسيات . وأشفق عليه رئيس الدير وأعاره ليعمل كاتب سر لهنرى البرجينى أسقف كمبراى . وقبل أرازموس عندئذ (١٤٩٢) أن يرسم قسا ولكنه أينما اتجه نازعته نفسه إلى أن يضع قدمه على مكان آخر . كان يحسد الشبان الذين التحقوا بالجامعة بعد إنهاء تعليمهم المحلى . وكانت باريس تفوح بشذى العلم والهوى الذى قد يسمم الحواس المرهفة عبر مسافات بعيدة . وأغرى ديزيديريوس الأسقف على إرساله إلى جامعة باريس بعد أن خدمه بكفاءة بضع سنوات وانطلق وليس معه إلا ما يقوم بأوده . وكان ينصت فى صبر نافد إلى المحاضرات ولكنه كان يلتهم الكتب . وكان يشهد المسرحيات والحفلات وينقب بين الفينة والفينة عن المفاتن الأنثوية ، ويقول فى إحدى محاوراته أن ألطف طريقة لتعلم الفرنسية هى أن تتلقاها عن بنات الليل ومع ذلك فقد أغرم بالأدب . . أغرم بتلك الكلمات الموسيقية السحرية التى تفتح بابا يلج منـــه المرء إلى عالم الخيال والبهجة . وعلم نفسه اليونانية وأصبحت أثينا أفلاطون ويوروبيدس وزينون وأبيقوروس مألوفة لديه مثل روما سيشرون وهوراس وسينيكا فكلا المدينتين كانتا حقيقتين بالنسبة له مثلهما فى ذلك مثل شاطئ السين الأيسر . وكان سينيكا فى نظره مسيحيا صالحا مثل سانت بول ونمطيا أحسن منه (وهى وجهة نظر لعله لم يكن فيها سليم الذوق تماما) ورحل باختياره فى غمرات الماضى واكتشف لورنزوفالا ، فولتير نابولى واستطاب طعم اللاتينية الأنيقة والجرأة المتهوسة اللتين تسم تكفله بهما بكشف زيف قصة « هبة قسطنطين » وقد لاحظ

أخطاء جد خطيرة فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس وتساءل أليست الأبيقورية أحكم وسيلة للعيش . وقد أفزع أرازموس علماء اللاهوت فيما بعد وخفف عن بعض الكرادلة بسعيه فى التوفيق بين أبيقور والمسيح . وكانت أصداء أصوات دونس سكوتس وأوكهام لا تزال تتردد فى باريس والمذهب الأسمى يعلو نجمه ويهدد العقائد الأساسية مثل التجسيد والثالوث . وقوضت هذه السقطات الفكرية أرثوذكسية القس الشاب ولم يترك له إلا الإعجاب العميق بأخلاقيات المسيح .

وأكب على قراءة الكتب وغالى فى ذلك إلى درجة غير محموده . وقام بإعطاء دروس خصوصية لبعض الفتيان من الطلبة لزيادة موارده وذهب ليعيش مع أحدهم ومع ذلك لم يكن لديه ما يوفر له حياة هانئة . وألح على أسقف كامبراى قائلا : « إن كلا من جلدى وكيسى فى حاجة إلى أن يملأ : الأول باللحم والثانى بالعملات . اعمل وفق ما يمليه عليك كرمك » . واستجاب له الأسقف بلطفه المعهود ودعاه طالب يدعى لورد أف فير Vere إلى قصره فى تورنيهم فى الفلاندرز وسر ارازموس عند ما وجد فى ليدى آن أف فير نصيرة للعبقرية وتعرفت فيه على هـــذه المزية وعاونته بمنحة سرعان ما استنفدها : وأخذه طالب غنى آخر هو ماونتجوى إلى إنجلترا (١٤٩٩) وهناك فى البيوت الارستقراطية الواسعة فى الريف وجد العالم المكدود دنيا رحبة تحفل باللذة الرفيعة وانقلب ماضيه فى الدير إلى ذكرى يقشعر لها بدنه . وأبلغ صديقا له فى باريس عن تقدمه فى خطاب من خطاباته التى لا تحصى ولا تقلد وهى الأثر الباقى له الآن : « إننا نتقدم . ولو كنت عاقلا لسارعت بالمجىء إلى هنا . . . آه لو عرفت ما ننعم به فى بريطانيا . . . ولأذكر لك إحدى المباهج الكثيرة : هنا حوريات لهن تقاطيع ملائكية فى غاية الرقة والرأفة . . . وعلاوة على ذلك فثمة أسلوب للحياة لا يمكن الثناء عليه تماماً فحيثما تذهب يستقبلونك بالقبلات على يديك وعند ما ترحل

يشيعونك بالقبلات وإذا عدت فإن تحياتك ترد إليك . . . وأينما يتم اجتماع فهناك تحيات وافرة وحيثما تلتفت تجدها تلاحقك . أواه يافاوستوس ! لو ذقت مرة عذوبة هذه الشفاه وشذاها لتمنيت أن تكون سائحا لا لمدة عشر سنوات مثل سولون بل طوال حياتك فى إنجلترا » .

والتقى أرازموس فى بيت ماونتجوى فى جرينوتش بتوماس مور ، وكان حينئذاك لا تتجاوز سنه الثانية بعد العشرين ولكنه مع ذلك كان له من المكانة ما استطاع به أن يقدم العالم إلى من قدر له بعد ذلك أن يكون هنرى الثامن . وسره فى أكسفورد على الأغلب عدم الكلفة فى صحبة الطلبة وفى الكلية كما سرته أحضان ربات البيوت الريفية . وهناك تعلم كيف يحب جون كوليت الذى أذهل عصره باعتناقه المسيحية على الرغم من أنه كان محققا وعلامة فى علم الأديان القديمة وتأثر أرازموس بتقدم علم الإنسانيات فى إنجلترا : « عندما أسمع عزيزى كوليت يخيل إلى أنى أستمع لأفلاطون نفسه : من لا يعجب فى جروسين عندما يرى عالما كاملا للمعرفة مثل هذا ؟ ماذا يمكن أن يكون أذكى وأعمق وأدق من حكم ليناكر ؟ وماذا أبدعت الطبيعة أكثر رقة وحلاوة وسعادة من عبقرية توماس مور ؟ » .

لقد أثر هؤلاء الرجال تأثيراً عميقاً فى إصلاح حال أرازموس فتحول من شاب مغرور طائش ، أسكرته خمر الكلاسيات وفتنة النساء ، إلى عالم جاد مدقق تواق لا إلى المال والشهرة فحسب ولكن إلى تحقيق عمل مفيد دائم . وعندما غادر إنجلترا (يناير عام ١٥٠٠) كان قد استقر عزمه على أن يدرس وينشر النص اليونانى للعهد الجديد لأن الجوهر الخالص لتلك المسيحية الحقة فى نظر المصلحين وعلماء الإنسانيات على السواء ، قد أخفتا وموهت عليه العقائد وتكاثرها على مر القرون .

وأظلمت ذكرياته الجميلة عن هذه الزيارة الأولى لإنجلترا بما حدث فى الساعة الأخيرة ، فبينما كان يجتاز الجمارك فى دوفر صادرت السلطات

المبلغ الذى منحه له أصدقاؤه وكان يقدر بنحو عشرين جنيها (٢٫٠٠٠ دولار) لأن القانون الإنجليزى يحرم تصدير الذهب أو الفضة . وزاد الطين بلة أن أحدهم ، وإن لم يكن محاميا كبيراً ، أشار عليه خطأ بأن التحريم لا يسرى إلا بالنسبة للعملة الإنجليزية ، فغيرها أرازموس ولم تجد إنجليزيته المتعثرة ولا لاتينيته المختالة فى الانحراف بصرامة القانون التى لا ترحم واستقل أرازموس سفينة إلى فرنسا وهو خالى الوفاض بالفعل . قال : « لقد عانيت من الغرق قبل أن أذهب إلى البحر » .

٢ ــ المثالى

وبعد إقامة بضع شهور فى باريس نشر أول عمل هام له وهو مجموعة أقوال مأثورة وتضم ٨١٨ مثلا أو شاهداً ، معظمها لمؤلفين من القدامى . وكان إحياء المعرفة . أى الأدب القديم ــ قد وضع تقليداً دارجاً بأن يزين المرء آراءه باقتباس من مؤلف يونانى أو لاتنى ، ونرى هذا التقليد بصورة متطرفة فى مقالات مونتينى وفى كتاب « تشريح السوداء » لبرتون . وتريث هذا التقليد فى القرن الثامن عشر فى عهد الخطابة الجدلية بانجلترا . وأرفق أرازموس كل قول مأثور بتعليق ، يشير عادة إلى الاهتمام السائد ويمليه ذكاء يمتزج بالسخرية والهجاء . وقد علق قائلا : « ورد فى الكتاب المقدس أن القسس يلتهمون خطايا الناس فيجدون أن الخطايا عسيرة الهضم ولا بد من أن يرتشفوا أحسن الأنبذة للخلاص منها » . وكان الكتاب نعمة للكتاب والمتحدثين وبيع منه الكثير لمدة عام استطاع فيه أرازموس أن يعول نفسه دون الاعتماد على أحد . وعلاوة على هذا فإن كبير الأساقفة وارهام استحسن الكتاب على الرغم من لذعاته وأرسل للمؤلف مبلغاً من المال على سبيل المنحة وعرض عليه الإقامة فى انجلترا . ومهما يكن من أمر فإن أرازموس لم يكن على استعداد لترك القارة والإقامة فى جزيرة وفى الأعوام الثمانية التالية

نشر بضع نسخ منقحة من الأقوال المأثورة وزاده إلى ٣٢٦٠ نصا مدونا وظهرت له فى حياته ستون طبعة وصدرت له ترجمات عن اللاتينية الأصلية إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والهولندية وكلها من أكثر الكتب رواجا فى عصرها .

وعلى الرغم من هذا كله كانت الظروف غير مواتية والطعام لا يكفى واشتد بأرازموس الضيق فكتب (١٢ ديسمبر عام ١٥١٠) إلى صديقه چيمس بات وكان مربيا لابن ليدى آن أف فير يسأله : « أرجو أن تشير لها إلى ما سوف أحققه لها بتعليمى من جاه يزيد عما يحققه لها القسس الآخرون الذين تحتفظ بهم.إنهم يتلون عظات عادية أما أنا فأكتب ما يعيش إلى الأبد . وهم بلغوهم السخيف لا يسمعون إلا فى كنيسة أو اثنتين أما أعمالى فسوف يقرؤها كل من يعرف اللاتينية واليونانية فى كل بلد من بلاد العالم . وما أكثر رجال الدين غير المتعلمين فى كل مكان أما أمثالى فقلما يجود بهم الزمان . أرجو أن تكرر كل هذا لها ما لم تكن كثير الوساوس فلا تستطيع أن تقول بعض الكذبات من أجل صديق » .

وعندما فشلت هذه المفاوضة كتب مرة أخرى يقترح أن يقول بات للسيدة أن أرازموس يوشك أن يكف بصره ثم أردف قائلا : « أرسل لى أربع قطع ذهبية أو خمسا من مالك الخاص على أن تستردها من مال الليدى » . ولما لم يقع بات فى هذا الشرك كتب أرازموس مباشرة إلى السيدة وشبهها بأنبل البطلات فى التاريخ وأجمل محظيات سليمان وتنبأ لها بشهرة خالدة . واستسلمت لهذا الزهو الأخير وتلقى أرازموس هدية مادية واستعاد بصره . وكان يغتفر للكاتب طبقا لتقاليد هذا العهد أن يطلب معونة من يرعونه لأن الناشرين لم يكونوا على استعداد وقتذاك لمؤازرة المؤلفين ولو كان لهم قراء عديدون . وكان فى استطاعة أرازموس أن يحصل على مرتبات وأسقفيات بل ومنصب كاردينال ولكنه رفض هذه العروض المرة

تلو المرة لكي يظل « رحا ظليقا » متحرر الفكر وفضل أن يستجدى ويكون حراً ولا يفسد وهو يرسف فى الأغلال ، وانتقل إلى لوفان عام ١٥٠٢ فراراً من الطاعون فعرض عليه أوربان الاوترختى مدير الجامعة منصب أستاذ ورفض أرازموس وعند ما عاد إلى باريس استقر فيها ليكسب عيشه بقلمه — وهى واحدة من أحدث المحاولات الأولى فى هذا المشروع المتهوس . وترجم خطب سيشرون وهيكوبا ليوروبيدس ومحاورات لوشيان ، وليس من شك فى أن هذا الفيلسوف الشاك الظريف أسهم فى تشكيل عقلية أرازموس وأسلوبه . وقد كتب أرازموس عام ١٥٠٤ إلى صديق له : « عجبا ! بأى ظرف وبأى سرعة يعالج لوشيان ضرباته فيحول كل شىء إلى سخرية ولا يترك شيئاً يمر دون أن يسخر منه . وأقسى ضرباته موجهة إلى الفلاسفة . . . نظر إلى دعاواهم غير الطبيعية وإلى الرواقيين بسبب عجرفتهم التى لا تحتمل . . . وهو لايجد حرجا فى السخرية من الآلهة ومن هنا خلع عليه لقب ملحد — وهو شرف رفيع أضفاه عليه الزنادقة أصحاب الوساوس » . .

وفى زيارة ثانية لإنجلترا (١٥٠٥ — ١٥٠٦) انضم إلى كوليت وقاما بالحج إلى ضريح سانت توماس فى بيكيت بكانتربرى وسجل وصفا لهذه الرحلة بأسماء مستعارة وذلك فى إحدى محاوراته ، ولقد روى لنا كيف أساء جراتيان (كوليت) إلى دليلهم الراهب عند ما أبدى رأيه وقال : « إن قدراً ضئيلا من الثروة التى تستخدم فى تزيين الكاتدرائية يمكن توجيهها لتخفيف وطأة الفقر فى كانتربرى » ، وروى أيضاً كيف عرض عليهم الراهب لبناً قال إنه من ثدى العذراء و« قدرا مذهلا من العظام » لا بد من تقبيله باحترام وكيف عصى جراتيان فرفض أن يقبل حذاء قيل إن بيكيت لبسه وكيف عرض الدليل على جراتيان قطعة قماش يزعمون أن القديس استعملها فى تجفيف

جبينه وفى مخط أنفه كما لو كانت منة عظمى وتذكارا مقدساً ، وظل يسوق الحجج والبراهين على هذا فقطب جراتيان جبينه وتمرد . وعاد العالمان بالإنسانيات إلى لندن وهما يأسفان على الإنسانية .

وهناك أسعد الحظ أرازموس إذ كان طبيب هنرى السابع يعتزم إرسال. ولدين له إلى إيطاليا فعهد إلى أرازموس بمرافقتهما « كدليل عام ومشرف » وأقام مع الوالدين عاما فى بولونيا وأخذ يلتهم المكتبات ويضيف كل يوم جديدا إلى اشتهاره بحبه للعلم والمعرفة واللسان اللاتينى . وكان إلى ذلك الوقت : يرتدى مسوح راهب أوغسطينى — وهو عبارة عن ثوب أسود ومعطف وقلنسوة وقبعة بيضاء يحملها عادة على ذراعه ولكنه فى عام (١٥٠٦) نبذ هذا الزى واستبدل به ثوب كاهن علمانى أقل وضوحا واتضح أنه حصل على إذن بهذا الاستبدال من البابا يوليوس الثانى ثم أقام فى بولونيا كأنه فاتح عسكرى غير أنه عاد إلى إنجلترا عام ١٥٠٦ لأسباب لا نعرفها وألقى محاضرات فى اليونانية بجامعة كمبردج بيد أننا نجده يعود إلى إيطاليا عام ١٥٠٨ ويعد طبعة موسعة لمجموعته فى الأمثال السائرة لمطبعة الدوس مانوتيوس فى البندقية . وعندما مر بروما (١٥٠٩) فتنته عيشة الكرادلة الرغدة وأخلاقهم السامية وثقافتهم الرفيعة وسرمن — كما أن لوثر كان قد فجعته بروما فى السنة الماضية — الغزوات التى قامت بها الموضوعات والوسائل الوثنية فى عاصمة العالم المسيحى . ومما استاء له أرازموس كثيرا سياسة يوليوس الثانى العسكرية وحدته ومطارداته وهو يتفق فى هذا مع لوثر ولكنه يتفق أيضاً مع الكرادلة الذين كانوا يرحبون بحرارة بكثرة تغيب البابا العنيد ورحبوا بحضور ارازموس لاجتماعاتهم وعرضوا عليه منصبا دينيا إذا أقام فى روما ؛

وما كادت تطيب له الإقامة فى المدينة الخالدة حتى أرسل له ماونتجوى

رسالة يبلغه فيها أن هنرى السابع مات وأن صديق علماء الإنسانيات أصبح هنرى الثامن وأن الأبواب والمناصب الرفيعة جميعا ترحب الآن باراز موس إذا ما عاد إلى إنجلترا . ووصلت مع خطاب ماونتجوى رساله من هنرى الثامن نفسه : « بدأ تعارفنا عند ما كنت صبيا . وقد ازداد الاحترام الذى تعلمت أن أكنه لك بفضل تنويهك المشرف بى فى كتاباتك وبالطريقة التى استخدمت بها مواهبك فى ابراز الحقيقة المسيحية وبما أنك قد حملت هذا العبء وحدك فأسعدنى بمعاونتك وحمايتك إلى أقصى حد يمتد له سلطانى . . . إن سلامتك ثمينة بالنسبة لنا جميعاً . . . ومن ثم فإنى أرى أن تتخلى عن كل فكرة بالإقامة فى مكان آخر وتعال إلى إنجلترا وثق أنك ستلقى ترحيباً حاراً . وعليك أن تذكر شروطك وثق أنها ستكون سخية ومشرفة كما تشاء . واذكر انك قلت يوماً أنك ستتخذ من هذا البلد موطنا لك فى شيخوختك بعد أن تكون قد تعبت من التجوال . وإنى لأتوسل إليك بكل ما هو مقدس وصالح أن تنى بوعدك هذا ولسنا الآن فى مركز يتيح لنا أن نعرف قيمة علمك أو نصيحتك وسوف نعتبر وجودك بيننا أثمن ما نمتلك . . . وإذا كنت فى حاجة إلى الاستمتاع بوقت فراغك فلن نسألك شيئاً سوى أن تجعل من مملكتنا موطنا لك . . . تعال إلى إذن يا عزيزى أرازموس وليكن حضورك بمثابة إجابة لدعوتى »

فكيف يمكن أن ترفض دعوة رقيقة كريمة كهذه ؟ إن لسان أرازموس ينعقد حتى لو نصبته روما كردينالا ، ففى إنجلترا حيث يحيط بهأ صدقاء من ذوى النفوذ ويحميه ملك قوى يستطيع أن يكتب بحرية ويعيش فى أمان . وودع علماء الإنسانيات فى روما فى شىء من التبرم ، إلى القصور الرحبة والمكتبات . . . إلى الكرادلة الذين ناصروه . . . واتخذ طريقه مرة أخرى فوق جبال الألب إلى باريس فانجلترا .

٣ ـ الهجاء

ومكث هناك خمس سنوات ولم يتلق طوال هذا الوقت من الملك سوى التحية بين الفينة والفينة . ترى هل كان هنرى مشغولا جداً بالعلاقات الخارجية أم بالأهل والأقارب ؟ وظل أرازموس ينتظر وهو يشميز غيظا . وخف مونتجوى لنجدته بمنحة . ونفحه وارهام بدخل أبرشية فى كنت ، وعينه جون فيشر أسقف روشستر ومدير جامعة كامبردج أستاذاً لليونانية بمرتب سنوى قدره ١٣ جنيها (١٫٣٠٠ دولار) ولرفع هذا الدخل بالقدر الذى يسمح بالاحتفاظ بخادم وجواد أهدى أرازموس مطبوعاته إلى أصدقائه الذين استجابوا له فى تردد .

وفى السنة الأولى من هذه فى إنجلترا كتب أرازموس فى بيت توماس مور وفى خلال سبعة أيام أشهر كتاب له « الثناء على الطيش » وكان عنوانه اليونانى Encomium moriae تورية لاسم مور وإن كانت كلمة Moras باليونانية تعنى طائش وكلمة Moria تعنى الطيش واحتفظ أرازموس بعمله مخطوطا لمدة عامين ثم انطلق بعدها بفترة وجيزة إلى باريس لنشره (١٥١١) وطبعت منه فى حياته أربعون طبعة وترجم إلى اثنتى عشرة لغة والتهمه رابليه وفى عهد متأخر عام ١٦٣٢ وجده ملتون فى يد « كل إنسان » فى كامبردج .

ولم يستخدم أرازموس كلمة Moria بمعنى طيش وسخف وجهل وغباء فحسب بل بمعنى سورة فكرية وغريزة وعاطفة وبساطة أمية مقابل حكمة وعقل وحساب وفكر . ويقول لنا إن الجنس البشرى بأسره يدين بوجوده للطيش إذ أى شىء أسخف من مطاردة الذكر المتعددة الأشكال للأنثى وإكباره المحرم للحمها وعاطفته المشبوبة للتساند ؟ وأى إنسان يدفع مقابل هذا التناقض

فى الانتفاخ ارتباطا مدى الحياة بالزواج من واحدة ؟ وأى امرأة فى كامل قواها العقلية تدفع فى مقابل هذا آلام الأمومة وشدائدها ؟ أليس من السخرية أن تكون الإنسانية ثمرة عارضة لهذا الندم المتبادل ؟ لو أن الرجال والنساء توقفوا وتأملوا ملياً لضاع كل شيء .

وهذا يوضح ضرورة الطيش وحماقة الحكمة إذ هل يمكن أن توجد الشجاعة إذا حكم العقل ؟ وهل يمكن أن تتحقق السعادة ؟ إن سفر الجامعة كان على حق فى الاعتقاد بأن « من زادت معرفته زادت أحزانه وفى الحكمة الكثيرة أسى كثير ؟ » من يكون سعيداً إذا تكشفت له حجب المستقبل ؟ إنه لمن حسن الحظ أن العلم والفلسفة عاجزان وأن الناس يجهلونهما وأنهما لا يحدثان ضرراً عظيما لجهل الجنس الذى لا غنى عنه . وإن الفلكيين « يقدمون لك أبعاد الشمس والقمر والنجوم مقدرة بسمك الشعرة وذلك بسهولة كما يفعلون بأبعاد إبريق أو جرة ولكن الطبيعة تهزأ بظنونهم الواهية . والفلاسفة يزيدون المرتبك ارتباكا والمظلم ظلاما وهم يبددون الوقت والعقل على أمور تافهة منطقية أو ميتافيزيقية تذهب أدراج الرياح ، وخير لنا أن نرسلهم بدلا من جنودنا لمحاربة الأتراك الذين سوف يتراجعون فى ذعر أمام هذا اللغو المربك ! والأطباء ليسوا أفضل منهم فكل فنهم كما يمارس الآن هو فن مركب يمزج الخداع بالتضليل » . أما علماء اللاهوت فإنهم : « يقولون لك إلى الهنة عن كل الإجراءات المتوالية للقدرة على كل شيء فى خلق العالم ويفسرون لك الطريقة الدقيقة للخطيئة الأولى مستمدة من أول آبائنا ويرضونك ويقولون لك كيف أن . . المسيح حملت به العذراء ويوضحون لك فى الرقاقة المقدسة كيف يمكن أن توجد الحوادث دون محمول عليه . . . وكيف يمكن أن يوجد جسم واحد فى أماكن متعددة فى وقت واحد وكيف أن جسد المسيح فى السماء يختلف عن جسده فوق الصليب أو فى القربان المقدس .

وفكر أيضاً فى اللغو الذى يتمثل فى معجزات وأعاجيب — رؤى ومزارات شافية واستدعاء للشيطان و « أمثال الشبح المخيف الوهمى » .

إن هذه السخافات . . . تجارة رابحة وتأتى بدخل يضمن عيشاً رغداً لهؤلاء القسس والرهبان كما أنهم يكسبون من وراء هذا الخداع . . . ماذا عساى أن أقول عن هذا سوى أن أهلل لخداع الغفران والسماحة وأن أحافظ عليهما ؟ وأنى بهذه أحسب الزمن الذى تقتضيه كل روح فى المطهر ، وأخصص لها بقاء أطول أو أقصر حسبما يشترون عدداً أكبر أو أقل من صكوك الغفران التافهة والإعفاءات المعروضة للبيع ؟ أو ماذا يقال من سوء عن آخرين يزعمون أنهم سيحصلون على الثراء والمناصب الرفيعة واللذة والحياة العريضة ويبلغون أرذل العمر بل وينالون بعد وفاتهم مقعداً على يمين المسيح وذلك بقوة هذه التعاويذ السحرية أو بالعبث بحبات سبحاتهم وهم يتمتمون ببعض الدعوات والابتهالات (التى اخترعها بعض مدعى الدين إما للهو أو للاستفادة منها على الأرجح) ؟ .

ويستمر الهجو على حساب النساك والرهبان وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات . فالنساك يضجرون الناس بالسؤال ويعتقدون أنه يمكن الاستيلاء على السماء بالمثابرة على ترتيل المزامير المنومة ورجال الاكليروس العلماء يتحرقون شوقاً إلى المال . « إنهم ماهرون فى فن الاقتناء . . . ضريبة العشور والقرابين وأجور العائد . . . الخ » . وكل رجال الاكليروس على اختلاف طوائفهم ورتبهم يتفقون فى الرأى على إعدام الساحرات أما البابوات فليس بينهم وبين الرسل أى تشابه فى « ثرواتهم ومناصبهم وسلطاتهم القضائية ووظائفهم وإعفاءاتهم وتراخيصهم وامتيازاتهم . . . والحفلات وضرائب العشور وصكوك الحرمان من الكنيسية وأوامر التحريم » ورغبتهم العارمة فى المواريث ودبلوماسيتهم العالمية وحروبهم الدموية فكيف يمكن أن يكتب البقاء لكنيسة إذا خلت من الطيش وبساطة الإنسانية الساذجة ؟

وقد أثار كتاب « الثناء على الطيش » غضب علماء اللاهوت وكتب مارتن دريسيوس إلى أرازموس « لا بد أن تعرف أن كتابك » « طيش Maria » قد أثار إزعاجا كبيراً حتى بين من كانوا قبلا من أشد المعجبين بك المخلصين لك . ولكن الهجو فى هذا الدمار المرح كان خفيفا إذا قيس بما اتسمت به سورته التالية . وكان ثالث وآخر عام قضاه فى التدريس بجامعة كامبردج (١٥١٣) هو العام الذى توفى فيه البابا يوليوس الثانى وظهر فى باريس عام ١٥١٤ تعريض ساخر أو حوار يسمى Julius exclusus وقد بذل أرازموس جهداً صادقا ، لا يصل إلى حد الإنكار الصريح ، ليخفى أنه المؤلف له ، ولكن المخطوط تداولته أيدى أصدقائه وأدرجه مور دون تحفظ بين أعمال أرازموس . ولعله يمثل لنا نموذجا متطرفا لأرازموس الهجاء ، أن البابا المحارب بعد وفاته يجد أبواب السماء مغلقة فى وجهه ويمنعه من دخولها القديس بطرس العنيد :

يوليوس : كفى . أنا يوليوس الليجورى . و . أ

بطرس : و . أ ماذا تعنى ؟ وباء أعظم ؟

يوليوس : بل ولى أعظم أيها الخبيث .

بطرس : حتى لو كنت أعظم من ذلك ثلاثة أضعاف . . . فلن تدخل هنا إلا إذا كنت أيضا أفضل من ذلك أضعافا مضاعفة .

يوليوس : ياللوقاحة ! إنك لم تزد عن قديس طوال هذه العصور أما أنا فقديس و سيد وقداسة ، بل إنى القداسة ذاتها ، ومعى مستندات تثبت هذا .

بطرس : أليس هناك فرق بين أن تكون مقدسا وبين أن تدعى مقدسا ؟ دعنى أنظر إليك عن قرب . آه ! أرى سمات زندقة شديدة . . . مسوح قسيس ولكن تحتها سلاح يقطر دما

وعينان وحشيتان وفم متعجرف وجبين وقح وجسد وصمته كله الآثام : وأنفاس تفوح منها رائحة الخمر وبدن أسقمه التبذل والفسوق . نعم . هدد كما تشاء .. سأقول لك من أنت . . . أنت يوليوس الإمبراطور الذى عاد من الجحيم . . .

يوليوس : اسكت وإلا أصدرت قرارا بحرمانك . . . .

بطرس : تحرمنى أنا ؟ بأى حق ؟ أود أن أعرف .

يوليوس : خير الحقوق فأنت لست إلا قسا ولعلك لست كذلك .. فأنت لا تستطيع أن ترسم كاهنا . افتح . آمرك أن تفتح .

بطرس : يجب أن تثبت أولا جدارتك . . .

يوليوس : ماذا تعنى بالجدارة ؟ .

بطرس : هل علمت العقيدة الحقة ؟

يوليوس : لا لم أعلمها أنا . فقد كنت مشغولا بالقتال . وثمة رهبان يعنون بالعقيدة إذا كان لهذا الأمر أية أهمية .

بطرس : هل كسبت أرواحا للمسيح بالقدوة الحسنة ؟

يوليوس : لقد أرسلت كثيراً منها إلى الجحيم .

بطرس : هل قمت بأى معجزات ؟

يوليوس : أف ! إن المعجزات أكل عليها الدهر وشرب..

بطرس : هل كنت مواظبا على صلواتك ؟

يوليوس : إن يوليوس الذى لا يقهر ليس ملزما بالإجابة على صياد مسكين . ومهما يكن من أمر فإنك ستعرف من أنا وماذا أعمل . أنا ليجورى أولا ولست يهوديا مثلك ، وكانت أمى شقيقة البابا العظيم سيكستوس الرابع وقد جعل منى البابا رجلا ثريا بفضل ممتلكات الكنيسة — وأصبحت كاردينالا . وقد

ألمت بى بعض المحن إذ أصبت بالجدرى الفرنسى وأقصيت عن بلدى وطردت منها ومع ذلك كنت أعرف طوال ذلك الوقت أنى سأكون البابا يوما . . . وتحقق هـذا بمساعدة الفرنسيين من ناحية ، وبالأموال التى اقترضتها بفائدة من ناحية أخرى ، وبالوعود التى بذلتها من ناحية ثالثة . وما كان فى استطاعة كرويزوس أن يسك كل النقود التى احتاج إليها هذا الأمر . وسوف يقول لك عن هذا المصرفيون . ولكنى نجحت وفعلت من أجل الكنيسة والمسيح أكثر مما فعـل أى بابا قبلى .

بطرس : ماذا فعلت ؟

يوليوس : رفعت الدخل . . ابتدعت وظائف جديدة وبعتها . . . وقمت بإعادة سك النقود وربحت مبلغا كبيراً من هذا الطريق . لا شئ يمكن أن يتم بغير المال . ثم ألحقت بولونيا بالسلطة البابوية . . . وشددت آذان كل أمراء أوروبا . وخرقت المعاهدات واحتفظت بجيوش عظيمة فى الميدان . وغمرت روما بالقصور وتركت خمسة ملايين فى الخزانة بعد وفاتى . . .

بطرس : ولماذا أخذت بولونيا ؟

يوليوس : لأستولى على دخلها . . .

بطرس : وماذا جرى لفرارا ؟

يوليوس : كان الدوق تعسا منكراً للجميل ، فقد اتهمنى بالاتجار بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ووصفنى بأنى أتجر بالرتب الكهنوتية ... لقد أردت دوقية فرارا لأحد أبنائى الذين تستطيع الكنيسة أن تعتمد على إخلاصهم وكان قد طعن بالخنجر كاردينال بافيا .

بطرس · ماذا ؟ بابوات لهم زوجات وأولاد ؟

يوليوس : زوجات ؟ لا ليس من الزوجات ، ولكن لماذا لا يكون لهم أولاد ؟

بطرس : وهل كانوا على حق فيما نسبوه إليك من جرائم ؟

يوليوس : هذا أمر لا علاقة له بالدعوى . . .

بطرس : أليست ثمة وسيلة لإزاحة بابا شرير ؟

يوليوس : سخف ! من يستطيع أن يزيح أعلى سلطة بين الناس ؟ إن البابا يمكن تقويمه بمجلس عام ولكن أى مجلس عام لا يمكن أن ينعقد إلا بموافقة البابا ومن ثم فإنه لا يمكن عزله مهما كانت الجريمة التى يرتكبها .

بطرس : حتى لو ارتكب جريمة قتل ؟

يوليوس : نعم . . . بل حتى لو قتل أحد والديه .

بطرس : ألا يعزل لو زنى ؟

يوليوس : نعم حتى لو زنى بالمحارم .

بطرس · ألا يعزل لو مارس الاتجار بالرتب الكهنونية ؟

يوليوس : نعم ولو اقترف ستمائة حادثة من حوادث الاتجار بالرتب الكهنوتية .

بطرس : ألا يعزل لو قتل أحدا بالسم ؟

يوليوس : نعم حتى لو انتهك المقدسات .

بطرس : ألا يعزل لو ارتكب كل هذه الجرائم مجتمعة ؟

يوليوس : حتى لو زدت عليها ٦٠٠ جريمة ، فليست ثمة قوة تستطيع أن تعزل البابا .

بطرس : يا له من امتياز عجيب يتمتع به خلفائى - أن يكونوا من أخبث الناس ومع ذلك ينجون من العقاب . ويا لها من كنيسة تعسة تلك التى لا تستطيع زحزحة مثل هذا الوحش عن كاهلها .. إن على الناس أن يثوروا ويرجموا بحجارة الرصف رأس مثل هذا الشقى . . . لو أن الشيطان فكر فى أن يصطفى قسا لما وجد خيرا منك . أى دليل قدمته على أنك رسول ؟

يوليوس : أليست زيادة موارد كنيسة المسيح عملا من أعمال الرسل ؟

بطرس : ولكن كيف زدت موارد الكنيسة ؟

يوليوس : ملأت روما بالقصور . . . وبفرق من الخدم والجنود وآلاف الوظائف . . .

بطرس : إن الكنيسة لم تعرف شيئاً من هذا عندما أنشأها المسيح . . .

يوليوس : إنك تفكر فى القصة القديمة عندما أشرفت على الموت جوعا وأنت بابا وحولك حفنة من الأساقفة الفقراء المطاردين : لقد عفّى الزمن على كل هذا ... انظر الآن إلى كنائسنا الفخمة ... أساقفة مثل الملوك . . . وكرادلة تحيط بهم مظاهر العظمة . . خيول وبغال أعنتها من الذهب والجواهر وحدواتها من الذهب والفضة . أنا الحبر الأعظم فوق الجميع يحملنى الجنود على كرسى ذهبى فوق أعناقهم وألوح بيدى فى جلال للجماهير التى تعبدنى ، وأنصت إلى دوى المدافع وأنغام البوق ودقات الطبول وأرقب العربات الحربية والجماهير الصاخبة والمشاعل التى تضىء الطريق والميدان وأشهد ملوك الأرض وهم يحاولون تقبيل قدمى قداستى . . . انظر إلى كل هذا وقل لى أليس

هذا رائعا ؟ لعلك تدرك أى أسقف تعس فقير كنت بالقياس إلى . . .

بطرس : يا لك من شقى وقح ! لقد توسلت بالغش ربما والمكر للوصول إلى منصب البابوية . . . لقد حملت روما الكافرة على أن تؤمن بالمسيح أما أنت فقد عدت بها إلى الكفر . إن بولص لم يتحدث عن المدن التى اجتاحها ولا الفرق التى قتلها ... بل تحدث عن حطام السفن والقيود والاهانات والسياط . . . كانت هذه انتصاراته الرسولية وهذه كانت أمجاد قائد مسيحى . وعند ما كان يفخر بعمل فإنما يفخر بالأرواح التى استنقذها من براثن الشيطان وليس بما اكتنز من أكوام الدوكات . . .

يوليوس : هذه كلها أخبار أسمعها لأول مرة .

بطرس : ربما فقد كنت مشغولا بمعاهداتك وبروتوكولاتك ، وجيوشك وانتصاراتك ، فلم يتسع لك الوقت لقراءة الأناجيل . . . أنت تدعى أنك مسيحى مع أنك لست أفضل من أى تركى فأنت تفكر كالتركى ولا تقل عنه فجورا[1] . وإذا كان ثمة فرق بينكما فهو انك أسوأ .

يوليوس : إذن فلن تفتح الأبواب ؟

بطرس : سأفتحها لأى شخص آخر سواك أما أنت فلا . . .

يوليوس : إذا لم تخضع فسوف أستولى عنوة على مكانك . . . إنهم يقومون الآن بتدمير شامل تحتنا وقريبا سيكون لدى ٦٠٫٠٠٠ شبح يقفون ورائى .

(١) لعل المؤلف يقصد الترك العثمانيين . (المترجم)

بطرس : أيها الرجل الشقى ! أيتها الكنيسة التعسة . . . لا عجب أن يقل
عدد المتقدمين للدخول هنا ما دامت الكنيسة يحكمها أمثالك .
ومع ذلك فلا بد أن فى العالم خيراً أيضا ما دام هذا الحضيض
من الظلم يمكن أن يقبل من رجل لا لشىء إلا لأنه يحمل
اسم البابا .

وهذا بالطبع رأى خاطئ من جانب واحد فما كان فى وسع محتال داعر مثل هذا أن يحرر إيطاليا من غزاتها وأن يستبدل بالقديس بطرس ، مايكل انجلو ورافائيل الجديدين ، المكتشفين ، الموجهين والمطورين ، وأن يوجد الحضارتين المسيحية والكلاسيكية فى مكان الفاتيكان وأن يقدم لمهارة رافائيل ذلك المظهر للفكر العميق والعناية الفائقة اللتين صورا فى صورة يوليوس الشخصية التى لا مثيل لها والموجودة فى قاعة أوفيزى . وفى الوقت الذى يدعو فيه أرزاموس المسكين كل القس إلى تقشف الرسل نراه هو نفسه يلح فى طلب المال من أصدقائه ، ويكشف عن طبع العهد الثائر ، أن قسيسا يجد لزاما عليه أن يكتب اتهاما قاسيا لبابا . وفى سنة ١٥١٨ — السنة الثانية من عهد لوثر — كتب بيتر جليس إلى أرازموس من أنتورب : « ان كتاب Julius exclusus » « يوليوس المنفى » يباع هنا فى كل مكان . وكل إنسان يشتريه وكل واحد يتحدث عنه ، فلا عجب إذا ما لام المصلحون فيما بعد أرازموس لأنه قرع جرس الإنذار للتمرد ثم هرب بنفسه .

وفى سنة ١٥١٤ ظهر مؤلف آخر بقلم أرازموس أزعج العالم المستنير فى أوروبا الغربية وكان قد ألف ابتداء من عام ١٤٩٧ محاورات شكلية احترافا لتعليم الأسلوب اللاتينى والحديث ، وإن كان قد ناقش عرضاً ضروباً شتى من الموضوعات الشائقة الكفيلة بإيقاظ الطلبة من نعاسهم

اليومى . ونشر صديقه بياتوس ريناتوس، بإذن منه، سلسلة من هذه المحاورات باسم « العبارات الخاصة بالحديث العادى » Familiarium colloquiorum formulae وهى أشكال من الأحاديث المألوفة بقلم أرازموس الروتردامى ، لا تفيد فى صقل كلام صبى فحسب ، بل تكون أيضاً شخصيته . وأضيفت إلى الطبعات التالية محاورات أخرى فأصبحت أغنى مؤلف لأرازموس من حيث المادة « هى مزيج غريب — مناقشات حادة حول الزواج والأخلاق وحض على التقوى وعرض للأمور المنافية العقل والمساوئ فى سلوك الإنسان ومعتقده وتتخللها فكاهات لاذعة أو خطرة وكلها بلغة لاتينية اصطلاحية شائقة ولا بد أنها أصعب فى الكتابة من لغة الحديث الرسميـــة بين المتعلمين » . وكتب مترجم انجليزى عام ١٧٢٤ يقول : « ليس ثمة أصلح للقراءة من كتاب « يكاد يهدم تماماً كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب شائق تعليمى » ، وفى هذا مبالغة ولكن ليس من شك فى أن أرازموس استخدم بطريقته المرحة « كتابه فى الأسلوب اللاتينى » فى مهاجمة نقائص رجال الأكليروس . وأدان الاتجار بمخلفات القديسين ، وإساءة استخدام أوامر الحرمان من الكنيسة ، واقتناء البطاركة والقسس للأموال ، والمعجزات الزائفة التى يخدع بها البسطاء ، وعبادة القديسين لأغراض دنيوية ، والمبالغة فى الصيام والتناقضات المروعة بين مسيحية الكنيسة ومسيحية المسيح وحمل بَغِيًّا على أن تثنى على الرهبان باعتبارهم من عملائها المخلصين . وحذر سيدة شابة تريد الاحتفاظ ببكارتها فطلب منها أن تتحاشى « هؤلاء الرهبان المفتولى العضلات ذوى الكروش البارزة . . . فالعفة عرضة للخطر فى الدير أكثر من تعرضها له خارجه » ورثى لتعظيم شأن البكارة وهلل للنكاح باعتباره أسمى من العزوبة ، وأسف لأن الناس تحرص على معاشرة الجياد الصافنات للأفراس الأصيلة بينما يزفون فى الزيجات القائمة على المصلحة المالية عذارى سليمات إلى رجال هدهم المرض ، واقترح منع الزواج من المرضى بالزهرى أو من

الأشخاص المصابين بعجز شديد أو بمرض خطير . . . وتمتزج بهذه التأملات الرصينة فقرات من الفكاهة الفظة . وكان الأولاد يطالبون بتشميت الناس عندما يعطسون ولا يطالبون بهذا عندما يضرطون . وكانت أية امرأة حامل يدعو لها الناس بدعاء وحيد : « ألا فلتهب السماء هذا الحمل الذى فى بطنك... سهولة الخروج كما وهبته سهولة الدخول » . وكان الختان أمرا ممتدحا « لأنه يخفف من حكة الجماع » . وثار حوار طويل بين « الشاب والبغى » انتهى بالتأكيد بإصلاح السيدة .

وشكا النقاد من أن هذه المحاورات كانت طريقة تنطوى على التهور لتعليم الأسلوب اللاتينى ، وزعم أحدهم أن كل الشباب فى فرايبورج أفسدتهم هذه المحاورات واعتبر شارل الخامس استخدامها فى المدرسة جريمة يعاقب عليها بالإعدام . واتفق هنا لوثر فى الرأى مع الامبراطور : « سوف أحرم على أولادى قراءة محاورات أرازموس حتى لو كنت على فراش الموت » . وأكد نجاح الكتاب ما أثاره من حنق وبيع منه ٢٤٫٠٠٠ نسخة بعد نشره وحتى عام ١٥٥٠ لم يفقه فى التوزيع إلا الكتاب المقدس . وفى الوقت نفسه كاد أرازموس أن يجعل الكتاب المقدس ملكا خاصا له .

٤ — الغسلامة

وغادر إنجلترا فى يوليو سنة ١٥١٤ وشق طريقه خلال الضباب والعادات إلى كاليه وهناك تلقى من رئيس ديره الذى نسيه فى ستين ، خطابا يشير فيه إلى أن أجازته انتهت منذ مدة طويلة وأنه يحسن به أن يعود ليقضى ما بقى من عمره تائبا مستغفرا فانزعج لأن رئيس الدير يستطيع ، طبقاً للقانون الكنسى ، أن يدعو السلطة الزمنية إلى الزج به مرة أخرى فى السجن . والتمس ارازموس لنفسه عذراً ولم يتعجل رئيس الدير الأمر ولكن ، لكى

يتحاشى العلامة تكرار الحيرة ، طلب من أصدقائه الإنجليز ذوى النفوذ أن يكفلوا له من ليو العاشر إعفاءه من التزاماته كراهب .

وبينما كانت تجرى هذه المفاوضات اتخذ ارازموس طريقه أعلا الراين إلى بازيل وعرض على الناشر فروبن مخطوط أهم مؤلف له ، وهو مراجعة نقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير .

كان عملا أملاه الحب والاعتزاز بالنفس يتعرض مؤلفه وناشره للخطر على السواء : فقد استغرق الإعداد سنوات وسوف يكون الطبع والنشر من الأعمال الشاقة الكثيرة النفقات . والزعم بتفوق الترجمة ، على نسخة جيروم اللاتينية ، التى ظلت مقدسة مدة طويلة باعتبارها نسخة لاتينية للكتاب المقدس ، قد تدينه الكنيسة ، ومن المحتمل ألا تغطى المبيعات النفقات . وخفف ارازموس المخاطرة بإهداء العمل إلى ليو العاشر . وأخيراً نشر فروين فى فبراير سنة ١٥١٦ « الأداة الجديدة الكاملة التى حققها ونقحها بمنتهى الدقة ارازموس الروتردامى Instrumentum omme, diligenenter ab Erasmo Rat, recognitum et emendatum. وصدرت بعدها طبعة تغيرت فيها كلمة الأداة بالوصية Instrumentum to Testamentum وقدم ارازموس فى أعمدة متقابلة النص اليونانى كما راجعه بنفسه مع ترجمته اللاتينية ويبدو أن معرفته باللغة اليونانية كانت غير كاملة ومن ثم فهو يشترك مع جامعى الحروف فى المسئولية عن أخطاء كثيرة . ومن وجهة النظر العلمية كانت الطبعة الأولى من العهد الجديد باليونانية المعدة للنشر بعد الطبع أقل من مثيلتها التى أتمها وطبعها جماعة من العلماء لحساب الكاردينال اكسيمينيس عام ١٥١٤ وإن كانت لم تقدم للجمهور إلا عام ١٥٢٢ . وقد دل هذان العملان على تطبيق التعليم الإنسانى لأدب — المسيحية الأولى وعلى بداية هذا النقد الإنجيلى الذى استعاد الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر إلى مجال التأليف الإنسانى وما يتعرض له من زلل .

ونشرت مذكرات ارازموس فى مجلد منفصل وقد كتبت بلغة لاتينية اصطلاحية واضحة مفهومة لكل خريجى الكليات فى هذا العهد وكانت لها قاعدة عريضة من القراء وعلى الرغم من أنها كانت متفقة مع الإجماع فإنها سبقت كثيرا من التفسيرات التى ابتدعت فى البحث التالى . وقد حذف فى طبعته الأولى Comma Johanneum « الوصل اليوحنى » (إصحاح يوحنا ٥ : ٧) الذى أكد الثالوث ولكن الذى تلفظه اليوم النسخة المنقحة الصحيحة باعتباره مما دس فى القرن الرابع .

ونشرت قصة المرأة التى اتهمت بالزنى وإن كان قد أشار إلى أن من المحتمل أن تكون كاذبة (إصحاح يوحنا ٧ : ٥٣ و ٨ : ١١) كما نشر الاثنتى عشرة آية الأخيرة من إنجيل مرقس .وأشار فى أكثر من موضع إلى الفرق بين المسيحية الأولى والحالية . وعلق على إصحاح متى ٢٣ : ٢٢٧ : « ترى ماذا يقول جيروم لو رأى لبن العذراء يعرض للبيع بالمال ، ويضفى عليه من التكريم ما يضفى على جسد المسيح المقدس ، والزيوت الإعجازية وأجزاء الصليب الحقيقى التى تكفى إذا جمعت لشحن سفينة كبيرة ؟ هنا قلنسوة سانت فرانسيس وهناك تنورة سيدتنا العذراء أو مشط سانت آن . . . لا تقدم كأشياء بريئة معاونة للدين ولكن كجوهر للدين نفسه وكلها تعبث ببساطة الناس من خلال شح القسس وهرطقة الرهبان »

ولوحظ أن إصحاح متى ١٩ : ١٢ ينص على « لقد خصى بعضهم نفسه من أجل مملكة السماء » وقيل هذا للنصح بالعزوبة فى الدير وكتب آرازموس « اننا ندرج بين هذه الطائفة هؤلاء الذين دفعوا إلى حياة العزوبة بالغش أو بالإرهاب حيث يسمح لهم بالزنى ويحظر عليهم الزواج وهكذا يعدون قسسا مسيحيين إذا احتفظوا علنا بخليلة ويحرقون إذا اتخذوا زوجة . وفى رأيى أن الآباء الذين يعتزمون نذر أولادهم للكهنوت الذى يقتضى العزوبة

يكونون أرق قلباً لو خصوهم فى طفولتهم بدلا من تعرضهم كلية لهذ الإغراء والخضوع للشهوة » .

وفى رسالة تيموثاوس ٣ : ٢ : هناك الآن أعداد ضخمة وحشود هائلة من القسس علمانيين ونظاميين . ومن الشائع أن قلة منهم تتمسك بالعفة وأن الجانب الأكبر منهم يسقطون فى حمأة الشهوة والزنى بالمحارم والفجور. وليس من شك فى أنه من الأفضل أن يسمح لهؤلاء الذين لايستطيعون التمسك بالعفة بزوجات شرعيات وبهذا ينجون من هذا الدنس البذىء التعس .

وأخيراً عزف ارازموس اللحن الأساسى للمصلحين فى تعليق عام على إصحاح متى ١١ : ٣٠ — ألا وهو العودة من الكنيسة إلى المسيح : « حقا إن قيد المسيح يكون لطيفاً وحمله خفيفا إذا لم تضف الشرائع الإنسانية التافهة شيئاً لما عرضه هو نفسه . إنه لم يأمرنا إلا بأن يحب بعضنا بعضا وليس ثمة ما يصعب على المودة أن تلطف من حدته وتخفف من مرارته . فكل شىء من السهل تحمله طبقا للطبيعة ، ولا شىء يتفق مع طبيعة الإنسان أحسن من فلسفة المسيح التى لا هدف لها إلا إعادة البراءة والتكامل للطبيعة الهاوية . . . وقد أضافت الكنيسة لها أشياء كثيرة يمكن الاستغناء عن بعضها دون الإضرار بالإيمان . . . مثل كل تلك العقائد الفلسفية عن طبيعة الإنسان وتمييز الأشخاص . وما أكثر القواعـــد والأوهام التى تعرفها عن الثياب . . . وما أكثر أيام الصيام التى استنت . . . وماذا نقول عن العهود . . وعن سلطة البابا وإساءة استخدام صُكوك الغفران والتحلل ؟ .. هل يرضى الناس أن يدعوا المسيح يحكم بمقتضى شرائع الإنجيل وألا يبحثوا بعد ذلك عن دعم طغيانهم الجامح بقوانين من صنع البشر ؟ » .

ولعل التفسيرات هى التى أتاحت للكتاب نجاحاً لا بد أنه أذهل المؤلف والناشر على السواء . وقد وزعت الطبعة الأولى فى ثلاث سنوات ثم صدرت

للكتاب طبعات جديدة ومنقحة بلغت تسعة وستين قبل وفاة إرازموس . ووجه للعمل نقد عنيف وأشير إلى ما تضمنه من أخطاء كثيرة . ولقد دمغ الدكتور جوهان ايك ، الأستاذ بجامعة انجولشتادت وأول خصيم للوثر ، بالعار بيان ارازموس المتضمن أن اللغة اليونانية التي كتب بها العهد الجديد أقل شأنا من اللغة اليونانية التي كان يتكلم بها ديموستين . ومهما يكن من أمر فإن ليو العاشر وافق على العمل . وطلب البابا أدريان السادس من ارازموس أن يعمل للعهد القديم ما قام به نحو العهد الجديد ولكن مجلس ترنت أدان ترجمة ارازموس وأعان أن النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس لجيروم هي النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس . وسرعان ما عد العهد الجديد لارازموس عملا متخلفا من الناحية الدراسية العامية وإن كان أثره عظيما باعتباره حدثا في تاريخ الفكر ، فقد يسر ورحب بالترجمات الوطنية التي ظهرت في أعقابه . وتقول فقرة متحمسة في المقدمة : « بودي لو قرأت أضعف امرأة الأناجيل ورسائل القديس بولص . . بودي لو ترجمت هذه الكلمات إلى جميع اللغات لا ليقرأها الاسكتلنديون والإيرلنديون فحسب بل ليقرأها أيضاً الأتراك والمشارقة .

وإني لأود أن ينشدها الحارث لنفسه وهو يسير وراء المحراث ويترنم بها النساج على أنغام الماكوك ويهون بها المسافر من مشقة رحلته . . . . قد نأسف على دراسات أخرى أخذناها على عاتقنا ولكن ما أسعد المرء الذى يفاجئه الموت وهو مشغول بها .

إن هذه الكلمات المقدسة تعطيك نفس صورة المسيح وهو يتكلم ويبرئ المرضى ، وهو يموت ثم يرفع مرة أخرى ، وتجعله حاضراً بحيث لو مثل أمام عينيك لما رأيته حقا أوضح من هذا » .

واغتبط ارازموس لكفاية مطبعة فروبن والعاملين بها فأصدر (فى نوفمبر سنة ١٥١٦) طبعة نقد فيها ترجمة جيروم وأعقبها بنصوص مماثلة

منقحة وكلاسية لآباء الكنيسة وصحح ٤٠٠٠ خطأ فى النص الذى تلقاه من سينيكا وكانت هذه خدمات جوهرية للدارسين .

وروى ثانية قصة العهد الجديد بتفسيرات (١٥١٧) وتطلبت هذه المهام الإقامة أكثر من مرة فى بازيل وان حدد ارتباط جديد إقامته قرب البلاط الملكى فى بروكسل . وكان شارل آنذاك ملكا على قشتالة وحاكماً للأراضى المنخفضة ولم يكن عندئذ قد أصبح الإمبراطور شارل الخامس ، وكان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ومع ذلك فإن عقله المرهف كان يهيم حول اهتمامات مختلفة ، واقتنع فعلا بأن بلاطه يمكن أن يزداد تألقاً إذا كان بين مستشاريه العالمين ببواطن الأمور الكاتب البارز فى عصره . وأصدر أمراً بهذا وقبل ارازموس — لدى عودته من بازيل (١٥١٦) — المنصب الفخرى بمرتب متواضع . وعرض عليه منصب دينى فى كورتراى مع وعد بأسقفية فرفضه وكتب لأحد أصدقائه يقول : « هاك حلم يسليك » . وتلقى وأعرض عن دعوات بالتدريس فى جامعات ليبزج وأنجولشتادت .

وحاول فرانسس الأول أن يفرق بينه وبين شارل بطلب ينطوى على التملق وهو أن ينضم إلى بلاط فرنسا فرفض أرازموس العرض بلطف ورقة .

وفى الوقت نفسه كان ليو العاشر قد أرسل إلى لندن التحللات المطلوبة . وفى مارس من عام ١٥١٧ سافر أرازموس إلى لندن وتسلم رسائل البابا التى تحله من التزاماته نحو الدير ومن وصمة اللقاطة . وأضاف ليو إلى الوثائق الرسمية مذكرة شخصية : « ابنى الحبيب : تمنياتنا لك بالصحة مع بركاتنا الرسولية . ان ما من الله به عليك من حياة طيبة وخلق قويم ، ولوذعيتك النادرة وأفضالك الرفيعة لا تشهد عليها آثار دراساتك التى اشتهرت فى كل مكان فحسب بل يشهد عليها أيضا اجماع آراء معظم المتعلمين . وقد أتت عليك رسائل أميرين ذائعى الصيت هما ملك انجلترا ، وملك فرنسا الكاثوليكى وهذه هيأت لنا سبباً لكى نخصك بمنة فريدة وفضل خاص .

ومن ثم أجبنا التماسك ونحن راضون ومستعدون لكي نعلن محبتنا الشديدة لك عندما تهيئ الفرصة إما بنفسك أو عندما تسنح بطريق الصدفة . ونظن بحق أن جهدك المقدس الذى يبذل باستمرار للصالح العام سوف يلقى تشجيعاً وقدراً عظيماً من الاهتمام بمكافآت مناسبة » .

ولعلها كانت رشوة حكيمة لسلوك حسن ، ولعلها كانت لفتة صادقة من بلاط متسامح إنسانى ، وفى أية حالة فإن ارازموس لم ينس قط هذه المجاملة البابوية وسوف يجد دائماً من الصعب أن يتحلل من كنيسة تحملت فى صبر لذع نقده .

٥ — الفيلســوف

وعند عودته إلى بروكسل وجد نفسه فريسة الإغراء بالتمسك بالحرص نظراً لما استقبل به من ترحاب ودى فى البلاط الملكى . وأخذ منصبه كمستشار خاص بجد ، ونسى أن المؤلفين اللامعين قلما تتوفر فيهم صفة الحنكة السياسية . وألف فى عجلة عام ١٥١٦ الحافل بالأعمال كتابه : « تربية أمير مسيحى » الذى يفيض بالتفاهات التى كانت سائدة قبل ظهور كتاب ماكيافلى عن السلوك الذى يجب أن يتبعه ملك . وكتب فى إهدائه لشارل بصراحة تتسم بالجرأة : « إنك تدين للعناية الإلهية فى الفوز بمملكتك دون الإضرار بأحد ولسوف تظهر حكمتك على الوجه الأكمل إذا استطعت أن تحافظ فيها على السلام والهدوء » . وكان ارازموس ، مثل معظم الفلاسفة : يعد الملكية أهون الأشكال الحكومية شراً ، وكان يخشى الشعب ويعده « وحشاً متقلباً متعدد الرؤوس » . وكان يستنكر مناقشة الشعب للقوانين والسياسة ويرى أن فوضى الثورة أسوأ من أى استبداد للملوك ، بيد أنه أشار على أميره المسيحى أن يتقى شر تركيز الثروة ، فالضرائب لا تفرض إلا على الكماليات ، ويجب تقليل الأديرة وزيادة المدارس ، وعلاوة على كل هذا يجب ألا ينشب قتال

بين الحكومات المسيحية — ولا حتى ضد الأتراك . « خير لنا أن نتغلب على الأتراك بالتقوى في حياتنا لا بالأسلحة . وهكذا يتم الدفاع عن الإمبراطورية المسيحية بنفس الوسائل التي أسست بها أصلا » . « ماذا تولد الحرب إلا الحرب ؟ — ولكن الدماثة تدعو إلى الدماثة والعدالة تدعو إلى العدالة » .

ولما كان شارل وفرانسس قد ثارت بينهما العداوة فإن إرازموس وجه الدعوة تلو الدعوة للسلام وامتدح الملك الفرنسي في حا[illegible]ة من المصالحة وتساءل كيف يمكن أن يفكر أحد في شهر الحرب على فرنسا « أطهر جزء في العالم المسيحي وأعظمه ازدهاراً » . ووصل إلى ذروة الفصاحة المتحمسة في كتابه (الشكوى من السلام ١٥١٧) :

« أمر في صمت على مآسي الحروب القديمة ولن أركز الحديث إلا على الحروب التي نشبت في خلال هذه السنوات الأخيرة . أين الأرض أو البحر الذي لم يحارب فيه الناس بطريقة من أقسى ما يمكن ؟ وأين النهر الذي لم تصطبغ مياهه بدم الإنسان . . . بالدم المسيحي ؟ يا للعار العظيم ! إنهم يتصرفون بقسوة في المعركة تزيد على قسوة غير المسيحيين ، وبوحشية تفوق وحشية حيوانات الغاب . . وكل (هذه الحروب) نشبت بسبب نزوات الأمراء على حساب الإضرار بالناس الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذه المعارك . . . وليس بين الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وهم كهنة المسيح ، من يخجل من بدء الحرب التي لعنها المسيح . ما هو الشيء المشترك بين الخوذة وتاج الأسقف ؟ ويا أيها الأساقفة ، يامن يحملون لواء الرسل ، كيف تجرؤون على أن تعلموا الناس أموراً كثيرة عن الحرب في نفس الوقت الذي تعلمونهم فيه تعاليم الرسل ؟ إن السلام ولو كان جائراً أفضل من الحروب ولو كانت تمليها العدالة » .

قد يفيد الأمراء والقواد من الحرب ولكن الجماهير تتحمل المآسي والنفقات . وقد يكون من الضروري أحياناً شن حرب دفاعاً عن النفس

ولكن حتى فى هذه الحالات قد تكون رشوة العدو أشد حكمة من شرور الحرب . فليرفع الملوك منازعاتهم إلى البابا . وقد يكون هذا إجراء غير علمى فى عهد يوليوس الثانى إذ كان هو نفسه رجلا محارباً ، أما ليو العاشر وهو « حبر متعلم تقى أمين » فإنه سيحكم بالعدل ويرأس فعلا محكمة دولية : ووصم ارازموس القومية بأنها لعنة للبشرية وتحدى الساسة أن يتدعوا حكومة عالمية . وقال : « إنى أتمنى أن أكون مواطناً عالمياً » واغتفر لبوديى حبه لفرنسا ولكنه قال : « فى رأيى أنه أقرب للحكمة أن تكون علاقاتنا مع الأشياء والناس أساساً مثل اعتبار العالم البلد المشترك بالنسبة لنا جميعاً » .

كان ارازموس أضعف الناس حماساً للقومية فى عهد الإصلاح الذى رفع من شأن القومية . وكتب يقول : « إن أسمى شىء هو أن يستحق المرء أن ينسب إلى الجنس البشرى » .

ويجب ألا نتوقع من إرازموس أن يقدم لنا أى مفهوم واقعى للطبيعة البشرية أو عن أسباب الحروب أو عن سلوك الحكومات فهو لم يواجه قط المشكلة التى كان يعالجها فى مكيافيلى فى تلك السنوات نفسها . وهل كان فى وسع حكومة أن تبقى إذا مارست الأخلاق التى تحث المواطنين على اتباعها . كانت وظيفة ارازموس أن يبتر الأغصان من شجرة الحياة لا أن يبنى فلسفة إيجابية متينة . بل إنه لم يكن واثقاً من أنه مسيحى ، فكثيراً ما أكد أنه يقبل عقيدة الرسل ، ومع ذلك فلابد أنه شك فى الجحيم لأنه كتب : « إن الذين ينكرون وجود الله ليسوا ملحدين كهؤلاء الذين يصورونه تعالى متزمتاً » . وكان لا يكاد يؤمن بأن العهد القديم من كلام الله لأنه أقر برغبته فى « أن يرى العهد القديم كله يبطل » إذا كان يهدئ من الحنق على روبخلين . وسخر من الروايات المأثورة عن مينوس ونوما بأنهما كانا يغريان شعبيهما بالخضوع لتشريع غير لطيف بنسبته إلى الآلهة . ولعله راوده الشك فى أن موسى كان يتبع نفس السياسة . وعبر عن دهشته لأن

« مور » رضى بالحجج التى تساق لإثبات خلود النفس ورأى أن العشاء الربانى رمز وليس معجزة ، ومن الواضح أنه راوده الشك فى التالوث وفى تجسد الأقنوم الثانى وفى ولادة العذراء ، وكان على مور أن يحميه من مراسل أعلن أن ارازموس قد اعترف فى خلوة بعدم إيمانه . وطرح للنقاش واحداً بعد الآخر العادات التى درج عليها المسيحيون فى عهده — صكوك الغفران والصيام والحج والاعتراف السرى والرهبانية والعزوبة الاكليريكية وعبادة مخلفات القديسين والصلوات للقديسين وحرق الهراطقة . وقدم تفسيرات مجازية أو منطقية لكثير من فقرات الكتاب ، المقدس، وقارن قصة آدم وحواء بقصة بروميثيوس ، وأشار بتفسير الكتب المقدسة تفسيراً يلتزم أقل ما يمكن المعنى الحرفى ، وحول عذاب الجحيم إلى الألم الدائم للعقل الذى يصحب الإثم المعتاد . ولم يذع شكوكه بين الناس لأنه لم يكن لديه أساطير مواسية أو رادعة يقدمها بدلا من الأساطير القديمة . وكتب يقول : « إن التقوى تستلزم منا أن نخفى الحقيقة أحيانا وأن نحرص على ألا نظهرها دائماً كما لو كان لا يهم متى وأين أو لمن نظهرها ، ولعلنا نجد لزاماً علينا أن نتفق مع أفلاطون فى أن الأكاذيب مفيدة للناس » .

وعلى الرغم من هذا الميل الشديد للمذهب العقلى فقد ظل ارازموس ظاهريا متفقاً مع المحافظين ولم يعدم قط محبته للمسيح وللأناجيل وللطقوس الدينية الرمزية التى رفعت بها الكنيسة من شأن التقوى . وابتدع شخصية فى محاوراته تقول « إذا كان ثمة شيء شائع الاستعمال عند المسيحيين لا يتنافر مع الكتب المقدسة فإنى أراعيه لهذا السبب بحيث لا أسيء إلى الناس الآخرين » .

وكان يحلم بأن يستبدل باللاهوت : فلسفة المسيح ، وسعى إلى التنسيق بين هذه الفكرة وبين رأى كبار الوثنيين . ووصف أفلاطون وسيشرون وسينكا بعبارة « ملهم من الله » ولم يقبل أن يحرم هؤلاء الرجال من الخلاص

وكان لا يكاد يستطيع أن يمتنع عن الصلاة على روح القديس سقراط . وطلب من الكنيسة أن تختصر المذاهب الجوهرية للمسيحية « إلى أقل عدد ممكن وأن تترك للباقى حرية الرأى » . ولم يدافع عن التسامح الكامل مع كل الآراء (ومن يفعل ؟) ولكنه اتخذ موقفاً رفيقاً منحازاً نحو الهرطقة الدينية . وكان مثله الأعلى فى الدين هو محاكاة المسيح ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نسلم بأن ممارسته للشعائر كانت أقل من أن توصف بأنها مطابقة لتعاليم الكنيسة الإنجيلية .

٦ — الإنسان

كيف عاش فعلا ؟ لقد أقام إبان هذا العهد (١٥١٧) معظم وقته فى الفلاندرز فى بروكسل وأنتورب ولوفان — وسكن فى خلوة أعزب مع خادم وإن كان كثيراً ما قبل ضيافة ذوى الثراء الذين كانوا يتسابقون على صحبته باعتبارها امتيازا اجتماعيا واحتفالا فكريا .

وكان أنيقا فى أذواقه وكانت أعصابه ومشاعره رقيقة إلى الحد الذى كان كثيراً ما يتألم فيه من خشونات الحياة الشديدة . وكان يشرب النبيذ بكثرة ويتفاخر بقدرته على حمل الكأس بثبات ، ولعل هذا كان بسبب داء النقرس والحصوات التى كانت تضايقه ، ولكنه كان يعتقد أن النبيذ يخفف من ألمه بتوسيع شرايينه .

وفى عام ١٥١٤ وهو فى الخامسة والأربعين أو الثامنة والأربعين من عمره وصف نفسه قائلا إنه : « عليل أشيب الرأس . . . يجب ألا يشرب سوى النبيذ » ويجب أن « يكون متأنقا فى طعامه » . وكان الصيام لا يناسبه ، وكان يتميز غيظا من السمك ؛ ولعل الصفراء عنده لونت لاهوته . وكان قليل النوم مثل معظم الناس الذين لا تعرف عقولهم المشغولة متى يأوون إلى الفراش ، وكان يواسى نفسه بأصدقائه وكتبه « يخيل إلى أنى أنتزع من نفسى

عند ما أحجز عن عاداتى اليومية فى الدراسة . إن بيتى هو المكان الذى توجد فيه مكتبتى » .

وكان يلح فى طلب النقود بكل ما عرف من مثابرة عن قسيس أبرشية ، وذلك لشراء الكتب إلى حد ما . وكان يتلقى معاشات منتظمة من مونتجوى وو ارهام وهدايا عينية مثل مبلغ الثلاثمائة فلورين (٧٥٠٠ دولار ؟) من جان ليه سوفاج رئيس وزراء بورجنديا ، وحقوق تأليف تزيد عن تلك التى كسبها أى مؤلف آخر فى عصره .

وكان يتنصل من أى حب للمال ويقول إنه يبحث عنه لأنه ، كأى رجل بلا موارد ، يخشى ألا يجد ما يؤمنه فى وحدته عند ما يبلغ أرذل العمر . وفى الوقت نفسه استمر يرفض الوظائف المربحة التى كان يمكن أن توسع دخله على حساب حريته .

كان مظهره أولا لا يؤثر فى الناس ، فقد كان قصير القامة نحيل البدن أصفر الوجه ضعيف البنية ، خافت الصوت ، وكان يؤثر فى الناس بيديه الحساستين وأنفه الأقنى وعينيه الزرقاوين الرماديتين اللتين تلمعان ببريق الذكاء ، وكلامه حديث يدل على عقلية خصبة لماحة من أحسن العقليات فى هـذا العصر اللامع ، وكان أعظم الفنانين من معاصريه أبناء الشمال يتوقون إلى رسم صورة له ، فوافق على أن يجلس أمامهم لأن هذه الصور كانت تلقى ترحيبا من أصدقائه باعتبارها هدايا ، وصوره كينتان ماسيس عام ١٥١٧ وهو مستغرق فى الكتابة وملتف بمعطف ثقيل يقيه برد الحجرات فى تلك القرون ، وأهديت هذه الصورة إلى مور . ورسم ديرر صورة بالفحم لارازموس عام ١٥٢٠ ، ونقش له حفرا ملفتا للنظر عام ١٥٢٦ ، وهنا أضفت لمسة الريشة الألمانية تماما على « الأوروبى الطيب » سحنة هولندية . وقال الجالس « إذا كنت أبدو كهذه الصورة فأنا محتال كبير » . وتفوق هولبين على

كل هذه الجهود فى صور كثيرة رسمها لارازموس إحداها فى تورين وثانية فى انجلترا وثالثة فى بازيل وأحسنها فى اللوفر — وكلها روائع رسمها أعظم مصور للوجوه فى الشمال ، وهنا كان العلامة قد أصبح فيلسوفا هادئا متأملا وإن كان سوداويا إلى حد ما ، وسلم فى نفور لحياد الطبيعة المتواكل وفناء العبقرية . وكتب عام ١٥١٧ يقول : « يجب أن نتحمل ما يأتى به حظنا وقد هيأت عقلى لتقبل كل حدث » . وهى فلسفة رواقية لم يحققها قط . . . وقال عن شاب طموح : « إنه يحب المجد ولكنه لا يعرف ما يكلفه المجد من عناء » . ومع ذلك فإن ارازموس مثل كثير من ذوى النفوس النبيلة ، كان يواصل العمل ليلا ونهارا ليتغلب على هذا العبء .

وبدت أخطاؤه واضحة للعيان ، أما فضائله فكان لا يعلمها إلا الخلصاء من أصدقائه ، وكان فى وسعه أن يتسول بلا خجل ، ولكن كان فى وسعه أيضا أن يعطى ، وكثيراً ما كانت تشيع فى حرارة مدحه روح متمردة . وعند ما وجه بفيفركورن Pfefferkorn هجومه إلى رويخلين كتب ارازموس إلى أصدقائه من الكرادلة فى روما ، وساعد على الحصول على الحماية للعالم بآداب اللغة العبرية المتعب ، وكان يفتقر إلى التواضع والاعتراف بالجميل ، فقد كان هذا من الصعب على رجل يخطب وده البابوات والملوك .

وكان يضيق ذرعا بالنقد ويستاء منه ، وكان أحيانا يجيب عليه بطريقة نعسانية فى هذا العصر الشهير بالجدل ، وشاطر فى مناهضة السامية حتى مع علماء عصر النهضة ، وكانت اهتماماته فى أضيق الحدود كما كانت قوية ، فقد أولع بالأدب عند ما كان يلبس ثوب الفلسفة ، وبالفلسفة عند ما كانت تترك المنطق للحياة ؛ ولكنه تجاهل تقريبا العلم والمسرح والموسيقى والفن . وسخر من معظم نظم الفلك التى كانت تختال على المسرح وسخرت معه النجوم . وليس فى كل مراسلاته العديدة تقدير للألب أو لعمارة أكسفورد

وكامبردج أو لتصوير رافائيل أو لنحت ما يكلانجلو الذين كانوا يعملون ليوليوس الثانى عند ما كان ارازموس بروما (١٥٠٩) ، ثم إن الترتيل القوى فى الأبرشيات المقومة آذى فيها بعد أسماعه المهذبة . وكانت حاسة الفكاهة عنده عادة تتسم بالدقة والرقة ، وكانت رابيلية ولكنها فى الغالب ساخرة ، وانقلبت مرة إلى سخرية لا تتسم بالإنسانية كما حدث عند ما كتب إلى صديق عند ما سمع بإجرام بعض المراطقة : « سأرثى لهم أقل إذا رفعوا ثمن الوقود لا سيا وأن الشتاء على الأبواب » .

ولم تكن من صفاته الأثرة الطبيعية أو الأنانية التى يتسم بها كل الرجال ، بل كان يتصف بذلك الغرور الخفى المحبب أو الإعجاب بالذات الذى لولاه لانسحق الكاتب أو الفنان فى الاندفاع القاسى لعالم يتسم بعدم الاكتراث .

وكان يحب الإطراء ويوافق عليه على الرغم ممن كانوا ينكرون عليه ذلك من آن لآخر . وقال لأحد أصدقائه : « إن خير النقاد يقولون إنى أكتب أحسن من أى إنسان آخر على ظهر الأرض » . وكان هذا حقا وإن كان باللاتينية فحسب ، فقد كان يكتب بفرنسية رديئة ويتحدث قليلا بالهولندية والإنجليزية ، وكان « يتذوق العبرية بطرف اللسان فقط » وكان يعرف اليونانية معرفة ناقصة ولكنه كان يجيد تماما اللغة اللاتينية ، وكان يستخدمها باعتبارها لغة حية يمكن تطبيقها على معظم التفاهات والأشياء الحقيرة غير اللاتينية فى عهده . وقد اغتفرت أجيال قرن مشغوفة بالكلاسيات معظم أخطائه نظرا لما يمتاز به أسلوبه من إشراقة زاهية . وما تتسم به تقديراته للأشياء ، بأقل من قيمتها ، من سحر عجيب ، وما تتصف به سخريته من تهكم لاذع . وتضارع رسائله خطابات سيشرون فى البلاغة والدماثة وتفوقها حيوية وفطنة . وفضلا عن هذا فقد تفرد بلغة لاتينية خاصة به ، ولم تكن تقليدا للغة شيشرون بل كانت كلاما حيا قويا طيعا ،

ولم تكن صدى لألفاظ مضى عليها ١٥٠٠ عام . وكانت رسائله مثل رسائل بترارك مطمح أنظار الأدباء والأمراء بعد حديثه المثير وهو يقول لنا ، ولعل هذا بشيء من الرخصة الأدبية ، أنه كان يتسلم كل يوم عشرين رسالة ويكتب أربعين خطابا . ونشرت منها بضع مجلدات فى حياته بعد أن فتحها مؤلفها بعناية حتى يقرأها من يأتون بعده . وكان بين من يراسلونه ليو العاشر وأدريان السادس والملكة مارجريت ملكة نافار والملك سيجموند الأول ملك بولنده وهنرى الثامن ومورروكوليه وبيركايمار . وكتب مور المتواضع : « لا أستطيع أن أتخلص من شعور نزوى بالغرور . . عندما يخطر ببالى أنى سأكون موضع ثناء من خلف بعيد لصداقتى لارازموس » .

ولم يضارعه فى شهرته كاتب آخر من معاصريه ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أن لوثر كاتب . وأبلغ بائع كتب فى اكسفورد عام ١٥٢٠ أن ثلث مبيعاته كانت من أعمال ارازموس . وكان له أعداء كثيرون وبخاصة بين علماء اللاهوت فى لوفان ، غير أنه كان له مريدون فى اثنتى عشرة جامعة ، وكان هناك علماء للإنسانيات فى أوروبا ينادون به قدوة وزعيما . وفى ميدان الأدب كان يمثل عصر النهضة ومذهب الإيمان بالإنسان مجتمعين — عبادتهما للكلاسيات ولأسلوب لاتينى مصقول واتفاق الجنتلمان (السادة المهذبين) على ألا يختلفا مع الكنيسة وألا يزعجا أساطير الجماهير التى لا غنى عنها ، على شريطة أن للكنيسة أن تغض النظر عن الحرية الفكرية لطوائف المتعلمين وتسمح بتقويم مفاسد وسخافات رجال الدين تقويما داخليا قانونيا ، وقد هلل ارازموس مثل كل علماء الإنسانيات لتبوؤ ليو العاشر منصب البابوية ، فقد تحقق حلمهم — وها هو عالم بالإنسانيات وعلامة وسيد مهذب ، يمثل اتحاد النهضة والمسيحية معا ، قد ارتقى أعظم العروش . وليس من شك فى أنه سوف يتم تطهير سلمى للكنيسة ، وينتشر التعليم ، وسيحافظ الناس

على شعيرتهم المحببة وإيمانهم الذى يجدون فيه العزاء وإن كان العقل البشرى سوف يكون حرا .

وظل هذا الأمل يراود ارازموس حتى بداية عهد لوثر تقريبا ، ولكنه فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥١٧ كتب من انتورب إلى توماس ، كردينال يورك ، عبارة تنذر بالويل : « فى هذا الجزء من العالم أخشى أن هناك ثورة عظيمة توشك على الوقوع » . وفى أقل من شهرين وقعت الثورة .

الفصل السادس عشر

ألمانيا قبيل عهد لوثر

١٤٥٣ - ١٥١٧

---

١ - عصر آل فوجر

كان التوفيق حلفا لكل الطوائف فى ألمانيا ما عدا الفرسان فى السنوات الخمسين الأخيرة قبل عهد الإصلاح الدينى ، ولعل ارتفاع منزلة الفلاحين هى التى زادت من استيائهم على ما بقى من إحساسهم بالعجز . إذ كانت قلة منهم لا تزال من طائفة عبيد الأرض وأقلية منهم ملاكا ، وكانت غالبيتهم مزارعين مستأجرين يدفعون الإيجار إلى السادة الإقطاعيين إنتاجا عينيا أو يقدمون لهم خدمات أو نقوداً . وكان المستأجرون يشكون من ظلم السادة ، من أيام العمل الإثنى عشر والتى تصل إلى ستين يوما فى بعض الأحوال والتى حتمت التقاليد أن يبذلوها لهم فى كل عام ، ومن استرداد الأرض من عامة الناس ، تلك الأرض التى جرى العرف على السماح لهم فيها بصيد الأسماك وقطع الأخشاب ورعى الماشية ، ومن الأضرار التى لحقت بالمحاصيل من صيادى السيد وكلابهم ومن سياسة القضاء المتحيزة فى المحاكم المحلية ، وكان الملاك يسيطرون عليها ،ومن الضريبة على الموتى التى كانت تفرض على أسرة المستأجر عند ما يحل موت عميدها بالعناية بالأرض . وثار الملاك الفلاحون غضبا بسبب الضرائب المضاعفة التى كان لزاما عليهم أن يدفعوها على القروض المطلوبة لنقل محصولاتهم وعلى حبس الرهن السريع للمزارع بوساطة المرابين ، وكانوا يقدمون القروض للملاك الذين يتضح لهم عجزهم عن السداد ؛ ولقد

أضمرت كل عواطف الفلاحين العداء لضريبة العشور السنوية التي تفرضها الكنيسة على محاصيلهم وماشيتهم .

وأضرم هذا التذمر نيران ثورات الفلاحين فانتشرت خلال القرن الخامس عشر ، وقام الفلاحون حول ورمز بثورة لاطائل تحتها عام ١٤٣٢ ، واختاروا حذاء أحد الفلاحين علماً لهم ، وكان حذاء طويلا يكسو الساق من الرسغ إلى الركبة ، وعلقوه على الشواخص ، كما رسموا صورته على الأعلام . وأصبح رباط الحذاء العنوان المحبب لعصابات المتمردين من الفلاحين في عهد لوثر .

ولقد أعلن عام ١٤٧٦ راعى أبقار يدعى هانز بوهم أن أم الإله قد كشفت له أن مملكة السماء على الأرض غدت قريبة دانية ولن يكون هناك أباطرة ولا بابوات ولا أمراء أو سادة إقطاعيون . وأن جميع الرجال سيكونون إخوة وجميع النساء أخوات ، الكل يشاطر على قدم المساواة ثمار الأرض ، وأن الأراضى والغابات والمراعى ستكون مشاعا وملكا للجميع . وأقبل آلاف الفلاحين ليستمعوا إلى هانز وانضم له أحد القسس وابتسم أسقف فيرتسبورج فى تسامح ولكن عندما طلب هانز من أتباعه أن يحضروا معهم فى الاجتماع القادم كل الأسلحة التى يستطيعون جمعها أمر الأسقف بالقبض عليه وأطلق جنوده النار على الجمهور الذى حاول إنقاذه وفشلت الحركة .

وفى عام ١٤٩١ هاجم الفلاحون فى ضيعة رئيس دير الرهبان فى كيمبتين فى الألزاس ديره ، وزعموا أنهم أكرهوا على أن يكونوا رقيقاً للأرض بوثائق مزيفة . وعقد الإمبراطور فريدريك الثالث معهم مصالحة . وبعد مرور سنتين أعلن أتباع أسقف ستراسبورج ثورة رباط الحذاء ، وطالبوا بإنهاء الضرائب الإقطاعية وضرائب العشور الكنسية وإلغاء كل الديون وقتل كل اليهود . وفكروا فى الاستيلاء على مدينة شلتستادت ، فقد كانوا يأملون أن

يمدوا سلطانهم على الألزاس . وعلمت السلطات بالمؤامرة وقبضت على الزعماء وعذبتهم ثم شنقتهم وأفزعت الباقين فأعلنوا الخضوع إلى حين . وفى عام ١٥٠٢ كون فلاحو أسقف سبير عصابة « رباط الحذاء » من ٧٠٠٠ رجل وتعاهدوا على إنهاء الإقطاع ومطاردة كل القسس والرهبان وقتلهم . واسترداد ما كانوا يعتقدون أنه كان مشاعا لأجدادهم . وأفشى أحد الفلاحين سر الخطة على كرسى الاعتراف فاتحد رجال الدين والنبلاء على إحباطها وعذب زعماء المتآمرين وشنقوا .

وفى عام ١٥١٢ نظم جوس فريتز حركة مماثلة قرب فرايبورج — ام — برايزجاو ، وكان من شأنها أن تبقى على الله والبابا والإمبراطور وأن تقضى على كل ملكية إقطاعية وضرائب يفرضها الإقطاعيون . غير أن واحداً من الفلاحين أكره على الانضمام لهذه الرابطة وأفشى سرها للقس الذى اعترف أمامه فاعتقلت السلطات الزعماء وعذبتهم وفشلت الثورة ، إلا أن جوس فريتز عاش إلى أن انضم إلى ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وفى عام ١٥١٧ تكونت جماعة من ٩٠٫٠٠٠ فلاح فى ستيريا وكارينثيا وتعاهدوا على القضاء على الإقطاع هناك وظلت عصاباتهم لمدة ثلاثة شهور تهاجم القلاع وتقتل بالسادة ، وأخيراً أرسل الإمبراطور ماكسمليان ، وكان يعطف على قضيتهم وإن لم يرض عن توسلهم بالعنف ، قوة صغيرة من الجنود وأرغمتهم على السلم على مضض . ولكن المسرح كان معداً لحرب الفلاحين وللشيوعية اللامعمدانية فى الإصلاح الدينى بألمانيا .

وفى غضون ذلك كانت تقوم فى عالمى الصناعة والتجارة بألمانيا ثورة أملاها الأمر الواقع . كانت معظم الصناعات لا تزال يدوية وإن تزايدت عليها سيطرة رجال الأعمال الذين يقدمون المواد الخام ويمولونها ويشترون الإنتاج النهائى ويبيعونه ، وكانت صناعة التعدين تتقدم بسرعة وجنيت أرباح عظيمة من استخراج الفضة والنحاس والذهب ، وأصبحت سبيكة الذهب

أو الفضة عندئذ وسيلة محببة لاختزان الثروة ، ومكنت حقوق التعدين لأمراء الإقليم — وبخاصة أمير ساكسونيا وكان يحمى لوثر — مكنت بعضهم من مقاومة البابا والإمبراطور معا . وسكت نقود فضية يعتمد عليها وتضاعف عدد النقد وتم أو كاد التوصل إلى اقتصاد يرتكز على النقد ، وأصبحت حيازة سبيكة فضية أمراً شائعا فى الطبقتين الوسطى والعليا ، وعرضت بعض الأسر مناضد أو مقاعد من الفضة الخالصة وتراكمت فى الكنائس الألمانية ، أوعية وكئوس قداس وجفان بل وتماثيل من الفضة أو الذهب ، وجعلت الأمراء يميلون إلى إصلاح دينى يسمح لهم بتصفية الثروة الكنسية . وقد تعجب أنياس سيلفيوس عام ١٤٥٨ عندما رأى أصحاب حانات فى ألمانيا يقدمون بانتظام الشراب فى كئوس فضية وتساءل : « أية امرأة ، لا بين طبقة النبلاء فحسب بل بين طبقات الدهماء ، لا تتألق بالتحلى بالذهب ؟ — وهل أذكر شكائم الخيول المزينة بنقوش بارزة من خالص الذهب و . ، . أسلحة وخوذات تلمع بالذهب ؟ » وأصبح الممولون الآن قوة سياسية عظيمة ، واستبدل بمقرضى النقود من اليهود مؤسسات تديرها عائلات مسيحية من الولزين والهوخستيتر والفوجر ، وكلهم من أوجسبورج وكانت عاصمة المال فى العالم المسيحى فى نهاية القرن الخامس عشر . ولقد أصبح جوهان فوجر ، وهو ابن نساج ، تاجرا للمنسوجات وترك عند وفاته (عام ١٤٠٩) ثروة صغيرة من ٣٫٠٠٠ فلورين (٧٥٫٠٠٠ دولار ؟) وتوسع ابنه جاكوب فى العمل وعندما مات (١٤٦٩ ترك ثروة تعد السابعة بين الثروات فى أوجسبورج ، واستطاع أولريخ وجورج وجاكوب الثانى أبناء جاكوب أن يرقوا بالمؤسسة إلى مكان الصدارة بتقديم المال إلى الأمراء فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا ، وذلك فى مقابل الحصول على دخول المناجم أو الأراضى أو المدن . ومن هذه الاستثمارات التى تعتمد على المضاربة جمع آل فوجر أرباحا فاحشة وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا أغنى أسرة فى أوروبا .

وكان جاكوب الثانى عبقرى الأسرة الذى لا يبارى ، فقد كان مقداما قاسيا مجدا . ودرب نفسه ، على طريقة الرواقيين ، بدراسة كل مرحلة من مراحل العمل وكل تقدم فى مسلك الدفاتر والصناعة والمتاجرة والتمويل . وطالب بالتضحية بكل شيء فى سبيل العمل ما عدا الأسرة نفسها وبإخضاعه كل فرد من آل فوجر فى سبيل مصلحة الأسرة وأسس المبدأ القائل بألا سلطة لأحد فى المؤسسة سوى فرد من آل فوجر ولم يسمح قط لعلاقاته السياسية بالتأثير فى قروضه . وكون اتحادات مع المؤسسات الأخرى للتحكم فى سعر المنتجات المختلفة ومبيعاتها ، ولذلك عقد عام ١٤٩٨ هو وإخوته اتفاقاً مع تجار أوجسبورج يقضى « بتضييق الخناق » على سوق البندقية فى النحاس ورفع السعر . وفى عام ١٤٨٨ أقرضت الأسرة ١٥٫٠٠٠ فلورين للأرشيدوق سجيسموند النمساوى وتسلمت ضمانا للقرض كامل إنتاج مناجم الفضة فى شفارتز إلى أن يتم سداد القرض . وفى عام ١٤٩٢ اتفق آل فوجر مع آل تورزون من كراكا وعلى قيام اتحاد (كارتل) لاستغلال مناجم الفضة والنحاس فى هنغاريا وللحفاظ على « أعلى سعر ممكن » للمنتجات ، وما أن حل عام ١٥٠١ حتى كان آل فوجر يقومون بمشروعات واسعة التعدين فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا وبوهيميا وإسبانيا . وعلاوة على هذا فإنهم استوردوا المنسوجات وصنعوها وتاجروا فى الأقمشة الحريرية والقطيفة والفراء والتوابل وثمار الليمون والذخائر والمجوهرات ونظموا نقلا سريعا وخدمة بريدية خاصة ، وما أن حل عام ١٥١١ وأصبح جاكوب الثانى المدير الوحيد للمؤسسة حتى كانت أصولها قد وصلت إلى ١٩٦٫٧٩١ جيلدر . وفى عام ١٥٢٧ (بعد عامين من وفاته) قدر رأسمالها بمبلغ ٢٫٠٢١٫٢٠٢ جيلدر (٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار) — بواقع ربح سنوى قدره خمسون فى المائة خلال ستة عشر عاما .

ولقد حصل جانب من هذا الربح من علاقات آل فوجر بالأباطرة

والبابوات إذ قدم أولريخ فوجر قروضا لفردريك الثالث وأصبح جاكوب الثانى الوسيط الأول لماكسمليان الأول وشارل الخامس وقد تحقق امتداد سلطان آل هابسبورج فى القرن السادس عشر بفضل قروض آل فوجر وعلى الرغم من أن جاكوب لم يعبأ بتحديد الكنيسة للفوائد ومحاولات رجال الكنيسة أن يحددوا « ثمنا عادلا » لسلع المستهلكين فإنه ظل كاثوليكيا . وقدم القروض لرجال الدين للوفاء بنفقات ترقيتهم ، وحصل مع أولريخ (عام ١٤٩٤) على حق إدارة أموال البابا فى ألمانيا واسكنديناوة وبوهيميا وهنغاريا ، وكان جاكوب فوجر فى السنوات الأخيرة من عمره مواطنا مبجلا ومكروها فى ألمانيا ، وهاجمه بعض الكاثوليكين باعتباره مرابيا كما هاجمه بعض النبلاء بسبب رشوته لهم للظفر بمنصب أو نفوذ ، وبعض التجار لاحتكاراته التى أثارت حسدهم ، وسخط عليه كثير من العمال لإلغائه لوائح التجارة والمال فى العصور الوسطى ، ومعظم البروتستانت لتصديره الأموال الألمانية إلى البابوات . ولكن الأباطرة والملوك والأمراء والبطاركة بعثوا له بالرسل وخاطبوه كأنه أحد الحكام ورسم ديرر وبورجكمير وهولبين الكبير صورة شخصية له بدا فيها رجلا واقعيا بسيطا صارما ، وأنعم عليه ماكسمليان بلقب كونت الإمبراطورية ، وحاول جاكوب أن يكفر عما ارتكبه من خطايا لجمع ثروته ببناء ١٠٦ منزلا للفقراء من الكاثوليك بأوجسبرج[1] ، وأنشأ معبداً صغيرا فى كنيسة سانت أنا لتدفن فيه رفاته ومات بوسط جو مضمخ بالقداسة وخلف ملايين الجيلدرات ، ولم يعقب ذرية فقد حرمته الحياة أعظم عطاياها .

ويمكننا أن نقول إنه هو الوحيد الذى افتتح عصر الرأسمالية ونمو الاحتكارات الخاصة وسيطرة رجال الأعمال بأموالهم على السادة الإقطاعيين

---

(١) لا تزال هذه المستعمرة « فوجيراى » موجودة وهى تتقاضى اثنين وأربعين بفننيج (ستة وثمانين سنتا) من الأسرة كل عام .

الذين يملكون الأرض ، وكان التعدين وصناعة المنسوجات يرتكزان على أنظمة رأسمالية أى، يشرف عليهما من يقدمون رأس المال - فى نهاية القرن الخامس عشر ، على نسق زعامة الفلاندرز وإيطاليا فى صناعة المنسوجات قبل ذلك بمائة عام .

وكان الرأى السائد فى العصور الوسطى هو أن الملكية الفردية وديعة عامة إلى حد ما : فحقوق المالك تحددها احتياجات الجماعة التى أتاح نظامها له الفرص والتسهيلات والحماية . وربما فى ظل القانون الرومانى - وكان قد حجب وقتذاك الفقه الألمانى - بدأ المالك يرى أن ملكيته مطلقة وشعر بأن له الحق فى أن يفعل بملكه ما يشاء . ولذلك لم يبد من الخطأ لآل فوجر وآل هوخستيتر وغيرهم من « أمراء التجار » أن (يضيقوا الخناق » على إنتاج ثم يرفعوا سعره أو يكونوا اتحادات (كارتلات) لتحديد الناتج والتحكم فى التجارة أو أن يمارسوا الاستثمارات بحيث يغشون صغار حاملى الأسهم . وفى عديد من الأمثلة نجد تاجرا يضع وكلاءه على أبواب المدينة ومعهم أوامر بأن يشتروا كل البضائع الواردة من صنف معين حتى يبيعها بالسعر الذى يفرضه فى المدينة . وقد اشترى امبروز هوخستيتر كل ما أمكن الحصول عليه من الزئبق ثم رفع سعر بيع التجزئة بمقدار ٧٥ فى المائة . واشترت شركة ألمانية فلفلا من ملك البرتغال بمبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ جيلدر بسعر يزيد على السعر العادى على شريطة أن يتقاضى الملك سعراً أعلى من كل مستوردى الفلفل من البرتغال إلى ألمانيا . وعن طريق هذه الاتفاقات والاحتكارات من ناحية ، وعن طريق تزايد الثروة وزيادة الطلب على البضائع من ناحية أخرى ، وعن طريق ارتفاع الوارد من المعادن النفيســة من أوروبا الوسطى وأمريكا ارتفعت الأسعار بين عامى ١٤٨٠ و ١٥٢٠ بسرعة لا نظير لها إلا فى قرننا هذا : وقال لوثر شاكيا : « فى خلال زمن قصير وبسبب الربا والشح أصبح من كان فى وسعه سابقا

أن يعيش بمبلغ مائة جيلدر لايستطيع الآن أن يعيش بمبلغ مائتين » . وهى حكاية رويت أكثر من مرتين .

وقد شهدت العصور الوسطى تفاوتا شاسعاً فى السلطة السياسية ، وأضاف عصر آل فوجر الجديد تباينا اقتصاديا لم تعرفه أوروبا منذ عهد أصحاب الملايين والعبيد فى إمبراطورية روما ، فبعض التجار الرأسماليين فى أوجسبرج أو نورمبرج كان عنـد كل منهم ثروة تعادل ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٥ فرنك (٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٥ دولار ؟) واشترى الكثيرون مكانة بين الأرستقراطية صاحبة الأرض وارتدوا دروعا عليها شعارهم وعوضوا احتقار الأشراف « بإسراف مبالغ فيه » ، فقد كان جواكيم هوخستيتر وفرانزباو مجارتنر ينفقان ٠٠٠ر٥ فلورين (٠٠٠ر١٢٥ دولار ؟) على مأدبة واحدة أو يقامران فى لعبة واحدة بمبلغ ٠٠٠ر١٠ فلورين ، وقد أثارت بيوت رجال الأعمال الأغنياء الفاخرة الأثاث والزخارف الفنية استياء طبقة النبلاء ورجال الدين والدهماء على حد سواء ، وانضم الوعاظ والكتاب والثوريون فى ثورة عارمة ضد المحتكرين ، وطالب جايلر فون كايزرسبرج بأن « يطاردوا كالذئاب ما داموا لا يخشون الله ولا الناس وينشرون المجاعة والعطش والفقر » . وميز أولريخ فون هوتن أربعة طوائف من اللصوص : التجار وفقهاء القانون والقسس والفرسان ، ورأى أن التجار إنما هم أخطر هؤلاء اللصوص جميعا . « وطالب مجلس الريخستاج فى كولون كل السلطات المدنية بأن تتخذ الإجراءات » بحزم وشدة (ضد كل الشركات الرأسمالية التى تتوسل بالاحتكار والربا) . وتكرر صدور مثل هذه القوانين من مجالس نيابية أخرى ولكن بلا جدوى ؛ فقد كان بعض المشرعين أنفسهم يستثمرون أموالهم فى المحلات التجارية الكبرى ، وهدأت سورة غضب حماة القانون بمنحهم أسهما ، كما أن كثيراً من المدن ازدهرت بنمو التجارة الحرة .

كانت ستراسبورج وكولمار وميتز وأوجسبورج ونورمبرج وأولم وفيينا

وراتيسبون (رجنزبورج) ومانيز وسبيار وفورمز وكولون وترير وبريمن ودورتمونا وهامبورج وماجديبرج ولوبيك وبرسلاو مراكز نشاط اقتصادى مزدهرة بالصناعة والتجارة والآداب والفنون . وكانت هى وسبعة وسبعون مدينة أخرى « مدنا حرة » أى مدنا تسن قوانينها الخاصة وترسل ممثلين لها للمجالس النيابية الإقليمية والإمبراطورية ولا تخضع سياسياً إلا للإمبراطور ، وكان بدوره مدينا لها بالعون المالى أو العسكرى إلى حد لا يستطيع معه أن يقيد حرياتها ؛ وعلى الرغم من أن هذه المدن كانت تحكمها طوائف حرفية يسيطر عليها رجال الأعمال فإن كل واحدة منها تقريبا كانت بمثابة حكومة تستهدف الصالح العام . وطبقا للطريقة التى تراعى مصلحة الجماعة وذلك إلى الحد الذى كانت فيه تنظم الإنتاج والتوزيع والأجور والأسعار وصفة السلعة بقصد حماية الضعيف من القوى وتوفير احتياجات المعيشة للجميع . ونحن نطلق عليها الآن بلادا[1] لا مدنا طالما أن عدد السكان لم يتجاوز فى أى منها ٥٢٫٠٠٠ نسمة ومع ذلك فقد كانت آهلة بالسكان كما كان الحال عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر وأكثر ازدهاراً من أى عهد قبل جورته ، وإينياس سيلفيوس وهو إيطالى مزهو بنفسه كتب عنها عام ١٤٥٨ يقول :

لم تكن ألمانيا أغنى ولاأشد تألقا منها قبل اليوم ... ويمكن أن يقال دون مبالغة أنه ليس فى أوروبا بلد تبزها أو تفوقها فى جمال مدنها فهى تبدو طلية جديدة كأنها شيدت بالأمس ولن تجد حرية زائدة مثل هذه فى أية مدن أخرى . .

ولا يمكن أن تجد مدينة فى أوربا أكثر فخامة من كولون بكنائسها العجيبة ومبنى البلدية فيها وأبراجها وقصورها ومواطنيها المبجلين من أوساط

---

(١) جمع بلدة لتمييزها عن المدينة .

الناس وجداولها العظيمة . . . كما أنه ليس ثمة مدينة فى العالم تبز أوجسبورج فى الثروة . وفى فينا قصور وكنائس تحسدها عليها حتى إيطاليا » .

ولم تكن أوجسبورج مركزا للمال فى ألمانيا فحسب بل كانت أيضاً الحلقة التجارية الرئيسية التى تربط بينها وبين إيطاليا المزدهرة آنذاك . وتجار أوجسبورج هم اللذين كان لهم الفضل فى بناء وإدارة الفوندا كوتيديسكو فى البندقية التى زين جدرانها جيورجيونى وتيتيان بصورهما الجصية ، وكانت أوجسبورج وثيقة الاتصال بإيطاليا حتى أنها رددت صدى النهضة الإيطالية ، وآزر تجارها الأدباء والفنانين وأصبح بعض الرأسماليين بها مثالا يحتذى فى السلوك والثقافة إن لم يكن فى الأخلاق . ومن ثم نجد أن كونراد بوليتنجر ، وهو مأمور أو عمدة فى سنة ١٤٩٣ ، كان دبلوماسياً وتاجرا وأديباً وفقيهاً وعالماً باللغتين اللاتينية واليونانية وأثريا ورجل أعمال .

وكانت نورمبرج مركزا للفنون والحرف اليدوية أكثر منها للصناعة أو المال على نطاق واسع ، وكانت طرقاتها لا تزال ملتوية حسب ما كان متبعا فى القرون الوسطى تظللها طبقات بارزة أو شرفات ، وأسقفها المغطاة بالقرميد الأحمر وجملوناتها العالية القمة ومشربياتها تكون صورة غير متناسقة فى مهادها الريفى وجدول بجنيتز الضخم . ولم يكن الناس بها فى بحبوحة من العيش كما هم فى أوجسبورج ولكنهم مبتهجون دمثو الخلق ويحبون اللهو والتبذل فى مهرجانات مثل الكرنفال الذى يشتركون فيه كل عام ويرتدون فيه الأقنعة وأزياء التنكر ويرقصون . وهناك أخذ هانز ساكس وكبار المغنين ينشدون ألحانهم المرحة ، وارتقى البرخت ديرر بالتصوير والحفر الألمانيين إلى ذروتهما ، وهناك قام صاغة الذهب والفضة شمال الألب بصنع زهريات غالية الثمن وأوعية للكنيسة وتماثيل صغيرة ، وهناك قام العاملون بالأشغال المدنية بتشكيل الف تكوين للنبات والحيوان

والإنسان من البرنز أو شكلوا الحديد فى سياجات أوستائر جميلة ، وهناك كان قاطعو الخشب من الكثرة إلى حد يجعلنا نعجب كيف تيسرت لهم سبل العيش . وأصبحت كنائس المدن مخازن ومتاحف للفن لأن كل طائفة حرفية أو نقابة أو أسرة ثرية كانت ترسل عملا فنيا جميلا إلى مزار قديس يحمى الزمار . واختار رجيومونتانوس مدينة نورمبرج موطنا له وقال : « لأنى أجد هناك دون صعوبة كل الأدوات الخاصة بعلم الفلك وإنه لأيسر لى هناك أن أظل على صلة بالمتعلمين فى كل البلاد لأن نورمبرج ، بفضل رحلات تجارها المستمرة يمكن أن تعد مركزا لأوروبا . ومن مميزات نورمبرج أن أشهر تجارها فيليبالد بيركهايمر كان أيضا عالما بالإنسانيات متحمسا وراعيا للفنون وصديقا حميما لديرر ، وقد أطلق ارازموس على بيركهايمر : « فخر ألمانيا العظيم » .

وعكرت صفو التجارة بين ألمانيا وإيطاليا رحلات دا جاما وكولمبس وسيطرة الترك على بحر ايجة وحروب ماكسمليان مع البندقية ، فانتقلت الصادرات والواردات الألمانية شيئاً فشيئاً على طول الأنهار الكبيرة إلى بحر الشمال وبحر البلطيق والمحيط الأطلسى وانتقلت الثروة والسلطان من أوجسبورج ونورمبرج إلى كولون وهامبورج وبريمن وإلى أنتورب بصفة خاصة . وشجع آل فوجر وآل ويلز هـذا الاتجاه بأن جعلوا من أنتورب مركزا رئيسيا لعملياتهم . وأدت حركة المال والتجارة الألمانيين نحو الشمال إلى فصل شمال ألمانيا عن الاقتصاد الإيطالى ودعمت مركزها بحيث استطاعت حماية لوثر من الإمبراطور والبابا . ولعل جنوب ألمانيا ظل مخلصا للكاثولوكية لأسباب مغايرة .

٢ ــ الدولة

كيف كانت ألمانيا تحكم فى هذا العصر التشكيلى الحرج ؟

لقد كان الفرسان ، أو أبناء الطبقة النبيلة الدنيا ، الذين حكموا الريف بصفتهم أتباعا للسادة الإقطاعيين ، يفقدون مركزهم العسكرى والاقتصادى والسياسى . وكانت فرق الجنود المرتزقة الذين يستأجرهم الأمراء أو المدن ، والمجهزين بالأسلحة النارية والمدافع ، تبيد فرق الفرسان الذين كانوا يلوحون بالسيوف فى عجز وقصور ، وكانت الثروة التجارية ترفع الأسعار والنفقات وتتفوق على ملكية الأرض باعتبارها مصدرا للسلطان ، وكانت المدن توطد استقلالها والأمراء يركزون فى أيديهم السلطة والقانون . وثار الفرسان قليلا بالترصد للتجارة التى كانت تمر فى طريقهم ، وعندما احتج التجار والبلديات أكد الفرسان حقهم فى شن حروب خاصة . وقد وصف كومين ، ألمانيا فى هذا العهد بأنها تزخر بالقلاع التى يمكن فى أى وقت أن يتدفق منها « لصوص من البارونات » وأتباعهم المسلحون ، ويسلبون التاجر المسافر والفلاح على السواء . وجرت عادة بعض الفرسان أن يقطعوا الأيدى اليمنى لمن يسلبون من التجار . وعلى الرغم من أن جيتز فون برليخينجن فقد هو نفسه يده فى خدمة أميره ، فقد استبدل بها يدا حديدية ، وتزعم عصابات من الفرسان ، لا لمهاجمة التجار فحسب ، بل لمهاجمة المدن أيضاً ، « نومبرج ــ دارمستادت وميتز ومايتز (١٥١٢) . ووجه صديقه فرانز فون سيكنجن تهما ضد مدينة ورمس ونهب ضواحيها وقبض على أعضاء مجلس الشورى فيها وعذب عمدتها وقاوم كل المحاولات التى قامت بها الفرق الإمبراطورية للقبض عليه ولم يكن من المستطاع إخضاعه إلى حين إلا عندما تلقى منحة سنوية ليخدم الإمبراطور . وانضمت اثنتان وعشرون مدينة فى سوابيا ــ وبصفة خاصة أوجسبرج وأولم وفرايبورج وكونستانس إلى

الطبقة الرفيعة من النبلاء لإعادة تكوين عصبة سوابيا (١٤٨٨) وهذه المدن وغيرها من الاتحادات كبحت جماح الفرسان اللصوص ونجحت فى أن تعلن عدم شرعية الحرب الأهلية ، ومع ذلك فإن ألمانيا كانت قبيل عهد لوثر مسرحا للفوضى الاجتماعية والساسية ، فقد كان يسودها حكم شامل للقوة » .

وأسهم الأمراء الزمنيون ورجال الدين اللذين تصـــدروا القلاقل فيها بجشعهم وعملاتهم ورسوم جماركهم المختلفة وتنافسهم المضطرب على الثروة والنصب وتشويههم للقانون الرومانى ، وذلك لكى يمنحو أنفسهم سلطة مطلقة أو تكاد على حساب الشعب والفرسان والإمبراطور . وتصرفت بعض الأسر تصرف الملوك غير المسئولين من أمثال بيوت هوهنزولرن فى براندنبرج وفيتين فى ســاكسونيا وفيتلسباخر فى البلاتينات ودوقات فيرتيمبرج ، فما بالك بآل هابسبرج فى النمسا . ولو كان سلطان الإمبراطور الكاثوليكى على الأمراء الألمان أعظم من هذا لفشلت حركة الإصلاح الدينى أو تأجلت، ثم إن إعراض كثير من الأمراء عن روما كان اتجاها آخر نحو الاستقلال المالى والسياسى .

وأكدت شخصية الأباطرة فى هذا العهد ضعف الحكومة المركزية . وكان فردريك الثالث (حكم من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٣) فلكيا وكيمائيا يغرم بهـدوء حدائقه فى جراتز الذى يتطلع إليه البحاثة لدرجة أنه سمح لشلسوج هولشتين وبوهيميا والنمسا وهنغاريا بأن تنفصل عن الإمبراطورية ، ولكنه قام فى حوالى نهاية العام الثالث والخمسين من حكمه بخطوة لإنقاذها وذلك بخطبة مارى ، وريثة شارل الجسور دوق بورغنديا ، لابنه ماكسمليان . وعندما حفر شارل لنفسه قبرا ثلجيا عام ١٤٧٧ ورث آل هابسبورج الأراضى الواطئة .

وبدأ ماكسمليان الأول (حكم من ١٤٩٣ إلى ١٥١٩) الإمبراطور المنتخب

والذى لم يتوج قط ، حكمه بكل ما يبشر بالنجاح . وابتهجت الإمبراطورية كلها لملامحه الجميلة وأخلاقه الطيبة ورقة مشاعره الوديعة وبشاشته الجياشة، وكرمه وشهامته وشجاعته ومهارته فى المبارزة والصيد ، وكأنه إيطالى من عصر النهضة ارتقى عرشاً ألمانيا . بل إن ماكيافيلى تأثر به ووصفه بأنه « أمير عاقل زكى يخشى الله ، وحاكم عادل ، وقائد عظيم ، يقتحم الأخطار ويتحمل المشقة كأصلب الجنود عودا . . . نموذج يحتذى لكثير من الفضائل الخلقية بأمير » .. ولكن « ماكس » لم يكن قائدا عظيما ،وكان يفتقر إلى الذكاء الخبيث المطلوب من أمير فى نظر ماكيافيلى كان يحلم باستعادة عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسترداد ممتلكاتها . السابقة ونفوذها فى إيطاليا فغزا شبه الجزيرة مرارا وتكرارا فى حروب لا طائل تحتها ، رفض مجلس الدايت ، وكان فى هذا عمليا ، أن يمولها . وسمح لنفسه بالتفكير فى خلع يوليوس الثانى القوى وتنصيب نفسه بابا وإمبراطورا فى الوقت نفسه . وقد برر (مثل زميله المعاصر شارل الثامن ملك فرنسا) مطامعه الإقليمية بأنها تمهيد ضرورى لهجوم ساحق على الأتراك ، ولكنه عجز عن وضع خطة مدعمة من الناحيتين الدستورية والمالية . وكان لا يستطيع أن يحقق بالوسائل كما يتمنى الغايات ، وكان فى بعض الأوقات فقيرا إلى الحد الذى كان يعوزه المال لسداد ثمن عشائه . وسعى لإصلاح الإدارة فى الإمبراطورية ولكنه انتهك إصلاحاته ذاتها فماتت معه . وكان يفكر كثيرا فى مدى سلطة آل هابسبورج وبعد أن لاقى أكثر من فشل فى الحرب عاد إلى سياسة والده القائمة على الزيجات الدبلوماسية . وعلى هذا فإنه قبل عرض فرديناند بخطبة جوانا إلى ابنه فيليب وكانت ضعيفة العقل إلى حد ما ولكنها قدمت إسبانيا دولة صداقا لها . وفى عام ١٥١٥ خطب لحفيدته مارى وحفيده فرديناند ، للويس وأن ابن وابنة لاديسلاس ملك بوهيميا وهنغاريا ، وقتل لويس فى موهاكس (١٥٢٦) وأصبح فرديناند ملكا على بوهيميا وهنغاريا (بقدر ما سمح الأتراك) وبلغ سلطان آل هابسبرج أوسع مداه .

وكانت أحب سمات ماكسمليان عشقه وتشجيعه للموسيقى والتعليم والأدب والفن . وأكب فى حماس على دراسة التاريخ والرياضيات واللغات . ولقد ثبت لنا أنه كان فى وسعه أن يتحدث بالألمانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والوالونية والفلمندية والإنجليزية ، ويقال إنه تحدث فى حملة حربية واحدة مع سبع قواد أجانب بلغاتهم السبعة المختلفة . ومزج لهجات جنوب وشمال ألمانيا فى لغة ألمانية يفهمها الجميع وهى التى أصبحت لغة الحكومة الألمانية وكتاب لوثر المقدس والأدب الألمانى ، وذلك بفضل جهوده والاقتداء به إلى حد ما . وحاول ، وهو بنجوة من الحروب ،أن يكون مؤلفاً، وترك مصنفات عن فن الدروع والمدفعية والعمارة والصيد وسيرته الخاصة ، وفكر فى اقتناء مجموعة تستوعب مخلفات ونقوشاً من ماضى ألمانيا ولكن أعوزته الأموال من جديد . واقترح على البابوات إصلاح التقويم ، وقد حققوا فكرته بعد ثمانين عاما . وأعاد تنظيم جامعة فينا وأسس كراسى أستاذية جديدة للقانون والرياضيات والشعر والبلاغة ، وجعل من فيينا أزهر مركز للتعليم فى أوروبا لفترة ما . ودعا علماء الإنسانيات الإيطاليين إلى فينا ، وعهد إلى كونرادوس سلتس أن يفتح هناك أكاديمية للشعر والرياضيات . وناصر علماء للإنسانيات مثل بويتنجر وبيركهايمر وجعل من روتخلين Reuchlin المضطهد كونت بالاتاين الإمبراطورى . ومنح مكافآت لبيتر فيشر وفايت ستوس وبورجكمير وديرر والفنانين الآخرين الذين تألقوا فى عهده . وأمر بإقامة قبر مزخرف فى انزبروك ليضم رفاته ، وقد ترك دون أن يتم بناؤه عند وفاته ولكنه أتاح فرصة لتماثيل بيتر فيشر الجميلة لتيودوريك وأرثر . ولو كان ماكسمليان عظيما بقدر عظمة أفكاره لكان ندا للإسكندر وشارلمان .

وفى آخر سنة من حكم الإمبراطور رسم ديرر صورة أمينة له — تمثله منهوك القوى وقد انزاحت عنه الأوهام ، وكسر شوكته بؤس الزمن المثير للجنون . وقال هذا الرجل الذى كان يوماً روحاً مرحة « ليس فى الأرض

مسرة لى . وا أسفاه على أرض ألمانيا السكينة » ولكنه بالغ فى الحديث عن فشله ، فقد ترك ألمانيا والإمبراطورية (ولو لم يكن هذا إلا عن طريق التنمية الاقتصادية) أقوى مما وجدهما عليه إذ ارتفع عدد السكان وانتشر التعليم وبدأت فيينا تصبح فلورنسا أخرى . وسرعان ما صار حفيده ، الذى ورث نصف أوروبا الغربية ، أقوى حاكم فى العالم المسيحى .

٣ – الألمـــان (١٣٠٠ – ١٥١٧)

ربما كانوا إبان ذلك العهد أصح الشعوب أبداناً وأقواهم جسداً وأشدهم حيوية فى أوروبا، فإنهم ، كما نراهم فى لوحات فولجيموت ودبرر وفى صور كراناخ وهولبين ، أناس أقوياء البنية غلاظ الأعناق كبيرو الرؤوس ، لهم قلوب الأسود ، على تمام الأهبة لالتهام العالم ، واستساغته بشراب الجعة . كانوا أجلافا ولكنهم ظراف تخفف من ورعهم نزواتهم الشهوانية . وكان فى وسعهم أن يكونوا غلاظ الأكباد كما تدل على ذلك أدوات التعذيب المروعة التى اعتادوا استخدامها مع المجرمين ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا رحماء كرماء قلما عرضوا تزمتهم الدينى بوسائل بدنية ، إذ لقيت محاكم التفتيش فى ألمانيا مقاومة باسلة وكان نصيبها القمع عادة . لقد جبل الألمان بنفوسهم القوية على المرح الذى يتسم بإدمان الشراب أكثر مما يتسم بالفطنة الجافية ، ولقد أدى هذا كله إلى تبلد حسهم بالمنطق والجمال وحرمهم من ظرف العقلية الفرنسية أو الإيطالية ودهائها وتعثرت نهضتهم الهزيلة فى غمرة حماستهم الزائدة لتفسير الكتاب المقدس ومع ذلك فقد كان عندهم إصرار ثابت وصناعة منظمة وشجاعة فائقة فى الفكر الألمانى مكنتهم من كسر شوكة سلطان روما وأتاحت لهم فرصة أن يصبحوا أعظم علماء فى التاريخ . وهم شعب نظيف بالقياس إلى غيرهم من الأمم فالاستحمام عادة وطنية . وكل بيت حسن التنسيق فيه حمام حتى فى المناطق الريفية . والحمامات العامة العديدة توفر أكثر من حمام

إذ يستطيع الرجال هناك أن يحلقوا ذقونهم وتستطيع النساء أن يصففن شعورهن كما كانت، توفر فيها ضروب مختلفة من التدليك وكان يسمح فيها بالشرب والمقامرة ويمكن أن يجد فيها كل من يضيق ذرعا بالزوجة الواحدة خلاصاً . وكان الناس من الجنسين يستحمون عادة معاً وهم يرتدون ملابس محتشمة وإن لم تكن هناك قوانين تحرم المغازلة ، ولقد قال أحد الدارسين الإيطاليين بعد أن زار بادن - بادن عام ١٤١٧ : « ليست هناك فى العالم حمامات أكثر ملاءمة من هذه لإنجاب النساء » .

ولا يمكن أن يتهم الألمان إبان ذلك العهد بأنهم من أنصار مذهب التطهر إذ كان حديثهم ورسائلهم وأدبهم ومرحهم تتسم أحيانا بالجفاء إذا قيست بمعايير عصرنا، ولكن هذا يتفق مع قوة أبدانهم وأرواحهم، فهم من جميع الأعمار يشربون ويفرطون فى ممارسة الجنس إبان شبابهم . وكانت مدينة ارفورت عام ١٥٠١ فى نظر لوثر الورع لا تفضل ماخوراً أو مشربا للجعة . ولقد وافق الحكام الألمان - من رجال الدين ومن العلمانيين على السواء على رأى سانت أوجستين والقديس توما الأكويني بأنه يجب أن يسمح بالبغاء إذا كانت النساء بمنأى عن الإغراء أو الاغتصاب . وكانت بيوت البغاء تحصل على ترخيص وتفرض عليها ضريبة . وإنا لنقرأ عن أساقفة ستراسبورج وماينز الذين كانوا يحصلون على دخول من المواخير بل إن أسقف فيرتسبورج أعطى ماخوراً تابعاً للبلدية إلى جراف فون هيننبرج باعتباره إقطاعية تدر دخلا . وكانت الضيافة لكبار الزوار تشمل وضع بيوت للسيدات تحت تصرفهم ، وقد كرم الملك سيجموند بهذا الامتياز فى برن (١٤١٤) وفى أولم (١٤٣٤) بإخلاص أرضاه كل الرضا حتى أنه شكر مضيفه علنا من أجله ، والنسوة غير المرخصات كنّ ينشئن أحياناً بيوتاً غير قانونية، وفى عام ١٤٩٢ شكت البغايا المرخصات للعمدة من هذه المنافسة غير العادلة فحصلن عام ١٥٠٨ على إذن بمهاجمة البيوت غير القانونية وقمن

بذلك فعلا ، وكان التردد على بغى يقابل بالصفح باعتباره خطيئة مغتفرة ، وإن كانت طبيعية ، وذلك فى نظر القانون الأخلاق السارى فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى ، ولعل انتشار الزهرى بعد عام ١٤٩٢ جعل منه وباء فتاكا .

وكان الزواج اتحادا بين الملكيات كما هو الشأن فى كل مكان آخر والحب يعد نتيجة طبيعية للزواج لا سبباً معقولا له . وكانت الخطبة ملزمة كالزواج والزفاف يتم فى حفــلات مترفة بين جميع الطبقات . وربما استمرت الاحتفالات أسبوعاً أو اثنين وكان شراء الزوج يكلف غاليا كالاحتفاظ بالزوجة . وكان للذكر نظرياً سلطة مطلقة ولكنها كانت أكثر واقعية فى الأفعال منها فى الكلام . ونلاحظ أن السيدة ديرر كان لديها كلام كثير تقوله لزوجها . وقد كانت نساء نورمبرج من الجرأة بحيث اجتذبن الإمبراطور ماكسمليان وهو نصف عار من الفراش وألقين غطاء حول جسمه ثم استقنه فى رقصة ليلية مرحة إلى الشارع .

وتذهب أسطورة قديمة إلى أن بعض الرجال من الطبقات العليا فى القرن الرابع عشر بألمانيا كانوا يضعون حزاماً للعفة « من الحديد حول وسط زوجاتهم وأفخاذهن ويغلقونه بقفل ويأخذون معهم المفتاح وذلك عندما يسافرون فى رحلات يغيبون فيها طويلا عن الوطن . وثمة آثار لهذه العادة فى البندقية بالعصور الوسطى فى فرنسا وفى القرن السادس عشر وإن كانت الزوجة أو العشيقة تلبس الحزام طواعية وتعطى المفتاح للزوج أو العشيق ضمانا لإخلاصها للزوج أو العشيق .

وازدهرت حياة الأسرة . ويحصى سجل تاريخى بارفوت ثمانية أو عشرة أولاد لكل زوجين فى المعدل ولم تكن الأسرة التى تضم خمسة عشر ولدا بالنادرة ، وهذه الأعداد تشمل أبناء السفاح لأن الأطفال غير الشرعيين ، الذين كثروا كانوا يؤخذون عادة إلى بيت الوالد بعد زواجه . وشاع استخدام الألقاب فى القرن الخامس عشر وكثيراً ما أشارت

إلى مهنة السلف أو إلى موطنه الأصلي وإن كانت بين آن وآخر تجمد دعابة لحظة فى صراحة الزمن . وكان يراعى الضبط والحزم فى البيت وفى المدرسه ، بل ان ماكس الذى صار امبراطورا فيما بعد كثيراً ما تلقى الصفعات ، ويبدو أن هذا لم يسبب ضررا إلا للأب أو المدرس . وكانت البيوت الألمانية وقتذاك (١٥٠٠ م) أكثر البيوت راحة فى أوربا إذ كانت درجاتها متسعة ولها درابزين متين وفيها أثاث ضخم ومقاعد وثيرة وخزائن منحوتة ونوافذها من الزجاج الملون وأسرة لها كلة وجدرانها مطنفسة وأرضيتها مكسوة بالسجاد وفيها مواقد منبعجة ورفوف تزخر بكتب أو أزهار أو آلات موسيقية أو عليها طبق فضى ومطابخ تتألق بكل الأوعية الصالحة لإقامة مأدبة ألمانية .

وشيدت البيوت من الخارج فى معظمها من الخشب ، وكثيراً ما شبت فيها الحرائق ، وكانت الطنف المتدلية والشرفات تظلل الطرقات ، ولم يكن فى المدن الكبيرة إلا قليل من الطرقات المرصوفة ، ولم تعرف إنارة الشوارع إلا فى ليالى الأعياد وكانت الحياة خارج البيوت غير مأمونة بالليل . وكان صغار المجرمين ينافسون فى الكثرة الخنازير والبقر التى كانت تهيم فى الطريق على غير هدى . ولم تكن هناك شرطة نظاميون ، وكانت توقع عقوبات صارمة لردع الجريمة فقد كانت عقوبة السرقة الموت أو قطع الأذنين فى حالة السرقة الخفيفة . وكانت تقطع ألسنة الكفار والمجدفين أما المنفيون الذين يعودون إلى نومبرج دون مبرر شرعى فكانت تسمل عيونهم . وكانت النساء اللاتى يقتلن أزواجهن يدفن أحياء أو يعذبن بملاقط تسخن إلى درجة الاحمرار ثم يشنقن . ومن بين آلات التعذيب التى عرضت فيما مضى فى شلوس أو قلعة نورمبرج صناديق ممتلئة بأحجار مدببة يسحق بها جسد الضحية وتروس تمد بها أطرافها ومواقد لحرق كعوب أقدامها وإطارات مدببة من الحديد لتثنيها من الجلوس أو الاستلقاء أو النوم ثم العذراء

الحديدية الملعونة التي كانت تستقبل المحكوم عليه بذراعين من الصلب وتحيطه بهما في حضن شائك ثم ترخى ذراعيها وتدعه يسقط دامى الجسد من أثر اختراق المسامير محطم العظام ليموت موتا بطيئا في جب تدار فيه مدى وقضبان مدببة .

وساوت الأخلاق السياسية الأخلاق العامة في انحلالها ،فتفشت الرشوة وبلغت أقصاها في قمة الكيان الاجتماعي ، وشاع الغش في السلع وذلك على الرغم من دفن رجلين وهما على قيد الحياة في نورمبرج لغشهما النبيـذ (١٤٥٦) ، وكانت التجارة — التضحية بالأخلاق في سبيل المال — قوية في جميع الأعمار ، فالمال لا الإنسان هو مقياس كل شيء ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأوساط المتزاحمين المتدافعين من المواطنين تبرعوا بمبالغ كبيرة على سبيل الإحسان . وكتب لوثر : « في العهود البابوية كان الناس يتبرعون بكلتا اليدين في جذل وبولاء عظيم . كانت السماء تمطر صدقات وإنشاءات وهبات . كان أجدادنا من السادة والملوك ومن الأمراء وغيرهم من الشعب ، يتبرعون بسخاء ، أجل ، إلى درجة تغمر كل شيء ، للكنائس والأبرشيات والمنح الدراسية والمستشفيات ، ومن دلالات هذا العهد الدنيوى أن كثيراً من تركات المحسنين أوقفت » لا على الهيئات الدينية فحسب ، ولكن على مجالس المدن لتوزيعها على الفقراء .

وأصبحت الأخلاق أشد جفاء في فرنسا وإنجلترا وفي ألمانيا أيضا عند ما خلفت حكومة السراة بالمال حكومة الأرستقراطية بالميلاد في السيطرة على الاقتصاد . وكان السكر رذيلة وطنية وقد ندد به كل من لوثر وهوتن على الرغم من أن هوتن فضله على « مخاتلة الإيطاليين وسرقة الأسبان وزهو الفرنسيين » ولعل بعض الانغماس في الشراب يرجع إلى التوابل الحريفة التي استخدمت في إعداد وجبات الطعام . ولقـد أعوز

التهذيب آداب المائدة ووصلت « الشُّوَك » إلى ألمانيا فى القرن الرابع عشر ومع ذلك فقد آثر الرجال والنساء أن يستخدموا أصابعهم فى تناول الطعام . بل ان واعظا فى القرن السادس عشر أدان « الشوك » باعتبارها مخالفة لإرادة الله « الذى لو كان يريد منا أن نستخدم الشوك لما منحنا أصابع » .

وكان اللباس فخما ، أما العمال فكانوا يكتفون بارتداء قلنسوة أو قبعة من اللباد وقمصان قصيرة وسراويل متداخلة — أو تحشر فى أحذية طويلة الرقبة ، وكانت الطبقات الوسطى تضيف إلى هذه الملابس صديرية وسترة مفتوحة مبطنة أو تزين حوافها بالفراء . وكان ذوو الأنساب يدخلون فى منافسة محمومة مع جامعى الجلدرات فى روعة ثيابهم . وكانت قبعات الرجال عند هاتين الطبقتين عبارة عن لفائف معقدة متسعة من القماش الثمين تزين حافاتها أحيانا بالريش أو الشرائط أو اللآلئ أو الذهب ، أما القمصان فكانت من الحرير غالبا ، كما كانت الأثواب الخارجية الزاهية تبطن بالفراء وربما تخللتها خيوط من الفضة . وكانت الثريات من النساء يضعن على رؤوسهن تيجانا من الذهب أو قلانس مطرزة بالذهب ويضفرن شعورهن بخيط ذهبى ، وأما العذارى الخفيرات فكن يغطين رؤوسهن بمناديل من الموسلين يربطنها تحت الذقن .

وقد زعم جايلر فون كايزرسبرج أن النساء الأنيقات كن يمتلكن خزائن للملابس تقدر بنحو ٤٠٠٠ فلورين (١٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وكان الرجال يحلقون ذقونهم ويعنون بشعر رؤوسهم ويعنون بتعهد ضفائرهم . لاحظ خصلات شعر ديرر التى كانت موضع اعتزازه وخصائل شعر ماكسمليان الجميلة . واتخذت الخواتم شعارا على الطبقة الاجتماعية أو للتخييل بالانتماء إليها كما هو الحال الآن ، وقد قال كونرادوس سيلتس ان الأزياء تغيرت فى ألمانيا بسرعة أكبر منها فى أى مكان آخر ، وحدث هذا كثيراً

فى أزياء الرجاء وفى أزياء النساء . وربما فاق الرجال النساء فى فخامة الزى فى مناسبات الأعياد .

وكانت المهرجانات متعددة وهى استمرار لروح القرون الوسطى المولعة بالتظاهر وعرض المرح مع تأجيل العمل والتحلل من الوصايا العشر . وكان عيد الميلاد لا يزال يتسم بالمسيحية على الرغم مما صاحبه من الآثار الوثنية . وأما شجرة عيد الميلاد فإنها ابتدعت فى القرن السابع عشر .

وكانت كل مدينة تحتفل بمهرجان أو عيد لقديسها الحامى لها وكان الرجال والنساء يرقصون معا فى الشوارع ويسود المرح الجميع وكأنه أمر محتوم ، ولا يمكن لأى قديس أو واعظ أن يقلل من بهجة العربدة العنيفة . وكان الرقص يتحول أحيانا إلى جنون وبائى كما حدث فى متيز وكولونيا واكس عام ١٣٧٤ أو فى ستراسبورج عام ١٤١٢ . كان بعض من يعانون من رقصة سانت فيتوس فى بعض هذه الحالات يلتمسون الشفاء من كانوا يعتقدون أنه مس شيطانى وذلك بالرقص حتى يسقطوا من الإعياء كما يفعل بعض الشبان المتهوسين اليوم . ووجد الرجال متنفسا لغرائزهم فى الصيد والقنص أو فى ممارسة رياضة المبارزة القاتلة . وكان آلاف الرجال والنساء يسافرون متذرعين غالبا بحجة التردد على مزار وينتقلون فى ابتهاج أليم على صهوة الجياد أو على ظهور البغال أو فى عربات أو على مقاعد تحمل على الأكتاف ويتحملون مشاق الطرق غير الممهدة والخانات القذرة . وكان بعض الأشخاص المرهفى الحس يسافرون كلما أمكنهم ذلك ، بالقارب على صفحة نهر الراين ونهر الدانوب أو على غيرهما من مجارى الماء فى وسط أوروبا . وما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت هناك خدمة بريدية متاحة للجميع تربط المدن الكبرى .

والكل معا فى الصورة رجل واحد من شعب قوى ناشط سعيد

لا يرضى بعد ذلك أن يرسف فى أغلال الإقطاع أو ظلم روما . وقد غلب بالاعتزاز بالقومية الألمانية كل انقسام سياسى ، وكبح جماح الأباطرة الذين رأوا أنفسهم فوق الوطن ، والبابوات الذين اعتقدوا أنهم فوق الطبيعة ، وهكذا قدر للإصلاح الدينى أن ينتصر على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلى البابوية أيضا . وفى عام ١٥٠٠ نشبت الحرب بين التيوتون والرومان وكان النصر مرة أخرى حليف ألمانيا كما حدث فى القرن الخامس من قبل .

٤ — نضج الفن الألمانى

وقدوم هذا العهد الجديد إنما يتجلى مظاهره فى الفن . وربما كان من العسير علينا أن نصدق هذه الحقيقة . ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن الطلب كان يتزايد على الفنانين الألمان فى أوربا بسبب تفوقهم فى كل فن حرفى ، فى أشغال الخشب والحديد والنحاس والبرونز والفضة والذهب والحفر والتصوير والنحت والعمارة ، وذلك فى أوج عصر النهضة الإيطالية من مولد ليوناردو (١٤٥٢) إلى وفاة رافاييل (١٥٢٠) . ولعل فيليبچ فابرى الأولمى قد كتب عام ١٤٨٤ بدافع الوطنية أكثر منه بدافع عـدم التحيز وها هو يقول : « عندما يريد أى امرئ أن يحصل على قطعة مصنعة من الدرجة الأولى من البرونز أو الحجر أو الخشب فإنه إنما يستخدم حرفياً ألمانيا . لقـد رأيت صانعى مجوهرات وصاغة وقاطعى أحجار وصانعى عربات من الألمان وهم ينتجون آثارا رائعة بين الغزاة المسلمين بل إنهم فاقوا اليونان وبزوا الإيطاليين فى الفن . وبعد نحو خمسين عاما اكتشف إيطالى آخر أن هذا لا يزال صحيحاً فقد كتب پاولو جيوفو : « إن الألمان يكتسحون أمامهم كل شىء فى الفن ولا يسعنا نحن الإيطاليين الخاملين إلا أن نبعث لألمانيا فى طلب عمال مهرة » . واشتغل المهندسون المعماريون الألمان لحساب

فلورنسا وأسيسى وأورفييقو وسيينا وبرشلونة وبورجوس واستدعاهم ذوو الشأن لإتمام « القبة » فى كاتدرائية ميلان . وقد خلب فايت ستوس ألباب الأهلين فى مدينة كراكاو ، وحظى ديرر بتكريم البندقية ، واكتسح هولبين الصغير انجلترا .

وبلغت العمارة الكنسية أوجها فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر . ومع ذلك فإن أبناء جيل واحد من المواطنين فى ميونخ شيدوا على الطراز القوطى الأخير ، كنيسة سيدتنا وقاعة المدينة القديمة « أولدتاون » . وفى العقدين الأولين من القرن السادس عشر أتمت فرايبورج فى ساكسونيا (منصة جوقة الترتيل) وشيدت أوجسبرج بيعة آل فوجر ، وانتهت كاتدرائية ستراسبورج من بناء بيعة لورانس ، وأضيفت مشربية جميلة إلى مقر كاهن الأبرشية فى كنيسة سيبالدوسكيرس فى نورمبرج . وفى مجال عمارة البيوت فى هذا العهد شيدت أكواخ جذابة بأسقفها من القرميد الأحمر ، وطبقاتها العليا مصنوعة من الخشب ، وشرفاتها تجملها الأزهار وطنف رحبة تحمى النوافذ من الشمس أو الجليد . وهكذا واجه الألمان ، بما عرف عنهم من إقدام ، ارتفاع جبال الألب البافارية فى مناخ ميتنفالد الصعب بجمال بيوتهم البسيط الحبيب .

وكان النحت من أمجاد هذا العصر . فازداد عدد صغار النحاتين ، وكان من الممكن أن يلمعوا ويصبحوا نجوماً كبيرة لو قدر لهم أن يكونوا فى مجرة أقل إشراقاً : نيكولاوس جيرهارت وسيمون لاينبرجر وتيلمان ريمنشنيدر وهانز باكوفن ، وها هى نورمبرج وحدها تنجب فى جيل واحد ثالوثا من الأساتذة لا يكاد يبزهم أحد فى عهد مماثل بأية مدينة فى إيطاليا . ولا شك أن حياة فايت ستوس تصلح أن تكون قصة مدينتين ، فقد تربى فى نورمبرج ، وحاز قصب الشهرة كمهندس وبان للجسور ومعمارى وحفار ونحات ومصور ، وعند ما بلغ الثلاثين من عمره ذهب إلى كراكاو وقام هناك بأحسن أعمال على الطراز القوطى الأخير المشع الذى عبر به عن ورع البولنديين وقابليتهم

للإثارة فى الوقت نفسه . وعاد إلى نورمبرج (١٤٩٦) ومعه ما يكفى من الأموال لشراء بيت جديد ولعقد قرانه على زوجة ثانية ، وقد أنجبت منه خمسة أطفال أضافتهم إلى أولاده الثمانية من زوجته السابقة . . . واعتقل فيت وهو فى أوج مجده لأنه شارك ، وربما كان هذا عن غير قصد ، فى عملية تزييف ، ودمغ بإحراق خديه معا وحرم عليـــه أن يغادر نورمبرج مرة أخرى ، غير أن الإمبراطور ماكسمليان عفا عنه وأعاد له حقوقه المدنية (١٥٠٦) ومع ذلك فإن ستوس ظل منبوذاً من المجتمع إلى أن انتهت حياته الطويلة المؤلمة . وفى عام ١٥١٧ حفر مجموعة كبيرة من الأعمال تمثل بشارة التحية الملائكية ، وأحاط تمثالين — يعدان من أعظم أعمال النحت الخشبي وأقربها إلى الكمال — بإكليل من الورود وأحاط هذا بسبحة ألحق بها سبع رصيعات كبيرة تصور أفراح العذراء وتوج الجميع ، وهى كلها من خشب شجر الزيزفون ، برسم غير جذاب للرب لورنز . وهو لا يزال يتدلى منها كأثر نفيس من مخلفات الأيام السعيدة فى المدينة الكبيرة . وحفر ستوس لكنيسة سيبالدسكريش صليباً من الخشب لا يضارعه أبداً صليب آخر من نوعه (١٥٢٠) . وفى هذا العام حصل له ابنه أندرياس ، بصفته رئيس دير رهبان الكارميليت بنورمبرج ، على أتعاب مقابل تصميم مذبح لكنيسة فى بامبرج . وبينما كان الفنان منهمكاً فى هذا العمل استولى أنصار الإصلاح الدينى على نورمبرج واستبدل بأندرياس راهب آخر لأنه ظل كاثوليكيا . وتشبث فيت نفسه بالعقيدة النيرة التى استلهمها فى فنه . وتوقف دفع أتعابه عن عملية المذبح وظل العمل ناقصاً . وأمضى ستوس السنوات العشرة الأخيرة من حياته كفيفاً يعتزل الناس وهو كظيم . فقد ماتت قبله زوجتاه وهجره أولاده ، ونبذه الناس فى عصر استغرقتهم فيه دراسة اللاهوت ، ولم يدركوا أنهم إنما كانوا يفقدون عام ١٥٣٣ أعظم حفار على الخشب فى التاريخ وهو فى الثالثة والتسعين .

وعاش فى نفس المدينة وفى هذا العهد فنان فى اشغال البرونز مبرز أيضاً فى أسلوبه وإن كان قد عاش حياة هادئة هانئة . وقد صور بيتر فيشر الأكبر نفسه فى كوة بجدار ، وتعد هذه الصورة من أشهر إنتاجه ، ونراه بها عاملا بسيطاً جادا قصير القامة مكتنز الجسم ، ذا لحية كاملة يرتدى مئزراً جلدياً حول وسطه ويمسك بيديه مطرقة وأزميلا . وقد كرس هو وخمسة من أبنائه أحد عشر عاماً (١٥٠٨ — ١٥١٩) لإتمام رائعتهم مقبرة زيبالد ، القديس الحامى لنورمبرج . وتكلف المشروع كثيراً ونفدت الأموال المخصصة له ، ومع ذلك لم يتم إنجاز العمل . وعندئذ حث أنتون توخر المواطنين على الاكتتاب فى مبلغ ٨٠٠ جيلدر (٢٠٫٠٠٠ دولار ؟) كان يحتاجه للمشروع . وهذه الرائعة لا تثير الإعجاب لأول نظرة ، ويبدو أنها لا تضارع هيكل أوركانيا فى فلورنسا (١٣٤٨) ، ثم إن الحلزونات والدلفينات ، التى يرتكز على ظهورها البناء ، ليست على الأرجح حاملات لمثل هذا الثقل الهائل ، إلا أن فحصها عن قرب يكشف عن كمال مذهل فى أجزاء البناء . والتابوت الرئيسى المصنوع من الفضة مزين بأربع رسوم بارزة تمثل معجزات القديس . . وترتفع حوله الأعمدة البرونزية لظلة من الطراز القوطى ، عليها نقش دقيق من زخارف عصر النهضة ، وتتصل من أعلى بعقد معدنى جميل على الأعمدة ، حول القاعدة ، وفى الطنف ، وفى كوات الظلات العليا صور الفنانون سكانا حقيقيين من الوثنيين ، وتماثيل لعبريين أو مسيحيين — تريتونات (آلهة البحر) وقنطروسات ونيريدات (حوريات البحر) ، وسيرانات وموزيات والفاونات وهرقل وتيزيوس وشمشون والأنبياء وعيسى والرسل وملائكة يعزفون ألحاناً أو يلهون مع أسود أو كلاب ، وبعض هذه التماثيل لا يزال فى صورة بدائية ، وكثير منها تم نحته بدقة دوناتيلو أو غيبرتى ، وهى كلها تسهم بوضوح فى إدراك متنوع للحياة . وتضارع

تماثيل بطرس وبولس ومتى ويوحنا لوحة (الرسل الأربعة) التى صورها ديرر بعد سبع سنوات فى نورمبرج نفسها .

ويقال إنه لم يأت إلى نورمبرج فى هذه العقود الأولى من القرن السادس عشر أمير أو حاكم إلا وزار مسبك بيتر فيشر . وقد ألح الكثيرون فى طلب أعماله الفنية . وعرض عدد كبير من الكنائس أعماله من الشمعدان النحاسى الكبير فى كنيسة لونز وقبر ماكسمليان الأول فى أنزبروك . وحذا أولاده الخمسة حذوه فى النحت وإن كان اثنان منهم قد وافتهما المنية قبله . ومعروف أن هرمان فيشر الأصغر الذى مات فى الحادية والثلاثين من عمره (١٥١٧) قد سبك زخرفاً بارزاً جميلا من البرونز لمقـــبرة الكردينال كازيمير فى كاتدرائية كراكاو .

وكما تفوق آل فيشر فى أشغال البرونز وفيت ستوس فى أعمال الخشب فإن آدم كرافت بز كل معاصريه فى النحت على الحجر . وقد صـــورد المؤرخون الألمان هو وبيتر فيشر الأكبر وسباستيان ليندبناست (الذى صمم تماثيل الأمراء المتملقين على ساعة كنيسة العذراء) فى صورة فنانين وأصدقاء أوفياء ، « كانوا مثل الإخوة . كانوا يلتقون كل يوم جمعة ، حتى عندما بلغوا من الكبر عتياً ، ويدرسون معاً كأنهم صبية يتمرنون حسبما تدل عليه التصميمات التى نفذوها فى اجتماعاتهم . ثم كانوا يفترقون وقد ألهاهم العمل عن تناول الطعام أو الشراب » . ولعل آدم ولد فى نفس العام الذى ولد فيه بيتر (١٤٦٠ ؟) وكان مثله فى البساطة والأمانة والورع والشغف برسم صورته الشخصية . ونحت عام ١٤٩٢ لكنيسة زيبالدوس مقبرة لزيبالدوس شريبار عليها نقوش بارزة تمثل آلام المسيح عند الصلب والبعث وأعجب هانز رامهوف ، وهو تاجر ثرى بهذه البراعة فعهد إلى كرافت أن يصمم كأساً يحمل خبز ونبيذ القربان المقدس فى كنيسة لورنتس

وقام آدم بصنع بيت القربان المقدس على هيئة هيكل رشيق عال من الطراز القوطى الأخير ويعد معجزة فى الصياغة الدقيقة للحجر يرتفع طبقة بعد طبقة حتى يبلغ ارتفاعه أربعة وستين قدماً ، ويستدق ليصبح قوساً يشبه رأس صولجان الأسقف ، وتنبض الأعمدة بالحياة إذ تزخر برسوم القديسين ، أما أبواب « البيت » فتحرسها الملائكة ، وأما الأوجه المربعة فقد نقش عليها رسوم بارزة تمثل مناظر من حياة المسيح ، ويرتكز البناء الطلق الهواء كله بطريقة غريبة على ثلاثة تماثيل جاثية — آدم كرافت واثنان من مساعديه . وليس فى الصورة الشخصية أى أثر للتملق ، فالملابس بالية ومهلهلة من أثر الكد والنصب ، والأيدى خشنة واللحية كثة والوجه العريض المرفوع إلى أعلا منكب على تصور العمل وتنفيذه . وعندما انتهت هذه الرائعة التى تأخذ بالألباب عاد كرافت إلى موضوعه الأثير فنحت سبع أعمدة من الحجر الرملى عليها مناظر تمثل آلام المسيح عند الصلب منها ستة موجودة الآن بالمتحف الألمانى وأحدها واسمها « الدفن » تمثل الفن التيوتونى الأنموذجى وتمتاز بواقعية جريئة لا تحتاج إلى استكمال وتنطوى على الورع والإيمان .

واستمرت الفنون الصغرى فى انتهاج نفس الصنع وطرق نفس الموضوعات وكان رسامو المنمنمات لا يزالون تنهال عليهم الطلبات للحفاظ على الطوائف الحرفية الناجحة . ورسم كبار الفنانين أمثال ديرر وهولبين تصميمات للزجاج الملون وليس من شك فى أن هذا الفن الذى تدهور فى فرنسا وانجلترا وصل آنذاك إلى ذروة الإتقان فى ألمانيا . وفى هذه الفترة حصلت كنيسة لونز وكاتدرائيات أولم وكولونيا على نوافذ لها شهرة عالمية ، ولم تكن هذه النوافذ مقصورة على الكنائس ، فقد كان فى دور النقابات الحرفية والقلاع بل وفى البيوت الخاصة بعض نوافذ من الزجاج الملون . وكانت المدن من أمثال نورمبرج وأوجسبورج وريجينزبورج وكولونيا ومايتز تفخر بصناعها المهرة الفنانين : وهم صانعو الأدوات المعدنية الذين

رفعوا من شأن المشاعل والثريات والصحاف والجرار والأقفال والصوانى والصاغة الذين لقيت منتجاتهم ، من الملاعق إلى الهياكل ، تقديراً عظيماً فى أرجاء أوربا ، وعمال النسيج الذين نسجوا الطنافس والسجاجيد والثياب الكهنوتية والرداء المنمق لطبقة الأشراف ، والنساء المتعبدات ، وكن يبلين أناملهن ويرهقن عيونهن لكسوة الهياكل والقسس بالمطرزات والحرير . ولم يكن الحفارون قط فى أى عهد مضى أحسن حالا منهم فى هذا العهد ، فإن ميكائيل فولجيموت قد حفر من الخشب اثنى عشر محراباً من أروع الأعمال ، إلى جانب الرسم على نافذتين بديعتين لكنيسة لورنتس ، ثم علم ديرر كيف يفوقه فى هذا الفن .

وتطور فن الحفر بنقش رسم على الخشب أو النحاس فى القرن الخامس عشر حتى أصبح فناً ناضجاً يجله الناس تماماً كالتصوير . وهذبه كبار المصورين ووصل به مارتن شونجاور إلى درجة الكمال . وبعض أعماله فى الحفر — تعذيب المسيح وعمل الصليب والقديس جون فى ياتموس واغواء القديس أنتونى ، تعد من أعظم الأعمال الفنية فى كافة العهود .

وأصبح الفن الإيضاحى فى الكتب بوساطة النقوش مناسبا وشائعا وسرعان ما حل محل الزخرف وتضاعف عدد أشهر اللوحات فى هذا العهد بأعمال الحفر التى كانت تباع فى أكشاك فى المكتبات والأسواق والمهرجانات ، وأظهر لوكاس فان ليدن نبوغا مبكرا مذهلا فى هذا المجال . فقد حفر لوحته « محمد » وهو فى الرابعة عشرة من عمره ولوحته « المسيح وعلى رأسه إكليل الشوك » وهو فى السادسة عشرة من عمره (١٥١٠) وقارب الكمال فى صورة ماكسمليان التى نقشها على النحاس واستخدم الحفر الإبرى وذلك بآلة مدببة تقذف شظية أو حافة من المعدن المقتطع بطول خطوط الرسم ، فى صورة « سيد كتاب البيت » التى نقشها فنان مجهول حوالى عام

١٤٨٠ . أما الحفر بتغطية سطح معدنى بالشمع ونقش رسم بالحفر فى الشمع وصب حامض لينخر فى الخطوط البارزة فإنه تطور من النقش على السلاح إلى الحفر على ألواح معدنية يمكن أن تطبع بها النقوش ، ويبدو أن دانييل هوبفر وهو صانع سلاح قام بصنع أول « كايشيه » سجله التاريخ عام ١٥٠٤ ومارس بورجكماير وديرر الفن الجديد فى غير إتقان . ولعل لوكاس فان ليدن قد تعلم هذا الفن من ديرر غير أنه سرعان ما فاقه وملك ناصيته .

وكان هذا العصر أعظم عصور ألمانيا فى التصوير . وقد تأثر المصورون الألمان فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر بالمدرستين الهولندية والإيطالية كما تأثروا بمصورهم مملنج المبعد عن وطنه فتدرجوا من صرامة الفن القوطى وفظاظته إلى خط يتسم بمزيد من الرشاقة ، ورسم صور تتحرك فى يسر فى مناظر طبيعية تعكس الحياة المنزلية للبورجوازية الظافرة ؛ وظلت الموضوعات الدينية هى الغالبة ، وإن كانت الموضوعات الدنيوية قد أخذت تزحف قدماً وأخلت النقوش الهيكلية الطريق للصور المرسومة على الخشب ولم يعد المحسنون الأثرياء يقنعون بالسير فى ركاب جماعة دينية ، فطلبوا أن ترسم لهم صور شخصية هم فيها كل شىء . وبرز المصورون أنفسهم من حالة إغفال الأسماء فى العصور الوسطى إلى الفرديات المتميزة ، وأخذوا يوقعون بإمضاءاتهم على أعمالهم تشبثاً بالخلود .

ومع ذلك فإن صاحب لوحة « حياة العذراء » التى رسمت فى كولونيا حوالى عام ١٤٧٠ لايزال مجهولا ، وقد ترك هذا الفنان لوحة « العذراء والقديس برنار » ورسم فيها عذراء ألمانية حقيقية تعتصر من ثديها اللبن للطفل ، أمام راهب ورع لايكاد يومئ إلى كلب السماء الذى طارد ابيلارد .

ويعد ميكائيل باشير واحداً من أوائل الفنانين الذين نقلوا أسماءهم كما نقلوا أعمالهم . ولا تزال كنيسة سانت ولفجانج الأبرشية فى سالتسكا مرجوت

تعرض النقش الهيكلى الضخم الذى يبلغ طوله ستة وثلاثين قدما والذى حفره وصوره لها فى السنوات من ١٤٧٩ إلى ١٤٨١ وقد أسهمت دراسة المنظور فى هذه الصور المرسومة على الخشب وفى تعليم الفن الألمانى .

وأظهر مارتن شونجاور فى تصويره حذق حفار مثقف وحس روجير فان دير فيدن المرهف . وقد ولد شونجاور عام ١٤٤٥ فى أوجسبورج واستقر فى كولمار وطور هناك مدرسة للحفر والتصوير لعبت دوراً عظيما فى بلوغ الفنون إلى الأوج فى عهد ديرر وهولبين .

وفى كل عام كانت المدن النامية فى الجنوب تسلب زعامة الفن الألمانى من كولونيا والشمال . وفى أوجسبورج ، مركز التجارة مع إيطاليا ، أدخل هانز بورجكماير فى لوحاته لمسات زخرفية إيطالية ومزج هانز هولبين الأكبر الزخرف الإيطالى برصانة الطراز القوطى . وخلف هانز فنه لولديه أمبروز وهانز اللذين صورهما باعتزاز فى لوحاته . ولم يلمع اسم امبروز فى التاريخ ولكن هانز الصغير أصبح أحد أمجاد ألمانيا وسويسرة وإنجلترا ، وكان أعظم سلف لديرر هو ماتياس جوتهارت نايهارت الذى أصبح معروفا للخلف باسم ماتياس جرونيفالد بسبب خطأ ارتكبه أحد الباحثين . وقد تعلم سحر المصور من شونجاور فى كولمار وذلك فى مجال الوراثة الاجتماعية القديمة جدا للفن . ثم أضاف إليها تعطشه للشهرة والوصول إلى الكمال وتدرب فى أناة فى غنت وشبيار وفرانكفورت واختار ستراسبورج موطنا له (١٤٧٩) . ولعله رسم هنالك أول رائعة له وهى صورة شخصية ثنائية لفيليب الثانى صاحب هانو — ايختنبرج وزوجته . والحق أن ديرر نفسه لايستطيع أن يبزها لما يتجلى فى هذه اللوحة من إدراك عميق وجمال فى التنفيذ . وعاد جرونيفالد للتجوال من جديد وعمل بعض الوقت مع ديرر فى بازل حيث رسم « صورة رجل » المعروضة الآن فى نيويورك ثم قام

مرة أخرى بأعمال حفر فى الخشب مع ديرر فى نورمبرج . واستقر عام ١٥٠٣ فى زليجنشتادت وهناك طور فى نهاية الأمر أسلوبه المتميز الناضج — رسم مناظر من الإنجيل بإحساس مرهف ومقدرة هائلة . وعينه كبير الأساقفة ألبرخت مصورا للبلاط فى ماينز (١٥٠٩) ولكنه عزل جرونيفالد عندما أصر على الثناء على لوثر (١٥٢٦) . وتزوج وصادفه سوء الطالع ثم انسحب وعاش فى عزلة تقبض الصدر لعلها ألقت بعض الظلال السوداء على التظليل فى فنه .

ومن أروع أعماله — وربما كان أعظم أعمال التصوير الألمانى — الهيكل المتعدد الثنيات الذى أعده لدير فى ايزن عام ١٥١٣ ويعرض اللوح الأوسط العذراء وابنها بلون ذهبي يشع بالضـــياء على طريقة الفنان تورنر ، على مهاد من البحار النائية ، ولكن اللوح البارز الذى لا ينسى رسمت عليـــه صورة بشعة لصلب المسيح : تمثله وهو فى النزع الأخير وقد غطت جسده الجروح والعرق الممتزج بالدم ، وأطرافه تتلوى من الألم ، ومريم مغشى عليها بين ذراعى القديس يوحنا ، وماجدالين تتميز غضباً ويرتسم على أساريرها حزن مريب ، ولا تزال هناك ألواح أخرى يمكن أن تكون فى ذاتها لوحات عظيمة : جوقة من الملائكة بأسلوب قوطى فى البناء المعمارى تتداخل فيه الألوان الحمراء والبنية الزاهية ، ولوحة مرعبة اسمها « إغواء القديس أنتونى » وصورة للقديس نفسه ، وناسك فى غابة تزخر بالأرواح الشريرة والأشجار التالفة ، وكابوس بوشى يبدو أنه يرمز إلى أحلام أنتونى . وفى غلبة اللون والضوء والإحساس بالخط والشكل والتصور فإن هذه السورة المسرحية فى المقدرة التصويرية هى ذروة التصوير الألمانى القوطى قبيل انتصار الخط والمنطق فى فن ديرر الذى مد يديه فى اشتياق إلى إنسانية وفن عصر النهضة الإيطالى على الرغم من تشبثه بصوفية ألمانيا فى العصور الوسطى .

٥ - ألبرخت ديرر (١٤٧١ - ١٥١٧)

لم يسبق لأمة أخرى غير ألمانيا أن اختارت بالإجماع أحد أبنائها ليكون ممثلا لها فى الفن - فقد وقع اختيار البروتستانت والكاثوليك وأهل الشمال وأهل الجنوب على الفنان ديرر . وفى اليوم السادس من أبريل عام ١٩٢٨ ، وبمناسبة الذكرى السنوية الأربعمائة لوفاته طرح الريخستاج فى برلين ومجلس المدينة فى نورمبرج الأمور السياسية والمذهبية جانباً ، وذلك لتكريم فنان تحبه ألمانيا أكثر من أى فنان آخر . وفى غضون ذلك عرض خبراء الفنون دون طائل مبلغ ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار لشراء لوحة - اسمها « عيد أكاليل الورد » ، وهى لوحة تقاضى عنها ديرر مبلغ ١١٠ جيلدر (٢٫٧٥٠ دولار ؟) .

وكان والده الهنغارى صائغا استقر به المقام فى نورمبرج : وكان ألبرخت الابن الثالث من ثمانية عشر ولدا مات معظمهم فى سن الطفولة وتعلم الولد فى مرسم أبيه كيف يرسم بالقلم الرصاص والفحم والريشة وكيف يحفر بالنقاش ، ودرب نفسه على قوة الملاحظة وتمثيل الأشياء والموضوعات بتفصيل لا يعرف الكلل ، حتى إن كل شعرة تقريباً فى بعض لوحاته تبدو وكأنها تلقت ضربة خاصة بها وحدها من الفرشاة . وكان الوالد يأمل أن يخلفه ابنه فى حرفته كصائغ إلا أنه أذعن لرغبة الشاب فى أن يتوسع فى نطاق فنه . فأرسله إلى فولجيموت ليتمرن هناك (١٤٨٦) وتدرج ألبرخت فى عمله ببطء ومكنت له عبقريته فى الطموح والمثابرة والصبر . وقال : « لقد حبانى الله بفضيلة الجد فحسن تعليمى ولكنى اضطررت أن أتجاوز عن قدر كبير من الإزعاج الذى سببه لى أعوانه » ونظراً لأنه لم تسنح له فرصة كبيرة لدراسة الجسم العارى فإنه تردد على الحمامات العامة ورسم أجساماً فى جمال أبولو وذلك بقدر ما سمحت له الظروف هناك . وكان هو نفسه يحا كى

أبولو بعض الشيء فى تلك السنوات . وقد وصفه احد أصدقائه فى اعتزا بقوله : له جسم رائع متين البناء معتدل القوام جدير بما يحماه من عقل نبيل . . . وجه ذكى الملامح وعينان تلمعان وجيد طويل وصدر عريض وخصر نحيل ومنكبان قويان وساقان ثابتتان ، أما يداه فنى وسعك أن تقول إنك لم تر قط يدين تبزهما فى الرشاقة . أما حديثه فعذب شائق حتى ليتمنى المرء ألا ينتهى أبدا .

واجتذبته أعمال الحفر التى قام بها شونجاور فاتخذ طريقه إلى كولمار (١٤٩٢) وإذا به يجد الأستاذ قد مات فتعلم قدر المستطاع من إخوة شونجاور ثم رحل إلى بازل حيث تعلم من جرونيفالد أسرار الفن الدينى الخالص وكان قد أصبح رساماً بارعاً . وتحمل طبعة من رسائل سان جيروم نشرت فى بازل عام ١٤٩٢ على صفحتها الأولى صورة شخصية للقديس رسمها ديرر ، ونالت هذه الصورة استحسان النقاد حتى تنافس ناشرون عديدون للحصول على أعماله المستقبلة . ومهما يكن من أمر فإن أباه حثه على العودة للوطن ليتزوج من الفتاة التى اختارها له إبان غيابه . وعاد إلى نورمبرج واستقر هناك وعاش مع زوجته أجنس فراى (١٤٩٤) .

وقد رسم نفسه قبل ذلك بعام فى صورة شاب يرتدى زياً يكاد يكون زى امرأة ويصفف شعره مثلها تقريبا ، معتزا بنفسه وخجولا فى الوقت ذاته يرتاب فى العالم ويتحداه ، وفى عام ١٤٩٨ وكان لا يزال معجباً بوسامته ولحيته أيضاً رسم لنفسه صورة شخصية فى زى نبيل شاب يرتدى ملابس فاخرة وعلى رأسه قلنسوة لها شرابة تبرز منها خصل طويلة من الشعر البنى ، وتعد هذه اللوحة من أعظم الصور الشخصية التى رسمها فنان لنفسه فى جميع العصور . ورسم نفسه مرة أخرى عام ١٥٠٠ فى ملابس أكثر بساطة والوجه مستطيل بين خصل غزيرة من الشعر تتهدل فوق الكتفين ، وفى العينين النافذتين بريق غامض ويبدو أن ديرر رسم نفسه هنا فى صورة خيالية تشبه صورة

المسيح لا عن زهو يتسم بالزندقة ولكن لأن له رأياً يردده كثيراً كأمر مسلم به وهو أن أى فنان عظيم هو الناطق بلسان الله وبوحى منه تعالى . وكان الغرور هو الدعامة التى يستند إليها فى عمله ، إذ أنه لم يضاعف من عدد صوره الشخصية فحسب ، ولكنه أفسح لنفسه أيضاً مكاناً فى كثير من لوحاته . وكان فى بعض الأوقات يتمسك بأهداب التواضع ويدرك فى أسى أن قدراته محدودة ، وقال لبيركهايمر « عندما يثنى علينا فإننا نشمخ بأنوفنا ونصدق كل ما قيل عنا ولكن من يدرى ؟ لعل أستاذا ساخرا يضحك علينا من وراء ظهورنا » . أما بالنسبة لغير هذا فقد كان سليم الطوية ورعاً مخلصاً كريماً سعيداً بقدر ما تسمح الظروف .

ولم يستطع أن يعيش مسلوب اللب مع زوجته ، فقد انطلق إلى إيطاليا بعد زواجه بوقت قصير وخلفها وراءه . وكان قد سمع عما يطلق عليه « النمو الجديد » للفنون فى إيطاليا بعد أن ظلت دفينة ألف عام . وعلى الرغم من أنه لم يسهم مطلقاً فى هذا البعث للأدب الكلاسى والفلسفة والفن التى واكبت عصر النهضة فإنه كان تواقاً لأن يرى من المصدر الأصلى مباشرة ما الذى حبا الإيطاليين بهذا التفوق فى الرسم والنحت والنثر والشعر . وأقام بصفة أساسية فى البندقية ولم تكن النهضة قد بلغت فيها أوج الازدهار ولكنه عندما عاد إلى نورمبرج (١٤٩٥) كان قد تلقى بوسيلة ما الحافز الذى أضفى شرارة طاقة الإنتاج السريعة فى خلال السنوات العشر التالية . وفى عام ١٥٠٧ ذهب إلى إيطاليا مرة أخرى بعد أن اقترض مبلغ مائة فلورين (٢٥٠٠ دولار ؟) من بيركهايمر وأقام فيها هذه المرة عاماً ونصف عام .

ودرس أعمال مانتيا وسكوارسيونى فى بادو ونسخ فى تواضع بعض الرسوم وسرعان ما اعترف به بلينى وفنانون آخرون من البندقية رساما بارعا ونالت لوحة « عيد أكاليل الورد » ، التى رسمها لكنيسة ألمانية ، الاستحسان حتى من الإيطاليين ، وكانوا لا يزالون يعدون معظم الألمان

برابرة . وعرض عليه سيد البندقية منصبا دائماً إذا أقام هناك ولكن زوجته وأصدقاءه ألحوا عليه فى العودة إلى نورمبرج . ولاحظ أن الفنانين فى إيطاليا أحرزوا مكانة اجتماعية رفيعة تفوق مكانة زملائهم فى ألمانيا وقرر أن يطالب بمنزلة اجتماعية مماثلة عند عودته وكتب يقول : « إنى هنا سيد مهذب أما فى الوطن فأنا طفيلى » أى غير منتج لسلع مادية . وأبهجه الاهتمام بالفن فى إيطاليا وكثرة الفنانين وما يدور بينهم من صراع والمناقشات الذكية والحادة التى تدور حول نظريات الفن . وعندما شرح له جاكوبو دى باربارى مبادئ بييرو ديلا فرانشسكا وغيره من الإيطاليين عن النسب الرياضية للجسد البشرى الكامل قال ديرر إنه « يؤثر أن يشرح له هذا فهو خير عنده من أن يتلقى مملكة جديدة » . واعتاد فى إيطاليا رسم « الجسم العارى » فنيا ، وقد ثقف ذلك بدراسة التماثيل القديمة وفى الوقت الذى حافظ فى أعماله على الطابع التيوتونى والمسيحى فإنه شغف بالفن الوثنى الذى يعجب به الإيطاليون وسعى فى سلسلة طويلة من المقالات أن يعلم مواطنيه من الفلاحين أسرار المنظور والنسب والتلوين . وانتهى الأسلوب القوطى فى الرسم الألمانى بهاتين الرحلتين اللتين قام بهما ديرر إلى إيطاليا ، وهكذا قبل الجيل الألمانى ، الذى رفض أن يتبع روما فى الدين ، أن يسير على نهج إيطاليا فى الرسم .

وظل ديرر نفسه فى حالة توتر خلاق ، وإن اتسم بالتردد بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، وبين الاتجاه الصوفى الألمانى والإقبال الإيطالى على الدنيا ولم تتغلب فى روحه قط بهجة الحياة التى رآها فى إيطاليا على التأمل فى الموت . وإذا استثنينا صوره الشخصية فإن موضوعاته ظلت برمتها تقريبا دينية . وكان كثير منها صوفيا . ومع ذلك كان الفن دينه الحقيقى . كان يعبد الخط الكامل ويؤثره بالعبادة على محاكاة المسيح . وقد أظهر حتى فى أعماله الدينية اهتمام الفنان الشديد بكل الأشياء التى تعرض له حتى فى

الحياة اليومية العادية ورسم مثل ليوناردو كل شيء تقريبا . . صخورا وجداول ماء وأشجارا وجيادا وكلابا وخنازير ، وجوها قبيحة وأشكالا قميئة وكائنات خيالية لها شكل عجيب أو مروع . ورسم ساقه اليسرى كما ترى فى أوضاع مختلفة وبعج وسادة لتتخذ سبع أشكال مختلفة لدراستها بريشته التى لا تعرف الكلل . وحشد فى عمله معرضا حقيقيا للحيوان ورسم أحيانا مدينة كاملة لتكون مهادا لإحدى لوحاته . وصور حياة الناس وأعمالهم فى الريف بنشوة وفكاهة . وكان يحب الألمان فرسم رءوسهم الضخمة وسمات وجوههم التى تنزع إلى الحمرة دون احتجاج وعرضهم فى البيئات غير المتوقعة حتى فى روما أو فلسطين وهم يرتدون دائما ملابس فاخرة مثل أبناء الطبقة الوسطى من السراة ويتدثرون ويتلفعون وكأنهم يتقون برد ألمانيا . ورسمه وصف اثنوجرافى لأجيال نورمبرج ، وكان هم عملائه الأثرياء من التجار الذين خلد ذكرهم فى لوحاته — ومع ذلك فقد تلقى مكافآت من الدوقات والأمراء المختارين فى الإمبراطورية ، وأخيرا من ماكسمليان نفسه ، وكما كان تيسيان يحب أن يصور طبقة الأشراف والملوك ، فإن ديرر كان يألف تصوير أبناء الطبقة الوسطى ، ولقد جعلت هذه لصورة ، التى حفرها على الخشب ، الإمبراطور يبدو كما وصفه لويس الثانى عشر « عمدة أوجسبورج » . ورسم ديرر مرة واحدة فى حياته النبالة فى صورة — وهى صورة خيالية لشارلمان .

وله ست وثلاثون صورة شخصية تعد من أحسن أعماله التى تقربها العين ويسر بها الفؤاد ، لأنها بسيطة وحسية دنيوية زاخرة بما يميزها من شخصيات . انظر إلى صورة هيرونيموس هولتسشوهر عضو مجلس الشيوخ فى نورمبرج ، رأس ينم على القوة ووجه صارم الملامح وشعر ناحل على جبهة عريضة ولحية مهذبة فى تناسق تام وعينان حادتان كأنه يرقب بهما السياسيين ، ومع ذلك فإن فيهما شروع فى بريق . نحن أمام رجل طيب القلب

مرح حسن الشهية . أو تأمل صورة ويليبالد بيركهايمر ، وهو أعز أصدقاء ديرر ، رأس ثور يخفى عقل علامة ويشير إلى شهوات معدة جارجانتوا . ومن كان يتوقع أن وجه فردريك الحكيم الضخم ، حـكيم ساكسونيا ، بتقاطيعه المتغضنة المهدلة ، يخفى وراءه الأمير المنتخب الذى تحدى البابا ليحمى لوثر ؟ إن كل صور الأشخاص تقريباً تخلب اللب . صورة أوزفولت كريل الذى يبـدو تركيزه الحاد حتى فى عروق يديه أو صورة برناردفون رستن بالصدار الأزرق الرقيق والقبعة العريضة الفخمة والعينين المتأملتين لفنان مستغرق أو صورة جاكوب موفيل عمدة نورمبرج . وهى استغراق فى الفكر للتعبد الجاد ، وهى تلقى بعض الضوء على عظمة المدنية وثرائها ، أو صورتا والد ديرر وهو يبدو فى إحداهما منهوك القوى من النصب عام ١٤٩٠ ، وفى الثانية خائر القوى إلى أقصى حد عام ١٤٩٧ ، أو صورة سيد مهذب فى البرادو – رجولة مجسمة تدنسها القسوة والجشع ، أو صورة الزابث توخر وهى تحمل خاتم زواجها متطلعة إلى إتمام الزواج فى خفر ، أو صورة سيدة من البندقية التى اضطر ديرر من أجلها أن يسافر إلى إيطاليا ليجد الجمال والقوة . وقلما تجد فى صور من رسمهم من الذكور رقة ، وهى تخلو من الرشاقة ، وإن بدت فيها دائماً قوة الشخصية . قال : « إن ما لا يفيد فى الرجل ليس جميلا » ،وكان يهتم بالواقع وحكايته بأمانة أكثر من اهتمامه بجمال القسمات أو الشكل ، وقد أشار إلى أن الفنان يستطيع أن يرسم بالرصاص أو يصور بالزيت صورة جميلة لشىء قبيح أو لموضوع كريه . كان تيوتونيا فطر على الجد وتقديس الواجب والإخلاص ، وقد ترك الجمال والرشاقة للسيدات وركز على القوة فى الرجال .

ولم يكن مبرزاً فى التصوير ، ولم يكن الرسم ينسجم مع ذوقه ، ولكن زيارته لإيطاليا أثارت فيه الرغبة فى أن ينشد اللون والخط معاً . وصور هيكلا متعدد الثنيات عرف فيما بعد باسم مذبح درسدن ، وذلك لفردريك صاحب ساكسونيا

والكنيسة الملحقة بقصره فى فيتنبرج . وهنا نجد أن الأساليب الإيطالية فى النسبة والمنظور قد شكلت إطار الأجسام بأسلوب ألمانى بحت : سيدة ألمانية تمثل العذراء ، وأستاذ يمثل القديس أنتونى ، وشماس معمدانى ألمانى يمثل القديس سباستيان ، والنتيجة صورة فذة . وأبدع منها الصـــور والنقوش الهيكلية لبَاوِمجارتنر فى ميونخ : صورة رائعة للقديس يوسف والعذراء مريم فوق مهاد معمارى من الأطلال الرومانية . ولكن صدر الصورة قد شوهته أقزام سخيفة ؛ أما صورة عبادة المجوس فى الأوفيزى فهى انتصار للون يتمثل فى رداء العذراء الأزرق والثياب الفخمة التى يرتديها الملوك الشرقيون ؛ ولوحة المسيح بين الأطباء تبين عيسى الوسيم ، له خصلات شعر فتاة ، ويحيط به ثلاث نحارير من ذوى اللحى والوجوه المتغضنة — أحدهم يشبه صورة هزلية كله أنف وأسنان . وصورة عيد أكاليل الورد تضارع أروع الصور الإيطالية فى هذا العهد ، بتكوينها البارع وجمال الأم والطفل معا وروعة اللون بصفة عامة ، وتعد أعظم لوحة لديرر ، ولكن على المرء أن يجازف بقطع كل الطرق إلى براغ ليشاهدها . وفى فينا وبرلين لوحات جذابة من عمل ديرر لمريم العذراء ؛ وفى نيويورك لوحة للعذراء والطفل مع القديسة آن ، وهى تقدم لنا فتاة ألمانية رقيقة ، تمثل العذراء ، وسيدة سامية سمراء تمثل أمها ، وما أروع اللوحات فى البرادو التى تصور آدم وحواء ، فهنا نتوقف لحظة لنجد فناناً ألمانيا يظهر لنا جمال أنثى صحيحة البدن وهى عارية . ولقد ثبط من همة ديرر المكافأة القاصرة التى حصل عليها من التصوير ، وربما أوهن من عزيمته اضطراره إلى تكرار الموضوعات الدينية القديمة ، فتحول بصورة متزايدة إلى عمل يدر عليه ربحاً أكثر . ويتسم بمزيد من الأصالة ، وهو نحت الخشب والحفر ، لأن لوحا واحداً فى هذه الحالة يكفى لصنع ألف نسخة يمكن نقلها بسهولة إلى كل سوق فى أوروبا . ويمكن أن تزود ألف مجلد مطبوع بالرسم نفسه .

كانت براعة ديرر تتجلى فى رسم الخط وكان الرسم مملكته التى لا يبزه فيها رجل من الأحياء وقتذاك ، بل إنه فى هذا المجال أذهل برقته المتناهية الإيطاليين المزهوين بأنفسهم . ولقد شبهه ارازموس كرسام بأستاذ قديم بارع فى الخط فقال : إن أبيلز كان يستعين باللون . . . أما ديرر فما الذى لا يستطيع أن يعبر عنه بلون واحد ؟ . . . والنسب والإيقاعات المنسجمة ؟ كلا إنه يرسم ما لا يمكن تصويره — النار وأشعة الضوء والرعد . . والبرق . . وكل الأحاسيس والانفعالات فى رقة ، وعقل الإنسان بأسره وهو يعكس نفسه بسلوك الجسد ، بل إنه يكاد يرسم الصوت نفسه ، وهو يضع هذه الأشياء أمام الأعين بأصلح الخطوط خطوط ، سوداء ، ومع ذلك فإنك لو نشرت عليها ألواناً لأضررت بالعمل الفنى . ثم أليس عجيباً أن يحقق فنه دون أن يتوسل باللون ما حققه أبيلز متوسلا بها ؟

ورد ديرر على هذا الإطراء بحفر صورة شخصية لارازموس (١٥٢٦) ولم يجلس من أجلها ارازموس أمامه ولكنه رسمها عن صورة من عمل ماسيس ، وهى إن كانت لا تضارع هذه الصورة الشخصية ، ودون الصورة التى رسمها هولبين ؛ فإنها من روائع الرسم مع هذا كله ، وذلك للبراعة فى تصوير ثنيات العباءة وظلالها وتجاعيد الوجه واليدين والأوراق المطوية للكتاب المفتوح .

وقد خلف لنا ديرر أكثر من ألف صورة معظمها يعد معجزات من التصميم الواقعى أو المعبر عن الورع أو الخيالى الخارق ، وبعضها صور هزلية صريحة ، وإحداها تصور السن والحكمة فى دقة متناهية ، ومن آن لآخر يكون الموضوع من ذلك النوع الذى لا ينبض بالحياة ، كما فى لوحة الطاحونة ، أو مجرد خضرة خالصة مثل لوحة « المرج » ، أو حيواناً مثل صورة رأس فيل البحر . وتحتشد عادة النباتات والوحوش حول أشخاص أحياء ، كما فى اللوحة المركبة « السيدة العذراء مع حشد من الحيوانات » ، أما الموضوعات الدينية فهى أقل أعماله نجاحاً ، ومع ذلك فإننا يجب أن نستثنى وتقدر اللوحة الرائعة المسماة

« يدا رسول يصلى » . وأخيراً فثمة دراسات رائعة فى الأساطير القديمة مثل لوحة أبولو وصورة أورفيوس .

وقد حول ديرر نحو ٢٥٠ من رسوماته إلى أعمال من الخشب المحفور المنحوت ومائة إلى حفر ، وهاتان المجموعتان تمثلان أروع جانب يستحق التقدير من تراثه . ولقد حفر بنفسه التصميمات حتى مدار القرن ، ثم عهد فيما بعد بحفر الخشب إلى آخرين . وما كان ، بغير هذا التعاون ، ليستطيع أن يصور مثل هذا القطاع الواسع من الحياة . وقد بدأ بتصوير رسوم لكتب مثل الفارس « فون تورن » و « الطيش » لسباستيان برانت ، ورسم بعد عشرين عاماً صوراً هامشية لكتاب الصلوات الخاص بماكسمليان . وجرب ريشته فى رسم الجسم العارى ، ونجح نجاحاً عظيماً فى لوحة «حمام الرجال » ولم يبلغ الشأو نفسه فى صورة «حمام النساء » ، وقد أفاد فى كليهما كدافع ثورى للفن الألمانى الذى كان قد أعرض عن رسم الجسم العارى باعتباره عملا فاضحاً أو تبديداً للأوهام . واشتهرت أعمال الحفر فى الخشب ، التى صورت حياة العذراء وآلام المسيح عند الصلب ، فقد غدا فى وسع النساء المتعبدات وقتذاك أن يتأملن ، وهن يصطلين بجوار مدافئهن ، صورة مطبوعة تبين خطبة يوسف ومريم ، وكان الألمان العمليون يسرهم أن يجدوا فى صورة إقامة العائلة المقدسة فى مصر كل التفاصيل المريحة للألفة والجد اللذين عرف بهما الشعب التيوتونى — مريم تحيك الثياب ، ويوسف يعمل وهو جالس على دكته ، وأطفال عليهم مسحة ملائكية يحضرون الحطب دون أن يطلب أحد ذلك منهم . وثمة سبع وثلاثون صورة من أعمال حفر الخشب الصغير — « آلام المسيح الصغرى » — وإحدى عشرة صورة أكبر — « آلام المسيح الكبرى » — عرضت قصة تعذيب المسيح ووفاته فى آلاف البيوت ، ونبه شوق الرأى العام لترجمة لوثر للعهد الجديد . وثمة سلسلة أخرى من الصور زينت سفر الرؤيا وبعضها حفر على الخشب مثل « الفرسان الأربعة فى سفر الرؤيا » والقديس مايكل يقاتل التنين وكانت من النضارة والوضوح

بحيث ظل الذهن الألمانى قرونا طويلة يفكر فى سفر الرؤيا كما عبر عنها ديرر برسومه .

وتجاوز مرحلة حفر الخشب إلى فن يحتاج إلى مزيد من الجهد هو فن النقش ، وحاول بين الفينة والفينة النقش بالحفر الإبرى ، كما فى الصورة المظللة « العائلة المقدسة » وكان عادة يعمل بإزميل . و « سقوط الإنسان » نقش على النحاس فى أشكال تليق باليونان وفى نسبة وتناسق جديرين بالإيطاليين مع ما عهد فى ديرر من إسراف فى رسم الحيوان والنبات ، حيث نجد أن لكل وحدة تقريباً دلالة رمزية بالنسبة له ولجيله . وبرزت إناث عاريات فى روعة لم يسبق لها مثيل فى الفن الألمانى من المعدن ، وذلك فى صورة « وحش البحر » و « الصراع بين الفضيلة واللذة » ، بخلفية من المناظر الحلوية رسمت ببراعة .

أما الستة عشرة صورة من الحفر والتى تكون « آلام المسيح منقوشة » فإنها أقل تأثيراً من صورة « تعذيب المسيح » المحفورة على الخشب ، ولكن صورة القديس ايوستاس فهى مجموعة من الرسوم الحية : خمس كلاب وجواد وغابة ، وحشد من الطيور وسلسلة من القلاع فوق تل ، وغزال يحمل صليباً بين قرنيه ، ويتوسل إلى الصياد أن يعفيه من القتل ويغريه بأن يصبح قديساً .

وبلغ ديرر فى عامى ١٥١٣ و ١٥١٤ الذروة كرسام فى ثلاث روائعات من الحفر ، فالفارس والموت والشيطان نسخة قوية من موضوع كئيب من القرون الوسطى . فارس صارم الملامح مسربل بالدروع والسلاح ، يمتطى صهوة جواد فيروكشى ، تكتنفه صورة قبيحة للموت والشيطان ، ومع ذلك فإنه يتقدم إلى الأمام فى إصرار منتصراً للفضيلة على كل شيء ، ويبدو أن أحداً لا يصدق أنه يمكن نقش صور فى المعدن بمثل هذه المبالغة والدقة فى التفاصيل . فصورة القديس جيروم فى قاعة درسه ، توضح مرحلة أهدأ من انتصار

المسيحى . القديس العجوز الأصلع منحن فوق مخطوطته يكتب على ما يبدو فى ضوءهالته وعلى الأرض ، ومعه فى هدوء أسد وكلب ، وعلى أسكفة النافذة تجثم جمجمة فى سكون مبين ، وما يبدوفى نظر كل الناس قبعة زوجته معلقة على الحائط ، وكل الحجرة مرسومة بمنظور روعيت فيه القواعد ، ورسمت فيها كل الظلال وأشعة الشمس بدقة فائقة . وأخيراً فإن النقش ، الذى أطلق عليه ديرر اسم « السوداء » ، يكشف عن ملاك يجلس وسط أنقاض مبنى لم يتم ،وتحت قدميه خليط من الأدوات الميكانيكية والآلات العلمية ،ويتدلى من منطقته كيس ومفاتيح رمزاً للثروة والسلطان،ويستند برأسهمفكراً على إحدى راحتيه ، وعيناه تحملقان حولها فى شىء من الدهشة وشىء من الفزع . أتراه يتساءل لأى غرض يبذل كل هذا الجهد ، ومافائدة هذا البناء ، والهدم والبناء ، وهذا السعي الحثيث وراء الثروة والسلطان والجرى وراء السراب الذى يسمى الحقيقة ومجد العلم هذا وبلبلة ذوى الفكر وهم يكافحون عبثا الموت المحتوم ؟ وهل يمكن أن يكون ديرر فى بداية العصر الحديث نفسه قد أدرك المشكلة التى واجهها العلم الظافر وهى مشكلة الوسائل التقدمية التى أساءت استخدامها الغايات التى لا تتغير ؟

وهكذا دخل ديرر عصر لوثر بالرسم تلو الرسم والتصوير وراء التصوير ، بدأب جهيد وصبر يختلفان عن تسويف ليوناردو وترف رافائيل،واشترى حوالى عام ١٥٠٨ البيت الذى أضفى الشهرة على نورمبرج ؛ وقد دمر فى الحرب العالمية الثانية ، ثم أعادت هيئة السياحة بناءه صورة طبق الأصل منه . وكان الطابقان السفليان فيه من الحجر ،أما الطابقان الثالث والرابع فمن الخشب المكسو بالملاط ، وفوق طنف بارز يجثم طابقان آخران تحت السقف الهرمى . وهنالك عاش ديرر تسعة عشر عاماً فى بؤس غير مفرط مع زوجته العقيم . وكانت أجنس ربة بيت بسيطة وتعجب لماذا يمضى ألبرخت هذا الوقت الطويل فى دراسات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، أو مع أصدقاء يدمنون

الشراب . كان يتحرك فى دوائر لا تستطيع أن تدركها بعقلها القاصر وكان يهملها من الناحية الاجتماعية ، وكثيراً ما كان يسافر دون أن يصحبها معه ، ولكنه عندما اصطحبها معه إلى الأراضى الواطئة ، كان يتناول غذاءه مع الشخصيات المشهورة أو مع أحد ضيوفه ويترك زوجته تتناول طعامها فى (المطبخ الأعلى) مع خادمتهما . وفى عام ١٥٠٤ انضمت إلى ديرر والدته الأرملة لتعيش معهما فى البيت واستمرت معهما عشر سنوات . والصورة التى رسمها لها تثير عطفنا على الزوجة — ولم تكن جد فاتنة — ولقد رأى أصدقاؤه فى أجنس امرأة سليطة اللسان ، لا تستطيع أن تشارك ديرر حياته الفكرية المستغرقة .

وفى سنواته الأخيرة تمتع أستاذ نورمبرج بشهرة تعم قارة أوربا ، باعتباره رائداً للفن الألمانى ومفخرة له . وفى عام ١٥١٥ منحه الإمبراطور معاشاً متواضعاً قدره مائة فلورين فى العام (٢٫٥٠٠ دولار؟) ، وكان يدفع له بصورة غير منتظمة ، لأن دخل ماكسمليان كان لا يتفق أبداً مع خططه .

وعندما مات ماكسمليان توقف المعاش ، فقرر ديرر أن يزور الأراضى الواطئة ويطلب تجديد معاشه من شارل الخامس . وأخذ معه مجموعة منوعة من الرسوم والصور الزيتية ليبيعها أو يقايض عليها فى هولندا أو فى الفلاندرز . واستطاع بذلك أن يدفع كافة نفقات الرحلة تقريباً . وتكاد تبدو فى اليوميات التى احتفظ بها عن جولته (يوليو ١٥٢٠ — يوليو ١٥٢١) وإن لم تكن تماماً — شخصية مثل التى كتبها بوزويل بعد قرنين آخرين ، فهى تسجل نفقاته ومبيعاته ومشترياته وزياراته وحفلات تكريمه ، وتكشف عن عناية ابن الطبقة الوسطى بالتفاصيل المالية ، وابتهاج الفنان بالاعتراف بعبقريته ، وهو أمر يغتفر له . ولقد حصل ديرر على الحق فى تجديد معاشه بعد مطاردة شارل فى اثنتى عشرة مدينة ، وهكذا استطاع أن يخصص باقى رحلته لمشاهدة مناظر الأراضى الواطئة وأبطالها . وأذهلته ثروة غنت وبروكسل وبروجزوروعتها ،

ومذبح آل فان أيك المتعدد الطيات فى كنيسةسانت بافون . وكاتدرائية أنتورب « التى لم أرلها مثيلا فى الأراضى الألمانية » . والتقى بارازموس ولوكاس فان ليدن وبرنابرت فان أورلى وآخرين منوجهاء الأراضى الواطئة ، ورحبت به طوائف الفنانين فى تلك المدن ، وأصيب بالملاريا فى مستنقعات تسيلاند المليئة بالبعوض فأتلفت صحته فيما بقى له من عمر .

ويقول فى صفحة من يومياته : « لقد اشتريت كراسة لوثر الدينية بخمس بنسات فضية وأعطيت واحدة لإدانة هـــذا الرجل القوى » . وفى أنتورب (مايو ١٥٢١) سمع شائعة تقول إن لوثر « قبض عليه غدرا » وهو يرحل عن مجلس نواب (دايت) ورمز ، ولم يعـــرف ديرر أن هذا الإبعاد إنما قصد به حماية هذا المصلح العظيم وخشى أن يكون لوثر قد قتل فكتب فى يومياته دفاعاً حاراً عن الثائر متوسلا بارازموس أن يخف لنجدة أنصاره : « إذن فقد اختفى هذا الرجل الذى أنار عقله الروح القدس ليتابع العقيدة الحقة . . . وإذا كان قد تعذب فإن هـــذا فى سبيل الحقيقة المسيحية ضـــد البابوية غير المسيحية التى تعمـــل ضـــد حرية المسيح وتستنزف دماءنا وعرقنا لتقتات به وتعيش فى ترهل فى الوقت الذى تحيا فيه الشعوب فى مسغبة . رباه ! إن الناس لم تسحق قط بمثل هذه القسوة تحت وطأة القوانين التى من صنع البشر ، كما حدث لهم تحت كرسى الأسقفية الرومانية . . . إن كل إنسان يرى مدى الوضوح الذى أعلنت به العقيدة فى كتب لوثر وكيف أنها تطابق ما ورد فى الإنجيل المقدس . إننا يجب أن نصون هذه الكتب من أن تحرق بل دعونا نقذف فى النار الكتب التى تعارضه . . . وأنتم أيها المسيحيون الأتقياء جميعاً ابكوا معى حزنا على فقد هذا الرجل،وصلوا للرب أن يرسل لنا هادياً آخر . وأنت يا أرازموس الروتردامى أين تقيم ؟ ألا ترى الظلم والاستبداد الأعمى للسلطات الحاكمة الآن ؟ استمع إلى يا فارس المسيح واركب بجانب سيدنا كما هو حالك . . . أنت أيضا تستطيع أن تفوز

بتاج الشهيد . اجعل صوتك مسموعاً يا ارازموس ، فعسى الله الذى يحكم على أعمالك أن يظهر تمجيده فيك » :

وعندما عاد ديرر إلى نورمبرج وقف حياته كلها تقريبا على الفن الذى يتسم بالطابع الدينى ، مع الاهتمام الفائق بالأناجيل من جديد . وأتم عام ١٥٢٦ أعظم مجموعة من لوحاته — الرسل الأربعة — وهى تسمية غير صحيحة لأن مرقس المبشر الإنجيلى لم يكن واحدا من الحواريين الاثنى عشر ، ولكن لعل هذا الخطأ يشير إلى البروتستانت فى العودة من الكنيسة إلى الأناجيل . واللوحتان من بين الممتلكات التى يعتز بها « بيت الفن » والذى جمعت فيه ميونخ ، التى أضرت بها الحرب ، مجموعتها الفنية الشهيرة . وإحدى اللوحتين تصور يوحنا وبطرس ، والأخرى تصور مرقس وبولس ، والأربعة كلهم يرتدون ثياباً زاهية اللون ، لا تكاد تتفق مع قديسين من عامة الصيادين ، وفى هذه الملابس عكف ديرر على تصوير المثال الإيطالى بينما أكد تأثير بيئته الألمانية فى الرءوس العريضة الضخمة . ولعل هذه الصور المهيبة قصد بها أن تكون أجنحة لمذبح ثلاثى الطيات فى كنيسة كاثوليكية . ولكن مجلس نورمبرج أعلن عام ١٥٢٥ تأييده للإصلاح الدينى . فتخلى ديرر عن فكرة عمل صورة مذبح ، وقدم اللوحات إلى المدينة ، وألحق بكل لوحة نقوشا تؤكد بإصرار أهمية الأناجيل ؛ وعلى الرغم من وجود المفاتيح فى يد بطرس — وهى تعد عادة أداة تمثل الكنيسة الرسمية المقدسة وسلطات الكنيسة — فإن من الممكن تفسير هذه اللوحات بأنها عهد ديرر البروتستانتى .

ولم يبق من عمره آنذاك إلا عامان وكان يعانى من نوبات متعاقبة من حمى الملاريا حطمت صحته وروحه معا . ولقد رسم فى عام ١٥٢٢ آخر صورة له باسم رجل الأحزان ، وتصوره عاريا أشعث الشعر شاحب الوجه ، عليلا يقاسى من الألم ، ويمسك فى يديه سوط تعذيب المسيح ، وظل مع ذلك

يعمل إلى النهاية وعندما مات (٦ ابريل سنة ١٥٢٨) بالغاً من العمر سبعة وخمسين عاما ترك من الرسوم والصور المحفورة فى الخشب والنقوش إلى جانب ٦٠٠٠ فلورين — ما يكفى لإعالة أرملته فى يسر كثيب ، وذلك فيما تبقى لها من العمر . وها هو بيركهايمر يقول فى رثائه : « خير صديق لى فى حياتى » وكتب نقشا تذكاريا متواضعا على القبر : « ما كان فانيا من ألبرخت ديرر يرقد تحت هذه الربوة » .

ولقد افتقد ديرر الغاية السامية باعتباره فناناً ، ذلك لأنه ضحى بمهمة الفن العظمى فى سبيل مهمة أقل وزنا . . كان يفتتن برؤية الأشكال العابرة للأشخاص والأماكن والأشياء ، وهى تدب فيها الحياة تحت يديه إلى حد جعله يستغرق بصفة أساسية فى تصوير الواقع — سواء أكان جميلا أم قبيحاً ، له معنى أو لا معنى له — ولم يكن يمزج إلا عرضا العناصر المتناثرة للإدراك الحسى لتكتمل فى خيال خلاق ، ثم تعود مجسمة فى خط أو لون وجمال مثالى ، يكشف لنا عن أهداف يسعى إلى تحقيقها أو يكشف لنا عن رؤى تيسر الفهم أو تحقق الهدوء ، ولكنه ارتفع إلى مستوى نداء عصره فحفر فى الخشب أو نقش على النحاس سيرة ذاتية بجيله المترصد المنتج وأن ريشته أو قلمه الرصاص ومنقاشه أو فرشاته استدعت الأرواح الخفية للرجال المقتدرين الذين وطأوا بأقدامهم مسرح ذلك العصر .

ولقد جعل ديرر تلك الحقبة من الزمن تعيش لنا أربعة قرون بكل ما فيها من حماسة وولاء وخوف ووهم ، واحتجاج وحلم وورع . . . كان ألمانيا .

٦ — علماء الإنسانيات الألمان

كانت ألمانيا بلدا فتيا فى الآداب مثلما كانت فى الحياة والفن . . . وانتشر تعلم القراءة والكتابة ، وصدرت الكتب متدفقة من ستة عشر ناشرا

فى بازيل ، وعشرين فى أوجسبورج ،وواحد وعشرين فى كولونيا ، وأربعة وعشرين فى نورمبرج . ولقد كان هنالك أنطون كوبيرجر الذى استخدم وحده أربعا وعشرين مطبعة ومائة رجل ، وكان الاتجار فى الكتب يحتل جانبا كبيرا من التجارة الرائجة بالأسواق فى فرانكفورت وسالزبورج ونوردلينجن وأولم ، حتى قال أحد المعاصرين الألمان « إن كل إنسان اليوم يريد أن يقرأ ويكتب » . وكتب آخر يقول : « لا نهاية للكتب الجديدة التى تؤلف » . وتضاعف عدد المدارس فى المدن ، وكانت كل مدينة تقدم مكافآت أو منحا دراسية للطلبة الفقراء من الممتازين ، وأنشئت تسع جامعات جديدة فى هذه السنوات للتعليم الجديد . ونهضت أكاديميات أدبية فى ستراسبورج وأوجسبورج وبازيل وفيينا ونورمبرج ومايتز ، وفتح أبناء الطبقة الوسطى الأغنياء أمثال بويتنجر وبيركهايمر بل والإمبراطور ماكسمليان نفسه مكتباتهم وعرضوا مجموعاتهم الفنية للناس ، وتبرعوا بأموالهم للدارسين المتلهفين للدرس ،وكان كبار رجال الدين أمثال جوهان فون دالبرج أسقف ورمس والبرخت البراندنبرجى ، كبير أساقفة مايتز ، أنصارا مستنيرين للدراسة والشعر والفن ، ورحبت الكنيسة فى ألمانيا بعصر النهضة ، وهى فى هذا كانت تحذو حذو البابوات ، ولكنها تشددت فى الدراسات اللغوية لنصوص الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وطبعت النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس ستا وعشرين طبعة فى ألمانيا بين عامى ١٤٥٣ و ١٥٠٠ ، وكانت هنالك عشرون ترجمة للكتاب المقدس قبل ترجمة لوثر . وليس من شك فى أن انتشار العهد الجديد بين الناس قد أعدهم لتقبل ما أعلنه لوثر متحديا لتناقض الأناجيل مع الكنيسة ، وأن قراءة العهد القديم أسهمت فى تهويد البروتستانت للمسيحية من جديد .

وكانت الحركة الإنسانية فى ألمانيا بادئ الأمر — وبعد شغفها بلوثر — أكثر مطابقة للعقيدة كما عرفها علم اللاهوت منها فى إيطاليا ، ولم يكن لألمانيا ماض قديم مثل إيطاليا ولم يتح لها أن أفادت من غزو روما الإمبراطورية

لها وتعليمها ، ولم يكن هناك رباط مباشر بينها وبين العهد القديم غير المسيحى . وكانت ذاكرتها لا تكاد تتجاوز القرون التى دانت فيها بالمسيحية ، وكان تضلعها فى العلم لا يكاد يقتحم ما قبل عهد آبائها المسيحيين ، وكانت نهضتها إحياء للمسيحية الأولى أكثر منها إحياء للآداب والفلسفة الكلاسية . وطوى الإصلاح الدينى النهضة فى ألمانيا .

ومع ذلك فإن مذهب الإيمان بالإنسان فى ألمانيا اقتدى بزعامة إيطاليا ، إذ أن بوجيو براتشيولينى وإنياس سيلفيوس وآخرين من علماء الإنسانيات جاءوا معهم بالبذرة عند زيارتهم لألمانيا ، كما أن الألمان من الطلبة والحجاج ورجال الدين والتجار والدبلوماسيين الذين زاروا إيطاليا عادوا وهم يحملون معهم — ولو عن غير قصد — لقاح عصر النهضة . ولقد تلقى رودولفوس اجريكولا ، وهو ابن قسيس هولندى يرعى أبرشية ، الكثير من التعليم فى ارفورت وكولونيا ولوفان ، ووقف سبع سنوات من عمره على التعمق فى دراسات اللاتينية واليونانية فى إيطاليا ، ثم عاد ليدرس فى جروتنجن وهيدلبرج وورمس . وتعجب أهل العصر من فضائله غير المألوفة من الجماهير . التواضع والبساطة والأمانة والورع والعفة . وكتب باللغة اللاتينية ما يكاد يكون جديراً بشيشرون ، وتنبأ بأن ألمانيا سوف « تبدو يوما وهى لا تقل لاتينية عن اللاتيوم » . والحق أن هولندة أجريكولا قد أنجبت فى الجيل التالى ارازموس وهو عالم باللغة اللاتينية إلى حد يتيح له أن يحس بأنه فى وطنه لو قدر له أن يعيش فى روما تاسيتوس وكوينتيليان .

وأصيب أجريكولا فى رحلة قام بها إلى روما بالحمى التى قضت عليه فى هيدلبرج وهو فى الثانية والأربعين من عمره (١٤٨٥) .

وكان يضارعه فى النفوذ — لا فى دماثة الطبع — جاكوب ويمفيلنج ، وكان مزاجه حادا بقدر ما كانت لاتينيته رقيقة . وقرر ناظر المدرسة الألمانى

هذا أن يرفع ألمانيا إلى مستوى إيطاليا فى التعليم والآداب ، فوضع خططا لإنشاء نظام المدارس العامة ، وأسس جمعيات من المتعلمين ، وأدرك مع ذلك مدى الخطورة إذا تحقق التقدم الفكرى دون أن يصحبه تطور أخلاقى . يتساءل قائلا : « ما فائدة تعليمنا إذا كانت أخلاقنا غير شريفة بفعل التناظر أو صناعتنا كلها لا تقترن بالورع ، أو معرفتنا كلها لا تحث على حب جارنا ، أو كانت كل حكمتنا تفتقر إلى التواضع ؟ .

ويعد جوهانس تريثميوس راهب سبونهايم آخر علماء الإنسانيات المحافظين وهو الذى كتب عام ١٤٩٦ : « لقد ولت إلى غير عودة أيام تشييد الأديرة ، أما أيام هدمها فآتية لاريب فيها » . ووصف سيلتس ، وهو عالم إنسانيات أقل إخلاصاً زميله تريثميوس بأنه « زاهد فى الشراب ، يزدرى لحم الحيوان ويعيش على الخضر والبيض واللبن ، كما كان يفعل أسلافنا فى الوقت الذى . . . . لم يكن هناك أطباء يشرعون فى تركيب أدوية لداء النقرس والحمى » . وأصبح فى خلال حياته القصيرة متفننا فى علوم جمة ، بارعا فى اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية وآدابها ، وقد قام بمراسلة ارازموس وماكسمليان والأمراء الإمبراطوريين المختارين ، وشخصيات مشهورة أخرى وفسر عامة الناس فى هذا العهد معارفه المكتسبة على أساس نظرية تذهب إلى أنه كان يملك قوى خفية خارقة . ومهما يكن من أمر فإنه مات وهو فى الرابعة والخمسين من عمره (١٥١٦) .

وكان كونرادوس سيلتس أقوى علماء الإنسانيات الألمان غيرة وأعظمهم أثراً . ولقد كان ينتقل من مدينة إلى مدينة وكأنه أديب جوال عجول يدرس فى إيطاليا وبولنده وهنغاريا ، ويعلم فى كولونيا وهيدلبرج وكراكاو وبراغ وماينز وفيينا وانجولستادت وبادوا ونورمبرج ، وكشف عن مخطوطات ثمينة كانت مهملة مثل مسرحيات هورتسويذا ، وخرائط قديمة مثل تلك الخريطة

التى أعطاها لبويتنجر وحملت اسمه . وكان يجمع حوله الدارسين أينما ذهب ويبث فيهم شغفه بالشعر والأدب الكلاسى والآثار الألمانية القديمة . وفى عام ١٤٤٧ توّجه الإمبراطور فردريك الثالث فى نورمبرج أميراً للشعراء فى ألمانيا. وأسس سيلتس فى ماينز (١٩٤١) جمعية الراين الأدبية الواسعة النفوذ وكانت تضم علماء وفقهاء فى الدين وفلاسفة وأطباء ومؤرخين وشعراء ومحامين ، أمثال أولريخ تسازيوس الفقيه القانونى الضليع وعلماء أمثال بيركهايمر وتريثموس ورويخلين وويمفيلنج . وأنشأ فى فيينا ، بأموال زوده بها ماكسمليان ، أكاديمية للشعر أصبحت فيما بعد قسما محترما من الجامعة يعيش فيه الأساتذة والطلبة معاً فى البيت نفسه وينهضان بالعمل ذاته . ويبدو أن سيلتس خسر عقيدته الدينية فى خلال دراساته . فقد أثار مثل هذه الأسئلة : « هل تحيا الروح بعد الموت ؟ » و « هل هناك إله حقاً ؟ » وفى أسفاره اصطحب نماذج كثيرة من الجنس اللطيف ولكنه لم يصحب واحدة منهن إلى المذبح ، وانتهى أمره إلى أن يقول فى غبطة : « ليس هناك تحت الشمس أحلى من عذراء جميلة بين ذراعى رجل تبدد همومه » .

ولقد انتشر هذا الانحلال المريب وأصبح بدعة بين علماء الإنسانيات الألمان فى العقود الأخيرة قبل لوثر : وكتب ايوبان هيسى Heroides Christiane « الاستشهاد المسيحى » (١٥١٤) بلغة لاتينية سليمة ، وقلد فيه أوفيد فى المجون أكثر مما قلده فى الشكل ، وتضمن خطابات حب من المجدلية إلى عيسى ، ومن مريم العذراء إلى الأب المقدس ، ولكى يقرن الفعل بالقول عاش فى انحلال مثل تشليتى وفاق فى الشراب جميع من نافسوه ولم ير بأساً فى أن يفرغ فى بطنه دلوا من الجعة فى جرعة واحدة .

ومهما يكن من أمر فإن كونرادوس موتيانوس روفوس استطاع أن يوفق فى رفق بين مذهب الشك والدين ، ولقد اكتفى بعد أن فرغ من الدراسة فى ديفنتر وارفورت وفى إيطاليا : بمنصب دينى متواضع فى جوتا ووضع

على بابه هذا الشعار : « أيها السكون المقدس السعيد » Beata tranquilite ، وجمع حوله الطلبة المعجبين وعلمهم « أن يقدروا أحكام الفلاسفة وأن يضعوها فوق أحكام القساوسة » ولكنه حذرهم، بأنهم يجب أن يخفوا شكوكهم فى العقيدة المسيحية عن الجمهور بالإقبال بأسلوب مهذب على إقامة الشعائر والمراسيم الدينية وقال : « إننا لا نقصد بالإيمان مطابقة ما نقول للواقع بل نعنى رأياً بأن الأمور المقدسة تقوم على الفطرة والإقناع الذى ينشد المنفعة » . واعترض على إقامة القداس للموتى باعتباره أمراً لا فائدة منه وعلى الصيام باعتباره شيئاً غير مرغوب فيه وعلى الاعتراف السرى باعتباره عملا يثير الارتباك . ورأى أن الكتاب المقدس يحتوى على حكايات خرافية كثيرة مثل حكاية يونان وأيوب ، ومن يدرى ؟ لعل المسيح لم يمت حقاً على الصليب ! فقد كان اليونان والرومان مسيحيين دون أن يحسوا ما داموا قد عاشوا فى استقامة ، وليس من شك فى أنهم ذهبوا إلى الجنة . ويجب أن يكون الحكم على العقائد والشعائر مبنياً لا على أساس دعاواها الحرفية ولكن على أساس آثارها الأخلاقية . فإذا كانت ترقى بالنظام الاجتماعى والفضيلة عند الفرد فيجب أن يتقبلها الجمهور دون مناقشة ، وطلب موتيانوس من مريديه أن يعيشوا حياة طاهرة ، وأقسم فى سنواته الأخيرة قائلا : لسوف أحول دراساتى إلى ورع ولن أتعلم من الشعراء أو الفلاسفة أو المؤرخين إلا ما يرقى بالحياة المسيحية . وبعد أن عاش بكل ما تقدمه الفلسفة من عزاء مات تحفه بركات الكنيسة (١٥٢٦) .

وليس من شك فى أن استياء المحافظين من مذهب الشك الذى شاع بين علماء الإنسانيات المتأخرين قد بلغ عنفوانه عند أرق علماء هذا العصر وأرحبهم صدراً فقد لاحظ جوهانس رويخلين التقليد الذى درج عليه الناس فى العصور الوسطى من جمع المعارف من اثنى عشر مركزا بفضل انتشار اللغة اللاتينية باعتبارها لغة التعليم فى أوربا الغربية . وفى مدرسة النحو ببلدته

فورتسهايم وفى جامعات فرايبورج وباريس وبازيل وأورليانز وبواتييه، وفى لينز وميلان وفلورنسا وروما تابع دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية والقانون بحماسة تصل تقريباً إلى حد التعصب ،ولقد غير اسمه على عادة علماء الإنسانيات الألمان — وهو مشتق من كلمة rauchen الألمانية بمعنى يدخن — إلى كابينو المأخوذة من كلمة kapnos اليونانية بمعنى التدخين . وألف وهو فى العشرين من عمره معجماً للغة اللاتينية طبع مرات . وفى روما أعطاه جوهانس أرجيروبولس قطعة صعبة من كتاب المؤرخ ثوسيديدس ليترجمها ، فما كان من رويخلين إلا أن استجاب فوراً حتى صاح اليونانى العجوز : « الآن يفر اليونان وراء الألب » . ولم يكن الطالب الشهم يترك حاخاما يمر دون أن يتعلم منه شيئاً من العبرية ، ويزعم موتيانوس أنه سمع أن رويخلين أعطى دارساً يهوديا عشر قطع ذهبية ليشرح له معنى عبارة عبرية، و ربما كان هذا حلم عالم بالإنسانيات .

وأقنع بيكو ديلا ميراندولا ، رويخلين أن ينشد الحكمة فى كابالا . وبمقارنة ترجمة جيروم للعهد القديم بالنص العبرى الأصلى أشار «كابنيو» إلى كثير من الأخطاء فيما اعتاد علماء اللاهوت الاستشهاد به كنص لا يرق الشك إليه . وعندما بلغ الثانية والثلاثين من عمره عين أستاذاً للعبرية فى جامعة هيدلبرج . وليس من شك فى أن معجم اللغة العبرية وكتاب قواعد هذه اللغة اللذين ألفهما قد أتاحا دراسة اللغة العبرية والعهد القديم على أساس علمى وأسهما فى أن يكون للكتب المقدسة المدونة بالعبرية تأثير قوى على الفكر البروتستانتى .

وحجب إعجابه بالعبرية شيئاً فشيئاً شغفه بالكلاسيات ، فقد كتب يقول « إن اللغة العبرية لم يمسها الزيف وهى جامعة تؤثر الإيجاز إنها اللغة التى تحدث بها الله للإنسان وهى التى تحدث بها الإنسان للملائكة وجها لوجه»

واحتفظ بعقيدته السلفية أثناء دراساته جميعاً وإذا كان قد شابها قليل من التصوف فإنه قدم كل كتاباته وتعاليمه بإخلاص إلى سلطان الكنيسة .

وتحالفت طائفة من الظروف الغريبة فجعلت منه بطلا لعصر النهضة الألمانية ، إذ حدث فى عام ١٥٠٨ أن أصدر جوهانس بفيفر كورن ، وهو حاخام تحول إلى قسيس ، كتاب « مرآة اليهود » أدان فيه اضطهادهم وبرأهم من الجرائم الاسطورية التى شاع اتهامهم بها ولكنه حثهم فى الوقت نفسه على أن يتخلوا عن إقراض النقود وعن التلمود وأن يدخلوا فى المسيحية وقدم إلى الإمبراطور — وكان يؤازره فى ذلك رهبان الدومينيكان فى كولونيا — توصية بمصادرة جميع الكتب العبرية ما عدا العهد القديم ، فأمر ماكسمليان بتسليم جميع كتب الأدب اليهودى ، التى تنتقد المسيحية إلى بفيفر كورن لكى تفحصها جامعات كولونيا وارفورت وماينز وهيدلبرج وجاكوب فان هوجسترايتن رئيس محكمة التفتيش فى كولونيا وروبخلين بفضل تضلعه فى اللغة العبرية ، وأشار الجميع ما عدا روبخلين بمصادرة الكتب وإحراقها ، وهكذا أثبت رأى الأقلية الذى يمثله روبخلين أنه معلم من معالم تاريخ التسامح الدينى ، فقد قسم الكتب اليهودية إلى سبع طوائف ، إحداها يتكون من أعمال تسخر صراحة من المسيحية وهذه يجب أن تحرق أما الباقى وتشمل التلمود فيجب الحفاظ عليها حتى ولو كان هذا لمجرد أن لها قيمة كبيرة بالنسبة للمعرفة المسيحية ، وقال بفيفر كورن إن لليهود حقا فى أن تكون لهم الحرية فى الرأى كمواطنين بالإمبراطورية ولأنهم لم يرتبطوا بأى التزام نحو المسيحية .

وتحدث روبخلين فى رسائله الخاصة عن بفيفر كورن فقال إنه « حمار » لم يتيسر له أن يحسن فهم الكتب التى اقترح إتلافها . وكان رد بفيفر كورن على هذه المجاملات أن أصدر كتاب « مرآة اليد » ، وقد هاجم فيه روبخلين

وعده أداة رشاها اليهود . فرد عليه رويخلين طعنة بطعنة وأصدر كتاب « مرآة العين » الذى أثار عاصفة بين المحافظين . وشكت كلية اللاهوت فى كولونيا إلى رويخلين أن كتابه قد أسعد اليهود كثيراً وطالبوه أن يسحبه من التداول . وحرم ماكسمليان بيعه فاستغاث رويخلين بالبابا ليو العاشر فأحال الأمر إلى مستشارين مختلفين فقرروا أن الكتاب لا ضرر منه . فما كان من ليو إلا أن أوقف الدعوى وأكد لعلماء الإنسانيات حوله أنه لن يلحق رويخلين أى أذى .

وفى غضون ذلك اتهم بفيفركورن وأنصاره من رهبان الدومينيكان رويخلين أمام محكمة التفتيش فى كولونيا بأنه كافر بالمسيحية وخائن لعهدها ، فتدخل كبير الأساقفة وأمر بإحالة القضية إلى روما التى أحالتها بدورها إلى محكمة سبير الأسقفية فبرأت ساحة رويخلين . ولجأ الدومينيكان بدورهم إلى روما وأمرت الكليات الجامعية فى كولونيا وارفورت ومايتز ولوفان وباريس بإحراق كتب رويخلين .

وإنه لأمر عجيب — ودليل مبين على الحيوية الثقافية فى ألمانيا فى هذا العصر أن يتصدى للدفاع عن رويخلين عدد كبير من المشهورين وقتذاك : ارازموس وبيركهايمر وبويتنجر وأويكولا مبادوس البازيلى وفيشر أسقف روشستر وأولريخ فون هوتن وموتيانوس وايوبان هس ولوثر وميلانكستون ، بل ودافع عنه بعض كبار رجال الدين من أنصار علماء الإنسانيات كما كان الحال فى إيطاليا . وأعلن الأمراء الامبراطوريون المختارون والأمراء وثلاثة وخمسون مدينة تأييدهم لرويخلين . وجمعت رسائل من المدافعين عنه ونشرت . وذلك مثل « رسائل من رجال مشهورين إلى يوحنا رويخلين » Clarorum virorum pistolae ad Johnnem Reuchlin . وفى عام ١٥١٥ أصدر علماء الإنسانيات كتابا أشد خطرا هو صفحة ٣٢٤ (آخر الصفحة)

أى رســائل من رجال مغمورين إلى الأستاذ المبجل أورتونيوس جراتيوس أستاذ الأدب فى كولونيا . وتعد هذه الرسالة من أعظم رسائل فى تاريخ الأدب . وأحرزت نجاحا كبيراً إلى حد أن طبعة موسعة صدرت منها عام ١٥١٦ ثم نشر ملحق لها بعد عام . وادعى المؤلفون أنهم رهبان أتقياء معجبون بجراتيوس وأعداء لرويخلين ، وأخفوا شخصياتهم تحت أسماء مستعارة عجيبة — نيكولاوس كابريمولجيوس ([illegible] لبن الماعز) ويوهانس بيليفكس (صانع الجــلد) وسيمون فورست (السجق) وكونرادوس أونكبيونك . واشتكى الكتاب من السخرية التى وجهها إليهم الشعراء (كما كان يطلق على علماء الإنسانيات الألمان) وذلك بلغة لاتينية أسيئت صياغتها عمدا ، قلدوا فيها أسلوب رجال الأديرة ، وطالبوا فى إلحاح بمقاضاة رويخلين : وفى الوقت نفسه فضحوا جهلهم المطلق وفظاظة أخلاقهم وغلظة عقولهم ؛ وناقشوا مسائل تدعو للسخرية فى رصانة على نحو ما يفعل أنصار فلسفة الكلام واستشهدوا بآيات من الكتاب المقدس لتخفيف العبارات البذيئة — وسخروا بلا تيقظ من الاعتراف السمعى وبيع صكوك الغفران وتبجيل مخلفات القديسين ومن سلطة البابا ، وهى الموضوعات نفسها التى تناولها الإصلاح الدينى . وحارت كل الأوساط الأدبية فى ألمانيا فى التعرف على شخصيات مؤلفى هذه المجلدات : ولم يسلم الناس إلا فيما بعد بأن كروتوس روبيانوس الارفورتى وهو أحد مريدى موتيانوس ، قد كتب معظم ما ورد بالطبعة الأولى وأن هوتن كتب معظم ما ورد بالملحق . وتميز ليو العاشر غضبا فحرم قراءة أو حيازة الكتاب وأدان رويخلين ولكنه أحل له نفقات محاكمة سبير (١٥٢٠) ، وانسحب رويخلين وهو شيخ منهوك القوى فى الخامسة والستين ليعيش فى الغمرات ونسيه الناس بغير صخب فى غمار تألق الإصلاح الدينى .

واختفت حركة علماء الإنسانيات الألمانية بدورها فى وهج هذه النار التى أضرمت كل شىء وتعرضت لحرب شعواء من معظم الجامعات من ناحية ومن رجال الإصلاح الدينى الذين دخلوا معها فى صراع من أجل الحياة من ناحية أخرى ، فدعموا قضيتهم بعقيدة دينية ركزت على خلاص الروح فى العالم الآخر . ولم تترك للناس إلا فسحة ضئيلة من الوقت يتدارسون فيها الحضارة الكلاسية أو يصلحون من أحوالهم فى هذه الحياة الدنيا ، وحكم علماء الإنسانيات الألمان على أنفسهم بالهزيمة عندما فشلوا فى الارتقاء بالأدب اليونانى إلى مستوى الفلسفة اليونانية .

وبالدخول فى جدل عقيم أو الإغراق فى صوفية أقل نضجا من صوفية اكهارت ، لم يتركوا أعمالا عظيمة إذ أن كتب قواعد اللغة والمعاجم التى كان رويخلين يؤمل أن تكون « أثرا خالدا له يبقى أكثر من النحاس الأصفر » سرعان ما طويت فى غياهب النسيان . ومع ذلك فمن يدرى أن لوثر كان يجرؤ على أن يطلق قذائفه التى تشبه قذائف داود على تيتزل والبابوات إذا لم يكن عقل ألمانيا قد تحرر إلى حد ما من الرعب من أنصار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على يد علماء الإنسانيات . لقد كان أتباع رويخلين وموتيانوس أقلية قوية فى أرفورت حيث درس لوثر لمدة أربع سنوات وأصبح أعظم شاعر ألمانى فى هذا العهد وتغذى بلبان علم الإنسانيات رسولا متحمسا للإصلاح الدينى .

٧ — أولريخ فون هوتن

لم يكن هناك عمالقة فى عالم الأدب الألمانى فى هذا العهد قبل لوثر ، إذ لم يكن هناك سوى حيوية وخصب عجيبين : وكان الشعر يكتب ليقرأ جهرة ، ومن ثم كان يلقى ترحيباً فى الكوخ وفى القصر . واستمر تمثيل

مسرحيات العشاء الربانى وآلام المسيح ، التى يغشاها ورع شديد مموه باهتمام قوى بالفن الدرامى .

وما أن حل عام ١٤٥٠ حتى كانت الدراما الشعبية الألمانية قد تحولت نحو التعلق بالدنيا إلى حد كبير . وتضمنت حتى فى خلال التمثيليات الدينية ، هزليات ساذجة ، وأحياناً فاضحة ، من « الفارس » ، وشاع المرح فى الأدب وانتشرت نوادر تيل أولنشبيجل وهذره فى ألمانيا وتتذاك ، وهو المخادع الجوال ، (ومعنى اسمه حرفيا مرآة البومة) ، ولم ينج من حيله المرحة عامى أو قسيس ؛ ففى عام ١٥١٢ نشرت نوادره وأظهر العصر والأدب بل والفن ، الرهبان والقسس وهم يسحبون إلى جهنم ، وازدهر الهجاء فى جميع الأشكال الأدبية .

وأشد هجاء فى هذا العهد تضمنته مسرحية سفينة الحمقى بقلم سباستيان برانت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتوقع عملا يشيع فيه مثل هذا المرح من أستاذ فى القانون والأدب الكلاسى فى بازيل ؛ فقد تخيل برانت أسطولا (نسيه فى رحلة وأطلق عليه فيما بعد اسم سفينة) مزوداً برجال بلهاء ،ويحاولون أن يشقوا عباب بحر الحياة ، ويحاول أبله وراء الآخر أن يسير فى اختيال على المسرح ، وتتحمل طائفة تلو أخرى سوط لذعات كلمات المحامى الغاضبة — الفلاح والميكانيكى والشحاذ والمقامر والبخيل والمرابى والفلكى والمحامى ومدعى العلم والمحتال والفيلسوف والقسيس . ومثّلت المسرحية أيضاً زهو الرجال الجشعين وكسل الطلبة وخسة التجار وخيانة الأجراء — كل هؤلاء ينالون نصيبهم من الضربات ، ويحتفظ برانت باحترامه للكاثوليكى الورع المستمسك بعقيدته والذى يرقب حياته على أساس الظفر بالجنة .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة فاخرة، وزين بالصور التى توضح كل فقرة هجاء لاذعة فى الحكاية، وحاز الكتاب قصب السبق فى غرب أوروبا، وترجم

إلى اثنى عشرة لغة ، وكان أوسع الكتب انتشاراً فى هذا العهد بعد الكتاب المقدس .

وإذا كان برانت قد مس بسوطه رجال الدين برفق فإن توماس مورنر ، وهو راهب فرنشسكانى،هاجم الرهبان والقسس والأساقفة والراهبات بهجاء مقنع فاق فى حدته وغلظته وذكائه هجاء برانت . ولقد قال مورنر إن القس يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالدين،وهو يتملق رعايا أبرشيته من أجل الحصول على كل دانق،ثم يدفع مقداراً مما جمعه إلى الأسقف التابع له ليسمح له باتخاذ خليلة ، أما الراهبات فإنهن يمارسن الحب خفية ، والراهبة التى تنجب أكبر عدد من الأولاد تختار رئيسة للدير . ومهما يكن من أمر فإن مورنر اتفق فى الرأى مع برانت على وجوب الإخلاص للكنيسة واتهم لوثر بأنه أشد بلاهة . ورثى لضعف الإيمان عند المسيحى والفوضى الضاربة أطنابها فى العالم الدينى ، وذلك فى قصيدة مؤثرة بعنوان « ضعف الإيمان عند المسيحيين » .

وإذا كانت الشعبية الهائلة التى حظيت بها هذه القصائد الهجائية قد أماطت اللثام عن الاحتقار الذى يكنه حتى الكاثوليكيين المخلصين لرجال الدين ، فإن أدب الهجاء العنيف الذى تميز به أولريخ فون هوتن قضى على كل أمل فى أن تصلح الكنيسة من نفسها ، ودعا إلى الثورة الصريحة . وقد ولد أولريخ من أسرة تنتمى إلى الفرسان فى فرانكونيا،وعند ما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير فولدا على أمل أن يصبح راهباً . وبعد وضعه بست سنوات تحت الاختبار هرب (١٥٠٥) وعاش عيشة طالب متجول وأخذ يؤلف الشعر ويلقى القصائد يستجدى بها العيش ، وكثيراً ما يقضى ليلة بلا مأوى ، وإن كان لا يعدم الوسائل لمطارحة فتاة الغرام وهى فتاة تركت بصمتها فى دمه . وأنهكت الحمى جسده أو كادت ، وكثيراً ما كانت تشل ساقه اليسرى من أثر القروح والأورام،وكان حاد الطبع يستثار بسهولة ، مثله فى ذلك مثل كل عليل ، ومع ذلك وجده أيوبان هسى محبوبا كما هو ، واصطحبه أسقف

كريم إلى فيينا حيث رحب به علماء الإنسانيات ، ولكنه اختلف معهم وانتقل إلى إيطاليا . ودرس فى بافيا وبولونيا ، وصوب قذائف من القصائد الساخرة ضد البابا جوليوس الثانى ، وانضم إلى جيش ألمانى من الغزاة لكى يحصل على الطعام ، ثم قفل أدراجه عائدا إلى ألمانيا وهو فى أقصى حالات الإعياء .

وابتسم له الحظ إلى حين فى ماينز : فقد كتب قصيدة مدح فى كبير الأساقفة الشاب ألبرخت فتلقى منه ٢٠٠ جيلدر (٥٠٠٠ر٥ دولار ؟) اعترافاً بالجميل . وكان بلاط ألبرخت وقتذاك يعج بعلماء الإنسانيات ، وكان الكثيرون منهم من المفكرين الأحرار الذين لا يتمتعون بالاحترام . وبدأ هوتن هناك يكتب مقالته فى كتاب « رسالة من رجال مغمورين » ، والتقى هناك أيضاً بارازموس ، وخلب العالم الكبير لبه بسعة اطلاعه وذكائه وسحره . وبدأ مرة أخرى ينشد شمس إيطاليا مستعيناً بالمال الذى حصل عليه من ألبرخت والمعونة التى تلقاها من والده الذى رق لحاله ، وكان فى كل محطة يتوقف فيها ينسف طائفة علماء اللاهوت والرهبان المنافقين الفاسدين . « وأرسل من عاصمة البابوية إنذارا إلى كروتوس روبيانوس هذا نصه : أرجو أن تتخلى يا صديقى عن رغبتك فى مشاهدة روما ، فإن ما تنشده هناك لم يعد موجودا ... قد تعيش من السلب والنهب ، وقد ترتكب جريمة قتل أو تنتهك حرمة المعابد ... وقد تعربد وتستسلم للشهوات وتنكر وجود الله فى السماء ، ولكن إذا أتيت إلى روما محملا بالمال فثق بأنك ستلقى من الناس أعظم احترام . إن الفضيلة وبركات السماء تباع هنا ، بل إن فى وسعك أن تشترى الحق فى أن ترتكب ماشئت من الخطايا فى المستقبل ، وليس من شك فى أنك تكون معتوهاً لو تمسكت بالأخلاق الطيبة ؛ فالناس العقلاء سيكونون أشراراً » .

وفى سخرية مرحة أهدى إلى ليو العاشر (١٥١٧) طبعة جديدة من رسالة فالا المدمرة عن « هبة قسطنطين » الخيالية ، وأكد للبابا أن أغلب أسلافه من البابوات كانوا طغاة مستبدين ولصوصاً ومغتصبين ، وأنهم حولوا

الجزاء فى العالم الآخر إلى دخل لأنفسهم ، وقد وقع هذا العمل فى يد لوثر فزاد من سخطه على البابوية .

وعلى الرغم مما تتسم به كثير من قصائد هوتن من عنف وقدح ، فإنها حققت له شهرة موزعة على أنحاء ألمانيـا . وعندما عاد إلى الوطن عام ١٥١٧ أضافه كونراد بويتنجر فى نورمبرج وتوج ماكسمليان ، بناء على اقتراح هذا العالم الثرى ، هوتن أميراً للشعراء . وألحقه ألبرخت وقتذاك بخدمته الدبلوماسية وأرسله فى بعثات مهمة وصلت إلى باريس . وعندما عاد هوتن إلى ماينز (١٥١٨) وجد ألمانيا فى ثورة بسبب مقالات لوثر عن صكوك الغفران ، ولابد أنه ابتسم عندما رأى صاحبه كبير الأساقفة المستهين بالأمور متورطاً فى موقف لا يحسد عليه . وكان لوثر قد استدعى إلى أوجسبورج لمواجهة الكاردينال كاجيتان ، وليدفع عن نفسه تهمة الهرطقة . وتردد هوتن . فقد كان مرتبطا ، عاطفيا وماليا ، بكبير الأساقفة ، ولكنه أحس بنداء الحرب فى دمه فامتطى جواده وسافر إلى أوجسبورج .

٨ — الكنيسة الألمانية

ترى كيف كانت الكنيسة الألمانية فى شباب لوثر ؟ لقد ظهرت إشارة فى استعداد كبار رجال الدين أن يتقبلوا النقد الموجه للكنيسة ونقادها . وكان هناك بعض الملحدين المشتتين ضاعت أسماؤهم فى غمرات الزمن ، ويذكر ارازموس «هناك بيننا أناس يعتقدون مثل أبقراط أن الروح تموت مع الجسد» ، ووجد بعض المتشككين بين علماء الإنسانيات ، ومتصوفون أنكروا ضرورة الكنيسة أو القسس كوسطاء بين الله والإنسان ، وأكدوا التجربة الدينيـة الباطنية كبديل للشعائر والقربان المقدس ، وكانت هنا وهناك جيوب صغيرة من الولدانيين الذين أنكروا التفرقة بين القسس والعامة ، وكان فى شرق ألمانيا

بعض المسين الذين وصفوا البابا بأنه خصيم للمسيحية ، وفى ايجر دمغ أخوان هما جون وليفين بن أوجسبورج صكوك الغفران ووصفوها بأنها أمر يدعو إلى السخرية (١٤٦٦) .

وأعلن جوهان فون فيبل ، وهو أستاذ من ارفورت ، فى مواعظه أن الجبر والاختيار بفضل الله ، ورفض الاعتراف بصكوك الغفران والقربان المقدس والصلوات للقديسين وأعلن : « إنى لأحتقر البابا والكنيسة والمجالس ولا أعبد إلا المسيح » . وأدانته محكمة التفتيش ، فتراجع عما قال ، ومات فى السجن (١٤٨١) ، وقد ناقش فيسيل جانسفورت ، الذى اشتهر خطأ باسم جوهان فيسيل ، الاعتراف والحل ، وصكوك الغفران والمطهر ، واتخذ من الكتاب المقدس الحكم الوحيد على العقيدة وجعل الإيمان المصدر الوحيد للخلاص ، وإذن فها نحن أولاء أمام لوثر فى جملة . وفى عام ١٥٢٢ قال لوثر : « لو كنت قرأت مؤلفات فيسيل من قبل لظن أعدائى أن لوثر قد اقتبس كل شىء منه ، إذ أن آراءنا تتفق إلى حد كبير » .

ومع ذلك فإن الدين فى جملته كان يزدهر فى ألمانيا ، وكانت الغالبية العظمى من الناس محافظين ، وكانوا أتقياء بين خطاياهم وكئوسهم ، وكادت الأسرة الألمانية أن تصبح كنيسة فى ذاتها ، إذ كانت الأم تقوم بمهمة الواعظ والأب يقوم بدور القسيس ، وكان أفرادها يكثرون من الصلاة ، وكانت كتب الأسرة الخاصة بالتعبد لا يخلو منها بيت . أما الذين لا يستطيعون القراءة فكانت توفر لهم كتب مصورة Biblia Pauperum تصور قصص المسيح ومريم والقديسين ، وكانت صور العذراء عديدة كصور عيسى ، والتسابيح تتلى فى كثير من التكرار المشوب بالأمل . وأسس جاكوب شبرنجر عضو محكمة التفتيش جمعية من الرهبان لتكرار تلاوتها ، وثمة صلاة ألمانية كانت تخاطب الثالوث الوحيد المشهور : « المجد للعذراء والأب والابن » .

وكان بعض رجال الدين متدينين كالناس ، ولابد أنه كان هناك بعض القسس المخلصين للعقيدة — ولو أن أسماءهم قلما كانت تسمع وسط ضجيج الشر — يمكن أن ينشروا مثل هذا الورع الذائع أو يدعموه بين الناس . وكان لقسيس الأبرشية ، حظية أو زوجة يعترف بها القانون العام . ولكن يبدو أن الألمان الذين لا يخشــون الإقدام قد اغتفروا هذا الصنيع باعتباره سلوكا أفضل من التخالط الجنسى ، ثم ألم يتمرد البابوات أنفسهم فى هذا العهد الذى شاعت فيه الشهوات على العزوبة ؟ أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين ، وهم هؤلاء الذين تعرضوا للخضوع لنظام صارم فى الدير ، فإن كثيراً من طوائفهم شغلوا أنفسهم وقتذاك بالإصلاح الذاتى الجاد . وقد استقر رهبان البندكتين فى شيء من رغد العيش بالدير ونعموا بالترف الدنيوى ، واستمر فرسان التيوتون فى انحلالهم الأخلاقى وقساوتهم العسكرية وأطماعهم الإقليمية ، ولكن رهبان الدمينيكان والفرنشسكان والرهبان الأوغسطينيين عادوا إلى التزام قواعدهم وقاموا بأعمال كثيرة فى مجال البر العملى ، وكان الزهاد الأوغسطينيون أشد الرهبان حماسة لهذا الإصلاح الدينى ، وكانوا فى الأصل نساكا أو رهبانا زاهدين ولكنهم تجمعوا فيما بعد طوائف وحافظوا فى إخلاص واضح على عهودهم الرهبانية من تقشف وعفة وخضوع ،وتعلموا إلى درجة تكفى لشغل كثير من كراسى الأستاذية فى الجامعات الألمانية . وكانت تلك هى الطائفة التى اختار لوثر أن ينتمى إليها عندما قرر أن يصبح راهبا .

وكانت الشكاوى ضد رجال الدين الألمان موجهة أساسا إلى البطاركة بسبب ثرائهم وانغماسهم فى النعيم الدنيوى . فقد كان على بعض الأساقفة والرهبان أن يهيمنوا على اقتصاد مساحات كبيرة وصلت إلى حوزة الكنيسة وإدارتها ، وكانوا سادة إقطاعيين متوجين أو مكللين ، غير أنهم لم يكونوا

دائماً متسامحين ، وكان رجال الدين هؤلاء يتصرفون مثل أناس تعلقت قلوبهم بالدنيا لاكرجال نذروا أنفسهم لعبادة الله ، ويزعم الرواة أن كثيرا منهم كانوا يذهبون فى مركباتهم لصحبة حظاياهم إلى مجالس الدايت الإقليمية أو الاتحادية . وقد لخص جوهانس جانس ، وهو بطريرك كاثولبكى متعلم ومؤرخ مساوئ الكنيسة الألمانية قبيل عهد الإصلاح الدينى ، ولعله كان قاسيا جدا فى حكمه فقال :

« إن التناقض بين الهيام بالتقوى والجشع الدنيوى ، بين الزهد الورع والتماس النفع الذى يتنافى مع الدين ، يبدو بوضوح بين صفوف رجال الدين كما يبدو بين طوائف المجتمع الأخرى . وفضلا عن هذا فإن الوعظ ورعاية الأرواح كانا يلقيان إهمالا تاماً من كثيرين من القسس ورجال الدين . واستشرى الشح والخطيئة الفادحة بين رجال الدين من جميع الرتب والطوائف فى غمرة تلهفهم على زيادة الموارد الدينية والدخول والضرائب والأجور العائدة إلى أقصى حد ، وكانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس فى العالم المسيحى ، ويقدر البعض أن ما يقرب من ثلث الأراضى فى البلاد كان بين أيدى الكنيسة ، وأدى هذا إلى أمر يستحق اللوم بين السلطات الدينية ، إذ أخذت تنشد دائماً ممتلكاتها وكانت مبانى الكنيسة ومؤسساتها تستوعب أكبر جزء من الأرض فى كثير من المدن .

وفى قلب الهيئة الكهنوتية ذاتها كان هناك أيضاً تناقض ملحوظ فى الدخل ، فقد كانت الطوائف الدنيا من رجال الدين فى الأبرشيات ، الذين كانوا يستمدون رواتبهم الاسمية فقط من ضرائب العشور غير الثابتة ، يضطرون فى كثير من الأحايين — بدافع المسغبة ، إن لم يكن بدافع إغراء الحرص — إلى الاشتغال بتجارة لا تتفق بتاتاً مع مناصبهم ، وكانت تعرضهم إلى الاحتقار من رعايا أبرشياتهم ، ومن جهة أخرى فإن الطوائف العليا من رجال الدين كانت

تنعم بثراء فاحش لا حد له ، وكان كثير من رجالها لا يعانون شيئا من وخز الضمير فى التظاهر بطريقة ممقوتة تثير غضب الشعب وحسد الطبقات العليا وازدراء كل العقول الجادة . . وجأرت الأصوات بالشكوى فى كل مكان من الارتزاق المهين بالمقدسات . . ومن المبالغ الضخمة التى ترسل على دفعات ، ومن الضرائب التى تدفع للبابا من الأرباح السنوية ، ومن مال الرشوة .

وبدأ إحساس مرير بمقت الإيطاليين يتفشى شيئاً فشيئاً ، حتى بين رجال من أمثال كبير الأساقفة برتولد فون هنيبرج ، ممن كانوا أبناء مخلصين للكنيسة المقدسة . وكتب يقول فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٤٩٦ : « يجب على الإيطاليين أن يكافئوا الألمان على خدماتهم وألا يستنزفوا دماء الهيئة الكهنوتية بسلب الذهب على دفعات » .

وكان من الممكن لألمانيا أن تغتفر لأساقفتها تعلقهم بالدنيا ، لو أنها أعفيت من ادعاءات البابوات ومطالبهم ، وقد استاءت روح القومية الناهضة من مزاعم البابوية أنها لا تعتبر أى إمبراطور حاكماً شرعياً إلا إذا أيده البابا ، وأن من حقها خلع الأباطرة والملوك إذا أرادت . واستمر الصراع قائماً بين السلطتين الزمنية والدينية على التعيينات فى المناصب وعلى تداخل الاختصاصات بين القضاء المدنى والمحاكم الأسقفية ، وعلى حصانة رجال الدين من تطبيق جميع التشريعات المدنية تقريباً . وتطلع الأشراف الألمان فى غيظ وحسد لممتلكات الكنيسة الغنية ، وأسف رجال الأعمال لأن الأديرة التى تطالب بالإعفاء من الضرائب تنافسهم فى مجالس الصناعة والتجارة . وكان النزاع فى هذه المرحلة قائماً على أمور مادية أكثر مما هو قائم على اختلافات دينية ؛ وهاهو مؤرخ كاثوليكى آخر يقول :

« كان إجماع الرأى فى ألمانيا أن المحكمة الرومانية ركزت الضغط فى مسألة

الضريبة إلى درجة لا تحتمل . . . . وارتفعت الشكوى مرة بعد أخرى من أن مستحقات المحكمة العليا والضرائب التى تدفع للبابا من أرباح العام . . . ونفقات الرسامة للكهان قد زيدت بلا مبرر أو توسع فيها بطريقة غير قانونية، وأن صكوك غفران جديدة كثيرة صدرت دون موافقة أساقفة البلد ، وأن ضريبة عشور تلو أخرى قد فرضت من أجل حرب صليبية ثم حولت إلى غرض آخر . بل إن رجالا كرسوا حياتهم للكنيسة والمحكمة البابوية . . . كثيراً ما أعلنوا أن شكاوى الألمان من روما كانت فى معظمها قائمة على أساس سليم من وجهة النظر المالية » .

وفى عام ١٤٥٧ وجه مارتن ميير رئيس الوزراء خطاباً غاضباً لخص فيه المتاعب التى تعانى منها ألمانيا من جانب المحكمة الرومانية قال فيه :

إن اختيار البطاركة كثيراً ما يؤجل دون داع ويحتفظ بالمراتب الرفيعة والمناصب الكرادلة وأمناء سر البابا ، وهاهو الكاردينال بيكولوميني نفسه قد منح أرضاً براحا فى ثلاث مقاطعات ألمانية بصورة غير عادية لم يسمع بمثلها من قبل . كانت الوعود بالمناصب والإقطاعيات تبذل بلا حساب ، وكانت الجزية والضريبة تجمع بالتعسف ، ولا يمنح المدينون مهلة للسداد ، ومن المعروف أن الضرائب التى تجبى كانت أكثر من المبالغ المستحقة ، وكانت الأسقفيات تمنح لا لأكثر رجال الدين جدارة بل لصاحب أكبر عطاء . وكانت صكوك غفران جديدة تصدر يومياً ، وضرائب عشور للحرب تفرض دون استشارة البطاركة الألمان لا لغرض إلا جمع المال . وكانت القضايا التى ينبغى أن تعرض فى الوطن تحول بسرعة إلى المحكمة الرسولية ، وقد عومل الألمان كما لو كانوا برابرة أغبياء وأغنياء واستنزفت منهم الأموال بألف حيلة ماكرة . . . . وقد ظلت ألمانيا سنوات طويلة تتمرغ فى التراب تنتحب على فاقتها ومصيرها المحزن ، أما الآن فإن أشرافها استيقظوا من النوم وقرروا أن يتخلصوا من نير العبودية وأن يستعيدوا حريتهم العريقة .

وعندما أصبح الكردينال بيكولوميني عام ١٤٥٨ البابا بيوس الثانى ، واجه هذا التحدى ؛ فطلب من ديتر فون ايزنبورج مبلغ ٢٠ر٥٠٠ جيلدر قبل أن يؤيد ترشيحه لمنصب كبير أساقفة ماينز (١٤٥٩) ، فما كان من ديتر إلا أن رفض دفع المبلغ بحجة أنه تجاوز كل ما كان يدفع من قبل ، فأصدر البابا قراراً بحرمانه من غفران الكنيسة ، ولكن ديتر تجاهل هذا الحرمان وأيده فى هذا بعض أمراء من الألمان ، وعهد ديتر إلى محام من نورمبرج يدعى جريجور هايمبرج بإثارة الرأى العام لمنح المجالس الدينية سلطة أعلى من سلطة البابوات ، فذهب هايمبرج إلى فرنسا لرفع دعوى جماعية ضد البابوية ، وخيل للبعض فترة ما أن الأمم الشمالية سوف تتنصل من الولاء لروما ، ولكن عملاء البابا انتزعوا من الحركة الواحد بعد الآخر من أنصار ديتر وعين بيوس مكانه أدولف الناساوى . واشتبك جيشا الأسقفين فى حرب دموية هزم فيها ديتر ، ووجه إلى الزعماء الألمان تحذيرا بأنهم ما لم يقفوا معا فإنهم سيسامون الخسف والضيم واحدا بعد الآخر . وكان هذا الإعلان إحدى الوثائق الأولى التى طبعها جوتنبرج .

ولم يهدأ استياء الألمان بهذا النصر الذى أحرزه البابوات ، وبعد أن تحول مبلغ كبير من المال من ألمانيا إلى روما فى اليوبيل عام ١٥٠٠ طالب مجلس الدايت فى أوجسبورج بضرورة إعادة هذا القدر من المال إلى ألمانيا . وشكا الإمبراطور ماكسمليان من أن البابا سحب من ألمانيا دخلا يزيد مائة مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجبيه منها . وفى عام ١٥١٠ ، وكان وقتذاك فى حالة حرب مع البابا يوليوس الثانى ، طلب من عالم الإنسانيات ويمفيلنج إعداد قائمة بشكاوى ألمانيا ضد البابوية ، وفكر فى فترة من الزمن أن يقترح فصل الكنيسة الألمانية عن روما ، ولكن ويمفيلنج أثناه عن عزمه بحجة أنه لن يجد تأييداً دائماً من الأمراء ، ومع ذلك فإن كل التطورات الاقتصادية فى هذا العهد مهدت لثورة لوثر . وليس من شك فى أن اختلافا فى المصالح

المادية مهد أيضاً للإصلاح الديني في ألمانيا ، فطالب الألمان بوضع حد لتدفق الأموال الألمانية إلى إيطاليا ، أي إلى نهضة إيطاليا تمول الشعر والفن بالذهب الوارد من وراء جبال الألب .

وواكبت حركة المعاداة لرجال الدين الورع بين الناس . وهاهو راع أمين يكتب « ان روحاً ثائرة من الكراهية للكنيسة ورجال الدين قد تفشت بين الجماهير في مختلف أرجاء ألمانيا . . . إن صيحة الموت للقساوسة « التي طالما ترددت في السر همساً أصبحت الآن كلمة السر التي تردد كل يوم » . كان هذا العداء المعروف حاداً إلى درجة أن محكمة التفتيش التي ارتفع شأنها وقتذاك في إسبانيا كانت لا تكاد تجرؤ على إدانة أي أحد في ألمانيا . وصدرت كتيبات عنيفة اللهجة حافلة بالهجوم على الكنيسة ، وكان رفيقاً بالكنيسة الألمانية بقدر ما كان عنيفاً على الكرسي الأسقفي الروماني .

وانضم بعض الرهبان والقساوسة إلى حملة الهجوم ، وأثاروا أبرشياتهم ضد الترف الذي يعيش فيه كبار رجال الدين . وجاء الحجاج العائدون من يوبيل عام ١٥٠٠ إلى ألمانيا بقصص فظيعة — ومبالغ فيها في كثير من الأحيان — عن البابوات المنحلين والسموم البابوية وصخب الكرادلة وعن وثنية وخسة عامة ، وأقسم كثير من الألمان أنهم سيسحقون هذا الطغيان مرة أخرى ، كما حطم أسلافهم سلطان روما عام ٤٧٦ . وتذكر آخرون ما لقيه الإمبراطور هنري الرابع على يد البابا جريجوري السابع من إذلال في كانوسا ، واعتقدوا أن الوقت قد حان للانتقام ، وفي عام ١٥٢١ قال الياندر ، القاصد الرسولي للبابا ، محذرا ليو العاشر من ثورة وشيكة ضد الكنيسة : « إنه منذ خمس سنوات سمع من كثير من الألمان أنهم لا ينتظرون إلا أحد الحمقى ، ليفتح فمه ضد روما » .

وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية

والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، تتجمع بعـد قرون من التعويق والاضطهاد فى دوامة تقذف بأوربا فى أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما . ثم إن إضعاف البابوية بالنفى فى أفنيون والانقسام فى صفوف البابوية وانهيار النظام فى الأديرة وترهب رجال الدين والترف الذى يرفل فيه البطاركة وفساد مجالس القضاء الرومانية ووجوه النشاط المتسم بالإقبال على الدنيا للبابوات وأخلاقيات الكسندر السادس وحروب يوليوس الثانى والمرح المستهتر الذى عرف به ليو العاشر والاتجار فى المخلفات المقدسة وبيع صكوك الغفران وانتصار الإسلام على العالم المسيحى فى الحروب الصليبية إلى جانب الحروب التركية وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية وتدفق العلم العربى والفلسفة العربية وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية فى ظهور فلسفة سكوتس اللاعقلانية وشك أوكهام وفشل حركة التوفيق فى الإصلاح والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة واكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة والتعليم وترجمة الإنجيل وقراءته والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش والثراء المتزايد لألمانيا وإنجلترا واستقلالهما الاقتصادى ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين ومزاعمهم والاحتجاج على تدفق الأموال إلى روما وتحويل القانون والحكم إلى الأغراض الدنيوية وفتوة القومية وتقوية الملكيات والتأثير القومى للغات والآداب الشعبية وتفاعل الميراث الفكرى الذى خلفه الوالدانيون وويكليف وهس والمطالبة الصوفية بالتخفف من الطقوسية فى سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان . . . إن هذه كلها كانت تتحد فى سيل عارم سوف يحطم عرف القرون الوسطى الذى كان أدنى إلى القشرة ، وسوف يحل جميع المعايير والروابط ويمزق أوربا إلى أمم ومذاهب ، وسوف يكتسح أمامه أكثر فأكثر دعائم المعتقدات المأثورة وما تقدمه من عزاء ، ولعلها تؤذن ببداية النهاية لسلطان المسيحية على الحياة العقلية للرجل الأوربى .



ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد السادس




تونس



بيروت

فهرس الجزء الثالث من المجلد السادس

صفحة

الكتاب الثـــانى

الثورة الدينية

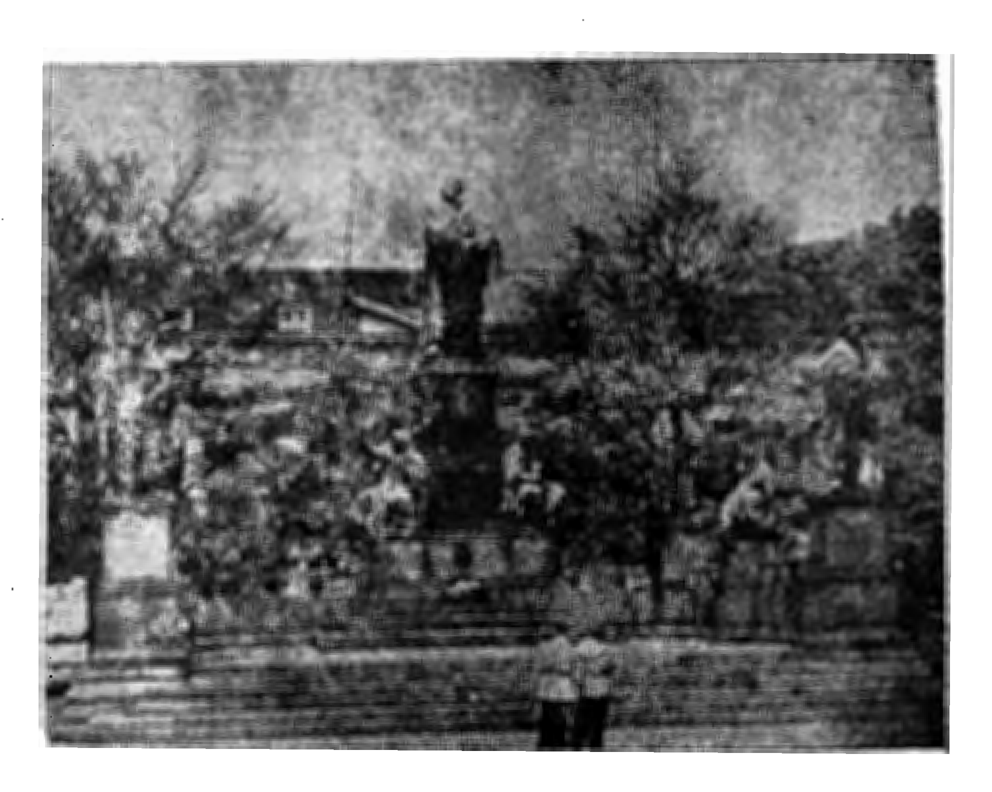
١٥١٧ – ١٥٦٤

صفحة



الصورة رقم (١) البرخت ديرر : فيليب
ميلانكتون — متحف الفنون الجميلة فى بوستن

(صفحة ٢٢)



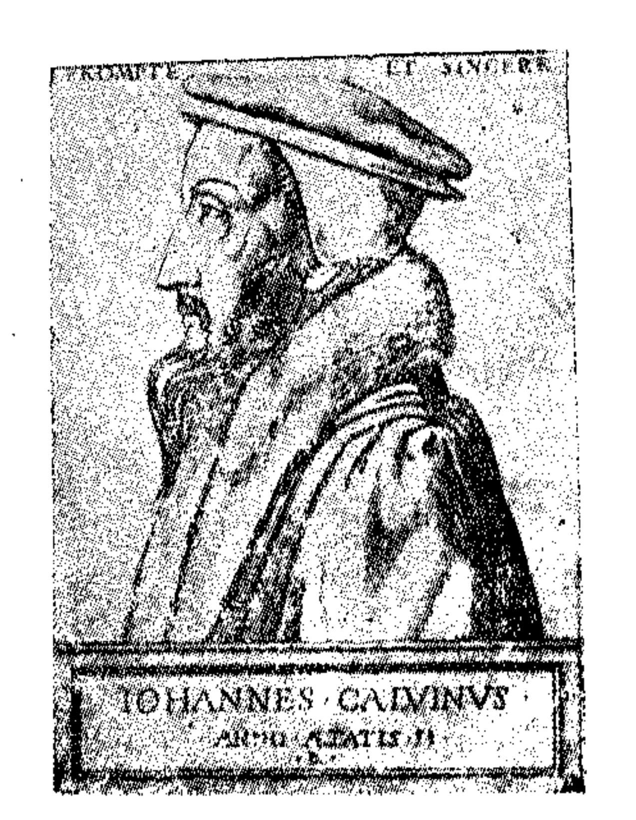
الصورة رقم (٢) تمثال لوثر التذكاري فى مدينة فرمز

(صفحة ٤٢)



الصورة رقم (٣) تيتيان : شارل الخامس فى موبلبرج — برادو ، مدريد

(صفحة ١٩٨)



الصورة رقم (٤) رينيه بويفن : كالفن —
المكتبة العمومية والجامعية بجينيف

(صفحة ٢٢٥)



الصورة رقم (٥) النصب التذكارى للإصلاح الدينى

(صفحة ٢٥٦)

الكتاب الثاني

الثورة الدينيــة

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل السادس عشر

لوثر : الإصلاح الدينى فى ألمانيا

١٥١٧ - ١٥٢٤

١ - تيـــتزل

أصدر البابا ليو العاشر فى اليوم الخامس عشر من مارس عام ١٥١٧ أشهر صكوك الغفران . ومما يؤسف عليه - وإن كان له مايسوغه - أن الإصلاح الدينى فرض عليه أن يحارب فى عهد سلطة بابوية جمعت فى روما كثيراً من ثمار عصر النهضة وجانباً كبيراً من روحها ؛ فلقد أصبح ليو ، ابن لورنزو العظيم ، وقتذاك عميداً لأسرة مديتشى ، التى غلت عصر النهضة فى فلورنسا ، وكان بحاثة وشاعراً وسيداً مهذباً رقيق القلب كريماً ، يعشق الأدب الكلامى والفن الرقيق . وكان حسن الأخلاق فى وسط منحل ، ويميل بطبعه إلى المرح المشروع الذى يشيع البهجة فى النفوس ، وأضحى مثالا للسعادة فى مدينة كانت منذ قرن خراباً بلقعاً . وكانت كل أخطائه جميعاً سطحية ، إذا استثنينا سطحيته هو نفسه ، ولم يكن يفرق إلا قليلا بين مصلحة أسرته ومصلحة الكنيسة ، وبدد أموال البابوية على شعراء أصالتهم محل شك وعلى حروب هى موضع نظر . وكان متسامحاً فى العادة يستطيب الهجاء الموجه ضد رجال الدين الوارد فى كتاب « الثناء على الطيش » لارازموس ، وقد عمل إلا فى فترات عارضة بالاتفاق غير المكتوب الذى منحت بموجبه الكنيسة فى عصر النهضة حرية لا بأس بها للفلاسفة والشعراء والعلماء - الذين كانوا يوجهون أحاديثهم باللاتينية - إلى الأقليـــة المتعلمة وإن تركوا عقيدة - الجماهير الراسخة دون مساس .

وكان ليو ابن مصرفى اعتاد أن يبادر إلى إنفاق المال ، وبخاصة على الآخرين . وورث خزائن بابوية مفعمة بالأموال من يوليوس الثانى وأفرغها قبل أن يموت . ولعله لم يبال كثيراً بالكنيسة الضخمة التى فكر يوليوس فى إنشائها وشرع فى ذلك إلا أن كنيسة القديس بطرس القديمة لم تكن صالحة للترميم ، وكان لا بد أن تتدفق مبالغ كبيرة لإنشاء الكنيسة الجديدة ووجدت سلطات الكنيسة من العار عليها أن تدع هذا المشروع العظيم يقبر فى مهده . ولعله عرض فى شىء من التردد أن يمنح فى عام ١٥١٧ صك غفران لكل من يسهم فى نفقات تكملة هذا المعبد العظيم . واحتج الحكام فى انجلترا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا لأن ثروات بلادهم كانت تستنزف ، ولأن اقتصادياتها القومية تتعرض للضرر بالحملات المتكررة لتحويل المال إلى روما ، وكان ليو أحرص ما يكون على إرضاء الملوك وهم أقوياء : فوافق على أن يحتفظ هنرى الثامن بربع الأموال التى تجمع من انجلترا وقدم قرضاً قدره ١٧٥,٠٠٠ دوكات إلى الملك شارل الأول (الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد) فى مقابل الأموال المنتظر جمعها من أسبانيا ووافق على أن يحتفظ فرانسيس الأول بجزء من المبلغ الذى يجمع فى فرنسا ، أما ألمانيا فقد قوبلت بمعاملة أقل كرماً ، فلم تكن فيها ملكية قوية تستطيع أن تساوم البابا ومهما يكن من الأمر ، فإن الإمبراطور ماكسمليان نال مبلغاً متواضعاً قدره ٣,٠٠٠ فلورين من الإيرادات ، وفوض آل فوجر فى أن يأخذوا من الأموال التى تجمع مبلغ ٢٠,٠٠٠ فلورين كانوا قد أقرضوه لالبرخت البراندنبرجى لكى يدفعها للبابا لتثبيته فى منصب كبير أساقفة ماينز . ولسوء الحظ كانت تلك المدينة قد فقدت ثلاثة من كبراء أساقفتها فى عشر سنوات (١٥٠٤ — ١٥١٤) ودفعت مرتين نفقات باهظة للحصول على تأييد البابا ، ومن ثم اقترض ألبرخت ليعفيها من الدفع مرة ثالثة — ووافق ليو وقتذاك على أن أن يتولى رئيس الأساقفة الشاب توزيع صكوك الغفران فى ماجدبرج وهالبرشتادت وفى ماينز أيضاً . وكان يصحب كل واحد من واعظى

ألبرخت وكيل لآل فوجر يراجع المصروفات والإيرادات وكان يحتفظ بأحد مفاتيح الخزانة التى تضم الأموال[1] .

وكان جوهان تيتزل وكيل ألبرخت الأول ، وهو راهب دومينيكانى اكتسب مهارة وشهرة فى جمع المال . وكان عمله الرئيسى منذ عام ١٥٠٠ توزيع صكوك الغفران ، وكان يلقى عادة فى هذه المهام عون رجال الدين المحليين وإذا دخل مدينة استقبله موكب من القساوسة والحكام والأتقياء من العامة وهم يحملون الأعلام والشموع ويرتلون الأناشيد ويرفعون نشرة صك الغفران عالية فوق وسادة من المخمل أو وسادة مذهبة فى حين تقرع الكنيسة أجراسها وتعزف على آلات الأرغن فيها ، وهكذا استطاع تيتزل[2] بفضل هذه المساندة أن يقدم بصفة مؤثرة صك غفران كامل لهؤلاء الذين يعترفون بخطاياهم وهم نادمون ويسهمون فى بناء كنيسة جديدة للقديس بطرس حسب ما تسمح به مواردهم :

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقى من آلام مقدسة وإننا بتفويض منه ومن رسوليه المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لى وعهد به إلى فى هذه الأجزاء إن أحلك أولا من كل لوم دينى مهما كانت الطريقة التى تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل إفراط فى الملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أى إثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السدة البابوية ، وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيك من كل عقاب تستحقه فى المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما فى العماد ، ولهذا فإنك عند ما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل فى أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الأب والابن والروح القدس[3] .

وكانت هذه الصفقة الرائعة بالنسبة إلى مؤمن تتفق مع المفهوم الرسمى

لصكوك الغفران بالنسبة للأحياء ، وها هو اسم تيتزل يتردد مرة أخرى خلال الخطاب المتضمن لتعليمات أسقفه عند ما استغنى عن الاعتراف التمهيدى إذا لجأ المتبرع إلى تقديم صك الغفران لروح فى المطهر . ويقول مؤرخ كاثوليكى : ليس من شك فى أن تيتزل أعلن طبقاً لما كان يتصوره من العقيدة المسيحية وفق التعليمات المخولة له أنه لا داعى لشيء سوى تقديم المال للحصول على صك غفران للميت فى غير ما حاجة إلى الندم أو الاعتراف . ومن تعاليمه أيضاً ، طبقاً للرأى الذى كان يعتنقه ، أن صك الغفران يمكن أن يمنح لأى روح معينة ويكون له أثر لا يخيب . وبناء على هذا الغرض فإن مما لا شك فيه أن مذهبه كان متفقاً مع هذا المثل السائر : « ما أن ترن قطع النقود فى الخزانة حتى تقفز الروح من نار المطهر » . ولم تنص نشرة البابا الخاصة بصكوك الغفران على أى دليل لهذا الرأى . وكان رأيا غامضاً لأنصار فلسفة اللاهوت . . . ولم يكن يمثل عقيدة ما للكنيسة[٤] .

وسمع مايكونيوس ، وهو راهب فرنسسكانى ربما كان معادياً للدومينيكان بصنيع تيتزل فكتب تقريراً عن هذا العام ١٥١٧ ، يقول : « إن ما قاله هذا الراهب الجاهل وبشر به أمر لا يصدق . لقد أعطى خطابات مختومة ضمنها أن الخطايا التى يعتزم المرء أن يرتكبها سوف تغفر له ، وقال إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين ، بل يفوق سلطان العذراء مريم نفسها ، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح أما البابا فإنه ند للمسيح » . وقد يكون فى هذا مبالغة ، ولكن مثل هذا الوصف يمكن أن يقدمه أى شاهد عيان يشير إلى ما يثيره تيتزل من مقت . ومثل هذا العداء يبدو فى الشائعة التى ذكرها لوثر[٥] فى ارتياب والتى استشهد بها تيتزل عند ما قال فى هال إنه إذا حدث المستحيل واغتصب رجل أم الرب فإن صك الغفران كفيل بأن يمحو عنه هذا الإثم . وحصل تيتزل على شهادات من السلطات المدنية والكهنوتية فى هال بأنهم لم يسمعوا القصة قط[٦] . كان بائعاً متحمساً ولكنه لم يكن يفتقر تماماً إلى الضمير .

وكان يمكن أن ينجو من حكم التاريخ لو لم يقترب كثيراً من أراضى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا(*) . وكان فردريك حاكماً ورعاً حسن التدبير ، ولم يكن لديه اعتراض من الناحية النظرية على صكوك الغفران وقد جمع ١٩,٠٠٠ من مخلفات القديسين فى كنيسة قصره بفيتنبرج(٧) ، واتخذ التدابير اللازمة للحصول على صك غفران يرتبط بتوقيرها كما حصل على صك غفران آخر للمتبرعين بالأموال اللازمة لبناء قنطرة فى تورجاو ، وعهد إلى تيتزل بأن يعلن عن فوائد هذا الصك البابوى(٨) ، ومهما يكن من أمر فإنه أمسك من البابا الكسندر السادس (١٥٠١) المبلغ الذى جمع فى إمارة سكسونيا بموجب صك غفران يمنح مقابل التبرعات اللازمة للحرب الصليبية ضد الأتراك ، وقال إنه سوف يرفع يده عن المال عندما تتجسم الحرب الصليبية فى صورة مادية ، ولما لم يتحقق هذا قط احتفظ فردريك الحكيم بالأموال واستخدمها فى بناء جامعة بفيتنبرج(٩) . وحرم فى أرضه وقتذاك التبشير بصك غفران عام ١٥١٧ مدفوعاً بنفوره من السماح لعملة ساكسونيا بالهجرة ، أو لعل هذا كان بدافع من التقارير عن مبالغات تيتزل ؛ بيد أن تيتزل اقترب كثيراً من الحدود حتى أن أهالى فيتنبرج عبروا الحدود للحصول على صك الغفران ، وجاء عدد من المشترين لهذه « الرسائل البابوية » بها إلى مارتن لوثر أستاذ علم اللاهوت فى الجامعة وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها فرفض ، وترامى الرفض إلى مسامع تيتزل فتوعد لوثر وهكذا خلد إسمه فى التاريخ .

(*) فى عام ١٤٨٥ قسمت أملاك آل فتين إلى إقليمين . وكان القسم الأصغر والأغنى ، ويشمل ليبزج ودرسدن من نصيب الابن الأصغر الدوق ألبرت ، وأصبح هذا القسم يعرف باسم دوقية ساكسونيا أو ساكسونيا الألبرتية . أما القسم الأكبر وهو أقل سكانا ويشمل فيتنبرج وفيمار فأصبح من نصيب الأخ الأكبر وهو إرنست الأمير المختار الإمبراطورى وعرف باسم ساكسونيا إمارة المختار أو ساكسونيا الإرنستية ، وكان لهذا القسم شأن يذكر فى حركة الإصلاح الدينى .

كان قد أساء تقدير خصام الأستاذ إذ أن لوثر سرعان ما ألف باللاتينية خمساً وتسعين رسالة أطلق عليها اسم **Disputatio pro declaratione virtutis indulgentiarum** « بحث فى بيان قوة صكوك الغفران » . ولم يعتبر آراءه من قبيل الهرطقة ولم تكن كذلك بكل تأكيد . وكان لا يزال كاثوليكياً متحمساً ليست لديه أدنى فكرة لقلب الكنيسة . . . . كان غرضه أن يدحض الادعاءات المغالى فيها بشأن صكوك الغفران وأن يصحح المساوئ التى تنشأ عن توزيعها . وشعر بأن سهولة إصدار صكوك الغفران والإتجار فيها على نطاق واسع قد أضعف الإحساس بالندم الذى يجب أن يثيره ارتكاب الإثم ، وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته ودياً بصفقة تعقد مع بائع يتجر بالغفران ، ومع ذلك فإنه لم ينكر « السلطة » البابوية فى غفران الخطايا ، وسلم بسلطة البابا فى إحلال (إعفاء) النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التى يفرضها عليه رجال الكنيسة ولكن وجهة نظر لوثر هى أن سلطة البابا فى تحرير الأرواح من المطهر أو فى تقليل مدة عقابها ، هناك تتوقف لا على السلطة التى تمثلها مفاتيح بطرس الرسول والتى لا تصل إلى أبعد من القبر — ولكن تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا ، وهى قد تسمع وقد لا تسمع (الرسائل : ٢٠ — ٢٢) يضاف إلى هذا كله أن لوثر قال إن كل المسيحيين يشاركون آلياً فى خزينة الفضائل التى كسبها المسيح والقديسون حتى وإن لم ينص خطاب بابوى بالغفران على منحهم مثل هذا النصيب . وأعفى البابوات من مسئولية مبالغات الوعاظ ، ولكنه أردف فى خبث : « إن التبشير المطلق العنان بالغفران يجعل من الصعب حتى على الناس المتعلمين ، أن ينقذوا الاحترام الواجب للبابا من التساؤلات الذكية الملحة للعامة : لم لا يفرغ البابا مطهراً من أجل الحب المقدس والحاجة الملحة للأرواح الهائمة هناك إذا كان يفتدى . . . عدداً من الأرواح من أجل المال التعس الذى يبنى به كنيسة ؟ (رسائل من ٨١ — ٨٢) .

وفى وقت الظهيرة فى اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٥١٧ ألصق هذه الرسائل على الباب الرئيسى لكنيسة القصر فى فيتنبرج ، وفى اليوم الأول من نوفمبر فى يوم عيد جميع القديسين عرضت هناك المخلفات المقدسة التى جمعها الأمير المختار ، وكان من المتوقع حضور جمع غفير . ولاشك أن عملية إعلان هذه الرسائل على الجمهور ، والتى قام بها مقدمها لمواجهة كل المتحدين ، كانت عادة قديمة فى جامعات القرون الوسطى وأن الباب الذى استخدمه لوثر فى لصق هذا الإعلان به ، كان قد استخدم بانتظام لوحة النشرات الأكاديمية . وقدم لهذه الرسائل بدعوة ودية تقول :

بدافع من الحب للعقيدة والرغبة فى تسليط الضوء عليها سوف تناقش الآراء التالية فى فيتنبرج تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوثر ، أستاذ الآداب واللاهوت المقدس والمحاضر الثبت لنفس العلم فى ذلك المكان . ولهذا يرجو من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفوياً أن يفعلوا هذا بخطاب .

وقام لوثر بترجمة هذه الرسائل إلى الألمانية ووزعها على الناس لكى يتأكد من أنها سوف تفهم على أوسع نطاق . وأرسل نسخة من هذه الرسائل إلى ألبرخت كبير أساقفة ماينز بجرأة لا نظير لها ، وهكذا بدأ الإصلاح الدينى فى جو من الرقة والورع وعن غير قصد .

٢ — تكوين لوثر

ترى ما هى ظروف الوراثة والبيئة التى صاغت من راهب مغمور ، فى مدينة لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة داود الثورة الدينية ؟ كان أبوه هانز رجلا صارماً فظاً يستثار بسهولة ، ومناهضاً لرجال الدين ، وكانت أمه امرأة خجولا متواضعة تكرس كثيراً من أوقاتها للصلاة ، وكان كلاهما مقتصداً . وعمل هانز فلاحاً فى موهرا ثم اشتغل بالتعدين فى مانسفيلد ، إلا أن

مارتن ولد فى أيسليبن فى اليوم العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ ، وأعقب والداه بعده ستة أطفال . وكان هانز وجريتا يؤمنان بالعصا كوسيلة سحرية لتقويم الأخلاق ، ويقول مارتن إن أباه ثابر على ضربه يوماً حتى إنهما ظلا زمناً طويلا يناصب كل منهما الآخر العداء ، وفى مناسبة أخرى جلدته أمه حتى سال دمه لأنه سرق جوزة . وقال مارتن مفكراً فيما بعد : « إن الحياة الخشنة القاسية التى عشتها معهما هى التى دفعتنى إلى أن ألجأ فيما بعد إلى الدير وأصبح راهباً »(١٠) . وليس من شك فى أن صورة الرب التى نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص . أب قاس وقاض صارم يطالب بفضيلة عبوس ويطلب استرضاءه دائماً ويلعن أخيراً الجانب الأكبر من البشر ويدعو عليهم بأن يخلدوا فى النار . وكان والداه كلاهما يؤمنان بوجود سحرة وعفاريت وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة ، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات . وهكذا أبهم دين قام على الفزع فى بيت يحتفل بالتأديب الصارم فى تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية .

والتحق بمدرسة فى مانسفيلد كان الطلبة يتلقون فيها مزيداً من العصى وكثيراً من الوعظ وجلد فيها مارتن خمس عشرة مرة فى يوم واحد لأنه أخطأ فى إعراب اسم . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره نقل إلى مدرسة ثانوية تديرها جمعية دينية فى ماجديبرج ، وفى سن الرابعة عشرة حول إلى مدرسة سانت جورج فى أيزيناخ ، وأمضى ثلاث سنوات سعيدة نسبياً أقام فيها بمنزل السيدة كوتا المريح . ولم ينس لوثر قط قولها إنه ليس على ظهر الأرض ما هو أثمن للرجل من حب امرأة فاضلة . وكانت هذه نعمة لم يظفر بها إلا بعد اثنين وأربعين عاماً ، وفى هذا الجو الصحى استكمل السحر الطبيعى للشباب ، إذ كان سليماً معافى صريحاً ومنشرحاً من الناحية الاجتماعية . وكان يحسن الغناء والعزف على العود .

وأرسله والده الميسور الحال عام ١٥٠١ إلى الجامعة فى أرفورت ، وكان

برنامج الدرس يركز على اللاهوت والفلسفة ، وكانت لا تزال كلامية ولكن المذهب الإسمى لأوكهام كان قد انتصر هناك ، ولعل لوثر قد فطن إلى رأى أوكهام الذى يذهب إلى أن البابوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطئ ؛ وكان من رأيه أن فلسفة الكلام فى أية صورة من صورها غير مستحبة حتى إنه امتدح لصديق له « ألا يتعلم الروث الذى يقدم باعتباره فلسفة »[١١] .

وكان فى أرفورت بعض علماء الإنسانيات المعتدلين ، وتأثر بهم قليلا ولكنهم لم يهتموا به عندما وجدوه يحتفل بالعالم الآخر . وتعلم قليلا من اليونانية والنذر اليسير من العبرية ولكنه قرأ أمهات الكتب الكلاسية باللاتينية ، وحصل عام ١٥٠٥ على درجة الماجستير فى الآداب ، فأرسل له أبوه المزهو به نسخة غالية من مجموعة قوانين البلد هدية بمناسبة تخرجه . واغتبط عند ما بدأ ابنه فى دراسة القانون . وفجأة بعد شهرين من هذه الدراسة قرر الشاب أن يصبح راهباً ، الأمر الذى أفزع والده .

وهذا القرار يعبر عن التناقض فى خلقه ، فقد كان قوياً يفيض بالحيوية إلى حد الانغماس فى الشهوات ، وكان من الواضح أنه خلق لحياة يرضى فيها الغرائز الطبيعية ، ومع أنه لقن فى البيت والمدرسة عن اقتناع أن الإنسان آثم بطبعه ، وأن الإثم معصية لإله قادر على كل شىء شديد العقاب ، فإنه لم يوفق قط ، فى الفكر أو فى السلوك ، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة . ويبدو أنه عند ما كان يمر بالتجارب الغرامية العادية ونزوات المراهقة لم يستطع أن ينظر إلى هذه التجارب على أنها مراحل من التطور ، بل رأى أنها من أعمال شيطان نذر نفسه للإيقاع بالأرواح فى لعنة أبدية لا فكاك منها . وكان مفهومه الذى لقن له عن الله لا يكاد يشمل أى عنصر من الحنان ، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير فى هذا اللاهوت القائم على الخوف ، ولم يكن يسوع هذا هو الابن المحب الذى لا يستطيع أن يرفض طلباً لأمه ، بل كان عيسى فى يوم الدينونة الذى كثيراً ما صور فى

الكنائس ، المسيح الذى هدد الخاطئين بعذاب جهنم الأبدى . وليس من شك فى أن الفكرة المتواترة عن الجحيم وضعت غشاوة على عقل كان شديد التمسك بتعاليم الدين بحيث نسيها وهو ينتهب لذة الحياة كل يوم . وبينما كان عائداً يوماً من بيت أبيه فى أرفورت (يوليو سنة ١٥٠٥) واجهته عاصفة رهيبة ،ولمع البرق حوله ، وأصابت الصاعقة شجرة قريبة منه ؛ وخيل للوثر أن هذا إنذار من الله وأنه ما لم يكرس أفكاره للخلاص فسوف يفاجئه الموت ويلقى حتفه دون أن يسمع اعترافه وتطارده اللعنة . ترى أين يستطع أن يحيا حياة ينصرف فيها إلى التعبد ؟ إن هذا لا يتيسر إلا حيث يقيم حاجزاً بينه وبين العالم والشهوة والشيطان ، بين أربعة جدران ، أو يقهر النفس بالانصراف إلى التقشف ، ونذر عهداً للقديسة آن أنه لو نجا من هذه العاصفة فسوف يصبح راهباً .

وكان هناك عشرون ديراً فى أرفورت فاختار واحداً عرف بالإخلاص فى مراعاة قواعد الأديرة ، وهو دير الرهبان الأوغسطينيين ، ودعا أصدقاءه جميعاً وشرب وغنى معهم فى حفل قال لهم إنه يقوم به لآخر مرة وفى اليوم التالى استقبل فى خلوة بدير كمبتدئ فى الرهبنة ، وقام بأحقر الأعمال فى تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس ، وتلا الصلوات مراراً وتكراراً كمن نوم نفسه تنويماً مغناطيسياً ، وتجمد جسده فى مضجع بارد وصام وعذب نفسه ، أملا فى أن يطرد من جسده الشياطين وقال : « كنت راهباً ورعاً أراعى أحكام الطائفة التى أنتمى إليها بشدة إلى حد أنه . . . إذ قدر لراهب أن يدخل الجنة عن طريق الرهبنة فإنى أدخلها لا محالة . . . ولو أن هذا الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الأعمال »[١٢] . وفى إحدى المناسبات عند ما اختفى عن الأعين بضعة أيام اقتحم أصدقاؤه عليه خلوته فوجدوه يرقد على الأرض غائب الوعى ،وكانوا قد أحضروا معهم عوداً وعزف عليه واحد منهم فاسترد قواه وشكرهم . وفى سبتمبر عام ١٥٠٦ أقسم قسماً مغلظاً بأن يلتزم

الخصاصة والعفة والطاعة ، وفى مايو عام ١٥٠٧ رسم قساً ومحضه زملاؤه الرهبان نصيحة ودية وأكد له أحدهم أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة وأنه فتح للتائب أبواب الجنة .

وما قرأه لوثر عن الصوفيين الألمان وبخاصة عن تاولر أعطاه أملا فى أن يجتاز الثغرة الرهيبة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة وبين إله مقسط قادر على كل شيء . ثم وقعت فى يديه رسالة بقلم جون هس فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحى . وتساءل قائلا : « ترى لماذا أحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة ؟ لقد أغلقت الكتاب وأشحت بوجهى وقلبى جريح »[١٣] . وأولى جوهان فون شتاوبتز ، وهو قسيس إقليمى من الرهبان الأوغسطينيين ، الراهب القلق ، اهتماماً أبوياً ، وأمره أن يستبدل بالتقشف قراءة الكتاب المقدس وتعاليم القديس أوغسطين بكل عناية . وأعرب الرهبان عن جزعهم لما أصابه فأعطوه كتاباً مقدساً باللاتينية — وكان وقتذاك من المقتنيات النادرة — بالنسبة لأى فرد .

وفى أحد أيام عام ١٥٠٨ أو عام ١٥٠٩ استرعت انتباهه عبارة وردت فى رسالة القديس بولس إلى الرومان (١ : ١٧) « إن الحق يحيا بالإيمان » وقادته هذه الكلمات فى بطء إلى العقيدة التى تذهب إلى أن الإنسان يمكن أن يزكى — أى يرجع إلى الصواب وينجو من النار — لا بالأعمال الطيبة التى لا يمكن أن تكفى أبداً للتكفير عن معصيته لإله لا حد لقدرته ، بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر . ووجد لوثر فى تعاليم أوغسطين فكرة أخرى لعلها جددت من مخاوفه — تلك هى القدر — أن الله قدر حتى قبل الخليقة أن تحظى بعض الأرواح بالخلاص وأن يزج بالباقى فى جهنم ، وأن الاختيار تم بمشيئة الله أن يكون الخلاص بالتضحية بالمسيح . ومن هذا المجال الصريح فر مرة أخرى إلى أمله الأساسى فى الخلاص عن طريق الإيمان .

وحول عام ١٥٠٨ نقل إلى دير أوغسطين فى فيتنبرج بناء على توصية من

شتاوبيتز ، وعين فى وظيفة معلم للمنطق والفزياء ، ثم عين أستاذاً للاهوت فى الجامعة . وكانت فيتنبرج عاصمة الشمال — وقلما كانت محل إقامة — لفردريك الحكيم وقال أحد المعاصرين عنها : « مدينة فقيرة لا أهمية لها بيوتها خشبية صغيرة ، قديمة قبيحة الشكل » ووصف لوثر السكان بقوله : « إنهم سكارى يفتقرون إلى التهذيب منغمسون فى العربدة إلى حد يجاوز الاعتدال ، وقد اشتهروا بأنهم أشد الناس إدماناً على الشراب فى ساكسونيا التى كانت تعد أعظم مقاطعة فى ألمانيا يغرم أهلها بالشراب » . وقال لوثر إن الحضارة انتهت على بعد ميل من الشرق وبدأت الهمجية وظل هناك الجانب الأكبر من حياته إلى نهاية أيامه .

ولا بد أنه قد أصبح راهباً مثالياً وقتذاك لأنه أرسل فى أكتوبر من عام ١٥١٠ مع زميل له من الرهبان ، إلى روما فى مهمة غامضة للرهبان الأوغسطينيين ، وكان أول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع ، فسجد ورفع يديه وهتف يقول : « سلاماً عليك يا روما المقدسة ! » وقام بكل الشعائر شأنه شأن أى حاج ، وانحنى فى إجلال أمام مخلفات القديسين وصعد على السلم المقدس **Scala Santa** وهو يسير على ركبتيه ، وزار عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران ، حتى إنه تمنى أو كاد لو كان والداه ميتين حتى يستطيع أن ينقذهما من المطهر . وارتاد المنتدى الرومانى ولكن كان من الواضح أنه لم يتأثر بفن عصر النهضة ، وكان رافائيل ومايكلانجلو ومئات غيرهما قد بدأوا فى تزيين العاصمة . وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون أن يقوم بتعليق واضح جلى على تعلق رجال الدين الرومان بالدنيا ، أو على الانحلال الخلقى الذى كان شائعاً وقتذاك فى المدينة المقدسة . ومهما يكن من أمر فإنه بعد عشر سنوات وصف روما عام ١٥١٠ بأنها « تدعو للمقت » ولا يزال من هذا المزيد فى ذكرياته التى تتسم بالخيال المتوقد ، والتى تخطر له أحياناً فى أحاديثه حول مائدة الطعام فى سن الشيخوخة :

وقال إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين وإن اثنتى عشرة فتاة عارية كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوى وقت العشاء »[١٤] . ومن المحتمل أنه لم يتيسر له الدخول فى أوساط رجال الكهنوت الكبار ولم تكن له معرفة مباشرة بأخلاقهم المنحلة التى لا شك فيها .

وارتقى بسرعة فى المناصب التعليمية بعد عودته إلى فيتنبرج « فبراير عام ١٥١١ » ونصب نائباً للأسقف فى طائفته . وألقى محاضرات فى الكتاب المقدس ، وقام بالوعظ بانتظام فى كنيسة الأبرشية ونهض بعبء العمل فى وظيفته بجد وولاء . ويقول عالم كاثوليكى مشهور : « إن خطاباته الرسمية تنم على اهتمام شديد بالذين ساورتهم الشكوك وتنبض بعطف رقيق على الآثم وتفصح عن لمسات عميقة من الشعور الدينى والرأى العملى النادر وإن كانت لم تخل من تشويه نصائح لها اتجاهات مخالفة للعقيدة . وعندما اجتاح الطاعون فيتنبرج عام ١٥١٦ لزم مكانه بشجاعة ، ورفض أن يتخلى عنه على الرغم مما أبداه أصدقاؤه من قلق »[١٥] . وخلال هذه السنوات (١٥١٢ — ١٥١٧) تحولت آراؤه الدينية ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة . وبدأ يتحدث عن « لاهوتنا » مقابل ما كان يدرس فى أرفورت . وفى عام ١٥١٥ عزا ما أصاب العالم من فساد إلى رجال الكهنوت الذين قالوا للناس كثيراً جداً من أمثال وحكايات خرافية من إبداع البشر وليست من الكتب المنزلة ، واكتشف عام ١٥١٦ مخطوطة ألمانية مجهولة المؤلف أيد ما بها من التقوى الصوفية رأيه فى اعتماد الروح الكلى فى الخلاص على رحمة الله إلى حد أنه أعدها للنشر وطبعها باسم « لاهوت ألمانى Theologia Germanica » . ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلالهم سذاجة الفقراء ، وبدأ فى مراسلاته الخاصة يبرهن على أن « ضد المسيح » الوارد فى الرسالة الأولى ليوحنا شبيه بالبابا[١٦] . ودعاه الدوق جورج صاحب ألبرتين ساكسونيا عام

١٥١٧ إلى الوعظ فى درسدن ، فأثبت بالدليل أن مجرد قبول فضائل المسيح يحقق الخلاص للمؤمن . وشكا الدوق من أن مثل هذا التشدد فى الإيمان أكثر من الفضيلة « سوف يجعل الناس مغرورين ومتمردين فحسب »[١٧] ، وبعد ثلاثة شهور تحدى الراهب المشهور العالم إلى مناظرته فى الرسائل الخمس والتسعين التى علقها فى كنيسة فيتنبرج .

٣ ـ الثورة تتخذ شكلا

قد توحى الصورة التى حفرها كراناخ على الخشب عام ١٥٢٠ أن لوثر فى عام ١٥١٧ كان راهباً حليـــق الرأس متوسط القامة رشيق الجسم إلى حين ، وله عينان واسعتان ينمان على العزم الجاد ، وأنف كبير وذقن يدل على قوة العزيمة ووجه يفصح فى هدوء لا فى لجاجة عن الشجاعة وقوة الشخصية ، ومع ذلك فإنه كتب هذه الرسائل بدافع من الغضب المتسم بالإخلاص لا عن جرأة حمقاء ولم ير فيها الأسقف المحلى شيئاً من الهرطقة ولكنه نصح لوثر فى لطف ألا يكتب شيئاً آخر فى الموضوع لفترة ما . وقد هال المؤلف نفسه ما أثاره من غضب . وفى مايو عام ١٥١٨ أبلغ شتاوبتز أن أمله الحقيقى هو أن يقضى حياته فى عزلة هادئة ولكنه كان يخدع نفسه فقد كان تلذ له المعركة .

وأصبحت الرسائل حديث الطبقة المتعلمة فى ألمانيا . كان الآلاف ينتظرون احتجاجاً كهذا ، وهللت الحركة المضادة لرجال الدين وانطلقت من عقالها إذ وجدت صوتاً يعبر عنها . وقل الإقبال على شراء صكوك الغفران . ولكن كثيراً من أنصاره تصدوا لمواجهة التحدى وأجاب تيتزل ، بمعاونة بعض المحترفين ، فى « مائة وست رسالة مضادة » (ديسمبر عام ١٥١٧) . ولم يسلم فيها بأى شيء ولم يقدم أى اعتذار بل « إنه أصدر فى بعض الأحيان

حكماً لا يقبل التفاهم مؤيداً لآراء لاهوتية بحتة لا تكاد تتفق مع أعظم الدراسات دقة»[١٨] . وعندما وصل هذا المؤلف إلى فيتنبرج وعرضه بائع جوال للبيع تألبت عليه جمهرة من طلبة الجامعة ، وأحرق المخزون لديه وقدره ٨٠٠ نسخة فى ساحة السوق — وهو إجراء استهجنه لوثر فى جذل . ورد على تيتزل فى « عظة حول صكوك الغفران والرحمة » ، وختمها بقوله فى تحد لا نظير له : « إذا كنت هرطيقاً فى نظر من تعانى أكياس نقودهم من الحقائق التى أذكرها فإنى لا أبالى كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم غشاوة فلم يعرفوا قط الإنجيل»[١٩] .

وأمطر جاكوب فان هوجستراتين الكولونى ، لوثر وابلا من عبارات التنديد ، واقترح أن يحرق على السارية ، وأصدر جوهان إيك ، نائب مدير جامعة انجولشتادت كتيباً باسم Obeilsci (مارس عام ١٥١٨) اتهم فيه لوثر بنشر « السم البوهيمى » (هرطقات هس) وتقويض النظام الإكليروسى بأسره .

وفى روما نشر سيلفستر بريرياس ، رقيب الأدب البابوى ، حواراً « يؤيد فيه سيادة البابا المطلقة بألفاظ لا تخلو تماماً من المبالغة وبخاصة عند ما يبسط نظريته إلى نقطة خاصة بالتجارة فى صكوك الغفران ليس لها سند ولا عليها دليل »[٢٠] .

ورد لوثر فى كتيب اسمه Resolutiones قرارات (ابريل عام ١٥١٨) وأرسل نسخاً منه إلى أسقفه المحلى وإلى البابا — مع تأكيدات بالمحافظة والطاعة فى كلتا الحالتين وتحدث النص فى رفق عن ليو العاشر : « على الرغم من أن فى عالم الكنيسة رجالا يجمعون بين العلم والقداسة فإن من سوء طالع عصرنا مع ذلك أنهم لا يستطيعون أن يمدوا يد المعونة للكنيسة . . . وها نحن أولاء نجد حبراً أعظم لا يبارى هو ليو العاشر ، يمتاز بكمال وعلم هما بهجة لكل آذان الناس الطيبين . ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وحده أرق الرجال

قلباً فى مثل هذه البلبلة الكبيرة بين الأمور مهما كان جديراً بأن نحكم فى أوقات خير من هذه ؟ . . . إننا فى هذا العصر لا نستحق إلا بابوات من أمثال يوليوس الثانى وألكسندر السادس . . . إن روما نفسها — نعم روما ، أكثر من الكل ، تسخر الآن من الناس الطيبين ، ترى فى أى جزء من العالم المسيحى غير روما ، حصن بابيلون الحقيقى ، يهزأ الناس بحرية من أحسن الأساقفة ؟ » وأكد لليو مباشرة خضوعاً غريباً بقوله : « أيها الأب المبارك أقدم تحت أعتاب قداستك تذللى وخضوعى بكل ما أكونه وما أملك هيا وسارع ، واقتل وادع واستدع واستحسن واستهجن إذا راق ذلك فى نظرك . إنى سأقر بأن صوتك هو صوت المسيح ، إذ يقيم فى جسدك ويتحدث . وإذا كنت أستحق الموت فلن أرفض أن أموت »(٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن كتابة قرارات **Resolutiones** كما لاحظ مستشارو ليو أكد أن المجلس المسكونى أعلى رتبة من البابا ، وتحدث مستخفاً عن المخلفات المقدسة وعن الحج وأنكر فضائل القديسين الزائدة ونبذ كل الإضافات التى قام بها البابوات فى القرون الثلاثة الأخيرة على نظرية صكوك الغفران وممارستها ، ولما كانت هذه مصدراً له أهميته للدخل البابوى ولما كان ليو فى حيرة لا يدرى كيف يمول مشروعاته الإنسانية ومنازله وحروبه وإدارة وتنفيذ برنامج بناء الكنيسة أيضاً فإن الحبر الأعظم الذى استبد به القلق ، والذى لم يعبأ فى مبدأ الأمر بالنزاع باعتباره ضجة عابرة بين الرهبان تصدى للأمر وأخذه وقتذاك على عاتقه واستدعى الوثر إلى روما (٧ يوليو سنة ١٥١٨) .

وواجه لوثر قراراً حرجاً فحتى إذا عامله أرق البابوات برفق فإنه قد يجد نفسه ملزماً بإيثار الصمت فى أدب واعتقال نفسه فى دير رومانى وبسرعان ما ينساه هؤلاء الذين يهتفون له الآن . وكتب إلى جورج سبالاتان القسيس الخاص بالأمير المختار فردريك يقترح عليه أن يبادر الأمراء الألمان بحماية

مواطنيهم من التسليم الإجبارى لإيطاليا فوافق الأمير إذ كان يجل لوثر الذى كان له الفضل فى نجاح جامعة فيتنبرج ، وفضلا عن هذا فإن الإمبراطور ماكس رأى أن لوثر ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها فى نزاعه الدبلوماسى مع روما فأشار على الأمير المختار أن « يهتم جداً بذلك الراهب »(٢٢) .

وفى هذا الوقت نفسه كان الإمبراطور قد دعا المجلس النيابى الإمبراطورى إلى الاجتماع فى أوجسبورج للنظر فى طلب البابا فرض ضريبة على ألمانيا للمعاونة فى تمويل حملة صليبية جديدة ضد الأتراك فرجال الإكليروس (كما رأى ليو) يجب أن يدفعوا عشر دخلهم والعلمانيون جزءاً من اثنى عشر جزءاً من دخلهم ، وكل خمسين من أرباب البيوت يجب أن يجهزوا رجلا ورفض المجلس النيابى بل أنه على النقيض سجل مرة أخرى . . . المظالم التى كانت تهيئ الدعامة التى قام عليها لوثر ، وأوضح للقاصد الرسولى أن ألمانيا كثيراً ما فرضت على نفسها الضرائب للحملات الصليبية فوجدت أن الأموال تنفق فى أغراض البابا الأخرى وأن الناس يعارضون بشدة أية تنازل آخر عن المال لإيطاليا وأن المبالغ السنوية التى تدفع للبابا عن ريع أول عام ورسوم التثبيت الدينى ونفقات القضايا الكنسية المحالة إلى روما كانت عبئاً ثقيلا لا يطاق ، وأن التبرعات الألمانية كانت تعطى مثل ثمار البرقوق إلى القساوسة الإيطاليين . وقال أحد النواب إن مثل هذا الرفض الجرىء للمطالب البابوية لم يعرف قط فى تاريخ ألمانيا(٢٣) . وعندما لاحظ ماكسمليان روح الثورة بين الأمراء كتب إلى روما ينصح بالحرص فى معاملة لوثر ، ولكنه وعد بالتعاون فى القضاء على الهرطقة .

وكان ليو ميالا أو مضطراً إلى التسامح ، والحق أن مؤرخاً بروتستانتياً عزا انتصار الإصلاح الدينى إلى اعتدال البابا(٢٤) واستبعد الأمر بمثول لوثر أمامه فى روما ، وبدلا من ذلك أمره بأن يمثل أمام الكاردينال كاجيتان فى أوجسبورج وأن يجيب على التهم الموجهة إليه بالخروج على النظام والهرطقة . وأصدر

تعليماته إلى قاصده الرسولى بأن يعرض على لوثر صفحاً كاملا ومناصب فى المستقبل إذا تراجع عن أقواله وأقر بذلك وإلا فإنه سوف يطلب من السلطات الزمنية أنه ترسله إلى روما[٢٥] . وفى الوقت نفسه أعلن ليو عن نيته فى تقديم تكريم لفردريك طالما تطلع إليه الأمير المختار الورع — ألا وهو « الوردة الذهبية » التى كان البابوات يمنحونها للحكام الزمنيين الذين يودون أن يخصوهم بأرفع هباتهم ، ولعل ليو عرض وقتذاك أن يؤيد فردريك كوارث للعرش الإمبراطورى[٢٦] .

وقابل لوثر فى أوجسبورج الكردينال كاجيتان وهو متسلح بجواز أمان من الإمبراطور (١٢ — ١٤ أكتوبر عام ١٥١٨) ، وكان الكردينال رجلا متضلعاً فى اللاهوت ويعيش حياة مثالية ، ولكنه أساء تفسير وظيفته على أنه قاض وليس دبلوماسياً ، ورأى أولا وقبل كل شيء أن الأمر مسألة تتعلق بالنظام الكنسى وضبطه : هل يسمح لراهب أن ينتقد علناً رؤساءه — الذين أقسم أن يدين لهم بالطاعة وأن يدافع عن آراء أداتها الكنيسة ؟ ورفض أن يناقش صحة آراء لوثر أو خطأها وطالبه بأن يسحب أقواله وأن يتعهد بألا يعكر صفو الكنيسة . ولم يستطع أحدهما صبراً على الآخر ، وعاد لوثر إلى فيتنبرج دون أن يتوب وطلب كاجيتان من فردريك أن يرسله إلى روما فأبى فردريك . وكتب لوثر بياناً شائقاً عن المقابلات نشر فى أرجاء ألمانيا ، وعندما قدمه إلى صديقه فينتسل لينك أضاف قائلا : « أرسل لك عملى التافه لكى ترى ما إذا كنت مخطئاً فى رأيى ، طبقاً لتعاليم بولس ، أن المناهض الحقيقى للمسيحية يسيطر على البلاط الرومانى وأنا أعتقد أنه أسوأ من أى تركى »[٢٧]. وفى خطاب أكثر اعتدالا بعث به إلى الدوق جورج طالب بقوله : « يجب القيام بإصلاح دينى عام للطبقات الروحية والزمنية »[٢٨] والمعروف أن هذه هى المرة الأولى التى استخدم فيها الكلمة التى أضفت على ثورته اسمها التاريخى .

واستمر ليو فى محاولاته للتوفيق ، فأصدر نشرة بابوية فى التاسع من نوفمبر عام ١٥١٨ أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التى نسبت إلى صكوك الغفران ، فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعنى فحسب من العقوبات الدنيوية التى فرضتها الكنيسة — لا الحكام الزمنيون — أما بالنسبة لإطلاق سراح الأرواح من المطهر فإن سلطة البابا محدودة بصلواته التى يبتهل فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين . وفى الثامن والعشرين من نوفمبر قدم لوثر طلباً إلى مجلس عام يستأنف فيه حكم البابا . وفى ذلك الشهر نفسه عهد ليو إلى كارل فون ميلتيتز ، وهو نبيل من الطبقات الصغرى فى روما ، بأن يأخذ « الوردة الذهبية » إلى فردريك وأن يقوم أيضاً بجهد سلمى للعودة بلوثر « ابن الشيطان » إلى حظيرة الطاعة[٢٩] .

وعند ما وصل ميلتيتز إلى ألمانيا دهش عند ما وجد أن نصف أهالى البلد يجاهرون بالعداء للسدة الرومانية وأن من بين كل خمسة من أصدقائه فى أوجسبورج ونورمبرج ثلاثة يؤيدون لوثر . وفى ساكسونى كان الشعور المناهض للبابوية قوياً إلى حد أنه تنصل من كل الدلائل التى تشير إلى أنه مبعوث بابوى . وعند ما التقى بلوثر فى ألتنبورج (٣ يناير سنة ١٥١٩) وجده صريحاً يؤثر أن يقرع الحجة بالحجة ولا يهاب أحداً . وربما كان لوثر فى هذه المرحلة يتوق فى إخلاص إلى الحفاظ على وحدة العالم المسيحى الغربى . وقام بتنازلات كريمة : أن يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك وأن يكتب رسالة يعلن فيها خضوعه للبابا وأن يقر علناً بصحة الصلوات للقديسين وبحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران فى الإعفاء من العقوبات الكنسية وأن ينصح الناس بالولاء المسالم للكنيسة ، وفى غضون ذلك يجب أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف ألمانى يقبله الطرفان[٣٠] للفصل فيها . فسر ميلتيتز كثيراً وانطلق إلى ليبتسيج واستدعى تيتزل وعنفه على تطاوله واتهمه بالكذب وخيانة الأمانة وعزله فانزوى تيتزل فى ديره ومات بعدها بقليل (١١ أغسطس سنة ١٥١٩) وتلقى ، وهو على فراش الموت : خطاباً

رقيقاً من لوثر يؤكد له فيه أن بيع صك الغفران لم يكن إلا مناسبة وليس سبباً للفتنة و « أن المسألة لم تكن قد بدأت من أجل ذلك ولكن لأن للموضوع الوليد أباً آخر »[٣١] . وفى الثالث من مارس كتب لوثر رسالة إلى البابا يعلن فيها خضوعه التام فرد عليه ليو بروح ودية (٢٩ مارس) ودعاه للحضور إلى روما ليدلى باعترافه ، وعرض عليه مالا لتغطية نفقات رحلته[٣٢] . ومهما يكن من أمر فإن لوثر ، فى تناقض صريح كان قد كتب إلى سبالاتان فى الثالث عشر من مارس : « إنى فى حيرة لا أدرى هل البابا مناهض للمسيح أم أنه رسوله »[٣٣] . ورأى فى هذه الظروف أن من الأسلم له أن يبقى فى فيتنبرج.

وهناك كانت الكلية والطلبة والمواطنون يعطفون فى الغالب على قضيته ، ولقد أسعده بصفة خاصة أن يلقى التأييد من شاب ألمعى ، عالم بالإنسانيات واللاهوت ، كان قد عينه الأمير المختار عام ١٥١٨ وهو فى الحادية والعشرين من عمره لتدريس اللغـــة اليونانية بالجامعة . وكان فيليب شفارتسرت (الأرض السوداء) قد صبغ اسمه بالهيلينية وغيره إلى ميلانكتون على يد عمه العظيم رويخلين ، كان رجلا صغير القامة ضعيف البنية ، يعرج فى مشيته ، وله تقاطيع لطيفة ، وحاجبان مرتفعان ، وعينان تنمان عن الخجل ، وقد أصبح مفكر الإصلاح الدينى هذا محبوباً فى فيتنبرج إلى حد أن خمسمائة أو ستمائة من الطلبة كانوا يتجمهرون فى قاعة محاضرته ، بل إن لوثر نفسه الذى وصفه بأنه « يتحلى بكل فضيلة معروفة للإنسان »[٣٤] كان يجلس فى تواضع بين تلاميذه . وقال أرازموس : « إن ميلانكتون رجل رقيق الحاشية فحتى أعداؤه يذكرونه بالخير »[٣٥] .

كان لوثر يلذ له الصراع بينما كان ميلانكتون يؤثر المسالمة والتراخى . وكان لوثر يؤنبه أحياناً على أنه حليم أكثر مما يجب ، إلا أن أنبل جانب للوثر وأشده اعتدالا قد اتضح فى حبه الذى لم ينقطع لرجل يختلف عنه فى المزاج والسياسة . « لقد خلقت للحرب والقتال مع الأحزاب والشياطين ، ومن هنا فإن كتبى عاصفة خليقة بمحارب . لا بد أن أجتث جذور بجذوع

الأشجار وبقاياها وأن أنتزع الأشواك وأقلم نباتات الأسوار وأن أردم الحفر ، فأنا خبير بالأحراج وأستطيع أن أقتحم فيها طريقاً وأن أهيئ الأمور ، أما الأستاذ فيليب فإنه يسير فى رفق وهدوء ويفلح الأرض ويزرع ويبذر ويسقى وهو مسرور كما حباه الله فى سخاء »[٣٦] .

وثمة أستاذ آخر فى فيتنبرج لمع ببريق أشد من بريق ميلانكتون ذلك هو أندرياس بودينشتاين ، المعروف من محل ميلاده باسم كارلشتادت ، وقد انضم إلى هيئة التدريس بالجامعة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره (١٥٠٤) وفى الثلاثين عين أستاذاً لكرسى الفلسفة التومية واللاهوت . وفى اليوم الثالث عشر من إبريل عام ١٥١٧ سبق احتجاج لوثر التاريخى بنشر ١٥٢ مقالا ضد صكوك الغفران . وكان فى مبدأ الأمر معارضاً للوثر ولكنه سرعان ما تحول إلى نصير غيور حتى لقد قال عنه الثائر العظيم « إنه أشد تحمساً منى للأمر »[٣٧] . وعندما تحدى إيك فى كتابه Obelisci رسائل لوثر دافع عنها كارلشتادت فى ٤٠٦ قضية منطقية وإحدى هذه القضايا المنطقية تحتوى على أول بيان محدد بالألمانية عن الإصلاح الدينى الألمانى وعن سلطة الإنجيل العليا على مراسيم الكنيسة وتقاليدها . فرد إيك وتحداه أن يدخل معه فى مناظرة علنية ، فوافق كارلشتادت فى الحال وقام لوثر بعمل التدابير اللازمة ، ثم نشر إيك بياناً أورد فيه قائمة بثلاثة عشر مقالا عرض أن يقيم عليها الدليل فى المناظرة . وجاء فى إحداها « نحن ننكر أن الكنيسة الرومانية لم تكن أعلى من الكنائس الأخرى قبل عهد سيلفستر وقد اعترفنا لشاغل كرسى بطرس بأنه خليفة المسيح ونائبه » . ولكن لوثر وليس كارلشتادت هو الذى أثار فى كتابه « قرارات » Resolutiones مسألة أن السلطة الرومانية فى القرون الأولى من المسيحية لم يكن لها من السلطان ما يزيد على سلطان عدة أساقفة آخرين من أساقفة الكنيسة ، وشعر لوثر بأن هذا التحدى موجه له وزعم أن مقال إيك قد حرره من عهده الذى قطعه على نفسه بالتزام السكوت وقرر أن ينضم إلى كارلشتادت فى المباراة اللاهوتية .

وفى يونيه عام ١٥١٩ انطلق المحاربان إلى ليبتسيج يصحبهما ميلانكتون

وستة أساتذة آخرون ، ويرافقهما ٢٠٠ طالب من فيتنبرج فى عربات ريفية وهم مسلحون ومسربلون بالدروع وكأنهم مقبلون على معركة ، والحق أنهم كانوا يدخلون أرضاً معادية للوثر . وفى القاعة الكبيرة المفروشة بالطنافس فى قلعة بلايسينبورج ووسط جمهرة من المشاهدين المتلهفين وتحت رئاسة الدوق المحافظ جورج صاحب ألبرتين ساكسونى بدأ إيك وكارلشتادت المناقشة بين القديم والجديد (٢٧ يونية) . ولم يكد أحد فى ليبتسبورج يعبأ بأن إمبراطوراً جديداً سوف ينتخب غداً فى فرانكفورت الواقعة على المين .

وبعد أن عانى كارلشتادت أياماً من براعة إيك العالية فى المناظرة ناب لوثر عن فيتبرج . وكان ألمعياً قوى الحجة فى النقاش ، ولكنه كان قليل المبالاة إلى درجة التهور ، فأنكر بشدة رئاسة أسقف روما فى أيام المسيحية الأولى وذكر أشد مستمعيه كراهة بأن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية الواسعة الانتشار لا تزال ترفض سيادة روما ، وعند ما هاجم إيك رأى لوثر وقال إنه إنما يردد وجهة نظر هس التى أدانها مجلس كونستانس ، رد لوثر بقوله إن المجالس المسكونية يمكن أن تخطىء وأن كثيراً من آراء هس كانت صحيحة وعند ما انتهى هذا الجدل (٨ يولية) كان إيك قد وصل إلى غرضه الحقيقى — وهو أن يستدرج لوثر إلى أن يرتكب بنفسه جريمة هرطقة محددة ، فقد تحول الإصلاح الدينى من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية على العالم المسيحى .

وانطلق إيك إلى روما وقدم إلى السدة البابوية تقريراً عما دار من نقاش وأوصى بحرمان لوثر من غفران الكنيسة ، ولكن ليو لم يكن متعجلا إلى هذا الحد إذ كان لا يزال يراوده الأمل فى حل سلمى ثم إنه كان بعيداً جداً عن ألمانيا فلم يدرك مدى ما بلغته الثورة . كما أن مواطنين بارزين مبجلين من أمثال جوهان هولتسشوهر ولازاروس شبينجلر وفيليبالد بيركهايمر ، دافعوا عن لوثر ودعا ديرر له بالنجاح وكان علماء الإنسانيات يطلقون

وابلاً من الكتيبات تطعن فى البابوية بكل ما استوعبه العصر من نقد جارح . وعند ما وصل أولريخ فون هوتن إلى أوجسبورج عام ١٥١٨ تحول بقصائده ضد نداء ليو بجمع الأموال للحرب الصليبية وأعرب عن أمله فى أن يذهب الجباة إلى الوطن بحقائب خاوية . وعند ما بلغته أنباء المناظرة فى ليبتسيج حيى لوثر كمحرر لألمانيا وشرع قلمه ابتداء من ذلك الوقت سيفاً مصلتاً للدفاع عن الإصلاح ، وانخرط فى سلك فرسان فرانتس فون سيكنجن — الذين كانوا يتلهفون على الثورة — وأغراه على أن يقدم إلى لوثر كل التأييد والحماية اللتين يمكن لعصبته المسلحة أن تزوده بهما ، ورد لوثر معبراً عن تقديره الحار ، ولكنه لم يكن على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن شخصه .

وفى مارس عام ١٥٢٠ نشر هوتن مخطوطة ألمانية قديمة كتبت فى عهد الإمبراطور هنرى الرابع (حكم من ١٠٥٦ — ١١٠٦) ، وكانت تؤيد هنرى فى صراعه مع البابا جريجورى السابع ، وأهدى الكتاب إلى الإمبراطور الشاب شارل الخامس إشارة إلى أن ألمانيا تتوقع منه أن ينتقم لإذلال هنرى وهزيمته . وقال هوتن إن تحرير ألمانيا من روما أشد إلحاحاً من صد الأتراك . « فى الوقت الذى رأى فيه أجدادنا أنه لا يخلق بهم أن يخضعوا للرومان عند ما كان هؤلاء أعظم أمة حربية فى العالم نجد أننا لا نخضع لهؤلاء العبيد المخنثين المنغمسين فى حمأة الشهوة والترف فحسب بل إننا نعرض أنفسنا للاغتصاب ونهب لهم لإرضاء شهواتهم الحسية »[٣٨] . وفى إبريل عام ١٥٢٠ أصدر هوتن أول سلسلتين من Gespräche وهو محاورات منظومة لعبت دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر ، وذلك فى الإعراب عن الرغبة القومية فى الاستقلال عن روما واستنهاضها ووصف روما بأنها : « دودة ضخمة تمتص الدماء » . وصرح بأن « البابا زعيم لص وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة . . . وروما بحر من الدنس وحمأة من القذارة وبالوعة ليس لها قرار من الظلم .

ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حدب وصوب لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائعة التي حاقت بالبشرية ؟ »[٣٩] ، وأقام أرازموس الحجةمع هوتن ليلطف من أسلوبه وحذره ودياً بأنه فى خطر وعرضة للقبض عليه . واختبأ هوتن نفسه فى قلاع سيكينجن واحدة إثر أخرى ولكنه استمر فى حملته . وبصح الأمير المختار فردريك باستيلاء السلطة الزمنية على كل ثروة الأديرة ، وأوضح الوجوه السامية التي يمكن لألمانيا أن تنفق فيها الأموال التي ترسل سنوياً إلى روما[٤٠] .

ولكن مركز الحرب ظل فى فيتنبرج الصغيرة . وفى ربيع عام ١٥٢٠ نشر لوثر موجزاً به ملاحظات عنيفة استشهد بها أحدث المزاعم التي لا تلين والتي رددها علماء اللاهوت المحافظون عن سيادة البابوات وسلطانهم . وقابل لوثر التطرف بالتطرف : « إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة (التي أرجو ألا تكون تلك هي الحالة) فإنى أعلن بحرية فى هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقي يجلس فى معبد الرب ويحكم فى روما — بابل هذه المصبوغه بلون الأرجوان — وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان . . . وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أمامنا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والأمراء ، تحيط بهم القوة والأسلحة ، مهاجمة هذه الأوبئة فى العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات . . . وإذا كنا نقضى على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقى بالهراطقة فى النار فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء ، أعنى هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ، ونغسل أيدينا فى دمائهم ؟ »[٤١] .

وأصدر كارلشتادت فيما بعد فى العام نفسه « كتيباً » **De Canonicis Scripturis libelus** جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس

الدينية والتقاليد والأناجيل أعلى من الرسالات الإنجيلية ، ولو أن لوثر اتبع هذا الخط الأخير لكانت البروتستانتيه قد أصبحت أقل بولسية وأوغسطينية وجبرية كان كتاب libellus على رأس عصره فى الشك فى تأليف موسى للأسفار الخمسة (التوراة) وصحة الأناجيل ولكنه كان ضعيفاً فى حجته الرئيسية : فقد قرر صحة الكتب الإنجيلية أستناداً إلى الروايات المأثورة عن القرون الأولى ثم رفض الرواية التى تؤيد الكتب الثابتة على هذا النحو .

وتشجع لوثر بتأييد ميلانكتون وكارلشتادت وهوتن وسيكنجن فكتب إلى سبالاتان (١١ يونية سنة ١٥٢٠) : « لقد ألقيت النرد . وأنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم . ولن أهادنهم إلى الأبد . . . فليدينوا ويحرقوا كل ما يمت لى بصلة ، وأنا فى مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير . . . إنى لم أعد اليوم أخشى أحداً وسوف أنشر كتاباً باللغة الألمانية عن الإصلاح المسيحى وهو موجه ضد البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت أوجهها إلى مناهض للمسيحية »[٤٢] .

٤ — نشرات بابوية ملتهبة

أصدر ليو العاشر فى اليوم الخامس عشر من شهر يونية عام ١٥٢٠ نشرة أدان فيها واحداً وأربعين بياناً للوثر ، وأمر بأن تحرق علناً مؤلفاته التى ظهرت فيها ، وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين . وإذا رفض أن يأتى إلى روما فى خلال ستين يوماً ويسحب أقواله علنا فإنه سوف يبتر من عضوية العالم المسيحى بحرمانه من غفران الكنيسة ، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطيقاً ، وسوف تتوقف العبادة فى جميع الأماكن التى يقيم فيها ، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما

وأعلن لوثر نهاية عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة

التى كونت برنامج الثورة الدينية . وكان حتى هذا الوقت قد كتب باللغة اللاتينية مخاطباً الطبقات المستنيرة ، أما الآن فإنه كتب باللغة الألمانية — كوطنى ألمانى — خطاباً مفتوحاً إلى أشراف الأمة الألمانية المسيحيين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين ، وشمل نداءه « استغاثة بالنبيل الشاب » الذى كان قد اختير منذ عام إمبراطوراً باسم شارل الخامس « وأنعم به الله علينا ليكون زعيماً لنا وبهذا ينعش فى كثير من الأفئدة آمالا كباراً فى الخير »(٤٣). وهاجم لوثر « الجدران الثلاثة » التى شيدتها البابوية حول نفسها وهى : التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين وحق البابا فى أن يفسر الكتاب المقدس على هواه ، وحقه المطلق فى دعوة مجلس عام للكنيسة ، وقال لوثر إن كل هذه الدعاوى الدفاعية يجب أن تهدم . فأولا ليس هناك فرق حقيقى بين رجال الإكليروس والعلمانيين إذ أن كل مسيحى ينصب قساً بالتعميد ومن ثم فإن على الحكام الزمنيين أن يمارسوا سلطاتهم « دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى البابا أو الأسقف أو القس . . . وكل ما نص عليـــه القانون الكنسى مما يناقض ذلك من خالص بنات أفكار الوقاحة الرومانية »(٤٤) . وثانياً بما أن كل مسيحى يعد قساً فإن له الحق فى أن يفسر الكتب المقدسة طبقاً لما يراه(٤٥) . وثالثاً : يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر فالكتاب المقدس لا يقدم أية بينة على حق البابا المطلق فى دعوة مجلس . وإذا كان ينشد بالحرمان من غفران الكنيسة أو التحريم أن يمنع مجلساً ، « فإننا يجب أن نستخف بسلوكه كأنه تصرف رجل مجنون ونقذفه بحرمانه معتمدين فى ذلك على الله ونقمته بقدر الإمكان »(٤٦) ويجب دعوة مجلس فى أقرب وقت وعليه أن يفحص المفارقة الفظيعة فى أن زعيم العالم المسيحى يعيش فى ترف دنيوى يفوق ما يحلم به أى ملك ولا بد أن يضع هذا حداً لاستيلاء رجال الدين الإيطاليين على التبرعات الألمانية وأن يقلل إلى واحد فى المائة من « زمرة الهوام » الذين يشغلون فى روما مناصب دينية تدر عليهم دخلا دون أن يؤدوا عملا ويعيشون بصفة أساسية على الأموال التى يسلبونها من ألمانيا .

« لقد قرر البعض أن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جولدن تجد طريقها كل عام من ألمانيا إلى إيطاليا . . . وها نحن أولاء نصل الى لب الموضوع . . . كيف يتأتى أن يكون لزاماً علينا نحن الألمان أن نتسامح فى مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لأملاكنا على يدى البابا ؟ . . . وإذا كنا بحق نشنق اللصوص ونضرب أعناق السارقين بالإكراه فكيف نسمح للشره الرومانى أن يفلت من العقاب ؟ ذلك لأنه أكبر لص وسارق بالإكراه جاء أو يمكن أن يجىء إلى العالم بل وشرهم قاطبة بالاسم المقدس للمسيح والقديس بطرس ومن فى وسعه بعد هذا أن يتحمل أو يلزم البسكوت ؟ »(٤٧) .

لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية ؟ فليتخلص رجال الدين الألمان من تبعتهم لروما ولينشئوا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة ماينز . إن أوامر الاستجداء يجب أن تقل ويجب أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب ألا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين ، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القداس على أرواح الموتى . . والعطلات (ما عدا أيام الآحاد) وعلى الكنيسة الألمانية مصالحة الهسيين فى بوهيميا ، إن هس أحرق دون أن يشفع له حصوله على جواز الأمان من الإمبراطور ، وفى أية حال فإننا « يجب أن نتغلب على الهراطقة بالكتب لا بالحرق »(٤٨) « ويجب أن ينبذ كل قانون كنسى وألا يكون هناك إلا قانون واحد يطبق على رجال الدين والعلمانيين على السواء — « يجب علينا فوق كل شىء أن نطرد من الأراضى الألمانية مبعوثى البابا بكل ما لهم من « قوى » — وهى التى يبيعونها لنا مقابل مبالغ كبيرة من المال — لإقرار الأرباح الجائرة ، للتحلل من الأقسام والعهود والاتفاقيات بحجة أن البابا له سلطة القيام بهذا العمل — وإن كان هذا خداعاً لا مراء فيه . . . وإذا لم يكن هناك أضاليل خبيثة أخرى لإثبات أن البابا هو المناهض الحقيقى للمسيحية فإن هذا الشىء يكفى لإثبات هذا . أتسمع هذا أيها البابا ، ولا أقول أقدس الرجال بل أكبرهم إثماً ؟

ثق بأن الله رب السموات سوف يقوض عرشك قريباً ويغرقه فى هاوية الجحيم . . . يا سيدى المسيح أطل علينا من عليائك ودع يوم قصاصك يشرق ودمر عش الشيطان فى روما !(٤٩)

وأصبح هذا الهجوم العنيف الذى قام به رجل ضـــد سلطة تشمل كل أوروبا الغربية ، حديث ألمانيا ، فالحذرون من الرجال عدوه من قبيل الإفراط والتهور وعده الكثيرون من بين أعظم الأفعال البطولية فى تاريخ ألمانيا . وسرعان ما نفدت أول طبعة من كتاب « خطاب مفتوح » وشغلت مطابع فيتنبرج بإخراج طبعات جديدة . وكانت ألمانيا مثل انجلترا ، مهيأة لتقبل الدعوة إلى القومية ولم يكن هناك إبان هذا العهد دولة اسمها ألمانيا على الخريطة ولكن كان هناك ألمان بدأوا يشعرون بأنفسهم كشعب . وبما أن هس قد أكد وطنيته البوهيمية ، وبما أن هنرى الثامن لم ينبذ العقيدة الكاثوليكية بل رفض أن يمتد سلطان البابا إلى إنجلترا ، فإن لوثر وقتذاك زرع بذرة الثورة لا فى صحارى اللاهوت بل فى الأرض الخصبة لروح ألمانيا القومية وحيثما فازت البروتستانية حملت القومية العلم .

وفى سبتمبر عام ١٥٢٠ أصدر إيك وجيروم الياندر منشور الحرمان من غفران الكنيسة فى ألمانيا فرد عليهم لوثر الطعنة بإصدار بيان ثان هو : « الأسر البابلى للكنيسة » (٦ أكتوبر) ولما كان موجهاً إلى علماء اللاهوت والدارسين فإنه عاد إلى الكتابة باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم البيان وكان له تأثير عظيم على العقيدة المسيحية قارب تأثير « خطاب مفتوح » على التاريخ الدينى والسياسى . فكما قاسى اليهود طويلا من الأسر فى بابل فإن الكنيسة كما أنشأها المسيح ، وكما نص عليها فى العهد الجديد قد تعرضت للأسر ما يزيد على ألف عام تحت حكم البابوية فى روما . وفى خلال تلك الفترة تعرض دين المسيح إلى الفساد فى الإيمان والأخلاقيات والشعائر . وبما أن المسيح قد أعطى حوارييه نبيذاً وخبزاً فى العشاء الأخير فإن المسيين كانوا

على حق فيما ذهبوا إليه : إذ يجب أن يناول القربان المقدس بكلا الشكلين كما يشاء الناس ، والقس لا يغير الخبز والنبيذ إلى جسد ودم المسيح ؛ فليس هناك قس يملك هذه القدرة الصوفية ، ولكن المسيح سيجيء روحياً ومادياً لكل من يتناول القربان المقدس لا عن طريق أى تحول معجز على يد أحد القساوسة بل سيجيء بإرادته وبقوته ، فهو حاضر فى القربان المقدس مع الخبز والنبيذ عن طريق التجاسد لا عن طريق التجسيم[٥٠] . ورفض فى هلع الفكرة التى تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه فى القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر ولو أنه لم يجد ما يفزعه فى الفكرة التى تقول إن الرب قد سمح للبشر بأن يصلبوا الرب قرباناً للرب تكفيراً عن خطايا البشر .

وأضاف بعض المستحدثات الأخلاقية إلى هذه الأمور الدينية التى تدق على الفهم ، فالزواج ليس قرباناً مقدساً لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهداً بأن يبث فيه الرحمة الإلهية وقال « إن زيجات الأقدمين لم تكن تقل قداسة عن زيجاتنا كما أن زيجات الكفار ليست أقل صحة من زيجاتنا »[٥١] . وعلى ذلك يجب ألا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين « فكما آكل وأشرب وأنام وأمشى . . . وأتعامل مع وثنى أو يهودى أو تركى أو هرطيق فإن فى وسعى أن أتزوج من أى واحدة من نسائهم ، فلا تبالوا بالقانون الذى سنه الأحمق لتحريم هذا . . . إن الشخص الوثنى سواء كان رجلا أو امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس أو القديسة لوسى »[٥٢] . وأى امرأة تتزوج من رجل عنين يجب أن يسمح لها ، إذا وافق زوجها ، بأن تضاجع رجلا آخر لكى تنجب منه طفلا ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجها وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطلق منه . ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لا نهاية لها ، ولعل تعدد الزوجات خير منه[٥٣] . ثم أضاف لوثر التحدى إلى المرطقة وانتهى إلى أن يقول « إنى أسمع إشاعة تقول إن نشرات بابوية جديدة ولعنات بابوية ترسل ضدى تتضمن حثاً على سحب أقوالى »[٥٤] . . .

وإذا كان هذا حقاً فإنى أود أن يكون هذا الكتاب جزءاً من الإنكار الذى أقوم به » .

وكان حرياً بمثل هذه السخرية أن تزيغ ميلتيتز عن حلمه بالمهادنة . ومع ذلك فإنه سعى مرة أخرى إلى لوثر (١١ أكتوبر سنة ١٥٢٠) وأقنعه بأن يرسل للبابا ليو خطاباً يتنصل فيه من أى قصد فى مهاجمته شخصياً ويعرض القضية باعتدال للإصلاح وسوف يحاول ميلتيتز من جانبه أن يكفل له إلغاء النشرة فما كان من لوثر البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً « والفلاح ابن الفلاح » كما كان يدعو نفسه مفاخراً ، إلا أن كتب خطاباً لم يضمنه اعتذاراً بل نصيحة أبوية تقريباً إلى خليفة القديس بطرس وسليل آل مديتشى البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً . وأعرب عن احترامه للبابا كفرد ولكنه استنكر فى غير هوادة فساد البابوية فى الماضى والحكمة البابوية فى الحاضر :
« إن ما تتمتع به من سمعة وشهرة فى حياتك الطاهرة الذيل أمر معروف تماماً وأسمى من أن يكون مجالا للهجوم . . . ولكن سدتك البابوية التى تسمى الحكمة الرومانية والتى لا يمكنك أنت أو أى إنسان أن تنكر أنها أكثر فساداً مما كان عليه أهل بابل أو سدوم والتى بقدر ما أستطيع أن أرى ، تتسم بخبث غوى لا أمل فيه قبيح الصيت — فهذه السدة أنا أزدريها . . . ولقد أصبحت الكنيسة الرومانية أكبر وكر داعر للصوص وأعظم المواخير التى يندى لها الجبين ومملكة الإثم والموت والجحيم . . . ولطالما ساءنى يا صاحب المقام السامى ليو إنك تنصب بابا فى هذه العهود لأنك خليق بأيام خير منها . . .

« ولذلك أرجو « يا عزيزى ليو ألا تستمع إلى تلك الأقوال المعسولة التى لا تجعلك بشراً سوياً وترفعك إلى مصاف أنصاف الآلهة لكى تأمر . . . بما تشاء فأنت خادم الإجراء وبعد كل الرجال الآخرين فى مركز خطير يرثى له . فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون أنك سيد العالم . . . الذين

يعرفون بأن لك سلطاناً على السماء والجحيم والمطهر . . . إن الذين يعلون قدرك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون . والذين ينسبون إليك الحق فى تفسير الكتاب المقدس يخطئون لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك أن يرسوا قواعد خبثهم فى الكنيسة ، ومما يؤسف له أن الشيطان من خلالهم قد أحرز نجاحاً تحت حكم أسلافك . والخلاصة لا تصدق أحداً يعلى من قدرك ، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك(٥٥) .

وأرسل لوثر مع هذا الخطاب ثالث بياناته وأطلق عليه اسم « عجالة فى الحرية المسيحية » (نوفبر عام ١٥٢٠) وشعر بأنه « ما لم أكن مخدوعاً فإنها الحياة المسيحية بأسرها فى شكل موجز »(٥٦) . وعبر هنا باعتدال يخلو من الرقة عن مذهبه الأساسى — أن ذلك الإيمان وحده لا الأعمال الصالحة هى التى تخلق المسيحى الصادق وتخلصه من عذاب النار . لأن الإيمان بالمسيح هو الذى يجعـــل الإنسان صالحاً وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان . « فالشجرة تحمل الثمار أما الثمرة فلا تحمل الشجرة »(٥٧) . والإنسان القوى الإيمان بالله والذى يكفر عن تضحية المسيح لا ينعم بحرية الإرادة فحسب ولكن ينعم بأعمق الحريات كلها : التحرر من نداء الجسد ومن كل القوى الشريرة ومن اللعنة الأبدية بل ومن القانون لأن الإنسان الذى تتدفق فضيلته تلقائياً من إيمانه فى غنى عن الأوامر بالاستقامة(٥٨) . ومع ذلك فإن هذا الإنسان الحر يجب أن يكون خادماً لكل الناس لأنه لن يكون سعيداً إذا عجز عن عمل كل ما فى وسعه لإنقاذ الآخرين كما ينقذ نفسه . إنه بالإيمان يرتبط بالله وبالحب مع جاره . وكل مسيحى مؤمن يعد قساً يقوم بالخدمات الدينيـــة .

وبينما كان لوثر يكتب تلك الرسائل التاريخية كان إيك والياندر يواجهان الثورة الدينية مباشرة وأحرزا نجاحاً فى إعلان نشرة الحرمان من غفران الكنيسة فى مايسن ومرسيبورج وبراندنبورج ، أما فى نورمبرج فانهما

لم يستخلصا إلا الاعتذارات من بيركهايمر وشينجلر وفى ماينز طرد كبير أساقفتها ألبرخت من بلاطه هوتن بعد أن هادن فترة الإصلاح الدينى وسجن طابعى كتب هوتن وصودرت كتب لوثر فى أنجولسستادت وأحرقت فى ماينز ولوفان وكولونيا ، ولكن فى ليبتسيج وتورجاو وديبيلين لطخت النشرة المعلقة بالقـــذاوة ومزقت وفى أرفورت انضم كثير من الأساتذة ورجال الدين فى رفض عام للاعتراف بالنشرة ، وألقى الطلبة بكل ما وصل إلى أيديهم من النسخ فى النهر ، وأخيراً فر إيك من المسرح الذى شهد انتصاراته قبل ذلك بعام[٥٩] .

وندد لوثر بالإعلان فى سلسلة من الكتيبات التى تقطر مرارة وفى إحدى هذه الكتيبات أعلن موافقته الكاملة على آراء هس ، وحوالى ٣١ من أغسطس عام ١٥٢٠ استغاث بالإمبراطور طالباً الحماية مثل « برغوث واحد يجرؤ على مخاطبة ملك الملوك » وفى السابع عشر من نوفمبر نشر استغاثة رسمية من البابا بمجلس للكنيسة . وعند ما علم أن مبعوثى البابا يحرقون كتبه قرر أن يرد عليهم بالمثل ؛ فأصدر نداء إلى الشباب التقى المثقف فى فيتنبرج لكى يتجمع خارج بوابة « الستر » فى المدينة صباح يوم ١٠ ديسمبر ، وهناك أمسك بيديه نشرة البابا وقذف بها فى النار مع بعض المراسيم الكنسية ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية ، ورمز فى عمل واحد إلى رفضه للقانون الكنسى وفلسفة الاكوينى وكل سلطة للكنيسة تأخذ بسياسة القمع . وجمع الطلبة كتباً أخرى من نفس النوع فى ابتهاج وألقوا بها فى النار لتظل مشتعلة حتى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم . وفى الحادى عشر من ديسمبر أعلن لوثر أنه لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية[٦٠] وهكذا حرم الراهب البابا من غفران الكنيسة .

٥ ـ المجلس النيابى فى ورمس

ولقد ظهر على المسرح وقتذاك ممثل ثالث قام منذ تلك اللحظة بدور كبير استمر ثلاثين عاماً وذلك فى الصراع بين اللاهوت والحكومات. ولسوف يفرض نفسه على سردنا التاريخى فى اثنى عشر فصلا أو يزيد.

واستهل الرجل، الذى قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس، سيرته بميراث ملكى وإن يكن مدنساً، فجده من جهة أبيه الإمبراطور ماكسمليان وجدته مارى البورغندية ابنة شارل الجسور، وجده من جهة أمه فرديناند وجدته إيزابلا، أما أبوه فهو فيلب الجميل ملك قشتالة الذى ارتقى العرش فى السادسة والعشرين ومات وهو فى الثامنة والعشرين من عمره، وأمه هى جوانا لالوكا التى جنت عندما بلغ شارل السادسة، وعاشت حتى بلغ الخامسة والخمسين من عمره. وقد ولد فى غنت (٢٤ فبراير سنة ١٥٠٠) ونشأ فى بروكسل وظل فلمنكى اللسان والطبع إلى أن اعتزل الحكم نهائياً فى إسبانيا. ولم تغفر له هذا إسبانيا ولا ألمانيا ولكنه بمرور الوقت تعلم الحديث بالألمانية والأسبانية والإيطالية والفرنسية، وكان يستطيع أن يلتزم الصمت فى اللغات الخمس. وحاول أدريان الأوترختى أن يعلمه الفلسفة ولكنه لم يصب نجاحاً يذكر، وتلقى على يدى هذا الأسقف الصالح تأديباً صارماً، يتفق مع عقيدة المستمسكين بأهداب الدين، وربما تشرب مع ذلك فى منتصف العمر نزعة شك خفية من مستشاريه ورجال بلاطه الفلمنكيين الذين شاع بينهم قدر يكتنفه الرضا من عدم المبالاة بالعقيدة على طريقة أرازموس.

ولكم شكا بعض القساوسة من إطلاق حرية الرأى الدينى بين حاشية شارل[٦١]. واعتصم بالتقوى ولكنه عكف على دراسة فن الحرب. وقرأ كومينيس وتعلم فى مرحلة الطفولة حيل الدبلوماسية، وعدم تمسك الدول بالأخلاق.

وعند وفاة أبيه (١٥٠٦) ورث الفلاندرز وهولنده وكونتيه فرانش وادعاء الحق فى حكم برغنديا ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره نهض

بمسئولية الحكم ووقف نفسه على الإدارة ، وفى السادسة عشرة أصبح شارل الأول ملك إسبانيا وصقلية وساردينيا ونابلى وأمريكا الإسبانية ، وفى التاسعة عشرة طمح إلى أن يصبح إمبراطوراً ، وكان فرانسيس الأول ملك فرنسا يصبو إلى الشرف نفسه فى ذلك الوقت أيضاً ، وسر الأمراء المختارون الإمبراطوريون بدماثة أخلاقه إلا أن شارل أنفق ٨٥٠,٠٠٠ فلورين ليكسب هـذه المباراة واستطاع أن يفوز بها (١٥١٩) . واضطر فى سبيل جمع هذا المبلغ الطائل إلى أن يقترض مبلغ ٥٤٣,٠٠٠ فلورين من آل فوجر ، وهكذا أصبح شارل[٦٢] منذذاك صديقاً لآل فوجر ، كما أصبح آل فوجر أوفياء له ، ولكنه لما تأخر فى سداد القرض أرسل له جاكوب فوجر الثانى مذكرة حادة اللهجة : من المعروف جيداً أن جلالتكم ما كنتم تستطيعون الحصول على الشرف الإمبراطورى لولا مساعدتى وفى وسعى أن أثبت ذلك بالبيانات المسجلة من جميع المندوبين ولم أنشد فى هذا منفعتى الخاصة . . . وإنى أطلب بكل احترام أن تتفضـلوا . . . بإصدار الأمر بإعادة المبلغ الذى كنت قد دفعته هو والفائدة دون تأخير[٦٣] .

وواجه شارل جانباً من التزامه بمنح آل فوجر حق الاستيلاء على رسوم الجمارك فى ميناء أنتورب[٦٤] ، وعندما أوشك آل فوجر على الخراب نتيجة لغزوات الأتراك لهنغاريا هب لنجدتهم بمنحهم حق الإشراف على المناجم الإسبانية[٦٥] ، ومنذ ذلك الوقت صار مفتاح كثير من التاريخ السياسى « فتش عن المصرف » .

وهذا الفتى الذى وجد نفسه فى التاسعة عشرة من عمره زعيماً بالاسم لكل وسط أوروبا وغربها ما عدا انجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات البابوية قد تميز بالصحة الضعيفة التى ضاعفت من تقلباته . . . كان شاحب الوجه قصير القامة ، تبدو عليه البساطة ، له أنف حاد أقنى ، وذقن ينم على التحدى ، خافت الصوت رصين السمات ، وكان رقيق القلب لطيف المعشر بطبعه ، ولكنه سرعان ما تعلم أن الحاكم يجب أن يحافظ

على المسافة والاتجاه ، وأن السكوت نصف الدبلوماسية ، وأن روح الفكاهة الصريحة تكدر عبير جلال الملك . وعند ما التقى به ألياندر عام ١٥٢٠ كتب إلى ليو العاشر يقول : « فى رأيى أن هذا الأمير قد وهب . . . فطنة تفوق عمره وأنه يخفى فى رأسه أكثر مما يبدو على وجهه »[٦٦] . ولم يكن متوقد الذكاء إلا فى الحكم على الرجال — مما يكسبه نصف المعركة ، وكان يرتفع إلى مستوى الأزمات التى تواجهه بالجهد الجهيد — بيد أن ذلك كان يتكلف الكثير حقاً . ثم إن استمرار وهنه فى الجسم والعقل . — يمتد إلى أن يتأزم الموقف ويضطره إلى اتخاذ قرار حاسم وعندئذ يواجهه بعزم مفاجىء وإصرار يتسم بالدهاء . كانت الحكمة تواتيه لا بالسليقة ولكن بالتجارب .

وفى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٢٠ انطلق شارل الخامس ، ولم يكن أكبر سناً من القرن الذى وجد فيه ، إلى مدينة آخن بلدة شارلمان ليتوج فيها ، وانطلق الأمير المختار فردريك لحضور الحفل ولكنه اضطر إلى التوقف فى كولونيا بسبب داء النقرس ، وهناك قدم له الياندر التماساً آخر للقبض على لوثر ، فما كان من فردريك إلا أن استدعى أرازموس وطلب منه النصيحة ، فدافع أرازموس عن لوثر وأشار إلى أن هناك عيوباً صارخة فى الكنيسة ، وقال إن الجهود التى تبذل لإصلاحها يجب ألا تقمع ، وعندما سأله فردريك ما هى الأخطاء الرئيسية التى ارتكبها لوثر أجاب : « خطأين : هاجم البابا فى تاجه ، والرهبان فى بطونهم »[٦٧] . وناقض صحة النشرة البابوية ، وقال إنه يرى أنها لا تتفق مع ما عرف به ليو العاشر من رقة الحاشية[٦٨] وأبلغ فردريك القاصد الرسولى أن لوثر قدم التماساً وأن لوثر يجب أن يظل طليقاً إلى أن يبت فى هذا الالتماس .

ورد الإمبراطور بالجواب نفسه . . . كان قد وعد الأمراء المختارين كشرط لانتخابه ، ألا يدان ألمانى دون محاكمة عادلة فى ألمانيا . ومهما يكن من أمر فإن مكانته جعلت — مذهب المحافظة على الدين لا مندوحة عنه ،

وكانت أسبانيا تعترف به ملكاً عليها اسمياً أكثر من اعتراف ألمانيا به إمبراطوراً عليها وهى بلد ينفر من نظام الحكم المركزى ، ولم يعد رجال الدين فى اسبانيا يحتملون طويلا ملكاً يترفق بالهراطقة . يضاف إلى ذلك أن الحرب مع فرنسا كانت تلوح فى الأفق ولسوف يدور القتال حول ميلان باعتبارها مغنماً ، ومن هنا كان تأييد البابا يساوى جيشاً بأسره . . . كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة مرتبطة بالبابوية بمائة وشيجة ، وليس من شك فى أن سقوط إحداها سوف يلحق بالأخريات ضرراً بليغاً فكيف يستطيع الإمبراطور أن يحكم ممالكه المتناثرة المتباينة دون أن يلقى العون من الكنيسة فى النظام الأخلاقى والإدارة السياسة ؟ كان كبار وزرائه إلى ذلك الوقت من رجال الدين كما أنه كان فى حاجة إلى أموال الكنيسة ونفوذها لحماية هنغاريا من الأتراك .

كان شارل يقلب فى ذهنه هذه المشاكل على اختلافها ، وكانت تشغله أكثر من مسألة راهب مشاكس ، فدعا مجلساً نيابياً إمبراطورياً لعقد اجتماع فى ورمس ، ولما اجتمع هناك كبار النبلاء ورجال الدين ممثلو المدن الحرة (٢٧ يناير عام ١٥٢١) إذا بلوثر هو الموضوع الرئيسى فى المناقشة وليس من شك فى أن القوى التى كانت تعد للإصلاح الدينى خلال قرون بلغت أوجها فى مسرح من أعظم المسارح الدرامية فى التاريخ الأوروبى . ويقول مؤرخ كاثوليكى : « لقد امتدحت الطائفة العظمى لنبلاء الألمان محاولات لوثر وأيدتها »[٦٩] . بل إن الياندر نفسه كتب تقريراً قال فيه : « إن ألمانيا بأسرها ترفع السلاح ضد روما والعالم كله يصرخ مطالباً بمجلس يجتمع على الأرض الألمانية . ولقد أصبحت النشرات البابوية التى تنص على الحرمان من غفران الكنيسة تثير السخرية وامتنع عدد كبير من الناس عن تناول القربان المقدس للتكفير . . . أما مارتن فإنه يصور وفوق رأسه هالة ويقبل الناس هذه الصورة . ولقد بيعت منها مقادير هائلة حتى أنى عجزت عن الحصول على

صورة واحدة . . . وأنا لا أستطيع أن أخرج إلى الطرقات خشية أن يرفع الألمان سيوفهم فى وجهى ويصرون بأسنانهم غضباً عند رؤيتى . وإنى لأرجو من البابا أن يمنحنى صلك غفران كامل وأن يرعى إخوتى وأخواتى إذا أصابنى مكروه »[٧٠] .

وهبت عاصفة من الكتيبات المناهضة للبابوية زادت من الإثارة وقال ألياندر فى أسى أن عربة لا تسع كل هذه المقالات البذيئة . وأصدر هوتن ، من قلعة سيكنجن فى ايبرنبورج على بعد أميال قليلة من ورمس ، نشرة تضمنت هجوماً محموماً ضد رجال الدين الألمان : « اذهبوا أيها الخنازير القذرة . . ارحلوا عن الهيكل المقدس أيها التجار المتبذلون ولا تلمسوا المذابح بأيديكم الدنسة . . . كيف تجرؤون على إنفاق المال المخصص لأغراض دينية فى مظاهر الترف وفى التبذل والأبهة بينما الناس الشرفاء يتضورون جوعاً ؟ لقد فاضت الكأس . ألا ترون أن نسمة الحرية قد بدأت تهب ؟ »[٧١] وكان تعاطف الناس مع لوثر قوياً إلى حد أن كاهن الاعتراف عند الإمبراطور الراهب الفرنشسكانى جان جلابيون اختلى بجورج سبالاتان راعى كنيسة فردريك فى محاولة للتوفيق بين الطرفين . وأعرب عن عطفه الكبير على كتابات لوثر الأولى ، ولكن « الأسر البابلى جعله يشعر » كما لو كان قد جلد بالسياط وضرب بمقبض السيف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . . » وأشار إلى أنه لا يمكن أن يقوم أساس سليم لعقيدة دينية تعتمد على الكتاب المقدس لأن « الإنجيل يشبه شمعاً طرياً يستطيع كل إنسان أن يفتله أو يمطه على هواه » . وسلم بالحاجة الملحة إلى إصلاح كهنوتى ، والحق أنه كان قد حذر إمبراطوره التائب من أن « الله سوف يعاقبه هو وكل الأمراء إذا لم يحرروا الكنيسة من مثل هذه المساوئ التى تنطوى على الغرور » . ووعد بأن شارل سوف ينجز الإصلاحات الكبرى خلال خمس سنوات . وحتى ذلك الوقت وبعد كل تلك الثورات اللوثرية المردعة كان يعتقد أن السلام ممكن إذا تراجع لوثر عما قاله[٧٢] . ولكن لوثر أبى عند ما أخطر بذلك فى فيتنبرج . . .

وفى الثالث من مارس قدم الياندر إلى المجلس النيابى (الدايت) اقتراحاً بالإدانة الفورية للوثر فاحتج المجلس بأن الراهب يجب ألا يدان دون سماع أقواله ، وعلى ذلك وجه شارل دعوة إلى لوثر للحضور إلى ورمس ليؤدى الشهادة عن تعاليمه وكتبه . وكتب له يقول : « لا حاجة بك إلى الخوف من التعرض لأى عنف أو إزعاج لأننا أعطيناك جواز الأمان »[٧٣] . وتوسل أصدقاء لوثر إليه ألا يذهب وذكروه بجواز الأمان الذى كان الإمبراطور سيجسموند قد أعطاه لهس وأرسل أدريان الأوترختى ، وكان وقتذاك كاردينالا لتورتوزا ، ثم نصب بابا بعد قليل ، التماساً إلى الإمبراطور تلميذه السابق طلب فيه أن يتجاهل جواز الأمان وأن يقبض على لوثر ويرسله إلى روما ، وفى اليوم التالى من ابريل غادر لوثر مدينة فيتنبرج ، وعند ما وصل إلى أرفورت حياه حشد كبير من بينهم أربعون أستاذاً من الجامعة باعتباره بطلا . وعند ما اقترب من ورمس سارع سبالاتان وأرسل له تحذيراً ألا يدخل المدينة وأن يقفل راجعاً على جناح السرعة إلى فيتنبرج . فرد عليه لوثر بقوله : « على الرغم من أن فى ورمس كثيراً من الشياطين بقدر عدد طوب القرميد على الأسطح فسوف أذهب إلى هناك »[٧٤] . وانطلقت عصبة من الفرسان الى لقائه ومرافقته إلى المدينة (١٦ ابريل) . وانتشر نبأ وصوله فى الطرقات فتجمع ٢٠٠٠ نسمة حول عربته ، وقال أليائدر « يخيل إلى أن العالم بأسره أقبل لرؤيته بل وحتى شارل حجب فى الظلال » .

وفى يوم ١٧ ابريل مثـل لوثر فى رداء الرهبان أمام المجلس النيابى (الدايت) الإمبراطور وستة أمراء مختارون محكمة رهيبة من الأمراء والنبلاء والبطاركة وأوساط الناس وجيروم أليائدر مسلحاً بسلطة بابوية ووثائق رسمية وفصاحة قضائية ورصت على منضدة قريبة من لوثر مجموعة من الكتب . وتصدى جوهان ايك — ولم يكن صاحب مناظرة ليبتسيج بل موظفاً عند كبير أساقفة ترير — وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو

على استعداد لإنكار كل هذه الهرطقة التى تضمها ؟ ومرت لحظة على لوثر وهو واقف أمام هذا الجمع الذى يمثل هيئة الإمبراطورية والسلطة النيابية وجلال الكنيسة ، فخانته شجاعته وأجاب بصوت خافت حتى أن الكتب من تأليفه ، وأما بالنسبة للسؤال الثانى فإنه التمس منحه مهلة للتفكير فأمهله شارل يوماً . وعند ما عاد إلى مسكنه تلقى رسالة من هوتن يناشده فيها الثبات فى موقفه ، وأقبل كثير من أعضاء المجلس النيابى لزيارته زيارة خاصة لتشجيعه ويبدو أن الكثيرين كانوا يحسون بأن جوابه النهائى سوف يكون نقطة تحول فى التاريخ .

وفى يوم ١٨ إبريل واجه المجلس النيابى بثقة كاملة ، وكانت قاعة المجلس تموج بالحاضرين إلى حد أن الأمراء المختارين وجدوا صعوبة بالغة فى الوصول إلى مقاعدهم ووقف معظم الحضور . وسأله ايك عما إذا كان على استعداد لإنكار المؤلفات التى كان قد كتبها كلياً أو جزئياً ، فأجاب بأن تلك الأجزاء التى تناولت المفاسد الكهنوتية صحيحة بإجماع الآراء فقاطعه الإمبراطور بصوت جهورى دوى فى القاعة « لا » . ولكن لوثر استأنف حديثه وهاجم شارل نفسه فقال : « إذا أنكرت ما قلت فى هذا الوقت فإنى أفتح الباب لمزيد من الطغيان والزندقة وسوف يصبح هذا كله أسوأ ما يكون إذا ظهر أنى فعلت هذا بناء على طلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . أما بالنسبة للفقرات العقائدية فى كتبه فقد وافق على أن يسحب أى فقرة منها إذا ثبت أنها تخالف ماجاء فى الكتاب المقدس ، فأبدى إيك على هذا باللاتينية اعتراضاً عبر تماماً عن وجهة نظر الكنيسة : « يا مارتن إن التمسك بسماع ما جاء فى الكتاب المقدس هو نفس ما كان يتذرع به دائماً الهراطقة انك لا تفعل شيئاً سوى أن تكرر الأخطاء التى ارتكبها ويكليف وهس . . . كيف تدعى أنك الوحيد الذى يفهم معنى آيات الكتاب المقدس ؟ وهل تضع حكمك فوق حكم كتبه كثيرون من الرجال المشهورين وتزعم أنك تعرف أكثر ممايعرفون

جميعاً ؟ ليس لك الحق فى أن تدخل فى المناقشة العقيدة الأرثوذكسية المقدسة التى لقنها المسيح المشرع الكامل والتى نشرها الرسل فى أرجاء العالم ، والتى ختمت بدماء الشهداء وأكدتها المجالس المقدسة وعرفتها الكنيسة . . . والتى يحرم علينا البابا والإمبراطور مناقشتها خشية ألا ينتهى النقاش . إنى أسالك يا مارتن . أجب بأمانة وصدق بغير مواربة — هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التى تحتويها ؟ »[٧٥] فرد لوثر بجوابه التاريخى بالألمانية : ما دام جلالتكم وسيادتكم تريدون جواباً بسيطاً فإنى سأجيب بغير مواربة . . . ما لم تدينى آية فى الكتاب المقدس أو الحجة الواضحة (وأنا لا أقبل سلطة البابوات والمجالس الدينية لأن كلا منهم يناقض الآخر) فإن ضميرى أسير لكلمة الله . وأنا لا أستطيع أن أسحب شيئاً من أقوالى . ولن أفعل هذا ، لأن مخالفــة ضميرى ليس من الصواب والأمن فى شيء . أسأل الله العون . آمين »[٧٦][*] .

فواجهه إيك بأنه لا يمكن إثبات أى خطأ فى المراسيم العقائدية التى أصدرتها المجالس ، فرد عليه لوثر بأنه على استعداد لإثبات مثل هذه الأخطاء ، ولكن الإمبراطور اعترض قائلا بلهجة قاطعة : « هذا يكفى . ما دام أنه أنكر المجالس فإننا لا نود سماع كلمة أخرى »[٧٨] . وعاد لوثر إلى مسكنه وقد أنهكه الصراع ولكنه كان واثقاً من أنه قدم شهادة طيبة فيما أسماه كارلايل « أعظم لحظة فى التاريخ الحديث الإنسانية »[٧٩] .

كان الإمبراطور لا يقل رجفة عن الراهب . ولما كانت تجرى فى عروقه الدماء الملكية ولأنه ألف السلطة فإنه اعتقد أن من الأمور التى لا تحتاج إلى برهان أن حق كل فرد فى تفسير الكتاب المقدس وقبول المراسيم المدنية أو الدينية أو رفضها طبقاً لهواه الشخصى وما يمليه عليه ضميره سوف

(*) ليس فى وسعنا أن نؤكد صحة الكلمات المشهورة التى حفرت على النصب التذكارى الفخم الذى أقيم تخليداً للوثر فى ورمس — « هنا أقف ولا أستطيع أن أعمل شيئاً آخر » . ولم ترد الكلمات فى النسخة المطابقة لرد لوثر كما هو مثبت فى سجلات المجلس النيابى (الدايت) لأول مرة فى أول رواية طبعت لخطابه[٧٧] .

يعجل بتقويض أسس النظام الاجتماعي لأن هـــذا كما بدا له قائم على قانون أخلاقي يستمد بدوره قوته من الأحكام الخارقة للعقيدة الدينية .

وفي اليوم التاسع عشر من إبريل دعا كبار الأمراء إلى مؤتمر عقده في حجراته الخاصة وقدم لهم بياناً عن الولاء والنية مكتوباً بالفرنسية ويبدو أنه كتبه بنفسه : « إني أنحدر من صلب سلسلة طويلة من الأباطرة المسيحيين لهذه الأمة الألمانية النبيلة ومن ملوك أسبانيا الكاثوليكيين ومن أرشيدوقات النمسا ودوقات برغنديا . وكانوا جميعاً أوفياء حتى الموت لكنيسة روما ، ولقد دافعوا عن العقيدة الكاثوليكية ومجد الرب وقد عزمت على أن أحذو حذوهم . إن راهباً واحداً يسير ضد المسيحية بأسرها كما عرفت منذ ألف عام لا بد أن يكون على خطأ مبين ، ومن ثم فإني قررت أن أخاطر ببلادي وأصدقائي وجسمي ودمي وحياتي وروحي . . . وبعد أن استمعت أمس إلى دفاع لوثر المتشبث برأيه فإني آسف لأني تأخرت طويلا في اتخاذ الإجراءات ضده . وضد تعاليمه الزائفة . لن يكون لي معه شأن آخر . وفي وسعه أن يعود فقد منحته جواز الأمان ولكن عليه أن يمتنع عن الوعظ أو إحداث أية فتنة ولسوف أحاكمه على أنه هرطيق سيئ السمعة وإني أطلب منكم أن تدلوا بآرائكم كما وعدتموني »[٨٠] .

فوافق أربعة من الأمراء المختارين على هذا الإجراء وامتنع فردريك صاحب ساكسونيا ولودفيج صاحب بالاتينيت عن إبداء رأيهما — وفي تلك الليلة — ١٩ إبريل ثبت أشخاص مجهولون على باب قاعة المدينة وفي أماكن أخرى من ورمس إعلاناً كبيراً يحمل حذاء الفلاح رمز الثورة الاجتماعية . وأفزع هذا بعض رجال الدين وألحوا شخصياً على لوثر بإحلال الوئام محل الخصام مع الكنيسة ، ولكنه أيد تصريحه للمجلس النيابي . وفي السادس والعشرين من إبريل بدأ رحلة العودة إلى فيتنبرج وأرسل ليو أوامر تقضي باحترام جواز الأمان[٨١] ، ومع ذلك فإن الأمير المختار فردريك خشي أن يحاول رجال الشرطة الإمبراطورية القبض على لوثر بعد انتهاء مفعول جواز الأمان

يوم ٦ مايو ، فرتب — بعد أن رضى لوثر بهذا على مضض — كميناً له فى طريق عودته إلى وطنه ، كما لو كان من عمل قطاع الطرق وأخذه خفية إلى قلعة فارتبورج .

وفى السادس من مايو قدم الإمبراطور للمجلس النيابى ، وكان عدد أعضائه قد انخفض بسبب رحيل الكثيرين ، المسودة التى أعدها ألياندر عن منشور ورمس وفيه يتهم لوثر بأنه « دنس الزواج واستخف بالاعتراف وأنكر وجود جسد الرب ودمه . ثم إنه يجعل القربان المقدس يتوقف على إيمان من يتناوله . إنه وثنى فى إنكاره الإرادة الحرة . إن هذا الشيطان الذى يرتدى مسوح راهب قد جمع الأخطاء القديمة فى بركة آسنة منتنة ، بل وابتدع أخطاء جديدة أنه ينكر سلطة الرؤساء ، ويشجع العلمانيين على أن يغسلوا أيديهم من دم رجال الدين . وتعاليمه تدعو إلى العصيان والانقسام والحرب والقتل والسرقة والحرق عمداً وإلى انهيار العالم المسيحى وهو يحيا حياة بهيمية . لقد أحرق المراسيم البابوية ، إنه يحتقر الحرمان من غفران الكنيسة والسيف على السواء . وهو يلحق بالسلطة المدنية من الأذى أكثر مما يلحق بالسلطة الكهنوتية للكتاب المقدس الذى يفسره على هواه . لقد أمهلناه واحداً وعشرين يوماً من ١٥ أبريل . . . وعند ما تنقضى هذه المهلة فليس لأحد أن يؤويه ولسوف يدان أتباعه أيضاً . أما كتبه فيجب أن تمحى من ذاكرة الإنسان »[٨٢] .

وبعد يومين من تقديم هذا المنشور حول ليو العاشر تأييده السياسى من فرانسيس الأول إلى شارل الخامس . ووافق المجلس النيابى (الدايت) المجرد من السلطة على المنشور ، وفى اليوم السادس والعشرين من مايو أصدره شارل رسمياً فحمد ألياند الرب وأمر بإحراق كتب لوثر أينما وجدت .

٦ — الراديكاليون

كانت فارتبورج فى حد ذاتها قطعة من العذاب الكئيب ، فقد كانت القلعة القديمة تجثم على قمة جبل على مسيرة ميل من إيزيناخ ، وكانت مختفية

عن أنظار العالم وعن أنظار الإمبراطور أيضاً . وأقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة شهور (٤ مايو سنة ١٥٢١ إلى ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٢) فى غرفة مظلمة مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كمقعد . وكان يحرس القلعة بضعة جنود ، ويعنى بالأراضى حارس ، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وصيفين له . ورأى أن من الأوفق ، ولعل هذا كان من قبيل التنكر المحلى ، أن يخلع مسوح الرهبان ، ولبس رداء فارس ، وأطلق لحيته ، وأصبح وقتذاك يعرف باسم جورج النبيل الألمانى الشاب ، وخرج للصيد ولكنه لم يستطب قتل الأرانب فى الوقت الذى لا يزال فيه كثير من المناهضين للمسيحية بنجوة من القتل . وأسقمه الكسل والأرق وكثرة الطعام وشرب الجعة وأصيب بالبدانة وأخذ يسب ويلعن كما يفعل أى نبيل ألمانى شاب وكتب يقول : « ليتنى أحرق على جمرات ملتهبة فهذا خير لى من أن أتعفن هنا . . . بودى أن أخوض غمار المعركة »[٨٣] . ولكن وزير فردريك نصحه بأن يظل فى مخبئه لمدة عام ريثما تهدأ حماسة شارل . ومهما يكن من أمر فإن شارل لم يبذل أى جهد للعثور عليه أو لاعتقاله .

وراودت الشكوك والأوهام لوثر فى خلوته الفكرية وتساءل أيمكن أن أن يكون على حق وأن يكون مثل هؤلاء الأحبار على ضلال ؟ وهل كان من الحكمة أن يقوض دعائم عقيدة راسخة ؟ وهل مبدأ الاجتهاد الشخصى تذر بنشوب الثورة والقضاء على القانون ؟ إذا كنا نصدق القصة التى رواها فى أخريات أيامه فإن أصواتاً غريبة كانت تزعجه . . . أصواتاً لم يستطع تفسيرها إلا بأنها من صنع الشياطين وأكد أنه رأى الشيطان فى مناسبات عديدة وقرر أن الشيطان رجمه يوماً بالجوز[٨٤] . وتذهب أسطورة مشهورة إلى أن لوثر قذفه يوماً بزجاجة حبر ولكنها أخطأته[٨٥] . وكان يسلى نفسه بكتابة خطابات ناصعة العبارة لأصدقائه وأعدائه وبتأليف عجالات فى علم اللاهوت وبترجمة العهد الجديد إلى الألمانية وقام فى إحدى المرات برحلة خاطفة إلى فيتنبرج لزكى نار ثورة ه

وكان تحديه لرجال الدين فى ورمس وبقاؤه على قيد الحياة قد أدارا رؤوس أتباعه وجعلهم يتيهون إعجاباً .

وفى أرفورت هاجم الطلبة وأصحاب الحرف والفلاحون أربعين بيتاً فى الأبرشيات وهدموها وأتلفوا مكتبات ومحفوظات وقتلوا عالماً بالإنسانيات (يونيه ١٥٢١) ، وفى خريف ذلك العام المثير هجر الرهبان الأوغسطينيون فى أرفورت الدير وبشروا بالعقيدة اللوثرية ونددوا بالكنيسة باعتبارها «أم الجمود والخيلاء والشح والترف والجحود والهرطقة »[٨٦] .

وحينما ألف ميلانكتون فى فيتنبرج كتابه **Loci Communes rerum theologicarum** (١٥٢١) — وهو أول عرض منهجى للاهوت البروتستانتى . طالب زميله الأستاذ كارلشتادت ، وكان قد أصبح وقتذاك رئيساً للشمامسة فى كنيسة القلعة ، بأن يتلى القداس (إذا كان لا بد منه) باللغة الوطنية وأن يتناول القربان المقدس بالنبيذ والخبز دون أن يسبقه اعتراف أو صوم ، كما يجب أن ترفع الصور الدينية من الكنائس وأن يتزوج رجال الدين — من رهبان وقساوسة علمانيين — وأن ينجبوا . واتخذ كارلشتادت خطوة بالزواج من فتاة فى ربيعها الخامس عشر (١٩ يناير سنة ١٥٢٢) وكان هو فى الأربعين من عمره .

ولم يستنكر لوثر هذا الزواج ولكنه كتب يقول : « يا للسماء ! أيقبل أهالى فيتنبرج أن يقدموا زوجات للرهبان ؟ »[٨٧] ومع ذلك فإنه وجد فى الفكرة ما يجذبه لأنه بعث إلى سبالاتان (٢١ نوفمبر سنة ١٥٢١) برسالة عن « عهود الرهبنة » دافع فيها عن نبذهم لهذه العهود . فتباطأ سبالاتان فى نشره لأنه كان صريحاً بصورة تخالف التقاليد إذ كان يسلم بأن الغريزة الجنسية أمر طبيعى لا يمكن قمعه ويعلن أن عهود الرهبنة من غوايات الشيطان وأنها تضاعف الآثام ، وكان لا بد من مرور أربع سنوات قبل أن يتزوج لوثر نفسه إذ يبدو أن تقديره المتأخر للمرأة لم يلعب دوراً فى افتتاح عهد الإصلاح الدينى .

ومضت الثورة قدماً فى اليوم الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٥٢١ ناول ميلانكتون القربان المقدس بكلا الطريقتين وهنا ظفر الأواكويستيون فى بوهيميا بنصر جاءهم على مهل ، وتوقفت تلاوة القداس فى دير لوثر يوم ٢٣ أكتوبر وخرج ثلاثة عشر راهباً من الدير يوم ١٢ نوفبر وتقدموا للزواج ، وسرعان ما خلت نصف أديرة ألمانيا على إثر خروج مماثل . وفى الثالث من ديسمبر دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الأبرشية فى فيتنبرج وطردوا القساوسة من المذابح ورجموا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة أمام تمثال للعذراء . وفى الرابع من ديسمبر هدم أربعون طالباً مذابح دير الفرنشيسكان فى فيتنبرج وفى اليوم نفسه زار لوثر ، وكان لايزال متنكراً فى زى نبيل ألمانى شاب ، المدينة خفية وأقر زواج الرهبان ولكنه حذر رجال الدين والعلمانيين من الالتجاء إلى العنف وقال : « إن الإكراه ليس حقاً مطلقاً للجميع ولكنه يجب أن تمارسه السلطات الشرعية»(٨٨) . وفى اليوم التالى عاد إلى فارتبورج وبعدذلك بقليل أرسل إلى سبالاتان للنشر كتاب : « تحذير » جاد لكل المسيحيين يحذرهم من العصيان والثورة فقد خشى إذا انتشرت الثورة الدينية بسرعة أو إذا أصبحت ثورة اجتماعية أن تنفر منها طبقة النبلاء وتقضى على نفسها ، غير أن صفحاته الأولى ذاتها كانت موضع انتقاد لأنها كانت تحض على العنف .

« يخيل إلى أن المحتمل أن يكون هناك خطر من الثورة ، وأن القساوسة والرهبان والأساقفة والطبقة الروحية بأسرها يمكن أن تتعرض للقتل أو الإبعاد إلى المنفى ما لم يصلحوا من أنفسهم تماماً وبصورة حادة ، ذلك لأن الرجل العادى كان يتذكر دائماً فى فزع الضرر الذى حاق به فى المال والجسد والروح وأصبح هدفاً للاستفزاز . لقد أمعنوا فى اختباره إلى حد بعيد وحملوه ما لا طاقة له به بلا وازع من ضمير . ولم يكن فى وسعه ، هذا ولم يشأ ، أن يتحمله بعد ذلك واستطاع أن يتعلل بحجة قوية لكى يضرب

فى كل اتجاه بمدقات الحنطة والمراوات كما يهدد الفلاحون بالقيام بهذا العمل . وأنا الآن لست مستاء أن أسمع أن رجال الدين قد وصلوا إلى مثل هذه الحالة من الخوف والقلق . ولعلهم عادوا إلى رشدهم وخففوا من استبدادهم الجنونى . . . بل إنى سوف أمضى إلى أبعد من هذا . لو أن لى عشرة أجساد واستطعت أن أنال من الله منة فيقتص منهم (أى من رجال الدين) بالوسائل الرقيقة (ذيل الثعلب غزير الشعر) التى تؤدى إلى الوفاة أو العصيان فإنى أهب أجسادى العشرة كلها للموت وأنا مغتبط « فى سبيل الفلاحين الفقراء »[٨٩] . وأردف يقول : « ومع ذلك فإن على الأفراد أن يتحاشوا الالتجاء إلى القوة فالله منتقم جبار » .

« إن العصيان أمر غير معقول وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين . ولذلك فإن العصيان ليس من الصواب ، فى شىء ، مهما كان الدافع لأصحاب المصلحة فيه ، ذلك لأن الضرر الذى ينجم عنه يتجاوز دائماً قدر ما يتم من الإصلاح . . . وعند ما يتخلص السيد فلان (أى سيد) من قيده فإنه لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ويضرب خبط عشواء وعندئذ لا مناص من وقوع ظلم فظيع . . . إن عواطفى ستكون دائماً ، ولسوف تظل ، مع أولئك الذين يوجه التمرد ضدهم »[٩٠] .

واستمرت الثورة سلمية إلى حد ما . وفى يوم عيد الميلاد منذ عام ١٥٢١ أقام كارلستادت القداس باللغة الألمانية ، وهو يرتدى ملابس مدنية ودعا الجميع إلى تناول القربان المقدس بأخذ الخبز فى أيديهم والشرب من كأس القـــداس .

وفى ذلك الوقت تقريباً دعا جابرييل تسفيلينج ، وهو أحد زعماء الطائفة الأوغسطينية ، مستمعيه إلى إحراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر صب « الأنبياء » الذين وصلوا من تسفيكا الزيت على النار . وكانت هذه المدينة من أعظم المدن الصناعية

فى ألمانيا ، وفيها عدد كبير من السكان يشتغلون بالنسيج فى ظل بلدية أعضاؤها من السادة التجار ، وشُجّعت حركة اجتماعية من العمال بأصداء وذكريات تجربة التابورية التى قمعت وأثارت بوهيميا القريبة ، وأصبح توماس مينتسر راعى كنيسة سانت كاترين للنساجين الناطق بلسانهم والمعبر عن آمالهم وأصبح فى الوقت نفسه نصيراً متحمساً للإصلاح الدينى ، وعند ما أدرك أن تعظيم لوثر للإنجيل باعتباره القاعدة الوحيدة للعقيدة قد أثار التساؤل عمن يفسر النص أعان منتسر واثنان من رفاقه — وهما نيكولاس ستورك النساج وماركوس شتيبنر العالم — أنهم وحدهم مؤهلون ليكونوا مفسرين للكتاب المقدس فقد أحسوا بأنهم يوحى إليهم من الروح القدس . وصرحوا بأن هذه الروح المقدسة أمرتهم بأن يؤجلوا العماد إلى حين بلوغ سن الرشد لأن القربان المقدس لا يكون له أثر إلا بالإيمان وهو أمر لا ينتظر من الأطفال . وتنبأوا بأن العالم سيتعرض قريباً لخراب شامل يهلك فيه كل الفجار — بما فيهم جميع القساوسة الجامدين بصفة خاصة ، ونبدأ بعد ذلك على الأرض مملكة الرب الشيوعية[٩١] وفى عام ١٥٢١ سحق تمرد قام به النساجون وأقصى ثلاثة من « رسل تسفيكاو » وانطلق منتسر إلى براغ فأخرج منها وحصل على أبرشية فى « الشتدت فى ساكسونيا » . وذهب ستورك وشتيبنر إلى فيتنبرج وكان لهما أثر طيب على ميلانكتون وكارلشتادت أثناء غياب لوثر .

وفى يوم ٦ يناير سنة ١٥٢٢ تبدد جمع الأوغسطينيين فى فيتنبرج ، وفى يوم ٢٢ يناير كان أنصار كارلشتادت قد بلغوا حظاً كبيراً من القوة فى المجلس البلدى إلى حد أنهم عملوا على إصدار مرسوم يقضى برفع كل الصور من كنائس فيتنبرج ، وتحريم القداس إلا إذا أقيم بالشكل المبسط الذى ينادى به كارلشتادت . وأدخل كارلشتادت صورة صلب المسيح ضمن الصور الممنوعة وحرم مثل المسيحيين الأوائل عزف الموسيقى فى

العبادات ، وقال : « إن ألحان الأرغن الفاجرة تدعو إلى التفكير فى أمور الدنيا ، فى الوقت الذى ينبغى فيه أن نتأمل فى آلام المسيح التى تذكرنا بأسطورة بيراموس وتسيبيه Byramus Thibes . . . أبعدوا آلات الأرغن والأبواق والناى إلى المسرح »(٩٢) .

وعند ما أرجأ مندوبو المجلس إزالة الصور قاد كارلشتادت أتباعه إلى داخل الكنائس ، ومزقت الصور والصلبان من فوق الجدران ورجم القساوسة الذين قاوموهم أيضاً بالأحجار(٩٣) . وقبل كارلشتادت رأى أنبياء تسيفاكاو — أن الله يخاطب الناس مباشرة كما يخاطبهم من خلال الأسفار المقدسة ، بل ويتكلم مع بسطاء العقول والقلوب أكثر مما يتكلم مع المتبحرين فى اللغات والكتب — ولما كان هو نفسه علامة فإنه أعلن أن المدارس والدراسات تصرف الناس عن التقوى وأن المسيحيين حقاً سوف يعرضون عن كل الآداب والعلوم والفنون وعن التعليم ويصبحون فلاحين أميين أو حرفيين . وصرف أحد أتباعه وهو جورج مور طلبة المدرسة الذين يدرس لهم وحرض الآباء على أن يحافظوا على براءة أطفالهم من التأثر بالآداب والعلوم والفنون وترك عدد كبير من الطلاب الجامعة وانكفأوا إلى بيوتهم ليتعلموا حرفة يدوية وقالوا إنه لا حاجة بهم بعد هذا إلى الدراسة .

وعند ما سمع لوثر بهذا خشى أن يجد نقاده المحافظون ما يؤيد نبوءاتهم التى رددوها بأن رفضه التسليم بالسلطة الكنسية سوف يفصم عرى النظام الاجتماعى بأكمله . وتحدى لوثر أمر الإمبراطور وضرب عرض الحائط بالحماية التى أسبغها عليه الأمير المختار إذا سعى شارل للقبض عليه . فغادر قلعته وعاد إلى ارتداء مسوح الرهبان وحلق شعر راسه وسارع بالعودة إلى فيتنبرج ، وفى يوم ٩ مارس عام ١٥٢٢ بدأ سلسلة مؤلفة من ثمانى عظات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين إلى مراعاة النظام ، ذلك لأنه لم يكن يحبذ وقتذاك أى التجاء إلى العنف ، ولم لا ؟ ألم يحرر الملايين من الناس من

عسف الكنيسة دون أن يرفع شيئاً أكثر من القلم ؟ وقال : « اتبعونى فأنا أول من اختصه الله بهذا الأمر والرجل الذى كشف له سبحانه وتعالى عن كلمته التى لا بد أن أبشركم بها . ولذلك أقول إنكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم فى القيام بهذا العمل دون . . . أن تستشيرونى أولا[94] ... أمهلونى بعض الوقت . . . ولا تظنوا أن المظالم تمحى بتدمير الهدف الذى يساء التصرف فيه . إن الناس يمكن أن يضلوا بالنبيذ والنساء فهل نحرم شرب النبيذ ونقضى على النساء ؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم فهل ننتزعها من السماء[95] ؟ » إن الذين يريدون الاحتفاظ بالصور والتماثيل والصلبان وسماع الموسيقى أو ترتيل القداس يجب ألا يتدخل أحد فى شئونهم فهو نفسه قد أقر الصور الدينية[96] . واتفق على ضرورة إقامة القداس وفقاً للشريعة التقليدية فى إحدى كنائس فيتنبرج وعلى تناول القربان المقدس فى كنيسة أخرى بالخبز وحده فى المذبح العالى وبالخبز والنبيذ فى مذبح جانبى . . . وقال لوثر إن الشكل لا يهم إلا قليلا والمهم هو الروح التى يتناول بها القربان المقدس .

كان فى أحسن حالاته وأعظم الناس استمساكاً بالمسيحية فى تلك العظات الثمانية التى ألقاها فى ثمانية أيام . ولقد خاطر بكل شىء لكى يتمكن من كسب فيتنبرج والعودة بها إلى حظيرة الاعتدال ، ونجح فى ذلك ، وسعى أنبياء تسفيكا لتحويله إلى آرائهم وعرضوا أن يقرأوا أفكاره كدليل على أنهم يتلقون الوحى من الله فقبل التحدى وأجابوا بأنه يضمر لأفكارهم عطفاً خفياً فرد جلاءهم البصرى إلى الشيطان ، وأمرهم بمغادرة فيتنبرج وعند ما فصل كارلشتادت من وظائفه بقرار من مجلس مدينة أعيد تكوينه ، أخذ أبرشية فى أورلاميندية ، وندد من فوق منبرها بلوثر ووصفه بأنه : « كاهن نهم . . . وبابا فيتنبرج الجديد »[97] . ولقد سبق كارلشتاد جماعة الكويكر فتخلى عن كل الثياب الكهنوتية وارتدى معطفاً رمادياً بسيطاً

واستغنى عن الألقاب وطلب أن يدعى « الأخ أندرياس » ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية ، وعمل على كسب عيشه بالمحراث ورفض كل استخدام للعقاقير وفضّل الصلاة على الدواء ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره أمراً لم يحرمه الإنجيل ، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان المقدس ، وذهب لوثر بناء على طلب الأمير المختار إلى أورلاميندية ليعظ ضد كارلشتادت ولكنه أخرج من المدينة ورجم بالحجارة والطين[٩٨] . وعندما انهارت ثورة الفلاحين خشى كارلشتادت أن يقبض عليه بتهمة التحريض فسعى إلى مكان أمين مع لوثر وحصـل عليه . وبعد جولة طويلة وجد الراديكالى ملجأه الأمين بالعمل أستاذاً فى بازيل حيث قضى نحبه فى هدوء عام ١٥٤١ فى جو مدرسى .

٧ — أسس الإيمان

استأنف لوثر طريقه العام غير المستقيم باعتباره قساً لطائفة وأستاذاً فى الجامعة — ودفع له الأمير المختار مرتباً قدره ٢٠٠ جيلدر (٥,٠٠٠ دولار؟) سنوياً وكان كل طالب يضيف إليه أتعاباً زهيدة مقابل حضور محاضراته .

وعاش لوثر صحبة راهب آخر ، وكان كل منهما يرتدى ملابس عامة الناس فى دير أوغسطينى مع طالب يقوم بخـدمتها وقال : « كان فراشى لا يرتب لمدة عام كامل حتى يصبح قذراً تفوح منه رائحة العرق ، ومع ذلك كنت أواصل العمل طوال النهار فإذا جن الليل أكون منهوك القوى إلى حد أنى أتهاوى فى الفراش دون أن أدرى أن هنالك خطأ ما »[٩٩] . وكان العمل الشاق يغفر له شهيته المفتوحة وفى هذا يقول : « إنى آكل كبوهيمى وأشرب كألمانى والحمد لله آمين »[١٠٠] .

وكان يعظ كثيراً ولكن فى إيجاز يتسم بالإشفاق ، وبلغة بسيطة أخاذة تستولى على ألباب مستمعيه الأجلاف . وكانت رياضته الوحيدة هى الشطرنج

والعزف على الناى ، ويبدو أنه كان يجد متعة أكبر فى الساعات التى يقضيها فى مهاجمة « البابويين » . كان أقوى من عرفه التاريخ فى الجدل لا يصده عنه شيء . وكانت كل كتاباته تقريباً صراعاً ممتزجاً بعبارات لاذعة تفيض سخرية وطعناً . وترك خصومه يتأنقون فى اللاتينية الرفيعة بحيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين وكان هو أيضاً يكتب باللاتينية عندما يريد مخاطبة العالم المسيحى بأسره ، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه ألفه بالألمانية أو كان يترجم فوراً إلى الألمانية لأن ثورته كانت وطنية ولم يبزه مؤلف ألمانى آخر فى وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفى مباشرة عباراته وحدتها اللاذعة وفى تشبيهاته الموفقة والتى كانت أحياناً تبعث على الابتهاج فى ألفاظ تمتد جذورها فى كلام الناس وتلائم العقلية القومية .

ووافقت الطباعة أغراضه باعتبارها بدعة أرسلتها العناية الإلهية فيما يبدو فاستخدمها ببراعة لا ينضب لها معين ، وكان أول من جعل منها آلة للدعاية والحرب ولم تكن هناك وقتذاك جرائد ولا مجلات ، وكانت المعارك تذكيها الكتب والعجالات والرسائل الخاصة التى دبجت للنشر . وارتفع عدد الكتب المطبوعة ، فى ألمانيا من ١٥٠ عام ١٥١٨ إلى ٩٩٠ عام ١٥٢٤ ، وذلك بحافز من ثورة لوثر ، وكانت أربعة أخماس هذه الكتب تؤيد الإصلاح الدينى أما الكتب التى كانت تدافع عن العقيدة المحافظة فقد كان من الصعب أن تجد من يشتريها ، فى حين كانت مؤلفات لوثر هى أكثر الكتب رواجاً فى هذا العصر ، وكانت لا تباع فى المكتبات فحسب بل كانت تباع عند الباعة الجائلين والطلبة المسافرين أيضاً ، وقد أحضرت ١٤٠٠ نسخة فى سوق واحدة بفرانكفورت ، بل إن ما بيع منها فى باريس عام ١٥٢٠ فاق ما بيع من أى كتاب آخر . وفى مطلع عام ١٥١٩ صدرت لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والأراضى المنخفضة وانجلترا . وكتب أرازموس عام ١٥٢١ يقول : « إن كتب لوثر فى كل مكان وبكل لغة ولن يصدق أحد مدى تأثيره فى الناس »(١٠١) .

ورجح الأثر الأدبي القوى للمصلحين كفة المطبوعات من جنوبي أوروبا إلى شمالها حيث ظلت على هذا الوضع منذ ذلك . كانت الطباعة هي الإصلاح الديني ، ولا شك أن جوتنبرج هو الذى جعل نجاح لوثر ممكناً .

وكان أعظم عمل قام به لوثر هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية . كانت ثمانى عشرة ترجمة مثلها قد تمت من قبل ولكنها اعتمدت على نسخة جيروم اللاتينية من الكتاب المقدس ، وحفلت بالأخطاء وصيغت عباراتها بأسلوب سقيم ، وكانت صعوبات الترجمة عن الأصل مروعة ولم تكن هناك بعد معاجم من العبرية أو اليونانية إلى الألمانية وكل صفحة من النص تثير مائة مسألة فى التفسير ، وكانت اللغة الألمانية ذاتها لا تزال تفتقر إلى الدقة والإحكام فى التركيب ، واستخدم لوثر فى ترجمة العهد الجديد النص اليونانى الذى كان أرازموس قد نشره مع نسخة لاتينية عام ١٥١٦ ، وأكمل هذا الجزء عام ١٥٢١ ونشر عام ١٥٢٢ . وبعد عمل دائب استمر أكثر من اثنى عشر عاماً ، ووسط كفاح دائم فى مجال علم اللاهوت نشر لوثر العهد القديم بالألمانية ، ولكن بمساعدة ميلانكتون وعدد من الباحثين اليهود وبرغم عدم دقة الدراسة فى هذه الترجمات فإنها كانت من الأحداث المهمة فى هذا العهد ، فقد افتتحت الأدب الألمانى وأصل اللغة الألمانية الجديدة الرفيعة فى ساكسونيا العليا — باعتبارها اللغة الأدبية لألمانيا . ومع ذلك فإن الترجمات كانت غير أدبية عن عمد ، وعلى نهج اللغة الدارجة ، وقد فسر لوثر منهجه بطريقته الواضحة المعهودة فقال : « ينبغى ألا نطلب ، كما يفعل الحمير ، من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية بل يجب أن نسأل الأمهات فى بيوتهن والأطفال فى الشوارع وعامة الناس فى السوق . . . يجب أن نسترشد بهم فى الترجمة ولسوف يفهموننا ويعرفون أننا نخاطبهم بالألمانية »[١٠٢] . ومن هنا كان لترجمته فى ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملك جيمس المترجمة بعد قرن : كان لها تأثير حميد لا حد له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى فى الأدب القومى .

وطبعت فى فيتنبرج مائة ألف نسخة من عهد لوثر الجديد إبان حياته ، وظهرت فى أمكنة أخرى اثنتا عشرة طبعة لم يرخص بها وعلى الرغم من المنشــورات التى تحرم تداولها فى براندنبرج وبافاريا والنمسا فإنها أصبحت أكثر الكتب رواجاً فى ألمانيا وظلت كذلك .

وأثمرت ترجمات الإنجيل كنتيجة وعامل مساعد معاً وأعانت على أن تستبدل باللاتينية اللغات الوطنية والآداب التى واكبت الحركة القومية والتى سايرت هزيمة الكنيسة العالمية فى بلاد لم تكن قد تلقت اللغة اللاتينية وغيّرتها .

ولما كان لوثر قد أكب طويلا على الكتاب المقدس وورث وجهة نظر القرون الوسطى عن صدوره من الله فإنه جعله عن محبة خالصة المصدر الأوحد لعقيدته الدينية وشريعتها . ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التى لا تقوم على ما جاء فى الكتاب المقدس — مثل تعميد الطفل والراحة يوم الأحد — فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة فى أن تضيف إلى المسيحية عناصر لا تعتمد على ما جاء فى الكتاب المقدس وإنما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل المطهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسيين وكان كشف فالا عن « هبة قسطنطين » (هبة أوربا الغربية المزعومة للبابوات) باعتبارها أضحوكة عتيقة فى التاريخ قد زعزع إيمان الآلاف من المسيحيين فى الوثوق بروايات الكنيسة وشكك فى الشرعية الملزمة لمراسيمها وفى عام ١٥٣٧ ترجم لوثر نفسه رسالة فالا إلى الألمانية . فالرواية يقوم بها إنسان عرضه للزلل أما الكتاب المقدس فقد قبلته أوروبا بأسرها تقريباً وعدته كلمة الله التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ثم إن العقل أيضاً يبدو ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان فى وحى من لدن الله ، وقال « نحن المساكين ، الناس التعساء . . . نسعى فى غرور إلى فهم الجلال الذى يدق على الفهم لنور عجائب الله التى لا تدرك . . . ونحن نتطلع بعيون مغمضة ، مثل حيوان الخلد ، إلى مجد الله »(١٠٣) . وقال لوثر : « أنت

لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر » .

« إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التى كشف لنا الله عنها فى كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة . فإذن كيف يعتقد ذلك الأحمق الصغير الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه لنشربه فى العشاء الأخير ؟ . . . أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة ؟ . . . أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدته ثم غدا رجلا يتعذب ثم يموت ميتة مخجلة على الصليب(١٠٥) ؟ . . . إن العقل هو أكبر عدو للإيمان . . . إنه أفجر صنائع للشيطان كبغى فتك بها الجرب والجذام ، ويجب أن توطأ بالأقدام ويقضى عليها هى وحكمتها . . . فاقذفها بالروث فى وجهها . . . وأغرقها فى العماد »(١٠٦) .

وأدان لوثر الفلاسفة الكلاميين لأنهم سلموا للعقل بكثير من الأمور ولأنهم حاولوا أن يثبتوا العقائد المسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقوا بين المسيحية وبين فلسفة(١٠٧) أرسطو ذلك الوثنى الداهية المغرور اللعين .

ومع ذلك فإن لوثر خطا خطوتين فى اتجاه العقل : جعل الموعظة ، وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية وأعلن فى الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد فى تفسير آيات الكتاب المقدس لنفسه . واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقـــدس : إلى أى مدى تتفق مع تعاليم المسيح ؟ وقال « إن كل ما لا يبشر بالمسيح ليس رسولياً حتى لو كتبه القديس بطرس أو القديس بولس . . . وكل ما يبشر بالمسيح يكون رسولياً حتى لو صدر من يهوذا وبيلاطس أوهيرودس »(١٠٨) . ورفض التسليم برسالة جيمس وأطلق عليها اسم : « رسالة الهشيم » لأنه لم يستطع أن يوفق بينها وبين رأى بولس

فى التبرير بوساطة الإيمان ، واستراب فى أن الرسالة من عمل العبريين إذ بدا أنها تنكر صحة التوبة بعد العماد (والذلك فإنها تؤيد الذين ينكرون التعميد النصرانى) وقدر أولا أن سفر الرؤيا مزيج لا يدرك من ضروب الوعد والوعيد « لا هى رسولية ولا نبوية »(١٠٩) .

« أما سفر عزرا الثالث فإنى أقذف به فى نهر ألبا »(١١٠) . وعلى الرغم من أنه يقوم على عقلية وثنية وأن معظم أحكامه التى تقوم على شريعة الكتاب المقدس قبلها النقاد الإنجيليون المتأخرون وقالوا إنها ذكية وسليمة . وقال : « إن أحاديث الأنبياء لم يدون منها شىء بانتظام فى حينه بل جمعها مريدوهم وسامعوهم فيما بعد . . . ولم تكن أمثال سليمان من عمل سليمان » . ولكن خصومه الكثالكة أكدوا أن الاختبارات التى وضعها للحكم على الصحة والوحى كانت ذاتية وتحكمية وتنبأوا أن نقاداً آخرين سيحذون حذوه ويرفضون الاعتراف بكتب مقدسة أخرى حسب أهوائهم وآرائهم حتى لا يبقى شىء من الكتاب المقدس يعتبر أساساً للعقيدة الدينية .

وباستبعاد الاستثناءات السالفة فإن لوثر دافع عن الكتاب المقدس باعتباره صحيحاً بحذافيره وحرفياً . وسلم بأنه لو لم ترد قصة يونس فى الحوت فى الكتاب المقدس لسخر منها وعدها خرافة وبالمثل حكايتا عدن والحية ، ويوشع والشمس ولكنه قال متى قبلنا القول بقداسة الكتاب المقـــدس ، فلا بد أن هذه القصص بالإضافة إلى الباقى حقيقة من كل وجه » . ورفض محاولات أرازموس والباقين للتوفيق بين الكتاب المقدس والعقل عن طريق التأويل المجازى(١١١) وعدها من قبيل الإلحاد . ولما كان قد فاز بالطمأنينة الذهنية لا عن طريق الفلسفة ولكن عن طريق الإيمان بالمسيح كما صورته الأناجيل ، فإنه اعتصم بالكتاب المقدس باعتباره الملاذ الأخير للروح ، وعارض علماء الإنسانيات وعبادتهم للكلاسيات الوثنية فعرض الكتاب المقدس لا باعتباره نتاج فكر بشرى ، بل باعتباره بركة من الله وعزاء للبشر .

وقال : « إنه يعلمنا أن نرى ونشعر وندرك ونفهم معنى الإيمان والأمل

والبر بطريقة مغايرة لما يستطيع أن يفعله العقل البشرى وعند ما تضيق صدورنا بالشر فإنه يعلمنا كيف تشع هذه الفضائل الضوء لكى يبدد الظلام وكيف أن هناك حياة أخرى خالدة بعد هذه الحياة الهزيلة التعسة التى نحياها على الأرض »(١١٢) .

وعنـــدما سئل عن الأساس الذى استند إليه فى أن الكتاب المقدس من وحى الله أجاب ببساطة أنه استند إلى تعاليمه ولا يمكن إلا لأناس ألهمهم الله أن يكونوا مثل هذا الإيمان العميق الذى هو عزاء للنفس .

٨ — لاهوت لوثر

وعلى الرغم من أن لاهوته قام على تصديق حرفية ما جاء بالكتب المقدسة فإن تفسيره احتفظ لا شعورياً بالروايات المأثورة فى القرون الوسطى المتأخرة . وجعلته قوميته عصرياً أما لاهوته فيمت إلى عصر الإيمان . وكانت ثورته موجهة ضد النظام الكاثوليكى وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية ولازمه معظم هذه الثورة إلى النهاية . بل إنه حذا فى ثورته حذو ويكليف وهس ولم ينتهج أى منهج جديد . فثورته مثل ثورتهما تكمن فى رفض البابوية والمجالس الدينية والمراتب الكهنوتية والاهتداء بأى شىء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس ، وقد وصف مثلهما البابا بأنه مناهض للمسيحية ووجد مثلهما الحماية فى رحاب الدولة . وتواصل الفكر من ويكليف إلى هس إلى لوثر يعد الخيط الرئيسى للتطور الدينى من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . فقـــد كان تواصل الفكر من الناحية اللاهوتية قد اعتصم بآراء أوغسطين عن القدر والرحمة ، وهذه الآراء كانت لها بدورها جذور فى رسائل بولس الذى لم يعرف المسيح قط . وقد تساقطت تقريباً جميع العناصر الوثنية التى شابت المسيحية عند ما اتخذت البروتستانتية شكلها

المرسوم وانتصرت الحيبة اليهودية على الإغريقية وفاز الأنبياء على أرسطو رائد فلسفة الجدليين وأفلاطون رائد علماء الإنسانيات وحول بولس باعتباره أقرب إلى مصاف الأنبياء منه إلى مصاف ـ الرسل ـ المسيح إلى تكفير عن خطيئة آدم وحجب العهد القديم العهد الجديد وأظلم يهوه وجه المسيح .

وكان مفهوم الله عند لوثر يهودياً ، وكان فى وسعه أن يتكلم بفصاحة عن رحمة الله وعفوه إلا أن صورة الله القديمة باعتباره منتقماً ثم صورة المسيح باعتباره القاضى الأخير أكثر استقراراً فى نفسه ، ولقد آمن دون أن يسجل أى اعتراض بأن الله قد أغرق كل البشر تقريباً فى الطوفان وأنه أحرق سدوم وأهلك الأراضى والناس والإمبراطوريات بنفثة من غضبه وإشارة من يده . ورأى لوثر أن « قلة قدر لها أن تنجو وأن كثرة كثيرة لحقتها اللعنة إلى الأبد »[١١٣] . ونبذت من القصة الأسطورة التى تخفف من هول تلك الصورة وهى التى تتناول الدور الذى تقوم به مريم فى الشفاعة وبقى فيها اليوم الآخر بكل ما فيه من فزع شديد للبشر الخاطئين بطبيعتهم . وكان الله فى غضون هذا كله قد سلط الوحوش المفترسة والديدان والنسوة الخبيثات على الناس عقاباً لهم على خطاياهم . وكان لوثر يذكر نفسه بين الفينة والفينة بأننا لا نعلم شيئاً عن الله إلا أنه قوة مدركة كونية موجودة . وعند ما سأله شاب لحوح من علماء اللاهوت : أين كان الله قبل خلق العالم ؟ أجاب بأسلوبه الخطابى الفظ على طريقة جونسون « كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة المغرورة من أمثالك »[١١٤] .

ولقد أخذ الجنة والجحيم قضية مسلمة وآمن بنهاية مبكرة للعالم[١١٥] . ووصف جنة حافلة بالمسرات وفيها كلاب مدللة « لها شعر ذهبى يلمع كالأحجار الكريمة »[١١٦] ، وهى منحة طيبة لأطفاله الذين أعربوا عن اهتمامهم بمصير كلابهم المدللة . وتحدث فى ثقة مثل الأكوينى عن الملائكة وقال إنها أرواح كريمة لا أجساد لها . ولقد تصور لوثر الإنسان أحياناً عظمة لا نهاية لها يتنازعها

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وهم الذين يعزى إلى اختلاف مشاربهم وإلى جهودهم كل الظروف التي تحيط بمصير الإنسان وفى هذا إقحام للزرادشتية فى لاهوته . كما سلم تسليماً كاملا بالمفهوم السائد فى القرون الوسطى عن الشياطين التي تهيم فى الأرض وتوسوس للناس وتغويهم بالإثم وتعرضهم للنحس وتمهد للإنسان طريقه إلى جهنم . وقال : « إن كثيراً من الشياطين تهيم فى الغابات والمياه والبرارى وفى الأماكن المظلمة المليئة بالبرك وهى متأهبة أبداً لإيذاء الناس ، وبعضها يهيم فى السحب الكثيفة السوداء »(١١٧) .

وقد يكون بعض هذا الاعتقاد إبداعاً تربوياً واعياً لمخاوف خارقة نافعة ، ولكن لوثر كان يتحدث بغير كلفة عن الشياطين ويبدو أنه صدق كل ما قيل عنهم . وقال « إنى أعرف الشيطان حق المعرفة » ، وذكر بالتفصيل أحاديثهم مع بعضهم بعضاً (١١٨) . وكان أحياناً يفتن الشيطان بالعزف على الناى وأحياناً كان يفزع الشيطان المسكين(١١٩) بأن يرميه بأقذع السباب(١٢٠). وأصبح من عادته أن يعزو إلى الشيطان الأصوات المخيفة التي تصدر من الجدران وهى تتقلص من البرودة فى الليل وذلك عندما كان يستيقظ على هـذه الأصوات ، وكان فى وسعه أن يستنتج وهو واثق أنها من عمل الشيطان ، وهو يحوم حوله وأن يستأنف نومه فى هدوء(١٢١) . ونسب إلى فعل الشيطان ظواهر مختلفة لا تسر . سقوط البرد والرعد والحرب والطاعون ، أما الحوادث السعيدة كلها فهى فى نظره من فعل الله(١٢٢) . وكان يجد صعوبة فى إدراك كل ما نسميه القانون الطبيعى . ويبدو أن كل التراث الشعبى التيتونى عن الطيف الصخاب أو الروح التي تحدث الضجة قد صدقه لوثر بحذافيره والشياطين يؤثر أن تتقمص أجساد الثعابين والقردة(١٢٣) . وكان لوثر يرى أن الفكرة القديمة التي تذهب إلى أن فى وسع الشياطين أن تضاجع النساء وأن تنجب منهن أطفالا فكرة صائبة ، بل إنه أشار فى مثل هذه الحالة بضرورة إغراق الطفل الذى يولد نتيجة لهذه العلاقة(١٢٤). وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلم بها وكان يرى أن إحراق الساحرات على السارية(١٢٥) واجب

مسيحى بسيط . وكان يشاطره فى معظم آرائه معاصروه سواء أكانوا من الكثالكة أم من البروتستانت .

ثم إن الاعتقاد فى قوة الشياطين وقدرتها على الوجود فى كل مكان بلغ فى القرن السادس عشر درجة قصوى لم تسجل فى أى عصر آخر وقد أفسد هذا الاهتمام بالشيطان كثيراً من اللاهوت البروتستانتى .

وازدادت فلسفة لوثر قتامة بالاقتناع بأن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم(*) ، وقد انتزعت الصورة الإلهية من قلب الإنسان عقاباً لعصيان آدم وحواء ولم يبق فيه إلا الميول الطبيعية . وها هو يقول : « ليس هناك من هو مسيحى أو ورع بفطرته . . . والناس والجماهير بعيدة عن روح المسيحية ولسوف تكون هكذا ... والأشرار يفرقون دائماً الأخيار عدداً »(١٢٦) . بل إن أعمال الشر فى الرجل الخير تفوق فى عددها أعمال الخير لأنه لا يستطيع أن يهرب من فطرته وكما قال بولس : « لا أحد بار ، لا أحد » . وشعر لوثر « بأننا أبناء الغضب وكل أعمالنا ونياتنا وأفكارنا لا تساوى فى الميزان أمام آثامنا »(١٢٧) . ومن جهة سير أعمال الخير فإن كل واحد منا يستحق العذاب المقيم ، وكان لوثر يقصد بعبارة « أعمال الخير » بصفة خاصة تلك الأشكال من الورع الطقسى الذى أوصت به الكنيسة — الصيام والحج والابتهالات إلى القديسين والقداسات للموتى وصكوك الغفران والمواكب والتبرعات للكنيسة ولكنه ضمنها أيضاً « كل الأعمال مهما كانت صفتها »(١٢٨) ولم يشك فى مدى الحاجة إلى الإحسان والحب لتوفير حياة صحية اجتماعية ولكنه أحس(**) بأنه حتى لو كانت هناك حياة مباركة بمثل هذه الفضائل فإنها لا تستطيع أن تفوز بسعادة أزلية ويقول إن « الإنجيل لا يبشر بشيء من الجزاء عن الأعمال وإن من يقول إن الإنجيل نص على أن الأعمال هى وسيلة

(*) أو كما يجب أن نقول يولد الإنسان بغرائز تتفق مع مرحلة الصيد ولكنها فى حاجة إلى كبح مستمر فى الحضارة .

(**) انظر الطوبوات — اصحاح متى ٥ : ٣ — ١١ .

الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب »[١٢٩] . ولا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة — فكل منها إهانة لإله لا حد لقدرته — أن تكفر عن الذنوب التى اقترفها خير الناس . ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المفتدية — آلام ابن الله وموته — ، ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهى . وكما قال بولس للرومان : « إذا كنت تقر بلسانك أن الرب يسوع وإذا كنت تؤمن فى قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه من بين الموتى فإنك سوف تنجو »[١٣٠] . وهذا الإيمان هو الذى « يبرر » — يجعل الإنسان باراً على الرغم مما اقترف من ذنوب ويجعله صالحاً للخلاص ، ولقد قال المسيح نفسه « كل من يؤمن ويعمد سوف ينجو أما من يكفر فسوف تلحقه اللعنة »[١٣١] . وقال لوثر مستنتجاً منطقياً : « ولهذا فإن أول ما يجب أن يهتم له كل مسيحى هو أن يطرح جانباً كل يقين فى الأعمال وأن يقوى إيمانه وحده شيئاً فشيئاً »[١٣٢] واستطرد قائلا فى فقرة أزعجت بعض علماء اللاهوت وإن كانت قد أراحت كثيراً من الخاطئين :

« إن يسوع المسيح ينحنى ويدع الخاطىء يقفز فوق ظهره وهكذا ينقذه من الموت . . . أية تعزية للأرواح التقية أن يعتصم بالمسيح على هذا النحو وأن تلفه فى خطاياى وخطاياك وخطايا العالم بأسره وتعده هكذا يحمل خطايانا جميعاً ! . . . وعند ما ترى أن خطاياك تلصق به فعندئذ تنجو من الخطيئة والموت والجحيم . . . إن المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة للإحساس بأنك لا ترتكب خطيئة على الرغم من أنك تقترفها وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح . حسبك أن تعرف الحمل الذى يحمل خطايا العالم والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنى كل يوم أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل ، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً فى الخطايا إلى أذنيه فيأتى الإنجيل يقول له : كن على ثقة وآمن تغفر لك خطاياك من الآن فصاعدا ؟ حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك وليس ثمة شىء آخر تعمل من أجله »[١٣٣] .

ولعل هذا كان المقصود به تعزية وإنعاش بعض الأرواح المرهفة الحس التى كانت تجزع كثيراً بسبب ما اقترفت من خطايا . واستطاع لوثر أن يتذكر كيف أنه قد غالى يوماً فى جسامة ذنوبه ورأى أنها لا تغتفر ولكن الأمر بدا عند بعضهم يشبه كثيراً قول تيتزل المزعوم «أسقط قطعة نقدية فى الصندوق تتبدد ذنوبك كلها» وكان الإيمان وقتذاك يفعل الأعاجيب التى زعموا من قبل أنها تتحقق بالاعتراف والتحلل من الذنوب والصدقة وصك الغفران . ومع ذلك فهنالك فقرة تسترعى الانتباه : وجد لوثر الغيور الثائر كلمة طيبة يقولها عن الخطيئة ذاتها وقال عند ما يغوينا الشيطان بإلحاح مزعج فقد يكون من الحكمة أن نستسلم لإغرائه ونقترف ذنباً أو اثنين .

«اسع إلى مجتمع رفاقك الطروبين واشرب واقصف وانطلق بالفحش وسل نفسك فلا بد للمرء أن يقترف أحياناً ذنباً كراهية واحتقاراً للشيطان حتى لا يعطيه الفرصة لكى يجعله يشعر بتأنيب الضمير على مجرد أشياء لا تستحق الذكر ، فالمرء يضل إذا اشتد فزعه من أن يقترف ذنباً . . . آه ! . . بودى لو كان فى استطاعتى أن أجد ذنباً عظيماً حقاً يقذف بالشيطان !»[١٣٤] .

ولقد دعت هذه الأحكام العرضية المرحة إلى التأويل ، وفسر بعض أتباع لوثر شخصيته بأنه يتسامح فى الفجور والزنى والقتل واضطر أستاذ من أنصاره إلى نصح الوعاظ اللوثريين بأن يحرصوا على الإقلال ما أمكن من القول بأنه يمكن الحصول على البراءة من الذنب بالإيمان وحده[١٣٥] .

ومهما يكن من أمر فإن لوثر كان لا يقصد بالإيمان التسليم العقلى بغرض فحسب ، ولكنه كان يقصد المكابدة الحيوية الشخصية لاعتقاد عملى ، وكان على ثقة من أن الاعتقاد الكامل فى أن عفو الله منح بسبب موت المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر يجعل الإنسان أولا وقبل كل شىء صالحاً إلى الحد الذى يجعل مجوناً عارضاً تشيع فيه شهوة الجسد لا يترتب

عليه ضرر دائم ، ذلك لأن الإيمان سرعان ما يعود بالخاطيء إلى الصحة الروحية ، ووافق من صميم قلبه على فائدة الأعمال الصالحات[١٣٦] غير أن ما أنكره هو فاعليتها في سبيل الخلاص . وقال « إن الأعمال الصالحات لا تخلق رجلا صالحاً ولكن الرجل الصالح يقوم بأعمال صالحات »[١٣٧] . وماذا يجعل الرجل صالحاً ؟ الإيمان بالله والمسيح .

وكيف يتأتى لإنسان أن يصل إلى مثل هذا الإيمان الذى ينجيه من عذاب الجحيم ؟ إنه لا يصل إليه عن طريق أعماله التى يثاب عليها بل إنه منحة يهبها الله ، بغض النظر عن هذه الأعمال ، إلى من يشاء أن ينجيه من عذابه وكما قرر بولس وهو يتذكر قصة فرعون « إن الله يتغمد برحمته من يشاء ويحرم منها من يشاء »[١٣٨] . والله قدر من اصطفاهم للسعادة الأبدية أما الباقون فقد تركهم محرومين من رحمته ملعونين ومخلدين فى نار جهنم[١٣٩] .

« هذه هى ذروة الإيمان : أن تؤمن بأن الله ، الذى ينجى من عذابه قلة من عباده والذى يعاقب الكثرة منهم ، غفور رحيم وأنه تعالى عادل ، إذ سبق فى تقديره أن قضى علينا باللعنة الأبدية لأنه . . . ويبدو أنه يرضى بتعذيب الأشقياء . وإذا استطعت بأى جهد عقلى أن أدرك كيف يكون الله رحيماً فى الوقت الذى يصدر عنه الكثير من الغضب والظلم فلن تكون بى حاجة إلى الإيمان »[١٤٠] .

وهكذا نرى أن لوثر فى غمرة رد فعله القروسطى(*) ضد كنيسة عصر النهضة التى ارتدت إلى عصر الوثنية قد عاد لا إلى العقيدة الأوغسطينية فحسب ولكنه عاد إلى الترتوليانية : الإيمان بما لا يصدق ، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدر لأنه كان بالنسبة للعقل أمراً لا يصدق ، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه إنما دفع إلى هذا الاعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق . وها هو عالم اللاهوت الذى كتب ببلاغة لا تضارع عن « حرية الإنسان

(*) نسبه الى القرون الوسطى .

المسيحى » قد رأى وقتذاك (١٥٢٥) فى إحدى رسائله أنه إذا كان الله قادراً على كل شىء فلا بد أنه السبب الوحيد لكل ما يصدر من أفعال بما فيها أعمال الإنسان وأنه إذا كان الله عليماً بكل شىء فإنه يعرف كل شىء مسبقاً وكل شىء لا بد أن يحدث كما سبق فى علمه وعلى ذلك فإن كل الأحداث فى كل زمان قد قدرت بإرادته تعالى وأصبحت قدراً محتوماً للأبد . وانتهى لوثر مثل اسبينوزا إلى أن الإنسان « ليس حراً مثل كتلة من الخشب أو صخرة أو كتلة من الصلصال أو عموداً من الملح »(١٤١) . ومع ذلك فإنه لأمر أكثر غرابة أن تحرم الحكمة الإلهية نفسها الملائكة ، لا ، بل والله نفسه من الحرية فإنه تعالى يجب أن يعمل كما سبق فى علمه فحكمته هى قدره .

ولقد فسر أحد المجانين هذه العقيدة كما شاء له هواه : ضرب شاب عنق أخيه وعزا هذا إلى فعل الله الذى لم يكن هو إلا عبده العاجز فحسب ، وحطم أحد المناطقة جسد زوجته بعصبية حتى ماتت وهو يصرخ « الآن تمت إرادة الأب »(١٤٢) .

وتتدرج معظم هذه الاستنتاجات ضمناً فى لاهوت القرون الوسطى ، وقد استخلصها لوثر من بولس إلى أوغسطين فى تزمت لا يلين وبدا راغباً فى قبول لاهوت القرون الوسطى إذا تجرد من سلطان كنيسة عصر النهضة ، فقد كان فى وسعه أن يكون أكثر تسامحاً فى قبول حتمية وجود جمهرة كبيرة من الملعونين منه فى الخضوع لسلطان بابوات يشتطون فى جمع الضرائب بصورة فاضحة . ورفض التسليم بالتعريف الكهنوتى للكنيسة بأنها هى الأسقفية وعرفها بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر ولكنه ردد العقيدة البابوية عند ما كتب يقول : « إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح (مثل اليهود والأتراك والبابويين والقديسين

الزائفين والهراطقة . . . إلخ) يسيرون فى ظلام دامس سادرين فى الخطأ ولا بد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا فى آثامهم»[١٤٣] . هنا ولدت من جديد فى فيتنبرج تعاليم بونيفاس الثامن ومجلس روما (١٣٠٢) التى تقول : « لا خلاص للإنسان خارج الكنيسة » .

وأعظم مادة ثورية فى لاهوت لوثر هى تجريد القسيس من منصبه وإباحته للقساوسة الحصول على راتب لا بصفتهم موزعين لا غنى عنهم للقربان المقدس ولا باعتبارهم وسطاء مختصين بين الله والناس ولكن بصفتهم خادمين اختارتهم كل أبرشية للوفاء بحاجاتها الروحية ، وسوف يبدد هؤلاء القساوسة ، بزواجهم وتنشئتهم لأسرة هالة القـداسة التى جعلت نظام القسوسة قوياً رهيباً ، فهم سيكونون « أولا بين أنداد » ولكن أى إنسان فى وسعه عند الحاجة أن يقوم بوظائفهم بل يحل تائباً من ذنبه . وعلى الرهبان أن يتخلوا عن عزلتهم الأنانية وحياة الدعة التى يعيشونها فى الغالب وأن يتزوجوا ويكدحوا مع الآخرين ، فالرجل الذى يجر المحراث والمرأة التى تشتغل فى المطبخ يعبدان الله خيراً مما يفعل الراهب وهو يتمتم بصلوات غير مفهومة فى تكرار يجلب النعاس . ولا بد أن تكون الصلاة هى الصلة الروحية المباشرة بين العبد وربه ولا تكون ابتهالات بقديسين شبه أسطوريين . ومن رأى لوثر أن عبادة القديسين لم تكن معايشة ودية مواسية بين عزلة الحى وقداسة الموتى ، كانت ردة إلى عبادة الأصنام البدائية المشركة[١٤٤] .

أما القرابين المقدسة التى كان ينظر إليها على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب فإن لوثر هون من شأنها بقسوة فهى لا تنطوى على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لا على أشكالها وصيغها ولكن على إيمان من يتلقاها ، وتثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسح المغالى فيه للمحتضر ليست إلا طقوساً لم يرتبط بها أى وعد بعفو الله فى الكتاب المقدس ويمكن للدين الجديد أن يستغنى عنها . أما العماد فهنالك بينة

عليه فى مثال يوحنا المعمدان ويمكن استبقاء الاعتراف السمعي باعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذى يستند إليه فى الكتاب المقدس(*) . وأعظم قربان مقدس هو عشاء الرب أو العشاء الربانى . ويرى لوثر أن الفكرة التى تذهب إلى أن القسيس يمكنـــه بتعويذة من كلماته أن يغير الخبز إلى المسيح سخيفة تنطوى على التجديف ، ورأى مع ذلك أن المسيح يهبط من السماء بمحض مشيئته ليكون حاضراً بطريق التجسد مع الخبز والنبيذ فى القربان المقدس . وليس القربان المقدس سحراً كهنوتياً ولكنه معجزة إلهية دائمة (١٤٥) .

ولا شك أن عقيدة لوثر فى القربان المقدس وإحلاله عشاء الرب محل القداس ونظريته عن الخلاص بالإيمان لا بالأعمال الصالحات قد قوضت دعائم سلطة رجال الكهنوت فى شمال ألمانيا .

وأخذ لوثر يروج لهذا النهج فرفض الاعتراف بالمحاكم الأسقفية والقانون الكنسى وأصبحت المحاكم المدنية فى أوروبا اللوثرية هى المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هى السلطة الشرعية الوحيدة . وعين الحكام الزمنيون موظفى الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا فى الإشراف على مدارسها ومبرات الأديرة . وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين إحداهما عن الأخرى من الناحية النظرية وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة . وهكذا قدر للحركة اللوثرية التى كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم ، بلا قصد ورغم أنفها ، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذى أصبح الموضوع الأساسى فى الحياة العصرية .

٩ — الثورى

عند ما سعى بعض الأساقفة إلى إسكات لوثر وأتباعه أطلق صرخة مدوية غاضبة كانت بمثابة الناقوس المنذر بالثورة تقريباً ، فى كتيب « ضد

(*) استدل به فى الشهيرة [illegible] الاعتراف الجماعى بالإثم عن أن [illegible] الإبراء العام .

النظام الذى يطلق عليه بهتاناً اسم النظام الروحى للبابا والأساقفة » (يوليو ١٥٢٢) دمغ البطاركة ووصفهم بأنهم « أكبر الذئاب » جميعاً وناشد كل الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة .

« كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير ، فهذا أفضل من أن تزهق روح واحدة فما بالك بفقد كل الأرواح من أجل هرجهم التافه وعبادة الأوثان . ما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ويتغذون بعرق الآخرين وكدحهم ؟ . . . إنهم إذا رضوا بكلمة الله وسعوا إلى حياة الروح فإن الله يكون معهم . . . أما إذا لم يستمعوا إلى كلمة الله وثاروا غضباً وتوعدوا بالحرمان والحرق والقتل وبكل شر مستطير ، فماذا يستحقون غير ثورة عارمة تكتسحهم من فوق ظهر الأرض ؟ ولسوف تبتسم إذا حدث هذا . إن كل من يتبرع بالجسد أو بالمتاع أو الشرف للقضـــاء على حكم الأساقفة هم أطفال الله الأعزاء ومسيحيون صادقون »[١٤٦] .

وفى هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة ، فقد آلمه تحريم بيع عهده الجديد أو حيازته فى المناطق التى تخضع لحكام من المحافظين فكتب فى خريف عام ١٥٢٢ رسالة عنوانها « عن السلطة الزمنية : إلى أى حد يجب أن تطاع » . وبدأها بأسلوب ودى للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدنى والأصل الإلهى للدولة . ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التى تقول بالحرية الكاملة للمسيحى . وأوضح لوثر أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا فى حاجة إلى قانون . . . ومع أن أحداً منهم لن يواجه الآخر بالقانون أو القوة فإنهم يجب أن يطيعوا القانون وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لأن فطرة الإنسان التى تجنح للإثم فى غيبة القانون سوف تمزق المجتمع إرباً . ومع ذلك فإن سلطة الدولة يجب أن تنتهى حيث يبدأ ملكوت الروح . من

هم هؤلاء الأمراء الذين يأخذون على عواتقهم أن يفرضوا على الناس ما يقرأونه أو ما يعتقدونه ؟

« لا بد أن تعرفوا أن الأمير الحكيم يندر وجوده حقاً منذ بداية الخليقة مثله فى ذلك مثل الأمير الورع . فالأمراء فى العادة أكبر الحمقى أو أسوأ الأفاقين على ظهر الأرض . إنهم السجانون والجلادون الذين يسلطهم الله على عباده ، وهم أدوات الله التى تحقق غضبه تعالى بعقاب الأشرار وللمحافظة على السلام بين الناس . . . ومهما يكن من أمر فإنى بحل إخلاص أنصح هؤلاء الناس الذين طمس الله على أبصارهم أن ينتبهوا إلى القول الموجز فى المزمور ١٠٧ : (٢٧) « إن الله تعالى ينزل سخطه على الأمراء » وإنى أقسم لكم بالله أن هذه العبارة الموجزة لو أصبحت سيفاً مصلتاً على أعناقكم بسبب خطئكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وذلك على الرغم من أن كل واحد منكم متين البنيان كالتركى ولن يجديكم فتيلا تميزكم غضباً وتحمسكم للكلام فقد تحقق فعلا بجانب كبير منه ، لأن . . . الرجل العادى يتعلم كيف يفكر . . . ثم إن الجماهير وعامة الناس تستجمع نقمتها على الأمراء وعلى الناس بعد هذا ألا يعانوا من طغيانهم وغرورهم فهذا ما لا يستطيعونه ولن يسمحوا به . فيا أيها الأمراء والسادة الأعزاء تمسكوا بأهداف الحكمة واهتدوا بهديها . إن الله لن يتسامح معكم بعد هذا ولم يعد العالم ذلك الذى كنتم فيه تطاردون الناس وتسوقونهم كالأنعام »(١٤٧) .

واتهمه رئيس وزراء بافارى بأن هذه دعوة للثورة تتسم بالخيانة ، وندد بهذه الرسالة الدوق جورج ووصفها بأنها إفك وحث الأمير المختار فردريك على أن يصادرها . ولكنه على العكس من ذلك سمح بتوزيعها بما عهد فيه من اتزان . ترى ماذا كان يقول الأمراء لو أنهم قرأوا رسالة لوثر إلى فنتسل لينك Wenzel Link (١٩ مارس ١٥٢٢) ؟ « إننا ننتصر على الطغيان البابوى الذى طالما سحق ملوكاً وأمراء فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب

على الأمراء أنفسهم ونطأهم بنعالنا »[١٤٨] . أو ماذا هم قائلون إذا اطلعوا على تعريفه للكنيسة ؟ « أعتقد أنه لا توجد على ظهر الأرض إلا كنيسة مسيحية عامة ، حكيمة كالعالم ولكنها كنيسة مقدسة وهى ليست إلا جماعة القديسين . . . وأعتقد أن كل الأشياء على المشاع فى هذه الجماعة أو فى هذا العالم المسيحى ، وكل ما يملكه الإنسان من متاع ملك للآخر ولا يوجد شىء ملك لأحد فحسب »[١٤٩] .

كانت هذه سورة عارضة يجب ألا تؤخذ بمعناها الحرفى ؛ فالواقع أن لوثر كان محافظاً بل ورجعياً فى السياسة والدين بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى فى القرون الوسطى ، وكان يعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعاً . وكان يمكن أن يقنع بالحفاظ على المجتمع الزراعى الذى عرفه فى طفولته واستمراره مع إدخال بعض وجوه التحسين التى تتسم بالبر . واتفق فى الرأى مع الكنيسة فى القرون الوسطى فى إدانة الربا إلا أنه أضاف بطريقته المرحة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها : « مهنة مرذولة»[١٥٠] واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمن رخيص وبيعها بثمن غال . وندد بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار لأنهم « لصوص ظاهرون للعيان » ، وقال : « لكم تحسن السلطات صنعاً لو أخذت من هؤلاء الناس كل ما يملكون وطردتهم من البلاد»[١٥١] ورأى أن الوقت قد حان لوضع « شكيمة فى فم آل فوجر »[١٥٢] ، وانتهى إلى رأى ينذر بالويل فى رسالة عاصفة عنوانها : « عن التجارة والربا » (١٥٢٤) :

« ينبغى أن ينظر الملوك والأمراء إلى هذه الأشياء وأن يحرموها بمقتضى قوانين صارمة ، ولكنى أسمع أن لهم مصلحة فيها وهكذا يتحقق قول أشعياء : « لقد أصبح الأمراء رفاقاً للصوص » وأنهم ليشنقون اللصوص الذين سرقوا جولدن أو نصف جولدن ولكنهم يتاجرون مع من يسلبون العالم بأسره . . .

وهكذا يشنق اللصوص الكبار صغارهم ؛ وكما قال كاتو عضو الشيوخ الرومانى : « الأغرار من اللصوص يزج بهم فى السجن ويطرحون لآلات التعذيب بينما يســير اللصوص المعروفون للناس فى الخارج يرفلون فى الحرير ويتحلون بالذهب » . ولكن ما هو حكم الله على هذا فى آخر الأمر ؟ إنه سوف يفعل ما يقوله حزقيال : أمراء وتجار ، لص مع آخر لسوف يصهرهم الله معاً كما يصهر الرصاص والنحاس أو كما تحترق مدينة ؛ فبالمثل لن يكون هناك أمراء ولا تجار بعد هذا . وفى هذه المرة أخشى أن يكون هذا على الباب[١٥٣] .

وقد كان .

الفصل السابع عشر

الثورة الاجتماعية

١٥٢٢ — ١٥٣٦

١ – الثورة الصاعدة

لقد كان الفرسان المسغبون ينتظرون فى صبر نافد فرصة مواتية للثورة على الأمراء والبطارقة والمولين . وكان شارل الخامس بعيداً عن البلاد فى إسبانيا عام ١٥٢٢ ، وفرق سيكينجن ينتابها القلق بسبب تعطلها عن العمل ، وكانت الأراضى الغنية التى تمتلكها الكنيسة مباحة ويمكن الاستيلاء عليها بسهولة . وكان هوتن يدعو للعمل ، وكان لوثر قد دعا الشعب الألمانى إلى تطهير الأرض من مضطهديه .

وفى الثالث عشر من أغسطس وقع عدد من الفرسان فى لانداو تعهداً بالعمل الموحد ، وحاصر سيكينجن مدينة تريز وقذفها بمنشورات تحرض الناس على الانضمام إليه لخلع كبير الأساقفة الحاكم ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً ، وجمع كبير الأساقفة فرقاً ، وقادها بنفسه ، ثم قام بخمس هجمات مضادة ، فرفع سيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع إلى قلعته فى لاندشتول . وهاجم كبير الأساقفة القلعة بعنف ، وأصيب سيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها ، ثم استسلم فى اليوم السادس من مايو عام ١٥٢٣ ومات فى اليوم السابع من مايو . وخضع الفرسان للأمراء وسرحوا الجنود العاملين بجيوشهم الخاصة وتشبثوا فى قسوة يائسة بالضرائب الإقطاعية المفروضة على الفلاحين التى كانوا يعتمدون عليها فى معاشهم .

وتنبأ لوثر بهذا التصدع فتنصل من الثورة قبل فوات الأوان (١٩ ديسمبر سنة ١٥٢٢) واستمر نجمه فى صعود . وكتب الأرشيدوق فرديناند لأخيه الإمبراطور (١٥٢٢) « إن قضية لوثر تمتد جذورها عميقة فى الإمبراطورية بأسرها إلى حد أنه ليس هناك شخص واحد من كل ألف فى عصمة منها »[١] . وكان الرهبان والقساوسة يقبلون زرافات إلى مذبح الزوجية الجديد . وترددت فى كنيستى لورنز وزيبالدوس بنورمبرج « كلمة الله » — وهى العبارة التى أطلقها المصلحون على عقيدة تقوم على الكتاب المقدس فحسب . وأخذ الوعاظ الإنجيليون ينتقلون بحرية فى أرجاء شمالى ألمانيا ويستولون على منابر قديمة ويشيدون منابر جديدة ، ولم يندوا بالبابوات والأساقفة باعتبارهم « خدماً للشيطان » فحسب ، ولكنهم نددوا أيضاً بالسادة الزمنيين باعتبارهم « مستبدين ظالمين »[٢] . ومهما يكن من أمر فإن السادة الزمنيين كانوا هم أنفسهم ممن اهتدوا بهدى العقيدة الجديدة : فيليب الهسى وكازيمير البراندنبرجى وأواريخ الفيرتيمبرجى وأرنست الليئيبرجى وجون صاحب ساكسونيا . بل إن إيزابيلا شقيقة الإمبراطور كانت من أتباع لوثر .

وكان الأستاذ القديم لشارل قد أصبح الآن البابا أدريان السادس (١٥٢١) فأرسل إلى مجلس النواب فى نورمبرج (١٥٢٢ (طلباً بالقبض على لوثر واعترافاً صادقاً بالأخطاء التى تردّت فيها الكنيسة : « إننا نعلم تمام العلم أن أموراً كثيرة تستحق المقت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة . وقد أسيء استخدام الأشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى إنه فى كل شيء كان هناك تغيير إلى الأسوأ ، فلا عجب إذا كان المرض قد زحف من الرأس إلى الأعضاء ، من البابوات إلى من يلونهم فى المناصب . لقد حدنا نحن جميعاً ، من البطارقة ورجال الدين ، عن الطريق المستقيم ، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملا صالحاً ، لا أحد بتاتاً . . . والمذلك . . . فإننا سوف نبذل كل ما فى طاقتنا من جهد لإصلاح المحكمة الرومانية قبل

كل شيء آخر ، وهي التي ربما كانت سبباً في كل هذه الشرور . . . إن العالم بأسره يتوق إلى مثل هذا الإصلاح »[٣] .

ووافق المجلس على أن يطلب من الأمير المختار فردريك كبح جماح لوثر ، ولكنه تساءل لماذا يجب أن يدان لوثر لأنه أشار إلى المظالم التي ارتكبها رجال الدين والتي أيدتها السلطات وقتذاك . وعند ما وجد المجلس أن اعتراف البابا ليس فيه ما يكفي من التفاصيل أرسل له قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من ألمانيا ضد الكنيسة واقترح أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الشكاوى ، وعلاجها بوساطة مجلس وطني يعقد في ألمانيا برئاسة الإمبراطور .

واستمع المجلس النيابي نفسه ، وكانت تغلب عليه طائفة النبلاء ، في عطف إلى الاتهامات الموجهة ضد الاحتكاريين بأنهم يثرون على حساب الشعب وكتبت إحدى اللجان إلى المدن الكبرى في ألمانيا تطلب منها إبداء رأيها فيما إذا كانت الاحتكارات ضارة وهل يجب تنظيمها أو القضاء عليها . وردت مدينة أولم بأنها شر مستطير وأن المؤسسات التجارية يجب أن تكون مقصورة على الأب وابنه وزوج ابنته ، أما أوجسبورج موطن آل فوجر فإنها قدمت دفاعاً كلاسياً عن المشروعات التجارية الكبيرة وحرية التجارة وعن الأرامل والأيتام :

« إن العالم المسيحي (أم ينبغي أن نقول العالم بأسره ؟) غني بسبب العمل ، وكلما اتسع حجم العمل في بلد ما ازداد رخاء شعبه . . . وحيث يكثر عدد التجار تزداد فرص العمل . . . ومن المستحيل تحديد حجم الشركات . . . فكلما اتسع حجم معاملاتها وازداد عددها كان هذا خيراً لكل إنسان . وإذا لم يكن التاجر مطلق الحرية في القيام بأعماله في ألمانيا فإنه سوف ينطلق إلى مكان آخر فتخسر ألمانيا . . . وإذا لم يستطع القيام بالعمل بعد أن يتجاوز قدراً معيناً فماذا هو صانع بفائض أمواله ؟ . . . من الخير أن يترك التاجر وشأنه ، وألا توضع أية قيود على مقدرته أو على رأس ماله »

إن بعض الناس يتحدثون عن تحديد طاقة الربح فى الاستثمارات . وهذا سوف . . . يؤدى إلى ظلم فادح وضرر بالغ بإبعاد معاش الأرامل والأيتام وبقية المعذبين الذين يستمدون دخلهم من الاستثمارات فى هذه الشركات »[٤] .

وأصدر المجلس النيابى تشريعاً بألا يزيد رأس مال الشركات عن ٥٠,٠٠٠ جيلدر وإلزامها بتوزيع الأرباح كل سنتين وتقديم حساب علنى ، وألا يقرض المال بفوائد ربوية ، وألا يشترى تاجر أكثر من قدر معين من أية سلعة فى أى فصل من فصول السنة ، وأن تحدد الأسعار بمقتضى قانون . واستعان التجار بشارل الخامس فأيدهم لأسباب سبق بيانها . ولما كان كثير من حكام المدن يشاطرون فى أرباح الاحتكارات فإن مراسيم نورمبرج سرعان ما أصبحت حبراً على ورق .

وأرسل كليمنت السابع ، البابا الجديد ، إلى جلسة تالية للمجلس النيابى (يناير عام ١٥٢٤) الكردينال لورزو كامبيجيو ومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر ، وسخرت الجماهير من القاصد الرسولى فى أوجسبورج واضطر إلى دخول نورمبرج سراً حتى يتجنب المظاهرات المعادية ، وكان من حظه الإذلال عند ما رأى ٣٠٠٠ شخص من بينهم شقيقة الإمبراطور يتلقون القربان المقدس بكلا نوعيه من راع من أتباع لوثر . فحذر المجلس النيابى من أن الثورة الدينية إذا لم تقمع فى مهدها فإنها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام ، ولكن المجلس النيابى رد عليه بأن أية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهى بـ « ثورة وعصيان ومذبحة . . . ودمار شامل »[٥] وبينما كانت تدور المداولات بدأت الثورة .

٢ — حرب الفلاحين

١٥٢٤ — ١٥٢٦

أتاحت الثورة الدينية للكادحين فى الحقول أيديولوجية تستهوى الأفئدة

وتعبر عن مطالبهم بالحصول على نصيب أكبر فى رخاء ألمانيا المتزايد . يضاف إلى هذا أن الشدائد التى كانت قد حفزت أهل الريف للقيام باثنتى عشرة ثورة ما زالت تثير إلى حد ما فى ذهن الفلاح اضطراباً ، والحق أن هذا الاضطراب المحموم ازداد شدة فى الوقت الذى تحدى فيه لوثر الكنيسة وانتهر الأمراء وحطم سدود النظام والرهبة ، وجعل من كل إنسان قساً وأعلن حرية الإنسان المسيحى . وكانت الكنيسة والدولة فى هذا العهد بألمانيا مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً — وكان رجال الدين يلعبون دوراً كبيراً فى النظام الاجتماعى والإدارة المدنية — إلى حد أن تقويض ما يتمتع به رجال الدين من هيبة وسلطان قد أزال أكبر عائق للثورة . وقد استمر الولدانيون والبغارديون وإخوة الحياة المشتركة فى تقليد قديم يذهب إلى تأسيس آراء متطرفة من نصوص وردت بالكتاب المقدس . وكان تداول العهد الجديد مطبوعاً لطمة لطبقة المحافظين من رجال السياسة والدين ذلك لأنه فضح ما قام به رجال الدين من تراض مع طبيعة الإنسان وطرق العيش فى الدنيا كما كشف عن شيوعية الرسل وعطف المسيح على الفقراء والمضطهدين .

وكان العهد الجديد فى هذه الأمور بمثابة « بيان شيوعى » حقيقى بالنسبة للمتطرفين فى هذا العصر ووجد فيه الفلاحون وطبقة الكادحين على السواء ضماناً إلهياً لكى يحلموا بمدينة فاضلة (يوتوبيا) تلغى فيها الملكية الخاصة ويرث فيها الفقراء الأرض .

وفى عام ١٥٢١ وزع فى ألمانيا كتيب عنوانه **karsthans** أى جون المذراة ، وقد ضمن الحماية للوثر هذا « الرجل ذو الفأس » والقلم ، ونشر فى العام نفسه ملحق يدافع عن قيام أهل الريف بانتفاضة ضد الكثالكة من رجال الدين(٦) وطالب يوهانس إبرلين فى كتيب آخر صدر عام ١٥٢١ بالتصويت العام للذكور ، وبتبعية كل حاكم وكل موظف للمجالس الشعبية المنتخبة ، وبإلغاء كل المؤسسات الرأسمالية ، وبالعودة إلى تحديد أثمان

الخبز والنبيذ كما كانت فى القرون الوسطى ، وبتعليم كل الأطفال اللاتينية واليونانية والعبرية والفلك والطب[٧] .

وصدر عام ١٥٢٢ كتيب عنوانه « احتياجات الأمة الألمانية » نسب زوراً إلى الإمبراطور فردريك الثالث المتوفى ودعا إلى إلغاء « كل المكوس والضرائب وجوازات السفر والغرامات » وإلغاء القانون الرومانى والقانون الكنسى وتحديد حجم العمل فى المؤسسات برأسمال قدره ١٠,٠٠٠ جيلدر وباستبعاد رجال الدين من الحكومة المدنية وبتصفية ثروة الأديرة وتوزيع المبالغ المحصلة على الفقراء[٨] . وأعلن أوتوبر ونفيلز (١٥٢٤) أن دفع ضرائب العشور إلى رجال الدين أمر مخالف لما جاء بالعهد الجديد . ومزج الوعاظ الإنجيلية البروتستانتية بالآمال اليوتوبية ، وكشف أحدهم أن الجنة مفتوحة الأبواب للفلاحين ومغلقة فى وجوه الأشراف ورجال الدين ، ونصح آخر الفلاحين بأن يكفوا عن إعطاء المال للقساوسة أو الرهبان ، وأشار منتسر وكارلشتادت وهوبماير على مستمعيهم بأن « المزارعين والعاملين بالمناجم ودارسى الحنطة يفهمون نصوص الإنجيل وفى وسعهم أن يعلموها للناس خيراً من قرية بأسرها . . . من الرهبان والقساوسة . . . أو المتفقهين فى اللاهوت » ، وأرد كارلشتادت يقول : « بل وخيراً من لوثر »[٩] . وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام ١٥٢٤ وكأنها كانت بهذا تعطى إشارة البدء فى العمل . ومما يذكر أن يوهانس كوكلايوس وهو عالم إنسانيات كاثوليكى حذر لوثر عام ١٥٢٣ بأن « عامة الناس فى المدن والفلاحين فى الأقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة . . . إذ سممت أفكارهم الكتيبات والخطب التى لا تحصى والحافلة بالسباب والتى نشرت أو أعلنت بينهم بفصاحة وإطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء »[١٠] . ولكن لوثر والوعاظ ومؤلفى الكتيبات لم يكونوا السبب فى الثورة لأن الأسباب إنما تكمن بحق فى المظالم التى حاقت بطبقة الفلاحين ، وإن كان من الممكن أن يقال إن إنجيل لوثر وأتباعه المتطرفين قد « صبوا الزيت على

اللهب »[11] وحولوا استياء المضطهدين إلى أوهام يوتوبية وإلى عنف لم يكن في الحسبان وإلى انتقام شديد .

وتشبث سلوك توماس منتسر بكل إثارة حفل بها العصر ، فما أن عُين واعظاً فى آلشتدت (١٥٢٢) حتى طالب بإبادة الكفار — أى الأرثوذكس أو المحافظين — بحد السيف وقال : « إن الكفار لا حق لهم فى العيش إلا بقدر ما تسمح لهم بهذا الصفوة »[12] . واقترح على الأمراء أن يقودوا الشعب فى ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين وعند ما لم يظهر الأمراء أنهم أهل لانتهاز هذه الفرصة استنفر الناس لقلب الأمراء أيضاً « ولكى يقيموا مجتمعاً مهذباً كالمجتمع الذى كان يفكر فيه أفلاطون . . . وأبيليوس مؤلف الحمار الذهبى»[13] وكتب يقول : « إن كل الأشياء على المشاع ويجب أن توزع حسب ما تقتضيه الحاجة وطبقاً للاحتياجات العديدة للجميع . وأى أمير أو كونت أو بارون يرغب عن قبول هذه الحقيقة بعد تذكيره بها فى حزم يجب أن تقطع رأسه أو يشنق »[14]. وتسامح الأمير المختار فردريك فى هذا الإنجيل وعده من قبيل الهزل ، ولكن أخاه الدوق جون وابن عمه الدوق جورج انضما فى الرأى إلى لوثر بضرورة إقصاء منتسر عن وظيفته كراعى أبرشية (١٥٢٤) وأخذ الرسول الحانق يضرب فى الأرض وينتقل من مدينة إلى مدينة ويعلن خلاص « إسرائيل » وقرب ظهور مملكة الرب على الأرض[15] .

ووجد فى مدينة ميلهاوزن الحرة فى نورينجيا مناخاً سياسياً لطيفاً ، فهناك جمعت صناعة النسيج عدداً كبيراً من طبقة الكادحين ، وكان هينريخ بفيفر ، وهو راهب سابق ، قد بدأ هناك حركة لانتزاع المجلس البلدى من أيدى الأقلية من الأشراف . وبشر منتسر ببرنامجه المتطرف عمال المدينة وطبقة الفلاحين فى المناطق المجاورة ، وفى يوم ١٧ من مارس عام ١٥٢٥ خلع أتباع بفيفر ومنتسر المسلحون الأشراف وأقاموا « مجلساً دائماً » ليحكم ميلهاوزن .

وطبقاً لما يقوله ميلانكتون طرد المتطرفون المظفرون الرهبان وجردوا الكنيسة من أملاكها[١٦] ، ومهما يكن من أمر فلم يكن من المستطاع الوثوق بعالم من علماء اللاهوت فى هذا العصر ، ليقدم بلا تحيز تقريراً عن أعمال الخصوم ووجهات نظرهم ولم تنشأ جامعة أمم (كومونويلث) شيوعية ، وأثبت بفيفر أنه أقدر فى الناحية العملية من منتسر ، وطوع الثورة للوفاء بحاجات الطبقة المتوسطة . وتوقع منتسر مسبقاً مهاجمة الفرق الإمبراطورية ، فنظم جيشاً من العمال والفلاحين وأعد له طائفة من رجال المدفعية الثقيلة فى دير « الرهبان الحفاة » وكانت الصيحة التى أطلقها بين رجاله هى « إلى الأمام والحديد لا يزال ساخناً واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء »[١٧] .

وفى نحو هذا الوقت نفسه كانت ثورات الفلاحين تزلزل جنوب ألمانيا ، ولعل عاصفة البرد الهوجاء (١٥٢٤) التى قضت على كل الآمال المعقودة لجنى محصول فى شتيلنجن كانت بمثابة الزناد الذى أشعل نار الثورة . ولم تكن هذه المقاطعة القريبة من شافهاوزن تبعد كثيراً عن سويسرة لكى يشعر أهلها مثل الفلاحين الأشداء الذين كانوا قد حرروا أنفسهم هناك من كل شىء إلا مظاهر السلطة الإقطاعية . وفى ٢٤ أغسطس عام ١٥٢٤ جمع هانز ميلر حوله بعض الفلاحين من شتيلنجن بناء على إيحاء من منتسر وكون لهم رابطة باسم « الأخوة الإنجيلية » وتعهد بتحرير المزارعين فى أرجاء ألمانيا ، وسرعان ما انضم إليهم المستأجرون الساخطون من راهب ريخيناو وأسقف كونستانس وكونتات فرديناندبورج ومونتفورت ولوبفين وسولتس . وما أن انتهى عام ١٥٢٤ حتى كان هناك حوالى ٣٠,٠٠٠ فلاح مدججين بالسلاح فى جنوب ألمانيا ، ورفضوا دفع الضرائب التى تفرضها الدولة وضرائب العشور الكنسية والضرائب الإقطاعية وأقسموا على الظفر بالحرية أو الموت .

وفى مارس ١٥٢٥ صاغ فى ميمينجن مندوبوهم ، بإرشاد البروتستانت من أتباع تسفينجلى أو بتأثيره ، البنود الاثنى عشر التى أشعلت النار فى نصف ألمانيا .

« إلى سلام القارئ المسيحى ورحمة الله من خلال المسيح » .

هناك الكثيرون من المناهضين للمسيحية انتهزوا أخيراً فرصة انعقاد مجلس للفلاحين لازدراء الإنجيل قائلين أليس هذا ثمرة الإنجيل الجديد ؟ وهل لا بد ألا يمتثل أحد وأن يتمرد الجميع . . . لقلب السادة الروحيين والزمنيين أو ربما لقتلهم ؟ إن كل النقاد الكافرين والأشرار يجدون الجواب على هذه الأسئلة فى البنود التالية لكى يزيلوا أولا هذا اللوم عن كلمة الله وثانياً ليبرروا بطريقة مسيحية عدم امتثال الفلاحين بل وثورتهم .

فأولا نعرب أن ملتمسنا وطلبنا المتواضع وأن إرادتنا ومشيئتنا جميعاً هى أن يتحقق لنا فى المستقبل قوة وسلطان بيئان لجماعة بأسرها أن تختار راعياً وأن تعينه وأن يكون لها الحق فى عزله . . .

ثانياً : بما أن ضريبة العشور قد نص عليها العهد القديم ووردت فى العهد الجديد فإننا سوف . . . ندفع ضريبة العشر من الحبوب ولكن بطريقة صحيحة . . . وسوف يجمع هذه فى المستقبل ويتسلمها رئيس كنيستنا الذى تعينه الجماعة ومن هذه الضريبة يجب أن يمنح الراعى . . . مرتباً متواضعاً وكافياً لمعيشته هو وأسرته . . . وأن يوزع الباقى على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون فى القرية نفسها . . . أما ضريبة العشر الصغيرة فلن ندفعها على الإطلاق ، لأن الله قد خلق الماشية لكى ينتفع بها الناس دون قيـــد . . .

ثالثاً : لقد جرت العادة حتى الآن على أن يعتبرنا الناس متاعاً خاصاً لهم ، وهذا أمر يدعو للأسى ، لأن المسيح كفر عن سيئاتنا جميعاً وافتدى بدمه الزكى المراق الأدنياء والعظماء على السواء . . . ومن ثم فإنه مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس أن نكون أحراراً ولسوف نكون أحراراً (هكذا) . . . ونحن نخضع عن طواعية لحكامنا المختارين والمعينين (اللذين عينهم لنا الله) فى جميع الأمور المسيحية الصحيحة ولا تخالجنا أية ريبة فى أنهم سوف يحررونا من نير العبودية أو يرينا فى الإنجيل أننا أرقاء . . .

سادساً : أن لنا شكوى مريرة بسبب الخدمات التى تتزايد من يوم إلى آخر . . .

ثامناً : لقد لحق بنا ضرر بليغ لأن الكثيرين منا مستأجرون أراضى لا تكفى غلتها لسداد قيمة ما ندفعه من إيجار لها ولأن الفلاحين يتعرضون للخسارة والخراب . فليدع السادة أناساً من الشرفاء يفحصون الأراضى المستأجرة المذكورة ويحددون الإيجار العادل . . . لأن كل عامل يستحق أجره . . .

عاشراً : لقد أصبنا بضرر بالغ لأن البعض انتزعوا لأنفسهم ملكية مراع من الحقول المشاعة والتى كانت يوماً ملكاً للجماعة . . .

حادى عشر : سوف نعمل على إلغاء الضرائب المفروضة على الوفاء إلغاءاً تاماً . ولن نتحملها ولن نسمح بنهب أموال الأرامل والأيتام على هذا النحو المخجل .

ثانى عشر : إذا تبين لنا أن ثمة خطأ فى بند أو أكثر من البنود الموضحة بفضل كلمة الله فإننا نتراجع عنها إذا أيدت لنا هذا أدلة من الكتاب المقدس[١٨] .

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا إليه بنسخة من البنود وطلبوا منه أن يناصرهم ، فرد عليهم بكتيب نشر فى إبريل عام ١٥٢٥ وعنوانه : « تنبيه إلى السلام » وأثنى على عرض الفلاحين بالخضوع لأى قصاص ينص عليه الكتاب المقدس وتعرض للاتهامات التى وجهت وقتذاك إلى خطبه ومقالاته بأنها قد أشعلت نار الثورة فأنكر مسئوليته عنها وأشار إلى أنه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة وقال :

« لا يوجد على ظهر البسيطة من نشكره على هذه الثورة الخبيثة إلا أنتم أيها الأمراء والسادة ، وبخاصة أنتم أيها الأساقفة العميان والقساوسة والرهبان

المجانين يا من قست قلوبكم على الإنجيل المقدس رغم أنكم تعلمون أن ما جاء به صحيح وأنكم لا تستطيعون أن تدحضوه . وفضــلا عن هذا فإنكم فى حكومتكم الزمنية لم تفعلوا شيئاً إلا التنكيل برعاياكم وسلب أموالهم لكى تنعموا بعيشة رغدة ترضى كبرياءكم . لقد فاضت الكأس حتى لم يعد الفقراء من عامة الناس يتحملون أكثر من ذلك . وإذن ما دمتم السبب فى سخط الله فإن غضبه تعالى سوف يحيق بكم لا محالة إذا لم تصلحوا من وسائلكم فى الوقت المناسب .

إن الفلاحين يحشدون قواهم ولا بد أن يؤدى هذا إلى خراب ألمانيا ودمارها وتحطيمها بقتل الناس فى قسوة وسفك الدماء ما لم يقبل الله توبتنا ويجنبنا هذا المصير »[١٩] .

ونصح الأمراء والسادة الإقطاعيين بأن يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحثهم على انتهاج سياسة تتسم بالرأفة ، ووجه إلى الفلاحين خطاباً صريحاً أقر فيه بما أصابهم من أضرار ، ولكنه توسل إليهم أن يحجموا عن استخدام العنف وعن الانتقام ، وتنبأ بقوله إن الالتجاء إلى العنف سوف يترك الفلاحين فى وضع أسوأ مما كانوا فيه من قبل . وتنبأ أيضاً بأن أى ثورة سوف تصم بالعار حركة الإصلاح الدينى وأنه سوف يلام على كل شىء . وعارض استيلاء كل أبرشية على ضرائب العشور وقال إنه يجب على الناس الخضوع للسلطات إذ أن لها الحق فى فرض ما تراه من ضرائب لمواجهة نفقات الحكومة وأن حرية الرجل المسيحى يجب أن تفهم على أنها حرية روحية لا تتعارض مع العبودية بل ولا الرق . وقال :

ألم يتخذ إبراهيم وأبناؤه الآخرون والأنبياء عبيداً ؟ اقرأ ما يعلمه لنا القديس بولس عن الخدم الذين كانوا جميعاً أرقاء فى ذلك العهد . . . ومن ثم فإن بندكم الثالث لا يسرى على الإنجيل فهذه المادة تساوى بين الناس جميعاً وهذا مستحيل ، ذلك لأن مملكة دنيوية لا تستطيع أن تقف على قدميها

ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص بحيث يكون البعض منهم أحراراً والبعض مسجونين والبعض سادة والآخرون رعايا[٢٠] .

ولو اتبعت نصيحته الأخيرة لجنبت ألمانيا كثيراً من سفك الدماء والدمار :

« تخيروا من الأشراف بعض الكونتات واللوردات ومن المدن بعض أعضاء المجلس وعالجوا هذه الأمور وأحسموها بطريقة ودية . وأنتم أيها السادة تخلوا عن عنادكم وأقلعوا قليلا عن طغيانكم واضطهادكم حتى يتنفس الفقراء من الناس ويجدوا متسعاً للعيش . وعلى الفلاحين بدورهم أن يعلموا أنفسهم وأن يتخلوا عن بعض المطالب التى تدق على فهمهم وترتفع عن مستوى إدراكهم[٢١] .

ومهما يكن من أمر فإن زعماء الفلاحين شعروا بأن الأوان قد فات للتراجع عما اعتزموه لأنهم سيتعرضون للعقاب عاجلا أو آجلا فى أية مصالحة . وأحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائناً واستمروا فى الثورة . وتشبث بعضهم حرفيا بحلم المساواة : كان على الأشراف أن يجردوا قلاعهم من السـلاح ويعيشوا كما يعيش الفلاحون وأوساط الناس وكان عليهم أن يكفوا عن امتطاء صهوات الجياد لأن هذا يرفعهم فوق مصاف أتباعهم . وكان لا بد من إبلاغ القساوسة أنهم منذ ذلك الوقت خدم لرعايا أبرشياتهم لا سادة لهم وأنهم سوف يطردون إذا لم يتشبثوا بنصوص الكتاب المقدس فحسب[٢٢] . وانهالت المطالب بالبريد من العمال فى المدن ، ونددت باحتكار الأغنياء للوظائف فى المدينة ، وباختلاس الموظفين المنحرفين للأموال العامة وبارتفاع الأسعار الدائم فى الوقت الذى ظلت فيه الأجور ثابتة لا تتغير . وقال أحد المتطرفين لسوف يكون من الخير لخلاص الروح ألا يكون البطارقة على هذه الدرجة من الثراء وألا يعيشوا فى مثل هذه الرفاهية وأن تقسم أملاكهم على الفقراء » . واقترح فندل هبلر وفردريك فايجانت تصفية

كل أملاك الكنيسة للوفاء بالحاجات الدنيوية وأن تلغى كل الرسوم للنقل والرسوم الجمركية وألا يستخدم فى كل أنحاء أوروبا إلا نوع واحد من السكة ونظام واحد من الأوزان والمكاييل(٢٤) .

وكان يتزعم هذه الحركة زعماء مختلفو المشارب : كان هناك اثنان من أصحاب الحانات هما جورج ميتزلر وميترن فوربباخر ، وكان هناك جيكلاين رورباخ الخراط الطروب ، وبعض قدامى الجنود والقساوسة السابقين وفارسان من عصبة سيكنجن المهزومة — فلوريان جيبر وجيتز فون برليخنجن « ذو اليد الحديدية » وشاء القدر أن يقع اختيار هاوبتمان وجيته فيما بعد على هذين الرجلين فجعلا منهما بطلين لمسرحيات شائقة . وكان كل زعيم مطلق السلطان بين جماعته ، وقلما كان يوفق بين عمله وعمل الآخرين ، ومع ذلك فان الثورة اشتعلت فى ربيع عام ١٥٢٥ فى اثنى عشرة منطقة متفرقة فى نفس الوقت ، واستولت جماعة من العمال على السلطة الإدارية فى البلدية فى هايلبرون وروتنبرج وفيرتسبورج ، وأعلنت حكومة الكومون الظافرة فى فرانكفورت على الماين أنها سوف تمثل منذ ذاك سلطة المجلس البلدى والعمدة والبابا والإمبراطور مجتمعين . وفى روتنبورج طرد القساوسة من الكاتدرائية وحطمت التماثيل الدينية وهدمت بيعة وسويت بالأرض (٢٧ مارس سنة ١٥٢٥) وأفرغ الناس مخازن النبيذ التى يملكها رجال الدين وهم منتشون بخمر النصر(٢٥) . وتخلت المدن الخاضعة للسادة الإقطاعيين عن ولائها لهم ونادت المدن الخاضعة للأساقفة بإنهاء امتيازات رجال الدين ، وثارت غضباً مطالبة بتخصيص أملاك رجال الدين للأغراض الدنيوية ، وانضمت دوقية فرانكونيا بأسرها تقريباً إلى الثورة . وأقسم كثير من السادة والأساقفة ممن لم يستعدوا للمقاومة ، أنهم يقبلون الإصلاحات المطلوبة منهم ، وذلك من أمثال أساقفة سبير وبامبرج ورهبان دير كيمبتين ودير هرتسفيلد وأعتق الكونت ويليام الهنيبرجى أرقاءه واستدعى الكونت جورج والكونت ألبرخت

الهوهنلوهى للمثول أمام زعماء الفلاحين للانخراط فى سلك الهيئة الجديدة وقالوا : « تعال هنا أيها الأخ جورج والأخ ألبرخت وأقسما للفلاحين أن تكونا لهم كالإخوة لأنكما لم تعودا الآن سيدين بل أصبحتما فلاحين »[٢٦] . واستقبلت معظم المدن ثورات أهالى الريف بترحيب قلبى ، وأيد الثورة كثير من رجال الدين من الرتب الدنيا الذين كانوا يمقتون السلطة الكهنوتية ، ووقعت أول مواجهة خطيرة فى لايبهايم على نهر الدانوب قرب أولم (٤ أبريل سنة ١٥٢٥) إذ استولى على المدينة ٣٠٠٠ فلاح تحت لواء قسيس ناشط هو جاكوب فيهى واحتسوا كل ما عثروا عليه من نبيذ ونهبوا الكنيسة وحطموا الأرغن وصنعوا لأنفسهم طزالق من الثياب الكهنوتية وبايعوا فى سخرية واحداً من جمعهم أجاس على المذبح ، وارتدى مسوح قسيس[٢٧] . وقام بحصار لايبهايم جيش من الجنود المرتزقة استأجرته العصبة السوابية ويقوده جورج فون تروخسيس وهو قائد قدير ، وأفزع الفلاحين غير المدربين فاستسلموا وقطعت رؤوس فيهى وأربعة من الزعماء الآخرين ، أما الباقون فقد عفت العصبة عنهم ، وإن كانت فرقها قد أحرقت كثيراً من أكواخ الفلاحين .

وفى يوم الجمعة الحزينة ١٥ أبريل سنة ١٥٢٥ قام بحصار مدينة فاينسبرج (قرب هايلبرون) ثلاثة من جماعات الثوار تحت قيادة متسلر جيير وروورباخ ، وكان يحكم هذه المدينة الكونت لودفيج فون هلفشتاين الذى كان يمقته الناس بسبب قسوته وشدته . واقترب من الأسوار وفد من الفلاحين وطلب المفاوضة فقام الكونت وفرسانه بهجوم مفاجىء وذبحوا كل أعضاء الوفد . وفى يوم الأحد الموافق لعيد الفصح اقتحم المهاجمون الأسوار بمساعدة بعض أهالى المدينة ومزقوا أجساد الأربعين رجلا المدججين بالسلاح ، والذين اهتموا بالمقاومة وأسر الكونت وزوجته (وهى ابنة الإمبراطور الراحل ماكسمليان) وستة عشر فارساً ، وأصدر روورباخ ، دون مشاورة متسلر

أو جيير ، أمراً للسبعة عشر رجلا بالمرور بين صفين من الفلاحين المسلحين بالحراب لتأديبهم ، وعرض الكونت أن يقدم كل أمواله فدية لهم ولكن هذا العرض رفض كوسيلة مؤقتة ، وتوسلت إليه الكونتيسة فى تذلل شموم أن يبقى على حياة زوجها ولكن روورباخ أمر اثنين من رجاله بأن يسنداها حتى تشهد نشوة الانتقام . وبينما كان الكونت يسير إلى حتفه وسط وابل من الخناجر والرماح ذكره الفلاحون بما ارتكب من أعمال وحشية وصاح أحدهم : « لقد ألقيت بأخى فى غياهب السجن لأنه لم يرفع قبعته من على رأسه وأنت تمر به » . وصرخ آخرون : « لقد سخرتنا كالثيران فى نير العبودية . . . لقد قطعت يدى والدى لأنه قتل أرنباً فى حقلك . . . لقد داست خيولك وكلابك وصيادوك محاصيلى . . . لقد استنزفت منا آخر نفس لدينا » . وفى خلال نصف الساعة القادمة لقى الستة عشر فارساً حتفهم بالمثل . أما الكونتيسة فقد سمح لها بأن تنسحب إلى دير[٢٨] .

كانت عصابات الفلاحين تثير الشغب فى كل أرجاء ألمانيا تقريباً . ونهبت الأديرة أو أكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية . ويقول بعضهم فى خطاب أرسل يوم ١٧ أبريل عام ١٥٢٥ : « فى كل مكان يجاهر الثائرون . . . بنيتهم فى قتل كل رجال الدين الذين لا ينفصلون من ولائهم للكنيسة ويعلنون عن عزمهم على تدمير كل الأديرة وقصور الأساقفة واستئصال شأفة الدين الكاثوليكى تماماً من البلاد »[٢٩] . ولعل فى هذا شيئاً من المبالغة ولكن فى وسعنا أن نسجل أن الثوار استولوا على كثير من المدن وأكرهوا الأرشيدوق فرديناند على الموافقة على أن يكون الوعظ منذ ذلك الوقت طبقاً لنصوص الكتاب المقدس — وهو مطلب بروتستانتى خالص وذلك فى بافاريا والنمسا والتيرول حيث لقيت البروتستانتية اضطهاداً ظاهراً . وفى مايزفر كبير الأساقفة ألبرخت ولم يستطع مواجهة العاصفة ، إن قام نائبه بإنقاذ كرسى الأسقفية وذلك بتوقيع المطالب الاثنى عشر ودفع فدية قدرها ١٥,٠٠٠ جيلدر ، وفى الحادى عشر من شهر أبريل رفض أهالى مدينة

بامبرج الاعتراف بسلطة الأسقف الإقطاعية ونهبوا قصره وأحرقوه وجردوا بيوت المحافظين من رجال الدين مما فيها وانتشرت الثورة فى الألزاس انتشار النار فى الهشيم ، وما إن أشرف شهر أبريل على نهايته حتى أصبح كل كاثوليكى وكل مالك ثرى فى المقاطعة يخشى على حياته . وفى الثامن والعشرين من من شهر إبريل هاجم جيش عدته ٢٠,٠٠٠ من الفلاحين زابرن مقر أسقف ستراسبورج ونهبوا ديره وفى يوم ١٣ مايو استولوا على المدينة وأجبروا كل رجل رابع على الانضمام إليهم ورفضوا دفع كل ضرائب العشور وطالبوا بانتخاب جميع الموظفين فيما بعد عدا الإمبراطور عن طريق الاقتراع الشعبى وبأن يكونوا عرضة للعزل(٣٠) .

وفى بريكسين بالتيرول نظم ميكائيل جاسماير ، وهو سكرتير سابق للأسقفية ، ثورة هاجمت كل رجال الدين المحافظين ونهبت الدير المحلى (١٢ مايو) وظلت عاماً تهدد الأمن ، ولا يستطيع أحد قمعها . ويقول أحد المؤرخين فى هذا العهد ممن كانوا لايتعاطفون مع الثوار إنه فى جميع أودية نهرى اين واتش كانت هناك — جماهير غفيرة وصراخ وهرج شديدان وكان من الصعب على أى إنسان صالح أن يسير فى الطرقات وقال إن السلب والنهب أصبحا شائعين إلى الحد الذى كان فيه الأتقياء يشعرون بالإغراء للاشتراك فيهما»(٣١) . وفى فرايبورج — أم — برايسجاو نهب الفلاحون القلاع والأديرة وأكرهوا المدينة على الانضمام إلى « الأخوة الإنجيلية » ، (٢٤ مايو) وفى الشهر نفسه أقصت عصابة من الفلاحين أسقف فيرتسبورج عن قصره وأقاموا وليمة بما عثروا عليه فى مخازنه . وفى شهر يونيو أقصى ماتياس لانج كبير الأساقفة المعروف بحبه للقتال من قصره إلى قلعته التى تشرف على المدينة ، وفى نيوشتادت فى البلاتينيت دعا الأمير المختار لودفيج زعماء الفلاحين للعشاء بعد أن أحاط به ٨٠٠٠ منهم واستجاب لمطالبهم دون امتعاض(٣٢) .

وفى هذا قال أحد المعاصرين : « ها نحن أولاء نرى أهالى القرى وسيدهم

يجلسون جنباً إلى جنب ويأكلون ويشربون معاً ويبدو أنه يكنّ لهم مشاعر الود وأنهم يبادلونه هذا الشعور .

وفى وسط هذا السيل من الأحداث أصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف مايو عام ١٥٢٥ كتيباً عنوانه : « معارضة لجموع الفلاحين التى تقوم بالسلب والقتل » . وأفزعت لهجته الحادة الأمير والفلاح والأسقف وعالم الإنسانيات على السواء فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة فى ألمانيا وآلمته الاتهامات التى تقول إن تعاليمه الخاصة قد أطلقت الفيضان من عقاله فتحول وقتذاك دون تحفظ إلى جانب السادة المعرضين للخطر وقال : « لم أجسر فى كتاب سابق على الحكم على الفلاحين لأنهم عرضوا أن يسلكوا الطريق المستقيم وأن يتعلموا . . . ولكن قبل أن أتطلع حولى تناسوا ما عرضوه وعمدوا إلى العنف وقاموا بالسلب والنهب وأسلموا قيادهم إلى الهياج وتصرفوا كالكلاب المسعورة . . . إن ما يقومون به من عمل الشيطان بل إنه بصفة خاصة من عمل إبليس (منتسر) الذى يحكم فى ميلهاوزن . . . يجب أن أبدأ بوضع خطاياهم أمام أعينهم . . . ثم يجب أن أعلم الحكام كيف يسوسون أنفسهم فى هذه الظروف . . .

إن أى إنسان يمكن إثبات شغبه يعد خارجاً على سنة الله وقانون الإمبراطورية ومن ثم فإن أول من يقتله يفعل خيراً ولا يرتكب إثماً . . . ذلك لأن الثورة تأتى معها بأرض مليئة بالقتل وسفك الدماء وترمل النساء وتيتم الأطفال وتقلب كل شيء رأساً على عقب . . . ولهذا دعوا أى إنسان يستطيع أن يقتل ويذبح ويطعن ، سراً وعلناً ، وضعوا نصب أعينكم أنه لا شيء أكثر فتكاً أو ضرراً أو خبثاً من الثورة . . إن هذا لا يختلف عن حالة المرء الذى يجد نفسه مضطراً إلى قتل كلب مسعور وإذا لم تضربه فإنه سوف يقضى عليك ومعك بلد بأسره . . .

ورفض التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوع وقال : « إن

الإنجيل لا يجعل الأمتعة على الشيوع إلا بالنسبة لمن يفعلون ، بإرادتهم الحرة ، ما كان الرسل والحواريون يفعلونه فى الإصحاح الرابع . إنهم لم يطلبوا مثل فلاحينا المجانين فى سورة غضبهم عند ما يطالبون بأن تكون أمتعة الآخرين سواء كانت لبيلاطس أم لهيرود — مشاعا لهم وأنهم لم يطلبوا تطبيق هذا إلا على أمتعتهم . ومهما يكن من أمر فإن فلاحينا سوف يحصلون على أمتعة الآخرين باعتبارها مشاعاً لهم ويحتفظون بأمتعتهم لأنفسهم ، فما أروع هؤلاء من مسيحيين ! أعتقد أنه لم يبق شيطان فى الجحيم وأن الشياطين جميعاً قد انطلقت إلى الفلاحين » .

أما الحكام الكاثالكة فإنه عرض عليهم غفرانه إذا قضوا على العصاة دون محاكمة . وأوصى الحكام البروتستانت بالصلاة والندم والمفاوضة ولكن إذا ظل الفلاحون على عنادهم : « عندئذ سارعوا بامتشاق الحسام لأن أى أمير أو سيد يجب أن يتذكر فى هذه الحالة أنه كاهن لله وأنه أداة نقمته تعالى (الرومان ١٣) اللذي يمتشق من أجله الحسام لضرب رقاب هؤلاء الأتباع ... وإذا كان فى وسعه أن يعاقب ولا يفعل — حتى لو كان العقاب أن يستل الحياة ويسفك الدماء — فإنه يبوء بإثم كل جرائم القتل والشرور التى يرتكبها هؤلاء الأتباع . . . وعندئذ على الأتباع أن يستمروا بلا اكتراث ودون أن يعذبهم الضمير فى النضال كالأبطال ما دامت قلوبهم تخفق بين ضلوعهم . . . وإذا خطر لأحد أن هذا صعب جداً فليتذكر أن الثورة لا تحتمل وأن دمار العالم أمر متوقع فى كل ساعة »(٢٣) .

وكان من سوء حظ لوثر أن تصل هذه الرسالة الغاضبة إلى قرائها فى الوقت الذى بدأت فيه الطبقات المالكة فى إخضاع الثورة . وتلقى المصلح ثناء لا يستحقه على الإرهاب بالقمع ومن غير المحتمل أن يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب إذ كانوا بطبعهم يميلون إلى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعاً لهم ولا تمحى ذكراها من أذهانهم وقد أخذوا

بعض الوقت يعللون الفلاحين البسطاء بالوعود والأمانى وبهذا أغروا الكثير من العصابات بالتفرق وفى غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها .

وفى ذروة الفتنة مات فردريك الأمير المختار (٥ مايو عام عام ١٥٢٥) وكان رجلا هادئاً يؤثر السلام ويسلم بأنه هو وباقى الأمراء قد ظلموا الفلاحين ورفض أن ينضم إليهم فى اتخاذ اجراءات الانتقام وترك لخلفه الدوق جون نصائح ملحة بالتزام الاعتدال ، بيد أن الأمير المختار الجديد شعر بأن سياسة أخيه كانت تعتمد على اللين وهو أمر يجافى الحكمة فانضم بقواته إلى قوات هنرى دوق برونزفيلك وفيليب لاندجريف الهسى وزحفوا جميعاً لمهاجمة معسكر منتسر خارج ميلهاوزن . وكانت جيوش الخصوم لا تفوقهم إلا عدداً — كان كل منها يتكون من ٨٠٠٠ رجل من الأشداء ، بيد أن معظم الرجال فى قوات الدوقات كانوا من الجنود المدربين ، بينما كان الفلاحون ، على الرغم من مدفعية منتسر البسيطة ، يتسلحون بأسلحة ليست جيدة أو رديئة ويفتقرون إلى النظام ويتفشى بينهم الاضطراب بسبب ما يساورهم من رهبة بالسليقة . واعتمد منتسر على فصاحته ليقوى من عزائم الفلاحين وأمهم فى الصلاة وفى ترتيل الأناشيد وأطلقت مدفعية الأمير أول ستار من نيرانها فصرعت مئات من الثوار وفر الباقون مذعورين إلى مدينة فرانكنهاوزن (١٥ مايو سنة ١٥٢٥) وطاردهم المنتصرون وقتلوا منهم ٥٠٠٠ وحكم على ثلاثمائة أسير منهم بالإعدام فتشفع لهم نساؤهم والتمسوا العفو عنهم رحمة بهن ، فأجبن إلى طلبهن على شريطة أن تحطم النساء رأسى قسيسين كانا قد حرضا على الثورة وتم تنفيذ هذا بينما كان الدوقات المنتصرون يرقبون هذا المشهد[٣٤] . واختفى منتسر ثم قبض عليه وعذب حتى أقر بخطأ وسائله ثم قطع رأسه أمام القادة والأمراء ودافع بفيفر ومعه ١٢٠٠ جندى عن مدينة ميلهاوزن ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وأعدم بفيفر وباقى القواد أما المواطنون فقد نالوا العفو على أن يدفعوا فدية إجمالية قدرها ٤٠,٠٠٠ جيلدر (١,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) .

وفى غضون ذلك استولى تروخسيس على مدينة بيبلنجن (Böblingen) بطريق المفاوضة وحول مدافعه من داخل أسوار المدينة وأطلقها على معسكر للثوار خارجها (١٢ مايو) ، وأجهز فرسانه على الفلاحين الذين نجوا من نيران هذه المدفعية وقضى هذا على الثورة فى فيرتمبرج . ثم تحول تروخسيس إلى فاينزبرج وأحرقها حتى سويت بالأرض وشوى فى بطء بجسد جيكلاين رورباخ الذى تزعم « مذبحة فاينزبرج » . ثم زحف تروخسيس ليهزم قوات الفلاحين فى كينجزهوفن والجولشتادت هزيمة منكرة ، واستولى على فيرتسبورج وأطاح برءوس واحد وثمانين من الثوار اختارهم ليكونوا عبرة للآخرين (٥ يونية) . وفر فلوريان جيير من فيرتسبورج ليعيش فى غياهب النسيان وظل أسطورة يرددها الناس فى إعزاز واستسلم جيتزفون برليخنجن فى الوقت الملائم وعاش ليحارب مع شارل الخامس ضد الأتراك ومات على فراشه وفى قلعته بالغاً من العمر اثنين وثمانين عاماً (١٥٢٦) وسقطت مدينة روتنبرج فى ٢٠ يونيه وسرعان ما تلتها مدينة ممينجن وسحقت الثورة فى الألزاس بعد مصرع ٢٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ رجل فى ليبشتاين وتسابرن (Zabern) (١٧ — ١٨ مايو) وما أن حل يوم ٢٧ مايو حتى كان قد قتل نحو ٢٠,٠٠٠ فلاح فى الألزاس وحدها وفى كثير من الحالات كان هواء المدن تشيع فيه رائحة الموت[٣٥] وأمر ماركجراف كاسيمير Markograf Casimir بقطع رؤوس بعض من استسلم من فلاحيه وشنق البعض الآخر . وفى الحالات المخففة قطع أيديهم أو سمل عيونهم[٣٦] ، وتدخل الأمراء العقلاء فى آخر الأمر فى تخفيف همجية الانتقام ، وفى نهاية شهر أغسطس أصدر المجلس النيابى فى أوجسبورج أمراً كتابياً حث فيه على الاعتدال فى توقيع العقوبات وفرض الغرامات وتساءل شريف فيلسوف قائلا : « أين نجد فلاحين يقومون بالوفاء لأغراضنا إذا قتل كل الثوار ؟[٣٧] » .

واستمرت الثورة عاماً فى النمسا وفى يناير عام ١٥٢٦ أعلن ميكائيل جاسمايير فى أنحاء التيرول أعظم البرامج الثورية تطرفاً وقال : « يجب القضاء

على كل الكفار (أى غير البرتستانت) الذين يضطهدون « كلمة الله » الحقة أو يظلمون الرجل العادى . ويجب أن تزال الصور والمزارات من الكنائس وألا تتلى القداسات ويجب أن تهدم أسوار المدن والأبراج والحصون وألا تبقى إلا القرى وأن يتمتع جميع الناس بالمساواة . ويجب اختيار الموظفين والقضاة بالاقتراع العام الذى يشترك فيه الذكور البالغون كما يجب إيقاف دفع الإيجارات والمكوس للسادة الإقطاعيين فوراً وأن تجمع ضرائب العشور على أن تعطى لسلطات الكنيسة التى خضعت للإصلاح الدينى وللفقراء . ويجب أن تحول الأديرة إلى مستشفيات أو مدارس ، أما المناجم فيجب أن تؤمم وعلى الحكومة أن تحدد الأسعار(٣٨) . وقدر لجاسمايير أن يهزم التى أرسلت لقتاله باستراتيجية ذكية ، واستمر هذا الحال بعض الوقت غير الفرق أن أعداءه تفوقوا عليه أخيراً فى الدهاء وفر إلى إيطاليا وأفرد الأرشيدوق فرديناند ثمناً لرأسه وفاز بالمبلغ اثنان من القتلة الإسبانيين عند ما اغتالاه فى غرفته ببادوا (١٥٢٨) .

ولم تفقد ألمانيا من الأرواح والأملاك ما فقدته فى ثورة الفلاحين إلا فى حرب الثلاثين عاماً . فقد هلك من الفلاحين وحدهم نحو ١٣٠٠٠٠ فى ساحة القتال أو على نطع التكفير ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فى ١٠,٠٠٠ رجل تحت حكم العصبة السوابية . وامتلأت أعطاف جلاد تروخسيس زهوا لأنه قتل بيديه المدربتين ١٢٠٠ رجل محكوم عليه بالإعدام . أما الفلاحون أنفسهم فقد دمروا مئات القلاع والأديرة وأقفرت مئات القرى والمدن من ساكنيها أو أصبحت خراباً بلقعاً أو فرضت عليها تعويضات باهظة ، وتشرد ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ فلاح وأخذوا يهيمون فى الطرقات العامة أو يختبئون فى الغابات ، وترملت آلاف النساء وتيتم الآلاف من الأطفال ولكن قلوب المحسنين لم ترق لهم ، أو لعل جيوبهم كانت خاوية وكان المتمردون قد أحرقوا فى كثير من الحالات المواثيق التى تسجل الضرائب المستحقة عليهم

للسادة الإقطاعيين فحررت وثائق جديدة أحيت من جديد هذه الالتزامات وكانت فى بعض الحالات أكثر رفقاً بهم وفى أحيان أخرى أكثر تشدداً عما كانت عليه من قبل ومنحت امتيازات للفلاحين فى النمسا وبادن وهس أما فى المناطق الأخرى فقد اشتد أزر العبودية وقدر لها أن تستمر شرق الألب حتى القرن التاسع عشر . وأجهضت بوادر الديمقراطية وقمعت الحركات الفكرية واشتدت الرقابة على النشر فى عهد السلطات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وفقدت النزعة الإنسانية قوتها وأخلت لهجة عصر النهضة فى الحياة والأدب والحب السبيل إلى اللاهوت والورع والتأمل فى الموت .

واندثر الإصلاح الدينى نفسه أو كاد يندثر فى حرب الفلاحين . وعلى الرغم من المتنصلين من لوثر والتشهير به فإن الثورة تألقت بألوان وأفكار بروتستانتية : وكانت التطلعات الاقتصادية تغلف بعبارات أضفى عليها لوثر مسحة من القداسة ولم تكن الشيوعية إلا مجرد عودة إلى الإنجيل . وفسر شارل الخامس « الثورة » بأنها « حركة لوثرية »[٣٩] واعتبر المحافظون نزع البروتستانت ملكية رجال الدين بمثابة أعمال ثورية تقف على قدم المساواة مع نهب الفلاحين للأديرة . وفى الجنوب جدد الأمراء والسادة الذين استبد بهم الفزع ولاءهم للكنيســـة الرومانية . وفى أماكن عديدة مثل بامبرج وفيرتسبورج أعدم رجال حتى من طبقة الملاك لأنهم اعتنقوا اللوثرية[٤٠] . وقلب الفلاحون أنفسهم ظهر المجن للإصلاح الدينى وعدوه غواية وخيانة ، وأطلق بعضهم على لوثر اسم « الدكتور ليجنر » أى « الدكتور الكذاب » و « المنافق صنيعة الأمراء »[٤١] . وظل سنوات بعد الثورة لا يحظى بأى شعبية حتى أنه قلما كان يجرؤ على مغادرة فيتنبرج ولو كان هذا لكى يحضر وفاة والده على فراشه (١٥٣٠) . وكتب يقول (١٥ يونيه عام ١٥٢٥) « لقد نسوا كل ما فعله الله للناس عن طريقى والآن هاهم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمعون كلهم ضدى ويتوعدوننى بالموت »[٤٢] .

ولم يكن من شيمته أن يسلم أو يعتذر . وفى يوم ٣٠ مايو عام ١٥٢٥ كتب إلى نيكولاس أمسد ورف يقول : « فى رأيي أنه من الخير أن يقتل الفلاحون جميعاً ولا يهلك الأمراء والحكام لأن أهل الريف امتشقوا السيف دون أن يعتصموا بسلطان إلهى »(٤٣) . وفى يولية عام ١٥٢٥ نشر « خطاباً مفتوحاً بشأن الكتاب الصعب ضد الفلاحين » . وقال إن من ينتقدونه لا يستحقون الرد عليهم فقد كشفت انتقاداتهم أنهم ثائرون فى قرارة نفوسهم مثل الفلاحين وأنهم لا يستحقون الرحمة ، وقال : « ينبغى أن يأخذ الحكام بتلابيب هؤلاء الناس ويجبرونهم على إمساك ألسنتهم »(٤٤) .

« إذا دار بخلدهم أن هذا الرد صعب جداً وأن هذا تحريف للكلام ولا يقصد به إلا تكميم أفواه الناس فإنى أجيب بأن هذا صحيح ، إن أى ثائر لا يستحق عناء الرد عليه لأنه لن يتقبل الجدل . والرد على مثل هذا الفم هو لكمة تدمى الأنف ، إن الفلاحين لن يصيخوا السمع . فى آذانهم وقر ويجب أن تفتح بطلقات الرصاص حتى تقفز رؤوسهم من فوق أكتافهم . إن مثل هؤلاء التلاميذ فى حاجة إلى تأديب بمثل هذه العصا . إن من لا يستمع إلى كلمة الله عند ما ترتل برفق يجب أن يستمع إلى الجلاد عند ما يأتى ومعه الفأس . . . أما عن الرحمة فأنا لن أسمع أو أعرف شيئاً ولكنى سوف أهتم بإرادة الله التى تتضمنها كلمته . . . إذا شاء جل وعلا أن يصب عليك جام نقمته وأن يحجب عنك رحمته ، فيم تفيدك الرحمة ؟ ألم يأثم شاؤل بإبداء الرحمة لعماليق عند ما فشل فى تنفيذ غضب الله كما أمر ؟ وأنتم يا من ترفعون عقيرتكم مطالبين بالرحمة وتمتدحونها مدحاً شديداً لماذا لم تنادوا بها عندما كان الفلاحون ساخطين ، يقتلون ويسرقون ويحرقون وينهبون حتى أصبح الناس يفزعون لمرآهم أو عند سماع أخبارهم ؟ لماذا لم يبدوا الرحمة للأمراء والسادة الذين أرادوا أن يقصوا عليهم قضاء مبرماً ؟ »

واستطرد لوثر يقول إن الرحمة واجبة على المسيحيين فى شئونهم الخاصة ،

أما باعتبارهم من موظفى الدولة فيجب أن يراعوا العدالة أكثر من الرحمة لأن الإنسان ، منذ عصى آدم وحواء ربهما ، فطر على الشر إلى حد أنه غدا فى حاجة إلى حكومة وقوانين وعقوبات لكبح جماحه . إننا ندين بالاحترام للجماعة التى تهددها الجريمة أكثر مما ندين للمجرمين الذين يهددون الجماعة .

« لو تحققت نيات الفلاحين فلن يكون هناك رجل شريف فى مأمن منهم ولكن على كل من يملك فلساً أكثر من أى إنسان آخر أن يقاسى بسبب هذا . لقد بدأوا هذا الأمر وما كانوا ليتوقفوا هناك ، لسوف يجالل العار النساء والأطفال ولسوف يتعودون أيضاً على قتل أحدهم الآخر ، ولن يكون هناك سلام أو أمان فى أى مكان . هل سمع أحد عن شىء لا يمكن كبح جماحه أكثر من غوغاء من الفلاحين عند ما تمتلىء بطونهم ويملكون زمام السلطة ؟ . . . إن الحمار يتلقى الضربات أما الناس فيحكمون بالقوة»[٤٥] .

وقد تصدمنا اليوم عبارات لوثر المتطرفة حول حرب الفلاحين لأن النظام الاجتماعى توطد بحيث نفترض استمراره ونستطيع أن نعامل برفق هؤلاء القلائل الذين يعكرون صفوه بعنف ، ولكن لوثر واجه الحقيقة القاسية وهى أن عصابات الفلاحين تحول شكاواها العادلة إلى نهب لا يفرق بين العدو والصديق وتهدد بخرق القانون وقلب الحكومة والإنتاج والتوزيع فى ألمانيا . وبررت الحوادث تحذيره بأن الثورة الدينية التى خاطر من أجلها بحياته سوف تتعرض للخطر الشديد بسبب الرجعية المحافظة التى كانت مضطرة إلى أن تتبع ثورة فاشلة . وربما شعر بأنه مدين شخصياً بعض الشىء للأمراء والأشراف الذين كانوا قد أسبغوا عليـــه الحماية فى كيتنبرج ورومس والفارتبورج ، ولعله كان يتساءل من ينقذه من شارل الخامس وكليمنت السابع إذا كفت سلطة الأمراء عن حماية الإصلاح الدينى ، والحرية الوحيدة التى رأى أنها تستحق الكفاح من أجلها هى حرية عبادة الله والتماس الخلاص طبقاً لما يمليه ضمير المرء .

وأية أهمية فى أن يكون المرء أميراً أو عبداً فى هذا الموجز للحياة الأبدية ؟ إننا يجب أن نتقبل حالتنا هنا دون تذمر مرتبطين بالجسد والواجب ولكن متحررين روحياً وبرحمة الله .

ومع ذلك فقد كان للفلاحين قضية ضده إذ أنه لم يتنبأ بالثورة الاجتماعية فحسب بل قال إنها لن تسوءه وإنه سوف يحييها بابتسامة حتى لو غسل الناس أيديهم فى دماء الأساقفة ، ثم إنه كان قد قام بثورة أيضاً وعرض النظام الاجتماعى للخطر بل وسخر من سلطة لا تقل قداسة عن سلطة الدولة . ولم يقم بأى اعتراض على نزع السلطة الزمنية لملكية رجال الدين فكيف كان فى وسع الفلاحين أن يكون لهم حظ أفضل إذا لم يلجأوا إلى القوة ما دام حق التصويت كان محرماً عليهم وما دام مضطهدوهم كانوا يلجأون إلى القوة . لقد أحس الفلاحون أن الدين الجديد قد أضفى صفة القداسة على قضيتهم ، وأثار فيهم الأمل ودفعهم إلى العمل ثم تخلى عنهم فى الساعة الحاسمة . وفى يأس غاضب أصبح بعضهم ملحداً ساخراً[٤٦] وعاد كثير منهم أو من أطفالهم برعاية اليسوعيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . واتبع بعضهم المتطرفين الذين أدانهم لوثر وسمعوا وهم يتلون العهد الجديد دعوة إلى الشيوعية .

٣ — اللامعمدانيون يجربون الشيوعية

(١٥٣٤ — ١٥٣٦)

لا نستطيع أن ندرك مدى الحماسة التى صاحبت الأقليات المتدينة الثائرة ، فى تحزبها لانقلاب واحد أو آخر من انقلابات الثورة الدينية فى القرن السادس عشر ، ولو أدى بها إلى الموت على الخازوق ، إلا إذا لاحظنا مدى الحماسة المتأججة التى يعتنق به معاصرونا الهرطقات الاقتصادية .

وقد اتخذت أشد الطوائف الجديدة تطرفاً اسم اللامعمدانيين (المعمدين من جديد) ، وذلك من إصرارها على أن التعميد ، إذا تلقاه المرء فى

طفولته ، يجب أن تعاد مراسيمه عند البلوغ ، بل إن من الخير أن يؤجل ، كما فعل يوحنا المعمدان ، إلى أن يتمكن المتلقى الراشد من اعتناق العقيدة المسيحية بعلمه واختياره .

وكانت هناك طوائف انشعبت إليها هذه الطائفة . أما الذين اتبعوا هانز دنك ولودفيج هيتزر فقد أنكروا ألوهية المسيح : فهو فى نظرهم ليس إلا أشد الناس ورعاً وقد كفر عن خطايانا لا بعذابه فوق الصليب ، ولكن لأنه كان قدوة لنا فى حياته(٤٧) ورفع دنك من قدر ضمير الفرد ، وجعله فوق الكنيسة والدولة ، بل والكتاب المقــدس ذاته . واتبع معظم اللامعمدانيين منهجاً تطهرياً ، يتسم بتزمت فى الأخلاق ، وبساطة فى السلوك والزى . ولقد شجعهم رأى لوثر المتهور القائل بحرية المسيحيين ، فأدانوا كل حكم يقوم على العنف ، واستنكروا كل مقاومة للحكومة بالعنف ، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، على أساس أن المرء يرتكب إثماً لا شك فيه ، إذا قضى على حياة إنسان . وأبوا أن يحلفوا اليمين مثل المسيحيين الأوائل ، ولم يستثنوا من هذا القسم يمين الولاء للأمير أو الإمبراطور . وكانت تحيتهم العادية « سلام الله عليك » وهى ترديد للتحية عند اليهود والمسلمين ، وتعد التحية الرائدة للصيغة التى اتخذتها طائفة الكويكر . وفى الوقت الذى اتفق فيه لوثر وزونجلى وكالفن ونوكس مع البابوات على عبث التسامح الدينى ، أخذ اللامعمدانيون يبشرون به بل ويمارسونه ، وكتب أحدهم وهو بالتازار هيبماير أول دفاع عنه عام ١٥٢٤(٤٨) . وأعرضوا عن الالتجاء إلى رجال الإدارة ورفع الدعاوى . . . كانوا فوضويين تولستويين قبل ظهور تولستوى بثلاثة قرون ، وبعد ظهور بيتر شيلتسكى بقرن كامل ، ولعلهم قبسوا منه عقيدتهم . وورث بعض اللامعمدانيين ، عن وعى أو غير وعى ، عقيدة التابوريين البوهيميين أو الإخوان المورافيين ، ونادوا بشيوعية الأمتعة(٤٩) . وإذا صدقنا ما قاله المؤرخون من الخصوم فإن قلة منهم اقترحت شيوعية

الزوجات[٥٠] . ومهما يكن من أمر فإن الطائفة رفضت بصفة عامة أية مشاركة إجبارية فى الأمتعة ، ودافعت عن مبدأ العون الاختيارى المتبادل ، وعسكت بأن الشيوعية سوف تكون آلية وشاملة فى ملكوت السماء[٥١] .

ولقد استلهمت كل جماعات اللامعمدانيين سفر الرؤيا ، وتوقع عودة المسيح المبكرة بصفة يقينية إلى الأرض . وأكد كثير من المؤمنين أنهم يعرفون موعد مجيئه ، وحددوا الساعة واليوم . ومن هنا كان لا بد من القضاء على كل الكفار — وهم هنا كل الناس ما عدا اللامعمدانيين — بحد سيف الرب ، ولا بد أن يعيش الصفوة يحفهم المجد فى فردوس أرضى بلا قوانين ولا زواج ، وينعمون بفيض زاخر من أطايب كل شىء[٥٢] . وعلى هذا فإن الناس الذين يحدوهم هذا الأمل ساحوا أنفسهم ضد الكدح ووحدانية الزوجة .

وظهر اللامعمدانيون لأول مرة فى سويسرا . ولعل مسيحية تدعو إلى السلام قد تسربت من ثورة الولدان فى جنوب فرنسا والبيغارد فى الأراضى المنخفضة ، وتبنى قليل من المثقفين هنا وهناك كما فى بازل فكرة إقامة مجتمع شيوعى . ولعل بعض الفقرات الشيوعية فى « المدينة الفاضلة » ، كما صورها مور ، قد حفزت العلماء الذين تجمعوا حول أرازموس هناك ، وأصبح ثلاثة من أعضاء تلك الحلقـــة زعماء لا معمدانيين وهم : كونراد جريبل وفيلكس مانز الزيوريخى وبالتازار هيماير والولد شوتى فى حدود النمسا المواجهة . وفى ١٥٢٤ زار ميزر والد شوت وجاء كارلشتادت إلى زيورخ ، وتكونت طائفة من اللامعمدانيين فى زيورخ باسم « الروحانيين » أو « الإخوان » ، وأخذت تبشر بالتعميد عند البلوغ وبمجىء المسيح ، ورفضت الاعتراف بالكنيسة والدولة ، واقترحت وضع نهاية لتقاضى الفائدة والضرائب وإلغاء الخـــدمة العسكرية وضرائب العشور وتحريم حلف اليمين .

ولقــد كان أولريخ زونجلى فى ذلك الوقت يكسب إلى صفه مجلس زيورخ الكبير ، ويستميله لآرائه البروتستانتية ، التى تضمنت إشراف السلطات الزمنية على الدين ، وناشد «الإخوان» أن يخففوا من كراهيتهم للدولة وأن يقبلوا التعميد فى الطفولة ، ولكنهم أبوا . واستدعاهم المجلس إلى مناظرة عامة (١٧ يناير سنة ١٥٢٥) ، وعند ما فشل فى تحويلهم عن آرائهم ، أمر بأن يغادر المدينة آباء الأطفال الذين لم يعمدوا . ونلد اللامعمدانيون بالمجلس ، وأطلقوا على زونجــلى لقب التنين العجوز ، وتظاهروا فى الطرقات وهم يصيحون «الويل لزيورخ !»(٥٣) . واعتقل زعماؤهم ونفوا عن المدينة ، وأتاح لهم هذا نشر عقائدهم ، وتولى سانت ــ جول وابنتسيل الحركة ، وأثارت هذه برن وبازيل وكسب هيباير إلى صفه والدشوت بأسرها ، وجلس فى ابنتسيل ١٢٠٠ رجل وامرأة ممن ارتضوا حرفياً كلمات المسيح : «لا تحمل هما لطعامك» وأخذوا ينتظرون أن يأتى الله ويطعمهم(٥٤) .

وليس من شك فى أن النجاح الظاهر الذى أحرزته حرب الفلاحين فى ربيع عام ١٥٢٥ قد رفع من شأن هذه التحولات ، ولكن فشلها شجع طبقات الملاك فى المدن السويسرية على اتخاذ إجراءات قمع مشددة ، واعتــقل مجلس زيورخ مانز (يوليو) ، ثم جريبل ، ثم هيباير ، وأمر بزج كل اللامعمدانيين المتشبثين بآرائهم فى سجن البرج ، ليعيشوا على الخبز القفار والماء وأن «يتركوا حتى يموتوا وتبلى أجسادهم»(٥٥) . وحدث هذا لجريبل وأغرق مانز ، أما هيباير فقد عدل عن رأيه وأطلق سراحه ؛ وأنكر ردته وأخذ على عاتقه أن يهدى أهل أوجسبورج ومورافيا ، وقطع رأس هيتزر فى كونستانس بتهمة اللامعمدانية والزنى ــ وأظهرت المقاطعات التى تدين بالبروتستانتية والكاثوليكية أنها لم تكن أقل نشاطاً فى قمع هذه الطائفة ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى لم يبق فى سويسرة إلا عصابات سرية لا يؤبه لها ؛

وفى غضون ذلك كانت الحركة قد انتشرت ، كما تنتشر أى إشاعة ، فى أنحاء جنوب ألمانيا ، وتملكت المرتدين حماسة فياضة للقيام بدعاية للمذهب الإنجيلى ، وحولهم ذلك إلى رسل متحمسين للعقيدة الجديدة . وأحرز دنك وهيماير فى أوجسبورج نجاحاً سريعاً بين عمال النسيج والطبقة الوسطى الدنيا ، وما أن قارن كثير من عمال المناجم فى التيرول ما هم فيه من مسغبة ، وما ينعم به من ثراء آل فوجر وآل هوخشتتر ، الذين كانوا يملكون المناجم ، حتى اعتنقوا اللامعمدانية عند ما انهارت ثورة الفلاحين ، أما فى ستراسبورج فإن الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت أتاح للطائفة أن تتضاعف دون أن يلحظ ذلك أحد لبعض الوقت . إلا أن كتيباً صدر عام ١٥٢٨ حذر السلطات من أن « من يعلم الناس أن كل الأشياء يجب أن تكون على المشاع لا يخطر بباله إلا إثارة الفقراء ضد الأغنياء ، والرعايا ضد الحكام الذين عينهم الله »(٥٦) . وفى هذا العام أصدر شارل الخامس مرسوماً ينص على أن إعادة التعميد تعد جريمة عظمى . وصدق مجلس سبير **Speyer** النيابى (١٥٢٩) على مرسوم الإمبراطور وأمر بإعدام اللامعمدانيين أينما وجدوا وحالما يقبض عليهم كما يقضى على الوحوش المفترسة ، وذلك دون أية محاكمة . وكتب مؤرخ لامعمدانى تحقيقاً عن النتيجة ، ولعله كان مغالياً ، بأسلوب كتاب سير القديسين المسيحيين الأوائل :

عذب البعض على الخلعة ، وشدت أطرافهم حتى انتزعت ، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رماداً وهباء منثوراً ، وشوى لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار . . . وشنق آخرون فوق الأشجار ، أو قطعت رءوسهم بالسيف أو ألقى بهم فى لجة الماء . . . ومات بعضهم جوعاً أو هلكوا فى غياهب السجون المظلمة . . . واعتبر البعض منهم أصغر سناً من أن ينفذ فيهم حكم الإعدام فضربوا بالعصى ، وظل الكثيرون منهم سنوات فى غياهب السجون . . . وختمت على خدودهم أرقام تركت فيها أخاديد . . . أما الباقون فقد طوردوا

كالبوم والغربان ، التى لا تجرؤ على الطيران بالنهار واضطروا فى أغلب الأوقات إلى الاختفاء والعيش بين الصخور والشقوق أو فى الغابات أو فى الكهوف والحفر[٥٧] . . .

ويقول سباستيان فرانك أحد المعاصرين أنه ما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان ٢٠٠٠ لامعمدانى قد نفذ فيهم حكم الإعدام ، وفى انزيشايم ، إحدى مدن الألزاس أعدم ٦٠٠ ، وفى سالزبورج سمح لمن تاب منهم بأن يقطع رأسه قبل وضعه على المحرقة ، أما الذين لم يتوبوا فقد ش ـــادهم على نار بطيئة حتى لاقوا حتفهم (١٥٢٨)[٥٨] . وألف اللامعمدانيون أناشيد مؤثرة للإشادة بذكر هذه الحوادث ، التى استشهد فيها الآلاف وأصبح معظم مؤلفى هذه الأناشيد شهداء بدورهم .

وعلى الرغم من هذه المذابح فإن الطائفة ازدادت عدداً ، وانتقلت إلى شمالى ألمانيا . ورحب بعض الأشراف فى بروسـيا وفيرتمبورج باللامعمدانيين باعتبارهم فلاحين مسالمين مجتهدين . ويقول أحد المؤرخين الأوائل من أنصار لوثر إن وادى الفيرا فى ساكسونيا كان يزخر بهم ، وأنهم زعموا فى أرفورت أنهم أوفدوا ٣٠٠ مبعوث لهداية الناس المشرفين على الهلاك . وفى ليبيك سيطر جيرجن فولنفيفر المتهم باللامعمدانية على المدينة (١٥٣٣ — ٣٤) ، وفى موزافيا أحرز هيباير تقدماً لعقيدته المعتدلة التى فسرت الشيوعية بأنها ليست الملكية على المشاع ، بل الاستمساك بأن « على المرء أن يطعم الجائع ويروى ظمأ العطشان ويكسو العارى لأننا فى الحقيقة لسنا مطلقى التصرف فى ممتلكاتنا ولكننا وكلاء أو موزعون لها فحسب » . وكسب هانزهوت[٥٩] ، الذى ألهبته تعاليم منتسر ، قلوب اللامعمدانيين فى مورافيا من هيباير بتبشيرهم بشيوعية كاملة فى الأمتعة . واعاد هيباير إلى فيينا ، حيث أحرق على السارية والتى بزوجته وهى مقيدة الأطراف فى نهر الدانوب (١٥٣٨) .

وأسس هوت وأتباعه مركزاً شيوعياً فى أوسترالينز ، حيث رفضوا

قبول كل خدمة عسكرية ، وكأنهم كانوا يتنبأون بمجيء نابليون ، ونددوا بكل صورة من صور الحرب ، واقتصر هؤلاء اللامعمدانيون فى أعمالهم على فلاحة الأرض والأعمال الصغيرة ، وحافظوا على شيوعيتهم زهاء قرن تقريباً . وأسبغ الأشراف من ملاك الأراضى حمايتهم عليهم ، لأنهم كانوا يثرون الضياع بكدحهم الواعى . وكانوا يقومون بالمشاركة فى الزراعة ، ويشترى لهم موظفو الكومون المواد اللازمة للزراعة والحرف اليدوية ، ويوزعونها عليهم ويدفع جانب من ثمن بيع المنتجات كإيجار للمالك ويوزع الباقى طبقاً لحاجة كل فرد ولم تكن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية بل البيت ، وكان يحتوى على عدد يتراوح بين ٤٠٠ ، ٢٠٠٠ شخص وفيه مطبخ مشترك ومغسل ومدرسة ومستشفى ومعصرة للخمر يشترك فيها الجميع . وكان الأطفال بعد فطامهم يربون بلا فوارق بينهم وإن ظل تحريم تعدد الزوجات كما هو . ومنع هذا المجتمع الشيوعى بمرسوم إمبراطورى صدر عام ١٦٢٢ فى حرب الثلاثين عاماً ، وخير أعضاؤه بين أن يعتنقوا الكاثوليكية أو ينفوا من البلاد . وذهب بعض المنفيين إلى روسيا ، وذهب البعض الآخر إلى المجر ولسوف نسمع عنهم مرة أخرى .

وفى الأراضى المنخفضة بشر ملشيور هوفمان ، وهو دباغ من سوابيا ، بإنجيل لامعمدانى لاقى نجاحاً فائقاً . وانتهى تلميذه جان ماتيس فى ليدن إلى الرأى القائل بأنه لن يكون فى الوسع الانتظار فى أناة لمجيء أورشليم جديدة ، بل يجب المبادرة إلى تحقيقها فوراً وبالقوة إذا لزم الأمر . وأوفد فى أرجاء هولنده اثنى عشر رسولا لإعلان الأخبار السارة ، وكان أقدرهم حائكاً صغير السن يدعى جان بويكلزون المعروف فى التاريخ باسم جون الليدينى وفى أوبرا مير بير باسم « النبى » . وكان ، دون أن يتلقى تعليماً نظامياً ، حاد الذهن خصيب الخيال وسيم الهيئة ذرب اللسان قوى الإرادة . وكتب مسرحيات أخرجها بنفسه ، ونظم الشعر ، وعند ما وقعت فى يده

كتابات توماس منتسر شعر بأن كل أشكال المسيحية ، التى تختلف عما كان ميلهاوزن قد حصلها وفقدها ، تفتقر إلى الحمية والإخلاص . وسمع ما قاله جان ماتيس وغدا نصيراً للامعمدانية (١٥٣٣) . وكان وقتذاك فى الرابعة والعشرين من عمره وفى تلك السنة قبل دعوة مشئومة للحضور إلى منستر عاصمة وستفاليا الغنية الآهلة بالسكان لإلقاء عظاته .

وكانت منستر ، بحكم تسميتها باسم الدير الذى نمت حوله ، تابعة إقطاعياً لأسقفها ولرجال الكاتدرائية ، ومع ذلك فإن نمو الصناعة والتجارة قد استحدث فيها درجة من الديمقراطية . فقد كانت حشود الوطنيين ، الذين يمثلون سبع عشرة طائفة حرفية ، يختارون كل عام عشرة من المنتخبين ، وكانوا بدورهم يختارون مجلس المدينة . ولكن الأقلية الثرية كان يتوفر فيها الجانب الأكبر من الكفاية السياسية ، ومن الطبيعى أن تسيطر على المجلس .

وفى عام ١٥٢٥ قدمت الطبقات الدنيا فى غمرة حماستها لثورات الفلاحين ستة وثلاثين مطلباً إلى المجلس فسلم لها بالقليل منها وسخر من الباقى وأرجأ النظر فيها ، وأقام برنارد روتمان ، وهو واعظ من أنصار لوثر ، من نفسه لسان حال هذا التذمر ، وطلب من جان ماتيس أن يوفد بعض اللامعمدانيين الهولنديين لنصرته . فجاء جون الليدنى (١٣ يناير سنة ١٥٣٤) وسرعان ما أقبل جان ماتيس بنفسه . وخشى « حزب النظام » حدوث تمرد فأعد العدة لكى يدخل الأسقف فرانزفون فالديك المدينة مع ٢٠٠٠ من جنوده ، فحاربهم الأهلون بقيادة ماتيس وروتمان وجون الليدنى فى الطرقات ، وأجلوهم عن المدينة ، وسيطروا عسكرياً على منستر (١٠ فبراير سنة ١٥٣٤) . وأجريت انتخابات جديدة وفاز اللامعمدانيون بالمجلس واختير اثنان منهم وهما كنبير دولنجاك وكيبنبرويك عمدتين وبدأت التجربة المثيرة .

ووجدت منستر نفسها على الفور فى حالة حرب ، يحاصرها الأسقف وجيشه المدعم ، وفى حالة فزع من أن تتحد سريعاً كل قوى النظام والتقاليد فى ألمانيا ضدها . ولكى يحمى المجلس الجديد نفسه ضد المعارضة الداخلية أصدر مرسوماً يقضى بأن يخير جميع المعارضين اللامعمدانيين بين قبول إعادة التعميد أو مغادرة المدينة . وكان هذا إجراء قاسياً لأنه كان يعنى إكراه الشيوخ ، والنساء الحاملات للأطفال ، والأطفال الحفاة على الركوب أو السعى مشياً من المدينة فى قلب الشتاء بألمانيا . وخلال هذا الحصار أعدم كلا الجانبين بلا رحمة أى شخص وجدوه يعمل لصالح العدو .

وألغى المجلس تحت وطأة الحرب وحل محله مجلس شعبى ولجنة تنفيذية للأمن العام ، وكان يرأس كلاً منهما زعماء من رجال الدين . ولقى ماتيس حتفه وهو يقاتل فى هجوم فاشل لفك الحصار (٥ أبريل سنة ١٥٣٤) ومن ثم تولى جون الليدينى حكم المدينة باعتباره ملكاً لها .

وكانت الشيوعية التى أرست دعائمها وقتذاك تعنى اقتصاد الحرب ، ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه كل شيوعية صارمة ، ذلك لأن الناس ليسوا متساوين بفطرتهم ، ولا يمكن إغراؤهم بمشاطرة الآخرين أمتعتهم وثرواتهم إلا عند ما يستشعرون خطراً جوهرياً مشتركاً ، وتتفاوت الحرية فى الداخل بتفاوت الأمن فى الخارج وتتحطم الشيوعية تحت وطأة السلام . وخشى المحاصرون أن يفقدوا حياتهم إذا لم تتحقق لهم الوحدة ، واستهوتهم العقيدة الدينية والفصاحة التى لا مفر منها ، فقبلوا حكومة دينية اشتراكية[١٠] ، وكان يراودهم أمل يائس بأنهم إنما يحققون القدس الجديدة ، التى وردت فى سفر الرؤيا . وأطلق على أعضاء لجنة الأمن العام اسم أكابر الأسباط الاثنى عشر لإسرائيل ، وأصبح جون الليدينى ملك إسرائيل ، ولعل جون أراد أن يدخل فى أذهان البسطاء معنى من معانى الوقار المفيد لمنصبه المقلقل فارتدى هو وأعوانه ملابس فخمة تركها لهم بعض السراة من المنفيين ، واتهم

الأعداء الزعماء المتطرفين بأنهم كانوا متخمين فى الوقت الذى أشرف فيه الأهالى المحاصرون على الموت جوعاً ، والدليل غير مقنع وذلك لأن الزعماء يستشعرون دائماً بأن عليهم التزاماً ملحاً بالمحافظة على صحتهم . وقد وزع الجانب الأكبر من أدوات الترف المصادرة على الشعب . وكتب أحدهم « يقول إن أفقر الناس منا كانوا يطوفون وهم يرتدون ثياباً فاخرة »(٦١) ثم ماتوا جوعاً فى شيء من الأبهة .

وبطريقة أخرى كانت الشيوعية فى منستر محدودة وتحت الاختبار ، وطبقاً لما رواه شاهد من الخصوم أصدر الحكام أمراً ، يقضى بأن تكون كل الممتلكات على المشاع(٦٢) ، ولكن فى الحقيقة ظلت الملكية الخاصة عملياً فى كل شيء ما عدا المجوهرات والمعادن الثمينة وغنائم الحرب . وكانت وجبات الطعام تقدم على الشيوع ، ولكن كان لا يتناولها إلا المشتغلون بالدفاع عن المدينة . وعند تقديم هذه الوجبات كان يقرأ إصحاح من الكتاب المقدس وتنشد أناشيد قدسية . وعين ثلاثة من الشهاسين لإمداد الفقراء بحاجاتهم ، ولتوفير المواد لهذه الصدقات أغرى البقية من الأثرياء أو أكرهوا على التنازل عن فائض أموالهم . وخصصت الأرض الصالحة للزراعة داخل المدينة لكل أسرة طبقاً لعدد أفرادها . وأكد أحد المراسيم سيادة الزوج التقليدية على الزوجة(٦٣) .

وكان ينظم الأخلاق العامة قوانين صارمة ، وشجعت الرقصات والألعاب والتمثيليات الدينية تحت الإشراف ، ولكن كان السكر والمقامرة يعاقب من يرتكبهما بقسوة ، وكان البغاء محرماً والفجور والزنا من الجرائم التى تستحق أقصى عقاب ، ودفعت زيادة عدد النساء بسبب فرار كثير من الرجال الزعماء على أن يصدروا أمراً يستند إلى السوابق فى الكتاب المقدس ، بأن تصبح النساء غير المرتبطات رفيقات للزوجات — وكن فى واقع الأمر حظايا(٦٤) . ويبدو أن النساء اللاتى ارتبطن حديثاً قد تقبلن الموقف على أساس أنه أفضل من العيش فى عزلة وحرمان . واحتج بعض المحافظين فى المدينة

ونظموا ثورة ، وسجنوا الملك ، ولكن سرعان ما لقى جنودهم حتفهم بعد أن سلبت الخمر عقولهم ، وذلك على يد جنود اللامعمدانيين ولعبت النساء دوراً بطولياً فى انتصار القدس الجديدة واتخذ جون ، بعد أن أطلق سراحه وأعيد إلى عرشه ، عدة زوجات (كما يقول المؤرخون من خصومه) ، وحكم المدينة حكماً يتسم بالعنف والطغيان(٦٥) . ولا بد أنه كان يتصف ببعض الصفات اللطيفة لأن آلاف الناس تحملوا حكمه وعرضوا للتضحية بأرواحهم فى خدمته . وعند ما طالب بمتطوعين يسيرون وراءه فى هجوم مضاد على معسكر الأسقف انخرط فى خدمته عدد كبير من النساء أكثر مما رأى أنه من الحكمة أن يستخدمن . وعنـــد ما طلب « رسلا » لاقتحام الطريق لطلب العون من جماعات اللامعمدانيين الأخرى حاول اثنا عشر رجلا أن يخترقوا خطوط الأعداء ، وقبض عليهم جميعا وقتلوا ، واندفعت فجأة امرأة متحمسة مستلهمة قصة جوديث ، إلى الخارج لاغتيال الأسقف ، وحيل بينها وبينه ، وأعدمت .

وعلى الرغم من أن الكثيرين من اللامعمدانيين فى ألمانيا وهولندا رفضوا التجاء طائفتهم الأخوية فى منستر للقوة فإن الكثيرين منهم هتفوا استحساناً للثورة . وتمتمت كولونيا وترير وأمستردام وميدن بصلوات لامعمدانية دعت فيها بنجاح اللامعمدانية ، وأبحرت من أمستردام خمسون سفينة (٢٢ مارس و ٢٥ مارس سنة ١٥٣٥) تحمل إمدادات للمدينة المحاصرة ، ولكن السلطات الهولندية فرقتها كلها بدداً . وفى الثامن والعشرين من مارس استولت عصابة من اللامعمدانيين على دير فى وست فريزلاند ، وحصنته بعد أن سمعت صدى ثورة منستر ، ولكنها غلبت على أمرها ، وفقد من أفرادها ثمانمائة .

وعند ما واجهت قوى الإمبراطورية المحافظة من البروتستانت والكاثوليك على السواء هذه الثورة التى استشرت حشدت جنودها لقمع حركة

اللامعمدانية فى كل مكان . وها هو لوثر الذى كان قد أشار عام ١٥٢٨ بالرفق مع المراطقة الجدد ينصح عام ١٥٣٠ بشهر السيف ضدهم ، لا باعتبارهم « كفاراً بل بوصفهم من كبار مثيرى الشغب »(٦٦) وأذعن ميلانكتون ، وأرسلت مدينة تلو أخرى المال والرجال للأسقف . وأصدر المجلس النيابى فى ورمس (٤ أبريل سنة ١٥٣٥) أمراً بفرض ضريبة على كل ألمانيا لتمويل الحصار . وهكذا استطاع الأسقف وقتذاك أن يحيط بالمدينة ويحرمها من كل إمداداتها ، وعند ما واجه الملك جون المجاعة وخور العزيمة أعلن أن كل من يرغب يستطيع مغادرة المدينة ، فانتهز الفرصة كثير من النساء والأطفال وبعض الرجال . أما الرجال فكان نصيبهم السجن أو القتل على أيدى جنود الأسقف ، وأما النساء فقد أبقوا على حياتهم للاستفادة بهن فى أداء خدمات مختلفة . وأنقذ أحد المهاجرين حياته بأن عرض على المحاصرين أن يريهم جانباً من الأسوار خالياً من الحماية ، فتسلقته قوة ، واقتحمت أحد الأبواب بإرشاده (٢٤ يونية) ، وسرعان ما تدفق إلى المدينة بضع آلاف من الجنود . وكانت المجاعة قد أنشبت أنيابها فى المحاصرين ، بحيث لم يبق منهم إلا ٨٠٠ رجل من القادرين على حمل السلاح ، وتحصنوا بمتاريس فى السوق ، ثم استسلموا مقابل وعد بمنحهم جواز الأمان لمغادرة منستر ، وعند ما سلموا أسلحتهم ذبحوا عن بكرة أبيهم . وفتشت البيوت وعثر فيها على أربعمائة من الأحياء كانوا مختبئين فقتلوا ، وربط جون الليدينى واثنان من أعوانه على الساريات ، وخمش كل جزء من أجسادهم بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار حتى « أصيب بالغثيان تقريباً كل من كانوا وقوفاً فى السوق من الرائحة المنتنة » ، وشدت ألسنتهم حتى تدلت من أفواههم ، وأخيراً طعنت قلوبهم بالخناجر(٦٧) .

واستعاد الأسقف المدينة ، وزاد سلسطانه السابق ، وأصبحت كل أعمال السلطات المدنية عرضة من الآن فصاعداً للاعتراض من الأسقف ، واستعادت الكاثوليكية سلطانها المظفر ، وخشي اللامعمدانيون فى أرجاء الإمبراطورية على أرواحهم ، فنبذوا كل عضو فى طائفتهم يتهم باستخدام القوة ، ومع ذلك أعدم الكثيرون من هؤلاء الهراطقة المسالمين . وأشار ميلانكتون ولوثر على فيليب الهسى بإعــدام كل من انضموا إلى الطائفة(٦٨) ، وشعر الزعماء المحافظون أن مثل هذا التهديد الخطير للنظام الاقتصادى والســياسى الذى توطدت أركانه يجب أن يعاقب بقسوة لا تعرف الغفران .

وتقبل اللامعمدانيون الدرس وأجلوا الشيوعية إلى العصر الألفى (عصر حكم المسيح ألف سنة) وأسلموا أنفسهم إلى ممارسة ما يتفق مع مبادئهم عن الحياة الرصينة البسيطة التقية المسالمة — التى لا تغضب الدولة .

وقام ميثو سيمونز ، وهو قس كاثوليكى اعتنق مذهب اللامعمدانية (١٥٣١) ، بإرشاد أتباعه من الهولنديين والألمان إرشاداً بارعاً جداً ، إلى حد أن «المينونيين» عاشوا على الرغم من كل ما تعرضوا له من محن ، وكونوا كوميونات زراعية ناجحة فى هولندة وروسيا وأمريكا . وليس هناك علاقة قرابة واضحة بين اللامعمدانيين فى القارة الأوروبية وبين جماعة الكويكر الإنجليز والمعمدانيين (جماعة البابتست) الأمريكيين . إلا أن رفض جماعة الكويكر للحرب والأيمان ، وإصرار جماعة المعمدانيين (البابتست) على التعميد عند البلوغ مستمدان من نفس تقاليد العقيدة الدينية والسلوك ، التى اتخذت أشكالا متعددة(٦٩) فى سويسرة وألمانيا وهولندة . وتشترك هذه الجماعات تقريباً فى صفة واحدة ، وهى تصميمها على تقبل العقائد التى تخالف عقائدها فى سلام . وأن علم اللاهوت الذى ساندها

وقت الشدة والفقر والاستشهاد لا يكاد يتفق مع فلسفتنا العابرة ، وإن كانت أيضاً بصـــدقها وولائها ومسالمتها قد أثرت تراثنا وكفرت عن إنسانيتنا المدنسة(*) .

(*) هاجر فوج من اللامعمدانيين (١٧١٩) من ألمانيا إلى بنسلفانيا ، واستقر فى جرمانتاون أو بالقرب منها . وهؤلاء الدونكر يبلغ عددهم الآن زهاء ٢٠٠,٠٠٠ . وفى عام ١٨٧٤ غادر روسيا كثير من اللامعمدانيين ، الذين ينحدرون من أصل مورافى ، واستقروا فى جنوب داكوتا والبرتا .

وفى شرق بنسلفانيا لايزال المينونيون الاميشيون — وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جاكوب أمين وهو زعيم عاش فى القرن السابع عشر — يرفضون رسميا استخدام الأمواس والأزرار وطرق السكك الحديدية والسيارات ومشاهدة الصور المتحركة وقراءة الجرائد ، بل إنهم لايستخدمون الجرارات ، ومع ذلك فإن مزارعهم تعد من أنجح المزارع وأكثرها تنسيقاً فى أمريكا ، ويبلغ تعداد المينونيين ٤٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٩ .

الفصل الثامن عشر

زونجلى – الإصلاح الدينى فى سويسره

(١٤٧٧ – ١٥٣١)

Multum in Parvo ?

(كثير فى القليل)

دعم نجاح المقاطعات السويسرية فى صد الهجوم الذى قام به شارل الجسور (١٤٧٧) اتحادها وأشعل جذوة اعتزازها بقوميتها ، وشجعها على مقاومة المحاولة التى قام بها ماكسمليان لإخضاعها اسماً وفعلا للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وثارت منازعات على تقسيم الغنائم عقب هزيمة بورغنديا ، فدفعت بالمقاطعات إلى حافة الحرب الأهلية ، إلا أن فيلسوفاً ناسكاً بمجلس ستانز النيابى وهو نيكولاوس فون دير فلو – الأخ كلاوس فى الذاكرة السويسرية – أقنعها بأن تركن إلى السلام .

وانضمت مقاطعة إثر مقاطعة إلى الاتحاد ، ليزداد قوة ، فقبلت فيه فرايبورج وسولوثورن عام ١٤٨١ ، وبازيل وشافهاوزن عام ١٥٠١ ، وابنتسيل عام ١٥١٣ ، وغدا الاتحاد بعد أن انضمت إليه ثلاث عشرة مقاطعة ، تتحدث كلها باللهجات الألمانية – ما عدا فريبورج وبرن ، فقد كان الحديث يدور فيهما بالفرنسية – جمهورية اتحادية : وكانت كل مقاطعة تنظم شئونها الداخلية . أما علاقاتها الخارجية فكانت تحكمها سلطة تشريعية عامة .

وكانت الهيئة التشريعية الوحيدة للمجلس النيابى الاتحادى تتكون من عدد مماثل من النواب عن كل مقاطعة . ولم تكن الديمقراطية كاملة ، فقد

حرمت عدة مقاطعات من التصويت الأقليات من رعاياها ، يضاف إلى هذا أن سويسرا لم تكن نموذجا يحتذى فى حب السلام .

ولقد انتهزت المقاطعات من ١٥٠٠ ــ ١٥١٢ فرصة تفكك وحدة إيطاليا ، واستولت على بلينزونا ولوكارنو ولوجانو وبعض المناطق الأخرى جنوب الألب ، واستمرت فى تأجير خدمات الفرق السويسرية ــ بموافقتها ــ للسلطات الأجنبية . ولكن الاتحاد تخلى عن التوسع الإقليمى بعد هزيمة حملة الحراب السويسرية فى موقعة مارينانو **Marignano** (١٥١٥) ، وتبنى سياسة تتسم بالحياد ، ووجه فلاحيه الأقوياء وصناعه المهرة ، وتجارة الكثيرى الموارد إلى تنمية حضارة ، تعد من أعظم الحضارات فى التاريخ .

وكانت الكنيسة فى سويسرة لينة العريكة وفاسدة ، كما كانت فى إيطاليا ، وأسبغت الرعاية على علماء الإنسانيات ، الذين احتشدوا حول فروبن وأرازموس فى بازل ، ومنحتهم قسطاً وافراً من الحرية . وأصبح هذا دعامة من دعائم التسامح الخلقى ، الذى ساد هذا العصر ، فاستمتع القساوسة السويسريون بالخطايا[١] . وكان أحد الأساقفة السويسريين يتقاضى من رجال الدين التابعين له أربعة جيلدرات عن كل طفل يولد لهم ، وجمع فى عام واحد ١٥٢٢ جليدر من هذا المصدر[٢] . وشكا من أن الكثيرين من القساوسة يقامرون ، ويترددون على الحانات ، ويثملون علناً[٣] ، دون أن يدفعوا رسماً للأسقفية . وبدأت عدة مقاطعات ، وبخاصة زيورخ ، فى الإشراف المدنى على رجال الدين ، وفرضت الضرائب على أملاك الأديرة . وزعم أسقف كونستانس أن زيوريخ بأسرها إقطاعية تابعة له ، وطالب بخضوعها له وبضرائب العشور المفروضة عليها ؛ ولكن البابوية كانت جد مرتبكة باتجاهات السياسة الإيطالية ، فلم تستطع أن تؤيد مزاعمه بالفعل . ولقد وافق البابا يوليوس الثانى فى عام ١٥١٠ على أن يدير مجلس المدينة فى جنيف الأديرة ، وأن يضع قواعد للأخلاق العامة فى نطاق سلطته[٤] ،

وذلك مقابل الحصول على بعض الفرق من جنيف . ومن ثم فإن روح الإصلاح الديني كانت قد تحققت فى زيوريخ وجنيف قبل ظهور أفكار لوثر بسبع سنوات ، وهى سيادة السلطة الزمنية على السلطة الدينية وأصبح الطريق ممهداً أمام زونجلى وكالفن لوضع الأسس المختلفة التى رأوا أنها تزيل هوة الخلاف بين الكنيسة والدولة .

٢ ـ زونجلى

إن زيارة يقوم بها المرء إلى محل ميلاد هولدرايخ ، أو أولريخ زونجلى ، لتوحى له بالقاعدة غير المضطردة التى تذهب إلى أن العظماء من الرجال إنما يولدون فى بيوت متواضعة . ولقد استهل أعظم المصلحين الدينيين العقلانيين ، الذين جانبهم التوفيق حياته (أول يناير عام ١٤٨٤) فى كوخ صغير بقرية فيلدهاوس ، التى تربض فى واد جبلى على بعد خمسين ميلا جنوب شرق زيوريخ فى مقاطعة سانت ــ جولد الحالية ، سقف جملونى منخفض ، وجدران من ألواح ثقيلة ، ونوافذ مقسمة إلى مربعات ، وأرضيات مكونة من ألواح مصمتة ضخمة ، وسقوف واطئة ، وحجرات مظلمة ، ودرجات تحدث صريراً ، وأسرة متينة من خشب البلوط ، ومنضدة وكرسى ورف للكتب ؛ وهذا البيت التاريخى يدل على بيئة كان الانتخاب الطبيعى فيها يتم بصورة صارمة ، أما الانتخاب الخارق للطبيعة فقد كان يبدو أملا لا غنى عنه ، وكان والد أولريخ كبير القضاة فى هذه القرية الصغيرة المغمورة أما أمه فكانت شقيقة قس معتزة بنفسها . وكان الابن الثالث من بين ثمانية أبناء يتنافسون على الظفر بإعجاب شقيقتين ، ويبدو أنه قدر قد عليه أن يكون قساً منذ نعومة أظفاره .

وأسهم عمه ، وهو نائب الأسقف فى كنيسة قرب فيزين ، فى تعليمه مع والديه ، وكان له الفضل فى أن يكون زونجلى نزعة إنسانية وإتساع أفق ، تميز بها بوضوح عن لوثر وكالفن . وعندما بلغ الصبى العاشرة من

عمره أرسل إلى مدرسة لاتينية فى باويل ، وفى الرابعة عشرة دخل كلية فى برن يرأسها أحد الأهلين من أنصار الكلاسية المبرزين . ودرس من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة فى جامعة فينا ، فى الفترة التى ازدهرت فيها الدراسات الإنسانية ، فى عهد كونراد سيلتس . وكان يسرى عن نفسه ما يلاقيه من عناء بالعزف على العود والقيثار والكمان والناى والسنطير .

وفى الثامنة عشرة من عمره عاد إلى بازيل ، ودرس اللاهوت على يد توماس فيتنباخ ، الذى هاجم قبل الأوان عام ١٥٠٨ صكوك الغفران وعزوبة رجال الدين والقداس . وحصل زونجلى على درجة الماجستير ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، (١٥٠٦) ورسم قساً . واحتفل بإقامة أول قداس له فى فيلدهاوس وسط الأقارب المبتهجين ، واشترى بمبلغ مائة جيلدر جمعت له وظيفة راعى أبرشية[٥] فى جلاروس على بعد عشرين ميلا .

وهناك تابع دراساته فى الوقت الذى كان يؤدى فيه واجباته بغيرة وحماسة ، وتعلم اليونانية ليقرأ العهد الجديد بلغته الأصلية ، وقرأ بحماسة مؤلفات هوميروس وبندار وديموكريتوس وبلوتارك وسيشرون وقيصر وليفى وسينيكا وبلينى الأصغر وتاسيتوس ، وكتب تعليقاً على مؤلف لوسيان المشكاك الفكه ، وتبادل الرسائل مع بيكوديلا ميراندولا وأرازموس ، ووصف أرازموس بأنه « أعظم فيلسوف وعالم باللاهوت » ، وزاره موقراً إياه (١٥١٥) ، وكان يقرأ له كل ليلة قبل أن ينام . وقد درج ، مثل أرازموس ، على أن يسلق بلسان لاذع فساد رجال الدين ، وأن يسخر بفطرته من التطرف فى العقيدة ، وأن يرفض بشدة الرأى القائل بأن قدامى الفلاسفة والشعراء يصلون نار جهنم . « وأقسم أنه يؤثر أن يشاطر سقراط أو سينيكا حظه المقدور ولا يتلقى الإنعام من البابا »[٦] . ولم يسمح لعهود الكهنوتية بأن تحرمه من ملذات الجسد ، فكانت له علاقات مع نساء متبرخصات ، وظل منغمساً فى ملذاته هذه حتى تزوج عام ١٥١٤ .

ولم تعبأ بأفعاله جموع المصلين عنده ، وظل البابوات يدفعون له حتى عام ١٥٢٠ معاشاً قدره خمسون فلورين ، نظير تأييده لهم ضد الحزب المناصر للفرنسيين فى جلاروس . واصطحب من عام ١٥١٣ إلى عام ١٥١٥ فرقة الجنود المرتزقة السويسرية فى جلاروس إلى إيطاليا ، بصفته واعظاً لها ، وبذل أقصى ما فى وسعه لكى يحمـــل الجنود على الحفاظ على ولائهم للقضية البابوية ، إلا أن صلته بالحرب فى المعارك التى دارت فى نافارو وماريفيانو ، جعلته يعارض بشدة أى تدبير لبيع شجاعة الجنود السويسريين للحكومات الأجنبية .

وفى عام ١٥١٦ فاز الحزب الفرنسى فى جلاروس ، وأصبحت له اليد الطولى ، فانتقل زونجلى إلى أبرشية فى أنيزيدلن بمقاطعة شفيتز . وهنا اصطبغت عظته بصبغة بروتستانتية حتى قبل قيام ثورة لوثر ، ونادى عام ١٥١٧ باعتناق دين يعتمد على الكتاب المقدس فحسب وأبلغ كبير الأساقفة الكاردينال ماتهويس شينر أن فى الكتاب المقدس أجازة ضعيفة للبابوية ، ولقد هاجم فى أغسطس عام ١٥١٨ مساوئ بيع صكوك الغفران ، وحرض رهبان البندكتيين على أن يرفعوا من المزار ، الذى أقاموه للعذراء ، والذى يعود عليهم بالربح الوفير ، نقشاً يعدون فيه الحجاج بـ « الغفران الكامل لجميع الخطايا التى اقترفوها وإعفائهم من العقاب أيضاً »(٧) . وعاد بعض الحجاج من زيوريخ إلى قساوستهم برواية حماسية عن وعظه . وفى العاشر من ديسمبر عام ١٥١٨ قبل الدعوة لتنصيبه « قساً » أو « قسيساً للشعب » فى جروسمنستر أو الكنيسة الكبرى فى زيوريخ أعظم المدن السويسرية جرأة ، وكان فى ذلك الوقت يقترب من النضج فى الروح المعنوية والتعقل . وقام بإلقاء سلسلة من العظات فسر فيها ، من النص اليونانى ، العهد الجديد بأسره ما عدا سفر الرؤيا ، الذى لم يكن يحبه ، وكان يطوى بين جوانبه شيئاً من الصوفية ، التى أسهمت فى تكوين لوثر . وليس لدينا صورة شخصية له ،

أخذت إبان حياته ، ولكن معاصريه وصفوه بأنه رجل وسيم أصهب صريح النسب ، له صوت شجى ، يستولى على ألباب جموع المصلين فى كنيسته ، ولم يكن يضارع لوثر فى الفصاحة أو التفسير ، ومع ذلك فإن عظاته كانت مقنعة ، لما تتسم به من صدق وصفاء ، وسرعان ما استجابت زيوريخ بأسرها لتأثيره . وأيده رؤساؤه من رجال الدين عند ما استأنف حملته ضد بيع صكوك الغفران . وقد اجتاز فى أغسطس عام ١٥١٨ برنهاردن سمسون الراهب الفرنسسكانى من ميلان (**Bernhardin Samson**) مضيق سانت جوتار ، وأصبح تيـتزل سويسرة . وقدم صك غفران من البابا ليو إلى الأغنياء على ورق الورشمان نظير ريال ، وإلى الفقراء ، مقابل بضع بنسات ، وبتلويحة من يده أعفى كل الأرواح التى هلكت فى برن من عذاب المطهر . واحتج زونجلى ، وظاهره فى هذا الاحتجاج أسقف كونستانس ، ولما كان ليو العاشر على علم بشىء من الأحداث الجارية فى ألمانيا ، فقد استدعى رسوله المتلاف . وفى عام ١٥١٩ انتشر وباء الطاعون فى زيوريخ ، وقضى على ثلث السكان فى خلال نصف عام . ولازم زونجلى مقره ، وواصل العمل ليلا ونهاراً فى العناية بالمرضى ، وأصيب هو نفسه بعدوى المرض ، وأشرف على الهلاك . وما أن عوفى حتى غدا أعظم شخصية فى زيوريخ ، تحظى بالشعبية ، وبعثت إليه بالتهانى بعض الشخصيات المرموقة ، التى تقيم بعيداً عنه ، من أمثال بيركهايمر وديرر . ونصب عام ١٥٢١ كبيراً للقساوسة فى جروسمنستر ، وأصبح وقتذاك من القوة بحيث استطاع أن ينادى فى سويسرة بالإصلاح الدينى .

٣ — إصلاح زونجلى الدينى

ولقد تغيرت شخصية راعى الأبرشية فى كنيسته ، دون وعى منه تقريباً ، وإن كان هذا التغيير نتيجة طبيعية لما تلقاه من تعليم غير عادى . . . كانت الموعظة قبله هينة الشأن ، ويكاد القداس والقربان المقدس أن يستغرقا

معظم الخدمة الدينية ، وقد جعل زونجلى الموعظة المسيطرة فى إقامة الشعائر الدينية ، وأصبح معلماً لا يقل براعة عنه واعظاً ، وكلما ازدادت ثقته اشتد إقناعه بأن المسيحية يجب أن تعود إلى بساطتها الأولى فى النظام والعبادة . ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس «عن الكنيسة» ، فما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية والمطهر والتوسل بالقديسين ، وبرهن أكثر من هذا على أن دفع ضرائب العشور للكنيسة يجب أن يكون بمحض الاختيار ، كما جاء فى الكتاب المقدس . ورجاه الأسقف الذى يتبعه أن يسحب هذه العبارة ، ولكنه أصر عليها وأيده مجلس المقاطعة ، بأن أصدر أمراً لكل القساوسة المعينين فى نطاق اختصاصه ، أن تقتصر عظاتهم على ما وجدوه فى الكتاب المقدس . وفى عام ١٥٢١ أقنع زونجلى المجلس بمنع تطوع الجنود السويسريين فى صفوف الفرنسيين ، وبعد مرور عام امتد الحظر حتى شمل كل الدول الأجنبية ، وعندما استمر الكاردينال شينر فى تجنيد الفرق السويسرية للبابا ، أوضح زونجلى لجمهور المصلين عنده ، أن الكاردينال كان لا يرتدى قبعة حمراء دون داع لأنها «إذا عصرت لرأيت دم أقرب الأقربين يقطر من ثناياها»[٨] . ولما لم يجد فى العهد نصاً يحرم اللحم فى الصوم الكبير ، فقد سمح لرعايا أبرشيته بأن يتجاهلوا أوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير . واحتج أسقف كونستانس ، فرد عليه زونجلى فى كتاب عنوانه (بداية ونهاية) تنبأ فيه بثورة عالمية ضد الكنيسة ونصح البطارقة بأن يقلدوا قيصر وأن يطووا حولهم أرديتهم ، ويموتوا فى جلال ووقار . والتمس ، هو وعشرة من القساوسة الآخرين ، من الأسقف أن يضع حداً لفجور رجال الدين ، وذلك بأن يسمح بزواج رجال الكهنوت (١٥٢٢) . وكان فى إبان ذلك العهد يحتفظ بسيدة تدعى أنا راينهارد بصفة عشيقة أو زوجة له فى الخفاء . وتزوجها علناً عام ١٥٢٤ قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام .

وقد سبق هذا الانفصام النهائى من الكنيسة جدلان ذكرا الناس بمناظرة

لوثر وايك فى ليبزج ، وكانت لهما أصداء بعيدة فى جدل أنصار الفلسفة الكلامية فى جامعات العصور الوسطى .

ولما كانت سويسرة جمهورية نصف ديمقراطية فلم يروعها رأى زونجلى ، الذى يذهب إلى أن الخلافات بين آرائه وآراء خصومه المحافظين يجب أن تلقى أذناً صاغية غير متحيزة ، وأخذ مجلس زيوريخ الكبير على عاتقه باغتباط مهمة الحكم على رجال الدين ، فدعا الأساقفة أن يرسلوا ممثلين لهم فحضروا بكامل أهبتهم واحتشد منهم نحو ستمائة فى قاعة المدينة ، للاشتراك فى الجدل المثير (٢٥ يناير سنة ١٥٢٣) .

وعرض زونجلى سبعة وستين بنداً يدافع عنها :

١ — يخطئ كل من يقول أن الإنجيل لا يساوى شيئاً ، إذا لم ترض عنه الكنيسة .

١٥ — يتضمن الإنجيل الحقيقة بأكملها فى وضوح وجلاء . . .

١٧ — المسيح هو الكاهن الأعظم الخالد الوحيد ، والذين يزعمون أنهم كهنة عظام ، إنما يعارضون فى الحقيقة شرف المسيح وجلاله .

١٨ — أن المسيح الذى ضحى بنفسه يوماً فوق الصليب ، قد قام بالتضحية الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين ، ومن ثم فإن القداس ليس تضحية ، وإنما هو تذكرة للتضحية الوحيدة على الصليب . . .

٢٤ — المسيحيون غير مكلفين بأية أعمال لم يأمر بها المسيح ، ويمكنهم أن يأكلوا فى جميع الأوقات كل أنواع الطعام . . .

٢٨ — كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال . ومن ثم فإن الزواج مباح لكل الناس .

٣٤ — لا أساس للسلطة الروحية التى يطلق عليها اسم (الكنيسة) فى الكتب المقدسة وفى تعاليم المسيح .

٣٥ — إلا أن السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته (إصحاح لوقا ٢ — ٥ وإصحاح متى ٢٢ ، ٢١) . . .

٤٩ — لا أعرف فرية أعظم من تحريم الزواج الشرعى على القساوسة ، بينما
يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة . يا للعار ! .

٥٧ — إن الكناس المقدس لا يعرف شيئاً عن المطهر . . .

٦٦ — على جميع الرؤساء الروحيين أن يبادروا بالتوبة ، وأن ينصبوا صليب
المسيح وحده وإلا هلكوا . إن البلطة موضوعة على الجذر[٩] .

ورفض جوهان فابر — الأسقف العام لأبرشية كونستانس هذه الآراء تفصيلا ، وطالب بأن تطرح أمام جامعات كبيرة أو أمام مجلس عام للكنيسة . ورأى زونجلى أن هذا لا ضرورة له . فبعد أن أصبح العهد الجديد وقتذاك فى متناول الناس باللغات الدارجة ، صار فى وسع الجميع أن يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يكفى . . . ووافق المجلس وأعلن أن زونجلى برىء من الهرطقة ، وأمر كل رجال الكهنوت فى زيوريخ بأن تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سنداً فى الكتاب المقدس . وهنا تولت الدولة أمر الكنيسة كما حدث بألمانيا فى عهد لوثر .

وقبل معظم القساوسة — بعد أن ضمنت لهم الدولة الآن رواتبهم — أمر المجلس . وتزوج الكثيرون منهم وتعمدوا باللغة الدارجة وأغفلوا أمر القداس وتخلوا عن تقديس الصور . وبدأت عصبة من المتحمسين فى إتلاف الصور والتماثيل بلا تمييز فى كنائس زيوريخ . وانزعج زونجلى من انتشار العنف على هذا النحو فرتب مناظرة أخرى (٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٣) حضرها ٥٥٠ من عامة الناس و ٣٥٠ من رجال الكهنوت . وتمخضت عن أمر صدر من المجلس يقضى بأن تتولى لجنة من أعضائها زونجلى ، إعداد كتيب يتضمن تعليمات ، توضح العقيدة للناس ، وأن يتوقف فى مضمون ذلك العنف بجميع صوره . وألف زونجلى بسرعة « مقدمة قصيرة فى المسيحية » أرسلت لجميع رجال الدين فى المقاطعة .

واحتجت السلطة الكهنوتية الكاثوليكية ، وأيدها فى الاحتجاج المجلس

النيابى للاتحاد الذى اجتمع فى لوسون (٢٦ يناير سنة ١٥٢٤) ، فى الوقت نفسه تعهد بالقيام بإصلاح كهنوتى ، غير أن مجلس المدينة تجاهل هذه الاحتجاجات .

وصاغ زونجلى عقيدته بتوسع فى رسالتين باللاتينية : « الدين الحقيقى والزائف (De vera et false religione) (١٩٢٥) و (Ratio fidei) (١٥٣٠) وقبل لاهوت — الكنيسة الأساسى — إله ثلاثى التوحد ، وهبوط آدم وحواء من الجنة ، وتجسد الأقنوم الثانى ، وولادة العذراء والتكفير ، ولكنه فسر « الخطيئة الأصلية » لا بأنها لوثة إثم ورثناه من « أبائنا الأوائل » ولكن بأنها نزعة غير اجتماعية ، تكمن فى طبيعة الإنسان[١٠] . وقد اتفق فى الرأى مع لوثر بأن الإنسان لن يستطيع أبداً أن يحصل على الخلاص بالأعمال الصالحات ، بل يجب أن يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح المقترن بالتضحية . واتفق فى الرأى أيضاً مع لوثر وكالفن فى موضوع القدر : كل حادث وبالتالى المصير الأزلى لكل فرد قدره الله ، ولا بد أن ينفذ كما قدر سبحانه ، ولكن الله لم يقدر اللعنة الأبدية إلا على الذين أعرضوا عن آيات الإنجيل ، التى بسطت عليهم ، وكل طفل (من أبوين مسيحيين) يموت ، وهو طفل ، يكتب له الخلاص ، حتى ولو لم يعمد ، لأنه أصغر من أن يرتكب خطيئة . وجهنم حق ، أما المطهر فهو « خرافة ... مهنة مربحة لمن ابتدعوه »[١١] وليس فى الكتاب المقدس إشارة عنه ، أما القرابين المقدسة فإنها ليست وسائل معجزة بل رموزاً نافعة لرحمة الله . والاعتراف السرى لا ضرورة له ، وليس فى وسع قسيس أن يغفر لأحد — خطيئته — فالله وحده هو الغفور ، وإن كان من المفيد غالباً أن نسر بمتاعبنا إلى قسيس[١٢] . وليس العشاء الربانى ، أكلا فعلياً لجسد المسيح ، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية .

وحافظ زونجلى على القربان المقدس باعتباره جزءاً من الصلاة التى

يقرها الإصلاح الدينى ، وناول القربان بالخبز والنبيذ معاً ، ولكنه لم يناوله إلا أربع مرت فى العام . وفى ذلك الاحتفال العرضى أبقى على جانب كبير من القداس ، وإن أخذ جمهور المصلين والقس يتلونه باللغة الألمانية فى سويسرة . أما فى باقى السنة فقد كان يستبدل بالقداس العظة الدينية . وأصبح سلطان الشعيرة على الحواس والتصور تابعاً لتأثير مخاطبة العقل ، وهو مقامرة تتسم بالتهور على الذكاء الشعبى وقدرة الأفكار على الثبات ، ولما كان من الضرورى أن يستبدل بكنيسة معصومة من الخطأ إنجيلا لا تشوبه شائبة ليكون نبراساً للعقيدة والسلوك ، فإن الترجمة الألمانية للعهد الجديد التى قام بها لوثر ، أعدت باللهجة الألمانية فى سويسرة ، وعهد إلى هيئة من العلماء ورجال الدين برئاسة قداسة ليوجود إعداد نسخة بالألمانية من الكتاب المقدس بأسره ، وقد نشر هذه النسخة كريستيان فروشاور عام ١٥٣٤ فى زيوريخ ، قبل أن تظهر نسخة لوثر — وهى خير منها — بأربع سنوات .

وفى امتثال صادق للوصية الثانية ، ودلالة على عودة المسيحية البروتستانتية إلى تقاليدها اليهودية الأولى ، أمر مجلس مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية ومخالفات القديسين والزينات من كنائس المدينة ، بل إن آلات الأرغن أبعدت عنها ، وترك الصحن الداخلى الفسيح لكنيسة جروسمنستر عاطلا كئيب المنظر ، كما هو اليوم . وحقاً أن بعض الصور كان سخيفاً بصورة لا يقبلها العقل ، وبعضها كان مهيباً للاستسلام للخرافة والوهم بحيث يستحق الإتلاف ، إلا أن جانباً منها كان جميلا ، إلى حد دفع هينريخ بولينجر خلف زونجلى إلى أن يحزن لفقدها . وكان لزونجلى نفسه موقف متسامح من التماثيل التى لا تعبد باعتبارها أصناماً خارقة الصنع [١٣] ، ولكنه صفح عن عملية التقويض باعتبارها زجراً لعبادة الأصنام [١٤] ، وسمح للكنائس القروية فى المقاطعة بأن تحتفظ بتماثيلها ، إذا كانت هذه رغبة غالبية جموع المصلين . واحتفظ الكاثالكة ببعض الحقوق المدنية ، ولكنهم لم يقبلوا فى الوظائف

العامة . وعوقب كل من يحضر القداس بغرامة ، وحرم[١٥] مبدأ أكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة . وأغلقت أديرة الرهبان والراهبات (باستثناء دير واحد) أو حولت إلى مستشفيات أو مدارس ، وبرزت الرهبان والراهبات من الدير لعقد زواجهم ، وألغيت أعياد القديسين ، واختفت طقوس الحج والماء المقدس والقداسات التى كانت تقام للموتى .

وعلى الرغم من أن كل هذه التغييرات لم تتم حتى عام ١٥٢٤ ، فإن الإصلاح الدينى ، حتى ذلك الوقت ، كان قد بلغ درجة من الرقى ، فى عهد زونجلى وفى زيورخ ، تفوق ما بلغه فى عهد لوثر وفى فيتنبرج ، وكان لوثر وقتذاك راهباً أعزب لا يزال يردد القداس .

وشكلت زيورخ مجلساً خاصاً ، فى نوفبر عام ١٥٢٤ ، يتكون من ستة أعضاء لإعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة أو الدقيقة ، التى كانت تعانى منها الحكومة ، وتم بين زونجلى وهذا المجلس نوع من التفاهم ، اتخذ شكلا ما ، إذ سلم له بتنظيم كل الشئون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء ، وكان المجلس فى كل من المجالين يتبع قيادته . وأصبحت الكنيسة والدولة فى زيورخ منظمة واحدة ، على رأسها زونجلى بصفة غير رسمية ، وفيها ارتضى الإنجيل (كما هو الحال بالنسبة للقرآن فى الإسلام) المصدر الأول والحكم الأخير للشريعة . وتحقق فى زونجلى ، كما تحقق فى كالفن فيما بعد ، المثل الأعلى للنبى الذى يرشد الدولة ، كما تصوره العهد القديم .

وما أن حقق زونجلى هذا النجاح التام والسريع فى زيورخ حتى قلب عيناً متسائلة فى المقاطعات التى تدين بالكاثوليكية ، وتساءل ألا يمكن كسب سويسرة بأسرها لصف الشكل الجديد للعقيدة القديمة ؟

٤ ـ إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون

ولقد مزق الإصلاح الديني « الاتحاد » ويبدو أنه قدر له أن يقضي عليه ، وآثرت برن وبازيل وشافهاوزن وآبنتسل والجريزونيون أن تناصر زيورخ ، أما باقي المقاطعات فقد ناصبتها العداء . وكونت خمس مقاطعات ـ وهي لوسرن وأوري وشفتيز وأونترفالدن وتسوج ـ حلفاً كاثوليكياً لقمع كل الحركات الهسية وللوثرية والزونجلية (١٥٢٤) ، وحث الأرشيدوق فرديناند النمساوي كل الولايات الكاثوليكية على أن تقوم بعمل موحد ، ووعدها بتقديم المساعدة . وليس من شك في أنه كان يطمح في أن يستعيد سلطات آل هابسبورج في سويسرة . وفي السادس عشر من يوليو وافقت كل المقاطعات باستثناء شافهاوزن على إقصاء زيورخ من المجالس النيابية الاتحادية في المستقبل . وردت زيورخ وزونجلي على هذا بإرسال مبشرين إلى مقاطعة ثورجاو لإعلان الإصلاح الديني . وقبض على واحد من هؤلاء ، إلا أن بعض الأصدقاء أنقذوه ، وساروا في حشد هائج نهب ديراً وأحرقه ، وحطم التماثيل في عدة كنائس (يوليو ١٥٢٤) ، وأعدم ثلاثة من الزعماء ، وثارت روح عسكرية بين الطرفين . وروّع أرازموس ، وهاله الظهور في بازيل خشية أن يرى متعبدين أتقياء يثورون بعــد سماع وعاظهم ويخرجون من الكنيسة «كرجال تملكتهم جنة ، يرتسم الغضب والهياج على أساريرهم ... كمحاربين يسيرون وراء قائدهم للقيام بهجوم قوي »[١٦] . وهددت ست مقاطعات بأن تترك الاتحاد إذا لم يوقع العقاب على زيورخ .

وأشار زونجلي ، وقد أعجبه القيام بدوره الجديد كقائد حربي ، على زيورخ بأن تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة أسلحتها ، وأن تنشد التحالف مع فرنسا ، وأن تشعل ناراً وراء فرديناند بالتحريض على الثورة

فى التيرول وبعد تورجاو وسان ـ جال بمنحهما أملاك الأديرة مقابل تأييدهما لها . وعرض على الحلف الكاثوليكى السلام بثلاثة شروط : ـ

أن يسلم لزيورخ دير سان ـ جال الشهير وأن يتخلى عن الحلف النمساوى وأن يسلم إلى زيورخ توماس مورنر الهجاء اللوسرنى ، الذى طالما وجه نقداً لاذعاً فى كتاباته للمصلحين الدينيين . وسخر الحلف من هذه الشروط ، فأمرت زيورخ ممثليها فى سان ـ جال بالاستيلاء على الدير فأطاعوا (٢٨ يناير ١٥٢٩) وخفت حدة التوتر فى فبراير إثر أحداث فى بازيل .

كان زعيم البروتستانت فى « أثينا سويسرة » هو جوهانس هاوسشاين ، الذى أسبغ على اسمه صفة الهلينية ، ومعناه مصباح البيت ، فأطلق على نفسه اسم أويكو لامباديوس . وقد نظم الشعر باللاتينية ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وسرعان ما أتقن اللغة اليونانية فيما بعد ، وكان لا يفوقه فى إتقان اللغة العبرية إلا رويخلين ، وذاع صيته كمصلح دينى وأخلاقى رقيق العاطفة فى كل شىء إلا الدين ، وذلك من فوق منبره فى كنيسة سانت مارتن ، وفى كرسى الأستاذية للاهوت فى الجامعة . وما أن حل عام ١٥٢١ حتى كان يهاجم مساوئ كرسى الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العذراء . وحياة لوثر عام ١٥٢٣ ، وتبنى عام ١٥٢٥ برنامج زونجلى الذى يشمل اضطهاد اللامعمدانيين ، ولكنه رفض التسليم بالقدر وعلم الناس أن « خلاصنا يأتى من الله أما هلاكنا فمن أنفسنا »[١٧]. وعند ما أعلن مجلس مدينة بازيل ، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت ، حرية العبادة (١٥٢٨) احتج أويكو لامبادموس وطالب بتحريم القداس .

واجتمع فى ٨ فبراير عام ١٥٢٩ ثمانمائة رجل فى كنيسة الفرانسسكان وبعثوا بطلب إلى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القداس وعزل كل الكثالكة من مناصبهم وبسريان دستور أكثر ديمقراطية ، وتشاور المجلس فى الأمر ،

وفى اليوم الثانى أقبل مقدمو الالتماس إلى السوق ، وهم مدججون بالسلاح ، وعند ما حل الظهر ولم يصل المجلس بعد إلى قرار تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق ، وحطموا كل التماثيل الدينية التى وجدوها[١٨] . ووصف أرازموس الواقعة فى خطاب له بعث به إلى بيركهايمر :

لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس ، وانهالوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، لعدم حدوث معجزة ، بعد أن رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائماً عند ما يساء إلى القديسين أدنى إساءة . أنهم لم يبقوا على تمثال واحد فى الكنائس أو فى الدهاليز أو فى الأروقة أو فى الأديرة . وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الجير ، وألقى فى النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقى حتى استحال إلى شظايا . ولم يستبق شىء بدافع الحب أو المال[١٩] .

وتلقف المجلس التلميح وصوت بإلغاء القداس إلغاء كاملا ، وغادر بازيل أرازموس وبياتوس رينانوس وكل الأساتذة فى الجامعة تقريباً . وعاش أويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة ، ولكنه لم يعمر إلا سنتين ، إذ سرعان ما مات بعد وفاة زونجلى .

وفى مايو عام ١٥٢٩ أحرق على الخازوق مبشر بروتستانتى من زيورخ ، حاول أن يقدم عظاته فى مدينة شفيتز . وأقنع زونجلى مجلس مدينة زيورخ بإعلان الحرب ، ورسم خطة الحملة ، وقاد بنفسه فرق المقاطعة ، وأوقفهم رجل يدعى لانديمان أيبلى الجلاروسى فى كابيل ، التى تقع على بعد عشرة أميال جنوبى زيورخ ، وتوسل إليهم أن يمنحوه ، على سبيل المدنة ، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف . وساور زونجلى الشك فى أن الأمر ينطوى على خيانة ، وآثر أن يتقدم بجيشه فوراً . إلا أن حلفاءه من أهل برن تغلبوا عليه هو وجنوده ، الذين تآخوا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين زبين اللاهوتين ، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوماً

وأخيراً رجحت كفة التعقل بين السويسريين ، ووقعت اتفاقية كابيل الأولى للسلام (٢٤ يونية ١٥٢٩) وكانت شروط الاتفاقية انتصاراً لزونجلى ، إذ وافقت المقاطعات بموجبها على دفع تعويض لزيورخ ، وإنهاء تحالفها مع النمسا ، وحظر مهاجمة أى من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية ، وعلى أن يترك للناس فى « الأراضى المشتركة » التابعة لمقاطعة أو أكثر أن يقرروا بأغلبية الأصوات تنظيم حياتهم الدينية . ومهما يكن من أمر فإن زونجلى لم يرض عن هذا الاتفاق ، فقد طالب بإطلاق حرية البروتستانت فى الوعظ بالمقاطعات الكاثوليكية ، ولم يتلق ما يفيد إجابته إلى طلبه ، وتنبأ بوقوع تصدع قريب للسلام .

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهراً ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت فى سويسرة وألمانيا . وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع كليمنت السابع ، وأصبح كل منهما وقتذاك حراً فى أن ينضم بقواته لمحاربة البروتستانت ، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة ، فقد كان نصف سكان ألمانيا من أتباع لوثر ، وكان كثير من المدن الألمانية — أولم وأوجسبورج وفيرتمبيرج وماينز وفرانكفورت — على — الماين وستراسبورج — تتعاطف بشدة مع أتباع زونجلى ، وعلى الرغم من أن المناطق الريفية فى سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية ، فإن معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية . وكان من الواضح أن حماية النفس من الإمبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف فى الطريق إلا اللاهوت .

وأخـذ فيليب لاندجراف الهيسى زمام المبادرة بدعـوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الألمان لمقابلة زونجلى وأويكو لامبيادوس وآخرين من البروتستانت السويسريين فى قصره بماربورج شمالى فرانكفورت . وتقابل الحزبان المتناظران فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، وأقدم

زونجلى فى سخاء على التسليم ببعض الأمور وأزال ما ساور لوثر من شك فى أنه يتشكك فى ألوهية المسيح ، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الأصلية . ولكنه لم يتراجع عن رأيه فى القربان المقدس باعتباره رمزاً وذكرى أكثر منه معجزة . وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح : « هذا جسدى » ولم يقبل أن يفسرها إلا تفسيراً حرفياً . ووقع الطرفان اتفاقاً ، تضمن أربعة عشر بنداً ، ولكنهما اختلفا فى موضوع القربان المقدس (٣ أكتوبر) ولم يكن اختلافهما متسماً بالود ، ورفض لوثر أن يصافح اليد التى مدها إليه زونجلى ، وقال : « إن روحك تختلف عن روحنا » . واستخلص اعترافاً لاهوتياً من سبعة عشر بنداً يشمل « التجاسد » ، وأقنع الأمراء اللوثريين برفض التحالف مع أى جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر[٢٠] . واتفق ميلانكتون فى الرأى مع أستاذه ، وكتب يقول لقد أبلغنا أتباع زونجلى أننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمائرهم بأن ينادونا بأخوتهم فى الوقت الذى يتمسكون فيه بأن عقيدتنا خاطئة[٢١] . وهنا تتضح روح العصر فى جملة واحدة . وفى عام ١٥٣٢ حث لوثر الدوق البرخت البروسى على ألا يسمح لأى شخص من أتباع زونجلى بالإقامة فى أرض بلاده ، وإلا حقت عليه اللعنة الأبدية .

وكان كثيراً جداً مطالبة لوثر بأن يجتاز فى خطوة واحدة المسافة من العصور الوسطى إلى الحديثة ، فقد كان تأثره بدين القرون الوسطى عميقاً جداً ، إلى حد أنه لم يستطع أن يتحمل صابراً أى جحود لأركانه الأساسية ؛ وأحس ، كأى كاثوليكى متدين ، أن عالمه الفكرى سوف ينهار ، وأن معنى الحياة بأسره سوف يذوى ، إذا خسر أى عنصر أساسى من عناصر العقيدة التى كانت قد صاغته ، والحق أن لوثر كان أقرب المحدثين إلى القرون الوسطى .

وعاد زونجلى بعد أن حطمه هذا الفشل إلى زيورخ ، التى أصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته . وعم الاستياء من قوانين النفقات

الصارمة ، وعرقلت التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات ، ولم يرض الحرفيون عن صوتهم الضئيل فى الحكومة ، وفقدت عظات زونجلى المختلطة بالسياسة إلهامها وسحرها . وكان شعوره بالتغير قوياً إلى الحد الذى طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن أبرشية فى مكان آخر ، ولكنه أقنع بالبقاء .

وخصص جانباً كبيراً من وقته آنذاك للكتابة ، وأرسل عام ١٥٣٠ رسالته **ratio fidei** إلى شارل الخامس ، الذى لم يبد منه ما يدل على أنه تلقاها .

وفى عام ١٥٣١ وجه إلى فرانسس الأول رسالة عنوانها « عرض موجز وواضح للعقيدة المسيحية » ، وفى هذه الرسالة عبر عن اقتناعه ، الأرازموسى بأن أى مسيحى سوف يجد عند وصوله إلى الفردوس كثيراً من اليهود والوثنيين الأجلاء ، إنه لن يجد آدم وإبراهيم وإسحق وموسى وأشعيا فحسب . . . ولكنه سيجد أيضاً هرقل وتيزيوس وسقراط وأرستيد ونوما وكاميلوس وكاتو الكبير والصغير وسيبيو الكبير والصغير ، وقال : « وباختصار ليس هناك رجل صالح ولا عقل مقدس ولا روح مخلصة ، منذ بداية العالم إلى نهايته ، لن نراها هناك مع الله . ماذا يمكن أن نتصور أنه أكثر بهجة للنفس ومسرة الفؤاد وسمواً بالروح من هذا المنظر »[٢٢] ، وذعر لوثر لهذه الفقرة إلى حد أنه انتهى إلى أن زونجلى لا بد أن يكون « وثنياً »[٢٣] ، واتفق الأسقف بوسويه فى الرأى فى هذه المرة مع لوثر ، فاستشهد بهذه الفقرة ليثبت أن زونجلى[٢٤] كافر لا أمل فى إصلاحه .

واجتمع فى ١٥ مايو عام ١٥٣١ مجلس من زيورخ وحلفائها ، وصوت لإكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على أرضها ، وعندما رفضت المقاطعات اقترح زونجلى إعلان الحرب عليها غير أن حلفاءه آثروا أن يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً ، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات وأعلنت الحرب . وسار من جديد

جيشان متناظران ، وتقدم زونجلى مرة أخرى ، وحمل العلم ، وتقابل الجيشان مرة ثانية فى كابيل (١١ أكتوبر سنة ١٥٣١) — جيش الكاثوليك ويضم ٨٠٠٠ رجل وجيش البروتستانت ويضم ١٥٠٠ — واشتبك الجيشان فى هذه المرة ، وانتصر الكاثوليك ، وكان زونجلى البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً من بين ٥٠٠ رجل قتلوا من أهل زيورخ . ومزق جسده إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث[٢٥]. وعند ما سمع لوثر بموت زونجلى هتف يقول « إن هذا حكم السماء على كافر[٢٦] وانتصار لنا »[٢٧] ويروى أنه قال : « كم أود من أعماق قلبى لو أمكن إنقاذ حياة زونجلى ولكنى أخشى أن يحدث العكس لأن المسيح قال إنه : « ملعون كل من يكفر به »[٢٨] .

وخلف هينريخ بولينجر فى زيورخ سلفه زونجلى ، أما فى بازيل فقد اضطلع أوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة أويكو لامبيادوس ، وتجنب بولينجر الخوض فى الأمور السياسية ، وأشرف على مدارس المدينة ، وتستر على اللاجئين من البروتستانت ، ووزع أموال البر على المحتاجين ، بغض النظر عن المذهب الذى يعتنقونه ، وانضم إلى ميكونيوس وليوجود فى صياغة أول إقرار للسويسريين البروتستانت من أتباع زونجلى ، الذى ظل جيلا كاملا التعبير الرسمى عن آراء زونجلى ، واستخلص مع كالفين اتفاق تيجورينوس (١٥٤٩) **Consensus Tigurinus** الذى حمل زيورخ والبروتستانت من أهالى جنيف على تكوين « كنيسة تؤمن بالإصلاح الدينى » .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائى فإن الكاثوليكية استعادت فى السنين الأخيرة كثيراً من أرضها المفقودة فى سويسرة ، ويرجع جزء من ذلك إلى انتصارها فى كابيل ، وليس من شك فى أن إثبات قضايا اللاهوت أو عدم إثباتها فى التاريخ إنما يتم بالتنافس فى المذبحة أو فى إثراء الموارد . واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات — وهى لوسرن وأورى وشفيتز

وتسوج وأوفترفالدن وفريبورج وسولوثورن . وتمسكت أربع مقاطعات بالبروتستانتية نهائياً . . . وهى زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن ، أما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العقيدتين لا يستقر رأيها على قرار على وجه اليقين ، ووفق فالنتين تشودى ، خلف زونجلى فى جلاروس ، بين وجهتى النظر ، بأن قال بإقامة قداس فى الصباح للكاثوليك ، وإلقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الإنجيلية — من الكتاب المقدس لا غير — فى المساء للبروتستانت ، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين ، وقوبل بالتسامح ، وكتب مدونة تاريخية ، اتسمت بعدم التحيز ، إلى حد أنه لا يستطيع امرؤ أن يجزم بالعقيدة التى كان يؤثرها ، فحتى فى ذلك العصر كان هناك مسحيون .

الفصل التاسع عشر

لوثر وأرازموس

(١٥١٧ - ١٥٣٦)

١ - لوثر

بعد أن أجملنا الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية ، والفكرية ، التي شهدت مهد الإصلاح الديني ، نرى لزاماً علينا أن نعد من عجائب التاريخ في ألمانيا أن يتمكن رجل واحـــد من أن يجمع ، بلا قصد ، هذه التأثيرات في ثورة ، غيرت صورة قارة . ولسنا في حاجة إلى المبالغة في دور البطل هنا ، ذلك لأن قوى التغيير كان يمكن أن تجد تجسيماً آخر لها ، إذا استمر لوثر في خضوعه . ومع ذلك فإن منظر هذا الراهب الخشن ، وهو واقف في شك وفزع ، لا يستقر على قرار ، ضد أقوى النظم حصانة ، وأشد العادات قداسة في أوروبا ، يجعل الدم يغلي في العروق ، ويشير مرة أخرى إلى المسافة التي قطعها الإنسان وهو ينحدر من الطين أو من القرد .

ترى كيف بدا ذلك الرجل ، الذي كان صوت عصره المدوي ، كما كان قمة من قمم التاريخ الألماني ؟ لقد كان في عام ١٥٢٦ ، كما صوره لوكاس كراناخ[١] ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره في مرحلة التحول من النحافة إلى البدانة ، صارم القسمات وإن لم يخل من لمحة مرح قوية ، وله شعر مجعد لا يزال حالك السواد ، وأنف ضخم ، وعينان سوداوان لامعتان ـ قال خصومه إن الشياطين تظهر فيهما للعيان . وكانت له سحنة صريحة

لا تخفى شيئاً جعلته لا يصلح للدبلوماسية . وثمة صورة شخصية رسمها له فيما بعد كراناخ أيضاً (١٥٣٢) ظهر فيها لوثر فى هيئة رجل بدين منبسط الأسارير ، له وجه مستدير عريض يجعل الناظر يحكم بأنه رجل يستمتع بالحياة . وتخلى عام ١٥٢٤ عن مسوح الراهب ، واتخذ لباس واحد من عامة الناس ، فكان يرتدى ثوب المدرس حيناً ، ويلبس سترة وسراويل عادية حيناً آخر ، ولم يتعفف عن رتق هذه الثياب بنفسه . وقد شكت زوجته مرة من أن هذا الرجل العظيم اقتطع رقعة من سراويل ولده ، ليصلح بها من شأن سراويله .

ولقد انزلق إلى الزواج بطريق السهو ، واتفق فى الرأى مع القديس بولس بأنه خير للمرء أن يتزوج ولا يحرق ، وصرح بأن الجنس أمر فطرى وضرورى كالطعام[٢] ، واحتفظ بالفكرة السائدة فى القرون الوسطى ، والتى تذهب إلى أن الجماع أمر آثم ، حتى فى الزواج ، ولكن «الله يستر الخطيئة»[٣] ، ونددد بالعذرة باعتبارها انتهاكاً لسنة الله التى تقضى بالتناسل والتكاثر . وإذا «لم يستطع واعظ بالإنجيل أن يعيش محتفظاً بعفته دون أن يتزوج ، فلنسمح له باتخاذ زوجة ، لأن الله خلقها بلسماً لذلك الجرح»[٤] . وكان يعد طريقة البشر فى التناسل منافية للعقل بعض الشىء ، على الأقل عند تأمل الماضى ، ورأى أنه «لو استشارنى الله فى الأمر لأشرت عليه بأن يستمر فى خلق جيل من البشر بتشكيلهم من الطين مباشرة كما خلق آدم»[٥] . وكان مفهومه عن المرأة تقليدياً وألمانيا ، فالله قد خلقها للحمل والطهى والصلاة لا لأى شىء آخر ، وهو القائل «انتزع النساء من تدبير شئون المنزل ، تجدهن لا يصلحن لشىء»[٦] . و «إذا أنهك الحمل النساء ، ولقين حتفهن ، فليس فى هذا ضرر ، دعهن يلاقين حتفهن ما دمن يحملن ، فقد خلقن لهذا»[٧] . ويجب على المرأة أن تمنح زوجها الحب ، وأن تحافظ على شرفه ، ولا تعصى له أمراً ، وعليه أن يحكمها ، ولكن برفق ، ويجب عليها أن تلزم

مجالها وهو البيت ، ولكنها تستطيع هناك أن تفعل بالأطفال ببنانها أكثر مما يستطيع الرجل أن يفعل بقبضتيه[٨] . وبين الرجل والزوجة يجب ألا يكون هناك ملكي وملكك ، وذلك لأن كل الممتلكات يجب أن تكون بينهما على المشاع[٩] .

وكان لوثر يكن كراهية الذكر العادية للمرأة المتعلمة ، وقال عن زوجته « بودى أن تتلو النساء صلاة الرب قبل أن ينبسن بشفة »[١٠] ، ولكنه ازدرى الكتاب الذين ألفوا مقالات فى هجو النساء ، وقال : « مهما يكن فى النساء من عيوب فإننا يجب أن نردعهن فى الخلوة برفق . . . لأن المرأة قارورة هشة »[١١] . وعلى الرغم من صراحته الفظة فى أمور الجنس والزواج ، فإنه لم يكن يخلو من الإحساس بالاعتبارات الجمالية ، ويقول : « الشعر أجمل زينة للمرأة . وقد اعتادت العذارى قديماً أن يرسلن شعورهن ، إلا إذا كن يرتدين ثياب الحداد ، وأنا أحب أن ترسل النساء شعورهن حتى يسقط على ظهورهن ، فهو منظر من أروع المناظر وألطفها »[١٢] . (وكان هذا حرياً بأن يجعله أكثر ليناً مع البابا اسكندر السادس الذى عشق شعر جوليافارنيزى المرسل) .

ويبدو أن لوثر لم يتزوج لإشباع حاجة من حاجات الجسد . وقال فى نوبة من المرح ، إنه قد تزوج لإرضاء والده ، وعلى الرغم من أنف الشيطان والبابا ، ولكنه استغرق وقتاً طويلا لكى يستقر على رأى فى هذا الموضوع ، ثم حسم الأمر له . وعند ما تركت بعض الراهبات ديرهن بناء على توصية منه ، أخذ على عاتقه أن يجد لهن أزواجاً . ولم يبق فى آخر الأمر منهن واحدة لم تتزوج ، إلا كاترين فون بورا ، وهى امرأة كريمة المحتد على خلق قويم ، ولكنها لم تخلق لتثير عاطفة متعجلة ، وكانت قد وضعت أنظارها على طالب شاب من فيتنبرج ، ينحدر من سلالة نبيلة ، وفشلت فى أن توقعه فى حبائلها ، وعملت مربية لكى تكسب ما يسد رمقها . واقترح عليها

لوثر أن تتزوج من الدكتور جلاتز ، فردت عليه بأنها لا تقبل هذا الدكتور ، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من هرامسدورف أو الدكتور لوثر . وكان لوثر فى الثانية والأربعين من عمره وقتذاك ، بينما كانت كاترين فى السادسة والعشرين ، ورأى أن التفاوت فى السن يحرم عليه هذا الزواج ، غير أن أباه حثه على أن يحافظ على اسم الأسرة . وهكذا تزوج الراهب السابق فى ٢٧ يونية سنة ١٥٢٥ من الراهبة السابقة .

ومنحهما الأمير المختار الدير الأوغسطينى الكى [illegible] منه مقراً لهما ، ورفع مرتب لوثر إلى ٣٠٠ جيلدر (٧,٥٠٠ دولار) فى العام ، ثم زيد هذا المرتب فيما بعد إلى ٤٠٠ ، ثم إلى ٥٠٠ . واشترى لوثر مزرعة أدارتها كاتى ، وأحبتها وأنجبت له ستة أطفال ، وتعهدتهم بالرعاية فى إخلاص ، ولبت كل احتياجات مارتن المنزلية من معصرة للخمر بالبيت ، وبركة للسمك ، وحديقة للخضر ، وربت له الدواجن والخنازير . وقد أطلق عليها اسم « سيدى كاتى » وأشار بهذا إلى أن فى وسعها أن تضعه فى موضعه إذا ما نسى خضوع الرجل بيولوجيا للمرأة ، ومع ذلك فقد كان عليها أن تتحمل الكثير من ثوراته العاصفة بين آن وآخر ، وثقته التى تصل إلى حد عدم التبصر ، وذلك لأنه كان لا يعبأ قط بالمال ، وكان كريماً إلى حد التهور ، ولم يتسلم من كتبه حقوق التأليف ، على الرغم من أنها عادت بثروة طائلة على ناشريها ، وتميط رسائله إلى كاترين أو عنها اللثام عن حبه المتزايد لها ، وعن زواج موفق بصفة عامة . ولقد ردد بطريقته الخاصة ما قيل له فى شبابه « إن أعظم نعمة يمنحها الله للانسان زوجة تقية رقيقة ، تخشى الله وتحب البيت »(١٣) .

وكان أباً صالحاً يعرف بالفطرة كيف يمزج على أحسن وجه بين التأديب والحب . ويقول : « عاقب إذا لم يكن هناك بد من ذلك ولكن قدم قطعة الحلوى (بونبون) مع العصا »(١٤) . وألف أغنيات لأطفاله ، وغناها معهم ، وهو يعزف على العود ، وتعد خطاباته إلى أطفاله من درر الأدب الألمانى .

وإذا كان قد استطاع بقوة شكيمته أن يواجه إمبراطوراً فى الحرب ، فإن شجاعته قد انهارت بموت ابنته الأثيرة ماجدالينا ، وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وقال : « إن الرب لم يهب أسقفاً نعمة كبرى فى ألف عام كما وهبها لى ممثلة فيها »[١٥] .وكان يتلو الصلوات ليلا ونهاراً ، طالباً لها من الله الشفاء ، وقال : « رباه إنى أحبها كثيراً ، ولكن إذا شاءت إرادتك تعالى أن تأخذها ، فإنى أتخلى عنها لكم عن طيب خاطر »[١٦] . وقال لها : « ابنتى الصغيرة العزيزة لينا ، إنك تحبين أن تظلى هنا مع أبيك . أتريدين أن تذهبى إلى ذلك الأب الآخر ؟ » .فأجابت لينا : « نعم يا أبتاه كما يشاء الله » . وعند ما قضت نحبها بكاها طويلا بكاء مريراً ، وبينما كانت توسد فى الثرى ، خاطبها قائلا كما لو كانت حية ترزق : « أنت تحبين وسوف تنهضين وتشرقين كالنجوم والشمس . إنه لأمر غريب أن يعرف الإنسان أنها ترقد فى سلام ، وأن كل شىء على ما يرام ، ومع ذلك يشعر بالأسى والحزن »[١٧] .

ولم يقنع بستة أطفال فآوى فى بيتـــه كثير الغرف بالدير أحد عشر يتيماً من أولاد أخيه وأخته ، ورباهم ، وكثيراً ما جلس معهم إلى المائدة ، وتجاذب معهم أطراف الحديث فى غير ملل ، وحزنت كاترين لاحتكارهم إياه . وأبدى بعضهم ملاحظات جريئة على حديثه معهم حول المائدة . وليس من شك فى أن حصيلة ٦٥٩٦ تدوين لأحاديثه تضارع أحاديث جونسون لبوزويل ، وأحاديث نابليون المدونة ، فى الوزن والذكاء اللماح والحكمة .

ويجب علينا عند الحكم على لوثر ، أن نتذكر أنه لم يعد سلفاً أحاديث المائدة هذه ، وقل بين الرجال من تعرض تماماً إلى استراق السمع من البشر ، فهنا لا فى المجادلات التى كانت فى ميدان المعركة اللاهوتية ، نجد لوثر فى بيته على سجيته . وندرك ، أولا وقبل كل شىء ، أنه كان إنساناً لا مجرد

دواة ، وأنه عاش حياته وكتب عنها . ولا يمكن شخص صحيح الجسم أن ينفس على لوثر تلذذه بأطايب الطعام وشراب الجعة ؛ أو استمتاعه المثمر بكل المباهج ، التي استطاعت كاترين بورا أن توفرها له . ولعله كان حرياً به أن يكون ، بدافع الحرص ، أكثر تحفظاً فى هذه الأمور ، ولكن التحفظ جاء مع المتطهرين ، ولم يعرفه الإيطاليون فى عصر النهضة ، ولا الألمان فى عهد الإصلاح الدينى ، بل إننا نجد أن أرازموس الرقيق يصدمنا بحديثه الفسيولوجى الصادق . كان لوثر يأكل بإفراط ، ولكنه استطاع ردع نفسه بالصوم الطويل ، وكان يفرط فى الشراب ، ولكنه كان يبدى الأسف ، ويعد الشرب رذيلة قومية ، ومع ذلك فإن الجعة كانت ماء الحياة بالنسبة للألمان ، كالنبيذ بالنسبة للإيطاليين والفرنسيين ، وكان يمكن أن يكون الماء سما زعافاً فى تلك الأيام الخوالى ، ومع ذلك فإننا لم نسمع قط عن إفراطه فى السكر حتى يفقد صوابه ، وقال : « إذا كان الله يغفر لى أنى صلبته بالقداسات عشرين عاماً مضت ، فإنه يستطيع أن يتحملنى لأنى أتناول شراباً طيب المذاق ، من آن لآخر ، لكى أكرمه »[١٨] .

وبدت أخطاؤه واضحة للعين والأذن ، فقد كان الفخر يشيع وسط تعبيراته الدائمة عن التواضع ، وكان عقيدياً ضد العقيدة ، مفرطاً فى الحماسة لا يبدى أية مجاملة لخصومه ، ويتشبث بالخرافات ، فى الوقت الذى يسخر فيه من الخرافة ، ويندد بالتعصب ويمارسه فى الوقت نفسه — وهكذا لم يكن قدوة للصلابة أو مثلا أعلى للفضيلة ، ولكنه رجل جمع متناقضات الحياة ، وإنسان مزقه بارود الحرب ، وقد اعترف قائلا « لم أكن أتوانى عن الانقضاض على خصومى بلسان حاد ، ولكن ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم ؟ »[١٩] وتحدث عن المراسيم البابوية ، فوصفها بأنها قذارة وروث[٢٠] ، وقال عن البابا إنه : « بذرة الشيطان » أو الملازم ، ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، أما الأساقفة فقد نعتهم بأنهم « ديدان » وهراطقة كفرة « وقردة جهلة » . وتحدث عن الرسامة الكهنوتية فقال إنها بمثابة دمغ إنسان « بشارة

البهيم فى سفر الرؤيا » ، وقال عن الرهبان إنهم أسوأ من الجلادين أو السفاحين أو على أحسن الفروض « براغيث فوق فراء الرب القادر »[٢١] . ولنا أن نتصور إلى أى حد كان المستمعون إليه يجدون متعة فى هذا العبث . وقد قال : « إن الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذى اضطر البابا إلى إعفائه من رقابته هو العَجُز ! »[٢٢] وكتب يصور رجال الدين الكاثوليك بقوله : « إن نهر الراين لا يكاد يتسع لكى يغرق فيه كل عصبة المغتصبين الرومانيين الملاعين . . . من كرادلة ومطارنة وأساقفة ورهبان »[٢٣] أو إذا نقص الماء « لعل الله يرضى بأن يرسل عليهم صيباً من النار والكبريت كالذى قضى على سودوم وعمورة »[٢٤] ، وهذا يذكر الإنسان بالتعليق الذى صدر من الإمبراطور جوليان : « ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت غاضب »[٢٥].
ولكن لوثر عجب مثل كلايف لاعتداله ، وقال : « يعتقد الكثيرون أنى شديد الشراسة ضد البابوية ، ولكنى على النقيض من ذلك أشكو من أننى ، للأسف لين العريكة إلى حد كبير . وكم أود أن أنفث صاعقة ضد البابا والبابوية ، وأن تكون كل ريح صاعقة[٢٦] : ولسوف ألعن وأنتهر الأفاقين حتى أثوى فى لحدى ، ولن ينالوا منى كلمة مهذبة . . . لأنى لا أستطيع أن أصلى دون أن أصب اللعنات فى الوقت نفسه . وإذا كنت مدفوعاً إلى أن أهتف « تبارك اسمك » فإننى يجب أن أضيف أن « اسم البابوية ملعون رجيم مغضوب عليه » . وإذا كان ثمة ما يدفعنى إلى أن أهتف « لتأت مملكتك » فإنى مضطر إلى أن أضيف « البابوية ملعونة ، رجيمة ، هالكة لا محالة . والحق أنى أتلو صلواتى سنوياً على هذا النحو كل يوم وسراً فى قلبى دون توقف[٢٧] ، وإنى لا أعمل أبداً على خير وجه إلا عند ما أستلهم الغضب ، ذلك أنى أستطيع ، عند ما أكون غاضباً ، أن أكتب ، وأن أصلى ، وأن أعظ على خير وجه ، لأن مزاجى بأسره يستثار ، وإدراكى يزداد حدة »[٢٨] ، ومثل هذه العاطفة البلاغية كانت تتفق مع روح العصر . ويعترف الكاردينال جاسكيه العلامة قائلا : إن بعض الوعاظ وكتاب الرسالات من طائفة المحافظين كانوا

يضارعون لوثر فى هذه الناحية »[٢٩] . وكان الطعن متوقعاً من المتصارعين فى مجال الفكر ، ويستطيبه المستمعون ، وكان الشك يخامر الناس فى أن الأخلاق المهذبة دليل على الجبن . وعندما وجهت زوجة لوثر اللوم إليه بقولها : « أنت فظ للغاية يا زوجى العزيز » — رد عليها مجيباً : « إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس »[٣٠] وإن جواباً ليناً يمكن أن يطفىء سورة الغضب ، ولكنه لا يستطيع أن يقلب البابوية رأساً على عقب ، وحرى بأى إنسان هذب حاشيته الكلام الدمث ، أن يتنكب معركة مميتة مثل هذه . وقد اقتضى الأمر جلداً صفيقاً — أغلظ من جلد أرازموس — لنبذ الأوامر البابوية والحرمان من غفران الكنيسة وأوامر التحريم الإمبراطورية .

واقتضى الأمر أيضاً إرادة قوية ، وهذه كانت صخرة القاع بالنسبة إلى لوثر ، ومن هنا كانت ثقته بنفسه وعقيدته وشجاعته وتعصبه . ومع ذلك فإنه كان لا يخلو من بعض الفضائل الرقيقة ، ففى أواسط عمره كان مثلا أعلى فى الروح الاجتماعية والمرح ، ودعامة قوية لكل من هم فى حاجة إلى العزاء أو العون . ولم يشمخ بأنفه أو يتأنق فى ملبسه ، ولم ينس قط أن أباه كان فلاحاً ، واستهجن نشر مجموعة أعماله ، وطلب من قرائه أن يدرسوا الكتاب المقدس بدلا منها ، واعترض على إطلاق اسم « لوثرية » على الكنائس التى كانت تتبع زعامته . وعندما كان يعظ كان يحدث سامعيه باللغة التى يفهمونها . وكان لدعاباته مسحة ريفية إذ كانت خشنة مرحة متحللة من كل القيود ، مثل دعابات « رابيليه » ، وقال شاكياً : « إن أعدائى يفحصون عن كثب كل ما أفعل ، فإذا ضرطت فى فيتنبرج فإنهم يشمون ريح الضرطة فى روما »[٣١] . وقال : « ترتدى النساء النقاب بسبب الملائكة ، أما أنا فأرتدى السراويل بسبب البنات »[٣٢] . وليس من شك فى أن الكثيرين منا قد أطلقوا مثل هذه الدعابات الساخرة ، ولكنهم

لم يجدوا مثل هؤلاء الرواة القساة . والرجل الذى تفوه بمثل هذه الدعابات كان يحب الموسيقى وهى هذا الجانب من عبادة الأوثان ؛ وهو نفسه الذى ألف لهم أناشيد رقيقة أو عاصفة ، وأسلمها — وفى هذا تحامل لاهوتى كان راكداً لحظة من الزمن — إلى أناشيد متعددة الأصوات ، استخدمت من قبل فى الكنيسة الرومانية ، وقال : « لن أتخلى عن موهبتى الموسيقية المتواضعة مقابل أى شىء مهما كان عظيماً . . . وأنا أرى أنه . . . ليس هناك فن بعد اللاهوت يمكن أن يضارع الموسيقى ، لأنها وحدها بعد اللاهوت تمنحنا . . . راحة القلب ومسرة الفؤاد »[٣٣] .

وأدى به لاهوته إلى أخلاقيات تؤمن باللين ، لأنه علمه أن الأعمال الصالحة لا تكسب صاحبها الخلاص إذا لم تقـترن بالإيمان بافتداء المسيح للناس ، كما أن الخطيئة لا يمكن أن تضيع الخلاص ، إذا بقى مثل هذا الإيمان . وكان يرى أن خطيئة ترتكب بين آن وآخر ، قد تشجعنا على اجتياز الصراط المستقيم . وعندما سئم رؤية جسد ميلانكتون وهو يذوى من أثر الوساوس الكئيبة حول زلات صغيرة تتعارض مع القداسة ، قال له مداعباً فى مرح أصيل : « أكثر من الخطايا ، فالله لا يغفر إلا لرجل غارق فى الخطايا إلى أذنيه » ، ولكنه يسخر من الفتى المصاب بفقر الدم[٣٤] ومع ذلك فإن من السخف أن نصدر حكماً على لوثر بالإدانة على أساس هذا المزاح العارض . وثمة أمر واضح فى جلاء وهو أن لوثر لم يكن متطهراً وهو يقول : « إن مشيئة الله الحبيب هى أن نأكل ونشرب ونمرح »[٣٥] . ويقول : « إنى أنشد المتعة وأتقبلها حيثما أجدها ونحن نعلم الآن ، ولله الحمد ، أننا نستطيع أن نكون سعداء وضمائرنا مرتاحة »[٣٦] . ونصح أتباعه بأن يحتفلوا ويرقصوا يوم الأحد . وأقر ألعاب التسلية ولعب الشطرنج ، ووصف اللهو بورق اللعب ، بأنه تحويل لا ضرر منه للعقول[٣٧] ، التى لم تنضج بعد ، وقال كلمة حكيمة عن الرقص : « إن الرقصات أعدت لكى تعلم الدماثة بين

الصحبة ، وتعقد الصداقة والتعارف بين الشبان والفتيات ، وهنا يمكن ملاحظة صلاتهم ، وترتيب لقاء شريف عابر بينهم ، وأنا نفسي لا مانع عندي من حضوري معهم فى بعض الأحايين ، ولكن الشباب سيكون أقل إمعاناً فى الرقص لو أنني فعلت »[٣٨] . وأراد بعض الوعاظ البروتستانت تحريم اللهو ، ولكن لوثر كان أكثر تسامحاً وقال : « يجب على المسيحيين ألا يعرضوا عن اللهو ، لأن فيه أحياناً فظاظة وفحشاً ، فما أحراهم ، من أجل هذه الأسباب نفسها ، أن يتخلوا أيضاً عن الكتاب المقدس »[٣٩] .

فاذا نظرنا لكل هذه الاعتبارات ، فإن مفهوم لوثر عن الحياة كان صحياً باعثاً على المرح ، إلى درجة ملحوظة لإنسان كان يعتقد أن « كل النوازع الفطرية ليست بعيدة عن الرب أو ضده »[٤٠] ، « وأن كل تسعة أرواح من عشرة قدر عليها الله أن تخلد فى الجحيم »[٤١] . والحق أن الرجل كان خيراً من لاهوته إلى حد كبير .

وكان عقله قوياً ، وإن غامت عليه إلى حد بعيد روائح عفن شبابه ، وصبغته الحرب باللون الأحمر ، فحالت بينه وبين التفكير فى فلسفة عقلانية . وكان يعتقد ، مثل معاصريه ، فى الغيلان والساحرات والشياطين ، وقدرة الضفادع[٤٢] البرية الحية على الشفاء ، والكوابيس الخبيثة ، التى تبحث عن العذارى فى حماماتهن أو فى مخادعهن ، وتفزعهن ويدفعن بهن إلى الأمومة[٤٣] . وسخر من التنجيم ، واستخدم مع ذلك فى حديثه اصطلاحاته أحياناً ، وامتدح الرياضيات ، من حيث أنها « تعتمد على الأدلة والبراهين الثابتة »[٤٤] ، « وأعجب بما توصل إليه الفلك فى جرأة فى مجال النجوم ، ولكنه ، شأنه فى هذا شأن جميع معاصريه ، رفض النظام الكوبرنيقى فى الفلك ، باعتباره مناقضاً للكتاب المقدس ، وأصر على أن العقل يجب أن يلزم الحدود التى وضعتها له العقيدة الدينية .

وليس من شك فى أنه كان محقاً فى حكمه الذى يذهب إلى أن الشعور ،

وليس الفكر ، هو عصا الميزان بالنسبة للتاريخ ، فالناس الذين يصوغون الأديان يحركون العالم ، أما الفلاسفة فإنهم ، جيلا بعد جيل ، يغلفون بعبارات جديدة الجهل الفائق للجزء ينصب نفسه حبراً على الكل . وعلى هذا فإن لوثر كان يصلى ، بينما كان أرازموس يفكر تفكيراً منطقياً . وبينما كان أرازاموس يتملق الأمراء ، كان لوثر يخاطب الرب — وقتذاك فى كبرياء امرئ ، خاض بعزم ، معارك فى سبيل الرب ، فأصبح له الحق فى أن يسمع وقتذاك كطفل ضل فى فضاء لا نهاية له ، وكان واثقاً أن الرب يقف فى جانبه ، فواجه عقبات يصعب التغلب عليها وانتصر . وقال : « إنى أحتمل حقد العالم بأسره ، ومقت الإمبراطور والبابا وكل بطانتهم . حسن ، باسم الرب إلى الأمام ! »(٤٥) وكان لديه من الشجاعة مايكفى لأن يتحدى أعداءه ، فلم يكن يدور بخلده ما يدفعه للشك فى صدقه . كان يعتقد أن عليه أن يفعل ما ينبغى عليه أن يفعل .

٢ — الهراطقة المتعصبون

من المفيد ملاحظة كيف انتقل لوثر من التسامح إلى العقيدة بازدياد قوته ويقينه . ومن بين « الأخطاء » ، التى اتهم بها البابا ليو العاشر فى منشوره Exsurge Domine لوثر ، أنه قال : « إن حرق الهراطقة يخالف لإرادة الروح القدس » وفى خطاب مفتوح إلى طبقة النبلاء المسيحيين (١٥٢٠) نصب لوثر « كل رجل قساً » ، وأعطاه الحق فى أن يفسر الكتاب المقدس ، وفق حكمه الخاص ، وفى ضوء فهمه الشخصى(٤٦) ، وأضاف قائلا : « يجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق »(٤٧) وفى مقال له بعنوان عن السلطة الزمنية (١٥٢٢) كتب يقول : —

إن الله هو المتصرف فى الروح ولن يسمح لأحد سواه أن يسيطر عليها . ونحن نود أن نجعل هذا واضحاً جلياً ، بحيث يفهمه كل إنسان ، ولكى يرى نبلاؤنا وأمراؤنا وأساقفتنا إلى أى حد تبلغ حماقتهم ، عندما ينشدون

إكراه الناس . . . على الإيمان بشيء أو بآخر . . . لأن الإيمان أو الكفر مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان . . . إن السلطة الزمنية يجب أن تقنع بالالتفات إلى شئونها الخاصة ، وأن تسمح للناس بأن يؤمنوا بشيء أو بآخر حسبما يستطيعون ، وكما يشاءون ، وألا تكره أحداً على شيء بالقوة ، لأن الإيمان عمل يتم بحرية ولا يكره عليه أحد . . . والإيمان والهرطقة لا يشتدان إلا عند ما يعارضهما الناس بالقوة الغشوم ، بلا سند من كلمة الله(٤٨) .

وفى خطاب بعث به لوثر إلى الأمير المختار فردريك (٢١ أبريل سنة ١٥٢٤) طلب منه التسامح مع منتسر وآخر من أعدائه . وقال له : « يجب ألا تمنعهما من الكلام . يجب أن تكون هناك طوائف ويجب أن تتعرض كلمة الله لمعركة . . . دعنا نترك بين يديه تعالى الصراع ، ونطلق الحرية لصدام العقول » . وبينما كان الآخرون يدافعون . وفى عام ١٥٢٨ عند ما كان الآخرون يدافعون عن عقوبة الإعدام للامعمدانيين أشار بأنه ما لم يثبت عليهم الشغب فإنه يجب أن يكتفى بنفيهم(٤٩) .

وعلاوة على هذا فإنه أوصى فى عام ١٥٣٠ بأن تخفف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفى . حقاً أنه تحدث فى هذه السنوات الحرة كما لو كان يتمنى من أتباعه ومن الله أن يغرقوا البابويين جميعاً ، أو يتخلصوا منهم . بيد أن هذا كان مجرد « حملة خطابية » ، لم يكن يقصدها بصفة جدية . ولقد كتب فى يناير عام ١٥٢١ : « لست أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل » ، وفى شهر يونية من ذلك العام وجه اللوم للطلبة فى أرفورت ، لأنهم هاجموا القساوسة ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يعارض فى « تخويفهم » قليلا لتحسين لاهوتهم(٥٠) ، وفى مايو عام ١٥٢٩ أدان خططاً ، أعدت لتحويل الأبرشيات الكاثوليكية عنوة إلى البروتستانتية ، وفى أواخر عام ١٥٣١ أخذ يلقن الناس « نحن لا نستطيع ولا يجب أن نكره أى إنسان على اعتناق العقيدة »(٥١) .

ولكن من الصعب على رجل يمتاز بخلق متين وإيجابى مثل لوثر أن يدافع عن التسامح ، بعد أن أصبح مركزه آمناً إلى حد ما . فرجل مثله ، على يقين من أنه يحمل كلمة الله ، لم يكن بوسعه أن يتسامح فيما يتناقض معها . وكان التحول إلى التعصب أسهل فيما يختص باليهود . فحتى عام ١٥٣٧ كان لوثر يرى ، أن من الواجب أن يغتفر لهم احتفاظهم بعقيدتهم الخاصة ، « ما دام الأغنياء من بابواتنا وأساقفتنا والسوفسطائيين من فلاسفتنا ورهباننا ، هؤلاء الأجلاف الحمق ، تعاملوا مع اليهود ، بأسلوب يدفع أى مسيحى إلى أن يفضل أن يكون يهودياً . والحق أنى لو كنت يهوديا ، ورأيت مثل هؤلاء المعتوهين والحمق يشرحون معنى المسيحية ، لآثرت أن أكون خنزيراً لا مسيحياً . . . وأنا أود أن أنصح كل امرئ ، وأرجوه أن يعامل اليهود برفق ، وأن يفقههم الكتاب المقدس ، وبوسعى أن أتوقع فى هذه الحالة أن يجيئوا إلينا زرافات ووحدانا »[٥٢] . ولعل لوثر قد أدرك أن البروتستانتية كانت فى بعض مظاهرها عودة إلى الدين اليهودى ، وذلك فى رفضها للرهبانية والعزوبة المفروضة ، على رجال الكهنوت ، وتشديدها على العهد القديم والأنبياء والمزامير ، وتبنيها (باستثناء لوثر نفسه) لأخلاقيات جنسية أشـــد صرامة مما تتطلبه الكاثوليكية . وقد خاب أمله عند ما لم يقم اليهود بحركة مماثلة نحو البروتستانتية ، وساعده عداؤه لتقاضى فائدة على أن ينقلب ضد مقرضى الأموال من اليهود ، ثم ضد اليهود بصفة عامة ، وعند ما نفى جون الأمير المختار اليهود من ساكسونيا (١٥٣٧) ، رفض لوثر التماساً يهودياً للتوسط فى الأمر . وفى كتابه حديث المائدة جمع بين « اليهود والبابويين » ووصفهم بأنهم تعساء كفرة . . . « وأن الطائفتين جوربان صنعا من قطعة قماش واحدة »[٥٣] . واشتغرق فى سنواته الأخيرة فى نوبة غضب جامح ضد السامية ، وندد باليهود ، ووصفهم بأنهم « أمة من أناس غلاظ كفرة متكبرين خبثاء ممقوتين » وطالب بإشعال النار فى مدارسهم وهياكلهم حتى تتقوض دعائمها ، وقال : —

ودعوا كل من يستطيع أن يلقى عليهم كبريتاً وزفتاً ، وإذا كان فى وسع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم ، فإنه يحسن صنعاً لو فعل هذا . . . وهذا ما يجب عمله كرامة لربنا وللمسيحية ، حتى يرى الله أننا مسيحيون حقاً . ولتحطم بيوتهم وتدمر أيضاً . . . ولتنتزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره أيضاً ، وليحرم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعاليمهم بعد ذلك من الآن فصاعداً ، وإلا عوقبوا بالإعدام ، ولتغلق فى وجوههم الشوارع والطرق العامة ، وليحرم عليهم الاشتغال بالربا ، ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكنزون من الذهب والفضة ، ولتوضع فى الحفظ والصون . وإذا لم يكف هذا كله فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلاباً مسعورة(٥٤) .

ولم يحدث قط أن غلبت الشيخوخة على لوثر ، ففى عام ١٥٢٢ كان لا يزال متحدياً للباباوات وكتب يقول : « إنى لا أقبل أن يحكم على عقيدتى أحد حتى لو كان من الملائكة ، وكل من لا يتلقى عقيدتى بالقبول لن يستطيع الخلاص »(٥٥) . وما أن حل عام ١٥٢٩ حتى استخلص فروقاً دقيقة بين العقيدتين ، وقال : —

« لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يلحق بها ضرراً . فليقدم خصومنا ما لديهم من اعتراضات ، وليستمعوا إلى ردودنا ، فإذا ما اهتدوا فبها ونعمت ، وإذا لم يفعلوا فليمسكوا ألسنتهم ويؤمنوا بما يشاءون . . . ولكى نتجنب المتاعب يجب ، إذا أمكن ، ألا نعانى من التعاليم المتناقضة فى نفس الولاية ، ويجب أن يكره الجميع بما فيهم الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة فى الكنيسة ، والتلاؤم معها فى ظاهر السلوك(٥٦) .

وهكذا اتفق لوثر وقتذاك مع الكنيسة الكاثوليكية فى أن المسيحيين فى حاجة إلى يقين ثابت ومذاهب محددة ، وإلى كلمة الله الحقة ، التى

يستطيعون أن يحيوا بها ويموتوا عليها ، ولما كانت الكنيسة فى القرون الأولى من المسيحية قد انقسمت وضعفت بكثرة الطوائف الجامحة ، فقد أحست بأنها مضطرة إلى تحديد عقيدتها ، وإقصاء كل المخالفين لها ، ولهذا فإن لوثر ، وقد راعه وقتذاك تنوع الطوائف المتنازعة ، التى نبتت من بذرة الحكم الخاص ، انتقل خطوة خطوة من التسامح إلى التعصب المذهبى ، وقال شاكياً : —

« إن كل الناس الآن يتأهبون لانتقاد الإنجيل ، فكل أحمق مأفون تقريباً أو كل سوفسطائى مهرف ، يجب أن يكون ، حقاً ، دكتوراً فى اللاهوت » . وآلمه ما وجهه إليه الكاثوليك من نقد جارح بأنه أطلق عقال فوضى ، لا تجد من يكبح جماحها ، فى العقائد والأخلاقيات ، وانتهى فى الرأى مع الكنيسة إلى أن النظام الاجتماعى فى حاجة إلى شىء من حسم المناقشة ، وشىء من السلطة المنظمة ، ليخدمها باعتبارها مرساة للعقيدة » فكيف يجب أن تكون هذه السلطة ؟ على هذا السؤال أجابت الكنيسة بأن هذه السلطة هى الكنيسة نفسها لأن الكائن الحى وحده هو القادر على تعديل نفسه وكتبه المقدسة إلى صورة مغايرة لا مفر منها ، وقال لوثر : « لا ، إن السلطة الوحيدة والأخيرة يجب أن تكون الكتاب المقدس ، ما دام الجميع يسلمون بأنه كلمة الله .

وفى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية من هذا الكتاب المنزه عن الخطأ وجد أمراً صريحاً يزعمون أنه صدر من فم الرب ، وهو يقضى بإعدام الهراطقة : « إياك أن تشفق عينك عليه وإياك أن تخفيه » . حتى لو كان « أخاك أو ابنك أو زوجتك فى حضنك . . . ولكنك يجب أن تقتـــله لا محالة ، ويجب أن تكون يدك هى أول يد تنفذفيه حكم الإعدام » . وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة ، تصرفت الكنيسة فى إبادة طائفة الإلبيجنسن فى القرن الثالث عشر ، وكانت تلك اللعنة الإلهية بمثابة شهادة معتمدة لما

قامت به محاكم التفتيش من إحراق . وعلى الرغم مما اتسم به حديث لوثر من عنف ، فإنه لم يصل قط إلى درجة القسوة التى عاملت بها الكنيسة من يخالفونها فى الرأى ، ولكنه سار قدماً فى نطاق وحدود سلطته ، لإقحامها سلمياً بقدر ما استطاع . وفى عام ١٥٢٥ استعان بلوائح موجودة خاصة بالرقابة فى ساكسونيا وبراندنبرج لسحق « العقائد الخبيثة » التى يعتنقها اللامعمدانيون وأنصار زونجلى ، وفى عام ١٥٣٠ نصح ، فى تفسيره للمزمور الثانى والثمانين ، الحكومات بإعدام كل الهراطقة ، الذين ينادون فى عظاتهم بإثارة الشغب ، أو مناهضة الملكية الخاصة ، وقال : « إن هؤلاء الذين يعارضون فى تعاليم مادة واضحة فى العقيدة . . . مثل المواد التى يحفظها الأطفال عن العقيدة ، كالمادة التى تقول « إذا نادى أى واحد فى تعاليمه بأن المسيح ليس إلهاً بل مجرد إنسان »[٦٠] . ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية فى التعبير عن الرأى والعقيدة بين الأتراك أكثر مما يوجد فى الولايات اللوثرية ، وانضم ليوجد من أنصار زونجلى إلى كارلشتادت فى وصف لوثر بأنه بابا آخر . ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نلاحظ أن لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح فى أخريات أيام حياته . ولقد نصح فى آخر عظة له بالتخلى عن كل المحاولات للقضاء على الهرطقة عنوة ، وقال : يجب تحمل الكثالكة واللامعمدانيين فى صبر حتى يوم القيامة ، عندما يتولى أمرهم المسيح »[٦١] .

وقد ضارع مصلحون دينيون آخرون لوثراً ، وفاقوه فى مطاردة الهراطقة فقد حث بوسر الستراسبورجى السلطات المدنية فى الولايات البروتستانتية على إبادة كل من يعتنق ديناً « زائفاً » ، وقال : إن مثل هؤلاء الناس أسوأ من القتلة ، وأنه يجب القضاء حتى على زوجاتهم وأولادهم وماشيتهم[٦٢] ، وقبل ميلانكتون ، الرقيق الحاشية نسبياً ، أن يرأس التفتيش العلمانى الذى قمع حركة اللامعمدانيين فى ألمانيا بالسجن أو الموت . وتساءل قائلا : « لماذا تشفق على أمثال هؤلاء الناس أكثر من الله ؟ » . ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن

الله قد قضى على كل اللامعمدانيين بعذاب جهنم[٦٣] . وأوصى باعتبار رفض تعميد الطفل ، أو رفض الخطيئة الأصلية ، أو عدم الإيمان بالوجود الحقيقى للمسيح فى القربان المقدس ، جرائم تستحق أن يعاقب عليها بالإعدام[٦٤] . وأصر على عقوبة الموت لكل طائفى يعتقد أن الكفرة قد يظفرون بالخلاص ، أو لكل من يشك فى أن الإيمان بأن المسيح يمكنه ، باعتباره الذى كفر عن خطايا البشر ، أن يغير آثماً بفطرته إلى رجل من الأبرار[٦٥]. وهلل ، كما سوف نرى ، لإعدام سيرفيتوس . وطالب الحكومة بأن تجبر كل الناس على حضور الصلوات الدينية البروتستانتية بانتظام[٦٦]. وطالب بالقضاء على كل الكتب ، التى تعارض أو تعوق انتشار التعاليم اللوثرية ، وعلى هذا فإن كتابات زونجلى وأتباعه وضعت رسمياً فى قائمة الكتب الممنوعة فى فيتنبرج[٦٧] ، وبينما كان لوثر ينفى الكثالكة من المناطق التى يحكمها الأمراء اللوثريون ، آثر ميلانكتون توقيع العقوبات البدنية ، واتفق الاثنان فى الرأى بأن السلطة المدنية مرتبطة بواجب نشر « شريعة الرب » ورفع شأنها . أى رفع شأن مذهب لوثر[٦٨] ، ومهما يكن من أمر فإن لوثر أشار بأنه حيث توجد طائفتان فى ولاية فإن الأقلية يجب أن تخضع للأغلبية : ففى إمارة تغلب عليها الكثلكة يجب على البروتستانت أن يخضعوا ويهاجروا ، وفى مقاطعة ترجح فيها كفة البروتستانت يجب على الكثالكة أن يخضعوا ويرحلوا ، وإذا قاوموا فإنهم يجب أن يعاقبوا بشدة[٦٩] .

وقبلت السلطات البروتستانتية ، وهى فى هذا قد حذت حذو السوابق الكاثوليكية ، الالتزام بالحفاظ على المواءمة الدينية .

وأصدر مجلس المدينة فى أوجسبورج (١٨ يناير سنة ١٥٣٧) مرسوماً يحرم العبادة الكاثوليكية ويقضى بنفى كل من لا يقبل اعتناق العقيدة الجديدة ، بعد ثمانية أيام .

وبعد انقضاء هذه المهلة من العفو بعث المجلس بالجند للاستيلاء على

كل الكنائس والأديرة ، وأزيلت كل المذابح والتماثيل ، وأقصى كل القساوسة والرهبان والراهبات . وأصدرت [٧٠] فرانكفورت — الواقعة على الماين — قانوناً مماثلا ، وانتشرت موجة الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وتحريم إقامة الصلوات الكاثوليكية فى الولايات التى يسيطر عليها البروتستانت [٧١] ، وانتهج البروتستانت فرض رقابة على المطبوعات وكانت قد فرضت فعلا فى مناطق كاثوليكية ، وعلى هذا أصدر جون الأمير المختار فى ساكسونيا ، بناء على طلب لوثر وميلانكتون ، (عام ١٥٢٨) منشوراً يحرم نشر أو بيع أو قراءة الأدب الزونجلى أو اللامعمدانى ، أو التبشير بعقائدهما أو تعليمهما وجاء فيه : «على كل من يعلم بحدوث شيء من هذا أو قيام أى أحد بعمله ، سواء أكان أجنبياً أو من المعارف ، أن يبلغ إلى . . . الحكام فى هذا المكان لكى يُلقى القبض على الآثم ويعاقب فى الوقت المناسب . . . وهؤلاء الذين يعلمون بارتكاب مخالفات لهذه الأوامر . . . ولا يقومون بالإبلاغ عنها ، يعاقبون بالإعدام أو مصادرة ممتلكاتهم» [٧٢] .

وتبنى البروتستانت سياسة الحرمان من غفران الكنيسة والرقابة أيضاً مقتدين فى هذا بالكثالكة . وأعلن حزب أوجسبورج عام ١٥٣٠ حق الكنيسة اللوثرية فى حرمان كل عضو يرفض الاعتراف بعقيدة لوثرية أساسية [٧٣] من غفران الكنيسة . وقال لوثر مفسراً : «على الرغم من أن الحرمان من غفران الكنيسة فى البابوية قد أسيء استعماله بطريقة مخجلة ، وجعل منه البابويون مجرد تعذيب للناس فإننا يجب ألا نعانى منه حتى نكفر ، ولكن يجب أن نحسن استخدامه كما أمر المسيح» [٧٤] .

٣ — العلماء الإنسانيون والإصلاح الدينى

إن العقيدية المتعصبة للمصلحين الدينيين ، وعنف كلامهم وتشيعهم الطائفى واحتقارهم ، وتدميرهم للفن الدينى ، ولاهوتهم القائل بالجبر قضاء وقدراً وعدم اكتراثهم بالتعليم الدنيوى وتأكيدهم المتجدد للشياطين والجحيم ،

وتركيزهم على الخلاص الشخصى فى حياة بعد القبر ، كل هذه شاركت فى تنفير علماء الإنسانيات من الإصلاح الدينى ، فقد كان المذهب الإنسانى ردة وثنية إلى الثقافة الكلاسية ، أما البروتستانتية فقـــد كانت عودة تتسم بالورع إلى أوغسطين الحزين ، إلى المسيحية الأولى ، بل إلى الدين اليهودى فى العهد القديم ،وتجدد النضال بين الهلينية والعبرية . وكان علماء الإنسانيات قد أحرزوا تقدماً ملحوظاً داخل حظيرة الكاثوليك وقبضوا على زمام البابوية فى شخص نيكولاس الخامس وليو العاشر ، ولم يتسامح معهم البابوات فحسب ، بل إنهم أسبغوا عليهم حمايتهم ، وعاونوهم على استرداد الكنوز الضائعة من الأدب والفن الكلاسيين ، وكل هذا على أساس الفهم الضمنى بأن كتاباتهم سوف توجه ، فرضاً باللاتينية ، إلى الطبقات المتعلمة ، ولن تهدم العقيدة الكاثوليكية عند الناس .

ووجد علماء الإنسانيات ، وقد أزعجهم وقتذاك هذا الاتفاق الودى المريح ، أن أوروبا التيتونية كانت أقل مبالاة بهم وبثقافتهم الأرستقراطية منها بالحديث الحار عن الروح للوعاظ الجدد الذين يتكلمون باللغة الوطنية ، والذى يدور حول الرب والجحيم والخلاص الفردى . وسخروا من كل المناقشات المتحمسة التى ثارت بين لوثر وإيك ، وبين لوثر وكارلشتادت ، وبين لوثر وزونجلى ، باعتبارها معارك حول نتائج ، اعتقدوا أنه قضى عليها منذ عهد بعيد ، أو انطوت فى غمار النسيان برقة . ولم يستسيغوا اللاهوت وأصبحت السماء والجحيم أساطير بالنسبة إليهم ، وأقل حقيقة من ميثولوجيا اليونان وروما . ورأوا أن البروتستانتية خيانة لعصر النهضة ، وأنها كانت تستعيد كل المذاهب الفوق الطبيعية واللاعقلية والشيطانية التى رانت بالظلام على عقلية القرون الوسطى ، وقد شعروا بأن هذا لم يكن تقدماً ، بل رجعية . . . كان إخضاعاً من جديد للعقل المتحرر لسيطرة الأساطير البدائية للسوقة . واستاءوا من طعن لوثر للعقل ومن تمجيده للعقيدة كما كان يعرفها البطارقة أو الحكام من البروتستانت . وماذا بقى للإنسان من

تلك الكرامة التي كان بيكوديلا ميراندولا قد وصفها بمثل هذا النبل ، إذا كان كل شيء حدث على ظهر الأرض — كل بطولة وكل تضحية ، وكل تقدم في أدب السلوك الإنساني يستحق الذكر — مجرد عمل آلى ، قام به أناس عاجزون تافهون ، لتحقيق ما سبق في علم الله ، وتنفيذ أوامره التي لا نعرفها ؟

وليس من شك في أن علماء الإنسانيات الذين افتقدوا الكنيسة ، وإن كانوا لم يتركوها قط — ويمفيلينج وبياتوس رينانوس وتوماس مورنر وسيباستيان برانت — قد سارعوا وقتذاك إلى الإعراب عن ولائهم .

وابتعد عن لوثر كثير من علماء الإنسانيات الذين هللوا لصورة لوثر الأولى باعتبارها إصلاحاً شاملا لظلم مخجل ، وذلك كلما تشكل اللاهوت والجدل الديني للبروتستانت . وهاهو فيليبالد بيركهايمر وهو هليني وسياسي ، كان قد أيد لوثر علناً ، حتى إنه حرم من غفران الكنيسة في المسودة الأولى للمنشور **Exsurge Domine** راعه عنف كلام لوثر وقطع صلته بالثورة ، وفي عام ١٥٢٩ وبينما كان لا يزال ينتقد الكنيسة كتب يقول : —

« لا أنكر أن كل أعمال لوثر لم تبد عبثاً في مبدأ الأمر ، ما دام لا يوجد رجل صالح يستطيع أن يرضى عن كل تلك الأخطاء والضلالات ، التي تراكمت تدريجياً في المسيحية . وعلى هذا فإني كنت أرجوانا وآخرون أن يستخدم دواء ما لمثل هذه الآفات العظيمة ، ولكني كوفئت بخديعة قاسية ، لأنه قبل استئصال شأفة الأخطاء الآنفة الذكر ، تسللت أخطاء لا تغتفر أشد جسامة ، إذا قورنت بها الأولى ، فإنها تبدو من قبيل عبث الأطفال . . . لقد وصلت الأمور إلى معبر دفع الأفاقين الإنجيليين إلى إظهار زملائهم البابويين ، وهم يرتدون مسوح الفضيلة . . . ولا بد أن لوثر

بلسانه اللاذع ، الذى لا يعرف الخجل ، قد انزلق إلى الخبل أو استلهم الشيطان »[٧٥] .

ووافق موتيانوس على هذا وكان قد حيى لوثر ووصفه بأنه « نجم الصباح فى فيتنبرج » وسرعان ما شكا من أن لوثر « تعتريه لوثة مجنون »[٧٦] أما كروتوس روبيانوس ، الذى كان قد مهد الطريق للوثر بـ « خطابات من أناس مغمورين » فإنه فر عائداً إلى حظيرة الكنيسة عام ١٥٢١ . وأرسل رويخلين إلى لوثر خطاباً رقيقاً ، ومنع إيك من إحراق كتب لوثر فى أنجولشتادت ، ولكنه ندد بابن أخيه ميلانكتون ، لأنه تبنى اللاهوت اللوثرى ومات بين ذراعى الكنيسة . وأما جوهانس دوبينيك كوكلايوس فقد ناصر لوثر فى مبدأ الأمر ، ثم انقلب عليه فى عام ١٥٢٢ ، وبعث له برسالة أنبه فيها قائلا : —

« هل تظن أننا نريد العفو أو الدفاع عن آثام رجال الدين وشرهم ؟ تسأل الله النجاة ! إننا لنفضل أن نستأصل شأفتهم ، ما دام هذا يمكن أن يتم بطريقة مشروعة . . . ولكن المسيح لا يعلمنا مثل هذه الطرق التى تعمل بها على تلك الصورة المؤذية مع خصم المسيح » و « مواخير » و « أعشاش الشيطان » و « بالوعات » وألفاظ سب أخرى لم يسمع بها أحد من قبل فما بالك بالتهديدات بالضرب بالسيف وسفك الدماء والقتل يا لوثر ! إن المسيح لم يعلمك قط هذه الطريقة فى العمل »[٧٧] .

ولعل علماء الإنسانيات فى ألمانيا قد نسوا بذاءة أسلافهم الإيطاليين — فيليلفو وبوجيو وكثيرين غيرهما — تلك البذاءة جعلت لوثر يسارع بأن يشرع قلمه المتمرد العنيد . ولكن أسلوب لوثر فى العراق لم يكن إلا سطحاً لاتهامهم . ولاحظوا — كما لاحظ لوثر — فساد الأخلاق والسلوك فى ألمانيا ، وعزوا ذلك إلى تفكك السلطة الكهنوتية وإسقاط اللوثريين « للأعمال الصالحات » ، باعتبارها مبرراً للخلاص . وساءهم انتقاص البروتستانت

للتعليم ومساواة كارلشتادت بين العلامة النحرير وبين والفلاح ، وتهون لوثر من شأن التضلع فى العلم والحصافة ، وأعرب أرازموس عن الرأى العام لعلماء الإنسانيات . وهنا سلم ميلانكتون[٧٨] بهذا الرأى فى حزن — وهو يذهب إلى أنه حيث تنتصر اللوثرية ينحط شأن الآداب (أى التعليم والأدب)[٧٩]. ودفع البروتستانت هذه التهمة بقولهم إن هذا يرجع إلى أن التعليم بالنسبة لعالم الإنسانيات يعنى ، أولا وقبل كل شىء ، دراسة الكلاسيات الوثنية والتاريخ الوثنى . وشغلت الكتب والمجلات فى المجادلات الدينية الذهن والمطابع فى المانيا وسويسرة مدة جيل بأسره ، حتى فقد كل شكل آخر من أشكال الأدب (غير الهجو) تقريباً جمهوره . ووجدت دور النشر مثل دار فروبن للنشر فى بازيل والاطلانسى فى فينا عدداً قليلا من المشترين للمؤلفات العلمية التى أصدرتها وكلفتها غالياً ، حتى أشرفت على الإفلاس[٨٠] وحجب تعصب المنافسين النهضة الألمانية الفتية ، ووصل مسار مسيحية عصر النهضة نحو التوفيق بينها وبين الوثنية إلى نهايته .

وظل بعض علماء الإنسانيات مثل أيوبان هيس وأولريخ فون هوتن مخلصين للإصلاح الدينى ، وانتقل هس من موقع إلى موقع وعاد إلى أرفورت ليجد أن الجامعة قد هجرها روادها . ومات وهو يقرض الشعر فى ماربورج (١٥٤٠) وهرب هوتن ، بعد سقوط سيكنجن ، إلى سويسرة ، ولجأ إلى السرقة للحصول على طعامه ، وهو فى الطريق[٨١] ، وبحث عن أرازموس فى بازيل (١٥٢٢) ، وهو يعانى من المرض والخصاصة ، على الرغم من أنه كان قد دمغ علناً عالم الإنسانيات بأنه جبان ، لأنه لم ينضم إلى المصلحين الدينيين[٨٢] . ورفض أرازموس أن يراه وزعم أن موقده لا يصلح لتدفئة عظام هوتن . ونظم الشاعر الآن قصيدة بعنوان « تحذير » ندد فيها بأرازموس ووصفه بأنه زنديق مارق ، يفرق كفرخ الدجاج ، ووعد بأن يمسك عن نشرها إذا دفع له أرازموس ، ولكن أرازموس خيب ظنه ، وحث هوتن على التزام جانب الحكمة وتسوية خلافاتهما سلمياً ،

غير أن هوتن كان قد سمح بتداول النسخة الخطية لقصيدته الهجائية بين الخاصة ، ووصل ذلك إلى علم أرازاموس ودفعه هذا إلى الانضمام إلى رجال الدين فى بازيل فى طلبهم بإلحاح من مجلس المدينة إقصاء الهجاء الحانق ، وبعث هوتن بقصيدته « تحذير » إلى المطبعة وانتقل إلى مولهاوس . وهناك تجمع حشد من الغوغاء ، وهاجم البيت الذى لاذ به ، ففر مرة أخرى ، وقبض عليه زونجلى فى زيورخ (يونية ١٥٢٣) ، وقال المصلح الدينى وهو هنا كريم خير أكثر من عالم الإنسانيات « انظروا . ... إلى هذا المخرب ؛ انظروا إلى هوتن الرهيب ، الذى نراه مغرماً جداً بالناس وبالأطفال ؛ ، إن هذا الفم الذى تهب منه أعاصير على البابا لا ينفث غير الرقة والطيبة »[٨٣] . وفى غضون ذلك رد أرازموس على « تحذير » فى رسالة كتبها على عجل وعنوانها Spongia Erasmi adversus aspergimes Hutteni ، (أى إسفنجة أرازموس على مطاعن هوتن) وكتب إلى مجلس المدينة فى زيورخ محتجاً على « أكاذيب » هوتن التى تحدث بها عنه وأوصى بنفى الشاعر[٨٤] . ولكن هوتن كان يحتضر وقتذاك ، فقد أنهكته حرب الأفكار وأتلف الزهرى صحته وأطلق زفرته الأخيرة (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٣) فوق جزيرة فى بحيرة زيورخ ، بالغاً من العمر خمساً وثلاثين عاماً ، وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى ملابسه وقلمه .

٤ — أرازموس — حاشية على آرائه
(١٥١٧ — ٣٦)

إن رد الفعل عند أرازموس بالنسبة إلى الإصلاح الدينى يثير مناقشة حامية بين المؤرخين والفلاسفة . ترى أية طريقة خير للبشرية — هجوم لوثر المباشر على الكنيسة أم سياسة أرازموس التى تعتمد على المصالحة السلمية والإصلاح الدينى على درجات ؟ إن الإجابات تكاد تحدد نمطين من الشخصية : هما المحاربون « ذوو العقول الجامدة » الذين يعتصمون بالعمل والإرادة ، « والمهادنون ذوو العقول المرنة فى الفكر والشعور » . لقد كان لوثر رجل عمل أساساً . وكانت أفكاره قرارات وكتبه أفعالا . وكان تفكيره فى

مضمونه لا يختلف عن تفكير رجال القرون الوسطى الأولى ، ولكنه فى فى النتيجة يشبه تفكير المحدثين الأوائل ، ولقد عاونت شجاعته وحسمه للأمور القومية أكثر من لاهوته على تأصيل العصر الحديث . وكان لوثر يتحدث بلهجة ألمانية قوية ، تنبض بالرجولة إلى الشعب الألمانى ، فأثار أمة ، ودفعها إلى القضاء على سلطة دولية ، أما أرازموس فكان يكتب بلغة لاتينية رشيقة رقيقة لجمهور دولى ، إلى صفوة عالمية من خريجى الجامعات . وكان شديد الحساسية لا يصلح لأن يكون رجل عمل ، يمتدح السلم ويتوق إليه ، بينما كان لوثر يشهر الحرب ويجد فيها متعة . كان إماماً فى الاعتدال ، يستهجن التطرف والمغالاة . . . وهرب من ميدان العمل إلى ميدان الفكر ، ومن اليقين المتسم بالتهور إلى الشك المنطوى على الحذر ، وعرف الكثير ليرى أن الحق أو الخطأ ليسا جميعاً فى جانب واحد ، ورأى الجانبين كليهما ، وحاول أن يوفق بينهما فسحق فى وسطهما .

وصفق لمقالات لوثر ، وأرسل فى مارس عام ١٥١٨ نسخاً منها إلى كوليه ومور ، وكتب إلى كوليه يقول : « إن المحكمة الرومانية قد كشفت عن وجهها برقع الحياء . أى شىء يفوق فى القحة صكوك الغفران هذه ؟ »(٨٥) وكتب فى أكتوبر إلى صديق آخر يقول :

« سمعت أن لوثر يتفق معه فى الرأى كل الناس الصالحين ، وإن قيل إن كتاباته ليست كلها فى مستوى واحد . وأعتقد أن هذه المقالات سوف يرضى عنها الجميع ، اللهم إلا قلة ضئيلة لا تتفق معه فى رأيه حول المطهر ، الذى يعتمدون عليه فى كسب عيشهم ، ولا يريدون أن ينتزع من أيديهم . . . وأنا أدرك أن الحكومة الملكية للكاهن الأعظم الرومانى (وهذا حال تلك الحكومة البابوية الآن) هى وباء يجتاح العالم المسيحى ، على الرغم من أن وعاظاً يفتقرون إلى الحياء يمتدحونها فى كل الظروف ، ومع ذلك فإنى لا أكاد أعرف هل من اللائق أن أمس هذا القرح المكشوف ، لأن هذا

فرض واجب على الأمراء ، ولكنى أخشى أن يتآمروا مع الحبر الأعظم للحصول على قدر من الغنائم »(٨٦) .

وعاش أرازموس الجانب الأكبر من حياته وقتذاك فى لوفان ، وأسهم فى تأسيس **Collegium Trilingue** فى الجامعة ، بكراسى أستاذية فى اللاتينية واليونانية والعبرية ، وفى عام ١٥١٩ منحه شارل الخامس معاشاً ، فاشترط أرازموس لقبوله أن يحتفظ باستقلاله جسداً وعقلا ، ولكنه إذا كان بشراً ، فإن هذا المعاش ، مضافاً إليه ما كان يتلقاه من كبير أساقفة وارهام ولورد ماونتجوى ، قد قام بدور ما فى صياغة موقفه نحو الإصلاح الدينى .

وفى الوقت الذى جاوزت فيه ثورة لوثر مرحلة نقد بيع صكوك الغفران إلى رفض الاعتراف بالبابوية والمجالس الدينية ، تردد أرازموس ، فقد كان يأمل أن تتقدم عجلة إصلاح الكنيسة بالالتجاء إلى الإرادة الواعية للبابا ذى النزعة الإنسانية . كان لا يزال يجل الكنيسة باعتبارها (خيل إليه هذا) مؤسسة للنظام الاجتماعى والأخلاق الفردية لا بديل عنها ، وعلى الرغم من اعتقاده أن لاهوت المحافظين قضى عليه ما تخلله من لغو ، فإنه كان لا يثق بحكمة الإفتاء الفردى أو الشعبى لتطوير شعيرة أو عقيدة أكثر نفعاً ، ذلك أن رجاحة العقل لا تتأتى إلا عن طريق تقطر الاستنارة العقلية ، من الفئة القليلة المتفقهة ، إلى الكثرة الغالبة . وأقر بأنه كان له دور فى تمهيد الطريق أمام لوثر ، فقد كانت رسالته « الثناء على الطيش » ، التى كان يتداولها وقتذاك الآلاف من القراء فى أرجاء أوربا ، تسخر من الرهبان والمشتغلين باللاهوت ، وتشدد من لذع خطابات لوثر المقذعة الجافية ، وعند ما اتهمه الرهبان المشتغلون باللاهوت بأنه وضع البيضة التى فقست تحت لوثر ، رد عليهم فى تأفف : « نعم ولكن البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة ، أما البيضة التى فقسها لوثر فقد خرج منها ديك من ديوك

المصارعة»(٨٧) . ولقد قرأ لوثر نفسه رسالة « الثناء على الطيش » كما قرأ تقريباً غيرها من كل ما نشره أرازموس ، وقال لأصدقائه إنه إنما يقوم بصياغة مباشرة لما قاله عالم الإنسانيات الشهير ، أو ما ألمح إليه منذ سنوات عديدة مضت ، وكتب فى ١٨ مارس عام ١٥١٩ إلى أرازموس فى تواضع واحترام ينشد صداقته وعونه ضمناً .

وكان على أرازموس وقتذاك أن يتخذ قراراً حاسماً فى حياته . وكان فى مأزق بين أمرين أحلاهما مر . إذا تخلى عن لوثر فسوف يوسم بالجبن ، وإذا اشترك مع لوثر فى عدم الاعتراف بالكنيسة الرومانية فإنه لن يخسر فحسب ثلاثة مرتبات ، ويفقد ما أسبغه عليه ليو العاشر من حماية ضد المشتغلين باللاهوت ، الذين يعملون للحيلولة دون نشر العلم ، وسيجد نفسه مضطراً إلى التخلى عن خطته واستراتيجيته بشأن إصلاح الكنيسة عن طريق تحسين العقول والأخلاقيات فى الرجال ذوى النفوذ . وكان قد أحرز (كما اعتقد) تقدماً حقيقياً فى هذا المجال مع البابا ورئيس الأساقفة وارهام والأسقف فيشر ونائب الأسقف كوليه وتوماس مور وفرانسس الأول وشارل الخامس ، ولم يرض هؤلاء الرجال بالتأكيد أن يتخلوا عن الكنيسة . حقاً إنهم كانوا على استعداد لأن يحجموا عن تقويض نظام كان فى نظرهم مرتبطاً بطريقة مبهمة مع حكومة الأمراء فى المحافظة على الاستقرار الاجتماعى ، ولكن يمكن تجنيدهم فى حملة لتخفيف الخزعبلات والأهواء فى عقيدة راجحة الكفة ، وفى تطهير رجال الدين وتعليمهم ، وفى السيطرة على الرهبان وإخضاعهم للتبعية ، وفى حماية حرية الفكر من أجل تقدم العقل .

إن تغيير ذلك البرنامج بانقسام العالم المسيحى انقساماً شديداً إلى شطرين متحاربين ، وبلاهوت ، يأخذ بالقدرية وبعدم أهمية الأعمال الصالحات ، سوف يبدو فى نظر هؤلاء الرجال ، بل وبدا لأرازموس ، الطريق إلى

الجنون . وكان يراوده الأمل فى استعادة السلام إذا خفضت كل الأطراف أصواتها ، وأشار فى فبراير عام ١٥١٩ على فروبين ألا ينشر المزيد من مؤلفات لوثر ، لأنها تفيض بالعبارات الملتهبة[٨٨] ، وكتب فى أبريل إلى الأمير المختار فريدريك ، بحثه على حماية لوثر باعتباره رجلا ارتكب الناس فى حقه من الإثم أكثر مما ارتكب هو من آثام[٨٩] . وأخيراً (٣٠ مايو) رد على لوثر ، وقال :

« يا أعز أخ لى فى المسيح . إن رسالتك إلى تظهر حدة ذهنك وتنبض بروح مسيحية قد أسعدتنى أكثر من كل شيء . أنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى الاضطراب الذى تحدثه كتبك هنا . إن هؤلاء الناس لا يمكن ، بأى وسيلة ، ألا يراودهم الشك فى أننى عاونتك فى كتابة مؤلفاتك وأنى ، كما يصفوننى ، حامل لواء حزبك . . . ولقد أقسمت لهم أنى لا أعرفك بتاتاً ، وأنى لم أقرأ كتبك ، وأنى لا أستحسن كتاباتك ولا أستهجنها ، ولكن عليهم أن يقرأوها قبل أن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ومن رأيى أيضاً أن الموضوعات التى كتبت عنها ليست من النوع الذى يصلح للخطابة من فوق المنابر ، وبما أن من المسلم به أنك طاهر الذيل ، فلا محل للتنديد بك أو صب اللعنات عليك . وكان هذا بلا جدوى فقد ظلوا يتميزون غضباً . . . وأنا نفسى الهدف الرئيسى للعداء والكراهية ، وأما الأساقفة فإنهم فى صفى بوجه عام . . .

وأما أنت فإن لك أصدقاء أوفياء فى انجلترا ، حتى بين أكبر الشخصيات هناك . ولك أصدقاء هنا أيضاً . . . أنا بصفة خاصة . وأما بالنسبة لى فإنى اشغل نفسى بالأدب ، وأنا أقصر عليه جهودى بقدر الإمكان ، وأتحاشى الخلافات الأخرى ، ولكنى بصفة عامة أعتقد أن اللطف مع الخصوم أشد تأثيراً من معاملتهم بالعنف . . . ولعل من الحكمة أن تندد بهؤلاء الذين يسيئون استخدام سلطة البابا بدلا من أن تحصى أخطاء البابا نفسه . وهذا ما يجب عمله مع الملوك والأمراء . والأنظمة القديمة لا يمكن انتزاعها من

جذورها فى لحظة . والمناقشة الهادئة قد تفيد أكثر مما تفعل الإدانة الجماعية . تجنب كل مظهر من مظاهر الشغب . واحتفظ ببرود أعصابك ولا تستسلم للغضب . لا تكره أحداً . لا تفرح بالضجة التى أثرتها . لقد اطلعت على كتابك « تعليق على المزامير » وسررت به كثيراً . . . ألا فليهبك المسيح روحاً من عنده من أجل مجده ومن أجل خير العالم[٩٠] .

وعلى الرغم من هذا الاحتياط فى المواجهة بين الضدين ، فان المشتغلين باللاهوت فى لوفان استمروا فى مهاجمة أرازموس ، باعتباره منبع الفيضان اللوثرى . ووصل الياندر فى الثامن من أكتوبر عام ١٥٢٠ ، وعلق النشرة البابوية التى تنص على حرمان لوثر من غفران الكنيسة ، وسجل أن أرازموس يعد محرضاً سرياً على الثورة . وقبل العلماء النحارير زعامة الياندر وأقصوا أرازموس من كلية لوفان (٩ أكتوبر عام ١٥٢٠) ، فانتقل إلى كولون وهناك ، كما رأينا ، دافع عن لوثر فى مداولة مع فردريك صاحب ساكسونيا (٥ نوفمبر) ، وفى الخامس من ديسمبر أرسل إلى الأمير المختار بياناً عرف باسم Axiomata Erasmi جاء فيه إن التماس لوثر أن يحاكم أمام قضاة لا يعرفون التحيز طلب معقول ، وأن الصالحين من الناس والمحبين للإنجيل هم هؤلاء الذين كانت إساءتهم للوثر أقل من غيرهم ، وأن الناس يتعطشون إلى معرفة الحقيقة الإنجيلية ، (أى الحقيقة التى تعتمد على الإنجيل فحسب) وأنه لا يمكن قمع[٩١] مثل هذا المزاج الذى انتشر انتشاراً واسعاً . ودبج بمعاونة جوهان فابر الدومينيكانى عريضة إلى شارل الخامس ، طالباً فيها أن يقوم شارل وهنرى الثامن ولويس الثانى ملك هنغاريا بتعيين محكمة محايدة للفصل فى قضية لوثر . وحث فى رسالة بعث بها إلى الكاردينال كامبيجيو (٦ ديسمبر) على توفير العدالة للوثر ، وقال : « لقد أدركت أنه كلما كان الإنسان صالحاً كان أقل عداء للوثر . . . إن بضعة أشخاص فقط كانوا يصخبون فى وجهه ، خوفاً من أن يجردهم مما فى جيوبهم . . . ولم يرد عليه أحد بعد أو يعدد أخطاءه . . . فكيف يحدث هذا فى الوقت الذى يوجد

فكيف يحدث هذا فى الوقت الذى يوجد فيه أشخاص يزعمون أنهم أساقفة ... وأخلاقهم كريهة .. وهل من الصواب أن تضطهد رجلامثل هذا ، لا تشوبه أخلاقه شائبة ، وليس فى حياته ما يشينه ، ووجد أشخاص من الصفوة فى كتاباته الكثير مما يستحق الإعجاب ؟ لقد كان الهدف ببساطة القضاء عليه وعلى كتبه ، ليضيع فى غمرات النسيان ، وهذا لا يتحقق إلا إذا ثبت أنه على خطأ . . . إذا كنا ننشد الحقيقة ، فان كل امرئ يجب أن يكون حراً فى أن يقول ما يراه دون خوف أو وجل . وإذا كوفئ المدافعون عن وجهة نظر أحد الطرفين بوضع تيجان الأساقفة على رؤوسهم ، وجوزى المدافعون عن وجهة نظر الخصوم بالشنق أوبوضعهم فوق الخوازيق فإن الحقيقة لن تسمع أبداً . . . ولا يمكن أن يكون هناك شىء يبعث على النفور ويبعد عن الحكمة أكثر من نشرة البابا . . . إنها تخالف طبيعة البابا ليو العاشر ، وأرى أن الذين أرسلوا لنشرها فحسب قد جعلوا الأمور تنقلب إلى أسوأ . ومهما يكن من شىء فإنه من الخطر أن يعارض الأمراء الزمنيون البابوية ، وأنا لست على استعداد لأن أكون أكثر شجاعة من الأمراء ، وبخاصة عندما لا أستطيع أن أفعل شيئاً . ولعل فساد الحاشية الرومانية يجعلها فى حاجة إلى إصلاح شامل وعاجل ، ولكنى أنا وأمثالى لا يطلب منا اتخاذ إجراء مثل هذا على عاتقهم ، وأنا أرى أن تبقى الأمور على ما هى عليه ، وأفضل أن أرى الأشياء على ما هى عليه على نشوب ثورة ، قد تؤدى إلى نتيجة لا تحمد عقباها . . . ويمكنك أن تطمئن إلى أن أرازموس كان ، وسوف يظل دائماً ، من الرعايا المخلصين لكرسى البابوية الرومانى ، وإن كنت أعتقد ، ويعتقد كثيرون مثلى ، أنه ستتاح فرصة أحسن لتسوية ما إذا قل الالتجاء إلى العنف ، وإذا وضعت مقاليد الإدارة فى أيدى رجال لهم وزن وعلى حظ من التعليم ، وإذا تصرف البابا بوحى من ضميره ، ولم يتأثر بآراء الآخرين »(٩٢) .

وقد جعل لوثر من الصعب على أرازموس أن يتشفع له لأن لهجة خطبه كانت تزداد عنفاً كل شهر ، إلى أن دعا فى يوليو عام ١٥٢٠ قراءه إلى أن يغسلوا أيديهم فى دماء الأساقفة والكرادلة ، وعند ما وصل نبأ إحراق لوثر علناً لمنشور البابا الذى يقضى بحرمانه من غفران الكنيسة ، أقر أرازموس بأنه صدم لهذا النبأ . وفى الخامس عشر من يناير عام ١٥٢١ بعث إليه البابا برسالة أعرب فيها عن سروره بولائه ، وفى الوقت نفسه أرسل ليو تعليماته إلى الياندر بمعاملة عالم الإنسانيات بكل لطف . وعند ما اقترب موعـد انعقاد المجلس النيابى فى ورمس ، طلب أمير ألمانى من أرازموس أن يخف لمعاونة لوثر ، ولكنه رد بأن الأوان قد فات . وأسف لرفض لوثر الامتثال ، إذ كان يعتقد أن هذا الامتثال سوف يؤدى إلى الإسراع بحركة الإصلاح الدينى ، أما الآن فإنه يخشى قيام حرب أهلية . وفى فبراير عام ١٥٢١ كتب إلى أحد أصدقائه : « إن كل إنسان أقر بأن الكنيسة قد عانت من نير طغيان بعض الناس ، وكثيرون كانوا يسألون النصيحة لعلاج هذه الحالة الراهنة . والآن وقد هب هذا الرجل ليعالج الأمر على هذا النحو . . . لم يجرؤ أحد على أن يدافع حتى عما أجاد التعبير عنه . وقد حذرته منذ ست شهور خلت أن يحترس من الكراهية . ولقد نفرت رسالته « الأسر البابيلونى » منه الكثيرين ، وهو يعرض لنا كل يوم أشياء فظيعة(٩٣) .

وقد تخلى لوثر وقتذاك عن كل أمل فى مساندة أرازموس ، وأسقطه من حسابه باعتباره داعية للسلام جباناً « يعتقد أن كل شىء يمكن أن يتم بالتهذيب والعطف »(٩٤) . وفى الوقت نفسه ، وعلى الرغم من تعليمات ليو ، استمر الياندر وعلماء اللاهوت فى لوفان فى مهاجمة أرازموس ، باعتباره نصيراً سرياً للوثر . فاستاء من ذلك وانتقل إلى بازيل (١٥ نوفمبر عام ١٥٢١) ، حيث راوده الأمل فى أن يتناسى الإصلاح الدينى الفتى فى غمار النهضة العجوز . وكانت بازيل معقل مذهب الإنسيانيات فى سويسرة ،

فهناك كان يعمل بياتوس ريناتوس الذى نشر تاسيتوس وبلينى الأصغر ، واكتشف فيليوس بايتركولوس ، وأشرف على طباعة العهد الجديد ، الذى أعده أرازموس ، وهناك كان طباعون وناشرون يعدون أيضاً من العلماء مثل هانز آمرباخ ، وذلك القديس بين الناشرين الذى يدعى جوهان فروبن (يوس) ، وهو الذى أضنى نفسه مكباً على مطابعه ونصوصه و (قال عنه أرازموس) « ترك لأسرته من الشرف أكثر مما ترك لها من الثروة »(٩٥) وهناك عاش دىرر أعواماً طوالا ، وهناك قام هولبين برسم صورة الشخصية التى تخلب الألباب لفروبن وبونيفاسيوس آمرباخ — الذى جمع المقتنيات الفنية الموجودة الآن فى متحف بازيل . وقبل سبع سنوات ، وفى زيارة سابقة ، كان أرازموس قد وصف هذا المحيط فى شىء من المبالغة التى تنطوى على الحب .

« يبدو لى أنى أعيش فى هيكل قدسى ساحر لربات الفنون ، يظهر فيه حشد من الأشخاص المتعلمين كأمر محتوم . ليس هناك من يجهل اللاتينية ، ولا أحد يجهل اليونانية ، ومعظمهم يعرفون العبرية . هذا يفوق زملاءه فى دراسة التاريخ ، وذاك متضلع فى اللاهوت ، وأحدهم بارع فى فى الرياضيات وآخر دارس للآثار وثالث ضليع فى القانون . وليس من شك فى أن الحظ لم يسعدنى ، حتى ذلك الوقت ، فى أن أعيش فى مثل هذا المجتمع الكامل . . . أية صداقة خالصة ترفرف عليهم جميعاً وأى بشر وأى توافق »(٩٦)

وعاش أرازموس مع فروبن وعمل معه مستشاراً أدبياً ، وكتب مقدمات وحرر جريدة «الآباء» . ورسم هولبين صوراً شخصية مشهورة له فى بازيل (١٥٢٣ — ١٥٢٤) ولاتزال إحداها هناك ، وأرسلت أخرى إلى كبير أساقفة وارهام ، وهى الآن من مقتنيات ايرل أف رادنور ، والثالثة فى متحف اللوفر ، وهى من روائع هولبين . ويرى فيها جالساً إلى منضدة ،

وهو يكتب ملتفاً بمعطف ثقيل حوافه مزينة بالفراء ، ويضع على رأسه قلنسوة تغطى نصف أذنيه ، وها هو أعظم علماء الإنسانيات تشى كهولته التى جاءت قبل الأوان ، (كان وقتئذ فى السابعة والخمسين من عمره) بالثمن الغالى الذى دفعه بسبب اعتلال صحته . حياة فيلسوف مشائى حافلة بالجدل والخصام ، والعزلة الروحية والحزن ، اللذين ترتبا على رغبته فى أن يكون عادلا مع الطرفين فى الخلافات المذهبية التى حدثت فى عصره . وتبرز من القلنسوة شعرات بيضاء مشعثة . وله شفتان رقيقتان كالحتان ، وتقاطيع جميلة ، وإن كانت قوية ، وأنف حاد معقوف ، وجفون ثقيلة ، تكاد تغلق عينين متعبتين ، هنا فى لوحة من أعظم الصور الشخصية ترى النهضة وقد مزقها الإصلاح الدينى إرباً .

وفى أول ديسمبر عام ١٥٢٢ كتب البابا الجديد أدريان السابع إلى أرازموس بألفاظ توحى بسلطانه غير العادى على كلا الطرفين : يتوقف عليك ، وأسأل الله أن يعينك ، أن تهدى من أضلهم لوثر عن الطريق المستقيم ، وأن تقف إلى جانب من لا يزالون صامدين . . . ولست فى حاجة إلى أن أعرب لك عن مدى غبطتى عند ما أتلقى ثانية هؤلاء الهراطقة دون حاجة إلى قرعهم بعصا القانون الإمبراطورى . وأنت تعرف إلى أى حد تتنافى مثل هذه الطرق الفظة مع طبيعتى . أنا لا أزال كعهدك بى عند ما كنا ندرس معاً . تعال إلى فى روما ، وسوف تجد هنا ما تنشده من الكتب ، وسوف تجدنى أنا وآخرين من الرجال المستنيرين ، لنتبادل المشورة ، وإذا فعلت ما أطلبه منك فإنك لن تندم أبداً »[٩٧] .

وبعد تبادل تمهيدى لخطابات تعهد فيها كل منهما للآخر بالحفاظ على السرية ، فتح أرازموس قلبه للبابا وقال : « إن قداستك تطلب منى النصيحة ، وترغب فى أن ترانى . وكم كان يسعدنى أن أذهب إليك لو سمحت بذلك صحتى . أما بالنسبة للكتابة ضد لوثر ، فأنا لست على درجة كافية من العلم ، وأنت تعتقد أن لكلماتى سلطاناً ، ولكنى للأسف أرى

أن شعبيتى ، التى اكتسبتها فيما مضى قد استحالت إلى كراهية . لقد كنت يوماً أميراً للبيان ، ونجماً من نجوم ألمانيا . . . وكاهناً أعظم للعلم ومنافحاً عن لاهوت أكثر نقاء . أما الآن فقد تبدل الوضع ، ففريق يقول أنى أتفق فى الرأى مع لوثر ، لأنى لا أعارضه ، وفريق آخر يرى أنى على خطأ لأنى أعارضه . . . وفى روما وفى برابانت يصفوننى بأنى هرطيق ، وزعيم شعبة من الهراطقة ، وداعية إلى الانشقاق ، والحق أنى لا أتفق بتاتاً مع لوثر . وأنهم ليستشهدون بهذه الفقرة أو تلك ، ليبينوا أننا متشابهان ، ومع ذلك فى وسعى أن أجد مائة فقرة يبدو فيها أن القديس بولس يعلم العقائد التى يستنكرها عند لوثر . وخير من يمحضك النصح هم الذين يشيرون باتخاذ إجراءات خفيفة . والرهبان — يطلقون على أنفسهم العمالقة الذين يسندون كنيسة تهتز وتوشك أن تنقض — ينفرون من يمكن أن يكونوا أنصاراً لها . . . ويعتقد البعض أنه لا علاج لهذه الحالة إلا القوة . وأنا أرى غير هذا . . . فسوف تؤدى إلى سفك مروع للدماء . إن المسألة ليست الجزاء الذى تستحقه الهرطقة ، ولكنها الطريقة الحكيمة التى تعالج بها . . . وأنا من جهتى أرى اكتشاف جذور المرض واقتلاع ما يجب البدء به منها . لا تعاقب أحداً . وأعتبر ما حدث عقوبة أنزلتها العناية الإلهية ، وامنح عفوا عاماً . وإذا كان الله يغفر لى خطاياى ، فإن كاهن الرب يمكن أن يغفرها ، وفى وسع الحكام أن يمنعوا قيام ثورة مسلحة ، وإذا أمكن يجب مراجعة المواد المطبوعة . ثم دع العالم يعرف ويرى أنك تنوى جاداً رفع المظالم ، التى يشكو منها الناس بحق . وإذا أردت قداستك أن تعرف ما هى الجذور التى أشير إليها ، فأرسل أشخاصاً تثق بهم إلى كل جزء من أجزاء العالم المسيحى اللاتينى ، ودعهم يتبادلون الرأى مع أعقل من يجدون من الرجال فى مختلف البلاد وسرعان ما تعرف بعد ذلك(٩٨) .

يا لأدريان المسكين الذى تجاوزت نياته الطيبة حدود قواه ! لقد مات

كسير الفؤاد عام ١٥٢٣ . واستمر خلفه كليمنت السابع فى حث أرازموس على الانخراط فى سلك المناهضين للوثر . وعند ما خضع العالم أخيراً ، لم يكن هجومه على لوثر بصفة شخصية ، ولم يكن لديه اتهام عام للإصلاح الدينى ولكنه ناقشه مناقشة موضوعية مهـــذبة بإرادة حرة (De Libro arbitrio) — (١٥٢٤) . وسلم بأنه لم يستطيع أن يسبر غور لغز الحرية الأخلاقية ، ولا أن يوفق بينها وبين علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء . ولكن ما من عالم بالإنسانيات يستطيع أن يتقبل العقائد ، التى تقول بحتمية القدر ومذهب الجبر ، دون تضحية بكرامة الإنسان أو الحياة البشرية وقيمتها : هنا فارق أساسى بين الإصلاح الدينى والنهضة . وبدا واضحاً لأرازموس أن الإله الذى يعاقب على الخطايا ، التى ترتكبها مخلوقاته ، ولا حيلة لهم فى الامتناع عنها ، وحش لا خلاق له لا يستحق العبادة أو الثناء ، ونسبة مثل هذا السلوك إلى «الأب الذى فى السماء» كفر فظيع . ووفق افتراضات لوثر يكون أسوأ المجرمين شهيداً بريئاً ، ذلك أن الرب قدر عليه الخطيئة ، ثم حكم عليه المنتقم الجبار بالعذاب فى نار جهنم خالداً فيها ، فكيف يستطيع أى مؤمن بحتمية القدر أن يقدم أى مجهود خلاق ، أو يعمل على تحسين أحوال البشر ؟ وأقر أرازموس بأن اختيار الإنسان رهن بآلاف الظروف ، التى لا يستطيع أن يتحكم فيها ، ومع ذلك فإن شعور الإنسان يصر على أن يؤكد أن له بعض الحرية ، وبدونها يكون آلة ذاتية الحركة لا معنى لها . وانتهى أرازموس إلى القول : على أية حال دعونا نسلم بجهلنا وبعجزنا فى التوفيق بين حرية الإنسان فى التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين سابق علم الله أو سبب وجوده فى كل مكان . دعونا نؤجل الحل إلى يوم القيامة ، ولكن فى الوقت نفسه دعونا نتجنب كل فرض يجعل من الإنسان مجرد دمية ، ومن الرب طاغية أنسى من أى طاغية عرف فى التاريخ .

وأرسل كليمنت السابع مائتى فلورين (٥,٠٠٠ ؟ دولار) إلى أرازموس ،

عند ما تسلم منه الرسالة ، وشعر معظم الكثالكة بخيبة الأمل بسبب اللهجة الفلسفية ، التى تنشد المصالحة ، والتى تنطوى عبارات الكتاب عليها ، فقد كانوا يأملون أن يسمعوا خبر إعلان حرب يطربون لها . والحق أن ميلانكتون الذى أعرب عن وجهة نظره فى الجبرية بكتاب **Loci Communes** تأثر كثيراً بالرأى الذى أبداه أرازموس ، وحذف نظريته فى هذا الموضوع ، وذلك فى الطبعات التى ظهرت فيا بعد(٩٩). وكان هو أيضاً لا يزال يراوده الأمل فى السلام — ولكن لوثر دافع عن الجبرية بلا هوادة فى رد متأخر عنوانه **De Servo arbitro** عام ١٥٢٥ ، وقال :

« إن الإرادة البشرية مثل دابة الحمل ، إذا امتطاها الرب رغبت ، وانطلقت كما يشاء الرب ، وإذا امتطاها الشيطان رغبت ، وانطلقت كما يهوى الشيطان . وهى لا تستطيع أن تختار راكبها . . . والركاب يتنازعون على امتلاكها . . . والرب يعلم الغيب ، ويقدر ويعمل كل شىء ، بإرادة فعالة أزلية ، لا تتبدل ، وبهذه الإرادة القاهرة تغوص الإرادة الحرة ، وتتفتت فى التراب(١٠٠) » .

ومن الأمور ذات المغزى عن المزاج السائد فى القرن السادس عشر ، أن لوثر رفض التسليم بحرية الإرادة ، لا لأنها تتعارض مع حكم قانون عالمى وعلّية عالمية ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفكرين فى القرن الثامن عشر ، ولا لأنه يبدو أن الوراثة والبيئة والظرف تحدد ، كثالوث آخر ، الرغبات التى يبدو أنها تحدد الإرادة ، كما ذهب إلى ذلك كثيرون فى القرن التاسع عشر ، بل إنه رفض التسليم بالإرادة الحرة على أساس أن قدرة الله على كل شىء ، تجعله تعالى السبب الحقيقى لكل الحوادث وكل الأفعال ، وبالتالى فإنه تعالى ، وليست فضائلنا أو خطايانا ، هو الذى يحكم علينا بالخلاص أو العذاب الأبدى : ويواجه لوثر مرارة منطقه برجولة فيقول : « لقد أسىء إلى حسن الإدراك والعقل الفطرى ، إلى حد كبير ، بالقول بأن الله يتخلى عن عبده ويقسو عليه ويعذبه بمحض إرادته تعالى ، كما لو كانت

الخطيئة تسره ، والعذاب الأبدى يسعده ، وهو الذى يقال إنه رؤوف رحيم . ومثل هذا المفهوم عن الله يبدو خبيثاً قاسياً لا يغتفر ، ومن أجله ثار عدد من الرجال فى جميع العصور ، وأنا نفسى أسىء إلى مرة إساءة ، أردتنى فى هوة اليأس ، إلى حد أنى تمنيت لو أنى لم أخلق قط . ولا جدوى من محاولة الهروب من هذا بإيجاد فوارق بارعة ، ومهما أحس العقل الفطرى بما لحقه من إساءة فلا مفر من تسليمه بنتائج علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء . . . وإذا كان من الصعب الإيم[illegible] الله ورأفته ، عند ما يعذب من لا يستحقون العذاب ، فإننا يجب أن نتذكر أن عدالة الله لا تكون إلهية إذا أحاط بها عقل الإنسان »(١٠١) .

ومما امتاز به هذا العصر الرواج الذى حظيت به الرسالة التى عنوانها : « الإرادة المستعبدة » فقد بيع منها عدد كبير فى سبع طبعات باللغة اللاتينية وطبعتين باللغة الوطنية ، واشتد الإقبال عليها فى خلال سنة واحدة . وأثبت ذلك أنها أعظم مصدر للاهوت البروتستانتى ، وهكذا وجد كالفن عقيدة الجبر والاختيار والرفض **reprobation** ، التى نقلها إلى فرنسا وهولنده وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا . ورد أرازاموس على لوثر فى مقالين نشرا فى كراستين دينيتين بعنوان **Hyperaspistes** (المدافع) ١ و ٢ (١٥٢٦ — ١٥٢٧) ، ولكن رأى العصر كان فى جانب الرأى الذى انتهى إليه المصلح فى المناظرة . واستمر أرازموس ، حتى فى هذه المرحلة ، يبذل جهوده فى سبيل السلام . وأوصى كل من بعث إليهم برسائل بالتسامح واللطف فى المعاملة . . . ولقد ظن أن الكنيسة عليها أن تسمح لرجال الدين بالزواج وتناول القربان المقدس بالأسلوبين المعروفين ، وأنها يجب أن تتنازل عن بعض أملاكها الواسعة للسلطات الزمنية ، لكى تستخدمها فى مرافقها ، وأن أمثال المسائل الحاسمة كالجبر والاختيار وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس ، يجب أن تترك دون تحديد ومفتوحة

لمختلف التفسيرات[١٠٢] . وأشار على الدوق جورج صاحب ساكسونيا بمعاملة اللامعمدانيين بالرفق ، وقال : « ليس من العدل أن تعاقب بالنار على أى خطأ يرتكب ما لم يكن مقترناً بشغب أو بأية جريمة أخرى تعاقب عليها القوانين بالإعدام »[١٠٣] . وحدث هذا فى عام ١٥٢٤ ، ومهما يكن من أمر فإنه دافع عام ١٥٣٣ عن سجن الهراطقة ، الذى دعا إليه توماس مور[١٠٤] ، متأثراً بالصداقة أو الشيخوخة ، أما فى أسبانيا حيث أصبح بعض علماء الإنسانيات من مؤيدى أرازموس فقد بدأ رهبان محكمة التفتيش يفحصون أقوال أرازموس فحصاً منسقاً مستهدفين إدانته باعتباره هرطيقاً (١٥٢٧) . ومع ذلك فإنه استمر فى نقده لفجور الرهبان والجمود اللاهوتى ، باعتبارهما الحافزين الرئيسيين إلى الإصلاح الدينى . وكرر عام ١٥٢٨ الاتهام بأن كثيراً من الأديرة ، التى تضم الرهبان والراهبات ، « بيوت عامة للدعارة » وأن « آخر ما يوجد من فضائل فى أديرة كثيرة إنما هى فضيلة العفة[١٠٥] » . وأدان فى عام ١٥٣٢ الرهبان ، باعتبارهم متسولين يسألون فى إلحاح ، ومضللين يغوون النساء ، وصيادين ينطلقون فى إثر الهراطقة ، ومتصيدين للتركات ومزيفين للشهادات[١٠٦] . وكان يؤيد كل شىء لإصلاح الكنيسة بينما كان يستهجن الإصلاح الدينى . ولم يستطع أن يروض نفسه على التخلى عن الكنيسة ، أو أن يراها مشطورة إلى نصفين ، وقال : « إنى أتحمل الكنيسة إلى اليوم الذى أرى فيه كنيسة أفضل[١٠٧] » .

وارتاع عندما سمع بنبأ نهب روما على يد فرق بروتستانتية وكاثوليكية تعمل فى خدمة الإمبراطور (١٥٢٧) . وكان قد راوده الأمل فى أن شارل سوف يشجع كليمنت على أن يتصالح مع لوثر ، ولكن البابا والإمبراطور كانا وقتذاك يمسك كل منهما بتلابيب الآخر . وأصيب بصدمة أكبر عندما دمر المصلحون الدينيون ، فى ثورة ، التماثيل فى الكنائس (١٥٢٩) ، مع أنه كان قبل ذلك بعام واحد فقط قد ندد بعبادة التماثيل

وقال : « يجب أن يعلم الناس أن هذه ليست إلا رموزاً ، ومن الخير ألا يكون هناك شيء منها على الإطلاق ، وأن توجه الصلاة للمسيح وحده . ولكن ليكن رائدنا الاعتدال في جميع الأمور »(١٠٨) . وهذا بالضبط موقف لوثر من الموضوع نفسه . ولكنه رأى أن التجريد الأهوج الغبي للكنائس من التماثيل رجعية همجية ، تتسم بضيق الأفق . وغادر بازيل ، وانتقل منها إلى فرايبورج — الواقعة على نهر برايسجاو ، في أرض نمسوية كاثوليكية فاستقبلته سلطات المدينة بالترحيب والتكريم ، ومنحته قصر ماكسمليان الأول الذي لم يتم ، ليقيم فيه . وعند ما لم يصله المرتب ، الذي خصصه له الإمبراطور بانتظام أرسل إليه آل فوجر كل ما احتاج إليه من أموال ، بيد أن رهبان فرايبورج وعلماء اللاهوت فيها هاجموه باعتباره من معتنقي مذهب الشك في الخفاء ، والسبب الحقيقي لما حدث في ألمانيا من فتنة .

وعاد إلى بازيل عام ١٥٣٥ فخرج إليه وفد من أساتذة الجامعة مرحبين بعودته ، وخصص له جيروم فروبن ابن جوهان غرفاً في منزله .

وكان وقتذاك قد بلغ التاسعة والستين ، بوجه هزيل تغضن بفعل السنين وكان يعاني من القروح والإسهال وداء النقرس والحصوة ونزلات البرد المتكررة . . . لاحظ اليدين المتورمتين في رسم دررر . وحبس نفسه ، في سنواته الأخيرة ، في حجراته ، وكثيراً ما كان يلازم الفراش . وأضناه الألم ، وفقد بسمته الجميلة المألوفة ، التي كانت تحببه إلى أصدقائه ، وأصبح دائم العبوس ، وهو يكاد يسمع كل يوم عن هجمات جديدة يوجهها إليه البروتستانت والكثالكة . ومع ذلك فقد كانت ترد إليه يومياً تقريباً رسائل ، تفيض بالإخلاص والاحترام ، من ملوك أو بطاركة أو سياسيين أو علماء أو ماليين ، وكان مسكنه كعبة يحج إليها الأدباء . وأصيب في السادس من يونية عام ١٥٣٦ بدوسنطاريا حادة ، وعرف أنه سوف يموت وشيكاً ، ولكنه لم يطلب قسيساً أو كاهناً يعترف له ، ومات (١٢ يونيه) ،

دون أن تجرى له الطقوس الدينية ، التى فرضتها الكنيسة ، وأخذ يكرر مبتهلا اسمى مريم والمسيح . وشيعته بازيل فى جنازة تليق بأحد الأمراء ، ودفن فى مقبرة بالكاتدرائية . واشترك علماء الإنسانيات وأسقف المدينة فى إقامة لوح حجرى فوق جثمانه ، ولا يزال هذا اللوح فى مكانه ، وقد أشادوا فيه بما اتصف به من « سعة علم لا تضارع فى كل فرع من فروع المعرفة » . ولم يترك فى وصيته ميراثاً لأغراض دينية ، ولكنه خصص مبالغ للعناية بالمرضى أو المسنين ، ولتقديم صداق للفتيات الفقيرات ، ولتعليم الشبان الواعدين .

ويتذبذب موقفه فى الأجيال القادمة مع تذبذب هيبة عصر النهضة ، فكل الطوائف تقريباً ، وصفته بأنه مذبذب جبان ، وذلك فى حماسة الثورة الدينية ، واتهمه أنصار الإصلاح الدينى بأنه قادهم إلى حافة الهاوية ، وأغراهم بأن يقفزوا ثم لاذ بالفرار . ووصمه مجلس مدينة ترنت بأنه هرطيق فاسق ، وحرمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك . وفى أواخر عام ١٧٥٨ وصفه هوراس والبول بأنه « طفيلى متسول لديه من الشمائل ما يكفى لأن يتوصل إلى الحقيقة ، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة لكى يعترف بها » (١٠٩). وفى أواخر القرن التاسع عشر ، عند ما انقشع دخان المعركة ، أسف مؤرخ بروتستانتى صائب الرأى على مفهوم أرازموس عن الإصلاح الدينى ، وقال : « مفهوم لعالم . . . سرعان ما أوقف وطرح جانباً بوسائل فظة خشنة . ومع ذلك يحق لنا أن نتساءل أما كانت ، بعد كل شىء ، الطريقة البطيئة هى فى النهاية أكثر الطرق أمناً ، وهل كان أى عامل من عوامل تقدم الإنسانية يمكن أن يكون بديلا للثقافة على الدوام . لقد كان الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر من عمل لوثر ، ولكن إذا ظهر فى الأفق أى إصلاح دينى جديد . . . فإنه لا يمكن أن ينهض إلا على أساس مبادئ أرازموس »(١١٠) . ويضيف مؤرخ كاثوليكى تقديراً يكاد يكون مطابقاً

مطابقاً لمقتضيات العقل : « إن أرازموس كان ينتمى فكرياً إلى عصر لاحق علمي وعقلانى أكثر من عصره . والعمل الذى قد بدأ به والذى أوقفته الاضطرابات التى حدثت فى عهد الإصلاح الدينى استأنفه علماء القرن السابع عشر فى وقت لقى فيه قبولا أكثر »[١١١] ، وكان لا بد أن يكون لوثر ، ولكن عند ما قام بعمله ، وهدأت سورة الانفعال ، حاول الناس مرة أخرى أن يتشبثوا بروح أرازموس وروح النهضة ، وأن يجددوا ، فى صبر وتسامح متبادل ، الجهد الطويل البطىء لتنوير أذهان الناس .

الفصل العشرون

العقـــائد فى حرب

(١٥٢٥ – ١٥٦٠)

١ – التقدم البروتستانتى ١٥٢٥ – ٣٠

أى تحالف بين القوى والظروف مكن للبروتستانتية الوليـــدة من أن تعيش فى مواجهة عداء البابوية والإمبراطورية ؟ إن الورع الصوفى والدراسات الإنجيلية والإصلاح الدينى والتطور الفكرى وجرأة لوثر لم تكن كافية ، فقد كان من الممكن أن يصرف عنها النظر أو تتم السيطرة عليها . ولعل العوامل الاقتصادية هى التى كانت حاسمة : الرغبة فى الحفاظ على الثورة فى ألمانيا ، والرغبة فى تحرير ألمانيا من السيطرة البابوية والاستبداد الإيطالى ، وتحويل أملاك الكنيسة بحيث تستخدم للوفاء بالأغراض الدنيوية ، ودرء الاعتداءات الإمبراطورية على السلطة الإقليمية والقضائية والماليـــة للأمراء والمدن والحكومات . أضف إلى هذا بعض الظروف السياسية التى سمحت بنجاح البروتستانت ، فبعد أن فتحت الإمبراطورية العثمانية القسطنطينية ومصر ، أخذت فى مد رقعتها بدرجة خطرة فى بلاد البلقان وأفريقيا . وابتلعت نصف هنغاريا ، وحاصرت فينا ، وهددت بإغلاق البحر الأبيض المتوسط فى وجه تجارة العالم المسيحى ، وأصبح شارل الخامس والأرشيدوق فرديناند فى حاجة ماسة إلى توحيد ألمانيا والنمسا – أموالا ورجالا من البروتستانت والكاثوليك على السواء – لمقاومة هذا التهديد الإسلامى ، الذى يوشك أن يكتسح أمامه كل شىء . وكان الإمبراطور عادة مشغولا بشئون أسبانيا أو

الفلاندرز أو إيطاليا ، أو منهمكاً فى صراع مميت مع فرانسس الأول ملك فرنسا ، ولم يكن لديه متسع من الوقت أو فائض من الأموال لشن حرب أهلية فى ألمانيا . واتفق فى الرأى مع أرازموس ، الذى كان يحصل منه على معاش ، فى أن الكنيسة فى حاجة ماسة إلى الإصلاح ، وكان فى فترات متقطعة على خلاف مع كليمنت السابع وبول الثالث ، حتى فيما يختص بالسماح لجيشه بنهب روما . ولم يستطع الإمبراطور والبابا محاربةالثورة الدينية باقتدار ، إلا عند ما أصبحا صديقين .

ولكن ما أن حل عام ١٥٢٧ حتى كانت « الهرطقة اللوثرية قد أصبحت مذهباً للمحافظين فى نصف ألمانيا ، ووجدت المدن أن البروتستانتية تعود عليها بالفائدة وقال ميلانكتون فى أسى « إنهم لا يبالون ، ولو قليلا ، بالدين ، وهم لا يتطلعون إلا إلى وضع الأملاك بين أيديهم ، وأن يتحرروا من أشراف الأساقفة »[١] . ونجوا بتغيير طفيف للمسوح الدينية من الضرائب والمحاكم ، واستطاعوا أن ينزعوا أجزاء لا بأس بها من أملاك الكنيسة[٢] ، ومع ذلك يبدو أن رغبة صادقة فى دين يتميز بالبساطة والإخلاص ، قد أثارت الكثير من المواطنين . ففى ماجديبرج اجتمع عدد من أعضاء أبرشية سانت أولريخ فى فناء الكنيسة ، واختاروا ثمانية رجال ، لكى ينتخبوا بدورهم الواعظ ، وليديروا شئون الكنيسة (١٥٢٤) وسرعان ما كانت كل الكنائس فى المدينة تناول العشاء الربانى بالطريقة اللوثرية . وكانت أوجسبورج شديدة الحماسة للبروتستانتية ، إلى حد أن العامة لقبوا كامبيجيو ، عند ما وصل هناك بصفته قاصداً رسولياً للبابا ، بأنه خصم للمسيح (١٥٢٤) . وتقبل معظم أهالى ستراسبورج اللاهوت الجديد من ولفجانج فابريسيوس كابيتو (١٥٢٣) ، وحمل مارتن بوسر الذى خلفه هناك فى أولم على اعتناق الدين الجديد أيضا . وفى نورمبرج كسب كبار رجال الأعمال ، أمثال لازاروس شبينجلر وهيرونيموس باومجيرتنر ، مجلس المدينة إلى

صف العقيدة اللوثرية (١٥٢٦) ، وحولت كنيسة زيبالدوس وكنيسة مورنز الشعائر التى تقام فيهما لتكون وفق هذه العقيدة ، بينما احتفظنا بفنهما الكاثوليكى . وانتشرت مؤلفات لوثر انتشاراً واسعاً فى برونزفيك ، ورتلت أناشيده علناً ، ودرست نسخته عن العهد الجديد باهتمام وجد ، حتى أن المصلين قاموا بتصحيح خطأ وقع فيه قسيس ، وهو يستشهد بفقرات منها ، وفى نهاية الأمر أصدر مجلس المدينة أمراً إلى كل رجال الدين بألا يرددوا فى عظاتهم إلا ما وجد فى نصوص الكتب المقدسة ، وأن يقوموا بمراسيم العماد باللغة الألمانية وأن يناولوا القربان المقدس بكلا الشكلين (١٥٢٨) . وما إن حل عام ١٥٣٠ حتى كان المذهب الجديد قد كسب إلى صفه هامبورج وبريمن وروستوك ولوبيك وسترالزوند ودانزج ودوربات وريجا وريفال وكل المدن الإمبراطورية فى سوابيا تقريباً . وشبت ثورات لتحطيم الأصنام فى أوجسبورج وهامبورج وبرونزفيك وسترالزوند . ولعل جانباً من هذا العنف كان رد فعل لاستخدام رجال الدين للتماثيل والصور الزيتية ، لغرس أساطير مضحكة ، تعود عليهم بالربح ، فى عقول الناس .

وليس من شك فى أن الأمراء الذين تهنوا باغتباط القانون الرومانى ، الذى يجعل الحاكم الزمنى قادراً على الكثير باعتباره مفوضاً من « الشعب صاحب السيادة » ، قد رأوا فى البروتستانتية ديناً لا يرفع من شأن الدولة فحسب ، بل جعلها تمتثل لأوامرها أيضاً ، وأصبح فى وسعهم وقتذاك أن يكونوا سادة روحيين وزمنيين على السواء ، ويمكن أن يديروا الكنيسة بأسرها أو يستمتعوا بها . وقبل جون الحازم الذى خلف فردريك الحكيم كأمير مختار لساكسونيا (١٥٢٥) أن يعتنق بصفة نهائية العقيدة اللوثرية ، وهو ما لم يفعله فردريك قط ، وحينما مات جون (١٥٣٢) فإن ابنه جون فردريك أبقى البروتستانتية موطدة فى سكسونيا الانتخابية ، وكون فيليب الشهم لاندجراف هس مع جون حلف جوثا وتورجا لحماية اللوثرية

ونشرها ، وانخرط فى سلك اللوثرية أمراء آخرون : أرنست اللونيبرجى ، وأوتو وفرانسس أمير برونزفيك لونيبرج ، وهنرى أمير ميكلينبورج وأولريخ أمير فيرتيمبرج . واستمع ألبرت ، البروسى كبير رهبان دير الفرسان التيوتونيين ، إلى نصيحة لوثر ، وتخلى عن عهوده الرهبانية ، وتزوج وخصص الأراضى التى تملكها طائفته للأغراض الدنيوية ، ونصب نفسه دوقا على بروسيا (١٥٢٥) . ورأى لوثر نفسه ، فيما يبدو ، بقوة شخصيته وفصاحته فحسب ، يكسب إلى صفه نصف ألمانيا .

ولما كان الكثيرون من الرهبان والراهبات يتركون أديرتهم وقتذاك ، وبدا أن الجمهور لا يريد أن يؤيد من بقى منهم ، فإن الأمراء اللوثريين اضطهدوا كل الأديرة الواقعة فى أقاليمهم ، ولم يستثنوا إلا قلة كان نزلاؤها قد اعتنقوا العقيـــدة البروتستانتية ، ووافق الأمراء على أن يتقاسموا الأملاك المصادرة والدخول مع النبلاء والمدن وبعض الجامعات ، ولكن هذا التعهد نقض فى تراخ . وندد لوثر بتخصيص الثروة الكنسية لغير الأغراض الدينية أو التعليمية ، وأدان استيلاء طبقة النبلاء المتسم بالتهور على مبانى الكنيسة وأراضيها . وتم التنازل عن جانب متواضع من الغنائم للمدارس وللتفريج عن الفقراء . أما الباقى فقد احتفظ به الأمراء والنبلاء . وكتب ميلانكتون (١٥٣٠) يقول : « تحت ستار الإنجيل كانت نية الأمراء متجهة إلى سلب الكنائس فحسب »[٣] . وأخذ التحول العظيم يسير قدماً إلى الأمام للخير أو للشر ، لأغراض روحية أو مادية ، واعتنقت مقاطعات بأكملها — إيست فريزلاند وسيليزيا وشليزفيج وهولستين — البروتستانتية بالإجماع تقريباً . ولا شىء يمكن أن يوضح مدى ما وصلت إليه الكاثوليكية المحتضرة خير من هذا . وحيثما بقى القساوسة استمروا فى تأييدهم لاتخاذ حظايا[٤] ، ورفعوا عقائرهم بالصياح ، مطالبين بالسماح لهم بالزواج الشرعى ، كما يفعل رجال الدين من أتباع لوثر[٥] . وأبلغ الأرشيدوق فرديناند البابا بأن الرغبة فى الزواج تكاد تكون عامة بين رجال الدين الكثالكة من غير الرهبان ، وأنه لا يكاد يوجد واحد من بين كل مائة من القسس

لم يتزوج علناً أو سراً . وتوسل الأمراء الكاثوليك للبابا وأبلغوه أن إلغاء العزوبة المفروضة على رجال الدين قد أصبحت ضرورة أخلاقية[٦] . وشكا كاثوليكي مخلص (١٥٢٤) من أن الأساقفة استمروا في إقامة الولائم الفخمة[٧] ، على الرغم من أن الثورة كانت تطرق أبوابهم . وكتب مؤرخ كاثوليكي ، وهو يتحدث عن البرخت كبير أساقفة ماينز ، يصف « الشقق الفاخرة الأثاث التي استغلها هذا الأمير الدنس من أمراء الكنيسة لمضاجعة عشيقته سراً »[٨] . ويقول نفس المؤرخ : « لقد أصبح كل إنسان يناصب القسس العداء ، إلى حد أنهم يقابلون بالسخرية ، ويتعرضون للمضايقات أينما ذهبوا »[٩] ، وكتب أرازاموس (٣١ يناير عام ١٥٣٠) يقول : « إن الناس في كل مكان يؤيدون العقائد الجديدة »[١٠] . ومهما يكن من أمر فقد كان هذا صحيحاً في شمال ألمانيا فقط ، وحتى هناك أصر الدوق جورج أمير ساكسونيا والأمير المختار جواكيم البراندنبورجي على أن يظلا كاثوليكيين أما جنوب ألمانيا وغربها ، اللذان كانا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وتلقى أهلها شيئاً من الثقافة اللاتينية ، فإنهما ظلا في معظم أجزائهما يدينان بالولاء للكنيسة ، وآثر جنوبها الطرق المرحة الملونة التي تنحو نحو التساهل في المسائل الجنسية ، والتي تميزت بها الكاثوليكية ، وفضلتها على فلسفة الرواقية التي تقول بالجبر ، وتسود في الشمال . وحافظ كبيرو الأساقفة المختارون الأقوياء في ماينز وترير وفي كولونيا (إلى عام ١٥٤٣) على أن تسود الكاثوليكية في بلادهم ، وأنقذ البابا أرديان السادس بافاريا بمنح دوقاتها خمس دخل الكنيسة في ولايتهم ، لصرفه على شئونهم الدنيوية . وهدأت منحة مماثلة من دخول الكنيسة من سورة غضب فرديناند في النمسا .

ودخلت هنغاريا إلى المسرح بصورة جوهرية . وكان ارتقاء لويس الثاني للعرش قبل الأوان ، وهو في العاشرة من عمره ، ووفاته أيضاً في سن مبكرة ، من العوامل التي أسهمت في تكوين المأساة الهنغارية . بل إن مولده حدث قبل الأوان وأنقذ الأطباء في ذلك العهد حياة الطفل الضعيف

بوضعه داخل الجثث الدافئة للحيوانات التى كانت تذبح ، لتوفر له الحرارة .
وترعرع لويس وأصبح شاباً وسيماً رقيق الفؤاد كريماً ، ولكنه اعتاد التبذير وإقامة الولائم رغم موارده الهزيلة ، وسط حاشية فاسدة تفتقر إلى الكفايات .
وعند ما أرسل السلطان سليمان سفيراً إلى بودا رفض النبلاء أن يستقبلوه ، وطافوا به حول البلد وجدعوا أنفه ، وصلموا أذنه ، وأعادوه إلى سيده[١١] .
فما كان من السلطان الحانق إلا أن غزا هنغاريا ، واستولى على معقلين من أعظم معاقلها حيوية ، وهما ساباكس وبلغراد (١٥٢١) . وبعد تمهل طويل ووسط خيانة نبلائه وجبنهم جهز لويس جيشاً قوامه ٢٥,٠٠٠ من الرجال ، وزحف فى بطولة متهورة ليواجه ١٠٠,٠٠٠ تركى فى ميدان قرب موهاكس (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦) . وقتل الهنغاريون عن بكرة أبيهم تقريباً . وغرق لويس نفسه ، بعد أن كبا به جواده ، وهو يحاول الفرار . ودخل سليمان مدينة بودا منتصراً ونهب جيشه العاصمة الجميلة وأحرقها ، ودمر كل مبانيها العظيمة ما عدا القصر الملكى ، وأشعل النيران فى الجانب الأكبر من مكتبة ماتياس كورفينوس الثمينة .

وانتشر الجيش المنتصر فى النصف الشرقى من هنغاريا ، وأخذ يحرق وينهب ، واستاق سليمان ١٠٠,٠٠٠ أسير مسيحى إلى القسطنطينية .

وانقسم الأقطاب ، الذين بقوا على قيد الحياة ، فرقاً وأحزاباً ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، ورأت جماعة أن المقاومة مستحيلة ، فاختارت جون زابوليا ملكاً وخولته سلطة توقيع معاهدة استسلام ، وسمح له سليمان أن يحكم فى بودا ، باعتباره تابعاً له ، أما النصف الشرقى من هنغاريا فقد ظل فى الواقع تحت سيطرة الأتراك حتى عام ١٦٨٦ . واتخذ حزب آخر مع النبلاء فى بوهيميا لمنح فرديناند تاج كل من هنغاريا وبوهيميا ، وذلك بأمل ضمان الحصول على مساعدة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأسرة هابسبورج القوية . وعند ما عاود سليمان الهجوم (١٥٢٩) ، وسار ١٣٥ ميلا من

بودا على طول نهـــر الدانوب إلى أبواب فينا دافع فرديناند بنجاح عن عاصمته ، ولكن فى خلال هذه السنوات الحرجة كان شارل الخامس قد أكره على مهادنة البروتستانت ، حتى لا تسقط أوربا كلها فى أيدى الإسلام ، وليس من شك فى أن تقدم الأتراك غرباً قد وفر الحماية للبروتستانتية حتى أن فيليب الهسى كان يطرب لانتصارات الأتراك . وعند ما فشل سليمان فى اقتحام فينا عاد إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الكثالكة والبروتستانت أحراراً ليدخلوا من جديد فى صراع من أجل روح ألمانيا .

٢ — مجالس الدايت لا توافق
(١٥٢٦ — ١٥٤١)

لما كانت الحرية الداخلية تختلف (بينما تتساوى أمور أخرى) باختلاف درجات الأمن الخارجى ، فإن البروتستانتية تورطت ، أثناء فترة أمنها ، فى انقسام طائفى ، يبدو أنه كان كامناً فى مبادئ الحكم الفردى وسيادة الضمير . وكتب لوثر عام ١٥٢٥ : « هناك اليوم طوائف وعقائد بقدر عدد الرؤوس تقريباً »[١٢] . وشغل ميلانكتون نفسه فى حزن بالتخفيف من حدة سيده ، وأخذ يتلمس صيغاً مبهمة للتوفيق بين اليقينيات المتناقضة . وأشار الكاثوليك باغتباط إلى الأحزاب البروتستانتية ، التى تتبادل الاتهامات ، وتنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤديان إلى فوضى دينية . وانحلال خلقى ، وشكية بغيضة إلى البروتستانت والكاثوليك على السواء[١٣] . وفى عام ١٥٢٥ أقصى من مدينة نورمبرج البروتستانتية ثلاثة من الفنانين لأنهم تساءلوا عن مؤلف الإنجيل ، وعن وجود المسيح بجسده حقاً فى القربان المقدس ، وعن ألوهية المسيح .

وبينما كان سليمان يعد الحملة ، التى مزقت هنغاريا إلى شطرين ، اجتمع فى سبير (يونيه سنة ١٥٢٦) مجلس نيابى من الأمراء والبطارقة والأوساط من الألمان ، لتبادل الرأى فى المطالب التى تقدم بها الكاثوليك ، ومؤداها أن مرسوم ورمس يجب أن ينفذ بالقوة والنظر فى الاقتراح المضاد الذى

تقدم به البروتستانت ، ومؤداه أن الدين يجب أن يترك حراً ، إلى أن يقضى فى النزاع مجلس عام ، تحت رعاية ألمانيا . ورجحت كفة البروتستانت وقضى مرسوم هذا المجلس النيابى فى الختام — وهو معلق على مجلس مثل هذا — بأن كل ولاية ألمانية « يجب أن تعيش وتحكم وتتحمل أعباء نفسها ، بالطريقة التى يعتقد أنها يمكن أن تتفق مع أمر الله والإمبراطور » ، وذلك فى موضوع الدين ، وأنه يجب ألا يعاقب أحد على ما ارتكبه من إساءات لمرسوم ورمس ، وأن كلمة الله يجب أن يعظ بها كل الأحزاب ، دون أن يتدخل أحدها فى شئون الآخرين . وفسر البروتستانت هذا بأنه « مرسوم سبير » ، باعتبار أنه أباح تأسيس الكنائس اللوثرية ، ووفر السيادة الدينية لكل أمير فى إقليمه ، وحرم إقامة القداس فى المناطق التى تدين بمذهب لوثر . ورفض الكاثالكة التسليم بهذه الدعاوى ، ولكن الإمبراطور ، وهو مشتبك مع البابا ، قبلها مؤقتاً ، وسرعان ما انشغل فرديناند ، إلى أقصى حد ، بشئون هنغاريا ، فلم يستطع أن يبذل أى جهد فعال للمقاومة .

وبعد أن حقق شارل السلام بينه وبين كليمنت ، عاد إلى سياسة المحافظين ، التى فطر عليها كل ملك ، وأمر المجلس النيابى فى سبير أن يعود إلى الانعقاد يوم أول فبراير عام ١٥٢٩ . وقام المجلس الجديد تحت تأثير الأرشيدوق ، الذى تولى رئاسته ، والإمبراطور الذى تغيب عن الحضور بإلغاء « المرسوم » الذى وافق عليه عام ١٥٢٦ ، وأصدر مرسوماً يسمح بأداء الصلاة وفق مذهب لوثر ، ولكنه يقضى بالتسامح فى أداء الصلوات الكاثوليكية ، فى الولايات التى تعتنق مذهب لوثر . ويحرم تماماً الوعظ بمبادئ لوثر أو إقامة الشعائر حسب مذهبه فى الولايات الكاثوليكية . وأيد تنفيذ مرسوم ورمس ، واعتبار الطوائف الزونجلية واللامعمدانية فى كل مكان خارجة على القانون . وفى يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٢٩ نشرت الأقلية اللوثرية « احتجاجاً **Protest** » أعلنوا فيه أن الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم ، والتمسوا من الإمبراطور عقد مجلس عام . وفى الوقت

نفسه أعلنوا أنهم على استعداد للتمسك بمرسوم سبير الأصلى بأى ثمن . وأطلق الكاثوليك اسم بروتستانت على من وقعوا هذا الاحتجاج ، وبالتدريج استخدم للدلالة على الألمان المتمردين على روما .

وأدرك شارل أنه لا يزال فى حاجة إلى اتحاد ألمانيا ضد الأتراك ، فدعا إلى الانعقاد مجلساً نيابياً آخر ، فانعقد فى أوجسبورج (٢٠ يونيه عام ١٥٣٠) برئاسته . وفى خلال دورة هذا المجلس أقام مع أنطون فوجر ، وكان وقتذاك رئيساً للمؤسسة ، التى جعلت منه إمبراطوراً . وطبقاً لقصة قديمة أدخل المصرفى السرور على قلب الحاكم بإشعال نار ألقى فيها بشهادة ، يقر فيها الإمبراطور بمد يونيته[١٤] ، ولما كان آل فوجر مرتبطين مالياً مع البابوات ، فإن الحركة المذكورة ربما تكون قد دفعت شارل إلى أن يخطو خطوة يقترب بها من البابوية . ولم يحضر لوثر لأنه كان لا يزال تحت الحظر الإمبراطورى ، ومن الممكن أن يقبض عليه فى أى لحظة ، ولكنه ذهب إلى كوبورج الواقعة على حدود ساكسونيا ، واستمر فى الاتصال بالوفد البروتستانتى عن طريق الرسل . وشبه المجلس بجمع من غربان الزرع ، التى تصفق أجنحتها ، وتناور أمام نوافذ بيته ، وشكا من أن « كل أسقف جاء ومعه شياطين كثيرة ، بقدر عدد البراغيث على جسد كلب فى يوم عيد القديس يوحنا »[١٥] . وكان من الواضح فى هذا العهد أنه ألف أعظم أناشيده « الحصن الحصين هو ربنا » .

وفى يوم ٢٤ يونيه التمس الكاردينال كامبيجيو من المجلس النيابى تحريم إنشاء الطوائف البروتستانتية تحريماً تاماً . وفى الخامس والعشرين قرأ كريستيان باير الإمبراطور وبجانب من المجلس إقرار أوجسبورج الشهير ، الذى كان ميلانكتون قد أعده ، والذى قدر له أن يصبح بشىء من التعديلات العقيدة الرسمية للكنائس اللوثرية . ولأن ميلانكتون قد خشى قيام القوات الإمبراطورية والبابوية معاً بحرب ضد البروتستانت المنقسمين من ناحية ، ولأنه كان يميل بفطرته إلى المهادنة والسلام من ناحية أخرى ، أضفى على الإقرار

(كما يقول باحث كاثوليكى) « لهجة مشرقة معتدلة مسالمة »[١٦] . وسعى إلى تقليل الخلافات بين آراء الكاثوليك وآراء اللوثريين ، وأفاض فى الهرطقات التى أدانها الإنجيليون (كما كان اللوثريون يسمون أنفسهم بسبب اعتمادهم فحسب على الأناجيل أو على العهد الجديد) والكاثوليك الرومان على السواء ، وفرق بين الإصلاح اللوثرى والإصلاح الزونجلى ، وترك الأخير يتحايل لنفسه . وخفف من العقائد التى تقول بالجبرو « التجسيد » والتزكية بالإيمان ، وكتب باعتدال عن مظالم رجال الدين ، التى كانت البروتستانتية قد قللت منها ، ودافع مجاملا عن تناول القربان المقدس فى كل من الشكلين ، وعن التحلل من عهود الرهبانية ، وعن زواج رجال الدين ، وطلب من الكاردينال كامبيجيو أن يتقبل هذا الإقرار بقبول حسن ، كما دبجه به . وأسف لوثر لبعض ما قدمه من تنازل ، ولكنه أعرب عن رضاه ، الذى لم يكن منه مفر ، عن هذه الوثيقة ، وأرسل زونجلى تقريره إلى الإمبراطور وقد أعرب فيه بصراحة عن عدم إيمانه بوجود المسيح بجسده فى القربان المقدس ، وقدمت ستراسبورج وكونستانس وليندا وممنجن إقراراً منفصلا هو : Tetra Politana ، وفيه جاهد كابيتو وبوسر لسد الثغرات ، التى بدت بين العقائد اللوثرية والزونجلية والكاثوليكية .

ورد الحزب المتطرف من الكاثوليك الذى يتزعمه إيك رداً مدعماً بالبراهين ، فندوا فيه الاتهام بصورة لا تقبل التفاهم ، إلى حد أن المجلس رفض أن يقدمه إلى الإمبراطور ، حتى خففت لهجته مرتين . وعلى الرغم من مراجعته فإنه أصر على التجسيد والشعائر السبع والتوسل بالقديسين وفرض العزوبة على رجال الدين ومناولة القربان بالخبز والقداس باللغة اللاتينية ، ووافق شارل على هذا الرد المدعم بالبراهين ، وأعلن أن على البروتستانت أن يقبلوه وإلا واجهوا الحرب .

ولقد تفاوض حزب أكثر اعتدالا من الكاثوليك مع ميلانكتون ،

وعرضوا عليه السماح بتناول القربان بالخبز والنبيذ . فوافق ميلانكتون بدوره على التسليم بالاعتراف السماعى والصيام والسلطة القضائية للأساقفة ، بل وسلطة البابوات ، مع بعض التحفظات ، غير أن الزعماء البروتستانت الآخرين رفضوا أن يذهبوا فى الاتفاق إلى هذا الحد ، واحتج لوثر ، وقال : إن إعادة الولاية القضائية للأساقفة سيؤدى إلى إخضاع القسس الجدد للدرجات الكهنوتية فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإلى تصفية الإصلاح الدينى فى أقرب وقت . ورأى عدد من الأمراء البروتستانت استحالة الاتفاق ، فعادوا أدراجهم إلى أوطانهم .

وفى التاسع عشر من نوفمبر أصدر المجلس النيابى ، الذى كان قد نقص عدد أعضائه ، مرسومه النهائى أو مرسومه الأخير ، وقد أدينت فيه كل وجوه البروتستانتية : ونص على تنفيذ مرسوم ورمس ، وعلى مجلس العدالة الإمبراطورى أن يبدأ فى اتخاذ الإجراءات القانونية ضد جميع الذين انتزعوا أملاك الكنيسة ، وأعطى البروتستانت مهلة تنتهى فى ١٥ أبريل عام ١٥٣١ لقبول الرد المدعم بالبراهين بطريقة سلمية . وأضفى توقيع شارل على « مرسوم أوجسبورج » صفة المرسوم الإمبراطورى ولا بد أن الإمبراطور قد خال أن منح المتمردين مهلة الشهور الستة ، لكى يروضوا أنفسهم على تنفيذ إرادة المجلس النيابى ، ذروة التعقل ، وفى خلال تلك الفترة عرض عليهم الإعفاء من تنفيذ مرسوم ورمس ، ولذلك فإنه قد يتقدم . إذا سمحت واجبات أخرى ، القواعد المتناظرة فى علم اللاهوت إلى محكمة الحرب العليـــا .

وبينما كان المجلس النيابى فى ذورة انعقاده أقامت عدة ولايات حلفاً كاثوليكياً فيما بينها ، للدفاع عن العقيدة التقليدية واستعادتها . وفسر هذا بأنه نذير بالحرب ، فنظم الأمراء البروتستانت والمدن البروتستانتية الحلف الشمالكالدى ، الذى اتخذ اسمه من موطنه الأصلى بالقرب من أرفورت .

وعندما انتهت مهلة العفو ، اقترح فرديناند ، الذى أصبح وقتذاك ملكاً على الرومان ، أن يبدأ شارل بالحرب ؛ ولكن شارل لم يكن على استعداد ، وكان سليمان يخطط لهجوم آخر على فينا ، كما أن بارباروسا حليف سليمان كان يغير على السفن التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، يضاف إلى ذلك أن فرانسيس ملك فرنسا — وهو حليف سليمان أيضاً — كان يتأهب للانقضاض على ميلان فى اللحظة التى يتورط فيها شارل فى حرب أهلية بألمانيا . وفى أبريل عام ١٥٣١ أوقف شارل مرسوم أوجسبورج بدلا من وضعه موضع التنفيذ ، وطلب المعونة من البروتستانت لقتال الأتراك ، فاستجاب لوثر والأمراء معربين عن ولائهم ، ووقع اللوثريون والكاثوليك معاهدة سلام فى نورمبرج (٢٣ يوليه عام ١٥٣٢) ، وتعهدوا بتقديم العون إلى فرديناند ، والتسامح الدينى فيما بينهما إلى أن ينعقد مجلس دينى عام . واحتشد جيش كبير من الألمان البروتستانت والكاثوليك ، ومن الأسبان والإيطاليين والكاثوليك ، تحت لواء الإمبراطور فى فينا ، فوجد سليمان أن الظروف غير مواتية . فعاد أدراجه إلى القسطنطينية ، بينما انتشى الجيش المسيحى بخمر النصر ، الذى خلا من إراقة الدماء ، وأعمل يد السلب والنهب فى المدن والبيوت . وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر الإنجليزى « وأوقع بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم »(١٧) .

ولقد أضفت وطنية البروتستانت على حركتهم رفعة جديدة ودفعة قوية ، وعند ما عرض إلياندر ، الذى عين رسولا بابوياً مرة أخرى ، على الزعماء اللوثريين سماع دعواهم أمام مجلس عام ، إذا وعدوا بالامتثال لقرارات المجلس النهائية ، رفضوا الاقتراح ، وبعد مرور عام (١٥٣٤) قبل فيليب الهسى العون الفرنسى ، لكى يستعيد الدوق أولريخ البروتستانتى السلطة فى فيرتمبورج ، مستخفاً بإدانة لوثر لانتهاج سياسة هجومية . وقضى هناك على حكم فرديناند ، ونهبت الكنائس وأغلقت الأديرة ، واستولت الحكومة على أملاكها(١٨) . وأصبحت الظروف مرة أخرى مواتية للبروتستانت .

فقد كان فرديناند مشغولا فى الشرق ، وشارل منهمكاً فى الغرب ، وكان من الواضح أن اللامعمدانيين يدعمون ثورة شيوعية فى منستر . واستولى المتطرفون فى يورجن فولنفيفر على لوبيك (١٥٣٥) ، وأصبح الأمراء الكاثوليك فى ذلك الوقت فى حاجة إلى عون لوثر ، لمواجهة الثورة الداخلية ، بقدر حاجتهم إليه فى حربهم ضد العثمانيين ، وفضلا عن هذا فإن اسكنديناوة وانجلترا تخلتا عن روما فى هذا الوقت ، وأخذت فرنسا الكاثوليكية تنشد التحالف مع ألمانيا اللوثرية ضد شارل الخامس .

وطرب الحلف الشمالكالدى بهذه القوة النامية ، فطالب بحشد جيش قوامه ١٢,٠٠٠ رجل ، وعند ما سأل البابا الجديد بول الثالث عن الشروط التى يقبل بها الحلف مجلساً دينياً عاماً ، أجاب بأنه لن يعترف إلا بمجلس ينعقد مستقلا عن البابا ، ويتألف من زعماء ألمانيا الزمنيين والدينيين على السواء ، وأنه يرحب بالبروتستانت ليشتركوا فيه على قدم المساواة[١٩] ، ولا يعتبرهم هراطقة . ورفض الحلف قبول مجلس العدالة الإمبراطورى ، وأبلغ نائب رئيس وزراء الإمبراطور أنه لن يسلم بحق الكاثوليك فى الاحتفاظ بأملاك الكنيسة ، أو بحقهم فى القيام بالعبادة وفق شعائرهم فى أراضى الأمراء البروتستانت[٢٠] . وجددت الولايات الكاثوليكية تكوين حلفها ، وطالبت شارل بدعم السلطات المخولة لمجلس العدالة الإمبراطورى ، فرد عليهم بكلمات رقيقة ، ولكن خوفه من أن يطعنه فرانسيس الأول فى ظهره جعله فى حرج .

واستمر المد البروتستانتى يتعاظم ، ويقول مؤرخ كاثوليكى : « فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥٣٨ كتب ألياندر إلى البابا من مدينة لينز يقول إن الحالة الدينية فى ألمانيا منهارة تقريباً ، وقد كادت تتوقف عبادة الله ، ومناولة القربان . وكان الأمراء الزمنيون جميعاً ، ما عدا فرديناند الأول ، إما من أتباع لوثر المخلصين ، أو ممن يمقتون نظام القساوسة مقتاً بالغاً ، ويطمعون فى أملاك الكنيسة . أما البطارقة ، فكانوا يعيشون فى بذخ

كعهدهم من قبل . وتضاءلت الرتب الدينية إلى ما يعد على أصابع اليدين ، ولم يكن رجال الدين من غير الرهبان أكثر عدداً ، وكانوا على درجة من الانحلال والجهل ، إلى حد أن بعض الكثالكة أعرضوا عنهم »[٢١] .

وعند ما توفى الدوق الكاثوليكى جورج صاحب البرتين ساكسونيا ، خلفه شقيقه هنرى . وكان من أتباع لوثر ، وخلف موريس بدوره هنرى وكان المنقذ العسكرى للبروتستانتية فى ألمانيا . وفى عام ١٥٣٩ شيد يواقيم الثانى الأمير المختار فى براندنبورج كنيسة بروتستانتية فى عاصمته برلين معتزاً باستقلالها عن كل من روما وفيتنبرج . وفى عام ١٥٤٢ أضيفت إلى قائمة البروتستانت دوقية كليفس وأسقفية نارمبورج بل وكرسى أسقفية ألبرخت فى هال بطريقة جمعت بين السياسة والحرب كل فى حينه . وفى عام ١٥٤٣ روع الكونت هرمان فون فيد ، كبير أساقفة كولون وأميرها المختار ، روما بتحوله إلى المذهب اللوثرى ، وكان الزعماء اللوثريون واثقين بأنفسهم إلى حد أن لوثر وميلانكتون وآخرين أصدروا فى يناير عام ١٥٤٠ بياناً ينص على أن السلام لا يمكن أن يسود إلا بتخلى الإمبراطور ورجال الدين الكاثوليك عن « عبادتهم للأوثان وضلالهم » . وان يتم ذلك إلا باعتناقهم العقيدة الطاهرة ، التى وردت فى إقرار أوجسبورج ، واستطردت الوثيقة تقول : « حتى إذا كان على البابا أن يسلم لنا بما نعتنقه من عقائد ، وما نقوم به من شعائر ، فإننا مضطرون إلى معاملته باعتباره ظالماً متعسفاً ، منبوذاً ، ما دام أنه لن يتبرأ من أخطائه فى ممالك أخرى » . وقال لوثر : « لقد انتهى كل ما بيننا وبين البابا كما انتهى ما بيننا وبين ربه ، الشيطان »[٢٢] .

ووافق شارل ، أو كاد ، لأنه اتخذ زمام المبادرة من البابا فى أبريل عام ١٥٤٠ ، ودعا زعماء الكاثوليك والبروتستانت فى ألمانيا إلى الاجتماع فى « ندوة مسيحية » ، ليبحثوا مرة أخرى عن تسوية سلمية لخلافاتهم . وكتب قاصد رسولى « ما لم يتدخل البابا بطريقة حاسمة ، فإن ألمانيا بأسرها سوف تسقط فى براثن البروتستانت » . وفى مؤتمر تمهيدى بورمس دار

جدال طويل بين إيك وميلانكتون ، انتهى إلى أن الكاثوليك ، الذين كانوا يرفضون من قبل التفاهم ، قبلوا على سبيل التجربة المبادئ ، التي تدل على رحابة الصدر ، والتي صيغت في إقرار أوجسبورج(٢٣). وتشجع شارل فاستدعى جماعتين إلى راتيسبون (رجنزبورج) ، وهنالك عقدا اجتماعا تحت رئاسته (٥ أبريل — ٢٢ مايو عام ١٥٤٢) . وتقاربت آراؤهما إلى أقصى حد ، للوصول إلى تسوية ، وكان بول الثالث على استعداد للسلام ، وكان كبير مندوبيه الكاردينال جاسبارو كونتاريني رجلا حسن النية وعلى خلق رفيع . أما الإمبراطور فقد أزعجته تهديدات فرنسا واستغاثة فرديناند به ، لمعاونته على صد الأتراك ، الذين عادوا للإغارة عليه . ولهذا كان تواقاً جداً إلى عقد الاتفاق المنشود ، إلى حد أن الكثيرين من زعماء الكاثوليك ارتابوا في أن له ميولا بروتستانتية . وتلاقت آراء المشتركين في المؤتمر وانتهت إلى السماح بزواج رجال الدين ، وتناول القربان بالأسلوبين المعروفين ، ولكن ما كان لأي شعوذة أن تجد في الحال صيغة تؤكد وتنفي في الوقت نفسه رئاسة البابوات الدينية والتجسيد في القربان المقدس ، ولم يجد كونتاريني تفكهة في سؤال وجهه إليه بروتستانتي عما إذا كان الفأر الذي يقرض قطعة سقطت من القربان المقدس ، يأكل الخبز أم الرب(٢٤) ، وفشل المؤتمر ، لكن شارل قطع على نفسه عهداً موقوتاً للبروتستانت ، وهو يخف للحرب ، بعدم اتخاذ أي إجراء ضدهم لتمسكهم بالعقائد المنصوص عليها في إقرار أوجسبورج ، أو لاحتفاظهم « بأملاك الكنيسة المصادرة » .

وفي خلال هذه السنوات التي اشتد فيها الجدال وازداد ، كانت العقيدة الجديدة قد أنشأت كنيسة جديدة ، وأطلقت على نفسها اسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح من لوثر . وكان أصلا قد ناضل في سبيل تحقيق ديمقراطية كهنوتية ، تنتخب فيها كل طائفة من المصلين قسيسها الخاص ، وتحدد ما تقوم به من شعائر ، وما تعتنقه من عقيدة ، ولكن اعتماده المتزايد على الأمراء اضطره إلى التسليم بهذه الامتيازات للبعثات التي عينتها الدولة ، وتعد مسئولة عنها .

وفى عام ١٥٢٥ أصدر جون الأمير المختار لساكسونيا أمراً لجميع الكنائس الواقعة فى دائرة دوقيته بأداء الصلاة وفق المذهب الإنجيلى ، كما صاغه ميلانكتون بالاتفاق مع لوثر ، وكل من يرفض الإمتثال لهذا الأمر من القساوسة يفقد مستحقاته ، وينفى العلمانيون المتشبثون بآرائهم بعد فترة يمهلون فيها(٢٥) . وحذا حذوه أمراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلا . وكتب لوثر فى خمس صفحات Kleiner Katechismus ، ويتألف من الوصايا العشر ، التى وردت فى عقيدة الرسل ، وتفسيرات موجزة لكل وصية ، وكان من الممكن أن يعد نصاً محافظاً جداً ، يعود إلى القرون الأربعة الأولى للمسيحية .

كان القساوسة الجدد بوجه عام رجالا يتصفون بالأخلاق الحميدة متضلعين فى الكتاب المقدس ، لا يعبأون بالتضلع فى علوم الإنسانيات ، ويكرسون حياتهم لأداء واجباتهم فى أبرشياتهم . وروعيت إقامة الصلوات يوم الأحد ، كما كانت تقام يوم السبت عند اليهود ، وهنا رضى لوثر باتباع التقاليد ، أكثر مما راعى ما ورد فى الكتاب المقدس ، واحتفظت « عبادة الرب » بكثير من شعائر الكاثوليك — المذبح والصليب والشموع والثياب الكهنوتية وأجزاء من القداس باللغة الألمانية ، ولكن الموعظة حظيت باهتمام أكبر ، لتلعب دوراً أعظم ، ولم تكن هناك صلوات تقام للعذراء والقديسين ، ونبذت الصور والتماثيل الدينية ، وتحولت عمارة الكنيسة ، بحيث تتيح للعابدين سماع الواعظ بسهولة ، وأصبحت الأروقة معلماً مألوفاً فى الكنائس البروتستانتية . ومن أجمل ما استحدث المشاركة الفعلية لجماعة المصلين فى عزف الموسيقى ، التى تصحب أداء الشعيرة . فحتى صاحب الصوت النشاز يتوق للاشتراك فى التراتيل ، وفى وسع كل صاحب صوت الآن أن يسمع نفسه فى شغف ، دون أن يخشى أن يتعرف عليه أحد فى هذا الجمع الحاشد . وأصبح لوثر شاعراً بين عشية وضحاها ، وكتب أناشيد تعليمية ، يتخللها الحوار ، وتثير الإلهام ، وتتسم

بالقوة والجزالة ، وتنبض بالرجولة ، التى تتميز بها شخصيته ، ولم يكتف العابدون بترتيل هذه الأناشيد وغيرها من أمثالها البروتستانتية ، وإنما دعوا إلى إجراء تجارب عليها فى غضون الأسبوع ، ورتلتها عائلات كثيرة فى البيوت . وقال أحد رجال الدين من اليسوعيين الذين أزعجهم هذا الأمر « إن أناشيد لوثر قضت على الأرواح (أخرجتها من دينها) أكثر مما فعلت عظاته »[٢٦] ، وارتقت الموسيقى البروتستانتية لتنافس التصوير الكاثوليكى فى عصر النهضة .

٣ — أسد فيتنبرج ١٥٣٦ — ٤٦

لم يشترك لوثر مباشرة فى المؤتمرات السلمية فى سنوات الأفول هذه ، وأصبح الأمراء لا المشتغلون باللاهوت زعماء البروتستانت وقتذاك ، لأن مواضيع النزاع كانت تدور حول الملكية والسلطان ، أكثر مما تدور حول العقيدة والشعيرة . ولم يخلق لوثر للمفاوضة ، وكان قد تقدم فى السن ، فلم يعد قادراً على الكفاح بأسلحة أخرى غير العلم . ووصفه رسول بابوى عام ١٥٣٥ ، بأنه ما زال قوياً ، يميل إلى المزاح (كان أول سؤال وجهه إلى هو هل سمعت الخبر ، الذى يتردد فى إيطاليا ، وهو أنى سكير ألمانى)[٢٧] ، ولكن هيكله المديد كان مأوى لكثير من الأمراض — سوء هضم وأرق ودوار ومغص وحصوات فى الكليتين ودمامل فى الأذنين وقرحات وداء النقرس وروماتزم وعرق النسا وخفقان فى القلب . واعتاد أن يجرع الخمر ليخدر إحساسه بالألم ، ويستعين بها على النوم ، وجرب جرعات من عقاقير وصفها له الأطباء ، وعكف على الصلاة ضجراً ، واشتدت عليه الأسقام ، وخيل إليه فى عام ١٥٣٧ أنه سيموت متأثراً بداء الحصوة ، فأصدر إنذاراً نهائياً للرب قال فيه : « إذا استمر هذا الألم يعصرنى أكثر من هذا فإنى سوف أجن وأعجز عن إدراك رحمتك »[٢٨] . وكان مزاجه المتدهور يعكس ، بعض الشىء ، ما يقاسيه من آلام . وانصرف

أصدقاؤه عنه ، يوماً بعد يوم ، لأنه كما وصفه أحد مريديه فى حزن : «كان من الصعب على أحدنا أن يفلت من غضبه واقتصاصه منه عاناً » ، وكان ميلانكتون المعروف بالصبر يتلوى ألماً ، لكثرة ما يلقى من إذلال على يد صنمه ، الذى صنعه دون أن يصقله ، ومما يؤثر عن لوثر أنه قال أما أوكيولامباديوس وكالفن . . . والمراطقة الآخرون فهم قلوب فاسدة ، ذلك لأن الشيطان احتواهم من الباطن والظاهر ، ومن الرأس إلى القدم ، ولهم ألسنة لا تنطق إلا كذباً »(٢٩) .

ولكم حاول جاهداً أن يتوخى الاعتدال فى رسالته «عن المجالس والكنائس » (١٥٣٩) ، وشبه الوعود البابوية المتكررة وتأجيل عقد مجلس عام أكثر من مرة بإثارة حفيظة حيوان جائع ، وذلك بتقديم الطعام له ثم انتزاعه منه . واستعرض تاريخاً ارتكز على المصالحة ، وذلك بصورة تنم على علم غزير . وسجل أن عدة مجالس كهنوتية كانت قد دعيت إلى الانعقاد ، ورأسها أباطرة — وفى هذا تلميح لشارل ، وأعرب عن شكه فى أن يتوم أى مجلس ، دعاه البابا إلى الانعقاد ، بإصلاح المحكمة الرومانية ، وقبل إقرار حضور البروتستانت فى مجلس للكنيسة « يجب أولا أن ندين أسقف روما ، باعتباره طاغية ، وأن نحرق كل منشوراته ومراسيمه »(٣٠) .

وتوحى آراؤه السياسية فى السنوات الأخيرة من عمره بأن السكوت من ذهب حتماً بعد سن الستين . وقد كان طوال حياته من المحافظين فى فى السياسة ، حتى عندما اتضح أنه يشجع على قيام ثورة اجتماعية . وكانت ثورته الدينية موجهة إلى ممارسة الشعيرة ، أكثر مما وجهت إلى المبادئ النظرية : فقد اعترض على الثمن الفادح الذى يدفع مقابل الحصول على صكوك الغفران ، واعترض فيما بعد على استبداد البابوات . ولكنه قبل إلى آخر لحظة من حياته أشق العقائد فى مسيحية المحافظين — الثالوث وولادة العذراء والتكفير عن الخطايا وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس

والجحيم — وجعل بعض هذه العقائد تبدو مستساغة فى نظر الناس أكثر من ذى قبل . وكان يزدرى العامة من الناس ، وما كان أحراه بعد ذلك أن يصحح خطأ لينكولن الشهير فى عدم الاكتراث بالعامة ، إن السيد « الجمهور » فى حاجة إلى حكومة قوية ، حتى لا يطلق الناس غرائزهم الهمجية من عقالها ، ويتبدد السلام ، وتبور التجارة . . . لا حاجة لأن يعتقد أحد أن العالم يمكن أن يحكم دون إراقة الدماء . . . إن العالم لا يمكن أن يحكم بمسبحة »(٣١) ، ولكن عندما تفقد حكومة المسبحات سلطانها ، فمن الواجب أن تحل مكانها حكومة تعتمد على حد السيف . وعلى هذا كان لزاماً على لوثر أن ينقل إلى الدولة معظم ما كانت تنعم به الكنيسة من سلطة ، ومن ثم فقد دافع عن الحق الإلهى للملوك ، وفى هذا يقول : « إن اليد التى تدير السيف الدنيوى ليست يداً بشرية وإنما هى يد الرب . والرب(٣٢) ، لا الإنسان ، هو الذى يشنق ، ويحطم الضلوع على دولاب التعذيب ، ويقطع الرءوس بالمقصلة ، ويجلد بالسياط . والرب أيضاً هو الذى يشهر الحرب » . وفى هذا التمجيد للدولة ، كما هو الحال الآن ، نجد أن المنبع الوحيد للنظام يضع بذور فلسفات هوبز وهيجل الاستبدادية ، وهو نذير بقيام ألمانيا الإمبراطورية . ولقد وجد هنرى الرابع فى لوثر ما يؤيد إحضار هيلدبراند إلى مدينة كانوسا .

وعند ما تقدم لوثر فى السن أصبح محافظاً أكثر من الأمراء أنفسهم ، وأقر الإكراه البدنى على العمل ، والضرائب الإقطاعية الباهظة المفروضة على الفلاحين . وعند ما أحس أحد البارونات بتأنيب ضميره طمأنه لوثر على أساس أن مثل هذه الأعباء الثقيلة ، إذا لم تفرض على العامة ، فإنهم سوف يشمخون بأنوفهم ، إلى حد لا يطاق(٣٣) .

واستشهد بآيات من العهد القديم تبريراً للرق « الأغنام والماشية والعبيد والجوارى كانت كلها ممتلكات يجوز لأصحابها أن يبيعوها كما يشاءون . ومن

الخير لو ظل هذا معمولا به الآن ، لأنه بدون هذا لا يمكن لامرئ أن يكره طبيعة الرقيق على العمل ، أو يروضها عليه »[٣٤] . وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه فى جلد ، وأن يتخذ نهج الحياة الذى فرضه الله عليه » ، « وفى وسع كل امرئ أن يعبد الله بأن يبقى فى وظيفته ومهنته ، مهما كانت وضيعة وبسيطة » . وقد أصبح هذا المفهوم عن الوظيفة دعامة لمذهب المحافظين فى البلاد البروتستانتية .

وتسبب أمير كان نصيراً مخلصاً للقضية البروتستانتية ، فى خلق مشكلة معضلة للوثر عام ١٥٣٩ . فقد كان فيليب الهسى جندياً محارباً ومحباً عاشقاً ورجلا حى الضمير فى آن واحد . وكانت زوجته كريستين من (الساكسونية) ، امرأة تفتقر إلى الوسامة ، ولكنها مخلصة ولود . وتردد فيليب فى أن يطلق زوجة كهذه تستحق التكريم ، وكان يشتهى مرجريت السالية of Saale ، التى لقيها ، وهو فى طور النقاهة من مرض الزهرى[٣٥] ، وبعد أن اقترف جريمة الزنى فترة من الوقت ، قرر أنه غارق فى الإثم إلى أذنيه ، ومن الواجب أن يمسك عن تناول العشاء الربانى . ولما كانت التجربة جد مزعجة ، فقد أبدى رأيه إلى لوثر بأن الدين الجديد ، الذى يعتمد على العهد القديم إلى حد كبير ، يجب أن يسمح مثله بالزواج مرة أخرى ، وهو أمر كانت عقوبته القانونية السائدة الإعدام . وفضلا عن ذلك ألم يكن هذا أكثر لباقة مما أقدم عليه فرانسس الأول ، من أن يرث العشيقات ، وأكثر شفقة من الأعمال الهوجاء التى جنح إليها هنرى الثامن فى زيجاته ؟ كان فيليب تواقاً للوصول إلى حل يعتمد على الإنجيل ، حتى إنه أعلن أنه سوف يتخلى عن المعسكر الإمبراطورى ، بل والبابوى ، إذا لم يستطع علماء اللاهوت فى فيتنبرج أن يتبينوا ضوء الكتاب المقدس . وكان لوثر على استعداد . والحق أنه كان قد فضل فى رسالته « الأسر البابلونى » الزواج مرة أخرى على الطلاق ، وقد نصح بالزواج مرة أخرى ، باعتباره أفضل حل لمشكلة هنرى الثامن[٣٦] . وكان الكثيرون من علماء اللاهوت فى القرن السادس عشر منفتحى الأذهان بالنسبة لهذا الأمر[٣٧] ، أما ميلانكتون

فكان ينفر منه ، إلا أنه اتفق أخيراً مع لوثر على أنه لا مفر من أن يعربا عن موافقتهما ، ولكن يجب ألا يباح هذا للجمهور . ووافقت كريستين بدورها على شريطة أن يقوم فيليب بواجباته الزوجية نحوها أكثر من ذي قبل »[٣٨] . وفي يوم ٤ مارس عام ١٥٤٠ تزوج فيليب رسمياً ، وإن يكن ذلك سراً ، من مرجريت ، واعتبرها زوجة ثانية ، وذلك بحضور ميلانكتون وبوسر . وما كان من اللاندجراف المعترف بالجميل إلا أن أرسل إلى لوثر حمل عربة من النبيذ على سبيل الهبة[٣٩] . وعندما تسرب نبأ الزواج أنكر لوثر أنه تم بموافقته ، وكتب يقول : « إن لفظ نعم سراً يجب أن يظل لا علناً لصالح كنيسة المسيح »[٤٠] .

وخر ميلانكتون صريعاً بمرض خطير ، ويبدو أنه كان يعاني من وخز الضمير والإحساس بالعار ، وأمسك عن الطعام ، إلى أن هدده لوثر بالحرمان من الغفران[٤١] وكتب لوثر يقول : « إن ميلانكتون شعر بحزن عميق بسبب هذه الفضيحة ، أما أنا فإني ساكسوني صعب المراس ، وفلاح صلب العود ، وقد ازداد جلدي غلاظة إلى درجة تجعلني أستطيع أن أتحمل مثل هذه الأمور »[٤٢] . ومهما يكن من أمر فإن معظم الإنجيليين افتضحوا . وطرب الكاثوليك وتفكهوا ، دون أن يعرفوا أن البابا كليمنت السابع نفسه ، كان قد فكر في السماح لهنري الثامن بالزواج مرة أخرى[٤٣] . وأعلن فرديناند ملك النمسا أنه على الرغم من ميله القليل إلى العقيدة الجديدة ، فإنه أصبح الآن يمقتها أشد المقت . وانتزع شارل الخامس من فيليب تعهداً بتأييده في جميع الانقسامات السياسية في المستقبل ، وذلك مقابل عدم اضطهاده لفيليب .

وأصبح لوثر نارى الطبع كلما دنت منيته ، فقد هاجم في عام ١٥٤٥ « المؤمنين بأن القربان المقدس مجرد رمز » من أنصار زونجلي بعنف شديد ، دفع ميلانكتون إلى أن يعرب عن أساه بسبب اتساع الهوة بين البروتستانت

فى الجنوب والبروتستانت فى الشمال . وعند ما طلب الأمير المختار جون من لوثر أن يستأنف حملته ضد الاشتراك فى مجلس يديره البابا مباشرة ، دبج لوثر خطاباً مقذعاً بعنوان : « ضد البابوية فى روما التى أسسها الشيطان » (١٥٤٥) بدت فيها بوضوح نزعته إلى الطعن التى جاوزت الحد . وارتاع كل أصدقائه ، ما عدا المصور لوكاس كراناش ، الذى زين الكتاب برسوم محفورة على الخشب ، تنطوى على هجاء مقذع ، فأحدها يصور البابا ممتطياً ظهر خنزير ، يبارك كومة من الروث ، وأخرى تمثله هو وثلاثة من الكرادلة معلقين على مشانق ، أما صورة الغلاف فتصور الحبر الأعظم جالساً فوق عرشه ، تحيط به الشياطين ويتوج رأسه داو « بلجام قمامة » وألهبت كملة « شيطان » نص الخطاب . . . ووصف البابا بأنه « أعظم أب جهنمى » و « هذا الخنثى الرومانى » و « البابا السدومى » ، أما الكرادلة فقال عنهم أنهم « أولاد الشيطان الضالون . . . الحمير الجهاة . . . اكم يود المرء أن يصب عليهم لعنته ، وأن تنقض عليهم صاعقة ، تبيدهم ، وأن يحرقوا فى نار جهنم ، وأن يصابوا بالطاعون والزهرى والصرع والاسقربوط والجذام والحمرة وسائر الأمراض[٤٤] . ورفض مرة أخرى التسليم بالرأى القائل بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة منحة من البابوات ، ورأى على النقيض أن الوقت قد حان لكى تبتلع الإمبراطورية الولايات البابوية :

فلتبدأوا الهجوم الآن أيها الإمبراطور والملك والأمراء والسادة ، ولتنظروا من يبدأ معكم ، إن الله لا يسعد الأيدى العاطلة . خذوا من بابا روما : أولا وقبل كل شىء ، رومانيا وأوربينو وبولونيا وكل ما يملك ، باعتباره بابا ، لأنه حصل على هذه البلاد بالأكاذيب والخداع ، واختلسها وسرقها من الإمبراطورية بالكفر وعبادة الأوثان ، فى غير ما خجل ، وداسها بقدميه ، ومن ثم دفع بأرواح لا تحصى إلى جهنم ، لتلقى جزاءها خالدة فيها . . . ومن ثم يجب أن يؤخذ البابا وكرادلته وكل طغمته من الدهماء ، من عبدة

الأوثان ، وأنصار قداسته البابوية ، واعتبارهم كفرة ، وانتزاع ألسنتهم من أقفيتهم ، وشد وثاقهم فى صفوف على المشانق[٤٥] .

ولعل الضعف قد بدأ يتسرب إلى ذهنه عند ما كتب هذه الدعوة الصارخة إلى استخدام العنف . ولعل التسمم التدريجى للأعضاء الداخلية ، بمرور الوقت وتناول الطعام والشراب ، قد وصل إلى ذهنه وعطله عن التفكير . وأصبح لوثر فى سنى حياته الأخيرة بديناً إلى درجة مزعجة ، بخدين متهدلين وذقن ملتو . . . وكان شعلة من النشاط ، عملاقاً لا يهدأ ، ويقول : « إذا استرحت فسوف يصيبنى الوهن »[٤٦] ، أما الآن فقد تطرق إليه التعب ووصف نفسه (١٧ يناير عام ١٥٤٦) بأنه « شيخ هرم مترهل متعب ، لا يكترث لشيء ، ليس له عين سليمة »[٤٧] . وكتب يقول : « لقد سئمت الحياة الدنيا وسئمت هى منى »[٤٨] وعند ما تمنت له الأميرة أرملة منتخب ساكسونيا أن يعيش أربعين عاماً أخرى رد عليها بقوله « سيدتى ، إنى لأتنازل عن فرصتى فى دخول الجنة فهذا أحب إلى من أن أعيش أربعين عاماً أخرى »[٤٩] . وقال « إنى لأضرع إلى الرب أن يبادر بالحضور ليحملنى من هنا . ألا فليقبل بصفة خاصة مع اليوم الآخر . وعندئذ سوف أمد عنقى ويدوى الرعد وأرقد فى سلام »[٥٠] . وظل حتى آخر نسمة من حياته تلوح له رؤى من الشيطان . وتراوده الشكوك بين آن وآخر فى رسالته . وفى هذا يقول : « إن الشيطان يتعدى على بالاعتراض بأن لسانى أساء إلى الكثيرين ، وأطلق سيلا من الألفاظ الآثمة . وبهذا كثيراً ما يتركنى فى حيرة شديدة »[٥١] . وكان فى بعض الأحايين يتماسكه اليأس من مستقبل البروتستانتية : « إن الصالحين من العباد يقلون يوماً بعد يوم » والطوائف والأحزاب[٥٢] تزداد عدداً ، وتتسع بينها هوة الخلاف و « بعد وفاة ميلانكتون سوف تمر فترة انحلال يؤسف لها »[٥٣] على العقيدة الجديدة . ولكن عندئذ عاودته شجاعته ، وقال : « لقد أمسكت المسيح والبابوات من الآذان ، ولهذا لن أزعج نفسى أكثر من ذلك ، وعلى الرغم من أنى حصرت نفسى

بين الباب والمفصلات ، وأن عودى بهصر هصراً ، فإنى لا أبالى بهذا الأمر ، ولسوف يكابد المسيح ما كابدت »[٥٤] .

وبدأ وصيته بحروف كبيرة، بقوله : « إنى معروف تماماً فى السماء وعلى الأرض وفى الجحيم » . وروت كيف أن «آثماً تعساً يستحق اللعنة ، لقى من الرب العون لنشر إنجيل ابنه ، وكيف أنه ظفر بالاعتراف به ، أستاذاً للحق ، يزدرى الحرمان المفروض عليه من البابا والإمبراطور والملوك والأمراء والقساوسة ، والكراهية من كل الشياطين » وانتهت بهذه العبارة : « ولهذا السبب ، ومن أجل تقرير هوان شأنى ، أرجو أن يكفى الشاهد بخطى ، وأن يقال : « لقد كتب هذا الدكتور مارتن لوثر موثق الرب وشاهد إنجيله »[٥٥] ، ولم يراوده الشك قط فى أن الرب كان فى انتظاره للترحيب به .

وفى يناير عام ١٥٤٦ سافر فى شتاء قارس البرد إلى مسقط رأسه أيسليبين ، ليحكم فى نزاع ، وبعث خلال تغيبه هناك برسائل شائقة إلى زوجته — منها الرسالة المؤرخة أول فبراير : أتمنى أن تجدى فى المسيح السلام والبركة ، وأبعث إليك بحبى الضعيف العتيق المسكين . عزيزتى كاتى لقد كنت عليلا وأنا فى الطريق إلى أيسليبين ، ولكن هذا إنما يرجع إلى خطئى . فقد هبت ريح صرصر عاتية من خلفى ، واخترقت قلنسوتى فوق رأسى ، فشعرت بأن مخى قد تجمد واستحال إلى ثلج ، وكان هذا حرياً بأن يعيننى على ما يصيبنى من دوار . أما الآن فأنا ، ولله الحمد ، بصحة جيدة ، إلى الحد الذى يجعلنى أشعر بميل شديد إلى الجميلات من النساء ، فما بالك وأنا كيس ظريف . وليبارك الله[٥٦] .

وتناول عشاءه يوم ١٧ فبراير فى مرح ، وفى الصباح المبكر من اليوم التالى سقط مريضاً يعانى من آلام حادة فى المعدة . ووهن جسده بسرعة ، وأدرك أصدقاؤه ، الذين تجمعوا إلى جانب فراشه ، أنه يحتضر وسأله أحدهم « أيها الأب الجليل هل تقف راسخاً كالطود إلى جانب المسيح والعقيدة

التى بشرت بها ؟ » فرد عليه قائلا « نعم » ، ثم أصيب بنوبة فالج ، أفقدته النطق ، ومات على أثرها (١٨ فبراير سنة ١٥٤٦) . ونقل الجثمان إلى فيتنبرج ، ودفن فى كنيسة القصر ، التى كان قد علق على بابها مقالاته منذ تسعة وعشرين عاماً .

كانت هذه السنوات من أخطر السنوات فى التاريخ . وكان لوثر صوتها المدوى الذى يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت أخطاؤه عديدة ، فقد كان يفتقر إلى تقدير الدور التاريخى ، الذى لعبته الكنيسة فى نشر المدنية بأوربا ، وكان ينقصه فهم تعطش البشرية إلى أساطير رمزية ، تجد فيها العزاء والسلوى ، وكان يعوزه البر والإحسان ، ليعدل فى معاملته مع خصومه من الكاثوليك و البروتستانت . ولقد حرر أتباعه من بابا معصوم من الخطأ ، ولكن فى الوقت نفسه أخضعهم لكتاب منزه عن الخطأ ، مع أن تغيير البابوات أيسر من تغيير ذلك الكتاب . وتشبث بأكثر العقائد تشدداً فى ديانة القرون الوسطى . وهى عقائد لا يمكن أن تصدق ، بينما سمح بالقضاء على كل ما فى تلك الديانة من جمال تقريباً فى أساطيرها وفنها ، وأورث ألمانيا مسيحية ، ليست أصدق من القديمة ، وهى أقل منها بهجة وسلواناً، وإن كانت أكثر صدقاً وأشد إخلاصاً فى القائمين بها . وكاد لوثر أن يصبح فى تعصب محكمة التفتيش ، بيد أن أقواله كانت أغلظ من أفعاله ، وأدين بأنه كتب مقالات ، انطوت على أقذع الألفاظ فى تاريخ الأدب ، وعلم ألمانيا كراهية لاهوتية صبغت أرضها بلون الحقد الأسود مائة عام عقب وفاته .

ومع ذلك فقد كانت أخطاؤه دعامة نجاحه ، فقد كان بفطرته محباً للحرب ، لأن الوقت كان يتطلب النزال ، ولأن المشكلات التى هاجمها قد قاومت جميع الوسائل المؤدية إلى السلام قروناً طويلة . وقضى طوال حياته فى معركة ضد الإحساس بالذنب ، وضد الشيطان والبابا والإمبراطور وزونجلى ، بل وضد الأصدقاء ، الذين كان من الممكن أن يهدئوا من

ثورته ، ويحولوها إلى احتجاج مهذب ، يسمعه الناس فى سماحة ، ثم يضيع فى غمرات النسيان . وماذا كان فى وسع رجل أرحب منه صدراً أن يفعل ، إذا ووجه بمثل هذه الصعاب وتلك القوى ؟ ما من شك فى أنه ليس فى وسع رجل متضلع فى الفلسفة ولا رجل له عقلية علمية ، لا تؤمن إلا بشىء يثبت بالدليل ، ولا رجل فطر على منح رواتب سخية لأعدائه ، أن يقذف بمثل هذا التحدى ، الذى هز العالم ، أو أن يسير قدماً . بمثل هذا التصميم إلى هدفه ، كما لو كانت هناك عصابة على عينيه . وإذا كان لاهوته ، الذى يقول بحتمية القدر ، منافياً للعقل والرأفة الإنسانية ، كأى أسطورة أو معجزة فى عقيدة أهل القرون الوسطى ، فإنه أثر فى قلوب الناس بهذه اللاعقلانية العاطفية ، فالأمل والروع هما اللذان يدفعان الناس إلى الصلاة ، وليس الدليل على أشياء يرونها بأعينهم .

ويبقى أن نذكر أنه حطم بضربات قبضته الخشنة كعكة العادات وصدفة السلطة ، التى كانت قد سدت الطريق فى وجه حركة الفكر الأوروبى . وإذا كنا نحكم على عظمة المرء بما له من نفوذ — وهذا أقل اختبار موضوعى فى وسعنا أن نلجأ إليه — فإننا نستطيع أن نضع لوثر فى مصاف كوبرنيقوس وفولتير وداروين ، باعتبارهم من أقوى الشخصيات ، التى ظهرت فى فى العالم الحديث . ولقد كتب عنه أكثر مما كتب عن أى رجل آخر فى العصر الحديث باستثناء شاكسبير ونابليون . وكان تأثيره على الفلسفة بطيئاً وغير مباشر ، ولقد أثر على يقينية **fideism** كانت وقومية فيخته ومذهب شوبنهاور فى الإرادة واستسلام الروح الهيجلى للدولة ، أما تأثيره على الأدب الألمانى واللغة الألمانية ، فكان حاسماً وشاملا ، كتأثير الإنجيل ، الذى نشره الملك جيمس ، على اللغة والآداب فى انجلترا . ولم يستشهد الناس بأقوال ألمانى آخر بمثل هذه الكثرة ، وهذا الولع . ولقد أثر هو وكارلشتادت وآخرون فى خلق الإنسان الغربى ، وعاداته التى درج عليها ، بالتنصل من العزوبة المفروضة على رجال الدين وبصبه فى الحياة الدنيوية الطاقات التى كانت

قد صرفت إلى الزهد الرهبانى ، أو إلى حياة الدعة والاسترخاء ، أو إلى الورع . وأخذ تأثيره يتقلص كلما انتشر . . . كان هائلا فى اسكنديناوه ، وعابرا فى فرنسا ، وانعدم بتأثير كالفن فى سكوتلاندة وإنجلترا وأمريكا ، أما فى ألمانيا فكان تأثيره فائقاً . ولم يقدر لمفكر أو كاتب آخر أن يكون له هذا التأثير العميق فى العقلية الألمانية والشخصية الألمانية . كان أقوى شخصية فى تاريخ ألمانيا ، ولا شك أن مواطنيه من أهل الريف يحبونه حبا جماً ، لأنه كان أشدهم جميعا تعصباً لألمانيته .

٤ ـ انتصار البروتستانتية ١٥٤٢ ـ ٥٥

ومات قبل عام من وقوع الكارثة ، التى لاح للناس أنها قاضية لا محالة على البروتستانتية فى ألمانيا .

وفى عام ١٥٤٥ أكره شارل الخامس ، الذى لقى العون من الجيوش اللوثرية ، فرانسيس الأول على توقيع صلح كريبى . وعقد سليمان ، وكان فى حرب مع فارس ، هدنة لمدة خمس سنوات مع الغرب . ووعد البابا بول الثالث أن يقدم إلى الإمبراطور ١٫١٠٠٫٠٠٠ دوكات و ١٢٫٠٠٠ من جنود المشاة و ٥٠٠ جواد ، إذا تحول بكل قوته لمحاربة الهراطقة . . . وأحس شارل بأن فى وسعه أن يحقق آخر الأمر أمله ، وأن ينفذ سياسته . أن يسحق البروتستانتية ، وأن يمنح مملكته عقيدة كاثوليكية موحدة ، تدعم فى رأيه حكومته وتسهل مهمتها . وكيف يكون إمبراطوراً بحق فى ألمانيا ، إذا استمر الأمراء البروتستانت فى الاستهانة بسلطانه وعجز أن يملى عليهم الشروط التى يقبلون بموجبها تنصيبه إمبراطوراً ؟ ولم يكن قد اتخذ البروتستانتية ديناً بصفة جدية ، ولم تكن المنازعات بين لوثر وعلماء اللاهوت من الكاثوليك تعنيه قليلا أو كثيراً ، ولكن البروتستانتية باعتبارها لاهوت الأمراء المصلحين والمتحالفين ضده ، وباعتبارها قوة سياسية ، قادرة على تحديد مصير انتخاب الإمبراطور القادم ، وبصفتها عقيدة كتاب الرسائل ،

الذين وجهوا إليه هجاء مقذعاً ، وعقيدة للفنانين الذين رسموا له صوراً ساخرة ، وعقيدة للوعاظ الذين لقبوه باسم ابن الشيطان(٥٧) — كان في وسعه أن يتحمل هذا في صمت كئيب — أما الآن فإنه حر في أن يناضل من جديد خلال موسم سرعان ما ينقضي ، وأن يصوغ مملكته ، التي مزقتها الفوضى ، في دولة واحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة ، ولها قوة واحدة ، واستقر رأيه على الحرب .

وحشد في مايو عام ١٥٤٦ جيوشه الإسبانية والإيطالية والألمانية ، والهولندية ، واستدعى دوق ألفا أقدر قواده للوقوف بجانبه ، وعندما أوفد إليه الأمراء البروتستانت نواباً عنهم إلى راتسبون للاستفسار عن معنى حركاته . رد عليهم قائلا بأنه قد اعتزم أن يعيد ألمانيا إلى حظيرة الإمبراطورية . وفي أثناء انعقاد ذلك المؤتمر كسب إلى صفه أقدر قائد عسكري في ألمانيا ، وهو الشاب الطموح الدوق موريس صاحب ساكسونيا الألبرتينية ، ووعد آل فوجر بتقديم العون المالي له ، وأصدر البابا منشوراً يحرم فيه من الغفران كل من يقاوم شارل ، ويعرض منح صكوك غفران ، بلا مقابل ، لكل من يساعده في هذه الحرب المقدسة .

وأصدر شارل قراراً إمبراطورياً أعلن فيه حرمان الدوق جون صاحب ساكسونيا الأرنستية ولاندجراف فيليب الهسي ، وأحل رعاياهما من الولاء لهما ، وأقسم أن يستصفي أراضيهما وأموالهما . ولكي يفرق بين المعارضة أعلن أنه لن يتدخل في شئون البروتستانتية في أية منطقة ، تكون قد استقرت فيها بصفة نهائية ، وقدم أخوه فرديناند تعهداً مماثلا لبوهيميا . وكان موريس مرتبطاً بالقضية بوعد صدر له بأن يحل محل جون كأمير مختار لساكسونيا . وتنازع الأمراء المختارون ، في كولونيا وبراندنبرج ، وكونت بالاتين ، الخوف والأمل ، أما أمير نورمبرج البروتستانتي فظل محايداً . وأدرك جون أمير ساكسونيا وفيليب الهسي وأمراء أنهالت وحكام مدن أوجسبورج وستراسبورج وأولم أن الخطر لا يتهدد لاهوتهم فحسب ،

ولكنه يتهدد أموالهم أيضاً ، فعبأوا كل قواتهم ، وحشدوا فى ميدان القتال ٥٧,٠٠٠ رجل .

ولكن عندما زحف جون وفيليب جنوباً يتحديان شارل ، سار فرديناند شمالا وغرباً للاستيلاء على دوقية جون . وانضم إليه موريس فى فى غزو ساكسونيا الأرنستية ، لكى يساعد بشىء ما . وقدر جون عاقبة هذا الأمر ، فهرع إلى الشمال للدفاع عن دوقيته . وقام بهذه المهمة خير قيام ، ولكن فى غضون ذلك بدأ جنود فيليب فى الفرار من فرقهم ، بسبب الامتناع عن دفع رواتبهم ، وسارعت المدن البروتستانتية تنشد السلام مع شارل ، بعد أن أغرتها الوعود بالعدل فى المعاملة . ولكنه أطلق حريتها بعد أن فرض عليها غرامات باهظة ، حطمت العمود الفقرى لماليتها ، مقابل الحصول على حريتها . وكان شارل وقتذاك متفوقاً فى السلاح ، وفى الدبلوماسية على السواء . وكانت القوة الوحيدة التى وقفت فى صف البروتستانت هى قوة البابا ، إذ كان بول الثالث قد بدأ يخشى ما أحرزه الإمبراطور من نجاح عظيم . فإذا لم يبق من أمراء البروتستانت من يكبح جماح السلطة الإمبراطورية ، فإن الأمور سوف تدين لها فى شمال وجنوب إيطاليا على السواء ، وسوف تحدق بالولايات البابوية وتبتلعها . وينتهى بها الأمر إلى أن تسيطر على البابوية سيطرة لا تقاوم . وفجأة (يناير سنة ١٥٤٧) أصدر بول الثالث أوامره للجيوش البابوية ، التى كانت تحارب مع شارل ، بالتخلى عنه والعودة إلى إيطاليا ، فأطاعت الأمر فى اغتباط . ووجد البابا نفسه يطرب كأى هرطيق لانتصارات الأمير المختار جون فى ساكسونيا . ولكن شارل كان مصمماً على أن يصل بالحملة إلى نهايتها الحاسمة . فزحف نحو الشمال . والتقى بقوات الأمير المختار المنهكة فى ميلبرج ، على مدينة مايسين ، وقضى عليها قضاء مبرماً (٢٤ ابريل ١٥٤٧) وأسر جون . وطالب فرديناند بإعدام الأمير الباسل ، غير أن شارل الذكى وافق على أن يخفف الحكم

إلى السجن مدى الحياة ، إذا فتحت فيتنبرج أبوابها له ، فخضعت المدينة لأمره ، وهكذا سقطت عاصمة البروتستانتية الألمانية فى أيدى الكاثوليك ، بينما كان لوثر يرقد فى هدوء تحت صفائح بارزة فى كنيسة القصر .

وأقنع موريس أمير ساكسونيا وجواكيم أمير براندنبرج ، فيليب الهسى بالتسليم ووعداه بأن يطلق سراحه فوراً . ولم يكن شارل قد قطع على نفسه مثل هذا العهد ، وكان أقصى ما وصلت إليه رحابة صدره أن يعد فيليب بإطلاق سراحه بعد خمسة عشر عاماً . ويبدو أنه لم يبق هناك أحد يتحدى الإمبراطور المظفر ، إذ كان هنرى الثامن قد مات فى يوم ٢٨ يناير ، ومات فرانسيس الأول يوم ٣١ مارس . ومنذ عهد شارلمان لم تكن قوة الإمبراطورية عظيمة إلى هذا الحد .

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . فقد اجتمع الأمراء الألمان فى مجلس نيابى آخر فى أوجسبورج (سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وقاوموا جهود شارل لدعم انتصاره العسكرى ، وتحويله إلى حكم مطلق شرعى . واتهمه بول الثالث بالتغاضى عن مقتل بيرلويجى فارنيزى ـ الابن غير الشرعى للبابا ، وانقلبت بافاريا ضد الإمبراطور ، وكانت دائماً موالية للكنيسة ؛ وتكونت من جديد أغلبية بروتستانتية بين الأمراء . وانتزعوا من شارل موافقة مؤقتة على زواج رجال الكهنوت ، ومناولة القربان بالطريقتين المعروفتين ، واحتفاظ البروتستانت بأملاك الكنيسة (١٥٤٨) . وتميز البابا غضباً من دعوى الإمبراطور أن له السلطة فى أن يصدر أحكاماً ، فى مثل هذه الأمور . وتهامس الكاثوليك بأن شارل كان يهتم بمد رقعة إمبراطوريته ، وتعزيز سلطان آل هابسبورج ، أكثر من اهتمامه باستعادة العقيدة الخالصة الوحيدة . ووجد موريس وقتذاك الأمير المختار لساكسونيا نفسه فى فيتنبرج يعد بروتستانتياً ومنتصراً ، ومكروهاً إلى حد خطير وسط قوم من البروتستانت المغلوبين على أمرهم ، وكانت خيانته قد سممت ما فاز به من سلطان . وتجاهل شارل ما وجهه إليه من نداءات لإطلاق سراح اللاندجراف . وبدأ

يتساءل هل اختار الفريق الأحسن ، وانضمّ سراً إلى الأمراء البروتستانت ، ووقع معهم معاهدة شامبورد (يناير ١٥٥٢) ، وفيها وعد هنرى الثانى ملك فرنسا بتقديم العون لطرد شارل من ألمانيا . وفى الوقت الذى غزا فيه هنرى اللورين ، واستولى على ميتز وتول وفردون ، زحفت موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوباً على رأس جيش قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل . وسرح شارل جنوده ، دون أن يقدر العواقب ، مستنداً إلى أكاليل الغار التى توجت رأسه فى أنزبروك ، ولم يكن أمامه وقتذاك ما يدافع به إلا الدبلوماسية . ولقد أثبت موريس تفوقه فى هذه اللعبة التى تحتاج إلى الدهاء ، واقترح فرديناند عقد هدنة ، وأطال موريس المفاوضات مستخدماً كل ما أوتى من لباقة ، وفى غضون ذلك أخذ يتقدم نحو أنزبروك . وفى يوم ٩ مايو انتقل شارل بصعوبة فوق محفة ، يصحبه بضع نفر من أتباعه ، تحت المطر والجليد ، متسربلا بظلام الليل . وعبر ممر برينر إلى فيلاخ فى كازنثيا . وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد أوربا إلى شريد ، يعانى من آلام النقرس ، ويرتجف فى جبال الألب .

والتقى موريس والبروتستانت الظافرون يوم ٢٦ مايو بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك فى باساو . ووافق شارل ، بعد فترة شعر فيها بضآلة شأنه ، على أن يوقع فريديناند معاهدة (٢٠ أغسطس ١٥٥٢) يطلق بموجبها سراح فيليب ، وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية ، وأن يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة إلى أن يجتمع مجلس نيابى جديد ، وإذا فشل هذا المجلس فى الوصول إلى تسوية مقبولة ، فإن حرية العبادة هذه تستمر إلى الأبد . وهى عبارة محببة فى المعاهدات . وهكذا بدأ موريس بالخيانة ، وارتفع إلى مصاف رجال السياسة المظفرين ، وقدر له أن يموت وشيكاً (١٥٥٣) من أجل بلده بالغاً من العمر ثلاثين عاماً ، فى معركة وقعت بينه وبين ألبرخت ألسيبياديس ، الذى كان قد حول نصف ألمانيا إلى منطقة تسودها فوضى خطيرة بالنسبة للجميع .

وعند ما يئس شارل من الوصول إلى حل لمشكلاته فى ألمانيا ، تحول نحو الغرب ليجدد صراعه مع فرنسا . ورأس فرديناند ، متذرعاً بالصبر ، المجلس النيابى التاريخى فى أوجسبورج (٥ فبراير — ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) ، وهو المجلس الذى منح ألمانيا أخيراً سلاماً دام نصف قرن . ورأى أن المبدأ الإقليمى ، الذى ينص على حرية الدوقات ، كان قوياً إلى الحد الذى لا يسمح فيه بمثل هذه السيادة المركزية المطلقة ، التى فاز بها الملوك فى فرنسا . وكان النواب الكاثوليك يمثلون أغلبية فى المجلس النيابى ، غير أن البروتستانت كانوا يفوقونهم فى القوة العسكرية ، فتشبثوا بكل مادة وردت فى إقرار أوجسبورج عام ١٥٣٠ ، وتمسك الأمير المختار أوغسطوس ، الذى خلف موريس فى ساكسونيا ، بوجهة نظر البروتستانت ، وأدرك الكاثوليك أن عليهم أن يخضعوا ، أو تتجدد الحرب ، وحث شارل ، وهو فى خرف دبلوماسيته ، الأمراء المختارين على تعيين ابنه فيليب خلفاً له فى حمل اللقب الإمبراطورى . وخشى الكثالكة مطمع هذا الإسبانى القاسى فى حكمهم ، ولما كان فرديناند يطمع فى ارتقاء العرش نفسه فإن الأمل لم يراوده فى أن يفوز به ، دون أن يعاضده البروتستانت فى المؤتمر الانتخابى .

وساعدت الأسلحة والظروف على رجحان كفة البروتستانت ، فطالبوا بكل شىء : يجب أن يكونوا أحراراً فى ممارسة عقيدتهم فى كل أرجاء ألمانيا ، وأن تحرم عبادة الكاثوليك فى الأرض التى تسود فيها العقيدة اللوثرية ، وأن تبقى صحيحة ولا تتعرض للإلغاء إجراءات تصفية أملاك الكنيسة فى الحاضر والمستقبل على السواء(٥٨) . وتوصل فرديناند وأوغسطوس إلى اتفاق أرضى الطرفين يتلخص فى هذه الكلمات الأربع المشهورة : **Cuius regio eius religio** ، وهى تجسم الضعف الروحى الذى انتاب الأمة والعصر . ولتحقيق السلام بين الولايات وفى داخلها ، يجب على كل أمير أن يختار بين الكاثوليكية الرومانية ، وبين اللوثرية ، وعلى كل رعاياه أن يقبلوا اعتناق دينه السائد فى دولته ، وكل من لا يحب أن

أن يعتنق هذا الدين عليه أن يهاجر من الإقليم . ولم يظهر أى جانب ميلا إلى التساهل والواقع أن المبدأ . الذى أيده الإصلاح الدينى فى فترة ثورته — الحق فى الحكم الخاص — رفضه رفضاً باتاً زعماء البروتستانت والكاثوليك على السواء . فقد أدى ذلك المبدأ إلى تعدد الطوائف واصطدامها ، إلى درجة أن الأمراء شعروا بأن لديهم ما يبرر استعادة السلطة العقيدية ، حتى لو انقسمت إلى أجزاء بقدر عدد الولايات . واتفق البروتستانت وقتذاك فى الرأى مع شارل والبابوات بأن وحدة العقيدة الدينية لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والسلام ؛ وليس فى وسعنا أن نحكم عليهم حكماً عادلا ، ما لم يتكشف لأنظارنا الحقد والشقاق اللذين كانا يمزقان ألمانيا . وكانت النتائج سيئة وحسنة فى آن واحد . فالتسامح وقتذاك كان ، بعد الإصلاح الدينى ، أقل قطعاً منه قبله[٥٩] ، ومع ذلك فإن الأمراء أقصوا المنشقين بدلا من أن يحرقوهم أحياء وهذه شعيرة كانت مقصورة على الساحرات . وأضعف مراكزهم جميعاً تضاعف ما نتج عن ذلك من دعاوى العصمة .

ولم يكن الانتصار الحقيقى فى حرية العبادة ؛ ولكن فى الحرية التى أصبح ينعم بها الأمراء ، فقد غدا كل منهم ، مثل هنرى الثامن ملك انجلترا ، الرئيس الأعلى للكنيسة فى إقليمه ، وله الحق المطلق فى أن يعين رجال الدين ، الذين يحددون للناس العقيدة التى يتعين عليهم أن يعتنقوها . وكان المبدأ الأراستى — وينص على أن الدولة يجب أن تحكم الكنيسة — قد استقر قطعاً . ولما كان الأمراء وليس علماء اللاهوت ، هم الذين عملوا على انتصار البروتستانتية ، فمن الطبيعى أن يجنوا ثمار هذا النصر — سيادتهم الإقليمية على الإمبراطور ، وسيادتهم الكهنوتية على الكنيسة . كانت البروتستانتية هى القومية ممتدة إلى الدين ؛ ولكن القومية لم تكن تعنى قومية ألمانيا ، بل كانت وطنية كل إمارة ، ولم تتقدم ألمانيا خطوة نحو الوحدة ؛ بل إن

(*) أطلق على المبدأ هذا الاسم نسبة إلى توماس أراستوس عالم اللاهوت السويسرى (١٥٢٤ - ٨٣) وإن كان لا يمكن العثور عليه صراحة فى أعماله

الثورة الدينية عاقت هذه الوحدة . وإن لم يكن من المؤكد أنها كانت نعمة وبركة . وعندما اختير فرديناند إمبراطوراً (١٥٥٨) كانت سلطاته الإمبراطورية أقل من السلطات التي كان يتمتع بها حتى شارل المتعب المقيد . وترتب على هذا أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تمت في عام ١٨٠٦ ، وإنما ماتت في عام ١٥٥٥ .

وضاعت المدن الألمانية ، مثل الإمبراطورية ، في غمار انتصار الأمراء . كانت المقاطعات الإمبراطورية تحت رعاية الإمبراطور ، يحميها من سيطرة الحكام الإقليمية . أما الآن — بعد أن أصبح الإمبراطور عاجزاً ، فقد صار الأمراء أحراراً في أن يتدخلوا في الشئون البلدية ، وتضاءل استقلال المقاطعات . وفي غضون ذلك ابتلعت قوة هولندة النامية معظم التجارة ، التي كانت تصب المنتجات الألمانية في بحر الشمال ، عن طريق مصبات نهر الراين ، وضعف شأن المدن الجنوبية ، بانحطاط تجارة البندقية والبحر الأبيض المتوسط نسبياً . وليس من شك في أن الإضعاف من شأن التجارة والسياسة يترتب عليه اضمحلال الثقافة ولم يتيسر للمدن الألمانيـة ، في مدى مائتي عام بعد ذلك ، أن تستمتع مرة أخرى بحيوية التجارة والفكر التي سبقت عهد الإصلاح الديني ودعمته . . .

وعاش ميلانكتون خمس سنوات بعد صلح أوجسبورج ، ولم يكن واثقاً من أنه كان يريد الإمهال . كان قد عمر أكثر من زعيمه ، لا في المفاوضات مع الكثالكة فحسب ، ولكن في تحديد اللاهوت البروتستانتي . كان قد حرر نفسه من لوثر من جهة رفضه التسليم بحتمية القدر كلية ، وحضور المسيح بجسده في القربان المقدس[٦٠] ، وجاهد في الحفاظ على أهمية الأعمال الصالحات ، وإن كان قد أصر مع لوثر على أنها لا يمكن أن تحقق لصاحبها الخلاص . وثار جدل مرير بين « الفلبيين » — ميلانكتون وأتباعه — وبين اللوثريين المحافظين الذين انفجروا أساساً من ينا ، وأطلق هؤلاء على ميلانكتون لقب « المملوك المارق » و « خادم الشيطان » ، ووصفهم هو بأنهم

أغبياء سوفسطائيون من عبدة الأوثان[٦١] . وكان الأساتذة يعينون أو يفصلون ، ويسجنون أو يطلق سراحهم ، حسب مد وجزر الحمم اللاهوتية . واتفق الطرفان على أن يعلنا حق الدولة فى قمع الهرطقة بالقوة . وحذا ميلانكتون حذو لوثر فى إقرار العبودية والتمسك بالحق الإلهى للملوك[٦٢] ، ولكنه تمنى لو وضعت الحركة اللوثرية نصب عينيها حماية أرستقراطيات أوساط الناس ، كما فى زيورخ وشتراسبورج ونورمبرج وجنيف بدلا من أن تأتلف مع الأمراء . وفى أكثر لحظاته دلالة تحدث مثل الأرازمى الذى كان يتطلع إلى أن يكونه : « فلنتحدث فقط عن الإنجيل وعن الضعف الإنسانى وعن رحمة الله وعن تنظيم الكنيسة وعن العبادة الحقة . أليس جوهر المسيحية أن تحقق الطمأنينة والهدوء للأرواح ، وأن تهب لها قاعدة للعمل المستقيم ، أما الباقى فإنه جدل وفلسفة كلامية ومنازعات طائفية »[٦٣]. وعندما دنت منيته رحب بالموت ، باعتباره تحريراً لطيفاً من « غضب علماء اللاهوت » ، ومن همجية « العصر السوفسطائى »[٦٤] . والحق أن التاريخ قد أخطأ فى اختياره للقيادة روحاً تنزع بفطرتها إلى البحث والصداقة والسلام ، وأجبرها على الدخول فى حرب ثورية لم تخلق لها .

الفصل الحادي والعشرون

جون كالفن

(١٥٠٩ – ١٥٦٤)

١ – شبابه

ولد فى نويون بفرنسا يوم ١٠ يوليو عام ١٥٠٩ ، وكانت مدينة لها طابع كنسى ، يسيطر عليها أسقفها وكاتدرائيتها ، وهناك فى البداية وجد مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين – حكم رجال الدين لمجتمع باسم الرب .

وكان أبوه جيرار شوفان سكرتيراً للأسقف ، ووكيل أعمال فى إدارة الكاتدرائية ، ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية . وقد ماتت أم جان وهو لا يزال حدثاً ، فتزوج أبوه للمرة الثانية ، ولعل كالفن يدين بجانب من روحه القاتمة إلى ما عاناه من تربية صارمة على يد زوجة أبيه . ونذر جيرار ثلاثة من أبنائه للكهنوت ، وهو على ثقة من أن فى وسعه أن يجد لهم مناصب . وحصل لاثنين منهما على صدقات بيد أن واحداً منهم انقلب إلى هرطيق ، ومات وهو يرفض تناول القربان المقدس . وحرم جيرار نفسه من الغفران بعد خلاف مالى مع إدارة الكاتدرائية ، ولقى بعض المتاعب قبل أن يوسد جثمانه فى الأرض المقدسة .

وأرسل جان إلى كلية دى مارش فى جامعة باريس . وقيد نفسه باسم جوهانس كالفينوس ، وحذق كتابة اللاتينية ببراعة فائقة ، ونقل فيما بعد إلى كلية دى مونتيجو ، ولا بد أنه سمع هناك أصداء تتردد عن تلميذها المشهور أرازموس . وظل هناك حتى عام ١٥٢٨ ، وهو العام الذى التحق

بها صنوه الكاثوليكي أجناتيوس لويولا . ويقول أحد الثقاة من الكاثوليك « أن القصص التي رويت في وقت ما عن شباب كالفن الطائش ، لا تستند إلى أساس »[١] والأمر على نقيض ذلك تماماً ، فكل الدلائل تشير إلى أنه كان طالباً مثابراً خجولا معتصماً بالصمت تقياً و « رقيباً صارماً في نقد أخلاقيات زملائه »[٢] ، ومع ذلك فإنه كان محبوباً من أصدقائه ، الآن وفيما بعد ، حباً خالصاً لا يتزعزع . وفي غمار السعي الحثيث للحصول على معرفة ما وراء الظاهر ، أو نظرية تفتّن العقول ، قرأ كثيراً في الليل . ولقد طور ، حتى في تلك السنوات التي قضاها في طلب العلم ، بعض الأوصاب الكثيرة التي انتابت حياته الناضجة ، وساعدت على تكوين مزاجه .

وفي أواخر عام ١٥٢٨ جاءه على غير انتظار توجيه من أبيه بأن يذهب إلى أورليانز ، ويدرس القانون ، ويظن كما قال الابن « لأنه رأى أن علم القوانين قد أدر على الذين حصلوه الثراء العريض »[٣] . وعكف كالفن في غبطة على الدراسة الجديدة ، إذ خيل إليه أن القانون ، وليس الفلسفة أو الأدب ، هو أبرز نتاج فكرى حققته البشرية ، وأنه يصوغ نوازع الإنسان الفوضوية ويحولها إلى نظام وسلام .

ونقل إلى اللاهوت وعلم الأخلاق ، منطق قوانين جستنيان ودقتها وصرامتها ، وأطلق على خير مؤلفاته اسماً مماثلا . وأصبح ، فوق أى شيء آخر ، مشرعاً ، وصارنوما وليكورجوس مدينة جنيف .

وبعد أن حصل على درجته في ليسانس أو بكالوريوس في القوانين ، (١٥٣١) . عاد إلى باريس وعكف في نهم على دراسة الأدب الكلاسى ، وأحس بالرغبة العارمة الشائعة ليرى لنفسه مؤلفاً مطبوعاً ، فنشر (١٥٣٢) مقالا باللاتينية عن **De clementia** لسينيكا . وبدأ أشد المشرعين الدينيين صرامة حياته العملية العامة بتحية للرحمة . وأرسل نسخة إلى أرازموس ،

حياه فيها باعتباره «المعلم الثانى فى عالم المجد» (بعد شيشرون) و «أول إشراقة للآداب» . وخيل للناس أنه وقف حياته على الإنسانيات عند ما وصلته بعض عظات لوثر وأثارته بما انطوت عليه من جرأة . وكانت الدوائر الناشطة فى باريس تناقش الحركة الجديدة ؛ وليس من شك فى أنه دار حديث طويل حول الراهب المتهور ، الذى أحرق منشور البابا ، وتحدى قرار إمبراطور بتحريم التعامل معه ؛ والحق أنه قد سقط فى سبيل البروتستانتية شهداء فى فرنسا . وكان بعض الرجال الذين يحثون على إصلاح الكنيسة من بين أصدقاء كالفن ؛ وكان أحدهم وهو جيرار روسل أثيراً لدى شقيقة الملك مرجريت دى نافار . واختير صديق آخر ، وهو نيكولاس كوب ، ليشغل منصب مدير الجامعة ، ولعل كالفن كان له ضلع فى إعداد الخطاب الافتتاحى المشئوم ، الذى ألقاه كوب «أول نوفمبر سنة ١٥٣٣) . وقد بدأ الخطاب برجاء أرازمى لمسيحية مطهرة ، واستطرد ليشرح نظرية لوثر فى الخلاص عن طريق الإيمان والعفو ، وانتهى بالتماس الإصغاء فى تسامح للأفكار الدينية الجديدة . وأثار الخطاب حنقاً بالغاً ، وانفجرت جامعة السوربون غضباً ، وبدأ البرلمان فى اتخاذ إجراءات ضد كوب بتهمة الهرطقة ، ففر هارباً ، وعرضت مكافأة قدرها ثلاثمائة كراون لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً ؛ ولكنه استطاع أن يصل إلى بازيل . وكانت وقتذاك تعتنق البروتستانتية .

وحذر الأصدقاء كالفن وأخبروه أن اسمه أدرج مع اسم روسل فى قائمة المطلوبين للقبض عليهم . ويبدو أن مرجريت قد تشفعت له ، فغادر باريس (يناير سنة ١٥٣٤) ووجد ملاذاً له فى أنجوليم ؛ ولعله بدأ هناك ، بمكتبة لوى دى تييه الغنية بما تضم من كتب قيمة ، فى كتابة مؤلفه **Institutes** . وفى مايو جازف بالعودة إلى نويون ، وتنازل عن رواتبه ، التى كانت تدر عليه دخلا يعول به نفسه . وهناك قبض عليه وأطلق سراحه ، ثم أعيد القبض عليه ، ثم أطلق سراحه مرة أخرى . وعاد سراً

إلى باريس ، وتحدث مع زعماء البروتستانت ، والتقى بسير فيتوس ، الذى قدر عليه أن يحرقه . وعند ما وضع بعض المتطرفين من البروتستانت إعلانات ملصوقة مهينة فى أماكن متفرقة من باريس ، انتقم فرانسس الأول منهم بأن أمعن فى اضطهادهم ، وفر كالفن فى الوقت المناسب (ديسمبر ١٥٣٤) ، وانضم إلى كوب فى بازيل وهناك أتم ، وهو شاب فى السادسة والعشرين من عمره ، عملا يعد من أبلغ الأعمال فى أدب الثورة الدينية ، وأشدها حماسة ، وأوضحها معنى ، وأكثرها تمشياً مع المنطق ، وأعظمها تأثيراً ، وأشدها جميعاً إرهاباً .

٢ - عالم اللاهوت

ونشر الكتاب باللغة اللاتينية (١٥٣٦) باسم « مبادئ الدين المسيحى » ، وفى خلال عام واحد نفد الكتاب ، واستدعى الأمر إصدار طبعة جديدة ، فاستجاب كالفن ، وأعد نسخة مطولة (١٥٣٩) باللاتينية أيضاً ، وترجمها إلى الفرنسية عام ١٥٤١ . ويعد هذا الشكل من التأليف من أعظم ما أنتجته القرائح تأثيراً فى النثر الفرنسى . وحرم برلمان باريس تداول الكتاب باللغتين كلتيهما ، وأحرقت نسخ منه علناً فى العاصمة ، واستمر كالفن طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هذا الكتاب وإعادة نشره ، وبلغت عدد صفحاته ١١١٨ فى شكله النهائى .

واستهلت الطبعة الأولى من الكتاب بـ « مقدمة إلى أعظم ملك مسيحى لفرنسا » وهى مقدمة تفيض بالمشاعر ، ولكن بأسلوب رصين . ووقع حادثان أتاحا فرصة الحوار مع فرانسس أولهما : الأمر الملكى الصادر فى يناير عام ١٥٣٥ ضد الفرنسيين البروتستانت ، وثانيهما : الدعوة التى وجهها فرانسس فى الوقت نفسه تقريباً لميلانكتون وبوسر ، كى يحضرا إلى فرنسا ، ويرتبا تحالفاً بين الملكية الفرنسية وبين الأمراء اللوثريين ضد شارل الخامس . وكان كالفن يأمل فى أن يوطد المأرب السياسى على دعامة

من الجدل اللاهوتى ، وأن يعاون فى استمالة الملك ، مثل أخته ، إلى القضية البروتستانتية ، وكان تواقاً إلى أن يفرق بين هذه القضية وحركة اللامعمدانيين ، التى اقتربت وقتذاك من الشيوعية فى منستر . ووصف المصلحين الدينيين الفرنسيين بأنهم وطنيون مخلصون للملك كارهون لكل اضطراب اقتصادى أو سياسى . وتكشف بداية ونهاية هذه المقـــدمة روعة أفكار كالفن وجزالة أساوبه :

« عند ما بدأت هذا العمل يا مولاى لم يكن هناك شيء أبعد من التفكير فى تدبيج كتاب ، يقدم فيما بعد إلى جلالتكم ، وكنت لا أقصد إلا أن أطرح أمامكم بعض مبادئ أولية يستطيع بها المتسائلون عن أمور الدين أن يفقهوا طبيعة التقوى الصحيحة . . . ولكننى عنـــد ما أدركت أن غضب بعض الأشرار فى مملكتكم قد اشتد ، إلى حد يجعلهم لا يسمحون بوجود عقيدة صحيحة فى البلاد ، رأيت من الواجب أن يستفاد منى ولو فى العمل نفسه . . . لقد عرضت اعترافى عليك ، لكى تعلم طبيعة تلك العقيدة ، التى يستهدفها هذا الغضب ، الذى لا يعرف حدوداً ، والذى يعتمل فى صدور هؤلاء المجانين ، الذين يزعجون البلاد بالسيف والنار ، ومن أجل ذلك فأنا لا أخشى التسليم بأن هذه الرسالة تحتوى على ملخص لتلك العقيدة ذاتها ، والتى يستحق من يعتنقها ، طبقاً لما أثاروه حولها من دعاوى ، أن يعاقب بالسجن والنفى وإهدار الدم والتحريق وبإبادته من على ظهر الأرض . وإنى لأعلم جيداً الدسائس الأثيمة ، التى ملأوا بها أذنيك ، لكى تبدو قضيتنا بغيضة جداً فى نظرك : ولكن حلمك كفيل بأن يهديك إلى التفكير فى أنه إذا كان الاتهام يكفى دليلا على الذنب ، فهو القضاء على كل براءة فى الأقوال والأفعال . . . وأنت نفسك يا مولاى تستطيع أن تتبين الوشايات الزائفة ، التى كانت تطرق أذنيك عنها (قضيتنا) ، وهى تفتضح كل يوم : إن ما تصبو إليه فحسب إنما هو انتزاع صولجانات الملوك من أيديهم ، هدم جميع المحاكم . . . وتقويض دعائم النظام بأسره ، وقلب

الحكومة ، وتعكير صفو السلام والأمن بين الناس ، وإلغاء جميع القوانين ، وتبديد جميع الأموال والممتلكات ، وباختصار جعل كل شيء في حالة اضطراب شامل .

ولهذا أتوسل إليك يا مولاي — وهو بالتأكيد طلب معقول — أن تأخذ على عاتقك الفهم الكامل لهذه القضية . التي أثيرت حتى الآن بصورة مبلبلة . وبلا اكتراث . وبلا سند من القانون . وبدافع من العاطفة الهوجاء أكثر من أي دعامة قانونية . ولا يذهبن بك الظن إلى أني أفكر الآن في إعداد دفاعي عن نفسي . لكي أضمن لنفسي عودة آمنة إلى وطني الحبيب ، فأنا ، على الرغم مما أكنه له من حب ينبغي على كل انسان أن يحس به نحوه . لن أندم أبداً . في الظروف الحالية . على انتقالي منه . ولكي أدافع عن القضية أمام كل المتدينين . وبالتالي أمام المسيح نفسه . هل يحتمل أن نفكر في تقويض دعائم الممالك . نحن الذين لم يسمعنا أحد نفوه بكلمة واحدة تثير الفتنة . . . نحن الذين عرفنا طوال حياتنا أننا نعيش حياة هادئة مستقيمة عند ما كنا نعيش تحت حكمك . نحن الذين لم نكف . حتى في منفانا الآن . عن الصلاة لك بالنجاح ولمملكتك بالرخاء . . . ثم إننا لم ننتفع إلا قليلا بالإنجيل بفضل الله . ولكن حياتنا يمكن أن تكون مثالا يحتذى لمن نددوا بعفتنا وكرمنا ورأفتنا وعزوفنا عن المنكر وصبرنا وتواضعنا وكل فضيلة أخرى هنا . . .

وعلى الرغم من بغضك لنا ونفورك منا ، بل وغضبك علينا ، فإننا لا نيأس أبداً من استعادة عطفك . لو قرأت بهدوء واطمئنان إقرارنا هذا ، الذي نعتزم تقديمه إلى جلالتكم . كدفاع لنا . . . ولكن إذا كانت أذناك مشغولتين على النقيض بسماع همسات الحاقدين ، التي لا تدع فرصة للمتهمين للدفاع عن أنفسهم . وإذا استمرت تلك العقبات الهوجاء في اضطهادنا بالسجن والتنكيل والتعذيب ومصادرة الأموال والحرق .

وتغاضيك عن ذلك ، فإننا سوف نغلب على أمرنا حقاً إلى أقصى حد . ونكون مثل قطيع من الأغنام ، يساق إلى الذبح . ومع ذلك هل لنا أن نحتفظ فى صبر بأرواحنا ، وننتظر أن تمتد إلينا يد الرب القوية . . . لإنقاذ الفقراء من غمهم ، ولمعاقبة المستخفين بهم . الذين يبتهجون الآن فى أمن واطمئنان تام . وإنى لأدعو الرب ملك الملوك أن يوطد عرشك بالعدل والتقوى ، وأن ينتشر فى مملكتك القسط والإنصاف »(٤) .

وليس من اليسير علينا ، فى عصر أسلم فيه اللاهوت مكانه للسياسة ، باعتبارها مركزاً لاهتمام بنى الإنسان والصراع بينهم ، أن نتذكر المزاج الذى ألف به كالفن كتابه القوانين . لقد كان رجلا هائماً فى حب الله — أكثر من سبينوزا . وكان يغلبه شعور بضآلة الإنسان وعظمة الله .

وكم يكون الأمر منافياً للعقل أن نفترض أن العقل الواهى لهذا السوس ، الذى لا يكاد يرى بالعين المجردة . وهو الإنسان ، يستطيع أن يدرك العقل المفكر الذى يحكم هذه النجوم الطيعة التى لا تحصى ؟ وأن الله ، رأفة بعقل الإنسان ، قد أظهر لنا نفسه فى الكتاب المقدس، وثبت أن هذا الكتاب المقدس هو كلمة الله ، (كما يقول كالفن) بما له من سلطان لا نظير له على روح الإنسان .

« اقرأ لديموستين أو شيشرون ، واقرأ لأفلاطون أو أرسطو أو لغيرهم ممن هم فى مستواهم ، وأنا كفيل بأن ما تقرأه من مؤلفاتهم سوف يجتذبك ، ويشرح صدرك ، ويحرك شغاف قلبك ، ويخلب لبك بطريقة مدهشة ، ولكن إذا تحولت بعد قراءتها إلى تلاوة الكتاب المقدس ، سواء كنت راغباً أو غير راغب ، فإنه سوف يستولى عليك بقوة عظيمة ، وينفذ إلى قلبك ، ويطبع كلماته بقوة فى ذهنك ، إلى الحد الذى لو قارناه بما لتلك المصنفات من أثر قوى ، فإن الجمال الذى يتسم به كلام البلغاء والفلاسفة يتبدد كله أو يكاد ، ومن اليسير أن ندرك أن شيئاً إلهياً فى الكتب المقدسة ، يفوق بكثير أعظم ما أحرزه الإنسان فى عالم الصناعة والزخرف »(٥) .

وعلى ذلك فإن هذه الكلمة التى نزلت علينا يجب أن تكون مرجعنا الأخير : لا فى الدين والأخلاقيات فحسب ، ولكن فى التاريخ والسياسة وكل شىء أيضاً . يجب أن نتقبل قصة آدم وحواء لأننا نفسر ، بعصيانهما أمر الله ، الشر الذى فطر الإنسان عليه ، وفقدانه لإرادته الحرة .

« إن عقل الإنسان لينفر كل النفور من عدل الله ، حتى إنه ليدرك ، ويرغب فى ، ويباشر كل شىء ، يتسم بالزندقة والانحراف والخسة والدنس والفجور ، وطمس على قلبه بسم الخطيئة فلم يعد يصدر عنه إلا ما هو فاسد خبيث ، وإذا قام الناس فى وقت من الأوقات بعمل يبدو طيباً فى الظاهر ، فان العقل يظل دائماً متورطاً فى النفاق والخداع ، والقلب يظل عبداً لانحرافه الباطنى »(٦) .

وأنّى لمخلوق فاسد إلى هذا الحد أن يستحق النعيم الأبدى فى الفردوس ؟ ليس فى استطاعة واحد منا أن يحصل عليه مهما قدم من أعمال صالحات . حقاً أنه لا بأس بالأعمال الصالحات ، ولكن موت ابن الرب الذى ضحى بنفسه فى سبيل البشرية هو الذى يستطيع وحده أن يحقق للبشر الخلاص ، وليس للناس أجمعين ، لأن عدالة الرب تقتضى عذاب معظم البشر فى نار جهنم . ولكن رحمته تعالى قد اختارت بعضنا للظفر بالنجاة . وقد وهب تعالى لهؤلاء إيماناً راسخاً بتكفير المسيح عن ذنوبهم . لأن القديس بولس قال : « لقد اختارنا الرب فى نفسه قبل خلق العالم بأن علينا أن نكون أمامه أطهاراً . لا تشوبنا شائبة فى الحب ، وقدر علينا أن نتخذ لنا أبناء ، كما اتخذ المسيح عيسى ابنا له بمشيئته »(٧) . وفسر كالفن هذا ، كما فسره لوثر ، فإن معناه أن الرب قد قرر بمشيئة حرة ، لا تتوقف أبداً على ما نتمتع به من فضائل ، أو نتصف به من رذائل ، وقبل خلقنا بوقت طويل ، من منا يكتب له النجاة ، ومن يعذب فى نار جهنم(٨) . ويجيب كالفن على السؤال الذى يتردد ، وهو : « لماذا شاء الله النجاة لبعض الناس ، والعذاب لآخرين ، دون اعتبار لما قدموه من أعمال ، بكلمات بولس : « لأنه قال

لموسى إنى أتغمد برحمتى من أشاء وأعفو عمن أشاء »[٩] . ويختم كالفن حديثه بقـــوله :

« وطبقاً لهذا نؤكد أن الرب قدر بمشيئة أزلية لا تتبدل ، من يكتب له الخلاص ، ومن يحكم عليه بالعذاب والهلاك ، ونؤكد أن هذه المشيئة ، فيما يختص بالاختيار ، تقوم على رحمته ، التى يتغمد بها من يشاء ، دون اعتبار لما يستحقه الإنسان ، ولكن الذين حكم عليهم بالعذاب فى النار أغلق دونهم باب الحياة ، بمقتضى حكم عادل لا سبيل إلى نقضه ، ويدق على الفهم »[١٠] .

بل إن خروج آدم وحواء من الجنة ، وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للجنس البشرى فى رأى بولس « فرضته مشيئة الرب العجيبة »[١١] .

ويسلم كالفن بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل ، ولكنه يرد بقوله : « ليس من المعقول أن يتقصى الإنسان هذه الأمور ، التى قرر الرب أن يخفيها عنا فى نفسه ويفلت من العقاب »[١٢] . ومع ذلك فإنه يعترف بأنه يعرف لماذا يقرر الرب بصورة تحكمية مصير ملايين الأرواح منذ الأزل : ذلك « لكى يزيد من إعجابنا بمجده » بعرض قوته[١٣] . ويوافق على أن هذا « حكم مروع » « ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائى فى المستقبل ، قبل أن يخلقه ، وأنه عرفه سابقاً ، لأنه كان قد قضى به فى حكمه »[١٤] . وقد يجادل آخرون من أمثال لوثر بأن المستقبل قد تحدد ، لأن الرب تنبأ به سلفاً ، وأن علمه بالغيب لا يمكن نفيه » . أما كالفن فإنه يرى عكس ما تقدم ، إذ أنه يعتقد أن الرب يتنبأ بالمستقبل ، لأنه شاء هذا وقرره . والحكم بالعذاب الأبدى حكم مطلق ، وليس هناك مطهر فى لاهوت كالفن ، وليس هناك منزل فى منتصف الطريق ، يستطيع الإنسان بعد أن يقضى فيه بضع ملايين من السنين ، وهو يتعذب بالنار ، أن يمحو بها سيئاته ، وعلى هذا فلا محل للصلوات من أجل الموتى .

وقد يذهب بنا الظن إلى أنه لا معنى لأداء أى نوع من الصلاة ، وذلك بناء على افتراضات كالفن فما دام كل شيء قد تحدد بحكم الله ، فليس فى وسع فيض من الابتهالات أن يمحو ذرة واحدة من قدر الإنسان المحتوم . ومهما يكن من شيء ، فإن كالفن أكثر إنسانية من لاهوته ، فهو يقول لنا : فلنصل بتواضع وإيمان ، ولسوف يتقبل الله صلواتنا ، فالصلاة وتقبلها قد سبقا فى حكمه أيضاً . ولنعبد الله بأداء صلوات دينية متواضعة ، ولكن يجب علينا ألا ننبذ القداس ، ونعتبره ادعاء من القساوسة ، ينتهكون به الحرمات بتحويل مواد دنيوية إلى جسد المسيح ودمه ، والحق أن المسيح موجود فى القربان المقدس بروحه لا بجسده ، وعبادة رقاقة الخبز المقدسة ، بدعوى أن المسيح يحل فيها بجسده ، هى وثنية محضة . واستخدام الصور المنقوشة للرب انتهاك صارخ للوصية الثانية ، وتشجيع على عبادة الأوثان ، ويجب إزالة كل الصور والتماثيل الدينية ، بل والصليب من الكنائس .

والكنيسة الحقة هى جمهور المصلين غير المنظور من الصفوة ، الأموات أو الأحياء أو الذين سيولدون . وتتكون الكنيسة المنظورة ، من كل الذين « يعترفون معنا بنفس الرب والمسيح »[١٥] ، باعتناق عقيدة ، وبحياة مثالية ، وبالاشتراك فى مراسم التعميد والعشاء الربانى (يرفض كالفن التسليم بالمراسم الأخرى) .

وليس هناك خلاص[١٦] خارج نطاق هذه الكنيسة . والدولة والكنيسة مقدستان ، وقد خلقهما الله ، لكى يعملا فى انسجام كالروح والجسد ، لمجتمع مسيحى واحد : وعلى الكنيسة أن تضع القواعد ، التى تنتظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد[١٧] ، باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعى ، ويجب على السلطات الزمنية أن تكون على بصر من أن « عبادة الأوثان » (وهى ترادف إلى حد كبير الكاثوليكية فى العزف البروتستانتى) و « فضائح أخرى تمس الدين يجب

ألا تعرض وتنشر علناً بين الناس » ، وأن كلمة الله الطاهرة هى الوحيدة ، التى يجب أن يتعلمها ويتلقاها الناس[١٨] . والحكومة المثالية هى حكومة رجال الدين ، ويجب أن نعترف بالكنيسة التى تؤمن بالإصلاح الدينى ، باعتبارها صوت الله .

وجدد كالفن جميع ادعاءات البابا بسيادة الكنيسة على الدولة ، وطالب بها لكنيسته .

ومما يلفت النظر مدى ما بقى من تقاليد الرومان الكاثوليك وآرائهم فى لاهوت كالفن ، فهو مدين بعض الشىء لفلسفة الرواقيين ، وبخاصة سينيكا ، وبشىء لدراساته فى القانون ، ولكنه اعتمد بصفة خاصة على القديس أوغسطين ، الذى استخلص القول بالجبر من القديس بولس ، الذى لم يعرف المسيح . وتجاهل كالفن بشدة ، مفهوم المسيح عن الرب بأنه أب محب رحيم ، ومر فى هدوء على عدد كبير من آيات الكتاب المقدس ، التى افترضت حرية الإنسان فى صياغة مصيره (٢ إصحاح بطرس ٣ : ٩ ، ١ إصحاح تيموثاوس ٢ : ٤ ، ١ إصحاح يوحنا ٢ : ٢ ، ٤ : ١٤ إلخ) .

ولم تكن عبقرية كالفن تكمن فى أنه يأتى بأفكار جديدة ، ولكن فى تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية هدامة ، والتعبير عن هذه النتائج ببلاغة ، تضارع بلاغة أوغسطين ، وبصياغة تصميناتها العملية بمنهج ، يقوم على التشريع الكهنوتى . وأخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار بالإيمان ، ومن زونجلى التفسير الروحى للقربان المقدس ، ومن بوسر الآراء المتناقضة عن مشيئة الله ، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث ، والحاجة إلى ورع عملى قوى ، باعتباره امتحاناً وشاهدا على الاختيار . ووصلت معظم تلك العقائد فى صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكى ، وأضفى عليها كالفن أهمية شديدة ، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة فى عقيدة القرون الوسطى .

كان أقرب إلى القرون الوسطى من أى مفكر بين أوغسطين ودانتى . ورفض رفضاً باتاً قبول إنشغال علماء الإنسانيات بأفضلية الدنيا ، وحول أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر ، بصورة كئيبة أكثر من قبل ، وأنكر الإصلاح الدينى فى مذهب كالفن من جديد « النهضة » .

وليس من شك فى أن لاهوتاً غير جذاب مثل هذا ، يحرز رضا مئات الملايين من الناس ، فى سويسرة وفرنسا وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا الشمالية ، يبدو لأول نظرة سراً غامضاً ، ثم يبدو نوعاً من التجلى . ترى لماذا حارب الكالفينيون والهوجنوت والمتطهرون (البيوريتان) بمثل هذه الجرأة دفاعاً عن عجزهم ؟ ولماذا أسهمت هذه النظرية الخاصة بعجز البشر فى تكوين بعض الشخصيات ، التى تعد من أقوى الشخصيات فى التاريخ ؟ فهل حدث هذا لأن هؤلاء المؤمنين اكتسبوا ، من الاعتقاد بأنهم الصفوة القليلة ، قوة تفوق ما فقدوه منها ، بالتسليم بأن سلوكهم ليس له نصيب فى تحديد مصيرهم ؟ وكان كالفن نفسه خجولا وقوى العزم فى الوقت نفسه ، وكان واثقاً من أنه ينتمى إلى الصفوة ، ووجد فى هذا عزاء وسلوى ، إلى الحد الذى دفعه إلى أن يجد « الحكم المروع » للجبر « أمراً يؤدى إلى أبهج فائدة »(١٩) : وهل أسعد بعض من اصطفوا أنفسهم أن يتدبروا فى أن فئة قليلة كتب لها الخلاص ، وأن الكثرة الغالبة قدر عليها العذاب ؟ وليس من شك فى أن الاعتقاد بأن الله قد اصطفاهم منح كثيراً من الأرواح الشجاعة لمواجهـــة تقلبات الحياة ، والضرب فيها على غير هدى ، إلى غير ما هدف ظاهر ، مثل ما مكنت عقيدة مماثلة الشعب اليهودى من صيانة نفسه ، وسط محن كانت كفيلة بأن تهدم إرادة الحياة . حقا أن فكرة كالفن عن اختيار الله لبعض الناس قد يكون مديناً بها للصيغة اليهودية فى العقيدة ، كما تدين البروتستانتية بالكثير للعهد القديم بصفة عامة . ولا بد أن الثقة فى الاختيار الإلهى كانت درعاً يبث الشجاعة فى قلوب الهوجنوت ، لتحمل

آلام الحرب والمذابح ، وفى قلوب الحجاج وهم يجازفون بأنفسهم ، بحثاً عن أوطان جديدة على شواطئ معادية .

وإذا استطاع خاطئ مُقَوَّم أن يتشبث بهذه الثقة ، واستطاع أن يؤمن بأن تقويمه قد هيأه له الله ، فإن فى وسعه أن يقف راسخاً كالطود إلى النهاية . وقد رفع كالفن من قدر هذا الإحساس بالاعتزاز بالاختيار ، بأن جعل الصفوة ، سواء كانت معدمة أم لا ، أرستقراطية وراثية : فأبناء الصفوة يصبحون بمشيئة الله[٢٠] من الصفوة ، بطريقة آلية . وهكذا استطاع المرء بعمل بسيط من أعمال الإيمان بالنفس ، ولو كان هذا بالتصور ، أن ينال الفردوس وأن ينفذ إليها . ولمثل هذه النعم الخالدة كان أى اعتراف بالعجز صفقة رابحة .

وكان أتباع كالفن فى حاجة إلى مثل هذا العزاء ، لأنه علمهم وجهة النظر السائدة فى القرون الوسطى ، والتى تذهب إلى أن الحياة الدنيا ليست إلا وادياً للبؤس والدموع ، ورحب فى اغتباط بـ « تصحيح رأيهم الذى اعتبر أن أعظم نعمة ألا يولد المرء ، وأن أعظم نعمة بعدها أن يموت فوراً ، كما أنه لم يكن هناك شيء يتنافى مع العقل فى سلوك هؤلاء الذين كانوا ينوحون ويبكون عند ولادة أقربائهم ، ويبتهجون فى وقار عند تشييع جنازاتهم » ، ولم يأسف إلا لأن هؤلاء المتشائمين العقلاء ، وهم فى الغالب الأعم وثنيون جهلة بالمسيح ، قد حكم عليهم بالخلود فى نار جهنم[٢١] . وكان ثمة شيء واحد يجعل الحياة محتملة — الأمل فى سعادة مطردة بعد الموت . وقال : « إذا كانت السماء بلدنا فما الأرض سوى منفى ؟ وأليست الدنيا لحداً ، إذا كان الرحيل عن هذا العالم معبراً إلى الحياة ؟ »[٢٢] وعلى النقيض من صورة كالفن الشعرية نجد أنه يقدم أبلغ ما سطر من صفحات ، لا فى وصف تخيلات الجحيم ، ولكن فى الحديث عن جمال السماء .

ولسوف تعانى الصفوة التقية ، دون أن تجأر بالشكوى ، كل ما فى

الحياة من آلام وأشجان ، « لأنهم سوف يضعون نصب أعينهم . ذلك اليوم الذى يستقبل فيه الرب عباده المخلصين فى مملكته الوادعة ، ويجفف كل دمعة تتساقط من عيونهم ، ويكسوهم بثياب الفرح ، ويزينهم بتيجان المجد ، ويؤانسهم بمباهج ، لا يمكن التعبير عنها ، ويرفعهم إلى درجة الزمالة لجلالته ، ويدعوهم إلى . . . المشاركة فى سعادته »(٢٣) . ولعل هـــذا كان اعتقاداً لا غنى عنه للفقراء أو التعســاء الذين ينتشرون فى بقاع الأرض . . .

٣ — جينيف وستراسبورج : ١٥٣٦ — ٤١

بينما كان كتاب « القوانين » فى المطبعة (مارس ١٥٣٦) ، قام كالفن برحلة سريعة عبر جبال الألب إلى فرارا ، وذلك متابعة لتقليد مرعى بصفة عامة ، وإن لم ينعقد الإجماع على الخضوع له(٢٤) . ولعله ذهب إلى هناك ليطلب من الدوقة البروتستانتية رينيه ، زوجة الدوق أركول الثانى ، وابنة المرحوم لويس الثانى عشر ، أن تمد يد العون إلى البروتستانت المضطهدين فى فرنسا . وعينته مرشداً روحياً لها ، مدفوعة بقوة معتقداته الدينية ، وذلك عن طريق رسائل تفيض بالاحترام المتبادل ، ظلت موصولة حتى وفاته . وعاد كالفن إلى بازيل فى مايو ، وجازف بالذهاب إلى نويون ليبيع شيئاً من أملاكه ، ثم انطلق مع أخيه وأخته إلى ستراسبورج . وتوقفوا لبعض الوقت فى جنيف ، لأن الطريق كانت مغلقة بسبب الحرب (يوليو ١٥٣٦) .

وكانت عاصمة سويسرة الفرنسية أقدم من التاريخ نفسه . . . كانت فى عصور ما قبل التاريخ مجموعة من مأوى البحيرات ، شيدت فوق أكوام ، لا يزال بعضها يرى حتى اليوم . وكانت فى عهد يوليوس قيصر ملتقى لطرق التجارة عند الجسر ، الذى يخرج عنده نهر الرون مندفعاً من بحيرة ليمان ، ليضرب فى فرنسا بحثاً عن البحر الأبيض المتوسط . وخضعت جنيف فى العصور الوسطى لحكم أسقفها الروحى والدنيوى على السواء . وكان الأسقف

تختاره عادة إدارة الكاتدرائية ، التى أصبحت لذلك السبب قوة لها وزنها فى المدينة ، وتلك كانت بالضرورة الحكومة التى أعادها كالفن فيا بعد ، فى الشكل الذى يساير المذهب البروتستانتى . وتحرر دوقات سافوى ، التى كانت تقع خلف جبال الألب مباشرة ، من سيطرة إدارة الكاتدرائية فى القرن الخامس عشر ، ورقوا إلى منصب الأسقفية الرجال الذين أفادت منهم دوقية سافوى ، وأسلموا أنفسهم إلى ملذات الحياة الدنيا خوفاً من ألا يكون هناك عالم آخر . وفسدت الحكومة الأسقفية ، التى قدر لها أن تكون يوماً من أحسن الحكومات ، كما انحدرت أخلاق رجال الدين ، الذين يعملون تحت إمرتها . ووافق أحد القساوسة على تنفيذ أمر صدر له بطرد محظيته ، بشرط أن يتجرد زملاؤه من رجال الدين مثله من نخوتهم ، ورجحت كفة النخوة[٢٥] .

وفى نطاق هذا الحكم الكهنوتى الدوقى ، كونت العائلات الكبرى بجينيف مجلساً من ستين عضواً ، لإصدار القوانين البلدية ، واختار المجلس أربعة من المأمورين لتنفيذ هذه القوانين ، وكان المجلس يجتمع عادة فى مقر الأسقف لكاتدرائية القديس بطرس ، ولم يكن هناك خط فاصل بين الاختصاص الدينى والاختصاص المدنى ، فبينما كان الأسقف يسك النقود ويقود الجيش ، كان المجلس يضع الضوابط التى تحكم الأخلاق ، ويصدر قرارات الحرمان ، ويرخص للبغايا بالعمل . وكما جرى العرف فى ترير وماينز وكولونيا ، كان الأسقف أيضاً أميراً من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن الطبيعى أنه أخذ على عاتقه القيام بوظائف ، يجد الأسقف نفسه فى حل منها الآن . وسعى بعض الزعماء المدنيين ، برئاسة فرانسوا دى بونيفار ، إلى تحرير المدينة من نير السلطة الأسقفية والسلطة الدوقية معاً . وعقد هؤلاء الوطنيون حلفاً بين فرايبورج الكاثوليكية وبرن البروتستانتية لدعم هذه الحركة . وأطلق على المنضمين لهذا الحلف الاصطلاح الألمانى **Eidgenossen** أى رفقاء القسم وهو لفظ معناه المتحالفون ، وحرفه

الفرنسيون إلى « هوجنوت » . ولما أن حل عام ١٥٢٠ حتى أصبح زعماء مدينة جينيف من رجال الأعمال فى الغالب الأعم ، لأنها كانت على النقيض من فيتنبرج مدينة تجارية ، تتوسط فى التجارة بين سويسرة فى الشمال وإيطاليا فى الجنوب وفرنسا فى الغرب . وألف الأوساط من أهالى مدينة جينيف مجلسا أكبر ، يتكون من مائتى عضو ، واختار هؤلاء مجلساً أصغر يتكون من خمسة وعشرين عضواً ، وهو المجلس الذى أصبح الحاكم الحقيق للبلدية ، وكان يزدرى سلطة الأسقف وسلطة الدوق على السواء . وأعلن الأسقف أن المدينة فى حالة تمرد ، واستدعى الفرق الدوقية لمساعدته ، فما كان من هذه الفرق إلا أن استولت على بونيفار ، وسجنته فى قصر شيلون ، وخف جيش مدينة برن إلى نجدة مدينة جينيف المحاصرة ، وهزمت قوات الدوق ، وتشتت شملها ، وفر الأسقف إلى أنيسى ، وتحرر بطل الشاعر بيرون من غياهب سجنه . وغضب المجلس الأكبر من مساعدة رجال الدين لدوقية سافوى ، فأعلن عقيدة الإصلاح الدينى ، وتولى اختصاص رجال الدين وولاية السلطة المدنية فى المدينة (١٥٣٦) ، قبل وصول كالفن بشهرين .

وكان البطل العقيدى لهذه الثورة هو ويليام فاريل . وكان مثل لوثر ، ورعاً جداً فى شبابه . وأقبل إلى باريس متأثراً بجاك ليفيفر ديتابل ، الذى أزعجت ترجمته للكتاب المقدس وتفسيره له تزمت فاريل ، لأنه لم يجد أى أثر فى نصوص الكتاب المقدس للبابوات والأساقفة وصكوك الغفران والمطهر والشعائر السبع والقداس والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت وعبادة مريم أو القديسين . وأنف من رسالة رجال الكهنوت ، فانطلق يجول من مدينة إلى مدينة فى فرنسا وسويسرة ، بصفته واعظاً مستقلا ، وكان ضئيل القامة ضعيف البنية جهورى الصوت قوى الروح ، له عينان متقدتان تبرقان فى وجهه الشاحب ، ولحية حمراء كاللهب ، وندد بالبابا ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، كما ندد بالقداس ، واعتبره انتهاكاً للحرمات المقدسة ، وبأيقونات الكنيسة باعتبارها من الأوثان ، التى يجب أن تحطم ، وبدأ عام

١٥٣٢ الوعظ فى جنيف ، وقبض عليه عملاء الأسقف ، الذى رأى أن يلقى « الكاب اللوثرى » فى نهر الرون ، فتوسط المأمورون وهرب فاريل ، بعد أن أصيب ببضع سحجات فى رأسه ، وتلوثت سترته بشىء من البصاق . وكسب إلى صفه مجلس الخمسة والعشرين ، وأثار بمساعدة بيير فبريه وأنطوان فرومان الناس ، ونال الكثير من التأييد الشعبى ، مما دفع كل رجال الدين الكاثالكة تقريباً إلى الرحيل . وأصدر المجلس الصغير يوم ٢١ مايو عام ١٥٣٦ مرسوماً بإلغاء القداس ، وإزالة كل التماثيل ومخلفات القديسين من الكنائس ، وحولت ممتلكات الكنيسة للوفاء باحتياجات البروتستانت الدينية ، وإلى وجوه البر والتعليم ، وجعل التعليم إجبارياً وبالمجان ، وسيطر نظام أخلاقى صارم سيطرة القانون .

ودعى المواطنون لأن يقسموا على الولاء للإنجيل ، أما الذين رفضوا حضور الصلوات طبقاً لمبادئ الإصلاح الدينى فقد نفوا من البلاد[٢٦] . تلك هى جنيف التى أقبل إليها كالفن .

وكان فاريل وقتذاك فى السابعة والأربعين من عمره ، وعلى الرغم من أنه قدر عليه أن يعيش عاماً بعد كالفن ، فإنه رأى فى الشاب الصارم الفصيح ، الذى يصغره بعشرين عاماً ، الرجل الذى تشتد الحاجة إليه لدعم الإصلاح الدينى ودفع عجلته إلى الأمام . وكان كالفن متردداً ، إذ كان قد رسم لنفسه حياة ، يقضيها فى البحث العلمى والكتابة ، وكان يحس بالطمأنينة مع الله أكثر مما يحس بها مع الناس ، ولكن فاريل ، بطلعته التى تشبه طلعة نبى راعد من أنبياء الإنجيل ، هدد بأن يصب عليه لعنة الله ، إذا آثر دراساته الخاصة على التبشير الصعب والخطير بالكلمة التى لم يتطرق إليها الوهن .

وأذعن كالفن ، ووافق المجلس ومشيخية الكنيسة ، وبدأ خدمته الدينية ، دون التقيد بأى رسامة أخرى — بأن ألقى فى كنيسة القديس بطرس

أولى خطبه العديدة عن رسائل القديس بولس . وكان تأثير بولس فى كل مكان ، يدين بالبروتستانتية ، اللهم إلا بين الطوائف المتطرفة من الناحية الاجتماعية ، يحجب تأثير بطرس المؤسس الذائع الصيت لكرسى البابوية الرومانى .

وفى أكتوبر سافر كالفن برفقة فاريل وفيريه إلى لوزان ، واضطلع بدور صغير فى الجدل الشهير الذى كسب المدينة إلى صف المعسكر البروتستانتى ، ولدى العودة إلى جينيف شرع كهان أبرشية القديس بطرس ، الكبار والصغار ، فى هداية أهالى جينيف لله . وتقبلوا بإخلاص الإنجيل ، باعتباره تنزيلا من لدن الله ، وشعروا بأن عليهم التزاماً لا فكاك منه لدعم شريعته . وراعهم أن وجدوا أن كثيراً من الناس قد أسلموا أنفسهم للغناء والرقص وما أشبه من مظاهر الطرب . وفضلا عن هذا فان بعضهم كان يقامر أو يشرب إلى درجة السكر البين ، أو يقارف الزنا .

وكان قسم بأكمله من المدينة تحتله بغايا ، تحكمهن ملكة الماخور ، وكان قبول هذا الموقف بالبشر من فاريل السريع الغضب ، وكالفن الحى الضمير ، بمثابة خيانة للرب .

وأصدر فاريل « إقراراً بالعقيدة والنظام » ، كما أصدر كالفن « عظة » سهلة الفهم ، أقرها المجلس الكبير (نوفمبر سنة ١٥٣٦) ، لكى يستعيدا الأساس الدينى لأخلاقيات مثمرة . وكان المواطنون الذين يصرون على مخالفة القانون الأخلاقى ، يحرمون من الغفران ، وينفون إلى خارج البلاد ، وأصدر المجلس فى يوليه عام ١٥٣٧ أمراً لجميع المواطنين ، بأن يذهبوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وأن يقسموا على الولاء لإقرار فاريل .

وكان أى مظهر ينم على الكاثوليكية — مثل عمل مسبحة ، أو الاعتزاز بإحدى المخلفات المقدسة ، أو اعتبار عيد قديس يوماً مقدساً ، يعرض من يبدر منه للعقاب . وسجنت النساء لارتدائهن قبعات غير لائقة . وكان بونيفار

جد سعيد ، بما ينعم به من إباحية ، ولكنه حذر بأن يمتنع عن ممارسة أساليبه الداعرة . وصفد المقامرون بالأغلال ، وسيق مقترفو الزنا فى الشوارع إلى المنفى .

ولما كان أهالى جينيف قد تعودوا على الخضوع لحكم كنسى ، كان يقوم على نظام أخلاقى ، يتسم بالرفق ، فرضته كاثوليكيـــة خففت من شدتها الأقاليم الجنوبية ، فإنهم قاوموا التحلل الجديد من الواجبات . ونظم الوطنيون ، الذين حرروا المدينة من الأسقف والدوق ، أنفسهم من جديد ، لتحريرها من قساوستها المتزمتين . وانضمت طائفة أخرى تطالب بحرية الضمير والعبادة ، ومن ثم أطلقت على نفسها اسم المتحررين أو الأحرار إلى الوطنيين والكاثوليك الذين يمارسون شعـــيرتهم فى الخفاء ، وحصل هذا الائتلاف فى انتخابات ٣ فبراير عام ١٥٣٨ على أغلبية فى المجلس الكبير . وأبلغ المجلس الجديد القساوسة أن عليهم أن يبتعدوا عن السياسة ، فندد كالفن وفاريل بالمجلس ، ورفضا أن يناولا العشاء الربانى حتى تتواءم المدينة الثائرة مع النظام المرتكز على القسم ، فما كان من المجلس إلا أن خلع كاهنى الأبرشية (٢٣ أبريل) ، وأمرهما بمغادرة المدينة فى خلال ثلاثة أيام . واحتفل الناس بطردهما وسط مظاهر التهليل والابتهاج[٢٧] . ولبى فاريل دعوة إلى نويشاتل ، وهناك ظل يقدم عظاته إلى آخر يوم فى حياته (١٥٦٥) ، وأقيم هناك نصب تذكارى تخليداً لذكراه .

وذهب كالفن إلى ستراسبورج ، وكانت وقتذاك مدينة حرة لا تخضع إلا للإمبراطور ، وتدير شئونها الدينية كنيسة الغرباء ، وجماعة المصلين فيها بروتستانت ، جاءوا من فرنسا بصفة خاصة . ولكى يدبر أموره بمبلغ الاثنين وخمسين جيلدر (١,٣٠٠ دولار ؟) ، الذى كانت تدفعه له الكنيسة كل عام ، باع مكتبته ، وقبل عنده نزلاء من الطلبة . ووجد أن العزوبة لا تلائمه فى موقفه هذا ، فطلب من فاريل وبوسر أن يبحثا له عن زوجة ،

وقدم لهما بياناً بالصفات التى ينشدها ، وقال : « لست من هؤلاء العشاق المخبولين ، الذين يفتنهم وجه جميل لامرأة ، فيتجاوزون أيضاً عن أخطائها ، وهاهو الجمال الذى يغرينى — أن تكون عفيفة كريمة غير متأنقة ، اقتصادية صبوراً حريصة على صحتى »(٢٨) .

وبعد أن قام بمحاولتين فاشلتين تزوج (١٥٤٠) من إيديليت دى بور ، وهى أرملة فقيرة لها سبعة أطفال ، فأنجبت منه ابناً واحداً مات فى سن الطفولة . وعندما قضت نحبها (١٥٤٩) كتب يرثيها برقة خاصة كانت تغلفها قسوته الظاهرة . وعاش وحيداً فى بيته الخمسة عشر عاماً المتبقية من حياته .

وبينما كان يشقى فى شتراسبورج ، تحركت الأحداث فى جينيف . وتشجع الأسقف المنفى عند ما علم بطرد فاريل وكالفن . ووضع خطة لعودة مظفرة إلى كاتدرائيته ، وقام بخطوة مبدئية . فأقنع ايا كوبو سادوليتو بأن يكتب « رسالة إلى أهالى جينيف » . « يحثهم فيها على أن يستأنفوا عباداتهم ، طبقاً للعقيدة الكاثوليكية » (١٥٣٩) . وكان سادوليتو رجلا مهذباً يتمتع بخلق قويم ، لم يعهده الناس فى كاردينال أو عالم بالإنسانيات ، وكان قد أشار من قبل على البابوية أن تعالج انشقاق البروتستانت برفق ، واستقبل فى مدينة كاربنتراس فيما بعد هراطقة والدانيين فارين من المذبحة ، وأسبغ عليهم حمايته (١٥٤٥) ، وكتب رسالة بلاتينية رفيعة ، تعلمها من بمبو المعصوم ، وجهها إلى إخوته الأعزاء المحبوبين . حكام جنيف وشيوخها والمواطنين فيها ، وتتألف الرسالة من عشرين صفحة ، تحفل بالمجاملات الدبلوماسية والترغيب اللاهوتى ، ولاحظ انقسام البروتستانت إلى طوائف متحاربة يتزعمها ، كما يدعى ، رجال ماكرون ، يتشوفون إلى السلطة ، وقارن هذا بوحدة الكنيسة الرومانية ، التى دامت قروناً طويلة ، وتساءل هل من المحتمل أن يكون الحق مع تلك الأحزاب المتعارضة أكثر منه مع عقيدة كاثوليكية أثمرتها خبرة عصور واحتشاد ذكاء المجالس

الكنسية . وختم رسالته بأن عرض على مدينة جينيف ، أنه على استعداد للقيام بأية خدمة فى مقدوره .

وشكره المجلس على تحيته له ، ووعده بالمزيد من الاستجابة لمطالبه ، بيد أنه لم يكن فى جينيف أحد ، يأخذ على عاتقه ، أن يرفع السيف فى وجه عالم الإنسانيات المهذب ، أو يجاريه فى لاتينيته . وفى غضون ذلك طلب عدد من المواطنين أن يتحللوا من قسمهم ، على أن يؤيدوا إقرار العقيدة والنظام ، وخيل للناس فترة ما أن المدينة سوف تعود إلى اعتناق الكاثوليكية . وكان كالفن مدركاً للموقف ، فخف للرد على الكاردينال ، وحشد كل ما يملك من طاقة ذهنية ، وشرع قلمه للدفاع عن الإصلاح الدينى . وواجه الدماثة باللطف ، والبلاغة بالبلاغة ، ولكنه لم يتنازل قيد أنملة عن أى مبدأ من مبادئ لاهوته ، واحتج ضد إقحامه فى النزاع ، بدعوى أنه إنما ثار مدفوعاً بطموح شخصى ، فقد كان فى وسعه أن ينعم بالمزيد من الطأنينة ، لو ظل محافظاً على العقيدة . وسلم بأن الكنيسة الكاثوليكية تستند إلى أساس إلهى . ولكنه هاجمها ، وقال إن مثالب بابوات عصر النهضة قد أثبتت استيلاء المناهض للمسيحية على عرش البابوية . واعترض على حكمة المجالس الكنسية بحكمة الكتاب المقدس ، التى كان سادوليتو قد تجاهلها أو كاد ، وأسف لأن فساد الكنيسة أدى إلى الانشقاق والانقسام ، ولكن القضاء على الشرور لا يتم إلا على هذا النحو . وإذا ما تعاون الكثالكة والبروتستانت الآن ، لتطهير العقيدة والشعيرة والعاملين بكل الكنائس المسيحية ، فإن جزاءهم وحدة أبدية فى السماء مع المسيح . وكان خطاباً قوياً ولعله أغفل الفضائل العارضة لبابوات عصر النهضة ؛ إلا أن عباراته صيغت بأسلوب رصين ، لا يخلو من المجاملة ، وهو أمر نادر فى مناظرات هذا العهد .

وعند ما اطلع عليه لوثر فى فيتنبرج ، رحب به على أساس أنه سيقضى تماماً على الكاردينال ، وهتف قائلا : « لشد ما يطربنى أن يهيئ الله أناساً . . . ينهون الحرب ، التى بدأتها ضد المناهض للمسيحية »[٢٩] . وتأثر

مجلس جنيف إلى حد أنه أمر بطبع الخطابين على نفقة المدينة (١٥٤٠)، وبدأ يتساءل ما إذا كان، بنفيه كالفن، قد فقد أقدر رجل في الإصلاح الديني السويسري.

وغذت الشك عوامل أخرى. فقد برهن كاهنا الأبرشية، اللذان حلا محل فاريل وكالفن، على أنهما لا يصلحان للوعظ، ويفتقران إلى النظام. وفقد الجمهور احترامه لهما، وعاد إلى الأخلاق المنحلة، التي كانت سائدة في الأيام السابقة للإصلاح الديني. وتفشيت المقامرة والسكر، واشتدت الجلبة في الشوارع. وانتشر الزنا، وكان الناس يرفعون عقائرهم علناً بالأغاني الداعرة. وانطلق أشخاص في الشوارع، عراة كما ولدتهم أمهاتهم[٣٠]. ولقد حكم بالإعدام على واحد من المأمورين الأربعة، الذين تزعموا حركة طرد فاريل وكالفن، وذلك لارتكابه جريمة قتل، وعلى آخر لارتكابه جريمة تزوير، وعلى ثالث بتهمة الخيانة للوطن. أما الرابع فقد مات، وهو يحاول الفرار من الاعتقال. ولا بد أن رجال الأعمال، الذين كانوا يسيطرون على المجلس، قد ساءهم هذا الإخلال بالنظام، باعتباره معوقاً للتجارة. ولم يكن المجلس نفسه ميالا إلى أن يحل محله أسقف، يستعبد سلطانه، وربما يصدر قراراً بحرمانهم من غفران الكنيسة. وهكذا خطرت فكرة دعوة كالفن لغالبية الأعضاء شيئاً فشيئاً. وفي يوم أول مايو ألغى المجلس قرار النفي، وأعلن أن فاريل وكالفن رجلان جديران بالاحترام. وأرسل مندوب إثر مندوب إلى شتراسبورج، لإقناع كالفن باستئناف عمله في الأبرشية بجنيف. وغفر فاريل للمدينة لأنها لم ترسل له دعوة مماثلة. وفي كرم نبيل انضم إلى المندوبين لحث كالفن على العودة. ولكن كالفن كان قد عرف كثيراً من الأصدقاء في شتراسبورج، وشعر بأن عليه التزامات هناك، ورأى أنه لن يجد أمامه في جنيف إلا الخصام، وقال: «ليس في العالم مكان أخشاه أكثر منها». ووافق على القيام بزيارة للمدينة فحسب. وعندما وصل إليها (١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١) قوبل

بكثير من مظاهر التكريم ، وقدمت له عشرات الاعتذارات ، وبذلت له الكثير من الوعود ، بالتعاون معه فى توطيد النظام ، والعمل بالإنجيل فلم يطاوعه قلبه على الرفض ، وكتب فى ١٦ سبتمبر إلى فاريل يقول : « لقد تحققت أمنيتك . أنا هنا راسخ كالطود . وأسأل الله أن يمنحنا بركته »(٣١) .

٤ — مدينة الله

كان سلوك كالفن فى السنوات الأولى من دعوته ، يتسم بالاعتدال والتواضع فكسب إلى صفه الجميع ، إلا أقلية ضئيلة ، وعين ثمانية من مساعدى القسس للعمل تحت رئاسته لتقويم الخدمة الدينيـة فى كنيسة القديس بطرس وغيرها من كنائس المدينة ، وكان يعمل مدة تتراوح بين اثنى عشرة ساعة وثمانى عشرة ساعة كل يوم ، واعظاً ومدرباً وأستاذاً للاهوت ، ومشرفاً على الكنائس والمدارس ، ومستشاراً للمجالس البلدية ، وضابطاً للأخلاق العامة ، ومنظماً للطقوس الدينية فى الكنيسة . وعكف فى غضون ذلك على إضافة فصول لكتابه « القوانين » ، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس ، وحافظ على كتابة رسائل تأتى من حيث القيمة بعد رسائل أرازموس ، وإن كانت تفوقها تأثيراً . . . ولم يكن ينام إلا قليلا ويأكل قليلا ، ويصوم كثيراً . وعجب خلفه وكاتب سيرته ، تيودور دى بيز ، كيف استطاع ذلك الرجل الضئيل الجسم ، أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل المتنوع .

وكان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم الكنيسة ، التى تناولها الإصلاح ، وعين المجلس الصغير ، بناء على طلبه ، وعقب عودته لفترة قصيرة ، لجنة من خمسة من رجال الدين ، وستة من أعضاء المجلس ، يرأسهم كالفن . لصياغة قانون كنسى جديد . وفى اليوم الثانى من يناير عام ١٥٤٢ أجاز المجلس القوانين الكنسية ، التى لا تزال الكنائس التى تناولها الإصلاح والمشيخية فى أوربا وأمريكا تقبل معالمها الجوهرية . وقسمت الخدمة الدينية على كهان أبرشيات ومعلمين ، شيوخ كنيسة من العلمانيين وشمامسة ،

وألف كهان الأبرشيات فى جينيف « الجماعة المبجلة » ، التى حكمت الكنيسة ، ودربت المرشحين للخدمة الدينية . ولم يسمح كذلك لأحد بالوعظ فى جينيف ، دون أن يخول ذلك من الجماعة ، وكان الأمر يتطلب أيضاً موافقة مجلس المدينة وجماعة المصلين ، إلا أن الرسامات الأسقفية — وتنصيب الأساقفة — كانت محظورة .

وأصبح القساوسة الجدد ، تحت رئاسة كالفن ، أقوى منهم فى أى نظام للقساوسة عرف منذ عهد إسرائيل القديمة ، وذلك فى الوقت الذى لم يدعوا فيه قط أنهم وهبوا القوى الخارقة للقساوسة الكاثوليك ، وعلى الرغم من أنهم أصـــدروا على أنفسهم حكماً بأنهم لا يصلحون للوظيفة المدنية . وقال كالفن إن القانون الحقيقى لدولة مسيحية يجب أن يكون هو الكتاب المقدس ، وأن القساوسة هم المفسرون الحقيقيون لذلك القانون ، وأن الحكومات المدنية يجب أن تخضع لهذا القانون ، وأن تدعمه كما يفسره رجال الدين . ولعل الرجال المتمرسين فى المجالس قد راودتهم بعض الشكوك ، فى هذه النقاط ، ولكن يبدو أنهم شعروا بأن النظام الاجتماعى أجدى للاقتصاد ، ومن هنا فإن بعض الدعاوى الكنسية يحسن أن تترك مؤقتاً دون اعتراض ، والظاهر أن حكومة رجال الدين ظلت تسيطر على حكومة أقلية من التجار ورجال الأعمال خلال ربع قرن عجيب .

ومارس رجال الدين سلطتهم على حياة أهالى جينيف من خلال مجمع للكرادلة أو مشيخية مكونة من خمسة من كهنة الأبرشية واثنى عشر شيخاً للكنيسة من العلمانيين ، والجميع يختارهم المجلس .

وبينما كان كهنة الأبرشية يتمسكون بحقهم فى المنصب ، من خلال خدمتهم الدينية ، وشيوخ الكنيسة يظلون فى مناصبهم عاماً واحداً فقط ، فان مجمع الكرادلة كان يحكمه أعضاؤه من رجال الدين فى أمور لا تمس الأعمال بصورة جوهرية . وادعى لنفسه الحق فى تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الأخلاقى على كل ساكن ، وأرسل قسيساً وشيخاً للكنيسة ، لكى

يزورا سنوياً كل بيت وكل أسرة . وكان له الحق فى استدعاء أى شخص للمثول أمامه ، لاختباره ، وكان فى وسعه زجر الآثمين ، أو حرمانهم من الغفران علناً ، وكان يستطيع أن يعتمد على المجلس فى أن ينفى عن المدينة من أصدر عليهم مجمع الكرادلة قراراً بالحرمان من غفران الكنيسة . وكان كالفن يقبض على زمام السلطة ، باعتباره رئيساً لهذا المجمع . وكان صوته أقوى الأصوات تأثيراً فى جينيف ، من عام ١٥٤١ حتى وفاته فى عام ١٥٦٤ . ولم يكن حكمه المطلق يستند إلى القانون أو سوة ، ولكنه كان يعتمد على الإرادة والخلق . ولقد أضفت عليه قوة إيمانه برسالته ، وكمال إخلاصه لواجباته ، قوة لم يستطع أحد أن ينجح فى مقاومتها ولوأن هيلدبراند بعث من قبره لطرب أيما طرب لهذا الانتصار الواضح للكنيسة على الدولة .

هكذا خول رجال الدين سلطات ، أتاحت لهم أن ينظموا أولا العبادات . « على جميع أفراد الأسرة أن يحضروا العظات يوم الأحد ، ما عدا من يتركون فى البيت ، لرعاية الأطفال أو الماشية . وإذا كان ثمة وعظ فى أيام الأسبوع ، فعلى كل من يستطيع الحضور أن يجيء » « كان كالفن يلقى عظاته ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع » « وإذا جاء أحد بعد ابتداء العظة فلينذر . وإذا لم يقوّم نفسه ، فليدفع غرامة قدرها ثلاثة فلسات »[٣٢] . وليس لأحد أن يعفى من أداء الصلوات البروتستانتية ، بحجة أنه يعتنق عقيدة دينية مخالفة ، أو خاصة ، وكان كالفن مدققاً ، مثل أى بابا ، فى رفضه الفردية فى العقيدة . ولقد رفض أعظم مشرع للبروتستانتية ذلك المبدأ الخاص بالحكم الفردى ، الذى كان الدين الجديد قد بدأه . كان قد رأى انقسام الإصلاح الدينى إلى مائة طائفة ، وعرف مسبقاً أكثر من هذا ، وقرر ألا يسمح بوجود طائفة منها فى جينيف . إن هناك هيئة من رجال الدين العلماء ، تصوغ عقيدة رسمية ، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من أهالى جينيف ، أن يبحثوا لهم من مواطن أخرى . وكان التغيب فى إصرار عن حضور الصلوات البروتستانتية ، أو الاستمرار فى رفض تناول القربان المقدس ، من الجرائم

التي يعاقب عليها القانون . وأصبحت الهرطقة من جديد إهانة للرب ، وخيانة للدولة ، وكل من تثبت عليه يعاقب بالإعدام . كما أصبحت الكاثوليكية التي بشرت بهذا الحكم على الهرطقة بدورها هرطقة .

وبين عامي ١٥٤٢ و ١٥٦٤ نفذ حكم الإعدام في ثمانية وخمسين شخصاً ، ونفي ستة وسبعون ، بسبب مخالفتهم للقانون الجديد . وكان السحر هنا كما في أي مكان آخر جريمة يعاقب من يزاوله بالإعدام ، ولقد أرسل إلى سارية الإحراق في عام واحد ، وبناء على ما أشار به مجمع الكرادلة ، أربع عشرة سيدة ، قيل أنهن من الساحرات ، بتهمة إغرائهن للشيطان ، بأن يصيب جينيف بوباء الطاعون(٢٣) .

ولم يميز مجمع الكرادلة إلا قليلا بين الدين والأخلاق . . . كان السلوك الأخلاقي ، ومثله في ذلك مثل العقيدة الدينية ، يجب أن يلتزم بعناية ، ذلك لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة . وكان كالفن ، وهو رجل حازم قوي المراس ، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم ، إلى حد تبرهن فضائله على لاهوته ، وتجلل بالعار الكاثوليكية ، التي أثمرت حياة الترف والانحلال في روما ، أو تسامحت فيهما . ولا بد أن يكون النظام العمود الفقري للشخصية ، وأن يمكنها من أن ترقى بنفسها ، من وحدة الفطرة البشرية ، إلى استقامة الإنسان الذي قهر شهوات نفسه . يجب أن يكون رجال الدين قدوة لغيرهم ، بسلوكهم وبإدراكهم الحسي . ولهم أن يتزوجوا وأن ينجبوا ، وعليهم أن يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة وضروب التسلية الزمنية ، وأن يقبلوا أن يقوم رؤساؤهم من رجال الكنيسة بجولة تفتيشية سنوية ، وأن يتقصوا عن أخلاقهم .

ولتنظيم سلوك الجماهير أقيم نظام ، يعتمد على الزيارات المنزلية ، يتلخص في أن أحد شيوخ الكنيسة أو غيره ، كان يزور سنوياً كل بيت عين له في الحي ، ويسأل السكان عن مراحل حياتهم كلها . وانضم مجمع الكرادلة

والمجلس إلى إقرار تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتردد على الحانات والرقص (الذى كان وقتذاك يعنف بالقبلات والأحضان) ، والأغانى الماجنة أو الخارجة على الدين ، والإفراط فى اللهو ، والبذخ فى العيش ، والتبذل فى اللبس . وحدد القانون اللون المسموح به فى الملابس ومقدارها ، وعدد الأطباق المسموح بها فى الوجبة الواحدة . وكانت الحلى والمخرمات تقابل بالتجهم . وسجنت امرأة ، لأنها صففت شعرها إلى ارتفاع يتنافى مع الأدب[٣٤] . واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثيليات الدينية ثم منعت هذه أيضاً . وكان الأطفال لا يسمون بأسماء القديسين — الواردة فى التقويم الكاثوليكى ، ولكن فضل أن يطلق عليهم أسماء شخصيات ، ذكرت فى العهد القديم ، واشتغل والد عنيد أربعة أيام فى السجن ، لأنه أصر على تسمية ابنه كلود بدلا من أبراهام[٣٥] . وفرضت الرقابة على المطبوعات ، طبقاً لسوابق كاثوليكية وعلمانية ، وتوسع فيها (١٥٦٠) : فقد حُظر تداول كتب تتناول عقيدة دينية خاطئة ، أولها نزعة تتنافى مع الخلق القويم ، وقدر لمقالات مونتانى وكتاب « أميل » لروسو أن تقع تحت طائلة هذا الحظر . وكان الحديث عن كالفن أو رجال الدين بازدراء يعد جريمة[٣٦] ، وأول مخالفة لهذه القوانين كانت تعاقب بالزجر ، أما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات ، والإصرار على المخالفة بالسجن أو النفى . أما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفى أو بالموت غرقاً ، ومن يرتكب جريمة الزنا أو الكفر أو عبادة الأوثان يعاقب بالإعدام . وفى مثل خارج على القياس قطعت رأس طفل ، لأنه ضرب والديه[٣٧] . وفى عامى ١٥٥٨ — ٥٩ رفعت ٤١٤ دعوى بسبب جرائم أخلاقية ، وبين عامى ١٥٤٢ و ١٥٥٦ أقصى عن البلاد ستة وسبعون شخصاً ، ونفذ حكم الإعدام فى ثمانية وخمسين ، وكان التعداد الكلى لسكان مدينة جينيف وقتذاك حوالى ٢٠,٠٠٠ نسمة[٣٨] . وكثيراً ما استخدم التعذيب وسيلة للحصول على اعترافات أو دليل ، كما كان يحدث فى كل مكان فى القرن السادس عشر .

وامتد التنظيم إلى التعليم والمجتمع وإلى الحياة الاقتصادية ، وأسس كالفن مدارس وأكاديمية ، وبحث فى أرجاء أوربا عن مدرسين للغات اللاتينية واليونانية والعبرية وللاهوت ، ودرب قساوسة من الشبان حملوا إنجيله إلى فرنسا وهولندة وسكوتلاندة وانجلترا ، بكل ما اتصف به المبشرون اليسوعيون من حمية وإخلاص فى آسيا ، وأرسلت مدينة جنيف فى خلال أحد عشر عاماً (١٥٥٥ — ٦٦) ١٦١ مبعوثاً من أمثال هؤلاء إلى فرنسا ، أنشد الكثير منهم المزامير الهوجنوتية ، وهم يتعرضون للاستشهاد ، ورأى كالفن أن التقسيم الطبقى أمر طبيعى ، وأسبغ تشريعه الحماية على الرتبة والمنصب ، بفرض نوع من اللباس ، ووضع حدود لنشاط كل طبقة[٣٩] . كان على كل شخص أن يتقبل وضعه فى المجتمع ، وأن يؤدى واجباته ، دون حسد لمن هم خير منه ، أو شكوى من سوء حظه . وحُظر التسول ، واستبدل ، بالإحسان دون أى تمييز ، إدارة جماعية ، تتسم بالعناية للمساعدات التى تقدم للتفريج عن الفقراء .

والتزم مذهب كالفن بالعمل الشاق والرصانة والاجتهاد والاعتدال فى النفقة ، وأصبح الاقتصاد قانوناً دينياً ، يحلل بالغار رأس المعتصم به ، ولعل ذلك هو الذى أسهم فى تطوير ما فطر عليه رجل الأعمال البروتستانتى الحديث ، من المثابرة على العمل ، ولقد بولغ فى تأكيد أهمية[٤٠] هذه العلاقة ، إذ كانت الرأسمالية قد نمت فى فلورنسا والفلاندرز الكاثوليكيتين قبل الإصلاح الدينى إلى درجة أكبر مما حدث فى جنيف مدينة كالفن . ورفض كالفن المذهب الفردى فى الاقتصاديات كما رفضه فى الدين والأخلاق .

وكانت وحدة المجتمع ، فى رأيه ليست الفرد الحر (الذى بدأ به لوثر ثورته) ، ولكن مجتمع دولة المدينة ، التى ارتبط أعضاؤها بها بقانون حازم ونظام صارم . وكتب يقول ، ليس لأحد من أعضاء الجماعة المسيحية أن يحتفظ بمواهبه لنفسه ، وأن يقصرها على استعماله الخاص ، بل

يجب أن يشرك فيها زملاءه من الأعضاء ، وليس له أن يجنى فائدة إلا من تلك الأشياء ، التى تنشأ من النفع العام للهيئة ، باعتبارها كلا لا يتجزأ »(٤١) « ولم يكن يظهر أى عطف نحو المضاربة لجمع المال أو تكديسه بصورة جائزة(٤٢) » وسمح بتقاضى فائدة على القروض مثل بعض أصحاب النظريات الكاثوليكية فى أواخر القرون الوسطى ، ولكنه حدد الفائدة نظرياً بخمسة فى المائة ، وحث على منح قروض ، دون تقاضى أية فائدة ، إلى الأفراد المعوزين أو الدولة(٤٣) . وعاقب مجمع الكرادلة ، بموافقته ، المحتكرين والمستغلين والمقرضين الذين يتقاضون فوائد باهظة ، وحـــدد المجمع أسعار الطعام والملابس وأجور العمليات الجراحية ، وذم التجار الذين غشوا عملاءهم أو فرض عليهم غرامات ، والبائعين المطففين الذين إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون ، وبائعى الأقمشة الذين يختلسون من الأثواب(٤٤) . وكان النظام أحياناً يسير نحو اشتراكية الدولة . فقد أسست الجماعة الموقرة مصرفاً وأدارت بعض الصناعات(٤٥) .

وإذا وضعنا فى أذهاننا هذه العوامل المقيدة ، فإننا قد نسلم بوجود اتفاق ودى صامت ومتزايد بين مذهب كالفن والعمـــل والتجارة ، وما كان فى وسع كالفن أن يحتفظ طويلا بزعامته ، لو أنه عاق النمو التجارى فى مدينة تعتمد فى حياتها على التجارة . وهيأ نفسه للموقف ، وسمح بتقاضى فائدة قدرها عشرة فى المائة ، وأوصى بمنح قروض للدولة ، لتمويل صناعة خاصة ، تدخل لأول مرة ، أو للتوسع فيها ، كما حدث فى صناعة النسيج أو فى إنتاج الحرير . ومالت المراكز التجارية، مثل أنتورب وأمستردام ولندن توا للدين الجديد ، الذى تقبـــل الاقتصاد الحديث . وطوى مذهب كالفن فى أحضانه الطبقات الوسطى ونما بنموهم .

وماذا أسفر عنه حكم كالفن ؟ لا بد أن الصعوبات التى واجهت التنفيذ كانت هائلة ، لأنه لم يحدث قط فى التاريخ أن طولبت مدينة بمراعاة مثل هذه الفضيلة الصارمة ، وعارض فريق كبير نظام الحكم إلى درجة إعلان

الثورة الصريحة . ولكن لا بد أن عدداً لا يستهان به من المواطنين ذوى النفوذ قد أيدوه . ولو على أساس النظرية العامة للأخلاق . لأن آخرين كانوا فى حاجة إليها . وليس من شك فى أن تدفق الهوجنوت الفرنسيين وغيرهم من البروتستانت قد أطلق يد كالفن ، ثم أن قصر التجربة على مدينة جينيف وما وراءها قد رفع من فرص النجاح . ولا شك أن الخوف المتواتر من غزو الدول المعادية لها (سافوى وإيطاليا وفرنسا والإمبراطورية) وامتصاصها قد فرض الاستقرار السياسى والخضوع المدنى . ورفع الخطر الخارجى من شأن النظام الداخلى . وعلى أى حال فإن لدينا وصفاً حماسياً للنتائج التى أسفر عنها هذا الحكم ، بقلم شاهد عيان هو برناردينو أوكينو ، وهو إيطالى بروتستانتى ، وجد ملجأ فى مدينة جينيف .

« إن السب والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة ، كما يشيع ويغلب ذلك فى كثير من الأماكن التى عشت فيها ، غير معروفة هنا . ليس هناك قوادون ومومسات . إن الناس لا يعرفون ما هو الأحمر ، وكلهم يرتدون زيا لائقاً ، والألعاب التى تعتمد على الحظ ليست مألوفة . والخير جد وفير إلى حد أن الفقراء ليسوا فى حاجة إلى التسول . والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف بطريقة أخوية كما فرض المسيح .

والدعاوى اختفت من المدينة ولم يعد فيها أى اتجار بالمقدسات أو قتل أو روح حزبية ، وعمها السلام وحب الخير . ومن جهة أخرى ليس هناك آلات أرغن ولا أجراس تدق ولا أغانى استعراضية ولا شموع تشعل أو مصابيح تضاء (فى الكنيسة) وليس هناك مخلفات مقدسة أو صور أو تماثيل أو مظلات أو أثواب فاخرة أو هزليات أو احتفالات باردة . إن الكنائس خالية تماماً من عبادة الأوثان »(٤٦) .

ولا تتفق سجلات المجلس المستفيضة عن هذا العهد ، مع هذا التقرير ،

فهى تكشف عن نسبة مئوية عالية من الأطفال غير الشرعيين والأطفال المهجورين والزيجات التى تمت بالإكراه والأحكام الصادرة بالإعدام(٤٧) . ومن بين من أدينوا بالزنى صهر(٤٨) كالفن وابنة زوجته . ولكننا نجد مرة أخرى حوالى عام ١٦١٠ فالينتين أندريا وهو قسيس لوثرى من فيتنبرج يثنى على مدينة جنيف ثناء لا يخلو من الحسد ويقول : «عند ما كنت فى جينيف لاحظت شيئاً عظيماً سوف أذكره وأتشوف إليه ما حييت . فى تلك المدينة ليس هناك نظام كامل لجمهورية كاملة فحسب . ولكن هناك نظام أخلاقى يقوم باستقصاءات أسبوعية عن سلوك المواطنين بل وعن أقل عمل يتجاوزن به الحدود ، وذلك كحلية خاصة . . . وكل السباب والتجديف والقمار والترف والشقاق والكراهية والغش محظورة ، وفى الوقت نفسه لا يسمع أحد عن الكبائر . فأية صفة مجيدة يتحلى بها الدين المسيحى أعظم من مثل هذه الطهارة فى الأخلاق . إننا يجب أن نبكى وننوح على أننا (الألمان) نفتقد هذه الصفات وأنها أهملت عندنا كلية .

ولولا ما بيننا من خلاف فى الدين لربطت نفسى بمدينة جيفيف إلى الأبد(٤٩) .

٥ — معارك كالفن

اتسقت شخصية كالفن مع لاهوته . وتصوره اللوحة الزيتية المحفوظة فى مكتبة الجامعة بجنيف رجلا صوفياً صارماً حزيناً ذا بشرة قاتمة هربت منها الدماء ، ولحية سوداء قليلة الشعر ، وجبهة عريضة وعينين قاسيتين نفاذتين . وكان قصير القامة نحيل الجسد ضعيف البنية لا يكاد يصلح لأن يحمل مدينة بين يديه . ولكن خلف الهيكل الضعيف يتوقد ذهن حاد فذ مخلص مدقق وإرادة حازمة لا تنهر ولعلها إرادة للقوة . وكان فكره قلعة للنظام جعل منه تقريباً أكوينى اللاهوت البروتستانتى . وكانت ذاكرته تزخر بآلاف الموضوعات إلا أنها دقيقة وكان يسبق عصره فى الشك فى علم التنجيم ويواكبه فى رفض الاعتراف بكوبرنيكوس ويتخلف عنه قليلا (مثل لوثر) فى نسبة كثير من الحوادث الدنيوية إلى الشيطان . وكان

وجله يخفى شجاعته وخجله يحجب كبرياء فى باطنه وذلته أمام الله أصبحت فى بعض الأحايين عجرفة آمرة أمام الناس . وكان شديد الحساسية للنقد ولم يكن فى وسعه أن يتحمل المعارضة بجلد امرئ يستطيع أن يدرك احتمال أنه قد يكون مخطئاً . وهده المرض وانحنى ظهره من كثرة العمل ولذا كان كثيراً ما كان يتميز غيظاً وينفجر فى نوبات من الفصاحة الغاضبة ، واعترف لبوسر بأنه وجد أن من الصعب عليه أن يروض « الوحش الكامن فى غضبه »(٥٠) ولم يكن من فضائله المرح الذى كان حرياً بأن يخفف من يقينياته ولا الإحساس بالجمال الذى كان كفيلا بأن يستبقى الفن الكنسى . ومع ذلك فانه لم يكن مشاغباً لا تلين قناته ، وأمر أتباعه بأن يكونوا منشرحين وأن يلعبوا ألعاباً لا ضرر منها مثل لعب الكرة ولعبة صيد الخنزير بحلقات الحبال وأن يستمتعوا بشرب النبيذ فى اعتدال . وكان فى وسعه أن يكون صديقاً حنوناً رقيق القلب وعدواً لا يتسامح ، وكان قادراً على إصدار أحكام قاسية وعلى الانتقام بشدة . وكان الذين يخدمونه يخشونه(٥١) ، أما الذين كانوا يحبونه فهم الذين عرفوه حق المعرفة . وكانت حياته الجنسية خالية من الزلات ، وكان يعيش فى بساطة ويأكل قليلا ، ويصوم دون أن يقصد التباهى ، ولا ينام إلا ست ساعات فى اليوم ، ولم يحصل قط على إجازة ، واستنفد قواه دون تحديد فيما ظن أنه عبادة الله . ورفض أن يمنح زيادة فى مرتبه ولكنه سعى لكى يرفع الأموال المخصصة للبر بالفقراء . وقال البابا بيوس الرابع : « إن قوة ذلك الهرطيق تكمن فى هذا : إن المال لم يكن له أقل سحر عليه . وإذا كان لدىّ أتباع مثله فإن مملكتى سوف تمتد من البحر إلى البحر »(٥٢) .

ورجل له مثل هذا الطبع لا بد أن يثير حقد كثير من الأعداء ، وحاربهم بشدة وبلغة العصر الجدلية . . . ووصف خصومه بأنهم من الأوغاد وأنهم أغبياء وكلاب وحمير وخنازير وبهائم منتنة(٥٣) — وهى نعوت أقل لياقة بالنسبة للاتينيته الرشيقة من أسلوب لوثر الذى يشبه أسلوب المجالدين ، ولكنه واجه استفزازات . فقد حدث يوم أن قاطع جيروم بولسيك ،

وهو راهب سابق من فرنسا ، كالفن وهو يقدم عظته فى كنيسة القديس بطرس وندد بالعقيدة التى تقول بالجبر باعتبارها إهانة للرب ، فرد عليه كالفن بأن تلا آيات من الكتاب المقدس ، واعتقلت الشرطة بولسيك واتهمه مجمع الكرادلة بالهرطقة . وكان المجلس ميالا إلى الحكم عليه بالإعدام ، ولكن عند ما استأنس بآراء علماء اللاهوت فى زيورخ وبازيل وبرن دلت على أنها مبلبلة : فقد أوصت برن بالحرص فى علاج المشكلات التى تدق على إدراك الإنسان — وهى نغمة جديدة فى أدب العصر ، وحذر بولينجر ، كالفن ، أن « الكثيرين مستاءون مما تقول فى كتابك القوانين حول الجبر ، ويستخلصون نفس النتائج مثل بولسيك »[٥٤] وتراضى المجلس على النفى (١٥٥١) وعاد بولسيك إلى فرنسا وإلى الكاثوليكية .

وأهم من هذا فى النتيجة مناظرة كالفن مع جواليم ويستفال ، إذ ندد هذا القسيس اللوثرى برأى زونجلى وكالفن القائل بأن المسيح لا يحضر فى القربان المقدس إلا بروحه وعد هذا « تجديداً من وحى الشيطان » ورأى أن المصلحين الدينيين السويسريين يجب ألا يرد عليهم بأقلام علماء اللاهوت ، ولكن بعصا الحكام (١٥٥٢) ورد عليه كالفن بألفاظ بلغت من القسوة حداً دفع زملاءه من المصلحين الدينيين فى زيورخ وبازيل وبرن إلى رفض التوقيع على احتجاجه . ومع ذلك فإنه أصدره ، وعاد ويستفال وآخرون من أنصار لوثر إلى الهجوم ، فدمغهم كالفن بأنهم « قردة لوثر » وأبدى من الحجج القوية ما دفع عدة مناطق كانت وقتذاك تناصر لوثر مثل — براندنبرج والبلاتينات وأجزاء من هس وبريمن وآنهالت وبادن إلى الموافقة على وجهة نظر سويسرة والكنيسة التى خضعت الإصلاح الدينى ، ولم ينقذ باقى ألمانيا الشمالية من التحول عن العقيدة اللوثرية إلا صمت ميلانكتون (الذى كان يتفق فى الرأى سراً مع كالفن) وصدى صواعق لوثر بعد الموت .

وتحول كالفن من هذه الهجمات على اليمين وواجه إلى اليسار جماعة من المتطرفين وصلوا حديثاً إلى سويسرة من إيطاليا المعارضة لها فى الإصلاح

الديني . وكان كايليوس سيكوندوس كوريو يلقي تعاليمه في لوزان وبازيل. وقد صدم كالفن عند ما أعلن أن الناجين – وفيهم كثير من الوثنيين – سوف يفوقون عدداً المعذبين في نار جهنم بكثير . أما لايليوس سوكينوس ، وهو ابن أحد كبار فقهاء القانون الإيطاليين ، واستقر في زيورخ فقد درس اليونانية والعربية والعبرية لكي يفهم الكتاب المقدس على أحسن وجه ، وتعلم كثيراً جداً، وفقد إيمانه بالثالوث الأقدس والجبر والخطيئة الأصلية والتكفير .

وأعرب عن شكه لكالفن الذي رد عليه بقدر الإمكان . ووافق سوكينوس على أن يتجنب التعبير علناً عن شكوكه ولكنه تكلم فيما بعد معارضاً تنفيذ حكم الإعدام في سرفيتوس ،وكان من بين القائلين الذين وقفوا يدافعون عن التسامح الديني في ذلك العصر المحموم .

وفي دولة يمتزج فيها الدين والحكومة في مزيج مسكر، كان من الطبيعي أن تكون أشد المعارك التي خاضها كالفن هي معاركه مع الوطنيين والمتحررين والذين أقصوه مرة عن البلاد والذين أسفوا الآن لعودته . فقد استاء الوطنيون من أصله الفرنسي ومن أنصاره وكرهوا لاهوته ولقبوه بقابيل ، وأطلقوا على كلابهم اسم كالفن ، وسبوه في الطرقات . ولعلهم هم الذين أطلقوا في إحدى الليالي خمسين طلقة نارية خارج بيته . وبشر المتحررون بعقيدة تقول بوحدة الوجود، وتخلوا عن ذكر الشياطين أو الملائكة أو جنة عدن أو التكفير أو الكتاب المقدس أو البابا . واستقبلتهم مارجريت ملكة نافار وأيدتهم في بلاطها بنيراك ، ولامت كالفن على قسوته معهم .

وفي يوم ٢٧ يونيه عام ١٥٤٧ وجد كالفن إعلاناً كبيراً ملصوقاً على منبره وجاء فيه : منافق كبير إنك ان تجني أنت ورفقاؤك بآلامك إلا النذر اليسير وإذا لم تنجوا بحياتكم بالهرب فلن يحول أحد دون القضاء عليكم . ولسوف تلعن الساعة التي تركت فيها ديرك . . . إن الناس ينتقمون لأنفسهم بعد أن عانوا طويلا . . . احذر فلن تعامل مثل السيد فيرل (الذي كان قد قتل) . . . لم يكون لنا سادة كثيرون إلى هذا الحد[55] . . .

وقبض على جاك جريه، وهو أحد كبار المتحررين، إذا شتبه فى أنه كتب الإعلان ولم يقدم أى دليل . وادعى بعضهم أنه قبل ذلك ببضعة أيام تفوه بتهديدات ضد كالفن، ووجد فى حجرته أوراق قيل أنها بخط يده ، يصف فيها كالفن بأنه منافق متعجرف وطموح ويسخر فيها من أن الكتب المقدسة وحى من عند الله ومن خلود الروح . وعذب مرتين كل يوم لمدة ثلاثين يوماً إلى أن اعترف — ولا ندرى مدى ما فى اعترافه عن صدق — بأنه كان قد ثبت الإعلان الكبير وتآمر مع العملاء الفرنسيين ضد كالفن ومدينة جينيف . وفى يوم ٢٦ يوليو ربط إلى خازوق ، وهو نصف ميت ، وسمرت قدماه فيه وقطع رأسه[٥٦] .

وازدادت حدة التوتر إلى أن جاء الوطنيون والمتحررون يوم ١٦ ديسمبر عام ١٥٤٧ وهم مسلحون وحضروا اجتماعاً للمجلس الكبير وطالبوا بوضع حد لسلطة مجمع الكرادلة على المواطنين ، وفى ذورة هرج عنيف دخل كالفن إلى الحجرة وواجه الزعماء المعادين له وقال وهو يدق على صدره : « إذا كنتم تريدون سفك دمى فما زالت هنا بضع قطرات فهيا اضربوا » وسحبت السيوف ولكن أحداً لم يجسر على أن يكون القاتل الأول . وخاطب كالفن الجمع بحلم نادر وأخيراً اقنع كل الأطراف بعقد هدنة . ومع ذلك فقد اهتزت ثقته فى نفسه .

وكتب يوم ١٧ ديسمبر إلى فيريه يقول : « إن أملى ضعيف فى أن تستطيع الكنيسة أن تجد لها عضداً أكثر من هذا ، على الأقل من رجالى الذين يقومون بالخدمة الدينية . صدقنى إن سلطانى يتحطم ، اللهم إلا إذا مد الله إلى يده » . ولكن المعارضة انقسمت شيعاً وأحزاباً وهدأت إلى أن أتاحت لها محاكمة سرفيتوس فرصة أخرى .

٦ ـ ميكائيل سرفيتوس ١٥١١ ـ ٥٣

ولد ميجيل سرفيتوس فى فيلانوفا (وتقع على بعد حوالى ستين ميلا من ساراقوسه) وهو ابن موثق عقود من أسرة كريمة . ونشأ فى عهد كانت فيه كتابات أرازموس تتمتع بتسامح عابر فى إسبانيا . وكانت متأثرا إلى حد ما بأدب اليهود والمسلمين ، إذ قرأ القرآن وشق طريقه فى التأويلات التلمودية وتأثر بنقد الساميين للمسيحية (بصلواتها للثالوث ولمريم وللقديسين) باعتبارها شركاً . وأطلق عليه لوثر لقب « المراكشى » .

وفى تولوز حيث درس القانون ، رأى لأول مرة كتاباً مقدساً كاملا وأقسم ليقرأنه « ألف مرة » ، وتأثر تأثراً عميقاً بالرؤى فى سفر الرؤيا . وفاز برعاية جوان دى كوينتانا كاهن الاعتراف الخاص لشارل الخامس ، وأخذه جوان إلى بولونيا وأوجسبورج (١٥٣٠) ، واكتشف ميكائيل البروتستانتية وأحبها ، وزار أويكو لامباديوس فى بازيل ، كما زار كابيتو وبوسر فى شتراسبورج ، وسرعان ما غدا هرطيقاً فى رأيهم ، ودعى لكى يرعى فى حقول أخرى .

ونشر فى عامى ١٥٣١ و ١٥٣٢ أول وثانى طبعة من مؤلفه De Trinitatis erroribus ، وكان فيه خلط كثير ، وكتب بلغة لاتينية غير مصقولة لا بد أنها كانت تدفع كالفن إلى الابتسام لو اطلع عليها ولكنها كانت عملا مذهلا بالنسبة لفتى فى العشرين من عمره بسبب ثرائها فى سعة العلم بالكتاب المقدس . وكان يسوع فى نظر سرفيتوس رجلا نفخ فيه الرب ، الأب كلمة الله ، الحكمة الإلهية ، وبهذا المعنى أصبح يسوع ابن الرب ولكنه لم يكن كفوا للأب أو سرمدياً مثله ، يستطيع أن يوصل روح الحكمة نفسها إلى الآخرين من الناس « إن الابن أرسل من الأب بطريقة لا تختلف عن تلك التى أرسل بها واحد من الأنبياء »(٥٧) ، وهذا قريب جداً من مفهوم

محمد عن المسيح . واستطرد سرفيتوس ليستشهد برأى الساميين فى القول بالثالوث الأقدس : « وكل من يؤمن بثالوث أقدس بروح الله يقول بوجود ثلاثة أرباب » . وأضاف قائلا إنهم ملحدون حقاً باعتبارهم منكرين لوجود إله واحد(٥٨) . وكان هذا تطرفاً شديداً من شاب ، ولكن سرفيتوس حاول أن يخفف من هرطقته بتأليف مقطوعات مهلهلة النسيج عن المسيح باعتباره نور العالم ، ومهما يكن من أمر فإن معظم قرائه شعروا بأنه قد أطفأ النور . وكأنما كان يريد ألا يترك حجراً دون أن يقذف به أحداً فتلاقى مع اللامعمدانيين فى أن التعميد يجب ألا تجرى مراسيمه إلا للبالغين . فأنكر عليه ذلك أويكو لامباديوس وبوسر ، فقلب سرفيتوس دليل سفر كالفن وفر من سويسرة إلى فرنسا (١٥٣٢) .

وفى يوم ١٧ يوليو أصدرت محكمة التفتيش فى تولوز أمراً بالقبض عليه . وفكر فى السفر إلى أمريكا ولكنه وجد أن باريس أحسن منها . وهناك تنكر فى شخصية ميشيل دى فيلينف (اسم العائلة) ودرس الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك والطب وغازل التنجيم . وكان فيزاليوس المعظم زميله فى دراسة التشريح وأثنى أساتذتهما عليهما سوياً . وتشاجر مع عميد كلية الطب ، ويبدو بوجه عام أنه أساء التصرف بتهوره وانفعاله واعتزازه بنفسه . وتحدى كالفن للدخول معه فى مناظرة ولكنه لم يظهر فى المكان والزمان المعينين (١٥٣٤) . وغادر سرفيتوس باريس مثل كالفن فى الفترة التى اشتد فيها الغضب على خطاب كوب والإعلانات الكبيرة الهرطيقية .

وفى ليون أشرف على نشر طبعة جديرة بعالم من جغرافية بطليموس ، وانتقل عام ١٥٤٠ إلى فيين (على بعد ستة عشر ميلا جنوبى ليون) ، وهناك عاش حتى آخر سنة من حياته وهو يمارس الطب ويشتغل بالبحث . واختير من بين الكثيرين من الباحثين الذين أتيح للناشرين فى ليون التعامل معهم لكى يشرف على نشر ترجمة لاتينية للكتاب المقدس قام بها سانتيس باجنينى .

وقضى فى هذا العمل ثلاث سنوات وآل إلى ست مجلدات . وفى آية عن أشعيا ٧ : ١٤ الذى كان جيروم قد جعلها « عذراء سوف تحمل » ، شرح سرفيتوس أن الكلمة العبرية لا تعنى عذراء بل امرأة شابة ، ورأى أنها لا تشير إشارة تنبئية إلى مريم بل إلى زوجة حزقيال ، وأوضح بنفس الروح أن بعض الفقرات الأخرى فى العهد القديم التى تبدو تنبئية تشير فقط إلى شخصيات أو حوادث معاصرة . وقد ثبت أن هذا محير للبروتستانت والكاثوليك على السواء .

ولا ندرى متى اكتشف سرفيتوس الدورة الدموية الرئوية — مرور الدم من الغرفة اليمنى للقلب على طول الشريان الرئوى إلى الرئتين وتدفقه خلالهما وتنقيته هناك بالتعريض للهواء ، وعودته فى الوريد الرئوى إلى الغرفة اليسرى من القلب ، وبقدر ما هو معروف الآن فإنه لم ينشر اكتشافه حتى عام ١٥٥٣ عندما أدرجه فى مؤلفه الأخير « إعادة المسيحية » .

وقد جاء بالنظرية فى رسالة لاهوتية لأنه اعتقد أن الدم بمثابة الروح الجوهرية فى الإنسان ، ومن ثم يعد — ربما أكثر من القلب أو المخ — المقر الحقيقى للروح . وإذا أرجأنا فترة النظر فى مشكلة أسبقية سرفيتوس فى هذا الاكتشاف فحسبنا أن نلاحظ أنه من الواضح أنه أكمل رسالته « اعادة المسيحية » فى سنة ١٥٤٦ لأنه أرسل فى ذلك العام المخطوطة إلى كالفن .

وكان العنوان نفسه تحدياً للرجل الذى كتب شريعة الدين المسيحى ، بيد أن الكتاب إلى جانب ذلك رفض الفكرة القائلة بأن الله قدر على أرواح أن تعذب فى نار جهنم بغض النظر عن حسناتها أو سيئاتها ، باعتبار أن هذه الفكرة كفر وتجديف . وقال سرفيتوس إن الله لا يحكم على أحد لا يدين نفسه . ولا بأس بالإيمان ولكن المحبة خير وأبقى ، لأن الله نفسه محبة : وظن كالفن أنه يكفيه لكى يدحض هذا كله أن يرسل إلى سرفيتوس نسخة

من كتاب « القوانين » ، فأعاده سرفيتوس اليه مع تعليقات مهينة[٥٩] ، وأعقب ذلك بارسال سلسلة من الخطابات تحفل عباراتها بالازدراء الشديد إلى حد أن كالفن كتب إلى فاريل (١٣ فبراير سنة ١٥٤٦) : « لقد أرسل لى سرفيتوس مجلداً مطولا بأقواله الخارفة . وإذا وافقت فلن يتردد فى الحضور هنا ، ولكنى لن أعطيه كلمة منى لأنه إذا جاء فإنى لن أطيق أن أتركه يخرج حيا إذا كان هذا فى سلطتى »[٦٠] ، وغضب سرفيتوس لرفض كالفن استمرار المراسلة بينهما فكتب إلى آبيل بوبان ، وهو أحد قساوسة جينيف يقول :

« إن إنجيلكم بدون رب وبدون إيمان حق وبدون أعمال صالحات . فبدلا من الرب عبدتم(*) سربيروس ذا الرؤوس الثلاثة (الثالوث المقدس) وبدل الإيمان اتخذتم حلماً حتمياً . . . والإنسان عندكم بدن هامد والرب خيال للإرادة المستعبـــدة . . . إنكم تغلقون أبواب مملكة السماء فى وجوه الناس . . . الويل ! الويل ! الويل ! هذا هو ثالث خطاب أكتبه لكم لأحذركم علكم تعرفون أحسن من هذا . ولن أحذركم مرة أخرى فى معركة ميكائيل هذه أعلم أنى سوف أموت لا محالة . . . بيد أنى لن أتردد . . . أن المسيح آت ولا ريب . ولن يتمهل »[٦١] .

ومن الواضح أن سرفيتوس كان أشد خبلا من المتوسط فى عصره . فقد أعلن أن نهاية العالم قد أوشكت وأن ميكائيل رئيس الملائكة سوف يشن حرباً مقدسة ضد المناهضين للمسيحية من البابويين وأهالى جنيف على السواء ، وأنه وقد سمى باسم رئيس الملائكة سوف يقاتل ويموت فى تلك الحرب[٦٢] . وكان كتاب « الإعادة **Restitutio** » دعوة إلى تلك الحرب . فلا عجب إذا كان قد وجد صعوبة فى العثور على ناشر يقبله إذ أجفل منه الناشرون فى بازيل ، وأخيراً (٣ يناير عام ١٥٥٣) طبعه بالتازار

(*) كائن خرافى .

أرنوييه وجيوم جيروه فى الخفاء بمدينة فين . ولم تذكر أسماؤهم ولا مكان النشر ووقع المؤلف باسم م . س . ف. ودفع كل النفقات وصحح بنفسه التجارب ثم أتلف المخطوط . ووصل المجلد إلى ٧٣٤ صفحة لأنه تضمن شكلا منقحاً من كتاب « **De Trinitatis erroribus** » ورسائل سرفيتوس الثلاثين إلى كالفن ، وأرسل إلى بائع كتب فى جنيف جانب من الألف نسخة المطبوعة . وهناك وقعت نشرة فى يدى جيوم ترى وهو صديق لكالفن . وقد أوضحت الخطابات الثلاثون بجلاء لكالفن أن م. س. ف. هى الحروف الأولى من اسم ميكائيل سرفيتوس الفيلانوفى . وكتب ترى فى يوم ٢٦ فبراير عام ١٥٥٣ إلى ابن عم كاثوليكى فى ليون يدعى أنطوان أرنى أعرب له فيها عن دهشته من أن الكردينال فرانسوا دى تورنون قد سمح بنشر كتاب مثل هذا فى دائرة أسقفيته . كيف عرف ترى مكان النشر ؟ لقد عرف كالفن أن سرفيتوس كان يعيش فى ليون أو فين . وعرض آرنى الأمر على ماتياس أورى عضو محكمة التفتيش فى ليون فأبلغ أورى بذلك الكاردينال ، فأصدر أمراً إلى موجيرون نائب محافظ فين للبحث والاستقصاء . وفى يوم ١٦ مارس استدعى سرفيتوس إلى بيت موجيرون . وقبل أن يخضع للأمر أتلف كل الأوراق التى تثبت ذنبه . وأنكر أنه ألف الكتاب ، فأرسل آرنى إلى ترى يطلب منه تقديم دليل آخر على أن سرفيتوس هو مؤلف الكتاب . وحصل ترى من كالفن على بعض الخطابات التى أرسلها له سرفيتوس . وبعث بها إلى ليون . وتبين أنها تطابق عدداً من الخطابات المنشورة فى الكتاب . وقبض على سرفيتوس فى اليوم الرابع من أبريل ، وفر بعد ثلاثة أيام بالقفز فوق سور حديقة . وفى يوم ١٧ يونيه أدانته المحكمة المدنية فى فين وحكمت عليه بأن يحرق حياً على نار بطيئة إذا عثر عليه .

وأخذ سرفيتوس يضرب على غير هدى فى أنحاء فرنسا لمدة ثلاثة شهور ، وقرر أن يلجأ إلى نابولى وأن يذهب عن طريق جينيف ، وظل فى جنيف

شهراً لأسباب غير معروفة متخذ اسماً مستعاراً ، وفى غضون ذلك أعد ترتيباته للانتقال إلى زيورخ ، وفى اليوم الثالث عشر من أغسطس حضر الصلاة بالكنيسة ، ولعله فعل هذا لكى يتجنب استقصاء السلطات عنه . وهناك عرف وأبلغ ذلك إلى كالفن فأمر بالقبض عليه . وشرح كالفن هذا العمل فى خطاب (٩ سبتمبر عام ١٥٥٣) ، قال : « إذا كان البابويون قساة غلاظ الأكباد ويظهرون منتهى العنف دفاعاً عن خزعبلاتهم إلى حد أنهم يثورون غضباً وتقسو قلوبهم فيسفكون الدم البرىء ألا يخجل الحكام المسيحيون من أنفسهم عند ما يبدون أمام الناس أقل غيرة فى الدفاع عن الحق الذى لا ريب فيه ؟ » وتأثر المجلس الصغير بزعامة كالفن وفاقه فى القسوة والفظاظة ، ولما كان سرفيتوس مجرد عابر سبيل ولم يكن مواطناً يخضع لقوانين مدينة جينيف فإن المجلس من الناحية القانونية كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من نفيه خارج المدينة .

واعتقل فى قصر سابق لأحد الأساقفة تحول الآن إلى سجن . ولم يعذب إلا بالقمل الذى أغار على زنزانته . وسمح له بورق وحبر وبأى كتب يعن له شراؤها ، وأعاره كالفن بضعة مجلدات بقلم الآباء الأوائل . وأديرت المحاكمة بعناية واستمرت ما ينوف على شهرين . ودبج كالفن قرار الاتهام فى ثمان وثلاثين مادة دعمها بفقرات اشتشهد بها من كتابات سرفيتوس . ومن بين التهم أنه قبل وصف سترابو لليهودية بأنها بلد مجدب بينما وصفهاا لكتاب المقدس بأنها أرض يتدفق فيها اللبن والعسل[٦٣] . وكانت الاتهامات الرئيسية الموجهة إلى سرفيتوس هى أنه رفض التسليم بالثالوث وتعميد الأطفال ، كما اتهم أيضاً بأنه « طعن فى شخص السيد كالفن العقائد التى فرضها إنجيل كنيسة جينيف »[٦٤] ، وفى يومى ١٧ و ٢١ من أغسطس ظهر كالفن بشخصه فى قاعة المحكمة ليوجه له الاتهام . ودافع سرفيتوس عن آرائه بشجاعة ، ومنها القول بمذهب وحدةالوجود . وقام تعاون غير مألوف بين العقائد المعادية فطلب المجلس البروتستانتى فى جينيف من القضاة الكاثوليك فى فيين إبداء

آرائهم فى فقرات خاصة من الاتهامات التى وجهت هناك ضد سرفيتوس . ومن بين التهم الجديدة الفجور الجنسى ، فرد سرفيتوس بأن الفتق قد حوله منذ زمن بعيد إلى عنين ومنعه من الزواج(٦٥) . واتهم علاوة على هذا بأنه كان قد حضر القداس فى فيين ، فدافع عن نفسه وبرر أنه إنما أقدم على هذا خوفاً على حياته . وتحدى أن تكون لمحكمة مدنية ولاية فى الفصل فى قضايا الهرطقة ، وأكد للمحكمة أنه لم يقم بإثارة شغب ولم يخالف قوانين مدينة جينيف وطالب بتعيين محام له يلم بهذه القوانين خيراً منه ، وذلك ليعاونه فى الدفاع عن نفسه ، ورفضت كل هذه الحجج وأرسلت محكمة التفتيش الفرنسية وكيلا عنها إلى مدينة جينيف للمطالبة بإعادة سرفيتوس إلى فرنسا لتنفيذ الحكم الذى صدر ضده . فتوسل سرفيتوس للمجلس والدموع تسيل من مآقيه أن يرفض هذا الطلب ، فاستجاب له المجلس ، ولكن لعل الطلب قد حفز المجلس على ألا يكون أقل قسوة من محكمة التفتيش .

وفى اليوم الأول من سبتمبر سمح لعدوين من أعداء كالفن — هما آمى بيران وفيلبرت برتليه — بأن ينضما إلى القضاة الذين يتولون المحاكمة ، فشغلا كالفن بمجادلات ، لا طائل تحتها ، ولكنهما أقنعا المجلس باستشارة الكنائس الأخرى فى سويسرة البروتستانتية عن كيفية معاملة سرفيتوس ، وفى اليوم الثانى من سبتمبر واجهت زعامة كالفن فى المدينة تحدياً فى المجلس على يد الوطنيين والمتحررين ، فواجه العاصفة حتى مرت بسلام ، ولعل رغبة المعارضة الواضحة فى إنقاذ سرفيتوس قد شددت من عزيمة كالفن على أن يلاحق الهرطيق حتى ينفذ فيه حكم الإعدام . ومهما يكن من أمر فإنه يجدر بنا أن ننوه بأن المدعى الرئيسى فى المحاكمة كان كلود ريجوه **Rigot** وهو من المتحررين(٦٦) .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر قدم سرفيتوس للمجلس رداً مكتوباً على الاتهامات الثمانية والثلاثين التى وجهها له كالفن . ودحض كل اتهام بحجة

ذكية وبفقرات استشهد بها من الكتاب المقدس أو أقوال رددها آباء الكنيسة . وتساءل عن حق كالفن فى التدخل فى المحاكمة ووصفه بأنه من مريدى سيمون ماجوس وهو مجرم وسفاك للدماء[٦٧] . فرد عليه كالفن فى ثلاث وعشرين صفحة ، عرضت على سرفيتوس ، الذى أعادها بدوره إلى المجلس بتعليقات هامشية مثل « كذاب » و « دجال » و « منافق » و « تعس شقى » ، ولعل ما عاناه سرفيتوس من نصب فى السجن خلال شهر وما لاقاه من تعذيب عقلى قد حطم ضبط النفس . وتقارير كالفن ذاتها عن المحاكمة دبجت بأسلوب العصر ، فنراه يكتب عن سرفيتوس فيقول : « مسح الكلب القذر أنفه » و « السافل الغادر »[٦٨] يلوث كل صفحة و « تخريفات منافية للتقوى »[٦٩] . والتمس سرفيتوس من المجلس أن يتهم كالفن بأنه « يقمع حقيقة يسوع المسيح » وأن « يمحوه من الوجود » ويصادر أمواله ، وذلك لتعويض سرفيتوس بهذه الإجراءات عن الأضرار التى لحقت به من جراء أعمال كالفن . ولم يقابل الاقتراح بالترحيب .

وفى اليوم الثامن عشر من أكتوبر وردت الردود من الكنائس السويسرية التى طلب منها إبداء المشورة ، فرأت كلها إدانة سرفيتوس ، ولم يطلب واحد منها إعدامه . وبذل بيران آخر مجهود لإنقاذه فى اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر بالمطالبة بإعادة المحاكمة أمام مجلس المائتين ولكنه غلب على أمره . وفى اليوم السادس والعشرين أصدر المجلس الصغير حكماً بالإعدام بإجماع الآراء ، واستند فى الحكم على دليلين يثبتان الهرطقة — مذهب التوحيد ورفض التسليم بتعميد الأطفال . ويقول كالفن « إن سرفيتوس عند ما سمع النطق بالحكم « أنّ » وتأوه كرجل فقد رشده و . . . ودق صدره وزمجر قائلا بالإسبانية **Misericordia ! Misericordia!** ، وطلب أن يسمح له بالحديث مع كالفن وتوسل إليه طالباً الرحمة ، بيد أن كالفن لم يعرض عليه أكثر من إجراءات المواساة الأخيرة للدين الحق إذا سحب هرطقاته ، ولم يرض سرفيتوس ، وطلب أن تقطع رأسه ولا يحرق ، وكان كالفن يميل إلى دعم هذا

الطلب ولكن فاريل الطاعن فى السن ، الذى يقترب من حافة القبر زجره لما بدا منه من تسامح ، وصوت المجلس على أن يحرق سرفيتوس حياً (٧٠) .

ونفذ الحكم فى صباح اليوم التالى يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٥٥٣ على تل تشامبل الذى يقع مباشرة جنوبى مدينة جنيف . وفى الطريق ألح فاريل على سرفيتوس أن ينال رحمة الله بالاعتراف بجريمة الهرطقة ، فأجابه الرجل المحكوم عليه ، طبقاً لما رواه فاريل : « أنا لست مذنباً ولم أكن أستحق الموت ، وابتهل إلى الله أن يغفر لمن اتهموه »(٧١) . وأوثق إلى سارية بسلاسل حديدية وربط إلى جانبه كتابه الأخير . وعند ما بلغت ألسنة اللهب وجهه صرخ من الألم . ومات بعد حرقه بنصف ساعة .

٧ – دعوة للتسامح

اتحد الكاثوليك والبروتستانت فى الموافقة على الحكم . ولما أفلتت من محكمة تفتيش فين فريستها فإنها قامت بإحراق تمثال لسرفيتوس(*) . وأعرب ميلانكتون فى خطاب له إلى كالفن وبولينجر عن «حمده لابن الرب » لـ « معاقبة الرجل الكافر » ووصفه عملية الإحراق بأنها « مثال يدل على الورع لا ينسى لكل الأجيال القادمة »(٧٣) . وأعلن بوسر من فوق منبره فى شتراسبورج بأن سرفيتوس قد استحق أن تنزع أمعاؤه ويمزق إرباً(٧٤) . ووافق بولينجر ، وهو بوجه عام خير رقيق العاطفة ، على أن الحكام المدنيين يجب أن يعاقبوا بالموت من يثبت عليه الكفر(٧٥) .

ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات تدافع عن سرفيتوس حتى فى أيام كالفن ، فقد نظم صقلى قصيدة طويلة بعنوان : **De iniusto Serveti incendio** ، ونشر دافيد جوريس البازيلى ، وهو لامعمدانى ، احتجاجاً ضد تنفيذ حكم الإعدام ، بيد أنه وقع عليه باسم مستعار ولما اكتشف

(*) فى سنة ١٩٠٣ أقيم نصب تذكارى لسرفيتوس فى تشامبل وكان فى أول قائمة الذين شاركوا فى نفقاته المجمع الدينى لكنيسة جنيف التى أخذت بمبادئ الإصلاح الدينى(٧٢) .

بعد وفاته أنه كاتب هذا الاحتجاج أخرجت جثته بعد الدفن وأحرقت علناً (١٥٦٦) . وبالطبع أدان خصوم كالفن السياسيون معاملته لسرفيتوس واستهجن بعض أصدقائه قسوة الحكم باعتباره مشجعاً الكاثوليك فى فرنسا على تطبيق عقوبة الإعدام على الهوجنوت . ولا بد أن هذا النقد قد انتشر انتشاراً واسعاً لأن كالفن أصدر فى فبراير عام ١٥٥٤ **a Defensio orthodoxae fidei de sacra Trinitate contra Prodigiosos errores Michaelis Servetir** دفاع محافظ على الشريعة عن القول بالثالوث المقدس ضد أخطاء ميكائيل سرفيتوس الفظيعة . وقال : إذا آمنا بأن الكتاب المقدس وحى من الله فإننا نعرف الحقيقة وكل من يعارضونه أعداء الله كافرون به . ولما كان ذنبهم أعظم بكثير من أى جريمة أخرى فإن على السلطة المدنية أن تعاقب المراطقة باعتبارهم أسوأ من أى سفاحين ، ذلك لأن القتل العمد يؤدى إلى هلاك الجسد فحسب بينما المرطقة المقبولة تعرض الروح للعذاب الأبدى فى نار جهنم (وكان هذا بالضبط موقف الكاثوليك) وفضلا عن هذا فإن الرب نفسه قد علمنا بصورة قاطعة أن نقتل المراطقة وأن نضرب بالسيف أى مدينة تتخلى عن عبادة الرب وفق العقيدة الخالصة التى كشفها لنا بنفسه . واستشهد كالفن بسفر التثنية القاسية ١٣ : ٥ — ١٥ و ١٧ : ٢ — ٥ وسفر الخروج ٢٢ : ٢٠ وسفر اللاويين ٢٤ : ١٦ وناقش بها ببلاغة ملتهبة حقاً : « كل من يتمسك بأن المراطقة والكفار لحقهم ضرر بمعاقبتهم يورط نفسه بأن يكون شريكاً لهم فى جريمتهم . . . ولا محل هنا للحديث عن سلطة الإنسان فالرب هو الذى يتكلم ، ومن الواضح أى شريعة احتفظ بها فى الكنيسة إلى يوم القيامة . فلماذا يطلب منا مثل هذه القسوة الشديدة إذا لم يكن هذا لبرينا أننا لا نوفيه حقه من التبجيل ما دمنا لا نضع عبادته تعالى فوق أى اعتبار إنسانى بحيث لا نبقى على آصرة قربى أو صلة دم بيننا وبين أى إنسان وأن ننسى كل إنسانية عندما يكون الأمر متعلقاً بالقتال فى سبيل مجده تعالى ؟(٧٦)

وخفف كالفن من استنتاجاته بأن نصح بالرحمة بالذين لا تكون هرطقاتهم جوهرية أو الذين يتضح أن هرطقاتهم بسبب الجهل أو ضعف العقل . ولكن حيث أنه رضى بصفة عامة بالقديس بولس هادياً له ومرشداً فإنه رفض أن يلجأ للوسيلة البولسية (نسبة إلى بولس) التى تعلن أن القانون الجديد يحل محل القانون القديم . والحق أن حكومة رجال الدين التى كان من الواضح أنه كان يمكن أن تتحطم وتشيع فيها الفوضى إذا سمحت الخلافات فى العقيدة بإبداء الرأى علناً .

وفى غضون ذلك ماذا آلت إليه الروح الأرازمية التى تدعو إلى التسامح ؟ لقد كان أرازموس متسامحاً لأنه لم يكن على يقين تام ، أما لوثر وميلانكتون فقد تخليا عن التسامح عند ما تدرجا فى اليقين ، وأما كالفن فكاد يكون على يقين منذ بلغ عامه العشرين بتبكير قاتل فى النضج . وليس من شك فى أن قليلا من علماء الإنسانيات الذين درسوا الفكر الكلاسى والذين لم يهابوا العودة إلى الحظيرة الرومانية بالاشمئزاز من الالتجاء إلى العنف فى النزاع اللاهوتى ظلوا يرون على استحياء أن اليقين فى الدين والفلسفة أمر لا يمكن الوصول إليه ، ومن ثم فإن على المشتغلين باللاهوت والفلاسفة ألا يقتلوا أحدا .

وكان عالم الإنسانيات الذى تحدث بوضوح بعض الوقت عن التسامح وسط صدام اليقينيات واحداً من أقرب أصدقاء كالفن حيناً من الزمن . فسباسيان كاستيليو الذى ولد فى جورا الفرنسية عام ١٥١٥ أصبح حاذقاً للغات اللاتينية واليونانية والعبرية ودرس اليونانية فى ليون وعاش مع كالفن فى ستراسبورج فعينه مديراً لمدرسة اللاتينية فى جنيف (عام ١٥٤١) وهناك شرع فى ترجمة الكتاب المقدس بأسره إلى لغة شيشرون اللاتينية . وقد أعجب بكالفن رجلا ولكنه كره المذهب القائل بالجبر وأضنى قواه تحت وطأة النظام الجديد الذى خضع له الجسد والعقـــل . واتهم فى عام ١٥٤٤ القساوسة فى جنيف بالتعصب والدنس والسكر . واشتكى كالفن إلى

المجلس ، ووجد أن كاستليو مذنب بسبب الغيبة ونفى من المدينة (١٥٤٤) ، وعاش تسع سنوات في فاقة ومسغبة وهو يعول أسرة كبيرة ، وكان يعمل أثناء الليل في إنهاء نسخته المترجمة من الكتاب المقدس . وانتهى منها عام ١٥٥١ ، ثم بدأ مرة أخرى في سفر التكوين ١ : ١ وهو وحيد يسعى في هدوء إلى إتمام البحث ، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية . وحصل أخيراً (١٥٥٣) على منصب أستاذ لليونانية في جامعة بازيل . وأحس بالعطف على الموحدين وتمنى لو استطاع أن يساعد سرفيتوس ، وراعه دفاع كالفن عن تنفيذ حكم الإعدام . ونشر هو وكامليوس كوريو بأسماء مستعارة (مارس ١٥٥٤) أول كتاب حديث من الكلاسيات عن التسامح : « هل يجب أن يضطهد المراطقة ؟ **De haereticis an Sint persequendi**

وكان الهيكل الرئيسي للمؤلف مختارات من الشعر جمعها كوريو من الابتهالات المسيحية من أجل التسامح ، من لاكتانتيوس وجيروم إلى أرازموس ولوثر في بواكير حياته وكالفن نفسه . واشترك كاستيليو في الجدال بالمقدمة والخاتمة وأشار إلى أن الناس قد ناقشوا في مدة مائة عام الإرادة الحرة والجبر والسماء والجحيم والمسيح والثالوث وأموراً أخرى صعبة ولم يصلوا إلى أي اتفاق ، ومن يدرى لعلهم لن يصلوا أبداً إلى اتفاق . وقال كاستيليو : لا داعي لأي اتفاق ، فمثل هذه القضايا الجدلية لا تجعل الناس خيراً مما هم عليه ، وكل ما نحن بحاجة إليه هو أن نتحلى بروح المسيح في حياتنا اليومية وأن نطعم الفقراء ونساعد المرضى ونحب أعداءنا . وبدا له أن من السخرية أن تزعم الطوائف الجديدة ، شأنها في هذا شأن الكنيسة القديمة ، أنها على حق مطلق ، وأن تكره من لها عليهم السيطرة البدنية على اعتناق عقائدها ونتيجة هذا يكون الإنسان محافظاً على العقيدة في مدينة ويصبح هرطيقاً عندما يدخل مدينة أخرى ، وعليه أن يغير دينه كما يغير نقده عند كل حد من حدود البلاد . وهل يمكن أن تتصور أن المسيح يأمر بإحراق رجل حياً

لأنه يدافع عن تعميد البالغين ؟ لقد حلت محل الشرائع الموسوية التى تدعو إلى القضاء على الحياة كل طريق شريعة المسيح التى تدعو إلى الرحمة لا إلى التعسف والإرهاب وإذا أنكر إنسان وجود حياة بعد الموت ورفض الاعتراف بكل شريعة فإنه (كما قال كاستيليو) يمكن للحكام أن يسكتوه فحسب ولكن ينبغى ألا يقتل . وفضلا عن هذا فإن اضطهاد العقائد (كما رأى) لا طائل تحته والاستشهاد فى سبيل فكرة ينشر هذه الفكرة بسرعة أكبر مما كان فى وسع الشهيد أن يفعل لو سمح له بأن يعيش . وختم كلامه بقوله أية مأساة فى أن نرى من حرروا أنفسهم أخيراً من محكمة التفتيش الرهيبة يقلدونها سريعاً فى طغيانها ، وأن يكرهوا الناس على أن يعودوا إلى الظلام السيمرى بعد فجر واعد مثل هذا(٧٧) .

وعرف كالفن نزعات كاستيليو فتعرف على خطه فى رسالته « الهراطقة » ، وفوض مهمة الرد عليها لأذكى تلاميذه تيودور دى بيز أو بيز أو بيزا . وقد ولد تيودور فى فيزيلاى من أسرة أرستقراطية ، ودرس القانون فى أورليانز وبورجس ومارسه بنجاح فى باريس ، وكتب شعراً باللاتينية ، وفتن بعض النساء بتوقد ذهنه وأكثر من هذا بنجاحه ، وعاش حياة مرحة وتزوج وسقط صريع مرض خطير ، وجرب وهو على فراش المرض تحولا معكوساً نحو تعاليم لويولا ، واعتنق البروتستانتية وفر إلى جينيف وقدم نفسه إلى كالفن وعين أستاذاً لليونانية فى جامعة لوزان ، ومما هو جدير بالملاحظة أن لاجئاً بروتستانتياً من فرنسا التى تضطهد الهوجنوت أخذ على عاتقه الدفاع عن الاضطهاد ، وقد أدى هذا بمهارة محام وإخلاص صديق ، فأصدر فى سبتمبر عام ١٥٥٤ مؤلفاً بعنوان (كتاب صغير عن واجب الحكام المدنيين فى عقاب الهراطقة) De haereticis a civili magistratu punindis libelus وأشار مرة أخرى إلى أن التسامح الدينى مستحيل لإنسان قبل أن الكتب المقدسة وحى من لدن الله . ولكننا إذا رفضنا التسليم بأن الكتاب

المقدس كلمة الله ، فعلى أى أساس نبنى العقيدة الدينية التى يتضح بجلاء أنه لا غنى عنها — إذا أخذنا فى الاعتبار ما فطر عليه الناس من شر — لكبح جماح الناس وللنظام الاجتماعى — والحضارة ؟ وإذن لن يتبقى إلا شكوك مهوشة تعمل على تفكيك عرى المسيحية . ولا يمكن أن يكون لمؤمن مخلص بالكتاب المقدس إلا دين واحد ، أما الديانات الأخرى فلا بد أن تكون زائفة أو ناقصة . حقاً إن العهد الجديد يبشر بسنة المحبة ولكن هذا ليس عذراً لنا لكى لا نقتص من اللصوص والقتلة ، فكيف يبيح لنا هذا أن نبقى على الهراطقة ؟

وعاد كاستيليو إلى الجدل فى كراسة دينية بعنوان : **Contra libelum Calivini** ، ولكنها ظلت نصف قرن دون أن تنشر . وسبق ديكارت فى مخطوطة أخرى بعنوان **De arte dubitnnd** بأن جعل من « فن الشك » أول خطوة فى البحث عن الحقيقة ودافع فى رسالته « المحاورات الأربع » عن الإرادة الحرة وعن احتمال خلاص عالمى . وفى عام ١٥٦٢ نشر رسالته « نصيحة إلى فرنسا الحزينة » ، توسل فيها عبثاً إلى الكاثوليك والبروتستانت بإنهاء الحروب الأهلية التى كانت تجتاح فرنسا وبأن يسمحوا لكل مؤمن بالمسيح « أن يصلى للرب وفق عقيدته هو وليس وفق عقيدة غيره من الناس »(٧٨) ، وكان من الصعب أن يسمع أحد صوتاً يشذ عن النغم السائد فى العصر .

ومات كاستيليو فقيراً بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً (١٥٦٣) ، وقال كالفن إن وفاته المبكرة حكم عادل من إله عادل .

٨ — كالفن إلى النهاية ١٥٥٤ — ١٥٦٤

ولعل كالفن قد عرف ميل كاستيليو الخفى إلى مذهب الموحدين — الإيمان بإله ليس ثلاثة فى واحد ، ومن ثم رفض التسليم بألوهية المسيح ، ويمكن أن يغتفر له أنه كان يرى فى هذا الشك الأساسى بداية النهاية للمسيحية . وخشى من هذه الهرطقة أكثر من أى شىء آخر لأنه وجدها متفشية فى مدينة جينيف ذاتها ، وفوق كل شىء بين اللاجئين البروتستانت الفارين من إيطاليا . ولم ير هؤلاء الناس أى معنى فى أن يستبدلوا بتجسد لا يصدق قدراً محتوماً لا يصدق . وهاجمت ثورتهم الدعوى الأساسية للمسيحية وهى أن المسيح ابن الله . وكان لماتيو جريبالدى ، وهو أستاذ فى فقه القانون فى بادوا ، بيت صيفى بالقرب من جينيف . وتكلم بصراحة أثناء محاكمة سرفيتوس ضد العقاب بسبب الآراء الدينية ، ودافع عن حرية العبادة — بالنسبة للجميع ، فدعى للمثول أمام المجلس ، ونفى من المدينة إذ اشتبه فى أنه يؤيد مذهب الموحدين (١٥٥٩) وكفل لنفسه التعين فى وظيفة أستاذ للقانون فى جامعة تيبنجن . وأرسل كالفن إلى الجامعة كلمة عن شكوك جريبالدى . فألزمته بأن يوقع اعترافاً يقر فيه بالتثليث ، وبدلا من أن يخضع فر إلى برن حيث مات متأثراً بداء الطاعون فى عام ١٥٦٤ . واستدعى جيورجيو بلاندراتا ، وهو طبيب إيطالى يقيم فى مدينة جينيف للمثول أمام المجلس بتهمة مناقشة ألوهية المسيح ، ففر إلى بولندة حيث وجد شيئاً من التسامح بالنسبة إلى هرطقته .

وأعرب فالنتينو جنتيلى ، من كالابريا ، صراحة عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين فى مدينة جينيف ، فألقى فى غيابة السجن حكم عليه بالإعدام (عام ١٥٥٧) فتراجع عن أقواله وأطلق سراحه وذهب إلى ليون فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية ، بيد أنه أطلق سراحه عند ما أكد لهم أن مصلحته

الرئيسية تكمن فى دحض مزاعم كالفن . وانضم إلى بلاندراتا فى بولندة ، وعاد إلى سويسرة حيث اعتقله حكام برن وأدين بتهمة الحنث بقسمه والهرطقة وقطعت رأسه (١٥٦٦) .

ووسط هذه المعارك فى سبيل الرب استمر كالفن يعيش فى بساطة وقد حكم جنيف بقوة شخصية مسلحة بأوهام أتباعه . وتدعم مركزه بمرور السنين . وكان ضعفه الوحيد فى جسده الواهن : كان يشكو من آلام فى رأسه والربو وسوء الهضم والحصوة والنقرس ، وهصرت الحمى جسده وأبرزت عظامه وشكلت وجهه فبدت تقاطيعه مشدودة تنم على القسوة والكدر . وأصيب بمرض فى ١٥٥٨ — ٥٩ استمر طويلا وتركه ضعيفاً واهناً مصاباً بنزيف متكرر من الرئتين . واضطر بعد ذلك إلى ملازمة الفراش معظم الوقت على الرغم من أنه مستمر فى الدراسة والتوجيه والوعظ حتى عند ما كان يحمل حملا فى مقعد إلى الهيكل المقدس . وحرر وصيته فى يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٦٤ وهو واثق تمام الثقة من اختياره للمجد الأبدى . وفى اليوم السادس والعشرين أقبل المأمورون وأعضاء المجلس وجلسوا بجانب فراشه ، فطلب منهم المغفرة بسبب سورات غضبه ، ورجاهم أن يتشبثوا بالعقيدة الطاهرة للكنيسة التى اتبعت الإصلاح وجاء فاريل وكان آنذاك قد بلغ العام الثمانين من عمره من نيوشاتل ليودعه الوداع الأخير . وبعد مرور بضعة أيام قضاها كالفن فى الصلاة والعذاب وجد السلام (٢٧ مايو عام ١٥٦٤) . وكان تأثيره أعظم من تأثير لوثر ، ولكنه سار فى طريق كان لوثر قد مهده ، فقد أسبغ لوثر حمايته على الكنيسة الجديدة بإحياء القومية الألمانية لتأييدها وكانت الحركة ضرورية ، ولكنها ربطت اللوثرية رباطاً وثيقاً بالأصول التيوتونية ، ولقد أحب كالفن فرنسا وجاهد لكى يرفع من شأن قضية الهوجنوت ولكنه لم يكن وطنياً فقد كان الدين بلده ، وعلى هذا فإن عقيدته ، مهما لحقها من تعديل ، استلهمت

البروتستانتية فى سويسرة وفرنسا وسكوتلندة وأمريكا ، واستولت على قطاعات كبيرة من البروتستانتية فى هنغاريا وبولندة وألمانيا وهولندة وانجلترا . ولقد أضفى كالفن على البروتستانتية فى كثير من البلاد تعظيماً وثقة واعتزازاً بالنفس مكنتها من أن تعيش وتصمد لألف محنة .

وقبل وفاته بعام انضم تلميذه أوليفيانوس إلى أورسينوس تلميذ ميلانكتون فى إعداد وعظ هيدلبرج الذى أصبح تعبيراً مقبولا لعقيدة الإصلاح الدينى فى ألمانيا وهولنده . ووفق بيز وبولينجر بين مذهبى كالفن وزونجلى فى الإقرار السويسرى البروتستانتى الثانى (١٥٦٦) الذى أصبح وثيقة رسمية للكنائس التى اتبعت الإصلاح الدينى فى سويسرة وفرنسا وتابع بيز باقتدار عمل كالفن فى جينيف نفسها . بيد أنه ما أن مر عام حتى أخذ كبار رجال الأعمال الذين يسيطرون على المجالس فى مقاومة محاولات مجمع الكرادلة والجمعية المبجلة بنجاح ازداد شيئاً فشيئاً ليستبدلوا بها الرادع الأخلاق فى العمليات الاقتصادية ، وبعد وفاة بيز (١٦٠٨) دعم أغنياء التجار نفوذهم (سيادتهم) وفقدت الكنيسة فى جينيف مزاياه الإدارية . . (التوجيهية) التى كان كالفن قد ظفر بها لها فى الشئون غير الدينية . وفى القرن الثامن عشر خفف تأثير فولتير من التقليد الكالفينى ، وقضى على سيطرة الأخلاق المتطهرة النزعة بين الناس . وكافحت الكاثوليكية فى جلد وصبر لتسترد مكانها فى المدينة ، وعرضت مسيحية خافية من الكدر ونزعة أخلاقية خالية من الصرامة ، وكان ٤٢ فى المائة من السكان فى عام ١٥٩٤ كاثوليك و٤٧ فى المائة منهم بروتستانت[٧٩] .

ولكن أعظم بناء قام به الإنسان له أثر كبير فى جينيف هو النصب التذكارى للإصلاح الدينى « المبجل الذى يمتد فى بهاء على طول سور بستان ويحتفل بالانتصارات البروتستانتية وترتفع فى وسطه تماثيل فاريل وكالفن وبيز ونوكس القوية » .

وفى غضون ذلك كانت حكومة رجال الدين الصارمة التى أقامها كالفن تنبت براعم ديمقراطية ، ثم إن جهود الزعماء الكالفينيين فى سبيل توفير التعليم للجميع وتفقيهم وغرسهم شخصية مهذبة قد ساعدت أوساط الناس الأشداء فى هولنده على إبعاد الحكم المطلق الإسبانى الدخيل ودعم ثورة النبلاء ورجال الدين فى سكوتلنده ضد ملكة فاتنة ولكنها مستبدة . وكان للنزعة الرواقية فى عقيدة صارمة الفضل فى خلق أرواح قوية للمعاهدين الاسكوتلنديين والمتطهرين الإنجليز والهولنديين والحجاج فى نيوانجلاند ، وثبتت قلب كرومويل واهتدى بها قلم ميلتون الكفيف وحطمت سلطان آل ستيوارت المستبدين . وشجعت الناس الباسلين والقساة على الظفر بقارة وعلى نشر أساس التعليم والحكم الذاتى إلى أن يستطيع كل الناس أن يصبحوا أحراراً .

وسرعان ما طالب الناس الذين اختاروا كهان أبرشياتهم بأن يكون لهم حق اختيار حكامهم وأصبحت جماعة المصلين التى تحكم نفسها بنفسها بلدية تحكم نفسها بنفسها ، وهكذا أبرزت أسطورة الانتخاب الإلهى نفسها فى صنع أمريكا .

وعندما تم أداء هذا العمل أهملت النظرية البروتستانتية التى تقول بالجبر ، ولما عاد النظام الاجتماعى إلى أوربا بعد حرب الثلاثين عاماً وفى انجلترا بعد ثورتى عام ١٦٤٢ و ١٦٨٩ وفى أمريكا بعد عام ١٧٩٣ تغير الفخار بالانتخاب الإلهى إلى اعتزاز بالعمل وإنجازه وشعر الناس بأنهم أقوى وأكثر أمناً .

وقل الخوف وأسلمت القسوة المذعورة التى ولدت رب كالفن إلى رؤية أكثر رحمة ألزمت بإعادة النظر فى مفهوم الألوهية . وعقداً بعد عقد نبذت الكنائس التى تسلمت زمام القيادة من كالفن عناصر عقيـــدته القاسية ، وواتت الجرأة المشتغلين باللاهوت على أن يؤمنوا بأن كل من ماتوا فى

الطفولة كتب لهم الخلاص ، وأعلن قس مبجل دون أن يسبب أى اضطراب أن « عدد الضالين نهائياً . . . سيكون طفيفاً جداً »(٨٠) . ونحن نشعر بالشكر لهذا التأكيد العظيم .

ونوافق حتى على أن الخطأ يعيش لأنه يخدم حاجة حيوية ما . ولكننا سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذى أظلم الروح البشرية بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً وكفراً فى تاريخ السخف الطويل المبجل بأسره .

المراجع مفصلة

CHAPTER XVI

1. Acton, *Lectures on Modern Hy*, 91; Thompson, *Social and Economic Hy*, 425, 428; Ranke, *Reformation*, 151.
2. Friar Myconius in Thatcher, O. J., *Source Book for Medieval Hy*, 339.
3. Robertson,W., *Charles V*,1,372.
4. Pastor, VII, 349.
5. Luther, *Works*, I, 26; Thesis75.
6. Beard, *Luther*, 257.
7. Acton, 97.
8. *Camb. Mod. Hy*, II, 127.
9. Ranke, *Reformation*, 154.
10. Beard, 121;Smith, P., *Luther*, 2.
11. In D'Arcy, M.'C., *Thomas Aquinas*, 254.
12. Ranke, 144; Beard, 168.
13. Beard, 166.
14. Luther, *Tischreden*, lxxvii, in Gregorovius, *Hy of Rome*, VIII-1, 249.
15. Ganss, H. G., in Cath. En., IX, 441.
16. In Ganssen, III, 97.
17. Ibid., 89.
18. Cath, En., IX, 442.
19. In Pastor, VII, 354.
20. Cath. En., IX, 443.
21. In Beard, 231-3.
22. *Camb. Mod. Hy*, II, 132.
23. Ranke, 160.
24. Roscoe,Wm., *Leo X*, II,95,105-7.
25. Pastor, VII, 367.
26. H. von Schubert in Smith, *Luther*, ix.
27. In Pastor, VII, 378.
28. Smith, *Reformation*, 700.
29. Beard 270.
30. Ibid., 278-4; Ranke, 195; Cath. Ed., IX, 448; Acton, 94-5.
31. Pastor, VII, 382; Beard, 272.
32. Smith, *Luther*, 66.
33. Cath. En., IX, 444.
34. Smith *Luther*, 71.
35. Letter of Aug. 20,1581, in Froude, *Erasmus*, 397.
36. In Ledderhose, *Life of Melanchthon*, 38.
37. In Beard, 279.
38. In Strauss *Hutten*, 263.
39. In Pastor, VII, 389; Janssen, III 111.
40. Strauss, 225.
41. *Werke*, VIII, 203, in Beard, 352.
42. Pastor, VII, 384; Smith, *Luther*, 75.
43. Luther, *Works*, II, 68.
44. Ibid., 69-70.
45. 76.
46. 78.
47. 83-99, italics mine.
48. 110.47.
49. 138-9.
50. *Babylonian Captivity*, in *Works*, II, 169.
51. Ibid., 257.
52. In Janssen, III, 129.
53. *Works*, II, 269-71.
54. Ibid., 293.

55. 302-10.
56. 299.
57. 331.
58. 3.8.
59. Ranke, 215; Pastor, VII, 400-3; Janssen, III, 80.
60. Ranke, 220; Beard, 175.
61. Hume, M., *The Spanish People*, 331.
62. Adams, Brooks, *Civilization and Decay*, 98.
63. Strieder, *Jacob Fugger*, 153.
64. Michelet, III, 174.
65. Thompson, *Social and Economic History*, 428.
66. Armstrong, E., *Charles V*, I, 69.
67. Janssen, III, 178.
68. Pastor, VII, 428.
69. Lingard, *Hy of England*, IV, 225.
70. In Janssen, III, 172; Bainton, *Here I Stand*, 175.
71. Strauss, 276f.
72. Beard, 491-3.
73. Janssen, III, 182.
74. Beard, 412.
75. Bainton, *Here I Stand*, 185.
76. Ibid.; Schaff, *German Reformation*, 29.
77. Bainton, *Here I Stand*, 185; of Cath. En. IX, 446d, and the Protestant authors there cited.
78. Creighton, *Hy of the Papacy*, VI, 176.
79. Carlyle, Thos, *Heroes and Hero Worship*, 360.
80. Bainton, *Here I Sand*, 188.
81. Acton, 101.
82. Bainton, 189.
83. Ibid., 195.
84. Taylor, H. O., *Thought and Expression in the 16th Century*, II, 213.
85. Bax, *German Socity*, 142; Lecky, *History, of Rationalism*, I, 22.
86. Janssen, III, 246-8.
87. Bainton, 200.
88. Ibid., 205-6; Ranke, 251.
89. Luther, *Works*, III, 206-7.
90. Ibid., 211.
91. Ranke, 254
92. Bainton, 208.
93. Janssen, III, 259.
94. Ibid., 263.
95. Bainton, 214.
96. Beard, 127.
97. Janssen, IV, 98.
98. Smith, *Luther*, 155.
99. Ibid., 168.
100. 380.
101. Froude, *Erasmus*, 294.
102. Janssen, XIV, 408.
103. Luther, *Table Talks*, 118.
104 *Werke* (Walch), VIII, 2042, in Beard, *The Reformation of the 16th Century in Relation to Modern Thought and Knowledge*, 161.
105. Luther' *Table Talk*, 358.
106. Luther, *Werke* (Erlangen), VI, 142-6, in Maritain, *ThreeReformers*, 38 and Beard, *Reformation* 156.
107. In Paulsen, *German Education*, 47.
108. In Jassen, III, 240.
109. Schaff, *German Reformation*, 85-6.
110. Luther, *T.T.*, 24.
111. Smith, *Luther*, xi.
112. *T.T.*, 2.
113. Ibid., 91,96.
114. 67.
115. 15.
116. 797; Smith, *Luther*, 362.

117. *T.T.*, 574.
118. Sermon of March 6, 1521; Janssen, XII, 316.
119. Maritain *Three Reformers*, 80.
120. Smith, *Reformation*, 659.
121. Lecky, *Rationalism*, I 22,
122. *T.T.*' 577, 597; Janessen, XIV, 87.
123. Janssen, XII, 317.
124. Lecky, *Rationalism*, I, 28.
125. *T.T.*, 579-86, 6
126. Luther' *Works*, III, 235-7.
127. *Works*, II, 39'.
128. Ibid., 316.
129. *T.T.*, 283.
130. Romans, x, 9.
131. Mark, xvi, 16.
132. *Works*, II, 316.
133. *Werke*, XL, 436; XXV, 330, 142, 130; *Werke* (Erlangen), XVIII, 260.
134. *Werke* (Erlangen), XX, 58; LX, 107-8; *Werke* (Weimar), X-2, 276.
135. O'Brien, G., *Economic Effects of the Reformation*, 41.
136. *Works*. II, 328-9.
137. Ibid., 331.
138. Romans, ix, 18.
139. Luther, *De servo arbitrio*, in in Janssen, IV, 104.
140. *De servo arbitrio*, in Lecky, *Rationalism*, I, 140.
141. In Fülöp-Miller, R., *Saints That Moved the World*, 291.
142. Janssen, IV. IV, 114.
143. *T.T.*, 96.
144. Ibid., 178.
145. *Works*, II, 188.
146. *Werke*, XXVIII, 142-201. In Bax, *German Society*, 188-90.
147. *Works*, III, 258-61.
148. In Janssen, III, 268.
149. In Allen, J. W., *Political Thought*, 380.
150. *Works*, IV, 25.
151. Ibid., 26, 29.
152. *Works*, II, 160.
153. bid., IV, 35.

CHAPTER XVII

1. Rechard. E., *German Civilization*, 260.
2. Janssen, III, 214.
3. Pastor, IX, 134.
4. Schapiro, J. S., *Social Reform*, 84-5.
5. Richard, 260; *Camb, Mod. Hy*; II, 174.
6. Luther, *Works*, III, 204-5.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 188.
8. Janseen, III, 221; Schapiro, 103-14.
9. Janssen, III, 228; *Camb. Mod.* Hy, II, 177.
10. Jansson. III, 342.
11. *Comb, Mod. Hy*, II, 193.
12. Kautsky, 116-119.
13. Ibid, 121.
14. 180.
15. Ranke, *Reformation*, 338.
16. In Kautsky, 139.
17. Ibid., 144.
18. Luther, *Works*, IV, 210-16.
19. Ibid., 220-1.
20. 240.
21. 244.
22. Ranke, 450.
23. Janssen, IV, 166; Bax, *Peasants' War*, 79-84.
24. Ranke, 348-9.
25. Robinson, J. H. *Readings, in European Hy*, 2891; Bax, *Peasants' War*, 156-60.

. Ranke, 344.
27. Bax, *Peasants' War*, 101.
28. Ibid., 118-30.
29. In Janssen, IV, 208.
30. Bax, 76, 224.
31. Ibid., 205.
32. 229.
33. Luther, *Works*, IV; 248-54.
34. Bax, 265 6.
35. Ibid., 312-5.
36. 303.
37. *Camb. Mod. Hy*, II 191.
38. Bax., 336-7.
39. Armstrong, *Charles, V*, I, 222.
40. Ranke, 360.
41. Schapiro, 86; Smith, *Luther*, 146.
42. Ibid., 165.
43. 164.
44. *Works*, IV, 261.
45. Ibid., 261-72.
46. *Camb. Mod. Hy*, II, 192.
47. Ranke, 728.
48. Payne, E., A., *Anabaptists*, 11.
49. Kautsky, 164.
50. Ibid., 166.
51. Allen, *Political Thought* 48.
52. Ranke, 732-3.
53. Schaff, *Swiss, Reformation*, 82.
54. Janssen, IV, 114.
55. Kautsky, 176.
56. Ibid., 185.
57. 187.
58. Ranke, 729.
59. Kautsky, 192.
60. Ranke, 757.
61. Kautsky, 265-6.
62. Ibid., 267.
63. 260.
64. 273.
65. Ranke, 745-6.
66. Smithson, R. J., *Anabaptists*, 179-80.
67. Kautsky, 299; Ranke, 755.
68. Smithson, 181.
69. Fosdick, *Great, Voices of the Reformation*, 285.
70. Payne, *Anapatists*, 16.

CHAPTER XVIII

1. Cath. En., XV, 773.
2. Schaff, *Swiss, Ref.*, 6.
3. Ibid.
4. Hughes, *Reformation*, I, 124.
5. Schaff, 24.
6. *Camb. Mod. Hy*, II, 713.
7. Schaff, 32.
8. Ranke, 513.
9. Schaff, 52-3 .
10. Fosdick, 183.
11. Ibid., 173, 191.
12. Lea, *Auricular Confession*,I,519.
13. Fosdick, 190.
14. Schaff, 59.
15. *Camb. Mod, Hy*, II, 321, 334.
16. Smith, *Erasmus*, 301.
17. Schaff, 94.
18. Bainton, *Hunted Heretic*, 36-8.
19. Erasmus, Epistle of May 9,1529, in Schaff, *Swiss Reformation*,112.
20. *Camb. Mod. Hy*, II 207-10.
21. In Janssen, V, 281.
22. Schaff, 177.
23. ibid.
24. Bossuet. *Variations*, II, 29.
25. En. Brit., XXIII, 998.
26. Schaff, 188.
27. Smith' *Luther*, 290.
28. *T. T.*, 801.

CHAPTER XIX

1. Kauffman Collection, Berlin.
2. *Werke*, XLII, 562, in Maritain, 171.
3. *Werke*, X-2, 304, in Maritain, 171.

4. *T.T.*, 715.
5. Ibid., 752.
6. Maulde, *Women of the Renaissance*, 467.
7. *Werke*, X-2, 301, in Maritain, 184.
8. Bainton. *Here I Stand*, 299.
9. *T.T.*, 715.
10. Bainton, 301.
11. *T.T.*, 737.
12. Ibid., 751.
13. In Schaff, *Swiss Reformation*, 417.
14. In Fosdick, 71.
15. Smith, *Luther*, 354.
16. Schaff, *German Reformation*, 465.
17. Bainton, 604.
18. Smith, 320.
19. Letter to Pope Leo, 1520.
20. Luther, *Works*, I, 7.
21. Janssen' XI, 340; Luther, *Works*, II, 231; Bainton, 295.
22. Bainton, 295.
23. Janssen, III, 242.
24. *Werke*, VIII, 624, in Martian, 188.
25. In Carpenter, *Pagan and Christian Creds*, 207.
26. *T.T*, 462.
27. *Werke*, XXV, 108, in Cath. En., IX, 447b.
28. *T.T.*, 319.
29. Gasquet, *Eve of the Reformation*, 173.
30. Smith, *Luther*, 407; Bainton, *Here I Stand*, 295.
31. Smith, 356.
32. Ibid., 326.
33. In Janssen, XI, 263.
34. Bainton, 225.
35. *T.T.*, 100.
36. Smith, *Luther*, 322.
37. Ibid., 349.
38. Ibid.,
39. Janssen, XII, 16; *T.T.*, 114.
40. bid., 257.
41. 91, 96.
42. 780.
43. Jusserand. *Literary History of the English People*, II, 167.
44. *T.T.*, 841.
45. Ibid., 413.
46. Luther, *Works*, I, 76.
47. bid., 142.
49. Bainton, *Here*, 314.
50. *Works*, III, 204, 207.
51. Preface to the Shorter Catechism.
52. *Werke* (Erlangen), XXIX, 46-74, in Jewish Encyc., VIII, 213.
53. *T.T.*, 275.
54. *Werke*, (Erlangen). XXXII, 217-33, in Janssen, III, 211-12.
55. *Werke*, (Erlangen), XXVIII, 144, in Maritain, 16.
56. Letter of Aug. 26, 1529, to Jos, Metsch, in Smith, *Luther*, 218.
57. In Froude, Erasmus, 389.
58. *T.T.*, 61.
59. Putnam, *Books*, II, 244.
60 *Werke*, XXXI-1, 208f.
61. *Werke*, (Erlangen) XVI. in Allen, *Political Thought*, 27.
62. Bax, *Peasants' War*, 352.
63. Smith, *Luther*, xiv.
64. Id., *Reformation*, 645.
65. Janssen, IV, 140-1.
66. Murray, *Erasmus and Luther*, 866.
67. Janssen, XIV, 503.
68. Janssen, V, 290.
69. Luther, Commentary on Psalm LXXXII.
70. Janssen, V, 491, 502, 505.
71. Janssen, VI, 46-63, 181, 190, 208-14, 348-9; Lecky, *Rationalism*, II, 15.

72. Janssen, IV, 282f.
73. Lea, *Studies in Church History*, 492.
74. *T.T.*, 889.
75. Smith, *Reformation*, 104; Panofsky, Dürer, 1283; Cath. En., IX, 447c.
76. Janssen, III, 198.
77. Ibid., 349.
78. Robertson, J. M., *Freethought*, I, 455.
79. Erasmus, letter to Pirkheimer, Feb. 21, 1529.
80. Janssen, III, 361.
81. Strauss, *Hutten*, 290.
82. Smith *Erasmus*, 233.
83. In Michelet, III, 170.
84. Smith, *Erasmus*, 384.
85. Letter of March 5, 1518.
86. Letter of October 17, 1518.
87. In Froude, *Erasmus*, 189.
88. Smith, *Erasmus*, 219.
89. Ibid., 221.
90. Ibid., 22; Froude, *Erasmus*, 233-4.
91. In Murray, *Erasmus*, 76.
92. Froude, 270-2.
93. Smith, *Erasmus*, 241.
94. Ibid., 256.
95. Erasmus, *Epistles*, I, ep. lxxxv.
96. Ibid., ep. ccclxvi.
97. Froude, 308.
98. Letter of Feb, 1523, in Froude, 310.
99. Acton, 105; Lecky, *Reformation*, I, 140.
100. Ibid.,
101. Bainton, *Here I, Stand*, 254-5.
102. Froude, 340, 881.
103. In Allen, *Political Thought*, 60.
104. Froude, 408.
105. Ibid., 857.
106. In Froude, 400.
107. Erasmus, *Heperapistes*.
108. In Froude, 352.
109. Walpole, H., *Letters*, III, 184.
110. Beard, *Luther*, 93.
111. Acton, 89.

CHAPTER XX

1. Janssen, IV, 62.
2. Cf. *Comb. Mod. Hy*, II, 159.
3. Janssen, VI, 534.
4. Janssen, V, 277.
5. Lea, *Clerical Celibacy*, 580.
6. Janssen, VII, 247.
7. Id., IV, 47.
8. Id., IX, 180.
9. Id., XIII, 24.
10. Froude, *Erasmus*, 887.
11. Vambéry, 283.
12. Janssen, IV, 119.
13. Ibid., 109-11.
14. En. Brit., XI, 298.
15. Jansen, V, 271; Ranke, 614.
16. Cath. En., XI, 458.
17. *Comb. Mod. Hy*. II, 219.
18. Janssen, V, 428.
19. Luther, *Works*, V, 128; Pastor, XI, 69, 81-7.
20. Janssen, V, 495f; *Comb. Mod. Hy*, II, 233.
21. Pastor, XI, 362-3.
22. Ibid., 375-98.
23. Ledderhose, 177-82.
24. Ibid., 188.
25. Cath. En., IX, 452d.
26. In Bainton, *Here I Stand*, 346.
27. Pastor, XI, 67.
28. Smith, *Luther*, 809.
29. *Werke* (Walch), XX, 228, in Cath. En., IX, 456d.
30. Luther, *Works*, V, 163.

31. In Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 101; Bainton, *Here I Stand*, 238.
32. *Werke*, XIX, 626, in Allen, *Political Thought*, 22.
33. Bax, *Peasants' War*, 351.
34. *Werke*, XV, 276, in Bax, 352.
35. Smith *Luther*, 374.
36. Letter of Sept. 3, 1531.
37. Smith, 196.
38. In Bebel, *Woman under Socialism*, 68.
39. Janssen, VI. 81-6.
40. *Camb. Mod. Hy*, II, 241.
41. Ledderhose, 170.
42. Janssen, VI, 122.
43. *Camb. Mod. Hy*, II, 241.
44. In Smith, *Luther*, 399f.; Pastor, XI, 215f.
45. *Werke*, XXV, 124-55, in Janssen, VI, 271-2, and Pastor, XII, 214f.
46. Weber, Hermann, *On Means for the Prolongation of Life*, 48.
47. Smith, *Luther*, 405.
48. Ibid.. 409.
49. James, Wm., *Varieties of Religious Belief*, 137.
50. Ibid.
51. *T.T.*, 638.
52. Ibid., 15.
53. 19.
54. 235.
55. InRobertson, *Charles V*, II, 158n.
56. Smith, *Luth*, 419.
57. Armstrong, *Charles V*, I, 138.
58. *Comb. Mod. Hy*, II, 270.
59. Ibid., 278.
60. Schaff, *Swiss Reformation*, 387, 548; Janssen, XIV, 149.
61. Id., VII, 139:
62. Id., IV, 362-3; Schapiro, 78; Allen, *Political Thought*, 33.
63. In La Tour, IV, 161.
64. In Janssen, VII, 189.



ول وايريل ديورانت

الإصلاح الدّيني

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

مراجعة
الأستاذ علي أدهم

الجزء الرّابع من المجلّد السّادس





بيروت



تونس

دَارالجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب ـ بيروت ـ لبنان

فهرس الجزء الرابع من المجلد السادس

صفحة

صفحة

الفصل الثاني والعشرون

فرانسيس الأول والإصلاح الديني في فرنسا

١٥١٥ – ٥٩

١ – الملك الأنف الكبير

ولد تحت شجرة في كوفياك في اليوم الثاني عشر من سبتمبر عام ١٤٩٤ ؛ وجده هو شارل أورليان الشاعر ، وربما كان الغناء وحب الجمال في دمه ؛ وأبوه شارل أمير فالوا وأورليان ، كونت أنجوليم ، الذي مات بعد أن اقترف الكثير من الآثام، وكان فرانسيس لم يتجاوز بعد العام الثالث من عمره . وأمه لويز أميرة سافوي ، وهي امرأة على جمال واقتدار وطموح ، تتعشق الثراء والسلطة . وقد ترملت في السابعة عشرة من عمرها ، وأبت الزواج من هنري السابع ملك إنجلترا ، ووقفت جهدها – إذا استثنينا بعض العلاقات المحرمة – على إعداد ابنها ليكون ملكاً على فرنسا ؛ ولم تشعر بالأسى عندما وضعت آن أميرة بريتاني ، زوجة لويس الثاني عشر ، ولداً ميتاً ، وتركت لفرانسيس ولاية العهد . وعين لويس ، وقلبه مفعم بالحزن ، فرانسيس دوقا لفالوا، ورتب له المربين لتلقينه فن تدبير الملك . وأسبغت عليه لويز ، وكذلك أخته مرجريت ، من عاطفة الأمومة ما وصل إلى درجة الوله ؛ وأعداه ليكون ملكاً على قلوب النساء . وكانت لويز تناديه « مليكي » مولاي ، قيصري ؛ وغذته بقصص الفروسية وتباهت بمغامراته الغرامية ، وكان يغمى عليها عندما ترى الضربات تكال

له فى المبارزات التى شغف بها . وكان شاباً وسيما مرحاً أنيساً شجاعاً ، يواجه الأخطار بصدر رحب وكأنه رولان أو أماديس ، وعندما أفلت خنزير برى من قفصه ، وانطلق يعيث فساداً فى فناء قصر فرانسيس ، واجه الأمير الوحش ، وذبحه فى بطولة رائعة ، فى الوقت الذى فرّ فيه الآخرون لا يلوون على شيء .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (١٥٠٦) خطبوا له كلود أميرة فرنسا ، ابنة لويس الثانى عشر ، البالغة من العمر سبع سنوات . وكانت موعودة بأن تكون خطيبة للصبى الذى قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، إلا أن الخطبة فسخت لكى تتجنب فرنسا الوقوع فى براثن أسبانيا ، وكان هذا موضوعاً واحداً من مئات موضوعات الاستفزاز التى حفزت إلى الصراع بين بيتى هابسبورج وفالوا من الفتوة إلى الموت . وعندما بلغ فرانسيس الرابعة عشرة من عمره ، أمر بأن يهجر والدته وأن ينضم إلى لويس فى شينون ، وتزوج كلود عندما بلغ العشرين ، وكانت فتاة بدينة بليدة عرجاء ، ولودا صالحة ، وأنجبت منـــه أطفالا فى أعوام ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٨ و ١٥٢٠ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ وماتت عام ١٥٢٤ .

وفى غضون ذلك أصبح ملكاً (أول يناير عام ١٥١٥) ، وغمرت السعادة قلوب الجميع ، وعلى رأسهم أمه التى أنعم عليها بدوقيتى أنجوليم وأنجو . وكونتيتى ماين وبوفور ، وبارونية أمبواز . بيد أنه لم يكن أقل كرماً مع الآخرين — النبلاء والفنانين والشعراء والوصفاء العشيقات . وكان صوته المرح ودماثته وهدوء طبعه وحيويته المتدفقة وجاذبيته ، وجمعه بين سمات الفروسية ومزايا عصر النهضة كل ذلك جعله أثيراً لدى أبناء جلدته ، بل وحاشيته . واغتبطت فرنسا وعلقت عليه آمالا عريضة . كما حدث فى إنجلترا إبان تلك السنوات التى حكم فيها هنرى الثامن ، وفى الإمبراطورية إبان عهد شارل الخامس ، وبدا العالم فتياً من جديد منتعشاً

بشباب الملك . وصمم فرانسس ، وكان فى تصميمه أقوى من ليو العاشر ، على أن ينعم بعرشه .

ترى ماذا كان فى الواقع ذلك الرجل الذى يجمع بين صفات آرثر ولانسلوت ؟ إنه كان رائع التكوين من الناحية البدنية ، لو لم يكن أنفه كبيراً على ذلك النحو . وقد أطلق عليه بعض معاصريه الذين يفتقرون إلى الاحترام لقب « الملك الأنف الكبير » . وكان فارع القامة ، طوله ست أقدام ، عريض المنكبين ، خفيف الحركة قوى البنية . وكان فى وسعه أن يجرى ويقفز ، ويصارع ويبارز أمهر الخصوم ، وكان يستطيع أن يستعمل سيفاً بمقبضين أو رمحاً ثقيلا . وكانت لحيته الخفيفة وشاربه الرفيع لا يخفيان شبابه ، فقد كان فى الحادية والعشرين عندما توج ملكاً . وكانت عيناه الضيقتان تنمان على التيقظ وخفة الروح ، وإن كانتا لا تدلان على الدهاء أو العمق . وإذا كان أنفه يدل على الفحولة ، فإنه كان يطابق شهرته . وقد كتب برانتوم ، الذى لا يعد كتابه « نسوة عاشقات » مصنفاً تاريخياً ، فى ذلك الوقت يقول : « لقد عشق الملك فرانسس الكثيرات ، وأحب الكثيرات إلى حد الإفراط ، ولما كان شاباً فتياً حراً فقد كان يحتضن الواحدة حيناً ، والأخرى أحياناً بلا اكتراث . . . ومن أجل ذلك أصيب بمرض الجدرى الذى عجل بنهايته »[1] . ويروى أن أم الملك قالت إنه لقى جزاءه حيث اقترف خطيئته(*) . وربما بالغ التاريخ فى تنوع غرامياته . ومهما كان عددها ، فإنه ظل وفياً مخلصاً فى الظاهر أولا لفرانسواز دى فوا ، كونتيسة دى شاتوبريان ، ثم لآن دى بسليو التى أنعم عليها بلقب دوقة ديتامب ، وذلك من عام ١٥٢٦ إلى أن قضى نحبه ونشرت عنه

(*) ومما هو أقرب إلى الأسطورة ، قصة المحامى الذى وقع الاختيار على زوجته لابل فرونيير (بياعة الأدوات الحديدية الجميلة) المخدع الملكى ، فما كان منه إلا أن أصاب نفسه بعدوى المرض فنقل إليها مرض الزهرى حتى تصيب به الملك .

الشائعات الباطلة مئات من الحكايات التي تدور حول مغامراته الغرامية — وأنه حاصر ميلان لا حباً فى ميلان ، ولكن من أجل سواد عينى فتاة لا تنسى ، رآها هناك[٣] ، أو لأن امرأة لعوبا فى بافيا أغرته وقادته إلى محور مأساته[٤] . ولا يسعنا على أية حال إلا أن يخالجنا شىء من العطف على ملك مرهف الحس إلى هذا الحد ، لقد كان قادراً على الحنان والوله إلى درجة الخبال : وعندما رأى أن يطلق ابنه من كاترين دى مديتشى بعد ان ثبت أنها عاقر أثنته دموعها عن عزمه[٥] . وفى هذا قال أرازموس « لا يمكن أن يتخيل امرؤ وجود شخص أرق عاطفة من فرانسيس[٦] . » وإذا كان قد قال ذلك بسبب العطف لبعد المسافة ، فإن بودس عالم الإنسانيات المتخصص فى شئون فرانسيس وصفه بأنه « مهذب رقيق من السهل الحصول على رضاه[٧] » .

وكان معجباً بنفسه للدرجة لا تنتظر من رجل . وكان ينافس هنرى الثامن فى فخامة ثيابه الملكية وفى إهمال فراء قلنسوته . واتخذ السمندل رمزاً له ، مما يدل على الإصرار على البعث من كل احتراق ، بيد أن الحياة لسعته مع ذلك بشواظها . وكان يحب أن يقابل بمظاهر التبجيل والامتياز والتملق ، ويضيق ذرعاً بالنقد . وأمر بجلد ممثل لأنه هجا الحاشية ، وقد واجه لويس الثانى عشر لذعات نفس الملاحظات الساخرة فاكتفى بالابتسام[٨] . وكان جاحداً للجميل ، كما حدث مع آن دى مونمورنسى ، وظالما كما كان مع شارل البوربونى ، وقاسيا كما كان مع سمبلانساى ، ولكنه كان على الجملة معروفا بالصفح والكرم . وكان الإيطاليون يتعجبون من سخائه[٩] . ولم يظهر فى التاريخ حاكم يفوقه فى الرفق بالفنانين ، وكان يعشق الجمال عشقا يتسم بالقوة والفطنة ، وكان على استعداد لأن ينفق على الفن كما ينفق على الحرب ، وقدم نصف ما أنفق من مال فى عصر النهضة الفرنسية .

ولم تكن قدرته الذهنية تضارع جاذبية شخصيته ، وكان يعرف القليل من

اللاتينية ، ولا يعرف شيئا من اليونانية ، بيد أنه أدهش الكثيرين بتنوع معارفه ودقتها عن الزراعة والصيد والجغرافية والعلوم الحربية والأدب والفن ، وكانت الفلسفة تلذ له عندما لا تتعارض مع الحب أو الحرب ؛ وكان شديد التهور والاندفاع إلى درجة لا يصلح معها قائداً عظيما ، خفيف الروح يعشق المتعة إلى حد لا يصلح معه لأن يكون سياسياً كبيراً ، وكانت تسحره المظاهر فلا ينفذ إلى جوهر الأمور . ويتأثر فى لطف بالخلان والحظايا فلا يستطيع أن يختار أصلح من لديه من القادة والوزراء ، وكان شديد الصراحة لا يخفى أمراً إلى حد لا يصلح معه لأن يكون دبلوماسياً قديراً . وحزنت أخته مرجريت بسبب عجزه عن الحكم ، وتنبأت بأن الإمبراطور الداهية العنيد سوف يزيحه عن فرسه فى مقارعتهما التى دامت مدى الحياة . أما لويس الثانى عشر الذى كان يعجب به « بوصفه شاباً شهماً رقيقاً » . فقد رأى فى توجس إفراط خلفه فى الملذات . وقال : « لا فائدة من كل ما نعمل ، إن هذا الولد العظيم سوف يفسد كل شىء »[١٠] .

٢ — فرنسا فى عام ١٥١٥

كانت فرنسا وقتذاك تنعم برخاء تجود به تربة سخية ، ويتحقق على يد شعب ماهر يحسن التدبير وحكم خير . وكان عدد السكان زهاء ١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة فى مقابل ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة فى إنجلترا و ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة فى أسبانيا . وكانت باريس بسكانها البالغ عددهم ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة تعد أكبر مدينة فى أوروبا بعد القسطنطينية . وكان البناء الاجتماعى نصف إقطاعى : فكل الفلاحين تقريباً كانوا يملكون الأرض التى يفلحونها ، ولكنهم كانوا يحتفظون بها عادة فى إقطاع من الأرض — وكانوا يدفعون مكوسا أو يؤدون خدمات — لسادة وفرسان مهمتهم تنظيم الزراعة وتقديم الحماية العسكرية لإقليمهم وللأمة . وأدى التضخم الناتج من تكرار خفض العملات والتعدين

أو استيراد المعادن الثمينة إلى تيسير دفع المكوس المالية التقليدية ، وأتاحت للفلاحين إمكان شراء الأرض رخيصة من الملاك الأثرياء والنبلاء الفقراء ، ومن ثم انتشر فى الريف رخاء أشاع المرح فى نفس الفلاح الفرنسى وجعله يتشبث بعقيدته الكاثوليكية ، بينما كان الفلاح الألمانى يقوم بثورة اقتصادية ودينية . وحفزت الملكية الطاقة الفرنسية فجنت من الأرض أفضل أنواع القمح والكروم فى أوروبا ، وسمنت الماشية وتضاعف عددها ، وكان اللبن والزبد والجبن يقدم على كل مائدة ، والدجاج وغيره من الدواجن تربى فى كل فناء تقريباً ، وتقبل الفلاح الرائحة المنبعثة من حظيرة خنازيره كما لو كانت شذى مباركاً من أعراف الحياة .

أما العامل فى المدينة — وهو فى الغالب صانع ماهر يعمل فى حانوته — فلم يكن له نسبياً نصيب من هذا الرخاء . لقد أدى التضخم إلى سرعة ارتفاع الأسعار بصورة تفوق زيادة الأجور ، وساعدت التعريفات الجمركية التى فرضت لحماية السلع المحلية والاحتكارات الملكية ، مثل استخراج الملح ، على ارتفاع نفقات المعيشة . وأضرب العمال المتذمرون ، ولكنهم جميعاً ، على وجه التقريب ، لم يظفروا إلا بالفشل والخيبة . وحرم القانون على العمال الاتحاد لأغراض اقتصادية . وكانت القوافل التجارية تنتقل متراخية على طول الأنهار الفياضة وتسير بصعوبة على طول الطرق السيئة ، وتدفع لكل سيد ضريبة للمرور فى أملاكه . وكانت ليون التى تلتقى فيها تجارة البحر الأبيض المتوسط القادمة صعوداً من الرون بسيل البضائع القادمة من سويسرة وألمانيا ، تعد ثانى مدينة بعد باريس فى الصناعة الفرنسية . والتالية بعد انتورب باعتبارها سوقاً للأوراق المالية أو مركزاً للاستثمار والتمويل . وكانت التجارة تنطلق من مارسيليا ، وتجوب البحر الأبيض المتوسط ، وتجنى الربح بفضل العلاقات الودية التى جرؤ فرانسيس على الاحتفاظ بها مع سليمان والأتراك .

وغنم فرانسيس من هذا الاقتصاد ، على غرار ما كانت تفعله الحكومات ، دخولا وصلت إلى الحد الذى يدفعه إلى التسامح . وكانت ضريبة الملك أو السيد ، التى تفرض على الرءوس والأموال ، تثقل كاهل الجميع ، ما عدا النبلاء ورجال الدين ، وكان الأخيرون يدفعون للملك ضرائب عشور ومنحا كنسية ، أما النبلاء فكانوا يقدمون الفرسان ويجهزونهم ، وكان هؤلاء الفرسان لا يزالون عماد الجيوش الفرنسية وقوتها الضاربة . وتلقى فرانسيس درساً من البابوات فباع — وأنشأ للبيع — ألقاباً للنبلاء ومناصب سياسية . وبهذا كون الأغنياء الجدد على الأيام طبقة أرستقراطية جديدة (كما حدث فى إنجلترا) ، وأسس المحامون بشرائهم للمناصب ، بيروقراطية قوية كانت تدير حكومة فرنسا — وأحياناً بغير علم الملك .

ولم يجد الملك بسبب انهماكه فى الملذات وقتاً كافياً يدير فيه شئون الحكم ، فأناب عنه فى تولى مهامه ، حتى فى رسم سياساتها ، رجالا مثل أمير البحر بونيفيه وآن دى مونمورنسى والكردينالين دوبرا ودى تورنون والفيكونت دى لوتريك . وكانت هناك ثلاثة مجالس تعاون هؤلاء الرجال والملك وتشير عليهم بالرأى ، وهى : مجلس خاص من النبلاء ، ومجلس أخص للشئون ، ومجلس موسع ينظر فى طلبات الاسترحام المقدمة إلى الملك . وفيما عدا هذا كان المجلس النيابى فى باريس ، ويتألف من ٢٠٠ عضو من العلمانيين ورجال الدين ، يعينهم الملك مدى الحياة ، بمثابة محكمة عليا . وكان له الحق فى الاعتراض عليه عندما يرى أن مراسيمه تتعارض مع قوانين فرنسا الأساسية ، وكانت مراسيمه تظل تفتقر إلى قوة القانون إلى أن تقوم هذه الهيئة القديمة بـ « تسجيلها » — بل بالتصديق عليها فى واقع الأمر .

ولما كان المحامون والشيوخ يغلبون على المجلس النيابى فى باريس ، فقد أصبح الجهاز القومى السياسى للطبقات الوسطى وأضحى — بعد السوربون —

أكبر هيئة محافظة فى فرنسا . وكانت المجالس النيابية المحلية والمحافظون الذين يعينهم الملك ، يديرون شئون الحكم فى المقاطعات ، وتجاهل الجميع حينا مجلس الطبقات ، وحلت جباية الضرائب محل المنح التى تقدم على سبيل المساعدة ، وتضاءل دور طبقة النبلاء فى الحكومة .

وكان النبلاء يقومون بوظيفة مزدوجة : تنظيم الجيش وخدمة الملك فى البلاط . وكانت الحاشية التى تتألف من الرؤساء الإداريين ورؤوس النبلاء وزوجاتهم وأبناء الأسرة وأصفياء الملك ، قد أصبحت وقتذاك على رأس فرنسا وفى الصدر منها ، ومرآة تعكس البدع والمهرجان الملكى الدائم المتحرك ، وعلى قمة هذه الدورة كان مدير قصر الملك الذى كان ينظم كل شىء ويرعى البروتوكول ، ثم الحاجب المكلف بغرفة نوم الملك ، ثم أربعة من السادة الموكلين بمخدع الملك ، أو كبار الوصفاء الذين كانوا دائماً رهن إشارة الملك لتلبية رغباته ، وكان هؤلاء الرجال يستبدل بهم آخرون كل ثلاثة أشهر ، وذلك لمنح غيرهم من النبلاء فرصة يحل فيها الدور عليهم للقرب البهيجة من الذات الملكية . ولكيلا يتعرّض أحد للإغفال كان هناك عدد من السادة يتراوح بين عشرين وأربعة وخمسين لمخدع الملك يخدمون الأربعة الكبار ، يضاف إلى هؤلاء اثنا عشر وصيفاً للمخدع ، وأربعة حجاب للمخدع ، وكانت أجنحة نوم الملك تلقى العناية المناسبة ، وكان هناك عشرون سيداً يعملون مشرفين على مطبخ الملك ، وينظمون أعمال جماعة تتألف من خمسة وأربعين رجلا وخمسة وعشرين من سقاة الخمر . وكان هناك نحو ثلاثين غلاماً من وصفاء الشرف — أولاد لهم نسب جليل — يعملون وصفاء للملك ، ويتألقون فى زى مفضض خاص ، وجمع من أمناء السر يضاعفون من طاقة الملك على التدوين والتذكر ، وكان القس الأكبر للكنيسة الملكية كردينالا ، ويشرف أسقف على المحراب أو المصلى ، وسمح لخمسين من الأساقفة الأبروشيين بإسباغ البركة على البلاط ، وبذلك

يزدادون شهرة . وأنشئت مناصب شرف مثل : « خدم الغرفة الخاصة بمرتب قدره ٢٤٠ جنيهاً ، وقد منحت للقيام بمهام مختلفة ، كالتى أنعم بها على علماء مثل بوديه وشعراء مثل مارو . ولا يفوتنا أن نذكر سبعة أطباء وسبعة جراحين وأربعة حلاقين وسبعة مرتلين وثمانية صناع ماهرين وثمانية كتبة للطبخ وثمانية حجاب بقاعة الاجتماعات . وكان لكل ولد من أبناء الملك خدمه الخاصون به » . . مشرفون وكتاب سر ومربون ووصفاء وخدم ؛ وكان لكل واحدة من الملكتين فى البلاط — كلود ومرجريت — بطانة خاصة تتألف من خمس عشرة سيدة أو عشر سيدات يعملن وصيفات وست عشرة أو ثمان من وصيفات الشرف — آنسات . ومن أعظم ما اشتهر به فرانسيس أنه جعل للنساء مكانة عليا فى بلاطه ، وأنه كان يغمز بعين الخبير إلى علاقاتهن غير الشرعية ، ويشجع ويستمتع باستعراض حليهن ومفاتنهن الرقيقة . وقال : « أى بلاط يخلو من السيدات حديقة مجردة من الأزهار[١١] » ؛ ولعل النساء — اللاتى وهبن جمال الفن ، الذى لا تلحقه الشيخوخة — هن اللاتى أضفين على بلاط فرانسيس الأول رونقاً جميلا وحافزاً على البهجة لا نظير لهما حتى فى القصور الإمبراطورية بروما ؛ وكان كل الحكام فى أوروبا يفرضون المكوس على شعوبهم ليهيئوا لأنفسهم صورة مصغرة لهذا الحلم الباريسى .

وتحت هذا السطح المصقول كانت هناك قاعدة عريضة من الخدم : أربعة من الطهاة ، وستة من مساعدى الطهاة ، وطهاة متخصصون فى أطباق الحساء أو المرق المتبل أو الشواء ، وعدد لا يحصى من الأشخاص ، لتقديم الطعام إلى الملك وخدمته على المائدة ، وفى المطبخ المشترك للحاشية ، وتلبية احتياجات السيدات والسادة والسهر على راحتهم ، وكان هناك موسيقيو البلاط يقودهم أشهر المغنين والملحنين والعازفين على الآلات فى أوروبا خارج روما ، ويشرف على الحظائر الملكية مدرب للخيل ، وخمسة وعشرون من

من رؤساء الركائب النبلاء ، وحشد من الحوذية والسواس ، وهناك رؤساء يشرفون على الصيد ،ومائة كلب و ٣٠٠ صقر يدربها ويعنى بها مائة مدرب للصقور تحت إشراف كبير مدربي الصقور . وتألف حرس الملك من أربعمائة من الرماة ، يضيئون البلاط بأزيائهم الملونة .

ولم يكن هناك مبنى فى باريس يكفى لمآدب البلاط وحفلاته الراقصة وحفلات الاستقبال الدبلوماسية . وكان قصر اللوفر وقتذاك حصناً كئيباً ، فانصرف عنه فرانسس إلى القصور المنسقة المعروفة باسم ليه تورنل (الأبراج الصغيرة) قرب الباستيل ، أو إلى القصر الفسيح الذى اعتاد المجلس النيابى أن ينعقد فيه ، ومع أنه كان لا يزال يعشق الصيد فقد انتقل إلى فونتنباو أو إلى قصوره الممتدة على نهر اللوار فى بلوا أو شامبور أو امبواز أو تور — ساحباً معه نصف الحاشـــية وثروة فرنسا . وقد وصف شليني بمبالغته المعهودة ولى نعمته الملك بأنه كان يسافر ومعه بطانة مكونة من ١٨٫٠٠٠ شخص و ١٢٫٠٠٠ جواداً[١٢] . واحتج السفراء الأجانب على ما يتكبدونه من نفقات ومشقة ، فى سبيل لقاء الملك أو مسايرته ، وإذا وجدوه فإنه يكون على الأرجح ، نائماً فى فراشه حتى الظهر ، يفيق من المتع التى نعم بها فى الليلة الماضية ، أو منصرفاً إلى ما يلزم لرحلة صيد أو مباراة للفروسية . وكانت نفقات هذا المجد الطواف باهظة ، وكانت الخزانة دائماً على شفا الإفلاس ، والضرائب ترتفع على الدوام ، والمصرفيون فى ليون يُكرهون على تقديم قروض للملك ، يتعرضون فيها للمخاطر . وعندما أدرك الملك عام ١٥٢٣ أن نفقاته تتجاوز موارده ، وعد بوضع حد لإشباع رغباته الشخصية « وهى لا تشمل على أية حال المطلب العادى لاحتياجاتنا ومتعنا القليلة[١٣] » . وكان يلتمس لنفسه عذراً فى تبذيره بحاجته إلى التأثير فى المبعوثين والتغلب على النبلاء الطموحين ، وإدخال البهجة على قلوب العامة ، ورأى أن الباريسيين يتعطشون للعروض ، وأن إعجابهم بأبهة ملكهم يفوق استياءهم منه .

وأصبحت حكومة فرنسا آنذاك مزدوجة الجنس . فكان فرانسس يحكم في الظاهر حكماً مطلقاً ، بيد أنه كان يعشق النساء إلى درجة جعلته يخضع لأمه وشقيقته بل وزوجته . ولا بد أنه كان يحب كلود إلى حد ما لأنها ظلت على الدوام حاملا منه . وقد تزوجها لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، وشعر بأن من حقه أن يقدر نساء أخريات خلقن في صورة فنية أجمل منها . وحذت الحاشية حذو الملك في ممارسة فن فحش ظريف . ووطن رجال الدين أنفسهم على قبول هذا الوضع بعد إبداء الاعتراض المناسب ، أما الشعب فلم يبد أي اعتراض ، ولكنه قلد شاكراً سنة الحاشية الدمثة — ما عدا فتاة واحـــدة ، قيل لنا إنها شوهت جمالها عمداً لتنجو من الفسق الملكي (١٥٢٤)[١٤] .

وكانت أقوى النساء نفوذاً في البلاط والدة الملك ، وقالت لويز أميرة سافوي إلى قاصد رسولي : « وجه خطابك لي ، وسوف نسير في طريقنا ، وإذا شكا الملك فإننا سنتركه يتكلم كما يشاء[١٥] » ، وكثيراً ما كانت على صواب في نصيحتها . وعندما تولت الحكم كنائبة للملك ،أصبحت البلاد خيراً مما كانت عليه بين يديه المتراخيتين . ولكن أطماعها دفعت دوق بوربون إلى خيانة الوطن ، وأدت إلى هلاك جيش فرنسي جوعاً في إيطاليا . وغفر لها ابنها كل شيء ، وشعر بالشكر لأنها جعلت منه إلها .

٣ — مرجريت أميرة ناڤار

ولعله كان يحب شقيقته حباً لا يفوقه إلا حبه لأمه ، وإن كان يزيد على حبه لعشيقاته — وقد منحته مؤازرتها شيئاً أقل خلوداً وعمقاً من تمجيدها المجرد من الأنانية . وكانت لا تعيش إلا للحب — حب أمها وشقيقها وزوجها ، وهو حب أفلاطوني وحب ديني صوفي . وثمة حكاية لطيفة تقول : « لقـــد ولدت وهي تبتسم ، وتمد يدها الصغيرة لكل

قادم[١٦] » « وقد أطلقت على أمها وشقيقها ونفسها اسم « ثالوثنا » ، وقنعت بأن تكون « الزاوية الصغرى » فى ذلك « المثلث المتساوى الأضلاع[١٧] » .
وكانت بحكم مولدها مرجريت أميرة أنجوليم وأورليان وڤالوا . وتكبر فرانسس بعامين ، فأسهمت فى تنشئته وشاركته ألعاب الطفولة ،وكانت بمثابة « أمه وعشيقته وزوجته الصغيرة[١٨] » . وسهرت عليه فى كلف شديد كما لو كان إلهاً مخلصاً قد تحول إلى إنسان ، وعندما وجدت أنه كان مسرفاً فى شهواته الجنسية مثل « الساطير » تقبلت ذلك التصرف منه باعتباره حقا لإله من آلهة الإغريق ، على الرغم من أنها بالذات لم تلحقها أى لوثة من بيئتها . وقد فاقت فرانسيس فى الدراسات ، ولكنها لم تضارعه قط فى تقديره للفن بعين خبيرة . وتعلمت الإسبانية والإيطالية واللاتينية واليونانية وبعض العبرية ، وأحاطت نفسها وقد تملكتها رغبة جامحة ، بالأدباء والشعراء وعلماء اللاهوت والفلاسفة ، ومع ذلك فإنها كانت تتحول يوما بعد يوم إلى امرأة جذابة ، ولم تكن جميلة الجسد إذ كان لها ذلك الأنف الطويل الذى اشتهر به آل ڤالوا ، ولكنها كانت ذات سحر أخاذ بفضل مفاتن شخصيتها وذكائها . وكانت عطوفا ، لطيفة كريمة حنونا ، وكثيراً ما كانت تندفع فى مجون مرح . وكانت تعد من أبرع الشواعر فى هذا العصر ، وكان بلاطها فى نراك أوبو من أعظم المراكز الأدبية تألقا فى أوروبا ، وكان كل إنسان يحبها ويود أن يكون بقربها . وأطلق عليها أهل ذلك العصر الرومانسى الساحر لقب لؤلؤة آل ڤالوا — لأن مرجريتا Margarita باللاتينية معناه لؤلؤة ، وانتشرت أسطورة جميلة تقول إن لويز أميرة سافوى حملت بها بعد أن ابتلعت لؤلؤة .

وتعد رسائلها لأخيها من أجمل وأرق ما كتب فى الأدب . ولا بد أنه كان يطوى جوانحه على الكثير من الخير ، ليفتزع منها مثل هذا الإخلاص . وكانت غرامياتها الأخرى تتفاوت مداً وجزراً وتتأجج أو تفتر ، أما هذه

العاطفة الطاهرة فقد استمرت خمسين عاماً وكانت قوية على الدوام : وإن لمسات ذلك الحب كادت تطهر هواء ذلك العصر المعطر .

وقد أثار جاستون دى فوا ، ابن أخى لويس الثانى عشر ، أول مشاعر غرامها ، ثم انطلق إلى إيطاليا ليغزو ويقضى نحبه فى رافنا (١٥١٢) ، وسقط جيوم دى بونيفيه صريع هواها ، ولكنه وجد أن قلبها لا يزال مشغولا بجاستون ، فتزوج إحدى وصيفاتها ، ليكون بالقرب منها ، وزفت فى السابعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) إلى شارل ، دوق أنسون ، وكان بدوره سليلا لأسرة ملكية . وقد دعا فرانسيس إلى هذا الزواج توثيقا لأواصر المصاهرة بين أسر متنافسة إلى درجة مزعجة ، بيد أن مرجريت وجدت أن من العسير عليها أن تحب هذا الشاب ، وعرض عليها بونيفيه أن تلتمس السلوى عن ذلك بالخنا ، فشوهت وجهها بحجر حاد لتخمد سحر فتنتها له ، وذهب كل من لنسون وبونيفيه إلى إيطاليا للقتال من أجل فرانسيس ، ومات بونيفيه ميتة الأبطال فى بافيا ، أما لنسون فيقال إنه فر وقت تأزم المعركة ، وعاد إلى ليون ، ليجد نفسه موضع الاحتقار من الجميع ، وانتهرته لويز أميرة سافوى ، ووصفته بأنه جبان ، فسقط مريضا بداء ذات الجنب ،وصفحت عنه مرجريت ، وسهرت على تمريضه فى حنان ولكنه مات (١٥٢٥) .

وبعد عامين من ترمل مرجريت ، تزوجت ، وكانت وقتذاك فى الخامسة والثلاثين ، من هنرى دلبريه ، الملقب بملك نافار ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولمـا كان هنرى مبعداً عن إمارته بسبب مطالبة فرديناند الثانى وشارل الخامس بنافار ، فإن فرانسيس نصب هنرى حاكما على غينا ، وأنشأ بلاطاً مصغراً فى نيراك وأحياناً فى بو فى جنوب غربى فرنسا ، وعامل مرجريت معاملة الأم بل الحماة تقريباً ، ولم يجد حلوها فى إخلاصها لعهود الزواج ، واضطرت إلى أن تلتمس لنفسها السلوى بالقيام

بدور المضيفة والحامية لكتّاب وفلاسفة ولاجئين من البروتستانت . وأنجبت عام ١٥٢٨ ابنة لهنرى هى جان دلبريه ، التى قدر لها أن تحظى بالشهرة باعتبارها أم هنرى الرابع ، وبعد عامين أنجبت ابنا مات فى مرحلة الطفولة، ومنذ ذلك لم تلبس إلا ثياب الحداد . وكتب لها فرانسيس رسالة تفيض ورعا وحنانا كأى رسالة يمكن أن نتوقعها من يراعها . ومهما يكن من شىء فإنه سرعان ما أمرها هى وهنرى بتسليم جان له، لتنشأ بالقرب من البلاط الملكى . فقد خشى أن يخطبها هنرى لفيليب الثانى ملك أسبانيا، أو أن تشب بروتستانتية . وكان هذا الفراق أشد النوائب الكثيرة التى أصابت مرجريت قبل وفاة الملك ولكنه لم يصدها عن الإخلاص له . وإنه لأمر يدعو إلى الأسى ، وإن كان هذا ضروريا أن نروى ما حدث عندما أمر فرانسيس جين بالزواج من الدوق دى كليف ، ورفضت جين ، فأيدت مرجريت الملك إلى حد أنها أصدرت تعليماتها لمربية جين بجلدها إلى أن تلعن . وضربت جين مراراً عديدة ، ولكن جين الشجاعة — وكانت فتاة فى الثانية عشرة من عمرها — أصدرت وثيقة موقعة منها نصت على أنها إذا أكرهت على الزواج فإنها سوف تعتبره لاغيا » ومع ذلك فقد أعدت الترتيبات للزفاف على أساس نظرية تقول إن حاجات الدولة هى القانون الأعلى ، وقاومت جين حتى آخر لحظة ، وكان لا بد من حملها إلى الكنيسة حملا . وما أن انتهت مراسيم الحفل حتى فرت ، وذهبت لتعيش مع أبويها فى بو حيث كاد تبذيرها فى الإنفاق على الثياب والبطانة وإسرافها فى التبرعات يؤدى بها إلى الخراب ،

وكانت مرجريت نفسها المثال المجسم للإحسان . وكانت تسير دون أن يرافقها حارس فى شوارع بو « مثل أى فتاة بسيطة » ، وتسمح لكل من يريد بمقابلتها ، وتستمع مباشرة إلى أشجان شعبها وقالت : « ينبغى ألا ينصرف أحد حزينا أو مغموما من حضرة أمير ، لأن الملوك هم رعاة الفقراء . . . والفقراء عيال الله »(١٩) . وأطلقت على نفسها لقب « رئيس

وزراء الفقراء » وكانت تزورهم فى دورهم وتبعث إليهم بالأطباء من حاشيتها ، وشارك هنرى تماما فى هذا لأنه كان حاكما ممتازاً ، بقدر ما كان زوجا مقصراً ، وكانت الأشغال العامة التى أدارها تصلح أنموذجا لفرنسا ، فقد مول هو ومرجريت تعليم عدد كبير من الطلبة الفقراء من بينهم أميو الذى ترجم فيها بعد كتاب بلوتارخ ، وقدمت مرجريت المأوى والأمان لمارو ورابليه وديبرييه وليفيفر دينابل وكالفن ولكثيرين غيرهم ، إلى حد أن أحد من أسبغت عليهم حمايتها قارنها بـ « دجاجة تتعهد أفراخها بعناية وترفرف عليهم بجناحيها[٢٠] » .

وإلى جانب ما كانت تقوم به من أعمال البر كانت تهتم بثلاثة أمور غلبت على حياتها فى نيراك وبو وهى : الأدب والحب الأفلاطونى واللاهوت الصوفى الذى وجد متسعا للكاثوليكية والبروتستانتية على السواء ، وتسامح حتى مع الفكر الحر . وكان من عادتها أن تدعو الشعراء ليقرأوا عليها أشعارهم وهى تتلهى بالتطريز ، وكانت تنظم أشعاراً تستحق بعض التقدير ، يمتزج فيها الحب البشرى بالحب الإلهى فى وجد واحد مبهم . ونشرت إبان حياتها عدة مجلدات فى الشعر والدراما ، ليست فى جودة رسائلها التى لم تطبع إلا عام ١٨٤١ . ويعرف العالم بأسره كتابها الأيام السبعة ، بسبب ما اشتهر به من حكايات بذيئة . ولكن أنصار الأدب المكشوف سوف يخيب ظنهم فيها . فهذه الحكايات رويت بأسلوب العصر ، الذى وجد أعظم فكاهة فى الخدع والأعمال ، التى تتسم بالشذوذ وتقلبات الحب ، وانحرافات الرهبان عن عهودهم ، والحكايات نفسها تروى بتحفظ . وهذه الحكايات هى التى رواها الرجال والنساء من حاشية مرجريت ، أو من حاشية فرانسيس ، وقد دونتها بنفسها أو دونت لها (١٥٤٤ — ٤٨) ، ولكنها لم تنشرها قط . وظهرت مطبوعة بعد وفاتها بعشر سنوات . وكانت تعتزم أن تؤلف بها مجموعة قصص أخرى على غرار « الأيام العشرة » ، ولكن لما كان الكتاب قد توقف

فى اليوم السابع من رواية الحكايات ، فإن الناشر أطلق عليه اسم الأيام السبعة ، ويبدو أن كثيراً من القصص الواردة فيـــه واقعية ، أخفيت شخصياتها بتغيير أسمائهم : ويقول لنا برانتوم إن أمه ، وكانت إحدى رواة القصص ، تعرف حقيقة الأشخاص الذين تخفوا بأسماء مستعارة فى الحكايات ، ويؤكد لنا مثلا أن الحكاية الرابعة من اليوم الخامس هى قصة محاولات بونيفيه مع مرجريت نفسها(٢١) »

ويجب التسليم بأن ذوق عصرنا ، المعترف به ، سوف يكره على الإحساس بالخجل أمام قصص الإغراء التى رواها السادة والسيدات من الفرنسيين ، الذين كانوا يتلهون ويقضون أيامهم فى التلهى انتظاراً لفيضان يهبط عليهم ويسمح لهم بالعودة من حمامات كوتيريه ، ولنثر بعض الملاحظات العارضة الدعر : « أتريد إذن أن تقول إن كل شىء مباح لمن يعشقون بشرط ألا يعرف أحد ؟

أجل ، فى الحقيقة ، إن الأغبياء فقط هم الذين يكتشف أمرهم(٢٢) » . وإن الفلسفة العامة للكتاب لتجد ما يعبر عنها فى جملة لها مغزاها ، وردت فى الحكاية الخامسة : « ما أتعس السيدة التى لا تحرص على الحفاظ على كنزها ، الذى يمنحها الحفاظ التام عليه الكثير من الشرف ، والذى يجللها بالكثير من العار إن ظلت حريصة عليه(٢٣) » .

ويتخلل الحكايات كثير من العبارات الساخرة المرحة تشيع فيها البهجة ، من ذلك أننا نسمع عن صيدلى ورع من بو « لم يكن له شأن مع زوجته إلا فى أسبوع الآلام على سبيل التفكير »(٢٤) وكما هو الحال فى كتاب بوكاشيو فإن نصف ما فى كتابها من فكاهة يعتمد على لهو الرهبان . وتقول شخصية فى الحكاية الخامسة : « إن هؤلاء الآباء الصالحين يعظوننا بالتزام العفة وهم يريدون أن يدنسوا شرف زوجاتنا » . ويوافق على هذا زوج

انتهك شرفه ويقول : « إنهم لا يتجاسرون على لمس المال ولكنهم على استعداد لأن يمسكوا بأفخاذ النساء وهي أخطر بكثير » . ولا بد أن يضاف إلى هذا كله أن رواة الحكايات المرحة يستمعون إلى القداس كل صباح ويطهرون كل صفحة يقلبونها بعد ذلك بأناشيد التقوى .

والقول بأن مرجريت قد استمتعت بهذه الحكايات أو جمعتها يشير إلى مزاج العصر ، ويدفعنا إلى الحذر من تصويرها قديسة ، وأنها ظلت كذلك حتى سنوات ذبولها : ومع ما يبدو من أنها هي بالذات كانت مثابرة على أن تحتفظ بطهارتها ، إلا أنها كانت تبيح لغيرها الانحلال ، ولم تكن تبدى اعتراضات مدونة على توزيع الملك لسلطاته واستمرت بينها وبين عشيقاته الواحدة إثر الأخرى ، علاقة صداقة حميمة . والظاهر أن الرجال ومعظم النساء كانوا يفكرون فى تبادل الحب بين الجنسين بألفاظ جنسية لا تعرف الاحتشام . وشاعت بين الفرنسيات عادة جذابة إبان ذلك العهد الطروب ، هى تقديم هدايا من أربطة سيقانهن لرجال لا وجود لهم إلا فى الخيال(٢٥) . وكانت مرجريت ترى أن الرغبة الجسدية من الأمور التى يمكن أن يترخص فيها ، إلا أنها هى نفسها أفسحت فى قلبها مجالا للحب الأفلاطونى والدينى . وقد انتقلت عبادة الحب الأفلاطونى بين « نوادى الحب » فى القرون الوسطى ، وتدعمت بأناشيد إيطالية مثل أنشودة بمبو فى نهاية قصة « رجل البلاط » . وشعرت مرجريت بأن من الخير أن تقبل النساء ، بالإضافة إلى العاطفة الجنسية المعتادة ، ولاء رجال لا ينالون من الجزاء إلا صداقة دقيقة وبعض صلات الود التى لا ضرر منها ، وأن هذا الارتباط قمين بترويض الحساسية الجمالية فى الذكر وتهذيب سلوكه ، وتعليمه الالتزام بقواعد الأخلاق ، ومن ثم فإن المرأة تقوم بتهذيب الرجل . ولكن كان فى فلسفة مرجريت حب أرفع من الحب الجلسى أو الأفلاطونى هو حب الخير أو الجمال أو أى كمال ، ومن ثم كان فوقها جميعاً حب الله . ولكن لكى يحب المرء الله لا بد

له اولا من أن يحب مخلوقاً بشرياً حباً تاماً(٢٦) » ، وكانت عقيدتها الدينية معقدة ومبلبلة مثل مفهومها عن الحب . وكما أن أنانية أخيها لم تكدر ولاءها له فإن ما تعرضت له حياتها من مآس وأحداث قاسية تركت عقيدتها الدينية خالصة متحمسة وغير محافظة على أية حال ، وكانت تمر بها لحظات يراودها فيها الشك ، فقد اعترفت فى كتاب : « مرآة الروح الخاطئة » بأنها قد شكت فى بعض الأوقات فى الكتاب المقدس وفى الرب على السواء ، واتهمت الرب بالقسوة ، وتساءلت هل هو حقاً الذى أنزل الكتاب المقدس ؟(٢٧) . وفى عام ١٥٣٣ استدعتها السوربون لتجيب على اتهام بالهرطقة ، فتجاهلت الاستدعاء ، وقال راهب لجمهور أبريشيته إنها تستحق أن توضع فى جوال ويخاط عليها وتلقى فى نهر السين(٢٨) ، ولكن الملك أبلغ السوربون والرهبان بأن يتركوا شقيقته وشأنها ، ولم يصدق ما وجه إليها من اتهام وقال : « إنها تحبنى كثيراً إلى حد أنها لا تؤمن إلا بما أومن به(٢٩) » . وكانت سعادته بالغة وثقته بنفسه لا حد لها إلى درجة جعلته يحلم بأنه من الهوجنوت . ولكن مرجريت استطاعت أن تفعل ذلك ، وكان لديها إحساس بالإثم ، وصنعت من هفواتها قنن جبال . وكانت تحتقر الهيئات الدينية وترى أنها تافهة لا جدوى منها . ولا هم لها إلا الإسراف فى ارتكاب الخطايا ، وشعرت بأن الإصلاح قد فات أوانه من عهد طويل ، وقرأت طرفاً من الأدب اللوثرى واستحسنت هجاءاته على فجور رجال الدين وجشعهم ، ودهش فرانسيس عندما وجدها تصلى يوماً مع فرويل(٣٠) — وهو يوحنا المعمدان — عند كالفن . وبينا كانت لا تنقطع عن الصلاة للعذراء فى نيراك وبو فى ورع الواثق بنفسه ، فإنها أسبغت حمايتها على اللاجئين من البروتستانت ومنهم كالفن نفسه . ومهما يكن من شىء فإن كالفن ساءه كثيراً أن يجد فى بلاطها مفكرين أحراراً مثل إتيين دوليه ، بونافنتير ديبرييه وعنفها على تساهلها ولكنها استمرت فيه . ولكم كان يسرها لو أنها صاغت مرسوم

نانت لحفيدها ، ولقد اجتمعت فى مرجريت فى لحظة من اللحظات خصائص عصر النهضة وعهد الإصلاح الدينى[٣١] .

وانتشر تأثيرها فى فرنسا وكانت كل نفس حرة تتطلع إليها باعتبارها حامية لها ومثالا للحرية . وقد أهدى إليها رابليه كتابه **Gargantua** . وكان رونسار ويواقيم دى بلاى يحذوان حذوها بين آن وآخر فى صوفيتها الأفلاطونية والأفلوطينية . وإن ترجمات مارو للمزامير لتفوح منها أنفاس روحها نصف الهيجونوتية . وترنم بايل فى القرن الثامن عشر بنشيد لها فى معجمه ؛ وفى القرن التاسع عشر قدم لها ميشليه البروتستانتى فى المحفوظة الشعرية المطولة الرائعة التى لا يمل الناس سماعها والمسماة « تاريخ فرنسا » ما يعبر عن شكره بقوله : « فلنتذكر دائماً ملكة نافار الرقيقة ، هذه الملكة التى وجد قومنا الهاربون من السجن أو المحرقة فى أحضانها الأمان والاحترام والصداقة . إننا نعبر عن شكرنا لك أيتها الأم الحبيبة لنهضتنا . لقد كان بيتك دار قديسينا وكان قلبك عشاً لحريتنا[٣٢] » .

٤ — الفرنسيون البروتستانت

لم يحاول أحد البحث فى أن الحاجة ماسة لإصلاح دينى ، وظهر هنا رجل الدين الصالح والشرير كما ظهر فى أى مكان آخر : قساوسة مخلصون ورهبان متبتلون وراهبات قديسات . وظهر هنا وهناك أسقف نذر نفسه للدين أكثر مما نذرها للسياسة ، وقساوسة جهلة أو خائرو العزيمة . ورهبان كسالى وفاسقون ورهبان ينبشون عن المال ويتظاهرون بالفقر . وأخوات ضعيفات فى الأديان وأساقفة يؤثرون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة . وبينما ارتفع شأن التعلم هوى الإيمان ، وبينما كان لرجال الدين النصيب الأكبر فى التعليم فإنهم أظهروا بسلوكهم أنهم لم يعودوا يتأثرون بفلسفة الحشر والنشر المروعة ، التى أملتها عليهم يوما عقيدتهم الرسمية . وخص بعض

الأساقفة أنفسهم بعدد وافر من المناصب والكرامى الأسقفية ، وعلى هذا احتفظ جين دى لورين وتمتع بإيرادات من أسقفيات منز ونول وفردان وأبرشيات ريمس وليون ناربون وألبى وماكون وآجن ونانت وأديار جورز وفيكامب وكلونى ومارموتيين وسالنا — أورين وسان ده لاون وسان جرميه وسان مدار ده سواسون وسان — مانس دى تول[٣٣] . ولم تكف هذه لتلبية احتياجاته وشكا من الفقر[٣٤] . وندد الرهبان بتكالب الأساقفة على عرض الدنيا ، وندد القساوسة بالرهبان ، ويستشهد برانتوم بعبارة شاعت فى فرنسا وقتذاك وهى : « إنه شحيح أو فاسق كأنه قسيس وراهب[٣٥] » . وأول جملة فى الأيام السبعة تصف أسقف سيس بأنه يتلهف على إغراء امرأة متزوجة . وهناك اثنتا عشرة قصة فى الكتاب تروى بالتفصيل الأعمال المماثلة لرهبان مختلفين ،وتقول إحدى الشخصيات : « عندما تقع عيناى على راهب يتملكنى رعب شديد ، إلى حد أنى لا أستطيع حتى أن اعترف لهم ، لأنى أعتقد أنهم أسوأ من كل الرجال الآخرين[٣٦] » . وتسلم وازيل — وهو الاسم الذى أطلقته مرجريت على أمها فى الأيام السبعة — بأن بينهم رجالا صالحين ولكن هذه السيدة نفسها لويز أميرة سافوى كتبت فى يومياتها تقول : « فى عام ١٥٢٢ . . . بدأنا أنا وابنى ، بنعمة الروح القدس نعرف المنافقين ، الأبيض والأسود والأشهب والقاتم . ومن كل الألوان أولئك الذين يحفظنا الرب برحمته الواسعة منهم ويدفع عنا أذاهم ، لأنه إذا لم يكن المسيح كاذبا فليس بين كل أبناء البشرية جيل أخطر منهم[٣٧] » .

ومع ذلك فإن جشع لويز وتعدد نساء ابنها وأخلاق حاشيتها النزاعة إلى الفوضوية لم تكن نموذجاً يحتذيه رجال الدين الذين كانوا خاضعين للملك إلى حد كبير . وفى عام ١٥١٦ حصل فرانسيس من ليو العاشر على اتفاقية بابوية تخوله الحق فى تعيين أساقفة فرنسا ورهبانها ، ولكنه لما أسرف

فى هذا التعيين الذى لجأ إليه لمكافأة من أدوا له خدمات سياسية ، تأكدت الصفة الدنيوية للأسقفية . ونصت الاتفاقية البابوية السارية المفعول على أن تكون الكنيسة الجاليقية مستقلة عن البابوية وتابعة للدولة . وبهذه الوسيلة حقق فرانسيس قبل أن ينشر لوثر رسائله بعام ، فى الواقع ، وإن لم يبد ذلك لحسن الحظ فى الشكل ، ما كان قميناً بأن يكسبه الأمراء الألمان وهنرى الثامن بالحرب أو الثورة ألا وهو تأميم المسيحية . وماذا كان فى وسع الفرنسيين البروتستانت أن يقدموه لملك فرنسا أكثر من هذا ؟

لقد سبق أولهم لوثر . ففى عام ١٥١٢ قام جاك ليفيفر ، المولود فى أتابل فى بيكاردى والذى قام بالتدريس فى جامعة باريس بعد ذلك ، بنشر ترجمة لاتينية لرسائل بولس مع شرح يفسر ، بين هرطقات أخرى ، اللتين منها ، كانتا حريتين بأن تكونا بعد عشر سنوات متفقتين فى الأساس مع لوثر وهما : « إن الناس يمكنهم أن يظفروا بالخلاص لا بالأعمال الصالحات ، ولكن بالإيمان برحمة الله التى ينالونها بتضحية المسيح للتكفير عن خطايا البشر » وإن المسيح موجود فى القربان المقدس بفعله وإرادته الطيبة ، لا بأى تجسيد كهنوتى للخبز والنبيذ . وطالب ليفيفر مثل لوثر بالعودة إلى الإنجيل ، وسعى مثل أرازموس إلى استعادة النص الصحيح للعهد الجديد ، وتوضيحه كوسيلة لتطهير المسيحية من أساطير القرون الوسطى والزيادات الكهنوتية . وأصدر عام ١٥٢٣ ترجمة فرنسية للتوراة وللمزامير بعد ذلك بعام . وقال فى إحدى تعليقاته : « ما أشد حزينا عندما نرى أسقفاً يطلب من الناس فى إلحاح أن يشربوا معه ، لا هم له إلا المقامرة . . . والصيد باستمرار . . . والتردد على البيوت سيئة السمعة[٣٨] » وأدانته السربون وقضت بأنه هرطيق ففر إلى شتراسبورج (١٥٢٥) ، وتشفعت له مرجريت فاستدعاه فرانسيس وعينه أميناً للمكتبة الملكية فى بلوا ومربياً لأطفاله . وفى عام ١٥٣١ عندما أغضبت أعمال البروتستانت التى تجاوزوا

فيها الحد الملك ، لجأ ليفيفر إلى مرجريت فى جنوبى فرنسا وعاش هناك حتى وفاته بالغاً من العمر سبعة وثمانين عاماً (١٥٣٧) .

وشرع تلميذه جيوم بريسونيه الذى عين أسقفا لمو (١٥١٦) فى إصلاح الأسقفية بروح أستاذه ، وبعد اربع سنوات من العمل الحماسى شعر بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يقدم على ابتداع تغييرات لاهوتية . فعين للإشراف على الصدقات مصلحين معروفين من أمثال ليفيفر وفاريل ولوى ده بركان وجيرار روسل وفرانسوا فاتابل وشجعهم على أن ينادوا فى عظاتهم بـ « العودة إلى الإنجيل » . وأثنت عليه مرجريت وعينته موجهاً روحياً لها . ولكن عندما أعلنت السوربون مدرسة اللاهوت التى تسيطر الآن على جامعة باريس — أدانتها للوثر (١٥٢١) أمر بريسوفيه زملاءه بمسالمة الكنيسة فقد كانت وحدة الكنيسة فى نظره ، مثله فى هذا مثل أرازموس ومرجريت ، أهم من الإصلاح .

ولم تستطع السوربون أن توقف تدفق الأفكار اللوثرية عبر نهر الراين ، فقد كان الطلبة والتجار يجلبون مؤلفات لوثر من ألمانيا باعتبار أنها تمثل أعظم الأخبار إثارة وقتذاك ، وأرسل فروبن نسخاً من بازيل لتباع فى فرنسا . وتلقف العمال الساخطون العهد الجديد واعتبروه وثيقة ثورية واستمعوا بابتهاج إلى مبشرين استخلصوا من الإنجيل مدينة فاضلة تتحقق فيها المساواة الاجتماعية .

وعندما نشر الأسقف بريسونيه عام ١٥٢٣ على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبابا عن صكوك الغفران مزقه جان لكلير ، وكان يعمل فى تمشيط الصوف فى مو ووضع مكانها إعلاناً ملصوقاً يصف البابا بأنه مناهض للمسيحية ، فقبض عليه ، ووسم بالنار على جبهته (١٥٢٥) بناء على أمر المجلس النيابى لباريس . فانتقل إلى ميتز وهناك حطم التماثيل الدينية ، التى كان من المقرر

أن يمر أمامها موكب لتقديم البخور . وقطعت يده اليمنى واجتث أنفه ، وانتزعت حلمتا ثدييه بملقط ، وربط رأسه بشريط من الحديد المحمى إلى درجة الأحمرار . وأحرق حياً (١٥٢٦)[٣٩] . وأرسل عدد كبير من المتطرفين الآخرين إلى المحرقة فى باريس بتهمة « التجديف » أو لإنكارهم ما للعذراء والقديسين من تفويض فى الشفاعة (١٥٢٦ — ٢٧) .

وكان شعب فرنسا يؤيد بوجه عام عمليات الإعدام هذه[٤٠] وكان يحب عقيدته الدينية ويرى أنها وحى من لدن الله ومن قوله ، ويمقت المراطقة لأنهم يسلبون من الفقراء أعظم عزاء عندهم ولم يظهر فى فرنسا رجل مثل لوثر . يثير الطبقة الوسطى ضد طغيان البابا ، فقد كانت الاتفاقية البابوية تمنع استغاثة مثل هذه ولم يكن كالفن قد وصل بعد إلى الشهرة الحنيفية التى تتيح له أن يبعث بدعوته الصارمة للإصلاح . ووجد الثائرون بعض التأييد بين طبقة الأرستقراطية بيد أن السادة والسيدات كانوا قليلى الاهتمام إلى درجة أنهم لم يتشبثوا بالأفكار الجديدة إلى الحد الذى يخل بعقيدة الشعب أو يقض مضاجع الحاشية ، وقد تسامح فرانسس نفسه مع الدعاية اللوثرية ما دامت غير منطوية على أى تهديد بقيام فتنة اجتماعية أو سياسية ، وكانت له بدوره شكوكه الخاصة — فى سلطات البابا وبيع صكوك الغفران ووجود المطهر[٤١] ، ولعله رأى أن يستخدم تسامحه مع البروتستانتية سلاحاً يشهره ضد بابا يميل كثيراً إلى الانحياز لشارل الخامس . وكان يعجب بارازموس وسعى إليه لتعيينه فى الكلية الملكية الجديدة ، وكان يؤمن معه بتشجيع التعليم والإصلاح الكهنوتى — ولكن بخطوات لا تقسم الشعب إلى نصفين متحاربين أو تضعف تأثير الخدمات التى تقدمها الكنيسة لتهذيب أخلاق الأفراد والنظام الاجتماعى[٤٢] . وكتبت مرجريت إلى بريسونيه عام ١٥٢١ تقول : « إن الملك والسيدة (لويز أميرة سافوى) على أهبة الآن أكثر من أى وقت مضى لإصلاح الكنيسة[٤٣] » ، وعندما قبضت

السوربون على لوى ده بركان لقيامه بترجمة بعض مصنفات لوثر (١٥٢٣) أطلق سراحه بفضل تشفع مرجويت له عند الملك . ولكن فرانسيس أفزعته ثورة الفلاحين فى ألمانيا التى يبدو أنها نشبت نتيجة الدعاية البرتستانتية ، وقبل أن يرحل ليلتقى الهزيمة فى بافيا أمر الأساقفة بسحق الحركة اللوثرية فى فرنسا .

وبينما كان الملك أسيراً فى مدريد ، سجن بركان مرة أخرى ولكن مرجريت حصلت ثانية على أمر بإطلاق سراحه . وعندما فك إسار فرانسيس نفسه انهمك فى يوبيل للتحرر ، ولعله فعل هذا إقراراً بفضل شقيقته التى سعت كثيراً ، لتحريره ، فاستدعى ليفيفر وروسل من المنفى وشعرت مرجريت بأن الحركة من أجل الإصلاح الدينى قد ظفرت بيومها الموعود .

ووقع حادثان دفعا الملك إلى العودة لعقيدة المحافظين . فقد كان فى حاجة للمال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله على حريته . ووافق رجال الدين على منحه ١٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه ولكنهم أرفقوا بالمنحة التماساً بوقفة أكثر حزماً مع الهرطقة ، فوافق (١٦ ديسمبر سنة ١٥٢٧) ، وفى يوم ٣١ مايو سنة ١٥٢٨ هاله أن يعلم بتحطيم رأس العذراء والابن فى تمثال لها خارج كنيسة فى أبرشية سان جرمان أثناء الليل . وصاح الناس يطالبون بالانتقام ، وعرض فرانسيس ألف كراون مكافأة لمن يعثر على المخربين وقاد موكباً حزيناً من الأساقفة وموظفى الدولة والنبلاء وعامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة . وانتهزت السوربون فرصة رد الفعل لسجن بركان مرة أخرى وبينما كان فرانسيس غائباً فى بلوا ودفع باللوثرى الذى رفض التوبة إلى المحرقة (١٧ إبريل عام ١٥٢٩) وسط فرحة الحاضرين من الجمهور(٤٤) .

وكان مزاج الملك يتغير تبعاً لتغيرات دبلوماسيته ، ففى عام ١٥٣٢ ، وقد أغضبه تعاون كليمنت السابع مع شارل الخامس قدم عروضا للأمراء

اللوثريين الألمان وأذن لمرجريت بتنصيب روسل مبشراً لجماهير كبيرة فى اللوفر ، وعندما احتجت السوربون نفى زعماءها من باريس .

وفى أكتوبر سنة ١٥٣٣ كان على وفاق مع كليمنت ، فوعد باتخاذ إجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستانت . وفى أول نوفمبر ألقى نيكولاس كوب خطابه فى الجامعة ، فاستشاطت السوربون غضباً وأمر فرانسيس باضطهاد جديد . ولكن اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الإمبراطور فأرسل جيوم دى بلاى المناصر للإصـــلاح إلى فيتنبرج ليطلب من ملانكتون أن يتوصل لصيغة توفيق بين العقيدة القديمة والأفكار الجديدة (١٥٣٤) وبهذا يجعل فى الإمكان عقد تحالف بين ألمانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية . فأذعن ملانكتون وأخذت الأمور تتحرك بسرعة عندما قامت جماعة متطرفة من المصلحين الفرنسيين بلصق إعلانات فى شوارع باريس وأورليان وغيرهما من المدن ، بل وحتى على أبواب مخدع الملك فى أمبواز تندد بالقداس وتصفه بأنه من قبيل عبادة الأوثان وبالبابا ورجال الدين الكاثوليك ، وتصفهم بأنهم « ذرية دودة . . . مارقون ، ذئاب . . كذابون ، كافرون ومزهقون للأرواح » (١٨ أكتوبر سنة ١٥٣٤)(٤٥) . فاستشاط فرانسيس غضباً وأمر بسجن جميع المشـــتبه فيهم بدون تمييز وامتلأت السجون . وقبض على عدد كبير من الطابعين ، وظلت الطباعة قاطبة محظورة لفترة ما . وانضمت مرجريت ومارو وكثير من البروتستانت المعتدلين إلى من استنكروا الإعلانات الملصقة . وسار الملك وأولاده والسفراء والنبلاء ورجال الدين فى صمت مهيب ، يحملون شموعاً موقدة ليستمعوا إلى قداس أقيم للتكفير فى كاتدرائية نوتردام (٢١ يناير سنة ١٥٢٥) . وأعلن فرانسيس أنه سيقطع رأس أولاده إذا اكتشف أنهم يطوون جوانحهم على مثل هذه الهرطقات الخارجة على الدين . وفى عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت حتى الموت فى باريس بطريقة رئى

أنها تصلح لتهدئة المعبود . فقد علقوا فوق نار وكانوا يدلون إليها ويرفعون منها مراراً وتكراراً وذلك لإطالة أمد عذابهم(٤٦) . وأحرق فى باريس أربعة وعشرون من البروتستانت وهم أحياء من العاشر من نوفمبر عام ١٥٣٤ والخامس من مايو عام ١٥٣٥ . وزجر البابا بول الثالث الملك لهذه القسوة التى لا داعى لها وأمره بوقف الاضطهاد(٤٧) .

وقبل أن ينصرم العام كان فرانسيس يخطب ود البروتستانت الألمان من جديد . وكتب بنفسه إلى ملانكتون (٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥) يدعوه إلى الحضور « والتباحث مع بعض المبرزين من الدكاترة عندنا عن الوسيلة لإعادة توطيد دعائم ذلك التناسق السامى فى الكنيسة ، الذى أرى أنه أعز أمنية لدى على الإطلاق(٤٨) » . ولم يحضر ملانكتون ولعله ارتاب فى أن فرانسيس يستخدمه شوكة فى جنب الإمبراطور ، وربما أثناه عن عزمه لوثر أو أمير ساكسونيا المختار الذى قال : « إن الفرنسيين ليسوا من الإنجيليين بل هم إرازميون(٤٩) » . وكان هذا صحيحاً بالنسبة لمرجريت وبريسونيه ليفيفر وروسل ، ولم يكن صحيحاً بالنسبة لأنصار لصق الإعلانات والهوجينوت الكالفينيين الذين بدأوا يتكاثرون فى جنوب فرنسا . وتخلى فرانسيس عن كل جهوده لاسترضاء البروتستانت بعد مسالمة شارل (١٥٣٨) .

ولم يكن أعظم خزى لحق بعهده إلا نتيجة خطته إلى حد ما فقد سمح للفوديين أو الولدانيين ، الذين كانوا لا يزالون يحبون الآراء شبه البروتستانتية لبيتر والد ومؤسس طائفتهم فى القرن الثانى عشر ، بالاحتفاظ بوجودهم الذى يشبه نظام طائفة الكويكر ، فى ظل الحماية الماسكية ، فى نحو ثلاثين قرية على امتداد نهر دورانس فى بروفانس : وفى عام ١٥٣٠ شرعوا فى مكاتبة المصلحين فى ألمانيا وسويسرة ، وبعد عامين استخلصوا اعترافاً بعقيدة تقوم على آراء بوسر وأويكولامبادريوس ، وعقد قاصد رسولى

بينهم محكمة للتفتيش فاستغاثوا بفرانسيس ، فأمر بوقف الاضطهاد (١٥٣٣) : ولكن الكردينال ده تورنون ادعى أن الولدانين كانوا يدبرون مؤامرة تنطوى على خيانة للحكومة ، وأقنع الملك العليل المتذبذب بتوقيع مرسوم (أول يناير سنة ١٥٤٥) ينص على أن كل الولدانيين الذين يكتشف أنهم مذنبون وتثبت عليهم تهمة الهرطقة يجب أن يعدموا . وفسر موظفو المجلس النيابى فى إكس — ان — بروفانس — الأمر بأنه يعنى الإبادة الجماعية . وأبى الجنود فى مبدأ الأمر إطاعة الأمر وعلى أية حال فإنهم حملوا على قتل فئة قليلة ثم ألهبتهم حرارة القتل فحولوه إلى مذبحة . وفى خلال أسبوع واحد (١٢ — ١٨ أبريل) أحرقت بضع قرى حتى سويت بالأرض ، وفى إحداها ذبح ٨٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وفى مدى شهرين أزهقت أرواح ٣٠٠٠ نفس ، وهدمت اثنتان وعشرون قرية ، وأكره ٧٠٠ رجل على العمل فى السفن . ولقيت خمس وعشرون امرأة مذعورة لجأن إلى كهف حتفهن خنقاً بنار أشعلت عند مدخله . ورفعت سويسرة وألمانيا البروتستانتيتان احتجاجات مروعة وبعثت أسبانيا بالتهانى إلى فرانسس[٥٠] وبعد عام اكتشفت جماعة لوثرية صغيرة مجتمعة فى سو برئاسة بيير لكلير شقيق جين الذى وسم بالنار وعذب أربعة عشر من الجماعة وأحرقوا كما أحرق ثمانية منهم بعد أن انتزعت ألسنتهم (٧ أكتوبر سنة ١٥٤٦) .

وكانت هذه الاضطهادات أعظم فشل منى به عهد فرانسيس . وأضفت شجاعة الشهداء جلالا وروعة على قضيتهم ، ولا بد أن ألوفا من المشاهدين قد تأثروا وانزعجوا ، ولولا عمليات الإعدام المشهودة هذه لما كلفوا أنفسهم قط عناء تغيير عقيدتهم الموروثة ، وعلى الرغم من الإرهاب المتكرر فإن « حشودا » سريعة من البروتستانت وجدت عام ١٥٣٠ فى ليون وبوردو وأورليان وريمس وأميان وبواتييه وبورج ونيم ، ولا روشيل وشالون وديجون وتولوز . وكأن الأرض قد انشقت عن فرق من الهوجينوت .

ولا بد أن فرانسيس قد عرف وهو على فراش الموت أنه قد ترك ابنه تحدق به العداوة من إنجلترا وألمانيا وسويسرة ولم يكن يواجه هذا فحسب بل يواجه أيضاً إرثا من الكراهية فى فرنسا نفسها .

٥ ـ هابسبورج وفالوا ١٥١٥ ـ ٢٦

لم يكن من المتوقع أن يرضى ملك متقلب مثل هذا بالتخلى عن كل الآمال التى كانت قد أثارت أسلافه إلى ضم ميلان ، ونابلى إذا أمكن ، ليكونا دوتين فى التاج الفرنسى . وقد قبل لويس الثانى عشر الحدود الطبيعية لفرنسا ـ أى أنه اعترف للألب بالسيادة . وسحب فرانسيس الاعتراف وتحدى حق الدوق مكسمليان سفورزا فى ميلان . وفى غضون المفاوضات التى دارت بينهما بضعة شهور حشد قوة هائلة وجهزها ، وفى أغسطس عام ١٥١٥ سار على رأسها وسلك طريقاً جديداً محفوفا بالمخاطر ـ واقتحم طريقه عبر جبال صخرية ـ فوق الألب وانحدر منها إلى إيطاليا ـ والتقى الفرسان والمشاة الفرنسيون فى مارينيانو على مسيرة تسعة أميال من ميلان ، بجنود سفورزا من السويسريين المرتزقة ، واستمر بينهما القتال يومين (١٣ ـ ١٤ سبتمبر سنة ١٥١٥) حدثت فيهما مقتلة كبيرة لم تعرفها إيطاليا منذ الغزوات البربرية ، وتركت جثث ١٠٫٠٠٠ رجل مطروحة على الأرض . وخيل فى فترة ما أن الفرنسيين قد هزموا وعندئذ اندفع الملك إلى الأمام وهاجم ونظم صفوف جنده وجعل من نفسه مثالا للجرأة . وجرى العرف أن يكافئ الحاكم المنتصر من يظهرون شجاعة خاصة بتنصيب طبقة جديدة من الفرسان فى الميدان ، ولكن فرانسيس قبل أن يفعل هذا أقدم على حركة لها مغزاها لم يسبقه إليها أحد . فقد ركع أمام بيير ، سنيور دى بايار ، وطلب تنصيبه فارسا على يد الفارس المشهور ، الذى لم يتطرق إليه الخوف ، ولم يوجه إليه اللوم ، فاحتج بايار بأن الملك ، بحكم

وظيفته ، فارس الفرسان ، ولا حاجة به إلى تشريف إلا أن الملك الشاب ، كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ، أصر على ذلك ومضى بايار يقوم بالمراسيم التقليدية بجلال ، ثم طرح سيفه وهو يهتف « لا شك يا سيفي العزيز أنك سوف تحفظ كأي أثر ، وتنال من التشريف فوق ما تناله السيوف الأخرى جميعاً ، لأنك في هذا اليوم أضفيت على ملك وسيم قوى صفة الفروسية ، وإني لن أحملك قط بعد ذلك إلا لمحاربة الأتراك والمغاربة والعرب[٥١] » . ودخل فرانسيس ميلان بصفته صاحبها وبعث بدوقها المعزول إلى فرنسا ، وخصص له مرتباً مجزياً ، واستولى أيضاً على بارما وبياتشنزا ووقع مع ليو العاشر ، في احتفالات رائعة في بولونيا ، معاهدة واتفاقية يخولان البابا والملك على السواء أن يدعيا الحصول على نصر دبلوماسي .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا معبوداً لمواطنيه بل ولأوروبا تقريباً ، فقد سحر جنوده بمشاطرته إياهم ما لاقوه من مشاق وتفوقه عليهم في الشجاعة ، وعلى الرغم من أنه في غمرات انتصاره قد انغمس في التيه بنفسه ، فإنه خفف من غلوائه ، بالثقة بآخرين وتلطيف حدة كل أنانية بكلمات الثناء والتمجيد . وارتكب وهو ثمل بالشهرة أكبر خطأ في حياته . ذلك أنه رشح نفسه للتاج الإمبراطوري . وانزعج ، وهو على حق ، باحتمال أن يصبح شارل الأول ، ملك أسبانيا ونابلي وكونت الفلاندرز وهولنده على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة — بكل تلك المطالب في لومباردي ومن ثم ميلان ، التي غزا مكسمليان من أجلها إيطاليا مراراً ، وسوف تكون فرنسا ، في نطاق إمبراطورية جديدة مثل هذه ، محاطة بأعداء لا يقهرون في الظاهر .

وقدم فرانسيس الرشا ، وخسر أمام شارل الذي قدم من الرشا أكثر منه وفاز (١٥١٩) ، وبدأت المنافسة المريرة التي جعلت غربي أوروبا يعج بالاضطرابات إلى ما قبيل وفاة الملك بثلاث سنوات .

ولم يعدم شارل وفرانسس من الأسباب ما يدعو إلى تبادل العداء ، فقد زعم شارل ، حتى قبل أن يصبح إمبراطوراً أن له الحق فى أن يطالب ببورغنديا لأنه حفيد مارى ابنة شارل الجسور ، وأبى أن يعترف باتحاد بورغنديا مع التاج الفرنسى . وكانت ميلان من الوجهة الرسمية إقطاعية فى الإمبراطورية ، واستمر شارل فى فرض الاحتلال الإسبانى لنافار ، وأصر فرانسيس على أن تعود إلى هنرى دلبريه . وطرحت بواعث الحرب هذا السؤال العويص : من هو سيد أوروبا : شارل أم فرانسيس ؟ وأجاب الأتراك بل سليمان .

ووجه فرانسيس الضربة الأولى ، فعندما لاحظ أن شارل مشغول بثورة سياسية فى أسبانيا وثورة دينية فى ألمانيا أرسل جيشاً عبر جبال البرانس للاستيلاء على نافار من جديد ، فهزم فى حملة أهم حادث فيها هو إصابة أجناسيوس لويولا بجرح (١٥٢١) . وانطلق جيش آخر جنوبا للدفاع عن ميلان ، وتمرد الجند بسبب عدم دفع المرتبات ، وهزمتهم الجنود الإمبراطورية المرتزقة هزيمة منكرة فى لابيكوكا ، وسارعت ميلان ترتمى فى أحضان شارل الخامس (١٥٢٢) وانطلق قائد الجيوش الفرنسية لمقابلة الإمبراطور لكى يتغلب على هذه الحوادث .

وكان شارل ، دوق أف بوربون رأس أسرة قوية قدر لها أن تحكم فرنسا من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٧٩٢ . وكان أغنى رجل فى البلاد بعد الملك ، وبين تابعيه ٥٠٠ نبيل ، وكان آخر البارونات العظام الذين يستطيعون أن يتحدوا ملك الدولة المتمركزة وقتذاك . وقدم لفرانسيس خدمة جليلة فى الحرب ، وقاتل بشجاعة فى مارينيانو ، أما فى الحكم فلم يخدمه بهذا القدر إذ دفع أهالى ميلان إلى النفور منه بسبب حكمه الجائر ، ولما وجد أن الملك لم يزوده بالأموال الكافية قدم ١٠٠,٠٠٠ جنيه من ماله الخاص ، وهو يتوقع أن تسدد له ، ولكنه لم يتسلم شيئاً . وكان فرانسيس ينظر بعين الارتياب والحسد إلى هذا القيل الذى يوشك أن يكون ملكاً ، فاستدعاه

من ميلان ، ووجه إليه إهانات حمقاء أو مقصودة تسببت فى أن يكون بوربون خصمه اللدود ، وكان الدوق قد تزوج سوزان أميرة بوربون التى أوصت أمها بأن تعود ضياعها الشاسعة إلى التاج إذا ماتت سوزان دون أن تعقب ذرية . وماتت سوزان (عام ١٥٢١) ولكن بعد أن حررت وصية تركت فيها كل أملاكها لزوجها . وطالب فرانسيس وأمه بالأملاك باعتبارهما أقرب سليلين لدوق بوربون السابق . وعارض شارل هذا الادعاء وأصدر المجلس النيابى بباريس قراراً ضده . واقترح فرانسيس عقد صلح بمقتضاه يكون للدوق الحق فى ريع الأملاك حتى وفاته ؛ بيد أنه رفض الاقتراح . وعرضت لويز ، وكانت وقتذاك فى الحادية والخمسين على الدوق البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاما أن يتزوجها مع صك ملكية صريح بالأملاك كبائنة لها ، فرفض . وقـدم له شارل الخامس عرضا يبز العرض السابق : هو أن يزوج شقيقته اليونورا وأن يؤيد مطالبه تأييداً كاملا بجنود الإمبراطورية ، وقبل الدوق وفر ليلا عبر الحدود ، وعين قائداً برتبة لفتنانت جنرال للجيش الإمبراطورى فى إيطاليا (١٥٢٣) .

وأنفذ فرانسيس ضده لونيفيه . وأثبت عشيق مرجرت أنه غير كفء وسحق الدوق جيشه فى رومانيانو ، وفى أثناء تقهقر الجيش أصيب الشيفاليه دى بايار ، قائد حرس المؤخرة الخطيرة بجرح قاتل بطلقة من سلاح نارى (٣٠ أبريل سنة ١٥٢٤) ووجده بوربون الظافر يحتضر تحت شجرة ، فقدم له بعض عبارات الثناء على سبيل المواساة فرد عليه بايار « مولاى إنى أستحق الرثاء ، أنا أموت بعد أن أديت واجبى ، ولكنى أرثى لك إذ أراك تعمل ضد مليكك وبلدك وتحنث بقسمك[52] » . وتأثر الدوق ولكنه كان قد أحرق خلفه كل الجسور وعقد اتفاقا مع شارل الخامس وهنرى الثامن ينص على أن يقوم الثلاثة بغزو فرنسا فى آن واحد ، وأن يتغلبوا على كل القوات الفرنسية ، ويقسموا البلاد بينهم . وكان نصيب الدوق من الصفقة أن يدخل

بروفالس ، ويأخذ إكس ويضرب حصاراً على مرسيليا ، ولكن حملته كانت تفتقر إلى المؤن وقوبلت بمقاومة عنيفة غير متوقعة وانهارت فتراجع إلى إيطاليا (سبتمبر سنة ١٥٢٤) .

ورأى فرانسيس أن من الحكمة أن يطارده ، ويستولى من جديد على ميلان وأشار عليه بونيفيه ، وهو أحمق حتى النهاية ، بأن يستولى أولا على بافيا ثم ينقض على ميلان من الجنوب ، فوافق الملك وضرب عليها الحصار (٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٤) ، ولكن الدفاع هناك أيضاً كان أقوى من الهجوم ، وظل الجيش الفرنسي محجوزاً عند الخليج أربعة أشهر ، وفى غضونها جمع بوربون وشارل أمير لانوى (نائب الملك فى نابلى) والمركيز دى بسكارا (زوج فتوريا كولونا) جيشاً جديداً قوامه ٢٧٫٠٠٠ رجل . وفجأة ظهرت هذه القوة خلف الفرنسيين . وفى اليوم نفسه (٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥) وجد فرانسيس قواته يهاجمها هذا الحشد غير المتوقع من جانب ، وقوات المحاصرين فى بافيا من جانب آخر . وحارب كالعادة فى طليعة المشتبكين ، وقتل بسيفه الكثيرين من الأعداء ، حتى ظن أن النصر قد تحقق ، ولكنه ضحى بقيادته العسكرية فى سبيل إظهار شجاعته ، وكانت قواته موزعة توزيعاً سيئاً ، ومشاته يسيرون بين مدفعيته والعدو ، وبهذا جعلوا المدفعية الفرنسية المتفوقة عديمة الجدوى ، وتفشى الاضطراب فى صفوف الفرنسيين ، وفر دوق النسون ، وسحب معه حرس المؤخرة ، وصاح فرانسيس فى جيشه الذى دبت فيه الفوضى أن يسير وراءه إلى ساحة القتال ، ولكن لم يرافقه إلا أعظم نبلائه شهامة ، وأعقب هذا مذبحة فى الفرسان الفرنسيين ، وأصيب فرانسيس بجروح فى وجهه وذراعيه وساقيه ، ولكنه ظل يضرب بلا كلل ، وتهاوى فرسه تحته ومع ذلك ظل يقاتل . وسقط فرسانه المخلصون واحداً أثر الآخر إلى أن ترك وحيداً ، وأحدق به جنود الأعداء ، وكان على وشك أن يلقى مصرعه ، عندما تعرف عليه

ضابط فأنقذه واقتاده إلى لانوى ، الذى تقبل سيفه ، وهو يقوم بانحناءات خفيفة للدلالة على الاحترام .

واعتقل الملك فى قلعة بيزيجيتون بالقرب من كريمونا ، حيث سمح له بأن يرسل إلى أمه التى كانت تحكم فرنسا أثناء غيابه رسالته التى كثيراً ما نقلت كما هى ، وكثيراً ما نقلت محرفة :

« إلى نائبة الملك فى فرنسا : سيدتى ، بودى أن تعرفى مدى معاندة البقية الباقية من سوء حظى : لم يبق لى فى العالم سوى الشرف وحياتى التى أنقذت . ولكى تحمل إليك هذه الأنباء ، وأنت بؤسك ، القليل من العزاء ، توسلت إليهم أن يسمحوا لى بكتابة هذه الرسالة إليك . . . وأنا أتوسل إليك ألا تقدمى على أى عمل طائش ، وأنت تباشرين ما عرفت به من فطنة معتادة ، لأنى أرجو ، بعد كل شىء ألا يتخلى عنى الله[٥٣] » .

وبعث برسالة مماثلة إلى مرجريت التى ردت على الخطابين :

« مولاى : إن الفرحة التى ما زلنا نشعر بها عندما تلقينا خطابيك الكريمين ، اللذين أسعدك أن تكتبهما لى ولأمك ، تجعلنا نحس بالسعادة لاطمئناننا على صحتك التى تتوقف عليها حياتنا ، ويخيل إلى أننا ينبغى ألا نفكر فى شىء سوى أن نحمد الله وأن نتوق إلى أن تصلنا باستمرار أنباؤك الطيبة ، وهى خير زاد نستطيع أن نعيش عليه . وبما أن الخالق قد من علينا بأن يبقى ثالوثنا متحداً أبدا فإن الاثنين الآخرين يتوسلان إليك أن تتقبل هذا الخطاب ، عند ما يقدم إليك ، وأنت الثالث ، بنفس المودة القلبية التى تقدمها إليك خادمتاك المتواضعتان المطيعتان والدتك وشقيقتك » .

لويز ، مرجريت[٥٤]

وكتب فرانسيس إلى الإمبراطور فى مدريد رسالة جد متواضعة يقول له فيها « إذا كان يسرك أن ينطوى قلبك على قدر قليل من العطف ، فتأخذ على عاتقك مهمة إنقاذ حياة ملك فرنسا الأسير إنقاذا يستحقه عن

جدارة . » « فنى وسعك أن تكون على ثقة من الحصول على كسب بدلا من أسير لا نفع منه ، وبهذا تجعل ملك فرنسا عبدك إلى الأبد » » ولم يكن فرانسيس قد تدرب على احتمال المأساة(٥٥) .

وتلقى شارل أنباء انتصاره بهدوء ورفض أن يحتفل به ، كما اقترح كثيرون فى مهرجان رائع . وانسحب إلى مخدعه (كما يقال لنا) وركع يصلى . وأرسل إلى فرانسيس ولويز ما خيل له أنها شروط معتدلة لتحقيق السلام وتحرير الملك :

(١) على فرانسيس أن يتخلى عن بورغنديا وأن يتنازل عن كل مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا وإيطاليا .

(٢) يجب تسليم الدوق بوربون كل الأراضى والمناصب التى يطالب بها .

(٣) يجب منح الاستقلال لكل من بروفانس ودوفينى .

(٤) يجب أن تعيد فرنسا إلى إنجلترا كل الأراضى الفرنسية التى كانت تابعة فيما سبق لبريطانيا — أى نورماندى وانجو وغسقونيا وجين .

(٥) على فرانسيس أن يوقع حلفا مع الإمبراطور وينضم إليه فى حملة توجه ضد الأتراك .

فأجابت لويز بأن فرنسا لن تتنازل عن قيراط واحد من الأراضى ، وأنها مستعدة للدفاع عن نفسها حتى آخر رجل » وتصرفت نائبة الملك وقتذاك بقوة وعزم وذكاء مما حمل شعب فرنسا على أن يصفح عن أخطائها التى ركبت فيها رأسها . وعملت فى الحال على تنظيم وإعداد جيوش جديدة وأقامتها لحراسة كل المراكز المحتمل أن تتعرض للغزو . ولكى تصرف ذهن الإمبراطور عن فرنسا حثت سليمان عاهل تركيا على إرجاء هجومه

على بلاد الفرس وأن يقوم بدلا من ذلك بحملة تتجه غربا ، ولا نعرف الدور الذى لعبه توسلها فى القرار الذى اتخذه السلطان ، ولكنه زحف عام ١٥٢٦ إلى هنغاريا وألحق هزيمة منكرة بجيش المسيحيين فى موهاكس ، بلغت من الشدة حدا جعل قيام شارل بأى غزو لفرنسا بمثابة خيانة للعالم المسيحى . وفى الوقت نفسه أوضحت لويز لهنرى الثامن وكليمنت السابع أن إنجلترا والبابوية على السواء سوف تنحدران إلى مرتبة العبودية إذا سمح للإمبراطور بالحصول على كل الأراضى التى طلبها ، وتردد هنرى فألحت لويز وعرضت عليه تعويضا قدره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كروان فوقع حلفا دفاعيا هجوميا مع فرنسا (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٥) وفتحت هذه الدبلوماسية الأنثوية عيون الرجال وحطمت ثقة شارل بنفسه .

ونقل الملك الأسير إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقيـة بين لويز ولانوى والإمبراطور ، وعندما وصل فرانسيس إلى بلنسية (٢ يوليو سنة ١٥٢٥) بعث إليه شارل برسالة رقيقة ، ولكن معاملته لأسيره لم ترتفع إلى مقام الفروسية . وخصصت لفرانسيس غرفة ضيقة فى قلعة قديمة فى مدريد ووضعت عليه حراسة مشددة ، وكانت الحرية الوحيدة التى منحت له هى أن يمتطى ظهر بغل بالقرب من القلعة تحت رقابة حراس مسلحين راكبين . وطلب مقابلة شارل ولكن شارل أجل هذه المقابلة وسمح بسجن فرانسيس أسبوعين سجنا أثار قلقه وغيظه ، حتى يخضع فرانسيس لدفع ثمن باهظ مقابل الحصول على حريته . وعرضت لويز أن تقابل الإمبراطور وتتفاوض معه ولكنه رأى من الأفضل أن يلعب على سجينه بدلا من أن يتعرض الفتنة امرأة تجعله يجنح إلى التساهل . فأبلغته بأن ابنتها مرجريت ، وهى أرملة وقتذاك سوف يسعدها أن تجدها جلالته الإمبراطورية ، مناسبة له ، ولكنه آثر عليها إيزابلا أميرة البرتغال ، بصداقها البالغ قدره ٩٠٠٫٠٠٠ كراون . فهى تستطيع

أن تزوده فى الحال بالمخدع والمأوى ، وبعد أن أمضى فرانسيس شهرين فى سجن يتلهف فيه على حريته سقط صريع مرض خطير . وانطلق الأسبان إلى كنائسهم يصلون من أجل الملك الفرنسى آسفين لقسوة الإمبراطور . وصلى شارل أيضاً ، لأن الملك إذا مات فلن يكون له أهمية كرهينة سياسية ، وزار فرانسيس زيارة قصيرة ووعده بقرب إطلاق سراحه وبعث لمرجريت يأذن لها بالحضور ومواساة أخيها .

وسافرت مرجريت بحرا من ايجمورت (٢٧ أغسطس سنة ١٥٢٥) إلى برشلونه وهناك حملت فى هودج بطىء ملتو اخترق بها نصف طول أسبانيا إلى مدريد ، ووجدت السلوى فى قرض الشعر وبعث رسائل حارة متميزة إلى الملك ، وقالت « مهما يطلب منى ، حتى ولو كان أن أنثر رماد عظامى فى مهب الرياح لأؤدى لك خدمة ، فليس فيه أمر غريب أو صعب أو شاق بالنسبة لى ، وحسبى أن أجد فيه السلوى والراحة والطمأنينة والشرف[٥٦] » . وعندما وصلت بعد لأى إلى مخدع أخيها وجدته يتعافى بشكل ملموس ، بيد أنه أصيب بنكسة يوم ٢٥ سبتمبر ودخل فى غيبوبة ، وخيل لمن حوله أنه يحتضر . وركعت مرجريت هى والأسرة يصلون ، وناوله أحد القساوسة القربان المقدس . وتلت هذا فترة نقاهة مضنية . ولبثت مرجريت شهرا مع فرانسيس ثم انطلقت إلى طليطلة لتطلب من الإمبراطور الرحمة ، فتلقى توسلاتها بفتور ، وكان قد علم بحلف هنرى مع فرنسا وتلهف على معاقبة حليفه الأخير على ريائه ولويز على جرأتها .

ولم تبق فى يد فرانسيس إلا ورقة واحدة يلعب بها ، ولو أن من المحقق أو يكاد أنها قد تعنى سجنه مدى الحياة ، وبعد أن أنذر شقيقته بمغادرة أسبانيا بأسرع ما يمكن وقع (نوفمبر سنة ١٥٢٥) خطابا رسميا أعلن فيه تنازله عن العرش لابنه الأكبر ، ولما كان فرانسيس الثانى هذا صبيا لا يتجاوز

عمره ثمانى سنوات ، فقد عين لويز — وتحل محلها فى حالة وفاتها — مرجريت وصية على عرش فرنسا ، وأدرك شارك فى الحال أن ملكا بلا مملكة ، لا يملك شيئاً يتنازل عنه ، لا فائده ترجى منه ؛ بيد أن جلد فرانسيس من الناحية البدنية كان أقوى من شجاعته المعنوية ، ففى يوم ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ وقع مع شارل معاهدة مدريد وكانت شروطها فى جوهرها هى بعينها التى عرضها الإمبراطور على لويز ، بل كانت أقسى منها ، لأنها اقتضت أن يسلم أكبر ابنين للملك إلى شارل رهينتين لضمان تنفيذ الاتفاقية بإخلاص ؛ وفضلا عن هذا فإن فرانسيس وافق على أن يتزوج إليو نوراشقيقة الإمبراطور ملكة البرتغال الأرملة ، وأقسم على أنه سيرجع إلى أسبانيا ليعود إلى السجن إذا لم ينفذ بنود المعاهدة(٥٧) . ومهما يكن من شىء فإنه أودع فى يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٥٢٥ مع مساعديه وثيقة رسمية تلغى مقدما جميع العهود والاتفاقات والتنازلات والمخالصات وكل إلغاء وانتقاص وقسم يمكن أن يتعارض مع شرفه وصالح تاجه ، ، وفى عشية توقيع المعاهدة ردد هــذه العبارة للمفاوضين معه من الفرنسيين وأعلن أنه وقع بطريق الإكراه ، والقسر والاعتقال وطول السجن ، وأن كل ما تضمنته الوثيقة كان ، ويجب أن يظل باطلا ولا أثر له(٥٨) » .

وفى يوم ١٧ مارس ١٥٢٦ سلم نائب الملك لانوى وفرانسيس إلى المارشال لوتريك على ظهر نقالة مليئة فى نهر بيداسوا ، الذى يفصل إرون الإسبانية عن هنداى الفرنسية ، وتسلم لانوى بدلا منه الأميرين فرانسيس وهنرى . ومنحهما أبوهما بركة ودمعة ، وهرع إلى الأرض الفرنسية . وهناك قفز على ظهر جواد وصاح فى ابتهاج « ها أنذا ملك من جديد ! » وركب إلى بايون حيث كانت لويز ومرجريت فى انتظاره ، وأمضى فى بوردو وكوتياك ثلاثة شهور قضاها فى اللهو والرياضة ليسترد صحته وشغل نفسه بحب صغير . ولم لا ؟ ألم يعش عاماً عيشة الرهبان ؟ وكانت لويز التى

اشتجر النزاع بينها وبين الكونتيسة دى شاتوبريان قد أحضرت معها وصيفة شرف جميلة شقراء الشعر ، تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، هى آن دى هيلى دى بيصيليو التى أصابت بسهامها ، كما كان مقدراً ، عينى الملك الجائعتين ، فتودد إليها فى اندفاع ، وسرعان ما ظفر بها حظية له . وشاركت الحظية الجديدة منذ تلك اللحظة إلى أن فرقهما الميات لويز ومرجريت فى قلب الملك . وتحملت فى صبر زواجه باليونورا وعلاقاته غير الشرعية العارضة . ومنحها لإنقاذ المظاهر زوجاً هو جين دى بروس ، وأنعم عليه بلقب دوق كما أنعم عليها بلقب دوقة ديتامب ، وابتسم فى إعزاز عندما انسحب جين إلى ضيعة نائية فى بريتانى .

٦ - الحرب والسلام : ١٥٢٦ - ٤٧

عندما عرفت شروط معاهدة مدريد بصفة عامة أثارت تقريباً عداء عالمياً لشارل ؛ فقد ارتجف البروتستانت الألمان عندما توقعوا مواجهة عدو عزز قواه إلى هذا الحد ، واستاءت إيطاليا من ادعائه الحق فى السيادة على لومباردى ، وأحل كليمنت السابع فرانسيس من قسمه الذى كان قد ارتبط به فرانسيس فى مدريد ، وانضم إلى فرنسا وميلان وجنوا وفلورنسا والبندقية فى تكوين حلف كونياك للدفاع المشترك (٢٢ مايو سنة ١٥٢٦) ، ووصف شارل ، فرانسيس بأنه « ليس بالسيد المهذب » ، وأمره أن يعود إلى سجنه الإسبانى ، وأصدر أوامره بتشديد اعتقال ابنى الملك ، وأطلق العنان لقواده لتأديب البابا .

وتدفق جيش إمبراطورى ، احتشد فى ألمانيا وأسبانيا ، إلى إيطاليا وتسلق بالسلالم أسوار روما (مات الدوق بوربون فى العملية) ، ونهب المدينة نهباً كاملا أكثر مما فعل بها القوط أو الوندال من قبل ، وقتل ٤٠٠٠ رومانى وسجن كليمنت فى سان إنجلو . وأكد الإمبراطور ، الذى كان قد بقى فى

أسبانيا لأوروبا المذعورة أن جيشه الجائع قد تجاوز تعلياته ، ومع ذلك فإن ممثليه فى روما احتفظوا بالبابا سجيناً فى سان انجلو من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وأكرهوا بابا يكاد يكون مفلسا على دفع تعويض قدره ٣٦٨٫٠٠٠ كراون .

واستغاث كليمنت بفرانسيس وهنرى وطلب منهما العون ، فبعث فرانسيس إلى إيطاليا لوتريك على رأس جيش نهب بافيا منتقما منها فى تهور لمقاومتها له عامين قبل ذلك ، وتساءل الإيطاليون هل الأصدقاء الفرنسيون أفضل من الأعداء الألمان » ومر لوتريك على روما مرور الكرام وحاصر نابولى وبدأت المدينة تعانى من المجاعة . وفى غضون ذلك كان فرانسيس قد أغضب أندريا دوريا قائد بحرية جنوا ، فاستدعى دوريا أسطوله من حصار نابلى وانضم إلى جانب الإمبراطور ومون المحاصرين . وهلك جيش لوتريك جوعا بدوره ، ومات لوتريك نفسه وذاب جيشه (١٥٢٨) .

ولا تكاد ملهاة الحكام تفرج كرب الشعب . وعندما ظهر مبعوثو فرانسيس وهنرى فى بورجوس لإعلان الحرب بصفة رسمية ، رد شارل على المبعوث الفرنسى رداً فاجعا بقوله « إن ملك فرنسا ليس فى موقف يسمح له بتوجيه مثل هذا الإعلان إلى ، إنه أسيرى . إن مولاكم قد تصرف مثل أى جبان أفاق بعدم محافظته على وعده الذى ارتبط به فى معاهدة مدريد ، وإذا راقه أن يقول ما يخالف هذا فإنى سوف أحافظ على وعدى له بحياتى مقابل حياته(٥٩) » .

وقبل فرانسيس توا هذا التحدى إلى البراز وبعث إليه رسولا يقول له : « لقد قلت إفكا وبهتاناً مبيناً » ، واستجاب شارل بعظمة ، وعين مكان النزال وطلب من فرانسيس أن يحدد موعد اللقاء ، بيد أن النبلاء الفرنسيين اعترضوا طريق الرسول وأدت إجراءات التأخير المستأنية إلى تأجيل المباراة

إلى ما لا نهاية . فقد بلغت الأمم درجة من النمو لا يمكن عندها تسوية خلافاتها الاقتصادية أو مصالحها السياسية بنزال فردى أو بجيوش صغيرة من المرتزقة التى كانت تقوم بلعبة الحرب فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، ولا شك أن الطريقة الحديثة لحسم الأمور بالتنافس فى التدمير قد اتخذت شكلها فى هذا النزاع بين آل هامسبورج وفالوا(*) .

واقتضى الأمر أن تتصدى امرأتان لتلقين الحاكمين فن السلام وحكمته ، فقد اتصلت لويز أميرة سافوى بمرجريت النمسوية نائبة الملك فى الأراضى المنخفضة ، واقترحت عليها أن يتخلى فرانسيس ، المتلهف على عودة ابنيه ، عن كل مطالبه فى الفلاندرز وارتوا وإيطاليا وأن يدفع فدية قدرها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون ذهبى ، لإطلاق سراح ولديه ، على ألا يتنازل أبداً عن بورغنديا ، وأقنعت مرجريت ابن أخيها بإرجاء مطالبته ببورغنديا وأن ينسى مطالب الدوق بوربون ، الذى مات وقتذاك فى الوقت المناسب .

وفى ٣ أغسطس عام ١٥٢٩ وقعت المرأتان ومعاونوهما الدبلوماسيون معاهدة صلح السيدات فى كامبراى . وحصلت الفدية من التجارة والصناعة ودم فرنسا ، ونعم بالحرية من جديد أميرا البيت المالك بعد أربع سنوات من الأسر ، وعادا بقصص تروى عن المعاملة القاسية التى أثارت فرانسيس وفرنسا . وبينما وجـــدت المرأتان القديرتان سلاماً دائماً — مرجريت

(*) كانت المبارزة فى العصور الوسطى بمثابة إجراء مشروع تجيزه الملكية أو القضاء ويشرفان عليه يحتكم به الخصمان إلى الله . وأصبحت فى القرن السادس عشر بمثابة دفاع فردى وخاص عن الشرف المهيض . وتطورت قوانينها الصارمة الخاصة بها خارج قوانين الدولة ، وأسهمت إلى حد ما فى تطوير قواعد السلوك المهذب والضبط الحصيف للنفس . وكانت المبارزة مصرحاً بها قانونا فى فرنسا بعد عام ١٥٤٧ ، وظل الرأى العام يجيزها . أما فى إنجلترا فلم تكن تمارس فى عهد اليزابث ، وعلى أى حال فإن الاحتكام إلى المبارزة ظل مشروعاً هناك حتى عام ١٨١٧ .

عام ١٥٣٠ ولويز عام ١٥٣١ — أخذ الملكان يعدان العدة لاستئناف الحرب بينهما .

وتلفت فرانسيس حوله فى كل مكان يطلب العون ، فأرسل إلى هنرى الثامن مبلغاً من المال للتهدئة لأنه تجاهله تقريباً فى تسوية كامبراى ، وتعهد هنرى ، وقد أغضبه شارل لمعارضته فى « طلاقه » ، بتأييد فرنسا . وفى عام أو نحوه تفاوض فرانسيس للدخول فى أحلاف مع الأمراء البروتستانت الألمان ومع الأتراك ومع البابا . ومهما يكن من أمر فإن الحبر الأعظم المتذبذب سرعان ما عقد صلحاً مع شارل وتوّجه إمبراطوراً (١٥٣٠) — هو آخر تتويج لإمبراطور فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة قام به بابا . ثم ارتاع كليمنت من ملك كان فى الواقع قد حول إيطاليا إلى مقاطعة فى ملكه ، فسعى إلى عقد رابطة جديدة مع فرنسا بعرضه تزويج ابنة أخيه كاترين دى مديتشى من ابن فرانسيس ، هنرى دوق أورليان ، والتقى الملك والبابا فى مارسيليا (٢٨ أكتوبر سنة ١٥٣٣) ، وقام البابا بنفسه بمراسيم الزواج ذى المغزى التاريخى . ومات كليمنت بعد عام ، ولم يكن قد استقر رأيه بعد على أى شيء .

وكان الإمبراطور ، الذى شاخ وهو فى الخامسة والثلاثين ، يحمل أعباءه الملقاة على عاتقه فى عزم واهن . وذعر عندما علم — من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا — أن حصار الأتراك لفينا عام ١٥٢٩ ، إنما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويز وكليمنت السابع لمساعدتهم ضد الإمبراطورية التى كانت تطوقهم[٦٠] . وفضلا عن هذا فإن فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسى خير الدين بارباروسا الذى كان يكدر صفو التجار المسيحيين فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأسرى من المسيحيين إلى أسواق النخاسة . وحشد شارل جيشاً آخر وأسطولا ثانياً وعبر البحر إلى تونس (١٥٣٥) ، واستولى عليها ،

وحرر ۱۰٫۰۰۰ عبد مسيحى وكافأ جنوده الذين لم تدفع رواتبهم بإطلاق العنان لهم لنهب المدينة وذبح السكان المسلمين :

وعاد شارل إلى روما (٥ أبريل سنة ١٥٣٦) بعد أن ترك حاميات فى بونا ولاجوليتا عودة المدافع المظفر للعالم المسيحى ضد العالم الإسلامى وملك فرنسا . وفى غضون ذلك كان فرانسيس قد جدد مطالبته بميلان ، وفى مارس عام ١٥٣٦ غزا دوقية سافوى لإزالة العقبة التى تعترض طريقه إلى إيطاليا . واستشاط شارل غضباً ، وفى خطاب حار ألقاه أمام بول الثالث البابا الجديد ومجمع الكرادلة بأسره أخذ يعدد مرة أخرى جهوده من أجل السـلام . وانتهاك الملك الفرنسى لمعاهدتى مدريد وكامبواى و « الأحلاف التى عقدها جلالته نصير المسيحية العظيم » (كما كان يسمى فرانسيس) مع أعداء الكنيسة فى ألمانيا وأعداء المسيحية فى تركيا وإفريقية ، وأنهى خطابه بتحدى فرانسيس مرة أخرى إلى البراز قائلا : « دعونا لا نستمر فى المجازفة بسفك دماء رعايانا الأبرياء ، دعونا نحسم النزاع بالنزال رجلا أمام رجل بأى أسلحة يروقه أن يختارها . . . وبعد ذلك دعوا القوات المتحدة لألمانيا وأسبانيا وفرنسا تستخدم لكسر شوكة الأتراك واستئصال الهرطقة من العالم المسيحى » .

كان خطاباً بارعاً لأنه أجبر البابا على أن ينحاز إلى صف الإمبراطور ، ولكن أحداً لم يأخذ عرضه الخاص بالمبارزة محمل الجد ، فقد كان القتال بالتفويض أسلم . وغزا شارل بروفانس (٢٥ يوليو سنة ١٥٣٦) بجيش قوامه ٥٠٫٠٠٠ رجل وكان يأمل أن يهاجم جناح الفرنسيين أو يشغلهم فى سافوى بالزحف أعلى الرون . ولكن القائد آن دى مونمورانس أمر القوات الفرنســية الضعيفة بأن تحرق أثناء انسحابها كل شىء يمكن أن يتزود به جنود الإمبراطور ، وسرعان ما تخلى شارل عن الحملة وكان دائماً يعوزه

المال ولا يستطيع أن يقدم الطعام لرجاله ، وكان بولس الثالث يتلهف على إطلاق يد شارل للقيام بهجوم على الأتراك أو اللوثريين فأقنع العملاق المشاول بالالتقاء معه — فى حجرات منفصلة تثير الحماسة — بمدينة نيس وتوقيع هدنة لمدة عشر سنوات (١٧ يونية ١٥٣٨) . وبعد شهر قامت اليونورا ، وهى زوجة أحدهما ، وشقيقة الآخر ، بتدبير لقـــاء شخصى بين الملك والإمبراطور فى إيجسمورت . وهناك نسيا أنهما ملكان وأصبحا إنسانين ، وركع شارل يحتضن أصغر أولاد الملك ، وأعطاه فرانسيس ماسة ثمينة مركبة على خاتم نقشت عليه عبارة : « شاهد ورمز للحب » ، وخلع شارل من جيده طوق الجزة الذهبية ، وانطلقا معاً لسماع القداس ، وابتهج أهل المدينة لشيوع السلام وهتفوا : « الإمبراطور ! الملك » ، وعندما ثارت غنت ضد شارل (١٥٣٩) وانضمت إلى بروجس وايبرس فى عرض نفسها على فرانسيس ، قاوم الملك الإغراء ، وعندما وجد شارل ، فى اسبانيا أن سفن المتمردين أو خشية الإبحار « تسد الطرق البحرية ، أجاب فرانسيس طلبه المرور فى فرنسا . وأشار على الملك مشيروه بأن يُكره الإمبراطور وهو فى الطريق ، على توقيع تنازل عن ميلان للدوق أورليان ، ولكن فرانسيس رفض وقال : « عندما تقوم بشىء كريم يجب أن تفعله كاملا وبجرأة » . ووجد مهرج البلاط يكتب فى « يوميات مهرج » اسم شارل الخامس . لأنه كما قال تريبوليه أنه يكون أشد بلاهة منى لو أتى يمر من خلال فرنسا » فسأله الملك : « وماذا تقول إذا تركته يمر ؟ » فقال : « سوف أمحو اسمه وأدون اسمك مكانه »[61] . وترك فرانسيس ، شارل يمر دون أن يعوقه أحد وأمر كل مدينة فى الطريق أن تستقبل الإمبراطور بما يستحق من تكريم ملكى واحتفالات .

وانتهت الصداقة المقلقلة عندما أسر الجنود الإسبان بالقرب من بافيا المبعوثين الفرنسيين وهم يحملون عروضاً جديدة من فرانسيس إلى سليمان

للتحالف معه (يوليو سنة ١٥٤١) . وفى هذه الفترة كان باربا روسا يغير مرة أخرى على المدن الساحلية فى إيطاليا ، وسافر شارل بحراً من مالوركا مع أرمادا(*) أخرى للقضاء عليه ، ولكن الأسطول واجه عواصف شديدة أجبرته على العودة خاوى الوفاض إلى أسبانيا . وكان حظ الإمبراطور فى هبوط ، فقد ماتت زوجته الشابة (١٦٣٩) التى كان قد تعلم أن يحبها وكانت صحته تتدهور ، وأعلن فرانسيس الحرب عليه عام ١٥٤٢ بسبب ميلان ، وكان حلفاء الملك وقتذاك السويد والدانمارك وجلدرلاند وكليف وسكوتلنده والأتراك والبابا ، ولم يؤيد شارل إلا هنرى الثامن فى مقابل ثمن ما ، ورفض المجلس التشريعى الإسبانى الموافقة على إعانات مالية إضافية من أجل الحرب ، وانضم الأسطول التركى إلى الأسطول الفرنسى فى ضرب الحصار على نيس ، وكانت وقتذاك أرضاً تابعة للإمبراطور (١٥٤٣) ، وفشل الحصار ، إلا أن بارباروسا وجنوده المسلمين سمح لهم بقضاء الشتاء فى طولون حيث باعوا علناً عبيداً من المسيحيين(٦٢) . واسترد الإمبراطور فى صبر زمام الموقف فوجد وسيلة لإصلاح ذات البين مع البابا ، وكسب إلى صفة فيليب الهسى بالتغاضى عن زواجه من اثنتين ، وهاجم دوق كليف وتغلب عليه ، ووثق صلته بحلفائه الإنجليز وواجه فرنسا بقوة عظيمة جداً حملت فرانسيس على الانسحاب والتسليم له بأمجاد الحملة (أكتوبر سنة ١٥٤٣) .

ورحب شارل مرة أخرى ، بعد أن وجد أنه نقير جداً إلى حد لا يستطيع معه أن يزود جيشه بالميرة ، بعرض للسلام ووقع مع فرانسيس معاهدة كريبى (١٨ سبتمبر سنة ١٥٤٤) . وتخلى الملك عن مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا ونابلى ولم يعد شارل يطالب ببورغندى ، وسوف تتزوج أميرة ، من آل هابسبورج ، من أمير فرنسى ، وتقدم إليه ميلان صداقاً لها . (كان يمكن تدبير معظم ذلك سلمياً عام ١٥٢٥) .

(*) أسطول حربى كبير شبيه بالإرمادا المشهورة .

وكان شارل وقتذاك مطلق اليد فى التغلب على البروتستانت فى ملبرج وقد صوره نيســيان هناك ، وهو لا يشكو من داء النقرس ، فخوراً منتصراً ، منهوكاً متعباً بعد ألف من التقلبات ومائة من انقلابات عجلة الحظ الساخرة .

أما فرانسيس فقد انتهى أمره وانتهت معه كذلك فرنسا أو كادت ، وهو إلى حد ما لم يفقد شيئاً سوى الشرف ، وقد حافظ على بلاده بتعجل ترك المثل العليا للفروسية ، ومع ذلك فقد كان يمكن قدوم الأتراك دون أن يوجه الدعوة إليهم ، وقد أعان مجيئهم فرانسيس على كبح جماح الإمبراطور الذى لو لم يجد مقاومة ، لنشر محكمة التفتيش الإسبانية فى الفلاندرز وهولندة وسويسرا وألمانيا وإيطاليا ، وقد وجد فرانسيس فرنسا تنعم بالسلام والرخاء ، وتركها مفلسة على حافة حرب أخرى . وقبل وفاته بشهر ، وبينما كان يقسم مؤكداً صداقته لشارل ، أرسل ٢٠٠٫٠٠٠ كراون إلى البروتستانت فى ألمانيا لتأييدهم ضد الإمبراطور[٦٣] ، وهو — وأقل درجة من ذلك شارل — يتفق فى الرأى مع مكيافيلى بأن رجال السياسة الذين من واجبهم الحفاظ على بلادهم ، يمكنهم مخالفة القانون الأخلاقى الذى يطالبون به مواطنيهم الذين لا هم لهم إلا الحفاظ على أرواحهم . وقد يغتفر له الشعب الفرنسى حروبه ولكنه لم يستسغ حلاوة أبهة مناهجه وبلاطه عندما أدرك فداحة الثمن . وكان قد فقد شعبيته فعلا عام ١٥٣٥ .

وواسى نفسه بالاستمتاع بالجمال حياً وميتاً . وقد اتخذ فى أواخر سنى حياته من فونتنبلو مقراً أثيراً له وأعاد بناءه وابتهج بالفن الأنثوى الرشيق الذى كان الإيطاليون يزينونه به . وأحاط نفسه بفرقة صغيرة من النسوة الصغيرات اللاتى كن يمتعنه بطلعاتهن البهية ومرحهن . وأصيب عام ١٥٣٨ فى عاصمته بمرض وبدأ منذ ذاك يتلعثم تلعثماً مخجلا . وحاول أن يعالج ما كان على الأرجح مرض الزهرى بأقراص الزئبق ، التى وصفها له

باربار وسا ، ولكنها لم تنجح معه[٦٤] : وحطم روحه دمل عنيد كريه الرائحة وأضفى على عينيه ، اللتين كانتا حادتين يوماً ، نظرة شوهاء باكية ، ودفعته إلى الاعتصام بورع لا يناسبه . وكان عليه أن يراقب طعامه لأن الشك خامره فى أن بعض رجال الحاشية الذين يتوقعون رفعة شأنهم فى عهد خلفه ، يسعون إلى تسميمه . ولاحظ فى حزن أن الحاشية تدور وتتداك حول ابنه الذى كان بالفعل يوزع المناصب وينتظر فى صبر حلول دوره فى التحكم فى موارد فرنسا . واستدعى وريثه الوحيد وهو على فراش الموت فى رامبوييه وحذره من أن تسيطر عليه امرأة — لأن هنرى كان مخلصاً بالفعل لديان دى بواتييه — واعترف الملك بخطاياه فى تلخيص متعجل ، ورحب بالموت وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وهمس فرانسيس ، دوق دى جيز ، وكان واقفاً عند الباب ، إلى الذين كانوا فى الحجرة المجاورة ، أن العاشق العجوز يحتضر[٦٥] ، ومات وهو يردد اسم يسوع . وكان فى الثالثة والخمسين من عمره ولقد حكم اثنين وثلاثين عاماً . وشعرت فرنسا بأن حكمه دام طويلا ، ولكن عندما استردت حريتها منه ؛ غفرت له كل شىء ، لأنه كان لبقاً حتى فى ارتكاب آثامه ، ولأنه عشق الجمال وكان فرنسا مجسدة .

ومات هنرى الثامن فى ذلك العام نفسه ، ولحقت به مرجريت بعد عامين ، وقد كانت بعيدة جداً عن فرانسيس ، بل كانت أبعد من أن تدرك أن الموت يترقبه . وعندما وصلتها كلمة ، وهى فى دير بأنجوليم ، تنبئها بأنه مصاب بمرض خطير كادت تفقد رشدها . وقالت : « إن من يأتى إلى عتبة بابى ، كائناً من يكون ، ويعلن لى أن شقيقى الملك قد أبل من مرضه ، ولا بد أن مثل هذا الرسول سيكون متعباً منهوك القوى ، تغطيه الأوحال والأوشاب ، ومع ذلك فسوف أذهب إليه وأقبله وأحتضنه كما لو كان أعظم الأمراء والسادة أناقة فى فرنسا ، وإذا كان فى حاجة إلى

فراش ، فسوف أمنحه فراشى ، وأرقد على الأرض مبتهجة لما حمله إلى من أنباء طيبة[٦٦] » ، وبعثت بالرسل إلى باريس فعادوا وكذبوا عليها ، وأكدوا لها أن الملك سليم معافى ، إلا أن الدموع المختلسة التى انثالت من عينى راهبة كشفت عن الحقيقة ، ولبثت مرجريت أربعين يوماً فى الدير وهى تعمل رئيسة له ، تردد الأناشيد المقدسة القديمة مع الراهبات .

وعنــدما عادت إلى بو أونيراك أسلمت نفسها للتقشف الشــديد ، وخيانات زوجها ، وأهواء ابنتها المتقلبة ، ووجدت السلوى ، بعد السنوات التى أمضتها فى شجاعة نصف بروتستانتية ، فى الشعيرة الكاثوليكية بألوانها وبخورها وموسيقاها الجذابة ، وأسقمتها الكالفينية التى كانت تأسر جنوبى فرنسا ، وأفزعتها ، فعادت إلى تقواها التى عرفت بها فى الطفولة .

وفى ديسمبر عام ١٥٤٩ ، وبينما كانت ترقب مذنباً فى السموات ، أصيبت بحمى أثبتت أنها كانت عنيفة ، إلى حد أنها حطمت هيكلا وروحاً أو هنتهما قساوات الحياة . وكانت قبل ذلك بسنوات قد كتبت سطوراً وكأنها نصف عاشقة لخدر الموت :

رباه متى يأتى اليوم
الذى طالما اشتقت إليه
والذى أجد نفسى بقوة الحب
منجذبة إليك ؟
ألا فلتجفف دموع عينى الحزينتين
وسط تنهدات الفراق
وامنن على بخير أنعمك على الإطلاق
وهى نعمة النوم اللذيذ .

٧ — ديان دى بواتييه

كان « العاشق العجوز » قد أنجب سبعة أطفال ، كلهم من كلود . وكان الابن الأكبر فرانسيس مثل أبيه ، وسيما ، جذاباً مرحاً . أما هنرى المولود عام ١٥١٩ فكان هادئاً خجولا ، وأهل قليلا ، ولم ينافس أخاه إلا فى البأساء . فقد أمضيا أربع سنوات من الشدة والإذلال فى أسبانيا تركت عليهما بصمات لا تمحى . ومات فرانسيس بعد إطلاق سراحه بست سنوات ، أما هنرى فقد غدا نزاعاً للصمت أكثر من ذى قبل ، وانطوى على نفسه ، وأعرض عن المجون الذى انغمست فيه الحاشية ، وكان له رفقاء ، ولكنهم قلما رأوه مبتسما ، وقال الناس إنه قد غـــدا اسبانيا فى إسبانيا .

ولم يترك له الخيار عندما تزوج من كاترين دى مديتشى ، وهذا هو شأنها عندما تزوجت به . فقد مرت هى أيضاً بمحن ، إذ مات والداها كلاهما متأثرين بمرض الزهرى فى خلال اثنين وعشرين يوماً من مولدها (١٥١٩) ، وأخذت منذ ذلك الوقت حتى زواجها تنتقل من مكان إلى مكان ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يرغب فيها أحد . وعندما أقصت فلورنسا حكامها من آل مديتشى (١٥٢٧) احتفظت بكاترينا رهينة لضمان حسن سلوكهم ، وعندما عاد هؤلاء المنفيون لحصار المدينة هددت بالإعدام إذا لم تصرفهم عنها . واستخدمها كليمنت السابع رهينة ، ليكسب تأييد فرنسا لسياسته البابوية ، وانطلقت طائعة إلى مرسيليا وهى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وتزوجت من غلام فى الرابعة عشرة من عمره أيضاً ، لم يكد يتحدث معها إبان الاحتفال بأكمله . وعندما وصلا إلى باريس قوبلت باستقبال فاتر لأنها جلبت معها عدداً كبيراً من الإيطاليين ، وأصبحت فى نظر الباريسيين « الفلورنسية » ، وعلى الرغم من أنها حاولت جهدها أن تسحرهم ، فإنهم

لم يكنوا لها وداً قط ، لا هم ولا زوجها . وظلت عشر سنوات عاقراً ، على الرغم من الجهود العديدة ، وارتاب الأطباء فى أنها أصيبت بعدوى مرض وبيل ، ورثته من أبويها . وعندما تهدد أمل كاترين دى مديتشى كما كانت تسمى فى فرنسا ، فى الحصول على ذرية ذهبت تبكى إلى فرانسيس وعرضت عليه أن تقدم طلباً بالطلاق وتنزوى فى دير ، ورفض الملك فى كرم منه هذه التضحية . وتفتحت أخيراً أبواب الأمومة ، وجاء الأولاد واحداً إثر الآخر كل عام تقريبا . وبلغ عددهم على الإجمال عشرة ، وهم بخاصة فرانسيس الثانى الذى قدر له أن يتزوج مارى ستيوارت واليزابث التى قدر لها أن تتزوج فيليب الثانى وشارل التاسع الذى شاءت الأقدار أن يصدر الأمر بمذبحة سان بارثولوميو وإدوارد الذى أصبح هنرى الثالث بطل المأساة المعروفة ومرجريت دى فالوا التى قدر لها أن تتزوج هنرى ملك نافار وتضطهده وطوال كل تلك السنوات العقيمة أو الخصيبة باستثناء السنوات الأربع الأولى كان زوجها يمنح حبه لديان دى بواتييه فى الوقت الذى كان ينجب فيه منها أولاداً .

وكانت ديان فريدة بين عشيقات الملوك اللاتى كان لهن دور رئيسى فى التاريخ الفرنسى . ولم تكن جميلة . وعندما أحبها هنرى ، وهو فى السابعة عشرة من عمره (١٥٣٦) كانت فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وبدأ الشيب يغزو شعرها ، والتجاعيد تسجل سنوات عمرها على جبينها ، وكانت مفاتنها الجسدية لا تعدو الطلاوة ، والبشرة الناضرة بفضل غسلها بالماء البارد فى جميع الفصول ، ولم تكن عاهرة . وكانت فيما يبدو مخلصة لزوجها لويس دى بريزيه حتى وفاته ، وعلى الرغم من أنها انغمست مثل هنرى ، فى علاقتين جانبيتين أو ثلاث ، إبان علاقتها غير الشرعية بالملك ، فإنها كانت مجرد حوادث تغتفر وألحان لطيفة فى أغنية حبها . ولم تكن ممن يجنحون إلى الخيال ، بل كانت عملية جدا ، تصنع كل شىء فى أوانه . ولم تستذكر

فرنسا أخلاقها بل أنكرت عليها بذخها ولم تكن مثل عشيقات فرانسيس — رعوسا جميلة ولكنها جوفاء ، يقفزن على أقدام مرحة إلى أن تفاجئهن الأمومة ، فقد تلقت ديان تعليما لا بأس به ، وكانت تتمتع بإدراك سليم ، وسلوك حسن ، وبديهة حاضرة . وها نحن أولاء أمام عشـيقة تسحر الألباب بذهنها .

وكانت تنحدر من أسرة كريمة ونشأت فى بلاط آل بوربون فى مولان الذى اشتهر بفن الحب . وشارك أبوها جان دى بواتييه ، كونت دى سان فالييه ، الدوق دى بوربون فى خيانة الوطن بعد أن حاول الوقوف فى سبيلها ، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام (١٥٢٣) ، وحصل زوج ديان ، وكان ذا حظوة لدى فرانسيس ، على العفو لأبيها(*) . وكان لويس دى بريزيه حفيد شارل السابع من أنييس سوريل ، وكان ذا مقدرة أو نفوذ لأنه أصبح قيم القصر الأكبر ومحافظ نورماندى . وكان فى السادسة والخمسين من عمره عندما أصبحت ديان البالغة من العمر ستة عشر عاما زوجة له (١٥١٥) . وعندما مات شيدت تخليدا لذكراه فى روين قبرا ضخماً عليه كتابة قطعت على نفسها فيها عهداً بالوفاء الدائم له ولم تتزوج قط مرة ثانية ، ولم ترتد بعد ذلك إلا الثياب السوداء والبيضاء . والتقت بهنرى عندما سلم فى بايون ، وهو بعد صبى فى السابعة من عمره ، كرهينة بدلا من والده . وبكى الصبى المرتبك فحنت عليه ديان ، وكانت وقتذاك فى السابعة والعشرين ، حنان الأم الرؤوم وواسته ، إذ كانت أمه كلود قد ماتت منذ عامين ، ولعل ذكرى تلك الأحضان الحنونة قد بعثت فى ذاكرته من جديد ، عندما التقى بها بعد أحد عشر عاماً . وعلى الرغم من أنه كان قد مضى على زواجه وقتذاك أربعة أعوام فإنه كان لا يزال بعيداً عن النضج العقلى ،

(*) لا صحة للقصة التى أوردها هيجو فى « الملك يلهو » من أن ديان اشترت العفو عنها باستسلامها للملك (٦٧)

كما كان سوداوى المزاج شديد الحياء بصورة غير مألوفة . كان يريد أما أكثر مما يريد زوجة ، وهنا ظهرت ديان من جديد ، هادئة ، رقيقة مواسية . وأقبل عليها أولا إقبال الابن ، وظلت العلاقات بينهما ، فيما يبدو ، تهيمن عليها العفة حيناً . واكسبته محبتها ونصحها الثقة بنفسه ، فكف ، وهو تحت وصايتها ، عن معاداة الناس وأعد نفسه ليكون ملكاً . ونسب إليهما الرأى العام أنهما رزقا بطفلة واحدة ، هى ديان دى فرانسيس ، التى أنشأتها مع ابنتيها من بريزيه . وتبنت أيضاً ابنة هنرى التى أنجبت فى سنة ١٥٣٨ من وصيفة بيدمونتية دفعت ثمن لحظة لقائها بالملك بأن أصبحت راهبة مدى الحياة . وهناك طفل آخر غير شرعى كان ثمرة قصة هنرى الأخيرة مع مارى فليمنج ، مربية مارى ستيوارت . وعلى الرغم من هذه التجارب فإن إخلاصه كان يزيد يوماً بعد يوم لديان بواتييه . ونظم لها قصائد ممتازة حقاً وأمطرها بالمجوهرات والضياع . ولم يهمل كاترين تماماً ، وكان يتناول معها عادة طعام العشاء ويقضى معها الأمسيات ، وقبلت ، شكراً منها لما نالته من شذرات حبه ، فى حزن صامت ، أن ترى امرأة أخرى ولية عهد فرنسا الحقيقية . ولا بد أنها أحست بأنها أصيبت بجرح آخر عندما رأت أن ديان كانت تستحث هنرى من حين لآخر على أن ينام مع زوجته(٦٨) .

ولم يؤد ارتقاؤه العرش إلى خفض مكانة ديان . وكتب لها أذل الرسائل ، يتوسل إليها أن تسمح له بأن يكون خادمها مدى الحياة . وقد جعلها وله بها غنية كالملكة تقريباً ، وضمن لديان نسبة مئوية من كل المبالغ التى يتسلمها من بيع الوظائف ، وكانت كل التعيينات فيها تقريباً فى نطاق سلطانها . ومنحها جواهر التاج الذى كانت قد وضعته الدوقة ديتامب على رأسها ، وعندما احتجت الدوقة هددتها ديان باتهامها بالبروتستانتية ، ولم ترض عنها إلا بعد أن قدمت لها هدية من العقار . وأذن لها هنرى أن تحتفظ لنفسها بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ تالر ، كان فرانسيس قد أوصى به لتأييد الأمراء

البروتستانت فى ألمانيا سراً[٦٩] . وبفضل هذه المنح أعادت ديان بناء قصر بريزيه الريفى القديم فى آنيه ، طبقاً لتصميم وضعه فيلبر ديلورم ، وشيدت قصرا رحباً لم يصبح الدار الثانية للملك فحسب بل أصبح أيضاً متحفاً للفن ومنتدى جميلا يلتقى فيه الشعراء والفنانون والدبلوماسيون والدوقات والقادة والكرادلة والمعشوقات والفلاسفة . وهنا كان المجلس الخاص للدولة يعقد فى الواقع ، وكانت ديان بمثابة رئيسة للوزراء ، ذكية رصينة . وفى كل مكان — فى آنيه وشينونسو وأمبواز واللوفر — كانت الأطباق والدروع المرسومة عليها الشعارات وأشغال الفن ومقاعد جوقة للترنيم تحمل الرمز الجرىء لقصة الحب الملكية ، فهناك حرفا د D موضوعان ظهر الظهر ، بينهما شرطة تكون حرف H . وثمة أمر مثير للعاطفة وجميل فى هذه الصداقة الفريدة ، التى بنيت على الحب والمال ، وإن دامت حتى الموت .

وفى أثناء كفاح الكنيسة ضد الهرطقة وضعت ديان كل ما تملك من نفوذ ، لتأييد عقيدة المحافظين وسياسة القمع . وكانت لديها أسباب كثيرة تدعوها للتقوى : فقد كانت ابنتها متزوجة من ابن لفرانسيس هو الدوق دى جيز ، وكان فرانسيس هو وشقيقه شارل ، كاردينال اللورين ، — وكلاهما من ذوى المكانة فى آنيه — زعيمى الحزب الكاثوليكى فى فرنسا . أما هنرى فإن تقواه فى الطفولة ازدادت شدة بالسنوات التى أمضاها فى أسبانيا ، وكانت خطاباته الغرامية تخلط بين الله وديان كمنافسين على قلبه ، وأعانته الكنيسة ، وأعطته ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون ذهبى لإلغاء مرسوم والده الذى قيد فيه من سلطة المحاكم الكنسية[٧٠] .

ومع ذلك فإن البروتستانتية كانت تشتد فى فرنسا ، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين أحرزوا نجاحاً رائعاً . وما أن حل عام ١٥٥٩ حتى كانت عدة مدن ، كاين وبواتييه ولا روشيل ومدن كبيرة فى بروفانس — يغلب عليها الهوجينوت ، وقدر قس أن البروتستانت

الفرنسيين كانوا ربع عدد السكان[٧١] تقريباً فى ذلك العام . ويقول مؤرخ كاثوليكى : إن أصل المروق فى روما — فساد رجال الكنيسة — لم يستأصل ، بل إنه قوى بفضل الاتفاقية البابوية بين ليو العاشر وفرانسيس الأول[٧٢] . وكانت البروتستانتية فى الطبقتين الوسطى والدنيا إلى حد ما ، احتجاجاً ضد حكومة كاثوليكية كبحت جماح الاستقلال الذاتى للبلدية ، وفرضت ضرائب لا تحتمل ، وبددت الدخول ، وأزهقت الأرواح فى الحرب . وكان النبلاء الذين جردهم الملوك من سلطانهم السابق ينظرون بعين الحسد إلى الأمراء اللوثريين الذين انتصروا على شارل الخامس ، وربما أمكن استعادة إقطاع مماثل فى فرنسا بإعلان استياء العامة من الناس على نطاق واسع من مظالم الكنيسة والحكومة . والحق أن نبلاء بارزين مثل جاسبار دى كولينى وشقيقه الأصغر فرانسوا دنديلو والأمير لويس دى كونديه وشقيقه انطوان دى بوربون قد شاركوا بجهد فعال فى تنظيم ثورة البروتستانت .

وتبنت البروتستانتية الغالية فى لاهوتها آراء كالفن فى كتابه « النظم » ، فقد كان مؤلفه فرنسياً ولغته فرنسية واستهوى منطقه العقلية الفرنسية ؛ وكاد لوثر أن ينسى فى فرنسا بعد عام ١٥٥٠ ، والحق أن اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جنيف إلى بروفانس ، وفى مايو عام ١٥٥٩ شعر البروتستانت بأنهم أصبحوا من القوة إلى حد يمكنهم من إرسال مندوبين إلى أول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا فى باريس . وما أن حل عام ١٥٦١ حتى كان هناك ٢٫٠٠٠ كنيسة أخذت بأسباب الإصلاح الدينى أو كالفينية فى فرنسا[٧٣] .

وشرع هنرى الثانى فى سحق الهرطقة . ونظم المجلس النيابى لباريس ، بناء على تعليماته ، لجنة خاصة (١٥٤٩) لقمع الخروج على الرأى ، وأرسل من أدينوا إلى المحرقة ، وأطلق على المحكمة الجديدة اسم « الغرفة المتأججة » ، وقضى

مرسوم شاتوبريان (١٥٥١) بأن طبع أو بيع أو حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظمى ، وأن الإصرار على الآراء البروتستانتية يعاقب عليه بالإعدام ، ونص على أن يتسلم المبلغون ثلث أموال المحكوم عليهم . وكان عليهم أن يبلغوا المجلس النيابي عن أي قاض يعامل الهراطقة باللين ، ولم يكن في وسع أي رجل أن يعين قاضياً إلا إذا كانت عقيدته المحافظة لا يرقى إليها شك . وفي خلال ثلاث سنوات أرسلت « الغرفة المتأججة » ستين بروتستانتيا إلى الموت حرقاً . وعرض هنري على البابا بولس الرابع إقامة محكمة للتفتيش في فرنسا طبقاً للنموذج الروماني الجديد ، ولكن المجلس النيابي اعترض على السماح لسلطة أخرى بأن تحل محل سلطته ؛ واقترح أحد أعضائه ، آن دي بورج في جرأة أن تتوقف كل مطاردة للهرطقة حتى يستكمل مجلس ترنت تعريفاته للعقيدة المحافظة . فأمر هنري بالقبض عليه وأقسم أن يراه وهو يحرق ، إلا أن القدر اختلس من الملك هذا المشهد .

وفي غضون ذلك كان قد أغرى بتجديد الحرب ضد الإمبراطور فإنه ، لم يستطع قط أن يصفح عن سجن أبيه وشقيقه وسجنه هو نفسه أمداً طويلا . وكان يكره شارل بقدر حبه لديان . وعندما أعلن الأمراء اللوثريون مقاومتهم الحاسمة للإمبراطور من أجل المسيح والإقطاع سعوا إلى التحالف مع هنري ودعوه للاستيلاء على اللورين ، فوافق على هذا في معاهدة شامبور (١٥٥٢) . وقام بحملة سريعة أدارها بكفاءة واستولى بعد عناء قليل على تول ونانسي ومتز وفردون . وكان شارل أكثر استعدادا للتسليم بالنصر للبروتستانتية في ألمانيا منه للتسليم به لآل فالوا في فرنسا ، فوقع معاهدة صلح ذليلة مع الأمراء في باسوا ، وهرع لضرب الحصار على الفرنسيين في متز . وأقام فرانسيس ، دوق دي جيز شهرته هنالك على ما أبداه من مهارة وعناد في الدفاع . واستمر الحصار من ١٩ أكتوبر إلى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٥٢ ، ثم سحب شارل جنوده الذين خارت قواهم وهو شاحب الوجه ، زائغ البصر

أبيض اللحية كسيحاً وقال : « إنى لأرى جيدا أن الحظ يشبه امرأة ، تؤثر ملكاً فتياً على إمبراطور عجوز[٧٤] ، وأردف قائلا : « وقبل أن تمضى ثلاث سنوات سأتحول إلى رجل يربط حول وسطه شريطاً من حرير أى إلى راهب فرنسسكانى[٧٥] » .

وفى عام ١٥٥٥ — ٥٦ تنازل لابنه عن سلطته فى الأراضى المنخفضة وإسبانيا ، ووقع مع فرنسا هدنة فوسيل ، وغادر إسبانيا (١٧ سبتمبر سنة ١٥٥٦) ، وظن أنه أورث فيليب مملكة تنعم بالسلام ، ولكن هنرى أحس أن الموقف يدعو إلى هجوم آخر على إيطاليا . ولم يكن لفيليب أى شهرة كقائد ، وكان متورطاً على غير ما توقع فى حرب البابا بولس الرابع ، وخيل لهنرى أن أمامه فرصة ذهبية . فأرسل جيز ليستولى على ميلان ونابلى ، وتأهب لملاقاة فيليب فى ساحات القتال القديمة فى شمال شرقى فرنسا . وأظهر فيليب أنه أهل لمقابلة الموقف واقترض مليون دوكات من أنطون فوجر وأغرى مارى ملكة إنجلترا بالدخول الحرب . وفى سان كينتان (١٠ أغسطس سنة ١٥٥٧) قاد الدوق أمانويل فلبرت أمير سافوى جيوش فيليب الموحدة إلى نصر كاسح وأخذ كولينى ، ومونمورنسى أسيرين وتأهب للزحف على باريس . وكانت المدينة فى ذعر ، وبدا الدفاع عنها مستحيلا ، واستدعى هنرى جيز وجنده من إيطاليا ، فعبر الدوق فرنسا وفاجأ كاليه بحركة سريعة عجيبة واستولى عليها (١٥٥٨) ، وكانت إنجلترا تحتفظ بها منذ عام ١٣٤٨ ، وكان فيليب يكره الحرب ويتوق إلى العودة لأسبانيا ، فاقتنع توا بتوقيع معاهدة كاتو — كامبريزى — (٢ أبريل سنة ١٥٥٩) وبمقتضاها وافق هنرى على أن يبقى شمال الألب ، ووافق فيليب على أن يدعه يحتفظ باللورين وبكاليه — على الرغم من دموع مارى . وفجأة أصبح الملكان صديقين ، وقدم هنرى ابنته اليزابث لتكون زوجة لفيليب ، وتعهد بزواج شقيقته مرجريت الفبرى من أمانويل فيلبرت الذى استعاد

وقتذاك سافوى ، ونظم مهرجان ضخم حفـل بالمبارزات والمآدب وليالى الزفاف .

وهكذا بينما ظل فيليب الحذر فى الفلاندرز تجمع الأعيان من الفرنسيين والفلمنكيين والأسبان حول القصر الملكى ليتورنل فى باريس ، وعلقت قوائم فى شارع سان أنطوان الذى يضم مظلات وشرفات مزينة بزخارف بهية ، وانطلق الجميع يمرحون كما لو كانوا يسمعون ناقوس زفاف . وفى ٢٢ يونية استقبل الدوق ألفا ، باعتباره وكيلا لفيليب اليزابث باعتبارها ملكة لأسبانيا ، وأصر هنرى ، وهو وقتذاك فى الأربعين من عمره على دخول المباراة . وفى مثل هذه المبارزات كان النصر يقضى به لراكب الفرس الذى يحطم ثلاث حراب على درع خصمه ، دون أن يرمى عن الفرس . وقام هنرى بهذا العمل أمام الدوق دى جيز والدوق دى سافوى اللذين عرفا كيف يقومان بدورهما الصحيح فى المسرحية ، بيد أن خصماً ثالثاً هو مونتجومرى سمح فى حمق للبقية الباقية الحادة من السلاح بالمرور تحت القناع الحديدى للملك بعد أن حطم حربة على درع الملك ، فاخترقت عين الملك ووصلت إلى المخ . وظل يرقد تسعة أيام فاقد الوعى ، وفى اليوم التاسع من يوليو احتفل بزواج فيليبرت ومرجريت ، وفى اليوم العاشر من يوليو مات الملك وانسحبت ديان إلى آنيه ، وعاشت بعد ذلك سبع سنوات ، وارتدت كاترين دى مديتشى التى كانت ظمأى لحبه ؛ ثياب الحداد بقية حياتها .

الفصل الثالث والعشرون

هنرى الثامن والكاردينال ولزى

١٥٠٩ ـ ٢٩

---

١ ـ ملك واعد: ١٥٠٩ - ١١

لم يكن أحد ممن رأوا الفتى الذى ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ يتنبأ بأنه هو البطل والوغد معاً فى أكبر حكم درامى فى التاريخ الإنجليزى. وعندما كان غلاماً فى الثامنة عشرة من عمره كانت بشرته الرقيقة وتقاطيعه المنتظمة تجعله جذاباً كالفتاة أو يكاد، بيد أن ما يتمتع به من قوام رياضى وجرأة سرعان ما قضى على أى مظهر للأنوثة فيـــه. وتبارى السفراء الأجانب مع المادحين الوطنيين فى الثناء على شعره الأصهب، ولحيته الذهبية و« وربلة ساقه الفائقة الجمال » وفى تقرير كتبه جيوستنيانى إلى مجلس شيوخ البندقية قال: « إنه مغرم بالتنس، وإن أجمل شىء فى الوجود أن تراه وهو يلعب، وبشرته الجميلة تتألق من خلال قميص نسيجه جد رقيق[1] »، وكان فى الرمى بالسهام والمصارعة يضارع أحسن الأبطال فى مملكته ولم يكن يبدو عليه فى الصيد قط أى تعب، وكان يخصص يومين كل أسبوع المبارزات، ولم يكن فى وسع أحد أن ينافسه. إلا الدوق سفولك. وكان موسيقياً مثقفاً أيضاً، و « غنى وعزف على كل ضروب الآلات وأظهر موهبة نادرة »، (كما كتب القاصد الرسولى للبابا) ولحن قداسين لا يزالان باقيين، وكان يعشق الرقص وحفلات المساخر ومظاهر الأبهة

والثياب الجميلة . ويروقه أن يكسو نفسه ثياباً من فرو الفاقوم أو أردية أرجوانية ، وكان القانون ينص على أن له وحده الحق فى ارتداء الديباج الأرجوانى أو الذهبى ، وكان يأكل بتلذذ ، ويصل أحياناً مآدب الغذاء الرسمية إلى سبع ساعات ، ولكنه فى السنوات العشرين الأولى من حكمه كبح جماح شهيته . وكان كل الناس يحبونه ويعجبون بسماحة أخلاقه اللطيفة وسهولة الوصول إلى قلبه ومرحه وتسامحه وحلمه . ورحب الناس بارتقائه العرش وكأنه إيذان بفجر عصر ذهبى .

واغتبطت الطبقات المتعلمة أيضاً لأن هنرى فى أيام السكون تلك كان يطمح أن يكون عالماً بطلا رياضياً على السواء وموسيقياً وملكاً ، ولما كان قد أعد فى الأصل ليكون من رجال الدين فقد أصبح على دراية بعض الشيء باللاهوت ، وكان فى وسعه أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس لأى غرض وكان له ذوق جميل فى الفن ، واقتنى مجموعة تدل على درايته ، وكان حكيماً فى اختياره هولبين لتخليد كرشه . وقام بدور فعال فى أعمال الهندسة وبناء السفن والتحصينات والمدفعية . وقال عنه سير توماس مور : إنه أعلم من أى ملك إنجليزى قبله[٢] » — وليس هذا بالثناء العظيم . وتابع مور كلامه قائلا : « ما الذى لا نتوقعه من ملك غذى بلبان الفلسفة وربات الفنون التسع[٣] ؟ » وكتب مونتجومرى مبهوتاً إلى إرازموس ، وكان حينذاك فى روما ، يقول : « ما الذى لا تعلل به نفسك من أمير تعلم جيداً ما فطر عليه من موهبة خارقة وخلق يكاد يكون إلهيا ؟ ولكن عندما تعرف أى بطل يقيم الآن الدليل عليه ، وكيف يتصرف بحكمة ، وأى محب للعدالة والخير ، وأى مودة يحملها للمتعلمين ، فإنى أتجاسر وأقسم لك بأنك لن تكون فى حاجة إلى جناحين تطير بهما لتشهد هذا النجم الجديد السعيد .

أواه يا إرازموس العزيز . لو أنك استطعت أن ترى كيف أن العالم بأسره هنا مبتهج لأن عنده أميراً عظيماً كهذا ، وكيف أن حياته هي كل ما يبتغون فلن تتمالك نفسك من أن تذرف دموع الفرح . إن السموات لتضحك والأرض لتبتهج(٤) » .

وجاء إرازموس وشارك فى هذا الهذيان لحظة . وكتب يقول : « فيما مضى كان قلب المعرفة بين من يزعمون أنهم من رجال الدين والآن بينما ينصرف هؤلاء فى الأغلب الأعم إلى شهوات البطون والترف والمال(*) فإن حب العلم ذهب منهم إلى الأمراء العلمانيين والحاشية والنبلاء وإن الملك لا يقبل فى بلاطه رجالا مثل مور فحسب ، بل إنه يدعوهم ويجبرهم — على أن يرقبوا كل ما يفعل وأن يشاطروه تبعاته وملذاته . وهو يفضل صحبة رجال مثل مور على صحبة الأغبياء من الفتيان أو الفتيات أو الأغنياء(٥) » . وكان مور أحد أعضاء مجلس الملك وليناكر طبيب الملك وكوليه واعظ الملك فى كنيسة القديس بولس .

وفى السنة التى ارتقى فيها هنرى العرش ، أنفق كوليه الجانب من الثروة التى ورثها عن أبيه لتأسيس مدرسة القديس بولس . واختير نحو ١٥٠ صبياً لكى يدرسوا هناك الأدب الكلاسى واللاهوت المسيحى وعلم الأخلاق ، وخالف كوليه التقاليد بتعيين مدرسين علمانيين فى المدرسة ، وكانت أول مدرسة غير إكليروسية فى أوروبا . وعارض « الطروادبون » الذين كانوا ينددون فى اكسفورد بتدريس الكلاسيات ، برنامج كوليه بحجة أنه يؤدى إلى الشك الدينى ، بيد أن الملك حكم ضدهم ومنح كوليه تشجيعه الكامل . وعلى الرغم من أن كوليه نفسه كان محافظاً فى عقيدته ومثالا للتقوى ،

(*) بيد أن أصدقاء إرازموس من رجال الدين ، دين كوليه وفيشر أسقف روشستر وكبير الأساقفة وارهام كنتربرى كانوا أصدقاء مخلصين من ذوى المروءة والعلم .

فإن أعداءه اتهموه بالهرطقة ، فأخرسهم وارهام كبير الأساقفة وأذعن هنرى . وعندما رأى كوليه أن هنرى يميل إلى الحرب مع فرنسا ندد علناً بسياسته وأعلن ، كما فعل إرازموس ، أن سلاماً ظالماً خير من أعدل الحروب . وندد كوليه بالحرب ، حتى وهو مجتمع بالملك فى الصلاة ، باعتبارها صفعة فى وجه تعاليم المسيح ، ورجاه هنرى على انفراد ألا يضعف معنويات الجيش ؛ ولكن عندما حرض الملك على أن يخلع كوليه أجاب قائلا : « ليكن لكل إنسان قسيسه الخاص . . . إن هــذا الرجل هو قسيسى[٦] » . واستمر كوليه يفسر تعاليم المسيحية تفسيراً جاداً . وكتب إلى إرازموس (١٥١٧) يقول بروح توما أكمبى : آه يا أرازموس ، لا حد هناك لكتب المعرفة ، وليس هناك أفضل من أن نعيش حياة طاهرة مقدسة فى هذا الأجل القصير الذى كتب علينا وأن نبذل جهدنا فى حياتنا اليومية ، وأن نتطهر ونتثقف . . . بالحب المتأجج والاقتداء بيسوع . ولهذا فإن أعظم رغباتى إلحاحاً هى أن نسير قدماً ، معرضين عن كل السبل غير المباشرة مؤثرين بطريقة قصيرة توصل إلى الحقيقة . وداعاً[٧] .

وفى عام ١٥١٨ أعد قبره البسيط ولم ينقش عليه إلا اسم جوهانس كوليتس ودفن فيه ، بعد عام ، وأحس كثيرون أن قديساً قد مات .

٢ — ولزى

كان هنرى ، الذى قدر له أن يصبح تجسيداً لأمير مكيافيلى ، لا يزال بعد حدثاً بريئاً فى السياسة الدولية . وعرف حاجته إلى الإرشاد وجعل من الرجال حوله نماذج . وكان مور ذكياً بيد أنه لم يتعد الحادية والثلاثين ، وكان يميل إلى الطهارة والتقوى . وكان توماس ولزى يكبره بثلاثة أعوام فحسب ، وكان قساً إلا أن اتجاهه بأكمله للسياسة ، والدين عنده جزء من

السياسة . وقد ولد توماس فى إبسوتش من « أصل وضيع ودم خسيس » (هكذا « صفه جويكيا رديني المعتز بنفسه)[٨] . وقد استوعب مقرر شهادة البكالوريا فى أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين عمل صرافاً فى كلية مجدالين ، وأظهر كفاءته باستخدام مبالغ مناسبة ، تتجاوز السلطة المخولة له ، لإتمام البرج الرائع لتلك القاعة وعرف كيف ينجح . وأظهر فطنة فى الإدارة والمفاوضة فقام بالوعظ فى سلسلة من الكنائس ليخدم هنرى السابع بتلك المقدرة والدبلوماسية .

وعندما ارتقى هنرى الثامن العرش عينه موزعاً للصدقات — مديراً للبر والإحسان . وسرعان ما أصبح القس عضواً فى المجلس الخاص . وأفزع واهرام كبير الأساقفة بدفاعه عن عقد حلف عسكرى مع اسبانيا ضد فرنسا ، وكان لويس الثانى عشر يغزو إيطاليا ، ومن المحتمل أن يجعل البابوية تابعة لفرنسا من جديد . وعلى أية حال فإن فرنسا لا بد أن تصبح قوية جداً . وخضع هنرى فى هذا الأمر لولزى وحميه فرديناند ملك أسبانيا ، وكان هو نفسه يجنح فى هذا الوقت للسلم ، وقال لجيوستنيانى « إنى راض بما أملك ، ولا أود أن أحكم إلا رعاياى ، ولكنى من جهة أخرى لا أقبل أن يبلغ أحد من القوة ما يجعله يتحكم فى »[٩] ، ويكاد هذا يلخص حياة هنرى السياسية ؛ فقد ورث ادعاء الملوك الإنجليز أن لهم الحق فى تاج فرنسا ، ولكنه عرف أنه ادعاء أجوف . ووهنت الحرب سريعاً فى موقعة المهاميز (١٥١٣) . ودبر ولزى للسلام وأغرى لويس الثانى عشر بالزواج من مارى شقيقة هنرى ، وسر ليو العاشر لنجاته فعين ولزى رئيساً لأساقفة يورك (١٥١٤) . وكردينالا (١٥١٥) ، وعينه هنرى ، المنتصر ، حاجباً (١٥١٥) . وفاخر الملك لأنه حمى البابوية ، وعندما رفض أحد البابوات أن يتولى فيما بعد تيسير زواجه عد هذا جحوداً .

وكانت السنوات الخمس الأولى التى قضاها ولزى فى منصب الحاجب من أعظم السنوات توفيقاً فى سجل الدبلوماسية الإنجليزية . وكان يهدف إلى تنظيم السلام فى أوروبا باستخدام إنجلترا وسيلة لحفظ التوازن فى القوى بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا ، وكان المفروض أن مما يدخل أيضاً فى دائرة سلطانه أن يصبح حكماً لأوروبا وأن يكون السلام فى القارة فى مصلحة تجارة إنجلترا الحيوية مع الأراضى المنخفضة . وتفاوض كخطوة أولى ، لعقد حلف بين فرنسا وإنجلترا (١٥١٨) ، وخطب مارى ابنة هنرى البالغة من العمر عامين (أصبحت ملكة فيما بعد) إلى ابن فرانسيس الأول البالغ من العمر سبعة شهور . ولا شك أن ميله للضيافة الكريمة قد كشف عنه ما حدث عند ما حضر المبعوثون الفرنسيون إلى لندن لتوقيع الاتفاقيات ، فقد أقام لهم وليمة فى قصر وستمنستر ، قدم لهم فيها عشاء ، قال عنه جيوستنيانى : « أن مثيله لم يقدم قط ، على مائدة كليوباترة وكاليجولا ، وأن قاعة المأدبة بأسرها زينت بزهريات ضخمة من الذهب والفضة[10] » . غير أن الكاردينال المحب للدنيا يلتمس له العذر ، فقد كان يقامر ليكسب رهاناً عظيماً ، فكسب . وأصر على أن يكون الحلف مفتوحا لينضم إليه الإمبراطور مكسمليان الأول وشارل الأول ملك أسبانيا والبابا ليو العاشر ، ودعوا للانضمام إليه فقبلوا ، وابتهج أرازموس ومور وكوليه ، إذ داعبهم الأمل فى أن يكون فجر عهد السلام قد أشرق على العالم المسيحى بأسره . وتلقى ولزى التهانى حتى من أعدائه . وانتهز الفرصة لرشوة المندوبين الإنجليز[11] فى روما لكى يضمن تعيينه قاصداً رسوليا للبابا فى صف بريطانيا والعبارة تعنى : « فى صف » وموضع ثقة ، وكان أرفع تعيين لمبعوث بابوى . وكان ولزى وقتذاك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وحاكم إنجلترا — مع ولاء استراتيجى لهنرى .

وعكر صفو السلام بعد عام تنافس فرانسيس الأول وشارل الأول على العرش الإمبراطورى : بل إن هنرى رأى أن يقذف بقلنسوته فى الحلبة غير أنه لم يجد رجلا مثل فوجر. وزار الفائز ، وهو وقتذاك شارل الخامس، انجلترا زيارة قصيرة (مايو سنة ١٥٢٠) وقدم احتراماته لعمته كاترين الأراجونية ، الملكة زوجة هنرى ، وعرض أن يتزوج الأميرة مارى (التى كانت مخطوبة بالفعل لولى عهد فرنسا) ، إذا وعدت انجلترا أن تؤيد شارل فى أى نزاع بينه وبين فرنسا ، وهكذا السلام ، أمر غير طبيعى ، فرفض ولزى ولكنه قبل من الإمبراطور مرتباً قدره ٧,٠٠٠ دوكات ، وانتزع منه تعهداً بأن يساعده على أن يصبح بابا .

وحقق الكاردينال الذكى أعظم انتصار باهر له بتدبير لقاء بين العاهلين الفرنسى والإنجليزى فى ميدان كلوث أف جولد (يونيو ١٥٢٠) . وهناك فى أرض فضاء مكشوفة بين جين وآردر قرب كاليه برز فن العصر الوسيط والفروسية فى روعة الغروب . وانطلق أربعة آلاف نبيل انجليزى ، اختارهم الكاردينال وعينهم ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية والمزركشة والمخرمات من أزياء القرون الوسطى المتأخرة ، فى صحبة هنرى بينما امتطى الملك الشاب ذو اللحية الحمراء صهوة فرس صغيرة لملاقاة فرانسيس الأول . وأخيراً وليس آخراً ، أقبل ولزى نفسه مرتدياً ثياباً قرمزية من الأطلس ينافس بها أبهة الملوك . وقد شيد على عجـل قصر لاستقبال صاحبى الجلالة ومرافقيهما من السيدات والموظفين ،وأقيمت سقيفة يكسوها قماش تتخلله خيوط ذهبية، وتتدلى منه طنافس ثمينة ليظلل المؤتمر والمآدب ، وكانت هناك نافورة يسيل منها النبيذ ، وأخليت مساحة لألعاب الفروسية الملكية ، وتدعم الحلف السياسى والعسكرى بين الأمتين ، وتبارى العاهلان السعيدان فى المبارزة بل وتصارعا ، وخاطر فرانسيس بسـلام أوربا بطرحه الملك الإنجليزى ، وأصلح خطواته الخاطئة بكياسة فرنسية لا نظير لها بالذهاب ، مبكراً ذات

صباح وهو مجرد من السلاح مع بعض الأتباع غير المسلحين ، لزيارة هنرى فى المعسكر الإنجليزى — وكانت لفتة تدل على الثقة الودية فهمها هنرى . وتبادل الملكان الهدايا الثمينة والأيمان المغلظة .

والحق أن أحداً منهما لم يستطع أن يثق بالآخر ، لأن التاريخ علمهما درساً مفاده أن الرجال يكذبون كثيراً عندما يحكمون دولا . وبعد سبعة عشر يوماً أمضاها هنرى ينعم بالولائم مع فرانسيس ، انطلق ليمضى ثلاثة أيام فى مؤتمر مع شارل فى كاليه (يوليه سنة ١٥٢٠) . وهناك أقسم الملك والإمبراطور ، فى حضور ولزى ، على الصداقة الأبدية واتفقا على ألا يقدما على خطوات أخرى لتنفيذ خطتيهما للزواج من الأسرة المالكة فى فرنسا . وكانت هذه الأحلاف المنفصلة أساساً أشد قلقلة للسلام الأوروبى من الاتفاق الودى متعدد الجوانب الذى كان ولزى قد دبر له قبل وفاة مكسمليان ، وإن كان قد ترك انجلترا فى وضع الوسيط ، والحكم فى الواقع — وهو وضع أسمى بكثير من أى وضع يمكن أن يعتمد على ثروة الإنجليز أو سلطانهم . وكان هنرى راضياً . وأمر رهبان سانت البانز باختيار ولزى رئيساً لديرهم ومنحه صافى دخلهم ، وذلك مكافأة لحاجبه ، لأن « سيدى الكاردينال قد تحمل الكثير من التكاليف فى هذه الرحلة » . وأذعن الرهبان ووصل دخل ولزى إلى ما يقرب من احتياجاته .

وكان ، على نطاق أوسع بكثير من معظمنا ، مزيجا من الفضائل والنقائض المركبة ، وكتب جيوستنيانى يقول : « إنه وسيم جداً ، فصيح للغاية ، واسع المقدرة ، لا يكل ولا يمل[١٢] » . وكانت أخلاقه لا تخلو من الشوائب ، فقد انزلق مرتين إلى الأبوة غير الشرعية ، وكانت تعد من الهفوات التى تغتفر فى ذلك العصر الطروب .

ولكن إذا صدقنا ما قاله أسقف ، فإن الكاردينال كان يعانى من

« الزهرى[١٣] » وقبل ما يمكن ، أو ما لا يمكن أن يسمى بالرشا — هدايا عظيمة من المال تلقاها من فرانسيس وشارل على السواء ، وحرص على أن يجعلهما يتنافسان على أن يأمرا له بمرتبات وهبات سخية قدماها ، وكانت هذه من آداب مجاملة العصر ، وأحس الكاردينال المبذر ، الذى شعر بأن سياسته تخدم أوروبا بأسرها ، بأن أوروبا كلها يجب أن تخدمه . وليس من شك فى أنه كان يحب المال والترف والأبهة والسلطان . وكان جانب كبير من دخله يصرف فى الحفاظ على مؤسسة قد يكون تبذيرها السطحى أداة من أدوات الدبلوماسية ، صمم لكى تعطى السفراء الأجانب فكرة مبالغاً فيها عن الموارد الانجليزية . ولم يدفع هنرى أى مرتب لولزى ، ولهذا كان على الحاجب أن يعيش ويولم لضيوفه على حساب موارده الكنسية ومرتباته التى يتقاضاها من الخارج . وحتى لو كان الأمر على هذا النحو فإننا قد نعجب لأنه احتاج لكل الدخل الذى كان يحصل عليه باعتباره صاحب الحق فى دخل أبرشيتين ، وست رواتب للقسس ، ومرتب رئيس جامعة ، ومرتب باعتباره رئيسا لدير سانت البانز وأسقفا لباث وولز ، ورئيساً لأساقفة يورك ومديراً لأبرشية ونشستر وشريكاً لأسقفى ورسستر وسالزبورى الإيطاليين الغائبين[١٤] .

وكان له تقريباً الحق فى الرئاسة الدينية والسياسية بأسرها فى المملكة والمفروض أنه كان ينال مكافأة عن كل تعيين يتم . وقدر مؤرخ كاثوليكى أن ولزى كان يتلقى فى أوج مجده ثلث دخول الكنيسة فى إنجلترا [١٥] ، كان أغنى وأقوى الرعايا فى الأمة ; ومن رأى جيوستنيانى أنه كان « أقوى من البابا — بسبعة أضعاف [١٦] » ويقول إرازموس : « إنه الملك الثانى » ولم يبق أمامه إلا خطوة واحدة — يقوم بها — البابوية . وحاول ولزى الحصول عليها مرتين ، ولكن شارل الداهية فاقه فى تلك اللعبة ، متجاهلا وعوده .

واعتقد الكاردينال أن التمسك بالمراسيم دعامة القوة ، ويستطيع المرء بالقوة أن يتبوأ السلطة ولكنه لا يستطيع أن يدعمها بثمن بخس وفى هدوء وسلام إلا بالتعود عليها أمام الجمهور ، والناس تحكم على سمو المرء بمقدار تمسكه بالرسمية التى يحتمى بها . ولهذا فإن ولزى كان يظهر فى الحفلات العامة والرسمية مرتدياً أفخر الملابس الرسمية التى خيل إليه أنها مناسبة لمثل كل من البابا والملك . قبعة كاردينال حمراء ، وقفازين حمراوين ، وأردية من التافتاه القرمزية وحذاء من الفضة أو مموهاً بالذهب، ومرصعاً باللآلىء والأحجار الكريمة — ها هو ذا أنوسنت الثالث وبنيامين دزرائيلى وبروفل الجميل اجتمعوا معاً فى شخص واحد . كان أول من لبس الحرير[١٧] بين رجال الدين فى انجلترا . وعندما كان يردد القداس (وهو أمر نادر) كان شماسته من الأساقفة والرهبان ، وفى بعض المناسبات كان النبلاء من حملة ألقاب دوق وايرل يصبون الماء الذى يغسل به يديه المقدستين . وأذن لتابعيه أن يركعوا وهم يخدمونه على المائدة . وخدمه فى مكتبه وبيته خمسمائة شخص[١٨] ، كثير منهم من ذوى النسب العريق . وكانت قلعة هامبتون التى شيدها لتكون مقراً له باذخة جداً إلى حد أنه أهداها للملك (١٥٢٥) ليتقى شر حسده .

ومهما يكن من أمر فإنه نسى أن هنرى كان ملكاً . وكتب جيوستنيانى إلى عضو شيوخ من البنادقة : « لدى وصولى لأول مرة إلى انجلترا اعتاد الكاردينال أن يقول لى إن جلالته سوف يفعل كذا وكذا » . وبعد ذلك — بالتدريج نسى نفسه وبدأ يقول : « سوف نفعل كذا وكذا » أما الآن يقول « سأفعل كذا وكذا »[١٩] ، وكتب السفير مرة أخرى يقول : « إذا كان لا بد من إغفال أمر الملك أو الكاردينال فمن الأفضل التغاضى عن الملك ، فالكاردينال قد يستاء من السبق الذى يسلم به للملك[٢٠] » وقلما كان الأشراف والدبلوماسيون يحصلون على الإذن بالمثول فى حضرة الحاجب قبل تقديم

الانماس الثالث . وكلما مر عام كان الكاردينال يحكم صراحة حكماً مطلقاً يشتد يوماً بعد يوم ، واستدعى المجلس النيابى مرة إبان رئاسته ، وكان قليل الاهتمام بالأشكال الدستورية ، وقابل المعارضة بالاستياء والنقد بالزجر . وكتب المؤرخ بوليدور فرجيل يقول : « إن هذه الوسائل سوف تؤدى إلى سقوط ولزى » فأرسل فرجيل إلى البرج ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تشفع له ليو العاشر مراراً . واشتدت المعارضة .

ولعل من عزلهم ولزى أو أدبهم هم الذين اعتصموا بآذان التاريخ ، ونقلوا آثامه كما هى بلا غفران ، إلا أن أحداً لم ينازع فى مقدرته ، أو انصرافه فى مثابرة لكثير من مهامه . وقال جيوستنيانى لعضو الشيوخ من البندقية المعتز بنفسه « إنه ينجز من العمل قدر ما يشغل كل القضاة وموظفى المكاتب والمجالس فى البندقية ، فى المحاكم المدنية والجنائية على السواء ، وهو يدير كذلك كل شئون الدولة مهما كانت طبيعتها [٢١] » .

وكان محبوباً من الفقراء ، مكروهاً من الأقوياء بسبب عدم تحيزه فى تطبيق العدالة . وفتح بلاطه لكل من يشكون من الاضطهاد ، ولا تكاد توجد سابقة لهذا فى التاريخ الانجليزى بعد الفرد . وكان ينزل العقاب بالجانى الأثيم ، مهما كان رفيع القدر [٢٢] ، دون خوف ولا وجل . وكان كريماً مع العلماء والفنانين وبدأ إصلاحاً دينياً بإحلال كليات محل أديار عديدة . وكان بصدد القيام بإصلاح مثير فى التعليم الإنجليزى عندما تآمر ضده كل الأعداء الذين خلقهم اندفاعه فى أعماله وقصر نظره كبريائه ، فتآمروا بخلق قصة خيالية ماكية لتدبير خطة لسقوطه

٣ ـ ولزى والكنيسة

وأدرك المساوئ التى لا تزال باقية فى حياة رجال الدين فى انجلترا ضرب لها مثلا عظيما : أساقفة غائبين ورجال دين متعلقين بالدنيا ،

ورهباناً كسالى ، وقساوسة وقعوا فى شرك الأبوة . وكانت الدولة التى طالما دعت إلى إصلاح الكنيسة ، مسئولة إلى حـد ما عن الشرور ، لأن الملوك كانوا يعينون الأساقفة . وكان بعض الأساقفة من أمثال مورتون ، وواهرام وفيشر رجالا على خلق رفيع ، ذوى مقدرة عظيمة ، وكان كثير من الآخرين منغمسين جداً فيما تتيحه لهم الأسقفية من حياة وادعة ، فلم يسـتطيعوا أن يدربوا أتباعهم من رجال الدين على الكفاءة من الناحية الروحية ، وكذلك على المثابرة فى تدبير المال . وربما كانت أخـلاقيات الجنس عند القساوسة أفضل مما هى عند زملائهم فى ألمانيا ، ولكن لم يكن ثمة مفر من وجود حالات من التسرى بين رجال الدين ، ومن الزنا والسكر والجريمة فى الأبرشيات البالغ عددها ٨,٠٠٠ فى انجلترا — وهى حالات — كثيرة دفعت كبير الأساقفة مورتون إلى أن يقول : (١٤٨٦) « إن ما يقترن بحياتهم من فضائح يعرض للخطر استقرار نظامهم[٢٣] » . وأبلغ رتشارد فوكس ، حوالى عام ١٥١٩ ، ولزى بأن رجال الدين فى أسقفية ونشستر كانوا قد ترد وا إلى هاوية كبيرة من الفسق والفساد ، إلى حد أنه يئس من أن يشهد فى حياته أية محاولة لإصلاح دينى[٢٤] . وارتاب القساوسة بالأبرشيات فى أن ترقياتهم تتوقف على مقدار مقتنياتهم ، فأخذوا يغتصبون ضرائب العشور أكثر مما فعلوا فى أى وقت مضى . وكان البعض يستولى كل عام على عشر دجاج الفلاح وإنتاجه من البيض واللبن والجبن والفاكهة ، بل حتى من كل الأجور التى كانت تدفع لمعاونته ، وكل إنسان لا يترك فى وصيته ميراثاً للكنيسـة يتعرض لخطر عظيم بحرمانه من الدفن طبقاً للطقوس المسيحية مع ما يترتب على ذلك من نتائج متوقعة مروعة إلى حد لا يمكن التفكر فيها . وبعبارة موجزة فرض رجال الدين مكوساً لتمويل مصالحهم فى إصرار مثل الدولة الحديثة . وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت الكنيسة تملك ، وفقاً لتقدير كاثوليكى محافظ ، حـوالى خمس

الأملاك بأسرها فى إنجلترا(٢٥) . وحسد النبلاء هناك كما فى ألمانيا رجال الدين على هذه الثروة وتلهفوا على استعادة الأراضى والدخول التى تنازل عنها لله أسلافهم الأتقياء أو الخائفون .

وأجمل دين كوليه حالة رجال الدين العلمانيين مع مبالغة واضحة فى خطاب وجهه إلى جمعية رجال الكنائس عام ١٥١٢ فقال : « أود أخيراً وأنا عالم بشهرتكم ومهنتكم ، أن تفكروا فى إصلاح أمور الكهنوت لأنه لم يحدث من قبل أن كان الأمر محتوماً كما هو الآن . . . . لأن الكنيسة — زوجة المسيح — التى تمنى ألا تشوبها شائبة أو تدب فيها الشيخوخة قد أصبحت دنسة مشوهة ، وكما يقول أشعياء : « كيف صارت القرية الأمينة زانية »(*) . وكما يقول أرميا : أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين(**) » . وقد حلت بكثير من بذور الظلم وهى تنجب كل يوم أعظم الذرية دنساً . ولم يشوه شىء وجه الكنيسة مثل ما شوهته المعيشة العلمانية والدنيوية لرجال الدين . . . . أى لهفة وجوع يشيعان فى هذه الأيام بين رجال الدين بعد الشرف والوقار . وأى سباق تنقطع فيه الأنفاس من صدقة إلى صدقة ومن منفعة أقل إلى منفعة أكبر .

ألم تغرق الشهوة إلى الجسد ، ألم تغرق هذه الرذيلة الكنيسة بالفيضان . . ولهذا فليس هناك ما يسعى إليه فى حرص الجانب الأكبر من القساوسة أكثر مما يهيئ لهم اللذة الحسية ؟ إنهم لينصرفون إلى المآدب والولائم . . ويقفون حياتهم وينصرفون إلى القنص والصيد بالصقور ، وهم غارقون فى مباهج هذه الحياة الدنيا . .

وقد تملك الجشع أيضاً . . . قلوب كل القسس . . . إلى حد أننا اليوم

(*) العهد القديم : سفر أشعياء : الاصحاح الأول ، آية ٢١
(**) « « : سفر أرميا : الإصحاح الثالث ، آية ١

لا نرى شيئاً سوى ما يخيله لنا أنه كفيل بأن يعود علينا بغنم ، ونحن نعانى فى هذه الأيام من الهراطقة — وهم رجال يتصفون بحماقة عجيبة ، إلا أن هرطقتهم ليست وبائية خبيثة بالنسبة لنا وللناس مثل حياة رجال الدين الفاسدين الغاوين . ولا بد أن يبدأ الإصلاح الدينى بكم[٢٦] » .

وصاح نائب الأسقف مرة أخرى وهو يتميز غيظاً : « أيها القساوسة .. يا طائفة القسس . . . أواه ! إن الضلال المقيت الذى يسدر فيه هؤلاء القساوسة التعساء ، الذين يضم منهم عصرنا عدداً كبيراً لا يخشون الاندفاع من أحضان بغى دنسة إلى حرم الكنيسة ، وإلى مذبح المسيح ، وإلى أسرار العشاء الربانى[٢٧] .

بل إن رجال الدين النظاميين أو الرهبانيين تعرضوا لاستنكار شديد ، فقد اتهم كبير الأساقفة مورتون عام ١٤٨٩ الراهب وليام من دير سانت ألبانز بـ « الاتجار فى المقدسات والرتب والوظائف الدينية والربا والاختلاس والعيش علنا وباستمرار مع العاهرات والعشيقات داخل أرباض الدير وخارجه » واتهم الرهبان بأنهم يحيون حياة داعرة . . . . كلا بل يدنسون الأماكن المقدسة ، حتى كنائس الرب بالذات بمضاجعة الراهبات الممقوتة » . ويحولون ديراً ثانوياً مجاوراً إلى « ماخور عام »[٢٨] .

وترسم سجلات الجولات التفتيشية الأسقفية صورة أقل اكفهراراً . فمن بين اثنين وأربعين ديراً تم التفتيش عليها بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٠ وجد خمسة عشر ديراً لم تقترف فيها خطيئة كبيرة ، وفى معظم الأديار الأخرى كانت جرائم التعدى على النظام أكثر منها على العفة[٢٩]. وكانت بعض الأديار لا تزال تمارس نظام الصلاة فى القرون الوسطى والإقبال على العلم والضيافة والبر وتعليم الشباب . واستغل بعضها السذاجة وجمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزاً من الأمراض ، وشكا أساقفة

من « الأحذية المنتنة والأمشاط القذرة . . والزنارات الرثة وخصلات الشعر والخرق القذرة المقررة والموصى بها للجهلة من الناس . باعتبارها مخلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين[٣٠].

وعلى الجملة فإن الأديار الستمائة فى إنجلترا أظهرت ، طبقا لتقدير آخر مؤرخ كاثوليكى ، سوء سلوك على نطاق واسع وكسلا متلافا وإهمالا يكلف غاليا فى رعاية أملاك الكنيسة[٣١].

وفى عام ١٥٢٠ كان فى انجلترا نحو ١٣٠ ديراً للراهبات . منها أربعة فقط تضم ما يزيد على ثلاثين نزيلة[٣٢]. وألغى الأساقفة ثمانية أديار ، وقال الأسقف فى إحدى الحالات بسبب « الأخلاق الداعرة لنساء البيت وتبذلهن بسبب مجاورتهن لجامعة كمبردج[٣٣]» . وتمت ثلاث وثلاثون جولة تفتيشية لواحد وعشرين ديراً للراهبات فى أبرشية لنكولن وقدمت عنها تقارير من بينها ستة عشر تقريراً مشجعا ، وأربعة عشر تقريرا تضمنت ملاحظات عن الافتقار إلى النظام أو الأخلاق وتقريران تحدثا عن راهبات كن يعشن فى الخنا ، وتقرير وجد راهبة حاملا من قسيس[٣٤]. وكانت مثل هذه الانحرافات عن القواعد الصارمة تعد طبيعية فى المناخ الأخلاقى السائد فى تلك العصور ، ولعل الخدمات الكريمة فى التعليم والبر كانت ترجحها .

وكان رجال الدين لا يتمتعون بالشعبية . وكتب يوستاس شابويس السفير الكاثوليكى لشارل الخامس فى إنجلترا إلى مولاه عام ١٥٢٩ فقال : « إن كل الناس يكرهون القساوسة »[٣٥] . وندد كثير من الناس ، من المتشبثين بعقيدة المحافظين تماما بقسوة الضرائب التى فرضها رجال الدين وتبذير الأساقفة وثراء الرهبان وكسلهم . وعندما اتهم كاتب سر أسقف لندن بقتل هرطيق (١٥١٤) توسل الأسقف إلى ولزى أن يمنع المحاكمة أمام محلفين مدنيين « لأنى واثق أن كاتب سرى لو حوكم أمام أى اثنى عشر

رجلا فى لندن فإنهم سوف ينحازون فى حقد إلى صف الهرطيق إلى حد أنهم سوف يلبذون كاتبي ويدينونه على الرغم من أنه برىء مثل هابيل »[٣٦].

وأخذت الهرطقة تشتد مرة أخرى . وفى عام ١٥٠٦ اتهم خمسة وأربعون رجـــلا بالهرطقة أمام أسقف لنكولن وتراجع ثلاثة وأربعون عما قالوا ، وأحرق اثنان . وفى عام ١٥١٠ حاكم أسقف لندن أربعين هرطيقا وأحرق اثنين ، وفى عام ١٥٢١ حاكم خمسة وأربعين وأحرق خمسة . وتورد السجلات قائمة تضم ٣٤٢ محاكمة مثل هذه فى خلال خمسة عشر عاماً[٣٧] .

ومما كان يعد بين الهرطقات الجدل حول القربان المقدس وهل يظل يقدم من الخبز فحسب ، وأن القساوسة لا حول لهم ولا قوة أكثر من الآحاد الآخرين من الناس فى التكريس أو الحل ، وأن القرابين المقدسة ليست ضرورية للحصول على الخلاص ، وأن رحلات الحج إلى المزارات المقدسة والصلاة من أجل الموتى لا قيمة لها ، وأن الصلوات يجب أن توجه لله وحده ، وأن فى وسع الإنسان أن يظفر بالنجاة بالإيمان وحده ، بغض النظر عما يقدم من صالح الأعمال ، وأن المسيحى المخلص فوق كل القوانين ما عدا شريعة المسيح ، وأن الكتاب المقدس والكنيسة يجب أن يكونا القاعدة الوحيدة التى يحتكم إليها فى العقيدة ، وأن كل الرجال يجب أن يتزوجوا ، وأن الرهبان والراهبات يجب أن يجحدوا أقسامهم بالتزام العفة .

وكانت بعض هذه الهرطقات أصداء لمذهب لولارد ، وكانت بعضها انعكاسات لنفخات من بوق لوثر .

وفى أوائل عام ١٢٥١ كان الثائرون الشبان فى اكسفورد يتلقفون فى لهفة أنباء الثورة الدينية فى ألمانيا ، وآوت كامبردج فى أعوام ١٥٢١ — ٢٥ اثنى عشر من زعماء هراطقة المستقبل ، ولیام تیندال وميلز كوفردال وهيولاتيمر وتوماس بلنى وادوارد فوكس ونيكولاس ردلى وتوماس

كرانمر . . . لقد هاجر كثير منهم : وهم يتوقعون الاضطهاد ، إلى القارة ، وطبعوا كراسات دينية مناهضة للكاثوليكية وبعثوا بها سرا إلى إنجلترا .

وأصدر هنرى الثامن عام ١٥٢١ كتابه المشهور « قضية المقدسات السبعة ضد مارتن لوثر » ، ولعله أصدره كرادع لهذه الحركة أو ربما لإظهار سعة علمه فى اللاهوت ، واعتقد الكثيرون أن ولزى هو المؤلف الخفى ، ولعل ولزى هو الذى اقترح تأليف الكتاب ، وصاحب ما ورد فيه من أفكار رئيسية كجزء من دبلوماسيته فى روما ، بيد أن إرازموس ادعى أن الملك قد فكر فى الرسالة من أولها لآخرها وألفها ، ويميل الحكم الآن إلى هذا الرأى . وهذا الكتاب له سمات المبتدئ ، وهو لا يكاد يحاول تقديم رد عقلى يدحض به الآراء الأخرى ، ولكنه يعتمد على فقرات منقولة من الكتاب المقدس والروايات الكنسية والتعسف الشديد . وكتب الثائر المتنظر ضد البابوية يقول : « أى ثعبان سام يصل إلى درجة من يصف سلطة البابا بأنها مستبدة ؟ . . . وأى جارحة من جوارح الشيطان تحاول أن تمزق أعضاء المسيح وتفصلها عن رأسها » . ما من عقوبة يمكن أن تكون جسيمة عندما توقع على من يعصى القس الأكبر والقاضى الأعلى على الأرض « لأن الكنيسة بأسرها ليست رعية للمسيح فحسب . . . بل لكاهن المسيح الوحيد ، بابا روما »(٣٨). « وكان هنرى يغبط ملك فرنسا على ألقاب التشريف التى تسبغها الكنيسه عليه مثل : « أكثر المسيحيين مسيحية » وفرديناند وايزابلا على لقب العاهلين الكاثوليكيين . وعندما قدم وكيله وقتذاك الكتاب إلى ليو العاشر طلب منه أن يمنح هنرى وحلفاءه لقب — حامى العقيدة — ووافق ليو ووضع من استهل الإصلاح الدينى فى انجلترا الكلمات على سكنه .

وتمهل لوثر فى الإجابة . ورد عام ١٥٢٥ ردا فريدا على ذلك « الحمار الأحمق » ، « وذلك المجنـــون الهائج . . . ملك الأكاذيب ، الملك

هينز ، ملك انجلترا يغضب الله . . . ولما كانت تلك الدودة اللعينة العفنة قد افترت كذبا بشر مبيت على مليكي فى السماء فإنه يحق لى أن ألطخ هذا الملك الإنجليزى بقذره »[٣٩] « ولم يتعود هنرى على هذا الرشاش فاشتكى إلى أمير سكسونيا المختار الذى قال له بأدب جم ألا يتطفل على الأسود ، ولم يصفح الملك قط عن لوثر على الرغم من اعتذاره فيما بعد ، ونبذ البروتستانت الألمان حتى عندما تمرد تماما على البابوية .

وكان أعظم رد مفحم للوثر هو نفوذه فى إنجلترا ففى ذلك العام نفسه ١٥٢٥ نسمع عن « جمعية الإخوان المسيحيين » . فى لندن التى انطلق وكلاؤها المأجورون يوزعون كراسات دينيـــة لوثرية وهرطقية أخرى وأناجيل بالإنجليزية كلها أو بعضها .

وفى عام ١٤٠٨ انزعج كبير الأساقفة أروندل بسبب توزيع نسخة الكتاب المقدس التى ترجمها ويكلف ، فمنع القيام بأى ترجمة له باللغة الوطنية دون الحصول على موافقة من الأسقف ، على أساس أن أى نسخة تترجم بدون ترخيص قد يحدث فيها تحريف للفقرات الصعبة ، أو تلون التعبير لتأييد هرطقة . ولم يشجع كثير من رجال الدين قراءة الكتاب المقدس بأى صيغة ، واحتجوا بأن الترجمة الصحيحة تستلزم معرفة خاصة ، وأن المنتخبات من الكتاب المقدس كانت تستخدم لإثارة الفتنة[٤٠]. ولم تبد الكنيسة أى اعتراض رسمى على الترجمات السابقة لويكلف بيد أن هذا الإذن المفهوم ضمنا لم تكن له أهمية لأن كل النسخ الإنجليزية قبل عام ١٥٢٦ كانت مخطوطة[٤١].

ومن ثم تأتى الأهمية الزمنية للعهد الجديد الإنجليزى الذى نشره تندال عام ١٥٢٥ — ٢٦ . وكان قد فكر مبكراً فى أيام دراسته فى ترجمة الكتاب المقدس ، لا من النسخة اللاتينية له كما فعل ويكلف ، بل من الأصلين

العبرى واليونانى . وعندما لامه كاثوليكى غيور وقال له : « خير لك أن تعيش بلا شريعة الرب « أى الكتاب المقدس من أن تعيش بشريعة البابا » ، رد تندال بقوله : « إذا مد الله فى عمرى فلن تمضى بضع سنين حتى أجعل الصبى الذى يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت[٤٢] » . ومنحه أحد معاونى بلدية لندن الفراش والمأوى لمدة ستة شهور عكف الشاب أثناءها على العمل . وذهب تندال عام ١٥٢٤ إلى فتنبرج واستمر فى العمل تحت إرشاد لوثر . وبدأ فى كولونيا يطبع نسخة العهد الجديد المترجمة من النص اليونانى كما حققه ارازموس . وأثار وكيل إنجليزى السلطات عليه ، ففر تندال من كولونيا الكاثوليكية إلى ورمز البروتستانتية ، وهناك طبع ٦،٠٠٠ نسخة ، أضاف لكل منها مجلدا منفصلا ضمنه تعليقات ومقدمات عدوانية ، اعتمد فيها على مقدمات إرازموس ولوثر . وهربت كل هـذه النسخ إلى انجلترا وكانت بمثابة الوقود ، الذى أشعل نار البروتستانتية الأولى ، وزعم كوثبرت تونستال ، أسقف لندن أن هناك أخطاءاً شنيعة فى الترجمة ، وتحاملا مغرضاً فى التعليقات ، وهرطقات فى المقدمات ، وحاول أن يمنع تداول الطبعة بشراء كل النسخ المكتشـفة وإحراقها علناً فى ميدان سانت بول كروس ، بيد أن نسخاً جديدة ظلت ترد من القارة ، وعلق مور على ذلك بقوله إن تونستال كان يمول مطبعة تندال . وكتب مور نفسه حواراً مستفيضاً (١٥٢٨) ، انتقد فيه النسخة الجديدة فرد عليه تندال ، ورد مور على الرد فى « تفنيد » يتألف من ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير . ورأى الملك أن يخمد الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنجليزية وتداوله ، إلى أن تصدر ترجمة معتمدة من ذوى الشأن (١٥٣٠) ، وفى غضون ذلك حرمت الحكومة كل طبع أو بيع أواستيراد أو حيازة للمؤلفات الهرطقية .

وبعث ولزى بأوامره بالقبض على تندال ، إلا أن فيليب ، حاكم لاندجراف هس أسبغ حمايته على المؤلف ، وتابع فى ماربورج ترجمتــه للأسفار الخمسة (١٥٣٠) . وترجم الجانب الأكبر من العهد القديم إلى الإنجليزية فى أناة ، بجهده الخاص أو تحت إشرافه . غير أنه سقط فى أيدى الموظفين الإمبراطوريين فى لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته وسجن لمدة ســتة عشر شهراً فى فلفورد (قرب بروكسل) ، وأعــدم فى المحرقة (١٥٣٦) على الرغم من تشفع توماس كرومويل وزير هنرى الثامن . وتحدثنا الرواية أن آخر كلماته كانت : « رباه ، افتح عينى ملك انجلترا [٤٣] » وقد عاش ما يكفى لإتمام رسالته ، فالصبى الحارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجيليين الآن وهم يروون له بإنجليزية ثابتة واضحة قوية قصة المســيح الملهمة . وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠ فى المائة من أعظم ما كتب فى الأدب الكلاسى الإنجليزى وأشدها تأثيراً كانت لتندال بلا تغيير [٤٤] .

وكان موقف ولزى تجاه هذا الإصلاح الدينى الإنجليزى الوليد يتسم باللين ، كما يمكن أن يتوقع من رجل على رأس الكنيسة والحكومة على السواء . فاستأجر شرطة سرية لكشف الهرطقة ، وفحص الأدب المشكوك فيه والقبض على الهراطقة . غير أنه سعى إلى إغراء هؤلاء بأن يســكتوهم لا أن يعاقبوهم ، ولم يصدر أوامره قط بإرسال هرطيق إلى المحرقة . وفى عام ١٥٢٨ سجن ثلاثة من طلبة جامعة أكسفورد بتهمة الهرطقة ، وترك أسقف لندن واحداً منهم يموت فى الحبس وأنكر آخر ما قاله وأطلق سراحه ، أما الثالث فأخذه ولزى ووضعه تحت رعايته وسمح له بالفرار [٤٥] . وعندما ندد هيو لاتيمر ، أفصح المصلحين المدينيين الأوائل فى القرن السادس عشر بانجلترا ، بفساد رجال الدين وطلب أسقف ايلى من ولزى منعه ، منح ولزى لاتيمر ترخيصاً بالوعظ فى أى كنيسة بالبلاد .

ورسم الكاردينال خطة ذكية لإصلاح الكنيسة . وفى رواية لأسقف برنت أنه كان يحتقر رجال الدين وبخاصة . . . الرهبان الذين لا يؤدون خدمة للكنيسة أو الدولة ، ولكنهم كانوا بسبب حياتهم الفاضحة وصمة عار فى جبين الكنيسة وحملا على الدولة . ومن ثم قرر أن يوقف عدداً منهم ويحولهم إلى مؤسسة أخرى(٤٦) » . ولم يكن إغلاق دير لا يؤدى وظيفته على ما يرام بالأمر الذى لم يسمع به من قبل ، فقد حدث فى كثير من الحالات قبل ولزى بأمر صدر من الكنيســة . وبدأ (١٥١٩) بإصـــدار تشريعات لإصلاح القوانين الكلسية التى وضعها سانت أوغسطين » ولو أن هــذه القواعد اتبعت لأصبحت القوانين الكنسية نموذجية للغاية . وفوض كاتم سره توماس كرومويل فى زيارة الأديار بنفسه أو بواسطة وكلاء له وأن يقدم له تقارير عن الأحوال الموجودة ، وأتاحت هــذه الجولات التفتيشية مهارة متمرسة لكرومويل فى تنفيذ أوامر هنرى فيما بعد بتقصى الحياة فى الأديار بانجلترا بشدة . وارتفعت الأصوات بالشكوى من قسوة هؤلاء الوكلاء ومن تلقيهم « الهدايا » أو أخذها كرها ، وعن مشاطرتهما كرومويل والكاردينال(٤٧) فى هذه الهدايا . وحصل ولزى عام ١٥٢٤ على إذن من البابا كليمنت السابع بإغلاق الأديار التى تضم أقل من سبعة نزلاء واتفاق دخول هذه الممتلكات على إنشاء كليات . وشعر بالسعادة عنــدما مكنته هذه الأموال من فتح كلية فى موطنه ابسويتش وأخرى فى أكسفورد وراوده الأمل فى أن يستمر على هذا المنوال فيغلق المزيد من الأديار عاماً بعد عام ويســتبدل بها كليات(٤٨). إلا أن نياته الطيبة ضاعت فى غمرات السياسة ، وكانت أعظم نتيجة لإصـــلاحاته المتعلقة بالأديار هى أنه زود هــنرى بسابقة جديرة بالإجلال لخطة أبعـــد مدى ، وتدر ربحاً أكثر .

وفى غضون ذلك كانت سياسة الكاردينال الخارجية قد أدت إلى نتيجة تدعو إلى الأسى . ولعله سمح لانجلترا بالانضمام إلى شارل فى حربه مع فرنسا (١٥٢٢) لأنه كان يسعى إلى الحصول على تأييد الإمبراطور لترشيحه للبابوية (١٥٢١) . ومنيت الحملات الإنجليزية بالفشل وتكلفت أموالا طائلة ، وأزهقت فيها أرواح كثيرة .

ودعا ولزى (١٥٢٣) أول مجلس نيابى فى سبع سـنوات ، لتمويل الجهود الجديدة ، وصدمه بطلب إعانة مالية لم يسبق لها مثيل قدرها ٨٠٠,٠٠٥ جنيه — أى خمس ما يملكه كل علمانى . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم صوتوا على السبع فقط ، واحتج رجال الدين بيد أنهم سـلموا دخل نصف عام من كل الصدقات . وعندما وصـلت الأنباء بأن جيش شارل قد تغلب على الفرنسيين فى بافيا (١٥٢٥) وأخذ فرانسيس أسيراً . رأى هنرى وولزى أن من الحكمة أن يسهما فى تقطيع أوصال فرنسا الذى يوشك أن يحدث . ووضعت خطة للقيام بغزو جديد واقتضى الأمر تدبير المزيد من الأموال وخاطر ولزى بآخر ما تبقى له من شعبية ، بأن طلب من كل الإنجليز الذين يتجاوز دخلهم ٥٠ جنيهاً (٥٠٠ دولار ؟) أن يسهموا بسدس أموالهم فى « هبة ودية » ، لمتابعة الحرب والوصول بها إلى غاية مجيدة ، « ودعونا نتبرع ودياً حتى نمنع شارل من ابتـلاع فرنسا بأسرها » .

وقوبل الطلب بمقاومة انتشرت على نطاق واسع اضطر ولزى إلى أن يتحول إلى وضع برنامج للسلام . ووقعت معاهدة للدفاع المتبادل مع فرنسا كمحاولة أخرى لاسـتعادة توازن القوى . . ولكن جنـود الإمبراطور استولوا عام ١٥٢٧ على روما وأسروا البابا وبدا أن شارل

قد أصبح وقتذاك سيد القارة الذى لا يقهر ، وقضى على سياسة وازى القائمة على الصد والتوازن . وانضمت إنجلترا إلى فرنسا عام ١٥٢٨ فى الحرب ضد شارل .

وكان شارل ابن أخى كاثرين الأراجونية التى كان هنرى شديد الرغبة فى الطلاق منها ، وكان كليمنت السابع ، الذى يستطيع أن يمنحه لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، أسيرا لشارل بشخصه وسياسته .

٤ ــ طلاق الملك

جاءت كاترين الأراجونية ، ابنة فرديناند وإيزابلا إلى إنجلترا عام ١٥٠١ ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها وتزوجت (١٤ نوفمبر) من أرثر البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، وهو أكبر أبناء هنرى السابع . ومات أرثر فى اليوم الثانى من إبريل عام ١٥٠٢ وكان المفروض بوجه عام أن الزوج قد دخل بزوجته . ومن ثم أرسل السفير الأسبانى قياما بالواجب « أدلة » إلى فرديناند ولم ينتقل لقب أرثر ، أمير ويلز رسميا إلى شقيقه الأصغر هنرى إلا بعد مرور شهرين على وفاة أرثر[٤٩]. ولكن كاثرين انكرت أن زوجها دخل بها . وقد أحضرت معها صداقا قدره ٢٠٠٫٠٠٠ دوكات (٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وكره هنرى السابع أن يدع كاثرين تعود إلى إسبانيا ومعها هذه الدوكات ، وتلهف على أن يجدد مصاهرته لفرديناند القــوى فاقترح أن تتزوج كاثرين من الأمير هنرى على الرغم من أنها كانت تكبر الصبى بست سنوات . وكانت هناك آية فى الكتاب المقدس (سفر اللاويين اصحاح ٢٠ : آية ٢١) تحرم هذا الزواج :

« وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة . . . يكونان عقيمين » ومهما يكن من أمر فإن هناك آية أخرى تنص على خلاف ذلك : « إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن . . . . . . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة » . (سفر التثنية : اصحاح ٢٥ آية ٥) . واستنكر كبير الأساقفة وارهام الزواج المقترح ودافع عنه الأسقف فوكس الونشستري إذا أمكن الحصول على محلل من البابا للمانع من المصاهرة . وطلب هنري السابع الحصول على المحلل . فنحه له البابا يوليوس (١٥٠٣) . وجادل بعض خبراء القانون الكنسي في حق البابا في التحلل من مبدأ نص عليه الكتاب المقدس[٥٠] وأكد البعض حقه في هذا ، أما يوليوس نفسه فقد راودته بعض الشكوك[٥١]. وأعلنت رسميا الخطبة ، وهي في الواقع زواج شرعي — عام ١٥٠٣ ، ولما كان العريس لا يزال في الثانية عشرة من عمره فحسب فقد أجلت المعاشرة . وفي عام ١٥٠٥ طلب الأمير هنري إعلان بطلان الزواج ، لأن أباه أكرهه[٥٢]عليه ولكنه أقنع بصحة الزواج على أساس أنه في مصلحة إنجلترا .

وفي عام ١٥٠٩ ، وبعد ستة أسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج . وبعد سبعة شهور (٣١ يناير سنة ١٥١٠) أنجبت كاترين أول طفل لها ، وقد مات عند الولادة . وأنجبت بعد ذلك بعام ابنا وابتهج هنري بولادة وريث ذكر يصل به سلسلة نسب تيودور ، ولكن الطفل مات بعد بضعة أسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة (١٥١٣ و ١٥١٤) . وبدأ هنري يفكر في الطلاق . أو بعبارة أدق في إعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح . وحاولت كاترين المسكينة مرة أخرى وفي عام ١٥١٦ أنجبت طفلة قدر لها أن تكون الملكة ماري . وأذعن هنري وقال لنفسه : « إذا كانت هذه المرة ابنة فإن الأبناء سوف يجيئون بعدها[٥٣]»

بفضل الله ومنه . وفى عام ١٥١٨ أنجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا . واشتدت خيبة أمل الملك والبلاد لأن مارى البالغة من العمر عامين ، كانت قد خطبت إلى ولى عهد فرنسا ، وإذا لم يرزق هنرى بولد فإن مارى سوف ترث العرش الإنجليزى ، وعندما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فإنه سيكون فى الواقع ملكا على إنجلترا أيضا ، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا ، وكان دوقات نورفولك وبكنجهام تداعبهم الآمال فى أن يزيحوا مارى ويضمنوا التاج لأنفسهم ، وأطلق بكنجهام لسانه فاتهم بخيانة البلاد وقطع رأسه (١٥٢١) ، وعبر هنرى عن خوفه من أن يكون حرمانه من إنجاب ولد عقابا من الله لأنه استخدم محللا بابويا[٥٤] من وصية واردة فى الكتاب المقدس . وأقسم ليقودن حملة صليبية ضد الأتراك إذا أنجبت له الملكة ولدا . غير أن كاترين لم تحمل بعد ذلك . وما أن حل عام ١٥٢٥ حتى تخلى عن كل أمل فى الحصول على ذرية أخرى منها .

وكان هنرى منذ أمد بعيدقد فقد الميل إليها باعتبارها أنثى . وكان وقتذاك فى الرابعة والثلاثين ، أى فى عنفوان الرجولة الفتية ، وكانت فى الأربعين وتبدو أكبر من سنها . ولم تكن قط مغرية ، وألحق أن مرضها المتكرر، أو ما صادفها من سوء الحظ ، قد شوه جسدها وأضفى على روحها قتامة . وكانت تبز النساء بثقافتها ودماثتها ولكن الأزواج قلما يرون أن التضلع فى العلم خلة محمودة فى الزوجة . وكانت زوجة صالحة مخلصة ، تحب زوجها حبا لا يفوقه إلا حبها لإسبانيا : وكانت ترى نفسها باعتبارها — وكانت كذلك لفترة ما — سفيرة لإسبانيا وكانت ترى أن إنجلترا يجب أن تقف دائماً فى صف فرديناند أو شارل : وفى حوالى عام ١٥١٨ اتخذ هنرى أول حظية له عرفها بعد الزواج وهى اليزابيث بلاوتد شقيقة مونتجوى صديق ارازموس : وأنجبت له ابنا عام ١٥١٩ وأنعم هنرى على الصبى بلقب

دوق رتشموند وسومرست ، وفكر فى أن يقف وراثة العرش عليه . وفى عام ١٥٢٤ اتخذ حظية أخرى ، هى مارى بولين(٥٥) ، والحق أن سير جورج ثروكمورتون اتهمه فى وجهه بالزنا مع أم مارى أيضاً(٥٦) . وكان هناك قانون غير مكتوب فى ذلك العهـد ينص على أن الملك إذا ما تزوج لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ولم يكن ذلك باختياره ، فإن له الحق فى أن ينشد خارج الزواج الغرام الذى فقده فى المخدع الشرعى .

وفى عام ١٥٢٧ أو قبله حول هنرى فتنته إلى آن شقيقة مارى . وكان والدهما سير توماس بولين ، تاجرا دبلوماسيا حظى منذ وقت طويل بعطف الملك ، أما أمهما فكانت من آل هوارد ، وهى ابنة الدوق نورفولك . وأرسلت آن إلى باريس لإتمام دراستها فيها ، وهناك عيات وصيفة للملكة كلود ثم لمرجريت دى نافار ، ولعلها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية . وكان فى وسع هنرى أن يراها فتاة طروبا فى الثالثة عشرة من عمرها فى ميدان كاوث أف جولد ، وعندما عادت إلى إنجلترا وهى فى الخامسة عشرة من عمرها (١٥٢٢) أصبحت وصيفة للملكة كاترين . ولم تكن رائعة الجمال ، وكانت قصيرة القامة لها بشرة قاتمة وفم واسع ورقبة طويلة ، ولكنها خلبت لب هنرى وآخرين غيره بعينيها السوداوين البراقتين وشعرها البنى المسترسل ورشاقتها وذكائها ومرحها . وكان لها بعض العشاق المولعين بها ، ومنهم توماس ويات الشاعر ، وهنرى برسى ، الذى أصبح فيما بعد إيرل نور ثمبرلاند ، واتهمها أعداؤها فيما بعد بأنها كانت متزوجة فى السر من برسى قبل أن تضع أنظارها على الملك ، إلا أن الدليل لم يكن قاطعا(٥٧). ولا نعرف متى بدأ هنرى يطارحها الغرام وأقدم رسائل الحب الباقية التى كتبها لها ترجع فيما يرجح إلى يولية عام ١٥٢٧ .

ما هى العلاقة بين هذه القصة الغرامية والتماس هنرى الحكم ببطلان

زواجه ؟ مما لا جدال فيه أنه قد فكر فى هذا الأمر فى وقت يرجع إلى عام ١٥١٤ عندما كانت آن فتاة فى السابعة من عمرها . ويبدو أنه طرح الفكرة جانبا حتى عام ١٥٢٤ ، عند ما كف عن مباشرة علاقاته الزوجية مع كاترين ، وفقا لروايته[٥٨] . وأقدم إجراءات سجلت ببطلان الزواج اتخذت فى مارس عام ١٥٢٧ ، بعد تعرف هنرى بآن بوقت طويل ، وفى الوقت الذى حلت فيه محل شقيقتها فى أحضان الملك . والظاهر أن ولزى كان لا يعلم شيئاً عن أى نية للملك فى الزواج من آن عندما ذهب فى يوليو عام ١٥٢٧ إلى فرنسا لإعداد العدة للزواج بين هنرى ورينيه ، ابنة لويس الثانى عشر التى سرعان ما أثارت حركة بروتستانتيه فى إيطاليا . وأول إشارة لمـا انتواه هنرى وردت فى خطاب أرسله يوم ١٦ أغسطس سنة ١٥٢٧ السفير الإسبانى إلى شارل الخامس يبلغه فيه أن هناك اعتقادا عاما فى لندن بأن الملك إذا حصل على « طلاق » فإنه سوف يتزوج « ابنة سير توماس بولين[٥٩] » ولم يكن هذا يعنى مارى بولين لأن هنرى وآن كانا يعيشان فى شقتين متجاورتين تحت نفس السقف فى جرينوتش[٦٠] عند حلول نهاية عام ١٥٢٧ . وقد نستنتج من هذا أن هنرى سارع بطلب بطلان الزواج على الرغم من أنه يصعب أن يقال إن السبب فى ذلك هو افتتانه بآن . وكان السبب الأساسى رغبته فى الحصول على ولد يمكن أن ينقل إليه العرش مع شىء من الثقة فى خلافة هادئة . وكانت إنجلترا بأسرها تشاطره ذلك الأمل . وتذكر الناس فى فزع السنوات العديدة (١٤٥٤ — ٨٥) التى نشبت فيها الحرب بين بيتى يورك ولانكاستر على التاج ، ولم يكن قد مضى على ظهور أسرة تيودور غير اثنين وأربعين عاما فى سنة ١٥٢٧ ، وكان حقها فى العرش مشكوكا فيه ، ولم يكن فى وسع أحد أن يصل حبل الأسرة الحاكمة دون منازع إلا ولد شرعى ينحدر مباشرة من صلب الملك ، ولو لم يلتق هنرى قط بآن بولين فإنه كان قميناً

بأن يرغب فى الحصول على طلاق وزوجة ولود بصورة مقبولة : ولا شك أنه يستحق هذا .

واتفق ولزى مع الملك فى هذا الموضوع وأكد له أنه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلان الزواج ، وكانت سلطة البابا فى منح مثل هذا الانفصال أمر مقبول بوجه عام ، كإجراء حكيم لتلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماما ، ويمكن تقديم سوابق كثيرة . بيد أن تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حسابا لتطورين بغيضين : فهنرى لم يكن يريد ريليه بل كان يريد آن ، وبطلان الزواج سوف يصدر من بابا ، كان عند ما وصلته المشكلة ، أسيراً لإمبراطور ، كان لديه أكثر من سبب لمناصبة هنرى العداء . وربما كان شارل حريا بأن يعارض بطلان هـذا الزواج ما دامت عمته تقاومه ، وكان يعارض أكثر لو عقد زواج جديد ، كما دبر ولزى ، بربط إنجلترا بحلف قوى مع فرنسا . ولم يكن السبب الأولى للإصلاح الدينى الإنجليزى هو جمال آن بولين الصاعد ، بل الرفض العنيد الذى بدا من كاترين وشارل فى إدراك عدالة رغبة هنرى فى الحصول على ولد . واشتركت الملكة الكاثوليكية مع الإمبراطور الكاثوليكى والبابا الأسير فى انفصال إنجلترا عن الكنيسة . ولكن السبب النهائى للإصلاح الدينى الإنجليزى لم يكن طلب هنرى بطلان الزواج بقدر ما كان من ارتفاع شأن الملكية الإنجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على أن ترفض التسليم بسلطة البابا فى التدخل فى شئون إنجلترا ، وتحكمه فى مواردها .

وأكد هنرى أن رغبته العارمة فى الحصول على بطلان الزواج إنما دعا إليها جبرييل دى جرامون الذى أقبل إلى إنجلترا فى فبراير عام ١٥٢٧ لمناقشة الزواج المقترح بين الأميرة مارى والأسرة الملكية الفرنسية . فقـــد أثار جرامون ، كما يروى هنرى ، سؤالاً عن شرعية بنوة مارى ،

على أساس أن زواج هنرى بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لأحد نواهى الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا أن يمحوها . وظن البعض أن هنرى لفق القصة(٦١) ، ولكن ولزى رددها وأبلغت إلى الحكومة الفرنسية (٥٢٨) ، ولم ينكرها ، بقدر ما هو معروف جرامون ، وجاهد جرامون لإقناع كليمنت بأن طلب هنرى بطلان الزواج أمر عادل ، وأبلغ شارل سفيره فى إنجلترا (٢٩ يوليو سنة ١٥٢٧) أنه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنرى .

وبينما كان ولزى فى فرنسا أبلغ على وجه التحديد بأن هنرى لا يرغب فى الزواج من رينيه بل يريد الزواج من آن . واستمر يعمل للحصول على البطلان ، ولكنه لم يخف اكتئابه بسبب اختيار هنرى : وتجاوز الملك حاجبه فى خريف عام ١٥٢٧ ، وبعث بكاتم سره وليام نايت لتقديم ملتمسين للبابا الأسير ، الأول يتضمن أن كليمنت ، إذ يعترف على صحة زواج هنرى الذى تكتنفه الشكوك وافتقاره إلى ذرية من الذكور وكراهية كاترين للطلاق ، يجب أن يسمح لهنرى بالاحتفاظ بزوجتين . وأصدر الملك أمراً فى آخر لحظة أثنى نايت عن تقديم هذا الاقتراح ، وكانت جرأة هنرى قد خمدت ولا بد أنه ذهل ، عندما تلقى ، بعد ثلاث سنوات ، خطابا من جيوفانى كاسالى أحد وكلائه فى روما ، مؤرخا فى ١٨ سبتمبر سنة ١٥٣٠ يقول فيه : « منذ بضعة أيام اقترح على البابا سراً أن يأذن لجلالتك باتخاذ زوجتين(٦٢) » . وكان ملتمس هنرى الثانى لا يقل غرابة ، على البابا أن يمنحه محللاً للزواج من امرأة كان للملك علاقات جنسية مع أختها(٦٣) . ووافق البابا على هذا بشرط أن يعلن بطلان الزواج بكاترين إلا أنه لم يكن على استعداد لإعلان بطلان هذا الزواج . وكان كليمنت لا يخشى شارل فحسب بل كان ينفر من القاعدة التى تقضى بأن أحد

للبابوات السابقين قد ارتكب خطأ جسيما بإعلان صحة الزواج . وتلقى فى نهاية عام ١٥٢٧ ملتمسا ثالثا — بأنه يجب أن يعين ولزى قاصداً رسوليا آخر لعقد محكمة فى إنجلترا تسمع الدليل وتحكم بصحة زواج هنرى بكاترين . وأذعن كليمنت (١٣ إبريل سنة ١٥٢٨) ، وعين الكاردينال كامبيجيو لعقد جلسة مع ولزى فى لندن ووعد — فى منشور بابوى لا يطلع عليه سوى ولزى وهنرى — أن يؤيد أى قرار يتخذه المندوبان البابويان(٦٤) . وربما كان لانضمام هنرى إلى فرانسيس (يناير سنة ١٥٢٨) فى إعلان الحرب على شارل وتعهدهما بتحرير البابا قد أثر فى إذعان البابا .

واحتج شارل وأرسل إلى كليمنت نسخة من وثيقة ادعى أنها وجدت فى المحفوظات الإسبانية ، وفيها أكد يوليوس الثانى صحة المحلل الذى اقترح هنرى وولزى بطلانه . وتعجل البابا ، وهو لا يدرى ما يفعل ولا يزال أسيراً لشارل ، فأرسل تعليمات إلى كامبيجو بألا ينطق بحكم قبل أن يحصل على تفويض صريح من الآن فصاعدا . . . فإذا ألحق بالإمبراطور ضرر كبير ، فإن كل أمل فى السلام العالمى يكون قد تبدد ولا تستطيع الكنيسة أن تنجو من الخراب التام لأنها تخضع خضوعا كاملا لسلطان أتباع الإمبراطور . . أجل بقدر الإمكان(٦٥)» .

وعند وصول كامبيجيو إلى إنجلترا (أكتوبر سنة ١٥٢٨) حاول أن يحصل على موافقة كاترين بالاعتزال فى دير للراهبات ، فوافقت بشرط أن يحلف هنرى أيمان الرهبان . ولكن لم تكن هناك أمور أبعد عن ذهن هنرى من الفقر والخضوع والعفة ، ومهما يكن من أمر فإنه اقترح أن يحلف هذه الأيمان إذا وعد البابا يحله منها عند الطلب ورفض كامبيجيو أن ينقل هذا الاقتراح إلى البابا وأبلغه بدلا من ذلك (فبراير سنة ١٥٢٩) بعزم الملك على الزواج من آن . وكتب يقول : « إن هذه العاطفة أمر خارق للعادة أنه لا يرى شيئاً ولا يفكر فى شىء سوى حبيبته آن ، إنه

لا يستطيع أن يستغنى عنها ساعة واحدة . وإنى لأشعر بالإشفاق عليه عندما أرى أن حياة الملك واستقرار وسقوط البلاد بأسرها تتوقف على هذه المسألة وحدها[٦٦]» .

وحدثت تغيرات فى الموقف الحربى جعلت البابا يتحول أكثر فأكثر ضد اقتراح هنرى . وفشل الجيش الفرنسى ، الذى كان هنرى قد ساعده بتمويله ، فى حملته الإيطالية ، وترك البابا فى حالة اعتماد كلى على الإمبراطور : وطردت فلورنسا حكامها من آل مديتشى — وكان كليمنت مخلصا لتلك العائلة مثله فى ذلك مثــل شارل الذى كان مخلصا لآل هابسبورج .

وانتهزت (فينيسيا) البندقية فرصة عجز البابا لكى تنتزع رافنا من الولايات البابوية ، فمن كان وقتذاك يستطيع أن ينقذ البابوية سوى آسرها ؟ وقال كليمنت لقد استقر رأيى تماما على أن أصبح من أنصار النظام الإمبراطورى ، وسوف أعيش وأموت وأنا متمسك بهذا الرأى[٦٧] » . ووقع فى التاسع والعشرين من يونيه معاهدة برشلونه ، وبمقتضاها وعد شارل بإعادة فلورنسا لآل مديتشى ورافنا للبابوية والحرية لكليمنت ، ولكن على شريطة ألا يوافق كليمنت مطلقا على بطلان زواج كاترين إلا برضا كاترين وإرادتها الحرة .

ووقع فرانسيس الأول فى الخامس من أغسطس معاهدة كامبراى التى سلمت فى الواقع إيطاليا والبابا للإمبراطور .

وفى ٣١ مايو افتتح كامبيجيو مع ولزى المحكمة المختصة بالقاصد الرسولى للنظر فى الالتماس المقدم من هنرى ، بعد أن أجل افتتاحها لأطول مدة ممكنة . واستغاثت كاترين بروما ، وأبت أن تعترف باختصاص المحكمة . ومهما يكن من أمر فإن كلا من الملك والملكة حضرا يوم ٣١ يونيه ،

وخرت كاترين على ركبتيها أمامه وتوسلت إليه بكلمات مؤثرة أن يستأنفا حياتهما الزوجية . وذكرته بأعمالها الكثيرة وإخلاصها التام ، وصبرها على لهوه خارج الأسوار ، وأقسمت أن الله يشهد على أنها كانت عذراء عندما تزوجها هنرى ، وتساءلت أى شيء صنعته أساءت به إليه[٦٨] ؟ فأنهضها هنرى وأكد لها أنه لم يكن هناك ما يتمناه بحماسة أكثر من التوفيق فى زواجهما وأوضح لها أن الأسباب التى حملته على طلب الانفصال ليست شخصية، بل أملتها عليه مصلحة الأسرة المالكة والأمة . ورفض استغاثتها بروما على أساس أن الإمبراطور يسيطر على البابا ، فانسحبت وهى تبكى ، ورفضت أن تشترك بعد ذلك فى الإجراءات القضائية . وتكلم الأسقف فيشر مدافعا عنها ومن ثم اكتسب عداوة الملك . وطالب هنرى بصدور قرار واضح من المحكمة وتحايل كامبيجيو على المماطلة فى إصدار الحكم وأخيراً (٢٣ يوليه سنة ١٥٢٩) أجل المحكمة إلى العطلة الصيفية . وألغى كليمنت القضية وحولها إلى روما لكى يجعل التردد أشد حسما .

واستشاط هنرى غضبا وشعر بأن كاترين عنيدة بصورة غير معقولة ، فرفض أن تربطه بها أية علاقة بعد ذلك ، وأخذ يقضى ساعات لهوه علنا مع آن . وربما ترجع إلى هذه الفترة معظم رسائل الحب السبع عشرة التى نقلها كامبيجيو سرا من إنجلترا[٦٩] والتى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان بين ذخائرها الأدبيـــة . ويبدو أن آن المجربة التى خبرت أساليب معاملة الرجال والملوك لم تمنحه إلا تشجيعاً ودغدغة تثير عواطفـــه ، وشكت وقتذاك من أن شبابها يضيع فى الوقت الذى يتوانى فيه الكرادلة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا رغبة عذراء فى الظفر برجل ميسور من ضرا بحق هنرى فى أن يتوج الرغبة برباط الزواج . ولامت ولزى لأنه لم يتعجل البت فى طلب هنرى بعزم أشد وبلاغ أسرع ، وشاركها الملك استياءها .

وقد بذل ولزى كل ما فى وسعه وإن كان يعارض الأمر بكل جوارحه؛ وكان قد أرسل بالمال إلى روما لرشوة الكرادلة[٧٠]ولكن شارل كان قد أرسل بدوره مالا وجيشا علاوة على هذا . بل إن الكاردينال كان قد أغضى عن فكرة التزوج من اثنتين[٧١]كما فعل لوثر بعد بضع سنوات . ومع ذلك عرف ولزى أن آن وأقرباءها من ذوى النفوذ يقومون بمناورة لإسقاطه . وحاول أن يهدئ من ثائرتها بالأطعمة اللذيذة والهدايا الثمينة ، غير أن عداءها كان يزداد كلما طال العهد على إصدار قرار ببطلان الزواج . وتحدث عنها فقال : «إنها العدو الذى لم تكتحل عيناه قط بالنوم ، ولم يكف عن الدرس والتصور معا ، فى النوم واليقظة على السواء ، للقضاء المبرم عليه[٧٢]» . وتنبأ بأن البطلان لو منح فإن آن سوف تصبح ملكة وتقضى عليه ، وأنه لو لم يمنح ذلك القرار فإن هنرى سوف يستغنى عنه باعتباره رجلا فاشلا . ويطالب محاسبته على إدارته ، حسابا ماليا دقيقا مفصلا .

وكان لدى الملك أسباب كثيرة لعدم الرضا عن حاجبه ، فقد فشلت السياسة الخارجية وأثبت أن التحول من صداقة شارل إلى الحلف مع فرنسا قد أدى إلى عواقب وخيمة :

ولم يكن فى إنجلترا وقتذاك امرؤ يقول كلمة طيبة فى صالح الكردينال الذى تمتع يوما بسلطة مطلقة ، فقد كان رجال الدين يكرهونه بسبب حكمه المطلق ، وكان الرهبان يخشون أن يشهدوا مزيدا من حل الأديار ، والعامة يبغضونه لأنه أخذ أبناءهم وأموالهم لشن حروب لا طائل من ورائها ، والتجار يمقتونه لأن الحرب مع شارل عاقت تجارتهم مع الفلاندرز ، والأشراف يكرهونه بسبب ما انتزعه منهم ظلما ، ولكبريائه

الطارئة وثروته التى تضاعفت سريعاً . وأبلغ بعض الأشراف السفير الفرنسى (١٧ أكتوبر سنة ١٥٢٥) بقولهم إنهم « ينوون » عندما يموت ولزى أو يقضى عليه أن يتخلصوا من الكنيسة ويتلقوا أموال الكنيسة وولزى معا[٧٣] » : واقترح القماشون فى كنت أن يوضع الكردينال فى قارب يتسرب منه الماء ، ويترك لتتقاذفه الأمواج فى البحر[٧٤].

وكان هنرى أشد دهاء . وفى اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٥٢٩ أصدر أحد وكلائه أمرا قضائياً باستدعاء ولزى للمثول أمام قضاة الملك ، للرد على اتهام بأن أعماله كقاصد رسولى قد خالفت قانون الخضوع لسلطة التاج (١٣٩٢) ، الذى يقضى بمصادرة أموال أى إنجليزى يأتى بالكتب البابوية إلى إنجلترا . ولم يختلف الموقف لأن ولزى كان قد كفل سلطة القاصد الرسولى بناء على طلب الملك[٧٥] ، وأنه استخدمها بخاصة لصالح الملك . وأدرك ولزى أن قضاة الملك سوف يدينونه فأرسل إلى هنرى امتثالا ذليلا ، يعترف بفشله ويلتمس أن يتذكر الملك أيضاً خدماته وآيات ولائه . ثم غادر لندن فى نقالة مائية سارت فى نهر التيمس . وتلقى فى بوتنى رسالة رقيقة من الملك . وجثا على الطين فى شكر بائس وحمد الله . واستولى هنرى على المحتويات الثمينة فى قصر الكاردينال فى هويتهول إلا أنه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس أساقفة يورك وبأموال شخصية تكفى احتياجات ١٦٠ جوادا تجر ٧٢ عربة إلى مقره الأسقفى[٧٦]. وخلف الدوق نورفولك ولزى فى رئاسة الوزارة وخلفه مور فى منصب الحاجب (نوفمبر سنة ١٥٢٩) .

وأقبل الكاردينال الذى جرد من سلطانه ، على عمله ، كبير أساقفة ، فى ورع ومثالية ، وأخذ يزور أبرشياته بانتظام ويدبر ترميم الكنائس ،

ويعمل قاضيا موثوقا به للتحكيم . وتساءل رجل من يوركشاير : « من كان أقل نصيبا من الحب فى الشمال من مولاى الكاردينال قبل أن يعيش بينهم ؟ ومن كان محبوبا أكثر بعد أن عاش هناك فترة ما[٧٧] ؟ » بيد أن الطموح استيقظ فى أعماقه مرة أخرى وسكن روحه من الموت وكتب خطابات ليوستاس شابويس سفير الإمبراطور فى إنجلترا ، وضاعت هذه الخطابات ، بيد أن هناك تقريراً من شابويس إلى شارل ورد فيه : « لدى خطاب من طبيب الكاردينال يقول إن سيده . . رأى أن على البابا أن يمضى قدما فى إجراءات لوم أشد ويستدعى الجيش العلمانى[٧٨] » . أى الحرمان من غفران الكنيسة والغزو والحرب الأهلية .

وعلم نورفولك بهذه الرسائل المتبادلة وقبض على طبيب ولزى وانتزع منه ، بوسائل لم تعرف على وجه التحقيق ، اعترافا بأن الكردينال قد أشار على البابا بحرمان الملك من غفران الكنيسة . ولا نعرف هل كان السفير أو الدوق هو الذى أبلغ صدقا عن الطبيب ، أو هل كان الطبيب هو الذى أبلغ حقا عن الكاردينال ، وعلى أية حال فإن هنرى أو الدوق أمر بالقبض على ولزى .

واستسلم فى هدوء (٤ نوفبر سنة ١٥٣٠) وودع أسرته وانطلق إلى لندن . وأصيب فى شفيلد بارك بدوسنطاريا شديدة ألزمته الفراش . وهناك أقبل جنود الملك يحملون أوامر باقتياده إلى البرج . واستأنف رحلته ، ولكن بعد مضى يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حارسه يسمح له بأن يلزم الفراش فى دير ليسيستر . وغمغم أمام ضابط الملك سير وليام كنجستون بالكلمات التى نقلها كافنديش واقتبسها شكسبير « لو أننى خدمت الله بإخلاص وجد كما خدمت الملك لما أسلمنى فى شيخوختى[٧٩] » . ومات ولزى بالغا من العمر خمسة وخمسين عاما فى دير ليسيستر يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٥٣٠ .

الفصل الرابع والعشرون

هنرى الثامن وتوماس مور

١٥٢٩ — ٣٥

١ — برلمان الإصلاح الدينى

فى المجلس النيابى الذى اجتمع فى وستمنستر يوم ٣ نوفمبر سنة ١٥٢٩ اتفقت الجماعتان الحاكمتان — النبلاء فى المجلس ، والتجار فى مجلس العموم على انتهاج ثلاثة ضروب من السياسة : تخفيض ثروة رجال الكنيسة وإضعاف سلطانهم ، والمحافظة على التجارة مع الفلاندرز وتأييد الملك فى حملته للحصول على وريث ذكر . ولم ينطو هذا الاتفاق على الرضا عن آن بولين التى كانت تواجه باستنكار عام باعتبارها مغامرة ، كما أنه لم يمنع وجود تعاطف عام مع كاترين[١] . أما الطبقات الدنيا ، وهى عاجزة من الناحية السياسية ، فكانت حتى ذلك الوقت لا توافق على الطلاق ، ووقفت المقاطعات الشمالية ، وهى كاثوليكية شديدة التحمس ، مع البابا[٢] فى إخلاص . وعمل هنرى على تهدئة هذه المعارضة مؤقتا بأن ظل محافظا فى كل شىء اللهم إلا حق البابوات فى الهيمنة على الكنيسة الإنجليزية .

وكانت الروح القومية ، وهى فى إنجلترا أقوى منها فى ألمانيا ، تقف فى تلك المسألة إلى جانب الملك ، وعلى الرغم من فزع رجال الدين من تصور أن يكون هنرى سيداً لهم فإنهم لم ينفروا من الاستقلال عن بابوية لا شبهة فى خضوعها لسلطة أجنبية ».

ونشر سيمون فش حوالى عام ١٥١٨ كتيبا من ست صفحات ، قرأه هنرى ، دون أن يبدى احتجاجا فيما نعلم ، وقرأه كثيرون بابتهاج

صادق . وأطلق عليه اسم « ابتهال الشحاذين » وطالب الملك بمصادرة ثروة الكنيسة الإنجليزية كلها أو جانب منها :

« فى العهود الخوالى لأسلافك النبلاء (هناك) تسلل فى دهاء إلى مملكتك . . شحاذون وأفاقون مقدسون ومتبطلون . . أساقفة ورؤساء أديار وشمامسة ورؤساء شمامسة ومعاونو أساقفة وقساوسة ورهبان ورجال دين وكهنة رهبان وبائعو صكوك غفران ومحضرون . ومن يستطيع أن يحصى هذا الضرب المتبطل المخرب الذى (طرح كل عمل جانبا) ألح فى السؤال إلحاحاً شديداً إلى حد أنهم حصلوا فى أيديهم على أكثر من ثلث مملكتك بأسرها ؟ إن أعظم المقاطعات وأجمل الدور والأراضى والأقاليم ملك لهم . وكان لهم إلى جانب هذا عشر محصول الغلة والمراعى والمروج والكلأ والصوف والمهور والعجول والحملان والخنازير والأوز والدجاج . . . أي نعم وإنهم ليتطلعون فى حرص شديد إلى أرباحهم إلى حد أن الزوجات المسكينات لا بد وأن يكن مطالبات بأن يحسبن عشر كل بيضة وإلا فإن الزوجة لن تحصل على حقوقها فى عيد الفصح . . . ومن التى تشرع فى العمل مقابل ثلاثة بنسات فى اليوم إذا كان فى وسعها أن تحصل على عشرين بنسا على الأقل فى اليوم لقاء نومها ساعة مع أخ أو راهب أو قس(٣) ؟

ولعل النبلاء والتجار قد رأوا أن هناك شيئاً من المبالغة فى هذا الاتهام ، بيد أنهم اعتقدوا أنه يؤدى إلى نتيجة سارة — وهى إضفاء الصبغة العلمانية على أملاك الكنيسة ، وكتب السفير الفرنسى جان دى بلاى « إن هؤلاء السادة ينتوون » ، اتهام الكنيسة والتهام كل أموالها ، ولا أكاد أجد نفسى فى حاجة إلى تسجيل هذا بالشفرة ، لأنهم يجهرون به صراحة ، وأتوقع ألا يحصل القساوسة أبدا على خاتم الدولة — أى لن يكونوا على رأس الحكومة أبدا ، مرة أخرى ، وأنهم سوف يتعرضون فى هذا المجلس

النيابي لمفازع هائلة(٤)» . وكان ولزى قد منع هذا الهجوم على أملاك الكنيسة ، بيد أن سقوطه ترك رجال الدين بلاحول لهم ولا طول ، اللهم إلا ما يتمتعون به من إيمان الناس ، وهو إيمان كان آخذاً في التقلص ، ولعل السلطة البابوية التي كانت قمينة بأن تحميهم بهيبتها أو تحريمها أو بحلفائها كانت وقتذاك الهدف الرئيسي لسخط الملك وكرة القدم التي تتقاذفها السياسة الإمبراطورية ، وكان العرف يقتضي موافقة المجمع الاكليروسي لرؤساء أساقفة كنتربرى ويورك على كل تشريع يمس الكنيسة ' إنجلترا أو تأييده . فهل كان في وسع هذا المجمع تخفيف سورة غضب الملك وكبح جماح الحركة المناهضة لرجال الدين في المجلس النيابي ؟

وافتتح المعركة مجلس العموم . إذ وجه خطابا إلى الملك يقر فيه عقيدة المحافظين ، وإن انتقد رجال الدين بشدة . وهاجم « قرار الاتهام » المشهور المجمع الاكليروسي واتهمه بأنه سن القوانين ، دون الحصول على موافقة الملك أو المجلس النيابي ، التي تحدد حرية العلمانيين تحديداً خطيراً ، وتعرضهم لتعزير شديد ، وغرامات باهظة ، واتهم رجال الاكليروس بأنهم أعطوا صدقات لـ « جموع من الأحداث ، قالوا إنهم أبناء إخوتهم » على الرغم مما يتمتع به مثل هؤلاء المستفيدين من شباب أو جهل ، واتهم المحاكم الأسقفية بأنها استغلت في جشع حقها في فرض رسوم وغرامات ، وهذه المحاكم بأنها قبضت على أشخاص وسجنتهم دون أن تبين التهم الموجهة إليهم ، وأنها اتهمت العلمانيين وعاقبتهم عقابا شديداً لشبهة هرطقة طفيفة واختتمت الوثيقة بمطالبة الملك بإصلاح هذه العلل(٥)» ولا شك في أن هنرى الذي كان على علم بأسرار تأليف هذا الخطاب قدم نقاطه الرئيسية إلى المجمع الاكليروسي وطلب منه الرد .

وأقر الأساقفة وجود بعض الظلم وعزوا هذا إلى أفراد ظهروا اتفاقاً ، وأكدوا تمسك محاكمهم بالعدالة ، وأنهم يتأسون بالملك الورع الذى زجر لوثر فى نبل عظيم ، لمساعدتهم على قمع الهرطقة ، ثم أخطأوا خطأ فظيعاً وأساءوا فهم المزاج الملكى فأضافوا كلمات كانت بمثابة إعلان للحرب .

ما دمنا نعلن ونتمسك بساطتنا فى سن القوانين التى تستند إلى ما فى كتب الله المقدسة وما قررته الكنيسة المقدسة . . . فليس لنا أن نتخلى عن أعبائنا وواجباتنا ، ، التى أمرنا بها الله على وجه التأكيد ونتركها لرضاك السامى ، ومن ثم نلتمس من مراحمكم بكل خضوع . . . أن تحافظوا على هذه القوانين والشرائع وأن تدافعوا عنها مثلنا . . . وأن يعمل بتفويض من الرب إجلالا له تعالى على دعم الفضيلة والحفاظ على عقيدة المسيح[٦] »

وعلق موضوع النزاع . ولم يواجهه هنرى فى الحال . وكان أول ما اهتم به هو الحصول على موافقة المجلس النيابى على طلب عجيب - أن يعفى من سداد القروض التى قدمها له رعاياه[*] . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم وافقوا : وقدمت ثلاثة مشروعات أخرى بقوانين تستهدف كبح جماح سلطة رجال الاكليروس على الوصايا التى تم الإشهاد عليها وتقاضيهم رسوماً على الموتى واحتفاظهم بالصدقات المتعددة ، وحظيت هذه المشروعات بقوانين بموافقة أعضاء مجلس العموم ، وعارضها بشدة الأساقفة ورؤساء الأديار وأصحاب المقاعد فى مجلس اللوردات ، وقد عدلت ، ولكنها أصبحت فى جوهرها قوانين نافذة ، وتأجل انعقاد المجلس النيابى إلى يوم ١٧ ديسمبر .

وتلقى الملك إبان صيف عام ١٥٣٠ شيئا من التشجيع الغالى ، إذ اقترح توماس كرانمر ، أستاذ اللاهوت فى جامعة كمبردج ، على هنرى ، أن تبدى

(*) ن' نخفاض قيمة العملة الآن يغرى الحكومات من الاتجاه إلى مثل هذه اللصوصية الشريفة .

الجامعات الكبرى فى أوربا رأيها فى موضوع هو هل كان فى وسع البابا أن يسمح لرجل بالزواج من أرملة شقيقه . وأعقب هذا الاقتراح مباراة مرحة فى التنافس على الرشوة : ونثر وكلاء هنرى المال للتحريض على إصدار أحكام سلبية ، ولجأ وكلاء شارل إلى المال أو التهديد للحصول على ردود إيجابية[٧] ، وانقسمت ردود الجامعات الإيطالية ، ورفضت الجامعات اللوثرية تقديم أى رد مريح للمدافع عن العقيدة ، بيد أن جامعة باريس ، تعرضت لضغط من فرانسيس[٨] فقدمت الرد العزيز المنشود الذى كان يتلهف عليه . ووافقت جامعتا أكسفورد وكامبردج ، بعد أن تسلمتا رسائل صارمة من الحكومة ، على حق الملك فى الحصول على قرار ببطلان زواجه .

وعندما شعر بدعم مركزه إلى هذا الحد ، أصدر عن طريق وكيله العام (ديسمبر سنة ١٥٣٠) إعلانا بأن الحكومة تعتزم رفع دعاوى ضد كل رجال الاكليروس الذين اعترفوا بسلطة ولزى قاصدا رسوليا ، وعلى أساس أنهم خالفوا قانون الولاء للتاج . وعندما عاد المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى للانعقاد (١٦ يناير سنة ١٥٣١) أعلن وكلاء الملك وهم سعداء أن الدعاوى سوف تسحب إذا اعترفوا بأنهم مذنبون ودفعوا غرامة قدرها ١١٨,٠٠٠ جنيه (١١,٨٠٠,٠٠٠ دولار ؟)[٩] . فاحتجوا بأنهم لم يرغبوا قط فى أن يكون لولزى مثل هذا السلطان وأنهم لم يعترفوا به قاصدا رسوليا إلا لأن الملك قد فعل هذا بتقديم التماسه للنظر أمام محكمة ولزى وكامبيجيو . وكانوا على حق كامل بالطبع ، بيد أن هنرى كان فى حاجة ماسة إلى المال . ووافقوا ، وهم يولولون ، على سداد المبلغ من موارد أبرشياتهم . واستخف الطرب الملك فطالب وقتذاك بأن يعترف به رجال الاكليروس « حاميا للكنيسة ورجال الدين فى انجلترا والرئيس الأعلى الوحيد لهم » أى أن ولاءهم للبابا لا بد أن ينتهى وعرضوا اثنتى عشرة مصالحة وجربوا اثنتى عشرة عبارة مبهمة ، وكان هنرى قاسيا لا يرحم ، وأصر على أن يردوا بكلمة « نعم »

أو « لا » . وأخيراً (١٠ فبراير سنة ١٥٣١) عرض رئيس الأساقفة واهرام ، وكان وقتذاك فى الحادية والثمانين ، فى تبرم ، إقرار صيغة الملك وأضاف إليها عبارة فيها تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وسكت المجلس الاكليروسى ، واعتبر السكوت رضا ، وأصبحت الصيغة قانونا . وهدأت ثائرة الملك ، فسمح عندئذ للأساقفة بمطاردة المراطقة .

وتأجل اجتماع المجلس النيــابى والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (٣٠ مارس سنة ١٥٣١) : وفى يوليو ترك هنرى كاترين فى وندسور على ألا يراها أبدا مرة أخرى : وسرعان ما نقلت بعد ذلك إلى امبتهل بينما أقامت الأميرة مارى فى رتشموند وطالب هنرى بالجواهر التى كانت قد ارتدتها كاترين بصفتها ملكة وأعطاها لآن بولين[١٠] واحتج شارل الخامس لدى كليمنت الذى وجه خطابا قصيرا للملك (٢٥ يناير سنة ١٥٣٢) يؤنبه فيه لاقترافه الزنا ، ويحضه على طرد آن والاحتفاظ بكاترين ملكة شرعية إلى أن يصدر قراراً فى الالتماس المقدم منه لإعلان بطلان الزواج . وتجاهل هنرى التأنيب واستمر فى غرامه . وكتب حوالى هذا الوقت إحدى رسائله الرقيقة لآن :

حبيبة قلبى ، أكتب لك هذا لأعرب عن الوحدة التى أعيش فيها هنا منذ فراقك ، لأنى أؤكد لك أنى أرى الوقت قد أصبح منذ رحيلك أطول مما تعودت أن أراه مدى أسبوعين كاملين ، وأعتقد أن رقتك وحرارة حبى هما السبب . . ولكنى أفكر الآن وأنا قادم إليك ، وآلامى قد خف نصفها ، فى أن يتحقق أملى فى أمسية خاصة بين أحضان حبيبتى التى سوف أركن قريبا إلى نهديها الجميلين وأقبلهما . كتبته يد من كان ولا يزال لك وسوف تظل معك على الدوام بإرادته .

وعندما انعقد المجلس النيابي والمجلس الاكليروسي مرة أخرى (١٥ يناير سنة ١٥٣٢) حصل هنرى من المجالس الأربعة جميعاً على تشريع آخر مناهض لرجال الاكليروس ينص على : أن رجال الدين دون درجة مساعد شماس ، يجب أن يحاكموا أمام المحاكم الدينية عند اتهامهم بالخيانة العظمى ، وأن الرسوم والغرامات التي تتقاضاها المحاكم الكنسية يجب أن تخفض ، وأن الرسوم الكنسية على الموتى ورسوم التثبت من صحة الوصايا يجب أن تخفض أو تلغى ، وأن موارد السنة الأولى لأسقف حديث التعيين يجب ألا تدفع بعد ذلك للبابا وأن تحويل الأموال الإنجليزية إلى روما من أجل محللات وصكوك غفران وخدمات بابوية أخرى يجب أن يتوقف ، وأرسلت إشارة ماكرة إلى المجلس البابوى بأن موارد السنة الأولى للأسقف حديث التعيين سوف ترد إلى البابا إذا أعلن بطلان الزواج بكاترين .

وفى هذا الوقت انحازت غالبية من الأساقفة إلى الرأى القائل بأنهم لن يفقدوا شيئا من السلطة أو الدخل إذا استقلت الكنيسة الإنجليزية عن روما . وفى مارس سنة ١٥٣٢ أعلن المجلس الاكليروسى استعداده للانفصال عن البابوية : « هلا تفضلتم يا صاحب السمو بوقف أعمال الاغتصاب الظالمة المذكورة . . . وإذا اتخذ البابا إجراء ضد هذه المملكة للحصول على موارد السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين . . . فلتتفضلوا سموكم بسن قانون من المجلس النيابى الحالى بسحب طاعة سموكم والشعب للكرسى البابوى فى روما[١٢] » . وفى ١٥ مايو قدم المجلس الاكليروسى تعهداً للملك بتقديم كل تشريع تال له إلى لجنة ـ نصفها من العلمانيين والنصف الثانى من رجال الإكليروس ـ لها الحق فى الاعتراض على أى قوانين ترى أنها ضارة بالمملكة . وهكذا ولدت كنيسة إنجلترا فى هذا « الإصلاح النيابى » الأسقفى وهذا المجلس الإكليروسى وأصبحت عضوا للدولة وتابعة لها .

وفى ١٦ مايو استقال توماس مور من منصب الحجابة بعد أن فشل فى الوقوف أمام التيار المناهض لرجال الإكليروس وانسحب إلى بيته . ومات رئيس الأساقفة واهرام فى أغسطس بعد أن أملى وهو على فراش الموت رسالة أبدى فيها رفضه لخضوع المجلس الإكليروسى للملك . واستبدل هنرى بتوماس مور توماس أودلى ، وبواهرام ، توماس كرانمر . ومضت الثورة قدماً . وأجاز المجلس النيابى « قانون الاستئناف »، وبمقتضاه كان كل نزاع أرسل سابقاً إلى روما للفصل فيه يحسم « فى المحاكم الروحية والزمنية داخل المملكة دون اعتبار ،لأى منع أو حرمان من غفران الكنيسة أو تحريم يصدر من جهة أجنبية[١٣] » .

وفى ١٥ يناير سنة ١٥٣٣ تزوج هنرى من آن التى كانت حاملا منــذ أربعة شهور[١٤]. وكان لدى الملك وقتذاك أسباب ملحة لإعلان بطلان زواجه من كاترين ، ولما كان قد بعث بطلب آخر للبابا دون أن يؤدى إلى نتيجة ، فقد حصل من المجلس الإكليروسى على موافقة على « طلاقه » (إبريل سنة ١٥٣٣) وفى ٢٣ مايو أعلن كرانمر بصفته رئيس أساقفة كنتربرى أن الزواج بكاترين مخالف للشريعة وباطل ، وفى يوم ٢٨ مايو أعلن أن آن زوجــة شرعية لهنرى . وركبت آن بعــد ثلاثة أيام وهى ترتدى الديباج وتتزين بالجواهر لكى تتوج ملكة لإنجلترا فى احتفال ملكى مهيب ، وضعت تصميمه التقاليد وهانز هولبين الصغير . ولاحظت وســط مظاهر الابتهاج صمت الجماهير الدال على الاستنكار ، ولعلها تساءلت إلى متى يحمــل رأسها القلق التاج ؟

وأعلن البابا كليمنت بطلان الزواج الجــديد ، وأن الأولاد الذين سيكونون ثمرة له غير شرعيين ، وحرم الملك من غفران الكنيسة (٢٢ يوليو سنة ١٥٣٣)

وولدت اليزابث يوم ٧ سبتمبر وأبلغ سفير شارل مولاه أن حظية الملك أنجبت ابنة سفاح(١٥) ،

واستأنف المجلس النيابى ، الذى كان قد أجل يوم ٤ مايو جلساته فى ١٥ يناير سنة ١٥٣٤ . وكانت موارد الأساقفة الجدد فى السنة الأولى والموارد البابوية الأخرى قد خصصت نهائياً وقتذاك للتاج ، وأصبح تعيين الأساقفة امتيازاً للملك من الناحية القانونية ، كما جرى العمل به فعلا . ونقلت دعاوى الاتهام بالهرطقة من القضاء الكنسى إلى القضاء المدنى ،

وفى عام ١٥٣٣ أذاعت اليزابث بارتون وهى راهبة من كنت أنها تلقت أوامر من الرب بإدانة الزواج الثانى للملك ، وأنها قد سمح لها برؤية المكان الذى يعد لاستقبال هنرى فى الجحيم . وعرضتها المحكمة الملكية لاختبار قاس ، وانتزعت منها اعترافاً بأن رؤاها الإلهية كانت إفكاً وخداعاً ، وأنها سمحت لآخرين باستخدامها فى مؤامرة للإطاحة بالملك(١٦) . وحوكمت هى وستة « شركاء فى الجريمة » أمام مجلس اللوردات وقضى عليهم بالإدانة ، ونفذ فيهم حكم الإعدام (٥ مايو سنة ١٥٣٤) ، واتهم الأسقف فيشر بأنه علم بالمؤامرة وتقاعس عن تحذير الحكومة ، واتهم أيضاً بأنه كان هو وكاترين مطلعين على أسرار خطة وضعها شابويس ولم يشجعها شارل ، لغزو إنجلترا فى الوقت الذى يقوم فيه أنصار كاترين بالتمرد(١٧) . وأنكر فيشر التهم الموجهة إليه ، ولكنه ظل موضع الاشتباه بالخيانة ،

وكان توماس كرومويل أشد وكلاء هنرى العدوانيين فى هذه الأمور . وقد ولد عام ١٤٨٥ ، وهو ابن حداد من بوتنى ، ونشأ فى فقر ومسغبة ، ومضى يضرب سنوات فى أرض فرنسا وإيطاليا أفاقاً بالفعل ، وعاد إلى انجلترا واشتغل بصناعة النسيج وأصبح مرابياً وكون ثروة ، وخدم ولزى بإخلاص خمس سنوات ، ودافع عنه فى أيام البؤس ، واكتسب احترام

هنرى بسهب صناعته وولائه . وعين على التوالى حاجباً لخزانة الدولة وأميناً للسجلات وكاتم سر للملك (مايو سنة ١٥٣٤) ، وكان فى الفترة من عامى ١٥٣١ و ١٥٤٠ المدبر الأكبر لشئون الحكومة باعتباره منفذاً مطيعاً للإرادة الملكية . واتهمه أعداؤه الأرستقراطيون ، الذين احتقروه بوصفه حديث نعمة يرمز لخصومهم الصاعدين ، رجال الأعمال ، بأنه يطبق مبادئ « أمير » مكيافلى ، بقبول الرشـــا وبيع المناصب وحب الثروة والسلطان حباً يجاوز الحدود . وكان هدفه ، الذى سعى جاهداً لإخفائه ، هو أن يجعل الملك صاحب الكلمة العليا فى كل مجال من مجالات الحياة الإنجليزية ، وأن يمول ملكية مطلقة بثروة الكنيسة المصادرة ، وأظهر فى سعيه لتحقيق أغراضه مقدرة تامة لا تعرف تأنيب الضمير ، وضاعف ثروته ، وكسب كل معركة خاضها ما عدا الأخيرة ، والراجح أن هنرى ، وقد أزعجه تزايد عداء الشعب له ، استدرج المجلس النيابى ، بناء على اقتراحه وعن طريق احتياله ، إلى الموافقة على قانون وراثة العرش (٣٠ مارس سنة ١٥٣٤) الذى أعلن أن الزواج بكاترين غير صحيح ،وحول مارى إلى ابنة سفاح ، وعين اليزابث وريثة للعرش إلا إذا أنجبت آن ولداً ، ونص على أن أى شخص يجادل فى صحة زواج آن بهنرى يستحق أقصى عقاب . وقضى القانون بأن يحلف جميع الإنجليز رجالا ونساء يميناً بالولاء للملك . وأخـــذ مندوبون للملك يؤازرهم جنود ، يخترقون البلاد راكبين ، ودخلوا البيوت والقصور وأديار الرهبان وأديار الراهبات ، وانتزعوا اليمين كرها . ولم يرفض حلف اليمين إلا قلة ضئيلة من بينهم الأسقف فيشر وتوماس مور : وعرضوا أن يحلفوا على ما جاء بشأن وراثة العرش على ألا يقسموا على باقى ما تضمنه القانون . وحكم عليهم بالسجن فى البرج . وصوت المجلس النيابى آخر الأمر على قانون السيادة الحاسم (١٢ نوفمبر سنة ١٥٣٤) ، وأكد هذا القانون سيادة الملك على الكنيسة والدولة فى انجلترا ، وعمد الكنيسة الوطنية الجديدة باسم الكنيسة

الانجليكانية ، وخول الملك كل هذه السلطات على الأخلاق والتنظيم والهرطقة والعقيدة والإصلاح الكنسي ،وكانت حتى وقتذاك من اختصاص الكنيسة . ونص القانون على أن المرء يرتكب جريمة الخيانة إذا تحدث عن الملك أو كتب عنه أنه مغتصب أو طاغية أو انقسامى أو هرطيق أو كافر . وطلب من جميع الأساقفة أن يحلفوا يمينا جديدة بأنهم يقبلون سيادة الملك المدنية والكنسية دون تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وأنهم لن يرضوا أبداً فى المستقبل باستئناف السلطة البابوية فى إنجلترا . وانتشرت كل قوات الحكومة لشل حركة المعارضة لهذه المراسيم ، التى لم يسبق لها مثيل . وتظاهر رجال الإكليروس العلمانيون بالخنوع شيئاً فشيئاً ، وأحجم كثير من الرهبان والإخوان الرهبان عن حلف الأيمان ، نظراً لولائهم للبابا ، وأسهمت مقاومتهم فى اتخاذ الملك قراره الأخير بإغلاق الأديار .

وأحنق عناد الإخوة الرهبان فى تشارترز هاوس ، وهو دير كارتوزى لندن ، هنرى وكرومويل بخاصة . وجاء ثلاثة من رؤساء الأديار الكارتوزيين إلى كرومويل ليقدموا له إيضاحاً عن إحجامهم عن الاعتراف بأى علمانى رئيساً للكنيسة فى إنجلترا ، فبعث بهم كرومويل إلى سجن البرج . وفى يوم ٢٦ ابريل سنة ١٥٣٥ حوكموا هم وراهب آخر وقسيس علمانى أمام قضاة الملك الذين كانوا يميلون إلى الصفح عنهم ، غير أن كرومويل خشى أن يشجع الرفق على المزيد من المقاومة ، فطالب بقرار بالإدانة وأذعن القضاة .

وفى يوم ٣ مايو جر الرجال الخمسة وكانوا لا يزالون يرفضون قبول قانون السيادة على زحافات إلى تيبرن وعلقوا واحداً وراء الآخر وأسقطوا بقطع الحبال وهم أحياء وقطعوا إرباً(١٨) وعلقت ذراع مبتورة على مدخل عقد تشارترز هاوس لتلقين الرهبان الباقين درساً ، ولكن أحداً منهم لم

يتراجع عن رفضه . وسجن ثلاثة في البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول أعناقهم وأقدامهم ، وأكرهوا على الوقوف في هذا الوضع سبعة عشر يوماً ، وقدم إليهم الطعام ، ولكن لم يفك وثاقهم لقضاء أي حاجة طبيعية . أما باقي الرهبان الكارتوزيين ، وكانوا لا يزالون يبدون عناداً ومشاكسة فقد تشتتوا في أديار أخرى ما عدا عشرة منهم ، سجنوا في نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء من «حمى السجن وقذره[١٩]» .

وكان هنري وقتذاك هو الحكم الوحيد فيما يتعين على الشعب الإنجليزي أن يؤمن به في مجالي الدين والسياسة . ولما كان لاهوته لا يزال كاثوليكياً من كل وجه فيما عدا السلطة البابوية فقد اتخذ مبدأ مطاردة النقاد البروتستانت للمذهب الكاثوليكي بغير تحيز ، والنقاد الكثالكة لسيادته الكنسية ، والحق أن مطاردة الهراطقة قد استمرت وظلت طوال مدة حكمه . وفي عام ١٥٣١ أحرق توماس بلني بأمر أصدره الحاجب توماس مور ، لأنه انتقد الصور الدينية ، ورحلات الحج والصلوات من أجل الميت . وقبض على جيمس بينهام لأنه اعتبر أن المسيح لا يكون حاضراً في القربان المقدس إلا بروحه فعذبه لكي ينتزع منه أسماء هراطقة آخرين ، وتشهد بما قال وأحرق في سمثفيلد في ابريل عام ١٥٣٢ . وأحرق آخران في ذلك العام وعرض أسقف لندن أن يمنح في خلال أربعين يوماً صك غفران للمسيحيين الصالحين الذين يحملون حزمة من الحطب لتغذية النار[٢٠] .

ووصل عهد الإرهاب إلى ذروته في اضطهاد فيشر ومور ، وقد وصف إرازاموس أسقف روشيستر بأنه « شخص مثقل بكل فضيلة[٢١] » بيد أن فيشر نفسه كان قد اقترف ذنب الاضطهاد ، وقد انضم إلى السفير الأسباني في حث شارل على غزو إنجلترا وخلع هنري[٢٢] . وقد اقترف في نظر القانون جريمة خيانة الدولة ، وهو أمر لم يشفع له عندما احتج بأنه كان مخلصاً للكنيسة . وارتكب الحبر الأعظم الجديد ، بولس الثالث خطأ بتعيين

الأسقف المسجون كاردينالا ، وعلى الرغم من أن فيشر أعلن إنه لم يسع إلى هذا الشرف ، فإن هنرى رأى وقتذاك فى هذا التعيين تحدياً له . وفى ١٧ يونيه سنة ١٥٣٥ قدم الأسقف ، وكان وقتذاك فى عامه الثمانين ، إلى محاكمة أخيرة ورفض مرة أخرى أن يوقع على قسم يعترف فيه بهنرى رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، واقتيد فى ٢٢ يونية إلى كتلة على تل تاور . ووصفه شاهد عيان بأنه « جسد طويل أعجف ، لا شىء فيه سوى الجلد والعظام ، إلى حـــد أن معظم من شاهدوه دهشوا من رؤية رجل لايزال فيه رمق من حياة ، على الرغم من بلوغه هذا الحد من الوهن[٢٣] » .

وتلقى وهو على منصة المقصلة عرضا بالعفو عنه إذا حلف اليمين فرفض وعلق رأسه المقطوع فوق جسر لندن . وقال هنرى : فى وسعه أن يذهب الآن ، إذا استطاع ، إلى روما ويحصل على قلنسوة الكاردينال[٢٤] » .

ومع ذلك فقد بقى هناك مكابر عنيد أشد مراساً .

٢ — مؤلف المدينة الفاضلة

كان والد توماس مور محامياً ناجحاً وقاضياً بارزاً . وتلقى توماس تعليمه فى مدرسة سانت أنطونى بلندن ، وعمل وصيفاً لرئيس الأساقفة مورتون ، وكان لهذا الفضل فى تثبيت عقيدته المحافظة وتكامله وتقواة المرحة . وتنبأ مورتون ، كما يقال لنا ، بأن « هذا الطفل الذى يخدم هنا على المائدة ... سوف يثبت أنه رجل عجيب[٢٥] » . وذهب الشاب إلى أكسفوردوهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وسرعان ما فتن بالأدب الكلاسى إلى درجة حملت والد الشاب على انتزاعه من الجامعة ، لإنقاذه من أن يصبح أديبا خاوى الوفاض وبعث به لدراسة القانون فى لندن ، وكانت أكسفورد وكامبردج لا تزالان تستهدفان إعداد الطلاب للعمل فى سلك الكهنوت . وكانت كلية

نيو إن وكلية لنكولن إن(*) تدريبان الرجال الذين كانوا وقتذاك يشرفون من بين رجال الاكليروس على الحكومة فى انجلترا، ولم يتلق من أعضاء مجلس العموم تعليما جامعيا سوى ثمانية أعضاء بينما كانت هناك نسبة مرتفعة من المحامين ورجال الأعمال .

وفى عام ١٤٩٩ التقى مور ، وكان فى الحادية والعشرين من عمره ، بإرازموس وافتتن بالمذهب الإنسانى . وتعد صداقتهما من أطيب العطور شذى فى ذلك العصر . فقد وهب كلاهما مرحاً بقدرما ، وجعلا لدراستهما طعماً مستساغاً بالهجو الضاحك . وكانا يشتركان فى كراهية الفلسفة الكلامية التى قال مور إن ما تنطوى عليه من خبث فى التفريق بين الأشياء يعود على المرء بفائدة توازى ما يكسبه من حلب تيس فى غربال(٣٦). وكانا يأملان فى إصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك أواصر الوحدة الدينية والتواصل التاريخى . ولم يكن مور نداً لإرازموس فى العلم أو التسامح ، والحق أن رقته المألوفة وكرمه كان يشوبهما فى بعض الأوقات تطرف فى الدين ، وكان فى الجدل ينحنى بين آن وآخر مثل كل معاصريه، ليوجه لخصومه طعنا شديداً مريراً(٣٧) . ولكنه كان يفوق إرازموس فى الشجاعة والإحساس بالكرامة والإخلاص لقضية . ولا شك أن الرسائل التى تبادلاها تعد شاهداً ثمينا على أفضال عصر فظ . فهناك رسالة لمور يقول فى ختامها « وداعا يا إرازموس الحبيب يا من هو أعز على من عينى(٣٨) » .

وكان من أعظم رجال الدين فى القرن الذى عاش فيه ، أخزى بتقواه — العلمانية تهافت رجال الكهنوت من أمثال ولزى على الدنيا . وفى الثالثة والعشرين عندما تبحر فى دراسة القانون فكر فى أن يصبح قسا . وألقى

(*) كليتان لدراسة الحقوق على النظام الداخلى أشبه بنظام « الرواق » فى الأزهر الشريف — المترجم.

محاضرات عامة (١٥٠١) عن مدينة الرب التى بشر بها أوغسطين ، وجلس بين مستمعيه علماء نحارير أكبر منه سنا مثل جروسين .

وعلى الرغم من انتقاده الرهبان لتقاعسهم عن الامتثال لما يفرضه عليهم نظامهم فإنه أعجب إعجاباً شديداً بنظام الدير المخلص ، وأسف أحياناً لأنه لم يختر هذا النظام ، وظل وقتا طويلا يرتدى قميصا من شعر الخيل لا يلبس تحته شيئا ، وكان بين آن وآخر يسحب منه دما يكفى لتلطيخ ثيابه ببقع من الدماء ترى بوضوح . وكان يؤمن بالمعجزات ويصدق قصص القديسين والمخلفات التى تستخدم للعلاج والصور الدينية ورحلات الحج(٢٩) وكتب مصنفات ولائية لها نغمة القرون الوسطى أن الحياة سجن وأن الهدف من الدين والفلسفة تهيئة نفوسنا للموت ، وتزوج مرتين وأنجب عدة أطفال أنشأهم على حب نظام مسيحى يتسم بالوقار والانشراح فى آن واحد ، وتصحبه صلاة متكررة وحب متبادل وإتكال كامل على العناية الإلهية . وكانت « دار مانور » فى تشلسى التى انتقل إليها فى عام ١٥٢٣ مشهورة بمكتبتها وصالة العرض فيها وحدائقها الممتدة إلى مائة ياردة إلى نهر التامز .

واختير وهو فى السادسة والعشرين من عمره (١٥٠٤) نائباً بوصفه مواطناً حراً فى المجلس النيابى . وهناك ناقش بنجاح ضد إجراء اقترحه هنرى السابع مما دفع الملك إلى أن يسجن مور الكبير فترة قصيرة . ويفرض غرامة باهظة كوسيلة منحرفة لتلقين الخطيب الشاب درساً فى مواساة المواءمة .

وعند إغلاق ذلك المجلس النيابى عاد مور إلى الحياة الخاصة ونجح فى مزاولة القانون . وأقنع عام ١٥٠٩ بتولى منصب مساعد المشرف فى المدينة ، أى فى لندن القديمة شمالى نهر التيمس . وكان مكلفا بتبعات تتفق ومزاجه ، وهى وظائف لها صيغة قانونية أكثر مما تتسم بالمخاطرة . وأكسبته أحكامه

شهرة واسعة، لما اتسمت به من حكمة وعدم تحيز ،وخالف برفضه المهذب للهدايا من المتخاصمين ، سوابق العهد الشائنة التي كانت لا تزال في عنفوانها أيام فرانسيس بيكون . وسرعان ما عاد إلى المجلس النيابي وما إن حل عام ١٥١٥ حتى كان خطيب مجلس العموم .

ووصف إرازموس في خطاب بعث به إلى هوتن مور(٢٣ يولية ١٥١٧)، بأنه متوسط القامة له بشرة شاحبة وشعر أصحم لايهتم بالملبس أو المظهر زاهد في الطعام والشراب ، منشرح سريع النكتة حاضر الابتسامة، يميل إلى الدعابات والخدع ويحتفظ في بيته بمهرج وقرد وكثير من الحيوانات المدللة الصغيرة، « وكانت كل الطيور في تشلزيا تأتى إليه ليطعمها » . وكان زوجا مخلصا وأبا محبا يعبد أولاده وخطيبا مقنعا ومستشارا أصيل الرأى ورجلا شديد الحرص على البر وخدمات الأصدقاء — واختتم هذا الرسم التمهيدى الذى يدل على الوله به بأنه « باختصار ماذا خلقت الطبيعة ألطف وأحلى وأسعد من عبقرية توماس مور[٣٠] ؟ » .

ووجد أمامه متسعا من الوقت لتأليف كتب وبدأ بكتاب « تاريخ رتشارد الثالث »، ولكن نزعته كانت حادة ضد الحكم المطلق، وكان يجلس على العرش حاكم مطلق ، ورأى أن من الفطنة أن يتجنب قضاء الكلمة المطبوعة ؛ ونشر بعد وفاته وكتب شكسبير مسرحية تقوم عليه ، ولعل السيرة الذاتية التي أذاعتها الدراما تحمل بعض المسئولية عن الخلق الذى يحمله رتشارد ، وفى عام ١٥١٦ طرح مور باللاتينية، كما لو كان يقوم بدعاية، كتابا من أشهر الكتب بأسرها ، مبدعاً كلمة ، وواضعا سابقة مقدما على خطوة للمدن الفاضلة الحديثة ومتوقعا نصف الاشتراكية ، ومعبرا عن نقد للاقتصاد والمجتمع والحكومة في إنجلترا إلى حد أنه تسلح من جديد بالإقدام بعد التروى ونشر المجلد في الخارج ست طبعات لاتينية قبل أن يسمح بطبعه

باللاتينية كذلك فى إنجلترا ؛ واعترف بأنه كتبه للتسلية دون أن يقصد نشره على الجمهور بيد أنه شكر إرازموس لاطلاعه عليه فى المطبعة بلوفان[٣١] وترجم إلى الألمانية والإيطالية والفرنسية قبل أن تظهر النسخة الإنجليزية (١٥٥١) بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً . وما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان حديث القارة .

وأطلق عليه مور اسم « ليس فى موضع » ولا نعرف من خطر له ذلك الخاطر السعيد بتغيير هذا العنوان وسط الطباعة إلى المرادف اليونانى يوتوبيا أو المدينة الفاضلة[٣٢] وثم إخراج الحكاية بصورة بارعة جداً دفعت كثيراً من القراء إلى الاعتقاد بأنها قصة حقيقية ويقال إن مبشراً دينياً قد فكر فى السفر وتحويل سكان المدينة الفاضلة إلى المسيحية[٣٣]. وكان هنرى الثامن قد أرسل مور سفيراً إلى بروجس (١٥١٥) ومن هناك انتقل إلى أنتورب برسالة قدمه فيها إرازموس إلى بيتر جيلس كاتب المدينة . وادعت المقدمة أن جيلس قد قدم مور إلى ملاح برتغالى له لحية ، لوحت بشرته تقلبات الطقس ، يدعى رافاييل هيثلوداى ، وترادف باليونانية « ماهر فى الهذر » كان قد سافر بحراً مع أمريجو فسبوتشى عام ١٥٠٤ ، ودار حول الكرة الأرضية (ست سنوات قبل رحلة ماجلان) ، وزار فى العالم الجديد ، جزيرة سعيدة حل سكانها معظم المشكلات التى كانت تعانى منها أوروبا فى ذلك العهد . وجعلت طبعة لوفان للسخرية أكثر تقبلا بأن بدأت بحفر الخشب للجزيرة وعينة من لغة المدينة الفاضلة ؛ ولم يكشف المؤامرة إلا هفوة واحـــدة : فهيثلد واى يميل إلى الثناء على رئيس الأساقفة مورتون بكلمات[٣٤] أقرب إلى فطرة مور التى تعترف بالجميل من تجربة الملاح .

ويصف ماجلان الوهمى شيوعية سكان الجزيرة بقوله : « لما كان كل شىء على المشاع ، بين سكان المدينة الفاضلة فإن كل شىء متوفر لدى كل

إنسان . وأنا أقارن بينهم وبين كثير من الأمم . . . حيث يقول كل إنسان إن كل ما قد حصل عليه ملك خاص له وإنه أموال خاصة . وأنا أستمسك جيدا بما قاله أفلاطون . . . إن كل الناس يجب أن يحصلوا ويتمتعوا بحصص متساوية من الثروة والأمتعة . . . لأنه حيث ينتزع كل إنسان ، يتخذ ألقابا معينة ويتمسك بادعاءات ما ، ويختطف أكبر قدر يستطيع الحصول عليه بحيث نجد أن قلة هى التى تتقاسم فيما بينها كل الثروات فلن يترك للباقين سوى العوز والفاقة(٣٥) .

وكل إنسان فى المدينة الفاضلة يأخذ إنتاجه إلى المخزن العام ويتسلم منه حسب ما تتطلبه احتياجاته . ولا أحد يطلب أكثر مما يكفيه لأن الأمان من الحاجة يصده عن الجشع . ويتناول الناس الوجبات على مائدة مشتركة ولكن للمرء أن يأكل فى بيته إذا شاء . وليس فى المدينة الفاضلة عملة ولا شراء بثمن رخيص ولا بيع بثمن غال ، وآفات الغش والسرقة والنزاع على الملكية غير معروفة . ولا يستخدم الذهب بوصفه عملة ، ولكن لصناعة أشياء نافعة مثل الأوانى التى نقضى فيها الحاجة . وهى لا تعرف المجاعات أو السنوات العجاف ،لأن المخازن العامة تحتفظ باحتياطى للطوارئ . وكل أسرة تشتغل بالزراعة والصناعة معاً ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء . ولكى يتحقق إنتاج مناسب لا بد أن يعمل كل بالغ ست ساعات يوميا ، ويتحدد اختيار المهنة باحتياجات الجماعة . وسكان المدينة الفاضلة أحرار بمعنى الحرية من الجوع والخوف ، ولكنهم ليسوا أحرارا فى أن يعيشوا على حساب الآخرين . وفى المدينة الفاضلة قوانين بيد أنها بسيطة وقليلة ، ومن ثم ينتظر من كل إنسان أن يدافع عن قضيته ولا حاجة لوجود محامين . ويحكم على الذين يخالفون القانون بالعمل عبيدا للجماعة ، ويقومون بأداء المهام الكريهة ، ولكنهم يستعيدون المساواة الكاملة بأقرانهم بعد انتهاء دورهم . أما الذين يكدرون صفو الأمن تكديرا خطيرا فيحكم عليهم بالإعدام فى بلاد أخرى .

ووحدة المجتمع فى المدينة الفاضلة هى الأسرة الأبوية « والزوجات يهيمن على أزواجهن، والأولاد ينسبون لآبائهم(٣٦) » . والزواج من واحدة هو الشكل الوحيد الذى يسمح به فى مجال الارتباط الجنسى .

وقبل الزواج ينصح الخطيبان بأن يرى أحدهما الآخر وهو مجرد من الملابس،حتى يكتشف العيوب الجسمانية فى حينه، وإذا بلغت درجة كبيرة من الجسامة فإن العقد قد يلغى . وتذهب الزوجة لتعيش مع زوجها فى دار والده بعد الزواج ويسمح بالطلاق بسبب الزنا أو برضى الطرفين بشرط موافقة مجلس الجماعة . وتختار كل ثلاثين أسرة زعيم قبيلة كل عام ليحكمها ويختار كل عشرة من زعماء القبائل رئيساً لإدارة مقاطعة بها ٣٠٠ أسرة . ويكون المائتا زعيم للقبائل مجلساً قومياً ينتخب أميرا أو ملكا مدى الحياة .

ومن التبعات الأساسية الملقاة على عاتق زعماء القبائل المحافظة على صحة الجماعة بتزويدها بالمـــاء النظيف واتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الصحة العامة وتوفير العناية الطبية والعلاج بالمستشفيات لأن الصحة أهم النعم على الأرض . وينظم الحكام التعليم للأطفال والكبار ويهتمون اهتماماً شديدا بالتدريب المهنى ويؤيدون العلم ولا يشجعون التنجيم وقراءة الطالع والخرافة . ولهم أن يشنوا الحرب على الشعوب الأخرى إذا رأوا أن هذا يقتضيه صالح الجماعة . « إنهم يعتبرون أن أعدل سبب للحرب يتوفر عندما يحتفظ أى شعب بقطعة من الأرض فضاء ولا تستغل بأى صورة نافعة أو مربحة، ويمنع الآخرين من الاستفادة منها أو حيازتها ، وهم بحكم قانون الطبيعة يجب أن يطعموا ويفرج عنهم(٣٧)(هل كان هذا دفاعا عن استعمار أمريكا ؟) . بيد أن سكان المدينة الفاضلة لا يمجدون الحرب » إنهم يكرهونها باعتبارها عملا وحشياً واضحاً ، ومناقضاً لشعور كل أمة أخرى تقريبا . ويرون أنه لا شىء أكثر خسة وتفاهة من المجد المستمد من الحرب(٣٨) » .

والدين فى المدينة الفاضلة لا يكاد يكون حراً تماما . وتعامل بالتسامح

أى عقيدة، اللهم إلا الإلحاد وإنكار خلود الإنسان، وفى وسع ساكن المدينة الفاضلة إذا شاء أن يعبد الشمس أو القمر . ولكن الذين يلجأون إلى العنف فى العمل أو الكلام عن أى دين معترف به يقبض عليهم ويعاقبون لأن القوانين تستهدف منع النزاع الدينى(٣٩) . والذين ينكرون الخلود لا يعاقبون بل يبعدون عن الوظيفة ويحرم عليهم إبداء آرائهم لأى إنسان اللهم إلا للقساوسة و « أصحاب الشأن » . وإلا « فإنه يباح لكل إنسان أن يؤثر ويتبع أى دين يشاء . . . ويستطيع أن يبذل كل جهده لإقناع آخر برأيه ما دام يفعل هذا سلميا وفى رصانة ، وفى غير ما عجلة وبلا زجر أو قدح يصدران عن نزاع ضد الآخرين(٤٠) » . ومن ثم فإن فى المدينة الفاضلة عدة أديان بيد أن « أعظم وأحكم دور . . . هو الإيمان بوجود قوة إلهية معروفة ، دائمة ، لا تدرك ولا تفسر ، أعظم من أن يدركها عقل الإنسان ومقدرته ، متفرقة فى أنحاء العالم(٤١) » . والرهبانية مسموح بها بشرط أن يشغل الرهبان أنفسهم بأعمال البر والمنفعة العامة ، مثل إصلاح الطرق والجسور وتطهير الخنادق وقطع الأخشاب والعمل خدما بل ورقيقا ، وفى وسعهم أن يتزوجوا إذا رغبوا . وهناك قساوسة ، ولكنهم يتزوجون أيضاً . وتعتبر الدولة أن أول وآخر كل شهر وكل عام بمثابة أعياد دينية ، ولكن فى تأدية الاحتفالات الدينية فى هذه العطلات ، « لا يرى تمثال أى إله فى الكنيسة » ، ولا تؤدى صلوات ، ولكن فى وسع كل إنسان أن يتلو صلاة ما فى جرأة دون أن يسىء إلى أى طائفة(٤٢) » . وفى كل يوم من هذه العطلات تسجد الزوجات والأطفال أمام أزواجهن أو آبائهم، ويطلبون الصفح عن أى ذنب قد اقترفته أو أى واجب يكونون قد أخلوا به ، ولا يسمح لأحد بالحضور إلى الكنيسة إلا بعد أن يسود الوئام والسلام بينه وبين عدوه . وهذه لمسة مسيحية ، ولكن إنسانية مور الفتية تبدو فى قبوله الجزئى لوجهة النظر اليونانية عن الانتحار . إذا عانى إنسان من مرض عضال غير قابل للشفاء ، فإنه

يسمح له ويشجع على إنهاء حياته . أما فى الحالات الأخرى فإن مور يعتقد أن الانتحار جبن ، ويروى « أن الجثة يجب أن تلقى دون دفن فى مستنقع نتن(٤٣) » .

ولا نعرف كم من هذه يمثل النتائج التى توصل إليها مور بعد ترو ، وكم منها كان من تفكير إرازموس ، وكم منها كان من وحى ألاعيب الخيال . وعلى أية حال فإن السياسى الشاب أبعد نفسه فى حرص عن اشتراكية سكان المدينة الفاضلة ، وهو يتمثل نفسه بقول لهيثلوداى : « أرى أن كل الناس لن يعيشوا فى ثراء حيث تكون كل الأشياء على المشاع . لأنه كيف تكون هناك وفرة فى السلع . . حيث نجد أن نظرة الإنسان إلى مكاسبه الشخصية لا تدفعه إلى العمل ، ولكن الأمل يراوده فى أن يجد فى عناء الآخرين ما يجعله ينعم بالكسل . لا يمكن أن تكون كل الأمور على ما يرام ، ما لم يكن كل الناس صالحين ، وهو ما أعتقد أنه لن يحدث فى هذه السنين العديدة الطويلة(٤٤) » . ومع ذلك فإن بعض التعاطف على ضروب الحنين المتطرفة لا بد أن يكون قد استلهم بصورة كبيرة المثال الشيوعى . وثمة صفحات أخرى فى المدينة الفاضلة تنتقد فى غضب قسوة استغلال الأغنياء للفقراء . وفيها تنديد بإحاطة اللوردات الإنجليز لبعض الأراضى العامة بسياج ، وذلك بصورة مفصلة وروح لا يتوقعان فيما يبدو ، من أجنبى . ويقول هيثلوداى لمور : « إن الطمع الجائر للقلة قد تحول إلى الخراب التام لجزيرتك . إن هؤلاء الأغنياء لا يطيقون إلا أن يشتروا كل شىء ليتلهوا ويستأثروا بكل شىء ويتحكموا فى السوق وحدهم كما يشاءون باحتكارهم(٤٥) » . وعندما أفكر وأزن بعقلى كل هذه الحكومات التى تزدهر الآن فى كل مكان فإنى لا أفهم — وليساعدنى الله — إلا أن هناك مؤامرة ، يدبرها الأغنياء لترويج سلعهم باسم الجمهور . إنهم يخترعون ويتوسلون بكل الوسائل والخدع . .

كيف يستأجرون ؛ . ويتعسفون . . . فى جهد الفقراء مقابل مبلغ صـــغير بقدر الإمكان . . . وهذه الحيل تؤدى إلى سن القوانين [٤٦] .

وهذا يكاد يكون صوت كارل ماركس يحرك العالم من سفح فضاء فى المتحف البريطانى ، ولا شك أن المدينة الفاضلة هى أقوى ضروب الاتهام وأولها للنظام الاقتصادى الذى استمر فى أوروبا الحديثة حتى القرن العشرين ، وإنها سوف تظل معاصرة مثل اقتصاد يسير وفق خطة معينة ومثل رفاهية الدولة أيضاً .

٣ — الشهيد

كيف تأتى لرجل تعج فى رأسه مثل هذه الأفكار أن يعـــين فى مجلس هنرى الثامن فى السنة التالية لنشر كتاب المدينة الفاضلة ؟ الراجح أن الملك على الرغم مما اشتهر به من علم ، لم يستطع أن يتحمل قراءة الكتاب باللاتينية ومات قبل أن ينشر بالإنجليزية . واحتفظ مور بخواطره المتطرفة لأصدقائه . وعرفه هنرى مزيجاً نادراً من المقدرة والكمال ، وقدّره باعتباره صلة وثيقة بينه وبين مجلس العموم ، ونصبه فارساً وعينه وكيلا للخزانة (١٥٢١) ، وعهد إليه بمهام دبلوماسية دقيقة .

وعارض مور السياسة الخارجية التى انتهجها ولزى وقاد بها إنجلترا للحرب مع شارل الخامس ، إذ أن الإمبراطور فى نظر مور لم يكن داهية خطيراً فحسب ، بل كان أيضاً البطل المدافع عن العالم المسيحى ضد الأتراك . وعندما سقط ولزى نسى مور حتى وقتذاك أخلاقياته ليراجع — فى المجلس النيابى — زلاته وأخطاءه التى أدت إلى السقوط . وكان ، بصـــفته زعيما للمعارضة ، الخليفة المنطقى لاكاردينال ، وظل يعمل رئيساً لوزراء (حاجباً) إنجلترا واحداً وثلاثين شهراً .

ولكن الملك كان الخليفة الحقيقي لولزى . فقد اكتشف هنرى قوته ومقدرته وقال إنه قرر أنه يحرر نفسه من بابوية تكن له العداوة وتقف فى طريقه وأن يسبغ صفة الشرعية على زواجه بامرأة أحبها وتستطيع أن تنجب له وريثاً للعرش .

ووجد مور نفسه لا يوجه السياسة بل يخدم الأهداف التى تسير فى اتجاه مضاد لأعمق مشاعر الولاء التى يطويها بين جوانحه . وواسى نفسه بتأليف كتب ضد اللاهوت البروتستانتى وبمطاردة زعماء البروتستانت . واتفق فى كتاب حوار يتعلق بالهرطقة (١٥٢٨) وفى كتب متأخرة ، مع فرديناند الثانى وكالفن والأمراء اللوثريين على ضرورة الوحدة الدينية لتحقيق القوة والسلام القوميين . وخشى انقسام الإنجليز إلى اثنتى عشرة أو مائة طائفة دينية . ومع أنه كان قد دافع عن ترجمة إرازموس للعهد الجديد إلى اللاتينية فإنه احتج ضد نسخة تندال الإنجليزية باعتبارها تحريفاً للنص بصورة تثبت وجهات النظر اللوثرية ، وشعر بأن ترجمات الكتاب المقدس يجب ألا تتحول إلى أسلحة يشرعها فلاسفة الحانة . وعلى أية حال فإنه تمسك بأن الكنيسة كانت أداة ثمينة جداً للنظام والمواساة والإلهام ، بحيث لا يجوز تمزيقها إرباً بالاستدلال المتسرع من مجادلين معجبين بأنفسهم .

وانتقل من هذه الحال إلى إحراق البروتستانت على المحرقة . أما الاتهام الذى وجه إليه بأنه أمر بجلد رجل فى بيته بسبب الهرطقة [٤٧] فإنه موضع خلاف ، ويبدو أن رواية مور عن المذنب بعيدة عن اللاهوت « إذا نظر خلسة لأية امرأة وهى تركع » فى الصلاة و « إذا تدلى من رأسها شىء فى تضرعاتها فإنه عندئذ يتسلل وراءها . . . يعمل على رفع كل ثيابها ويقذف بها فوق رأسها[٤٨] » . ويمكن أن يقال إنه فى أحكام الإعدام الثلاثة التى أعلنت فى أسقفيته إبان توليه منصب الحاجب ، كان يستجيب فيها للقانون ، الذى كانت الدولة فى حاجة إليه ليكون العضد العلمانى للمحاكم الكنسية[٤٩] ؛

ولكن ليس من شك فى أنه وافق على عمليات الإحراق(٥٠). ولم يسلم بوجود أى تناقض بين سلوكه والتسامح الكبير فى الاختلافات الدينية الذى أبداه فى مدينته الفاضلة ، لأنه حتى هناك رفض التسامح مع الملحدين والمنكرين للخلود ، وهؤلاء الهراطقة الذين لجأوا إلى العنف أو توسلوا بالطعن . ومع ذلك فقد ارتكب هو نفسه جريمة الطعن بمجادلته البروتستانت الإنجليز(*) .

وجاء الوقت الذى رأى فيه مور أن هنرى أخطر الهراطقة على الإطلاق . ورفض الموافقة على زواجه من آن بولين ورأى فى التشريع المناهض لرجال الدين الذى صدر فى ١٥٢٩ — ٣٢ اعتداء صارخاً على كنيسة يرى أنها بمثابة قاعدة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . وعندما تقاعد من المنصب وانسحب إلى خلوة بيته فى تشلسى (١٥٣٢) كان لا يزال فى عنفوانه ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، ولكنه كان يرتاب فى أنه لن يعيش طويلا . وحاول أن يهيئ أسرته للمأساة بالحديث (هكذا يقول زوج ابنته وليام روبر) عن حياة الشهداء الأحرار وعن جلدهم العجيب وعما كابدوه من آلام وعن ميتتهم التى آثروا فيها أن يتعرضوا للعذاب على أن يسيئوا إلى

(*) « ومع ذلك فهناك خنزير لا يتلقى أى تعليم إلا ليدنسه وهناك كلاب تمزق بأنيابها كل علم نافع . . ولا يكفى أن يعظ الناس أمثال هؤلاء الكلاب بل يجب جلدهم بالسياط والمقارع بعنف ، والحيلولة بينهم وبين تمزيق العلم النافع بأنيابهم . . . إلى أن يستكينوا ويصيخوا السمع لما يقال لهم . وبهذه الوسائل يمنع الخنزير من إلحاق الأذى ، والكلاب تخضع أحياناً للتعليم إلى حد . . أنها تتعلم كيف ترقص على مزمار سيدها . والعقاب رادع فى حين أن التعليم المجرد منه لا يكفى . فمن هم الكلاب بمعنى الكلمة الآن سوى هؤلاء الهراطقة الذين ينبحون على القرابين المقدسة المباركة . . . ومن هم الخنازير بمعنى الكلمة سوى هراطقة أيامنا هذه ، وهم من ضرب نجس لم يشهده أحد قط من قبل ؟

وفى مثل هذا الموكب الرزين أقسم جميع أصحاب القداسة على العفة . . وتحولوا إلى جرية قذرة شائنة ينعم بها الرهبان بنكاح الراهبات »(٥١) .

الرب فأى شىء أسعد وأكثر بركة من أن يحب الله وأن يتعرض لفقد المال والسجن وضياع الأرض بل والحياة أيضاً » . وكان فضلا عن هذا يقول لهم معتصما بعقيدته إذا أدرك أن أبناءه سوف يشجعونه على الترحيب بالموت فى سبيل هدف سام فإنه سوف يجد فى هذا من السلوى ما يملأ نفسه حبوراً ولهذا السبب يهرع إلى الموت مبتهجاً[٥٢] .

وتحقق كل ما توقعه ، فقد اتهم عام ١٥٣٤ ، ووجهت إليه تهمة بأنه كان على علم بمؤامرة تتعلق براهبة كنت ، فأقر بأنه التقى بها ، وآمن بأنها تتلقى الوحى ، ولكنه أنكر أنه كان على علم بالمؤامرة . وتشفع كروموبل ، وتفضل هنرى بالصفح عنه . ولكن فى السابع عشر من ابريل حكم على مور بالسجن فى البرج لأنه رفض أن يحلف اليمين على قانون الوراثة ، الذى رأى عندما قدم إليه أنه ينطوى على إنكار لسيادة البابا على الكنيسة فى إنجلترا .

وكتبت إليه ابنته الأثيرة مرجريت رسالة ترجوه فيها أن يحلف اليمين ، فرد عليها بأن توسلها سبب له ألماً أشد مما سببه له سجنه . وزارته زوجته (الثانية) فى البرج وانتهرته (كما يقول روبر) لعناده :

« إنى لأعجب لك فى هذا العام يا مستر مور ، يا من كنت أحسبك حتى الآن رجلا عاقلا ، لماذا تتظاهر بالحمق ، فترقد هنا فى هذا السجن الضيق القذر ، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجرذان ، بينما فى وسعك أن تكون حراً فى الخارج ، وتنعم بحظوة ورضا الملك ومجلسه ، إذا فعلت فقط ما فعله كل الأساقفة وخير المتعلمين فى هذه المملكة . وعندما أرى أن لك فى تشلسى بيتاً جميلا لائقاً ، وأرى مكتبتك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الأخرى ، تبدو جميلة من حولك ، حتى لتستطيع أن تسعد برفقتى ، أنا زوجتك ، ورفقة أولادك وأسرتك ، فإنى أتأمل باسم الرب ماذا تعنى بمكوثك هنا وكلفك بإطالة أمده[٥٣] » .

وبذلت محاولات أخرى لزحزحته عن موقفه ، بيد أنه قاومها كلها بابتسامة .

وفى أول يولية سنة ١٥٣٥ قدم لمحاكمة أخيرة . فدافع عن نفسه جيداً ولكن حكم عليه بالإدانة لخيانة الدولة ، وبينما كان عائداً من وستمنستر إلى البرج اقتحمت ابنته مرجريت صفوف الحرس ، واحتضنته وتقبلت بركته الأخيرة . وفى اليوم السابق لإعدامه أرسل قميصه المصنوع من الشعر إلى مرجريت ومعه رسالة « غداً نلتقى » لكى نذهب إلى الله . . . » وداعاً يا ابنتى العزيزة ، صلى من أجلى ، وسوف أصلى من أجلك ، ومن أجل جميع أصدقائك ، لكى نلتقى فى السماء مسرورين[٥٤] .

وعندما ارتقى منصة المقصلة (فى ٧ يوليو) ووجد أنها ضعيفة توشك أن تنهار قال لأحد التابعين : « أرجوك أيها الملازم أن تراعى أن أكون فى أمان وأنا فى أعلاها ، وبالنسبة لنزولى دعنى أحتال لنفسى[٥٥] » . وطلب منه الجلاد الصفح والمغفرة فاحتضنه مور . وكان هنرى قد أصدر تعليمات بألا يسمح للسجين إلا ببضع كلمات . وطلب مور من المشاهدين أن يصلوا من أجله ، وأن يشهدوا بأنه تعرض للموت فى سبيل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، ومن أجلها ، ثم طلب منهم أن يصلوا من أجل الملك ، وأن ينعم الله عليه بمشير صالح ، واحتج بأنه مات وهو خادم صالح للملك ، ولكنه خادم الرب أولا[٥٦]. وتلا المزمار الحادى والخمسين ، ثم وضع رأسه على الكتلة ، وسوى بعناية لحيته البيضاء الطويلة ، حتى لا تتعرض لأى أذى وقال : « مما يؤسف له أنها سوف تقطع ، وأنها لم ترتكب جريمة خيانة الدولة[٥٧] » ، وعلق رأسه على جسر لندن .

وسرت موجة من الرعب فى إنجلترا التى أدركت وقتذاك قسوة الملك ، التى أصر عليها ، وسرت فى أوروبا قشعريرة من الفزع . وشعر إرازموس

أنه هو نفسه قد مات لأنه، «ليس لنا إلا روح واحدة تتردد بيننا[٥٨]» وقال انه لم تعد لديه وقتذاك أى رغبة فى الحياة . وبعد عام مات هو أيضاً . وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الإنجليزى : « لو كنت سيداً لخادم مثل هذا توفرت لى — أنا نفسى — عن أعماله خبرة غير ضئيلة فى هذه السنوات العديدة ، فإنى كنت أفضل أن أفقد أحسن مدينة فى ممتلكاتى ولا أفقد مثل هذا المستشار الجليل[٥٩] » . وصاغ البابا بولس الثالث نشرة بابوية بحرمان هنرى الخارج على القانون من زمالة العالم المسيحى ، وتحريم الصلوات الدينية فى إنجلترا ، ومنع كل تجارة معها ، وحل كل الرعايا البريطانيين من إيمانهم بالولاء للملك ، وأمرهم هم وكل الأمراء المسيحيين بخلعه فوراً . ولما كان كل من شارل وفرانسيس لا يرحبان بهذه الإجراءات ، فإن البابا حجز صدور النشرة البابوية حتى عام ١٥٣٨ . وعندما أصدرها ، منع شارل وفرانسيس نشرها فى مملكتيهما، إذ لم يرضيا التصديق على الادعاءات البابوية بوجود سلطة له على الملوك . وكان فشل النشرة البابوية إيذانا بضعف السلطة البابوية ، وارتفاع سلطان الدولة القومى .

ورأى دين سويفت أن مور رجل « يتمتع بأعظم الفضائل » — ولعله يستخدم الكلمة بمعناها القديم الخاص بالشجاعة — « بين الرجال الذين أنجبتهم هذه المملكة[٦٠] » .

وفى الذكرى الأربعمائة لإعدام توماس مور وجون فيشر أدرجتهما كنيسة روما بين قديسيها .

٤ — حكاية ثلاث ملكات

فقد هنرى ثلاثا من ست ملكات فى خلال ثلاثين شهرا من وفاة مور . فقد تلاشت حياة كاترين فى معتزلها الشمالى ، وهى لا تزال تدعى أنها زوجة هنرى الشرعية الوحيدة ، وملكة انجلترا صاحبة الحق الشرعى . واستمرت

وصيفاتها فى إطلاق هذا اللقب عليها . وفى عام ١٥٣٥ نقلت إلى قلعة كيمبالتون قرب هنتنجدون ، وهناك حبست نفسها فى حجرة واحدة ولم تكن تتركها إلا لحضور القداس . واستقبلت زوارا و« عاملتهم فى كرم زائد[٦١] » وحجزت مارى ، وكانت وقتذاك فى التاسعة عشرة فى هاتفيلد التى لا تبعد إلا بمسيرة عشرين ميلا ، غير أنه لم يسمح للأم ولا لابنتها بأن ترى إحداهما الأخرى ، ومنعاً من الاتصال ببعضهما ، ومع ذلك فإنهما تراسلا ، وتعد رسائل كاترين من أعظم الرسائل المؤثرة فى الأدب بأسره . وعرض هنرى عليهما دارين آخرين أفضل من داريهما ، إذا اعترفتا بملكته الجديدة ، فرفضتا . وعينت آن بولين عمتها مربية لمارى وأمرتها بأن تحتفظ « بابنة السفاح » وتلزمها حدها بـ « لكمة على الأذنين بين آن وآخر[٦٢] » . ومرضت كاترين فى ديسمبر سنة ١٥٣٥ وكتبت وصيتها وبعثت برسالة للإمبراطور تطلب منه حماية ابنتهـا ووجهت وداعا مؤثرا لـ « سيدها وزوجها العزيز » الملك .

« إن ساعة وفاتى تقترب ولا حيلة لى إلا أن أنصحك ، بحكم ما أكنه لك من حب ، بأن تعنى بطهارة روحك التى يجب ان تؤثرها على كل الاعتبارات فى الدنيا ، أو على أى جسد تشتهيه مهما كان ، والذى من أجله قذفت بى فى كوارث عديدة ، وبنفسك فى متاعب كثيرة ولكنى أغفر لك كل شيء ، وأرجو الله أن يغفر لك أيضا ، وبالنسبة للباقى أوصيك خيراً بابنتنا مارى ، وأتوسل إليك أن تكون لها أباً صالحاً . . . وأخيراً فإنى أردد هذا القسم بأن عينى تريدان أن تبصراك فوق كل شيء وداعاً[٦٣] » .

وبكى هنرى عندما تسلم الرسالة ، وعندما ماتت كاترين (٧ يناير سنة ١٥٣٦) بالغة من العمر خمسين عاماً ، أمر الحاشية بإعلان الحداد . فرفضت آن[٦٤].

ولم تستطع آن أن تعرف أنها ستموت أيضاً فى خلال خمســـة شهور ، ولكنها أدركت أنها خسرت الملك ، فقد أدى طبعها الحاد وسورات غضبها المتسمة بالصلف ، ومطالبها التى تبعث على الضجر ، إلى إنهاك هنرى الذى رأى أن لسانها السليط يتناقض مع رقة كاترين[٦٥] . وفى اليوم الذى دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلا ميتاً ، وبدأ هنرى الذى كان لا يزال يتلهف على ولد يفكر فى طلاق آخر — أو فى بطلان للزواج كما سوف يفعل ، وروى عنه أنه قال إن زواجه الثانى تم تحت إغراء السحر ، ومن ثم فإنه باطل[٦٦] . وبدأ من أكتوبر سنة ١٥٣٥ يولى اهتماماً خاصاً بإحدى وصيفات آن وهى جين سيمور . وعندما أنبته آن أمرها بأن تتحمله فى صبر ، كما فعل من هن أفضل منها[٦٧] ، ولعله انتهج حيلا قديمة عندما اتهمها بالخيانة . إذ يبدو إنه مما لا يصدق أن تخاطر حتى امرأة نزقة بعرشها بلحظة تبذل ، ولكن يبدو أن الملك كان قد آمن فى إخلاص بأنها مذنبة . وأشار إلى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التى وصلت إلى مجلسه ، فاستقصى الأمر وأبلغ الملك أنها اقترفت الزنا مع خمسة أعضاء من البلاط ، هم سير وليام بريريتون ، وسير هنرى نوريس ، وسير فرانسيس وستون ، ومارك سميتون ، وأخيها اللورد روشفورد ، وأرسل الرجال الخمسة إلى البرج وتبعتهم آن فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٣٦ .

وكتب لها هنرى يعللها بالآمال فى الصفح عنها والرفق بها إذا كانت صادقة معه ، فردت بأنها ليس لديها ما تعترف به . وزعم خـــدمها فى السجن أنها أقرت بأنها تلقت عرضين بتبادل الحب مع نوريس ووستون ، بيد أنها ادعت أنها صدمتهما . وفى يوم ١١ مايو وبعـــد أن طلب من هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس أن تقوم بتحقيق محلى فى الجرائم التى يقال إن الملكة قد ارتكبتها فى تلك البلاد أبلغت أنها وجدتها مذنبة لاقترافها الزنا مع جميع الرجال الخمسة المتهمين ، وقدمت أسماء وتواريخ معينة[٦٨]. و

يوم ١٢ مايو حوكم أربعة من هؤلاء الرجال فى وستمنستر أمام هيئة محلفين، منهم والد آن الايرل أف ولتشاير . واعترف سميتون أنه مذنب كما اتهم ، أما الآخرون فدافعوا عن أنفسهم بأنهم غير مذنبين ، وحكم بإدانة الأربعة جميعاً . وفى يوم ١٥ مايو حوكمت آن هى وأخوها أمام جماعة مكونة من ستة وعشرين نبيلا برئاسة الدوق أف نورفولك وهو عمها ، ولكنه عدوها السياسى . وأكد الشقيقان أنهما بريئان ، ولكن كل عضو من جماعة القضاة أعلن أنه مقتنع بأنهما مذنبان ، وحكم عليهما بأن يحرقا أو يقطع رأساهما كما يتراءى للملك . وفى يوم ١٧ مايو شنق سميتون ، أما الرجال الأربعة الآخرون فقد قطعت رءوسهم كما يليق برتبهم . وفى ذلك اليوم طلب وكلاء الملك من رئيس الأساقفة كرانمر أن يعلن عدم صحة الزواج بآن وأن اليزابث ابنة سفاح فاذعن . ولا يعرف الأسس التى بنى عليها هذا الحكم ، ولكن يظن أن زواج آن السابق المزعوم بلورد نورثمبرلاند أعلن وقتذاك أنه حقيقى .

وركعت آن عشية وفاتها أمام لادى كنجستون زوجة الحارس وطلبت منها منة أخيرة : أن تذهب وتركع أمام مارى ، تتوسل إليها باسم آن أن تصفح عن الأخطاء التى ارتكبت فى حقها ، بسبب كبرياء امرأة تعسة غير متبصرة[٦٩] ، وطلبت أن ينفذ فيها حكم الإعدام فوراً يوم ١٩ مايو . والظاهر أنها استمدت شيئاً من العزاء من فكرة خطرت لها هو : « لقد سمعت أن الجلاد بارع جداً ولى عنق صغير » — ومن أجل ذلك ضحكت واقتيدت ظهر ذلك اليوم إلى منصة المقصلة ، وطلبت من المشاهدين أن يصلوا من أجل الملك « لأنه ليس هناك أمير يبزه فى الرقة والرأفة[٧٠] ، ولم يكن هناك أحد يقطع بأنها مذنبة ، ولكن قليلين أسفوا لسقوطها :

وفى يوم وفاتها منح كرانمر للملك محللا بالزواج مرة أخرى فى سعيه

المتجدد للحصول على ولد ، وفى اليوم التالى خطب هنرى « جين سيمور سراً ، وتزوجا يوم ٣٠ مايو ١٥٣٦ ، ونودى بها ملكة يوم ٤ يونية ؛ وكانت سليلة أسرة ملكية ، إذ أنها تنحدر من إدوارد الثالث ، وكانت لها صلة قرابة من الدرجة الثالثة أو الرابعة بهنرى ، مما دعا إلى الحصول على محلل آخر من كرائم المطيع . ولم تكن تتمتع بجمال خاص ، بيد أنها أثرت فى الجميع بذكائها ورقتها بل وتواضعها ، ووصفها الكاردينال بول خصم هنرى اللدود بأنها : « ممتلئة بالطيبة » ، ولم تشجع محاولات الملك التقرب بها إبان حياة آن ، ورفضت قبول هداياه ، وأعادت رسائله دون أن تفتحها ، وطلبت منه ألا يحدثها إلا فى حضور آخرين[٧١]

وكان أول عمل تم بعد الزواج هو القيام بالتوفيق بين هنرى ومارى . وقام هنرى به بطريقته الخاصة فأمر كروموبل بأن يبعث لها برسالة عنوانها : « اعتراف لادى مارى » . وهى تعترف بالملك رئيساً أعلى للكنيسة فى انجلترا وتنكر « سلطة أسقف روما المزعومة »، وتعترف أن زواج هنرى بكاترين « من قبيل سفاح القربى وغير شرعى » . وطلب من مارى أن توقع باسمها على كل جملة ، ووقعت ولم تصفح عن نفسها قط . وبعد ثلاثة أسابيع أقبل الملك والملكة لرؤيتها وقدما إليها هدايا و ١٠٠٠ كراون ، وأطلق عليها مرة أخرى لقب أميرة ، وفى يوم عيد الميلاد لعام ١٥٣٦ استقبلت فى البلاط ، وهناك لا بد أن شيئا طيبا كان فى هنرى وفى « مارى الدموية » — لأنها كادت تتعلم فى السنوات الأخيرة أن تحبه .

وعندما اجتمع المجلس النيابى مرة أخرى (١٨ يونية سنة ١٥٣٦) أصدر بناء على طلب الملك قانوناً جديداً بوراثة العرش وبمقتضاه أعلن أن اليزابث ومارى على السواء بنتان غير شرعيتين ، وتقرر أن يقتصر التاج على الذرية المتوقع أن تنجبها جين سيمور ؛

ومات الدوق آن رتشموند ابن هنرى غير الشرعى ، وتعلقت آمال الملك كلها فى حمل جين . وهللت إنجلترا معه عندما ولدت (١٢ أكتوبر سنة ١٥٣٧) ولدا هو إدوارد السادس فى المستقبل . بيد أن جين المسكينة التى ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطاً عميقاً ، بقدر ما سمحت روحه ، التى تتركز حول ذاته ، ماتت بعد ولادة ابنها باثنى عشر يوما . وظل هنرى رجلا محطما بعض الوقت . وعلى الرغم من أنه تزوج مرة أخرى ثلاث مرات فإنه طلب عند وفاته أن يدفن بجانب المرأة التى ضحت بحياتها فى سبيل حمل ابنه .

ماذا كانت ردود الفعل لدى الشعب الإنجليزى بالنسبة لأحداث هذا العهد المضطرب ؟ من الصعب أن نقول شيئاً ، فالدليل فيه تحامل ويكتنفه الغموض ومشتت . وروى شابويس عام ١٥٣٣ أن رأى الكثرين من الإنجليز أن « الملك رتشارد السابق لم يكن قط مكروها من شعبه إلى هذا الحد مثل هذا الملك[٧٢] » . وقد تعاطف الشعب بوجه عام مع رغبة هنرى فى الحصول على ولد ، وأدان قسوته على كاترين ومارى ولم يذرف دموعاً على آن ، ولكنه صدم صدمة عميقة بإعدام فيشر ومور . وكانت أغلبية الأمة السابقة لا تزال تدين بالكاثوليكية[٧٣] ، وكان رجال الاكليروس — بعد أن حققت الحكومة وقتذاك لنفسها موارد الأساقفة حديثى التعيين فى السنة الأولى — يأملون فى التوفيق مع روما . ولكن لم يجرؤ أحد على أن يرفع صوته بنقد الملك . وتلقى نقداً ، ومن إنجليزى ولكن مع وجود القنال بينه وبين ذراع الملك .

كان ريجنا لدبول ابن مرجريت بلانتا حينت كونتيسة سالزبورى ، وهى نفسها ابنة أخى إدوارد الرابع ورتشارد الثالث . وقد تعلم على نفقة هنرى ، وكان يتسلم مرتبا من الملك قدره ٥٠٠ كراون كل عام ، والظاهر أنه كان يعد لتولى أعلى المناصب فى الكنيسة الإنجليزية . ودرس فى باريس

وبادوا ، وعاد إلى انجلترا ، وهو يتمتع بحظوة كبيرة لدى الملك ، ولكن عندما أصر هنرى على سماع رأيه فى الطلاق ، رد ريجينالد صراحة أنه لا يستطيع أن يوافق عليه ما لم يصدق عليه البابا . ولم يقطع هنرى مرتب الشاب وسمح له بالعودة إلى القارة .

وهناك لبث بول اثنين وعشرين عاما وارتفع فى تقدير البابا باعتباره عالماً ومتضلعاً فى اللاهوت ، ونصب كاردينالا وعمره ستة وثلاثون عاماً (١٥٣٦) . وألف فى ذلك العام باللاتينية رسالة هجوم على هنرى هى دفاع عن وحدة الكنيسة . ورأى أن الأخذ بسيادة هنرى على الشئون الكنسية فى إنجلترا يدعو إلى الانقسام بين أبناء الديانة المسيحية وتشعبهم إلى قوميات منوعة ، وأن التصادم الناتج بين العقائد سيؤدى إلى فوضى اجتماعية وسياسية فى أوروبا . واتهم هنرى بأنه مصاب بجنون حب الذات والحكم المطلق . ولام الأساقفة الإنجليز على تسليمهم بعبودية الكنيسة للدولة . وندد بالزواج من آن باعتباره زنا ، وتنبأ (ولم يكن هذا من الحكمة إلى حد كبير) بأن النبلاء الإنجليز سوف يعدون اليزابث « ابنة سفاح لعاهرة إلى الأبد(٧٤) » ، وطالب شارل الخامس بألا يضيع أى ذخيرة حربية فى حرب الأتراك وأن يحول القوات الإمبراطورية للقتال ضد ملك إنجلترا الكافر . كانت رسالة طعن شديدة ، أتلفتها كبرياء الشباب فى الفصاحة . وأشار الكاردينال كونتاريني على المؤلف بألا ينشر الرسالة ، بيد أن بول أصر ، وأرسل نسخة إلى إنجلترا .

وعندما نصب بولس الثالث بول كاردينالا اعتبر هنرى هذا عملا من أعمال الحرب . وتخلى الملك عن كل فكرة تدور حول المصالحة ، واتفق مع كرومويل على أن الأديار فى إنجلترا يجب أن تحل ، وأن تضم أملاكها إلى التاج .

الفصل الخامس والعشرون

هنرى الثامن والأديار

١٥٣٥ – ٤٧

١ – تقنية الحل

كان هنرى عام ١٥٣٥ مشغولا جداً بالحب والحرب فلم يستطع أن يلعب دور البابا جملة أو تفصيلا ، فعين كرومويل الذى يؤمن بفلسفة اللا أدرية[1] « نائبا للملك فى كل قدراته الكنسى » . ووجه كرومويل وقتذاك السياسة الخارجية والتشريع الوطنى والسلطة القضائية العليا والمجلس الخاص والمخابرات وقاعة النجم وكنيسة إنجلترا ، ولم يكن لولزي فى أوج مجده قط أصابع طويلة متشبثة بفطائر غضة بهذه الكثرة . وكان يراقب أيضاً كل الطباعة والنشر ، وأقنع الملك بأن يحرم طبع الكتب أو بيعها أو استيرادها إلا بعد الحصول على موافقة وكلاء التاج ، وأمر بنشر الكتب المناهضة للبابوية على نفقة الحكومة .

وقام جواسيس كرومويل ، وهم لا يحصون ، بإبلاغ كرومويل بكل حركات أو بيانات المعارضين لهنرى أو له . وكانت أية إشارة تدل على الاشفاق على فيشر أو مور وأية دعابة تدور حول الملك يمكن أن تؤدى إلى محاكمة سرية وسجن طويل[2] ، وكان التنبؤ بوفاة الملك يعرض المرء لفقد حياته[3] .

وقام كرومويل ، فى بعض القضايا الخاصة بدور ممثل الاتهام والمحلفين

والقاضى ليصل إلى نتائج محققة . وكان كل واحد فى إنجلترا يخشاه ويكرهه .

وكانت أكبر معضلة واجهها هى أن هنرى كان مفلسا ، على الرغم من سلطانه العظيم . وكان الملك يتوق إلى زيادة حجم البحرية والإكثار من مرافئه وموانيه أو تحسينها ، وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة ،ونظام كرومويل فى الحكم يحتاج إلى نهر عريض من الأموال . فكيف يجمع المال ؟ كانت الضرائب مرتفعة إلى الحد الذى تقابل فيه بمقاومة تجعل الجباية تكلف من النفقات أكثر مما تدر من الربح ، وكان الأساقفة قد استنزفوا أبرشياتهم لتهدئة سورة الملك ، ولم يكن هنك ذهب يتدفق من أمريكا ، كما يتدفق يوميا لإغاثة الإمبراطور عدو إنجلترا . ومع ذلك كانت فى إنجلترا موسسة واحدة ثرية وموضع ريبة وعاجزة لا تجد من يدافع عنها وهى الأديار . كانت موضع ريبة لأن ولاءها الأخير كان للبابا ، واشتراكها فى قانون السيادة يعد من قبيل المداهنة وغير تام ، وكانت فى نظر الحكومة هيئة أجنبية ملزمة بتأييد أى حركة كاثوليكية ضد الملك . وكانت عاجزة لأنها فى كثير من الحالات كفت عن القيام بوظائفها التقليدية فى مجالات التعليم والضيافة والبر ، وكانت لا تجد من يدافع عنها لأن الأساقفة استاءوا من إعفائهم من المراقبة الأسقفية ، ولأن الأشراف ، وقد أفقرتهم الحرب الأهلية ، طمعوا فى ثروتها ، ولأن طبقة رجال الأعمال كانوا يرون فى الرهبان والإخوة من الرهبان متلفين كسالى للموارد الطبيعية ، ولأن القسم الأكبر من العامة ، ومنهم كثير من الكثالكة الصالحين . لم يعودوا يؤمنون بفاعلية الخلفات التى كان الرهبان يعرضونها ، أو بالقداسات التى كان يقيمها الرهبان للموتى ، إذا دفع لهم الأجر . وكانت هناك سوابق رائعة لإغلاق الأديار ، فقد أغلقها زوينجلى فى زيورخ والأمراء اللوثريون فى ألمانيا وولزى فى إنجلترا . وكان المجلس النيابى قد صوت (١٥٣٣)

بالموافقة على تخويل الحكومة سلطة التفتيش على الأديار وإجبارها على تقويم اعوجاجها .

وأرسل كرومويل فى صيف عام ١٥٣٥ ثالوثا من « المفتشين » كل منهم معه عدد كبير من الموظفين لفحص حالة أديار الرهبان والراهبات فى إنجلترا من النواحى البدنية والأخلاقية والمالية وتقديم تقرير عنها . وكذلك للتفتيش على الجامعات والكراسى الأسقفية كإجراء مقبول . وكان هؤلاء « المفتشون » شبانا متهورين ، « من المرجح أن يقوموا بتنفيذ عملهم فى إتقان أكثر مما يتوسلون فى تنفيذه بالرقة[٤] » ، ولم يكونوا فى عصمة من قبول « الهدايا[٥] » ، وكان « الهدف من مهمتهم الحصول على قضية للتاج ، ولعلهم لجأوا إلى كل الوسائل المخـولة لهم لحث الرهبان والراهبات على إدانة أنفسهم[٦] . ولم يكن من الصعب أن يعثر فى ٦٠٠ دير فى إنجلترا على عدد مقنع ويدل على وجود انحرافات جنسية — وأحيانا انحرافات جنسية شاذة[٧] — ونظام متحلل واستغلال لمخلفات زائفة هدفه اكتناز المال ، وبيع أوعية مقدسة أو مجوهرات مقدسة لإضافة المزيد إلى ثروة الدير ، وما فيه من ضروب الراحة[٨] وإهمال الشعيرة أو الضيافة أو البر[٩] ولكن التقارير أغفلت عادة ذكر نسبة الرهبان الآثمين إلى الرهبان الجديرين بالتقدير ، والتمييز بوضوح بين الثرثرة والدليل[١٠] .

وقدم كرومويل للمجلس النيابى الذى انعقد فى ٣ فبراير عام ١٥٣٦ « كتابا أسود » ، ضاع الآن ، يكشف عن الاخطاء فى الأديار ، وينصح ، باعتدال استراتيجى : بإغلاق أديار الرهبان والراهبات التى يبلغ دخلها ٢٠٠ جنيه (٢٠٫٠٠٠ دولار ؟) أو أقل فى العام . فوافق المجلس النيابى الذى كان معظم أعضائه قد اختيروا بواسطة معاونى كرومويل[١١] . وعين الملك محكمة المزايدات لكى تتسلم لصالح خزانة الملك أملاك وموارد هذه الأديار الصغرى البالغ عددها ٣٧٦ . وأطلق سراح ألفى راهب ليذهبوا لدور

أخرى أو يخرجوا إلى العالم — وفى الحالة الأخيرة كانوا يمنحون مبلغاً صغيراً أو معاشا يسد رمقهم إلى أن يجدوا عملا . ولم يكن بين ١٣٠ دير للراهبات سوى ١٨ ديرا يتجاوز دخلها ٢٠٠ جنيه ، ولكن لم يغلق منها وقتذاك إلا نصفها .

وقامت فى الشمال ثورة ثلاثيه قطعت دراما الحل . وكما نشأت المسيحية فى المدن ووصلت إلى القرويين — الوثنيين — فكذلك نهض الإصلاح الدينى فى المدن بسويسرة وألمانيا وإنجلترا ، ولقى مقاومة دامت طويلا فى الريف . وتقلص ظل البروتستانتية فى إنجلترا وسكوتلندة كلما ابتعدت المسافة من لندن أو أدنبره ، ووصلت متأخرة إلى ويلز وشمالى إنجلترا ، ولقيت ترحيبا ضئيلا فى إيرلنده . وفى المراكز الشمالية بإنجلترا أشعل سلب الأديار الصغرى نار الاستياء التى كانت مهيأة للاشتعال منذ وقت طويل بسبب الضرائب المتزايدة والحكم الملكى المطلق على رجال الاكليروس والتحريض الخفى للقساوسة . وانضم الرهبان ، الذين جردوا من أموالهم ووجدوا أن من الصعب عليهم الحصول على مرتباتهم أو على عمل ، إلى المتعطلين العديدين المكتئبين ، أما الراهبات اللاتى جردن من أملاكهن واللاتى كن يتجولن من مأوى إلى مأوى فقد أثرن غضب الجمهور ضد الحكومة . وألهب معاونو كروموبل « نار » الغضب بتزيين أنفسهم بأسلاب المعابد بالأديار وصناعة صدريات من القباء ، وسروج من صدرات القساوسة وقرابات خناجر من محافظ المخلفات[١٢] .

وفى يوم ٢ أكتوبر سنة ١٥٣٦ هاجم جمهور فى لوث مفتشا ، كان قد أغلق توا ديرا للراهبات فى لجبورن المجاورة لها ، وتم الاستيلاء على سجلاته وأوراق اعتماده وأحرقت وصوب إلى صدره سيف وأكره على أن يحلف يمين الولاء للعامة . وحلف كل من كان حاضرا بين الجمهور يمينا بأن يكون مخلصا للملك والكنيسة الرومانية المقدسة ؛ وفى اليوم التالى احتشد

جيش ثائر فى كايستور على مسيرة بضعة أميال ، حرضه قساوسة ورهبان لا مأوى لهم ، واضطر أعيان الجهة — ومنهم من فعل ذلك باختياره — إلى الانضمام لجيش الثوار . وفى اليوم نفسه تجمع حشد كبير من القرويين فى هورن كاسل ، وهى مدينة أخرى تقع فى لنكولنشاير . واتهم حاجب أسقف لنكولن بأنه عميل لكرومويل ، وانتزع من فراشه ، وضرب حتى الموت بالهراوات . وصمم الثوار علمايصور محراثا وقدحا وبوقاً ، و « الكلمات الخمس الأخيرة » للمسيح ، واستخلصوا مطالب أرسلت إلى الملك : يجب أن تعاد الأديار وتخفف الضرائب أو تيسر ، وألا يدفع رجال الاكليروس ضرائب العشور أو موارد السنة الأولى من التعيين إلى التاج ، وأن يبعد « الدم الخبيث » (أى كرومويل) من المجلس الخاص ، وأن يقال الأساقفة الهراطقة — وبخاصة كرانمر ولاتيمر — ويعاقبون .

وانضم إلى الثورة مجندون من الأقاليم الشمالية والشرقية . واحتشد فى لنكولن حوالى ٦٠٫٠٠٠ رجل ، ولبثوا يرقبون رد الملك .

وكان رده عنيفا لا يقبل التفاهم . واتهم الثوار بإنكار جميل حاكم كريم ، وأصر على أن اغلاق الأديار الصغرى إنما تم بإرادة الأمة التى عبرت عنها عن طريق المجلس النيابى ، وأمر الثائرين بتسليم زعمائهم ، وأن يتفرقوا وينصرفوا إلى بيوتهم ، وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام ومصادرة أموالهم . وفى الوقت نفسه أمر هنرى أعوانه بحشد قواتهم والزحف بقيادة إيرل أف سفولك لمساعدة اللورد شروسبرى ، الذى كان قد نظم تابعيه لصد الهجوم ، وكتب رسائل خاصة إلى الأشراف القلائل الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . وعند ما أدرك هؤلاء وقتذاك أن الملك لا يمكن إرهابه ، وأن الثوار المسلحين تسليحا سيئا سوف يقهرون وشيكا ، اقتنع الكثيرون منهم بالعودة إلى قراهم ، وسرعان ما ذاب جيش الثوار فوق احتجاجات

القساوسة . وسلمت لوث خمسة عشر زعيما وأسر مائة آخرون ، وأعلن صدور عفو ملكي عن الباقين . وأخذ الأسرى إلى لندن والبرج وشنق ثلاثة وثلاثون ، منهم سبعة قساوسة ، وأربعة عشر راهبا ، وأطلق سراح الباقين على مهل(١٣) .

وفى غضون ذلك كانت هناك فتنة أشد خطورة قد نمت فى يوركشاير . اوجد رتشارد آسك ، وهو محام شاب ، نفسه متورطا بدنيا وعاطفيا فى الحركة . وأفزع محام آخر فتولى قيادة فرقة ثائرة فى بفرلى ، وأعار اللورد دارسى أف تمبلهرست ، وهو كاثوليكى متحمس ، الثورة تأييده الخفى ، وانضم اثنان من أسرة برسى ، وحذا حذوهم معظم أشراف الشمال .

وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٥٣٦ ضرب الجيش الرئيسى ، المكون من ٩٫٠٠٠ رجل ، الحصار على يورك . وأجبر المواطنون فى المدينة العمدة على فتح الأبواب . ومنع آسك رجاله من نهب المدينة ، وحافظ بوجه عام على نظام ملحوظ فى جيشه غير المدرب . وأعلن إعادة فتح الأديار ، وعاد إليها الرهبان فى اغتباط ، وأدخلوا السرور على أفئدة الأتقياء بحرارة ترانيمهم الجديدة . وتقدم آسك واستولى على بومفريه ، واستولى ستابلتون على هل دون إراقة دماء . وانضم آخرون إلى رجال لنكولنشير فى تقديم المطالب وأرسلوا للملك : « أن يقمع كل المراطقة وكتبهم ، ويستأنف الروابط الكنسية مع روما ، وأن يسبغ صفة الشرعية على مارى ، ويعزل مفتشى كرومويل ويعاقبهم ، ويلغى كل تسوير للأراضى العامة منـــذ عام ١٤٨٩ .

كانت هذه أحرج لحظة فى عهد هنرى . كان نصف البلاد يحمل السلاح ضد سياسته ، وكانت إيرلنده فى ثورة ، وكان بولس بول الثالث

والكردينال بول يحثان فرانسيس الأول وشارل الخامس على غزو إنجلترا وخلع الملك . واستجمع قواه المتخاذلة ، وأرسل أوامر إلى كل الجهات بحشد فرق موالية ، وفى الوقت نفسه أصدر تعليمات للدوق أف نورفولك بأن يتغفل الزعماء الثائرين بإجراء مفاوضات . ورتب الدوق مداولة مع آسك وعدة نبلاء وأغراهم بوعد منه بالعفو عنهم جميعاً . ودعا هنرى آسك إلى لقاء شخصى ومنحه جواز أمان . فجاء إلى الملك وافتتن بعبير الملكية ، وعاد وديعا ، ولم يلحقه أذى إلى يوركشاير (يناير سنة ١٥٣٧) ، وعلى أية حال فإنه قبض عليه هناك وأرسل سجينا إلى لندن . وانقطعت صلة الجيش الثائر بقواده فانشعب إلى فرق غاضبة وساده اضطراب همجى ، وتضاعفت حالات التمرد . وبينما كانت فرق الملك المتحدة تقترب اختفى الجيش الثائر كسراب تبدد (فبراير سنة ١٥٣٧) .

وعند ما استوثق هنرى من انهيار الثورة والغزو ما أنكر وعد نورفولك بالعفو العام ، وأمر بالقبض على من يمكن العثور عليه من الزعماء مثيرى الفتنة ، وأعدم الكثيرون منهم ومن ضمنهم آسك ، وكتب إلى الدوق يقول : « يسرنا أن نراك قبل أن نطوى علمنا مرة أخرى أن تقوم بإعدام مروع لعدد لا بأس به من السكان فى كل مدينة وقرية ومحلة تكون قد أجرمت ، حتى يكون فى هذا عبرة لكل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل ذلك فى المستقبل . . . وما دامت هـذه الاضطرابات كلها قد نتجت من تحريض الرهبان والكنسيين فى هذه البقاع ومؤامراتهم الغادرة ، فإننا نريد منك فى هذه الربوع التى تآمروا فيها ، ودافعوا عن بيوتهم بالقوة . . أن تأمر بلا رحمة أو شفقة بشد وثاق هؤلاء الرهبان رجال الكنيسة الذين ثبت خطؤهم بأية وسيلة دون تأخير أو إجراء رسمى(١٤) .

وعند ما رأى كرومويل ما لحق بالمعارضة من رعب شديد مضى قدماً

فى إغلاق الدور الدينية الباقية فى إنجلترا . وحلت يوما كل أديار الرهبان والراهبات التى كانت قد انضمت إلى الثورة وصودرت ممتلكاتها لمصلحة الدولة . وامتد مجال الزيارات التفتيشية ، وأثمرت تقارير عن الخروج على النظام والفجر والخيانة والانحلال . وتوقع كثير من الرهبان سلفا إغلاق الأديار فباعوا المخلفات والنفائس التى فى دورهم إلى أعلى مزايد ، وبلغ ثمن إصبع لسانت أندرو أربعين جنيها[١٥] . وأدين الرهبان فى والسنجهام بتزييف معجزات ، وألقى تمثال العذراء ، الذى كان يدر عليهم أرباحا ، فى النار . وهدم ضريح سانت توماس بيكيت التاريخى فى كانتربرى ، وأعلن هنرى الثامن أنه فى انتصاره على هنرى الثانى لم يكن قديسا حقا ، وأحرقت المخلفات التى أساءت إلى كوليه ، وتفكه بها إرازموس . ونقلت التحف الثمينة التى وهبها الحجاج الورعون فى خلال ٢٥٠ عاما إلى الخزانة الملكية (١٥٣٨) ، ولبس هنرى بعد ذلك فى إبهامه خاتما محلى بياقوتة كبيرة أخذت من الضريح . وسعت بعض الأديار إلى خداع القدر بإرسال المال والهدايا لكرومويل ، وقبل كرومويل كل شىء وأغلقها جميعاً . وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل الأديار وكل الأملاك الديرية ما عدا كنائس دير الكاتدرائية قد انتقلت إلى الملك .

وعلى الجملة فقدأغلق ٥٧٨ ديرا للرهبان وحوالى ١٣٩ ديراللراهبات ، واشتت ٦٥٢١ راهبا أو أخا و ١٥٦٠ راهبة . وتخلى حوالى خمسين راهبا وراهبتان من هؤلاء عن الرداء الدينى ، بيد أن الكثيرين توسلوا أن يسمح لهم بمتابعة حياتهم التى ألفوها فى الدير فى مكان آخر[١٦] . وفقد حوالى ١٢٫٠٠٠ شخص ، كانت الدور الدينية تستخدمهم فيما مضى أو كانوا يعتمدون عليها فى معيشتهم ، وظائفهم أو مخصصاتهم من الصدقات . وكانت الأراضى والمبانى المصادرة تدر دخلا سنويا قدره حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه

(٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ دولار ؟) ، غير أن عقود البيع التى أبرمت سريعا خفضت الدخل السنوى للأملاك بعد التأميم إلى حوالى ٠٠٠ر٣٧ جنيه ، ولا بد أن يضاف إلى هذا المبلغ ٠٠٠ر٨٥ جنيه من المعدن الثمين المصادر ، ومن ثم قد يبلغ ما حصل عليه هنرى إبان حياته من جملة الأسلاب والدخل حوالى ٥٠٠ر٤٢٣ر١ جنيه[١٧].

وكان الملك سخيا بهذه الأسلاب . فقد وهب بعض هذه الممتلكات — ومعظمها باعه بأسعار بعد مساومة — لنبلاء صغار أو مواطنين أحرار كبار — تجار أو محامين — ممن أيدوه أو وجهوا سياسته . وتسلم كرومويل أو اشترى ستة أديار لها دخل سنوى قدره ٢٢٩٣ جنيها ، وتسلم ابن أخيه سير رتشارد كرومويل سبعة أديار تدر دخلا قدره ٢٥٥٢ جنيها[١٨] وكانت هذه أصل الثروة التى جعلت من أوليفر الحفيد الثانى لرتشارد رجلا من رجال الثروة المادية والنفوذ فى القرن التالى . وذهبت بعض الأسلاب لبناء سفن وحصون وموانٍ وبعضها ساعد فى تمويل الحرب وذهب بعضها إلى القصور الملكية فى وستمنستر وتشلسى وهامبتون كورت ، وفقد الملك بعضها فى لعب النرد[١٩] . وأعيدت ستة أديار إلى الكنيسة الانجليكانية لتستخدم كراسى أسقفية ، وخصص مبلغ صغير لمواصلة أعمال البر العاجلة التى كان يقدمها فيما سبق الرهبان والراهبات ؛ وأصبحت الأرستقراطية الجديدة التى نشأت بفضل هدايا هنرى وعقود البيع التى أبرمها ، عضدا قويا للعرش التيودورى ، ودعامة للمصلحة الاقتصادية ضد أى عودة للكاثوليكية . وقد أبادت الأرستقراطية الإقطاعية القديمة نفسها ، أما الأرستقراطية الجديدة ، التى تأصلت جذورها فى التجارة والصناعة ، فإنها غيرت طبيعة الأشراف من السلبية المحافظة إلى عمل إيجابى ، وصبت دما جديدا وطاقة جديدة فى الطبقات العليا بإنجلترا . ولعل هذا — والأسلاب كان مصدر خصب العهد الإليزبيثى .

وكانت نتائج التحلل معقدة بلا حدود . ولعل الرهبان المتحررين قد أسهموا بدور متواضع أو لم يسهموا فى زيادة عدد سكان إنجلترا من حوالى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ عام ١٤٨٥ إلى حوالى ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ عام ١٥٤٧[٢٠] وساعدت زيادة مؤقتة فى عدد المتعطلين على تخفيض أجور الطبقات الدنيا جيلا كاملا ، وأثبت ملاك الأراضى الجدد أنهم أكثر جشعا من القدامى[٢١].

وكانت النتيجة من الناحية السياسية هى زيادة سلطة الملكية ، وفقدت الكنيسة آخر معقل للمقاومة ، وكانت النتائج من الناحية الأخلاقية ازدياد الجرائم والخصاصة والتسول وتقلص الموارد اللازمة لأعمال البر[٢٢]. وأغلق ما يزيد على مائة مستشفى تديرها الأديار ، وقامت السلطات البلدية بتزويد قلة منها بالحاجة . أما المبالغ التى أوصت بها الأرواح الخائفة أو الموقرة للقساوسة، كتأمين ضد نار جهنم أو نار المطهر ،فقد صودرت على أساس أن هناك أملا فى ألا يلحق الموتى أذى ، وانتزع الملك[٢٣]. ٢٣٧٤ من الهبات الموقوفة على إقامة قداسات للأرواح . وكانت أقسى النتائج فى مجال التعليم . فقد كانت أديار الراهبات تهيء مدارس للبنات ، وكانت الأديار والقساوسة المشرفون على الهبات المخصصة للقداسات قد حافظت على مدارس وتسعين كلية للبنين ، وحلت كل هذه المؤسسات .

وبعد أن ذكرنا الحقائق بإنصاف لا يشوبه إلا تحامل يصدر عن اللا وعى ، فإنه يسمح للمؤرخ بإضافة تعليق افتراضى يعترف به . إن جشع هنرى وجوركرومويل هما اللذان ساعدا مدى جيل على تخفيض حتمى فى عدد الأديار الإنجليزية وإضعاف نفوذها . وكانت هذه الأديار قد قامت يوما بعمل يدعو للإعجاب فى مجالات التعليم والبر والعناية بالمرضى فى المستشفيات ، بيد أن إسباغ الصفة العلمانية على هذه الوظائف كان يسير قدماً فى سائر أنحاء غربى أوروبا ، حتى فى المناطق التى كانت تغلب عليها

الكاثوليكية : وكان ضعف الغيرة الدينية والنزعات الدنيوية الأخرى تحتجز تدفق المترهبين على المؤسسات الديرية . وانخفض عدد هؤلاء المترهبين إلى حد بدا أنه لا يتناسب مع فخامة مبانيهم والدخل الذى تدره أراضيهم . ومما يؤسف له أن الموقف قوبل بالاندفاع الفجائى الفظ من كرومويل ، بدلا من خطة ولزى الإنسانية ، والأسلم ، وتنحصر فى تحويل المزيد من الأديار إلى كليات .

وكانت الوسيلة التى لجأ إليها هنرى هنا ، كما فعل من قبل فى سعيه للحصول على ابن ، أسوأ من الهدف الذى ينشده . لم يكن هنا بأس فى وضع نهاية ، إلى حد ما ، لاستغلال ورع ساذج بغش يتظاهر بالورع . وإنا لنعرب عن عظيم أسفنا لما حدث للراهبات اللاتى كن فى الغالب الأعم يشقين قياما بالواجب فى إقامة الصلوات والتدريس وأعمال البر ، بل إن المرء الذى لا يستطيع أن يشاركهن إيمانهن الذى لا يتزعزع يجب أن يكون شاكرا لأن لهن مثيلات يمددن يد العون مرة أخرى ، بإخلاص يدوم مدى الحياة ، ويلبين حاجة المرضى والفقراء .

٢ — الايرلندى العنيد ١٣٠٠ — ١٥٥٨

برر الملوك الإنجليز سيطرتهم على إيرلندة على أساس أن قوة معادية فى القارة يمكن فى أى لحظة أن تستخدم هذه الجزيرة المخضرة للقيام بهجوم جانبى على إنجلترا ، وأصبح هذا الاعتبار ، بعد حب السلطة ، أشد قوة عندما فشلت إنجلترا البروتستانتية فى كسب إيرلندة إلى صفها من الكنيسة الرومانية . وكان الشعب الإيرلندى ، الذى يعشق البطولة والفوضى والمشهور بالرجولة والعنف ، والموهبة الشاعرية ، والذى يفتقر إلى النضج السياسى ، يقاوم كل يوم خضوعه لدم أجنبى ولغة دخيلة .

وازدادت سيئات الاحتلال الإنجليزى . وعاد كثير من ملاك الأراضى . الإنجلو — ايرلنديين إلى إنجلترا فى عهد إدوارد الثالث ، ليعيشوا هناك فى يسر على ما تدره إيجارات الأراضى الإيرلندية ، وعلى الرغم من أن المجلس النيابى الإنجليزى ندد مراراً بهذا العمل فإن « ماكية الأرض الغائبة » ازدادت خلال ثلاثة قرون ، لتصبح حافزاً أكبر للثورات الأيرلندية . ومال الإنجليز الذين ظلوا فى إيرلندة إلى الزواج من فتيات إيرلنديات ، وامتزجوا تدريجيا بالدم الإيرلندى ، وألفوا طرق العيش الإيرلندية . وكان المجلس النيابى الإيرلندى ، الذى يسيطر عليه المقيمون الإنجليز ، ويغلب عليه النفوذ الإنجليزى ، تواقا إلى سد هذه البالوعة السلالية فأجاز قانون كلكنى الشهير (١٣٦٦) الذى منع ، مع بعض النصوص السخية التى لا تخلو من حكمة الزواج المختلط أو التربيب أو أى علاقات ألفة أخرى بين الإنجليز والايرلنديين فى إيرلندة وأى حديث بالإيرلندية أو تقليد للعادات الإيرلندية أو ارتداء الزى الإيرلندى بواسطة الإنجليز ، وإلا تعرضوا للسجن وخسارة الممتلكات . ولم يكن يحق لإيرلندى آنذاك أن يستقبل فى أى منظمة دينية إنجليزية ، ولا لمنشدين أو قصاصين إيرلنديين أن يدخلوا بيوتا إنجليزية[٢٤]. وفشل هذا الحظر فقد تألقت الورود الإيرلندية ، وفاقت سلطة القانون واستمر الاندماج السلالى فى تلك المناطق الضيقة مارش أو بوردر أو بيل التى لم يجرؤ الإنجليز على السكنى إلا فيها وحدها(*) .

وكان يمكن إيرلنده إبان حروب الوردتين أن تطرد الإنجليز ، لو أن الزعماء الإيرلنديين اتحدوا ، ولكنهم آثروا النزاع الأخوى ، وشجعهم أحيانا على هذا الذهب الإنجليزى . ووطد هنرى السابع من جديد السلطة

(*) كانت منطقة « بيل » فى عام ١٥٠٠ مقصورة على كونتيات دبلن وميث ولوث وجزء من كيلدار .

الإنجليزية فى منطقة بيل ، ودفع نائبه الإقطاعى سير إدوارد بوينجز فى المجلس النيابى الايرلندى « قانون بوينج » المذل (١٤٩٤) ، ونص على أنه ليس للمجلس النيابى الإيرلندى أن ينعقد المستقبل حتى تكون كل مشروعات القوانين المقدمة له قد وافق عليها الملك والمجلس الخاص فى إنجلترا .

وأصبحت الحكومة الإنجليزية فى إيرلندة ، بعد أن أضعفت إلى هذا الحد ، أشد الحكومات فى العالم المسيحى عجزا وجورا وفسادا . وكانت حيلتها الأثيرة هى تعيين واحد من سنين زعيما إيرلنديا كمندوب لنائب الملك . وتفويضه فى شراء أو إخضاع الباقين . وحقق جيرالد إيرل كلدار الثامن ، الذى عين على هذا النحو ، شيئاً من التقدم فى هذا الاتجاه وخفف من حدة التمرد بين القبائل ، مما ساعد المظالم الإنجليزية على إبقاء إيرلندة ضعيفة وفقيرة . وعند وفاته (١٥١٣) عين ابنه جيرالد فيتزجيرالد ليخلفه كنائب . وكان لهذا الإيرل التاسع لكلدار سير حياة جارية نمطية للوردات الإيرلنديين . واتهم بالتآمر مع إيرل أف دزموند بالسماح لقوة فرنسية بالنزول إلى أرض إيرلندة ، فاستدعى إلى إنجلترا وحكم عليه بالسجن فى البرج . وأطلق هنرى الثامن سراحه ، وعينه من جديد نائباً لدى وعده بمساعدة القضية الإنجليزية بإخلاص . وسرعان ما أتهم بسوء الحكم وأحضر إلى إنجلترا مرة أخرى وأرسل من جديد إلى البرج حيث مات خلال عام (١٥٣٤) ، وأعلن ابنه المخلص « سلكن توماس » (توماس الحريرى) فتز جيرالد على الفور الحرب على الإنجليز ، وحارب بشجاعة وتهور أربعة عشر شهرا وقهر وشنق (١٥٣٧) .

وفى هذا الوقت كان هنرى الثامن قد أكمل إجراءات انفصاله عن الكنيسة الرومانية . وأمر المجلس النيابى بقحة تميز بها أن يعترف به رئيساً للكنيسة فى إيرلندة ، وكذلك فى إنجلترا ، فأذعن ، وطلب من جميع الموظفين

الحكوميين فى إيرلندة أن يحلفوا يمينا بقبول سيادته الكنسية ، وفرض أن تدفع كل ضرائب العشور الكنسية منذ ذاك إلى الملك . ودخل المصلحون الدينيون إلى الكنائس فى منطقة النفوذ الإنجليزى فى إيرلندة وحطموا المخلفات والتماثيل الدينية . وأغلقت الأديار جميعاً ما عدا قلة فى مكان قصى ، واستولت الحكومة على ممتلكاتها ، وطرد رهبانها على أن يمنحوا معاشا إذا لم يثيروا ضجيجا . ووزعت بعض الأسلاب على الزعماء الإيرلنديين وقبل معظمهم ، بعد أن رشوا على هذا النحو ، ألقاب نبلاء من الملك الإنجليزى ، واعترفوا بسيادته الدينية وأنكروا قسمهم للبابا (١٥٣٩)[٢٥] . وألغى نظام العشيرة ، وأعلن أن إيرلندة مملكة ، وهنرى ملك لها (١٥٤١) .

كان هنرى منتصرا ولكنه فان ، ومات فى خلال خمس سنوات من انتصاره . وبقيت الكاثوليكية فى إيرلندة . واعتبر الزعماء مروقهم حادثا عابرا فى السياسة وظلوا كثالكة (كما فعل هنرى) ، اللهم إلا فيما يختص بتجاهل البابا ، وظل القساوسة الذين أيدوهم فى خدماتهم الدينية وتقبلوها محافظين تماما فى العقيدة . ولم تتعرض عقيدة الشعب لأى تغيير أو بالحرى اكتسبت حيوية جديدة ، لأنها حافظت على عزة القومية فى وجه ملك ينزع إلى الانشقاق ، وفيما بعد أمام ملكة بروتستانتية . وأصبح الكفاح من أجل الحرية أشـــد مما كان عليه من قبل ، لأنه كان وقتذاك يدور لصالح الجسد والروح .

٣ – ملك من قمة رأسه إلى اخمص قدميه

كان هنرى فى عام ١٥٤٠ أعظم ملك يحكم حكما مطلقا عرفته إنجلترا . وكان النبلاء النورمنديون القدامى الذين كبحوا جماح وليام الفاتح ، يخضعون صاغرين فى جبن ، ونسوا تقريباً العهد الأعظم (الماجناكارتا) الذى نص

على امتيازاتهم . أما النبلاء الجدد ، الذين أثروا من التجارة وأنعم عليهم الملك ، فقد وقفوا حاجزا أمام الثورات الأرستقراطية أو الدينية . وأذعن له مجلس العموم الذى كان يوما الحامى الغيور للحريات الإنجليزية ، وكان وكلاء الملك وقتذاك قد اختاروه بعناية ، وخول تقريباً سلطات لم يسبق لها مثيل : الحق فى مصادرة الأملاك وتعيين من يشاء خلفا له ، وتحديد العقيدة المحافظة والهرطقة ، وإرسال رجال للإعدام بعد محاكمة مزيفة ، وإصدار إعلانات لها سلطة القوانين الصادرة من المجلس النيابى « كانت روح الاستقلال الإنجليزية فى عهد هنرى تشتعل خافتة فى وقبها وحب الحرية غدا فاترا[٢٦] » . وقبل الشعب الإنجليزى هذا الحكم المطلق بسبب الخوف من ناحية ، ولأنه خيل إليه أنه البديل لحرب ورد أخرى . كان النظام أهم من الحرية .

وأغرت نفس البديلات الإنجليز بتحمل سيادة هنرى على الشئون الكنسية ، وعندما رأى هنرى أن الكثالكة والبروتستانت على استعداد لأن يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ورأى أن المواطنين الكاثوليك والسفراء والحكام يتآمرون ضده إلى حد الغزو تقريباً ، اعتقد أن النظام لا يمكن أن يستتب فى الحياة الدينية فى إنجلترا إلا بتحديد الملك للعقيدة والشعيرة ، وقبل ضمنا حالة السلطة فى الدين التى كانت من صنع الكنيسة . وحاول أن يملى من يجب أن يتلو الكتاب المقدس . وعندما صادر الأساقفة ترجمة تندال للكتاب المقدس ، أمرهم بإعداد ترجمة أفضل ، وعندما توانوا طويلا سمح لكرومويل بتفويض مايلز كوفردال فى إعداد ترجمة جديدة . وظهرت أول نسخة كاملة بالإنجليزية فى زيورخ عام ١٥٣٥ . ونشرت عام ١٥٣٩ طبعات منقحة ، وأمر كرومويل بأن يوضع هذا « الكتاب المقدس العظيم » فى كل كنيسة إنجليزية . ومنح هنرى « بدافع من الكرم والطيبة الملكيين » المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس فى بيوتهم ، وسرعان ما أصبح تقليدا

يوميا عند كل أسرة إنجليزية تقريبا . ولكنه كان ينبوعا للشقاق والإلهام أيضا ، فقد أنبتت كل قرية مفسرين هواة ، أثبتوا أى شيء أوعكسه بما ورد فى الكتاب المقدس ، وتجادل المتعصبون حوله فى الكنائس ، وتعرضوا لضربات بشأنه فى الحانات[٢٧] . ومنح بعض الرجال الطموحين زوجاتهم أوامر قضائية بالطلاق ، أو احتفظوا بزوجتين فى آن واحد ، بحجة أن هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس[٢٨] . وأسف الملك لحرية التلاوة التى منحها للناس ، وعاد إلى مظاهرة الكاثوليك . وحث المجلس النيابى عام ١٥٤٣ على سن قاعدة بأنه لا يجوز قانونا حيـازة الكتاب المقدس إلا للنبلاء والملاك ، ولا يجوز لغير القساوسة الوعظ به أو الجدال فيه علنا[٢٩] .

وكان من الصعب على الناس — وحتى على الملك — أن يعرف ما يدور فى ذهن الملك . واستمر الكثالكة يرسلون إلى المحرقة أو المقصلة بسبب إنكارهم سيادته فى الشئون الكنسية ، والبروتستانت بسبب جدلهم فى اللاهوت الكاثوليكى ؛ وعُلِّق فورست وهو رئيس شعبة المتشددين من الفرنسسكان المتثلين فى جرينوتش ، رفض أن ينكر سلطة البابا ، على نار وهو مكبل بالأغلال ، وشوى ببطء حتى مات (٣١ مايو سنة ١٥٣٧[٣٠]) .

وقبض على جون لامبرت ؛ وهو بروتستانتى بسبب إنكاره وجود المسيح حقيقة فى القربان المقدس ، وحاكمه هنرى بنفسه ، وحكم عليه هنرى بالموت وأحرق فى سمثفيلد (١٦ نوفمبر سنة ١٥٣٨) ومع تزايد نفوذ ستيفن جاردنر أسقف ونشستر مال هنرى أكثر وأكثر نحو العقيدة المحافظة . وفى عام ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابى والمجمع الاكليروسى بـ « قانون المواد الستة » موقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى موضوعات الحضور الحقيقى للمسيح وعزوبة رجال الاكليروس وأقسام رهبان الدير والقداسات من أجل

المونى ، وضرورة الاعتراف السرى أمام قسيس وكفاية تناول القربان المقدس من ضرب واحد . وكل من ينكر شفاها أو كتابة ، الحضور الحقيقى للمسيح ، يتعرض للموت حرقا دون أن تتاح له فرصة لإنكار ما قال أو للاعتراف أو الغفران ، وكل من ينكر أية مادة أخرى يجب أن تصادر أملاكه عند ارتكابه الذنب لأول مرة وتزهق روحه عند ارتكابه له مرة أخرى .

وأعلن أن كل الزيجات التى عقدها القساوسة حتى وقتذاك باطلة ، وأى قسيس يحتفظ بزوجته بعد ذلك يعد مرتكبا لجريمة الخيانة العظمى(٣١) . وكان الناس لا يزالون محافظين من حيث العقيدة ، فوافقوا على هذه المواد ، غير أن كرومويل بذل جهده لتخفيفها عند التطبيق ، وفى عام ١٥٤٠ تحول الملك مرة أخرى ، فأمر بوقف المطاردة بموجب هذا القانون . . . ومع ذلك فإن الأسقفين لاتيمر وشاكستون ، اللذين لم يوافقا على مواد القانون ، عزلا وسجنا . وفى يوم ٣٠ يوليو سنة ١٥٤٠ تعرض ثلاثة من البروتستانت وثلاثة من الكاثوليك للموت فى سمثفيلد فى وفاق تم رغم إرادتهم ، أما البروتستانت فلأنهم حاولوا التشكيك فى بعض العقائد الكاثوليكية ، وأما الكثالكة فلأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة الملك على الشئون الكنسية(٣٢) .

وكان هنرى قويا شديداً فى الحكم وفى اللاهوت ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بحاشية كثيرة العدد ، وقضى وقتاً طويلا فى التهام الطعام ، فإنه تعب كثيراً فى الاضطلاع بأعباء الحكم . واختار أعواناً مهرة جائرين مثله . وأعاد تنظيم الجيش ، وجهزه بأسلحة جديدة ، ودرس آخر ما توصل إليه الخبراء فى التكتيك والاستراتيجية . وبنى أول أسطول بحرى ملكى دائم طهر السواحل والقناة من القراصنة ، وأعد العدة للانتصارات البحرية التى تمت فى عهد اليزابث ، ولكنه فرض على شعبه مكوساً إلى الحد الذى

يحتمله ، وخفض قيمة العملة مراراً ، وصادر الأملاك الخاصة بحجج واهية ، أو طلب « اشتراكات » ، وأنكر ديونه ، واقترض من آل نوجر ، وروج الاقتصاد الإنجليزي مؤملا أن يعود عليه بدخل إضافي .

وكانت الزراعة في تدهور ، وكان رق الأرض لا يزال منتشراً . ولم ينقطع تسوير الأراضي لترعى فيها الأغنام وضاعف ملاك الأراضي الجدد ، الذين لم تصدهم تقاليد الإقطاع ، إيجارات الأراضي مرتين أو أربع مرات على مستأجريهم ، بحجة ارتفاع الأسعار ، ورفضوا تجديد عقود الإيجار المنتهية « وشق آلاف من المستأجرين الذين جردوا من أراضيهم المستأجرة طريقهم إلى لندن وطرقوا بشدة أبواب المحاكم لرفع الظلم ، وهو أمر لم يستطيعوا الحصول عليه[٣٣] » .

ورسم مور الكاثوليكي صورة مؤثرة للفلاحين المتسولين[٣٤] ، وندد لاتيمر البروتستانتي بـ « اللوردات الحديثي النعمة الذين يرفعون الإيجارات » ، ورأى مثل لوثر ماضياً مثالياً كاثوليكياً عندما كانت أفئدة الرجال مفعمة بالشفقة والحنان[٣٥] . « وفرض المجلس النيابي عقوبات صارمة على الضرب في الآفاق والتسول . وكان قانون ١٥٣٠ — ٣١ يفرض على كل من يتسول ، ويكون قادراً جسمانياً على العمل ، سواء كان رجلا أو امرأة ، أن يشد وثاقه إلى عربة وهو عار ويجلد بالسياط في سائر أنحاء المدينة إلى أن يتلطخ جسده بالدم » . وإذا عاد لارتكاب الذنب مرة أخرى تقطع أذنه ، وإذا ارتكب مرة ثالثة تقطع أذنه الأخرى ، ومهما يكن من أمر فإن ارتكاب الذنب للمرة الثالثة كان يعرض المتسول للإعدام[٣٦] . ووجد الفلاحون المبعدون تدريجاً عملا في المدن وخففت الإغاثة المقررة الفقراء من وقع الخصاصة . وارتفعت إنتاجية الأرض في آخر الأمر بالزراعة على نطاق واسع بيد أن عجز الحكومة عن تخفيف التحول كان بمثابة فشل إجرامي قاس للحنكة السياسية .

وأسبغت الحكومة نفسها الحماية على الصناعة بالتعريفات الجمركية : وأفاد أصحاب المصانع من رخص أجر العمل ، الذى تيسر بهجرة الفلاحين للمدن ، وأعادت الطرق الرأسمالية تنظيم صناعة النسيج ، ورفعت طبقة جديدة من الأثرياء ، لتقف إلى جانب التجار فى مساندة الملك . وحل القماش محل الصوف باعتباره أهم صادرات إنجلترا . وكانت معظم الصادرات من الضروريات التى تنتجها الطبقة الدنيا ، وكانت معظم الواردات من سلع الترف التى لا يحصل عليها إلا الأغنياء[٣٧] .

وأفادت التجارة والصناعة من قانون صدر عام ١٥٣٦ يغير أسعار الفائدة بواقع ١٠ فى المائة . وكان ارتفاع الأثمان السريع فى صالح المشروع وبمثابة عقاب حكم به على العمال والفلاحين واللوردات الإقطاعيين من النمط القديم . وارتفعت الإيجارات إلى ١٠٠٠ فى المائة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٧٦[٣٨] . وارتفعت أسعار الطعام من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ فى المائة ، وارتفعت الأجور بمقدار ١٥٠ فى المائة[٣٩] . وكتب توماس ستار فى حوالى عام ١٥٣٧ : « أن الفقر يسود الآن إلى حد يقف فيه أمام أى خير حقيقى ومزدهر للجماعة[٤٠] » .

ووجد أعضاء الطوائف الحرفية شيئاً من الفرج فى التأمين والمساعدة المتبادلة ، زودهم بما يسد رمقهم ، أمام الفقر والنار ، غير أن هنرى صادر عام ١٥٤٥ أملاك الطوائف الحرفية[٤١].

٤ — التنين يتقاعد

أى ضرب من الرجال كان هذا الملك الغول ؟ لقد رسم هولبين الصغير ، الذى جاء إلى إنجلترا حوالى عام ١٥٣٦ ، صوراً شخصية لهنرى وجين سيمور . فالكساء الفاخر يكاد يخفى بدانة الملك ، والأحجار الكريمة

وفرو الفاقم ، واليد التى تقبض على سيف محلى بالجواهر ، تكشف عن استعلاء السلطة وزهو رجال لم يجد من يقاومه ، والوجه العريض المكتنز ينم على ميل شديد للذات الحسية ، والأنف دعامة قوة ، والشفتان المضمومتان والعينان القاسيتان تنم على طاغية مستبد سريع الغضب بارد إلى حد القسوة . وكان هنرى وقتذاك فى السادسة والأربعين ، فى أوج مجده السياسى ، ولكن بدأ الضعف يدب فى جسده . وقدر له أن يتزوج ثلاثا مرة أخرى ، ومع ذلك لم يرزق بعدها بذرية . ولم ينجب من زوجاته الست سوى ثلاثة أطفال ، عاشوا إلى ما بعد سن الطفولة . وأحد هؤلاء الثلاثة ، وهو إدوارد السادس ، كان معتل الصحة ، ومات فى الخامسة عشرة من عمره ، وظلت مارى عاقراً بائسة عندما تزوجت ، أما اليزابث فإنها لم تجرؤ قط على الزواج ، وربما كان ذلك لشعورها بوجود عائق جسمانى . وأصابت لعنة شبه العقم أو العيب الجسمانى أعظم الأسر الحاكمة اعتزازاً بنفسها فى التاريخ الإنجليزى .

وكان هنرى حاد الذهن وحكمه على الرجال يدل على الفراهة ، وشجاعته عظيمة ، وقوة إرادته هائلة . وكان سلوكه فظا ، ووساوسه تبددت مع شبابه . ومهما يكن من أمر فإنه ظل مع أصدقائه شغوفاً كريماً ، ولطيفاً بشوشاً ، قادراً على كسب ودهم وإخلاصهم . وقد ولد ليكون ملكاً ، وأحيط منذ ولادته بالخضوع والملق ، ولم يجرؤ على معارضته إلا قليلون ، وقد دفنوا بعد أن قطعت رءوسهم . وكتب مور من سجن البرج : « مما يؤسف له كثيرا ولا شك أن نرى أى أمير مسيحى على استعداد لأن يلبى رغباته بوساطة مجلس يركع أمامه ، وبوساطة رجال دين ضعاف . . . والملق ، فاشتط فى ظلم الناس بصورة مخجلة(٤٢) » ، كان هذا هو المصدر الخارجى لنكوص هنرى على عقبيه فى الخلق — فقد أدى عدم وجود مقاومة

لإرادته ، بعد وفاة مور ، إلى أن يصبح خائرا معنوياً وبدنياً . ولم يكن أكثر تهاوناً فى المجلس من فرانسيس الأول ويبدو أنه بعد حادث آن بولين قد أصبح أشد تحمساً للزواج بواحدة ، على التوالى ، من شارل الخامس . ولم يكن الانحلال الجنسى أسوأ نقيصة فيه . وكان نهمه للمال لا يقل عن نهمه للسلطة ، وقلما سمح لاعتبارات الإنسانية أن تقف فى وجه استيلائه على الأموال : وليس من شك فى أن استعداده المقسم بالجحود لقتل النساء اللاتى أحبهن أو الرجال ، أمثال مور وكرومويل ، الذين خدموه بإخلاص سنوات طوال ، أمر خسيس ، ومع ذلك يمكن القول أنه لم يسفك من الدماء عشر ما سفكه شارل التاسع حسن النية ، عندما أجاز مذبحة سانت بارتلوميو ، أو شارل الخامس عندما صفح عن نهب روما ، أو الأمراء الألمان عندما حاربوا ثلاثين عاماً للحصول على حقهم فى تحديد المعتقدات الدينية لرعاياهم .

والأصل الداخلى لفساده هو ما تعرضت له إرادته من إحباط متكرر فى الحب والأبوة . فقد خاب أمله طويلا فى الحصول على ابن ، وصد بطريقة خادعة فى طلبه المعقول إعلان بطلان زواجه الأول ، وخدعته (كما اعتقد) الزوجة التى خاطر من أجلها بعرشه ، وفقد سريعاً الزوجة الوحيدة التى أنجبت له وريثاً ، وخدعته فى الزواج امرأة أجنبية تختلف عنه تماماً فى اللغة والمزاج ، وخانته (كما ظن) زوجة خيل إليه أنها ستحقق له آخر الأمر بيتاً تخيم عليه السعادة — ها هو ملك كان يملك إنجلترا بأسرها ، ولكنه حرم من المباهج العائلية التى يستمتع بها أبسط زوج فى مملكته ، وكان يعانى من ألم متقطع بسبب قرحة فى ساقه ، وكافح الثورات والأزمات فى سائر مدة حكمه ، واضطر فى كل لحظة تقريباً أن يتسلح لصد الغزو والخيانة والاغتيال — فكيف كان فى وسع رجل مثل هذا أن ينمو ويصبح سوياً ، أو يتحاشى الفساد والتورط فى الشك والدهاء

والقسوة ؟ وكيف يتأتى لنا ، نحن الذين نغضب من وخز محنة نتعرض لها ، أن نفهم رجلا جمع فى عقله وفى شخصه عاصفة الإصلاح الدينى الإنجليزى وثقله ، وحرم شعبه بخطوات محفوفة بالمخاطر من ولاء جذوره عميقة ، ومع ذلك لا بد أنه كان حرياً بأن يشعر فى روحه المنقسمة بدهشة مفتتة — أحرر أمة أو مزق شمل المسيحية ؟

كان الوسط الذى عاش فيه هو الخطر وكذلك السلطة . ولم يكن فى وسعه قط أن يعرف المدى الذى يصل إليه أعداؤه ، أو متى ينجحون . وفى عام ١٥٣٨ أمر بالقبض على سير جيوفرى بول شقيق ريجينالد . وخشى جيوفرى أن يتعرض للتعذيب ، فاعترف بأنه هو وشقيق آخر يدعى لورد مونتاجو ، وسير إدوار فيفيل والمركيز والمركيزة أف إكستر كانوا يتبادلون رسائل تنطوى على خيانة الدولة مع الكاردينال . وظفر جيوفرى بالصفح أما إكستر ومونتاجو وآخرون عديدون فقد شنقوا وشطروا إلى أربعة أقسام (١٥٣٨ — ٣٩) ، وأما ليدى إكستر فقد سجنت ، ووضعت الكونتيسة أف سالزبورى ، والدة بول وإخوته الأشقاء تحت الحراسة . وعندما زار الكاردينال شارل الخامس فى طليطلة (١٥٣٩) يحمل له طلبا لا طائل تحته من بول الثالث يرجو فيه من الإمبراطور أن ينضم إلى فرانسيس فى تحريم التجارة مع إنجلترا[٤٣] ، انتقم هنرى بالقبض على الكونتيسة ، التى كانت وقتذاك فى السبعين من عمرها ، ولعله كان يأمل بالاحتفاظ بها فى البرج ، أن يكبح جماح الكردينال للغزو . كان كل شىء عادلا فى لعبة الحياة والموت .

وبعد أن ظل هنرى عامين دون أن يتزوج أمر كرومويل أن يبحث له عن حلف بالمصاهرة يقوى سلطانه ضد شارل . فنصح كرومويل بالزواج من أن أخت زوجة الأمير المختار لسكسونيا ، وشقيقة الدوق أ ف كليفس الذى كان وقتذاك على خلاف مع الإمبراطور . وآلى كرومويل على نفسه

أن يتم هذا الزواج الذى كان يعلق عليه آمالا بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية آخر الأمر ، وبهذا يجبر هنرى على إلغاء المواد الست المناهضة للوثر . وأرسل هنرى المصور هولبين لرسم صورة للسيدة ، ولعل كرومويل أضاف بعض التعليمات للفنان ، وجاءت الصورة ، ورأى هنرى أنها محتملة ، فهى تبدو حزينة ، لا تشجع فى الصورة التى رسمها هولبين ، والمعلقة فى متحف اللوفر ، ولكن تقاطيعها ليست أقل وضوحاً من جين سيمور التى رققت لحظة من قلب الملك .

وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها ، ووقعت أنظار هنرى عليها (أول يناير سنة ١٥٤٠) مات الحب لدى أول نظرة . وأغمض عينيه وتزوجها ، وتضرع مرة أخرى أن يرزقه الله بابن يوطد به وراثة العرش فى آل تيودور ، إذ كان مظهر الأمير إدوارد وقتذاك يدل على ضعفه الجسمانى . ولكنه لم يصفح قط عن كرومويل .

وأمر بالقبض على وزيره الذى أفاده أكثر من أى وزير آخر بعد أربعة شهور زاعماً غلطه وفساده . ولم يك يعترض د ، فقد كان كرومويل تابعاً يحظى بأكبر نصيب من الكراهية فى إنجلترا — بسبب أصله ووسائله وخسته وثروته . وطلب فى سجن البرج أن يوقع بيانات يعارض فيها صحة الزواج . وأعلن هنرى أنه لم يكن قد قدم « رضاه الباطنى » عن الزواج ، وأنه لم يدخل بزوجته قط . واعترفت آن بأنها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج ، مقابل معاش يوفر لها سبيل الراحة . وكرهت أن تواجه أخاها ، فاختارت أن تعيش وحيدة فى إنجلترا ، وكان لها عزاء صغير فى أنها دفنت فى مقابر دير وستمنستر عند وفاتها (١٥٥٧) . وقطعت رأس كرومويل يوم ٢٨ يوليو سنة ١٥٤٠ .

وفى اليوم نفسه تزوج هنرى من كاثرين هوارد ، البالغة من العمر

عشرين عاماً ، وهى من أسرة كاثوليكية لا تحيد عن عقيدتها قيد أنملة ، وكان هذا كسباً للحزب الكاثوليكى . وكف الملك عن أن يتقرب من البروتستانت بالقارة ، وعقد صلحاً مع الإمبراطور . وعندما شعر بأنه أصبح أخيراً آمناً فى ذلك الحمى تحول بفكره شمالا معلقاً الآمال على ضم اسكوتلنده ، وبذلك يكمل دائرة الحدود الجغرافية لبريطانيا ويضمن لها الأمن . وصرفته عن هذا ثورة أخرى فى شمالى إنجلترا . وقبل أن يرحل لقمعها وإخماد مؤامرة دبرت وراء ظهره ، أمر بإعدام جميع المسجونين السياسيين فى البرج ومنهم الكونتيسة أف سالزبورى (١٥٤١) . وانهارت الثورة وعاد هنرى إلى هامبتون كورت يتخبط فى الهموم ، لينشد السلوى عند ملكته الجديدة .

وكانت كاثرين الثانية أجمل زوجاته ، وتعلم الملك كيف يحبها تقريباً ، وهو يعتمد أكثر من قبل على الخدمات الجديرة بزوجة ، وحمد الله على الحياة الطيبة التى كان يعيشها ، والتى راوده الأمل فى أن يحققها تحت إشرافها ، ولكن فى اليوم الذى ردد فيه تسبيحة الشكر هذه (٢ نوفمبر سنة ١٥٤١) سلمه رئيس الأساقفة كرانمر وثائق تدل على أن كاترين كانت لها علاقات سابقة للزواج مع ثلاثة خاطبين متعاقبين : واعترف اثنان من هؤلاء وكذلك اعترفت الملكة . وقال السفير الفرنسى فى تقرير له : أن هنرى تملكه حزن شديد ، حتى ساد الاعتقاد بأنه جن[٤٤] . وأمضه الخوف من أن تكون لعنة الله قد حلت بكل زيجاته . وكان يميل إلى الصفح عن كاترين ، ولكن قدم إليه دليل على أنها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك . وأقرت بأنها استقبلت ابن عمها فى جناحها الخاص فى ساعة متأخرة بالليل ، ولكن حدث هذا فى حضور الليدى روشفورد ، وأنكرت أنها ارتكبت أى ذنب وقتها ، أو فى أى وقت منذ زواجها ، وشهدت ليدى روشفورد بصحة هذه البيانات بقدرما وصل إلى علمها[٤٥]. بيد أن المحكمة

الملكية أعلنت أن الملكة مذنبة . وفى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٥٤٢ قطع رأسها فى نفس البقعة التى سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات ، أما عشاقها فقد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة .

وكان الملك وقتذاك رجلا محطماً . وأعيت قرحته طب عصره ، وكان الزهرى الذى لم يشف منه تماماً ينتشر ويعيث فساداً فى هيكله(٤٦). وبعد أن فقد لذة الحياة سمح لنفسه بان يصبح كتلة ضخمة من اللحم ، وكان خداه متهدلين ويكادان يغطيان فكيه ، وكادت عيناه الضيقتان أن تختفيا فى تلافيف وجهه . ولم يكن فى وسعه أن يسير من غرفة إلى أخرى دون أن يستند إلى أحد . وأدرك أنه لن يعيش إلا بضع سنوات فأصدر (١٥٤٣) مرسوماً جديداً يحدد فيه وراثة عرشه : يتولاه أولا إدوارد ثم مارى ثم اليزابث ، ولم يذهب إلى أبعد من ذلك ، لأن من تليهم فى سلسلة النسب هى مارى ستيوارت ملكة اسكوتلنده . وقام بمحاولة لكى ينجب ولداً صحيحاً معافى ، بعد أن حثه مجلسه مراراً فبنى بزوجة سادسة (١٢ يوليو سنة ١٥٤٣) . وكانت كاترين بار قد عاشت بعد وفاة زوجين سابقين ، ومع ذلك فإن الملك لم يعد يصر على الزواج من عذارى . وكانت امرأة على حظ من الثقافة والفطنة ، فقامت برعاية مريضها الملك فى صبر ، وصالحته مع ابنته اليزابث ، التى طال إهماله لها ، وحاولت أن تلطف لاهوته ، وتخفف حماسته للاضطهاد .

ولم تنقطع المشاعل اللاهوتية حتى نهاية حكمه ، فأحرق سنة وعشرون شخصاً بتهمة الهرطقة فى الثمانى السنوات الأخيرة من عهده . وفى عام ١٥٤٣ أبلغ الجواسيس الأسقف جاردنر أن هنرى فيلمر قال : « إذا كان الرب موجوداً حقاً (فى القربان المقدس) فإنى أكون قد أكلت فى حياتى عشرين رباً » ، وأن روبرت تستوود حذر القسيس عند رفع القربان المقدس ، من أن يترك الرب يسقط ، وأن أنتونى بيرسون وصف كل

قسيس يعظ الناس بأى شىء سوى « كلمة الله » — أى الكتاب المقدس — يكون لصاً . وأحرق كل هؤلاء الرجال تنفيذاً لأوامر أصدرها الأسقف الإنجليكانى ، فى مرج أمام القصر الملكى فى وندسور . وانزعج الملك لأنه وجد أن الدليل الذى قدمه شاهد فى هذه القضايا كان قسما زوراً ، وأرسل الجانى الأثيم إلى سجن البرج[٤٧] . وفى عام ١٥٤٦ أدان جاردنر أربعة آخرين ، وأرسلهم إلى المحرقة لإنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان المقدس . وكانت إحداهم امرأة شابة تدعى آن اسكيو تشبثت بهرطقتها طوال خمس ساعات من الاستجواب وقالت فى محاكمتها : « إن ما تسمونه ربكم قطعة من الخبز ، والدليل على ذلك أنكم لو تركتموها فى صندوق لمدة ثلاثة شهور لتعفنت » . وعذبت حتى أشرفت على الموت لكى تكشف عن أسماء هراطقة آخرين ، وظلت صامتة لم تنبس ببنت شفة ، وهى تتوجع ، وسارت إلى حتفها وهى تقول : « إننى سعيدة كواحدة كتب عليها أن تتجه للسماء[٤٨] » . ولم يكن للملك دور فعال فى هذه المطاردات غير أن الضحايا استغاثوا به دون جدوى .

واشتبك عام ١٥٤٣ فى حرب مع اسكتلنده و « وأخيه المحبوب » فرانسيس الأول ، وسرعان ما وجد نفسه متحالفا مع عدوه القديم شارل الخامس ، ولكى يمول حملاته طالب رعاياه بتقديم « قروض » جديدة ، وامتنع عن سداد قروض عام ١٥٤٢ وصادر الهبات للجامعات[٤٩] . وحمل إلى ميدان القتال ليشترك فيها شخصياً وأشرف على حصار بولونيا والاستيلاء عليها . وغزت جيوشــه اسكتلنده ، وهدمت أديار ملروز ودرايبورج وخمسة أديار أخرى ، ولكنها هزمت هزيمة منكرة فى أنكرم مور (١٥٤٥) ، وأبرم اتفاق فيه فائدة مع فرنسا (١٥٤٦) ، واستطاع الملك أن يموت فى سلام .

وكان وقتذاك ضعيفا واهناً إلى حد أن الأسر النبيلة أخذت تتنازع

فيما بينهما على من تكون له الوصاية على إدوارد الصغير . وكان إيرل أف سورى ، وهو شاعر ، واثقا أن أباه الدوق أف يورك سوف يكون وصيا إلى حد أنه اتخذ درعا وضع عليه شارة لا تصلح إلا لولى العهد، وقبض هنرى عليهما معا فاعترفا بأنهما مذنبان وقطع رأس الشاعر فى التاسع من يناير عام ١٥٤٧ ، أما الدوق فقد سجل فى قائمة انتظار الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد السابع والعشرين فورا .

ولكن الملك مات فى اليوم الثامن والعشرين . وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه عاش عمره عشرات المرات . وترك مبلغا كبيرا . يدفع لإقامة قداسات لكى ترقد روحه فى اطمئنان .

وقد دام عهده سبعة وثلاثين عاما ، حول إنجلترا إلى بلاد أخرى أعمق مما كان يتصور أو يشتهى : وفكر فى أن يخلف البابا ، ويترك العقيدة القديمة التى عودت الناس على القيود الأخلاقية والخضوع للقانون دون أن يمسها بتغيير ، ولكن تحديه للبابوية الذى صادفه التوفيق ، وتشتيته السريع للرهبان والمخلفات ، وإذلاله المتكرر لرجال الإكليروس ، ونزعه لملكية الكنيسة وإسباغ الصفة العلمانية على الحكومة ، كل ذلك أضعف الهيبة الكنسية والسلطة الدينية إلى حد كبير ، مما أدى إلى حدوث التغييرات اللاهوتية التى أعقبت ذلك فى عهدى إدوارد واليزابث . كان الإصلاح الدينى الإنجليزى أقل اعتمادا على العقيدة من الإصلاح الدينى الألمانى ، ولكنهما أثمرا نفس النتيجة البارزة — وهى انتصار الدولة على الكنيسة . ونجا الشعب من براثن بابا معصوم ليقع فى أحضان ملك مستبد .

ولم يغنم شيئا من الناحية المادية فقد دفع ضرائب العشور كما دفع من قبل ، غير أن صافى الفائض عاد إلى الحكومة . وكان كثير من الفلاحين يزرعون وقتذاك أراضيهم المستأجرة « للورداتهم المحدثين » ، وكانوا

أشد قسوة من الرهبان الذين اتخذ منهم كارلايل مثالا فى كتابه : « الماضى والحاضر » .

ومن رأى وليام كوبت أن « الإصلاح الدينى الإنجليزى » كان فى الحقيقة من وجهه الاجتماعى ، ثورة قام بها الأغنياء ضد الفقراء[٥٠] ، وتشير سجلات الأسعار والأجور إلى أن العمال الزراعيين وعمال المدن كانوا أحسن حالا عند ما ارتقى هنرى العرش منهم عند وفاته[٥١] .

وكانت المظاهر الأخلاقية لهذا العهد سيئة . فقد ضرب الملك للأمة مثلا يدل على فساد خلقه بانغماسه فى علاقات جنسية وبانتقاله الفظ فى خلال بضعة أيام من مصرع زوجة إلى فراش الزوجة التالية وبقسوته الحادثة وعدم أمانته المالية وجشعه المادى . وأشاعت الطبقات العليا الفوضى فى البلاط والحكومة بما دبرته من مؤامرات فاسدة . وتبارى الأعيان مع هنرى فى الاستحواذ على ثروة الكنيسة ، وابتز رجال الصناعة عمالهم وابتزهم الملك : ولم تكمل الصورة باضمحلال البر لأنه بقى هناك الخضوع الحقيرلحاكم مطلق أنانى من شعب يرتجف هلعا . ولم ينقذ الموقف سوى شجاعة الشهداء البروتستانت والكاثوليك وأشرفهم فيشر ومور قد اضطهدا فى دورهما .

وإذا تأملنا بمنظور واسع هذه السنوات المريرة نجد أنها كانت تحمل بعض الثمار الطيبة . ولم يكن هناك بد من الإصلاح الدينى . ولا بد أن نذكر أنفسنا مرارا وتكرارا بهذا ونحن نسجل شيطنة القرن الذى ولد فيه ، كان الانفصام عن الماضى عنيفا ومؤلما ولم يكن فى الإمكان زعزعة قبضته على أذهان الناس إلا بتوجيه ضربة وحشية . وعندما أزيل الكابوس أصبحت روح القومية ، التى سمحت فى أول الأمر بالاستبداد ، حماسة شعبية وقوة خلاقة . وأدى تخلص الشئون الإنجليزية من البابوية إلى ترك الناس تحت رحمة الدولة حينا من الزمن ، ولكنه أجبرهم فى المدى الطويل على الاعتماد

على أنفسهم فى كبح جماح حكامهم والمطالبة ، عقدا وراء عقد ، بقدر من الحرية يكافئ ذكاءهم . ولن تكون الحكومة قوية دائما كما كانت فى عهد هنرى الرهيب ، بل سوف تكون ضعيفة فى عهد ابن عليل وابنة تطوى جوانحها على مرارة شديدة ، ثم تنهض الأمة بعد أن تتفجر طاقتها المنطلقة من عقالها فى عهد ملكة مذبذبة ، ولكنها ظافرة ، وترفع نفسها إلى مرتبة زعامة الفكر الأوروبى . ولو لم تكن إنجلترا قد تحررت على يد أسوأ وأقوى ملوكها فربما كان قدر للعالم أن لا يرى اليزابث وشكسبير .

الفصل السادس والعشرون

إدوارد السادس وماري تيودور

١٥٤٧ – ١٥٥٨

١ – حماية سومرست

لقد رسم هولبين صورة تعد من أعظم صوره على الإطلاق جاذبية للصبي البالغ من العمر عشر سنوات ، والذي ارتقى عرش إنجلترا باسم إدوارد السادس ، وذلك قبل ارتقائه العرش بأربع سنوات : فالنسوة مزينة بالريش ، وشعراً أحمر ، ورداء كله بنيقة من فرو للقاقم ، ووجهاً فيه من الدعة والرقة التي تنم على قلق دفين ، ما يدفعنا إلى الظن بأنه ورث كل هذه الصفات من جين سيمور ولم يرث شيئاً من هنري الثامن . ولعله ورث عنها ضعفها الجسماني الذي جعلها تدفع حياتها فداء له ، ولم يوفق يوما في الحصول على القوة التي تعينه على الحكم . ومع ذلك فإنه قام بالتبعات الملقاة على عاتقه باعتباره أميراً أو ملكاً بإخلاص نبيل ، فدرس اللغات والجغرافية وفن تدبير الحكم والحرب بشغف ، وفرض رقابة دقيقة على كل شئون الدولة التي تصل إليها معرفته ، وأبدى للجميع ما عدا الكثالكة المنشقين شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة ، إلى حد أن إنجلترا ظنت أنها دفنت غولا لتتوج قديساً . وتعلم على يد كرانمر فأصبح بروتستانتيا متحمساً ، ولم يكن من أنصار توقيع أي عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة ، ولكنه كره أن يترك أخته غير الشقيقة ماري تحضر القداس ، لأنه كان يؤمن بإخلاص أن القداس أشد ضروب عبادة الأوثان كفراً . وقبل مسروراً القرار الذي اتخذه المجلس

الملكى باختيار عمه إدوارد سيمور — الذى أنعم عليه حالا بلقب دوق أف سومرست — وصيا عليه ، وقد آثر انتهاج سياسة بروتستانتية .

كان سومرست رجلا على حظ من الذكاء والشجاعة ، ويتصف بتماسك ، يشوبه بعض النقص ، وإن كان فى عصره من السجايا البارزة ، وكان وسيما رقيق الحاشية كريما ، وأخجل بسيرته الطبقة الأرستقراطية الجبانة التى كانت لا تنشد إلا مصلحتها ، وتغفر له كل شىء إلا تعاطفه مع الفقراء . وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بسلطة مطلقة تقريباً ، فإنه قضى على الحكم المطلق الذى أقامه هنرى السابع وهنرى الثامن ، وسمح للناس بحرية أكبر فى التعبير بالكلام ، وخفض عدد الأفعال التى كانت تعد فيما سبق من قبيل خيانة الدولة أو الخيانة العظمى ، واقتضى وجود دليل أقوى للحـــكم بثبوت الجريمة ، وأعاد إلى أرامل المحكوم عليهم صداقهن ، وألغى القوانين الجائرة الخاصة بالدين والتى صدرت فى العهد السابق . وظل الملك رئيساً للكنيسة الإنجليزية . وكان الحديث فى غير خشوع عن القربان المقدس جريمة تستحق العقاب ، بيد أن القانون نفسه أمر بأن يقدم القربان المقدس بالصورتين المعروفتين ، ونص على أن الإنجليزية هى لغة الصلاة ، ورفض المطهر والقداسات للموتى . وعاد البروتستانت الإنجليز الذين كانوا قد فروا من إنجلترا ومعهم لقاح لوثر وزوينجلى وكالفن ، وعندما اشتم مصلحون أجانب عبير الحرية الجديدة ، جاءوا معهم إلى الجزيرة المضطربة بأناجيل متعددة .

وأقبل بيتر مارتير فيرمجلى ومارتن بوسر من ستراسبورج ، وجاء برنادرينو أوكينو من أجسبورج ، وجان لاسكى من إمدن . وعبر المنكرون للتعميد والقائلون بوحدة الكنيسة القناة للتبشير فى إنجلترا بهرطقات أفزعت البروتستانت بقدر ما أفزعت الكاثوليك . وأزالت الجماهير محطمة الأصنام فى لندن الصلبان والصور والتماثيل من الكنائس ، ووعظ نيكولاس ريدلى ، عميد كلية بمبروك ، بجامعة كامبردج بعنف ضد الصور الدينية والماء المقدس ،

ولكى يتفوق عليهم جميعاً رئيس الأساقفة كرانمر « أكل اللحم علنا فى الصوم الكبير ، وهو أمر لم يشهده أحد قط من قبل مذ أصبحت انجلترا بلدا مسيحياً[1] » . ورأى المجلس الملكى أن هذا قد تجاوز الحد ، ولكن « ومرست تغلب عليه ، وأطلق الحرية للإصلاح الدينى » وأصدر المجلس النيابى (١٥٤٧) برئاسته أمراً بنزع كل صورة على جدار كنيسة أو نافذتها تشيد بذكر نبى أو حوارى أو قديس « حتى لا تبقى هناك أى ذكرى له نفسه » . وحطم معظم الزجاج الملون فى الكنائس وسحقت أغلب التماثيل ، واستبدل بالصلبان شعارات ملكية ، واتخذت الجدران المبيضة بالكلس والنوافذ ذات الزجاج الأبيض لونها من ديانة إنجلترا .

وكان فى كل محلة كفاح مرير من أجل فضة الكنيسة وذهبها ، واستولت الحكومة عام ١٥٥١ على ما تبقى . وبقيت تقريبا كاتدرائيات القرون الوسطى الفخمة .

وكان الأسقف كرانمر هو الذى تزعم حركة القيام بهذه التغيرات ، وكان خصماها الكبيران أدموند بونر ، أسقف لندن ، وستيفن جاردنر ، أسقف ونشستر ، وقد أمر كرانمر بإرسالها إلى سجن فليت (*) . وفى غضون ذلك كان الأسقف يقوم منذ سنوات بمحاولة ليقدم فى كتاب واحد بديلا لكتاب القداس وكتاب الصلوات عند الكنيسة المغلوبة على أمرها . وساعده بيتر مارتير وعلماء آخرون ، بيد أن هذا الكتاب الأول للصلاة العامة (١٥٤٨) كان أصلا ثمرة جهد شخصى لكرانمر ، امتزجت فيه الحماسة للعقيدة الجديدة بإحساس رقيق بجمال رزين فى الشعور واللفظ بل أن ترجماته من اللاتينية فيها سحر عبقريته .

(*) سجن فى لندن أطلق عليه هـذا الاسم بسبب قربه من نهر فليت ، وهو مصب (منطى الآن) لنهر التيمس .

ولم يكن الكتاب ثوريا تماما فقد أخذ ينتهج بعض السوابق اللوثرية مثل رفض سمة التضحية فى القداس ، ولكنه لم ينكر أو يؤكد التجسيد ، واحتفظ بالكثير من الشعيرة الكاثوليكية ، وكان يمكن قس من أنصار الكنيسة الرومانية لا يدقق كثيراً أن يقبلها . ولم يقدمه كرانمر إلى المجمع الاكليروسى بل قدمه إلى المجلس النيابى ، ولم تكن هذه الهيئة العلمانية تطوى بين جوانحها أى تبكيت مصدره سلطة قضائية فى النص على شعيرة أو عقيدة دينية . وأصبح الكتاب قانونا للمملكة ، وصدرت الأوامر لكل كنيسة فى إنجلترا بالعمل به . وأعيد سجن بونروجاردنر ، وكانا قد أطلق سراحهما فى عفو عام ١٥٤٩ ، وذلك عندما رفضا الاعتراف بحق المجلس النيابى فى سن تشريع فى مجال الدين . وسمح للأميرة مارى بحضور قداس فى خلوة بجناحها .

ونشأ موقف دولى خطير أدى إلى تهدئة الجدل العنيف بين الكثالكة والبروتستانت إلى حين . وطلب هنرى الثانى ملك فرنسا الجلاء عن بولونيا ، وعندما رفض طلبه أعد لحصارها ، والحق إن مارى ستيورات ، ملكة الاسكتلنديين ، وكانت وقتذاك فى الخامسة من عمرها وتقيم فى فرنسا ، كانت حرية بأن تدخل اسكتلندة فى الحرب . وعندما علم سومرست أن الاسكتلنديين يتسلحون ويثيرون فتنة فى إيرلندة قاد قوة عبر بها الحدود وهزمهم فى بنكى كليو (١٠ سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وكانت الشروط التى عرضها على الاسكتلنديين سخية وتدل على بعد النظر : لن يتعرض الاسكتلنديون إلى التفريط فى حريتهم أو مصادرة أملاكهم ، وتتحد اسكتلندة وإنجلترا فى « إمبراطورية بريطانيا العظمى » . ولكل أمة أن يكون لها حكم ذاتى تطبق فيه قوانيها الخاصة ، ولكن كلا البلدين تحكمهما ، بعد الحكم الجارى ، ذرية ملكة الاسكتلنديين ، وكان هذا على وجه الدقة الاتحاد الذى تم فى عام ١٦٠٣ ، اللهم إلا إذا استثنينا أنه يسر عودة الكاثوليكية

إلى إنجلترا وتواصلها فى اسكتلندة : ورفض الكثالكة فى اسكتلندة المشروع خشية أن تصل عدوى البروتستانتية الإنجليزية إلى بلادهم ، وإلى جانب هذا كان النبلاء الاسكتلنديون يتلقون مرتبات من الحكومة الفرنسية ، وكانوا يرون أن عصفوراً فى اليد خير من عشرة على الشجرة .

وأحبطت مساعى سومرست فى سبيل السلام وواجه الحرب مع فرنسا ، وجاهد أن يرسى دعائم مصالحة بين عقائد لا تعرف المصالحة فى الوطن ، وترامى إلى أسماعه دقات متجددة لطبول ثورة زراعية فى إنجلترا ، فشرب كأس السلطة حتى الثمالة عندما دبر شقيقه مؤامرة للإطاحة به . ولم يقنع توماس سيمور بأن يكون اللورد أمير البحار وعضو المجلس الخاص بل كان يريد أن يصبح ملكاً . فتودد إلى الأميرة مارى ثم إلى الأميرة اليزابث ، ولكن عبثاً . وتلقى مالا مسروقاً من دار السكة وأسلاباً من القراصنة الذين سمح لهم بالدخول فى القناة ، وعندما حصل على الأموال اللازمة حشد مخازن سرية للأسلحة والذخيرة . واكتشفت مؤامرته ، واتهمه إيرل وارويك وإيرل سوثهامبتون ، وأدانه مجلسا البرلمان بالإجماع تقريباً ، وحكم عليه فى ٢٠ مارس سنة ١٥٤٩ بالإعدام ، وحاول سومرست أن يحميه ، ولكنه فشل ، وسقطت وضاعت هيبة الحامى بسقوط رأس أخيه :

وألحقت ثورة كيت الخراب الشامل بسومرست . وأوضحت تلك الثورة مدى ما تتسم به من شـــذوذ ظاهر ، فبينما كانت ثورة الفلاحين فى ألمانيا بروتستانتية ، كانت فى إنجلترا كاثوليكية ، وفى كل حالة كان الدين مظهراً للاستياء من الحالة الاقتصادية ، وفى إنجلترا كان المظهر كاثوليكياً لأن الحكومة كانت وقتذاك بروتستانتية . وكتب فرود البروتستانتى يقول : « فى التجربة التى خاضها فقراء المزارعين كانت زيادة معاناة الأشخاص نتيجة رئيسية للاصلاح الدينى[٢] » .

ومما يفاخر به رجال الدين البروتستانت فى هذا العهد — كرانمر ولاتيمر وليفر كراولى ، أنهم استنكروا الاستغلال الشديد للفلاحين ، ولقد ندد سومرست فى غضب شديد باغتصاب الملاك الجدد « الذين برزوا من الحضيض » لثروة المدينة(٣) .

ولم يكن فى وسع المجلس النيابى أن يفكر فى وسائل علاج أكثر حكمة من إجازة قوانين صارمة ضد التسول ، وأن يوجه الكنائس بأن تتولى جمع تبرعات للفقراء كل أسبوع : وأرسل سومرست لجنة تتقصى الحقائق عن الأراضى المسورة والإيجارات المرتفعة ، وقوبلت بمقاومة مستورة حيناً أو صريحة حيناً آخر من ملاك الأراضى ، وأرهب المستأجرون إلى حد العمل على إخفاء أخطائهم ، ورفض المجلس النيابى الأخذ بالتوصيات المتواضعة للجنة وكان يمثل الأعيان فيه ملاك المناطق الزراعية . وافتتح سومرس · محكمة خاصة فى داره لسماع شكاوى الفقراء ، وانضم عدد من النبلاء ، أخذ يتزايد يوماً بعد يوم ، ويتزعمهم جون دولى ، إيرل أف وارويك ، إلى حركة تستهدف خلعه :

ولكن الفلاحين كانوا وقتذاك غاضبين بسبب الأخطاء المتراكمة وفشل القضايا المرفوعة لرد الحيف ، فانفجروا فى ثورة امتدت من أقصى إنجلترا إلى أدناها ، وثارت أولا سومرستشاير ثم ويلتز وجلوسسترشاير ودورست وهامبشاير وبركس واكسفورد وبكنجهام فى الغرب كورنوول وديفون ، وفى الشرق نورفولك وكنت :ونظم روبرت كنت وهو من صغار ملاك الأراضى فى نورويتش ، الثوار وقبض على زمام الحكم البلدى وأقام كومونا للفلاحين تولى حكم المدينة وما وراءها شهراً : وضرب كنت مخيماً عسكر فيه ١٦٫٠٠٠ رجل ، وهناك كان يجلس يومياً تحت شجرة سنديان الحكم بين ملاك الأراضى المذنبين الذين قبض عليهم الفلاحون . ولم يكن متعطشا للدماء ، فالذين أدانهم وحكم عليهم سجنوا وقدم إليهم الطعام . ولم يكن يقيم وزناً كبيراً لحقوق

المكنة وصكوكها وأمر رجاله بأن ينقبوا فى الأراضى الريفية المجاورة وأن يقتحموا المنازل فى الضياع ، ويصادروا كل الأسلحة ويسوقوا كل الماشية ، ويستولوا على كل المؤون حيثما وجدت لصالح الكومون . أما الأغنام ، وهى أكبر خصوم للفلاح فى الانتفاع بالأرض ، فقد جمع منها ٢٠٠٠٠ رأس ، ووزعت للاستهلاك فى كثير من السرف ، « عجول لا تحصى وبجع وايلات وبط وغزلان وخنازير . ومع ذلك فقد حافظ كت وسط هذه الوليمة على نظام عجيب ، بل وسمح لوعاظ بدعوة الرجال إلى التخلى عن الثورة . وشعر سومرست بكثير من التعاطف مع الثوار ، ولكنه اتفق الرأى مع وارويك على تشتيتهم ، لئلا يهدم البناء الاقتصادى بأسره فى الحياة الإنجليزية . وأنفذ وارويك مرة أخرى لقتالهم ومعه جيش كان قد حشد حديثاً للقتال فى فرنسا . وعرض على الثوار منحهم عفوا عاما ، إذا عادوا إلى بيوتهم وآثر كت القبول ، بيد أن بعض المتهورين رأوا حسم الأمر بالمعركة ، فأذعن كت لهم . وتقررت النتيجة يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٤٩ ، وانتصر تكتيك وارويك ، وقتل ٣٥٠٠ ثائر ، ولكن عندما استسلم الباقون قنع وارويك بشنق تسعة ، وأرسل كت وأحد أشقائه إلى السجن فى لندن ووصلت أنباء الهزيمة إلى جماعات الثوار الأخرى فخارت عزيمتهم ، ووضعت جماعة إثر أخرى أسلحتها ، بعد أن وعدت بالحصول على عفو عام . واستخدم سومرست نفوذه لإطلاق سراح معظم الزعماء وبقى أشقاء كت على قيد الحياة إلى حين .

واتهم الحامى بأنه شجع على الثورة بتعاطفه الصريح مع الفقراء ، ووصم بالفشل فى الشئون الخارجية لأن فرنسا كانت وقتذاك تحاصر بولونيا . واتهم بحق بالسماح بالفساد بين موظفى الحكومة وتخفيض قيمة العملة ومضاعفة ثروته وبناء بيت سومرست الفخم ، وسط الظروف التى أشرفت فيها الأمة على الإفلاس . وتزعم وارويك وسوثهامبتون حركة لإقصائه عن مقعده ،

وكان معظم النبلاء على استعداد للتغاضى عن ثروته ، ولكنهم لن يغفروا له أبدا عطفه على فلاحيهم ، فانتهزوا الفرصة للانتقام . وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٥٤٩ سيق الدوق أف سومرست باعتباره سجينا فى موكب اخترق شوارع لندن وسجن فى البرج .

٢ ـ حماية وارويك (١٥٤٩ ـ ٥٣)

كان أعداء سومرست رقيقى الحاشية بمقاييس ذلك العهد . وحرم من الأملاك التى اكتسبها إبان وصايته على العرش ، وأطلق سراحه يوم ٦ فبراير سنة ١٥٥٠ ، واسترد عضويته فى المجلس الملكى فى مايو . ولكن وارويك كان وقتذاك حامى المملكة .

وكان مكيافيليا صريحاً ، وعلى الرغم من أنه كان ينزع فى أعماق نفسه إلى الكاثوليكية إلا أنه سلك نهجاً بروتستانتيا ، لأن خصمه سوثهامبتون كان الزعيم الذى ارتضاه الكاثوليك لهم ، وكان أغلب النبــلاء مرتبطين ماليا بالعقيدة الجديدة . وقد تعلم جيدا فن الحرب ولكنه أدرك أنه لن يستطيع أن يحتفظ ببولونيا أمام فرنسا التى تملك ضعف موارد إنجلترا ، معتمدا على حكومة مفلسة وشعب معدم ، وسلم المدينة إلى هنرى الثانى ووقع معاهدة صلح مهينة كان لا بد منها (١٥٥٠) .

وفى ظل سيطرة ملاك الأراضى من النبلاء أو العامة وافق المجلس النيابى (١٥٤٩) على قانون يعاقب بشدة على ثورة الفلاحين . وأيد قانون صريح وجود الأراضى المسورة ، وألغيت الضرائب التى كان سومرست قد فرضها على الأغنام والصوف لكى تفتر همة الناس فى إقامة الحظائر . ونص القانون على عقوبات صارمة توقع على العمال الذين يتحدون لرفع أجورهم(٤) ، وأعلن عدم شرعية الاجتماعات التى تعقد لمناقشــة تخفيض الإيجارات أو الأسعار ، ومصادرة ممتلكات الأشخاص الذين يحضرونها . وشنق روبرت

كت وأخوه ، واشتد الفقر ، بيد أن دور البر التي اكتسحتها الثورة الدينية لم تنشأ دور بدلا منها ، وأصبح المرض متوطنا ، ولكن المستشفيات كانت مهجورة . وتضور الناس جوعا ، ولكن العملة خفضت قيمتها مرة أخرى وارتفعت الأسعار . ثم إن ملاك الأراضي في إنجلترا الذين كانوا أقوياء في يوم من الأيام أخذوا يهلكون، وكان أفقر الفقراء يغرقون في بحر الهمجية(٥) . وكانت الفوضى الدينية لا تقل عن الفوضى الاقتصادية ، وظلت أغلبية الناس كاثوليكية(٦)، بيد أن انتصار وارويك على سومهامبتون تركهم بلا قائد وشعروا بضعف موقف الذين يظاهرون الماضي . وأدى انهيار سلطة القساوسة الروحية والأدبيـــة ، وكذلك عدم استقرار الحكومة وفسادها إلى السماح لا بازدياد الفجور فحسب ، ولكن إلى استفحال الهرطقة ، بصورة أفزعت الكثالكة والبروتستانت على السواء . ووصف جون كليمنت (١٥٥٦) « الأنواع العجيبة من الطوائف التي احتشدت في كل مكان لا من أنصار البابوية فحسب . . . ولكن من الأريوسيين والمنكرين للتعميد وكل صنوف الهراطقة الآخرين أيضاً . . . بعضهم ينكر أن الروح القدس هو الرب ، والبعض ينكر الخطيئة الأولى ، والبعض الآخر ينكر القدر . . . . وعدد لا يحصى من أمثال هؤلاء ، يقصر بنا المقام عن ذكرهم(٧) . وكتب روجر هتشنسون (حوالى عام ١٥٥٠) عن « الصدوقيين والفاسقين (أحرار الفكر) ، الذين يقولون : « إن الشيطان » ليس إلا . . . غرام دنس بالجسد . . . . وأنه ليس هناك موضع للطمأنينة أو العذاب بعد هذه الحياة الدنيا ، وأن الجحيم ليس إلا ضميراً يائساً يعذب صاحبه ، وأن الجنة ضمير مبتهج ساكن مرح(٨) » .

وتحدث جون هوبر ، أسقف جلوسستر البروتستانتي فقال : « هناك من يقول إن روح الإنسان ليست أفضل من روح حيوان ، وأنها فانية وهالكة ، وهناك أشقياء يتجاسرون في اجتماعاتهم على القول بأن

المسيح ليس هو المخلص لنا ، بل يذهبون إلى أن الطفل المبارك مؤذ ومحتال[٩] » .

وأفاد الناس من الحرية التى منحها لهم سومرست فطعن جناح متهور من البروتستانتية فى الدين القديم طعنا قاسيا وتهكم طلبة جامعة أكسفورد بالقداس بمحاكاته فى مسرحياتهم الهزلية ، ومزقوا كتب القداس إربا ، واختطفوا الخبز المقدس من المذبح ووطأوه بالأقدام . وأطلق وعاظ لندن على هؤلاء القساوسة اسم : « عفاريت بغى بابل » — أى البابا[١٠] . والتقى رجال الأعمال فى مؤتمرات بكاتدرائية سانت بول ، واجتمع هناك الشبان من ذوى النخوة وقاتلوا وقتلوا . وكانت الحماية الجديدة وقتذاك بروتستانتية على التحقيق . وعين المصلحون الديليون فى أسقفيات بشرط أن يحولوا جانبا من دار الأسقفية إلى رجال الحاشية الذين كان لهم الفضل فى تعيينهم[١١] ، وقضى المجلس النيابى (١٥٥٠) بإزالة كل اللوحات والتماثيل من أى كنيسة فى إنجلترا ما عدا « الصور التذكارية للملوك أو النبلاء الذين لم يسلكوا قط فى عداد القديسين » وأتلفت كل كتب الصلاة[١٢] ما عدا كتاب كرانمر . وصودرت أو بيعت ووهبت الثياب الكهنوتية والقباءات وكسوة المذبح ، وسرعان ما ازدانت بها بيوت النبلاء[١٣] . وأصدر المجلس أمراً بمصادرة كل آنية مخصصة للتبرعات بقيت فى الكنائس بعد عام ١٥٥٠ لصالح الخزنة . وانتزع المجلس النيابى فيما بعد للحكومة العملات التى فى صناديق التبرعات للفقراء بالكنائس[١٤] . ووجدت أموال أخرى للحكومة أو لموظفيها بإلغاء المنح الدراسية للطلبة الفقراء ومنع الأستاذيات المعانة من الدولة بالجامعات ، والتى أنشأها هنرى الثامن[١٥] . وأوصى المجلس النيابى لعام ١٥٥٢ بأن يبقى رجال الإكليروس بلا زواج ولكنه أذن لهم بالزواج إذا ثبت أن العفة تضنيهم .

وكان الاضطهاد الدينى للهراطقة ، الذى قام به الكثالكة منذ عهد بعيد ، قد نهض به وقتــذاك البروتستانت فى إنجلترا ، وكذلك فى سويسرة وألمانيا اللوثرية ، وذلك بمطاردة الهراطقة والكثالكة . وأعد كرانمر بيانا بالهرطقات التى يعاقب مرتكبوها بالإعدام إذا لم يرتدوا عنها ، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقا فى القربان المقدس أو السيادة الكنسية للبابا ، وإنكار الوحى فى العهــد القديم ، أو الطبيعتين فى المسيح أو التزكية بالإيمان[١٦] . وذهبت جوان بوشر الكنثيــة إلى المحرقة لشكها فى تجسد الأقنوم الثانى (١٥٥٠) . وقالت لريدلى ، أسقف لندن البروتستانتى الذى توسل إليها أن تتراجع عما تقول : « لقد أحرقتم آن أسكيو منذ عهد غير بعيد من أجل قطعة من الخبز (لإنكارها التجسد) ، ومع ذلك حدث أن آمنتم بالعقيدة التى أحرقتموها من أجلها ، وأنتم سوف تحرقوننى الآن من أجل قطعة من اللحم (تشير إلى العبارة الواردة فى الإنجيل الرابع . « لقد صنعت الكلمة لحما ، وسوف تؤمنون بهذا أيضا آخر الأمر[١٧] » . ولم يحرق فى عهد إدوارد إلا هرطيقان ، ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من الكثالكة سجنوا لحضورهم القداس أو لانتقادهم علنا العقيدة المحافظة المقبولة[١٨] . وأقيل القساوسة الكاثوليك المتشبثون بآرائهم من مناصبهم وأرســل بعضهم إلى سجن البرج[١٩] ، وعرض على جاردنر ، وكان لايزال هناك ، الحرية إذا وافق على التبشير بالعقيدة التى يقول بها أنصار الإصلاح الدينى . وعندما رفض نقل إلى « مسكن أحقر » فى البرج وحرم من الورق والقلم والكتب . وفى عام ١٥٥٢ أصدر كرانمر كتابه الثانى عن الصلاة العامة وفيه أنكر وجود المسيح حقا فى القربان المقدس ، ونبذ تقديم القربان المقدس بالمسيح المغالى فيه ، وراجع فى ظروف أخرى الكتاب الأول باتجاه بروتستانتى .

ووافق المجلس النيابى وقتذاك على قانون ثان بشأن التجانس ، اقتضى

أن يحضر جميع الأشخاص بانتظام وألا يحضروا سوى الصلوات الدينية التى تقام طبقاً لما ورد فى كتاب الصلاة العامة هذا ، وكل من يخالف هذا القانون ثلاث مرات ، يعاقب بالإعدام . وفى عام ١٥٥٣ أصدر المجلس الملكى اثنين وأربعين « مادة فى الدين » وضعها كرانمر وجعلها إلزامية على كل الإنجليز .

وفى الوقت الذى أصبحت فيه الفضيلة والمحافظة على العقيدة بمثابة قانون تميزت حماية واروياك بفسادها فى عصر فاسد ، ولم يمنع هذا إدوارد الشاب المطاوع من تعيين وارويك دوقا لنورثمبرلاند (٤ اكتوبر سنة ١٥٥١) . وبعد بضعة أيام كفر الدوق عن خطيئته التى ارتكبها بتمامه بعمل من أعمال حسن التصرف — إطلاق سراح سومرست — وذلك باتهام سلفه بالقيام بمحاولة لاستعادة السلطة لنفسه . وقبض على سومرست وحوكم وأدين فى الغالب بناء على دليل قدمه سير توماس بالمر ، وزيف أمر صادر من الملك بالدعوة إلى إعدام سومرست ، وفى ٢٢ يناير سنة ١٥٥٢ لقى حتفه بشجاعة وإباء . وعندما واجه نورثمبرلاند الإعدام بدوره ، اعترف أن سومرست قد اتهم زورا بفضل وسائله ، واعترف بالمر قبل وفاته أن الدليل الذى أقسم على صحته كان من اختراع نورثمبرلاند(٢٠) .

ونادراً ما كانت الإدارة فى إنجلترا قد وصلت إلى هذا الحد من الكراهيـــة ، فقد انقلب البروتستانت ضد الحامى الجديد الذى أثنوا عليه شكراً منهم لتأييده وذلك بسبب ازدياد جرائمه . وكان الملك إدوارد يقترب من الموت وقد عينت مارى تيودور بمقتضى قانون أصدره المجلس النيابى ولية للعهد إذا ظل إدوارد بلا ذرية . وإذا قدر لمارى أن تصبح ملكة فإنها سوف تنتقم فى الحال من هؤلاء الذين حولوا إنجلترا عن العقيدة القديمة . وشعر نورثمبرلاند بأن حياته معرضة للخطر . وكان عزاؤه الوحيد أن وكلاءه قد دربوا إدوارد على طاعته . وأغرى الملك المحتضر بأن يقرر التاج لليدى جين جراى ، ابنـــة الدوق سفولك وحفيدة شقيقة

هنرى الثامن ، وفضلا عن هذا فإن جين كانت قد تزوجت حديثاً من ابن نورثمبرلاند . ولم يكن إدوارد قد خول مثل أبيه السلطة من المجلس النيابى لتعيين خلفه ، وكانت إنجلترا بأسرها تقريباً ترى أن ارتقاء الأميرة مارى العرش أمر لا مفر منه وعادل ، واحتجت جين بأنها لم ترغب قط فى أن تكون ملكة . وكانت امرأة نالت قسطاً غير عادى من التعليم : وكتبت باليونانية ودرست العبرية وتراسلت مع بولينجر بلغة لاتينية لا تقل جمالا عن لغته . ولم تكن قديسة ، وكان فى وسعها أن تنتقد الكثالكة بشدة ، وسخرت من التجسيد . ولكن نسب إليها من الآثام أكثر مما أثمت . وحسبت فى أول الأمر أن خطة حميها من قبيل الدعابة ، وعندما أصرت حماتها قاومت جين . وأمرها زوجها فى آخر الأمر أن تقبل العرش فأطاعت « دون أن تختار أن تعصى زوجها » كما قالت ، وأعد نورثمبرلاند وقتذاك العدة للقبض على كبار أنصار مارى وإيداع الأميرة نفسها فى البرج حيث يمكن أن تتعلم التنازل .

وأوشك الملك على نهايته فى أوائل يولية ، وسعل وبصق دماً ، وتورمت ساقاه تورماً مؤلماً ، وتفشى الطفح على جسده ، وسقط شعره ، ثم سقطت أظافره ، ولم يستطع أحد أن يجزم بالمرض الغريب الذى يعانى منه ، وراود الشك الكثيرين أن نورثمبرلاند قد سممه . وأخيراً مات إدوارد بعد أن عانى كثيراً (٦ يوليو سنة ١٥٥٣) ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره ، وأصغر كثيراً من أن يشارك فيما ارتكب فى عهده من آثام .

وفى صباح اليوم التالى ركب نورثمبرلاند إلى هنسدون للقبض على الأميرة . بيد أن مارى هربت ، بعد أن حذرت ، إلى أصدقاء كاثوليكيين فى سفولك ، وعاد نورثمبرلاند إلى لندن دون أن يحصل على فريسته . وأقنع المجلس الخاص بالوعود أو التهديدات أو الرشاوى بالانضمام إليه فى المناداة

بجين جراى ملكة ، وأغمى عليها ، وعندما أفاقت ظلت تحتج على أنها لا تصلح للشرف المحفوف بالمخاطر ، الذى أكرهت عليه . وتوسل إليها أقاربها بحجة أن حياتهم تتوقف على قبولها . وفى التاسع من يوليو أقرت فى نفور أنها ملكة إنجلترا .

ولكن فى العاشر من يوليو وصلت إلى لندن أنباء تقول إن مارى قد نادت بنفسها ملكة ، وإن النبلاء فى الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها ، وأن قواتهم كانت تزحف على العاصمة . وحشد نورثمبرلاند سريعاً ما استطاع جمعه من جنود ، وقادهم لتقرير مصير المعركة . وأبلغه جنوده فى بورى أنهم لن يسيروا خطوة أخرى للقتال ضد عاهلتهم الشرعية . وأرسل نورثمبرلاند أخاه ، مزوداً بالذهب والجوهرات والوعد بكاليه وجينس ليرشو هنرى الثانى ملك فرنسا ، للقيام بغزو إنجلترا تتويجاً لجرائمه . وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها ، وأعلن ولاءه لمارى . وانطلق الدوق أف سفولك إلى غرفة جين وأبلغها أن حكمها الذى استمر عشرة أيام قد انتهى . فرحبت بالأنباء وسألت ببراءة هل تستطيع الآن أن تذهب إلى البيت ، ولكن المجلس ، الذى كان قد أقسم على خدمتها أمر بسجنها فى البرج . وسرعان ما سجن هناك أيضاً نورثمبرلاند وأخذ يطلب الصفح عما ارتكب ، وإن أخذ يترقب موته .

وبعث المجلس برسل ينادون بأن مارى تيودور ملكة وتلقت إنجلترا الأخبار بفرح وحشى . وظلت النواقيس تقرع والمشاعل تتوهج طوال تلك الليلة من ليالى الصيف . وجلب الناس موائد الطعام وأولموا فى الخلاء ورقصوا فى الشوارع .

وبدا أن الأمة آسفة على الإصلاح الدينى ، وأنها تتطلع بشغف إلى ماض كان فى الإمكان وقتذاك أن يعد نموذجاً ، طالما أنه لن يعود . والحق أن الإصلاح الدينى لم يظهر حتى الآن إلا جانبه المرير لإنجلترا : لم يكن تحريراً

من المذهبية ومحاكم التفتيش والطغيان ، بل كان تثبيتاً لها ، ولم يكن انتشاراً للاستنارة ، بل كان سلباً للجامعات وإغلاقاً لمئات المدارس ، ولم يكن توسعاً فى الرقة ، بل كان تقريباً قضاء على البر ، ورقعة بيضاء للجشع ، ولم يكن تخفيفاً للفقر ، بل كان سحقاً للفقراء بلا رحمة لم تعرفه إنجلترا منذ قرون — ولعلها لم تعرفه قط[٢١]. وكان كل تغيير يكاد يلقى ترحيباً ما دام يؤدى إلى تخليصهم من نورثمبرلاند وطغمته .

ثم إن الأميرة مارى المسكينة ، التى ظفرت بحب إنجلترا فى الخفاء بفضل صبرها على الإذلال طوال اثنين وعشرين عاماً — هذه المرأة المهذبة سوف تكون ولا شك ملكة رقيقة .

٣ — الملكة الرقيقة (١٥٥٣ — ٥٤)

لا بد لكى نفهمها من أن نكون قد عشنا معها شبابها المأساوى الذى لم تذق خلاله قط طعما للسعادة . ولم تكن تتجاوز الثانية من عمرها (١٥١٨) ، عندما شغل أبوها بالخطايا ، وأهمل أمها المحزونة . وكانت فى الثامنة عندما طلب إعلان بطلان زواجه ، وفى الخامسة عشرة عندما افترق والداها ، وذهب كل من الأم والبنت إلى منفى منفصل . ومنعت الإبنة من الذهاب إلى أمها حتى وهى تحتضر[٢٢] . وأعلن أن مارى ابنة سفاح بعد مولد اليزابث (١٥٣٣) وجردت من لقبها كأميرة . وخشى سفير الإمبراطور أن تسعى آن بولين إلى قتل ابنة غريمتها المنافسة لها على العرش . وعندما انتقلت اليزابث إلى هاتفيلد أجبرت مارى على أن تذهب إلى هناك لخدمتها وأكرهت على أن تعيش فى « أسوأ غرفة فى البيت[٢٣] » وأخذ منها خدمها ، واستبدل بهم آخرون ، يخضعون لمس شلتون أف هاتفيلد التى قالت لها تذكرها بأنها ابنة سفاح : « لو كنت فى موضع الملك لطردتك من بيت الملك لعدم طاعتك » . وأخبرتها أن هنرى قد عبر عن عزمه على قطع رأسها[٢٤] .

وكانت مارى مريضـــة طوال ذلك الشتاء الأول الذى قضته فى هاتفيلد (١٥٣٤) ، وتحطمت أعصابها بسبب الإهانة والخوف وكادت تشرف على الموت جسما وروحا على غير كره منها . ثم رق لها الملك ومنحها بعض محبته إلى حين ، ونعمت بوضع ميسور فى باقى أيام حكمه . ولكن طلب منها أن توقع إقراراً بسيادة هنرى الكنسية وبأن « زواج أمها من قبيل سفاح ذوى القربى » وبأن ميلادها غير شرعى[٢٥] وذلك ثمنا لهذه الرقة القاسية .

وتأثر جهازها العصبى على الدوام بهذه المحن ، و « كانت عرضة لأن تشكو من قلبها[٢٦] » وظلت صحتها ضعيفة حتى آخر يوم فى حياتها . وعاودتها شجاعتها عند ما أعلن المجلس النيابى فى عهد حماية سومرست أنها ولية العهد . ولقد نشأت عقيدتها الكاثوليكية ، فى طفولتها مشبعة بحرارتها الإسبانية ، وقويت بما أثارته حياة أمها ومماتها فى نفسها من ألم ، وكانت عونا ثمينا لها فى أحزانها ، فرفضت أن تتخلى عنها عنـــد ما حومت على حافة السلطة ، وعند ما أمرها مجلس الملك أن تكف عن سماع القداس فى حجراتها (١٥٤٩) لم تذعن لأمره . وأغضى سومرست عن مقاومتها ، ولكن سومرست سقط ، وصدق أخوها الملك على الأمر ، وأرسل ثلاثة من خدمها إلى سجن البرج بسبب تجاهله (١٥٥١) ، وأخذ منها القس الذى رتل لها القداس ، ووافقت آخر الأمر على أن تكف عن ممارسة الشعيرة المحبوبة . وعندما تحطمت روحها طلبت من سفير الإمبراطور أن يدبر لها الهرب إلى القارة ، ورفض الإمبراطور الحذر أن يجيز الخطة ، وخاب فألها .

وجاءت لحظة انتصارها أخيراً عندما عجز نورثمبرلاند عن أن يجد رجلا يحارب ضدها ، ولم يطلب الذين أقبلوا مدججين بالسلاح لمناصرة قضيتها أى أجر ، بل إنهم أحضروا معهم مؤنهم ، وعرضوا عليها ثرواتهم لتمويل الحملة . وعندما دخلت لندن كملكة (٣ أغسطس سنة ١٥٥٣) هبت ثلاث المدينة نصف البروتستانتية للترحيب بها بالإجماع . وجاءت اليزابث تمشى على

استحياء لملاقاتها عند أبواب المدينة ، وهي تتساءل على تتمسك ضدها بالشتائم التي تعرضت لها باسم الزابث . ولكن ماري حيتها بقبلة حارة وقبلت جميع السيدات المرافقات لأختها غير الشقيقة . وكانت إنجلترا سعيدة كما كانت عند ما ارتقى العرش هنرى الثامن وهو شاب وسيم كريم .

كانت ماري وقتذاك في السابعة والثلاثين من عمرها ، وكان الزمن القاسي قد ترك على وجهها خطوطاً تنذر بالذبول . وقلما مرت بها سنة كاملة دون أن تصاب بمرض خطير . وكانت تشكو من الاستسقاء وسوء الهضم ونوبات صداع تحطم الرأس، وعولجت مراراً بالحجامة مما تركها عصبية شاحبة ، وأدى تكرار انقطاع الطمث عنها إلى استغراقها أحياناً في حزن هستيري مصحوب بخوف من ألا تحمل أبداً(٢٧) . وكان جسدها وقتذاك نحيلا هزيلا وجبينها مملتئاً بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جداً إلى حد أنها لم تكن تستطيع القراءة إلا إذا أمسكت بالصحيفة قرب وجهها . وكانت تقاطيعها واضحة ، تكاد تشبه تقاطيع الرجال ، وكان صوتها عميقاً كصوت الرجل ، وقد وهبتها الحياة كل ما فيها من وهن وحرمتها من المفاتن ومن الأنوثة . وكانت لديها بعض المواهب الأنثوية . فكانت تحيك في جلد وتطرز بمهارة وتعزف على العود ، وأضافت إلى هذه المواهب معرفة باللغات الإسبانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وكان يمكن أن تكون امرأة صالحة لو لم تلحقها لعنة اليقين اللاهوتي والسلطة الملكية . وكانت أمينة إلى درجة البساطة ، عاجزة في مجال الدبلوماسية ومتلهفة إلى درجة يرثى لها لأن تحب وتكون محبوبة . وكانت تتعرض لسورات غضب ولها لسان سليط . وكانت عنيدة ولكنها لم تكن متكبرة ، وأدركت قصور قدراتها الذهنية وأصاخت السمع للنصيحة في تواضع . ولم تكن تلين لها قناة إذا كان الأمر يتعلق بعقيدتها فحسب ، وفي غير هذه الحالة كانت حليمة حنوناً وحرة الفكر مع التعساء ، وتواقة إلى رفع الحيف الذي تسببت فيه

أخطاء القانون ، وكثيراً ما زارت بيوت الفقراء وهى متنكرة وجلست وتحدثت مع ربات البيوت ومسجلت مذكرة بالحاجات والمظالم وقدمت كل ما فى وسعها من مساعدة[٢٨] . وأعادت إلى الجامعات الهبات التى اختلسها منها أسلافها .

وظهر أحسن جانب من خلقها فى التسامح النسبى فى أول عهدها ، فهى لم تطلق سراح جاردنر وبونر وغيرهما ممن سجنوا لرفضهم قبول اعتناق البروتستانتية فحسب ، بل إنها صفحت تقريباً عن كل من حاولوا إبعادها عن العرش ، ومهما يكن من أمر فإنها أجبرت بعض هؤلاء ؛ مثل الدوق أف سفولك ، على دفع غرامات باهظة للخزانة ، ثم خفضت الضرائب تخفيضاً جوهرياً بعد تقديم هذه المساعدة إلى الدخل . ومنحت جوازات أمان لبيتر مارتير وغيره من البروتستانت الأجانب لكى يغادروا البلاد . وعقد مجلس الملكة محاكمة عاجلة لنورثمبرلاند وستة آخرين تآمروا على القبض على مارى ، وتوجوا جين جراى ، وحكم على السبعة جميعا بالموت . وأبدت مارى رغبتها فى الصفح عن نورثمبرلاند ، ولكن سيمون رينار سفير الإمبراطور وقتذاك أثناها عن عزمها ، وقام الثلاثة الذين لم يصفح عنهم جميعا باعتناق عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى آخر لحظة . ووصفت جين جراى الحكم بالعدل والاعترافات بالجبن[٢٩] .

وكان من رأى مارى أن تطلق سراحها ، ولكنها أذعنت لآراء مستشاريها إلى حد بعيد وأمرت بأن تبقى طليقة من كل قيد فى الاعتقال داخل أراضى سجن البرج[٣٠] .

وأصدرت الملكة فى ١٣ أغسطس إعلانا رسميا بأنها لن « تكره الضمائر أو تلزمها » بشىء فى مسألة المعتقد الدينى[٣١] ، وكان هذا أحد الإعلانات الأولى فى التسامح الدينى تصدره حكومة حديثة . وكانت تأمل فى براءة أن

تحول البروتستانت بالحجة فنظمت مناظرة عامة بين علماء اللاهوت المتعارضين فى الرأى ، ولكنها تبخرت فى جدل مرير عقيم . وبعد ذلك بوقت قصير قذف واعظ الأسقف بونر بخنجر انطلق من جمهور استاء من وعظه الكاثوليكى ، وأنقذه من الموت اثنان من رجال الدين البروتستانت(۳۲) .
وراع مارى تسامحها فأمرت (۱۸ أغسطس سنة ۱۵۵۳) بعدم التصريح بعظات تتعلق بالعقائد إلا فى الجامعات ، وذلك إلى أن يتيسر اجتماع المجلس النيابى وينظر فى المشكلات التى أثارها النزاع بين العقائد . وأمر كرانمر ، وكان لا يزال رئيسا للأساقفة ، بملازمة قصره فى لامبث ، فرد على ذلك بمهاجمة القداس ووصفه بأنه « كفر بغيض » ، وحكم عليه هو ولاتيمر بالسجن فى البرج (سبتمبر سنة ۱۵۵۳) . أما ريدلى أسقف لندن الذى كان قد وصف مارى واليزابث معا بأنهما ابنتا سفاح فكان قد ذهب إلى سجن البرج قبل ذلك بشهرين . وعلى الجملة فإن سلوك مارى فى هذه الشهور الأولى من حكمها فاق فى اللين والتسامح سلوك غيرها من عظماء الحكام فى عصرها .

وكانت المشكلات التى واجهتها حرية بأن تقهر امرأة تفوقها كثيراً فى الذكاء والفطنة . وصدمت بالارتباك والفساد السائدين فى الإدارة وأمرت بوقف الفساد ، غير أنه أخفى رأسه ولم ينقطع . وضربت مثالا حسناً بتخفيض نفقات الأسرة الملكية ، وتعهدت بتثبيت قيمة العملة ، وتركت انتخابات المجلس النيابى حرة لم تتأثر بأى نفوذ ملكى . وكانت الانتخابات الجديدة « أعدل انتخابات حدثت منذ سنوات(۳۳) » ، ولكن تخفيضها للضرائب ترك دخل الحكومة أقل من مصروفاتها ، ولكى تحصل على الفرق فرضت ضريبة صادر على القماش وضريبة وارد على الأنبذة الفرنسية وأدت هذه الإجراءات التى كان ينتظر أن تساعد الفقراء إلى نكسة تجارية . وحاولت أن توقف نمو الرأسمالية بتحديد عدد ما يملكه أى فرد بنول أو اثنين . وتددت بـ « القماشين الأغنياء » بسبب دفعهم أجوراً منخفضة وحظرت دفع

الأجور عيناً[٣٤] ولكنها لم تجد فى حاشيتها رجالا يملكون القوة والكمال اللازمين لإنجاز إرادتها الطيبة ، وتغلبت القوانين الاقتصادية على أهدافها . بل إنها قوبلت بعقبات اقتصادية قاسية حتى أمور الدين . ولم تكن هناك أسرة لها نفوذ فى إنجلترا لا تحتفظ بأملاك انتزعتها من الكنيسة[٣٥] ، وعارضت هذه الأسر بالطبع أى عودة للعقيدة الرومانية . وكان البروتستانت أقلية من حيث العدد وأقوياء بفضل ما لديهم من مال ، وكانوا بذلك فى موقف يسمح لهم بأن يجهروا فى جلية لحظة أسباب الثورة التى تضع البزابث البروتستانتية على العرش .

وكانت مارى تتلهف على إعادة حق الكثالكة فى العبادة طبقاً لشعيرتهم ، ومع ذلك فإن الإمبراطور الذى ظل يحارب البروتستانتية اثنين وثلاثين عاما حذرها وطلب منها أن تتحرك ببطء ، وأن تقنع بترديد القداس سراً لنفسها وفى محيطها المباشر . ولكن شعورها نحو دينها كان عميقاً ولا تستطيع أن تكون سياسية فيما يتصل به . وتعجب الجيل الذى ينزع إلى الشك الذى نشأ فى لندن من كثرة صلواتها وحرارتها ، ولعل السفير الإسبانى اعتقد أنها تطالب أمراً إدّاً عندما سألته أن يركع بجوارها ويطلب الهداية من الله . وشعرت بأن لها رسالة مقدسة تستعيد بها العقيدة التى أصبحت عزيزة عليها لأنها قاست من أجلها . وبعثت برسول إلى البابا تطلب منه أن يرفع التحريم الذى فرضه على إقامة الصلوات بإنجلترا ، ولكن عندما أبدى الكاردينال بول رغبته فى الحضور إلى إنجلترا قاصداً رسولياً ، اتفقت مع شارل على أن الوقت لم يحن بعد للقيام بمثل هذه الحركة الجريئة .

ولم يكن المجلس النيابى الذى اجتمع فى ٥ أكتوبر سنة ١٥٥٣ مجدياً بالمرة . فقد وافق على الغاء كل تشريع يتعلق بالدين ، صدر فى عهد إدوارد ، وخفض العقوبات المنصوص عليها فى قوانين هنرى الثامن وإدوارد السادس إلى ما كانت عليه من قبل . وأبلغ الملكة فى تلطف أن « عدم شرعية

النسب المتعلقة بشخصك الأمثل ، قد ألغى وأنها لم تعد ابنة سفاح ، ولكنه أبى أن ينظر فى إعادة أملاك الكنيسة إليها وقاوم أى تلميح إلى أن سيادة البابا يجب أن يعترف بها ، وترك هذا مارى رئيسة للكنيسة الإنجليزية رغم أنفها . وبمقتضى هذه السلطة المخولة لها استبدلت بالأساقفة البروتستانت الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا قد أقصوا عن مناصبهم ، وعاد بونر أسقفاً للندن وجاردنر أسقفاً لونشستر ومشيرا مقرباً للتاج . وطرد القساوسة المتزوجون من أبرشياتهم . وسمح بإقامة القداس مرة أخرى ثم شجع ، (ويقول مؤرخ بروتستانتى) : « إن اللهفة التى أبدتها البلاد الإفادة بوجه عام من الإذن بإعادة الشعيرة الكاثوليكية تدل بلا شك على أن الشعور العام كان مع الملكة(٣٦) فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة » . وأعيدت العبادة الكاثوليكية إلى ما كانت عليه تماما بمقتضى مرسوم صدر فى ٤ مارس سنة ١٥٥٤ . وعدت الهرطقات الأخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتى أو نشرة بروتستانتية .

وكان انزعاج الأمة بعودة التذبذب اللاهوتى أقل كثيراً من انزعاجها بخطط زواج مارى . كانت تخشى الزواج من الناحية الدستورية ، ولكنها واجهت المحنة أملا فى أن تنجب وريثا يحول دون ارتقاء اليزابث البروتستانتية العرش : وادعت مارى أنها عذراء ، والراجح أنها كانت كذلك ، ولعلها لو كانت قد أتمت هوناما لكانت أقل كآبة وتوترا ويقينا . وأوصى مجلسها باختيار إدوارد كورتناى حفيد إدوارد الرابع ، ولكن طرق عيشه المتبذلة لم تصادف هوى فى نفس مارى ، وعندما رفضته دبر أن يتزوج اليزابث ، ويخلع مارى ويولى اليزابث على العرش ويحكم إنجلترا عن طريقها — ولم يحلم قط بضآلة فرصته فى السيطرة على تلك السيدة المسترجلة . وعرض شارل الخامس على مارى الزواج من ابنه فيليب الذى كان يوشك أن يوصى له بكل شيء سوى اللقب الإمبراطورى ، وتعهد

بتقديم الأراضي المنخفضة لأى ولد يكون ثمرة لهذا الزواج . وتهللت مارى عندما خطر لها أن زوجها سيكون حاكما لإسبانيا والفلاندرز وهولندة ونابلى والأمريكتين ، وتدفقت دماؤها نصف الإسبانية ساخنة فى عروقها وهى تتوقع إنشاء اتحاد سياسى ودينى بين إنجلترا وإسبانيا . وأشارت فى تواضع إلى أن سنها الأكبر — أكبر من فيليب بعشر سنوات — تقف عائقاً ، وخشيت ألا تكفى مفاتنها الذابلة لإرضاء حيويته وشبابه أو خياله ، إنها لم تكن واثقة أنها سوف تعرف كيف تطارحه الغرام(٣٧) . وكان فيليب من ناحيته يشعر بالنفور فقد أبلغه وكلاؤه الإنجليز أن مارى كانت « قديسة كاملة » وأنها ترتدى ملابس قبيحة(٣٨) ، أفلا يمكن أن يوجد شىء أكثر إغراء بين الأسر المالكة فى أوروبا ؟ وأقنعه شارل بالإشارة إلى أن الزواج سوف يتيح لأسبانيا حليفاً قوياً ضد فرنسا وعوناً ثميناً فى الأراضى المنخفضة التى كانت مرتبطة تجارياً بإنجلترا . ولعل البروتستانتية فى ألمانيا يمكن قمعها بعمل موحد من إسبانيا وفرنسا وإنجلترا باعتبارها دولا كاثوليكية ؛ ثم إن المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يؤلف قوة قادرة على منح أوربا الغربية سلاما إجبارياً يدوم جيلا .

وأدرك مجلس الملكة والشعب الإنجليزى قوة هذه الاعتبارات ولكنهم خشوا أن يؤدى الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لإسبانيا ويورط إنجلترا فى الحروب المتكررة مع فرنسا . وواجه شارل الموقف بإجراء مضاد عرض باسم ابنه عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك إنجلترا إلا فى حياة مارى ولها أن تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشئون الإنجليزية ولها أن تشارك فيليب فى جميع ألقابه ، وإذا مات دون كارلوس (ابن فيليب من زواج سابق) دون أن يعقب ذرية ترث مارى أو ابنها الإمبراطورية الإسبانية وعلاوة على هذا أضاف الإمبراطور الداهية أن لمارى الحق فى أن تتلقى مدى الحياة ٦٠٫٠٠٠ جنيه من

الموارد الامبراطورية ، وبدا هذا كله عرضاً سخياً جداً ، وصدق المجلس الإنجليزى على الزواج مع تعديلات يسيرة فى النصوص

وأخذت مارى ، على الرغم من حياتها المتواضع تتطلع فى لهفة إلى المستقبل فكم طال انتظارها لعاشق !

ولكن الشعب الإنجليزى استاء من اختيارها ، فالأقلية البروتستانتية التى كانت تصبر على الاضطهاد ، آملة فى أن تخلف اليزابث قريباً مارى العاقر الضعيفة خشيت على حياتها إذا وقفت قوة إسبانيا بجانب مارى فى إعادة الكاثوليكية بالقوة ، وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الأملاك الكنسية عندما خطر لهم أنهم سوف يخرجون ما فى بطونهم . بل إن الإنجليز الكاثوليك اعترضوا على وضع أجنبى قاس على العرش . وهو ولا شك سوف يستخدم إنجلترا لتحقيق أغراضه الأجنبية . وارتفعت أصوات الاحتجاج من كل مكان فى البلاد ، وسرى الذعر فى مدينة بلايماوث ، فطلبت من ملك فرنسا أن يضعها تحت حمايته . ووضع أربعة نبلاء خططاً لثورة تبدأ فى ١٨ مارس سنة ١٥٥٤ ، فكان على الدوق أف سفولك (والد جين جراى الذى صدر العفو عنه) أن يحدث ثورة فى واروپكشاير وعلى سير جيمس كروفت أن يتزعم مستأجريه الولزيين ، وعلى سير بيتر كارو أن يثير ديفونشاير ، وعلى سير توماس ويات الصغير أن يقود ثورة فى كنت . وكان ويات الكبير — الشاعر — قد استولى على مجموعة من أراضى الكنيسة — كره ابنه أن يسلمها . وأخطأ المتآمرون بأن أسروا بخططهم لكورتناى ، وكانت مهمته تنحصر فى ضمان اشتراك إليزابث معهم . وكان الأسقف جاردنر يراقب كورتناى باعتباره خاطباً منبوذاً لمارى يتلهف على الانتقام ، فأمر بالقبض عليه ، وأفشى كورتناى أسرار المؤامرة ، بتأثير التعذيب على الأرجح .

وآثر المتآمرون أن يلاقوا حتفهم فى المعركة بدلا من المقصلة فخفوا

سريعاً إلى الأسلحة واشتعلت نيران الثورة فى أربعة أقطار فى الحال (فبراير سنة ١٥٥٤) ، وقاد ويات جيشاً قوامه ٧٫٠٠٠ رجل وزحف نحو لندن ، وبعث بنداء إلى كل المواطنين أن يمنعوا انجلترا من أن تصبح إقطاعية لإسبانيا ، وبدأ الجانب البروتستانتى من أهالى لندن فى وضع خطة لفتح الأبواب لويات ، وتردد مجلس الملكة فى أن يرتبط بشىء ، ولم يحشد جندياً واحداً للدفاع عنها ، ولم تستطع مارى أن تدرك لماذا ترفض البلاد التى رحبت كثيراً بارتقائها العرش أن تتمتع بالسعادة وتحقيق أمانيها التى حلمت بها طوال سنوات التعاسة العديدة . وإذا لم تمسك بزمام الأمور فى يديها بعزم غير عادى فإن حكمها وحياتها سوف ينتهيان وشيكا . ولكنها ذهبت بنفسها إلى جلدهول وواجهت اجتماعاً ثائراً كان يتباحث إلى أى جانب ينحاز . وقالت للجميع إنها على استعداد تام لأن تتخلى عن فكرة الزواج الإسبانى إذا كانت هذه رغبة العموم ، وقالت حقاً « إنى على استعداد لأن أمسك عن الزواج طوال حياتى » ولكنها لن تسمح فى الوقت نفسه أن يتحول موضع الخلاف إلى « عباءة إسبانية » لثورة سياسية . وقالت : « إنى لا أستطيع أن أقول كيف تحب الأم طفلها بفطرتها لأنى لم أكن يوماً أماً ، ولكن لا شك أنه إذا كانت الملكة يمكن أن تحب رعاياها حباً طبيعياً وحاراً كما تحب الأم طفلها ، فإنى أؤكد أنى باعتبارى سيدتكم ومولاتكم ، أحبكم حباً حاراً رقيقاً وأعطف عليكم[٣٩] » . وقوبلت كلماتها وروحها بتصفيق حار ، وتعهد الجمع بتأييدها . واستطاع وكلاء الحكومة ، فى يوم تقريباً ، أن يحشدوا ٢٥٫٠٠٠ رجل مسلح وقبض على سفولك وفركروفت وكاريو إلى مخبأ . أما ويات فقد قاد ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه على هذا النحو ، قوة صغيرة قاتل بها فى شوارع لندن ، وشق طريقه تقريباً إلى قصر الملكة فى هويتهول . وتوسل الحراس إلى مارى أن تهرب ، ولكنها رفضت وأخيراً غلب رجال ويات

على أمرهم فاستسلم بعد أن وهن منه الجسد والروح وأخذ إلى سجن البرج وتلمست مارى عبير الأمان مرة أخرى ولكنها لم تعد قط الملكة الرقيقة .

٤ — « مارى الدموية » : ١٥٥٤ — ٥٨

كثيراً ما أدان مستشاروها سياستها القائمة على الصفح . وقد لامها الإمبراطور وسفيره على السماح بالحياة بل وبالحرية لأشخاص تآمروا ضدها وسوف يكونون أحراراً لتكرار هذا — وسئلت كيف يستطيع فيليب أن يأمن على نفسه فى بلد ترك فيه أعداؤه يمرحون بلا عائق ليدبروا مؤامرة لاغتياله ؟ وكان من رأى الأسقف جاردنر أن الرحمة بالأمة تتطلب إعدام الخونة . وتملك الذعر الملكة فمالت إلى العمل بآراء مستشاريها . وأمرت بإعدام الليدى جين جراى التى لم ترغب قط فى أن تكون ملكة ، وزوج جين ، الذى أراد أن يكون ملكاً . وانطلقت جين ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، إلى حتفها وهى تؤمن بأن هذا قدرها ، دون أن تبدى احتجاجاً أو تذرف دموعاً (١٢ فبراير سنة ١٥٥٤) . وقطع رأس والدها سفولك وشنق مائة من صغار الثوار . وأبقى على حياة بعض المتآمرين إلى حين أملا فى أن ينتزع منهم اعترافات مفيدة ، واتهم ويات فى مبدأ الأمر إليزابث بأنها على علم بالخطة ، ولكن عندما وقف على المنصة (١١ ابريل سنة ١٥٥٤) برأها من كل علم بها . وأطلق سراح كورتناى بعد أن سجن عاماً وأقصى عن البلاد . وأشار شارل على مارى بإعدام كورتناى وإليزابث باعتبارهما مصدر تهديد دائم لحياتها . وأرسلت مارى إلى إليزابث بالحضور واحتفظت بها فى قصر سانت جيمس شهراً ثم سجنتها شهرين فى البرج . وحثها رينارد على تنفيذ حكم الإعدام فيها فوراً ، ولكن مارى اعترضت وقالت إنه لم يثبت اشتراك إليزابث فى الجريمة[٤٠] ، وظلت حياة إليزابث خلال هذه الشهور المشئومة معلقة فى الميزان ، وساعد هذا الرعب على تكوين شخصيتها القائمة على الريبة

واستشعار الخطر ، وكان له صداه فيما اتسم به عهدها المتأخر من قسوة عندما ساورها بشأن مارى ستيوارت نفس القلق الذى كان يساور مارى تيودور وقتذاك حول إليزابث . وفى ١٨ مايو نقلت من أصبحت ملكة فى الأيام التالية إلى وود ستوك حيث عاشت مطلقة السراح فى معتقل تحت الرقابة : وأدى خوف مارى من مؤامرة أخرى تدبر لتولية إليزابث على العرش إلى أن تتعجل مارى الزواج أملا فى أن تحظى بالأمومة .

ولم يكن فيليب متلهفاً إلى هذا الحد . وتزوج مارى يوم ٦ مارس سنة ١٥٥٤ بطريق الوكالة ولكنه لم يصل إنجلترا قبل يوم ٢٠ يوليو ، ودهش الإنجليز وسرهم أن يجدوه شخصاً يمكن احتماله بدنياً واجتماعياً : وجه غريب مثلث الشكل تقريباً ينحدر من جبهة عريضة إلى ذقن مدبب يزينه شعر أصفر ولحية ، ولكنه يمتاز بخلق كريم وبديهة حاضرة ومواهب تصلح لأى شىء ، ولم يبد أى إيماءة بأنه هو وحاشيته يعدون الإنجليز برابرة . بل إنه قال كلمة رقيقة فى صالح إليزابث ، ولعله كان يتنبأ بأن مارى ربما لا ترزق بذرية وأن إليزابث قد تكون يوماً ملكة ، وذلك يكون شراً أهون من أن ترتقى مارى ملكة الإسكوتلنديين — التى ارتبطت منذ عهد بعيد بفرنسا — عرش انجلترا . وعلى الرغم من أن مارى كانت أكبر سناً بكثير من فيليب فإنها تطلعت إليه بإعجاب ساذج ، وكانت متعطشة إلى الحب طوال سنوات عديدة ، فابتهجت وقت ذاك لفوزها بأمير ساحر وقوى إلى هذا الحد ، ومنحته نفسها بإخلاص لا شك فيه إلى حد أن الحاشية تساءلت هل أصبحت إنجلترا بالفعل تابعة لإسبانيا ، وكتبت لشارل الخامس فى تواضع رسالة تقول فيها إنها : « أسعد مما أستطيع التعبير عنه لأنى فى كل يوم أكتشف فى زوجى الملك من الفضائل العديدة وصفات الكمال ما يدفعنى باستمرار إلى أن أتضرع إلى الله أن يهبنى العون لأسعده[٤١] » .

وكانت رغبتها فى أن تلد ابناً لفيليب وولى عهد لإنجلترا ، عارمة استغرقت كل اهتمامها إلى حد أنها سرعان ما تصورت أنها حامل . ولقى انقطاع الطمث عندها وقتذاك ترحيباً ، باعتباره شارة ملكية ، وألجم الأمل ألسنة من خطر لهم أن تلك الحالة حدثت لها كثيراً من قبل . وتقبل الناس الاضطرابات الهضمية على أنها أدلة أخرى على الأمومة ، وأبلغ سفير البندقية أن « حلمتى » الملكة قد انتفختا ودر ثدياها لبناً . وابتهجت مارى وقتاً طويلا عندما راودتها فكرة أنها أيضاً يمكن أن تحمل طفلا شأنها فى هذا شأن أفقر امرأة فى مملكتها ، ولا نستطيع أن نتصور مدى تعاستها عندما أقنعها أطباؤها آخر الأمر أن انتفاخ بطنها إنما حدث بسبب الاستسقاء ، وفى غضون ذلك كانت شائعات حملها قد اكتسحت إنجلترا وأقيمت الصلوات ونظمت المواكب من أجل ولادتها السعيدة ، وسرعان ما انتشرت شائعة بأنها أنجبت ولداً . وأغلقت الحوانيت ابتهاجاً واعتبر اليوم عطلة واحتفل الرجال والنساء فى الشوارع ، وقرعت نواقيس الكنائس وأعلن أحد رجال الدين أن الطفل « أشقر وجميل » كما يليق بأمير[٤٢] . وتحطمت مارى من الإحباط والخجل فانزوت شهوراً عن أنظار الجمهور .

وشعرت بالعزاء إلى حد ما بعودة الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان شارل قد أخر بول عن السفر فى بروكسل لأنه عارض الزواج الإسبانى ، أما وقد تم هذا الزواج فإن اعتراضات الإمبراطور هدأت ، وعبر الكاردينال القناة بصفته قاصداً رسولياً (٢٠ نوفمبر سنة ١٥٥٤) إلى البلاد التى كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاماً ، وقوبل بترحيب حار من الموظفين ورجال الاكليروس والشعب أثبت الرضا العام عن تجديد العلاقات مع البابوية . وحيا مارى بعبارة تكاد تكون منتقاة من معجمه : « السلام عليك يا مريم ، الممتلئة بالنعمة ، الرب معك . أنت مباركة بين النساء **Ave Maria, gratia Plena, Dominus tecum, benedicta tu in mulieribus** وكان على ثقة

من أنه قريباً سوف يردف قائلا : « مباركة ثمرة رحمك(٤٣) » .

وعندما علم المجلس النيابي أن بول جاء معه بموافقة البابا على احتفاظ الحائزين الحاليين بأملاك الكنيسة المصادرة فرح الجميع ، كما يحدث فى أى زفاف . وأعرب أعضاء المجلس النيابى وهم راكعون عن ندمهم لما ألحقوه من إساءات بالكنيسة ومنح الأسقف جاردنر التائبين الغفران بعد أن اعترف بتذبذبه . واعترف بسيادة البابا فى الشئون الكنسية وتأكد حقه فى دخول السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين و « الثمرات الأولى » وأعيد إنشاء المحاكم الأسقفية وأعيدت ضرائب العشور الأبرشية لرجال الاكليروس وجددت القوانين القديمة ضد اللولاردية وأعيدت الرقابة على المطبوعات من سلطات الدولة إلى سلطات الكنيسة . وبدا كل شىء كسابق عهده بعد فتنة دامت عشرين عاماً .

ولبث فيليب مع مارى ثلاثة عشر شهرا يأمل فى أن يرزق بطفل ، وحينما لم يظهر أى دليل مؤكد رجاها أن تسمح له بالذهاب إلى بروكسل حيث كان نزول والده عن العرش يقتضى حضوره . ووافقت فى حزن وانطلقت معه إلى النقالة المائية التى سوف تقله إلى أدنى نهر التيمس ، وأخذت ترقب النقالة من نافذة إلى أن اختفت (٢٨ أغسطس سنة ١٥٥٥) . وشعر فيليب نه قد أدى واجبه طوال سنة لقى فيها من أمره عسراً وهو يطارح الغرام امرأة مريضة ، وكافأ نفسه بسيدات بروكسل القويات البنية .

وكان بول وقتذاك أعظم رجل يتمتع بالنفوذ فى إنجلترا . وشغل نفسه بإعادة تنظيم الكنيسة الإنجليزية وإصلاحها . وأعاد فتح بعض أديار الرهبان ودير للراهبات بمساعدة مارى . وسعدت مارى عندما رأت بعث العادات الدينية القديمة ، وسرها أن ترى الصلبان والصور المقدسة فى الكنائس مرة أخرى ، وأن تشترك فى مواكب تتسم بالورع مع القساوسة أو الأطفال أو الطوائف المهنية فتجاس أو تركع لتحضر قداسات تقام للأحياء والأموات.

رغسات وقبنت يوم خميس العهد عام ١٥٥٦ أقدام إحدى وأربعين امرأة مسنة وهى تدلف على ركبتها من واحدة للأخرى ومنحتهن جميعها صدقات(٤٤) . وما دام الأمل فى الأمومة قد تبدد أصبح الدين سلواها التى تعينها على الاحتمال .

ولكنها لم تستطع أن تبعث الماضى تماماً . فقد حفزت الأفكار الجديدة إلى اضطراب مثير فى عقول أهل المدينة ، وكانت لاتزال هناك اثنتا عشرة طائفة تنشر كتبها وعقائدها فى الخفاء . وتألمت مارى عند ما سمعت عن جماعات تنكر ألوهية المسيح ووجود الروح القدس وانتقال الخطيئة الأولى . وخيل إليها أن هذه الهرطقات تعد جرائم مهلكة بالنسبة لإيمانها الساذج وأنها أسوأ بكثير من خيانة الدولة . هل فى وسع الهراطقة أن يعرفوا كيف يعاملون الروح البشرية خيرا مما يعرفه كاردينالها المحبوب ؟ وترامى إلى أسماعها أن واعظا تضرع بصوت عال أمام جمهور أبرشيته أن يهديها الله أو يرفعها من الأرض(٤٥) . وألقى يوماً كلب ميت ، حلق شعر رأسه جرياً على عادة الرهبان ، وحول عنقه حبل ، من نافذة فى غرفة الملكة(٤٦) . وفى كنت جدع أنف قسيس(٤٧) . ورأت مارى أنه من غير المعقول أن يقوم المهاجرون البروتستانت الذين سمحت لهم بالرحيل عن إنجلترا فى سلام ، بإرسال كتيبات يهاجمونها فيها ويصفونها بأنها حمقاء رجعية ويتحدثون عن « صلاة لاتينية مكروهة عند إقامة قداس وثنى(٤٨) » . وحثت بعض الكتيبات قوادها على أن يهبوا فى ثورة ويخلعوا الملكة(٤٩) . وعقـد اجتماع من ١٧٫٠٠٠ شخص فى أولدچيت (١٤ مارس سنة ١٥٥٤) ونادى بوضع إليزابث على العرش(٥٠) . وكانت حوادث التمرد فى إنجلترا من تدبير البروتستانت الإنجليز فى الخارج .

وكانت مارى تنزع بفطرتها وعادتها إلى الرحمة — حتى عام ١٥٥٥ فماذا حولها إلى ملكة تحظى بأكبر قدر من الكراهيـــة بين الملكات

الإنجليزيات ؟ هناك استفزاز الهجمات التى أظهرت عدم الاحترام لشخصها أو عقيدتها أو مشاعرها من ناحية ، وهناك الخوف من أن تكون الهرطقة ستاراً لثورة سياسية من ناحية ثانية ، وهناك الشدائد التى عانتها وخيبة الأمل المتكررة التى كدرت صفو روحها وجعلت حكمها على الأشياء مظلماً من ناحية ثالثة ، وهنالك إيمانها الذى لا يتزعزع بصواب آراء مستشاريها الذين تثق بهم أكثر من أى شخص آخر - فيليب وجاردنر وبول - التى تذهب إلى أن الوحدة الدينية أمر لا غنى عنه للتضامن القومى وبقائه . وسرعان ما أفصح فيليب عن مبادئه فى الأراضى المنخفضة . وكان الأسقف جاردنر قد أقسم بالفعل (ربيع عام ١٥٥٤) أن يحرق الأساقفة البروتستانت الثلاثة - هوبر وريدلى ولاتيمر - ما لم يرتدوا عن عقيدتهم[٥١] . وكان الكاردينال بول ، مثل مارى ، ينزع بفطرته إلى الرحمة ولكنه كانت لا تلين له قناة فى العقيدة ، وقد أحب الكنيسة حباً جماً إلى حد أنه كان يرتجف للتشكك فى عقائدها أو سلطتها . ولم يكن له دور قيادى مباشر أو شخصى فيما قامت به مارى من اضطهاد ، وأشار بالاعتدال وأطلق مرة سراح عشرين شخصاً كان الأسقف بونر قد حكم عليهم بالموت حرقاً[٥٢] .

ومع ذلك فإنه أصدر تعلیماته لرجال الأكليروس بأنه إذا فشلت كل طرق الإقناع سلمياً فإن كبار الهراطقة يجب أن تنزع منهم الحياة ويستأصلوا مثل الأطراف الفاسدة من الجسد[٥٣] » . وأعربت مارى عن رأيها فى تردد . « نعتقد أن إثارة عقاب الهراطقـة يجب أن يتم بغير اندفاع ولا نتخلى فى الوقت نفسه عن إقامة العدالة لهؤلاء الذين يسعون إلى خداع البسطاء[٥٤] » . وكانت مسئوليتها فى بادئ الأمر مقصورة على الإذن ولكنها كانت حقيقة .

وعندما تبين لها (١٥١٨) أن الحرب مع فرنسا قد عادت عليها وعلى

إنجلترا بالوبال عزت الفشل إلى غضب الله عليها لترفقها بالهرطقة وتشددت قطعاً بعد ذلك فى الاضطهاد .

وافتتح جاردنر عهد الإرهاب بأن استدعى إلى محكمته الأسقفية ستة من رجال الإكليروس (٢٢ يناير سنة ١٥٥٥) كانوا قد رفضوا قبول العقيدة التى توطدت من جديد(*) .

وارتد واحد منهم وأحرق أربعة منهم جون هوبر وأسقف جلوسستر وورسستر الذى أقيل (٤ - ٨ فبراير سنة ١٥٥٥) . ويبدو أن جاردنر أصيب بانتكاس فى الشعور بعد تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام فلم يشترك بعد ذلك فى الاضطهاد ، وانهارت صحته ومات فى نوفبر من هذا العام . واضطلع الأسقف بونر بالمذبحة . ونصح فيليب ، وكان لا يزال بإنجلترا ، بالاعتدال وعندما أدان بونر ستة ، وحكم عليهم بالحرق اعترض سفير الإمبراطور رينار على « هذا التهور البربرى(٥٧) » وندد كاهن الاعتراف الخاص لفيليب ، وهو أخ أسبانى من الرهبان ، وهو يعظ أمام الحاشية ،

(*) إن المصدر الأساسى لما قامت به مارى من اضطهاد هو كتاب جون فوكس وعنوانه : « فى أمور الكنيسة وفى التعليق على مآثرها "Rerum in ecclesia gestarum Commentarii" » (١٥٥٩) الذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان : « أفعال وآثار » (١٥٦٣) ويعرف بغير كلفة باسم « كتاب الشهداء » وأصبح الوصف الواضح لمحاكات البروتستانت ووفياتهم من المقتنيات الحبيبة عند الأسرة بعد الكتاب المقدس عند المتطهرين (البيوريتان) ، وعلى الرغم من أن القساوسة من الآباء اليسوعيين نشروا (١٥٠٣) خمسة مجلدات تهاجم صحة ما ورد فيه فقد كان له أثر قوى فى تكوين مزاج إنجلترا فى عهد أليفر كرومويل . وقد انتقده الكثيرون من رجال الكنيسة البروتستانت لما فيه من المبالغة والخطأ فى النقل والتحامل وعدم العناية بالتفاصيل(٥٥) . ويقارن مؤرخ كاثوليكى بينه وبين سير القديسين فى القرون الوسطى فى مدى ما يمكن الوثوق به مما ورد فيه ، ويختم كلامه بقوله إنه على الرغم مما يكتنف الكثير من التفاصيل من شكوك « فليس هناك من يشك فى أن هذه الأحداث وقعت بالفعل »(٥٦) .

بالأحكام باعتبارها مخالفة للروح المعتدلة والمتسامحة التى حث عليها المسيح[٥٨] مراراً وتكراراً . وأوقف بونر الأحكام لمدة خمسة أسابيع ، ثم أمر بتنفيذها ، وأعتقد أنه كان رفيقاً متساهلا ، والحق أن مجلس الملكة أنبه يوماً لأنه لا يظهر حماسة كافية فى مطاردة الهرطقة[٥٩] وعرض على كل هرطيق منحه عفواً كاملا إذا ارتد عما يقول ، وكثيراً ما أضاف وعداً بتقديم مساعدة مالية أوعمل صريح[٦٠] ، ولكن عندما كانت هذه الإغراءات تفشل كان يجيز الحكم بشراسة ، وكانت توضع عادة حقيبة ممتلئة بالبارود بين ساقى المحكوم عليه حتى تؤدى ألسنة اللهب إلى موت سريع ، ولكن الخشب احترق ببطء فى حالة هوبر ، وخاب أثر البارود فلم ينفجر . وقاسى الأسقف السابق آلاماً استمرت ساعة تقريباً .

وكان معظم الشهداء عمالا بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتى له إبان الحكم السابق . ولعل المضطهدين رأوا أن من العدل استدعاء رجال الدين الذين بذلوا الجهد لتحفيظ مبادئ العقيدة البروتستانتية ، ليشهدوا لها بالاستشهاد ، وفى سبتمبر سنة ١٥٥٥ أحضر كرانمر وعمره ستة وستون عاماً ، وريدلى وعمره خمسة وستون عاماً ، ولاتيمر ، البالغ من العمر ثمانين عاماً ، من سجن البرج ليقفوا للمحاكمة فى أكسفورد . وكان لاتيمر قد لطخ صفحة حياته البليغة بالموافقة على إحراق المنكرين للتعميد والفرنشسكان العنيدين فى عهد هنرى الثامن . وكان ريدلى قد أيد بنشاط اغتصاب جين جراى للعرش ، ووصف مارى بأنها ابنة سفاح وساعد فى خلع بونروجاردنر من كرسيهما الأسقفين .

وكان كرانمر الرأس المفكر للإصلاح الدينى الإنجليزى ، فقد أحل زواج هنرى وكاترين ، وزوج هنرى من آن بولين ، واستبدل بالقداس كتاب الصلاة العامة واضطهد فريث ولامبرت وغيرهما من الكثالكة ،

ووقع وصية إدوارد بالتاج لجين جراى ، وندد بالقداس باعتباره كفراً ، وكان هؤلاء الرجال وقتذاك فى البرج منذ عامين يتوقعون الموت كل يوم .

وحوكم كرانمر فى أكسفورد فى اليوم السـابع من سبتمبر . وقام قضاته بكل جهد ممكن للحصول منه على إنكار لمـا ذهب إليه . فتمسك بموقفه بحزم وحكم عليه بأنه مذنب ، ولكن لما كان رئيساً للأسافقة فإن الحكم عليه ترك للبابا وأعيد إلى سجن البرج . وفى ٣٠ سبتمبر حوكم ريدلى وتشبث بموقفه وفى اليوم نفسه اقتيد لاتيمر أمام المحكمة الكنسية ، وكان وقتذاك رجلا لا يبالى بالحياة ، يرتدى ثوباً قديماً مهلهلا ورأسه الأبيض تكسوه قلنسوة فوق طاقية نوم فوق منديل وتتدلى نظارتاه من عنقه وربطت بزنارة نسخة من العهد الجديد . وفى اليوم الأول من أكتوبر حكم عليهم بالإدانة وأحرقوا فى اليوم السادس من أكتوبر . وركعوا أمام المحرقة وصلوا معاً . وربطوا بالأغلال إلى عمود حديدى وعلقت حول عنق كل رجل حقيبة ممتلئة بالبارود وأشعلت حزم الحطب . وقال لاتيمر : « تهلل ولا تبتئس يا سيد ريدلى وتصرف كرجل ، فإننا فى هذا اليوم سوف نشعل شمعة بفضل الله فى إنجلترا ، وأنا على يقين أنها لن تطفأ أبداً(٦١) » .

وفى الرابع من ديسمبر أيد البابا الحكم على كرانمر . واستسلم رئيس الأساقفة البروتستانتى الأول فى كنتربرى لخوف يغتفر له ، ولم يكن فى وسع رجل استطاع أن يكتب بإنجليزية قوية الدلالة كتاباً مثل كتاب الصلاة العامة مواجهة هذه المحن دون أن يتعرض لآلام غير عادية فى الجسد والعقل

ولعل كرانمر تأثر بنـداء بول الحار فقرر قوله إنه : « تخلى عن كل طرق الهرطقة وأخطاء لوثر وزوينجلى وكرهها وأبغضها » ، وأقر بإيمانه بالشعائر المقدسة السبع واعترف بالتجسيد والمطهر وكل تعاليم الكنيسة الرومانية .

وكان إنكاره هذا قمينا بأن يستبدل به الحكم بسجنه جرياً على ما حدث في جميع السوابق ، ولكن مارى (طبقاً لما قاله فوكس) رفضت إنكاره لمعتقده على أساس أنه يفتقر إلى الإخلاص وأمرت بإعدام كرانمر(٦٢)

وفى كنيسة سانت مارى بأكسفورد تلاني صبيحة يوم إعدامه (٣١ مارس سنة ١٥٥٦) إنكاره السابع والأخير . ثم أضاف لدهشة جميع الحاضرين .

وأجيء الآن إلى الأمر العظيم الذى يؤرق ضميرى أكثر من أى شيء آخر فعلته أو قلته طوال حياتى وذلك هو تدبيج رسالة فى الخارج تخالف الحقيقة . وأنا الآن أتبرأ منها وأرفضها . . . إنها كتبت خوفاً من الموت .... وذلك شأن جميع البيانات والأوراق التى كتبتها أو وقعت عليها بيدى منذ تجريدى من منصبى ... وما دامت يدى قد أثمت ، بكتابة ما يخالف صدق مشاعرى فإن يدى سوف تعاقب على ذلك لأنها .... سوف تحرق أولا .... أما بالنسبة للبابا فإنى أرفض اعتباره عدواً للمسيح وخارجاً على المسيحية(٦٣) .

وعندما اقتربت ألسنة النيران من جسده وهو على المحرقة مد يده فيها واحتفظ بها هناك ، كما يقول فوكس : « ثابتة لا تتحرك ... حتى يستطيع كل الناس أن يروا يده تحترق قبل أن تمس النار جسده . وأخذ يردد كثيراً كلمات ستيفن « رباه ! تقبل روحى » فى عظمة اللهب الذى سلم الروح القدس(٦٤) .

وكانت وفاته دليلا على بلوغ الاضطهاد ذروته . ومات نحو ٣٠٠ شخص فى أثنائه منهم ٢٧٣ فى السنوات الأربع الأخيرة من ذلك العهـد . وكلما مضت المحرقة قدماً أصبح من الواضح أنها كانت خطأ . واستمدت البروتستانتية القوة من شهدائها كما فعلت المسيحية فى بواكير عهدها وانزعج كثير

من الكثالكة فى عقيدتهم وشعروا بالخزى من ملكتهم بسبب ما كابده الضحايا من آلام وما أظهروه من جلد . وعلى الرغم من أن الأسقف بونر لم ينعم بالعمل فقد أطلق عليه اسم « بونر الدموى » لأن أسقفيته شهدت معظم ما نفذ من أحكام الإعدام ووصفته امرأة بأنه « الذباح المعروف وعبد المجزرة العامة لكل الأسافقة فى انجلترا[٦٥] » ، ووجد المئات من الإنجليز البروتستانت ملجأ فى فرنسا الكاثوليكية وسعوا هنالك إلى وضع نهاية للعهد الحزين .

وبينما كان هنرى الثانى يطارد البروتستانت الفرنسيين فإنه شجع على تدبير المؤامرات الإنجليزية ضد مارى الكاثوليكية التى أدى زواجها بملك إسبانيا إلى ترك فرنسا محاطة بقوى معادية . واكتشف العملاء البريطانيون فى أبريل عام ١٥٥٦ مؤامرة يتزعمها هنرى ددلى لخلع مارى وتولية اليزابث على العرش . وتم القبض على عدة أشخاص منهم اثنان من أفراد بيت اليزابث ،وأقحم اعتراف اسم اليزابث نفسها والملك الفرنسى . وقمعت الحركة ولكنها تركت مارى فى خوف دائم من الاغتيال .

وواجهت جماعة من الهاربين محناً كشفت عن مزاج العصر الذى تتسلط العقيدة عليه ، فقد جاء إلى لندن عام ١٥٤٨ جان لاسكى ، وهو كالفيني بولندى وأنشأ هناك أول كنيسة مشيخية فى إنجلترا . وبعد ارتقاء مارى العرش بشهر ترك لاسكى وجانب من جمهور المصلين معه لندن فى سفينتين دنمركيتين. وفى كوبنهاجن منعوا من الدخول ما لم يوقعوا على الاعتراف الرسمى اللوثرى الخاص بالعقيدة . فأبوا باعتبارهم كالفينيين متمسكين بعقيدتهم . ولم يسمح لهم بالنزول فسافروا بحراً إلى وسمار وليبسك وهامبورج ، وفى كل حالة كانوا يواجهون بالمطلب نفسه ويردون بالرفض[٦٦] . ولم يذرف اللوثريون فى ألمانيا أية دموع على ضحايا مارى بل نددوا بهم باعتبارهم هراطقة مكروهين و « شهداء للشيطان» بسبب إنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان[٦٧] المقدس . وأدان كالفن تعصب اللوثرين الذى لا يعرف الرحمة ، وفى ذلك العام

(١٥٥٣) أحرق سرفيتوس فى المحرقة . وبعد أن ظل الهاربون تتقاذفهم أمواج بحر الشمال معظم أيام الشتاء سمح لهم بالدخول أخيراً ووجدوا معاملة إنسانية فى إمدن .

وسارت مارى إلى نهايتها المحتومة بقدر كئيب . وكان زوجها التى فى حرب غير منطقية وقتذاك مع البابوية وكذلك مع فرنسا ، وجاء إلى إنجلترا (٢٠ مارس سنة ١٥٥٧) وحث الملكة على أن تشترك إنجلترا فى الحرب باعتبارها حليفة . ولكى يخفف من كراهية الإنجليز لمهمته ، أقنع مارى بالاعتدال فى الاضطهاد[٦٨] ، ولكنه لم يستطع أن يكسب بسهولة تأييد الجمهور بل كان الأمر على العكس ، فبعد شهر من وصوله أشعل توماس ستافورد ، ابن أخى الكاردينال بول ، ثورة لتحرير إنجلترا من مارى وفيليب على السواء ، ولكنه هزم وشنق (٢٨ مايو سنة ١٥٥٧) ولقد أترع البابا كأس الملكة تعاسة برفضه الاعتراف ببول قاصداً رسوليا واتهم بالهرطقة . وكانت مارى فى لهفة لإرضاء فيليب ومقتنعة أن هنرى الثانى قد أيد ستافورد فى مؤامرته ، فأعلنت الحرب على فرنسا فى ٧ يونية . وبعد أن حقق فيليب غرضه غادر إنجلترا فى يوليو . وراود الشك مارى فى أنها لن تراه أبدا مرة أخرى . وقالت : « سوف أعيش ما بقى من أيامى دون رفيق من الرجال[٩٦] » . وفقدت انجلترا فى هذه الحرب التى لم ترغب فيها كاليه (٦ يناير سنة ١٥٥٨) التى كانت قد احتفظت بها ٢١١ عاما وآلاف الإنجليز من الرجال والنساء الذين عاشوا هناك وفروا الآن إلى بريطانيا ، لاجئين معدمين ، وأذاعوا الاتهام المرير المنسوب إلى حكومة مارى بأنها أهملت إهمالا إجراميا فى الدفاع عن آخر ممتلكات إنجلترا فى القارة . وعقد فيليب صلحا موافقا له دون أن يطلب استعادة كاليه . وكانت ثمة عبارة قديمة تتردد هى أن ذلك الميناء الثمين كان « ألمع جوهرة فى التاج الإنجليزى » . وأضافت مارى عبارة أخرى إلى الحكاية « عندما أموت وتفتحون صدرى فسوف

تجدون كاليه فى قلبى(٧٠) » . وفى أوائل عام ١٥٥٨ اعتقدت الملكة مرة أخرى أنها حامل . وكتبت وصيتها إذ كانت تتوقع أن تكون ولادتها خطيرة وبعثت برسالة إلى فيليب تتوسل إليه فيها أن يحضر الحادث السعيد .. فبعث إليها بتهانيه ولكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره ، فقد كانت مارى على خطأ . وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع ، ولعلها كانت مخبولة إلى حد ما . كانت تجلس على الأرض الساعات الطوال وركبتاها مرفوعتان إلى ذقنها ، وكانت تتجول فى قاعات القصر مثل شبح ، وكتبت رسائل لطختها بدموعها للملك الذى توقع وفاتها ، فأمر عملاءه فى إنجلترا أن يستميلوا قلب اليزابث للزواج من أمير إسبانى أو من فيليب نفسه .

وفى أيام الصيف الأخير من حياة مارى انتشر وباء حمى البرداء فى انجلترا وأصيبت به الملكة فى سبتمبر عام ١٥٥٨ وتحالف مع الاستسقاء و « زيادة الصفراء السوداء » فأضعفها إلى حد أن رغبتها فى الحياة تلاشت . وفى ٦ نوفمبر بعثت بجواهر التاج إلى اليزابث . وكان هذا عملا كريماً أذعن فيه حبها للكنيسة لرغبتها فى منح إنجلترا وراثة منظمة للعرش . وتعرضت للغيبوبة فترات طويلة واستيقظت من إحدى هذه الغيبوبات لتروى كيف رأت حلماً سعيداً عن أطفال يلعبون ويغنون أمامها(٧١) . وفى ١٧ نوفمبر سمعت القداس مبكراً وهتفت بالعبارات التى يرددها المصلون عادة وراء القس بحرارة . وماتت قبل الفجر .

وفى اليوم نفسه مات الكاردينال بول ، الذى منى بهزيمة منكرة مثل مليكته . ولا بد لنا عند تقديره أن نسجل الحقيقة المرة وهى أنه كان قد أدان ثلاثة رجال وامرأتين وحكم عليهم بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة فى مستهل [illegible] أن [illegible] هذا المنكرين للتعميد فى الملك [illegible] اليقين وقت [illegible] الوحدة [illegible] ولكن لم

يحدث فى أى مكان فى العالم المسيحى المعاصر — حتى فى إسبانيا — أن أحرق هذا العدد الكبير من الرجال والنساء بسبب آرائهم كما حدث فى عهد تولى ريجينالد بول رئاسة الكنيسة الإنجليزية .

وفى وسعنا أن نقول كلمة رفيقة عن مارى . فقد أدّى الحزن والمرض وكثير مما تعرضت له من أخطاء إلى انحراف عقلها . ولم تتحول من الحلم إلى القسوة إلا بعد مؤامرات كانت تستهدف حرمانها من التاج الذى تضعه على رأسها وأصاخت السمع فى ثقة زائدة لرجال الدين الذين سعوا إلى الانتقام بعد أن تعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد . وكانت تعتقد حتى آخر لحظة فى حياتها أنها بالقتل إنما تؤدى فرائضها نحو العقيدة التى أحبتها كمجال حيوى لبقائها . وهى لا تستحق اسم « مارى الدموية » ما لم تسحب تلك الصفة على عصرها بأسره ، فهو يهون بلا رحمة من شأن شخصية فيها الكثير من الصفات التى تستحق الحب :

وإن امتيازها العجيب إنما هو استمرارها فى العمل الذى بدأه والدها لإبعاد إنجلترا عن روما . وأظهرت لإنجلترا ، ولما تزل كاثوليكية ، أسوأ جانب للكنيسة التى خدمتها ، ولما ماتت كانت إنجلترا مهيأة أكثر من ذى قبل لاعتناق العقيدة الجديدة التى جاهدت للقضاء عليها .

الفصل السابع والعشرون

من روبرت بروس إلى جون نوكس

١٣٠٠ — ١٥٦١

---

١ — الإسكوتلنديون الذين لا يقهرون

إن الجنوب الحار اللطيف يولد الحضارة والشمال البارد القاسي يتغلب مراراً على الجنوب المتهاون الكسول ويستوعب الحضارة ويحورها ، وإن بلاد أقصى الشمال — سكوتلنده والنرويج والسويد وفنلنده — لتكافح العناصر التي تكاد تشبه الظروف القطبية الشمالية لتقوم بشيء من الترحيب بالحضارة وتسهم فيها وهي تواجه ألف عقبة .

ولقد شجعت الهضاب الجدبة الخالية من الطرق على قيام الإقطاع ولم تشجع على الزراعة ، بينما رحبت الأراضي المنخفضة الخضراء الخصيبة بغزوة بعد غزوة قام بها الإنجليز الذين لم يستطيعوا أن يدركوا لماذا لا تستقبل سكوتلندة تدفعهم عليها هم وملوكهم . وكان الإسكوتلنديون قديماً من الكلتيين واختلطوا في القرون الوسطى بالأيرلنديين والنرويجيين والإنجليز والساكسون والنورمانديين ، وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا قد أصبحوا شعباً ضيق الأفق في المشاعر والأفكار — ومثلهم في ذلك مثل شبه جزيرتهم ، عميق الغور في الخرافة والأساطير مثل الضباب المنتشر عنده معتزاً بنفسه مثل قننه البحرية ، فظاً مثل أرضه ، متهوراً مثل سيوله الجارفة ، وهو شرس ورقيق ، قاس وشجاع في آن واحد ، ولا يقهر أبداً . ويبدو أن الفقر ضارب

بجذوره فى ظروفه الجغرافية والأخلاق فى فقره ، وهكذا نشأ الشح من التربة الخانقة ، وكان الفلاحون يرزحون تحت وطأة الكدح والنصب ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت لكتابة الرسائل ، أما النبلاء الذين أبقوهم فى العبودية فقد فاخروا بالأمية ، إذ وجدوا ألا فائدة من تعلم حروف الأبجدية فى ثاراتهم أو حروبهم ، وقسمت الجبال والعشائر السكان المشتتين إلى طوائف متناظرة متهورة لا يعفون عن أعدائهم فى الحرب ولا يعطون أماناً فى السلم .ولما كان النبلاء يملكون تقريباً كل أسباب السلطة العسكرية فى فرقهم الخاصة فإنهم سيطروا على المجلس النيابى وعلى الملوك . وكان لدى آل دوجلاس وحدهم ٥٠٠٠ تابع ودخولهم تضارع دخل التاج .

وقبل عام ١٥٠٠ كانت الصناعة بدائية ومنزلية والتجارة مضطربة ، والمدن قليلة وصغيرة . وكان تعداد سكان سكوتلندة كلها وقتذاك ٦٠٠,٠٠٠ نسمة نصف عدد سكان جلاسجو اليوم . وكانت جلاسجو بلدة صغيرة تعمل بالصيد وكانت برث هى العاصمة حتى عام ١٥٤٢ ، وكان بأدنبره ١٦,٠٠٠ نسمة .

وعبرت روح الاستقلال الفردية والمحلية والقومية عن نفسها فى الأنظمة القروية والبلدية التى تتمتع بالحكم المحلى داخل إطار الإقطاع والملكية . وسمح لأوساط الناس - المواطنين المحررين من سكان المدن - بأن يكون لهم ممثلون فى المجلس النيابى أو مجلس المقاطعات ، ولم يكن يحق لهم أن يجلسوا بين زملائهم من أعضاء العموم كما فى إنجلترا ، ولكن بين ملاك الأراضى من الإقطاعيين ، وكانت أصواتهم تضيع فى الأغلبية التى للنبلاء . ولما كان الملوك لا يستطيعون أن يوطدوا سلطانهم ضد النبلاء بالتحالف مع التجار والأغنياء والمدن الآهلة بالسكان ، كما هو الحال فى فرنسا ، فإنهم سعوا إلى الحصول على التأييد من ثروة الكنيسة ونفوذها .

أما النبلاء فكانوا على طرفى نقيض مع الملوك وتعلموا أن يكرهوا الكنيسة ويحبوا أملاكها وانضموا فى إطلاق الصرخة العامة التى تنادى

بأن الثروة القومية إنما تصب فى روما : وكان النبلاء فى اسكوتلندة — وليس الملوك والتجار كما فى إنجلترا — هم الذين نهضوا بالإصلاح الدينى ، أى تحرير العلمانيين من سلطة الكنسيين(١) .

وحققت الكنيسة الإسكوتلندية عن طريق تسلطها على تقوى النـــاس لنفسها ثراء وسط فقر مدقع وآمال معلقة على العالم الآخر . وقام مبعوث بابوى حوالى نهاية القرن الخامس عشر بإبلاغ البابا أن دخل الكنيسة فى إسكوتلندة يعادل كل الدخول الأخرى مجتمعة(٢) . وكان الوعاظ وأوساط الناس يكادون يحتكرون معرفة القراءة والكتابة . وكان رجال الإكليروس الإسكوتلنديون فى القرن السادس عشر مشهورين بالتضلع فى العلم ، وكانت الكنيسة بالطبع هى التى أسست جامعتى سانت أندروز وأبردين وحافظت عليهما . وكان الأساقفة ورؤساء الأديار بعد عام ١٤٨٧ ينصبون — وفى الواقع يعينون — بمعرفة الملوك الذين جعلوا من هذه المناصب مكافآت على خدمات سياسية أو رواتب لأبنائهم غير الشرعيين . ووهب جيمس الخامس ثلاثة من أبنائه من السفاح دخولا كنسية من كلسو وملروز وهوليرود وسانت أندروز . وكانت الميول الدنيوية لهؤلاء المعينين من الأسرة الملكية مسئولة إلى حدما عن فساد رجال الإكليروس فى القرن السادس عشر .

ولكن الانحلال العام للأخلاق والنظام الذى اتسمت به الكنيسة أواخر العصور الوسطى ، كان واضحاً فى اسكوتلندة قبل تعيين الملوك للأساقفة بعهد طويل . وكتب هيلير بلوك الكاثوليكى المتزمت يقول : « إن فساد الكنيسة الذى استفحل شره فى كل مكان فى سائر أرجاء أوروبا فى القرن الخامس عشر ، قد وصل فى إسكوتلندة إلى درجة لم تعرف فى أى مكان آخر(٣) » . ومن هنا نشأ إلى حد ما عـــدم المبالاة الذى نظر به عامة الناس ، على ما عرفوا به من محافظة على العقيـــدة ، إلى إحلال رجال الدين البروتستانت محل رجال الدين الكاثوليك . وشكا الملك جيمس الأول عام

١٤٢٥ من فجور الرهبان وكسلهم ، وفى عام ١٤٥٥ اضطر قسيس فى لينلشجو قبل أن يتسلم وظيفته أن يعطى عهداً بأنه لن يرهن أملاك كنيسته ولن يحتفظ بـ « حظية دائمة[٤] . وكان للكاردينال بيتون ثمانية أبنـــاء من السفاح ، وضاجع ماريون أوجيانى ليلا قبل أن يمضى ليلقى خالقه[٥] ، وحصل جون رئيس أساقفة هاميلتون من جلسات مختلفة عقـــدها المجلس النيابى الإسكوتلندى على خطابات بشرعية ذريته المتزايدة : ولم يبخل شعراء ما قبل الإصلاح الدينى فى إسكوتلندة بكلمات فى هجاء رجال الأكليروس بل إن رجال الأكليروس أنفسهم ، فى المجمع المقدس الكاثوليكى الإقليمى لعام ١٥٤٩ عزوا انحطاط الكنيسة فى إسكوتلندة إلى « الفساد فى الأخلاق والفسق الدنس فى حياة رجال الكنيسة من جميع الدرجات تقريباً[٦] » . ومهما يكن من شىء فلا بد من أن نضيف أن أخلاق رجال الأكليروس كانت مجرد انعكاس لأخلاق العلمانيين — وفوق كل شىء النبلاء والملوك .

٢ — وقائع ملكية ١٣١٤ — ١٥٥٤

إن الحقيقة الأساسية فى تاريخ الدولة الإسكوتلندية هى الخوف من إنجلترا ، والحق أن الملوك الإنجليز حاولوا مرارا أن يلحقوا إسكوتلندة بالتاج الإنجليزى من أجل سلامة إنجلترا من هجوم يباغتها من الخلف . وقبلت إسكوتلندة التحالف مع فرنسا عدو إنجلترا اللدود لكى تحمى نفسها . ولذلك تبرز هذه الوقائع .

لقد ظفر الإسكوتلنديون بحريتهم من إنجلترا بانوكبرن (١٣١٤) بالأقواس والسهام والفؤوس المستخدمة فى القتال : ولما كان روبرت بروس قد قادهم هناك إلى النصر ، فقد ظل يحكمهم حتى وفاته متأثراً بداء الجذام (١٣٢٩) . وتوج ابنه دافيد الثانى ، شأنه فى هذا شأن الملوك الإسكوتلنديين منذ أمد بعيد، على « حجر القدر » المقدس فى دير سكون .

ولما بدأ إدوارد الثالث ملك إنجلترا حرب المائة سنة مع فرنسا ، رأى أنه من الحزم أن يضمن حدوده الشمالية ، فهزم الإسكوتلنديين فى هاليدون هل، وأقام إدوارد باليو ألعوبة له على عرش إسكوتلندة سنة ١٣٣٣ ،ولم يسترد دافيد الثانى التاج إلا بعد أن دفع للإنجليز فدية قدرها ١٠٠٫٠٠٠ مارك (٦٫٦٦٧٫٠٠٠ دولار) ، ونظراً لأنه لم يترك وريثاً مباشراً عند وفاته (١٣٧١) انتقلت المملكة إلى ابن أخيه روبرت ستيوارت الذى بدأت به أسرة ستيوارت المشـــئومة .

وسرعان ما استؤنفت حرب نصفى إنجلترا ضد الكل . وأرسل الفرنسيون جيشاً إلى إسكوتلندة ، وعاث الإسكوتلنديون والفرنسيون فساداً فى بلاد إنجلترا الواقعة على الحدود، واستولوا على درهام وأعدموا كل سكانها — رجالا ونساء وأطفالا وراهبات ورهباناً وقساوسة . وقام الإنجليز بالحركة التالية فى لعبة الشطرنج الملكى هذه فغزوا إسكوتلندة ، وأحرقوا برث ودندى ودمرو دير ملروز (١٣٨٥) ، وسار روبرت الثالث فى الطريق نفسه ، ولكن عندما أسر الإنجليز ابنه جيمس (١٤٠٦) مات حزناً . واحتفظت إنجلترا بالملك الصبى فى سجن لطيف إلى أن وقع الإسكتلنديون « صلحاً دائماً » (١٤٢٣) وتخلوا عن كل تعاون بعد ذلك مع فرنسا .

وقد تعلم جيمس فى الأسر ، قدراً لا بأس به ، وحصل على عروس إنجليزية، وألف فى مدح هذه « الحمامة البيضاء » بلسان الإسكوتلنديين « كتاب الملك » وهو قصيدة مجازية يستكثر على ملك أن ينظم مثلها . والحق أن جيمس كان مبرزاً فى عشرات الأمور . فقـــد كان واحداً من أحسن المصارعين والعدائين والفرسان ورماة السهام وقاذفى الحراب والصناع المهرة والموسيقيين فى إسكوتلندة ، وكان حاكماً مقتدراً كريماً . وفرض عقوبات على التجارة التى تفتقر إلى الأمانة والزراعة المهملة ، وبنى المستشفيات وألزم الحانات بالإغلاق فى الساعة التاسعة ، وحول طاقات الشباب من كرة القدم

إلى التدريبات العسكرية ، وطلب إصلاح النظام الكنسى وتقويم حياة الرهبان فى الأديار . وعندما بدأ حكمه النشيط (١٤٢٤) تعهد بالقضاء على الفوضى والجريمة فى إسكوتلندة ، ووضع حد الحروب الخاصة بين النبلاء واستبدادهم الإقطاعى « إذا لم يهبنى الله سوى حياة كلب فإنى سوف أجعل المفتاح يحرس القلعة والسرخس يرعى البقر » ، أى يقضى على السطو على البيوت والماشية — فى كل أنحاء إسكوتلندة(٧) . وسرق لص من أهل الجبال بقرتين من امرأة فأقسمت ألا تلبس أحذية أبداً حتى تسير إلى الملك لتندد بضعف القانون فقال اللص « أنت تكذبين وسوف أعمل على أن تحتذى » وسمر حدوتى حصان فى قدميها العاريتين . ومع ذلك وجدت طريقها إلى الملك وأمر بمطاردة اللص وطوف به حز برث ومعه لوحة من الخيش صورت عليها جريمته وحرص على أن يشنق الوحش بلا إمهال . وفى غضون ذلك اشتجر النزاع فى وقته بينه وبين بارونات يضعون العراقيل فى طريقه فأتى بقليل منهم إلى منصة الإعدام وصادر الزيادة فى الأراضى المستأجرة وفرض المكوس على اللوردات وأوساط الناس على السواء وأعطى للحكومة الأموال التى احتاجت إليها لكى تستبدل بطغاة عديدين طاغية واحداً .

ودعا أصحاب الأرض — ملاك الضياع الأقل مساحة — إلى المجلس النيابى وجعلهم هم والطبقة الوسطى بديلا للنبلاء ورجال الإكليروس . وفى عام ١٤٣٧ قتلته عصبة من النبلاء

واستمر أبناء النبلاء الذين كان قد أسقطهم فى الحياة أو انتزع منهم الأملاك فى مقاومة جيمس الثانى فى الكفاح ضد الملكية التى تنزع إلى المركزية ، وبينما كان الملك الجديد لا يزال بعد صبياً فى السابعة من عمره دعا وزراؤه إيرل اف دوجلاس الصغير وشقيقاً أصغر لينزلا ضيفين على الملك فحضرا وقدما لمحاكمة هزلية وقطع رأساهما (١٤٤٠) ودعا جيمس الثانى لنفسه بعد اثنى عشر عاماً وليام ، ايرل اف دوجلاس ، لبلاطه فى ستيرلنج ومنحه عهد الأمان

وأنزله فى ضيافته الملكية وقتله بتهمة تبادل رسائل فيها تآمر على خيانة الدولة مع إنجلترا . واستولى على كل القلاع الإنجليزية الحصينة فى إسكوتلندة إلا قلعة واحدة ، ومزق إرباً إثر انفجار عارض من مدفعه . وكفر جيمس الثالث عن فظاظة أبيه فبعد مواجهات وحشية أسره النبلاء وقتل لتوه (١٤٨٨) ، وتزوج جيمس الرابع من مرجريت تيودور شقيقه هنرى الثامن ، وبفضل هذا الزواج طالبت مارى ملكة الإسكوتلنديين بعرش إنجلترا .

ومع ذلك فإن هنرى الثامن عند ما انضم إلى إسبانيا والنمسا والبندقية والبابوية فى الهجوم على فرنسا (١٥١١) شعر جيمس بأنه ملزم بمساعدة حليفة إسكوتلندة القديمة المعرضة للخطر ، على هذا النحو بغزو إنجلترا ، وحارب بشجاعة جنونية فى فلودن فيلد ، بينما استدار الكثيرون من رجاله وفروا لا يلوون على شيء ، ومات فى تلك الكارثة (١٥١٣) .

وكان جيمس الخامس وقتذاك لا يبلغ من العمر إلا عاماً واحداً ، واستتبع هذا كفاح متشابك من أجل الوصاية على العرش . وفاز بالجائزة دافيد بيتون — وهو أحد رجال الكنيسة المعروفين بالمقدرة والشجاعة وتقدير النساء ، ونصب كبيراً لأساقفة سانت أندروز ، ثم كاردينالا ، ودرب الملك الصغير على الولاء الحار للكنيسة . وتزوج جيمس عام ١٥٣٨ من مارى أمير اللورين ، شقيقة فرانسيس ، الدوق دى جيز زعيم الحزب الكاثوليكى فى فرنسا المنقسمة على أساس مذهبى ، وتطلع النبلاء الإسكوتلنديون ، ومناهضتهم لرجال الاكليروس تتزايد يوماً بعد يوم ، باهتمام إلى الانفصام القائم بين إنجلترا والبابوية ، وحسدوا اللوردات الإنجليز الذين انتزعوا أو تلقوا أملاك الكنيسة وأخذوا « أجورا » من هنرى الثامن لمعارضة تحالف ملكهم مع فرنسا . وعند ما شن جيمس الخامس الحرب على إنجلترا رفض النبلاء أن يؤيدوه . وهزم فى سولواى موس (١٥٤٢) ففر يجرر أذيال الخزى إلى

فولكلاند ، ومات هناك فى ١٤ ديسمبر ، وأنجبت زوجته فى الثامن من دسمبر ماري ، التى أصبحت ملكة للإسكوتلنديين وعمرها ستة أيام .

وأبرز بيتون وصية من الملك الراحل عينه فيها وصياً على الملكة الرضيعة ، وتشكك النبلاء فى صحة الوثيقة وسجنوا الكاردينال واختاروا جيمس ، إيرل اف أران وصياً على العرش ، بيد أن أران أطلق سراح بيتون وعينه كبيراً للوزراء . وعندما جدد بيتون الحلف مع فرنسا عقد هنرى الثامن النية على شن حرب لا هوادة ، فيها ، وبعث لجيشه فى الشمال أوامر بإحراق كل شيء فى طريقه وتدميره ، و « أن يعمل النار والسيف فى كل رجل وامرأة وطفل دون استثناء أينما يجد مقاومة » وبخاصة « ألا يبقوا على حياة مخاوق » فى بلدة سانت أندروز[٨] مقر بيتون . وبذل الجيش جهده ، وأحال كل دير ومزرعة وقلعة ومحلة إلى خراب شامل[٩] » . وتعرضت إدنبره يومين للسلب والحرق ، ونهبت قرى الفلاحين فى دائرة قطرها سبعة أميال ودكت دكاً ، وسيق إلى إنجلترا (١٥٤٤) ١٠٠٠ رأس من الماشية ذوات القرون و ١٢٫٠٠٠ رأس من الأغنام و ١٣٠٠ جواد . وعرض سير جيمس كيركالداى ونورمان لزلى وغيرهما من السادة الإسكوتلنديين أن يساعدوا الإنجليز على « حرق أماكن يملكها الحزب المتطرف فى الكنيســة ، وأن يقبضوا ويسجنوا كبار خصوم الحلف الإنجليزى ، وأن يعتقلوا ويقتلوا الكاردينال نفسه[١٠] » . ورحب هنرى بالعرض ووعد بتقديم ألف جنيه إنجليزى لمواجهة النفقات . وفشلت الخطة إلى حين ، ولكنها نفذت فى اليوم التاسع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٦ ، واقتحم اثنان من آل كيركالداى واثنان من آل لزلى وعصبة عديدة من النبلاء والقتلة قصر الكاردينال عنوة وقتلوه « فى حالة تلبس » تقريباً لأنه ، « كما يقول نوكس » كان مشغولا بحساباته مع السيدة أوجيلنى فى تلك الليلة[١١] . وأردف نوكس قائلا : « والآن بما أن الطقس حار فقد رئى أن من الأفضل لمنعه من أن يتعفن أن يعطوه جرعة كبيرة كافية من الملح ،

وقباء من الرصاص ... انتظاراً لما سوف يعده له إخوانه الأساقفة من طقوس الفن . ونحن إنما نسجل هذه الأمور بابتهاج(١٣) » . وانسحب القتلة إلى قلعة سانت أندروز على الساحل وانتظروا وصول العون من إنجلترا بطريق البحر .

وعاد آران إلى الاضطلاع بعبء الحكم . ولكي يضمن مساعدة الفرنسيين وعد بأن يزوج الملكة الطفلة ماري ستيوارت لولي عهد فرنسا ، ولكي يحال بينها وبين الوقوع في أيدي الإنجليز ، أرسلت سراً إلى فرنسا (١٣ أغسطس سنة ١٥٤٨) . وقضى ارتقاء ماري تيودور العرش في إنجلترا على خطر قيام الإنجليز بغزوات أخرى إلى حين . وكانت الكاثوليكية وقتذاك تسيطر على جانبي الحدود . وغلب النفوذ الفرنسي على آران فحمله على أن يتنازل عن وصاية العرش (١٥٥٤) إلى ماري أميرة اللورين ، أم الملكة الغائبة . وكانت امرأة على حظ من الذكاء والجلد والشجاعة ، لم تذعن إلا لروح العصر الغلابة ووهبت ثقافة النهضة الفرنسية ، فقابلت العقائد الدينية المناظرة التي كانت تضطرم بالغضب حولها بابتسامة تنم على التسامح . وأمرت بإطلاق سراح العديد من البروتستانت المسجونين ، وسمحت للهراطقة بحرية كبيرة في الوعظ والعبادة ، إلى حد أن الكثير من البروتستانت الإنجليز الذين فروا من ماري تيودور وجدوا ملجأ ، وسمح لهم بتكوين جماعات دينية برئاسة ماري أميرة اللورين . كانت أعظم حاكمة رقيقة العاطفة متمدينة عرفتها اسكتلندة قروناً طوالا .

٣ — جون نوكس : ١٥٠٥ — ٥٩

كانت الدعاية للإصلاح الديني قد مضى عليها مائة عام في إسكوتلندة . وفي عام ١٤٣٣ اتهم بول كراور بإدخال عقيدتي ويكليف وهس ، وقضت الكنيسة بإدانته وأحرقته الدولة . وفي عام ١٤٩٤ استدعى

ثلاثون « لولاردا من كيل » للمثول أمام أسقف جلاسجو بتهمة رفض الاعتقاد فى المخلفات والصور الدينية والاعتراف السرى أمام قسيس ، ورسامة القساوسة وسلطانهم والتجسد ، والمطهر ، وشكوك الغفران والقداسات من أجل الموتى ورهبانية رجال الدين والسلطة البابوية[١٣] ، وبذلك نجد أنفسنا أمام تلخيص يكاد يكون كاملا لمبادئ الإصلاح الدينى قبل نشر رسائل لوثر بثلاثة وعشرين عاماً . ومن الواضح أن المتهمين تراجعوا عما قالوا به .

وسرعان ما دخلت رسائل لوثر إلى إسكوتلندة بعد عام ١٥٢٣ ، وانتشرت ترجمة للعهد الجديد باللغة الإسكوتلندية من إعداد ويكليف فى مخطوطة ، وارتفع نداء يطالب بمسيحية تعتمد على الكتاب المقدس وحده دون سواه .

وذهب باتريك هاميلتون إلى باريس ولوفان ، ودرس تعاليم إرازموس والفلسفة اليونانية ومضى إلى فتنبرج وعاد إلى إسكوتلندة مشيعاً بالعقائد الجديدة ونادى بالتزكية بالإيمان ودعاه جيمس (عم دافيد) وبيتون ، ثم رئيس أساقفة سانت أندروز للحضور ، وإيضاح ما يعنيه بأقواله ، فجاء وتمسك بآرائه وأحرق (١٥٢٨) . وفى عام ١٥٣٤ أحرق اثنان آخران من « العلماء » كما كان المصلحون الدينيون الإسكوتلنديون الأوائل يسمون أنفسهم . وشنق أربعة رجال وأغرقت امرأة عام ١٥٤٤ ، وطبقاً لما يرويه نوكس الذى لا يعتمد على روايته دائماً ، ذهبت إلى حتفها وعلى صدرها طفل رضيع[١٤] .

وكانت عمليات القتل العمد هذه موزعة على عصور ومواضع مختلفة ، إلى حد جعلها لا تثير رد فعل عام قوى . بيد أن شنق جورج ويشارت مس شغاف قلوب الكثيرين ، وكان أول حادث له أثره فى الإصلاح الدينى الاسكوتلندى . وقد ترجم ريشارت حوالى عام ١٥٤٣ الاعتراف السويسرى البروتستانتى الأول ، ومن سوء الحظ أن هذا الإعلان البروتستانتى أمر السلطات

العلمانية بمعاقبة الهراطقة(١٥) . [وأزاحت الاتجاهات البروتستانتية السويسرية منذ ذاك — وكانت فى مبدأ الأمر زوينجالية تتسم بالرحمة ثم أصبحت كالفينية صارمة — اللوثرية يوماً بعد يوم فى الحركة الإسكوتلندية . وقدم ويشارت عظاته فى مونتروز ودندى ولازم بشجاعة مرضى وباء منتشر ، وفسر العقيدة الجديدة فى إدنبرة فى وقت كان فيه دافيد بيتون يعقد مجمعاً إكليروسياً من رجال الدين الإسكوتلنديين هناك ، فأمر الكاردينال بالقبض عليه بتهمة الهرطقة ، وحكم عليه بالإدانة وقتل خنقاً وأحرق (١٥٤٦) .

وكان من بين من تحولوا عن مذهبهم على يديه ، شخصية من أقوى الشخصيات فى التاريخ وأعظمها نفوذاً . وقد ولد جون نوكس بين عامى ١٥٠٥و١٥١٥ قرب هندنجتون.ونذره والداه الفلاحان ليكون قسيساً،ودرس فى جلاسجو ورسم قساً (حوالى عام ١٥٣٢) ، واصبح معروفاً بتضلعه فى القانون المدنى والقانون الكنسى على السواء . ولا تتحدث سيرته الذاتية « تاريخ إصلاح الدين داخل مملكة إسكوتلندة » بشىء عن شبـابه ولكنها تقدمه فجأة (١٥٤٦) بوصفه مريداً متحمساً لجورج ويشارت وحارساً شجاعاً له ، يحمل سيفاً له مقبضان .وأخذ نوكس يتجول من مخبأ إلى آخر بعد القبض على ويشارت ، ثم انضم فى عيد الفصح عام ١٥٤٧ قلعة سانت أندروز إلى العصبة التى قتلت الكاردينال بيتون .

واستشعر الرجال المطاردون الحاجة إلى الدين فطلبوا من نوكس ان يكون واعظاً لهم . فاحتج بأنه لا يصلح ، ثم وافق وسرعان ما اتفقوا على أنهم يسمعوا قط مثل هذا الوعظ الملتهب من قبل . وأطلق على الكنيسة الرومانية اسم : « هيكل الشيطان » وجعلها مرادفة للوحش المخيف الذى ورد وصفه فى سفر الرؤيا . وتبنى العقيدة اللوثرية التى تذهب إلى « أن الإنسان يظفر بالخلاص » ، بأن يؤمن فحسب بأن دم يسوع المسيح يكفر عن خطايانا جميعا (١٦) » . وفى يوليو أبحر أسطول فرنسى وقذف القلعة بالقنابل . وقاوم

المحاصرون أربعة أسابيع ، وأخيراً غلبوا على أمرهم ، وظل نوكس والآخرون يعملون عبيداً فى السفن تسعة عشر شهراً . . ليس لدينا إلا تفاصيل قليلة عن معاملتهم باستثناء ما ذكر من أنهم كانوا يدفعون لسماع القداس (ويقو لنا نوكس) إنه رفض بشدة ، ولعل هذه الأيام المريرة ، وأثر سوط الملاحظ على الأجسام ساهم فى اشتداد نزوع نوكس إلى الكراهية وجنوح لسانه وقلمه إلى العنف فى العبارة .

وعندما أطلق سراح الأسرى (فبراير سنة ١٥٤٩) عمل نوكس قساً بروتستانتيا فى إنجلترا براتب تقاضاه من حكومة سومرست : وكان يقوم بعظاته يومياً طوال الأسبوع « إذا سمحت له بذلك الجيفة الخبيثة » . ونحن أبناء اليوم الذين لا ننعم كثيراً بالعظات ليس فى مقدورنا إلا أن نتصور بصعوبة مدى إحساس الناس فى القرن السادس عشر بالتعطش إليها . وقد ترك قساوسة الأبرشيات الوعظ للأساقفة الذين تركوه بدورهم للإخوان الرهبان وكانوا يقومون به بين آن وآخر . وأصبح الوعاظ فى البروتستانتية بمثابة صحيفة يومية للأخبار والرأى ، وكانوا يروون على المصلين أحداث الأسبوع أو أحداث اليوم ، وكان الدين وقتذاك ممتزجاً بالحياة إلى الحد الذى جعل كل حدث تقريباً يمس العقيدة أو القائمين عليها ونددوا بنقائص رجال الأبرشية وأخطائهم ونبهوا الحكومة إلى واجباتها وأخطائها . وفى عام ١٥٥١ كان نوكس يعظ أمام إدوارد السادس ونورثمبرلاند فتساءل كيف تأتى فى الغالب الأعم لأنقى الأمراء أن يتخذوا مستشاريهم من أفسق الناس . وحاول الدوق أن يسكته بمنحه منصب أسقفية ولكنه فشل .

وكانت مارى التيودورية أشد خطورة عليه ، ففر نوكس إلى دييب وجنيف (١٥٥٤) بعد شىء من التباطؤ الذى أملاه الحرص ، وزكاه كالفن لدى جماعة تتحدث بالإنجليزية فى فرانكفورت ، ولكن مبادئه وملامحه كانت جد قاسية بالنسبة لمستمعيه ، فطلب منه أن يرحل . وعاد إلى جنيف (١٥٥٥) ، ونحن نستطيع

أن نحكم على قوة شخصية كالفن من التأثير الذى سيطر به وقتذاك على شخصية إيجابية وقوية تماثل شخصيته . ووصف نوكس ، مدينة جينيف فى عهد كالفن بأنها : « أكمل مدرسة للمسيح ظهرت على وجه الأرض منذ أيام الحواريين[١٧] » . واتفقت الكالفينية مع مزاجه لأن تلك العقيدة كانت واثقة من نفسها ، وعلى ثقة من أنها تتلقى الوحى من الرب ، وواثقة من أن الله قد فرض عليها أن تلزم الفرد بانتهاج سلوك محدد واعتناق عقيدة معينة ، وواثقة من حقها فى توجيه الدولة ، ولقد تغلغل هذا كله فى أعماق روح نوكس ، ثم فى التاريخ الإسكوتلاندى عن طريقه . وتوقع فى فزع حكم مارى ستيوارت الكاثوليكية لإسكوتلندة ، فسأل كالفن وبولينجر هل يحق لشعب أن يرفض إطاعة « حاكم يرغم الناس على عبادة الأوثان ويلغى الدين الصحيح » فلم يجيرا جواباً ، ولكن جون نوكس كان يعرف ما يدور فى خلده .

وفى خريف عام ١٥٥٥ ، وكان وقتذاك فى الخمسين من عمره على الأرجح أظهر الجانب الرقيق من شخصية جافة بالعودة إلى مارى تيودور ملكة إنجلترا والذهاب إلى برويك والزواج من مرجريت بويز لأنه أحب أمها . وكان لمسز بويز خمسة أولاد وعشر بنات وزوج كاثوليكى ، وكان لوعظ نوكس الفضل فى اكتسابها لصف البروتستانتية ، وأسرّت له بمتاعبها المنزلية ووجد متعة فى أن يشير عليها بما يجب ، وعزاء فى صداقتها ، ومن الواضح أن العلاقة بينهما ظلت روحية إلى النهاية .

وعندما تزوج نوكس من مرجريت تركت مسز بويز زوجها وذهبت لتعيش مع ابنتها وكاهن الاعتراف الخاص بها . وماتت الزوجة بعد خمس سنوات من عقد الزواج . وتزوج نوكس للمرة الثانية ، ولكن مسز بويز بقيت معه . ومن النادر أن توجد فى التاريخ حماة محبة ومحبوبة بهذا القدر .

وذهب الثلاثى الغريب إلى إسكوتلندة ، حيث كانت مارى أميرة اللورين

لا تزال ترى التسامح مفيداً في كسب تأييد الحزب البروتستانتي من النبلاء ، وأثنى على الوصية على العرش باعتبارها «أميرة جديرة بالاحترام» . وهبت حكمة وكياسة تفردت بهما[١٨] . «ونظم اجتماعات بروتستانتية للمصلين في إدنبره وغيرها من الأماكن وكان له الفضل في أن يتحول على يديه إلى المذهب البروتستانتي أشخاص من ذوى النفوذ ، مثل وليام ميتلاند ، سيد ليثنجتون ، وجيمس ستيوارت الشقيق غير الشرعي لماري ستيورات الذي قدر له أن يكون وصياً على العرش باسم إيرل اف مراى أو موراى . ولم ترض محكمة كنسية عن هذا التطور ،فاستدعت نوكس ليقدم حساباً عن أعماله ، وآثر أن يسلك سبيل التروى فتسلل من إسكوتلندة مع زوجته وأمها ، (يوليو سنة ١٥٥٦) . ولم تستطع المحكمة الكنسية أن تحرق في غيابه سوى تمثال له ، وأضفى عليه هذا التجسيم لاستشهاده بدون ألم نبلا في عيون البروتستانت الإسكوتلنديين ، ومنذ تلك اللحظة جعلوه زعيماً للإصـلاح الديني الإسكوتلندي ، حيثما حل.

ولقد طور وهو في جينيف ، باعتباره راعياً لأبرشية إنجليزية ، البرنامج الكالفيني الكامل فيما يتصل بإشراف رجل الدين على أخلاق رعايا أبرشيته وسلوكهم ، ودعا في الوقت نفسه مسز آن لوك ، التي تحولت عن عقيدتها على يديه في لندن ، إلى أن تترك زوجها وتأتي مع ابنتها لتعيش بالقرب منه في جينيف ، وكتب لها رسائل لا تقاوم :

يا أعز أخت ، لو استطعت أن أعبر لك عما أكابده من اشتياق وضنى لحضورك فسوف أبدو وقد تجاوزت الحد . نعم إني لأبكي وأبتهج عندما أذكرك ، ولكن ذلك سوف يزول بما أجده من عزاء في حضورك ، الذي أؤكد لك أنه جد عزيز لدى إلى حد أنه لو لم يكن عبء هذه الجماعة الصغيرة ، المجتمعة هنا باسم المسيح ، قد عاقني ،لحضرت إليك قبل رسالتي . . ولو لم يمنعك بعلك (زوجك) إلى حد ما . . . لوددت من أعماق قلبي ،

نعم ، وما كنت لأستطيع أن أتوقف عن أن أتمنى رضى الله بهدايتك إلى هذا المكان[١٩] .

وتركت مسز لوك لندن ضاربة عرض الحائط بمعارضة بعلها ، ووصلت إلى جينيف (١٥٥٧) مع ابن ، وابنة وخادمة . وماتت الإبنة بعد ذلك ببضعة أيام ، ولكن مسز لوك ظلت قرب نوكس وعاونت مسز بويز التي تقدمت بها السن ، ولم تعد وقتذاك مصدراً للراحة كما كانت من قبل ، في تلبية حاجات الواعظ . وليس لدينا دليل على وجود علاقات جنسية ، ولا نسمع أي شكوى من مسز نوكس ، بل إننا لا نكاد نسمع عنها على الإطلاق . إن هادم البيوت القديم سوف يتخذ لنفسه أماً ، وكانت له طريقته باسم المسيح .

بل كانت له طريقته في كل شيء تقريباً . وكان مثل كثير من العظماء ، صغير الجسم ، بيد أن كتفيه العريضتين كانتا تنمان على القوة ، ومحياه الصارم يدل على اليقين والتطلع إلى السلطة . شعر أسود وجبهة ضيقة وحاجبان كثيفان وعينان نفاذتان وأنف ينم على التطفل وخدان أسيلان وفم واسع وشفتان غليظتان ولحية طويلة ، وأصابع مستطيلة ، ونحن نجد في هذا تجسيداً للإخلاص والرغبة في السلطة ، وهو رجل يتميز بنشاط مبعثه التعصب . وكان يحب الوعظ مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع لمدة ساعتين أو ثلاثا في كل مرة ، وكان علاوة على هذا يدير الشئون العامة ويوجه حياة الأفراد ، فلا عجب « ألا أجد في الأربع والعشرين ساعة أربع ساعات أخلو فيها من العمل للراحة الطبيعية[٢٠] » . ويلطف من شجاعته ، حياء يعتوره إلى حين ، وكانت عنده بديهة تنبهه إلى الفرار من الموت وشيك الوقوع . واتهم بتحريض البروتستانت على القيام بثورة محفوفة بالمخاطر في إنجلترا أو إسكوتلندة في الوقت الذي بقي فيه في جينيف أو دييب ، ومع ذلك فإنه واجه عشرات الأخطار وندد بفساد نورثمبرلاند في وجهه وجاهر فيما بعد بالدمقراطية في وجه ملكة . ولم يكن في الإمكان شراؤه بالمال . وظن أو ادعى أن صوته هو صوت الله .

وصدق كثيرون ادعاءه وحيوه باعتباره رسولا من قبل الله ، ولذلك فإنه عندما خطب قال سفير إنجلترا : « إنه ينفخ فينا من الحياة أكثر مما يفعل ١٠٠ بوق تضج فى أذاننا[٢١] » .

وكانت العقيدة الكالفينية مصدراً من مصادر قوته . لقد قسم الله كل الناس إلى الصفوة والملعونين ، وكان نوكس وأنصاره من الصفوة ، ومن ثم كتب لهم النصر من الله ، وكان خصومهم أشقياء ، وسوف تكون جهنم مثواهم عاجلا أو آجلا . وكتب يقول : « إننا مقتنعون بأن كل ما يفعله خصومنا عمل شيطانى[٢٢] » . وهؤلاء الخصوم الملعونون من الله لا يستحقون أى حب مسيحى لأنهم أبناء الشيطان لا الرب ، وهم لا يطوون جوانحهم على أى خير ، ويحسن استئصال شأفتهم تماماً من الأرض . ونعم بالك والكراهية الكاملة التى يثيرها الروح القدس فى قلوب صفوة الرب ضد أولئك الذين يزدرون تماثيله المقدسة[٢٣] » وفى الصراع مع الأشقياء كانت جميع الوسائل مباحة — الكذب والغدر[٢٤] وتناقضات السياسة[٢٥] المرنة . فالغاية تبرر الوسيلة .

ومع ذلك فإن فلسفة نوكس الأخلاقية فى ظاهر أمرها كانت تتعارض تماما مع فلسفة مكيافيلى . فهو لم يسلم بأن يتحرر الساسة من القانون الأخلاقى المطلوب من المواطنين ، وطالب بأن يطيع الحكام والمحكومون على السواء تعاليم الكتاب المقدس . غير أن الكتاب المقدس كان يعنى بالنسبة إليه فى الغالب العهد القديم ، وكان أنبياء يهود المتوعدون أصلح لغايته من الرجل الذى استشهد على الصليب . فقد كان فى وسعه أن يستميل الأمة إلى إرادته أو يحرقها بنبوءات ملتهبة . وادعى أنه يملك قوة تنبئية ، وتنبأ حقا بوفاة مارى تيودور المبكرة وسقوط مارى ستيوارت — أو لعل هذه الأمانى تحققت لحسن الحظ ؟ — وكان صائب الرأى لا يخطئ الحكم على أخلاق الرجال الآخرين

وأحيانا على أخلاقه . إذا اعترف[٢٦] فى سماحة « إننى بفطرتى جلف غليظ » .
وعزا فراره من إسكوتلندة إلى الضعف البشرى والخبث[٢٧] .

وكان وراء زمجرته دعابة جافة ، وكان فى وسعه أن يكون رقيقاً بقدر ما كان عنيفاً . وأكب بإخلاص كامل على عمله وهو إنشاء سلطة يتمتع بها نظام كهنوتى مطهر وعالم يشرف على الجنس البشرى ويبدأ بالإسكوتلنديين . وكان من رأيه أن النظام الكهنوتى الفاضل إنما يستلهم الله ، وعلى هذا فإنه فى مجتمع حساس على هذا النحو سيكون الله والمسيح هما الملك . وكان يؤمن بالحكم بأمر الله ولكنه عمل للديمقراطية أكثر مما فعل أى رجل آخر فى عصره .

ولم تكن رسائله مجرد تمارين أدبية بل كانت وكأنها هزيم رعد سياسى وكانت تضارع رسائل لوثر فى قوة الهجاء . وكانت الكنيسة الرومانية عنده ، كما هو الحال عند لوثر ، « بغيا . . . . دنستها تماماً كل ضروب الفجور الروحى[٢٨] » . وكان الكثالكة « بابويين أضر من الوباء » و « تجار قداس » وكان قساوستهم « ذئاباً مفترسة » . ولم يكن هناك رجل يبزه فصاحة فى ذلك العصر الفصيح . وعندما تزوجت مارى تيودور من فيليب الثانى انفجر نوكس غاضباً فى رســالة بعنوان : « تحذير مخلص إلى معلمى حقيقة الرب فى إنجلترا » (١٥٥٤) .

ألم تثبت مارى أنها خائنة صراح لتاج إنجلترا الإمبراطورى باستقدامها أجنبياً ، وتنصيب ملك إسبانى متعجرف ليلحق الخزى والعار والدمار بالنبلاء وذويهم ، وليسلبهم ألقاب شرفهم وأراضيهم ومقتنياتهم ومناصبهم الكبيرة ومراتبهم الرفيعة ، حتى يلحق البوار التام بخزائن المملكة وأسباب تجارتها وبحريتها وحصونها ، وحتى يحط من شأن ملاك الأراضى ، ويجعل عامة الناس يرسفون فيها فى قيود العبودية ، ويطيح بالمسيحية وديانة الرب الصحيحة ، وحتى يقوض آخر الأمر دعائم الأملاك العامة ورفاهية إنجلترا بأسرها .... إن الله برحمته السابغة ، يبعث بنحاس أو إليــا

أو يهوه ، عسى أن يهدئ دم عبدة الأوثان المقيت غضب الرب ولا يهلك الجمع بأسره(٣١) !

ولكنه كتب بين آن وآخر ، وإن كان هذا نادرا ، فقرات تفيض رقة وجمالا ، وجديرة بسانت بول الذى ألهمهم ، مثل « رسالة إلى إخوانه فى إسكوتلندة » لن ألجأ إلى أى تهديد ، لأنى كبير الأمل فى أنكم سوف تمشون مثل أبناء الضوء ، وسط هذا الجيل الخبيث ، وأنكم سوف تكونون مثل النجوم فى الليل ، التى لا تتغير مع ذلك فى الظلام ، ومثل قمحة وسط صدفة ... ومن عداد الرجال المتهلين العقلاء ، وتملأون مصابيحكم بالزيت من جديد كل يوم ، كأولئك الذين ينتظرون فى صبر الظهور المجيد ليسوع الرب ومحبيه ، وهو الذى تحكم روحه القديرة وتعلمكم وتنير قلوبكم وعقولكم فى كل ما يوجه إليكم من هجوم الآن وإلى الأبد(٣٢) .

وهناك رسالة متميزة أكثر من غيرها هى أول « نفخة فى الابوق ضد كتيبة النساء المروعة » التى دبجت فى دييب عام ١٥٥٨ ضد ما خيل لنوكس أنه وباء الحاكمات من النساء فى أوروبا — مارى تيودور ومارى أميرة اللورين ومارى ستيوارت وكاثرين دى مديتشى . وفى وسعنا أن ندرك مدى هلعه من تطبيق مارى تيودور لمبادئه ، ولكن حتى إذا لم تضطهد مارى أعداءها فإن نوكس يعدها وحشاً ووصمة سياسة تنتهك القاعدة الطبيعية التى تقول إن الرجال يجب أن يحكموا الدول . ويبدأ يقول « لا عجب أن نجد بين كثير من العقول الخصيبة التى أنجبتها جزيرة بريطانيا العظمى كثيرا من الوعاظ الورعين والمتحمسين بقدر ما أطعمت أحياناً ، ولا يوجد بين الكثيرين من علماء اللاهوت والرجال ذوى الرأى الرصين الذين نفتهم إيزابيل (مارى تيودور) ، رجل مقدام شجاع ومخلص للرب . . . يجرؤ على تنبيه سكان تلك الجزيرة إلى مدى ما وصلت إليه من بغض

أمام الله ، إمبراطورية أو ملك امرأة ، بل خائنة وابنة سفاح ، وماذا في وسع شعب أو أمة تركت مجردة من رأس شرعى أن تفعل بسلطة الرب في انتخاب وتعيين حكام وقضاة للعموم . . . إننا لسمع عن سفك دم إخواننا أتباع يسوع المسيح بأشد قسوة والإمبرطورية المتوحشة لامرأة قاسـية ، نعلم أنها وحدها سبب كل هذا الشقاء . . . إن الارتقاء بامرأة لكى تنهض بحكم أو سيادة أو سلطان أو إمبراطورية تفوق أى مملكة أو أمة أو مدينة أمر يخالف الطبيعة ويعد إهانة للرب ، ومناقضاً لإرادته التى جلاها وشريعته المسلم بها ، وأخيراً فإنه تقويض لدعائم نظام وطيد ، ولكل إنصاف وعدل ، من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تعيين الأعمى لقيادة المبصرين وتوجيههم إنما يتناقض مع الطبيعة ؟ ومن ذا الذى يقول إن الضعفاء والمرضى والعاجزين يطعمون الأقوياء جميعاً ؟ وأخيراً من يقول إن الحمقى والمجانين والمخبولين يحكمون العقلاء ويقدمون المشورة لأصحاب العقول الرصينة ؟ وهكذا كل النساء إذا قورن بالرجال في احتمال السلطة ... فالمرأة فى أكمل صورة خلقت لتخدم الرجل وتطيعه لا لتحكمه وتأمره(٣٣) .

واستشهد نوكس بوثيقة لا جدال فيها من الكتاب المقدس لكى يثبت هذا ، ولكنه عندما تغلغل فى أعماق التاريخ ، وبحث عن أمثلة لدول هدمتها نساء حكمتها ، اختلط عليه الأمر تماماً ، لأنه وجد أن التاريخ سجل أنهن أفضل بكثير من الملوك . ومع ذلك فإنه ختم رسالته بلعنة الواثق من حكمه :

إن إيزابل اللعينة ملكة انجلترا هى وجيل البابويين المقيت المؤذى كالوباء لا يألون جهدا فى الزهو والتفاخر بأنهم لم ينتصروا على وبات فحسب ، بل انتصروا أيضاً على كل من دبر شيئاً ضدهم . . . وأنا لا أخشى أن أقول إن يوم الانتقام ، الذى سوف يقبض فيه على ذلك المسخ

الفظيع جيزيل ملكة انجلترا ... قد تحدد فى مجلس الحى الباقى ... وليعلم هذا الناس جميعاً لأن البوق قد نفخ فيه[٣٤] »

وأخذ نوكس مخطوطة كتابه « نفخة » إلى جينيف وطبعها سرا ولم يضع عليه اسمه ، وأرسل نسخاً منه إلى إنجلترا ، فحرمت مارى تداول الكتاب باعتباره تحريضاً على الثورة ، وجعلت حيازته جريمة يعاقب عليها بالإعدام .

وعاود نوكس الهجوم فى رسالة بعنوان : « نداء ... إسكوتلندة وطبقات سكانها (يوليو سنة ١٥٥٨) » .

لا أحد ممن يحرضون الناس على عبادة الأوثان(*) ينبغى أن يعفى من عقوبة الإعدام ... ويجب تطبيق الحكم لفسه فى مكان يؤمن بيسوع المسيح وإنجيله ... اللذين اعترف بهما الحكام والناس فى خشوع ، ووعدوا بالدفاع عنهما ، كما حدث فى عهد الملك إدوارد فى الأيام الأخيرة بإنجلترا . وفى مثل هذا المكان أقول إن عقوبة الإعدام ليست مشروعة على من يعمل على تقويض دعائم الدين فحسب ، بل إن الحكام والناس ملتزمون بأن ينتهجوا هذا السبيل ، إلا إذا أرادوا أن يثيروا غضب الله عليهم ... وأنا لا أخشى أن أؤكد أن واجب النبلاء والقضاة والحكام والشعب فى إنجلترا كان لا يقتضى منهم أن يقاوموا مارى ، تلك الإيزابل ، ويعارضوها فحسب ... بل عليهم أن يقتصوا منها بإعدامها[٣٦] .

وحث نوكس شعب إسكوتلندة على تطبيق هذا الرأى الخاص بالثورة الشرعية على مارى أميرة اللورين ، وشكا من أن الوصية على العرش قد أحاطت نفسها بحاشية فرنسية وجنود فرنسيين ليأكلوا مدخرات الإسكوتلنديين : بينما يؤتى بالأغراب لسحقنا نحن وخيرنا العام وذريتنا ،

(*) كتب نوكس عام ١٥٦٠ : « إننا نقصد بعبادة الأوثان القداس والتوسل بالقديسين وعبادة الصور واستيفاءها والاحتفاظ بها وكل عبادة للرب لا يحويها كتابه المقدس[٣٥] » .

وبينما يحافظ على عبادة الأوثان ويستخف بالدين الصحيح ليسوع المسيح ، وبينما ذوو الكروش والطغاة الدمويون الأساقفة يبقون ، ويضطهد رسل المسيح الصادقون ، وأخيراً بينما تحتقر الفضيلة وتمجد الرذيلة . فأى رجل ورع يمكن أن يساء إليه لأننا سوف ننشد تقويم هذه الأعمال الفاضحة (نعم ، حتى لو اقتضى الأمر الالتجاء إلى قوة السلاح ، إذا رأينا أنه لن يتيسر لنا بخلاف ذلك) ؟ . . . إن العقوبة على ارتكاب جرائم مثل عبادة الأوثان والكفر وغيرهما ، التى تمس الله سبحانه وتعالى ، لا يختص بها الملوك وكبار الحكام فحسب ، بل تخص بها أيضاً الهيئة الكاملة لذلك الشعب ، وتخص كل عضو فى الهيأة ، طبقاً لما يتيحه الله من إمكان وفرصة للانتقام من الضرر الذى لحق بمجده(٣٧) :

وهنا نجد مزيجاً غريباً من الثورة والرجعية فى بيانات نوكس . وكان لا بد أن يتفق معه فى تبرير قتل الطغاة من آن لآخر كثير من المفكرين ومنهم هوجينوت فرنسيون مثل هوتمان ويسوعيون مثل ماريانا . ومع ذلك فإن اقتناعه ، بأن هؤلاء الذين كانوا واثقين من لاهوتهم يجب أن يسحقوا — وإذا اقتضى الأمر يقتلوا — خصومهم ، رجع فيه إلى أكثر ممارسات محكمة التفتيش شؤماً . واعتبر نوكس أن الأصحاح الثالث عشر من سفر التثنية لا يزال سارى المفعول وفسره حرفياً ، فكل هرطيق يجب أن يعدم ، والمدن التى تغلب عليها الهرطقة يجب أن يقتص منها بالسيف وتدمر تماماً ، ويقضى على ما فيها من ماشية ، وكل بيت فيها يجب أن يحرق حتى ينهدم . ويعترف نوكس أن هذه الأوامر الخالية من الرحمة أفزعته فى بعض الأحيان : قد يبدو هذا الحكم حتى للرجل المادى صارماً وقاسياً ، أجل ، وقد يبدو وكأنه صدر عن غضب لا عن تعقل . . . . وأى مدينة . . . لا يوجد فيها أبرياء مثل الرضع والأطفال وبعض السذج والجهال لا يقترفون الكفر أو يستسلمون له ؟ ومع ذلك فإننا لا نجد استثناء بل إن الجميع مكتوب عليهم الموت القاسى . بيد أنه فى مثل هذه الأحوال أرادت مشيئة الله أن تنحنى جميع المخلوقات وتغطى وجوهها ، وتكف عن التفكير المنطقى ، إذا كان هناك أمر منه تعالى بتنفيذ إرادته(٣٨) .

وعلينا ألا نحاكم نوكس بمقاييسنا الراهنة عن التسامح ، فقد أعرب بإصرار شديد عن الروح العامة لعصره تقريباً .

وكانت السنوات التي قضاها في جينيف ، حيث كان سرفينوس قد أحرق لتوه ، قد أكدت نزعته نحو الالتزام بالحرفية الصارمة واليقين الذى يصل إلى درجة الغرور . ولو أنه قرأ ما احتج به كاستليو لتبرير التسامح لطابت نفسه على الأرجح برد يبز عليه . ومع ذلك فإن رجلا مغموراً ممن ينكرون وجوب التعميد كتب في تلك السنوات نفسها نقداً للكالفينية بعنوان : « مهمل بالضرورة » وأرسله البروتستانت الإسكوتلنديون إلى نوكس ليرد عليه رداً مفحماً ، وكأنما كان صوت العقل يهمس لحظة وسط حرب العقائد . وتساءل المؤلف كيف جاز للكالفينيين بعد أن عرفوا مفهوم المسيح عن أب محب ، أن يؤمنوا بأن الله قد خلق بشراً كتب عليهم ، وشاء لهم اللعنة الأبدية . وقال المنكر لوجوب التعميد أن الله قد وهب الناس ميلا طبيعياً لأن يحبوا ذريتهم ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فكيف يكون الله أقسى من الإنسان ؟ واستطرد المؤلف قائلا إن الكالفينيين قد أتوا من الشر أكثر مما أتى به الملحدون « لأن الذين يؤمنون بأن الله ليس جائراً وقاسياً وظالماً أقل قذفاً في حق الله ممن يقولون بأنه كذلك » ورد نوكس « أن هناك أسراراً تخفى على العقل البشرى ، ولسوف تحطم كبرياء أولئك الذين لا يقنعون بإرادة الله التي تتجلى ، ويسرهم أن يصعدوا ويحلقوا فوق السماوات ليتساءلوا عن إرادة الله الخفية » . وكتب يقول في موضع آخر « والطبيعة والعقل إنما يضلان الناس عن الله الحق . وأى وقاحة أن يفضل المرء الطبيعة الفاسدة والعقل الأعمى على كتب الله المقدسة[٣٩] ؟ » .

ولم يقتنع نوكس بقوة الاستدلال واعتقد في قرارة نفسه أنه مخلص لروح المسيح ، فأرسل عام ١٥٥٩ ، عندما كانت تحكم إنجلترا ملكة بروتستانتية ، إلى شعبها رسالة بعنوان : « عظة موجزة » ينصحه فيها بأن يكفر عما قامت

به مارى من اضطهاد يجعل العقيدة الكالفينية ونظامها الأخلاق إجباريين فى سائر البلاد » ورفضت إنجلترا العمل بالنصيحة . وعاد نوكس فى ذلك العام إلى إسكوتلندة ليشرف على إيديولوجية ثورتها .

٤ ـ جماعة أتباع يسوع المسيح : ١٥٥٧ — ٦٠

لقد امتزجت دعواته الإسكوتلنديين إلى الإطاحة بنير الخضوع لروما بتعاليم المصلحين الدينيين الآخرين وتدفق البروتستانت من إنجلترا وتسلل الأناجيل والنشرات من إنجلترا والقارة الأوروبية ، وتعطش النبلاء الإسكوتلنديين للأرض وإبعادهم الموغر للصدور على يد الفرنسيين الذين يضعون المساحيق على وجوههم من رجال الحاشية ، فعملت على رفع درجة حرارة الثورة إلى نقطة الانفجار . واحتمل سكان إدنبره ، الكاثوليك المتمسكون بعقيدتهم عام ١٥٤٣ بطريق مباشر وبإستياء شديد تدفق الغاليين المتغطرسين أثناء وصاية مارى أميرة اللورين على العرش . وحدث كل شىء يحيل حياة الدخلاء بؤساً وشقاء . واشتد الإحساس بالذات فى كلا الجانبين ، ولما كان رجال الاكليروس قد أيدوا الفرنسيين فإن روح القومية رددت نغمات عالية مناهضة للكاثوليكية وسارت مواكب دينية ـ حملت فيها تماثيل للعذراء والقديسين عبدت فيا يبدو ، وعرضت مخلفات وقبلت باحترام ـ فأثارت المزيد من السخرية والشك .

وفى سبتمبر عام ١٥٥٧ استولت جماعة من المتشككين المتحمسين على تمثال لسانت جيلس فى « الكنيسة الأم » التى تحمل هذا الاسم فى إدنبرة وغمروها فى بركة ، وأحرقوها فيا بعد حتى تحولت إلى رماد . ويروى نوكس أن هجمات مماثلة استهدفت تحطيم الأصنام حدثت فى كل أرجاء البلاد »

وفى الثالث من ديسمبر عام ١٥٥٧ اجتمعت فى إدنبرة (التى كانت قد أصبحت عاصمة للبلاد عام ١٥٤٢ « عصبة مشتركة » من النبلاء المناهضين

لرجال الدين أرجيل وجلنكرن وموزتون ولورن وإرسكين — ووقعوا « أول ميثاق إسكوتلندى » وأطلقوا على أنفسهم اسم : « لوردات جماعة المصلين ليسوع المسيح » لتعارض « جماعة المصلين للشيطان » — أى الكنيسة ، وتعهدوا بالمحافظة على « كلمة الله المباركة أكثر من أى شىء » ، ودعوا إلى « إصلاح فى الدين والحكومة » ، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية « التى تبيح لنا أن نمارس أمور الدين والضمير كما ينبغى استجابة لأمر الله » : وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ بأسباب الإصلاح الدينى فى سائر إسكوتلندة ، وأعلنوا أن كتاب الصلاة العامة الذى كتب لإنجلترا فى عهد إدوارد السادس يجب أن تعمل به كل جماعات المصلين ، واحتج الأساقفة البروتستانت على هذا الانشقاق الجرىء وحثوا رئيس الأساقفة هاميلتون على قمعه . فأمر فى شىء من التبرم (٢٨ أبريل سنة ١٥٥٨) — بإحراق والتر ميلن — وهو قسيس عجوز كان قد تجرد من ملابس الكهنوت وتزوج واعتاد أن يبشر بعقيدة الآخذين بالإصلاح الدينى بين الفقراء ، وكان الناس يكنون احتراماً عظيماً للرجل العجوز فأعربوا عن فزعهم لهذا الإحراق الأخير لبروتستانتى إسكوتلندى بتهمة الهرطقة ، وقاموا ببناء هرمى الشكل من الأحجار فوق الموضع الذى مات فيه : وعندما استدعى واعظ آخر للمحاكمة امتشق المدافعون عنه السلاح ، واقتحموا طريقهم إلى حضرة الوصية ، وأنذروها أنهم لن يسمحوا بمزيد من الاضطهاد من أجل العقيدة الدينية ، وأنذر لوردات جماعة المصلين الوصية (نوفمبر سنة ١٥٥٨) أنها ما لم تمنح الناس حرية العبادة فإنهم لن يكونوا مسئولين « إذا حدث أن قومت المظالم بالعنف[٤٠] » وأرسلوا فى ذلك الشهر رسالة إلى نوكس بأنهم سوف يحمونه إذا عاد .

وتمهل فى العودة ولكنه وصل إلى إدنبره فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٥٩ . وقدم يوم ٣ مايو فى برث العظة التى أطلقت الثورة من عقالها ، ويقول لنا إنها كانت عظة « عنيفة ضد عبادة الأوثان » وقد فسرت « ما فى

القداس من عبادة للأوثان وما فيه من أمور بغيضة ، و« الوصية التي أمر بها الله بتدمير الأنصاب لهذا السبب[٤١] » « وخرج « الجمع الأثيم » كما يصفه من الطاعة ، وعندما حاول قس في كنيسة مجاورة أن يقيم قداساً صاح أحد الشبان : « إن هذا لا يطاق لأنه في الوقت الذي لعن فيه الرب عبادة الأوثان صراحة في كتابه ، فإننا نقف لنراها تعبد على الرغم من ذلك » وجاء في رواية لنوكس أن القسيس وجه للصبي ضربة شديدة ، فتناول في غمرة غضبه حجراً وقذف به القسيس وأصاب قدس الأقداس ، وحطم أحد التماثيل ، وما لبث أن قذف الجمع كله المحتشد حوله الأحجار وأعملوا أيديهم في قدس الأقداس المزعوم وفي سائر آثار عبادة الأوثان[٤٢] » . وتدفق الجمهور إلى ثلاثة أديار ونهبوها وحطموا التماثيل ، ولكنهم سمحوا للإخوة الرهبان أن يأخذوا معهم ما تستطيع أكتافهم أن تتحمله » : وما هي إلا يومان أو ثلاثة حتى كانت هذه المواضع الثلاثة الكبيرة . . . . قد دمرت ولم يبق منها قائماً سوى الجدران[٤٣] » .

وكانت الوصية على العرش بين نارين ، ونصحها أخوها كاردينال اللورين أن تسير على نهج ماري تيودور ، وأن تقضي على كبار البروتستانت ، وكان الثوار المتصرون في برث وحولها في غضون ذلك يهددون بقتل أي قسيس يجرؤ على إقامة القداس[٤٤] . وفي ٢٢ مايو أرسل لها لوردات جماعة المصلين ، وكان يظاهرهم وقتذاك أتباعهم المسلحون ، إنذاراً نهائياً مشئوماً :

« إلى عظمة الوصية على المملكة ، بعد تقديم كل فروض الاحترام والخضوع ، بما أننا حتى الآن قد خدمنا السلطة في إسكوتلندة ، هي وعظمتكم ، بالمخاطرة بأرواحنا وبقلوب راضية . . . فإننا الآن والأسى يملأ جوانحنا مكرهون ، تحت طأة استبداد ظالم يدبر لنا ، أن نعلن لعظمتكم أنه ما لم تتوقف هذه القسوة بفضل حكمتكم ، فإننا سوف نكون مضطرين إلى امتشاق الحسام للدفاع العادل في وجه كل من يطاردوننا في سبيل الدين . . . إن جريمة القتل القاسية الظالمة التي بلغت أقصى درجات الاستبداد والموجهة إلى المدن

والجماهير ، كانت ولا تزال السبب الوحيد لتَردنا على خضوعنا التقليدى ، الذى نعد بإخلاص أمام الله أن نقدمه لمولاتنا (مارى ملكة الإسكوتلنديين) ولزوجها ونعظمتكم ، بشرط أن تنعم ضمائرنا بالطمأنينة والحرية اللتين اشتراهما لنا بدمه يسوع المسيح . . . رعايا عظمتكم الخاضعون لكم فى جميع الأمور التى لا تغضب الرب — جماعة المصلين المخلصين ليسوع المسيح فى اسكتلندة[٤٥] » ؟!

وفى الوقت نفسه بعثت جماعة المصلين نداء إلى النبلاء بتأييد الثورة وخطاباً مفتوحاً حذروا فيه « جيل المناهضين للمسيح والأساقفة المؤذين كالوباء ورهبانهم . . . : إذا مضيتم فى قسوتكم الحاقدة فإنكم سوف تعاملون ، أينما يقبض عليكم كقتلة وأعداء للرب صراحة . ولن يبرم معكم عقد صلح قط إلا إذا انقطعتم عن عبادتكم الصريحة للأوثان واضطهادكم القاسى لأبناء الرب[٤٦] » .

ودخلت الوصية مارى مدينة برث بقدر ما استطاعت أن تحشد من كتائب الجند ، ولكن أنصار جماعة المصلين تجمعوا صفاً مسلحاً ، وأدركت مارى أنها لن تستطيع أن تتغلب عليهم ، فوقعت معهم هدنة (٢٩ مايو سنة ١٥٥٩) ، وانسحب نوكس إلى سانت أندروز ، ولم يعبأ بنواهى كبير الأساقفة ، فوعظ فى كنيسة الأبرشية ضد عبادة الأوثان (١١ — ١٤ يونيه) . وتأثر مستمعوه بحرارة عباراته فأزالوا كل أثر ينم عن عبادة الأوثان « عن كنائس المدينة وأحرقوا هذه التماثيل أمام عينى رجال الدين الكاثوليك[٤٧] . وهرب كبير الأساقفة إلى برث ، ولكن قوات جماعة المصلين ادعت أن مارى قد خرقت نصوص الهدنة باستخدام الأموال الفرنسية فى دفع رواتب جنودها الإسكوتلنديين ، وهاجمت القلعة ، واستولت عليها (٢٥ يونيه) . وفى الثامن والعشرين نهبت دير سكون وأحرقته .

وإذا جاز لنا أن نصدق أحياناً ما يقوله نوكس المعروف برحابة خياله فإن « ربة بيت فقيرة طاعنة فى السن قالت وهى ترى ألسنة اللهب المتصاعدة :

« الآن أرى وأدرك أن أحكام الرب عادلة . فإن هذا المكان بقدر ما تسعفنى الذاكرة لم يكن إلا وكراً للقوادين . إنه لأمر لا يصدق ... كم من زوجة زنى بها ، وكم من عذراء افتض بكارتها الوحوش الدنسة ، التى كانت تحتضن هذا الوكر ، وبخاصة ذلك الرجل الخبيث . . الأسقف(١٨) » .

وكانت مارى أميرة اللورين وقتذاك مصابة بمرض خطير ، تتوقع وفاتها فى أية لحظة ، فهربت إلى ليث وحاولت أن تؤخر تقدم البروتستانت المنتصرين بالمفاوضات إلى أن يصل إليها العون من فرنسا . ولكن جماعة المصلين تفوقت عليها فى المباراة ، وذلك بالفوز بتأييد إليزابث ملكة إنجلترا . وكتب نوكس إلى الملكة خطاباً يؤكد لها فيه أنه لم يتعرض لها فى رسالته « نفخة البوق » ضد الملكات . ونصح وليام سيسل الوزير الأول ملكته إليزابث بأن تساعد الثورة الإسكوتلندية كإجراء يحقق اعتماد إسكوتلندة على إنجلترا سياسيا . وأدركت أن هذا إجراء وقائى مشروع ضد مارى ستيوارت ، التى كانت قد طالبت ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) بعرش إنجلترا أيضاً ، على أساس أن إليزابث ابنة سفاح مغتصبة للعرش . وسرعان ما أغلق أسطول إنجليزى فى مضيق فورث الطريق أمام نزول أى مساعدة فرنسية للوصـــية على العرش إلى البر ، وانضم جيش إنجليزى إلى قوات جماعة المصلين فى مهاجمة ليث . وانسحبت مارى أميرة اللورين إلى قلعة إدنبره ، وماتت (١٠ يونيه سنة ١٥٦٠) بعد أن قبلت حاشيتها واحداً واحداً . لقد كانت امرأة طيبة قدر عليها أن تقوم بالدور الخطأ فى مأساة لا فكاك منها .

واستسلم آخر المدافعين عنها ، بعد أن سدت فى وجوههم السبل وأوشكوا على الموت جوعاً . وفى السادس من يوليو سنة ١٥٦٠ وقع ممثلو جماعة المصلين ومارى ستيوارت وفرنسا وإنجلترا معاهدة إدنبره التى

قدر لموادها أن تكون من صميم أسباب الصراع الأخير بين ماري وإليزابث . . .
وكان على كل الجنود الأجانب ما عدا ١٢٠ فرنسياً مغادرة إسكوتلندة ، وكفت ماري استيوارت وفرانسيس الثاني عن مطالبتهما بالتاج الإنجليزي ، واعترف بماري ملكة على إسكوتلندة ، ولكن حظر عليها أن تشن حرباً أو تعقد صلحاً بدون موافقة أمراء الإقطاع ، وكان على هؤلاء أن يختاروا خمسة رجال أو اثني عشر رجلا للتعيين في مجلسها الخاص ، ولا يجوز أن يشغل أجنبي أو رجل من رجال الإكليروس منصباً رفيعاً ، ولا بد من إعلان عفو عام، مع استثناءات يعينها أمراء الإقطاع . كانت معاهدة صلح مهينة للملكة الغائبة ، وانتصاراً مبيناً لجماعة المصلين لم تكد تسفك فيه دماء . .

وقبل المجلس النيابي ، الذي اجتمع في أول أغسطس سنة ١٥٦٠ اعترافاً بالعقيدة أعده نوكس ومعاونوه وخفف من غلواء بعض نصوصه ميتلاند ليثنجتون ولم يصوت ضده إلا ثمانية أعضاء . ولما كان لا يزال العقيدة الرسمية لكنيسة إسكوتلندة المشيخية نرى لزاماً علينا أن نسجل بعض مواده الأساسية تذكيراً بها :

١ — نعترف ونقر بوجود إله واحد أحد . . . . في ثالوث .

٢ — نعترف ونقر أن إلهنا هذا قد خلق بشراً ندرك أنه أبونا الأول آدم — خلق منه الله امرأة على صورته . . . حتى لا نلاحظ أي نقص في طبيعة الإنسان الكاملة ، ومن هذا الشرف والكمال سقط الرجل والمرأة معاً .

فالمرأة خدعتها الحية والرجل أصغى لصوت المرأة .

٣ — وبهذه الزلة ، التي يطلق عليها عادة اسم الخطيئة الأولى دنست صورة الرب تماماً في الإنسان ، وأصبح هو وذريته من الطبيعة أعداء للرب ، عبيداً للشيطان وخدماً للخطيئة ، وما دام ذلك الموت كانت له ، وسوف تكون له دائماً ، قوة وسلطان ، على كل من لم يولد أو ولد

أو سوف يولد من أعلى ، وهذا الميلاد من جديد يتم على يد الروح القدس ، وهو يعمل فى أفئدة أصفياء الرب فتمتلىء إيماناً لا يتزعزع بوعد الرب . وبهذا الإيمان يدركون يسوع المسيح .

٨ — وذلك الرب والأب الباً نفسه . . . برحمته وحدها اختارنا فى يسوع المسيح ... قبل خلق العالم .... .

١٦ — إننا نؤمن بإخلاص شديد ، بأنه كانت منذ البداية ، ولا تزال ، وسوف تكون إلى نهاية العالم ، كنيسة أى صحبة وجماعة من الناس اختارهم الله ، لكى يعبدوه بحق ، ويحتضنوه بالإيمان الصحيح بيسوع المسيح ... وخارج هذه الكنيسة لا توجد حياة ولا نعيم أبدى ، ومن ثم فإننا نمقت بشدة كفر من يؤكدون أن الناس يعيشون ، وهم يراعون الإنصاف والعدل سوف يظفرون بالخلاص أيا كان الدين الذى يعتنقونه .

٢١ — نحن لا نقر إلا اثنتين من المقدسات : التعميد والعشاء الربانى . . . لا لأننا نتصور تحول الخبز إلى جسد الرب الطبيعى . . . ولكننا نؤمن بأن صنيع الروح القدس إنما يعنى أن المؤمنين بالاستخدام الصحيح لمائدة الرب يأكلون جسد السيد يسوع ويشربون دمه .

٢٤ — نعترف ونقر بأن الإمبراطوريات والممالك والمستعمرات والمدن أقيمت بفضل الله ... فى الغالب وبصفة رئيسية للملوك والأمراء والحكام ، وذلك من أجل الحفاظ على كل ما يتصل بالدين وتطهيره ، ولهذا فإنهم لا يعينون من أجل السياسة المدنية وحدها ، ولكن من أجل المحافظة على الدين الصحيح ومنع عبادة الأوثان والخرافة أيا كانت أيضاً (١٩) .

وترتب على هذا الاعتراف أن المجلس النيابى الإسكوتلندى الآخذ بأسباب الإصلاح الدينى رفض التسليم بالسلطة القضائية للبابا ، وجعل القعيدة والشعيرة اللتين تبناهما الإصلاح الدينى اجباريين ، ومنع إقامة القداس وإلا تعرض من يقيمه للعقوبة البدنية ومصادرة أمواله عند ارتكاب أول جريمة ، والنفى

عند ارتكابه لها للمرة الثانية ، والإعدام إذا ارتكبها مرة ثالثة . ولكن لما كان النبلاء الذين يتحكمون فى المجلس النيابى يريدون الأرض أكثر مما يريدون سفك الدماء ، وبما أنهم لم يتبعوا اللاهوت الكالفينى حرفياً فإن مطاردة هؤلاء الإسكوتلنديين الذين ظلوا كثالكة ، بقى معتدلا نسبياً ، ولم يصل قط إلى توقيع عقوبة بدلية . وبعد أن سمح للنبلاء برفض الاعتراف بالمطهر باعتباره أسطورة ، ادعوا أنهم غبنوا فى جانب من ذمتهم المالية بالهبات التى قدمها أجدادهم من الأرض أو المال لدفع أتعاب لقساوسة يرتلون قداسات من أجل الموتى ، الذين قدر عليهم طبقاً للاهوت الجديد ، الخلاص أو اللعنة قبل خلق العالم ، ولهذا فإنه يمكن التعبير فى بهجة عن نزع ملكية الكنيسة بأنه استرداد للأموال المختلسة ، وأغلقت معظم الأديار الإسكوتلندية ، واستولى النبلاء على ثروتها ولم تدبر الحكومة فى مبدأ الأمر أى مورد للقساوسة الكالفينيين ، وكان هؤلاء قد استخدموا كمعاونين أيدلوجيين فى الثورة ، ولكن النبلاء كانوا قد فقدوا وقتذاك الاهتمام باللاهوت . وكان نوكس ورفقاؤه من الوعاظ الذين خاطروا وضحوا بالكثير من أجل النظام الجديد قد توقعوا ، أن تستخدم أملاك الكنيسة فى مساندة الكنيسة الإسكوتلندية ورجال الأكليروس بها . والتمسوا من المجلس النيابى إقرار هذا التدبير فلم يتلقوا جواباً ، ولكن خصص لهم فى آخر الأمر سدس الأسلاب . ووجد أن هذا يقصر عن تحقيق مطالبهم فانقلبوا ضد الأرستقراطية النهمة وبدأ الحلف التاريخى بين أتباع الكنيسة المشيخية الإسكوتلندية والديمقراطية .

وتفردت حركة الإصلاح الدينى الإسكوتلندى بين حركات الإصلاح الدينى جميعاً بأنه لم يسفك فيها إلا أقل قدر من الدماء ، وكانت مع ذلك أبقاها ، وقاسى الكثالكة فى صمت ، وهرب أساقفتهم وقبل معظم قساوسة الأبرشيات التغيير باعتباره ليس أسوأ من ظلم الأساقفة وزياراتهم التفتيشية .

وفقدت المناطق الريفية مفارق طرقها الجانبية ، وهجرت مزاراتها القديمة ، التى كان الحجاج يشدون إليها الرحال ، ولم يعــد القديسون يهيئون للناس عطلات يرتاحون فيها . وليس من شك فى أن نفوساً كثيرة قد حزنت على الماضى وبالغت فى مثاليته . وليس من شك أيضاً فى أن كثيرين أخذوا يترقبون ، والأمل يراودهم ، مجىء ملكتهم الشابة من فرنسا .

ولقد ضاع الكثير مما كان يشيع المرح والجمال فى الحياة . والكثير مما كان وحشياً وقاسياً وخداعا ، ولسوف تحدث أمور كثيرة جافية كئيبة ، ومع ذلك لم يكن هناك بد من التغيير .

وخفت وطأة تبادل التهم وهيأ الناس أنفسهم ، لتقبل النظام الجديد ، وأصبح التقاء مواقف ما يشبه العقيدة بالصفوف المشايعة للملكية ، والتى يقترب بعضها من بعض ، يعد نعمة كبرى ، لأنه سيضع حداً للحروب المريرة بين الإسكوتلنديين والإنجليز ، وسرعان ما تمنح الأمة الأضعف البلد الأقوى ملكا ، وبريطانيا ستصبح مملكة واحدة .

الفصل الثامن والعشرون

هجرات الإصلاح الدينى

١٥١٧ - ٦٠

١ - المشهد الإسكنديناوى

(١٤٧٠ - ١٥٢٣)

ما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت تقوى الناس قد جعلت الكنيسة تسيطر على اقتصاد اسكنديناوة . وكانت الكنيسة تملك نصف الأرض فى الدنمرك ، وكان يفلحها مستأجرون فى منزلة تقترب من الرق[1] . وكانت كوبنهاجن نفسها إقطاعية للكنيسة ، ورجال الإكليروس والنبلاء يتمتعون بالإعفاء من ضرائب الأرض . أما النبلاء فلأنهم اشتركوا فى الحرب على نفقتهم الخاصة ، وأما رجال الاكليروس فلأنهم نظموا العبادة والأخلاق والتعليم والبر .

وكانت الجامعات فى كوبنهاجن وأبسالا بالطبع فى أيدى رجال الكنيسة ، وكانت الكنيسة تتقاضى سنوياً عشر كل ناتج أو دخل يحصل خارج مجال الكنيسة ، وتقاضت رسماً صغيراً على كل بناء يقام وكل طفل يولد وكل اثنين يتزوجان وكل جثة تدفن ، وطالبت بالتبرع بيوم عمل فى السنة من كل فلاح . ولم يكن فى وسع أحد أن يرث عقاراً ، دون أن يقدم عنه حصة للكنيسة ، باعتبارها محكمة إشهاد للتثبت من صحة الوصايا[2] . وكان يدافع عن هذه الضرائب بأنها تمول الخدمة الكهنوتية فى الكنيسة ، ولكن الشكاوى ارتفعت بأن الكثير من متحصلات المعاملات التجارية ذهبت لكى يعيش الأساقفة فى أبهة ملكية . وأزعج تجار الدنمرك السيادة الهنزية فى بحرى الشمال والبلطيق ، فتميزوا غيظاً من المنافسة الإضافية للنبلاء ورجال الإكليروس، الذين كانوا يصدرون فائض إنتاج ضياعهم فى سفنهم الخاصة غالباً . وفى

اسكنديناوة كما فى غيرها من البلاد ، تطلع النبلاء فى شوق إلى أراضى الكنيسة . ولقد حدث هناك ، كما حدث فى كل موضع آخر صراع بين القومية ، وبين الكنيسة التى تسمو على كل قومية ، وأيدت الكنيسة فى كل البلاد الثلاث اتحاد كالمار الاسكنديناوى ، الذى كان كريستيان الأول ملك الدنمرك قد جدده (١٤٥٧) ؛ ولكن حزباً قومياً يتألف من سكان المدن والفلاحين رفض الاعتراف بالاتحاد ، باعتباره فى الحقيقة سيادة دنمركية ، ونادوا بستن ستور الأصغر نائب ملك يحكم أمة مستقلة (١٥١٢) ، ودافع رئيس الأساقفة جوستاف ترول من أبسالا — وكانت وقتذاك عاصمة للسويد — عن الاتحاد ، فأقاله ستن ستور الصغير وأمر البابا ليو العاشر بإعادته إلى وظيفته فرفض ستور ، وحرم ليو تقديم الخدمات الدينية فى السويد وفوض كريستيان الثانى ملك الدنمرك فى غزو السويد ومعاقبة نائب الملك ، وفشلت أول محاولة لكريستيان ، واضطر إلى توقيع هدنة ، ولكنه حمل معه عند العودة إلى كوبنهاجن عدة رهائن كضمان لالتزام السويديين بنصوص الهدنة ، وكان جوستاف فازا أحد هذه الرهائن . وظفر كريستيان فى حملة ثالية بنصر حاسم ، ومات ستور متأثراً بالجروح ، التى أصيب بها فى المعركة . وأعدت أرملته على عجل جيشاً احتفظ باستكهلم لمدة خمسة شهور أمام حصار دنمركى ، وأخيراً سلمت مقابل وعد قدمه قائد كريستيان بالحصول على عفو عام . وفى ٤ نوفمبر توج كريستيان ملكاً على السويد على يد ترول الظافر الذى أعيد إلى وظيفته .

وفى السابع من نوفمبر استدعى كبار السويديين الذين أيدا ستور للمثول أمام الملك فى قلعة استوكهلم . واتهمهم ممثل لترول بارتكاب جرائم عظمى بخلعهم كبير الأساقفة وتدمير قلعته ، وطالب الملك بالانتقام منهم لهذه الأخطاء . وعلى الرغم من العفو العام الذى صدر فقد حكم على سبعين من كبار السويديين بالإعدام . وقطعت رءوسهم فى الثامن من نوفمبر فى الميدان

الكبير ، وقبض على آخرين عديدين فى التاسع من نوفبر وأعدموا ، وأضيف إلى من قتلوا فى هذه المذبحة بعض المشاهدين الذين أعربوا عن تعاطفهم مع المحكوم عليهم ، وصودرت أملاك الموتى لصـالح الملك ، وصرخ كل السويديين من الرعب ، وقال الناس إن اتحاد كالمار أغرق فى « حمام الدم باستوكهلم » وانحطت مكانة الكنيسة كثيراً فى نظر الجماهير لأنها بدأت المذبحة ، وقد رأى كريستيان أن يجعل حكمه آمنا بالقضاء على عقول الحزب القومى . والحق أنه مهد طريق العرش للرهينة الشاب الذى قدر له أن يحرر السويد .

واسمه جوستافوس أركسون ، ولكن ذريته أطلقوا عليه اسم فازا ، وهو مشتق من كلمة **vasa** السويدية و **fascis** اللاتينية ومعناها حزمة من العصى ظهرت فى شعار أسرته . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل ليدرس فى أبسالا ، وعندما بلغ العشرين من عمره استدعى لبلاط ستور الصغير الذى تزوج أختاً غير شقيقة لجوستافوس من أمه ، وهناك تلقى مزيداً من التعليم على يد رئيس الوزراء ، الأسقف همينج جاد ، وفى عام ١٥١٩ فر من المراقبة فى الدنمرك واتخذ طريقه إلى لوبك ، وأقنع أعضاء مجلس الشيوخ فيها (وكانوا فى عداء دائم للدنمرك) ، أن يقرضوه مالا ويعيروه سفينة ، وعاد إلى شواطىء بلاده (٣١ مايو سنة ١٥٢٠) ، وأخذ يضرب على غير هدى وهو متنكر أربعة شهور أو كان يختبىء فى قرى مغمورة . وفى نوفمبر وصلت الأنباء إليه بأن ما يقرب من مائة من الوطنيين المخلصين ، ومنهم أبوه ، قتلوا فى استوكهلم ، فامتطى صهوة أسرع جواد اسـتطاع العثور عليه ، وركب شمالا إلى موطنه مقاطعة داليكارليا ، وصمم على أن ينظم هناك من ملاك الأراضى الجسورين طلائع جيش يمكن أن يحرر السويديين من الدنمركيين .

وكانت حياته وقتذاك ملحمة جديرة بأن يتغنى بها هوميروس . فقد مضى

يسير فى طرقات ثلجية ، والتمس الراحة فى بيت زميل سابق له فى المدرسة : وقدم له هذا الصديق واجبات الضيافة ثم انطلق ليخطر الشرطة الموالية للدنمركيين أن الرهينة الهاربة يمكن القبض عليها وقتذاك ؛ غير أن الزوجة أنذرته جوستافوس ليلوذ بالفرار . وبعد أن قطع راكباً عشرين ميلا وجد ملجأ لدى قسيس أخفاه أسبوعاً . وسافر بعد ذلك ثلاثين ميلا وحاول أن يحرض مدينة راتفيلك على الثورة بيد أن أهلها لم يكونوا قد سمعوا بعد بقصة حمام الدم ولم يصدقوها . فركب فازا وسار فى مروج متجمدة خمسة وعشرين ميلا شمالا إلى مورا ، وتوسل مرة أخرى للفلاحين أن يقوموا بثورة ، بيد أنهم أصغوا إليه متشككين فى تبلد . ووجد نفسه منبوذاً وتملكه اليأس لحظة ، فاستدار بفرسه نحو الغرب ، وتخلى عن البحث عن ملجأ فى النرويج : وقبل أن يصل إلى الحدود أدركه رسول من مورا ، ورجاه أن يعود ، وتعهد له بأنه سوف يجد وقتذاك أذناً صاغية بروح تفيض حماسة مثل روحه . فقد سمع الفلاحون أخيراً بأنباء الرعب فى استوكهلم ، وعلاوة على هذا انتشرت شائعة بأن الملك كان يفكر فى القيام برحلة يخترق فيها السويد ، وأنه أمر بإقامة المشانق فى كل مدينة كبرى . وتقرر فرض مكوس جديدة على شعب كان يكافح من أجل الحياة أمام جشع السادة واستبداد المبادئ الأساسية . وعندما خاطب جوستافوس المواطنين فى مورا مرة أخرى أعطوه حرساً مكوناً من ستة عشر من سكان المناطق الجبلية ، وأقسموا أن يسلحوا أنفسهم ، وينظموا صفوفهم ، ويسيروا وراءه حيثما يقودهم لمقاتلة الدنمركيين

ولم يعرفوا وقتها سوى الأقواس والسهام وفئوس الحرب ، وعلمهم فازا كيف يصنعون الرماح والحراب برءوس من الحديد : ودربهم بكل حمية يطويها بين جوانحه شاب يحفزه حب الوطن والسلطة ، وبهذه الحماسة استولوا على فستيريس ثم أبسالا ، وفر كبير الأساقفة ترول مرة أخرى ، وكسب الجيش النامى فى صبر وتصميم مقاطعة إثر أخرى من الحاميات الدنمركية

ولم يستطع كريستيان الثانى الحضور ليتولى بنفسه قيادة قواته. لأنه واجه فى بلده ذاتها حرباً أهلية إلا أن أسطوله أغار مراراً على الشواطئ السويدية . وبعث جوستافوس برسل إلى لوبك لكى يطلبوا سفناً حربية . وجهزت المدينة التجارية عشرة سفن صرفت نشاط الأسطول الدنمركى ، وذلك مقابل وعد بالحصول على مبلغ كبير . وفى السابع من يونيه سنة ١٥٢٣ نادى الثوار المنتصرون ، فى ركسراد جديدة بقائدهم ملكاً باسم جوستافوس الأول ، وفى العشرين من يونيه استسلمت ستوكهلم واتخذ فازا منها بعد ذلك عاصمة له . وفى غضون ذلك كان كريستيان الثانى قد خلع عن عرشه فى الدنمرك ، وتخلى خلفه فريدريك الأول عن كل المطالب الدنمركية فى السيادة على السويد ، وانتهى اتحاد كالمار (١٣٩٧ — ١٥٢٣) وبدأت أسرة فازا .

٢ — الإصلاح الدينى السويدى

كان جوستافوس لا يزال شاباً فى السابعة والعشرين من عمره . ولم يكن فارع الطول ، كما نعهد فى الرجال من أهل الشمال ، ولكنه كان يتمتع بقوة بدنية مثل أى قرصان أسكنديناوى ، وكان وجهه المستدير متورداً بحمرة الصحة ، ولحيته الصفراء الطويلة تضفى عليه وقار الملك أكثر من دلالتها على سنه ، وكانت أخلاقه رائعة بالنسبة إلى ملك ، بل إن الكنيسة التى قدر له أن يلبذها بعد ذلك بوقت قصير لم تستطع أن تجادل فى تقواه . ووقف نفسه على القيام بأعباء الحكم بنشاط لا يعرف الأناة ، جعله ينزلق أحياناً إلى التوسل بالعنف أو الاستبداد ، بيد أن ظروف السويد عند ارتقائه العرش كانت تبرر أو تكاد طبعه وحكمه المطلق . وقد ترك آلاف الفلاحين ، فى غمرة فوضى الحرب ، حقولهم دون أن يزرعوها ، وهجر عمال التعدين مناجمهم ، ودمر الصراع المدن ، وخفضت قيمة العملة وأفلست الخزانة العامة ، وأزهقت أرواح أصحاب

العقول المدبرة فى البلاد فى « حمام الدم » ، واعتبر البارونات الإقطاعيون الباقون على قيد الحياة جوستافوس حديث النعمة ، ونظروا باحتقار إلى ادعائه الحق فى الحكم ، ودبرت المؤامرات لخلعه فقضى عليها بيـد من حديد ، وكانت فنلنده ، التى كانت جزءاً من السويد ، لا تزال فى أيدى الدنمركيين ، وكان سورن نوربى أمير البحر الدنمركى يحتفظ بجزيرة جوتلاند الاستراتيجية ، وضجت لوبك مطالبة بسداد قروضها .

وكانت أول حاجة ملحة استشعرتها الحكومة مال يدفع للقوات المسلحة التى تحميها ، ثم للموظفين الذين يقومون على شئونها ، أو وعد بدفع هذا المال ، ولكن الضرائب فى السويد أيام فازا كانت تكاد تكلف فى جبايتها أكثر من المتحصل منها لأن الذين كان فى وسعهم وحدهم أن يدفعوها كانوا أقوياء جداً إلى الحد الذى يقاومون فيه جبايتها . وخضع جوستافوس لما اقتضته الحاجة الملحة من تخفيض قيمة العملة مرة أخرى ، بيـد أن العملات الرديئة سرعان ما هبطت إلى قيمتها الفعلية ، وكانت إيرادات الدولة أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ولم تكن فى السويد إلا جماعة واحدة غنية — هى طبقة رجال الإكليروس ، فتحول جوستافوس إليهم ، وطلب منهم المساعدة ، واعتقد أن من العدل أن تخفف ثروة الكنيسة وطأة الفقر الذى يرزح تحته الشعب والحكومة ، وكتب عام ١٥٢٣ رسالة إلى الأسقف هانز براسك من لنكوبنج ، يطلب فيها هبة قدرها ٥٠٠٠ جيلدر للدولة ، فاحتج الأسقف ثم أذعن . وأرسل فازا طلبا عاجلا إلى كنائس السويد وأديارها بضرورة تسليم كل الأموال والمعادن الثمينة ، التى ليست ضرورية لمواصلة خدماتها ، إلى الحكومة بصفة قرض ، ونشر قائمة بالمبالغ التى يتوقع الحصول عليها من كل مصدر ، ولم تكن الاستجابة إليه كما توقع ، وبدأ يتساءل : ما إذا كانت الحكمة تقتضى منه أن يفعل كما كان يفعل الأمراء اللوثريون فى ألمانيا — فيصادر ثروة الكنيسة تلبية لحاجته

الدولة : ولم ينس أن أغلب كبار رجال الإكليروس قد عارضوا الثورة ، وأنهم عضدوا حكم كريستيان الثانى فى السويد .

وفى عام ١٥١٩ عاد أولاوس بترى ، وهو ابن صاحب مصنع حديد سويدي بعد أن قضى بضع سنوات فى الدراسة بفيتنبرج ، وسمح لنفسه ببعض الهرطقات ، وهو شماس فى المدرسة الكاتدرائية فى سترانجنارس وقال إن المطهر أسطورة ، وإن الصلوات يجب أن يخاطب بها الله وحده وإن الاعتراف يوجه إليه تعالى وحده ، وإن الدعوة إلى ما ورد فى الإنجيل خير من شعيرة القداس . وبدأ الناس يتداولون رسائل لوثر فى السويد . فألح براسك على فازا أن يمنع بيعها ، فأجاب الملك بأن تعاليم لوثر عرضت على قضاة عدول فلم يجدوا فيها زيفاً[٣] » . ولعله رأى أن من حسن السياسة الاحتفاظ على سبيل الاحتياط بهرطيق يساوم للكنيسة عليه .

وأصبحت الأمور أشد إثارة عندما رفض البابا أدريان السادس أن يصادق على تعيين قاصده الرسولى جوهانس ماجنوس رئيساً لأساقفة أبسالا ، واقترح إعادة جوستاف ترول عدو الثورة . فأرسل فازا إلى مجلس شورى الفاتيكان رسالة كانت حرية وقتذاك (١٥٢٣) بأن تفزع هنرى الثامن وتسعده فيما بعد :

إذا كان عند أبينا المقدس أى اهتمام بسلام بلدنا فإنه يسرنا أن نراه يصادق على اختيار قاصده الرسولى ... وسوف نستجيب لرغبات البابا فيما يختص بإصلاح الكنيسة والدين . ولكن إذا أيد قداسته أنصار كبير الأساقفة ترول الموصومين بالجريمة ، مخالفاً بذلك كرامتنا وسلامة رعايانا ، فإننا سوف نسمح لقاصده الرسولى بالعودة إلى روما ، وسوف ندبر أمور الكنيسة فى هذه البلاد بمقتضى السلطة المخولة لنا باعتبارنا ملكاً » .

وأدت وفاة أدريان وانصراف كليمنت السابع بجهوده لمقاومة لوثر وشارل الخامس وفرانسيس الأول ، إلى ترك فازا حراً فى المضى قدماً بالإصلاح

الديني السويدى ، فعين أولاوس بترى فى كنيسة سانت نيكولاس فى استكهلم ، وعين لورانتيوس شقيق أولاس أستاذا للاهوت فى جامعة أبسالا ، ورفع مصلحا دينيا ثالثا وهو لورانتيوس أندريا إلى رتبة رئيس شمامسة الكاتدرائية . ودافع أولاوس بترى عن اللوثرية فى مناظرة دارت بينه وبين بيترجال (٢٧ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى مقر الأسقفية بالكاتدرائية ، برئاسة الملك وقضى فازا بفوز أولاوس ، ولم يتزعج عندما اتخذ أولاس زوجة له (١٥٢٥) ، قبل زواج لوثر بأربعة شهور ، ومهما يكن من أمر فإن الأسقف براساك فزع بسبب هذه المخالفة لرهبانية رجال الأكليروس ، وطلب من الملك أن يقضى على بترى بالحرمان . فأجاب جوستافوس بأن أولاوس يجب أن يعاقب إذا كان قد ارتكب خطأ ، ولكن « يخيل إلى أن من العجب أن يعاقب المرء بسبب الزواج (وهو شعيرة لا يحرمها الله) ، ولا يقع المرء تحت طائلة الحرمان بسبب الفسوق وغيره من الآثام[٤] » وبدلا من أن يحكم على بترى بأنه خالف القانون انتدبه هو وشقيقه لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السويدية . وساعدت النسخة المترجمة إلى اللغة الدارجة ، كما حدث فى كثير من البلاد الأخرى ، على تكوين اللغة القومية وتحرير الدين القومى .

وعد جوستافوس ، مثل معظم الحكام ، أى إجراء يقوم به لتدعيم مركز بلاده أو عرشه مسايراً للأخلاق . وحرص على ترقية الآساقفة الذين يذعنون لخططه إلى مرتبة المطرانيات السويدية ووجد أسباباً لا يستطيع دفعها لنزع ملكية أراضى الأديار ، ولما كان قد تقاسم الأسلاب مع النبلاء فإنه فسر ذلك بأنه إنما كان يعيد إلى العلمانيين ما أغرى أجدادهم على أن يهبوه للكنيسة ، وشكا البابا كليمنت السابع من أن القساوسة السويديين كانوا يتزوجون ، ويقدمون القربان بالخبز والنبيذ ، ويهملون شعيرة المسح الأخير ويغيرون شعيرة القداس وبعث بنداء للملك بأن يظل مخلصاً للكنيسة ولكن جوستافوس كان قد قطع شوطاً بعيداً فلم يستطع أن يتراجع ، وكانت

العقيدة المحافظة حرية بأن تخرب خزائنه . ونادى فى مجلس فستيريس (١٥٢٧) بالإصلاح الدينى علنا .

كان اجتماعا تاريخياً فى تكوينه ونتائجه معا . فقد اجتمع أربعة أساقفة وأربعة من كبار القساوسة وخمسة عشر عضوا من الركسراد Riksraad و١٢٩ نبيلا واثنان وثلاثون من أوساط الناس وأربعة عشر نائبا لعمال المناجم و١٠٤ ممثلا للفلاحين ، وكان هذا مجلساً وطنياً يمثل أعرض قاعدة بين المجالس فى القرن السادس عشر . وطرح كبير وزراء الملك اقتراحاً ثورياً أمام المجلس ، فقال إن الدولة قد افتقرت إلى المال إلى حد عجزها عن القيام بتبعاتها لخير الشعب ، وأن الكنيسة كانت غنية جداً إلى الحد الذى يسمح لها بأن تحول جانباً كبيراً من ثروتها إلى الحكومة ، ويبقى لها مع ذلك ما يكفى لأن تقوم بجميع التزاماتها . وحارب الأسقف براساك لآخر لحظة من أجل مثله العليا وأملاكه العقارية ، فأعلن أن البابا قد أمر رجال الأكليروس بالدفاع عن أملاكهم . وصوت المجلس فى صف القائلين بإطاعة البابا . ورأى جوستافوس أن يقامر على كل شىء برمية واحدة ، فأعلن أنه إذا كان هذا حكم المجلس والأمة فإنه سيستقيل ويرحل عن السويد ، وظل المجلس فى نقاش مستمر طوال ثلاثة أيام . ووقف الأوساط ورجال الفلاحين إلى جانب الملك ، وكان لدى النبلاء سبب وجيه للتحرك فى الاتجاه نفسه ، واقتنع المجلس آخر الأمر بأن فازا أعظم قيمة للسويد من أى بابا ، فوافق على رغبات الملك . وتحولت الأديار فى فترة العطلة أو فى ختام مجلس فستيريس إلى إقطاعيات للملك ، وإن سمح للرهبان بالإفادة منها ، وتقرر إعادة كل الأملاك التى منحها النبلاء للكنيسة منذ عام ١٤٥٤ إلى ورثة الواهبين ، وأن يسلم الأساقفة قصورهم إلى التاج ، وحرم على الأساقفة أن يسعوا إلى الحصول على تأييد البابا لتعيينهم ، وتقرر أن يسلم رجال الإكليروس إلى الدولة كل دخل ليست شعائرهم الدينية فى حاجة إليه ، ووضع حد للاعتراف السرى ، وتقرر أن تعتمد العظات كلها على الكتاب المقدس وحده . وكان الإصلاح الدينى فى السويد ، بصورة قاطعة أكثر منه فى أى مكان آخر ، تأميا للدين وانتصاراً للدولة على الكنيسة .

وعاش فازا بعد هذه الأزمة ثلاثا وثلاثين عاماً ، وظل حتى النهاية حاكماً مطلقاً . . . قوياً ولكنه يعمل لخير شعبه ، وكان مقتنعاً بأن السلطة المركزية وحدها هى التى تستطيع أن تعيد النظام والرخاء إلى السويد ، وأنه فى مهمة معقدة كهذه لا يستطيع أن يتوقف عند كل خطوة ليستشير مجلساً متروياً ، وبفضل تشجيعه وتنظيمه صبت مناجم الشمال حديدها فى أدوات الحرب السويدية ، واتسعت رقعة الصناعة ، وأبرمت معاهدات تجارية مع إنجلترا وفرنسا والدنمرك وروسيا أوجدت أسواقاً للسلع السويدية ، وجلبت إلى السويد منتجات من اثنى عشرة بلداً ، وأضفت تهذيباً جديداً وثقة على حضارة كانت قبله معتقلة فى سذاجة ريفية وأمية . وازدهرت السويد وقتذاك كما لم تزدهر من قبل .

واشتبك جوستافوس فى عدة حروب ، وقمع أربع ثورات وعقد قرانه على ثلاث زوجات على التعاقب ، وأنجبت له الأولى ولداً أصبح فيما بعد اريك الرابع عشر ، وأنجبت له الثانية خمسة أولاد وخمس بنات أما الثالثة التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها عند ما تزوجها وهو فى السادسة والخمسين فقد عمرت بعده ستين عاماً ، وأغرى الرجسراد Rigsraad بأن يقبل أبناءه ورثة العرش وأن يجعل وراثة العرش مقصورة على الذكور كقاعدة تتبع فى الملكية السويدية .

وصفحت السويد عن حكمه المطلق لأنها أدركت أن النظام أصل الحرية وليس ثمرة لها . وعندما مات (٢٩ سبتمبر سنة ١٥٦٠ ، بعد حكم دام سبعة وثلاثين عاماً دفن فى كاتدرائية أبسالا فى احتفال صدر عنه بالحب وتميز بالسرف وهو لم يمنح شعبه الحرية الشخصية التى كانوا يستحقونها بصفة خاصة فيما يبدو ، ولكنه منحهم حرية جماعية من السيطرة الأجنبية فى الدين أو الحكم ، وقد هيأ الظروف التى استطاعت أمته فى ظلها أن تصل إلى درجة

النضج فى مجالات الاقتصاد والأدب والفن ،كان الأب الحقيقى للسويد الحديثة .

٣ – الإصلاح الدينى الدنمركى

كان كريستيان الثانى ملك الدنمرك (حكم ١٥١٣ – ٢٣) شخصية لامعة مثل جوستافوس فازا الذى هزمه فى السويد . وقد أكرهه البارونات على التوقيع على شروط استسلام مهينة ثمناً لانتخابه ، فأحاط نفسه بمستشارين من الطبقة المتوسطة وتجاهل الريجسراد Rigsraad (مجلس النواب)الدنمركى ،المكون من الأعيان من ذوى النسب ،وعين أم عشيقته الهولندية الجميلة كبيرة لمستشاريه ولا بد أن هذا المجلس الخاص كان يتمتع بشىء من المقدرة والروح ، لأن سياسة كريستيان الوطنية كانت بناءة بقدرما كانت مغامراته الأجنبية فاشلة لا طائل تحتها ، وعمل جاهداً فى تدبير الملك ، وأصلح حكم المدن ، وراجع القوانين ، وقضى على القرصنة ، ومهد الطرق ، وشرع فى إقامة نظام بريدى عام ، وألغى أسوأ آفات الرق ، وأبطل عقوبة الإعدام على ممارسة السحر ، ونظم الإعانة للمحتاجين ، وفتح المدارس للفقراء ، وجعل التعليم إجبارياً ، وطور جامعة كوبنهاجن ، فأصبحت مكاناً يشع بالضياء وملاذا للعلم . وتعرض لعداء اوبك بتقييد سلطة الهانز Hanse ، وشجع التجارة الدنمركية وأسبغ عليها حمايته ، ووضع حداً للعادة الهمجية التى خولت للقرويين المقيمين بجوار البحر الحق فى نهب كل السفن التى تتحطم على شواطئهم .

وأرسل ليو العاشر عام ١٥١٧ جيوفانى أركمبولدو إلى الدنمرك ليعرض صكوك غفران ، فندد بول هلجزن ، وهو راهب كرملى بما بدا له بيعاً لصكوك الغفران هذه ، وهو بذلك سبق رسائل لوثر(ه) . واشتجر النزاع بين القاصد الرسولى وبين الملك حول تقسيم هذه المبالغ المتحصلة من البيع . وهرب أركمبولدو إلى لوبك بجانب منها ، وصادر كريستيان الباقى ، وعندما

وجد كريستيان أسباباً وجيهة لاعتناق البروتستانتية دفعاً للمظالم الحقيقية التى ارتكبتها الكنيسة وثروتها القائمة ، عين هلجزن فى منصب بجامعة كوبنهاجن ، حيث تزعم إرازموس الدنمرك الفصيح هذا ، إلى حين ، حركة للإصلاح الدينى . وعندما تحول هلجزن إلى رجل يأخذ بأسباب الحيطة أرسل كريستيان إلى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا ، كى يبعث إليه بلوثر نفسه ، أو يبعث إليه على الأقل بعالم فى اللاهوت من مدرسة لوثر . وجاء كارلشتادت ، ولكنه لم يمكث طويلا . وأصدر كريستيان قانوناً بالإصلاح الدينى : لا يجوز رسامة أحد دون أن يكون قد درس دراسة كافية ليفسر الإنجيل باللغة الدنمركية ، ولا يستطيع رجال الاكليروس قانوناً أن يملكوا عقاراً ، أو يتسلموا تركات ما لم يتزوجوا ، وأمر الأساقفة بأن يتخففوا من الترف الذى يعيشون فيه ، وفقدت المحاكم الكنيسة الاختصاص القضائى ، عند ما يتعلق الأمر بنظر قضية خاصة بالملكية ، وخولت محكمة عليا ، عينها الملك ، السلطة النهائية فى الشئون الكنسية والمدنية على السواء . ومهما يكن من أمر فإنه عندما وضع مجلس دايت ورمس لوثر تحت نير الحرمان الإمبراطورى ، أوقف كريستيان إصلاحاته وأشار هلجزن بعقد صلح مع الكنيسة .

وبينما كانت هذه السياسة الوطنية التى انتهجها كريستيان تثير شعبه ، فقد أزمة الموقف بفشله فى الشئون الخارجية . وأدت قسوته فى السويد إلى أن ينقلب عليه كثير من الدنمركيين . وأعلنت لوبك الحرب عليه بسبب هجماته على السفن الهانزية ، وتجاهل النبلاء ورجال الإكليروس ، الذين نفرتهم منه الضرائب المرتفعة والتشريع المعادى ، دعواته لعقد مجلس وطنى ، ونادوا بعمه الدوق فريدريك أف شلسفيج — هولشتين ، ملكاً جديداً للدنمرك ، وفر كريستيان إلى الفلاندرز مع الملكة زوجته ، شقيقة شارل الخامس البروتستانتية ، وعقد صلحاً مع الكنيسة ، مؤملا أن يجد مملكة لقداس ؛

وقبض عليه وهو يقوم بمحاولة ، لا طائل تحتها ، لاستعادة عرشه ، وعاش سبعة وعشرين عاماً فى سجون سوندربورج ، لا رفيق له إلا قزم نرويجى أحمق . وقادته سبل المجد إلى رمسه ، يجلله الخزى والعار رويداً (١٥٥٩) .

ولم يجد فردريك الأول ما كان ينشده من سعادة فى ظل تاجه المهدد ، فقد رضى به النبلاء ورجال الأكليروس بشروط كثيرة ، أحدها أنه لن يسمح أبداً لهرطيق بالوعظ فى الدنمرك ، وبينما كان هلجزن يواصل نقده لنقائص الكنيسة ، حول وقتذاك معظم مناظراته ، التى تشتعل حماسة ، ضد البروتستانت ، وألح على أن إصلاحاً دينياً ، يتم بالتدريج ، خير من ثورة يسودها الشغب . ولكنه لم يستطع أن يقف فى وجه التيار . فقد كان الدوق كريستيان ، ابن فردريك ، لوثريا قبل ذلك ، وتزوجت ابنة الملك ، بموافقته ، ألبرخت البراندنبرجى الرئيس اللوثرى السابق للفرسان التيوتون . وفى عام ١٥٢٦ مال فردريك مع الريح ، وعين هانزتاوزن قساً خاصاً له ، وكان قد درس على يد لوثر . فترك تاوزن ديره ، وتزوج ودافع علنا عن آراء لوثر . ووجد فردريك أن من المناسب أن يأمر بأن تدفع له لا للبابا ، رسوم التصديق على تعيين الأساقفة . وتشجع الوعاظ اللوثريون وتضاعف عددهم ، وطلب الأساقفة نفيهم ، فرد عليهم فردريك بأنه لا ولاية له على أرواح الناس ، وأنه قرر أن يترك العقيدة حرة — وهو إجراء غير مألوف للغاية . وظهرت عام ١٥٢٤ ترجمة للعهد الجديد باللغة الدنمركية ، ونشر كريستيان بدرسن عام ١٥٢٩ نسخة أفضل من الأولى ، دفعت الحركة البروتستانتية دفعة كبيرة . وكان الناس يتلهفون على وضع حد لضرائب العشور التى تدفع لرجال الأكليروس ، فقبلوا اللاهوت الجديد ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان اللوثريون يسيطرون على كوبنهاجن وفيبورج . وفى ذلك العام عقدت مناظرة فى المجلس بكوبنهاجن ، بين زعماء الكاثوليك والبروتستانت ، وقضى الملك والشعب بفوز البروتستانت ، وظل الاعتراف

بالعقيدة الذى قدمه هناك هانز تاوزن مدى عقد من الزمان ، المذهب الرسمى للوثريين الدنمركيين .

وكانت وفاة فردريك (١٥٣٣) مقدمة للفصل الأخير من الإصلاح الدينى الدنمركى . فقد انضم كبار التجار فى الدنمرك إلى أعدائهم القدامى فى لوبك ، وقاموا بمحاولة لإعادة كريستيان إلى العرش ، وقاد الكونت كريستوفر اف أولدنبرج قوات لوبك وأطلق اسمه على هذه الحرب فسميت باسم «حرب الكونت» ، وسقطت كوبنهاجن فى يده ، وأخذت لوبك تحلم بحكم الدنمرك بأسرها . بيد أن أوساط الناس والفلاحين نظموا صفوفهم تحت علم كريستيان ابن فردريك ، وتغلب جيشهم على أولدنبرج ، واستولى على كوبنهاجن بعد حصار ضربه حولها دام عاماً (يوليو سنة ١٥٣٦) . وقبض على جميع الأساقفة ، ولم يطلق سراحهم ، إلا بعد أن وعدوا بالبقاء إلى جانب النظام البروتستانتى وانعقد المجلس الوطنى فى أكتوبر سنة ١٥٣٦ ، وأنشأ رسميا كنيسة الدولة اللوثرية ، ورئيسها الأعلى كريستيان الثالث . وصودرت جميع أملاك الأسقفيات والأديار لصالح الملك ، وفقد الأساقفة كل صوت لهم فى الحكم . وقبلت النرويج وأيسلندة كريستيان الثالث وتشريعه ، وكتب النصر التام للوثرية فى اسكنديناوة (١٥٥٤) .

٤ — البروتستانتية فى شرقى أوروبا

نعمت بولندة بعصرها الذهبى فى عهد سجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) وابنه سجسموند الثانى (١٥٤٨ — ٧٢) . وكانا رجلين على حظ من الثقافة والذكاء ، وراعيين متذوقين للأدب والفن ، وكلاهما منح للفكر الدينى والعبادة حرية ، وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة ، فإنها جعلت معظم أمم أوروبا تبدو قروسطية إذا قورنت ببولندة . وتزوج سجسموند الأول بونا سفورزا المرحة الموهوبة (١٥١٨) ، وهى ابنة الدوق جياجاليازو أمير

ميلان ، وأحضرت معها إلى كراكو بطانة من رجال الحاشية والعلماء ، وبدلا من أن يتبرم بهم الملك ، رحب بهم باعتبارهم جسراً يصل بينه وبين النهضة ، وتملكت الأرستقراطية نزعة إلى الترف بارتداء الثياب المنمقة واقتناء الرياش الثمينة ، وأصبحت اللغة أكثر صقلا ، والأخلاق أكثر تهذيباً ، وازدهرت الآداب والفنون ، وكتب إرازموس (عام ١٥٢٣) : « إنى أهنىء هذه الأمة . . . التى بلغت فيها العلوم وفقه القانون والأخلاق والدين وكل ما يفصلنا عن الهمجية درجة من الازدهار تستطيع بها أن تنافس أرفع الأمم شأناً وأعظمها مجدا[٦] » . وسيطرت بونا على زوجها بجمالها ورشاقتها ودهائها ، فأصبحت ملكة فعلا ، وملكة فى الزى على السواء ، وكان ابنها سجسموند الثانى عالما بالإنسانيات ولغويا وخطيبا وميالا إلى التزيى بزى النساء[٧] . وأضرت الحروب هذه العهود اللامعة لأن بولندة كانت مشتبكة مع السويد والدنمرك وروسيا فى نزاع على السيطرة على بحر البلطيق وموانيه ، وفقدت بولندة بروسيا ، بيد أنها ضمت مازوفيا وتشمل وارسو (١٥٢٩) وليفونيا وتضم ريجا (١٥٦١) . وكانت بولندة فى هذا العصر دولة أوروبية كبرى .

وفى غضون ذلك تسلل الإصلاح الدينى من ألمانيا وسويسرة . وقد عودت حرية العبادة ، التى ضمنها التاج البولندى لرعاياه من الروم الكاثوليك ، الأمة على التسامح الدينى ، وجعلت ثورة الهسيين والأتراكويين فى بوهيميا المجاورة . والتى دامت قرناً من الزمان ، بولندة لا تعبأ إلى حد ما بالسلطة البابوية البعيدة . وكان الأساقفة ، الذين يعينهم الملوك ، رجالا مثقفين محبين لوطنهم ، من أنصار الإصلاح الكنسى ، مع الاعتصـــام بحيطة إرازمية ، ويؤيدون الحركة الإنسانية تأييداً عظيما ، ومهما يكن من أمر فإن هذا لم يخفف من شدة الحسد الذى تطلع به النبلاء ، وسكان المدن ، إلى أملاكهم ومواردهم ، وازدادت الشكاوى من استنزاف الثورة

القومية إلى روما ، ومن صكوك الغفران التي تكلف مشتريها غالياً بصورة غير معقولة ، ومن اتجار رجال الدين بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ، ومن ارتفاع نفقات التقاضي أمام المحاكم الأسقفية . واستاء صغار النبلاء الزلاخته Szlachka بصفة خاصة من إعفاء رجال الأكليروس من الضرائب ومن جباية رجال الأكليروس لضرائب العشور من النبلاء أنفسهم . ولعل بعض البارونات من ذوى النفوذ قد استمعوا فى تعاطف إلى نقد لوثر للكنيسة ، لأسباب اقتصادية ، وكان لما يتمتع به اللوردات الإقطاعيون من شبه سيادة الفضل فى إسباغ الحماية على الحركات البروتستانتية المحلية ، كما كان لاستقلال الأمراء الألمان الفضل فى إمكان نشوب الثورة وحماية لوثر .
ودافع راهب دانزج على رسائل لوثر ودعا إلى القيام بإصلاحات كنسية ، وتزوج وارثة (١٥١٨) ؛ وانتهج واعظ آخر نهج لوثر فعلا إلى حد أن عدة جماعات للمصلين أزالت كل الصور الدينية من كنائسها (١٥٢٢) وأحل مجلس المدينة الرهبان والراهبات من أقسامهم وأغلق الأديار (١٥٢٢) ، وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل منابر الوعظ فى دانزج فى أيدى البروتستانت . وعندما قدم بعض رجال الإكليروس فى براونزبرج البولندية البروسية الشعيرة اللوثرية وشكا كبراء القساوسة فى الكاتدرائية إلى أسقفهم ، رد بأن « لوثر بنى آراءه على الكتاب المقدس وكل من يشعر بأن فى مقدوره أن يدحضها فليضطلع بالعبء (١٥١٠)[8] . وأقنع سجسموند الأول بفرض رقابة على المطبوعات ، ومنع دخول كتابات لوثر ، غير أن كاتم سره وكاهن الاعتراف الفرنسسكانى الخاص بيونا اعتنقا العقيدة المحرمة سراً وكسبتهما إلى صفها ، وأهدى كالفن عام ١٥٣٩ كتابه « تعليق على القداس » لولى العهد .

وعندما أصبح الأمير ملكاً باسم سجسموند الثانى انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة . وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البولندية ، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية فى الشعائر الدينية . وأعلن

القساوسة المبرزون مثل جان لاسكى تحولهم إلى البروتستانتية ؛ وفى عام ١٥٤٨ انتقل الإخوة البوهيميون من بلادهم إلى بولندة ، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم فى البلاد . وقام رجال الأكليروس الكاثوليك بمحاولة لاتهام بعض أفراد صغار النبلاء Szlachta بالهرطقة ومصادرة أملاكهم ، فأدت إلى قيام كثير من صغار النبلاء بالثورة ضد الكنيسة (١٥٥٢) وصوت المجلس النيابى الوطنى لعام ١٥٥٥ ، وأقر الحرية الدينية لكل العقائد التى تعتمد على « كلمة الله الخالصة » ، وأسبغ صفة الشرعية على زواج رجال الأكليروس ، ومناولة القربان المقدس بالخبز والنبيذ ، وكان الإصلاح الدينى فى بولندة فى أوج ازدهاره .

وتعقد الموقف فى بولندة بتطور أقوى حركة للقائلين بوحدة الكنيسة ، إبان القرن السادس عشر فى أوروبا ؛ وفى أوائل عام ١٥٤٦ نوقشت محاولات سرفيتوس المنكرة للقول بالتثليث ، وذلك فى هذا الشرق الأقصى من العالم المسيحى اللاتينى ، وزار لايليوس سوكينوس بولنــــدة عام ١٥٥١ وترك خمائر من الأفكار المتطرفة ، وواصل جيورجيو بلاندراتا الحملة ، وفى عام ١٥٦١ أصدرت الجماعة الجديدة اعترافاً بالعقيدة . وواصل أعضاؤها الخلط الذى اتسم به لاهوت سرفيتوس ، فقصروا الألوهية الكاملة على الرب الأب ، ولكنهم جاهروا بالإيمان بالمولد الخارق للمسيح ووحيه الإلهى ومعجزاته وبعثه وصعوده . ورفضوا التسليم بفكرتى الخطيئة الأولى وتفكير المسيح عن خطايا البشر ، وسلموا بالتعميد والقربان المقدس كرمزين فحسب ، ولقنوا الناس أن الخلاص يتوقف فوق كل شىء على العمل الواعى بتعاليم المسيح ؛ وعندما أدان المجمع المقدس الكالفينى فى كراكو (١٥٦٣) هـــذه العقائد ، أنشأ القائلون بوحدة الكنيسة لهم كنيسة منفصلة . ولم تبلغ الطائفة أوج ازدهارها إلا على يد فاوستوس

سوكينوس ابن أخى لايليوس ، الذى وصل إلى بولندة عام ١٥٧٩ .

وحاربت الكنيسة الكاثوليكية هذه التطورات بالاضطهاد والكتابات والدبلوماسية ، وفى عام ١٥٣٩ أرسل أسقف كراكو إلى المحرقة امرأة فى الثمانين من عمرها بتهمة أنها رفضت عبادة القربان المقدس[٩] . وتصدى ستانسلاوس هوزيوس ، أسقف كولم فى بروسيا ، والكاردينال فيما بعد ، لتعبئة الهجوم المضاد بمقدرة وحماسة ، وعمل جاهداً من أجل الإصلاح الكنسى ، ولكنه لم يكن متعاطفاً مع اللاهوت البروتستانتى أو الشعيرة البروتستانتية وبناء على اقتراحه أرسل لودوفيكوليبومانو أسقف فيرونا إلى بولندة مندوباً بابوياً ، وعين جيوفانى كومندونى ، أسقف زانتى قاصداً رسولياً فى كراكو ، وكسبوا تأييد سجسموند الثانى الفعال للكنيسة بتأكيد الانقسامات بين البروتستانت وتضخيم صعوبة تنظيم الحياة المعنوية للأمة بمثل هذه العقائد الضارة المذبذبة ، وفى عام ١٥٦٤ جاء هوزيوس وكمندونى باليسوعيين إلى بولندة . وضمن هؤلاء الرجال المدربون المخلصون مناصب استراتيجية فى النظام التعليمى ، واستمالوا آذان الشخصيات البارزة ، وأعادوا الشعب البولندى إلى اعتناق العقيدة التقليدية .

وكان البوهيميون من البروتستانت قبل لوثر ، ولم يجدوا فى أفكاره ما يفزعهم إلا قليلا ، وقبل جانب كبير من الألمان على الحدود الإصلاح الدينى ، وكان الإخوة البوهيميون ويبلغ عددهم حوالى عشرة فى المائة من مجموع السكان البالغ ٤٠٠,٠٠٠ نسمة ، أشد تمسكاً بالبروتستانتية من لوثر ، وكان ٦٠ فى المائة أتراكويين كاثوليك تناولوا القربان المقـدس بالنبيذ وبالخبز على السواء ، وتجاهلوا احتجاجات البابوات[١٠] . وما أن حل عام ١٥٦٠ حتى كان ثلثا سكان بوهيميا من البروتستانت ، ولكن فرديناند أدخل اليسوعيين عام ١٥٦١ ، وتحول التيار إلى العقيدة الكاثوليكية المحافظة .

وعرفت هنغاريا الإصلاح الديني عن طريق المهاجرين الألمان وهم يحملون أنباء لوثر ، ذلك الرجل الذى استطاع أن يتحدى الكنيسة والإمبراطورية وعاش مع ذلك . وتطلع الفلاحون الهنغاريون الذين ظلمهم الإقطاع الذى تساعده الكنيسة ، بشيء من التحيز لبروتستانتية يمكن أن تضع حداً لضرائب العشور والمكوس التى تجبيها الكنيسة ، وتطلع البارونات الإقطاعيون بعيون جشعة إلى أملاك الكنيسة الشاسعة ، التى كانت منتجاتها تنافس منتجات أراضيهم ، ورأى عمال المدن ، الذين أصيبوا بعدوى مبادئ المدينة الفاضلة ، أن الكنيسة هي العقبة الكبرى التى تقف فى طريق أحلامهم ، وانهمكوا فى نشوات تحطيم التماثيل ، وتعاونت الكنيسة فى إقناع الحكومة باعتبار اعتناق البروتستانتية جريمة يستحق مرتكبها الإعدام . وسعى الملك فرديناند فى غربى هنغاريا جاهداً للحصول على مصالحة ، وأراد أن يسمح لرجال الإكليروس بالزواج وبتقديم القربان المقدس بصورتيه المعروفتين ، وانتشرت البروتستانتية بلا قيود فى شرقى هنغاريا فى ظل حكم تركى ينظر باحتقار وبلا مبالاة إلى الاختلاف بين المذاهب المسيحية ، وما إن حل عام ١٥٥٠ حتى بدا أن هنغاريا بأسرها سوف تصبح بروتستانتية ، ولكن الكالفينية بدأت وقتذاك تنافس اللوثرية فى هنغاريا ، وأيد المجريون ، وهم بفطرتهم مناهضون للألمان ، النمط السويسرى من الإصلاح الدينى ، وما إن جاء عام ١٥٥٨ حتى كان الكالفينيون من الكثرة إلى حد أنهم استطاعوا عقد مجمع مقدس فى زنجر ، كان له أثره الكبير . وشطرت مراكز القوى المتنافسة للإصلاح الدينى الحركة إلى شطرين ، وعاد كثير من الموظفين أو من تحولوا من عقيدتهم ، ممن ينشدون الاستقرار الاجتماعى أو الهدوء الفكرى إلى الكاثوليكية ، وفى القرن السابع عشر استعاد اليسوعيون بزعامة ابن أحد الكالفينيين ، هنغاريا إلى حظيرة الكاثوليكية ؟

٥ ـ شارل الخامس والأراضى المنخفضة

كانت تجارة نافقة فى بلاد الفلاندرز إبان نضج شارل أفضل من الانصرافه إلى صناعة ضعيفة مشتتة » وساد الكساد فى بروجس وغنت ، وعاشت بروكسل باعتبارها قصبية فلمنكية ، وكانت لوفان تشكل اللاهوت وتصنع الجعة وأنتورب تتحول ـ وسوف تكون عند حلول عام ١٥٥٠ ـ أغنى مدينة فى أوروبا وأكثرها حركة وعملا » وحولت التجارة الدولية والمال ذلك الميناء الهزيل على نهر شلدت العريض الصالح للملاحة بفضل انخفاض المكوس الجمركية على الواردات والصادرات والارتباط السياسى مع إسبانيا وبورصة متخصصة ، وشعارها يقول إنها أنشئت ad usum mercatorum cuiusque gentis ac linguae « ليفيد منها التجار القادمون من كل البلاد والمتحدثون بجميع الألسنة[١١] » » وكان القيام بمشروع أى عمل حراً من قيود الطائفة الحرفية والحماية البلدية ، التى أبقت الصناعة القروسطية غير متقدمة لحسن الحظ » وفتح المصرفيون الإيطاليون هناك وكالات وأقام « التجار المغامرون » الإنجليز مستودعا وركز آل فوجر وجوه نشاطهم التجارى ، وبنى الهانز مؤسستهم العظيمة بيت الشرقيين (١٥٦٤) . وشهد الميناء ٥٠٠ سفينة تدخل إليها أو تغادرها كل يوم و ٥٠٠٠ تاجر يشتغلون بتبادل السلع » وكانت حوالة مالية مسحوبة على أنتورب وقتذاك أشيع شكل للعملة الدولية » وفى هذه الفترة حلت أنتورب بالتدريج محل لشبونة ، وأصبحت أكبر ميناء أوروبى لتجارة التوابل ، وكان الوكلاء الفلمنكيون يشترون حمولات السفن الداخلة إلى لشبونة قبل أن تفرغ ثم ترسل مباشرة إلى أنتورب لتوزيعها فى شمالى أوروبا » وكتب سفير للبندقية يقول : « لقد حزنت لرؤية أنتورب لأنى شهدت مدينة تبز البندقية[١٢] » ، وكان يشهد التحول التاريخى للزعامة التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى شمال الأطلنطى » وحفزت هذه التجارة الصناعة الفلمنكية فانتعشت حتى فى غنت ،

وأمدت الأراضى المنخفضة شارل الخامس بمبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر١ جنيه (٠٠٠ر٥٠٠ر٣٧ دولار ؟) سنويا ، وهو يعادل نصف دخله الكلى[١٣] .

واستجاب بمنح الفلاندرز وهولندة حكما صالحا معتدلا ، اللهم إلا فى مجال الحرية الدينية — وهى هبة لم يكد يدركها أصدقاؤه أو أعداؤه . وكانت سلطته من الناحية الدستورية مقيدة بتعهده الذى أقسم على تنفيذه بمراعاة مواثيق المدن والمقاطعات وقوانينها المحلية ، وبالحقوق الشخصية والعائلية ، التى حافظ عليها سكان المدن بشجاعة ، وبمجالس الدو[illegible] ، ومحكمة للاستئناف أنشئت لتكون جزءا من الإدارة المركزية . وكان شارل بوجه عام يحكم الأراضى المنخفضة حكما غير مباشر عن طريق نواب يقبلهم المواطنون : أولا عمته ، وحاضنته ومربيته مرجريت النمساوية ، ثم شقيقته مارى ، ملكة هنغاريا السابقة ، وهما امرأتان تتمتعان بكفاءة وإنسانية ومهارة . ولكن شارل أصبح أشد استبدادا باتساع رقعة الإمبراطورية وأقام حرسا إسبانيا فى المدن المتكبرة ، وقمع بقسوة أى مخالفة خطيرة لسياسته الدولية ، فعندما رفضت غنت أن تصوت على قرار بالاعتمادات العسكرية التى طلبها ومنحتها له المدن الأخرى ، أخمد شارل الثورة باستعراض قوة لا جدال فيها ، واقتضى إعانة مالية وتعويضا ، وألغى الحريات التقليدية التى كانت تتمتع بها البلدية ، واستبدل بالحكومة المختارة محليا موظفون معينون من قبل الإمبراطور (١٥٤٠)[١٤] . ولكن لم يكن هذا المتبع فى الأغلب . وعلى الرغم من هذه القسوة العارضة فقد ظل شارل يحظى بشعبية بين رعاياه فى الأراضى المنخفضة ونال الثقة لما حققه من استقرار سياسى ونظام اجتماعى ، وطدا دعائم الرخاء الاقتصادى . وعندما أعلن تنازله عن العرش حزن كل المواطنين تقريبا[١٥] .

وسلم شارل بالنظرية المتداولة القائلة بأن السلام القومى والقوى يتطلبان وحدة المعتقد الدينى ، وخشى أن تؤدى البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة

إلى تعريض جناحه للخطر فى نزاعه مع فرنسا وألمانيا اللوثرية، فأيد الكنيسة تأييداً كاملا فى قمع الهرطقة فى الفلاندرز وهولندة ، وكانت حركة الإصلاح الدينى هناك معتدلة قبل لوثر ، ودخلت بعد عام ١٥١٧ ، مثل ما دخلت اللوثرية ومذهب المنكرين للتعميد من ألمانيا ، والزوينجيلية والكالفيلية من سويسرة والألزاس وفرنسا . وسرعان ما ترجمت رسائل لوثر إلى الهولندية وشرحها وعاظ فى أنتورب وغنت ودور درخت واترخت وتسفولى ولاهاى . وتزعم الأخوة الرهبان الدومينيكان حركة معارضة نشيطة دحضوا فيها آراء خصومهم ، وقال أحدهم إنه يود لو استطاع أن ينشب أسنانه فى زور لوثر ، وإنه لن يتردد فى أن يذهب لتناول العشاء الربانى والدم يلطخ فمه[١٦] . ورأى الإمبراطور ، وهو لا يزال شاباً ، أن يخمد الهياج بنشر « إعلان ملصوق » بناء على طلب البابا ، يحرم طباعة مصنفات لوثر أو قراءتها . وفى العام نفسه أمر المحاكم العلمانية بتنفيذ منشور ورمس فى سائر أرجاء الأراضى المنخفضة ضد كل من يعرض آراء لوثر . وفى اليوم الأول من يوليو عام ١٥٢٣ أرسل هنرى فوس وجوهان إيك ، وهما راهبان أوغسطيليان إلى المحرقة فى بروكسل ، فكانا أول شهيدين من البروتستانت فى الأراضى المنخفضة . وسجن هنرى الزتفينى ، وهو صديق وتلميذ للوثر ، ورئيس الدير الأوغسطينى فى أنتورب ، وفر ، وقبض عليه فى هولستاين وأحرق هناك (١٥٢٤) وكان تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام بمثابة إعلان لآراء المصلحين الدينيين .

وعلى الرغم من الرقابة فإن ترجمة لوثر للعهد الجديد انتشرت على نطاق واسع ، وتداولها الناس فى هولندا بحماسة أكثر من الفلاندرز الغنية . وكانت هناك أمنية لإعادة المسيحية إلى بساطتها الأولى ، فنشأ عنها أمل ، بعد مرور ألف عام ، فى عودة المســيح مبكراً ، وإنشاء أورشليم جديدة لا تكون فيها حكومة ، ولا زواج ولا ملكية ، وامتزجت بهذه الأفكار نظريات

شيوعية عن المساواة وتبادل العون بل «والحب الحر[١٧]» . وتكونت جماعات تنكر التعميد في أنتورب وماسترخت وأمستردام . وجاء ملشيور هوفمان من إمدن إلى أمستردام عام (١٥٣١) وأعاد جون الليدنى عام ١٥٣٤ الزيارة يحمل معه عقيدة المنكرين للتعميد من هارلم إلى منستر . وقدر أن ثلثي السكان في بعض المدن الهولندية كانوا من المنكرين للتعميد ، بل إن العمدة في ديفنتر تحول لنصرة القضية . وشحذت المجاعة الحركة ، فأصبحت ثورة اجتماعية . وكتب صديق لإرازموس عام ١٥٣٤ يقول «إن اشتعال حماسة المنكرين للتعميد في هذه المقاطعات يجعلنا نشعر بقلق بالغ لأنه يتصاعد مثل ألسنة اللهب ولا تكاد توجد بقعة أو مدينة لا تتأجج فيها سراً شعلة التمرد[١٨]» . وحذرت مارى المنغارية الإمبراطور ؛ وكانت وقتذاك نائبة له ، من أن الثوار قد وضعوا خطة لانتهاب كل ضروب الملكية من النبلاء ورجال الاكليروس والأرستقراطية التجارية ، وتوزيع الغنائم على كل رجل حسب حاجته[١٩] . وفي عام ١٥٣٥ أرسل جون الليديني مبعوثين لتدبير ثورة في نفس الوقت يقوم بها المنكرون للتعميد في عدة محلات هولندية ، وبذل الثوار جهود الأبطال ، فقــد استولت جماعة على دير في فريزلاند الغربية ، وحصنته ، وحاصرهم الحاكم بالمدفعية الثقيلة ، ومات ٨٠٠ وهم يدافعون دفاعاً لا أمل فيه ، (١٥٣٥) وفي ١١ مايو اقتحم بعض المنكرين للتعميد المسلحين قاعة المدينة في أمستردام واستولوا عليها ، فطردهم سكان المدينة ، ونكلوا بالزعماء ، وانتقموا منهم انتقاماً مُفْزِعاً من رجال مُقَزَّعين ، فاستلت الألسنة ، ومزقت القلوب من أجساد الأحياء ، وألقي بها في وجوه المحتضرين أو الموتى[٢٠] .

وظن شارل أن ثورة شيوعية تتحدى البناء الاجتماعي بأكمله ، فاستقدم محكمة التفتيش إلى الأراضي المنخفضة ، وخول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل الهرطقات الأخرى ، مهما قضى ذلك على الحريات المحلية . وأخذ

بين عامى ١٥٢١ و ١٥٥٥ يصدر الإعلان الملصق بعد الإعلان ضد الانقسام بين الطبقات الاجتماعية أو الانشقاق الدينى . وقد كشف أعنف هـذه الإعلانات (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٥٠) عن تدهور الإمبراطور ، ووضعت الأسس التى قامت عليها ثورة الأراضى المنخفضة ضد ابنه :

لا يحق لأحد أن يطبع أو يكتب أو ينسخ أو يخفى أو يبيع أو يشترى أو يعطى فى الكنائس أو فى الشوارع أو غير ذلك من الأماكن أى كتاب أو رسالة من تأليف مارتن لوثر ، أوجون أو يكولا مباديوس ، أو أولريخ زوينجلى ، أو مارتن بوسر ، أو جون كالفن ، أو غيرهم من المراطقة ، الذين استهجنت أعمالهم الكنيسة المقدسة . . . ولا يحق له أن يحطم أو يؤذى بأى صورة أخرى تماثيل العذراء المقدسة ، أو القديسين الذين اعترفت بهم الكنيسة . . . وليس له أن يعقد اجتماعات سرية أو اجتماعات غير قانونية ، أو يحضر أى اجتماع من هذه الاجتماعات ، التى يدعو فيها أنصار المراطقة المذكورين ويعمدون ويدبرون مؤامرات ضد الكنيسة المقدسة والصالح العام . . . . ونحن نمنع جميع الأشخاص العلمانيين من أن يتحدثوا أو يجادلوا فى أمر يتعلق بالكتب المقدسة جهراً أو سراً . . . أو أن يقرأوا أو يعلموا أو يفسروا الكتب المقدسة ، ما لم يكونوا قد درسوا اللاهوت فى حينه ، أو اعترفت بهم إحدى الجامعات المشهورة ، أو يرحبوا بأى رأى من آراء المراطقة المذكورين ؟ . . وإلا تعرضوا للعقوبات المنصوص عليها فيما يلى . . . الرجال (تقطع رؤوسهم) بالسيف والنساء يدفن أحياء إذا لم يصررن على أخطائهن ، وإذا أصررن عليها فإنهن يعدمن حرقاً ، وفى كلتا الحالتين تصادر أملاكهن كلها لمصلحة التاج .

وتمنع كل الأشخاص أن يُنْزِلوا عندهم أو يستضيفوا أو يزودوا بالطعام أو الدفء أو الملابس أو يؤيدوا بأية طريقة أخرى أى امرئ يُعْتقد أنه هرطيق ، أو يشتبه فى أن له سمعة سيئة كهرطيق ، وكل من يتخلف

عن التنديد بأى واحد من هؤلاء الذين نأمر بإدانتهم يكون عرضة للعقوبات المذكورة آنفاً .... وكل من يعرف شخصاً موصوماً بالهرطقة يجب أن يبلغ عنه ويسلمه ... ويكون للمبلغ ، فى حالة الإدانة ، الحق فى نصف أملاك المتهم ... ولكى لا يكون لدى القضاء والموظفين أى ذريعة — بحجة أن العقوبات جسيمة جداً وشديدة ، ولم ينص عليها إلا لإثارة الفزع فى قلوب المجرمين — ليوقعوا عليهم عقوبة أقل مما يستحقون (نأمر) بأن يعاقب المجرمون حقاً بالعقوبات التى أعلنا عنها سابقاً ، ونحظر على جميع القضاة أن يغيروا أو يخففوا العقوبات بأية طريقة ، ونحظر على أى أحد ، فى أى ظرف أن يطلب منا ، أو من أى أحد له سلطة ، أن يمنح عفواً عن ، أو أن يقدم التماس فى صالح ، هؤلاء المراطقة أو المنفيين أو الهاربين ، وإلا تعرض للحكم عليه إلى الأبد بعدم الأهلية لتولى الوظائف المدنية أو العسكرية ، ولأن يعاقب بعقوبة يقضى بها عليه بطريقة تحكمية[٢١] .

وعلاوة على هذا كان يطلب من أى شخص يدخل البلاد المنخفضة أن أن يوقع على تعهد بالولاء للعقيدة المحافظة بحذافيرها[٢٢] .

وتحولت الأراضى المنخفضة عن طريق هذه المنشورات اليائسة ، إلى ساحة قتال بين الشكلين القديم والجديد من المسيحية ، وقدر سفير البندقية فى بلاط شارل أن ٣٠٫٠٠٠ شخص ، وهم كل المنكرين للتعميد تقريباً ، هلكوا عام ١٥٤٦ فى هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة[٢٣] ، التى قتل فيها الآمنون من المواطنين ، وخفض تقدير آخر أقل إثارة عدد الضحايا إلى ١٠٠٠٠ شخص[٢٤] ، وبقدر ما كان الهولنديون المنكرون للتعميد مهتمين ، بقدر ما نجحت محكمة التفتيش الكارولينية ، وظل بقية منهم على قيد الحياة فى هولندا بإبداء عدم المقاومة ، وهرب بعضهم إلى إنجلترا ، حيث أصبحوا من أنصار البروتستانتية المشطين فى عهد إدوارد السادس

وإليزابث ، وانهارت الحركة الشيوعية فى الأراضى المنخفضة بعد أن روعها الاضطهاد وخنقها الرخاء .

ولكن عندما انحصرت موجة المنكرين للتعميد تدفق نهر من الهوجينوت المطاردين إلى الأراضى المنخفضة من فرنسا ، وجاءو معهم بإنجيل كالفن ، وراقت الحماسة الصارمة القائلة بالحكم الدينى للهرطقة الجديدة ، لمن ورثوا تقاليد المتصوفة وإخوان الحيـــاة المشتركة ، وكان قبول كالفن للعمل باعتباره كرامة بدلا من أن يعد لعنة ، وللثورة باعتبارها بركة بدلا من أن تعد جريمة ، وللنظم الجمهورية باعتبارها أكثر موافقة من الملكية للمطامح السياسية لطبقة رجال الأعمال ، يحتوى على أجزاء تلقى ترحيباً متفاوتاً من كثير من العناصر بين السكان . وما إن حل عام ١٥٥٥ حتى كانت هناك جماعات كالفيلية للمصـــلين فى إيبرس وتورناى وفالنسينس وبروجس وغنت وانتورت ، وكانت الحركة تنتشر فى هولندة ويرجع الفضل إلى الكالفينية لا إلى اللوثرية ، أو مذهب المنكرين للتعميد ، فى أن ابن شارل سوف يحصر خلال جيل مرير ، فى صراع قدر له أن يشطر الأراضى المنخفضة إلى قسمين ، ويحرر هولندة من السيطرة الإسبانية ، ويجعلها موطناً وملجأ من أعظم المواطن والملاجئ للفكر الحديث .

وفى عام ١٥٥٥ طرح شارل الخامس كل أحلامه ما عدا حلمه بأن يموت فى طهارة ، وتخلى عن أمله فى قمع البروتستانتية فى ألمانيا والأراضى المنخفضة أو مهادنة الكاثوليكية فى مجلس ترنت ، وتخلى عن طموحه فى زعامة البروتستانت والكاثوليك والألمان والفرنسيين ، فى زحف رائع يقوم به ضد سليمان والقسطنطينية والتهديد التركى للعالم المسيحى . وقد أدى إفراطه فى الطعام والشراب والعلاقات الجنسية وحملاته المنهكة وأعباء منصب واجه صدمة تغيير ثورى إلى تحطيم جسده وتبلد سياسته وتحطيم

إرادته . وكان يشكو من قروح ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، واكتهل فى الخامسة والثلاثين وأصيب وهو فى الخامسة والأربعين بالنقرس والربو وسوء الهضم والتأتأة ، وكان وقتذاك يقضى نصف وقت يقظته فى ألم ، ووجد أنه من الصعب عليه أن ينام ، وكثيراً ما كانت الصعوبة التى يجدها فى التنفس تجعله يجلس منتصباً طوال الليل ، وكانت أصابعه مشوهة بداء المفاصل ، إلى درجة أنه لم يكد يستطيع أن يقبض على القلم ، الذى وقع به على صلح كربى . وعندما قدم كولينى رسالة من هنرى الثانى ، لم يستطع شارل أن يفتحها إلا بصعوبة وقال متسائلا : « ما رأيك فىّ يا سيدى أمير البحر ؟ ألست فارساً رائعاً يستطيع أن يهاجم ويحطم حربة ، أنا الذى لا أستطيع أن أفتح خطاباً إلا بعد مشقة كبيرة ؟[٣٠] » ولعل قسوته العارضة وشيئاً من الوحشية التى هاجم بها البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة ، ترجع إلى نفاد صبره بسبب آلامه . وأمر بقطع أقدام الأسرى من الجنود الألمان المرتزقة ، الذين حاربوا فى صفوف فرنسا ، على الرغم من أن ابنه الذى قدر له أن يكون فيليب الثانى الصلب الرأى ، طلب لهم الرحمة[٣٦] ، وقد حزن حزناً مريراً دام طويلا لوفاة زوجته الحبيبة إيزابلا (١٥٣٩) ، ولكنه سمح فى حينه بحضور عذارى لا حول لهن ولا طول إلى مخدعه[٣٧] .

ودعا فى خريف عام ١٥٥٥ إلى عقد اجتماع لمجلس الطبقات فى الأراضى المنخفضة ، يوم ٢٥ اكتوبر ، واستدعى إليه فيليب من إنجلترا . وفى قاعة دوقات برابانت الواسعة المغطاة بالسجاجيد فى بروكسل حيث اعتاد فرسان الجزة الذهبية أن يعقدوا اجتماعاتهم ، اجتمع النواب والنبلاء والحكام من سبع عشرة مقاطعة فى نطاق حرس من الجند المدججين بالسلاح . ودخل شارل يستند على كتف وليام أف أورانج ، الذى قدر له أن يكون عدواً لابنه فى المستقبل . وتبعه فيليب مع نائبة الإمبراطور مارى الهنغارية ، ثم أمانويل فيليبرت أف سافوى ، ومستشارو الإمبراطور ، وفرسان الجزة

الذهبية ، وكثير من الأعيان الآخرين الذين أقبلت عليهم الدنيا يوماً قبل أن تنساهم . وعندما جلس الجميع نهض فيليبرت وشرح فى إسهاب ووضوح اغتبط لهما شارل ، الأسباب الصحية والعقلية والسياسية التى حدت بالإمبراطور إلى إبداء رغبته فى أن يتنازل عن حكم الأراضى المنخفضة لابنه ، ثم وقف شارل نفسه وهو يتكئ من جديد على أمير أورانج الوسيم فارع القامة ، وتحدث ببساطة ، وفى صميم الموضوع ، ولخص كيف ارتقى إلى أن بلغ آفاقاً متسعة من السلطان على التعاقب وتحدث عن ذوبان حياته فى الحكم . وتذكر أنه زار ألمانيا تسع مرات وإسبانيا ستا وفرنسا أربعاً وانجلترا وأفريقية مرتين ، وقام بإحدى عشرة رحلة بالبحر واستأنف كلامه قائلا :

هذه هى المرة الرابعة التى أفكر فيها فى الذهاب لإسبانيا من الآن ... ولم يسبق أن جربت شيئاً سبب لى مثل هذا الألم العظيم .... الذى أشعر به وأنا أفترق عنكم من اليوم دون أن أترك خلفى ذلك السلام والهدوء اللذين طالما رغبت فى تحقيقهما ... ولكنى لم أعد قادراً على مباشرة شئونى دون أن أشعر بتعب شديد يسرى فى بدنى ، وبالتالى ألحق بالدولة الضرر ... وإن ما يتطلبه تحمل المسئولية من اهتمام عظيم ، وما تسببه خور بالغ للعزيمة ، وصحتى التى تدهورت من قبل ، كل هذه لم تعد تترك لى القوة اللازمة للحكم .. وينبغى لى فى حالتى هذه أن أقدم لله والإنسان حساباً خطيراً إذا لم أطرح السلطة عن كاهلى ... وأن ابنى ، الملك فيليب قد وصل إلى سن تكفى لأن يكون قادراً على حكمكم ، وهو ، كما أرجو ، أمير صالح لكل رعاياى المحبوبين[٢٨] .

وعندما تهالك شارل متألماً فى مقعده نسى الحاضرون خطاياه واضطهاده وهزائمه ، رثاء لرجل عمل جاهداً مدى أربعين عاما ، حسب ما أملته عليه آراؤه وسمحت به قدرته ، تحت وطأة أثقل الالتزامات فى عصره . وبكى كثير من السامعين . ونصب فيليب رسمياً حاكماً للأراضى المنخفضة ، وحلف

يميناً مغلظة (كما سوف يذكر بها فيما بعد) أن يراعى كل القوانين والحقوق التقليدية للمقاطعات . وفى أوائل عام ١٥٥٦ سلم له شارل تاج إسبانيا ، بكل ممتلكاته فى العالم القديم والعالم الجديد، واحتفظ شارل باللقب الإمبراطورى، وكان يأمل أن ينقله لابنه قريباً ، ولكن فرديناند احتج ، وفى عام ١٥٥٨ تنازل الإمبراطور عن لقبه لأخيه . وسافر شارل بحراً فى السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٥٦ من فلشنج إلى إسبانيا .

٦ - إسبانيا

١ — ثورة العامة : ١٥٢٠ — ٢٢

كانت نعمة مشكوكاً فيها لإسبانيا أن يصبح الملك شارل الأول (١٥١٦ — ٥٦) الإمبراطور شارل الخامس (١٥١٩ — ٥٨) ، وولد وتربى فى الفلاندرز : وتعلم مناهج الحياة الفلمنكية ، واكتسب الأذواق الفلمنكية ، إلى أن تغلبت عليه روح إسبانيا فى سنواته الأخيرة . ولم يكن فى وسع الملك إلا أن يصبح جزءاً صغيراً من الإمبراطور ، الذى كان مشغولاً تماماً بالإصلاح الدينى والبابوية وسليمان وباربا روسا وفرانسيس الأول ، وشكا الإسبان أنه لم يمنحهم إلا القليل من وقته ، وأنه أنفق الكثير من مواردهم البشرية والمادية فى الحملات التى كانت فى الظاهر لا تهم المصالح الإسبانية . وكيف كان فى وسع إمبراطور أن يتعاطف مع نظم جماعية جعلت إسبانيا تتمتع بنصف ديمقراطية ، قبل مجئ فرديناند الكاثوليكى ، وكانت تتوق كثيراً إلى أن تستعيدها ؟

وقام بأول زيارة لمملكته (١٥١٧) ولم تكسبه حب أحد : وعلى الرغم من مضى عشرين شهراً عليه وهو ملك ، فإنه كان لا يزال لا يعرف الإسبانية وكان عزله المفاجئ لكسيمينس صدمة للدماثة الإسبانية . وجاء يحيط به فلمنكيون ، ظنوا إسبانيا بلداً همجياً تنتظر من يحلبها . وعين الملك البالغ من العمر سبعة عشر عاماً هذه الديدان الطبية فى أعلى المناصب . ولم تخف المجالس التشريعية الإقليمية المختلفة التى يسيطر عليها صغار النبلاء ، نفورها وعدم رضاها

عن ملك أجنبي ، ورفض المجلس التشريعي في قشتالة أن يعترف له باللقب ، ثم اعترف به على كره منه حاكماً ، تشترك معه في الحكم أمه المعتوهة جوانا ، وجعله يفهم أنه لا بد من أن يتعلم الإسبانية ، ويعيش في إسبانيا ، وألا يعين مزيداً من الأجانب في أي منصب . وقدمت المجالس التشريعية طلبات مماثلة . ووسط مظاهر الإذلال التي تعرض لها شارل تلقى أنباء بأنه انتخب إمبراطورا ، وأن ألمانيا كانت تدعوه للحضور لكي يتوج . وعندما سأل المجلس التشريعي في بلد الوليد (وكانت وقتذاك العاصمة) أن يحول الرحلة منى بالفشل والخيبة ، وساد هرج هدد حياته . وحصل آخر الأمر على المال من المجلس التشريعي في كورونا وأسرع إلى الفلاندرز . ولكي يجعل الأمور محفوفة بالمخاطر أضعافاً مضاعفة أرسل نواباً corregidores لحماية مصالحه في المدن ، وترك مربيه السابق أدريان كاردينال أترخت نائباً له في إسبانيا .

وثارت البلديات الأسبانية واحدة وراء الأخرى في « ثورة أعضاء الكومون » ونفوا النواب الـ corregidores وقتلوا بعض النواب الذين صوتوا بالموافقة على منح أموال لشارل ، وتحالفوا فيما يعرف باسم Santa Communidad الذي تعهد بالإشراف على الملك . وانضم النبلاء ورجال الكنيسة وأوساط الناس إلى الحركة ونظموا في أفيلا (أغسطس سنة ١٥٢٠) الـ Santa Iunta أو الاتحاد المقدس ليكون بمثابة حكومة مركزية . وطالبوا بضرورة اشتراك المجالس التشريعية مع المجالس الملكية في اختيار نائب الملك ، وعدم شن حرب بغير موافقة المجالس التشريعية ، وألا يحكم المدينة النواب بل يحكمها قضاة ، أو عمد يختارهم المواطنون[٢٩] . ودافع أنطونيو دى أكونيا أسقف سمورة علنا عن قيام جمهورية ، وحول أتباعه من رجال الاكليروس إلى محاربين ثوريين ، وقدم موارد أسقفية للثورة . وعين جوان دى باديلا ، وهو نبيل من طليطلة ، قائدا لقوات الثوار . فقادها لتستولى على نورديسيلاس ، وأخذ جوانا لا لوكا رهينة ،

وحثها على أن توقع وثيقة ، تخلع فيها شارل ، وتعين نفسها ملكة ، وكانت عاقلة فى جنونها ، فرفضت .

ولم يكن لدى أدريان ما يكفى من الجند لقمع الثورة ، فاستغاث بشارل وطلب منه العودة ، وألقى تبعة قيام الثورة صراحة على تحكم الملك وحكمه الغيابى . ولم يحضر شارل ، ولكنه وجد هو أو مستشاروه سبيلا لإشاعة الانقسام والانتصار ، فقد حذر النبلاء أن الثورة كانت تهديدا لطبقات أصحاب الأملاك وللتاج على السواء ، والحق أن الطبقات العاملة ، التى ظلمت منذ عهد بعيد بالأجور الثابتة ، والعمل سخرة ، وتحريم الاتحاد ، كانت قد استولت من قبل على السلطة فى عدة مدن ، وفى بلنسية والمنطقة المجاورة لها قبض الجرمانيا Germania أو إخوة أبناء الطوائف الحرفية على الزمام ، وسيطروا على لجان العمال ، وكانت هذه الدكتاتورية البروليتارية نقية على غير العادة ، وفرضت على آلاف المغاربة الذين ظلوا فى المقاطعة أن يختاروا بين التعميد والموت ، وقتل آلاف من الذين رفضوا فى عناد[٣٠] ، وثار العامة فى ماجوركا ، الذين عاملهم سادتهم كالعبيد ، ثورة مسلحة ، وخلعوا الحاكم المعين من قبل الملك ، وذبحوا كل نبيل لم يستطع أن يفلت منهم ، وتحللت كثير من المدن عن روابطها مع الإقطاعيين ومستحقاتها لهم ، وفى مدريد وسجونزا ووادى الحجارة أقصت الحكومة البلدية الجديدة كل النبلاء والأعيان من المناصب ، وقتل الأشراف هنا وهناك ، وفرض الاتحاد Junta ضرائب على أملاك النبلاء السابق إعفاؤها ، وأصبح النهب عاماً ، وأحرق العامة قصور النبلاء وذبح النبلاء العامة ، وانتشر الصراع بين الطبقات فى أرجاء إسبانيا .

وقضت الثورة على نفسها بالتوسع فى أهدافها ، توسعاً جاوز حدود طاقاتها ، وانقلب عليها النبلاء ، وحشدوا قواتهم ، وتعاونوا مع قوات الملك ، واستولوا على بلنسية ، وأطاحوا بالحكومة البروليتارية ، بعد أيام سقط فيها

قتلى من الجانبين (١٥٢١) ، وانقسم جيش الثوار ، عند ما بلغت الأزمة ذروتها ، إلى فرقتين متنافستين بقيادة باديلاودون بدرو جيرون ، وانقسمت الجماعة السياسية إلى أحزاب ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، وواصلت كل مقاطعة ثورتها ، دون تآزر مع باقى المقاطعات .

وانطلق جيرون ، وانضم إلى الملكيين الذين استولوا من جديد على تورديسلاس وجوانا . أما جيش باديلا الذى تضاءل عدد جنوده فقد هزم هزيمة منكرة فى فيلالار ، وأعدم باديلا . وعند ما عاد شارل إلى إسبانيا (يوليو سنة ١٥٢٢) ومعه ٤٠٠٠ جندى ألمانى ، كان النبلاء قد فازوا بالنصر ، وقد أضعف النبلاء والعامة بعضهم بعضاً إلى حد أنه استطاع أن يتغلب على البلديات والطوائف الحرفية ، ويروض المجالس التشريعية ، ويوطد أركان ملكية تكاد تكون مطلقة . وقد قمعت الحركة الديمقراطية تماماً بحيث ظل كل العامة الإسبان خائفين خاضعين ، حتى القرن التاسع عشر . وخفف شارل سلطته بالدماثة ، وأحاط نفسه بالنبلاء ، وتعلم الحديث بلغة إسبانية سليمة ، وسرت إسبانيا عند ما علق قائلا إن الإيطالية هى اللغة اللائقة لكى تتحدث بها النساء ، والألمانية هى لغة الأعـــداء ، والفرنسية لغة الأصدقاء ، والإسبانية لغة الرب[٣١] .

٢ — البروتستانت الإسبان

لم تكن هنا إلا قوة واحدة تستطيع أن تتحدى شارل — هى الكنيسة — وكان نصيراً للكاثوليكية ، ولكنه مناهض للبابوية . وسعى ، مثل فرديناند الكاثوليكى ، إلى جعل الكنيسة الإسبانية مستقلة عن البابوات ونجح فى هذا إلى حد أن التعيينات فى مناصب الكنيسة ودخول الكنيسة إبان حكمه كانت فى يديه ، واستخدمت لرفع شأن السياسة الحكومية . ولم تكن هناك حاجة للإصلاح الدينى فى إسبانيا ، كما هو الحال فى فرنسا ؛ لكى تتبع الكنيسة

للدولة . ومع ذلك فإن الحماسة للعقيدة المحافظة الإسبانية ، إبان نصف مدة حكمه ، التي قضاها في مملكته ، استحثته إلى حد أنه في سنواته الأخيرة لم يكن هناك أمر (باستثناء قوة آل هابسبرج) يهمه أكثر من قمع الهرطقة .

وبينما حاول البابوات أن يخففوا من وطأة محكمة التفتيش فإن شارل أيدها حتى وفاته . وكان مقتنعاً بأن الهرطقة في الأراضي المنخفضة كانت تؤدى بها إلى الفوضى والحرب الأهلية ، وصمم على أن يمنع حدوث مثل هذا التطور في أسبانيا

وأخذت محكمة التفتيش الإسبانية سورة غضبها ، ولكنها مدت رقعة اختصاصها القضائي في عهد شارل . فاضطلعت بعبء الرقابة على المصنفات ، وقامت بتفتيش كل مخزن للكتب ، وأمرت بإحراق الكتب الموصــومة بالهرطقة[٣٢] . واستقصت حالات الانحراف الجنسي وعاقبت عليها : ووضعت قواعد نقاء الدم Limpieza ، التي أغلقت كل طرق التميز أمام ذرية المتحولين إلى غير دينهم Conversos وكل من عاقبتهم المحكمة . وكانت تنظر إلى المتصوفة نظرة قاسية ، لأن بعض هؤلاء ادعوا أن صلاتهم المباشرة بالله أعفتهم من حضور الصلاة في الكنيسة ، وأضفى آخرون على حالات وجدهم الصوفي طعماً جنسياً مشبوهاً . وأعلن الواعظ العلماني بدرو رويز دى الكراز أن الجماع هو اتحاد بالرب حقاً ، وقال الأخ الراهب فرانسيسكو أورتيز مفسرا أنه عند ما يرقد مع زميلة متصوفة جميلة فإنه لا يرتكب خطيئة من خطايا الجلس ، بل ينعم بمتعة روحية[٣٣] . وعاملت محكمة التفتيش برفق هؤلاء المتنورين Alumbrados واحتفظت بأقسى إجراءاتها ضــد البروتستانت في إسبانيا .

وكما حدث في شمالى أوروبا وقعت مناوشـــة إرازمية قبل معركة البروتستانت ، وهتف بعض رجال الكنيسة المتحررين استحساناً لانتقادات علماء الإنسانيات لأخطاء رجال الإكليروس ، ولكن إكسيمنيس وآخرين

كانوا قد قوموا من قبل المظالم البارزة أكثر من غيرها ، قبل مجيء شارل .
ولعل اللوثرية كانت قد تخللت أرض إسبانيا مع الألمان والبلجيكيين المتكلمين بالفلمنكية فى الحاشية الملكية . وأدانت محكمة التفتيش ألمانيا فى بلنسية عام ١٥٢٤ ، لأنه جاهر بالتعاطف مع لوثر ، وحكم على فلمنكى بالسجن مدى الحياة عام ١٥٢٨ ، لتشككه فى المطهر وصكوك الغفران ، وأحرق فى المحرقة فرانسيسكو دى سان رومان ، أول من عرف من اللوثريين الإسبان عام ١٥٤٢ ، بينما كان المشاهدون المتحمسون يطعنونه بسيوفهم : واعتنق جوان ديازاف كوينكا ، الكالفيلية فى جينيف ، فاندفع أخوه ألفونسو من إيطاليا ليحوله مرة أخرى إلى العقيدة المحافظة ، وعندما فشل الفونسو عمل على قتله (١٥٤٦)[٣٤] وسجن جوان جيل ، أو أجيديو ، وهو كبير قساوسة متعلم فى أشبيلية ، لمدة عام بسبب وعظه ضد عبادة الصور والصلاة للقديسين وفاعلية الأعمال الصالحات فى الفوز بالخلاص . ونبشت عظامه بعد وفاته وأحرقت ، وواصل رفيقه كبير القساوسة كونستانتينو بونس ديلافوينتى ، دعايته ، ومات فى سجون محكمة التفتيش . وأحرق أربعة عشر من زملاء كونستانتينو ، ومنهم أربعة رهبان وثلاثة نساء ، وحكم على عدد كبير بعقوبات مختلفة ، ودك البيت الذى اجتمعوا فيه حتى سوى بالأرض .

وتطورت جماعة نصف بروتستانتية أخرى فى بلد الوليد ، وهنا تورط نبلاء من ذوى النفوذ ورجال دين من أصحاب الرتب الرفيعة : ووشى بهم لمحكمة التفتيش ، وقبض عليهم جميعاً تقريباً وحكم عليهم بالإدانة ، وحاول البعض مغادرة إسبانيا فقبض عليهم وأعيدوا . وكان شارل الخامس وقتذاك يعتكف فى يوستى ، فأوصى بعدم إظهار أية رحمة فى معاملتهم ، وقطع رأس التائبين وإحراق من يرفضون التوبة . وفى يوم أحد الثالوث الموافق ٢١ مايو سنة ١٥٥٩ أعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع متهلل[٣٥] . وتراجع الجميع عما قالوا إلا واحداً ، وعوملوا برفق ، وقطعت رءوسهم ، أما أنطوليو

دى هرزويلو الذى رفض التوبة فقد أحرق حياً . وسمح لزوجته ليونور دى سيز نيروس البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً بالسجن مدى الحياة : وبعد أن أمضت عشر سنوات فى السجن، عدلت عن انكارها لما قالت ، وجاهرت بهرطقتها ، وطلبت أن تحرق حية مثل زوجها فأجيبت إلى ملتمسها(٣٦) . وعرض ستة وعشرون آخرون من المتهمين للحرق أحياء فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٥٥٩ ، أمام حشد مكون من ٢٠٠٫٠٠٠ شخص ، يرأسه فيليب الثانى : وحرقت ضحيتان وهما حيتان وخنق عشرة :

وكان بارتلومى دى كارانزا ، رئيس أساقفة طليطلة ورئيس أساقفة إسبانيا ، أشهر فريسة وقعت فى براثن محكمة التفتيش فى هذه الفترة . وكان باعتباره من الدومينيكان قد قام بنشـــاط كبير فى مطاردة الهراطقة والإيقاع بهم ، وعينه شارل مبعوثاً له فى مجلس ترنت ، وأرسله إلى إنجلترا لحضور زواج فيليب والملكة مارى . وعندما انتخب رئيساً للأساقفة (١٥٥٧) كان الاختيار بالإجماع ما عدا صوته . ولكن بعض « البروتستانت » الذين قبض عليهم فى بلد الوليد شهدوا بأن كارانزا كان قد تعاطف سراً مع آرائهم ، ووجد أنه كان قد راسل المصلح الدينى الإسبانى الإيطالى جوان دى فالديس ، واتهمه عالم للاهوت ذو النفوذ ملشيور كانو بأنه كان يعضد العقيدة اللوثرية فى التزكية بالإيمان : ولم يقبض عليه إلا بعد سنتين من ارتفاع شأنه ووصوله إلى أعلى منصب كنسى فى إسبانيا ، ونستطيع أن نحكم من هذا على مدى قوة محكمة التفتيش . وظل سبعة عشر عاماً معتقلا فى سجن أو غيره ، بينما كانت تصرفاته فى حياته ورسائله تتعرض للفحص والاستقصاء فى طليطلة وروما . وأعلن جريجورى الثالث عشر أنه « مشتبه فيه بشدة » بالهرطقة وأمره بأن ينكر ستة عشر ادعاء ، وأوقفه لمدة خمس سنوات عن مباشرة وظيفته : وتقبل كارانزا الحكم فى ذلة ، وحاول أن

يؤدى الكفارات التى فرضت عليه ، ولكنه مات فى خلال خمسة أسابيع بعد أن أنهكه السجن والإذلال (١٥٧٦) .

وبموته زال خطر البروتستانتية عن إسبانيا ، وحدث أن أعدم حوالى ٢٠٠ شخص بين عامى ١٥٥١ و١٦٠٠ ، لما نسب إليهم من هرطقات بروتستانتية — أى بواقع أربعة أشخاص كل عام . وقد تجمد طبع الناس ، الذى كان قوامه من كراهية المغاربة واليهود ، التى تأصلت جذورها قروناً طويلة ، فى عقيدة محافظة لا تتزعزع ، وامتزجت الكاثوليكية وحب الوطن ، ووجدت محكمة التفتيش أن من اليسير أن تسحق ، فى خلال جيل أو جيلين ، المغامرة الإسبانية العابرة التى اتسمت بفكر مستقل .

٣ — الإمبراطور يموت : ١٥٥٦ — ٥٨

قام شارل الخامس فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٥٦ بالدخول إلى إسبانيا لآخر مرة . واستغنى فى برجوس عن خدمات معظم الذين كانوا قد عملوا معه ومنحهم مكافآت ، وودع شقيقتيه ، مارى المنغارية واليونورا ، أرملة فرانسيس الأول » وأبديا رغبتهما فى مشاركته اعتزاله فى الدير ، ولكن القواعد منعتهما ، فاتخذا لهما مسكنا فى موضع لا يبعد كثيراً عن هذا الشقيق الذى يبدو أنه لم يكن هناك من يحبه وقتذاك سواهما » وبعد أن أقيمت له عدة احتفالات فى الطريق ، وصل قرية جوانديلا فى وادى پلازنسيا ، على مسيرة نحو ١٢٠ ميلا غربى مدريد . ولبث هناك عدة شهور ، ريثما أكمل العمال الحجرات التى أمر بتجهيزها وتأثيثها فى دير يوستى (سانت جوستوس) على مسيرة ستة أميال . وعندما قام بالمرحلة الأخيرة من رحلته (٣ فبراير سنة ١٥٥٧) ، لم ينتقل إلى خلوة فى دير بل إلى قصر ريفى فسيح ، اتسع لإقامة المقربين من تابعيه الخمسين . وابتهج الرهبان بوجود ضيف عظيم مثله ، بيد أنهم اكتأبوا عندما

وجدوا أنه ليس لديه النية فى أن يشاركهم حميتهم ونظامهم ، فقد كان يأكل ويشرب كميات كبيرة ، كما كان يفعل من قبل — أى بإفراط . وكانت عجات السردين وسجق الاسترمادورا وفطائر ثعبان السمك ، ولحم الحجل المملح والديوك الخصية السمينة ، وأنهار من النبيذ والجعة ، تختفى فى كرشه الإمبراطورى ، واضطر أطباؤه إلى أن يصفوا له كميات كبيرة من السنامكى والراوند للتخلص من الزيادة فى وزنه .

وبدلا من أن يتلو شارل تسابيحه وأوراده ومزاميره كان يقرأ رسائل من ابنه أو يملى رسائل له ، وكان يعرض عليه النصيحة فى كل وجه من وجوه الحرب واللاهوت والحكم . وأصبح فى العام الأخير من عمره متعصباً متطرفاً قاسياً ، وأوصى بتوقيع عقوبات وحشية « لاستئصال جذور » الهرطقة ، وأسف لأنه كان قد سمح للوثر بالهرب منه فى ورمس . وأمر بجلد أى امرأة مائة جلدة إذا اقتربت من أســوار الدير قاب قوسين أو أدنى[٣٧] . وراجع وصيته لكى ينص فيها على إقامة ٣٠٫٠٠٠ قداس من أجل طمأنينة روحه . ويجب ألا نحكم عليه من أعماله فى أيام الشيخوخة هذه ، ولعل لوثة خبل قد انتقلت إليه بالوراثة من أمه .

وفى أغسطس عام ١٥٥٨ انقلب النقرس الذى يشكو منه إلى حمى ملتهبة . وعاودته هذه بصورة متقطعة ، وأخذت تشتد يوماً بعد يوم ، وظل شهراً يتعذب بكل آلام النزع الأخير قبل أن تزهق روحه (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٨) . وفى عام ١٥٧٤ أمر فيليب بنقل الجثــة إلى الاسكوريال حيث يرقد تحت نصب تذكارى فخم .

وكان شارل الخامس أكبر فاشل فى عصره ، بل إن فضائله كانت أحياناً بؤساً وشقاء للإنسانية . ومنح إيطاليا السلام ، ولكن لم يتم هذا إلا بعد مرور عقد من الزمان ، تعرضت فيه للتخريب ، وبإخضاعها

هي والبابوية لإسبانيا ، وجف عود النهضة الإيطالية تحت رئاسته الكثيبة ، وهزم فرانسيس وأسره ، ولكن ضاعت منه في مدريد فرصة ملكية ليبرم معه معاهدة كانت حرية بأن تنقذ ماء كل الوجوه ومائة ألف روح ، وعاون في إعادة سليمان إلى بلاده في فيينا ، وصد بربروسا في البحر الأبيض المتوسط ، وقوى مركز آل هابسبورج ، ولكنه أضعف الإمبراطورية ، وفقد اللورين وسلم بورغنديا ، وأحبط أمراء ألمانيا محاولة لتركيز السلطة هناك ، وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عهده نسيجاً واهياً ، تنتظر نابليون ليحكم بإعدامها . وفشلت جهوده لسحق البروتستانتية في ألمانيا ، وترك الأسلوب الذي انتهجه في قمعها في الأراضي المنخفضة تراثاً محزناً لابنه . وكان قد وجد المدن الألمانية مزدهرة وحرة ، وتركها ترزح ألماً تحت وطأة إقطاع رجعي . وعندما جاء إلى ألمانيا كانت تنبض بالحياة ، فيها أفكار ونشاط تبز بهما أية أمة أخرى في أوروبا وعندما تنازل عن عرشه كانت ضعيفة واهنة روحياً وفكرياً ، وظلت جدباء مدى قرنين . وكانت السياسة التي انتهجها في ألمانيا وإيطاليا سبباً واهيا لما لحقهما من ضعف ، أما في إسبانيا فكان عمله هو الذي سحق حرية البلديات وقوتها ، وكان حريا بأن يبقي إنجلترا في حظيرة الكنيسة بإقناع كاثرين أن تسلم بحاجة هنري إلى وريث ، وبدلا من أن يفعل ذلك أجبر كليمنت على اتخاذ موقف فيه تذبذب ، يؤدي إلى الخراب .

ومع ذلك فإن استبصارنا المتأخر هو الذي يرى أخطاءه وجسامتها ، وفي وسع حسنا التاريخي أن يصفح عنها باعتبارها متأصلة بجذورها في قيود بيئته العقلية وفي أوهام العصر العاتية . وكان أقدر سياسي بين معاصريه ، ولكنه لم يكن كذلك إلا بمعنى أنه عالج بشجاعة أعمق موضوعات النزاع في أوسع مدى وصلت إليه . وكان رجلا عظيما حطت من شأنه مشكلات عصره وحطمته .

ونفذت إلى حكمه الطويل حركتان أساسيتان . وكانت أعظمهما نمو القومية فى عهد ملكيات تنزع إلى المركزية ، وفى هذه لم يكن له فيها نصيب . وأعظمها من الناحية الدرامية ثورة دينية ، حفزت إليها الانقسامات والمصالح القومية والإقليمية . وقبلت شمالى ألمانيا واسكنديناوة اللوثرية ، أما جنوب ألمانيا وسويسرة والأراضى المنخفضة فقد انقسمت إلى طائفتين بروتستانتية وكاثوليكية ، وأصبحت إسكوتلندة كالفيلية مشيخية ، وإنجلترا كاثوليكية إنجيلكانية أو بيوريتانية كالفيلية . وظلت إيرلندة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال موالية لبابوية بعيدة أو مهذبة . ومع ذلك نشأ تكامل واه ، وسط ذلك الانقسام المزدوج : فقد وجدت الولايات المستقلة المعتزة بنفسها أنها فى حاجة إلى بعضها البعض ، لضمان استقلالها ، كما لم يحدث من قبل ، وأنها مرتبطة بصورة متزايدة فى نسيج اقتصادى ، وأنها تؤلف مسرحاً رحيباً لمناهج سياسية متشابكة العلاقات ، وحروب وقانون بأدب وفن . كانت أوروبا التى عرفها شبابنا تتخذ شكلها .

المراجع
NOTES

مراجع فصل ٢١ من الجزء الرابع والعشرين

CHAPTFR XXI

1. Cath. En. III, 196.
2. Beza in Schaff, *Swiss Ref* 302.
4. Calvin *Institutes*, Preface, 20-2, 39-40.
5. *Institutes*, I, viii, 1.
6. Ibid., II, v., 19.
7. Ephesians, i, 3-7.
8. *Institutes*, III, xxi-xxii.
9. Romans, ix, 15.
10. *Institutes*, II, xxj, 7.
11. Consensus Genevensis in Schaff. *Swiss Ref.*, 554.
12. *Institutes*, III, xxi, 1.
13. Ibid.
14. III, xxiii, 7.
15. IV, i, 10.
16. IV, i, 4.
17. Allen, *Political Thought*, 61; Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance and the Reformation*, 211.
18. *Institutes*, IV, xix, 3.
19. III, xxi, 1.
20. Schaff, 558.
21. *Institutes*, III, ix, 4.
22. Ibid.
23. III, ix, 6.
24. For: La Tour, IV, 32, and *Camb. Mod. Hy*, II, 258; against: Cath. En., III, 196a.
25. *Comb. Mod. Hy*, II, 360.
26. Robinson, *Readings*, 299.
27. Schaff, 361.
28. Ibid., 414.
29. 412.
30. 426.
31. 437.
32. Robinson, *Readings*, 300.
33. La Tour, IV, 178.
34. Villari, *Savonarola*, 491.
35. Schaff, 492.
36. Beard, *The Reformation*, 250.
37. Ibid., Schaff, 491.
38. Ibid., 492.
39. O'Brien, *Economic Effects*, 101.
40. As by Weber, Max, *The Protestam Ethic and the Spirit of Capitalism*, *passim*; Barnes *Economic Hy of the Western orld*, 201-2; and O'Brien, 124.
41. *Institutes*, III, vii, 5.
42. Cf. O'Brien, 100.
43. Ibid., 20.
44. Tawney, 119.
45. Barnes, *Economic History*, 201.
46. Schaff, 644.
47. Beard, *The Reformation*, 252; Muir, *John Knox*, 108.
48. Smith, *Reformation*, 174.
49. Scchaff 519.
50. Ibid., 839.
51. La Tour, IV, 206.
52. Schaff, 739.
53. La Tour, IV, 200; Schaff, 594.

54. Schaff, 618.
55. Ibid., 502.
56. Robertson, J.M. *Freethought*, I, 443-4.
57. Servetus, *De Trinitatis erroribus*, i, 94b. in Bainton, *Hunted, Heretic*, 48.
58. Servetus, ibid., i, 34 ; Newman, L, I., *Jewish Influence on Christian Reform Movements*, 584.
59. Bainton, *Hunted Heretic*, 144.
60. Ibid.
61. ibid., 147.
62. Schaff, 733.
63. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 64.
64. Schaff, 770.
65. Ibid., 764, 773; Bainton, 191.
66. Bainton, 188.
67. Schaff, 777.
68. Ibid., 778.
69. Bainton, 185.
70. Ibid., 209-11 ; Schaff, 710, 781-4.
71. Schaff, 784.
72. Walker, *John Calvin*, 425.
73. Schaff, 707-8.
74. Ibid.
75. 709.
76. In Allen, *Political Thought*,
77. Castellio in Allen, 90-4 ; Haydn, *Counter-Renaissance*, 104.
78. In Allen, 98.
79. *Time* magazine, Fed, 22, 1954.
80. Schaff 652n.

CHAPTER XXII

1. In Lacroix, *Prostitution* ; II 1142.
2. Ibid., 1141.
3. 1130.
4. Taylor, R., *Leonardo*, 444.
5. Sichel, *Catherine de' Medici and the French Reformation*, 38.
6. Erasmus, *Colloquies*, II, 54.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 468.
8. Michelet, III, 175.
9. E.g., Aretino, *La cortigiana*, in *Dialogues*, 228.
10. Batiffol, *Century of the Renaissance*, 44.
11. Lacroix, *Prostitution*, II, 1131'
12. Cellini, *Au ography*, ii, 10.
13. Guizot, *Hy of France*, III, 81.
14. Ibid., Michelet, III, 218.
15. Michelet, III, 148.
16. Sichel, *Women and Men of the French Renaissance*, 87.
17. Ibid .
18. Michelet, III, 135.
19. Sichel, *Women*, 193.
20. Faguet, *Literary History of France*, 281.
21. Margaret, Queen of Navarre, *Heptameron*, xli.
22. In Maulde, 354.
23. Margaret, *Heptameron*, 36.
24. In Maulde, 53.
25 Ibid .,297
26. In Sichel, *Women*, 1[illegible]
27. Ibid., 371.
28. 180.
29. Boyd, *French Renaissance*, 25.
30. Sichel, *Catherine de' Medici and the French Reformation*, 138.
31. Sichel, *Women*, 104.
32. Michelet, III, 136.
33. *Camb. Mod. Hy*, I, 659.
34. Ibid.

35. Lacroix, *Prostitution*, II, 1247.
36. Margaret, *Heptameron*, Tale 22.
37. Ibid., xlii.
38. In Guizot, III, 187.
39. Ibid., 196.
40. 197.
41. Roeder, *Catherine de' Medici*, 54.
42. La Tour, II, 237 f.
43. Michelet, III, 216.
44. Guizot, III, 216.
45. Schaff, *Swiss Reformation*, 320.
46. Ibid., 320 ; La Tour, II, 556-7.
47. Sichel, *Women*, 18.
48. Guizot, III, 220.
49. La Tour, II, 612.
50. Micheler, III, 319 ; Guizot, III, 229 ; *Camb Mod. Hy*, II, 289.
51. Guizot, III, 15.
52. Ibid., 73.
53. Ibid., 91 : Michelet III, 239.
54. Guizot., III, 95.
55. Ibid., 91.
56. Michelet, III, 244.
57. Robertson, W., *Charles* 538.
58. Guizot, III, 105-6.
59. Ibid., 116.
60. *Camb. Mod. Hy*, III, 105.
61. Guizot, III, 129 ; Robertson, *Charles V*, II, 57-60.
62. Michelet, III, 316 ; *Camb. Mod. Hy*, II, 77.
63. Janssen, VI, 358.
64. Michelet, III, 293-4.
65. Hackett, *Francis I*, 428.
66. Brantôme in Guizot, III, 192.
67. Sichel, *Catherine*, 51.
68. D'Orliac, *The Moon Mistress*, 186.
69. Janssen, VI, 359.
70. Michelet, III, 366.
71. Guizot, III, 281.
72. Pastor, XII, 486.
73. Batiffol, 175.
74. Robertson, *Charles V*, II, 351.
75. Guizot, III, 261.

CHAPTER XXIII

1. Pollard, *Henry VIII*, 39.
2. Froude, *Erasmus*, 142.
3. Chambers, *Thomas More*, 99.
4. Erasmus, *Epistles* I, 457.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 30 ; Ep. 447 in Froude, *Erasmus*, 107.
6. Seebohm, *Oxford Reformers* 261-6.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 546.
8. Guicciardini, VIII, 126.
9. Pollard, 67.
10. Creighton, *Cardinal Wolsey*,
11. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, I, 69.
12. Robinson, J. H., *Readings*, 303.
13. Burnet, *History of the Reformation*, I, 6.
14. Chambers, *More*, 158; Hugghes, *Reformation*, I, 80.
15. Ibid.
16. Creighton, *Wolsey*, 59.
17. Burnet, I, 15.
18. Lingard, IV, 192.
19. Robinson, *Readings*, 303.
20. Pollard, 110.
21. Robinson, l. c.
22. Lingard, IV, 193 ; Chamb-

ers, *More*, 173-4 ; Hughes, I, 109.
23. Froude. *Henry VIII*, I, 60 ; but cf. Hughes, I, 58 f.
24. Hughes, I, 103n.
25. Belloc, *How the Reformation Happened*, 117.
26. Seebohm, 203-46.
27. Coulton, *Panorama*, 718.
28. Froude, *Henry VIII*, II, 114-5.
29. Hughes, I, 49-50.
30. Froude, I, 350.
31. Hughes, I, 50-66.
32. Oasqucet, *Monasteries*, II, 237 ; Trevelyan, *English Social Hy*, 73.
33. Ibid.
34. Hughes, I, 57-8.
35. Coulton, *Panorama*, 554.
36. Hughes, I, 150.
37. Ibid., 127-9.
38. 202.
39. Smith, *Luther*, 193.
40. Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 143; Oasquet, *Eve*, 213.
41. *Camb. Mod. Hy*, I, 640.
42. Beard, *Reformation*, 305.
43. Ibid.
44. Hughes, I, 146.
45. Froude, I, 319, 336.
46. Burnet, I, 16.
47. Oasquet, *Monasteries*, I, 85-8.
48. Froude, I, 81.
49. Burnet, I, 26.
50. Hughes, I, 67-70.
51. Pollard, 174.
52. Burnet, I, 27.
53. Pollard, 76, 176.
54. Froude, I, 74n.
55. Pollard, 183.
56. Ibid, 135.
57. Froude, *Divorce of Catherine of Aragon*, 47.
58. Pastor, X, 241.
59. Froude, *Divorce*, 47.
60. *Camb. Mod. Hy*, II, 431.
61. Pastor, X, 244.
62. Pollard, 207.
63. Ibid., 208.
64. Pastor. X, 257-8 ; Hughes; I, 175-9; Acton, 139.
65. Hughes, I, 176.
66. Pastor, X, 267.
67. Pollard, 225.
68. Burnet, I, 55.
69. Froude, *Reign, of Elizabeth* III, 259.
70. Froude, *Divorce*, 190.
71. Hughes, I, 181.
72. Oavendish, *Life of Wolsey*, in Froude, *Henry VIII*, III, 115.
73. Creighton, *Wolsey*, 186.
74. Pollard, 223-4.
75. Creighton, 185.
76. Burnet, I, 61.
77. Creighton, 194.
78. Froude, *Divorce*, 138.
79. Creighton, 205.

CHAPTER XXIV

1. Froude, *Divorce*, 166, 81.
2. Pollard, 250-1.
3. Trevelyan, *Social Hy*, 102.
4. Pollard, 237.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 128-35.
6. Ibid., 139.
7. 162.
8. Sichel, *Women*, 176.
9. Lingard, IV, 273.

10. Prescott, H. F., *Mary Tador,* 38.
11. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters,* 77.
12. Froude, *Henry, VIII,* I, 218.
13. Ibid., 265.
14. Pollard, 187.
15. Ibid., 300.
16. Gasquet, *Monasteries,* I, 122, 129, 134 f.
17. Pollard, 304-5.
18. Chambers, *More,* 323. 326; Lingard. IV, 19.
19. Froude, *Henry VIII,* II, 82.
20. Burnet, I, 123 5.
21. Erasnus, *Epistles,* II, 186.
22. Pollard, 305; Eroude, *Council of Trent,* 116-7.
23. Chambers, *More,* 334.
24. Prescott. *Mary Tudor,* 60.
25. Roper, *More,* 46.
26. Hughes, I, 345.
27. Cf., e.g., Chambers, *More,*
28. Erasmus, *Epistles,* II, 427.
29. Jusscrand, *Wayfaring Life,*
30. Froude, *Erasmus,* 103-7 ; Chambere, *More,* 75.
31. Chapiro, 36.
32. Erasmus, *Epistles,* II, 423.
33. Chambers,
4. More, *Utepia,* 168.
35. Ibid., 213.
36. 247.
37. Ibid.
38. 303.
39. 322-5.
40. 323.
41. 320.
42. 335.
43. 290-1.
44. 215, 347, 209.
45. 178-9.
46. 343-4.
47. Froude, *Hery VIII,* I, 347.
48. Chambers, *More,* 276.
49. Ibid., 281.
50. Cf. Coulton, *Panorama* 709.
51. More, *English Works,* 586, in Taylor, *Thougbt and Expression,* II, 68.
52. Roper, 89.
53. Ibid., 109.
54. Hearnshaw, *Tbinkers of tbe Renaissance,* 146.
55. Roper, 126.
56. Chambers, *More,* 349.
57. Froude, *Henry VIII,* II, 95.
58. Erasmus, Letters of Aug. 24 and 31, 1535.
59. Roper, 127.
60. Chambers, 277.
61. Burnet, I, 143.
62. Presoti, *Mary Tudior,* 50 ; Ponard 304.
63. Froude, *Henry VIII.* II, 142.
94. Burnet, I, 143.
65. Prescott, *Mary,* 70.
66. Pollard, 343.
67. Ibid.
68. Froude, *Henry VIII,* II, 159.
69. Lingard, V, 37.
70. Froude, II, 171.
71. Pollard, 346.
72. Ibid., 305.
73. Froude, *Henry VIII,* III, 26n.
74. Ibid., II, 204.

CHAPTER XXV

1. C. R. Beazley in Traill, *Social Englad,* III, 49.
2. Gasquet, *Eve,* 397-0.
3. Montesquieu, *Spirit of Laws,* xii, 10.
4. Froude, *Henry VIII,* II, 116.

5. Ibid., 240.
6. Pollard, 337; Gasquet, *Monasteries*, I, 254-336.
7. Pollard, 339.
8. Froude, II, 119-26.
9. Ashley, *Economic Hy*, II, 213.
10. Gasquet, I, 341-3.
11. Ibid., 291-5.
12. Froude, II, 240.
13. Gasquet, II, 82.
14. Ibid., II, 82.
15. Froude, II, 56.
16. Gasquet, I, 363; II, 33, 323.
17. Ibid., II, 336-7, 438.
18. Hughes, I, 328.
19. Gasquet, II, 447-8.
20. Traill, III, 129.
21. Salzman, *English Industries*, 232; *Camb. Mod. Hy*, II, 467.
22. Lecky, *Rationalism*, II, 126; Ashley, II, 316; Trevelyan, *Social Hy*, 112.
23. Traill, III, 128.
24. D'Alton, E. A., *Hy of Ireland*, II, 382-7; Joyce, *Short Hy of Ireland*, 317.
25. D'Alton, 530 f.; Froude, *Henry VIII*, III, 166.
26. Pollard, 438.
27. Froude, III, 280.
28. Pocock in *English Historical Review*, Vol. X, p. 421.
29. Froude, III, 280.
30. Id., II, 363.
31. III, 23-4; Pollard, 399-1.
32. Lingard, V, 73-4; Pollard, 400; Froude, III, 104.
33. Froude, *Edward VI*, 68.
34. Ashley, II, 351.
35. Froude, *Edward VI*, 69.
36. Froude, *Henry VIII*, I, 52-5; II, 137; Traill, III, 250; Marx, *Capital*, I. 806.
37. Trevelyan, *Social Hy*. 137.
38. Froude, *Henry VIII*, I, 16n.
39. Rogers, J., *Six Centuries of Work and Wages*, 78.
40. Hughes, I, 29.
41. Traill, III, 127.
42. Hughes, I, 159.
43. Lingard, V, 61.
44. Pollard, 403.
45. Lingard, V, 76.
46. Lees-Milne, *Tudor Renaissance*, 21.
47. Froude, *Henry VIII*, III, 281-2.
48. Ibid., 402.
49. *Camb. Mod. Hy*, II, 459; Traill, III, 65.
50. In Coulton, *Medieval Village*, who disagrees. Cf. Froude, *Henry VIII*, I, 43.
51. Rogers, 79 f.

CHAPTER XXVI

1. Stow's *Chronicle*, in Froude, *Edward VI*, 21.
2. Ibid., 34.
3. Hughes, II, 162; *Camb. Mod. Hy*, II, 400-1.
4. Rogers, 89.
5. Froude, *Edward*, 165.
6. Ibid., 183; Prescott, *Mary Tudor*, 25.
7. Hughes, II, 192-3.
8. Robertson, *Freethought*, I, 459.
9. Froude, *Edward*, 98 101
10. Ibid., 103.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 502.
12. Froude, *Edward*, 156.

13. Ibid., 278.
14. Ibid.
15. 163.
16. 176; Lingard, V, 228.
17. Froude, 176.
18. Ibid., 209.
19. *Camb. Mod.* H*y*, II, 301.
20. Froude, 226.
21. Cf. Prescott. *Mary Tudor*, 17.
22. En. Brit., XIV, 1001.
23. Chapuys in Prescott, 50, 54.
24. Ibid.
25. En. Brit., XIV, 1000b.
26. Prescott, 122.
27. Ibid., 209.
28. Pastor, XIV, 399.
29. Froude, *Mary Tudor*, 44.
30. Prescott, 191-2.
31. Ibid., 194.
32. 196.
33. Froude, *Mary Tudor*, 66.
34. Hughes, I, 18.
35. Froude, 56.
36. Ibid., 50.
37. 56.
38. Prescott, 285.
39. Ibid., 274.
40. 266.
41. 284.
42. 315.
43 Frude, 325.
44. Prescott, 325.
45. Lingard, V, 230.
46. Prescott, 206.
47. Ibid., 302.
48. 304.
49. Pastor, XIV, 360.
50. Froude 119.
51. Prescott, 307.
52. *Camb. Mod.* H*y*, II, 543.
53. Froude, 110.
54. Prescott, 311.
55. Foxe, *Acts and Monuments*, I, 231 f ; Maitland, S. R., *Essays on the Roformation*, 409 ; Smith, *Reformation*, 586, Lee, Sidney, *Dictionary of National Biograpby*, XX, 146.
56. Hughes, II, 258-9.
57. Froude, *Mary Tudor*. 199.
58. Lingard, V, 231.
59. Pastor, XIV, 370.
60. Froude, 202.
61. Ibid., 233.
62. Foxe, VIII, 82-3.
63. Ibid., 88.
64. 90.
65. Froude, 235.
66. Beard, *Reformation*, 182.
67. Hughes, II, 198.
68. Hume, *Spain : Its Greatness and Decay*, 117.
69. Prescott, 332.
70. Ibid., 381.
71. 390.

CHAPTR XXVII

1. Cf. Buckle, H*y of Civilization*, II, ch, ii.
2. Ibid., I, 150; Belloc, How *the Reformatiou* Happened, 188.
3. Ibid., 189.
4. Lang, H*y of Scotland*, 425.
5. Froude, *Elizabeth*, I, 73.
6. Knox, H*y of the Reformaion*, Introd, by W.C. Dickinson, xvii,
7. Lang, I, 300.
8. Ibid., 470.
9. Froude, Henry *VIII*, III, 298.

10. Ibid., 295, 300.
11. Knox, *History*, I, 76.
12. Ibid., 78.
13. 8.
14. 55.
15. Lang, I, 484.
16. Knox, I, 84-5.
17. Muir, *Knox*, 119.
18. Ibid., 133.
19. 120.
20. 202.
21. Froude, *Elizabeth*, I, 257.
22. Allen, *Political Thought*, 110.
23. Knox, *History*, Introd, lxxiii; Muir, 67.
24. Knox, I, 194 and note 2.
25. Knox, Introd., xiv; cf, Muir, 300.
26. Muir, 157.
27. Lang, II, 37.
28. Knox, II, 18.
29. Ibid., 4.
30. I, 6.
31. Knox, Introd., xli.
32. Ibid., xxxix.
33. Knox, *Works*, IV, 365, 373-7.
34. Ibid., 418-20.
35. Knox, *Book of Discipline*, in Allen, *Political Thought*, 113n.
36. Ibid., 113; Lecky, *Rationalism*, II, 16.
37. Knox, Introd., xlii, and Allen, 113.
38. In Muir, 142.
39. Ibid., 148-9.
40. Lang, II, 45.
41. Knox, I, 161-2.
42. Ibid.
43. 163.
44. Lang, II, 51-3.
45. Knox, I, 164.
46. Ibid., 171-2.
47. 182; Lang, II, 54-5.
48. Knox, I, 191.
49. Knox, II, Appendix VI.

CHAPTER XXVIII

1. *Camb, Mod. Hy*, II, 602; En. Brit., VII, 210a.
2. Watson, P. B., *Swedish Revolution under Gustavus Vasa*, 123.
3. Ibid., 162.
4. 169.
5. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 147.
6. In Lednicki, *Life and Culture of Poland*, 107.
7. Kesten, *Copernicus*, 144.
8. *Camb. Hy of Poland*, I, 322-4.
9. Ibid., 329.
10. Lützow, *Bohemia*, 206n.
11. Tawney, 75.
12. Blok, II, 332.
13. *Camb, Mod Hy*, II, 63; Taine, *Lectures on Art* 272.
14. Pirenne, H., *Belgian Democracy*, 218.
15. Motley, J. L., *Rise of the Dutch Republic*, I, 101.
16. Smith *Reformation*, 240.
17. Blok, II, 314.
18. In Kautsky, 283.
19. Smith, 244.
02. Kautsky, 285 f.; Ranke, 75 f.
21. Motley, I 222-5.
22. Smith, 245.
23. Draper, J.W., *Intellectual Development of Europe*, II, 226.

24. Smith, 245.
25. Armstrong, *Charles, V*, II, 382-3; Robertson, *Charles V*, II, 137; Michelet, III, 293.
26. Ibid., 363.
27. 349.
28. Robinson, *Readings*, 317-9.
29. Altamira, *Hy of Spanish Civilization*, 135.
30. Hume, *Spanish People*, 222-3.
31. Vernadsky, O., *Kievan Russia*, 243.
32. Wilkins, *Spanish Protestantism in the 16th Century*, 19.
33. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 8-12.
34. Wilkins, 26; *Camb. Mod. Hy*, I, 403.
35. Lea, IV, 431-8.
36. Ibid., 441.
37. Prescott, W. H. in Robertson, *Charles V*, II, 648.



ول وايريل ديورانت

الإصلاح الدّيني

ترجمة
محمّد علي أبو درّة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الخامس من المجلّد السّادس





بيروت



تونس

فهرس الجزء الخامس من المجلد السادس

صفحة

الفصل التاسع والعشرون

توحيد روسيا

١٣٠٠ – ١٥٨٤

الفصل الثلاثون

عبقرية الإسلام

١٢٥٨ – ١٥٢٥

صفحة

الفصل الحادى والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ — ١٥٦٦

الفصل الثانى والثلاثون

اليهود

١٣٠٠ — ١٥٦٤

صفحة

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ — ١٥٦٤

الفصل التاسع والعشرون

توحيد روسيا

١٣٠٠ — ١٥٨٤

١ — الشعب

فى سنة ١٣٠٠ لم يكن لروسيا وجود . وكان معظم القسم الشمالى يتبع ثلاث مدن دولة تحكم نفسها بنفسها ، وهى نوفجرد Novgorod ، فياتكا Viatka ، بسكوف Pskov . وكانت المقاطعات الغربية والجنوبية خاضعة للتوانيا . أما فى الشرق فإن إمارات موسكو وريازان وسوزدال ونجنى لفجرد وتفر Tver ، ادعت كل منها لنفسها حق السيادة ، ولم يربطها بعضها ببعض إلا اشتراكها فى الخضوع « للقبيلة الذهبية » .

وقد اتخذت « القبيلة الذهبية Golden Horde » هذه التسمية من اللفظة التركية أوردو Ordu ومعناها « المخيم » ، أما وصفها « بالذهبية » فيرجع إلى الخيمة ذات القبة ، والتى كانت موشاة بغطاء من الذهب ، وكانت مقر قيادة « باتو الرائع » حفيد جانكيزخان : وبعد أن تم لهؤلاء الآسيويين الغزاة فتح جنوب روسيا وغرب آسيا ، شيدوا عاصمتهم فى « سراى » Sarai على أحد فروع نهر الفولجا الأدنى ، وهناك تقاضوا جزية سنوية من الأمراء الروس . وكانت « القبيلة » موزعة بين الزراعة والرعى المتنقل . وكانت الأسرات الحاكمة من المغول ، أما بقية السكان فكان معظمهم من الأتراك . وقد أطلق على القبيلة اسم « تتار » نسبة إلى قبائل « تاتا Ta-ta » من صحراء

جوبى ، وهى قبائل بدأت فى القرن التاسع الزحف المغولى نحو الغرب . وكانت النتائج الأساسية التى ترتبت على طول خضوع روسيا « للقبيلة » نتائج اجتماعية : وهى استبداد أذواق موسكو ، وولاء الأهالى ولاء ذليلاً لأمرائهم ، والمركز الوضيع للمرأة فى المجتمع ، وتنظيم حكومة موسكو وفقاً لأساليب التتار من النواحى العسكرية والمالية والقضائية . وقد عاقت سيطرة التتار محاولة روسيا لمدة قرنين من الزمان أن تصبح دولة أوربية غربية .

وواجه الشعب الروسى أشق الظروف بعدم اكتراث رواقى صامت ، اللهم إلا أنهم فى غمرة آلامهم وأحزانهم ، وجدوا فى أنفسهم الشجاعة لممارسة الغناء . ونعتهم أعداؤهم بالخشونة والقســوة والخيانة والخبث والعنف[1] . ولا شك أن الكد والنصب ، وقسوة المناخ ، كل أولئك أكسبهم صلابة ، على أن ما تميزوا به من الصبر وروح المرح والمودة وكرم الضيافة ، كان فيه تعويض كبير لهم ، إلى حد أنهم مالوا إلى الاعتقاد بأنهم « أكثر إنسانية » ، وأنهم « ملح الأرض » (إشارة إلى ما جاء فى إنجيل متى : ٥ — ١٣) : لقد أدخلوا قسراً إلى المدنية بقوانين همجية وعقوبات رهيبة ، من ذلك — كما رُوى لنا — أن المرأة التى تقتل زوجها كانت تدفن حية حتى عنقها ، وأن السحرة والمشعوذين كانوا يحرقون أحياء فى قفص من حديد ، وأن مزيفى النقود كان يصب فى حلوقهم معدن مصهور[2] . وكأى شعب يقاوم البرد كان الروس يدمنون المشروبات الروحية إلى حد فقدان الوعى أحياناً ، كما كانوا يضيفون إلى طعامهم التوابل التماساً للدفء . واستمتعوا بالحمام الساخن ، وكانوا يستحمون أكثر من معظم الأوربيين . وكان من أوامر الدين عندهم أن تخفى المرأة مفاتن جسمها وشعرها ، كما دمغ الدين النساء بأنهن أولياء الشيطان ، ومع ذلك تساوين بالرجال أمام القانون ، وكثيراً ما شاركن فى تسليتهم أو فى الرقص ، وهو ما كان محرماً باعتباره خطيئة . وكانت الكنيسة الروسية تحض بشدة على مكارم الأخلاق ، وتحرم

عقد الزيجات واقتراب الرجل من المرأة فى أيام الصوم الكبير ، ومن ثم كانت صرامة الشريعة حائلا دون نزوع الشعب إلى الإفراط فى الانغماس فيما يكاد أن يكون المسرة الوحيدة التى تركت له . وكان الوالدان هما اللذان يدبران شئون الزواج ، وكان يتم فى سن مبكرة ، فكانت البنت فى سن الثانية عشرة والولد فى سن الرابعة عشرة يعتبران صالحين للزواج . وكانت مراسم العرس معتمدة تصحبها الأشياء الرمزية القديمة والأفراح التى كان مطلوباً من العروس فى أثنائها أن تلزم الصمت الموسوم بالحياء ، ولسوف تعوض عن ذلك فيما بعد . وكان ينتظر منها أن تقدم إلى والدة زوجها غداة العرس ما يثبت أنه بنى بعذراء . وكان الحريم يبقين فى طابق أعلى بعيداً عن الرجال ، وكانت سلطة الرجل فى الأسرة مطلقة مثلها فى ذلك مثل سلطة القيصر فى الدولة .

وسما الورع عند الروس بالفقر حتى جعل منه سبيلا إلى الجنة . وكان كل بيت مهما صغر أو كبر يضم غرفة مزدانة بالأيقونات أو الصور المقدسة ، بمثابة مكان للصلاة من حين لآخر . وكان الزائر الصالح يحيي هذه الصور المقدسة قبل التسليم على أهل البيت . وكانت النساء الصالحات يحملن مسابح أينما ذهبن . وكانت الابتهالات تتلى بمثابة تعاويذ ورقى سحرية ، ومن ثم — كما يروى كتاب مشهور من القرن السادس عشر اسمه « كتاب الأسرة Domostroi » فإن ابتهالات معينة تكرر فى اليوم ٦٠٠ مرة لمدة ثلاث سنوات ، قد تؤدى إلى تجسد الآب والابن والروح القدس فى شخص المتضرع[٣] . ومع ذلك كان هناك كثير من المظاهر الجميلة فى هذه الديانة الممتلئة بالخرافات . فكان الناس فى صبيحة يوم عيد الفصح يحيون بعضهم بعضاً بهذه الألفاظ البهيجة « المسيح قام » . وفى ظل هذا الأمل هان أمر الموت إلى حد ما . فإذا حانت منية الرجل الطيب الوقور سدد ديونه وأعفى المدينين له ، وأعتق واحداً أو أكثر من أرقائه ، ووزع

الصدقات على الفقراء والكنيسة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وكله أمل وثقة فى الدار الآخرة .

وعملت الكنيسة الروسية على تقوية الورع عن طريق فن العمارة والرسوم الحائطية والأيقونات والعظات القوية وحفلات التنويم المغناطيسى ، والترانيم التى يشترك فى إنشادها عدد كبير من المرتلين ، والتى كانت تبدو وكأنها تخرج من أخفى أعماق النفس أو المعدة ، وكانت الكنيسة لساناً قوياً ناطقاً باسم الدولة ، وتثاب على الخدمات التى تؤديها فى تعليم الآداب والأخلاق وتقويم السلوك وتوطيد دعائم النظام الاجتماعى بأوفى مثوبة . وكانت الأديرة كثيرة ضخمة . من ذلك أن « دير الثالوث الأقدس » الذى أسسه القديس سرجيوس فى سنة ١٣٣٥ ، كان قد جمع فى عام ١٦٠٠ من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح لزرعها . وفى مقابل ذلك وزعت الأديار الصدقات على الروس ، وكان بعضها يطعم ٤٠٠ شخص فى اليوم . وفى إحدى سنوات القحط كان دير فولوكولامسك Volokolamsk يطعم سبعة آلاف شخص يومياً . وكان الرهبان يقطعون على أنفسهم عهداً بالتزام العفة ، ولكن الكهنة كانوا يضطرون إلى الزواج . وكان معظم هؤلاء « الآباء » أميين ، ولكن الشعب لم يكن يعيب عليهم ذلك . وكان مطارنة موسكو فى معظم الأحوال أكثر أهل زمانهم كفاية ومقدرة وعلماً ، وكانوا يبذلون ثرواتهم للحفاظ على الدولة ، ويوجهون الأمراء على طريق الوحدة الوطنية . وكان سانت ألكسيس هو الحاكم الفعلى روسيا طوال توليه منصبه (١٣٥٤ — ١٣٧٠) . إن الكنيسة الروسية بكل أخطائها التى ربما تكون قد فرضتها عليها مهامها — نقول إن هذه الكنيسة فى عصر التكوين والتشكيل هذا ، كانت بمثابة العامل الأبرز والأهم فى تمدين الشعب الذى صبرته وحشياً مصاعب الحيـــاة وضراوة طبيعة الإنسان ذاته .

وحين رفضت الكنيسة الروسية فى ١٤٤٨ اندماج الكنيسة اليونانية مع الكاثوليكية الرومانية فى مجلس فلورنسه ، أعلنت استقلالها عن البطريرك البيزنطى ، وبعد ذلك بسنوات خمس حين سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك ، أصبحت موسكو عاصمة المذهب الأرثوذكسى . وحوالى ١٥٠٥ كتب راهب متحمس إلى أمير عظيم فى موسكو « اعلم الآن أن سلطان المسيحية بأسرها قد آل إليك ، لأن رومة الأولى وروما الثانية (يقصد رومة والقسطنطينية) قد سقطتا ، أما الثالثة فهى صامدة ، ولن يكون هناك رابعة ، لأن إمبراطوريتك المسيحية سوف تدوم إلى الأبد »(4) .

وكادت الكنيسة أن تكون النصير أو الراعى الوحيد للآداب والفنون : ومن ثم كانت هى التى توجهها . ولم تكن أجود الآداب مدونة . وكانت أغانى الشعب التى رددتها ألسنة الناس من جيل إلى جيل هى التى تذيع وتمجد قصص حبهم أو أعراسهم أو أحزانهم أو فصولهم أو أعيادهم أو موتاهم ، وكان هناك أناشيد مألوفة لقديسين مرموقين وأبطال قدامى ومآثر أسطورية ، مثل مآثر سادكو Sadko تاجر نفجرد . وكان المكفوفون والعرج يطوفون بالقرى ينشدون مثل هذه الأغانى والأناشيد والتراتيل المقدسة . وكان كل الأدب المكتوب تقريباً مقصوراً على الأديرة ، وكان يخدم الأغراض الدينية .

وكان الرهبان هم الذين وصلوا عندئذ برسم الأيقونات إلى فن كامل . فكانوا يأتون بلوحة صغيرة من الخشب ، مغطاة بالقماش أحياناً ، ينشرون عليها طبقة لزجة ومن ثم يرسمون عليها الصورة ويضعون الألوان ، ثم يغطونها بالطلاء ويضعونها فى إطار معدنى . وكانت الموضوعات تحددها السلطات الدينية ، أما الأشكال والسمات فكانت تقتبس من النماذج البيزنطية ، وعادوا بها أدراجهم فى تطور مستمر عبر فسيفساء القسطنطينية إلى رسوم الإسكندرية الهللينستية . وأحسن أيقونات هذا العصر هى صورة لا يعرف

اسم صاحبها تمثل « المسيح يرقى عرش السماء » موجودة فى كاتدرائية صعود العذراء فى موسكو ، وصورة دخول المسيح إلى أورشليم — وهى من عمل مدرسة نفجرد ، والثالوث المقدس للراهب أندريه روبليوف فى دير الثالوث المقدس . ورسم روبليوف وأستاذه تيوفانس الإغريقى ، لوحات جصية جدارية تجمع بين الطراز البيزنطى والطراز البيزنطى الجريكو فى فلاديمير وموسكو ونفجرد ، ولكن الزمن أعمل أثره فيها .

إن كل حاكم كان يبرز عظمته ويريح ضميره ببناء كنيسة أو دير ، أو تخصيص الأوقاف والهبات لهذا أو تلك . وقد انضمت الأشـــكال والحوافز من أرمينية وفارس والهند والتبت ومنغوليا وإيطاليا واسكنديناوه — انضمت إلى التراث البيزنطى السائد ، لتشكل عمارة الكنيسة الروسية ، بما فيها من جمال تعدد الوحدات ، والقبة المذهبة فى الوسط ، والقباب البصلية الشكل التى صممت بطريقة رائعة لمنع تراكم مياه المطر والثلوج . وبعد سقوط القسطنطينية وطرد التتار قل اعتماد روسيا على الفن البيزنطى والفن الشرقى ، وجاء التأثير من الغرب ليعدل من الطراز السلافى . وفى سنة ١٤٧٢ راود الأمل إيفان الثالث فى أن يرث حقوق الأباطرة البيزنطيين وألقابهم ، ومن ثم تزوج « زو باليولوغوس Zoë » ابنة أخى آخر حكام الإمبراطورية الشرقية ، وكانت قد نشأت فى رومة وتشربت شيئاً من بواكير عصر النهضة ، وقد جلبت معها بعض العلماء الإغريق ، وأظهرت إيفان على الفن الإيطالى ، وربما كان بإيحاء منها إرساله لأول بعثة روسية إلى الغرب (١٤٧٤) ، وقد أصدر إليها توجيهاته بالحصول على الفنانين الإيطاليين لموسكو . وقبل الدعوة ريودلفو فيرافانتى البولونى الذى كان يلقب بأرسطو بسبب تعدد مواهبه ، ثم تصيد المبعوثون الروس بعد ذلك بيترو سولاريو ، والفيزيونوف وعدة فنانين آخرين وهؤلاء الإيطاليون هم الذين أعادوا بناء الكرملين مع معاونين وعمال من الروس .

وكان يورى دلجوروكى Yuri Delgoruki قد أسس موسكو سنة ١١٥٦ بأن أقام سوراً حول داره (فيللا) ، التى كانت تقع فى موقع استراتيجى عند التقاء نهرين ، فكان هذا الحصن « Kreml » أول شكل للكرملين . واتسع مع الزمن هذا النطاق ، وقامت الكنائس والقصور داخل سياج مرصوص من البلوط ، ونذر ايفان الثالث نفسه لتعديل هذه المجموعة بأكملها . ومن الواضح أن فيرافانتى Fieravante هو الذى أعاد بناء كاتدرائية صعود العذراء القـديمة فى الكرملين (١٤٧٥ — ١٤٧٩) حيث توج القياصرة فيما بعد وبقى الطراز بيزنطيا مع زخرفة إيطالية . وأضاف مهندسون معماريون من بسكوف داخل نطاق الكرملين «كاتدرائية عيد البشارة» الصغرة (١٤٨٤ — ١٤٨٩) . ثم أقام أليفزيو Alevisio فى الكرملين كاتدرائية رئيس الملائكة (١٥٠٥ — ١٥٠٩) . وفيما بين ١٤٨٥ — ١٥٠٨ أعاد سولاريو وآخرون تسوير المنطقة بالآجر القرنفلى على طراز قلعة سفورزسكو فى ميلان(٥) . وهكذا — ترى أنه من وسط روسيا الزاخر بالمعابد ، ومن قلب هذه الوحدة المتسلطة التى تركزت فيها السلطتان الدنيوية والدينية ، بسط أمراء موسكو العظام ومطارنتها حكمهم ونفوذهم على النبلاء والتجار والفلاحين ، ووضعوا بالدماء والعظام وبالتقى والورع أسس واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم .

٢ — أمراء موسكو

ظلت موسكو قرية مغمورة حتى عهد دانيال اسكندروفتش فى أواخر القرن الثالث عشر ، ووسعت رقعتها الداخلية حتى جعلت منها إمارة صغيرة ، ويعزو الإدراك التاريخى المتأخر(٦) — نمو موسكو إلى موقعها على نهر موسكو الصالح للملاحة الذى كان متصلا عن طريق ممر برى قصير ، بنهر الفولجا شرقاً ، وأنهار أوكا والدون والدنيبر جنوباً وغرباً . وطمع يورى دانيالفتش بن دانيال أمير موسكو فى الاستيلاء على إمارة سوزدال المجاورة ،

وكانت عاصمتها فلاديمير غنية نسبياً ، كما طمع فى ذلك ميكائيل أمير تفر Tver . واقتتل الفريقان للحصول على الجائزة فكانت الغلبة لموسكو ، وقتل ميكائيل وضم إلى قائمة القديسين . ونمت موسكو ، واتخذ ايفان الأول ، أخو يورى لقبى أمير موسكو العظيم ، ودوق فلاديمير العظيم .

وكان إيفان الأول ، بوصفه جامعاً للجزية الروسية لحساب خان التتار ، يتقاضى أكثر مما كان يرسله أو يحوله ، ومن ثم أثرى وازدهر بطريقة شريرة مؤذية . وجعله جشعه للمال ينبز بلقب « Kalita » ومعناه « حقيبة المال » . ولكنه بذلك حمى الإمارات من حملات التتار لمدة ثلاث عشرة سنة نعمت فيها بالهدوء . وتوفى إيفان سنة ١٣٤١ على أنه راهب حليق شعر الرأس ، وأطلقوا من حوله بخور القداسة . وورث عنه ابنه سيميون المتكبر ميله إلى جمع الضرائب . ولما كان يدعى السلطان على كل الولايات فإنه أطلق على نفسه اسم الأمير الأعظم على كل الروس ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الموت بالطاعون (١٣٥٣) . وكان إيفان الثانى حاكماً وديعاً يؤثر السلام ، وفى عهده اجتاحت روسيا حرب قتل فيها الأخ أخاه . وتميز ابنه ديمترى بكل الصفات التى تتطلبها الحرب والقتال ، فهزم كل منافس له وتحدى خان التتار . وفى ١٣٨٠ جميع ماماى خان جيشاً من التتار والمرتزقة الجنوبيين وغيرهم من المتعطلين المتشردين ، وتقدم به نحو موسكو . وقابل ديمترى وحلفاؤه الروس هذا الجحفل عند كوليكوفو Kulikovo قرب نهر الدون وأنزلوا به الهزيمة (١٣٨٠) ، وفاز بلقب دونسكوى Donskoi وعاود التتار الكرة بعد عامين بمائة ألف رجل ، ولكن الروس ، وقد غرتهم وأرهقتهم نشوة النصر ، لم يستطيعوا أن يواجهوا التتار بقوة مماثلة . واستولى التتار على موسكو ، وذبحوا أربعة عشر ألفاً من السكان وأحرقوا المدينة برمتها . وعقد فاسيلى الأول ، ابن ديمترى ، صلحاً مع التتار ، وضم نجنى نفجرد ، وأرغم نوفجورود وفياتكا على قبوله أميراً عليها .

واقتبس أمراء موسكو العظام أساليب الطغيان والاستبداد عند التتار ، وربما كان هذا بديلا عن فوضى الجهل ، وأدارت دفة الحكم على الأسلوب البيزنطي بيروقراطية فى ظل حكومة فردية مطلقة طابعها العنف والدهاء ، خاضعة لمجلس من أبناء الطبقة العليا ذوى الامتيازات (Boyars) الذين كانوا يقدمون مشورتهم وخدماتهم للأمير ، وكانوا فى نفس الوقت قادة الجيش وحكام الأقاليم والقائمين على التنظيم ، والجباة والمستغلين للفلاحين شبه الأحرار الذين كانوا يفلحون الأرض . وهاجر مستعمرون مغامرون إلى الأقاليم غير المستقرة وجففوا المستنقعات وأخصبوا الأرض بحرق الغابات والأدغال واستهلكوا الأرض نتيجة إسرافهم وقصر نظرهم فى فلحها ، ثم انصرفوا عنها ضرباً فى الأرض حتى وصلوا البحر الأبيض وجبال الأورال ، واتخذوا سبيلهم سرباً إلى سيبيريا . وفى السهول المترامية الأطراف بلا نهاية كانت المدن كثيرة ولكنها صغيرة ، وكانت البيوت مبنية من الخشب والطين ، وكان مقدراً لها أن تحترق وتنقض على مدى عشرين سنة على الأكثر . وكانت الطرق غير معبدة وأقل إزعاجاً فى الشتاء حيث كانت تكسوها الثلوج وتملؤها الزحافات والأحذية العالية . وآثر التجار الأنهار على الطرق ، ونقلوا تجارتهم فى بطء على الماء أو الجليد بين الشمال والجنوب ، مع بيزنطة والمسلمين وعصبة الهانسا (وقد تكونت من بعض المدن الحرة فى شمال ألمانيا والدول المجاورة ، تكونت فى العصور الوسطى بقصد التجارة) . وربما كانت هذه التجارة المنتشرة هى التى تغلبت على النزعة الفردية لدى الأمراء وفرضت توحيد روسيا . وكان فاسيلى الثانى (١٤٢٥ — ١٤٦٢) الملقب باسم تمنى Temny — الأعمى — لأن أعداءه فقأوا عينيه — هو الذى قضى على تمرد العصاة وألزمهم الطاعة ، عن طريق التعذيب وبتر الأطراف والجلد ، وترك لابنه روسيا قوية إلى درجة تضع معها نهاية لمخازى حكم التتار .

وصار إيفان الثالث هو (العظيم) ، لأنه هو الذى أنجز هذه المهمة ، ووحد روسيا . لقد خلق للشدائد ، وكان مجرداً من المبادئ الخلقية ، لا يتورع عن شيء ، حاد الذهن ماكراً حذراً عنيداً قاسياً ، وكان يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة ، وهو مستقر فى مكانه فى الكرملين . وكان يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقاباً وحشياً ، بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتر أطراف حتى أعضاء المجلس ، أو يقطع رأس طبيب أخفق فى علاج ابنه ، وهكذا بمثل هذه الصرامة كان يسيطر على حاشيته ، حتى أن النساء ليغمى عليهن لمجرد نظرة منه . وأطلقت عليه روسيا اسم « الرهيب » حتى التقت بحفيده .

وكانت إمارة نفجرد أيسر فتوحاته ، وكان ينظر فى تطلع جشع إلى هذه السوق المزدهرة الخاضعة للضريبة ، ولقد حرضه تجار موسكو على القضاء على منافسيهم فى الشمال[٢] . وسيطر الأمير العظيم على السهول الممتدة بين موسكو ونفجرد ، حيث كانت الجمهورية التجارية تشترى المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها ، ولم يكن على إيفان إلا أن يغلق هذا المخزن المورد للحبوب وتلك السوق ، لكى تقع المدينـــة الدولة فى ضائقة وتفلس ، أو تخضع وتستسلم . وبعد ثمان سنوات توالت فيها الحرب والهدنة ، تنازلت الجمهورية عن استقلالها (١٤٧٨) ونقل ٧٠٠٠ من صفوة سكانها إلى سوزدال ، وطردت عصبة الهانسا ، وورث تجار موسكو أسواق نفجرد ، وورث أميرهم دخلها .

وما أن ضم إيفان مستعمرات الجمهورية المندثرة حتى بسط حكمه على فنلندة والمنطقة المتجمدة والأورال . وخضعت بسكوف فى الوقت المناسب حفاظاً على الأشكال الجمهورية فيها تحت سيادة الأمير العظيم . وتلمست تفر أسباب الحماية عن طريق التحالف مع لتوانيا ، ولكن إيفان سار إلى المدينة بنفسه واستولى عليها دون أن يضرب ضربة واحدة ، وتبعتها روستوف Rostov

وياروسلافل Iaroslavl . ولما مات إخوة إيفان رفض أن تؤول مخصصاتهم إلى ورثتهم ، وضمها إلى ممتلكاته . وانحاز أخ له — أندريه — إلى لتوانيا فقبض عليه واعتقله ، ومات أندريه فى السجن ، فبكى إيفان ، ولكنه صادر أملاكه . إن السياسة لا قلب لها .

وبدا أن التحرر من ربقة التتار مستحيل ، ولكن ثبت أنه أمر يسير . ذلك أن بقايا الغزاة المغول — الأتراك كانوا قد استقروا فى ثلاث جماعات متنافسة متنافرة ، وتركزوا فى سراى Sarai وقازان Kazan وفى القرم ، وكان إيفان يضرب كلا منها بالأخرى حتى وثق أنها لن تتحد ضده . وفى ١٤٨٠ امتنع إيفان عن دفع الجزية ، وقاد خان أحمد جيشاً كبيراً من الفولجا حتى ضفاف نهرى أوكا وأوجرا جنوب موسكو . وقاد إيفان جيشاً قوامه ١٥٠,٠٠٠ رجل إلى الضفاف المقابلة ، وواجه العدوان بعضهما بعضاً لعدة شهور دون أن تقع بينهما معركة . وتردد إيفان فى أن يغامر بعرشـــه وحياته فى رمية واحدة ، كما خشى التتار مدفعيته التى أدخل عليها تحسينات . ولما تجمدت الأنهار ، ولم تعد تحمى الجيوش بعضها من بعض ، أصدر إيفان أوامره بالانسحاب ، وبدلا من تعقب الجيش المنسحب ، انسحب التتار كذلك ، حتى وصلوا إلى سراى (١٤٨٠) ، وكان انتصاراً هائلا ولكنه مضحك . ومنذ ذلك الحين لم تدفع موسكو جزية إلى التتار ، وسمى الأمير العظيم نفسه الحاكم المطلق ، أى الذى لا يدفع الجزية لأحد . واستدرج الخانات المتنافسون إلى محاربة بعضهم بعضا ، وهزم أحمد وذبح ، وانقضى سلطان المغول فى سراى ، واندثرت « القبيلة الذهبية » .

وبقيت لتوانيا ، ولم يطق الأمير العظيم ولا مطران موسكو الصبر على السلام ، ما دامت أوكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تهدد موسكو دوما ، وتدعو الأرثوذكس إلى المسيحية اللاتينية ، وزعم إيفان أن ثمة مؤامرة لاغتياله ، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص

المديريات المغرر بها (١٤٩٢) . فما كان من أمراء لتوانيا الذين استشعروا القلق فى ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولندى إلا أن فتحوا أبوابهم أمام جيوش إيفان . وتوقف الاسكندر أمير لتوانيا العظيم فى فدروشا **Vedrosha** وهزم (١٥٠٠) . ورتب البابا الاسكندر السادس هدنة لمدة ست سنوات . وفى نفس الوقت احتفظت موسكو بالأقاليم التى كسبتها — إلى الغرب من نهر سوز **Sozch** بما فى ذلك شرنيجوف **Chernigov** حتى سمولنسك تقريباً . وكان إيفان الثالث قد بلغ آنذاك الثالثة والستين فترك تخليص البقية لحفدته .

إن حكم إيفان الذى دام ثلاثا وأربعين سنة يعدل فى أهميته أى حكم آخر فى تاريخ روسيا قبل القرن العشرين . وسواء كان مدفوعاً بشهوة المال وحب السيطرة أو بإيمانه الراسخ بأن أمن الروس وازدهارهم يتطلبان توحيد روسيا ، فإن إيفان الثالث حقق لبلده ما كان يؤديه لويس الحادى عشر لفرنسا ، وهنرى السابع لإنجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، والإسكندر السادس للولايات البابوية ، ولقد كشف تزامن هذه الأحداث عن تقدم القومية والملكية ، الأمر الذى قضى على سلطان البابوية الأسمى فوق الأمم والقوميات . وفقد أبناء الطبقة العليا استقلالهم ، وأرسلت الإمارات الجزية إلى موسكو ، واتخذ إيفان لقب « ملك روسيا بأسرها » . ويحتمل أن زوجته الإغريقيـــة أوصته بأن يتخذ كذلك لقب « قيصر » ، وهو لقب رومانى إغريقى . ولقد اتخذ النسر الإمبراطورى المزدوج شعاراً قومياً ، وادعى وراثة السلطة السياسية والدينية لبيزنطه الغابرة ، واقتبست من بيزنطة نظريات الحكومة وأعيادها ومراسمها ، وكذلك فعلت الكنيسة ، بوصفها من أدوات الدولة ، بعد أن دخلت إلى روسيا المسيحية البيزنطية والأبجدية البيزنطية الإغريقية وأشكال الفن البيزنطى ، وبقدر ما كانت بيزنطة شرقية لقربها من آسيا ، فإن روسيا التى كانت قد اصطبغت بالصبغة الشرقية بسبب حكم التتار لها ، أصبحت من وجوه كثيرة مملكة شرقية مغايرة للغرب غريبة عنه غامضة لديه .

٣ - إيفان الرهيب

١٥٣٣ - ١٥٨٤

تابع فاسيلى الثالث إيفانوفتش ١٥٠٥ - ١٥٣٣ توحيد روسيا : وضم مولندسك إلى مملكته ، وأرغم إمارتى ريازان ولفجرد - سفرسكى على الاعتراف بسيادته . وقال أحد كتاب الحوليات الروس « ليس سوى الأطفال الرضع هم الذين استطاعوا أن يكفكفوا الدمع ، عندما خضعت لحكم فاسيلى (١٥١٠) جمهورية بسكوف التى كانت يوماً مزهوة بنفسها » ؛ كانت روسيا آنذاك دولة أوربية كبرى . وتبادل فاسيلى الرسائل على قدم المساواة مع مكسيمليان الأول وشارل الخامس وسليمان القانونى وليو العاشر . وعندما حاول بعض أبناء الأرستقراطية أن يحدوا من استبداده كبح جماحهم بكلمة احتقار واحدة هى « فلاحون » . ثم قطع رأس أحد النبلاء . ولما لم ينجب من زوجته أولاداً ، فإنه طلقها وتزوج من هيلينا جلنسكى ، وهى سيدة مصقولة بارعة مستبدة . وبعد موته صارت وصية على ابنها إيفان الرابع فاسيليفتش البالغ من العمر ثلاث سنوات . وعند موتها عاود أعضاء المجلس أبناء الطبقة العليا شغبهم ، وتولت أحزابهم المتناحرة زمام الحكم تباعاً ، ونشروا الفوضى والخلل فى المدن نتيجة عنفهم ، واستنزفوا فى الحرب الأهلية دماء الفلاحين الروس البؤساء العاجزين .

وفى غمرة هذه المنازعات كاد الملك الصغير « سيد روسيا بأسرها » أن يكون مهملا متجاهلا بل محروماً بائساً فى بعض الأحيان . ولما كان يبصر بضروب الوحشية فى كل مكان من حوله ، فإنه حسبها أسلوباً مقبولا فى السلوك ، ومن ثم اختار أعنف ضروب الرياضة . ونشأ شاباً نكدا متقلب المزاج متشككاً . وفجأة ، عندما كان بعدُ ولداً فى الثالثة عشرة من عمره ، (١٥٤٤) ألقى إلى كلابه أندريه شويسكى زعيم أحد أحزاب

النبلاء ، وتولى زمام الأمور فى الدولة . وبعد ثلاث سنوات قام مطران موسكو بتتويجه قيصراً ، ثم أمر القيصر بأن ترسل إليه نخبة من العذارى النبيلات من مختلف أنحاء المملكة ، واختار منهن أنستاسيا رومانوفا وتزوج منها ، ومن لقب أسرتها سوف يتحدد عما قريب لقب أسرة حاكمة .

وفى ١٥٥٠ دعا أول جمعية وطنية من جميع أنحاء روسيا ، واعترف أمامها بجميع أخطائه فى شبابه ، ووعد بإقامة حكومة عادلة رحيمة . ولعله تحت تأثير الإصلاح فى ألمانيا واسكنديناوه ، درست الجمعية اقتراحا بمصادرة أملاك الكنيسة لتدعيم الدولة . ورفض هذا الاقتراح ، ولكن اتخذ قرار آخر متصل به ، بمقتضاه استردت كل الأراضى المنقولة لكنيسة وغير الخاضعة للحجز ، كما ألغيت كل الهبات التى منحت للكنيسة أيام كان إيفان قاصراً . ولم يعد للأديار حق حيازة أية ممتلكات دون موافقة القيصر . وهدأ بال رجال الدين نوعاً ما عندما عين إيفان الكاهن سلفستر مرشداً روحياً له ، واتخذ منه ومن ألكسيس أداشيف وزيرين له ، وبفضل هذين المعاونين القديرين كان إيفان فى سن الحادية والعشرين سيدا على مملكة تمتد من سمولنسك إلى الأورال ، ومن المحيط المتجمد إلى بحر قزوين تقريباً .

وكان همه الأول تقوية الجيش ، والموازنة بين قوى النبلاء المعادين له ، عن طريق هيئتين مسئولتين أمامه : فرسان القوزاق ومشاة ستر لتسى Strieltsi(*) ، مزودة بالهركوبه (Harquebus) — نوع من الأسلحة النارية اخترع فى القرن الخامس عشر . ونشأ القوزاق فى هذا القرن من طبقة الفلاحين الذين كان مقامهم فى جنوب روسيا بين المسلمين والمسكوف يقتضيهم أن يكونوا دوما على أهبة الاستعداد للقتال عند أول صيحة ، كما هيأ لهم

(*) مشتقة من معنى إطلاق النار . أما القوزاق فيحتمل أنها محرفة عن لفظة تركية معناها مغامر .

فرصاً تتعذر مقاومتها لسلب القوافل التى كانت تنقل التجارة بين الجنوب والشمال . وجموع القوزاق الأصليون هم قوزاق نهر الدون فى جنوب شرقى روسيا ، وقوزاق زابوروج Zaporogue فى الجنوب الغربى ، وكانوا جمهوريات شبه مستقلة ، ومن الغريب أنه كان يسود بينهم نظام ديموقراطى ، حيث كان أرباب البيوت يختارون رئيساً تنفيذياً بجمعية منتخبة . وكانت كل الأرض ملكاً عاماً مشتركاً ، ولكنها تؤجر إلى الأسرات بصفة فردية لاستخدامها استخداماً موقوتاً ، وكانت الطبقات كلها متســاوية أمام القانون[٨] . وأصبح فرسان القوزاق ، بسبب اشتهارهم بالشجاعة الهائلة ، الدعامة الأولى لإيفان الرابع داخل البلاد وفى الحرب .

وكانت سياسته الخارجية بسيطة ، فهو يريد أن تربط روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين . وكانت كازان واستراخان والقوم لا تزال فى قبضة التتار الذين كانوا لا يفتأون يطالبون موسكو بالجزية ، ولكن عبثاً . وكان إيفان على يقين من أن أمن روسيا ووحدتها يتطلبان امتلاكها لهذه الأجزاء ، والتحكم فى نهر الفولجا حتى منابعه . وفى ١٥٥٢ قاد القيصر الشاب ١٥٠٫٠٠٠ رجل إلى أبواب كازان وحاصرها لمدة خمسين يوما . ولكن المسلمين — وكان عددهم ٣٠٫٠٠٠ — قاوموا وصمدوا فى عناد تحدوهم الروح الدينية وهاجموا أعداءهم فى غارات متكررة ، وعندما أسر نفر منهم وعلقوا على أعواد المشانق أمام الأسوار سدد إخوانهم المدافعون إليهم السهام صائحين : « خير لهؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدى بنى وطنهم النظيفة من أن يهلكوا بأيدى المسيحيين الدنسة[٩] » . ولما وهنت عزائم المحاصرين وأصابهم القنوط بعد شهر من الإخفاق ، أرسل إيفان إلى موسكو فى طلب صليب عجيب ، فما أن ظهرت هذه الأعجوبة أمام جنوده حتى ثارت حميتهم من جديد ، وكان الله يحارب مع الجانبين . وبث مهندس ألمانى الألغام فى الأسوار فانهارت ، واندفع الروس إلى المدينة صائحين « الله

معنا » ، وأعملوا الذبح فى كل من لم يباعوا بوصفهم رقيقا . وروى أن إيفان ذرف الدمع حسرة على المغلوبين قائلا : « إنهم ليسوا مسيحيين ، ولكنهم رجال » وأسكن إيفان فلول المسيحيين فى الأطلال . وهتفت روسيا بأنه أول سلافى يستولى على معقل تترى ، واحتفلت بالنصر ، كما احتفلت فرنسا بصد المسلمين فى معركة تور سنة ٧٣٢ . وفى ١٥٥٤ استولى إيفان على استراخان ، وأصبح نهر الفولجا قناة روسية تماما . وظلت القرم فى يد المسلمين حتى ١٧٧٤ . ولكن قوزاق نهر الدون أحنوا رءوسهم آنذاك لحكم موسكو .

وما أن حرر إيفان حدوده فى الشرق حتى ولى شطره متلهفاً نحو الغرب . وكان يراوده حلم تجارة روسية تتدفق غربا وشمالا عبر الأنهار الكبرى إلى البلطيق ، وكان يحسد غرب أوربا على التوسع الصناعى والتجارى ، وكان يلتمس للاقتصاد الروسى منفذاً يربط به نفسه بهذا التوسع . وفى ١٥٥٣ أرسل تجار لندن سير هيو ولفبى Hugh Willoughby وريتشارد تشانسلر لإيجاد طريق فى المنطقة المتجمدة حول اسكنديناوة وصولا إلى الصين ، فأبحرا من هاروك Harwich فى ثلاث مراكب ، وهلك اثنان من الملاحين فى الشتاء فى لابلند ، ولكن تشانسلر وصل إلى الموقع الذى أسماه البريطانيون أركنجلسك ، على اسم الملاك ميكائيل . وشق تشانسلر طريقه وسط مئات الأخطار والصعاب إلى موسكو ، فعقد معه إيفان ، ثم مع أنطونى جنكنس فيما بعد ، معاهدات تخول « شركة لندن والمسكوف » امتيازات تجارية خاصة فى روسيا .

ولكن هذه المعاهدات كانت بالنسبة لإيفان مجرد ثقوب ، ولم تكن بابا أو منفذا إلى الغرب ، وأراد أن يستجلب فنيين من ألمانيا ، وحشد له من هؤلاء ١٢٣ فى لوبك ، ولكن شارل الخامس رفض السماح لهم بالخروج . وكان النهر الكبير دوينا الجنوبى يجرى من قلب روسيا إلى البلطيق قرب

ريجا ، ولكنه يجرى عبر ليفونيا المعادية » ولم تكن منابع دوينا والفلجا بعيدة بعضها عن بعض ، ومن ثم يمكن ربط النهرين بقنوات ، وهنا ، بحكم « القدر المقدور » كان الطريق المائى الذى يمكن أن يعوض روسيا عن عدم تناسب أراضيها المترامية الأطراف مع سواحلها وثغورها ، ومن ثم يمكن أن يتصل بحر البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسود ، كما يمكن أن يلتقى الشرق والغرب . وفى تبادل السلع والأفكار قد يستطيع الغرب أن يسدد شيئاً من دينه الثقافى القديم للشرق .

وعلى ذلك فإن إيفان فى سنة ١٥٥٧ ابتكر ذريعة لمهاجمة ليفونيا ، وأرسل إليها بجيش تحت قيادة شاه على ، الذى كان أخيراً خان التتار على كازان . واجتاح الجيش البلاد بطريقة وحشية ، فأحرق الدور والمحاصيل ، واستعبد الرجال واغتصب النساء حتى الموت . وفى ١٥٥٨ استولى جيش روسى آخر على نارفا التى تبعد عن البلطيق بثمانية أميال . واستنجدت ليفونيا اليائسة ببولندة والدانمارك والسويد وألمانيا ؛ وارتعدت أوربا الوسطى بأسرها فزعا من مشهد الطوفان السلافى الذى وصل إلى الغرب ، كما وصل فى القرن السادس إلى نهر الإلب . واستثار ستيفن باثورى حمية البولنديين وقادهم إلى الانتصار على الروس عند بولتسك (١٥٨٢) . ولما حلت الهزيمة بإيفان سلم ليفونيا إلى بولندة .

وقبل هذه النكسة الحاسمة بزمن طويل ، كان إخفاق حملات إيفان قد أدى إلى الثورة فى الداخل ، حيث كان التجار الذين كان إيفان يسعى إلى إثرائهم بفتح طرق جديدة للتجارة ، قد فقدوا صوابهم بسبب هذه الحرب المدمرة الباهظة التكاليف . وعارض النبلاء هذه الحرب لأنها لا بد أن توحد بين دول البلطيق ، بسلاحها المتفوق ، ضد روسيا التى ما زالت إقطاعية فى تنظيمها السياسى والعسكرى . وفى أثناء الحرب وفيما قبلها كان إيفان قد ارتاب فى مؤامرات النبلاء ضد عرشه . وفى أثناء مرض كاد يقضى عليه

(١٥٥٣) علم أن جماعة قوية من النبلاء كانوا يدبرون أن يبعدوا ، عند موته ، ابنه ديمترى ويتوجوا الأمير فلاديمير الذى كانت أمه تمنح الجيش عطايا كثيرة . وكان أقرب مستشاريه سلفستر وأداشف ضالعين مع النبلاء ، ولمدة سبع سنوات بعد الارتياب فيهما ، أبقى إيفان على هذين الموظفين فى مواقع السلطة ، ثم طردهما فى ١٥٦٠ ، ولكن دون عنف . ومات سلفستر فى أحد الأديار ، وقضى أداشف نحبه فى إحدى الحملات على ليفونيا ، وهاجر عدة نبلاء إلى بولندة وحملوا السلاح ضد روسيا ، وفى ١٥٦٤ لحق الأمير كوربسكى Kurbsky صديق إيفان الحميم والقائد العام ، بهؤلاء الهاربين ، زاعما أن القيصر يدبر قتله ، ومن بولندة أرسل كوربسكى إلى إيفان ما يصل إلى أن يكون إعلاناً للحرب عليه ، متهماً إياه بأنه مجرم مجنون . وتدعى الأساطير أن إيفان عندما قرئ عليه الخطاب دق أحدى قدمى حامله بالمسامير فى الأرض بضربة من العصا الملكية ، ولكن القيصر تنازل فرد على كوربسكى بدفع يقع فى اثنتين وستين صفحة ، وكان رداً بليغاً مشوشاً ، عاطفياً مليئاً بمقتبسات من الكتاب المقدس ، عدد فيه دسائس النبلاء لخلعه . واعتقاداً منه بأنهم كانوا قد دسوا السم لأنستاسيا ، تساءل إيفان : « لماذا فرقتم بينى وبين زوجتى ؟ ألم تأخذوا منى وليدى الصغير ؟ لم يحدث قط أن ذبح أحد من النبلاء . . . لقد فتشت عبثاً عن رجل يستشعر الشفقة بى ، ولكنى لم أجد أحداً[١٠] » . وكتب كوربسكى فى أخريات أيامه تاريخاً قاسياً عدائياً لإيفان ، وهو أهم مرجع لنا فى إرهاب إيفان .

إن هذه المؤامرات ومغادرة البلاد توضح لنا أشهر حادث متميز فى عهد إيفان . وفى ١٢ ديسمبر ١٥٦٤ غادر إيفان موسكو مع أسرته وأيقوناته وكنوزه ، مع قوة صغيرة من الجنود ، وسار إلى مقره الصيفى فى اسكندروفسك . وأرسل إلى موسكو بيانين ، زعم فى الأول أن النبلاء

والبيروقراطية والكنيسة تآمروا ضده وضد الدولة ، وأنه لذلك « مع أشد الأسف » اعتزل الآن العرش ، ليعيش فى عزلة . أما البيان الثانى فقد أكد فيه لأهل موسكو أنه أحبهم وأن لهم أن يثقوا واثقين من نياته الطيبة دوما . والحق أنه تمسك بمحاباة العامة والتجار ضد الأرستقراطية ، وقد شهد بذلك ما قامت به الطبقتان الوسطى والدنيا آنذاك ، فقد انفجرو يرددون صيحات التهديد ضد النبلاء ورجال الدين ، مطالبين بأن يشخص إلى القيصر وفد من الأساقفة والنبلاء ، ليرجوه فى العودة إلى العرش ، وتم ذلك وقبل إيفان « أن يتولى أمر الدولة من جديد » ، بشروط يحددها هو فيما بعد .

وعاد إيفان إلى موسكو فى فبراير ١٥٦٥ ، ودعا الجمعية الوطنية من رجال الدين والنبلاء ، وأعلن أنه سيعدم زعماء المعارضة ويصادر أملاكهم ، وأنه من الآن فصاعدا سيتولى كل السلطة دون استشارة النبلاء أو الجمعية ، وأنه سينفى كل من يخالف أوامره العالية ومراسيمه ، ولما كانت الجمعية تخشى ثورة الجماهير فقد استسلمت وانحلت . وقرر إيفان أن روسيا سوف تنقسم فى المستقبل إلى قسمين : الأول « زمستشينا Zemstchina أو مجموعة المقاطعات ، ويظل تحت حكم النبلاء ومجالسهم « الدوما » ، ويخضع لضريبة إجمالية يفرضها القيصر ، ويكون تابعاً له فى الشئون العسكرية والخارجية ، ويكون فيما عدا ذلك حراً يتمتع بحكم ذاتى . والقسم الثانى « أوبرشــنينا Oprichnina — الممتلكات المستقلة » يحكمه هو أى إيفان ، ويتكون من الأراضى التى يخصصها هو « للطبقة المنفصلة Oprichniki » التى يختارها القيصر للشرطة ولإدارة نصف المملكة هذا ، ولحمايته من الشعب ، ولتقوم بحمايته هو شخصياً ، ولتقدم له الخدمات العسكرية الخاصة به . واختير الموظفون الجدد — وكانوا فى البداية ألفاً وبلغ عددهم فى النهاية ستة آلاف — اختيروا على الأخص من بين صغار أبناء النبلاء ، ولما لم يكن لديهم

أرض ، فقد كانوا على استعداد لتأييد إيفان مقابل الضياع التى منحهم إياها . واقتطع جزء من هذه الأراضى من أملاك التاج ، والجزء الأكبر منها من أملاك النبلاء الثوار التى صودرت . وبنهاية عصر إيفان كانت هذه « الممتلكات المستقلة – أوبرشنينا » تشمل نصف روسيا تقريباً ، وكثيراً من موسكو وأهم طرق التجارة . وكان هذا الانقلاب مماثلا لما حاوله بطرس الأكبر بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً : الارتفاع بطبقة جديدة إلى السلطة السياسية ، والارتقاء بالتجارة والصناعة فى روسيا . وفى مثل هذا القرن الذى كانت فيه القوة العسكرية كلها من الوجهة العملية فى قبضة الأرستقراطية ، تطلب المشروع شجاعة مفرطة فى القيصر الذى لم يتزود إلا بجنده الخصوصيين ، وبالتأييد الهزيل الذى لايعتد به من جانب التجار والجماهير . ويؤكد لنا بعض المعاصرين أن إيفان – فى هذه الفترة الدقيقة – وهو آنذاك فى سن الخامسة والثلاثين ، كان يمثل ابن العشرين(١١) .

واتخذ إيفان آنذاك الاسكندروفسك مقراً دائماً ، وحولها إلى قلعة محصنة . وربما كان التوتر الذى انتابه بسبب ثورته ضد النبلاء بالإضافة إلى الإخفاق فى الحرب الطويلة الأمد مع ليفونيا ، سبباً فى اعتلال عقله الذى لم يكن قط كامل الاتزان . ولقد ألبس حراسه غفارات سوداء ، وهى لباس الكهنة ، وقلنسوات ضيقة ، وأطلق على نفسه لقب رئيس الرهبان . ورتل مع فرقة المرتلين ، وشهد معهم القداس يومياً ، وكم خر ساجداً أمام المذبح فى حماسة حتى تكررت إصابات جبهته بالكدمات . وزاد هذا من الفزع الذى بثه فى روسيا التى بدأت تحس نحوه بمزيج من التبجيل له والإشفاق عليه ، وحتى أفراد « الطبقة المنفصلة » Oprichniki كانت تمثل أمامه فى ذلة وخشوع حتى أطلق عليهم أنهم حاشيته أو بلاطه .

واقترن انقلاب إيفان بالإرهاب ، شأنه فى ذلك شأن أى انقلاب آخر ، وقبض على معارضيه وأعدموا دون شفقة أو رحمة ، وجاء فى عرض

لأحداث هذه السنوات (١٥٦٠ — ١٥٧٠) دونه أحد الرهبان ، ويحتمل أن يكون معاديا ، أن عدد قتلى غضبه بلغ ٣٤٧٠ . ويقول هذا العرض التاريخى أن الضحية كان فى الغالب يعدم « مع زوجته » أو « مع زوجته وأطفاله » ، وفى حالة واحدة « مع عشرة من الرجال جاءوا لمساعدته[١٢] » . وأعدم الأمير فلاديمير مع أمه ، أما أولاده فقد أبقى إيفان على حياتهم ووفر لهم أسباب العيش . ويقال إن القيصر طلب إلى الرهبان أن يصلوا من أجل نفوس ضحاياه . ودافع إيفان عن إعدامهم بأن هذا هو العقاب المعتاد لجريمة الخيانة وخاصة زمن الحرب . وقد سلم أحد ممثلى بولنده بهذه الحجة ، وتضرع إنجليزى شهد شيئاً من هذه المجزرة قائلا : « ندعو الله أن نتمكن من تعليم ثوارنا العنيدين واجـ ـبهم نحو أمبرهم بالطريقة نفسها[١٣] .

وجاءت ذروة هذا الإرهاب فى نفجرد . وكان إيفان قبل ذلك بفترة وجيزة قد منح رئيس الأساقفة مبلغاً كبيراً من المال لإصلاح الكنائس ، وظن أنه كان بذلك محبوباً من رجال الدين هناك على الأقل . ولكنه أبلغ أنه قد وجدت وثيقة ، ليست بالضرورة غير مزيفة ، خلف صورة للعذراء فى أحد أديار نفجرد ، وفيها عهد بالتعاون بين نفجرد وبسكوف مع بولنده لمحاولة خلع القيصر . وفى الثانى من يناير ١٥٧٠ انقضت على المدينة قوة عسكرية قوية يقودها الأوبرشنيكى ، وأعملت النهب والسلب فى الأديرة ، وقبضت على ٥٠٠ من الرهبان والكهنة . وفى ٦ يناير وصل القيصر إلى هناك ، وأمر أن يجلد بالسياط حتى الموت كل من لم يستطع من رجال الدين هؤلاء أن يدفع فدية قدرها ٥٠ روبلا ، كما جرد رئيس الأساقفة من ثوبه وسجن . وجاء فى « سجل أحداث نفجرد الثالث » أنه قد أعقب هذا مذبحة الأهالى التى دامت خمسة أسابيع . وفى بعض الأحيان كان خمسمائة فرد يذبحون فى اليوم الواحد ، وتقول البيانات الرسمية أن عدد القتلى بلغ ٢٧٧٠ ، واحتج إيفان بأنهم ١٥٠٥ فقط . ولما استقر فى الأذهان أن التجار ، وهم متلهفون

على إعادة فتح باب التجارة مع الغرب ، قد شاركوا فى المؤامرة ، فقد أحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة ، ودمرت بيوت التجار فى الضواحى ، وحتى البيوت فى المزارع المجاورة للمدينة لحقها التدمير : وما لم يكن رواة الأحداث فى الأديار قد بالغوا فى وصف المذبحة ، فإنه يجدر بنا أن نعود بالذاكرة إلى عقاب شارل الجرىء لثوار لييج ١٤٦٨ ، وأعمال السلب والنهب فى رومه على يد جنود شارل الخامس ١٥٢٧ لنجد أمثلة شبيهة بانتقام إيفان الوحشى . ولم تستعد نفجرد قط تفوقها القديم فى الحياة التجارية فى روسيا . واتجه إيفان بعد ذلك إلى بسكوف حيث حظر على جنوده السلب والنهب ، ثم عاد أدراجه إلى موسكو حيث احتفل فى حفلة تذكرية ملكية بإفلاته من مؤامرة خطيرة .

إن حكماً مثل هذا ممتلئاً بالفتن والشغب لا يكاد يساعد على التقدم الاقتصادى أو إنجاز الأعمال الثقافية . لقد انتعشت التجارة وقت السلم وانتكست زمن الحرب . وفى الأراضى المخصصة لطبقة الأوبرشنيكى ، وفى سائر الأراضى فيما بعد ، كان الفلاح مربطاً قانوناً بالأرض ، على أساس أنه وسيلة للنهوض بالزراعة المستمرة فيها (١٥٨١) على أن نظام الرق الذى كان نادراً فى روسيا قبل ١٥٠٠ ، صار فى ١٦٠٠ قانوناً من قوانين الأرض . وكانت الضرائب باهظة فاحشة ، واندفع التضخم المالى بشدة ، فكان الروبل فى ١٥٠٠ يساوى ٩٤ ، وفى ١٦٠٠ يساوى ٢٤ من الروبلات فى ١٩١٠[١٤] . وليس بنا من حاجة إلى تتبع الهبوط إلى أبعد من ذلك ، إلا لنعلم ، كدرس من دروس التاريخ ، أن النقود هى آخر شىء يجدر بالإنسان أن يدخره .

وأرغم إسراف الأسر القصير النظر فى الإنجاب وإرهاق التربة ، الناس على هجرة متواصلة لا تهدأ إلى أراض بكر . فلما اجتاز المهاجرون جبال الأورال وجدوا أمامهم مملكة للتتار سكانها من قبائل البشكير المسلمة

Bashkirs وقبائل أوستياك (قبائل من الفنلنديين والماجيار فى غرب سيبيريا) تعرف عاصمتها باسم سيبير Sibir (وهى من ألفاظ القوزاق) . وفى ١٥٨١ جند سيمين ستروجانوف ٦٠٠ من القوزاق وأرسلهم تحت قيادة إرماك تيموفيفتش لغزو هذه القبائل ، وقد تم له ذلك ، وأصبحت سيبيريا الغربية جزءاً من المملكة الروسية المتضخمة . أما إرماك الذى كان من زعماء قطاع الطرق فقد مجدته الكنيسة الأرثوذكسية ، وضمته إلى قائمة القديسين .

وكانت الكنيسة هى الحاكم الحقيقى لروسيا ، لأن خشية الله كانت سائدة فى كل مكان ، على حين كان سلطان إيفان محدوداً . وكانت قواعد الطقوس الدينية ، إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق ، تقيد الجميع ، حتى القيصر نفسه ، وكان الكهنة يراقبون هل غسل يديه بعد مقابلته لسفراء الدول من خارج نطاق الأرثوذكسية . وكانت الصـــلاة وفق الطقوس الرومانية الكاثوليكية غير مرخص بها ، أما البروتستانتية فقد تسامحوا معها على أساس المشاركة فى العداء للبابا فى رومة . وكان إيفان الرابع — مثل هنرى الثامن — يزهو بعلمه فى اللاهوت . وانغمس مرة فى مناقشة عامة فى الكرملين مع كاهن لوثرى من بوهيميا ، ويجب أن نسلم بأنه ، وهو أعنف القياصرة ، أدار المناقشة فى كياســـة أكثر مما بدا فى المنازعات الدينية فى ألمانيا المعاصرة(١٥) . ولكن إيفان لم يتصرف بمثل هذه الكياسة مع رجل لاهوتى آخر ، ذلك أنه ذات يوم أحد فى ســـنة ١٥٦٨ أثناء الصلاة فى كنيسة الصعود ، رفض فيليب مطران موسكو أن يمنح إيفان البركة التى توسل إليه فيها ، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات ولكن دون جدوى ، ولما سأل أتباعه عن سبب لهذا الرفض ، بدأ فيليب يعدد جرائم إيفان وفسوقه ، فصاح القيصر : « هدئ من روعك وامنحنى البركة » فأجاب المطران : « إن سكوتى يوقعك فى الخطيئة ويستوجب هلاكك » . وغادر إيفان المكان دون أن يمنح البركة . وظل فيليب شهراً تعروه الدهشة والعجب والقلق ،

ولكن لم يمس فيه بسوء . وبعده دخل أحد خدم القيصر الكاتدرائية وقبض على المطران وساقه إلى أحد السجون فى تفر . ولا يعلم مصيره علم اليقين ، ولكن الكنيسة الروسية تؤيد القول بأنه أحرق حياً . وفى ١٦٥٢ ضم إلى قائمة القديسين ، وبقيت رفاته حتى ١٩١٧ موضع إجلال وتبجيل فى كنيسة صعود العذراء .

وظلت الكنيسة تنتج معظم الأدب والفن فى روسيا . ودخلت الطباعة فى سنة ١٤٩١ ، ولكن اقتصر المطبوع طوال هذا العهد على كتب الصلوات وكان زعيم العلماء آنذاك هو المطران مكاريوس ، الذى شرع فى ١٥٢٩ ، بمعونة بعض السكرتيرين فى جمع ما تبقى من آداب بلده فى اثنى عشر مجلدا ضخماً ، ومرة أخرى نرى أن معظمها كان دينياً تماماً . وفى الكثير الغالب يتعلق بالأديار ووقائع التاريخ حسب ترتيب حدوثها . والف سلفستر معلم الاعتراف لإيفان كتاباً مشهورا هو « كتاب الأسرة » ، بمثابة دليل للاقتصاد المنزلى والسلوك ، والخلاص الأبدى ، وإنا لنلحظ فيه حث الزوج على أن يضرب زوجته برفق ، وتعليمات دقيقة لآداب البصق والمخاط(١٦) . ولم يكن إيفان نفسه ، كما تدل رســائله ، أقل كتاب هذا العصر براعة وقوة .

وكان أروع إنتاج فنى روسى فى عهد إيفان هو كنيسة « بازل المبارك » التى لا تزال قائمة بعيدا عن الكرملين فى أحد أطراف الميدان الأحمر . ولدى عودة القيصر من حملاته الظافرة ضد كازان وأستراخان (١٥٥٤) شرع فى بناء ما أسماه كاتدرائية « شفاعة العذراء » وهى التى نسب إليها انتصاراته بحكمة . وحول هذا المقام المتوسط من الحجر ، شيدت فيما بعد سبعة معابد من الخشب خصصت لقديسين كان إيفان قد تغلب على أعدائه فى أيام أعيادهم . وتوج كل معبد منها بقبة رشيقة مزدانة بالرسوم ، وكانت القباب كلها بصلية الشكل ، وإن اختلفت زخرفة كل منها . وأضفى آخرها وهو

الذى أقيم للقديس بازل فى ١٥٨٨ : أضفى اسمه فى وقت لاحق ، على هذه المجموعة الرشيقة الفاتنة . وتنسب أسطورة لا يمكن التغاضى عنها هذه العمارة إلى أحد الإيطاليين . وتروى كيف أن إيفان فقأ عينيه لئلا ينافس هذه التحفة الفنية الرائعة . ولكن اثنين من الروس : بارما وبوستنيكوف هما اللذان وضعا التصميم ، ولكنهما اقتبسا بعض حركات عصر النهضة فى زخرفتها فحسب(١٧) . ويوم أحد السعف من كل سنة ، كجزء من حكمة الدولة ، سار سادة موسكو ورجال الدين فيها فى موكب رهيب إلى هذه الكاتدرائية ، على حين امتطى المطران صهوة جواد مزود بآذان صناعية ، ليقلد الحمار الذى قيل إن السيد المسيح كان يركبه عند دخوله أورشليم ، وسار القيصر على قدميه يقود حصان المطران فى تواضع وخشوع ممسكاً بلجامه ، وكانت تحف بالموكب الأعلام والصلبان والأيقونات وحملة المباخر ، على حين ردد الأطفال عبارات الشكر والثناء تضرعا إلى السماء لتبارك الحياة فى روسيا .

وما أن وافى عام ١٥٨٠ حتى بدا أن إيفان قد انتصر على كل أعدائه . وكان قد بقى على قيد الحياة بعد وفاة عدد من الزوجات ، وبنى بزوجة سادسة . وفكر فى اتخاذ زوجة أخرى عن طريق المضارة الودية(١٨) (الزواج باثنتين فى وقت واحد) . وكان له أربعة أولاد ، مات أولهم فى طفولته ، وكان الثالث فيودور يعانى من تخلف عقلى . أما الرابع ديمترى ، فزعموا أنه كان بنوبات صرع . وفى أحد أيام شهر نوفمبر ١٥٨٠ أنب القيصر زوجة ابنه الثانى « إيفان » وضربها ، لما بدا له من أنها ترتدى ثوبا ينافى الحشمة والوقار ، فأجهضت ، فما كان من ابن القيصر إلا أن وجه اللوم إلى أبيه . فضرب القيصر ابنه فى سورة الغضب دون ترو بالعصا الملكية على رأسه فمات الابن لتوه من أثر الضربة . فجن جنون القيصر ندما على فعلته ، وقضى أيامه ولياليه يصرخ صراخاً عالياً من الحزن والأسى . وكان يقدم

تنحيه عن العرش صباح كل يوم ، ولكن حتى أعضاء المجلس أنفسهم أصبحوا الآن يؤثرونه على أبنائه ؛ وعاش إيفان ثلاث سنين بعد ذلك ، ثم أصابه مرض غريب ، جعل جسمه يتورم وتنبعث منه رائحة منتنة . وفى ١٨ مارس ١٥٨٤ قضى نحبه وهو يلعب الشطرنج مع بوريس جودونوف ، وتناثرت الإشاعات تتهم بوريس بأنه دس له السم ، وأعد المسرح لأوبرا عظيمة فى تاريخ القياصرة .

ويجدر بنا ألا نظن أن إيفان الرابع كان مجرد غول متوحش . ونظراً لطول قامته وقوته كان يمكن أن يكون وسيما ، لولا أنفه العريض المسطح الذى كان يعلو شارباً منتشراً ولحية كثة حمراء . لقد ترجمت خطأ لفظة Groznyi بلفظة الرهيب Terrible والأرجح أنهـا تعنى « المرعب » Awesome ، مثل لفظة أغسطس التى أطلقت على القياصرة (الرومان) ؛ وقد أطلق على إيفان الثالث نفس اللقب كذلك . وفى نظرنا ، وحتى فى نظر معاصريه القساة ، كان إيفان الرابع قاسياً تواقاً إلى الانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز ، وقاضياً لا يستشعر الرحمة ؛ لقد عاصر محاكم التفتيش فى أسبانيا ، وإحراق سرفيتس(*) ، وعادة هنرى الثامن فى ضرب العنق ، واضطهاد الملكة مارى ، ومذبحة سانت برثلميو . ويقال إنه عندما سمع بهذه المذبحة أنكر همجية الغر [١٩] (ولو أن أحد البابوات رحب بالمذبحة وامتدحها) . لقد كان ثمة أشياء تثير غيظه وحنقه ، وتذكى النار فى مزاج سريع الانفعال أكسبته الوراثة والبيئة عنفاً ؛ ويقول شاهد عيان إنه كان فى بعض الأحيان « يرغى من فمه — كما يفعل الحصان »[٢٠] لنتيجة مضايقة صغيرة أو الزعاج يسـير ؛ ولقد اعترف القيصر بخطاياه وجرائمه بل بالغ فيها أحياناً ولم يكن على أعدائه إلا أن ينتحـلوا منها اتهاماتهم له .

(*) Servetus ١٥١١ ، ١٥٥٣ طبيب وعالم لاهوت أسبانى أحرق وهو مشدود إلى خازوق فى جنيف لاتهامه بالزندقة .

وأكب على الدرس والتحصيل فى حماسة ، وجعل من نفسه أحسن متعلم من غير رجال الدين فى بلده وفى زمانه . وكان يتميز بروح المرح والدعابة ، ويضحك ضحكات عالية بملء شدقيه ، ولكن غالباً ما كانت ابتسامته تنم على الدهاء المخيف . غطى شروره بالنيات والمقاصد الرائعة ، فكان يريد أن يحمى الفقير والضعيف من الغنى والقوى ، ويحابى التجار والطبقات الوسطى كبحاً لجماح الأرستقراطية الإقطاعية المشاكسة ، كما كان يرغب فى فتح باب للتجارة والأفكار على الغرب ، ويزود روسيا بطبقة جديدة من الإداريين الذين لا يتقيدون — كما تقيد أعضاء المجلس من أبناء الطبقة العليا — بالأساليب العتيقة الجامدة ، ويحرر روسيا من ربقة التتار ، وينتشلها من وهدة الفوضى إلى الوحدة . وكان القيصر همجياً يناضل نضالا وحشياً ليرقى سلم الحضارة .

وأخفق إيفان لأنه لم ينضج قط إلى حد السيطرة على النفس . وكادت أن تنسى فى غمرة الانقلاب تلك الإصلاحات التى كان قد خططها . وترك الفلاحين خاضعين لملاك الأرض خضوعاً أشد وأنكى من ذى قبل . وأوصد بالحروب أبواب التجارة ، وساق الرجال القادرين إلى أسلحة العدو ، وشطر روسيا إلى قسمين متناحرين ، وسار بها إلى الفوضى . وضرب لشعبه مثلا مفسداً للقسوة المتسمة بالورع وللأهواء الجامحة . وقتل أحسن أبنائه مقدرة وكفاية . وأسلم عرشه إلى شخصية ضعيفة أدى عجزها إلى الحرب الأهلية . لقد كان إيفان واحداً من كثيرين من رجال عصره ، الذين يمكن أن يقال عنهم إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط .

الفصل الثلاثون

عبقرية الإسلام

١٢٥٨ - ١٥٢٠

صمد العالم الإسلامى من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، مثل تلك الحملات الدينية العنيفة التى أخضع بها فيما بعد البلقان ، وحول ألفاً من الكنائس إلى مساجد . ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات ، نقول دفعت بملوك أوربا وفرسانها ورعاعها ضد قلاع المسلمين فى آسيا الصغرى وســوريا وفلسطين ومصر وتونس . وعلى الرغم من إخفاق هذه الهجمات آخر الأمر ، فإنها أضعفت نظام هذه الدول الإسلامية ومواردها إضعافاً خطيراً . وكان الصليبيون قد نجحوا فى أسبانيا حيث هزم المسلمون وأخرجوا ، ولكن بقاياهم تجمعوا فى غرناطة التى تأخر قدرها المحتوم بعض الوقت ، وكان النورمانديون الأشداء قد أخذوا صقلية من المسلمين . ولكن أين هذه الجراح والتمزيق من انقضاض المغول الوحشى المدمر (١٢١٩ - ١٢٥٨) على بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ؟ وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية ، المدينة تلو الأخرى ، للسلب والنهب والمذابح والحريق - بخارى ، سمرقند ، بلخ ، ليسابور ، الرى ، هراة ، بغداد . وأسقطت الحكومات الإقليمية والمحلية ، وأهملت القنوات وتركت للرمال التى تذروها الرياح ، وأكرهت التجارة على الفرار ، ودمرت المدارس والمكتبات ، وتشتت الدارسون ورجال العلم أو ذبحوا أو استعبدوا . وتحطمت روح الإســلام لنحو قرن من الزمان

ثم انبعثت من جديد فى بطء ، ثم اكتسح تتار بتمورلنك غربى آسيا بدمار جديد ، وشق الأتراك العثمانيون طريقهم عبر آسيا الصغرى إلى البسفور ، ولم تعرف حضارة أخرى فى التاريخ مثل هــذه الكوارث عدداً وانتشاراً وشمولا .

على أن المغول والتتار والأتراك أتوا بدمهم الجديد ليحل محل أنهار الدماء البشرية التى كانوا قد سفكوها . وكان الإسلام صار مترفاً فاتر الهمة ، وكانت بغداد — مثل القسطنطينية — فقد فقدت إرادتها فى امتشاق الحسام للدفاع عن النفس ، وأغرم الناس هناك بالحياة اللينة الهينة الرخية إلى حد الإشراف على الموت ؛ إن تلك الحضارة الرائعة — مثل الحضارة البيزنطية ، أينعت لتذوى وتذبل . ولكنها كانت غنية — مثل اليونان القديمة وإيطاليا النهضة — إلى حد القدرة على تمدين غزاتها ، بفضل ما أنقذ من شتاتها وذكرياتها ، وأنشأت فارس تحت حكم خانات المغول حكومة مستنيرة وأنتجت أدباً جيداً وفناً عظيماً ؛ وشرفت التاريخ بعالم جليل هو رشيد الدين . وفيما وراء النهر ، بنى تيمورلنك وعمر ، بشكل مؤثر ، قدر ما كان قد خرب ودمر . ووسط حملات السلب والنهب التى كان يشنها ، توقف ليكرم حافظ الشيرازى ؛ وفى الأناضول كان الأتراك فعلا متحضرين . وكان الشعراء بينهم من الكثرة قدر كثرة الخليات أو الخليلات . وفى مصر استمر المماليك فى إقامة الأبنية بناء العمالقة الجبابرة . وفى غربى إفريقية أنجب الإسلام فيلسوفاً مؤرخاً ، كان يبدو إلى جانبه أعظم علماء المسيحية المعاصرة بمثابة حشرات صغيرة تقع فى الشرك وتموت جوعاً وسط عناكب الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى . وفى نفس الوقت كان الإسلام ينتشر فى الهند إلى أقصى الشرق .

١ ــ الأيلخانات فى فارس

١٢٦٥ — ١٣٣٧

عندما سار ماركوبولو فى ١٢٧١ عبر فارس ليرى الصين على عهد قبلاى خان ، وجد نفسه وسط إمبراطورية المغول . ولم يكن التاريخ قد سجل من قبل قط مملكة مترامية الأطراف مثلها . ففى الغرب لامست شواطئ نهر الدنيبر فى روسيا ، وفى الجنوب شملت القرم والعراق وفارس والتبت والهند حتى ضفاف نهر الكنج . وفى الشرق طوقت الهند الصينية والصين وكوريا ، وفى الشمال كان يقع موطنهم الأصلى منغوليا . وفى كل هذه البلاد تعهد حكام المغول الطرق ، ونهضوا بالتجارة ، وقاموا على حماية السائحين والمسافرين ، وأطلقوا حرية العبادة لمختلف العقائد .

لقد أسس هولاكو حفيد جنكيزخان ، بعد تدمير بغداد ١٢٥٨ ، عاصمة جديدة اسمها المراغة شمال غربى فارس . ولمــا مات ١٢٦٥ أصبح ابنه « أباقا » خان أو أمير فارس ، وخضع خضوعاً غير ثابت لقبلاى خان ، على بعد الشقة بينهما . ومن هنا بدأت أسرة الأيلخانية التى حكمت فارس والعراق حتى ١٣٣٧ . وكان أعظم أفراد هذه الأسرة هو غازان خان ، الذى كاد أن يكون أقصر رجال جيشه قامة ، ولكن إرادته كانت أقوى من أسلحتهم . وطرح غازان ولاءه للخان الأكبر فى منغوليا أو الصين وجعل من دولته مملكة مستقلة ، واتخذ من تبريز عاصمة لها ، وقدم إليها الرسل من الصين والهند ومصر وإنجلترا وأسبانيا : وقد أصلح الإدارة ، وثبت العملة ، وحمى الفلاحين من ملاك الأرض ومن اللصوص ، وساد الرخاء بدرجة تذكر ببغداد فى أزهى أيامها : وشيد فى تبريز مسجداً ومدرستين وأكاديمية للفلسفة ومرصداً ومكتبة ومستشفى . ووقف دخول أراض معينة ، وقفاً دائماً للإنفاق على هذه المنشآت ، ووفر لها أعظم العلماء والأطباء ورجال

العلم فى ذلك العصر . وكان هو نفسه واسع الثقافة . وكان يعرف عدة لغات ، واضح أن من بينها اللاتينية(١) . وشيد لنفسه مقبرة بلغت من الفخامة والضخامة مبلغاً ظن معه أن موته (١٣٠٤) كان بمثابة دخوله ظافراً منتصرا إلى مقر أشرف وأعظم .

ووصف ماركو بولو تبريز بأنها « مدينة عظيمة متألقة » . وقال عنها فرا أودريك Fra Oderic (١٣٢٠) « إنها أجمل مدينة فى العالم للتجارة ، فهنا توجد أية سلعة بكميات وفيرة . . . » ويقول المسيحيون هنا « إن الدخل الذى كانت تدفعه المدينة لحاكمها يفوق ما تدفعه فرنسا كلها لمليكها »(٢) هذا بالإضافة إلى « المبانى الأنيقة والمساجد الفخمة » ، « وأروع الحمامات فى العالم »(٣) . وقدر أودريك أن عدد سكانها يبلغ مليوناً من الأنفس .

وتابع أولجايتو السياسة المستنيرة التى انتهجها أخوه غازان . وشهد عصره بعضاً من أروع العمارة والزخرفة فى تاريخ فارس ، وإن سيرة قاضى قضاته رشيد الدين فضل الله لتوضح ازدهار التعليم والثقافة والآداب فى هذا العصر . وولد رشيد الدين سنة ١٢٤٧ فى همذان ، وربما كان أبواه من اليهود ، كما قال أعداؤه ، مستشهدين بسعة اطلاعه وعلمه بالشريعة الموسوية . ولقد خدم رشيد الدين الخان أباقا كطبيب له ، وغازان بوصفه كبيرا للوزراء ، وأولجايتو بوصفه صاحب بيت المال . وشيد فى إحدى الضواحى شرق تبريز حياً جديداً أسماه « ربع الرشيد » ، وهو مركز جامعى فسيح . وفى رسالة له محفوظة فى مكتبة جامعة كمبردج يصف هذا المركز فيقول :

« لقد شيدنا نزلا شاهقاً يناطح السحاب ، و١٥٠٠ حانوت تفوق الأهرام فى رسوخها ، و ٣٠,٠٠٠ منزل فاتن » كما

شيدت فيها الحمامات الصحية والحدائق الغناء والمخازن والمطاحن ومصانع النسيج والورق . ونزح الناس من كل حدب وصوب إلى هذا الربع ، وكان من بينهم مائتان من قراء القرآن . وزودنا بالمساكن ٤٠٠ آخرين من العلماء ورجال اللاهوت ورجال القانون وعلماء الحديث ، فى شارع سمى « شارع العلماء » . وأجرينا على هؤلاء جميعاً رواتب يومية وأرزاقاً ومخصصات سنوية للملابس ، ومبالغ من المال لشراء الصابون والحلوى . وأتينا كذلك بألف طالب ؛ وأصدرنا الأوامر بصرف الأرزاق والمخصصات اليومية لهم ، حتى يتفرغوا فى راحة وأمان ، لطلب العلم ونفع الناس به . كما حددنا كذلك ، من من الطلبة ، وكم منهم يدرسون مع كل أستاذ أو معلم . وبعد التحقق من صلاحية كل طالب وقدرته على فرع الدراسة الذى يريد التخصص فيه ، أمرناه بأن يتعلمه .

وأولينا عنايتنا ورعايتنا بصفة خصة وبطرق شتى ، لخمسين طبيباً ماهرا جاءوا من الهند والصين ومصر وسوريا . فأمرنا بأن يترددوا على دار الشفاء كل يوم ، وأن يتعهد كل منهم عشرة طلاب صالحين لدراسة الطب ، ويدربهم على ممارسة هـــذا الفن الجليل . كما أمرنا بأن يعهد إلى أطباء النظارات والجراحين وأطباء العظام الذين يعملون بدار الشفاء ، بخمسة من أبناء موظفينا وحاشيتنا ليتعلموا طب العيون والجراحة وطب العظام ؛ ولكل هؤلاء الرجال شيدنا حيا خلف دار الشفاء . . . سمى « شارع الأطباء » . كذلك استقرت كل جماعة من أرباب الحرف ورجال الصناعة الذين أتينا بهم من مختلف البلاد ، فى شارع سمى باسمها »[١] .

وخليق بنا أن يتولانا أشد العجب والدهشة لرجل وجد، مع إسهامه النشيط إدارة شئون المملكة، من الوقت والمعرفة ما استطاع معه تدوين خمسة كتب فى اللاهوت، وأربعة فى الطب وفى نظم الحكومة، وكتاباً من عدة مجلدات فى تاريخ العالم. وفوق ذلك يؤكد لنا أحد المسلمين المعجبين أن رشيد الدين استطاع أن يخصص لتأليفه فترة ما بين صلاة الفجر وشروق الشمس. ومهما يكن من أمر فإن هناك أياماً تتلبد فيها السماء بالغيوم حتى فى أذربيجان. وقضى رشيد الدين سبع سنين فى كتاب «جامع التواريخ» ولشره فى مجلدين ضخمين، ويقتضى نشره بالإنجليزية سبع مجلدات: وضمنه بيانات جوهرية عن المغول من جنكيزخان إلى غازان، وعن مختلف الدول والأسرات الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى وغربيه، وعن فارس واليهود قبل بعثة الرسول وبعدها، وعن الصين والهند، مع دراسة مستفيضة لبوذا والبوذية، مع موجز مبسط لأعمال وأفكار ملوك أوربا وباباواتها وفلاسفتها. ويشهد كل الذين قرأوا هذه المجلدات — ولو أنها لم تترجم بعد إلى أية لغة أوربية — بأنها أقيم عمل فى النثر الأدبى فى فارس. ولم يستفد رشيد الدين من محفوظات حكومته فحسب، ولكنه استخدم كذلك علماء من الصين ليؤمنوا له المعاهدات الصينية وغيرها من الوثائق، ويبدو أنه قرأها مع غيرها من المراجع العربية والعبرية والتركية والمغولية، كل فى لغته الأصلية(٥).

ورغبة فى نقل هذه المجموعة الوافية من التواريخ إلى الأعقاب رغم الزمن والحرب، أرسل رشيد الدين نسخاً من هذا الكتاب إلى المكتبات هنا وهناك، وترجم إلى العربية ووزع ٥ وخصص أموالا لكتابة نسخة بالعربية وأخرى بالفارسية فى كل عام، لإهدائها إلى إحدى المدن فى العالم الإسلامى. على أن كثيراً من هذا الكتاب مع مؤلفاته الأخرى قد ضاع، وربما يرجع هذا إلى الكارثة السياسية التى حلت به. ذلك أنه فى سنة ١٣١٢ أشرك الأمير أوبجايتو على شاه مع رشيد الدين فى الإشراف على بيت المال، وفى زمن «أبى سعيد»

الذى خلف أولجايتو ، نشر على شاه مختلف الاتهامات ضد زميله رشيد الدين ، وأغرى الخان بأن رشيد الدين وابنه إبراهيم كانا قد دسا السم لأولجايتو . فعزل المؤرخ (رشيد الدين) وسرعان ما أعدم (١٣١٨) وهو فى سن السبعين ، مع أحد أبنائه ، وصودرت ممتلكاته ، وحرمت مؤسساته من العطايا والمنح ، ونهبت ضاحية « ربع رشيد » ودمرت .

وقام أبو سعيد بترضية متأخرة ، ذلك أنه عين ابنا آخر من أبناء المؤرخ وزيراً له ، ونهج غياث الدين سبيل الحكمة والعدالة فى إدارة دفة الحكومة . وأعقب موت أبى سعيد فترة من الفوضى ، ووضعت نهاية لحكم أسرة الأيلخانيـــة ، وانقسمت مملكتهم إلى ولايات صغيرة دمرتها الحرب ، وخلصها الشعر .

٢ ـ حافظ الشيرازى

١٣٢٠ — ١٣٨٩

ما كان أكثر من ينظم القصيد فى فارس . وكان الملوك يكرمون الشعراء الذين لم يتقدم عليهم فى الحظوة بهذا التكريم والتبجيل إلا الحظايا والحظاظون والقواد . وفى زمن حافظ طبقت الآفاق شهرة عشرين من الشعراء ، وذاع صيتهم من البحر المتوسط إلى نهر الكنج ، ومن اليمن إلى سمرقند ، ولكنهم جميعاً ، على أية حال ، أحنوا رءوسهم إجلالا لشمس الدين محمد — المشهور باسم حافظ الشيرازى — وأكدوا له أنه بز « الشيخ سعدى » الشاعر الرخيم نفسه . وارتضى حافظ هذا التقدير ، وأخذ يحدث نفسه فى احترام قائلا :

« قسما بالقرآن الذى تعيه فى صـــدرك يا حافظ ، لم أر قط أجمل من شعرك »(٦) .

« وحافظ » لفظة معناها « المذكور » الذى يحفظ ويتذكر ، وهو لقب

أطلق على كل من حفظ القرآن كله — مثل شاعرنا — ولم يعرف تاريخ ميلاده ، وأبواه غير معروفين. وسرعان ما أقبل على الشعر : وكان أول من رعى الشاعر واحتضنه هو « أبو إسحق » الذى عينه غازان خان حاكماً على جنوب إيران . وأولع أبو إسحق بالشعر أيما ولع ، وأهمل شئون الحكومة . ولما جاءه النذير بأن بعض القوات المعادية تعد العدة لمهاجمةعاصمته « شيراز » ، قال إنه لسفيه ذلك الرجل الذى يضيع مثل هذا الربيع الجميل فى الحرب . ولكن قائداً متبلد الشعور هو « مبارز الدين محمد بن المظفر » استولى على شيراز وقتل أبا إسحق (١٣٥٢) ، وحرم شرب الخمر وأغلق كل حانة فى المدينة . وفى هذا كتب حافظ مرثية حزينة قال فيها :

« ولو أن الخمر تبعث السرور ، والريح تنشر أريج الورود ،
لا تشربوا الخمر على أنغام القيثارة لأن المحتسب يقظ .
وخبئوا الطاس فى أكمام عباءاتكم المرقعة ،
لأن الزمن يسفك الدماء، كما ينسكب الخمر من عين الإبريق الدامعة ،
واغسلوا بدموعكم ما تلطخ بالخمر من أرديتكم
لأن هذا موسم الورع وزمن التقشف والتعفف »[٧] .

ولما وجد خليفة ابن المظفر أن تحريم الخمر أمر غير عملى ، أو تبين أن شاربى الخمر أسلس قياداً وأيسر حكماً من المتطهرين المتزمتين ، أعاد فتح أبواب الحانات ، وخلد حافظ اسمه .

وسار شاعرنا على تقاليد الفرس فى نظم كثير من القصائد فى الخمر ، واعتبر فى بعض الأحيان أن زجاجة من الخمر « تسمو على تقبيل العذارى »[٨] . ولكن حتى الكروم تجف وتذوى بعد ألف مقطع من الشعر ، وسرعان ما تبين حافظ أن الحب ، عذرياً كان أو عملياً ، لا يستغنى عنه الشعر .

« هل تعرف ما هو الحظ السعيد ؟ إنه الظفر بنظرة إلى غادة هيفاء ، إنه التماس صدقة منها فى زقاقها ، وازدراء أبهة الملك »[٩].

وبدا له الآن أن الحرية ليست حلوة مثل حلاوة العبودية فى الحب .

« إن عمرنا قصير ، ولكن طالما أننا قد نفوز
بالمجد وهو الحب ، فلا تحتقر
الإصغاء إلى توسلات القلب ،
فإن سر الحياة سوف يبقى فيما وراء العقل .
فاهجر عملك إذن وقبل حبيبتك الآن .
إنى لأمنح العالم كله هذه النصيحة الغالية ،
عندما تتفتح أزهار الربيع ، وتهجر الريح الطاحون
وتنزلق برفق لتقبل الغصن المورق .
أى حسناء شيراز ، امنحينى أمنية الحب ،
ومن أجل شامتك — تلك الحبة من الرمل العالقة
بصفحة خد من اللؤلؤ — سوف يمنحك حافظ
كل بخارى ، وكل سمرقند .
آه لو دخلت مع القدر فى رهان مرة ،
لحاولت برمية واحدة ، مهما كان الثمن ،
لألتقط أنفاسى ، أيها الحب اجمع بيننا ،
فما حاجتى بعد ذلك إلى الجنة .
إن الذى خلق غدائر شعرك من ذهب وفضة ،
وجمع بين الوردة الحمراء والوردة البيضاء
وأسلم إليهما خدك فى شهر العسل
أليس بقادر على أن يمنحنى الصبر ، وأنا ابنه[١٠] » .

ويبدو أنه آخر الأمر ، قد هدأت نفسه بالزواج ، فلو فسرنا قصائده الرقيقة تفسيراً صحيحاً ، فإنه وجد زوجة وأنجب عدة أطفال ، قبل أن يحزم أمره بين النساء والخمر . ويبدو أنه فى بعض أشعاره يرثيها ويتألم لفراقها :

« سيدتى ، يا من حولت بيتى
إلى فردوس حين حللت به ،
من أخمص القدم إلى قمة الرأس كان ثمة ملاك
من عند الله أحاطها بعنايته ، كانت طاهرة ، مبرأة من الإثم ،
جميلة المحيا مثل القمر ، عاقلة ،
وعيناها ذواتى النظرة العطوفة الناعمة
كانتا تشعان فتنة لا حدود لها
ثم حدثنى قلبى : هنا سوف يستقر بى المقام !
فإن هذه المدينة تتنفس بحبها فى كل ركن منها .
ولكنها نقلت إلى عالم بعيد قصى ،
للأسف لم يعرفه قلبى ، وا أسفاه أيها القلب المسكين !
إن نجماً خبيثاً شريراً أعمل أثره
فأرخى قبضة يدى التى كانت تمسك بها ، ووحدها بعيداً
رحلت من كانت تسكن فى صدرى »[11] .

ومهما يكن من أمر فقد ألف المقام ، وركن إلى العزلة الهادئة ، وقلما ارتحل إلى خارج شيراز ، وقال إنه يترك لقصائده أن تجوب الأرض بدلا من شخصه ، وكم دعى إلى بلاط كثير من الملوك والأمراء . وأقنع للحظة وجيزة بقبول دعوة من السلطان أحمد بالإقامة فى القصر الملكى فى بغداد[12] ،

ولكن حبه لشيراز أبقاه حبيساً بها ، وكان يشك فى أن بالجنة نفسها مثل هذه الأنهار الفاتنة أو مثل هذه الورود الحمراء فى شيراز . وكان بين الحين والحين يوجه قصائد المديح إلى أمراء الفرس فى عصره أملا فى عطايا أو جوائز تخفف من ألم الفقر الذى كان يعانى منه ، لأنه لم يكن فى فارس ناشرون لينقلوا نفثات اليراع عبر البحار ، وكان على الفنان (أى الشاعر) أن ينتظر على أبواب النبلاء والملوك . والحق أن شاعرنا « حافظ » كاد أن يرحل يوماً إلى الخارج ، ذلك أن أحد أمراء الهند لم يبعث إليه بالدعوة فحسب ، بل زوده كذلك بالمال اللازم لنفقات الرحلة ، فأقلع حافظ ووصل إلى هرمز على الخليج الفارسى ، وكان على وشك الركوب فى السفينة فهبت عاصفة هوجاء حولته عن عزمه ، وحببت إليه الاستقرار . فعاد أدراجه إلى شيراز ، وبعث إلى الأمير الهندى بقصيدة بدلا من شخصه .

ويضم ديوان حافظ ٦٩٣ قصيدة معظمها غنائية ، وبعضها رباعيات ، وبعضها الآخر شذرات غير واضحة المعنى . وهى أصعب فى ترجمتها من أشعار دانتى ، زاخرة بقواف كثيرة مما يجعل منها فى الإنجليزية شعراً غير مصقول محطم الوزن ، كما تعج بالإشارات والتلميحات المبهمة التى كانت تبهج عقول الناس فى ذاك الزمان ، ولكنها الآن ثقيلة على السمع فى الغناء ، والأفضل أن توضع نثراً فى الغالب :

« كاد الليل أن ينصرم ، حين جذبنى أريج الورود ، فدلفت إلى الحديقة ، مثل العندليب ، أفتش عن بلسم للحمى التى انتابتنى .
وهناك فى الظل تألقت وردة ، وردة حمراء كأنها مصباح محجب ،
فحدقت النظر فى محياها ،
إن الوردة فاتنة لمجرد أن وجه محبوبتى فاتن . . . وماذا يكون عبير المروج ، والنسيم الذى يهب فى الحديقة ، إذا لم يكونا

لخد محبوبتى الذى يشبه الخزامى (التيوليب) ؟
وفى ظلمة الليل حاولت أن أطلق قلبى من رباط غدائر شعرك
ولكنى أحسست بلمسات خدك ورشفت رحيق شفتيك ، وضممتك
إلى صدرى . ولفنى شعرك وكأنه لهب . وألصقت شفتى
بشفتيك ، وأسلمت قلبى ونفسى لك كأنهما فدية(١٣) .

وكان حافظ إحدى النفوس الموهوبة الصادية المنهوكة ، التى تستجيب وتتأثر — عن طريق الفن والشعر والمحاكاة والرغبة شبه اللاواعية ، تستجيب وتتأثر بالجمال إلى حد الرغبة فى عبادته ، فترغب بالعينين وبالألفاظ وبأطراف الأنامل ، أن تعبد أى شكل جميل ، سواء كان نحتاً على حجر أو رسماً أو آدمياً أو زهرة ، وتعانى فى صمت مكبوت كلما ألم بها الجمال . ولكن هذه النفوس أيضاً تجد فيما تفاجأ به كل يوم من فتنة أو سمو أو جمال جديد ، بعض المغفرة لقصر عمر الجمال ولسلطان الموت . ولذلك خلط حافظ التجديف بالعبادة ، وانساق فى هرطقة غاضبة حتى فى الوقت الذى كان فيه يثنى على « الواحد الأحد الخالد » وهو المصدر الذى يفيض منه كل جمال على الأرض .

والتمس كثير من الناس أن يضفوا عليه احتراماً ووقاراً ، بتفسير خمره بأنها نشوة روحية ، وحاناته بأنها أديار ، ولهبه بأنها « النار المقدسة » . صحيح أنه أصبح متصوفاً وشيخاً ، وارتدى ملابس الدراويش ، ونظم قصائد صوفية غامضة ، ولكن معبوداته الحقيقية كانت الخمر والنساء والغناء ، وبدأت حركة لمحاكمته بوصفه زنديقاً كافراً ، ولكن أفلت منها بالتوسل بأن قصائد الهرطقة كان يقصد بها أن يعبر عن آراء أحد المسيحيين ، لا عن آرائه هو . ومع ذلك كتب يقول :

« أيها المتغطرس ، لا تظن أنك بمنجاة من خطيئة الكبرياء ؛
فليس الفرق بين المسجد وكنيسة الكفار سوى الغرور(١٤) » .

والكافر هنا بطبيعة الحال هو المسيحى ؛ وبدا فى بعض الأحيان لحافظ أن « الإله » ما هو إلا شيء اختلقته آمال الإنسان :

« وهذا الذى يسوقنا فى هذه الأيام التى تمر كوميض البرق ،
هذا الذى نعبده رغم معرفتنا بمن يفنيه أو يذبحه ،
أنه هو نفسه قد يتولاه الحزن والأسى ، لأننا حين نفنى
سيختفى هو أيضاً فى هذا اللهيب نفسه »(١٥) .

ولما مات حافظ كانت عقيدته مشكوكاً فيها ، وكان مذهب المتعة عنده لاصقاً به إلى حد الاعتراض على تشييع جنازته فى احتفال دينى ، ولكن أصدقاءه أنقذوا الموقف بتفسير أشعاره بالمجاز والاستعارة . وجاء بعد ذلك جيل دفن رفاته فى حديقة أطلقوا عليها « الحافظية » تزدان بورود شيراز ، وتحققت نبوءة الشاعر بأن قبره سيكون « مزاراً يحج إليه عشاق الحرية من جميع أنحاء العالم » ؛ وعلى لوح مقبرة حافظ المصنوع من المرمر نقشت إحدى قصائده ، وهى عامرة بالروح الدينية العميقة أخيراً . وفيها :

« أين أنباء الوحـــدة ؟ حتى أنهض
من التراب ، سوف أصحو لأرحب بك !
إن نفسى مثل الطائر الزاجل ، حنيناً منها إلى الجنة ،
سوف تصحو وتتوجع من شرور العالم التى أطلقت من عقالها .
وعند ما يهتف بى صوت حبك لأكون عبداً لك
سوف أصحو إلى ما هو أعظم كثيراً من السيادة
على الحياة والعيش ، والزمن والعمر الفانى .
صب يا إلهى من سحب نعمتك الهادية
شآبيب الرحمة التى تسرع إلى قبرى ،

قبل أن أنهض ، مثل التراب الذى تذروه الرياح من مكان إلى مكان ،
إلى ما وراء علم الإنسان .

وعند ما تعرج بقدميك المباركتين إلى قبرى ،
سوف تحضر بيدك الخمر والإغراء إلىّ ،
ولسوف يرن صوتك فى طيات ملاءتى الملفوفة ،
ولسوف أنهض وأرقص على غناء قيثارتك .
ورغم شيخوختى ، ضمنى ليلة إلى صدرك ،
لأنى ، عند ما ينبثق الفجر ليوقظنى ،
بنضارة الشباب فى خدى ، من بين أحضانك سوف أنهض .
انهض ! دع عينى تسرح وتمرح فى نعمتك العظيمة !
أنت الهدف الذى حاول كل الناس الوصول إليه ،
أنت المحبوب الذى يعبده حافظ ، ووجهك
سوف يأمره أن ينبعث من الدنيا ومن الحياة ويصحو(١٦)

٣ — تيمــــور

١٣٣٦ — ١٤٠٥

عرفنا أول ما عرفنا عن التتار أنهم قوم رحل من آسيا الوسطى ، وأنهم أنسباء وأقرباء ، وجيران للمغول ، وشاركوهم فى الحملات على أوربا . ووصف كاتب صينى من القرن الثالث عشر تحدرهم ، وصفاً كثير الشبه بما صور به المؤرخ جوردانيز أمة الهون قبل ذلك بألف سنة ، فالتتار قصار القامة ، كريهو الطلعة والمحيا للغرباء عنهم ، يجهلون القراءة والكتابة ، مهرة فى الحرب ، يسددون سهامهم دون أن تطيش من فوق ظهر جواد مسرع ، ويحافظون على استمرار جنسهم أو عرقهم بالمواظبة على تعــدد الزوجات . وكانوا فى هجراتهم وحملاتهم ينقلون معهم كل متاعهم وأمراتهم — الزوجات والأولاد والجمال والخيول والغنم والكلاب ، ويرعون الحيوانات

فيما بين المعارك ، ويتغذون بلحومها وألبانها ، ويتخذون الملابس من جلودها . وكانوا يأكلون بنهم وشراهة عند توافر المؤن ، ولكن كانوا يحتملون الجوع والعطش والقيظ والقر ، « بصبر أكثر من أى شعب آخر فى العالم »(١٧) . وكانوا يتسلحون بالسهام المكسوة أطرافها أحياناً بالنفط الملتهب ، وبالمدافع ، وبكل معدات العصور الوسطى للحصار ، ومن ثم كانوا أداة صالحة مستعدة لكل من كان يحلم بتأسيس إمبراطورية منذ كان فى المهد صبياً .

وعند ما مات جنكيزخان (١٢٢٧) وزع ملكه على أبنائه الأربعة . فأعطى جغتاى الإقليم المحيط بسمرقند ، وحدث أن أطلق اسم هذا الابن على قبائل المغول أو التتار التى حكمها . وولد تيمور (أى الحديد) ، فى مدينة « كش Kes h » فى بلاد ما وراء النهر ، لأمير إحدى هذه القبائل . وطبقاً لما رواه كلافيجو Clavijo أدى « سوط الله » الجديد هذه المهمة منذ نعومة أظفاره : فنظم عصابات من صغار اللصوص لسرقة الغنم والماشية من المراعى المجاورة(١٨) . وفقد فى إحدى هذه المغامرات أصبعيه الوسطى والسبابة من يده اليمنى ، وفى مغامرة أخرى أصيب بجرح فى عقبه ، ومن ثم عرج بقية أيام حياته(١٩) فلقبه أعداؤه Timur-i-Lang أى تيمور الأعرج ، ولكن الغربيين غير المدققين ، مثل مارلو حرفوا هذا الاسم إلى Tamburlane أو Tamer ane . وقد وجد تيمور فسحة من الوقت لتلقى قليل من التعليم ، وقرأ الشعر ، وعرف الفرق بين المبادئ والانحلال . ولما بلغ سن السادسة عشرة ولاه أبوه زعامة القبيلة . وآوى إلى أحد الأديار ، لأن هذا الرجل العجوز (الوالد) قال عن الدنيا إنها ليست « أفضل من زهرية من الذهب مليئة بالثعابين والعقارب » (*) وقيل إن الوالد نصح ابنه أن يرعى الديانة دوماً ،

(*) هذا ، على أية حال ، منقول من مذكرات تيمور (٥ ، ١) المظنون أنه أملاها فى أعوامه الأخيرة ، ولكن يشك فى صحتها .

واتبع تيمور هذه الوصية إلى حد تحويل الرجال إلى مآذن (تكديس بعضهم فوق بعض للتنكيل بهم) .

وفى سنة ١٣٦١ عين خان المغول « خوجه الياس » حاكماً على بلاد ما وراء النهر ، وعين تيمور مستشاراً له ، ولكن الشاب النشيط لم يكن قد نضج بعد لممارسة فن الحكم ، وتشاجر بعنف مع سائر موظفى خوجه الياس . وأجبر على الهروب من سمرقند إلى الصحراء . . . فجمع حوله عدداً من المحاربين الشبان ، وضم عصبته إلى عصبة أخيه الأمير حسين الذى كان فى مثل ظروفه . وتجولوا من مكمن إلى مكمن ، حتى تحجرت أجسامهم ونفوسهم بسبب الأخطار والتشرد والفقر ، إلى أن واتاهم بعض الحظ حين استخدموا لقمع فتنة فى سيستان Sistan ، وما أن اشتد عود الأخوين حتى أعلنا الحرب على خوجه الياس وخلعاه وذبحاه . وأصبحا حاكمين فى سمرقند على قبائل جغتاى (١٣٦٥) ، وبعد ذلك بخمس سنوات تآمر تيمور على ذبح الأمير حسين . وأصبح السلطان الوحيد .

وتروى سيرة حياته المشكوك فيها ، عن عام ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) : « دخلت عامى الثالث والثلاثين ، ولما كنت دوماً قلق البال لا يقر لى قرار ، فقد كنت تواقاً إلى غزو بعض البلاد المجاورة »[٢٠] . وكان يقضى أيام الشتاء فى سمرقند ، وقل أن انقضى ربيع دون أن يخرج فيه إلى حملة جديدة . وقد لقن المدن والقبائل فى بلاد ما وراء النهر أن تتقبل حكمه طواعية أو سلماً لا حرباً . وفتح خراسان وسيستان ، وأخضع المدينتين الغنيتين هراة وكابول ، وأحبط المقاومة والتمرد بما كان ينزل من عقاب وحشى . ولما استسلمت مدينة سبزاوار Sabzawar بعد حصار كلفه كثيراً ، أسر ألفين من رجالها ، « وكدسهم أحياء ، الواحد فوق الآخر ، وضرب عليهم بنطاق من الآجر والطين ، وأقام منهم مئذنة ، حتى إذا استيقن الرجال جبروت غضبه ، لا يعود يغويهم شيطان الصلف والكبرياء » . وهكذا روى القصة مادح

معاصر[٢١] . وغفلت مدينة زيريه Zirih عن هذه الحقيقة وأبدت مقاومة ، فأقام الغازى من رؤس أبنائها عدداً أكبر من المآذن . واجتاح تيمور أذربيجان واستولى على لورستان وتبريز ، وأرسل فنانيهما إلى سمرقند . واستسلمت أصفهان فى ١٣٨٧ وارتضت بقاء حامية من التتار بها ، فلما غادر تيمور المدينة انقض السكان على الحامية وذبحوا رجالها . فعاد تيمور بجيشه وانقض على المدينة وأمر كل فرد فى جيشه أن يأتيه برأس واحد من الفرس . وقيل إن سبعين ألفاً من رءوس الأصفهانيين علقت على أسوار المدينة أو أقيمت منها أبراج تزين الشوارع[٢٢] . فلما سكن روع تيمور وهدأت نفسه خفض الضرائب التى كانت المدينة تدفعها لحاكمها ، ودفعت سائر مدن فارس الفدية دون ضجة .

وتقول أسطورة أطرف من أن تصدق ، إنه فى شيراز فى ١٣٨٧ ، دعا تيمور أشهر مواطنى المدينة إلى المثول بين يديه ، وقرأ عليه غاضباً سطوراً (من الشعر) كانت قد قدمت فيها مدينتا بخارى وسمرقند من أجل الخال فى خد سيدة ، وقيل إن تيمور شكا غاضباً وهو يقول : « إنى بضربات سيفى اللامع الصقيل أخضعت معظم الأرض المعمورة لأزين بخارى ، وسمرقند ، مقر حكومتى ، وأنت أيها التعس الحقير تريد أن تبيعهما من أجل شامة سوداء فى خد سيدة تركية فى شيراز ! » وتؤكد الرواية أن حافظ انحنى أمام الأمير وقال : « وا أسفاه أيها الأمير ، أن هذا التبذير هو سبب البؤس الذى ترانى فيه » . واستساغ تيمور هذا الجواب فأبقى على حياة الشاعر ومنحه هدية سنية . ومما يؤسف له أن أحداً من كتاب سيرة تيمور المتقدمين لم يورد ذكر هذه الحادثة الطريفة[٢٣] .

وعند ما كان تيمور فى جنوبى فارس جاءته الأنباء بأن طقطميش خان القبيلة الذهبية انتهز فرصة غيابه ليغزو بلاد ما وراء النهر ، بل حتى ليعمل السلب والنهب فى المدينة الجميلة بخارى التى قدرها حافظ بنصف خال على

تحد سيدة ، فسار تيمور ألف ميل إلى الشمال (تصور مشاكل التموين فى مثل هذه المسيرة) ، ورد طقطميش إلى الفولجا ، وسار جنوباً وغرباً ، وأغار على العراق وجورجيا وأرمينية ، وهو يذبح فى طريقه كل السادة الذين دمغهم بأنهم « شيوعيون مضللون »[٢٤] . واستولى فى ١٣٩٣ على بغداد بناء على طلب سكانها الذين لم يعودوا يحتملون جور سلطانهم أحمد بن أويس . ولما رأى تدهور العاصمة أمر معاونيه بإعادة بنائها ، وفى نفس الوقت أضاف إلى حريمه نخبة من الزوجات ، وإلى حاشيته واحداً من أشهر الموسيقيين ، ولجأ السلطان أحمد إلى بايزيد الأول سلطان العثمانيين فى بروسه . وطلب تيمور تسليم السلطان أحمد ، فرد بايزيد بأن هذا أمر يخدش تقاليد الضيافة عند الأتراك .

وكان من الممكن أن يتقدم تيمور إلى بروسه ، لولا أن طقطميش عاود غزو بلاد ما وراء النهر . فاكتسح التترى المهتاج جنوبى روسيا ، وبينما كان طقطميش مختبئاً فى البرية ، اجتاح مدينتى القبيلة الذهبية : سراى واستراخان . ولما لم يجد تيمور أية مقاومة ، تقدم بجيشه غرباً من الفلجا إلى الدون ، وربما كان من خطته أن يضم روسيا كلها إلى مملكته . وأقسام الروس فى البلاد الصلوات فى حرارة وحمية ، وحملت « عذراء فلاديمير » إلى موسكو ، بين صفوف الضارعين الراكعين وهم يصيحون : « يا أم الإله ، خلصى روسيا » . وساعد فقر السهوب على إنقاذها . ولما وجد تيمور أنه لا غناء فى هذه السهول الجرداء ولا شىء فيها يمكن سلبه ، ارتد إلى الدون وقاد جنوده المنهوكين الجياع إلى سمرقند (١٣٩٥ — ١٣٩٦) .

وتجمع كل الروايات على أنه كان فى الهند ثروات تشترى مائة روسيا ، وأعلن تيمور أن حكام المسلمين فى شمال الهند شديدو التسامح مع الهندوس الوثنيين الذين يجب عليهم اعتناق الإسلام أو تحويلهم إليه . وسار تيمور ، وهو فى الثالثة والستين من العمر على رأس جيش قوامه ٩٢٫٠٠٠ رجل

(١٣٩٨) . وعلى مقربة من دلهى التقى بجيش سلطانها محمود ، فهزمه ، وذبح مائة ألف (؟) سجين ، ونهب العاصمة ، وجلب معه إلى سمرقند كل ما استطاعت جنوده ودوابه أن تحمل من ثروات الهند الأسطورية :

وفى ١٣٩٩ ، ولم تكن قد محيت من ذاكرته قصـــة أحمد وبايزيد الأول ، تقدم مرة ثانية ، وعبر فارس إلى أذربيجان ، وخلع ابنه المبذر المضيع الذى كان حاكماً عليها ، وشنق الشعراء والوزراء الذين كانوا قد أغروا الشاب بالانغماس فى اللهو ، واجتاح جورجيا . ولما دخل آسيا الصغرى حاصر سيواس ، واغتاظ لطول مقاومتها ، فدفن أربعة آلاف جندى مسيحى أحياء — أو أن مثل هذه القصص من دعاية الحروب ؟ ورغبة منه فى حماية جناح جيشه عند مهاجمة العثمانيين ، أرسل رسولا إلى مصر مقترحاً ميثاق عدم اعتداء ، ولكن سلطان المماليك أودع الرسول السجن ، واستأجر سفاحاً لقتل تيمور . وباء المشروع بالإخفاق . وبعد إخضاع حمص وحلب وبعلبك ودمشق ، سار التترى إلى بغداد التى طردت كل الموظفين الذين عينهم هو . واستولى عليها بثمن باهظ ، وأمر جنوده البالغ عددهم عشرين ألفاً بأن يحضر إليه كل منهم رأس واحد من الأهالى ، وتم له ما أراد — أو هكذا قيل : أغنياء وفقراء ، رجالا ونساء ، شيباً وشباناً ، فكلهم دفعوا ضريبة الرأس هذه ، وكدست رءوسهم على شكل أهرام مروعة أمام أبواب المدينة (١٤٠١) . وأبقى الغزاة على مساجد المسلمين وعلى أديار الرهبان والراهبات ، وسلبوا ودمروا ما عداها تدميراً تاماً ، حتى العاصمة التى كانت يوماً مدينة زاهرة باهرة لم تعد سيرتها الأولى إلا فى أيامنا هذه بفضل زيت البترول .

وإذ أيقن آنذاك تيمور أنه يمكنه أن يطمئن على ملكه عن اليمين وعن الشمال ، أرسل إلى بايزيد إنذاراً نهائياً للتسليم . ولكن سلطان الأتراك الذى زادت ثقته بنفسه بفضل انتصاره فى معركة نيقوبوليس ١٣٩٦ ،

أجاب بأنه سوف يسحق جيش التتار ويتخذ من زوجة تيمور الأثيرة جارية له[٢٥] والتحم أقدر قائدين فى زمانهما فى أنقرة ١٤٠١، وأرغمت استراتيجية تيمور أعداءه الأتراك على القتال بعد أن أرهقهم وأنهك قواهم طول السير . وهزم الأتراك هزيمة منكرة وأخذ بايزيد أسيراً . وابتهجت القسطنطينية ، وظل العالم المسيحى بمنجاة من الأتراك لمدة نصف قرن بفضل التتار . وواصل تيمور سيره فى اتجاه أوربا إلى بروسه وأحرقها ، وحمل معه من المدينة المكتبة البيزنطية والأبواب الفضية . وتقدم نحو البحر المتوسط ، وانتزع أزمير من أيدى فرسان رودس ، وذبح السكان ، وأقام فى إفسوس . وارتعد العالم المسيحى فرقاً مرة أخرى ، وقدمت جنوه التى كانت لا تزال تحتفظ بخيوس وفوشيا وميتلين خضوعها ودفعت الجزية . وأفرج سلطان مصر عن رسول ملك التتار ، وانخرط فى الزمرة الممتازة ، زمرة التابعين الخاضعين لسلطان تيمور . وعاد تيمور أدراجه إلى سمرقند ، وهو أقوى حكام عصره ، حيث امتد ملكه من أواسط آسيا إلى النيل ومن البسفور إلى الهند . وبعث إليه هنرى الرابع ملك إنجلترا بالتهنئة ، كما أوفدت إليه فرنسا أسقفاً يحمل الهدايا . وأوفد إليه هنرى الثالث ملك قشتالة بعثة شهيرة برياسة روى جونزاليز كلافيجو .

وإنا لمدينون لمذكرات كلافيجو بمعظم ما نعلمه عن بلاط تيمور . فقد غادر قادس فى ١٣ مايو ١٤٠٣ ، ومر بالقسطنطينية وطرابزون وأرضروم ، وتبريز وطهران (التى وردت الآن لأول مرة على لسان أحد الأوربيين) ونيسابور ، ومشهد ، حتى وصل سمرقند فى ٣١ أغسطس ١٤٠٤ . وكان قد توقع لسبب ما ، أن هناك قوماً من السفاكين الكريهى الطلعة . وما كان أشد دهشته لكبر عاصمة تيمور وازدهارها ، وفخامة المساجد والقصور ، وسلوك ساداتها وعاداتهم الحميدة ، وثراء البلاط وترفه ، واحتشاد للفنانين والشعراء حول تيمور احتفاء به وتكريماً له .

وكانت المدينة آنذاك قد مضى على بنائها أكثر من ألفى عام ، وكانت تضم نحو مائة وخمسين ألف نسمة مع « مجموعة من أعظم الدور وأجملها » ، مع كثير من القصور « التى تظللها الأشجار » ، بهذا كله رجح كلافيجو أن سمرقند « أكبر من أشبيلية » ، هذا بخلاف الضواحى المترامية . وكان الماء يرفع إلى البيوت من نهر يجرى بالقرب من المدينة ، وكست مياه الرى المنطقة الخلفية بالخضرة . وتضوع الهواء بعبير البساتين والكروم . وتوافرت المراعى للأغنام والماشية ، ونمت المحاصيل الكثيرة . وكان فى المدينة مصانع للمدافع والدروع والأقواس والسهام والزجاج والخزف ، والمنسوجات المتناهية فى اللمعان بما فيها « القرمزى » وهو الصباغة الحمراء ، ومنه اشتقت اللفظة الإنجليزية Crimson . وكانت المدينة تضم التتار والأتراك والعرب والفرس والعراقيين والأفغانيين والكرجيين واليونان والأرمن والكاثوليك والنساطرة والهندوس ، ممن يعملون فى الحوانيت أو فى الحقول ، ويسكنون فى بيوت من الطوب أو من الطين أو الخشب ، أو يسرحون ويمرحون فى المدينة على ضفة النهر ، كل يمارس شعائره الدينية فى حرية تامة ، ويدعو لعقيدته المتعارضة مع سائر العقائد . وكانت تحف على جوانب الشوارع الرئيسية الأشجار والحوانيت والمساجد والمدارس والمكتبات ، وكان هناك مرصد ، وكان ثمة جادة رئيسية عريضة تقطع ، فى خط مستقيم ، المدينة من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ، وكان القطاع الرئيسى من هذا الطريق العام مغطى بالزجاج[٣٦] .

وفى ٨ سبتمبر استقبل إمبراطور التتار كلافيجو ، الذى مر بساحة فسيحة « نصبت فيها خيام كثيرة من الحرير » ، وسرادقات مطرزة بالحرير ، وكانت الخيمة هى المسكن المألوف لدى التتار ، وكان لتيمور نفسه فى هذه الساحة خيمة يبلغ محيطها ٣٠٠ قدم ، كما كان هناك أيضاً قصور ذوات أرضية من الرخام أو القرميد ، مزودة بأثاث متين مرصع بالأحجار

الكريمة ، وكله مصنوع أحياناً من الفضة أو الذهب . ووجد كلافيجو ملك التتار جالساً القرفصاء على وسائد من الحرير « تحت مدخل أجمل قصر » قبالة نافورة يندفع منها عامود من الماء الذى انصب فى حوض يتحرك فيه التفاح بلا انقطاع . وكان تيمور يرتدى عباءة من الحرير ويلبس قبعة عالية واسعة مرصعة بالياقوت واللآلىء . وكان هذا العاهل طويل القامة نشيطاً يقظاً ، أما الآن وهو فى سن الثامنة والستين ، فقد كان منحنياً ضعيفاً متوجعاً ، وكاد أن يكون كفيفاً . وكان يستطيع بشق النفس أن يرفع جفنيه ليرى السفير .

وحصل تيمور من الثقافة على ما يمكن أن يحتمله رجل عمل ، فقرأ التاريخ ، وجمع الفن والفنانين ، وصادق الشعراء والعلماء ، واستطاع عند الاقتضاء أن يتحلى بأجمل العادات . واستوى غروره مع قدرته ، مما لم يتفوق فيه أحد عليه فى زمانه . وقدر تيمور على العكس من قيصر ، أن القسوة جزء ضرورى من الاستراتيجية ، ولكنه ، إذا صدقنا ضحاياه ، غالباً ما يبدو آثماً متهماً بالقسوة لمجرد الانتقام . فإنه حتى فى إدارته المدنية كان يسرف فى الحكم بالإعدام ، حتى على محافظ اتبع سياسة الظلم فى المدينة ، أو على جزار تقاضى للحم ثمناً أكثر مما ينبغى[٢٧] . إنه نفذ سياسة القسوة والعنف بوصفها ضرورية لحكم شعب لم يألف القانون بعد . وبرر مذابحه على أنها وسيلة لإرغام القبائل المخالفة للقانون والنظام على اتبـاع النظام ومتطلبات الأمن فى دولة موحدة قوية . ولكنه مثل سائر الغزاة والفاتحين أحب القوة لذاتها ، وأحب الغنائم والأسلاب من أجل العظمة التى يمكن أن تغطى الغنائم تكاليفها .

وفى ١٤٠٥ شرع فى فتح منغوليا والصين ، يراوده حلم إنشاء دولة تضم نصف العالم ، وتربط بين البحر المتوسط وبحر الصين . وكان جيشه يتألف من مائتى ألف من الرجال الأشداء . ولكنه قضى نحبه فى أتار

Ottar على الحدود الشمالية من مملكته ، وكانت آخر أوامره أن يتابع جيشه سيره ، ولبرهة بسيطة تقدم جواده الأشهب المسرج ، دون أن يمتطيه صاحبه ، وهو يسير الهوينا فى خطى متزنة — تقدم الحشد . ولكن جنوده كانوا على يقين من أن عقل قائدهم وإرادته كانتا تشكلان نصف قوتهم . فعادوا على عجل إلى أوطانهم وهم فى حداد على موت القائد ، وقد كتب لم الخلاص من هذه المهمة . وشيد له بنوه فى سمرقند مقبرة فخمة هى « مقبرة الأمير » ، وهى عبارة عن برج تعلوه قبة ضخمة بصلية الشكل ، مكسوة واجهتها بالآجر ذى الطــلاء الأزرق الجميل الفيروزى المائل للخضرة .

وتحطمت إمبراطورية تيمور بموته ، وكادت الأقاليم الغربية أن تنهار فى الحال . وكان لزاماً أن يقنع أولاده بالشرق الأوسط . وكان أعقل أفراد أسرة تيمور هو شاه رخ الذى رخص لابنه أولوج فى أن يحكم بلاد ما وراء النهر من سمرقند ، على حين حكم الوالد نفسه خراسان من هراة ، وتحت حكم خليفتى تيمور هذين أصبحت العاصمتان مركزين متنافسين على ازدهار التتار وثقافتهم ، ازدهاراً وثقافة تعدلان أياً من مثيلاتهما فى أوربا فى ذات العصر (١٤٠٥ — ١٤٤٩) . وكان شاه رخ قائداً قديراً يحب السلام ، وقد شجع الفنون والآداب ، وأسس فى هراة مكتبه ذائعة الصيت . وقال أحد أمراء أسرة تيمور « إن هراة هى جنة الدنيا »[٢٨] . أما أولوج بك فقد رعى رجال العلم ، وشيد فى سمرقند أعظم مرصد فى ذاك العصر . وقال أحد كتاب السير المنمقين من المسلمين :

« كان عالماً ، عادلا ، بارعاً ، نشيطاً ، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك ، على حين أنه فى علوم البلاغة كان شديد التدقيق . وسمت مكانة رجال العلم فى عصره إلى ذروتها . وفى الهندسة فسر أدق المسائل . أما فى علم الظواهر الكونيـــة

(الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطلميوس . ولم يجلس على العرش ملك مثله قط حتى اليوم . و سجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأولين . وأسس فى سمرقند كلية لا يمكن أن يوجد لها فى الأقاليم المتاخمة السبعة مثيل من حيث جمالها ومكانتها وقيمتها »[٢٩] .

ولكن هذا النموذج الفريد للرعاية قتل فى ١٤٤٩ بيد ابن غير شرعى له . واستمرت هذه الثقافة العالية التى تميزت بها أسرة تيمور على عهد السلطان « أبو سعيد » والسلطان « حسين بن بيقره » فى هراة حتى نهاية القرن الخامس عشر . وفى ١٥٠١ استولى مغول الأوزبك على سمرقند وبخارى ، وفى ١٥١٠ انتزع الشاه الصفوى هراة وبابور ، وفر آخر حكام أسرة تيمور إلى الهند وأسس هناك أسرة مغولية جعلت من دلهى الإسلامية عاصمة رائعة فى مثل روعة رومه على عهد أسرة مديتشى .

٤ ــ المماليك

١٣٤٠ — ١٥١٧

بينما كان الإسلام فى آسيا يعانى الغزو المتكرر والثورات ، استغل سلاطين المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٧) مصر التى سادها استقرار نسبى إذ ذاك . وقضى الموت الأسود على ازدهار البلاد لفترة من الزمن ، ولكن فى أثناء هذه القلبات استمر المماليك يوفقون بين الإدارة القادرة والمصالح الفنية من جهة والاختلاسات والفظائع من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإنه فى ١٣٨١ بدأت بالسلطان الملك الناصر بن برقوق أسرة المماليك البرجية التى ساد عهدها الترف والدسائس والعنف والانحلال الاجتماعى ، وخفضوا قيمة النقد ، حتى على غير عادة الحكومات ، وفرضوا الضرائب الباهظة على ضروريات المعيشة ، وأساءوا استغلال احتكار الدولة

للسكر والفلفل . وفرضوا فى الإسكندرية رسوماً باهظة على تجارة أوربا مع الهند ، مما دعا تجار الغرب إلى البحث عن طريق إلى الهند حول أفريقية . وخسرت مصر على مدى جيل بعد رحلة فاسكوداجاما (١٤٩٨) كثيراً من نصيبها الذى كان يوماً هائلا ، من التجارة بين الشرق والغرب ، وأوقعت هذه الكارثة الاقتصادية البلاد فى حالة من الفقر المدقع إلى درجة أن السلطان سليم الأول لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، حين أنهى حكم المماليك ، وجعل من مصر ولاية عثمانية .

وظلت القاهرة من ١٢٥٨ حتى ١٤٥٣ أجمل وأزهى مدن العالم الإسلامى وأكثرها ازدحاماً بالسكان . ووصفها ابن بطوطة وصفاً رائعاً فى ١٣٢٦ ، وقال عنها ابن خلدون الذى زارها ١٣٨٣ إنها « عاصمة الكون ، جنة الدنيا ، مكتظة بجميع أجناس البشر ، عرش الملكية ، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة والرهبنات والأديار والكليات ، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة ، جنة يرويها النيل حتى ليبدو أن الأرض تقدم ثمارها إلى الناس على سبيل الهدية والتحية »[٣٠] — وربما كان الفلاحون المنهوكون يعترضون على هذا .

وعكست مساجد مصر فى ذلك العصر قساوة الحكم أكثر مما عكست ألوان السماء . فلم يكن هنا إيوانات أو بوابات من الطوب المصقول أو القرميد الملون ، كما كان الحال فى آسيا الإسلامية ، بل كانت هناك جدران حجرية ضخمة جعلت من المسجد قلعة أكثر منه بيتاً للعبادة . وكان مسجد السلطان حسن (١٣٥٦ — ١٣٦٣) عجيبة عصره ، ولا يزال أفخم آثار الفن المملوكى . وذهب المقريزى المؤرخ إلى أنه « فاق كل ما بنى من مساجد[٣١] » ولكنه كان قاهرياً محباً لوطنه . وتروى أسطورة غير مؤكدة كيف أن السلطان جمع مشاهير المهندسين من بلاد كثيرة ، وطلب إليهم أن يذكروا له أعلى صرح على البسيطة ، وأمرهم بأن يشيدوا صرحاً أعلى منه ، فذكروا له قصر خسرو الأول فى مدينة طيسفون (مدينة بابلية على نهر دجلة) الذى يرتفع الجزء الباقى من مدخله ١٠٥ من الأقدام فوق سطح الأرض . فبنى العمال

جدران المسجد الجديد ، بعد أن سرقوا حجارة الأهرام المتهدمة ، على ارتفاع مائة قدم ، وزادوا فوقها إفريزاً (كورنيش) بارتفاع ١٣ قدماً وشيدوا فى أحد الأركان مئذنة بارتفاع ٢٨٠ قدماً . وإن هذا المبنى الشاهق ليترك انطباعاً فى نفوس الغربيين ، ولكنه قل أن يسر الناظرين منهم . ومهما يكن من شيء فإن أهل القاهرة كانوا فخورين به ، إلى حد أنهم ابتدعوا أو استعاروا خرافة تقول بأن السلطان قطع يد المهندس حتى لا يصمم تحفة رائعة تضارع هذه ، وكأن المهندس يصمم بيده ! وكانت مساجد المقابر أكثر فتنة وجذباً للأنظار ، رغم الغرض الذى بنيت من أجله ، وقد بناها سلاطين المماليك خارج أسوار القاهرة لتضم رفاتهم . من ذلك أن السلطان الظاهر برقوق الذى بدأ حياته عبداً شركسياً ، انتهى أمره فى مجد صامت ، راقداً فى مقبرة من أفخم هذه المقابر .

وكان قايتباى أعظم البناة بين المماليك البرجية ، فالبرغم من أن الحرب مع الأتراك أنهكته ، فقد دبر الأموال لتشييد المبانى النفيسة فى مكة والمدينة والقدس ، وجدد فى القاهرة قلعة صلاح الدين والجامع الأزهر ، وشيد نزلا مشهوراً بزخارفه العربية المصنوعة من الحجر ، وبنى داخل العاصمة مسجداً ذا زخارف منسقة . وتوج قايتباى أعماله فى أخريات أيامه ، بمسجد تذكارى من الجرانيت والرخام ، ذى زخرفة رائعة ومئذنة عالية ذات شرفات ؛ وقبة مزينة بنقوش هندسية ، مما جعل هذا المسجد مأثرة من المآثر الأقل قيمة للفن الإسلامى .

وانتشرت الفنون الصغيرة فى عهد المماليك . وصنع النقاشون على العاج والعظام والخشب ألفاً من المنتجات الجميلة ، من صناديق الأقلام إلى المنابر ، وهى منتجات كان يتخيلها الذوق ، ويقوم على تنفيذها العمل المتواصل والمهارة . وحسبك فى هذا أن تلقى نظرة على منبر مسجد قايتباى خارج أسوار المدينة فى متحف فكتوريا وألبرت . وبلغ التطعيم بالذهب والفضة

ذروته أيام هذه الأسرات الدموية . أما مصانع الخزف المصرى التى كانت قد ابتدعت ألفاً من البدع والأشياء الغريبة فى آلاف السنين السحيقة فى القدم ، فإنها أخرجت الآن للعالم الزجاج المطلى بالمينا ومصابيح المساجد والكؤوس والزهريات المزدانة بالطيور أو الزخرفة التشكيلية من المينا الملونة ، والمرصعة بالذهب أحياناً . وبمثل هذه الطرق وبكثير غيرها لا يحصيها العد ، خلع الفنانون المسلمون على الجمال شكلا خالداً ، وبذلك عوضوا عن وحشية ملوكهم أو كفروا عنها .

٥ — العثمانيون

١٢٨٨ — ١٥١٧

يبدأ التاريخ بعد اختفاء الأصول . فلا أحد يعرف أين نشأ الأتراك . « فذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا قبيلة فنلندية أوجرية Finno-Ugric (شعب أسيوى شرقى الأورال) من الهون ، وأن اسمهم يعنى « خوذة » وهى فى إحدى اللهجات التركية Durko . وقد شكلوا لغاتهم من اللغتين المغولية والصينية ، وأدخلوا بعد ذلك ألفاظاً فارسية أو عربية ، وهذه اللهجات التركية هى الوسيلة الوحيدة لتصنيف المتكلمين منهم بوصفهم أتراكاً . واتخذت واحدة من هذه العشائر اسمها من اسم زعيمها سلجوق . ونمت بالنصر تلو النصر ، وتكاثرت سلالتها ، وحكموا فى القرن الثالث عشر فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى وفرت عشيرة أخرى من أقرباء العشيرة الأولى ، بقيادة زعيمها طغرل ،أر، من خراسان فى نفس القرن ، حتى لا يكتسحها طوفان المغول . واستخدمها سلجوق أمير قونيه بآسيا الصغرى ، فى الأعمال الحربية ، وأقطعها جزءاً من الأرض لرعى ماشيتها .

وفى ١٢٨٨ (؟) مات أرطغرل ، فاختير ابنه عثمان ، وهو إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، ليخلف أباه ، ومنه اشتق اسم « العثمانيين » . ولم

يطلقوا على أنفسهم اسم الأتراك قبل القرن التاسع عشر ، بل أطلقوه على الشعوب شبه الهمجية فى تركستان وخراسان . وفى ١٢٩٠ رأى عثمان أن السلجوقيين أضعف من أن يقفوا فى طريقه ، فأعلن نفسه أميراً مستقلا على ولاية صغيرة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وفى ١٢٩٩ تقدم بقواته غرباً إلى بنى شير . ولم يكن عثمان قائداً عظيماً ، ولكنه كان مثابراً صبوراً ، وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مكون من رجال ألفوا فى ديارهم ركوب الخيل أكثر مما ألفوا السير على الأقدام ، رجال آرادوا أن يغامروا بحياتهم الشاقة من أجل الأرض أو الذهب أو النساء أو السلطان ، وكانت تقع بينهم وبين بحر مرمرة مدن بيزنطية تاعسة سيئة الحكم هزيلة الدفاع . فحاصر عثمان واحدة منها وهى بروسه ، وأخفق أول الأمر فى الاستيلاء عليها ، ولكنه عاود الكرة بعد الكرة ، حتى استسلمت المدينة أخيراً لابنه أورخان ، فى الوقت الذى كان يرقد فيه عثمان على فراش الموت فى بنى شير (١٣٢٦) :

واتخذ أورخان من بروسه ، التى تقدست برفات أبيه ، عاصمة جديدة للعثمانيين . وساقته الرغبة فى المزيد من السلطان إلى البحر المتوسط ، المركز العتيق للتجارة والثروة والمدنية . وفى نفس العام الذى سقطت فيه بروسه ، انتزع نيقوميديا التى صارت فيما بعد أزميد ، وفى ١٣٣٠ استولى على نيقيه التى أصبحت أزنيق ، وفى ١٣٣٦ استولى على برجاموم التى أصبحت برجامه . وكانت تلك المدن العريقة فى القدم والتى تفوح منها رائحة التاريخ ، مراكز للحرف والتجارة ، وقد اعتمدت فى المواد الغذائية والأسواق اللازمة لها على الجماعات الزراعية المحيطة بها والتى كان العثمانيون قد استولوا عليها فى ذلك الحين ، وكان على هذه المدن أن تعيش على هذه البقاع الداخلية أو أن تموت جوعاً . فلم تقاوم طويلا ، لأنها كانت قد عانت من ظلم حكامها البيزنطيين ، كما سمعت بأن أورخان لم يثقل الكواهل بالضرائب ، وأنه رخص فى حرية العقيدة — وكان كثير من هؤلاء المسيحيين فى الشرق الأدنى هراطقة مرهقين :

نساطرة أو من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة . وسرعان ما ارتضى العقيدة الإسلامية جزء كبير من الأراضى المفتوحة ، وهكذا تحل الحرب المشاكل اللاهوتية ، على حين كانت هذه المشاكل قبل الحرب تقف عاجزة محيرة . ومذ وسع أورخان ملكه على هذا الشكل ، فقد اتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين . وعقد أباطرة بيزنطة أواصر السلام معه ، واستأجروا جنوده ، وسمحوا لابنه سليمان فى بناء معاقل على أرض أوربا . وقضى أورخان نحبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره ، بعد أن خلد ذكراه بين جوانح شعبه .

وكون خلفاؤه من بعده أسرة قل أن يوجد لها فى التاريخ مثيل ، فى هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة الوحشية ، والإخلاص الرفيع للآداب والعلوم والفنون . وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ، ولما كان أمياً فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة فى المداد على الوثائق ، على غرار القتلة المغمورين . ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة إجرامية فاشلة ضده ، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه ، وأرغم آباء الثوار على قطع رءوس أبنائهم[٣٢] . ودرب مراد جيشاً لا يكاد يقهر ، وفتح معظم أراضى البلقان ، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقدر من تلك التى عرفوها على عهد السيطرة المسيحية .

وورث بايزيد الأول عرش أبيه فى ميدان القتال فى قوصوه (١٣٨٩) . ذلك أنه بعد أن قاد الجيش إلى النصر أمر بإعدام أخيه يعقوب الذى كان قد قاتل ببسالة فى ذاك اليوم العصيب . وأصبح قتل الإخوة على هذا النحو قاعدة منتظمة عند سلاطين آل عثمان بعد الجلوس على العرش ، طبقاً للمبدأ القائل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق ، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحتمل أن يطالبوا بالعرش . وأحرز بايزيد لقب

« بلدرم أى الصاعقة » ، لسرعته فى خططه الحربية ، ولكن أعوزه فن الحكم الذى تميز به أبوه ، وأضاع بعض طاقته الجبارة فى المغامرات النسائية ، وقدم ستيفن لازارفتش ، حاكم الصرب من قبل السلطان ، أخته لتنضم إلى حريم السلطان ، وأصبحت هذه السيدة دسبوانا زوجته الأثيرة لديه ، وغرست فيه الولع بشرب الخمر وإقامة المآدب السخية ، وربما أضعفت عن غير عمد حيويته كرجل . وتألق غروره وكبرياؤه حتى سقوطه . وبعد أن هزم بايزيد فرسان أوربا فى نيقوبوليس ، أطلق سراح كونت نفرز Nevers مع دعوة ممتازة للمبارزة ، رواها أو عدل فيها فروسار Froissor ، قال :

« أى جون ، إنى أعلم جيداً أنك سيد عظيم فى بلدك ، وأنك ابن سيد عظيم . أنت شاب يافع ، وربما تلاقى بعض اللوم أو العار لأنك وقعت فى هذه المغامرة فى بداية عهدك بالفروسية ، وأنك تخلصاً من اللوم وإنقاذاً لشرفك ، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتى ؛ ولو ساورنى الشك أو الخوف قبل رحيلك ، لأجبرتك على أن تقسم بشريعتك وعقيدتك ، أنك لا أنت ولا أحد من زمرتك ، سوف تشهر السلاح ضدى ولكنى لن ألزمك أو ألزم أحداً من أتباعك بمثل هذا القسم أو الوعد . ولكنى سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك وإلى مسراتك ، لتجمع من القوة ما تشاء ، ولا تدخر وسعاً ، واخرج إلى قتالى ، ولسوف تجدنى دوماً على أهبة الاستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك . . . وأطلع من تشاء على هذا الذى أقول لك ، فإنى قادر على القتال ، ومستعد على الدوام للتوغل فى العالم المسيحى »[٣٣] .

ولما أسر تيمورلنك السلطان بايزيد عامله بكل إجلال واحترام ؛

على الرغم من الرسائل المهينة التي كانا قد تبادلاها على مدى عام ، وأمر تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه ، وأكد له أنه سيبقى على حياته ، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته ، ولكن عندما حاول بايزيد الهرب ، احتجز في غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز ، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد . ومرض بايزيد ، فدعا تيمورلنك أحسن الأطباء لمعالجته ، وأرسل السيادة دسبوانا لتسهر على رعايته ومواساته . ولم تجد هذه المساعدات شيئاً لبعث القوى الحيوية في السلطان المحطم ، ومات بايزيد بعد عام من هزيمته .

وأعاد ابنه محمد الأول تنظيم حكومة العثمانيين وقوتهم ، وعلى الرغم من أنه فقأ عيني أحد المطالبين بالعرش وقتل آخر ، فإنه اكتسب لقب السيد المهذب ، بفضل سلوكه الكيس اللطيف وحكمه العادل ، وسنوات السلم العشر التي منحها للعالم المسيحي ، وكان لمراد الثاني مثل هذه المشارب ، فآثر الشعر على الحرب ، ولكن عندما نصبت القسطنطينية مزاحماً له ليخلعه ، ونقضت المجر عهد السلم ، أثبت مراد الثاني في وارنه (١٤٤٤) أنه قائد كأحسن ما يكون القواد ، ثم عاد إلى مغنيسيا في آسيا الصغرى ، حيث عقد مرتين في كل أسبوع اجتماعاً للشعراء والعلماء ، وقرأ الشعر وتحدث في العلوم والفلسفة . واقتضت ثورة في أدرنه عودته إلى أوربا ، فأخمدها ، وقهر هونياد في قوصوه . وعندما مات في ١٤٥١ ، بعد أن قضى في الحكم ثلاثين عاماً ، وضعه المؤرخون المسيحيون في مصاف أعظم حكام عصره ، وقد أمر في وصيته بأن يدفن في بروسه في مصلى متواضع غير مسقوف ، « حتى تنزل عليه رحمة الله وبركاته مع شروق الشمس والقمر ، وسقوط المطر والندى على جدته »[٣٤] .

وتساوى محمد الثاني مع أبيه في الثقافة والفتوحات والفطنة السياسية وطول الحكم ، وليس في العدل ولا في النبل . فنقض المعاهدات الوثيقة ،

ولطخ انتصاراته بالمذابح غير الضرورية . وكان يتسم فى مفاوضاته واستراتيجيته بدهاء الشرق . وسئل يوماً عن خططه فأجاب : « لو أن شعرة من لحيتي عرفت لانتزعتها »[٣٥] . وتحدث السلطان بخمس لغات ، وكان واسع الاطلاع فى عديد من الآداب ، بارعا فى الرياضيات والهندسة ورعى الفنون ، وأجرى معاشات على ثلاثين شاعراً عثمانياً ، وبعث بالهدايا الملكية إلى شعراء فى فارس والهند . وجاء بعده فى المرتبة الثانية كنصير للأدب والفن وزيره الأكبر محمود باشا ، فأعان هو وسيده كثيراً من الكليات والمؤسسات الدينية ، حتى أطلق على السلطان « أبو الأعمال الخيرية » . وكان محمد أيضاً « أبا الانتصارات » ، فقد خرت القسطنطينية له ولمدافعه ، وبفضل مدافعه أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأمام جيوشه ودبلوماسيته وقعت دول البلقان فى أسر العبودية . ولكن هذا الفاتح الذى لا يقاوم ، لم يتغلب على نفسه أو يكبح جماحها ؛ فما أن بلغ الخمسين حتى كان قد أنهك قواه بكل ألوان الإفراط الجنسى ، ولم تجد العقاقير نفعاً فى تجديد حيويته ، حتى أدرجه حريمه آخر الأمر فى عداد الأغوات . وقضى نحبه فى سن الواحدة والخمسين فى اللحظة التى بدا فيها أن جيشه على وشك غزو إيطاليا وضمها إلى العالم الإسلامى .

وأدى النزاع بين أبنائه إلى تولى بايزيد الثانى العرش . ولم يكن بالسلطان الجديد نزوع إلى الحرب ، ولكن عندما استولت البندقية على قبرص وتحدت سيطرة الأتراك على شرقى البحر المتوسط ، أفاق السلطان وضلل مخادعيه بميثاق للسلام ، حتى بنى أسطولا من ٢٧٠ سفينة ودمر أسطول البندقية بعيداً عن شواطئ اليونان . وأغار جيش تركى على شمال إيطاليا حتى وصل غرباً إلى فيشنزا (١٥٠٢) . فتوسلت البندقية لعقد الصلح ومنحها بايزيد شروطاً سخية ، ثم ركن إلى الشعر والفلسفة من

جديد . وخلعه ابنه سليم وجلس على العرش (١٥١٢) ولم يلبث بايزيد أن مات ، وقيل إنه مات مسموماً .

إن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة ؛ فإن الطباع والأشكال السائدة فى عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذى يليه ، والذى يضيق ذرعاً بالتقاليد ، ويتحرق لهفاً إلى التجديد : فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية ، وهذه تلد الواقعية ، وهذه تأتى بالتأثرية ، كما تدعو فترة الحرب إلى عقد (عشر سنوات) من السلم كما أن السلم الذى يطول أمده يدعو إلى الحرب العدوانية . فقد ازدرى سليم الأول بسياسة السلم التى انتهجها والده . وكان سليم قوى الجسم قوى الإرادة ، عزوفاً عن المسرات وأسباب المتعة ، ولوعا بالصيد والقنص وحياة المعسكر ، واستحق لقب « العبوس » لأنه شنق تسعة من ذوى قرباه منعاً لأية فتنة أو تمرد ، وشن الحرب تلو الحرب من أجل الفتح والغزو . ولم تزعجه إغارة اسماعيل الصفوى شاه فارس على الحدود التركية . فقطع سليم على نفسه عهداً بأن يشيد ثلاثة مساجد ضخمة فى القدس ، وبودا وروما ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس[٣٦] . وإذ أثار النعرة الدينية فى شعبه إلى حد القتال . فإنه تقدم نحو اسماعيل ، واستولى على تبريز ، وجعل من شمالى أرض الجزيرة ولاية عثمانية . وفى ١٥١٥ حول مدافعه ورجاله الانكشارية إلى المماليك ، وضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلى مملكته (١٥١٧) ، وحمل من القــاهرة إلى القسطنطينية أسيراً مكرماً هو « خليفة المسلمين » وهو أكبر مقام دينى عند المسلمين . وأصبح سلاطين العثمانيين بعــد ذلك — مثل هنرى الثامن — أصحاب السلطة الدينية كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة) .

وفى أوج مجد قواته وعظمتها ، جهز سليم لغزو رودس والعالم المسيحى . فلما تمت كل الاستعدادات ، أصيب بالطاعون فقضى عليه (١٥٢٠) . وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقاً لتقدم سليم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر — أمر الكنائس المسيحية بإقامة الصلوات شكراً لله .

٦ ـ الأدب الإسلامى

١٤٠٠ ـ ١٥٢٠

نظم سليم العبوس نفسه قصائد من الشعر المقفى ، وورّث ابنه سليمان القانونى ديواناً ملكياً ضم قصائده المجموعة ، مثل ما ورثه إمبراطورية تمتد من الفرات إلى الدانوب والنيل ، وإنك لترى اثنى عشر من السلاطين وكثيراً من الأمراء ، من بينهم الأمير جم الذى أجزل أخوه بيزيد الثانى العطاء للملوك المسيحية وبابواتها ليحتجزوا الأمير فى معتقل لائق ، نقول إنك لترى هؤلاء السلاطين والأمراء بين ٢٢٠٠ شاعر عثمانى طبقت شهرتهم الآفاق فى القرون الستة الأخيرة[٣٧] . واقتبس معظم هؤلاء الشعراء من الفرس أشكال شعرهم وأفكاره ، وفى بعض الأحيان لغته ، وواصلوا ، فى معين من القصيد لا ينضب : تمجيد عظمة الله ، وحكمة الشاه أو السلطان ، وارتعاد شجرة السرو حسداً عند ما يقع نظرها على السيقان النحيلة الناصعة البياض للحبيبة . وقد ألفنا الآن نحن فى الغرب هذه المفاتن إلى حد أننا لم نعد نهتز لهذه التشبيهات المائلة . ولكن « الأتراك الفظعاء » الذين كانت نساؤهم متدثرات من الأنف إلى أخمص القدم بشكل كله إغراء ، اهتزوا إلى الأعماق بهذه الإيحاءات الشعرية ، وهذا الشعر الذى غيرت ترجمته من طبيعته ، والذى لا يؤثر فينا ولا يحرك فينا شعرة ، كان يحفزهم إلى التقى والورع وإلى تعدد الزوجات وإلى الحرب .

وإنا لنختار فى خيال ساذج ، من بين ألف من الموتى الخالدين ، ثلاثة أسماء لا تزال غريبة غير مألوفة لدى المجتمعات المحلية فى الغرب . من هؤلاء أحمدى ، وهو من سيواس (المتوفى ١٤١٣) الذى نهل أول ما نهل من الأستاذ الفارسى النظامى ، وقد كتب أحمدى « اسكندرنامه » أى كتاب الإسكندر ، وهو ملحمة ضخمة فى أسلوب قوى غير مصقول ، لم تتناول

قصة غزو الفرس للإسكندر فحسب ، ولكن تضمنت كذلك تاريخ الشرق الأدنى ودياناته وعلومه وفلسفته من أقدم العصور إلى عهد بايزيد الأول . ويجدر بنا أن نكف عن الاقتباس لأن الترجمة الإنجليزية أشبه شيء بكابوس يجثم على الصدر . أما شعر أحمد باشا (المتوفى ١٤٩٦) فقد ابتهج به السلطان محمد الثانى إلى حد أنه عين الشاعر وزيراً له . ولكن الشاعر وقع فى غرام خادم جميل من حاشية الإمبراطور الذى كان به مثل هذا الميل ، فما كان منه إلا أن أمر بإعدام الشاعر . وأرسل أحمد إلى مولاه قصيدة غنائية تفيض رقة ، حتى أن محمداً وهبه الغلام ، ولكنه نفى الاثنين إلى بروسه[٣٨] . وهناك آوى أحمد إلى داره شاعراً شاباً قدر له فى الحال أن يبزه ، ونظم نجاتى (المتوفى ١٥٠٨) ، وكان اسمه الحقيقى عيسى — نظم قصيدة غنائية

مدح محمد الثانى ، وربطها فى عمامة صفى السلطان وزميله فى لعبة الشطرنج ، ودفع فضول محمد الثانى به إلى الوقوع فى الشرك ، وفض اللفيفة وقرأ القصيدة ، واستدعى ناظمها وعينه موظفاً فى القصر الملكى . وأبقاه بايزيد الثانى ناعماً بالحظوة والثراء . وكتب نجاتى الذى انتصر بشكل بطولى على الازدهار والنجاح ، بعض القصائد الغنائية التى تستحق أعظم الثناء والتقدير فى الأدب العثمانى .

ومهما يكن من أمر ، فإن فطاحل الشعر الإسلامى كانوا لا يزالون من الفرس . وكان بلاط حسين بيقرة فى هراة يعج بالعنادل المغردة ، حتى أن وزيره مير على شيرنواى شكا قائلا : « لو أنك مددت قدميك لرفست بهما ظهر شاعر » : فرد عليـــه شاعر آخر بقوله : « وكذلك تفعل أنت لو سحبتهما[٣٩] » . وكان مير على شير (المتوفى ١٥٠١) ، إلى جانب معاونته فى حكم خراسان ، ورعايته للأدب والفن ، وذيوع صيته فى رسم المنمنمات والتلاحين — نقول كان شاعراً فحلا ، فكان ميسيناس وهوراس زمانه فى وقت معاً . ومن فيض رعايته المستنيرة استمد العون والسلوى المصوران بهزاد

وشاه مظفر ، والموسيقيون قول محمود وشاتقى ناقى وحسين يودى ، والشاعر الإسلامى الكبير فى القرن الخامس عشر ملا نور الدين عبد الرحمن جامى (المتوفى ١٤٩٢) .

ووجد جامى فى حياته الطويلة الحادثة فسحة من الوقت ليكتسب شهرته عالماً ومتصوفاً وشاعراً . فشرح باعتباره من رجال الصوفية ، فى نثر رقيق ، الفكرة الصوفية القديمة ، وهى أن الاتحاد البهيج بين النفس البشرية وبين الحبيب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لا يأتى إلا إذا أيقنت النفس أن الإنسان ليس إلا وهماً وسراباً ، وأن كل الأشياء فى الدنيا هى مجموع من الأشباح العابرة التى تتلاشى فى ضباب الفناء . ومعظم قصائد جامى عبارة عن تصوف منظوم شعراً ، ممزوج بشىء من الحسية الجذابة . ويقص علينا سلمان وأبسال حكاية طريفة تشير إلى أن الحب الإلهى يسمو على الحب الدنيوى . وسلمان هو ابن شاه يون (أيونيا) وقد ولد من غير أم (وهذا شىء أصعب بكثير من التوالد العذرى) وقد تولت تربيته الأميرة الجميله أبسال التى افتتنت به حين بلغ الرابعة عشرة من العمر ، وقد غزت قلبه وأسرته بما اصطنعت من أسباب التجميل والتطرية .

« أحاطت سواد عينيها بسواد الإثمد
حتى تحوله إلى ليل وهو فى وضح النهار ،
وزينت وزججت الحواجب فوقهما .
لتصيبه إذا ضل هناك ، وشعرها الذى يتضوع منه المسك
صففته فى لفائف أفعوانية كثيرة
كمن فيها « الإغراء » فوق خدها
الذى أضاءت ورده بندى قرمزى
ووضعت هناك حبة دقيقة من المسك
لتوقع فى الشرك طائر هذا القلب الحبيب

وقد تمر أحياناً فتطلق ضحكة تكسر بها
ياقوتة شفتيها اللتين تحفظان بينهما اللآلى
أو تنهض وكأنها على عجل ، فتقعقع خلاخيلها الذهبية ،
وعلى نداءاتها المفاجئة ، تأتى
تحت قدميها الفضيتين بالتاج الذهبى »(٤٠) .

وهو تاج الأمير وريث العرش بلا منازع ، ويستسلم الأمير دون عناء لهذه المغريات ، ولبعض الوقت ينعم الاثنان — الولد والسيدة فى حب مشبوب . فيؤنب الملك هذا الشاب على مثل هذا العبث ، ويأمره أن ينجو بنفسه إلى الحرب والحكم . ولكن سلمان بدلا من ذلك يهرب مع أبسال على ظهر جمل ، « وكأنهما لوزتان حلوتان فى قشرة واحدة » ، حتى إذا وصلا إلى البحر صنعا قارباً وسارا به « شهراً » وأتيا إلى جزيرة مكسوة بالخضرة ، مليئة بالأزهار العطرة والطيور المغردة ، والثمار والفاكهة التى تتساقط تحت قدميهما بكثرة . ولكن فى جنة عدن هذه يتحرك ضمير الأمير فيؤنبه ، ويفكر فى مهام الملك التى أغفلها ، ويحث الأمير محبوبته أبسال على العودة معه إلى يون ، ويحاول أن يدرب نفسه على الاضطلاع بأعباء الملك ، ولكنه موزع بين الواجب والجمال ، إلى حد أنه كاد آخر الأمر أن يجن ، وانضم إلى أبسال فى محاولة للانتحار ، فبنيا محرقة ، وقفزا إليها ، ويد كل منهما فى يد الآخر ، وأتت النيران على أبسال ، ولكن سلمان يخرج سالماً ولم يحترق . والآن وقد تطهرت نفسه ، فإنه يرث العرش ويشرفه . وكل هذا مجاز يفسره جامى بأن الملك هو الله ، وسلمان هو النفس البشرية ، وأبسال هى نشوة الشهوة ، والجزيرة السعيدة هى جنة الشيطان التى تضل فيها النفس عن مصيرها الإلهى ، أما المحرقة فهى نار تجربة الحياة ، التى تتلاشى فيها الرغبات الشهوانية ، أما العرش الذى ترقى إليه النفس المطهرة فهو عرش الله . ومن العسير أن نعتقد أن شاعراً استطاع أن يصور مفاتن

المرأة بهذا الشكل الحساس ، يمكن أن يطالب إلينا اجتنابها اللهم إلا بين الفينة والفينة .

وفى جرأة عوض عنها ما تمخضت عنه تجاسر جامى فعالج ، شعراً ، من جديد ، الموضوعات الأثيرة لدى اثنى عشر من الشعراء قبله : يوسف وزليخة ، ليلى والمجنون . وفى تصدير فصيح يعيد تقرير النظرية الصوفية : نظرية الجمال الإلهى والجمال الدنيوى :

فى « القفر البدائى » ، حيث لم تعط الحياة أية علامة على وجودها ، ورقد الكون مختبئاً منكراً نفسه ، كان ثمة شىء . إنه الجمال المطلق يظهر نفسه لنفسه فقط ، وبنوره هو وحده . مثل أجمل النساء فى غرفة زفافها المحفوفة بالأسرار ، كان ثوبها نقياً لا تشوبه أية شائبة ، ولم تعكس أية مرآة وجهها ، ولم يمر المشط قط بخصلات شعرها ، أولم يحرك النسيم العطر قط شعرة واحدة منها ، ولم يأو قط أى عندليب على صفحة خدها الوردى .. ولكن الجمال لا يطيق أن يبقى مجهولا . انظر إلى زهرة التوليب فوق قمة الجبل ، وهى تنفذ فى الصخر فرعها الغض لأول بسمة من بسمات الربيع . . كذلك الجمال الأبدى أتى من الأماكن المقدسة للأسرار ليشع فى كل الآفاق وفى كل النفوس ، وثمة شعاع واحد انطلق من هذا الجمال الأبدى ، واخترق الأرض والسموات ، ومن ثم تكشف وظهر فى مرآة المخلوقات . وأصبحت كل ذرات الكون بمثابة مرايا تعكس كل منها ناحية من نواحى العظمة الأبدية . وسقط شىء من تألقها على الوردة والعندليب ، فأصابهما شىء من جنون الحب اليائس واتقدت حماستهما ناراً ، وجاء ألف من الفراشات لتهلك فى اللهب . وهى التى أضفت على قمر كنعان لمعانه الساطع الذى أصاب زليخة بالجنون (٤١) .

إن جامى يهبط من علياء سمائه ليصف جمال الأميرة زليخة فى تكرار وإسهاب يتقدان حماسة ، حتى إلى حد وصف « حصن العفة والملمس الحرام فيها » .

> وكان نهداها بمثابة كرتين من نور بالغ النقاوة أو فقاعتين تقفزان حديثاً من نافورة كافور ، أو رمانتين صغيرتين تنموان على غصن واحد ، لا يستطيع أى طامع جرىء أن يمسهما بأصبعه(٤٢) .

إن زليخة ترى يوسف فى المنام ، فتقع فى غرامه لأول ظهوره . ولكن أباها يزوجها من وزيره بوتيفار . ثم ترى يوسف بشخصه رأى العين معروضاً للبيع فى سوق الرقيق فتشتريه وتغريه ، ولكنه يرفض صداقتها والتفاهم معها ، فيصيبها الهزال ، ويموت الوزير ، ويحل يوسف محله ، ويتزوج زليخة ، وسرعان ما ينتاب الهزال الاثنين ، إلى حد الموت آخر الأمر . إن حب الله فقط هو الحقيقة وهو الحياة ، إنها قصة قديمة ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يركن إلى هذه المواعظ ؟

٧ — الفن فى آسيا الإسلامية

فى كل البقاع التى وصل إليها الإسلام من غرناطه إلى دلهى وسمرقند ، استخدم الملوك والنبلاء العباقرة والعبيد لبناء المساجد والمقابر ، والرسم على الآجر وإحراقه ، ونسج الحرائر والسجاجيد وصبغها ، وطرق المعادن . والحفر على الخشب والعاج ، وزخرفة المخطوطات بالألوان المائية والخط . واستمسك الخانات والتيموريون والعثمانيون والمماليك ، وحتى الأسرات الصغيرة التى حكمت الأجزاء الضعيفة من العالم الإسلامى ، استمسكوا جميعاً بالتقليد الشرقى ، وهو تلطيف السلب بالشعر ، وتلطيف القتل بالفن .

وفى قرى الريف وفى قصـــور المدن أخرجت الثروة جمالا ، ونعمت قلة محظوظة بقرب أشياء تغرى اليد بلمسها ، وتغرى العين بالنظر إليها .

وكان المسجد لا يزال مجمع الفن الإسلامى . فالطوب والقرميد أكسبا المئذنة جمالا شاعرياً ، وأبواب الخزف المزخرف جعلت من ضوء الشمس ألواناً براقة ، وأبرز المنـــبر الأشكال المتعرجة المحفورة أو التطعيم المعقد فى الخشب ، ووجهت فخامة المحراب قلوب المصلين إلى مكة . وقدمت المصابيح والثريات مشكاتها المعدنية إجلالا وولاء لله . وجعل السجاد من الأرض البلاط مكاناً ليناً وهيأ لركبتى المصلى سجوداً وثيراً . وغلفت المصاحف المذهبة بالحرير الثمين . وعجب كلافيجو « من المساجد الجميلة المزدانة بالآجر الأزرق والذهبى[٤٣] » ، وفى أصفهان أقام أحد وزراء أولجايتو فى مسجد الجمعة محراباً بات فيه الجص العادى من مفاتن الزخرفة العربية والنقش . وشيد أولجايتو نفسه فى « سلطانية » ضريحا فخما (١٣١٣) أراد أن ينقل إليه رفات على والحسين (كان الخان أولجايتو شيعيا) . ولكن خطته أخفقت إخفاقاً محموداً ، فإن عظام الخان ووريت الترب فى هذا الضريح المهيب . وتتسم أطلال المسجد فى فارامين (١٣٢٦) بالضخامة والجلال .

وأولع تيمور بالبناء ، وسرق أفكار العمارة ، كما سرق الفضة والذهب من ضحايا أسلحته . وآثر الضخامة بوصفه فاتحاً ، وكأنما هى ترمز إلى إمبراطوريته وإلى إرادته ، ومثل محدثى الثراء أغرم باللون وأسرف فى الزخرفة . وافتتن بالآجر الأزرق المطلى فى هراة ، فاستقدم خزافين من فارس إلى سمرقند ليكسوا بالطوب اللامع واجهات المساجد والقصور فى عاصمته . وسرعان ما أشرقت المدينة وتألقت بالخزف الفخم . ولحظ فى دمشق قبة بصلية الشكل تنبعج فوق القاعدة ثم يستدق طرفها إلى أعلى حتى يصبح مدببا ، فأمر مهندسيه أن يأخذوا تصميمها وأبعادها قبل أن

تسقط فى الحريق العام ، وتوج سمرقند بمثل هذه القباب ، ونشر هذا الطراز بين الهند وروسيا ، حتى إنك لتراه سائداً من تاج محل إلى الميدان الأحمر . ولما عاد من الهند أحضر معه الفنانين والصناع المهرة : فأقاموا له فى ثلاثة أشهر مسجداً ضخماً هو « مسجد الملك » له بوابة ارتفاعها مائة قدم ، وسقف مرفوع على ٤٨٠ عموداً من الحجر . وشيد لأخته « تشوشوك بيكا » ضريحاً لتدفن فيه ، أصبح تحفة العمارة فى عصره[٤٤] . وعندما أمر ببناء مسجد تخليداً لذكرى زوجته الأثيرة لديه ، بيبى خانون ، أشرف على البناء بنفسه ، وألقى باللحوم إلى العمال فى الحفائر ، ونفح الصناع المهرة المجتهدين بالنقود ، وحثهم أو أجبرهم على العمل ليل نهار ، حتى أقبل الشتاء وتوقف البناء ، وأخمدت حماسته .

وأنجز خلفــاؤه فنا أكثر نضجا . ففى « مشهد » على الطريق بين طهران وسمرقند استخدمت « جوهر شاد » زوجة « شاه رخ » المغامرة ، المهندس المعمارى قوام الدين فى بناء المسجد الذى يحمل اسمها (١٤١٨) ، وهو أروع نتاج الهندسة الإسلامية الفارسية وأغناه بالألوان[٤٥] . وفيه تحيط المآذن المزودة بالفوانيس الرائعة بالضريح وكأنها تحرسه ، وتؤدى أربعة مداخل فخمة إلى فناء رئيسى ، كسيت واجهة كل منها بآجر من الخزف المزخرف ، « لا مثيل لها من قبل ومن بعد »[٤٦] — تحفة الزمان — تتحدى اللون فى مائة شكل من الزخرفة العربية « الأرابسك » والرسوم الهندسية والحركات الزهرية والخط الكوفى الفخم ، وأضفت شمس فارس على هذا مزيداً من البريق والتألق . وفوق الجزء الجنوبى الغربى من الرواق ذى الأعمدة المؤدى إلى حرم المسجد ارتفعت مئذنة من الآجر الأزرق تناطح السماء ، وعلى الباب بحروف بيضاء على أرضية زرقاء نقش إهداء الملكة ، وهو إهداء يفيض فخراً وتقى :

« إن عظمتها العريقة فى المجد ، شمس سماء الطهارة والعفة ...

جوهر شاد ، خلد الله عظمتها وأدام طهارتها ! من مالها الخاص ، ولخير آخرتها ، ومن أجل اليوم الذى يحاسب فيه المرء على ما قدمت يداه ، تقرباً إلى الله وشكراً له سبحانه . . . شيدت هذا المسجد الجامع العظيم ، هذا البيت المقدس ، فى عهد السلطان المعظم ، سيد الحكام ، والد نائب الملك ، شاه رخ ، أدام الله ملكه وإمبراطوريته ! وزاد على أهل الأرض صلاحه وعدله وكرمه !(٤٧) .

ولم يكن مسجد جوهر شاد إلا واحداً من جملة مبان جعلت من مشهد رومة « المذهب الشيعى » ، وهناك على مدى ثلاثين جيلا ، شيد أتباع الإمام الرضا مجموعة كبيرة من العمائر تأخذ فخامتها بالألباب ، ذوات مآذن جميلة وقباب فاخرة ، ومداخل كسيت واجهاتها بالآجر اللامع أو بصفائح الفضة أو الذهب ، وساحات تعكس فسيفساؤها الزرقاء والبيضاء أو خزفها المزخرف أشعة الشمس . وهنا فى ها المنظر العريض الخلاب بأشكاله وألوانه ، استخدم الفن الفارسى كل سحره ليمجد أحد أولياء الله الصالحين ويرهب الحاج الزائر حتى يعمر قلبه بالتقوى والإيمان .

ومن أذربيجان إلى أفغانستان ارتفع فى هذا العصر فى أرض الإسلام ألف مسجد : ذلك أن بيوت العبادة لها من القيمة الكبيرة لدى الإنسان ما لفاكهة الأرض ، ولكن عندنا نحن أهل الغرب المحصورين فى خلايا العقل ، لا تعنى هذه الأضرحة إلا أسماء جوفاء ، بل قد يزعجنا أن نحييها ونكرمها بتلك الانحناءات الجافة المقتضبة . وماذا يعنينا أن جوهر شاد قد حصلت لرفاتها الطاهرة على مقبرة جميلة فى هراه ، وأن شيراز جددت عمارة مسجدها الجامع فى القرن الرابع عشر ، وأن يزد واصفهان قد أضافتا محرابين فاخرين إلى مسجدى الجمعة فيهما ؟ الحق أننا بعيدون جداً ، من حيث الزمان والمكان والتفكير ، إلى حد لا نشعر معه بهذه العظمة والجلال ،

كما أن هؤلاء الذين يقيمون الصلاة فى تلك المساجد لا يستهويهم كثيراً اجتراءاتنا القوطية أوالصور الحسية فى عصر النهضة ، على أنه جدير بنا مع ذلك أن نتأثر ونحن وقوف على أطلال الجامع الأزرق فى تبريز (١٤٣٧ — ١٤٦٧) ونستعيد فى الذاكرة الفخامة التى اشتهر بها يوماً خزفه الأزرق المزخرف وزخرفته العربية الذهبية ، كما لا يغيب عن أذهاننا أن محمد الثانى وبايزيد الثانى شيدا فى القسطنطينية (١٤٦٣ — ١٤٩٧) مساجد تكاد تنافس عظمة كنيسة أياصوفيا . وقد اقتبس العثمانيون التصميمات البيزنطية والأبواب الفارسية والقباب الأرمينية وأفكار الزخرفة الصينية ، ليشكلوا مساجدهم فى بروسه ونيقيا ونيقوميديا وقونيه . لقد كان الفن الإسلامى لا يزال فى أوجه فى هندسة العمارة على الأقل .

وثمة فن واحد فحسب استطاع أن ينهض ويصمد أمام فن العمارة فى الإسلام : (كما صمد داود أمام جوليات — التوراة ، صموئيل الأول ، الإصحاح ١٧ : ٤ ، ٤٩) . فربما حظى الخطاطون ورسامو المنمنمات الصابرون الذين زخرفوا الكتب بأصغر وأدق زخارف وصور وخطوط رمزية بالفرشاة أو القلم — ربما حظى هؤلاء بنصيب من التكريم والإجلال أكثر مما حظى به بناة المساجد . وقد رسمت الصور الحائطية ، ولكن لم يبق من نتاج هذه الفترة شىء منها . ورسمت صور الأشخاص ، ولم يبق منها إلا القليل . وامتثل العثمانيون علانية لتعاليم الكتاب المقدس والقرآن فى تحريم نحت الصور الشخصية ، ولكن محمد الثانى استقدم جنتيل بللينى من البندقية إلى القسطنطينية (١٤٨٠) ليرسم صورته ، وهى المعلقة الآن فى المتحف الوطنى فى لندن . كما توجد نسخ من صورة زعموا أنها لتيمور . على أن المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، بصفة عامة ، آثروا تقاليد الفن الصينى على المحظورات التى جاءت بها الشريعة الإسلامية . فأدخلوا من

الصين على الزخرفة الفارسية التنين والعنقاء وأشـكال السحاب وهالات القداسة والوجوه الشبيهة بالأقمار ، وزاوجوا بينها ـ بطريقة خلاقة ، وبين الأساليب الفارسية فى اللون الشفاف والخط الخالص . وكانت الأساليب المختلطة متماثلة إلى حد بعيد ، فإن رسامى المنمنمات الصينيين والفرس ، على حد سواء ، رسموا لطبقة الأرستقراطيين الذين يحتمل أن ذوقهم كان رفيعاً جداً ، والأرجح أنهم حاولوا إرضاء الخيال والحواس أكثر من تمثيل الأشكال الموضوعية .

وكانت المراكز العظمى للزخرفة الإسلامية فى هذا العصر هى تبريز وشيراز ، هراة . ويحتمل أنه قد جاء من تبريز فى عهد الأيلخانات ، الورقات الخمس والخمسون من كتاب « شاه نامه » ، (كتاب الملوك للفردوسى) — وهى من عمل رسامين مختلفين فى القرن الرابع عشر . ولكن رسم المنمنمات الفارسية بلغ الذروة فى هراة على عهد التيموريين ، وقد استخدم شاه رخ طائفة كبيرة من الفنانين ، وأسس ابنه بيسنقر ميرزا كلية خاصة بالخط والمنمنمات . ومن مدرسة هراة هذه جاءت الشاهنامة (١٤٢٩) وهى معجزة اللون البراق والجمال الدافق ، وهى الآن محفوظة بعناية فى مكتبة قصر جلستان فى طهران ، وتكاد لا يمسها أحد إلا إجلالا وتعظيماً . إن رؤيتها لأول مرة أشبه شىء باكتشاف قصائد كيتس (الشاعر الإنجليزى Keats) .

وكان كمال الدين بهزاد ، هو كيتس الزخرفة الحقيقى أو رافائيل الشرق ؟ لقد عركته تجارب الحياة ، وويلات الحرب وتقلباتها ، فعكس هذا كله بالفن ، ولد بهزاد فى هراة حوالى سنة ١٤٤٠ ، ودرس فى تبريز ، ثم عاد إلى هراة ليرسم للسلطان حسين بن بيقره ، ووزيره المتعدد الجوانب (شاعر وموسيقى ومصور) مير على شير نوائى . وعندما أصبحت هراة مركزاً للأوزبك ولحملات الصفويين ، قصد بهزاد ثانية إلى تبريز . وكان من بين أوائل المصورين الفرس الذين وقعوا على أعمالهم ، ولكن بقايا فنه قليلة فعلا

ومتباعدة . وثمة منمنمتان فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تمثلان « بستان سعدى » وتعرضان حلقة لبعض رجال الدين يتدارسون فيها أسراره . وتحمل المخطوطة تاريخ سنة ١٤٨٩ ، أما العبارة المكتوبة فى نهايتها فتقول « رسمها العبد المذنب بهزاد » . ويضم متحف فرير فى واشنجطن صورة « شاب يرسم » ، وهى نسخة منقولة عن جنتيل بلليني وقعها بهزاد ، وفيها تكشف الأنامل الرقيقة عن الفنانين الرسام والمرسوم كليهما . وليس من المحقق كثيراً أنه هو الذى رسم المنمنمات الموجودة فى المتحف البريطانى ، وهى نسخة مخطوطة « المنظومات الخمس » للشاعر نظامى ، وفى نفس الخزانة توجد مخطوطة « ظفر نامه » أى سجل انتصارات تيمور .

ومن العسير أن تفسر هذه البقايا شهرة بهزاد المنقطعة النظير . إنها تنم على إدراك حسى للأشخاص والأشياء ، وعلى حرارة اللون ومداه ، وعلى حيوية فى التنفيذ تشملها جميعاً دقة رقيقة فى التخطيط . ولكنها لا تكاد توازن بالمنمنمات التى رسمت لدوق برى Berry ، قبل ذلك بقرن من الزمان تقريباً ، ومع ذلك فإن معاصرى بهزاد أحسوا بأنه كان قد أحدث انقلاباً فى الزخرفة بنماذجه الأصيلة فى التأليف ، ومناظره الطبيعية الزاهية وصور شخوصه المفصلة بعناية والتى تكاد تقفز إلى الحياة . وعنه قال المؤرخ الفارسى خواندمير الذى كان يقارب الخمسين من العمر حين مات بهزاد (حوالى ١٥٢٣) ، ربما بدافع التحيز لصداقته له : « إن براعته فى التصوير والتصميم قد طمست ذكرى غيره من مصورى العالم . إن أنامله الموهوبة بمزايا خارقة محت صور سائر الفنانين من بنى آدم »(٤٨) . وجدير بنا أن يهذب من ثقتنا أن نفكر ملياً فى أن هذا قد كتب قبل أن يرسم ليوناردو دافنشى « العشاء الأخير » ويرسم ميكلأنجلو « سقف كنيسة سستين » ، وقبل أن يرسم رافائيل « غرف الفاتيكان » . ومن المحتمل أن خواندمير لم يكن قد سمع بأسمائهم قط .

وانحط فن الخزف فى هذه الحقبة عما كان عليه فى عهد سلاجقة الرى وكاشان ، أما مدينة الرى فقد تركتها الزلازل وغارات المغول أثراً بعد عين ، وأما كاشان فقد خصصت معظم أفرانها لصناعة الطوب : على أن مراكز جديدة للخزف قامت فى سلطانية ويزد وتبريز وهراة وأصفهان وشيراز وسمرقند ، وكان الخزف المزخرف الفسيفسائى آنذاك هو الإنتاج المفضل : فصنعت بلاطات صغيرة من الخزف ، رسمت كل منها بلون معدنى واحد ، وطليت فأصبحت ذات بريق يتطلب أشد العناية لبقائه . وحين كان حماة الفن فى يسر وثراء استخدم البناءون الفرس هذا الخزف المزخرف ، لا للمحاريب والزخرفة فحسب ، بل استخدموه كذلك فى تغطية سطوح كبيرة من أبواب المساجد أو جدرانها ، وثمة نموذج أخاذ فى محراب مسجد بابا قاسم (حوالى ١٣٥٤) فى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك .

واحتفظ صناع المعادن فى الإسلام بمهارتهم ، فصنعوا الأبواب والثريات البرونزية للمساجد من بخارى إلى المغرب (مراكش) ، ولو أن شيئاً منها لم يضـارع تماماً « أبواب الجنة » التى صنعها جيبرتى Ghiberti (١٤٠١ — ١٤٥٢) فى بيت المعمودية بفلورنسه ، وقد صنعوا أحسن أسلحة العصر — الخوذات المخروطية الشكل لكى تجعل الضربات الهاوية تنحرف ، والدروع من الحديد البراق مطعمة بالفضة والذهب والسيوف المرصعة بالنقوش الذهبية أو الأزهار المصنوعة من الذهب . كما صنعوا النقود الجميلة ، كما صنعوا الرسوم النافرة أو الميداليات الكبيرة مثل تلك التى عليها صورة جانبية لمحمد الفاتح البدين القصير ، وشمعدانات برونزية كبيرة حفر عليها الخط الكوفى الفاخر أو الأشكال الزهرية ، كما صبر وزينوا المباخر ومحفظة الكتابةوالمرايا وعلب الجواهر والمجمرات والقوارير والأباريق والطشوت والصوانى ، بل حتى المقص والفرجار كانوا يزينونها بالنقوش بطريقة فنية . ومثل هذا التفوق مشهود به للفنانين والصنا المهرة

المسلمين الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ، أو الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ، أو الذين حفروا العاج أو الخشب أو رصعوه . والنسيج الباقى للآن عبارة عن قطع أو أجزاء صغيرة . ولكن المنمنمات تصور لنا تشكيلة واسعة من المنتجات الجميلة من الكتان الرفيع فى القاهرة إلى الخيام الخريرية فى سمرقند . والحق أن الذى أثار بسرعة حسد أوربا ، هم أولئك المزخرفون الذين صمموا الأنماط والطرز المعقدة ولكنها مع ذلك منطقية : القماش المقصب (البروكار) والقطيفة والحرائر ، للمغول والتيموريين ، بل حتى البسط التركية . وفيما يسمونه الفنون الصغرى قاد الإسلام العالم .

٨ ـ الفكر الإسلامى

أفلت شمس العلم والفلسفة وضاع مجدهما ، لأن الدين كان قد كسب معركته ضدهما ، فى الوقت الذى كان فيه يتراجع ويستسلم فى الغرب المراهق . وكان الذين يحظون بالشرف الرفيع هم رجال الدين والدراويش والنساك والأولياء ، أما العلماء فقد قصدوا إلى استيعاب نتائج أبحاث أسلافهم ، أكثر مما قصدوا إلى إمعان النظر فى الطبيعة من جديد ، وكان آخر تقدم أو محاولة نشيطة فى الفلك الإسلامى فى سمرقند حين صاغ راصد النجوم فى مرصد أولوج بك فى سنة ١٤٣٧ الجداول الفلكية التى حظيت بأعظم التقدير فى أوربا حتى القرن الثامن عشر . وقاد ملاح عربى مزود بجداول وخريطة عربية ، فاسكودا جاما من أفريقية إلى الهند فى المرحلة التاريخية التى وضعت نهاية لسيطرة الإسلام الاقتصادية(٤٩) .

وفى الجغرافيا أنجب المسلمون شخصية عظيمة فذة فى هذا العصر . ففى سنة ١٣٠٤ ولد فى طنجة محمد أبو عبد الله بن بطوطة الذى طاف بدار الإسلام ـ العالم الإسلامى ـ لمدة أربع وعشرين سنة ثم عاد إلى المغرب

ليقضي نحبه فى فاس . وإن يوميات هذا الرحالة لتوحى بمدى انتشار الإسلام الواسع ، فهو يذهب إلى أنه قطع فى رحلاته ٧٥٫٠٠٠ ميل (أكثر من أى إنسان آخر قبل عصر البخار) . كما زعم أنه رأى غرناطة وشمال أفريقية وتمبكتو ومصر والشرقين الأدنى والأوسط وروسيا والهند وسيلان والصين . وأنه زار كل حاكم مسلم فى هذا العصر . وفى كل مدينة كان يقدم احتراماته أولا إلى العلماء ورجال الدين ثم بعد ذلك إلى الملوك والحكام ؛ وإنا لنرى النزعة الإقليمية عندنا منعكسة عليه حين يعدد « الملوك السبعة العظام فى العالم » . وكلهم مسلمون فيما عدا واحدا صينيا(٥٠) . إنه لايصف الأشخاص والأماكن فحسب ، بل يصف كذلك حيوان كل منطقة ونباتها والمعادن والأطعمة والأشربة والأسعار فى مختلف البلاد . وكذلك المناخ ومظاهر الطبيعة والعادات . والأخلاق والطقوس الدينية والمعتقدات ، وهو يتحدث بكل إجلال عن السيد المسيح والسيدة العذراء : ولكنه يشعر ببعض الارتياح والرضا حين يشير إلى أن « كل حاج يزور كنيسة القيامة فى القدس يدفع رسوماً للمسلمين »(٥١) . وعندما عاد إلى فارس روى كل تجاربه ومشاهداته ، فأنزلة سامعوه منزلة القصاص . ولكن الوزير أمر أحد سكرتيريه بتدوين ما أملاه ابن بطوطه من مذكرات . وضاع الكتاب وكاد أن ينسى . حتى وجد أخيرا أثناء الاحتلال الفرنسى الحديث للجزائر .

وفيما بين سنتى ١٢٥٠ ، ١٣٥٠ كان أعظم الكتاب إنتاجاً فى التاريخ الطبيعى من المسلمين . فكتب محمد الدميرى بالقاهرة كتاباً فى علم الحيوان يقع فى ١٥٠٠ صفحة وكان الطب لا يزال قلعة سامية ، (أى علماً برز فيه الجنس السامى) . فكانت المستشفيات كثيرة فى العالم الإسلامى . وشرح طبيب من دمشق هو عـلاء الدين بن النفيس الدورة الدموية الرئوية (١٢٦٠) قبل سرفيتس (طبيب أسبانى : القرن ١٦) بنحو ٢٧٠سنة ،

ونسب طبيب من غرناطة هو ابن الخطيب « الموت الأسود » إلى مرض معد ، وأشار بالحجر الصحي للمصابين — معارضاً بذلك قول رجال الدين بأنه انتقام إلهي من خطايا الإنسان وآثامه . واشتمل بحثه « فى الطاعون » (حوالى ١٣٦٠ على هرطقة مشهورة : « يجب أن يكون من القواعد المقررة لدينا أن أى برهان مأخوذ من تقاليد « أتباع محمد » ينبغى أن يخضع للتعديل إذا تعارض تعارضاً واضحاً صريحاً مع الدليل الذى تأتى به الحواس[٥٣] » .

وكان العلماء والمؤرخون كثيرين مثل الشعراء . وكانوا يكتبون باللغة العربية وهى لغة الاسبرانتو فى العالم الإسلامى ، كما جمعوا فى كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف وبين النشاط السياسى والإدارى . ومثال ذلك أبو الفداء الدمشقى ، فقد اشترك فى اثنتى عشرة حملة حربية ؛ وكان وزيرا للملك الناصر فى القاهرة ، ثم عاد إلى سوريا حاكماً على حماه ، وجمع مكتبة ضخمة ، وألف مجموعة من الكتب تعتبر قمة مثيلاتها فى هاتيك الأيام . وفاق بحثه فى الجغرافيا « تقويم البلدان » فى اتساع مداه ، أى مؤلف أوربى من نوعه فى عصره ؛ وقد قدر فيه أن الماء يغطى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وأشار إلى أن السائح حول العالم يكسب أو يفقد يوماً فى مسيره غرباً أو شرقاً ؛ وكان كتابه « المختصر فى أخبار البشر » هو التاريخ الإسلامى الأساسى المعروف لدى الغرب .

ولكن الاسم اللامع فى كتابة التاريخ فى القرن الرابع عشر هو عبد الرحمن ابن خلدون ؛ فهنا نجد رجلا ذا وزن وقيمة حتى فى أعين أهل الغرب رجلا عركته التجارب والسياحة وفن الحكم الذى مارسه عملياً ، وهو مع ذلك حسن الاطلاع على الفن والأدب والعلوم والفلسفة فى عصره ، يكاد يحيط بالجوانب الإسلامية فى هذا كله فى « تاريخ للعالم » . وإن مولد مثل هذا الرجل فى تونس (١٣٣٢) وارتفاع مكانته هناك ، ليوحيان إلينا

بأن ثقافة شمالى أفريقية لم تكن مجرد صدى للإسلام فى آسيا ، بل كان لها طابع وحيوية خاصتان بها ، وتقول سيرة حياة ابن خلدون : « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته ... » .

وقضى الموت الأسود على أبويه وعلى كثير من المعلمين ، ولكنه تابع دراسته « إلى أن شددت بعض الشيء »[٥٤] وهذا ضرب من الوهم يتميز به الشباب . وعين فى العشرين من عمره سكرتيراً لسلطان تونس ، ثم لسلطان فاس فى الرابعة والعشرين ، وفى سن الخامسة والعشرين دخل السجن . ثم انتقل إلى غرناطة وأرسل سفيراً لها لدى بطرس القاسى فى أشبيلية . وعندما عاد إلى أفريقية أصبح الوزير الأول للأمير أبى عبد الله فى « بجاية » ولكن كان لزماً عليه أن يفر لينجو بنفسه عندما خلع سيده وقتل ؛ وأرسلته مدينة تلمسان فى سنة ١٣٧٠ مبعوثاً لها إلى غرناطة ، ولكن اعتقله فى الطريق إليها أحد أمراء المغرب العربى ، وبقى ابن خلدون أربع سنوات فى خدمة هذا الأمير ثم لجأ إلى حصن بالقرب من وهران ، وهنـــاك (١٣٧٧) كتب « مقدمة تاريخه » وهى مقدمة « لتاريخ العمران » . ولما كان فى حاجة إلى كتب أكثر مما استطاعت وهران أن تمده بها فإنه عاد إلى تونس ، ولكن هناك تألب عليه أعداء من ذوى النفوذ فيها ، فانتقل إلى القاهرة (١٣٨٤) ، وكانت شهرته كعالم قد طبقت الآفاق ، وازدحم حوله الطلاب حين كان يحاضر فى الجامع الأزهر ، وأجرى عليه السلطان برقوق راتباً « كما كانت عادته مع العلماء »[٥٥] . وعين قاضياً للمالكية ، فطبق القوانين بصرامة شديدة وأغلق الملاهى مما أدى إلى هجوه وعزله من منصبه ، فاعتزل الحياة العامة ثانية . ثم أعيد إلى منصب قاضى القضاة ، وصحب السلطان ناصر الدين فرج فى حملة ضد تيمور ، وهزمت القوات المصرية ، فالتمس ابن خلدون ملجأ له فى دمشـــق ، وحاصرها تيمور ،

وكان مؤرخنا آنذاك فى سن الشيخوخة ، فرأس وفداً يلتمس من التترى المنتصر شروطاً لينة رفيقة وأحضر – مثل أى مؤرخ آخر ، مخطوطة تاريخه معه ، وقرأ على تيمور الجزء الخاص به وسأله أن يصحح له معلوماته . وربما كان قد تعمد مراجعة الصفحات قبل ذلك لهذا الغرض نفسه . ونجحت الخطة . وأطلق تيمور سراحه ، وما لبث أن عاد ابن خلدون مرة أخرى قاضياً للقضاة فى القاهرة ، ومات وهو فى هذا المنصب فى سن الرابعة والسبعين (١٤٠٦) .

وألف ابن خلدون وسط هذه الحياة القلقة موجزاً عن فلسفة ابن رشد . وأبحاثاً فى المنطق والرياضيات ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ البربر ، وشعوب الشرق ، والكتب الثلاثة الأخيرة فقط هى الباقية . وهى تشكل فى مجموعها « تاريخ العالم » (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . والمقدمة واحدة من الروائع فى الأدب الإسلامى وفى فلسفة التاريخ . فهى إنتاج « حديث » إلى درجة مذهلة لعقلية عاشت فى العصور الوسطى . ويرى ابن خلدون أن التاريخ « فرع هام من الفلسفة »[٥٦] ، وينظر نظرة عريضة واسعة إلى مهمة المؤرخ :

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »[٥٧] . (ص ٣٣ من مقدمة ابن خلدون طبعة كتاب الشعب — القاهرة ١٩٦٩) .

واعتقاداً منه بأنه أول من كتب التاريخ بهذه الطريقة ، فإنه يسأل القارئ الصفح عن أية أخطاء لم يكن فى الإمكان تجنبها فيقول :

« وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء فى هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، فى النظر بعين الانتقاد ، لا بعين الارتضاء ، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء . فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة ، والحسنى من الإخوان مرتجاة . والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وهو حسبى ونعم الوكيل »[٥٨] . (المصدر السابق ، ص ١٠) .

ثم هو يأمل فى أن يكون كتابه هذا عوناً على الأيام الحالكة التى تنبأ بها :

« وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره . وكأنه خلق جديد ونشأه مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها ، والعوائد والنحل لأهلها ، ويقفو مسلك المسعودى لعصره ، ليكون أصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده[٥٩] » . (المصدر السابق ، ص ٣١) .

ويخصص ابن خلدون بعض صفحات يملؤها الزهو والفخر ، يشير فيهما إلى أخطاء بعض المؤرخين . ويحس بأنهم ضلوا فى مجرد ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً ، وقل أن ارتفعوا إلى مستوى إيضاح الأسباب والنتائج . وتقبلوا الخرافة بمثل الارتياح الذى تقبلوا به الحقيقة تقريباً ، وقدموا إحصاءات مبالغ فيها ، وفسروا أشياء كثيرة جداً بقوى خارقة

للطبيعة ، أما بالنسبة له ، فهو يعتزم أن يعول كلية على العوامل الطبيعية في تفسير الحوادث . ولسوف يحكم على ما يكتبه المؤرخون في ضوء التجارب الراهنة للجنس البشرى ، ويرفض أى حدث مزعوم يعتبر الآن مستحيل الوقوع . فإن التجربة يجب أن تفصل فى صحة التقاليد أو فسادها[٦٠] . وكان منهجه فى « المقدمة » هو أن يعالج أولاً فلسفة التاريخ ، ثم يتناول أشغال الناس ومهنهم وبراعاتهم ، وأخيراً يعرض لتاريخ العلوم والفنون ، وهو يدون فى مجلدات متعاقبة التاريخ السياسى لمختلف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، متعمداً التضحية بوحدة الزمان فى سبيل وحدة المكان . ويقول ابن خلدون إن الموضوع الحقيقى للتاريخ هو الحضارة : كيف تنشأ ، وكيف يحتفظ بها وكيف تنمّى الآداب والعلوم والفنون ، ولماذا تبلى[٦١] ، فالإمبراطوريات — مثل الأفراد — لها حياة ولها مسارات خاصة بها . إنها تنشأ وتنضج وتضمحل[٦٢] فما هى أسباب هذا التعاقب ؟

والأحول الأساسية فى هـذا التعاقب هى أحوال جغرافية . ذلك أن للمناخ تأثيراً عاماً ولكنه أساسى . فالشمال البارد ينتج آخر الأمر ، حتى فى أناس أصلهم من الجنوب ، جلداً أبيض اللون وشعرا خفيفاً ، وعيوناً زرقاء وميلا إلى الجدية . أما الأقاليم المدارية فتنتهى بمرور الزمن إلى الجلد الأسمر والشعر الأسود ، « وتغلب الروح الحيوانية » ، وخفة فى العقل والمرح وسرعة التنقل بين المسرات مما يؤدى إلى الغناء والرقص[٦٣] . ويؤثر الطعام فى الخلق . فالغذاء الثقيل المكون من اللحوم والتوابل والحبوب يسبب بلادة الجسم والعقل ، والاستسلام السريع للقحط أو العدوى . أما الغذاء الخفيف ، مثل هذا الذى تتناوله شعوب الصحراء ، فإنه يساعد على رشاقة الأجسام وصحتها ، وعلى سلامة العقول . وعلى مقاومة المرض[٦٤] . وليس ثمة تفاوت فطرى فى القدرة الكامنة بين شعوب الأرض : فإن تقدمهم

أو تأخرهم تحدده الأحوال الجغرافية ، ويمكن تغييره بتغيير هذه الأحوال ، أو بالهجرة إلى مكان آخر(٦٥) .

أما الأحوال الاقتصادية فهى أقل قوة فقط من الجغرافية . ويقسم ابن خلدون المجتمعات إلى رحل ومقيمة أو مستقرة تبعاً لوسائل الحصول على القوت ، ويعزو معظم الحروب إلى الرغبة فى الحصول على مصادر للغذاء أكثر وفرة . فالقبائل الرحـــل لابد أن تغزو إن عاجـــلا أو آجلا ، الجماعات المستقرة المتوطنة ، لأن هؤلاء الرحل مرغمون بحكم ظروف حياتهم على التمسك بالصفات الحربية مثل الشجاعة وقوة الاحتمال والجلد والتماسك . وقد يدمر الرحل حضارة ، ولكنهم لا يستطيعون إقامة حضارة قط . فإن الشعب المقهور يمتص دماء الرحل وثقافتهم . ولا يستثنى من ذلك العرب الرحل . والحرب أمر طبيعى طالما أن الشعب غير قانع أبدا لأمد طويل بما لديه من غذاء . إن الحرب هى التى تنشئ السلطان السياسى وتجدده ، ومن ثم كانت الملكية هى الشكل المألوف للحكومة . وقد سادت فى كل حقب التاريخ تقريباً(٦٦) . وقد تنشئ السياسة المالية مجتمعاً أو تهدمه ، فإن فرض الضرائب الباهظة أو دخول الحكومة إلى مجـــال الإنتاج والتوزيع ، يمكن أن يخمد أو يقضى على الحوافز والمغامرة والمنافسة ، ويقتل البقرة الحلوب التى تدر الدخل(٦٧) . ومن جهة أخرى فإن الإفراط فى تركيز الثروة قد يمزق المجتمع إرباً بإذكاء نار الثورة(٦٨) .

وثمة قوى معنوية فى التاريخ : وفى تماسك الناس تدعيم للإمبراطوريات ، وأفضل وسيلة لتأمين هذا هو غرس عقيدة واحدة وممارستها . ويتفق ابن خلدون مع البابوات ومحاكم التفتيش والمصلحين الدينيين البروتستانت على عقيدة واحدة .

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب . والتغلب إنما يكون

بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه . قال تعالى : لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا ، حصل التنافس وفشا الخلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضد ، واتسع نطاق الكلمة لذلك ، فعظمت الدولة ، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبالله التوفيق ، لا رب سواه[٦٩] . (المصدر السابق ص ١٤٢) .

وليس الدين عوناً فى الحرب فحسب ، بل إنه كذلك خير عون على النظام فى المجتمع ، وعلى اطمئنان النفس وهدوء البال عند الناس فرادى ؛ ولا يتأتى هذا إلا بعقيدة دينية تتقرر بلا مساءلة ولا جدال . إن الفلاسفة ليبتدعون مئات الأساليب ، ولكن واحداً منهم لم يقع على بديل للدين ، كمرشد ومصدر إلهام للبشر فى حياتهم « وما دام أن الإنسان لا يستطيع فهم الدنيا ، فإن من الخير له أن يتقبل العقيدة التى ينقلها إليه مشرع ملهم تلقى الوحى ، يعرف ما فيه خيرنا ونفعنا أكثر مما نعرف نحن ، ويشرع لنا ما ينبغى علينا أن نؤمن به وما ينبغى علينا أن نفعل[٧٠] ، وبعد هذه المقدمة الرشيدة ينتقل مؤرخنا الفيلسوف إلى تفسير للتاريخ قائم على المذهب الطبيعى .

إن كل إمبراطورية تمر بأطوار متعاقبة :

١ — تحط قبيلة متنقلة منتصرة رحالها لتنعم بما أفاء الله به عليها من فتح رقعة من الأرض أو ولاية . « إن أقل الأقوام حضارة أعظمها فتوحاً »[٧١] .

٢ — وكلما ازدادت العلاقات الاجتماعية تعقيداً ، اقتضى الأمر سلطة أكثر تركيزاً بغية المحافظة على النظام ، فيصبح الرئيس القبلى ملكاً .

٣ — وفى هذا النظام المستتب ، تنمو الثروة ، وتتصاعد المدن ، ويرتقى التعليم والآداب ، وتجد الفنون من يرعاها ، وتبزغ شمس العلوم والفلسفة . ويؤذن التوسع فى سكنى المدن والحياة الناعمة بفضل الثراء ، ببداية الاضمحلال .

٤ — إن المجتمع الذى أثرى يبدأ فى إيثار المسرة والترف والدعة على العمل أو المغامرة أو الحرب ، ويفقد الدين سيطرته على خيال الإنسان وعقيدته ، وتنحط الأخلاق والسلوك ، وينتشر الشذوذ الجنسى ، كما تنحط الفضائل والأعمال الحربية ، ومن ثم يكون الاتجاه إلى استخدام الجنود المرتزقة للدفاع عن المجتمع ، ومثل هؤلاء تعوزهم حماسة الروح الوطنية والعقيدة الدينية ، وكأن الثروة التى لا يحسن الدفاع عنها تغرى بمهاجمتها ملايين الجياع المضطربين فيما وراء الحدود .

٥ — إن الحملات الخارجية أو الدسائس الداخلية ، أو كلتيهما معاً ، تسقط الدولة(٧٢) . تلك كانت دورة الزمن بالنسبة لرومه ، والمرابطين والموحدين فى أسبانيا ، والإسلام فى مصر وسوريا والعراق وفارس ، وهى تجرى دائماً على هذا المنوال(٧٣) .

تلك هى قلة قليلة من آلاف الأفكار التى جعلت من « مقدمة ابن خلدون » أشهر نتاج فلسفى فى القرن الذى عاش فيه . وكان لابن خلدون أفكاره الخاصة به فى كل شىء تقريباً ، فيما عدا الدين الذى يرى أنه ليس من الحكمة أن يكون فيه مبتكراً . وعلى حين أنجز عملا ضخماً من أمهات الكتب فى الفلسفة يصرح بأن الفلسفة خطيرة ، وينصح قراءه بأن يتركوها وشأنها(٧٤) ، ويحتمل أنه قصد ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) واللاهوت ، أكثر مما قصد

الفلسفة بمعناها الأوسع ، كمحاولة لرؤية أحوال الإنسان من وجهة نظر أكثر شمولا . إنه يتحدث فى بعض الأحيان كما تتحدث أبسط امرأة عجوز فى السوق ، فيسلم بالمعجزات والسحر ، و « العين الشريرة » ، والخواص الغامضة لحروف الهجاء ، ونبوءات الأحلام ، والأمعاء ، أو طيران الطيور[٧٥] . وهو مع ذلك يعجب بالعلوم ، ويقر بتفوق اليونان على المسلمين فى هذا المضمار ، ويرثى لتدهور الدراسات العلمية فى الإسلام[٧٦] . ويستنكر الكيمياء القديمة — ويعترف بشىء من الإيمان بالفلك[٧٧] .

وثمة سقطات معينة أخرى يجدر إيرادها . ذلك أنه على الرغم من ابن خلدون كان رحب الأفق ، قدر رحابة الإسلام ، إلا أنه شاطر الإسلام كثيراً من تحديداته ، فلم يجد فى مجلدات مقدمته الثلاثة إلا سبع صفحات للكلام عن المسيحية . ولم يورد ذكر اليونان والرومان وأوربا فى العصور الوسطى إلا عرضاً . وعندما دون تاريخ شمال أفريقية ومصر الإسلامية والشرقين الأدنى والأوسط ، اعتقد بذلك أنه قد روى « تاريخ الشعوب[٧٨] . وهو فى بعض الأحيان جاهل جهلا معيباً يؤاخذ عليه ، فيذهب إلى أن أرسطو كان يعلم من رواق وسقراط من دن[٧٩] . إن كتابته الفعلية فى التاريخ تتخلف كثيراً عن مقدمته النظرية ، ومجلداته عن البربر والشرق عبارة عن سجل جاف موحش لأنساب الأسرات وتسلسلها ، ودسائس القصر ، والحروب الصغيرة . ومن الواضح أنه قصد أن تكون هذه المجلدات تاريخاً سياسياً فحسب ، وكتب المقدمة بوصفها تاريخاً للثقافة ، ولو أنها على الأرجح نظرة عامة فى الثقافة .

ولكى نستعيد تقديرنا وإجلالنا لابن خلدون ، حرى بنا أن نتساءل فقط عن أى عمل مسيحى فلسفى فى القرن الرابع عشر يمكن أن يضارع « المقدمة » . وربما كان بعض المؤلفين القدامى قد تناولوا جانباً من هذا الميدان الذى طرقه ابن خلدون . وكان أحد أبناء جلدته ، وهو المسعودى (المتوفى ٩٥٦) قد

عالج فى كتاب مفقود الآن ، تأثير الدين والاقتصاد والسلوك والبيئة على شخصية الشعب وقوانينه ، كما تناول أسباب الاضمحلال السياسى(٨٠) .
ومهما يكن من أمر فقد أحس ابن خلدون ؛ وله بعض الحق ، أنه خالق علم الاجتماع . إننا لا نستطيع ، فى أى أدب كان قبل القرن الثامن عشر ، العثور على فلسفة للتاريخ ، أو على منهج لعلم الاجتماع ، يمكن أن يبارى فى قوته ومداه ودقة تحليله منهج ابن خلدون . إن رائد فلسفة التاريخ فى عصرنا قد حكم على مقدمة ابن خلدون بأنها أعظم تأليف من نوعه أنتجه عقل بعد فى أى زمان أو مكان(٨١) . وقد يقارن به كتاب هربرت سبنسر « مبادئ علم الاجتماع » ١٨٧٦ — ١٨٩٦ ، ولكن كان لسبنسر معاونون كثيرون . إننا على أية حال قد نتفق مع مؤلف ممتاز مشهور فى تاريخ العلوم « على أن أهم مؤلف تاريخى فى العصور الوسطى »(٨٢) هو مقدمة ابن خلدون .

الفصل الحادي والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ — ١٥٦٦

١ ـ الإسلام فى أفريقية : ١٢٠٠ ـ ١٥٦٦

إنه من العسير علينا ، نحن المحصورين فى العالم المسيحى ، أن ندرك أنه منذ القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ، كان الإسلام متفوقاً على أوربا من النواحى الثقافية والسياسية والعسكرية . وحتى فى أيام اضمحلاله فى القرن السادس عشر ، ساد من دلهى وما وراءها حتى كازابلانكا ، ومن أدرنه إلى عدن ، ومن تونس إلى تمبكتو . ويحدثنا ابن بطوطة الذى زار السودان ١٣٥٣ أنه وجد هناك حضارة مشرقة تحت راية الإسلام ، وكتب بعد ذلك مؤرخ من السود هو عبد الرحمن السعدى (١٦٥٠) ، تاريخاً كشافاً بارعاً ، يصف مكتبات خاصة تضم ١٦٠٠ مجلد فى تمبكتو ، ويصف المساجد الضخمة التى تشهد أطلالها بمجد غابر .

وحققت أسرة المارينى (١١٩٥ ـ ١٢٧٠) استقلالاً لبلاد المغرب ونهضت بفاس ومراكش إلى مصاف المدن الكبرى ، وكان فى كل منهما مداخل جليلة ومساجد مهيبة ومكتبات عامرة بذخائر العلم والمعرفة ، ومدارس قائمة وسط أعمدة ظليلة ، وأسواق صاخبة يمكن أن يشترى المرء منها أى شىء بنصف الثمن . وكان يقطن فاس فى القرن الثالث عشر نحو ١٢٥٫٠٠٠ نسمة ، وربما كان هذا أكبر من سكان أية مدينة فى أوربا ، باستثناء القسطنطينية وروما وباريس . وفى مسجد القيروان وهو مقر أقدم جامعة فى المغرب درس الدين والعلوم جنباً إلى جنب ، وقد جذبت هذه الجامعة إليها الطلبة المتعطشين من كل بقاع الإسلام فى أفريقية ، والمعلمين

والمحامين ورجال الدين ورجال الحكم ، ليدرسوا مناهج شاقة لمدة تتراوح بين ثلاث سنين واثنتى عشرة سنة . وكان الأمير يعقوب الثانى الذى حكم بين ١٢٦٩ — ١٢٨٦ من فاس أو من مراكش ، من أكثر الأمراء استنارة فى قرن تقدمى . وكان حاكماً عادلا ومحسناً خيراً حكيماً ، لطف الدين بالفلسفة ، ونأى بنفسه عن التعصب الأعمى ، وشجع الاتصال الودى بالأوربيين . واستقبلت هاتان المدينتان كثيراً من اللاجئين من أسبانيا ، وأحضر هؤلاء معهم حوافز جديدة للاستزادة من العلوم والفنون والصناعة . وإن ابن بطوطة الذى كان قد رأى معظم العالم الإسلامى المترامى الأطراف ليسمى مراكش « جنة الدنيا » .

ويدهش السائح الحديث فى طريقه من فاس إلى وهران ، عندما يجد فى تلمسان بقايا متواضعة لما كان فى القرن الثالث عشر مدينـــة تضم ١٢٥٫٠٠٠ نسمة . وكان بها ٦٤ مسجدا بقى منها ثلاثة فقط : الجامع الكبير (١١٣٦) ، ومسجد أبى الحسن (١٢٩٨) ومسجد الحـــلاوى (١٣٥٣) وهى من أجمل المساجد فى العالم الإسلامى ، فيها أعمدة الرخام والفسيفساء المعقدة ، والمحاريب الرائعة ، الساحات ذوات العقود والخشب المحفور والمآذن السامقة ، وهى باقية لتكون شاهدا على العظمة الغابرة التى كادت أن تنسى . وهنا احتفظت أسرة عبد الواحد لمدة ثلاثة قرون (١٢٤٨ — ١٣٣٧ ، ١٣٥٩ — ١٥٥٣) بحكم كفل للمسيحيين واليهود الحرية الدينية ، كما رعت الآداب والفنون ، وبعد أن استولى الأتراك على المدينة ، فقدت أهميتها كمركز للتجارة ، واضمحلت وانزوت فى ظلال التاريخ .

وإلى الشرق من المغرب ، ازدهرت الجزائر بفضل مزيج من التجارة والقرصنة . وقام ثغر الجزائر الجميل ، نصف مختبئ فى خليج نصف دائرى تحف به الصخور ، المؤلف من طبقات بعضها فوق بعض من شقق

وقصور تمتد من البحر المتوسط إلى كسبه ، نقول هيأ هذا الثغر للقرصان ومراكبهم مخبأ آمناً مفضلا لديهم ، وحتى منذ أيام بومبى كان قرصان هذا الشاطئ يغيرون على المراكب العزل . ومنذ ١٤٩٢ أصبحت الجزائر ملجأ للمغاربة المسلمين الفارين من أسبانيا . وقد التحق كثير منهم بسفن القراصنة ، وانقضوا بسورة الانتقام على أية سفن مسيحية يتربصون لها . وتضاعف عدد القرصان واشتدت جرأتهم ، فكونوا أساطيل قوية فى مثل قوة الأساطيل الوطنية وأغاروا على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط ، فردت أسبانيا على ذلك بحملات وقائية استولت على وهران والجزائر وطرابلس (١٥٠٩ — ١٥١٠) .

ودخل الميدان فى ١٥١٦ قرصان جبار نشيط ، أطلق عليه الإيطاليون لقب بربروسه ، بسبب لحيته الحمراء ، واسمه الحقيقى خير الدين خضر ، وكان يونانياً من لسبوس حضر مع أخيه هورش Horash لينخرط فى سلك القرصان . وعلى حين وصل بنفسه إلى مرتبة القيادة فى الأسطول ، قاد هورش جيشاً ضد الجزائر ، وطرد الحامية الأسبانية ونصب نفسه حاكماً على المدينة ، ومات أثناء القتال (١٥١٨) ، فاحتل خير الدين مكان أخيه ، وأدار شئون الحكم بقوة ومهارة ، وقصد خير الدين ، رغبة منه فى تثبيت مركزه ، إلى القسطنطينية حيث عرض على السلطان سليم الأول السيادة على طرابلس وتونس والجزائر فى مقابل قوة تركية كافية للاحتفاظ بسلطانه بوصفه حاكماً من قبل السلطان على هذه الأقاليم ، ووافق سليم ، وأكد سليمان هذه الاتفاقية . وفى ١٥٣٣ أصبح خير الدين بطل الإسلام فى الغرب بأن هيأ لسبعين ألفاً من المغاربة العبور إلى أفريقية من أسبانيا القاسية غير المضيافة ، ولما عين بربروسه أول قائد عام للأسطول التركى برمتـــه ، أغار بأربع وثمانين سفينة تحت إمرته على المدينة تلو المدينة على شواطئ صقلية وإيطاليا ، وأسر آلافاً من المسيحيين بيعوا بيع الرقيق . ورسا بربروسه قرب نابلى ،

وكاد ينجح فى أسر جيوليا جنزوجا كواونا التى اشتهرت بأنها أجمل سيدة فى إيطاليا ، إلا أنها فرت شبه عارية ممتطية جواداً ، وبمعيتها فارس واحد بوصفه حارساً لها ، فلما وصلت إلى المكان المقصـود أمرت بإعدامه لأسباب أغفلت ذكرها ويمكن استنتاجها .

ولكن بربروسه كان يهدف إلى غنيمة أبقى على الأيام من سيدة جميلة ، فأنزل إلى البر جنوده الانكشارية ، وتقدم نحو تونس (١٥٣٤) . وكانت أسرة بنى النفيس قد حكمت تلك المدينة حكماً صالحاً منذ ١٣٣٦ ، وازدهرت الآداب والفنون تحت رعايتهم ، ولكن مولى حسن الذى كان أميراً آنذاك ، كان قد باعد بينه وبين الأهالى بوحشيته وقساوته ، وما أن اقترب بربروسه حتى لاذ الأمير بالفرار فسقطت تونس دون إراقة الدماء . وضمت إلى ملك آل عثمان ، وأصبح بربروسه سيد البحر المتوسط .

ووقع العالم المسيحى فى محنة ثانية ، لأن الأسطول التركى كان يستطيع فى أية لحظة أن يهيء للإسلام الدخول إلى جنوب إيطاليا . ومن الغريب حقاً أن فرانسوا الأول (ملك فرنسا) كان متحالفاً إذ ذاك مع تركيا ، كما كان البابا كليمنت السابع حليفاً لفرنسا . ومن حسن الحظ أن كليمنت قضى نحبه (٢٥ سبتمبر ١٥٣٤) فخلفه البابا بول الثالث الذى تعهد لشارل الخامس بالمال اللازم لمهاجمة بربروسه ، وعرض أندريه دوريا تعـاون أسطول جنوه تعاوناً كاملا فى هذه الحملة . وفى ربيع ١٥٣٥ جمع شارل الخامس فى كاجلياري فى سردينيا ٤٠٠ سفينة وقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . وعبر البحر المتوسط ، وحاصر لاجولتا ، وهو حصن يسيطر على خليج تونس ، وسقط الحصن بعد قتال دام شهراً ، وتقدم الجيش الإمبراطورى نحو تونس . وحاول بربروسه وقف تقدمه ، ولكنه هزم ولاذ بالفرار . وحطم الأرقاء المسيحيون فى تونس أغلالهم وفتحوا الأبواب ، ودخل شارل المدينة دون مقاومة ، وأباح لجنـوده السلب

والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فلقى آلاف من المسلمين حتفهم . ودمرت حصيلة قرون من الفنون فى يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون وسط مظاهر الابتهاج ، ووقع براثن العبودية من بقى من السكان المسلمين . وأعاد شارل الأمير مولى حسن كحاكم تابع يؤدى له الجزية ، وأبقى حامية فى كل من بونا ولاجولتا ، وعاد هو إلى أوربا .

فر بربروسه إلى القسطنطينية ، وبنى بأموال من سليمان أسطولا جديدا مكوناً من مائتى سفينة . وفى يولية ١٥٣٧ ألقت هذه القوات مراسيها فى تارنتو ، وضرب الحصار على العالم المسيحى ثانية . وتشكلت « العصبة المقدسة » من جديد من البندقية والبابوية والإمبراطورية ، وجمعت مائتى سفينة بعيدا عن كورفو، وفى ٢٧ سبتمبر اشتبك الأسطولان المتصارعان فى القتال عند مدخل خليج أمبراسيا ، فى نفس المياه التى التقى فيها أنطونيوس وكليوباترة مع أكتافيوس فى معركة أكتيوم . وكانت الغلبة لبربروسه ، وأصبح مرة أخرى سيد البحار ، وسار شرقاً واستولى فى طريقه على ممتلكات البندقية فى بحر إيجه واليونان بعضها إثر بعض ، وأرغم البندقية على عقد صلح منفرد .

وحاول شارل أن يكسب بربروسه للالتحاق بخدمته بما أغدق عليه من هدايا ، وبما عرض عليه من أن يكون ملكاً تابعاً له على شمالى أفريقية ، ولكن خير الدين آثر جانب الإسلام وإغراءه . وفى أكتوبر ١٥٤١ قاد شارل ودوريا حملة ضد الجزائر ، ولكن جيش بربروسه أوقع بها الهزيمة فى البر كما هبت عليها عاصفة مدمرة فى البحر ، ورد بربروسه على العدوان بالمثل ، بالإغارة على كالابريا والنزول فى أوستيا ثغر مدينة رومه ، وارتعدت العاصمة الكبيرة فى عقر دارها فرقاً ، ولكن بول الثالث كان آنذاك على علاقات حسنة مع فرانسوا فعوض بربروسه ، ادعاء بمجاملة حليفه عن كل ما أخذه من أوستيا نقداً ، ورحل عنها فى سلام[1] : وأبحر إلى طولون ،

حيث لقي أسطوله ترحيباً ممن كانوا فى الواقع فرنسيين ، وطلب أن تكف أجراس الكنيسة عن القرع طالما كانت « سفن الله » فى الميناء لأن أصواتها تقض مضجعه ، وكان مطلبه قانوناً . واشترك مع أسطول فرنسى فى الاستيلاء على نيس وفيلفرانش من الإمبراطور . وفى سن السابعة والسبعين اعتزل القرصان المنتصر الظافر تحيط به كل مظاهر الإجلال والتكريم ، ليقضى نحبه فى فراشه ١٥٤٦ ، وقد بلغ الثمانين .

وسقطت بونا ولاجولتا ثانية فى أيدى المسلمين . ووصلت الإمبراطورية العثمانية من الجزائر إلى بغداد . ولم تجرؤ سوى دولة إسلامية واحدة على تحدى سيطرتها على العالم الإسلامى .

٢ — فارس تحت حكم الصفويين
١٥٠٢ — ١٥٧٦

إن بلاد فارس التى كانت قد نعمت بفترات كثيرة من الخصب الثقافى ، كانت الآن تمر بحقبة أخرى من الحيوية السياسية والابداع الفنى . وعندما أسس الشاه إسماعيل الأول الأسرة الصفوية (١٥٠٢ — ١٧٣٦) كانت فارس تعانى فوضى التمزق بين ملوك ضعاف ، فكان العراق ويزد وسافان وفيروزكه ودياربكر وكاشان وخراسان وقندهار وبلخ وكرمان وأذربيجان ، كلها ولايات مستقلة بعضها عن بعض . وفى حملات جبارة لا ترحم ، غزا إسماعيل أمير أذربيجان معظم هذه الإمارات واستولى على هراة وبغداد ، وجعل ثانية من تبريز عاصمة لمملكة قوية . ورحب الناس بهذه الأسرة من بنى جلدتهم ، تلك الأسرة التى تألق مجدها فيما أسبغت على البلاد من وحدة وقوة ، وعبروا عما يختلج فى نفوسهم ببعث جديد للفن الفارسى .

إن لارتقاء إسماعيل إلى الملك قصة لا تصدق ، ذلك أنه كان فى سن الثالثة عندما مات أبوه (١٤٩٠) ، وفى الثالثة عشرة شرع يكسب لنفسه عرشاً ، وفى نفس السن لبس التاج وصار شاه فارس . ويصفه المعاصرون

بأنه « شجاع مثل ديك المصارعة الصغير » ، « نشيط رشيق مثل الساطير » (من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل وأذنا فرس) ، قوى عريض المنكبين ، ذو شوارب رهيبة ، وشعر أحمر براق »[١] وكان يستخدم ببراعة سيفاً جباراً بيده اليسرى . وكان فى الرمى بالقوس أوديسيوس آخر ، يصيب بقوسه سبع تفاحات من عشر مرصوصة على صف واحد[٢] . ويروى أنه كان « أنيساً لطيفاً كالبنت » ، ولكنه قتل أمه (أو زوجة أبيه) ، كما أمر بإعدام ٣٠٠ من المومسات فى تبريز ، وذبح الآلاف من الأعداء[٣] . وقال سائح هندى إنه كان محبوباً لدى الشعب حتى « نسى اسم الله » فى فارس ولم يذكر إلا اسم إسماعيل وحده[٤] .

وكمن سر نجاح إسماعيل فى الدين والجرأة . وكان المذهب الشيعى هو السائد فى فارس ، أى « أشياع » على ، صهر محمد أو زوج ابنته ، ولم يعترف الشيعة بخلفاء شرعيين غير على وخلفائه الاثنى عشر وهم « الأئمة » ، ولما كان الدين والحكومة غير منفصلين فى الإسلام ، فإن لمثل هذا الخليفة ، طبقاً لهذه النظرية حقاً إلهياً فى الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . وكما اعتقد المسيحيون أن المسيح سوف يعود ليؤسس مملكته على الأرض ، كذلك اعتقد الشيعة أن الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن — لم يمت قط ، وأنه سوف يظهر من جديد فى يوم من الأيام ليقيم حكمه المبارك على الأرض . وكما أدان البروتستانت الكاثوليك بأنهم ارتضوا التقاليد جنباً إلى جنب مع الكتاب المقدس كدليل أو مرشد إلى العقيدة الصحيحة ، كذلك اتهم الشيعة أهل السنة — وهم الغالبية الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الذين وجدوا أن الطريق المستقيم ليس فى القرآن وحده بل كذلك فى كل ما أتى الرسول كما جاء فى تقاليد أصحابه وأتباعه . وكما ترك البروتستانت الصلاة على القديسين وأغلقوا الأديرة ، لم يشجع الشيعة التصوف وأغلقوا أروقة الدراويش ، التى كانت مثل أديار أوربا فى بدايتها ، مراكز لكرم الضيافة

والبر والإحسان » وكما أطلق البروتستانت على مذهبهم اسم « الدين الحق » ، اتخذ الشيعة اسم « المؤمنين »[٥] (المعتقدون الحقيقيون) . ولا يؤاكل الشيعي المتمسك بمذهبه سنياً أبداً ، وإذا وقع ظل مسيحى على طعام شيعى وجب أن ينبذ الطعام على أنه دنس (*)[٦].

وادعى إسماعيل أنه من نسل الإمام السابع « صفى الدين » (نقاء العقيدة) ، وباسمه سميت الأسرة الجديدة . وأعلن إسماعيل أن المذهب الشيعى هو المذهب الوطنى والرسمى لفارس ، وأنه الراية المقدسة التى حارب فى ظلها ، ومن ثم وحد قومه فى إخلاص يتسم بالتقى والورع ضد المسلمين السنيين الذين طوقوا فارس — الأوزبك والأفغان فى الشرق ، والعرب والأتراك والمصريين فى الغرب . ونجحت خطته . وكان شعبه يعبده على أنه قديس (ولى من أولياء الله الصالحين) ، وكان رعاياه يثقون فى قوته الإلهية لحمايتهم ، إلى حد أن بعضهم رفض أن يلبس الدرع فى المعركة[٧] .

وما أن فاز إسماعيل بهذا السند الملتهب حماسة — وهو الشعب — حتى أحس أنه من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى جيرانه . وكان الأوزبك الذين حكموا بلاد ما وراء النهر ، قد بسطوا سلطانهم حتى خراسان ، فانتزع منهم هراة وطردهم من فارس ، ولما اطمأن إلى سلامته فى الشرق ولى وجهه شطر الغرب ضد العثمانيين . واضطهد كل من الطرفين الآخر آنذاك بقوة مقدسة . وقيل فى رواية غير موثوقة إن السلطان سليماً قتل أو سجن ، قبل الذهاب إلى القتال (١٥١٤) ، أربعين ألفاً من الشيعة فى نطاق مملكته ، وإن إسماعيل شنق بعض السنيين الذين كانوا يشكلون الغالبية فى تبريز ، وأمر الباقين بأن يرتلوا يومياً أدعية يلعنون فيها الخلفاء الثلاثة الأولين على

(*) تلك مبالغات من المؤلف ، أثبتناها لمجرد الأمانة فى النقل ، ولعل القارئ لا يعيرها التفاتاً . (المترجم)

اعتبار أنهم اغتصبوا حق على فى الخلافة . ومهما يكن من أمر ، فإن الفرس وجدوا الشيعة فى معركة جالديران عاجزين أمام مدفعية سليم العبوس وجنده الانكشارية . واستولى سلطان العثمانيين على تبريز ، وأخضع شمالى أرض الجزيرة (١٥١٦) ، ولكن جيوشه تمردت ، فتقهقر وعاد إسماعيل إلى عاصمة ملكه تحف به كل عظمة ومجد يمكن أن يحاط بهما ملك عسكرى . وانحط الأدب أثناء حكمه المضطرب القلق ، ولكن الفن ازدهر تحت رعايته ، فقد كان يرعى المصور بهزاد ، وقدر أنه يساوى نصف فارس[٨] . ومات إسماعيل فى سن الثامنة والثلاثين ، بعد أن قضى فى الحكم ٢٤ عاماً . وخلف عرشه لابنه البالغ من العمر عشر سنوات ١٥٢٤ .

وكان الشاه طهماسب الأول ضعيف الإيمان جباناً ، سوداوى المزاج كئيباً مترفاً منغمساً فى اللذات ، وقاضياً خشنا ، يرعى الفنون ويمارسها ، شيعيا تقيا ، كما كان معبود شعبه ، وربما تحلى ببعض فضائل أخفاها عن عيون التاريخ . إن التوكيد المستمر على الدين أرباك الحكومة كما قواها ، وذلك أنه من أجل الدين شنت الحرب اثنتى عشرة مرة ، وظل العالم الإسلامى فى الشرقين الأدنى والأوسط ممزقا متنابذاً من ١٥٠٨ إلى ١٦٣٨ ، وأفاد العالم المسيحى من هذه الفرقة ، حيث انقطع سليمان القانونى عن شن هجماته على الغرب ، ووجه حملاته نحو فارس . وفى ذلك كتب سفير فرديناند فى القسطنطينية يقول : « إن فارس هى التى تقف حائلا بيننا وبين الدمار »[٩] . وفى ١٥٣٣ قاد الوزير الأكبر إبراهيم باشا جيشا تركياً نحو أذربيجان ، واستولى فى طريقه على الحصون الواحد تلو الآخر ، بتقديم الرشوة إلى القواد الفرس ، وأخيراً استولى على تبريز وبغداد دون أن يضرب ضربة واحدة (١٥٣٤) . وبعد أربع عشرة سنة ، وفى أثناء هدنة مع فرديناند ، قاد سليمان جيشاً آخر ضد « الرءوس الحمراء الوضيعة » (وهو الاسم الذى أطلقه الاتراك على الفرس) ، وانتزع

إحدى وثلاثين مدينة ، ثم استأنف هجماته على العالم المسيحي . وفيما بين عامى ١٥٢٥ ، ١٥٤٥ ، عاود شارل المفاوضة مع فارس المرة بعد المرة ، بافتراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف فى وجه سليمان . وابتهج الغرب حين تولت فارس الهجوم وانتزعت أرضروم . ولكن سليمان عاد فى ١٥٥٤ واكتسح مساحات كبيرة من فارس ، وأرغم طهماسب على عقد صلح بقيت مقتضاه بغداد والقسم الأدنى من أرض الجزيرة تحت حكم الأتراك .

وثمة شىء أكثر إمتاعاً من هذه الصراعات الكئيبة تلك هى الرحلات الجريئة المغامرة التى قام بها أنطونى جنكنسون إلى بلاد ما وراء النهر وفارس ، بحثاً عن طريق برى إلى الهند والصين ، وكان مسلك إيفان الرهيب فى هذا الموضوع لطيفاً ودياً ، فقد رحب بجنكنسون فى موسكو ، وبعث به سفيراً له لدى حكام الأوزبك فى بخارى ، ووافق على السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى روسيا معفاة من الرسوم الجمركية ، ومرورها فى نهـــر الفولجا عبر بحر قزوين . وكتبت للرحالة النجاة من عاصفة هوجاء فى هذا البحر ، واصل بعدها الرحلة إلى فارس ووصل إلى قزوين سنة ١٥٦١ . وهناك سلم طهماسب رسائل التحية من ملكة بعيدة ، بدا للفرس أنها سيدة قليلة الشأن تحكم قوما من الهمج ، وكان الفرس ميالين إلى عقد اتفاقية تجارية ، ولكنهم عندما أعلن جنكنسون أنه مسيحى ، أمروه بمغادرة البلاد ، قائلين : « ليس بنا من حاجة إلى مصادقة الكفار » . وبعد أن انصرف من حضرة الشاه ، جاء أحد الخدم فغطى بالرمل المطهر آثار أقدام المسيحى التى دنست قصر الشيعة[10] .

وبموت طهماسب (١٥٧٦) انقضت أطول فترة حكم لأى من الحكام المسلمين عدا واحدا . ولكنها فترة من أشد الفترات امتلاء بالنكبات . ولم يتميز هذا العهد بأية آداب يعتز بها الفرس فى ذاكرتهم ، إذا لم تستثن

مذكرات بابر Babur الذى أبعد عن بلده . ولكن الفن على عهد الصفويين ، ولو أنه سيبلغ ذروته متأخرا عنهم ، بدأ فى هذين العهدين (عهد إسماعيل وابنه) ينتج أعمالا تتسم بالعظمة والتألق والنقاوة التى تميزت بها منتجات فارس الغنية لمدة اثنين وعشرين قرنا . وقد أبرزت مقبرة « هارون الولاية » فى اصفهان كل ما أودع فى الرسم الكلاسيكى الفارسى من دقة ورقة ، وأزهى الألوان ، وتقطيع الفسيفساء الخزفية المزخرفة . كما توج بوابة مسجد الجمعة الكبير نصف قبة معقدة . وأسس كذلك فى هذا العصر فى شيراز « مسجد جامع » آخر ، ولكن الزمن لم يبق على شىء منه .

وثمة أمثلة كثيرة دلت على أن أشغال التذهيب الدقيقة والخط صمدت على تعاقب الزمن أكثر مما صمدت آثار العمارة ، وبرزت العناية التى بذلها المسلمون فى إخراج الكتاب (المخطوطات) حتى كادت تجعل منه معبوداً يحوطه الإجلال والحب . إن العرب الذين كانوا فخورين بكل شىء افتتنوا افتتاناً مستساغاً مغفوراً لهم بحروف الهجاء عندهم ، تلك التى وهبت لهم من نفسها سطوراً من جمال حسى ، فالفرس ، فوق كل شىء جعلوا من الخط فناً لتزيين محاريب مساجدهم وأبوابهم ، والمعادن التى يصنعون منها أسلحتهم ، والفخار الذين يصنعون منه أعمال الخزف ، ونسيج سجاجيدهم ، ثم المصاحف ودواوين الشعراء ، وكل أولئك تعتز به الأجيال على أنه متعة للعين وبهجة للنفس . أما خط « النستعليق[*] Nastaliq »

(*) للخط العربى أسلوبان رئيسيان هما الكوفى والنسخ . عرفهما المسلمون فى القرن السابع الميلادى وهو مبدأ التاريخ الإسلامى . وأدخل على هذين النوعين بعض التعديل على مر العصور فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، وظهر فى القرن الثالث عشر الميلادى فى إيران نوع من الخط يعرف بالتعليق ومن مميزاته ميل حروفه من اليمين إلى اليسار فى اتجاهها من أعلى إلى =

(أو الخط المائل) الذى كان قد ازدهر فى عهد التيموريين فى تبريز وهراة وسمرقند ، فقد عاد إلى تبريز على عهد الصفويين ، وذهب معهم إلى اصفهان . وكما ضم المسجد عديداً من الفنون بعضها إلى بعض ، كذلك جمع الكتاب بين الشاعر والخطاط ورسام المنمنمات والمجلد (الذى يقوم بالتجليد) فى تعاون يتسم بالتفانى والإخلاص والورع .

وظل فن التذهيب مزدهراً فى بخارى وهراة وشيراز وتبريز . ويضم متحف الفنون الجميلة فى بوسطن مخطوطة رائعة لشاهنامة الفردوسى ، بإمضاء عراجى محمد القوام الشيرازى (١٥٥٢) ، وفى متحف كليفلند نسخة أخرى من عمل مشهدى الكاتب (١٥٣٨) ، ويضم متحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك نموذجاً من أروع نماذج التذهيب والخط فى تبريز ، وهى صحيفة العنوان فى مخطوطة «المنظومات الخمس» لنظامى (١٥٢٥) . وانتقل مركز التذهيب الإسلامى إلى تبريز حين اختارها بهزاد مقراً له (١٥١٠) . وفى أثناء معركة جالديران خبأ الشاه إسماعيل الصفوى المصور بهزاد والخطاط محمود النيسابورى فى كهف ، بوصفهما أثمن ما يمكن أن يقتنى[١١] . ورسم أقاميرك ، تلميذ بهزاد ، فى تبريز واحدة من أروع المنمنمات فى هذا العصر ، وهى صورة « تتويج خسرو وشيرين » (١٥٣٩) وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطـانى . وعلم ميرك بدوره الفن لتميذه « سلطان محمد نور الذى ولد فى أسرة غنية ، ولكنه تجاهل حقيقة أن لديه من الوسائل ما يستطيع معها أن يكون لاهياً تافهاً ، فأصبح

= أسفل . وابتكر الخطاط مير على التبريزى فى القرن الخامس عشر « النستعليق » يحتفظ بمميزات النسخ والتعليق معاً . وهو نوع أكثر رشـاقة من غيره من الخطوط « من كتاب الفنون الإسلامية لمؤلفه م . س ديماند ، ترجمة أحمد عيسى ص ٧٦ — ٨٦ ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤ » . (المترجم)

« اللؤلؤة التى لا تقدر بثمن » فى بلاط شاه طهماسب لأنه فاق كل أهل زمانه فى الخط والتذهيب ، وفى تصميم أغلفة الكتب والسجاجيد ، وفيما بين عامى ١٥٣٩ و١٥٤٣ نسخ مخطوطة المنظومات الخمس لنظامى ووضحها بالرسوم ، وثمة صفحة رائعة فى المتحف البريطانى تمثل الملك خسرو ممتطياً صهوة جواد قرنفلى اللون ، وهو ينعم النظر وسط نقوش النباتات والزهور ذوات اللون الأخضر والأسمر والذهبى ، إلى شيرين وهى نصف عارية تستحم فى بركة فضية . وثمة صورة أروع وأزهى ألواناً ، للرسول وقد أسرى به فى السموات السبع على حصانه المجنح « البراق » (ليزور الجنة والنار ! هكذا فى النص الإنجليزى !) والأشكال عبارة عن جمال مجسم ، ولكن المصور تعمد لأسباب دينية ، ألا يكون بها تقاطيع مميزة فردية ، فقد كان الفنان مهتماً بالزخرفة أكثر منه بالتشخيص ، وبالجمال الذى يكون موضع التقدير والاحترام ، وهو جمال يمكن الوصول إليه أحياناً إذا كان ذاتياً أو شخصياً ، أيسر من الوصول إلى الحقيقة التى تفلت دائماً إذا كانت موضوعية . وقد بلغ التذهيب ذروته فى هذه المنمنمات .

وحظيت المنسوجات والسجاجيد بمثل هذه العناية المحببة إلى النفس . ولم يبق شىء من منسوجات هذه العهود ، ولكن المنمنمات تصورها . وتفوق مصممو السجاد وعماله المهرة فى عهد الصفويين . وبدا أن السجاد عنصر أساسى فى حضارة الإسلام . ولم يجلس المسلمون أو يأكلوا على الكراسى ، ولكن على الأرض المفروشة بالسجاد . وهناك سجادة خاصة للصلاة عليها فى العادة رموز دينية وآيات قرآنية ، يسجد عليها المسلمون فى صلواتهم . وكانت السجاجيد مفضلة كهدايا للأصدقاء أو الملوك أو المساجد ، ولذلك أهدى شاه طهماسب عشرين سجادة كبيرة وكثيراً من السجاجيد الصغيرة من الحرير والذهب إلى السلطان سليم الثانى عند ارتقائه عرش آل عثمان ١٥٦٦ . وثمة معالم مميزة من التصميم حددت سجاد هذا

العصر ، وكأنها بستان ، ففيها رسوم النباتات والأزهار ، ومناظر الصيد والزهريات والرسوم المضلعة والمشجرة أو الرسوم النافرة أو البارزة ، وحول هذه الأشكال الأساسية توجد الزخرفة العربية المتعرجة ، مع أشرطة السحب المستمدة من الفن الصيني ، ورموز ذات معان سرية لدى مبتكرها ، وحيوانات تمثل نمط الحياة ، ونباتات وزهور تعطى أريجاً ممثلا فى خيوط ، وطابعاً بهيجاً ، ويسرى فى هذا الكل المعقد منطق فنى ، أو تناغم طباقى فى الخيوط أدق من موسيقى بالسترينا (ملحن موسيقى دينية فى إيطاليا فى القرن السادس عشر) وأجمل من شعر جوديفا(*) .

ويعود تاريخ بعض القطع المشهورة الباقية حتى الآن من السجاد الإيرانى إلى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر . وإحداها ذات رسوم بارزة ، وبها ثلاثون مليون عقدة من الصوف على سداة من الحرير (٣٨٠ عقدة فى البوصة المربعة) ، ظلت مفروشة لعدة قرون فى أحد مساجد أردبيل ، وهى الآن موزعة بين متحف فكتوريا وألبرت فى لندن ومتحف لوس أنجلوس . وفى أحد أطرافها خرطوشة كتب عليها بيت من شعر حافظ ، وتحته عبارة الفخر : « من صنع العبد . . . . مقصود الكاشانى فى سنة ٩٤٦ هجرية » ، أى ١٥٣٩ م[١٢] . كذلك يوجد فى متحف لوس أنجلوس « بساط التتويج » الهائل الذى استخدم فى تتويج إدوارد السابع ١٩٠١ . وكان من بين أعظم النفائس فى متحف بوالدى بتزوللى فى ميلان ، قبل تدميره فى الحرب العالمية الثانية ، سجادة بها مناظر صيد من صنع غياث الدين جامى من مدينة يزد ، وهو الذى يحتل فى رسوم السجاد مكانة بهزاد فى المنمنمات .

(*) تقول أسطورة إنجليزية إن Godiva طلبت من زوجها لورد كوفنترى رفع الضرائب الباهظة التى يشكو منها الأهالى . فاشترط لتحقيق مطلبها أن تمتطى جوادا وتسير به فى سوق البلدة وهى عارية ، لا يغطى جسمها إلا شعرها . (دائرة المعارف البريطانية)

(المترجم)

أما سجادة « دوق أنهالت » فى مجموعة دوفين فقد حظيت بشهرة عالميـة بأرضيتها الذهبية الصفراء : مع زخرفة عربية رائعة ذات الألوان القرمزى والوردى والأزرق الفيروزى . إن السجاد والكتاب من أعظم المميزات التى تميزت بها فارس على عهـد الصفويين وهى مميزات لا يستطيع أن يتحداها أو يمارى فيها أحد ، وهى تحتل فى ذاكرة الجنس البشرى مكانة رفيعة .

٣ — سليمان القانونى والغرب

خلف سليمان القانونى أباه سليم الأول فى ١٥٢٠ ، وهو إذ ذاك فى سن السادسة والعشرين . وقد كسب لنفسه شهرة لشجاعته فى القتال وكرمه فى صداقته ، وقدرته فى إدارة الولايات التركية . وهيأت له تقاطيعه المليحة وسلوكه المهذب أن يقابل بالترحيب فى القسطنطينية التى شقيت بسليم العبوس ، ووصفه إيطالى رآه عقب توليه العرش مباشرة بأنه طويل نحيل قوى ، ذو عنق طويل جداً ، وأنف متقوس جداً ولحية وشوارب خفيفة ، وبشرة شاحبة رقيقة ، ووجه صارم هادئ ، وبدا وكأنه طالب أكثر منه سلطان[١٣] . ووصفه إيطالى آخر بعد ثمانى سنوات بأنه « شاحب إلى حد رهيب . . . . مكتئب ، زير نساء عجول ، ومع ذلك فهو فى بعض الأحيان وديع مهذب » . أما غسلين دى بوسبك Ghislain de Busbeq سفير آل هبسبرج لدى الباب العالى ، فقد وصف بطريقة تكاد تكون ودية رقيقة ألد أعداء آل هبسبرج فقال :

> « لقد كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل . وحتى فى بواكير أيامه ، حين كانت قواعد الحكم فى تركيا تجيز الصفح عن الخطايا ، لم يكن

فى حياته ما يعاب عليه ، لأنه حتى فى أيام شبابه
لم يدمن على الخمر ، ولم يقترف أياً من الجرائم
غير الطبيعية التى كانت شائعة بين الأتراك ، ولم
يستطيع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته
أن يدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه فى حب
زوجته . . . ومن الحقائق المعروفة جيداً أنه منذ
اتخذ منها حليلة شرعية ، كان مخلصاً لها كل
الإخلاص ، برغم أنه لا يوجد فى القوانين ما يمنع
من اتخاذ خليلات كذلك[١٤] » .

إنه وصف جدير بالملاحظة ، ولكنه يتسم بالملق الشديد . ولا ريب فى أن سليمان كان أعظم وأنبل سلاطين آل عثمان ، وأنه كان يضارع أى حاكم فى عصره من حيث الكفاية والحكمة والخلق ، ولكنا سوف نراه بين الحين والحين موصوماً بالقسوة والحقد والانتقام . ومهما يكن من أمر ، فلنبدأ على سبيل التجربة ، بالنظر إلى صراعه مع العالم المسيحى .

طال أمد الصراع العسكرى بين المسيحية والإسلام آنذاك نحو ٩٠٠ سنة . فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الإمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة : غزا فيها العرب المسلمون هذه الإمبراطورية ، كما غزا فيها المغاربة المسلمون أسبانيا . وثأر العالم المسيحى لهذا الغزو ، وفى الحروب الصليبية التى غطى فيها الطرفان أطماعهما الاقتصادية وجرائمهما السياسية بستار من شعارات دينية وحماس دينى ، انتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت أسبانيا المغاربة . ودعا البابوات الواحد تلو الآخر إلى شن حملات صليبية جديدة ضد الأتراك ، كما أقسم سليم الأول أن يشيد مسجداً فى قلب رومه . واقترح فرانسوا الأول على الدول

الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرماً ، وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها ، باعتبارها غنائم من الكفار[١٥] . وأحبط هذه الخطة انقسام ألمانيا فى الحروب الدينية ، وثورة الكوميونات (الوحدات الإدارية) الأسبانية ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد فى التماس العون من سليمان ضد شارل . وربما كان لوثر قد أنقذ سليمان ، كما كانت اللوثرية مدينة له بفضل كبير .

إن كل حكومة تكافح لتوسيع رقعتها ، لتزيد من مواردها ودخولها من جهة ، وإيجاد أرض حاجزة حامية بين حدودها وعاصمتها من جهة أخرى . وارتأى سليمان أن أحسن وسيلة للدفاع هى الهجوم ، فاستولى على معاقل المجر فى ساباكس وبلغراد ، ولما سحر بالاطمئنان والأمن فى الغرب ، وجه قواته ضد رودس حيث احتفظ المسيحيون هناك تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، بقلعة منيعة تقع مباشرة على الطرق المؤدية من القسطنطينية إلى الإسكندرية وسوريا ، وبدا لسليمان أن هذا معقل خطير أجنبى فى بحر هو بدون هذا المعقل بحر تركى ، والحق أن سفن القرصنة عند الفرسان انقضت على تجارة المسلمين فى أحد طرفى البحر المتوسط[١٦] ، كما انقض قراصنة المسلمين على تجارة المسيحيين فى الطرف الآخر . وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسرهم الفرسان فى حملاتهم[١٧] . كما اعترض الفرسان طريق السفن التى تنقل الحجاج إلى مكة ، إذا ساورهم الشك فى أن لها أغراضاً عدائية . ويقول مؤرخ مسيحى : « على أى الأحوال لم يكن سليمان بحاجة إلى ما يبرر الهجوم على رودس »[١٨] . ويضيف مؤرخ إنجليزى مشهور إلى هذا قوله : « كان من مصلحة النظام العام أن تضم الجزيرة إلى مملكة الأتراك »[١٩] .

وشن سليمان هجومه ومعه ثلثمائة سفينة وثلثمائة ألف رجل . واستمر المدافعون عن الجزيرة بقيادة رئيسهم الأكبر العجوز فيليب دى فيليرز دى ليل — آدم (Phiiuppe de Villiers de L'ile-Adam) ، يقاتلون محاصريهم

لمدة ١٤٥ يوماً ، وأخيراً استسلموا بشروط مشرفة ، منها أن يغادر الفرسان وجنودهم الجزيرة فى أمان ، كما يكون ، فى مدى عشرة أيام ، للسكان الباقين الحرية الدينية الكاملة ، مع إعفائهم من الجزية لمدة خمس سنوات ، وفى يوم عيد الميلاد طلب سليمان أن يرى فيليب ، فواساه وامتدح دفاعه الباسل ونفحه هدايا ثمينة ، كما أبدى السلطان لوزيره إبراهيم : « أنه أسف أشد الأسف لاضطراره إلى إرغام هذا المسيحى على أن يغادر فى شيخوخته وطنه وممتلكاته[٢٠]. وفى أول يناير ١٥٢٣ أبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة كريت ، ثم غادروها بعد ثمانى سنين إلى وطن أكثر دواماً فى مالطه . ولطخ سليمان انتصاره بإعدام ابن الأمير جم وحفدته الأطفال لأنهم اعتنقوا المسيحية ، وقد يستخدمون ، كما استخدم جم ، فى المطالبة بالعرش العثمانى .

وفى أوائل سنة ١٥٢٥ ، تلقى السلطان سليمان كتاباً من فرنسوا الأول ، كما استقبل أسيراً من لدن شارل الخامس ، يطلبان منه مهاجمة المجر ، والإسراع إلى نجدة ملك فرنسا . فأجاب السلطان : « إن جوادنا مسرج ، وسيفنا معلق به »[٢١] . إنه على أية حال كان عازماً على غزو المجر منذ زمن طويل . فسار فى أبريل ١٥٢٦ بجيش قوامه مائة ألف رجل وثلاثمائة مدفع . وحث البابا كليمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة الدولة المهددة ، على حين نصح لوثر الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم ؛ لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هى بمثابة مقاومة الله[٢٢] . وبقى شارل الخامس فى أسبانيا . وكان من نتيجة ذلك هزيمة المجر فى معركة موهاكز ، وكانت للعالم المسيحى هزيمة أدبية ومادية فى وقت معاً ، وكان من الممكن استرداد المجر لو تعاون الكاثوليك والبروتستانت ، والإمبراطور والبابا فى العمل معاً . ولكن الزعماء اللوثريين ابتهجوا بفوز الأتراك . ونهب جيش الإمبراطور رومة .

وفى ١٥٢٩ عاد سليمان فحاصر فيينا بمائتى ألف رجل . ومن برج

سانت ستيفن استطاع كونت نيقولا فون سالم الذى عهد إليه فرديناند بالدفاع عن المدينة — أن يرى السهول والتلال المحيطة بها مغطاة بخيام العثمانيين وجندهم وأسلحتهم . وفى هذه المرة دعا لوثر أتباعه ليشاركوا فى المقاومة ، لأن من الواضح أنه إذا سقطت فيينا ، ستكون ألمانيا هى الهدف الثانى لهجوم العثمانيين . وذاعت الأنباء فى كل أنحاء أوربا أن سليمان أقسم أن يخضع كل أوربا للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهى الإسلام . وشق مهندسو الألغام الأتراك الخنادق ، الواحد بعد الآخر ، على أمل نسف الأسوار أو إحداث الانفجارات داخل المدينة ، ولكن المدافعين وضعوا أوعية من الماء فى مواطن الخطر(٢٣) ، وراقبوا الحركات التى قد تدل على العمليات الخفية تحت الأرض . وأقبل الشتاء وعجز خط مواصلات الأتراك الطويل عن توفير المؤن . وفى ١٤ أكتوبر أهاب السلطان برجاله أن يبذلوا محاولة أخيرة حاسمة . ووعد بجوائز ومكافآت سخية ، ولكن الأرواح والأجسام معاً كانت كارهة غير راغبة ، وصد الهجوم مع خسائر فادحة ، وأمر سليمان بالتقهقر ، وقد ملأه الحزن . وكانت أول هزيمة يلقاها ، ولو أنه احتفظ بنصف المجر ، وحمل معه إلى القسطنطينية تاج سانت ستيفن ، وفسر سليمان لشعبه أنه عاد دون أن ينتصر لأن فرديناند (الذى قبع طيلة الحصار آمناً فى براج) كان قد رفض أن يحارب ، ووعد السلطان بأنه قريباً جداً سوف يصيد شارل ذاته ، الذى تجاسر على أن يسمى نفسه إمبراطوراً ، وينتزع منه بالقوة السيادة على الغرب .

ونظر الغرب إلى السلطان ووعيده بعين الجد ، وساد الذعر رومه . وفرض البابا كليمنت السابع ، الذى كان وطيد العزم لأول مرة ، الضرائب حتى على الكرادلة ، لتوفير المال اللازم لتحصين أنكونا وسائر الثغور التى يمكن أن يدخل منها العثمانيون إلى إيطاليا .

وفى أول أبريل ١٥٣٢ تقدم سليمان نحو الغرب مرة أخرى . وكانت

مغادرته العاصمة مشهدا أحسن إخراجه ، فكان يتقدم المسيرة ١٢٠ مدفعاً ، يتبعها ٨٠٠٠ من الانكشارية وهم خيرة جنود المملكة ، وسار بعد ذلك ألف جمل تحمل المؤن ، وألفان من صفوة الخيالة لحراسة الراية المقدسة — نسر الرسول — يتبعهم آلاف من أبناء الأسرى المسيحيين يرتدون ملابس من ذهب ، وقبعات حمراء مزودة بالريش ، يلوحون مزهوين بالحراب فى شجاعة بريئة ، أما حاشية الملك وحرسه فكانوا رجالا أشداء ذوى طلعة مهيبة ، وامتطى السلطان بينهم جواداً كستنائى اللون مرتدياً القطيفة القرمزية الموشاة بالذهب تحت عمامة بيضاء مرصعة بالأحجار الكريمة . وسار وراءه الجيش الذى يبلغ فى جملته نحو مائة ألف رجل . ومن ذا الذى يستطيع مقاومة مثل هذه الأبهة والقوة ؟ ليس إلا العناصر والزمن !

ولكى يقابل شارل هذا التيار الجارف ، تلقى ، بعد توسلات كثيرة ، منحة من مجلس الديت الإمبراطورى ليجند أربعين ألف رجل وبعد ثمانية آلاف جواد ، وقدم هو وفرديناند بالإضافة إلى ذلك ، ثلاثين ألف رجل على حسابهما الخاص . وبهذه القوة التى تجمعت فى فيينا وعدتها ٧٨٫٠٠٠ رجل . انتظرا الحصار . ولكن السلطان عوق فى جونز Güns ، وهى مدينة صغيرة محصنة تحصيناً شديداً . ولكن حاميتها لم تزد على ٧٠٠ رجل أحبطوا لمدة ثلاثة أسابيع كل محاولة بذلها الأتراك لاختراق الأسوار التى ثقبوها إحدى عشرة مرة ، وفى كل مرة كانت الحامية المدافعة تسد الثغرات بالمعادن والجثث والاستماتة فى الدفاع ، وأخيراً أرسل سليمان جواز مرور وبعض الرهائن إلى القائد — نيقولا جوريشتز Jurischitz — يدعوه إلى عقد مؤتمر ، فحضر واستقبله الوزير الأكبر بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وقد امتدحوا شجاعته وقيادته ، مع شىء من الحزن والأسى ، وأهداه السلطان رداء الشرف ، وضمن له عدم القيام بأى هجوم آخر ، وأعاده إلى قلعته برفقة حرس رائع من الضباط الأتراك ، وسار إلى فيينا هذا

« السيل الجارف » من الجيش الذى لا يقهر ، والذى أوقع به الهزيمة سبعمائة جل فحسب .

وهناك أيضاً لم يحظ سليمان بفريسته ، فإن شارل لم يكن ليخرج للقتال ، فقد كان من الحمق والغباء أن يضيع مزايا دفاعاته ليقامر بالقتال فى ميدان مكشوف . وقدر سليمان أنه لو كان قد أخفق فى الاستيلاء على فينا التى كان يسيطر عليها عشرون ألف جندى ليس لهم إمبراطور أو ملك ظاهر فى الميدان ، فإنه لا يكاد يحسن صنعاً أمام ٧٨٫٠٠٠ ينفخ فيهم روح الحماسة والحياة ملك كان قد أعلن صراحة وعلى رءوس الأشهاد أنه يرحب بالموت ويستعذبه فى هذا الصراع كخاتمة شريفة نبيلة لهذه الحيـــاة الدنيا ، وهى خاتمة يصبو إليها كل مسيحى . وانصرف السلطان ، وخرب ونهب فى طريقه ستيريا والقسم الأدنى من النمسا ، وأخذ كثيراً من الأسرى ليشرف بهم تقهقره . وربما كان من المزعج له أن يسمع أنه حين كان يتسكع جيئة وذهوباً دون جدوى عبر أراضى المجر ، كان أندريا دوريا قد طارد الأسطول التركى حتى اختفى ، واستولى على بتراس وكورون على شاطئ البلوبونيز .

ولما أرسل فرديناند إلى القسطنطينية مبعوثاً يطلب الصلح رحب به سليمان ل إنه سوف يعقد الصلح « لا لمدة سبع سنوات ، ولا لخمس وعشرين سنة ، ولا لمائة سنة ، ولا لقرنين من الزمان ، أو ثلاثة قرون ، ولكن فى الحق إلى الأبد ، إذا لم ينقضه فرديناند نفسه » ، وإنه سوف يعامل فرديناند كابن له[٢٤] . على أنه طلب ثمناً فادحاً ، وهو انه ينبغى على فرديناند أن يرسل إليه مفاتيح مدينة جرو Grau ، رمزاً للخضوع والولاء ، وكان فرديناند وشارل كلاهما متلهفين على تحرير أسلحتهما ضـــد المسيحيين ، إلى حد أنهما كانا مستعدين لتقديم بعض التنازلات للأتراك . وأرسل فرديناند مفاتيح المدينة

وأطلق على نفسه « ابن سليمان » ، واعترف بسيادة سليمان على معظم أراضى المجر (٢٢ يونية ١٥٣٣) . ولم يعقد الصلح مع شارل ، واسترد السلطان بتراس وكورون ، وراوده حلم بسط سلطانه على فيينا وتبريز .

وفى ١٥٣٦ استولى على تبريز ، ثم عاد إلى الغرب . وطرح الدين جانباً ، وارتضى أن يتعاون مع فرانسوا الأول فى حملة أخرى ضد شارل . وعرض على الملك أحسن الشروط وهى أنه لا صلح مع شارل إلا بعد تسليم جنوه وميلان وفلاندرز إلى فرنسا ، ثم السماح للتجار الفرنسيين بالإبحار والبيع والشراء داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية ، على أن يعامل الأتراك بالمثل ، ومنح قناصل فرنسا فى الإمبر طورية الولاية القضائية المدنية والجنائية على الرعايا الفرنسيين فيها ، كما يتمتع هؤلاء الرعايا بالحرية الدينية الكاملة[٣٥] . وهكذا أصبحت « الامتيازات الأجنبية » كما وقعت فى هذه الاتفاقية ، نموذجاً يحتذى فيما جاء بعد ذلك من معاهدات بين الدول المسيحية ودول الشرق .

ورد شارل على ذلك بتكوين حلف يضم الإمبراطورية والبندقية والبابا . وانضم إليه فرديناند وهكذا أصبح قصير الأمد جداً ما كان مقدراً أن يكون أبدياً . وعانت البندقية وطأة الهجوم التركى وفقدت ممتلكاتها فى بحر إيجه وشاطئ دلماشيا ، ووقعت صلحاً منفرداً (١٥٤٠) . وبعد سنة واحدة توفى دمية سليمان أو تابعه الحاكم فى بودا ، وجعل سليمان من المجر ولاية عثمانية ، وأرسل فرديناند بعثة إلى تركيا تطلب الصلح ، وأخرى إلى فارس تحرض الشاه على مهاجمة الأتراك . فتقدم سليمان نحو الغرب (١٥٤٣) واستولى على جرو وستولوزنبرج ، وضم مزيداً من أراضى المجر إلى الباشا (الحاكم التركى) فى بودا . وفى ١٥٤٧ ، حين كان مشغولا بالفرس ، منح الغرب هدنة لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها . حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشنوا الهجوم على فيليب الثانى الذى

كان بابوياً أكثر من البابوات[٢٦] . وأطاق موت فرانسوا وشارل يدى فرديناند فى الوصول إلى الصلح . وفى صلح براج ١٥٦٢ ، اعترف فرديناند بحكم سليمان فى المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوكات ، ووافق على دفع تسعين ألفاً كمتأخرات .

وبعد عامين آخرين لحق بأخيه . وهكذا بقى سليمان على قيد الحياة بعد موت ألد أعدائه ، وكم من البابوات لم يعمر هو بعدهم ؟ لقد بسط سلطانه على مصر وشمال أفريقية ، وآسيا الصغرى وفلسطين وسوريا ، والبلقان والمجر . وسيطرت البحرية التركية على البحر المتوسط . وأثبت الجيش التركى شجاعته الفائقة شرقاً وغرباً وأثبتت الحكومة التركية جدارتها وقدرتها فى فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسيها . وفقد المسيحيون رودس وبحر إيجه والمجر ، وعقدوا صلحاً ذليلا مهيناً . وبات العثمانيون آنذاك أكبر دولة فى أوربا وأفريقية ، إن لم يكن فى العالم كله .

٤ - الحضارة العثمانية

أولا - الحكومة :

هل كان العثمانيون متحضرين ؟ الحق أن الانطباع بأن العثمانيين كانوا متبربرين همجيين إذا قورنوا بالمسيحيين ليس إلا وهماً قصد به تقربة الذات . فإن أساليبهم فى الزراعة وعلومهم كانت على الأقل تضارع ما كان منها لدى الغرب . فالأرض كان يفلحها مستأجرون من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين كان عليهم فى كل جيل أن يستحوذوا على أراضيهم بخدمة السلطان بطريقة مرضية ، فى الإدارة وفى الحرب . وباستثناء النسيج والخزف وربما الأسلحة والدروع ، لم تكن الصناعة قد أقامت بعد نظام المصانع ، كما كان الحال فى فلورنسه وفى فلاندرز ، ولكن الحرفيين الأتراك كانوا مشهورين بمنتجاتهم الممتازة . ولم يشعر الأغنياء أو الفقراء بالأسى والحزن

لانعدام النظام الرأسمالى . ولم يبلغ التجار المسلمون فى القرن السادس عشر من النفوذ السياسى أو المركز الاجتماعى ، ما بلغه نظراؤهم فى أوروبا الغربية . وتميزت التجارة بين الأتراك بعضهم البعض بالأمانة النسبية ، ولكن بين الأتراك والمسيحيين كان المال مستباحاً : وتركت التجارة الأجنبية فى معظمها للأجانب . وسارت قوافل المسلمين ، فى صبر وجلد ، على الطرق البرية التى كانت معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، إلى آسيا وأفريقية ، حتى عبر الصحراء ، وكانت الأنزال الصحراوية ، ومعظمها أسسه سليمان ، تقدم للتاجر أو السائح أماكن للاستراحة على الطريق . وسيطرت سفن المسلمين حتى سنة ١٥٠٠ على الطرق البحرية من القسطنطينية والإسكندرية ، عبر البحر الأحمر إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، حيث كان التبادل يتم مع البضائع التى حملتها السفن الشراعية الصينية . وبعد أن فتحت رحلة فاسكودا جاما وانتصارات البوكرك البحرية — فتحت الهند أمام التجار البرتغاليين ، فقد المسلمون سيادتهم على المحيط الهندى ، ودخلت مصر وسوريا وفارس والبندقية طور اضمحلال تجارى عام .

وكان التركى رجل بر وبحر معاً . وكان اهتمامه بالدين أقل من اهتمام معظم سائر المسلمين ، ولكنه كذلك نظر بعين الإجلال والإكبار إلى الصوفية والدراويش والأولياء ، واستمد شريعته من القرآن ، وتلقى تعليمه فى المسجد ، ونبذ فى عبادته ، مثل اليهود ، الصور المنحوتة ونظر إلى المسيحيين على أنهم مشركون وثنيون . وكان الدين والدولة شيئاً واحداً ، وكان القرآن والسنة هما القانون الأساسى ، وكان العلماء الذين فسروا القرآن هم أنفسهم أيضاً المعلمين والمحامين والقضاة ورجال القانون فى المملكة . وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا فى عهد محمد الثانى وسليمان الأول مجموعات القوانين العثمانية النهائية .

وكان المفتى ، أو شيخ الإسلام ، على رأس جماعة العلماء ، وكان أعلى

قاض فى البلاد بعد السلطان والوزير الأكبر . ولما كان الموت حتما مقضياً على السلاطين ، وكانت جماعة العلماء قائمة دوماً ، فإن هؤلاء المشرعين الدينيين هم الذين حكموا الحياة اليومية فى الإسلام . ولما كانوا يفسرون الحاضر على أساس من شرائع الماضى ، فقد تشبعوا بروح المحافظة وأسهموا فى ركود الحضارة الإسلامية بعد وفاة سليمان . وعزز الإيمان بالقضاء والقدر — أو كما يقول الأتراك قسمة الإنسان أو نصيبه — روح المحافظة هذه : أى أنه حيث أن الله قدر لكل نفس حظها ، فإن ضجر الإنسان بما قسم له ضرب من البعد عن الدين والتعمق فيه ، فكل شىء فى هذه الدنيا ، والموت خاصة ، هو من أمر الله ويجب الرضا به دون تذمر أو شكوى . وقام بين الحين والحين من ذوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة ، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام . ومهما يكن من أمر ، فإن العلماء عادة أجازوا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ولم يكن فى تركيا الإسلامية محاكم تفتيش .

وتمتع المسيحيون واليهود فى ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية ، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم فى الأمور التى لا يكون المسلمون طرفاً فيها[٢٧] . واحتضن محمد الثانى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً ، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك فى مقاومة الصليبيين . وعلى الرغم من أن المسيحيين انتعشوا تحت حكم السلاطين ، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً . فقد كانوا فى حقيقة الأمر عبيداً أرقاء ، ولكن كان فى مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول فى الإسلام ، وفعل الملايين منهم ذلك . أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش ، لأن الحروب الإسلامية كانت فى ظاهرها مقدسة من أجل تحويل الكفار إلى الإسلام . وخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية ، وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض ، وكان

لزاماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية فى خدمة السلطان .

وكان السلطان والجيش والعلماء هم الدولة . وإذا وجه السلطان النداء ، جاء كل رئيس إقطاعى ومعه قواته المجندة ليشكلوا فوق الخيالة الذين بلغ عددهم فى عهد سليمان ١٣٠٫٠٠٠ رجل . وكان سفير فرديناند ينظر بعين الحسد إلى أبهة تجهيزاتهم : ملابسهم المصنوعة من البروكار (الحرير المقصب) أو الحرير ذى اللون القرمزى أو الأصفر الفاتح أو الأزرق القاتم ، وأطقم الخيل التى تتألق بالذهب والفضة والجواهر ، فوق أحسن جياد رأتها عينا بوسبك Busbeq وتكونت صفوة المشاة من أبناء الأسرى ودافعى الجزية المسيحيين الذين كانوا ينشأون على خدمة السلطان فى قصره ، أو إدارة البلاد ، وفوق كل شىء فى الجيش ، حيث كانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد . وكان مراد الأول قد أنشأ هذه الفرقة الفذة (١٣٦٠) ، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذى يحتمل أن يكون مصدر خطر . ولم يكن عددهم كبيراً — نحو عشرين ألفاً فى عهد سليمان . وكانوا يتلقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية ، وكان محرماً عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية ، ويلقنون الروح العسكرية والمجد الحربى والعقيدة الإسلامية ، وكانوا شجعاناً فى الحرب ، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم ، وجاء بعد هؤلاء الجنود المتفوقين ، الميلشيا (جند الطوارئ) ، وكانوا نحو مائة ألف ، أشرف السباهى والانكشارية على تدريبهم وتغذيتهم بالروح العسكرية . وكانت الأسلحة المفضلة لا تزال هى القوس والنشاب والرماح ، وكانت الأسلحة النارية فى بداية استعمالها ، وفى الاشتباكات عن قرب كانت القضبان الشائكة والسيوف القصيرة هى المفضلة . وكان الجيش والعلوم العسكرية على عهد سليمان أفضل ما فى العالم من نوعهما فى ذلك

العصر ، ولم يضارع أى جيش آخر جيش سليمان فى سلاح المدفعية أو فى حفر الخنادق والهندسة العسكرية أو فى النظام والروح المعنوية ، أو فى العناية بصحة الجنود ، أو فى تموين الأعداد الهائلة من الجنود على مسافات بعيدة . ومهما يكن من أمر فإن الوسيلة كانت ممتازة لمجرد خدمة غاية معينة ، وأصبح الجيش غاية فى حد ذاته ، حيث كان لزاماً ، للحفاظ على نظامه وكبح جماحه ، أن يخوض الحروب . وبعد سليمان أصبح الجيش ، والانكشارية فوق كل شيء — سادة على السلاطين .

وكان المجندون الذين تحولوا إلى الإسلام من أبناء المسيحيين يشكلون غالبية الهيئة الإدارية فى الحكومة التركية المركزية . وكان حقاً علينا أن نتوقع أن يخشى السلطان المسلم أحاطته برجال يحنون « الزعيم الوطنى الألبانى » اسكندر برج ، ويحنون إلى دين آبائهم ، والأمر على النقيض من ذلك ، فإن سليمان آثر هؤلاء المتحولين عن دينهم ، لأن فى الإمكان تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على مهام محددة فى الإدارة . والأرجح أن بيروقراطية الدولة العثمانية كانت أقدر ما وجد من نوعها فى النصف الأول من القرن السادس عشر[٢٨] ، ولو كانت عرضة للرشوة بشكل يسيء إلى سمعتها ، وضم الديوان — وهو بمثابة الوزارة فى الحكومات الغربية — كبار رجال الإدارة تحت رئاسة الوزير الأكبر عادة . وكان لهذا الديوان سلطات استشارية أكثر منها تشريعية . وكانت توصياته تصبح عادة قانوناً بمقتضى قانون أو مرسوم من السلطان . وكانت السلطة القضائية يتولاها القضاة والأئمة (كبار القضاة) من العلماء . ولحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم وسرعة البت فى المحاكمات وصدور الأحكام[٢٩] ؛ كما اعتقد مؤرخ إنجليزى كبير أن « سير القضاء فى عهد الحكام العثمانيين الأولين كان فى تركيا أفضل منه فى أية بقعة فى أوربا ، وأن رعايا السلطان المسلمين كانوا أدق نظاماً من معظم

الجاليات المسيحية ، وأن الجرائم كانت أندر[٣٠] . وكان الانكشارية يقومون بوظيفة الشرطة فى شوارع القسطنطينية التى يحتمل خلوها من حوادث القتل أكثر من أية عاصمة أوربية أخرى[٣١] . وفضلت الأقاليم التى وقعت تحت الحكم الإسلامى — رودس ، اليونان ، البلقان — فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة فى ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسبرج[٣٢] .

وكانت معظم مكاتب الإدارة فى الحكومة المركزية مستقرة فى « السراى » أى المساكن الإمبراطورية — وهى ليست قصراً ، ولكن مجموعة مبان وحدائق وساحات ، تضم السلطان وحريمه وخدمه ومعاونيه وثمانين ألفاً من البيروقراطية . وكان لهذا النطاق الذى يبلغ محيطه ثلاثة أميال ، باب واحد ذو زخرفة رائعة ، أطلق عليه الفرنسيون « الباب العالى » ، وهو اصطلاح حدث فى شىء من لغو الحديث ، أن قصد به الحكومة التركية نفسها . وجاء فى المقام الثانى بعد السلطان فى هذا التنظيم المركزى الوزير الأكبر . وأصل الكلمة عربية ومعناها حامل الأثقال ، والحق أن الوزير نهض بأعباء ثقيلة ، فكان على رأس الديوان ، والبيروقراطية ، والقضاء ، والسلك الدبلوماسى ، كما أشرف على العلاقات الخارجية ، وأجرى التعيينات الكبرى ، كما قام بأدق المهام الرسمية فى أكثر الحكومات الأوربية ولعاً بالرسميات ، وأما أشق التزامات الوزير فهى إرضاء السلطان فى كل هذه الأمور : حيث كان الوزير عادة مسيحياً ثم أسلم . وبعبارة أدق ، هو عبد ، ويمكن أن يلقى حتفه دون محاكمة بكلمة من سيده ، وأثبت سليمان نفاذ بصيرته وسداد رأيه باختيار وزرائه الذين أسهموا إسهاما كبيراً فى نجاحه ، وكان إبراهيم باشا (إبراهيم الحاكم) يونانياً أسره قراصنة المسلمين وأحضروه إلى سليمان باعتباره عبداً يبشر بحسن المستقبل .

ووجد سليمان أنه متعدد القدرات إلى حد أنه وكل إليه الأكثر فالأكثر من الصلاحيات والمهام ، وأجرى عليه راتباً سنوياً قدره ٦٠ ألف دوكات (١٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار؟) وزوجه من أخت له ، وآكله بانتظام ، واستمتع بحديثه ومعزوفاته الموسيقية وبمعرفته باللغـات ، والآداب ، وحسن اطلاعه على أمور الدنيا . وعلى الطريقة الشرقية الأنيقة أعلن السلطان سليمان أن « كل ما يقوله إبراهيم ينبغي أن يعتبر كأنه صادر من ذات فيه الذى ينثر اللآلئ»[٢٢] . تلك كانت واحدة من أعظم صداقات التاريخ ، حتى فى أساطير اليونان القديمة .

وثمة حكمة واحدة كانت تعوز إبراهيم — تلك هى أن يخفى زهوه الداخلى بتواضع خارجى أو ظاهرى . لقد كان لديه كثير من الأسباب التى تجعله يزهو بنفسه ، فهو الذى سما بالحكومة إلى أعلى درجات المقدرة والكفاية ، وبفضل دبلوماسيته هو استطاع أن يشيع الفرقة والانقسام بين دول الغرب بتدبير التحالف مع فرنسا ، وهو الذى أعاد الهدوء إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، حين سار سليمان بجيشه إلى المجر ، بإصلاح المساوئ ومعاملة الجميع بالعدل والكياسة . وكذلك كان له العذر فى أن يكون حذراً متوجساً ، فإنه لم يزل عبداً ، وكلما ارتفع رأسه ، ازداد رقة ودقة ذلك الخيط المعلق منه سيف السلطان المصلت على رقبته : وقد أغضب الجيش حين حرم عليه سلب تبريز وبغداد ، وحاول منعه من سلب بودا . واستطاع فى هذا السلب أن ينقذ جزءاً من مكتبة ماتياس كورفينوس ، وثلاثة تماثيل من البرونز لهرمز وأبوللو وأرتميز ، ووضعها أمام قصره فى القسطنطينية ، وحتى سيده المتحرر اضطرب لهذه الإساءة الموجهة إلى الوصية السامية بتحريم النحت ، واتهمته ثرثرة الناس بامتهان القرآن . وأقام فى بعض الأحيان حفلات تفوق فى نفقتها وبهائها حفلات السلطان ، واتهمه أعضاء الديوان بأنه يتحدث وكأنه كان يقود السلطان كأسد أليف

موثق بالقيود . واغتاظت روكسيلانا محظية الحريم من نفوذ إبراهيم ، ويوماً بعد يوم ، وبفضل إصرار النساء ، ملأت أذن الإمبراطور بالشبهات والشكاوى ، حتى اقتنع السلطان أخيراً ، وفى ٣١ مارس ١٥٣٦ ، وجد إبراهيم مخنوقاً على فراشه ، ويحتمل أن يكون ذلك بأمر ملكى وهذا عمل ينافس فى وحشيته إحراق سرفيتس أو بركوين .

وأكثر وحشية من هذا بكثير ، قانون قتل الأخوة الإمبراطوريين . وقد عبر عنه محمد الثانى صراحة فى سجل القوانين : « إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش ، يكون لهم الحق إعدام إخوتهم تأميناً للسلام فى الدنيا ، وعليهم أن يعملوا طبقاً لهذا »(٢٤) . وبهذا حكم محمد الفاتح ، فى هدوء ، بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم . وثمة سيئة أخرى من سيئات النظام العثمانى ، وهى أن تؤول ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام ، إلى السلطان الذى كان لذلك دائماً ، تحت تأثير الإغراء بتحسين موارده المالية ، يصم أذنيه دون أى نداء أو رجاء ولا بد من أن نضيف أن سليمان قاوم هذا الإغراء . وعلى النقيض من مثل هذه المساوئ فى الحكم الفردى المطلق ، يمكن أن نعترف بديمقراطية غير مباشرة فى الحكومة العثمانية ، تلك هى أن الطريق إلى الرفعة والمكانة العالية ، فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحاً أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام ومهما يكن من شىء ، فربما برهن نجاح السلاطين الأوائل على أن قدرة الأرستقراطية وراثية حيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل هذا المستوى العالى من القدرة والكفاية لأمد طويل ، كما كان الحال فى العرش العثمانى .

يأ ـ الأخلاق :

إن تباين الطرق والأساليب عنـد العثمانيين والمسيحيين أوضح بشكل صارخ التنوع الجغرافى والزمنى فى القوانين الأخلاقية . فقد ساد تعـدد الزوجات بهدوء حيثما كانت المسيحية البيزنطية حديثاً جداً قد اقتضت رسمياً آحادية الزواج ، واختبأت المرأة فى أروقة الحريم أو وراء برقعها أو خمارها ، حيثما كانت يوماً قد اعتلت عرش القياصرة . ولبى سـليمان فى إخلاص وتفان كل حاجيات حريمه دون شيء من وخزات الضمير التى ربما شوشت أو عززت المغامرات الجنسية الطائشة التى كان يقوم بها فرانسوا الأول أو شارل الخامس أو هنرى الثامن أو الإسكندر السادس . إن المدنيـة التركية ، مثل المدنية اليونانية ، احتفظت بالمرأة بعيـداً عن الأنظار والأضواء ، وأجازت قدراً كبيراً من حرية الانحراف الجنسى . إن اللواط عند العثمانيين ازدهر حيثما كانت « الصداقة عند اليونان » قد كسبت يوماً المعارك وألهمت الفلاسفة .

أحل القرآن للأتراك الزواج من أربع بالإضافة إلى عدد من الجوارى (فى النص الإنجليزى خليلات) ، ولكن قلة من الناس تحتمل مثل هذا البذخ والتبذير . وكثيراً ما ابتعد العثمانيون المحاربون عن زوجاتهم اللائى ألفوا معاشرتهن ، واتخذوا زوجات أو خليلات من أرامل وبنات المسيحيين الذين قهروهم أو غزوا بلادهم ، ولم تتدخل فى سبيل ذلك أية حزازات عنصرية ، فكم لقى أحر الترحاب بأذرع مفتوحة نساء يونانيات أو صربيات أو ألبانيات أو مجريات أو ألمانيات أو إيطاليات أو روسيات أو مغوليات أو فارسيات أو عربيات ، وأصبحن أمهات لأطفال كانوا على قدم المساواة يعتبرون أبناء شرعيين عثمانيين ، وكاد الزنى أن يكون غير ضرورى فى مثل هذه الظروف ، وإذا حدث كانت عقوبته صارمة ،

فكانت المرأة الزانية تلزم بشراء حمار تركبه وتطوف به المدينة ، وكان الزانى يجلد مائة جلدة ، ثم يقبل جلاده ويكافئه . وكان الرجل يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد الإعلان أو الإفصاح عن قصده (أو أن يقسم يمين الطلاق) ، أما الزوجة فلم تكن تستطيع أن تخلص نفسها إلا برفع دعوى معقدة معوقة .

وظل سليمان اعزب حتى سن الأربعين . فمنذ أسر تيمور زوجة بايزيد الأول — والمزعوم أنه هو وبنى عشيرته من التتار آذوها وأساءوا معاملتها — فإن سلاطين آل عثمان ، لتفادى أية مهانة أخرى مثل هذه ، استنوا قاعدة ألا يتزوجوا ، وألا يشاركهم فراشهم إلا الجوارى[٣٥] . وضم حريم سليمان نحو ٣٠٠ جارية كلهن مشتريات فى السوق أو أسيرات فى الحرب وكلهن تقريباً من أصل مسيحى . وإذا توقع النسوة زيارة السلطان ارتدين أجمل ثيابهن ووقفن صفوفاً لتحيته ، وكان هو يسلم على أكبر عدد منهن ، قدر ما يسمح به وقته ؛ ويضع منديله على كتف من نالت إعجابه منهن بصفة خاصة . حتى إذا قضى وطره وانسحب فى ذاك المساء ، طلب إلى من تلقت المنديل أن تعيده إليه ، وفى صباح اليوم التالى كان يهدى إليها ثوب من قماش من ذهب ، وتزداد مخصصاتها . وقد يبقى السلطان فى الحريم ليلتين أو ثلاثاً ينثر هباته السخية ، ثم يعود إلى قصره ليقضى ليله ونهاره بين الرجال . وقلما ظهر النساء فى قصره أو اشتركن فى الولائم أو الحفلات الرسمية . ومع ذلك اعتبر الانضمام إلى الحريم شرفاً عظيما . وإذا بلغت أى من نزيلات الحريم الخامسة والعشرين من عمرها دون أن تحظى يوماً بالمنديل ، أعتقت . وكانت فى العادة تجد زوجاً ذا مكانة عالية . ولم يؤد هذا النظام فى حالة سليمان إلى انحلال جثمانى ، لأنه كان يتميز فى معظم الأمور باعتدال رائع .

ولم يكن اختلاط الجنسين سائداً فى الحياة الاجتماعية لدى العثمانيين .

ومن ثم كانت تعوزها ما تشيعه فيها فتنة النساء والثرثرة الضاحكة من بهجة . ومع ذلك كان السلوك مهذباً قدر ما كان فى المسيحية . وربما كان أكثر تهذيباً من أية بقعة أخرى باستثناء الصين والهند وإيطاليا وفرنسا . وكان عدد الأرقاء المحليين كبيراً، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية ، وكانت ثمة قوانين كثيرة لحمايتهم . وكان إعتاقهم أمراً ميسوراً[٣٦] . وعلى الرغم من أن العناية بالصحة العامة كانت قليلة ، فإن النظافة الشخصية كانت شائعة . وانتقل إلى تركيا نظام الحمامات العامة الذى يبدو أن الفرس أخذوه عن سوريا الهلينستية . وكانت هذه الحمامات فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الإمبراطورية العثمانية تبنى من الرخام وتزين بزخارف أخاذة . وكان بعض القديسين المسيحيين يفخرون بأنهم تجنبوا استعمال الماء، على حين فرض على المسلمين الوضوء والتطهر قبل الدخول إلى المسجد أو أداء الصلاة . والحق أن للنظافة فى الإسلام كانت لاحقة للتدين والتقوى . ولم تكن آداب المائدة لديهم أفضل منها فى العالم المسيحى ، فكان الأكل بالأصابع فى أطباق خشبية حيث لم يكن ثمة شوك . ولم تتناول الخمر فى المنازل قط ، ولكن الكثير منها كان يحتسى فى الحانات ، ولكن الإدمان عليها كان أقل منه فى الغرب[٣٧] . واستعمل المسلمون القهوة فى القرن الرابع عشر ، ولقد سمعنا أول ما سمعنا عنها فى الحبشة ، ومنها انتقلت إلى شبه الجزيرة العربية ، ويقال إن المسلمين استخدموها فى الأصل بغية مساعدتهم على دوام اليقظة والتنبه أثناء تعبدهم[٣٨] . ولم يرد لها ذكر على لسان أى كاتب أوربى قبل سنة ١٥٩٢[٣٩] .

ومن الناحية الجثمانية كان التركى قوياً متين البنيان ، مشهوراً بالجلد وقوة الاحتمال . وكم دهش بوسبك عندما شهد بعض الأتراك يتلقون مائة جلدة على أخمص القدم أو على رسغ القدم ، « حتى لتنكسر عليهم أحياناً جملة عصى من خشب القرانيا دون أن تصدر عنهم أية صرخة[٤٠] . واحتفظ

التركي دوماً بمظهر الوقار ، تساعده ملابسه على إخفاء سخافات البدانة الناتجة عن البطنة . وارتدى عامة الشعب الطربوش ، ولف المتأنقون حوله عمامة ، وكان كلا الجنسين يهوى الأزهار . واشتهرت الحدائق التركية بتعدد الألوان فيها ، ومن هناك ، فيما يبدو ، انتقل إلى أوربا الغربية الليلك والتيولب ، والسنط ، والغار وغيرها . وكان ثمة ناحية جمالية عند الأتراك ، كان من العسير أن تكشف عنها حروبهم . وإنا لندهش مما يرويه السياح الأوربيون من أن الأتراك لم يكونوا ، فيما عدا زمن الحرب ، « قساة بالطبيعة » ، ولكن طيعين ، وديعين . . . ، مهذبين ، أليفين » ، « شفوقين بصفة عامة » (٤١) . وشكا فرانسيس بيكون من أنهم بدوا أشد رفقاً بالحيوان منهم بالإنسان(٤٢) . وما كانت القسوة لتنفجر إلا إذا تهددت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركي يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت تثور ثائرته .

وكان التشريع التركي صارماً في الحرب بصفة خاصة . فلم يؤخذ أي عدو بأية رحمة أو هوادة ، وكانوا يبقون على حياة النساء والأطفال ، أما الأعداء القادرون الأشداء فقد يذبحون ، ولو لم يكونوا مسلحين أو لم يقاوموا ، وحتى دون أن يقترفوا إثماً(٤٣) . ومع ذلك فإن كثيراً من المدن التي استولى عليها الأتراك نهضت أكثر مما نهضت المدن التركية التي استولى عليها المسيحيون . من ذلك أن إبراهيم عندما استولى على تبريز وبغداد ١٥٣٤ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو إيذاء سكانهما ، كذلك ، عندما انتزع سليمان تبريز ثانية ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح ، ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يستطع دفع رواتب جنوده إلا بإباحة السلب والنهب . ومهما يكن من شيء فإن القانون التركي نافس القانون المسيحي في العقوبات الوحشية ، فقطعت يد السارق حتى تقل قدرته على السرقة(٤٤) .

وكانت الأخلاق الرسمية تمثل ما كانت عليه فى العالم المسيحى . فكان الأتراك يفخرون بوفائهم لكلمتهم وعهودهم ، وحافظوا على بنود الامتيازات التى منحوها لأعدائهم ، ولكن رقيب الآداب التركى ، مثل نظيره — سانت جون كابسترانو مثلا — كان يرى أنه ليس ثمة وعد أو عهد يلزم المؤمن بشىء يتعارض مع مصلحة أو واجبات دينه ، وأن السلطان يمكنه أن يبطل المعاهدات التى عقدها هو أو أسلافه(٤٥) . وذكر السياح المسيحيون أن التركى العادى يتسم « بالأمانة وروح العدل . . . حب الخير والنزاهة والإحسان »(٤٦) . ولكن الأتراك أصحاب المناصب كانوا عادة يرتشون بسهولة ، ويضيف مؤرخ مسيحى ، أن معظم الموظفين الأتراك كانوا مسيحيين من قبل(٤٧) ، ولكن يجدر بنا أن نضيف شيئاً آخر ، وهو أنهم ربوا تربية إسلامية . فالباشا التركى فى ولايته ، مثل البروقنصل (حاكم الإقليم) ، الرومانى ، كان يبادر إلى جمع الثروة ، قبل أن تثور وساوس سيده فيستبدل به شخصاً غيره . إنه كان يتقاضى من رعاياه الثمن الذى كان قد دفعه لتعيينه . وكان بيع المناصب شائعاً فى القسطنطينية أو القاهرة ، قدر شيوعه فى باريس أو رومه .

ثالثاً — الآداب والفنون :

كانت تهيئة السبل لتحصيل العلوم والمعارف أو نقلهما هى أضعف حلقة فى الحضارة العثمانية . وكان التعليم الشعبى مهملا بصفة عامة . وضآلة العلم والمعرفة أمر خطير . وكان التعليم على الأغلب مقصوراً على الطلاب الذين يقصدون إلى دراسة التربية أو القانون أو الإدارة ، وكانت مناهجها طويلة قاسية . وقضى محمد الثانى وسليمان وقتاً طويلا فى إعادة تنظيم المدارس وتحسينها . ونافس الوزراء سادتهم السلاطين فى إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد . ونعم المدرسون فى هذه

المعاهد بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم فى العالم المسيحى اللاتينى . وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن ، ولكنهم سعوا كذلك إلى دراسة الآداب والرياضيات والفلسفة ، ولكن خريجهم ، ولو أنهم كانوا أكثر تحصيلا فى فروع الدين منهم فى العلوم ، ساروا جنباً إلى جنب مع الغرب فى الهندسة وفن الحكم .

وكانت قلة ضئيلة من السكان فقط تعرف القراءة ، ولكن كل هؤلاء تقريباً كانوا ينظمون الشعر ، ولا يستثنى من ذلك السلطان سليمان نفسه ، وكان الأتراك ــ مثل اليابانيين ــ يعقدون مسابقات عامة يتلو فيها الشعراء ما جادت به قرائحهم ، وكان السلطان سليمان يطيب له ، مجاملة وكياسة منه ــ أن يرأس مثل هذه المباريات الشعرية . ولقد كرم الأتراك مائة شاعر فى هذا العصر ، ولكن انغمارنا فى عظمتنا ومصطلحاتنا نحن ، تركنا جهلة ، لا نعلم شيئاً حتى من أمر شاعرهم الغنائى العظيم محمود عبد الباقى الذى شهد أربعة عهود ، لأنه وإن كان فى سن الأربعين عندما توفى سليمان ، فإنه عمر بعده أربعة وثلاثين عاماً . وقد تخلى عن مهنته القديمة ، وهى السراجة ليعيش على شعره . وكان من المحقق أن تعضه الحاجة بأنيابها لو لم يسعفه سليمان بوظيفة لا عمل فيها ، وجمع سليمان المدح إلى الكسب ، فنظم قصيدة يثنى فيها على تفوق شعر عبد الباقى ، ورد عبد الباقى الدَّيْن فكتب مرثية قوية يندب فيها موت سليمان ، وعلى الرغم من أن الترجمة نفقد رواءها بالتماس المحافظة على تعدد القوافى فى الأصل ، فقد يتكشف فيها بعض الانفعال والروعة :

أمير فوارس الحظ ، يا من لفرسه الجرىء المعد للقتال ،
حيثما كر أو فر أو كان مقيداً ، كانت له الأرض كلها ساحة نزال !
أنت يا من لبريق سيفه أحنى المجرى رأسه !

أنت يا من يعرف الفرنجة حق المعرفة وميض شارته المخيف !
مثل ورقة الورد الغضة وضع وجهه برفق فى التراب ،
فتلقته الأرض ، الخازن الأمين ، وأودعته كالجوهرة فى حرز .
الحق أنه كان إشعاعة المكانة الرفيعة والمجد العظيم ،
الشاه ، الاسكندر وعليه إكليل دولة دارا المسلحة ،
وأمام التراب الذى تحت قدميه أحنى الكون رأسه خفيضاً .
وبمثابة مقام العبادة على الأرض كان باب جناحه الملكى .
لقد جعلت أصغر هباته من أحقر متسول أميراً ،
فاق فى الندى والجود ، وفى الرحمة والرأفة أى ملك . . . . . .
لقد لاقى من هذا الكون الحزين المتقلب نصباً ، فلا تحسبه ،
وهو بجوار ربه قد تخلى عن مكانته وعن مجده .
أى عجب إذا لم تر أعيننا شيئاً من الحياة أو من الدنيا بعد ذلك !
إن جماله البارع ، مثل الشمس والقمر ، قد أفاض على الأرض نوراً . . .
فلتبك الآن سحب الدم قطرة قطرة ، ولتنحن خفيضة !
وبهذا الألم المبرح الحزين فلتمطر عيون النجوم دمعاً سخيناً مريراً ،
ودخان زفرات القلوب يظهر أن السماء الحالكة السواد تحترق . . .
إن الطائر ، أى روحه ، قد طار عالياً إلى السموات مثل الهامة ،
ولم يخلف وراءه سوى قليل من العظام على الأرض تحته . . .
وليكن خالداً مجد خسرو فى السموات العلى !
ولتنزل رحمة الله على نفس الملك وروحه — ووداعاً !(٤٨) .

وكان الأتراك فى شغل شاغل بغزو الدول القوية إلى حد أنهم لم يجدوا فسحة من الوقت للفنون الدقيقة التى كان الإسلام حتى الآن قد اشتهر وتميز بها . وقد أنتج الأتراك منمنمات تميزت ببساطة التصميم وسعة التفكير فى الأساليب . أما التصوير التشخيصى أو التمثيلى فقد ترك للمسيحيين المفترين

الذين ظلوا فى هـذا العصر يزينون جدران كنائسهم وأديارهم باللوحات الجصية ، فنرى مانويل بانسلينوس - الذى ربما استعار بعض الحوافز من الصور الحائطية الإيطالية فى عصر النهضة - قد زين بالجص كنيسة بروتاتون على جبـل آثوس (١٥٣٥ - ١٥٣٦) ، برسوم أكثر انطلاقاً وجرأة ورشاقة من رسوم العصور البيزنطية . واستقدم السلاطين فنانين من الغرب والشرق - جنتيل بلليني من البندقية ، وشاه قالى ، ووالى جان ، وهما من رسامى المنمنمات فى فارس الهرطوقية . وفى التربيعات المطلية لم يكن الأتراك فى حاجة إلى مساعدة خارجية ، فقد استخدموها إلى درجة تبهر الأبصار ، واشتهرت مدينة ازنيق (بآسيا الصغرى) بصناعة الخزف ، وتخصصت أشقودرة وبروسة ، وهيريك فى آسيا الصغرى فى المنسوجات ، فقد ترك البروكار (المقصبات) والقطيفة - بما فيهما من رسوم الأزهار فى اللونين القرمزى والذهبى - التى أخرجتها هذه المدن ، أثراً شديداً وانطباعاً قوياً فى رسامى البندقية والفلاندرز . وكان السجاد التركى يعوزه البريق الشاعرى الذى تميز به السجاد الفارسى ، ولكن طرزه الفخمة وألوانه الدافئة أثارت الإعجاب فى أوربا . وقد أغرى كلبير مليكه لويس الرابع عشر بأن يأمر النساجين الفرنسيين بتقليد بعض قطع السجاد فى القصر السلطانى فى تركيا . ولكن دون جدوى ، لأن تفوق المسلمين فى هذه الصناعة ظل بعيداً عن متناول المهارة الغربية .

وبلغ الفن التركى ذروته فى مساجد القسطنطينية (لم يطلق على المدينة اسم اسطنبول رسمياً إلا فى سنة ١٩٣٠) ، ففى تاريخ فارس أو التاريخ الإسلامى ، لم يضارع عظمة عاصمة سليمان ، حتى ولا مدينة مشهد مع فخامة عمائرها المزدحمة ، ولا أصفهان فى عصر الشاه عباس ، ولكن ربما ضارعتها برسوبوليس على عهد كورش . فإن مساجد الآستانة اقتسمت مع الله غنائم العثمانيين فى انتصاراتهم ، وهى آثار تعبر ، فى وقت معاً ، عن

التقوى والزهو وعن تصميم السلاطين على إرهاب شعبهم بالفن قدر إرهابه بالأسلحة . ونافس سليمان جده محمد الفاتح فى تشييد سبعة مساجد تتفق مع جلاله وعظمته ، وفاق أحدها ، وهو الذى حمل اسمه (١٥٥٦) كنيسة أيا صوفيا فى جمالها ، حتى فى محاكاته إياها فى مجموعة القباب الصغرى المحيطة بالقبة الرئيسية الوسطى ، على أن المآذن هنا ، تلك التى ارتفعت مقصورات الآذان الثلاث فيها إلى ارتفاع رهيب ، كانت بمثابة إضافة متألقة تتطابق مع القاعدة الضخمة . أما الداخل فكان كنزاً مربكاً من الزخرفة : نقوش ذهبية على الرخام أو الخزف وأعمـــدة من الحجر السماق ، وعقود من الرخام الأبيض أو الأسود ، ونوافذ من الزجاج الملون فى إطار من حجر مشجر ، والمنبر المحفور وكأنه وقف على مدى الحياة . وربما كان بذخاً أكثر مما ينبغى إجلاله ، وتألقاً أكثر مما ينبغى لمقام الصلاة . إن الذى وضع تصميم هذا المسجد وسبعين مسجداً أخرى ألبانى اسمه سنان ، وقيل إنه عاش إلى سن العاشرة بعد المائة .

٥ ـ سليمان نفسه

إن الغرب هو الذى أطلق على سليمان لقب « العظيم » ، ولكن شعبه هو الذى سماه « القانونى » أى جامع القوانين ، بسبب مساهمته فى تدوين القانون العثمانى . ولم يكن مهيباً أو عظيماً فى مظهره ، ولكن فى حجم تجهيزات جيوشه ، وفى مدى اتساع حملاته ، وفى زينة عاصمته ، وفى تشييد المساجد والقصور ، والقناطر المائية المشهورة ، عظيما فى روعة كل ما يحيط به وفى حاشيته ، ثم عظيما بطبيعة الحال فى قوة حكمه ، وفى كل ما وصل إليه أو حققه . ووصلت إمبراطوريته من بغداد إلى مدى تسعين ميلا من فيينا ، و ١٢٠ ميلامن البندقية ملكة الأدرياتيك السابقة . وباستثناء فارس وإيطاليا :

كانت كل المدن التى زخرت بألوان المعرفة اليهودية والمسيحية أو المعرفة القديمة ، داخلة فى نطاق ملكه : قرطاجه ، ممفيس، صور ، نينوى ، بابل ، تدمر ، الإسكندرية ، بيت المقدس ، أزمير ، دمشق ، أفسوس ، نيقية ، أثينا ، وطيبة المصرية وطيبة اليونانية . ولم يضم الهلال قط يوماً ، مثل هذه البقاع والبحار الكثيرة فى منحناه الأجوف .

وهل كان تفوق حكمه يتناسب مع اتساعه ؟ يحتمل أن يكون الجواب سلبياً ، ولكن ينبغى أن نقرر هذا عن أية مماكة مترامية الأطراف ، فيما عدا فارس فى عهد الأخيمينيين ، وروما فى عصر الأنطونيين . إن الرقعة المحكومة كانت شاسعة إلى حد يتعذر معه إدارتها من مركز واحد قبل ظهور وسائل المواصلات والنقل والطرق الحديثة : لقد دب الانحلال والفساد فى الحكومة ، ومع ذلك قال لوثر : « يقال إنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك »[٤٩] . وفى مجال التسامح الدينى كان سليمان أجرأ وأكرم من أنداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الدينى أمر ضرورى للقوة الوطنية . ولكن سليمان رخص للمسيحيين واليهود فى ممارسة ديانتهم فى حرية تامة ، وقال الكاردينال بول « إن الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتناق عقيدتهم ، ولهذا الذى لا يهاجم ديانتهم ، أن يفصح عن أية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن »[٥٠] . وفى نوفمبر ١٥٦١ حين كانت إسكتلندة وإنجلترا وألمانيا اللوثرية تعتبر الكثلكة جريمة ، كما كانت إيطاليا وأسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج عن سجين مسيحى ، « غير راغب فى تحويل أى فرد عن دينه بالقوة »[٥١] . لقد جعل من إمبراطوريته مأوى آمناً لليهود الفارين من محاكم التفتيش فى إسبانيا والبرتغال .

لقد اتضحت عيوبه فى علاقاته العائلية أكثر منها فى حكومته . والجميع متفقون على أنه – برغم حروبه التى بررها بأنها هجوم من أجل الدفاع – كان رجلا مهذباً ، رحيما ، كريما ، إنسانيا ، عادلا[٥٢] . ولم يعجب به

شعبه فحسب ، بل أحبه كذلك . وكان إذا ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ، لزم الناس الصمت التام عند مروره ، وانحنى هو تحية لهم جميعا — أيا كانوا يهودا أو مسيحيين أو مسلمين — وكان يقضى فى المسجد ساعتين . ولم نسمع عنه أنه كان يلازم الحريم إلى الحد الذى يضعف من صحته وقوته ، مثل ما حدث لبعض السلاطين من بعده ، ولكنا نجده شديد الإحساس سريع التأثر بانفعالات الحب ، حتى إنه لينسى ما تقتضيه مكانته من حكمة وحذر وعدل ، بل عاطفة الأبوة وحنانها .

وفى أوائل حكمه كانت محظيته الأثيرة لديه جارية شركسية تعرف باسم « وردة الربيع » اتسمت بهذا الجمال الأسمر المليح التقاطيع ، الذى تميزت به لعدة قرون نساء الأقاليم الواقعة حول الطرف الشرقى للبحر الأسود . وأنجبت له هذه المرأة طفلا ، وترعرع الطفل مصطفى حتى أصبح شابا جميلا قادراً محبوبا . وعهد إليه سليمان بعدة مناصب وتبعات هامة ، ودربه ليكون وريثا للعرش قدرما يكون جديراً به . ولكن فى أثناء هذا الحب ، ظهرت فى الأفق « خوريم » — « أى الضاحكة » — وهى أسيرة روسية أطلق عليها الغرب « روكسيلانا » كسبت قلب السلطان وانتزعته من محظيته الشركسية . وبقى السلطان ثملا بجمال خوريم ومرحها وإغوائها وخداعها حتى اكتملت فصول الرواية ووقعت المأساة . وكسر السلطان القاعدة التى استنها الحديثون من أسلافه ، واتخذها زوجة (١٥٣٤) ، وابتهج أيما ابتهاج بما أنجبت له من بنين وبنات . ولكن لما كبرت سن السلطان وبات متوقعا أن يعتلى مصطفى عرش أبيه ، أوجست خوريم خيفة على مصير أبنائها ، الذين يمكن أن يلقوا حتفهم ، قانونا ، على يد السلطان الجديد ؛ ونجحت فى تزويج ابنتها من رستم باشا الذى أصبح الوزير الأكبر فى ١٥٤٤ ، وكان عن طريق زوجته يشاطر خوريم مخاوفها من سطوة مصطفى فى المستقبل .

وكان مصطفى ، فى نفس الوقت ، قد أرسل لتولى حكم ديار بكر ،

واشتهر ببسالته ولباقته وكرمه ، واستخدمت خوريم كل مواهبها وتأثيرها فى تحطيمه ، وألقت فى روع سليمان أن مصطفى يحاول أن يكسب شعبية ، تطلعا منه إلى انتزاع العرش ؛ واتهم رستم باشا الشاب بأنه يتودد سراً إلى الانكشارية ليقفوا إلى جانبه ، وساور الشك السلطان المنهوك الذى كان آنذاك فى التاسعة والخمسين من عمره ، وزاد ارتيابه ، ثم تولاه العجب ، وأخيراً آمن بصحة ما زعموا ، فذهب بنفسه إلى إرجلى Eregli ، ودعا مصطفى إلى خيمته ، وما أن ظهر حتى عاجله بضربة أودت بحياته (١٥٥٣) . عند ذاك وجدت خوريم ورستم باشا أن من اليسير إغراء السلطان بقتل ابن مصطفى لئلا يحاول الثأر لأبيه ، وعين سليم ابن خوريم أميراً ووريثاً للعرش ، وماتت خوريم راضية مطمئنة (١٥٥٨) ؛ ولكن بايزيد ، وهو أخو سليم ، الذى وجد أن مصيره المحتوم هو الذبح ، أعد جيشاً يتحدى به أخاه ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية ، وهزم بايزيد وفر إلى فارس (١٥٥٩) . ولكن الشاه طهماسب ، لقاء ثلاثمائة ألف دوكات من سليمان ومائة ألف من سليم ، سلم المناضل من أجل العرش ، وشنق بايزيد (١٥٦١) ، كما أعدم أبناؤه الخمسة محافظة على الأمن الاجتماعى . ويروى أن السلطان المتألم توجه إلى الله بالشكر والحمد على موت هذه الذرية المزعجة ، وعلى أنه يستطيع الآن أن يعيش فى سلام[٥٣] .

ولكن السلطان وجد السلام أمراً لا يحتمل ، وأطال التفكير فيما ترامى إليه من أنباء تقول بأن فرسان القديس يوحنا الذين اقتلعهم من رودس ، عادت إليهم قوتهم فى مالطة ، وأنهم كانوا ينافسون قراصنة الجزائر فى غاراتهم الضارية . وفكر السلطان مليا ، وهو آنذاك فى سن الحادية والسبعين ، هل فى الإمكان أن تصبح مالطة جزيرة إسلامية ، ومن ثم يكون البحر المتوسط حرما آمنا للمسلمين . وفى أبريل ١٥٦٤ أرسل أسطولا مكونا من ١٥٠ سفينة عليها عشرون ألف رجل ليستولوا

على الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجى . وقاتل الفرسان ببسالتهم المعهودة تحت قيادة الداهية البارع جان دى لافالت ، واستطاع الأتراك الاستيلاء على حصن سانت إلمو بتضحية ستة آلاف رجل ، ولم يستولوا على شىء بعده ، وأرغمهم وصول الجيش الإسبانى على رفع الحصار .

وما كان السلطان العجوز المهيب ، سليمان القانونى ، ليختم حياته بهذه الخاتمة المرة . وكان مكسيمليان الثانى الذى خلف فرديناند على عرش الإمبراطورية قد منع الجزية التى تعهد الوالد بدفعها للسلطان ، وهاجم المخافر الأمامية التركية فى هنغاريا ، وقرر السلطان القيام بحملة أخرى فقط ، وصمم على أن يقودها بنفسه (١٥٦٦) . وسار بمائة ألف رجل عبر صوفيا ونيش وبلغراد . وفى ليلة ٥ — ٦ سبتمبر ، وفى أثناء حصار حصن زيجتفار ، أسلم السلطان الروح ، وهو منتصب فى خيمته . وكان مثل فاسبازيان ، مزهواً بنفسه إلى حد لا يرتضى معه أن يموت وهو راقد . وفى ٨ سبتمبر سقط الحصن ، ولكن الحصار كلف الأتراك حياة ٣٠ ألفاً من الرجال . وكان الصيف مدبرا ، فعقدت الهدنة ، وعاد الجيش أدراجه حزيناً مغموماً إلى القسطنطينية لا يحمل معه النصر بل جثمان الإمبراطور .

هل ينبغى لنا أن نصدر على سليمان حكماً ونضعه فى المرتبة التى يستحقها ؟ إننا إذا قارناه بنظرائه فى الغرب لوجدناه فى بعض الأحيان أكثر تمدناً وحضارة ، وفى أحيان أخرى أكثر همجية ووحشية . ومن بين الحكام الأربعة الكبار فى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر ، يستوقف نظرنا فرانسوا على أنه أكثرهم تمدناً وحضارة ، على الرغم من غروره المتهور واضطهاداته المترددة ، على أنه مع ذلك نظر إلى سليمان على اعتباره حاميه وحليفه الذى بدونه كان يمكن أن يحطم ، إن سليمان حالفه النصر فى صراعه الذى استمر طوال حياته مع الغرب . فالحق أن الإمبراطور مكسيمليان الثانى استأنف دفع الجزية للباب العالى ١٥٦٨ ؛ وأن شارل الخامس

كان قد أوقف تقدم السلطان عند فيينا ، ولكن أى جيش مسيحى جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيد البحر المتوسط ، وبدا لبعض الوقت أن رومه ظلت مسيحية لأنه هو وبربروس سمحا بذلك .
إن السلطان حكم إمبراطوريته حكماً صالحا يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد تمزيق ألمانيا بين الأمراء ، وكان سليمان حاكما مطلقا مستبدا ، بحكم العرف الذى لا نزاع فيه وبرضا شعبه ، فهل حظى استبداد هنرى الثامن فى انجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا الحب والثقة من الشعب ؟ وكان شارل لا يكاد يكون قادراً على إصدار حكم الإعدام على ابنه لمجرد الارتياب فى خيانته ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل الصيحات مطالبا بدم الهراطقة ، واستطاع هنرى أن يبعث بالزوجات وبالكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشنقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبة واحدة عن طعامه . أما التسامح الدينى عند سليمان ، ولو كان محدوداً ، فإنه بالمقارنة ، يصم مثل هذا الإعدام بوصمة الهمجية والوحشية .

لقد شن سليمان حروبا كثيرة ، وذبح نصف ذريته ، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة ، إنه ارتكب الأخطاء التى تلازم السلطة المطلقة غير المحدودة ، ولكنه كان أعظم وأقدر حكام عصره دون منازع .

الفصل الثاني والثلاثون

اليهـــود

١٣٠٠ – ١٥٦٤

١ – التائهون

روى روجر وندوفر R. Wendover في كتابه Flores Historiarum (١٢٢٨) أن أحد رؤساء أساقفة أرمينيا كان يزور دير القديس ألبان في أوائل القرن الثالث عشر ، فسئل عن القصة التي تقول بأن يهودياً كان قد تحدث إلى السيد المسيح ، لا يزال على قيد الحياة في الشرق الأدنى . فأكد رئيس الأساقفة للرهبان أنها صحيحة . وأضاف المرافق أن رئيس الأساقفة كان قد تناول الغداء مع هذا الرجل الحالد قبل مغادرته أرمينيا بوقت قصير ، وأن اسم هذا الرجل ، على الطريقة اللاتينية « كارتوفيلس » . وأنه لما هم السيد المسيح بمغادرة محكمة بلاطس البنطي ، ضرب كارتوفيلس السيد المسيح على ظهره وقال له : « أسرع » . وأن يسوع قال له : « إني ذاهب ، ولكنك سوف تبقى حتى أحضر » . وكرر أرمنيون آخرون زاروا دير سانت ألبان في سنة ١٢٥٢ نفس القصة ، وزاد عليها القصص الشعبي ، وبدّل من اسم التائه ، وروى كيف أنه في كل مائة عام أو نحوها ، يصاب بمرض عضال ، ويروح في سبات عميق يفيق منه شاباً يمتلىء رأسه بذكريات لا تزال حية عن محاكمة المسيح وموته وبعثه . وانقطع ورود القصة على الألسنة فترة ، ولكنها ظهرت من جديد في القرن السادس عشر . وادعى أوربيون غلب عليهم الأثر ، أنهم رأوا « أهشويروش »(*) — رسمي الآن

(*) Ahasuerus . [illegible] (المترجم)

اليهودى الخالد » أو اليهودى التائه — رأوه فى همبرج (١٥٤٧ ، ١٥٦٤) وفى فيينا (١٥٩٩) ، وفى لوبك (١٦٠١) وفى باريس (١٦٤٤) ، وفى نيوكاسل (١٧٩٠) ، وأخيراً فى ولاية يوتا فى غرب الولايات المتحدة (١٨٦٨) . وتمسكت أوروبا ، التى كانت تفقد إيمانها ، بالترحاب هذه الأسطورة على أنها برهان يؤكد من جديد ألوهية المسيح وبعثه ، وضمان جديد لمجيئه ثانية . وعندنا أن الأسطورة رمز كئيب لشعب فقد وطنه فى السنة الحادية والسبعين من بداية المسيحية ، وبات يتيه فى الأرض فى قارات أربع ، وعانى الاضطهاد والتعذيب المرة بعد المرة ، قبل أن يسترد موطنه القديم فى خضم زماننا المتقلب المرح[1].

ولاقى « الشتات » هؤلاء أقل العناء والشقاء فى ظل السلاطين الأتراك والبابوات فى فرنسا وإيطاليا . وعاشت الأقليات اليهودية آمنة فى القسطنطينية وسالونيك وآسيا الصغرى وموريا وفلسطين والجزيرة العربية ومصر وشمال أفريقية وأسبانيا تحت حكم العرب . وتسامح البربر معهم كارهين . على أن سيمون ديوران ترأس مستوطنة مزدهرة فى الجزائر ، وعاشت الجالية اليهودية فى الإسكندرية — كما وصفها الحبر أوباديا برتينورو فى ١٤٨٨ — حياة طيبة ، وشربوا الخمر بكثرة ، وتربعوا على البسط كما فعل المسلمون ، وخلعوا نعالهم عند دخول المنزل أو بيت أحد الأصدقاء[2] . وكتب اليهود الألمان الذين لجأوا إلى تركيا إلى أقربائهم وصفاً حماسياً للحياة الطيبة التى ينعمون بها هناك[3] . ورخص الباشا (الوالى) العثمانى فى فلسطين لليهود هناك فى أن يبنوا معبداً على جبل صهيون . وحج بعض اليهود الغربيين إلى فلسطين ، واعتقدوا أن من حسن حظهم أن تفيض أرواحهم فى الأرض المقدسة ، والأفضل منها فى أورشليم بالذات .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذى كان يستأثر بتفكير اليهود ويستهوى قلوبهم فى هذا العصر تركز فى الغرب الذى لا يغفر ولا يصفح . فقد لاقوا

أقل الأحوال شقاء فى إيطاليا المستنيرة : وفى نابلى سعدوا بصداقة روبرت ملك أنجو ، وازدهروا فى أنكونا وفيرارا وبادوا والبندقية وفيرونا ومانتوا وفلورنسه وبيزا وغيرها من خلايا النهضة . قال إرزم ١٥١٨ « يوجد فى إيطاليا كثير من اليهود ، ولكن لا يكاد يوجد فى أسبانيا مسيحيون[٤] » . وكانت إيطاليا تقدر التجارة والموارد المالية تقديراً عظيما ، ومن ثم كان لليهود الذين تولوا هذه المرافق الضرورية فيها شأن كبير ، باعتبارهم دعامة حافزة منشطة فى الاقتصاد . أما ما كان يطلب من اليهود قديماً من وضع شارة أو ارتداء لباس مميز فقد تجاهله الإيطاليون فى شبه الجزيرة بصفة عامة ، وارتدى اليهود الموسرون زى الإيطاليين من مثل طبقتهم ، والتحق الشباب اليهودى بالجامعات ، وتزايد عدد المسيحيين الذين يدرسون العبرية .

وبين آونة وأخرى كان بعض رجال الدين المسيحى الذين يبغضون اليهود ، مثل القديس يوحنا أوف كابسترانو ، قد يهيج حفيظة سامعيه ، ليطالبوا بالتطبيق الكامل للقوانين الكنسية المتشددة الخاصة بالتجريد ضد اليهود : ولكن على الرغم من أن كابسترانو كان يلقى تأييداً من البابا يوجينيوس الرابع والبابا نيقولا الخامس ، فإن تأثير بلاغته كان تأثيراً عابراً فى إيطاليا . وهاجم راهب آخر من طائفة الفرنسيس كان هو برناردينو أوف فلتر ، اليهود مهاجمة صاخبة عنيفة ، إلى حد أن السلطات المدنية فى ميلان وفرارا وفلورنسه أمرته بالتزام الصمت أو الرحيل . ولما عثر على طفل فى سن الثالثة ميتاً بالقرب من بيت أحد اليهود فى ترنت (شمال إيطاليا) فى سنة ١٤٧٥ ، أعلن برناردينو أن اليهود قتلوه ، فألقى الأسقف بكل يهود ترنت فى السجن ، واعترف بعضهم تحت وطأة التعذيب بأنهم ذبحوه وشربوا من دمه ، باعتبار أن هذا من طقوس عيد الفصح عندهم . وأحرق كل يهود ترنت حتى الموت ، وحنط جثمان الطفل « سيمون الصغير » ، وعرض على أنه « بقايا مقدسة » ، وحج الآلاف من السذج المؤمنين إلى المزار الجديد

وانتشرت قصة الفظاعة المزعومة عبر جبال الألب إلى ألمانيا فزادت من حدة شعور العداء ضد « السامية » هناك . واتهم سناتو البندقية القصة بأنها كذوبة دينية ، وأمر كل السلطات فى نطاق الولاية القضائية للبندقية بحماية اليهود . وقدم من بادوا إلى ترنت اثنان من المحامين لفحص الأدلة ، ولكن الأهالى هناك مزقوهما تقريباً . واستحثوا البابا سكستس الرابع على ضم سيمون إلى قائمة القديسين ولكنه أبى ، وحرم تمجيد سيمون باعتباره قديساً[٥] . ومهما يكن من شيء ، فإن سيمون أعلن قديساً فى سنة ١٥٨٢ .

وفى رومه نعم اليهود لعدة قرون بظروف مواتية فى الحياة ، وبالحرية أكثر مما لاقوا فى أى مكان آخر فى العالم المسيحى ، من جهة لأن البابوات كانوا مثقفين ، ومن جهة أخرى لأن المدينة كان يحكمها ويتنازعها حزبا أورسيني وكولانا ، وكلتا الجماعتين كانت مشغولة بالقتـال بينهما ، إلى حد يتعذر معه التفرغ لعداوة الآخرين ، وربما كان ثمة سبب آخر هو أن الرومان كانوا أوثق ارتباطاً بالجانب العملى فى المسيحية منهم بالتعصب لديانتهم . ولم يوجد آنذاك حى خاص باليهود فى رومة ، ولكن معظمهم عاش فى حى العبرانيين على الضفة اليسرى من نهر التيبر . ولم يكونوا ملزمين بذلك ، فقد قامت قصور الأرستقراطية الرومانية وسط مساكن اليهود ومعابدهم القريبة من كنائس المسيحيين[٦] . ولكن ظل بعض الظلم يقع عليهم ، فكانت بعض الضرائب تفرض عليهم من أجل الإنفاق على الألعاب الرياضية ، وكانوا يرغمون على إرسال ممثلين عنهم للاشتراك فيها وهم أنصاف عرايا ، وهذا أمر يتنافى مع أعراف اليهود وأذواقهم . وظلت العداوة العنصرية باقية ، فمثل اليهود فى رسوم كاريكاتورية فى المسرح الرومانى ، وفى الروايات الهزلية فى الملاهى ، ولكن اليهوديات كن يقدمن على أنهن مهذبات جميلات . لاحظ التناقض بين باراباس

وأبيجيل فى رواية مارلو « يهودى مالطة » ، وبين شيلوك وجسيكا فى رواية شيكسبير « تاجر البندقية » .

وعامل البابوات ، إجمالا ، اليهود معاملة كريمة بالقدر الذى ينتظر من رجال مجدوا المسيح على أنه المخلص ، وأنكروا عقيدة اليهود على أنه لم يأت بعد . وعندما أنشئت محاكم التفتيش أعفى البابوات من سلطتها القضائية اليهود الذين لم يتحولوا عن دينهم . وكانت المحكمة تستطيع أن تستدعى أمثال هؤلاء اليهود ، بسبب مهاجمتهم للمسيحية ، أو محاولتهم رد المسيحى إلى اليهودية فحسب . « إن اليهود الذين لم يكفوا قط عن إعلان إيمانهم باليهودية تركوا ، إجمالا ، دون إزعاج »[٧] . من الكنيسة ، ولكنهم لقوا الإزعاج من الدولة أو من الأهالى . وأصدر عدة بابوات مراسيم بقصد التخفيف عن حدة العداوة الشعبية . وبذل البابا كليمنت السادس جهداً شاقاً فى هذا السبيل ، فجعل مدينة أفنيون البابوية ملجأ رحيما لليهود الفارين من الحكومة الوحشية فى فرنسا[٨] . وفى ١٤١٩ أعلن مارتن الخامس إلى العالم الكاثوليكى :

> « من حيث أن اليهود خلقوا على صورة الرب ، وأن بقية منهم لابد يوماً أن تخلص . ومن حيث أنهم توسلوا إلينا لحمايتهم ، فإننا سيراً على نهج أسلافنا ، نأمر بألا يزعجهم أحد فى معابدهم ، وألا يهاجم أحد قوانينهم وحقوقهم وأعرافهم ، وألا يعمدوا قسراً ، وألا يكرهوا على حضور الأعياد المسيحية أو وضع شارات جديدة ، وألا يعترض سبيلهم فى إقامة علاقات العمل بينهم وبين المسيحيين[٩] .

وأصدر يوجينيوس الرابع ، ونيقولا ، كما سنرى ، تشريعاً مقيداً لليهود ، ولكن بالنسبة لسائر البابوات كما يقول جرايتز « من بين سادة إيطاليا كان البابوات أكثرهم وداً وصداقة لليهود »(١٠) . وكثير منهم : الإسكندر السادس ، يوليوس الثانى ، ليو العاشر — تجاهلوا المراسيم القديمة ، وعهدوا بحياتهم إلى أطباء يهود . وشاد كتاب يهود معاصرون ، شاكرين ، بالأمن الذى تمتع به قومهم فى ظل بابوات أسرة مديتشى(١١) . وكان أحدهم وهو كليمنت السابع ، « صديقاً كريماً لإسرائيل(١٢) :

ويقول مؤرخ إسرائيلى عالم :

> إن هذا كان ذروة عصر النهضة . واعتبر جماعة متعاقبة من البابوات المثقفين المهذبين المترفين المشهود لهم بالحكمة فى رومه أن تقدم الثقافة جزء هام من عملهم فى تعزيز المصالح الدينية للكنيسة الكاثوليكية » « ولذلك اتجهوا من أواسط القرن الخامس عشر ، فما بعده ، إلى التغاضى عن التفاصيل المزعجة فى القانون الكنسى . . . وإلى إظهار التسامح الكبير مع غير الكاثوليك . وكان رجال المصارف المقرضون اليهود يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الحركة الاقتصادية فى ممتلكاتهم ، على حين أن البابوات وهم رجال دنيا واسعو الآفاق : قدروا كل التقدير مناقشتهم مع الأطباء اليهود وغيرهم ممن اتصلوا بهم . ومن ثم فإن هؤلاء البابوات أهملوا إهمالا يكاد يكون تاماً كل التعليمات والقواعد التى كان آباء الكنيسة قد أصدروها ، وصنفها فى عداد القوانين مجلسا لاتيران الثالث والرابع . ولما رأى سائر أمراء إيطاليا هذا المثل

الرائع أمام أعينهم — أمراء مديتشي فى فلورنسه ، إستنسى فى فبرارا ، جنزاجو فى منتوا ، حذوا إلى حد كبير حذو البابوات . إن اليهود ، ولو أنهم قد أزعجتهم بين الحين والحين فترات من العنف أو التعصب — مثال ذلك عندما سيطر سافونا رولا على فلورنسه ١٤٩٧ — امتزجوا بجيرانهم وشاركوهم حياتهم ، بدرجة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل ؛ وقاموا بنصيب ممتاز فى جوانب معينة فى النهضة ... عكسوها فى حياتهم هم أنفسهم وفى أنشطتهم الأدبية باللغة العبرية ، وأسهموا بإضافات هامة فى الفلسفة والموسيقى والمسرح . وكانوا شخصيات حبيبة فى بلاط كثير من الأمراء الإيطاليين(١٣) .

إن بعضاً من الشخصيات التى كانت يوماً مشهورة لتكشف لنا عن هذه الفترة المشرقة فى العلاقات بين المسيحيين واليهود . ولد إمانويل بن سولومون الحارومى (الرومى) وفى نفس السنة التى ولد فيها دانتى (١٢٦٥) وأصبح صديقاً له ، وكان رجلا من رجال النهضة قدر ما يستطيع يهودي مخلص أن يكونه ؛ وكان يحترف الطب ، كما كان واعظاً ، وعالماً دينياً ، وعالماً من علماء النحو ، ومن المشتغلين بالعلوم ، ومن أصحاب المال والأعمال ، وشاعراً ، و « مؤلفاً لأغان ماجنة كثيراً ما جاوزت حدود الحشمة »(١٤) . ولما كان يتقن العبرية كل الإتقان : فإنه أدخل إلى هذه اللغة المقطوعة الشعرية ذات الأربعة عشر بيتاً (Sonnet) وكاد ينافس الإيطاليين فى الفصاحة والسلاسة والروح ، ولم يظهر أى شاعر يهودى قط قبل « هين » مثل ما أظهر إمانويل من موهبة الهجاء والروعة والذكاء . وربما كان إمانويل قد تشرب بعض مبادئ مذهب ابن رشد فى الشك ،

الذى ساد فى ذاك العصر ، فإن إحدى قصائده تعبر عن نفوره من السموات بما فيها من أناس أطهار (ذهب إلى أن النساء الدميات الخلقة هن فقط الفضليات) ، وعن إيثاره للجحيم ، حيث توقع أن يجد فيها أكثر الجميلات إغراء فى كل الأزمان . وألف فى شيخوخته قصيدة ضعيفة يقلد فيها دانتى فى « السماء والجنة » . ولم يكن ثمة فى اليهودية مطهر ، مثلها فى ذلك مثل المذهب البروتستانتى . وكان إمانويل أكرم من دانتى ، فأفسح فى الجنة مجالا لكل «الأبرار فى العالم بأسره»(١٥) ، متبعاً فى ذلك نهج تقاليد أحبار اليهود . على أنه أدخل أرسطو إلى الجحيم لأنه انتهى إلى خلود الكون .

وثمة روح مرح جذل شبيه بهذا الذى أسلفنا ، أضفت سلاسة وحيوية على كتابات كالونيموس بن كالونيموس . وشاهد روبرت ملك نابلى فى إحدى زياراته لبروفانس هذا العالم الصغير ذا الاسم الجميل ، وأخذه معه إلى إيطاليا . وكان كالونيموس فى البداية متفرغاً إلى العلوم والفلسفة ، وترجم أرسطو وأرشميدس وبطلميوس وجالن والفارابى وابن رشد إلى العبرية ، وكتب بروح أخلاقية عالية . ولكنه وجد أنه من اليسير عليه أن يتمثل طباع المرح والبهجة فى نابولى ويتشربها . فلما انتقل إلى رومه أصبح هوراس اليهود (شاعر رومانى فى القرن الأول ق . م) يهجو هجاء لطيفاً أخطاء المسيحيين واليهود وأخطاءه هو نفسه ، ونقاط الضعف فيهم وفى شخصه . وندب حظه لأنه ولد رجلا ، فإنه لوكان امرأة ، لما كان عليه أن يطيل التنقيب والتفكير فى التوراة والتلمود ويحفظ مبادئ القانون البالغ عددها ٦١٣ . وسخرت روحه المرحة من التلمود . وتوحى الشعبية التى حظى بها هجاؤه لدى اليهود الرومان بأنهم لم يكونوا أتقياء متدينين بالقدر الذى كان عليه إخوانهم الأكثر شقاء فى سائر البلاد .

ولم تحى النهضة الدراسات اليونانية فحسب بل العبرية كذلك . ودعا الكاردينال أجديو دى فيتربو العالم اليهودى إيليا لفيتا من ألمانيا إلى رومه

(١٥٠٩) ، وبقى العالم اليهودى ثلاثة عشر عاماً ضيفاً مكرماً فى قصر الكاردينال يعلمه العبرية ، ويتلقى عنه اليونانية . وبفضل جهود إيليا ، ورخلين ، وآخرين من التلامذة المسيحيين الذين يتلقون العلم عن المعلمين اليهود ، أنشئت كراسى اللغة العبرية ، فى كثير من الجامعات والأكاديميات فى إيطاليا . وحظى إيليا دل مديجو الذى كان يعلم العبرية فى بادوا بتقدير عظيم هناك ، رغم رفضه التحول عن دينه ، إلى حد أنه لما حدث خلاف عنيف بين الطلبة المسيحيين حول بعض الشئون الثقافية ، عينت السلطات الجامعية والسناتو فى البندقية دل مديجو لتحكيم ، فعالج الموضوع بحزم ولباقة ، وخرج الجميع راضين . ودعاه بيكو دلا ميراندولا ليعلم العبرية فى فلورنسه ، وهناك انضم إيليا إلى الحلقة الإنسانية لأسرة مديتشى ، ولا زلنا نراه من بين الشخصيات التى رسمها بينوزو جوتزولى على جدران قصر مديتشى . ولم يشجع هذا العالم فكرة بيكو عن وجود بعض عقائد مسيحية فى « القبالة »(*) ، بل على النقيض من ذلك ، سخر من سفر الرؤيا على أنه مجموعة من سخافات حمقاء .

وكان اليهود القاطنون فى شمال جبال الألب أقل حظاً من اليهود فى إيطاليا . فقد طردوا من إنجلترا فى سنة ١٢٩٠ ، ومن فرنسا فى سنة ١٣٠٦ ، ومن فلاندرز فى سنة ١٣٧٠ . ودعوا إلى فرنسا ثانية فى ١٣١٥ شريطة أن يدفعوا الملك ثلثى أى مال يكونون قد جمعوه من ديونهم القروض التى فقدوها قبل طردهم[16] . وما أن انتهت مكاسب الملك من هذه العمليات حتى نفى اليهود ثانية فى سنة ١٣٢١ . وعادوا فى الوقت المناسب ليلاقوا التأنيب على « الموت الأسود » ويحملوا مسئوليته ، ونفوا مرة أخرى (١٣٤٩) . وأعيدوا من

(*) Cabala فلسفة دينية سرية ابتدعها بعض أحبار اليهود ، قائمة على تفسيرات غامضة للكتاب المقدس . (المترجم)

جديد (١٣٦٠) ليقدموا قروضاً مالية ويسهموا بمهارتهم ، عوناً منهم على افتداء ملك فرنسا الذى أسر فى إنجلترا . ولكن فى عام ١٣٩٤ اختفى فى ظروف غامضة إسرائيلى ارتد إلى المسيحية ، واتهم اليهود بقتله ، واعترف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب ، بأنهم كانوا قد نصحوا هذا المرتد بالعودة إلى اليهودية ، وثار الرأى العام ، وأمر شارل السادس كارهاً ، بنفى الجنس المنهوك ثانية .

وكان فى براغ جالية يهودية قوية ، ذهبوا إلى هناك ليستمعوا إلى عظات رائد « هس(*) » وهو ميلز Miliez ، لأنه أظهر اطلاعاً واسعاً وتقديراً كبيراً التوراة . ودرس هس العبرية ، وقرأ التعليقات العبرية ، واقتبس عن راشى وموسى بن ميمون . وأطلق التابوريون الذين مضوا بإصلاحات هس أشواطاً حتى باتت قريبة من الشيوعية — على أنفسهم « الشعب المختار » وأطلقوا أسماء « إدوم ، ومؤاب ، وعماليق » ، على الولايات الجرمانية التى شنوا عليها الحرب . ولم تكن جيوش هس ، على أية حال ، تستنكف عن قتل اليهود ، عندما استولوا على براغ (١٤٢١) ، ولم يتركوا لهم الخيار : الارتداد أو الجزية ، مثل المسلمين ، بل إن أيسر خيار كان : الارتداد إلى المسيحية أو الموت(١٧) .

ومن كل الدول المسيحية تأتى بولندة فى المحل الثانى بعد إيطاليا فى حسن وفادتها اليهود ، وفى ١٠٩٨ ، ١١٤٦ ، ١١٩٦ هاجر يهود كثيرون من ألمانيا إلى بولندة ، فراراً من الموت على أيدى الصليبيين ، ولقوا ترحيباً وازدهرت أحوالهم هناك ، وفى ١٢٠٧ أصبح بعضهم يمتلك ضياعاً واسعة . وفى ١٢٦٤ منحهم الملك بوليسلاف التقى صكا بالحقوق المدنية . وبعد الموت

(*) Huss أحد رجال الإصلاح الدينى وأحد الشهداء فى بوهيميا (١٣٦٩ — ١٤١٥) .
(المترجم)

الأســود انتقل عدد أكبر من الألمان إلى بولندة ، ورحبت بهم هناك الأرستقراطية الحاكمة ، بوصفهم خميرة تقدمية اقتصادية فى أمة لا زالت تفتقر إلى طبقة وسطى : وثبت كازيمير الثالث الأكبر (١٣٣٣ — ١٣٧٠) حقوق اليهود البولنديين ووسعها ، وضمن الدوق الأعظم فيتوفست Vitovst هذه الحقوق ليهود لتوانيا : ولكن فى ١٤٠٧ ، أبلغ أحد الكهنة شعب الكنيسة فى كراكاو أن اليهود قد قتلوا طفلا مسيحياً ، وأخذوا يمتعون أنظارهم بدمه . وحرض هذا الاتهام على وقوع المذابح . وجدد كازيمير الرابع حريات اليهود وزاد فيها (١٤٤٧) ، وقال : « نريد أن يشعر اليهود الذين نرغب فى أن نحميهم من أجل مصلحتنا ، ومصلحة خزانة الدولة — أن يشعروا بالراحة فى ظل حكمنا الخير »[١٨] . واتهم رجال الدين الملك ، وأندره أولسنيكى رئيس الأساقفة بسوء المصير فى الجحيم ، وألقى يوحنا كابسترانو ، الذى جاء إلى بولندة ممثلا للبابا ، خطباً ملتهبة مثيرة فى سوق بلدة كراكاو (١٤٥٣) ، ولما هزم الملك فى الحرب ارتفعت الصيحات بأن عقاب الله قد نزل به لمساندته الكفار . ومذ كان فى حاجة إلى تأييد رجال الدين للدخول فى حرب أخرى ، فإنه ألغى صك حريات اليهود . ووقعت المذابح المنظمة فى ١٤٦٣ ، ١٤٩٤ ، وربما كان لمنع هذه الهجمات أن طلب إلى يهود كراكاو بعد ذلك أن يقطنوا ضاحية « كازيميريه » .

وفى تلك الضاحية وفى غيرها من المراكز فى بولندة ولتوانيا ، زاد اليهود عدداً وازدهاراً بعد أن ذللوا كل العقبات ، وفى عهد سجسمند الأول أعيدت لهم حرياتهم فيما عدا حرية الإقامة . وظلوا على علاقة طيبة مع سجسمند : وفى ١٥٥٦ اتهم ثلاثة من اليهود فى بلدة سوخاشيف ، بطعن « القربان المكرس » حتى أدمى ، وأعلنوا براءتهم ، ولكنهم أعدموا حرقاً بأمر من أسقف خلم Khelm . واستنكر سجسمند الثانى هذه العملية على أنها « أكذوبة ديلية » قصد بها أن يثبت لليهود والبروستانت أن الخبز المقدس كان قد تحول

فعلا إلى جسد المسيح ودمه ، وقال الملك « لقد صعقت لهذه الجريمة البشعة ، وإنى لا يعوزنى حسن الإدراك إلى حد يجعلنى أومن بأنه يمكن أن يكون هناك دم فى القربان[١٩] » ، ولكن بموت هذا الملك المتشكك ، انتهت فترة المشاعر الطيبة بين الحكومة واليهود فى بولندة .

وعاش اليهود حقبة من الزمن فى سلام فى ألمانيا فى العصور الوسطى . وعملوا بجد ونشاط على طول المنافذ التجارية النهرية الكبيرة ، وفى المدن الحرة والثغور ، وحتى رؤساء الأساقفة أنفسهم كانوا يطلبون ترخيصاً من الإمبراطور لإيواء اليهود وبمقتضى المرسوم البابوى (١٣٥٥) شارك الإمبراطور شارل الرابع الناخبين الإمبراطوريين امتيازهم فى الانتفاع باليهود ، أى حق الناخبين فى استقبال اليهود فى دوائرهم ، وحمايتهم واستخدامهم ، وابتزاز أموالهم . وفى ألمانيا ، كما كان الحال فى إيطاليا ، تلهف الطلاب على تفهم التوراة فى نصوصها الأصلية ومن ثم درسوا العبرية . وحفز النزاع بين رخلين وبفركورن إلى هذه الدراسة ، كما قوت طباعة التلمود كاملا لأول مرة (١٥٢٠) من هذا الحافز .

وبلغ تأثير اليهودية ذروته فى الإصلاح الدينى . ومن الوجهة الديلية ، كان هذا الإصلاح رجوعاً إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة فى صدر المسيحية اليهودية . فإن عداء البروتستانتية للصور الدينية والتماثيل ، كان عوداً إلى عداء السامية « للصور المنحوتة » . واحتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود) . وإن إنكار عبادة العذراء ، وعبادة القديسين ليقترب كثيراً من التوحيد الصارم عند اليهود . كما أن ارتضاء القساوسة الجدد للزواج والجلس ، جعلهم أشبه بأحبار اليهود ، منهم بالكهنة الكاثوليك . إن نقاد رجال الإصلاح الذين اتهموهم « بالتهود » ، وأسموهم « أشباه اليهود » أو « أنصاف اليهود »[٢٠] . وقال كارلستاد نفسه إن ملانكتون (من رجال الإصلاح اللوثرى فى ألمانيا) أراد أن يرجع إلى موسى

وشريعته ، وضم كلفن تهمة « التهود » إلى آثام سرفيتس السيئة ، وسلم الأسبانى بأن دراساته العبرية أثرت عليه فى مناقشة لاهوت التثليث . وأعاد حكم كلفن فى جنيف إلى الأذهان تسلط الكهنة فى إسرائيل القديمة . واتهم زونجلى بأنه متهود لأنه درس العبرية مع اليهود ، وبنى كثيراً من عظاته وتعليقاته على النص العبرى للتوراة ، واعترف بأنه مفتون باللغة العبرية :

> لقد ألفيت « اللغة المقدسة » ، فوق كل ما يعتقده الناس ، لغة مهذبة رشيقة جليلة ، وعلى الرغم من فقرها فى عدد الكلمات ، فإن أحداً لا يشعر بهذا النقص ، لأنها تستخدم حصيلتها من الألفاظ بأساليب شتى . والحق أنى قد أجرؤ على القول بأن الإنسان إذا أدرك جلالها ورشاقتها ، لوجد أنه ليس هناك لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن الكثير بمثل هذا العدد القليل من الألفاظ ، وبمثل هذه التعابير القوية ، وليس ثمة لغة مثلها غنية بأساليب التصوير المتعـــددة الجوانب الزاخرة بالمعانى . وليس هناك لغة مثلها تبهج القلب وتنفذ إليه بسرعة(٢١) .

ولم يكن لوثر متحمساً إلى مثل هذا الحد . وقال شاكياً : « كيف أبغض قوماً يقحمون على الناس لغات كثيرة كما يفعل زونجلى ، فقد تحدث على المنبر باليونانية والعبرية فى همبرج »(٢٢) . وهاجم لوثر فى نزق شيخوخته وخرفه ، اليهود وكأنه لم يتعلم منهم شيئاً . وليس ثمة إنسان بطل فى رأى دائنه . وفى نشرة عن « اليهود وأكاذيبهم » (١٥٤٢) أفرغ لوثر وابلا من الحجج ضد اليهود ، على أنهم كانوا قد أبوا أن يرتضوا المسيح إلهاً ، وأن ما عانوا طوال حياتهم أثبت غضب الله عليهم ، وأنهم دخلاء على أراضى المسيحيين ، وأنهم كانوا وقحين فى ثرائهم القائم على الربا ، وأن التلمود أجاز الخداع والسرقة والسلب وقتل المسيحيين ، وأنهم سمموا العيون والآبار ، وذبحوا

أطفال المسيحيين ليستخدموا دماءهم فى الطقوس الإسرائيلية . وقد رأينا فى دراستنا له فى شيخوخته كيف أنه نصح الألمان بإحراق بيوت اليهود ، وإغلاق معابدهم ومدارسهم ، ومصادرة ثرواتهم ، وتجنيد رجالهم ونسائهم فى أعمال السخرة ، وأن يخير جميع اليهود بين اعتناق المسيحية أو قطع ألسنتهم . وفى عظة ألقاها قبل موته بوقت قصير ، أضاف أن الأطباء اليهود كانوا يتعمدون تسميم المسيحيين(٢٣) . وساعدت هذه التصريحات على أن تجعل البروتستانتية — وهى المدينة كثيراً لليهودية — أشد عداوة للسامية من الكاثوليكية الرسمية ، ولو أنها ليست فى هذا المجال أكثر من جماهير الكاثوليك الذين أثروا على الناخبين فى سكسونيا وبراندنبرج ليطردوا اليهود من هذه البقاع (٢٤) . لقد أشاعوا هذه النغمة فى ألمانيا على مدى عدة قرون ، وأعدوا شعبها لإبادة الجنس حرقاً .

٢ — على السفود

لماذا كان المسيحيون واليهود يمقتون بعضهم بعضاً ؟ لا ريب أنه كان هناك سبب يسود بينهم باستمرار ، ذلك هو الصراع الحاد بين العقائد الدينية ، حيث كان اليهود يشكلون تحدياً ثابتاً معمراً للمعتقدات المسيحية الأساسية .

وأدى العداء الديني إلى فصل عنصرى جاء فى أول الأمر طوعاً ، ثم بات قسراً فيما بعد ، حيث انبثق فى إنشاء أول حى يهودى فى سنة ١٥١٦ . وأبرز هذا الفصل العنصرى الاختلافات فى اللباس وطرق الحياة والملامح والصلاة والكلام . وشجع هذا التباين على عدم الثقة والخوف المتبادلين بين الطرفين ؛ وولد هذا الخوف كراهية . وحول اليهود ما ألفوا من منع زواجهم من المسيحيين مفخرة لهم . وتمخض اعتزازهم بجنسهم عن تباهيهم بأنهم سلالة ملوك قد حكموا إسرائيل ألف سنة قبل ظهور المسيح ؛ واحتقروا المسيحيين بوصفهم مشركين يؤمنون بالخرافات ، وأنهم يتصفون بشىء من

بطء الفهم ، ولكنهم يتشدقون بعبارات ملؤها الرياء المهذب على حين يأتون بأعمال وحشية لا يستشعرون فيها الرحمة ، ويعبدون «أمير سلام» على حين يشن الإخوة الحرب تلو الحرب ضد إخوتهم . كما احتقر المسيحيون اليهود على أنهم كفرة غرباء لا يؤلفون . ويروى توماس مور قصة سيدة تقية صعقت عندما علمت أن السيدة العذراء كانت أصلا يهودية ، فاعترفت بأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تكن « لأم الإله » ما كانت تكنه لها من حب من قبل[٢٥] .

وأصبحت قصة القربان المقدس مأساة لليهود . فقد طلب إلى المسيحيون أن يؤمنوا بأن الكاهن كان يحول رقائق الخبز غير المخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وقد ارتاب فى هـــذا بعض المسيحيين ، مثل « طائفة المتمتمين(*) » ، وربما أمكن أن يقوى من هذا الاعتقاد ما روى من قصص عن بعض رقائق الخبز المكرس التى تقطر دماً عند أية وخزة من سكين أو دبوس . ولكن من ذا الذى يقدم على هذه الفعلة الشنيعة غير اليهود ؟ وفى القرون الأخيرة من العصور الوسطى كانت مثل هذه الأساطير التى تروى عن القربان الذى يقطر دماً كثيرة جداً . وفى حالات عديدة : فى نيوبرج (بالقرب من باسو) ١٣٣٨ ، وفى بروكســـل ١٣٦٩ ، أدت هذه المزاعم إلى ذبح اليهود وإحراق بيوتهم . وأقيم فى كاتدرائية سانت جودول فى بروكسل مصلى خاص لتخليد ذكرى القربان الذى أدمى ١٣٦٩ ، واحتفل بهذه المعجزة سنوياً فى عيد يطلق عليه Flemish Kermess[٢٦] . واعترف أحد الكهنة فى نيوبرج بأنه كان قد غمس قرباناً غير مكرس فى الدم وخبأه فى إحدى الكنائس ثم اتهم

(*) Lollards جماعة من المصلحين السياسيين والدينيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهم فى انجلترا أتباع جون ويكلف الذى استقت نظرياته كثيرا من نقاط الإصلاح البروتستانتى الذى جاء فيما بعد . (الترجمة)

اليهود بطعنه(٢٧) . وينبغي أن نضيف إلى هذا أن رجال الكنيسة المستنيرين مثل نيقولا أوف كوزا دمغ أساطير هجمات اليهود على القربان بأنها ضروب من القسوة مخزية .

واستمرت المنافسات الاقتصادية وراء العداء الديني . فعلى حين امتثل المسيحيون لأمر البابا بتحريم الزوائد الربوية ، حصل اليهود على ما كاد يكون احتكاراً لإقراض النقود في العالم المسيحي . ولما تجاهل بعض أصحاب المصارف المسيحيين هذا التحريم ، هبت شركات مثل Bordi ، Pitti ، Strozzi في فلورنسه ، وولزرز Welsers ، Hochstetters ، Fuggers في أوجزبرج ، هبت تتحدى هذا الاحتكار ، ومن ثم تركزت هنا إثارة جديدة للخواطر ، وتقاضى الطرفان ، المسيحيون واليهود ، كلاهما نسبة عالية من فوائد القروض ، مما يعكس المخاطرة بإقراض النقود في اقتصاد غير مستقر ، زاد من زعزعته ارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة العملة . وغامر المقرضون اليهود أكثر مما فعل منافسوهم . وباتت ديون اليهود على المسيحيين غير محققة وغير مأمونة تكتنفها مخاطرة كبيرة ، فقد تعلن السلطات الكنسية تأجيل الدفع ، كما حدث في الحروب الصليبية ، وربما فرض الملوك ، وقد فرضوا بالفعل ، على اليهود ضرائب يصادرون بها أموالهم ، أو ابتزوا القروض منهم قسراً وإلا طردوهم وأحلوا مدينيهم من ديونهم أو تقاضوا نصيباً من المسموح بجمعه من الأموال . وفي شمال الألب ظلت كل الطبقات تقريباً ، فيما عدا رجال الأعمال ، تعتبر الفائدة رباً ، ودمغوا بالإجرام أصحاب المصارف اليهود ، وخاصة من يقترضون منهم . ولما كان اليهود بصفة عامة أكثر رجال المال خبرة وتجربة ، فقد استخدمهم الملوك في كثير من الأقطار لإدارة الشئون المالية في الدولة . وكانت رؤية اليهود الأثرياء يتقلدون مناصب مريحة ويجمعون الضرائب من الناس تثير استياء الشعب وسخطه .

ومع هذا كله ، رحبت بعض المجتمعات المسيحية بأصحاب المصارف من اليهود : وقدمت لهم فرنكفورت امتيازات خاصة شريطة تقاضيهم نسبة ٣٢½٪ فقط ، على حين تقاضوا من آخرين ٤٣ ٪ [٢٨] ، وقد نرى في هذا ما يثير نفورنا الشديد ، ولكنا نسمع عن مقرضي نقود مسيحيين بلغ ما تقاضوه ٢٦٦ ٪ ، وتقاضى آل هولز هيرز في نورمبرج ٢٢٠ ٪ في ١٣٠٤ ، وتقاضى المقرضون المسيحيون في براتيزى ٢٤٠ ٪[٢٩] . كما نسمع عن مدن طالبت بعودة أصحاب المصارف اليهود باعتبارهم أكثر تساهلا ورفقاً من نظرائهم المسيحيين . واشترطت رافنا : في معاهدة مع البندقية ، وجوب إرسال ماليين يهود إليها لفتح حسابات مصرفية للنهوض بالزراعة والصناعة[٣٠] .

وأضافت الروح القومية نغمة جديدة إلى أنشودة البغض والكراهية : وذهبت كل أمة إلى أنها بحاجة إلى وحدة عرقية ودينية . وطالبت بامتصاص اليهود فيها أو تحولهم عن دينهم . وكانت عـدة مجالس كنسية ، كما كان بعض البابوات يكرهون اليهود بشكل يتسم بالعدوان . وحرم مجلس فيينا (١٣١١) أى تعامل بين المسيحيين واليهود . واستن مجلس زمورا (١٣١٣) قاعدة بأن يبقوا في حالة خضوع وعبودية صارمة . وجدد مجلس بال (١٤٣١ — ١٤٣٣) القوانين الكنسية التي تحرم على المسيحيين معاشرة اليهود ، أو خدمتهم ، أو استخدامهم كأطباء ، وأصدرت التعليمات إلى السلطات المدنية بعزل اليهود في أحياء مستقلة ، وإلزامهم بوضع شارة مميزة ، والتحقق من حضورهم عظات تهدف إلى تحويلهم عن دينهم[٣١] . ولم يطق البابا يوجينيوس الرابع ، الذى كان في نزاع مرير مع مجلس بال ، أن يتفوق عليه هذا المجلس في إزعاج اليهود ، فأكد التجريد من الحقوق الذى وضعه هـذا المجلس ، وأضاف أنه يجب ألا يكون اليهود مؤهلين لأية وظيفة عامة ، وألا يرثوا أية ممتلكات مسيحية ، وألا يشيدوا مزيداً من المعابد ، وأن يقبعوا في دورهم خلف الأبواب والنوافذ المغلقة

فى أسبوع الآلام ، (احتياط حكيم ضد عنف المسيحيين) ، أضف إلى ذلك أنه لا يعتد قانوناً بشهادة اليهود ضد المسيحى . وشكا يوجينيوس من أن بعض اليهود افتروا على يسوع ومريم فى أحاديثهم . ويحتمل أن هذا كان صحيحاً[٣٢] ، فإن الكراهية تولد الكراهية . وأصدر يوجينيوس بعد ذلك موسوماً آخر يقضى بأنه إذا وجد يهودى يقرأ التلمود ، فلا بد من مصادرة أملاكه . وفوض البابا نيقولا الخامس القديس يوحنا كابسترانو (١٤٤٧) ليراقب أن كل مادة فى هذا التشريع المذل توضع موضع التنفيذ ، وليضع يده على ممتلكات أى طبيب يهودى تولى علاج فرد مسيحى[٣٣] .

وعلى الرغم من كل هذه المراسيم كان سلوك جمهور المسيحيين مع اليهود يتسم بتلك الروح الطيبة التى تسيطر على كل الناس تقريباً ، رجالا ونساء . بل وعلى الحيوانات ، إذا لم يعترض سبيلهم أو يمس مصالحهم شىء . ولكن من الجائز أن يوجد فى معظم الجماعات أقلية لا تتورع عن ممارسة أعمال القسوة إذا أمكن القيام بها مع الإفلات من العقوبة بصفة جماعية . ومن هذا القبيل جماعة « الباستير » ، وقد نشأوا كرعاة مرتبطين بالأرض المقدســة ، وجذبوا أنظار الدهماء من الناس لدى مرورهم بفرنسا (١٣٢٠) ، فقد عقدوا العزم على قتل كل من يصادفهم من اليهود الذين رفضوا التعميد . وفى تولوز اعتصم نحو ٥٠٠ من اليهود بأحد الأبراج ، فحاصرهم حشد هائج من الغوغاء ، وخيروهم بين التعميد أو الموت ، وحاول محافظ المدينة عبثاً إنقاذهم . ولما أدرك اللاجئون أن المقاومة ضرب من المحال ، أمروا نفراً من الأقوياء فيهم بأن يذبحوهم . وقيل إنهم جميعاً بهذه الطريقة لقوا حتفهم فيما عدا واحداً ، عرض الإبقاء على حياته ، مع الإذعان للتعميد ، ولكن الحشد الثائر مزقه إرباً . وبمثل هذه الطريقة استؤصل نحو ١٢٠ جالية يهودية فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا ولم يخلفوا وراءهم إلا بقية معدمة[٣٤] . وفى ١٣٢١ أحرق فى شينون

١٢٠ يهوديا بتهمة تسميم الآبار[٣٥] ، وفى ١٣٣٦ أعلن أحد المتعصبين الألمان أنه تلقى الوحى من عند الله يأمره بقتل اليهود ثأراً لموت المسيح ، فجمع حوله نحو خمسة آلاف من الفلاحين ، أطلقوا على أنفسهم اسم Armleder نسبة لشريط من الجلد ربطوه حول أذرعهم ، وجاسوا خلال الألزاس وأراضى الراين ، وقتلوا كل يهودى عثروا عليه . واجتاحت حمى القتل بافاريا وبوهيميا ومورافيا والنمسا (١٣٣٧) وحاول البابا بندكت الثانى عشر وقفها دون جدوى ، ولكن فى راتسبون وفيينا فقط أمكن حماية اليهود بطريقة فعالة ، أما فى الأماكن الأخرى فقد عذب الآلاف من اليهود وقتلوا[٣٦] .

وكان الموت الأسود كارثة خاصة حلت باليهود فى العالم المسيحى . لقد أودى الطاعون نفسه بحياة المغول والمسلمين واليهود فى آسيا ، وهناك لم يفكر أحد فى إلقاء اللوم على اليهود ، ولكن فى أوربا الغربية حيث جن جنون الأهالى لهول الوباء وما أحدثه من دمار ، اتهم اليهود بتسميم الآبار فى محاولة لاستئصال المسيحيين . ونسج الخيال المسعور كثيراً من التفاصيل . فقيل بأن يهود طليطلة أرسلوا رسلهم بصناديق ملأى بالسم الذى صنعوه من السحالى والعظاءات (نوع من الزواحف) وقلوب المسيحيين ، إلى جميع الجاليات اليهودية فى أوربا ، مع توجيهات بإلقاء هذه السموم المركزة فى الآبار والعيون . ودمغ الإمبراطور شارل الرابع هذا الاتهام بالسخف الذى لا يعقل ، وكذلك فعل البابا كليمنت السادس[٣٧] ، وأيد كثيرون من عمد المدن والمجالس البلدية هذا الرأى ، ولكن ذلك كله لم يأت بنتيجة تذكر ، وساد بين المسيحيين اعتقاد باطل بأن الطاعون لم يكن يمس اليهود بسوء . وربما كانت الحمى فى بعض المدن أقل فتكاً باليهود منها بالمسيحيين . تبعاً لاختلاف القوانين الصحية والرعاية الطبية[٣٨] ، ولكن فى بعض الأماكن مثل فيينا ، راتسبون ، أفنيون ، رومه ، عانى اليهود من الطاعون قدر ما عانى

المسيحيون(٣٩)، ومع ذلك عذب اليهود حتى اعترفوا بتوزيع السم(٤٠) . وأغلق المسيحيون آبارهم وعيونهم ، وشربوا ماء المطر أو الثلج المذاب ، وانتشرت المذابح الرهيبة فى فرنسا وأسبانيا وألمانيا .وفى إحدى المدن فى جنوب فرنسا ألقيت الجالية اليهودية بأسرها فى النار . وأحرق كل اليهود فى سافوى ، وحول بحيرة ليمان وفى برن وفريبورج وبروكسل . ومرة أخرى استنكر كليمنت السادس هذا الإرهاب وهذه التهمة ، وأعلن براءة اليهود ، وأشار إلى أن الطاعون كان شديداً حيث لا يوجد يهود ، قدر شدته فى أى مكان آخر ، وحث رجال الدين على أن يكبحوا جماح الناس فى أبرشياتهم ، وحرم من الكنيسة كل من قتل اليهود أو اتهمهم ظلماً وافتراء ، ولكن فى ستراسبورج ، على أية حال ، شارك الأسقف فى توجيه الاتهام ، وحرض المجلس البلدى ، على كره من المجلس ، على أن ينفى كل اليهود . ورأى الجمهور أن هذا الإجراء معتدل ، فطرد المجلس وعين مجلساً غيره ، أمر بالقبض على كل اليهود فى المدينة ، وهرب بعض هؤلاء إلى الريف ولكنهم لقوا حتفهم بأيدى الفلاحين . وبقى ألفان من اليهود فى المدينة فأودعوا السجون ، وفرض عليهم التعميد ، فأذعن نصفهم ، ورفض الباقون فأحرقوا (١٤ فبراير ١٤٣٩) . وبلغ مجموع من أبيدوا نحو ٥١٠ جاليات يهودية فى أوربا المسيحية نتيجة هذه المذابح(٤١) ، وهلك عدد أكبر من ذلك ، ففى سرقسطه على سبيل المثال ، عاش واحد من بين كل خمسة من اليهود بعد الموت الأسود وما صحبه من اضطهادات(٤٢) وقدر لى Lea أن ٣٠٠٠ من اليهود قتلوا فى أرفورت ، ١٢٠٠٠ فى بافاريا(٤٣) . وفى فيينا بناء على نصيحة الحبر جونة Jonah تجمع كل اليهود فى المعبد وقتلوا أنفسهم بأيديهم ، وحدث مثل هذا الانتحار الجماعى فى ورمز ، أوبنهايم ، كرمز Krems ، فرانكفورت(٤٤) . وحمل الذعر آلافاً من اليهود على الفرار من أوربا الغربية إلى بولندة أو تركيا . وقد يكون من

العسير أن نعثر ، قبل زماننا أو فى سجلات للوحشية ، على أية أعمال أشد وحشية من قتل اليهود بالجملة فى الموت الأسود .

وزحف اليهود الذين عمروا بعد الموت الأسود ، وئيداً إلى المدن التى كانت قد سلبتهم ، وأعادوا بناء معابدهم ، ولكن اشتد شعور الكراهية نحوهم ، حيث نسب الخطأ إليهم . وفى ١٣٨٥ أودع السجون كل اليهود فى مدن « العصبة السوابية » وعددها ٣٦ مدينة ، ثم أطلقوا سراحهم على شريطة إلغاء كل الديون التى اليهود ، ونال هذا الإجراء كل الرضا فى نورمبرج بصفة خاصة لأنها كانت قد اقترضت منهم ما يعادل نحو ٠٠٠ر٧٠٠ دولار[٤٥] . وفى ١٣٨٩ ذبح عدد من اليهود بتهمة أنهم كانوا قد انتهكوا قدسية قربان مكرس . وبنفس التهمة أحرق ١٤ يهودياً فى ابوتزن (١٣٩٩)[٤٦] . ولأسباب مختلفة طرد اليهود من كولون (١٤٢٤) ، ومن سبير Speyer (١٤٣٥) ، ومن ستراسبورج وأوجزبرج (١٤٣٩) ، ومن ورزبرج (١٤٥٣) ، وأرفورت (١٤٥٨) ، وماينز (١٤٧٠) ، ونورمبرج (١٤٩٨) ، ومن أولم (١٤٩٩) . وأقر مكسيمليان الأول طردهم من نورمبرج على أساس أنهم « قد كثر عددهم وأنهم بفضل معاملاتهم الربوية وضعوا أيديهم على ممتلكات كثير من أفاضــل المواطنين ، وجروهم إلى مهاوى البؤس والعار »[٤٧] . وفى ١٤٤٦ أودع كل اليهود فى نطاق براندنبرج السجون وصودرت بضائعهم باتهامات دمغها ستيفن أسقف المدينة بأنها تخفى وراءها الجشع والطمع ، « لقد تصرف تصرفاً جائراً أولئك الأمراء الذين دفعهم جشعهم المفرط إلى القبض على نفر معين من اليهود وإلقائهم فى غياهب السجون دون مبرر عادل . وهم يرفضون أن يعوضوهم عما ابتزوا منهم »[٤٨] . وفى ١٤٥١ فرض نيقولا كاردينال كوزا ، وهو من أكثر الرجال استنارة فى القرن الخامس عشر ، على اليهود المقيمين فى حدود ولايته وضع الشارة . وبعد ذلك بعامين بدأ يوحنا كابسترانو بوصفه ممثلا للبابا نيقولا الخامس ،

مهمته فى ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسيلزيا وبولندة . واتهم فى عظاته الملتهبة اليهود بقتل الأطفال وتدنيس القربان ، وهى اتهامات كان قد دمغها البابوات بأنها خرافات قتالة . وأخرج أدواق بافاريا كل العبرانيين من دوقيتهم بعد أن ألهبهم « سوط اليهود » . هذا . أما جودفرى أسقف ورزبرج الذى كان قد منح اليهود امتيازاتهم كاملة فى فرانكونيا ، فإنه عاد الآن ففاهم ، وفى المدينة تلو المدينة قبض عليهم وألغيت كل الديون التى كانت لهم . وفى برسلاو سجن عدد من اليهود بناء على طلب كابسترانو ، وأشرف هو بنفسه على التعذيب الذى انتزع من بعضهم أى اعتراف أمر كابسترانو بالإدلاء به ، وعلى أساس هذا الاعتراف أعدم أربعون منهم حرقاً (٢ يونيه ١٤٥٣) . ونفى اليهود الباقون ، ولكن أطفالهم انتزعوا منهم وعمدوا بالقـوة[٤٩] . وضم كابسترانو إلى قائمة القديسين ١٦٩٠ .

وإن محنة اليهود فى راتسبون لتوضح حقيقة هذا العصر . فقد زعم هانز فوجل ، وهو يهودى تنصر أن أحد الأحبار واسمه إسرائيل برونا ، فى الخامسة والسبعين من العمر كان قد ابتاع منه طفلا مسيحياً وقتله ، ليستخدم دمه فى أحد الطقوس اليهودية . وآمن الناس بصحة الاتهام ، وتعالت صيحاتهم مطالبين بعقوبة الموت للحبر العجوز . وألقى مجلس المدينة بالشيخ العجوز فى السجن إنقاذاً له من أيدى الجمهور . وأمر الإمبراطور فريدريك الثالث بالإفراج عنه . ولم يجرؤ المجلس على الامتثال للأمر ، ولكنه قبض على فوجل ، وأبلغه أنه لا مناص من موته ، وطلب إليه أن يعترف بخطاياه . فأقر أن برونا برىء ، وأفرج عن الحبر . ولكن ترامت الأنباء إلى راتسبون عن اعتراف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب بقتل طفل مسيحى فى ترنت . وهنا نشأ من جديد الاعتقاد بصحة اتهام فوجل ، فأمر المجلس باعتقال كل يهود راتسبون ومصادرة بضائعهم . وتدخل فردريك ، وفرض على المدينة غرامة قدرها ثمانية آلاف جيلدر ، ووافق المجلس على إطلاق سراح اليهود

إذا دفعوا هـذه الغرامة ، وفوقها مبلغ ١٠ آلاف جيلدر بصفة كفالة (٢٥٠٠٠٠ دولار ؟) . فأجاب اليهود بأن هذا المبلغ (١٨٠٠٠ جيلدر) يزيد على كل ما تبقى لهم من ممتلكات ، ومن ثم يتعذر عليهم دفعه . وقضوا فى السجن عامين آخرين . ثم أطلق سراحهم بعـد أن أقسموا اليمين بألا يغادروا راتسبون وألا يحاولوا الانتقام . على أن رجال الدين أهاجوا الشعور لطردهم وهددوا بالحرمان من الكنيسة كل تاجر يبيع اليهود شيئاً ؛ ولم يبق فى سنة ١٥٠٠ سوى ٢٤ أسرة يهودية ، وطرد هؤلاء فى ١٥١٩(٥٠) ؛

ووصف طرد اليهود من أسبانيا ، فيما أسلفنا من قبل ، بأنه عملية مهمة بالنسبة لتاريخ تلك البلاد . وتجدد فى البرتغال اضطهادهم عندما سمح البابا كليمنت السابع ، بتحريض من شارل الخامس ، للأساقفة البرتغاليين بإنشاء محكمة التفتيش (١٥٣١) بقصد فرض الشعائر المسيحية على « المسيحيين الجدد » ، ومعظمهم من اليهود الذين كانوا قد عمدوا رغم إرادتهم ؛ وطبق قانون توركيمادا الصارم ، وبثت العيون والأرصاد لملاحقة ارتداد أى من المتنصرين إلى شىء من الطقوس الدينية اليهودية ، وسجن الألوف من اليهود ، وحرمت عليهم الهجرة ، لأن مهامهم الاقتصادية كانت لا تزال ضرورية للاقتصاد البرتغالى . وحرم على المسيحيين شراء شىء من أملاك اليهود منعاً لهم من الهرب ، وأرسل مئات من هؤلاء إلى المحرقة لمحاولتهم مغادرة البلاد . وصعق كليمنت لهذه الإجراءات ، وربما أثرت فيه هدايا اليهود ، فأبطل سلطة محكمة التفتيش البرتغالية ، وأمر بإطلاق سراح كل من أمرت بسجنهم ، وإعادة بضائعهم المصادرة . ونص مرسومه الصادر فى ١٧ أكتوبر ١٥٣٢ على بعض مبادئ إنسانية للتعامل مع المرتدين عن المسيحية .

لما كانوا قد سيقوا إلى التعميد قسراً ، فلا يجوز أن يعتبروا أعضاء فى الكنيسة . وإن فى معاقبتهم على الهرطقـة والانتكاس إلى شعائرهم الأولى ، خرقاً لمبادىء الإنصاف والمساواة ،

والأمر يختلف فيما يتعلق بأبناء وبنات الموارنة الأولين فإنهم يتبعون الكنيسة كأعضاء مختارين غير مكرهين ، وبما أنهم نشأوا فى أحضان أقرباء لهم من اليهود ، وشاهدوا هذا النموذج ماثلا دوماً تحت بصرهم ، فإنه من القسوة أن نعاقبهم بمقتضى قانون الكنيسة ، بتهمة التردى فى أساليب اليهود ومعتقداتهم . إنهم يجب أن يظلوا فى أحضان الكنيسة بالمعاملة الحسنة(٥١) .

ويتبين أن كليمنت كان مخلصاً من رسالة بعث بها عند ما شعر بدنو أجله ، إلى القاصد الرسولى فى البرتغال فى ٢٦ يوليو ١٥٣٤ ، يأمره بالإسراع بإطلاق سراح المسجونين المرتدين(٥٢) .

وتابع البابا بول الثالث بذل الجهد لمعاونة اليهود البرتغاليين ، وأطلق سراح ١٨٠٠ من المسجونين ، ولكن عند ما عاد شارل من حملته التى كانت فى ظاهرها ناجحة ضد تونس ، طالب ، مكافأة له ، بإعادة محكمة التفتيش فى البرتغال . ووافق بول على كره منه (١٥٣٦) ، ولكن بشروط بدا للملك جون الثالث أنها تنسخ موافقته — منها ضرورة مواجهة المتهم بمن اتهمه . وإثبات حق المحكوم عليه فى استئناف الحكم أمام البابا . وساعد مرتد متعصب المحققين بأن علق على جدران كاتدرائية لشبونة إعلاناً جريئاً جاء فيه : « أن المسيح المخلص لم يظهر بعد ، وأن يسوع ليس هو المخلص ، وأن المسيحية محض افتراء »(٥٣). ولما كان من الواضح أن مثل هذه العبارات قصد بها إيذاء اليهود ، فإن لنا أن نرتاب بحق فى أحد العملاء المحرضين . وعين بول لجنة من الكاردينالات لفحص إجراءات محكمة التفتيش البرتغالية . وقد جاء فى تقريرها :

إذا اتهم مسيحى زائف — وغالباً ما يكون ذلك عن طريق شهود مفترين — ساقه المحققون إلى منعزل موحش لا يرى

فيــه أرضاً ولا سماء ، وأقل ما يقال إنه لا يخاطب فيه صديقاً يواسيه أو يسعفه . ويتهمونه بمقتضى شهادة غامضة ولا ينبئونه بالزمان أو المكان الذى اقترف فيه الجريمة التى يحاكم من أجلها . ويسمح له فيما بعد باختيار محام عنه غالباً ما يقوده إلى طريق المحرقة ، بدلا من الوقوف إلى جانبه والدفاع عن قضيته . دع مخلوقاً منكود الحظ يقر بأنه مسيحى مؤمن حقاً ، وينكر إنكاراً قاطعاً الخطايا التى سيقت لاتهامه ، فإنهم يسلمونه إلى النار ، ويصادرون بضاعته . أو دعه يدفع بأنه مذنب فى كذا وكذا من الأعمال ، ولو أنها ارتكبت عن غير قصد ، فإنهم يعاملونه بالطريقة نفسها ، مدعين بأنه ينكر عناداً نياته ومقاصـــده السيئة : أو دعه يعترف اعترافاً كاملا صريحاً بصحة ما اتهم به ، فإنهم يسومونه أشد ضروب الحرمان ، ويحكمون عليه بالبقاء فى زنزانة كئيبة مظلمة لا يرى فيها النور ، ويسمون هـــذا « معاملة المتهم بالرحمة والرأفة والبر المسيحى » ! وحتى الذين يفلحون فى إثبات براءتهم يحكم عليهم بدفع غرامة ، حتى لا يقال إنه قبض عليهم بلا سبب . أما المتهمون المودعون فى السجون فإنهم يعذبون بكل آلات التعذيب حتى يقروا بما وجه إليهم من اتهامات . وكثيرون يقضون نحبهم فى السجن : أما الذين يطلق سراحهم . فإنهم هم وذوى قرباهم يدمغون بالعار الأبدى(٥٤) .

لقد أرهقت التطورات السياسية البابا بول ، وأقض مضجعه خطر فقدان أسبانيا والبرتغال ، كما كان البابا ليو قد فقد ألمانيا ، والبابا كليمنت إنجلترا ، ولكن بول على الرغم من ذلك بذل قصارى جهده للتخفيف من حدة محاكم

التفتيش ، ولكن الإرهاب كان يستشرى يوماً بعد يوم ، حتى وجد يهود البرتغال ، بكل وسيلة يائسة ، مهرباً من مضيفيهم ، وانضموا إلى إخوانهم فى أسبانيا سعياً وراء ركن يقبعون فيه بالعالم المسيحى أو أرض الإسلام ، ويمكن أن يحتفظوا فيه بشريعتهم مع الإبقاء على حياتهم .

٣ — الشتات الثانى

إلى أين يذهب اليهود ؟ إن جزيرتى سردينيا وصقلية اللتين كانوا قد قطنوا فيهما لمدة ألف سنة من قبل ، قد شملهما ، بالإضافة إلى أسبانيا ، المرسوم الذى أصدره فرديناند بطردهم . وما جاءت ١٤٩٣ حتى كان آخر يهودى قد غادر بالرمو . وفى نابولى استقبل فرانت الأول والإخوان الدومينيكان والجالية اليهودية المحلية ، آلاف اللاجئين بالترحاب . ولكن شارل الخامس أصدر فى سنة ١٥٤٠ مرسوماً بطرد اليهود من نابولى .

وكان فى جنوه لزمن طويل قانون يحدد دخول أعداد إضافية من اليهود . ولما وصل المرتدون من أسبانيا ١٤٩٢ ، لم يسمح لهم بالبقاء لأكثر من بضعة أيام قليلة . ولقد وصفهم مؤرخ جنوى بأنهم أشباح بالغة الهزال والشحوب والنحول ، عيونهم غائرة ، ولا يفرقهم عن الموتى سوى قدرتهم على الحركة »[٥٥] . ومات الكثير منهم جوعاً ، وحملت الأمهات أطفالا موتى ، وباع بعض الآباء أبناءهم ليدفعوا أجر الانتقال من جنوة . واستقبل نفر قليل من المنفيين فى فيرارا ، ولكن طلب إليهم أن يضعوا شارات صفراء[٥٦] وربما كان هذا بمثابة احتياط ضد انتشار المرض .

وكانت البندقية لعهد طويل مأوى لليهود . وكم من محاولات كانت قد بذلت لإخراجهم منها (١٣٩٥ — ١٤٨٧) ولكن السناتو تولى حمايتهم لأنهم كانوا يسهمون إسهاماً هاماً فى الاقتصاد والمال ، ويتولون الجزء الأكبر من تجارة الصادرات فى البندقية ، وكانوا نشيطين فى استيراد الصوف

والحرير من أسبانيا ، والتوابل واللؤلؤ من الهند[٥٧] . ولفترة طويلة كانوا يقطنون ، بمحض اختيارهم الحى الذى سمى باسمهم (حى اليهود) . وفى ١٥١٦ وبعد تشاور مع زعماء اليهود ، قضى السناتو بأن يقطن كل اليهود ، فيما عدا نفر قليل مرخص لهم بصفة خاصة ، فى قطاع من المدينة عرف باسم Ghetto أى حى خاص ، والظاهر أن هذا اللفظ مأخوذ عن كلمة getto ، أو مسبك كان هناك[٥٨] . وأمر السناتو كل اليهود المرتدين بمغادرة البندقية ، وقد شجع المسيحيون المنافسون هذا الإجراء . على أن بعض التجار المسيحيين عارضوه لأنه يهدد بفقدان أسواق معينة ، وخاصة فى العالم الإسلامى ، ولكن شارل الخامس استخدم كل نفوذه فى الموضوع ، ونفذ مرسوم الطرد[٥٩] . على أنه لم يمض وقت طويل حتى زحف التجار اليهود إلى البندقية ثانية ، وحل المنفيون من البرتغال محل اليهود المتنصرين الذين طردوا ، وأصبحت اللغة البرتغالية لبعض الوقت هى لغة اليهود البنادقة .

واستقبل البابا الإسكندر السادس اســتقبالا كريماً فى رومه كثيراً من المنفيين من شبه جزيرة إيبيريا ، وازدهرت أحوالهم فى عهد جوليوس الثانى ، وليو العاشر ، وكليمنت السابع ، وبول الثالث . وأباح كليمنت للمرتدين ممارسة الطقوس اليهودية فى حرية تامة ، مؤمناً بأنهم غير ملزمين بأى تعميد إجبارى[٦٠] . وفى أنكونا ، ثغر الولايات البابوية على الأدرياتيك ، حيث كان اليهود عنصراً نشيطاً فى التجارة الدولية ، أنشأ كليمنت مأوى لليهود الذين أعلنوا عن ديانتهم وضمن لهم عدم التحرش بهم . أما بالنســبة للبابا بول الثالث فيقول الكاردينال سادوليتو : « لم يغدق أى من البابوات على المسيحيين من التكريم والحفاوة والامتيازات والمنح مثل ما أغدق بول الثالث على اليهود . إنهم لم يحظوا بالمساعدة فقط بل إنهم تزودوا كذلك عملياً بالمنافع والامتيازات[٦١] » . وشكا

أحد الأساقفة من أن اليهود المرتدين عند دخولهم الى إيطاليا أسرعوا بالعودة إلى ممارسة الطقوس اليهودية وختان أطفالهم المعمدين ، تحت بصر البابا والأهالى ، فى الغالب . وتحت ضغط هذه الانتقادات أعاد بول محاكم التفتيش فى رومه (١٥٤٢) ، ولكنه ، وقف إلى جانب المرتدين طوال حياته(٦٢) .

وتحول خلفاؤه — وقد ضيقت عليهم الخناق الكارثة عن أساليب الرفق واللين التى سادت عصر النهضة — تحولوا إلى سياسة إزعاج اليهود وإقلاق بالهم . وطبقت المراسيم البابوية القديمة . وفرض بول الرابع (١٥٥٥ — ١٥٥٩) على كل معبد أن يسهم بعشرة دوكات (٢٥٠ دولاراً ؟) فى إقامة دار للمتنصرين ليتلقى فيها اليهود تعاليم المسيحية . وحرم على اليهود استخدام خدم أوممرضات مسيحيات أو علاج مرضى مسيحيين ، أو أن يبيعوا المسيحيين شيئاً غير الملابس القديمة ، أو أن يقيموا مع المسيحيين أية معاملات أو علاقات ممنوعة . وما كان لهم أن يستعملوا إلا التقويم المسيحى . وهدمت كل معابد اليهود فى رومه إلا واحداً ، وحرم على اليهودى أن يمتلك عقاراً ، وإذا كان لأحد منهم أى عقار فعليه أن يبيعه فى بحر ستة شهور ، وبهذه الطريقة استطاع المسيحيون أن يشتروا بما يعادل ٥٠٠ر٠٠٠ر١ كراون (٥٠٠ر٠٠٠ر١٢ دولار) من أملاك اليهود بخمس قيمته الفعلية(٦٣) . وانحصر كل اليهود الذين بقوا آنذاك فى رومه (١٥٥٥) فى حى منعزل عاش فيه عشرة آلاف شخص فى كيلو متر مربع فقط ، وشغلت عدة أسرات حجرة واحدة . وتعرض الحى ، بسبب انخفاض مستواه ، للفيضان الدورى لنهر التيبر ، حتى جعل من هذه البقعة مستنقعاً ملوثاً بالطاعون(٦٤) . وأحيط الحى بأسوار كئيبة تغلق أبوابها فى منتصف الليل وتفتح عند الفجر ، فيما عدا أيام الأحد والعطلات المسيحية فإنها تظل مغلقة طوال اليوم . وألزم اليهود بأن يلبسوا خارج هذا المعزل زياً مميزاً — للرجال

قبعة صفراء ، للنسوة خمار أو شارة صفراء . — وأقيمت أحياء منعزلة مثل هذا في فلورنسا وسيينا ؛ وبمرسوم من البابا في أنكونا وبولونيا ، وكانت تسمى هناك Enferno[٦٥] (الجحيم) . وأصدر بول الرابع أمراً سرياً بوضع كل المرتدين في أنكونا في سجون محكمة التفتيش وبمصادرة بضائعهم . وأحرق هناك أربعة وعشرون رجلا وامرأة واحدة أحياء بتهمة أنهم هراطقة مرتدون (١٥٥٦)[٦٦] وأرسل سبعة وعشرون يهودياً للتجديف على السفن الشراعية إلى الأبد[٦٧] . وكان هذا بالنسبة ليهود إيطاليا انتقالا من عصر ذهبي إلى شفق شاحب .

وتسللت حفنة من اللاجئين اليهود إلى فرنسا وإنجلترا على الرغم من القوانين التي تنص على إبعادهم . وكانت ألمانيا كلها تقريباً مغلقة في وجوههم . وقصد كثيرون إلى أنتورب ، ولكن سمح لنفر قليل منهم فقط بالإقامة لمدة تزيد على شهر . وأسس ديوجومنديس — وهو برتغالي مرتد — في أنتورب فرعاً للبنك الذي كانت أسرته قد أسسته في لشبونه . وفي ١٥٣٢ لاقى من النجاح ما حدا مجلس أنتورب على القبض عليه مع خمسة عشر آخرين بتهمة ممارسة اليهودية . وتدخل هنري الثامن الذي استخدم منديس وكيلا مالياً ، وأطلق سراح ثلاثة عشر ، بعد دفع غرامة فادحة ، وهــذا هو « الغرض الأسمى » من كل حالات القبض . وانتقل اليهود الآخرون إلى أمستردام حيث كان من الممكن أن تنتعش أحوالهم بعد تحرر هولندة من نير أسبانيا سنة ١٥٨٩ .

أما هؤلاء اللاجئون الذين التمسوا مأوى في الأراضي الإسلامية التي لا تخضع مباشرة لسيطرة سلطان تركيا ، فقد صاروا إلى حالة أحسن بقليل منها في العالم المسيحي . وأطلق المغاربة النار على اليهود الذين حاولوا أن يحطوا رحالهم في أوران والجزائر وبوجيا ، ولقي عدد وفير منهم حتفهم . ولما منعوا من الدخول إلى المدن أقاموا معزلا مرتجلا من الأكواخ من خشب الأشجار ، وشبت النيران في أحد الأكواخ ، فالتهمت المستوطنة عن آخرها

مع كثير من اليهود ، أما الذين قصدوا إلى فاس فقد وجدوا الأبواب موصدة دونهم ، فاحتلوا بعض الحقول وعاشوا على الأعشاب وجذور الشجر ، وقتل الأمهات أطفالهن خيراً من أن يرينهم يموتون جوعاً . وباع الآباء أبناءهم فى مقابل قطعة من الخبز . وأتى الطاعون على مئات من الأطفال والشبان . وهاجم القراصنة المعسكر وسرقوا الأطفال ليبيعوهم بيع الرقيق(٦٨). ومزق القتلة أجسام اليهود عساهم يعثرون على مجوهرات اعتقدوا أن اليهود قد ابتلعوها(٦٩) . وبعد كل هذه المصائب والكوارث ، أنشأ الذين عمروا بعدها ، فى شجاعة لا تصدق ، فى ظل ألوان من الضعف والعجز لا نهاية لها ، جاليات يهودية جديدة فى المغرب العربى . وفى الجزائر ، خاطر سيمون ديوران الثانى بحياته المرة بعد المرة ، لحماية المنفيين ، وتنظيمهم بشكل يوفر لهم شيئاً من الأمن . وفى فاس أصبح يعقوب بيراب أشهر علماء التلمود فى زمانه .

ولقى المنفيون من إسبانيا ، استقبالا إنسانياً فى القاهرة تحت حكم سلاطين المماليك والعثمانيين ، وسرعان ما سموا إلى زعامة الجالية اليهودية . وألغى سليم الأول وظيفة Nagid « الأمير » وفيها كان يتولى أحد الأحبار تعيين سائر الأحبار ، ويشرف على شئون كل اليهود فى مصر ، وبعد ذلك أصبح لكل جالية يهودية أن تختار حبراً لها وأن تتولى شئونها الداخلية بنفسها وأنهى حبر القاهرة الجديد وهو داود بن أبى زمرة وهو مهاجر أسبانى — استخدام التقويم البابلى القائم على تقسيم الزمن إلى فترات — الذى كان يهود آسيا وأفريقية يستعملونه — وحثهم على اقتباس تقويم آخر (كما فعل يهود أوربا فى القرن الحادى عشر) وهو تقويم قائم على حساب السنين منذ بدء الخليقة الذى حدد مؤقتاً بعام ٣٧٦١ قبل الميلاد .

وحينما ذهب يهود أيبيريا (Sephardic) حظوا بالزعامة الثقافية ، والسياسية

فى الغالب ، على اليهود المحليين . ففى سالونيك أصبحوا ، وظلوا حتى ١٩١٨، غالبية عددية بين السكان ، حتى أن اليهود غير الإسبان الذين جاءوا ليعيشوا فى هذه المدينة ، كان لزاماً عليهم أن يتعلموا اللغة الإسبانية . وفى ظل هذه السيطرة اليهودية ، كانت سالونيك لفترة من الزمن أكثر المراكز التجارية ازدهاراً فى شرق البحر المتوسط .

ورحب السلطان بايزيد الثانى فى تركيا باليهود المنفيين ، لأنهم أحضروا معهم ، على وجه الدقة ، تلك المهارات اللازمة للحرف والصناعات اليدوية والتجارة والطب . مما لم تكن تركيا قد توسعت فيه وطورته إلا فى أقل الحدود . وقال بايزيد عن فرديناند الكاثوليكى : « إنكم تقولون إن فرديناد ملك حكيم عاقل ذلك الذى أفقر بلاده وأغنى بلادنا »[٧٠] . وخضع اليهود ، شأنهم شأن غير المسلمين فى أرض الإسلام ، لضريبة الرأس ، ولكن هذه الضريبة أعفتهم من الخدمة العسكرية . وبقى معظم يهود تركيا فقراء ، ولكن كثيراً منهم أثرى وسما إلى مراكز النفوذ . وسرعان ما أصبح كل أطباء القسطنطينية تقريباً من اليهود . وكان طبيب سليمان من ذوى الحظوة لديه ، إلى درجة أنه أعفاه وأعفى أسرته من كل الضرائب وبرز اليهود فى المناصب الدبلوماسية فى عهد سليمان ، حتى أن السفراء المسيحيين كان لزاماً عليهم أن يتوددوا إليهم تقرباً إلى السلطان . وكان لأنباء اضطهاد اليهود فى أنكونا على يد بول الرابع وقع شديد فى نفس سليمان ، واحتج عليها لدى البابا (٩ مارس ١٥٥٦) وطلب الإفراج عن رعايا تركيا من اليهود فى أنكونا ، وفعلا أطلق سراحهم[٧١] . وآوى جراسيا منديزيا ، وهو أحد أفراد أسرة منديس الذين اشتغلوا بالأعمال المصرفية ، إلى اسطنبول ليجد فيها أخيراً الأمن والطمأنينة ، بعد أن أتى كثيراً من أعمال البر

والخير فى أنتورب وفيرارا والبندقية ، ولقى جزاء سنمار من الإساءة والأذى .

وفى عهد الأتراك استقبلت الأرض المقدسة مرة أخرى ، القوم الذين كانوا قد أضفوا عليها القداسة أول الأمر . ولما كانت القدس مقدسة لدى المسيحيين والمسلمين ، قدر ما هى مقدسة لدى اليهود ، فإنه لم يسمح بالإقامة فيها إلا لعدد محدود من العبرانيين . أما فى صفد فى الجليل الأعلى ، فقد ازداد عدد اليهود وارتفعت مكانتهم الثقافية بسرعة ، حتى أن يعقوب بيراب حاول أن ينشئ هناك جمعية Sonhedrin(*) ، تكون بمثابة هيئة عليا تتولى الحكم بين جميع اليهود . وكانت تلك فكرة جريئة . ولكن اليهود كانوا موزعين فى شتى البلاد متباينين فى اللغة وطرق الحياة ، إلى حد لا يسمح بتوحيد الحكم . وعلى الرغم من ذلك فإن اليهود فى أرض الإسلام وفى العالم المسيحى ، كانوا فى صلواتهم يتضرعون إلى الرب « ليجمع شتاتهم ويلم شملهم من أركان الأرض الأربعة » . وفى يوم الكفارة Yom Kippur ، وفى يوم عيد الفصح يجتمع اليهود فى كل مكان فى العالم حول الأمل الذى تشبثوا به فأبقى عليهم وسط المحن ، ويرددون : « سنكون فى العام القادم فى فلسطين »(٧٢) .

٤ — فن البقاء

إن قدرة اليهود على الإفاقة من كبوتهم وتخطى المحن التى حلت بهم ، هى إحدى عجائب التاريخ التى تترك فى النفس انطباعاً ، وهى جزء من المرونة البطولية التى أظهرها البشر عامة بعد كوارث الحياة .

(*) Sanhedrin : جمعية هى بمثابة المحكمة العليا والمجلس الأعلى لشعب اليهود القديم ، جمعت بين المهام الدينية والمدنية ، وتكونت من ٧١ عضواً تحت رئاسة الكاهن الأعظم . ألغيت بعد تدمير أورشليم فى سنة ٧٠ م . (المترجمة)

ولم يكن التمييز العنصرى أسوأ إهانة لحقتهم ، فقـد كانوا أكثر أمناً وسعادة فيما بينهم ، منهم وسط الجمهور الذى يضمر لهم العداء ، والفقر أمكنهم أن يتحملوه لأنهم كانوا قد ألفوه لعدة قرون ، ولم يكن خاصاً بهم ، والحق أن فخرهم بالثراء العارض كان أقرب احتمالا من شعورهم بالفقر الذى عانوه منذ أزمان سحيقة . أما أنكى الجراح ، مهما كان الباعث عليه ، فهى الشارة أو الزى المميز الذى دمغهم بأنهم محتقرون منبوذون بين الناس . وكتب مؤرخ اليهود العظيم فى مرارة يقول :

إن شارة اليهودى كانت بمثابة إغراء للصبية المتشردين بإهانة حامليها وقذفهم بالأوحال ، وإيحاء لجموع الرعاع الحمقى بالانقضاض عليهم وإساءة معاملتهم ، بل حتى قتلهم ، كما هيأت للطبقة العليا فرصة نبذ اليهود ونهبهم أو نفيهم . وأسوأ من هذا العار الخارجى ، أثر الشارة فى اليهود أنفسهم . فقد اعتادوا أكثر فأكثر على مركزهم الحقير المذل ، وفقدوا كل إحساس باحترام الذات . فأهملوا مظهرهم الخارجى . . . وأصبحوا أكثر فأكثر لا يعنون بحديثهم لأنهم لم يسمح لهم بارتياد دوائر الثقافة ، أما فيما بينهم فكانوا يفهمون بعضهم بعضاً برطانة غامضة » وفقدوا كل تذوق للجمال وإحساس به . وأصبحوا إلى حد ما حقراء كما أرادهم أعداؤهم أن يكونوا(٧٣) .

إن هذا وصف يتسم بالمبالغة والتعميم أكثر مما ينبغى ، فكم من اليهود احتفظوا بكبريائهم وتألقوا فى ملابسهم الفاخرة ، وإنا لنسمع المرة بعد المرة عن بنات يهوديات اشتهرن بجمالهن ، وعن **Judisch** التى تطورت فى القرن السادس عشر إلى لغة ألمانية فيها اقتباسات عبرية وسلافية . كانت تنتج أدباً قوياً متنوعاً حينما كتب جرايتز كتابه « تاريخ اليهود » . وعلى

بأية حال ، فإن أكبر جريمة ارتكبت فى تلك القرون هى الحط عمداً من قدر شعب بأسره ، وقتل النفس بلا شفقة أو رحمة :

وكان الجزء الذى لا يتجزأ من هذه الجريمة وأساسها ، استبعاد اليهود من كل الأعمال والأشغال تقريباً ، فيما عدا التجارة والشئون المالية . ولأسباب سبق إيجازها(٧٤) ، ولأن الكنيسة كانت تطالب بعشر غلة الأرض المنزرعة ، تراجع اليهود أكثر فأكثر عن زراعة الأرض ، وأخيراً حرم عليهم امتلاك الأراضى(٧٥) : ولما كان محرماً عليهم الانضمام إلى النقابات (التى كانت رسمياً منظمات مسيحية دينية) فإنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى عالم الصناعة ، وطوقت الاحتكارات المسيحية عملياتهم التجارية : وعلى الجملة وجدوا أنفسهم ، فى معاملاتهم مع المسيحيين ، محدودين بنطاق ضيق من الصناعة والتجارة وتسليف النقود . وفى بعض البقاع كان محرماً عليهم أن يبيعوا للمسيحيين شيئاً سوى البضائع القديمة المستعملة ، وفقدوا ، بعد القرن الثالث عشر ، تفوقهم السابق فى عالم المال ، ذلك التفوق الذى كان يثير حقد الآخرين وحسدهم ، ولكن رأسمالهم السائل ، ومعرفتهم بلغات العالم ، واتصالاتهم الدولية عن طريق أقربائهم المنتشرين فى كل مكان ، كل أولئك مكنهم من تحقيق مركز عال فى التجارة الأجنبية للدول المسيحية . وكان دور اليهود فى هذا المجال هائلا إلى حد أن الدول التى طردتهم ، خسرت الكثير من حجم تجارتها الدولية . أما تلك التى رحبت بهم فكسبت هذا المجال : وهذا سبب واحد ، وليس السبب الرئيسى ، فى أن أسبانيا والبرتغال اضمحلتا ، على حين انتعشت هولنده ، وفى أن أنتورب أسلمت زعامتها التجارية إلى أمستردام :

وكان لليهود عزاء وإنقاذ فى أن تحكمهم ، فى شئونهم الداخلية ، قوانينهم وأعرافهم وأحبارهم ومجالسهم الدينية . فى اليهودية ، كما هو الحال فى

الإسلام ، نجد الدين والقانون والأخلاقيات شيئاً واحداً لا يتجزأ . فقد اعتقدوا أن الدين يتمشى مع الحياة على طول الخط . وفى ١٣١٠ صاغ الحبر يعقوب بن أشر القانون والطقوس والأخلاقيات اليهودية فى « أربعة لوائح » ، حلت محل « تعاليم الأحبار » التى وضعها ابن ميمون (١١٧٠) ، مع سجل وضعت فيه كل تشريعات التلمود وأحكام الجيونيم im G ، وأصبحت كلها ملزمة لجميع اليهود فى كل مكان . وأصبح كتاب « الجداول الأربعة » المرشد المتفق عليه فى أية قوانين حبرية أو أحكام حتى ١٥٦٥ .

وقوضت مصائب القرنين الرابع عشر والخامس عشر أركان التنظيم الاجتماعى لدى اليهود . ومات من الأحبار ، كما مات من القساوسة ، عدد كبير جداً ، فى الموت الأسود ، ووضعت عمليات الاضطهاد والطرد وحياة اللاجئين ، خاتمة للقانون اليهودى . ووجد يهود أيبريا من العسير عليهم أن يتقبلوا لغات وأعراف الجاليات اليهودية التى عرضت انضمامها إليهم ، فأقاموا معابد خاصة بهم واحتفظوا بلغتهم الإسبانية أو البرتغالية . ووجدت فى كثير من المدن تجمعات منفصلة من اليهود الإسبانيين أو البرتغاليين أو الإيطاليين أو اليونانيين أو الألمان ، ولكل طائفة حبرها وعاداتها وصدقاتها وأحقادها(٧٦) . وفى وسط هذه الأزمة أنقذت الأسرة اليهودية شعب اليهود ، فإن الإخلاص المتبادل بين الآباء والأبناء ، وبين الإخوة والأخوات هيأ جواً من الاستقرار والأمن . وانتهت قرون الفوضى فى الأعراف والعادات اليهودية عندما أصدر الحبر يوسف كارو من صفد كتاب « تنسيق الشريعة Shulchan Aruch » (البندقية ١٥٦٤ - ١٥٦٥) ، سجل فيه الدين والقانون والأعراف اليهودية مرة أخرى ، ولكن لما بنى كارو تشريعه على اليهودية الإسبانية أساساً ، فإن يهود ألمانيا وبولندة أحسوا بأنه لم يول إلا عناية يسيرة لتقاليدهم وتفسيراتهم للقانون . وأضاف الحبر موسى إسرل Esserles من كراكاو إلى « تنسيق الشريعة » « تنسيق التنسيق » (١٥٧١) صاغ فيه

خلافات الأشكنازى مع قانون كارو الذى كان فى معظمه أسبانيا . وبهذا التنقيح بقى كتاب « تنسيق الشريعة » حتى وقتنا هذا مرجع اليهود ذوى العقيدة الصحيحة ، وكأنه « جستنيان أو بلاكستون » فإذا قلت عن يهودى إنه امتثل لكل التعاليم التى وردت فى « تنسيق الشريعة » فهـذا ذروة المديح والثناء .

ولما كانت كل صياغة جرت للقانون اليهودى مبنية على التلمود ، فيمكن — أو هل يمكن ؟ — أن نتصور الدعر الذى تابع به اليهود تقلبات كتابهم المقدس الثانى . وفى القسم الأدبى من التلمود ، وهو قسم أقل وثوقاً ، ويسمى « هجادة Haggada » ، توجد بعض أجزاء تهزأ ببعض معتقدات مسيحية معينة ، وقد مهد اليهود المتحولون إلى المسيحية طريقهم إليها بسخريتهم من هذه الأجزاء . ووقف العمل بالتلمود بأسره . وعلى الرغم من هذه الحركات التى بلغت ذروتها فى حملة بفركورن على رخلين ، شجع ليو الثالث طبع التلمود لأول مرة (البندقية ١٥٢٠) ، ولكن جوليوس الثالث دلل على انتهاء عصر النهضة بأن أمر محكمة التفتيش بإحراق نسخ التلمود الموجودة فى إيطاليا (١٥٥٣) ، واقتحمت بيوت اليهود ، وأخذت آلاف من النسخ ، واشتعلت النيران فى الهواء الطلق فى الكتب اليهودية فى رومه وبولونيا ورافنا وفيرارا وبادوا والبندقية ومانتوا . على أن ميلان رفضت الإذعان لمرسوم الإحراق[٧٧] . وناشدت الجمعيات اليهودية البابا أن يلغى مرسومه ، وظل هو يماطل والكتب تحرق . ولكن بيوس الرابع حكم بأنه يمكن طبع التلمود بعد إخضاعه للرقابة . وبعد ذلك راقب اليهود المنشورات والمطبوعات الخاصة بهم[٧٨] .

وبقى « الزهار Zahar » وهو نص « القبالة » اليهودية . سليما لم يمس بسوء لأن بعض العلماء الكاثوليك ذهبوا إلى أنهم وجدوا فيه أدلة على ألوهية المسيح : وكان الزهار قد كتب قبل ١٢٩٥ بقليل ، بوصفه حلقة من سلسلة

من المؤلفات التى تنقل القبالة أى « التقاليد السرية » لليهود الذين وجدوا أماناً من الفقر والاضطهاد والاضطراب العقلى فى التأمل فى الرموز الخفية الدينية للأرقام والحروف والقراءة العكسية للألفاظ والاسم الذى يفوق الوصف للرب ، وهكذا . وتجمع اليهود المحزونون فى حلقات خاصة يلتمسون ، بالصوم والبكاء وبالتقشف الصارم وبتفسير القبالة ، أن ينزل عليهم وحى جديد ، فيما يتعلق ، فوق كل شىء ، بمجىء « المخلص » الذى قد يخلص إسرائيل من كل أحزانها :

إن الذين حاولوا أن يستشعروا العمق الذى لم يسبق له مثيل للآلام التى عاناها اليهود فى القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، يمكنهم أن يدركوا مثل هذا اللجوء — الذى يمكن أن يغتفر ، إلى التصوف الذى يجدون فيه السلوى والعزاء ، وخداع النفس المتكرر الذى يلجأ إليه هؤلاء اليهود البائسون ، باعتقادهم أن « المخلص » كان قد جاء بالفعل . وفى ١٥٢٤ امتطى شاب يهودى عربى وسيم أطلق على نفسه اسم داود روبينى ، جواداً أبيض عبر شوارع رومه إلى الفاتيكان ، وقدم نفسه إلى البابا كليمنت السابع على أنه شقيق ورسول ملك يهودى قال إنه يحكم فى بلاد العرب قبيلة يهودية قديمة تدعى قبيلة روبين . وقال داود إن مليكه لديه ٣٠٠٠٠٠ جندى غير كاملى العتاد ، وإذا أمدهم البابا وأمراء أوربا بالسلاح ، فإن القبيلة تستطيع عندئذ أن تطرد المسلمين من فلسطين . واهتم كليمنت بالأمر وعامل داود بالحفاوة التى تليق بمقامه بوصفه سفيراً . وسر يهود روما أن يروا يهوديا يلقى مثل هذا التكريم . وأمدوه بكل ما يحافظ به على صفته الدبلوماسية السامية : ولما تلقى دعوة من جون الثالث ملك البرتغال أبحر مع حاشية كبيرة على سفينة تحمل العلم اليهودى .

وسحر جون بمقترحات داود إلى حد أنه أوقف اضطهاد المتنصرين وجن من الفرح جنون يهود البرتغال الذين عمد معظمهم ضد إرادتهم ،

وأعلن كثيرون منهم عن اعتقادهم بأن داود كان هو « المخلص » ، وأجرى ديوجو بيرز - وكان قد تنصر وأصبح سكرتيراً للملك ، أجرى لنفسه عملية الختان ، ليثبت يهوديته ، وغير اسمه إلى سليمان مولخو ، وأخذ طريقه إلى تركيا وأعلن أن داود هو البشير « المخلص » الذى سوف يصل هو بشخصه فى سنة ١٥٤٠ . ولم يكن روبينى قد ادعى أنه المخلص أو البشير بمجيئه ، وإنما كان دجالا حالما ، أراد مالا وسفنا وأسلحة : وأثار هرب بيرز (مولخو) شكوك الملك جون ، فأمر روبينى بمغادرة البلاد ، ورحل داود ، وأوقف على شاطئ أسبانيا وقبضت عليه محكمة التفتيش . وأمر شارل الخامس ، بإطلاق سراح روبينى ، مرضاة للبابا كليمنت على ما يبدو . وقصد روبينى إلى البندقية (١٥٣٠) ، واقترح على السناتو وجوب تسليح أوربا ، للقيام بهجوم ضد الأتراك .

وفى الوقت نفسه جاء مولخو إلى أنكونا ، وحصل على جواز مرور من البابا ، وتجول فى إيطاليا ، وبشر باليهودية بحرارة وحماس فى روما . ولما سعت محكمة التفتيش إلى القبض عليـــه ، بوصفه متنصراً مرتداً ، أنقذه كليمنت وأخرجه سالما من المدينة . وعلى الرغم من أن ملخو كان قد فقد آنذاك إيمانه بداود روبينى ، فإنه انضم إليـــه فى مهمة طائشة إلى راتسبون ، حيث توسلا إلى شارل الخامس أن يمد المتنصرين بالسلاح ليحاربوا المسلمين . ولكن شارل قبض عليهما وأحضرهما معه إلى مانتوا . وهناك حكم على ملخو بالإعدام حرقا . وفى اللحظة الأخيرة صدر عنه عفو إمبراطورى شريطة عودته إلى المسيحية ، فأبى ورحب بالاستشهاد (١٥٣٢) . وأرسل روبينى إلى أسبانيا وهناك ألقت به محكمة التفتيش فى غيابة السجن ، ومات حوالى ١٥٣٦ ، والظاهر أنه مات مسموما ، وزحف يهود أوربا كسيرى القلوب إلى معازلهم وتصوفهم ويأسهم .

٥ — الفكر اليهودى

ما كان لنا أن نتوقع من عهد « الشتات الثانى » أن ينتج أية ثقافة رفيعة بين اليهود . فقد استنزفت طاقتهم المهمة الوحشية التى واجهوها ، مهمة البقاء على قيد الحياة : وتعطل التعليم الذى كانوا قد برزوا فيه وأتقنوه نتيجة للتنقل وانعدام الأمن فى الحياة . وعلى حين شقت أوربا المسيحية طريقها إلى النهضة فرحة متعشة ، انصرف يهود أوربا إلى المعزل و « القبالة » وحرمت عليهم « الوصية الثانية » الإسهام فى حركة إحياء الفنون : وكان بين اليهود عدد كبير من العلماء ، ولكنهم انهمكوا فى التلمود . وكان منهم النحويون مثل بروفيات دوران وأبراهام دى بالم ؛ والمترجمون مثل إسحق بن بولكار ، الذى نقل مؤلفات الغزالى إلى العبرية ، ويعقوب مارتن الذى ترجم ابن سيناء وابن رشد وابن ميمون وليفى بن جرسون إلى اللاتينية . وأزعج إيليا لفيتا اليهود المتدينين بإقناعهم بشكل حاسم (١٥٣٨) بأن التوراة المزودة بالملاحظات وعلامات الحركة وإشارات الوقف (المازورة Masoretic) ، لم تكن أقدم من القرن الخامس الميلادى .

وتوضح ملحمة آل أبرابانل Abrobanels تقلبات الفكر اليهودى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر : وقد ولد دون إسحق أبرابانل فى لشبونه ١٤٣٧ ، واستخدمه ألفونسو الخامس ملك البرتغال وزيراً للمالية . ولكنه جمع بين مشاغله الرسمية والدراسات الدينية والتاريخية ؛ وجعل من داره الرحيبة صالونا للعلماء ورجال العلم ورجال الأعمال . ولما توفى ألفونسو فقد أبرابانل الحظوة الملكية ، وهرب إلى أسبانيا

(١٤٨٤) ، وهناك تفرغ إلى كتابة تعليقات على ما دون عن تاريخ الكتاب المقدس ، حتى دعاه فرديناند الكاثوليكى ليتولى منصباً . وقضى إسحق ثمانى سنوات فى تدبير الشئون المالية فى قشتاله . وكافح لدرء الكارثة التى حلت باليهود فى سنة ١٤٩٢ ، فلما أخفق فى ذلك ، انضم إليهم فى خروجهم المحزن . وفى نابلى استخدمته الحكومة . ولكن الغزاة الفرنسيين (١٤٩٥) نهبوا داره ، ودمروا مكتبته الحافلة بنفائس الكتب المنتقاة ، وأجبروه على الفرار إلى كورفو . وهناك كتب ، ما كان لا بد لأى يهودى أن يكتب فى هذه السنوات : « إن زوجتى وأولادى وكتبى بعيدة عنى ، ولقد تركت وحيداً غريباً فى بلد غريب »[٧٩] . واتخذ طريقه إلى البندقية ، وهناك عين فى منصب دبلوماسى (١٥٠٣) . وفى غمرة تقلبات الحظ هذه ، وجد فسحة من الوقت ليؤلف بعض أعمال فلسفية ولاهوتية ، ليس لها الآن قيمة تذكر . ولكنه وضع المبدأ الذى يقول بأن الأحداث والأفكار التى وردت فى الكتب المقدسة يجب تفسيرها على ضـــوء الحياة الاجتماعية والسياسية فى عصرها . وسمح له بأن يقضى السنوات الست الأخيرة من عمره فى أمن وسلام غير مألوفين .

وكان أبناؤه زينة لحياته . فتألق صمويل أبرابانل فى سالونيك وعين وزيراً للمالية فى نابلى ، وحظى بحب قومه لكثرة ما أتى من أعمال البر والخير : أما يهوذا ليون أبرابانل — ليو العبرى — فقد زها وسما قدره كطبيب فى جنوه ونابلى حتى أصبح مشهوراً مثل شهرة « ليون مديجو » . ودرس علوماً كثيرة ، وكتب الشعر ، وغامر بدراسة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) : وعين فى ١٥٠٥ طبيباً لجنزالو أمير قرطبة ، ولكن بعد ذلك بعامين اختلف « الكابتن الأعظم » مع فرديناند ، ولحق ليون بأبيه فى البندقية . ولقى كتابه « حوار الحب » (كتب ١٥٠٢ ، ونشر فى ١٥٣٥) جمهوراً كبيراً من القراء بين الإيطاليين فى عصر النهضة ، الذين كان التحليل الفلسفى للحب عندهم

بمثابة مقدمة أولحن مصاحب لانتصارات الحب . إن الجمال الفكرى : جمال النظام والتخطيط والاتساق ، يسمو على الجمال المادى أو جمال الجسم ، هذا ما حاول « الحوار » أن يدلل عليه . إن أسمى الجمال هو النظام والتخطيط والاتساق فى الكون ، وهذا هو المظهر الخارجى للجمال الإلهى . وينشأ الحب على مراحل : من الإعجاب والسعى وراء الجمال المادى فالجمال الفكرى فالجمال الإلهى ، ويبلغ ذروته فى حب الله فكراً وعقلا ، أى فهم النظام الكونى وتقديره حق قدره ، والرغبة فى الاتحاد مع الله ، وربما كانت مخطوطة هذا الكتاب معروفة لدى كاستليانو الذى أجرى على لسان « بمبو Bembo » حديثاً يهدف إلى مثل هذه الغاية ، فى « البلاط Cortigiono » (١٥٢٨) أما الكتاب المطبوع فربما وجد سبيله عبر قرن من الزمان إلى يدى سبينوزا ليتأثر بفكرته عن « الحب العقلى لله »(٨٠) .

وشمل يهود البرتغال المشتتون على هذا الحب السماوى ، الشعر المنثور المشبوب العاطفة باللغة البرتغالية ، فى قصيدة أوسك Usque : « عزاء لأحزان إسرائيل » (فيرارا ١٥٥٣) . فقد صور تعاقب الانتصارات والكوارث على الشعب اليهودى ، وواساه بأنه لا يزال « شعب الله المختار » . فقد عاقبهم الله على آثامهم ، ولكن آلامهم طهرتهم ، ومهما أوتى الإنسان من قوة رهيبة وحشية ، فلن يستطيع أحد أن يخدعهم ويصرفهم عن مصيرهم الإلهى إلى السعادة والمجد .

وتراخى اليهود عن الإسهام فى حركة العلوم تراخياً لم يكن منه مناص ، بسبب الأحداث والتقلبات التى عاناها الشعب ، والتى طال أمدها . ولم يكن التعرض للخطر والفقر وعدم الاستقرار ، هى وحدها التى عوقت الجهود العلمية ، ولكن واحداً من أجل الأحبار وأعظمهم نفوذاً ، هو سليمان بن إبراهام بن أدريت ، فى برشلونه ، كان فى بداية هذه الفترة ، قد حرم — تحت طائلة « الحرم » أو الحرمان الدينى » — تدريس العلوم أو الفلسفة لأى

يهودى دون الخامسة والعشرين من العمر ، على أساس أن مثل هذا التعليم يفسد العقيدة الدينية . وعلى الرغم من ذلك لخص إسحق إسرائيلى الأصغر ، من طليطلة ، علم الفلك فى عصره (١٣٢٠) ، ووضح التقويم اليهودى والتسلسل الزمنى لتواريخ الأحداث . ووضع عمانويل بونفيس من تاراسكون ، جداول فلكية قيمة ، واستبق التفاضل والتكامل الأسى والعشرى . كذلك فإن إبراهام كرسكاس ، من ميورقه ، وهو « رئيس الخرائط والبوصلات لحكومة أراجون » ، وضع فى ١٣٧٧ خريطة للعالم ، اعترف فى جميع الأنحاء بأنها أحسن خريطة من نوعها حتى ذاك العهد ، إلى حد أن أراجون أرسلتها هدية ثمينة إلى شارل السادس ملك فرنسا ، وهى الآن من أثمن ما تقتنيه المكتبة الوطنية هناك . وكان يهوذا كرسكاس ، وهو ابن إبراهام سالف الذكر ، أول مدير لمرصد هنرى الملاح البحرى فى سجر Sagres ، وساعد فى رسم خريطة لمكتشفاته . ومهد كتاب بدرو نونز « رسالة عن الكرة الأرضية » الطريق أمام العالم الجغرافى مركيتور Mercator وفن رسم الخرائط الحديث . وحدد كتاب جراسيا دى أورتا عن « العقاقير الطبية » مرحلة متميزة فى علم النبات ، وأسس طب المناطق الحارة .

وكان أبراهام زاكوتو شخصية عظيمة فذة فى مجال العلم عند اليهود فى القرن الخامس عشر . وجمع عند ما كان يقوم بالتدريس فى سلمنقه (١٤٧٣ — ١٤٧٨) كتابه « التقويم الدائم » وقد استعملت جداوله الفلكية ، كدليل للملاحة فى رحـــلات فاسكو دا جاما وكابرال وألبوكيرك ثم فى رحلات كولمبس بعد ١٤٩٦ . وكان زاكوتو من بين اللاجئين من أسبانيا (١٤٩٢) ، ووجد ملجأ مؤقتاً فى البرتغال ، وقد استشاره البلاط فى الإعداد لرحلة فاسكو دا جاما إلى الهند ، وكانت السفن مزودة بالإسطرلاب الذى أدخل عليه هو تحسينات . ولكن فى سنة ١٤٩٧ لم يمهله الاضطهاد وقذف به خارج البرتغال كذلك . وأخذ يضرب فى الأرض فقيراً معدماً لعدة سنوات حتى

انتهى به المطاف فى تونس ، وهناك تعزى فى أخريات حياته بكتابة تاريخ قومه . أما تلميذه يوسف فسنهو Vecinho ، طبيب جون الثانى ملك البرتغال ، فقد أرسل ليرسم خطوط العرض وانحراف الشمس على ساحل غينيا . وأثبتت الخرائط التى أعدت أنها ذات قيمة كبيرة لفاسكو دا جاما . وكان فسنهو عضواً فى اللجنة التى أحال إليها جون الثانى مقترحات كولمبس للبحث عن طريق من الغرب إلى جزر الهند (١٤٨٤) وشارك فى قرار الرفض[٨١].

وظل الأطباء اليهود أفضل من يجد الناس فى البحث عنهم ويلتمسون عندهم البرء فى كل أوربا . وعلى الرغم من إزعاجهم بالإدانات والاتهامات الدينية والقيود الرسمية والمخاطرة بحياتهم فى معالجة ذوى الشأن من المسيحيين ، كانوا ذوى حظوة لدى البابوات والملوك . ولم تكن إضافاتهم آنذاك إلى علم الطب بارزة ، باستثناء إضافات دى أورتا إلى طب المناطق الحارة ، ولكن أماتوس لوسيتانوس ضرب مثلا لتقاليد مهنته وتقاليد قومه . وأخرجته محكمة التفتيش من البرتغال التى كان قد أخذ منها اسمه اللاتينى ، فعاش متنقلا من أنتورب إلى فيرارا إلى رومه ، ثم استقر به المقام فى أنكونا (١٥٩٤) حيث كان كثيراً ما يستدعى لعلاج نفس البابا جوليوس الثالث الذى ناضل من أجل تحطيم التلمود . وكان ، حتى آخر حياته ، يستطيع أن يقسم أنه لم يكن يهتم قط بالمكافأة ولم يقبل قط أية هدية قيمة ، وأنه كان يخدم الفقراء بلا أجر ، وأنه لم يكن يفرق فى ممارسة مهنته بين مسيحى أو يهودى أو تركى ، وأن أية صعاب ، مثل بعد المكان أو عدم ملاءمة الوقت ، لم تكن لتثنيه عن تلبية أى نداء . وكشفت سجلات عمله (١٥٦٣) عن سبعمائة حالة كان قد عالجها ، وكان الأطباء فى كل أوربا يدرسون هذه المذكرات ويقتنونها ، ودعا ملك بولندة أماتوس ليكون طبيباً خاصاً له ، ولكنه آثر أن يبقى فى أنكونا . ولكنه أرغم فى ١٥٥٦ على استئناف تجواله ، عندما طالب بول الرابع كل يهود إيطاليا بالتحول إلى المسيحية أو الإلقاء فى السجون .

وكان للقرار الذى أصدره الحبر ابن أدريت بتأجيل تدريس العلوم والفلسفة لليهود إلى سن الخامسة والعشرين ، أثر أقل على الفلسفة منه على العلم ، وفى فرنسا أقل منه فى أسبانيا . وكان أثر ابن ميمون لا يزال قوياً على اليهود الذين احتالوا على البقاء فى جنوب فرنسا وتجاسر يوسف كاسبى على كتابة رسائل فى المنطق وعلم الأخلاق لتوجيه ابنه ، ودافع عن التقليد الفلسفى المتحرر الذى كان ابن ميمون قد عرضه لأول مرة فى مؤلفه « دلالة الحائرين » وقد أنجب هذا الضرب من التقليد المتحرر مفكراً يهودياً عظيماً هو ليفى بن جرسون Ben Gerson الذى يعرف عنـــد المسيحيين باسم جرسونيدس ، الذى عاش ، كما عاش معظم الفلاسفة اليهود ، على « الطبابة » أى مهنة الطب ، وحقق المثل الأعلى الذى قصـــده أبقراط فى الطبيب الفيلسوف . ولد ابن جرسون فى باجنول ١٢٨٨ ، فى أسرة من العلماء ، وعاش معظم سنى حياته فى أراجون وبربينان وأفنيون ، وانصرف إلى عمله آمناً مطمئناً فى ظل حماية البابوات ، ولا يكاد يوجد علم من العلوم لم يعالجه أو مسألة فلسفية لم يعرض لها . وكان على علم واسع بالتلمود ، وأسهم فى رياضيات الموسيقى ، ونظم الشعر .

وكان ابن جرسون من علماء عصره اللامعين فى الرياضيات والفلك ، وفى ١٣٢١ استبق الطريقة التى اتبعها فيما بعد موروليكو (١٥٧٥) وباسكال (١٦٥٤) فى إيجاد عدد التباديل البسيطة لعديد من الأشـــياء بالاستنتاج الرياضى ، ومهدت رسالته فى حساب « المثلثات » الطريق أمام رجيومونتانوس ، ولقيت تقديراً واسعاً إلى حد أن البابا كليمنت السادس أصدر تكليفاً بترجمتها إلى اللاتينية ، مثـــل de Sinibus ، Chordis و Arcubus (١٣٤٢) . وقد اخترع ، أو فى الواقع أدخل تحسيناً على العصا التصالبية لقياس ارتفاع النجوم ، وبقى هذا طوال قرنين من الزمان نعمة كبرى للملاحة ؛ وقد أجرى ملاحظاته الفلكية الخاصة به ، وأظهر

مقدرة كبيرة فى نقده لطريقة بطلميوس . وبحث ، ولكنه رفض ، الفرضية القائلة بأن الشمس هى مركز الكون بطريقة توحى بأن قلة قليلة من الناس كانت تشايعه فى عصره . وهذب آلة التصوير القائمة واستخدمها مع العصا التصالبية ليحدد ، بشكل أدق ، الاختلافات فى القطر الظاهر للشمس والقمر .

وكما أن علوم بن جرسون نبعت عن الرياضيين والفلكيين العرب ، كذلك كانت فلسفته مبنية على دراسة نقدية دقيقة للتعليقات التى وضعها ابن رشد فى شروحه لفلسفة أرسطو . ودون ليفى فيما بين عامى ١٣١٩ — ١٣٢١ تعليقاته هو نفسه على تعليقات ابن رشد ، استوعب فيها رسائل أرسطو فى المنطق والفيزياء والفلك والأرصاد الجوية وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم النفس والميتافيزيقا ، وأضاف إلى هـــذه الدراسات بطبيعة الحال قراءاته العديدة المتكررة لابن ميمون . وجمعت فلسفته ومعظم دراساته فى العلوم فى مؤلف بالعبرية وضع عنوانه بأسلوب عصره « معارك الله » Battles of the Lord (١٣١٧ — ١٣٢٩) ، وهو يأتى فى المحل الثانى بعد كتاب ابن ميمون « دلالة الحائرين » فى الفلسفة اليهودية فى العصور الوسطى ، ويتابع محاولة ابن ميمون فى التوفيق بين الفكر اليونانى والعقيدة اليهودية . فإذا تدبرنا الجهود المشابهة التى قام بها ابن رشد وتوماس الأكوينى للتوفيق بين الإسلام والمسيحية وبين أرسطو ، لكدنا نقول بأن أثر أرسطو على لاهوتيات العصور الوسطى كان فاتحة انحلالها وتفسخها ، وبداية الانتقال من عصر الإيمان إلى عصر العقل . وسعى جرسونيدس إلى التخفيف من امتعاض المتدينين بالإعلان عن استعداده للتخلى عن أفكاره وآرائه إذا ثبت أنها مناقضة للكتاب المقدس — وتلك حيلة أو مراوغة يلجأ إليها العلماء . على أنه استخدم العقل إلى مدى بعيد ، فى أبحاثه عن الله والكون وأبدية العالم وخلود النفس ، ولما تعارضت نتائجه مع الكتاب

المقدس ، فسره بعنف أدى بنقاده إلى تغيير اسم مؤلفه إلى « معارك ضد الله »[٨٢] . وقال ليفى إنه يجدر بنا ألا نأخذ بالمعنى الحرفى قصصاً مثل قصة يوشع الذى أوقف الشمس ، فهذه القصة وأشباهها من « المعجزات » ، ربما كانت أحداثا طبيعية نسيت أو لم تعرف أسبابها[٨٣] . وأخيراً أفصح عن مذهبه العقلانى دون قناع ، « إن التوراة لا يمكن أن تمنعنا من أن نعتبر حقاً ما يلح علينا عقلنا فى الإيمان به »[٨٤] .

واشتق جرسونيدس وجود الله مما قد يسميه هولباخ الملحد « نظـــام الطبيعة » فإن قانون الكون ونظامه يكشفان عن « عقل كونى » ، ويضيف هو إلى هذا ، الحجة الغائية : وهى أن معظم الأشياء فى الطبيعة الحيـــة تبدو مخصصة كوسيلة إلى غاية . وتزود العناية الإلهية كل كائن حى بوسائل حماية الذات والتطور والتكاثر . والعالم بوصفه كوناً أو نظاماً ، خلق فى الوقت المناسب ، ولكن ليس من العدم . فقد سبق أن وجدت منذ الأزل كتلة جامدة هامدة لا شكل لها ، وزودها الكون بالحياة وبالشكل . وهناك بين الله وبين الأشكال المخلوقة قوة وسيطة سماها جرسونيدس ، وهو فى هذا يحذو حذو أرسطو ، « عقلا نشـــيطاً أو خلاقاً » . ويوجه انبثاق الذكاء الإلهى كل الأشياء ، ويصبح النفس التى يحملها الإنسان بين جنبيه . ولما كانت النفس تعتمد على أحاسيس الإنسان فهى فانية ؛ وبما أنها أى النفس ، تفهم الكليات وتعى نظام العالم ووحدته فإنها تصبح قصداً جزءاً من « العقل » النشيط الذى هو خالد .

ورفض اليهود فلسفة جرسونيدس على أساس أنها فى جوهرها شكل من فلسفة ابن رشد ، عقلانية قد تودى فى النهاية بالعقيدة الدينية . ودرس المفكرون المسيحيون فلسفته ، وتأثر بها اسبينوزا ؛ ولكن قاوب المفكرين اليهود وعقولهم ، عبر عنها فى إخلاص أكبر ، حسداى بن أبراهام كرسكاس

الذى كان قد تغذى بلبان « المحافظة » عند سليمان بن أدريت ، وقد ولد كرسكاس ١٣٤٠ فى برشلونه ، وعاش فى فترة اتسمت بالعداء الشديد للسامية ، وقبض عليه بتهمة تدنيس القربان ، وما لبث أن أطلق سراحه ، ولكن ابنه قتل ، وهو على وشك الزواج فى مذابح ١٣٩١ . وقوى الاضطهاد من عقيدة حسداى ، لأنه بفضل الإيمان بإله عادل وسماء تعوض عن كل أذى وشر ، استطاع أن يحتمل حياة ممتلئة بالجور والآلام . وبعد انقضاء سبع سنوات على استشهاد ابنه ، نشر بالأسبانية رسالة حاول فيها أن يفسر للمسيحيين لماذا ينبغى ألا يطلب إلى يهودى أن يتقبل المسيحية . وحاول فى كياسة واعتـــدال أن يدلل على أن مبادئ المسيحية فى الخطيئة والتثليث والحبل بلا دنس والتجسد والكفارة وتحول دم القربان إلى دم المسيح ولحمه ، تنطوى على تناقضات لا يمكن تجاوزها واستحالات سخيفة مضحكة . ومع ذلك فإنه حين كتب مؤلفه العظيم « نور الرب » (١٤١٠) اتخذ فيه موقفاً كان يمكن أن يدافع المسيحيون من خلاله عن هذه النظريات : ذلك أنه أنكر العقل وألح فى إخضاعه للإيمان . ولم يكن حسداى حبراً رسميا ولكنه شارك الأحبار رأيهم بأن الاضطهادات المتكررة كانت عقابا إلهيا لتعريض الديانه التى جاءت عن طريق الوحى لخاخة عقلانية . وإذا كان قد كتب فى الفلسفة ، فلم يكن ذلك إعجابا منه بها ، بل لإثبات ضعف الفلسفة والعقل ، وتوكيد الحاجة إلى الإيمان والعقيدة . وأنكر محاولات ابن ميمون وجرسون فى التوفيق بين اليهودية وأرسطو ، وتساءل : من هو ذلك الإغريقى الذي كان على الرب أن يتفق معه ؟ واعترض على فكرة أرسطو بأن أسمى صفات الله هى المعرفة ، بل هى الحب على الأرجح ، لأن الله هو الخير المطلق . وسلم كرسكاس بأن العقل لا يستطيع أن يوفق بين ســابق علم الله وحرية الإنسان ، ومن ثم يجب ألا نرفض الحرية

بل نرفض العقـــل : ويلبغى أن نؤمن بالله ، وبالإرادة الحرة والخلود ، من أجل طمأنينة نفوسنا وهدوء بالنا وسلامة معنوياتنا ، وليس بنا من حاجة إلى الادعاء بإثبات هذه المعتقدات عن طريق العقل . ويجب أن نختار بين عقلنا الفخور الضعيف الذى يزعزع الإيمان ويورث اليأس ، وبين إيماننا المتواضع بكلمة الله : التى يمكن عن طريقها وحدها أن نحتمل ألوان المهانة والظلم فى الحياة .

وكان كرسكاس آخر هذه الصفوة اللامعة من فلاسفة اليهود فى العصور الوسطى ، ولم يقدره قومه حق قدره بين عشية أو ضحاها ، لأن تلميذه يوسف ألبو لفت أنظار قراء الفلسفة بكتابه الأكثر إمتاعاً « المبادئ الأساسية » ، الذى جمع بين ابن ميمون وكرسكاس عن طريق الانتقاء ، مما جعله أكثر انسجاماً من أى من الرجلين ، مع اليهودية الصحيحة التى لم تكن مستعدة للتسليم بعدم عقلانية الإيمان : وبعد موت ألبو اعتزل اليهود الفلسفة ، والتاريخ تقريباً ، حتى جاء سبينوزا . إن المذابح ، والاضطرابات ، والفقر المدقع ، وقيود الإقامة والمناصب ، كانت قد حطمت روحهم وأنقصت عددهم إلى أدنى مستوى منذ سقوط أورشليم سنة ٧٠ م[٨٥] . ووجد الشعب المحتقر المنبوذ له ملجأ فى الأغانى الحزينة ، وفى رفاق المعبـــد المواسين ، يراودهم الأمل فى مغفرة من عند الله ، وفى معذرة من أهل الأرض ، وفى الجنة التى فى السماء . وعكف العلماء بكليتهم على التلمود ، وحصروا تفكيرهم فى شرح قانون الخلاص ، على حـــين اتبع بعضهم تعاليم « القبالة » فانصرفوا إلى التصوف الذى سما بالبؤس إلى

حد التوهم بأنهم يرقون به إلى السماء . وأحجم الشعر اليهودى عن الغناء ، ورفعت أثارة منه رأسها بين الحين والحين تتحدى العاصفة ، أو تلطف من سخرية القدر ، بالمرح الموسوم بالمرارة واللهفة والذكاء المشوب بالالتواء . وما كان لليهود أن يصحوا من سباتهم الطويل الناجع ، ويستعيدوا مكانهم فى ذهن عالم لا يحسده زمان ، ولا مكان فيه للعنصرية ، حتى جسر يهودى أمستردام المتواضع أن يوحد بين اليهودية والسكولاستية (الفلسفة المدرسية) والديكارتية فى إدماج رفيع سام للدين والعلم :

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

١ - الاقتصاد

إن مسرحية الصراع الديني والسياسي والحربي الذي ملأ جبهة القرن السادس عشر ، كانت من بعض النواحي سطحية : ذلك أنها لم تظهر إلا انطلاقاً من مسرحية أعمق ، مثلت خلف مشاهد التاريخ أو تحت المسرح الفخم - أعني معركة الإنسان اليومية الأبدية مع التربة والعناصر (الماء والهواء والتراب والنار) والفقر والموت . وماذا كانت ، فوق كل شيء هبات ومراسيم البابوات والبروتستانت ، والسخافات المتزاحمة في الأساطير القتالة ، وزهو الملوك والأباطرة وتعاقبهم ، وما كان ينتابهم من أمراض مثل النقرس والزهري ، إذا قورن كل أولئك بالكفاح المرير من أجل الغذاء والمأوى والكساء والصحة والزوجة والولد والحياة ؟

إن قرى أوربا في تلك الحقبة ، كان لا بد لها ليلا ونهاراً أن تحذر وتحترس من الذئاب والخنازير البرية ، أو أي خطر آخر يتهدد قطعانهم

ومساكنهم . لقد عمّرت مرحلة الصيد داخل عصر الزراعة ، وكان لزاماً على الإنسان أن يَقتل أو يُقتل ، ويسرت أسلحة الدفاع طريقة (روتين) الكدح والعمل . وكانت آلاف الحشرات ووحوش الغابة وطيور السماء تنافس الفلاح فى ثمار غرسه وكده ونصبه ، والأمراض الخفية تهلك القسم الأكبر من ماشيته . وربما أصبحت الأمطار سيولا جارفة أو فيضانات غامرة ، وربما انقطعت حتى تذبل الحياة كلها . وكان الجوع دائماً يتربص بالناس ، ولم يفارق الخوف من الحريق مخيلتهم قط . وكثيراً ما انتابتهم الأمراض ، والأطباء على مسافات بعيدة منهم ، وفى كل عشر سنين تقريباً ربما اختطف الطاعون من الأسرة فرداً عزيزاً عليها أو له قيمته عند تعرض الأرض للخطر . وكان يموت فى سن الطفولة طفلان من بين كل خمسة أطفال ، ويموت ثالث قبل البلوغ[1] ، ومرة واحدة على الأقل فى كل جيل كان ضابط التجنيد يأخذ أحد الأبناء للجيش ، وكانت الجيوش تحرق القرى وتنهب الحقول ، وكان عشر المحصول بعد الحصاد يذهب إلى مالك الأرض ، وعشر ثان إلى الكنيسة . وكانت الحياة على الأرض تصبح جحيما لا يحتمله الجسم أو الروح ، لولا أن شيئاً من السعادة يتخلل ابتهاج الأطفال وألعاب المساء فى البيت ، وإطلاق الأغانى ولعب الخمر بالرءوس فى الحانات ، والأمل نصف المصدق ونصف المشكوك فيه حياة أخرى أكثر رحمة وشفقة . هكذا كان إنتاج الغذاء الذى أطعم البارونات فى الحصون والملوك فى قصورهم والكهنة فى محاريبهم ، والتجار والصناع فى المدن ، والأطباء والمعلمين والفنانين والشعراء ورجال العلم والفلاسفة ، وأخيراً ، وأقلهم شأناً ، رقيق الأرض أنفسهم . فالمدنية عالة على الإنسان الذى يحمل آلة العزق .

وكان علم الزراعة من خصائص هذا الزمان . ونشأ تقــدم الإنتاجية أساساً من استبدال الملكية الكبيرة بالملكية الصغيرة . وأدخل مالكو الأرض

الجدد من التجار والرأسماليين إلى البقاع الريفية الراكدة لهفة شـديدة على الربح الذى زاد الإنتاج والبؤس كليهما معاً ؛ وأدخل المستوردون المغامرون إلى أوربا مخصباً أو سماداً جديداً غنياً بالفوسفات والنتروجين – وهو روث الطيور الذى يجتمع على شـواطىء بيرو . وتأقلمت فى تربة أوربا نباتات وشجيرات من آسيا أو أمريكا ، مثل البطاطس وشجرة المغنولية (نبات جميل الزهر) ، والأغاف الأمريكى ، والفلفل والدهلية (زهر جميل) ، والكبوسين (أبو خنجر) . . . وأحضر التبغ من المكسيك إلى أسبانيا ١٥٥٨ . وبعد ذلك بسنة واحدة أرسل جان نيكوت السفير الفرنسى فى لشبونه بعض بذوره إلى كاترين دى مديتشى ، وقد جزى التاريخ هذا السفير خير الجزاء فأطلق اسمه على أحد السموم .

ونمت صناعة صيد السمك بازدياد السكان ، ولكن الإصلاح الدينى سدد ضربة قاضية إلى تجار السردين بإباحة اللحوم يوم الجمعة ، وتقدم التعدين بالتنظيم الرأسمالى . وكانت نيوكاسل تصدر الفحم فى ١٥٤٩ ، وضاعف أصحاب المناجم إنتاجها بحث العمال على بذل جهود أعظم وأكثر نظاماً ، وتحسين وسائل تنقية المعدن الخام . وفى هذه السطور ينقلنا جورج أجريكولا إلى منجم فى القرن السادس عشر :

> إن أهم أنواع العمال هم المعدنون ، الجرافون ، الرافعون ، الحمالون ، الفرازون ، الغسالون ، الصاهرون . . . وكانت ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ، تنقسم إلى ثلاث نوبات كل منها سبع ساعات ، والساعات الثلاث الباقية تتوسط النوبات ، ليدخل العمال فى أثنائها إلى المنجم أو يغادروه . وتبدأ النوبة الأولى الساعة الرابعة صباحاً ، وتنتهى فى الحادية عشرة . وتبدأ الثانية فى الساعة الثانية عشرة وتنتهى فى السابعة مساء . وهاتان نوبتان نهاريتان فى الصباح وبعد الظهر . أما الثالثة ، وهى النوبة الليلية ، فتبدأ فى

الثامنة مساء وتنتهى فى الثالثة صباحاً . ولا تفرض هـذه النوبة الثالثة على العمال إلا إذا دعت الضرورة إليها : وفى هذه الحالة . . كانوا يسهرون على ضوء المصابيح الليلية ، وحتى لا يغلبهم النعاس فى هذه الساعات المتأخرة ، أو لشدة التعب ، كانوا يخففون من وطأة هذا العمل الطويل الشاق بالغناء الذى كانوا مدربين عليه ، أو لم يكن غير سار لهم كلية . ولم يكن يباح فى بعض المناجم لأى من العمال العمل نوبتين متعاقبتين ، لأنه كان كثيراً ما يغلب عليه النعاس فى المنجم من شدة الإجهاد من كثرة العمل إلى حد مفرط، وكان يباح ذلك فى أماكن أخرى لأن العامل لا يستطيع العيش على أجر نوبة واحدة ، وخاصة إذا ارتفع ثمن الحاجيات .

ولا يشتغل العمال أيام السبت ، لأنهم يبتاعون فيها كل ما يلزمهم من ضرورات الحياة ، كذلك لا يعملون أيام الآحاد والأعياد السنوية . ولكنهم فى هـذه المناسبات يخصصون ساعات النوبة للأغراض الدينية . ومهما يكن من أمر فإن العمال لا يستريحون . . . إذا اقتضت الظروف أن يعملوا ، فقد يجبرهم عليه أحياناً اندفاع الماء أو انهيار وشيك الوقوع . وفى مثل هذه الحالات لا يعتبر العمل فى أيام العطلة أمراً لا يتفق مع الدين . وفوق ذلك ، فإن العمال من هذه الفئة أقوياء أشداء ألفوا هذا الكدح والمشقة منذ ولادتهم(٢) .

وفى ١٥٢٧ عين جورج أجريكولا طبيباً لمدينة جوتشمستال Goochimsthal . وفى مدينة التعدين انصرف جورج بين الحين والحين إلى التعدين ، وهناك ، وفى أماكن أخرى تحمس جورج وافتتن بدراسة تاريخ التعدين وعملياته وعلم المعادن ، وعكف على البحث عشرين عاماً ، أكمل بعدها (١٥٥٠) « رسالته عن المعادن » وهي رسالة ممتازة فى موضوعها بالنسبة لعصرها ، لها من القيمة

مثل ما لروائع كوبرنيكس وفيساليوس التي ظهرت في نفس العقدين من السنين ، ولقد وصف في تفصيل دقيق آلات التعدين والصهر وتقنياتهما وعملياتهما ، واستخدم الفنانين في توضيحها بالرسوم . وهو أول من جزم بأن البزموت و لأنتيمون معدنان أوليان حقيقيان ، وميز نحو عشرين صنفاً من المعادن لم تكن معروفة من قبل . وكان أول من شرح تركيب عروق الخام في طبقات الصخور من رواسب معدنية خلفتها مجارى المياه التي تنساب في الأرض وتحت الأرض(*)[3] :

وحظى التعدين وعلم المعادن والمنسوجات بأكبر نصيب من التحسينات الآلية (الميكانيكية) التي ينسب الفضل فيها لهذا العصر . وإن أول سكك حديدية هي تلك التي كانت تجر أو تدفع عليها العربات التي تحمل الخام . وفي عام ١٥٣٣ أضاف جوهان جورحن إلى عجلة الغزل — التي كانت تدار حتى ذلك العهد باليد — ذراعا (دواسة) تدار بواسطة القــدم ، ومن ثم تكون يد الغزال طليقة ، وسرعان ما ضوعف الإنتاج بهذه الطريقة : وازداد الوثوق بدقة الساعات وصغر حجمها ، وزينت بالحفر والنقوش والجواهر وطليت بالمينا . واقتنى هنرى الثامن ساعة دقيقة الحجم ، تملأ مرة واحدة كل أسبوع . على أن أحسن ساعات العصر كان معدل الخطأ فيها نحو ١٥ دقيقة في كل يوم[4] :

وتعثرت المواصلات والنقل خلف التجارة والصناعة . وتوسعت الخدمات البريدية إلى حد نقل المراسلات الخاصة خلال القرن السادس عشر ، وحث الانقلاب التجارى على بناء السفن وصارت السفن أرفع وأعمق ، فساعد

(*) نبذ أجريكولا « عصا الاستنباء » أو الغصن المتشعب » (وهي التي كانت غالباً ما تستعمل آنذاك للتعرف على وجود المعادن تحت الأرض) باعتبارها غير ذات نفع . ولكن عادات جيجر تميل إلى تقدير هذه العصى المشجعة .

ذلك على ثباتها وازدياد سرعتها . وزاد عدد الصوارى من واحد إلى ثلاثة ، والأشرعة إلى خمسة أو ستة(٥) . ولم يقتصر السباق بين فرانسوا الأول وهنرى الثامن ، على الحرب والحب واللباس ، بل تعداه إلى ابتناء السفن ، وكان لكل منهما مركب فخم بنى بناء على طلبه لإشباع نزواته ، به دور علوى ، يرفرف عليه فى زهو واعتزاز علم البطولة الذى أرضى غرور كل منهما . وكانت سفينة أوائل القرن السادس عشر تستطيع أن تقطع فى البحر المتوسط عشرة أميال فى الساعة فى الطقس المعتدل ، ولكن السفن الثقيلة المصممة للمحيط الأطلسى كانت أسعد حظاً ، حيث كانت تقطع ١٢٥ ميلا فى اليوم . وكانت أسرع رحلة برية هى رحلة حامل البريد ، الذى كان يركب لمسافة خمسة وثمانين ميلا فى اليوم . ومع ذلك فإن الأنباء الهامة كانت عادة تصل من البندقية إلى باريس أو مدريد فى عشرة أيام أو أحد عشر يوماً . ولعل أحداً لم يقدر آنذاك أية راحة ينعم بها نتيجة لوصول الأنباء متأخرة إلى حد يتعذر معه اتخاذ أى إجراء بشأنها . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، ومن هنا جاءت الحلقة الحديدية الثقيلة المثبتة فى باب مدخل كل بيت ، يشد إليها حبل تقيد به الدابة . وتضاعف عدد العربات ، ولكن الطرق بلغت من الرخاوة حداً لا يصلح كثيراً لمرور العجلات ، ومن ثم كان لزاماً تزويد العربات بستة من الجياد أو أكثر لتجرها فى الأوحال التى يتعذر تفاديها ، وما كان يتوقع من العربات أن تقطع أكثر من عشرين ميلا فى اليوم ، وظلت المحفات التى يحملها الخدم تستعملها السيدات ذوات اليسار فى تنقلهن ، أما عامة الشعب فكانوا يسيرون على الأقدام عبر القارة .

وكان السفر مألوفاً رغم الطرق والحالات ، وذهب إرزم إلى أن خانات فرنسا كانت مقبولة محتملة ، وعلى الأخص لأن النادلات الصغيرات « يقهقهن ويقمن بحيل وألعاب مرحة ، وإذا غادرت المكان كن يحيينك بالعناق » ،

« كل ذلك مقابل أجر زهيد » ولكنه رمى أصحاب الخانات الألمان بالفظاظة وغلظة الطباع والبطء والقذارة :

> إذا فرغت من تدبير أمر جوادك تدخل إلى غرفة المدفأة ، بالحذاء العالى الساقين ، والأمتعة والأوحال وغيرها ، لأن هذه حجرة عامة لجميع القادمين . وفى غرفة المدفأة تخلع حذاءك ، وتلبس نعليك وتبدل قميصك إذا شئت . وهناك ترى رجلا يمشط رأسه وآخر . . . يتجشأ الثوم . . . وإنك لتسمع من فوضى اللغات واللهجات، كما لوكنت فى مبنى برج بابل . . . وفى رأيى أنه ليس ثمة شىء أخطر من التنفس فى مثل هذا الجو الخانق ، وخاصة إذا كانت أجسام الناس مفتحة بفعل الحرارة . . . وثمة شىء لا أرى ذكره . . . ثم النساء والأنفاس الكريهة المنتنة . . . ولا ريب أن كثيرين مصابون بالجدرى أو الزهرى الأسبانى ، أو كما يسمونه الفرنسى . ولو أنها أمراض منتشرة فى كل بلد[٦] .

إذا جرت الأمور على هذا النحو ، حقاً ، فى بعض الخانات ، فيمكن أن نغتفر خطأ أو اثنين للتجار المتجولين الذين يحطون رحالهم فى هذه الخانات ويحتماون متاعهم فى عملية ربط القرية بالقرية ، والأمة بالأمة ، فى نسيج اقتصادى دائم الاتساع والانتشار . فقد فتح فى كل عقد من السنين طريق جديد ، براً كما فعل تشانسلر فى روسيا ، وبحراً كما تم فى آلاف الرحلات البحرية المغامرة . وقد اتجر (شيلوك شكسبير) أى اليهود مع إنجلترا ولشبونة وطرابلس ومصر والهند والمكسيك[٧] . وكان لجنوة مستعمرات تجارية فى البحر الأسود وأرمينيه وسوريه وفلسطين وأسبانيا . فلقد عقدت الصلح مع الباب العالى ، وباعت الأسلحة إلى تركيا التى كانت فى حرب ضد العالم المسيحي . والتقطت فرنسا هذه الفكرة ، وعقدت اتفاقات خاصة بها مع

سلاطين تركيا . وبعد ١٥٦٠ سيطرت على تجارة البحر المتوسط ، وكانت أنتورب تتلقى البضائع فى كل لحظة ، وتنقلها بالسفن إلى كل مكان فى العالم .

ولمواجهة متطلبات هذا الاقتصاد المتوسع ، حسن رجال المصارف من خدماتهم وأساليبهم . ولما ارتفعت نفقات الحرب بالانتقال من فرق الإقطاع المجندة الذين أحضروا معهم أقواسهم وسهامهم ورماحهم وسيوفهم ، إلى جيوش وطنية أو جنود مرتزقة مزودين بالأسلحة النارية والمدافع ، وتدفع الدولة رواتبهم وأجورهم — اقترضت الحكومات مبالغ لم يسبق لها مثيل من أصحاب المصارف . وكانت الفائدة التى تدفعها الحكومات أو تعجز عن دفعها ، تقيم مؤسسة مالية ، أو تقوض أركان أخرى . وكان أصحاب المصارف يقترضون مدخرات الشعب نظير فائدة ، ليمولوا بها الصفقات الضخمة فى التجارة والصناعة . وكانت صكوك التبادل تحل محل الشحنات الثقيلة المرهقة من العملة المتداولة أو البضائع . واختلفت معدلات فوائد القروض ولم يكن هذا الاختلاف نتيجة لجشع المقرضين ، بقدر ما هو نتيجة للثقة فى المقترضين . ومن ثم كانت المدن الحرة الألمانية التى سيطر عليها تجار يتميزون بالدفع الفورى العاجل ، تستطيع أن تقترض بفائدة قدرها ٥٪ ، على حين أن فرنسوا الأول اقترض بفائدة قدرها ١٠٪ ، وشارل الخامس بفائدة قدرها ٢٠٪ . وانخفض سعر الفائدة تبعاً للاستقرار الاقتصادى .

وسكت مقادير وفيرة من العملة السائلة من معدنى الذهب والفضة اللذين استخرجا من مناجم ألمانيا والمجر وأسبانيا والمكسيك وبيرو ، وجاء المدد الجديد من المعادن النفيسة فى الوقت المناسب ، لأن البضائع كانت قد تزايدت أسرع مما تزايدت العملة . وكان جزء من ثمن واردات آسيا يدفع فى صورة صادرات ، والجزء الباقى نقداً من الذهب أو الفضة ، ومن ثم هبطت

الأسعار فى غضون السنين التى سبقت قيام كولمبس برحلاته ، إلى حد تعويق المغامرات والتجارة . وبعد تطوير المناجم فى أوربا واستيراد الذهب والفضة من أفريقية وأمريكا ، فاقت كميات المعادن النفيسة إنتاج السلع ، فارتفعت الأسعار ، وانتعشت الأعمال وابتهج أصحابها ، وزحزح الاقتصاد الجديد القائم على النقود المتحركة الاقتصاد القديم الذى تركز فى امتلاك الأرض أو سيطرة النقابات على الصناعة ، واحتل مكانه .

وكانت النقابات فى دور الانحلال . وكانت قد نشأت وقويت فى عهد تحكم المجالس البلدية وحماية الإنتاج المحلى ، ولم تكن على درجة من التنظيم تسمح لها بتقديم رأس المال . أو بالشراء بالجملة من الموارد النائية ، أو باستخدام أساليب المصانع وتقسيم العمل ، أو الوصول بمنتجاتها إلى الأسواق البعيدة . وكانت منذ القرن الثالث عشر وما بعده قد ضربت حولها نطاقاً من العزلة الأرستقراطية وسوأت ظروف العمل ، حتى بات من اليسير سوق العمال المهرة إلى أحضان رب العمل صاحب رأس المال ، وكان عامل الربح هو الذى يحركه ويزوده بالحيوية والنشاط ، ولكنه عرف كيف يجمع المدخرات إلى رأس المال ، وكيف ومن أين يشترى الآلات والمواد الخام ويدير المناجم ، ويؤسس المصانع ، ويجند لها العمال ، ويقسم العمل ، ويخصص العمال لكل فرع منه ، ويفتح الأسواق الأجنبية ويصل إليها ، ويمول الانتخابات ويسيطر على الحكومات . وكانت الإمدادات الجديدة من الذهب والفضة تدعو بصوت عال إلى استثمارات تدر الربح الوفير . وبات الذهب الأمريكى رأس مال أوربا . وخلقت الرأسمالية «سحر المنافسة» ، وحفزت إلى المغامرة ، وأنتجت السعى المحموم وراء المزيد من الطرق الاقتصادية للإنتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة مفر من أن تخلف وراءها القناعة الذاتيـــة التى اتسم بها رجال النقابات . وتركهم يتهادون فى أساليبهم النمطية الرتيبة القديمة . ولقد فاق النظام

الجديد فى إنتاجه النظام القديم كماً لا كيفاً ، لأن التجار كانوا ينادون بإنتاج كميات كبيرة ليسددوا بصادراتهم الصناعية ثمن الواردات من الشرق .

وكانت الثروة الجديدة محصورة إلى حد كبير ، فى أيدى التجار وأصحاب رءوس الأموال وأصحاب المصانع ، وحلفائهم فى الحكومة ، وظل بعض النبلاء يجمعون الثروة عن طريق الضياع الواسعة التى يستأجرها مئات المستأجرين ، أو الحظائر التى تمد صناعة النسيج بالصوف . على أن الغالبية من ملاك الأرض الأرستقراطيين وجدوا أنفسهم محصورين بين شقى الرحى : الملوك من جهة ، والمدن التى سيطر عليها رجال الأعمال من جهة أخرى ، وانحطت قوتهم السياسية : وكان عليهم أن يقنعوا بكرم المحتد وشرف الأرومة . وشاركت الطبقة الكادحة النبلاء مصائب التضخم ، فمن سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ ارتفع ثمن القمح الذى صنع منه الفقراء رغيف الخبز إلى ١٥٠ ٪ فى انجلترا ، و ٢٠٠ ٪ فى فرنسا ٣٠٠ ٪ فى ألمانيا : وفى سنة ١٣٠٠ كان سعر البيض فى انجلترا ٤ بلسات لكل ١٢٠ بيضة ، وارتفع ثمن المقدار نفسه إلى ٥ بنسات فى سنة ١٤٠٠ ، وإلى ٧ بنسات فى سنة ١٥٠٠ ، وإلى ٤٢ بلسا فى سنة ١٥٧٠ [٨] . وارتفعت الأجور ، ولكن فى بطء أكثر ، لأن الحكومات كانت تتولى تنظيمها . وحدد قانون ١٥٦٣ فى انجلترا الأجر السنوى للفلاح المستأجر بمبلغ قدره ١٢ دولاراً ، ولعامل المزرعة ٩٫٥٠ ، وللخادم الرجل ٧٫٢٥ ، علماً بأن القوة الشرائية لهذه المبالغ فى سنة ١٥٦٣ تفوق مثيلتها فى ١٩٥٤ خمساً وعشرين مرة ، فوصلت الأجور إلى نحو ١٨٠ دولاراً سنوياً . على أننا يجب أن نلاحظ أن الطعام والإقامة كانتا تضافان إلى هذه الأجور ، وجملة القول أن التغييرات الاقتصادية فى القرن السادس عشر تركت الطبقات العاملة أفقر نسبياً

وأضعف سياسياً ، من ذى قبل . فقد أنتج العمال السلع التى كانت تصدر ثمناً للكماليات المستوردة التى جعلت حياة نفر قليل من الناس مشرقة باسمة ناعمة .

واتسم الصراع بين الطبقات بمرارة ، قل أن عرف لها مثيل منذ عهد سبارتاكوس (.زعيم ثورة العبيد ٧١ ق . م .) وخير شاهد على ذلك ثورة الأهالى فى أسبانيا ، وحرب الفلاحين فى ألمانيا ، وثورة كت Ket فى انجلترا . وكثرت الإضرابات ، ولكنها كانت تخمد بائتلاف أرباب العمل مع الحكومة . وفى ١٥٥٨ قررت نقابة عمال النسيج التى كان يسيطر عليها السادة أن أى عامل يرفض العمل بمقتضى الشروط التى يضعها رب العمل يسجن لأول مخالفة ، ثم يضرب بالسياط ويوصم بالعار فى الثانية : وكانت قوانين التشرد فى عهد هنرى الثامن وإدوارد السادس من القسوة والوحشية إلى حد أن قلة قليلة من العمال تجاسروا على أن يوجدوا متعطلين بلا عمل . ونص قانون ١٥٤٧ على أن أى عامل قادر من الناحية الجسمانية يترك عمله ليتسكع فى البلاد كالمتشردين ، يجب أن يدمغ صدره بحرف "V" (الحرف الأول من Vagabond متشرد) ، ويدفع به بوصفه عبداً رقيقاً إلى أحد المواطنين فى الجهات المجاورة ، لمدة عامين ، ليعيش على « الخبز والماء وقليل من الشراب وحثالة اللحم » ، فإذا لم يرتدع وتكرر منه التشرد ، دمغ على خده أو جبهته بحرف "S" (Slave عبد) وحكم عليه بالاسترقاق طيلة حياته(٩) . وبفضل الشعب الإنجليزى ، وكان فخراً وشرفاً له ، أنه لم يمكن تطبيق هذه الإجراءات وسرعان ما أبطلت ، ولكنها تكشف عن طباع حكومات القرن السادس عشر ، وأصدر جورج دوق سكسونيا قراراً بألا ترفع أجور عمال المناجم فى منطقته ، وألا يسمح لعامل بترك عمله للبحث عن عمل فى مكان آخر ، وألا يستخدم رب العمل عاملا كان قد أثار الاستياء فى منجم

آخر ، وأجاز القانون صراحة أو ضمنا تشغيل الأطفال : وقام الأطفال فى فلاندرز بصناعة المخرمات برمتها ، وحرم القانون اشتغال البنات فوق سن الثانية عشرة فى هذه المهنة(١٠) . أما قوانين الاحتكارات والمضاربات والربا فكان مصيرها التجاهل أو المراوغة فى التنفيذ .

وتصادف ظهور الإصلاح الدينى مع قيام الاقتصاد الجديد ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تناهض « الأعمال والمشروعات والتجارة » فى حساسية بالغة . فلم يتفق كل هذا مع مزاج الكنيسة . وكانت قد أدانت فوائد القروض ، وأجازت من الناحية الدينية قيام النقابات ، وقدست الفقر وانتقدت الثراء ، وأعفت العمال من العمل أيام الآحاد والعطلات التى كانت كثيرة ، إلى حد أنه فى ١٥٥٠ بلغ عدد الأيام التى لا عمل فيها ١١٥ يوماً فى السنة فى الأقطار الكاثوليكية(١١) . وربما كان لهذا أثره فى الإبطاء بالتصنيع والإثراء فى هذه البلاد . ودافع رجال اللاهوت ، بموافقة الكنيسة ، عن فكرة تحديد « أسعار عادلة » لضرورات الحياة بمقتضى القانون ، وكان توماس الأكوينى قد وصم السعى إلى المال ، بعد الوفاء بحاجيات الإنسان ، بأنه « جشع آثم » ، وحكم بأن أية مقتنيات أو مدخرات فائضة عن الحاجة ، « تخصص بمقتضى القانون الطبيعى لإغاثة الفقراء واسعافهم »(١٢) . وشارك لوثر فى هذه الآراء ، ولكن التطور العام للبروتستانتية تعاون ، دون وعى ، مع الانقلاب الرأسمالى . وألغيت عطلات القديسين ، وكان من نتيجة ذلك زيادة العمل ورأس المال معاً . ولقى المذهب الدينى الجديد تأييداً ودعما من رجال الأعمال ، وجزاء مجاملة مجاملة مثلها ، فنظر البروتستانت إلى الثروة بعين الإجلال والإكبار ، وأثنوا على التدبير والاقتصاد ، وشجعوا العمل على أنه فضيلة ، وارتضوا الفائدة على أنها مكافأة مشروعة لمخاطرة المرء بمدخراته .

٢ ـ القانون

لقد كان عصراً قاسياً رهيباً ، انسجمت قوانينه مع اقتصاد لا يرحم ، وإملاق مخز وفن كئيب ، ولاهوت تخلى ربه عن المسيح وتبرأ منه .

وكانت الجريمة أمراً طبيعياً ، بين سكان كتب على معظمهم الفقر والفاقة في الدنيا ، واللعنة في الآخرة . وكان القتل منتشراً بكثرة في كل الطبقات . وتدلى الخنجر من حزام أي رجل ذي وزن ، أما الضعفاء فقد اعتمدوا على القانون في إصلاح أخطائهم . وكانت جرائم الهوى والانفعال كثيرة جداً قدر كثرتها في روايات شكسبير . فلم يكن بعد في زمرة الرجال أي « عطيل » أخفق في ذبح زوجته التي اشتبه في سلوكها . واعتبر المسافرون قطع الطرق أمراً مفروغاً منه أو قضية مسلماً بها ، فساروا في جماعات . وكان عدد اللصوص في المدن التي لم تزل غير مضاءة ليلا ، وفيراً قدر وفرة العاهرات . وكان لزاماً أن يكون بيت الرجل حصناً منيعاً . وفي أوج عظمة فرنسوا الأول ، أعملت السلب والنهب في باريس في وضح النهار عصابة من اللصوص أطلق عليها اسم « الأولاد الأشرار » . ويروى لنا برانتوم ، رواية غير موثوقة كما تعودنا منه ، كيف أن شارل التاسع رغب في أن يعرف كيف ينفذ النشالون أفانينهم ، « فأمر شرطته بدعوة بعضهم إلى حفلة راقصة ملكية ، وطلب بعد انتهاء الحفل أن يرى غنائمهم ، فوجد أن ما جمعوه من نقود وحلى وملابس بلغ دون تباه أو تفاخر ، في هذا المساء ، ما قيمته عدة آلاف من الدولارات ، مما ظن معه أن الملك سيموت من كثرة الضحك » . ورخص لهم في الاحتفاظ بحصيلة فنهم ودراستهم ، ولكنه ضمهم إلى الجيش لأن مماتهم خير من بقائهم على قيد الحياة(١٣) . فإذا صنفنا ، باعتبارها جرائم ، الغش في السلع ، والمغالطة التي تتسم بها حيل رجال الأعمال ، وتفشي الرشوة في المحاكم ، والاستيلاء على أملاك الكنيسة ، وتوسيع الحدود بالغزو

والفتح ، نقول إذا صنفنا هذه كلها فى عداد الجرائم ، لوجدنا أن واحداً من بين كل اثنين فى أوربا لص ، وقد نضفى على بعضهم الحصانة الأكليريكية ، وقد نسلم بوجود حرفى أمين هنا أو هناك . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً من إحراق المبانى عمداً ، وبعضاً من حوادث اغتصاب الفتيات ، وقليلا من الخيانة ، لبـدأنا ندرك المشاكل التى تواجهها قوات النظام وحماة القانون .

وقد نظمت قوات النظام والقانون هذه ، لتوقيع العقاب ، أكثر منها لمنع الجرائم ، وكان رجال الشرطة فى بعض المدن الكبرى ، مثل باريس ، هم حفظة الأمن ، وكان لكل قسم فى المدينة مراقبوه وحراسه ، ولكل أبرشية شرطتها . ولكن ضبط الأمن والنظام كان فى المدن سيئاً إجمالا . وأجهد رجال الحكم أنفسهم فى مكافحة الطبيعة البشرية ، وأخيراً قدروا أنه من الأفضل والأقل تكلفة ، الحد من الجرائم بفرض عقوبات بالغة الشدة وتنفيذها علنا أمام أعين الناس . . وكان هناك عشرات من الجرائم الرئيسية : القتل ، الخيانة ، الهرطقة ، تدنيس المقدسات والمعابد ، السحر ، السلب ، التزوير ، التزييف ، التهريب ، الإحراق عمداً ، الحنث بالقسم ، الزنى ، اغتصاب الفتيات (إذا لم يسو بالزواج) ، اللواط ، « الانغماس فى الشهوات البهيمية » ، غش الموازين والمقاييس ، إفساد الطعام ، تخريب الممتلكات ليلا ، الهروب من السجن ، الإخفاق فى محاولة الانتحار ، وقد تكون العقوبة ضرب العنق بدون ألم أو تعذيب نسبياً ، وهذا امتياز اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال ، أما من هم أقل مكانة فكانوا يشنقون . أما الهراطقة وقتلة الأزواج فكانوا يحرقون . أما السفاحون البارزون فكانوا يشدون أطراف الواحد منهم (يديه ورجليه) إلى أربعة خيول يجرى كل منها فى اتجاه مضاد حتى يتمزق جسم المجرم . وأصدر هنرى الثامن فى ١٥٣١ قانوناً يعاقب من يدس السم ، بالغلى حياً[١٤] ، كما نفعل نحن الأكثر وداعة ورقة بالمحار أو السمك .

ولص قالون محلى فى سالزبرج بأن يحرق المزور أو يغلى حتى الموت . وأن يقطع لسان الحانث فى اليمين من رقبته . أما الخادم الذى يضاجع زوجة سيده أو ابنته أو شقيقته فيضرب عنقه أو يشنق[١٥] ؛ وأحرقت جولين رابو فى آنجرز (١٥٣١) لأنها كانت قد قتلت طفلها أثر ولادة مؤلمة[١٦] . وهناك أيضاً ، إذا صدقنا ما رواه بودن ، عدة أفراد أحرقوا أحياء لتناولهم اللحم يوم الجمعة ، ورفضهم الندم على ما فعلوا ، أما الذين أظهروا الندم فكانت عقوبتهم مجرد الشنق[١٧] ؛ وكانت العادة أن تترك جثة المشنوق معلقة حتى تنهش الغربان لحمها ، ليكون عظة وعبرة للأحياء ، وفى الجرائم الصغرى كان يجلد الرجل أو المرأة أو تقطع إحدى يديه أو قدميه أو أذنيه ، أو أنفه ، أو تفقأ إحدى عينيه أو كلتاهما ، أو يكوى بالحديد المحمى ؛ وهناك جنح أخف كان عقابها السجن الذى تختلف فيه ظروف المعاملة بين المجاملة والخشونة ، أو تعذيب المذنب بآلة خشبية ذات ثقوب تقيد فيها رجلاه ويداه ، أو إدخال أيدى المذنب ورأسه فى آلة خشبية تسمى « المشهرة » ، أو الجلد ، أو التعذيب على كرسى التغطيس . وكان السجن وفاء الدين معروفاً شائعاً فى جميع أنحاء أوربا . وبصفة عامة كان قانون العقوبات فى القرن السادس عشر أشد قساوة منه فى العصور الوسطى ، ولقد عكس الفوضى الأخلاقية فى ذاك العصر .

ولم يكن الناس يستاءون من هذه العقوبات الصارمة ، بل لقد أحسوا بعض السرور والابتهاج فى مشاهدة تنفيذها وساعدوا فى بعض الأحيان فى التنفيذ . ولما اعترف مونتكوكولى تحت وطأة التعذيب ، بأنه كان قد سمم ، أو حاول أن يسمم ، فرانسيس ، الابن العزيز المحبوب لفرانسوا الأول ، مزقت أوصاله حياً ، بربط أطرافه إلى أربعة خيول جرت فى أربعة اتجاهات ، (ليون ١٥٣٦) وقيل إن الجمهور مزق بقايا جسمه إلى قطع

صغيرة ، وفقت ألفه ، واقتلع عينيه ، وحطم فكيه ، ومرغ رأسه فى الوحل ، وجعله يموت ألف مرة قبل أن يفارق الحياة(١٨) .

وهناك إلى جانب القوانين التى شرعت للجرائم ، وضعت « القوانين الزرقاء أو قوانين المتطهرين » ضد اللهو والتسلية التى يظن أنها تجافى التقى والورع ، أو البدع التى تنافى العرف بشكل حاد ، فقد اقتضى القانون العرفى فى العالم الكاثوليكى أكل السمك فى أيام الجمعة ، كما اقتضته قوانين الدولة فى انجلترا البروتستانتية فى عهد إدوارد السادس دعماً لصناعة صيد الأسماك ، وتدريباً للرجال على ركوب البحر من أجل الأسطول(١٩) . وكان الميسر دائماً غير مشروع ، ودائماً شائعاً مرغوباً فيه . وأمر فرانسوا ، الذى عرف أساليب اللهو والتسلية ، بالقبض على من يلعبون الورق أو النرد فى الحانات أو نوادى الألعاب (١٥٢٦) ولكنه أباح إقامة « يانصيب » عام (١٥٣٩) . وقلما كان القانون يعاقب على إدمان الخمر ، على حين اعتبر البطالة والخمول جريمة رئيسية تقريباً . أما قوانين التبذير أو الإنفاق بسخاء – وهى التى وضعت لضبط الأغنياء الجدد الذين ينفقون إنفاقاً مريباً يدعو إلى الاشتباه ، والمحافظة على فوارق الطبقات ، فقد حددت هذه القوانين ، الأزياء والزينة والأثاث ووجبات الطعام وواجبات الضيافة . ويقول لوثر « عندما كنت صبياً كانت الألعاب محرمة ، حتى أن صانعى أوراق اللعب ، والعازفين على المزمار والممثلين لم يكن يسمح لهم بشهود الأسرار المقدسة . أما من كانوا قد اشتركوا فى الألعاب ، أو حضروا حفلات الألعاب أو الروايات ، فكانوا يجعلون هذا موضوع اعتراف أمام القسيس »(٢٠) . وعاشت هذه المحرمات بعد الإصلاح الدينى . وبلغت ذروتها فى أخريات القرن السادس عشر .

وثمة بعض العزاء فى أن التطبيق قل أن كان على قدر صرامة القانون ،

وكان التهرب أمراً ميسوراً . وكم من قاض أو محلف ، بدافع الشفقة أو التخويف أو بفضل الرشوة — أطلق سراح كثير من الأوغاد مقابل عقوبة يسيرة أو غرامة . وكانت قوانين اللجوء إلى الكنيسة لا يزال معمولا بها فى عهد هنرى الثامن . وكانت المرونة فى التطبيق ، على أية حال ، تتوازن مع استعمال التعذيب لانتزاع الاعترافات أو البيانات . وهناك كانت قوانين هنرى الثامن ، على الرغم من كونها أقسى القوانين فى تاريخ انجلترا — نقول كانت متقدمة عن زمانها[٢١] ، لأنها حرمت التعذيب إلا إذا روعى أن الجريمة علاقة بالأمن القومى[٢٢] ، ويمكن أن يكون الإبطاء فى محاكمة المتهم تعذيباً أيضاً . فقد شكا كورتيز الأسبانى إلى شارل الخامس من أن المتهمين ، حتى بأخطاء يسيرة ، طال بقاؤهم فى السجن عشر سنين أو نحوها ، قبل أن يحاكموا ، وأن المحاكمات قد تتلكأ لمدة عشرين عاماً[٢٣] .

وترعرع المحامون وتضاعف عددهم مع اضمحلال جماعة الكهنة ، وملأوا مناصب السلطة القضائية والبيروقراطية العالية ، ومثلوا الطبقات الوسطى فى الجمعيات الوطنيـة والبرلمانات الإقليمية ، وحتى الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين اعتمدوا على المحامين فى القضايا المدنية ، وتكونت منهم فى فرنسا طبقة جديدة : « نبلاء الرداء — الروب » ، أو على حد قول رابليه الهجاء الفرنسى « القطط ذوات الفراء » . واختفى القانون الكنسى فى الأقطار البروتستانتية . وحلت فلسفة التشريع محل اللاهوت « كأداة للمقاومة » فى الجامعات . وعاد القانون الرومانى إلى الحياة فى الأقطار اللاتينية ، وسيطر على ألمانيا فى القرن السادس عشر ، وعاش القانون المحلى معه جنبا إلى جنب فى فرنسا . أما فى انجلترا فقد فضلوا عملية « القانون العرفى » . ولكن كان لقوانين جستنيان بعض الأثر فى تشكيل وتدعيم الحكم المطلق الذى أقامه هنرى الثامن . على أنه فى

بلاط هنرى الثامن نفسه ، ألف قسيسه الخاص توماس ستاركى (١٥٣٧) « حواراً » كانت الفكرة الأساسية فيه أن القوانين يجب أن تفرض إرادة الملك ، وأن الملوك يجب أن يخضعوا للانتخاب والعزل .

لا يمكن أن يطول حكم هذه البلاد حكماً صالحاً ، أو الاحتفاظ فيها بسياسة حكيمة ، طالما أنها تحكم بإرادة فرد لم يتم اختياره بطريق الانتخاب ، بل أتى إلى العرش بالتعاقب الطبيعى . فقلما شهدنا أن الذين يأتون إلى العرش أو الممالك عن طريق هذا التعاقب ، كانوا جديرين بتولى هذه المناصب السامية والسلطات العالية .... وأى شىء أبغض إلى الطبيعة من أن تحكم أمة بأمرها وفق إرادة أمير ؟؟ وأى شىء أكثر تنافياً مع العقل من أن شعباً برمته يحكمه من يعوزه العقل عموماً ؟؟ ... وليس ثمة إنسان يستطيع أن يخلق أميراً حكيماً عاقلا ممن ينقصه الذكاء والحصافة بالطبيعة .... ولكن فى مقدور الإنسان أن ينتخب ويختار من يتوفر فيه العقل والعدالة معاً ، فينصبه أميراً ، ومن ثم يخلع الطاغية المستبد[٢٤] .

وكان موضع العجب والغرابة أن يموت ستاركى موتاً طبيعياً بعد عام واحد من كتابة « حواره » الذى لم يطبع إلا بعد ٣٣٤ سنة من تدوينه .

٣ — الأخلاق

كيف كان سلوك الناس فى العالم المسيحى اللاتينى ؟ إنه لجدير بنا ألا يضللنا جهرهم بالإيمان بالدين ، حيث لم يكن ذلك فى الغالب إلا ولعاً بالشقاق والمشاكسة ، أكثر منه ورعاً وتقوى . فإن نفس الشخص العنيد الذى يستطيع أن يتشدد فى إيمانه يستطيع أن يكون عنيفاً كذلك فى تجديفه ، وإن البنات اللائى ينحنين متظاهرات بالرزانة والاحتشام أمام تماثيل العذراء ،

أيام الأحد ، ليصبغن وجناتهن بالحمرة ويتجملن طيلة الأسبوع يحدوهن الأمل ، وكثيرات منهن انزلقن تحت تأثير الإغراء والغواية ، لمجرد عرض فكرة الزواج . وما كان من الميسور حماية العذارى وعذرتهن وبتولتهن إلا بالتمسك بكل أهداب العرف والأخلاق والقانون والدين وسلطة الوالدين والتعليم ، و « حدود للشرف » . ولكن ما كان أكثر الاحتيال على الانزلاق . إن الجنود الذين عادوا من الحملات التى كان الخمر والنساء فيها عزاءهم وتسليتهم الأساسية ، وجدوا من المؤلم لهم ومن العسير عليهم أن يروضوا أنفسهم على العفة والامتناع عن شرب الخمر . وانغمس الطلبة فى الفسق والفجور ، واحتجوا بأن الزنى خطيئة عرضية تغتفر»[٢٥] ، ويمكن أن يتجاوز عنها المشرعون المستنيرون . ولقد أعلن روبرت جرين أنه فى كمبردج كان قد « أفنى زهرة شبابه بين أوغاد فاجرين لا يقلون عنه دعارة »[٢٦] . وكثيراً ما ظهر الراقصات على المسرح ، أو فى أى مكان آخر ، « عاريات تماماً »[٢٧] . ومن الواضح أن هذه بدعة من أقدم البدع فى الدنيا — ولقد نظر الفنانون بازدراء إلى قواعد السلوك الجنسى ونظمه[٢٨] ، واتفق اللوردات والسيدات مع الفنانين فى ذلك . وكتب برانتوم : « إن الطبقات العليا استخفت بقواعد السلوك عند العذارى وما يحوم حولهن من شكوك ، وكم من آنسات أعرفهن فى دنيا العظماء ، لم يأخذن معهن بكارتهن إلى فراش الزوجية »[٢٩] . ولقد لحظنا نوع القصة التى بدا أن مرجريت نافار الجميلة سمعتها دون أن تحمر وجنتاها خجلا . وكم زخرت المكتبات بكتب الأدب الخليع المكشوف ، التى تدفع فيها أثمان عالية فى نهم شديد[٣٠] . وكان لأرتينو (هجاء لاذع فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر) فى باريس شعبية قدر شعبيته فى روما » ، ولم يحس رابليه ، الكاهن بأنه من الجائز أن ينقص المبيع من ملحمته « جارجنتوان Gargantuan » بحشوها بكلام جعل أرتينو يسارع لإخفائه . ووجد

الفنانون سوقاً رائجة للصور الجلسية ، بل حتى للانحرافات المصورة(٣١) ، وكان الباعة المتجولون فى الشوارع ، وحماة البريد واللاعبون الجوالون يبيعون روائع الصور التى من هذا القبيل ، حتى فى المعارض والأسواق الخيرية الكبرى(٣٢) : لقد وجدت كل ألوان الابتذال والانحراف لها مكاناً فسيحاً فى تلك الحقبة(٣٣) ، مثلما وجدته فى الصفحات التى دونها برانتوم والتى تتسم بالأرستقراطية(٣٤) .

وزاد الدخل من البغاء وارتفع شأنه . وحدث فى هذا العصر أن أطلق على من يمارسنه « سيدات البلاط » — (فى مقابل رجال البلاط) : وقدم بعض القواد البغايا إلى جيوشهم ، حرصاً منهم على حماية سيدات البلاد التى يحتلونها(٣٥) . ولكن نسبة الأمراض السرية ارتفعت إلى حد الوباء تقريباً . وكم أصدرت الحكومة تلو الحكومة من تشريعات ضد « بنات الهوى » التعيسات . وعلى حين أكد لوثر أن الرغبة الجنسية أمر طبيعى ، نراه قد كافح للإقلال من البغاء ، وبتحريض منه حرمته كثير من مدن ألمانيا اللوثرية(٣٦) . وفى ١٥٦٠ جدد ميشيل دى لوبيتال مستشار فرنسا قوانين لويس التاسع ضد هذه الرذيلة ، والظاهر أن أوامره نفذت .

وفى الوقت نفسه نجد أن الشهوة الحمقاء للجسد من أجل الجسد ، أورثت ظمأ النفس إلى النفس ، وإلى كل ما كان يزدان به التودد والحب الرومانتيكى من رقة وكياسة ، وتدفقت الدماء التى تغلى فى العروق فى النظرات المختلسة والرسائل الغرامية والقصائد الغنائية والمقطوعات الشعرية والأناشيد والقطع الغزلية والهدايا المشجعة واللقاءات السرية . ورحبت بعض الشخصيات المهذبة أو السيدات اللعوبات من إيطاليا وكاستايونى ، بالتسلى بحب أفلاطونى تكون فيه السيدة والرفيق المتودد إليها صديقين حميمين ، ولكن محافظين على الطهارة والعفة ، ولكن مثل هذا اللون من كبح جماح النفس لم يكن من شيمة هذا العصر . فقد كان الرجال شهوانيين بطريقة مكشوفة ، وأحب النساء هذه

الحلة فيهم ، وكثر شعر الغرام ، ولكنه كان مقدمة لاقتناص النساء .

وبالنسبة للزواج ، بقى الآباء واقعيين إلى حد عدم السماح للمحب باختيار رفيقة الحياة ، فقد كان الزواج فى شريعتهم زفافاً إلى الضيعة أو الثروة أو المكانة الاجتماعية (زواج المصلحة) ؛ ونصح إرزم الذى كان شديد الإحساس بمفاتن المرأة ، لا بالزواج ، نصح الصغار بالزواج ممن يختاره الكبار ، على أن يتركوا الحب ينمو بالمزاملة والمرافقة أفضل من أن يذبل ويذوى بإشباع الشهوة[٣٧] ، واتفق رابليه معه فى هذا الرأى[٣٨] . وعلى الرغم من هؤلاء الثقاة ، ثار عدد متزايد من الشباب ، مثل جان د ألبرت : على الزيجات المبنية على الثروات والعقارات الثابتة . ونعى روجر أسكام معلم المائكة اليصابات : « أن عهدنا بعيد جداً عن النظام والامتثال القديمين : حتى أن الشبان ، بل والبنات أنفسهن — أصبح الجميع يجرؤون على الزواج رغم أنف الأب والأم والرب والنظام السليم وكل شىء[٣٩] . وفزع لوثر حين علم بأن ابن ميلانكتون خطب لنفسه عروساً دون استشارة أبيه ، وأن أحد صغار القضاة فى وتنبرج أعلن صحة هذه الخطبة ، ورأى المصلح الدينى (لوثر) أن هذا سيسىء حتما إلى سمعة وتنبرج . وفى ٢٢ يناير ١٥٤٤ كتب فى الجامعة :—

إن لدينا عدداً وفيراً من الشبان من مختلف البلاد ، وان سباق البنات ليشتد ، وانهن ليجرين وراء الرفاق فى حجراتهم وقاعاتهم ؛ وحيثما استطعن اليهم سبيلا ، ليعرضن عليهم حبهن الطليق . ولقد سمعت أن كثيراً من الآباء أمروا أبناءهم بالعودة إلى بيوتهم . . . قائلين إننا نعلق الزوجات حول رقاب أبنائهم . . . وفى يوم الأحد التالى ألقيت عظة قوية أدعو الرجال إلى اتباع السبيل القويم والقاعدة اللتين وجدتا منذ بدء الخليقة . . . أعنى أن يزوج الآباء أبناءهم بعضهم من بعض بروية وحسن نية ، دون أن يرتبط الأبناء بارتباط

تمهيدى . . فإن مثل هذه الارتباطات من ابتداع البابا الممقوت ، أوحى بها إليه الشيطان ليحطم ويمزق سلطة الآباء التى منحها الله إياهم وأوصى بها لهم بصفة جدية(٤٠) .

وكان يمكن تنظيم عقود الزواج للأولاد والبنات ابتداء من سن الثالثة ، ولكن كان من الميسور فسخها إذا لم تتحقق . وكانت السن الشرعية للزواج الرابعة عشرة الولد والثانية عشرة البنت ، وكان من المستطاع التجاوز عن العلاقات الجنسية بعد الخطبة وقبل الزفاف ، وحتى قبل الخطبة ، فى السويد وفى ويلز ، كما كان فى بعض المستعمرات الأمريكية فيما بعد ، وكان يسمح للحبيبين بالاشتراك فى فراش واحد دون أن يخلعا ملابسهما ، ولكنهما كانا يذكران بالاحتفاظ بملاءة بينهما حتى لا يلتصق جسماهما(٤١). ولم يعد الزواج فى البلاد البروتستانتية سراً مقدساً ، وما حل عام ١٥٨٠ حتى بات الزواج المدنى يزاحم الزواج على يدى الكاهن . وارتأى لوثر وهنرى الثامن وإرزم والبابا كليمنت السابع أن الزواج من امرأتين يمكن أن يرخص فيه تحت شروط معينة ، وخاصة إذا كان بديلا للطلاق . واتجه رجال الدين من البروتستانت شيئاً فشيئاً إلى إباحة الطلاق ، وكان ذلك فى أول الأمر بسبب الزنى فحسب ، وكانت هذه الجريمة أكثر شيوعاً فى فرنسا ، على الرغم من عادة قتل الزوجة الزانية هناك . وكان الحب غير المشروع جزءاً من الحياة العادية للسيدات الفرنسيات ذوات المركز الاجتماعى المرموق(٤٢) . وكان البيت الذى يضم زوجاً وزوجتين أمراً مألوفاً كثيراً فى فرنسا ، مثال ذلك البيت الذى كان يضم هنرى الثالث وكاترين دى مديتشى وديان دى بواتييه ، وكانت الزوجة الشرعية (المعقود عليها) ترتضى هذا الوضع فى كياسة مرة ساخرة ، كما يحدث أحياناً فى فرنسا اليوم .

وباستثناء الطبقة الأرستقراطية ، كانت المرأة قبل الزواج معبودة

و إلهة ، وبعده خادمة . وكانت الزوجة تقوم بواجبات الأمومة خير قيام
أدون صعوبة أو تردد ، وتبتهج وتفاخر بكثرة الأولاد ، وتحتال على أن
تسوس رب البيت . وكان النساء قويات معتادات على العمل الشاق من طلوع
الشمس إلى مغربها ، ويقمن بحياكة معظم الملابس اللازمة لأسراتهن . وكن
فى بعض الأحيان يعملن مع المقاولين الرأسماليين . وكان النول جزءاً أساسياً
من البيت ؛ وفى إنجلترا كان معظم النساء غير المتزوجات غزّالات ، أما سيدات
البلاط الفرنسى فكن شيئاً آخر ، ولقد شجعهن فرانسوا الأول على تجميل
أجسامهن وملابسهن ؛ واستطعن فى بعض الأحيان تحويل السياسة الوطنية
بفعل « القذائف الموجهة » التى تطلقها مفاتنهن . وورد من إيطاليا على
فرنسا ، حركة نسائية ، ولكنها لم تلبث أن خمدت ، لأن النساء أدركن أن
قوتهن وشهرتهن شىء مستقل عن السياسة والقانون . وكان كثير من نساء
الطبقة العليا على درجة عالية من الثقافة . وفى باريس ، وفى غيرها ، بدأ
الصالون الفرنسى آنذاك يتشكل ، حيث جعلت السيدات المثقفات ذوات
اليسار من بيوتهن ملتقى رجال الدولة والشعراء والفنانين والعلماء والأساقفة
والفلاسفة ، وثمة مجموعة أخرى من السيدات الفرنسيات بقين متمسكات
بأهداب الفضيلة ، فى هدوء ، وسط العاصفة الهوجاء - عاصفة الجنس -
مثل آن أوف فرانس ، وآن أوف برتيانى ، وكلود ، ورينيه . وبصفة عامة ،
فإن الإصلاح الدينى الذى نبت فى تربة تيوتونية (ألمانيا وشمال أوربا) عمل
على تدعيم فكرة المجتمع الأبوى وسلطان الأب على المرأة والأسرة . كما وضع
الإصلاح حداً لتمجيد المرأة فى عصر النهضة ، بوصفها نموذجاً للجمال وعاملة
على تمدين الرجل ، كما أدان الكنيسة بالتساهل فى الانحرافات الجنسية ،
ومهد الطريق بعد موت لوثر لخلفاء المتطهرين (الحركة البيوريتانية) .

وتدهورت الأخلاق الاجتماعية بنشوء الروح التجارية وشدة الاهتمام
بالربح ، والإحجام المؤقت عن أعمال البر والإحسان والصدقات ؛ ووجد

الخداع والتضليل والخيانة – وهى أمور طبيعية فى الإنسان – أساليب وفرصاً جديدة ، منذ حلت اقتصاديات المال محل النظام الإقطاعى ، ومنذ تملك الأغنياء الجدد السندات المالية أكثر مما تملكوا الأرض ، وكانوا قليلا ما يرون الأفراد الذين أفادوا من كدهم وعرقهم ، فإن هؤلاء الأغنياء لم يكن لديهم من تقاليد المسئولية والكرم ما كان قد ذهب وولى مع الثروة القائمة على امتلاك الأرض[٤٣] . وكانت التجارة والصناعة فى العصور الوسطى قد ارتضتا الضوابط الأخلاقية المتمثلة فى توجيهات النقابات والمجالس المحلية والكنيسة ، ولكن الرأسمالية الجديدة رفضت كل هذه القيود ، وجرت الناس إلى منافسة عنيفة طوحت بالقوانين القديمة عرض الحائط[٤٤] ، وحلت الحيل التجارية محل الحيل الموسومة بالتقى والورع . وضجت نشرات الإعلان فى ذاك الزمان بالتحذيرات من غش الأطعمة وسائر المنتجات بالجملة . وشكا مجلس الديت فى انسبروك ١٥١٨ ، من أن المستوردين « يضيفون الآجر المسحوق إلى الزنجبيل ، ويخلطون الفلفل بمواد غير صحية »[٤٥]. ولحظ لوثر أن التجار « عرفوا كيف يحتالون على زيادة وزن التوابل – مثل الفلفل والزنجبيل والزعفران – بوضعها فى أقبية رطبة ، وأنه ليس ثمة سلعة واحدة لا يستطيعون أن يجنوا من ورائها أرباحاً طائلة بالغش فى الكيل أو العد أو الوزن أو استحداث ألوان مصطنعة . . . وليس ثمة نهاية لحيلهم »[٤٦] . ووصم سناتو البندقية حمولة سفينة من الأصواف الإنجليزية بأنها مغشوشة من حيث الوزن والصنع والحجم[٤٧] .

وكان الناس فى الأقطار اللاتينية لا يزالون يقبلون على أعمال البر والإحسان والصدقات بصدور منشرحة ، كما كان الحال فى العصور الوسطى ، وأنفقت الأسرات النبيلة جزءاً كبيراً من دخولها فى الهبات والصدقات[٤٨] . وورثت ليون عن القرن الخامس عشر منظمة ضخمة للصدقات المحلية أمدها المواطنون بالأموال بسخاء عن طيب خاطر[٤٩] . أما

فى ألمانيا وانجلترا فلم تكن الأيدى مبسوطة إلى هذا الحد . وبذل لوثر كل ما فى وسعه ليعيد لظام الصدقات الذى كان قد اختل بمصادرة الأمراء لأملاك الأديرة ، ولكنه اعترف بأن جهوده لم تكلل بالنجاح . ورثى « لأن الناس فى عهد البابوية كانوا محسنين وتصدقوا عن طيب خاطر [٥٠] ، ولكنهم فى ظل شريعة الإنجيل لم يعودوا يعطون شيئاً ، وبات كل فرد يسلب الآخر . . . . ولن يتصدق أحد بفلس واحد »[٥١] ؛ ونقل إلينا لاتيمر (من رجال الإصلاح الدينى البروتستانتى فى انجلترا فى القرن السادس عشر) رواية مشابهة : « لم يقس قلب لندن قط كما هو حالها الآن ، فإذا مات أحد الأغنياء فى الأزمنة الغابرة ، كان ذووه يرصدون مبالغ كبيرة من المال لإغاثة الفقراء . . . أما الآن فقد تجمدت المروءة وانقضى عهدها[٥٢] . وأبلغ الكاردينال بول لندن ، أن مدينتين فى إيطاليا تصدقتا بأكثر مما تصدقت به انجلترا بأسرها[٥٣] . وانتهى فرود إلى أنه « لما انتشر الصدق ، تقلص البر والعدل فى انجلترا »[٥٤] ؛ ويحتمل أنها ليست البروتستانتية ، ولكنها الروح التجارية والكفر هما اللذان أنقصا الصدقات والإحسان .

واشتد الفقر حتى أصبح يشكل أزمة اجتماعية ، فإن المستأجرين المطرودين والعمال المهرة العاطلين والجنود المسرحين هاموا على وجوههم فى الطرقات أو الأكواخ المصنوعة من القش يسألون الناس أو يسلبونهم ليعيشوا ؛ وقدر عدد المعوزين فى أوجزبرج بسدس السكان وفى همبرج بخمسهم ، وفى لندن بربعهم[٥٥] ؛ وصاح المصلح الدينى توماس لفر يوما « يا رب يا رحيم ! ما هذا العدد الضخم من الفقراء والضعفاء والعرج والعمى والمقعدين والمرضى . . . والذين يرقدون أو يزحفون فى الشوارع الموحلة ! »[٥٦] وكان لوثر الذى امتلأ قلبه بالرحمة قدر ما اتسم لسانه بالقسوة ، من أول من أدركوا أن الدولة يجب أن تتولى عن الكنيسة رعاية المعوزين وإنقاذهم . وفى حديثه « إلى أشراف المسيحية فى الأمة الألمانية » (١٥٢٠) اقترح

أن تتكفل كل مدينة بالمعوزين فيها . وفى أثناء تغيبه فى ورتبرج ، نظم أتباعه المتطرفون فى وتنبرج — صندوقاً جماعياً لرعاية الأيتام ، ودفع مهور البنات الفقيرات ، وترتيب منح دراسية للطلبة المحتاجين ، وإقراض الأموال للأسرات التى أخنى عليها الدهر ، وفى سنة ١٥٢٥ أصدر لوثر توجيهاً بإنشاء صندوق عام . حث فيه المواطنين ورجال الدين فى كل قسم على أن يفرضوا على أنفسهم ضريبة يسهمون بها فى تكوين رصيد يقدمون منه قروضاً بدون فائدة للمحتاجين أو غير القادرين على العمل(٥٧) . وفى ١٥٢٢ عينت أوجزبرج ستة « حماة الفقراء » ليشرفوا على توزيع المساعدات عليهم ، وتبعتها نورمبرج فى الحال ، ثم ستراسبورج وبرسلاو (١٥٢٣) ، وراتسبون ومجدبرج (١٥٢٤) .

وفى تلك السنة كتب أسبانى من دعاة الحركة الإنسانية ، جوان لويس فيفز لمجلس مدينة بروجز نشرة عنوانها : « إعانة الفقراء » . وقد لحظ انتشار الفقر وسط نمو الثروة ، وأنذر بأن الإفراط فى عدم المساواة فى الملكية قد يولد ثورة مدمرة ، وكتب يقول : « كما أنه من الخزى والعار على رب الأسرة فى بيته الهانئ أن يسمح لفرد فيــه أن يعانى مهانة العرى أو الأسمال البالية ، فإنه كذلك ليس من اللائق بولاة الأمور فى المدينة أن يحتملوا حالة مواطنين يتضورون جوعاً وبؤساً »(٥٨) . ووافق فيفز على أن يجبر على العمل كل قادر عليه ، وألا يسمح لأحد بالتسول ، ولكن ما دام كثيرون غير قادرين على العمل فعلا ، فيجب أن يدبر لهم مأوى فى الملاجئ أو المستشفيات أو المدارس التى تنفق عليها البلديات « على أن يقدم لهم الطعام والرعاية الطبية والتعليم الابتدائى مجاناً ، ويجب أن تتخذ تدابير خاصة للمتخلفين عقلياً . وجمع ايبر Ypres بين أفكار فيفز والسوابق الألمانية فى هذا المجال ، ونظم فى ١٥٢٥ صندوقاً جماعياً وحد أموال

الصدقات فى رصيد واحد ووكل توزيعها إلى رياسة واحدة . وطلب شارل الخامس (١٥٣١) نسخة من خطة ايبر . وأرسل هنرى الثامن توجيهاً مماثلا إلى أبرشيات انجلترا (١٥٣٦) . واحتفظت الكنيسة فى البلاد الكاثوليكية بإدارة أموال الصدقات .

وبقى الخلق السياسى مطبوعا بالمكيافللية : واعتبر نظام الجاسوسية أمراً مسلما به . وكان من المتوقع أن يبلغ جواسيس هنرى الثامن فى رومه عن أخطر محادثات الفاتيكان وأكثرها سرية(٥٩) . وكانت الرشوة عملية تقليدية ، وتدفقت فى سخاء أكثر بعد تدفق الذهب من أمريكا . وتسابقت الحكومات على نقض المعاهدات . ونافست الأساطيل المسيحية والتركية بعضها بعضا فى أعمال القرصنة . وبعد تدهور نظام الفروسية انحطت أخلاقيات الحرب إلى ما يشبه الهمجية ونهبت أو أحرقت المدن التى كانت قد أخفقت فى مقاومة الحصار ، وذبح الجنود المستسلمون أو استعبدوا حتى تدفع عنهم الفدية . أما القوانين والمجاملات الدولية التى كانت سائدة فى حالة خضوع الملوك أحياناً لتحكيم البابوات ، فقد اختفت فى فوضى التوسع القومى والعداء الدينى . واعترف المسيحيون ببعض الضوابط الخلقية تجاه غير المسيحيين ، وبادلهم الأتراك نفس المعاملة . وأسر البرتغاليون زنوج أفريقية واستعبدوهم . ونهب الغزاة الأسبان المواطنين الأمريكيين واستعبدوهم وقتلوهم ، دون أن يخفوا عزمهم الأكيد على تحويل الدنيا الجديدة إلى المسيحية ، وكانت حياة الهنود الحمر فى أمريكا فى ظل الحكم الأسبانى مريرة تعيسة إلى حد انتحار الآلاف منهم(٦٠) ، بل حتى فى العالم المسيحى نفسه فى ذاك العصر كثرت حوادث الانتحار إلى درجة مروعة(٦١) . واغتفر بعض دعاة الحركة الإنسانية إهلاك النفس . ولكن الكنيسة حكمت بأنه يؤدى إلى الجحيم مباشرة ، ومن ثم يكون المنتحر كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إن كل ما فى الاصلاح الدينى ، ولو أنه فى نهاية الأمر أصلح من

الأخلاق فى أوربا — دمر الفضائل العلمانية . ولقد نعى بركهيمر وهانز ساكس — وكلاهما متعاطف مع لوثر — أن فوضى السلوك العشوائى غير المنظم قد سادت بعد انهيار السلطة الدينية[٦٢] ; وكان لوثر كعادته ، صريحا جداً فى هذه النقطة :

كلما تقدمنا إلى الأمام ، ازداد العالم سوءاً . . . . فمن الواضح جداً كيف أن الناس أصبحوا نهمين قساة بذيئين وقحين شريرين أكثر بكثير مما كانوا عليه فى ظل البابوية[٦٣] ... فنحن الألمان اليوم موضع سخرية كل الأقوام والشعوب ووصمة عار لهم ، ونحن نعتبر قطيعا مخزيا كئيبا من الخنازير . . . . نحن نكذب ونسرق ، ونفرط فى الطعام والشراب ، وننغمس فى كل رذيلة[٦٤] . . . . وإن الشكوى عامة من أن شبان اليوم منحلون فوضويون تماما ، وأنهم لا يستبيحون لأنفسهم أن يزدادوا علما ومعرفة . ويروح نساء وتتبرج وبناتها ويجئن فى كل مكان عاريت ، وليس هناك من يعاقبهن أو يصحح أخطاءهن ، ساخرات من « كلمة الرب » هازئات بها[٦٥] .

ووصف واعظ لوثرى ، أندريا مسكولوس ، عصره (١٥٦٠) بأنه فاسق غير أخلاق ، إذا قورن بالألمان فى القرن الخامس عشر[٦٦] . واتفق معه فى ذلك كثير من زعماء البروتستانت[٦٧] . وتأوه كلفن قائلا « إن المستقبل يفزعنى ، ولست أجرؤ على التفكير فيه . إن الهمجية سوف تجرفنا إلا إذا هبط الرب من السماء[٦٨] . وأننا لنسمع شيئاً من هذا القبيل عن اسكتلندة وإنجلترا[٦٩] . ولخص فرود ، وهو النصير المتحمس لهنرى الثامن ، الموضوع باعتدال وإنصاف ، فقال :

إن الحركة التى بدأها هنرى الثامن ، بالحكم عليها بنتائجها الحالية

(١٥٥٠) أسلمت البلاد آخر الأمر إلى مجرد مغامرين ». إن الناس استبدلوا بخرافة من أكبر مساوئها أنها فرضت ظلا من الاحترام والطاعة ، خرافة أخرى ، مزجت الطاعة بإيمان متسم بطابع المضاربة . وتحت هذا التأثير المميت ، بدأت تختفي ، لا أسمى فضائل التضحية بالنفس فحسب ، بل أبسط واجبات الاستقامة والأمانة والفضيلة والأخلاق . وأصيبت الحياة الخاصة بدنس بدا لخلاعة رجال الدين الكاثوليك أنه البراءة والطهر . . . . ومن بين الفئة الصالحة التي لم يمسها الدنس ، لا يزال من الممكن العثور على أفاضلهم في جانب الإصلاح[٧٠] .

وقد لا يكون من اليسير أن تنسب هذا الانحطاط الخلقي في ألمانيا وإنجلترا ، إلى فك لوثر لقيود الجنس ، وازدرائه « للأعمال الصالحة » ، أو إلى المثل السيئ الذي ضربه هنري الثامن بانغماسه في المغامرات الجنسية وقسوته البالغة ، لقد ساد فسوق مشابه — ومن بعض النواحي أكثر انطلاقاً — في إيطاليا البابوية في ظل البابوات في عصر النهضة ، وفي فرنسا الكاثوليكية تحت حكم فرانسوا الأول . وربما كان السبب الرئيسي في انحلال الخلق في أوربا الغربية هو نمو الثروة . وثمة سبب أصيل يدعم هذا ، هو تزعزع الإيمان ، لا في المبادئ الكاثوليكية فحسب ، بل في أساسيات وأصول العقيدة المسيحية كذلك . فقــد رثى أندريا مسكولوس « أنه ليس هناك من يعبأ بالجنة أو الجحيم ، ولا يفكر أحد في الله أو في الشيطان »[٧١] . وينبغي في مثل هذه التصريحات الصادرة عن الزعماء الدينيين ، أن نتجاوز عن مبالغات المصلحين اليائسين من ضآلة التحسينات التي أدخلتها إصلاحاتهم الدينية على الحياة الأخلاقية . وإذا كان لنا أن نصدق الوعاظ ، فإن الناس لم يكونوا أفضل بكثير فيما مضى ، وقد لا يكونون أفضل بكثير في القرون التالية . ففي مقدورنا أن نتبين في عصرنا هذا كل خطايا القرن السادس عشر وآثامه ،

وأن نتبين خطايانا وآثامنا فى كل ما اقترفه الناس فى ذلك القرن ، طبقاً لما تيسر لديهم من وسائل وأساليب .

وإنا لنجد فى نفس الوقت أن الكاثوليكية والبروتستانتية كلتيهما ، كانتا قد أقامتا ودعمتا أساسين لانبعاث الروح المعنوية والأخلاقية : تهذيب سلوك رجال الإكليروس بالزواج أو بالزهد والتعفف ، والتوكيد على أن البيت هو الملاذ الأخير للإيمان والحشمة واللياقة . وقد يؤتى الإصلاح حقاً ثماره على مدى الأيام ، حتى إلى حد التطرف ، وقد يأتى اليوم حين يرجع الرجال والنساء بأبصارهم إلى الوراء ، فى حسد خفى ، إلى القرن السادس عشر ، حيث كان أسلافهم أشراراً وأحراراً إلى الحد الذى كانوا عليه يومذاك .

٤ – آداب السلوك

كان الحكم على الناس آنذاك ، مثل ما هو حادث اليوم ، بعاداتهم أكثر منه بأخلاقهم . لقد تجاوز الناس ، بقدر أكبر من طيب النفس ، عن الخطايا التى ارتكبت بأقل قدر من الوحشية ، وأعظم قدر من الكياسة . وفى هذا المجال كانت إيطاليا هى الرائدة ، شأنها فى كل شىء باستثناء المدفعيـــة واللاهوت . وكان الناس شمال جبال الألب ، فيما عدا القشرة الرقيقة الخارجية فى سكان فرنسا وإنجلترا ، أفظاظاً غلاظاً ، إذا قورنوا بالإيطاليين ، بل كان هؤلاء يسمون الأولين متبربرين همجيين ، واتفق مع الإيطاليين فى هذا ، كثير من الفرنسيين الذين سحرت ألبابهم فتوحاتهم فى إيطاليا فى ميادين الحرب وآداب السلوك ، ولكن المتبربرين الهمجيين كانوا يتوقون إلى التمدن وارتقاء سلم الحضارة ، وحذا رجال البلاط وسيداته والشعراء والمفسدون فى الأرض من الفرنسيين حذو الإيطاليين ونهجوا نهجهم ، وسار الإنجليز الهوينا خلفهم ، وترجم كتاب كاستليونى « رجل البلاط » (١٥٢٨) إلى الفرنسية فى ١٥٣٧ ، وإلى الإنجليزية فى ١٥٦١ ، واختلفت الدوائر الأدبية

على تعريف الرجل المهذب : ولقيت كتيبات آداب السلوك رواجاً كبيراً . ولقد ألف إرزم واحداً منها : وأصبح الحديث فناً فى فرنسا ، كما كان فيما بعد فى حانة مرميد فى لندن (كان يجتمع فيها بن جونسون وشكسبير وغيرهما من الكتاب . فى عصر اليزابيث) : وعبرت مباريات الأجوبة البارعة السريعة جبال الألب من إيطاليا حول الوقت الذى انتقل فيه كذلك فن المبارزة بالسيف . وكان الحديث أكثر صقلا وتهذيباً فى فرنسا عنـــه فى ألمانيا . وكان الألمان يسحقون الرجل بالفكاهة ، أما الفرنسيون فكانوا يخزونه فى ذكاء وفطنة . وكانت حرية الكلام وسيطاً أساسياً فى ذاك العصر .

ومنذ كان تحسين المظهر الخارجى أيسر من تهذيب النفس ، فإن الطبقات الصاعدة فى المدنيات الناشئة فى الشمال أولت ملابسها قسطاً أكبر من العناية . وارتدى عامة الناس ملابس بسيطة للغاية — كما نرى فى جماهير بروجل (مصور فلمنكى) : قبعات على شكل الفنجان ، وبلوزات فضفاضة ذوات أكمام منتفخة ، وسراويل (بنطلونات) ضيقة تصل إلى الأحذية المريحة ، ويتركز هذا التشكيل البشع على حقيبة قبيحة ، مزدانة بزخارف براقة ، تتدلى أمام انفراج ساق الرجل . أما الرجال الموسرون فى ألمانيا فقد غلفوا أجسامهم الجبارة فى طيات كثيرة فضفاضة من القماش ، تعلوها قبعات عريضة تبدو فوق الرأس وكأنها فطيرة ذات مصاطب أو طبقات . أما نساء ألمانيا ، فالظاهر أنه كان محرماً عليهن أن يلبسن إلا زى مديرات النزل أو الطباخات . وفى إنجلترا أيضاً كانت ملابس الرجال أجمل وأكثر بهجة من ملابس النساء ، حتى جاءت الملكة اليزابيث فبزتهم بما ارتدته من أزياء لا يحصيها العد . وجرى هنرى الثامن شوطاً بعيداً فى الإسراف فى ملابسه ، وكان يجملها ويزينها بالألوان والحلى والأنسجة الثمينة . ويقول هوللشد إن دوق بكنجهام كان يرتدى — فى زواج الأمير آرثر من كاترين أوف أراجون — عباءة

من شـــغل الإبرة ، مغطاة بفراء السمور ، قدرت بنحو ١٥٠٠ جنيه (١٥٠٫٠٠٠ دولار؟) ، وحرمت القوانين على أى رجل دون رتبة فارس ، أن يقلد فخامة الملابس التى يرتديها من هم أعلى منه مكانة . وغطت الإنجليزيات أجسامهن بالملابس الضيقة من العنق إلى أخمص القدم ، ذات أكمام تصل إلى المعصم ، مع زركشة بالفراء على حروف الثياب ، وأحزمة مثبتة بحلى معدنية ، وقلادة أو مسبحة ، وكانت النساء بصفة عامة تلبس من الجوهرات أقل مما يلبس الرجال :

وفى عهد فرانسوا الأول الذى كان يقدر الشيء حق قدره ، فتحت النســاء الفرنسيات الجزء الأعلى من ثيابهن وكشفن عن صدورهن المنتفخة ، وشققن أرديتهن إلى آخر فقرة من ظهورهن . وإذا لم ينتفخ الصدر الطبيعى إلى حد كاف ، وضعن عليه مشداً يجعله عاليا منتفخا[٧٢] ، وضيقت الملابس وأحكمت فيما تحت الثديين ، وضغطت على الخصر[٧٣] ، مع أكمام منتفخة ، وانتشرت من التنورة أسلاك من الخلف وعلى الحافة . واضطرتهن الأحذية العالية الكعوب إلى المشية المتبخترة الرشيقة . وكان يباح للمرأة ذات المكانة العالية — وليس لغيرها — أن يكون لثوبها ذيل ، وكلما ارتفع قدرها زاد طول الذيل . وقد يطول الذيل ، إذا سمحت مرتبة الشرف ، إلى سبع ياردات ، وكان يمشى وراء السيدة وصيفة أو خادم ليمسك به ويرفعه عن الأرض ، وفى طراز آخر الأزياء قد تغطى السيدة رقبتها بطوق أحكم شده بأسلاك ، وعذب الرجال أنفسهم بشيء غريب مماثل فى المناسبات الرسمية ، وفى ١٥٣٥ لحظ سرفيتس « أنه لنساء أسبانيا عادة قد يظن فى فرنسا أنها همجية ، تلك هى أنهن كن يثقبن آذانهن ويعلقن فيها أقراطا ذهبية غالباً ما تكون مرصعة بالأحجار الكريمة »[٧٤] . وما جاءت سنة ١٥٥٠ حتى كانت نساء فرنسا تلبس الأقراط ، بل حتى الرجال كذلك[٧٥] . واستمرت الجواهر والحلى

محتفظة بسلطانها منذ زمن سحيق . وارتدى الرجال فى فرنسا قمصانا من الحرير مع صدارات من القطيفة ، وحشوا أكتافهم ، وكسوا أرجلهم بسراويل قصيرة ضيقة ، وحافظوا على رجولتهم بحقيبة منضدة بالأشرطة أو الجواهر أحيانا . وعلى النقيض من عادات القرن الخامس عشر قصروا شعر الرأس وأرخوا اللحى . أما النساء فقد احتفظن بشعرهن فى تصفيفات متنوعة لا تشجع على وصفها . فكان مضفراً معقوصاً ملفوفاً فى شباك ، مليئاً بالضفائر العارية ، مزداناً بالأزهار ، براقاً بالجواهر ، مضمخا بالزيوت العطرية ، مصبوغا ليتمشى مع الأناقة وأسلوب العصر ، ومرفوعاً على شكل أبراج أو أهرام فوق الرأس ؛ وكان من غير الممكن أن تستغنى السيدة الأنيقة عن الحلاق فى هذا الزمان ، فإن تقدم العمر بدا آنذاك قدراً محتوما أسوأ من الموت .

وإلى أى حد كانت الأجسام نظيفة تحت هذه اللفائف والزخارف ؟ لقد تحدث كتاب من القرن السادس عشر عنوانه « مقدمة للسيدات الشابات » عن « نساء لم يعنين قط بنظافة أجسامهن ، اللهم إلا الأجزاء التى يمكن أن تقع عليها العين . . . أما ماتحت قمصانهن الكتانية فقد بقى قذراً »[٧٦] . وثمة مثل ساخر يقول بأن العاهرات هن الوحيدات اللائى غسلن أكثر من وجوههن وأيديهن[٧٧] . وربما ازدادت النظافة بازدياد الفسق والفجور . فقد كشفت النساء من أجسامهن عن أجزاء أكثر من ذى قبل ، وجعلنها نهباً لأنظار الكثير من الناس . ومن ثم اتسع نطاق النظافة ؛ وأصبحت آنذاك كثرة الاستحمام ، مع تفضيل الماء المعطر ، وخاصة فى فرنسا ، جزءاً من العادات الطيبة ؛ وقل عدد الحمامات العامة بتضاعف عدد الحمامات الخاصة ، ولم تكن هذه عادة مزودة بالمياه الجارية ، بل اعتمد فيها على السلطانية (الكوز) والحوض . وظلت شائعـــة مستحبة فى القرن

السادس عشر ، حمامات البخار التى كانت قد جاءت إلى أوربا الغربية بعودة الصليبيين إليها فى القرن الثالث عشر .

وفى البلاد البروتستانتية حل البيت تقريبا محل الكنيسة ، كمركز العبادة والصلوات . وأدى الوالد مهمة الكاهن فى الصلوات اليومية وتلاوة الإنجيل والترانيم ، وعلمت الأم أبناءها مبادئ العقيدة الدينية . وفى الطبقات المتوسطة سارت الرفاهية جنبا إلى جنب مع التقوى والتدين . فهذا هو العصر الذى تطورت فيه المنضدة ذات الحوامل والألواح الخشبية الملتحمة بعضها ببعض إلى وحدة ذات أرجل متينة ، وتطور المقعد الخشبى والوسائد إلى كرسى مريح « منجد » وسرير منقوش ذى أربعة قوائم ، فوقه ظلة — وأصبح كل أولئك رمزا للاستقرار الأدبى واليسار المالى . وصنع الأثاث والأطباق والمدافئ وأدوات المطبخ لتحتمل بل وتحتفظ ببريقها لعدة أجيال . وحلت الأطباق المعدنية محل الأطباق الخشبية ، كما حلت الملاعق المصنوعة من القصدير أو الفضة محل تلك المصنوعة من الخشب . وكانت البيوت واسعة فسيحة لأن الأسرات كانت كبيرة ، لأن النساء كن يلدن فى كل عام تقريبا ، ولكن دون جدوى ، لأن نسبة الوفيات بين الأطفال كانت عالية ، وكان جون كولت أكبر اثنين وعشرين طفلا . وحين بلغ سن الثانية والثلاثين ، كان كل إخوته قد ماتوا . وكان لأنطون كوبرجر صاحب المطبعة فى نورمبرج — خمسة وعشرون طفلا ، وقد عمر هو بعـــد موت اثنى عشر منهم ، وكان ديرر واحداً من ثمانية عشر طفلا ، يبدو أن ثلاثة منهم فقط بلغوا سن الرشد(٧٨) . واستكمالا للأسرة كانت هناك حيوانات منزلية مدللة كثيرة قدر كثرة عدد الأولاد تقريبا . وكانت الببغاوات قد جاءت من جزر الهند الغربية . وكانت القردة التى أحضرت من الهند أليفة أثيرة فى البيت(٧٩) . وكان هناك كثير من الكتب التى تعلم النساء والأطفال طرق العناية بالكلاب والطيور وتربيتها .

وكانت وجبات الطعام هائلة . ولم تكن الخضروات مستساغة ، بل كان الناس يزدرونها ، ثم أقبلوا عليها شيئاً فشيئاً . وشاع آنذاك أكل الكرنب والجزر والخس والراوند والبطاطس والفول والفريز . وكانت الأكلة الرئيسية فى الساعة الحادية عشرة صباحاً وتأخر العشاء إلى السابعة مساء ، وكلما سمت الطبقة تأخرت ساعة تناول العشاء . وكانت الجعة والنبيذ هما المشروبان الرئيسيان فى كل وجبات الطعام حتى الإفطار . وكان من طرق توماس مور إلى الشهرة أنه تناول الماء بديلا عنهما . وحوالى ١٥٥٠ استحضر الأسبان الشكولاته (الكاكاو) من المكسيك ، ولم يكن البن قد تقاطر بعد من بلاد العرب إلى أوربا الغربية . وفى ١٥١٢ حددت أسرة دوق نورثمبرلاند ربع جالون من الجعة لكل فرد فيها فى كل وجبة طعام حتى للأولاد فى سن الثامنة . وكان استهلاك الجعة فى كوفنترى فى القرن السادس عشر ربع جالون يومياً لكل رجـل وامرأة وولد(٨٠) . وقد اشتهرت مصانع الجعة فى ميونيخ منذ القرن الرابع عشر(٨١) . وكان شرب الخمر شائعاً فى انجلترا حتى جاءت « مارى اللعينة » (مارى تيودور ١٥١٦ — ١٥٥٨) فاستهجنته . ولكنه ظل مألوفاً فى ألمانيا ، وتناول الفرنسيون الخمر فى اتزان أكثر ، لأن الجو عندهم لم يكن بارداً إلى هذا الحد .

وعلى الرغم من الفقر والظلم ، استمر الناس يتمتعون بكثير من نعم الحياة ، وحتى الفقراء أنفسهم كان لهم حدائق ، وأصبحت زهرة التيوليب هواية وطنية فى هولندة ، وكان قد أحضرها لأول مرة حوالى ١٥٥٠ بوسبك سفير الإمبراطور فى القسطنطينية . وكانت البيوت الريفية نمطاً سارًّا فى انجلترا وفرنسا . وظل القرويون يحتفلون بأعيادهم الموسمية فى عيد الربيع (أول مايو) ، عيـد الحصاد ، عيد كل القديسين ، وغيرها كثير ، واحتفل الملوك بعيد الربيع وتوجوا أنفسهم بأكاليل

الزهور ، وكان فيما يتسـلى به سراة القوم أحياناً مهرجانات مثيرة للفقراء ، من ذلك عند ما دخل هنرى الثامن ليون فى احتفال مهيب فى ١٥٤٨ ، وربما كان جمهور الشعب يشهد على مسافة معقولة ، اللوردات فى مباريات السيوف — وقد بطلت هذه الرياضة بعد موت هنرى الثانى . وأصبحت المواكب الدينية أكثر وثنية ، عند اقتراب عهد هنرى الثامن من عصر إليزابث ، وفى القارة أباحت الأخلاقيات المتساهلة للنساء العرايا أن يمثلن بعض الشخصيات التاريخية أو الأسطورية ، واعترف ديرر بأنه هو نفسه افتتن بمثل هذا العرض فى أنتورب ١٥٢١[٨٢] .

وكانت هناك الألعاب ؛ وقد أفرد رابليه فصلا لتسجيلها ، فعلية أو خيالية . وصور بروجل نحو مائة منها فى إحدى لوحاته . وكان فى تعذيب الدببة ومصارعة الثيران ومصارعة الديكة تسلية للجمهور ، وروضت كرة القدم ولعبة الكرات الخشبية والملاكمة والمصارعة شباب العامة ، وطردت عنهم الأرواح الشريرة ، وكان فى باريس وحدها ، للطبقة الأرستقراطية ، فيها ١٥٠٢ من الملاعب للتنس ، فى القرن السادس عشر[٨٣] . ومارست كل الطبقات الصيد ، ولعبت الميسر ولعبت بعض السيدات النرد ؛ ولعب بعض الأساقفة الورق بنقود[٨٤] . وتجول الممثلون المهرجون والبهلوانات واللاعبون فى الريف ، وعرضوا أفانينهم وألعابهم على اللوردات نظير جعل يتقاضونه . وفى داخل البيوت لعب الناس الورق والشطرنج والنرد وعشرات من الألعاب غيرها ، وكان الرقص أحب أنواع التسلية . ويقول رابليه « وذهب الجميع بعد العشاء إلى الأيكة ، الممتلئة بالصفصاف ، يلاحق بعضهم بعضاً ، وهناك على العشب الأخضر ، على الأنغام الشجية من المزمار وموسيقى القرب رقص الجميع برشاقة ، فكانت رياضة لطيفة سماوية يلذ للإنسان مشاهدتها[٨٥] » . وفى يوم عيد الربيع فى إنجلترا كان أهل القرية يتجمعون حول « عمود مايو »

المزين بالأزهار والأشرطة بشكل بهيج ، ورقصوا رقصاتهم الساذجة المفعمة حيوية ، ويبدو أنهم بعد ذلك راحوا يقبلون ويعانقون بعضهم بعضاً مما يذكر بعيد فلورا إلهة الزهور عند الرومان . وكانت ألعاب عيد مايو في عهد هنرى الثامن تشمل « الرقص العربى » الذى كان قد جاء من عرب أسبانيا عن طريق الرقصة الإسبانية « فندنجو » بالصنوج . ورقص الطلبة فى أكسفورد وكمبردج فى مرج بالغ الصخب ، إلى درجة أنه كان لا بد من أن يحرم وليم ويكهام هذا العبث بالقرب من تماثيل الكنيسة ؛ وأقر لوثر الرقص ، واستساغ بنوع خاص « الرقصة التربيعية ، مع الانحناءات الودية والعناق والتمايل الرقيق ، بين المشتركين فى الحلبة »[٨٦] ورقص ملانكتون الوقور . وفى ليبزج فى القرن السادس عشر أقام الآباء فى المدينة بانتظام حفلات راقصة حتى يتمكن الطلبة من التعرف على « أشرف وأجمل بنات ذوى المكانة وأعضاء السناتو والمواطنين »[٨٧] . وكثيراً ما ترأس شارل السادس حفلة الرقص فى البلاط الفرنسى ؛ واستقدمت كاترين دى مديتشى إلى فرنسا راقصات إيطاليات ، وهناك فى أخريات أيام الملكة الأم التعسة ظهرت رقصات أرستقراطية جديدة ؛ وقال جان تابورو ، فى كتاب من أقدم الكتب عن فن من أقدم الفنون : « إن الناس كانوا يمارسون الرقص ليروا هل يتمتع الحبيبان بصحة جيدة ، وهل يناسب كل منهما الآخر ، وفى نهاية الرقص كان يسمح للشاب أن يقبل خطيبته ليستوثق من أن رائحة أنفاسها طيبة . . . . وبهذه الطريقة يصبح الرقص ضرورياً لبساس المجتمع سياسة حسنة[٨٨] ؛ وتطورت الموسيقى بفضل مصاحبة الرقص ، من الأشكال الصوتية وجوقة المنشدين إلى استخدام الآلات وتأليف الألحان ، مما جعلها فناً بارزاً ذا شأن فى عصرنا ؛

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ - ١٥٦٤

١ - الآلات

إن شعبية الموسيقى فى تلك القرون لتصحح وتلطف من النغمة الكئيبة الحزينة التى يميل التاريخ إلى أن يضفيها على تلك الحقبة ويقرنها بها . وإنا لنسمع الناس ، من آن لآن ، يغنون فى غمرة الثورة الدينية وما اتسمت به من إثارة ومرارة . وكتب صاحب المطبعة العاطفى اتيين دوليه « إنى لا أعبأ بشيء من ملذات الطعام والألعاب ، والحب ، ولكن الموسيقى وحدها ... تأسرنى وتأخذ بمجامع قلبى ، وتذيبنى فى نشوتها »[1] . ومن النغمات الصافية المنبعثة من صوت إحدى الآنسات أو مزمار جيد ، إلى فن مزج الألحان المتعددة الأصوات عند دبريه Deprés أو بالسترينا ، عوضت كل الأمم وكل الطبقات بالموسيقى عن الروح التجارية وعن اللاهوت فى ذاك العصر . ولم يغن كل فرد فحسب ، ولكن فرانسيسكو لانديو شكا من أن كل فرد لحن وألف[2] . وبين الأغانى الشعبية البهيجة أو الحزينة فى القرية إلى القداسات الكبيرة المهيبة فى الكنيسة ، ظهرت مئات الأشكال الموسيقية التى استخدمت إيقاعاتها فى الرقص والحفلات والولائم والمغازلات والبلاط والمواكب والمهرجانات والصلوات . لقد غنى العالم بأسره .

وكان يواكب تجار أنتورب كل يوم إلى السوق المالية فرقة موسيقية ، ودرس الملوك الموسيقى ، لا باعتبارها امتيازاً لطيفاً أو ميكانيكياً ، بل لأنها

سمة المدنية ومنبع من منابعها . وتحمس ألفونسو العاشر ملك أسبانيا وثابر على جمع الأغانى للسيدة العذراء ، وتودد جيمس الرابع ملك اسكتلنده إلى مارجريت تيودور بموتورة المفاتيح (آلة موسيقية تعتبر الأصل الذى تطور عنه البيانو Clavichord) والمزهر (العود) . واصطحب شارل الثامن ملك فرنسا معه فرقة المنشدين الملكية فى حملاته على إيطاليا . وغنى شارل الثانى عشر بأعلى صوته مع فرقة المنشدين فى البلاط ؛ وألف ليو العاشر بعض الأغانى الفرنسية[٣] . أما هنرى الثامن وفرانسوا الأول فقد تودد كل منهما إلى الآخر وتحداه باستخدام فرق المنشدين المتنافسة فى ساحة Cloth of Gold . ووصف لويس ميلان البرتغال فى ١٥٤٠ بأنها « بحر حقيقى من الموسيقى »[٤] . وكان لبلاط ماتياس كورفينوس فى بودا فرقة منشدين قدروا أنها تعادل فرقة البابا ، وكان فى كراكاو على عهد سجسمند الثانى مدرسة عظيمة للموسيقى ، وكانت ألمانيا تعج بالغناء عندما كان لوثر شاباً ؛ كتب الإسكندر أجريكولا ١٤٨٤ يقول : « إن عندنا هنا فى هيدلبرج مغنين يرأسهم رجل يستطيع أن يلحن لثمانية أصوات أو اثنى عشر صوتاً »[٥] . وفى ماينز ونورمبرج وأجزبورج وغيرها من المدن ظل « راعى الشعر والموسيقى » يزين الأغانى الشعبية والقطع الإنجيلية بأبهة المتحذلقين وزخارف فن مزج الألحان ، وربما كانت الأغانى الشعبية الألمانية أفضل مثيلاتها فى أوربا . وكانت الموسيقى فى كل مكان مهماز التقى وشرك الحب :

وعلى الرغم من أن كل الموسيقى تقريباً كانت فى هذا العصر صوتية ، فإن الآلات المصاحبة كانت متنوعة قدر تنوعها فى الفرق الموسيقية الحديثة . وكانت هناك آلات وترية مثل الشنطير (آلة موسيقية قديمة تشبه القانون) ، والقيثار ، والقانون ، والشوم (آلة موسيقية خشبية قديمة) ، والعود ، والفيول (وهو نوع من الكمان) . ثم آلات النفخ مثل الناى ، والمزمار ،

والزمخر (مزمار ذو أنبوبة خشبية مز دوجةوفم معدنى ملتو) ، والبوق ، والمتردة (الترومبون) والبوق (شكل قديم آخر) ومزمار القرب ، ثم آلات النقر مثل الطبل والجرس ، والمصفقة والمخشخشة والصنوج بأنواعها ، ثم الآلات ذات المفاتيح مثل الأرغن ، وموترة المفاتيح ، والبيان القيثارى ، والسبينت (تشبه البيان) ، والعذراوية (شبيهة ببيان صغير ليس له قوائم) ، وكانت هناك أنواع أخرى كثيرة ، وكان للعديد منها متنوعات فائقة شتى اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، وكان فى كل بيت مثقف واحدة أو أكثر من الآلات الموسيقية . وكان فى بعض البيوت خزائن خاصة لحفظها : وكثيراً ما كانت هذه الآلات تحفاً فنية منقوشة نقشاً محببا يرضى الخيال والذوق ، تتوارثها الأسرات جيلا بعد جيل بوصفها ذخائر وتذكارات ثمينة : وكانت بعض الأراغين مصنوعة بشكل بارع محكم ، قدر البراعة والإحكام فى واجهات الكاتدرائيات القوطية . وخلد ذكر الرجال الذين صنعوا الأراغين لبعض الأسرات الحاكمة الألمانية فى نورمبرج لمدة قرن من الزمان ؛ وكان الأرغن هو الآلة الموسيقية الرئيسية المستخدمة فى الكنيسة ، وإن لم تكن الوحيدة ، بل كان هناك أيضـــا المزمار ، وموسيقى القرب والطبول والمتردة (الترومبون) ، بل حتى الطبلة النقارية ، وكلها تدعو بأدواتها المتنافرة إلى الصلاة والعبادة .

وكان العود هو الآلة المفضلة لمصاحبة مغن واحد ، وهو من أصل آسيوى ، شأنه فى ذلك شأن كل الآلات الوترية ، جاء مع المغاربة إلى أسبانيا ، وهناك ، مثل الفهيولا ، (نوع من الكمان) ارتفع شأنه حتى صار الآلة الوحيدة المستعملة ، التى ألفت من أجلها أقدم موسيقى آلية خالصة معروفة . وصنع جسمه عادة من الخشب والعاج ، على شكل الكمثرى ، وزود تجويفه بثقوب على شكل وردة ، وكان له ستة ،

وفى بعض الأحيان اثنا عشر زوجا من الأوتار تنقر بواسطة الأصابع ، وكان عنقه مقسما بعتبات من النحاس إلى سلم مدرج ، وملواه منحرف إلى الخلف من العنق . وإذا أمسكت غادة حسناء بالعود فى حضنها وداعبت أوتاره بأناملها وأضافت صوتها إلى أنغامه لاستطاع كيوبيد أن يوفر سهماً . ومهما يكن من أمر فقد كان من العسير الاحتفاظ فى العود بدرجة النغم الصحيحة لأن استمرار شد الأوتار يسبب التواءها وتشويهها . وقال أحد الظرفاء إن عازف عود عجوز بلغ من العمر ثمانين عاماً ، قضى منها ستين عاماً فى ضبط النغم فى عوده(٦) .

واختلف الكمان (الفيول) عن العود فى امتداد أوتاره على مشط ، وأن العزف عليه بواسطة قوس ، ولكن القاعدة الأساسية واحدة فيهما — ذلك أن ذبذبات الشد ترتطم بالأوتار فوق صندوق ذى ثقوب لتعميق الصوت . وصنعت الفيول على ثلاثة أحجام : الكبير وهو باس فيولا داجامبا ، وكانوا يمسكون به بين الأرجل مثل البديل الحديث له — الفيولونسيل Violoncello ، والصغير وهو الفيول العالى النغم (فيولا دابراكسيو) ، ويمسكون به على الذراع . وأخيراً الفيول المثلث ، وفى القرن السادس عشر تطور النوع الثانى (فيولادابراكسيو) إلى الكمان . وفى القرن الثامن عشر بطل استعمال الفيولا .

وكان الاختراع الأوربى الوحيد فى الآلات الموسيقية هو لوحة المفاتيح التى تطرق بواسطتها الأوتار بطريق غير مباشر ، بدلا من نقرها أو حنيها مباشرة ، وأقدم الأشـكال المعروفة ، وهى موترة المفاتيح Clavichord ظهرت لأول مرة فى القرن الثانى عشر ، وقد عمرت حتى عدلها جوهان سباستيان باخ ، وأقدم نموذج باق لها (١٥٣٧) محفوظ فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك ، وصنع فى القرن الخامس عشر نوع أقوى هو

البيان القيثارى harpsichord ، وقد مكن من تعديل الأنغام باختلافات الضغط ، وأضيف فى بعض الأحيان لوحة ثانية للمفاتيح ، لتوسيع سلم النغم . وساعدت الوقفات والتفرقات على إبداع معجزات الصوت ، وكان الأسبينت Spinet والعذراوية Virginal — والأول إيطالى والثانية شبه إنجليزية شكلين مختلفين من البيان القيثارى ، وكانت الآلات ذات المفاتيح مثل الفيول والعود ، تحظى بأعظم التقدير لجمالها ونغماتها معاً . وكانت تشكل عنصراً جميلا من عناصر البهجة والزينة فى بيوت الأغنياء .

ولما تقدمت الآلات من حيث مدى النغم ونوعيته ، ومن حيث تعقد عملها ، تطلب النجاح فى العزف عليها المزيد من المران والمهارة ، وازداد عدد الجمهور فى الحفلات التى يكون العزف فيها على آلة واحدة أو أكثر ، دون أن يكون فيها غناء ، وبرز عازفون على الأرغن والعود . وارتحل كونراد بومان Paumann (المتوفى ١٤٧٣) عازف الأرغن الضرير فى نورمبرج من بلاط إلى بلاط ، وأقام حفلات موسيقية ، استحق لبراعته وامتيازه فيها لقب فارس . وشجعت أمثال هذه التطورات على تأليف الموسيقى من أجل الآلات وحدها . ومن الواضح حتى القرن الخامس عشر ، أن كل الموسيقى الآلية تقريباً كان قد قصد بها أن تصاحب الغناء أو الرقص ، ولكن هناك فى هذا القرن عدة لوحات تعرض بعض الموسيقيين يعزفون دون أن يرى فيها أثر لغناء أو رقص ، وأقدم ما بقى من الموسيقى للآلات وحدها هى « جاميساندى Gamisandi » (١٤٥٢) ، وهى لكنراد بومان ، وقد ألفت فى الأصل لتوجيه العزف على الأرغن ، ولكنها شملت أيضاً عدداً من القطع للعزف المنفرد ، وأنقص تطبيق أوتافيانو دى بتروسكى للحروف المعدنية المتحركة فى طبع الموسيقى (١٥٠١) تكاليف نشر تآليف الموسيقى الآلية وغيرها ، واقتصرت الموسيقى الموضوعة للرقص على عروض مستقلة ، ومن ثم كان تأثير أشكال الرقصات على الموسيقى الآلية . وأدت ألحان « الحركات »

المؤلفة لسلسلة متعاقبة من الرقصات إلى ظهور السيمفونية والموسيقى الرباعية ، التى احتفظت أجزاؤها أحياناً بأسماء الرقصات ، وفضل العود والفيول والأرغن والبيان القيثارى للعزف المنفرد أو عزف الأوركستر ، وتمتع ألبرتو داريبا فى بلاط فرنسوا الأول وهنرى الثانى بشهرة عظيمة كعازف على العود ، إلى حد أنه عندما توفى أنشد شعراء فرنسا الترانيم الحزينة على قبره .

٢ — سيطرة الموسيقى الفلمنكية

١٤٣٠ — ١٥٩٠

كانت الأغانى والرقصات الشعبية هى المعين الذى لا ينضب الذى اشتقت منه أشكال الموسيقى غير الكنسية أصولها وصيغها وموضوعاتها الرئيسية ، حتى القداسات ، ربما اشتقت منها بعض الأغانى القصيرة مثل « وداعاً يا أحبائى » ، وتنوعت الأغانى الفرنسية من الأغانى التوقيعية للمغنين فى الشوارع ، وأغانى الشعراء الغنائيين البسيطة (التروبادور) إلى أغانى غليوم دى ماشو وجوسكوين دبريه المعقدة المتعددة الأصوات .

وكان ماشو (١٣٠٠ — ١٣٧٧) سيد ذلك « الفن الجديد » الذى كان قد بسطه وشرحه فيليب دى فيترى فى ١٣٢٥ — وهو عبارة عن موسيقى استخدمت الإيقاع الثنائى بالإضافة إلى الإيقاع الثلاثى ، وهو ما أقره « الفن القديم » والكنيسة . وكان ماشو شاعراً وعالماً وموسيقياً وكاهناً فى كاتدرائية ريمس ، وربما كان كذلك رجلا مماوءاً حماسة وغيرة ، لأنه كتب بعض قصائد الحب الغنائية التى لم تهدأ حرارتها بعد . وبرع فى اثنى عشر شكلا موسيقياً من الأغانى الراقصة والعاطفية ، والقصائد الغنائية ذات اللازمة المتكررة والقصائد الغزلية ، والقصائد الدينية ، وموسيقى القداس ، ويعزى إليه أقدم قداس متعدد الأصوات — لحنه رجل واحد . وأسهم ، ولو أنه من

رجال الكنيسة ، فى حركة صبغ الموسيقى المتعددة الأصوات بالصبغة العلمانية وإخراجها من حيز إيقاع القصائد الدينية والقداس إلى الإيقاع الأكثر انطلاقاً ومرونة فى موسيقى الأغانى العلمانية .

وفى تلك القرون كان الإنجليز موسيقيين ، ولكنهم لم ينافسوا الإيطاليين فى اتساق الأصوات فى اللحن (ومن ذا الذى ينافسهم ؟) ، ولا الفلمنكيين فى تعدد الأصوات ، ولكن أغانيهم ، بين الحين والحين ، بلغت من العذرية والرقة حداً لا يضارعهم فيه إلا أعمق الأغانى الفرنسية . وقوبل المغنون الإنجليز فى مجالس كنستانس بالتهليل والهتاف ، وفى هذا الجيل ألف هنرى الخامس بطل أجنكورت ، قداساً لا يزال يحتفظ بعظمته وقداسته . وكانت المقطوعات التى ألفها جون دنستابل (١٣٧٠ – ١٤٥٣) تعزف فى كل البقاع من اسكتلانده إلى رومه . ولعبت دورا فى تشكيل أسلوب المدرسة الفلمنكية .

وكما كانت الفلاندر قد استهلت فن التصوير فى القرن الخامس عشر ، كذلك شهدت الموسيقى فيها عصراً من أبهى وأعظم عصورها ، فى وسط النبلاء والمواطنين الأثرياء المحبين للفنون . وكتب جوهانس فروير Johannes Verwere حوالى ١٤٩٠ يقول : « عندنا اليوم – إلى جانب العدد الكبير من مشاهير المغنيين ، يظهر إلى الوجود ، عدد لا حصر له تقريباً ، من الملحنين الذين تتميز أعمالهم بعذوبة الصوت ، وما سمعت أو نظرت إلى تآليفهم إلا ابتهج قلبى[٧] » . وربما وضع المعاصرون دوفاى وأوكيجم ودبريه فى مرتبة سواء من سلم العبقرية والخير ، مع جان فان إيك وكلاو سلوتر وروجيير فان درويدن ، وهنا فى تعدد الأصوات فى المدرسة الفلمنكية ، عاشت أوربا الغربية آخر طور من أطوار الروح القوطية فى الفن : الورع الدينى الذى لطفه المرح الدنيوى والأشكال المتينة فى قاعدتها وتركيبها ،

الفضة الرقيقة فى تطويرها وزخرفتها . وحتى إيطاليا التى كانت معادية للفن القوطى ، انضمت إلى أوربا الغربية فى الاعتراف بتفوق الموسيقى الفلمنكية وسموها ، وفى الاسترشاد بالفلاندرز فى تحسين موسيقى فرق المرتلين الأسقفية ، وفرق بلاط الأمراء . وألف الإمبراطور مكسيمليان الأول ، وقد سحرته موسيقى بروكسل ، فرقة للمرتلين فى فيينا ، على نسق الفرق الفلمنكية ، وأخذ شارل الخامس موسيقيين فلمنكيين إلى أسبانيا ، وأخذ الأرشيدوق فرديناند نفرا منهم إلى النمسا ، وأخذ كريستيان الثانى مجموعة أخرى منهم إلى الدنمرك . وقال كافللو البندقى « إن منبع الموسيقى فى فى الأراضى المنخفضة »(٨) . وبهذه السيطرة الفلمنكية اجتازت الموسيقى الاحترافية الحدود الضيقة التى وضعتها القومية فى ذاك العصر .

وقاد الطريق غليوم دوفاى ، الذى ولد فى هينوت **Hainaut** (١٣٩٩) وتدرب كتلميذ منشد فى كاتدرائية كمبراى ، وسما بفرقتها إلى مراتب الشهرة العالمية : وكانت القداسات التى أنشدها هناك ، تنشدها كل الأوساط الموسيقية فى جميع أنحاء العـالم المسيحى اللاتينى . وقد تبدو الألحان الباقية منها ثقيلة بطيئة فى الآذان المرهفة الإحساس بخفة الحياة الحديثة وسرعتها ، ولكنها ربما كانت صالحة فى الكاتدرائيات الضخمة وفرق المنشدين البابوية المهيبة . وهناك أغنية أكثر التئاماً مع ذوقنا ، وهى أغنية متعددة الأصوات تنساب أنغامها الحزينة انسياباً رقيقاً « ولى النهار » **The Day is going to sleep** وقد نتخيل فرقة بملابسها الرسمية تغنى مثل هذه الأغنية فى الأروقة القوطية فى كمبراى ، أو إيبر أو بروكسل . أو بروجز أو غنت أو ديجون ، ونحس أن العمارة والتصوير والملابس والموسيقى وآداب السلوك فى ذاك العصر الحماسى الزاهى النابض بالحياة ، شكلت جميعها كلا متراكبا فنيا متسقا ، على حين أنها جميعها متنوعات تنتشر فيها فكرة رئيسية واحدة .

وتطورت أساليب درفاى وأذاعها فى كل أنحاء أوربا أعظم معلمى الموسيقى أثراً ، وربما فى أى عصر من العصور ، جوهانس أوكيجم ، الذى ولد فى فلاندرز (١٤٣٠) ، وقضى معظم سنى حياته يقدم الموسيقى ويعلمها فى بلاط فرنسا . وكان يهيم شغفاً بمقطوعة اسمها « canon » وهى شكل من أشكال الفوجة ، يشكل فيه الصوت (المغنى) الأول الكلمات واللحن ، ويتلوه بعض الفواصل ، ثم يكرره الصوت الثانى ، ويتلوه فاصل ، ثم الصوت الثالث وهكذا ، فى طباق مناسب ، تحدى تعقيده المجهد المغنين ، وسحر الملحنين ، وقد هرع إليه هؤلاء وأولئك من كل أقطار العالم الكاثوليكى لينهلوا من فيض مهارته الفنية وينقلوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وكتب مؤرخ قديم : « لقد نقل عن طريق تلاميذه إلى جميع الأقطار فن تعدد الأصوات الطباقى وشكل الفوجه سالف الذكر Canon وينبغى أن يعتبر أوكيجم — لأن ذلك يمكن إثباته بالتسلسل « الأسلوبى » — يعتبر مؤسس كل المدارس ابتداء من مدرسته إلى مدارس العصر الحالى[٩] . ولكن مذ كتب هذا فى ١٨٣٣ ، فإن أوكيجم لا يعتبر مسئولا عن موسيقى القرن العشرين ، وعند وفاته ١٤٩٥ ألف موسيقيو أوربا مقطوعات حزينة تخليداً لذكراه ، وكتب له إرزم مرثية . إن الأسماء ، حتى أسماء الخالدين ، مكتوبة على الماء :

وأصبح تلاميذ أوكيجم زعماء الموسيقى فى الجيل التالى ، وقد قدم جوسكين دبريه من هينوت إلى باريس ، وتتلمذ لعدة سنوات على أوكيجم ، ثم اشتغل « رئيس فرقة الكنيسة » فى فلورنسه وميلان وفيرارا ، وكتب للدوق أركول الأول مقطوعة اسمها Miserere سرعان ما دوى صيتها فى كل أوربا الغربية ، وبعد سنوات ست قضاها فى فرقة كنيسة سستين عاد إلى باريس (١٤٩٤) ليعمل رئيساً لفرقة لويس الثانى عشر . ومن أنبل أعماله « الحزن على جوهانس أوكيجم » وهى رثاء لأستاذه المتوفى ، وقد حذا

حذوه لبعض الوقت فى تلحين القداسات والقصائد الدينية فى شكل الفوجه التى أسلفنا ذكرها ، وهو يجمع الصوت على الصوت ، فيما يشبه المسائل الرياضية من حيث التتابع والاتساق . فلما اكتملت مهارته ، واستتبت له السيادة فى « فن الموسيقى » بلا منازع ، ترك التقنية ، وكتب قصائد وتراتيل دينية وأغنيات علمانية فى طراز من الألحان أكثر بساطة ، أعقبت فيه الموسيقى الكلمات وزينتها ، بدلا من إرهاقها ، فى فوجه سريعة التغنى ، أو بدلا من مد المقطع إلى أغنية ، ولما قضى المعلم وتلميذه نحبهما ، أصبح من العادة أن يسمى أوكيجم « دوناتللو » ، وأن يسمى دبريه « ميكلأنجلو » الفن الموسيقى .

ورعى البلاط الفرنسى الموسيقى وشجعها باعتبارها زهرة الثروة والقوة ، ولقد صورت سجادة قديمة يرجع تاريخها إلى حوالى سنة ١٥٠٠ ، وهى الآن محفوظة فى متحف جوبلين فى باريس ، أربعا من السيدات وثلاثة من الشبان وراهباً أصلع ، مجتمعين فى بستان حول نافورة ، وكان أحد الصبية يعزف على العود ، وإحدى البنات على القيثار ، وكانت سيدة وقورة تعزف على أرغن سهل الحمل ، ولقد قصد الشعراء الفرنسيون أن تكون قصائدهم صالحة للغناء . وخصصت « أكاديمية القصر » لإحكام الاتحاد بين الموسيقى والشعر ، وحتى فى عصرنا هذا ، لا يبدو الواحد منهما كاملا بدون الآخر ، وتفوق كليمنت جانكين — وهو أحد تلاميذ دبريه — فى الأغانى الوصفية . ولا تزال أغنيته « أغنية القُبَّرة » (١٥٢١) تصدح فوق عدة قارات .

وعكست الموسيقى الأسبانية تقوى الشعب وبسالته ، لقد تراوح هذا الفن — بعد تهجينه وإخصابه بما دخل عليه من مؤثرات عربية وإيطالية وبروفانسية وفرنسية وفلمنكية — تراوح بين القصائد الأندلسية الحزينة التى ينشدها صوت واحد (المونودية) ، والقداسات العظيمة المتعددة الأصوات بالأسلوب الفلمنكى . وسما واحد من أعظم ملحنى القرن السادس عشر ،

هو كريستوبال مورال بفن تعدد الأصوات إلى درجة عالية ، ونقل فنه إلى تلميذه الأكثر شهرة توماس لويس دى فكتوريا . وساركلٌ فى اتجاه مضاد ، فأنتج التراث العربى الألحان الصالحة للعود ، ولحن لويس دى ميلان ومجول دى فونللانا Miguel de Fuenllana ، للكمان ، وعزف عليها أغنيات زاحمت الأغانى الألمانية فى مداها وقوتها .

واستمر الموسيقيون الفلمنكيون يقتحمون إيطاليا حتى ظهر بالسترينا : واستقدم لورنزو دى مديتشى إلى فلورنسه هنريخ إيزاك بعد أن استوعب فن الطباق الموسيقى فى الفلاندرز ، ليعلم أبناء العظماء ، ومكث هناك أربع سنوات ، وألف موسيقى لأغانى لورنزو . ولما أقض مضجعه الغزو الفرنسى لإيطاليا ، انتقل إلى خدمة مكسيمليان الأول فى أنسبروك ، حيث ساهم فى تشكيل الأغنية الألمانية ، وعاد إلى إيطاليا فى عام ١٥٠٢ ، وخصص له الإمبراطور ليو العاشر تلميذه السابق معاشاً ، ووضعت قداساته وقصائده الدينية وأغانيه فى مرتبة أعظم موسيقى العصر ، وعلى الأخص ثمان وخمسين مقطوعة ذات أربعة أجزاء ، لاحتفالات القداس طوال السنة الدينية .

وسما أورلاندو دى لاسو بالمدرسة الفلمنكية إلى الذروة ، وضرب بتوفيقه فى مهنته وحياته أروع الأمثال ، لاتساع مجال الموسيقيين فى عصر النهضة وارتفاع مستواهم الاجتماعى : وعندما كان تلميذاً فى فرقة المنشدين فى موطنه هينوت سحر سامعيه ، إلى حد أن خطفه مرتين أولئك الذين تمنوا أن يستفيدوا من صوته ، وأخيراً ، وهو فى سن الخامسة عشرة (١٥٤٥ ؟) ؛ سمح أبواه لفرديناند جونزاجا أن يصحبه معه إلى إيطاليا : وفى سن الرابعة والعشرين أصبح رئيس فرقة المنشدين فى كنيسة سانت جون لاتيران فى رومه . وفى ١٥٥٥ استقر به المقام فى أنتورب ، ونشر أول كتاب فى القصائد الغزلية الإيطالية » ، وهى قصائد غنائية علمانية أضفى عليها كل

زخارف فن مزج الألحان الفلمنكي . وفى نفس العام أصدر مجموعة من أغان من أصل نابوليتانى (من مدينة نابلى) ومن الأغانى الفرنسية ، وأربع قصائد دينية قصيرة ، ولقد عكست هذه المجموعة التقلب المتسم بالحكمة فى حياة دى لاسو ، بين المتعة الدنيوية والقوة الشجية ، وإنا لنجد لمحة عن بيئته فى أنتورب فى إهدائه إحدى قصائده إلى الكاردينال بول ، وأخرى إلى الكاردينال جرانفيل وزير فيليب الثانى فى الأراضى المنخفضة . وربما كان جرانفيل هو الذى هيأ للملحن الشاب العمل فى إدارة فرقة المنشدين للدوق فى ميونخ (١٥٥٦) . وأحب أورلاندو بافاريا قدر حبه إيطاليا ، واتخذ له زوجة من أحد البلدين ، كما اتخذ اسمه من البلد الآخر ، وعمل لدى أدواق بافاريا حتى الممات .

وضاعف أورلاندو السعيد ، موزار القرن السادس عشر ، الألحان الستمائة والستة والعشرين التى ألفها نظيره ، ودرس سلم النغم فى كل الأشكال الموسيقية السائدة ، وأحرز فى كل منها شهرة فائقة فى كل أنحاء أوربا ، وبدا أنه على نفس القدر من المعرفة والبراعة فى غزليات الحب النقى ، وأغانى الحب الطائش ، وقداسات الورع الصوفى . وعين فى ١٥٦٣ رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة ، وألف آنذاك لألبرت الخامس لحناً موسيقياً لمزامير التوبة السبعة ، وأعجب الدوق بهذه الموسيقى حتى أنه كلف الفنانين بتسجيلها على الورق « البرشمان » وزخرفتها بالمنمنمات ، وتجليدها بجلد الماعز الأحمر الفاخر فى مجلدين من القطع الكبير ، محفوظين الآن ضمن أثمن مقتنيات مكتبة الدولة فى مدينة ميونيخ المحبة للفنون .

واجتذبت أوربا كلها النجم الجديد ، وعندما زار دى لاسو باريس (١٥٧١) عرض عليه شارل التاسع ١٢٠٠ جنيه سنوياً (٣٠,٠٠٠ دولار ؟) سنوياً ، ليبقى عنده ، فرفض ، ولكنه أهدى شارل وكاترين دى مديتشى

كتاباً في الأغاني الفرنسية ، يقول عنه برانتوم إنه من أعذب ما سمعت باريس ، وقد روت إحدى الأغنيات مناقب العاصمة الفرنسية في حبها للعدالة والسلام - وكان هذا قبل مذبحة سانت برثلميو بعام واحد . ولما عاد دي لاسو إلى ميونيخ أهدى إلى آل « uggers » مجموعة من القصائد اللاتينية القصيرة والغزليات الإيطالية والأغاني الألمانية والأغاني الفرنسية ، إن هذا الملحن لم يكن صعلوكاً رومانتيكياً ، بل كان خبيراً بأساليب الحياة في الدنيا . وفي عام ١٥٧٤ سافر إلى رومه على نفقة الدوق ألبرت ، وأهدى جريجوري الثالث عشر مجلداً من القداسات ، وتسلم منه « وسام المهماز الذهبي » بل إن الله خص أعمال دي لاسو بأعظم التقدير ، ذلك أنه في يوم عيد الجسد (١٥٨٤) هبت عاصفة هوجاء هددت بإلغاء الموكب الديني الذي اعتاد اجتياز شوارع ميونيخ ، وعندما عزفت فرقة المنشدين مقطوعة أورلاندو « تأمل وانظر كيف أن الله كريم » ، انقطع المطر وأشرقت الشمس . وفي مثل هذا اليوم ، فيما بعد ، كانت تلك المقطوعة تعزف ، لتضمن سماحة السموات .

وفي ١٥٨٥ عندما كبرت سن دي لاسو ، وثاب إلى التوبة ، نشر « كتابه الخامس في الغزليات » الذي طبق فيه الشكل على الموضـــوعات الروحية ، وهي من أعظم ألحانه إثارة للمشاعر . وبعد ذلك بخمس سنوات ، انتاب عقله وغاب عنه وعيه ، فلم يعد يعرف زوجته . وكاد لا يتحدث في شيء إلا الموت ، ويوم الحساب الأخير ، وزيادة الراتب : وحظي بهذه الزيادة ، ومات (١٥٩٤) فائزاً ظافراً مخبولا .

٣ - الموسيقى والإصلاح الديني

كان الإصلاح الديني ثورة في الموسيقى ، قدر ما كان ثورة في اللاهوت والطقوس وعلم الأخلاق والفن : لقد كانت الطقوس الكاثوليكية

أرستقراطية ، أو شعائر فخمة متأصلة فى تقاليد منيعة لا تنتهك حرمتها ، متعالية تعالياً صريحاً عن الشعب ، فى اللغة والملابس والرموز والموسيقى ؟ وبهذه الروح ، عرّف رجال الدين أنفسهم بأنهم الكنيسة ، وذهبوا إلى أن الناس قطيع يساق إلى حسن الخلق والخلاص بالخرافات والأساطير والعظات والمسرحيات وكل الفنون . وبهذه الروح كان القداس سراً خفياً مقصوراً فهمه على فئة قليلة ، واتصالا خارقاً بين الكاهن والرب . وكان الكاهن يرتل القداس ، ومعه فرقة المنشدين من الذكور ، منعزلة عن المصلين . ولكن فى الإصلاح الدينى فرضت الطبقات الوسطى وجودها وحقوقها ، وأصبح الشعب هو الكنيسة ، ورجال الدين ممثليه ، والقداس باللغة الوطنية ، وكان لا بد أن تكون الموسيقى واضحة مفهومة ، يمكن أن تقوم فيها جماعة المصلين بدور فعال ، أصبح فى آخر الأمر قيادياً ؟

وأحب لوثر الموسيقى ، وقدر فن تعدد الأصوات والطباق الموسيقى ، وفى ١٥٣٨ كتب متحمساً يقول :

« إذا شحذ الفن الموسيقى الطبيعية وصقلها يبدأ الإنسان يدرك فى عجب ودهشة حكمة الله العظيمة البالغة حد الكمال ، فى موسيقاه الرائعة ، حيث يقوم صوت واحد بدور بسيط ، ويغنى حوله ثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات أخرى ، تثب وتنطلق هنا وهناك ، تزين الدور البسيط ، وكأنها رقصة تربيعية فى السماء إن هذا الذى لا يجد فى هذا معجزة تفوق الوصف من عند الله ، ليس إلا غبياً حقيراً لا يستحق أن يعتبر إنساناً »(١٠) .

وكان لوثر فى نفس الوقت تواقاً إلى موسيقى دينية يمكن أن تحرك مشاعر الناس ، بالتحام الإيمان بالغناء عن طريق الموسيقى : وفى ١٥٢٤ تعاون مع جوهان والتر ، رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة لدى الأمير

فردريك الحكيم لإنتاج أولى التراتيل البروتستانتية التى وسمت وأدخل عليها تحسينات كثيرة فى الطبعات المتعددة . وكان جزء من كلماتها مأخوذا من الترانيم الكاثوليكية ، وجزء آخر مقتبساً من أغانى رئيس فرقة المنشدين ، وجزء ثالث مكتوباً بقلم لوثر الشاعرى تقريبا ، وجزء آخر مأخوذاً من الأغانى الشعبية بعد نقلها إلى موضوعات دينية . ويقول لوثر « ليس للشيطان حق فى كل الألحان الجيدة »[11] . وألف لوثر بعض الموسيقى ، وألف والتر جزءاً آخر ، واقتبس قسم ثالث من المقطوعات الكاثوليكية المعروفة آنذاك ، واستمرت الكنائس اللوثرية لمدة قرن تقريبا ، تدخل القداسات المتعددة الأصوات فى طقوسها ، ولكن حلت اللغة الوطنية محل اللاتينية شيئا فشيئا ، ونقص دور القداس ، وزاد غناء المصلين ، وانتقلت أغانى فرقة المنشدين من الطباق إلى شكل إيقاعى متناسق أيسر ، سعت فيه الموسيقى إلى متابعة الكلمات وتفسيرها ، ومن موسيقى فرقة المنشدين التى ألفها لوثر ومعاونوه لمصاحبة تلاوة قصص الإنجيل ، جاءت الموسيقى العظيمة فى الكنيسة البروتستانتية فى القرن الثامن عشر ، وبلغت الذروة فى موشحات هاندل وقداساته وموشحات جوهان سباستيان باخ وتراتيله .

ولم يكن كل مؤسسى البروتستانتية يحبون الموسيقى مثلما أحبها لوثر ، فإن زونجلى ، ولو أنه هو نفسه موسيقار ، استبعد الموسيقى كلية من الصلوات الدينية ، وحرم كلفن كل الموسيقى الكنسية ، فيما عدا غناء المصلين المتساوى النغمات . ولكنه أباح الغناء الطباقى المتعدد الأصوات فى البيت ، فاستمد أتباعه الهيجونوت فى فرنسا جزءاً من قوتهم وشجاعتهم من إنشاد المزامير والترانيم على أنغام الموسيقى بأصوات متعددة . ولما ترجم كليمنت مارو المزامير إلى اللغة الفرنسية شعراً ، أعجب بها كلفن إلى حد أنه تجاوز عن المقطوعات الطباقية التى وضعها كلود جوديمل ، وقد أضفت حقيقة أن هذا الملحن البروتستانتى لقى حتفه فى مذبحة سانت برتلميو ،

مزيداً من القدسية على كتاب مزاميره المقدس . وبعد مارو بعام ، لم يخف أسقف كاثوليكى حسده للدور الذى كانت قد لعبته هذه الترجمات والمقطوعات فى الإصلاح الدينى الفرنسى : « وكان حفظ المزامير عن ظهر قلب ، لدى الهيجونوت سمة الطائفة التى ينتمون إليها ، وفى المدن التى يكثر عديدهم فيها ، يمكن أن تسمع النغمات المنبعثة من أفواه العمال ، و من القرى من أفواه الكادحين الذين يفلحون الأرض[١٢] » . لقد ميزت الصبغة الديمقراطية التى صبغت بها الموسيقى الدينية البلاد التى عم فيها الإصلاح الدينى حيث سترت هذه الصبغة الديموقراطية قتام العقيدة ببهجة الموسيقى التى تسرى عن النفس .

٤ ـ بالسترينا : ١٥٢٦ ـ ١٥٩٤

ظلت الكنيسة الكاثوليكية الراعى الرئيسى للموسيقى مثل غيرها من الفنون ، وتقدمت الموسيقى الكاثوليكية ، شمال جبال الألب ، على الأسس التى وضعتها المدرسة الفلمنكية ، وثبت هذا التقليد إيزاك فى النمسا ودى لاسو فى بافاريا . ووجه لوثر فى ١٥٥٠ خطاباً من أكرم خطاباته إلى لودفيج سنفل يحييه فيه ويطرى موسيقاه التى كان يؤلفها فى ميونيخ ، ويثنى على الأدواق الكاثوليك هناك لأنهم « يرعون الموسيقى ويجلونها »[١٣] .

وكان فريق المنشدين . كنيسة سستين هو النموذج الذى احتذاه الملوك والأمراء فى تأسيس كنائسهم طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وحتى بين البروتستانت كان أروع شكل للتأليف الموسيقى هو القداس . وكانت فرقة المنشدين البابوية هى التى تقوم بالقداس فى أروع أشكاله . وكان أعظم ما يطمع فيه أى مغن هو أن يلتحق بهذه الفرقة ، التى كانت لذلك قادرة على أن تضم إليها أحسن أصوات الذكور فى أوربا الغربية .

وكان الكاسترّاتى ، الذين كانوا يسمون آنذاك « الخصيان » — أول من أدخلوا إلى فرقة سستين ، حوالى ١٥٥٠ ، وسرعان ما ظهر بعد ذلك غيرهم فى البلاط البافارى ، وكانوا يخصون الأولاد بموافقتهم ، وكانوا يغرونهم بأن أصواتهم العذبة الندية ستكون أكبر نعمة وتعويض لهم عن الإنجاب والإخصاب — تلك ميزة وحشية كانت فى متناول كل من يطلبها بصفة عامة .

وكانت الكنيسة — مثل أى نظام قديم معقد ، لا بد أن يخسر كثيراً بأية بدعة غير موفقة — كانت تتسم بروح المحافظة فى الطقوس والشعائر ، حتى أكثر منها فيما يتعلق بالعقيدة . أما المؤلفون فكانوا على النقيض من ذلك ، يضيقون ذرعاً بالأساليب القديمة ، كما كانوا كذلك فى كل العصور ، وكان التجريب فى نظرهم هو حياة فنهم : وكافحت الكنيسة فى كل هذه القرون ، لمنع التكلف فى الفنون الجديدة ، ورقة الطباق الفلمنكى ، من أن يضعفا وقار القداس الكبير وعظمته : وفى سنة ١٣٢٢ أصدر البابا جون الثانى والعشرين قراراً صارماً ضد البدع الموسيقية والزخرفة ، وأمر بأن تلتزم موسيقى القداس بالأغنية البسيطة الوحيدة ، أى الأغنية الجريجورية ، كأساس لها ، ولا تبيح إلا التناغم الذى يمكن أن يكون مفهوماً للمصلين ، ويعمق التقوى فى نفوسهم أكثر مما يلهيهم عنها : وظل الأمر مطاعاً لمدة قرن من الزمان ، ثم جاءت المراوغة فى تنفيذه من أن بعض المنشدين كانوا ينشدون الجهير (الصوت العميق الخفيض) أعلى من المكتوب بجواب واحد . وأصبح هذا الجهير الزائف هو الخدعة المفضلة فى فرنسا : وظهرت التعقيدات من جديد فى موسيقى القداس ، وبدأ إنشاد خمسة أو ستة أو ثمانية أجزاء بالفوجه والطباق ، جرت فيها كلمات الطقوس الدينية الواحدة عقب الأخرى فى فوضى احترافية ، أو غرقت فى زخارف موسيقية وضعها المغنون وفق أهوائهم : وأدى تكييف أنغام شعبية للقداس ، حتى إلى إقحام كلمات بذيئة على النص المقدس . واتفق أن عرفت بعض القداسات بمصادرها العلمانية مثل قداس

« وداعاً يا أحبائى » أو قداس « فى ظل الشجرة »[١٤] : واستاء إرزم المتحرر نفسه من زيف « فن القداس » حتى أنه احتج على ذلك فى ملاحظة دونها فى طبعته التى نشرها « للعهد الجديد » :

إن الموسيقى الكلسية الحديثة ألفت بحيث لا يستطيع أحد من جماعة المصلين أن يتبين كلمة واحدة متميزة . إن المنشدين أنفسهم لا يفهمون ما ينشدون . . . لم يكن ثمة موسيقى (كلسية) أيام القديس بولص ، حيث كانت الكلمات تنطق بوضوح : إن الكلمات اليوم لا تعنى شيئاً . إن الناس يذرون أعمالهم ويقصدون إلى الكنيسة ليستمعوا إلى جلبة وضجيج لم يكن لهم بهما عهد فى المسارح اليونانية والرومانية . ينبغى أن تسك النقود لشراء الأراغين وتدريب الأولاد على إطلاق الصيحات والصرخات[١٥] ؛

واتفقت جماعة الإصلاح فى الكنيسة مع إرزم فى هذه المسألة : فمنع جيبرتى أسقف فيرونا استعمال أغانى الحب أو الألحان الشعبية فى أبرشيته ، كما حرم مورون أسقف مودينا كل الموسيقى « المصورة » أى المزخرفة بكل تفاصيل الإثارات والأفكار الرئيسية . وحث المصلحون الكاثوليك فى مجلس ترنت على استبعاد كل الموسيقى المتعددة الأصوات من كل حفلات الكنيسة ، وعلى العودة إلى الإنشاد الجريجورى ذى الصوت الواحد ، ولكن ربما كان من الممكن أن يساعد ميل البابا بيوس الرابع إلى قداسات بالسترينا ، على إنقاذ « تعدد الأصوات » فى الكنيسة الكاثوليكية .

لقد اشتق جيوفنى لويجى بالسترينا اسمه من اسم مدينة صغيرة فى الريف الرومانى كانت قد دخلت التاريخ فى العصور القديمة تحت اسم « برانستى » ؛ وإنا لنجده فى ١٥٣٧ ، وهو إذ ذاك فى الحادية عشرة من عمره ، بين تلاميذ فرقة المنشدين فى سانتا ماريا مجيورى فى رومه ، ولم يكن قد بلغ

الحادية والعشرين حين عين رئيساً للفرقة فى كاتدرائية مسقط رأسه . فلما توطد مركزه على هذا النحو ، تزوج من لوكريشيا دى جوريس ، وكانت على شيء من اليسار ، وعند ما تقلد أسقف بالسترينا منصب البابوية تحت اسم جوليوس الثالث ، اصطحب معه رئيس فرقته إلى رومه ، وعينه رئيس معبد جوليا فى كنيسة القديس بطرس ، الذى كان يتدرب فيه المنشدون لكنيسة سستين . وأهدى الملحن الشاب إلى البابا الجديد أول كتاب له فى « القداسات » (١٥٥٤) عرض أحدها معزوفة ثلاثية الألحان بمصاحبة ملشد واحد لأغنية بسيطة ، وأحب البابا هذه القداسات إلى حد أنه منح بالسترينا عضوية فرقة المنشدين فى كنيسة سستين ، وبدا موقف جيوفنى شـــاذاً ، بوصفه رجلا متزوجاً ، وسط هذه الجماعة التى كان أفرادها مترهبين عادة ، مما أثار بعض المعارضة . وكان بالسترينا على وشك أن يهدى البابا كتاباً فى الغزليات ، لولا أن جوليوس عاجله الموت (١٥٥٥) .

ولم يعمر مارسلس الثانى أكثر من ثلاثة أسابيع بعد ارتقائه عرش البابوية . وأهدى الملحن إلى ذكراه (١٥٥٥) مقطوعته الشهيرة « قداس البابا مارسلس » التى لم تنشر ، أو هكذا كانت تسمى حتى ١٥٦٧ : وطرد البابا بول الرابع ذو المبادئ البيوريتانية الجامدة الثلاثة الأعضاء المتزوجين فى فرقة ملشدى سستين ، وخصص لكل منهم معاشاً ضئيلا . وما لبث بالسترينا أن عين رئيساً لفرقة المنشدين فى كنيسة سان جون لاتيران ، ولكن هذه الوظيفة ، ولو أنها سدت رمقه ، لم توفر له نفقات نشر تآليفه الموسيقية : وعاد العطف البابوى يظلله بارتقاء بيوس الرابع عرش البابوية (١٥٥٩) . وتأثر بيوس أيما تأثر بمقطوعة **Improperia** التى أعدها بسالترينا لاحتفال « الجمعة الحزينة » ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المقطوعة جزءاً لا يتجزأ من الطقوس فى كنيسة سستين ، وظل زواج

بالسترينا يحول بينه وبين فرقة سستين ، ولكن ارتفع شأنه بتعيينه (١٥٦١) رئيساً لفرقة سانتا ماريا مجيورى :

وبعد ذلك بعام واحد بحث مجلس ترنت الذى انعقد ثانية ، مشكلة تنظيم الموسيقى الكنسية ، لتتسق مع روح الإصلاح الجديدة : ورفض الاقتراح القائل بمنع « تعدد الأصوات » منعاً باتاً : وأقر حل وسط يحث السلطات الدينية « على أن تستبعد من الكنائس كل موسيقى ... تقدم شيئاً من الدنس أو الفجور ، حتى يظل بيت الله مشهوداً له بأنه بيت التعبد والصلاة[*] ، وعين بيوس الرابع لجنة قوامها ثمانية من الكاردينالات لتنفيذ هذا القرار فى أبرشية رومه . وتروى قصة لطيفة أن اللجنة كانت على وشك تحريم الموسيقى المتعددة الأصوات ، حيث توسل أحد الأعضاء وهو الكاردينال شارل بوروميو ، إلى بالسترينا أن يؤلف قداساً يمكن أن يظهر الانسجام الكامل بين تعدد الأصوات والتقى والتدين ، واستجابه بالسترينا وألف ، وأنشدت الفرقة ثلاثة قداسات أمام اللجنة ، أحدها « قداس البابا مرسلس » . ولم ينقذ « تعدد الأصوات » من الحكم عليه بالفناء إلا الاتحاد الوثيق بين السمو الدينى والبراعة الفنية المهذبة فى الموسيقى فى هذه القـــداسات . على أن قداس البابا مرسلس كان قد مضى على تأليفه آنذاك عشر سنوات . ومهما يكن من أمر فإن العلاقة الوحيدة المعروفة بين بالسترينا وهذه اللجنة ، هى أنها زادت من راتبه[١٦] : على أننا مع ذلك قد نؤمن بأن الموسيقى التى كان بالسترينا قد قدمها فى فرق روما ، بفضل إخلاصها للكلمات ، وتجنبها للمثيرات الدنيوية وإخضاعها الفن الموسيقى للمقاصد الدينية ، قد لعبت دوراً كبيراً فى توجيه اللجنة إلى إجازة الموسيقى المتعددة الأصوات[١٧] : وثمة حجة أخرى تضاف تأييداً « لتعدد الأصوات » تلك هى أن تآليف بالسترينا الدينية استغنت ، بشكل طبيعى ،

(*) أحس بيوس العاشر (١٩٠٣) ، وبيوس الثانى عشر (١٩٥٥) أنه من الضرورى تكرار هذه التعليمات .

عن « زخارف الآلات » ، وكانت مكتوبة دائماً تقريباً بالأسلوب الكنسى ؛ أى الأصوات فقط .

وفى ١٥٧١ أعيد تعيين بالسترينا رئيساً لفرقة كنيسة جوليا ، وبقى فى هذا المركز حتى موته ؛ وفى نفس الوقت كان إنتاجه غزيراً بلا حدود بلغ فى جملته ٩٣ قداساً ، و٤٢٦ ترنيمة تجاوبية ، وتقدمه للذبيحة الإلهية ، وأغنية دينية ومزموراً وعدداً كبيراً من الغزليات ؛ وكان بعض هذه مبنياً على موضوعات علمانية . ولكن بالسترينا لما تقدمت به السنون ، حول حتى هذا الشكل إلى أغراض دينية . وتضمن « كتابه الأول فى الغزليات الروحية » (١٥٨١) بعضاً من أجمل مقطوعاته . وربما لونت المآسى الشخصية موسيقاه أو شوهتها ، فقد توفى ابنه أنجلو فى ١٥٧٦ ، تاركاً فى رعايته حفيدين عزيزين ، ماتا بعد ذلك بسنوات قليلة . وتوفى ابن آخر له حوالى ١٥٧٩ . ولكن موت زوجته فى ١٥٨٠ دفعه إلى التفكير فى أن يترهب . على أنه تزوج ثانية فى بحر سنة واحدة .

إن وفرة إنتاج بالسترينا ونوعيته المذهلتين رفعتاه إلى مرتبة الزعامة على الموسيقى الإيطالية ، إن لم تكن الأوربية بأسرها ؛ إن وضعه نشيد الإنشاد Song of Solomon فى تسع وعشرين قصيدة دينية (١٥٨٤) ، و « مراثى أرمياء » ١٥٨٨ ، و Stabat Mater and Magificat ١٥٩٠ ، ثبتت شهرته وقوته الصامدة . وفى ١٥٩٢ اشترك منافسوه الإيطاليون فى إهدائه « مجموعة من مزامير المساء » ، وكرموه بأنه « الأب المشترك لكل الموسيقيين » . وفى أول يناير ١٥٩٤ أهدى كريستينا دوقة تسكانيا العظيمة « الكتاب الثانى من الغزليات الروحية » التى جمع فيها ثانية بين الإخلاص الدينى والبراعة الموسيقية ؛ وبعد ذلك بشهر واحد قضى نحبه وهو فى التاسعة والستين من العمر ، ونقش على قبره تحت اسمه « أمير الموسيقى » ؛

ويلبغى ألا نتوقع أن نقدر بالسترينا اليوم حق قدره ، إلا إذا كانت

نفوسنا نحن متشبعة بالروح الدينية . وإننا لنسمع اليوم موسيقاه فى وضعها السليم بوصفها جزءاً من طقوس مهيبة ، وحتى فى هذه الطقوس قد تتركنا جوانبنا الفنية مشدوهين أكثر منا متأثرين . وبالمعنى الحرفى ، أى فى واقع الأمر ، إن الوضع الصحيح لا يمكن أن يعود أبداً ، لأن موسيقى بالسترينا كانت موسيقى الإصلاح الكاثوليكى ، فهى النغمة الكئيبة للنكسة الصارمة ضد الابتهاج الحسى فى النهضة الوثنية ، أو قل هى ميكلأنجلو باقياً على قيد الحياة بعد رافائيل ، أو بول الرابع يحل محل ليو العاشر ، أو ليولا يحل مكان بمبو ، أو كلفن يخلف لوثر . إن ترجيحاتنا المعاصرة ليست إلا معياراً عابراً غير معصوم من الخطأ ، وذوق الفرد — وخاصة إذا أعوزته القدرة الفنية والتصرف والإحساس بالخطيئة — إنما هو أساس واه نقيم عليه مقياساً للحكم فى الموسيقى واللاهوت . ولكن نستطيع أن نتفق جميعاً على أن بالسترينا ، بلغ بفن « تعدد الأصوات » الدينى درجة الكمال ، فى عصره . وأنه ، مثل معظم كبار الفنانين ، وقف على قمة حد من التطور فى الإحساس والتقنية ، وتسلم تقاليداً فأتمه وأكمله ، لقد ارتضى النظام ، وعن طريقه زود موسيقاه بتركيب وبنية ، أو رسوخاً معمارياً فى وجه أعاصير التغيير الهوجاء . ومن يدرى ، فربما جاء عصر ليس ببعيد ، أرهقته أصوات الأوركسترا العالية الطنانة ورومانسيات الأوبرا — ليجد فى موسيقى مثل موسيقى بالسترينا عمقاً فى الإحساس ، وانسياباً عميقاً هادئاً فى الألحان ، يصلحان بطريقة أفضل للتعبير عن النفس الإنسانية المتطهرة من غرور العقل والقوة ، رابضة مرة ثانية ، فى تواضع وخشوع وخشية ، أمام الوجود الأبدى الغامر الذى يطبق عليها ؟

المراجع

NOTES

CHAPTER XXIX

1. Waliszewski, *Ivan the Terrible*, 95.
2. Rambaud, *Hy of Russia*, I, 286.
3. Waliszewski, *Ivan*, 68.
4. Eckhardt, Russia, 29.
5. Réau, *L'art russe*, I, 244.
6. Kluchevsky, *Hy of Russia*, 275.
7. Pokrovsky, *Hy of Russia*, 104.
8. Vernadseky, *Hy of Russia*, 55.
9. Rambaud, I, 253.
10. Kluchevsky, I, 75, 95.
11. Pokrovsky, 144.
12. Rambaud, I, 266; Waliszewski, *Ivan*, 267.
13. Ibid., 268, 272.
14. Pokrovsky, 157.
15. Waliszewski, 258.
16. Rambaud, I, 300.
17. Réau, I, 272.
18. Waliszewski, 374.
19. Roeder, *Catherine de' Medici*, 495.
20. Waliszewski, 381.

CHAPTER XXX

1. Browne, E. G., *Literary Hy of Persia*, III, 43.
2. Lamb, H., *Tamerlane*, 293.
3. Clavijo, *Embassy to Tamerlane*, 153.
4. *Bulletin of the American Institute for Iranian Art, June*, 1938, 248-52.
5. Arnold, M, W., *Painting in Islam*, 93.
6. Browne, III, 289.
7. Ibid., 277.
8. Hafiz, tr. Streit, 80.
9. In Gottheil, ed., *Literature of Persia*, I, 408.
10. Hafiz, tr. Streit, stanzas 10, 11, 19, 21, 49.
11. Bell, G., *Poems from the Divan of Hafiz*, xxiii.
12. Ouseley, G., *Biographical Notices of Persian Poets*, 23 f.
13. In Grousset, R., *Civilizations of the East*, I, 338-9.
14. Hafiz, tr. Streit, 65.
15. Ibid., stanza 38.
16. Bell, stanza xliii.
17. Clavijo, 181.
18. Ibid., 137.
19. Browne, III, 185. Some assign Timur's lameness to a later period; so Clavijo, 210, and Sykes, P., *History of Persia*, II, 121.
20. Timur, *Mulfuzat*, v, 26.
21. Browne, III, 186.
22. Ibid., 178; Lamb, 150.
23. Browne, III, 189.
24. Ibid., 190.
25. Clavijo, 132.
26. Ibid., 151, 278.

27. Ibid., 249.
28. Pope, A, U,, *Masterpieces of Persian Art*, 149.
29. Dawlatshah in Browne, III, 501.
30. Ibn Khaldun, *Les Prolegomènes*, I, p, lxxii,
31. Lane-Poole, S., *Cairo*, 50.
32. Gibbons, H, A., *Foundation of the Ottoman Empire*, 150.
33. Freissart, J., *Chronicles*, iv, 90.
34 Lane-Poole, S., *Story of Tutkey*, 97.
35. *Cambridge Modern History*, IV, 705.
36. Vambery, A,, *Story of Hungary*, 282.
37. Gibb, E., J., *Ottoman Literature*, 3.
38. Ibid., 209 f.
39. Browne, III, 455.
40. *Jami, Mulla Nuru d-Din*, tr, E. Fitzgerald, 69.
41. Pope. *Masterpieces*, 146.
42. Davise, F, H., *Persian Mystics : Jami*, 71.
43. Clavijo, 153.
44. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'ort musulmane*, I, 357.
45. Cf. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, IV, 428 f.
46. Ibid., III, 1324.
47. Sykes, II, 155.
48. In Dimand, M, S., *Handbook of Muhommadan Art*, 42.
49. Arnold, T., and Guillaume, A., *Legacy, of Islam*, 96.
50. Ibn Battuta, M., *Travels*, tr. H. A., Gibb, 148.
51. Ibid., 57.
52. Sarton, G., *Introd, to the History of Science*, II-2, 1100.
53. Arnold, *Legacy of Islam*, 340.
54. Ibn Khaldun, *Prolegomènes*, I, p. xxx.
55. Ibid., lxxiii.
56. Ibid., 4.
57. 71.
58. 12.
59. 67.
60. Boer, T., *History of Philosophy in l' Islam*, 203.
61. Ibid., 205.
62. De Vaux, C., *Les penseurs de'l'Islam*, I, 288.
63. Ibn Khaldun, I, 175.
64. Ibid., 176 f.
65. 170 f.
66. Ibid., Introd., xxxii.
67. Ibid., 95.
68. Introd., xxxii.
69. Ibid,, 324.
70. Ibid., III, 44.
71. I, 303.
72. I, 345; III, 300-5.
73. I, 333, 354.
74. III, 227, 233, 240.
75. III, 115-20, 184, 188; I, 218.
76. De Vaux, I, 282.
77. Ibn Khaldun, III, 249; I, 347.
78. III, 456.
79. III, 125.
80. Issawi, C., *An Arab Philosophy of History*, 21.
81. Toynbee, A., *A Study of History*, III, 321.
82. Sarton, III-2, 1770.

CHAPTER XXXI

1. *Cambridge Mod, Hy*, III, 112.
2. Sykes, II, 164; Browne, IV, 21.
3. Browne, IV, 62.
4. Ibid., 51.
5. Hughes, T. P., *Dictionary of Islam*, 572.
6. Doughty, Chas., *Arabia Deserta*, I, 59.
7. Sykes, II, 163.
8. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 224.
9. Browne, IV, 93.
10. Sykes, II, 168-9.
11. Dimand, M. S., *Guide to an Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 34.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exbibition of Early Oriental Carpets*, 39.
13. Merriman, R. B , *Suleiman the Magnificent*, 33.
14. Ibid., 190.
15. *Camb. Mod. Hy*, I. 92.
16. Guicciardini, F., *History of the Wars in Italy*, VIII, 12; Schevill, F., *History of the Balkan Peninsula*, 217; *Camb. Mod.* Hy I, 93.
17. Merriman, 60.
18. Ibid., 61.
19. Bury, J, B., in *Camb, Mod*, Hy, I, 93.
20. Merriman, 72.
21. *Camb, Mod.* Hy, 94-5.
22. Ibid., 95,
23. Ranke, L. von, *History of the Reformation in Germany*, 579.
24. Merriman, 124.
25. Ibid., 141-2.
26. *Camb, Mod*, Hy, III, 123.
27. Gibbons, *Foundation of the Ottoman Empire*, 81; Schevill, 240.
28. Schevill, 233.
29. Merriman, 171.
30. Bury in *Camb, Mod, Hy*, I, 101.
31. Merriman, 202.
32. Ibid., 165.
33. *Camb, Mod*, Hy, I, 101.
34. Creasy E, S., *History of the Ottoman Turks*, 113; Merriman, 148.
35. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, II 367.
36. Schevill, 238.
37. Creasy, 109.
38. Lane-Poole, S., *Saladin*, 36.
39. Hitti, P, K, *History of the Arabs*, 19.
40. Merriman, 203.
41. Gibbons, 74; Creasy, 106.
42. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, ed Robertson, 749.
43. Creasy, 113.
44. Gibb, *Ottoman Literature*, 233.
45. *Camb, Mod, Hy*, VI, 420.
46. Creasy, 108.
47. Ibid., 109.
48. Gibb, 123-8.
49. Luther, *To tbe Christian Nobility*, in *Works*, II, 149.
50. Froude, J, A., *Tbe Reign of Henry VIII*, II, 184n.
51. Lang. A., *History of Scotland*, II, 78.

52. Gibb, 218.
53. Merriman, 185-93; Robertson, *Charles V*, II, 365-73

CHAPTER XXXII

1. Percy, Thos., *Reliques of Ancient English Poetry*, II, 116; Jewish Encyc, XII, 462.
2. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 395-7,
3. Graetz, H., *History of the Jews*, IV, 272.
4. Erasmus, Letter to Capito, March, 13, 1518.
5. Graetz, IV, 296; Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 198-9.
6. Abott, 203.
7. Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 58 f.
8. Sarton, *Introduction to the History of Science*, III-1, 57.
9. Graetz, IV, 220.
10. Ibid., 407.
11. Pasror, L., *History of the Popes*, VIII, 444.
12, Id., X, 372.
13. Roth, C., in Finkelsetein, L., ed., *The Jews*, 239.
14. Waxman, M., *History of Jewish Literature*, II, 66.
15. Roth, C., *The Jewish Contribution to Civilization*, 92.
16. Thompseo, J, W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 30.
17. Newman, L, J., *Jewish Influence in Christian Reform Movements*, 436-50.
18. Dubnow, S. M, *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 61
19. Ibid, 85-7.
20. Abrahams, Israel, *Jewish Life in the Middle Ages*, 403.
21, Newman, 483.
22. Ibid., 473.
23. Graetz, IV, 549 51.
24. Finkelstein, 241.
25. Coulton, G., *Medieval Panorama*, 185.
26. Sarton, III-2, 1059.
27. Coulton, G, G., *From St. Francis to Dante*, 110.
28. Janssen, J, *History of the German People at the Middle Ages*, II, 73.
29. Roth, *Jewish Contribution* 25.
30. Graetz, IV, 286.
31. Ibid., 245.
32. Cf, e.g., Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 147.
33. Graetz, IV, 253.
34. Ibid, 55-7; Baron, II, 29.
35. Monmarché, M, ed., *Châteaux of the Loire*, 190.
36. Graetz, IV, 98.
37. Lea, *Inquisition in Spain*, I, 101; Abbott, 103; Graetz, 103.
38. Ibid, 101.
39. Abrahams, *Jewisb Life*, 331.
40. Marcus, 44.
41. *Cambridge Medieval History*, VII, 657.
42. Baron, II, 29.
43. Lea, *Inquisition in the Middle Ages*, II, 379.
44. Graetz, 109.10.

45. Thompson, *Economic and Social History*, 214.
46. Kastein, J., *History and Destiny of the Jews*, 321.
47. Janssen, II, 78.
48. Ibid, 76.
49. Jew, Encyc, III, 554.
50. Graetz, 302-7.
51. Ibid., 513.
52. Ibid , 515.
53. Ibid., 520-1.
54. Ibid., 523,
55. Prescott, W, H., *History of the Reign of Ferdinand and Isabella*, I, 517 ; Abbott, 191.
56. Burckhardt, J., *Civilization of the Renaissance in Italy*, 488.
57. Sombart, W., *The Jews and Modren Capitalism*, 17.
58. Finkelstein, 240.
59. Roth, *Jewish Contribution*, 210.
60. Graetz, 500.
61. Ibid., 515
62. Ibid., 525-7.
63. Ibid., 567. Pator, XIV, 271.4.
64. Abbott, 103 ; Abarhams, *Jewish Life*, 67.
65. Pastor, XIV, 274.
66. Abbott, 204; Robertson, W., *History of the Reign of Charles V*, I, 206-7.
67. Pastor, l.c.
68. Graetz, 361-2.
69. Ibid.,
70. Ibid., 356.
71. Robertson, W, *Charles V*, I, 207.
72. Burton, R, F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 65.
73. Graetz, III, 511,
74. Durant, W., *Age of Faith*, 374.
75. Finkelstein, 229.
76. Abrahams, *Jewish Life*, 160.
77. Abbott, 202.
78. Marcus, 170 f.
79. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 226.
80. Waxman, II, 258.
81. Jew, Encyc, XII 404.
82. Baron, II, 132.
83 Husik, I, *History of Medieval Jewish Philosophy*, 360 ; Waxman, 256.
84. Jew, Encyc., VIII, 29.
85. Baron, 85.

CHAPTER XXXIII

1. Mattingly, G., *Catherine of Aragon*, 109.
2. Agricola, *De re metallica*, 99, 100.
3. Ibid., xiii, 46-7, 52.
4. Usher, 274.
5. Toynbee, A., *A Study of History*, IX, 365-6.
6. Erasmus, "Diversoria", in *Colloquies*, I, 288 f.
7. *Merchant of Venice* III, iv, 271.
8. Smith, *Reformation*, 473.
9. Froude, *Edward VI*, 41-2; Marx, *Capital*, 808.
10. Smith, *Reformation*, 554-5,
11. Ibid , 469.
12. Thomas Aquinas, *Summa theologica*, II, IIae, lxvi, 7 ; cxviii, 1.
13 Lacroix, *Manners, Customs and Dress during the Middle Ages*, 479.

14. *Camb Mod Hy*, II, 436.
15. Kesten, *Copernicus*, 33.
16. Coulton, *Medieval Village*, 338.
17. Lecky, *Rationalism*, II, 113.
18. Hackett, *Francis, I*, 406.
19. Smith, *Reformation*, 483.
20. Beard, *Luther*, 126.
21 Froude, *Edward VI*, 2.
22. Pollard, *Henry VIII*, 432.
23. Armstrong, *Chales V*, I, 59.
24. Starkey, Thos, *Dialogue between Reginald Pole and Thomas Lupset*, London, 1871, in Allen, *Political Thought*, 149.
25. Smith, *Erasmus*, 27.
26 Bakeless, *Tragicall Hy of Christopber Marlowe*, 50.
27. Friedländer, *Roman Life and Manners*, II, 93.
28. Janssen, XI, 239.
29 Brantôme, *Lives of Gallant Ladies*, 65, 68.
30. Maulde, 391.
31. Lacroix, *Prostitution*, II, 1151.
32. Janssen, XI, 233.
33. Lacroix, Prostitution II, 1151f.
34. Brantôme, 133.
35. Lacroix, II, 1189.
36. Smith, *Reformation*, 321.
37. Erasmus, *Colloquies*, I, 342.
38. Rabelais, iii, 48.
39. Ascham' *The Scholemaster*, 50.
40. In Smith, *Reformation*, 412.
41. Turner, *Hy of Courting*, 45-7; Briffault, *The Mothers*, III, 415 ; Smith, *Modern Culture*, I, 531.
42. Sichel, *Catherine de' Medici*, 6.
43. Cf, Lippmann, W, *The Public Philosophy*, 117.
44. Cf, O'Brien, *Enonomic Effects of the Reformation*, 75.
45. Schapiro, *Social Reform*, 31.
46. Ibid ,
47. Froude, *Edward VI*, 166.
48. Maulde, 66.
49. Sichel, *Women*, 230.
50. O'Brien, 55.
51. Janssen, III, 367.
52. Froude, *Edward VI*, 69.
53. Prescott, *Mary Tudor*, 327.
54. Froude, l·c.
55. Smith, *Reformation*, 559.
56. Ashley, II, 369.
57. Ibid., 342.
58. Watson, F., *Luis Vives*, 61.
59. Froude, *Henry VIII*, II, 372,
60. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
61. Ibid., 55.
62. Janssen, IV, 60 f.
63. *Werke* (Erlangen), I, 14, in Maritain, *Three Reformers*, 186.
64. O'Brien, 51, transposed.
65. Janssen, VI, 275; Smith, *Luther*, 416.
66. Janssen, VII, 301.
67. Lea, *Auricular Confession*, III, 428.
68. Calvin, Preface to the Geneva Catechism.
69. Lang, *Hy of Scotland*, II, 402.
70. Froude, *Edward VI*, 265.
71. Trail, III, 160.

72. Lacroix, *Prostitution*, II, 1213-4.
73. Maulde, 217.
74. Sch ff, *Swiss Reformation*, 722.
75. Wright, Thos, *Womankind in Western Europe*, 325.
76. Lacroix, *Prostitution*, II, 1205.
77. Ibid., 1204.
78. Allen, P, S., *Age of Erasmus*, 203-4; *Smith Reformation*, 510.
79. Wright, Thos., *Domestic Manners*, 491.
80. Coulton, *Social Life*, 376; *Medieval Panorama*, 313
81. Baedeker, *Munich*, 12.
82. Huizinga, *Waning of Middle Ages*, 289.
83. Smith *Reformation*, 500,
84. Wright, *Domestic Manners*, 485-8.
85. In Nock & Wilson, *Rabelais*, 41.
86. In Bainton, *Here I Stand*, 343.
87. Rashdall, *Universities*, III, 422.
88. In Lacroix, *Manners*, 241.

CHAPER XXXIV

1. Sichel, *Women*, 246.
2. Lang, *Music in Western Civilization*, 300.
3. Einstein, A., *The Italian Madrigal*, I, 7.
4. Grove, *Dictionary of Music and Musicians*, III, 459.
5. Whitcomb, *Literary Source Book of the German Renaissance*, 22.
6. Grove, III, 254.
7. Mc Kinney and Anderson, *Music in History*, 210.
8. Blok, II, 377.
9 Kiesewetter, *Hy of Music*, in Grove, III, 684.
10. Bainton, *Here I Stand*, 343.
11. McKinney, 303.
12. Guizot, *Hy of France*, III, 123.
13 Bainton, *Here I Stand*, 344.
14. Janelle, *Catholic Reformation*, 218.
15. Froude, *Erasmus*, 122.
16. Grove, IV, 20 f.
17. Cf. *Oxford Hy of Music*, II, 243.



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

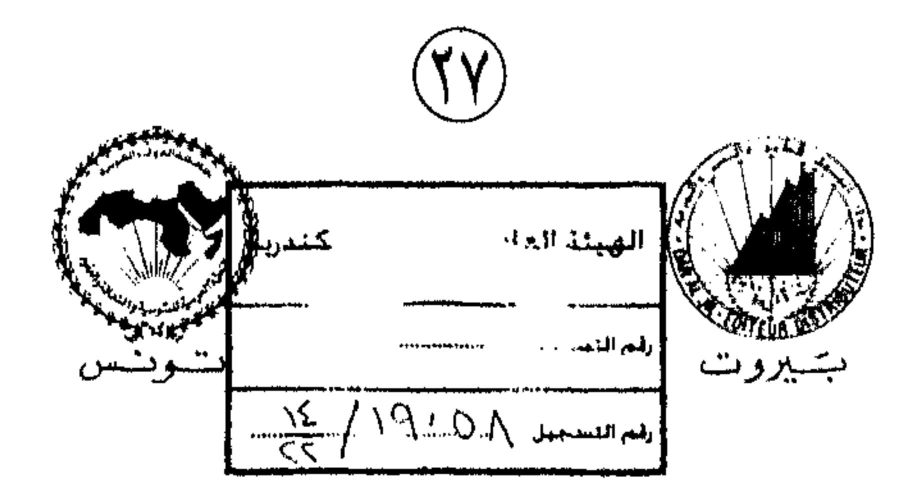
الإصلاح الديني

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء السادس من المجلد السادس

٢٧



دَارُ الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ ـ ت: ٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤١٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : داجيلب ـ بيروت ـ لبنان

فهرس

الجزء السادس من المجلد السادس

صفحة

صفحة

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستنتى

١٥١٧ — ٦٥

صفحة

الفصل الخامس والثلاثون

الأدب في عصر رابليه

١٥١٧ – ٦٤

---

١ – في صناعة الكتب

اتخذ حافز الإعلان عن النفس صورة جديدة بعد جوتنبرج . هي رغبة الكتاب الملحة في طبع مؤلفاتهم . على أن هذا الحافز كان غالي الثمن ، لأن حق التأليف الوحيد المعروف آنئذ كان « الامتياز الخاص » الذي تمنحه السلطات المدنية أو الكنسية لطبع كتاب بعينه ، وهو منحة استثنائية ، بدونها كان في استطاعة الناشرين المتنافسين ، حتى في البلد الواحد ، أن يسطوا على أي أثر حين يشاءون ، وكان الناشر عادة – إذا راج الكتاب الذي ينشره – ينقد المؤلف أتعاباً ، ولكن المطبوعات الوحيدة تقريباً التي غلت من الربح ما يكفي لحصول المؤلف على أتعابه هي الروايات الشعبية ، وقصص السحر أو المعجزات ، والنشرات الجدلية التي كان شرط رواجها أن تحشى بالمطاعن . أما الكتب العلمية والثقافية فكانت محظوظة إن غطت نفقاتها . وكان الناشرون يشجعون المؤلفين على إهداء هذه الآثار إلى كبار رجال الدولة أو الكنيسة أو إلى أثرياء الأعيان والأشراف بأمل الحصول على منحة لقاء هذه الزلفى .

واجتمعت الطباعة والنشر عادة في بيت واحد . وكان الرجل أو الأسرة المشتغلان بهما عنصراً حيوياً في مدينتهما وجيلهما . أما الشهرة عن طريق الطباعة وحدها فقط فكانت نادرة ، وقد أفلح كلود جرامون الباريسي

فى إحرازها بنبذه حرف الطباعة « القوطى » الذى اتخذه الطباعون الألمان نقلا عن حروف المخطوطات ، وبتصميمه حرف طباعة « رومانياً » (حوالى ١٥٤٠) مبنيا على خط الكتابة الكارولنجى الصغير المنتشر فى القرن التاسع كما طوره الإنسانيون الإيطاليون والمطبعة الألدية : واختار الطباعون الفرنسيون والإنجليز هذا الحرف الرومانى ، أما الألمان فقد تمسكوا بالحرف القوطى حتى القرن التاسع عشر . وما زالت أنماط من حروف الطبع تحمل اسم جرامون .

وتزعمت ألمانيا العالم فى ميدان النشر . فقامت بيوت نشر نشيطة فى بازل وستراسبورج وأوجزبورج ونورمبرج وفتنبرج وكولونيا وليبزج وفرانكفورت ومجدبورج ؛ وكان الناشرون وتجار الكتب يلتقون مرتين كل عام فى سوق فرانكفورت ، فيشترون الكتب ويبيعونها ويتبادلون الأفكار . وأصدر طباع فرانكفورتى أول جريدة (١٥٤٨) — وكانت ورقة توزع فى السوق وتروى آخر الأحداث . وأصبحت أنتورب مركزاً للنشر حين عمد كرستوفر بلانتن إلى دكان التجليد الذى يملكه فحوله إلى مطبعة (١٥٥٥) ، وبعد عامين أرسل ١٢٠٠ مجلد إلى سوق فرانكفورت . أما فى فرنسا فكانت ليون مركزاً لصناعة الكتاب ، وأتاحت لها مائتان من مؤسسات الطباعة أن تتحدى باريس بوصفها العاصمة الفكرية للبلاد .

وكان إتيين دوليه الطباع والأديب الإنسانى شعلة ليون المتأججة بالثورة . ولد فى أورليان ، وتلقى علومه فى باريس ، ثم أولع بشيشرون . « إننى لا أستحسن سوى المسيح وتللى » . ولما سمع بأن الكفر يحظى بحرية غير عادية فى بادوا سارع إليها ، وهناك تبادل الشعر الساخر البذىء مع الشكاكين من المتأثرين بفلسفة ابن رشد : وفى تولوز أصبح الروح المحركة لجماعة حرة التفكير تهزأ بالبابويين والاوثريين على حسد سواء . فلما نفى

قصد ليون وفيها اكتسب سمعة بكتابة الأشعار والمقالات . ولكنه قتل طباعاً أثناء احتدام الجدل بينهما ، ففر إلى باريس حيث حصلت له مارجريت النافارية على عفو من الملك . وهنالك صادق مارو ورابليه . ثم تشاجر معهما . ولما عاد إلى ليون أنشأ مطبعة وتخصص في نشر الكتب المهرطقة ، واستدعته محكمة التفتيش ، وحاكمته وسجنته ، فهرب من السجن ، ولكن قبض عليه أثناء زيارته ابنه خفية ، وفي ٣ أغسطس ١٥٤٦ أحرق حياً .

أما أبرز الناشرين الفرنسيين فكانوا آل إتيين ، وهم أسرة ثابرت على الطباعة مثابرة آل فوجر على التمويل . بدأ هنري إتيين مطبعته في باريس حوالي ١٥٠٠ ، وواصل العمل من بعده أبناؤه فرانسوا وروبير وشارل ، وإلى هؤلاء الأربعة تدين فرنسا بأفخر طبعاتها للآداب اليونانية واللاتينية . وصنف روبير قاموساً للغة اللاتينية (١٥٣٢) أصبح سنداً أساسياً لجميع القواميس اللاتينية الفرنسية التالية له . وغدت اللاتينية لغة ثانية لآل إتيين يتكلمونها بانتظام داخل الأسرة . وامتدح فرانسوا الأول عملهم وأيد مارجريت في الدفاع عنهم ضد السوربون ، وحضر في إحدى المناسبات اجتماعاً الفيف من الأدباء التقوا في حانوت روبير . وفي رواية مشهورة أن الملك ظل ينتظر في صبر ريثما يفرغ روبير من تصحيح تجربة طباعة عاجلة . وقدم فرانسوا المال الذي أتاح لروبير تكليف جرامون بتصميم وصب طقم طباعة جديدا للحروف اليونانية فيه من الجمال ما جعله نموذجاً لمعظم الطباعة الفرنسية التالية . واستنكرت السوربون تلهي الملك بالثقافة الهيلينية ، وقال أحد أساتذتها يحذر « البرلمان » (١٥٣٩) « ان نشر معرفة اليونانية والعبرية سيعمل على تدمير الدين كله » . أما العبرية فكان رأى أحد الرهبان فيها « أنه من المعلوم جيداً أن كل من تعلموا العبرية أصبحوا من فورهم يهوداً . »(1) ولما لاحقت السوربون روبير وأرهقته طوال ثلاثين عاماً نقل مطبعته إلى

جنيف (١٥٥٢) وهناك أماط اللثام سنة وفاته (١٥٥٩) عن ميوله البروتستنتية بنشره طبعة من « مبادىء كالفن » . واحتفظ ابنه هنرى إتيين الثانى بسمعة الأسرة إذ أصدر فى باريس طبعات جميلة من الآداب القديمة ، وصنف معجماً للغة اليونانية (١٥٧٢) فى خمسة مجلدات لا تزال إلى يومنا أكمل المعاجم اليونانية قاطبة . غير أنه أثار حقد السوربون عليه بنشره كتاباً سماه « دفاع عن هيرودوت » (١٥٦٦) أشار فيه إلى النظائر من المعجزات المسيحية والعجائب الغريبة التى رواها المؤرخ اليونانى ولجأ هو الآخر إلى جنيف ، ولكنه وجد نظام الحكم الكالفنى لا يقل تعصباً عن السوربون .

وكثير من مطبوعات هذا العصر نماذج تحتذى فى الطبع والحفر والتجليد ، فقد حل محل الأغلفة نصف المعدنية ، الثقيلة ، الشائعة فى القرن الخامس عشر ، أغلفة أخف وزناً وأرخص ثمناً مصنوعة من الجلد أو الورق المتين أو الرق . ومن أمثلة هذا التقدم أن جان جروليبيه دسيرفيير . وزير مالية فرنسا فى ١٥٣٤ ، كلف المجلدين بتجليد كتبه البالغ عددها ٣,٠٠٠ مجلد الماعز المشرق تجليداً بلغ من الأناقة حداً يضعها فى صف أجمل الكتب إطلاقاً . وغدت المكتبات الخاصة الآن لا حصر لها . وفتحت المكتبات العامة فى كثير من المدن — مثل كركاو (١٥١٧) . وهامبورج (١٥٢٩) . ونورمبرج (١٥٣٨) ، وفى عهد فرانسوا الأول نقلت المكتبة الملكية القديمة التى جمعها شارل الثامن من اللوفر إلى فونتنبلو . وأثرتها مجموعات جديدة من الكتب وأغلفة فاخرة . وأصبحت هذه « المكتبة الملكية » بعد الثورة الفرنسية « المكتبة الأهلية » . وقد دمر كثير من المكتبات الديرية فى حركة الإصلاح البروتستنتى ، ولكن الكثير منها انتقل إلى أيدى الأفراد ووجد كل ثمين فيها طريقه إلى دور الكتب العامة . لقد ضاع فى التاريخ الكثير . ولكن احتفظ بالكثير جداً مما له قيمته وليس فى استطاعة فرد ولو أوتى مائة عمر أن يستوعبه .

٢ — المدارس

كان من الطبيعي أن تعمد الثورة الفرنسية حيناً إلى تمزيق نظام غربي أوربا التعليمي لأنه جلّه كان خدمة تابعة للكنيسة ، ولم يكن في الإمكان تحدى نفوذ رجال الدين التقليديين بنجاح ما لم تحطم هيمنتهم على التعليم . وقد أنحى لوثر باللوم على مدارس ذلك العهد الثانوية التي تركز على تعليم اللغات القديمة ، وقال إنها تعلم الطالب « من اللاتينية الرديئة ما يكفي لإعداده قسيساً وتمكينه من تلاوة القداس . . . ومع ذلك يظل طوال حياته جهولا مسكيناً لا يصلح لشيء »[٢] . أما الجامعات فبدت له مغارات للقتلة ، وهياكل للإله ملخ ، ومجامع للفساد « لم يظهر على الأرض . . . ولن يظهر . . . ما هو شر منها . » وخلص من هذا إلى أنها « لا تصلح إلا لهدمها وتسويتها بالتراب »[٣] . واتفق ملانكتون مع لوثر في الرأى ، لأن الجامعات تحول طلابها إلى الوثنية[٤] . وتقبل الآباء الذين يضنون بنفقات تعليم أبنائهم ، رأى كارلشتات ، و« أنبياء » زفيكالو ، والقائلين بتجديد المعمودية ، في غير تردد — وهو أن التعليم زخرف لا غناء فيه ، وخطر على الأخلاق ، ومعوق للخلاص . وكانت حجة بعض الآباء أنه ما دام التعليم الثانوى موجهاً إلى حد كبير لإعداد الطلاب ليكونوا قساوسة ، وما دامت هذه المهنة قد بارت سوقها ، إذن فليس من المنطق أن يبعثوا بأبنائهم إلى الجامعات .

كان دعاة الإصلاح البروتستنتي يتوقعون أن يفرد جانب من دخل الأملاك الكنسية التي استولت عليها الدولة لإنشاء مدارس جديدة تحل محل تلك الآخذة في الزوال عقب إغلاق الأديار . ولكن « الأمراء والأشراف » على حد قول لوثر « شغلوا بشئون عالية وهامة — شئون كهف الخمور والمطبخ والمخدع ... فلم يعد لديهم متسع من الوقت » لمد يد المعونة إلى التعليم . وكتب يقول في ١٥٢٤ « إن المدارس في الولايات الألمانية تترك الآن في كل مكان لتصبح خراباً يباباً »[٥] . وما وافى عام ١٥٣٠

حتى كان هو وملانكتون يرثيان ما أصاب الجامعات الألمانية من تدهور وانحلال(٦) . ففى إرفورت هبط عدد الملتحقين بالجامعة من ٣١١ فى عام ١٥٢٠ إلى ١٢٠ فى عام ١٥٢١ ، وإلى ٣٤ فى عام ١٥٢٤ ، وفى روستوك هبط العدد من ٣٠٠ فى عام ١٥١٧ إلى ١٥ فى عام ١٥٢٥ ، وفى هيدلبرج كان فى ذلك العام من الأساتذة عدد أكثر ممن كان فيها من الطلاب . وفى ١٥٢٦ لم يلتحق بجامعة بال سوى خمسة طلاب(٧) .

وجاهد لوثر وملانكتون لإصلاح ما فسد : فناشد لوثر فى « رسالته إلى العمد » (١٥٢٤) السلطات الزمنية أن تنشئ المدارس . وفى عام ١٥٣٠ تخطى زمانه بكثير فاقترح أن يقرر التعليم الأولى إجبارياً وأن يوفر للأطفال على حساب الدولة(٨) . أما الجامعات التي أعيد تأسيسها تدريجياً تحت الرعاية البروتستنتية فقد أوصى ببرنامج دراسة لها يتركز حول الكتاب المقدس . ولكنه يحوى أيضاً تعليم اللاتينية واليونانية والعبرية والألمانية والقانون والطب والتاريخ و « الشعراء والخطباء . . . الوثنيين منهم أو المسيحيين(٩) » . أما ملانكتون فقد جعل من إحياء التعليم مهمته الأولى . ففتح الكثير من المدارس تحت قيادته وبتشجيعه . وما وافت نهاية القرن السادس عشر حتى أصبح فى ألمانيا ٣٠٠ مدرسة . ثم وضع « خطة مدرسية » (١٥٢٧) لتنظيم المدارس والجامعات . وألف كتباً مدرسية فى النحو اللاتينى واليونانى . وفى البيان والمنطق وعلم النفس والأخلاق واللاهوت . ودرب آلاف الطلاب على الاضطلاع بالتعليم فى المعاهد الجديدة . وقد لقبه وطنه بمعلم ألمانيا اعترافاً بجميله . وانتقلت جامعات شمالى ألمانيا الواحدة تلو الأخرى إلى أيد بروتستنتية : فتنبرج (١٥٢٢) ، وماربورج (١٥٢٧) ، وتوبنجن (١٥٣٥) ، ولبيزج (١٥٣٩) وكونجزبرج (١٥٤٤) ، وبينا (١٥٥٨) . وطرد الأساتذه أو الطلاب المعارضون « للعقيدة الإنجيلية الصادقة الصحيحة » كما قال أولريش دوق فورتمبرج . ومنع الكالفنيون من دخول الكليات اللوثرية ، والبروتستنت من دخول الجامعات التى لم تزل فى أيدى الكاثوليك . ويمكن القول بصفة

عامة إنه بعد صلح أوجزيبورج (١٥٥٥) حرم على الطلبة الألمان أن يختلفوا إلى المدارس التابعة لمذهب آخر غير الذى يدين به أمير المقاطعة(١٠) .

هذا وقد أتيح للتعليم الجديد أن يحرز تقدماً هائلا على يد يوهان شتروم حين أنشأ مدرسة ثانوية «جمنازيوم» فى ستراسبورج (١٥٣٨) ، ونشر فى ذلك العام نبذة كان لها نفوذ كبير عنوانها «فى فتح مدارس الآداب بالطريقة الصحيحة» . وكان ككثيرين غيره من زعماء الفكر فى وسط أوربا قد تلقى علومه على يد «إخوان الحياة المشتركة» . ثم قصد لوفان وباريس حيث التقى برابليه . ولعل رسالة جارجانتوا الشهيرة فى التعليم صدى لتأثير الرجلين المتبادل . ومع أن شتروم يرى فى «التقوى المقترنة بالحكمة» الهدف الأول للتعليم ، فانه أكد تأكيداً متزايداً أهمية دراسة اليونانية واللاتينية وآدابهما ، وقد انتقلت هذه العناية والدقة فى تعليم الآداب القديمة إلى مدارس ألمانيا الثانوية التالية ، فربت جيش العلماء والأدباء الذى غزا العالم القديم وقتله بحثاً وتنقيباً فى القرن التاسع عشر .

أما مدارس إنجلترة فقد قاست أكثر حتى من مدارس ألمانيا نتيجة للثورة الدينية . وذابت مدارس الكاتدرائيات والأديار والنقابات والأوقاف فى لهيب الهجوم على رذائل الكنيسة وتراثها . وكان أكثر طلاب الجامعات يفدون إليها من هذه المدارس . فلما توقف هذا السيل لم تخرج أكسفورد سوى ١٧٣ من حملة بكالوريوس الآداب ، وكمبردج سوى ١٩١ فى عام ١٥٤٨ ، وفى عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٠ لم تخرج أكسفورد منهم أحداً .(١١) وأحس هنرى الثامن بالمشكلة ، ولكن حاجته إلى المال للحرب أو لزيجاته العديدة حدت من قدرته ، فاكتفى بانشاء كلية ترنتى بكمبردج (١٥٤٦) وبتمويل كراس بمنح ملكية فى اللاهوت ، والعبرية واليونانية ، والطب ، والقانون . وفى هذه الفترة قامت الهيئات الخاصة الخيرية بانشاء كلية كوربس كرستى ، وكلية كرايست تشيرش ، وكلية سانت جون ، وكلية ترنتى

بأكسفورد ، وكلية ماجدلين بكمبردج . وقامت اللجنة الملكية التى أوفدها كروموبل إلى أكسفورد وكمبردج (١٥٣٥) اتستولى للملك على براءاتهما وأوقافهما باخضاع الكلية والمنهج للاشراف الحكومى . وهكذا قضى بضربة عاجلة على سلطان الفلسفة الكلامية فى إنجلترة ، وذرت فى الريح — حقيقة لا مجازاً — أعمال دنزسكوتس[١٢] ، ونحى القانون الكنسى جانباً ، وشجعت الدراسات اليونانية واللاتينية ، وصبغ المنهج بالصبغة العلمانية إلى حد كبير — ولكن الدجماطيقية لم تمت . فقد اشترط قانون صدر فى ١٥٥٣ على جميع طلاب الدرجات الجامعية أن يتعهدوا كتابة بقبول « مواد الدين الانجليكانية » .

أما فى فرنسا وفلاندر الكاثوليكيتين فقد تدهورت الجامعات لا من حيث أوقافها وعدد طلابها ، بل من حيث قوة الحياة الفكرية وحريتها . وفتحت جامعات جديدة فى رامس ودواى وليل وبيزانسون . ونافست جامعة لوفان جامعة باريس فى عدد الطلاب (٥٠٠٠) ، وفى الدفاع عن لون من الكاثوليكية التقليدية بدا متطرفاً حتى فى نظر البابوات . وكان طلاب جامعة باريس كثيرين (٦٠٠٠) ، ولكنها لم تعد تجتذب أى عدد مذكور من الطلاب الأجانب أو تتسامح كما كانت تفعل إبان عنفوانها فى القرن الثالث عشر مع خميرة الأفكار الجديدة المنشطة . أما كلياتها فسيطرت عليها كلية اللاهوت — السوربون — حتى كاد يصبح هذا الاسم مرادفاً لاسم الجامعة . ورأى مونتينى فى منهج اللاهوت والآداب القديمة المنتقاة نمطاً سطحياً من الاستذكار والامتثال . أما رابليه فلم يتعب من ذم الشكليات المدرسية والتدريبات المنطقية السائدة فى السوربون ، وضياع سنى الدراسة فى مناظرات أبعدت فى حرص عن الاهتمام الفعلى بالحياة الإنسانية . وأما كليمان مارو فقد صرح بقوله « إننى على استعداد للتضحية عن طيب خاطر بنصيبى فى الجنة لو أن هؤلاء الوحوش الكبار (أى

الأساتذة) لم يدمروا شبابى »[١٣] . ووجهت قوة الجامعة وسلطانها كله ، لا لمقاومة البروتستنت الفرنسيين فحسب ، بل الإنسانيين الفرنسيين أيضاً .

وبذل فرانسوا الأول ما وسعه لحماية الثقافة الفرنسية من مثبطات المحافظين المنبعثة من السوربون . وكان قد شرب من خمر إيطاليا والتقى ببعض رجال الكنيسة ممن تعمقوا أدب اليونان والرومان . وبحض من جيوم بوديه ، والكردينال جان دبليه ، ومارجريت المثابرة فى غير كلل — قدم المال لإنشاء مدرسة مستقلة عن الجامعة (١٥٢٩) ، متفرغة بوجه خاص للدراسات الإنسانية . وبدئ بتعيين أربعة من «الأساتذة الملكيين» اثنان منهم لليونانية واثنان للعبرية ، وسرعان ما أضيفت كراس للاتينية والرياضيات والطب والفلسفة . وكان التعليم فيها مجاناً[١٤] . وأصبحت هذه « الكلية الملكية » التى عدل اسمها فيما بعد إلى «كلية فرنسا» باعثة النشاط فى الدراسات الإنسانية الفرنسية ، وملاذ العقل الفرنسى الذى يجمع بين الحرية والنظام .

أما أسبانيا فقد قيض لها جامعات ممتازة برغم تحمس الدولة للكاثوليكية التقليدية ، فكان عددها أربع عشرة عام ١٥٥٣ ، شملت ما أسس منها حديثاً فى طليطلة وسنتياجو وغرناطة . أما جامعة سلامنكا التى ضمت سبعين أستاذاً و ٦٧٧٨ طالباً فى عام ١٥٨٤ فتثبت للمقارنة بأية جامعة أخرى من جامعات ذلك العهد . وأما جامعات إيطاليا فقد واصلت ازدهارها ، فكان لجامعة بولونيا فى ١٥٤٣ سبعة وخمسون أستاذاً بكلية الآداب ، وسبعة وثلاثون بكلية الحقوق ، وخمسة عشر بكلية الطب ه وكانت بادوا مقصد الطلاب المغامرين الوافدين من شمال الألب ه وقدمت بولنده الدليل على عصرها الذهبى بقبولها ١٥,٣٣٨ طالباً دفعة واحدة فى جامعة كركاو[١٥] ، وفى بوزنان خصص « اللوبرانسكيانوم » الذى أنشأه الأسقف يوحنا لوبرانسكى (١٥١٩) للأبحاث والدراسات الإنسانية ه

ويمكن القول على الجملة أن الجامعات فى البلاد الكاثوليكية أوفر حظاً منها فى البلاد البروتستنية فى هذا القرن العنيف .

على أن المعلم لم يلق ما هو خليق به من تقدير . وكان مغموط الأجر إلى حد أليم . كان الأستاذ فى « الكلية الملكية » بفرنسا يتقاضى ٢٠٠ كراون فى العام (٥٠٠٠ دولار؟) . ولكن هذا كان استثناء نادراً . وكان الأساتذة فى جامعة سلامنكا يختارهم الطلاب بعد فترة اختبار يعرض فيها الأساتذة المتنافسون عينات من محاضراتهم . وكان أكثر التعليم بالمحاضرات . وأحياناً تضفى عليها الحياة بالمناظرات . وكان أخذ المذكرات يحل عند كثير من الطلبة محل الكتب الدراسية . أما القواميس فنادرة . وأما المعامل فمجهولة عملياً إلا للمشتغلين بالكيمياء القديمة . وكان الطلاب يسكنون حجرات رخيصة سيئة التدفئة ويقعون فريسة للمرض بسبب قذارة الطعام ونقصه . وكان كثير منهم يشتغلون لتغطية نفقات الكلية . وتبدأ الفصول فى السادسة صباحاً وتنتهى فى الخامسة بعد الظهر . وكان النظام صارماً ، يجوز بمقتضاه جلد الطلبة حتى من قارب منهم التخرج . وكان الطلاب يلتمسون الدفء فى مشاجرات الشوارع وفى كئوس النبيذ وأحضان البغايا إذا تيسر لهم المال . وهكذا كانوا بطريقة أو بأخرى يحصلون قسطاً محدوداً من التعليم .

أما فتيات الطبقات الدنيا فظللن أميات ، وكان كثيرات من بنات الطبقات الوسطى يظفرن بتعليم مدرسى متواضع فى أديار الراهبات . أما الفتيات الغنيات فلهن مربون خصوصيون . وقد فاخرت هولندة بعدة سيدات يمكن مغازلتهن باللاتينية ، وربما يستطعن تصريف الأفعال خيراً من تصريف الأسماء والضمائر والصفات . واشتهرت فى ألمانيا زوجة بوتنجر وشقيقات بركهيمر وبناته بثقافتهن . وفى فرنسا كانت النساء المحيطات بالملك فرانسوا يجملن عبارات الغزل بمحسنات يقتبسنها من الآداب القديمة ،

وفى إنجلترة كانت بعض النساء المثقفات — كبنات مور ، وجين جراى ، و « مارى الدموية » ؛ وإليزابيث — مضرب المثل فى سعة المعرفة والاطلاع .

وينتمى إلى هذا العصر معلمان شهيران . أما أقلهما شأناً فهو السير توماس إليوت ، الذى وضع فى كتابه « الحاكم » (١٥١٣) خطة تعليم تيسر إعداد الطلاب العريق النسب للاشتغال بشئون الحكم . وقد بدأ كتابه بنقد الفجاجة الثقافية التى يتردى فيها نبلاء الإنجليز ، وقارنها بما روى عن ثقافة رجال الأعمال عند اليونان والرومان ، ونقل ما روى عن الفيلسوف الكلبى ديوجين « حين رأى رجلا جاهلا جالساً على حجر فقال : انظر كيف يجلس حجر على حجر »[١٦] .

وفى رأى إليوت أن الصبى متى بلغ السابعة يجب أن يعهد به إلى مرب يختار بعناية ، فيعلمه مبادئ الموسيقى والتصوير والنحت ، حتى إذا ناهز الرابعة عشرة تعلم وصف الكون والمنطق والتاريخ ، ودرب على المصارعة والصيد والرمى بالقوس الطويل والسباحة والتنس ، دون كرة القدم لأنها لعبة سوقية « ليس فيها غير الثورة الوحشية والعنف الظاهر » . ويجب أن يعلم الصبى الآداب القديمة فى كل مرحلة من مراحل تعليمه — فيبدأ بالشعراء ، ثم المؤرخين ، ثم القواد ، ثم الفلاسفة ، ويضيف إليوت إلى هذا الكتاب المقدس ، وتكاد الإضافة تبدو فكرة لاحقة ؛ وهو بهذا يعكس الخطة التعليمية التى وضعها لوثر . ويفضل إليوت الآداب القديمة على الكتاب المقدس برغم توكيداته . فهو يقول « رباه ، يا لها من حلاوة لا نظير لها فى كلمات كتب أفلاطون وشيشرون ، وفى مادة هذه الكتب التى جمعت بين الرزانة والعذوبة ، واقترنت فيها الحكمة الرائعة بالبلاغة الإلهية ، والفضيلة المطلقة باللذة التى لا تصدق » ، وهكذا « فان هذه الكتب تكاد تكفى فى ذاتها لإعداد الحاكم الكامل الممتاز[١٧] »

أما ثانى المعلمين وهو جوان فيف ، أكثر الأدباء الإنسانيين إنسانية ،

فقد اختط هدفاً أوسع وترسم طريقاً أرحب . ولد فى بلنسيه فى ١٤٩٢ . ورحل عن أسبانيا وهو فى السابعة عشرة ، ولم يرها بعد ذلك قط . وقد درس فى باريس فترة أتاحت له حب الفلسفة واحتقار الفلسفة الكلامية . وحين بلغ السادسة والعشرين ألف أول تاريخ حديث للفلسفة . وفى السنة ذاتها تحدى الجامعات بهجوم على الطرائق السكولاستية فى تعليم الفلسفة . فقد شعر بأن خطة النهوض بالفكر بطريق المناظرة لا تشجع إلا الشجار العقيم حول مسائل لا وزن لها . ورحب إرزمس بالكتاب وأوصى مور بأن يقرأه ، وقال فى أدب إنه يخشى أن « يحجب . . فيف . . إرزمس .[١٨] » وعين فيف أستاذاً للدراسات الإنسانية فى لوفان (١٥١٩) ربما بنفوذ إرزمس . ثم نشر بتشجيع إرزمس طبعة من كتاب أوغسطين « مدينة الله » عليها شروح ضافية وأهداها إلى هنرى الثامن . وتلقى منه رداً رأى فيه من الود ما حمله على الانتقال إلى إنجلترا (١٥٢٣) . ورحب به مور والملكة كاترين التى تنتمى إلى وطنه (أسبانيا) . وعينه هنرى واحداً من أساتذة الأميرة مارى الخصوصيين . وربما ألف كتابه « فى تربية الأطفال » لإرشادها (١٥٢٣) . وسارت الأمور على ما يرام إلى أن أعرب عن استنكاره لطلب هنرى فسخ زواجه . فأوقف هذا راتبه واعتقله فى بيته ستة أسابيع ، ولما أطلق سراحه عاد إلى بروج (١٥٢٨) وهناك أنفق سنى حياته الباقية ،

وإذ ظل مثالياً وهو فى السابعة والثلاثين فقد وجه إلى شارل الخامس نداء إرزمياً يدعوه فيه إلى إنشاء محكمة دولية للتحكيم بديلا عن الحرب (١٥٢٩) وبعد عامين أصدر أكبر كتبه ، وهو أكثر رسائل النهضة الأوربية التعليمية تقدماً ، وفيه دعا إلى تعليم موجه إلى « ضروريات الحياة ، وإلى شىء من النهوض سواء بالجسد أو العقل ، وإلى تربية الاحترام وزيادته[١٩] » وقال

إن على التلميذ أن يدخل المدرسة « كأنه يدخل هيكلا مقدساً » ولكن دراسته فيها يجب أن تعده ليكون مواطناً كريماً نافعاً ، وأن تغطى هذه الدراسات الحياة بأسرها مع مراعاة اتصالها بعضها ببعض كما تؤدى وظائفها فى الحياة . ويجب أن تدرس الطبيعة كما تدرس الكتب ، فالأشياء تعلم الطالب أكثر مما تعلمه النظريات ، فليلاحظ إذن العروق والأعصاب والعظام وسائر أعضاء الجسم فى تشريحها وفى أداء وظائفها . وليسأل المزارعين والصيادين والرعاة والبستانيين ، وليفد من خبراتهم ، فان هذه المعلومات التى يلتقطها ستكون أنفع له من « الثرثرة السكولاستية التى أفسدت كل فروع المعرفة باسم المنطق »[٢٠] . وينبغى أن تظل الدراسات القديمة المنقاة خصيصاً للشباب جزءاً حيوياً من المنهج ، ولكن يجب أن يدرس أيضاً التاريخ الحديث والجغرافيا . كذلك يجب أن تدرس اللغات القومية كما تدرس اللاتينية ، وكل هذا بالطريقة المباشرة المستعملة فى الحياة اليومية .

لقد كان فيف متقدماً جداً على جيله ، فلم يفطن إليه ذلك الجيل ، وتركه يموت فقيراً ، وقد ظل كاثوليكياً إلى النهاية .

٣ — العلمـــاء

كانت المهمة المميزة للجامعات والأكاديميات والعلماء الإنسانيين فى عصر النهضة هى جمع تراث العالم القديم ، عالم اليونان والرومان ، وترجمته ونقله إلى جيل الشباب فى أوربا الحديثة . وقد أنجزت هذه المهمة على وجه رائع ، وكان الكشف عن وحى العالم القديم كاملا .

بقى رجلان يجب أن نخلد ذكرهما كاهنين لهذا الوحى . وأول الرجلين هو جيوم بوديه ، الذى بلغ الثانية والستين و هو يعلل النفس بأن يجعل باريس وارثة للدراسات الإنسانية الإيطالية . ثم رأى هذا الأمل يتحقق

حين أنشأ فرانسوا الكلية الملكية . وقد بدأ بوديه دراساته فى كبره بدرس القانون ، فظل زهاء عشر سنوات يدفن نفسه فى « قوانين جستنيان » . ورغبة فى تفهم هذه النصوص تفهماً أفضل ، وهى لاتينية اللغة بيزنطية المعانى ، راح يدرس اليونانية على يوحنا لاسكارس ، ويدرسها فى إخلاص وتفان حملا مدرسه عند رحيله أن يوصى له بمكتبته الثمينة العامرة بالكتب اليونانية . فلما نشر وهو فى الحادية والأربعين كتابه Annotationes in xxiv libros Pandectarum (١٥٠٨) توفرت نادرة الأولى فى فقه النهضة ، دراسة لخلاصة جستنيان تستهدف هذه الخلاصة ذاتها وبيئتها ، بدلا من أن تنحيها هوامش الشراح لعباراتها . وبعد ست سنوات أصدر أثراً جليلا آخر من آثار البحث العميق (De asse et partibus) وهو فى ظاهره نقاش للعملات والمقاييس القديمة ، ولكنه فى حقيقته درس شامل للأدب القديم فيما يتصل بالحياة الاقتصادية ؛ وأوقع من هذا « تعليقاته على اللغة اليونانية » (١٥٢٩) ، وهو كتاب مفكك الترتيب ، ولكنه غنى بالمعلومات والإرشادات المعجمية ، بحيث وضع بوديه على رأس جميع الهيلنستيين الأوربيين . وأرسل له رابليه خطاباً أعرب فيه عن احترامه وتقديره . أما إرزمس فكانت تحيته له أنه غار منه ، لقد كان إرزمس رجل دنيا ولم يكن الدرس إلا جزءاً من الحياة عنده . أما بوديه فكان الدرس والحياة عنده شيئاً واحداً . كتب يقول : إن فقه اللغة هو الذى ظل طويلا رفيقاً وشريكاً لى ، بل كان لى الخليلة التى ارتبطت بها بكل مواثيق الحب . . . ولكنى اضطررت إلى إرخاء ربط هذا الحب الذى ينهشنى . . . حتى كاد يدمر صحتى[21] » . وكان خزته أن يضطر إلى اقتناص بعض الوقت من دراساته ليأكل وينام . وفى لحظات طوه تزوج وأنجب أحد عشر طفلا . وفى الصورة التى رسمها له جان كلويه (المخزونة بمتحف الفن المتروبولتانى فى نيويورك) تبدو عليه مسحة من تشاؤم .

ولكن فرانسوا الأول لا بد قد وجد فيه شيئاً من الحيوية لأنه عينه أميناً لمكتبة فونتنبلو ، وكان يحب أن يكون هذا العالم العجوز قريباً منه حتى فى رحلاته ؛ وفى إحدى هذه الرحلات مرض بوديه بالحمى ، وقد ترك تعليمات دقيقة بألا يصحب جنازته أى إحتفال . وفارق هذه الدنيا فى هدوء (١٥٤٠) . أما الأثر الذى خلده فهو كلية فرنسا ؛

ولم تكن باريس إبان حياته قد استوعبت بعد الحياة الثقافية لفرنسا ؛ كان للدراسات الإنسانية اثنا عشر وطناً فرنسياً : منها بورج وبوردو ومونبلييه ، وأهم من هذه كلها ليون ، التى امتزج فيها الحب والدراسات الإنسانية ، ونساء الطبقة الراقية والأدب ، امتزاجاً ساراً مبهجاً . وفى آجن ، التى ما كان أحد ليبحث فيها عن إمبراطور ، هيمن يوليوس قيصر سكاليجر على مسرح فقه اللغة بعد موت بوديه هيمنة الإمبراطور المستبد . ولعل بادوا مسقط رأسه (١٤٨٤) . وقد وفد على آجن وهو فى الحادية والأربعين ، وفيها عاش حتى مات (١٥٥٨) . وكان كل العلماء يخشون بأسه لشدة تمكنه من لغة القدح اللاتينية ، وقد اكتسب شهرة حين هاجم إرزمس لغضه من شأن « الشيشرونيين » أى المتمسكين باللاتينية شيشرون دون غيرها . وانتقد رابليه ، ثم انتقد دوليه لانتقاده رابليه . وفى مجلد من كتابه Exercitationes فحص كتاب جيروم كاردان De subtilitate وأخذ على عاتقه أن يثبت أن كل ما أكده الكتاب زائف ، وكل ما أنكره صحيح . وكان كتابه فى النحو اللاتينى أول أجرومية لاتينية مبنية على مبادئ علمية . أما تعليقاته على أبقراط وأرسطو فممتازة ، سواء من حيث أسلوبها أو من حيث إسهامها فى العلم . وكان ليوليوس خمسة عشر طفلا أصبح أحدهم أعظم علماء الجيل التالى . وقد أسهم كتاب يوليوس Poetice الذى نشر بعد موته بأربع سنوات ، وما قام به ولده من دراسات ، وما أثر به الإيطاليون الذين

تبعوا كاترين مديتشى إلى فرنسا — كل هذا أسهم فى تحويل تيار الدراسات الإنسانية الفرنسية وردها من الدراسات اليونانية إلى اللاتينية .

وقد أهدت حركة إحياء الدراسات اليونانية للثقافة عطاء ممتازاً هو ترجمة أميو لكتاب بلوتارخ « التراجم » . كان أميو أحد الرجال الكثيرين الذين حظوا برعاية مارجريت . وقد عين بنفوذها أستاذاً لكرسى اليونانية واللاتينية فى بورج . وكوفئ على ترجماته لدافنيس وخلوا وغيرها من قصص الحب اليونانية ، على طريقة ذلك العصر العجيبة السخية ، بمنحه رئاسة دير غنى . وإذ كفل له الرزق على هذا النحو تنقل كثيراً بين أرجاء إيطاليا إرضاء لميوله الأثرية واللغوية . ولما نشر كتابه « التراجم » (١٥٥٩) قدم له بدعوة بليغة لدراسة التاريخ بوصفه « خزانة البشرية » ، والمتحف الذى يحتفظ بمثات الأمثلة للفضيلة والرذيلة ، وللحكم الصالح والطالح ، ليسترشد بها بنو البشر ؛ وكان كتابليون يرى كتاب بلوتارخ فى التاريخ معلماً للفلسفة خيراً من الفلسفة ذاتها . ومع هذا فقد اضطلع بعد هذا بترجمة كتاب بلوتارخ Moralia أيضاً ، وقد رقى إلى أسقفية أوجزير ، ومات هناك معمراً فى الثمانين (١٥٩٣) . أما ترجمته لكتاب بلوتارخ « التراجم » فلم تكن صحيحة دقيقة فى كل جزء منها ، ولكنها كانت أثراً أدبياً فى ذاته ، تميز بأسلوب طبيعى فردى لا يقل عن أسلوب الأصل . أما تأثيره فكان هائلا . وقد استمتع به مونتينى أيما استمتاع ، وانصرف عن فرنسا القديس بارتلميو إلى هذا الأثر القديم الذى أضفت عليه الترجمة روعة وسموا . واختار شكسبير ثلاث تمثيليات من ترجمة نورث القوية المنقولة عن ترجمة أميو ، وأصبح المثال الذى رسمه بلوتارخ للبطل نموذجاً حاكاه عشرات الثوار وكتاب المسرحيات . وأعطى هذا الكتاب Vies des hommes illustres للأمة مجمعاً من الأبطال المشهورين خليقاً بأن يحرك ما تنطوى عليه الروح الفرنسية من الفضائل الأكثر رجولة وأشد قوة .

٤ — النهضة الفرنسية (الميلاد الجديد)

من الأشياء المألوفة والمغتفرة أن تطلق عبارة « الميلاد الجديد » ، وهى عبارة حافلة بالمعانى الإضافية ، على الفترة الممتدة بين ارتقاء فرانسوا الأول العرش (١٥١٥) واغتيال هنرى الرابع (١٦١٠) . كان هذا الازدهار البهى للشعر والنثر والعادات الاجتماعية والفنون والملابس الفرنسية فى جوهره نضجاً أكثر منه ميلاداً جديداً . فقداستطاع الاقتصاد الفرنسى والروح الفرنسية أن يفيقا من حرب المائة عام بفضل ما أتيح للناس من مرونة صابرة وما استجد من نمو التربة التى ألقيت فيها البذار حديثاً . وكان لويس الحادى عشر قد منح فرنسا حكومة منظمة ممركزة قوية ، ومنحها لويس الثانى عشر عقداً مثمراً من السلام . وظلت إبداعية العصر القوطى الحرة ، الطليقة ، الغريبة الأطوار ، حية متوازنة غالبة على رابليه ، الذى بلغ إعجابه بالآداب القديمة مبلغاً جعله يقتبس منها كلها تقريباً . ولكن اليقظة الكبرى كانت كذلك ميلاداً جديداً . فقد تأثر الأدب والفن الفرنسيان تأثراً لا ريب فيه بما أتيح لها من علم أوثق بالثقافة القديمة والأشكال الكلاسكية . واستمرت هذه الأشكال وهذا المزاج الكلاسيكى — الذى يغلب الفكر المنظم على العاطفة المشبوبة — فى الدراما والشعر والتصوير والنحت والمعمار الفرنسى زهاء ثلاثة قرون . أما العوامل المخصبة فى هذا الميلاد الجديد فهى الكشف والغزو الفرنسيان لإيطاليا ، والدراسة الفرنسية للآثار والفقه والآداب الرومانية وللآداب والفنون الإيطالية ، وتدفق الفنانين والشعراء الإيطاليين على فرنسا . وأسهمت عوامل كثيرة أخرى فى بلوغ هذه النهاية السعيدة : كالطباعة ونشر النصوص القديمة وترجمتها ، والرعاية التى حظى بها العلماء والشعراء والفنانون من الملوك الفرنسيين ومن عشيقاتهم ومن مارجريت النافارية ومن رجال الكنيسة والأشراف ، ومن إلهام النساء القادرات

على تذوق ألوان أخرى من الجمال غير جمالهن . كل هذه العناصر تضافرت للعمل على ازدهار فرنسا .

كان لفرانسوا الأول — الوريث لهذا التراث كله — تابع هو الشاعر الذى أدى مهمة الانتقال من القوطى إلى الكلاسيكى ومن فيون إلى النهضة . دخل هذا الشاعر — واسمه كليمان مارو — التاريخ صبياً مرحاً فى الثالثة عشرة يروح عن الملك بالقصص الظريفة والردود الذكية البارعة. وبعد سنوات هش فرانسوا لأنباء مغامرات الفتى ومشاجراته مع « جميع سيدات باريس » ، فقد وافقه على أنهن فى الحق فاتنات جداً .

« إن المرأة الفرنسية كاملة لا عيب فيها
فالسرور رائدها ، وهى لا تعبأ بالمال .
والفرنسيات — مهما قلت فيهن أو سخرت منهن —
هن أروع أعمال الطبيعة »(٢٢) .

كان مارو يثرثر بالشعر كأنه النبع الفوار ، وقلما اتصف شعره بالعمق ، ولكنه كان فى الكثير الغالب مشوباً بالعاطفة الرقيقة . كان شعر مناسبات ، وحديثاً فى أبيات قصيرة ، أو أغنيات شعبية ، أو قصائد غزلية صغيرة ، أو أغنيات ذوات لوازم متكررة ، أو هجائيات ورسائل تذكرك بهوراس أو مارتيال ، وقد لاحظ فى شىء من الغيظ أن النساء (برغم اعتراضه على هذا السلوك) يسهل إغراؤهن بالماس أكثر من القصائد العاطفية :

« حين تجد الغوانى عشيقاً ثرياً يلوح بماسة أمام عيونهن الضاحكة الخضراء فإن رءوسهن تدور . أتضحك مما أقول ؟ ملعون من يخطئ هنا . فالفضيلة العظمى لهذا الحجر الكريم هى التى تنشر الضباب أمام عيونهن. وإن عطايا وهدايا كهذه لأفضل من الجمال والحكمة والتوسلات . إنها تنوم الوصيفات ، وتفتح الأبواب الموصدة كأنها السحر . وتعمى

عيون المبصرين ، وتسكت نباح الكلاب . والآن أما زلت تكذبنى ؟ » .

وفى ١٥١٩ أصبح مارو وصيفاً خاصاً لمارجريت ووقع فى غرامها ممتثلا ، وذكرت الأقاويل أنها بثته شكوى بشكوى ، وأكبر الظن أنه لم ينل منها غير مذهبها . فقد عود نفسه الآن على التعاطف المعتدل مع قضية البروتستنت فى فترات غرامياته . وتبع فرانسوا إلى إيطاليا ، وحارب فى بافيا وأبلى فيها بلاء الأبطال ، ونال شرف الأسر مع مليكه ، ثم أطلق سراحه — ولا عجب ، فان أحداً لا يتوقع أن يفتدى شاعر بالمال . ولما عاد إلى فرنسا جهر بأفكاره البروتستنتية فى صراحة حملت أسقف شارتر على أن يستدعيه ويعتقله اعتقالا كريماً فى القصر الأسقفى . ثم أطلق سراحه بشفاعة مارجريت . ولكن سرعان ما قبض عليه لمساعدته المسجونين على الفرار من البوليس . وأطلق فرانسوا سراحه بكفالة وأخذه إلى بايون ليتغنى بمفاتن عروسه الجديدة إليانور البرتغالية . وبعد أن قضى فى السجن فترة أخرى لأكله لحم الخنزير فى الصوم الكبير تبع مارجريت إلى كاوز ونيراك .

وسرعان ما تجددت الحملة على البروتستنت الفرنسيين نتيجة لحركة الملصقات . ونمى إلى مارو أن مسكنه فى باريس فتش ، وأن أمراً صدر بالقبض عليه (١٥٣٥) . وخاف ألا نجد مخبأ يكفى لإخفائه ولو كان مخدع مارجريت . ففر إلى إيطاليا لاجئا إلى الدوقة رينيه فى فررا . ورحبت به الدوقة ، كأن فرجيلا جديداً قد وصل من مانتوا . ولعلها كانت تعلم أنه يحب أن يربط اسمه باسم بوبليوس فرجيليوس مارو . ولكنه كان أكثر شبهاً بأوفيد العاشق المرح . أو بشاعره المفضل فيون . الذى أشرف على نشر قصائده . وترسم خطاه فى حياته . ولما أذاع الدوق إركولى الثانى أنه اكتظ بالبروتستنت . انتقل كليمان إلى البندقية . وهناك بلغه أن فرانسوا عرض العفو عن المهرطقين المرتدين

عن ضلالهم . فأعلن مارو ارتداده ، لأنه رأى أن نساء باريس جديرات بتضحية العقيدة . ومنحه الملك بيتاً وحديقة ، وحاول كلمان أن يعيش عيشة السادة البورجوازيين .

ثم طلب إليه فرانسوا فاتابل الذى كان يدرس العبرية فى الكلية الملكية أن يترجم المزامير شعراً فرنسياً ، وشرحها له كلمة كلمة . فترجمها شعراً رخيماً ونشرها مشفوعة باهداء جميل العبارة إلى الملك . وأعجب بهـا فرانسوا إعجاباً حمله على أن يهدى نسخة خاصة منها إلى شارل الخامس ، الذى كان صديقاً له فى تلك الفترة . وبعث شارل إلى الشاعر بمائتى كراون (٥٠٠٠ دولار ؟) . وترجم مارو مزيداً من المزامير ونشرها فى ١٥٤٣ مع إهداء إلى غرامه الأول « سيدات فرنسا » . ووضع لها جوديميل موسيقى كما رأينا ، وبدأ نصف فرنسـا ينشدها . ولكن إعجاب لوثر وكالفن أيضاً بها شكك السوربون ، فشمت فيها رائحة البروتستنتية ، أو لعل مارو عاد إلى التمتمة بهرطقاته فى محنة نجاحه . وتجددت الحملة عليه ، ففر إلى جنيف . ولكنه وجد المناخ اللاهوتى فيها أشد صرامة مما تحتمله صحته ، فتسلل إلى إيطاليا ومات فى تورين (١٥٤٤) فى التاسعة والأربعين ، تاركاً ابنة غير شرعية لرعاية ملكة نافار :

٥ — رابليـــه

(أ) رابليـــه الإنســـان :

أن مؤلف « أمتع وأنفع ماروى من قصص »(٢٣) هذا المؤلف الفذ ، الواسع الحيلة ، الشكاك ، المرح ، المثقف ، البذىء — رأت عيناه النور فى ١٤٩٥ ، ابنا لموثق غنى فى شينون . وأدخل فى سن مبكرة جداً ديراً فرانسسكانيا . وقد شكا بعد ذلك من أن النساء « يحملن الأطفال تسعة شهور تحت قلوبهن . . . ولكنهن لا يطقن تربيتهم تسع سنوات . . .

ويكفي أن يضفن ذراعاً من القماش إلى ثيابهم ويحلقن شعرات لا أدرى كم عددها من قمة رءوسهم ليحولنهم طيوراً بيضع كلمات » . وهو يعنى جز شعورهم وتحويلهم رهباناً . وقد ارتضى الغلام حظه هذا لميله إلى الدرس ، ولعله كإرزمس اجتذبته مكتبة الدير إلى الكتب. وهناك التقى براهبين أو ثلاثة أخر راغبين فى دراسة اليونانية ، وقد شدهم هذا العالم القديم الفسيح الذى فتح لهم الدرس والبحث مغاليقه . وأحرز فرانسوا من التقدم ما جعل بوديه نفسه يبعث إليه بخطاب ثناء . وبدا أن الأمور تسير على ما يشتهى . وفى عام ١٥٢٠ رسم شكاك المستقبل قسيساً ، ولكن نفراً من كبار الرهبان شموا الهرطقة فى فقه اللغة ، فاتهموا الهلنستيين الشبان بشراء الكتب بالأتعاب التى يتلقونها نظير الوعظ بدلا من تسليمها للخزانة العامة . وحبس رابليه وراهب آخر حبساً انفرادياً ، وحرما الكتب وهى لهما نصف الحياة . ونمى إلى بوديه هذا الاتجاه الرجعى فلجأ إلى فرانسوا الأول ، وأمر الملك باطلاق سراح الأديبين ورد امتيازاتهما . وبفضل شفاعة أخرى صدر مرسوم بابوى أذن لرابليه بتغيير تبعيته وإقامته الديريتين . فترك الفرنسسكان ، ودخل بيتاً بندكتيا فى مايبزيه (١٥٢٤) ، وهناك أعجب به الأسقف جوفروا دستيساك إعجاباً حمله على أن يتفق مع رئيس الدير على السماح لرابليه بالذهاب حيث شاء للدرس ؛ وذهب رابليه ، ونسى أن يعود .

وبعد أن جرب عدة جامعات دخل مدرسة الطب فى مونبليه (١٥٣٠). ولا بد أنه كان قد حصل تعليماً سابقاً فى الطب ، لأنه نال درجة البكالوريوس فى الطب عام ١٥٣١ . على أنه لأسباب لا نعلمها لم يواصل دراسته لنيل الدكتوراة ، بل عاد إلى تجواله حتى استقر به النوى فى ليون فى ١٥٣٢ ، وجمع بين ممارسة الطب ودراساته الأدبية ، شأنه فى ذلك شأن سرفيتوس . ثم اشتغل مساعد تحرير للطباع سباستيان جريفيوس ونشر عدة نصوص

يونانية وترجم حكم أبقراط إلى اللاتينية . وانزلق برضاه إلى تيار الدراسات الإنسانية الذى كان يومها فى عنفوان تدفقه فى ليون . وفى ٣٠ نوفمبر ١٥٣٢ بعث بنسخة من « يوسيفوس » إلى إرزمس بخطاب زلفى يستغرب من رجل فى السابعة والثلاثين . ولكنك تشم فيه رائحة ذلك العصر الجياش بالحماسة :

« بعث إلى جورج دارمناك مؤخراً . . . بتاريخ فلافيوس يوسيفوس . . . وطلب إلى . . . أن أرسله إليك . وقد تحينت هذه الفرصة مشتاقاً ، يا أكثر الآباء إنسانية ، لأدلل لك بالتقدير الشاكر على احترامى العميق لك وعلى ولائى البنوى . أقول هل دعوتك بأبى ؟ أجدر بى أن أدعوك بأمى لو اتسع لذلك صدرك . فكل ما نعرف عن الأمهات ، اللائى يغذين ثمرة بطونهن قبل أن يرينها وقبل أن يعرفن حتى ما ستكون عليه ، واللائى يرعينها ويحمينهـا من قسوة الجو ، كل هـذا صنعته أنت بى . أنا الذى لم يكن وجهى معروفاً لك ولا كان اسمى المغمور ليستطيع أن يستهويك . لقد ربيتنى وغذوتنى من ذلك الصدر الطاهر ، صدر معرفتك المقدسة ، وكل ما أنا عليه ، وكل ما أساويه ، إنما أنا مدين به لك وحدك . ولو لم أجهر بهذه الحقيقة لكنت أشد الناس عقوقاً . تحية مرة أخرى أيها الأب المحبوب ، يا شرف وطنك ، ويا عماد الأدب ، ويا نصير الحقيقة الذى لا يقهر »[٢١] .

وفى نوفمبر من ذلك العام (١٥٣٢) نجد رابليه طبيباً فى الأوتيل ديو ، وهو مستشفى مدينة ليون ، يتقاضى راتباً قدره أربعون جنيهاً (١٠٠٠ دولار ؟) فى العام . ولكن يجب ألا نحسبه عالماً أو طبيباً مثالياً . صحيح أن ثقافته كانت منوعة وهائلة . فيبدو أنه كان كشكسبير له معرفة مهنية فى ميادين شتى — كالقانون والطب والأدب واللاهوت والطهو والتاريخ والنبات والفلك والميثولوجيا . وهو يشير إلى مئات الأساطير القديمة ، ويقتبس من عشرات المؤلفين القدامى ، ونراه أحياناً

يعرض علمه الواسع عرض الهواة . ولكنه شغل بالحياة شغلا لم يتح له وقتاً لبلوغ الدقة الشديدة فى دراسته . ولم تكن الطبعات التى نشرها نماذج تحتذى فى دقة التفاصيل . لم يكن فى طبعه أن يكون أديبا إنسانيا متفانيا كإرزمس أو بوديه ، فلقد كان يحب الحياة أكثر من الكتب . والصورة التى تركت لنا عنه صورة رجل تروع الناظر طلعته ، فارع القامة حلو الوجه ، ينبوع للثقافة ومحدث يشع نوراً وناراً(٢٥). ولم يكن سكيراً كما استنتجت خطأً رواية قديمة متواترة من تحياته للسكارى ومن خمرياته. بل انه على العكس عاش عيشة مهذبة الى حد معقول ، هذا إذا استثنينا طفلا غير شرعى أنجبه ،(٢٦) ولم يعش سوى فترة قصيرة بحيث يمكن اعتباره خطيئة بسيطة . وقد كرمته أسمى عقول جيله ، بما فيهم نفر عديد من أحبار الكنيسة . وكان فى الوقت نفسه يتصف بكثير من صفات الفلاح الفرنسى ، فيجد لذة فى أنماط الفلاحين الصرحاء المرحين الذين يلقاهم فى الحقول والشوارع ويستمتع بفكاهاتهم وضحكهم وبقصصهم الطويلة وعباراتهم البذيئة المتفاخرة . وقد طغت شهرته دون عمد منه على شهرة إرزمس لأنه جمع هذه القصص ، وربط بينها ، وحسنها ، ووسعها ، وأضفى عليها الكرامة بالعلم الكلاسيكى ورفعها إلى مقام الهجاء البناء ، وضمنها فى حرص ما حوته من فحش وبذاءة .

ومن هذه القصص قصة كانت آنئذ ذائعة فى كثير من أنحاء الريف ، روت أخبار مارد لطيف يدعى جارجانتوا ، وتحدثت عن شهيته الوحشية ، وعن غرامياته ومظاهر قوته العظيمة ، وكانت تنتشر هنا وهناك تلال وصخور ذكرت الروايات المحلية أنها تساقطت من سلة جارجانتوا أثناء مروره . وكانت هذه الأساطير لا تزال تروى فى عام ١٨٦٠ فى الكفور الفرنسية التى لم تسمع قط برابليه . وقد دون كاتب مجهول — ربما كان رابليه نفسه — على سبيل التفكه بعض هذه الخرافات وطبعها

فى ليون فى كتاب سماه « الأخبار العظيمة الثمينة للمارد الكبير الهائل جارجانتوا » (١٥٣٢) . وراج الكتاب بسرعة حمت رابليه على التفكير فى كتاب ملحق له عن ابن جارجانتوا . وهكذا ظهر فى سوق ليون المنعقدة فى أكتوبر ١٥٣٢ ، غفلا من اسم المؤلف ، كتاب عنوانه « الأعمال المرعبة المخيفة وأفعال البسالة التى قام بها بنتاجرويل الأشهر » . وكان هذا الاسم قد استعمل من قبل فى بعض الدرامات الشعبية ، ولكن رابليه أضفى على صاحبه محتوى وعمقاً جديدين . ونددت السوربون والرهبان بالكتاب لبذاءته ، وراج رواجاً حسناً . واستمتع به فرانسوا الأول ، ووجد بعض رجال الدين لذة فى قراءته . على أن رابليه لم يعترف بأنه مؤلفه إلا بعد مرور أربعة عشر عاماً ، فقد خشى أن يعرض للخطر سمعته كأديب ، إن لم يعرض حياته .

وكان لا يزال شديد التعلق بالدرس . حتى أهمل واجباته فى المستشفى فطرد . ولعله كان ملاقياً عنتاً فى كسب قوته لولا أن جان دبلايه أسقف باريس والمشارك فى تأسيس كليه فرنسا أخذ رابليه معه طبيباً فى بعثة إلى إيطاليا (يناير ١٥٣٤) . ولما عاد رابليه إلى ليون فى إبريل نشر فى أكتوبر « قصة جارجانتوا الكبير ، أبى بنتاجرويل ، وحياته المرعبة جداً » . وقد حوى هذا المجلد الثانى ، الذى أصبح بعد ذلك الجزء الأول من الكتاب كله ، هجاء مرحاً لرجال الدين حمل السوربون على التنديد به مرة أخرى . وسرعان ما راجت القصتان المنشورتان معاً رواجاً بز كل كتاب فى فرنسا باستثناء الكتاب المقدس و « محاكاة المسيح »(٣٧) . وقد قيل ن الملك فرانسوا ضحك وصفق استحساناً فى هذه المناسبة أيضاً .

ولكن لصق الإعلانات البروتستنتية المهينة فى ليلة ١٧ — ١٨ أكتوبر ١٥٣٤ على مبانى باريس وعلى باب قصر الملك نفسه بدل الملك من حامى الأدباء الإنسانيين إلى مضطهد المهرطقين . وكان رابليه قد

أخفى مرة ثانية أنه مؤلف الكتاب . ولكن الشكوك الكثيرة حامت حوله ، وحق له أن يخشى أن تطالب السوربون برأس الكاتب البذىء بعد أن حملت الملك فى ركابها . وهنا بادر جان دبلليه مرة أخرى إلى إنقاذه ، واختطف الكنسى الطيب الذى أصبح الآن كردينالا ذلك الأديب الطبيب ، والكاتب البذىء ، من مخبئه فى ليون وأخذه إلى روما (١٥٢٥) . وكان من حظ رابليه أن يجد على كرسى البابويه رجلا مستنيراً. فاغتفر له بولس الثالث إهماله واجباته الديرية والكهنوتية وأذن له بممارسة الطب . وعكف رابليه — على سبيل التعويض والتكفير — على تنقية الطبعات التالية من كتابه ، « المؤيد يومئذ تأييداً مضاعفاً » ، من الفقرات التى تسىء إساءة شديدة إلى الذوق التقليدى . ولما احتال عليه إتيين دوليه فنشر دون إذنه طبعة غير منقاة ، شطب اسمه من قائمة أصدقائه . ثم عاد إلى الدرس فى مونبلييه برعاية الكردينال ، ونال الدكتوراة فى الطب ، وحاضر الجماهير الكبيرة هناك . ثم عاد إلى ليون ليستأنف حياته طبيباً وأديباً . وفى يونيو ١٥٣٧ ذكر دوليه أنه فى درس تشريح شرح أمام جماعة من الطلاب جثة مجرم نفذ فيه حكم الإعدام .

بعد هذا لا نعرف عن حياته المتقلبة غير نتف من هنا وهناك . كان فى حاشية الملك خلال الاجتماع التاريخى بين فرانسوا الأول وشارل الخامس فى إنجمورت (يوليو ١٥٣٨) . وبعد عامين نجده فى تورين طبيباً لجيوم دبلليه ، شقيق[٢] الكردينال ، بعد أن أصبح سفيراً لفرنسا فى سافوا . وحوالى هذه الفترة وجد الجواسيس فى رسائل رابليه فقرات أحدثت ضجة فى باريس فسارع إلى العاصمة وواجه الموقف بشجاعة . ثم برأه الملك (١٥٤١) ، وعلى الرغم من تنديد السوربون من جديد بجارجانتوا وبنتاجرويل عين فرانسوا المؤلف المطارد فى وظيفة حكومية صغيرة هى وظيفة مأمور العرائض ، ومنحه إذناً رسمياً بنشر

الجزء الثانى من بنتاجرويل الذى أهداه رابليه شاكراً إلى مارجريت النافارية . وقد أثار هذا الجزء من الاضطراب فى أوساط اللاهوتيين ما رأى معه رابليه أن من الحكمة أن يلتجىء إلى متز ، وكانت يومها جزءاً من الإمبراطورية . وهناك قضى عاماً يشتغل طبيباً بمستشفى المدينة (١٥٤٦ — ٤٧) . وفى ١٥٤٨ رأى أن لا خطر عليه فى الرجوع إلى ليون ، وفى ١٥٤٩ عاد إلى باريس . وأخيراً حصل له حماته من رجال الكنيسة على وظيفة قسيس لأبرشية مودون الواقعة إلى الجنوب الغربى من العاصمة مباشرة ، وهكذا عاد هذا الكهل المزعج ، المطارد ، إلى ثيابه الكهنوتية . ويبدو أنه وكل إلى مرءوسيه أداء واجبات وظيفته الدينية واكتفى بالانتفاع بإيرادها (٢٨) . وكان على قدر علمنا لا يزال قسيس مودون حين نشر ما هو الآن الجزء الرابع من كتابه (١٥٥٢) . وفى هذا الموقف شىء من الشذوذ . وقد أهداه إلى أوديه كردينال شاتيون ، بإذن منه على الأرجح ، وواضح أنه كان فى فرنسا إذ ذاك بين رجال الكنيسة نفر أوتوا ثقافة كرادلة النهضة الإيطالية ونساشيهم . على أن السوربون نددت بالكتاب ، وحظر « البرلمان » بيعه . وكان فرانسوا الأول ومارجريت قد ماتا ، ولم يجد رابليه حظوة لدى هنرى الثانى المكتئب المزاج . فغاب عن باريس حيناً ثم عاد إليها سريعاً . وهنالك مات بعد مرض طويل . وتروى قصة قديمة أنه حين سئل على فراش الموت إلى أين يتوقع أن يمضى أجاب « أنا ماض لأبحث عن رتما كبيرة »(٢٩) إنها أسطورة ، ويا للأسف .

(ب) جارجانتوا

تنبىء مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب (أو الجزء الثانى فى الأصل) للتو بمذاق الكتاب كله ورائحته :

« يا أشرف السكارى وأذيعهم صيتاً . وأنتم يا أغلى القدبان المرحين ،

المفترى عليهم ، (لأنه إليكم أنتم دون سواكم أهدى كتاباتى) . . . لو أنكم تأملتم شكل سقراط وقدرتموه حسب مظهره الخارجى لما ساوى فى نظركم قشرة بصلة . . . إنكم يا تلاميذى الطيبين وغيركم من الحمقى المرحين ، المؤثرين الراحة والدعة ، إذ تقرءون العناوين السارة لبعض الكتب التى نخترعها . . . تتسرعون فى الحكم بأنه ليس فيها سوى النكات والدعابات الساخرة والحديث الفاجر والأكاذيب المروحة عن النفس . . . ولكن . . . حين تطلعون على هذا المقال ستجدون . . . تعليماً ذا تفكير أعمق وأكثر تجرداً . . . . سواء فيما يتصل بديننا أو شئون الحكم العام والحياة الاقتصادية . . . وقد يتكلم أحمق مغرور مشوش العقل بشر عن كتبى ، فلا تعبأوا به ، وامرحوا الآن يا أبنائى . واشرحوا صدوركم ، واقرأوا بابتهاج . . . . هيا إلى آخر كلمة » .

وهذا الكلام منقول عن ترجمة أوركهارت الشهيرة ، التى تتجاوز الأصل أحياناً ، ولكنها هنا تلتزمه بدقة ، حتى لتذكر الكلمات العنيفة التى لم يعد مسموحاً بها فى حديث المثقفين . وفى هاتين الفقرتين تطالعنا روح رابليه وهدفه : الهجاء الجاد مغلفاً فى تهريج يخفف من عنفه ، وملطخاً أحياناً بسناج خالص . ونحن نمضى فى هذه المغامرة على ما فيها من خطر ، شاكرين لأن الكلمة المطبوعة لا تنبعث منها رائحة خبيثة ، آملين أن نعثر وسط هذا الكوم من القمامة على بعض الأحجار الكريمة .

ويبدأ جارجانتوا بسلسلة نسب فريدة تحاكى أنساب التوراة شكلا . أما أبو المارد فهو جرانجوزييه ملك يوتوبيا ، وأما أمه فهى جارجاميل ، حملته أحد عشر شهراً ، ولما بدأت آلام مخاضها اجتمع أصدقاء الأسرة ليسمروا وهم يحتسون النبيذ ، زاعمين أن الطبيعة تكره الفراغ . ويقول الأب المخمور لزوجته بلهجة من لا يعرف الألم « امضى بشجاعة النعجة ، وأخرجى لنا هذا الغلام بسرعة ، وسنعكف بعدها على العمل فوراً . . .

لنصنع غيره » . وتتمنى الزوجة لحظة أن يلقى حظ أبيلار ، ويقترح هو أن ينجز ما تتمناه للتو ، ولكنها تعود فتعدل . أما جارجانتوا الجنين فاذ وجد المنفذ العادى للوليد مسدوداً بقابض أخذ فى غير أوانه . فقد « دخل وريد جارجاميل الأجوف » وتسلق حجابها الحاجز وعنقها ، ثم « انبثق من الأذن اليسرى » . وما ان ولد حتى راح يصيح . ويصيح بصوت علا حتى أسمع إقليمين : « الشراب ! الشراب ! الشراب ! » وخصص لطعامه ١٧,٩١٣ صفيحة من اللبن . ولكنه منذ البدء أبدى إيثاره للنبيـــذ .

ولما آن أوان تعليم المارد الصغير وتهيئته لارتقاء العرش ، عين له مرب خاص هو الأستاذ جوبلان الذى أحاله فتى غبياً ، لأنه حشا ذاكرته بالحقائق الميتة وأربك عقله بحجج الكلاميين . واضطر جارجانتوا إلى سلوك سبيل يائس ، فنقل الغلام ووضعه فى رعاية الأديب الإنسانى بونوكراتيس . وانطلق الأستاذ وتلميذه إلى باريس لتحصيل أحدث تعليم فيها . وكان جارجانتوا يركب فرساً ضخمة قطع ذيلها المفاف الغابات الفسيحة أثناء مرورها ، وهكذا أصبح جزء من فرنسا سهلا . ولما بلغا باريس ارتقى جارجانتوا برجاً من أبراج نوتردام واستهوته أجراس الكاتدرائية فسرقها ليعلقها حول عنق فرسه . وبدأ بونوكراتيس من جديد تعليم المارد الذى أفسد تعليمه ، وذلك باعطائه مسهلا هائلا ليطهر أمعاءه ومخه جميعاً ، ولا غرو فكلاهما وثيق الصلة بالآخر . فلما تنقى جارجانتوا على هذا النحو أولع بالتعلم وبدأ بحماسة يدرب جسده وعقله وخلقه فى وقت معاً . فدرس الكتاب المقدس والآداب القديمة والفنون ؛ وتعلم أن يعزف على العود والبيان وأن يستمتع بالموسيقى . وكان يجرى ويقفز ويصارع ويتسلق ويسبح ، ومارس الركوب والدفع بمنكبيه والمهارات التى يحتاج إليها المقاتل فى الحرب . والصيد ليربى شجاعته .

ولكى ينمى رئتيه كان يصيح حتى سمعته باريس كلها . وزار صناع المعادن وقاطعى الأحجار والصياغ والكيائيين والنساجين وصانعى الساعات والطباعين والصباغين ودرس حرفهم « باعطائهم شيئاً يشربونه » وكان فى كل يوم يشارك فى عمل بدنى نافع ، ويذهب أحياناً لحضور محاضرة أو مشاهدة تجربه أو الاستماع إلى « مواعظ الوعاظ الإنجيليين » (وتلك غمزة بروتستنتية) .

وفجأة استدعى جارجانتوا وهو يتلقى هذا التعليم كله إلى مملكة أبيه لأن ملكاً آخر يدعى بكروشول أعلن الحرب على جرانجوزييه . لماذا ؟ إن رابليه يسرق هنا قصة من كتاب بلوتارخ « حياة بيروس » ويروى أن قواد بكروشول راحوا يفاخرون بما يستطيعون فتحه من بلاد تحت قيادته : فرنسا وأسبانيا والبرتغال والجزائر وإيطاليا وصقلية وكريت وقبرص ورودس واليونان وأورشليم . . . ويغتبط بكروشول وتنتفخ أوداجه . غير أن فيلسوفاً عجوزاً يسأله : « وما نهاية كل هذه المتاعب والأسفار ؟ » ويجيب بكروشول : « حين نعود سنجلس ونستريح ونبتهج » . ويقترح عليه الفيلسوف هذا الرأى « ولكن هبك لم تعد إلى وطنك قط لطول الرحلة وخطرها ، أفلا يحسن بنا أن نستريح من الآن ؟ » وصاح بكروشول « كفى . امضوا بنا قدماً . إننى لا أخشى شيئاً . . . وليتبعنى من يحبنى » (١ — ٣٣) . وتكاد فرس جارجانتوا تنهى الحرب مع بكروشول بالفوز عليه لأنها أغرقت آلافاً من رجال العدو بدفقة بسيطة واحدة من بولها .

ولكن بطل الحرب الحقيقى هو الأخ يوحنا ، وهو راهب أحب القتال أكثر من الصلاة ، وسمح لتطلعه الفلسفى أن يغامر فى مسالك أكثر خطراً . فهو يتساءل مثلا « ما السبب فى أن فخذى السيدة النبيلة تبدوان دائماً غضتين رطبتين ؟ » — ومع أنه لا يجد فى كتب أرسطو أو بلوتارخ ما ينيره فى هذه المشكلة الجذابة ، فانه هو نفسه يجيب إجابات

غنية فى العلم بفنون الأفخاذ . وقد أحبه كل رجال الملك ، وهم يقدمون له من الطعام والنبيذ ما يشتهى ، ويدعونه لخلع رداء الرهبنة حتى يستطيع ابتلاع المزيد من الطعام ، ولكنه يخشى ألا تتوفر له الشهية الطيبة لو خلعه . ويذم المؤلف جميع النقائص التى يرمى بها المصلحون البروتستنت جماعة الرهبان ، عن طريق هذا العضو المرح من أعضاء هذه القبيلة : كالكسل والشره والإسراف فى الشراب والتمتمة بالصلوات والعداء للدرس والأفكار كلها ، اللهم الا رقعة متضائلة منها . يقول الأخ يوحنا : « فى ديرنا لا نعكف على الدرس أبداً مخافة أن نصاب بالتهاب الغدة النكفية » . (١ — ٣٩) .

واقترح جارجانتوا أن يكافئ الراهب على حسن بلائه فى الحرب بتعيينه رئيساً على دير قائم . ولكن يوحنا رجا بدل هذا أن يوفر له المال لتشييد دير جديد له قوانين « تناقض قوانين الأديار كلها » فيجب أولا ألا تقام حوله أى أسوار تحصره ، وأن يكون نزلاؤه أحراراً فى تركه حين يشاءون . ثانياً : يجب ألا تمنع النساء من دخول الدير ، ولكن لا يدخله منهن سوى « الجميلات الحسنات الصورة الدمثات الخاق » ممن تتراوح أعمارهن بين العاشرة والخامسة عشرة . ثالثاً : لا يقبل من الذكور سوى من كان بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، على أن يكونوا وسيمى الوجوه كريمى المولد والطباع ، ولا يسمح للسكيرين أو المتعصبين بالدخول ، ولا للمتسولين أو المحامين أو القضاة أو الكتبة أو المرابين أو الجشعين النهابين أو المنافقين المتزلفين بدخول الدير . رابعاً : لا يسمح بنذور للعفة أو الفقر أو الطاعة ، فللأعضاء أن يتزوجوا وأن يستمتعوا بالمال وأن يكونوا أحراراً فى جميع شئونهم . ويطلق على الدير اسم تليمى أى « ماشئت » ، أما قانونه الوحيد فهو « افعل ما تريد » لأن « الناس الأحرار الطيبى العنصر الحسنى التربية الكريمى المعشر أوتوا بالطبع

غريزة وحافزاً يدفعانهم للفعال الفاضلة ويبعدانهم عن الرذيلة ، وهذه الغريزة اسمها الشرف » (١ — ٥٧) . وقد قدم جاجارجانتوا المال اللازم لإقامة هذه الفوضى الارستقراطية ، وارتفع بناء الدير حسب المواصفات التي وضعها رابليه فى تفصيل أغرى المعماريين برسم رسوم له . وقد زوده بمكتبة ومسرح وحمام سباحة وملعب للتنس وآخر لكرة القدم وكنيسة صغيرة وحديقة وأرض للصيد وبساتين فاكهة واسطبلات و ٩٣٣٢ حجرة . لقد كان فندقاً أمريكياً مقاماً فى بلد للنزهة . على أن رابليه نسى أن يزود الدير بمطبخ أو أن يدلنا على من يقوم بالأعمال الوضيعة فى هذا الفردوس .

ب — بنتاجرويل

بعد أن خلف جارجانتوا أباه على العرش جاء دوره فى الإنجاب والتربية . فحين بلغ من العمر أربعمائة وثمانين وأربعة وأربعين عاماً أنجب بنتاجرويل من زوجته باديبيك التى ماتت وهى تلد الغلام فبكى عليها جارجانتوا « كما تبكى البقرة » و « ضحك كما يضحك العجل » حين رأى ولده القوى البدن . وشب بنتاجرويل حتى استفحل حجمه : وفى إحدى وجباته ابتلع رجلا عن غير قصد ، ولم يكن بد من إخراجه بعملية تعدين فى قناة المارد الصغير الهضمية ، ولما ذهب بنتاجرويل إلى باريس ليتلقى تعليمه العالى أرسل له جارجانتوا رسالة تشم فيها عبير النهضة الأوربية : —

ولدى الأعـز :

. . . . مع أن المرحوم أبى الطيب الذكر جرانجوزييه بذل ما وسعه من جهد لييسر لى الإفادة من جميع نواحى العلم والمعرفة السياسية ، ومع أن جهدى وعكوفى على الدرس قابلا رغبته هذه بل جاوزاها ، فان

الزمن كما تعلم جيداً لم يكن يومها مواتياً كما هو الآن للتعلم . . . لقد كان زمناً مظلماً تحجب سماءه غيوم الجهالة وينبعث فيه شيء من نحس القوط ونكبتهم ، القوط الذين دمروا كل الأدب الطيب حيثما استقرت أقدامهم ، ذلك الأدب الذى رد بفضل الله فى عصرى إلى سابق إشراقه وكرامته بحيث لا يكاد يسمح لى الآن بدخول الصف الأول فى مدرسة ثانوية للصبيان . . . .

أما اليوم فقد زودت عقول الناس بشتى العلوم . وأحييت العلوم القديمة التى ظلت منقرضة أجيالا كثيرة ، وأعيدت لغات الثقافة إلى نقائها القديم — وأعنى اليونانية (التى يخجل الإنسان بدونها من أن يعد نفسه أديباً أو عالماً) ، والعبرية ، والعربية ، والكلدية ، واللاتينية . كذلك شاع استعمال الطباعة ، أنيقة دقيقة بحيث لا يمكن تصور ما هو أرقى منها . . .

وفى نيتى . . . أن تتعلم اللغات تعليماً كاملا . . . أما التاريخ فلا يفتك حفظ أى جزء منه . . . وأما الفنون الحرة كالهندسة والحساب والموسيقى فقد أتحت لك تذوقها حين كنت بعد صبياً . . . فامض فيها قدماً . . . وأما الفلك فادرس كل أصوله ، ولكن دعك من التنجيم . . . لأنه ليس سوى غش وغرور خالصين . . . وأما القانون المدنى فانى أريدك أن تحفظ نصوصه عن ظهر قلب ثم تبحثها مسترشداً بالفلسفة . . . وأما أعمال الطبيعة فانى أود أن تدرسها بدقة . . . ولا يفتك أن تطلع بعناية على كتب الأطباء اليونان والعرب واللاتين ، ولا تحتقر التلموديين ، والقبلانيين ، واستكثر من التشريح لتلم إلماماً تاماً بذلك العالم الصغير ، أعنى الإنسان . كذلك اعكف فى بعض ساعات النهار على درس الكتاب المقدس : أولا العهد الجديد باليونانية ، ثم العهد القديم بالعبرية . . .

ولكن بما أن الحكمة كما قال سليمان الحكيم لا تدخل عقلا شريراً، والعلم بدون ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس ، فان من واجبك أن تخدم الله وتحبه وتخشاه . . . كن خدوماً لكل جيرانك وأحبهم كما تحب نفسك ، واحترم معلمك وتجنب حديث من لا ترغب فى التشبه بهم ، ولا تضيع المواهب التى منحك الله إياها . فاذا رأيت أنك حصلت كل ما يجب تحصيله من العلم فى تلك الناحية ، فعد إلى لكى أراك وأمنحك بركتى قبل أن أموت . » .

أبوك
جارجانتوا (٣٠)

وعكف بنتاجرويل على الدرس فى حماسة ، وتعلم لغات كثيرة ، وكان من الممكن أن يكرس وقته كله للقراءة والدرس لولا أنه التقى ببانورج . وهنا أيضاً يبرز التابع أكثر من السيد ، بأوضح حتى من بروز الراهب يوحنا ، كما يحجب سانشو بانزا أحياناً شخصية سيده دون كخوته . فرابليه لا يجد فى جارجانتوا ولا فى بنتاجرويل المجال الطليق لدعاباته البذيئة وألفاظه الصاخبة ، إنما هو فى حاجة إلى هذا المخلوق — الذى فيه أثر من الوغد ، ومن المحامى ، ومن الشاعر فيون ، ومن الفيلسوف — ليستخدمه أداة للهجو . وهو يصف بانورج (ومعنى الاسم : مستعد لعمل أى شىء) بأنه نحيل كالقط الجائع ، يسير فى حذر شديد « كأنه يمشى على قشر بيض » وأنه إنسان شهم وإن شابه بعض الفجور ، وأنه « عرضة لضرب من المرض . . . يسمى الإعسار » ، وأنه نشال ، « ومتشرد فاسق ، ومحتال ، وسكير . . . ورجل داعر جداً ، ولكنه فيما عدا ذلك خير الناس فى هذه الدنيا وأكثرهم فضيلة » (٢ — ١٤ ، ١٦) . وعلى فم بانورج يسوق رابليه أشد نكاته فحشاً . . . كان بانورج يمقت على الأخص ما درجت عليه نساء باريس من تزرير

أقمصتهن فى أعلى ظهورهن ، فقاضى النساء فى المحكمة . ولعله كان خاسراً دعواه ، ولكنه هدد بأن يبدأ عادة مماثلة فى سراويل الرجال . وهنا أمرت المحكمة بأن يترك النساء فتحة متواضعة ولكنها سالكة من الأمام (٢ — ١٧) . وحدث أن غضب بانورج من امرأة احتقرته . فرش ثوبها وهى راكعة للصلاة فى الكنيسة بسائل حيوان مدلل شديد الشهوة ، فلما قامت تبعها جميع كلاب باريس الذكور . وعددها ٦٠٠,٠١٤ فى ولاء إجماعى لا يعرف الكلل (٢ — ٢١ — ٢٢) . ويولع بنتاجرويل بهذا الوغد تخففاً من الفلسفة . برغم أنه أمير بلغ غاية التهذيب . فيدعوه لمصاحبته فى كل رحلاته .

وبينما تمضى القصة فى جذل إلى الجزء الثالث يناقش بانورج موضوع زواجه بينه وبين نفسه وبينه وبين غيره . فيعدد ما للمشروع وما عليه خلال مائة صفحة فيها المشرق . والكثير فيها ممل . ولكننا فى هذه الصفحات نلتقى بالرجل الذى تزوج امرأة خرساء . والفقيه الشهير بريدلجوس الذى ينتهى إلى أكثر أحكامه سلامة برمى الزهر . وتستوحى مقـدمة الجزء الرابع لوكيان فتصف « مجمعاً للآلهـة » فى السماء . وجوبيتر يشكو من الفوضى اللاأرضية . التى تسود الأرض . والثلاثين حرباً المستعرة فى وقت واحد . والكراهية المتبادلة بين الشعوب . وانقسامات اللاهوتيين ، وأقيسة الفلاسفة « فماذا نحن فاعلون بهذه الحرب حرب راموس وجالان — هذين اللذين يخرشان باريس كلها بعضها ببعض ؟ » — ويشير عليه الإله بريابوس بأن نحول هذين البطرسين Pierres إلى صخرتين (pierres) ، وهنا نرى رابليه يسطو على تورية من الكتاب المقـدس :

ثم يعود إلى الأرض فيسجل فى الجزئين الرابع والخامس(*) رحلات

(*) نشر الجزء الرابع فى ١٥٦٢ بعد موت رابليه بتسع سنوات . ولعل الستة عشر فصلا الأولى قد خلفها رابليه (٣١) ، أما الفصول الاثنان والثلاثون الباقية فنسبتها إليه مشكوك فيها .

طويلة أشبه برحلات جلفر ، خرج فيها بنتاجرويل وبانورج والأخ يوحنا وأسطول يوتوبى ملكى ليبحثوا عن « معبد القارورة المقدسة » ، وليسألوا هل يحسن ببانورج أن يتزوج . وبعد عشرات المغامرات ، وبعد التنديد بأصوام « الصوم الكبير » ، وبكارهى البابا من البروتستنت ، وبعباد البابا من المتعصبين ، وبالرهبان ، وبتجار الآثار المزيفة ، وبالمحامين (القطط ذات الفراء) ، وبالفلاسفة الكلاميين ، وبالمؤرخين . تنتهى الرحلة إلى المعبد . وعلى بوابته كتابة يونانية تقول : «إن فى النبيذ لحقاً » . وفى نبع قريب قارورة غمرت فى النبيـــذ إلى نصفها ينبعث منها صوت يقرقر قائلا « ترنك » ، وتقول الكاهنة باكبوك : إن النبيذ خير الفلسفات ، وإن « ما يميز الإنسان ليس الضحك بل شرب . . . . النبيذ الرطب اللذيذ » . ويسعد بانورج ان تؤيد الكاهنة ما كان يعرفه طوال الوقت . فيصمم على أن يأكل ويشرب ويتزوج ويتحمل العواقب كما يخلق بالرجال ، وهو ينشد أغنية عرسية بذيئة ، ثم تصرف باكبوك الجماعة بعد أن تمنحها هذه البركة « ليحفظكم ذلك المحيط الفكرى الذى يوجد مركزه فى كل مكان ، ولا يوجد له نهاية فى أى مكان ، والذى ندعوه الله ، فى رعايته القوية القادرة » . (٥ — ٤٧) . وهكذا تختم القصة العظيمة بمزيج مثالى من البذاءة والفلسفة .

(د) مضحك الملك :

أى معنى يتوارى خلف هذا الهراء ، وهل من حكمة فى هذا السيل الدافق من المرح الفالبرنى — البريابى ؟ يقول رابليه وهو يجرى الكلام على لسان أحد حمقاه « نحن مهرجى الريف فينا شىء من الحلاقة ، نميل إلى تحطيم الألفاظ وتفكيك أوصالها » . (٥ — ١٨) . إنه يحب الألفاظ ، وعنده منها معين لا ينضب ، وهو يخترع مئات من الكلمات الجديدة ،

ويشتقها كشكسبير من كل حرفة ومهنه. ومن كل ميدان فى الفلسفة أو اللاهوت أو القانون .وهو يضع قوائم بالنعوت أو الأسماء أو الأفعال، وكأنما يلذه تأملها (٣ — ٣٨) ، ثم يستكثر من المترادفات فى نشوة من الإطناب ، ولقد كان هذا الحشو من قبل حيلة قديمة فى المسرح الفرنسى(٣٢) . وهو جزء من فكاهة رابليه التى لا حد لها ولا ضابط، وفيض تتضاءل أمامه حتى فكاهة أرستوفان أو موليير . أما بذاءته فوجه آخر من وجوه هذا الفيض الذى لا يمكن التحكم فيه . ولعل بعضها رد فعل للنسك الديرى ، وبعضها لامبالاة تشريحية لا تستغرب من طبيب ، وبعضها تحد جرىء للحذلقة ، وكثير منها يساير أسلوب العصر . وما من شك فى أن رابليه قد غلا فى فحشه غلواً شديداً ، حتى أننا بعد أن نقرأ عشر صفحات أونحوها من التفاصيل الملوثة بالتبول والتناسل والإفراز والغازات نمل القراءة وننصرف عنها . ولم يكن بد من مجىء جيل جديد من التأثير الكلاسيكى ليروض هذا الفوران البركانى ويخضعه للنظام .

على أننا نغتفر هذه العيوب لأن أسلوب رابليه ينطلق معنا فى يسر كما انطلق معه؛ إنه أسلوب خال من التكلف والصنعة الأدبية ، أسلوب طبيعى سهل متدفق، هو بالضبط الأداة لسرد قصة طويلة . والسر فى حيوية رابليه هو الخيال مضافاً إليه النشاط مضافاً إليهما الوضوح . وهو يرى مئات الأشياء التى لا يراها معظمنا، ويلحظ دقائق لا حصر لها فى اللباس والسلوك والحديث ، ثم يجمع بينها بطريقة خيالية غريبة، ويطلق هذه الأخلاط يطارد بعضها البعض فوق صفحاته الضاحكة .

ثم تراه يستعير يمنة ويسرة جرياً على عادة جيله ، معتذراً عن هذا بما اعتذر به شكسبير من أنه يجود كل شىء يسرقه . فهو يتناول مئات من نتف الأمثال الواردة فى كتاب إرزمس « أداجيا »(٣٣) ، ويحكى

الكثير مما سبقه فى « مدح الحماقة » أو « الأحاديث » ، وهو يتمثل خمسين موضوعاً من بلوتارخ ، وذلك قبل سنوات من ترجمة آميو التى فتحت سجل العظماء هذا لأى لص من لصوص الأدب . وهو ينتحل من كتاب لوكيان « الحديث السماوى » وقصة فولنجو عن الخروف الذى أغرق ذاته ، ونجد فى كوميديات عصره قصة الرجل الذى ندم على أنه شفى زوجته من الخرس ، ويستعمل عشرات الأفكار التى توحى بها الخرافات والقصص الصغيرة التى انحدرت من فرنسا الوسيطة . وحين يصف رحلات بنتاجرويل نراه يعتمد على الحكايات التى نشرها رواد الدنيا الجديدة والشرق الأقصى . ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذه الاستعارات كلها ، ليس هناك مؤلف أكثر منه أصالة ، ولسنا نجد فى غير شكسبير وسرفانتيس مخلوقات واسعة الخيال ، مفعمة بالقوة والحياة ، كالراهب يوحنا ، أو كبانورج . على أن رابليه نفسه هو أهم خلق خلقه الكتاب ، إنه مزيج من بنتاجرويل ، والراهب يوحنا ، وبانورج ، وإرزمس ، وفيزاليوس ، ويوناثان سويفت ؛ مزيج ثرثار ، فوار ، محطم للأصنام ، عاشق للحياة .

وتعشقه للحياة هو الذى جعـــله يسلخ جلود أولئك الذين جعلوها أقل فتنـــة وإغراء . ولعله قسا بعض الشىء على الرهبان الذين لم يستطيعوا مشاركته ميوله أديباً إنسانياً ، ولا بد أن محامياً أو محامين قد أنشبا براثنهما فيه ، لأنه يمزق فراء المحامين فى غل شديد . يقول محذراً قراءه « أنصتوا إلى ، إن عشتم ست دورات أولمبية فقط مضافاً إليهما عمر كلبين ، فسترون قطط القانون هؤلاء سادة على أوربا بأسرها » . ولكنه يسوط أيضاً القضاة ، والمدرسين ، واللاهوتيين ، والمؤرخين ، والرحالة ، وباعة صكوك الغفران ، والنساء . ولا تكاد تعثر فى الكتاب كله على كلمة طيبة عن النساء ، وتلك هى أشد نقط رابليه عمىً ، ولعلها الثمن الذى

دفعه راهباً وقسيساً وأعزب لافتقاره طول حياته إلى الحنان .

وقد اختلف المتشيعون له فى أمره . أهو كاثوليكى أم بروتستنتى أم حر التفكير أم ملحد . فهو فى رأى كالفن ملحد . أما عاشقه أناطول فرانس فينتهى إلى هذا الحكم « فى اعتقادى أنه لم يصدق أى شىء »[٣٤]. وكان أحياناً يكتب كأشد ما يكون الكاثوليكيون سخرية من الناس واحتقاراً لهم ، كما ترى فى لغة الغنام فى حديثه عن أمثل الطرق لإخصاب الحقول (٤ — ٧) . كان يتهكم بالصوم ، وبصكوك الغفران . وبرجال محاكم التفتيش ، وبالمراسيم البابوية ، ويلذه شرح الشروط التشريحية المطلوبة فى المرشح للبابوية (٤ — ٤٨) . ويبدو أنه لم يؤمن بالجحيم (٢ — ٣٠) . وتراه يردد حجج البروتستنت الذين قالوا إن البابوية تنزح أموال الشعوب (٤ — ٥٣) ، وأن كرادلة روما يحيون حياة البطنة والنفاق (٤ — ٥٨ — ٦٠) . وكان يتعاطف مع المهرطقين من الفرنسيين ، وقد قال إن بنتا جرويل لم يطل مكثه فى تولوز لأن القوم هناك « يحرقون حكامهم أحياء كما تشوى الرنجة الحمراء » . — مشيراً بذلك إلى إعدام أستاذ قانون مهرطق (٢ — ٥) ولكن يبدو أن ميوله البروتستنتية اقتصرت على الإنسانيين من البروتستنت دون غيرهم . ولقد تبع إرزمس فى إعجاب . ولكنه لم يمل إلى لوثر إلا فى اعتدال . وقد صدف فى اشمئزاز عن جزمية كالفن وغلوه . كان يتسامح فى كل شىء إلا عدم التسامح . وكان كجميع الإنسانيين إذا أكرهوا على الاختيار يؤثر الكاثوليكية بأساطيرها وعدم تسامحها وفنونها . على البروتستنتية بقدريتها وعدم تسامحها ونقائها . وكثيراً ما أكد إيمانه بالعقائد الأساسية فى المسيحية ، ولكن لعل هذا كان من قبيل الحصافة فى رجل كان على استعداد فى سبيل الدفاع عن آرائه لأن يلقى عقاب الحرق دون سواه . ولقد أحب تعريفه لله حباً جعله (أو جعل من أكمل كتابه) . يعيده غير مرة (٣ — ١٣ ، ٥ — ١٤٧) . ويبدو أنه آمن بخلود النفس

(٢ — ٨ ، ٤ — ٢٧) ، ولكنه آثر بوجه عام حديث الموضوعات الداعرة على حديث الأخرويات . ولقد اتهمه فاريل بالارتداد لأنه قبل وظيفة كاهن مودون[٣٥] . ولكن هذا القبول كما فهمه واهب الوظيفة ومتلقيها على حد سواء لم يكن سوى سبيل إلى الرزق .

أما إيمانه الحقيقي فكان بالطبيعة . ولعله في هذه الناحية كان لا يقل عن جيرانه المحافظين إيماناً وسذاجة . لقد آمن بأن قوى الطبيعة تعمل للخير في النهاية ، ولم يقدر حيادها نحو الناس والحشرات على السواء حق قدره . وكان كروسو ، وعلى النقيض من لوثر وكالفن ، يؤمن بطبيعة الإنسان الخيرة ، أو يثق كغيره من الإنسانيين بأن التعليم الجيد والبيئة الطيبة كفيلان بجعل الإنسان خيراً . وقد نصح الناس كما نصحهم مونتيني بأن يتبعوا الطبيعة ، ولعله كان ينظر بعدم اهتمام خبيث بما قد يحدث عندها للمجتمع والحضارة . وقد يبدو في وصفه لدير تيليمى مبشراً بالفوضى الفلسفية ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ؛ فهو لا يسمح بدخول الدير إلا لمن يؤهله حسن تربيته وتعليمه وإحساسه بالشرف لامتحانات الحسرية .

لقد كانت « البنتاجروبليه » فلسفته النهائية . وعلينا ألا نخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة بنتاجرويليون . التي تعني عشباً مفيداً ليس في حقيقته غير القنب . وفائدته النهائية أنه يصلح لصنع أربطة رقبة مناسبة للمجرمين . أما البنتاجرويلية فهي العيش على طريقة بنتاجرويل في عشرة لطيفة متسامحة مع الناس والطبيعة ، وفي استمتاع شاكر بكل طيبات الحياة ، وفي تقبل بشوش لما يصيبنا من تقلبات ومن نهاية لا مفر منها . وقد عرف رابليه هذه البنتاجرويلية مرة بأنها « ضرب من فرح الروح كامن في احتقار أحداث الحياة » (٤ — المقدمة) . وهي تجمع بين فلسفات الرواقي زينون ، والكلبي ديوجين . والفيلسوف أبيقور :

وخلاصتها تحمل كل الأحداث الطبيعية برباطة جأش . والنظر دون تضرر إلى جميع الحوافز والعمليات الطبيعية ، والاستمتاع بكل لذه سليمة دون كبت دينى متزمت أو تبكيت لاهوتى للضمير . لقد كان بنتاجرويل « يتقبل كل شىء برضى ، ويفسر كل فعل بأحسن نية . لا يناكد نفسه ولا يزعجها . . . لأن كل ما تحويه الأرض من متاع . . . لا يساوى أن تضطرب من أجله عواطفنا أو تختل ، وأن نفكر أو نحير بسببه حواسنا أو أرواحنا » (٣ — ٢) . ويجب ألا نبالغ فيما تحويه هذه الفلسفة من عنصر أبيقورى . فخمريات رابليه لفظية أكثر منها كحولية . وهى لا تنسجم تماماً مع ما وصفه به أحد معاصريه من أنه رجل « طلق المحيا لطيف الوجه هادئه »(٣٦) . أما الخمر الذى احتفى به فهو خمر الحياة . إن هذا الأمير المزعوم لمدمنى الخمر يضع على فم جارجانتوا عبارة تصوغ فى بضع كلمات تحدى العصر الذى نعيش فيه «إن العلم بغير ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس » . (٢ — ٨) .

ولقد اعتزت فرنسا برابليه أكثر من اعتزازها بأى من عمالقة القلم فيها باستثناء مونتينى وموليير وفولتير . ووصفه إتيين باسكييه الذى عاش فى قرنه بأنه أعظم كتاب العصر . وحين تصلبت عادات المجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر تحت المحرمات والباروكات . وطغت الأشكال الكلاسيكية . فقد رابليه بعض مكانته فى ذاكرة الأمة ، ولكن حتى فى تلك الفترة اعترف موليير وراسين ولافونتين بتأثرهم به ، وأحبه فونتينيل ، ولابروبير ، ومدام دسفنيه . وانتحل باسكال تعريفه لله . أما فولتير فقد بدأ باحتقار جلافته . وانتهى بالولاء له . وحين تغيرت اللغة الفرنسية استعصى فهم رابليه على القراء الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولعله اليوم أكثر شعبية فى البلاد الناطقة بالإنجليزية منه فى فرنسا . ذلك أن السر توماس أوركهارت نشر فى ١٦٥٣

و١٦٩٣ ترجمة للجزئين الأول والثالث صاغها فى إنجليزية قوية لا تقل حيوية وتدفقاً عن الأصل الفرنسى . ثم أكمل بيتر دموتيه الترجمة فى ١٧٠٨ ، وبفضل جهود هذين الرجلين أصبح جارجانتوا وبنتاجرويل من عيون الأدب الإنجليزى . ولقد سرق منه سويفت كأنما بسند إلى حق انتمائه إلى الاكليروس . ولا بد أن ستيرن وجد فى الكتاب خميرة لسخريته اللاذعة . إنه أحد الكتب التى لا تنتمى إلى أدب بلد بعينه بل إلى الأدب العالمى . .

٦ — رونسار وجماعة البلياد (النجوم السبعة) Pléiade

كان فيض غامر من الشعر يتدفق خلال هذه الفترة على فرنسا . وقد وصل إلى علمنا أسماء نحو ٢٠٠ شاعر فرنسى لمعوا إبان حكم فرانسوا الأول وأبنائه . ولم يكن هؤلاء الشعراء أصواتاً جوفاء تصرخ فى برية لا تعبأ بهم ، بل مقاتلين يخوضون معركة أدبية — معركة الشكل ضد المضمون . ورونسار ضد رابليه — قررت طبيعة الأدب الفرنسى حتى عصر الثورة .

ولقد ألهمتهم حماسة معقدة . فهم من ناحية يتوقون إلى مباراة اليونان والرومان فى نقاء الأسلوب وكمال الشكل . ومنافسة كتاب السونيتات الإيطاليين فى رشاقة الكلام وجمال الأخيلة ، ولكنهم من ناحية أخرى مصممون على ألا يكتبوا باللاتينية كالأدباء الذين علموهم وأثاروا حماستهم ، بل بلغتهم القومية وهى الفرنسية . وهم فى الوقت ذاته يريدون أن يلينوا ويهذبوا هذه اللغة التى ما زالت خشنة ، وذلك بتعليمها الألفاظ والعبارات والتراكيب والأفكار التى سرقوها بحكمة من الآداب الكلاسيكية. وافتقار رواية رابليه إلى الشكل المحدد ، بما يتخللها من أحداث عرضية ، جعلها فى نظرهم إناء خشناً من الطين شكل باليد على عجل ثم أعوره

الطلاء والصقل . لذلك اعتزموا أن يضيفوا إلى حيوة رابليه « الأرضية » ضبطاً للشكل المصمم بعناية ، وللشعور الخاضع لحكم العقل .

وبدأت الحملة الكلاسيكية في ليون إبان حياة رابليه نفسه . فقد أنفق موريس سيف جانباً من حياته فيما خاله تحديداً لموقع قبر لورا حبيبة بترارك . ثم كتب ٤٤٦ مقطعاً شعرياً لحبيبته ديلي . ومهد الطريق أمام رونسار بفضل ما تميز به شعره من رقة حزينة . وكان أقدر منافسيه في ليون امرأة تدعى « لويز لابيه » راحت وهي مدججة بسلاحها الكامل تقاتل كأنها جان دارك أخرى في بربنيان . ثم هدأت ثائرتها بزواجها من صانع حبال أغضى — على طريقة الفرنسيين اللطيفة عن غرامياتها الجانبية . كانت تقرأ اليونانية واللاتينية والإيطالية والإسبانية . وتعزف على العود عزفاً ساحراً . وتحتفظ بصالون لمنافسيها وعشاقها . وقد كتبت بضع قصائد من أسبق وأروع ما كتب من سونيتات في اللغة الفرنسية . وحسبنا للحكم على شهرتها أن نستشهد بجنازتها (١٥٦٦) التي قال مؤرخ إخباريات أنها « كانت انتصاراً . فقد حمل نعشها مخترقاً المدينة ووجهها مكشوف ورأسها مكلل بتاج من الزهور .لقد عجـــز الموت عن أن يشوهها . وجلل أهل ليون قبرها بالزهور والدموع » .[٣٧] وعن طريق شعراء ليون هؤلاء انتقل الأسلوب والمزاج البتراركيان الى باريس ودخل إلى جماعة البلياد .

وكلمة البلياد ذاتها صدى يردد الكلاسيكية . ذلك أن إسكندرية القرن الثالث قبل الميلاد كان فيها كوكبة من شعراء سبعة أطلق عليهم هذا الاسم مأخوذاً من الثريا التي خلدت ذكر بنات أطلس وبليوني الاسطوريات . على أن رونسار ، ألمع نجوم البلياد الفرنسي . قل أن استعمل هذا اللقب . وكانت نماذجه التي حاكاها هي أناكريون ! وهوراس

لا ثيوقريطس أو كاياخوس الإسكندريان . وفى ١٥٤٨ التقى فى فندق صغير بتورين بيواكيم دبلليه Du Bellay ، واتتمر معه على توجيه الشعر الفرنسى صوب الكلاسيكية وضما إلى مشروعهما أربعة شعراء شبان آخرين هم : أنطوان دباييف ، ورينى بيللو ، وإتيين جوديل ، وبونتيس دتيار . ثم انضم إليهم أيضاً الأديب جان دورا الذى كان لمحاضراته عن الأدب اليونانى فى كلية فرنسا وكلية كوكبريه الفضل فى تأجيج حماستهم للشعراء اليونان الغنائيين . وأطلقوا على أنفسهم لقب البرجاد (اللواء) وأقسموا أن ينقذوا ربة الشعر الفرنسى من أيدى جان دمونج ورابليه الخشنة ، ومن محور فيون ومارو المفككة . وكانوا يشمئزون من لغة جارجانتوا وبنتاجرويل الصاخبة وحكمتهما المستترة ، ولم يروا أى ضابط كلاسيكى فى تلك الأفعال والنعوت المختلطة ولا فى تلك التدفقات البذيئة ، ولم يجدوا فيها أى شعور بجمال شكل المرأة أو الطبيعة أو الفن . ولاحظ أحد أعدائهم من النقاد أنهم سبعة شعراء ، فأطلق عليهم لقب « البلياد » . ولكن انتصارهم جعل من هذا اللقب ناراً على علم .

فى ١٥٤٩ أذاع الشاعر دبلليه البرنامج اللغوى لهذه الجماعة فى كتابه « دفاع عن اللغة الفرنسية وجلاء لها » . فأما الدفاع فقد قصد به أن فى الاستطاعة تمكين الفرنسية من التعبير عن كل ما عبرت عنه اللغات القديمة ، وأما الجلاء فقصد به أن فى استطاعة الفرنسية أن تكتسب بريقاً جديداً ، وأن تصقل ذاتها وتجلو نفسها بنبذ الكلام الخشن الذى يسود النثر الفرنسى ، والأغانى الشعبية ، والقصائد القصيرة المتكررة اللازمات ، والألوان القديمة من الشعر الفرنسى ، وأن تجدد وتثرى ذاتها باقتباس العبارات ودراســة الأشكال الكلاسيكية ، كما توجد فى أناكريون وثيوقراطيس وفرجيل وهوراس وبترارك . ولا غرو فقد أصبح بترارك فى نظر جماعة الشعراء السبعة كاتباً كلاسيكياً . وغدت السونيت أكمل الأنماط الأدبية قاطبة .

أما « بيير رونسار » فقد حقق فى شعره تلك المثل التى أعرب عنها دبلليه فى نثره الرائع . وهو سليل أسرة خلعت عليها النبالة مؤخراً . فقد كان أبوه رئيس خدم فرانسوا الأول . وعاش بيير حقبة من حياته فى البلاط الملكى الفخم . وكان تابعاً للدوفن فرانسوا . ثم لمادلين التى تزوجت جيمس الخامس ملك إسكتلنده . ثم مرافقاً للأمير الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الثانى . وكان يصبو إلى المشاركة فى المغامرات الحربية . ولكنه ابتلى بالصمم وهو بعد فى السادسة عشرة . ومن ثم فقد أخمد سيفه وجرد عوضاً عنه قلمه . والتقى بشعر فرجيل صدفة . فرأى فيه «كمالا فى الشكل واللفظ لا عهد لفرنسا به». وأخذ دوريه بيده فانتقل به من اللاتينية إلى اليونانية ، وعلمه قراءة أناكريون واسخيلوس وبندار وارستوفان . وصاح به الفتى « سيدى ! لم أخفيت عنى هذه الكنوز طوال هذا الزمن ؟»(٣٨) وحين بلغ الرابعة والعشرين التقى بالثائر دبلليه . ومن ذلك التاريخ وزع وقته باخلاص بين الأغانى والنساء والخمر .

وقد أكملت « قصائده الغنائية Odes » (١٥٥٠) هذه الثورة الغنائية . وكانت تقليداً صريحاً لهوراس . ولكنها أدخلت هذا اللون فى الشعر الفرنسى ، ووقفت القصائد على قدميها سواء فى نقاء اللغة أو جمال العبارة أو إحكام الشكل . وبعد عامين اتخذ بترارك نموذجاً له فى ١٨٣ قصيدة من السونيتات التى نشرها فى ديوانه « غراميات » وبلغ فيها من الرشاقة والصقل ما لم يبزه أحد قط فى الشعر الفرنسى . وكان يكتب ليتغنى الناس بشعره ، وقد لحنت له قصائد كثيرة فى حياته . بعضها لحنه كبار الموسيقيين أمثال جانكان وجودنيل . وكان فى قصائده يغرى النساء اللاتى يتغزل فيهن بتلك الدعوة القديمة ، دعوة الاستمتاع بالحياة ما دام حسنهن مضيئاً ، ولكنه حتى فى هذا الموضوع القديم راح يعزف نغمة أصيلة . كتنبيهه فتاة حذرة إلى أنها ستندم يوماً ما لأنها فوتت فرصة الغواية من

شاعر شهير مثله . يقول : « حين يتقدم بك العمر كثيراً . إذ تجلسين في المساء إلى المدفأة تتحدثين وتخيطين على ضوء شمعة ، ستنشدين قصائدي وتقولين في عجب : لقد أذاع رونسار اسمى يوم كنت جميلة . عندها لن يكون من بين خدمك الذين يسمعون بنبأ كهذا — حتى ولو بعث طنين المناسج النوم إلى أجفانهم — من لا يفيق وهو يسمع اسمى . ليباركك على ما حظيت به من مديح خالد . عندها سأكون راقداً تحت الثرى . شبحاً بلا عظم . ثاوياً تحت الآس . وستكونين يومها عجوزاً قد احدودب ظهرها وهي جالسة إلى المدفأة ، وستأسفين على حبي وعلى ازدرائك الفخور . فاستمعي إلى وعيشي الآن دون انتظار لغد . واقطفي منذ اليوم ورود الحياة » .

وكانت عظمة الأسلوب تليق ببلاط كاترين دمديتشي التي جلبت معها إلى فرنسا حاشية إيطالية حملت بترارك فيما حملت من كتب . وما لبث الشاعر الجديد - بمشيته المختالة برغم ما مسه من صمم . وبقوامه العسكري وشعر رأسه ولحيته الذهبي . ووجهه الشبيه بوجه هرمز كما وصفه براكسيتيليس — أن أصبح أثيراً لدى كاترين ، وهنري الثاني ، وماري ستيوارت . بل وإليزابث ملكة إنجلترة التي أهدته خاتماً من الماس بوصفها ابنة خالة السابعة عشرة . ووجدت أسطورة البلياد اليونانية الرومانية ترحيباً . وحين تحدث الشعراء عن أوليمبوس قدر البلاط لهم هذه التحية .(٣٩) فهنري هو النظير لجوبيتر ، وكاترين هي المقابل لجونو ، أما ديان فهي ديانا ، وأكدت هذا التشابه التماثيل التي نحتها المثال جوجون .

وبعد موت هنري واصل شارل التاسع مصادقة رونسار ، دون أن تسفر هذه الصداقة عن نتيجة طيبة . ذلك أن الملك الشاب كان يبغي أن ينظم له الشاعر ملحمة عن فرنسا تطاول ملحمة الاينيادة . وكتب الملك المغفل يقول : « أستطيع أن أعطى الموت ، أما أنت فتستطيع أن تعطى

الخلود(٥٠) . » وبدأ رونسار نظم « الفرنسيادة » المنشودة . ولكنه ألفى ربة شعره أقصر نفساً من أن تجرى هذا الشوط الطويل . وما لبث أن أقلع عن المحاولة المزعومة . وعاد إلى غنائياته وحبه . وقضى أيامه فى دعة وسلام حتى أدركته الشيخوخة وهو فى مأمن من ضجيج الدنيا . محافظاً فى السياسة والدين دون ما خطر . مكرماً من شباب الشعراء . محترماً من الجميع إلا من الموت . وقد وافته منيته فى ١٥٨٥ ودفن فى تور ، ولكن باريس منحته جنازة أولمبية مشى فيها كل أعيان العاصمة ليسمعوا أسقفاً يرتل « قصيدة جنائزية » .

أما الشعراء الذين خلعوا عليه لقب الإمارة فقدأصدروا كثيرا من دواوين الشعر . ولكنه شعر ميت برغم رقته . وكان أكثرهم كسيدهم وثنيين يعلنون كثلكتهم المحافظة حين يروقهم إعلانها . ويحتقرون الهيجونوت المتزمتين ، وكانوا أرستقراطيين كبرياء . ودما أحياناً ، وإن خوت جيوبهم ، يكتبون لدائرة من القراء أتيح لها من الفراغ ما يكفى للاستمتاع بالشكل . ورد رابليه على خصومتهم بالسخرية من حذلقتهم ، ومن تقليدهم الوضيع للبحور والعبارات والنعوت اليونانية والرومانية . ومن ترديدهم التافه للموضوعات القديمة وللأخيلة والمراثى البتراركية . وفى هذا الصراع بين المذهبين الطبيعى والكلاسيكى تقرر مصير الأدب الفرنسى . فأما شعراء فرنسا وكتاب مآسيها المسرحية فآثروا الطريق المستقيم الضيق ، طريق البناء الكامل والجمال المنحوت الدقيق . وأما كتاب النثر فقد استهدفوا إمتاع القراء بقوة مادتهم دون سواها . ومن ثم بات الشعر الفرنسى قبل عصر الثورة عصياً على الترجمة . فأنت لا تستطيع تحطيم إناء الشكل ثم إعادة صبه فى قالب أجنبى . على أن هذين النهرين التقيا فى فرنسا القرن التاسع عشر . وامتزج نصفا الحقيقة . واقترن المضمون بالشكل ، وعقد اللواء للنثر الفرنسى .

٧ — وايات وصـــرى

مر التأثير الإيطالى بفرنسا وبلغ إنجلتره ، لا فيضا دافقا بل نهراً ينطلق إلى البحر بمخارج كثيرة . فالعلم والدرس اللذان شغلا جيلا ألهما الأدب فى الجيل التالى ، وأصبح وحى اليونان والرومان المقدس إنجيل النهضة . فنى عام ١٤٨٦ مثلت مسرحيات بلوتوس فى إيطاليا ، ثم انتقلت سريعاً إلى بلاطى فرانسوا الأول وهنرى الثامن المتنافسين . وفى عام ١٥٠٨ افتتحت مسرحية كالاندرا للكاتب ببينا عهد الملهاة الكلاسيكية المكتوبة باللغة الوطنية فى إيطاليا . وفى عام ١٥٥٢ بدأت المأساة الكلاسيكية المكتوبة بالفرنسية فى فرنسا بمسرحية جوديل « كليوبطره أسيرة » ، وفى عام ١٥٥٣ أخرج نيكولاس أودال أول ملهاة إنجليزية ذات شكل كلاسيكى ، قال ناقد عنها «إن مسرحية رالف رويستر دويستر تشم فيها رائحة بلوتس»[٤١]. وهذا حق ، ولكنك تشم فيها أيضاً رائحة إنجلترة ، ورائحة هذه الفكاهة القوية التى كان شكسبير مزمعاً أن يقدمها للدهماء من رواد المسارح الإليزابيثية .

وتجلى التأثير الإيطالى فى أروع صوره فى الشعر إبان حكم أسرة تيودور . كان أسلوب العهد الوسيط لا يزال حياً فى بعض القصائد الشعبية الجميلة مثل « العذراء غير السمراء » (١٥٢١) ، ولكن حين انصرف الشعراء الذين أظلهم الملك الشاب هنرى الثامن برعايته إلى قرض الشعر اتخذوا بترارك وأشعاره الغنائية « الكانزونييري » مثلا يحتذونه . وقبل ارتقاء إليزابيث العرش بسنة واحدة نشر رتشرد توتل ، أحد الطباعين اللندنيين ، كتاباً سماه « منوعات » كشفت فيه قصائد رجلين من رجال البلاط البارزين عن انتصار بترارك على تشوسر ، وانتصار الشكل الكلاسيكى على فيض خماسة العهد الوسيط . أما أول الرجلين ، وهو السر توماس وايات Wyatt فقد قام برحلات كثيرة إلى فرنسا وإيطاليا بوصفه دبلوماسياً

فى خدمة الملك ، وجاب معه بعض الإيطاليين ليعاونوه فى تهذيب أصحابه وتمدينهم . ولقد أحرق أصابعه بنار الحب كما يخلق برجل بلاط أصيل يعيش فى عصر النهضة . وفى رواية أنه كان واحداً من عشاق آن بولين الأوائل . وأنه سجن فترة قصيرة حين أرسلت إلى برج لندن[٤٢] . وقد ترجم أثناء ذلك سونيتات بترارك . وكان أول من ضغط الشعر الإنجليزى فى تلك الصورة المحكمة .

فلما مات وايات بالحمى وهو بعد فى التاسعة والثلاثين (١٥٤٢) تلقى القيثارة من يده شاعر رومانسى آخر من بلاط هنرى يدعى هنرى هوارد (إيرل أف صرى Surrey) . وتغنى صرى فى شعره بمفاتن الربيع ، وأنحى باللوم على الصبايا العازفات عن حبه ، وأقسم ليكونن وفياً إلى الأبد لكل منهن بدورها . وقد ولع بالمغامرات الليلية فى لندن ، وقضى فى السجن فترة عقاباً له على تحديه غريماً فى مبارزة ، وقدم للمحاكمة جزاء أكله اللحم فى الصوم الكبير . وحطم بعض النوافذ بقوسه العابثة . وقبض عليه ثانية ، ثم أفرج عنه . وأبلى فى الحرب على أرض فرنسا بلاء حسناً دفاعاً عن وطنه إنجلتره . ولما عاد راح يداعب فكرة ارتقاء العرش الإنجليزى على مسمع من الناس ، فحكم عليه بالشنق وانتزاع أحشائه وتقطيعه أرباعاً ، واكتفى من ذلك كله بضرب عنقه (١٥٤٧) .

كان الشعر ترفاً عارضاً وسط حياة صرى العنيفة . وقد ترجم بعض أجزاء من الإنيادة ، وأدخل الشعر المرسل فى الأدب الأنجليزى ، وخلع على السونيت الشكل الذى استخدمه شكسبير فيما بعد . وقد وجه إلى أحد شعراء الرومان أنشودة رعوية حزينة تتغنى بحياة الريف الرتيبة وما يشيع فيها من سلام وطمأنينة ، ربما حين توقع أن مسالك المجد الذى لا حق لصاحبه فيه قد تورده موارد الحتوف . « أى مارتيال ، إليك الأشياء التى ألفيتها مفضية إلى الحياة السعيدة : الزهد فى المال الذى لا يكسب بالعرق ،

والأرض المثمرة . والفكر الهادىء . والصديق الكفؤ لصديقه ، لا بغضاء ولاشحناء ، لا تغيير فى السلطة ولا فى الحكومة ، حياة سليمة خلت من المرض ، وأسرة متصلة الأجيال ، وطعام بسيط لا ترف فيه ، وحكمة صادقة مقرونة بالبساطة ، وليل خلا من كل هم ، لا تستبد فيه الخمر بالعقل ، وزوجة وفية لا تلج فى النقاش ، ونوم يزجى الليل ، ورضى بما ملكت يداك . لا تخشى الموت ولا تخاف صولته »[٥].

٨ — هـانز زاكس

فى القرن الذى تلا مقالات لوثر تاه العقل الألمانى فى جدل المائة عام الذى مهد لحرب الثلاثين عاماً . وبعد عام ١٥٣٠ توقف نشر الكتب الكلاسيكية القديمة إلى حد كبير ، وقل عموماً عدد الكتب المنشورة ، وحل محلها سيل من الرسائل الجدلية . فراح راهب فرنسسكانى اسمه توماس مورنر ذو قلم حاد يسوط الناس يمنة ويسرة بسلسلة كتيبات عن الأوغاد أو الحمق (طائفة الأوغاد ، مجمع الحمق) . . . وكلها منقول بتوسع من كتاب برانت **Narrenschiff** سفينة الحمق(*) » . وكثير من الحمق الذين هاجمهم مورنر كانوا من رجال الكنيسة ، وفى البداية ظنه الناس لوثرياً ، ولكنه أعلن أن لوثر « كلب صيد متوحش ، ومارق مجنون ، غبى ، مجدف »[١٣] . فوصله هنرى الثامن بمائة جنية .

أما سبستيان فرانك فكان أنبل من صاحبه وأصفى معدناً . وكان كاهناً فى أو جزبورج حين أقبلت حركة الإصلاح البروتستنتى ، فرحب بها ثورة جريئة تمس إليها الحاجة ، وأصبح بعـد ذلك قسا لوثرياً

(*) نقل الكسندر باركلى مثل هذا من برانت فى كتابه « سفينة الحماقات » (١٥٠٩) مضيفا اليه طعنات من عنده .

(١٥٢٥) . وبعد ثلاث سنوات تزوج من أوتيلى بهام ، وكان أخوتها من القائلين بتجديد العماد ، فعطف على هذه الطائفة المضطهدة ، وندد بالتعصب اللوثرى ، فطرد من ستراسبورج ، واحترف صناعة الصابون فى أولم ليكسب قوته . وسخر من تحكم النبلاء الألمان فى سلامة العقيدة ، فقال : « إذا مات أمير فأدخل خليفته مذهباً آخر ، أصبح هذا المذهب للتو كلمة الله »[٤٤] . « تتسلط على جميع الناس اليوم شيرة مجنونة تزعم أننا يجب أن نؤمن . . . أن الله إلهنا وحدنا ، وأنه لا جنة ولا إيمان ولا روح ولا مسيح إلا فى مذهبنا » . أما إيمانه فكان الالوهيـــة الكونية التى لا توصد باباً . « إن قلبى ليس غريباً عن أى إنسان . فلى إخوة بين الترك والبابويين واليهود وجميع الشعوب[٤٥] » . وكان يتوق إلى « مسيحية . . . حرة لامذهبية . . . لا يقيدها أى شىء خارجى ، حتى ولا الكتاب المقدس[٤٦] . وأقصته أولم هى الأخرى إذ صدمتها هذه المشاعر التى لا تليق بجيله . فعمل طباعاً فى بال . وهناك مات شريفاً برغم فقره (١٥٤٢) .

ثم انغمس الشعر والدراما الألمانيان فى اللاهوت انغماساً أفقدهما صفة الفن وأحالها بعض أسلحة القتال . وفى هذه الحرب استحل الكتاب كل جعجعة وجلافة وفحش فى القول . ولو أنك استثنيت الأغانى الشعبية والتراتيل لما وجدت للشعر أثراً إلا فى وابل من طلقات القوافى المسمومة . ولم تعد الجماهير تتذوق مسرحيات القرن الخامس عشر الدينية التى ينفق على إخراجها بسخاء ، فحلت محلها مهازل شعبية تتهكم بلوثر أو بالبابوات .

على أن ألمانيا لم تعدم بين الحين والحين رجلا يطفو فوق هذا الحقد والعنف ليرى الحياة كلا متكاملا . ولو أن هانز زاكس استمع إلى قضاة نورمبرج لظل صانع أحذية كما كان ، ذلك أنه حين نشر تاريخاً منظوماً لبرج بابل دون أن يحصل على الإذن المدنى بطبعه ، صادروا الكتاب

وأكدوا لصاحبه أن الشعر ليس ميدانه ما فى ذلك ريب . وأمروه أن يلتزم قوالب أحذيته(٤٧) . ولكن هانز كان يتمتع ببعض الحقوق التى نالها بفضل مروره بالمراحل العادية التى أهلته لأن يصبح رئيس فرقة المغنين . ولعل المفارقة التى تبدو لنا فى كونه حذاء وشاعراً تنتفى إذا لاحظنا أن نقابة الغزالين والحذائين التى انتمى إليها كانت تمارس بانتظام الغناء الكورالى ، وتعزف فى حفلات موسيقية عامة ثلاث مرات فى السنة . ولهذه النقابة ، وفى أية مناسبة أخرى ، كان زاكس يكتب الأغانى والتمثيليات فى مثابرة وجد كأنه يلوك فى فمه مسامير أحذيته .

وعلينا ألا نحسبه شاعراً عظيماً ، فما هو إلا صوت عاقل مبتهج يعلو وسط قرون من الكراهية . وكان شغله الشاغل هم البسطاء من الناس لا العباقرة ، وتمثيلياته كلها تقريباً تدور حول هؤلاء . بل إن الله نفسه يبدو فى هذه التمثيليات أحد العامة الخيرين ويتكلم كما يتكلم قسيس الناحية . وبينا راح معظم الكتاب يتبلون صحائفهم بالمرارة أو التبذل أو فحش القول ، كان هانز يصور ويمجد فضائل المحبة والواجب والتقوى والوفاء الزوجى والحب الأبوى والبنوى . وقد بدأ بنشر قصائد (١٥١٦) ، تستهدف « زيادة الثناء على الله والتحدث بمجده » و « مساعدة إخوانه على أن يحيوا حياة التوبة »(٤٨) . وظلت هذه الروح الدينية تبعث الدفء فى فى كتاباته إلى النهاية . وقد نظم نصف الكتاب المقدس ، مستخدماً نص الترجمة التى قام بها لوثر ، وحياه هانز ولقبه بـ « بلبل فتنبرج » الذى سيغنى الدين ويرد الفضيلة . « استيقظوا ، استيقظوا ، فقد بزغ الفجر ، وهأنذا أسمع فى الغابات أنشودة تتردد . إنه البلبل العظيم تصدح موسيقاه فوق السهل والجبل . هاهو الليل يتلاشى فى الغرب ، والصبح يطلع من الشرق . والفجر يقبل فيطرد غيوم الليل المنصرم »(٤٩) .

وأصبح زاكس الآن شاعراً ملحمياً لحركة الإصلاح البروتستنتى ،

وراح يندد بأخطاء الكاثوليك فى إصرار ساخر . فكتب التمثيليات عن الأوغاد من الرهبان ، وأرجع قبيلتهم إلى الشيطان ، ونشر مسرحيات كاريكاتورية ساخرة وهزليات تعرض على سبيل المثال كاهناً يغوى فتاة أو يتلو القداس وهو مخمور . وفى ١٥٥٨ نشر «تاريخاً منظوماً للبابة جوانا » — وهى قصة خرافية تقبلها معظم الوعاظ البروتستنت على أنها تاريخ . ولكن هانز ندد باللوثريين أيضاً ، ورماهم بالتناقض الفاضح بين حياتهم وعقيدتهم . «إنكم معشر اللوثريين جلبتم على الإنجيل أشد الاحتقار بسبب نهمكم للحم ، وضجيجكم الصاخب ، وذمكم للكهنة ، وشجاركم وسخريتكم وسبابكم وغير ذلك من مظاهرسلوككم الشائن(٥٠) » . وشارك الكثيرين فى الحزن على ما شاب الجيل من جرى وراء الكسب وفساد فى الخلق .

ونحن إذا استثنينا فكرة فاجنر المثالية ، وجدنا على الجملة أن هانز زاكس ربما كان الممثل للرجل الألمانى الطيب برغم ما يشوبه من فجاجة وجلافة ، والذى لا بد كان أغلبية فى الجنوب على الأقل . ونحن نراه سعيداً فى بيته ، مترنماً بشعره طوال أربعين عاماً . ولما ماتت زوجته الأولى (١٥٦٠) تزوج وهو فى الثامنة والستين من حسناء فى ربيعها السابع والعشرين ، وظل ينعم بالحياة برغم هذه المحنة . ولا بد لنا من إنصاف عصر ومدينة مكنا حذاء من أن يصبح فى ظلهما أديباً إنسانياً ، وشاعراً ، وموسيقياً ، وأن يقتنى مكتبة كبيرة ويستعملها ، وأن يتعلم الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية ، وأن ينظم ٦٠٠٠ قصيدة ، وأن يعيش متمتعاً بقسط لا بأس به من الصحة والسعادة حتى وافته المنية وقد بلغ الثانية والثمانين .

٩ — ربه الشعر الإيبيرية ١٥١٥ — ٥٥

كانت هذه فترة مفعمة بالنشاط والحيوية فى أدب البرتغال . ذلك أن حافز الاكتشاف المثير ، والثروة المنتشرة بفضل التوسع فى التجارة ، والتأثير الإيطالى ، والأدباء الإنسانيين فى كويمبرا ولشبونه . والرعاية التى بسطها بلاط مثقف — كل هذا تضافر لإحداث ازدهار سيبلغ ذروته فى « أوزيادات » كاموينز (١٥٧٢) ; ونشبت معركة مرحة بين « المدرسة القديمة » — مدرسة جل فيتشنتى الذى تعلق بالموضوعات والقوالب القومية ، ومدرسة أبناء القرن الخامس عشر (ويقابله عندنا السادس عشر) الذين اتبعوا صا دى مراندا فى تحمسه للنماذج والأساليب الإيطالية والكلاسيكية . قد ظل جل فيتشنتى — وهو « شكسبير البرتغالى » — طوال أربعة وثلاثين عاماً مهيمناً على المسرح بفصوله التمثيلية البسيطة . . . ورضى البلاط عنه . وتوقع منه إحياء كل حدث ملكى بمسرحية ، وحين دب الشقاق بين الملك والبابا . سمح لجل بأن يهجو البابوية فى غير تحرج حتى قال الياندر بعد أن شاهد إحدى هذه التمثيليات فى بروكسل « ظننتنى فى قلب سكسونيا أستمع إلى لوثر »[٥١] . وكان هذا الكاتب المسرحى الخصب يكتب تارة بالإسبانية . وتارة بالبرتغالية . وتارة بكلتيهما ، متخللا كتاباته بنتف من الإيطالية والفرنسية واللاتينية الكنسية والعامية الريفية . وكثيراً ما كان يقطع حركة المسرحية — كشكسبير — بأشعار غنائية تتسلل إلى قلوب الشعب . وكان جل كشكسبير ممثلا كما كان كاتب تمثيليات ومديراً للمسرح ومشرفاً على تنظيم مكان وزمان المشاهد المسرحية . وكان إلى ذلك من خيرة صاغة الذهب فى جيله .

وفى ١٥٢٤ عاد فرانشسكو صادى مراندا من إيطاليا بعد أن قضى فيها ست سنوات وجلب معه الحمى الكلاسيكية التى أتت بها النهضة . وكما

فعل رونسار وجماعة البلياد فى فرنسا ، وسبنسر وسدنى فى إنجلترة ، رأى مراند أن يضفى الكرامة والوقار على الأدب القومى بصوغ موضوعاته وبحوره وأسلوبه على غرار القوالب الكلاسيكية . وقد سلك بترارك فى عداد الكلاسيكيين — شأنه فى ذلك شأن يواكيم دبلليه — وقدم السونيت لمواطنيه . وكما فعل جوديل ، كتب مراندا أول مأساة كلاسيكية بلغته القومية (١٥٥٠) ، وكان من قبل (١٥٢٧) قد ألف أول ملهاة نثرية برتغالية ذات شكل كلاسيكى . أما صديقه برنارديم ربيرو فنظم شعراً ريفياً بأسلوب فرجيل ، وعاش مأساة على طريقة تاسو ، فقد أثار بغرامه باحدى نساء البلاط ضجيجاً عالياً انتهى بنفيه من وطنه ، ثم عفى عنه ورضى عنه مليكه ، وأخيراً مات مجنوناً (١٥٥٢) .

وقد سجلت مدرسة من المؤرخين تنبض كتبهم بالحياة الانتصارات التى أحرزها المستكشفون . ومن هؤلاء المؤرخين كاسبار كوريا الذى ارتحل إلى الهند وارتقى فى السلم الوظيفى حتى أصبح أحد سكرتيرى ألبوكيرك ، وندد بفساد الموظفين الحكوميين ، ثم قتل فى ملقا فى ١٥٦٥ . وقد ألف إبان هذه الحياة النشيطة ، فى خمسة مجلدات ، كتاباً سماه « خلاصة موجزة » للفتح البرتغالى للهند ، مفعماً بالأوصاف الحية التى اتسم بها عصر التوسع هذا . أما فرناو لوبيس دى كاستانهيدا فقد قضى نصف حياته فى الشرق ، وأنفق جهداً امتد عشرين عاماً فى كتابة « تاريخ لكشف البرتغال وفتحها للهند » . أما جواو دى باروس فقد شغل عدة وظائف إدارية فى « بيت الهند » بلشبونه على مدى أربعين عاماً ، وأخجل سلفه بزهده فى جمع المال . وكانت المحفوظات والسجلات جميعها فى متناوله ، فألف بينها فى تاريخ اكتفى بتسميته « آسيا » ولكن الكتاب اكتسب اسماً آخر هو « العقود » لأن ثلاثة من مجلداته الأربعة الضخمة تناول كل منها فترة عشر سنوات تقريباً . والكتاب فى ترتيبه ودقته

ووضوحه بثبت للمقارنة بأى مؤلف تاريخى معاصر له باستثناء أعمال مكيافللى وجويتشارديني . ولو أخذ رأى أمته الفخورة لأنكرت هذين الاستثنائين ، فقد خلعت على بازوس لقب « ليفى البرتغالى » .

كانت اللغة القشتالية قد أصبحت اللغة الأدبية لأسبانيا . وعاشت اللهجات الجليقية والبلنسية والكتلونية والأندلسية فى الحديث الدارج ، وأصبحت اللهجة الجليقية اللغة البرتغالية ، ولكن استخدام القشتالية لغة للدولة والكنيسة أيام فرديناند وإيزابيللا وكسيمينيس ارتفع بهذه اللهجة إلى مقام لا يضارع . ومنذ ذلك العهد إلى يومنا هذا كان رنينها القوى الأداة المعبرة عن أدب أسبانيا . وقد أبدى بعض كتاب هذا العصر ولعاً باللغة . فضرب أنطونيو دى جيفارا المثل فى البحوث اللغوية والمحسنات البلاغية ، وقد أعانت ترجمة اللورد بيرنرز لكتاب جيفارا « مزولة الأمراء » (١٥٢٩) على صياغة ذلك التأنق اللفظى الذى يتسم به كتاب جون لايلى Euphues واللعب السخيف بالألفاظ الذى نلحظه فى كوميديات شكسبير الأولى .

وتغنى الأدب الأسبانى بالدين والحب والحرب . وبلغ الولع بروايات الفروسية مبلغاً حمل مجلس النواب الأسبانى فى ١٥٥٥ على أن يوصى بحظرها قانوناً . وقد صدر هذا المرسوم فعلا فى أمريكا الإسبانية ، ولو أنه نفذ فى أسبانيا لكان من الجائز أن نحرم من دون كخوته » . ومن بين الروايات التى أبقى عليها الكاهن أثناء تنقيته لمكتبة « الفارس » رواية ألفها جورجى دى مونتيمايور تدعى Dian enamorata (١٥٤٢) ، وهى تقليد لرواية « أركاديا » التى كتبها الشاعر الأسبانى الإيطالى ساناتزارو (١٥٠٤) ؛ وقد قلدها هى الأخرى السر فليب سدنى فى قصة أركاديا (١٥٩٠) ، ورواية مونتيمايور النثرية الشعرية مثال من مئات الأمثلة على تغلغل النفوذ الايطالى فى الأدب الأسبانى . وهنا أيضاً نرى المغلوب

وقد غلب غالبيه . وترجم جوان بوسكان « Cortigiano » لكاستليونى نثراً لا يقل روعة عن الأصل ، ووافق على اقتراح الشاعر البندقى نافاجيرو بتعميم شكل السونيت فى أسبانيا .

وللتو تقريباً ارتقى صديقه جاركيلازو دى لافيجا بالسونيت إلى مرتبة الكمال فى اللغة القشتالية . وكان ككثيرين من كتاب هذه الفترة الأسبان سليل أسرة عريقة ، إذ أن أباه كان سفيراً لفرديناند وإيزابللا فى روما . وقد ولد جاركيلازو بطليطلة عام ١٥٠٣ ، ونذر للجندية منذ صباه . وفى ١٥٣٢ أبلى أحسن البلاء فى رد الترك عن فينا ، وفى ١٥٣٥ جرح مرتين جراحاً خطيرة فى حصار تونس ، وبعد ذلك بشهور شارك فى حملة شارل الخامس الفاشلة على بروفانس . وفى فريجى تطوع بأن يقود هجوماً على قلعة تعرقل تقدم الجيش ، وكان أول المتسلقين لسور القلعة . فتلقى ضربة على رأسه قضت عليه بعد أيام وهو فى الثالثة والثلاثين . وفى إحدى قصائده السبعة والثلاثين التى تركها لصديقه بوسكان تسمع نغمة تتردد فى كل الحروب : يقول « والآن أصابت اللعنة أشد ما أصابت جيلنا هذا ، وكل ما مضى يتغير من سيء إلى أسوأ . وأحس كل منا وطأة الحرب — حرب تتلوها حرب ، ونفى وأخطار ورعب . وقد نشأ سمٌ فى صميم نفسه من رؤية دمه مراقاً على رمح وهو حى لأن الرمح لم يصب هدفه . وقد فقد بعض القوم بضاعتهم وكل متاعهم . وذهب كل شيء ، حتى اسم المنزل والأسرة والزوجة والذكرى . وما جدوى هذا كله ؟ أبعض الشهرة ؟ أم شكران الأمة ؟ أم مكان فى التاريخ ؟ سيكتبون يوماً كتاباً ، وعندها سنرى »[٥٢] .

ولم يعش ليره ، ولكن مئات الكتب خلدت ذكره فى إعزاز كبير . وسجل المؤرخون موته باعتباره أحد أحداث عصره الكبرى . وطبعت أشعاره فى مجلدات سهلة التداول حملها الجنود الأسبان فى جيوبهم

إلى عديد من الأقطار . ولحن الموسيقيون الأسبان شعره قصائد غنائية .
وأحال كتاب المسرحيات حوار قصائده الرعوية تمثيليات .

أما المسرحية الأسبانية فتوقفت عن الحركة . ولم تدر أنها عما قليل ستكون قريعاً للمسرحية الإليزابيثية . وكانت الملهاة ذات الفصل الواحد ، والهزليات الناقدة ، والفصول المأخوذة من الروايات الشعبية . تمثلها الممثلون الجوالون في الميادين العامة أو في أفنية الفنادق الصغيرة . وأحياناً في منزل أمير أو بلاط ملك . وقد حقق لوبي دى رويدا . الذى خلف جل فيثنتي باعتباره أهم مورد للفصول التمثيلية لهذه الفرق . لنفسه الشهرة . وأعطانا لفظاً جديداً . بهرجيه (البوبو) .

وكثر عدد المؤرخين . وعين شارل الخامس جونزالو فرنانديز دى أوفيدو مؤرخاً رسمياً للدنيا الجديدة . وأنجز عملا متوسط الجودة هو تأليف كتاب ضخم سيء الترتيب سماه « التاريخ العام والطبيعى لجزر الهند الغربية » (١٥٣٥) . وقد أثرى خلال الأعوام الأربعين التى قضاها فى أمريكا اللاتينية بفضل التنقيب عن الذهب . وساءه كتاب « قصة خراب جزر الهند » (١٥٣٩ وما بعدها) الذى فضح فيه بارتلمى دلاس كازاس الاستغلال القاسى للعمال الوطنيين المستعبدين فى المناجم الأمريكية . وكان لاس كازاس قد أبحر مع كولمبوس فى ١٥٠٢ . وأصبح أسقفاً لكيابا بالمكسيك . وكرس حياته كلها تقريباً للدفاع عن قضية الهنود الحمر . وقد وصف فى « مذكراته » التى وجهها للحكومة الإسبانية السرعة التى يموت بها الوطنيون فى ظروف العمل الشاقة التى فرضها عليهم المستعمرون . فقال إن الهنود لم يألفوا غير العمل الخفيف بسبب حرارة مناخهم وبساطة طعامهم . ولم يستخرجوا الذهب من مناجمهم بل قنعوا بأخذه من سطح الأرض أو من قيعان

الجداول الضحلة ، ولم يستعملوه إلا حلية . وقد قدر لاس كازاس أن السكان الوطنيين لجزر الهند تناقصوا من ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ (وهو رقم مغالى فيه ولا ريب) إلى ١٤٫٠٠٠ فى ثمانية وثلاثين عاماً(٥٣) . وانضم المرسلون الدومنيكان والجزويت إلى لاس كازاس فى الاحتجاج على هذا الرق الهندى(٥٤) ، وكانت إيزابالا لا تفتأ تندد به(٥٥) . ووضع فرديناند وكسيمينيس شروطاً رحيمة بعض الشيء لتجنيد العمال الهنود(٥٦) . والكن تعليمات هؤلاء السادة بشأن معاملة الوطنيين كانت تلقى الإهمال فى أغلب الأحيان أثناء استغراقهم الشديد فى شئون السياسة الأوربية .

وقام جــدل صغير حول فتح المكسيك ، ذلك أن فرانشسكو لوبيز دجومارا كتب يروى قصـــة هذا السطو الظالم فى انحياز شديد لكورتيز . واحتج برنال دياز ديل كاستيللو على الرواية بأن ألف فى ١٥٦٨ « التاريخ الحقيقى لفتح إسبانيا الجديدة » وفيه دان كورتيز على اختصاصه نفسه بكل مفاخر الفتح ومكاسبه دون أن يترك إلا أقل القليل للجنود البواسل من أمثال برنال ، هذا مع ثنائه على كورتيز بما يستحقه ؛ والكتاب يستهوى القارىء لأنه يزخر بشهوة الحركة وبهجة الانتصار والدهشة البريئة مما كانت ترفل فيه مكسيك الأزاتكة من ثراء وترف ؛ يقول « حين شاهدت ما أحاط بى من مناظر قلت لنفسى هذه جنة الدنيا » ثم يضيف « وهذا كله دمر » (٥٧) .

وقد نسبت أنضج المؤلفات فى تاريخ إسبانيا ، وأشهر رواية إسبانية كتبت فى هذه الفترة ، إلى كاتب واحد ، اسمه دنجو أورتادو دى مندوزا ولد بغرناطة بعد أن فتحها فرديناند بنحو أحد عشر عاماً . وكان أبوه قد ظفر بالمجد لحسن بلائه فى حصارها ، فعين حاكماً للمدينة بعد سقوطها ؛ وتلقى الفتى علومه فى سلمنقة ، وبولونيا ، وبادوا ، فحصل ثقافة عريضة فى اللاتينية واليونانية والعربية ، وفى الفلسفة والقانون ، وراح

يجمع النصوص الكلاسيكية بحماسة أمير من أمراء النهضة ، وحين أراده سليمان القانونى أن يحدد المكافأة التى يختارها جزاء خدمات معينة أداها للباب العالى ، لم يطلب سوى بعض المخطوطات اليونانية . وقد حظى بمكانة مرموقة خلال خدمته الدبلوماسية لشارل الخامس فى البندقية وروما ومجمع ترنت . ولما وبخه البابا بولس الثالث على حماه رسالة جافة من شارل إلى البابا ، أجاب بكل كبرياء النبيل الأسبانى : « إننى فارس . وكان أبى فارساً قبلى . وبهذا الوصف أرى أن واجبى يقتضينى أن أصدع بأوامر سيدى الملك ، دون أن يساورنى أى خوف من قداستكم ، ما دمت أراعى واجب التبجيل لنائب المسيح . إننى خادم لملك أسبانيا . . وما دمت ممثلا له فأنا فى مأمن حتى من سخط قداستكم »(٥٨) .

وتتشكك الأبحاث الحديثة فى صحة نسبة أول رواية بطلها متشرد (Picaresque) فى الأدب الأوربى لماندوزا . واسم الرواية « حياة ومغامرات لازاريللو دى تورميس » . ومع أنها لم تطبع إلا عام ١٥٥٣ فالراجح أنها كتبت قبل ذلك بأعوام كثيرة . ومما يثير الغرابة أن سليلا لأسرة لا تفوقها فى النبالة إلا الأسرة المالكة يختار لصاً ليكون بطلا لقصة ، وأشد غرابة أن رجلا ربى فى صباه ليكون قسيساً يهجو رجال الدين هجوا لاذعاً حمل محكمة التفتيش على حظر أى طبعات جديدة من الكتاب قبل تنقيته من جميع الشوائب المؤذية(٥٩) . ولازاريللو(*) هذا صبى متشرد يتعلم حيل السرقات الصغيرة أثناء اشتغاله قائداً لمتسول مكفوف ، ثم يرتقى إلى جرائم أكبر حين يعمل خادماً لكاهن ، ثم لراهب ، ثم لقسيس كنيسة خاصة ، ثم لناظر زراعة ، ثم لبائع متجول لصكوك

(*) ومعناها « لعازر الصغير » ، اشارة الى لعازر المسكين الوارد فى انجيل لوقا الاصحاح ١٦ ، ثم أصبح « متسولا صغيرا » ثم صبيا يقود شحاذا أعمى .

الغفران . ولكن حتى هذا اللص الشاب ، المتمرس بشئون هذه الدنيا ، تروعه بعض الغرائب التى لجأ إليها بائع صكوك الغفران المتجول ترويجاً لبضاعته . يقول « يجب أن أعترف أننى — ككثيرين غيرى — كنت مخدوعاً وقتها فحسبت سيدى آية فى القداسة »(٦٠). وقد أدخلت هذه الرواية المرحة « أسلوب المتشرد » gusto picaresco فى القصص . وابتعثت عدداً لا يحصى من الروايات المقلدة لها ، والتى بلغت الذروة فى أشهر قصص التشرد ، وهى جيل بلا (١٧١٥ — ٣٥) لمؤلفها ألين لساج Lesage .

واعتكف مندوزا فى غرناطة بعد أن نفى من بلاط فيليب الثانى لأنه جرد سيفه فى جدل بينه وبين غريم ، وهناك نظم أشعاراً خفيفة فيها من التحرر ما حال دون طبعها وهو حى ، ثم روى قصة ثورة المغاربة فى ١٥٦٨ — ٧٠ فى « تاريخ حرب غرناطة » فى نزاهة وإنصاف للمغاربة حبسا هذا الكتاب أيضاً عن النشر ، فلم يتيسر طبعه إلا فى ١٦١٠ . ولم يطبع منه وقتها غير جزء واحد ، واتخذ مندوزا من صالوست مثالا يحتذيه ولكنه تفوق عليه ، وسرق من تاسيتوس موضوعاً أو اثنين . ولكن يمكن القول على الجملة ان كتابه كان أول مؤلف أسبانى تجاوز مجرد السرد الإخبارى أو الدعاية إلى التاريخ الواقعى المفسر بادراك فلسفى والمعروض بمهارة أدبية . ومات مندوزا عام ١٥٧٥ وهو فى الثانية والسبعين ، وكان من أكثر الشخصيات تكاملا فى عصر حفل بالرجال المتكاملين .

فى هـــذه الصفحات العجلى يدخل الضمير دائماً فى سباق مع الزمن . وينبه القلم المستعجل إلى أنه ، كالمسافر المسرع ، إنما يمس السطح فقط . فكم من ناشرين ومعلمين وعلماء وأدباء ورعاة للعلم وشعراء وروائيين وثوار متهورين جاهدوا نصف قرن لينتجوا هذا الأدب الذى ضغطناه

فى هذه الصفحات . كم من روائع أغفلنا اسمها ، وأمم ضربنا صفحاً عن ذكرها . وأشخاص كانوا يوماً فى عداد العباقرة الخالدين أهملناهم إلا من كلمات معدودات ! ولكن لا حيلة لنا فى هذا . فالمداد ينضب ، ويجب قبل نضوبه أن نقنع بما يسفر عنه رشاشه وخطوطه من صورة غائمة لرجال ونساء يتخففون برهة من عناء اللاهوت والحرب . ويحبون أشكال الجمال كما يحبون سراب الحقيقة والقوة، يبنون الألفاظ وينحتونها ويصورونها — إلى أن يجد الفكر فنا يكسوه ، وتمتزج الحكمة بالموسيقى . وينهض الأدب ليتيح لأمة أن تتكلم ، ولعصر أن يصب روحه فى قالب شكّل فى شغف كبير ليصونه الزمن نفسه وينقله خلال مئات الكوارث تراثاً للبشرية :

الفصل السادس والثلاثون

الفن في عصر هولبين

١٥١٧ – ٦٤

---

١ – الفن ، والإصلاح البروتستنتي ، والنهضة

لقد فرض على الفن أن يقاسي من جراء حركة الإصلاح البروتستنتي ، ولو لمجرد إيمان البروتستنتية بالوصايا العشر . ألم يقل الرب الإله : « لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض » (خروج ٢٠ - ٤) فانى للفن التصويري أن يعيش بعد هذا التحريم الشامل ؟ فاما اليهود فقد صدعوا بالأمر وأغفلوا الفن . وأما المسلمون فكادوا يغفلونه . واكتفوا بجعل فنهم فناً زخرفياً ، تجريدياً إلى حد كبير ، يمثل في أغلبه الأشياء ، وقل أن يمثل الأشخاص . ولا يمثل الله أبداً . واتبعت البروتستنتية هذا الخط السامي بعد أن كشف العهد القديم من جديد ، وأما الكاثوليكية التي طغى تراثها اليوناني الروماني على أصلها اليهودي فقد تجاهلت هذا التحريم المرة بعد المرة . وشكل النحت القوطي القديسين والآلهة من الحجر ، وصور الرسم الإيطالي قصة الكتاب المقدس ، ونسيت النهضة كل النسيان هذه الوصية الثانية وسط ازدهار الفن التصويري ازدهاراً رائعاً : فلعل هذا الحظر القديم قصد به تحريم التصوير لأغراض السحر ؛ وكان لرعاة الفن في إيطالية النهضة من الفطنة وسلامة الإدراك ما جعلهم يضربون صفحاً عن تحريم بدائي لم يعد له الآن معنى .

وكانت الكنيسة ، وهى أعظم رعاة الفن قاطبة ، قد استخدمت الفنون لتنشئ غير المتعلمين على عقائد الإيمان وأساطيره . وبدا هذا الاستخدام أمراً معقولا فى نظر رجل الدولة الكنسى ، الذى شعر بأن الأساطير ضرورة لا غنى عنها للأخلاق. ولكن حين احتالت الكنيسة بأساطير — كأسطورة المطهر — لتجمع المال الذى تنفقه فى مختلف وجوه الإسراف والفساد ، تمرد المصلحون — ولهم العذر — على التصوير والنحت اللذين يثبتان الأساطير فى عقول الناس . وفى هذا الأمر كان لوثر معتدلا ، حتى إذا اضطره الأمر لمراجعة الوصايا . « أنا لا أزعم أن على الأنجيل أن يدمر كل الفنون كما يعتقد بعض المؤمنين بالخرافات . فانا على العكس أتمنى أن أرى جميع الفنون . . . . تخدمه تعالى وهو الذى خلقها ووهبنا إياها. إن ناموس موسى لم يحرم سوى تمثال الله »[1] . وفى عام ١٥٢٦ دعا أتباعه إلى « مهاجمة . . . الوثنيين الذين يعبدون عدو المسيح (بابا روما) بالتصوير »[2] : وحتى كالفن ، الذى كان أتباعه أشد محطمى الأصنام حماسة ، وافق على التماثيل موافقة محدودة فقال : « لست شديد التزمت بحيث أحكم بتحريم كل التماثيل . . . ولكن بما أن فن التصوير والنحت . . . آت من الخالق ، فانى أريد أن تصان ممارسة الفن نقية مشروعة ؛ لذلك يجب ألا يرسم أو ينحت شىء إلا ما يرى بالعين[3] » ؛ ولكن المصلحين الأقل إنسانية من لوثر ، والأقل حذراً من كالفن ، آثروا تحريم التصوير والنحت الدينيين بتاتاً ، وتجريد كنائسهم من الزخارف إطلاقاً . وأقصى « الصدق » الجمال لأنه كافر . أما فى إنجلتره واسكتلندة وسويسرة وشمالى ألمانيا فكان التدمير بالجملة وبلا تمييز ؛ وأما فى فرنسا فقد صهر الهيجونوت أوعية الذخائر والنفائس الدينية وغيرها من الآنية التى عثروا عليها فى الكنائس التى وقعت فى أيديهم ؛ وعلينا أن نتصور غيرة رجال خاطروا بحياتهم ليصلحوا الدين قبل أن نستطيع فهم سورة

الغضب التي دمرت في لحظات الانتصار تلك التماثيل التي عاونت على إخضاعهم . لقد كان التخريب وحشياً وهمجياً . ولكن الذنب فيه يجب أن يلقى على تلك المؤسسة التي ظلت قروناً تضع العقبات في طريق إصلاح ذاتها :

وانتهت حياة الفن القوطي في هذه الفترة . ولكن حركة الإصلاح البروتستنتي لم تكن سوى سبب واحد من أسباب موته . صحيح أن الانتقاض على الكنيسة الوسيطة رافقه زهد في طرز العمارة والزخرفة التي طالما اقترنت بهذه الكنيسة . بيد أن الفن القوطي كان يحتضر حتى قبل أن يتكلم لوثر . كان يشكو في فرنسا الكاثوليكية شكواه في ألمانيا وانجلترة المتمردتين . لقد احترق في وهج ناره . وكانت النهضة كما كانت حركة الإصلاح البروتستنتي كارثة عليه . ذلك أن النهضة أقبلت من إيطاليا التي لم تحب الفن القوطي قط ، والتي سخرت منه حتى وهي تقتبسه . وقد انتشرت النهضة أكثر ما انتشرت بين المتعلمين الذين لم يستطع تشككهم المهذب أن يتفهم ذلك الإيمان المشبوب . إيمان الحروب الصليبية وعهد القوط . وإذ تقدمت حركة الإصلاح البروتستنتي ، أصاب الكنيسة ذاتها ، التي وجدت في العمارة القوطية التعبير الفني الأسمى لها ، فقر شديد من جراء فقدها بريطانيا وألمانيا واسكندناوه ، ومن جراء الغارات التي شنها الملوك الكاثوليك على دخلها بحيث لم تقو على تمويل الفن بالسخاء الذي مولته به من قبل ، أو على تقرير الذوق والطراز الفني . وراحت النهضة — تلك الحركة ذات التأثير الدنيوي والوثني — تؤكد يوماً بعد يوم ميولها ونزعاتها الكلاسيكية التي تغلبت على التقاليد المقدسة : تقاليد الإيمان والشكل الوسيطين . وتخطى الناس — في غير تقوى — قروناً من التقوى والخوف ليستعيدوا من جديد مشاعر العصر القديم الشبربة ، مشاعر حب العالم وحب اللذة . وأعلنت الحرب على الفن القوطي بوصفه

فن الهمج الذين دمروا الإمبراطورية ، وعاد إلى الحياة الرومان المغلوبون ، فبنوا معابدهم من جديد ، وأخرجوا من ظلام الإهمال تماثيل آلهتهم ، وأمروا إيطاليا أولا ، ثم فرنسا وانجلتره ، أن تستأنف ذلك الفن الذى تجسد فيه مجد اليونان وعظمة الرومان . وهكذا هزمت النهضة الفن القوطى ، أما فى فرنسا فقد هزمت الإصلاح البروتستنتى .

(٢) فن النهضة الفرنسية

١ — مرض البناء

خاض الفن القوطى معركة فى المعمار الكنسى الفرنسى ليمد فى أجله حيناً ، ونجح فى معركته : فأضافت بعض الكاتدرائيات القديمة عناصر جديدة كانت بالضرورة قوطية ، وهكذا أكملت كنيسة القديس بطرس بمدينة كان خورسها الشهير ، وبنت كنيسة بوفيه جناحها الجنوبى ، وبذل الفن القوطى جهد المحتضر تقريبا حين شيد جان فاست فوق معبد هذا الجناح برجا ارتفع ٥٠٠ قدم (١٥٥٣) . فلما انهارت هذه الجرأة الشامخة فى عيد الصعود عام ١٥٧٣ وسقط البرج فوق الخورس المتهدم ، كانت الكارثة رمزاً لخاتمة أنبل الطرز فى تاريخ العمارة .

وارتفعت فى هذه الفترة مفاخر قوطية أقل من هذه شأناً فى بونتواز وكوتانس وأكثر من عشر مدن فرنسية أخرى . وفى باريس التى تكشف كل نظرة إليها عن معجزة من معجزات ماض مؤمن ، بنيت كنيستان قوطيتان جميلتان : سانت إتيين دمون (١٤٩٢ — ١٦٢٦) ، وسانت أوستاش (١٥٣٢ — ١٦٥٤) . غير أن ملامح النهضة تسللت إليهما : كالحجاب الحجرى الفخم الذى يستدير فوق الخورس فى كنيسة سانت إتيين ، والعمد المركبة والتيجان شبه الكورنثية فى سانت أوستاش .

كان حلول عمارة النهضة اللادينية محل العمارة القوطية الكنسية انعكاساً

لمذوق فرانسوا الأول ، ولاتكاء النزعة الإنسانية على اللذة الدنيوية دون الرجاء السماوى . وانصرفت الآن كل ثمرات الازدهار الاقتصادى ، والرعاية الارستقراطية ، ونزعة اللذة الوثنية — هذه كلها التى غذت من قبل نيران الفن فى إيطالية النهضة ، انصرفت إلى تغذية الجهود المخلصة التى بذلها المعماريون والرسامون والنحاتون والخزافون والصائغون فى فرنسا . واستقدم الفنانون الإيطاليون إلى فرنسا فمزجوا بين مهاراتهم وعناصرهم الزخرفية وبين ما تخلف من الأشكال القوطية . وتضافرت روعة التصميم الإيطالى ، وواقعية التصوير الفلمنكى ، وذوق الارستقراطية الفرنسية وخمالها الخنثوى ، لتنتج فى فرنسا فناً تحدى تفوق الفن الإيطالى وورث هذا التفوق . ولم يقتصر هذا الفن على باريس وحدها ، بل جاوزها إلى فونتنبلو ، ومولان ، وتور ، وبورج ، وأنجيه ، وليون ، ودیجون ، وأفنيون ، وإكس أن بروفانس .

وكان على رأس الحركة ملك أحب الفن حب المتيم المتحمس ولكن فى فهم وتمييز . وتركت روح فرانسوا الأول الخلية المشرقة طابعها على المعمار خلال حكمه . وكان يقول لفنانيه الجرأة الجرأة ! »(٤) ويتركهم ليجربوا بطريقة لم تسمح بها حتى إيطاليا من قبل . وقد تبين براعة الفنانين الفلمنك فى تصوير الأشخاص . فاحتفظ نخان كلويه رساماً لبلاطه ، وطلب إلى جوس فان كليف أن يرسم صوراً له ولحاشيته . ولكن إيطاليا كانت ملهمته فى جميع فنون الصقل والزخرفة . فقد زار ميلان وبافيا وبولونيا وغيرها من المدن الإيطالية عقب انتصاره فى مارنيانو (١٥١٥) ، وراح يدرس فى حسد عمارة هذه المدن ورسومها وفنونها الصغيرة : وقد نقل تشلليني عنه قوله : « أذكر جيداً أنى فحصت خيرة الأعمال الفنية التى أبدعها عظم الفنانين فى إيطاليا كلها »(٥) . ولعل هذه المبالغة أن تكون من صنع تشلليني المتحمس . على أن

فازارى يلاحظ فى مواضع كثيرة شراء فرانسوا الأول للآثار الفنية الإيطالية بواسطة عملاء له فى روما وفلورنسة والبندقية وميلان . وبفضل هذه الجهود استطاعت « موناليزا » ليوناردو ، و « ليدا » ميكلانجلو ، و « فينوس برونزينو وكيوبيده » ، و « مجدلية » تيشان (تزيانو) : ومئات الزهريات والمداليات والرسوم الصغيرة والصور الزيتية وقطع النسيج المرسومة — استطاعت هذه كلها أن تعبر جبال الألب لتستقر آخر المطاف فى اللوفر .

ولو كان الأمر بيد هذا الملك المتحمس لاستقدم نوابغ الفنانين الإيطاليين جميعاً . وكان هذا يقضى إغراءهم باغداق المال عليهم : قال لتشالينى واعداً « سأتخمك ذهباً » وجاءه بنفينوتو ومكث فترات متقطعة (١٥٤١ — ٤٥) ، كانت كافية لإرساء قدم الصياغة الفرنسية فى تقاليد من التصميمات البديعة والأساليب الفنية الرائعة . وكان دومنيكو برنابى « بوكادورو » قد وفد على فرنسا أيام شارل الثامن ، فوكل إليه فرانسوا الأول رسم « أوتيل دفيل » جديد لباريس (١٥٣٢) . وقد استغرق إنجازه قرابة قرن ، وأحرقه كومون ١٨٧١ ، فبنى من جديد وفق التصميم الذى وضعه بوكادورو . وأقبل ليوناردو فى شيخوخته (١٥١٦) ، وقدمت إليه دنيا الفن والنبالة الفرنسية فروض العبادة ، ولكننا لا نعرف له أثراً أبدعته يداه فى فرنسا . وجاء أندريا ديل سارتو (١٥١٨) ، ولكنه سرعان ما هرب . وأغرى جوفانى باتيستا « إلروسو » بالرحيل عن فلورنسة (١٥٣٠) فأقام بفرنسا حتى مات منتحراً . وتلقى جوليو رومانو دعوات عاجلة ، ولكن مانتوا كانت تفتنه بسحرها ؛ على أنه أوفد مساعده النابغة فرانشسكو بريماتيتشيو (١٥٣٢) ، وجاء فرانشسكو بللجرينو ، وكذلك جاكومو دا فنيولا ، ونيكولو دللاباتى ، وسبستيانو سرليو ، وربما كثيرون غيرهم . وشجع الفنانون الفرنسيون فى الوقت ذاته على الذهاب إلى إيطاليا ودراسة قصور فلورنسه وفرارا وميلان وكنيسة القديس

بطرس الحارى تشييدها فى روما . ولم يحدث مثل هذا النقل الفنى للدم الثقافى منذ أن غزا الفن والفكر اليونانيان روما القديمة .

وساء الفنانين الوطنيين والفلمنلكيين هذا الإغواء الإيطالى ، وسجل تاريخ العمارة الفرنسية احتدام معركة ملكية طوال نصف قرن (١٤٩٨ — ١٥٤٥) بين طراز قوطى تأصلت جذوره فى التربة الفرنسية وسط حب الناس له وتعلقهم به ، وبين البدع الإيطالية المتسللة إلى فرنسا فى أذيال الفاتحين المغلوبين . وتجلى الصراع فى الحجر فى قصور اللوار . ففيها ظل الفن القوطى صاحب الكلمة العليا ، وسيطر مهرة البنائين الغالبين على تصميم البناء : قلعة إقطاعية يحيط بها خندق يحميها ، وأبراج أشبه بالحصون تعلو فى الأركان فى سمت عمودى جليل ، ونوافذ فسيحة ذات عمد لتغرى الشمس بالدخول ، وأسطح مائلة تنزلق من فوقها الثلوج ، ورواشن ناتئة من السقوف كأنها المونوكلات . على أنه سمح للغزاة الإيطاليين بخفض الباكية المدببة لتعود إلى شكلها المستدير القديم ، وينتظم الواجهات فى صفوف من النوافذ المستطيلة المدعمة بالعمد والمتوجة بالقواصر ، وزخرفة الداخل بزخارف كلاسيكية من الأعمدة والتيجان والأفاريز والقوالب والحليات المدورة والنقوش الغريبة والحليات القرنية المنحوتة الممثلة للنبات والزهر والفاكهة والحيوان وصدور الأباطرة والآلهة الأسطورية . كان الطرازان القوطى والكلاسيكى من الناحية النظرية متناقضين . ولكن مزج الفرنسيين بينهما فى هذا الجمال المتسق بفضل التمييز والذوق الفرنسيين أعان على جعل فرنسا يونان العالم الحديث .

وتسلطت على فرنسا ، أو قل على فرانسوا « حمى البناء » كما سماها قائد أخذ منه العجب كل مأخذ(٦) . فأضاف إلى قصر بلوا القديم (١٥١٥ — ١٩) للملكة كلود جناحاً شمالياً كان مهندسه المعمارى فرنسيا يدعى جاك سوردو ، ولكن الطراز الذى بناه به كان طراز النهضة

بعينه . وإذ رأى سوردو من غير المناسب أن يبنى سلماً داخل الجناح المضاف فقد صمم رائعة من روائع العصر المعمارية — وهى بيت للسلم حلزونى خارجى يرقى فى برج مثمن ، بثلاثة طوابق ، إلى بهو معمد أنيق يبرز من السطح : وكل طابق يحليه زخرف فاخر من شرفة منحوتة .

وبعد أن ماتت مليكته المرهقة ، وجه فرانسوا شغفه بالمعمار إلى شامبور ، وتقع على ثلاثة أميال جنوبى اللوار وعشرة أميال شمال شرقى بلوا . وكان أمراء أورليان قد بنوا هناك استراحة للصيد ، فبنى فرانسوا عوضاً عنها قصراً غلب عليه الطراز القوطى ، وبلغ اتساعه حداً احتاج معه إلى جهد ١٫٨٠٠ عامل على مدى اثنى عشر عاماً ، ولا غرو فقد احتوى على ٤٤٠ حجرة ، ومرابط للخيل يصل عددها إلى ١٫٢٠٠ ; وأبدع مصمموه الفرنسيون رسم واجهته الشمالية ولكنها اختلطت بمتاهة من الأبراج ، و « الفوانيس » ، و القمم ، والزخارف المنحوتة . وميزوا داخل القصر ببيت للسلم حلزونى فخم جداً ، فريد بممره المزدوج الذى يفصل المصعد عن المهبط . وكان فرانسوا يؤثر شامبور ويراها مكاناً ممتعاً للصيد ، وفيها أحبت حاشيته أن تحتشد فى كل زينتها ، وفيها قضى سنى عمره الأخيرة . وقد دمر الثوار فى ١٧٩٣ معظم الزخرف الداخلى للقصر بدافع الانتقام المتأخر من إسراف الملوك الفرنسيين ، وهناك قصر آخر شيد على عهد فرانسوا — وهو قصر مدريد فى غابة بولون — وقد حلاه جيرولامو ديللا روبيا بواجهة من الخزف الإيطالى (الميوليك) ، ولكنه دمر تدميراً تاماً أيام الثورة .

على أن الإسراف لم يقتصر على الملك وحده . ذلك أن كثيراً من مساعديه شادوا لأنفسهم قصوراً ما زالت تبدو وكأنها مجلوبة من أرض الجان . ومن أروعها آزيه — لو — ريدو ، على جزيرة فى الآندر ، أما صاحبه

جيل برتيلو ، الذي بناه فى ١٥٢١ ، فلم يكن خازناً لفرنسا عبثاً ، وبنى توما بوييه كبير مأمورى الضرائب فى نورماندية قصر شينونسو (١٥١٣ وما بعدها) ، وأعاد جان كوتو وزير المالية بناء قصر مانتنون ، وشيد جيوم دمونمورنسى فى شانيتى (١٥٣٠) قصراً فخماً كان ضحية أخرى من ضحايا الثورة . وبنى ابنه آن دمونمورنسى ، أحد كبار موظفى الأمن فى فرنسا ، قصر إيكوان (١٥٣١ — ٤٠) على مقربة من سان دنيس . ورمم جان لبريتون ، وزير الدولة ، قصر فيللاندريه ، وأكمل شارل دسبينى قصر أوسيه . أضف إلى هذه كلها « أوتيلات » أو قصور فالنسى ، وسمبلانسى فى تور ، واسكوفيل فى كان ، وبرنوى فى تولوز ، ولالمون فى بورج ، وبور — ترولد فى روان ، وعشرات غيرها ، وكلها من نتاج هذا العهد المسرف ، وفى وسعنا أن نحكم الآن على مدى ثراء النبلاء وفقر الشعب فى تلك الفترة .

وأحس فرانسوا أن قصر فونتنبلو الذى يسكنه لايفى بأغراضه ، فقرر أن يعيد بناء ما بناه لويس السابع ولويس التاسع من قبل ، لأن فونتنبلو كانت كما قال تشللينى « أحب بقاع المملكة إلى الملك » . لذلك رمم البرج المحصن والكنيسة . أما باقى القصر فهدم ، وأقام جيل دبريتون وبيير شامبيج مكانه ، بطراز النهضة ، مجموعة من القصور ربط بينها « بهو فرانسوا الأول » الرشيق . أما مظهر القصر فلم يكن جذاباً ، ولعل الملك رأى — كما رأى أقطاب التجارة بفلورنسة — أن واجهة ضخمة لقصر قريب جداً من المدينة قد تثير حسد الجماهير . فاحتفظ بميوله الجمالية ليشبعها بزخرفة الداخل ، واعتمد فى هذه المهمة على فنانين إيطاليين نشئوا على التقاليد الزخرفية التى أرساها رفائيل وجوليو رومانو .

وظل إل روسو — الذى اشتق لقبه هذا من تورد وجهه — عشر سنوات (١٥٣١ — ٤١) عاكفاً على زخرفة بهو فرانسوا الأول . ويصف فازارى

هذا الفنان الذى كان يومها فى عامه السابع والثلاثين بأنه رجل « ذو طلعة مشرقة ، وحديث رزين لطيف ، موسيقار كفء ، وفيلسوف ضليع » و « معمارى ممتاز » ، وهو إلى ذلك نحات ومصور[٧] . وكذلك كان الرجال المتكاملون من أهل عصر التوسع الذى نحن بصدده . وقسم روسو الجدران إلى خمس عشرة حشوة ، كلها محلى بطراز النهضة المسرف : قاعدة من السنديان الجوزى المنقوش والمطعم ، ولوحة جصية جدارية ذات مناظر من الأساطير الكلاسيكية أو التاريخ ، ومحيط غنى من الزخارف الجصية فى التماثيل ، والودع ، والسلاح ، والمداليات ، وأشكال الحيوان أو الإنسان ، وأكاليل الزهر أو الفاكهة ، ثم سقف من الخشب العميق الحفر يكمل تأثير اللون الدافىء ، والجمال الحسى ، والبهجة العابثة . وكان هذا كله ينسجم غاية الانسجام مع ذوق الملك ، فأنعم على روسو ببيت فى باريس ، وبمعاش قدره ١٫٤٠٠ جنيه (٣٥٫٠٠٠ دولار ؟) فى العام . يقول قازارى « وعاش الفنان فى بذخ النبلاء ، يحف به خدمه وخيوله ، ويولم الولائم لأصدقائه »[٨] . وقد جند لخدمته من المصورين والنحاتين ستة من الإيطاليين ، وعدة فرنسيين ، وهم الأصل والنواة لـ « مدرسة فونتنبلو » . وفى قمة نجاحه وعظمته قضى طبعه الإيطالى الحاد على نشاطه . ذلك أنه اتهم أحد مساعديه المدعو فرانشسكو بللجرينو بالسرقة . ولكن براءة بللجرينو تكشفت بعد أن عذب عذاباً شديداً . وشعر روسو بالخزى وتأنيب الضمير ، فتجرع السم ومات معذباً ، ولما يجاوز السادسة والأربعين (١٥٤١) .

وحزن عليه فرانسوا ، ولكنه كان قد وجد فى بريماتتشيو فناناً قادراً على مواصلة عمل روسو بالأسلوب ذاته ، أسلوب الخيال الشهوانى . كان بريماتتشيو فتى وسيماً فى السابعة والعشرين يوم وطىء أرض فرنسا عام ١٥٣٢ . وسرعان ما تبين الملك كفاياته المتعددة معمارياً ومثالا ومصوراً.

فعين له عدداً من المساعدين ، وراتباً طيباً ، ثم اختصه بعد ذلك بموارد أحد الأديار ، وهكذا حولت عطايا المؤمنين إلى فن لعله كان يصدم مشاعر الرهبان لو شهدوه . وصمم بريماتتشيو رسوماً للمصنع الملكى للنسيج المرسوم ، وحفر رفاً رائعاً لمدفأة حجرة الملكة إليونورا بقصر فونتنبلو ، ورد على رعاية الدوقة ديتامب وحمايتها إياه بتزيين حجرتها فى القصر بصور وتماثيل جصية . وقد ماتت الصور مرات تحت ترميماتها العديدة ، ولكن التماثيل محتفظة بروعتها ، وبينها تمثال من الجص لسيدة ترفع يديها إلى طنف ، وهو من أبدع التماثيل فى الفن الفرنسى . ترى كيف يسع ملكاً تعشق مثل هذا العرى المتظاهر بالاحتشام أن يرتضى الكاثلفنية بديلا عن كنيسة تبتسم فى تسامح لتصوير هؤلاء العاريات الفاتنات ؟ .

ولم تهتز مكانة بريماتتشيو ولا هذب أسلوبه بعد موت هذا الملك « الساطير » وارتقاء هنرى الثانى العبوس للعرش ، فقد عكف الآن (١٥٥١— ٥٦) بمساعدة فيليبير ديلورم ونيكولو ديللاباتى على تصميم بهو هنرى الثانى فى فونتنبلو وتصويره ونقشه وتزيينه بشتى الزخارف . وقدد مرت اللوحات هى الأخرى ، ولكن جمال التماثيل الأنثوية ما زال يخلب الألباب ، وفى الجدار النهائى من العناصر الكلاسيكية ما يجعله الروعة مجسمة والجلال متجسداً . وفاق بهو أوليس فى روعته حتى بهو هنرى الثانى على ما روى (لأن البهو دمر فى ١٧٣٨) ، وقد زينه بريماتتشيو ورفاقه بمواضيع مختارة من الأوديسا بلغ عددها ١٦١ .

ويعين قصر فونتنبلو انتصار الطراز الكلاسيكى فى فرنسا . وقد ملأ فرانسوا قاعاته بتماثيل وتحف اشتريت له فى إيطاليا فدعمت روعتها رسالة الفن الكلاسيكى . وفى هذه الأثناء نشر سباستيانو سيرليو ، الذى عمل فترة فى قصر فونتنبلو ، كتابه Opere di architettura (١٥٤٨) ، وفيه بشر بالكلاسيكية الفتروفية التى دان بها أستاذه بالداسار

بتروتزى ، وقد قام بترجمته إلى الفرنسية لتوه جان مارتان ، الذى ترجم أيضاً فتروفيوس (١٥٤٧) . وراح الفنانون الفرنسيون الذين دربهم روسو أو بريماتتشيو يبثون من مدرسة فونتنبلو القواعد والمثل الكلاسيكية فى أرجاء فرنسا . فظلت مسيطرة عليها قروناً هى وما يقابلها من أشكال الأدب الكلاسيكية التى بدأتها جماعة البلياد. وذهب الفنانون الفرنسيون أمثال جاك أ. دسرسو . وجان بوللان ، وديلورم ، إلى إيطاليا منفعلين بسرليو وفتروفيوس ، لكى يدرسوا آثار العمارة الرومانية ، ونشروا بعد عودتهم أبحاثاً صاغوا فيها الأفكار الكلاسيكية . ونددوا كما ندد رونسار ودبلليه بالطرز الوسيطة لما فيها من همجية ، وصمموا على تهذيب المضمون وإحالته شكلا . وبفضل هؤلاء الرجال وكتبهم انبعث المعمارى فناناً متميزاً عن البناء الماهر ، ذا مكان مرموق فى السلم الاجتماعى. ولم تعد بعد ذلك حاجة إلى الفنانين الإيطاليين فى حركة البناء الفرنسية ، لأن فرنسا تخطت الآن إيطاليا إلى روما القديمة ذاتها تستوحيها فنون المعمار ، وجمعت جمعاً رائعاً بين الأساليب الكلاسيكية وتقاليد فرنسا ومناخها .

فى هذا الجو — جو الفكر والفن — ارتفع أنبل بناء مدنى فى فرنسا : والمتأمل للوفر اليوم من شاطىء السين الأيسر . والمتجول يوماً بعد يوم خلال متحف العالم هذا الحافل بالكنوز ، يتضاءل خشوعاً ورهبة أمام ضخامة هذا الأثر . ولو خيرنا أى بناء فرد نرى الإبقاء عليه فى كارثة عالمية مدمرة لاخترنا اللوفر : كان فليب أغسطس قد بدأ تشييده حوالى عام ١١٩١ قلعة محصنة تقى باريس شر الغزو على طول نهر السين . ثم أضاف شارل الخامس جناحين جديدين (١٥٣٧) وبيتاً للسلم من خارج ربما كان الموحى بتحفة قصر بلوا . ولما وجد فرانسوا أن هذا البناء الوسيط ، نصف القصر ونصف السجن . غير صالح لسكناه ولهوه،

أمر بهدمه وعهد إلى بيير ليسكو (١٥٥٦) أن يقيم فى مكانه قصراً قصراً يليق بملك يتربع على عرش فرنسا النهضة . ولما مات فرانسوا بعد عام أمر هنرى الثانى بالمضى فى المشروع .

كان ليسكو نبيلا وقسيساً ، فهو سيد كلانى الإقطاعى ، ورئيس دير كليرمون ، وكاهن نوتردام ، ومصور ونحات ومعمارى . وهو الذى صمم علية الصليب فى كنيسة سان جرمان لوكسروا (التى دمرت فى ١٧٤٥) والقصر الذى أصبح الآن «أوتيل كارنافاليه» . وقد استعان فى هذين العملين بصديقه جان جوجون ليقوم بالنحت الزخرفى ، وحين تقدم العمل فى اللوفر الجديد دعا جوجون ليزينه . وفى ١٥٤٨ شيد ليسكو الجناح الغربى للقصور التى تضم اليوم فناء اللوفر المربع (الكوركاريه) : أما الواجهة فهى من الأرض إلى السطح من إملاء طراز النهضة الإيطالية ، على وجه الحصر (كما كان رابليه يقول لو رآها) : ثلاثة صفوف من النوافذ المستطيلة ، وتفصل بين الصفوف كرانيش من الرخام . أما النوافذ فتفصل بينها أعمدة كلاسيكية ، ثم ثلاثة أروقة تعتد على عمد كلاسيكية أنيقة ، ولم يكن فرنسياً غير السقف المائل ، ولكن الحليات المعمارية كانت هنا أيضاً ذات جمال كلاسيكى . ولولا أن جوجون أدخل تماثيل فى كوى الأروقة وحفر نقوشاً بديعة فى القواصر وتحت الكرانيش ، وتوج النتوء الأوسط بشعار هنرى وديانا — لولا هذا لكان المنظر العام شديد الصرامة : وفى داخل جناح ليسكو هذا بنى جوجون قاعة تسمى Salle des Cariatides — أربع إناث رائعات يسندن شرفة للموسيقيين ؛ وجوجون أيضاً هو الذى زخرف قبو السلم الكبير المؤدى إلى الحجرة الملكية التى نام فيها ملوك فرنسا ابتداء من هنرى الرابع إلى لويس الرابع عشر : واستمر العمل فى بناء اللوفر وزخرفته أيام شارل التاسع وهنرى الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر

ونابليون الأول ونابليون الثالث . ملتزماً على الدوام الطراز الذى حدده ليسكو وجوجون بحيث أصبح هذا الصرح الفسيح هو العصارة المركزة لثلاثة قرون ونصف من حضارة طحنت كد الشعب لتخرج منه هذه الروائع الفنية . ترى ، أكان ممكناً بناء اللوفر لو أنصفت الارستقراطية الشعب ؟ .

وأبدع فيليبر دياورم لهنرى الثانى وديان دبواتييه آيات فى العمارة كأنها فى سحرها جنات عدن . وقد درس فيليبر فى شبابه آثار روما القديمة وفوقها ، فأحبها . ولكنه أعلن عقب عودته إلى فرنسا أن العمارة الفرنسية يجب منذ الآن أن تكون فرنسية . وكانت روحه روح الوثنية الكلاسيكية والوطنية الفرنسية — هى بالضبط برنامج جماعة البلياد . وقد صمم سلم « الكورد يزاديبه » Cour des Adieux بفونتنبلو على شكل حدوة حصان ، والمدفأة والسقف الغائر النقوش فى بهو هنرى الثانى . وشيد لديان فى آنيه (١٥٤٨ — ٥٣) مدينة حقيقية من القصور والحدائق الرسمية ، وهناك وضع تشلليني تمثاله « حورية فونتنبلو » فى قوصرة ، وبز جوجون المثال الفلورنسى بمجموعته التى تمثل ديانا وأيلها . ومعظم هذا الفردوس النفيس حل به الدمار ، ولم يبق منه سوى بوابة لا تثير إعجاباً يذكر فى فناء مدرسة الفنون الجميلة بباريس . ولأجل هذه الخليلة المنتصرة نفسها أكمل قصر شنونسو — هدية صغيرة من مليكها المتيم ، وفيليب هو الذى فكر فى مد القصر عبر الشير . ولما أخذت كاترين مديتشى القصر من ديان ، واصل ديلورم جهوده الشاقة فيه حتى اكتملت هذه الآية الفنية . على أن أسلوبه الرياضى المسرف لم ينل الرضا حيناً ، فاعتكف ليؤلف بحثاً موسوعياً فى العمارة . ثم دعته كاترين ثانية فى شيخوخته ليستأنف العمل ، فصمم لها قصراً جديداً هو التويلرى (١٥٦٤ — ٧٠) الذى دمره كومون

١٨٧١ . وقد تلقى الفنان من جميع رعاة فنه مكافآت سخية . فأصبح قسيساً ، وشغل عدة وظائف كنسية مجزية . ثم مات فى ١٥٧٠ كاهناً لنوتردام ، بعد أن دبر فى وصيته مستقبل طفليه غير الشرعيين(٩) .

كان جان بولان ثالث المعماريين النوابغ الذين زينوا فرنسا فى عهود زوج كاترين وأبنائها . وقد اكتسب شهرته فى ثلاثيناته بمدينة اكوان إذ صمم قصراً ريفياً لآن دمونمورنسى بلغ الكمال فى خطوطه الكلاسيكية . وفى ستيناته خلف ديلورم فى بناء التويلرى وواصل العمل إلى أن مات « من يوم إلى يوم ، أموت وأنا أتعلم » على حد قوله .

لقد درج الناس على أن يأسفوا لاستيرادالعمارة الفرنسية للطرز الإيطالية ، وعلى أن يقولوا إن الفن القوطى الوطنى لو ترك دون أن يحرفه هذا التأثير لتطور إلى عمارة مدنية أنسب للرشاقة الفرنسية من الخطوط الصارمة نسبياً التى اتسمت بها الطرز الكلاسيكية . ولكن الفن القوطى كان فى طريقه إلى الموت من الشيخوخة . ربما من الإسراف الهرم والزوقة العتيقة ، لقد جرى شوطه وانتهى . وكان اتكاء الفن اليونانى على ضبط النفس والاستقرار والخطوط البنائية الواضحة خير ما يصلح للتخفيف من الاندفاع الفرنسى والسير به إلى نضج مهذب . وقد ضحى فى هذا السبيل ببعض طرافة العصر الوسيط ، ولكن هذه أيضاً عاشت أيامها وانقضت . وهى لا تبدو جذابة إلا لأنها ماتت . ولما طور معمار النهضة الفرنسية طابعه القومى الخاص ، مازجاً الرواشن والسطوح المائلة بالأعمدة والتيجان والقواصر ، منح فرنسا طوال ثلاثة قرون طرازاً فى البناء كان مثار حسد أوربا الغربية . ونحن نحس الآن أن هذا الطراز كان جميلا لأنه هو الآخر فى طريقه إلى الزوال .

٢ — الفنون الملحقـــة

قام مئات من الصناع الفنانين بتزيين الحياة الفرنسية فى هذا العصر المرح . عصر فرانسوا الأول وهنرى الثانى . ونقش النجارون مقاعد المرتلين فى كنائس بوفيه ، وآميان ، وأوخ ، وبرو ، وتجرأوا على زخرفة المبانى القوطية بمناظر حية من النهضة تمثل آلهة الحقول ، والعرافات . وأتباع باخوس والسواتير ، بل تمثل بين الحين والحين فينوس أو كيوبيد أو جانيميد . أو قد تراهم — لكى نلاحقهم ملاحقة محمومة — يصنعون الموائد ، والكراسى ، والإطارات ، والمراكع ، والأسرة ، والخزائن ، وينقشونها بزخارف ربما كانت مسرفة ، أو يكفتونها بالمعادن أو يطعمونها بالعاج أو الأحجار الكريمة . أما صناع الأشغال المعدنية الذين بلغوا الآن ذروة الإتقان فقد خلعوا الجمال الرائع على الأوانى والأسلحة بزخرفتها بالنقوش الدمشقية أو بحفرها ، ورسموا النوافذ ذات المصبعات — بقصائد من الشعر فى زخرف حديدى من الشجر — للكنائس والهياكل والحدائق والمقابر ، أو صنعوا مفصلات كتلك التى نراها على أبواب نوتردام الغربية ، وفيها من الجمال ما جعل الأتقياء ينسبون صنعها إلى أيدى الملائكة . وقد اعترف تشلينى ، وهو الذى لم يبق لغيره مديحاً يذكر بعد أن أشبع حاجاته منه ، بأن الصباغ الفرنسيين قد بلغوا فى صنعهم آنية الكنائس — أو آنية المنازل كتلك التى حفرها جان دوريه لهنرى الثانى — « درجة من الإتقان والكمال لاتجدها فى أى بلد آخر »[10] . أما الزجاج الملون (المعشق) فى كنيسة مرجريت النمساوية فى برو ، أو فى كنيسة سانت إتيين فى بوفيه . أو فى كنيسة سانت إتيين دمون فى باريس . فقد كشف عن عظمة لم تكن فارقت فرنسا بعد . وقد أنشأ فرانسوا فى فونتنبلو مصنعاً تنسج فيه قطع النسيج

المرسومة قطعة واحدة بدلا من صنعها أجزاء منفصلة تخاط معاً كما كانت الحال من قبل ، وخلطت الخيوط الذهبية والفضية فى سداه بالحرير والصوف المصبوغين . وبعد عام ١٥٣٠ لم تعد نماذج قطع النسيج الفرنسى المرسوم ومواضيعه قوطية وفروسية ، بل اتبعت تصميمات النهضة وموضوعاتها المجلوبة من إيطاليا .

وغلبت رسوم النهضة الزخرفية على الحراريات فى خزف ليون (المايوليك) ، وفى قاشانى جنوبى فرنسا ، وفى صناعة المينا بليموج . ورسم ليونار ليموزان وغيره بألوان المينا المصهورة البراقة أشكالا أنيقة من النبات والحيوان والآلهة والبشر على الأوانى النحاسية كالأحواض والزهريات والأباريق والكئوس والأطباق وغيرها من الأوانى المتواضعة التى سموا بها إلى مرتبة التحف الفنية : وهنا أيضاً كان لفرانسوا فضل المشاركة ، فقد وضع ليونار على رأس مصنع المينا الملكى بليموج ، وخلع عليه لقب « الوصيف الخاص للملك » . وتخصص ليونار فى رسم صور الأشخاص بالمينا على الأطباق النحاسية : وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك نموذج رائع منها يصور فرانسوا نفسه ، وغير هذا كثير فى قاعة أبوللو باللوفر مما يشهد فى هدوء لهذا العهد الذهبى .

كان تصوير الأشخاص فناً مكتمل النضج فى فرنسا قبل قدوم الإيطاليين . فمن من الفنانين الإيطاليين فى فرنسا كان بوسعه أن يرسم أروع من صورة جيوم دمونمورنسى التى رسمها فنان كبير لم يذكر عليها اسمه حوالى عام ١٥٢٠ ، والمحفوظة اليوم بمتحف ليون ؟ — Voila un homme ! « هاكم رجل » — إنها ليست تحية مصورة . إنها رجل . لقد جلب روسو وبريماتتشيو وديللاباتى وغيرهم من مدرسة فونتنبلو إلى فرنسا ما تعلموه من رفائيل أو برينو ديلفاجا أو جوفانى دا أودينى أو جوليو رومانو عن زخرفة العمد والكرانيش والأسقف

. . . . باك « جروتسك » أو الأشكال العابثة ـ أشكال الملائكة (الكاروبيم) والأطفال واللوالب والزخارف العربية والنبات . وقد رسم عضو مجهول من أعضاء هذه المدرسة لوحة « ديان دبواتييه » المحفوظة الآن بمتحف ورستر بولاية ماساشوستس ـ جالسة إلى خوان زينتها وعلى رأسها تاج . وبعد عام ١٥٤٥ قدم إلى فرنسا كثير من المصورين الفلمنك ، فيهم بروجل الأب ، ليدرسوا الأعمال الفنية فى فونتنبلو . ولكن أسلوبهم كان أعمق جذوراً من أن يستسلم للتأثير الإيطالى . وتغلبت القوة الواقعية التى اتسم بها فنهم على الجمال الأنثوى الذى تجلى فى فن ورثة رفائيل .

وكادت أسرة فلمنكية واحدة فى فرنسا أن تؤلف مدرسة قائمة بذاتها . كان يوحنا كلويه Clouet ملحقاً ببلاط فرانسوا فى تور وباريس ، وكل الناس يعرفون الصورة التى رسمها للملك حوالى ١٥٢٥ والمحفوظة الآن باللوفر ، وجسم فيها الملكية المستكبرة المغرورة السعيدة قبيل كبوة من كبواتها ، وخلف فرانسوا كلويه أباه يوحنا مصوراً للبلاط ، وسجل بالطباشير أو الزيت صور كبار القوم خلال حكم أربعة من ملوك فرنسا . واللوحة التى رسم فيها هنرى الثانى أروع من تلك التى صور فيها أبوه فرانسوا الأول . ويدهشنا أن نرى فى اللوحة تلك الهوة بين العاشق المرح والابن المكتئب المزاج ، وفى وسعنا أن نفهم منها كيف استطاع هذا الرجل أن يصدق على تشكيل « الغرفة الغيور » لاضهاد المهرطقين ، وإن لم نلمح فى الوجه ـ الذى يكاد يكون بورجياً ـ أى إلماع لوفائه المقيم لديان . ووجدت أسرة كلويه من تحداها بعض الوقت فى شخص كورنيي الليونى الذى نافسها برسم خاص به . ويظهر هذا التحدى فى صور كصورة المرشال بونيفيه ، عشيق مرجريت . ولكن أحداً من المعاصرين فى فرنسا لم يستطع مجاراة فرانسوا

كلويه فى ذلك الحشد من الصور التى رسمها لكاترين مدتشى ، وفرانسوا الثانى ، ومارى ملكة إسكتلندة ، واليزابيث فالوا ، وفيليب الثانى ، ومرجريت زوجة هنرى الرابع المقبلة ، وشارل التاسع فى شبابه — وقد بدا ألطف من أن نتبين فيه ملك « المذبحة » المرتاع . فى هذه الصور نرى الواقعية والصدق الفلمنكيين وقد خففت من حدتهما الرقة والدقة والحيوية الفرنسية ، فالنبرة خافتة ، والخط دقيق مطمئن ، وعناصر الشخصية المعقدة مقتنصة وموحدة . مثل هذا المؤرخ النابض بالحياة لن تستمتع بفنه غير إنجلترة هولبين .

كان النحت خادماً للعمارة ، ومع ذلك فهو صاحب الفضل فى تألقها . والواقع أن النحت الفرنسى راح يخرج سيلا متدفقاً من الروائع التى لم يفقها إلا تلك التى كان ميكلانجلو وغيره ينحتونها من كارارا ، مثال ذلك المقابر الفخمة ، كمقبرة لويس الثانى عشر ومقبرة آن البريتانية اللتين نحتهما جوفانى دى جيوستوبتى (فى سان دنيس) ، وكمقبرتى اثنين من كرادلة آمبواز نحتهما رولان لرو وجان جوجون (فى روان) ، وكمقبرة لوى دبريزيه ، زوج ديان ، فى الكاتدرائية ذاتها ، التى نحتها مثال غير معروف على التحقيق . وتبدو مقبرتا روان أوفر زينة مما يليق بجلال الموت ، ولكن الكردينالين يكادان يبعثان من جديد على صورة حكام أقوياء لا يحاول المثالان خلع الكمال عليهما ، إنما الدين عندهما أمر عارض وسط مهام الحكم . وقد دفن فرانسوا الأول ، وزجته كلود ، وابنته شارلوت ، بسان دنيس فى مقبرة من طراز النهضة صممها ديلورم ، تزينها منحوتات فخمة نحتهـا بيير بونتم : وعلى مقبرة منها رائعة صغيرة من صنع بونتم — هى وعاء جنائزى لقلب الملك . وهكذا لم يعد المثالون الفرنسيون فى حاجة إلى الوصاية الإيطالية ليرثوا فن روما الكلاسيكى .

ولقد ورث جان جوجون الجمال الكلاسيكى على الأقل . ونحن نسمع به لأول مرة فى سنة ١٥٤٠ ، وقد ورد فى القائمة أنه « حجار وبناء » فى روان . وفى روان قطع الأعمدة التى يرتكز عليها الأرغن فى كنيسة سان ماكلو . ونحت تماثيل لمقبرتى الكردينالين ، وربما لمقبرة بريزيه . وقد زين حجاب الصليب فى كنيسة سان جرمان لوكسروا بمنحوتات محفوظ بعضها فى اللوفر . وهى تذكرنا بالنقوش الهلنستية البارزة فى الأناقة المتناغمة التى اتسمت بها خطوطها . وقد قاربت الكمال تلك الموهبة المميزة لفن جوجون ، وهى تجسيد الجمال الأنثوى . فى تمثال « الحوريات » ، الذى شارك به فى « نافورة الأبرياء » التى صممها ليسكو (١٥٤٧) ، وفى رأى برنينى أن هذه التماثيل أجمل آثار الفن فى باريس . وقد ذكرنا من قبل تمثال جوجون « ديانا والأيل » فى آنيه ، ومنحوتاته فى اللوفر . وتماثيله للآلهة الوثنيـــة . ولجسد المرأة الممثّل فى صورة كاملة ، توحى بأن فرنسا قد انتصرت فيها النهضة على حركة الإصلاح البروتستنتى ، والأفكار الكلاسيكية على الأفكار القوطية . والمرأة على منتقصى قدرها فى العهد الوسيط . ومع ذلك وصف الرواة جوجون بأنه هيجونوتى . وعقاباً له على حضوره عظة لوثرية . حكم عليه حوالى عام ١٥٤٢ بأن يسير فى شوارع باريس بقميصه وبأن يشهد حرق واعظ بروتستنتى[١١]. وحوالى عام ١٥٦٢ رحل عن فرنسا قاصداً إيطاليا . ومات فى بولونيا قبل عام ١٥٦٨ . مغموراً مهملا إهمالا لا يستحقه رجل ارتقى بفن النهضة إلى ذروته فى فرنسا .

٣ — بيـيتر بروجل : ١٥٢٠ — ٦٩

كان هذا العصر مقفراً فى فن الأراضى المنخفضة إذا استثنينا بروجل والنسيج المرسوم . وتذبذب فن التصوير بين تقليد الإيطاليين — فى

الأسلوب المهذب والألوان الغنية والأساطير الكلاسيكية والنساء العاريات والخلفيات المعمارية الرومانية — وبين الميل المتأصل إلى التصوير الواقعي لكبار الشخصيات وللأشياء العادية . ولم يحظ الفنانون بالرعاية من البلاط والكنيسة والنبلاء فحسب ، بل نالوها باطراد من أغنياء التجار الذين عرضوا أجسادهم البدينة وألغادهم المتهدلة ليعجب بها الخلف . وأحبوا أن يروا فى الصور المناظر المألوفة والمشاهد الطبيعية لحياتهم الفعلية . وحلت روح الفكاهة ، وحب « الجروتسك» أحياناً ، محل الإحساس بالتسامى فى فن كبار الفنانين الإيطاليين : وقد انتقد ميكلانجلو ما رآه افتقاراً إلى التمييز والسمو فى الفن الفلمنكى فقال : « إنهم لا يرسمون فى فلاندر إلا ليخدعوا العين الظاهرة ، أشياء تبهجك . : : حشائش الحقول . وظلال الأشجار ، والكبارى والأنهار : : : وأشياء صغيرة هنا وهناك : : : دون عناية بالاختيار أو الرفض »[١٢] ولا غرو فالفن عند ميكلانجلو هو الاختيار ذو الدلالة لإبراز السمو ، لا التمثيل غير المميز للواقع ، وكانت طبيعته الوقور ، المحبوسة فى حذائه الذى لا ينزع وعزلته الكارهة للناس ، محصنة ضد التأثر بجلال الحقول الخضراء وحرارة الحب العائلى .

أما نحن فإننا ننحنى انحناءة العرفان ليواكيم باتينير ، ولو لما صورته لوحته « القديس جيروم » من منظر طبيعى يذكرنا بأسلوب ليوناردو دافنشى ، ولجوس فان كليف على لوحته الجميلة التى رسم فيها اليانور البرتغالية ، ولبرنيرت فان أورلى للوحة « العائلة المقدسة » فى البرادو ، ولتصميماته للنسيج المرسوم ، ولزجاجه المعشق فى كنيسة سانت جودول ببروكسل ؛ وللوكاس فان ليدن لما حفلت به سنوه التسعة والثلاثون من حشد النقوش والكلشيهات الخشبية ، ولجان فان سكوريل على صورة المجدلية وهى تعتز بقارورة الطيب التى غسلت منها أرجل المسيح ،

ولأنطونيس مور على صوره القوية لدوق ألفا ، وللكردينال جرانفيل ، ولفيليب الثانى ، ولمارى تيودور ، ولصورة ليست أقل شأناً من كل أولئك . وهى صورته هو .

وليلاحظ القارىء كيف تركز فن التصوير بالأراضى المنخفضة فى الأسر . من ذلك أن جوس فان كليف ورث بعض مهارته لابنه كورنيليس ، الذى رسم صوراً ممتازة قبل أن يصاب بالجنون . كذلك نرى جان ماسيس الذى ورث مرسم أبيه كوينتين يؤثر رسم العاريات أمثال « يهوديت » . و« سوسنة والشيوخ » ، وواصل ابنه كوينتين ماسيس الثانى هذه الحرفة ، فى حين حمل أخوه كورنيليس فنه إلى انجلترة ورسم لوحة لهنرى الثامن فى شيخوخته وقد بدا منتفخ البدن بشع المنظر . ورسم بيتر بوربوس وابنه فرانس لوحات للأشخاص وصوراً دينية فى بروج ، ورسم فرانس بوربوس الثانى ، وهو ابن فرانس ، لوحات فى باريس ومانتوا . وكان هناك إلى هؤلاء بيتر بروجل « المضحك » وزوجته المصورة ، وحماته المصورة ، وأبناه بيتر بروجل « الجحيم » وجان بروجل « المخمل » ، وحفدته المصورون ، وأبناء حفدته المصورون . . .

أما بيتر بروجل الأب ، الذى أصبحت شهرته من موضات عصرنا التى لا مهرب منها ، فلعله اشتق اسمه من إحدى قريتين فى برابانت اسمهما بروجل . وكانت إحداهما قريبة من هرتوجنبوش مسقط رأس هيرونيموس بوش . وربما رأى بيتر فى كنائس هذه القرية عدة رسوم بريشة الرجل الذى أثر فى فنه تأثيراً لم يفقه غير تأثير الطبيعة ذاتها ؛ وحين ناهز الخامسة والعشرين (حوالى عام ١٥٤٥) هاجر إلى أنتورب وتتلمذ لبيتر كوك ، وربما أعانت محفورات كوك الخشبية للمناظر الطبيعية على تكوين ميل المصور الشاب إلى الحقول والغابات والمياه

والجو والسماء . وكان بييتر كوك هذا قد أنجب فتاة تدعى ماريا . كان بييتر يهدهدها بين ذراعيه وهي طفلة . وقد أصبحت فيما بعد زوجاً له. وفى عام ١٥٥٢ اتبع التقليد الذى جرى عليه المصورون ، ورحل إلى إيطاليا ليدرس التصوير ، ثم عاد إلى أنتورب بكراسة تضخمت برسوم المناظر الإيطالية ، ولكن لم يبد على أسلوبه الفنى تأثير إيطالى واضح . وقد ظل إلى النهاية يهمل من الناحية العملية تلك الدقة فى التشكيل . وفى توزيع الضوء والظل (الكياروسكيورو) ، وفى التزويق (الكولورا تورا) التى أخذ بها الفنانون الجنوبيون . ولما عاد إلى أنتورب عاش مع امرأة كانت خليلة ومدبرة لبيته . وقد وعدها بأن يتزوجها إذا أمسكت عن الكذب . وكان يسجل أكاذيبها بثلمات يحدثها فى عصا . وإذ لم يكن محتفظاً بعصا لذنوبه هو ، فقد هجرها حين فاضت العصا بالثلمات . وفى أواسط أربعيناته (١٥٦٠) تزوج ماريا كوك وقد بلغت السابعة عشرة ، واستمع إلى دعوتها إياه للرحيل إلى بروكسل ، ولم يكن باقياً له من العمر سوى ست سنوات .

ومع أن رسومه حملت الناس على تلقيبه بـ « بروجل الفلاح » فإنه كان إنساناً مثقفاً قرأ هومر وفرجل وهوراس وأوفيد ورابليه ، وفى الغالب إرزمس .[١٣] وقد وصفه كاريل ماندر (فازارى هولنده) بأنه « هادئ ، منظم ، قليل الكلام ، ولكنه ممتع الحديث إذا كان فى صحبة . يبتهج بافزاع سامعيه . . . بقصص الأشباح والأرواح المنذرة[١٤] . وربما كان هذا علة لقبه الثانى « بروجل المضحك » . وكانت فكاهته تميل إلى الهجاء ولكنه خففه بالعطف . وفى حفر معاصر يبدو فى لحية كثة ووجه يحمل سمات التفكير الجاد[١٥] . وكان أحياناً يقتدى ببوش فى نظرته إلى الحياة على أنها اندفاع معظم النفوس إلى الجحيم دون مبالاة . وفى لوحته المسماة « دولى جريت » صور الجحيم تصويرا بشعاً مشوشاً كما فعل

بوش نفسه ، وفى لوحته « انتصار الموت » لم يتخيل الموت نوماً طبيعياً لأجساد مكدودة ، بل تقطيعاً بشعاً للأطراف والحياة — هياكل عظمية تهاجم الملوك والكرادلة والفرسان والفلاحين بالسهام والبلط والأحجار والمناجل — ومجرمين تدق أعناقهم أو يشنقون أو يوثقون إلى عجلة التعذيب — وجماجم وجثثاً تركب عربة : هنا مثل مغاير آخر لـ « رقصة الموت » التى تسرى وسط فن هذا العهد القاتم .

وتواصل صور بروجل الدينية هذا المزاج الجاد . فهى خلو من فخامة الصور الإيطالية ومن جمالها الرشيق على السواء . وليست سوى ترجمة جديدة لقصة الكتاب المقدس بلغة المناخ والملامح والثياب الفلمنكية . وندر أن تكشف عن عاطفة دينية . وأكثرها معاذير لتصوير الجماهير . وحتى الوجوه فى هذه الصور خلو من العواطف . فترى الناس المتدافعين بالمناكب ليشاهدوا المسيح وهو يحمل صليبه وكأنهم لا يبالون بآلامه ، إنما هم تواقون لاتخاذ موقف يشهدون منه المنظر بوضوح . وبعض هذه الصور أمثال من الإنجيل كصورة « الزارع » ، وبعضها يقلد بوش فيتخذ الأقوال المأثورة موضوعاً له . فصورة « عميان يقودون عمياناً » ترينا صفاً من الفلاحين لهم عيون ذابلة . وفيهم قبح شنيع ، يتلو بعضهم بعضاً فى طريقهم إلى مصرف للمياه . ولوحة « الأمثال الهولندية » ، توضح فى صورة مكتظة واحدة ، قرابة مائة من الأقوال المأثورة القديمة ، بعضها تشم فيه عبير الحكم الرابلية .

كان هم بروجل الأكبر تصوير جماهير الفلاحين ، والمناظر التى تنتظم خيرها وشرها على السواء أنشطة البشر العقيمة المختقرة . ولعله ظن أن فى تصوير الجماهير سلامة . فلا حاجة به عند تصويرها لأن يميز الوجوه أو يشكل الأجساد . وقد أبى أن يصور شخصاً يجلس أو يقف أمامه خدمة للفن أو للتاريخ . وآثر أن يظهر الرجال والنساء والأطفال يمشون

ويجرون ويقفزون ويرقصون ويلعبون بكل ما فى الحياة من ألوان الحركة والفطرة . وقد رجع إلى مشاهد طفولته ، وأمتعه أن يتأمل ويشارك فى مباهج الفلاحين وولائمهم وموسيقاهم وأعراسهم . وكان فى عدة مناسبات يصطحب صديقاً ويتنكران فى زى مزارعين ليحضرا أسواق القرية وأفراحها ، ثم يقدمان الهدايا للعروسين متظاهرين بأنهما من أقربائهما[١٧]. ولا شك أن بيتر كان فى هذه النزهات يحمل كراسته لأن بين رسومه الباقية كثيراً مما تظهر فيه وجوه الفلاحين وأحداث الريف . ولم يكن ذوقه يسيغ النبلاء الذين وجد مور وتيشان فى تصويرهم مجلبة للربح الوفير ، ولا كلف بتصويرهم . ولم يرسم سوى بسطاء الناس ، بل إن الكلاب التى رسمها كانت كلاباً حقيرة مهجنة كتلك التى تلقاها فى أى زقاق بالمدينة أو كوخ بالقرية . لقد خبر الجانب المر فى حياة الفلاح ، وصور هذا الجانب أحياناً خليطاً محتشداً من الحمق . ولكنه أحب رسم ألعاب الأطفال القرويين ، ورقصات كبارهم ، وصخب أفراحهم . وفى لوحته « أرض كوكين » ترى الفلاحين الذين أرهقهم الكد أو الحب أو الشراب منبطحين على العشب فى الخلاء وهم يحلمون بعالم سعيد . وكأن بروجل يقول لنا إن الفلاح دون سواه هو الذى يعرف كيف يلعب وكيف ينام ، كما يعرف كيف يشتغل وكيف يتزوج وكيف يموت .

ولم ير أمام الموت غير عزاء واحد ، هو أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة ، تلك الطبيعة التى تقبلها فى جميع صورها من جمال وقبح ، ومن نمو وانحلال وتجدد . والمنظر الطبيعى عنده يفتدى الإنسان ، ويخف الجزء يغتفر فى جلال الكل . لقد كان دأب المصورين من قبله ـ باستثناء ألتدورفر ـ أن يرسموا المناظر الطبيعية خلفيات وملحقات للناس والأحداث . أما بروجل فقد جعل المنظر الطبيعى ذاته هو اللوحة ، وليس الإنسان فيها سوى عرض من الأعراض . ففى لوحته « سقوط إيكاروس » ترى السماء والمحيط والجبال والشمس وقد استغرقت انتباه

المصور والمشاركين فى اللوحة ، أما إيكاروس فليس سوى ساقين غير ملحوظتين تغوصان فى البحر بشكل مضحك . وفى لوحته « العاصفة » لا تكاد ترى الإنسان ، فهو ضائع عاجز بين حرب العناصر وبطشها .

ويبلغ فن بروجل وفلسفته قمتهما فى اللوحات الخمس الباقية من مجموعة خططها لبيان تقلبات العام . ففى لوحة « حصاد القمح » يصور تخطيطياً قطع حزم القمح وتكديسها ، وترى فيها العمال يتناولون غذاءهم أو يرقدون فى إغفاءة فى قيظ الصيف وسكون هوائه الواضحين . وفى لوحة « حصاد الدريس » يحمل الصبيان والبنات فاكهة الحقول الخريفية فى سلال على رءوسهم ، ويشحذ فلاح منجله ، وتقلب الدريس نسوة أشداء ، ويرفعه الرجال إلى أعلى حمل العربة ، وتمضغ الخيل طعامها فى فترة راحة . ولوحة « عودة القطيع » نذير بقدوم الشتاء — فالسماء تكفهر والماشية تساق عائدة إلى مرابطها . وأجمل لوحات المجموعة هى « الصيادون فى الثلوج » . وفيها ترى الأسطح والأرض بيضاء ناصعة ، والمساكن تنتظم فى منظور مدهش على طول السهول والتلال ، والرجال يتزلقون ويلعبون الهوكى ويسقطون على الجليد ، والصيادين وكلابهم ينطلقون لاقتناص الطعام ، والأشجار عارية ولكن زقزقة العصافير فى الأغصان تبشر بمقدم الربيع . أما لوحة « اليوم الكئيب » فهى الشتاء مكفهراً اكفهرارة الوداع . فى هذه اللوحات بلغ بروجل قصاراه ، ووضع سابقة لرسم مناظر الثلوج ليحتذيها فن الأراضى المنخفضة المقبل .

ولا يستطيع الحكم على هذه الصور فى مرتبتها وأسلوبها الفنيين سوى رسام أو خبير . ويبدو بروجل قانعاً بأن يعطى أشكاله بعدين ، ولا يكترث لخلط الظل بمادتها ، وهو يترك لخيالنا أن يضيف لبعديه

بعداً ثالثاً إن لم يكن من هذا بد . واهتمامه بالحشود أكبر من أن يتيح له الاهتمام بالأفراد ، وهو يجعل كل فلاحيه تقريباً متماثلين ، كتلا غليظة من اللحم . وهو لا يزعم أنه واقعى إلا فى المجموع ، وهو يضع الكثير من الناس أو الأحداث فى لوحة واحدة بحيث يبدو أنه يضحى بالوحدة . ولكنه يقتنص الوحدة اللاشعورية — وحدة قرية ، أو حشد ، أو موجه من موجات الحياة .

فما الذى يريد أن يقوله ؟ أهو ساخر فقط ، ضاحك من الإنسان لأنه « فجلة مشعبة » غريبة الشكل ، ومن الحياة لأنها اختيال غبى نحو الفناء ؟ لقد كان يستمتع بما فى رقص الفلاحين من هز عنيف ، ويتعاطف مع كدهم ، وينظر فى مرح متسامح إلى نومهم المخمور . ولكنه لم يفق قط من تأثير بوش . فقد كان يجد لذة ساخرة كتلك التى وجدها ذلك الـ «جيروم» المجرد من التقوى فى تصوير الجانب المر من الكوميديا البشرية — المقعدين والمجرمين ، المهزومين أو الداعرين ، انتصار الموت الذى لا رحمة فيه . ويبدو أنه كان يبحث عن الفلاحين الدميمى الخلقة ، يرسمهم رسوماً ساخرة ، ولا يسمح لهم أبداً بالابتسام أو الضحك ، فإذا أضفى على جلافة وجوهم أى تعبير فهو تعبير اللامبالاه الغبية ، والحساسية التى محتها لطمات الحياة[١٧] . وكان يثيره ويؤلمه ذلك الجمود الذى يحتمل به المحظوظون شقاء الأشقياء ، وتلك السرعة والراحه التى ينسى بها الأحياء الأموات . وكان يحزنه منظور الطبيعة الشاسع تلك السماء الهائلة التى تبدو تحتها كل الأحداث البشرية غارقة فى الضآلة . وتلوح الفضيلة والرذيلة ، والنمو والانحلال ، والشرف والخسة ، مضيعة فى عبث مترام لا يفرق ولا يميز ، والإنسان وقد ابتلعه منظر العالم .

ولا ندرى أهذه فلسفة بروجل الحقيقية أم أنها دعابة فنه لا أكثر .

كذلك لا ندرى لم كف عن المعركة بهذه السرعة وقضى وهو بعد فى التاسعة والأربعين (١٥٦٩) . ولعله لو مد فى أجله لخففت السنون من غضبه . وقد أوصى لزوجته بلوحة غامضة هى « الطريق المرح إلى المشنقة » ، وهى تشكيل رائع فى ألوان خضراء نضرة وزرقاء نائية ، والفلاحون يرقصون قرب مشنقة القرية ومن فوقها حط طائر العقعق ، ويرمز به للسان الثرثار .

٤ — كراناخ والألمــان

توارى المعمار الكنسى الألمانى خلال حركة الإصلاح البروتستنتى : فلم تشيد للفن ولا للدين كنائس جديدة ، وترك كثير من الكنائس دون أن يكمل ، وهدم الكثير منها وبنيت بأحجاره قلاع الأمراء : أما الكنائس البروتستنتية فقد انصرفت إلى البساطة الصارمة ، وأما الكنائس الكاثوليكية فقد أسرفت فى زينتها كأنها تتحدى البروتستنتية ، وذلك أثناء انتقال النهضة إلى طراز الباروك .

وحلت العمارة المدنية وعمارة القصور محل بناء الكاتدرائيات فى الوقت الذى حل فيه الأدواق محل الأساقفة واحتوت الدولة الكنيسة . وبعض المبانى المدنية الجميلة فى هذه الفترة كان من ضحايا الحرب العالمية الثانية : مثل الألتاوس فى برنزويك ، ومقر طائفة الجزارين فى هيلدسهايم ، والراتهاوس أو قاعة مدينة نيميجين المبنية بطراز النهضة . واتخذ أكثر معمار هذا العهد والعهد الذى تلاه طموحاً شكل القلاع الضخمة المشيدة لأمراء الأقاليم : كقلعة درسدن التى كلفت الشعب ١٠٠,٠٠٠ فلورين (٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) ، وقصر دون كرستوفر فى شتوتجارت الذى أسرف الدوق فى تأثيثه وفرشه حتى أن قضاة المدينة حذروه من أن [بذخ بلاطه يتناقض تناقضاً مخزياً مع فقر شعبه : وقلعة هيدلبرج المترامية

التى بدئ تشييدها فى القرن الثالث عشر وأعيد بناؤها بطراز النهضة فى ١٥٥٦ — ٦٣ ودمر جزء منها فى الحرب العالمية الثانية .

أما الحرف الفنية فقد احتفظت بتفوقها فى خدمة الأمراء والنبلاء والتجار ورجال المال . فتجارو الأثاث ، ونقاشو الخشب والعاج ، والحفارون ، وصناع المنمنمات ، والنساجون ، وخراطو الحديد ، والخزافون ، والصائغون ، وصناع السلاح ، والجواهرية — كل أولئك احتفظوا بالمهارات القديمة التى كانت لأهل العصور الوسطى وإن نحوا إلى تضحية الذوق والشكل فى سبيل الزخرف المعقد . ورسم كثير من المصورين تصميمات للكلشيهات الخشبية بعناية فائقة كأنهم يرسمون صور الملوك : وعكف رسامو الكلشيهات من أمثال هانز لوتزبورجر البازلى على أعمالهم بتفان يليق بمصور كدورر . وبلغ صائغو نورمبرج وميونخ وفينا القمة بين أهل الحرفة ، وكان فى وسع صائغ كفنتزل يامنتزر أن يتحدى رجــلا كتشلليني . وحوالى عام ١٥٤٧ بدأ الفنانون الألمان يرسمون الزجاج بألوان المينا ، وهكذا اتخــذت الأوانى والنوافذ أشكالا وتصميمات غنية رغم فجاجتها ، واستطاع البورجوازى السرى أن يرى صورته وقد مزجت بألواح الزجاج فى بيتــه .

واحتفظ المثالون الألمان بحبهم للتماثيل والنقوش البارزة المعدنية . فواصــل أبناء بيتر فشر فنه . أما بيتر الابن فصب لوحة برونزية لـ « أورفيوس ويوربديس » . وأما هانز فصمم تمثالا جميلا يسمى « نبع أبوللو » لفناء قاعة مدينة نورمبرج ، وأما بول فينسب له عادة تمثال لطيف من الخشب يعرف بعذراء نورمبرج : وصب بيتر فلوتنر النورمبرجى نقوشاً بارزة رائعة مثلت الحسد ، والعدالة ، وساتورن ، وربة الرقص . ومن أمتع محتويات اللوفر تمثال نصفى صنعه يواكيم ديشلر لأوتو هينريش ،

كونت بالاتين ، يبلغ ارتفاعه ست بوصات ونصفاً ، وعرضه مثل هذا لبدانته ، وله وجه هو وليد أعوام من النهم . هنا ترى الفكاهة الألمانية أكثر ما تكون انطلاقاً .

أما فخر الفن الألماني فقد ظل فى التصوير . فقد أدرك هولبين دورر ، ثم لحق بهما كراناخ ، وألف بالدونج جرين ، وألتدورفر ، وأمبرجر ، صفاً ثانياً مشرفاً . فأما هانز بالدونج جرين فقد اكتسب شهرته برسم لوحة لمذبح كاتدرائية فرايبورج إيم — برايسجاو ، ولكن لوحة « العذراء ذات الببغاء » أكثر جاذبية ، وتبدو فيها فتاة تيوتونية ممتلئة الوجه ذات شعر ذهبى ، وببغاء تنقر خديها . وأما كرستوفر أمبرجر فرسم صوراً أنيقة . ويحتفظ متحف ليل بلوحة « شارل الخامس » التى يبدو فيها مخلصاً ، ذكياً ،فى أول عهده بالتعصب . وفى « صورة رجل » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو وجه مهذب دقيق القسمات . وأما ألبرشت ألتدورفر فيتميز بين هذه المجموعة الصغيرة بغنى مناظره الطبيعية . فنى لوحته « القديس جورج » يكاد الفارس والتنين يختفيان وسط محيط من الشجر المتزاحم . وحتى لوحته « معركة أرابيلا » ينوه فيها الجيشان المقتتلان وسط الكثير من الأبراج والجبال والمياه والسحاب والضياء . وتعد هاتان اللوحتان ، مضافاً إليهما لوحته « وقفة خلال الهروب إلى مصر » ، من طلائع التصوير الصادق للمناظر الطبيعية فى عصرنا الحديث .

اتخذ لوكاس كراناخ الأب اسمه من مسقط رأسه كروناخ فى فرانكونيا العليا . ولا نكاد نعرف عنه أكثر من هذا إلى أن عين فى الثانية والثلاثين من عمره مصوراً للبلاط لدى الناخب فردريك الحكيم فى فتنبرج (١٥٠٤) . وقد احتفظ بوظيفته فى البلاط السكسونى ، سواء فى فتنبرج أو فى فايمار ، زهاء خمسين عاماً . وقابل لوثر ، وأعجب به ،

وصوره المرة بعد المرة ، ورسم لبعض كتابات المصلح صوراً كاريكاتورية للبابوات ، على أنه رسم أيضاً صوراً لبعض أقطاب الكاثوليك أمثال دوق ألفا وألبرشت رئيس أساقفة ماينز . وقد أوتى عقلية تجارية عملية . فحول مرسمه إلى مصنع لتصوير الأشخاص ورسم الصور الدينية . وإلى جوار المرسم باع الكتب والعقاقير . وأصبح عمدة لفتنبرج فى عام ١٥٦٥ ، ثم مات شبعان مالا وأياماً .

كان التأثير الإيطالى خلال ذلك قد وصل إلى فتنبرج . وهو واضح فى جمال الصور الدينية التى رسمها كراناخ ، وأوضح فى صوره الأسطورية ، وأكثر وضوحاً من هذه وتلك فى صوره العارية . وقد أصبح مجمع الآلهة الوثنية ينافس الآن مريم والمسيح والقديسين كما نافسهم فى إيطاليا . بيد أن روح الفكاهة الألمانية يضفى الحيوية على التقليدى المتوارث ، وذلك بالسخرية من آلهة ماتوا ولم يعد هناك ما يخشى منهم . من ذلك أن لوحة كراناخ « حكم باريز » رسمت العاشق الطروادى (الذى أغوى هيلانه) يمضى إلى فراشه للنوم بينما الحسان المتفضات من البرد ينتظرن حتى يستيقظ ويقضى بينهن . وفى لوحته «فينوس وكيوبيد» تبدو إلاهة الحب فى جسدها العارى كالعادة ، إلا من قبعة ضخمة — وكأن كراناخ يلمع فى خبث إلى أن الرغبة وليدة العادة ، بحيث يمكن تهدئتها بإضافة غير مألوفة . ومع ذلك فقد أقبل الناس على لوحة فينوس ، وأخرج كراناخ منها — بمساعدة غيره — أكثر من عشرة أشكال لتضيء فى فرانكفورت ، ولننجراد ، والقاعة البورجية ، والمتحف المتروبوليتانى للفن . . . وفى فرانكفورت تخفى فينوس مفاتنها ليستشفها الناظر من خلف خيوط رقيقة كنسيج العنكبوت ، وهذه أيضاً تستخدم فى لوحة « لوكريشيا » ببرلين ، إذ تتأهب فى ابتهاج لافتداء شرفها بطعنة من خنجر صغير . وفى لوحة « حورية الربيع » (نيويورك) رسم كراناخ

هذه السيدة ذاتها راقدة على فراش من الأوراق الخضراء إلى جوار بركة . وفى متحف جنيف تصبح « يهوديت » ، التى لم تعد عارية، بل مرتدية ثيابها لتقتل ، رافعة سيفها فوق رأس هولوفيرن المقطوع ، الذى يغمز بعينه فى سخرية من سوء طالعه . وأخيراً تعود السيدة إلى عريها فتصبح حواء فى لوحة « الفردوس » بفينا ، ولوحة « آدم وحواء » بدرسدن ، ولوحة « حواء والحية» بشيكاغو التى ترى فيها أيلا جميلا ينضم إلى جماعتها ويسميها باسمها . وكل هؤلاء العرايا تقريباً يتميزن بخلة تنقذهن من تهمة الإثارة الجنسية — هى فكاهة خبيثة . أو دفء فى اللون ، أو رهافة إيطالية فى الخط ، أو نحافة فى قوام الأنثى تخرج على المألوف الوطنى ، فهاهنا محاولة جريئة لاختزال بدانة المرأة الألمانية (الفراو) .

وصور الأشخاص التى تدفقت من أيدى كراناخ ومساعديه أكثر طرافة من نسائه العاريات المكررات ، وبعضها يضارع صور هولبين. فلوحة « أنا كسبنيان » هى الواقعية تخففها الرقة والأثواب الفاخرة وقبعة فى شكل البالون . وقد جلس زوجها يوحنا كسبنيان إلى صورة أبدع حتى من صورة زوجته — فكل مثالية الأديب الإنسانى الشاب انعكست فى عينيه المفكرتين ورمز لها بكتاب يمسك به فى شغف . وقد خلد عشرات من كبار القوم فى الألوان الزيتية أو الطباشيرية فى هذا المرسم الشعبي ، ولكن أحداً منهم لا يستحق الخلود كما يستحقه الطفل « أمير سكسونيا » (واشنطن) الذى يفيض براءة ورقة وعقائص ذهبية . وفى الطرف الآخر من الحياة صورة الدكتور يوحنا شونر وقد بدا رهيب الملامح ولكن فى صورته صنعة رفيعة . ثم نلتقى هنا وهناك فى صور كراناخ بحيوانات رائعة الشكل ، كلها عريق النسب ، وظباء تبدو طبيعية جداً حتى أن صديقاً للمصور زعم أن « الكلاب تنبح حين تراها »(١٨)

ولولا أن كراناخ وفق هذا التوفيق السريع الكبير لجاز أن يكون فناناً أعظم . فبكثرة رعاته وزعت عبقريته فلم يكن في وقته متسع لينصرف بكل هذه العبقرية إلى عمل واحد فقط . لذلك لم يكن بد حين جاوز الحادية والثمانين أن يعتريه الكلل والتراخي ، وأصبح رسمه الذى كان فى الماضى دقيقاً كرسم دورر مشوباً بالإهمال ، وراح يتجنب رسم التفاصيل ويكرر نفس الوجوه والعرايا والأشجار تكراراً أفقدها الحياة . ولا مفر لنا فى النهاية من أن نتفق مع الكهل دورر فى هذا الحكم الذى أصدره على كراناخ الشاب — « إن لوكاس يستطيع رسم الملامح لا الروح »[١٩] .

وحين بلغ الثامنة والسبعين فى ١٥٥٠ رسم لنفسه صورة بدا فيها عضو مجلس المدينة والتاجر البدين أكثر منه المصور والحفار . فى رأس مربع قوى ، ولحية بيضاء مهيبة ، وأنف عريض وعينين ممتلئتين كبرياء وقوة شخصية . وبعد ثلاثة أعوام أسلم جسده للزمن . مخلفاً ثلاثة أبناء كلهم فنانون ، يوحنا لوكاس ، وهانز ، ولوكاس الابن الذى نقلت لوحته « هرقول النائم » موضوعاً من رابليه إلى سويفت . إذ أظهرت المارد وهو يتجاهل فى هدوء تلك السهام التى أصابته بالجهد فى طبقة المضغة الظاهرة من الأقزام المحيطين به . ولعل لوكاس الأب كان يتجاهل بمثل هذا الهدوء نقد الناقدين الذين نددوا به لمثله البورجوازية وعجلته التى لا يراعى فيها الذمة ، وهو اليوم راقد تحت نصب قبره الذى كتبت عليه عبارة مديح تحتمل معنيين : « أسرع المصورين » .

وبموته انقضى العصر الذهبى للتصوير الألمانى . ولعل السبب الأساسى فى هذا الانحطاط هو حدة النزاع الدينى أكثر من رفض البروتستنت للتصوير الدينى . ومن الجائز أن موجة من الفساد الخلقى كانت سبباً فى تبذل التصوير الألمانى بعد ١٥٢٠ . فبدأت أجساد العرايا تلعب دوراً

قياديا ، وانصرفت الصور — حتى المأخوذ منها من الكتاب المقدس — إلى موضوعات مثل سوسنة والشيوخ ، أو زوجة فوطيفار تراود يوسف ، أو بتشبع في حمامها . وتراجع التصوير الألماني بعد موت كراناخ فترة قرنين من الزمان وارتد وراء قوى اللاهوت والحرب .

٥ — الطراز التيودوري ١٥١٧ — ٥٨

بدأ حكم هنري الثامن برائعة من روائع الفن القوطي في كنيسة هنري السابع ، وانتهى بعمار النهضة المتمثل في القصور الملكية ، وكان تغير الطراز انعكاساً صحيحاً لانتصار الدولة على الكنيسة . وتعطلت العمارة الكنسية زهاء مائة عام نتيجة لهجوم الحكومة على الأساقفة والأديار والموارد الكنسية .

كان هنري السابع وهو يتوقع موته قد خصص ١٤٠٠٠٠ جنيه (١٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) لبناء كنيسة صغيرة للسيدة العذراء في دير وستمنستر لتحوي قبره . وهي رائعة فنية ، لا في بنائها بل في زخرفها ، ابتداء من المقبرة ذاتها إلى الحصاة الحجرية المتشابكة في القبو المروحي ، التي وصفته بأنها « أعجب ماصنعته يد الإنسان في فنون البناء » . ولما كان تصميم الكنيسة قوطياً وزخرفها ينتمي إلى طراز النهضة ، فإن فيها تتجلى بداية الطراز التيودوري أو المنمق . ولم يلبث هنري الثامن ، الإنساني الشاب ، أن افتتن بالأشكال المعمارية الكلاسيكية ، فاستقدم هو وولزي عدة فنانين إيطاليين إلى إنجلترا . وكلف أحدهم وهو بييترو توريجيانو بتصميم مقبرة والديه . ومن ثم أفاض المثال الفلورنسي على التابوت المصنوع من الرخام الأبيض والحجر الأسود زخارف مسرفة سواء بالحفر أو البرونز المذهب : أشخاص ممتلئو الأبدان ، وأكاليل زهر غاية في الرشاقة ، ونقوش بارزة للعذراء وشتى القديسين ، وملائكة جالسين على قمة المقبرة مادين أرجلهم الجميلة في الفضاء ،

وفوق هذا كله تمثالان مضطجعان هنرى السابع وزوجته إليزابث . وكان هذا نحتاً لا عهد لانجلترا به قط ، ولم يبزه فى إنجلترا نحت من بعد . « هنا — كما قال فرانسس بيكون — ينزل الملك الشحيح الذى يحرص على البنسات لينفق الجنيهات فى موته منزلا أبهى مما كان ينزل حياً فى أى من قصوره »[٢٠] .

لم يكن هنرى الثامن بالرجل الذى يسمح لأى إنسان بأن يدفن فى أبهة تفوق أبهة دفنه . ففى عام ١٥١٨ تعاقد على أن يدفع لتوريجيانو ٢,٠٠٠ جنيه نظير تصميمه مقبرة « أعظم بالربع » من مقبرة أبيه[٢١] . ولكن لم يكتب لهذه المقبرة أن تتم ، ذلك أن الفنان أوتى كما أوتى الملك طبعاً ملكياً حاداً ، وغادر توريجيانو إنجلترا فى سورة غضب (١٥١٩) . ولما عاد إليها لم يضف مزيداً إلى المقبرة الثانية . وبدلا من ذلك صمم لكنيسة هنرى السابع مذبحاً عالياً ، وحاجزاً خلفه ، ومظلة فوقه ، دمرها رجال كرومويل فى عام ١٦٤٣ . وفى عام ١٥٢١ رحل توريجيانو إلى أسبانيا .

واستؤنفت مهزلة الموت هذه حين كلف ولزى فلورنسيا آخر يدعى بنديتو دا روفتسانو بأن يبنى له مقبرة فى كنيسة القديس جورج بوندزور . كتب هربرت لورد تشوربرى يقول : « إن تصميمها أفخم جداً من تصميم مقبرة هنرى السابع »[٢٢] . ولما سقط الكردينال توسل إلى الملك أن يسمح له على الأقل بالاحتفاظ بتمثاله ليوضع على مقبرة أكثر تواضعاً فى يورك . فأبى هنرى ، وصادر المقبرة كلها لتكون مثوى له ، وأمر الفنانين أن يحلوا تمثاله محل تمثال ولزى ، ولكنه شغل بمشكلات الدين والزواج ، ولم يتم قط بناء هذا الأثر الجنائزى . ثم أراد تشارلز الأول أن يدفن فيه . ولكن برلمانه الذى ناصبه العداء باع الزخارف قطعة قطعة . فلم يبق منها سوى تابوت

الرخام الأسود ليؤلف آخر المطاف جزءاً من ضريح نلسن فى كنيسة القديس بولس (١٨١٠) .

ونحن إذا استثنينا هذه الجهود الفنية ، وما زينت به كنيسة الكلية الملكية بكمبردج من حجاب خشبى ومقاعد وزجاج معشق وقبو . وكلها رائع فاخر ، وجدنا أن المعمار البارز فى هذا العصر كرس لإضفاء العظمة على بيوت النبلاء الريفية حتى تصبح قصوراً أشبه بقصور الحان قائمة وسط حقول إنجلترا وغاباتها ؛ وكان المعماريون هنا إنجليزاً ، ولكن اثنى عشر إيطالياً جندوا لأشغال الزخرفة . هنا ترى واجهة عريضة عرضاً مهيباً امتزج فيها الفن القوطى بفن النهضة ، وبوابة ذات أبراج تفضى إلى فناء ، وقاعة فسيحة للاحتفالات المكتظة بالناس ، وبيت سلم ضخماً يصنع عادة من الخشب المنقوش ، وحجرات تزينها الصور الجدارية أو قطع النسيج المرسومة وتضيئها نوافذ شبكية أو ناتئة ، وحول المبانى حديقة ومسرح للغزلان ومن خلفها أرض للصيد — تلك هى فكرة الشريف الإنجليزى المسبقة ، الشكاكة ، عن النعيم .

وأشهر قصور النبلاء التيودورية هذه هو هامبتن كورت ، الذى بناه ولزى لنفسه (١٥١٥) وأوصى به لمليكه وهو فى رهبة منه (١٥٢٥). ولا يختص بفضل بنائه معمارى واحد ، بل لفيف من كبار البنائين الإنجليز الذين شيدوه أساساً على الطراز القوطى العمودى ووفق تصميم وسيط فيه الخندق والأبراج والأسوار ذوات الفوهات ؛ وأضاف جوفانى دا مايانو لمسة من لمسات فن النهضة تمثلت فى حلى مستديرة من التراكوتا على الواجهة . وقد وصف دوق فورتمبرج الذى زار إنجلترا فى ١٥٩٢ هامبتن كورت هذا بأنه أفخم قصور الدنيا قاطبة [٢٤]. وهناك قصور أخرى لا تقل عنه كثيراً فى الفخامة ، مثل صاتون بليس فى صرى ، الذى بنى للسر رتشارد وستون (١٥٢١ — ٢٧) ؛ وقصر

نونستشن الذى بدىء بتشييده لهنرى الثامن فى ١٥٣٨ على نطاق إمبراطورى . تقول رواية قديمة إنه « جلب له أمهر الصناع والمعماريين والنحاتين والمثالين من شتى الأمم ، إيطاليين وفرنسيين وهولنديين وإنجليزاً من وطنه ، فأتوا كلهم بمثال معجز من فنهم فى زخرفة القصر ، وزينوه من الداخل والخارج بتماثيل تذكرنا بآثار الرومان القديمة من حيث المحاكاة الدقيقة لها . ولكنها فيما عدا ذلك تفوقها إتقاناً ».(٢٥) واستخدم مائتان وثلاثون رجلا بصفة مستمرة فى بناء هذا القصر الذى قصد به أن يفوق بهاؤه بهاء قصرى فرانسوا الأول فى شامبور وفونتنبلو . ونادراً ما بلغ الملوك الإنجليز هذا الثراء ، أو الشعب الإنجليزى هذا الفقر . ومات هنرى قبل الفراغ من قصر نونستش . وقد جعلته اليزابث مقرها المحبب . ووهبه تشارلز الثانى لخليلته الليدى كاسلمين (١٦٧٠) فأمرت بهدمه . وباعت أجزاءه قطعاً ، لأنها رأت فى هذا الوسيلة الوحيدة لتحويل هذا العبء المالى إلى ثروة .

٦ — هولبين الابن : ١٤٩٧ — ١٥٤٣

ما أشد عجز الألفاظ أمام عمل من أعمال الفن ! فكل فن يقاوم بنجاح ترجمته إلى أى وسيط آخر . ذلك أن له سمة لاصقة به إما أن تتكلم عن نفسها أولا تتكلم على الإطلاق . وليس فى طاقة التاريخ إلا أن يسجل كبار الفنانين وآياتهم الفنية . أما توصيل هذه الآيات فذلك ما يعجز عنه . والجلوس فى صمت أمام لوحة هولبين التى تمثل زوجته وأبناءه خير من ترجمة لحياة الفنان . ومع ذلك . . .

كان هولبين محظوظاً فى نسبه عنه فى زمانه . فقد كان أبوه من كبار المصورين فى أوجزبورج . ومنه تعلم هانز مبادئ التصوير . ومن هانز بوركمير شيئاً من الجمال والتشكيل الإيطاليين . وفى عام ١٥١٢

رسم أربع حشوات للمذبح محفوظة الآن بمتحف أوجزبورج — متوسطة الجودة حقاً ، ولكنها جيدة إلى حد مدهش بالنسبة لغلام فى الخامسة عشرة . وبعد عامين ارتحل هو وأخوه أمبروز ، وهو رسام أيضاً ، إلى بال . ولعل أباهما كان قد غالى فى التشبث بأسلوبه الذى ما زال قوطياً ، أو لعله لم يتوافر فى أوجزبورج من مال الطبقة المتعلمة ما يكفى إلا لإعالة لقلة من الفنانين ، على أى حال قليلا ما يتعلق الشباب والعبقرية بالبقاء فى الوطن . وفى بال اكتشف الغلامان أن الحرية امتحان. ورسم هانز صوراً لعدة كتب من بينها كتاب إرزمس « فى مدح الحماقة » ، وقام ببعض أشغال الطلاء البسيطة ، وصنع لافتة لأحد المدرسين ، وزخرف رأس مائدة بمشاهد حية من قصة القديس المجهول الاسم — ذلك النكرة الذى يسهل تناوله ، والذى اتهم بكل الخبائث المجهولة ولم ينبس بكلمة دفاعاً عن نفسه . وكان جزاء هانز على هذا العمل مهمة مثمرة وكلت إليه — هى رسم لوحات للعمدة يعقوب ماير وزوجته (١٥١٧) . وذاع صيت هذه اللوحات ، وما لبث يعقوب هرتنشتين أن استقدم هانز إلى لوسرن ، وهناك رسم صوراً جصية على واجهة دار رب البيت وجدرانه ، ورسم لوحة بنـــدكت هرتنشتين المحفوظة الآن بمتحف المتروبوليتان بنيويورك . ولعله انتقل من لوسرن إلى إيطاليا ، فقد أفصح فنه منذ الآن عن تأثير إيطالى من حيث دقة التشريح والخلفيات المعمارية وتكييف الضوء . فلما عاد إلى بال وقد بلغ الثانية والعشرين أقام لنفسه مرسماً وتزوج من أرملة (١٥١٩) . وفى هذه السنة مات أخوه ، وفى ١٥٢٤ مات أبوهما .

وامتزجت الواقعية الألمانية بالعمارة الرومانسكية والزخارف الكلاسيكية فى الصور الدينية التى راح هولبين يرسمها الآن . وأنها لواقعية يجفل لها الناظر — وتذكر بمانتينيا — تلك التى تطالعنا فى لوحة « المسيح فى القبر » :

الجسد ليس سوى عظم وجلد ، والعينان مفتوحتان بصورة رهيبة، والشعر أشعث ، والفم فاغر فى جهد أخير للتنفس ، كل هذا يبدو موتاً لا رجعة فيه ، فلا عجب أن قال دستويفسكى عن الصورة أنها قد تدمر إيمان المرء[٢٦] . وحوالى هذه الفترة رسم هولبين صوراً جدارية لقاعة المجلس الكبير فى بال . فسر بها أعضاء المجلس ، وكلفه أحدهم بأن يرسم لوحة مذبح لدير كارتوزى . وهذه اللوحة ، واسمها «آلام المسيح» أوذيت فى حوادث الشغب التى قامت فى ١٥٢٩ لتحطيم الصور ، ولكن أنقذ منها مصراعان ، وأهديا لكاتدرائية فرايبورج — إيم — برايسجاو . وهما يستعيران الكثير من بالدونج جرين ، ولكنهما يتفردان بقوة تتجلى فى تلك الحركة العجيبة للضوء المنبعث من «الطفل» . وفى عام ١٥٢٢ طلب كاهن مدينة بال لوحة مذبح أخرى . وقد استخدم هولبين فى رسم هذه «المادونا» ذات الجمال الهادىء — والمحفوظة بمتحف الفن بسولوتورن — زوجته وابنه نموذجين ، وكانت الزوجة يومها امرأة ذات حسن متواضع لم تمسه المأساة بعد . ولعله حوالى هذه الفترة [٢٧] أخرج رائعته الدينية «العذراء والطفل مع أسرة العمدة ماير» — وهى فريدة تكويناً وخطاً ولوناً ، حارة عاطفة . وفى وسعنا أن نفهم فى تعاطف أكثر صلاة العمدة للعذراء إذا علمنا أن ولديه المرسومين عند قدميه ، وإحدى الزوجتين الجاثيتين إلى اليمين ، كانوا قد فارقوا الحياة »

ولكن أجر هذه الصور الدينية كان ضئيلا بالقياس إلى ما تطلبته من عناية وجهد . وأما صور الأشخاص فأربح للمصور ، الذى اقتضاه ازدياد أفراد أسرته مزيداً من نفقات إعاشتهم . ففى عام ١٥١٩ رسم هولبين صورة للعالم الشاب بونيفاكوس أمرباخ — وجه نبيل ما زال محتفظاً بالمثالية رغم النظرة الثاقبة إلى العالم . وحوالى عام ١٥٢٢ رسم لوحة للطباع الكبير فروبن — رجل متفان فى عمله ، قلق ، برته

الحياة نتيجة جهوده الخلاقة . وعن طريق فروبن عرف هولبين إرزمس.
فني عام ١٥٢٣ رسم صورتين من صوره الكثيرة للأديب الإنسانى
الذى غشيه الحزن ؛ وفى لوحته التى بدا فيها إرزمس فى ثلاثة أرباع
قامته ، وفق الفنان ، وقد بلغت قدراته غايتها ، فى تفهم روح رجل
عمر أكثر مما ينبغى ، فالمرض ولوثر عمقا تجاعيد وجهه واكتئاب عينيه .
أما الصورة الجانبية المحفوظة بمجمع الفن ببال فيبدو فيها أكثر هدوءاً
وحيوية ، فالأنف ينبرى للنزال كأنه سيف مجالد رومانى . ولعل
المخطوط الذى يرى تحت قلمه مسودة لكتابه De libero arbitrio
(١٥٢٤) الذى بدأ يدخل به صفوف المعارضين للوثر . وأكبر الظن
أن هولبين صور إرزمس مرة أخرى فى عام ١٥٢٤ صورته المحفوظة
بمتحف اللوفر ، وهى أفضل صورة قاطبة ؛ ونظرة إلى هذا الوجه
العميق الذى طهره الألم تذكر المرء بتعقيب لنيزار فيه إدراك وتفهم
« لقد كان إرزمس أحد أولئك الذين كان فخرهم فى أن يفهموا الكثير
ويجزموا بالقليل »[٢٨] .

وحوالى ١٥٢٣صور هولبين نفسه وقد بلغ السادسة والعشرين وبدت
عليه آثار النعمة ، ولكن النظرة الباردة توحى ببعض الامتعاض المناضل
مما منى به فى الحياة من صدمات . وترميه الرواية بادمان غير مفرط على
الخمر والنساء ، وتصوره رجلا غير سعيد مع زوجته. ويبدو أنه كان
يشارك لوثر بعض آرائه . فلوحاته الخشبية المحفورة « رقصة الموت »
(حوالى ١٥٢٥) تهجو الاكليروس — ولكن هذا فعله حتى الاكليروس
أنفسهم فى ذلك العهد . وتصور هذه المجموعة الموت يتعقب خطوات
كل رجل أو إمرأة أو طبقة — آدم ، وحواء ، والإمبراطور ، ونبيلا ،
وطبيباً ، وراهباً ، وكاهناً ، وبابا ، ومليونيراً ، ومنجماً ، ودولة ،
ومهرجاً ، ومقامراً ، ولصاً — كلهم فى طريقهم إلى الدينونة الأخيرة ،

واللوحة عمل فني يضارع في قوته أي عمل لدورر استخدم فيه هذا الوسيط . وإذا استثنينا هذه الرائعة من روائع الرسم ، وعذراء ماير ، لم نتبين في هولبين أي عاطفة دينية واضحة . ولعله تشرب بعض التشكك من إرزمس وإنسانيي بال[٢٩]. لقد كان اهتمامه بالتشريح أشد من اهتمامه بالدين .

ولقد عصفت حركة الإصلاح البروتستنتي بسوق صوره في بال على الرغم من رضائه المرجح عنها . فلم تعد تطلب منه صور دينية . وتوقف دفع أجور اللوحات التي رسمها لقاعة المجلس. أما سراة القوم فقد لاذوا بالعزلة والشح إذ روعتهم حرب الفلاحين ، ورأوا أن الوقت غير مناسب للتصوير . كتب إرزمس من بال في ١٥٢٦ يقول : «إن الفنون تتجمد هنا »[٣٠] . وقد زود هولبين بخطابات قدمه فيها لأصدقائه في أنتورب ولندن ، وانطلق هولبين إلى بلاد الشمال سعياً وراء المال بعد أن ترك أسرته في البيت . وزار كوينتين ماسيس، وما من شك في أنهما تبادلا الرأى في إرزمس . ومن أنتورب عبر البحر إلى إنجلترا . وضمن له خطاب إرزمس لقاء حاراً من تومس مور الذي هيأ له مسكناً في بيته بتشلسي ، وهناك رسم صورته (١٥٢٦) المحفوظة الآن بصالة فريك في بنيويورك . ويرى المؤرخ ، بادراكه المؤخر ، في العينين المتوترتين اللتين يغشاهما بعض الاكتئاب إيذاناً بورع الشهيد وصلابته . أما أعجب ما في اللوحة كما تراها بصيرة الفنان فهو فراء الكم وتلافيفه. وفي عام ١٥٢٧ رسم هولبين « تومس مور وأسرته » - وهي أقدم لوحة جماعية معروفة في الفن غير الديني عبر الألب .

وفي أواخر عام ١٥٢٨ عاد هولبين إلى بال بعد أن كسب بضعة جنيهات وشلنات ، وأعطى إرزمس نسخة من لوحة « مور وأسرته » ثم لحق بزوجته من جديد . وعكف الآن على رسم صورة من أعظم

صوره وأصدقها ، ترينا أسرته بواقعية لم يضن بها على نفسه . فكل وجه من الوجوه الثلاثة قد غشيه الحزن ، الفتاة مستسلمة بل تكاد تكون يائسة ، والصبي يتطلع إلى أمه مكتئباً ، أما هي فترمقهما بأسى وحب انعكسا انعكاساً عميقاً فى عينيها — أسى زوجة فقدت حب زوجها ، وحب أم لا يربطها بالحياة سوى ولديها . وترك هولبين أسرته ثانية بعد ثلاثة أعوام من رسمه هذا الاتهام الرائع لشخصه .

ورسم خلال إقامته هذه فى بال لوحة أخرى لفروين ، وست صور لإرزمس يعوزها ما تميزت به صور ١٥٢٣ — ٢٤ من عمق شديد . وجدد مجلس المدينة طلب رسوم جصية لحجراته ، ولكنه شجب الصور الدينية كافة مستسلماً لمحطمى الصور المنتصرين ، وأفتى بأن « الله لعن جميع من يصنعونها » (٣١). وهبط الطلب على الصور ، وفى عام ١٥٣٢ عاد هولبين إلى إنجلترا .

وهناك رسم صوراً بلغت من الكثرة حداً ظهر معه معظم الأشخاص ، الذين سيطروا على مسرح الأحداث فى إنجلترا خلال تلك السنوات الصاخبة ، وقد دبت فيهم الحياة بفضل ريشة هولبين الساحرة . ففى مكتبة الملكة بقصر وندزور سبعة وثمانون رسماً تخطيطياً بالفحم أو الطباشير ، بعضها أعد لرسوم هزلية ، وأكثرها للوحات ، والظاهر أن الفنان لم يحتج لأكثر من جلسة أو جلستين من أصحاب رسومه ، ثم صورهم على لوحاته نقلا عن هذه الرسوم . وسعى التجار الهانسيون فى لندن إلى فنه ، ولكنهم لم يوحوا إليه بأفضل ما عنده . وقد رسم لقاعة نقابة الهانسيين صورتين جداريتين ، محفوظتين فى نسخ أو رسوم لها فقط ، مثلت إحداهما « انتصار الفقر » ، والأخرى : « انتصار الغنى » . وكلتاهما معجزة فى الشخصية المميزة ، والحركة الحية ، والتصميم المتماسك ، وهما توضحان شعار النقابة — « إن الذهب أبو الفرج وابن الهم ، المفتقر إليه حزين ، والمالك له قلق (٣٢)» .

وفى عام ١٥٣٤ أسلم تومس كرمويل وجهه الجامد وجسده الهش لريشة هولبين ، وكان مزمعاً أن يكون بشخصه مصداق هذه الحكمة . وعن طريقه اتصل الفنان بأرفع الشخصيات فى البلاط . ورسم لوحة « السفراء الفرنسيين » ووفق توفيقاً غير عادى فى تصوير واحد منهم يدعى شارل دسوابيه ، إذ كشف عن الرجل المتوارى خلف رداء المنصب وشارته . وهناك أربعة آخرون — هم السر هنرى جلفورد (مراقب البيت الملكى) ، والسر نيكولاس كاريو (قيم الاسطبلات الملكية) . وروبرت تشيسمان (بازدار الملك) والدكتور جون تشيمبرز (طبيب الملك) — هؤلاء الأربعة تستشف فى صورهم صفاقة فى الجلد لولاها لاستحال عليهم العيش فى مأمن مع هذا الملك النارى الطبع . وقد أصبح هولبين واحداً منهم حوالى ١٥٣٧ بوصفه المصور الرسمى للبلاط . وأفرد له مرسم خاص فى قصر هوايتهول ، ونزل مسكناً مريحاً . وكان له كغيره عشيقات وأبناء غير شرعيين ، وغدا يرفل فى الخز والأثواب البهية (٣٣) . وطلب إليه أن يزخرف الحجرات ، ويصمم الأثواب الرسمية ، وأغلفة الكتب ، والأسلحة ، ومفارش المائدة ، والأختام ، والأزرار والمشابك الملكية ، والأحجار الكريمة التى كان هنرى يهديها إلى زوجاته ، وفى عام ١٥٣٨ أوفده الملك إلى بروكسل ليصور الأميرة كرستين الدنمركية ، وقد تبين أن فيها كثيراً من الفتنة ، وود هنرى لو اتخذها زوجة ، لولا أنها اختارت الدوق فرانسوا اللورينى بدلا منه ، ولعلها آثرت أن تعلق فى قاعة للصور عن أن يقطع رأسها . وانتهز هولبين الفرصة لزيارة بال زيارة قصيرة . وهناك عين راتباً سنوياً لزوجته قدره أربعون جلدراً (١,٠٠٠ دولار ؟) ثم أسرع بالعودة إلى لندن . وبعد عودته بقليل كلف بأن يصور آن كليفز ، وكاد هولبين أن يتنبأ بمصيرها فى العينين الحزينتين اللتين تطالعانك من صورتها المحفوظة الآن باللوفر .

أما الملك فقد رسم له عدة لوحات كبيرة فقدت كلها تقريباً . وبقيت منها واحدة فى قاعة « باربر سيرجنز » بلندن : « هنرى الثامن يمنح مرسوم شركة تضامنية لشركة باربر سيرجنز » ويرى فيها هنرى وقد طغى على المشهد فى أثوابه الرسمية : ورسم الفنان صورا جذابة لزوجة هنرى الثالثة جين سيمور ، ولزوجته الخامسة كاترين هوارد . وكان إذا جلس أو وقف له هنرى نفسه يرتفع إلى مستوى التحدى ويخرج لوحات لايفوقها من انتاجه سوى صور إرزمس المحفوظة باللوفروبال . ولوحة عام ١٥٢٦ تظهر الملك بدينا بدانة التيوتون ، مزهواً زهوهم . وأعجب بها هنرى على الرغم منه ، وكلف هولبين بتصوير الأسرة المالكة صورة جصية ملونة بقصر وايتهول . وقد دمرت النيران هذه الصورة الجدارية عام ١٦٩٨ . ولكن نسخة أخرجت منها عام ١٦٦٧ لتشارلز الثانى تشف عن براعة التصميم : فى أعلى اليسار يرى هنرى السابع ، تقياً متواضعاً ، وفى أسفل ولده يلوح بشعارات السلطة ويمد ساقيه كأنه العملاق . وإلى اليمين أمه وزوجته الثالثة ، وفى الوسط أثر من الرخام يفصل باللاتينية فضائل الملوك . وقد فصل وجه هنرى الثامن بواقعيه ترددت بسببها أسطورة تحكى أن أشخاصا دخلوا الحجرة وحسبوا أن الصورة هى الملك الحى ذاته . وفى عام ١٥٤٠ رسم هولبين صورة أشد وقعاً فى النفس حتى من هذه . وهى « هنرى الثامن فى ثياب العرس . » واخيراً (١٥٤٢.) أظهر لنا الرسام هنرى فى انحلال عقله وجسده . وكان عمل ربة الانتقام هنا بطيئا متأنيا . فمدت فى ثأر الآلهة ، وبدلا من الميتة الهادئة أو المباغته قضت عليه بانحلال طويل مذل .

وهناك صورتان جميلتان تكفران عن سيئات قاعة الصور الملكية ، إحداهما للامير إدوارد فى الثانية من عمره وهو يفيض براءة ، والأخرى لإدوارد فى السادسة (بمتحف المتروبوليتان للفنون) . وهذه اللوحة الثانية

بهجة للناظرين . وفى وسعنا أن نحكم على فن هولبين حين نراه خلال سنة أو سنتين يصور فى غير إحجام كبرياء الأب البدين ، ثم يلتقط بمثل هذه البراعة المحيّرة وداعة الابن البريئة .

وصور الفنان نفسه مرة أخرى حين بلغ الخامسة والأربعين (١٥٤٢) ، وبذات الموضوعية التى رسم بها الملك : رجلا مرتاباً مشاكساً ذا شعر ولحية وخطهما الشيب وبدا عليهما الإهمال ؛ ثم مرة أخرى عام ١٥٤٣ فى صورة مستديرة تظهره فى حالة أرق وألطف . فى ذلك العام اجتاح الطاعون لندن واختاره واحداً من ضحاياه .

كان من الناحية التقنية واحداً من عظماء المصورين . فهو يرى فى تدقيق بالغ ، ويرسم كما يرى ، وهو يمسك بكل خط ، أو لون ، أو موقف ، بكل زاوية أو تغير فى الضوء ، يمكن أن يكشف عن دلالة أو مغزى ، ويثبته على الورق أو القماش أو الخشب أو الجدار . . . وأى دقة فى الخطوط ، وعمق ونعومة ودفء فى الألوان ، وبراعة فى ترتيب التفاصيل ليؤلف بينها تأليفاً موحداً ! ولكننا فى كثير من اللوحات ، التى لم يكن الهدف منها تصوير الشخص بل تقاضى الأجر ، نفتقد ذلك التعاطف القادر على رؤية نفس الإنسان الخفية وعلى مشاركتها شعورها . هذا التعاطف نجده فى صور إرزمس المحفوظة باللوفر وبال ، وفى صورة أسرته ، وإذا استثنينا عذراء ماير ، فإننا نفتقد المثالية التى سمت بالواقعية فى لوحة فان إيك « عبادة الحمَل » . وقد قصر به عدم مبالاته بالدين عن بلوغ السمو الذى بلغه جرونفالد ، وأبعده عن دورر الذى ظل على الدوام محتفظاً بإحدى قدميه فى العصور الوسطى . ولم يكن هولبين فنان النهضة الخالص كتيشان ، ولا فنان الإصلاح البروتستنتى الخالص ككراناخ ، لقد كان ألمانياً — هولندياً — فلمنكياً — إنجليزياً فى واقعيته وإحساسه العملى . ولعل نجاحه حال دون دخول مبادىء التصوير الإيطالية ورقته

دخولا قوياً إلى إنجلترا . وبعد موته انتصرت البيورتانية على العاطفة الإليزابيثية ، وراح فن التصوير الإنجليزى يتعثر حتى جاء هوجارث . وفى الوقت ذاته فارق المجد التصوير الألمانى . ولم يكن بد من أن يتدفق فوق أوربا الوسطى سيل من الهمجية قبل أن يعود الإحساس بالجمال إلى التعبير عن نفسه هناك مرة أخرى .

٧ — الفن فى أسبانيا والبرتغال : ١٥١٥ — ٥٥

لم تعرف أسبانيا قط النهضة بالمعنى الإيطالى الفنى على الرغم من ظهور الجريكو وفيلاسكيز ، وسرفانتيس وكالديرون . فثروتها التى جاءتها من أقطار نائية أضفت على ثقافتها المسيحية زخارف جديدة ، وأتاحت لها إجزال العطاء للوطنيين النابغين فى الأدب والفن ، ولكنها لم تتدفق كما تدفقت الثروة فى إيطاليا وفرنسا إلى أى جهود مثيرة لاستعادة تلك الحضارة الوثنية التى ازدان بها عالم البحر المتوسط قبل المسيح وبعده ، والتى أنجبت سنيكا ولوكان ومارتيال وكونتيليان وتراجان وهادريان على أرض أسبانيا ذاتها . لقد طغى على ذكرى العهد الكلاسيكى طول الصراع بين المسيحية الإسبانية والمغاربة ، وكل الذكريات المجيدة كانت ذكريات ذلك الانتصار المتطاول ، وغدا الإيمان الذى حققه مقترناً بتلك الذكرى الفخور لا ينفصل عنها . وبينما كانت الدولة تذل الكنيسة فى كل أرجاء أوربا الأخرى ، كان النظام الكنسى فى أسبانيا يزداد قوة على الزمن ، فتحدى البابوية وتجاهلها ، حتى حين كان الأسبان يحكمون الفاتيكان ، وعاش رغم الاستبداد الورع الذى فرضه فرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى ، ثم سيطر على كل نواحى الحياة الأسبانية . وكانت الكنيسة فى أسبانيا الراعى الوحيد تقريباً للفنون ، ومن ثم فقد قررت اللحن الذى تريده ، وحددت الموضوعات . وجعلت الفن كالفلسفة خادماً للاهوت . وعينت محاكم التفتيش الإسبانية مفتشين

لتحريم العرى أو البذاءة أو الوثنية أو الهرطقة فى الفن ، ولتحديد طريقة تناول المواضيع المقدسة فى النحت والتصوير ، ولتوجيه الفن الأسبانى وجهة التبصير بالإيمان وتثبيته .

ومع ذلك فقد كان التأثير الإيطالى يتدفق إلى أسبانيا . فارتقاء الأسبان عرش البابوية وفتح ملوك الأسبان نابلى وميلان ، وحملات الجيوش الأسبانية وبعثات رجال الدولة والكنيسة إلى إيطاليا ، والتجارة الرائجة بين أسبانيا والثغور الإيطالية ، وزيارة الفنانين الأسبان أمثال فورمنت وبيروجويتى وابنه لإيطاليا ، والفنانين الإيطاليين أمثال توريجيانو وليونى ليونى لأسبانيا — هذه العوامل كلها أثرت فى الفن الأسبانى من حيث طرائقه وزخرفته وأسلوبه ، ولم نؤثر تأثيراً يذكر فى روحه أو موضوعه ؛ أثرت فى التصوير أكثر مما أثرت فى النحت ، وكانت أقل ما تكون تأثيراً فى العمارة .

وسيطرت الكاتدرائيات على مشاهد الريف والمدن سيطرة الدين على الحياة . فالرحلة فى أسبانيا أشبه بالحج من هيكل إلى آخر من هذه الهياكل الجبارة . وضخامتها المهيبة ، وغنى زخارفها الداخلية ، وصمت أبهائها الذى يلفه ضوء خافت ، وأشغال الحجر المكرسة التى تبنى بها أروقتها ، كلها تبرز البساطة والفقر الوضحين فى مساكن الآجر الجميلة المتزاحمة فى أسفلها وهى تتطلع إليها كأنها الوعد بعالم أفضل . وظل الطراز القوطى هو السائد فى الكاتدرائيات الشامخة التى ارتفعت فى سماء سلمنقة (١٥١٣) وسقوبية (١٤٢٢) ، ولكن المعمارى ديبجو دى سيلوى ، وكان ابن نحات قوطى الفن ، صمم الأجزاء الداخلية من كاتدرائية غرناطة بأعمدة وتيجان كلاسيكية ، وتوج التصميم القوطى بقبة كلاسيكية (١٥٢٥) ؛ وأزاح طراز النهضة الإيطالية الطراز القوطى إزاحة تامة فى قصر شارل الخامس بغرناطة . وكان شارل قد وبخ أسقف قرطبة

على إتلافه المسجد الكبير ببناء كنيسة مسيحية داخل أعمدته البالغ عددها ٨٥٠(٣٤) ، ولكنه ارتكب ذنباً لا يكاد يقل فداحة حين هدم بعض قاعات قصر الحمراء وأبنيته ليفسح مكاناً لبناء كان من الجائز أن يتقبل المرء ضخامته الصارمة وتماثله السخيف دون تأذ لو أنه قام وسط أبنية مماثلة له فى روما ، ولكنه ظهر نابياً أشد النبوّ وسط القلعة المغربية برشاقتها الهشة وتنوعها البهيج .

وظهر شيء من ميل المغاربة للزخارف المعمارية فى طراز « الأطباق » الذى طبع أكثر ما طبع المعمار المدنى فى ذلك العهد . وقد اشتق اسمه من الشبه بينه وبين الحلى المعقدة الرقيقة التى كان صائغو الفضة (البلاتيرو) أو الذهب يحلون بها آنية المائدة وغيرها من تحف فنهم . وقد ملأ هذا الطراز قمم وجوانب البوابات والنوافذ بأحجار ملتفة عربية الطراز ، وحفر الأعمدة أو لولبها أو زهرها بخيال إسلامى غريب ، وثقب النوافذ المصبّعة والدرابزينات بورق شجر وبوشى من الرخام . وكان هذا الطراز طابع كنيسة أوبيسبو فى مدريد ، وكنيسة سانتو توماس فى أفيلا ، وخورس كاتدرائية قرطبة . وقد أطلق لنفسه العنان فى قاعة مدينة إشبيلية (١٥٢٦) . واقتبست البرتغال هذا الطراز على بوابة حفلت بالحلى وأعمدة نقشت بالزخارف فى دير سانتا ماريا الفخم فى بيليم (١٥١٧) ، وحمله شارل الخامس إلى الأراضى المنخفضة وألمانيا حيث نشر طابعه على قاعات مدينتى أنتورب وليدن وقلعة هيدلبرج . ولكن فيليب الثانى وجد فى هذا الطراز إسرافاً فى الزخرف لا يطيقه ذوقه ، فمات موتاً مبكراً تحت عبساته .

أما النحت الأسبانى فقد خضع للمد الإيطالى المتعاظم بأيسر مما خضع المعمار . فبعد أن كسر بيترو توريجيانو أنف ميكلانجلو فى فلورنسة ، وتحدى هنرى الثامن فى لندن ، استقر فى إشبيليه (١٥٢١) وصنع من

الطين المحروق تمثالا غليظاً للقديس جيروم ، ارتأى فيه جويا رأياً خاطئاً ، هو أنه أعظم أعمال النحت الحديث[٣٥]. وأحس توريجيانو أنه نقد أجراً حقيراً لقاء صنعه تمثالا للعذراء ، فحطمه شذر مذر ، وقبضت عليه محكمة التفتيش فمات فى سجونها[٣٦] . أما داميان فورمنت فقد حمل روح النهضة على إزميله وفى عباراته الطنانة بعد عودته إلى أراجون من إيطاليا . كان يصف نفسه بأنه « قريع فيدياس وبراكسيتيليس » . وتقبله الناس بالقدر الذى قدر به نفسه ، فسمحت له السلطات الكنسية بحفر صور له ولزوجته على قاعدة حاجز المذبح الخلفى الذى صنعه لدير مونتى أراجون . ثم صنع من المرمر لكنيسة نويسترا سينورا ديل بيلار فى سرقسطة رافدة مذبح كبيرة بالنقوش ضئيلة البروز ، مزج فيها العناصر القوطية بعناصر النهضة ، والتصوير بالنحت ، واللون بالشكل . وكرس فورمنت لرافدة مذبح أخرى فى كاتدرائية وشقة فى السنوات الثلاث عشرة الباقية من حياته (١٥٢٠ — ١٥٣٣) .

وكما أن بدرو بروجويتى هيمن على التصوير الأسبانى فى نصف القرن السابق على شارل الخامس ، فكذلك أصبح ابنه أكبر النحاتين الأسبان فى العهد الذى نحن بصدده . وقد تعلم ألونسو فن اللون من أبيه ، وذهب إلى إيطاليا واشتغل مع رفائيل مصوراً ، ومع برامانتى وميكلانجلو مثالا . فلما عاد إلى أسبانيا (١٥٢٠) جلب معه ولع ميكلانجلو بالوجوه تلتقط فى حدة الانفعال أو عنف المواقف . وعينه شارل مثالا ومصوراً للبلاط . وظل ست سنوات فى بلد الوليد ينحت من الخشب حجاباً لمذبح كنيسة سان بنيتو إل ريال ، طوله اثنان وأربعون قدماً وعرضه ثلاثون ، ولم يبق منه إلا قطع متناثرة ، أهمها صورة للقديس سباستيان ذات ألوان حية ، والدم يتدفق من جروحه . وفى ١٥٣٥ اشترك مع أهم منافسيه ، فيليبى دبورجونا ، فى نقش مقاعد للمرتلين فى كاتدرائية طليطلة ، وهنا

أيضاً كان أسلوب ميكلانجلو هو الموجه ليده ، والمنبئ بطراز الباروك في أسبانيا . ولما قارب الثمانين كلف أن يقيم في مستشفى القديس يوحنا بطليطلة أثراً تذكارياً لمؤسسة الكردينال جوان دى تافيرا . وأخذ معه ابنه ألونسو مساعداً ، وأبدع إحدى الروائع الكبرى في النحت الأسباني . ثم مات خلال هذه المحاولة وقد بلغ الخامسة والسبعين (١٥٦١) .

أما التصوير الأسباني الذى كان لا يزال آنئذ تحت وصاية إيطاليا وفلاندر فلم يجد بفنان بارز في عهد شارل الخامس . وكان الإمبراطور يؤثر المصورين الأجانب ، فاستقدم أنطونيس مور ليصور أعيان الأسبان ، أما عن نفسه فقد صرح بأنه لن يسمح لأحد أن يصوره غير تيشان العظيم . والمصور الأسباني الوحيد الذى عبرت سمعته جبال البرانس هو لويس دى مورالبس . وقد قضى السنين الخمسين الأولى من حياته فقيراً مغموراً في بلدته بطليوس ، يرسم الصور للكنائس كبيرها وصغيرها في إقليم استريمادورا . وكان يناهز الرابعة والخمسين حين أمره فيليب الثاني بالحضور والتصوير في الاسكوريال (١٥٦٤) . فقدم نفسه للملك في ثياب بهية رأى فيليب أنها لا تليق بفنان ، ولكنه لان حين علم أن لويس أنفق مدخرات العمر ليعد لنفسه ثياباً تليق بالمثول بين يدى جلالته . ولم تستهو الملك لوحته « المسيح حاملا الصليب » ، فعاد إلى بطليوس وحياة الضنك . وتعرض عدة لوحات بريشته في الجمعية الأسبانية بنيويورك ، وكلها جميلة . غير أن أفضل مثال لفنه هو لوحة « العذراء والطفل » في البرادو — وهى تذكرنا من بعض وجوهها برفائيل تذكيراً شديداً . ولما اجتاز فيليب ببلدة بطليوس في عام ١٥٨١ خصص معاشاً متأخراً للفنان الذى أعجزه الفالج وضعف البصر ، فيسر له بذلك القوت المنتظم في السنوات الخمس الباقية له من عمره .

أما صناع أسبانيا المهرة فكثيراً ما كانوا فنانين فى كل شىء ولا ينقصهم غير الاسم ؛ فقد ظلت أشغال التخريم والجلد تحظى بأرفع مكانة فى أوربا ؛ كذلك كان النجارون لا ضريب لهم ، وعند تيوفيل جوتييه أن الفن القوطى لم يدن قط من الكمال دنوه فى مقاعد المرتلين بكاتدرائية طليطلة . أما المشتغلون بالمصنوعات المعدنية فقد جعلوا من حجب الهياكل ، ومصبعات النوافذ ، ودرابزينات الشرفات ، ومفصلات الأبواب ، بل من المسامير ، تحفاً فنية . وأحال صاغة الذهب والفضة بعض المعدن النفيس المتدفق من أمريكا حلياً للأمراء وآنية للكنيسة ، واشتهر من أشغالهم الآنية التى صاغوها بتخريم الفضة أو الذهب لاحتواء القربان المكرس . ولم يقنع جل فيتشنتى بمكانته زعيماً لكتاب المسرحية فى البرتغال وأسبانيا فى هذه الفترة ، بل صنع وعاء للقربان المقدس — يخرج به الكاهن على جمهور المصلين — قيل فى تقديره « انه أروع أشغال الصياغة فى البرتغال »(٣٧)؛ وواصل فرانشيسكو دى هولاندا ، البرتغالى برغم اسمه ، زخرفة المخطوطات ببراعة ، وهى فن كان بسبيله إلى الزوال .

ويمكن القول على الجملة إن هذه الفترة التى تقل عن نصف قرن قد وفقت توفيقاً مشرفاً فى مجال الفن على الرغم من استنفاد الطاقات وتمزقها فى الثورة الدينية . لم يكن كبار المعماريين والنحاتين والمصورين ممن يثبتون للمقارنة بالعمالقة الذين زلزلوا باللاهوت أوربا ، وكان الدين لحن العهد ، وقصارى ما كان يستطيعه الفن أن يكون مصاحباً له . بيد أن إل روسو ، وبريماتتشيو ، وليسكو ، وديلورم ، وجوجون ، وآل كلويه فى فرنسا ، وبروجويتى وابنه فى أسبانيا ، وبروجل فى فلاندر ، وكراناخ فى ألمانيا ، وهولبين فى كل بلد — كل أولئك كانوا قائمة نبيلة من الفنانين لعهد شديد الاضطراب بالغ القصر . إن

الفن نظام ، ولكن كل شيء كان فوضى — لا الدين فحسب ؛ بل الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والفن نفسه . وكان الفن القوطى يخوض معركته الخاسرة مع الطرز والأساليب الكلاسيكية ، واضطر الفنان بعد أن اقتلع من ماضيه أن يجرب بمحاولات اجتهادية لم تستطع أن تمنحه جلال الاستقرار المتأصل فى زمان واثق من نفسه . كذلك كان الإيمان متردداً وسط هذا الاضطراب الشامل ، فلم يعد يعطى الفن أوامر وتوجيهات واضحة ، وهوجمت الصور الدينية وحطمت ، وأخذت الموضوعات المقدسة تفقد قدرتها على استثارة العبقرية أو الإعجاب أو التقوى بعد أن كانت مبعث إلهام لمبدع الجمال ولمشاهده على السواء . أما فى مجال العلم فقد راحت أعظم الثورات قاطبة تخلع الأرض عن عرشها اللاهوتى ، وتضيع فى الفراغ اللانهائى تلك الكرة الصغيرة التى كان الاعتقاد الإلهى لها سبباً فى تكوين العقل الوسيط وخلق الفن الوسيط . ترى ، متى يعود الاستقرار ثانية ؟

الفصل السابع والثلاثون

العلم فى عصر كوبرنيق

(١٥١٧ – ٦٥)(*)

١ – الإيمان بالمستور (السحر والتنجيم وما إليهما)

من الحقائق الجديرة بالملاحظة أن هذا العهد الذى استغرقه اللاهوت والثقافة المدرسية قد أنجب رجلين لهما أرفع مقام فى تاريخ العلم – كوبرنيق وفيزاليوس ، ومن العجيب أن الكتب التى احتوت عصارة حياتهما قد ظهرت فى سنة واحدة ، هى « سنة العجائب » ١٥٤٣ . لقد وكان بعض الظروف مواتياً للعلم . فاكتشاف أمريكا وارتياد آسيا ، ومطالب الصناعة واتساع التجارة – كل هذا أثمر معرفة كثيراً ما ناقضت المعتقدات المتوارثة وشجعت التفكير الأصيل . وكان للترجمات من اليونانية والعربية ، ولطبع كتاب أبولونيوس « الأشكال المخروطية » (١٥٣٧) والنص اليونانى لأرخميدس (١٥٤٤) ، الفضل فى حفز العلوم الرياضية والفزيائية . غير أن كثيراً من الرحالة كانوا كاذبين أو مهملين ، ونشرت الطباعة المراء على نطاق أوسع من نشرها للمعرفة ، وكانت الأدوات العلمية بدائية برغم تعددها . فالمكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر والمكرومتر والمكروكرنومتر كلها كانت فى ضمير الغيب . أما النهضة فقد ولعت بالأدب والأسلوب ، واهتمت بالفلسفة اهتماماً مؤدباً ، ولم تكد تكترث للعلم . حقيقة أن

(*) انظر الفصل ٣٠ فى العلم الإسلامى ، والفصل ٣٢ فى العلم اليهودى ، والفصل ١٩ من فصول النهضة فى العلم الإيطالى .

بابوات النهضة لم يقفوا موقف العداء من العلم . فقد استمع ليو العاشر وكلمنت السابع إلى أفكار كوبرنيق بذهنين مفتوحين ، وتقبل بولس الثالث فى غير خوف إهداء كوبرنيق كتابه له ، « كتاب الدورات » الذى زلزل العالم . ولكن رد الفعل الذى جاء فى عهد بولس الرابع ، وتطور محكمة التفتيش فى إيطاليا ، وقرارات مجمع ترنت القطعية ، كل هذا جعل الدراسات العلمية شاقة خطرة بصورة متزايدة بعد عام ١٥٥٥ .

ولم تستطع البروتستنتية أن تؤيد العلم ، لأنها أسست صرحها على كتاب مقدس معصوم . ورفض لوثر فلك كوبرنيق لأن التوراة ذكرت أن يشوع أمر الشمس — لا الأرض — أن تقف . أما ملانكتون فكان ميالا للعلم ، فدرس الرياضيات ، والفيزياء ، والفلك ، والطب ، وحاضر فى تاريخ الرياضيات فى العصور القديمة ، ولكن روحه السمحة غلبتها طبيعة أستاذه القوية وطغيان لوثرية ضيقة الأفق بعد موت لوثر . أما كالفن فلم يكن به كبير تقدير للعلم ، وأما نوكس فلا تقدير على الإطلاق .

وظل مناخ مثبط من الإيمان بالمستور يحدق بعلماء الغد ويشوش أذهانهم بل يهدد سلامة عقولهم أحياناً كما حدث لكاردن وباراسيلسوس : فالسحر والكيمياء القديمة من مصر ، والفيثاغورية والأفلاطونية الحديدة الصوفيتان من اليونان ، والقبلانية من اليهودية ، كلها حيرت مئات العقول المتلمسة طريقها . وغزت القصص الأسطورية وقصص المعجزات كتابة التاريخ الرسمى ، وروى الرحالة حكايات عن تنانين تنفث اللهب وفقراء يتسلقون الحبال . وكاد يفسر كل حدث شاذ فى الحياة العامة أو الخاصة بأنه ليس إلا تدبيراً من الله أو الشيطان لإنذار الإنسان أو تهذيبه ، لفتنته أو تدميره . وآمن الكثيرون بأن

المذنبات والنيازك إن هي إلا كرات من النار يقذف بها إله غاضب[١] ، ودخلت الكتب الرخيصة كل بيت قارئ ، مؤكدة إمكان تحويل المعادن الخسيسة ذهباً . وكما ذكرت رواية معاصرة . كان « كل الخياطين والحذائين والخدم والخادمات الذين يسمعون ويقرأون عن هذه الأشياء يعطون كل ما يوفرون من نقود . . . للجائلين والمحتالين » من المشتغلين بهذه الخدع[٢] . وقد ذكر مشعوذ يدعى وليم وتشرلى فى محاكمته بانجلترا عام ١٥٤٩ أن فى الجزيرة خمسمائة مشعوذ مثله[٣] . وكان الطلاب المتجولون فى ألمانيا يبيعون الأحجبة الواقية من الساحرات والشياطين . وأقبل الجند على التعاويذ والطلاسم التى تكفل تحويل رصاص البنادق عن هدفه[٤] . وكثيراً ما كان القداس نفسه يستعمل رقية لجلب المطر أو ضوء الشمس أو النصر فى الحرب . وشاعت إقامة الصلوات استدراراً للمطر ، وكانت أحياناً تبدو موفقة فوق ما يطلب ، فتقرع أجراس الكنائس لتنبيه السماء إلى الكف عن المطر[٥] . وفى ١٥٢٦ — ٣١ كان رهبان تروا يوقعون حرماً رسمياً على الديدان التى ابتليت بها المحاصيل ، ولكنهم يضيفون إلى هذا أن الحرم لا يجدى إلا فى الأطيان التى يدفع زراعها عشورهم للكنيسة[٦] .

ولعل الأحداث التى نسبت إلى الشيطان كانت أكثر من تلك التى نسبت إلى الله . يقول كاتب بروتستنتى فى عام ١٥٦٣ متفجعاً : « ندر أن تمر سنة دون أن نسمع بأبشع الأنباء من الإمارات والمدن والقرى عن الأساليب الفاجرة الرهيبة التى يحاول بها ملك الجحيم ، بظهوره جسدياً أو فى شتى الصور والأشكال ، أن يطفئ النور الجديد الساطع ، نور الإنجيل المقدس »[٧] . وشارك لوثر عامة الناس فى نسبة معظم الأمراض إلى الأرواح الشريرة التى تدخل الجسد — وهى فكرة لا تتناقض على أية حال تناقضاً تاماً مع نظريتنا الشائعة الآن . وكان

الكثيرون يؤمنون بأن الأمراض تنجم عن العين الشريرة أو غيرها من أعمال السحر ، وأن فى الإمكان شفاءها بالجرعات السحرية — وهذا أيضاً لا يبعد كثيراً عن عاداتنا فى هذه الأيام . وكان أكثر العلاج يعطى حسب موقع الكواكب ، ومن هنا دراسة طلبة الطب للتنجيم .

وقد اقترب التنجيم من العلم لأنه افترض حكم القانون فى الكون ولأنه اعتمد إلى حد كبير على التجربة . صحيح أن الاعتقاد بأن حركات النجوم ومواقعها هى التى تقرر الأحداث البشرية لم يكن شاملا كما كان من قبل ، ومع ذلك فقد كان فى باريس ٣٠,٠٠٠ منجم فى القرن السادس عشر ،[٨] كلهم على استعداد لكشف الطالع لقاء قطعة من النقود . وراجت التقاويم الحاوية لتنبؤات المنجمين رواجاً كبيراً . وقد قلدها رابليه ساخراً فى « التنبؤات البنتاجرويلية » للسيد ألكوفريباس . ووافقه فى هذه النقطة لوثر والسوربون ، فنددا بالتنجيم فى جميع صوره . واستنكرت الكنيسة رسمياً تنبؤات المنجمين لأنها تتضمن معنى الحتمية وخضوع الكنيسة للنجوم ؛ ومع ذلك فان البابا بولس الثالث ، وهو من أعظم مفكرى ذلك العصر ، كان على حد قول سفير فى القصر البابوى ، « يأبى أن يدعو لأى اجتماع هام لمجمع الكرادلة ، وأن يخرج فى أى رحلة ، دون تخير للأيام الملائمة ورصد لحركات الأبراج » .[٩] وكان فرانسوا الأول ، وكاترين دمديتشى ، وشارل التاسع ، ويوليوس الثانى ، وليو العاشر ، وأدريان السادس — كانوا كلهم يستشيرون المنجمين .[١٠] وقد غير ملانكتون تاريخ مولد لوثر ليهيىء له طالعاً أسعد ،[١١] وتوسل إليه ألا يسافر والقمر هلال بعد .[١٢]

وما زال أحد منجمى هذه الفترة مشهوراً ، فالمنجم نوستراداموس كان بالفرنسية ميشيل دنوتردام . وقد زعم أنه طبيب وفلكى ،

وارتضته كاترين دمديتشي منجماً شبه رسمي . وبنت له مرصداً في ليزال . وفي عام ١٥٦٤ تنبأ لشارل التاسع بأنه سيعمر إلى التسعين[١٣]، ولكنه مات بعد عشر سنوات في الرابعة والعشرين . وقد ترك هذا المنجم عند موته (١٥٦٦) كتاب تنبؤات صاغها بحكمة بحيث تحتمل معنيين . وبحيث يمكن أن تصدق بعض سطور الكتاب على أي حدث تقريباً في التاريخ اللاحق .

كان مسيحيو القرن السادس عشر يؤمنون بامكان نيل قوى خارقة من الشياطين ، وكان الخوف من الشياطين يغرس فيهم منذ نعومة أظفارهم . لذلك شعروا بأنهم ملتزمون بحرق الساحرات . وأيد لوثر وكالفن البابا إنوسنت الثامن في الحث على محاكمتهن . يقول لوثر « إني لأرفض العطف على هؤلاء الساحرات ، وبودي لو أحرقتهن على بكرة أبيهن »[١٤] . وقد أحرق أربعة منهن في فتنبرج في ١٩ يونيو ١٥٤٠ . وأربعة وثلاثون في جنيف عام ١٥٤٥[١٥] . وكان لدى دعاة الإصلاح البروتستنتي بطبيعة الحال مبرر من الكتاب المقدس لهذا الحرق . وأضاف استناد البروتستنتية إلى الكتاب إلحاحاً جديداً على اتباع ما ورد في الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج . وشجعت عادة إخراج الشياطين الكاثوليكية الإيمان بالسحر . لأنها افترضت أن قوة الشياطين تسكن في البشر . وزعم لوثر أن خصمه الليبزجي يوهان إيك قد وقع ميثاقاً مع الشيطان . ورد يوهان كوخلايوس بأن لوثر نتاج جانبي لعبث الشيطان مع مارجريت لوثر[١٦] .

وكان الناس يلجأون أحياناً إلى اتهام أعدائهم بالسحر للتخلص منهم . وكان للمتهمة الخيار في أن يوقع بها تعذيب طويل الأمد لاستخلاص اعتراف منها . أو أن تموت نتيجة للاعتراف. وقد نظم تعذيب المتهمين بالسحر في أوربة القرن السادس عشر « بوحشية

هادثة لم تعهد . . . فى الأمم الوثنية »[١٧] . ويبدو أن كثيراً من الضحايا آمن بذنبهن — بأن لهن مع الشياطين معاملات وصلات ، جنسية أحياناً[١٨] . وكان بعض المتهمات ينتحرن ، وقد دون قاضٍ فرنسى خمس عشرة حالة انتحار فى سنة واحدة[١٩] . وكثيراً ما بز القضاة العلمانيون رجال الكنيسة فى التحمس لهذا الاضطهاد . وقد نصت قوانين هنرى الثامن (١٥٤١) على عقوبة الإعدام لأى من عدة أفعال نسبت إلى الساحرات[٢٠] . ولكن محكمة التفتيش الأسبانية دمغت قصص السحر والاعترافات بالسحر بأنها أوهام العقول الضعيفة ، ونبهت مندوبيها (١٥٣٨) إلى تجاهل طلب الجماهير لحرق الساحرات[٢١] .

كانت الأصوات التى ارتفعت لحماية الساحرات أقل من تلك التى ارتفعت للدفاع عن المهرطقين . وكان المهرطقون أنفسهم يؤمنون بالساحرات . ولكن حدث فى عام ١٥٦٣ أن أصدر طبيب فى كليفز يدعى يوهان فير بحثاً سماه « فى الخدع الشيطانية » جرؤ فى استحياء وتردد على التخفيف من هذا الجنون . ولم يتشكك الطبيب فى وجود الشياطين ، ولكنه ألمع إلى أن الساحرات هن الضحايا الأبرياء لمس الشياطين ، وأن الشيطان يخدعهن ليصدقن السخافات التى يعترفن بها : وفى رأيه أن النساء والأشخاص المصابين بعلة فى البدن أو العقل يتعرضون أكثر من غيرهم لمس الشياطين . وخلص من هذا إلى أن السحر ليس جريمة بل هو مرض ، ثم ناشد ملوك وأمراء أوربا أن يقفوا إعدام هؤلاء النسوة العاجزات . وبعد بضع سنوات عدل فير وضعه ليتلاءم مع جيله . فكتب وصفاً مفصلا للجحيم وزبانيتها ، ونظامها ، وعملهـا .

وعبرت روح العصر عن ذاتها فى قصة فاوست . وأول سماعنا بجيورج فاوست كان فى خطاب كتبه يوهان تريتيميوس عام ١٥٠٧ ،

وهو يصفه بالمشعوذ ، ثم فى ١٥١٣ إذ يذكره موتيانوس روفوس بوصف ليس بأرق من هذا . وقد كتب فيليب بيجاردى، أحد أطباء فورمز فى ١٥٣٩ يقول : « فى السنوات الأخيرة كان رجل عجيب يجوب كل إقليم وإمارة ومملكة تقريباً . . . ويفاخر ببراعته الفائقة لا فى الطب فحسب بل فى قراءة الكف ، والفراسة،والعرافة بالتحديق فى الكرة البللورية، وما شابه ذلك من فنون . . . ولم ينكر أن اسمه فاوستوس »[٢٢](ومعناه المحظوظ) . ويبدو أن فاوست التاريخى مات فى ١٥٣٩ — ويقول ملانكتون إن الشيطان لوى عنقه . وبعد موته بأربع سنوات ظهرت أسطورة فاوست حليف الشيطان فى كتاب « عظات مرحة » بقلم قسيس بروتستنتى فى بال يدعى يوهان جاست . وقد تضافرت فكرتان قديمتان على تحويل الدجال التاريخى إلى شخصية بارزة أو علم سواء فى الأسطورة والمسرحية والفن : أولاهما أن الإنسان قد يكتسب قدرات سحرية بتحالفه الوثيق مع الشيطان ، والأخرى أن العلم اللادينى إنما هو غرور وقح قد يودى بصاحبه إلى الجحيم. وفى فترة ظن الناس أن الأسطورة كاريكاتور كاثوليكى يسخر من لوثر ، ولكن نظرة أعمق للأسطورة رأت أنها تعبير عن استنكار الدين للعلم « الدنيوى » الذى يناقض تقبل الكتاب المقدس فى تواضع ، لأن فيه الكفاية من العلم والحقيقة . أما جوته فقد استنكر هذا الاستنكار ، وسمح لتعطش الإنسان للعلم بأن يطهر ذاته باستخدامه للصالح العام .

وتجسدت أسطورة فاوست تجسداً مرأ فى شخص هنرى كورنيليوس أجريبا : وقد ولد من أسرة طيبة بكولونيا (١٥٤٧) ثم شق طريقه إلى باريس ، وهناك التقى مصادفة بنفر من المتصوفة أو الدجاجلة الذين ادعوا الحكمة الخفية . وإذ كان متعطشاً للمعرفة والشهرة ، فقد احترف الكيمياء القديمة ، ودرس القبلانية ، واقتنع بأن هناك

عالماً من الاستنارة بعيد المنال على الإدراك أو التفكير العادى. وأرسل إلى الناشر تريتميوس مخطوطاً فى فلسفة السحر . De occulta philosophia مشفوعاً بالخطاب الشخصى التالى :—

« لقد أخذنى العجب الشديد ، لا بل السخط ، لأن أحداً لم ينبر إلى اليوم ليبرئ دراسة فى مثل هذا السمو والقدسية من تهمة الضلال . وهكذا استثيرت روحى . . . وشعرت أنا أيضاً بالرغبة فى التفلسف ، معتقداً أنى سأخرج كتاباً يستحق الثناء . . . إذا استطعت أن أدافع عن . . . ذلك السحر القديم ، الذى درسه جميع الحكماء ، مطهراً ومنقى من عيوب الضلال ، ومزوداً بنسقه المعقول » (٢٣).

ورد عليه تريتميوس مسدياً إليه هذا النصح الجميل . « تكلم على الأشياء العامة للعامة ، ولا تتكلم على الأشياء السامية والخفية إلا لأسمى وأخص أصحابك . إن الثور يطعم الدريس، والببغاء يطعم السكر : ففسر هذا القول تفسيراً صحيحاً وإلا أصابك ما أصاب غيرك وداستك الثيران »(٢٤) .

وسواء أكان الدافع لأجريبا هو الحذر أم الافتقار إلى ناشر ، فانه أمسك عشرين عاماً عن دفع كتابه إلى المطبعة . ودعاه الإمبراطور مكسمليان للقتال فى إيطاليا ، فأبلى فى المعركة بلاء حسناً ، ولكنه انتهز الفرصة ليحاضر عن أفلاطون فى جامعة بيزا ، ولينال درجات فى القانون والطب من بافيا . ثم عين محامى مدينة فى ميتز (١٥١٨) ، ولكن سرعان ما فقد ذلك المنصب نتيجة تدخله فى محاكمة شابة متهمة بالسحر ، وقد حصل على أمر باطلاق سراحها من محكمة التفتيش، ولكنه رأى من الحكمة بعد ذلك أن يغير موطنه (١٥١٩) . وأنفق عامين طبيباً للويز أميرة سافوا ، غير أنه تورط فى خلافات كثيرة حملتها على قطع راتبه . فانتقل إلى أنتورب مع زوجته الثانية

وأبنائه ، وعيّن مؤرخاً رسمياً وأمين مكتبة لبلاط مرجريت الوصية على عرش النمسا ، ووفق فى كسب قوته بطريقة منتظمة . وعكف الآن على تأليف أهم كتبه « فى عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقد نشره عام ١٥٣٠ ، ثم نشر كتاب « فلسفة السحر » الذى ألفه فى شبابه — ونشره الآن مما يثير العجب ، وصدره بمقدمة تنصّل فيها من استمرار إيمانه بالتعاويذ والمعميات الصوفية المفصلة فيه . وتأذى الراسخون فى العلم من الكتابين جميعاً .

أما كتابه « فلسفة السحر » فقد أكد أن « روح الكون » تسود العالم وتحكمه كما أن روح الإنسان تسود الجسد وتحكمه ، وأن هذا المستودع العظيم لقوة الروح يمكن أن يستمد منه العقل إذا طهر خلقياً ودرب فى صبر على الأساليب المجوسية . ومتى اكتسب العقل هذه القوة ، استطاع أن يكشف الخصائص الخفية للأشياء والأعداد والحروف والكلمات ، وأن ينفذ إلى أسرار النجوم ، وأن يسيطر على قوى الأرض وشياطين الهواء . وراج الكتاب رواجاً كبيراً ، وأفضى تعدد طبعاته بعد موت أجريبا إلى قصص أسطورية حول تحالفه الوثيق مع شيطان كان يرافقه متنكراً فى صورة كلبه(٢٥) ، وتمكنه من الطيران فوق الكرة الأرضية والنوم فى القمر(٢٦) .

وقد خففت صروف الدهر من مزاعم أجريبا عن التجربة التى ترقى فوق الحس ، فتعلم أنه ليس فى مقدور أى سحر أو كيمياء (قديمة) إطعام أسرته أو حمايته من السجن بسبب الدين . وانقلب فى خيبة أمل غاضبة على البحث عن المعرفة ، فكتب فى عامه التاسع والثلاثين أكثر كتب القرن السادس عشر تشككاً قبل مونتينى « فى عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقال فى تصديره للكتاب « إنى أدرك جيداً أى معركة دامية على أن أخوضها . . . أولا سيثير النحويون القلرون

ضجة ، وكذلك . . . الشعراء المتبرمون ، والمؤرخون الكاسدة بضاعتهم ، والخطباء المتفيهقون ، والمناطقة العنيدون . . . والمنجمون المنحوسون ، والسحرة البشعون . . . والفلاسفة المجادلون» . فالمعرفة كلها غير يقينية ، والعلم كله عبث ، و «أسعد الناس من لا يعرف شيئاً» . المعرفة هى التى قضت على سعادة آدم وحواء ، واعتراف سقراط بالجهل هو الذى أكسبه القناعة والشهرة : «ليست العلوم كلها إلا قوانين الناس وآراءهم ، وهى تستوى ضرراً ونفعاً ، وأذى وفائدة ، وشراً وخيراً ، هى بعيدة كل البعد عن الكمال ، مشكوك فيها ، حافلة بالخطأ والخلاف »(٢٧) .

ويبدأ أجريبا هجومه المدمر بالأبجدية ، فيأخذ عليها تناقضات النطق المحيرة . ويسخر من النحويين الذين تفوق شواذهم قواعدهم ، والذين تتغلب عليهم أصوات الشعب المرة بعد المرة . أما الشعراء فمجانين ، فما من إنسان «مالك لصوابه» يستطيع أن يكتب شعراً . والتاريخ أكثره حديث خرافة . لا «خرافة متواضع عليها» ، كما سيصفه فولتير خطأ ، بل خرافة دائمة التبديل ، يغيرها كل مؤرخ وجيل من جديد . أما الخطابة فهى إفساد البلاغة للعقول . وأما السحر فخدعة ، وينبه أجريبا قراءه الآن إلى أن كتابه فى السحر كان «زائفاً ، أو كاذباً إن شئتم» . وإذا كان قد مارس فى ماضيه التنجيم والسحر والعرافة والكيمياء القديمة وغيرها من «الجهالات» فانما كان أكثر ذلك استجابة لفرط إلحاح مشجعيه القادرين على إجزال العطاء له فى طلب المعرفة السرية . أما القبلانية فما هى إلا «عقيدة خرافية وبيلة» . وأما الفلاسفة فان اختلاف آرائهم اختلافاً يبطلها كفيل بابقائهم خارج هذه المحكمة ، فلنتركهم إذن يدحضون آراء بعضهم بعضاً . وما دامت الفلسفة تسعى إلى استنباط الفضيلة من العقل ، فسيحبطها

التناقض اللاعقلي للأخلاق فى الزمان والمكان ، « إذ يحدث من جراء هذا التناقض أن ما كان فى زمن ما رذيلة ، يعد فى زمن آخر فضيلة ، وما هو فى مكان ما فضيلة ، هو رذيلة فى مكان آخر » . أما الفنون والمهن فقد أفسدها كما أفسد العلوم الكذب والغرور . وكل بلاط « مدرسة للعادات الفاسدة ، ومأوى للشر الكريه » . والتجارة غدر وخيانة . والأمناء على الأموال لصوص لصقت بأيديهم الفخاخ وفى أناملهم الخطاطيف . والحرب مذبحة للكثرة تلهو بها القلة . والطب « فن من فنون القتل الخطأ » وكثيراً ما يكون « فى الطبيب والدواء من الخطر ما يفوق خطر المرض نفسه » .

فما نتيجة هذا كله ؟ وإذا كان العلم هو الرأى العابر السريع الزوال ، والفلسفة هى التأمل المغرور فى طبيعة اللانهائى من عقول حقيرة كالديدان ، فبمَ يحيا الإنسان ؟ بكلمة الله وحدها معلنة فى الكتاب المقدس . وفى هذا الرأى رنين تبشيرى ، والواقع أننا نلتقى بتأكيدات عديدة لآراء أجريبا « الإنجيلية » مبعثرة وسط شكوكه . فهو يرفض سلطان البابوات الزمنى ، بل سلطانهم الروحى إذا خالف الكتاب المقدس . وهو يرمى محكمة التفتيش بأنها لا تقنع الناس بالمنطق والكتب المقدسة بل « بالنار والحطب » ، وهو يود لو قل إنفاق الكنيسة على الكاتدرائيات وزاد على أعمال البر ، ولكنه يتجاوز رجال الإصلاح الدينى حين يعترف بأن كتاب العهدين القديم والجديد كانوا عرضة للخطأ . فالمسيح وحده هو المصيب والصادق دائماً ، وهو وحده الذى يجب أن نثق به ، وفيه الملاذ الأخير للعقل والروح .

وقد استمتع أجريبا بما أحدثته ثورته هذه من غضب ، ولكنه دفع ثمن هذه المتعة غالياً خلال ما بقى له من عمر . طالبه شارل الخامس

بسحب نقده للكنيسة ؛ فلما رفض قطع راتبه . ولما سجن بسبب دينه ألقى التبعة على الإمبراطور لتخلفه فى دفع راتب مؤرخ بلاطه الرسمى . وأطلق سراحه بشفاعة الكردينال كامبيجيو وأسقف لييج . ولكن شارل نفاه من إمبراطوريته (١٥٣١) . وانتقل أجريبا إلى ليون حيث سجن ثانية بسبب الدين كما تقول رواية غير مؤكدة ؛ ولما أفرج عنه انتقل إلى جرينوبل . وهناك مات بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً . ولعل له بعض الفضل فى تكوين نزعة مونتينى الشكاكة . ولكن كتابه الرائج الوحيد كان فى السحر الذى تنكر له . وظلت الأفكار والعادات المتصلة بالسحر مزدهرة إلى نهاية القرن ؛

٢ — الثورة الكوبرنيقية

كان للخطوات التى خطتها العلوم الرياضية ، والتى تبدو لنا اليوم تافهة ، الفضل فى شحذ أدوات الحساب فى العصر الذى نحن بصدده . فأدخل كتاب مايكل ستايفل **Arithmetica integra** (١٥٤٤) علامات الزائد والناقص ، وكان كتاب روبرت ريكورد **Whetstone of Wit** (١٥٥٧) أول الكتب المطبوعة التى استعملت علامة « يساوى » . أما كتب الحساب التى ألفها آدم ريزى ، والتى كانت فى زمانها ذائعة الصيت ، فقد أقنعت ألمانيا بالانتقال من الحساب بالفيشات إلى الحساب التحريرى ؛ ونشر يوهان فرنر (١٥٢٢) أول بحث حديث عن الخاريط ، وواصل جيورج ريتيكوس عمل ريجيومونتانوس فى حساب المثلثات ، فضلا عن أنه ساعد كوبرنيق على نشر نظريته .

أما الفلك فقد أتيح له من الحسابات خير مما أتيح من الآلات . وعلى أساس هذه الحسابات تنبأ بعض المنجمين بطوفان ثان يقع فى

« فبراير ١٥٢٤ » حين يلتقى المشترى وزحل فى برج الحوت ، مما حمل مدينة تولوز على بناء فلك للاحتماء به ، والأسر الشديدة الحيطة على خزن الطعام فى قمم الجبال[٢٨] . وكان أكثر الآلات الفلكية من مخلفات العصر الوسيط : كرات سماوية وأرضية ، وعصا يعقوب ، واسطرلاب ، وكرة ذات حلَق ، وربعيات واسطوانات ، وساعات كبيرة ، وبوصلات ، وعدة أدوات أخرى ليس من بينها التلسكوب ولا الفوتوغرافيا : بهذا الجهاز استطاع كوبرنيق أن يزلزل الدنيا .

وميكولاى كوبرنيك هذا كما تدعوه بولنده ، أو نيكلاس كوبرنيج كما تدعوه ألمانيا ، أو نيكولاوس كوبرنيكوس كما يدعوه العلماء ، ولد فى ١٤٧٣ بمدينة تورن على نهر فستولا فى بروسيا الغربية ، وكان الفرسان التيوتون قد نزلوا عنها لبولندة قبل ذلك بسبع سنوات : وأمه من أسرة بروسية غنية ، أما أبوه فقدم من كراكاو وأقام فى تورن واشتغل بتجارة النحاس : ولما مات الأب (١٤٨٣) كفل أبناءه شقيق الأم ، لوكاس فاتزيلرودى ، أسقف إيرملاند وأميرها ، وأرسل نيكولاس إلى جامعة كراكاو حين بلغ الثامنة عشرة ليعد نفسه للقسوسية . على أنه اقنع خاله بأن يسمح له بالدراسة فى إيطاليا لأنه لم يحب الفلسفة الكلامية التى حظرت الدراسات الإنسانية . فعين بنفوذ خاله كاهنا (*) فى كاتدرائية فراونبورج ببروسيا الشرقية البولندية ، ثم منحه أجازة ثلاث سنوات .

وفى جامعة بولونيا (١٤٩٧ — ١٥٠٠) درس كوبرنيق الرياضيات ، والفزياء ، والفلك . وكان من بين معلميه أستاذ اسمه دومنيكو دى

(*) « canon » من هيئة كهان الكاتدرائية ، وليس من الضرورى أن يكون قسيسا . وليس لدينا دليل واضح على أن كوبرنيق ارتقى من الرتب الدينية الصغرى إلى القسوسية فى أى عمره الأخيرة . وفى ١٥٢٧ تركى لشغل وظيفة الأسقفية ، مما يشير إلى أنه كان وقتها قسيسا .[٢٩]

نوفارا ، تتلمذ من قبل على ريجيو مونتانوس ، وانتقد ما فى نظرية الفلكى بطلميوس من تعقيد سخيف ، وعرف تلاميذه بقدامى الفلكيين اليونان الذين تشككوا فى ثبات الأرض ووضعها المركزى . فقد كان من رأى فيلولاوس البيثاجورى ، الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أن الأرض وسائر الكواكب تدور حول هستيا ، وهى نار مركزية لا نراها لأن كل أجزاء الأرض المعروفة تحول بعيداً عنها . وقد روى شيشرون أن هيكيتاس السيراكيوزى ، وهو من فلكيي القرن الخامس ق.م. أيضاً ، كان يعتقد أن الشمس والقمر والنجوم ثابتة ، وأن حركتها الظاهرية مرجعها دوران الأرض حول محورها . وذكر أرخيدس وبلوتارخ أن أريستارخوس الساموسى (٣١٠ — ٢٣٠ ق.م.) رأى أن الأرض تدور حول الشمس ، وأنه اتهم بالضلال ، وأنه عدل عن رأيه . ويقول بلوتارخ أن سلوقس البابلى أحيا الفكرة فى القرن الثانى قبل الميلاد. وكان من الجائز أن ينتصر هذا القول بوضع الشمس المركزى فى العصور القديمة ، لولا أن كلوديوس بطلميوس الإسكندرى أكد من جديد، فى القرن الثانى بعد الميلاد ، نظرية وضع الأرض المركزى ، وأكدها بقوة وعلم كبيرين بحيث قلّ من جرؤ بعده على تحديها . وكان بطلميوس نفسه قد قرر أن على العلم وهو يحاول شرح الظواهر الطبيعية أن يتبنى أبسط ما يمكن من فروض متفقة مع المشاهدات المسلم بها . ومع ذلك فإن بطلميوس ، كهيبارخوس من قبله ، حين أراد تفسير حركة الكواكب الظاهرية ، اضطرته نظرية وضع الأرض المركزى إلى افتراض مجموعات معقدة تعقيداً محيراً من الدوائر الصغيرة (epicycles)

والدوائر مختلفة المركز (eccentrics)(*) : فهل من سبيل إلى فرض أبسط ؟ وجاء نيكولى أوريسمى (١٣٣٠— ٨٢) ونيكولاس الكوزاوى (١٤٠١ — ٦٤) فجددا فكرة دوران الأرض ، وكتب ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) قبيل ذلك يقول : « إن الشمس لا تتحرك . . . وليست الأرض فى مركز دائرة الشمس ، ولا هى فى مركز الكون »[٣٠] .

وأحس كوبرنيق أن نظرية مركزية الشمس تستطيع أن « تنقذ المظاهر » — بشرحها الظواهر الطبيعية المشاهدة — بإحكام أشد من الرأى البطلمى . ففى سنة ١٥٠٠ ذهب إلى روما وقد بلغ السابعة والعشرين ، ربما لحضور اليوبيل، وألقى هناك محاضرات تقول رواية إنه شرح فيها نظرية دوران الأرض على سبيل التجربة . وكانت أجازته قد انتهت ، فعاد للقيام بواجباته الدينية كاهناً فى فراونبورج . ولكن رياضيات مركزية الأرض كانت تشوش صلواته . فطلب الإذن باستئناف دراساته فى إيطاليا ، مقترحاً الآن أن يدرس الطب والقانون الكنسى — وهو ما بدا لرؤسائه أدخل فى مهنته من الفلك . وقبل ختام القرن الخامس عشر كان قد عاد إلى إيطاليا . ونال درجة القانون فى فرارا (١٥٠٣) ، ولم ينل درجة فى الطب فيما يبدو ، ثم ارتضى الرجوع ثانية إلى فراونبورج : وما لبث خاله أن عينه سكرتيراً وطبيباً (١٥٠٦) ، ربما ليتيح له متسعاً من الوقت للاستزادة من الدرس . وعاش كوبرنيق ست سنوات فى قلعة الأسقفية بهايلسبرج وهناك وضع الرياضيات الأساسية لنظريته ، ثم دونها فى مخطوط .

فلما مات الأسقف الكريم عاد كوبرنيق إلى مكانه فى فراونبورج . وواصل ممارسة الطب ، وكان يعالج الفقراء مجاناً[٣١]. وقد مثل كهنة

(*) الـ epicycle دائرة مركزها محمول على محيط دائرة أكبر منها ، أما الـ eccentric فدائرة ليس لها نفس المركز الذى لدائرة أخرى مجبراً إلى حد ما فى داخلها .

الكاتدرائية فى مهام دبلوماسية وأعد لسجسموند الأول ملك بولنده خطة لإصلاح العملة البولندية. وفى مقال من مقالاته الكثيرة عن المالية ذكر هذه العبارة التى عرفت فيما بعد بقانون جريشام : العملة الرديئة . . . تطرد العملة القديمة الأحسن منها(٣٢). وهو يعنى أنه إذا أصدرت حكومة ما عملة منحطة اختُزنت العملة الجيدة أو صدرت وامتنع تداولها، ودفعت الضرائب بالعملة الرديئة ، و « نقد الملك من عملته » . بيد أن كوبرنيق واصل أبحاثه الفلكية وسط هذه الشواغل المتنوعة. ولم يكن وضعه الجغرافى مواتياً لأبحاثه هذه . ففراونبورج قريبة من البلطى . يلفها الضباب أو السحاب نصف الوقت . وكان يحسد كلوديوس بطلميوس ، الذى كانت « سماؤه أبهج ، حيث لاينفث النيل الضباب الذى ينفثه نهر نافستولا . لقد حرمتنا الطبيعة تلك الراحة وذلك الهواء الهادئ»(٣٣) . لاعجب إذن أن يعبد كوبرنيق الشمس أويكاد . ولم تكن أرصاده الفلكية كثيرة ولا دقيقة ؛ ولكنها لم تكن ذات أهمية حيوية لهدفه . وكان فى أغلب أحيانه ينتفع بالبيانات الفلكية التى خلفها له بطلميوس . واعتزم أن يثبت أن كل ما وصل إليه من مشاهدات يتفق خير اتفاق مع نظرية مركزية الشمس .

وحوالى عام ١٥١٤ لخص ما انتهى إليه من استنتجات فى « تعقيب موجز » . ولم يطبع الكتاب فى حياته . ولكنه وزع بعض نسخ مخطوطة على سبيل جس النبض . وقد قرر فيه استنتاجاته ببساطة واقعية ، وكأنها لم تكن أعظم ثورة فى التاريخ المسيحى . قال :

١ — ليس هناك مركز واحد لجميع الكرات السماوية .

٢ — إن مركز الأرض ليس مركز الكون ، بل هو نقطة مركز الجاذبية والكره القمرية .

٣ — كل الكرات (الكواكب) تدور حول الشمس بوصفها نقطتها الوسطى ؛ وإذن فالشمس مركز الكون .

٤ — نسبة المسافة بين الأرض والشمس إلى ارتفاع قبة السماء أصغر بكثير من نسبة نصف قطر الأرض إلى بعدها عن الشمس بحيث أن المسافة من الأرض إلى الشمس لاتدرك لضآلتها بالقياس إلى ارتفاع قبة السماء ؛

٥ — إن الحركة التي تظهر في قبة السماء لا تنشأ عن أي حركة في قبة السماء بل عن تحرك الأرض . والأرض هي وعناصرها المحيطة بها تدور دورة كاملة حول قطبيها الثابتين في حركة يومية ، في حين تظل القبة الزرقاء والسماوات العليا ثابته لا تتغير .

٦ — إن ما يبدو لنا حركات للشمس لا ينشأ عن تحركها بل عن تحرك كوكبنا الأرضي ، الذي يجعلنا ندور حول الشمس كأي كوكب آخر .

٧ — أن ما يبدو من تراجع الكواكب وحركتها المباشرة لا ينشأ عن حركتها بل عن حركة الأرض . إذن فحركة الأرض وحدها تكفي لتفسير الكثير من المفارقات البادية في السماوات(٣٤) ؛

ولم يلق الفلكيون القلائل الذين قرأوا كتاب التعقيب كبير بال إليه. وأبدى البابا ليو العاشر اهتماما لا تحيز فيه بالنظرية حين أحيط بها علماً وطلب إلى أحد الكرادلة أن يكتب إلى كوبرنيق طالباً إيضاح فكرته. وحظي الفرض برضى كبير في البلاط البابوي المستنير دام بعض الوقت(٣٥). أما لوثر فقد رفض النظرية حوالى عام ١٥٣٠ قائلا : « إن الناس يستمعون إلى منجم محدث حاول التدليل على أن الأرض تدور ، لا السماوات ولا القبة الزرقاء ، ولا الشمس ولا القمر . . . فهذا الأحمق يريد أن يقلب نظام الفلك كله رأساً على عقب . ولكن الكتاب المقدس ينبئنا بأن يشوع أمر الشمس لا الأرض أن تقف»(٣٦) . وأما كالفن فقد أجاب كوبرنيق بآية من المزمور الثالث والتسعين « أيضاً تثبتت المسكونة . لا تتزعزع » ثم تساءل : « فمن يجرؤ على ترجيح شهادة

كوبرنيق على شهادة الروح القدس ؟[٣٧] » . هذه الاستجابة لكتاب « التعقيب » فتت فى عضد كوبرنيق حتى أنه بعد أن أكمل كتابه الكبير حوالى عام ١٥٣٠ قرر أن يحبسه عن النشر . وواصل القيام بواجباته فى هدوء ، وحاول الاشتغال قليلا بالسياسة ، وفى ستيناته اتهم بأن له خليلة[٣٨] :

ولكن فى عام ١٥٣٩ اندفع إلى قلب هذه الشيخوخة المستسلمة رياضى شاب متحمس يدعى جيورج ريتيكوس . كان فتى فى الخامسة والعشرين ، بروتستنتياً ، يحظى برعاية ملانكتون ، ويعمل أستاذاً فى جامعة فتنبرج . وكان قد قرأ « التعقيب » واقتنع بصدقه وتاقت نفسه لمساعدة الفلكى العجوز الذى كان يعيش بعيداً فى بلدة مغمورة على البلطى كأنها مخفر أمامى على حدود الحضارة ، منتظراً فى صبر أن يرى الآخرون معه دورة الأرض غير المرئية حول نفسها وحول الشمس . وأحب الفتى كوبرنيق حباً جماً ، ووصفه بأنه «خير الرجال وأعظمهم » وتأثر تأثراً عميقاً بإخلاصه للعلم . وظل ريتيكوس عشرة أسابيع مكباً على دراسة المخطوط الكبير . ثم حث كوبرنيق على نشره ، ولكنه أبى ، غير أنه وافق على أن يقوم ريتيكوس بنشر تحليل مبسط لفصوله الأربعة الأولى . وعليه فقد أصدر العالم الشاب فى عام ١٥٤٠، فى مدينة دانتزج ، كتابه « أول تقرير عن كتاب دورات الأجرام السماوية» . وأرسل نسخة منه إلى ملانكتون والأمل يراوده ، ولكن اللاهوتى الكريم لم يقتنع . ولما عاد ريتيكوس إلى فتنبرج (فى مطلع ١٥٤٠) وأثنى على نظرية كوبرنيق فى فصله ، « أمر »— كما روى— أن يحاضر بدلا من ذلك عن كتاب يوهان دى ساكروبوسكو Sphaera [٣٩] . وفى ١٦ أكتوبر ١٥٤١ كتب ملانكتون إلى صديق له يقول : « يظن البعض أن من الإنجازات البارزة أن يؤلف

إنسان نظرية مجنونة كذلك الفلكي البروسي الذى يحرك الأرض ويثبت الشمس . حقاً إن واجب الحكام العقلاء أن يروضوا من جموح العقول»[٤٠] .

وفى صيف عام ١٥٤٠ عاد ريتيكوس إلى فراونبورج ومكث بها حتى سبتمبر ١٥٤١ . ورجا أستاذه المرة بعد المرة أن ينشر على العالم مخطوطه . فلما انضم إليه فى هذا الرجاء رجلان بارزان من رجال الدين ، استجاب كوبرنيق ، ربما لاطمئنانه إلى أنه يضع الآن إحدى قدميه فى القبر . وأدخل على المخطوط إضافات نهائية ، ثم أذن لريتيكوس أن يبعث به إلى ناشر فى نورمبرج تكفل بجميع النفقات والتبعات (١٥٤٢) . وإذ كان ريتيكوس قد رحل عن فتنبرج ليدرس فى ليبزج فقد وكل إلى صديقه أندرياس أوزياندر ، وكان قسيساً لوثرياً فى نورمبرج ، مهمة الإشراف على طبع الكتاب .

كان أوزياندر قد كتب إلى كوبرنيق (٢٠ أكتوبر ١٥٤١) مقترحاً تقديم الرأى الجديد على أنه فرض لا حقيقة ثابتة ، وذكر فى خطاب بنفس التاريخ أرسله إلى ريتيكوس أنه بهذه الطريقة «سيهدىء الأرسطاطاليون واللاهوتيون من روعهم فى غير مشقة»[٤١] . وكان كوبرنيق نفسه قد وصف نظرياته غير مرة بأنها فروض . لا فى تعقيبه الموجز فحسب ، بل فى كتابه المطول[٤٢] ، وفى الوقت ذاته زعم فى الاهداء أنه دعم آراءه « بأعظم الأدلة وضوحاً » . ولا علم لنا بم ردّ على أوزياندر . على أية حال قدم أوزياندر للكتاب على النحو التالى دون أن يوقع باسمه :

« إلى القارئ ، حول فروض هذا الكتاب .

نظراً إلى ما ذاع من سمعة هذه الفروض الجديدة ، فان علماء كثيرين ستصدمهم ولا ريب نظريات هذا الكتاب صدمة قوية . . . على أن . . . فروض الأستاذ ليست بالضرورة صحيحة ، ولا حتى

مرجحة . ويكفى جداً أن تؤدى إلى حساب يتفق والمشاهدات الفلكية . . . وسيبادر الفلكى باتباع أسهل الفروض فهماً . أما الفيلسوف فربما طالب بترجيح أكثر ، ولكن لا هذا ولا ذاك سيستطيع اكتشاف أى شىء يقينى . . . ما لم يكشف له عنه بالوحى الإلهى. فلنسلم إذن بأن الفروض الجديدة التالية ستتخذ لها مكاناً إلى جوار الفروض القديمة التى ليست أكثر منها رجحاناً . وعلاوة على ذلك فان هذه الفروض جديرة بالإعجاب وسهلة الفهم حقاً ، وفضلا عن هذا فاننا واجدون هنا كنزاً من المشاهدات الدالة على علم واسع . أما فيما عدا هذا فلا يتوقعن أحد من الفلك اليقينية فيما يتصل بالفروض . فهو لا يستطيع أن يعطى هذه اليقينية. ومن يأخذ كل شىء وضع لأغراض أخرى مأخذ الحقيقة سيترك هذا العلم فى أغلب الظن أجهل مما كان حين بدأ فيه »(٤٣) .

وكثيراً ما ندد الناس بهذه المقدمة باعتبارها عنصراً مقحماً وقحاً(٤٤). ولعل كوبرنيق قد استنكرها ، ذلك أن هذا الشيخ بعد أن عايش نظريته ثلاثين عاماً أصبح يشعر بأنها بضعة من حياته ودمه ، وبأنها وصف لحقائق الكون الفعلية . ولكن مقدمة أوزياندر كان فيها حصافة وإنصاف ، فقد خففت من المقاومة الطبيعية التى تقاوم بها عقول كثيرة فكرة مقلقة وثورية ، وهى ما زالت مذكراً طيباً لنا بأن أوصافنا للكون إن هى إلا آراء عرضة للخطأ صادرة من قطرات ماء عن البحر ، وأنها تحتمل هى الأخرى الرفض أو التصحيح .

وظهر الكتاب أخيراً فى ربيع ١٥٤٣ يحمل هذا العنوان : « الجزء الأول من كتاب نيكولاى كوبرنيكى عن الدورات » . وعرف الكتاب بعد ذلك بهذا الاسم : « فى دورات الأجرام السماوية » ، ووصلت إحدى نسخ الكتاب الأولى إلى يد كوبرنيق

فى ٢٤ مايو ١٥٤٣ . وكان على فراش الموت ، فقرأ صفحة العنوان ، وابتسم ، ثم مات فى نفس الساعة .

وكان إهداء الكتاب إلى البابا بولس الثالث فى ذاته جهداً لنزع السلاح من يد المقاومة لنظرية تناقض حرفية الكتاب المقدس ، كما أيقن كوبرنيق ، مناقضة صريحة . وقد بدأ بتأكيدات ورعة فقال : « ما زلت أومن أن علينا أن نتجنب النظريات البعيدة كل البعد عن سلامة العقيدة » . وذكر أنه تردد طويلا فى نشر الكتاب متسائلا « أليس الأفضل أن أحذو حذو الفيثاغوريين . . . الذين درجوا على توصيل أسرار الفلسفة بالفم لا بالكتابة ، ولأقربائهم وأصدقائهم دون سواهم » . ولكن رجلين من رجال الكنيسة المثقفين وهما نيقولا شونبرج كردينال كبوا ، وتيدمان جيزى أسقف كولم — كانا قد ألحا فى توصيته بنشر كشوفه . (وقد وجد كوبرنيق أن من الحكمة عدم ذكر اللوثرى ريتيكوس) . ثم اعترف بفضل الفلكيين اليونان عليه ، ولكنه فى زلة قلم أغفل اسم أرستارخوس . وقال إنه يعتقد أن الفلكيين فى حاجة إلى نظرية أفضل من النظرية البطلمية ، لأنهم يجدون الآن صعوبات كثيرة فى الرأى القائل بمركزية الأرض ، ولا يستطيعون على هذا الأساس أن يحسبوا طول السنة حساباً دقيقاً . ثم إنه لجأ إلى البابا بوصفه رجلا « عظيماً . . . فى محبته للعلوم جميعها حتى الرياضيات » : لكى يحميه من « لدغ المفترين » الذين سيدعون لأنفسهم الحق فى الحكم على هذه الأشياء . أو « سيهاجمون نظريتى محتجين بفقرة من الكتاب المقدس »(١٥) ، وذلك دون إلمام كاف بالرياضيات .

ويبدأ العرض بهذه المسلمات . أولا أن الكون كروى ، ثانياً ، أن الأرض كروية — لأن المادة إذا تركت وشأنها تنجذب نحو مركز ؛

ومن ثم تكيف نفسها فى شكل كروى . ثالثاً ، أن حركات الأجرام السماوية حركات دائرية متماثلة ، أو مكونة من هذه الحركات — لأن الدائرة هى « أكثر الأشكال كمالا » ولأن « العقل يقشعر رعباً » من الفرض القائل بأن الحركات السماوية ليست متماثلة . (والصواب فى التفكير محال ما لم يكن هناك صواب فى سلوك موضوعات التفكير) .

ويلاحظ كوبرنيق نسبية الحركة : « كل تغيير يرى فى الوضع مرجعه الحركة سواء حركة المشاهد أو حركة الشىء الذى يشاهده ، أو مرجعه التغييرات الطارئة على وضع الاثنين بشرط أن يكونا مختلفين . لأنه إذا حركت الأشياء بنسبة متساوية إلى نفس الأشياء ، لم تلحظ أية حركة بين الشىء المرئى وبين المشاهد »[٤٦] . إذن فدوران الكواكب اليومى الظاهرى حول الأرض يمكن تعليله بدوران الأرض يومياً حول محورها . وحركة الشمس السنوية الظاهرية حول الأرض يمكن تعليلها إذا افترضنا أن الأرض تدور سنوياً حول الشمس :

ويتوقع كوبرنيق الاعتراضات على نظريته . فقد زعم بطلميوس أن السحب والأجسام الموجودة على سطح أرض دائرة تتطاير بعيداً عنها وتُترك وراءها . ويرد كوبرنيق بأن هذا الاعتراض أحرى أن يعترض به على دوران الكواكب الكبرى حول الأرض ، لأن مسافاتها الشاسعة تعنى أن لها أجراماً هائلة وسرعات عظيمة . كذلك زعم بطلميوس أن الجسم المدفوع مباشرة إلى أعلى من أرض دائرة لا يعود فى سقوطه إلى نقطته الأصلية . ويرد كوبرنيق بأن هذه الأجسام ، شأنها شأن السحب ، هى « أجزاء من الأرض » وأنها تحمل معها فى سيرها . أما الاعتراض بأن دوران الأرض سنوياً حول الشمس لو صح « لتجلى فى تحرك النجوم « الثابتة » (وهى النجوم الواقعة وراء مجموعتنا الكوكبية) كما تشاهد فى طرفين

متقابلين لمدار الأرض ، فيرد عليه كوبرنيق بأن هذا التحرك موجود فعلا ، ولكن البعد الشاسع للنجوم (« القبة السماوية ») لا يتيح لنا رؤيته . (ويمكن اليوم رصد درجة معتدلة من هذه الحركة) .

ثم يجمل نظريته فى فقرة جامعة مانعة :

« أولا وقبل كل شيء هناك مجال النجوم الثابتة ، الذى يحتوى ذاته وكل الأشياء ، وهو لهذا السبب عينه ثابت : : : أما الأجسام المتحركة (الكواكب) فأولها زحل الذى يتم دورته فى ثلاثين سنة . ثم يأتى المشترى الذى يتمها فى اثنتى عشرة سنة ، ثم المريخ الذى يدور كل عامين . ويلى هذا فى الترتيب دورة رابعة تقع كل سنة . . . وهى تحتوى الأرض ومعها مدار القمر كدائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر . أما الكوكب الخامس فهو الزهرة التى تدور حول الشمس فى تسعة شهور . ثم يشغل عطارد المكان السادس ، وهو يدور دورته فى ثمانين يوماً . وفى وسط هذه الكواكب جميعها تقوم الشمس . . . ولم يخطىء البعض إذ وصفوها بمصباح الكون ، ووصفها غيرهم بعقل الكون ، وغيرهم بسيده الحاكم . . . والقول صواب لأن الشمس وهى متربعة على عرشها الملكى تحكم أسرة النجوم المحيطة بها . . . . وهكذا نجد بفضل هذا التنسيق تماثلا عجيباً فى الكون ، وعلاقة انسجام محددة فى حركة الأجرام السماوية وضخامتها وهى علاقة من نوع يستحيل تحقيقه بأى طريقة أخرى(*) »(٤٧) .

ويمكن القول بوجه عام إن أى تقدم يحرزه الإنسان فى نظرية ما يحمل معه الكثير من مخلفات النظرية القديمة المتروكة ، فقد أقام

(*) يفترض الفلك الحديث وجود تسعة كواكب وفترات دوران : عطارد (٨٨ يوما) ، والزهرة (٢٢٥) ، والأرض (٣٦٥ — ٦٦) ، والمريخ (٦٨٧) ، والمشترى (١١,٨٦ سنة) ، وزحل (٢٦,٤٦ سنة) وأورانوس (٨٤,٠٢ سنة) ، ونبتون (١٦٤,٧٩ سنة) ، وبلوتو (٢٤٨ سنة) .

كوبرنيق تصوراته على مشاهدات موروثة من بطلميوس ، واحتفظ بالكثير من تفاصيل الجهاز السماوى البطلمى ، كالدوائر ، والدوائر الصغيرة التى تدور مراكزها على محيط دائرة أكبر ، والدوائر المنحرفة عن المسار الدائرى ، أما رفض هذه التفاصيل فسوف يتم على يد كبلر . وكان أغرب الأشياء حساب كوبرنيق أن الشمس ليست بالضبط فى وسط مدار الأرض . فقد حسب أن مركز الكون « يبعد عن الشمس بمقدار ثلاثة أمثال قطر الشمس » ، وأن مراكز أفلاك السيارات هى كذلك خارج الشمس ، وأنها ليست واحدة على الإطلاق . وقد نقل كوبرنيق من الأرض إلى الشمس فكرتين يرفضهما العلم اليوم ، أولاهما : أن الشمس هى المركز التقريبى للكون ، والأخرى أنها ساكنة . وحسب أن الأرض ليست لها دورة حول محورها وأخرى حول فلكها فحسب ، بل حركة ثالثة ظنها ضرورية لتفسير ميل محور الأرض ومبادرة الاعتداليين .

وعلى ذلك يجب ألا نبتسم — ونحن ندرك الموقف بعد هذه القرون— سخرية من أولئك الذين تأخروا طويلا فى اعتناق نظرية كوبرنيق . ذلك أنه لم يطلب إليهم مجرد تصور الأرض وهى تدور وتندفع فى الفضاء بسرعة رهيبة على عكس ما تشهد به حواسهم شهادة مباشرة ، بل أكثر من ذلك أن يسلموا بعمليات حسابية تتوه فيها العقول ولا تقل فى تحيرها للأفهام عن حسابات بطلميوس إلا بقدر طفيف . ولم تبد النظرية الجديدة متفوقة على القديمة بصورة واضحة إلا بعد أن صاغ كبلر وجاليليو ونيوتن جهازها ليحقق بساطة ودقة أعظم ، وحتى بعد هذا يجب أن نقول عن الشمس تلك الكلمات التى ربما قالها جاليليو عن الأرض « ومع ذلك فهى تدور » . هذا وقد رفض تيكو براهى فرض مركزية الشمس بحجة أن كوبرنيق لم يرد على اعتراضات بطلميوس

رداً مقنعاً : وأعجب من هذا الرفض تلك السرعة النسبية التي قبل بها النظرية الجديدة فلكيون كريتيكوس ، وأوزياندر ، وجون فيلد ، وتومس ديجيز ، وإرزمس رينهولد — الذي بنى «جداوله البروتنية» (١٥٥١) للحركات السماوية على نظرية كوبرنيق إلى حد كبير . ولم تبد الكنيسة الكاثوليكية اعتراضاً على النظرية الجديدة ما دامت تعرض ذاتها على أنها فرض . ولكن محكمة التفتيش لم تعرف رحمة في العقاب حين اعتبر جوردانو برونو الفرض حقيقة مؤكدة ، وبينت في وضوح نتائجها على الدين . وفي ١٦١٦ حرمت « لجنة الفهرس » قراءة كتاب « الدورات » إلى أن يصحح ، وفي ١٦٢٠ أذن للكاثوليك أن يقرءوا طبعات حذفت منها تسع عبارات تمثل النظرية على أنها حقيقة . ثم اختفى الكتاب من فهرس١٧٥٨ المراجع ، ولكن الحظر لم يلغ صراحة إلا في ١٨٢٨ .

كانت نظرية مركزية الأرض تلائم بصورة معقولة لاهوتاً يفرض أن كل الأشياء خلقت لمنفعة البشر .أما الآن فقد شعر هؤلاء البشر أنهم يترنحون فوق كوكب صغير اختزل تاريخه إلى «مجرد فقرة محلية في أخبار الكون » .(٨) فماذا يمكن أن تعنيه كلمة « السماء » إذا كانت كلمتا « فوق »و « تحت » قد فقدتا كل معنى لها . وإذا كانت إحداهما تنقلب فتصبح الأخرى في نصف يوم ؟ كتب جيمس وولف إلى تيكو براهي في ١٥٧٥ يقول : « ما من هجوم على المسيحية أشد خطراً من القول بضخامة السماوات وعمقها اللانهائيين »— مع أن كوبرنيق لم يقل بلانهائية الكون . فلا بد أن الناس حين توقفوا للتأمل في المعاني التي تتضمنها النظرية الجديدة راحوا يتساءلون عن صواب القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل إبنه ليموت على هذا الكوكب المتوسط الحجم . وبدا أن كل شعر المسيحية الجميل ،

« يتصاعد دخاناً » (كما قال جوته فيما بعد) تحت لمسة هذا الكاهن البولندى . وأجبر الفلك القائل بمركزية الشمس الناس على أن يتصوروا الخالق من جديد فى صورة أقل ضيقاً فى الأفق وأقل تجسداً . وواجه اللاهوت أقوى تحد فى تاريخ الدين . ومن ثم كانت الثورة الكوبرنيقية أشد عمقاً من حركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد جعلت الفروق بين العقائد الكاثوليكية والبروتستنتية تبدو تافهة ، وتخطت حركة الإصلاح البروتستنتى إلى حركة التنوير ، من ارزمس ولوثر إلى فولتير ، وحتى إلى ما بعد فولتير ، إلى لاأدريه القرن التاسع عشر المتشائمة . هذا القرن الذى سيضيف الكارثة الداروينية إلى الكارثة الكوبرنيقية . ولم يكن هناك سوى واق واحد من أمثال هؤلاء الرجال ، وهو أن قلة قليلة فقط فى أى جيل هى التى ستدرك ما ينطوى عليه فكرهم من معان . فسوف « تشرق » الشمس و« تغرب » حين يكون كوبرنيق قد طوى فى زوايا النسيان .

فى عام ١٥٨١ أقام الأسقف كرومر نصباً تذكارياً لكوبرنيق على السور الداخلى لكاتدرائية فراونبورج بجوار قبر الكاهن . وفى عام ١٧٤٦ أزيل النصب ليفسح مكاناً لتمثال للأسقف زمبك . فمن هو هذا الأسقف ؟ من يدرى ؟ .

٣ — ماجلان وكشف الأرض

تقدم ارتياد الأرض بخطى أسرع من رسم خريطة السماء ، وكان لهذا التقدم تقريباً نفس التأثيرات المزعجة على الدين والفلسفة . أما الجيولوجيا فكانت أقل من غيرها تقدماً ، لأن نظرية الخلق كما وردت فى الكتاب المقدس أصبحت فى مأمن من الشك بفضل الإيمان بمصدرها الإلهى . قال المصلح الإيطالى — الإنجليزى بيتر مارتر فرميلى « لو شاع

بين الناس رأى خاطىء عن الخليقة كما وردت فى سفر التكوين لبطلت كل وعود المسيح وفقد ديننا حياته كلها » .(٤٩) وأهم كتب الجيولوجيا التى صدرت فى النصف الأول من القرن السادس عشر كتاب ألفه جورج أجريكولا (هذا فضلا عن آراء ليوناردو المبعثرة هنا وهناك) . تأمل هذه الفقرة من كتابه De ortu et causis subterraneorum (بال ١٥٤٦) عن منشأ الجبال : « تتكون التلال والجبال بفعل قوتين ، إحداهما قوة المياه ، والأخرى قوة الرياح ، ويجب أن نضيف إليهما النار التى فى باطن الأرض . . . ذلك أن السيول تجرف أولا التربة اللينة ، ثم تحمل التربة الأكثر صلابة ، ثم تدحرج الصخور ، وهكذا تحفر السهول أو السفوح فى بضع سنوات و . . . ونتيجة لهذا الحفر فى عصور كثيرة يتكون مرتفع ضخم . . . هو الأنهار . . . والأنهار تحدث نفس النتيجة باندفاعها وجرفها ، ولذا كثيراً ما ترى جارية بين جبال شاهقة كونتها هذه الأنهار ، أو بقرب الساحل الذى يحفها . . . وتكون الرياح تلالا وجبالا بطريقتين . . . إما بتحريك الرمال واثارتها بعنف ، وإما بكفاحها للخروج بقوة . . . . بعد أن تكون قد دفعت الى شقوق الأرض الخفية »(٥٠) .

أما كتاب أجريكولا De natura fossilium (١٥٤٦) فأول بحث منسق عن علم المعادن ، ويحتوى مقاله De metallica على أول بحث نسقى عن علم الطبقات ، وفيه كما رأينا أول تحليل للرواسب المعدنية .

أما الأثنوغرافيا (علم نشوء الأعراق) فقد أتحفتنا بكتابين كبيرين : أولهما Cosmographia universalis (١٥٤٤) ، لسباستيان مونستر ، وثانيهما Descriptio Africa (١٥٥٠) لليو الأفريقى Leo Africanus . كان الحسن بن محمد الوزان مسلماً من غرناطة ، وقد تنقل فى أرجاء أفريقيا ووصل جنوباً إلى السودان

يحدوه ولع شديد بالأسفار كولع ابن بطوطة. وقد أسره القراصنة المسيحيون وبعثوا به إلى روما هدية للبابا ليو العاشر الذى أعتقه ورتب له معاشاً بعد أن أعجب بما حصله من علم وثقافة. واستجاب لهذا العطف باعتناقه المسيحية واتخاذ « ليو » اسماً له . ثم أنفق الثلاثين السنة التالية فى تأليف كتابه هذا بالعربية أولا ثم بالإيطالية . وقبل الفراغ من طبعه الكتاب عاد إلى تونس . وهناك مات عام ١٥٥٢ على دين آبائه فيما يبدو .(٥١)

وكان العصر مثيراً بالنسبة للجغرافيا. فقد جاءت الأنباء والتقارير تترى ، من المبشرين والفاتحين الأسبان والملاحين والرحالة ، مضيفة إضافات هائلة إلى معرفة أوربا بالكرة الأرضية. وكان الأسبان الذين فتحوا المكسيك وكاليفورنيا وأمريكا الوسطى وبيرو فى هذه الفترة مغامرين وطلاب ثراء أولا ، سئموا الفقر والحياة الرتيبة فى وطنهم ، واقتحموا المخاطر بلذة فى تلك الأقطار النائية الغريبة . وفى غمرة الشدائد التى عانوها فى مغامراتهم المستهترة نسوا قيود الحضارة ، واعتنقوا بصراحة أخلاقيات المدافع المتفوقة ، واقترفوا عملا من أعمال السطو والغدر والقتل لا يغتفر ، إلا أن يرى طرف ذو مصلحة أن نتيجته النهائية كانت كسباً للحضارة . ومع ذلك فما من شك فى أن المغلوبين كانوا فى ذلك الوقت أعظم تحضراً من الغالبين الفعليين . وحسبك أن تتأمل حضارة المايا التى وجدها هرنانديز القرطبى فى يوكاتان (١٥١٧) ، وإمبراطورية المونتزوميين الأزتيكية التى غزاها هرناندو كورتيز (١٥٢١) ، وحضارة الإنكا الاشتراكية التى دمرت إبان فتح فرانشسكو بيزارو لبيرو (١٥٢٦ — ٣٢) . ولا ندرى أى صور نبيلة أو خسيسة كانت هذه الحضارات متطورة إليها لو أتيح لها سلاح تدافع به عن نفسها .

ومضى الكشف الجغرافى المثير قدماً : فارتاد سبستيان كابوت تحت الراية الأسبانية الأرجنتين وأورجواى وبراجواى : واخترق دى سوتو فلوريدا وولايات الخليج حتى بلغ أوكلاهوما . واكتشف بدرو دى الفارادو إمبراطورية تكساس ، واخترق فرانشسكو دى كورونادو أريزونا وأوكلاهوما حتى بلغ كانزاس . وبدأت مناجم بوتوزى فى بوليفيا تبعث بفضتها إلى أسبانيا (١٥٤٥) ، وكانت خريطة العالم الجديد ترسم سنة بعد سنة بالذهب والفضة والدم . وتخلف الإنجليز والفرنسيون فى هذه القارة الكبرى لأن أرجاء أمريكا الشمالية التى تركها لهم الأسبان والبرتغال كانت فقيرة فى معادنها النفيسة ، وعرة فى غاباتها . وأبحر جون رت بحذاء ساحل نيوفوندلند ومين . وبعث فرانسوا الأول بجوفانى دا فيرانانو ليبحث عن مسلك شمالى غربى إلى آسيا ، فرسا على كارولينا الشمالية ، ودخل ميناء نيويورك (التى تذكره بتمثال عند بطاريتها) ، ودار حول رأس كود حتى وصل مين . وأبحر جاك كارتييه وهو يرفع علم فرنسا مصعداً فى السانت لورنس حتى بلغ مونتريال، مدعماً بذلك دعوى فرنسا بحقها فى امتلاك كندا .

على أن أعظم المغامرات إثارة فى هذا الجيل الثانى من أجيال الارتياد فيما وراء المحيط هى الدوران حول الكرة الأرضية . كان فرناو دى ماجالايس برتغالياً قد شارك بنشاط فى كثير من الرحلات والغزوات البرتغالية . ولكنه انتقل إلى خدمة أسبانيا بعد أن غضبت عليه حكومته . وفى عام ١٥١٨ أقنع شارل الأول (الخامس) بأن يمول بعثة تبحث عن ممر جنوبى غربى إلى آسيا . ولم يكن الملك الشاب قد أصاب يومها ما أصاب من ثراء بعد هذا . لذلك كانت السفن الخمس التى أعطاها لماجلان عتيقه بالية حتى أن أحد القباطنة

حكم بعدم صلاحيتها للملاحة ، وكانت حمولة أكبرها ١٢٠ طناً ، وأصغرها ٧٥ طناً : وعاف الملاحون الخبيرون بالبحر التطوع بين بحارة هذه المراكب ، واقتضى الأمر اختيار معظم بحارتها من بين حثالة أهل الساحل . وفى ٢٠ سبتمبر ١٥١٩ أقلع الأسطول من نهر الوادى الكبير عند سان لوكار . وكان يتمتع بميزة الإبحار من الصيف فى الأطلنطى الشمالى إلى الصيف فى الأطلنطى الجنوبى ، ولكن الشتاء أدركه فى مارس ١٥٢٠ ، فألقت المراكب مراسيها ، وأنفق الملاحون خمسة شهور مملة فى بتاجونيا . أما الوطنيون العمالقة الذين زاد طول الواحد منهم فى المتوسط على ستة أقدام فقد أبدوا نحو الأسبان القصار القامة بالقياس لهم وداً فيه تلطف وتنازل ، ولكن كثرة المشاق واستمرارها حملا بحارة ثلاث من السفن الخمس على التمرد ، وأكره ماجلان على مقاتلة رجاله ليجبرهم على المضى فى هذه المغامرة . على أن سفينة منها تسللت عائدة إلى أسبانيا ، وتحطمت أخرى على حاجز صخرى . وفى أغسطس ١٥٢٠ استؤنفت الرحلة ، وكان ماجلان يستطلع كل خليج يمر به عسى أن يكون مصباً لطريق مائى وراء المحيط . وفى ٢٨ نوفمبر تكلل البحث بالنجاح ، ودخل الأسطول الذى تناقص عدد سفنه المضايق التى تحمل اسم ماجلان . وهكذا استغرقت رحلة ٣٢٠ ميلا من البحر إلى البحر ثلاثة وثمانين يوماً .

ثم بدأ الأسطول عبوراً كئيباً موحشاً للمحيط الهادى الذى لم تبد له نهاية . ولم يقع نظر الملاحين خلال ثمانية وتسعين يوماً إلا على جزيرتين صغيرتين . وتناقصت المؤن بشكل خطر ، وأصيب الملاحون بالإسكربوط . وفى ٦ مارس ١٥٢١ مست السفن ساحل جوام ؛ ولكن عداء الوطنيين حمل ماجلان ورجاله على مواصلة الإبحار . وفى ٦ أبريل وصلوا إلى الفلبين ، وفى اليوم السابع رسوا على جزيرة

كيبو . ورغبة فى ضمان الحصول على المؤن من الجزيرة اتفق ماجلان مع الحاكم المحلى على أن يساعده فى حربه مع أعدائه المجاورين . فشارك فى حملة على جزيرة ماكتان ، وقتل فى المعركة التى دارت هناك فى ٢٧ أبريل ١٥٢١ . وهكذا لم يدر ماجلان حول الأرض ، ولكنه كان أول من حقق حلم كولومبس فى الوصول إلى آسيا بالإبحار غرباً(٥٢) .

كان عدد الملاحين قد هبط الآن بعد موت من مات منهم بحيث لم يكف إلا لتزويد سفينتين فقط بالرجال . أما إحدى السفينتين فقد قفلت عائدة عبر المحيط الهادى ، ربما سعياً وراء الذهب الأمريكى . ولم يبق من سفن الأسطول غير «فكتوريا» . واضطلع بقيادتها جوان سبستيان ديلكانو ، فقاد السفينة الصغيرة التى لم تزد حمولتها على خمسة وثمانين طناً مخترقاً جزر البهار ، عابراً المحيط الهندى ، دائراً حول رأس الرجاء الصالح ، مصعداً فى ساحل أفريقيا الغربى . وأرسى الملاحون السفينة تجاه إحدى جزر الرأس الأخضر وهم يتحرقون شوقاً للزاد والمئونة ، ولكن البرتغاليين هاجموهم ، وأودع السجن نصفهم . وأفلح الباقون وعددهم اثنان وعشرون فى الهروب . وفى ٨ سبتمبر ١٥٢٢ بلغت السفينة فكتوريا إشبيلية وهى لا تحمل سوى ثمانية عشر رجلا (والباقون من أهل الملايو) هم كل من بقى من ٢٨٠ رجلا أقلعوا من أسبانيا قبل ثلاث سنوات تقريباً . وسجلت يومية السفينة هذا التاريخ باعتباره ٧ سبتمبر . وعلل الكاردينال جاسبارو كونتاريني الفرق باتجاه الرحلة الغربى . لقد كانت المغامرة من أجرأ المغامرات فى التاريخ ، ومن أحفلها بالثمار للجعرافيا .

وبقى على الجغرافيين واجب اللحاق بالرواد . وقد يسر لهم جياميانستا راموزيو — وهو هاكلويت الإيطالى — هذه المهمة بجمعه

خلال ثلاثين عاماً القصص والأخبار التى جلبها الرحالة وغيرهم من المسافرين ، وقد ترجمها وعلق عليها ، ثم نشرت فى ثلاثة مجلدات (١٥٥٠ — ٥٩) بعد موته بثلاثة عشر عاماً . ويظهر التقدم الذى حققه الجغرافيون فى عشر سنوات إذا قارنا بين الكرة الأرضية كما رسمت عام ١٥٢٠ ؛ المحفوظة بالمتحف القومى الألمانى فى نورمبرج ، والتى تبدو فيها جزر الهند الغربية دون أثر لقارة أمريكية ، ثم تقفز هذه الجزر فوق محيط ضيق إلى آسيا ، وبين ثلاث خرائط رسمها (١٥٢٧ — ٢٩) ديوجو ريبيرو ، وقد ظهرت فيها شواطئ أوربا وأفريقيا وجنوب آسيا مرسومة بدقة عظيمة ، والساحل الشرقى للأمريكتين من نيوفوندلند حتى مضايق ماجلان ، والساحل الغربى من بيرو إلى المكسيك ، ولعل « خريطة راموزيو » (البندقية ١٥٣٤) البديعة للأمريكتين ؛ المحفوظة بمكتبة نيويورك العامة ، منقولة عن ريبيرو هذا . وفى نفس « الكلية الأم » خريطة قديمة خاطئة رسمها جرهادوس مركاتور (١٥٣٨) أطلق فيها على أمريكا الشمالية والجنوبية اسمهما هذا لأول مرة . (أما « خريطة نركاتور البارزة » فترجع إلى عام ١٥٦٩) . وأضاف بيتر أبيان (١٥٢٤) إلى علم الجغرافيا بمحاولته إخضاع المسافات الجغرافية لمقاييس مضبوطة .

وقد ظهرت آثار هذه الارتيادات فى كل منحى من مناحى الحياة الأوربية . فرحلات ١٤٢٠ — ١٥٦٠ زادت وجه الكرة المعروفة للبشر أربعة أضعاف تقريباً . وكان للجديد من الحيوان والنبات ، والأحجار الكريمة والمعادن ، والأطعمة والعقاقير ، الفضل فى إثراء نبات أوربا وحيوانها وجيولوجيتها وموائدها وعقاقيرها . وتساءل الناس كيف وجد ممثلو الأنواع الجديدة كلها مكاناً فى فلك

(١٠)

نوح : وتغير الأدب ، فأخلت قصص الفروسية القديمة مكانها لقصص الأسفار أو المغامرات فى الأقطار النائية ، وحل البحث عن الذهب محل البحث عن الكأس المقدسة فى رمزية لاشعورية للمزاج الجديد . وفتحت أعظم ثورة تجارية فى التاريخ (قبل أن تبلغ الطائرة مرحلة النضج) المحيط الأطلنطى وغيره من المحيطات للتجارة الأوربية ، وخلفت البحر المتوسط فى حالة ركود تجارى ، ومن ثم ركود ثقافى تبعه بعد قليل . وانتقلت النهضة من إيطاليا إلى دول الأطلنطى . وراحت أوربا ، التى كانت تملك سفناً ومدافع أفضل وسكاناً أصلب وأشد رغبة فى التملك والمغامرة ، راحت تفتح — وأحياناً تستعمر — البلد تلو البلد من الأقطار المكتشفة . وأكره السكان الوطنيون على العمل المتصل الشاق الذى لم يتعودوه لإنتاج السلع لأوربا ، وأصبح الرق نظاماً راسخاً . وغدت أصغر القارات تقريباً أعظمها ثراء . وبدأت حركة صبغ الكرة الأرضية بالطابع الأوربى ، وهى الحركة التى قلبت قلباً حاداً فى عصرنا . ووجد عقل الرجل الغربى حافزاً قوياً فى بعد الشقة بينه وبين الأقطار الجديدة وفى ضخامتها وتنوعها . وربما كان لبعض تشكك مونتينى جذور فى سحر الدخيل المجلوب من العادات والعقائد. واتخذت العوائد والأخلاق نسبية جغرافية أوهنت القديم من العقائد القطعية واليقينية . وكان لزاماً أن ينظر إلى المسيحية ذاتها فى منظور جديد بوصفها دين قارة صغيرة تقوم وسط عالم من العقائد المنافسة ؛ وكما أن المذهب الإنسانى كشف عالماً قبل المسيح ، وكما أن كوبرنيق أماط اللثام عن ضآلة الأرض الفلكية ، كذلك كشف ارتياد الأراضى الجديدة وما تلاه من تجارة عن أقطار شاسعة تقوم وراء المسيحية دون اكتراث لوجودها . وتزعزعت مكانة أرسطو وغيره من اليونان حين ظهرت قلة ما عرفوا عن هذا الكوكب . واضمحل

إعجاب النهضة الأعمى باليونان ، واستعد الإنسان ، التياه بكشوفه الجديدة تيه أهل النهضة ، لنسيان حجمه الفلكي المتناقص أمام اتساع معارفه وتجارته . وظهر العلم والفلسفة العصريان ، واضطلعا بمهمة خطيرة ، مهمة تصور العالم من جديد .

٤ — بعث علم الأحيــــاء

بعثت الآن من جديد علوم الأحياء التي لم تكد تحرز أى تقدم منذ عصر الإغريق . فكافح علم النبات ليتحرر من قبضة الصيدلة ويقف على قدميه ، ونجح فى هذا الكفاح ، ولكن لم يكن بد من أن يظل المهيمنون عليه من رجال الطب . وبدأ الحركة أوتو برونفيلز ، الطبيب المدنى فى برن ، بكتاب « صور حية للنبات » (١٥٣٠ — ٣٦) ، وقد سرق معظم نصه من ثيوفراستوس ، وديوسقوريدس ، وغيرهما من السلف ، ولكنه أضاف أيضاً وصفاً للنباتات الألمانية الموطن ، وكانت رسومه المحفورة على الخشب وعددها ١٣٥ نماذج فى الأمانة . وأنشأ يوريكيوس كوردوس ، طبيب مدينة بريمن ، أول حديقة نباتية (١٥٣٠) شمال جبال الألب ، وحاول كتابة خلاصة مستقلة لعلم النبات الوليد فى كتابه **Botanilogicon** (١٥٣٤) ثم عاد إلى مجال الطب فى كتابه **Liber de urinis** . وقام ابنه فاليريوس كوردوس بجولات مستهترة فى سبيل درس النبات ، وقد لقى حتفه أثناءها وهو فى التاسعة والعشرين (١٥٤٤) ، ولكنه ترك من بعده للنشر كتابه « تاريخ النبات » ، وفيه وصف حى دقيق لخمسمائة نوع من النبات . وقد بدأ ليونارد فوكس ، أستاذ الطب بتوبنجن ، بدراسة النبات سبيلا إلى الاقرباذين ، ثم انتهى بدراسته لذاته ولما فيه من متعة . وكان كتابه **Historia stirpium**

(١٥٤٢) مثالا للتفانى فى العلم ، وقد حوى ٣٤٣ فصلا حللت ٣٤٣ جنساً وشرحتها فى ٥١٥ رسماً محفوراً على الخشب يشغل كل منها صفحة كبيرة كاملة . وأعد للطبع كتاباً أشمل حتى من سابقه ، وبه ١,٥٠٠ لوحة ، ولكن أحداً من أصحاب المطابع لم يقبل أن يتكفل بنفقات نشره . أما أثره الحى الباقى فهو جنس « الفوشيا » .

وربما كانت أهم فكرة مفردة أُسهم بها فى علم الأحياء فى هذه الفترة هى شرح بيير بيلون فى كتابه Histoire .... des oyseaux (١٥٥٥) لذلك التقابل المدهش بين عظام الإنسان والطير . ولكن أعظم أبطال « العلم الطبيعى » فى هذا العصر هو كونراد جسنر ، الذى شمل إنتاجه وعلمه ميداناً بلغ من الاتساع مبلغاً حمل كوفييه على أن يطلق عليه اسم بلينى ألمانيا ، بل كان يحق له أن يسميه ارسطو ألمانيا أيضاً . وقد ولد فى أسرة فقيرة بزيورخ (١٥١٦) ، وأبدى من الاستعداد والدأب على الدرس ما جعل المدينة تتعاون مع رعاته الخاصين على تمويل تعليمه العالى فى ستراسبورج وبورج وباريس وبال . وقد وضع أو جمع ١,٥٠٠ رسم توضيحى لكتابه « تاريخ النبات » ، ولكن تبين أن تكاليف طبع الكتاب ستكون باهظة ، فظل مخطوطاً ولم يطبع إلا عام ١٧٥١ ، وقد تأخر نشر تصنيفه البارع لأجناس النبات حسب بنياتها التناسلية بحيث لم يستطع ليناوس الاستعانة به . وقد نشر فى حياته أربعة مجلدات (١٥٥١ — ٥٨) ، وخلف مجلداً خامساً ، من كتاب ضخم فى « تاريخ الحيوان » أورد فيه كل نوع من أنواع الحيوان تحت اسمه اللاتينى ، ووصف شكله ، وأصله ، وموطنه ، وعاداته ، وأمراضه ، وصفاته العقلية والعاطفية ، وفوائده الطبيعية والمنزلية ، ومكانه فى الأدب ، وكان التصنيف أبجدياً لا علمياً ، ولكن تكديسه الموسوعى للمعلومات أعان علم

الأحياء على أن يتخذ له شكلا محدداً . على أن هذه الجهود لم تُنضب معين جسنر ، فبدأ موسوعته «المكتبة العالمية» فى واحد وعشرين مجلداً عكف فيها على وضع فهارس بجميع الكتابات اليونانية واللاتينية والعبرية المعروفة ، وأكمل منها عشرين مجلداً ، واستحق بذلك لقب « أبى البيليوغرافيا » . وفى قسم جانبى يسمى « متريداتيس» (١٥٥٥) حاول تصنيف ١٣٠ لغة من لغات العالم . ويبدو أن كتابه Descriptio Montis Pilati (١٥٤١) كان أول دراسة منشورة للجبال بوصفها إحدى صور الجمال ، وعرفت سويسرة الآن أنها بلد جليل رائع . وكل هذه المؤلفات أنجزت بين عامى ١٥٤١ و ١٥٦٥ . وفى هذه السنة مات كونراد جسنر ، روح الدراسة المتجســـد .

وفى غضون ذلك كان لكتاب جوان ڤيف **De anima et vita** (١٥٣٨) معظم الفضل فى خلق علم النفس التجريبى الحديث . وكأن ڤيف أراد أن يتحاشى التشكك ، الذى كان هيوم مزمعاً أن يبسطه بعد قرنين ، حول وجود «عقل» بالإضافة إلى العمليات العقلية ، فنصح الطالب ألا يسأل ما هو العقل أو ما هى النفس ، لأننا (كما أحس) لن نعرف هذا أبداً ، إنما يجب أن نسأل ماذا « يفعل » العقل ، وعلى السيكولوجيا ألا تكون غيبيات نظرية ، وأن تصبح علماً مبنياً على مشاهدات محددة ومتجمعة ، فى هذا سبق ڤيف فرانسس بيكون بقرن من الزمان فى توكيده للاستقراء . ودرس بالتفصيل ترابط الأفكار ، وعمل الذاكرة وتحسينها ، وعملية المعرفة ، ودور الشعور والعاطفة . ونحن نشهد فى كتابه هذا علم النفس منبعثاً فى ألم ، انبعاث كثير من العلوم قبله ، من بطن أم واحدة للجميع ، هى الفلسفة .

٥ — فيســـاليوس

فى عام ١٥٤٣ نشر أندرياس فيساليوس كتاباً قال عنه السر وليم أوسلر إنه أعظم ما كتب فى الطب قاطبة(٥٣). كان أبوه أندرياس فيسل صيدلياً غنياً فى بروكسل، وجده طبيباً لمارى البرجندية ثم لزوجها مكسمليان الأول، أما جده الأكبر — وكان طبيباً — فقد كتب تعليقاً على كتاب ابن سينا «القانون». هنا نجد حالة من الوراثة الاجتماعية تفوق حالة أسرة باخ. وما لبث فيساليوس أن أغرم بالتشريح بعد أن درب عليه منذ نعومة أظفاره. «فلم ينج من مبضعه حيوان. فهو يشرح الكلاب والقطط والجرذان والفيران والخلدان تشريحاً غاية فى الدقة(٥٤)» غير أنه لم يهمل الدراسات الأخرى. فى الثانية والعشرين من عمره حاضر فى اللاتينية، وكان يقرأ اليونانية فى يسر. ثم درس التشريح فى باريس (١٥٣٣ — ٣٦) على جاك دوبوا الذى أطلق على كثير من العضلات والأوعية الدموية أسماءها التى ما زالت تحملها إلى اليوم. وظل فيساليوس طويلا، كأساتذته، يؤمن بجالينوس إنجيلا له، ولم يفقد احترامه له قط. ولكنه كان يحترم سلطان المشاهدة والمناقشة أكثر كثيراً. وقام هو وبعض زملائه الطلبة برحلات كثيرة إلى مستودعات جثث الموتى حيث جمعت العظام المستخرجة من جبانة الأطفال، وهناك ألفوا منظر أجزاء الهيكل البشرى ألفة أتاحت لهم كما روى «أن نجرؤ أحياناً، حتى ونحن معصوبو الأعين، على مراهنة رفاقنا. وخلال نصف ساعة لم تكن تقدم لنا عظمة . . . إلا وعرفناها باللمس(٥٥)». وحدث غير مرة فى محاضرات دوبوا أن كان المشرح الشاب الجرىء يزيح «الحلاقين الصحيين» الذين كان الأستاذ الطبيب يكل إليهم عادة مهمة التشريح الفعلى، ويقوم هو بعرض الأعضاء موضوع المحاضرة عرض خبير(٥٦).

واعتكف فيساليوس في لوفان حين غزا مليكه شارل الخامس فرنسا عام ١٥٣٦. وقد عطل نشاطه هناك نقص الجثث. فخطف جثة من الهواء هو وصديق له يدعى جيما فريزيوس (الذي اشتهر فيما بعد رياضياً) . وتكشف روايته للحادث عن ولعه بالتشريح . يقول :

« بينما كنا نتمشى ونبحث عن عظام في المكان الذي يوضع فيه عادة من أعدموا ، على الطريق الريفية . وقعت على جثة متيبسة . . . وكانت العظام مجردة من اللحم كلية ولا يمسكها غير الأربطة . وتسلقت الخازوق بمساعدة جيما وجذبت عظم الفخذ . وأتبعته العظم الكتفي والذراعين واليدين . . . وبعد أن حملت الساقين والذراعين إلى البيت خفية وفي رحلات متتالية . . . تركت نفسي حبيساً خارج المدينة في المساء حتى آتي بالصدر . وكان مربوطاً ربطاً وثيقاً بسلسلة ، وكنت أتحرق شوقاً إلى إتمام مهمتي . . . وفي الغد نقلت العظام جزءاً فجزءاً خلال بوابة أخرى من بوابات المدينة ».[٥٧]

وأدرك عمدة المدينة الأمر ، ومن بعدها كان يعطي فصول التشريح ما أمكن الإفراج عنه من الجثث . يقول فيساليوس « وكان هو نفسه يحضر بانتظام كلما قمت بالتشريح[٥٨]»

وما كان في استطاعة رجل كهذا « يتحرق شوقاً » أن يحتفظ بطبعه هادئاً . فما لبث أن اشتبك في نزاع حاد مع مدرس حول طرائق شق الوريد . ورحل عن لوفان (١٥٣٧) وركب هابطاً الرين عابراً جبال الألب إلى إيطاليا . وكان قد بلغ من الكفاية مبلغاً أتاح له الحصول قبل نهاية تلك السنة على درجة الطب في بادوا « بأقصى خفض » في الرسوم ، لأنه كلما علا تقدير الطالب انخفضت رسوم تخرجه. وفي اليوم التالي نفسه (٦ ديسمبر ١٥٣٧) عينه مجلس شيوخ البندقية أستاذاً للجراحة والتشريح بجامعة بادوا ؛ وكان يومها في الثالثة والعشرين .

وقام فى الأعوام الستة التالية بالتدريس فى بادوا وبولونيا وبيزا، وشرح مئات الجثث بيديه،وأصدر بعض الكتب الصغيرة . وقد رسم تلميذ لتيشان يدعى جان ستيفان فان كالكار ، تحت إشرافه ، ست لوحات نشرت عام ١٥٣٨ بعنوان **Tabulae anatomicae sex** وبعد عام أيد فيساليوس فى رسالته عن « شق الأوردة »بيير بريسو الباريسى فى طرق الفصد . وفى معرض مناقشته للموضوع كشف عن بعض نتائج تشريحه للجهاز الوريدى ، وقد أعانت ملاحظاته هذه على كشف الدورة الدموية . وفى ١٥٤١— ٤٢ اشترك مع علماء آخرين فى نشر طبعة جديدة من النص اليونانى لجالينوس . وقد أدهشته أخطاء ندت عن جالينوس وكانت خليقة بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان كقوله مثلا : إن الفك السفلى قسمان ، وإن القص سبع عظام متميزة، والكبد عدة فصوص . وما كان ممكناً تعليل هذه الأخطاء واغتفارها إلا على فرض أن جالينوس لم يشرح قط آدميين بل حيوانات . وشعر فيساليوس أنه قد حان الوقت لمراجعة علم تشريح الإنسان بتشريح الآدميين . وهكذا أعد أعظم كتبه .

وحين طبع يوهان أوبورينوس عام ١٥٤٣ بمدينة بازل كتابه هذا المسمى « بنية جسم الإنسان » فى ٦٦٣ صفحة من القطع الكبير ، لا بد أن الشيء الذى أدهش القارىء لتوه كان صفحة الغلاف — وكانت حفراً جديراً بالفنان دورو ، يمثل فيساليوس يشرح تشريح ذراع مفتوحة ، ومن حوله خمسون طالباً يرقبونه . ثم الرسوم التوضيحية : ٢٧٧ رسماً مطبوعاً من كليشيهات خشبية ذات دقة تشريحية لم يسبق لها نظير وبراعة فنية عظيمة ، معظمها من صنع فان كالكار ، وخلف الأشكال مناظر لا تتصل علمياً بالموضوع ولكنها جذابة من الناحية الفنية — فترى مثلا هيكلا عظمياً عند مقعد للقراءة . وكانت هذه الرسوم المطبوعة من الجمال بحيث خالها بعضهم مصممة فى مرسم تيشان

ربما باشرافه ؛ ولا بد أن نضيف إلى هذا أن فيساليوس رسم عدة رسوم منها بيده . وقد رافق الكليشيهات الخشبية ساهراً على سلامتها فى الرحلة على ظهر بغل من البندقية إلى بال عبر جبال الألب . وحين تم طبع الكتاب حفظت الكليشيهات بعناية . وفى تاريخ لاحق اشتريت ، ثم تبودلت ، ثم فقدت ، وفى عام ١٨٩١ عثر عليها مخبأة فى مكتبة جامعة ميونيخ ، وقد دمرتها القنابل فى الحرب العالمية الثانية.

أما الذى كان ينبغى أن يثير فى النفس دهشة أعظم مما أثارته هذه الرسوم فهو أن النص — وهو نصر طباعى ولكنه إلى ذلك ثورة علمية — كان من صنع فتى لم يتجاوز التاسعة والعشرين . وهو ثورة لأنه أنهى سلطان جالينوس على التشريح . وراجع العلم كله بلغة التشريح ، وبهذا أرسى دعائم الأساس الفزيائى للطب الحديث ، الذى يبدأ بهذا الكتاب . فهنا وصف لأول مرة سير الأوردة الصحيح وتشريح القلب ؛ وهنا ورد ذلك القول الخطير ، وهو أن التشريح البالغ الدقة لم يظهر أياً من تلك المسام التى افترض جالينوس أن الدم يمر عن طريقها من بطين إلى آخر ؛ وبهذا أصبح الطريق معبداً لسرفيتوس وكولومبو وهارفى . وقد صححت أخطاء جالينوس المرة بعد المرة — فيما يتصل بالكبد ، والقنوات المرارية ، والفكين ، والرحم . وقد ارتكب فيساليوس هو أيضاً أخطاء ، حتى فى المشاهدة ، وأخفق فى أن يقفز القفزة الكبرى من تشريح القلب إلى دورة الدم . ولكن هنا أوصاف صادقة لعشرات من الأعضاء لم تحظ قط بمثل هذا الوصف الدقيق من قبل ، وفتح كل جزء من أجزاء الجسم للعلم بيد واثقة قديرة .

على أن فيساليوس عانى من عيوب فضائله . ذلك أن الكبرياء التى سندته طوال دراسته الموفقة جعلته سريع الغضب ، بطيئاً فى

الاعتراف بمنجزات سابقيه وتقدير حساسية منافسيه : وبلغ ولعه بذلك « الإنجيل الصادق . . . ألا وهو جسم الإنسان وطبيعة الإنسان »[٥٩] مبلغا جعله يؤذى شعور عدد كبير من أقطاب اللاهوتيين : وكان يشير فى تهكم إلى رجال الكنيسة الذين يشتد إقبالهم على غرفة محاضراته حين يكون موضوع الدرس والعرض هو الأعضاء التناسلية[٦٠]. وقد أثار عداء الكثيرين : ومع أن جسنر وفالوبيو رحبا بكتابه ، فان أكثر الأساتذة القدامى ، ومنهم أستاذه السابق دوبوا ، نددوا بالمؤلف بوصفه محدثاً وقحاً ، وجدوا فى تسقط العيوب فى كتابه . وقال دوبوا إن جالينوس لم يخطئ ، ولكن جسم الإنسان عراه تغير منذ عهد جالينوس ، وعلى ذلك فعظام الفخذين الواضحة الاستقامة ،والتى ليست مقوسة كما وصفها جالينوس ، إنما هى فى رأيه نتيجة لارتداء أوربيى عصر النهضة سراويل ضيقة[٦١] .

وفى عاصفة من خيبة الأمل فى موقف هؤلاء الرجال أحرق فيساليوس مجلداً ضخماً من كتاب « التعليقات » **Annotationes** وتفسيراً للأجزاء العشرة التى يتألف منها كتاب الرازى « كتاب المنصورى » — وهو موسوعة فى الطب[٦٢]. وفى عام ١٥٤٤ رحل عن إيطاليا ليصبح طبيباً ثانياً بين أطباء شارل الخامس الذى سبق أن أهداه فى حصافة كتابه « فابريكا » **Fabrica** : ومات أبوه فى نفس العام تاركاً له ثروة طيبة . فتزوج وبنى بيتاً جميلا فى بروكسل . وصدرت طبعة ثانية لكتابه « فابريكا » عام ١٥٥٥ ، مزيدة ومنقحة . وقد بين الكتاب أن التنفس الصناعى يمكن أن يبقى على حياة الحيوان رغم شق صدره ، وأن القلب الذى توقف نبضه يمكن أحياناً رد الحياة إليه باستعمال منفاخ . بعد هذا لم يضف فيساليوس جديداً إلى التشريح. فقد استغرق فى العناية بمرضاه من أسرة الإمبراطور ومن دونهم ، وفى ممارسة

الجراحة ودراستها . وأصبح فيساليوس طبيباً ثانياً لفيليب الثانى بعد أن اعتزل شارل الملك . وفى يوليو ١٥٥٩ أوفده الملك ليساعد أمبرواز باريه فى محاولة لإنقاذ حياة هنرى الثانى الجريح ، ولجأ فيساليوس إلى اختبارات إكلينيكية أظهرت استحالة شفائه . وفى تاريخ لاحق من هذه السنة رافق هو وأسرته فيليب إلى إسبانيا .

فى غضون ذلك أضاف آخرون جديداً إلى التشريح . فلاحظ جيامباتستا كانو صمامات الأوردة (١٥٤٧) ، وشرح سرفيتوس دورة الدم فى الرئتين (١٥٥٣) ، ووصل ريالدو كولومبو إلى هذا الكشف ذاته (١٥٥٨) ، وأثبته باجراء تجربة على القلب الحى . ولكن سبعين سنة أخرى انقضت قبل أن يأتى هارفى بوصفه الخطير لسير الدم من القلب إلى الرئتين ، فالى القلب ، فالى الشرايين ، فالى الأوردة ، ثم إلى القلب . وكان الطبيب العربى ابن النفيس قد سبق سرفيتوس عام ١٢٨٥[٦٣] ، وربما انحدرت الرواية المتواترة بنظريته إلى أسبانيا فى شباب سرفيتوس .

وبقيت لفيساليوس بضع مغامرات . من ذلك أن الأطباء الوطنيين فى البلاط الأسبانى كانوا يصرّون على إهمال تشخيصه باعتبار هذا موقفاً يحتمه الشرف . فلما شكا ابن فيليب الوحيد ، الدون كارلوس ، من ارتجاج فى المخ إثر سقطة (١٥٦٢) ، أشار فيساليوس باجراء تربنة له . ولكن النصيحة رفضت ، وأشرف الفتى على الهلاك . ووضعت على الجرح التمائم وآثار القديسين ، وجلد الأتقياء أنفسهم توسلا إلى السماء أن تشفيه بمعجزة ؛ ولكن هذا كله لم يجد فتيلا . وأخير أصر فيساليوس على فتح الجمجمة ، ففتحت ، وسحبت منها كمية كبيرة من الصديد ؛ وما لبث الأمير أن تماثل للشفاء ، وبعد إجراء العملية بثمانية أيام سار فيليب فى موكب مهيب لتقديم الشكر لله .[٦٤]

وبعد عامين رحل فيساليوس عن أسبانيا لأسباب ما زالت محل خلاف . وقد روى أمبرواز باريه قصة مشرح أثار عليه غضب أسبانيا بأسرها لأنه فتح بطن امرأة كان الظن أنها ماتت من « اختناق الرحم » ، قال باريه أن ضربة أخرى من مبضع الجراح ردت المرأة فجأة إلى الحياة ، « الأمر الذى بعث فى قلوب جميع أصدقائها من الإعجاب والرعب . . . ما جعلهم ينظرون إلى الطبيب — الذى كان من قبل واسع الشهرة طيب السمعة — نظرتهم إلى رجل مجرم بغيض »[٦٥] ، ولا عجب فالأقرباء لا يقدرون دائماً مثل هذا الشفاء غير المتوقع . وواصل الجراح الهيجونوتى روايته فقال « لذلك لم ير سبيلا أمامه إلا مغادرة البلاد إن ابتغى لنفسه السلامة ». وروى هيجونوتى آخر يدعى أوبير لانجيه قصة كهذه (حوالى ١٥٧٩) ، وذكر أن الطبيب هو فيساليوس ، وزعم أن فيساليوس وقع تحت طائلة محكمة التفتيش لأنه شرح شخصاً حياً ، وقد نجا من المحاكمة حين أخذ على نفسه عهداً بالحج إلى فلسطين تكفيراً عن خطيئته . والحادثة لم ترد فى أى مصدر معاصر ، والمؤرخون الكاثوليك يرفضونها لأنها فى رأيهم قصة خرافية[٦٦] . ولعل السبب لا يعدو أن فيساليوس مل البقاء فى أسبانيا .

وعاد إلى إيطاليا ، وأبحر من البندقية (ابريل ١٥٦٤) ، ويبدو أنه بلغ أورشليم . وفى رحلة العودة تحطمت سفينته ، ومات من التعرض للجو ، نائياً عن أصدقائه ، على جزيرة زنطة تجاه ساحل اليونان الغربى (١٥ أكتوبر ١٥٦٤) ، وكان يومها فى عامه الخمسين . وفى هذا العام ذاته مات ميكلانجلو ، وولد شكسبير . لقد كان البهاء الذى سطعت شمسه قرناً فى سماء إيطاليا ينتقل إلى الشمال .

٦ — نهضـــة الجراحة

ظل علم الطب وفنه يسيران فى ركاب أئمة الطب من اليونان والعرب ، على الرغم مما أحرزه التشريح من تقدم . ولم يكن لشهادة الحواس كبير وزن أمام كلمة جالينوس أو ابن سينا ، لا بل إن فيساليوس نفسه قال حين ناقض تشريحه رأى جالينوس « لم أكد أصدق عينى » . وكانت طبعات أو ترجمات جالينوس أو أبقراط تنشر المعلومات القديمة وتثبط القيام بالتجارب الجديدة — بالضبط كما كانت الجهود التى بذلها بترارك ورونسار لكتابة ملاحم فرجيلية تؤذى نبوغهما الفطرى وتحرف مجراه. وحين أسس ليناكر كلية الطب التى أطلق عليها فيما بعد كلية الأطباء الملكية (١٥١٨) ، كانت كتبها الرئيسية هى ترجماته لجالينوس .

وقد أفاد علاج الأمراض من العقاقير الجديدة المجلوبة إلى أوربا كالكينا ، وعرق الذهب ، والراوند ، المجلوبة من أمريكا ، والزنجبيل ولبان الجاوى من سومطرة ، والقرنفل من جزر ملقا ، والصبر من كوتشين الصينية ، والكافور والزنجفر من الصين ؛ ووسع هذا التطور استعمال النباتات الوطنية . وصنف فالبريوس كوردوس أول فارماكوبيا ألمانية (١٥٤٦) ، وشاع علاج الزهرى بنقيع خشب الغويقم المجلوب من جزر الهند الغربية . حتى أن آل فوجير جمعوا ثروة ثانية بحصولهم على احتكار بيعه فى أملاك شارل الخامس الذى كان مديناً لهم .

على أن فقر جماهير الناس وقذارتهم كانا سبباً فى تخلف الدواء عن المرض دائماً . وكانت أكوام القمامة أو روث البهائم تسمم الهواء ، وتنتشر هنا وهناك فى الشوارع أحياناً . وكان لباريس شبكة مجار أراد هنرى الثانى إفراغها فى نهر السين لولا أن ثناه

رجال البلدية عن هذه الفعلة بتبصيره بأن النهر هو مورد مياه الشرب الوحيد لنصف السكان(٦٧) . وأنشئت فى انجلترا لجان للمجارى فى عام ١٥٣٢ ، ولكن لم يكن فيها حتى عام ١٨٤٤ سوى مدينتين اثنتين تنقل فيهما القمامة من الأحياء الفقيرة على حساب الدولة .

أما الأوبئة فكانت أقل فتكاً منها فى العصور الوسطى ، ولكنها كفت — هى ووفيات النفساوات والأطفال — لتثبيت السكان عند حد لا يكادون يتجاوزونه. وقد اكتسحت الطواعين ألمانيا وفرنسا المرة تلو المرة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٦٨ . وانتشرت حمى التيفوس فى انجلترة فى أعوام ١٤٢٢ ، و ١٥٧٧ و ١٥٨٦ نتيجة لهجرات القمل . واجتاح انجلترة « المرض المعرق » — ولعله ضرب من الأنفلونزة — فى أعوام ١٥٢٨ و ١٥٢٩ و ١٥٥١ و ١٥٧٨ ؛ وألمانيا فى ١٥٤٣ — ٤٥ ، وفرنسا فى ١٥٥٠ — ٥١ . وقيل إن هذا المرض فتك بألف شخص فى بضعة أيام فى كل من هامبورج وآخن(٦٨). وكان الناس يعزون الأنفلونزه إلى « تأثيرات » سماوية influences: ، ومنها اشتقت اسمها . وعاد الطاعون الدبلى إلى الظهور فى ألمانيا فى عام ١٥٦٢ ، ففتك بتسعة آلاف من بين سكان نورمبرج البالغ عددهم أربعين ألفاً(٦٩) — وإن جاز لنا أن نفترض المبالغة فى جميع الإحصاءات الخاصة بالطاعون . أما جوانب الصورة الأكثر إشراقاً فهى تضاؤل الإصابة بالجذام وبعض الاضطرابات العقلية كرقصة سانت فيتوس :

وكان سير التطبيب أبطأ من سير المعرفة الطبية . فما زال دجاجلة الطب يملأون الأرض ؛ وكان من اليسير الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة جامعية برغم القوانين المقيدة . وكان أكثر الأطفال يخرجون إلى النور على أيدى القابلات . أما التخصص فلم

يكد يبدأ . فطب الأسنان مثلا لايفصل عن الطب أو الجراحة ، وكان الحلاقون الصحيون يخلعون الأسنان ويستبدلون بها أسناناً من العاج . وترك جميع الأطباء تقريباً — وفيساليوس أحد القلائل الذين شذوا — مهمة الجراحة للحلاقين الصحيين ، الذين يجب على أى حال ألا ننظر إليهم على أنهم حلاقون ، لأن كثيراً منهم كانوا رجالا ذوى دربة ومهارة :

فأمبرواز باريه بدأ حياته صبياً لحلاق ، ثم ارتقى حتى أصبح جراحاً للملوك : وقد ولد فى بورج-إرسان فى مين (١٥١٧) ، ثم شق طريقه إلى باريس ، وفتح كشك حلاقته فى ميدان سان ميشيل . وخلال حرب ١٥٤٦ اشتغل جراحاً لفرقة من فرق الجيش .وكان فى علاجه للجنود يسلم بالنظرية السائدة التى زعمت أن جروح الرصاص سامة ، ودرج (كما درج فيساليوس) على كيها بزيت البلسان المغلى ، فكان الكى يحيل الألم عذاباً . وذات ليلة فرغ الزيت ، فضمد باريه الجروح بمرهم من مح البيض ، وزيت الورد ، والتربنتينا : وفى الغد كتب يقول :

« أرقنى بالأمس طول التفكير فى المصابين الذين لم أستطع كى جروحهم . وتوقعت أن أجدهم جميعهم أمواتاً فى الصباح. وبهذه الفكرة قمت مبكراً لأتفقدهم ، فما راعنى إلا أن أجدمن عالجتهم بالمرهم لا يشكون غير ألم بسيط جداً فى جروحهم دون أى التهاب : : . وقد قضوا ليلتهم فى نوم مريح . أما الباقون الذين عولجت جروحهم بزيت البلسان المغلى فقد ارتفعت حرارتهم والتهبت جروحهم : : : وآلمتهم ألماً حاداً . وعلى ذلك صممت على ألا أعود ثانية إلى كى هؤلاء التعساء بمثل هذه الطريقة القاسية»[٧٠] ؟

ولم يحظ باريه بتعليم يذكر ، ولم ينشر كتيبه عن «طريقة

علاج الجروح » — وهو اليوم كتاب مشهور فى عالم الطب — إلا فى عام ١٥٤٥ : وفى حرب ١٥٥٢ أثبت أن ربط الشريان أجدى من الكى فى وقف النزف الذى تسببه عمليات البتر : وقد وفق بفضل عملياته الجراحية فى حمل العدو على الإفراج عنه بعد أسره. ولما عاد إلى باريس عين كبيراً للجراحين بكلية سان كوم ، الأمر الذى أثار فزع السوربون التى تنظر إلى أستاذ جاهل باللاتينية كأنه هولة بيولوجية . وعلى الرغم من هذا أصبح جراحاً للملك هنرى الثانى ، ثم لفرانسوا الثانى ، ثم لشارل التاسع ، ومع أنه كان يجهر ببروتستنتيته ، فقد أبقى أمر ملكى على حياته فى مذبحة سان بارتلميو . ولم يضف مؤلفه « كتابان فى الجراحة » (١٥٧٣) لنظرية الجراحة إلا قليلا ، ولكنه أضاف الكثير للتطبيق . فقد اخترع أدوات جديدة ، وأدخل الأطراف الصناعية ، وأشاع استعمال الحزام فى الفتق ، وحسن من تعديل وضع الجنين فى الولادة ، وأجرى أول إعادة لمفصل الكوع ، ووصف التسمم بأول أوكسيد الكربون ، وقرر أن الذباب حامل للمرض . ومن الأقوال المشهورة فى حوليات الطب اعتراضه على ما تلقى من تهانىء لنجاحه فى علاج حالة مستعصية ، « أنا عالجته ، والله شفاه ». وقد مات عام ١٥٩٠ بالغاً الثالثة والسبعين بعد أن رفع كثيراً من مكانة الجراحين وكفايتهم ، ومنح فرنسا زعامة فى الجراحة احتفظت بها قرونا من بعده .

٧ — باراسيلسوس والأطباء

فى كل جيل يظهر رجال ينكرون على الأطباء محافظتهم المشوبة بالحيطة ، ويدعون الوصول إلى أنواع ممتازة من العلاج بوسائل خارجة على التقاليد الطبية ، ويرمون رجال المهنة بالتخلف الوحشى ، ويأتون بالأعاجيب حيناً ، ثم يتبددون فى ضباب الغلو والعزلة اليائسين . ومن الخير أن يظهر ذباب الخيل هذا بين الحين والحين لينبه الفكر الطبى ، ومن الخير أن يكبح الطب جماح البدع المتعجلة فى تعامله مع الحياة البشرية . فنى هذا الميدان ، كما فى ميدانى السياسة والفلسفة ، يتعاون الشباب المتطرف ، والشيخوخة المحافظة ، على غير إرادتهما ، ليحدثا توازناً بين الاختلاف والوراثة ، ذلك التوازن الذى تتخذه الطبيعة أداة للتطور .

كان فيليبوس ثيوفراستوس بومباستوس فون هوهنهايم يتخذ له اسم أوريولوس رمزاً لنبوغه ، واسم باراسيلسوس — وهو على الأرجح ترجمة لاتينية للقب هوهنهايم[٧١] . وكان أبوه فلهلم بومباست فون هوهنهايم ابناً غير شرعى لنبيل سوابى حاد الطبع . ولما ترك فلهلم ليدبر شئونه بنفسه ، مارس الطب بين فقراء القرويين قرب أينزيدلن فى سويسرة ، وتزوج من إلزا أوخسنر ، وكانت بنت صاحب حانة وممرضة مساعدة ، وقد أصيبت بعد قليل بحالة اكتئاب جنونى . وربما كان تضارب هذا النسب سبباً فى ميل فيليب إلى عدم الاستقرار ، وإلى إحساس ساخط بقدرات لم ترعها بيئته رعاية كافية . وقد ولد فى ١٤٩٣ وشب وسط مرضى أبيه ، وربما فى ألفة بالحانات غير صالحة له ، تلك الحانات التى ظلت حياتها الطليقة تستهويه على الدوام . وتزعم قصة غير مؤكدة أن الصبى خصاه خنزير برى أو جنود مخمورون؛

ولم يعرف أن امرأة ظهرت فى حياته بعد البلوغ . وحين كان فى التاسعة أغرقت أمه نفسها ، ولعل هذا هو السبب فى رحيل الوالد والولد إلى فيلاخ بالتيرول . وتقول رواية متواترة أن فلهلم كان يقوم بالتدريس هناك فى مدرسة للمناجم ويشتغل بالكيمياء القديمة على سبيل الهواية . ولا بد أنه كان هناك مناجم بقرب المدينة ومصنع لصهر المعادن ، ومن المحتمل أن يكون فيليب قد تعلم هناك طرفاً من الكيمياء التى سيحدث فيها ثورة فى دنيا العلاج .

ولما بلغ الرابعة عشرة قصد هايدلبرج للدراسة . وتكشف طبعه القلق فى انتقاله السريع من جامعة لأخرى — فرايبورج ، وإنجولشتات ، وكولونيا ، وتوبنجن ، وفينا ، وارفورت ، وأخيراً (١٥١٣ — ١٥) فيرارا — ولو أن هذا التنقل بين دور العلم كان مألوفاً فى العصور الوسطى . وفى عام ١٥١٥ ، التحق فيليب — وقد سمى نفسه الآن باراسيلسوس — حلاقاً صحياً فى جيش شارل الأول ملك أسبانيا ، دون أن يحصل على درجة جامعية . فلما انتهت الحملة عاد إلى حياة الترحل . وهو يزعم أنه مارس الطب فى غرناطة ، ولشبونة ، وإنجلترة ، والدنمرك ، وبروسيا وبولنده ، ولتوانيا ، والمجر ، و « غيرها من الأقطار » [٧٢] وكان فى سالزبورج إبان حرب الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وعالج جروحهم وتعاطف مع أهدافهم . وقد ولع حيناً بالاشتراكية . فهو يندد بالمال ، والفائدة ، والتجار . ويدعو للشيوعية فى الأرض والتجارة ، وللمساواة بين الناس فى الأجور[٧٣] . وفى كتابه الأول المسمى « Archidoxa » (أى الحكمة العظمى — ١٥٢٤) رفض اللاهوت وامتدح التجربة العلمية[٧٤] . ولما قبض

عليه بعد إخفاق ثورة الفلاحين ، أنقذته من حبل المشنقة شهادة بأنه لم يحمل سلاحاً قط ، ولكنه نفي من سالزبورج ، فغادرها على عجل .

وفي عام ١٥٢٧ كان في ستراسبورج يمارس الجراحة ويحاضر الحلاقين الصحيين ، وكان تعليمه لهم مزيجاً مهوشاً من المعقول وغير المعقول ، ومن السحر والطب — ولو أن الله وحده يعلم كيف سيصف المستقبل بقينياتنا الحاضرة ؛ وقد رفض التنجيم ، ثم سلم به ، وكان يأبى أن يحقن مريضاً بحقنة شرجية ما لم يكن القمر في تربيعه الصحيح . وكان يسخر من عصا الكهانة ، ولكنه زعم أنه أحال المعادن ذهباً (٧٥) . وإذ كان — كأجريبا في شبابه — يحدوه تعطش للمعرفة فقد بحث في شوق عن « حجر الفلاسفة » — أي عن صيغة عامة تفسر الكون. وكتب في سذاجة المصدق عن الأقزام الخرافية ، وسلامندر الأسبستوس ، و « الإرشادات » ، وهي علاج الأعضاء المريضة بعقاقير شبيهة بها لوناً وشكلا . ولم يستنكف من استخدام التعاويذ والتمائم السحرية علاجاً (٧٦)— ربما بوصفها طباً إيحائياً .

ولكن هذا الرجل نفسه، الذي ينضح بأوهام جيله ، أدخل تحسينات جريئة على استخدام الكيمياء في الطب . وكان يتحدث أحياناً حديث الماديين « إن الإنسان مشتق من المادة ، والمادة هي الكون كله » (٧٧) . والإنسان بالنسبة للكون كالعالم الصغير (الميكروكوزم) بالنسبة للعالم الكبير (الماكروكوزم) » وكلاهما من نفس العناصر — وأساسها الأملاح ، والكبريت ، والزئبق ؛ والمعادن والأملاح المعدنية التي تبدو عديمة الحياة هي في الواقع مفعمة بالحياة(٧٨) . والعلاج الكيماوي هو استخدام العالم الكبير

لشفاء العالم الصغير . والإنسان من حيث بدنه مركب كيميائى ، والمرض تنافر ، لا فى « الأمزجة » كما زعم جالينوس ، بل فى مكونات البدن الكيميائية ؛ وهذه أول نظرية حديثة للأيض أو التمثيل الغذائى ؛ وكان العلاج فى ذلك العهد يعتمد فى عقاقيره إلى حد كبير على عالم النبات والحيوان ، أما باراسيلسوس ، الغارق فى كيميائه القديمة ، فقد أكد ما للمواد غير العضوية من قدرات علاجية . وجعل الزئبق ، والرصاص ، والكبريت ، والحديد ، والزرنيخ ، وكبريتات النحاس ، وكبريتات البوتاسيوم ، أجزاء من أقرباذينه ، وأشاع استعمال الصبغات والخلاصات الكيميائية ، وكان أول من صنع « صبغة الأفيون » التى نسميها اللودنوم ؛ وقد شجع استعمال الحمامات المعدنية ، وشرح خواصها وآثارها المتنوعة .

ولاحظ باراسيلسوس العوامل المهنية والجغرافية المؤثرة فى المرض ، ودرس السل الرئوى المتليف فى المعدنين ، وكان من أول من ربط بين القماءة والغوطر المتوطن ؛ وأدخل تحسينات على فهم الصرع ، وعزا الشلل واضطرابات النطق إلى إصابات الرأس . ومع أن الفكرة المسلم بها عموماً فى ذلك العصر عن النقرس والتهاب المفاصل هى أنهما رفيقان للشيخوخة لا شفاء منهما ، فان باراسيلسوس رأى أنهما قابلان للشفاء إذا شخصا على على أنهما نتيجة لأحماض تكونها بقايا الطعام التى استقرت طويلا فى القولون . قال « كل الأمراض يمكن ردها إلى تخثر المادة غير المهضومة فى الأمعاء »[٧٩] . وقد أطلق على هذه الأحماض الناشئة عن التعفن المعوى اسم « الطرطير » لأن رواسبها فى المفاصل ، والعضلات ، والكلى ، والمثانة « تحرق كالجحيم ، وطرطروس

هى الجحيم » [٨٠] : « إن الأطباء يفاخرون بمعرفتهم بالتشريح ، ولكنهم عاجزون عن رؤية « الطرطير » اللاصق بأسنانهم » . [٨١]
وعلق هذا المعنى بالكلمة الجديدة . واقترح وقف تكون هذه الرواسب فى الجسم بالغذاء الصحى ، والمقويات ، وتحسين الإخراج ، وحاول « تليين » الرواسب باستعمال زيت الغار ومركبات الراتنج ، أما الحالات الشديدة فقد دعا فيها إلى الجراحة حتى يسمح للرواسب الملتصقة بالهروب أو تتاح إزالتها . وقد زعم أنه شفى كثيراً من حالات النقرس بهذه الوسائل ، ويعتقد بعض الأطباء فى عصرنا هذا أنهم شفوا مرضى باتباع تشخيص باراسيلسوس .

ووصلت إلى بال أنباء طرق العلاج التى توصل إليها باراسيلسوس فى ستراسبورج . وكان المصور الشهير فروبن يشكو هناك ألماً حاداً فى قدمه اليمنى ، فأشار الأطباء ببتر القدم . ودعا فروبن باراسيلسوس إلى بال ليشخص الحالة . وجاء باراسيلسوس ، ووفق فى علاجها دون الالتجاء إلى السلاح . واستشار إرزمس باراسيلسوس ، وكان يومها يعيش مع فروبن ويشكو أوجاعاً كثيرة ، فوصف له علاجاً لا ندرى مدى توفيقه فيه . على أية حال أضاف هؤلاء المرضى المشهورون شهرة جديدة إلى شهرة الطبيب الشاب ، وقربه خليط غريب من الظروف من منصب الأستاذ الجامعى الذى كانت تهفو إليه نفسه .

كان البروتستنت فى تلك الحقبة أغلبية فى مجلس مدينة بال ، ففصلوا الدكتور فونيكر طبيب المدينة على الرغم من اعتراضات إرزمس والأقلية الكاثوليكية ، بحجة أنه « تفوه بعبارات جديدة ضد الإصلاح البروتستنتى » [٨٢] وعينوا باراسيلسوس مكانه .

واقترض المجلس وباراسيلسوس أن هذا التعيين يتضمن حقه فى التدريس فى الجامعة ، ولكن الكلية استنكرت التعيين واقترحت عقد امتحان علنى لباراسيلسوس فى التشريح وهى على بينة من ضعفه فيه . فتهرب من الاختبار ، وبدأ يمارس مهنته طبيباً بالمدينة ، ويحاضر فى قاعة خاصة دون موافقة الجامعة (١٥٢٧) ؛ وقد جمع إليه الطلاب بدعوة مميزة لخلقه هذا نصها : —

« من ثيوفراستوس بومباست فون هوهنهايم : الدكتور فى فرعى الطب ، والأستاذ ، تحيات لطلبة الطب . إن الطب وحده دون جميع العلوم . . . هو المعترف بهصناعة مقدسة . ومع ذلك فان قلة من الأطباء يمارسونه اليوم بنجاح ، ومن ثم فقد حان الوقت لرده إلى مكانه المرموق السابق ، ولتنقيته من خميرة الهمج ، وتطهيره من أخطائهم . وسنقوم بهذه المهمة ، لا بالتزام قواعد الأقدمين ؛ بل بشىء واحد دون سواه هو دراسة الطبيعة واستخدام الخبرة التى اكتسبناها خلال سنوات طويلة من الاشتغال بالطب . ومن ذا الذى يجهل أن معظم الأطباء المعاصرين يفشلون لأنهم استعبدوا أنفسهم لتعاليم ابن سينا وجالينوس وأبقراط ؟ . . . وقد يفضى بهم هذا الطريق إلى ألقاب فخمة ، ولكنه لا يكوّن طبيباً بمعنى الكلمة . . . فليس الطبيب فى حاجة إلى الفصاحة أو الالمام باللغة أو الكتب . . . . بل إلى المعرفة العميقة بالطبيعة وأعمـالها . . .

ولقد اعتزمت ، بفضل المنحة السخية التى قدمها سادة بال لهذا الغرض ، أن أشرح الكتب الدراسية التى ألفتها فى الجراحة وعلم الأمراض ، مخصصاً لذلك ساعتين فى كل يوم ، على سبيل التمهيد لطرق الشفاء التى أمارسها . وأنا لا أصنف هذه الكتب

من مختارات أنقلها عن أبقراط أو جالينوس . ولكننى بطول الكد والكدح خلقتها من جديد على أسس من الخبرة ، التى هى أسمى معلم لجميع الأشياء . فاذا شئت إثبات شىء ما لم أفعل هذا بالنقل عن هؤلاء القدامى . بل بالتجربة والتفكير المبنى عليها . فان شعرت أيها القارىء العزيز بدافع يدفعك إلى استكناه هذه الخفايا المقدسة ، وإن شئت أن تسبر أغوار الطب فى زمن وجيز ، فأقبل إلى فى بال . . . بال فى ٥ يونيو ١٥٢٧ »[٨٣] .

وسجل ثلاثون طالباً أسماءهم فى هذه الدراسة . وفى يوم الافتتاح طلع باراسيلسوس فى الرداء الجامعى المألوف ، ولكنه خلعه عنه لتوه ، ووقف فى ثوب الكيميائى الخشن ومئزرته الجلدية المتسخة بالسناج . وقد ألقى محاضرته فى الطب مكتوبة بلاتينية أعدها له سكرتيره أوبورينوس (الذى طبع فى تاريخ لاحق كتاب فيساليوس « فابريكا ») ، أما محاضرات الجراحة فألقاها بالألمانية . وكانت هذه صدمة جديدة للأطباء التقليديين ، ولكنها لم تزعجهم بقدر ما أزعجهم رأى أبداه باراسيلسوس وهو « أنه يجب ألا يؤدى الصيدلى عمله متواطئاً مع أى طبيب »[٨٤] . وكأنه أراد أن يعلن على الملأ ازدراءه للطب التقليدى ، فقذف فى النار وهو مبتهج بنص طبى حديث لعله Summa Jacobii ؛ — وكان الطلاب قد أوقدوا النار احتفالا بعيد القديس يوحنا (٢٤ يونيو ١٥٢٧) ، ثم قال « لقد ألقيت فى نار القديس يوحنا « بخلاصة » الكتب ، حتى تصعد جميع المحن والبلايا فى الهواء مع الدخان . وهكذا طهرت مملكة الطب من أدرانها » . وقارن الناس بين هذه الحركة وبين إحراق لوثر لمرسوم أصدره البابا .

أما حياة باراسيلسوس فى بال فكانت خارجة على العرف

خروج محاضراته : يقول أوبورينوس « لقد أنفق العامين اللذين صحبته خلالهما فى السكر والشره ليل نهار . . . وكان متلافاً ، تأتى عليه أوقات لا يجد فى جيبه فيها فلساً . . . وكان فى كل شهر يوصى بصنع سترة جديدة ، ويعطى القديمة لأول قادم ، ولكنها كانت من القذارة بحيث لم آتمن قط سترة منها لنفسى[٨٦] » وقد ترك لنا هنريش بولينجر وصفا لباراسيلسوس مماثلا لهذا ، فهو مدمن للخمر ، « ورجل فى منتهى القذارة[٨٧] » ولكن أوبورينوس يشهد بحالات عجيبة من الشفاء حققها أستاذه ، « فى علاج القرح أتى بما يقرب من المعجزات فى حالات يئس منها غيره »[٨٨] .

أما رجال الطب فقد برئوا منه دجالا عاطلا من الدرجة الجامعية ، مجرباً مستهتراً ، عاجزاً عن تشريح الجثث ، جاهلا بعلم التشريح . أما هو فقد عارض التشريح بحجة أن الأعضاء لا يمكن فهمها إلا وهى تؤدى وظيفتها فى الجسم الحى أداء متحداً طبيعياً. ورد على احتقار الأطباء له بلغة سوقية غاية فى المرح . فسخر من وصفاتهم الوحشية ، وقمصانهم الحريرية ، وخواتمهم ، وقفازاتهم الناعمة ، ومشيتهم المتغطرسة ، وتحداهم أن يخرجوا من حجرات الدرس إلى المعمل الكيميائى ، وأن يرتدوا المآزر ، ويوسخوا أيديهم بالعناصر الكيميائية وينحنوا فوق الأفران ليتعلموا أسرار الطبيعة بالتجربة وعرق الجبين . وقد عوض عن افتقاره إلى الدرجة الجامعة باتخاذ ألقاب مثل « أمير الفلسفة والطب » و « دكتور فى فرعى الطب » (أى طبيب وجراح) ، و « ناشر الفلسفة » ، وداوى جراح غروره بالثقة فى دعاواه . كتب يقول « سيتبعنى الجميع ، وستكون مملكة الطب مملكتى . . . كل الجامعات وكل الكتاب القدامى مجتمعين أقل مواهب من . . . ى »[٨٩] . وإذ ألفى نفسه مرفوضاً

من الغير ، فقد اتخذ لنفسه هذه الحكمة شعاراً « لا يملكنك أحد إذا استطعت أن تملك نفسك »(٩٠) . أما التاريخ فقد وبخ تفاخره ، إذ جعل لقب أسرته « بومباست » اسماً نكرة (بمعنى الفشر) .

وحدث أن ظريفاً مجهول الاسم فى بال — متواطئاً مع كلية الجامعة ، أو فى تمرد عفوى من الطلبة على مدرس دجماطى — كتب قصيدة هجائية لاذعة وعرضها فى مكان ظاهر ، والقصيدة باللاتينية الرديئة ، توهم أن جالينوس نفسه هو الذى كتبها من « الجحيم » يرد بها على منتقص قدره ، وقد سماه كاكوفراستوس — خطيب الروث . وهزأت الأبيات هزءاً شديداً بمصطلحات باراسيلسوس الغيبية ، ونعتته بالجنون ، وأشارت عليه بأن يشنق نفسه . وحاول باراسيلسوس أن يعثر على الجانى ففشل ، لذلك طلب إلى مجلس المدينة أن يستجوب الطلاب واحداً واحداً ويعاقب المذنب . ولكن المجلس تجاهل الطلب . وحوالى هذه الفترة عرض قسيس فى كاتدرائية بال أن يدفع مائة « جلدر » لمن يشفيه من مرضه ، وشفاه باراسيلسوس فى ثلاثة أيام ، ودفع له القسيس ستة جلدرات ، وأبى أن يدفع الباقى بحجة أن العلاج لم يستغرق سوى وقت قصير جداً . فقاضاه باراسيلسوس ، ولكنه خسر دعواه ، وخسر معها هدوء طبعه ، فرمى نقاده بأنهم « غشاشون حكاكون للظهور » ، ونشر نبذة غفلا من اسم الكاتب رمى فيها رجال الدين والقضاء بالفساد ؛ وأمر المجلس بالقبض عليه ، ولكنه أجل تنفيذ الأمر حتى الصباح . وهرب باراسيلسوس تحت جنح الظلام (١٥١٨) ، بعد أن قضى فى بال ثمانية شهور .

وفى نورمبرج أعاد باختصار تجربته فى بال . وكل إليه آباء المدينة مستشفى سجن ، فاستخدم ألواناً من العلاج أثارت الأعجاب : ولكنه ندد بحساده من أطباء المدينة لافتقارهم إلى الذمة ، وإثرائهم ، ولبدانة نسائهم . ثم دافع عن الكاثوليكية حين لاحظ

أن أغلب أعضاء المجلس من البروتستنت . وانزعج آل فوجير الذين يبيعون الغويقم حين زعم أن هذا « الخشب المقدس » عديم الجدوى فى علاج الزهرى . وفى عام ١٥٣٠ أغرى طباعاً مغموراً بأن ينشر « ثلاثة فصول عن المرض الفرنسى » عنف فيها الأطباء تعنيفاً أثار عليه عاصفة من المعارضة أكرهته على أن يعود إلى تجواله من جديد . وأراد أن ينشر كتاباً أكبر فى الموضوع ذاته ، ولكن مجلس المدينة منع طبعه . ودافع باراسيلسوس فى خطاب كتبه إلى المجلس عن حرية الطبع بفصاحةلم تغنه فتيلا ، ولم ير الكتاب النور قط فى حياته . وكان يحتوى على أفضل وصف إكلينيكى كتب عن مرض الزهرى ، وقد أشار باستعمال جرعات باطنية من الزئبق دون الاستعمالات الظاهرة له. وأصبح هذا المرض ساحة احتدمت فيها المعركة بين العلاج النباتى والعلاج الكيميائى .

وانتقل باراسيلسوس إلى سان — جال ، وسكن نصف عام منزل أحد مرضاه . وهناك وفى فترة لاحقة ألف كتبه « العمل العجيب جداً » و « معارضة الطبيعة ؟ » و« الجراحة الكبرى » ، وكلها بالألمانية الدارجة . وهى أكوام من الخامات الخشنة التى تعثر أحياناً على حجر كريم فى ثناياها . وفى عام ١٥٤٣ انتكس إلى السحر ، وألف كتابه Philosophia sagax وهو خلاصة وافية فى السحر .

ولما مات مريضه فى سان— جال راح يضرب فى الأرض من جديد ، متنقلا بين ربوع ألمانيا ، مستجدياً قوته أحياناً . وكان قد فاه فى شبابه ببعض الهرطقات الدينية— كقوله إن دلالة العماد رمزية لا أكثر ، وإن تناول الأسرار المقدسة نافع للأطفال والمغفلين ،

عديم الفائدة للأذكياء ، وإن الصلوات للقديسين مضيعة للوقت(٩١).
أما الآن (١٥٣٢) ، بعد أن هدّه الفقر والهزيمة ، فقد اختبر « التحول » الديني . فصام ، ووهب متاعه الباقي للفقراء ، وكتب المقالات التعبدية ، وعزى نفسه بآمال الجنة. وفي عام ١٥٤٠ قدم له أسقف سالزبورج الملجأ ، فقبله الرجل شاكراً ،مع أنه هو الذي شجع الثورة هناك قبل خمسة عشر عاماً . وكتب وصيته ، فترك نقوده القليلة لأقاربه ، وأدواته لحلاق المدينة الصحيين ، وفي ٢٤ سبتمبر ١٥٤١ أسلم جسده للتراب .

لقد كان رجلا قهرته عبقريته ، غنياً في الخبرة المنوعة والأحاسيس الذكية ، ناقصاً في تعليمه المدرسي نقصاً أعجزه عن فصل العلم عن السحر ، مفتقراً إلى ضبط النفس اللازم للسيطرة على حماسته المتأججة ، حاد الخصومة بحيث لم يستطع التأثير في جيله . ولعل حياته وحياة أجريبا أعانتا على تضخيم أسطورة فاوست . وإلى القرن الماضي كان يحج إلى قبره في سالزبورج ضحايا وباء تفشى في النمسا والأمل يراودهم في الشفاء بسحر روحه أو بسحر رفاته(٩٢) .

٨ — الشكاكون

لم يكن القرن السادس عشر بالزمان الصالح للفلسفة ، فقد استغرق اللاهوت المفكرين الناشطين ، وسير الإيمان العقل في ركابه بعد أن سيطر على كل شيء. ورفض لوثر العقل لأنه ينزع بصاحبه إلى الكفر(٩٣) ، ولكن حالات الكفر كانت نادرة. فقد أحرق قسيس هولندي في لاهاي (١٥١٢) لإنكاره الخليقة والخلود ولاهوت المسيح(٩٤) ، ولكنه لم يكن واضح الكفر . كتب أخباري إنجليزي تحت سنة ١٥٣٩ « مات هذا العام في جامعة باريس

طبيب عظيم أنكر وجود الله ، وكان هذا رأيه الذى ثبت عليه مذ كان فى العشرين ، وقد عمر إلى ما بعد الثمانين ، واحتفظ بضلالته هذه سراً طوال هذه السنين[٩٥] ». وفى عام ١٥٥٢ نشر جيوم بوستل كتابه Contra atheos ولكن كلمة atheist (أى الملحد) قل أن ميز القوم بينها وبين القائل بمذهب الألوهية ، أو القائل بوحدة الوجود ، أو الشكاك .

على أنه وجد من الشكاكين عدد يكفى لنيل صفعة من لوثر ، فقد روى أنه قال « إن مواد قانون الإيمان أسمى من أن يدركها أبناء هذا العالم العميان . فوحدة الأقانيم الثلاثة فى إله واحد ، وتجسد ابن الله الحق ، ووجود طبيعتين للمسيح هما لاهوته وناسوته ، إلخ . . . . . كل هذا يؤذيهم لأنهم يرون فيه حديث خرافة » ؛ ثم أضاف إن بعضهم يتشككون فى أن الله خلق أناساً عرف من قبل أنهم هالكون[٩٦] . وكان فى فرنسا بعض المتشككين فى الخلود[٩٧]. من ذلك أن بونافنتور دسبرييه سخر فى كتابه Cymbalum mundi (١٥٣٧) بالمعجزات ، وبتناقضات الكتاب المقدس ، وباضطهاد أصحاب البدع الدينية . وقد ندد كالفن والسوربون بكتابه هذا ، فأحرقه جلاد الدولة. واضطرت مارجريت إلى إقصائه عن بلاطها فى نيراك ، ولكنها بعثت إليه بالمال لتحفظ عليه حياته فى ليون : وفى عام ١٥٤٤ قتل نفسه ، وترك مخطوطاته لمارجريت « دعامة كل صلاح وحاميته »[٩٨] ؛

وظهرت روح الشك فى ميدان السياسة متخذة صورة هجمات على حق الملوك الإلهى وحصانتهم ، وكان الشكاك هنا عادة إما من المفكرين البروتستنت الذين ضايقهم الحكام الكاثوليك ، وإما من المفكرين الكاثوليك الذين يدفعون الثمن غالياً إذا انتصرت الدولة.

وقد نشر الأسقف جون بونيت — وكان ساخطاً على ماري تيودور — في عام ١٥٥٨ « بحثاً موجزاً في السلطة السياسية » . قال فيه « إن الأمثلة الكثيرة والمتصلة ، التي وجدت بين الحين والحين ، لخلع الملوك وقتل الطغاة تؤكد على وجه اليقين أن من أحق الحق والعدل والتمشي مع قضاء الله . . . القول بأن سلطان الملوك والأمراء والحكام مصدره الشعب . . . وإن للناس أن يستردوا تفويضهم . . . حين يشاءون »[٩٩] . كذلك كان من رأي أستاذ اسكتلندي يدعى جون ميجر ، (وكان له بعض الفضل في تكوين عقل جون نوكس) ، أنه ما دام كل سلطان زمني مشتقاً من إرادة الجماعة ، فان من الجائز خلع الملك الطالح وإعدامة ، شريطة اتخاذ الإجراء القانوني الواجب .

أما أطرف خصوم الحكم الملكي المطلق فهو كاثوليكي شاب حقق قدراً متواضعاً من الخلود بموته بين ذراعي مونتيني . يقول كاتب المقالة الفذ « إن إتيين دلا بويتي كان فيما أعلم أعظم رجل في عصرنا[١٠٠] » . وقد ولد إتيين هذا لموظف كبير في بيريجور ، ودرس القانون في أورليان ، ثم عين مستشاراً في « برلمان » بوردو قبل بلوغه السن القانونية . وحوالي عام ١٥٤٩ ، يوم كان فتى في التاسعة عشرة ألهمته الأفكار الجمهورية دراسته للأدب اليوناني والروماني ، كتب هجوماً عنيفاً على الحكم المطلق — ولكنه لم ينشره قط — وسمى كتابه « مقال عن العبودية الاختيارية » . Discours lus la servitude volontaire ولكن بما أن الكتاب ندد بدكتاتورية فرد واحد يتحكم في الكثيرين ، فقد سمى Contr' un (أي خصم الواحد) . فليسمع القارئ نداءه :

« أى عار وأى خزى فى أن يطيع عدد لا يحصى من الرجال طاغية عن رضى واختيار ، بل بروح العبيد ! طاغية لا يدع لهم حقوقاً فى عقار أو أبوين أو زوجة أو والد ، ولا حتى فى حياتهم ذاتها — فأى نوع من الرجال هذا الطاغية ؟ ما هو بهرقول ولا بشمشون ؛ بل كثيراً ما يكون قزماً ، وكثيراً ما يكون أشد الجبناء تخنثاً فى الشعب كله — فليست قوة بدنه هى التى تضفى عليه النفوذ والسلطة ، وكثيراً ما يكون عبداً لأحط المومسات . ليت شعرى ما أشقى رعاياه وأحقرهم ؛ إن كان اثنان ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، لا يثورون على واحد ، فذلك معناه الواضح أن الشجاعة تعوزهم . أما إذا كان المئات والألوف لا يخلعون عنهم نير فرد ، فما الذى يبقى من الإرادة الفردية والكرامة الإنسانية ؟ . . . إن حصول الفرد على حريته لا يقتضى بالضرورة استعمال القوة ضد الطاغية . إنه يسقط حالما تمل البلاد وجوده . ولا حاجة بالشعب الذى أذله واستعبده أن يحرمه أى حق له . فالتحرر لا يتطلب شيئاً أكثر من الإرادة الصادقة لخلع النير . . . فاعزموا عزماً صادقاً على ألا تكونوا عبيداً بعد اليوم — وإذا أنتم أحرار ! أمسكوا عن الطاغية المعونة يسقط ويتحطم كأنه تمثال عملاق سحبت قاعدته من تحت قدميه[١٠١] .

ومضى لابويثى يشكل بآرائه فكر روسو وتوم بين من بعده . فهو يقول إن الإنسان يتوق بطبعه إلى الحرية ، ومفارقات الحظ هى بنت الصدفة ، وهى تحمّل المحظوظين الالتزام بخدمة إخوتهم فى الإنسانية ، وكل الناس إخوان « صنعوا من طينة واحدة » ، وصانعهم إله واحد . والعجيب أن قراءة هذا الرأى المتطرف هى التى جذبت مونتينى — على ما طبع عليه من اتزان وحيطة — إلى لابويثى ، وأفضت (١٥٥٧) إلى صداقة من أشهر الصداقات

فى التاريخ . وكان مونتينى يومها فى الرابعة والعشرين ، وإتيين فى السابعة والعشرين، ولعل مونتينى كان آنئذ من الحداثة بحيث يستطيع تقبل العواطف المتطرفة . على أن صداقتهما سرعان ما ختمت بموت لابويتى ولما يجاوز الثانية والثلاثين (١٥٦٣) . ووصف مونتينى أيامه الأخيرة وكأنه يتذكر وصف أفلاطون لموت سقراط . وبلغت حدة إحساسه بفقد ذلك الفتى المشبوب العاطفة مبلغاً جعله يذكر موته — بعد أن انقضت عليه سبعة عشر عاماً — بشعور أشد عمقاً من ذكره لأى تجربة أخرى جاز بها فى حياته . ولم يكن راضياً عن طبع كتاب صديقه (Discours)وحزن حين نشره راعى كنيسة فى جنيف (١٥٧٦) . وقد علل تأليف الكتاب بروح الشباب السمحة ، وأرجع كتابته إلى سن أسبق هى السادسة عشرة. لقد أوشك هذا الصوت أن يكون صوت الثورة الفرنسية .

٩ — راموس والفلاسفة

كانت حياة بتروس راموس—بيير دلاراميه — لا تقل شاعرية عن حياة لابويتى ، وموته أشد عنفاً . لقد آلى على نفسه أن يخلع نير أرسطو . ، إذ رأى فيه حكم رجل واحد دام نيفاً وثلاثة قرون ، لا على أمة واحدة فحسب بل على أمم كثيرة ، لا على الجسد بل على العقل ، بل كاد يبسط سلطانه على الروح . أو لم ينصب هذا المفكر الوثنى فيلسوفاً رسمياً للكنيسة ؟ لقد فكر إنسانيو النهضة فى إحلال أفلاطون محله ، ولكن حركة الإصلاح البروتستنتى — أو الخشية من الحركة — أخذت تخنق الحركة الإنسانية ، وظلت الكلامية الأرسطاطالية ، سواء فى ألمانيا

البروتستنتية او فى فرنسا الكاثوليكية ، متربعة على العرش حين مات لوثر (١٥٤٦) الذى لعنها ؛ وبدا خلع هذا المقدونى عن عرشه فى نظر الشاب المفكر أحل صورة من صور قتل الطغاة . فلما تقدم راموس لدرجة الأستاذية من جامعة باريس عام ١٥٣٦ ، وكان يومها فى عامه الواحد والعشرين ، اتخذ موضوعاً لرسالته هذه الدعوى القاطعة التى كان عليه أن يدافع عنها يوماً بطوله أمام من تجدوه من الكلية وخارجها : « كل ما قاله أرسطو باطل » .

كانت حياة راموس أشبه بنشيد يتغنى بالتعلم . فقد ولد قرب مدينة كالفن « نوايون » فى إقليم بيكاردى ، وحاول مرتين السفر إلى باريس على قدميه يحدوه تعطش إلى كلياتها ، ولكنه أخفق فى المرتين وقفل إلى قريته مهزوماً . ثم حالفه التوفيق فى عام ١٥٢٨ ، حين بلغ الثانية عشرة ، إذ التحق بخدمة طالب غنى يحضر للجامعة فى كلية نافار — وهى نفس الكلية التى سرقها فيون . وشق بيير طريقه فى منهج كلية الآداب العسير طوال سنوات ثمان ، يخدم نهاراً ويذاكر ليلا . وكاد يفقد بصره خلال ذلك ، ولكنه عثر على أفلاطون . يقول ·

« حين جئت باريس وقعت فريسة لتدقيقات السفسطائيين ، فعلمونى الآداب الحرة بالأسئلة والمجادلات ، دون أن يدلونى على أية فائدة أو منفعة أخرى . فلما تخرجت . . . . انتهيت إلى أن هذه المجادلات لم تكن سوى مضيعة لوقتى . ولما أفزعتنى هذه الفكرة ، وهدانى ملك كريم ، وقعت على زينوفون ثم على أفلاطون ، ووصلت إلى معرفة فلسفة سقراط »(١٠٢) .

ما أكثر من وصلوا منا فى عهد الشباب إلى هذا الكشف المبهج ، وسعدوا يوم التقوا فى أفلاطون بفيلسوف سرت الخمر والشعر فى عروقه ، وسمع صوت الفلسفة فى هواء أثينا نفسه ، وأمسك بها وهى محلقة ، وأسلمها

إلى الأجيال التالية وهى لا تزال تحمل نسمة الحياة ، وأصوات سقراط وتلاميذه لا تزال تجلجل بقوة النقاش ونشوة الجدل حول أشد المسائل إثارة فى العالم ! يا لها من راحة يستمتع بها المرء بعد صفحات أرسطو المملة ، بعد الإسهاب فى حديث « توسط الطريق » ، « والوسط غير الأمثل » ! بالطبع كنا — وكان راموس — غير منصفين لأرسطو ، إذ نقارن مذكرات محاضراته المحكمة بمحاورات أستاذه الميسرة ، ولا يستطيع تقدير الفيلسوف المقدونى سوى الراسخين فى العلم . فلقد كان أرسطو الذى عرفه راموس هو أولا منطيق « الأورجانون » ، أرسطو المدارس ، الذى لا يكاد يثبت لمحنة الترجمة إلى لاتينية الكلاميين ، ومحنة التحويل السحرى إلى أكوينية تقليدية مسيحية طيبة . ويقول راموس إنه أنفق ثلاث سنين فى دراسة منطق أرسطو دون أن يبصره أحد بفائدة واحدة أو تطبيق واحد له فى العلم أو الحياة(١٠٢) .

وأنها لمفخرة لكلية باريس ، ولعلم راموس وحذقه وشجاعته ، أن يمنح درجة الأستاذية التى تقدم لنيلها ؛ ولعل الأساتذة أيضاً كانوا قد سئموا المنطق والاعتدال . ولكن بعضهم صدموا وأحسوا أن بضاعتهم لحقها ضرر من نقاش ذلك اليوم . وبدأت عداوات لم تفتأ تلاحق راموس حتى مماته .

وخولت له درجة الأستاذية الاشتغال بالتدريس ، فبدأ لفوره فى الجامعة سلسلة من المحاضرات مزج فيها الفلسفة بأدب اليونان والرومان . وكثر تلاميذه . وتضاعف كسبه ، واستطاع أن يرد لأمه الأرملة ما بذلته من مدخراتها لتدفع رسوم تخرجه . وبعد سبعة أعوام من التحضير أصدر سنة ١٥٤٣ (وهى نفس « سنة العجائب » التى صدرت فيها كتب كوبرنيق وفيساليوس) ، كتابين واصلا حملته لإسقاط منطق أرسطو . وكان أحدهما ، وهو : Aristotelicae animadversiones « هجوماً مباشراً صاغه أحياناً

فى عبارات من القدح لا هوادة فيها ، أما الآخر عن أقسام المنطق فقد قدم نسقاً جديداً يحل محل القديم . فأعاد تعريف المنطق باعتباره فن الحديث ، وجمع بين المنطق والأدب والخطابة فى طريقة إقناع فنية واحدة . وتوجس المهيمنون على الجامعة — ولهم العذر فى توجسهم — مما قد يجر إليه هذا المأخذ من أخطار . يضاف إلى هذا ارتيابهم فى بعض قضايا راموس التى شموا منها رائحة الهرطقة ، كقوله مثلا : « إن عدم التصديق بداية المعرفة »(١٠٤) — وهذا تشكك ديكارتى سابق لديكارت ، أو طلبه مزيداً من دراسة الكتب المقدسة بدلا من دراسة مجلدات الفلاسفة الكلاميين — وكان لهذا الطلب رنين بروتستنتى ، أو تعريفه اللاهوت بأنه doctrina bene vivendi وهو تعريف هدد باحالة الدين أخلاقاً . ثم هناك طرق راموس المثيرة للغيظ ، وكبرياؤه ومشاكسته ، وأساوبه الجدلى العنيف ، وترفعه القاطع على القطع بالعقيدة .

وما إن نشر الكتابان حتى دعا مدير الجامعة راموس للمثول أمام رئيس بلدية باريس بوصفه عدواً للدين ، ومكدراً للسلام العام ، ومفسداً للشباب بالبدع الخطرة . وعقدت المحاكمة أمام لجنة ملكية من خمسة أعضاء — اثنان عينهما راموس ، واثنان متهموه ، وخامس فرانسوا الأول . ولم يرض راموس عن إجراءات المحاكمة ، فسحب مندوبيه . وأصدر الثلاثة الباقون حكمهم ضده (١٥٤٤) ، فمنع بأمر ملكى من المحاضرة ، أو النشر ، أو المزيد من مهاجمة أرسطو . وعلقت صورة الحكم فى أرجاء عديدة من المدينة ، وأرسلت إلى الجامعات الأخرى . وأخرج الطلاب هزليات تهكموا فيها براموس ، وسخر رابليه من هذا الشجار باشراك الآلهة فيه .

ولزم راموس الصمت فترة ، ثم بدأ سلسلة من المحاضرات فى كلية آفى ماريا ، ولكنه اقتصر على تدريس البلاغة والرياضيات ، وأغضت الحكومة عن المخالفة . وفى عام ١٥٤٥ أصبح المدير المساعد لكلية بريسل ،

ولما لبثت قاعة محاضراته أن ازدحمت بالطلاب . فلما تولى هنرى الثانى العرش بعد فرانسوا الأول ألغى الحكم الصادر على راموس وتركه « حر اللسان والقلم » ، وبعد عام عينه فى كرسى بالكلية حيث يعفى من أشراف الجامعة .

أما وقد بلغ راموس قصاراه إذ غدا أشهر معلم فى باريس ، فانه خصص الكثير من وقته وجهده لإصلاح الطرق التربوية . وإذا كان قد اتكأ على « البلاغة » — وكانت آنئذ تعنى الأدب — فلم يكن هذا لتنشيط الفلسفة بالشعر فحسب ، بل لبث إنسانية نابضة بالحياة فى مناهج صيرتها التجريدات والقواعد الكلامية جافة عسيرة . وفى خمس مقالات عن النحو طبق المنطق على اللغة ، ورجا أن يصبح الهجاء الفرنسى صوتياً ، ولكن هذا الهجاء واصل سيره المترنح ، على أنه نجح فى أن يدخل فى الأبجدية الفرنسية حرفى j و v ليحلا محل الحرفين الساكنين i و u . ثم شجع تقرير المنح الدراسية لفقراء الطلبة ، ذاكراً كفاحه وهو مملق فى سبيل التعليم ، وندد بالرسوم الباهظة التى تتقاضاها الجامعات عن التخرج ، وناضل فى الوقت نفسه لرفع رواتب المدرسين .

وفى عام ١٥٥٥ نشر كتابه Dialectique ، وهو أول كتاب فى المنطق بالفرنسية . وكان يحاج الآن لا عن الإقناع بالجدل والمنطق فحسب ، بل دفاعاً عن العقل . كان بفطرته عدواً للنزعة التقليدية ولمجرد الاستشهاد بالثقات ، وقد رأى فى العقل المرجع الوحيد الذى يحتكم إليه ، وآمن فى حماسة رجال النهضة أن العقل سيبلغ بالعلوم جميعها مرتبة تقرب من الكمال فى قرن واحد لو أطلق له العنان[١٠٥] . كتب يقول : «كان شغلى الشاغل أن أزيح من طريق الآداب الحرة . . . كل العقبات والمعوقات الفكرية ، وأن أعبد هذا الطريق وأقومه ، لا تيسيراً للتفكير فحسب ، بل لممارسة الآداب الحرة واستخدامها[١٠٦] » .

وأغراه خلقه وفلسفته بالتعاطف مع الثورة البروتستنتينية . فلما حصل الهيجونوت حيناً على التسامح من الحكومة ، بل وعلى الاشتراك فيها ، أعلن راموس اتباعه المذهب الإصلاحي الجديد (١٥٦١) . وفى بواكير عام ١٥٦٢ مزق بعض تلاميذه الصور الدينية المعلقة فى كنيسة كلية بريسل . وواصلت الحكومة دفع راتبه ، ولكن مركزه كان يزداد حرجاً . فلما نشبت الحرب الأهلية (١٥٦٢) غادر باريس بترخيص مرور من كاترين دى مديتشى ، ثم عاد بعد عام حين وقعت معاهدة الصلح . وقد رفض فى أدب دعوة وجهت إليه ليشغل كرسياً فى جامعة بولونيا ، معتذراً بأن فرنسا طوقت عنقه بدين لا يسمح له بالرحيل عنها .

أما المعركة التى أفضت إلى موته فقد أصبحت علنية حين أفلح ألد أعدائه المدعو جاك شاربنتييه ، فى أن يشترى بالمال كرسى الرياضيات بالكلية الملكية (١٥٦٥)[١٠٧] ، على الرغم من اعترافه صراحة بجهله فى العلوم الرياضية . وندد راموس بهذا التعيين ، فهدده شاربنتييه ، ولجأ راموس إلى الحاكم لتحميه ، فأودع شاربنتييه السجن ، ولكن أفرج عنه بعد قليل ، وحاول بعضهم اغتيال راموس مرتين ، فلما استؤنفت الحرب الأهلية بين الكاثوليك والبروتستنت(١٥٦٧) غادر باريس ثانية . وقضت الحكومة الآن بألا يقوم بالتدريس فى الجامعة أو الكلية الملكية غير الكاثوليك . فلما عاد راموس إلى باريس اعتزل الحياة العامة ، ولكن كاترين واصلت دفع راتبه وضاعفته ، وأصبح حراً فى أن يفرغ للدرس والتأليف .

وفى يوليو ١٥٧٢ دعاه مونلوك أسقف فالانس للانضمام إلى بعثة موفدة لبولنده ، ولعل الأسقف توقع حدوث مذبحة القديس بارتولوميو ، وفكر فى حماية الفيلسوف الشيخ . ولكن راموس رفض ، إذ لم يرقه مشروع تنصيب الأمير هنرى أنجو على عرش بولندة. وسافر مونلوك فى ١٧ أغسطس ،

وبدأت المذبحة يوم ٢٤ . وفى اليوم السادس والعشرين اقتحم رجلان مسلحان كلية بريسل وصعدا إلى الطابق الخامس حيث مكتب راموس . ووجداه يصلى فرماه أحدهما برصاصة فى رأسه ، وطعنه الآخر بسلاحه ، ثم قذفه الاثنان معاً من النافذة . وجر الطلبة أو الرعاع الجسد الذى مازال ينبض بالحياة إلى نهر السين وألقوه فيه ، وأخرجه نفر آخر منهم وقطعوه إربا[١٠٨]. أما من الذى استأجر القتلة فعلمه عندالله ، ويبدو أنها ليست الحكومة ، فالظاهر أن شارل التاسع وكاترين ظلا راضيين عن راموس إلى النهاية[١٠٩] ، واغتبط شاربنتييه بالمذبحة وبقتل خصمه : « هذه الشمس الساطعة التى أضاءت فرنسا خلال شهر أغسطس . . . لقد زال الهراء بزوال صاحبه . وكل الناس الطيبين يفيضون بشراً[١١٠] » . وبعد عامين مات شاربنتييه نفسه ، بتأنيب الضمير كما يقول بعضهم ، ولكن ربما كان هذا شرفاً لا يستحقه .

لقد بدا راموس مهزوماً سواء فى الحياة أو التأثير . فأعداؤه انتصروا عليه ، ومع أن بعض « الراموسيين » سمعت أصواتهم فى الجيل التالى فى فرنسا وهولندة وألمانيا ، فان الفلسفة الكلامية التى حاربها استعادت تفوقها ، ونكست الفلسفة الفرنسية رأسها حتى جاء ديكارت . ولكن إذا كانت الفلسفة لم تحرز فى هذه الحقبة إلا كسباً ضئيلا ، فان الخطوات التى خطاها العلم كانت خطيرة ؛ لقد بدأ العلم الحديث بكوبرنيق وفيساليوس . وتضاعفت المساحة المعروفة من الدنيا ، وتغير منظر العالم كما لم يتغير قط من قبل فى التاريخ المدون . وأخذت المعرفة تنمو سريعاً من حيث المجال والانتشار ، وراح استعمال اللغات الوطنية فى العلم والفلسفة — على نحو ما فعل باريه وباراسيلسوس فى الطب ، وراموس فى الفلسفة — يتسع فيشمل تعليم الطبقات الوسطى وأفكارها التى اقتصرت من قبل على المتخصصين من العلماء والقساوسة . وتحطمت « كعكة التقاليد » ، وانكسر قالب العقيدة ، وتهاوت قبضة الاستناد إلى السلف . وحل الإيمان من مراسيه فتدفق بحرية جديدة متخذاً أشكالا لا حصر لها .

كان كل شيء يجرى متدفقاً إلا الكنيسة . ووقفت حيناً وسط هذه الثورة حائرة مشدوهة ، لا تكاد أول الأمر تدرك خطورة الأحداث ؛ ثم تصدت فى عزيمة وتصميم لذلك السؤال الخطير الذى واجهها : أمن واجبها أن تكيف تعاليمها وفق مناخ الأفكار وسيولتها الجديدين ، أم تقف جامدة وسط كل التقلبات ، وتنتظر حتى يرد بندول الفكر والعاطفة الناس ، فى تواضع وتعطش ، إلى تعزياتها وسلطانها ؟ وكان جوابها عن هذا السؤال هو الفيصل فى تاريخها الحديث .

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستنتي

١٥١٧ – ٦٥

الفصل الثامن والثلاثون

الكنيسة والإصلاح

١٥١٧ – ٦٥

١ – المصلحون البروتستنت الإيطاليون

ما كان المرء ليتوقع أن يجد فى إيطاليا الوثنية مناخاً ، المشركة بنية ، المحبذة لإيمان لطيف فنان ، الآهلة بالقديسين الخالدين تتنقل صورهم – سواء المرهبة منها والمحبوبة – كل سنة بين الشوارع ، المثرية بفضل الذهب الذى يبعث به إلى الكنيسة العديد من الدول التابعة – نقول إن المرء ما كان ليتوقع أن يجد فى بلد كهذا رجالا ونساء آلوا على أنفسهم أن يغيروا هذا الإيمان الجميل المقدس – ولو لقوا دون هذا حتفهم أحياناً – بعقيدة كابية سندها السياسى هو كره أمم الشمال أن تسمن إيطاليا بعائدات تدينها . ومع ذلك فقد ظهر فى كل مكان بإيطاليا أناس شعروا بالمفاسد التى حطت من قدر الكنيسة شعوراً أحد وأصدق حتى من شعور الألمان أو السويسريين أو الإنجليز . وكانت الطبقات المتعلمة تطالب فى إيطاليا أكثر منها فى أى بلد آخر بتحرير العقل من الولاء للأساطير التى سحرت الجماهير وسيطرت عليها حتى ولو كان هذا الولاء ظاهرياً ، هذا مع أن هذه الطبقات المتعلمة كانت تتمتع فعلا بقسط من حرية التعليم والتفكير .

ظهرت بعض كتابات لوثر فى أكشاك الكتب بميلانو فى عام ١٥١٩ ، وبالبندقية فى عام ١٥٢٠ . واجترأ راهب فى كاتدرائية القديس مرقس نفسها (بالبندقية) على التبشير بتعاليم لوثر . وكتب الكردينال كارافا إلى البابا كلمنت السابع (١٥٣٢) يقول إن الذين هبطت أسهمهم

فى البندقية ، وإن القليلين جداً من البنادقة يراعون الأصوام أو يجلسون على كرسى الاعتراف ، وإن كتب الهرطقة رائجة هناك . ووصف كلمنت نفسه البدعة اللوثرية بأنها واسعة الانتشار بين صفوف الكهنة والعلمانيين فى إيطاليا ، وفى عام ١٥٣٥ زعم المصلحون الدينيون الألمان بأن لهم ثلاثين ألفاً من الأتباع فى موطن الكنيسة الكاثوليكية[١] .

كانت أرفع السيدات مقاماً فى فرارا بروتستنتية غيوراً . فقد تشربت رينيه ابنة لويس الثانى عشر الأفكار الجديدة من مارجريت النافارية من جهة ، ومن مربيتها مدام سوبيز من جهة أخرى . وجاءت الأميرة بهذه السيدة معها حين تزوجت (١٥٢٨) من إركولى دستى ، الذى أصبح (١٥٣٤) ثانى دوق بهذا الاسم يحكم فرارا . وزارها كالفن هناك (١٥٣٦) وزاد معتقداتها البروتستنتية قوة وحدة . ووفد عليها كليمان مارو ، ثم أوبير لانجيه الفقيه الهيجونوتى . وتلقاهم إركولى جميعاً بأسلوب النهضة المهذب إلى أن صاح أحدهم خلال عبادة الصليب فى يوم السبت المقدس (١٥٣٦) « idolatria ! » (أى عبادة أوثان !) ، وهنا سمح إركولى لمحكمة التفتيش باستجوابهم . فهرب كالفن ومارو ، أما الباقون فيلوح أنهم نجوا بعد أن أكدوا سلامة عقيدتهم . ولكن رينيه جمعت بعد عام ١٥٤٠ حاشية بروتستنتية جديدة وانقطعت عن حضور الصلوات الكاثوليكية . وهدأ إركولى ثائرة البابا بنفيها إلى فيلا الدوق فى كونساندولو على نهر بو ، ولكنها أحاطت نفسها هناك أيضاً بالبروتستنت ، ونشأت بناتها على المذهب الإصلاحى الجديد . ولما خشى إركولى أن تصبح بناته البروتستيت بيادق عديمة القيمة فى شطرنج الزيجات السياسية نقلهن إلى دير للراهبات . وأخيراً سمح لمحكمة التفتيش بتوجيه الاتهام إلى رينيه وأربعة وعشرين شخصاً من بيتها . فدينت بالهرطقة وحكم عليها بالسجن المؤبد (١٥٥٤) . وهنا أعلنت إنكارها للهرطقة ، وتناولت القربان المقدس ، وأعيدت إلى حظيرة الدين

والسياسة[٢] ؛ ولكن آراءها الحقيقية وجدت تعبيراً صامتاً فى تلك العزلة الحزينة التى أنفقت فيها سنى عمرها الأخيرة . وبعد موت إركولى (١٥٥٩) عادت إلى فرنسا ، حيث جعلت من بيتها فى مونتارجى ملاذاً يحتمى به الهيجونوت .

كذلك مرت مودينا بلحظة بروتستنتية مثيرة ؛ وكانت هى أيضاً تحت حكم إركولى . وذلك أن أكاديمية العلماء والفلاسفة فيها سمحت بقسط كبير من حرية النقاش ، واشتبه فى هرطقة بعض رجالها ومنهم جابرييلى فاللوبيو تلميذ فيساليوس وخليفته . وكان راهب سابق يدعى باولو ريتشى يندد بالبابوية صراحة فى عظاته . وراح الناس يناقشون الأفكار اللوثرية فى الحوانيت والميادين والكنائس . وقبض على ريتشى وآخرين . وبسط الكردينال سادوليتو حمايته على الأكاديميين بحجة أنهم موالون للكنيسة وأن من الواجب إطلاق البحث لهم بوصفهم علماء[٣] . وقنع البابا بولس الثالث بتوقيعاتهم على اعتراف بالإيمان ، ولكن إركولى فض الأكاديمية (١٥٤٦) ، وأعدم لوثرى عنيد فى فرارا (١٥٥٠) ؛ وفى عام ١٥٦٧ ، حين عنفت الرجعية الكاثوليكية ، أحرق ثلاثة عشر رجلا وامرأة واحدة بتهمة الهرطقة فى مودينا .

وفى لوتشا أنشأ بييترو مارتيرى فرميلى ، رئيس دير الكهنة الأغسطينيين ، أكاديمية رفيعة المستوى ، وجلب لها أفذاذ المعلمين ، وشجع حرية المناقشة ، وقال لجمهوره الكبير من المصلين إن لهم أن ينظروا إلى سر القربان لا على أنه تحول معجز بل تذكر ورع لآلام المسيح ، وكان فى هذا لوثرياً أكثر من لوثر . فلما استدعى للمثول بين يدى مجلس رهبنته فى جنوة لاستجوابه هرب من إيطاليا ، وندد بأخطاء الكاثوليكية ، ومفاسدها ، وقبل وظيفة أستاذ للاهوت فى أكسفورد (١٥٤٨) . وقد شارك فى صياغة كتاب « الصلوات العامة » (١٥٥٢) بقسط مختلف

فيه ، وغادر إنجلتره حين استعادت الكاثوليكية سلطانها فيها ، ومات أستاذاً للعبرية بزيوريخ عام ١٥٦٢ . وقد حذا ثمانية عشر كاهناً من ديره فى لوتشا حذوه ، فهجروا رهبنتهم ورحلوا عن إيطاليا .

كان الفضل فى توجيه فرميلي وسورانو أسقف برجامو وكثيرين غير هذين إلى الأفكار الجديدة لرجل يدعى جوان دى فالديس . ولعله هو وشقيقه ألفونسو ، وهما من أسرة قشتالية عريقة ، ألمع التوائم مواهب فى التاريخ . أما ألفونسو ، تلميذ إرزمس الوفى ، فقد أصبح سكرتيراً لاتينيا لشارل الخامس ، وكتب **Dialogo de Lactano** (١٥٢٩) ، وفى هذا الحوار دافع عن « نهب روما » ، وقال إن لوثر ما كان ليترك الكنيسة قط لو أنها أصلحت المفاسد التى ندد بها عن حق بدلا من أن تحكم بادانته . وأما جوان فقد شارك فى هذا الكتاب ذاته بحوار سماه **Dialogo de Mercurio y caron** ، كانت هرطقاته سياسية ، من ذلك قوله إن من الواجب إلزام الأغنياء بكسب قوتهم ، وإن ثروة الأمير ملك للشعب ، وينبغى ألا تبدد فى حروب أمبريالية أو دينية(٤) . وآثر كلمنت السابع جوان بطبيعة الحال ، فعينه أميناً بالقصر البابوى حين كان فى الثلاثين من عمره . على أن جوان رحل إلى نابولى حيث انقطع للتأليف والتدريس ، وظل على ولائه للكنيسة ، ولكنه حبذ عقيدة لوثر فى التبرير بالإيمان ، ورأى للتصوف المخلص قدراً يسمو فوق أى طقس خارجى من طقوس العبادة . والتف حوله جماعة ممتازة من الرجال والنساء وارتضوا زعامته : كفرميلى ، وأوكينو ، والشاعر ماركانطونيو فلامينيو ، وبيترو كارنيزيكى ، وفيتوريا كولونا ، وكوستانزا دافالوس دوقة أمالفى ، وإيزابلا مانريكيز أخت رئيس محكمة التفتيش الأسبانية ، وجوليا جونزاجا التى عرفنا ما كانت تتمتع به من جمال رائع . وبعد أن مات جوان فالديس(١٥٤١) تفرق تلاميذه فى أرجاء

أوربا . وظل بعضهم وفياً للكنيسة كفتوريا كولونا ، وطور آخرون تعاليمه فبلغوا بها الهرطقة السافرة . وقطعت رءوس ثلاثة من صغار تلاميذه وأحرقوا فى نابلى عام ١٥٦٤ ، وكذلك كانت نهاية كارنيزيكى بروما فى عام ١٥٦٧ . أما جوليا جونزاجا فقد أنقذها موت البابا بولس الرابع ، وكان رجلا قاسياً لا يرحم، ودخلت ديراً للراهبات (١٥٦٦) وهكذا انتهت جماعة الإصلاح النابولية .

أما برناردينو أوكينو فقد جاز بكل مراحل التطور الدينى . عاش فى مدينة سيينا بقرب مسقط رأس القديسة كاترين ، حياة تضارع حياتها تقوى وورعاً . وانضم إلى رهبان الفرنسسكان ولكنه وجد نظامهم أكثر رخاوة مما يلائم مزاجه ، فانتقل إلى رهبنة الكبوشيين الأكثر صرامة . وقد عجب الرهبان من نكرانه النسكى لذاته ، وإذلاله العنيف لجسده ، ولما نصبوه وكيلا عاماً لهم أحسوا أنهم اختاروا قديساً . وترددت مواعظه فى أرجاء إيطاليا — فى سيينا ، وفلورنسة ، والبندقية ، ونابلى ، وروما ؛ إذ لم تسمع البلاد نظيرها حرارة أو بلاغة منذ عهد سافونارولا قبل ذلك بقرن . وذهب شارل الخامس ليسمعه ، وتأثرت فتوريا كولونا به أعمق التأثر ، أما بيترو أريتينو ، الذى جرب كل الخطايا تقريباً ، فقد حركه الاستماع إليه فانقلب مفرطاً فى تقواه . وضاقت كل الكنائس بسامعيه على رحابتها ، ولم يخطر ببال أحد أن هذا الرجل سيموت مهرطقاً .

ولكنه التقى بفالديس فى نابلى ، وبفضله ألم بمؤلفات لوثر وكالفن . ووافقت عقيدة التبرير بالإيمان روحه ، فبدأ يلمح لها فى عظاته . وفى عام ١٥٤٢ دعى للمثول أمام السفير البابوى فى البندقية ومنع من الوعظ . وما لبث البابا بولس الثالث أن دعاه إلى روما ليناقش معه الآراء الدينية لبعض الرهبان الكبوشيين . ولعل أوكينو كان يثق بالبابا المستنير ، ولكنه خاف ذراع محكمة التفتيش الطويلة ، وحذره الكردينال كونتارينى من

الخطر المحدق به . وفجأة قرر قديس إيطاليا ومعبودها هذا ، بعد أن التقى ببيتر فرميلي فى فلورنسة ، أن يحذو حذوه ويعبر جبال الألب إلى بلد بروتستنتى ، وأعطاه أخ لفتوريا كولونا جواداً ، وفى فرارا أعطته رينيه ثياباً . ومضى مخترقاً إقليم جريزون إلى زيوريخ ومنها إلى جنيف . وقد أبدى استحسانه للنظام البيورتانى الذى كان كالفن يرسى أسسه هناك ، ولما كانت ألمانيته أقوى من فرنسيته فقد انتقل إلى بازل ثم إلى ستراسبورج ثم إلى أوجزبورج ، محاولا كسب قوته بلسانه أو قلمه . وفى عام ١٥٤٧ دخل شارل الخامس أوجزبورج سيداً على ألمانيا بعد ان سحق البروتستنت فى مولبرج . ونمى إليه أن الراهب الكبوشى الذى سمعه فى نابلى يعيش هناك رجلا متزوجاً ، فأمر القضاة بالقبض عليه ، ولكنهم تستروا على فرار أوكينو ، الذى هرب إلى زيوريخ وبازل . ولما أوشك زاده على النفاد ، تلقى دعوة من رئيس الأساقفة كرامر للذهاب إلى إنجلترة . وهناك عكف على العمل بوصفه كاهناً فخرياً يتقاضى معاش تقاعد فى كنتربرى ست سنوات (١٥٤٧ — ٥٣) ، وقد ألف كتاباً كان له أثر قوى فى قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » . ولكنه عجل بالعودة إلى سويسرة حين اعتلت مارى تيودور العرش .

وحصل على وظيفة راع للكنيسة فى زيوريخ . ولكن الشعب استاء من آرائه التوحيديه ، وطرد حين نشر حواراً بدا فيه المدافع عن تعدد الزوجات أقوى حجة من نصير الزواج الواحد . ومع أن ذلك كان فى شهر ديسمبر (١٥٦٣) ، فقد أمر بمغادرة المدينة خلال ثلاثة أسابيع . ورفضت بازل الإذن له بالإقامة فيها . وسمح له بالمكث فترة وجيزة فى نورمبرج ، وما لبث أن خرج بأسرته قاصداً بولندة . وكانت يومها بالقياس إلى غيرها ملاذاً للمريبين من المفكرين . واشتغل بالوعظ فى كركاو زمناً ولكنه طرد حين نفى الملك جميع الأجانب غير الكاثوليك (١٥٦٤) . وفى الطريق من بولندة إلى مورافيا قضى الطاعون على ثلاثة من أبنائه الأربعة . ولم

يعش بعدهم سوى شهرين ، ومات فى شاكاو فى ديسمبر ١٥٦٤ وكانت آخر كلماته تقريباً « لست أريد أن أكون بولنجرياً ولا كالفينا ولا بابوياً ، بل مسيحياً فقط » (٥) . ولم يكن هناك أشد من هذا خطراً .

أما أن تتحول إيطاليا إلى البروتستنتية فكان بالطبع ضرباً من المحال . فقد كان عامة الشعب هناك برغم عدائهم للاكليروس متعلقين بالدين وإن لم يؤموا الكنائس . كانوا يحبون الاحتفالات والمراسيم التى قدسها مرور الزمن ، ويحبون القديسين المعينين أو المعزين ، ويحبون العقيدة التى ندر تشككهم فيها ، والتى رفعت حياتهم من فقر بيوتهم إلى سمو أعظم الدرامات التى تصورها عقل الإنسان — وهى افتداء الإنسان الساقط بموت إلهه . وأعان خضوع إيطاليا السياسى لأسبانيا المغالية فى التدين على إبقاء شبهى الجزيرة كاثوليكيتين . وكانت ثروة البابوية ميراثاً إيطالياً ومصلحة ايطالية راسخة ، وأى إيطالى يرى القضاء على هذه المنظمة الجابية للجزية كان يبدو فى نظر معظم الإيطاليين مشرفاً على الجنون . وقد اختلفت الطبقات العليا مع البابوية باعتبارها قوة سياسية تتسلط على وسط إيطاليا ، ولكنها اعتزت بالكاثوليكية عوناً لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والحكومة الحافظة للسلام ، وأدركت أن عظمة الفن الإيطالى مرتبطة بالكنيسة بفضل إلهام أساطيرها ومعونة ذهبها . لقد أصبحت الكاثوليكية ذاتها فناً ، وطغت عناصرها الحسية على عناصرها النسكية واللاهوتية ؛ فالزجاج المعشق ، والبخور ، والموسيقى ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير ، وحتى الدراما — هذه كلها كانت فى الكنيسة ومن الكنيسة ، وبدت فى مجموعها المعجز جزءاً لا ينفصل عنها . ولم يكن بفنانى إيطاليا وعلمائها حاجة إلى التحول عن الكاثوليكية ، لأنهم حولوا الكاثوليكية إلى العلم والفن . وكان المئات بل الألوف من العلماء والفنانين يتمتعون بمعونة الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وارتقى الكثير من الإنسانيين ، وبعض الشكاكين المؤدبين ،

إلى مكانة مرموقة فى الكنيسة . وأحبت إيطاليا الجمال القريب المنال حباً جماً لم يسمح لها أن تسلب نفسها فى سبيل الحقيقة البعيدة المنال . وهل وجد الحقيقة هؤلاء التيوتون المتعصبون ، أو ذلك البابا المصغر ، المتجهم ، الحاكم بجنيف ، أو ذلك الغول القاسى المتربع على عرش إنجلترا ؟ وأى هراء محزن يتصايح به هؤلاء المصلحون — فى الوقت الذى نسيت فيه الطبقات المثقفة فى إيطاليا الجحيم والهلاك كل النسيان ! كان فى وسع المرء أن يفهم الرفض الصامت المستتر للاهوت المسيحى إيثاراً لربوبية غامضة لطيفة ، أما تغيير سر التحول (تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه) ليحل محله هول جبرية محتومة فذلك أشبه بالانتقال من رمزية مبهجة إلى سخافة انتحارية . وفى هذا الوقت بالذات ، بعد أن بسطت الكنيسة جناحيها الغافرين على نزعات الإيطاليين الوثنية ، كان كالفن يطالب الدنيا بأن تكبل نفسها بأغلال بيورتانية تهدد بتجريد الحياة من كل فرح وتلقائية . وأنى للبهجة والفن الإيطاليين أن يدوما إذا كف هؤلاء التيوتون والإنجليز الهمج عن إرسال نقودهم أو جلبها إلى إيطاليا ؟ .

٢ — المصلحون الكاثوليك الإيطاليون

ونتيجة لهذا كله اتجه الإجماع فى إيطاليا إلى ضرورة الإصلاح داخل الكنيسة . والحق أن رجال الكنيسة المخلصين ظلوا قروناً يسلمون بالحاجة إلى الإصلاح الكنسى بل ويطالبون به . ولكن تفجر حركة الإصلاح البروتستنتى وتقدمها أضافا إلحاحاً جديداً على الحاجة والمطالبة « وانصب على رأس الإكليروس سيل غامر من الشتائم فى المئات والألوف من النبذ والصور الساخرة »[٦] . ومس « نهب روما » ضمير الكرادلة وجماهير الشعب المرتاعين كما مس دخولهم . وأعلن عشرات من القساوسة أن هذه الكارثة نذير من الله . وفى عظة للأسقف ستافيليو أمام الروتا (وهو فرع قضائى

من الإدارة البابوية) عام ١٥٢٨ علل ضرب الله لعاصمة العالم المسيحى بعبارات أشبه ما تكون بلغة البروتستنت فقال « لأن البشر كلهم فسدوا ، إننا لسنا مواطنى مدينة روما المقدسة ، بل مواطنى بابل ، مدينة الفساد »[٧] . وهو ما قاله اوثر .

قبيل عام ١٥١٧ ، فى تاريخ غير مؤكد ، أسس جوفانى بييترو كارافا والكونت جاتانو داتينى « مصلى الحب الإلهى » فى روما للصلاة وإصلاح الذات . واختلف إلى المصلى خمسون من الرجال النابهين ، منهم إياكوبو سادوليتو ، وجانماتيو جيبرتى ، وجوليانو داتى . وفى عام ١٥٢٤ أسس جاتانو طريقة للاكليريكيين النظاميين ، وهم قساوسة علمانيون يخضعون نفسهم للنذور الديرية . وفض المصلى بعد « نهب روما » ، والتحق كارفا وآخرون بالطريقة الجديدة التى اتخذت لها اسماً هو التياتية ، نسبة إلى تياتى أوتشييتى ، مقر أسقفية كارافا . وقبل فى الطريقة رجال مرموقون مثل : بييترو بيميو ، وماركانطونيو فلامينيو ، ولويجى بريولى ، وجاسبارو كونتاريني ، وريجينالد بولى . . . وكلهم نذروا أنفسهم للفقر ، والعناية بالمرضى ، وحياة الفضيلة الصارمة ، وكان هدفهم كما قال أول مؤرخ لهم : « تعويض ما فى الإكليروس من نقص ، بعد أن أفسدت رجاله الرذيلة والجهل مما أفضى إلى خراب الشعب »[٥] . وانتشر أعضاء الطريقة فى شتى أنحاء إيطاليا ، وأسهم المثل الذى ضربوه كما أسهمت الإصلاحات البابوية والمجمعية ، والمثل الذى ضربه الكبوشيون والجزويت ، فى إصلاح خلق الإكليروس الكاثوليكي والبابوات . وضرب كارافا المثل بالتخلى عن كل وظائفه الكنسية ذات الموارد ، وتوزيع ثروته الكبيرة على الفقراء .

وكان جيبرتى فى شخصه وسيرته صورة للاصلاح الكاثوليكى . فهو فى بلاط ليو العاشر من أئمة الإنسانيين ، وفى عهد كلمنت السابع أمين أول للادارة البابوية . وإذ هزته كارثة عام ١٥٢٧ ، اعتكف فى

أسقفيته بفيرونا . وعاش عيشة الراهب المتقشف وهو بدير أسقفيته . وأزعجه انحلال الدين هناك — فالكنائس متهدمة ، والوعظ نادر ، والقساوسة يجهلون اللاتينية التي يتلون بها القداس ، والشعب لا يجلس إلى كرسى الاعتراف إلا نادراً . واستطاع بالقدوة الحسنة والمبدأ القويم وانتظام الحازم أن يصلح أكليروسه . يقول مؤرخ كاثوليكى « وسرعان ما ملئت السجون بالقساوسة ذوى الخليلات »[٩] وأعاد جيبرتى إنشاء أخوة البر Confraternita della Cartta التى أسسها الكردينال جوليانو دى مديتشى عام ١٥١٩ ، وبنى ملاجىء للأيتام ، وفتح مصارف الشعب لإنقاذ المقترضين من براثن المرابين . وقام بمثل هذه الإصلاحات الكردينال إركولى جونزاجا (ابن إيزابللا دستى) فى مانتوا ، وماركو فيدا فى ألبا ، وفابيو ڤيجيلى فى سبوليتو ، وكثير غيرهم من الأساقفة الذين أدركوا أن على الكنيسة أن تصلح ذاتها أو تموت .

وسلكت الكنيسة فى تاريخ لاحق العديدين من أبطال الإصلاح الكاثوليكى ، الذين عاونوا على إنقاذها ، فى عداد قديسيها . ومن هؤلاء القديس فيليب نيرى ، وهو نبيل فلورنسى شاب ، أسس فى روما (حوالى عام ١٥٤٠) جماعة غريبة تدعى Trinita de Pellegrini ويقضى نظام هذه الجماعة أن يحضر اثنا عشر علمانياً قداس الأحد ، ثم يحجون إلى إحدى الباسلقات ، أو إلى أحد المروج الريفية ، وهناك يلقون أو يسمعون أحاديث التقوى والورع ، ويترنمون بالموسيقى الدينية . وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة قساوسة ، وسموا أنفسهم « آباء المصلى » ، ومن ميولهم الموسيقية أضافت كلمة oratorio — التى تعنى فى الأصل مكان الصلاة — معنى جديداً إلى معناها القديم ، وهو الترنيمة الكورالية . ومنهم القديس شارل بورروميو — ابن أخى البابا بيوس الرابع — الذى استقال من وظيفة الكردينال الرفيعة فى روما ليطهر الحياة الدينية فى ميلانو .

فأقر النظام بين رجال الإكيروس بوصفه رئيساً للاساقفة هناك ، وكان لهم في تقشفه وتعبده الأسوة الحسنة . وقد لقي في سبيل الإصلاح بعض المقاومة ؛ ذلك أن طريقة دينية تدعى « أوميلياتي » ، كانت من قبل تفخر بتواضعها ، انحدرت إلى درك الراحة والدعة بل الاباحية . وأمر الكردينال رهبانها أن يطيعوا قانون رهبنتهم ، فأطلق أحدهم النار عليه وهو يصلي في الكنيسة . وكانت نتيجة هذه الفعلة أن تحولت رهبة الشعب إلى إجلال لهذا الرجل الذي رأى في الإصلاح خير رد على حركة الإصلاح البروتستنتي . وبفضل جهوده إبان حياته وفي أرجاء أبرشيته أصبح الخلق المهذب القاعدة الفاشية بين الإكليروس والعلمانيين على حد سواء . وأحس الناس بتأثيره في جميع أنحاء إيطاليا ، وقد أسهم هذا التأثير في تحويل الكرادلة من نبلاء متعلقين بنعيم الدنيا إلى كهنة أتقياء .

وبدأ البابوات يوجهون اهتمامهم الصادق إلى الإصلاح الكنسي بعد أن حفزهم أمثال هؤلاء . ففي بواكير عهد البابا بولس الثالث قدم له الفقيه الشهير جوفان باتيستا كاتشيا بحثا في إصلاح الكنيسة قال في ديباجته « أرى أن الكنيسة أمنا المقدسة : . . قد اعتراها من التغير الكبير ما تبدو معه وقد تجردت من سمات طابعها التبشيري ؛ وليس فيها أثر للتواضع وضبط النفس والتعفف والقوة الرسولية »[١٠] . وأظهر البابا بولس ميله بقبوله إهداء الكتاب إليه . وفي ٢٠ نوفمبر ١٥٣٤ عهد إلى الكرادلة بيكولوميني ، وسانسفيرينو ، وتشيزي ، أن يضعوا برنامج تجديد خلقي للكنيسة ، وفي ١٥ يناير ١٥٣٥ أمر بتنفيذ مراسيم الإصلاح التي أصدرها البابا ليو العاشر عام ١٥١٣ تنفيذاً دقيقاً . على أنه أجل الإصلاح الإيجابي بعد أن وقع في شراك السياسة البابوية والإمبراطورية ، وأحدق به خطر زحف العثمانيين ، وكره وسط هذه الأزمات أن يهز بنيان الإدارة البابوية أو أداءها لوظيفتها بتغييرات جذرية ؛ ولكن الرجال

الذين رفعهم إلى مرتبة الكردينالية كانوا كلهم تقريباً معروفين بالنزاهة والتقوى . وفى يوليو عام ١٥٣٦ قرر عقد مؤتمر إصلاحى فى روما دعا إليه كونتاريني ، وكارافا ، وسادوليتو ، وكورتيزى ، وألياندر ، وبولى ، وتومازو باديا ، وفيديريجو فريجوزى أسقف جوبيو ، وكلهم رجال ملتزمون بالإصلاح ، وأمرهم أن يكتبوا تقريراً عن الرذائل الفاشية فى الكنيسة ، والوسائل التى يشيرون بها للتخفيف منها . وافتتح سادوليتو المؤتمر بأن قرر فى جرأة أن البابوات أنفسهم كانوا أهم سبب فى تدهور الكنيسة بخطاياهم وجرائمهم وشرههم للمال(١١) . وظل المؤتمر يجتمع يومياً على مدى ثلاثة شهور . أما روحه الكبير ، وهو جاسبارو كونتاريني ، فكان ألمع رجال الإصلاح الكاثوليكى . ولد فى البندقية (١٤٨٣) من أسرة شريفة ، وتلقى علومه فى بادوا المتحررة ، وما لبث أن تقلد منصباً مرموقاً فى حكومة البندقية . وقد أوفد سفيراً لدى شارل الخامس فى ألمانيا ، وصحبه إلى إنجلتره وأسبانيا ، ثم مثل مجلس الشيوخ فى البلاط البابوى (١٥٢٧ — ٣٠) . واعتزل السياسة وانقطع للدرس ، وجعل من بيته ملتقى لخيرة رجال الدولة والكنيسة والفلاسفة والانسانيين فى البندقية . ومع أنه كان علمانياً فانه كان يطيل التفكير فى الإصلاح الكنسى ، وتعاون تعاوناً نشيطاً مع كارافا ، وجيبرتى ، وكورتيزى ، وبولى . وعرفته إيطاليا كلها مزيجاً نادراً من الذكاء والخلق ، وفى عام ١٥٣٥ ، ودون أى التماس منه ، عينه بولس الثالث كردينالا مع أنه لم يلتق به قط(١٢) .

وفى مارس ١٥٣٧ قدمت اللجنة للبابا « نصيحة الكرادلة المعينين لإصلاح الكنيسة » . وقد فضحت هذه النصيحة الاجتماعية ، بحرية مذهلة ، مفاسد الحكم البابوى ، وعزتها بشجاعة أولا « إلى مغالاة الفقهاء الكنسيين عديمى الضمير فى سلطة البابا مغالاة مستهترة » . ورأى التقرير « أن بعض

البابوات ادعوا الحق فى بيع الوظائف الكنسية ، وقد أفشت هذه المتاجرة بالرتب الكهنوتية الرشوة والفساد فى الكنيسة على نطاق واسع بحيث أشرفت هذه المنظمة العظمى على الخراب بسبب انعدام الثقة فى نزاهتها . وحث التقرير على فرض رقابة صارمة على كل نشاط تقوم به الإدارة البابوية ، وعلى فرض رقابة على الإعفاءات الكنسية ، وعلى وقف دفع المال لنيلها ، وعلى مستوى أعلى فى جميع الوظائف وفى شروط اختيار الكرادلة والقساوسة ، وحظر الجمع بين عدة وظائف كنسية ذات دخل أو الانتفاع بهذه الوظائف غيابياً . وأضاف التقرير « لقد هجر معظم الرعاة قطعانهم فى العالم كله ووكلوها إلى الأجراء » . أما الطرق الديرية فيجب تجديدها ، وأما أديار الراهبات فيجب إخضاعها للرقابة الأسقفية ، لأن زيارة الرهبان لها أفضت إلى الفضائح وتدنيس المقدسات . وأما صكوك الغفران فيجب الإعلان عنها مرة واحدة فى العام فقط . واختتم التقرير بهذا النداء الحار للبابا .

« لقد أرضينا ضمائرنا ، ولنا وطيد الأمل فى أن نرى كنيسة الله وقد صلحت حالها تحت رياستكم . . . . لقد تسميتم باسم بولس ، فلعلكم تحاكونه فى محبته . لقد اختير أداة لحمل اسم المسيح إلى الوثنيين ، وأملنا أن تكونوا قد اخترتم لتحيوا فى قلوبنا وأعمالنا ذلك الاسم الذى نسى منذ أمد بعيد بين الوثنيين ومنا نحن الإكليروس ، ولتشفوا علتنا ، وتجمعوا خراف المسيح من جديد فى حظيرة واحدة ، ولتصرفوا عنا غضب الله وانتقامه الذى يتهددنا »[١٣] .

وتقبل بولس بروح طيبة هذه « النصيحة الذهبية » كما سماها الكثيرون ، وأرسل صورة منها لكل كردينال . أما لوثر فقد ترجمها إلى الألمانية ، ونشرها تبريراً كاملا لاختصامه روما ، على أنه حكم على كاتبى الوثيقة بأنهم « كلابون . . . وأوغاد يائسون ، يصلحون الكنيسة بالتملق »[١٤] . وفى

٢٠ أبريل ١٥٣٧ عين بولس أربعة كرادلة — كونتاريني ، وكارافا ، وسيمونيتا ، وجينوتشي — لإصلاح قسم الوثائق ، وهو ذلك القسم من الإدارة البابوية الذى استشرت فيه الرشوة فى منح تلك الإعفاءات ، والإنعامات ، والامتيازات ، والترخيصات ، والوظائف ذات الدخل ، المحجوزة لتصرف السلطة البابوية . وكانت المهمة تتطلب الشجاعة ، لأن قسم الوثائق كان يسلم البابا كل سنة ٥٠,٠٠٠ دوكاتية (١,٢٥٠,٠٠٠ دولار ؟) — وهى نصف دخله تقريباً[٥] . وللفور تعالت صرخة ألم من موظفى القسم ومن يلوذ بهم ، فشكوا من غلاء المعيشة فى روما ، وزعموا أن أسرهم سيحل بها العوز سريعاً لو أنهم أكرهوا على مراعاة حرفية القانون . ومضى بولس فى حذر ، ومع ذلك كان « عمل الإصلاح يسير بهمة » كما كتب الباندر إلى موروني (٢٧ أبريل ١٥٤٠) . وفى ١٣ ديسمبر دعا بولس ثمانين من رؤساء الأساقفة والأساقفة المقيمين بروما ، وأمرهم بالعودة إلى كراسيهم . وهنا ارتفعت مئات الاعتراضات مرة أخرى . وحذر موروني البابا من أن العجلة فى تنفيذ هذا الأمر قد تحمل بعض الأساقفة على الانضمام إلى اللوثريين إذ يعودون إلى مناطق غلب عليها الآن المذهب البروتستنتى ، وهذا ما حدث فعلا فى عدة حالات . وسرعان ما تاه بولس فى بيداء السياسة الإمبراطورية ، وترك الإصلاح لخلفائه من بعده .

وانتصرت الحركة المطالبة بالإصلاح الداخلى حين ارتقى زعيمها كارافا كرسى البابوية (١٥٥٥) باسم بولس الرابع . وصدر الأمر إلى الرهبان الغائبين عن أديارهم دون موافقة رسمية وضرورة واضحة بالعودة إليها فوراً . وفى ليلة ٢٢ أغسطس ١٥٥٨ أمر البابا باغلاق جميع أبواب روما والقبض على جميع الرهبان الآبقين . واتبعت إجراءات مماثلة فى جميع الولايات البابوية . وأرسل بعض المدنيين للعمل فى سفن تشغيل الأسرى .

وأبطل الاحتفاظ برياسة الأديار لإعالة الموظفين الغائبين بدخولها . وطلب إلى الأساقفة ورؤساء الأديار الذين لا يخدمون الإدارة البابوية فعلا فى وظيفة ثابتة أن يعودوا إلى وظائفهم وألا حرموا من دخلهم . وحظر الانتفاع بالدخول الكنسية المتعددة . وأمرت كل أقسام الإدارة البابوية بخفض رواتبها ، وإبعاد كل شبهة اتجار فى التعيين للوظائف الكهنوتية ، وبعد أن خفض البابا بولس موارده على هذا النحو ، بذل تضحية أخرى فوقف دفع رسم التثبيت الذى كان يؤديه من يرقون رؤساء أساقفة . وصدرت عدة مراسيم بابوية ضد المرابين ، والممثلين ، والبغايا ؛ أما القوادون فتقرر إعدامهم . وطلب إلى دانييلى دا فولتيرا أن يغطى بطريقة العضلات الحياطية أكثر الملامح التشريحية افتضاحاً فى لوحة ميكلانجلو « الدينونة الأخيرة » ؛ ويجب التسليم بأن ذلك المجزر الرهيب ، مجزر الأجساد الهالكة أو المخلصة ، لم يجد له من قبل مكاناً مناسباً فوق مذبح البابوات . واتخذت روما الآن مظهراً من التقوى والفضيلة الخارجية لا يلائم طبيعتها . وأصلحت الكنيسة أكليروسها وأخلاقها فى إيطاليا ، ووراء إيطاليا بصورة أقل وضوحاً ، تاركة عقائدها سليمة فى كبرياء . لقد تأخر الإصلاح طويلا ، ولكنه حين أتى كان مخلصاً وباهراً .

٣ — القديسة تريزا والإصلاح الديرى

وكان التجديد الخلقى يجرى فى الوقت ذاته فى الطرق الديرية . وفى وسعنا أن نتصور سمعة هذه الطرق من ملحوظة أبداها ميكلانجلو التقى السليم العقيدة ، ذلك أنه حين نمى إليه أن سباستيان ديل بيومبو سيرسم صورة راهب فى كنيسة سان بيترو بمونتوريو نصحه بألا يفعل ، لأنه إذا كان الرهبان قد أفسدوا الدنيا على ما بها من سعة ، فلا غرابة أن يفسد

راهب الكنيسة وهي بهذا الصغر[١٦] . وصمم جريجوريو كورتيزى أن يصلح الرهبنة البندكتية فى بادوا فى صبر وأناة ، وجيرولامو سيريباندو الكهنة الأوغسطينيين ، وإيجيديو كانيزيو النساك الأوغسطينيين . وباولو جوستنيانى الكامالدوليين .

وقامت طرق ديرية جديدة شددت على الإصلاح . فأسس أنطونيو ماريا لاكاريا كهنة القديس بولس النظاميين فى ميلانو (١٥٣٣) ، وهم جماعة من القساوسة ينذرون حياة الفقر الديرية . وكانوا أول الأمر يلتقون فى كنيسة القديس برنابا ، ومن هنا تسميتهم بالبرنابيين . وفى عام ١٥٣٥ وضعت القديسة أنجيلا نظام الراهبات الأورسوليات ليقمن بتعليم الفتيات ورعاية المرضى أو الفقراء ، وفى عام ١٥٤٠ أسس القديس يوحنا الإلهى جماعة « إخوان الرحمة » فى غرناطة للخدمة فى المستشفيات . وفى عام ١٥٢٣ اعتزم ماتيو دى باسى ، مدفوعاً بالرغبة الحارة فى الاقتداء بالقديس فرنسيس الأسيسى ، أن يتبع حرفياً نظام الرهبنة الأخير الذى خلفه مؤسس الطريقة الفرنسسكانية لرهبانها . وانضم إليه غيره من الرهبان ، وما وافى عام ١٥٢٥ حتى شجع تكاثرهم ماتيو على أن يلتمس من البابا اعتماد فرع جديد من الفرنسسكان ملتزم بأشد قواعد الرهبنة صرامة . واستطاع الرئيس الإقليمى للطريقة أن يستصدر أمراً بإيداعه السجن لعصيانه ، ولكن سرعان ما أطلق سراح ماتيو ، وفى عام ١٥٢٨ ثبت البابا كلمنت السابع طريقة الرهبان الكبوشيين الجديدة . وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن رهبانها كانوا يلبسون نوع القلنسوة cappuccio التى لبسها فرنسيس . وكانوا يرتدون أخشن الثياب ، ويعيشون على الخبز والخضر والفاكهة والماء ، ويصومون أصواماً قاسية . ويسكنون قلالى ضيقة فى أكواخ حقيرة ، ولا يسافرون إلا مشاة ، ويمشون حفاة طوال العام . وقد اكتسبوا مكانة مرموقة بفضل رعايتهم المضحية لمرضى وباء

١٥٢٨ — ٢٩ . وكان ورعهم عاملا فى إبقاء فتوريا كولونا ونفر آخر ممن اعتنقوا البروتستنتية حديثاً فى حظيرة كنيسة ما زالت قادرة على إنجاب أمثال هؤلاء المسيحيين الغيورين .

أما أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام فى عصر الإصلاح الديرى الذى نحن بصدده فرئيسة دير أسبانى رقيقة البدن شديدة السيطرة ، هى تريزا دى تشيبدا . كانت ابنة فارس قشتالى من آبلة ، فخور باستقامته المتطرفة وولائه للكنيسة . وقد درج على أن يقرأ على أسرته جانباً من حياة القديسين[١٧] . أما الأم ، المصابة بعلة مزمنة ، فكانت تطرد السأم عنها بقراءة روايات الفروسية ، وتشارك من فراش مرضها فى مغامرات أماديس الغالىّ . وتذبذب خيال تريزا فى طفولتها بين الحب الشاعرى والاستشهاد الطاهر المقدس . وحين بلغت العاشرة نذرت على نفسها حياة الرهبنة . ولكنها لم تلبث بعد سنوات أربع أن تفتح صباها عن حسناء تطفر بفرحة الحياة ، وتنسى ثوب الدير أمام الأثواب البهية التى ضاعفت من مفاتنها . وتوافد عليها المعجبون ، ووقعت فى حب أحدهم على تهيب ووجل ، فدعاها إلى موعد لقاء . وفى اللحظة الحاسمة أحست بالخوف ، واعترفت لوالدها بالمؤامرة الرهيبة . ولما كانت أمها قد ماتت ، فان الدون ألونزو دى تشيبدا أودع الفتاة الحساسة ديراً للراهبات الأوغسطينيات فى آبلة .

وكرهت تريزا حياة الدير ونظامه الكئيبين . ورفضت أن تقسم يمين الرهبنة ، وتطلعت فى صبر نافد إلى عيد ميلادها السادس عشر حين يسمح لها بمغادرة الدير . ولكن ما إن دنا هذا الهدف حتى مرضت مرضاً خطيراً وأشرفت على الموت . ثم تماثلت للشفاء ، ولكن مرح الشباب ولى . ويبدو أن ضرباً من الصرع الهستيرى أصابها ، ربما نتيجة للتمرد المكبوت على قيود غريبة عن غرائزها . وكانت النوبات تعاودها ثم تتركها

خائرة القوى . ونقلها أبوها من الدير وأرسلها لتعيش مع أخت لها غير شقيقة فى الريف . وفى طريقها أعطاها أحد أعمامها كتاباً من تأليف القديس جيروم . وقد وصفت الرسائل الحية التى احتواها الكتاب أهوال الجحيم ، وصورت مغازلات الجنسين كأنها الطريق المزدحم المفضى إلى الهلاك الأبدى . وقرأت تريزا الرسائل بشغف . وبعد نوبة شديدة أخرى طلقت كل فكرة فى السعادة الدنيوية ، وعزمت على الوفاء بنذر طفولتها . فعادت إلى آبلة ودخلت دير التجسد الكرملى (١٥٣٤) .

وسعدت حيناً وسط روتين الدير المهدىء ، روتين القداديس ، والصلوات والاعترافات المطهرة ، ولما تناولت القربان شعرت بالخبز كأنه المسيح حقاً على لسانها وفى دمها . ولكن نظام الدير الرخو أقلقها . فالراهبات لا يسكن القلالى بل الحجرات المريحة ، ويأكلن الطعام الفاخر برغم الأصوام الأسبوعية ، ويتزين بالقلائد والأساور والخواتم ، ويستقبلن الزوار فى قاعة الاستقبال ، ويتمتعن بالأجازات الطويلة خارج أسوار الدير . وأحست تريزا أن هذه الظروف لا توفر لها الحماية الكافية من مغريات الجسد وأحلامه . ولعل هذه المغريات والأحلام ، بالإضافة إلى سخطها المتزايد ، جعلت نوباتها أكثر حدوثاً وأشد ألماً . وهنا أرسلها أبوها ثانية إلى أختها ، وأعطاها عمها ثانية كتاباً دينياً اسمه « الأبجدية الثالثة » لفرانسسكو دى أوزونا . وكان أبجدية فى الصلاة الصوفية ، الصلاة دون كلام ، لأن « الذين يدنون من الله فى صمت هم وحدهم الذين يمكن أن يسمعهم ويعطيهم جواباً » على حد قول المؤلف[١٨] . وفى عزلتها الريفية مارست تريزا هذه الصلاة الصامتة المتأملة التى لاءمت كل الملاءمة ما أحدثته بها النوبات من حالة شبيهة بالوجد .

وحاول طبيب يعالج بالأعشاب أن يداويها ، ولكن مستحضراته كادت تقتلها . ولما عادت إلى صومعتها فى آبلة (١٥٣٧) كانت مشرفة

على الموت ، تواقة إليه . ثم أصابتها أشد نوباتها عنفاً ، وراحت فى غيبوبة خالها الراهبات غيبوبة الموت ، وظلت يومين باردة لا حراك بها ، تبدو مقطوعة النفس ؛ وحفر الراهبات لها قبراً . ثم أفاقت ، ولكنها ظلت ضعيفة جداً بحيث لم تستطع أن تهضم طعاماً جامداً أو تحتمل أية لمسة . ورقدت ثمانية أشهر فى مستشفى الدير فيما يقرب من الشلل الكلى . وتحسنت حالها فأصبح شللها جزئياً ، ولكن «الفترات التى لم ترهقنى فيها الآلام المبرحة كانت فى الحق نادرة [١٩]» . وأقلعت عن كل أنواع العلاج الطبى ، وصممت على أن تعتمد كلية على الصلاة . وظلت ثلاث سنوات تتعذب وتصلى . وفجأة ، فى صباح يوم من أيام سنة ١٥٤٠ ، استيقظت العليلة طريحة الفراش ، التى بدت ميئوساً من شفائها ، لتجد أطرافها وقد فارقها الشلل . فقامت ومشت . ويوماً بعد يوم أخذت تشارك بنصيب أنشط فى أعمال الدير . وهلل الناس لشفائها باعتباره معجزة ، وكذلك كان اعتقادها فيه . ولعل الصلاة قد هدأت من ثائرة جهاز عصبى أرهقته الرغبات المصطرعة ، والشعور بالإثم ، وخوف الجحيم ؛ ومنحت أعصابها التى هدأت ، وبعد الأطباء عنها ، جسدها سلاماً لم تعهده من قبل .

وذاع صيت دير التجسد باعتباره المكان الذى حدث فيه شفاء معجز . وتوافد الناس من المدن المحيطة ليروا الراهبة التى شفاها الله ، وتركوا نقوداً وعطايا للدير المقدس . وشجعت رئيسة الدير هذه الزيارات ، وأمرت تريزا بالظهور أمام الزوار . وأزعج تريزا أن تجد أنها تستشعر لذة فى هذه الزيارات ، وفى هذه الشهرة ، وفى وجود رجال وسيمى الوجوه . وعادوها شعور بالإثم . وذات يوم (١٥٤٢) بينما كانت تتحدث فى قاعة الاستقبال إلى رجل استهواها بصفة خاصة ، خيل إليها أنها ترى المسيح واقفاً إلى جوار الزائر . وراحت فى غيبوبة ، واقتضى الأمر حملها إلى قلايتها على نقالة .

وظلت ترى هذه الرؤى طوال الستة عشر عاماً التالية ، وأصبحت عندها أكثر واقعية من الحياة . وفى عام ١٥٥٨ فيما هى غارقة فى صلاتها أحست بنفسها تخرج من جسدها وتصعد إلى السماء حيث رأت المسيح وسمعته . ولم تعد هذه الرؤى تضنيها ، بل على العكس من ذلك تنعشها . كتبت تقول :

« إن النفس التى كثيراً ما تضنيها وترهقها الآلام الرهيبة قبل حالة الوجد تخرج منها ممتلئة عافية مقبلة على العمل بشكل يدعو إلى الإعجاب . . . كأن الله شاء أن يشارك الجسد ذاته فى سعادة النفس بعد أن أطاع رغباتها . . . والنفس بعد هذه المنحة يملؤها قدر من الشجاعة عظيم إلى حد يجعل الجسد لا يشعر إلا بأوفر راحة إلو مزق فى تلك اللحظة إرباً فى سبيل الله »[٢٠] .

وفى مناسبة أخرى خيل إليها أن « ملاكاً رائع الحسن » قذف « سهماً طويلا من الذهب » فى رأسه نار « مخترقاً قلبي عدة مرات ، حتى وصل إلى صميم أحشائى » .

« كان الألم حقيقياً بحيث اضطرنى إلى الأنين بصوت عال ، ومع ذلك كان عذباً إلى حد مدهش لم أتمن معه الخلاص منه . ليس فى مباهج الحياة ما يستطيع أن يهب رضى أكثر من هذا . وحين سحب الملاك السهم تركنى وقد اضطرمت كلى بحب عظيم لله(*) »[٢١] .

هذه الفقرات وأشباهها مما كتبته القديسة تريزا تقبل بسهولة تفسيرات التحليل النفسى ، ولكن أحداً لا يستطيع التشكك فى إخلاص القديسة الشديد . فقد أيقنت كما أيقن اجناتيوس بأنها رأت الله ، وأن أعوص المشكلات كانت تحل لها فى هذه الرؤى .

« ذات يوم وأنا أصلى وهب لى أن أدرك فى لحظة واحدة كيف أن

(*) يحتفل أتقياء الأسبان بذكرى رؤيا الطعن هذه فى عيد مقدس يقع فى ٢٧ أغسطس من كل عـام .

الله يرى ويحتوى كل الأشياء . . . وهذه من أبرز النعم التى منحنى الله إياها . . . فقد جعلنى الرب أفهم كيف أن إلهاً واحداً يمكن أن يكون فى ثلاثة أقانيم . وجعلنى أرى هذا فى وضوح شديد بحيث أخذنى عجب شديد كما غمرتنى سكينة عظمى . . . والآن حين أفكر فى الثالوث الأقدس . . . أشعر بسعادة لا ينطق بها »[٢٢] .

أما الراهبات أخوات تريزاً فقد عللن رؤاها بأنها ليست سوى أوهام ونوبات مرضية[٢٣] ، وإلى هذا الرأى كان يميل آباء اعترافها ، فقد قالوا لها فى جفاء « لقد خدع الشيطان حواسك » . وخال أهل المدينة أن الشياطين مستها ، وطالبوا محكمة التفتيش بفحصها ، واقترحوا أن يطرد قسيس شياطينها بالتعزيم . ونصحتها صديقة بأن تبعث للمحكمة بقصة حياتها ورؤاها ، فكتبت سيرتها فى كتابها المشهور « Vida » ، ففحصه رجال المحكمة ، وحكموا بأنه وثيقة مقدسة خليقة بأن تشدد إيمان كل من يقرؤها .

فلما أن دعم هذا الحكم مركز تريزا ، صممت — وقد بلغت الآن السابعة والخمسين — أن تصلح طريقة الراهبات الكرمليات . وبدلا من محاولة إعادة نظام النسك القديم فى دير التجسد ، قررت افتتاح دير منفصل دعت إليه من الراهبات وطالبات الرهبنة كل من تقبل عيشة الفقر المطلق . لقد كان الكرمليات القدامى يلبسن الخيش الخشن ، ويمشين حافيات ، ويقتصدن فى الطعام ويصمن أصواماً كثيرة . واشترطت تريزاً على راهباتها الكرمليات الحافيات نظاماً أقرب ما يكون إلى هذا النظام الصارم ، لا بوصفه غاية فى ذاته ، بل رمزاً للتواضع ولنبذ هذه الحياة الدنيا بما فيها من مغريات . وقامت فى طريقها مئات العقبات ؛ فندد أهل آبلة بالخطة لأنها تهدد بقطع كل اتصال بين الراهبات وأقاربهن . ورفض رئيس الطريقة الإقليمى الإذن لها بفتح دير جديد ، فلجأت تريزا إلى البابا بيوس

الخامس ، وظفرت بموافقته . ووجدت أربع راهبات قبلن الانضمام إليها ، وكرس دير القديس يوسف الجديد فى عام ١٥٦٢ فى شارع ضيق من شوارع آبلة . وكانت راهباته يلبسن صنادل من الحبال ، وينمن على القش ويصمن عن اللحم ، ويلتزمن ديرهن لزوماً دقيقاً .

ولم يرق راهبات الدير الأقدم — وعددهن ١٨٠ — هذا الفضح البسيط لأساليب حياتهن المتهاونة. وأمرت رئيسة الدير تريزا بأن تستأنف ارتداء ثوبها الأبيض السابق ، ولبس حذائها ، وأن تعودَ إلى دير التجسد ، زاعمة أنها التزمت قبلها بنذر الطاعة . وأطاعت تريزا . ودينت بخطيئة الكبرياء ، وحبست فى صومعتها . وقرر مجلس المدينة إغلاق دير القديس يوسف ، وأوفد أربعة رجال أشداء لإجلاء الراهبات اللائى لم يعد لهن الآن رئيسة . ولكن العذارى لابسات الصنادل قلن « إن الله يريدنا أن نمكث هاهنا ، فنحن إذن ماكثات » . ولم يجرؤ الموظفون القانونيون القساة على إكراههن على الجلاء . أما تريزا فقد قذفت الرعب فى قلب الرئيس الكرملى الإقليمى حين أومأت إلى أنه إنما يسيء إلى الروح القدس بوضعه العراقيل فى طريق خططها ؛ فأمر بالإفراج عنها . وغادرت الدير معها أربع راهبات ، وسارت النسوة الخمس إلى دارهن الجديدة وسط الثلوج ؛ وحيا الراهبات الأربع القدامى تريزا « أما Madre » لهن وهن سعيدات ، وأصبحت الآن معروفة فى أسبانيا كلها تقريباً باسم تريزا يسوع ، صديقة الله الحميمة .

وكان نظام رهبنتها يتسم بالمحبة والبهجة والحزم . فالبيت موصد فى وجه العالم ، لا يسمح للزوار بدخوله ، والنوافذ مكسوة بالقماش ، والأرض المبلطة هى الأسرة والموائد والمقاعد . وبنى فى الجدار قرص دائر ، وأى طعام يضعه الناس على نصفه الخارجى يقبله الدير بشكر ، ولكن ليس للراهبات أن يستجدين . وكن يكملن ما نقص من قوتهن

بالغزل وأشغال الإبرة ، وتوضع منتجاتهن خارج باب الدير ، ولأى مشتر أن يأخذ منها ما شاء ويترك مقابله ما شاء . وأقبلت راهبات جديدات على الرغم من هذا التقشف كله ، ومن بينهن امرأة كانت أجمل نساء آيلة وأشدهن فتنة للرجال . ولما زار الرئيس العام للأديار الكرملية هذا الدير الصغير بلغ به التأثر أشده ، فطلب إلى تريزا أن تؤسس بيوتاً مماثلة له فى سائر أرجاء أسبانيا . وفى عام ١٥٦٧ استصحبت بضع راهبات ، وسافرن فى عربة حقيرة قطعت سبعين ميلا على طرق رديئة لتؤسس ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات فى مدينا ديل كاميو . وكان البيت الوحيد الذى عرض عليها بناء مهجوراً متهدماً تداعت جدرانه ورشح سقفه ؛ ولكن حين رأى أهل المدينة الراهبات يحاولن العيش فيه ، توافد النجارون والمباطون لإصلاح الدار وصنع أثاث بسيط له دون أن يدعوهم لذلك أحد أو يتقاضوا على عملهم أجراً .

وجاء إلى تريزا رئيس دير الرهبان الكرمليين فى مدينا طالباً إليها قواعد رهبنتها رغبة منه فى إصلاح رهبانه المتراخين . وكان الرجل فارع القوام ، ولكن جاء فى صحبته شاب قصير هزيل جداً حتى أن تريزا قالت بعد رحيلهما فى دعابتها التى كانت تضفى الإشراق على نسكها « تبارك الله ، فان عندى الآن راهباً ونصفاً لتأسيس ديرى الجديد(٢٤) » . أما هذا الرويهب ، واسمه جوان دى أيبس ألفاريز ، فقد كتب له أن يصبح سان جوان دى لاكروز ، أى القديس يوحنا الصليبي ، روح الرهبان الكرمليين الحفاة وفخرهم .

ولم تنته مصاعب تريزا . ذلك أن الرئيس الإقليمى للأديار الكرملية عينها رئيسة على دير التجسد ، ربما اختباراً لحكمها وشجاعتها . وكان راهبات هذا الدير يكرهنها ، وقد خشين أن تذيقهن الآن ألوان الذل والهوان انتقاماً منهن . ولكنها عاملتهن بكثير من التواضع والرقة حتى

كسبتهن الواحدة بعد الأخرى ، وما لبث النظام الجديد الأكثر صرامة أن حل شيئاً فشيئاً محل التراخى القديم . ومن هذا الانتصار تقدمت تريزا لإنشاء دير جديد فى إشبيلية .

وصمم رهبان الطريقة التى تراخى نظامها على وقف امتداد الإصلاح . فهرّب بعضهم عميلة تنكرت فى زى راهبة حافية إلى دير إشبيلية . وما لبثت هذه المرأة أن أعلنت على الملأ فى أسبانيا أن تريزا تجلد راهباتها وتتلقى الاعترافات كأنها كاهن . وطلب إلى محكمة التفتيش التحقيق معها ثانية . ودعيت للمثول أمام المحكمة الرهيبة ، واستمعت المحكمة إلى شهادتها وأصدرت هذا الحكم « لقد برئت من كل التهم . . . فاذهبي وواصلي عملك (٢٥)». ولكن أعداءها كسبوا سفيراً بابوياً إلى صفوفهم . فندد بتريزا « امرأة عاصية متمردة ، تنشر التعاليم المؤذية تحت قناع التقوى ، تركت ديرها مخالفة بذلك أوامر رؤسائها ؛ امرأة طماعة ، تعلم اللاهوت كأنها من فقهاء الكنيسة ، محتقرة بذلك القديس بولس الذى منع النساء من أن يعلّمن » . ثم أمرها بأن تعتكف حبيسة فى دير للراهبات بطليطلة (١٥٧٥) .

وحارت تريزا إلى من تلجأ فى هذا التغير الجديد ، فكتبت إلى الملك . وكان فيليب الثانى قد قرأ « حياتها » . وأحب الكتاب . فأرسل مبعوثاً خاصاً من بلاطه يدعوها لمقابلة الملك ، واستمع إليها ، واقتنع بورعها . وسحب السفير البابوى أمره السابق بفرض القيود على تريزا بعد أن وبخه الملك ، وأعلن أنه زود بمعلومات كاذبة .

وفى وسط أسفارها وشدائدها كتبت كتيبات تعبدية صوفية شهيرة مثل « طريق الكمال ١٥٦٧ » و « الحصن الداخلى ١٥٧٧ » . وقد كشفت فى هذا الكتيب عن عودة آلامها الجسدية فقالت « يخيل إلى أن أنهاراً مفعمة بالمياه تتدافع داخل رأسى فوق منحدر سحيق ، ثم اعود فأسمع الطيور فى غنائها وصفيرها بعد أن طغى عليها ضجيج المياه . وأنا أرهق ذهنى وأزيد صداعى» (٢٦) ، وعاودتها النوبات القلبية ، وكان عسيراً على

معدتها أن تحتفظ بالطعام ، وراحت على الرغم من هذا تتنقل فى ألم من دير إلى دير من تلك الأديار الكثيرة التى أسستها ، فاحصة ، مصلحة ، ملهمة . وفى ملقا أصابتها نوبة شلل . ثم شفيت ، ومضت إلى طليطلة ، فنزلت بها نوبة أخرى . ثم شفيت ، ومضت إلى سقوبية وبلد الوليد ، وبلنسيه ، وبرغش وإلبه ، وهناك اضطرها نزف فى رئتيها أن تتوقف . واستقبلت الموت ببشاشة ، واثقة أنها إنما ترحل عن عالم من الألم والشر إلى صحبة المسيح الخالدة .

ودفنت فى مسقط رأسها بعد منافسة معيبه بين ألبة وآبلة وخطف جسدها المرة بعد المرة . وزعم المصلون الأتقياء أن جسدها لم يفسد قط ، وروى حدوث العجائب الكثيرة عند قبرها . وفى عام ١٥٩٣ تلقت طريقة الراهبات الكرمليات الحافيات اعتماد البابا . واشترك نفر من أشهر الأسبان مثل سرفانتس ولوبى دى فيجا فى توجيه نداء إلى البابا يلتمسون فيه على الأقل تطويبها . وهذا ما حدث (١٦١٤) ، وبعد ثمانى سنوات تقرر أن تكون تريزا إحدى اثنين من قديسى أسبانيا الحامين ، أما الثانى فهو الرسول يعقوب .

فى غضون هذا خرج من أسبانيا من هو أعظم من تريزا ليصلح الكنيسة ويهز الدنيا .

٤ — إجناتيوس لويولا

ولد الدون إينيجو دى أونيز اللويولى فى قلعة لويولا باقليم جويبوزكوا ، وهو من أقاليم الباسك ، فى عام ١٤٩١ . وكان أحد ثمانية أبناء وخمس بنات للدون بلتران دى أونيز اللويولى ، الذى ينتمى إلى طبقة النبلاء الأسبان العظام . وقد ربى الصبى ليكون جندياً ، لذلك لم يتلق من التعليم المدرسى إلا القليل ، ولم يبد ميلا إلى الدين . واقتصرت قراءاته على قصة « أماديس

الغالى » وأشباهها من روايات الفروسية . ولما بلغ السابعة أرسل ليكون تابعاً للدون جوان فيلاسكويز دى كويللار ، وبفضله أتيح له بعض الاتصال بالبلاط الملكى . وحين بلغ الرابعة عشرة أحب جرمين دفوا . الملكة الجديدة لفرديناند الكاثوليكى ، ولما حان وقت تقليده رتبة الفروسية اختارها مليكة له ، ولبس شعارها ، وحلم بالفوز بمنديل محرم من يدها جزاء انتصاره فى مبراة للفروسية (٢٧). على أن هذا لم يمنعه من الدخول فى الغراميات والمشاجرات العارضة التى كانت تصف حياة الجندى . ولم يحاول إخفاء هذه الأعمال الطائشة الطبيعية فى سيرته الذاتية ، البسيطة الأمينة ، التى أملاها فى ١٥٥٣ — ٥٦ .

ثم انتهى شبابه الخلى حين عين للخدمة العسكرية العاملة فى بانبلونة عاصمة نافار . وهناك أنفق أربع سنوات يحلم بالمجد ولا يفتح عينيه إلا على حياة رتيبة . وواتته الفرصة لكى يثبت كفايته ، فقد هاجم الفرنسيون بانبلونة ، وشدت بسالة إينيجو أزر المدافعين ، ولكن العدو استولى على القلعة ، وأصيبت ساق إينيجو اليمنى بكسر من قذيفة مدفع (٢٠ مايو ١٥٢١) . وترفق المنتصرون به ، وجبروا عظامه ، وأرسلوه على نقالة إلى حصن أسلافه . ولكن العظام أخطئ جبرها ، فاقتضى الأمر كسرها وجبرها من جديد . ثم تبين أن العملية الثانية أسوأ من سابقتها ، لأن جدعة من العظم برزت من الساق . واستقامت العظام بعد عملية ثالثة ، ولكن الساق أصبحت الآن أقصر مما ينبغى . وظل إينيجو الأسابيع يعانى عذاب جبيرة جعلته ضعيفاً عاجزاً يشكو ألماً لا يبرحه .

وخلال أشهر النقاهة الطويلة المملة طلب كتباً ، لا سيما قصة مثيرة عن الفروسية والأميرات اللاتى يتهددهن الخطر . ولكن مكتبة القلعة لم يكن بها سوى كتابين لا ثالث لهما : أولهما « حياة المسيح » بقلم اودلفوس ، أما الثانى فيحكى سير القديسين . Flos sanctorum ، وضاق الجندى ذرعاً بالكتابين أول الأمر ، ثم تسلطت عليه صورتا المسيح ومريم ،

وتبين له أن أساطير القديسين لا تقل عجباً عن ملاحم الحب النبيل والحرب ، ففرسان المسيح هؤلاء هم من كل الوجوه أبطال كفرسان قشتالة . وتكونت فى عقله شيئاً فشيئاً فكرة مؤداها أن أنبل الحروب هى حرب المسيحية مع الإسلام . وجعلت جدة الايمان الأسبانى الدين عنده ، كما جعلته عند دومنيك من قبل ، لا تعبداً هادئاً كتعبد الراهب الألمانى توماس أكمبيس ، ولكن رغبة مشبوبة فى الصراع ، بل حرباً مقدسة . وصمم على الذهاب إلى بيت المقدس وتحرير الأماكن المقدسة من سيطرة غير المسيحيين . وذات ليلة ظهرت له العذراء وابنها فى رؤيا ، وبعدها (كما أخبر الأب جونزاليز فيما بعد) لم يهاجمه قط أى إغراء جنسى[٢٨] . ونهض من فراشه ، وجثا على ركبتيه ، وأقسم أن يكون جندياً للمسيح ومريم حتى الموت .

وكان قد قرأ أن الكأس المقدسة خبئت مرة فى قلعة بمونتسرات فى إقليم برشلونه . هنالك ، كما ورد فى أشهر الروايات قاطبة ، قضى أماديس ليلة بطولها ساهراً أمام صورة العذراء تأهباً للفروسية . وما إن وجد إينيجو فى نفسه القدرة على السفر حتى امتطى بغلا وانطلق إلى ذلك المزار البعيد . وظل حيناً يرى فى نفسه جندياً مرتدياً شكة النزال . ولكن القديسين الذين قرأ أخبارهم لم يحملوا سلاحاً ولا درعاً ، إنما كانت عدتهم أفقر الثياب وأرسخ الإيمان . فلما بلغ مونتسرات طهر روحه بالاعتراف والتكفير ثلاثة أيام ، ثم خلع ثيابه الغالية على شحاذ ، وارتدى عباءة حاج من قماش خشن . وقضى طوال ليلة ٢٤ — ٢٥ مارس ١٥٢٢ وحيداً فى كنيسة صغيرة بدير بندكتى ، راكعاً أو واقفاً أمام مذبح العذراء . وأخذ على نفسه العهد بحياة العفة والفقر الدائمين . وفى صباح الغد تناول القربان ، وأعطى بغله للرهبان ، ثم انطلق إلى أورشليم وهو يعرج على قدمه .

كانت أقرب الموانى إليه برشلونه ، وفى طريقه إليها توقف عند قرية مانريزا . ودلته عجوز على مغارة يأوى إليها . فجعلها مسكنه أياماً ، وإذ كان حريصاً على أن يبز القديسين فى نسكهم ، فقد مارس هناك من التقشف الصارم ضروباً كادت تقضى عليه . وفى ندمه على ما أسلف من خيلاء بمظهره ، كف عن تنظيف شعره أو قصه أو تمشيطه — فسقط بعد قليل . وأبى أن يقص أظافره أو يستحم أو يغسل يديه أو وجهه أو قدميه[٢٩] ، وعاش على ما وسعه استجداؤه من طعام ، إلا أن يكون لحماً ؛ وكان يصوم أياماً بطولها ، ويسوط نفسه ثلاث مرات فى اليوم ، وينفق الساعات فى الصلاة كل يوم . وأمرت امرأة تقية بنقله إلى بيتها مخافة أن يودى هذا التقشف الصارم بحياته ، وهناك مرضته حتى استعاد عافيته . ولكنه عاود جلد نفسه حين نقل إلى قلاية فى دير دومنيكى بمانريزا . لقد أرعبته ذكرى ذنوبه الماضية ، فشن الحرب على جسده باعتباره الأداة للذنوبه ، وصمم على أن ينتزع بالجلد كل فكرة خطيئة من جسده . وبدا الصراع أحياناً ميئوساً منه ؛ ففكر فى الانتحار . وهنا جاءته الرؤى التى شددته ، واعتقد وهو يتناول القربان مرة أنه لا يرى قربانة بل المسيح الحى ، وفى مرة أخرى ظهر له المسيح وأمه ، ومرة رأى الثالوث ، وفهم — بومضة من بصيرته يقصر دونها اللفظ أو الفكر — سر الأقانيم الثلاثة فى الإله الواحد ، وفى « مرة أخرى » كما يروى « أذن له الله أن يفهم كيف خلق العالم »[٣٠] . وأبرأت هذه الرؤى الصراع الروحى الذى ابتعثها ، فطرح وراء ظهره كل قلق بسبب حماقات شبابه ، وخفف من غلواء نسكه ، وإذ قهر جسده فقد استطاع الآن أن يطهره دون غرور . ومن خبرة هذا الصراع الذى امتد قرابة عام وضع « الرياضات الروحية » التى تمكن أن يخضع فيها الجسد الوثنى للإرادة المسيحية . ورأى أن فى وسعه الآن أن يمثل أمام المزارات المقدسة فى أورشليم .

وأبحر من برشلونة فى فبراير ١٥٢٣ . وفى طريقه تخلف أسبوعين فى روما ، ثم لاذ بالفرار قبل أن تثنيه روحها الوثنية عن طريق القداسة . وفى ١٤ يوليو استقل سفينة من البندقية إلى يافا . وأصابته خطوب كثيرة قبل أن يبلغ فلسطين ، ولكن رؤاه المتصلة شدت من أزره . وكانت أورشليم نفسها إحدى المحن ، فالترك الذين يسيطرون عليها يسمحون للزوار المسيحيين بدخولها ، ولكنهم يمنعون التبشير فيها ، وحين اقترح إينيجو تحويل المسلمين إلى المسيحية برغم هذا الحظر ، أصدر الرئيس الفرنسسكانى المحلى ، الذى وكل إليه البابا حفظ السلام هناك ، أمراً للقديس بالعودة إلى أوربا . وفى مارس ١٥٢٤ عاد إلى برشلونة .

ولعله أحس الآن أنه وإن كان سيداً على جسده فانه عبد لأوهامه . فصمم على تهذيب عقله بالتعليم . واشترك مع تلاميذ المدارس فى تعلم اللاتينية مع أنه كان فى الثالثة والثلاثين . ولكن شهوة التعليم كانت فيه أقوى من إرادة التعلم . وسرعان ما بدأ إجناتيوس — وهو اسمه المدرسى — فى تبشير لفيف من النساء التقيات الفاتنات . وندد به عشاقهن مفسداً لمتعتهم وضربوه ضرباً وحشياً . فانتقل إلى القلعة (١٥٢٦) ، وعكف على دراسة الفلسفة واللاهوت . وهنا أيضاً راح يعلم جماعة خاصة صغيرة جلها من فقيرات النساء ، فيهن نفر من البغايا المتعطشات إلى الخلاص . وحاول أن ينتزع منهن ميولهن الخاطئة بالرياضة الروحية ، ولكن بعض تلميذاته أصابتهن نوبات أو غشيات ، فاستدعته محكمة التفتيش للمثول أمامها . وأودع السجن شهرين[٣١]، ولكنه فى النهاية أقنع المفتشين بسلامة عقيدته ، فأفرج عنه ، غير أنه منع من التعليم . ومضى إلى سلمنقه (١٥١٧) ، وجاز تجربة مماثلة انتقل فيها من مرحلة التعليم إلى المحاكمة أمام محكمة التفتيش ، إلى السجن ، إلى الإفراج ثم إلى الكف عن التعليم . فلما خاب ظنه فى أسبانيا ، يمم شطر باريس ، دائماً سيراً على الأقدام فى رداء الحاج ، سائقاً أمامه الآن حماراً يحمل أسفاراً .

وفى باريس عاش فى ملجأ الفقراء . وكان يستجدى فى الشوارع طعامه ونفقة تعليمه . ودخل كلية مونتيجى . حيث كان بوجهه الشاحب المهزول ، وبدنه الأعجف ، ولحيته المهوشة . وثيابه العتيقة ، محط الأنظار غير العطوفة ، ولكنه واصل السعى إلى أهدافه فى حرص ملك عليه حواسه حتى أن بعض الطلبة بدأوا ينزلونه منزلة القديس . فمارسوا بارشاده ألوان الرياضة الروحية من صلاة وتكفير وتأمل . وفى عام ١٥٢٩ انتقل إلى كلية سانت — بارب . وهناك أيضاً التف حوله نفر من التلاميذ . وانتهى مساكناه بطريقتين مختلفتين إلى الإيمان بقداسته . فأما بيير فافر . الذى كان من قبل راعياً فى إقليم السافوا الألبى ، فكان يتعذب عذاباً مبرحاً من مخاوف وهمية أو واقعية . وبتأثيرها نذر حياة العفة الدائمة . وكان يخفى الآن وهو فى العشرين تحت طباعه المهذبة روحاً تكافح مغريات الجسد كفاحاً محموماً ، ومع أن إجناتيوس لم يدع لنفسه توقد الذكاء . فقد كان يملك القدرة على الإحساس بحياة الآخرين الداخلية بفضل شفافية حياته . وعلى ذلك فقد حدس مشكلة صديقه الشاب . وأكد له أن نزعات الجسد يمكن السيطرة عليها بالإرادة المدربة . وكيف تدرب الارادة ؟ أجاب إجناتيوس ، بالرياضة الروحية . وراحا يمارسان هذه الرياضة معاً .

وأما نزيل غرفته الآخر ، واسمه فرانسوا زافير . فكان أصله من بنبلونة حيث مارس لويولا الجندية . وسليل عدد كبير من الأسلاف النابهين ، وسيما ، غنياً ، فخوراً ، فتى مستهتراً . مرحاً . عليماً بحانات باريس وبناتها (٣٢). وسخر الفتى من صاحبيه الزاهدين وراح يباهى بما أصاب من توفيق مع النساء . على أنه كان ذكياً فى دراساته(٣٢) . حصل من قبل على درجة الأستاذية . وهو يحضر الآن للدكتوراة . وذات يوم رأى رجلا نقر الزهرى وجهه . فأوقفه المنظر ملياً . وبينما كان مرة يفيض فى الحديث عما يجيش فى صدره من طموح للشهرة والمجد . ذكر له إجناتيوس فى هدوء هذه الآية من الإنجيل : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح

العالم كله وخسر نفسه ؟ » ، وساء السؤال زافير ، ولكنه لم يستطع نسيانه . فبدأ ينضم إلى لويولا وفابر فى رياضتهما الروحية ، ولعل كبرياءه دفعته إلى مباراة زميليه فى القدرة على احتمال الحرمان والبرد والألم . وراحوا يجلدون أنفسهم ، ويصومون ، وينامون فى قمص رقيقة على أرض حجرية غير مدفأة ، ويقفون حفاة عراة تقريباً على الثلوج ليخشنوا أجسادهم وليخضعوها فى الوقت ذاته ، وبلغت التدريبات الروحية التى بدأت فى مانريزا شكلا أكثر تحدداً . وصاغها إجناتيوس فى كتيب على غرار « رياضة الحياة الروحية » (١٥٠٠) الذى وضعه الدون جارسيا دى كزنيروس ، رئيس دير مونتسرات البندكتى[٣٣] ، ولكنه سكب فى هذا القالب من حرارة العاطفة والخيال ما جعل كتيبه قوة محركة فى التاريخ الحديث . وكانت نقطة البداية التى انطلق منها لويولا هى عصمة الكتاب المقدس والكنيسة ، فهو يرى أن الحكم الفردى فى الدين إنما هو ادعاء باطل مولد للفوضى تدعيه عقول ضعيفة متكبرة . « علينا دائماً أن نكون على استعداد للإيمان بأن ما يبدو لنا أبيض إنما هو أسود إذا عرفته كذلك الكنيسة ذات الكهنوت المسلسل[٣٤] » وعلينا إن أردنا تجنب الهلاك الأبدى أن ندرب ذواتنا على أن نكون خداماً ممتثلين لله ، وللكنيسة التى استخلفها الله على الأرض .

أما أول تدريب روحى فهو تذكر خطايانا الكثيرة ، والتفكر فى مقدار العقوبة الذى تستحقه . لقد حكم على الشيطان بالجحيم لخطيئة واحدة ، أفليست كل خطية نقارفها تمرداً على الله كتمرد الشيطان ؟ فلنحتفظ بحساب يومى لذنوبنا بعلامات على سطور تمثل الأيام ، ولنحاول كل يوم أن ننقص عدد هذه العلامات . وفيما نحن راكعون فى حجرتنا أو صومعتنا بعد إظلامها ، لنتخيل الجحيم بأجلى ما نستطيع ، يجب أن نستحضر كل فظائع هذه النار التى لا تموت ، يجب أن نتصور عذاب

الهالكين ، ونسمع صرخات الألم وصيحات اليأس المنبعثة منهم ؛ يجب أن نشم الأبخرة المنتنة التي تتصاعد من الكبريت واللحم المحترقين ؛ يجب أن نحاول الإحساس بألسنة اللهب تلك وهي تلذع أجسادنا ؛ ثم يجب أن نسأل أنفسنا ، كيف السبيل إلى النجاة من هذا العذاب الأبدي ؟ لا سبيل إلا تضحية الفداء التي قدمها الله نفسه في المسيح على الصليب(*) . فلنتأمل إذن حياة المسيح ، في كل دقائقها ، علينا أن نكون حضوراً بالخيال في تلك الأحداث التي هي أعمق الأحداث في تاريخ العالم . يجب أن نجثو في الخيال أمام الأشخاص المقدسين في تلك الملحمة الإلهية ، وإن نلثم هدب أثوابهم . وبعد أن ننفق أسبوعين في مثل هذه التأملات يجب أن نصحب المسيح في كل خطوة من خطوات آلامه ، في كل مرحلة من مراحل الصليب ؛ نصلي معه في جثسيماني ، ونشعر بأننا نجلد معه ، ويبصق علينا ، ونسمر على الصليب ، يجب أن نقاسي كل لحظة من لحظات عذابه ، أن نموت معه ، وأن نقبر معه . وفي الأسبوع الرابع يجب أن نتخيل أنفسنا وقد قمنا منتصرين من القبر ، وصعدنا أخيراً معه إلى السماء . وإذ تشددنا هذه الرؤيا المباركة ، فستكون على أهبة الانخراط جنوداً مكرسين في المعركة لهزيمة الشيطان وربح النفوس للمسيح ؛ وفي تلك الحرب المقدسة سنحتمل باغتباط كل ما نلقى من شدائد وننفق حياتنا في بهجة وفرح .

ووجدت هذه الدعوة للتعبد الممتد طوال الحياة تسعة طلاب في باريس على استعداد لقبولها . ولعل هؤلاء الشبان الجادين ، الذين شعروا لأول مرة بما في العالم من غموض محير ، وتاقت نفوسهم لمرساة من الإيمان والأمل وسط خضم من الشكوك والمخاوف — نقول لعلهم دفعوا بثقل المطالب

(*) لاحظ أن لوثر جاز بمثل هذه المخاوف من الجحيم ، وبمثل ضروب الكشف التكفيرية هذه ، وبمثل هذا التحرر بفضل الإيمان بتضحية المسيح الفادية ، الذي كان المحرك لحياة أجناتيوس .

الملقاة على كواهلهم إلى المشاركة بمصيرهم وحياتهم وخلاصهم فى خطة لويولا . فاقترح أن يذهبوا معاً فى الوقت المناسب إلى فلسطين . ويحيوا هناك حياة أقرب ما تكون إلى حياة المسيح . وفى ١٥ أغسطس ١٥٣٤ اجتمع لويولا ، وفافر ، وزافير ، ودييجو لاينيز ، وألونسو سالبرون ، ونيكولا بوباديللا ، وسيمون رودريجيز ، وكلود لوجى . وجان كودير ، وباشاس بروية — اجتمع هؤلاء العشرة فى كنيسة صغيرة بمونمارتر ، ونذروا حياة العفة والفقر ، وأخذوا العهد على أنفسهم بالذهاب إلى الأراضى المقدسة والعيش فيها بعد قضاء عامين آخرين فى الدرس . ولم يكن لديهم إلى الآن فكرة واضحة عن مكافحة البروتستنتية ، وبدا الإسلام لهم تحدياً أعظم . ولم يكن بهم ميل إلى المجالادت اللاهوتية . فهدفهم إنما هو حياة القداسة ، وحركتهم تمد جذورها فى تربة الصوفية الأسبانية لا صراعات العصر الفكرية . وخير حجة يقدمونها هى التقى والورع .

وفى شتاء ١٥٣٦ — ٣٧ اخترقوا فرنسا سيراً على الأقدام ، وعبروا الألب ، ثم إيطاليا إلى البندقية حيث كانوا يأملون العثور على سفينة تحملهم إلى يافا . ولكن البندقية كانت تخوض حرباً مع الترك . فاستحال عليهم السفر . وخلال فترة التخلف التقى إجناتيوس بكارافا ، وانضم حيناً إلى التياتين . وكان لخبرته مع هؤلاء القساوسة الأتقياء بعض الأثر فى تغيير خطته من العيش فى فلسطين إلى خدمة الكنيسة فى أوربا . واتفق هو وتلاميذه على أن يتقدموا للبابا طالبين أداء أى خدمة يكلها إليهم ، إذا انقضت عليهم فى هذا الانتظار سنة دون أن ينفتح أمامهم الطريق إلى فلسطين . وحصل فافر على إذن لهم جميعاً برسامتهم قساوسة .

كان لويولا قد بلغ إذ ذاك السادسة والأربعين ، أصلع الرأس به عرج خفيف لم يفارقه إثر جرحه . وما كان له بقامته التى لم تزد على

خمسة أقدام وبوصتين أن يقع من نفوس ناظريه أى موقع لولا رهافة أرستقراطية فى قسمات وجهه ، وتدبب فى أنفه وذقنه ، ولولا ما فى عينيه من سواد ونفاذ وعمق واكتئاب ، وما فى طلعته من رزانة وعزم ؛ وكان قد غدا القديس المستغرق فى تأملاته ، العازف عن الفكاهة . لم يكن مضطهداً لخصوم الدين ، ومع أنه وافق على وجود محكمة التفتيش(٣٥) فقد كان ضحيتها أكثر منه عميلها . كان صارماً فى عطف ، يخدم المرضى عن طيب خاطر فى المستشفيات وإبان تفشى الطاعون ، حلمه أن يربح نفوساً إلى الإيمان لا بالنار أو السيف بل بالسيطرة على الخلق فى الشباب الطيع وتشكيله تشكيلا ثابتاً فى الإيمان . ولم يكن هذا المؤسس لأنجح نظم التربية فى التاريخ شديد التأكيد على العلم أو الذكاء . لم يكن لاهوتياً ، ولم يشترك فى مجادلات الكلاميين أو تدقيقاتهم ؛ وقد آثر الإدراك الحسى المباشر على الفهم العقلى . ولم ير ضرورة للجدل حول وجود الله ، ومريم والقديسين ، فقد كان مقتنعاً بأنه رآهم ، وأحس بهم أقرب إليه من أى شيء أو شخص فى محيطه ، وكان على طريقته رجلا ثملا بمعرفة الله ومحبته . ومع ذلك فان تجاربه الصوفية لم تجعل منه رجلا غير عملى . لقد كان فى وسعه أن يجمع بين مرونة الوسائل وصلابة الغايات ، يأبى تبرير أى وسيلة لغاية يراها حسنة ، ولكن فى مقدوره أن يتريث تحيناً للفرصة . ويعتدل فى آماله ومطالبه ، ويلائم بين أساليبه والأشخاص والأحوال ، ويستعمل الدبلوماسية إذا اقتضى الأمر استعمالها ، ويرى الرأى الثاقب فى الرجال ، ويحسن اختيار مساعديه وعماله ، ويسوس الرجال كأنه قائد يقود فرقة عسكرية — وهو ما كان يراه فى نفسه فعلا . وقد أطلق على فرقته الصغيرة اسماً حربياً « فرقة يسوع » ، ولا عجب ، فهم جند تطوعوا مدى الحياة لمحاربة الإلحاد وانحلال الكنيسة . أما هم فقد قبلوا النظام العسكرى للعمل المنسق تحت قيادة مطلقة ، باعتبار هذا القبول مراً طبيعياً وضرورياً .

وفى خريف ١٥٣٧ خرج لويولا وفافر ولاينيز من البندقية قاصدين روما ليلتمسوا موافقة البابا على خططهم . وقطعوا الطريق كله سيراً ، يستجدون طعامهم ويعيشون أكثر الوقت على الخبز والماء . ولكنهم كانوا يترنمون بالمزامير فى سعادة وهم ماضون فى رحلتهم ، وكأنهم عليمون بأن فئتهم هذه الصغيرة ستنبثق منها منظمة قوية رائعة .

٥ — اليسوعيون

فلما أن بلغوا روما لم يلتمسوا المثول بين يدى البابا من فورهم ، لأن بولس الثالث كان غارقاً فى الدبلوماسية الحرجة . لذلك تطوعوا بالخدمة فى المستشفى الأسبانى ، وعنوا بالمرضى ، وعلموا الصغار . وفى مطلع عام ١٥٣٨ استقبلهم بولس ، وأثرت فيه رغبتهم فى الذهاب إلى فلسطين والعيش فيها رهباناً مثاليين . وأسهم هو وبعض الكرادلة بمبلغ ٢١٠ كراونا (٥ — ٢٥٠ دولاراً ؟) فى نفقات رحلة الفرقة . ولما اضطر النساك إلى التخلى عن الفكرة لاستحالة تنفيذها ردوا المال إلى واهبيه[٣٦] . واستدعى من ظل من الأعضاء فى الشمال إلى روما ، فبلغ عدد الجماعة الآن أحد عشر عضواً . وعين البابا بولس فافر ولاينيز أستاذين فى السابينزا (جامعة روما) . فى حين انقطع إجناتيوس والباقون لأعمال البر والتعليم . ونظم لويولا بعثة خاصة لهداية المومسات ، وأسس بتبرعات مؤيديه « بيت مرثا » لاستقبال هؤلاء النسوة ، وقد أثار عداء الكثيرين له فى روما بمواعظه الحماسية التى هاجم فيها الخطايا الجنسية .

وأصبح من المرغوب فيه تحديد مبادىء الفرقة وقانونها نظراً إلى انضمام أعضاء جدد إليها . وأضيف نذر الطاعة إلى نذرى العفة والفقر ، واشترط طاعة « القائد » الذى يختارونه طاعة ليس فوقها إلا الطاعة للبابا فقط . ثم نذر رابع « بخدمة بابا روما باعتباره خليفة الله على الأرض » و « بالتنفيذ

الفورى الذى لا تردد فيه ولا اعتذار لكل ما يأمرهم به البابا الحاكم أو خلفاؤه لفائدة النفوس أو لنشر الإيمان » فى أى مكان فى العالم . وفى عام ١٥٣٩ طلب لويولا إلى الكردينال كونتاريني أن يرفع إلى البابا بولس الثالث مواد التنظيم هذه ، وأن يلتمس تثبيته للفرقة باعتبارها طريقة دينية جديدة . وكان البابا ميالا إلى الموافقة ، وخالفه بعض الكرادلة لأنهم رأوا فى الجماعة نفراً من الغلاة الذين تستعصى سياستهم ، ولكن بولس تغلب على اعتراضاتهم ، وبمقتضى المرسوم البابوى المسمى « لأجل تنظيم الكنيسة المجاهدة » أنشأ رسمياً ما سماه المرسوم « جماعة يسوع » (٢٧ سبتمبر ١٥٤٠) . وسمى أعضاؤها اسماً مناسباً هو « الاكليريكيون النظاميون فى جماعة يسوع » . ولم يظهر اسم « الجزويت » إلا عام ١٥٤٤ ، وكان آنئذ لفظ هجو قبل كل شيء ، استعمله كالفن وغيره من النقاد[٣٧]، ولم يستعمله قعد إجناتيوس نفسه . وبعد موته استل نجاح الطريقة الدينية الجديدة من اللفظ حمته القديمة ، فأصبح فى القرن السادس عشر شارة شرف .

وفى ١٧ أبريل ١٥٤١ انتخب إجناتيوس قائداً . وظل عدة أيام بعد انتخابه يغسل الأطباق ويؤدى أحقر الأعمال[٣٨] . وقد جعل مقامه روما فيما بقى من عمره (وكان الآن فى الخمسين) ، وأصبحت المدينة المقر الدائم للجماعة . وبعد طول التفكير والتجربة ، وضع « دساتير » الجماعة بين عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٢ ، وهى بتغييرات طفيفة قانون الجزويت اليوم . وقد نص على أن توضع سلطة الطريقة النهائية فى أيدى الأعضاء « المنذورين » نذراً كاملا . ويختار هؤلاء مندوبين من كل إقليم ، وهؤلاء المندوبون — هم والرؤساء الإقليميون ، والقائد ، ومعاونوه — يؤلفون « المجمع العام » . وينتخب هذا المجمع قائدا جديداً إذا لزم الأمر ، ثم يفوض إليه سلطته ما لم يقترف ذنباً خطيراً . وقد أعطى « ناصحاً » ، وأربعة مساعدين . يراقبون كل أعماله ، ويحذرونه من أى خطأ جسيم ، ويدعون لمجمع العام لخلعه إذا اقتضى الأمر .

ويتعين على طالبي عضوية الجماعة أن يقضوا فترة اختبار من عامين ، يدربون خلالهما على هدف الجماعة ونظامها ، ويمارسون الرياضة الروحية ، ويؤدون الأشغال الحقيرة ، ويخضعون للرؤساء فى « طاعة مقدسة » مطلقة . وعليهم أن يتخلوا عن إرادتهم الفردية ، ويرتضوا أن يؤمروا كما يؤمر الجند ، وينقلوا « كأنهم الجثث »(٣٩) ، وعليهم أن يتعلموا الإحساس بأنهم بطاعتهم رؤساءهم إنما يطيعون الله . ويجب أن يوافقوا على إبلاغ رؤسائهم أخطاء زملائهم ، وعلى ألا يستشعروا أى غضاضة فى أن تبلغ أخطاؤهم لرؤسائهم(٤٠) . لقد كان هذا النظام صارماً ولكن فيه تمييزاً ومرونة ، وقل أن حطم الإرادة أو قضى على المبادرة . والظاهر أن الاستعداد للطاعة هو أول خطوة فى تعلم الأمر ، لأن هذا التدريب أخرج العدد الكبير من الرجال الأكفاء المغامرين .

والذين يطيقون فترة الاختبار القاسية هذه يأخذون على أنفسهم عهوداً « بسيطة » — أى قابلة للسحب — بالفقر والعفة والطاعة ، ويدخلون « الطبقة الثانية » . وبعض هؤلاء يمكثون على هذا الوضع إخوة علمانيين ، وبعضهم « مدرسين مؤهلين » يبتغون القسوسية ، ويدرسون الرياضيات والآداب القديمة والفلسفة واللاهوت ، ويعلمون فى المدارس والكليات . أما الذين يجوزون مزيداً من الاختبارات فيدخلون الطبقة الثالثة ، طبقة « المساعدين المؤهلين » ، وبعض هؤلاء قد يرقون إلى الطبقة الرابعة — طبقة « المنذورين » — وكلهم قساوسة يتعهدون خصيصاً بالاضطلاع بأى عمل أو بعثة يكلها إليهم البابا . وكان هؤلاء « المنذورون » عادة قلة صغيرة — لا تتجاوز أحياناً العُشر — بين أعضاء الجماعة كلها(٤١) . وعلى الطبقات الأربع أن تعيش عيشة مشتركة كالرهبان ، ولكن نظراً إلى واجباتهم الإدارية والتربوية الكثيرة فقد أعفوا من الالتزام الديرى بتلاوة صلوات العبادة اليومية السبع ولم يطلب إليهم أى ممارسات نسكية ، وإن جاز

إسداء النصح لهم إذا اقتضى الأمر . ونص على الاعتدال فى الطعام والشراب ، دون صوم متشدد ، ويجب أن يحفظ الجسم والعقل جميعاً صالحين لأداء جميع الأعمال . وللعضو أن يحتفظ بحقه فى أى أملاك يمتلكها حين دخوله الطريقة ، ولكن كل دخل يأتيه منها يجب أن يعطى للجماعة ، التى تأمل أن تكون الوريثة النهائية . وكل المقتنيات والأنشطة الجزويتية يجب أن تكرس لمجد أعظم ، مجد الله .

لقد ندر أن حملت مؤسسة ما بصمات شخصية واحدة على هذا النحو القاطع . وامتد أجل لويولا سنين أتاحت له تنقيح دساتيره ليصوغ منها نظام رهبنة يعمل بنجاح . وراح من حجرته العارية الصغيرة يقود بسلطان صارم وحذق عظيم حركات جيشه الصغير فى كل أرجاء أوربا وفى كثير من أنحاء العالم الأخرى . وكانت مهمة حكم الجماعة ، وإنشاء وإدارة كليتين وعدة مؤسسات خيرية فى روما ، أثقل من أن يحتملها طبعه كلما تقدم به العمر ، فأصبح غاية فى الجفاء مع أقرب مرءوسيه ، وإن ظل عطوفاً على الضعفاء[٤٢] . على أنه كان أقسى ما يكون على نفسه . وكثيراً ما كانت وجباته حفنة من البندق وكسرة من الخبز وكأساً من الماء . وكثيراً ما كانت ساعات نومه لا تزيد على أربعة فى اليوم ، بل إنه اختزل إلى نصف ساعة فى اليوم تلك الفترة التى يخصصها للرؤى والاستنارة السماوية[٤٣] . ولما مات (١٥٥٦) شعر الكثير من أهل روما أن ريحاً حادة قد توقفت عن الهبوب ، ولعل بعض أتباعه امتزجت مشاعر الحزن عندهم باحساس الراحة . ولم يستطع الناس أن يدركوا بهذه السرعة أن هذا الأسبانى الذى لا يقهر سيثبت أنه من أعظم الرجال تأثيراً فى التاريخ الحديث .

كانت الجماعة تضم عند موته قرابة ألف عضو ، منهم نحو خمسة وثلاثين عضواً « منذوراً »[٤٤] . وبعد خلافات أظهرت قدراً كبيراً من إردة القوة لدى هؤلاء اليسوعيين الذين خالهم الناس محطمى الإرادة ، اختير

دييجو لاينيز قائداً (١٥٥٨) ؛ وقد اعترض بعض النبلاء الأسبان ممن كان لهم شيء من النفوذ فى الطريقة على اختياره لأن أسلافه منذ أربعة أجيال كانو يهوداً . وخاف البابا بولس الرابع أن ينتهى الأمر بمنصب قائد الجزويت إلى منافسة البابوية ، لأنه يتولاه مدى الحياة . فأمر بمراجعة دساتير الجماعة لتقصر رياسة القائد على ثلاث سنوات ، ولكن بيوس الرابع ألغى الأمر ، وأصبح القائد «البابا الأسود» (كما لقبته الأجيال التالية نسبة إلى رداء الكاهن الأسود) . وما لبثت الطريقة أن ازدادت حجماً وقوة بعد أن انضم إليها فرانسيس بورجيا ، دوق جانديا ، ووهبها ثروته . ويوم أصبح هذا الرجل قائدها الثالث (١٥٦٥) كانت تضم ٣,٥٠٠ عضو يعيشون فى ١٣٠ بيتاً فى ثمانية عشر إقليماً أو دولة .

ولم تكن أوربا سوى قطاع صغير فى نشاطها . فقد أوفدت مبعوثيها إلى الهند والصين واليابان والدنيا الجديدة . وكانوا فى أمريكا الشمالية رواداً مغامرين لا تثنيهم المثبطات ، يحتملون كل الكروب والخطوب على أنها عطية من الله . أما فى أمريكا الجنوبية فقد جاهدوا كما لم تجاهد أى جماعة أخرى لتطوير التعليم والزراعة العلمية . وفى عام ١٥٤١ غادر القديس فرنسيس زافير لشبونة على سفينة برتغالية ، وبعد عام من الرحلة والمعاناة بلغ جوا . وهناك أخذ يمشى فى الشوارع رائحاً غادياً وهو يقرع ناقوساً يدعو الناس للاستماع إليه . فلما التفوا حوله بسط لهم العقيدة المسيحية بكل إخلاص وبلاغة ، ثم أوضح الخلق المسيحى عملياً بمشاركته فى عيشه أفقر المستمعين إليه مشاركة مغتبطة ، حتى استطاع أن يحول إلى المسيحية آلاف الهندوس والمسلمين ، بل إنه أقنع بالإيمان بعض المسيحيين البرتغاليين المغتربين الذين قست الشدائد قلوبهم . ولعل إبراءه المرضى راجع إلى الثقة التى بثها فيهم أو إلى معرفته العارضة بالطب ، وقد نسبت إليه المعجزات فيما بعد . ولكنه لم يدع لنفسه واحدة منها . أما المرسوم

البابوى الذى سلكه فى زمرة القديسين (١٦٢٢) : فقد نسب إليه « موهبة الألسن » — أى القدرة على التحدث بأى لغة عند الحاجة ، ولكن الحقيقة أن هذا القديس البطل كان لغوياً ضعيفاً ينفق الساعات الطويلة فى حفظ المواعظ بالتاملية أو الملاوية أو اليابانية ، وكان إيمانه أحياناً أشد من أن تسايره إنسانيته ، فقد حث يوحنا الثالث ملك البرتغال على إنشاء محكمة للتفتيش فى جوا [٤٦]، وأوصى بألا يرسم للقسوسية أى هندوسى ما لم ينحدر من أجيال عدة من الأسلاف المسيحيين ، ولم يكن يطيق فكرة اعتراف برتغالى لقسيس وطنى[٤٧] . وأخيراً غادر جوا لأنها بلد تتعدد فيه اللغات تعدداً لا يعينه على تحقيق أهدافه . قال « أريد أن أكون حيث لا يوجد مسلمون ولا يهود . أعطونى وثنيين خلصاً »[٤٨] — فلقد أحس أن الوثنيين أطوع إيماناً لأنهم أقل رسوخاً فى دين آخر . وفى عام ١٥٤٩ قصد اليابان ، ودرس اليابانية فى طريقه إليها . ولما رسا فى كاجوشيما ، راح هو وزملاؤه يبشرون فى الشوارع والناس يستمعون إليهم فى أدب . وبعد عامين عاد إلى جوا ، وقوم خللا ظهر بين المسيحيين هناك ، ثم أبحر ليبشر الصين (١٥٥٢) . وبعد عناء شديد نزل جزيرة تشانج — تشوين ، أسفل مصب نهر كانتون . وكان إمبراطور الصين قد قرر اعتبار دخول أوربى للصين جريمة كبرى ، ومع ذلك ما كان هذا ليثنى عزم زافير لو أنه وجد وسيلة للانتقال . وخلال انتظاره مرض ، ثم فارق الحياة فى ٢ ديسمبر ١٥٥٢ وهو يبكى قائلا « فيك يا رب رجائى ، فلا تجعلنى ملعوناً إلى الأبد[٤٩] » . وكان إذ ذاك فى السادسة والأربعين .

وقد تفانى اليسوعيون فى عملهم فى أوربا تفانيهم فى البعثات الأجنبية . فلزموا أماكنهم وعنوا بالمرضى فى فترات تفشى الطاعون[٤٨]. وبشروا كل الطبقات ، وكيفوا لغتهم وفق كل موقف . وجعلهم تعليمهم الممتاز وطباعهم المهذبة آباء الاعتراف المفضلين عند النساء والنبلاء ، ثم عند

الملوك . وشاركوا فى شئون الدنيا بنشاط ولكن بحكمة ولباقة ، وقد نصحهم إجناتيوس بأن قسطاً أكبر من الحكمة وأقل من التقوى خير من قدر أكبر من التقوى وأقل من الحكمة[٥١] . وكانوا عادة رجالا على خلق عظيم ، أما الأخطاء التى رموا بها فى فترة لاحقة فلم تكد تظهر فى العصر الذى نحن بصدده[٥٢] . ومع أنهم وافقوا جماعةً على محكمة التفتيش[٥٣]، فانهم وقفوا على مبعدة منها ، مؤثرين أداء رسالتهم عن طريق التعليم . وقد اضطرّتهم قلة عددهم إلى ترك تعليم الأطفال لغيرهم ، أما هم فركزوا جهودهم على التعليم الثانوى ، وإذ وجدوا أن الجامعات قد سبقتهم فى الهيمنة عليها طرق دينية أخرى أو السلطة الزمنية أو رجال الدين البروتستنت ، فقد نظموا لهم كليات خاصة ، وحاولوا تدريب شبان مثقفين ليكونوا مراكز للتأثير فى الجيل التالى . وهكذا أصبحوا أعظم المربين فى زمانهم .

لقد أنشأوا فى نقط هامة فى أوربا معاهد دنيا — تقابل الجمنازيوم الألمانى والليسيه الفرنسية — وكليات عليا . واستطاعوا أحياناً أن يتسلموا جامعات موجودة فعلا كما حدث فى كوامبرا ولوفان . وروعوا منافسيهم بتعليمهم التلاميذ مجاناً . وأكبر الظن أن منهج الدراسة الذى وضعوه يدين بالفضل للمدارس التى أنشأها فى هولنده وألمانيا «إخوان الحياة المشتركة» ، وللجمنازيوم شتورم فى ستراسبورج ، وللأكاديميات ألمانيا وإيطاليا الإنسانية . وكان هذا المنهج يقوم على الآداب القديمة ويدرس باللاتينية ، أما استعمال اللغة القومية فمحظور على الطلبة إلا فى العطلات[٥٤] . وأعيدت دراسة الفلسفة الكلامية فى الفرق العليا . وزيد الاهتمام بتربية الخلق — أى الفضائل والعادات — وربط من جديد بين هذه التربية وبين العقيدة الدينية ، وغرس الإيمان التقليدى فى التلاميذ ، فأشربهم نظام من الصلاة ، والتأمل ، والاعتراف ، والتناول ، والقداس ، واللاهوت ، سلامة فى العقيدة قل معها من انحرف منهم فى القرن السادس عشر عن هذا السبيل

المطروق . وردت الدراسات الإنسانية من الوثنية إلى المسيحية . على أن هذا النظام كانت فيه مآخذ خطيرة ، فهو مفرط فى الاعتماد على الذاكرة ، مثبط للأصالة ، ناقص فى العلوم كغيره من مناهج ذلك العهد ، وقد نقّى التاريخ تحقيقاً للهيمنة على الحاضر . ومع ذلك فاننا نجد مفكراً ذا نزعة استقلالية قوية مثل فرانسس بيكن يبادر إلى القول فى مدارس اليسوعيين ، « وددت لو كانت هذه المدارس مدارسنا ولو بوضعها الراهن »(٥٥). وسنرى فى القرنين التاليين أن خريجيها سيبرزون فى كل مناحى الحياة تقريباً عدا البحث العلمى .

وقبيل وفاة لويولا كان هناك مائة كلية يسوعية . وبفضل التعليم والدبلوماسية والتفانى فى العمل ، وبفضل الحماسة التى يضبطها النظام ، وبفضل التنسيق بين الأهداف والتوزيع البارع فى الوسائل ، أفلح الجزويت فى صد المد البروتستنتى ، واستردوا للكنيسة جانباً كبيراً من ألمانيا ، ومعظم المجر وبوهيميا ، وكل بولنده المسيحية . وندر أن حققت جماعة بمثل هذا الحجم الصغير ، مثل هذا النجاح الكبير ، بمثل هذه السرعة الفائقة . ومضت سمعتها ونفوذها ينموان العام بعد العام ، إلى أن اعترف بعد عشرين عاماً من تأسيسها الرسمى بأنها أروع نتاج للاصلاح الكاثوليكى . ويوم اجترأت الكنيسة فى نهاية المطاف على دعوة ذلك المجمع العام الذى طال ارتقاب أوربا له ليهدىء صراعها اللاهوتى ويبرئ جراحها الدينية ، كانت حفنة من الجزويت — بثقافتهم ، وولائهم ، وحصافتهم ، وسعة حيلتهم ، وبلاغتهم — هى التى ناط بها البابوات مهمة الدفاع عن سلطتهم المتحداه ، والمحافظة على الإيمان القديم كاملا غير منقوص

الفصل التاسع والثلاثون

البابوات والمجمع

١٥١٧ - ٦٥

---

١ - البابوات يكرهون على الدفاع

لقد أرجأنا إلى آخر هذا المجلد هذه المهمة الشاقة على كاتب غير كاثوليكي ، مهمة فهم رد فعل البابوات للتحدى الذى واجههم به الإصلاح البروتستنتى ، ثم وصفه فى غير ميل ولا تحيز .

لقد كان رد الفعل أول الأمر دهشة متألمة . ولا عجب ، فبابوات فترة الإصلاح البروتستنتى ، ربما باستثناء واحد ، كانوا رجالا طيبين ، على قدر ما يتاح لرجال دولة أن يكونوا ، لا مجردين من حب الذات أو خالين من الخطايا ، بل فى جوهرهم مهذبين رحماء أذكياء ، مقتنعين فى إخلاص بأن الكنيسة مؤسسة ليست رائعة فى إنجازاتها فحسب ، ولكنها ما زالت ضرورة لا غنى عنها لصحة الإنسان الأوربى الخلقية وسلامه النفسى . وإذا سلمنا بأن خدام الكنيسة البشريين قد سقطوا فى رذائل خطيرة ، أفلا نجد عيوباً كهذه أو شراً منها فى كل إدارة علمانية ؟ وإذا كنا نحجم عن الإطاحة بالحكومة المدنية عقاباً لها على جشع أمرائها واختلاسات موظفيها ، فهل يكون إحجامنا أقل عن هدم كنيسة ظلت ألف سنة الأم التى غذت الحضارة الأوربية بالدين والتعليم والأدب والفلسفة والفن ؟ . وأى ضير فى أن تبدو بعض العقائد التى روئى أنها معوان على النهوض بالفضيلة والنظام عسيرة الهضم على المؤرخ أو الفيلسوف - وهل

التعاليم التى يقترحها البروتستنت أكثر منطقاً أو أسهل تصديقاً إلى الحد الذى يبرر أن تقلب أوربا رأساً على عقب بسبب هذا الخلاف ؟ . إن التعاليم الدينية على أية حال لا يحددها منطق القلة بل حاجات الكثرة ، إنها إطار للعقيدة يمكن فى نطاقه تنشئة الإنسان العادى الميال بطبيعته إلى ارتكاب عشرات الأفعال غير الاجتماعية . ليكون مخلوقاً يملك من الدربة وضبط النفس ما يكفى لجعل المجتمع والحضارة أمراً ممكناً . ولو أن هذا الإطار حطم ، لكان لزاماً بناء إطار آخر ، ربما بعد قرون من الفوضى الخلقية والمادية.. أليس دعاة الإصلاح البروتستنتى متفقين مع الكنيسة على أنه لا جدوى من الدستور الخلقى ما لم يعززه الإيمان الدينى ؟ أما الطبقات المفكرة فهل تراها حققت أى مزيد من الحرية أو السعادة تحت إمرة الأمراء البروتستنت عنها تحت إمرة البابوات الكاثوليك(*) ؟ ألم يزدهر الفن تحت زعامة الكنيسة، وألا يذوى تحت خصومة المصلحين البروتستنت الذين أرادوا أن ينتزعوا من الناس تلك الصور التى تغذو ما فى حياتهم من شعر وأمل ؟ وأى مبررات قاهرة تدعو فى رأى العقول الناضجة إلى تفتيت العالم المسيحى إلى مذاهب لا تحصى ، متنابذة ، مبطل بعضها للبعض ، عاجزة بمفردها أمام غرائز البشر ؟ .

إننا لا نستطيع أن نعرف هل كانت هذه مشاعر البابوات المعاصرين لحركة الإصلاح البروتستنتى ، لأن القادة النشطين قلما يذيعون على الناس فلسفاتهم . ولكن لنا أن نتصور الموقف النفسى للبابا ليو العاشر (١٥١٣ — ٢١) على هذا النحو ، إذ وجد البابوية تهتز تحت قدمية بمجرد أن دعى للاستمتاع بها . كان رجلا يشبه الكثيرين منا — مذنب بالخطيئة وبالإهمال

(*) يقول ناقد من أقوى وأعلم نقاد الكنيسة « قبل أن تنشب ثورة لوثر كانت كل أرجاء أوربا الكاثوليكية تتمتع بقدر كبير من حرية الفكر والكلام » . هنرى لى ، تاريخ محكمة التفتيش فى أسبانيا ، ص ٤١١ الجزء الثالث .

الإجرامى ، ولكنه فى جملته جدير بالصفح عنه . كان عادة ألطف الناس وأكثرهم عطفاً ، عليه رزق نصف شعراء روما ، ومع ذلك فقد لاحق مهرطقى بريشا حتى الموت ، وحاول أن يؤمن بأن الأفكار الممزقة للكنيسة يمكن أن تنتزع من البشر بحرق أصحابها . وقد أظهر من الحلم مع لوثر قصارى ما ننتظر من بابا ومن عضو فى أسرة مديتشى ، ولنتصور أن الوضع انعكس ، وكيف كان البابا مارتن يمحق المتمرد ليو محقاً ! لقد حسب ليو حركة الإصلاح البروتستنتى نزاعاً غير مهذب بين رهبان أجلاف . ومع ذلك ففى بواكير عام ١٥١٧ ، وفى بداية رياسته البابوية ، ألقى جيانفرانشسكو بيكو ديللا ميراندولا (ابن أخى بيكو الأشهر منه) أمام البابا والكرادلة خطابا يسترعى الاهتمام « يرسم فيه بأحلك الألوان ذلك الفساد الذى تسلل إلى الكنيسة » ويتنبأ بأنه « لو أن ليو . . . أبى إبراء الجراح ، فانه يخشى أن الله نفسه لن يستعمل بعد اليوم علاجاً بطيئاً ، بل سيبتر ويبيد الأعضاء المريضة بالنار والسيف »[١] . ولكن ليو انصرف على الرغم من هذا الإنذار إلى الاحتفاظ بتوازن للقوى بين فرنسا والإمبراطورية حماية للولايات البابوية . يقول مؤرخ كاثوليكى : « لم يفكر قط فى إصلاح على النطاق الواسع الذى أصبح ضرورياً . . . وظلت الإدارة البابوية فى روما دنيوية شأنها فى أى وقت مضى[٢] » .

وخير برهان على أنه لم يعد سبيل إلى الإصلاح إلا أن يأتى بضربة من الخارج هو إخفاق أدريان السادس (١٥٢٢ — ٢٣) . ذلك أنه سلم بهذه المفاسد واضطلع باصلاحها فى القمة ، ولكن أهل روما سخروا منه وسبوه لأنه يهدد مواردهم من ذهب الأقطار الواقعة وراء الألب . وبعد عامين من النضال ضد هذه الأنانية الجاهلة مات أدريان قهراً .

بيد أن العاصفة المتجمعة تفجرت على رأس كلمنت السابع (١٥٢٣ — ٣٤) . لقد كان من خيرة البابوات فكراً وخلقاً ، رحيماً كريماً ، دافع عن اليهود المطاردين ، ولم يشارك فى الانحلال الجنسى أو المالى المحيط به ،

وواصل إلى نهاية حياته المضطربة تغذية الفن والأدب الإيطاليين برعايته الذكية المميزة . ولعل ما حظى به من تعليم رفيع حال بينه وبين أن يكون إدارياً ناجحاً ، وكان فى ذكائه من الحدة ما أتاح له رؤية المبررات الحسنة لكل مسلك فى كل أزمة . وأوهن علمه من شجاعته ، وأغضبت ذبذباته الدولة تلو الدولة . على أننا لا نملك إلا التعاطف مع رجل توافر له حسن النية الشديد . رجل رأى روما تنهب تحت بصره ، ورأى نفسه سجين غوغاء وإمبراطور . رجل منعه ذلك الإمبراطور من محاولة الوصول إلى صلح معقول مع هنرى الثامن ؛ رجل أكره على أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ، أن يخسر إما هنرى وإنجلترة ، وإما شارل وألمانيا ؛ رجل قيل له حين احتج على تحالف فرنسوا مع العثمانيين ، والقائل هو ذلك الملك . « المسيحى جداً » ، إنه إذا بدر منه مزيد من الاحتجاج فان فرنسا ستطلق البابوية . إن أحداً من البابوات لم يتجرع مثله كأس المنصب حتى هذه الثمالة المرة .

وكانت أخطاؤه وبيلة . فهو حين أساء تقدير خلق شارل وموارده ، وبهذا شجع على « نهب روما » أصاب البابوية بلطمة شجعت شمال ألمانيا على نبذ الولاء لروما . وحين توج الرجل الذى أذن بذلك الهجوم فقد احترام العالم ، حتى العالم الكاثوليكى . وقد أذعن لشارل من جهة لافتقاره إلى القوة المادية اللازمة للمقاومة ، ومن جهة أخرى لخشيته من أن إمبراطوراً أقصاه البابا عن وده قد يدعو مجمعاً عاماً من العلمانيين ومن رجال الدين ، ويمسك بزمام السلطتين الكنسية والزمنية جميعاً . ويتم إخضاع الكنيسة للدولة المتمردة ، بل ربما يخلعه باعتباره ابناً غير شرعى(٣) . ولو أتيحت لكلمنت الشجاعة التى أبداها عمه لورنزو مديتشى فى نابلى عام ١٤٧٩ ، لبادر بدعوة مجمع قد يوفق تحت قيادته المتحررة فى إصلاح أخلاقيات الكنيسة وتعاليمها ، وفى إنقاذ وحدة العالم المسيحى الغربى .

أما خليفته فقد بدا لأول وهلة حائزاً على جميع شروط الذكاء والخلق . وأقر الجميع بأن أليساندرو فارنيزى ، الذى اتخذ اسم بولس الثالث ، هو الرجل الصالح لأرفع منصب فى العالم المسيحى . فقد ولد فى أسرة غنية مثقفة ، وتعلم الآداب القديمة على يد بومبونيوس لايتوس ، ونضج أديباً إنسانياً وسط أسرة مديتشى بفلورنسة ، وقربه بابا أوقعته أخته من قبل فى شباك شعرها الذهبى ، ورسم كردينالا فى الخامسة والعشرين (١٤٩٣) ، وأثبت كفايته فى مهام دبلوماسية عسيرة ، وارتقى إلى مقام مرموق وغير منازع فى مجمع الكرادلة ، ثم انتخب للبابوية بالإجماع فى عام ١٥٣٤ . ولم ينل من قدره كثيراً إنجابه أربعة أبناء قبل أن يرسم قسيساً فى عام ١٥١٩ ، ومع ذلك فقد ظهر فى خلقه ، كما ظهر فى مجرى حياته العملية . تقلب وتناقضات ، وبعض هذا راجع لأنه وقف كعمود مهزوز بين النهضة التى أحبها وبين حركة إصلاح بروتستنتى لم يستطع فهمها أو اغتفارها . ومع أنه كان رقيق البدن ، فقد سلخ خمسة عشر عاماً من الزعازع السياسية والداخلية . ومع أنه تزود بكل ثقافة عصره ، فانه كان يلجأ بانتظام إلى المنجمين ليحددوا له أكثر الساعات مواتاة لرحلاته أو قراراته بل ومقابلاته[٤] . ومع أنه كان رجلا شديد الحساسية ، ميالا بين الحين والحين إلى نوبات الغضب ، فقد كان معروفاً بضبطه لنفسه . وقد وصفه تشلليني — الذى اضطر لإيداعه السجن — بأنه رجل « لا إيمان له بالله ولا بغيره »[٥] . وهذا يبدو غلواً فى الحكم عليه ، فما من شك فى أن بولس كان يؤمن بنفسه ، إلى أن أضعف مسلك ذريته فى سنوات عمره الأخيرة إرادة الحياة فيه . وقد عوقب حيث أثم ، فقد أعاد محاباة الأقرباء التى كانت طابع بابوية عصر النهضة ، وأعطى بياتشنزا وبارما لولده بيرلويجى ، وكاميرينو لحفيده أوتافيو ، وخلع القبعة الحمراء على ابنى أخيه البالغين من العمر أربعة عشر وسبعة عشر عاماً ورقاهما على الرغم

مما ذاع عنهما من فساد خلق . لقد كان يملك شخصية بلا خلق ، وذكاء بلا حكمة .

وقد اعترف بعدالة النقد الذى وجهه دعاة الإصلاح البروتستنتى إلى إدارة الكنيسة ، ولو كان الإصلاح الكنسى هو العقبة الوحيدة فى سبيل المصالحة لجاز أن ينهى حركة الإصلاح هذه . فى عام ١٥٥٣ أوفد بيرباولو فرجيريو ليسبر القادة البروتستنت حول حضورهم مجمعاً عاماً ، ولكنه أبى أن يعد بالسماح بأى تغيير جوهرى فى العقيدة المعرفة أو فى سلطة البابوات . وعاد فرجيريو من ألمانيا بخفى حنين ، فقد أبلغ البابا أن الكاثوليك هناك انضموا إلى البروتستنت فى التشكك فى إخلاص البابا فى اقتراح عقد المجمع [٦]، وأن الأرشيدوق فرديناند شكا من أنه لا يستطيع العثور على أب اعتراف لم يكن زانياً أو سكيراً أو جهولا [٧] . وكرر بولس المحاولة فى عام ١٥٣٦ ، وكلف بيتر فان درفورست أن يتفق مع اللوثريين على شروط عقد مجمع ، ولكن ناخب سكسونيا صد بيتر فلم يظفر بشىء . وأخيراً بذل بولس قصارى جهد الكنيسة فى الوصول إلى تفاهم مع ناقديها ، فأرسل إلى مؤتمر براتسبون الكردينال جاسبارو كونتاريني ، وكان رجلا لا يتطرق الشك إلى إخلاصه فى الحركة الكاثوليكية الداعية للأصلاح .

ونحن لا نملك غير العطف على الكردينال الشيخ الذى اقتحم ثلوج الأبنين والألب فى فبراير ومارس ١٥٤١ وهو يتوق لتتويج حياته بتنظيم السلام الدينى . وقد تأثر كل من كان فى راتسبون بتواضعه ، وبساطته ، وحسن نيته . وقد توسط فى صبر القديسين بين الكاثوليك إيك وفلوج وجروبر ، والبروتستنت ملانكتون وبوكر وبيستوريوس . وأمكن التوصل إلى اتفاق حول الخطية الأصلية ، والإرادة الحرة ، والعماد ، والتثبيت ، والرسامة . وفى ٣ مايو كتب كونتاريني إلى الكردينال فارنيزى مغتبطاً

« حمداً لله ؛ بالأمس وصل اللاهوتيون الكاثولوليك والبروتستنت إلى اتفاق حول عقيدة التبرير » ، ولكن لم يتيسر الوصول إلى حل وسط مقبول حول سر القربان ، فقد أبى البروتستنت الاعتراف بأن فى استطاعة قسيس أن يحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وشعر الكاثوليك أن التخلى عن عقيدة التحول هذه معناه التخلى عن صميم القداس وطقوس كنيسة روما . وقفل كونتاريني عائداً إلى روما وقد أضناه الإخفاق والحزن ، ليدمغه أتباع الكردينال كارافا المتزمتين فى الكثلكة التقليدية بتهمة اللوثرية . ولم يفصح بولس نفسه عن استطاعته قبول الصيغ التى وقع عليها كونتاريني ، على أنه استقبله استقبالا ودياً وعينه ممثلا للبابا فى بولونيا . وهناك مات بعد وصوله بخمسة أشهر .

وأصبحت سياسة الدين أشد اكفهراراً واختلاطاً . وتساءل بولس ألا يظفر الإمبراطور شارل الخامس من وراء تصالح البروتستنت مع الكنيسة بدولة ألمانية موحدة ، يسود السلام ربوعها ، بحيث تطلق يده فى أن يولى وجهه صوب الجنوب ، ويربط أملاكه فى شمالى وجنوبى إيطاليا بالاستيلاء على الولايات البابوية والقضاء على سلطة البابوات الزمنية ؟ أما فرنسوا الأول فانه لخشيته أيضاً من تهدئة ألمانيا اتهم كونتاريني بالاستسلام المخزى للمهرطقين ، وتعهد بتأييد بولس تأييداً كاملا إن هو رفض فى حزم مصالحة اللوثريين[٨] — الذين كان فرنسوا يسعى إلى التحالف معهم : ويبدو أن رأى بولس استقر على أن التفاهم الدينى سيكون مجلبة خراب سياسى . وفى عام ١٥٣٨ استطاع بالدبلوماسية البارعة أن يقنع شارل وفرنسوا بتوقيع هدنة فى نيس ، ولما أمن شر شارل فى الغرب على هذا النحو حرضه على الهجوم على اللوثريين . وحين قارب شارل الانتصار ١٥٤٦ سحب بولس الفرقة البابوية التى كان قد أرسلها إليه ، لأنه هناصاً أى ارتعد فرقاً من أن يكون فى خلاص الإمبراطور من وجود

مشكلة بروتستنتية فى مؤخرته ما يغريه باخضاع إيطاليا كلها لسلطانه وأصبح البابا بروتستنتياً موقتاً، ونظر إلى اللوثرية كأنها حامية للبابوية — تماماً كما كان سليمان القانونى حامياً للوثرية . وفى هذه الأثناء كان فرنسوا الأول — درعه الثانى ضد شارل — يحالف العثمانيين الذين هددوا المرة بعد المرة بغزو إيطاليا والهجوم على روما . ولعلنا نغتفر بعض هذا التذبذب لبابا أرهقه الخصوم وأحدقت به المشكلات على هذا النحو ، وما من عدة لديه غير حفنة من الجند ، ولا دفاع غير إيمان لا يعمر فيما يبدو إلا قلوب الضعفاء . وفى وسعنا أن ندرك ضآلة الدور الذى لعبه الدين فى هذه الصراعات على القوة حين نسمع تعليق شارل للسفير البابوى إذ علم أن بولس حول وجهه شطر فرنسا : قال الإمبراطور إن البابا أصابته فى شيخوخته عدوى مرض يصيب الناس عادة فى شبابهم ، هو المرض الفرنسى [٩] .

ولم يصد بولس البروتستنتية ولا أدخل أى إصلاحات جوهرية ، ولكنه نفخ الحياة فى البابوية ورد لها عظمتها ونفوذها ؛ وظل إلى النهاية واحداً من بابوات النهضة . فقد شجع جهود ميكلانجلو وغيره من الفنانين وأمدهم بالمال ، وجمل روما المبانى الجديدة ، وزين الفاتيكان بـ « الصالا ريجيا » و « الكابيلا باولينا » ، وشارك فى حفلات الاستقبال الفخمة ، ورحب بالجميلات من النساء على مائدته ، واستقبل الموسيقيين والمهرجين والمغنيات والراقصات فى بلاطه [١٠] ، وحتى فى ثمانيناته لم يكن سليل فارنيزى هذا ليفسد اللعبة على لاعبيها . وقد نقله لنا تيشان فى سلسلة من اللوحات القوية ؛ وفى أفضل هذه اللوحات (المحفوظة بمتحف نابلى) يبدو هذا الحبر الأعظم ، الذى سلخ من عمره خمسة وسبعين عاماً ، محتفظاً بقوته ، على وجهه أخاديد حفرتها مشكلات الدولة والأسرة ، ولكن رأسه لم ينحن بعد للزمن . وبعد ثلاث سنوات رسم تيشان لوحة لبولس وابنى أخيه أوتافيو

والسندرو (محفوظة هي الأخرى بنابلي) كادت تتنبأ بمصيره ، فالبابا الذى انحنى الآن ظهره ونال منه الأعياء . يبدو فيها وكأنه يستجوب أوتافيو مستريباً فى أمره . ذلك أن بيرلويجى . بن بولس ، اغتيل عام ١٥٤٧ ، وفى عام ١٥٤٨ تمرد أوتافيو على أبيه ، ودخل فى اتفاق مع أعداء بولس ليجعل بارما ولاية إمبراطورية . وأسلم البابا العجوز نفسه للموت (١٥٤٩) بعد أن هزمه حتى أبناؤه .

وقد أخطأ خليفته فى تسمية نفسه بيوليوس الثالث (١٥٥٠٠ — ٥٥)، إذ لم يكن فيه شيء من فحولة يوليوس الثانى ولا قوته ولا أهدافه الطموحة . بل إنه استأنف أساليب ليو العاشر السهلة الهينة ، واستمتع بالبابوية فى إسراف لطيف ، وكأن حركة الإصلاح البروتستنتى ماتت بموت لوثر . فخرج للصيد ، واحتفظ بندماء البلاط ، وقامر بمبالغ كبيرة ، ورعى مصارعات الثيران ، ورقى لمنصب الكردينالية تابعاً له يعنى بنسناسه ، وأعطى روما على الجملة آخر رشفة رشفتها من وثنية النهضة سواء فى الأخلاق والفن[١١] . وقد كلف فينولا وغيره بأن يشيدوا له خارج « البورتا ديل بوبولو » بيتا جميلا « فيللا دى بابا جوليو » (١٥٥٣) جعله مركزاً للفنانين والشعراء والاحتفالات . ثم كيف نفسه فى هدوء وفق سياسات شارل الخامس . وشكا النقرس فى غير أوانه ، فحاول علاجه بالصوم . ويبدو أن هذا البابا الأبيقورى مات من الزهد فى الطعام[١٢]، وقيل من الانغماس فى اللذات[١٣] .

وجاء البابا مارتشيللوس الثانى ، وكان أقرب إلى القديسين . فحياته الخلقية بلا لوم ، وتقواه عميقة ، واختياره لشاغلى المناصب مثالى ، وجهوده لإصلاح الكنيسة مخلصة ، ولكنه مات فى اليوم الثانى والعشرين من تقلده منصب البابوية (٥ مايو ١٥٥٥) .

وكأن الكرادلة أرادوا أن يعلنوا على الملأ أن معارضة الإصلاح

البروتستنتى قد وصلت إلى البابوية ، فقلدوها رجلا كان روح حركة الإصلاح فى الكنيسة وصوتها ، وهو الناسك جوفانى بييترو كارافا ، الذى سمى نفسه بولس الرابع (١٥٥٥ — ٥٩) . وكان وقد بلغ التاسعة والسبعين ثابتاً على آرائه لا يحيد عنها قيد أنملة ، مكرساً نفسه لتنفيذها برسوخ فى الإرادة وحدة فى العاطفة لا يكادان يناسبان رجلا فى سنه . كتب السفير الفلورنسي يقول : « إن البابا رجل قد من حديد ، بل إن الأحجار التى يمشى فوقها تنفث الشرر»[١٤] . كان مولده فى بينيفنتو ، لذلك حمل حرارة جنوبى إيطاليا فى دمه ، وبدت النار دائمة التوقد فى مقلتيه الغائرتين. وكان فى طبعه فورة البركان ، ولم يجرؤ على معارضته سوى السفير الأسبانى تدعمه فرق الدوق ألفا . وقد كره بولس الرابع أسبانيا لأنها سيطرت على إيطاليا ، وكما حلم يوليوس الثانى وليو العاشر بطرد الفرنسيين ، كذلك كان أول أهداف هذا الثمانينى النشيط تحرير إيطاليا والبابوية من السيادة الأسبانية — الإمبراطورية . فاتهم شارل الخامس بأنه ملحد مقنّع[١٥] ، وابن مجنون لأم مجنونة ، وشخص « كسيح جسداً وروحاً »[١٦] ، ودمغ الشعب الأسبانى بأنه حثالة من الساميين[١٧] ، وأقسم أنه لن يعترف بفيليب واليا على ميلان . وفى ديسمبر ١٥٥٥ عقد معاهدة مع هنرى الثانى ملك فرنسا وإيركولى الثانى أمير فرارة لطرد جميع القوات الأسبانية أو الإمبراطورية من إيطاليا ، فاذا تم للحلفاء النصر أخذت البابوية سيينا ، والفرنسيون ميلان ، وحكموا نابلى بوصفها ولاية بابوية ، ووجب عزل شارل وفرديناند لقبولهما شروط البروتستنت فى أوجزبورج[١٨] .

وبمهزلة من هذه المهازل التى يمكننا رؤيتها ، ونحن على بعد كاف ، فى مآسى التاريخ ، وجد فيليب الثانى نفسه فى حرب مع البابوية وهو أشد أنصار الكنيسة غيرة وتحمساً . فأمر الدوق ألفا على مضض بأن يزحف بجيش نابولى على الولايات البابوية . ولم تمض أسابيع حتى هزم الدوق

بجنوده المتمرسين بالقتال ، البالغ عددهم ١٠,٠٠٠ ، قوات البابا الضعيفة ، واستولى على المدينة تلو المدينة ، ونهب أنانيي ، واستولى على أوستيا ، وهدد روما (نوفمبر ١٥٥٦) . وبارك بولس معاهدة بين فرنسا والعثمانيين ، ولجأ وزير خارجيته ، الكردينال كارلو كارافا ، إلى سليمان القانونى ليهاجم نابلى وصقلية[١٩] . وأرسل هنرى الثانى جيشاً إلى إيطاليا يقوده فرنسوا دوق جيز ، فاستعاد أوستيا ، وهلل البابا ، ولكن هزيمة الفرنسيين فى سان — كنتان أكرهت جيز على العودة برجاله سريعاً إلى فرنسا ، وزحف ألفا على أبواب روما دون مقاومة . وولول أهل روما فرقاً ، وودوا لو أن حبرهم الدينى الطائش كان نزيل قبره[٢٠] ، ورأى بولس أن المزيد من القتال قد يعيد « نهب روما » الرهيب ، بل قد يحمل أسبانيا على الانفصال عن كنيسة روما . لذلك وقع فى ١٢ سبتمبر ١٥٥٧ معاهدة صلح مع ألفا ، الذى عرض شروطا سخية ، واعتذر عن انتصاره ، ولثم قدم البابا المغلوب[٢١] . وردت إلى البابا جميع أراضيه التى سبق الاستيلاء عليها ، ولكن السيادة الأسبانية على نابلى وميلان والبابوية تأكدت . وبلغ انتصار الدولة على الكنيسة منتهاه ، حتى أن الأمراء الناخبين هم الذين توجوا فرديناند حين تسلم لقب الإمبراطور من شارل الخامس (١٥٥٨) ، ولم يسمح لأى ممثل للبابا بالقيام بأى دور فى مراسيم الاحتفال . وهكذا كانت نهاية تتويج البابوات لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وتحقق آخر المطاف انتصار شارلمان فى خلافه مع ليو الثالث .

والآن وقد تخفف بولس الرابع طوعاً أوكرها من أعباء الحرب ، فانه فرغ فيما بقى له من فترة بابويته للاصلاحات الكنسية والأخلاقية التى ذكرناها من قبل . وقد توجها بطرد وزيره الإباحى الكردينال كارلو كارافا ، وإن جاء هذا الطرد متأخراً ، وبنفى ابنى أخ آخرين من روما ؛ وكانا قد شوها سمعة بابويته . وأجليت عن الفاتيكان أخيراً سبة محاباة الأقرباء التى استشرت فيه قرنا من الزمان .

٢ ـ الرقابة ومحكمة التفتيش

وهذا البابا الحديدى هو الذى بلغت رقابة المطبوعات فى عهده غاية الصرامة واتساع المدى ، وأصبحت محكمة التفتيش ضرباً من الإرهاب كادت تبلغ وحشيته فى روما ما بلغته فى أسبانيا . ولعل بولس الرابع شعر بأن رقابة المطبوعات وقمع الهرطقة واجبان لا مندوحة عنهما لكنيسة أجمع الرأى البروتستنتى والكاثوليكى على أن مؤسسها هو ابن الله . لأنه إذا كانت الكنيسة من الله ، فخصومها إذن لا بد عملاء للشيطان ، والحرب الدائمة على هؤلاء الشياطين التزام دينى قبل إله مهان .

والرقابة قديمة قدم الكنيسة نفسها تقريباً . فالمسيحيون فى أفسس أحرقوا فى عصر الرسل كتباً فى « فنون غريبة » قيل إن قيمتها بلغت « ٥٠,٠٠٠ قطعة من الفضة [٢٢] » ، وحرم مجمع أفسس (١٥٠) تداول « أعمال بولس » [٢٣] غير القانونية . وفى فترات مختلفة أمر البابوات بحرق التلمود أو غيره من كتب اليهود . وحظرت ترجمة ويكليف وما تلاها من الترجمات البروتستنتية للكتاب المقدس لاحتوائها مقدمات وهوامش وتصحيحات معارضة للكاثوليكية. وزاد اختراع الطباعة من حرص الكنيسة على ألا تفسد أبناءها التعاليم الباطلة . فأمر مجمع اللاتيران الخامس (١٥١٦) بألا تطبع بعده كتب دون أن تفحصها الكنيسة وتوافق عليها . وأصدرت السلطات الزمنية بيانات بمحظوراتها من المطبوعات غير المرخصة : مجلس شيوخ البندقية فى ١٥٠٨ ، ومجلس نواب فورمز ومراسيم شارل الخامس وفرنسوا الأول فى ١٥٢١ ، وبرلمان باريس فى ١٥٤٢ . وفى ١٥٤٣ وسع شارل الرقابة الكنسية على المطبوعات فشملت أمريكا الأسبانية . وفى عام ١٥٤٤ نشرت السوربون أول فهرس عام بالكتب المحرمة ، ونشرت محكمة التفتيش أول قائمة إيطالية فى عام ١٥٤٥ .

وفى عام ١٥٥٩ نشر بولس الرابع أول فهرس بابوى بالكتب المحظورة ، وقد ورد فيه ثمان وأربعون طبعة مهرطقة للكتاب المقدس ، وأوقع الحرم على واحد وستين طابعاً وناشراً [٢٤] . وقد فرض على كل كاثولكى الامتناع عن قراءة أى كتاب نشر منذ سنة ١٥١٩ دون أن يحمل اسمى المؤلف والطابع ومكان النشر وتاريخه ، وحرمت قراءة أى كتاب بعد ذلك لم يحصل على إذن كنسى "imprimatur" بطبعه . وشكا باعة الكتب وطلاب العلم من أن هذه الإجراءات معطلة لهم أو قاضية عليهم ، ولكن بولس أصر على الطاعة التامة . وأحرقت آلاف الكتب فى روما وبولونيا ونابلى وميلان وفلورنسه والبندقية — ١٠,٠٠٠ فى البندقية فى يوم واحد[٢٥] . وبعد موت بولس انتقد نفر من قادة الكنيسة إجراءاته لما فيها من مغالاة فى العنف وعدم التمييز ، ورفض مجمع ترنت فهرسه ، وأصدر تحريماً أكثر تنظيماً ، هو « الفهرس الثلاثى » (١٥٦٤) . وشكلت لجنة خاصة للفهرس فى ١٥٧١ لمراجعة القائمة وإعادة نشرها بصفة دورية .

ومن العسير الحكم على أثر هذه الرقابة . وعند باولو ساربى ، وكان راهباً سابقاً ، ومعارضاً للإكليروس ، أن الفهرس « هو أبدع سر كشف إلى الآن . . . لفرض البلاهة على الناس[٢٦] » . ولعله شارك فى احداث اضمحلال إيطاليا الفكرى بعد عام ١٦٠٠ ، واضمحلال أسبانيا بعد عام ١٧٠٠ ، ولكن العوامل الاقتصادية والسياسية كانت أهم . والفكر الحر ، كما يقول أقوى مؤرخ إنجليزى له ، عاش فى الدول الكاثوليكية خيراً مما عاش فى الدول البروتستنتية ، وتبين حتى عام ١٧٥٠ أن الحكم المطلق للكتب المقدسة الذى فرضه اللاهوتيون البروتستنت أشد إيذاء للبحث والتفكير المستقلين من فهارس الكنيسة ومحكمة تفتيشها[٢٧] . أياً كان الأمر فان الحركة الانسانية ذبلت ، فى الدول الكاثوليكية والبروتستنتية على السواء . وخف التأكيد على الحياة فى الأدب ، واضمحلت دراسة اليونانية ومحبة الآداب

الوثنية ، ورمى اللاهوتيون المتصرون الإنسانيين الإيطاليين (ولهم بعض العذر في هذا) بأنهم كفرة متغطرسون فاسقون .

ونفذت الرقابة على الكتب في تراخ حتى وكلها بولس الرابع إلى محكمة التفتيش (١٥٥٥) . وكانت هذه المؤسسة التي أنشئت أولا عام ١٢١٧ قد انتكست سلطتها وسمعتها نتيجة لتساهل بابوات النهضة . ولكن حين أخفقت آخر محاولة للمصالحة مع البروتستنت في راتسبون ، وظهرت التعاليم البروتستنتية في إيطاليا ذاتها ، حتى بين رجال الإكليروس ، وخيف أن تتحول مدن بأسرها مثل لوكا ومودينا إلى البروتستنتية[٢٨] اشترك الكردينال جوفاني كارافا ، وإجناتيوس لويولا ، وشارل الخامس في الإلحاح على إعادة محكمة التفتيش . وأذعن بولس الثالث (١٥٤٢) ، وعين كارافا وخمسة كرادلة آخرين لإعادة تنظيم المؤسسة ، وخول لهم سلطة تفويض كنسيين خاصين في أرجاء العالم المسيحي ، وشرع كارافا في التنفيذ بما عهد فيه من صرامة ، وأنشأ مقرا للمحكمة وسجنا ، ووضع هذه القواعد لمرءوسيه :

١ — حين يكون الإيمان موضع شك يجب ألا يكون هناك أي تأجيل ، ولا بد من اتخاذ الإجراءات الصارمة بكل سرعة إذا قامت أقل شبهة .

٢ — يجب ألا يكون هناك أي اعتبار لأي أمير أو حبر مهما علا منصبه .

٣ — الصرامة المتناهية أولى أن تستعمل مع أولئك الذين يحاولون الاحتماء بأي حاكم . ولا يعامل بالرفق والعطف الأبوي إلا من اعترف اعترافاً كاملا .

٤ — يجب ألا يحط إنسان من قدره بابداء التسامح نحو المهرطقين أياً كان نوعهم ، ونحو الكالفنيين على الأخص[٢٩] .

فأما بولس الثالث ومارتشيللوس الثاني فقد قيدا حماسة كارافا ، واحتفظا بحق العفو عند الاستئناف . وأما يوليوس الثالث فكان أوهن من أن يتدخل في عمل كارافا ، فأحرق في عهده نفر من المهرطقين في روما .

وفى عام ١٥٥٠ أمرت محكمة التفتيش الجديدة بمحاكمة أى كاهن كاثوليكى لا يعظ ضد البروتستنتية . فلما ارتقى كارافا نفسه عرش البابوية باسم بولس الرابع ، انطلقت المؤسسة إلى العمل بكل طاقتها . « واكتسبت المحكمة بفضل صرامته الخارقة سمعة واسعة ، بحيث لم يكن هناك كرسى قضاء آخر فى الأرض يتوقع الناس منه إصدار أحكام أشد بشاعة وإرهاباً » على حد قول الكردينال سريباندو[٣٠] . ووسع اختصاص محكمة التفتيش حتى شمل التجديف والمتاجرة بالرتب الكهنوتية (السيمونية) ، واللواط ، والزواج المتعدد ، وهتك العرض ، والقوادة ، وانتهاك نظم الكنيسة فى الصوم ، وغير هذه من الذنوب التى لا تمت للهرطقة بسبب . ونحن نسوق أيضاً هذه الفقرة من كلام مؤرخ كاثوليكى عظيم :

« كان البابا العجول السريع التصديق يعير أذناً صاغية لكل اتهام ولو كان شديد السخف . . . وكان رجال محكمة التفتيش الذين لم يفتر البابا عن حضهم يشمون الهرطقة فى حالات كثيرة ما كان المراقب الهادئ الحذر ليكشف فيها أثراً لهرطقة . . . وحرض الحاسدون والمفترون على بذل الجهد فى تسقط الكلمات المريبة من شفاه رجال كانوا عمداً راسخة للكنيسة ضد المبتدعين ، وعلى تلفيق تهم الهرطقة لهم . . . وبدأ عصر إرهاب فعلى ملأ روما كلها بالخوف »[٣١] .

وفى قمة هذا العنف (٣١ مايو ١٥٥٧) أمر بولس بالقبض على الكردينال جوفانى مورونى ، أسقف مودينا ؛ وفى ١٤ يونيو أمر الكردينال بولى بأن يتخلى عن سلطة الممثل البابوى فى إنجلترا ويحضر إلى روما ليواجه محاكمته بتهمة الهرطقة . وقال البابا إن مجمع الكرادلة نفسه سرت إليه دعوى الهرطقة . أما بولى فقد بسطت عليه الملكة مارى حمايتها ومنعت تسليم الاستدعاء البابوى له . وأما مورونى فقد اتهم بأنه وقع اتفاق راتسبون حول عقيدة التبرير بالإيمان ، وبأنه تهاون مع المهرطقين الداخلين فى

نطاق سلطته ، وبأنه كان صديقاً لبولى ، وفتوريا كولونا ، وفلامينيو ، وغيرهم من الشخصيات الخطرة ، وبعد أن قضى ثمانية عشر يوماً سجيناً فى قلعة سانت أنجيلو أصدر قضاة التفتيش حكمهم ببراءته ، وأمروا بالإفراج عنه ، ولكنه أبى أن يبرح زنزانته حتى يقر بولس ببراءته . ولكن بولس رفض ، فظل مورونى سجيناً حتى أطلقه موت البابا . وأما فلامينيو فقد فوت على محكمة التفتيش غرضها بموته ، « ولكننا أحرقنا أخاه شيزارى فى الميدان المواجه لكنيسة المينرفا »[٣٢] ، كما قال بولس : وراح الحبر المجنون يطارد أقرباءه هو بشبهات الهرطقة فى عناد لا يعرف التحيز . قال « لو أن أبى ذاته كان مهرطقاً لجمعت الحطب لحرقه »[٣٣] .

كان بولس لحسن الحظ بشرا نهايته الموت ، فقضى لحسابه . بعد أربع سنوات من الحكم . واحتفلت روما بموته بأربعة أيام من الشغب المرح ، حطمت خلالها الجماهير تمثاله ، وجرته فى الشوارع ، ثم أغرقته فى نهر تيبر ، وأحرقت مبانى محكمة التفتيش ، وأطلقت سجناءها ، وأتلفت وثائقها[٣٤] . ولعل البابا كان يرد على هذا بأنه ما كان فى استطاعة رجل أن يصلح أخلاق روما ومفاسد الكنيسة إلا إذا أوتى صرامته وشجاعته اللتين لا هوادة فيهما ، وأنه وفق فى هذه المغامرة بينما أخفق أسلافه . ومن أسف أنه فى محاولته إصلاح الكنيسة تذكر توركويمادا ونسى المسيح .

وتنفس غرب أوربا كله الصعداء حين اختار مجمع الكرادلة سنة ١٥٥٩ جوفانى أنجيلو دى مديتشى حبرا أعظم باسم البابا بيوس الرابع . لم يكن مليونيراً مديتشيا ، بل ابن جاب للضرائب ميلانى ، اشتغل بالمحاماة ليكسب قوته ، وظفر باعجاب بولس الثالث وثقته ، فعين كردينالا ، واشتهر بالذكاء والميل إلى أعمال البر ، فلما ارتقى عرش البابوية ابتعد عن الحرب ووبخ أولئك الذين كانوا يشيرون بالسياسات العدوانية ، ولم يقض على محكمة التفتيش ، ولكنه أشعر قضاتها بأنهم

« يسرونه أكثر لو ياشروا عملهم بلطف السادة المهذبين لا بجلافة الرهبان »[٣٥].
وأراد اغتياله متعصب حسبه مفرطاً فى اللين ، ولكنه شلّ رهبةً حين
مر به البابا هادئاً مجردا من أسباب الدفاع . وقد برهن على ما أوتى من
روح المصالحة إذ سمح لأساقفة ألمانيا الكاثوليك بمناولة سر القربان بالخبز
والخمر كليهما. وأعاد عقد مجمع ترنت ، وقاده إلى خاتمة اتسمت بالنظام ،
ثم فارق الحياة عام ١٥٦٥ بعد رياسة دعمت فى هدوء حركة المعارضة
للإصلاح البروتستنتى .

٣ — مجمع ترنت (١٥٤٥ — ٦٣)

قبل أن يأتى لوثر بزمن طويل ارتفعت مئات الأصوات مطالبة بعقد
مجمع يصلح الكنيسة . وطالب لوثر بعرض نزاعه مع البابا على مجمع
عام حر ، وطالب شارل الخامس بعقد مجمع كهذا بأمل نفض يده
من المشكلة البروتستنتية ، وربما بأمل تأديب البابا كلمنت السابع ،
واستطاع ذلك البابا الذى أنهكته الهجمات المتكررة أن يجد مائة عذر
لتأجيل مثل هذا المجمع حتى يصبح بعيداً عن متناوله . فقد تذكر ما حدث
للسلطة البابوية فى مجمعى كونستانس وبازل ، وما كان ليسمح لأساقفة
معادين له ، أو لمندوبى الإمبراطور ، بدس أنوفهم فى سياساته أو مصاعبه
الداخلية أو مولده . ثم كيف يستطيع مجمع أن ينقذ الموقف ؟ ألم يرفض
لوثر الاعتراف بالمجامع كما رفض الاعتراف بالبابوات ؟ ولو قبل
البروتستنت فى مجمع وسمح لهم بحرية الكلام فان النزاع الذى سيسفر
عنه هذا القبول سيوسع الانشقاق ويزيده مرارة ويزعج أوربا بأسرها ؛
ولو حيل بينهم وبينه لأثاروا غضب التمرد والعصيان . وأراد شارل أن
يعقد المجمع على أرض ألمانية ، ولكن فرنسوا أبى السماح للإكليروس
الفرنسى بحضور اجتماع خاضع لسيادة الإمبراطور . يضاف إلى هذا

رغبة فرنسوا فى الإبقاء على النيران البروتستنتية مشتعلة فى المؤخرة الإمبراطورية . لقد كان الموقف مختلطاً أشد الاختلاط .

فلما جاء بولس الثالث ساورته كل مخاوف كلمنت ، ولكنه كان أشجع منه . ففى عام ١٥٣٦ أصدر دعوة لمجمع عام يجتمع فى مانتوا فى ٢٣ مايو ١٥٣٧ ، ودعا البروتستنت لحضوره . وافترض أن جميع الأطراف التى ستحضره ستقبل النتائج التى يخلص إليها المجمع ؛ ولكن ما كان للبروتستنت وهم أقلية فى مؤتمر كهذا أن يقبلوا مثل هذا الالتزام . وأشار لوثر بعدم الحضور ، ورد مؤتمر البروتستنت المنعقد فى شمالكالدين دعوة البابا دون أن يفتحها . وواصل الإمبراطور إصراره على عقد المجمع فى أرض ألمانية ، وكانت حجته أنه لو عقد فى أرض إيطالية لازدحم بالأساقفة الإيطاليين ولأصبح لعبة فى يد البابا . وبعد الكثير من المفاوضات والتأجيلات وافق بولس على عقد المجمع فى ترنت ، وكانت تقع فى أرض إمبراطورية وتخضع لشارل على الرغم من غلبة الإيطاليين على سكانها . ودعى المجمع للانعقاد فيها فى أول نوفبر ١٥٤٢ .

ولكن ملك فرنسا رفض أن يلعب دوره . وأبى نشر دعوة البابا فى أرجاء ملكه ، وهدد بالقبض على أى فرد من الإكليروس الفرنسى يحاول حضور مجمع منعقد على أرض عدوه ، فلما افتتح المجمع لم يكن حاضراً سوى بضعة أساقفة كلهم إيطاليون ، وأجل بولس الاجتماع حيناً حتى يسمح شارل وفرنسوا بانعقاد المجمع بكامل عدده . وبدا أن صلح كريبى قد أزاح العقبات من الطريق ، ودعا بولس إلى عودة انعقاد المجمع فى ١٤ مارس ١٥٤٥ . ولكن تجدد الخطر على الإمبراطور من العثمانيين أكرهه ثانية على مصالحة البروتستنت ، فطلب تأجيل المجمع مرة أخرى ، ولم يبدأ « المجمع المسكونى التاسع عشر للكنيسة المسيحية » دوراته النشيطة إلا فى ١٣ ديسمبر ١٥٤٥ .

ولكن حتى هذه البداية لم يحالفها التوفيق ، ولم تبلغ قط مبلغ « نصف العمل » . ذلك أن البابا الذى قارب الثمانين ظل فى روما ، يرأس المجمع « غيابياً » ، ولكنه ندب عنه ثلاثة كرادلة يمثلونه : ديل مونتى ، وتشرفينى ، وبولى . وكان قوام المجمع كردينال ترنت مادروزو ، وأربعة رؤساء أساقفة ، وعشرين أسقفاً ، وخمسة من قادة الطرق الديرية ، وبعض رؤساء الأديار ، وبضعة لاهوتيين ؛ ولم يكن فى وسع المجمع حتى ذلك الحين الزعم بأنه « مسكونى » – أى عالمى[٣٦]. وبينما كان حق التصويت فى مجمعى كونستانس وبازل متاحاً للقساوسة ، والأمراء ، وبعض العلمانيين ، كما كان متاحاً للأساقفة ، وكان التصويت بالمجموعات القومية ، فان هذا الحق قصر هنا على الكرادلة والأساقفة والقواد ورؤساء الأديار ، وكان التصويت بالأفراد ، ومن ثم فان الأساقفة الإيطاليين – وأكثرهم مدين للبابوية أو موال لها لأسباب أخرى – سيطروا على المجمع بأغلبيتهم العددية . وحضّرت اللجان المجتمعة فى روما باشراف البابا المسائل التى لا يمكن عرض غيرها للمناقشة[٣٧] . وقد لاحظ مندوب فرنسى أنه ما دام المجمع يزعم بأنه يعمل بارشاد الروح القدس ، فان الأقنوم الثالث كان يأتى إلى ترنت بانتظام فى حقيبة البريد القادمة من روما[٣٨] .

ودارت أولى المناقشات حول الإجراءات : أمن الواجب البدء بتعريف الإيمان ثم البحث فى الإصلاحات ، أم العكس ؟ فأما البابا ومؤيدوه الإيطاليون فأرادوا البدء بتعريف العقائد . وأما الإمبراطور ومؤيدوه فأرادوا البدء بالإصلاح ، أملا من شارل فى تهدئة البروتستنت أو إضعافهم أو إحداث مزيد من الانقسام فى صفوفهم ، وأملا من الأحبار الألمان والأسبان أن تقلل الإصلاحات من سلطة البابا على الأساقفة والمجامع . وقد أمكن الوصول إلى حل وسط ، فاتفق على أن تحضر لجان مترامنة القرارات حول العقيدة والإصلاح ، وتعرض هذه القرارات على المجمع بالتناوب .

وفى مايو ١٥٤٦ أوفد بولس اثنين من اليسوعيين هما لاينيز وسالميرون ليساعدا مندوبيه فى الشئون اللاهوتية وفى الدفاع عن البابا ؛ ثم انضم إليهما بيتر كانيزيوس وكلود لوجى . وما لبث تفقّه اليسوعيين الذى لم يضارعهم فيه أحد أن أكسبهم نفوذاً طاغياً فى المناقشات ، وقاد إصرارهم على سلامة العقيدة المجمع إلى إعلان الحرب على أفكار الإصلاح البروتستنتى بدلا من التماس التوفيق أو الوحدة . وكان حكم الأغلبية فيما يبدو أن أى تنازلات للبروتستنت لن ترأب الصدع ، وأن الملل البروتستنتية تعددت وتنوعت بحيث لا يمكن لأى حل وسط أن يرضى بعضها دون أن يغضب البعض الآخر ، وأن أى تغيير جوهرى فى العقائد التقليدية من شأنه أن يضعف بنيان الكاثوليكية العقائدى واستقرارها كله ؛ وأن السماح للعلمانيين بالسلطات الكهنوتية سيقوض السلطة الأدبية للكهنوت والكنيسة ، وأن هذه السلطة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى ؛ وأن لاهوتاً يرتكز بصراحة على الإيمان سيحبط نفسه إذا خضع لأهواء التفكير الفردى . وبناء عليه فان دورة المجمع الرابعة (أبريل ١٥٤٦) أكدت من جديد كل فقرة من فقرات العقيدة التقوية ، وادعت سلطانا متساوياً لتقليد الكنيسة وللكتاب المقدس ، وأعطت الكنيسة الحق دون غيرها فى شرح الكتاب وتفسيره ، وأعلنت أن ترجمة جيروم اللاتينية هى الترجمة والنص النهائيان للكتاب : وتقرر أن القديس توما الأكوينى هو الشارح العمدة للاهوت النقى من الشوائب ، ورفع كتابه « خلاصة اللاهوت » إلى مقام لا يعلوه فيه إلا الكتاب المقدس والمراسيم البابوية[٣٩] . وهكذا نرى أن الكاثوليكية بوصفها ديناً ذا سلطان معصوم بدأت عملياً من مجمع ترنت ، وتبلورت على هيئة استجابة عنيدة لذلك التحدى الذى واجهتها به البروتستنتية ، والعقلانية ، والرأى الفردى . وانتهى بذلك « اتفاق الجنتلمان » بين كنيسة النهضة والطبقات المفكرة .

ولكن إذا كان الإيمان حيوياً إلى هذا الحد . فهل كان أيضاً كافياً فى ذاته لاستحقاق الخلاص كما زعم لوثر ؟ لقد ارتفعت فى الدورة الخامسة (يونيو ١٥٤٦) مناقشات عنيفة حول هذه النقطة ، وأمسك أحد الأساقفة بلحية آخر وانتزع منها حفنه من الشعر الأبيض ، ولما سمع الأمبرطور بما وقع أرسل إلى المجمع يقول إنه إن لم يهدأ فسيأمر بالقاء نفر من الأساقفة فى نهر أديج ليهدىء ثائرتهم(٤٠) . ودافع ريجينالد بولى عن رأى قريب قرباً خطراً من رأى لوثر ، حتى أن الكردينال كارافا (الذى أصبح بولس الرابع فيما بعد) دمغه بالهرطقة ، وانسحب بولى من المعركة قاصداً بادوا ، واعتذر بالمرض عن التخلف عن حضور المجمع(٤١) . ودافع الكردينال سيريباندو عن الصيغة التوفيقية التى عرضها فى راتسبون الكردينال كنونتاريني ، وكان قد مات ، ولكن لاينيز أقنع المجمع بأن يشدد على أهمية الأعمال الصالحة وحرية الإرادة ، معارضاً بذلك لوثر معارضة كاملة .

أما إجراءات الإصلاح الكنسى فكانت حركتها أقل نشاطاً من تعريفات العقيدة . كان أسقف كاتدرائية القديس مرقس قد افتتح دورة ٦ يناير ١٥٤٦ برسمه صورة قاتمة للفساد الذى استشرى فى العالم ، والذى لن يفوقه فى ظنه فساد الأجيال القادمة إطلاقاً ، وقد عزا هذا الفساد « إلى شر الرعاة دون سواه » . وقال إن هرطقة لوثر سببها الرئيسى خطايا الإكليروس ، وإن إصلاح الإكليروس خير سبيل لقمع هذا التمرد(٤٢) . ولكن الإصلاح الجوهرى الوحيد الذى تحقق فى هذه الدورات الأولى كان ذلك الذى حرم على الأساقفة الإقامة بعيداً عن أسقفياتهم ، أو شغل أكثر من أسقفية . واقترح المجمع على البابا أن ينقل إصلاح قسم الوثائق من التوصيات النظرية إلى الأوامر الفعلية ، ولكن بولس كان يريد أن تترك شئون الإصلاح للبابوية ، فلما أصر الإمبراطور على مزيد من السرعة فى مناقشات الإصلاح فى المجمع ، أمر البابا مندوبيه بأن يقترحوا نقل

المجمع إلى بولونيا — التى تسمح لروما بأن تشرف على أعمال المجمع إشرافاً أسرع لأنها واقعة فى الولايات البابوية . ووافق الأساقفة الإيطاليون ، أما الأساقفة الإسبان والإمبراطوريون فاحتجوا ، وظهر فى ترنت طاعون غير ذى بال فى الوقت المناسب فقضى على أحد الأساقفة ، وانتقلت الأغلبية الإيطالية إلى بولونيا ، أما الباقون فظلوا فى ترنت . ورفض شارل الاعتراف بدورات بولونيا . وهدد بعقد مجمع منفصل فى ألمانيا . وبعد عامين من الجدل والمناورة خضع بولس وعطل مجمع بولونيا (سبتمبر ١٥٤٩) .

وخف توتر الموقف بموت بولس . ووصل يوليوس الثالث إلى تفاهم مع الإمبراطور ، فدعا المجمع للانعقاد مرة أخرى فى ترنت فى مايو ١٥٥١ لقاء وعد من شارل بالامتناع عن تأييد أى إجراء من شأنه اختزال سلطة البابا ، ووافق البابا على إعطاء اللوثريين فرصة الإدلاء بأقوالهم . ولكن هنرى الثانى ملك فرنسا رفض الاعتراف بالمجمع لأنه كره هذا التقارب بين البابا والإمبراطور . فلما اجتمع كان عدد الحاضرين ضئيلا فاضطر إلى تأجيل اجتماعاته . ثم عاد إلى الاجتماع فى أول سبتمبر بحضور ثمانية من رؤساء الأساقفة ، وستة وثلاثين أسقفاً ، وثلاثة رؤساء أديار ، وخمسة قادة ، وثمانية وأربعين لاهوتياً . ويواكيم الثانى ناخب براندنبورج ، وسفراء يمثلون شارل وفرديناند .

وأكدت الدورة الثالثة عشرة للمجمع (أكتوبر ١٥٥١) من جديد عقيدة التحول الكاثوليكية ، فالكاهن بتقديسه الخبز والخمر فى سر القربان يحولهما فعلا إلى جسد المسيح ودمه . بعد هذا لم يعد هناك جدوى من الاستماع إلى البروتستنت ، ولكن شارل أصر على هذا . واختار دوق فورتمبرج ، وموريس ناخب سكسونيا ، وبعض مدن جنوبى ألمانيا — اختار هؤلاء أعضاء وفد بروتستنتى ، ووضع ملانكتون بياناً بالعقيدة اللوثرية لرفعه .

إلى المجمع : وضمن شارل للمندوبين سلامة المرور ، ولكنهم إذ تذكروا كونستانس وهس طلبوا أيضاً ضماناً بسلامة المرور من المجمع ذاته . وبعد نقاش طويل منحهم المجمع الضمان . ولكن راهباً دومنيكياً ذكر فى عظة تدور حول مثل الزوان ، ألقاها فى ذات الكاتدرائية التى انعقدت فيها دورات المجمع ، أن زوان المهرطقين قد يمهلون إلى أجل ، ولكن لا بد فى النهاية من حرقهم[٤٣] .

وفى ١٤ يناير ١٥٥٢ ألقى المندوبون البروتستنت كلمتهم فى المجمع : فاقترحوا تأكيد المراسيم التى أصدرها مجمعا كونستانس وبازل بشأن تخويل المجامع سلطاناً أعلى على البابوات ، وأن يحل أعضاء المجمع الحاضر من عهود الولاء للبابا يوليوس الثالث ، وأن جميع القرارات التى وصل إليها المجمع حتى ذلك التاريخ يجب إلغاؤها ، وأنه يجب أن يعيد مجمع موسع يمثل فيه البروتستنت تمثيلا كافياً مناقشة الموضوعات من جديد[٤٤] . ومنع يوليوس الثالث بحث هذه المقترحات . وقرر المجمع تأجيل البت فيها إلى ١٩ مارس ، وهو التاريخ الذى يتوقع فيه وصول مزيد من المندوبين البروتستنت .

وفى أثناء هذه العطلة طرأت على اللاهوت تطورات حربية على نحو غير متوقع . ففى يناير ١٥٥٢ وقع ملك فرنسا حلفاً مع البروتستنت الألمان ، وفى مارس زحف موريس أمير سكسونيا على إنزبروك ، وفر شارل ، وما كان لأية قوة أن تمنع موريس إن شاء من الاستيلاء على ترنت والإطاحة بالمجمع . واختفى الأساقفة واحداً بعد الآخر ، وفى ٢٨ أبريل عطل المجمع رسمياً . ونزل فرديناند بمقتضى معاهدة باساو (٢ أغسطس) عن الحرية الدينية للبروتستنت المنتصرين حربياً ، فلم يعد المجمع يهم فى شىء بعد هذا .

ورأى بولس الرابع أن من الحكمة أن يدع المجمع يسبت خلال

رياسته . فلما جاء البابا بيوس الرابع ، وكان شيخاً دمث الخلق ، راودته فكرة مؤداها أن منح سر القربان بالخبز والخمر قد يهدىء البروتستنت كما هدأ البوهيميين من قبل . فطلب إلى المجمع أن ينعقد من جديد فى ترنت فى ٦ أبريل ١٥٦١ ، ودعا إليه جميع الأمراء المسيحيين سواء الكاثوليك أو البروتستنت . وقد جلب المندوبون الفرنسيون إلى هذه الدورة الجديدة قائمة رهيبة بالاصلاحات التى ينشدونها : القداس باللغة القومية ، والتناول بالخبز والخمر ، وزواج القسس ، وإخضاع البابوية للمجامع العامة ، وإنهاء نظام الاعفاءات البابوية[٤٥] ، ويبدو أن مزاج الحكومة الفرنسية كان فى تلك اللحظة شبه هيجونوتى . وأيد فرديناند الأول هذه المقترحات ، وكان الآن إمبراطوراً ، وأضاف أن « البابا يجب أن يتواضع ، ويخضع لإصلاح شخصه ودولته وإدارته » ، أما أساطير القديسين فينبغى أن تنقى من السخافات . وأما الأديار فينبغى إصلاحها حتى « لا تعود ثروتها الطائلة تنفق بمثل هذا السفه »[٤٦] . وأنذر الموقف بالخطر على بيوس ، وترقب مندوبوه افتتاح الدورة فى شىء من الذعر .

وبعد تأجيلات كان دافعها الروية أو الاستراتيجية التأم شمل الدورة السابعة عشرة للمجمع فى ٢٨ يناير ١٥٦٢ ، بحضور خمسة كرادلة ، وثلاثة بطارقة ، وأحد عشر رئيس أساقفة ، وتسعين أسقفاً ، وأربعة قادة ، وأربعة رؤساء أديار ، ومختلف الممثلين العلمانيين للأمراء الكاثوليك . واستجابة لطلب من فرديناند عرض ضمان بسلامة المرور لأى مندوب بروتستنتى قد يرغب فى الحضور ، ولكن أحداً لم يحضر . وتزعم رئيس أساقفة غرناطة وشارل كردينال اللورين حركة ترمى إلى الحد من امتيازات البابا ، فأكدا أن الأساقفة لا يستمدون سلطانهم عن طريقه بل بـ « الحق الإلهى » المباشر ، وردد أسقف سقوبية هرطقة من هرطقات لوثر ،

إذ أنكر أنه كان للبابا سيادة على غيره من الأساقفة في الكنيسة الأولى(٤٧) .
على أن هذا التمرد الأسقفي أطفأته البراعة البرلمانية التي أبداها مندوبو البابا ،
وولاء الأساقفة الإيطاليين والبولنديين للبابا ، وبعض المجاملات البابوية
التي وجهت في الوقت المناسب إلى كردينال اللورين . وانتهى الأمر بتوسيع
سلطة البابا لا بالحد منها ، واشترط على كل أسقف أن يقسم يمين الطاعة
الكاملة للبابا . وأمكن تهدئة فرديناند بوعده بأن البابا سيسمح في ختام
المجمع بأن يعطي القربان بالخبز والخمر كليهما .

أما وقد فرغ المجمع من أهم نزاع واجهه ، فقد انتهى بسرعة من
أعماله الباقية . فحرم زواج الإكليروس ، وقرر توقيع عقوبات صارمة
على تسري القساوسة . وشرع الكثير من الاصلاحات الصغيرة للنهوض
بأخلاق رجال الإكليروس ونظامهم . وقرر إنشاء كليات لاهوتية يدرب
فيها الراغبون في القسوسية على عادات التقشف والتقوى . أما سلطات
الإدارة البابوية فقد اختزلت . ووضعت قواعد لإصلاح الموسيقى والفن
الكنسيين . وتقرر تغطية صور العرايا بما يكفي لمنع إثارتها للخيال الحسي .
ووضح الفارق بين عبادة الصور وعبادة الأشخاص الذين تمثلهم الصور .
وتأيد استعمال الصور الدينية بالمعنى الثاني . أما المطهر والغفرانات والتوسل
إلى القديسين فقد دوفع عنها وأعيد تعريفها . وهنا اعترف المجمع في صراحة
بالمفاسد التي انبعثت عن شررها نار التمرد اللوثري . وقد نص أحد
القرارات على ما يأتي : —

« إن المجمع يقرر بصدد منح الغفرانات . . . أنه يجب القضاء كلية
على كل كسب إجرامي متصل بها ، باعتباره مصدراً لفساد محزن بين
الشعب المسيحي . أما عن غير ذلك من ضروب الخلل والفوضى الناجمة
عن الخرافة أو الجهل أو الاستهانة بالمقدسات أو أي سبب كائناً ما كان
— فبما أن هذه كلها لا يمكن القضاء عليها بالتحريمات الخاصة نظراً إلى

انتشار الفساد على نطاق واسع ، فان المجمع يلقى على عاتق كل أسقف واجب التعرف على ما يوجد فى أسقفيته من مفاسد ، وعرضها على المجمع الإقليمى التالى ، وإبلاغها إلى الحبر الأعظم فى روما بعد موافقة الأساقفة الآخرين(٤٨) .

وأجمع البابا والإمبراطور على أن المجمع قد بلغ الآن نهاية نفعه ، وفى ٤ ديسمبر ١٥٦٣ فض نهائياً وسط ابتهاج المندوبين المرهقين ، بعد أن حدد طريق الكنيسة لقرون قادمة .

لقد نجحت معارضة الإصلاح البروتستنتى فى أهدافها الأساسية : صحيح أن الرجال — سواء فى الأقطار الكاثوليكية أو البروتستنتية — ظلوا يكذبون ويسرقون ، يغوون العذارى ويبيعون الوظائف ، يقتلون ويشنون الحرب(٤٩) . ولكن أخلاق الإكليروس تحسنت ، وروضت الحرية الجامحة التى اندفعت فيها إيطالية النهضة فتكيفت تكيفاً مهذباً وفق مزاعم البشر . فالبغاء الذى كان صناعة كبرى فى روما والبندقية أيام النهضة أخفى الآن رأسه ، وأصبحت العفة طابع العصر . وتقرر اعتبار تأليف الكتب القذرة أو نشرها جريمة كبيرة فى إيطاليا . وهكذا شنق نيكولو فرانكو ، سكرتير أريتينو وعدوه ، بأمر من البابا بيوس الخامس عقاباً على تأليفه كتاب Priapeia (٥٠) . أما أثر القيود الجديدة على الفن والأدب فلم يكن مؤذياً أذى مطلقاً لا خلاف عليه ، مثال ذلك أن فن الباروك انبعث على استحياء من مكانه المغمور ؛ كذلك إذا نظرنا من زاوية أدبية خالصة فاننا لا نجد تاسو ، وجواريني ، وجولدوني ، يهبطون هبوطاً عنيفاً عن مرتبة بوياردو ، وأريوستو ، ومكافيللي المسرحى : وقد أقبل أعظم عصور أسبانيا الأدبية والفنية فى ملء « الرجعية الكاثوليكية » . ولكن الفرحة التى كانت طابع إيطالية النهضة انطفأت ، وفقدت النساء الإيطاليات بعض ذلك السحر والابتهاج الذى أتاهن من حريتهن السابقة لحركة الإصلاح البروتستنتى . وساد إيطاليا عصر أقرب ما يكون إلى

البيورتانية نتيجة لقيام أخلاقية قائمة واعية . وانتعشت الديرية . وكانت خسارة للنوع الإنسانى ، من وجهة نظر العقل الحر ، أن تقضى الرقابة الكنسية والسياسية على حرية الفكر النسبية التى سادت أيام النهضة ، وكانت مأساة أن تعاد محكمة التفتيش فى إيطاليا وغيرها من البلاد فى الوقت الذى أخذ العلم ينبثق فيه محطماً قشرته الوسيطة . وضحت الكنيسة عن عمد بالطبقات المفكرة فى سبيل الأكثرية المتدينة التى صفقت لقمع أفكار قد تذيب إيمانها المعزى .

كانت الإصلاحات الكنسية حقيقية ودائمة . وإذ كانت الملكية البابوية قد رفع مقامها فوق الارستقراطية الأسقفية للمجامع ، فان هذا كان يساير روح العصر ، حين كانت الارستقراطيات فى كل بلد ، عدا ألمانيا ، تفقد سلطانها ليتقلده الملوك . وأصبح البابوات الآن أرقى من الأساقفة خلقياً ، وأمكن تنفيذ النظام الذى تطلبه الاصلاح الكنسى على يد سلطة ممركزة خيراً من سلطة مقسمة ، وأنهى البابوات محاباتهم لأقربائهم . وشفوا الإدارة البابوية من تسويفاتها الباهظة الثمن ورشوتها المفضوحة . وأصبحت إدارة الكنيسة بشهادة من فحصوا هذا الأمر من غير الكاثوليك نموذجاً للكفاية والنزاهة(٥١) . وأدخل استعمال مقصورة الاعتراف المظلمة (١٥٤٧) وجعل إجبارياً (١٦١٤) ، ولم يعد القسيس عرضة لأن يفتنه جمال بعض المعترفات . أما باعة صكوك الغفران الجائلون فقد اختفوا ، وأما الصكوك فقد خصصت فى معظم الحالات للعبادات الورعة ولأعمال البر لا للتبرعات المالية ، وبدلا من أن يتقهقر رجال الإكليروس الكاثوليك أمام زحف البروتستنت أو الفكر الحر . انطلقوا ليعيدوا اقتناص فكر الشباب وولاء السلطان . وأصبحت روح اليسوعيين ، تلك الروح الواثقة ، الإيجابية ، النشيطة ، المدربة على النظام ، هى روح الكنيسة المجاهدة .

لقد كان شفاء الكنيسة فى جملته شفاء مذهلا ، وثمرة من أروع الثمرات التى جادت بها حركة الإصلاح البروتستنتى .

كلمة ختامية

النهضة ، والإصلاح البروتستنتى . والتنوير

إن النهضة والإصلاح البروتستنتى هما ينبوعا التاريخ الحديث ، والمصدران المتنافسان للتجديد الفكرى والخلقى الذى طرأ على الحياة الحديثة . وقد ينقسم الناس حسب ميولهم وانتسابهم هنا ، حسب دينهم الواعى الذى يدينون به للنهضة التى أطلقت العقل من عقاله وأضفت الجمال على الحياة ، أو حسب عرفانهم بصنيع الإصلاح البروتستنتى الذى شحذ الإيمان الدينى والحس الخلقى . والخلاف بين إرزمس ولوثر متصل ، وسوف يتصل ، لأن الحقيقة التى قد يصل إليها الناس فى هذه الأمور الكبيرة هى ثمرة الجمع بين الأضداد ، وستشعر هذه الحقيقة دائماً بأبوتها المزدوجة .

ويمكن القول إن الخلاف من بعض النواحى سلالى وجغرافى ، خلاف بين اللاتين والتيوتون ، بين الجنوب الحسى الطلق والشمال الجلد المعتم ، بين شعوب هزمت على يد روما وتلقت منها التراث الكلاسيكى ، وشعوب قاومت روما — وبعضها هزم روما — وأحبت جذورها وأرضها أكثر كثيراً من اليونان جالبى المواهب أو الرومان حاملى القوانين . لقد قسمت إيطاليا وألمانيا فيما بينهما تشكيل النفس الحديثة ، إيطاليا بالرجوع إلى الأدب والفلسفة والفنون الكلاسيكية ، وألمانيا بالرجوع إلى الإيمان والشعائر المسيحية الأولى . وكانت إيطاليا على وشك النجاح فى محاولتها الثانية لغزو ألمانيا — بالعشور والمذهب الإنسانى هذه المرة ؛ ولكن ألمانيا قاومت ثانية ، وطردت الكنيسة وأسكتت الإنسانيين . وأنكرت حركة الإصلاح البروتستنتى النهضة واهتمامها بالشئون والمباهج الدنيوية ، وعادت إلى تلك الناحية (وهى ناحية واحدة فقط !) من نواحى العصور الوسطى التى عدت إنجازات البشر ومباهجهم تافهة باطلة ، ووصفت الحياة بأنها واد

للدموع ، ودعت الخطاة إلى الأيمان والتوبة والصلاة . فأما إيطاليو النهضة الذين قرأوا مكيافللى وأريتينو ، فقد رأوا فى هذا انتكاساً إلى العصور الوسطى ، وعوداً إلى عصر الإيمان فى مرحلة المراهقة المناضلة التى يمر بها عصر العقل . وقد ابتسم الإيطالى الذى استمع إلى يومبوناتزى ، وعاش تحت حكم بابوات النهضة الهين اللين ، حين وجد لوثر وكالفن وهنرى الثامن يحتفظون بكل العقائد الخارقة التى اتسم بها الإيمان الوسيط — كتاب مقدس من إملاء الله ، وإله مثلث الأقانيم ، وإيمان بالقضاء والقدر ، وخليقة خلقت بأمر إلهى ، وخطيئة أصلية ، وتجسد ، وولادة من عذراء ، وتكفير ، ودينونة أخيرة ، وجنة ونار — ثم يرفضون بالضبط عناصر المسيحية الوسيطة — كعبادة العذراء ، والإيمان بإله ملؤه المحبة والرحمة ، و توسل إلى القديسين الشفعاء ، والطقوس التى تزدان بكل الفنون — تلك عناصر التى أضفت على ذلك الإيمان رقة وعزاء وجمالا يبرر التغاضى عن الأساطير تغاضياً سمح بالاستمتاع بالفنون .

كان الكاثوليكى الصادق الإيمان حجته ضد حركة الإصلاح البروتستنتى . فهو أيضاً يكره العشور ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور القضاء على الكنيسة . لقد كان عليماً بأن الرهبان أخذ يفلت زمامهم ، ولكنه شعر بأنه ينبغى أن يفسح فى الدنيا مكان ومؤسسات لرجال انقطعوا للتأمل والدرس والصلاة ، وكان يقبل كل كلمة من الكتاب المقدس بشرطين : أن ناموس المسيح أبطل ناموس موسى ، وأن للكنيسة سلطاناً مساوياً لسلطان الكتاب لأن مؤسسها هو ابن الله ، ويجب أن يكون لها الحق النهائى فى تفسير الكتاب والملاءمة بينه وبين حاجات العيش المتغيرة . وماذا تكون النتيجة لو أن فقرات من الكتاب ملتبسة متناقضة فى ظاهرها تركت ليفسرها كل فرد تفسيراً حراً ويحكم عليها كما يشاء ؟ أفلا تمزق مئات العقول الكتاب إرباً ، وألا تتحطم المسيحية وتتبدد شيعاً مقتتلة لا حصر لها ؟ .

ويواصل الكاثوليكى العصرى الحجة مروراً بكل ناحية من نواحى الحياة العصرية فيقول « لقد كان إصراركم على الإيما دون الأعمال مدمراً ، فأفضى إلى دين توارث برودة القلب فيه خلف ورع العبارة ، وكاد البر أن يموت طوال مائة عام فى مراكز انتصاركم . ولقد قضيتم على سر الاعتراف وخلفتم مئات التوترات فى نفوس البشر الذين تتنازعهم الغريزة والحضارة ، وهأنتم أولاء تعيدون متأخرين ذلك النظام الشافى تحت أشكال مريبة . ولقد دمرتم جل المدارس التى أنشأناها ، وأضعفتم الجامعات التى أسستها الكنيسة وطورتها حتى أشرفتم بها على الموت . إن قادتكم يسلمون بأن تمزيقكم الإيمان أدى إلى تدهور خلقى خطر فى ألمانيا وانجلترا . فلقد أطلقتم على الناس فوضى من الفردية فى الأخلاق والفلسفة والصناعة والحكم . ولقد انتزعتم من الدين كل بهجته وجماله ، وملأتموه بدراسة الشياطين وبالرعب ؛ وحكمتم على الجماهير الكبيرة من الناس باللعنة الأبدية لأنهم « مرفوضون » ؛ وعزيتم قلة وقحة بفخر « الاختيار » والخلاص . لقد خنقتم نمو الفن ؛ وحيثما انتصرتم ذبلت الدراسات القديمة . لقد صادرتم أملاك الكنيسة لتعطوها للدولة والأغنياء ، ولكنكم تركتم الفقراء أفقر مما كانوا ، وأضفتم الاحتقار إلى فقرهم وتعاستهم . لقد تغاضيتم عن الربا والرأسمالية . ولكنكم حرمتم العمال أيام الراحة المقدسة التى منحتهم إياها كنيسة رحيمة . لقد رفضتم البابوية لا لشىء إلا لتمجدوا الدولة ، وأعطيتم الأمراء الانانيين حق تقرير ديانة رعاياهم ؛ واستخدام الدين سنداً لحروبهم . لقد فرقتم بين الأمة والأمة ، وقسمتم كثيراً من الأمم والمدن على ذواتها ؛ لقد حطمتم الضوابط الأدبية الدولية على القوى القومية ، وخلفتم فوضى من القوميات المقتتلة . لقد أنكرتم سلطان كنيسة أسسها ابن الله باعترافكم ، ولكنكم أقررتم الملكية المطلقة ، ومجدتم حق الملوك الإلهى . ودمرتم وأنتم لا تدرون

قوة «الكلمة» ، وهى البديل الوحيد لقوة المال أو السيف . وادعيتم حق الحكم الشخصى ، ولكنكم أنكرتموه على غيركم حالما أمكنكم هذا ، وكان رفضكم التسامح مع المنشقين أقل وضوحاً للأفهام من رفضنا ، لأننا لم ندافع قط عن التسامح ، فليس فى وسع إنسان أن يتسامح إلا فى الأشياء التى لا يبالى بها ؛ ثم انظروا ما أفضى إليه حكمكم الشخصى هذا . فكل رجل يصبح بابا ، ويحكم على تعاليم الدين قبل أن يبلغ من العمر ما يتيح له فهم وظائف الدين فى المجتمع والأخلاق ، وحاجة الناس إلى إيمان دينى . وإن ضرباً من جنون التمزيق والتفريق لا تكبحه أى سلطة مجمّعة موحّدة يلقى باتباعكم فى منازعات بلغ من سخفها وعنفها أن الناس راحوا يتشككون فى الدين كله ، وكادت المسيحية ذاتها تصبح فى خطر الانحلال ، وكاد الناس يَتركون فى عرى روحى أمام الموت ، لولا وقوف الكنيسة صامدة وسط كل تقلبات الرأى والجدل ، وكل مستحدثات العلم والفلسفة ، ولولا أنها تحفظ قطيعها الذى التأم شمله ، منتظرة ذلك الوقت الذى يخضع فيه المتفهمون منكم ، والمسيحيون الحقيقيون ، كبرياء الفردية والعقل لحاجات البشر الدينية ، ويعودون إلى الحظيرة الوحيدة القادرة على صون الدين برغم الايديولوجيات المجدفة التى راجت فى هذا العصر الشقى » .

ترى أيستطيع البروتستنت الرد على هذا الاتهام ؟ «يجب ألا ننسى السبب فى انشقاقنا : فلقد فسدت كنيستكم الكاثوليكية سواء فى ممارساتها أو فى أشخاصها ، وكف قساوستكم عن أداء وظائفهم ، وكان أساقفتكم متعلقين بنعيم الدنيا ، وبابواتكم معرة العالم المسيحى ؛ ألا يعترف مؤرخوكم بهذا ؟ لقد طالبكم رجال أمناء بأن تصلحوا ما فسد ، محتفظين بولائهم للكنيسة ؛ فوعدتم وتظاهرتم بالإصلاح ، ولكنكم لم تفعلوا ، بل إنكم على العكس من ذلك أحرقتم بالنار رجالا من أمثال هس وجيروم البراغى لأنهم رفعوا عقائرهم مطالبين بالإصلاح . لقد بذلت مئات الجهو د

لإصلاح الكنيسة من الداخل ، ولكنها أخفقت ، إلى أن أكرهتكم حركة إصلاحنا البروتستنتى على العمل ؛ وحتى بعد ثورتنا أصبح البابا الذى حاول تطهير الكنيسة مثار هزء روما وسخريتها .

« إنكم تتباهون بأنكم خلقتم النهضة ، ولكن الكل مجمعون على أن النهضة كانت تنبعث وسط فساد خلقى ، وعنف ، وخيانة ، لم تعرفها أوربا منذ عهد نيرون ؛ أفلم نكن محقين فى الاحتجاج على هذه الوثنية ، التى تختال عجباً حتى فى الفاتيكان ؟ وإذا سلمنا أن الأخلاق انحدرت حيناً بعد أن بدأت حركة إصلاحنا ، فان إعادة بناء حياة خلقية بليت أسسها وخدماتها الدينية استغرق بعض الوقت ، وأخيراً أصبحت أخلاقيات البلاد البروتستنتية أسمى بكثير من أخلاقيات فرنسا وإيطاليا الكاثوليكيتين . قد ندين بيقظتنا الذهنية للنهضة ، ولكنا ندين بشفائنا الخلقى لحركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد أضافت دعم الخلق إلى تحرير العقل ، ثم إن نهضتكم اقتصرت على الارستقراطية والمفكرين ، لقد احتقرت الشعب ، وأغضت عن خداع باعة صكوك الغفران لأفراده ، وعن غش مستغلى الخرافات من المتظاهرين بالنسك . أو لم يكن خيراً تحدى هذا الاستغلال المالى الصارخ لآمال البشر ومخاوفهم ؟ لقد رفضنا الصور والتماثيل التى يشتمونها فى كنائسكم ، لأنكم كنتم تسمحون للناس أن يعبدوا الصور ذاتها ، كما كان يحدث حين فرضتم عليهم الركوع أمام الدمى المقدسة المحمولة فى مواكب تخترق الشوارع . أما نحن فقد جرؤنا على إرساء ديانتنا فوق إيمان قوى نشيط ، بدلا من محاولة تخدير عقول الناس بالطقوس »

« وقد اعترفنا بأن السلطة الزمنية من عند الله — كما اعترف لاهوتيوكم من قبلنا — لأن النظام الاجتماعى يتطلب حكومة محترمة . ولم نرفض سلطة البابوات الدولية إلا بعد أن استعملوها استعمالا فاضحاً ، لا للحكم بالعدل بين الأمم بل لخدمة مآربهم المادية . وعجزُ بابواتكم الأنانيين عن توحيد

أوربا فى حملة صليبية ضد العثمانيين يدل على أن خيانة البابوية حطمت وحدة العالم المسيحى قبل حركة الإصلاح البروتستنتى بزمن طويل . ومع أننا أيدنا حق الملوك الإلهى ، فاننا أيضاً شجعنا نمو الديمقراطية فى انجلترا واسكتلندة وسويسرة وأمريكا ، فى حين كان قساوستكم فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا يخضعون للملوك ؛ وقد حطم تمردنا على سلطة كنيستكم تعويذة الحكم المطلق ، وهيأ أوربا لمساءلة كل ألوان الاستبداد دينية كانت أو علمانية . إنكم تعتقدون أننا جعلنا الفقراء أفقر مما كانوا . ولكن هذه أيضاً كانت مرحلة عابرة ، فالرأسمالية ذاتها التى استغلت فقر الفقراء حيناً تعلمت أن تغنى الرجل المتوسط كما لم يغن من قبل ؛ وما من ريب فى أن مستوى المعيشة فى انجلترا وألمانيا وأمريكا البروتستنتية أعلى منه فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا الكاثوليكية .

« وإذا كنتم اليوم أقوى مما كنتم بالأمس ، فانما الفضل فى هذه القوة لنا . فماذا كان يحدث لو لم تكرهكم حركة الإصلاح البروتستنتى على إصلاح الإدارة البابوية ، وإنقاذ إكليروسكم من التسرى ، وتنصيب رجال مؤمنين على كرسى البابوية بدلا من الوثنيين ؟ ولمن تدينون بالفضل فيما يتمتع به إكليروسكم اليوم من سمعة النزاهة ؟ ألمجمع ترنت ؟ ولكن لمن تدينون بالفضل فى مجتمع ترنت إن لم يكن لحركة الإصلاح البروتستنتى ؟ فلولا ذلك الضابط لواصلت كنيستكم انحدارها من المسيحية إلى الوثنية حتى ينتهى الأمر بتتويج بابواتكم على عالم لاأدرى أبيقورى . وحتى مع هذا التجديد الذى فرضناه على كنيستكم ، فان الشعوب التى تقبل عقيدتكم أشد إهمالا للدين ، وتشككاً فى المسيحية ، من الشعوب التى اعتنقت الإصلاح البروتستنتى ؛ ويكفى أن تقارنوا بين فرنسا وانجلترا :

« ولقد تعلمنا أن نوفق بين تديننا وبين حرية العقل ، وأقطارنا البروتستنتية هى التى شهدت أعظم ازدهار للعلم والفلسفة . ونحن نأمل

أن نلائم بين مسيحيتنا وبين تقدم المعرفة — ولكن أنى يتيسر هذا لكنيسة ترفض كل علم القرون الأربعة الماضية ؟ » .

وهنا يتدخل الإنسانى فى المناقشة ، فيهدم البيتين جميعاً على رأسه . هذا فخر البروتستنتية وضعفها ، فهى تستهوى العقل ، الذى لا يفتأ يتغير ، أما قوة الكاثوليكية فنى رفضها أن تكيف نفسها وفق نظريات العلم ، التى ثبت من الخبرة التاريخية أنها قلما تعيش بعد القرن الذى ولدت فيه . إن الكاثوليكية تستهدف إشباع مطالب الناس الروحية ، الناس الذين قلما سمعوا بكوبرنيق وداروين ، ولم يسمعوا قط بسبينوزا وكانط ؛ وهؤلاء الناس كثيرون خصيبون ، ولكن أنى لدين يتحدث إلى العقل ، ويتمركز حول العظة ، أن يكيف نفسه وفق كون آخذ فى الاتساع ، كون أصبح فيه الكوكب الذى ادعى أنه تلقى ابن الله نقطة عابرة فى الفضاء ، وليس النوع الذى مات من أجله سوى لحظة فى مشهد الحياة الدائم التغير ؟ وما الذى يحدث للبروتستنتية إذا أخضع الكتاب الذى اتخذته أساسها الوحيد والمعصوم للنقد « الأعلى » الذى يحيله من كلمة الله إلى أدب العبرانيين وإلى تحول المسيح فى لاهوت بولس الصوفى ؟ .

« ليست المشكلة الحقيقية التى تواجه العقل الحديث ذلك الخلاف بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ولا بين الإصلاح البروتستنتى والنهضة ؛ إنها بين المسيحية والتنوير — هذه الحقبة التى ليس من اليسير تحديد تاريخها ، والتى بدأت بفرانسس بيكن ، وعقدت آمالها على العقل والعلم والفلسفة ؛ وكما كان الفن ركيزة النهضة ، والدين روح الإصلاح البروتستنتى ، فكذلك أصبح العلم والفلسفة إلهى التنوير . ومن وجهة النظر هذه كانت النهضة تسير فى الخط المباشر للتطور العقلى الأوربى ، وأفضت إلى الاستنارة ، أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت انحرافاً عن ذلك الخط ، ورفضاً للعقل ، وتأكيداً جديداً للإيمان الوسيط .

« ومع ذلك فان حركة الإصلاح البروتستنتى برغم تعصبها فى أول عهدها أسدت صنيعين لحركة التنوير ، فقد حطمت سلطان العقيدة ، وبعثت عشرات الملل والنحل التى لو وجدت قبلها لماتت حرقاً ، وسمحت بأن يقوم فيما بينها جدل كان من القوة بحيث اعترف فى النهاية بأن العقل هو المحكمة التى يتعين على جميع المذاهب أن تترافع أمامها عن قضاياها ما لم تكن مسلحة بقوة مادية لا تقاوم . وفى تلك المرافعة ، فى ذلك الهجوم والدفاع ، تضعضعت كل المذاهب والعقائد ، ولم ينقض قرن على تمجيد لوثر للإيمان حتى أعلن فرانسيس بيكن أن المعرفة قوة . وفى ذلك القرن السابع عشر بعينه قدم المفكرون من أمثال ديكارت وهوبز وسبينوزا ولوك الفلسفة بديلا للدين أو أساساً له . وفى القرن الثامن عشر جهر هلفتيوس وهولباك ولامترى بالإلحاد ، ونعت فولتير بالتعصب لأنه آمن بالله . هذا هذا هو التحدى الذى واجهته المسيحية ، فى أزمة أعمق كثيراً من الجدل بين الترجمة الكاثوليكية والبروتستنتية لعقيدة العصر الوسيط . والجهد الذى بذلته المسيحية للبقاء برغم كوبرنيق وداروين هو المسرحية الأساسية للقرون الثلاثة الأخيرة . فليت شعرى أى قيمة لصراعات الدول والطبقات بالقياس إلى تلك المعركة الفاصلة الكبرى ، هرمجدون النفس الإنسانية ؟ » .

الآن إذ نلقى إلى الوراء بنظرة على هذه القصة المتعرجة التى روتها هذه الصفحات الألف ، ندرك أننا نستطيع التعاطف مع جميع الأطراف المقاتلة . نستطيع أن نفهم غضب لوثر على فساد روما وتسلطها ، وكره الأمراء الألمان أن يروا العطايا الألمانية تسمن إيطاليا ، وعزم كالفن ونوكس على بناء جماعات خلقية مثالية ، ورغبة هنرى الثامن فى أن يكون لملكه وريث ، وأن يكون له على مملكته سلطان . ولكننا نستطيع أن نفهم أيضاً آمال إرزمس فى إصلاح لا يسمم العالم المسيحى بالحقد ، ونستطيع أن نشعر بفزع الأتقياء من أساقفة روما مثل كونتارينى مما يحتمل من تمزيق

كنيسة ظلت القرون حاضنة وحارسة للحضارة الغربية ، وما زالت أمنع حصن ضد فساد الخلق والفوضى واليأس .

إن شيئاً من هذه الجهود لم يضع سدى . فالفرد يستسلم للموت ، ولكنه لا يموت إذا خلف للبشرية شيئاً . لقد عاونت البروتستنتية فى الوقت المناسب على تجديد حياة أوربا الخلقية ، وطهرت الكنيسة نفسها فغدت منظمة أضعف سياسياً وأقوى خلقياً مما كانت . وثمة درس واحد ينبعث ويعلو فوق دخان المعركة . وهو أن الدين يكون فى أفضل حالاته إذا اضطر للعيش فى ظروف المنافسة ؛ وهو ينزع إلى التعصب متى وحيثما افتقر إلى التحدى وغدا السيد الأعلى . وأعظم ما جادت به حركة الإصلاح البروتستنتى هو تزويدها أوربا وأمريكا بتلك المنافسة الدينية التى تشحذ همة كل مذهب ، وتنبهه إلى التسامح ، وتهب عقولنا الهشة لذة الحرية وامتحانها .

تشجع أيها القارئ ! فلقد قاربنا النهاية .

المراجـــع

CHAPTER XXXV

1. Putnam. *Books*, II,40 - I,
2. Luther, *Works*, IV, 128.
3. Janssen, III, 355.
4. Ibid., 356.
5. 363.
6. Luther, IV, 156.
7. Richard, *German Civilization*, 289; Janssen, III, 358.
8. Paulsen, *German Education*, 56-7.
9. Lurher, IV, 128.
10. Janssen, XIII,260, 264.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 468 ; Gasquet, *Eve*, 42.
12. Traill, III, 93.
13. Owen, J., *Skeptics of the French Renaissance*, 438.
14. Graves, F., Peter *Ramus* 15.
15. *Camb. Hy of Poland*, I, 274
16. Elyot, *The Governor*, i, 21.
17. Ibid., *i*, 11.
18. Watson, F., *Luis Vives*, 33.
19. *In* Haydn, *Counter- Renaissance*, 242 .
20. Ibid, 199.
21. Sichel, *Women* 47.
22. Marot, Rondeau 13, in Maulde, 165 .
23. France, A., *Rabelais*, *6*,
24. Smith, *Erasmus* , 414; France , *Rabelais*, 38.
25. Faguet, 211.
26. Rabelais , *Gargantua*, ed , Cluny, Introd., xxi.
27. Michelet, III, 300.
28. Rabelais, Introd., xxiii.
29. Owen, *French Renaissance*, 619.
30. Rabelais, *Works*, bk*ii*, ch. 8,
31. Tilley, *Studies in the French Renaissance*, 85 f.
32. Nock, *Rabelais*, 105,
33. Brunetière, *Manual of French Literature*, 46n.
34. France, *Rabelais*, 216.
35. Smith, *Reformation*, 195n.
36. France, 124.
37. Sichel, *Women*, 239.
38. Sichel, *Catherine' de Medici*, 245.
39. La Tour, *Origines*, IV, 413.
40. Roeder, *Catherinede Medici*, 510.
41. Holzknecht, *Backrounds of Shakespeare*, 270
42. *Camb. Hy of English Literature*, III. 189.
43. Richard, *German Civilization*, 151.
44. Janssen, XIII, 467.
45. In Bainton, *Reformation*, 129
46. En. Brit., IX, 675.
47. Putnam, *Books*, II, 243.
48. Janssen, XI, 317 f.
49. In Friedell, *Cultural Hy of the Modern Age* I, 232.
50. Janssen, XII, 324 f.
51. En Brit., XXXIII, 1192.
52. In Trend, *Civilization of Spain*, 101.
53. Prescott, *Ferdinand*, II, 568n,
54. Ibid., 569n; *Camb. Mod. Hy*, V, 495.

55. Hefele. *Ximenez*, 101; Hume, *The Samish People*, 348.
56. Allen. *Political Thought*, 119.
57. Diaz del Castillo. *True Hy of Comquest of Mexico*, xi.
58. Mendoza, *Lazarillo de Tormes*, Introd., 3.
60. Mendoza, 71.

CHAPTER XXXVI

1. In Coulton, *Art and the Reformation*, 408.
2. Janssen, XI, 56.
3. Calvin, *Institutes*, I, xi 12.
4. Michelet, III. 295.
5. Dimier, *French Painting in the Sixteenth Century*, 51.
6. Tavannes in Sichel, *Catherine*, 294.
7. Vasari, II. 355.
8. Ibid.
9. Blomfield, *Hy of French Architecture*. I, 81.
10. Lacroix, *Arts of the Middle Ages*, 151.
11. Ward, *Architecture of the Renaissance in France*, II, 125.
12. Sichel, *Catherine*, 394.
13. *Réalités* magazine, March, 1954, p. 27.
14. Conway, *The Van Eycks*, 494.
15. Glück, *Pieter Brueghel le Vieux*, 7.
16. Conway, 492.
17. Glück, *Brueghel: Details from His Pictures*, 10 - 11.
18. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 112.
19. Smith, Lurher, 176.
20. Bond Fr., *Westminster Abbey*, 131.
21. Bacon, Fr., *Henry, VII*, I *Works*, VI, 245.
22. Blomfield, *Renaissance Architecture in England 8*; Lees Milne, *Tudor Renaissance*, 31
23. Ibid.
24. 45.
25. Blomfield. 11.
26. Ganz., P., *The Paintings o Hans Holbein*, 218.
27. So Stange, *German Painting* ..., but Ganz 223, assigns i to 1528-30.
28. En. Brit., VIII, 679a.
29. Stange, 22.
30. Janssen, XI, 48.
31. Ibid.
32. Ganz, 284.
33. Woltmann, *Holbein and His Time*, 454.
34. Calvert, *Cordova*. 97.
35. Dieulafoy, *Art in Spain and Portugal*, 230.
36. Calvert, *Sculpture in Spain* 125; bur Stirling - Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, I, 126, questions the story.
37. Dieulafoy, 336.

CHAPTER XXXVII

1. Schaff, *Swiss Reformation*, 182.
2. Janssen, XII, 292.
3. Traill, III, 269.
4. Janssen, XII, 307.
5. Thorndike, *Hy of Magic and Experimental Science*, V, 231.
6. Coulton, *Medieval Village*, 268.
7. Janssen, XII, 372.

8. Bainton, *Hunted Heretic* 112.
9. In Kesten, *Copernicus*, 96.
10. Lacroix, *Science and Literature in the Middle Ages*, 211, Thorndike, V, 175, 255-9.
11. Bainton, *Huntea Heretic*, 112.
12. Smith, *Luther*, 310.
13. Roeder. *Catherine de' Medici*, 368.
14. Lecky, *Rationalism*, II, 3.
15. Lacroix, *Military and Religious Life*, 444; Smith, *Reformation*, 656.
16. Friedell, I, 283.
17. Lea' *Studies im Church Hy*, 588.
18. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 220.
19. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
20. Traill, III, 326; Froude, *Henry VIII*, III, 191.
21. Lea, IV, 212-25.
22. Janssen, XII, 355.
23. Spence, *Cornelius Agrippa*, 84.
24. Ibid.
25. Thromdicke, V, 136-7.
26. Spence, 79.
27. Owen, *Evenings with the Skeptics*, II, 495-6.
28. Kesten, 196; Thorndike, V, 178 f.:
29. Cath. En., IV. 352.
30. Leonardo, Notebooks, I, 310 298.
31. Gassendi in Kesten, 109.
32. Kesten, 132.
33. Ibid. 153.
34. *Commentariolus*, in Rosen, *Three Copernican Treatises*, 58.
35. Trattner, *Architects of Ideas*' 28.
36. Luther. *Table Talk*, 69. in Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xviii.
37. In Russell, B., *Hv of Westerm Philosophy*, 528.
38. Kesten 233.
39. Ibid. 382.
40. 309.
41 295 6.
42. Rosen, 30.
43. Kesten, 297-8.
44. E. g., Kesten. 299; Trattner' 31.
45. *Prefaces and Prologues*, in Harvard Classics XXXIX, 52, f.
46. Copernicus, *De revolutionibus*, *I*, 5.
47. Ibid, I. 10.
48. Josiah Royce in Fletcher, J. B., *Damte*, 236.
49. In White *Warfare of Science with Theology*, I, 212.
50. In Agricola *De re metallica*, 595.
51. Penrose *Travel aud Discovery*, 306.
52. R. I. Mantiri of Indonesia has argued unconvincingly that Magellan was not killed on Mactan, but chose to remain behind and to found a kingdom in the Celebes.
53. Castiglioni *Hy of Medicine*' 421.
54. Sigerist *The Great Doctors*' 125.
55. In Saunders & O'Malley. *The Illustrations from the Works of Andreas Vesalius* 14.
56. Locy, *Biology and Its Makers*, 28.

57. Saunders, 14; italics mine.
58. Ibid., 15.
59. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 198,
60. Vesalius, *De humani corporis fabrica v*, 15, in Thorndike, V, 526.
61. Locy, 35.
62. Letter ef Vesalius June 13, 1546, in Thorndike, V, 529.
63. Sarton, III·1, 267.
4. Saunders, 37.
65. Ibid, 39.
66. Walsh *Popes and Science*.117
67. *Speculum*, April, 1928, P.193,
68. Castiglioni, 466.
69. Janssen XIV, 68.
70. Sigerist, 131,
71. Ibid, 111. The usual interpretation, of *Paracelsus* as meaning "Beyond Celsus" is stultified by the very minor rank of Celsus (1st cy A. D) in the history of medicine.
72. Pachter, *Magic into Science: the Story of Paracelsus*, 92.
73. Ibid., 105 6
74. Cf. Passage in Robinson, D. S, *Anthology of Modern, Philosophy*, 13-14.
75. Pachter, 67, 112-116.
76. Thorndike, V, 628.
77. *Opus Poramirum*, in Pachter, 129.
78. Thorndike, V, 665.
79. In Pachter, 210.
80. Ibid., 211.
81. Ibid.
82. 147.
83. 152-3
84. 163.
85. 158.
85. 155.
87. 168.
88. 187.
98. 167.
90. Inscription on engraving of Paracelsus in Vienna State Library.
91. Pachter 108, 229.
92. Ibid, 4.
93. Commentary on Galatians, iii, 6, in Janssen XIV, 121.
94. Robertson, *Freethought*, I, 399.
95. Ibid, 389.
96. *Table Talk*, 66.
97. La Tour, IV, 417.
98. Sichel, *Women*, 225.
99. In Hallam, *Introd to the Literature of Europe*, II, 140.
100 Montaigne Letter to M. de Mesmes in Sichel, *Montaigne*, 21.
101 In Rocker, R., *Nationalism and Culture*, 134.
102 In Taylor, *Thought and Expression in the 16 th Cy*, I, 381.
103. *Speculum*, Oct, 1933 P. 431.
104. Owen J., *Skeptics of the French Renaissance*, 505.
105 Ibid., 539.
106 Graves, *Peter Ramus*, 108. Italics *mine*.
107 Owen, 529.
108. Ibid., 534 5 ; Michelet, III, 474; Graves, 106-7.
109. Ibid., 106.
110 Michelet, III, 474.

CHAPTER XXXVIII

1. Pastor, X, 310; XII. 494; Robertson, *Freethought*, I; 408.
2. Noyes, *Ferrara* 203-19.
3. *Camb. Mod. Hy*, II, 386.
4. Trend, *Civilizaion oj Spain*, 123.
5. Schaff, *Swiss Reformation*, 651.
6. Pastor, XI, 3.
7. Ibid., X, 444.
8. Carpacciolus in Ranke, H y *of the Popes*, I, 131.
9. Janelle, *Catholic Reformation* 64.
10. Pastor, XI, 134.
11. Ibid., 155 f.
12. Ranke, *Popes*, I, 117.
13. In Pastor, XI, 164 f.
14 Ibid., 192.
15. McCabe, *Crises in the Histo ry of the Papacy*, 319.
16. Voltaire, Selected Works, ed. McCabe, IV, 216.
17. Fülöp-Miller, *Saints That Moved the World*, 333.
18. Ibid.'350.
19. 354.
20. James, *Varieties of Religious Experience*, 414.
21. Fülöp-Miller, 375.
22. James, 411.
23. Fülöp Miller, 367.
24. Ibid, 396.
25. 405.
26. 419.
27. 274.
28. Ignatius, St., *Autobiograpby*, 28.
29. Ibid., 40.
30. 54,
31. Cath. En., VII, 640
32. Fülöp-Miller' 302.
33. *Camb. Mod. Hy*, II, 657; McCabe, *Candid H y of the Jesuits*, 8; Ranke, *Popes*, I, 173n.
34. Longridge, *The Spirirual Exercises of St. Ignatius Loyola*, 119.
35. Sedgkick, *Ignatius Loyolo*, 350; McCabe, *Candid H y* 40 .
36. Sedgwick, 182.
37. Bileoc, 228-234.
38. McCabe, 32.
39. Sedgwick, 221.
40. Ibid., 215.
41. Symonds, *The Catholic Reaction*, I, 215.
42. Report of Father. Gonzalez in Sedgwick, 344.
43. Fülöp-Miller, 319-20
44. Cath En., VII, 643.
45. Sedgwick, 111.
46. Penrose, *Trauel and Discouery*, 69.
47. Campbell, Thos., *Jesuits*, 77-8
48. Ibid., 78.
49. 84.
50. McCabe, 84.
51. Actno, *Lectures*, 115.
52. Robertson, *Charles V*, II, 78.
53. Pastor, XIII, 222.
54. Graves, *Hy of Education during the Middle Ages*, 4 2
55. Smith *Reformation*, 666.

CHAPTER XXXIX

1. Pastor, VII, 6.
2. Ibid., 5.

3. Pastor, X. 385.
4. XI, 40.
5. Cellini, *Autobiography*, I, 123.
6. Pastor, XI, 50.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 233.
8. Ranke, *Popes*, I, 125.
9. Froude, *Council of Trent*, 313.
10. Pastor, XI, 356.
11. XII, 61 f.
12. Ibid., 154.
13. Robertson, *Charles V*, II, 401
14. Pastor, XIV, 72
15. Armstrong, *Charles V* II. 361.
16. Pastor, XIV, 126.
17. Ranke, *Popes*, I, 218.
18. Pator, XIV, 345.
19. Ibid., 142-3.
20. Ranke, I, 226.
21. Ibid., 227.
22. Acts, XIX, 19.
23. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, I, 1.
24. Draper, *Hy of Intellectual Development*, II, 214.
25. Pastor, XIV, 277 f.
26. Sarpi, *Istoria del Concilio Tridentino*, II, 91, in Symonds, *Catholic Reaction*. I, 154.
27. Robertson, *Freethought* I, 456-7.
28. Pastor, XII, 503.
29. Ranke, I, 159.
30. Pastor, XII, 508.
31. XIV, 286.
3 Ibid., 300.
33. Ibid.
34. 414f.; Ranke, I, 235.
35. Ibid., 245n.
36. Admitted by Janelle. 78.
37. Ibid., 71.
38. *Camb. Mod. Hy*, II, 664, 678.
39. Sarton, II-2, 916.
40. Ranke, I, 153; *Camb. Mod. Hy*, II, 667; Froude, *Edward VI*, 9 f.
41. Ranke, I, 155; *Comb. Mod. Hy*. II, 668.
42. Lea, *Sacerdotal Celibacy*. 518
43. Froude, *Council of Trent*, 283
44. Pastor, XIII, 116.
45. *Camb. Mod. Hy*. II, 675; Ranke, I, 252.
46. Ibid., 251.
47. *Camb. Mod. Hy*. II, 680.
48. Session XXV; Cath. En.; VII, 787.
49. For Italy cf. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 214, 333; for Spain, Lea, *Auricular Confession*, II, 426.
50. Lacroix, *Prostituton*, II, 1156
51. Figgis, *From Gerson to Grotius*, 43; Robertson, *Charles V*, II, 515-6; Tain, *Italy: Rome and Naples* 240.

تصويب الاخطاء الطباعية

نورد الصواب وحده فيما يلى :

صفحة	سطر	
٨	٤	الريح
١١	٤	توماس
١٥	١٧	فحص
١٦	١٢	كنابليون
١٧	١٦	المنظم
٢٤	٢١	قيل إن
٢٥	٥	الطبيب
٢٦	١٤	وتسامحهم
٢٩	١٥	ويقترح
٤١	٤	يستند
	٨	Pléiade
٤٢	١٦	وجلَّل
٥٠	١٣	بجيله
٥١	١٧، ١٨	فى كتاباته
٥٣	١٠	وقد ظل
٥٤	٢	مراندا
٥٥	٢٠	Diana
٦٠	٨	ألا ن
٦٧	٢٠	كانت
٦٨	١٦	العربية
٧٠	٤	شانتيّى
٧٢	١٤	وقد دمرت
٧٤	١، ٢	مكانه قصراً يليق
	١٤	أروقة تعتمد
٧٥	٦	فيليبير
	٨	وقومها
٨٣، ٨٤	٢٤	رالمياه والسماء
٨٧	٨	غداءهم
٨٨	١	واهتمامه بالحشود
	١٦	وجوههم
٨٩	٨	الكلسى
	٢١	دوق
٩٥	١٥	وُصِفت
٩٩	٦	لإعالة قلة
١٠٠	١٣	زوجته
١٠١	١	فروبن
١٠٣	٣	مكتئباً
	٧	لفروبن
١٠٥	٩	هولبين
	١٩	أظهر
١٠٦	٨	ضحاياه
١٠٨	١٨	المتزاحمة
١١٠	١٧	وميكلانجلو
١١١	٣	لمؤسسه
١٣٨	٢٤	الكوكب
١٤٥	١٣	المكتبة الأم
١٥٠	٢٢	دوبوا

صفحة	سطر	
١٥٤	١١	أورُبيّى
١٦٥	١٣	فروبن
	٢٣	تفوه بعبارات
١٦٦	٤	طبيباً
١٦٧	١٥	باراسيلوس
١٧٣	٢١	Discours sur
١٧٤	٤	بهرقول
١٧٨	٢١	هزليات تهكموا
١٨٥	١٤	والتفكير
١٨٦	٢٠	البروتستنت بياذق
١٨٧	١٧	لوكنّا
١٨٨	٣	» »
	٨	Lactanico
١٨٩	٤	أما جوليا
	١٦	تقريبا
١٩٣	٥	بييترو
	١١	كارافا
	١٤	وريجينالد
١٩٤	٧	Carita
١٩٥	١٣	وسط
١٩٨	٤	والترخيصات
	١١	الياندر
	١٤	مورونى
	٢٤	بجميع
٢٠٢	٢١	التى لاءمت
	٢٤	آية ... مشرفة
٢٠٣	٢٣	حماها
٢٠٤	٢٤	فى عيد

صفحة	سطر	
٢٠٩	٥	وألبه
	١٩	أونبز
٢١١	٦	أكمبيس
٢١٤	٩	الألبى
	١٣	بحياة
٢١٦	٨	وأن
٢١٧	٦	وباسكاز
٢١٨	٢٥	أمراً
٢٢٠	١٢	قط إجناتيوس
	١٦	مقامه فى
	٢٥	المجمع
٢٢٢	٢٣	إرادة
٢٢٣	١٩	بمشاركته
٢٢٤	٢٢	وبشروا
٢٢٧	٩	إنجازاتها
٢٣٣	٢١	على هذا
	٢٤	هنا أيضا
٢٣٤	١٦	بالمبانى
	٢٠	لاعبيها
٢٤٠	٧	الإكليروس
٢٤٦	١٣	خضع
٢٥٢	١٧	تأليفه
٢٥٣	٨	وإذا
٢٥٥	٤	بومبونازى
	١١	والتوسّل
	١٢	المناصر
	١٤	للكاثوليكى
	٢٤	تتحطم
٢٥٦	٢	الإيمان